د. سهيل زكار

تاريخ الحروب الصليبية



دار الفكر



الأعمال المنجزة فيما وراء البحار


تاريخ الحروب الصليبية
الجزء الأول

تاريخ الحروب الصليبية

الأعمال المنجزة فيما وراء البحار

صنّفه باللاتينيّة

وليم

رئيس أساقفة صور

١١٣٠ - ١١٨٥م

الجزء الأول

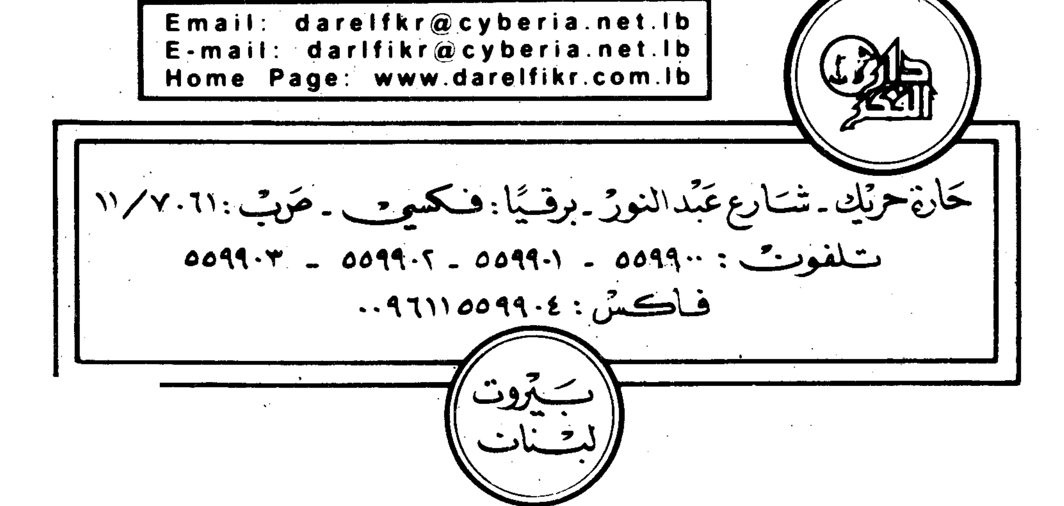
نقله إلى العربية وقدم له

الدكتور سهيل زكار

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م



Email: darelfkr@cyberia.net.lb
E-mail: darlfikr@cyberia.net.lb
Home Page: www.darelfikr.com.lb
حارة حريك - شارع عبد النور - برقياً: فكسي - ص.ب: ١١/٧٠٦١
تلفون: ٥٥٩٩٠٠ - ٥٥٩٩٠١ - ٥٥٩٩٠٢ - ٥٥٩٩٠٣
فاكس: ٠٠٩٦١١٥٥٩٩٠٤
بيروت لبنان

رقم الايداع الدولي (ISBN): 9953-35-042-6

بسم الله الرحمٰن الرحيم

تقدم

في يوم ٢٧ تشرين الثاني لعام ١٠٩٥ م غصت كاتدرائية مدنية كليرمونت في فرنسا على رحبها بالحضور المنقطع النظير للأساقفة والنبلاء والرعايا العاديين، فقد أمّها حوالي مئتين وخمسة أساقفة، وثلاثة عشر من رؤساء الأساقفة وعدد غفير من الأمراء والنبلاء والألوف من أتباع الكنيسة المؤمنين بتعاليمها والمتمسكين بما تبشّر به، ومع أنه كان يوماً بارداً من أيام شهر تشرين الثاني، إلاّ أن هذا الجمع الغفير انتقل بعدما احتشد إلى ساحة كبرى خارج الباب الشرقي للمدينة، فقد تجمع الناس كتلاً كتلاً للوقاية من زمهرير الشتاء القارص، وبعدما اكتمل الحشد اعتلى منصة الوعظ البابا أوربان الثاني، وألقى خطاباً رهيباً لم يخطب مثله من قبل واحداً من بابوات الكنيسة أو ساستها.

لقد فجر هذا الخطاب قيام ما يعرف باسم الحروب الصليبية، والحروب الصليبية هي ملحمة عسكرية وصراع سياسي وعقائدي واقتصادي لم يشهد له التاريخ مثيلاً أبداً، فما الذي دفع البابا أوربان الثاني إلى إلقاء خطابه هذا وتوجيه دعوته، ثم لماذا قام البابا بالذات بتوجيه هذه الدعوة الرهيبة دون سواه، ومن هو البابا وما هي مكانته وتاريخه، وما الذي قصده من توجيه الدعوة إلى حمل السلاح والتوجه نحو الشرق؟.

إن الإجابة على هذه الأسئلة مع مجموعة أخرى تتعلق بأوضاع البلدان التي تعرضت للغزو الصليبي يدفعنا إلى البحث في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى حتى قيام الحروب الصليبية ثم استعراض تاريخ العلاقات بين العالم الإسلامي وأوروبا في العصور الوسطى، مع دراسة أحوال بلاد الشام والوطن العربي والعالم الإسلامي قبيل وأثناء قيام الحروب الصليبية.

إن الاستعراض التاريخي المفصل لجملة هذه الأمور يحتاج إلى عدد من المجلدات، والمقام هنا مقام إعداد نوع من أنواع المقدمات التي تمكن من التعامل مع قيام الحروب الصليبية وجزء أساسي من أحداثها:

تواجه الباحث في تاريخ ما يعرف باسم العصور الوسطى في أوروبا عدة مشاكل وعقبات ترتبط بتسمية هذه العصور، وبحدودها الزمانية والمكانية، مع أحوالها وأحوال

أناسها، من حيث الأصول العرقية ودرجات التطور الحضاري، وطبائع وأنواع العقائد التي أخذت بها، وتأثرت بما جاء بها.

وتسمية هذه العصور بالوسيطة نبع من اصطلاح الباحثين الأوروبيين على تقسيم العصور التاريخية إلى أقسام ثلاثة هي: القديمة، ثم الوسيطة فالحديثة، وليس من المناسب هنا الدخول في نقاش حول هذا المصطلح من حيث صحته، ومطابقته للواقع التاريخي في أوروبة وغيرها من بلدان العالم، ويكفي هنا أن نذكر أن هذا الاصطلاح ما هو إلا أداة يسهل بوساطتها البحث، وإننا حين نقول عصور قديمة، ثم عصور وسيطة لا نعني أن هناك حدوداً حادة تفصل بين هذه العصور، ثم إننا حين نقول عصور بالجمع نعني أن التاريخ القديم تألف من فترات فيها تشابه وتنافر، وكذا التاريخ الوسيط.

ويقودنا هذا كله نحو أولى مشاكل العصور الوسطى، وهي متى بدأت هذه العصور ـ إن كانت وجدت ـ ثم متى انتهت؟.

إن أية محاولة للتعرض لايجاد أجوبة لهذين السؤالين، ستكون عملاً عابثاً ما لم يقدم لها بمقدمة يبحث فيها بأصول تاريخ أوروبة في العصور الوسطى.

كانت قارة آسية سباقة في معرفة الحضارة والثقافة للقارة الأوروبية، ونظراً لارتباط أوروبة بآسية، فقد تم انتقال المؤثرات الحضارية الآسيوية إلى أوروبة، لكن هذه المؤثرات لم تكن الوحيدة التي غزت أوروبة، بل ينبغي أن يضاف إليها المؤثرات الأفريقية لمصر وشمال أفريقية، ونحن حين نبحث في تاريخ الحضارات التي قامت في أوروبة قبل العصور الوسطى نجد أن أصول هذه الحضارات كانت شرقية إلى أبعد الحدود، وقد ظلت شديدة الارتباط طوال العصور بالشرق، وفقط عندما تم قطع الأواصر بين أوروبا والشرق قامت العصور الوسطى، وعندما استأنفتها الحروب الصليبية قادت إلى بعث الحضارة من جديد في أوروبا الأمر الذي ارتبط بأصول عصر النهضة وما تلاه.

وأبرز الحضارات التي قامت في أوروبة قبل العصور الوسطى هي: الحضارة الاغريقية ثم الرومانية، ولا حاجة بنا هنا لاستعراض التاريخ الاغريقي بمراحله قبل الاسكندر وبعده، ولا تاريخ الامبراطورية الرومانية إلا بقدر يمهد لفهم موضوعنا.

دخلت روما في صراع مع قرطاج، فاضطرت إلى احتلال بعض الأراضي المجاورة لايطاليا بغية اتخاذها خطوط دفاع أولى في العمق، وقد ولد هذا الطمع في آحتلال المزيد من الأراضي، فكان أن آستولت على سردينية وصقلية، كما فتحت اسبانيا، وأثناء هذا توسعت قدرة روما البحرية، ونظراً لتحالف قرطاج مع مملكة مقدونية، سعت روما للانتقام من هذه

المملكة، فهزمتها واحتلت أراضيها، وقاد هذا إلى احتكاك روما بالدولة السلوقية، ومن جديد انتصرت روما على السلوقيين واحتلت سورية، وعندما حاولت التوسع شرقاً اصطدمت بالامبراطورية الفارسية، فتوقفت لذلك أعمال التوسع الروماني مع نهر الفرات، واتجهت روما نحو مصر فاستولت عليها، وكان قبل هذا بفترة طويلة قد أخفق هانيبال أمام الجيوش الرومانية، واحتلت روما الشمال الأفريقي، وعليه نجد مع نهاية القرن الأول لما قبل الميلاد روما قد أصبحت صاحبة السيادة على شواطىء البحر المتوسط، ونتيجة لذلك غدا هذا البحر بحيرة رومانية.

وقد ترتّب على التوسع الروماني نتائج خطيرة جداً، فقد وجدت روما نفسها سيدة للجزء الأعظم من العالم المتحضر في أوروبة وآسية وأفريقية ومتملكة للميراث الحضاري لهذا العالم بكل محتويات هذا الميراث الثقافية والدينية والفكرية والاجتماعية، كما أن هذا التوسع منح روما ثروات لا تقدر، وقد كان لهذا الثراء العديد من الآثار الإيجابية والسلبية على المجتمع الروماني، حيث انحطت الأخلاق وتأثرت الادارة وأصابها خلل شديد.

فروما حققت توسعها بوساطة الأداة العسكرية، لذلك نجد أن السيف كان هو مصدر السلطة الفعلي في هذه الامبراطورية، ورجال السيف من الجند كانوا هم اصحاب الشأن الأول في الدولة، وسعياً وراء التحرك العسكري السريع نجد الدولة الرومانية قد قامت ببناء عدد كبير من الطرق المرصوفة لوصل روما العاصمة بكافة أجزاء الامبراطورية، وجهد رجال السلطة الرومان في تأمين الأمن، وكان لهذا انعكاسات على النشاط التجاري، ونقل منتجات الشرق الأدنى والأقصى إلى روما، ونقل التجار دائماً أنواعاً من البضائع: مرئيه مستهلكة، وغير مرئيه ثقافية وحضارية ودينية لها صفة الديمومة والقدرة على التغيير.

ولم تتوسع روما داخل البقاع الأوروبية إلا بقدر ما فرضته ضرورات الأمن والدفاع والحاجة إلى القمح، وكان لهذا نتائج في غاية الخطورة، فعلى يد شعوب أوروبة غير المتحضرة أو المترومنة تماماً تم فيما بعد إسقاط روما والقضاء عليها نهائياً، وتغيير أوروبة من بلد متوسطي روماني إلى بلد غير متوسطي جرماني، وهذا ما كان في العصور الوسطى.

لقد عانت روما من كثير من المشاكل كانت تزداد مع الأيام، وفي القرن الثالث للميلاد وضح اخفاق جميع محاولات الاصلاح الاداري والسياسي والديني، وأدى هذا إلى انشطار العالم الروماني إلى شطرين: شرقي اغريقي وغربي لاتيني، وفي القرن الرابع تبنى الأمبراطور قسطنطين الكبير الديانة المسيحية، وتخلى عن روما القديمة واستبدلها بروما جديدة بناها على ضفاف البوسفور، وحملت روما الجديدة اسم قسطنطين وما زالت تحمله.

وقبل الحديث عن دوافع قسطنطين لتبني المسيحية ومن ثم العلاقات المسيحية الرومانية، مفيد أن نعرج ولو قليلاً على مسألة العلاقات الرومانية مع الشعوب الجرمانية.

كان الناس بالنسبة للرومان وقبلهم بالنسبة للاغريق يقسمون إلى قسمين: الشعب الروماني، والشعوب البربرية، ذلك أن الشعب الروماني اعتبر نفسه شعباً متحضراً متقدماً، وما سواه أدنى منه مرتبة وأقل مكانة، وكانت الأراضي الرومانية محاطة بالشعوب البربرية خاصة في أوروبة، التي كان غالبية برابرتها عبارة عن قبائل بدوية من أصول جرمانية، وصحيح أنه كان هناك علاقات مبكرة بين هذه الشعوب والامبراطورية الرومانية، إنما يلاحظ أنه منذ القرن الرابع تبدلت نوعية هذه العلاقات، وتدفقت كتل ضخمة من القبائل الجرمانية على الأراضي الرومانية خاصة في الغرب، واجتاحتها بشكل مدمر حتى تمكنت من احتلال روما بالذات وإنهاء الوجود الامبراطوري فيها، ولم تتوقف عمليات تدفق الشعوب البربرية الأوروبية من الشمال باتجاه سواحل البحر المتوسط، وكان مع قدوم كل موجة جديدة تحدث تغييرات هامة على كافة الصعد، فبعد الشعوب الجرمانية جاء الفيكونغ وبعدهم النورمان، وإذا كان الرومان هم الذين صنعوا تاريخ أوروبة الغربية القديم فإن هذه الشعوب هي التي صنعت أحداث التاريخ الوسيط، وكما حدث من قبل عندما خرج الرومان من أوروبة إلى بلاد الشام في آسية، فكان هناك أوسع التغييرات على روما والعالم القديم أجمع، كذلك الحال عندما انطلق النورمان من أوروبة الغربية نحو الشام، ففجروا أحداث الحروب الصليبية الواسعة التأثير والشهرة.

ونعود الآن نحو العلاقة ما بين المسيحية وروما لنجد أن عدداً من الباحثين يرى أن الدولة الرومانية وصلت إلى ذروة قوتها المركزية وعظمتها الداخلية أيام حكم أغسطس الذي كان أول أباطرتها، وعند كبار المؤرخين إن الدول بعد وصولها إلى الذروة لا تمكث هناك طويلاً، فالمكوث جمود، والسياسة والحكم حركة، والذروة هي الغاية، وبعدها الانحدار، لكن ليس في طريق العودة نحو الأصول بل السير نحو النهاية، فما من مخلوق عاد طفلاً بعد وصوله إلى شرخ الشباب.

وفي أيام أغسطس حققت روما أمجاداً عسكرية طائلة، لكن المجتمع الروماني الذي كان سيده صاحب السيف عانى آنذاك من الانحلال الفكري والعقائدي الديني، وكان ما يدين به الرومان ويمارسونه هو مجموعة طقوس وثنية ملفقة من عدة ينابيع وأصول، لذلك لم تشكل ديانة، ذات كتلة من العقائد مع تصور كامل للكون وفلسفة متميزة للحياة، ولهذا لم تعد كافية لمتابعة الأخذ بها سيما في ظل حكم امبراطوري ودولة امبراطورية لها السمة الأممية

لامتداد رقعتها عبر قارات العالم القديم، يضاف إلى هذا أن المدارس الفلسفية من رواقية إلى أفلاطونية محدثة لم تستطع تقديم الزاد الروحي لشعوب الامبراطورية وتلبية الحاجات المطلوبة، وكان هناك الديانة اليهودية، لكن هذه الديانة بانغلاقها على أتباعها وبما لحقها من انحرافات عجزت عن أن تقوم بدور فعال داخل المجتمع الروماني، وعلى هذا نجد أن المجتمع الروماني كان يعاني من الفراغ الروحي الديني بقدر ما كان يعانيه من خلل وتدهور وانحراف وفساد، ويلاحظ هنا قيام العديد من المحاولات لشغل هذا الفراغ، وأن غالبية هذه المحاولات صنعت في الشرق، وقد تحقق لواحدة منها فقط نجاحاً ملحوظاً:

ففي أيام أغسطس ولد المسيح عيسى بن مريم في بلدة بيت لحم في فلسطين، ولد كما هو مجمع عليه في كافة المصادر من أم عذراء لم يمسسها بشر قط، وهناك خلاف حاد في المصادر حول الحياة المبكرة وحتى المتأخرة للسيد المسيح، لا بل إن الخلاف شمل كافة مراحل حياة المسيح، فأدى ذلك ببعضهم إلى إنكار وجوده تاريخياً، والذي اعتدل قال إن المعلومات المتوفرة حوله في المصادر المسيحية فيها زيف كبير واختراع، ومهما يكن الحال، فإنه من المؤكد أن رسالة المسيح كانت طوال حياته عبارة عن حركة اصلاحية داخل الديانة اليهودية، مثلها مثل عدد آخر من الحركات الاصلاحية المتعاصرة، وكلها كان محلياً ضيقاً، على أنه بعد غيبة المسيح (وبعضهم يذكر في أيامه الأخيرة) نقلت الحركة إلى العمل العالمي، ومن المؤكد أن الذين تولوا عمليات نشر المسيحية هم غير المسيح، ذلك أن المسيح المتغيب غدا أقوى نفوذاً مما كان عليه المسيح الحي، وكان لعمليات النشر هذه انعكاسات متميزة على العقيدة المسيحية تبعاً للزمان والمكان، وخلال قرون ثلاثة اضطرت المسيحية أولاً للرومنة بشكل عام، وللتأقلم مع كل شعب وبلد بشكل منفرد، فكان نتيجة لهذا قيام عدة ديانات مسيحية متصارعة، وهكذا إن الصراع بين الديانات المسيحية كان واحداً من أهم مميزات العصور الوسطى وصانعاً لأحداثها.

إن معلوماتنا عن تاريخ المسيحية في عصورها الأولى، وانفصالها عن اليهودية هي معلومات غير مؤكدة، ثم إن المتوفر من الأخبار عن انتشار المسيحية والطرق التي اتبعتها أيضاً غير كافية فيها الكثير من الغموض، على أنه رغم كل هذا نجد من الثابت أن الفضل الأول في تنظيم المجتمعات المسيحية الأولى ووضع قواعد اللاهوت وما يرتبط به من مبادئ المسيحية الخلقية مع أمور الحياة والموت وغير ذلك يعود إلى القديس بولص، وهو أيضاً المنظم الأول للكنيسة وباني أركانها الأولى.

لقد كان المسيح المتغيب وليس الحي الذي أثر على شاول اليهودي من أهالي

طرطوس، وهي حاضرة رفيعة للثقافة الهلنستية لمنطقة كيليكية، وكان شاول ملماً بكثير من اللغات ومجيداً لها مثل سواه من السوريين من أبناء عصره، كما كان أممياً مثل مدينته الواقعة الآن في الجنوب الغربي لتركيا، فهي بوابة آسية الصغرى وعلى الطريق نحو أوروبا، كما أنها بداية الطريق نحو الشرق الأقصى، وفهم شاول المسيحية واستوعب فكرتها، وأخرجها من النطاق المحلي لفلسطين ووضعها في الاطار الأممي للامبراطورية الرومانية.

لقد قدّم شاول للعالم الروماني عقيدة جديدة، فيها من اليهودية منطلقات العقيدة والطقوس، وفيها أركان مفاهيم الافلاطونية المحدثة، لقد كانت تركيبة جديدة فيها المسيح الرب بـن الله وروح القدس، ولذلك لا غرابة أن تخلى شاول عن اسمه كما تخلى عن ماضيه، فأصبح يعرف باسم القديس بولص.

وسهل على المسيحية الانتشار في العالم الروماني توفر طرق المواصلات مع توفر الأمن واستتبابه، وزيادة على ذلك اعتماد جميع مقاطعات العالم الروماني لإحدى لغتين وهما: اللاتينية والاغريقية، وصحيح أن هذا قد يسر نشر المسيحية، ولكنه منذ البداية فصمها، فكان هناك مسيحيتان: لاتينية وأخرى اغريقية.

ولم تعارض الامبراطورية وسلطاتها في البداية أعمال التبشير بالمسيحية، فالسياسة الرومانية سمحت بحرية المعتقد، ولكن ما لبث أن تبدل الحال وقام عداء شديد بين المسيحية والسلطات الامبراطورية، مما دفع النصرانية إلى العمل بالسر وأخذ أتباعها بممارسة الطقوس بشكل سري، وكوّن النصارى تجمعات سرية، ولا شك أنه كان لذلك أكبر الآثار على تطور العقيدة المسيحية، وأدخل عليها الشيء الكبير من العقائد والأفكار الغريبة عن أصولها.

ومع ازدياد انتشار المسيحية ازدادت أعمال التنكيل الرومانية بشتى السبل من تعذيب وتحريق، ولاقت المسيحية في أوائل تاريخها الرواج بين مختلف طبقات المجتمع الروماني، خاصة بين الطبقات الدنيا، والمسيحية كعقيدة تقضي بالتسليم وعدم المناقشة، وهي بهذا مناقضة للمدارس الفلسفية، وكان معنى انتشار المسيحية، ثم انتصارها النهائي الحاسم، إنهاءاً للعصور القديمة الكلاسيكية وبداية عصور جديدة يتحكم بها الفكر الكنسي، وهي العصور التي تسمى بالعصور الوسطى.

وأثناء انتشار المسيحية لم تكن السلطات الرومانية تشكل التحدي الوحيد لهذه الديانة، بل أضيف إليها الافلاطونية المحدثة واليهودية والغنوصية ثم المانية وغير ذلك من العقائد، واستطاعت المسيحية خلال صراعها مع هذه العقائد أن تكتسب منها الشيء الكثير وتتبناه، وهكذا فإن عمليات الصراع هذه ما كانت إلا عمليات بناء للعقيدة المسيحية وتكوين لها،

رغم أن هذه العمليات أبعدتها كثيراً عن أصولها الأولى، وأثر هذا على المكانة الوثائقية للسيد المسيح، الأمر الذي دفع العديد من الباحثين في العصر الحديث إلى تفسير هذا الموضوع تفسيراً تاريخياً متطرفاً.

ومع نهاية المئة الثالثة للمسيح غدت الديانة المسيحية بأتباعها داخل الامبراطورية الرومانية قوة ليس فقط لا يمكن قمعها، لا بل لا يجوز تجاهلها والاستهانة بها، وقد دفع هذا العديد من الساسة الرومان إلى إعادة النظر في مواقفهم منها ومن أتباعها، وخاصة أيام الأزمات الداخلية والحروب الأهلية.

ففي سنة ٣١٣ م أصدر الامبراطور قسطنطين الكبير مرسوماً في ميلانو عرف فيما بعد باسم مرسوم ميلانو، اعترف به بالمسيحية كشرعة قانونية يحق لأتباعها ومعتنقيها اعلانها وممارسة طقوسها بكل حرية مثلها مثل بقية الديانات، وكان لهذا المرسوم أبعد الآثار، ويرى بعض الباحثين فيه التاريخ الذي انتهت فيه العصور الكلاسيكية القديمة، وبدأت به العصور الوسطى، سيما إذا ربطنا ذلك بما أقدم عليه قسطنطين بعد ذلك ببناء القسطنطينية التي جعلها عاصمة لروما الشرقية، ومعلوم هنا أن العديد من الباحثين يرى أن العصور الوسطى قد انتهت مع سقوط القسطنطينية للمسلمين.

ولا شك أن الأمبراطور قسطنطين أدرك موازين القوى في عالمه فأراد أن يتحكم بهذه الموازين ويستغلها لصالحه ولصالح أهدافه السياسية، لكن عندما نقل قسطنطين العاصمة إلى الشرق ترك روما لقدَرِها الذي حكم عليها بالسقوط، وهي مدينة الشيطان، ليقوم مكانها «مدينة الله» على حد قول القديس أوغسطين، فروما التي خلت من الامبراطور قام فيها أسقفها ليأخذ مكان الامبراطور، وليجعل من نفسه «بابا» سيداً لجميع كنائس العالم، ولاقى أسقف روما في مسعاه هذا العديد من العقبات، فبذلت مؤسسته جميع طاقاتها في سبيل تذليلها، ودخلت حلبة كل صراع خاصة الميادين السياسية ضد الملوك والحكام، ومنذ بداية القرن التاسع ضد الأباطرة، وعلى هذا فإن إحدى مزايا العصور الوسطى قيام البابوية في روما وصراعها مع الأمبراطورية، وهنا يسهل علينا أن نفهم واحداً من دوافع البابا أوربان الثاني في الدعوة للحروب الصليبية، فذلك كان حتماً سيمنحه السلطان على شعوب أوروبة وقادتها جميعاً من أمراء وملوك وأباطرة واكليروس.

وشهدت المسيحية منذ أوائل عهودها خلافات مذهبية عميقة جداً كان لها آثارها الخطيرة على تاريخ أوروبه والشرق معاً، وليس المكان الآن هو لدراسة هذه الخلافات بشكل مفصل، بل علّه تكفي الإشارة إليها حسب الحاجة وبما يخدم الموضوع الذي نحن بصدده.

وتعلقت كبريات مشاكل الخلاف بطبيعة عقيدة التثليث والعلاقة بين الأقانيم الثلاثة: « الآب » « الابن » « روح القدس » مع طبيعة العلاقة بين هذه الأقانيم وطبيعة السيدة العذراء أم عيسى، وبدأت المشاكل تستفحل عندما حدث خلاف بين اثنين من رجال الكنيسة في الاسكندرية حول تحديد العلاقة بين « الآب » و« الابن » وهما آريوس وأثناسيوس، فقد قال آريوس: إن العقل والمنطق يحتمان وجود الآب قبل الابن، وإن المسيح الابن مخلوق للآب، فهو على هذا أدنى منه منزلة، ولا يمكن أن يعادله بالمكانة والقدرة، أو بالحري: إن المسيح مخلوق لإله عظيم وحيد متفرد بطاقاته وصفاته، وإذا لم يكن الحال كذلك فإن المسيحيين يكونون غير مؤمنين بعقيدة التوحيد، ويعبدون أكثر من إله.

ورد عليه أثناسيوس بقوله: إن فكرة الثالوث المقدس تقضي أن يكون الابن مساوياً للآب ومن العنصر نفسه تماماً ودونما خلاف في القدرة والمكانة، كل هذا برغم تميزهما عن بعضهما، ويبدو أن اثناسيوس ومن قال بفكرته كانوا يدركون أن المسيحية تعتمد بأصولها على ما صيغ حول المسيح وما منحه من مكانة علوية، وكان أي اتجاه للتقليل من هذه المكانة سيؤدي حتماً إلى اضعاف الدعوة المسيحية والغاء مسوغاتها.

وكان آريوس أكثر ثقافة من منافسه، وقد أيده المثقفون في الشرق، لكن أثناسيوس كان أكثر عاطفية واثارة للعامة، ولهذا لاقت أفكاره قبولاً شعبياً، وعمت فيما بعد في الغرب الذي كان متخلفاً عن الشرق ثقافياً وحضارياً.

واشتد الجدال بين آريوس وآثناسيوس، وتشيع الناس إلى قسمين، يؤيد كل فريق منهما واحداً من الرجلين، وعندما وصل الجدل إلى درجة النزاع بين الطرفين خشي الامبراطور قسطنطين أن يؤثر هذا الخصام على وحدة الامبراطورية، فتدخل لفضه أولاً عن طريق المبعوثين، ثم بتوجيه الدعوة إلى عقد مؤتمر ديني عام التأم في نيقية [إزنيق حالياً في تركيا] سنة ٣٢٥ م، فكان أول مجمع مسكوني [عالمي] من نوعه في التاريخ، وستتلوه فيما بعد عدة مجامع مشابهة للعمل في سبيل وحدة العقيدة والكنيسة، وفض الخصومات، ولم يحالف النجاح الدائم هذا المجمع ولا سواه، وازداد الخلاف حدة والتمزق سعة، وذلك لانعدام الرابط الموثق ولتوفر الأهواء والمطامح والمطامع.

لقد حضر مجمع نيقية حوالي ثلاثمائة من رجال الدين النصارى، وترأس الامبراطور نفسه جلسات المجمع مع أنه لم يكن معمداً وما زال وثنياً، وأدان مجمع نيقية آريوس وقرر إعدام كتاباته ونفيه وملاحقة أتباعه، وأصدر صيغة عقيدة كان مما جاء فيها: « أومن بإله واحد وهو الآب القادر، صانع الأرض والسماء وكل شيء ظاهر وغير ظاهر، وأومن برب

واحد هو يسوع المسيح ابن الرب الوحيد، أوجده قبل أن يوجد المخلوقات رب الأرباب، نور الأنوار، إله الآلهة، الذي وجد ولم يخلق، وهو من طينة الآب نفسها، الذي خلق كل الأشياء».

وبرغم استمرار الخلافات، فإن الأثناسيوسية حققت مع الأيام المزيد من المرابح، ليس في الغرب فحسب وإنما في الشرق أيضاً، وقاد هذا فيما قاد إليه إلى أن دخل إلى العقيدة المسيحية مسألة تقديس الشهداء والقديسين وبقاياهم، وقامت قضية عبادة المخلفات المقدسة والصور، التي عرفت باسم الحركة «الايقونية». [عبادة الصور]، وبعد صراع شديد في الشرق والغرب، انتصر حزب عبادة الصور، وحدث اقبال شديد على اقتناء الآثار المقدسة والصور، وسعت كل كنيسة من الكنائس نحو الحصول على بعض الآثار المقدسة، وصناعة المزيد من الايقونات، ومع الأيام علت شهرة بعض الآثار والصور على سواها، وأذيع حولها الكثير من أخبار المعجزات والكرامات، مع أحاديث عن شفاء الأمراض وحل المعضلات وجلب السعادة والنصر، والغاء التعاسة إلى غير ذلك، وأقبل الناس على الاكثار من زيارة الآثار المقدسة للتبرك، وصار هذا الأمر عادة ما لبثت أن تطورت كثيراً حتى صار المؤمنون يسافرون من بقعة إلى أخرى لزيارة الآثار والكنائس والأديرة الحاوية لها مع قبور القديسين ومشاهدهم، وهكذا جاء إلى الوجود عقيدة جديدة دخلت إلى أركان الديانة المسيحية، وهي عقيدة الحج، وتبارى الناس في زيارة القديسين والآثار الأعظم مكانة، وحيث أن أرض ميلاد المسيح تضم أعلى الآثار مكانة وقدسية فقد أخذ بعضهم يسافر نحو فلسطين.

ونلاحظ أنه نتيجة لغزوات الفيكونغ البحرية الواسعة، ولانبعاث دويلات شعوب الشمال ونشاطاتها في أرجاء البحر المتوسط، نتيجة لذلك كله أخذ تيار الحج إلى فلسطين يزداد، وعظم عدد الحجاج بشكل ملحوظ جعل بعض المؤرخين العرب يأتي على ذكرهم للمرة الأولى، ولقد ترافق هذا مع قيام دويلات ايطاليا البحرية ونشاطاتها المؤرخة في حوض البحر المتوسط، لذلك شجعت حركة الملاحة على اقبال الحجاج إلى فلسطين، وبدأت بعض المؤسسات التجارية والسياسية الأولى تسعى للحصول على تسهيلات خاصة من سلطات الشام الجنوبي، وشرعت في اقامة مراكز لخدمة الحجاج في فلسطين على شكل فنادق ومشاف.

وعندما كان الحجاج يعودون إلى ديارهم، حملوا معهم تقارير وافية عن أحوال الشام والمشرق والعربي من كافة النواحي، وبالغوا في تصوير أحوال الرفاه وتوفر الثروات وكثرتها، كما تم الالحاح بشكل منقطع النظير عن قضايا الخلافات الدينية والصراعات المذهبية التي تجددت بشكل عنيف في القرن الحادي عشر، وهذه مسألة سنعرج عليها فيما بعد.

وسلف أن جرت الإشارة إلى البابوية في أكثر من مناسبة، لذلك يحسن القيام بالحديث عن هذه المؤسسة، وذكر شيء من تاريخها بشكل منفرد وبقدر ما يخدم الموضوع الذي نحن بصدده:

لقد تطلب التيار الانفصالي الذي انساقت فيه الكنيسة قيام مؤسسة لاهوتية قوية في مكان استراتيجي له خلفية تاريخية لتقود عمليات الصراع، فكان أن قامت البابوية في الغرب مستغلة الأنفصام الحاد بين الشرق والغرب، وقامت في روما عاصمة الامبراطورية العتيدة التي اختفى فيها عرش «الامبراطور الإله». فكان أن حل محله عرش «الامبراطور الحبر الأعظم خليفة السيد المسيح».

لا نملك من المعلومات ما هو مؤكد وواضح للتأريخ للعصور الأولى لأسقفية روما، وكل ما نعلمه أن حواريي السيد المسيح ورسله انتشروا في الأرض، واستقر بعضهم في كبريات مدن العالم الروماني، وهناك أسسوا قواعد كنائس، ونظراً لندرة المدن الهامة في الغرب وكثرتها في الشرق، فإننا نجد الكنائس المنسوبة إلى الرسل في الشرق أكثر منها في الغرب، وهي كنائس: القدس، وأنطاكية، والاسكندرية، ولم يوجد في الغرب إلا روما، وقد نازعتها في البداية قرطاج، لكن كما تغلبت روما الوثنية على قرطاج وقهرتها من قبل، تغلبت كنيسة روما على كنيسة قرطاج، فانفردت في العالم الغربي، وتفردت في نيل الزعامة وكان عليها أن تتصدى لكنائس الشرق، وخاصة الكنيسة التي أحدثت في القسطنطينية بعد اتخاذها عاصمة للامبراطورية الرومانية الشرقية، وربطت روما تاريخها الكنسي بالقديس بطرس، وكان اسمه الأصيل سمعان، لكن السيد المسيح دعاه بطرس ـ أي الصخرة ـ وقال بأنه الصخرة التي ستبنى عليها كنيسة الرب، وعلى هذا أعطاه تفويضاً بسيادة الأرض، وأعطاه أيضاً مفاتيح السماء، فجعله زعيماً للرسل ومقدماً عليهم جميعاً، لذلك فإن كنيسته هي مقدمة على غيرها من الكنائس ورئيسها زعيم لجميع كهنة الديانة المسيحية في العالم.

هذا ما قيل، لكن هذه الحجج قد قدمت بعد انتصار المسيحية وقيام الصراعات الداخلية، فنحن لا نملك إلا نادر المعلومات عن أساقفة روما في القرنين الأول والثاني، لكن بعد قسطنطين أخذت المصادر تشير إلى بعضهم وإلى ما قاموا به من أدوار، ويبدو أن الأسر النبيلة لمدينة روما قد تحكمت بالعرش البابوي، وانها خاضت ضد بعضها بعضاً معارك شرسة بسبل لا أخلاقية، كما أن سلوك العديد من البابوات كان مشيناً، ومع هذا ظهر بين آونة وأخرى شخصيات متميزة مثل ليـو الكبير (٤٤٠ ـ ٤٦١) الذي تم في عهده الاعتراف بسيادة كنيسة روما على غيرها من كنائس الغرب.

وفي هذا الوقت قال أباطرة القسطنطينية بالمساواة بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية الحديثة، واستمروا في عقد المجامع المسكونية لمعالجة هذه القضية، لكن بابوات روما تمسكوا بدعواهم ومشاكلهم، وزاد من مكانة كنيسة روما وتفردها في الغرب ازدياد إلتجاء الناس في الغرب إلى أساقفة هذه الكنيسة لفض الخصومات واستئناف الأحكام الدينية للكنائس الأدنى، وقد حازت كنيسة روما ثروة كبيرة جداً، وساعدتها هذه الثروة على التحكم وتنفيذ مشاريعها الامبراطورية، وتحققت السيادة الفعلية لروما على كنائس الغرب في عهد البابا غريغوري الكبير (٥٩٠ ـ ٦٠٤ م) وقد حدث هذا في وقت تعمقت فيه الخلافات مع الكنيسة الشرقية حول تفسير طبيعة المسيح وعلاقة عنصر الناسوت فيه بالعنصر اللاهوتي.

واستمرت الخلافات وتغيرت بنى الغرب السياسية، وظهرت الدول الجرمانية الأصل، وتطور الحال إلى أن أقدمت البابوية سنة ٨٠٠ م على بعث الامبراطورية الغربية من جديد وذلك عندما توج البابا الملك الفرنجي شارلمان امبراطوراً، ومنذ هذا الوقت دخلت البابوية في صراع مع الامبراطورية الجديدة ومن خَلَفها في الغرب، ويلاحظ أن المطامح بالوصول إلى العرش البابوي تجلت بأشكال غريبة جداً، حتى وجد في وقت واحد أكثر من بابا، وتمكنت في القرن الحادي عشر أسرة يهودية اسمها «البيرليوني» من السيطرة على العرش البابوي أكثر من مرة، وكان آخر من قدمته هذه الأسرة البابا أوربان الثاني الذي بشر بالدعوة إلى الحروب الصليبية.

لقد كان البابا البيرليوني غريغوري السابع هو من خطط لحملة صليبية تتوجه إلى القدس لكن صراعه مع الامبراطور هنري، شغله عن تنفيذ مشروعه، وكان الامبراطور قد عين بابا باسم كليمنت الثاني ونصبه في روما، وبعد وفاة غريغوري خلفه بابا جديد باسم فكتور الثالث (١٠٨٦ ـ ١٠٨٧) وبعد وفاته جرى اختيار أوربان الثاني (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩ م) وعندما حدث هذا كان البابا «المضاد» كليمنت الثاني في روما، والأمور مشوشة في العام المسيحي بشكل منقطع النظير، وعاش أوربان في فرنسا وشرع يخطط للقيام بمغامرة مثيرة، وعلى مستوى تمكنه من ربح المعركة مع الامبراطورية، وتعيد للعالم المسيحي وحدته عن طريق وضعه أمام عمل عام وهدف مشترك، وبناء على ذلك دعا أوربان إلى عقد مجمع كنسي في بياسنزا، وصادف هذا المجمع نجاحاً لم يكن متوقعاً، وهنا أعلن أوربان أنه ينوي عقد جلسة استثنائية فوق العادة في كليرمونت يعلن بها للعالم المسيحي بأجمعه خطة يحتفظ بسريتها حتى الآن، وهي ستخدم في إعادة الوحدة المسيحية إلى سابق عهدها، وعقد الاجتماع في كليرمونت، وألقى أوربان خطبته التي اقتبسنا بعض مقاطعها،

وأنهى كلمته بقوله: «هذه هي مشيئة الله» وردد الحضور وراءه العبارة نفسها، وهنا تقدم أدهمر أسقف «لي بوي» وركع أمام البابا، واستلم بركته وتفويضه ليقود هذه الحركة المسيحية الهائلة، وهكذا بدأت الحروب الصليبية.

إن لاعلان هذه الحروب خلفيات أخرى غير التي أتينا حتى الآن على ذكرها، ارتبطت بأوضاع الغرب الاجتماعية والاقتصادية ونظم الحياة السياسية والعسكرية العامة:

من المقرر أن هجرة الشعوب الجرمانية إلى الأراضي الرومانية قد غيرت الوضع الجغرافي والزراعي والاقتصادي للعالم الأوروبي، كما زلزلت التوازن العسكري الأوروبي.

لقد اندفعت قبائل الجرمان نحو الأراضي المتوسطية، وحين احتل الجرمان بعض الأراضي الغربية للامبراطورية الرومانية، فإنهم لم يتعدوا طور الاحتلال إلى التغيير البشري والعرقي، فلقد كانت أعدادهم قليلة، لذلك كان حالهم حال جيش محتل أكثر من حال شعب مهاجر يبغي أن يحل محل شعب آخر، واستطاع الجرمان الاحتفاظ بالمقاطعات التي افتتحوها ما دام ليس هناك قوة عسكرية أخرى تستطيع طردهم، ففي القرن السادس حطمت جيوش الامبراطور البيزنطي جستنيان كل من الوندال والقوط الشرقيين، وبعد قرن ونيف قضى المسلمون على القوط الغربيين، واستمر الفرنجة، من بين الشعوب الجرمانية، بالوجود لاستقرارهم في الشمال الشرقي لغاليا على مقربة من الموطن الأصلي للشعوب الجرمانية.

ومعروف أن حضارة العصور الوسطى نشأت من اندماج العناصر الحضارية الجرمانية بالعناصر الرومانية وتطورها، وأن هذه الحضارة لم تنشأ في حوض البحر المتوسط، بل في أراضي الشعوب الجرمانية، وكان لنقل مركز السلطة والحضارة والسياسة من مقاطعات البحر المتوسط إلى شمال أوروبة تأثيرات عميقة جداً على جغرافية أوروبا السياسية والاقتصادية، وتأثير المحيط الجغرافي على الحضارة الوسيطة يأتي من أنه معلوم أن مناخ شواطىء البحر المتوسط معتدل جاف، والتربة في الأراضي المتوسطية خفيفة والغابات قليلة والأنهار غير كثيرة، فالري الزراعي قليل كما أن الأراضي الصالحة للزراعة غير كافية وقليلة الخصب، وأراضي شمالي أوروبا باردة في الشتاء لطيفة في الصيف، كثيرة الأمطار، وكانت مغطاة بالأحراش والغابات، وعندما قام المستعمرون الجرمان بتنظيف بعض البقاع من الأشجار، وجدوا تربة غنية جداً، تنتج كميات كبيرة من الحبوب، وكانت الأرض ومنتجاتها قاعدة الاقتصاد في العصور الوسطى، وعلى هذه القاعدة اعتمدت أوروبا الغربية الوسيطة، لكن لماذا اعتمدت أوروبة الغربية فقط على موارد أرضها الزراعية، أكان ذلك عن اختيار أم اجبار،

وأخيراً وتبعاً لهذا أكان الحال الاقتصادي هو الذي حدد بداية العصور الوسطى أم سقوط روما السياسي على يد الفاتحين الجرمان؟.

إن أفضل من حاول معالجة هذه المسألة هو المؤرخ البلجيكي الأصل هنري بيرين، وعرض أفكاره في عدد من المحاضرات والأبحاث ثم لخصها في كتاب نشر بعد وفاته دعاه باسم «محمد وشارلمان» وقد أثار ما قدمه بيرين في هذا الكتاب زوبعة كبيرة بين العاملين في تاريخ أوروبة في العصور الوسطى وما زال مع أنه مضى على نشره سني عديدة، وكان ما قدمه بيرين من رأي هو إن الفصل بين العصور القديمة الكلاسيكية والعصور الوسيطة قد قام بعد سنة ٨٠٠ م أيام امبراطورية شارلمان وليس أيام الهجرة الجرمانية في القرنين الخامس والسادس.

ويقدم بيرين عرضاً مؤيداً لأفكاره ملخصه أن الأراضي التي تشكلت منها الامبراطورية الرومانية في عصورها المتأخرة ـ أي من بعد القرن الرابع ـ كانت تلك المحيطة بالبحر المتوسط، حيث أن هذا البحر كان بحيرة رومانية وصلت بين مقاطعات الامبراطورية ولم تفصل بينها، وكانت هذه البحيرة أشبه شيء بطريق سافرت عبره الديانات والأفكار الفلسفية وأنواع البضائع والسلع التجارية كل ذلك مع عقائد مصر وثقافات الشرق، وعبادة «مثرا» والمسيحية ثم أنظمة الرهبنة وحياة الديرة، وعلى طول شواطىء المتوسط امتدت طرق القوافل التي انتقلت عليها كنوز الشرق وبضائعه الرائعة من عاج وبخور وتوابل وأحجار كريمة وحرير وورق بردي وخمور وزيوت، وكان هناك وحدة نقدية للامبراطورية تمثلت بالسوليدوس الذهبي، وأشرف على ادارة وتنظيم الأعمال التجارية داخل الامبراطورية التجار اليهود والسوريون.

وعندما قامت هجرة الشعوب الجرمانية تأثرت الامبراطورية الرومانية بشكل مأساوي كبير، فقد قهرت المقاطعات الغربية بما في ذلك ايطاليا، وزالت السيادة الرومانية من الغرب، بيد أنه برغم ذلك كله لم يجلب هذا نهاية العصور الكلاسيكية كما خيل للبعض.

ذلك أن القبائل الجرمانية شكلت أقلية صغيرة في البلاد المفتوحة، فقد قيل مثلاً بأن عدد القوط الشرقيين في إيطاليا لم يتجاوز مئة ألف وكذا عدد القوط الغربيين في اسبانيا وجنوب فرنسا، وعدد البيرغنديين في جنوب شرقي فرنسة حوالي خمسة وعشرين ألفاً، ولم يبلغ عدد الوندال الذين عبروا إلى الشمال الأفريقي أكثر من ثمانين ألفاً، وعلى هذا لم يتجاوز عدد الشعوب الغازية بالنسبة للشعوب المقهورة نسبة أعلى من واحد إلى مئة، وليس هناك ما يثبت أن هؤلاء

الجرمان تلقوا امدادات جديدة، بلى على العكس نقصت أعدادهم بفعل البيئة الجديدة ونتيجة للحروب، وأخيراً أطيح بهم عسكرياً وتم امتصاصهم.

ومن الواضح أن جرمنة البلاد المفتتحة كان محدوداً للغاية، فقد ظهر واضحاً في بقاع وقعت مباشرة على الحدود الشمالية للامبراطورية، حيث تلاصقت مع المواطن الأصلية للشعوب الجرمانية، لكن فيما عدا ذلك فإننا نجد التأثير اللغوي الجرماني على الفرنسية لا يتجاوز ثلاثمائة كلمة، وكذا الحال بالنسبة لجميع اللغات الأوروبية الأخرى، وكما حدث في إيطاليا ومقاطعات الغرب الروماني إن الفاتحين الجرمان جرى امتصاصهم من قبل السكان المحليين.

وعلى هذا فإن الاحتلال الجرماني وإن قضى سياسياً على الامبراطورية الرومانية الغربية لم يقض على الحضارة والنظم وتقاليد المعيشة والادارة الرومانية، لقد استمر وجود روما الغربية، لكن بدون استقلال سياسي، إنما استمر هذا البقاء يسير أيضاً في طريق التقهقر والانحدار، وعندما زال الحكام الرومان من الوجود وحل محلهم حكام من أصل جرماني، فإننا نجد أن هؤلاء الجرمان تابعوا السير على النهج الروماني نفسه، ولم يقوموا بتدمير المؤسسات الكلاسيكية الثقافية بل حافظوا عليها، ولم لا فالجرمان تأثروا إلى أبعد الحدود بالحضارة الرومانية، وعرفوا ثقافة روما قبل قهرها سياسياً وظلوا هكذا بعد نصرهم عليها، وفي حالات كثيرة تنازلوا عن عاداتهم وتبنوا الطريقة الرومانية لسموها وتقدمها، ولذلك ما أن زالت قوى الجرمان العسكرية حتى ذابوا حضارياً وتم امتصاصهم من قبل الشعوب المقهورة، وتابعت، خلال ذلك، المؤسسات الكلاسيكية سيرها نحو النهاية، ولم يكتب البقاء إلاّ لمؤسسة رومانية واحدة كانت هي الكنيسة، وصحيح أن الكنيسة احتفظت بوجودها، إنما كأداة تخضع للإدارة الدنيوية، وقد تابعت هذه الإدارة اختيار موظفيها من خارج النظام الكنسي ورجال الكهنوت، وحكمت المقاطعات المقهورة حكماً استبدادياً كما كان الحال أيام الامبراطورية، وظلت الإدارة في أيدي طبقة الموظفين من السكان المحليين المثقفين، واستمرت قواعد الجباية تعتمد في جمع الضرائب النقد الذهبي، وصحيح أن الجرمان أسسوا ملكيات في الأراضي التي استولوا عليها. ولكن ما من ملكية ضمت شعباً متميزاً فكانت دولة قومية لأمة من الأمم، واستمر نظام التوزع الإداري الروماني دونما تعديل أو تغيير، وظلت الحياة والأمور كما في السابق، واستمر السوريون واليهود في ممارسة النشاط التجاري المعتاد وفي جلب البضائع الشرقية الفاخرة، وظلت مقاطعات البحر المتوسط مترابطة، حيث تابعت إيطاليا استيراد القمح والجمال للنقل، وكان الحال في مدينة نربونة في جنوب فرنسا في

القرن السادس أن وجد فيها القوط والرومان واليهود والسوريين والاغريق، وعاش هؤلاء جنباً إلى جنب وكل نشط في ميدانه، وظلت اللاتينية لغة الثقافة والادارة برغم ما ألم بها من انحطاط، وبكلمة موجزة: لقد تغير وجه أوربة الغربية إثر احتلالها من قبل الشعوب الجرمانية لكن ليس بعمق بل بشكل سطحي بسيط فقط.

ثم جاء الحدث الجلل، ووقع التغيير المذهل، في القرن السابع، فتبدلت موازين الحياة في العالم أجمع، وتحولت مسيرة التاريخ الأوروبي وأخذت مناحي جديدة إنما قسراً، لقد ظهر الإسلام، وحدثت الفتوحات العربية الكبرى، وظهر العرب بمثابة قوة عظمى، فقد توفي النبي محمد ﷺ سنة ٦٣٢ م، وبعد وفاته بفترة وجيزة جداً اجتاح العرب أراضي الامبراطورية الساسانية وأزالوها من الوجود، وانتزعوا من بيزنطة ممتلكاتها المتوسطية في آسية وأفريقية كما احتلوا اسبانيا، فملكوا مضيق جبل طارق من طرفيه، وفجأة تحول البحر المتوسط من بحيرة رومانية إلى بحيرة عربية، وتوغل العرب داخل أوروبة، ولم يوقف توغلهم إلاّ النيران الاغريقية عند أسوار القسطنطينية، وشارل مارتل في بواتيه، ودولة الخزر في جبهة البحر الأسود.

والفوارق بين العرب الفاتحين والجرمان لا يمكن عدها، فالفتوحات العربية لم تكن مجرد هجرة، بل كانت عملاً عقائدياً حضارياً، لذلك لم تمتص شعوب البلدان المفتوحة العرب، بل قام العرب بتعريب هذه الشعوب وتحويلها إلى الإسلام، والإسلام بعقيدته في التوحيد خالف غيره من الديانات وخاصة النصرانية، وصحيح أن الشعوب الجرمانية حين قهرت بعض مقاطعات روما كانت آريوسية، وكان سكان البلدان المفتوحة كاثوليك، لكن كل من الآريوسية والكاثوليكية يجمعها المسيح، وكانت شعوب الجرمان أدنى ثقافة وحضارة من شعوب روما، ولم يكن العرب كذلك، وإذاً كان من مجال لمقارنة الفتح العربي بعمليات الاجتياح الجرمانية، هو أن العرب بإسلامهم كانوا أرحم شعب عرفه التاريخ.

لقد كانت نتائج الفتوحات العربية على أوروبا الغربية عظيمة للغاية، ومعروف أن دولة شارل مارتل الفرنجية هي التي أوقفت الزحف العربي ضد أوروبة الغربية، ووحدها ملكت القوة التي أوصلتها إلى الوضع الامبراطوري مع شارلمان، ولم تكن دولة الفرنجة متوسطية، فلماذا إذن تحول مركز القوة الفعالة في أوروبة الغربية من المقاطعات المتوسطية التي سبق وكانت غنية مزدهرة فيها تجارة رائجة، إلى الأراضي الفرنجية في الشمال التي كانت فيما مضى فقيرة زراعية تنتج القمح؟ يبدو أن السبب الرئيسي في ذلك هو انهيار التجارة الجنوبية المتوسطية، فقد شطرت الفتوحات العربية البحر المتوسط إلى قسمين: النصف الشرقي حيث

الامبراطورية البيزنطية قد ظلت حية بفضل متانة أسوار القسطنطينية وكثرة مواردها واستراتيجية موقعها ثم بفضل وجود النار اليونانية، واحتفاظ هذه الامبراطورية بقوة بحرية معتبرة، أما القسم الغربي فقد استولى عليه العرب، وحدث في مقاطعات أوروبة الغربية انقلاب هائل، فقد اختفت جميع البضائع الشرقية، وانعدم وجود ورق البردي والتوابل والزيوت والحرير والذهب أيضاً، ودمرت المؤسسات التجارية المحلية بعدما انتابها الضعف والافلاس، وكان أهم النتائج المباشرة لتوقف التجارة عجز سريع وكبير في دخل السلطات الملكية، مما جعل كل ملك من الملوك يعتمد أكثر فأكثر على ملاك الأراضي، وعليه اضمحلت الحياة السياسية والاجتماعية وانحطت مدن الجنوب في حين استمرت مدن الشمال لاعتمادها على الحياة الزراعية.

وبإيجاز: حاصر المسلمون أوروبة الغربية من جميع منافذها، وهددوها بشكل متواصل، وكان الحصار الإسلامي جديداً بالنسبة لأوروبا شمل الجوانب العقائدية الدينية واللغوية والقانونية والاقتصادية والاجتماعية، وأخذ سمة حربية توسعية ذات أهداف دينية مقدسة.

ودفع هذا الحصار أوروبا الغربية نحو تغيير بنيانها بشكل جذري كامل، كما دفعها إلى اكتشاف الأجزاء الشمالية منها، والتحول ـ مؤقتاً ـ من بلد متوسطي إلى شيء آخر، وقامت أوروبة الآن بالاعتماد على إنتاج الغذاء خاصة القمح بدلاً من الاستيراد الذي توقف، وهكذا أخذت صيغة المجتمعات الأوروبية تتغير، ونشأت أسس علاقات اجتماعية زراعية جديدة هي التي ستكون أصل نظام الاقطاع في أوروبة الغربية، وعليه إن سقوط روما الغربية الكامل جاء بعد قيام الإسلام، وبسبب الفتوحات العربية.



ليس في نيتي دراسة مشكلة الاقطاع في العصور الوسطى، ولا البحث في مشاكل الأنظمة العسكرية والفروسية، وبودي الآن أن ألح على أن أوروبا الغربية سعت في القرن الحادي عشر إلى كسر طوق الحصار الإسلامي، وبدأت ذلك أولاً على جبهة الغرب في الأندلس وصقلية والشمال الأفريقي، ثم تطور الحال بقرار التوجه نحو المشرق، ويستدعي هذا التعرف إلى أوضاع جبهة المغرب، ونظراً للنجاحات الكبرى التي حققها الفرنجة في بلاد الشام أولاً ثم لارتباط تاريخهم في الشرق أولاً وقبل كل شيء بالشام ثم بالجزيرة ومصر فنحن بحاجة أساسية للتعرف إلى أوضاع بلاد الشام والمشرق الإسلامي قبيل وأثناء الحروب الصليبية:

في مطلع كتاب عن الحروب الصليبية نشر في لندن منذ نيف وتسعين عاماً كتب مؤلفاه ما

خلاصته: « يعتبر تاريخ سورية، إلى حد ما، زبدة لتاريخ العالم، وأرضها ينبوع أحداثه، فمن مدوناته تتعرف إلى الحضارات الإنسانية المبكرة، فلقد جعلت الطبيعة من سورية أرض لقاء لجميع الأمم، فسورية تتطلع غرباً إلى أوروبا، وشرقاً إلى ضفاف الفرات التي قامت فيها الحضارة الأكادية القديمة التي ندين لها بالكثير من معارفنا العادية، وكان سكانها في الجنوب على صلة وثيقة مع حضارة وادي النيل الخالدة، وفي الشمال كانت على اتصال بجميع الشعوب الرهيبة التي ما تزال معلوماتنا عنها قليلة.

لذلك لا غرابة ان كانت سورية أرض المعترك للقوى المتحكمة بالعالم، فالبابليون والحيثيون، والمصريون، والآشوريون، والفرس، والاغريق، والرومان قد استولى كل منهم على بعض سورية أو كلها، فأرض سورية هي التي شهدت الصراع بين كسرى وهرقل، والعرب والبيزنطيين، وبين العرب والتركمان، والتركمان والصليبيين، وكل واحد من هذه الصراعات عبارة عن حلقة من حلقات الصراع السرمدي بين الشرق والغرب.

ولم يقتصر دور سوريا على هذا، بل إنها قدمت للعالم أكثر من ذلك، فقد نقل تجارها أصول الحضارة إلى الشعوب الآرية في الغرب، وبعدما انتهى دورها التجاري ووقعت أولاً تحت الحكم الاغريقي ثم تحت الحكم الروماني، قامت بدور الوسيط، فقدمت للعالم الحياة الروحية، التي انبعثت من أراضي فلسطين، مما جعل أفئدة شعوب الغرب تتجه بكل تقوى نحوها »[1].

إن ما ورد في هذا الكتاب يعد على العموم حقيقة علمية، وإحدى حقائق التاريخ الكبرى، إنما يمكن أن نضيف إلى ذلك إضافات وتعديلات، فمع الإيمان بأن التراث العربي كل لا يتجزأ، وأن كل ما أنتجه العرب الأوائل في أي جزء من أجزاء الوطن العربي هو من هذا التراث، فقد تبرهن في السنين الأخيرة أن بلاد الشام لم تكن جسراً انتقلت عليه الحضارات، أو أرض عراك، وشعبها له دور الوسيط فحسب، بل الشام هي أرض الحضارة الأولى في التاريخ، وشعبها صاحب رسالة متميزة هي رسالة العروبة عبر العصور.

أهل الشام هم الذين بذروا بذور الحضارة الأولى في أفريقية وأجزاء كبيرة من أوروبا، ودون الدخول بالتفاصيل يكفي أن نتذكر أن الإسلام وإن قام في شبه الجزيرة، فأهل الشام هم الذين نقلوه إلى الصين والهند وأفريقيا وأوروبا، وعندما تعطلت إرادة الشام سمعنا بالشعوبية والزندقة والحزبية الدينية، وسنجد لدى دراستنا لتاريخ الحروب الصليبية أن الشام وأهله تحملوا وزر الغزو والتحرير، وبعد ذلك عندما جاءت جحافل المغول جرى

(١) 1 - The crusade, by. T.A. Archer and C.L. Kingsford. London 1894, PP. 1 - 2.

صدها في عين جالوت الشامية، وفي أيامنا هذه أهناك غير الشام من سد منيع في وجه التوسع الصهيوني والامبريالي؟...

بلاد الشام لدى الجغرافيين الأوائل هي صقع يحده من الشرق سقي نهر الفرات، ومن الغرب البحر المتوسط، ومن الجنوب البحر الأحمر وعريش مصر، ومن الشمال سفوح جبال طوروس المتصلة ببدايات آسية الصغرى، حيث الخط الذي عرف لقرون عديدة باسم: «الثغور الشامية والجزرية مع بيزنطة» وهي تتوغل عميقاً حتى ما بعد مدينة طرسوس، ولدى البلاذري وسواه حتى ما بعد عرب سوس «أفسوس» في جمهورية تركية اليوم[1].

ويعتبر هذا الموقع موقعاً متميزاً، وقد كان ذا أهمية عالية جداً بالنسبة لبلدان قارات العالم القديم الثلاث: آسية وأوروبا وأفريقية، فهذه البلاد الواقعة في البر الآسيوي والمالكة لشواطىء طويلة على البحر المتوسط، قامت بدور صلة الوصل بين أفريقية وآسية براً: عبر مصر، وبحراً عبر المتوسط، وفي نفسه الوقت، وصلت بين أفريقية وأوروبة الشرقية، على اعتبار أن بداية أوروبا الشرقية تاريخياً وحضارياً وبشرياً ولغوياً وحتى اقتصادياً عند آسية الصغرى، في نقاط التماس مع بلاد الشام، كل هذا على الرغم من الإقرار الجغرافي بأن البوسفور يفصل بين البرين الآسيوي والأوروبي.

والتقت على أرض بلاد الشام تيارات المدّ لأمواج الهجرات البشرية في العصور القديمة والوسيطة، فلقد وصل المهاجرون البداة والغزاة من سهوب ما وراء النهر [ترانس أوكسانيا ـ في آسية الوسطى] من الأصل «التركي ـ مغـولي» عبر عدد من الحقب التاريخية إلى الشام، ولنتذكر في هذا المقام أسماء لامعة مثل: الهون، والغُزّ، والتركمان، والمغول والتتار بقيادة تيمورلنك.

هذا من آسية أما من أوروبـا فإن جميع الشعوب التي اجتاحت هذه القارة أو تحركت من داخلها مندفعة نحو الخارج، وصلت نهايات تيارات مدها إلى أرض الشام، ومن ثم تحولت إلى جزر، ولنتذكر هنا: شعوب البحر والاغريق والرومان والفرنجة مع سواهم من الشعوب الجرمانية.

وصحيح أن نصيب أفريقيا ودورها كان أدنى، إنما علينا أن نتذكر دائماً المصريين القدماء، والسودان والبربر، ومن المؤكد أنه كان لهؤلاء جميعاً أدوارهم الخاصة، لكن على الرغم من كل هذا فإن بلاد الشام واقعة على طرف واحد من أهم الخزانات البشرية ومنابع

---

(١) إن أفضل المواد عن الثغور ما أثبته ابن العديم في المجلدة الأولى من كتابه بغية الطلب في تاريخ حلب، وقد حققته وطبعته.

الهجرة في التاريخ، والمعني بذلك شبه جزيرة العرب، وبلاد الشام بالنسبة لهذا الخزان كانت دائماً محطة أولى تشرب بشكل متواصل، وليست نهاية لمدّ، لذلك طبعت الشام بالطابع العربي بشكل أصيل، إنما تلونت إلى حد ما ببقية الألوان العائدة لمختلف الشعوب والأجناس، وأدى هذا إلى منح بلاد الشام وعربها مزايا خاصة لها عطاءات إيجابية رائعة، لها الصفة القومية والإنسانية معاً، مع أنه حدث في بعض الأحيان أن جاءت العطاءات سلبية مضرة.

وكان من المفترض للألوان أن تكون مؤثراتها آنية تزول بسرعة من أرض الشام، لكن استمرار تدفق الهجرات في العصور القديمة والوسيطة وتتابع الأحداث مع البنية الجغرافية لبلاد الشام كانت عوامل حاسمة في إبقاء الألوان، وجعلها تأخذ صفة الاستمرار، وبالتالي التسبب في العطاءات السلبية أحياناً.

فإذا استعرضنا بلاد الشام من حيث البنية الجغرافية والتضاريس بدءاً من سواحل البحر المتوسط في الغرب سائرين نحو المشرق، نلاحظ أولاً وجود شريط ساحلي ضيق، ثم سلسلة من الجبال الحاجزة، وقامت خلف الجبال منطقة قلب بلاد الشام حيث وديان الأنهار الكبيرة، وعلى أطراف هذه الوديان تأتي السهوب شبه الصحراوية العائدة لبلاد الشام.

لقد أدت هذه البنية بتضاريسها، وضمن شروط الحياة في الماضي، ومعطيات الأحوال التي أوضحناها، إلى قيام عدة أنماط اجتماعية، مع شيء من التفاوت الحضاري والتباين العقائدي والسياسي، فهناك من حيث المبدأ انشطار رئيسي إلى شطرين: شمالي وجنوبي، الجنوبي أكثر حضارة والشمالي أقل استقراراً وبالتالي أغنى بالحوادث التاريخية؛ ثم هناك نمط شواطىء البحر المتوسط، ونمط الأقليات المتقلصة في الجبال، ونمط المجتمعات الزراعية والصناعية [الحرفية] التجارية للمنطقة الجوفية ـ سورية الفعلية ـ وبعد هذا المجتمع القبلي غير المستقر لسكان السهوب.

إن وجود الأنماط الاجتماعية المختلفة، والتيارات البشرية المتباينة مع ما تحمله من طبيعة الماضي في كافة الجوانب من مواصلات وإنارة وتعليم واقتصاد وغير ذلك جعل بلاد الشام لا تنعم في كثير من الأحيان بالوحدة السياسية، وميزها بوجود شيء من التمايز الاجتماعي والحضاري والعقائدي، فهذه البلاد غالباً ما كانت في الماضي مسرحاً تلتقي عليه قوى العالم أجمع وتتصارع وتتلاقح وتتمازج، ولذلك امتاز تاريخ بلاد الشام بمزايا خاصة ـ عامة، وقامت على أرض الشام أكبر أحداث التاريخ الإنساني، وأعظمها وقعاً واستمرارية من حيث النتائج، حتى أنه ليس من المغالاة القول: إنه طالما الصراعات في الدنيا مستمرة فإن الشام مضطرب الأحوال، لا ينعم بالاستقرار، ومعلوم أن الاضطراب وعدم الاستقرار يعني

استمرار الحركة، والحركة طاقة ودليل حياة متدفقة، إذا ما أحسن قيادها أعطت بشكل إيجابي...

أمام هذا الحال يحار المؤرخ الذي يود أن يؤرخ لحدث جليل من أحداث التاريخ التي وقعت على أرض الشام، في كيفية تعليل أسباب هذا الحدث ونتائجه فكل أمر له هنا عدة وجوه، وباب الاجتهاد يظل دائماً مفتوحاً على مصراعيه.

وينطبق هذا الحال على ما اصطلح على تسميته باسم «تاريخ الحروب الصليبية»، ويمكننا أن نراه في الدراسات التي خرجت منذ القرن الماضي خاصة في أوروبا، فالدراسات هذه عللت أسباب هذه الحروب بشكل أوروبي إما شرقي أرثوذكسي أو غربي كاثوليكي.

ويلاحظ أن هؤلاء المؤرخين جعلوا بشكل عام أحداث الحروب الصليبية جزءاً ـ يكاد أن يكون كاملاً ـ من تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، لكن بحكم طبيعة الموضوع ـ اضطروا متأخرين ـ إلى عدم إغفال أحوال بلاد الشام، وهكذا التفتوا بشكل غير مباشر نحو دراسة أحوال بلاد الشام قبل قيام الحروب الصليبية، وأثناء اندلاع أحداثها، وحيث أن بلاد الشام كانت وما تزال إقليماً من أقاليم الوطن العربي، وبالنظر لمساهمة هذه الأقاليم بشكل أو آخر في أحداث الحروب الصليبية، فإن هذا الاهتمام قاد بدوره نحو دراسة واقع الوطن العربي وتاريخه، ودور كل قطر منه في الأحداث، ونظراً للارتباط الوثيق بين الوطن العربي وبلدان العالم الإسلامي، ونتيجة لتفاعل الأحداث فإن البحث امتد أيضاً نحو العالم الإسلامي.

وأخذت في أيامنا هذه الدراسات تتركز حول الشام والوطن العربي مع العالم الإسلامي خاصة في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، وأولي جانب العلاقات مع أوروبا المسيحية، ممثلة بالامبراطورية الرومانية الشرقية ـ بيزنطة ـ ودول الغرب ومؤسساته السياسية والاقطاعية والتجارية البحرية، اهتماماً مباشراً، وفتح هذا الاهتمام ـ الذي بدأ بشكل جانبي غير مباشر ـ مجالات جديدة للبحث، وكشف عن أمور كانت مجهولة، وعدّل بالتالي كثيراً من غلواء التفسيرات والنظريات السابقة، وبعملية مقارنة سريعة بين الكتابات التي صدرت في أوروبا قبل الحرب العالمية الثانية، وما صدر بعدها مثل كتابي: «رنسمان» و «تاريخ الحروب الصليبية ـ بتحقيق ستون ومارشال» يمكن أن نرى شاهداً موضحاً.

ولما كانت بواكير الدراسات التاريخية الحديثة قد بدأت في أوروبا، وترجم الكثير منها إلى العربية، فإنه عندما بدأ العرب يكتبون عن تاريخهم ويبحثون فيه، جاء نتاجهم يحمل طابع التقليد، إنما بدرجات، وصحيح أن الدراسات العربية حول الماضي العربي سارت على

المنطلقات ذاتها التي رسمت في أوروبا، لكنها لم تخل عن بعض الاتجاهات الاستقلالية، ومع مرور الأيام قويت الاتجاهات الاستقلالية، وكشف العرب أن الدراسات الأوروبية عن ماضيهم صنعت من قبل صنفين من الباحثين: المستعربون والمستشرقون، أما المستعربون فكانوا من موظفي أو عسكريي الإدارات الاستعمارية، الذين مكنتهم فرص عيشهم على رأس وظائفهم في الوطن العربي من تعلم العربية، ثم الاهتمام بدراسة أحوال العرب، وخاصة ماضيهم، وهم على هذا هواة للبحث التاريخي لا يملكون أدوات المحترفين وطرائق ذوي الاختصاص، ولذلك غالباً ما قادت أبحاثهم القراء نحو طريق الهاوية [فيلبي- غلوب باشا].

أما المستشرقون فهم في الأصل ممن تخصص في التاريخ واحترف البحث في التاريخ الأوروبي- ثم تحول نحو العمل في التاريخ العربي، وغالبية أوائل هؤلاء لم يحسن العربية، لذلك لم يقم باستخدام النصوص العربية بشكل كبير ومباشر، بل اعتمد على ترجمات تفتقر إلى الدقة والأمانة، وقد أقبل جل هؤلاء على دراسة التاريخ العربي لا بدافع الهواية والرغبة، إنما عن طريق التكليف، من قبل الدوائر والمؤسسات الغربية الموقفة على خدمة المصالح الاستعمارية، لارتباطهم بها، ونضيف إلى هذا أن جل مراكز الاستشراق في أيامنا هذه واقع تحت سيطرة وتوجيه باحثين يهود يؤمنون بالصهيونية، ويعملون لصالح أغراضها، والعاملين من المستشرقين في الوطن العربي مرتبطون بأجهزة المخابرات الغربية التي تنفذ الخطط المعادية لأهداف الأمة العربية بالتنسيق مع الصهيونية العالمية.

وعليه إذا كانت أبحاث المستعربين قادت نحو طريق الهاوية، فإن كتابات الاستشراق - وجلها كتب بروح فوقية - تكمل المسيرة نحو الدمار الكامل وفقدان الهوية العربية الإسلامية، ولنتذكر هنا أن هدف الحملات الصليبية كان تحويل الوطن العربي إلى وطن أوروبي فيما وراء البحار والعرب إلى لاتين كاثوليك، وذلك عن طريق السيف، وهدف الاستشراق الغربي الآن هو الهدف ذاته لكن عن طريق القلم.

وأمام هذا الواقع الرهيب ظهر الآن على صعيد الوطني العربي جيل من الباحثين العرب بدأ يقوم بدور الفاضح لكتابات الاستشراق والاستعراب، وينادي بكتابة تاريخ العرب من وجهة نظر عربية علمية هادفة.

وشمل هذا مسألة «الحروب الصليبية» وظهرت إلى الوجود وجهات نظر عربية تسلحت بآراء منطقية وعلمية، على أساس أن هذه الحروب قد يكون لها أسباب أوروبية مباشرة وغير مباشرة، إنما قامت وقائعها على أرض الشام العربية، وانتهت على الأرض ذاتها، وأن المشكلة الأساسية فيها ليست في أسبابها الأوروبية بل في أسباب اخفاق العرب

في التصدي للغزاة الصليبيين عندما طرقوا ديارهم للمرة الأولى، ثم في عدم تمكنهم من اقتلاعهم من أراضيهم المحتلة إلا بعد وقت طويل جداً وجهود مضنية.

المسألة بديهية هنا، فالجسد الضعيف، المنعدم المناعة، الموزع الطاقات هو الذي يصاب بالمرض العضال عندما يتعرض لمؤثراته، والجسد القوي هو الذي يتصدى للمرض ويقاومه حتى إذا ما أصيب بالعدوى، فإنها تكون حالة عارضة تزول بسرعة...

من هذا المنطلق قد نستطيع فهم أسباب النجاحات الباهرة التي حققها الصليبيون عندما وصلت حشودهم سنة ١٠٩٨ م إلى مشارف الشام، فدخلت هذه الحشود البلاد، واحتلت أجزاء كبيرة منها دون مقاومة فعالة تذكر..

لقد فعلت هذه الحشود ذلك لا لأن أفرادها تميزوا بسجايا خاصة خارقة للعادة، كما أراد جيل أوروبي سابق من الباحثين أن يقول، ولكن لأن الخصم العربي الذي واجهته كان من الضعف والتمزق بمكان، سهل مهمة الغزاة ويسرها، ودام هذا الحال طوال الوقت الذي عانى فيه العرب من الضعف العام الناشىء عن تمزق قواهم، بإلقاء بأسهم بينهم، وعندما شرع العرب في توحيد صفوفهم، ونبذ خلافاتهم الداخلية جانباً، وملكوا حريتهم وإرادتهم في توجيه قواهم نحو نحور أعدائهم الحقيقيين، حلت الفرقة بين صفوف خصومهم، وأصاب الفرنجة التمزق، وهكذا بدت أيام بقاء الغزاة الفرنجة في بلاد الشام مرهونة بالوقت.

لما سلف ذكره، ولما سنزيده بياناً، إن التفاسير التي صنعت في أوروبا لتعليل أحداث تاريخ الحروب الصليبية مرفوضة بشكلها الإجمالي، ومرفوض معها بالتالي المراحل التي حددت وقيل بأن هذا التاريخ قد مرّ بها، على أساس عدد الحملات الكبرى التي جاءت من أوروبا، ذلك أنه كانت هناك حملة واحدة مستمرة، كانت تصلها النجدات بشكل متواصل براً وبحراً، إنما بأشكال مختلفة وبأحجام متفاوتة، وبين حين وآخر.

وحين نقوم بعملية الرفض هذه نحن مطالبون ببديل مقنع بشكل منطقي لا عاطفي، والبديل المقترح ينبع هنا من الأرض العربية ـ خاصة في الشام، حيث تمت المعارك، وحدثت الوقائع، إنما قبل طرح النظرية البديلة هناك حاجة ماسة تقضي إلقاء نظرة متفحصة عامة على مجمل ما حدث، وبذلك يسهل فهم ما تمت الإشارة إليه من قبل وما سيشار إليه فيما بعد.

والعمل المتوجب علينا تنفيذه الآن هو الحديث الموجز عن:

١ ـ أحوال بلاد الشام والجزيرة في القرنين العاشر والحادي عشر.

٢ ـ أحوال أوروبا ـ خاصة الامبراطورية البيزنطية ـ في الفترة نفسها.

٣ ـ أوضاع الغرب الإسلامي وعلاقته بأوروبا الغربية في الفترة ذاتها.
٤ ـ أحوال الخلافة العباسية في المشرق مع أوضاع الخلافة الفاطمية.
٥ ـ الغزو الصليبي لبلاد الشام والجزيرة واحتلال الأرض حتى نهاية المدّ.
٦ ـ حرب الاسترداد العربية، ومراحل أعمال التحرير، وأهم الوقائع والدروس (وهنا يشار إلى النجدات الأوروبية الكبرى).

إن البحث في هذه النقاط سيكون موجزاً، على أمل أن تسمح الأيام بالدراسة المطولة، ضمن مشروع لدراسة تاريخ الحروب الصليبية، والايجاز يليق بالمقدمات، وهو يثير ما يدفع على الاستمرار أو التعديل أو التغيير:

لقد سبق أن عالجت أحوال الشام والجزيرة مع المشرق الإسلامي في كتابي «مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية» وسأجمل الآن بعض ما جاء فيه مع شيء من الإضافات:

قسم العرب بلاد الشام إثر فتحهم لها إلى أربعة أجزاء إدارية عسكرية، ثم جعلوها خمساً أيام الخليفة الأموي يزيد بن معاوية، ودعي كل جزء منها باسم «جند» ولم يعمِّر هذا التقسيم عملياً واستمر نظرياً فقط، ذلك أن بلاد الشام كانت موطناً للقبائل العربية قبل الفتح الإسلامي، وكانت جل القبائل من أصل يماني تزعمتها في العصر الأموي قبيلة كلب، ومع الفتح وبعده هاجر إلى هذه البلاد العديد من القبائل كان بعضها من أصل قيسي، واستقرت معظم القبائل القيسية في مناطق الشام الشمالي، وتزعمتها قبائل كلاب، وفي سنة ٦٤ هـ ـ ٦٨٣ م، وأثناء الصراع على الخلافة التحمت قوى قيس بقيادة الضحاك بن قيس وزفر بن الحارث الكلابي بقوى كلب بقيادة مروان بن الحكم وحسان بن بحدل في معركة مرج راهط، ولعل من أهم ما نجم عن هذه المعركة أنها قسمت بلاد الشام إلى دارين: دار لكلب في الجنوب ودار لكلاب في الشمال، وفصل بين الدارين خط وهمي امتد من الغرب إلى الشرق ومر من وسط بلدة الرستن على العاصي.

ومنذ تاريخ هذه المعركة وحتى النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ـ الحادي عشر الميلادي دارت أحداث الشام بشكل رئيسي حول محورين: شمالي وجنوبي، وفي العصر العباسي تدخلت بغداد بهذا الصراع حتى قيام دولة مصر الإسلامية المستقلة شروعاً من الدولة الطولونية حتى الخلافة الفاطمية.

ويلاحظ أنه مع نجاح الثورة العباسية، وقيام الخلافة الجديدة بدأت تظهر إلى الوجود معالم انقسام العالم الإسلامي إلى قسمين: واحد عجمي، وآخر عربي، ففي الجزء العربي ازدادت أهمية مصر حتى تمكنت من الاستقلال عن جسم الخلافة عند تأسيس الدولة

الطولونية، ونظراً لموقف الخلافة العباسية من هذا الاستقلال، وسعيها للقضاء عليه عن طريق استخدام القوة العسكرية، ولأسباب ترتبط بالمؤثرات السياسية الخارجية لأي دولة مصرية مستقلة تجاه بلاد الشام، فقد سعت مصر الإسلامية نحو السيطرة على بلاد الشام، واتخاذها خطوطاً دفاعية في العمق لصد الهجمات عن مصر، ومعروف أن هذا العامل غالباً ما قاد نحو قيام توسع امبراطوري.

ونجحت مصر الإسلامية في احتلال الشام كله، إنما لفترة وجيزة من الزمن، ولكنها عجزت عن الاحتفاظ بشمال البلاد لعدة أسباب، بينها: بعده عن مصر، ووجود الامبراطورية البيزنطية التي رغبت دائماً بوجود دويلة إسلامية ضعيفة مستقلة أو تحت الحماية في مدينة حلب، تقوم بوظيفة الحجز بينها وبين دولة مصر المستقلة، يضاف إلى هذا موقف الخلافة العباسية، ثم وجود قبائل عربية قوية في شمالي بلاد الشام تطمح في دول وحكومات خاصة بها، ووجود منظمة شعبية شبه عسكرية (الأحداث) رفضت التعاون مع المصريين وتمسكت بفكرة الاستقلال.

وظلت قبيلة كلاب تتصدر قبائل الشمال ولها مطامح سياسية كبيرة، ويلاحظ أنه مع ظهور شخصية مصر الإسلامية المستقلة بدأت ملامح انبعاث الشخصية الشامية، ثقافياً أولاً ثم سياسياً بتأسيس الدولة الحمدانية في حلب وفي محاولتها توحيد بلاد الشام تحت سلطانها، ثم بالدور العملاق والوقفة الشجاعة في وجه التوسع البيزنطي.

وكانت إمكانات الدولة الحمدانية أدنى من أن توقف السيل البيزنطي الجارف، في وقت كانت فيه بيزنطة في ذروة قوتها - كما سنرى - لذلك كانت النتائج مأساوية حيث تمكنت الامبراطورية البيزنطية من احتلال مدينة حلب وتدميرها، واحتلال منطقة الثغور بما في ذلك طرسوس وأنطاكية وأجزاء كبيرة من الساحل حتى قرب طرابلس.

وسقطت الدولة الحمدانية في مطلع القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي وحل محلها في مدينة حلب الدولة المرداسية التي أسسها صالح بن مرداس الكلابي، وتحالفت قبيلة كلاب بزعامة صالح بن مرداس مع قبيلة كلب بزعامة سنان بن عليان، وقبيلة طيء بزعامة حسان بن المفرج، وقررت طرد الفاطميين من الشام وإنشاء ثلاث دول متحالفة واحدة في حلب لكلاب، وثانية في دمشق لكلب، وثالثة في الرملة لطيء، وبعد معارك مريرة أخفقت هذه القبائل في مسعاها، لكن الدولة المرداسية كتب لها البقاء، مع فترات من الانقطاع.

ذلك أن مصر تساهلت مع فقدان الشمال، لكنها أدركت أن فقدانها لجنوبي الشام

معناه فقدانها لاستقلالها هي، وفي الشمال والجنوب والسواحل استمر العداء وراثياً بين منظمات الأحداث والخلافة الفاطمية، لذلك لم تتمكن هذه الخلافة من تثبيت أركانها في الشام.

لقد كان للفاطميين اسطولهم القوي الذي مكنهم ـ لفترة ـ بمساعدة الجيوش البرية، من الاحتفاظ بالسيطرة على سواحل الشام الوسطى والجنوبية، وكان أهم مدن هذا الساحل: طرابلس، وصور، وصيدا، وعكا، وفي النصف الثاني للقرن الخامس الهجري ـ الحادي عشر الميلادي ضعف الفاطميون وبدأ نفوذهم ينحسر، وأفسح هذا المجال لقيام بعض أنواع من «الجمهوريات» المستقلة في كل من طرابلس وصور، وفي تمكن واحد من ولاة عكا، وهو بدر الجمالي، من الاقلاع على رأس حملة بحرية نحو مصر، حيث استولى على مقاليد الأمور بالقاهرة، وتحكم بالخليفة والخلافة الفاطمية.

وعليه نجد في إطلالة سريعة على الوضع السياسي في الشام والمشرق الإسلامي، في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، القرن الذي شهد وصول الغزاة الفرنجة إلى مشارف الشام، أن جميع البلدان كانت تعيش في حالة من الفوضى السياسية والاقتصادية والعقائدية، فقد كان هناك خلافتان: واحدة في بغداد، وثانية في القاهرة، وكانتا في صراع دائم، ونزاع عقائدي دموي مستمر، كما أن الأحوال الداخلية في كل من هاتين الخلافتين كانت جد سيئة حيث كان الخلفاء محكوماً عليهم من قبل جند نسوا كيف يقاتلون للدفاع عن شعوب دولهم ضد الظلم والعدوان الخارجي، وتذكروا فقط كيف يقاتلون من أجل الفتن والاستغلال والتسلط على سدة الحكم.

وبإيجاز كان الوضع السياسي العام في الجزيرة والشام في النصف الثاني من القرن الحادي عشر كما يلي:

آ ـ في الجزيرة:

١ ـ دولة عربية مستقلة في الموصل عرفت باسم الدولة العقيلية.
٢ ـ دولة كردية مستقلة في ميافارقين عرفت باسم الدولة المروانية.
٣ ـ دويلات عربية لنمير وقشير في حران وقلعة جعبر.

ب ـ في الشام:

١ ـ دولة مستقلة في حلب تدعى الامارة المرداسية، وكانت تحكم معظم الأجزاء الشمالية من الشام مع أقسام من الجزيرة.
٢ ـ أجزاء من شمال الشام وسواحله تحت الإدارة البيزنطية المتمركزة في أنطاكية.

٣ ـ دويلة شبه مستقلة في طرابلس تحكم من قبل أسرة آل عمار.

٤ ـ دويلة شبه مستقلة في صور تحكم من أسرة آل عقيل.

٥ ـ دويلة شبه مستقلة في شيزر وكفرطاب ـ قرب حماه ـ تدعى باسم الإمارة المنقذية مع محاولات لتأسيس حكومات مستقلة في حمص وحماه وأفامية.

٦ ـ عدد من الاقطاعيات والادارات شبه المستقلة في مناطق الساحل خاصة في جبلة ومنطقتها الجبلية.

٧ ـ دمشق وفلسطين تحت حكم الخلافة الفاطمية المتأرجح (قطعه التركمان).

ولقد سلفت الإشارة أكثر من مرة إلى قبيلة كلاب، فقد تعرضت هذه القبيلة في القرن العاشر إلى مؤثرات جديدة، ففي هذا القرن الذي شهد حركات القرامطة ونشاط مجموعاتها في شبه الجزيرة والشام والعراق والجزيرة، وصل إلى شمالي بلاد الشام وأعالي الجزيرة موجة كبيرة جديدة من المهاجرين البداة من قبائل عامر بن صعصعة وهي: كلاب، وعقيل، ونمير، وقشير، وخفاجة، وبعد فترة من الزمن سكنت كل قبيلة من هذه القبائل في ديار اتخذتها لنفسها، فعقيل قامت بسكنى منطقة الموصل، وبمد نفوذها وسيطرتها عليها، حيث استطاعت بعد أمد وراثة الدولة الحمدانية في الموصل وإقامة الدولة العقيلية مكانها، وسنعرض بعض قليل لتاريخ هذه الدولة، أما نمير فقد اتخذت من منطقة حران والرُّها دياراً لها، ومن حران مركزاً لنفوذها، وأما قبيلة قشير فقد توطنت حول قلعة دوسر، التي تبدل اسمها إلى قلعة جعبر، نسبة إلى جعبر بن سابق أحد شيوخ قشير الذين حكموها، ويقول ابن حوقل الذي عاصر وصول الموجة الجديدة، واصفاً حال الجزيرة في أيامه: «وبالجزيرة براري ومفاوز وسباخ بعيدة الأقطار، تنتجع لامتيار الملح والأشنان والقلي، وكان يسكنها قبائل من ربيعة ومضر: أهل خيل وغنم وإبل قليلة، وأكثرهم متصلون بالقرى وبأهلها فهم بادية حاضرة، فدخل عليهم في هذا الوقت من بطون قيس عيلان الكثير من بني قشير وعقيل وبني نمير وبني كلاب، فأزاحوهم عن بعض ديارهم بل جلها، وملكوا غير بلد واقليم منها كحران وجسر منبج والخابور والخانوقة وعرابان وقرقيسيا والرحبة، في أيديهم يتحكمون في خفائرها ومرافقها»[1].

وكما استقرت قبائل عقيل ونمير وقشير في الجزيرة، فقد استقر الكلابيون الجدد في شمالي بلاد الشام مع أخوانهم الكلابيين القدماء، لكن عملية استقرار هذه القبائل كلها لم تمر

---

(١) صورة الأرض: ٢٠٥. انظر أيضاً جمهرة ابن حزم: ٢٧٤ ـ ٢٧٥. بغية الطلب ـ أيا صوفيا: ٤٨٢ ـ ٤٨٤. ابن خلدون: ٥٤٥/٤. صبح الأعشى: ٣٤٠/١ ـ ٣٤٣.

بسلام، بل إن هجرة هذه القبائل قد سببت الكثير من الفوضى وبعض الدمار لأراضي شمالي الشام والجزيرة، وقد هيأت الفوضى السياسية التي نشأت الفرصة لمزيد من نشاطات القرامطة ولظهور عدد من المغامرين مثل المتنبي الشاعر والأصفر الغازي، كما أكرهت عدداً من القبائل القديمة وخاصة بقايا قبيلة تغلب على الهجرة إلى الأراضي البيزنطية.

لقد تألفت كلاب من عدة قبائل متفاوتة الحجوم، وآثر الكلابيون التمزق ولم يدينوا بالاخلاص لقائد واحد، وكانت لديهم كبداة «مثلهم ومقاييسهم» الخاصة في الاخلاص السياسي، وكانت جميع قبائل عامر بن صعصعة شيعية تدين بمذهب الاثني عشرية، إنما دونما تعصب بل على عادة الأعراب سطحية التدين.

استولى في سنة ٣٩٩ هـ - ١٠٠٨ م صالح بن مرداس على بلدة الرحبة (قرب الميادين الحالية في سورية) على الفرات، وكانت الرحبة من أكثر مدن الشام أهمية، نظراً لموقعها الاستراتيجي الخطر، فقد كانت هذه البلدة تقع على الفرات، وهذا يعني توفر الماء والأراضي الزراعية، كما كانت قريبة من العراق، غير بعيدة عن حلب ولا عن دمشق أيضاً، ثم إن البادية كانت وثيقة الصلة بها، وفي البادية أقامت العشائر البدوية التي شغلت أعظم الأدوار السياسية في تاريخ بلاد الشام، وبايجاز كانت الرحبة أول محطة نحو الشام للبداة المهاجرين من شبه الجزيرة العربية، وكان الذي يملك الرحبة بإمكانه أن يملك شمال بلاد الشام وأجزاء من الجزيرة، وهذا ما حدث لصالح بن مرداس.

وحافظت الرحبة على أهميتها هذه ومكانتها حتى أواخر القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي حيث حلت محلها مدينة الموصل، التي كانت قصبة ديار ربيعة التي كانت إحدى كور الجزيرة الثلاث: ديار بكر، وديار مضر، وديار ربيعة، والجزيرة كانت أصلاً تشتمل على البلاد التي بين دجلة والفرات Mesopotamia، ولقد ضم بعض من الجغرافيين العرب إليها قسماً من البلاد الفراتية التي في الجانب الغربي من الفرات من بر الشام، لقربها من البلاد الجزرية مثل الرحبة وغيرها.

وكانت الموصل أعظم مدن الجزيرة، وكانت دائماً متورطة في مشاكل العراق السياسية وغيرها، وقلما كان لها دورها في مشاكل الشام، وظل الحال هكذا حتى أواخر القرن الحادي عشر الميلادي عندما ازداد تدفق الغُزّ على الجزيرة والشام، فلقد قدم الغُزّ من اتجاه معاكس لاتجاه البداة العرب، وكانت الموصل أول محطة لهم نحو الشام، وسبب هذا تحولاً هاماً في تاريخ الموصل مع الجزيرة والشام، فقد أخذ اتصال الموصل بالعراق يخف، وغدت هذه المدينة بالتدريج جزءاً من الشام، وتورطت في مشاكله، وأصبح الاستيلاء على الموصل الخطوة

الأولى والأساسية نحو الاستيلاء على شمالي بلاد الشام، وربما على الشام بأسره، ويمكن أن نرى في تاريخ كل من الدولة العقيلية ثم الدولة الأتابكية ما يكفي للتدليل على صحة هذا.

وبعدما احتل صالح بن مرداس الرحبة أخذ يتطلع بمطامحه نحو حلب، فتورط من أجلها في صراع طويل أثمر في سنة ٤١٥ هـ - ١٠٢٥ م عن احتلال حلب، وإقامة الحكم المرداسي فيها، ولم تقف مطامح صالح عند حدود حلب وشمال بلاد الشام، بل انتزع بعض أجزاء الساحل الشامي من الفاطميين، وساهم في العمل من أجل طرد الفاطميين من الشام، فذهب ضحية مطامحه حيث قتل في سنة ٤١٩ هـ - ١٠٢٩ م في معركة الأقحوانة، في وادي الأردن قرب طبرية، ولم يُزِل مقتل صالح من الوجود الدولة التي أقامها، فقد احتفظ أولاده بحكم حلب، فحكم ثلاثة منهم بعده بشكل متوالي وهم: نصر ثم ثمال ثم عطية ثم محمود ابن نصر بن صالح، ثم نصر بن محمود، وأخيراً سابق بـن محمود الذي سقطت الدولة المرداسية في زمنه.

وبعد وفاة ثمال في سنة ٤٥٤ هـ - ١٠٦٢ م دخلت أول جماعة غزيّة بلاد الشام، وهذا ما سنعرض له فيما بعد، ومفيد أن نشير هنا إلى أنه عاش مع كلاب في شمالي بلاد الشام قبائل أقل شأناً منها وقوة، لا ضرورة للتعرض لها جميعاً بل الذي يهمنا أن نذكره هنا بني منقذ، الذين سكنوا المنطقة الشمالية الغربية لمدينة حماة، وكان مركزهم بلدة كفر طاب، وذلك حتى سنة ٤٧٣ هـ - ١٠٨٠ م عندما تمكنوا من احتلال قلعة شيزر (خرائب كفرطاب ما تزال قائمة وهي على بعد حوالي ٣ كم إلى الغرب من خان شيخون الواقعة على الطريق العام الواصل بين دمشق وحلب).

وكان لبني منقذ من القوة والعدد ما مكنهم من شغل دور هام في تاريخ الشام زمن الحروب الصليبية، ومن أشهر رجالات بني منقذ علي بن مقلّد، وهو الذي استولى على شيزر، وأقام حكم الأسرة المنقذية فيها، ثم أسامة بن منقذ، الفارس، الشاعر، المؤرخ، الأديب، صاحب كتاب الاعتبار وغيره من الكتب.

وكان غالبية سكان بلاد الشام في القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي شيعة، معظمهم من أتباع المذهب الاثنا عشري، وكان بين الشيعة بعضاً من الاسماعيلية في الشمال والجنوب وبعضاً من الدروز في شمالي غربي حلب ووادي التيم، وكان هناك النصيرية في جبل بهراء - العلويين الآن - وكان السنة يقطنون في المدن الكبرى، وكانوا في جنوب بلاد الشام أكثر منهم في الشمال، وكالعادة وجد نزاع حاد بين الجماعات الإسلامية هذه، وكان هذا النزاع من الأسباب التي زادت تجزؤ بلاد الشام عمقاً، وقوته ضعفاً، وبالإضافة

للمسلمين وجد في المدن الكبرى كدمشق وحلب طائفة لا بأس بحجمها من اليهود، وكان النصارى منتشرون في ريف دمشق ومدنه الكبرى، وكانوا كثرة مؤثرة في شمالي البلاد وغربيها، وكان بعض هؤلاء النصارى من أصل أرمني، ولم تكن العلاقات بين النصارى واليهود والمسلمين دائماً سلمية، بل غالباً ما توفرت أسباب الخلاف ووجد النزاع، إنما كانت الحرية الدينية على العموم متوفرة، وكانت أحوال النصارى المعاشية جيدة، وكانت معظم أعمال الادارة في أيديهم، ويمكننا أن نعتبر القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي عصراً ذهبياً بالنسبة لأوضاع نصارى الشام، ذلك أن قدوم الصليبيين إلى الشام أدى إلى بعض ردات الفعل العنيفة ضد النصارى الشاميين[1].

وعرفت بلاد الشام، برغم التمزق السياسي، نوعاً من الازدهار والرفاه والتقدم الثقافي والحضاري، ويكفي أن نشير هنا إلى أسماء لامعه مثل أبي العلاء المعري، وابن سنان الخفاجي، وابن أبي حصينة، وابن حيوس..

وكان هناك يقظة سنية عامة، وتراجع شيعي واضح، وقد زاد من سرعة هذا التغيير ما شهدته أرض خراسان وما وراء النهر من أحداث جسام تجلت بتأسيس السلطنة السلجوقية، وبانسياح قبائل الغُزّ والتركمان، انسياحاً مدمراً شمال الشام والجزيرة وآسية الصغرى، بعد اجتياز خراسان والعراق.

ولقد عرف مجتمع مدن بلاد الشام في القرنين العاشر والحادي عشر بعض التنظيمات الشعبية البلدية، ويمكن تقسيم هذه التنظيمات من حيث الأطر العامة إلى قسمين رئيسيين: واحد صغير مثل القشرة العليا من المجتمع من تجار وأشراف وأصحاب الوظائف الدينية، وقسم كبير مثّل القطاع الأكبر من الناس، وعرف باسم الأحداث، وقام تعاون وتآلف - بعض الأحيان - بين هذين القسمين، لكن نظراً لطبيعة القسم الأول ولمصالحه المتميزة فإن دوره كان في الغالب سلبياً، اتسم بالمداهنة للحكام، وشغل الأحداث أدواراً كبيرة في مدن الشام في مقاومة الدولة الفاطمية وفي عمليات التصدي للتركمان، ثم بعد ذلك في العمليات

---

(١) ومثال على ردات الفعل ما حدث في حلب سنة ٥١٨ هـ - ١١٢٤ م، فقد كان في حلب عدداً من الكنائس أشهرها واحدة ينسب أمر بنائها إلى القديسة هيلانة - أم الإمبراطور قسطنطين الكبير - المتوفية سنة ٣٣٧ م، ففي سنة ٥١٨ هـ حوصرت حلب من قبل جيش صليبي، وقام هذا الجيش بنبش بعض مقابر المسلمين والمشاهد التي كانت واقعة خارج أسوار حلب، فما كان من قاضي المدينة إلاّ أن استولى على أربع كنائس من أصل الست كنائس التي ملكها نصارى حلب. وحولها إلى مساجد. زبدة الحلب: ٢/٢٢٤. الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب: ٥٩ - ٦٧.

الحربية ضد الصليبيين، وكانت غالبية عناصر المتطوعة التي يأتي على ذكرها مؤرخو الإسلام منهم.

ومعروف أنه عندما ترسخت أركان السلطة السلجوقية في الشام ترسخت قواعد الاقطاع العسكري، ورافق ذلك نشوء الاقطاع الديني من رجالات الأشراف وأصحاب الوظائف الدينية، وشغل هذان الاقطاعان أهم الأدوار في تاريخ البلاد منذ ذلك الحين وحتى وقت قريب جداً.

ونلتفت الآن نحو الجزيرة للتعرف لأوضاعها، ذلك أن النشاط الصليبي قد غطى مساحات كبيرة منها:

حكمت الجزيرة في أوائل القرن الرابع للهجرة ـ العاشر للميلاد من قبل الدولة الحمدانية في الموصل، ووصلت أيام هذه الدولة قبيلة عقيل إلى الجزيرة، مثلما وصل غيرها من قبائل عامر بن صعصعة ـ كما سلفت الإشارة ـ وعندما ضعفت الدولة الحمدانية بعد سنة ٣٦٩ هـ ـ ٩٧٩ م سهل القضاء عليها وورثها دولتان: واحدة كردية في الشمال عرفت باسم الدولة المروانية، وأخرى عربية في الموصل عرفت باسم الدولة العقيلية.

وشغلت الدولة العقيلية دوراً بارز الخطورة في الجزيرة، فقد وقفت في وجه السلطات البويهية المتحكمة بالخلافة العباسية في بغداد، وتعاملت بشكل بارع مع الخلافة الفاطمية، ودخلت بصراع دائم مع أكراد الدولة المروانية، فقد كان هناك اندفاع ـ هجرة ـ كردي نحو الجزيرة صده العقيليون، إنما عندما انهارت الدولة العقيلية على أيدي التركمان اندفع قسم من الأكراد نحو الجزيرة فالشام، وهكذا عندما حان الوقت ورث الأكراد التركمان وأسسوا الدولة الأيوبية.

وكانت الموصل من أوائل مدن الجزيرة التي تعرضت لغارات التركمان، كما أن مسلم بن قريش كان أبرز من حاول من بين الأمراء العقيليين الوقوف في وجه التركمان وتنظيف أراضي الجزيرة والشام منهم، لكنه قتل أثناء مسعاه هذا، وأنزل التركمان أقسى الضربات بعقيل، وانتزعوا الموصل منها، وبقي بيد العقيليين قلعة جعبر فقط، وشغل أمراء هذه القلعة أثناء الحروب الصليبية دوراً متميزاً.

وسبق أن ذكرت أن الدولة الحمدانية في الموصل قد ورثها عندما سقطت بالاضافة إلى الدولة العقيلية الدولة المروانية الكردية، فقد سكنت المناطق الواقعة إلى شمال الموصل من قبل عدد من القبائل الغزاة الذين تجمع حولهم عصابات خاصة، وكان من بين هؤلاء رجل عرف باسم باذ، ظهر في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ـ العاشر الميلادي، واستغل

باذ ضعف الدولة الحمدانية، ثم ضعف الدولة البويهية بعد وفاة عضد الدولة البويهي (٣٧٢ هـ - ٩٨٣ م) فأخذ يقيم لنفسه دولة، فاستولى على أهم بلدان منطقة ديار بكر، مثل: آمد، ونصيبين وميافارقين، ودخل باذ الموصل، واستولى عليها، وقويت شوكته، وحدث نفسه بالتغلب على بغداد وإزالة الديلم عنها وخرج من حد المتطرفين وصار في عداد أصحاب الأطراف، وأثناء توسعه في منطقة الموصل اصطدم باذ بقبيلة عقيل، وقد قتل سنة ٣٨٠ هـ - ٩٩٠ م.

وبعدما مات باذ ورث مملكته ابن أخته الحسن بن مروان، وقد بقي بالسلطة حتى قتل سنة ٣٨٧ هـ - ٩٩٣ م، وخلفه أخوه سعيد فحكم حتى قتل بدوره سنة ٤٠١ هـ - ١٠١١ م، وهنا خلفه أخوه أحمد الذي عرف باسم نصر الدولة.

وحكم نصر الدولة لمدة زادت على الخمسين سنة، وبعد وفاته سقطت الدولة المروانية للتركمان، وكانت رقعة هذه الدولة واسعة شملت مع ديار بكر أجزاء كبيرة من جورجيا الحالية، وقد شهدت نهضة ثقافية عربية إسلامية كبيرة وتطوراً اقتصادياً عظيماً.

ونتفرغ بعد هذا كله بعض الشيء للتركمان:

سكنت السهوب الواقعة وراء نهر جيحون من قبل شعوب بدوية، كان معظمها من الترك أو المغول واستطاعت هذه الشعوب أن تقيم خلال فترات التاريخ الطويلة عدداً من الامبراطوريات، كما هاجرت مجموعات منها إلى الشرق الأوسط وإلى أوروبة، وأحدثت تأثيرات كبيرة جداً على شعوب العالمين القديم والوسيط وعلى بلدانها.

وبعد قيام الإسلام اصطدم العرب بالترك على جبهتين: جبهة خراسان فيما وراء النهر، وجبهة الخزر وراء أرمينية، وكان للخزر امبراطورية كبرى على رأسها حاكم بلقب خاقان، وكان الصراع مع الترك أقسى صراع لاقاه العرب، وكانت جبهة الخزر أعنف جبهة قاتل عليها العرب، وقام حكام الخزر في القرن الثامن باعتناق اليهودية، فغدت امبراطوريتهم امبراطورية يهودية بقيت حية حتى القرن الثالث عشر حيث قضى عليها نهائياً الروس، ولقد سدت هذه الامبراطورية واحداً من مداخل أوروبة الشرقية في وجه العرب، كما أن يهودها قد تفرقوا في أنحاء أوروبة بعد القضاء عليها، والمنحدرون منهم يشكلون الآن قرابة ٩٠٪ من يهود العالم.

وكان من جملة القبائل التي خضعت للامبراطورية الخزرية قبائل الغُزّ، وفي نهاية القرن الثامن انفصل الغُزّ عن هذه الامبراطورية، واصبح لهم زعامتهم الخاصة، ودعا العرب الغُزّ أحياناً باسم التركمان، وأخذوا منذ القرن العاشر يكثرون من استعمال هذا الاسم، بحيث أصبح التركمان كأنما هم اتحاد عدد من القبائل الغُزّية، ربما كان عددها اثنتان وعشرون قبيلة، وكانت قبيلة قِنِق

أكثر هذه القبائل قوة وشهرة، وبرز من هذه القبيلة مقاتل اسمه دُقاق، ووصل دُقاق إلى مرتبة الزعامة، وولد له ولد سماه سلجوق، ثم ولد لسلجوق أربعة أولاد عاش منهم ثلاثة هم: ميكائيل، وموسى، وأرسلان.

وكان دُقاق قد سار في أواخر القرن العاشر على رأس أتابعه نحو أطراف الأراضي الإسلامية، فاعتنق الإسلام، وتورط في أعمال تصفية الامبراطورية السامانية، وفي صراعات منطقة ما وراء النهر، وأثناء ذلك تكونت بعض العلاقات بينهم وبين الامبراطورية الغزنوية، ونتيجة لذلك شرعت جموع كبيرة من التركمان بالهجرة عبر نهر جيحون إلى خراسان، وعمل التركمان في خراسان لحساب السلطات الغزنوية حيناً ولحساب أنفسهم أحياناً، ولهذا سببوا الكثير من القلاقل والمشاكل لها، واستطاع محمود الغزنوي أن يحد من نشاط التركمان وخطرهم.

وكثر عدد التركمان في خراسان، وتفجرت أزمتهم زمن مسعود بن محمود، ولم يستطع مسعود إنهاء مشكلتهم، وهكذا قامت بين التركمان وبين جيوش الدولة الغزنوية معارك كبيرة كانت غالبيتها لصالح التركمان، وكثر عدد التركمان خلال الصراع وازدادت هجرتهم إلى خراسان، وآلت زعامتهم إلى ثلاثة أخوة من الأسرة السلجوقية هم: طغرل بك، وجغري بك، واليبغو.

واستطاع التركمان خلال الصراع الطويل انتزاع خراسان كلها من أيدي الغرنويين، خاصة بعدما أوقعوا هزيمة نكراء بالسلطان مسعود في معركة دندانقان سنة ٤٣١ هـ - ١٠٢٩ م، وفي تلك الأثناء قامت صلات بين التركمان وبين الخلافة العباسية في بغداد، وأخذ السلاجقة بعد انتزاعهم لخراسان يستعدون للزحف على بغداد، وكان من أهدافهم الآن فتح الطريق إلى أرمينية، فبلاد الامبراطورية البيزنطية، حتى تهاجر قبائل التركمان إليها.

وصارت زعامة التركمان الآن إلى طغرل بك، وكانت بغداد تعيش صراعات حادة، ساعدت على اثارة طغرل بك، فاتخذ قرار الزحف على العراق فدخل بغداد سنة ٤٤٧ هـ - ١٠٥٥ م، وبعد بعض الوقت والمصاعب تمكن طغرل بك من تصفية الدولة البويهية وإزالتها من الوجود، وهكذا وقعت الخلافة العباسية مجدداً تحت نوع جديد من التحكم هو السلجوقي، وجاء إلى الوجود دولة جديدة هي السلطنة السلجوقية، وانساح التركمان في العراق فالجزيرة وأرمينية وآسية الصغرى محدثين خراباً عظيماً ودماراً مريعاً.

وتوفي طغرل بك سنة ٤٥٥ هـ - ١٠٦٢ م، وخلفه ابن أخيه ألب أرسلان بن جغري بك، ويعد ألب أرسلان من أعظم الحكام السلاجقة، وهو مع ابنه ماكشاه كانا أعظم

سلاطنة السلاجقة على الأطلاق، ففي سنة ٤٦٢ هـ - ١٠٧٠ م تحرك ألب أرسلان على رأس جيش عملاق يريد الشام فمصر، لكنه أخفق في الذهاب أبعد من أسوار مدينة حلب ثم كرّ راجعاً، يريد العراق، وفي طريق العودة سمع بأخبار تحرك جيش بيزنطي عملاق على رأسه الامبراطور نفسه، كان يريد طرد التركمان من الأراضي البيزنطية، وإغلاق طرق أرمينية في وجوههم، وعندما سمع ألب أرسلان خبر هذا الجيش توجه نحوه واصطدم به في منازكرد قرب بحيرة وان، وفي منازكرد قامت معركة فاصلة بين جيوش بيزنطية وقوات ألب أرسلان، وتحطمت قوات بيـزنطة العسكرية في هذه المعركة، ووقع الامبراطور أسيراً، فكان أول امبراطور بيزنطي يأسره المسلمون، ومكنت هذه المعركة التركمان من الانسياح بحرية في آسية الصغرى، والشام والجزيرة، وكانت بداية تحويل بيزنطة إلى تركية.

وقتل ألب أرسلان سنة ٤٦٥ هـ - ١٠٧٢ م، فخلفه ابنه ملكشاه، ويعتبر هذا السلطان آخر عظماء سلاطين السلاجقة، وكانت ادارة الدولة زمن كل من ألب أرسلان وابنه بيد وزيرهما نظام الملك الحسن بن علي الطوسي، وكان نظام الملك من أعظم رجالات الادارة والسياسة في تاريخ الإسلام، ويرى بعضهم أن الامبراطورية السلجوقية تدين بعظمتها إلى وزيرين هما: الكُنْدري وزير طغرل بك، ونظام الملك وزير ألب أرسلان وملكشاه، ولقد اغتيل نظام الملك سنة ٤٨٥ هـ - ١٠٩٢ م، وإثر اغتياله انهار صرح الامبراطورية السلجوقية، وأصبحت ممتلكاتها عدة دول متصارعة، فقد توفى ملكشاه بعده بعدة أشهر، فاختلف وارثوه، وتمزقت الدولة، وعاشت في ظل الحروب الأهلية.

وبلغت الامبراطورية السلجوقية غاية اتساعها وعظمتها زمن ملكشاه، فقد دانت له بالاضافة إلى خراسان والعراق: بلاد الشام مع مناطق من آسية الصغرى، وفي زمنه استطاع التركمان الانسياح في بلاد الشام، فتمكنوا من إعمال التدمير والخراب فيها بشكل مريع جداً، مما كان له أكبر الآثار في نجاح الصليبيين عندما وصلوا إلى مشارف الشام عام ١٠٩٨ م.

وكان النشاط التركماني في الشام وآسية الصغرى قبل منازكرد فردياً، لكن بعد منازكرد اندفعت أعداد كبيرة من قبائل التركمان متوغلة في آسية الصغرى أو الشام، واستطاع سليمان بن قطلمش - وهو أمير سلجوقي - أن يحتل نيقية [إزنيق الآن في تركيا] حيث اتخذ هذه المدينة القريبة من القسطنطينية مركزاً لدولة تركمانية جديدة عرفت باسم « دولة سلاجقة الروم »، واستولى سليمان على مناطق الثغور الشامية مع بيزنطة، ونجح سنة ٤٧٧ هـ - ١٠٨٤ م في أخذ أنطاكية، فاستخلصها من الحكم البيزنطي الذي كان قد استولى عليها أيام الدولة الحمدانية في حلب في القرن العاشر.

وتطلع سليمان بعد ذلك نحو حلب، ودخل في صراع من أجلها مع القوى البدوية العربية في الشام والجزيرة بقيادة مسلم بن قريش العقيلي، ثم مع تُتُش بن ألب أرسلان حاكم دمشق السلجوقي، وقتل سليمان في هذا الصراع، كما قتل مسلم بن قريش، وأدى هذا الصراع من جديد إلى قدوم جيش سلجوقي عملاق إلى الشام على رأسه السلطان ملكشاه نفسه، ونجم عن هذه الحملة الحاق الشام كله بالسلطنة السلجوقية، لكن ليس تحت إدارة مركزية واحدة، بل تحت عدة ادارات اقطاعية: واحدة في الرُّها [أورفا الحالية في تركيا مقابل الحسكة السورية إلى الشمال منها] ولاّها إلى أمير تركماني اسمه بوزان، وثانية في حلب عهد بها إلى زعيم تركماني كبير إسمه آق سُنْقُر، حمل لقب قسيم الدولة، وثالثة في أنطاكية جعل أميرها تركي اسمه يغي سغان [أو: سيان] وخلّف معه حامية قدرها أربعة آلاف مقاتل، ورابعة في دمشق تركها لأخيه تُتُش، وبقيت الدويلات الساحلية والداخلية السالف ذكرها متمتعة باستقلالها.

إن مقتل سليمان بن قطلمش، وانتزاع أنطاكية لصالح السلطان ملكشاه لم يؤد إلى سقوط دولته التي أسسها في نيقية، فقد ورث الحكم فيها أحد أولاده واسمه قلج أرسلان، وعندما عبرت حشود الصليبيين من أوروبة إلى آسية، حاولت قوى دولة سلاجقة الروم التصدي لهذه الحشود، فعجزت عن ذلك، وهكذا وصلت حشود الغزاة عام ١٠٩٨ م إلى مشارف الشام.

وكان بعدما توفي السلطان ملكشاه، تورط في الصراع من أجل خلافته امراء السلاجقة في الشام، حيث حاول تتش أن يصبح سلطاناً، فاصطرع مع آق سُنْقُر قسيم الدولة أمير حلب، وقتله واستولى على حلب، فصار سيد الشام شماله وجنوبه، ثم توجه نحو خراسان فقتل هناك، وعقب مقتله ورث أملاكه ولداه: رضوان ودُقاق، ودخلا في صراع دموي مما زاد من ضعف الشام ضعفاً.

وكان بعد انسحاب ملكشاه من الشام، جرت محاولات من قبل القائد التركماني ارُتق وأولاده لانشاء امارة تركمانية جديدة في القدس، وبعد نجاح أولي تمكنت الخلافة الفاطمية من استرداد القدس، كما أن هذه الخلافة قامت باثارة أتباعها المذهبيين في وسط سورية، مما زاد من عدم الاستقرار في البلاد مع الضعف العام.

في الحقيقة أحدث البداة الغُز قبل تأسيس السلطنة السلجوقية دماراً مأساوياً في كل من الشام والجزيرة، أسهب المؤرخون في الحديث عن تفاصيل أحداثه، وكنتيجة مباشرة لذلك ضعف سكان البلاد، وهجر الكثير من أهل المدن مدنهم، وتعطل النشاط الزراعي

والتجاري والاقتصادي العام، فنضبت الموارد، ونهبت الموجودات أو أحرقت و.مرت، كما أزيلت قوى المؤسسات السياسية المحلية، وعندما قامت السلطنة السلجوقية كانت بلاد الشام على حافة الأفلاس والتداعي الداخلي، صحيح أن قيام هذه السلطنة وادخالها الشام تحت ادارتها قد جلب بعض الاستقرار، وسبب بعث شيء من النشاط، ولكن لسوء الحظ إنها لم تعمر طويلاً، لذلك لم تتوفر فرصة كافية لرأب الصدع وإعادة التعمير.

ولما كانت شعوب الغُزّ عبارة عن عشائر وقبائل بدوية كره أفرادها الوحدة ومجوها، وألِفوا الفرقة وأحبوها، وارتضوا بعدم الاستقرار، وأنفوا من الانصياع لمناهج الحكومات المركزية ذات الأنظمة والقوانين، ما أن انهارت السلطنة حتى تجددت الصراعات الداخلية، وبالتالي زاد ضعف الشام ضعفاً.

وخلاصة القول: إن التركمان انساحوا في بلاد الشام، وتمكنوا في مدى ثلث قرن من الزمان من تدمير بلاد الشام تدميراً قلما عرفت مثيلاً له في تاريخها المديد، وعندما أشرف القرن الحادي عشر على النهاية، كانت بلاد الشام في حالة من الانهاك والضعف والتداعي الداخلي والخارجي لا نظير له، وكانت هذه البلاد مثل رقعة للشطرنج فيها مربعات عديدة، على كل مربع دمية لها اسمها وصفاتها ومزاياها تتصارع مع بقية الدمى، وكانت الدمى في غالبيتها تركمانية الأصل، غريبة المولد والنشأة، لا ارتباط لها بحضارة البلد ولغته وتقاليده ومعتقداته، وكانت كلها تتصارع في سبيل السلطة والمزيد من الأرباح الخاصة والمال فقط دونما رادع أو اعتبار، وكان من محصلات أعمالها بالاضافة لما ذكر، تحطيم قوة قبائل العرب في البلاد مع قوة أهل المدن ومنظمات الأحداث.

بعد هذا العرض الموجز لوقائع ونتائج الاجتياح التركماني للشام، مفيد أن نستعرض أيضاً نتائج هذا الأجتياح مع قيام السلطنة السلجوقية على صعيد المشرق الإسلامي: لقد استطاع السلاجقة تأسيس امبراطورية مترامية الأطراف، ضمت لأول مرة منذ أمد بعيد أجزاء من الأرض لم تعرف الطاعة للعباسيين منذ عهد حكم الخلفاء الأوائل، وكان السلاجقة مسلمين سنّة، واحتفظوا بالخلفاء بمثابة حكام اسميين، ومع ذلك فإن قيام الامبراطورية السلجوقية ثم انهيارها وقيام الصراعات الداخلية بين حكامها، قد منح الخلافة بعض القوة وبعث الحياة فيها، فلقد امتد نفوذ الخليفة ـ ولو اسمياً ـ على مناطق جديدة، كما أن التوسع السلجوقي على حساب القوى الشيعية قوى من مركز الخليفة العباسي السني، وحاول بعض الخلفاء استرداد كامل سلطانهم فصارعوا السلاطين ففقدوا حياتهم، والمهم الإشارة إليه هنا، أن الصراعات السلجوقية السلجوقية، والسلجوقية العباسية بددت قوى العراق والمشرق،

وشغلت حكام وعساكر تلك البلدان وحتى شعوبها عن أحداث الحروب الصليبية وعن المساهمة الايجابية فيها، كما أنها استجرت بعض حكام الشام إلى بؤرتها وصرفتهم وجهودهم بعض الوقت عن الجهاد ضد الفرنجة وعرضتهم للمؤامرات المشرقية.

وكان لقب السلطنة الذي أطلقه حكام السلاجقة على أنفسهم تطوراً لمنصب إمرة الأمراء في العصر البويهي، واستمر استعمال هذا اللقب فيما بعد من قبل الحكام وأصحاب السلطنة دون الخلفاء، واعتمد السلاجقة في حكمهم وادارتهم على طبقة من الاداريين الفرس، وكانت تقاليد السلطنة عندهم مزيج من التقاليد الفارسية المطعمة بشيء من العادات التركية، وهي التقاليد التي نمت زمن الدولة السامانية ثم الدولة الغزنوية بعدها.

وتطور نظام الاقطاع العسكري زمن السلاجقة، كما وجد لديهم نظام الأتابكية ودول الأتابكة، فقد كان من عادة سلاطين السلاجقة الزواج من أكثر من امرأة، ولما كان الإسلام لا يسمح بالجمع بين أكثر من أربع حرائر، ثم لوجود عدد من الضباط سادة العشائر التركمانية بين حاشية السلطان، ولأمور أخرى، فقد كان السلطان يقوم بتطليق بعض زوجاته، ويمنح المطلقة إلى واحد من أمرائه، ويعهد إليه بتربية ابنه منها، ويصبح الأمير عند قيامه بهذا العمل أتابكاً، ولفظه أتابك مؤلفة من كلمتين: «أتا» و «بك»، وتعني «أتا» عم أو أب، وتعني «بك» أمير، فالأتابك على هذا هو «الأمير العم»، وأسس بعض الأتابكة دولاً أشهرها: دولة أتابكة الموصل التي أقامها عماد الدين زنكي، والتي اشتهر منها ابنه نور الدين، ودولة دمشق التي أسسها طغتكين، التي تعرف تجاوزاً باسم الدولة «البورية».

وأحدثت هجرة التركمان إلى إيران والعراق والجزيرة والشام تأثيراً بشرياً واجتماعياً كبيراً، فقد أزالت الهجرة هذه طبقات الأرستقراطية المحلية، وأحلت محلها طبقات تركية جديدة، كما أن الهجرة جلبت أعداداً وفيرة من التركمان امتزجوا بسكان المناطق المحليين أو طردوهم، وأدى هذا إلى ردود فعل كبيرة تجلت بأشكال متعددة.

ولقد كان للسلطنة السلجوقية سياسة دينية، خطط لها وأشرف على تنفيذها الوزير نظام الملك باقامته المدرسة النظامية في بغداد، وكان لهذه المدرسة فروعها في أغلب حواضر الامبراطورية السلطنة السلجوقية، وارتبطت هذه المدرسة بالدولة ووجهت من قبلها، وكان نظام الملك قد اقتبس التجربة الإسماعيلية في الدعوة وتخريج الدعاة، وقد التحق بالتدريس في نظامية بغداد كبار علماء القرن الخامس الهجري، وكان من جلتهم الغزّالي، وكان من بين مهام هذه المدرسة، وشواغلها الحرب على جميع الفرق وعلى أعداء الإسلام، ذلك أن هذه الحرب كانت الشغل الشاغل لنظام الملك ذاته.

فقد كانت بعض حلقات العمل في النظامية تتم تحت إشراف نظام الملك نفسه، وفي بعض الأحيان كان يحاضر بنفسه أو يشارك بالمناقشات، ذلك أنه كان صاحب ثقافة إسلامية كبيرة، وفي الأدب الفارسي ينسب إليه تصنيف كتاب في السياسة والحكم اسمه «سياست نامة» ومواد هذا الكتاب غنية جداً، تستحق الدراسة، ولعل أهم ما يسترعي الانتباه فيها، أن نظام الملك أوقف ثلاثة فصول من الكتاب للحديث عن الفرق المعادية للإسلام، وخاصة اتباع الحشيشية، الدعوة التي أقامها حسن الصباح.

واعتمد رجالات النظامية على فكر الأشاعرة وعلماء الكلام، كما أنهم جميعاً بما فيهم نظام الملك نفسه كانوا من أنصار التصوف أو متصوفة، وقامت النظامية بتخريج علماء بثوا أفكارها، وطبيعي أن هذا كان شيئاً جديداً وخطيراً بالنسبة لمدارس الفقه الإسلامي، فلأول مرة ربطت هذه المدارس بالدولة، وخضعت لسياستها العامة، وكانت هذه الدولة أوتوقراطية عسكرية، اعتمدت - كما سلفت الإشارة - نظام الاقطاع العسكري، والآن بهذا العمل أبدعت الاقطاع الديني، ذلك أن هذه المدارس بعدما حققت النصر على خصومها من الفرق، أغلقت باب الاجتهاد، وفتحت باب النشاط أمام الصوفية وأرباب الطرق، وهكذا ألقت زمام الأمور إلى أسر اختصت بالعمل الديني...

وكان لقيام السلطنة السلجوقية وسياستها الدينية أبعد الآثار على الخلافة الفاطمية والدعوة الاسماعيلية، وكانت من الأسباب المباشرة لقيام حركة الحشيشية، وهي حركة أسسها حسن الصباح، بعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر في سنة ١٠٩٤ م، فلقد انقسمت الدعوة الاسماعيلية بوفاته إلى قسمين قسم أيد نزار كبير أولاد المستنصر، وقسم آخر أيد المستعلي ثاني أولاده، وتم تعيين المستعلي على عرش القاهرة، وقتل نزار في الاسكندرية، وكان حسن الصباح ممن خرجوا على المستعلي، وقال بإمامة نزار، واستطاع حسن الصباح أن يستولي على عدد من القلاع الحصينة في المشرق، ثم مدَّ خلفاؤه نفوذهم إلى الشام فاستولوا على عدد من القلاع الحصينة خاصة في جبال بهراء، وتبنت حركة حسن الصباح عقيدة الاغتيال السياسي طقوسياً بوساطة المدية، بعدما أعلنت الحرب على خصومها، وكان نظام الملك أول ضحايا هذه الحركة، واغتال الحشيشية خلال الحروب الصليبية عدداً كبيراً من القادة والحكام من المسلمين والصليبيين سواء، وقاموا بمحاولات لم تنجح، وكان لهم شهرتهم وآثارهم إلى حد أن اسمهم انتقل إلى اللغات الأوروبية، وأصبح يعني «الاغتيال»[1].

★ ★ ★

(١) جميع ما عرض حتى الآن هو استخلاص مطور لما جاء في كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية فلينظر.

ولم تقتصر حالة الفوضى على الشرق الإسلامي، بل سادت الغرب الإسلامي فوضى أعظم ومشاكل أكبر، وكما تمخضت الأمور عن صور جديدة في المشرق، واستفاقة محددة المعالم بفضل قيام الدولة السلجوقية وتأسيس النظامية، فإن ما حدث هنا كان له أصداء واسعة في الغرب، وكان واحداً من العوامل الأساسية لقيام حركة المرابطين، وعرض هذا الموضوع والبحث فيه لا تنبع أهميته من ارتباط حركة المرابطين بمعركة الزلاقة والنشاط المضاد للحركة الصليبية في الأندلس فحسب، بل فيه درس هام من دروس البحث في تاريخ العرب والإسلام:

يظهر البحث في تاريخ الإسلام أن قضايا هذا التاريخ قد تفاعلت وتشابكت فالواقعة التي حدثت مثلاً في المغرب، وقد نجد أسبابها المباشرة في بلد خارج المغرب، وغير المباشرة في بلد آخر في المشرق، ولنضرب مثلاً هنا بقيام الخلافة الفاطمية، فنجد ذلك مرتبط بالديلم، والعراق، والشام، واليمن، وإفريقية، ومصر، ولذلك من العبث البحث في أي قضية دون أخذ هذا الأمر بالاعتبار.

وتنطبق هذه القاعدة على حوادث قيام حركة المرابطين في قلب الصحراء الإفريقية، ثم تأسيس دولتهم في المغرب الأقصى، فالبحث في تاريخ المرابطين ترتبط بداياته بحوادث الاستفاقة السنية للقرن الخامس ـ أو قبيل ذلك ـ حيث قامت هذه الاستفاقة أولاً في الشرق الإسلامي، وبالحالة المتردية للخلافة الفاطمية، وبانهيار الخلافة الأموية في الأندلس وما لحق ذلك من فوضى عمت الغرب الإسلامي.

وما تزال قضية تأسيس دولة المرابطين في أوائل القرن الخامس للهجرة، حدثاً يحتاج إلى مزيد من البحث العميق، فعلى الرغم من الدور التاريخي المشرف الذي شغله المرابطون في الغرب الإسلامي، وبرغم توفر عدد المؤرخين الذين دونوا أخبار أحداث هذا الدور، فإن ما آلت إليه نهاية المرابطين، بقيام دولة الموحدين، قد أدى إلى طمس آثار المرابطين، وأخبارهم طمساً كاد في بعض الجوانب أن يكون كاملاً.

وبرغم هذا لا يفقد الباحث الأمل، فبين يوم وآخر يكتشف أثر مرابطي مباشر أو غير مباشر، ينقل عن أحد الآثار المحجوبة عنا، وبذلك تتضح الصورة أكثر فأكثر، وفي جميع الأحوال نجد أنه حين تتحدث المصادر عن قيام حركة المرابطين نراها تجمع على ربط بداية تاريخ هذه الحركة بعلم كبير من أعلام القرن الخامس، وهو أبو عمران الغفجومي الشهير بالفاسي:

ولد أبو عمران في مدينة فاس في حوالي سنة ٣٦٥ هـ، وفيها نشأ وتلقى علومه

الإسلاميه الأولى، ومنها رحل إلى قرطبة، كما رحل إلى القيروان، ومنها مضى إلى الشرق حاجاً وطالباً لمزيد من العلم، وعاش في بغداد، بعد هذا عاد إلى فاس يحمل بين جنباته العلم وروح اليقظة الجديدة، وفي فاس أقبل عليه التلاميذ والمريدون، فذاع صيته، وانتشرت شهرته، وعم تأثيره.

وكانت المغرب تعيش حالة من الفوضى، وقد اصطدم الفاسي بحكام مدينة فاس، وأكره على مغادرة مدينته إلى القيروان، وكانت القيروان في ظل حكم المعز بن باديس (٤٠٦ ـ ٤٥٣ هـ) تعيش آنذاك صراعات مذهبية عنيفة قادت نحو الانفصال عن الخلافة الفاطمية، وكان للفاسي دوره في هذه الأمور، ولعله زار خلال إقامته الثانية في القيروان بغداد أكثر من مرة، ومن المرجح أنه تعلم في المشرق وأثناء مروره بمصر، وأيضاً وهو في القيروان الكثير عن قصة نشوء الدعوة الإسماعيلية وحركتها في المغرب، التي أدت إلى قيام الخلافة الفاطمية، لهذا توجه ببصره نحو قلب الصحراء حيث عاشت قبائل لمتونة وسواها.

وكما فعل الداعي الاسماعيلي الكبير أبو عبد الله الداعي، حين أتصل بحجاج كتامة البربر أثناء عودتهم إلى ديارهم، فعل أبو عمران، فاتصل بركب عاد من مكة إلى القيروان، أو اتصل به بعض الحجاج، وتذكر غالبية الروايات أن أهم من اتصل به يحي بن ابراهيم اللمتوني الصنهاجي، فاتفقا على توجيه من يقوم بالدعوة بين صفوف قبائل الصحراء، وأرسله إلى تلميذه وجاج بن زلو.

وكان وجاج بن زلو قد درس على أبي عمران أولاً في فاس، ثم لحق به إلى القيروان وهناك تخرج عليه، ثم مضى إلى السوس على طرف الصحراء «فبنى داراً سماها بدار المرابطين، لطلبة العلم وقراء القرآن الكريم» وكان سكان السوس يزورونه ويتبركون بدعائه، وفي منطقة السوس لقي يحي بن إبراهيم وجاج بن زلو، فأوصل إليه رسالة أستاذه الفاسي، فانتدب [وجاج] أحد طلبته إلى الصحراء، واسمه عبد الله بن ياسين.

وفي الصحراء، وتحت رقابة وجاج نشط عبد الله بن ياسين، ثم ابتنى ـ بعد صعوبات جمة ـ رباطاً في جزيرة في حوض مصب السنغال، تدرب فيه، وتخرج منه أول جماعة من المرابطين، كان لها الفضل في السيطرة على قبائل الصحراء، وقيادتها شمالاً، وتأسيس دولة المرابطين العظيمة.

ولم يعش أبو عمران الفاسي، ليرى خططه وقد تحققت، بل توفي قبل ذلك سنة (٤٣١ هـ)، ولما حقق المرابطون نجاحاتهم استقروا على أطراف الصحراء في مدينة أغمات، وكان عبد الله بن ياسين قد توفي وكذلك يحي بن عمر، وبرز الآن يوسف بن تاشفين في

مقدمة الزعماء، وأقدم ابن تاشفين على تأسيس مدينة جديدة تكون مقراً له ولأتباعه، فأسس مدينة مراكش العتيدة، ثم مدّ سلطانه على جميع أجزاء المغرب الأقصى وأجزاء من الأوسط، واهتم بجيشه اهتماماً كبيراً فاستورد الأسلحة من الأندلس، وصنع بعضها، كما أولى الأسطول عنايته الفائقة، حتى صار للمرابطين اسطولهم الخاص الذي يخشي جانبه، والتفت يوسف أيضاً إلى إدارة دولته النامية، فاستعان بعدد من رجال الإدارة من أهل الأندلس، وهكذا بدأت صلاته الأولى بمشاكل الأندلس.

وكانت الأندلس تعيش آنذاك في حالة من التمزق السياسي الشديد حل بها إثر سقوط الخلافة الأموية فيها، وكان لهذا التمزق أبلغ الآثار على مستقبل الإسلام والمسلمين في شبه الجزيرة الايبيرية، حيث نشطت حركة الاستغلاب الصليبية بشكل مروع، وبات سقوط الأندلس قاب قوسين أو أدنى.

وعرفت حالة الأندلس السياسية آنذاك باسم عصر ملوك الطوائف، وكان عدد الممالك كبيراً، ومملكة اشبيلية أكبرها وأقواها، وكان على عرشها المعتمد بن عباد، الذي يمكن اعتباره بين أعظم شخصيات العالم الإسلامي في القرن الخامس، فهو كان سياسياً بارعاً، وإدارياً ناجحاً، كما كان فارساً محنكاً، وعلى درجة كبيرة من الشجاعة والاقدام، وفوق هذا كله كان من أعظم شعراء عصره، وأكثرهم تمكناً من فنون الأدب والبلاغة.

وعندما شعر المعتمد بثقل الغارات الصليبية على ديار المسلمين، ورأى أن طاقات مسلمي الأندلس مبعثرة لا تقوى على دفع هذا الخطر المحدق، قرر طلب العون من يوسف بن تاشفين وأقدم على ذلك برغم التحذيرات الشديدة له، بأنه سيفقد نتيجة عمله هذا عرشه وملكه، فقد قال له ابنه الرشيد: «أتدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا، ويبدد شملنا؟... فقال: أي بني، والله لا يسمع عني أبداً أني أعدت الأندلس دار كفر، ولا تركتها للنصارى فتقوم عليّ اللعنة في منابر الإسلام، مثلما قامت على غيري، حرز الجمال والله عندي، خير من حرز الخنازير».

وبعدما وصلت الدعوة إلى يوسف بن تاشفين، وبعد بعض المباحثات، استجاب لها، وأعدّ العدة الكافية للجهاد في الأندلس، وعبر إليها سنة ٤٧٩ هـ على رأس قوة تجاوزت الخمسة وعشرين ألفاً، واتخذ من الجزيرة الخضراء قاعدة له، شحنها بالمؤن والسلاح، ورم ما تشعث من أسوارها، ثم توجه نحو اشبيلية، وهناك تلقاه المعتمد بن عباد، كما توافد عليه غالبية ملوك الطوائف بقواتهم الخاصة، حتى تجمع من الأندلسيين قرابة خمسة وعشرين ألفاً من المقاتلين أيضاً.

وقام يوسف بمراسلة ألفونسو السادس، ملك قشتالة يدعوه إلى الإسلام أو الجزية أو القتال. فاستجاب إلى دعوة القتال، ولذلك توجه المسلمون نحوه إلى منطقة بطليوس من غرب الأندلس، قريباً من أراضي البرتغال حالياً، وإلى الشمال الشرقي من بطليوس في سهل عرف باسم «الزلاقة» فهناك جاء القوات الإسلامية وجهاً لوجه أمام حشد هائل من المقاتلين تجمعوا تحت راية الصليب، وبتأييد من البابوية، من كافة أنحاء أوربا.

واشتبك الجيشان في معركة حاسمة حصدت خلالها سيوف المسلمين القوات الصليبية، ونجا ألفونسو بحشاشة نفسه، بعد اصابته بجراح بالغة وفقدانه لما يزيد عن أربعين ألفاً من قواته.

ان النصر الذي حازه المسلمون في الزلاقة كان حاسماً، وواسع الصدى فهو قد أجّل سقوط الأندلس قروناً عدة، كما كان بداية النهاية لعصر ملوك الطوائف، حيث ستغدو الأندلس ولاية مرابطية، وجاء حدوث هذه المعركة بعد ستة عشر عاماً من معركة منازكرد، وكانت بيزنطة بعد هزيمتها قد أرسلت الرسل والبعثات إلى أوروبا الغربية تحمل النذر وتنشد العون، وتفاوض من أجل الوحدة بين الأرثوذكسية والكاثوليكية وعليه دقت أصداء النصر المبين في منازكرد بوابات أوروبة بعنف، وأحدثت في أرجاء القارة ذعراً يماثل الذي أحدثه الفاتحون العرب الأوائل.

ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية حين تلقت دعوات الوحدة موحدة القوى والرأي لتستجيب، وخلال ما يزيد على عقد من الزمن اضطرت أوروبا الغربية إلى تناسي ما أرسلته القسطنطينية من أخبار، وغرقت في محيط الصراعات المحلية، إنما عندما وقعت الزلاقة قرعت من جديد أصداء نصر الزلاقة بوابات أوربة من الجهة الغربية بعنف شبيه بالعنف الذي كان يوم افتتح طارق وموسى الأندلس ويوم زحف عبد الرحمن الغافقي نحو بواتيه، ولا شك أن ذلك كان له أبعد الأثر على نفسية سكان أوروبة الغربية، مما ساعد بشكل كبير على نجاح حركة التبشير بالحروب الصليبية، التي قادها مبشرون عدة حفظ لنا التاريخ ذكر أشهرهم وهو بطرس الناسك.

وكما حدث في المشرق حين مكن انهيار سلطنة السلاجقة الأمبراطورية البيزنطية من استرداد عافيتها، وتمالك جأشها ثانية للمشاركة في عمل هجومي جديد ضد بلاد الشام والجزيرة، حدث في المغرب الشيء انفسه تقريباً، ففي الوقت الذي كان فيه أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين يعد الخطط ليس لتحرير جميع أراضي الأندلس فحسب، بل لاستئناف الفتوح العربية داخل أوروبة، في هذا الوقت ظهر في المغرب المهدي بن تومرت،

وبدأ نشاطه الدعوي الذي قاد إلى قيام حركة الموحدين التي تكفلت باسقاط دولة المرابطين بعد حروب أهلية مريرة، وإقامة امبراطورية الموحدين [1].

لقد أعطى هذا كله أوروبا بشطريها المزيد من الفرص للاقلاع براً وبحراً بهجمات مضادة على الإسلام في عقر دار العروبة، سيما إذا تذكرنا هنا سقوط صقلية من قبل للنورمان، وإقدام القاهرة على اطلاق قبائل هلال وسُليم نحو دولة المعز بن باديس، مما أضعف هذه الدولة وأنهك قواها، إلى حد تمكنت فيه قوى النورمان من الاستيلاء على مدينة المهدية مع قطعة كبيرة من سواحل تونس، وبذلك ملكت أوروبة السيادة المطلقة في البحر المتوسط.

وحين وصلت حشود الفرنجة، التي زحفت عبر أوروبة تريد بلاد الشام، إلى القسطنطينية، كان على عرش الامبراطورية البيزنطية الامبراطور الكسيوس كومونين، وقد اعتلى العرش سنة ١٠٨١ م، فوضع بوصوله إلى الحكم حداً لفترة من الاضطراب الشديد، تلت هزيمة منازكرد، وبوصول ألكسيوس إلى العرش انتهت فترة طويلة وخصيبة من التاريخ البيزنطي تعرف عادة باسم «فترة حكم الأسرة المقدونية ـ ٨٦٧ ـ ١٠٨١ م».

وكان حكم هذه الأسرة قد مرّ بمرحلتين غير متكافئتين من حيث الأهمية، فقد امتدت الفترة الأولى حتى سنة ١٠٢٥ م، وهي السنة التي توفي فيها الامبراطور باسيل الثاني، وتعتبر هذه المرحلة من أزهى عصور تاريخ الامبراطورية البيزنطية، فيه قامت ما يدعوه المؤرخون باسم «صليبية القرن العاشر».

فمن الملاحظ أن الفتوحات العربية للقرن السابع قد انتزعت من بيزنطة أملاكها في آسية وأفريقية، وأوقعتها في أزمات خانقة، إلاّ أن هذه الامبراطورية وجدت نفسها بعد حين قد تحررت من أعباء ثقيلة، وذلك أن هذه الممتلكات لم تمحض الولاء قط للادارة البيزنطية، وعبرت شعوبها عن نزعاتها الاستقلالية بأشكال مختلفة.

وفي عهد الأسرة المقدونية أوجدت بيزنطة الحلول لكثير من مشاكلها الداخلية والخارجية في أوروبا مستغلة ضعف الخلافة العباسية، وانعدام المخاطر الشديدة على الحدود الإسلامية، وحين تمكنت من ذلك استردت قواها الاقتصادية والعسكرية براً وبحراً، وتوحد مجتمعها دينياً بانتصار التيار المؤيد لعبادة الصور بشكل حاسم.

---

(١) عالجت تاريخ المرابطين في كتابي «في التاريخ العباسي والأندلسي السياسي والحضاري» ـ ط. دمشق ١٩٨١ ص: ٣٣٣ ـ ٣٤٢.

وعندما تأسست الدولة الحمدانية في حلب، ونشط سيف الدولة الحمداني نشاطه العظيم ضد بيزنطة، أعلنت هذه الامبراطورية صليبية القرن العاشر فاستردت كريت من المسلمين ودمرت مدينة حلب، واحتلت أنطاكية مع منطقة الثغور وجزء كبير من سواحل الشام الشمالية، وأدخلت امارة حلب تحت حمايتها، وسبب ذلك مرتبط بتاريخ الخلافة الفاطمية وخططها تجاه بلاد الشام.

فقد قامت الخلافة الفاطمية أولاً في إفريقية [تونس] وكان من نتائج ذلك انهيار نظام الرباطات المتوسطية، هذا النظام الدفاعي الرائع الذي نشأ منذ أيام الإسلام الأولى في الشمال الافريقي، وكان متمماً لنظام رباطات الشام المتوسطية، وتطلعت الخلافة الفاطمية نحو المشرق، واستهدفت احتلال مصر، ونجحت في ذلك، وفي مصر غرقت الخلافة الفاطمية في مشاكل الصراع مع بداة الشام، وأحداث مدن الشام، وقرامطة الاحساء، مع أمور أخرى عقائدية متنوعة، وجربت أكثر من مرة احتلال مدينة حلب، وهنا بادرت بيزنطة إلى حماية حلب، مفضلة أن يكون بينها وبين العالم الإسلامي دولة حاجزة، أرضها مفتوحة لشتى النشاطات خاصة الاقتصادية منها.

وظلت الامبراطورية البيزنطية - حتى في المرحلة الثانية من حكم الأسرة المقدونية - متماسكة، لها اليد العليا في علاقاتها مع المسلمين، إلى أن قدم الغز وأخذوا في اجتياح أراضيها، كما سبق وبينا [1].

* * *

ليس هناك حاجة بعد كل ما تقدم تبيانه للحديث عن الخلفيات الأخرى، والمهم الآن الحديث عن اندفاع أعداد هائلة من شعوب أوروبة على شكل مجموعات جلها زحف براً، وأقلها سافر بحراً باتجاه الشرق، فبعد العديد من الأزمات - سنراها بالتفصيل - والمشاكل عبرت هذه الحشود، التي قيل بأنها فاقت مجتمعة المليون انسان - ما بين رجل وامرأة وشيخ وطفل - من أوروبة إلى آسية الصغرى، تريد الوصول القدس، وكان الهدف المعلن لها قضاء واجب الحج، وتخليص الأراضي المقدسة من المسلمين والعرب، وتحويلها إلى جزء من أوروبا الكاثوليكية فيما وراء البحار.

ووصلت جموع الفرنجة إلى أنطاكية، وبعد صعوبات تمكنت من احتلالها في ٣ حزيران ١٠٩٨ م، وجرت محاولة مسلمة لاسترداد المدينة فأخفقت، وخلصت أنطاكية

---

(١) عالجت هذا كله في كتابي أوروبة في العصور الوسطى، فاس ١٩٧٨ ص: ١٧٥ - ٢٠٦.

وقلعتها للصليبيين في ٢٨ تموز ١٠٩٨ م، وصار سلطانها إلى بوهيموند الذي كان من أبرز أمراء الصليبيين.

وكان قبل أن تسقط أنطاكية، وحتى قبل أن يصل الصليبيون إليها، أن انفصلت منهم فئة بقيادة بلدوين [أخو غودفري ـ الذي سيكون أول ملك لمملكة القدس اللاتينية] وتوجهت من مرعش شرقاً، فتمكنت من الاستيلاء على بعض مناطق الثغور الإسلامية البيزنطية، ووصلت أخيراً إلى الرُّها فاحتلتها واتخذت منها قاعدة لأولى إمارات الصليبيين في المشرق، وكان من أسباب نجاح هذه الفئة ومن أسباب النجاح عند أنطاكية كون الكثيرين من سكان تلك المناطق كانوا إما سرياناً أو من أصل أرمني، يضاف إلى هذا أن سيادة التركمان [1] على المنطقة كانت سيادة سطحية، مكروهة وليس لها قواعد متينة، ثم إن دفاع التركمان وحربهم ضد الفرنجة كان على طريقة البدو في قاعدة الكر والفر، ثم إن الأرض لم تكن «بعد أرضاً تركمانية»، والذي دفع التركمان للتصدي لجموع الفرنجة هو الدفاع عن ملكهم وسلطانهم، وربما وجد شيء يسير من الشعور الديني، إنما بلا ريب لم يكن من القوة والكفاية بمكان.

وزحفت معظم جموع الفرنجة جنوباً، إثر ذلك بعد أن جعلوا أنطاكية مركزاً لإمارة صليبية ثانية في المشرق، واستطاعوا أثناء زحفهم هذا أن ينتزعوا من دولة حلب الكثير من أراضيها وقراها وبلدانها خاصة في المنطقة الغربية، فلقد استولوا على البارة، وجردوا مدينة حلب من أراضيها وأملاكها حتى وصلوا إلى أسوار المدينة، ثم أتوا على معرة النعمان فدمروها وقتلوا أهلها جميعاً.

وكان عندما احتل الفرنجة المعرة، نشب خلاف بين باروناتهم، فقد أراد بعضهم الاستقرار في المعرة لإقامة إمارة جديدة، وعارض أصحاب أنطاكية الجدد ذلك، حتى كادت الحرب تنشب بين صفوف الغزاة، وهنا ثارت جماهير الفقراء Tafurs من الصليبيين، واندفعت تقتل كل من بقي من المسلمين في المعرة، ثم توجهت نحو أسوار المدينة وتحصيناتها فدمرتها كلياً، وهكذا اضطر الصليبيون إلى مغادرة المعرة والزحف جنوباً تقتل وتحرق وتدمر حتى وصلت إلى القدس، وكانت تابعة للحكم الفاطمي في مصر، فحاصرتها حصاراً شديداً، وقاومت المدينة وانتظرت ورود النجدات إليها من القاهرة، لكن عبثاً كان هذا الأمل، ووصل أثناء الحصار إلى يافا عدد من السفن الايطالية حاملة العتاد والأخشاب والأغذية للفرنجة، وقام الصليبيون ببناء عدة أبراج حصار تمكنوا بواسطتها من الاستيلاء على

---

(١) انظر كتابي ـ حطين ـ مسيرة التحرير ـ ط. دمشق ١٩٨٤. ص: ٤٦ ـ ٥١.

القدس في ١٦ تموز ١٠٩٩ م وقتلوا كل من كان فيها، ويلاحظ هنا أن الصليبيين كانوا متفوقين على المسلمين في أنواع من التقنيات العسكرية، خاصة بناء الأبرجة المتحركة مع أدوات الحصار الضخمة الأخرى.

وصفت القدس للغزاة فأقاموا فيها ثالث دولهم في الشرق، وأعظمها مكانة، ثم أخذوا يوسعون رقعة أملاكهم في فلسطين، وبعد عدة سنوات احتلوا مدينة طرابلس وأقاموا فيها دويلتهم الرابعة على أرض الشام.

لقد نزلت الآن بالشام ضربة مروعة، وأصاب العرب خزي لم يعرفوا مثله منذ قيام الإسلام، لكن هذا كله لم يعد الرشد إلى حكام دويلات الشام التركمان، فاستمروا في صراعاتهم الداخلية، واحتدم الصراع من جديد بين دمشق وحلب، وأقدم الطرفان على مهادنة الصليبيين ليتفرغا لصراعاتهما الداخلية، وأخذ الناس في الشام يتململون مما حصل، وبدأ التململ يتحول هنا وهناك، وخاصة في حلب إلى أعمال ناقدة ومعارضة شديدة.

وسلفت الإشارة إلى الوضع السياسي في بلاد الشام في القرن الحادي عشر، ونذكّر هنا ثانية أنه عندما دخل الفرنجة هذه البلاد، كانت أبرز دولها دولتان: واحدة في حلب والأخرى في دمشق، وكان حاكما هاتين الدولتين أخوين، هما: دُقاق بن تتش ورضوان بن تتش. وقد مثلا جيلاً خاصاً من أجيال السلاجقة، فقد أوقفا نفسيهما مع قواتهما للصراع الداخلي، والحروب الأهلية، واهتبل الفرنجة هذه الفرصة، فوسعوا أملاكهم، وجردوا حلب من جميع أراضيها الشمالية والغربية، كما جردوا دمشق من أراضيها في الجولان، واستهدف الفرنجة في هذه المرحلة التضييق على حلب واحتلالها لملء الثغرة ما بين أنطاكية والرُّها، ثم الاطباق على الشام كله.

واستغاث الحلبيون بمسلمي المشرق، وجاءت بعض النجدات من الموصل، لكن لم يكتف رضوان بن تتش بعدم التعاون معها فحسب، بل تآمر على قادتها ودبر اغتيالهم، وهذه أمور يمكن رؤيتها بالتفصيل في فصول كتبي: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، والحروب الصليبية، وحطين.

ومن المعلوم أن الصليبيين كانوا قد وصلوا إلى مشارف الشام جمعاً واحداً، ولكن ما أن توغلوا فيه، واحتلوا بعض أراضيه حتى حل بهم داؤه العضال، فدب بين صفوفهم التمزق، وانقسموا إلى عدة دويلات: «الرُّها، أنطاكية، القدس، طرابلس»، وبما أن عدداً كبيراً من رجالات «الحملة الأولى» قد استقروا في الشام المحتل، فقد أنجبوا هناك جيلاً جديداً تمتع بصفات بلدية محلية خاصة، ولما كان تدفق الفرنجة من أوروبة على الشام لم ينقطع، فقد غدا المجتمع الصليبي مؤلفاً من مجوعتين متمايزتين هما: مجموعة البلديين، ومجموعة

الوافدين، وبالإضافة إلى هذا قامت بين صفوف الصليبيين تنظيمات غالباً ما كانت ذات صبغة عسكرية، وذات مطامح سياسية، وتعقد هذا الوضع مع مرور الزمن، وازدادت الفرقة عمقاً، والخلافات حدة، كما زالت من بين صفوف الصليبيين الروح المتقدة التي وجدت في الحملة، وبخاصة بين صفوف الفقراء Tafurs منهم.

وكانت الحادثة التي وصل المدّ الصليبي فيها إلى مداه الأعظم، ثم أخذ يتحول إلى جزر أمام أسوار مدينة حلب، وكان ذلك سنة ٥١٨ هـ - ١١٢٤ م، ففي هذه السنة حضّر الصليبيون كل شيء للاستيلاء على مدينة حلب، لكنهم أخفقوا - كما سنقرأ ذلك بالتفصيل - بفضل بسالة أهالي حلب ومقاومتهم العنيدة، ثم لمبادرة صاحب الموصل - البرسقي - لنجدة المدينة، وقد علق في عصرنا هذا المؤرخ البريطاني آرنولد توينبي على هذا الحادث بقوله: «لو سقطت حلب للصليبيين لصار الشرق لاتينياً».

بوصول مدّ الاحتلال الصليبي سنة ٥١٨ هـ - ١١٢٤ م إلى نهايته انتهى عهد التوسع والاستيلاء الصليبي، وبدأت حرب الاسترداد والتحرير، وانتقل المسلمون من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم، وبدأوا يخططون لأعمال التحرير، وتوقف الصليبيون عن أعمال الهجوم إلى أبعد الحدود، وبات شاغلهم الرئيسي الاحتفاظ بما احتلوه، وتبدلت نوعية الحكام المسلمين، وتغيرت مشاعر الناس نحوهم، وشرعت المصادر العربية أثناء حديثها عن الوقائع والمعارك ضد الفرنجة تكثر من ذكر المتطوعة.

لقد استهدفت من وراء ما عرضته حتى الآن أن اخلص إلى بعض النتائج التي تصلح كقواعد للبحث في تاريخ الحروب الصليبية من وجهه نظر عربيه منصفة، فلقد اعتبر الباحثون الاوربيون هذه الحروب جزءاً لا يتجزأ من تاريخ أوربا للعصور الوسطى، وصنفوا مراحلها إلى حملات متواليه اختلفوا في تعدادها وتسمياتها، وصحيح أن هذه الحروب لها أسباب أوروبية ووقائع مباشرة وغير مباشرة، لكن حقيقة ما حصل أن وقائع الحروب الصليبية - التي تحمل هذا الاسم - قامت على أرض الشام العربية، وإن المشكلة الأساسية هنا ليست كامنة في الأسباب الأوروبية لهذه الحروب، بل في أسباب اخفاق العرب في التصدي للغزاة الصليبيين عندما طرقوا الشام للمرة الأولى، ثم في عدم تمكنهم من اقتلاعهم من أراضيهم المحتلة إلاّ بعد وقت طويل، والمثير للانتباه هنا أن الباحثين الأوربيين يؤرخون لما قام به الصليبيون في ألمانيا، أو فرنسا، أو بلغاريا، أو بيزنطة، في اطار التاريخ الوسيط الخاص لكلُ بلد من هذه البلدان ثم في الاطار الأوروبي العام.

إن بلاد الشام جزء من الوطن العربي في آسية، ومن المتوجب تفسير أحداث الحروب

شامياً عربياً مع عدم اغفال الشأن الأوروبي، وعليه نرى أن الحروب الصليبية مرت بطورين:

أ ـ الطور الأول ارتبط بقيام هذه الحروب، وعمليات الاحتلال حتى وصل التيار إلى مداه أمام أسوار حلب ثم انعكس.

ب ـ الطور الثاني وارتبط بحرب التحرير والاسترداد، ومرت هذه الحرب بأربع مراحل، ارتبطت كل منها باسم مدينة من مدن العرب تحملت عبء المسؤولية العظمى لقيادة أعمال التحرير، كما أن كل مرحلة من المراحل كان لها مزاياها وخصائصها، وتعلقت الأمور كلها بشكل أساسي بأوضاع العرب والمسلمين من حيث اليقظة والوحدة وشخصيات القادة، وهذه المراحل هي: مرحلة الموصل، مرحلة حلب، مرحلة دمشق، مرحلة القاهرة.

وسبق أن عرضنا أن الموصل كانت أعظم مدن الجزيرة Mesopotamia وتحدثنا عن تحولها من مدينة عراقية إلى مفتاح نحو السيطرة على بلاد الشام الشمالي، وربما على الشام بأسره، ولقد أراد الصليبيون احتلال مدينة حلب لسد الثغرة بين الرُّها وأنطاكية، ولعزل الشام عن المشرق، بعدما تم عزله إلى حد بعيد عن مصر، ليسهل بعد ذلك الاطباق عليه، واحتلاله بشكل كامل، لكن مدينة حلب نجت، ودخلت في وحدة طوعية شعبية مع الموصل، وهكذا توحد شمال الشام مع أعالي بلاد الرافدين تحت قيادة البرسقي، ووجهت الآن طاقات المسلمين في الدولة الجديدة ضد الصليبيين، وانتقل العمل ضد الفرنجة من مرحلة الدفاع السلبي إلى مرحلة الهجوم الإيجابي، لكن لسوء حظ المسلمين اغيتل البرسقي من قبل الحشيشية الإسماعيلية بعد عامين من انقاذ حلب، وبدء حرب التحرير.

وأدى اغتيال البرسقي إلى انتكاسة مروعة، لكن مؤقتة، ذلك أن الأمة كانت تعيش بداية عصر لليقظة لذلك اجتازت المحنة، وتغلبت عليها، فبعد قليل من الأزمات والمؤامرات آلت أمور الموصل إلى زنكي بن عماد الدين زنكي، الذي تسلم سنة ٥٢١ هـ ـ ١١٢٧ م زمام الأمور بالموصل، وتميز بأنه كان عسكرياً من الطراز النادر، له من الحزم والشجاعة والبطش وحب النظام والتقيد به، مع المطامح العالية ما أحله محل الزعامة، ومكنه من شغل الدور الذي كانت الأمة في مرحلة استفاقتها آنذاك قد أوكلته إليه، وعهدت بمسؤولياته الجسام إلى اخلاصه وكفاءته.

لقد أدرك زنكي حجم المسؤولية التي ألقيت على عاتقه، فقام بها خير قيام، وأدرك أن عليه ـ حتى يحقق النجاح ـ أن يوحد بأي ثمن، وبأية واسطة بين أجزاء الأمة الممزقة سياسياً، وأن كل شيء جائز وقانوني في سبيل تحقيق الوحدة، وإزالة العوائق والفوارق،

لتطوير حركة اليقظة وتنميتها، ونفي الفوضوية عنها، والزامها بالجدية والنظام والعمل الجاد البناء.

وكانت خطته في العمل ضد العدو تهدف أولاً إلى إزالة مملكة الرها، ثم اسقاط أنطاكية حتى تسد الثغرة ما بين أعالي الرافدين وشمال بلاد الشام، ومن ثم تغلق المنافذ البرية للصليبيين، فتتوقف بذلك الهجرة البرية، ويحال بين الامبراطورية البيزنطية وبين التدخل وتقديم المساعدات للصليبيين، الذين يمكن بنجاح هذه الخطة وضعهم داخل نطاق الحصار من الجوانب البرية، إدراكاً من زنكي بعدم توفر الامكانات البحرية، ولقلة عدد المهاجرين نسبياً القادمين على ظهر السفن.

وبعد أعمال جهادية عملاقة تصدى فيها زنكي أحياناً للجيوش البيزنطية، وحرر فيها حيناً آخر معرة النعمان، وكفر طاب، وبارين، والأثارب مع المنطقة الشمالية والغربية لدولة حلب [فاستردت حلب بذلك شيئاً من عافيتها، وتوفرت لديها امكانات أعظم للمساهمة بشكل أوفر في أعمال التحرير] استطاع زنكي سنة ١١٤٤ م احتلال الرُّها والقضاء على أولى دول الفرنجة تأسيساً في المشرق، ولقد عم لسقوط الرُّها صدى بالغ الاتساع في الشرق والغرب، وكانت تلك أقسى ضربة حلت بالفرنجة مذ دخلوا الشام، وأفدح خسارة ألمت بهم.

ولعل في القصة التالية التي رواها ابن الأثير في كامله وهي لا شك مخترعة، صورة عاكسة للآثار العظيمة التي أحدثها سقوط الرها على المسلمين وسواهم: « حُكي أن بعض العلماء بالأنساب والتواريخ قال: كان صاحب جزيرة صقلية قد أرسل سرية في البحر إلى طرابلس الغرب وتلك الأعمال، فنهبوا وقتلوا، وكان بصقلية إنسان من العلماء المسلمين، وهو من أهل الصلاح، وكان صاحب صقلية يكرمه ويحترمه، ويرجع إلى قوله، ويقدمه على من عنده من القسوس والرهبان، وكان أهل ولايته يقولون أنه مُسلم بهذا السبب.

ففي بعض الأيام كان جالساً في منظرة له تشرف على البحر وإذ قد أقبل مركب لطيف، وأخبره مَن فيه أن عسكره دخلوا بلاد الإسلام، وغنموا وقتلوا وظفروا، وكان المسلم إلى جانبه وقد أغفى، فقال له الملك: يا فلان! أما تسمع ما يقولون؟ قال: لا! قال: إنهم يخبرون بكذا وكذا، أين كان محمّد عن تلك البلاد وأهلها؟ فقال له: كان قد غاب عنهم، وشهد فتح الرها، وقد فتحها المسلمون الآن، فضحك منه مَن هناك من الفرنج، فقال الملك: لا تضحكوا، فوالله ما يقول إلا الحق، فبعد أيام وصلت الأخبار من فرنج الشام بفتحها ».

وتابع زنكي نشاطاته لتنفيذ خططه وحدث أنه بعد عامين مضيا على سقوط الرها أن قضى زنكي نحبه غيلة من قبل أحد غلمانه، حدث ذلك وهو يحاصر قلعة جعبر، ووقع ليلاً بينما كان زنكي نائماً، وهرب الغلام الذي اقترف جريمة قتله وجاء إلى تحت قلعة جعبر « فنادي أهل القلعة: شيلوني فقد قتلت السلطان، فقالوا: اذهب إلى لعنة الله قد قتلت المسلمين كلهم بقتله ».

لقد كان لمصرع زنكي أثر مفجع على نفوس المسلمين، فدعوه « بالشهيد » وبرغم كثرة الشهداء في التاريخ العربي، فإن زنكي هو الوحيد الذي عرف بهذا الإسم، لكن برغم هذا كله لم يوقف موت زنكي مسيرة التحرير، ولم يؤثر كثيراً على أوضاع الأمة، ذلك أن الأمم الحية لا تتأثر كثيراً بفقدان القادة، ولا تتعطل مسيرتها بمصرعهم لأنها تنجبهم الواحد تلو الآخر.

لقد أثارت أخبار سقوط الرها مشاعر البابوية، وحرضتها للدعوة إلى حملة صليبية كبيرة تمضي إلى المشرق لاستعادة الرها ولإكمال السيطرة على بلاد الشام.

وتوفر لهذه الدعوة داعية اسمه « القديس برنارد » شغل الدور نفسه الذي شغله سلفه بطرس الناسك، وكما أن برنارد سار على خطى بطرس فإن البابا يوجينيوس الثالث حاول أن يقلد البابا أوربان الثاني، المبشر الأول بالحروب الصليبية، فدعا إلى عقد مجمع ديني، وتم ذلك في فرنسة في فصح سنة ١١٤٦ م وقد حضره عدد كبير من رجال الكنيسة والاقطاع، الذين خاطبهم البابا فأثار حماسهم، وأضرم نيران تعصبهم إلى حد القرار بالذهاب إلى الشرق.

وهكذا تألفت الآن حملة كبيرة شملت ثلاث مجموعات رئيسة: واحدة من فرنسة بقيادة الملك الفرنسي لويس السابع، وثانية من ألمانيا بزعامة الملك كونراد الثالث، وثالثة من الانكليز والفلنديين والطليان وسواهم، وقدرت الطاقة القتالية للمجموع بسبعين ألف فارس وبكميات هائلة من المشاة والأتباع ذهبت المصادر البيزنطية إلى جعلهم سبعمائة ألف.

وكانت هذه الحملة أكثر نظاماً من الحملة الأولى، وعندما وصلت إلى القسطنطينية وعبرت إلى البر الآسيوي انفجرت الخلافات بين الملك الفرنسي والملك الألماني بشكل حاد، فقرر الانفصال وأن يأخذ كل واحد منهما طريقاً خاصاً نحو الشام.

سار الملك الألماني في سهول الأناضول ففتك به وبرجاله مقاتلوا سلاجقة الروم مع الحر والعطش فعاد فلهم ليأخذ طريقاً آخر، وأما الملك الفرنسي ومن بقي من رجال الحملة فأخذ طريق آسية الصغرى وبعد مشاق ومعارك وصل أنطاكية ومن هناك ركب نصفهم

البحر حتى أنطاكية وتابع البقية سفرهم براً فأباد أكثرهم التركمان قبل وصولهم إلى مشارف الشام.

وبعد جهود مضنية وصل الناجون من الحملة إلى القدس، وهناك اجتمع ملك القدس بكل من الملك الألماني والفرنسي، واتفق الثلاثة على الزحف إلى دمشق لاحتلالها.

وكانت سلطات دمشق آنذاك - ١١٤٨ - بيد الوزير معين الدين أنر، فقام بتنظيم الدفاع عن المدينة واستغاث بنور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب وبأخيه سيف الدين صاحب الموصل، فهبا لنجدته وبفضل ذلك مع حنكته السياسية والمقاومة الضارية التي أبداها أهالي دمشق، والبراعة في فنون الدفاع وأعمال المباغتة اضطر الصليبيون إلى رفع الحصار عن دمشق بعد عدة أيام فقط وذلك في أواخر تموز - ١١٤٨ م -.

وبعد هذا بفترة وجيزة تبددت بقايا الحملة الثانية فعاد الملك الألماني إلى أوروبة أولاً في العام نفسه ثم لحقه الملك الفرنسي في فصح ١١٤٩ م، وإذا كان صمود حلب قاد نحو الشروع في حرب الاسترداد وصيانة الشرق، فإن صمود دمشق قد مهد الطريق نحو الوحدة الشامية العربية وقاد من بعد إلى حطين.

كان نور الدين زوجاً لابنة أنر وزير دمشق، ومنذ وفاة والده ظهر بأنه الرجل الذي سيحل محله في الزعامة، وكان حادث اغتيال زنكي قد طوى مرحلة حرب الاسترداد الأولى، وهكذا انتهت مرحلة الموصل لتبدأ مرحلة حلب وهي المرحلة الثانية للتحرير، وتسلم نور الدين محمود بن زنكي القيادة بعد سقوط أبيه، وكان نور الدين - الذي اتخذ من حلب مقراً له - مثله مثل أبيه في الشجاعة والحزم والاخلاص والطموح، إنما تميز عن أبيه بتقواه وزهده، وسلامة نيته، فقد كان يعتقد بأن الله تعالى قد أوكل إليه مهمة اقتلاع الفرنجة من ديار المسلمين، وتوحيد هذه الديار وأهلها تحت راية واحدة ولهدف جهادي واحد.

وكانت أولى الأعمال التي قام بها نور الدين محمود استعادة الرها من الصليبيين الذين استغلوا حادث اغتيال زنكي والفوضى التي رافقته، فاستولوا عليها ثانية، وبعد هذا بذل جهد ما أوتيه من قوة وطاقات في سبيل اثارة الأمة، وبعث روح الجهاد والتضحية بين جميع أفرادها في جميع مناطق الوطن العربي، ويعتبر نور الدين من أعظم الذين أسهموا في إيجاد جيل عربي جديد له روح جديدة، تضحي في سبيل الجهاد والتحرير، وتخترع وتبدع كل ما يحتاجه الجهاد والتحرير، وهي الوقت نفسه روح مثقفة متحضرة تحب حياة الوحدة والتعاون والتكاتف، وتكره الفرقة وتمجها، هذه الروح الجديدة التي تجسدت في معظم أفراد الأمة وفي شخص نور الدين، فكان لها مثلاً أعلى، هي التي مكنت من عدد من الانجازات العسكرية

وهي التي مكنت نور الدين في سنة ١١٥٤ م من الذهاب إلى دمشق بناء على دعوة أهلها، فوحد لأول مرة منذ قرون بين شمال الشام وجنوبه، وشملت هذه الوحدة أجزاء من الجزيرة، وهي أيضاً التي سببت بناء العديد من الرباطات والمدارس والجامعات والمشافي، ورعت الثقافة وشجعت المثقفين، فنور الدين هو الذي شجع ابن عساكر على كتابة تاريخ لمدينة دمشق جاء في ثمانين مجلدة كبيرة، وهذا أمر لم يعهد له مثيل في سير الأمم وتواريخها.

وبتحول نور الدين من حلب إلى دمشق انتهت المرحلة الثانية، وتحولت مدينة دمشق عن الموقف السلبي تجاه الصليبيين إلى وضع إيجابي تقود به حرب الاسترداد وبشكل حاسم، فمن دمشق خاض نور الدين عدة معارك ضد الصليبيين، وكانت جميع المعارك التي وقعت بين المسلمين والصليبيين حتى هذا التاريخ غير فاصلة، فبلاد الشام هي بلاد تساعد بنيتها الجغرافية على قيام كثير من القلاع والحصون، وكانت معظم المدن والبلدان فيها ذات أسوار للدفاع، لذا كانت كلما حدثت معركة بين قوة عربية وقوة صليبية، كانت هذه المعركة غالباً ما تحدث قرب أسوار إحدى القلاع أو الحصون، ولذلك كانت تستغرق وقتاً طويلاً، وتستهلك جهداً عظيماً دونما فائدة تذكر، وإذا ما حدث ووقع اشتباك في أحد السهول فإن المهزوم غالباً ما كان ينسحب إلى واحد من مواقعه المحصنة القريبة، فيتخذ موقف الدفاع لذلك طال أمد الحروب الصليبية، واحتاجت إلى تكاليف باهظة، وبات على المسلمين وقادتهم تأمين الموارد الكافية من الرجال والمؤن، والسلاح والمال لنفقات هذه الحروب، وكذلك العمل من أجل خلق ظروف وحالات مواتية لقيام معركة فاصلة مع العدو، تحطم فيها قواه العسكرية، ذلك (أن الصليبيين ظلوا في المشرق عبارة عن مؤسسة عسكرية محتلة، ولم تقم بينهم وبين المسلمين علاقات حياة اجتماعية وتعايش، وما جاء في بعض المصادر عن بعض العلاقات لا يمكن أخذه مأخذ القانون الشامل، لقد عاش الصليبيون في المشرق غرباء، وملكوا القدرة على البقاء طالما ملكوا القدرة العسكرية، لكن عندما فقدوا ذلك بضربة حاسمة صار وجودهم مؤقتاً).

وبعدما وحد نور الدين الشام والجزيرة نظر أمامه فرأى مصر بطاقاتها الهائلة ومواردها الكبيرة الجبارة، وكان الحكم في مصر على غاية من الضعف والتمزق والاضطراب، وتوجه نور الدين بأنظاره نحو مصر كي ينقذها من فوضاها، وكي يدخل إليها الروح الجديدة التي حلت بالشام، وحتى تستخدم موارد مصر، وتزج طاقاتها في المعركة بدلاً من التبعثر والهدر والضياع.

وكان الصليبيون قد وصلوا إلى قناعات مفادها أنه بات من المحال بالنسبة لهم التوسع

في بلاد الشام وأنه ليس أمامهم في مستقبل قريب غير مصر أو البحر، لذلك أرادوا احتلال مصر، ورغبوا في الاستفادة منها ومن مواردها، لكي يحولوا بين المسلمين وبين تطويقهم، والعمل في سبيل القضاء عليهم واقتلاعهم، لهذا أعدوا العدة، ورسموا الخطط، وجردوا عدة حملات ضد مصر، لكن نور الدين كان لهم ولأعوانهم من المتحكمين بمصر بالمرصاد، فسارع إلى التدخل، وبفضل شجاعة قوات نور الدين، وتجاوب شعب مصر معها، أخفقت جميع جهود الصليبيين، وتمكن نور الدين في سنة ١١٦٧ م من توحيد مصر مع بلاد الشام والجزيرة، وفي سنة ١١٧١ م تم إلغاء الخلافة الفاطمية، وقامت في مصر حياة جديدة ويقظة متفتحة، وبدأت مصر تستعد للإسهام في أعمال التحرير، وطوقت الآن ممتلكات الصليبيين، وأعد نور الدين قواته من أجل معركة فاصلة، وكان موقناً من أن النصر سيكون حليفه، وأنه لن يكون بعد فترة للصليبيين وجود في الشام، وبلغت استعدادات نور الدين ويقينه من النصر إلى حد أنه أمر بصنع منبر لتخطب عليه خطبة الجمعة الأولى في المسجد الأقصى بعد تحريره [1].

وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب والياً لنور الدين على مصر، وقبل أن يتوجه نور الدين على رأس قواته نحو فلسطين أصدر أوامره إلى صلاح الدين بقيادة قوات مصر، والالتقاء معه على أسوار الكرك، ولكن ـ ولكل عظيم سقطة ـ غلبت أنانية صلاح الدين وشهوته للسلطة عن نفسه ـ وذلك بتحريض جهازه الذي أحاط به، له، وتخويفه من نور الدين ـ فتلكأ صلاح الدين ولم ينفذ أوامر نور الدين متعللاً بأوهى الأسباب، وهكذا تأجل موعد المعركة الفاصلة، وكلفت شهوة السلطة الأمة سنيناً طويلة أخرى من الدم والعذاب.

وتوفي نور الدين بشكل مفاجىء عام ١١٧٤ م، وقام بعده صلاح الدين، فاستطاع أن يرث دولته، ذلك أن عقد دولة نور الدين انفرط عشية وفاته، لأنه خلف صبياً لم يستطع القيام بأعباء المسؤولية فخف صلاح الدين من القاهرة إلى الشام، فتمكن خلال سنوات من حسم مادة الفوضى من البلاد، وحال بين الفرنجة وبين أي توسع في الشام، وأقام دولة تمتد من ليبيا إلى جنوب الموصل، وتشتمل على: بلاد الشام والجزيرة مع مصر، والحجاز، واليمن، وليبيا.

إن قيام دولة صلاح الدين وتمركزه قد أنهى المرحلة الثانية من مراحل التحرير، وهي مرحلة حلب التي بدأت إثر وفاة زنكي وانفراد نور الدين بالزعامة في الشام، ومعنى هذا ابتداء المرحلة الثالثة وهي مرحلة دمشق أهم المراحل جميعاً.

---

(١) أحرق هذا المنبر منذ عدة سنوات إثر احراق المسجد الأقصى، بعد حرب ١٩٦٧.

وملكت دولة صلاح الدين ما يكفي من طاقات بشرية واقتصادية للاعداد للقيام بعمل حاسم ضد الصليبيين، وأيقن صلاح الدين أنه قد حان الوقت لمنازلة جميع القوى الصليبية في أرض معترك واحدة، وفي ظروف مناسبة، وخلال زمن يكون لصالحه، ويتيح له إحراز النصر وسحق القوات المعادية.

وشهدت هذه الفترة تطوراً كبيراً في العلوم العسكرية لدي المسلمين، من حيث تحسين عدد كبير من الأسلحة، ومن حيث رفع مستوى التدريب والمقدرة القتالية الهجومية لدى قوات صلاح الدين، كما أن دولة صلاح الدين ملكت اقتصاداً عسكرياً متيناً، وأصبح لديها نواة أسطول يؤدي بعض الخدمات في البحر المتوسط، لكن برغم هذا كله كانت تعاني من نقص في الأخشاب والفولاذ.

وكان الصليبيون يمتلكون آنئذ الشريط الساحلي لبلاد الشام ابتداء من أنطاكية، وكان عرض هذا الشريط لا يتجاوز أحياناً الثمانين كيلو متراً، وكانت أراضيهم موزعة بين دول ثلاث، مراكزها: أنطاكية، والقدس، وطرابلس، وكانت هذه الأراضي محاطة ومحصورة من ثلاث جهات بالأراضي العربية حيث وجدت مدن بلاد الشام الكبرى مثل: دمشق، حمص، حماه، حلب، وكانت هذه المدن واقعة على مقربة من (الحدود الصليبية) كما كان معظم سكان المناطق الواقعة في حوزة الصليبيين من العرب السوريين، ولم تدرس بعد بشكل عميق أنماط علاقاتهم بالصليبيين المحتلين، وذلك أن هذا من المواضيع الخطيرة التي درست من قبل باحثين فرنسيين وسواهم واستخدمت في تسهيل مصالح الاستعمار الفرنسي إلى حد القول أو الايحاء بوجود فرنسيين فيما وراء البحار في الشرق.

وكانت المساعدات البشرية والحربية والاقتصادية ترد إلى الصليبيين من أوروبة بلا انقطاع عن طريق الأناضول، وعن طريق البحر فقد كانت أساطيل الدويلات الإيطالية تتحكم بأعمال الملاحة في البحر المتوسط، وكانت قوى صلاح الدين البحرية أضعف من أن تخوض معركة مواجهة مع هذه الأساطيل.

وإذا كان أسطول صلاح الدين أضعف من أساطيل الدويلات الإيطالية، فقد ملك المسلمون آنذاك أساطيل جبارة، كان بامكانها فيما لو تعاونت مع أسطول صلاح الدين تقديم خدمات كبيرة للغاية لقد كان هناك أسطول دولة الموحدين، وكان الموحدون يخوضون غمار حرب ضروس ضد الصليبيين في جبهة الأندلس.

وبفطرة الشعور بوحدة المصير ووحدة المعركة وجد آنئذ مواطنون من مدن المشرق والمغرب كان بعضهم يغزو عاماً في فلسطين وعاماً آخر في الأندلس، من هذا المنطلق راسل

صلاح الدين يعقوب المنصور الموحدي بسفارة سامية المستوى، واستقبل المنصور الموحدي السفارة ببعض الحفاوة، لكنه لم يلب المطلب الذي قدمت من أجله السفارة وذلك لأسباب عقائدية وسياسية مختلف حول تحديدها.

هذا واعتمد الصليبيون على حماية الامبراطورية البيزنطية ومساعدتها لهم، وكانت هذه الامبراطورية القوية تسعى دائماً للتنسيق مع الصليبيين والاستفادة من نشاطهم، يضاف إلى هذا أن الصليبيين ركنوا في كثير من الأحيان إلى المساعدات التي كانت تأتيهم من ارمينية وأحياناً من موارنة جبل لبنان.

ومفيد هنا أن نتذكر أن الصليبيين حققوا نجاحاتهم بسبب تمزق المسلمين وانصرافهم إلى النزاعات الداخلية، لكن الآن أيام صلاح الدين انعكست الآية، وانقلب السحر على الساحر، فلقد توحد المسلمون في الشرق تحت راية صلاح الدين، وأخذت الفرقة تحل بين صفوف الصليبيين اجتماعياً وحضارياً واقتصادياً، كما أخذ التمزق يبدد قوى قادتهم سياسياً، وكانت الروح المتوقدة التي ظهرت بين طلائع الصليبيين قد خمدت، كما أن الفوارق بدت جلية بين أبناء الصليبيين الذين نشأوا في الشام، وبين هؤلاء الذين قدموا حديثاً من أوربة، وظهر بين صفوف الغزاة الفرنجة منظمات عسكرية دينية اصطدمت مصالحها في كثير من الأحيان وتعارضت سياساتها، كما جلب الصليبيون معهم إلى الشام نظم الاقطاع التي كانت سائدة في أوروبة، لهذا تضاءلت سلطات الدول على الفرسان الاقطاعيين الذين تمركزوا في بعض قلاع الشام، ولم تعرف جيوش الفرنجة أنظمة الطاعة والضبط والربط، يضاف إلى هذا أن بعضاً من الاقطاعيين تطلع نحو عرش إحدى الدول الثلاث، وحكمه حكماً مباشراً أو على شكل وصاية.

وقام صلاح الدين في كثير من المناسبات، وببراعة متناهية، بتوسيع شقة الخلافات بين قادة الصليبيين، كما كثف النشاط العسكري ضد القلاع مستهدفاً تدمير الفرنجة اقتصادياً ليكون ذلك مقدمة للتدمير العسكري والسياسي، وتركزت في البداية جهوده على حماية منطقة دمشق، وذلك بتحرير أراضي الجولان مع منطقة جبل عامل وبعلبك، ثم الاشراف على الطريق البري الواصل بين مصر والشام، وكان للصليبيين على هذا الطريق حصن الكرك، فجهد صلاح الدين في سبيل الاستيلاء عليه.

وقبيل وفاة نور الدين كان أموري الأول ـ ملك القدس ـ أبرز قادة الصليبيين، وأكثرهم مقدرة، وأعظمهم طموحاً، وقد حاول استغلال الظروف التي نجمت عن وفاة نور الدين المفاجئة، إنما فوت عليه ذلك منيته التي حاقت به، بعد قرابة شهرين من وفاة نور

الدين، وقد خلفه على عرش القدس ابنه بلدوين الرابع، وكان صبياً في الثالثة عشرة من عمره، مصاباً بالجذام عاش حتى الرابعة والعشرين، وقد حرمه صغر سنه ومرضه من ممارسته للسلطة، وكانت مملكة القدس في أمس الحاجة إلى من يقودها حيال نشاط صلاح الدين وأعماله.

ودبت الفوضى في مملكة القدس، وقام صراع بين الأمراء الاقطاعيين حول الاستبداد بأمورها والوصاية على عرشها، وتدخل صلاح الدين مراراً في هذا الصراع ليزيد من رقعته، وأثناء ذلك تمكن أحد الأمراء الصليبيين واسمه رينو دي شاتيون ـ الذي عرفه العرب باسم أرناط ـ من السيطرة التامة على قلعتي الكرك والشوبك، وكان أرناط هذا أرعن أحمق متعصباً ومتهوراً، ركز ميادين نشاطه على قطع طريق الحج والطريق الواصل بين مصر والشام.

ولم يهمل صلاح الدين نشاط أرناط هذا، وحاول الحد منه، لكن حدث سنة ١١٨٧ م، أن هاجم (أرناط) قافلة مسلمة كانت قادمة من القاهرة إلى دمشق، فانتهب ثرواتها، وأسر الذين جاؤوا فيها، وفي مواجهة هذا الحادث تذرع صلاح الدين في البداية بالحلم والصبر، فأرسل وفداً إلى أرناط يطلب منه اطلاق سراح الأسرى، ورد (المنهوبات) فأجاب (أرناط) رافضاً بتحد ووقاحة، وهنا أرسل صلاح الدين رسالة إلى ملك القدس، فلم يستطع فعل شيء، وأمام هذا الحال استنفر صلاح الدين قواته، واستنفر قوى المسلمين في الجزيرة وسواها، وأخذت القوات تتدفق على دمشق، لتنطلق منها مسيرة التحرير.

وكان قوام جيش صلاح الدين الفرسان، وكان سلاح هؤلاء الأساسي القسي والنشاب مع السيوف والدبابيس، وتفوقت قسي جيش صلاح الدين على ما كان يوجد لدى الفرنجة، إذ كانت أكثر مرونة وأخف وزناً وأسهل استعمالاً، وصنع القوس في الغالب ـ على الطريقة التركمانية ـ من قطع من العظام صف بعضها إلى جانب بعض، ثم لفت بخيوط من جلود الحيوانات، المبللة بالماء، وكانت أوتار الأقواس أيضاً من جلود الحيوانات وعندما كانت هذه القسي تجف بالشمس كانت قدرتها (النابضة) كبيرة للغاية، وكان الفارس الرامي يستطيع الرماية في جميع الجهات، وأن يرمي في الدقيقة الواحدة عشرة أسهم أو أكثر، وكان السهم يصل إلى مسافة أربعمائة متر أحياناً وعندما كانت قوات صلاح الدين تتقدم إلى معركة ما، كانت تغطي سماء المعركة بالسهام، وغالباً ما استهدفت السهام خيول فرسان العدو، وأمام هذا اضطر الصليبيون إلى تغطية أنفسهم وخيولهم بدروع واقية، ولكن غالباً ما كان ضرر هذه الدروع أكثر من نفعها، وذلك أن القوات العربية كانت تفضل الحرب في مواسم الصيف لأسباب كثيرة، منها ما كان زراعياً ارتبط بنظام الاقطاع العسكري، ومنها ما

كان لغايات فنية قتالية، فقد كانت الأمطار والأجواء الرطبة العدو الأول والأكبر للقسي، لأنها كانت تفقدها فاعليتها.

وحين كانت المعارك تتم في مواسم الحر، كانت قوات الصليبيين (المدرعة) تعاني من العطش ويصاب فرسانها بالانهاك نتيجة لانحباس التعرق، وسنرى تأثير ذلك في نجاح المسلمين بكسب معركة حطين.

وفي مواجهة القواعد القتالية عند المسلمين لم يكتف الصليبيون بتغطية فرسانهم وخيولهم، بل عدلوا من طرائق قتالهم وتسليح جيوشهم، فقد أخذوا باستخدام قوات من المشاة الذين كانوا يرتدون معاطف من الجلد السميك فوقها قميص من الشباك المعدنية، وكان سلاح هؤلاء القسي الثقيلة، والفؤوس والحراب، وكانوا يتقدمون أمام فرق الفرسان التي كان سلاحها الرئيسي الرماح القوية، التي كان كل منها عبارة عن اسطوانة خشبية طويلة لها سنان معدني حاد، وزج كان يوضع أثناء القتال في مكان مخصص له تحت ابط الفارس، أو كان الفارس يمسك به بكلتا يديه، وكان إذا ما حدثت معركة حاول فيها المسلمون التقدم، كان مشاة الفرنجة يتمركزون على الأرض، ويأخذون بالرمي المؤثر الممهد، وهنا كان إذا حاول فرسان العرب الإغارة عليهم، كان الفرسان الصليبيون الثقال يتصدون لهم بالانقضاض عليهم كالصواعق، رماحهم مسلطة إلى الأمام، قادرة على الخرق بقوة اندفاع الخيول، لربط الفارس نفسه إلى ظهر فرسه، وسنده لرمحه على نقطة ارتكاز معدة خصيصاً لهذه الوظيفة، ولهذا بنى العرب خططهم على تجنب معركة تصادمية مباشرة في سهل مكشوف، وعمدوا دائماً إلى استدراج الفرنجة للقتال في أماكن وعرة ومرتفعة حيث تشل فاعلية فرسانهم، واستهدفوا دائماً الاستفادة إلى أبعد الحدود من انعدام النظام والضبط والربط لدى فرسان الفرنجة، الذين ما كان أحدهم ليعتلي فرسه ويشرع رمحه حتى كان ينقض على من وقف قبالته كائناً من كان بشكل فردي وعشوائي ودون انتظار أوامر من رئيس أو قائد.

لهذا بنى العرب خططهم على استدراج فرسان الفرنجة والقيام بعملية فصل للقوات أو للأسلحة، أي ابتغوا إحداث ثغرة بين سلاح الفرسان وسلاح المشاة، وعملية الفصل هذه عملية معقدة للغاية تطبيقاً وتنفيذاً، لهذا استخدم العرب أنظمة الكر والفر، والهجوم المخادع وغير المباشر بغية جذب الفرسان أبعد مسافة وتسبيب الاعياء لهم ولخيولهم والإيقاع بكل منهم على حدة، وكان العرب إذا ما نجحوا في ذلك كله، كانوا يرسلون سهامهم في السماء حتى تهبط على رؤوس الفرسان أو كانوا يرسلونها سطحية لتصيب بطون الخيل المعادية فتعقرها فقد كان في عقر الخيول تعطيل لسلاح الفرسان، فالفارس المدرع المسلح بالرمح الطويل،

كان يعجز عن العمل بعد عقر مطيته وعقب هذا كله كان الرماة بخفتهم ومرونتهم يعلقون قسيهم، ويتناولون سيوفهم أو دبابيسهم ويقومون وهم يكبرون بأصوات مجلجلة، بالانقضاض على الفرسان والمشاة كل على حدة ويجهزون عليهم.

وعندما كان صلاح الدين يعزم على خوض معركة ما مع الصليبيين كان يمهد لذلك قبل عدة أشهر، فيرسل كتائب الجيش لتقوم باتلاف مزروعات العدو، وبافساد الآبار وموارد المياه، وبضرب المنشئات الاقتصادية، وبعدما يتحقق له هذا كان يقود قواته نحو الالتحام.

في ربيع ١١٨٧، دعا صلاح الدين إلى الجهاد فأخذت القوات النظامية من دولته، ودولة الموصل وسواها تصل تباعاً إلى دمشق، فوصل معها أعداد من المتطوعة، وكان ما تجمع لدى صلاح الدين أكثر من عشرين ألف مقاتل، وإنما دون الثلاثين، وقامت القيادة العسكرية بوضع خطة للهجوم على فلسطين بغية تحريرها، واستهدفت هذه الخطة استدراج قوات الصليبيين إلى المنطقة المرتفعة حول طبرية لايقاع ضربة قاصمة بها.

وشعر الصليبيون بالخطر المقبل نحوهم، فأزالوا خلافاتهم، وحشدوا قواتهم كلها، ولعلها قاربت الخمسين ألفاً، وهو عدد لم يجتمع للصليبيين مرة واحدة مثله في الشام من قبل ولا من بعد، وعسكرت قوات الصليبيين في صفورية ـ قرب الناصرة ـ وباتت تترقب الأحوال وتنتظر تطور الأمور، وكما هو واضح فإن تعداد هذه القوات فاق تعداد ما تجمع لدى صلاح الدين، وكان فيها خيرة رجال الفرنجة في المشرق، إذ ملك الصليبيون تفوقاً في التعداد مع تفوق هائل بالتسليح، ومع ذلك عوض صلاح الدين هذا كله بالتكتيك، وهذا لا شك يضفي صفة خاصة على معركة حطين.

غادر صلاح الدين دمشق، وأخذت قواته الطريق نحو الأردن، وفي يوم الجمعة ٢٦ حزيران ١١٨٧ ـ عبرت هذه القوات الأردن جنوب بحيرة طبرية، واتخذت موقعها قرب أطراف النهر، وبات عليها تنفيذ خطة موضوعة بدقة.

وبعد مناورات ناجحة استطاع صلاح الدين استدراج الفرنجة واقتلاعهم من مواقعهم، وبعد قتال صعب أنزل بهم ضربة قاصمة، ولقد بحثت هذا كله بالتفصيل، وبشكل علمي في كتابي [حطين ـ مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس. ط. دمشق ١٩٨٤].

ان حطين واحدة من معارك التاريخ الفاصلة، حطمت فيها المؤسسة العسكرية الصليبية، وقام صلاح الدين بعد ذلك بقليل بتحرير القدس حيث جلب إلى المسجد الأقصى منبر نور الدين، فألقيت عليه خطبة التحرير، وبات الآن أمر وجود الصليبيين في المشرق

قضية زمن لا أكثر، وإن من يستعرض أخبار الفترة التاريخية للمرحلة الثالثة: مرحلة دمشق بقيادة نور الدين ثم صلاح الدين يجد أمة تتحرك كجسد واحد بلا تناقضات كبيرة، ولا أمراض مستعصية، وكان بودي أن ـ أستعرض هنا بعض النماذج الشاهدة، لكن ذلك يحتاج إلى مكان أرحب.

عاش صلاح الدين عدة سنوات بعد حطين وتحرير القدس واجه خلالها مشاكل صعبة للغاية حتى على الصعيد العسكري، إنما ذلك كان عديم التأثير، فلقد حكم نصر حطين على الوجود الصليبي في المشرق بالزوال، وما كان لقوة أن تغير ذلك الحكم، كل ما حدث محاولات لتأخير حركة التنفيذ لكن بشكل يائس.

ولقد ترعرعت الروح الجديدة التي حملت من الشام إلى مصر، فجعلت بعد فترة وجيزة من الزمن القاهرة عاصمة لديار العرب، ومركزاً لقواهم وثقافتهم وحضارتهم، وبعد وفاة صلاح الدين صارت القاهرة مقر السلطنة الأيوبية، ومن القاهرة قاد خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين أولاً ثم من المماليك، قادوا أمة العرب نحو تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام، ونحو تسبيب الاخفاق لجميع محاولات أوروبة في احتلال أي جزء من بلاد العرب، كما أن القاهرة حمت الوطن العربي في مشرقة ومغربه، وصانته عندما تعرض هذا الوطن للغزو المغولي، فهزمت المغول في معركة عين جالوت وأجبرتهم على الجلاء عن أرض الشام.

وفي دمشق وحلب والموصل والقاهرة طور العرب زمن الحروب الصليبية فنونهم الحربية وصناعة الأسلحة، واخترعوا الكثير من الأسلحة الجديدة، وتحفل المكتبة العربية بالكثير من المؤلفات عن السلاح وفن الحرب كلها تعود إلى هذه الفترة.

وبعدما طرد الصليبيون من المشرق، وزال خطر المغول بدأت قوة العرب وحضارتهم بالتدهور السريع والجمود، بينما بعثت في أوروبة التي خسرت الحروب الصليبية حضارة سببت لها القوة وقادتها من جديد نحو ديار العروبة والإسلام.

ويتساءل الباحث عن أسباب انحطاط العرب مع أنهم حازوا النصر وبعث أوربة مع أنها كانت المهزومة؟ ولعل من أسباب ذلك أن أوروبة الاقطاعية الشديدة التمسك بالكاثوليكية حين خسرت الحرب كانت تلك الخسارة ضربة مميتة للنظام الاقطاعي والكنيسة معاً في أوروبة، وفي المقابل نجد أن الحروب الصليبية التي طال أمدها قد مكنت في البداية القادة العسكريين في الشرق المسلم من تسلم زمام الأمور وساعدت على التعصب الديني، وخلقت إلى جانب الاقطاع العسكري إقطاعاً دينياً كان جديداً كل الجدة في تاريخ الإسلام، ومع الأيام زادت صلاحيات الجند على حساب المؤسسات المدنية، وترسخت قواعد أنظمة للكهنوت

الاقطاعي في الإسلام، وعندما توقفت الحرب أصبح الجند عالة على الأمة، ثم ان الشعور بالنصر والسلم والأمان بعد عهود طويلة من الحروب والدمار، مع زوال عوامل التحدي دفع العرب نحو الاخلاد إلى الراحة والسكينة وإلى قبول نوع جديد من التمزق السياسي، وحيث أن الأمة قد وجهت أيام الحروب معظم طاقاتها، ورصدت كافة امكاناتها المادية والعقلية للمعركة، فقد عطل هذا مع الأيام الكثير من جوانب الحياة الثقافية، والحضارية وولد مع الاقطاع الديني والعسكري التعصب والتزمت والاحتكار.

إن اهمال الحضارة والثقافة والتعصب الأعمى كان وما زال آفة العرب الكبرى، ومعلوم أن العرب لم يتمكنوا قط من صنع حضارة وثقافة وهم ممزقون، لكنهم كانوا كلما اتحدوا وتسامحوا بعقل ومنطق صنعوا كل شيء، ففي الوحدة الهادفة الواعية كمن - ولا يزال يكمن - سر نهوض العرب وقوة المسلمين.

إن البحث في تاريخ الحروب الصليبية كان موضع اهتمام عدد كبير من المؤرخين الأوائل، كما هو موضع اهتمام المعاصرين، وجاءت أهم مصادر الأوائل إما بالعربية أو باللاتينية أو بالاغريقية أو بالسريانية، ويعتبر ابن القلانسي والعماد الأصفهاني وأبي شامة أشهر المؤرخين العرب، وسبق لي أن نشرت تاريخ دمشق لابن القلانسي، كما قام واحد من طلابي واسمه أحمد بيسومي بتحقيق عيون الروضتين لأبي شامة كرسالة لنيل الماجستير والكتاب قيد الطباعة الآن في وزارة الثقافة بدمشق، هذا وأمتلك ما يقارب خمسة أجزاء من الأجزاء السبعة المكون منها كتاب البرق الشامي للعماد الأصفهاني وسأعمد إلى نشر هذا الكتاب بتحقيقه من قبلي أو باعطائه لواحد من طلابي ليكون موضوع رسالة ماجستير في التاريخ والأمر مرتبط بتيسير الله وعونه وتوفيقه.

هذا وتعتبر آنا كومينا أهم من كتب بالاغريقية في تاريخ الحروب الصليبية وسبق لي نشر ما كتبته مترجماً إلى العربية في كتابي الحروب الصليبية، ويعدّ في الوقت نفسه ميخائيل السوري أعظم المؤرخين السريان، فهو قد عاصر نور الدين، وشغل منصب بطريرك أنطاكية وسائر المشرق، وتلا ميخائيل ابن العبري في تاريخه الكبير بالسريانية، واتفقت مؤخراً مع الزميل الدكتور الياس بيطار على نقل كتاب ميخائيل الكبير إلى العربية والحاقه بالأخبار التي دونها ابن العبري بعد وفاة ميخائيل وهي تغطي قرابة القرن من الزمان، وسأتولى تحقيق النص المترجم وتيسير دفعه إلى النشر هذا العام انشاء الله وأعان.

والكتابات باللاتينية كثيرة جداً، إنما مهما بلغت أهمية بعضها يعد الكتاب الذي صنفه وليم رئيس أساقفة مدينة صور أهم مصدر كتب باللاتينية على الاطلاق.

لقد أرسى وليم قواعد الأدب التاريخي اللاتيني للحروب الصليبية، وجميع الذين جاؤوا من بعده عيال عليه حتى يومنا هذا.

لن أتحدث هنا عن حياة وليم ولا عن مصنفه فذلك متسير في المدخل التالي لهذه المقدمة والنص بعد هذا بين أيدي القارىء يتعامل معه حسبما يريد، لكن لا بد من الأخذ بعين الاعتبار أن وليم كتب بعقلية رجل الدين الكاثوليكي المتعصب ونظر إلى الأمور من زاوية محددة، ولذلك يلاحظ أن مواده عن تاريخ الإسلام لا قيمة لها، عرضت بشكل ينم عن عداء سافر، وهي بالحقيقة ابنة عصرها، فهكذا كتب جميع اللاتين وسواهم من المسيحيين، ومع ذلك هي ليست ابنة بقعتها الجغرافية، فقد كتب وليم في صور وكتب ابن القلانسي والعماد الأصفهاني في دمشق وشتان ما بين نظرة التسامح والاعتدال لدى المسلمين والاغراق بالتعصب لدى وليم، وبناء عليه إن ما حكاه وليم عن أوضاع المسيحيين في بلاد الشام محض اختلاق، والذي يقرأ ما جاء في كتاب أحسن التقاسيم للمقدسي وجميع الدراسات حول الادارة في بلاد الشام لاسيما في العصر الفاطمي يشهد أن أوضاع أهل الذمة في بلاد الشام كانت ممتازة، وأكثر من هذا إن المتتبع لأحداث الحروب الصليبية يرى أن الذي نزل بالمسيحيين المحليين على أيدي رجال الحملة الصليبية الأولى كان يعدل ما نزل بالمسلمين، أضف إلى ذلك إن الصراع ضد الصليبيين قد ولّد في الشام شعوراً بالتعصب لدى المسلمين جلب الضرر على أوضاع المسيحيين المحليين، ففي أثناء حصار الصليبيين لمدينة حلب سنة ٥١٨/١١٢٤ قاموا بهدم المساجد والمشاهد حول المدينة وبنبش قبور المسلمين مما دفع قاضي حلب إلى مصادرة كنائس المدينة ومن ثم القيام بتحويلها إلى مساجد.

إن مواد وليم الصوري عن الأتراك السلاجقة ومعركة منازكرد لا قيمة لها البته وهي أشبه بالأساطير مع أن الرجل كان يتقن العربية وكان تحت تصرفه مصادر عربية كثيرة.

وبصرف النظر عن هذا كله إن ما كتبه وليم الصوري عن أحداث الحروب الصليبية له قيمة قصوى، وكتابه مصدر لا يمكن الاستغناء عنه فيه ما لا نجده في مصدر آخر، وهو بالوقت نفسه وثيقه أساسية من وثائق الحروب الصليبية لاسيما إذا أخذنا بعين الاعتبار استمرار النظرة حتى يومنا هذا.

لقد اقتضى العمل في ترجمة هذا الكتاب مني ما يزيد على العامين، وقمت بعد الترجمة الأولى له بقراءة نصه خمس مرات للضبط والمراجعة والتعليق، ولقد عانيت كثيراً من مسألة مطابقة أسماء المواقع وأعلام الأفراد، فوليم لم يلتزم بقاعدة واحدة في رسم أسمائه، ولا يوجد

بالعربية أو غيرها جداول وافيه تساعد على المطابقة، وأعتقد أنني نجحت في مهمتي هذه إلى أبعد الحدود.

الكتاب الآن بين يدي القارىء وكلي أمل في أن تحصل الفائدة منه ويصبح في متناول كل باحث ومهتم بأخبار الحروب الصليبية، وحين أذكر هذا أفعل ذلك لأوضح أنني بذلت جهداً متواصلاً لمدة عشر سنوات حتى تمكنت من الحصول على نسخة من هذا الكتاب، وما زلت أذكر أنني بحثت في دمشق وبيروت والقاهرة فلم أجد نسخة منه وفي أثناء دراستي في لندن بذلت كل جهد ممكن للوقوف على نسخة منه فلم أوفق، فقد كان في المكتبة المركزية التابعة للجامعة نسخة منه استعارها أحد الأساتذة ولم يردها أبداً، وأخيراً تمكنت في عام ١٩٧٦ من الحصول على نسخة من نيويورك في الولايات المتحدة.

سيدرك القارىء لدى مطالعته لنص هذا الكتاب مدى أهميته وسمو مكانته، وسيقدر وقتها الجهد المبذول في نقله إلى العربية. والله الموفق وله الحمد والشكر والصلاة والسلام على خاتم النبيين وإمام المرسلين سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين.

دمشق ١٩٨٧/١٢/٢٧ **سهيل زكار**



مدخل:

ما تزال الحروب الصليبية تشغل حيزاً واسعاً في الذكريات الغالية لشعوب الغرب المفتونة بأخبار اكتشاف العالم الجديد، ذلك أن مصنفات أخبار الحروب الصليبية تضيف إلى السجل الطويل لمغامرات الاستكشاف روايات رومانسية تتساوى في السعي نحو الهدف الأمثل والغاية الأكثر تقى، وصحيح أن الهدف النهائي لتلك المحاولة لم يتحقق أبداً بشكل كامل على الرغم من أنه كاد أن يتم إحرازه إلى حدٍ ما في عدد من المرات، ومع ذلك فقد تم إحراز الكثير من ثمار الجهد الذي بُذل في سبيله إلى درجة أنه لن يضيع أبداً؛ لأن الحضارة في أوروبا قد تقدمت مادياً وفكرياً وروحياً إلى مستويات جديدة خلال فترة الحروب الصليبية، يضاف إلى هذا أن أوروبا الغربية قد اشتركت برمتها في محاولات احتلال الأراضي المقدسة. ولئن كانت أقاليم فرنسا قد ساهمت إلى أبعد الحدود في هذه المحاولات فإن البلدان الأوروبية الأخرى لم تتقاعس في مساهماتها أيضاً. فلقد ساهمت بريطانيا برتشارد قلب الأسد، وألمانيا بفردريك بربروسا، وإيطاليا بتانكرد وبوهيموند، والأراضي المنخفضة بغود فري أوف بولليون وبولدوين، وروبرت أوف فلاندرز، والدول الاسكندنافية بسيغورد (جورسالفار). كما ساهمت كلّ من اسبانيا وإيرلندا واسكوتلندا بنصيبها الوافر خلال قرنيّ النشاط الصليبي العظيم. لذلك كله كانت قصة الانتصارات والإخفاقات للأحداث البطولية والمعاناة المأساوية أكبر من شأن طارىء، أو حدث عابر بالنسبة إلى شعوب العالم الغربي. كما أن الاهتمام بتلك القصة التي بدأت مع لحظة انطلاقة الحملات، وحيث انتظر الناس بشوق ولهفة في الوطن إلى سماع الأخبار عن ذويهم الزاحفين- قد استمرت منذ ذلك التوقيت. وبما أن أبناء الذين شاركوا في الحملات قد انتشروا في الأرض فقد حملوا ذلك الاهتمام معهم. ونتيجة لذلك كله ظهر إلى الوجود أدب كبير جداً حول وقائع الحروب الصليبية امتد من الأدب الروائي المغالي إلى الغناء والشعر والدراما، وصولاً إلى التاريخ النقدي والتفسير الفلسفي.

وفي وسط هذا الركام نجد أن تاريخ وليم رئيس أساقفة صور يحتل مكانة فريدة، فأهميته الثابتة أمر موضح بشكل جيد، إنما بشكل غريب أحياناً، كما حدث في القصة غير المنسوبة، التي أختارها المؤرخ البريطاني هـ. بيير غوردون، ليكتب فيها وصفاً شاملاً لوقائع استيلاء الجنرال أللنبي على القدس في عام ١٩١٧، وعلى هذا يمكن اعتبار كتابه على أنه

« التذييل الأخير المجهول المؤلف لتاريخ وليم الصوري »[1]. وواضح أن القصد من وراء هذه الإشارة التأكيد على حقيقة مفادها أنه بالنسبة لسرد أخبار الحملات اللاحقة لأيام وليم الصوري كان كتّاب القرن الثالث عشر قد أجمعوا بشكل متسلسل تقريباً على إضافة مناهاتهم المجهولة النسبة إلى الرواية التي صنفها وليم الصوري، ذلك أن رواية وليم الصوري تعتبر، بشكل عام، التاريخ الأول الشامل لأخبار الحروب الصليبية، علماً بأنه جرى وصف أحداث الحملة الأولى قبل عصره ليس من قبل المشاركين فيها فقط، بل أيضاً من قبل أدباء كان بعض منهم قد حاول إكمال الروايات المبكرة. ولقد أخذ وليم بدوره شطراً كبيراً من مواده من هذه المصادر الرئيسة للمعلومات، وضمنها في « كتبه »(*) الأولى، أو في فصول منها. وحين صنف تاريخه اتخذ من مدينة القدس محوراً لموضوعه، وهكذا أضاف إلى المصنفات السابقة لعهده مقدمات استعرض فيها خسارة المسيحيين لهذه المدينة في سنة ٦١٤ م، ثم تابع سرد أخباره حتى قبيل سقوطها في عهد صلاح الدين عام ١١٨٧ م. والطريقة التي أنجز فيها هذه المهمة مصاغة بشكل جيد، فقد وصفها مؤرخ حديث بعبارات كان منها قوله: « لقد وجدت هذه الحركة العظيمة مؤرخها المناسب في شخصية وليم الصوري، فهو مؤرخ يتفوق إلى حد كبير على جميع زملائه المؤرخين الذين عاشوا في العصور الوسطى، وذلك في مجال التناسق الفني لمصنفه، تماماً لما فعل ذلك في مجال الاهتمام الموروث، فأكمل موضوعه بشكل ملحمي »[2]. وما أن أصبح هذا المصنف معروفاً حتى تداوله الناس، واعتمده المصنفون الآخرون بمثابة قاعدة ارتكزوا عليها وأضافوا إليها رواياتهم الخاصة بهم حول الأحداث التالية. ولقد صنف هذه الإضافات التي غطت أخبار القرنين الأكثر نشاطاً في تاريخ الحروب الصليبية مصنفون عديدون وصولاً إلى نهاية القرن الثالث عشر، ولذلك يمكن القول: إن مصنف وليم الصوري يشتمل على جزع الشجرة الرئيسي بالنسبة للأدب التاريخي المتعلق بالحروب الصليبية، ويمكن أن نجد جذور هذا الجزع في مصنفات سابقة، وأن نجد الأغصان في إضافات لاحقة مجهولة المصنفين.

حياته:

كان وليم الصوري ـ مصنف هذا الكتاب ـ رئيساً لأساقفة مدينة صور من عام ١١٧٥ م إلى عام ١١٨٤ أو ١١٨٥ م، كما ظل حاجباً مستشاراً لمملكة القدس اللاتينية من عام ١١٧٤ وحتى تاريخ وفاته. وعلى هذا يمكن تقرير جزء كبير من سيرته على أساس أدلة

(*) جعل وليم مصنفه مؤلفاً من عدة كتب حوى كل منها عدة فصول.

(١) ج. ل. لا ـ مونت « بعض المشاكل في التواريخ الصليبية » سبكيوليوم: ١٥ (١٩٤٠) ٦٠.

(٢) ا. آرثر « حول تواريخ اعتلاء ملوك القدس الأوائل للعرش » دورية التاريخ الإنكليزي: ٤ (١٨٨٩) ٨٩.

موضوعية[1]، في حين تكونت بقية معلوماتنا حول حياته من خلال إشارات خفيفة وتلميحات عرضية وردت في ثنايا عرضه لأخبار أيامه. ونتجت عملية إعادة التركيب هذه ـ وهي عملية مشابهة لتلك التي أعاد العلماء بوساطتها جمع الهياكل العظمية من العظام المبعثرة لحيوانات ما قبل التاريخ ـ عن جهود متواصلة لسلسلة طويلة من العلماء بادئين بالنسخة المطبوعة الأولى لهذا التاريخ في القرن السادس عشر، ومستمرين حتى الوقت الحاضر، وتشتمل قائمة أسماء أولئك الذين أسهموا في إعادة تركيب سيرة حياة وليم الصوري على: بانتاليون Pantaleon وبونغارس Bongars وباستورت Pastoret وميكود Mickaud، ورانكي Ranke وسيبل Sybel وجافي Jaffe ورينت Riant وكوغلر Kugler، وماس لاتري Maslatrie وب. باريس P.Paris، وري Rey، وبروتز Prutz، وت.أ.آرشر T.A.Archer وروهرخت Röhricht وهاغنمير Hagenmeyer و.و.ب. ستيفنسون W.B.Stevenson، ود.س. مونرو D.C.Monro وبريهير Brehier, ومونت Monte[2]، وجرى إنجاز عملية البناء هذه من خلال

(١) من المدهش هنالك بعض التلميحات القليلة التي أدلى بها كتاب معاصرون إلى وليم. فاعتماده محصور على الوثائق القانونية بشكل كبير، حيث سجلها كلها تقريباً. ر.ر. هرخت في كتابه «وثائق ملوك القدس».

(٢) إن المصادر المذكورة هنا ليست إلا عدداً قليلاً من مصادر الذين سنحت لهم الفرصة للتعليق على سيرة وليم الذاتية، والمحاولة الأولى والمعروفة حتى الآن لكتابة سيرة وليم الصورية موجودة في إحدى النسخ المطبوعة الأولى لكتاب:

H. pantaleon, Historia blli Sacri Verissime... Athore olim willemo Tyrio... Una cum Continuatione... Cum Praefatione Henrici Pantaleonis atque Ipsius Authris Vita.

وكتب الديبلوماسي ج. بوغنارز سيرة موجزة لحياة وليم في طبعته لتواريخ الحملات الصليبية Gesta Dei Perfrancos وكتب س. باستورت الذي اعتبر وليم على أنه من أصل فرنسي، مقالة توجز مكتشفات الأساتذة حتى وقته لكتابة تاريخ الآداب الفرنسية: ١٤ (١٨١٧٠) ٥٨٧ ـ ٥٩٦. ونشأ اهتمام جديد في تاريخ الحملات الصليبية في بداية القرن التاسع عشر تمثل بالأعمال البارزة لـ. ف. فلكن:ـ

Geschichte Der Kreuzzuge Nach Morgenlan Dischen Und Abendlandischen Berichten).

وأيضاً ـ ميشيل الذي خصص صفحات كثيرة لمدح وليم كمؤرخ في كتابه: «مصادر الحروب الصليبية: ١/١٣٤ ـ ١٦٨. وأحال رانكي مصادر المعلومات حول تاريخ الحملات الصليبية على التدقيق النقدي لحلقته الدراسية، ونشر أحد ألمع طلابه، فون سيبل دراسة نقدية في عام ١٨٤١ عن آداب الحملات الصليبية الأولى. وأدرج معالجة مطولة لحياة وليم وقيمة تاريخه لمعرفتنا عن الحملة الصليبية الأولى. (هـ. فون سيبل ـ تاريخ الحملة الصليبية الأولى: ١٠٨ ـ ١٤٣). ثم وجه تفحص نقدي إلى وصف وليم عن الحملة الصليبية الثانية حيث أثار تشابه معالجته لمعالجة كتاب «أعمال لويس السابع» مجالاً للشك بالإقتباس.

وأكدت أصالة وليم بعد مناقشة كبيرة ولخص الدليل من قبل ب. كوغلر «دراسة حول الحملة الصليبية الثانية»: ٢١ ـ ٣٤ وكتابه «وقائع الحملة الصليبية الثانية». ولسوء الحظ أن بوليان باريس استفاد فائدة قليلة، أو لم يستفد أبداً من هذه الدراسات النقدية، حيث كان نفوذ اسمه سيقود طلاباً كثيرين للأدب المتعلق بالقرون الوسطى إلى تجاهلها أيضاً، هذا ولم يهمل كونت رينت الأعمال النقدية للأساتذة المعاصرين بل ساهم بها كثيراً في دراساته المتنوعة والواسعة عن الحملات الصليبية، وسيتم ذكر بعضها من الحواشي. وبقي على =

افتراضات وتخمينات غير مسؤولة ثبت فيما بعد أن الكثير منها غير صحيح، في حين ساعدت البقية وخدمت كأدلة براقة نحو التقدم الإضافي، وبالفعل كانت قد ظهرت افتراضات غير صحيحة فيما يتعلق بسيرة حياة وليم، وذلك قبل زمن طويل من تطبيق مناهج الأبحاث النقدية على الموضوع. ومما يؤسف له أن هذه الأخطاء الأولى بالإضافة للمرتكزات الزائفة التي أولاها الباحثون المعاصرون اهتمامهم أحياناً قد أصبحت أيضاً جزءاً لا يتجزأ من الأدب التاريخي للحروب الصليبية، بحيث صار القارىء غير الواعي يتقبل بسهولة الخطأ مع الصواب. إن هـذا الخطر الجليُ في كتاب غروسيه Grousset الأخير، المؤلف من ثلاثة مجلدات، والمسمى «تاريخ الحروب الصليبية»- كبير جداً بحيث بات من الضروري أن نقدم هنا موجزاً للروايات الحالية الموثقة حول سيرة حياة وليم[1].

= هـ. بروتز أن يباشر دراسة نقدية وشاملة لوليم ومؤلفاته. وظهر هذا في كتابه: - «Studien Uber Wilhelm Von Tyrus» Neues Archir Dergesell Schaft Fur Altere Deutsche Geschichts Kunde, VIII (1882), 93-132 ولخصه في كتابه: «تاريخ آداب الحروب الصليبية» ص ٤٥٨ - ٤٦٩. ومنذ أن ظهرت تلك الدراسات، كانت المساهمات الأخرى لمعرفتنا عن وليم قد أصبحت ذات طبيعة تكميلية، وغالباً ما أصبحت جزءاً ثانوياً لبحث آخر. وحاول ت. أ. آرثر في مقالته: ص ٩١ - ١٠٥ أن يحل التشويش الميقاتي لتسجيل وليم للملوك. وتلقت هذه المسألة انتباهاً إضافياً من قبل د. ب - ستيفنسون في كتابه «الصليبيون في الشرق» في ص: ٣٦١ - ٣٧١. كما أضاف ر.ر.روهرخت إضافة كبيرة لمعلوماتنا عن عمل وليم كمستشار في كتابه البارز «وثائق». كما نتجت مساهمات هامة أيضاً من أعمال التحقيق التي قام بها هـ. هاغنمير لتواريخ الحملة الصليبية الأولى التي سيتم ذكرها في مكان آخر. كما قدم ل. برهير إضافات أيضاً في كتابه «الغرب والشرق». والإضافات التي قدمها ج. ل. لامونت في كتابه «الملكية الإقطاعية». وفي حين أن هؤلاء الباحثين قدموا المساهمات الأكثر أهمية منذ أن نشر بروتز كتابه «دراسات» فقد ساعد تقريباً كل دارس إنكب على تاريخ الحملات الصليبية في القرن الثاني عشر على تقوية معرفتنا عن حياة وليم وأعماله، وظهر جهد لتلخيص معرفتنا الحالية عن الموضوع في مقالة أ. س. كري: «صنع المؤرخ في العصور الوسطى» سبكيوليوم. ١٦ (١٩٤١) ١٤٩ - ١٦٦. ويمكن الحصول على ثبت مراجع إضافي من الأبحاث الأساسية حول المصادر التاريخية والأدبية للعصور الوسطى: م.مانتوس «أبحاث في تاريخ وآداب العصور الوسطى». غ. غروبر «الدراسات اللغوية الرومانسية الكبرى» بو. شيفلر «دراسات حول المصادر التاريخية للعصور الوسطى» - المصادر أ. بوتثاست «المصادر التاريخية للعصور الوسطى. أ. مولينير «المصادر الأساسية لتاريخ فرنسا وإيطاليا» ج٢. وإنه لمدهش حقاً أن نجد الملاحظات القصيرة لكل من غروبر ومانتوس أكثر صحة من ملاحظات بوتثاست أو مولينير.

(١) رينه - غروسيه «تاريخ الحروب الصليبية ومملكة الفرنجة في القدس»: ٧٥٧/٢. وتظهر الأخطاء في كل مكان من المجلدين الأولين اللذين تتبع فيهما الترجمة الفرنسية القديمة لعمل وليم كما نشره ب. باريس، وتظهر بعض هذه الأخطاء وأخطاء ارتكبتها في طبعة كاكستون «غودفري دي بو لليون من قبل ماري نويس كولفن. والأتعس من ذلك أن كلاً من بوتثاست ومالنير اللذان تعتبر تعليقاتها المرجع القياسي للمؤرخين، قد حافظت على عدة أخطاء خطيرة، وهكذا فقد خدع هاغنمير أو ربما أحد مساعديه، في عمله المهم الأخير (هـ. هاغنمير طبعته لكتاب تاريخ فولتسر ص ٨٥) وخانه بوتثاست في استخدامه لعام (١١٩٠) كتاريخ لوفاة =

كان وليم من أهالي مملكة القدس، ولربما ولد هناك في حوالي عام ١١٣٠ م، ومن المرجح أن ولادته حصلت في مدينة القدس بالذات[١]، ومن المحتمل أن والديه كلاهما قد جاءا من الغرب، لكن مَن هما؟ ومتى ومن أين جاءا إلى القدس؟ ما من واحدة من هذه الحقائق أمكن تحديدها. وقد طرحت عدة اقتراحات، وقدمت فرضيات تتعلق بالبلد الذي جاءا منه وبأصلهما فقيل: انكلترا، وقيل ألمانيا وفرنسا وايطاليا. والغريب بالأمر أن وليم الذي توفر لديه الكثير ليقوله عن أصل الآخرين نراه متحفظاً بشكل مثير حول أصله، ولقد حافظ على صمت مطبق حول هذا الموضوع في كل مكان من كتابه، وهكذا بقي الأمر طي الكتمان حتى يومنا هذا.

ومهما يكن الحال من الممكن إقصاء الافتراضين القائلين: إنه من أصل انكليزي أو ألماني، ولا شك أن مرد خطأ الذين قالوا إنه من أصل انكليزي يعود إلى المزج بين مؤرخنا ووليم أول كان أيضاً رئيساً لأساقفة مدينة صور، وكان أيضاً من أصل انكليزي. وعلى الرغم من أن مؤرخنا وليم ـ الذي نحن بصدد الحديث عنه ـ لديه الكثير ليقوله عن الانكليز الذين شاركوا في وقائع الحروب الصليبية فإن موقفه بالتأكيد ليس موقف رجل منحدر من أصل انكليزي، فهو يقدر روبرت أوف نورماندي ويطريه، ويزدري هنري الأول، ويكيل المديح لستيفن، ويوجّه اللوم إلى الملكة اليانور Eleanor. وهو أيضاً يكره البابا الانكليزي هادريان، ويعزو ترقية رالف أسقفاً لمدينة بيت لحم إلى حقيقة أنه كان ابنا للبلد الذي جاء منه هادريان. ويلاحظ أن الدعاوي الذاهبة إلى القول إن ألمانية هي موطن أجداده أقل إقناعاً. فعباراته حول المسائل الألمانية قليلة نسبياً، كما أن نسبة الأخطاء لديه بالنسبة لهذه البلاد أعلى منها بالنسبة لأي بلاد أخرى هامة، يضاف إلى هذا أنه أهمل عن عمد ـ ذكر عدد من النبلاء الألمان ذوي الأهمية، ممن كانوا في الأراضي المقدسة في أيامه[٢].

هذا من جانب، ونجد من جانب آخر أن إشاراته إلى فرنسا وإلى أقاليمها إشارات أشد كثافة وأكثر دقة على وجه العموم؛ ولهذا أفترض مراراً أن وليم كان من أصل فرنسي،

= وليم على الرغم من أن بروتز أقنعه تماماً في وقت سابق أن التاريخ كان خطأ (H. Hagenmeyer, Ed, Galterii Cancellariibella Antiochena, P. 47)

(١) لم يظهر أي دليل حتى الآن ليعترض على هذه الإستنتاجات التي قدمها بروتز ويعطي ج. بري عام ١١٢٧ على أنه تاريخ ميلاد وليم في طبعة لكتاب جيبون «انحدار وانهيار الامبراطورية الرومانية: (٤/٥٢٧).

(٢) لاسيما الدوق هنري الأسد (انظر إ. جارنسون «رحلة حج هنري الأسد» مقالات تاريخية ووسيطة في ذكرى جيمس وستفول سمبسن). وعلاوة على ذلك، يعترف وليم صراحة بجهله أسماء العديد من القادة الألمان في الحملة الصليبية الثانية.

وقد تمسك بروتز Prutz بهذا الرأي ؛ وذلك أن دراسته عن وليم الصوري هي أكمل دراسة جرت حتى الآن. ومع ذلك فإن هنالك أرضيات واسعة لمحاجّة هذا الاستنتاج: من ذلك مثلاً أن وليم يمتلك معارف غير عادية في دقتها حول ايطاليا ، ثم إنه يضيف أثناء إشاراته إلى تاريخ صقلية عدداً من التفاصيل الأساسية بالنسبة لروايته الأصلية ، علاوة على هذا نراه يدعو ـ إلى حدّ ما ـ تانكرد باسم بطل ويجعله يعدل بالمكانة غودفري ، ولا يدرج فرنسا على أنها بلاد واقعة فيما وراء الجبال فحسب ، بل نراه ينبه إلى أن هنري أوف شامبين لم يكن من شامبين في إيطاليا ، لكن من « شامبين عبر الجبال ». ولا شك أنه لا يمكن أن نتوقع صدور مثل هذه الإشارات عن رجل فرنسي ، أو حتى عن ابن انحدر من أبوين فرنسيين ، إضافة إلى هذا هنالك حقائق أخرى عن حياته ستتم دراستها فيما بعد ، وهي تمتن هذه الشكوك وتدفع المرء إلى الاعتقاد أنه كان من أصل إيطالي ، أو إيطالي ـ نورماندي.

أما بالنسبة إلى أبيه فلم يمكن تحديد وضعه ومهنته بشكل حاسم ، فقد اعتقد باستورت أن وليم كان قريباً إلى معظم الأسر النبيلة القيادية في مملكة القدس ، وقد بنى روايته هذه على ما جاء في كتاب للتاريخ هو مفقود الآن [1] ، وإذا ما قرنت هذه الرواية مع الصمت المطبق لدى وليم بخصوص أسلافه فبالإمكان الاقتراح بوجود سبب وجيه لديه لإخفاء أصله ، ومع ذلك هنالك حقيقة إزاء هذه الإشارة ، وهي أنه من المعروف أن وليم كان له أخ يدعى رالف ، وقد ورد ذكره في صك تاريخه عام ١١٧٥ م ، وذلك بمثابة شاهد على نقل ملكية في القدس [2] ، وبما أن اسم رالف قد جاء في أسفل قائمة الشهود ، ولا يحمل أيه تسمية تزيد على قرابته لرئيس الأساقفة ، فقد افترض أن أباه لم يكن من طبقة النبلاء ولا من القادة العسكريين. ولعله كان تاجراً أو كاتباً للعدل ، باعتبار أن هاتين المهنتين كلتاهما مثلتا بشكل جيد في الأرض المقدسة في ذلك الحين ، وفي العادة إذا كان مثل هؤلاء الأشخاص من الغرب فهما من أصل إيطالي [3] ، وهنا نلاحظ أن عدم اطلاع وليم ونقص معارفه بالأمور العسكرية مع اهتمامه وتعاطفه مع نشاطات التجار تمنح درجة من التأييد لا بأس بها لهذا الاعتقاد . علاوة على ذلك كانت المستعمرة اللاتينية الدائمة في القدس في تلك الآونة صغيرة جداً

(١) انظر الحاشية رقم ٢ صفحة ٣٥ . يذكر تاريخ كتبه « يتني دي لوسنان » ضاع منذ ذلك الحين.

(٢) وثيقة رقم ٥٣١ .

(٣) عالج المؤرخون المعاصرون بشكل كامل تماماً نشاطات التجار الإيطاليين الذين اهتم بهم وليم اهتماماً كبيراً. بالإضافة إلى العمل الرائد العظيم للمؤرخ و. هايد « تاريخ التجارة في الشرق خلال العصور الوسطى ». وانظر أيضاً: H. Kretschmayr, Geschichte, Vonvenedig والكتاب الذي نشر مؤخراً من قبل إ. هـ. بايرن بعنوان: « تجارة الجنويين مع سورية في القرن الثاني عشر » الدورية الأمريكية للتاريخ: ٢٥ (١٩١٩ ـ ١٩٢٠) ـ ١٩١ ـ ٢١٩ ، يعالج مظاهر متنوعة لإمبراطورية الجنويين البحرية.

إلى حد أن التجار العاديين فيها كانوا على علاقات طيبة مع نبلاء البلاط، فكيف بكتاب العدل؟

وفوق هذا كله، أمضى وليم فترة صباه في فلسطين، ومن المحتمل أنه قضى معظمها في مدينة القدس؛ ذلك أن ذكرياته عن هذه المرحلة مبعثرة هنا وهناك في ثنايا تاريخه ومتمحورة حولها. ففي ثنايا رواياته نشهد معرفة دقيقة وقريبة بشوارع وأبنية تلك المدينة [1]، زد على هذا أن اتقانه الرائع لعدد من اللغات لا يمكن تحصيله إلاّ من قبل شاب عاش في الشرق. وقد اشتملت معارفه وإتقانه للفرنسية التي كانت لغة البلاط وللعربية التي تشاركت مع الفرنسية في حقل التجارة، وللغة الاغريقية التي كانت شائعة الاستعمال في الشرق، يضاف إلى هذا إنه كما يبدو ألم على الأقل بشيء من المعرفة ببعض اللغات الشرقية الأخرى مثل العبرية والفارسية، أما بالنسبة إلى اللغة اللاتينية التي كانت لغة الكنيسة والمدارس فيشير إتقان وليم الرائع لها إلى أنه لا بد قد حظي بتدريبات ممتازة في مجالاتها. وتثير هذه الفكرة فرضية ممتعة فيما إذا كان وليم قد تلقى تدريباته مع الأمير بلدوين الذي كان يساويه في السن تقريباً، ولدعم هذه الفرضية يمكن الاستشهاد بخطأ وليم الغريب بخصوص الملك فولك Fulk والد بلدوين، الذي تحدث عنه وكأنه أكبر بعشرين سنة مما كان عليه بالفعل، ومردّ هذا إلى انطباع خاطىء حمله كما يبدو منذ طفولته وأصر عليه بكل بساطة.

وليس من المستبعد أن وليم قد اتخذ منذ فترة مبكرة من حياته قراره بالالتحاق بالكنيسة؛ لأن من بين أكثر الأشخاص الذين ذكرهم وأضفى عليهم الحب والاحترام الحقيقيين كان بطرس البرشلوني الذي كان رئيساً لكهنة القبر المقدس من عام ١١٣٠ إلى عام ١١٥٨ م. وهي فترة تتماشى مع الأعوام الثماني والعشرين الأولى من حياة وليم، وكانت جماعة رهبان الكاتدرائية التي ترأسها بطرس قد اتخذت نظاماً محدداً يتعلق بتدريب الكهنة؛ لذلك لن يكون ما ذهبنا إليه افتراضاً متهوراً، وخاصة إذا نظرنا إليه في ضوء ثقافة وليم اللاحقة، مما يسمح لنا باستنتاج أنه أظهر استعداداً مبكراً للتعلم، الأمر الذي لا بد قد أثار انتباه مدرسيه إليه. ومن المحتمل أن هذه الحقيقة بالذات هي التي لفتت انتباه بطرس إلى وليم، وأدت إلى نشوء صداقة حميمة بينهما، لا شك أنها عنت الكثير بالنسبة لوليم الشاب، ومع أنه لم يكن في مملكة القدس العسكرية الحدودية عدد كاف من الأولاد ليقدموا مسوغاً لتطور مدارس هامة فلقد كان هنالك أماكن قليلة في الغرب تجمع فيها عدد أكبر من العلماء [2].

---

(١) كانت معرفة وليم عن مدينة القدس موضوع دراسة قام بها لندغرين بعنوان «وصف القدس من قبل وليم الصوري» دورية الأبحاث التاريخية الحديثة: ٢٠ (١٩٠٩) ٩٧٣ - ٩٩٢.

(٢) نادراً ما تلقت الأرض المقدسة، كنقطة للإتصال بين باحثي الغرب والشرق في القرن الثاني عشر الإهتمام =

وصحيح أن غالبية هؤلاء القوم كانوا حجاجاً قد أتوا فقط لزيارة مزارات الأرض المقدسة، وعقدوا العزم على الرحيل فوراً، لكن بما أن بعض الزوار الأكبر سناً قد خططوا لإنهاء أيامهم الأخيرة هناك، فقد اشتملت الأديرة على عدد لا بأس به من الرجال ذوي الدعاوي العالية بالعلم، وكان من بينهم غودفري راعي معبد الرب، فقد اشتهر بمعرفته الاختصاصية باللغة الاغريقية. لذلك لا بد لشاب بارع ومتلهف مثل وليم أن يكون قد حصل على فرصة جيدة لتحسين تعليمة ببناء صداقة مع مثل هؤلاء الرجال سواء أثناء الرحلات إلى المزارات أو في داخل الأديرة والمؤسسات الكنسية، ولا شك أن بطرس البرشلوني قد وجه مسار تعلم صديقه الشاب. وإنها لحقيقة فريدة أن نجد وليم ليس لديه الشيء الكثير ليقوله حول الأحداث العسكرية التي وقعت خلال السنوات الأخيرة من سني مراهقته مع السنوات الأولى من عشرينياته. حتى أن بعض الحوادث الرئيسة الكبيرة التي حدثت مثل حصار مدينة عسقلان والاستيلاء عليها في عام ١١٥٣ م قد أثارت انتباهه من الجانب العسكري أقل مما أثاره موقف البطريرك فولتشر Fulcher وتشبثه بالمطالبة بمواصلة الحصار بعد أن كان الملك قد يئس من الاستيلاء على المدينة. وكان هذا البطريرك ـ الذي شغل منصبه منذ أن كان وليم في السادسة عشرة من عمره ـ رجل كنيسة آخر حظي باحترام وحب الشاب التامين. وخلاصة الأمر: تشير جميع القرائن إلى قرار وليم المبكر بمباشرة دراساته اللاهوتية، ومن ثم متابعة تحصيله لنيل منصب كهنوتي بدون انقطاع.

وليس من المعروف فيما إذا كان وليم قد نال رسامته على يدي البطريرك فولتشر الذي عاش حتى بلغ مؤرخنا الثامنة والعشرين من عمره، أو على يدي بطرس البرشلوني الذي أصبح رئيساً لأساقفة مدينة صور عندما كان وليم في الثامنة عشرة من عمره. والمهم هو أنه من المؤكد أن صداقته مع الرجلين قد استمرت، وكذلك حبه وتأثره بهما حتى تاريخ وفاتهما، هذا وما لبث وليم أن أصبح حين حان الوقت عضواً في الأسرة الرسمية لرئيس أساقفة مدينة صور، ومن المؤكد هو أنه هو كاهن مدينة صور الذي أشير إليه في وثيقة يرقى تاريخها إلى عام ١١٦١، وفي صك هدية حرره رئيس الأساقفة بطرس في عام ١١٦٣ [1].

= الذي تستحقه. وتحدث د. س. مونرو عن الموضوع في عدد من كتاباته (انظر خصيصاً كتابه: «المسيحيون والكفرة في الأرض المقدسة، مقالات عن الحملات الصليبية). وعالج س. هـ. هاسكن C.H. Haskins وجهاً هاماً من أوجه الموضوع في كتابه «نهضة القرن الثاني عشر» الفصل التاسع ومع ذلك يجب إجراء معالجة شاملة للموضوع.

(١) حُدد تاريخ أولى هذه الوثائق (وثيقة رقم ٣٧٠) في عام ١١٦١ دون إشارة محددة إضافية لليوم والشهر، وحدد تاريخ الوثيقة الأخرى (وثيقة ٣٨٥) في عام ١١٦٣، بشكل غير محدد أيضاً، على الرغم من أن روهرخت حدده بنهاية العام. تشتمل الوثيقتان على تعديل للمنكية بين رئيس الأساقفة بطرس وكهنة القبر =

وفي تاريخ سبق عام ١١٦٣ سافر وليم « عبر البحار » لمتابعة دراساته، وكان قد نـوى أن يصف لنا هذه الفترة من تعليمه في تاريخه، غير أنه لم يبق لنا سوى العناوين الفرعية لهذا الفصل وسواء أضاع ذلك، أو أنه لم يكتب وهذا هو الإحتمال الأكبر يبقى الأمر سراً دفيناً ومهما يكن من أمر فإن إشارته الوحيدة لدراساته وردت عرضاً أثناء حديثه عن انفصال الملك عموري عن زوجته أغنس Agnes قبل تتويجه في عام ١١٦٣ م. ويسوّغ وليم جهله بوقائع هذه الحادثة في ذلك الحين بأنه « لم يكن قد عاد بعد من سفره فيما وراء البحار، حيث كان مشغولاً بدراسة العلوم العقلية في المدارس ». وعندما قام مؤرخ فرنسي عاش في القرن الثالث عشر بترجمة هذه الفقرة افترض أن مثل هذه الإشارة يقصد بها بداهة فرنسا، لأن باريس والعلوم العقلية كانا متطابقين آنذاك إلى أبعد الحدود، وهكذا ترجم هذه الإشارة. وهذا افتراض قبله العلماء العصريون [1] دون جدل تقريباً. ومهما يكن الحال لنتذكر أن وليم كان في ذلك التاريخ قد بلغ من العمر الثالثة والثلاثين عاماً، أي كان في سن متقدمة ليهتم بالعلوم العقلية العادية، وبناء عليه لا بد أن هذه الفقرة تشير إلى دراسة خاصة ما مثـل القانون الذي بدأ يتميز في هذه الفترة عن العلوم العقلية، لكن ليس بشكل حاسم فغالباً ما أشير إليه تحت عنوان العلوم العقلية [2] وبما أن مثل هذا النوع من المعرفة كان مطلوباً باطراد من قبل المسؤولين عن تسيير الأعمال المتزايدة للكنيسة فقد بات الأمر شيئاً عادياً في أن يرسل رؤساء الأساقفة بعض أعضاء مؤسساتهم - عادة من بين رؤساء الشمامسة - للحصول على هذا النوع من المعرفة الجديدة في الخارج. ولا بد من أن نشير إلى أن مثل هذه الدراسة قد تمت في إيطاليا، وليس في باريس. وهكذا من المحتمل تماماً أن بطرس البرشلوني - الذي كان ما

= المقدس.... Awillelmus. Canonicus وعليهما معاً توقيع وليم الراهب الصوري وجاء ذكر وليم آخر في الوثيقة الثانية وكان رئيس شمامسة صور في ذلك الوقت وخرج روهرخت من غير قصد بين وليم هذا الذي جعل بعد ذلك بفترة قصيرة أسقفاً لمدينة عكا، وبين وليم المؤرخ الذي لم يصبح رئيساً لشمامسة صور حتى عام ١١٦٧، ومن المحتمل بالنسبة للكاهن وليم أنه غادر مدينة صور مع الحجاج العائدين إلى أوروبا بعد عيد الفصح في عام ١١٦١، وأنه عاد في الخريف مبحراً من إيطاليا في عام ١١٦٣، وربما سمح له هذا بعامين دراسيين كاملين في مدارس إيطاليا بشكل كاف تماماً لطالب يتابع دراسته بعد التخرج في دراسة القانون ومكنه أيضاً من توقيع الوثيقتين، ويتلقى تخميـن كهذا درجة معينة من التأكيد من تذكره القليل والغامض للأحداث في الأرض المقدسة فيما بين عام ١١٦١ - وعام ١١٦٣ فقد رويت الأحداث التي وقعت قبل عام ١١٦١ بالإضافة إلى أحداث عام ١١٦٤ و١١٦٥ بشكل كامل ودقيق نسبياً.

(١) انظر ترجمة فرنسية مشتملة على النص اللاتيني في مجموعة روشيت لتواريخ الحروب الصليبية - التواريخ الغربية: ١/١٠٠٤.

(٢) هـ. رشدول « جامعات أوروبا في العصور الوسطى »: ١/١١٠ - حاشية ٢. وحضر كري الدليل عن دراسة وليم المحتملة للقانون في إيطاليا في بحثه بعنوان. « صنع المؤرخ في العصور الوسطى ». سبكيوليوم ١٦ (١٩٤١) ١٤٩ - ١٦٦.

يزال يُسيّر أمور تعليم وليم ـ قد أرسله من صور، ربما في الفترة الواقعة بين تاريخ الوثيقتين المذكورتين أعلاه؛ ليؤهله على تسيير الأمور القانونية للأبـرشيـة. وهكـذا كـان وليم مشغـولاً حقاً عندما ارتقى الملك عموري العرش، وليس من المستبعد أن يحدّد تاريخ الوثيقتين المذكورتين فترة غيابه عن المملكة بدقة شبه تامة ومهما يكن الأمر فقد يبدو أن وليم عاد وكان في مدينة صور في خريف عام ١١٦٣م وهو مستعد لرعاية الشؤون القانونية للأبرشية.

ولا نعرف سوى القليل من المعلومات عن حياته خلال السنوات الأربعة التالية، فصديقـه بطرس رئيس الأساقفة قد مات وخلفه فردريك، وكان رئيس الأساقفة الجديد رجلاً من نوعية جديدة تماماً. لقد كان نبيلاً «من حيث الجسد» لكن كان ـ كما قال وليم عنه ـ مهتماً بشكل زائد بالأمور العسكرية، وكان يليق به أن يكون رجل حرب أكثر منه رجل كنيسة، وفي النهاية حدث شجار بينهما، ومع ذلك يمكن الإفتراض في الوقت الحالي أن وليم أوقف نفسه على القيام بواجبات وظيفته الروتينية، لكن هل اشتمل ذلك على جميع الأمور القانونية التي حددها له رئيس الأساقفة بطرس، أو أنها اشتملت على نشاطات أقل تخصصاً؟ ويبدو سليماً أن نفترض أنه كان بحكم تدريباته القانونية مصمماً على تحسين فرصه للترقية في التسلسل اللاهوتي ولا شك أنه اتخذ صديقيه وحامييه: رئيس الأساقفة بطرس والبطريرك فولتشر مثلين أعلى له، يحذو حذوهما، فلربما تتهيأ الظروف أمامه فيصبح رئيساً للأساقفة، ولعله حلم في أن يكون بطريركاً أيضاً.

وقد قدر لعام ١١٦٧ م أن يكون عاماً حاسماً ومصيرياً بالنسبـة لحيـاتـه ومستقبلـه، إذ كانت إمكانيات مملكة القدس في تحسن مستمر طوال حياته، وكانت حدودها تتوسع، ولقد تأمنت التحسينات عن طريق تشييد القلاع وسدّ الثغرات في دفاعاتها بشكل مشابه، كما تم الإستيلاء على مدينة عسقلان، التي كانت آخر الثغور الإسلامية البحرية في المنطقة، وجرى تحصينها وتأمين دفاعاتها حتى لا تسقط ثانية بيد المسلمين. وبالفعل بدت أمور المملكة مزدهرة جداً، إلى حد أن الملك نفسه شعر أنه مؤهل للإقلاع في مغامرة جديدة في مصر تماماً، كما فعل من قبل الملك بلدوين الثالث قبيل وفاته. وسار عموري (*) أخو بلدوين ـ الذي كان ملكاً حينئذ ـ على منهاج أخيه فقام بسلسلة من الحملات، كان أكثرها نجاحاً تلك التي تمت في عام ١١٦٧ م، وتصرف عموري كحليف للمصريين ضد الغزاة السلاجقة. وحين

(*) في هذا مغالطة واضحة فالتحالف هنا لم يكن بين المصريين والملك أموري بل بين شاور المتغلب على قصر القاهرة والصليبيين في القدس، ثم الغزاة لم يكونوا سلاجقة بدقة، كما لم يكونوا غزاة بل الحديث عن حملة شيركوه الثانية التي أرسلها نور الدين من دمشق للحيلولة دون سقوط مصر في يد الصليبيين، انظر كتابي حطين: ٨٠ ـ ٨٤.

فعل ذلك تمكن من اختراق البلاد بنجاح حتى نهر النيل، واستقبل رجاله في مدينة القاهرة المقدسة، وتمكن جيشه أخيراً من النجاح في الإستيلاء على مدينة الإسكندرية المركز التجاري الكبير من صلاح الدين الذي بدأ آنذاك يظهر كقائد عسكري، وأصاب الذهول الملك عموري لهذا النجاح الكبير غير المتوقع، وكان قبل هذا قد شعر بحاجته للمساعدة على احتلال مصر، فاستبق الحوادث بأن أجرى محادثات مع البيزنطيين في سبيل الزواج من أميرة إغريقية من القسطنطينية، ولدى عودته من الحملة الناجحة وجد هذه الأميرة التي كانت تسمى ماريا تنتظره مع حرسها في مدينة صور حيث تم الإحتفال بزواجها في الثامن والعشرين من شهر آب ١١٦٧ م، وبدأ حينئذ الإستيلاء على مصر مضموناً لعموري بشكل جيد، ولما كان هذا الملك دارساً متلهفاً للتاريخ فقد خيل إليه أن انجازه في فتح مصر سيكون بالمنزلة الثانية للإحتلال الصليبي لمدينة القدس، وبناء عليه صمم على إيجاد مؤرخ مناسب ليقوم بتسجيل أخبار هذا الإنتصار، ولا بد أنه كان يفكر بهذا الأمر منذ أن عاد من مصر. ويبدو أن هذه القضية قد سويت بعد ثلاثة أيام من زواجه، وذلك عندما لم يكتف بأن اتخذ الترتيبات اللازمة في جعل الكاهن وليم رئيساً لشماسه كنيسة مدينة صور فحسب، بل خصص له دخلاً ربما كان أعلى إلى حد ما مما كان مألوفاً لذلك المنصب.

ولا نملك أية معلومات في أي مصدر حول كيفية لفت وليم انتباه أموري، وجعله يرى أنه الشخص الأكثر أهلية لمهمة كتابة هذا التاريخ، سواء أكان ذلك بمبادرة عفوية من الملك أم إثر استقصاء دقيق وبحث حول وليم. ومما لا ريب فيه أن وليم كان قد أظهر من قبل بعضاً من الصفات المطلوبة والمؤهلات وهي سمات ظهرت بوضوح وبشكل جيد في أثره الفكري الأخير. فهو لا شك أنه كان مثقفاً ثقافة عالية أكثر من معظم زملائه، ومن المحتمل أيضاً أن معرفته باللغات كانت آنذاك ممتازة، كما أن مهارته في الخطابة والكتابة كانت ملحوظة بشكل متماثل. ومع ذلك فهو لم يتلق أي توجيه في ميدان الكتابة التاريخية، ولم يكن ـ في حدود ما هو معروف ـ قد شارك في أي عمل من هذا القبيل علاوة على هذا يبدو أنه لم يكن متلهفاً لمباشرة العمل في مهمة من هذا النوع، ربما لأنه اعتبر ذلك تحولاً عن الإختصاص الذي خطط له وتدرب عليه؛ ولهذا احتاج إلى تأكيد محدد من الملك يدل على رعايته له حتى يمكنه التغلب على تردده وهكذا جاءت عملية الترقية إلى منصب رئيس الأساقفة وفقاً لطلب الملك وبحضوره بمثابة الدليل الأول على هذه الرعاية. وإذا كان الشي بالشيء يذكر نقول لو أن عقلانية عموري وحكمته ظهرت في مشاريعة الأخرى بقدر ما ظهرت في قرار اختياره للمؤرخ لكان قد اعتبر ـ بدون جدل ـ أعظم ملوك القدس.

ويبدو أنه ما أن تسلم وليم مهام وظيفته هذه حتى باشر يعمل بها بكل حماس ونشاط

حقيقيين، فأجرى مقابلات ومناقشات شاملة ودقيقة مع الملك وضباطه حول الحملة المصرية الحالية، الأمر الذي بعث السرور في نفس الملك ورفع من مكانته لديه ولقد نما حب عموري لمؤرخه وتقديره إياه أكثر بتعارفهما، إلى درجة أنه عندما كملت أعمال تحضير معاهدة التعاون مع بيزنطة في سبيل مشروع الإستيلاء على مصر جرى ارسال وليم إلى القسطنطينية للحصول على توقيع الأمبراطور عليها. ولعل هذه المهمة قد منحت وليم فرصة الإطلاع لأول مرة على معالم تلك المدينة الامبراطورية، والتعرف للمرة الأولى على الأمبراطور مانويل الذي وجده معسكراً بعيداً عن القسطنطينية في بلاد البلقان، وبعد مضي عدة أشهر عاد وليم ومعه المعاهدة الموقعة حسب الأصول، لكنه وجد أن عموري الذي اقتنع أن بإمكانه الإستيلاء على مصر وجده قد زحف إليها لتنفيذ مغامرته قبل عشرة أيام فقط. ولربما كان من حسن حظ وليم أنه لم ير الملك ثانية لأكثر من عام؛ ذلك أن موقفه تجاه خطوة الملك ورأيه فيها حسبما سجله في تاريخه لم يكن فيه إطراء، هذا من جانب، ومن جانب آخر اضطر وليم إلى الذهاب إلى روما قبل عودة عموري من حملته؛ وذلك ليحاكم هناك ويجيب على الإتهامات التي رفعها ضده رئيس أساقفته فردريك، وبالنسبة لهذه الإتهامات ـ التي تعلقت بالدخل المادي الذي أصر الملك عموري على دفعه لمؤرخه ـ تمكن وليم من إرضاء المحكمة البابوية، واستغل المناسبة لتحسين معارفه بالإدارة البابوية وقد استدعى هذا الأمر غيابه عن المملكة طوال عام ١١٦٩ فلم يتمكن من رؤية الملك ثانية حتى عودته من حملة مصرية أخرى، وذلك بعد عيد ميلاد ١١٦٩.

وعندما تقابل عموري ووليم أخيراً استأنف وليم أعماله التاريخية بالسؤال بشكل مثابر حول تفاصيل الحملتين الأخيرتين، غير أن نتيجة هذه المغامرة قد جنبت وليم ضرورة التعبير عن شجبه لسلوك الملك، وهكذا استمرت صداقتهما دونما خلاف. وبالفعل ازداد اعجاب عموري بمؤرخه ازدياداً عظيماً إلى درجة أنه أوكل إليه منذ ذلك الحين أمر الإهتمام بتعليم ابنه بلدوين، وكان بلدوين هذا ثمرة زواج عموري الأول من أغنس دي كورتني، وقد جرى الإعتراف بشرعيته في عام ١١٦٣، عندما طلقت أغنس وفصلت عن أموري بحجة قرابتها منه.

وكان بلدوين الذي بلغ التاسعة من عمره وريثاً للعرش عندما عهد به والده في بداية عام ١١٧٠ م إلى رعاية وليم وقد باشر وليم هذه المهمة بعد تردد كان أعظم مما شعر به يوم توليه القيام بمهامة التاريخية. فهذا التكليف كان قد أضاف شيئاً قليلاً إلى مكانته اللاهوتية، وسمح له بمواصلة أعمال مهنته بصورة فعلية، ومكّنه من البقاء على اتصال وثيق بالرجال والأحداث بينما تكليفه بالواجب الجديد قد حمل في طياته تهديداً بتقييده وربطه بإحكام

بشخصية الأمير الصغير لعدد غير محدود من السنين، وحوله بالتالي عن مجرى التدفق الرئيسي للترقيات اللاهوتية، لكن الحاح الملك المتكرر وتأكيداته ووعوده القاطعة بمنح وليم امتيازات ملكية إضافية قد نجحت كلها في إقناعه بالنهاية. وباشر وليم في عام ١١٧٠م مهام المربي الخاص بالأمير الصغير، وكما كان متوقعاً لقد انشغل وليم معه للسنوات الأربع المقبلة.

ويلاحظ أنه بعد ما وافق وليم أخيراً على قبول هذه المهمة شرع في تنفيذها بكل اهتمام ان لم يكن بكل حماس. وكان للأمير عدد من الأصدقاء، ولا ريب أنهم كانوا من أبناء النبلاء، ولعلهم نالوا شطراً من اهتمامات وليم على الرغم من أن أسماءهم لم تذكر في أي مكان وحين شرع وليم في تنفيذ مهمته لم يقتصر في عمله على تعليم الأمير الأداب، لأنه ـ كما قال ـ كان مسؤولاً عن تعليمه وتربيته عقلياً وجسدياً. ويتحدث وليم بفخار عن مهارات بلدوين الصغير في الفروسية، وهنالك تلميحات أخرى تسوغ الإفتراض أن وليم قد صاحب باستمرار بلدوين ورفاقه الغلمان في تدريبات ركوب الخيل عبر ريف مدينة صور وعلى أرض اللعب والتدريب حدث أن عرف وليم للمرة الأولى أن الأمير كان مصاباً بداء خطير تبين فيما بعد أنه مرض الجذام. وقام وليم على الفور بنقل ما لاحظه إلى الملك بلدوين، ثم بدأ بسلسلة من المعالجات في سبيل الشفاء استمرت بلا جدوى حتى وفاة بلدوين، ولعلّه من الطبيعي أن يكون قد نما ضمن هذه الظروف لدى وليم حب عميق لتلميذه حيث تحدث عن تقدمه في جميع مجالات التعلم باستحسان ورضا فيه شيء كبير من التغاضي. وقد قوبلت هذه المودة بشيء كبير من التقدير والإعجاب.

وقيدت الواجبات الجديدة وليم باحكام لكنها لم تستحوذ على جميع اهتماماته ولم تشغل وقته كله فلقد كان الملك عموري يزور صور في معظم الأحيان وبقدر ما تسمح له الظروف. ووفق العادة لا بد أنه قد رأى الكثير من أعمال وليم، وكثيراً ما تحولت محادثاتهما في هذه المناسبات نحو التاريخ المقترح ومن المحتمل أنهما اكتشفا أثناء مناقشاتهما ضرورة وجود خلفية مناسبة أو مقدمة موائمة لمشروع تاريخ «أعمال عموري»، وتوصلا إلى إقرار عدم وجود كتاب تاريخ يغطي ذلك. كما ثبت لديهما بالفعل عدم وجود أية رواية منسقة تغطي أية فترة من فترات الحكم في مملكة القدس منذ أن توقف فولتشر أوف تشارتر عن الكتابة في حوالي عام ١١٢٧ [١] لقد كان هنالك عدد من الروايات أرخت للفترات السابقة، غير أنه بحلول

---

(١) لوحظ فقدان المؤرخ فولتشر أوف تشارتر في فترة حكم بلدوين الثاني وتولى عندئذ مؤلف مجهول، سواء بتحريض من الملك أو بدافع مبادرته الخاصة، القيام بكتابة تاريخ يحمل رواية الأحداث حتى فترة حكم بلدوين، وبدأ المؤلف باختصار رواية فولتشر كبداية لروايته الخاصة، وما كاد ينهي هذه الرواية حتى توقف عن الكتابة. وحفظ عمله تحت عنوان «حكم بلدوين الثالث في أنطاكية والقدس» مجموعة روشيت: ١٣٣/٥ ـ ١٨٥. انظر أيضاً مؤرخو فرنسا: ٨٣ ـ ٨٤.

عام ١١٧٠ م لا بد أن هذه التواريخ قد بدت بسيطة وغير كافية ومهما يكن الحال فقد يبدو أن عموري قرر وجوب كتابة تاريخ شامل لمملكه القدس منذ ساعة تأسيسها، ووافقه وليم على هذا الرأي، كما وافق على تنفيذ تأليف كتاب من هذا القبيل، وبهذه الموافقة الجماعية تمّ آنذاك إهمال مشروع كتاب «أعمال عموري» باستثناء الإفادة من بعض الملاحظات التي يمكن لوليم أن يجمعها عن مجرى الأحداث الجارية آنذاك، مع تفاهم ضمني على أن الأعوام الأولى من فترة حكم عموري يجب كتابتها عندما تكون الرواية حول فترات الحكم السابقة قد وصلت إلى هذه المرحلة، وهكذا بات على وليم أن يكتب عن «أعمال الحكام» انطلاقاً من وقائع مجمع كليرمونت في عام ١٠٩٥، أو بالحري برحلة الحج المفترضة لبطرس الناسك في عام ١٠٩٤.

وبدأ وليم على الفور بتجميع كل المصادر المكتوبة المتوفرة، بالإضافة إلى مجموعة متنوعة من الروايات الشفوية المتناقلة، وهكذا انكب مباشرة على التأليف الفعلي لكتابه، وكان الملك قبل مضي وقت طويل قادراً ـ أثناء زياراته لمدينة صور ـ على قراءة مقاطع طويلة من الكتاب أو الإستماع إلى قراءتها كما كان يفضل. وهكذا كان تقدم وليم في عمله سريعاً على الرغم من مشاغله وواجباته التعليمية. وقد شجع هذا عموري على تكليفه بمهمة أخرى جديدة. ذلك أنه لم يكن قانعاً بمقدمة عادت به إلى عام ١٠٩٤ م بل وجد لديه الفضول والرغبة في معرفة المزيد عن التاريخ الإسلامي الذي كان سبباً لمجيء اللاتين، ويقيناً أن روعة الحضارة الإسلامية التي كان قد رأى نماذج دالة عليها في مصر هي التي شحذت فضوله؛ ولذلك ألح على وليم للشروع بكتابة تاريخ عن ملوك الشرق، ولكي يسهل عموري على وليم مهام تنفيذ هذا المشروع زوده ببعض الروايات العربية التي يمكن اعتمادها أثناء التأليف، ومن المحتمل أن هذه الكتب كانت في الأصل من مكتبة أسامة بن منقذ الخاصة التي كان بلدوين الثالث قد صادرها إثر تحطم سفينة كانت تحملها قرب عكا[1] عام ١١٥٤ م، ولا يذكر وليم من بين هذه الكتب سوى اسم واحد منها صنفه سعيد بن البطريك. ولما كان هذا الكتاب يروي الأخبار حتى سنة ٩٣٧ م لا بد أن وليم قد اعتمد كتباً أخرى أيضاً، وكان عمل سعيد ـ أوسيث أويوتيشوس حيث رسمه بأشكال متنوعة ـ مرضياً جداً، ومغطيا بشكل جيد أخبار هذه الفترة، وبناء عليه اكتفى وليم بترجمته. وهكذا كان قادراً على تحقيق تقدم سريع نوعاً ما في كتابة «أعمال أمراء الشرق»، وذلك بالإضافة إلى كتابه الأساسي «أعمال الحكام» وبناء عليه ربما كان عموري كلما زار صور بعد ذلك وجد نفسه راضية بتقدم كلا العملين المطردين ولم يهمل وليم في غضون ذلك واجباته كمدرس للأمير الصغير.

---

(١) انظر كتاب الإعتبار لاسامة بن منقذ تحقيق فيليب حتي ص ٦١.

ولو استمرت الأحوال كما هي لكان من الممكن إخراج تاريخي وليم في خلال أربعة أعـوام تالية، فقد كان قد تم حتى ذلك الوقت تأليف نصف كتاب « أعمال الحكام ». وهنالك سبب وجيه للإعتقاد أن قسماً مماثلاً قد تمت كتابته من كتاب « أعمال أمراء الشرق » أيضاً، لكن لسوء الحظ تدخل القدر القاسي - على شكل مرض - مات بسببه الملك عموري في سن مبكرة لم تتجاوز الثامنة والثلاثين عاماً. وقد حمّل وليم عجـز الأطباء مسؤولية موت الملك قبل أوانه، وطبعاً لم تكن هذه سوى طريقة عبّر فيها عن حزنه العميق إزاء هذا الحدث، ذلك أن هذه الواقعة لم تعن خسارة صديق شخصي عظيم فقط، بل الأمر الأكثر مأساوية هو التفكير في أن تلميذه المصاب والمثقف ثقافة جزئية، والذي لم يكن قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره عليه أن يتولى القيام بمهام منصب الملك، كما أن مستقبله قد تأثر إثر هذا بشكل خطير جداً، ذلك أنه لم يمض وقت طويل على تتويج الملك الجديد حتى عهد إلى ميلون دي بلانسي بالوصاية على المملكة والملك، وقد كره وليم ميلون هذا، واعتبره أسوءا مستشاري الملك الراحل وهنالك سبب يدعونا الآن إلى الإعتقاد أن وليم قرر وقتها التوقف عن متابعة أعماله التاريخية، فهو بعد كل شيء كان قد تولى تنفيذ هذه الأعمال على مضض بناء على طلب ملح من الملك وتوكيد بالرعاية والعناية، وهذان أمران انقضيا الآن معاً، ولهذا رأى أنه إذا كان عليه استعادة موقعه في مواكب الترقية اللاهوتية عليه أن يعاود الإنكباب على هذه النشاطات التي حولته عنها متابعة الأعمال الأكاديمية في كتابة التاريخ وتعليم الأمير الصغير وهكذا يمكننا نصوّره وقد انكب خلال الأشهر القليلة التي انقضت بعد وفاة أموري وتتويج بلدوين الرابع على إكمال كتاباته التاريخية وإيصالها إلى النقطة التي وصلها [1].

وإذا كان ما ذهبنا إليه هي أهدافه، وتلك هي أعماله، فإنها كما قُدّر لها أن تتوقف فجـأة قُدّر لها الإستئناف ثانية، ففي خريف عام ١١٧٤ م تم قتل ميلون دي بلانسي في شوارع عكا، وبعد مضي وقت قصير جرى تعيين ريموند الثالث صاحب طرابلس وصياً على عرش القدس حتى يصل الملك إلى السن القانونية، وهي الخامسة عشرة من العمر، وجاءت هذه الحوادث بمثابة نقطة تحول حادة بالنسبة لمستقبل المملكة ووليم على حد سواء. فقد طلب من وليم آنئذ إملاء منصب حاجب المملكة الشاغر، وقد جلبه منصبه ثانية إلى اتصال وثيق مع تلميذه السابق. وكان الحاجب السابق قد شغل منصب أسقف بيت لحم، وهو منصب كان شاغراً، مثله في ذلك مثل منصب آخر كان شاغراً أيضاً وهو منصب رئيس أساقفة مدينة

---

(١) انظر التمهيد، الحاشية ١٠. إن إشارة وليم المتكررة إلى ال /٥٧٠/ عاماً على أنها الفترة المغطاة بكتابه « أعمال أمراء الشرق » من الواضح أنها حسب التقدير الإسلامي، فقد كان العام /٥٧٠/ بعد الهجرة عام وفاة عموري ويضلل تصميم وليم الأصلي بنيته وقف العمل في ذلك التاريخ أي ١١٧٤ بعد الميلاد.

صور. وقد سعى العديدون لشغل هذين المنصبين، وجرى الصراع عليهما بشدة متناهية في تلك الآونة، إلى حد أن وصي العرش الجديد لم يشعر أنه على استعداد لاستخدام نفوذه في سبيل الحصول على أي منهما كمنصب سام موائم للحاجب الجديد، ولا ريب أن وليم كان يفضل الحصول على منصب رئيس أساقفة مدينة صور، ومهما يكن الحال فقد جرى تعيين وليم مؤقتاً رئيساً لشمامسة الناصرة، وذلك بالإضافة إلى المنصب نفسه الذي كان يشغله من قبل في صور، ولا شك أن هذا عزز مكانته وزاد من دخله. واستمرّ هذا الحل للمشاكل السياسية واللاهوتية لمدة تزيد على ستة أشهر، أي إلى تاريخ السادس من حزيران من عام ١١٧٥ م، إذ منح وليم بعده التثبيت النهائي دينياً لمنصب رئيس أساقفة مدينة صور. وهكذا فإن هذا الرجل الذي خيل إليه أن موت الملك عموري ووصاية ميلون دي بلانسي قد أنزلاه إلى مستوى عدم الشهرة في منصب كنسي صغير، يشغل بعد مضي أقل من سنة منصباً ذا مكانه سامية في ميدان قضايا الدولة والكنيسة سواء.

ومن المحتمل أن وليم قد أمضى جل وقته في البلاط خلال العام ونصف العام التاليين، مواصلاً تعليمه الذي سبق وانقطع للملك الشاب، إنما بطريقة ليست رسمية تماماً. ولا شك أنه كان خلال هذه الفترة يتعلم من ريموند كونت طرابلس ومن آخرين التفاصيل الأكثر عمقاً والمفيدة في تسيير القضايا العامة، ولحسن حظه أن ارتباطه الطويل وعشرته الوثيقة لعموري قد منحه التبصر في المسائل العملية لفن الحكم.

مع كل هذه المعارف وجد وليم نفسه بحاجة إلى المزيد في عام ١١٧٦ م، ففي هذا التاريخ بلغ بلدوين الرابع السن القانونية، فانسحب ريموند بصورة آليه متخلياً عن وصايته، وهكذا وجد وليم نفسه المستشار الرئيسي للملك.

وكان من المفترض أنه قد تم حل مشاكل الدولة الرئيسة قبل انسحاب ريموند من الوصاية، فقد ضمنت مسألة ولاية العهد بزواج سيبيلا أخت بلدوين الكبرى بوليم أوف مونتفرات الذي كانت له قرابة وثيقة بكلٍّ من الأسرة الملكية الفرنسية والأسرة الملكية الألمانية. وكان التحالف مع القسطنطينية يضاف إليه الإضطراب الذي شهدته البلدان الإسلامية إثر وفاة نور الدين قد أثار آمالاً عراضاً في نجاح المغامرة المصرية لا سيا وأن الدول اللاتينية الأخرى لم تطلب أية مساعدات طارئة، ولهذا يبدو أن مسؤوليات وليم كمستشار استمرت تعتمد على استمرار تعليم تلميذه الملكي.

لو صح وكانت تصورات وليم لدوره من هذا القبيل فإن توقعاته قد تمزقت بعد أقل من عام واحد؛ وذلك بظهور عدد من المشاكل الطارئة وغير المتوقعة. فقد توفي وليم أوف

مونتفرات في حزيران ١١٧٧ م تاركاً زوجته الشابة حاملاً، ووصلت في الوقت نفسه سفارة من القسطنطينية للتأكيد على تنفيذ اتفاق الإستيلاء على مصر، غير أن الملك وقع مريضاً بشكل خطير، ووصل في هذه الآونة الكونت فيليب أوف فلاندرز مع قوة عسكرية معتبرة من الغرب وأثار وصول هذا الجيش جشع الدول اللاتينية الأخرى حيث كان لدى كل منها مخططاتها لتوسيع حدودها، ودفع احتمال كون الملك في حالة عجز عن الإستفادة بشكل مباشر من جيش فيليب كل واحد منهم إلى ممارسة جميع الوسائل التي كانت بحوزته لتحويل جيش فيليب لخدمة مآربه الخاصة،وزاد الإضطراب حدة والفوضى شدة أن واحداً من ضباط فيليب المحامي عن بيثيون Bethune رأى في الوضع فرصة لرفع مكانة أسرته، ولهذا ضغط على فيليب ليعمل على زواج ابنه من أخت الملك الصغرى من أبيه. وكان هذا الإقتراح مفاجئاً وغير مرحب به من قبل نبلاء القدس، لأن هذا النوع من الزواج لم يتعهد بإضافة أية قوة أو اعتبار أو حتى سطوة للملكة،وفي وسط هذه التعقيدات بات الواجب التعيس لوليم العمل بمثابة وسيط بين الملك المريض والمجلس الملكي، وفيليب والسفراء الإغريق.

ولا شك أن المعضلات الدبلوماسية التي نشأت عن تصادم الغايات والمقاصد العديدة جداً والمتضاربة كانت من الضخامة بمكان ترهق فيه رجلاً أكثر حنكة وأعمق خبرة في فن الحكم من وليم وتستنفد طاقاته، ومع هذا سعى وليم أولاً إلى تنفيذ المعاهدة الإغريقية، وإلى أن يقوم فيليب بمهام قائد القوات العسكرية، واستعان في الوقت نفسه بكلّ من القانون الكنسي والقانون العادي واستعداهما ضد جميع الإقتراحات المقدمة لزواج أخت الملك. وقال: إن هذا الزواج لا يجوز قبل مضي عام على وفاة زوج سيبيلا،وأحرج هذا القرار موقف فيليب، وجعله يقرر في نهاية الأمر قبول الدعوة لمساعدة الدول اللاتينية الأخرى في كل من طرابلس وأنطاكية، ورافقت بعض قوات المملكة فيليب في حملته. ولزيادة إرباك وليم وإحراجه حدث أن اختار صلاح الدين هذه اللحظة لشن هجوم حاسم ضد مملكة القدس، وذلك في وقت كان الجيش الصليبي مشغولاً فيه بحصار بلدة حارم في شمالي سورية. ورافق وليم الملك أثناء هذه الأزمة، وقام الملك على الرغم من تعافيه وقدرته على قيادة جيشه بإسناد قيادة القوات ـ التي جمعت من أراضي المملكة للتصدي لصلاح الدين ـ إلى أرناط (رينودي شاتيون)، وكانت حملة التصدي هذه رائعة. فعلى الرغم من أن قوة صلاح الدين كانت كبيرة، وكانت قد اجتاحت مناطق واسعة من أراضي المملكة حتى أنها وصلت إلى أسوار القدس نفسها فإن الجيش الملكي الصغير تمكن من إلحاق الهزيمة بها بشكل حاسم وفي ظل هذه الظروف يمكن أن نعذر وليم لإعتباره أن الإنتصار كان أعجوبة بينما اعتبر في ظل تلك النظرة نفسها أن إخفاق الجيش الضخم الذي كان تحت إمرة فيليب في الإستيلاء على

حارم جاء بمثابة عقوبة من الرب انزلها عليه لعدم استقامة نوايا رجاله، ولقد خشي وليم أن يعود فيليب إلى الغرب لإثارته ضد بلاط القدس فسارع إلى إرسال روايته عما حدث إلى كبار الحكام في تلك البلاد، ولحسن الحظ قبل المؤرخون القياديون في انكلترا ونورماندي روايته عن الأحداث، وبيّناته حول عقوبة الرب [1].

واستمر ما شعر به وليم من ارتياح إثر الحملة الناجحة ضد صلاح الدين، وبعد رحيل الكونت فيليب الذي تبددت جهودة المتفرقة فكانت هباء منثوراً وسارت معه الظروف الأكثر إيجابية للعام اللاحق، فقد تحسنت صحة الملك، وكانت هزيمة صلاح الدين قاسية إلى درجة أنها لم تسمح بوجود أي تهديد إضافي مباشر، بل أكثر من ذلك كان الملك قادراً على توسيع حدوده الشرقية وتحصينها، وهكذا تمكنت اهتمامات وليم أن تتحول بسرعة إلى الأمور اللاهوتية والكنسية.

وكانت الظروف تتكيف في هذه الأثناء لتشجع آماله في تحقيق مطمح حياته الأسمى، في نيل منصب بطريرك القدس، فقد كان أمالرخ صاحب هذا المنصب مسناً وضعيفاً بعد أن شغل هذا الكرسي لأكثر من عشرين عاماً، فقد كان مريضاً جداً أثناء طقوس دفن صهر الملك إلى حد أنه لم يستطع أن يترأس القداس، وهكذا حمل اختيار وليم لأداء ذلك الواجب بعض المعاني الضمنية في ارتقاء محتمل لهذا المنصب، وقد قوي هذا الإنطباع ـ عندما لم يستطع البطريرك تلبية الدعوة لحضور مجمع اللاتيران الذي قرر البابا الإسكندر الثالث عقده في عام ١١٧٨ ـ إذ انتقلت قيادة الوفد الكنسي المتوجه من القدس إلى وليم الذي بات لديه كبطريرك مستقبلي مسوغ كافٍ للتطلع إلى الإجتماع كفرصة لطرح قضية كل من دولة القدس وكنيستها ولتحسين أوضاعها [2].

ولم يكن جنوب إيطاليا والإدارة البابوية غريبين بالنسبة لوليم، وهنالك كل المسوغات للإعتقاد أنه استمتع بالأشهر التي انقضت بين تاريخ وصوله وافتتاح جلسات المجمع في الربيع اللاحق. ومن المؤكد أنه أقام صداقات مع العديد من الأشخاص من بين ذوي المقام الرفيع الذين كانوا قد تقاطروا لحضور هذا المجمع من جميع أجزاء العالم المسيحي، ذلك أنه جرى اختياره لكتابه سجل بأسماء الشخصيات الحضور مع محضر عن أعمال المجلس. ولقد شغل

(١) روبرت تورنجي المدعو باسم مؤرخ البندكتيين لبيتربورغ وقام كل من وليم أوف نيوبيرغ ورالف أوف ديسيتو بمد سرد الروايات حتى عام ١١٧٧) في ظل تفسير وليم للأحداث وبالروح نفسها.

(٢) يدرج بطرس، رئيس كهنة القبر المقدس، على أنه الممثل الشخصي للبطريرك أمالرخ، إلا أن وليم يعترف به في قائمته على أنه بمنزلة قائد وبالنسبة لمختلف الروايات والشخصيات التي حضرت هذا المؤتمر مع أعماله انظر ج. د منسي «وثائق المجامع المقدسة» ج ٢٢. ومن الممكن أن بعض هذه الروايات قد صيغت من قبل وليم.

دوراً بارزاً في مداولات ذلك المجمع، وكان واحداً من بين القادة أثناء الكفاح لفرض بعض السيطرة على الإستقلال التام للمنظمات العسكرية من قبل القيادات الروحية المحلية. ولا بد أن نجاحه في هذه المناسبة قد قدم له ليس الرضا العميق فحسب، بل تعويضاً للإخفاق الكامل الذي لحق من قبل بصديقه ومثله الأعلى البطريرك فولتشر عندما حاول الحصول على امتياز مماثل من البابا هدريان الرابع. ومن الجلي أيضاً أن البابا الإسكندر كان متأثراً بشكل إيجابي بوليم، ذلك أنه طلب منه بعد ارفضاض المجمع القيام بمهمة خاصة لدى البلاط الأمبراطوري في القسطنطينية، ولقد اشتمل هذا المطلب ـ بلا ريب ـ على بعض المفاوضات التحضيرية لتوحيد الكنستين الإغريقية والرومانية، وهو مشروع جددت حظوظ نجاحه بوساطة الصداقة الكبيرة للأمبراطور مانويل بالغرب. وعلى الرغم من أن هذا المشروع قد حال دون عودة وليم المبكرة إلى القدس فقد كان وليم ذكياً جداً ليرى أنه قد قدم فرصاً جديدة لتحسين مصالح مملكة القدس وكنيستها، ولم يكن غريباً بالنسبة لبلاط القسطنطينية؛ ولهذا لاقى ترحيباً حاراً هناك، واحتفظ به الأمبراطور لمدة سبعة أشهر، وقد شهد خلال هذه الفترة خطوبة ابن الأمبراطور إلى ابنة لويس السابع ملك فرنسا، كما شهد زواج ابنة الأمبراطور من كونراد الذي كان أخا لوليم أوف مونتفرات [1]، ووافق الأمبراطور أخيراً على رحيل وليم، ربما بسبب أنه كلفه بمهمة وافق وليم على تنفيذها له في أنطاكية.

وعاد وليم إلى مدينة صور بعد غياب دام عامين تقريباً وهو بلا ريب متأكد من أنه قد استفاد كثيراً من رحلاته، غير أنه عندما توجه إلى القدس وجد نفسه أنه قد عاد إلى مدينة مختلفة تماماً عما كانت عليه عندما غادرها عام ١١٧٨. ومع ذلك فإن مشاعر بلدوين نحوه لم تتغير ـ ولو أنه لا يوجد دليل على ذلك ـ ومن المؤكد تماماً أن صحة الملك كانت قد تحولت نحو الأسوأ، لأن مرض الجذام المتقدم بمنحاه القاسي قد تفاقم على شكل نوبات مرضية حادة. وقد أثارت نوبات الضعف واليأس هذه مسألة الوصاية، كما أثارت بشكل عاجل مسألة ولاية العهد. وكان لنبلاء المملكة إزاء هذه المسائل أراء متنوعة أدت في النهاية إلى تشكيل حزبين، فقد قررت أخيراً سيبيلا أخت الملك ـ التي كانت حتى الآن أداة لسياسة الدولة تجاه حل هذه المشكلة ـ أن زواجها مسألة تخصها دون سواها، وبناء على ذلك أحبت شاباً مغامراً أنيقاً يدعى غُي دي لوسيغنون، وكان غُي أدنى منزلة من ابن المحامي عن بيثيون، وكانت والدتها أغنس قد حرضتها على اتخاذ مثل هذا القرار حيث أن نفوذها على

---

(١) يصف وليم بشكل جزئي فقط اتقان الطقس المتضمن في احتفالات الزواج هذه ويعالج نشالادون أهميتهم في الخطط الديبلوماسية لمانويل في كتابه «تاريخ الحكم النورماندي في إيطاليه وصقلية»: ٦٠٥/٢.

الملك كان قد ازداد كثيراً خلال فترات مرضه، وعارضت طبقة نبلاء المملكة زواجاً من هذا القبيل، وكان في مقدمة المعارضين ريموند صاحب طرابلس. ولا بد أن وليم لو كان موجوداً لعارض هذا الزواج أيضاً، ولكان تمكن بسبب علاقته الوثيقة بالملك من منعه، وعلى كل حال فاز نفوذ أغنس في غيابه، وعندما جرى الإعلان أن ريموند صاحب طرابلس وبـوهيموند صاحب أنطاكية قادمين على رأس قواتها لدخول أراضي المملكة أمكن إقناع الملك أن لديها نوايا شريرة نحو العرش، وأن هذه النوايا يمكن إحباطها عن طريق التعجيل بزواج سيبيلا من غُـي وهكذا وافق بلدوين، وانجزت مراسم الزواج بسرعة قبل أن يصل ريموند، وذلك في موعد لا سابقة له من الأسبوع المقدس، وبهذا أصبح غُـي وصياً شديد الإحتمال وخليفة للملك على العرش، ونال غُـي في سبيل الوصول إلى هذه المطامح المساعدة الفعلية من جميع الوافدين والمغامرين الجدد الذين كانوا يبحثون عن أراضي ومواقع لأنفسهم في الشرق. هذا من جانب، ومن الجانب الآخر فقد فضلت طبقة النبلاء القديمة التي أسس الآباء والأجداد إقطاعاتها أن يكون ريموند صاحب طرابلس وصياً، ومع هذا، فإنه بفضل أغنس والدة الملك، بات حزب غُـي يسيطر على البلاط. وحدث في هذا الوقت بالذات أن نزل القضاء فمات البطريرك أمالرخ. وتجمع الروايات على أن الملك ورجال الدين أيدوا بشكل جماعي تسمية وليم الصوري خليفة له، وبما أن الأعراف قضت تقديم لائحة باسمين مرشحين إلى الملك ليفاضل بينهما فقد اقترح رجال الدين اسم هرقل رئيس أساقفة قيساريه ليسجل إلى جانب اسم وليم. وكانت المؤهلات الرئيسـة لهذا المرشح هي شخصيته الجذابة وصداقته مع أغنس، ومع ذلك بما أن الحزب الحاكم في البلاط رفض تأييد انتقاء رجل مثل وليم مرتبط بالحزب المعارض فقد وفت هذه المزايا البسيطة بالغرض وكانت كافية لضمان انتقاء المرشح الثاني، أي هرقل[1]. وفي وسط هذه الجلبة وهذا الصراع لا بد أن الملك الضعيف قد افتقر إلى القوة لتأكيد تفضيله الشخصي لأستاذه السابق، وهكذا عُين هرقل في السادس عشر من تشرين الأول من عام ١١٨٠ بطريركاً حسب الأصول.

وأغلق هذا العمل الباب أمام وليم لنيل أية ترقية كنسية أخـرى؛ لأن زميلـه الأصغـر في الخدمة قد دل على أنه سيبقى حياً ما دام وليم على قيد الحياة، يضاف إلى هذا أن عداء الحزب الملكي له قد أوضح أن نفوذه في البلاط قد انتهى بالفعل، وما دام خصومه

(١) قدم ارنول. وصف لهذا الإنتخاب بتفصيل كبير (انظر ل. ديماس لا ترى محقق كتاب «تاريخ ارنول وبرنارد الخازن» ص ٨٢-٨٦).
وقد درس م. و. بلدوين الإنقسامات الحزبية في مملكة القدس بشكل مفصل جداً في كتابه «ريموند الثالث وسقوط القدس» [١١٤٠ - ١١٨٧].

يسيطرون على الملك فإن جميع المعارف والخبرات التي اكتسبها في روما والقسطنطينية ستتبدد، وعلى الرغم من أنه كان ما يزال حاجب المملكة لم يعد يستعان بخدماته إلاّ بالنذر اليسير، وربما في المناسبات الشكلية فقط. ولا بد أن مثل هذا التحول في الأمور قد كان ضربه مريره لأحاسيسه، فقد كان في عام ١١٧٨، الموظف الأكثر نفوذاً إن لم يكن الأكثر قوة في المملكة؛ ولهذا أرسل لتحسين أوضاع المملكة والكنيسة في أعظم مراكز العالم، وإذا به يجد نفسه لدى عودته مجرداً من السلطة والنفوذ على حد سواء، وبعد ما فكر بما نزل به لم يفقد توازنه، فرفض أن يحول ولاءه عن بلده وملكه، ووجد أنه إذا لم يعد بإمكانه تأدية الخدمة لها بشكل مباشر بالنصيحة الشخصية والفعالية فإنه ما زال بإمكانه القيام بهذا الشيء بشكل غير مباشر ،وبمثل هذه الروح استأنف كتابته لتاريخه.

ومن الواضح أن هذا كان شاغله الرئيسي خلال العامين ونصف العام التاليين، يضاف إلى هذا أنه خلال ساعات كتاباته كان يقرأ كثيراً وقد أوقف الكثير من وقته على قراءة آثار المؤلفين الكلاسيكين الذين تعرف إلى نتاجهم أيام دراسته. ولم يعد جلساؤه الملك ورجال البلاط، بل أدرك بعدئذ أنه يكتب للعالم المسيحي بأسره. وبهذا الهدف في تفكيره أقدم على مراجعة كتاباته الأولى، فأضاف إليها مواضيع عديدة فيها معلومات جغرافية وأثرية متداولة لم يكن جلساؤه المذكورين قد طلبوها منه، ويقيناً أنه نقح بعض المقاطع الأولى من تاريخه عندما أعاد قراءتها، وذلك في ضوء معارفه الأكمل والأكثر شمولاً ووجهات نظره المتغيرة.

ومهما يكن الحال، فإنه لم يستطع التغافل تماماً عن مجريات الأمور من حوله؛ ذلك أنه لم يفهم أحد وضع مملكة القدس وموقعها في المسائل الدولية أفضل مما فهمها وليم، ولا بد أنه بدا له أن كل ما فعله الحزب الملكي كان خبط عشواء أو أسوأ من ذلك. ولما كانت هنالك هدنة مرخلية مع صلاح الدين استغلها لتقوية مركزه ووقف نشاطاته على المشاكل الإسلامية في الشمال والشرق فإن المملكة ارتكزت على صورة واهمة من الشعور بالأمن أما بالنسبة لوليم فقد رأى بوضوح كامل النتائج الرهيبة التي بشرت بها جهود صلاح الدين ونشاطاته في سبيل توحيد العالم الإسلامي الذي يتطلب بذل قصارى الجهود لتنظيم كل مورد من الموارد ضد هجومه الوشيك، لكن بدلاً من ذلك شاهد وليم الحزب الملكي يرتكب الحماقة تلو الأخرى ليخسر ولاء النبلاء القدماء وقد وصلت الأمور إلى الأوج في ربيع عام ١١٨٢ م عندما أثار الملك مستشاروه ودفعوه إلى حافة إعلان الحرب على ريموند صاحب طرابلس القوي الذي كان من أتباعه بصورة رسمية، وأدرك وليم أن الحرب الأهلية ستعني في ذلك الوقت الإنتحار بالنسبة للمملكة؛ لذلك أوقف أعماله الكتابية بكل سرعة، وانطلق نحو الملك مع النبلاء الأكثر رشداً، وضغطوا عليه حتى أمكن إقناعه بالتصالح مع ريموند. ومن المحتمل أن

الهبة التي قدمها بلدوين بشكل خاص إلى رئيس أساقفة صور في نيسان من عام ١١٨٢ م ، والتي كان من شهودها ريموند صاحب طرابلس قد جاءت بمثابة برهان على تلك المصالحة ودور وليم فيها [١] ومهما يكن الحال لقد ظل الحزب الملكي في السلطة ، ولم تضعف مقدرته على اقتراف الخطأ ، فقد أدت الإشتباكات الطائشة مع صلاح الدين في صيف وخريف ذلك العام إلى الهزيمة ، وتتوجت هذه المآسي برحيل صلاح الدين إلى الشمال الإسلامي دون أن يعبأ حتى بعقد هدنة مع المملكة . ولقد أثارت هذه السلسلة من المصائب والمخازي إشمئزاز وليم إلى درجة أنه قرر عدم تدوين أخبار سلسلة الأخطاء الفادحة والمخزية هذه ، وقد حاول أصدقاؤه ثنية عن نيته هذه وإقناعه بمواصلة الكتابة ، غير أنه قاوم جميع توسلاتهم لفترة من الزمن .

وتوقف الملك الذي تمكن من التحرك من جديد مع جنوده في نهاية العام عند مدينة صور للإحتفال بعيد الميلاد ، ولم تسجل محادثاته مع صديقه وأستاذه القديم ، غير أننا نفترض أنها لم تشتمل على الكثير من الإطراء لأعمال غُـي وبقية أتباعه في تسيير الأمور .

وعندما غزا صلاح الدين المملكة ثانية في عام ١١٨٣ م تم استدعاء جميع القادرين على حمل السلاح وحشدهم بشكل لم يسبق له مثيل واجتمع للمملكة جيش لم يجتمع لها مثله من قبل ، وسار هذا الجيش ضد صلاح الدين ، وتسلم غُـي قيادته ؛ لأن الملك مرض من جديد ، ولقد كان هناك الكثير من أعمال المشاحنة والتنافس بين القادة المسيحيين دونما فعالية ، وفي المواجهة احتجز فرسان صلاح الدين جيش غُـي ، ووضعوه في حالة تشبه الحصار وعندما انسحب صلاح الدين أخيراً تشتت هذا الجيش الكبير دون أن يكون قد ضرب ضربة واحدة ، واستاء الناس إزاء عجز هذه القيادة ، وعندما اندفع صلاح الدين ثانية لمحاصرة الكرك ـ بتراء الصحراء القديمة ـ تولى الملك بنفسه مهام القيادة ، لكنه أسند مهام توجيه القوات بشكل فعلي إلى ريموند . ولم يكتف غُـي هنا بخسارة ثقة الملك بل إن تصرفاته الأخرى أثارت سخط بلدوين . وقام هذا الملك بمحاولة لتجميع قواه المتدنية للقيام بعمل فعال نهائي ، فقد حرم غُـي من الوصاية على العرش ، وصنع الترتيبات الممكنة لضمان الحيلولة دون احتمال خلافته بعد موته ، إلى حد أنه حاول إجبار أخته على الإنفصال عنه ، لكنه لم ينجح في هذا المسعى غير أنه جعل نبلاء المملكة يعترفون بابن وليم أوف مونتفرات وريثاً له ، وأن يكون ريموند صاحب طرابلس وصياً على العرش لمدة عشر سنوات ، ولقد كان هذا الإجراء آخر الأعمال الهامة في فترة حكم بلدوين .

---

(١) وثيقة رقم ٦١٥ .

ومجدداً شعر وليم بالراحة، وأن المملكة غدت في أيد أمينة، وذلك بعد ما أصبح من جديد وصياً على العرش، زد على هذا أن الهدنة التي عقدها ريموند مع صلاح الدين قد ضمنت سلاماً فورياً، وبدا المستقبل موحياً الآن بالأمل لوليم ليشعر أنه يملك التسويغ لمواصلة كتاباته، لكن يبدو أن مرضاً شديداً قد ألم به في حوالي هذا التاريخ؛ ذلك أنه عندما نقح - أو كتب في عام ١١٨٤ م - التمهيد لعمله ككل وصف خطته في تقسيم كتابه إلى ثلاثة وعشرين كتاباً كان سيضيف إليها الحوادث كما أمليت، وختم هذا بقوله متشائماً: «إذا بقيت حياً» وبالفعل ما أن شرع بكتابة الكتاب الثالث والعشرين، وأخذ بالحديث عن وصاية ريموند الثانية حتى وافاه أجله، هذا ولم يمكن بعد تحديد ظروف موته وتاريخ وفاته بدقة، ولا بد أن ذلك حصل في وقت ما قبل شهر أيار من عام ١١٨٥ م، عندما جرى تعيين نائبه في الحجابة حاجباً مكانه[1] وهكذا لم يعش ليرى أن ما تعلق به من آمال كان خيالاً محضاً،

(١) تؤرخ وفاة وليم بشكل خاطىء عادة، فقد وصفها كل من بايتاست وهاغنمر في عام ١١٩٠؛ بينما وضعها روهرخت ومولينر في عام ١١٨٦، وأصبح خطأ طبيعياً للمؤرخين الغربيين اللاحقين أن يضيفوا اسم وليم إلى ذلك الشخص المجهول المختلف عنه تماماً والذي عمل رئيس الأساقفة في مدينة صور وكان يدعو إلى التطوع في حملة صليبية جديدة في الغرب في عام ١١٨٨ - ١١٨٩، وكان جوسيكوس، الذي كان أسقفاً مساعداً سابقاً لوليم، عندئذ رئيس أساقفة مدينة صور، وكان بروتز قد أظهر هذا الغلط بشكل كامل وواضح في كتابه (دراسات) وكذلك فعل ر. روهرخت في (تاريخ مملكة القدس ١١٠٠- ١٢٩١ ص٣٩١- ٣٩٢ الحاشية ٥) وقد توصلا إلى:
أنه يمكن تحديد وفاة وليم خلال الفترة الفاصلة ما بين شهر تشرين الأول في اليوم السابع عشر منه والحادي والعشرين من عام ١١٨٦، وهما تاريخا آخر وثيقة باقية تذكر وليم، وتذكر الأولى منها جوسيكوس على أنه رئيس أساقفة، وقد قبلها العديد من الباحثين الجدد، وينبغي اعتبار هذا غير صحيح أيضاً. فالفترة الفاصلة في حد ذاتها قصيرة جداً لتكون قد سمحت بوفاة ودفن وليم، وانتخاب وترسيم جوسكوس، وعلاوة على ذلك، لا يشار إلى جوسكوس على أنه «منتخب»، بل يشار إليه رجلاً معيناً من قبل. أضف إلى هذا أن ذكر وليم في وثيقة ١٧ تشرين أول ليس دليلاً مقنعاً على وجوده آنذاك، ذلك أن هذه الوثيقة تتحدث عن الفصل في قضية قانونية ظهر فيها وليم واحداً من خمسة قضاة عينهم البابا أوربان الثالث قبل فترة، وكان تضمين أسماء القضاة ضرورياً للسجلات سواء أكانوا بين الأحياء أم لم يكونوا في ذلك الحين، وفي الحقيقة من الممكن أن وليم لم يكن حيا بالأصل وقت صدور التعيين الذي تم في روما في وقت ما من عام ١١٨٥، ومن الممكن القول أن البابا أوربان الثالث لم يسمع بوفاة وليم عندما قام بالتعيينات، ولا بد أن وفاة وليم قد تمت قبل ١٦ أيار ١١٨٥ فوقتها ظهر نائب في الحجابة بطرس بمنزلة حاجب (الوثيقة رقم ٦٤٣) ومن غير المعقول أن يكون وليم قد عزل من ذلك المنصب الذي كان يحتفظ به في عام ١١٨٤، لأن صديقه ريموند الثالث صاحب طرابلس كان آنذاك نائب المملكة، وكانت آخر الحوادث التي رواها وليم قد وقعت في اوائل عام ١١٨٤، ويمكن أن نعزو إخفاق الإدارة البابوية بعدم معرفتها بوفاة وليم مع نهاية شهر تشرين الثاني عندما اختير أوربان الثالث لمنصب البابوية، إلى أن وفاة وليم جاءت بعد الرحلة البحرية لربيع ذلك العام، وعلى هذا لا يمكن تحديد تاريخ وفاته قبل أوائل ربيع عام ١١٨٥، ومن غير الممكن أنها كانت قبل ذلك.

فمن خلال الأخطاء الفادحة المتكررة للزمرة التي عارضها بشكل دائم قدر للقدس أن تسقط أمام القوة الإسلامية المتحدة تحت راية صلاح الدين حسبما خشي من إمكانية حدوث ذلك من قبل.

وأثبتت أحداث العامين التاليين صحة أحكام وليم، فقد توفي بلدوين أخيراً بسبب مرض الجذام الذي نزل به وذلك في عام ١١٨٥ م، وحمل ابن وليم أوف مونتفرات لقب بلدوين الخامس، إنما لأقل من عام حيث توفي في عام ١١٨٦، وما لبثت الزمرة المبعدة بقيادة جوسلين أخو أغنس مع سيبيلا أن أقدمت على إحداث انقلاب جاء بواسطته غُـي ملكاً على القدس. وهكذا انتهت وصاية ريموند بشعور المرارة. وعندما استأنف صلاح الدين الحرب في عام ١١٨٧ م تكررت الحال التي قامت في صيف ١١٨٣، ومع ذلك اختار غُـي القتال في هذه المرة، فسمح بذلك لصلاح الدين بالتحكم بساحة القتال في حطين. ولما كانت جميع قوات المملكة قد جرى حشدها فقد سمحت هزيمتها المروعة لصلاح الدين أن يسترجع بضربة واحدة تقريباً كل ما كان الصليبيون وملوك القدس قد استحوذوا عليه في الأعوام الثماني والثمانين السابقة[1]، ومن بين جميع مدن المملكة بقيت مدينة صور فقط في أيد مسيحية لتصبح قاعدة للعمليات لاسترجاع عكا في الحملة الصليبية الثالثة. لقد جنب القدر شهود وليم الأحداث المأساوية لهذه الأعوام، ومهما يكن الحال، لقد سبق له أن تنبأ بها وحذر منها بشكل تام فيما كان قد كتبه. وبالنسبة لأحداث عام ١١٨٧ أضافت فقط فترة النهاية إلى الملحمة التي كان قلمه قد خطها خلال عام ١١٨٣ م.

كتاباته

هكذا كانت قصة حياة وليم رئيس أساقفة مدينة صور بالقدر الذي سمحت لنا به الجهود المتراكمة للدراسات حتى الوقت الحالي أن نعرفها، وعلى الرغم من مكانته السامية كرجل دين ودولة فإن شهرته ترتكز تقريباً بشكل كلي على أعماله كمؤلف ومؤرخ لم تصل إلينا جميع أعماله الكتابية. وبالفعل لم يبق أي بحث من أبحاثه الرسمية التي كتبها باسم الملك بشكل رئيسي، اللهم إلاّ حسبما تردد صداها في كتب التاريخ المعاصرة له بما في ذلك تاريخه، لكن بقي لنا عدد قليل من الوثائق التي أصدرها، والتي تسجل أعمال نقل الملكيات، أو

(١) بالنسبة للأحداث التي وقعت بعد وفاة وليم انظر بلدوين «ريموند الثالث» ص ٦٨ - ١٤٥. ستيفنسون «الصليبيون» ص ٢٣٠ - ٢٥٦.

التأكيد على الأمتيازات. وهذا المتبقي له طبيعة روتينية، وجلّه من نتاج مكتب الحجابة صدر دون أن يوليه أية اهتمامات شخصية، على الرغم من أنه يحمل توقيعه [١].

أما بالنسبة لمحضر جلسات مجمع اللاتيران الثالث الذي كتبه تحقيقاً لطلب من زملائه، والذي أودعت نسخة منه في «أرشيف» مدينة صور فقد ضاع. ومع ذلك فإن بعض الروايات مما تمّ حفظه هذا المجمع، قد انتزعت من هذا المحضر [٢]، والشيء الكبير الأدعى للأسف هو اختفاء كتابه الذي ألفه حول «أعمال أمراء الشرق»، وكان من المعروف وجود نسخ من هذا الكتاب بعد أكثر من قرن، كانت إحداها محفوظة في سينت ألبان في انكلترا، لكن يبدو أن هذه النسخ قد فقدت جميعها [٣]، ومع ذلك يمكن التعرف إلى شيء من طبيعة هذا الكتاب من خلال النقول التي اقتبسها منه جاكودي فيتري في كتابه «وليم الطرابلسي» وفي الحقيقة من وليم نفسه [٤]. هذا وإن الكتاب الوحيد الذي بقي لنا هو الكتاب الذي نقدم له هنا، ولحسن الحظ إنه كتاب واسع جداً بحيث يسمح لنا بالقيام بتقويم كاف لمؤهلات وليم كمؤرخ وكرجل أدب على حد سواء.

أما بالنسبة للعنوان النهائي لهذا الكتاب كما جرى تداوله فنحن لا ندري أزوده وليم به أم لا، ومن المؤكد أن هذا العنوان قد ابتكر في أوروبا الغربية؛ ذلك أن قصة حياته قد أشارت إلى أنه قد شرع في كتابة ثلاثة كتب تاريخية، وليس واحداً فقط، وقد جاء العمل فيها جميعاً تلبية لمطلب الملك عموري، وكان أول هذه الكتب كتاب «أعمال عموري» وهو الذي باشر العمل فيه في عام ١١٦٧. وقد توقف - كما رأينا - العمل به في عام ١١٧٠ م، لتنفيذ مطلب عموري في كتابة عمل تمهيدي يغطي الفترات السابقة من تاريخ المملكة. ويمكن التعرف إلى عنوان هذا العمل الثاني من وصف وليم له على أنه تاريخ «أعمال الحكام» ملوك

---

(١) وعلى هذا فإن العديد من الوثائق التي تحمل توقيعه كحاجب قد كتبت في القدس بينما كان غائباً في روما والقسطنطينية (الوثائق رقم: ٥٧٧، ٥٧٩، ٥٨٢، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٩١، ٥٩٣).

(٢) انظر الحاشية رقم ٢ صفحة ٤٣.

(٣) ذكر ماثيو الباريس في كتابه «التاريخ المختصر» بشكل خاص وجود الكتابين اللذين صنفهما وليم في مكتبة القديس ألبانز حيث وجه الدعوة إلى قرائه لمطالعتها (ف. مادن محقق التاريخ المختصر لماثيو الباريس: ١٦٣/١). وشاركت مكتبة القديس ألبانز في تزويد بقية مكتبات الديرة في بريطانيا في القرن السادس عشر بنسخ منه، ومن المعتقد أن مخطوطات كتب وليم في المتحف البريطاني جاءت من نتاج القديس ألبانز، ومهما يكن من أمر إن كتاب «أعمال أمراء الشرق» هو بحكم المفقود الآن.

(٤) لقد لاحظ الآخرون استخدام جاكوس دي فيتري لهذا الكتاب الأخير، وقد أكمل بروتز البرهان، وجرى تأييد محصلاته من خلال دراساتين قدمها غ: زاهر «تاريخ الشرق ليعقوب دي فيتري» و ب. فنك «يعقوب دي فيتري» «Leben Und Werke».

القدس. وقد أريد لهذا الكتاب أن يغطي الفترة الممتدة فيما بين الحملة الصليبية الأولى - أي من عام ١٠٩٤ أو ١٠٩٥ م - وحتى بداية حكم عموري في عام ١١٦٣ م، أما كتاب التاريخ الثالث الذي بدأ العمل به بعيد الكتاب الثاني بفترة من الزمن كانت قبل عام ١١٧٤ فهو كتاب «أعمال امراء الشرق»، وقد جرى تصميم هذا الكتاب لسرد تاريخ الشرق الإسلامي منذ أيام النبي محمد ﷺ وحتى عصر المؤلف. وقد باشر وليم الكتابة في هذين التاريخين في آن واحد حتى عام ١١٧٥ م، ويبدو أنه على الرغم من أن اهتماماته ومشاغله لم تسمح له خلال الأعوام الخمسة اللاحقة بعمل كتابي منتظم كالسابق، فإنه - كما يرجح - لم يهمل تدوين رواياته تماماً، بل واصل مهمته، بشكل متقطع إلى أن قام قبيل نهاية عام ١١٨٠ م باستئنافها بشكل منتظم. واستمر هكذا حتى عام ١١٨٢ م، عندما أثار مجرى الأحداث في المملكة اشمئزازه إلى حد كبير قرر معه ختم رواياته. وهنا قام بإيصال أخبار كتاب «أعمال الحكام» إلى مرحلة قريبة وكافية. بشكل يسمح بدمجها بشكل سريع مع كتاب «أعمال عموري» ليخرج العملان في رواية واحدة متواصلة، ثم ألقى نظرة إجمالية على الكتاب فوجده لا يسد حاجة القراءة العامة الموسعة، وهو هدف كان يوجه عمله نحوه، وأدرك أن كتابه هذا يحتاج إلى مواد تفسيرية واطاراً عاماً، ولتحقيق ذلك اختار بعض المواد من كتاب «أعمال أمراء الشرق» وأضاف مقدمة موجزة أراد أن يربط فيها بين خسارة المسيحيين للقدس في عام ٦١٤ م وتصميمهم على استرجاعها في عام ١٠٩٤ أو ١٠٩٥ م، وأضاف في الوقت نفسه مختارات أخرى من ذلك التاريخ ليشرح بعض الحوادث اللاحقة بخصوص الحملات الصليبية. ومن المحتمل أن الرواية - كما اعتقد وهو ينهيها في عام ١١٨٢ م - قد حوت الرواية المتواصلة حتى نهاية عام ١١٧٩ أو أوائل عام ١١٨٠ م. ولربما قام بعد هذا بإجراء بعض التنقيحات الأوسع عندما استأنف الكتابة من جديد قرابة نهاية عام ١١٨٣ أو أوائل عام ١١٨٤ م. ويصف تمهيده الذي كتبه في عام ١١٨٤ م الترتيبات في كتب وفصول حسب الخطة التي اعتمدها أخيراً، وقد اشتملت هذه الخطة على إمكانية إضافات جديدة يمكن أن تمليها الظروف وفي جميع الأحوال كان هذا التمهيد الفصل الأخير الذي كتبه بعد ما أوصل رواياته إلى عام ١١٨٤ م.

وليم المؤرخ

علينا حين نقدم على تقويم عمل وليم كمؤرخ أن نأخذ بعين الإعتبار أنه لم يتلق أية تدريبات في هذا المجال أبداً، فلقد تم توجيه تعليمه نحو التخصص في مجالات الترقيات الكنسية. وكان قد مارس هذا الإختصاص بشكل ناجح عندما طلب إليه الكتابة في التاريخ،

وكان قد تخصص ـ إذا أمكننا استخدام مثل هذا المصطلح ـ في المجالات القانونية، ولربما شغل نفسه ـ قبل مباشرته للعمل التأريخي ـ في الأعمال القانونية لكنيسة مدينة صور، علاوة على هذا كان وليم قد سار نحو سن الكهولة عندما بدأ عمله كمؤرخ، وهذه الحقائق واضحة في كتابه، حيث جرى النظر إلى الأشخاص والقضايا في نطاق الحكم الأخلاقي لرجل الكنيسة وموضوعية المحامي على حد سواء، كما منحت الأمور الكنسية والقانونية مقداراً كبيراً وغريباً من الرعاية، وأما بالنسبة للخطوات التي اتخذهاـ إن وجدت ـ ليضطلع بنفسه بأعباء متطلبات مهمته الجديدة عندما وافق على كتابة كتاب «أعمال عموري» في عام ١١٦٧ م فهي ليست معروفة، لكن منهجه المباشر واضح بما فيه الكفاية، فقد أجرى مقابلات مع قادة الحملات المصرية الأخيرة، واستجوبهم حول أحداث هذه الحملات، وفي الواقع لم يقتصر بمقابلاته على واحد منهم، بل قابل العديد منهم. وكان حريصاً بشدة على وزن وتمحيص شهاداتهم باجتهاد قضائي. وقد كان هذا منهجه حتى أواخر عام ١١٧٠ م، ومن المحتمل أنه دوّن نتائج تحقيقاته ساعة اقتناعه أنه قد حصل على المعلومات الضرورية المطلوبة. والجدير بالذكر بالنسبة لعمله في هذه المرحلة هو مدى تفاصيل المعلومات التي اعتبرها وثيقة الصلة بمهمته، ولم تشتمل هذه التفاصيل على وقائع الحملات المصرية فقط بل تناولت أيضاً أخبار المفاوضات الدبلوماسية التي تعلقت بها. يضاف إلى هذا قراره أن عليه الإطلاع والتعرف شخصياً على مصر وشعبها، إضافة إلى تحصيل معارف مفصلة حول احتفالات بلاط القاهرة ورسومه، مع ما يتعلق بمكانة الإسكندرية وأهميتها التجارية، وهو حين فعل هذا كله لم يكن يقلد مؤرخاً من معاصريه لعدم وجوده.

وحدث أنه عندما شرع بعمله في الكتاب الثاني «أعمال الحكام» وجد نفسه يواجه المعضلات التقليدية للمؤرخ، فقد وجب عليه استقاء الكثير من الروايات، خاصة للقسم الأول من هذا الكتاب من عدد من المصادر المكتوبة، ويلاحظ هنا أن استخدام وليم لهذه المصادر لم يكن استخداماً عادياً، فهو لم يكتف ـ كما كان حال معظم مؤرخي تلك الفترة ـ بانتقاء رواية واحدة ومن ثم دمجها بأكملها ـ أو بعد اختصارها ـ في متن كتابه الخاص ـ هذا ومن الواضح أنه اعتمد في أخبار الحملة الصليبية الأولى على روايات المؤرخ المجهول، التي وردت في كتاب أعمال الفرنجة (★)، وذلك بالإضافة إلى روايات: ريموند دي أغليرز، ووالتر الحاجب، وفولتشر أوف تشارترز، وألبرت أوف أكس، ومن الواضح أنه امتلك هذه الروايات جميعاً واعتمد عليها كلها أثناء كتابته. وإذا ما ظهر لنا أحياناً وهو يعتمد بشكل

(★) ترجمت هذا الكتاب وأدخلته ضمن نصوص كتابي «الحروب الصليبية» ط. دمشق ١٩٨٤.

مطلق على كاتب واحد إلى حد التخلي عن غيره من الكتاب فإن هذا التفضيل عائد إلى حقيقة كون هذا المصدر يتميز باحتوائه على مواد ليست في غيره، وعلى العموم نلاحظ أن خلاصاته قد اشتقها نتيجة مقارنته لعدد من الروايات، وحينما تتضارب الروايات فهو إما أن يعتمد على حكمه الخاص أو يقدم الروايات المختلفة. ويرفض أحياناً الروايات الخيالية كما هو الحال بالنسبة لروايات ألبرت أوف أكس، كما أنه كان يرفض المبالغات الواضحة، حتى ولو أنها تقدم الرواية الوحيدة المكتوبة للمادة المطلوبة. ولقد اعتمد على الروايات الشفوية [1]، وبالنسبة للحملة الأولى نراه في الواقع لا يفرق بين هذه المعارف المتنوعة وبين روايات مؤرخي هذه الحملة، ذلك لأنه لا يذكر أيا منهم بالإسم. فلقد اعتبر جميع المرويات كتلة موروثة واحدة من الواجب وزنها وتمحيصها، ولقد احتفظ في ضوء إحساسه الخاص بالأمور المعقولة بحق رفض أو تصحيح بعض. أو جميع. روايات المؤرخين السابقين؛ لأنه كان يدرك أنه كان يمتلك معارف أكثر دقة من معارفهم في مجالات جغرافية المنطقة وتاريخها القديم، بالإضافة إلى إطلاع أكمل على مجرى التطورات اللاحقة. وعلى هذا فإن روايته الخاصة الناشئة عن هذه الممارسة مدونة بشكل كلي إلى أبعد الحدود بعباراته الخاصة، فنادراً ما أورد عبارات مصادره وقد اختلف عنهم أيضاً في أنه فضل ـ دون اعتبار للزمن المحتاج ـ الإلتزام بنهج محدد من بداية محددة وحتى النهاية، وهو حين فعل هذا كله لم يقلد نمطاً كان موضوعاً أمامه من أنماط عصره؛ ولهذا نجد أن منهجه ذاك أشبه بمنهج عالم تاريخ معاصر، وهو لهذا كان أعلى من جميع معاصريه.

ويبدو أن وليم قد اتبع هذا المنهج بشكل عام في التعامل مع المصادر العربية لكتابة كتابه «أعمال أمراء الشرق» لكن بما أن هذا الكتاب قد ضاع لا يمكن الجزم بهذا بشكل حاسم، كذلك هو الحال بالنسبة لكتابه «أعمال الحكام» زد على هذا أنه لم يذكر سوى اسم مصدر عربي واحد [2]. ويتوقف هذا المصدر بأخباره مع سنة ٩٣٧ م، في حين أن وليم قد صرح

---

(١) ترك فون سيبل بعبث مخادع إلى حد ما الإنطباع بأن وليم اتبع ألبرت أوف إكس عن كثب حتى الإستيلاء على القدس، ثم اتبع فولتشر أوف تشارتزر بعد ذلك. وبذل هاغنمير الكثير لتصحيح خطأ فون سيبل. وأجرى مقارنة متطابقة تقريباً لكل من هذه الروايات في نسخ كتاباته عن هذه الفترة وهي (ايكهارد ١٨٧٧. المجهول ١٨٩٠. غالنزي ١٨٩٦. ابستيولي ١٩٠١ فولتشر ١٩١٣) مقارنة مع روايات وليم ومع روايات كتاب لاحقين آخرين. وقد عبر عن حكمه الأخير لاستخدام وليم لهذه المصادر في المقدمة لكتابه الأخير عن فولتشر ص ٨٥ ـ ٩١. وهذا مؤيد بشكل أكمل في الحواشي الكثيرة لجميع هذه الأعمال التي يجب أن يضاف إليها. (هـ. هاغنمير «كتابات المؤرخين الأوائل للحروب الصليبية ١٠٩٤ ـ ١١٠٠» وكتاب «تاريخ ريموند القدسي: حكم بلدوين الأول. دورية الشرقيات ج ٦ ـ ١٢).

(٢) انظر التمهيد لتوطئة الحاشية رقم ١ صفحة ٥٨.

بشكل دقيق أن كتابه يمتد بأخباره إلى عام ١١٨٢ م على الأقل. وبالنسبة إلى المصادر العربية الأخرى التي اعتمدها فقد كانت ضمن مجموعة الكتب العربية التي قدمها له الملك عموري، ولربما عاد إلى سواها. ويتضح بشكل ظاهر - من المقاطع التي تعالج التاريخ الإسلامي - أنه لا بد وقد اقتبس بعضاً من معلوماته من مصادر شفوية، وبعضاً آخر من النقوش على الأبنية. ومعروف أنه وجدت مسائل في التاريخ الإسلامي اختلفت المصادر حولها فكانت غير أكيدة بالنسبة لوليم؛ مما استدعى إجراء تحقيق إضافي حولها. ولما كانت مدينة صور قد احتفظت في أيامه بأربعة مساجد لكفاية سكانها المسلمين والزوار فمن المحتمل أن وليم تعرض لأدنى الصعوبات في إيجاد العرب المتعلمين أو الكتب لتساعده على تجاوز عقباته[1].

إن الظروف التي كتب في ظلها رواياته - كالتبدلات في وضعه الخاص، والفترات غير المنتظمة للكتابة في فترة امتدت سبعة عشر عاماً، والسرعة التي ختم بها كتابه دون أن تترك له أية فرصة سواء لإعادة الكتابة أو التنقيح بشكل كامل - تمكننا كلها من تتبع التطور في أداء مهنته التاريخية، فقد كتب في البداية وهو في وضع أديب تابع لمولى ملكي هو عموري الأول، وقد انكب بشكل رئيسي على تسلية الملك وتثقيفه، وربما امتد ذلك إلى البلاط، وعلى الرغم من أنه كان ناضجاً بشكل تام، وواعياً تمّام الوعي لاستقلال مهنته الكنسية في ألا يصبح مجرد خادم متودد ذليل نراه يظهر في كتابه الأول مقدرة نقدية أقل مما هو واضح في كتابه اللاحق. ومع اعتلاء بلدوين الرابع للعرش نرى هذه الأوضاع قد انقلبت تقريباً، لأن الملك هو تلميذ وليم السابق، وعلى هذا لم يعد وليم الأديب التابع، بل أصبح مستشار الملك الشاب وناصحه المخلص، ولقد جعل ضعف الملك تلك العلاقة علاقة مسؤولة شفوقة ومع أنه كان ما يزال يكتب إلى جمهور مستمع قريب وشخصي فإن لهجته منذ هذا التاريخ بدأت تتسم بالجدية النابعة عن الشعور بالمسؤولية، ومع ذلك كان عليه الإستمرار في تقديم التسلية والتثقيف. وهنا يُلاحظ أن توجيه التعليمات المتعلقة بأمور الدولة بات همه الأول، يضاف إلى هذا أن التغيير في السياسة الذي جعل وليم غريباً إلى حد ما عن البلاط قد أحدث أيضاً تطوراً إضافياً في وجهة نظره، إذ لم يعد الجمهور المستمع إليه مستمعاً شخصياً أو قريباً، بل حل محله جمهور القراء في جميع أنحاء العالم المسيحي اللاتيني وكان هدفه تأمين الوجود المتواصل لشعبه ولمملكة القدس اللاتينية، ولهذا لم يعد هناك مجال رحب للعبارات التافهة،

---

(١) أمضى الرحالة الأندلسي ابن جبير نحو عشرة أيام في مدينة صور في عام ١١٨٤. وتأثر كثيراً بالعلاقات السارّة بين المسلمين والمسيحيين التي كانت قائمة هنالك، ونشر جزء من وصف رحلته التي كانت رحلة حجه إلى مكة في (مجموعة راشيل عن تواريخ الحروب الصليبية - التواريخ الشرقية ج ٣ ص ٤٤٥ - ٤٥١).

ولا للخبرة والتبصر الحاد في قضايا الدولة الذي كسبه في روما والقسطنطينية، وتحول به الأمر من وضعه تحت تصرف الملك إلى عمله ذاك.

وعندما استأنف الكتابة في عام ١١٨٠ م، عمل بالمادة الموجودة في الكتاب السادس عشر وحتى الكتاب الحادي والعشرين. وكان معظم القسم السابق مكتوب من خلال مواد جمعت في أوائل عام ١١٦٧ م (على سبيل المثال: الكتاب التاسع عشر، الفصول ١٣ - ٣٢) وهي تتطلب قليلاً من التنقيح؛ ولهذا يجب البحث عن تطوره الكامل كمؤرخ فيما كتبه وألفه بعد عام ١١٨٠ م، وبشكل متميز تماماً في الكتب ٢١ إلى ٢٣ (بشكل خاص وشامل) وفي تمهيده للعمل ككل. وكان خلال فترة تدريبه على المهنة قد تعلم الكثير عن كتابة التاريخ، وذلك بالإضافة إلى مسائل فن الحكم، مما لم يدع نفسه بعد ذلك تنغمس في عمليات التغاضي أمام الأشخاص والمناصب التي أذعن لها أحياناً في كتاباته المبكرة. كما أن الخرافات والتوافه اختفت أمام الحكم الصارم لمعرفة أكثر نضجاً وهي بالوقت نفسه محصنة بوطنية متحمسة؛ ذلك أن بقاء وازدهار بلده قد فرضا عليه التزامات لم تستطع لا الصداقة الشخصية ولا الولاء للمنصب السامي إجباره على التنكر لها ونجد بشكل مماثل أن نزعته نحو إكمال التفسير العادي المتعلق بأحداث العصور الوسطى التي كانت بسبب قضاء رباني تبلغ حينئذ تطورها التام أيضاً، وفي الحقيقة قلة هم المؤلفون مثله في أي عصر تمكنوا من دراسة عصرهم بتبصر وتجرد صارم وبفهم مثلما فعل، ومع ذلك فإن الغريب حقاً هو أنه طبق على نفسه المعايير الصارمة نفسها كما طبقها على الآخرين. فقاوم بذلك جميع المحرضات والمسوغات لتوجيه النقد إلى أولئك الذين كانوا مسؤولين عن خيبات أمله الشخصية، حتى أنه وجّه اللوم مرة واحدة إلى أغنس دي كورتين، التي كانت خصمه الرئيسي المسيء إليه أكثر من سواه، وحين نقدها فعل ذلك لقضية لم يكن لها علاقة شخصية بها، هذا ويلاحظ أن عدم تحيزه الذي نادراً ما يضاهيه حتى تجرد المؤرخين العلمين في الوقت الحاضر هو ليس أقل تأثيراً إلى حد كبير من مهارته النقدية في تمحيص الروايات الشفوية المتحيزة والمجزأة وذات الأثر العاطفي الزائد مما اشتق منه معلوماته. وبناء عليه نجد أن تحليلاته لأسباب كلٍّ من الإنتفاضة الإغريقية ضد اللاتين في القسطنطينية في عام ١١٨٢، ولنجاحات صلاح الدين لا تتطلب سوى إضافات بسيطة أو تصحيحات طفيفة من قبل الأبحاث المعاصرة.

وصحيح أن وليم ارتبط بهذه المزايا الأكثر صرامه لكن نجد لزاماً علينا أن نشير إلى تقدمه في الفنون الأكثر دقة للمؤرخ فهو لم يترك لنفسه أي رأي كيفي بخصوص العرق والعقيدة أو المنزلة الإجتماعية. وهذا لم يقتصر به على اللاتين وحدهم، بل إن الإغريق والأرمن والسريان والعرب والأتراك كانوا في تقديره قادرين على الإتيان بأعمال جديرة

بالثناء، كما كان قادراً على ذلك الفلاحون والتجار والنبلاء أيضاً. وحتى بالنسبة للمسلمين اعترف وليم أن لديهم مثلاً ومعايير أخلاقية جديرة بالثناء، علماً بأنه كان قد كرر باستمرار في كتاباته الأولى، الآراء التقليدية للغرب، لكن حتى هذه قد اختفت عنده أخيراً تماماً أو ما يشبه ذلك. أما بالنسبة لتصوره لما يجب إدراجه أثناء سرد أخبار أحداث الماضي فقد بقي واسعاً إلى أبعد الحدود وبشكل دائم، فهو لم يبق إلاّ على بعض سفاسف ثرثرة البلاط، إنما بقدر ما أصغى إليه أحياناً في عمله المبكر. واستمرت شؤون الحياة العادية وصناعاتها وفن بنائها والحياة الإجتماعية تتلقى اهتماماته، ومعها المسائل الحكومية والدبلوماسية والكنسية والعسكرية المتميزة، وتمت معالجة هذه المسائل برمتها، باستثناء الأمور العسكرية بتبصر أكثر تجانساً مما كان مألوفاً بين مؤرخي ذلك العصر.

ويقترب وليم في العديد من النواحي بشكل كبير من مستويات البحث التاريخي الحديث، حتى بات من المدهش أن نجده في أي مجال من المجالات خاضعاً لقيود عصره، ومع ذلك فإن استمراره في الإشارة إلى مملكة القدس اللاتينية فقط ـ الأمر الذي أصبح أكثر تزمتا فيما بعد ـ يدل على أنه افتقر أحياناً إلى اتساع النظرة. فمع أنه تعرض أحياناً إلى أمور لم تكن هامة لجميع بلدان البحر المتوسط فحسب بل لأوروبا الغربية أيضاً نراه قد اقتصر ـ بشكل شامل تقريباً ـ على ربط تلك المسائل بالأرض التي سكن فيها. كما أنه لم يرغب إلاّ نادراً فقط بدراسة الوجوه الأشمل للمسائل التي تحتم أن يعالجها الملوك والقياصرة والباباوات، ولذلك كان مجحفاً في بعض الأحيان في حكمه على سياساتهم إزاء مملكة القدس. وبالطريقة نفسها لم يتوقف أبداً عن كونه رجل دين وسط المراتب العائدة للسلطة المدنية، وقد قادته هذه النزعة إلى وقف مقدار غير متجانس من المكان على مسائل التنظيم الكنسي في الشرق وقد عرضه هذا إلى تهمة التفكير بانحياز ضد المنظمات العسكرية والرهبانية التي كانت قد حققت استقلالاً كاملاً عن السلطة المدنية للقدس، ويبدو أن هذه الأخطار ـ ان اعتبرت كذلك ـ قد اعتاد عليها بمرور الوقت، وهي على هذا أكثر وضوحاً في كتاباته الأخيرة. ولا شك أن هذه صورة صادقة لخلل آخر يعكس افتقاره لأي نوع من التدريب الرسمي لعمله كمؤرخ، كما أنه على الرغم من أنه لا يمكن الحكم ـ بشكل مطلق تقريباً ـ على أيّ من مؤرخي العصور الوسطى الذين عالجوا حقلاً واسعاً جداً بأن عمله خال من الأخطاء التاريخية، فقد كانت أخطاء وليم أكبر بكثير من المعتاد، وصحيح أنه كان مدققاً في اقتفاء أثر تتابع الأحداث ضمن كل موضوع محدد، وكان شديد التدقيق إلى أبعد الحدود وهو يكتب في إظهار تسلسل الأحداث المترابطة، لكن ظهرت مشاكله عندما كان يتحتم عليه الدخول في رواية أحداث متباعدة ومنفصلة رابطها الوحيد مع

بقية مواده هو الرباط التأريخي. وهكذا نجده أيضاً لم يعتد على ترجمة الأنظمة العديدة ـ للتقدير الزمني ـ التي استخدمت في مصادره سواء أكانت مدونة أم شفوية كنظام واحد. وعلاوة على هذا فإن غيابه في الخارج عندما كان يدرس القانون لم يمنعه من الحصول على معلومات مباشرة عن الأعوام الأولى لفترة حكم عموري فقط، بل أدى أيضاً إلى وجود ثغرة خطيرة في ربط «أعمال عموري» بكتاب «أعمال الحكام» حتى جاء عام ١١٦٦ وكأنه عام خال من الأحداث. كما أن الأحداث التي وقعت في الفترة الممتدة ما بين ١١٦٠ و١١٦٣، قد جرى تدوينها بشكل لا يكفي، وهكذا نجده لم يلاحظ إلاّ بعد فوات الأوان الحاجة إلى إطار تأريخي منتظم يربط به بين أجزاء عمله، وبحلول ذلك الوقت كانت المهمة قد وصلت إلى مستويات مشكلة رئيسة في البحث التاريخي حيث لم يكن لديه لا العون المحتاج، ولا الفراغ للتصدي لها.

وبالنتيجة: إن الإطار التأريخي الذي طوره بسرعة مربك على الأغلب، ومحبط أكثر من أن يكون مفيداً، فعلى سبيل المثال نجد التاريخ العربي الذي استخدم مرات عديدة دونما: تعيين يتضارب مع التاريخ المسيحي، وهكذا نجد ثانية أنه جرى عرض فترات حكم الملوك المختلفين بشكل متنوع: في التاريخ الإجمالي، وفي الأعوام الملكية المتتابعة، وبخصوص التاريخ المسيحي، فهذه الأشكال الثلاثة تتعارض باستمرار ومن سخريات القدر أن فترة الحكم التي تتقدم الإضطراب التأريخي الأكبر هي فترة حكم عموري الملك الذي كان مسؤولاً عن كتابة وليم للتاريخ. وقد حاول العديد من الباحثين المعاصرين تسويغ جميع هذه الاختلافات، حيث اقترح ستيفنسون مخرجاً لطيفاً يفيد أن الحسابات التأريخية قد وضعها شخص آخر قام باقحامها داخل الكتاب[1]، وهذا ليس مقبولاً لأن المرء لا يحتاج إلاّ لقراءة التمهيد ليلاحظ أن وليم وحده كان مسؤولاً بالكامل عن التشويش، الأمر الذي يجعل من الضروري تحديد كل نقطة تأريخية مشكوك بصحتها في ثنايا النص وتقويمها بالمقارنة مع المصادر المستقلة الأخرى.

وليم كرجل أدب

لن يكون أي تقويم لعمل وليم كاملاً بدون إقامة الإعتبار لمزاياه الأدبية، وقد بين بفصاحة تامة في تمهيده لكتابه أن هذه المزايا كانت موضع اهتمامه الواعي بقدر ما كانت صحة رواياته. ولقد جاءت لغته اللاتينية لغة صافية على نحو فريد حيث لم يلاحظ مانيتوس

---

(١) انظر الحاشية رقم ٢ صفحة ٣٥.

Manitius إلاّ تعبيرين يفتقران إلى التسويغ الكلاسيكي [1]، كما أن حجم مفرداته اللغوية واسع على نحو فريد. وهو بهذه النواحي يضاهي بشكل إيجابي أفضل معاصرية، حتى أنه يمكن مقارنته مع جون أوف سالسبري، فكـلاهما يفصح عن دراسة متروية للتراث الكلاسيكي وأكثر من ذلك كلاهما ينبئان عن إعجاب أصيل بالآداب [2]. وأما بالنسبة لكتابه المفضلين الذين تحول إليهم في أعوامه الأخيرة، من أجل السلوة والتعويض عما لحق به من أضرار فقد كانوا: فرجيل، وهوراس، وأوفيد، وشيشرون. ولقد كان وليم بالنسبة لأي كاتب نثر لاتيني في عصره هو الراوية، ولا تظهر هذه السمة الواضحة في عمله في الروايات التي سيمتدحها الأدب فيما بعد فحسب بل في ممارساته العملية المتواصلة في متابعة خط سلسلة من الأحداث المترابطة من بداية محددة إلى نهاية منطقية. ولا ريب أن ميوله الشخصية نحو هذا النوع من المعالجة قد تحسن بموجب حقيقة أنه قد كتب في الأصل إلى جمهور مستمع، وهذه حقيقة تغافل عنها المؤرخون، لكن لاحظها الباحثون الأدبيون فيما بعد.

وعلى العموم يلاحظ أن رغبته هذه في صياغة روايته لصالح مستمعيه لم تقده إلى الإنغماس في الأساليب العامية التي يحدثها هذا التطبيق وتولدها هذه الممارسة بكل سهولة، بل بقيت لغته نقية، كما بقيت تخيلاته أنيقة وسامية. وبالفعل كان متمدنا في سياق حديثه، وهي

---

(1) يبدو أن إحدى هذه الأخطاء قد اقتبسها من ألبرت أوف أكس ـ انظر مانيتوس «الأدب اللاتيني: ٣/٤٣٠ - ٤٣٩».

(2) من المستحيل أن نحدد بشكل تام مدىٰ معرفة وليم بالأدب الكلاسيكي. ويميل بروتر إلىٰ أن يعزو إليه معرفة بجميع الكتاب تقريباً الذين استشهد بهم بالإضافة إلىٰ الذين نقل عنهم دون ذكرهم والذين عرفهم ناشرو كتاب وليم، ومن ناحية ثانية، فإن مانيتوس حذر جداً في تقديره لمعرفة وليم الكلاسيكية. وبخلاف جون أوف سالسبري حصل وليم على فرصة ضئيلة للإعتماد على الأدب الكلاسيكي ليحصل على المعلومات ويبدو أن اهتمامه الخاص بالكتابات الكلاسيكية كان اهتماماً أدبياً بشكل رئيسي واهتماماً جمالياً، وكان استخدامه لها لإغناء مفرداته وليقوي تعبير آراءه في تلك اللحظة، وربما دفعه إهتمام كهذا إلى الإسراف في دراسة بعض الكتاب المفضلين أكثر من أن يسبر طبقة واسعة من الكتاب بالقدر الممكن. وهكذا فهو يستشهد في حال أوفيد من كتابي Metamor Phoses و Herdides وتشير تعابير كثيرة على أنه كان مطلعاً إطلاعاً تاماً أيضاً على كتابي Tristia و Epistulate exponto كما أن اعتياده على شيشرون لا تتضح أيضاً بنقوله المباشرة عنه، والحقيقة أن نسبة كبيرة من شواهد هذا الكتّاب الكلاسيكيين التي تظهر في أجزاء عمله والمكتوبة بشكل واضح بعد ١١٨٠ تبدو أنها تشير إلى أنها لم تكن مجرد تذكر لأيام دراسته، بل نتيجة شغف حقيقي كان منغمساً فيه في تلك الأعوام الأخيرة، هذا وشك فيما إذا كانت معرفته بالأغريقية قد قادته إلى الإطلاع على الأعمال القديمة. وردّت جميع نقوله عن الآثار الأدبية الإغريقية، باستثناء النقول عن يوسفيوس، إلى الترجمات اللاتينية. كما وكانت أعمال يوسفيوس متوفرة أيضاً في الترجمات اللاتينية وعلى الرغم من أنه لم يطبع بعد جميع هذه الترجمات من المحتمل تماماً أن وليم اعتمد عليها مثلما اعتمد فولتشر أوف تشارترز عليها. وربما سيكون أكثر دقة أن نشرح معرفة وليم الكلاسيكية على أنها أقل إلى حد ما من تلك التي قيّمها بروتز إلا أنها أكبر من تلك التي سمح بها مانيتوس.

سمة قدرها تقديراً عالياً إلى حد أنه نادراً ما استخدم عبارة «أديب»، ذلك أنها عبارة مديح وإطراء سامية لم يستطع الحصول عليها منه سوى عدد قليل من الأشخاص وبدرجة محدودة فقط. كما أن نوعية حكمه الأدبي مبنية بشكل مباشر وواضح على استخدامه لعبارة متمدن، وباستحسانه الواضح وإطرائه للخليفة المسلم الكبير هارون الرشيد الذي ما يزال يتمتع بمثل هذه السمعة بين العلماء العرب لقد فاق وليم في نقاء التعبير هذا مع وجهة النظر هذه جميع الكتاب اللاتين في عصره بدرجات عالية. إن هذه السمة الخاصة في أسلوبه لا يمكن إيضاحها على أساس قراءته للكتاب الكلاسيكين اللاتين فقط، لأن نظرة التسامح الإنسانية الواسعة والفخامة التي ميزت كتاباته قد نبعت أيضاً من الإطلاع على الأدب العربي، ومن التعايش مع المثقفين العرب في المجتمع الإنساني الواسع والعظيم النضوج للشرق العربي [1]. ولم تمثل هذه الصفات مجرد مظهر إصطناعي خادع اكتسبه وليم عن طريق الدراسة والجهد الواعي، بل بالحري مثلت أفضلياته بشكل أصيل.

ولم يقتصر شعور وليم بالشكل الأدبي على صياغة حوادث منفردة ووقائع مترابطة، وقد ازداد هذا الشعور مع مرور السنين. فمن الواضح أنه لم يكن راضياً عندما حاول في النهاية ختم كتاباته وإصدارها كثلاثة كتب منفصلة، ذلك أنه قد لاحظ أنها قد اجتمعت كلها حول موضوع موحد هو فقدان القدس واسترجاعها، وقد ساهم كل منها في هذا الموضوع الرئيسي. وجرى تصور إجراء توحيد بين «أعمال عموري» و«أعمال الحكام»، لكن جرى التخطيط لإخراج مجلدة أعمال أمراء الشرق» كمشروع منفصل. ومن ناحية أخرى لم تبدُ له أحداث عام ١٠٩٤ و١٠٩٥ صالحة لتكون كبداية للمشروع الملكي، واعتقد أنها يجب أن تشتمل على الفقدان الأول للقدس من قبل المسيحيين، ولهذا السبب انتزع من كتابه «أعمال أمراء المشرق» خلاصة تعود بالأحداث إلى عام ٦١٤. ولم تكن هذه الخطوة هي العمل الوحيد في تنقيحه النهائي الذي أملاه عليه شعوره السامي، بل سعى أيضاً أثناء معالجته لأخبار الملوك المتعددين للقدس إلى الوصول إلى تناسق محدد ووحدة، وقد خطط هذا على أن يوقف كتابين لكل ملك، يشرع في الأول برسم صورة لعصر الملك وينهي الثاني بالحديث عن وفاته، واستثنى من هذا الترتيب ما كتبه عن غودفري وبلدوين الثالث، إذ أوقف على غودفري كتاباً واحداً، وعلى بلدوين الثالث ثلاثة كتب، وهذا أمر مسوغ بشكل كبير، بالقياس إلى فترة حكم كل منها، فقد حكم غودفري سنة واحدة بينما امتد حكم بلدوين عشرين عاماً

---

(١) إن هذه السمة المدنية التي شهر بها وليم وتميز بين الكتاب اللاتيني للقرن الثاني عشر واضحة في آداب هذا القرن لا سيما في ملاحم البلاط ومن الممكن أن المؤثرات الشرقية والإغريقية والعربية قد أسهمت بدور كبير في هذه التطورات.

كانت أمه في جزء منها شريكاً له في الحكم. وبما أن حجم المادة المتعلقة بكل فترة من فترات الحكم المستقلة قد تنوعت تنوعاً شديداً فإن هذه الشروط الواجبة في الإخراج قد ورطت وليم في بعض المشاكل، ولنضرب مثلاً على ذلك: تطلبت كل من الأعوام الأخيرة من حكم بلدوين الثاني وفترة حكم فولك بأكملها إقحام مقدار كبير من الحشو. وهذه حقيقة تعود أسبابها إلى الثرثرة التافهة للبلاط وإلى عدد الوثائق الكنسية التي رأى وليم أنها مناسبة لإدراجها أثناء بحثه في أحداث عصر فولك وعلى كل حال لقد أمكنه بهذه الأساليب المتنوعة والمخارج المتعددة تخصيص مقدار متساوٍ تقريباً من حيث الحجم لكل واحد من الملوك العديدين. كما توجب على الأحداث نفسها ـ بعد صياغته لها ـ إعطاء عمله هيكل الوحدة التامة التي أملاها شعوره حول الأسلوب إن لم نقل آماله الوطنية، لأنه قُدّر للقدس أن تضيع من جديد في مدة تقل عن ثلاثة أعوام، وذلك ضمن سلسلة من الظروف كان قد كرر تعدادها بعبارات متشابهة في عامي ١١٨٢ و١١٨٣ م.

وتبرز بعض الإستنتاجات من هذا العرض حول تقدم وليم كمؤرخ وتحليل لإنجازاته ككاتب، فهو إن كان قد افتقر إلى التدريب الفني للمهمة التي تصدى لها، فقد وقع بالتالي في بعض الأخطاء التي ربما كان يمكن للتحضير الكافي إنقاذه منها، وهو بالوقت نفسه جاء متحرراً من القيود التي كان بإمكان هذا التدريب فرضها عليه؛ ذلك أنه لو كان أكثر خبرة من الناحية الفنية لما رغب بإدخال معالجة كاملة تماماً في مؤلفه لعدد من النشاطات والإهتمامات الإنسانية. وحتى إذا ما أردنا الحكم عليه طبقاً لمعايير البحث التاريخي الحديث فإن هنالك جوانب قليلة نسبياً تفوق عليه فيها أي مؤلف من معاصريه، فلا شك أن كثيرين منهم كانوا أكثر دقة منه في عمليات تأريخهم العامة، وعلى سبيل المثال كان أوتو أوف فريزنغ أكثر تعمقاً في مفهومه الفلسفي للتاريخ، كما أن جون أوف سالسبري كان أكثر ـ إن لم نقل أكمل ـ إطلاعاً على الأدب الكلاسيكي كمصدر للتوضيح والمقارنة في الأمور الإنسانية ومع ذلك لم يتفوق واحد من الكتاب على وليم في الإستخدام النقدي للمصادر المكتوبة، أو في استخراج البينات من الروايات الشفوية، أو في الحكم على الأحداث، كما لم يجاره أحد أيضاً في التحرر من التحيز سواء أكان ذلك عرقياً أم إجتماعياً أم دينياً، كما أن سعة أفقه ونزاهة أحكامه ومدى اهتماماته قد فاقت كل نظائرها لدى أي واحد من المؤرخين الذين عاصروه، وختاماً إن نقاء لغته وسمو إسلوب معالجته والسمات الممتعة لروايته، كلها مزايا رائعة، وحين جمع كتابه هذه الصفات كافة غدا أكثر سمواً من كتاب أي مؤرخ لاتيني آخر منذ العصور الكلاسيكية وحتى فترة أواخر عصر النهضة، ونادراً ما تجود الأيام بكاتب يضاهيه في المستقبل.

وقد أجمع المؤرخون اللاحقون على أن تاريخ وليم هو مصدر رئيسي للمعلومات حول الفترة التي ظهر فيها، واعترفوا أن الأعوام الواقعة فيما بين ١١٤٤ و١١٨٤ م هو مصدرها الرئيسي والوحيد أيضاً. يضاف إلى هذا أنهم مدينون له بأكثر مما اعترفوا به. وما قاله وليم في مطلع كتابه السادس عشر ـ من أنه قد وجب عليه حتى الآن الإعتماد على المرويات، وأنه من الآن فصاعداً سيكتب بمثابة شاهد عيان ـ قد أسيء تفسيره، لأنه يعني أنه كان قد اقتبس مواده السابقة من مواد مكتوبة. وحقيقة الحال أنه لم تكن هنالك في الواقع أية روايات مكتوبة حول ما حدث بعد عام ١١٢٧ أو ١١٢٨ [1]، صحيح أنه قد شرع في كتابة رواية واحدة في فترة حكم بلدوين الثالث، لكن المؤلف المجهول لذلك المصنف نجح فقط في كتابة مقدمته، التي كانت مجرد ترجمة مختصرة لرواية فولتشر أوف تشارترز أضاف إليها فقرة أو فقرتين. ولا شك أن وليم قد اطلع على هذا المصنف، غير أنه لم يستفد منه كثيراً، ولم يزوده بأية مادة لما بعد ١١٢٨ م؛ ذلك أن المواد بعد هذا التاريخ لم تكن مدونة داخل مصادر مكتوبة؛ لذلك تحتم جمعها من ذاكرة الشهود الأحياء. وعلى هذا ينبغي أن تُفسر عبارة وليم أنه في عام ١١٤٤ م، عندما كان في الرابعة عشرة من عمره شعر أن عوده قد اشتد بما يكفي ليبدأ بجمع بعض أخبار الأحداث التاريخية وتدوينها، وبناء عليه إن الفترة التي يعتبر المصدر الرئيسي لها يجب أن تمتد رجوعاً حتى عام ١١٢٧. وأما بالنسبة للفترات الواقعة قبل هذا التاريخ فقد استخدم المدونات التاريخية التي أتينا على ذكرها آنفاً، غير أنه أضاف إليها مقداراً لا بأس به من المواد الجديدة. من ذلك مثلاً مواد ذات معلومات أثرية وأدبية، كما أضاف مواد ذات محتوى جغرافي بالإضافة إلى تقويم أحداث الماضي في ضوء التطورات اللاحقة. وعلاوة على ذلك فقد استفاد فائدة كبيرة من كل المحفوظات الكنسية والملكية، واستقى في عدد من الحالات معلومات إضافية من شهادات عدد قليل من شهود العيان الذين كانوا ما يزالون على قيد الحياة في أيامه. وبكلمة أخرى: إن تاريخ وليم الصوري هام جداً

(١) من المحتمل أن هذا الخطأ من أكثر الأخطاء استمراراً والأكثر قبولاً بشكل عام بخصوص كتاب وليم، وحقاً لقد كرره جميع الكتاب الذين كتبوا عن وليم حتى الكتاب الأكثر انتقاداً على الرغم من أنه لم يقم أي منهم بأية محاولة لتسمية المصادر المكتوبة التي استخدمها وليم في الفترة الممتدة بين ١١٢٧ ـ ١١٤٤، كما أن التاريخ المحقق الذي رعاه بلدوين الثالث هو في حد ذاته دليل مقنع أنه لم تكن هنالك معالجة لاتينية لتلك الفترة الفاصلة، وكان هنالك تاريخ عربي يغطيها وهو تاريخ ابن القلانسي، إلا أن وليم لم يعتمد إلا إعتماداً قليلاً في معلوماته عليه، ـ هذا إذا كان قد اعتمد عليه ـ كما لا يوجد هنالك أي دليل أنه عرف التاريخ الأرمني الذي صنفه متى الرهاوي (مختارات من تاريخ متى الرهاوي في مجموعة راشيل عن تواريخ الحروب الصليبية ـ الوثائق الأرمنية: ١/١ ـ ١٥٠). ومن الواضح أنه نادراً ما تمكن من أن ينقل كشاهد عيان الحوادث الواقعة في زمن مولده أو خلال طفولته، واعتمد للحصول على مادة كهذه على روايات الآخرين.

حتى بالنسبة للفترة الممتدة من سنة ١٠٩٤ وحتى ١١٢٧ م؛ وذلك على اعتباره مصدراً رئيساً للمواد، والتعبير الأكثر دقة حول أهمية هذا الكتاب عليه أن يشتمل على الإعتراف بحقيقة أنه في الوقت الذي هو فيه مصدرنا الرئيسي والأولي بالنسبة للفترة الممتدة ما بين ١١٢٧ و١١٨٤، يعتبر تاريخاً متمماً هاماً بالنسبة للفترة الواقعة قبل عام ١١٢٧ م.

ولم يقتصر تأثير عمل وليم على قيمته كمصدر للمعلومات في عصره بالنسبة للمؤرخين اللاحقين، فبدلاً من ذلك توحي عدة ظروف أنه قد اشتهر في وقت مبكر وعلى نطاق واسع. ومن المستحيل تماماً تحديد عدد النسخ التي صنعت تحت إشرافه الخاص، علماً بأن إمكانات أسرة رئاسة الأسقفية ـ بصرف النظر عن المساعدات الإضافية للنساخ المحترفين، الذين يبدو أن مدينة صور قد حوت عدداً كبيراً منهم ـ لا شك قد مكنت بصورة قاطعة من إكمال أكثر من النسختين المعروفتين. والمقصود بذلك نسخته والنسخة الناقصة التي كان قد نشرها في عام ١١٨٢ م[1]، وهذا ولم يتم إعادة تاريخ أي من النسخ التسع المخطوطة ـ التي ما تزال موجودة ـ إلى وقت أبكر من القرن الثالث عشر[2]. وبناء عليه يمكن اعتبارها جميعاً ـ في أحسن الحالات ـ أنها نسخ منقولة عن النسخة الأولى التي ربما وصلت إلى بعض القراء في غضون أكثر من عامين بشيء قليل بعد وفاة وليم.

كانت مدينة صور في ذلك الحين الموقع الوحيد الهام في مملكة القدس الذي ما زال المسيحيون يحتفظون به؛ ولذلك كانت مدينة أوى إليها جميع اللاتين الذين نجوا من أيدي

(١) إن التخمين أن وليم نشر بعض النسخ من هذا الكتاب حسبما اعتقد أنه كان قد أكمله في عام ١١٨٢ لا يعتمد فقط على تلميحاته الكثيرة إلى عام ١١٨٢ على أنه التاريخ عندما توقف عن الكتابة وإلى رواية ذلك القرار في التمهيد إلى الباب الثالث والعشرين، بل أيضاً على كتاب ارنول في تكملته لتاريخ وليم ويبدأ ارنول تكملته، بعد تلخيص موجز لبعض كتب وليم الأولى، في حوالي عام ١١٨٠، وكان هذا في حوالي المرحلة التي وصلها وليم في نهاية بابه الحادي والعشرين، والذي كتب الكثير منه وبشكل واضح في عام ١١٨٢ ولم تكن الحوادث، التي تتبع في الباب اللاحق ـ وهي زواج غُـي دي لوسنان والعداوة التي أظهرها بلدوين الرابع نحو ريموند صاحب طرابلس وانتخاب هرقل كبطريرك ـ لم تكن ذات سجيه لتقدم أية مسرة لوليم، ويقيناً، كان بالين دي ابلن، واحداً من طبقة النبلاء قامت أراضيه بالقرب من مدينة صور وأحد الأصدقاء الذين كانوا مهتمين بتاريخ وليم. وكان بالين هذا الذي دخل ارنول في خدمته كمرافق شاب، وربما بعد مضي وقت قصير من وفاة وليم، وعلى أية حال، كان ارنول يخدم كمرافق لبالين في معركة حطين التي جرت عام ١١٨٧. وبعد قرابة ربع قرن من الزمن فيما بعد، باشر ارنول، الذي أصبح عندئذ قاضياً مشهوراً لقبرص، كتابة تكملته لتاريخ وليم ومن الواضح أن عدداً من روايات وليم يناقض عدداً من روايات ارنول بما في ذلك قصة وفاة وليم في روما، لتوحي أن النسخة من تاريخ وليم التي كان قد اعتمدها لم تشتمل على هذه الأجزاء اللاحقة، ويمكن شرح هذا بسهولة على أساس الإفتراض أن ارنول كان بحوزته، أو استخدم نسخة كان وليم قد أرسلها إلى بالين في عام ١١٨٢.

(٢) بوتناست «المصادر التاريخية الوسيطة»: ١/٥٦٠.

صلاح الدين. ولا يمكن تحديد عدد الأشخاص - من بين هؤلاء - الذين قضوا الساعات الطوال في مكتبة رئيس الأساقفة ولا بد أن أولئك الذين قد فعلوا ذلك قد ملكوا الفرصة لقراءة تاريخ وليم. أو حتى نسخه. وفي خلال الأعوام الأربعة التالية غدت مدينة صور قاعدة رئيسة للعمليات أثناء حصار عكا. وعليه من المحتمل أن رجال الأدب الذين رافقوا الحملة الصليبية الثالثة قد وجدوا أيضاً تلك المكتبة عبارة عن مكان جذاب للراحة. وهنا نجد من الصعب أن نحدد إلى أي مدى نفعهم فيه تاريخ وليم كمصدر للمعلومات أو كنقطة إنطلاق، أو كنموذج يحتذى في كتابة رواياتهم؟ إن هذا كله أيضاً لا يمكن تقريره.

وكان واحد على الأقل من بين المؤرخين الإنكليز قد اطلع على الكتاب قبل عام ١١٩٢، وذلك على الرغم من أنه لم يتعرف على المؤلف حيث أعلن في وقت سابق لهذا التاريخ عن عزمه إضافة روايته حول الأحداث اللاحقة التي وقعت في الشرق إلى أخبار الأحداث التاريخية المبكرة التي كان وليم قد كتبها بشكل بديع وعظيم. واقتنى ايرنول نسخة - ربما النسخة المبكرة التي كان بالين دي ابلين قد تسلمها في عام ١١٨٢ م - فاعتمدها بمثابة قاعدة للتكملة الفرنسية لتاريخ وليم التي كتبها في قبرص في وقت لاحق. وانتشرت نسخة واحدة على الأقل في فرنسا في وقت مبكر من القرن الثالث عشر لتصبح هناك الأساس للكتاب المنسوب إلى برنارد الخازن. ويبدو أن جاكوي دي فيتري قد وجد نسخة من كل من كتابي «أعمال الحكام» و«أعمال أمراء الشرق» في مكتبات داماشيا في عام ١٢١٨. وأحضر عام ١٢٣١ بييردي روشي، أسقف ونستستر معه نسخاً من هذين الكتابين من الأراضي المقدسة. ويمكن أن تكون هذه النسخ أو ما نسخ عنها هو ما ذكره ماثيو الباريسي على أنه من بين المقتنيات الفخمة في سانت ألبانز [1] وقام كل من روجروندوفر وماثيو

(١) إن مارين سلوخ متأكدة أن المذيل اللاتيني المجهول على تاريخ وليم قد شرع في مهمته في وقت مبكر من عام ١١٩٢. ومن المحتمل أيضاً أن الترجمة الفرنسية الأولى لكتاب وليم قد اعتمدت على مخطوطة تعود للقرن الثاني عشر. (انظر ل. دي ماس لا تري «بحث عن ترتيب تكملات تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري». مكتبة مدرسة الوثائق - السلسلة الخامسة: ٣٨/١ - ١٤٠). وليس من الواضح فيما إذا كان جاكوس دي فتيري قد حصل على نسخته من كتاب وليم هذا في دمياط في عام ١٢١٨ أو حصل فقط على نسخة من كتاب «أعمال أمراء الشرق». ومن المؤكد أنه كان يقتني النسختين عندما كتب كتابه الخاص). وإذا كان قد حصل عليها بالفعل هناك، فمن المحتمل أنها كانت نسخة تعود للقرن الثاني عشر، ومن المحتمل أن النسخة التي كان أسقف ونشستر قد جلبها معه من الأراضي المقدسة في عام ١٢٣١ قد أعدّت في القرن الثالث عشر، ومن غير المؤكد فيما إذا كان ماثيو الباريسي قد حصل على هذه النسخة كملكية دائمة أو صنع منها نسخته الخاصة لمكتبة القديس ألبانز، إلا أن النسخة الجميلة بشكل فريد من كتاب وليم الموجودة في المتحف البريطاني والتي يقال أنها جاءت من دير القديس ألبانز، فيعود تاريخها إلى القرن الثالث عشر.

الباريسي باستقاء معلوماتها شبه الكاملة عن حوادث التاريخ الصليبي لما قبل الحملة الثالثة من تاريخ وليم[١]. ولعلنا لا نتعدى الحقيقة إذا ما قلنا: إن جميع المؤرخين اللاتين تقريباً من الذين ظهروا بعد ذلك وتهيأت لهم الفرصة للكتابة في التاريخ الصليبي قد اتبعوا التطبيق ذاته بشكل غير مباشر عندما لم يكن التطبيق مباشراً. ومن المؤكد أن تعليل وليم لذلك التاريخ قد أصبح المقولة المقبولة عموماً في انكلترا، حيث يمكن اقتفاء تأثيرها إلى وقت متأخر في كتب التاريخ المعتبرة التي كتبها حول الحروب الصليبية كتّاب مثل آرشر وكنغزفورد.

ولم يقتصر تأثير وليم اللاحق على رجال الدين وكتاب التاريخ، فقد اهتم العالم العلماني بأكمله، بما في ذلك طبقة النبلاء من العسكريين والتجار - بشكل عميق - برواية أخبار ما كان المحاربون المسيحيون قد أنجزوه في البلاد الواقعة فيما وراء البحار. وعلى الرغم من أن عناصر السواد الأعظم من هؤلاء الناس كانت تزداد بالتعلم فقد كانت اللغة اللاتينية ما تزال وسيلة مربكة، إن لم تكن مجهولة بالنسبة إلى معظمهم. وفي المقابل نجد أن الفرنسية باتت لغة عالمية للفروسية والتجارة، وكان بإمكانهم القراءة فيها والكتابة على حد سواء. ومن المحتمل أنه لهذا السبب قد كتب كلٌّ من فيلاهارديون وروبرت دي كلاري روايته عن الحملة الرابعة بتلك اللغة، كما أن ارنول الذي كان يتقن اللغتين قد اختار الفرنسية أيضاً أثناء كتابته ذيلاً على تاريخ وليم، ومثل هذا لاحظه كاتب مجهول حيث أدرك أن رواية وليم ستخطى باهتمام هذا الجمهور المتزايد فأقدم على ترجمتها في وقت مبكر إلى اللغة الفرنسية فحققت انتشاراً واسعاً على الفور. ومثله فعل برنارد الخازن إذ عندما أقدم في عام ١٢٣٢ على نشر ذيله على تاريخ وليم أرفقه بترجمة فرنسية لكتاب وليم. وحيث أنه جرت حملات صليبية جديدة فقد تم إلحاق إضافات جديدة بالنصوص الشعبية المتنوعة، واستمرت هذه العملية حتى نهاية القرن الثالث عشر، ونفذت في كل من الشرق والغرب. ولم يُحدد حتى الآن عدد الكتاب المختلفين الذين شاركوا في هذه (الذيول) التتمات. فمن المعروف أنه هناك على الأقل إحدى وسبعين مخطوطة تشتمل على ترجمة فرنسية لتاريخ وليم الصوري، وذلك بالإضافة إلى تتمات شاملة تقريباً[٢]. وحتى الآن يظل كتاب ل. دي ماس لاتري L. De Mas Latire (بحث حول تصنيف تتمات كتاب تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري - Bibliotlegue ole L'ecol De chartes, 5 ht ser, 1 [1871] 38 - 140) أفضل بحث جادّ بذلت فيه الجهود لتحديد

---

(١) هـ. ر. لوارد. طبعته لكتاب ماثيو الباريسي «مؤرخو سانت ألبانز الكبار: ٢/٣١».

(٢) إذا أدرجت الترجمات إلى اللغات الإيطالية والإسبانية والإنكليزية والنروجية، فالعدو أكبر بكثير، وشعر رينت، الذي أجرى الإحصاء في عام ١٨٨١، بالإقتناع بأن الرقم سيزداد كثيراً إذا تمكن من إحصاء المجموعات الخاصة. كما أن الزخرفات على معظم هذه المخطوطات قد جعلتها جذابة بشكل خاص لهواة جمع الكتب (انظر. ب. رينت «مخطوطات تاريخ هرقل» في أرشيف اللاتين الشرقي: ١/٢٤٧-٢٥٦).

علاقة هذه الروايات المتنوعة بعضها مع بعض ومع كتاب وليم الصوري الأساسي. ومع ذلك، فإن عمله قد أفاد بشكل رئيسي في إظهار أهمية المسألة وبيّن تعقيداتها، وهي مسألة ما تزال تنتظر حلاً محدداً. وخلاصة الأمر أننا لا نزال حتى الآن غير واثقين فيما إذا كانت الترجمة الفرنسية الأولى قد أفادت جميع هؤلاء المتممين، أو فيما إذا كان العديد منهم قد صنع ترجمته المستقلة والخاصة به، وفي كلا الحالتين لا بد أنه جرى إقناع جميع المتممين سواء عن إدراك أو بدون إدراك في تأليف كل منهم لتتمته حسب النموذج المتوفر.

وعلى العموم يبدو أن الحظوة الكبيرة التي منحت لكتاب وليم قد بنيت على نوع من جاذبية وإغراء الشهرة أكثر منها على قيمته كمصدر للمعلومات للمؤرخين اللاحقين، والمهم في الأمر أنه ما من مؤرخ لاحق شعر - كما يبدو - أنه مطلوب منه تحسين سمات كتابته، وبدلاً من ذلك كان جميع المؤرخين اللاحقين يشعرون بالرضا بتقديم مساهماتهم دون ذكر أسمائهم. وقد بدأت هذه العادة في وقت مبكر يعود إلى عام ١١٩٢ عندما باشر أحد الكتاب وربما كان انكليزياً - بإضافة روايته عن الأحداث الأخيرة لأيامه إلى رواية أخبار الأحداث التي كتبها وليم من قبل. واستمرت هذه العادة ما دام هنالك جيوش صليبية تـزحـف إلى الشرق وحتى في القرن العشرين - كما ذكرنا من قبل - أقدم بيير غوردن على كتابة موضوع وصف به استيلاء الجنرال اللنبي على القدس، وحين فعل ذلك قام بعدم ذكر اسمه على كتابه وذلك احتراماً منه لوليم، كما أن المؤرخ غروسيه الذي ظهر تاريخه الشامل عن الحروب الصليبية في عام ١٩٣٨، أي بعد عشرين عاماً من تاريخ ظهور رواية غوردن، وبعد أكثر من سبعة قرون ونصف القرن من ظهور تاريخ وليم قد قبل صراحة طريقة وليم في الكتابة. وزاد فقبل معظم أقواله وكلماته أيضاً، وتحمل هذه الأطروحة بمجملها دلالة على حقيقة مفادها. أن وليم قد أرسى - إلى حد ما - أسس معيار للكتابة عن تاريخ الحروب الصليبية.

وبالفعل يبدو أن تأثيره على الأدب التاريخي اللاحق كان أوسع بكثير مما تم اقتراحه، ومن المحتمل أنه لم يقتصر على تزويد المؤرخين اللاحقين بالمعلومات التي استخدموها فقط، بل زودهم بشيء ما من مفهومه الأوسع حول هدف التاريخ، وحول وظائف المؤرخ. ولقد عكس تسامحه واهتمامه المتجانس بنطاق متنوع - للنشاطات البشرية - وكذلك عدم انحيازه وتجرده وشجاعته في تطبيـق المعـايير نفسها على شخصيـات عصره مهما كـانـت منـزلتهـم الإجتماعية - وهي المعايير التي طبقها على أشخاص آخرين وعصور أخرى - لقد عكس هذا كله وجهة نظره التاريخية وفضائله السامية التي تفوّق فيها، وسيكون من الممتع أن نعرف إلى أي مدى كان المؤرخون اللاحقون الذين يظهرون بعضاً من هذه السمات مدينين له.

وتصبح المسألة أكثر إثارة في استخدام ماثيو الباريسي لكتاب وليم، ذلك أن من المعترف به عموماً هو أن ماثيو هو أعظم مؤرخ انكليزي للعصور الوسطى. وهنالك ملاحظة هامشية (طرة) جاءت في مخطوطة «التاريخ الصغير» لماثيو، تفيد بأن المؤلف قد حصل شخصياً على نسخة من نتاج وليم من بطرس أوف ونشستر كان قد جلبها من الأراضي المقدسة في عام ١٢٣١، كما أن النقول التي اقتبسها ماثيو منها متطابقة إلى أبعد الحدود مع النقول التي أخذها روجر وندوفر الذي كان مؤرخاً رسمياً لسانت ألبانز حتى عام ١٢٣٥م. ومن المحتمل أن ماثيو الذي خلف روجر في هذا المنصب كان يعمل خلال الأعوام السابقة بمثابة بديل له تحت التحضير، لذلك ليس من المستبعد أن يكون روجر قد جعل ماثيو يحضر له تلك النقول ليدونها في تاريخه وإذا صح هذا فمن المفيد أن نتأمل مدى عمق تطور مفهوم ماثيو عن التاريخ بقيامه بدراسة دقيقة كل الدقة لتاريخ وليم وهو ما يزال على وشك الدخول إلى ميدان اختصاصه. ولا شك أن شطراً كبيراً من الخلاف بين وجهة نظره العامة ووجهة نظر روجر وندوفر يجب عزوها إلى تأثير وليم الصوري، ولنتذكر الآن أن نتاج ماثيو التاريخي قد أصبح من بعد المثل الأعلى للتصنيف التاريخي الذي احتذاه المؤرخون الإنكليز من بعده، لا بل جميع المؤرخين الأوروبيين.

ومن الصعب دائماً تثبيت مدى دين كُتّاب متأخرين لأي مؤلف بجد ذاته بمثل هذه المزايا المجردة كما هي متداخلة في التصور العريض لمهامهم. وفي حال وليم من العسير بشكل خاص تقصّي هذه العلاقة؛ ذلك أنه خلال العملية المطولة للنسخ وإعادة النسخ للرواية الفرنسية لتاريخه ليتكيف مع التتمات اللاحقة أصبحت جميع آثار مؤلفه الأصلي مطموسة بالتدريج. يضاف إلى هذا أن الإهتمام المستعار الذي نالته الرواية الفرنسية قد أدى - حتى في الترجمة الأولى - إلى حذف الكثير من مادة وليم اللاهوتية، كما أن التلميحات الشخصية في الروايات اللاحقة والمصاغة بالأصل بلغة الغائب قد اختفت أيضاً. وبالفعل نلاحظ أنه قد أزيلت جميع آثاره التأليفية في الكتاب بشكل تام بحلول القرن الرابع عشر، إلى حد أن الراهب الدومينيكاني فرانسيسكوس بيبينوس البولوني أعاد ترجمة جزء من الكتاب إلى اللاتينية، وقد نسبه إلى برنارد الخازن. وبقي يجهل تماماً أنه قد كتب بالأصل في لغة لاتينية كانت أفضل بكثير من اللغة التي ترجم بها. والأكثر أثاره للدهشة من هذا هو أن كاكستون الذي ترجم قطعة من تاريخ وليم من نص فرنسي إلى الإنكليزية قد نسب الكتاب بشكل صحيح وأرجعه إلى وليم [١].

---

(١) ل. أ. موراتوري محقق كتاب «المخطوطات الإيطالية حول الفترة الممتدة فيما بين ٥٠٠و١٥٠٠م ج٩» وإنه =

وإذا كانت سمعة وليم الشخصية قد عانت إلى هذا الحد من التدرج نحو الإغفال لا شك أن التأثير الكامل لتلك الظروف كانت ستوسع بلا أدنى شك دائرة نفوذه؛ لأن كل ناسخ أمر متمم مجهول أضاف قوة انتشار أوسع لنتاج وليم، وفي الواقع يدل ضمنياً عدد المخطوطات التي ما تزال موجودة من التتمات المتنوعة على أن تاريخ وليم لا بد أنه كان معروفاً في كل قلعة وكل بلدة معتبرة في أوروبا. وعلى افتراض أنه كان التاريخ الأوسع قراءة في العصور الوسطى اللاحقة لا بد أنه قد استطاع أن ينجح إلى حد ما في المساعدة على تشكيل عقل المثقف العادي، ولا بد أن هذه الحقيقة بحد ذاتها قد وفرت جهوراً أكثر تقديراً لأولئك المؤرخين اللاحقين، الذين كتبوا باللاتينية أو بالفرنسية القديمة، ولا ريب أن جوانفيل وفرويسارت كانا على دراية به.

ومن المحتمل أيضاً أن وليم قد مارس معظم نفوذه على الأدب من خلال النصوص الفرنسية، ولا شك أنه حسبما صوّر بطرس الناسك وغودفري أوف بولليون، وتانكرد، ونور الدين وصلاح الدين ظهرت هذه الشخصيات في الأعمال الأدبية شروعاً من الكوميديا الإلهية لدانتي ونزولاً إلى كتابات الكتاب الحاليين فقد استمر كتابه يقوم بتزويد الأرضية الأدبية بالمادة الخام والإلهام؛ وذلك على الرغم من أن الكتّاب المعاصرين لنا قد فقدوا ـ في عملية الإقتباس ـ جميع الصلات بالعمل الأصلي وهكذا نرى إن الأدب والتاريـخ هما الحقلان الأكثر كسباً من المساهمات التي قدمها وليم لكل مجال، وإن عدم نيله للإعتراف الكامل في كل منهما مرده ـ بلا شك ـ إلى استيلاء المشاعر القومية على مشاهير العلماء المتأخرين، ولقد قام المؤرخون المهتمون بالحروب الصليبية وبتاريخ الشرق الأدنى في القرن الثاني عشر بكل نجاح في تقدير عظمته، ومع ذلك فإن مكانته الحقيقية في التاريخ والأدب ما تزال تستحق البحث والتقدير.

مشاكل التحقيق

إن النسخة المحققة من تاريخ وليم والمستخدمة كأساس لهذه الترجمة هي النسخة التي أعدها. أ ـ ل ـ بريفوست A.Le - Prevost و أ. بيوغنو A. Beugnot للأكاديمية الفرنسية، وعلى الرغم من أنها نشرت منذ أكثر من قرن مضى فهي لا تزال النشرة الأفضل تحقيقاً حتى

= لمن المدهش أن المحقق وهو مثقف كبير لم يعرف حين اختار بعض النقول من تاريخ بيبينو شيئاً عن أصل كتاب وليم هذا باللاتينية، وبالمقابل إن تحديد كاكستون لاسم صاحب قطعة صغيرة من الرواية في الترجمة الفرنسية رائع حقاً.

الآن، ذلك أنه لم يتم حتى الآن العمل على إخراج نسخة محققة وفق أفضل شروط البحث العلمي الحديث. لأن مثل هذا العمل لن يحتاج إلى جمع جميع النسخ من المخطوطة من النص اللاتيني ومقارنتها فحسب بل ينبغي مقارنتها مقارنة دقيقة أيضاً مع النصوص الفرنسية القديمة الترجمة، وهي متنوعة، وتعتبر أكثر تعداداً وقد أشار ماس لاتري إلى أهمية المسألة الأخيرة هذه؛ ذلك أن كلاً من النشرة المحققة للنص الفرنسي القديم المنشورة مع النسخة اللاتينية من قبل بريفوست وبيوغنو والنشرة التي حققها ب. باريس P. Paris لا تلبيان تماماً حاجات البحث العلمي الحديث، ولربما كان التحضير لنسخة محققة من هذا النوع المرغوب سيتطلب تعاون العديد من العلماء مع سنوات طويلة من الزمن، ومع ذلك فإنه أمر مطلوب بالحاح، ويزداد هذا الإلحاح في ضوء أهمية نص وليم في ميدان أدب الحروب الصليبية.

لقد أعدت هذه الترجمة من قبل السيدة بابكوك Babcock، وقد استهدفت أن تقدم إلى قراء الانكليزية رواية واضحة عن قصة وليم لأخبار الحروب الصليبية و مملكه القدس، ولكي تبلغ هذا الهدف وجدت من الضروري تقسيم الجمل الطويلة المنمقة التي تأتي عرضاً داخل النسخة الأصلية، وأن تعيد سبك بعض العبارات الاصطلاحية التي كتبها وليم، وفي الوقت الذي يمكن أن يقال فيه أن هذه الترجمة ليست حرفية تماماً إنها مع ذلك تظل قريبة من الأصل كلياً بقدر ما تسمح متطلبات الوضوح. ومعروف أن أسلوب أي كاتب من الكتاب يعاني كثيراً أثناء الترجمة، وهذا بدون شك حدث بالنسبة لحال وليم، ومع هذا فإن أي امرىء يعرف الأصل ستعتريه الدهشة بسرور؛ لأنه سيكتشف كم بذلت المترجمة من جهد حتى استطاعت أن تحافظ على الكثير من اسلوب المؤلف.

وأما بالنسبة لنقل أسماء الأعلام سواء بالنسبة للأمكنة أو للناس فهو مشكلة معوقة، خاصة أثناء التعامل مع مصادر العصور الوسطى، ولقد ازدادت هذه المصاعب مرات عديدة أثناء ترجمة كتاب تاريخ وليم بسبب أن مسرح الأحداث كان في الشرق. فقد ازدهرت هنالك حضارات عظيمة متعددة تركت كل منها بقايا أثرية وتقاليد فعالة أيضاً، فقد حملت كل مدينة هنالك وكل معلم بالتتابع تقريباً أسماء يهودية وإغريقية ورومانية، وعربية، وقد تحولت هذه الأسماء جميعاً إلى اللاتينية نتيجة للإحتلال الصليبي لها. وقد أتى الحجاج إلى هنا من كل مكان في الكرة الأرضية يحملون معهم لهجات متنوعة بقدر ما تنوعت البلدان التي صدروا عنها، ولا شك أن الجميع كانوا متلهفين إلى تحديد مواقع أسماء كثيرة لها شهرتها في الكتابات الدينية، ولم يكن بإمكان وليم الذي أمضى حياته وسط هذه الفوضى، والذي مكنته دراسته من الإتصال بجميع هذه العناصر أن ينجو من انعكاس هذا التأثير المتنوع، ولقد انغمس أحياناً في عادة محاولة تحديد أسماء الأماكن ذات الشهرة المقدسة، كما اهتم أيضاً ببعض الأسماء

القديمة. وفي مثل هذه الحالات قدم اسماً واحداً أو اسمين كان المعلم يعرف بهما من قبل، وفي كثير من الحالات عندما كان المعلم مشهوراً كان يذكر اسماً واحداً له عبرياً أو إغريقياً أو عربياً أو فرنسياً.

وعلى أية حال: إن نقل هذه الأسماء إلى المصطلحات المعاصرة يقدم صعوبات إضافية، لأن المنطقة قد خضعت منذ ذلك الحين إلى تغييرات لاحقة وتعرضت إلى فترات طويلة من الإحتلال الأجنبي، مما نجم عنه تعديل لاحق ألمّ بأسماء الأمكنة، وينبغي أن نضيف بعد هذا كله التعقيدات التي أبرزها البحث العلمي الحديث. فقد ساهم كل من الباحثين الفرنسيين والألمان في معظم الأبحاث التي جرت حول هذه المنطقة وحول الفترة ذات الشأن فاستخدموا أسماء خاصة بلغاتهم، ولم يهتم العلماء الإنكليز ـ حتى وقت قريب نسبياً ـ سوى اهتمام ضئيل بأي من حوادث الحروب الصليبية فيما عدا الحملة الصليبية الثالثة. ونتيجة لذلك ليس هنالك معيار انكليزي لمعظم أسماء الأماكن والأفراد وانعدام هذا المعيار يسوغ بشكل واضح سبب استخدام السلطات البريطانية في فلسطين أثناء فترة الإنتداب للأسماء الفرنسية القديمة، لكن خريطتهم لفلسطين في العصور التوراتية ـ وهي فترة كانت أسس المصطلحات الإنكليزية حولها قد أرسيت منذ زمن طويل بصيغ مقبولة ـ قد جرى إصدارها باللغة الإنكليزية، أما بالنسبة لفترة الحروب الصليبية فيبدو أن السلطات البريطانية قد شعرت بالإحباط، لذلك قررت في النهاية أن تصدر خريطتها بأسماء فرنسية قديمة[1]، وبما أن هذه الأسماء لم يتم وضع معيار لها من حيث الأصل فهي ثقيلة ومربكة في التهجئة، ونادراً ما تعتمد في الأطالس المعتمدة والدارجة. وعليه جاء هذا الحل للمشكلة بشكل ليس مفيداً إلا بقدر. وهكذا جاء اختيار الأسماء لفائدة هذه الترجمة ـ بحكم الضرورة ـ عملاً عرفياً وقد لوحظ أن المثل الذي ضربه محققو كتاب «تاريخ كمبردج للعصور الوسطى» في داخل خريطتهم للدول اللاتينية في سورية» يبدو معقولاً بشكل بارز[2]. وعلى العموم جرى هنا اعتماد الأسماء المستخدمة في العصور التوراتية بالنسبة للأماكن الأقدم والأكثر شهرة، لكن في بعض الحالات ـ كما هو الأمر بالنسبة لمدينة نابلس التي وردت متنوعة: نيوبولس، نابلوس، نابولوس، نابليس ـ بدت صيغة نابلس الحديثة صيغة أكثر بساطة وأقل إرباكاً؛ ولذلك جرى تفضيلها على جميع الصيغ الأخرى. وأما في حال الأماكن الأصغر والأكثر غموضاً، وحيث يكون تحديد

(١) «فلسطين الصليبيين» جمع وأعد وطبع بإشراف ف. ج. سالمون. مفوض الأراضي والمساحة. فلسطين من خلال المعلومات التي قدمتها مديرية الآثار وبيير آبل من مدرسة ومكتبة الأرشيف الفرنسية.

(٢) تاريخ كمبردج للعصور الوسطى ج مصور رقم ٥١.

المكان أمراً غير مؤكد فقد احتفظ بالإسم الذي اعتمده وليم. أما فيما يتعلق بأسماء الحصون والقلاع التي يرد ذكرها في أخبار حوادث تلك الفترة فقط، وفي حالات استثنائية أخرى خاصة فقد جرى اعتماد الأسماء الفرنسية القديمة، ومن المؤمل أن هذا التطبيق لن يرهق كثيراً إمكانات القارىء الذي يرغب في تعيين مواضع هذه الأماكن على المصورات الجغرافية[١].

وتثير أسماء الأعلام مشاكل ليست أقل ارباكاً، فقد كانت أسماء الأسر غير معروفة في أوروبا الغربية في بداية القرن الثاني عشر، وفي الحقيقة جاء استخدام أسماء الأسر هذه، إلى حد ما نتيجه التشوش الذي خلقه وقوع أسماء كثيرة متطابقة أو متشابهة داخل جيوش الصليبيين، أو بين حشود الحجاج الذين تدفقوا على الأراضي المقدسة. وقد تم استقاء الكنية في كثير من الأحيان من اسم مكان الأصل في أوروبا، لكن اعتمد بالإضافة إلى هذا عدد من الأساليب للتحديد. والمصاعب نفسها جاءت من كون أن اللاتين الذين قدموا من مختلف أجزاء أوروبا الغربية كانوا غير معتادين على الأسماء الغريبة للشعوب الشرقية. ولا شك أن هذا زاد من مصاعب الكتاب الذين حاولوا تسجيل هذه الأسماء باللاتينية مع الأخذ بعين الإعتبار أن معظم هؤلاء المؤرخين لم يتعلموا هذه الأسماء إلاّ سماعاً ووفق شيوعها، وذلك خلال العديد من اللهجات والتلفظ المختلف. لقد فعل هؤلاء الكتاب ما كان بوسعهم لرسم الكلمات حسب الإنطباع المتكون لديهم، فليس من عجب ـ بعد هذا ـ إذا رأينا أن بعض هذه الأسماء قد تظهر في أكثر من عشرة أشكال مختلفة في روايات متنوعة، وحتى أن المؤرخ نفسه يحدث فيكتب الإسم نفسه بأشكال متنوعة داخل مسرده للأخبار. ولا عجب في هذا أيضاً فحتى ت. إ لورانس، البطل شبه الأسطوري للحرب العالمية الأولى قد واجه المشكلة ذاتها أثناء تدوين أخبار مغامراته في شبه جزيرة العرب وفلسطين، ولم تبد عليه الدهشة حين أمسكه ناشروه متلبساً بالجريمة نفسها[٢]، ولقد كان وليم الذي استقى مادته من مصادر لاتينية وفرنسية وعربية شفوية ومكتوبة كثيرة التنوع، والذي كتب تاريخه على مراحل منفصلة في فترة امتدت قرابة العشرين عاماً كان عرضة بشكل خاص للوقوع بمثل هذه الأخطاء والمثير

---

(١) تحتوي الأطالس التاريخية المعتمدة (مثلا و. ر. شيفرد) على أكثر الأماكن أهمية مما ذكره وليم في تفاصيله الجغرافية كنقاط أساسية. وإن أكمل خرائط وأهمها مما هو متوفر الآن عن سورية هي خرائط ر. ديسو في كتابه «الطبوغرافية التاريخية لسورية القديمة والوسيطة، والخرائط التي أعدت لتاريخ غروسية اعتمدت على خرائط ديسو وهي متبناه في كتابه «تاريخ الحروب الصليبية» وخريطة مساحة فلسطين صالحة لفلسطين فقط.

(٢) ت. إ. لورانس «ثورة في الصحراء» تعليقات الناشر ص: ١٥ ـ ١٦.

هنا أنه في ظل الظروف التي عاشها قد ارتكب فقط كمية الأخطاء التي ارتكبها وليس أكثر منها بكثير. وهكذا نجد لاموت الذي اقتضت أبحاثه في أنساب وأصول القادة الصليبيين منه دراسة موسعة ودقيقة لتاريخ وليم قد أثنى ثناء كبيراً على السلامة العامة لمعلومات وليم.

ولمساعدة القارىء وتسهيل الأمور عليه حاول المحققون استخدام الصيغة نفسها للاسم نفسه في كل مكان من الكتاب. وبالنسبة للعدد القليل جداً من أسماء الأشخاص الذين ذكرهم وليم، ونالوا صيغة رسم دارجه بالإنكليزية مثل: غودفري أوف بولليون وصلاح الدين فقد فضل استخدامها هكذا. ونظراً إلى أن القسم الأكبر من الأسماء الغربية في كتاب وليم كانت من أصل فرنسي؛ ولأن الأشخاص الذين قدموا من أقاليم فرنسا أو من الأقاليم المجاورة لها مع عدد كبير ممن جاء من انكلترا أو من الدول النورماندية لجنوب إيطاليا كانوا ما يزالون يحملون أسماء فرنسية، وبما أن الأفراد يعرفون نسبة إلى مكان نشأتهم في فرنسا فإن الصيغة الفرنسية الحديثة، «وياء النسبة الفرنسية» قد تم استخدامها حتى وإن كان الإسم شائع الإستخدام في العالم الناطق بالإنكليزية وقد استخدمت الصيغة الفرنسية بشكل كامل في حالات أخرى وفق العادة، إلاّ أن «ياء النسبة» الإنكليزية استخدمت بشكل عرفي في الحالات التي تكون النسبة فيها إلى إقطاع امتلكه المنسوب في الشرق، وأما بالنسبة للأشخاص المنحدرين من مناطق أخرى في أوروبا فقد تم تحديد أماكن بلدانهم ومواطنهم بدقة ووضوح لأن هؤلاء تجري نسبتهم إلى مواطنهم الخاصة. ولقد جرى اعتماد الأسماء اللاتينية واستخدامها في حالات يكون فيها تحديد النسبة أمراً ليس مؤكداً، وغالباً ما يكون هذا في حالات رجال الدين. ووجدت الضرورة في بعض الأحيان لاستخدام معايير عرفية لتفادي الإختلاط والتداخل. فعلى سبيل المثال حمل ملك القدس وبطريركها في وقت واحد اسم «عموري» وحمل بطريرك أنطاكية المعاصر لهما اسم «أيمري» القريب جداً من اسميهما؛ ولهذا قمنا بترداد هذه الأسماء هكذا: ملك القدس: عموري، وبطريرك انطاكية: أيمري، وبطريرك القدس: أمالرخ.

وبالنسبة إلى الأسماء الشرقية التي ثبت أنها كانت مزعجة جداً لمؤرخي القرن الثاني عشر فإنه يتوفر الآن عون إضافي، وذلك بفضل جهود لين بـول[1] مع جهود محققي «الموسوعة الإسلامية»، فقد تم التوصل إلى وضع معيار رفيع لرسم الأسماء العربية والتركية والفارسية والمصرية، ونقلها إلى الإنكليزية إلى حد أن بعض هذه الأسماء مثل صلاح الدين ونور الدين تبدوا الآن بشكلها الإنكليزي دارجة جداً كما تم احترام مشاعر المستعربين في

(١) س. لين بول «الأسر الإسلامية».

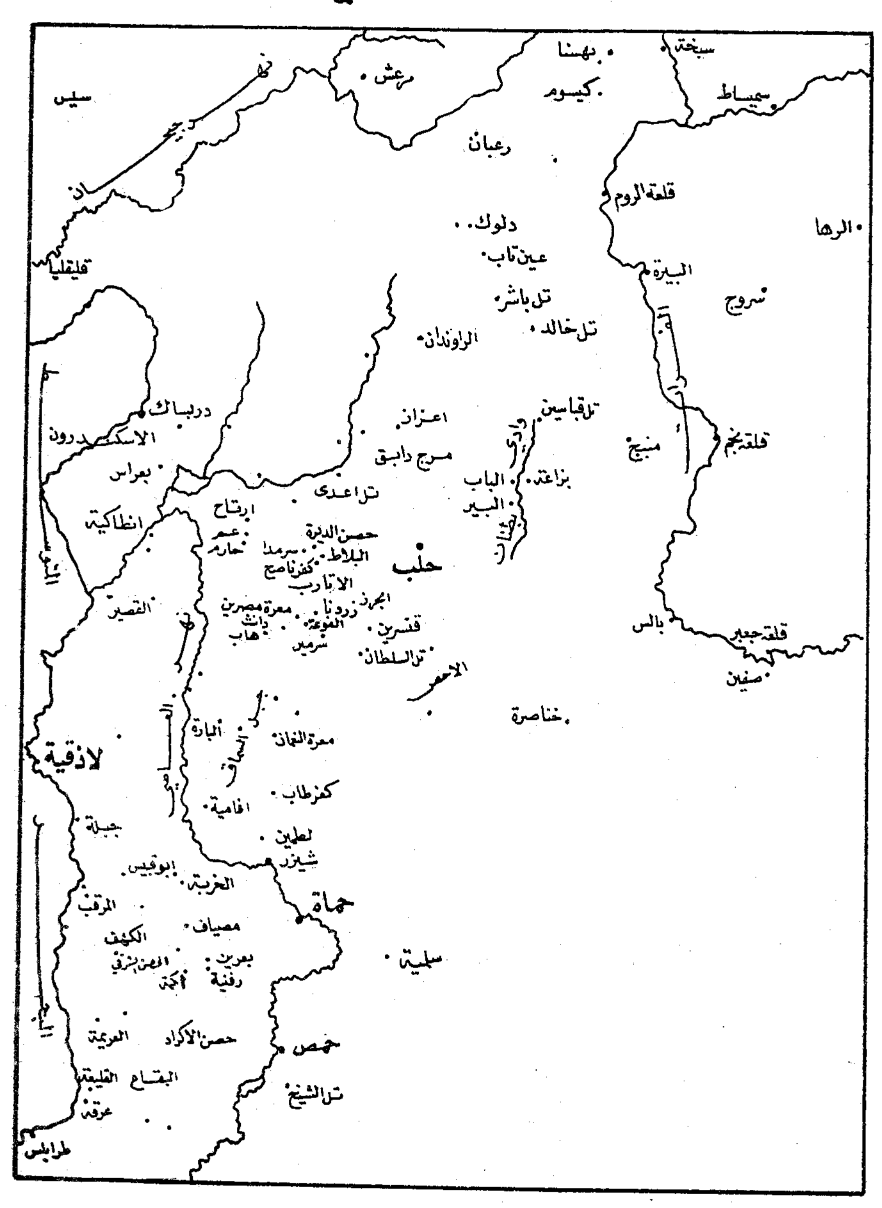
استخدامهم لصيغتهم المفضلة لاسم « محمد » التي رسمت على ستة أشكال مختلفة في نص وليم اللاتيني، ولقد تحتم على المحققين الإكتفاء في معظم الحالات بتسوية متقاربة بدلاً من بلوغ المعيار المطلوب. ولحسن الحظ أن كتاب « تاريخ العرب » تأليف فيليب حتي المشتمل على معظم هذه الأسماء الشرقية في شكلها الدارج متوفر الآن بشكل عام.

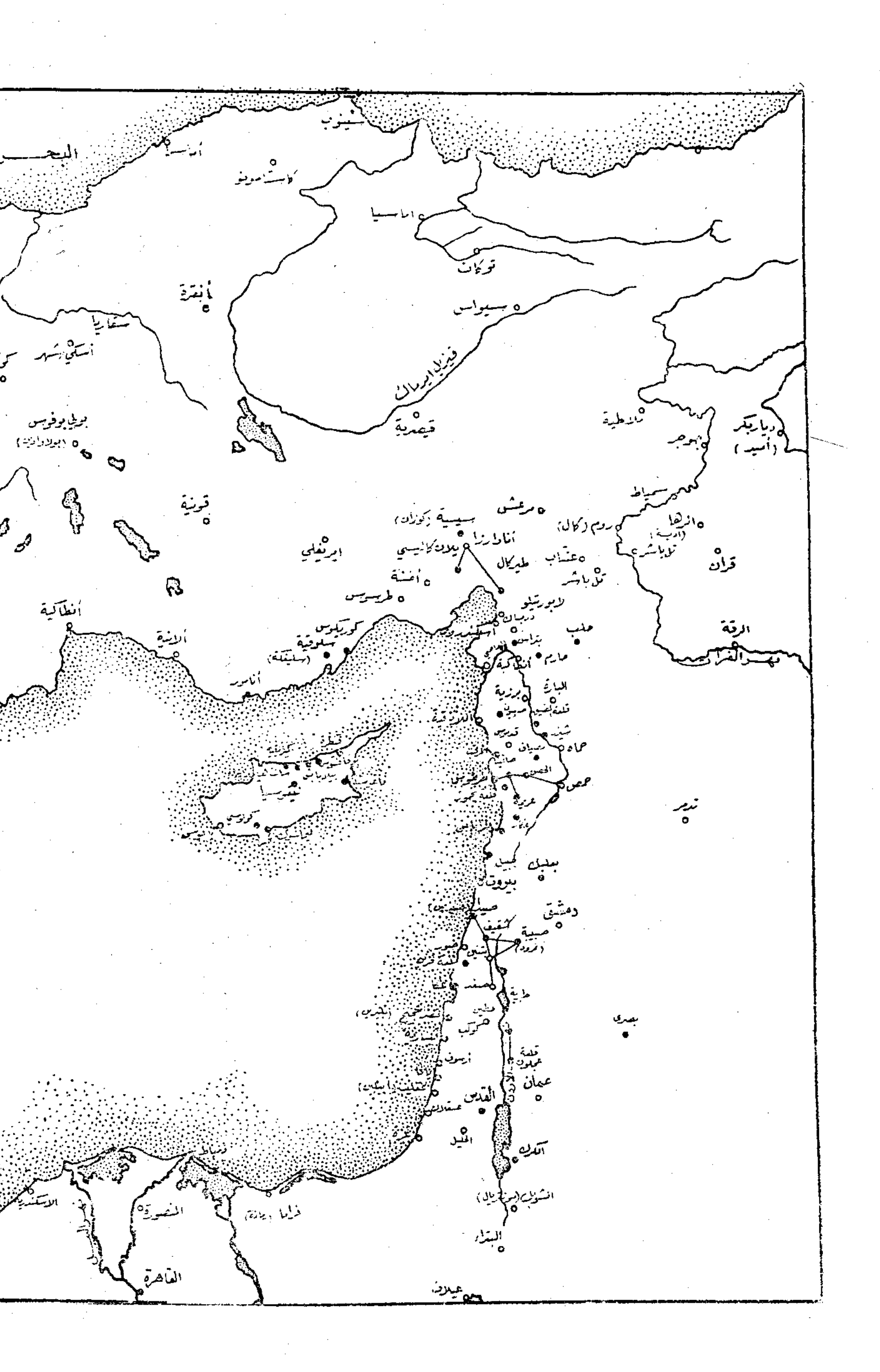
ولقد كانت عبارات وصف المؤسسات والعادات والممارسات والأدوات التي بطل الآن استخدامها مع تلك الخاصة بموقع من المواقع وزمن محدد من الأزمان مصدراً للإرباك فبعضها، مثل المصطلحات الإقطاعية، لها مرادفات حديثة، أو أصبح يعبر عنها بوساطة مصطلحات انكليزية مميزة. وأما بالنسبة لبعضها الآخر مثل الألقاب الشرقية التي استخدمها الإغريق والشعوب الشرقية الأخرى فليس لها مرادفات انكليزية دقيقة، ولقد وجد من الأنسب في مثل هذه الحالات تبني العبارات المستخدمة في النص اللاتيني.

لقد حاول المحققون نقل نص تاريخ وليم بصدق وأمانة بقدر ما سمحت عملية الترجمة، كما تم الإحتفاظ بتقسيماته لكتابه، وهي تقسيمات يبدو أنه أوجدها في عام ١١٨٤ م، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لقد كان من الضروري تزويد النص بعناوين فرعية للكتب في داخله، حيث لم يستنبط وليم عناوين فرعية لها. أما بالنسبة للعناوين الفرعية للفصول فقد أبقيت كما كتبها وليم، وحيثما تحتم رسم أسماء الأعلام أو الأماكن تبعاً لمعيار رسم الأسماء الدارج حالياً فإن رسم وليم لها قد أعيد إدراجه في أول سانحة، كما تمت الإشارة إلى صيغة رسمه أحياناً في الحواشي. وجرى الإحتفاظ بعباراته المنقحة والمكررة والمتقلبة والعرضية كما وردت في النص. أما بالنسبة لتعليقات التحقيق التي استهدف منها تصحيح النص فقد جرى تحويلها إلى الحواشي. وجرى تطبيق الشيء نفسه على أخطائه التي كان معظمها تأريخياً بحيث نبه عليها في الحواشي. وجرى تخريج نقوله واقتباساته الحرفية التي أخذها من النصوص الأدبية السابقة ومن نصوص الكتاب المقدس والكتابات الكلاسيكية والوسيطة في الحواشي أيضاً. ولقد دفعت معرفة وليم الواسعة بالكتاب المقدس مراراً إلى جمع عدد من المقاطع من آيات مختلفة ومن ثم دمجها، ودفعته في أحيان أخرى إلى توزيع الآيات إلى مقاطع، وذلك حسبما خدم العمل مقاصده. وحيثما أمكن التعرف إلى الآية جرى تخريجها في الحواشي، وتم الإعتماد على رواية طبعة الملك جيمس للكتاب المقدس كدليل أثناء عملية الترجمة لأنه أكثر الترجمات شيوعاً بين القراء الإنلكيز، ومع ذلك وفي بعض الأحيان قد يكون شاهد وليم إما غير موجود في رواية الملك جيمس، أو مترجماً بمعنى مختلف وهنا تمت العودة إلى رواية دوي Douay، وقد أشير إلى هذه الإستثناءات في حقل الحواشي. وأخيراً لقد استهدف المحققون

إبقاء الحواشي قليلة إلى أبعد الحدود. وبقدر ما يزود القارىء بالمعلومات الكافية لتوضيح النص، ولا شك أنهم أخطأوا في ناحية أو أخرى لكن من دون أن يعرفوا. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يشتمل حقل الحواشي على إشارات ودراسات علمية حديثة تعالج بشكل أكمل قضايا متنوعة. ولا شك أن كلّ هذا جاء لمعونة القارىء الذي يرغب بمعلومات إضافية، وقد ورد اسم كثير من هذه الدراسات بشكل مختصر بعد ذكرها لأول مرة بشكل كامل، ثم جاءت أسماء هذه الدراسات مع عناوينها الكاملة في ثبت المصادر والمراجع.

الشـام الشمالي

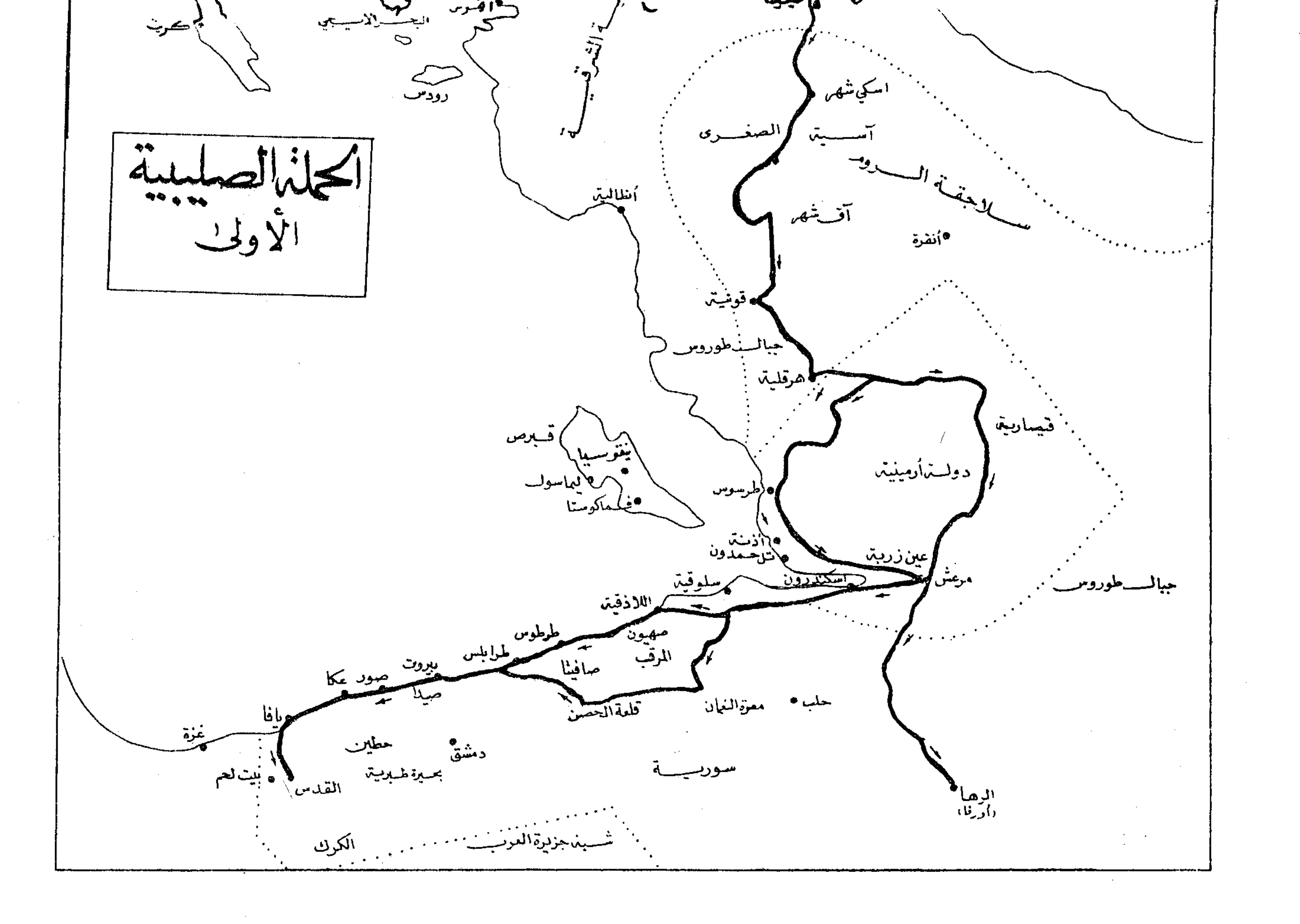



أماسيا
توكات
سيواس
أنقرة
قيصرية
قونية
مرعش
الرها
قران
الرقة
حلب
حارم
أنطاكية
حماه
حمص
بعلبك
بيروت
دمشق
صور
القدس
عمان
الكرك
عسقلان
القاهرة
أنطالية
تدمر
بصرى

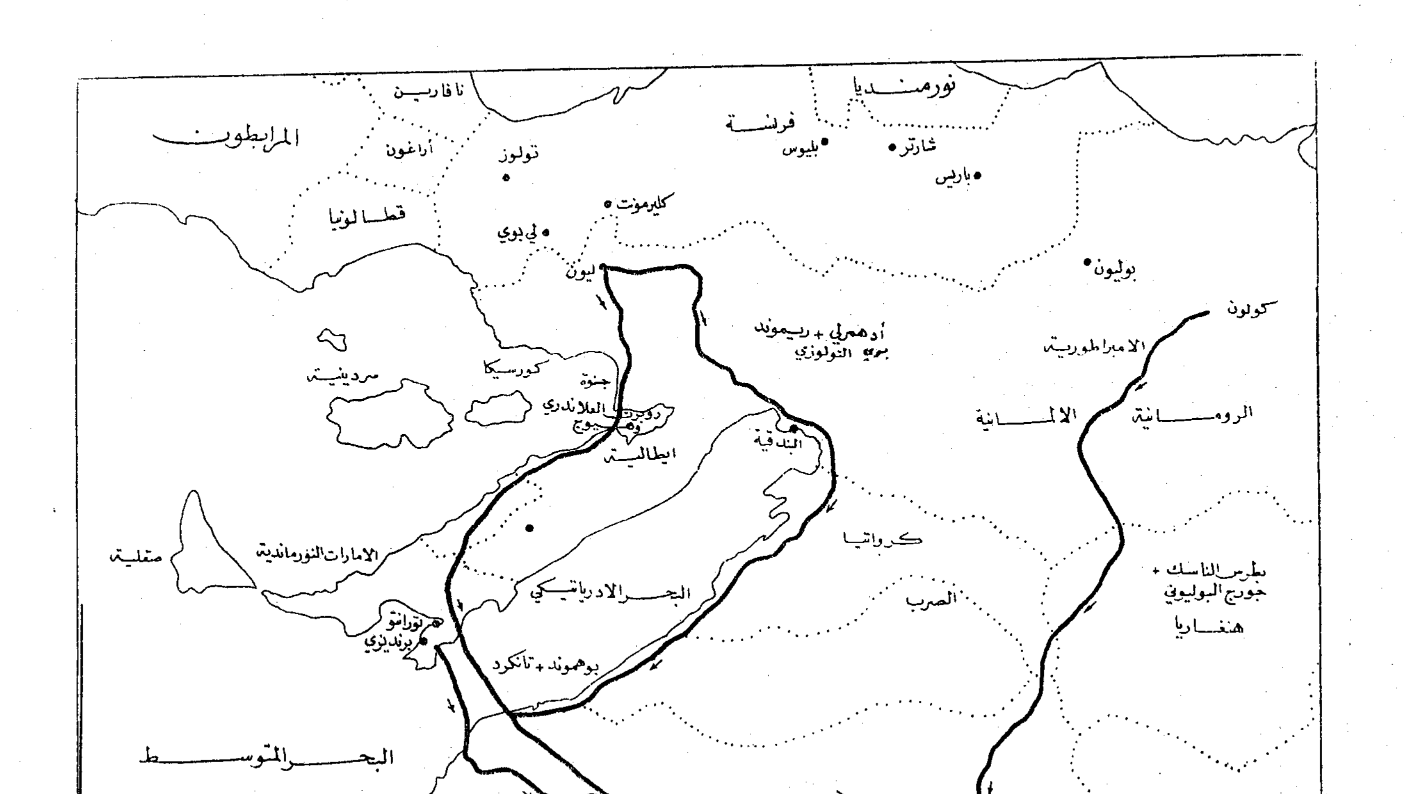


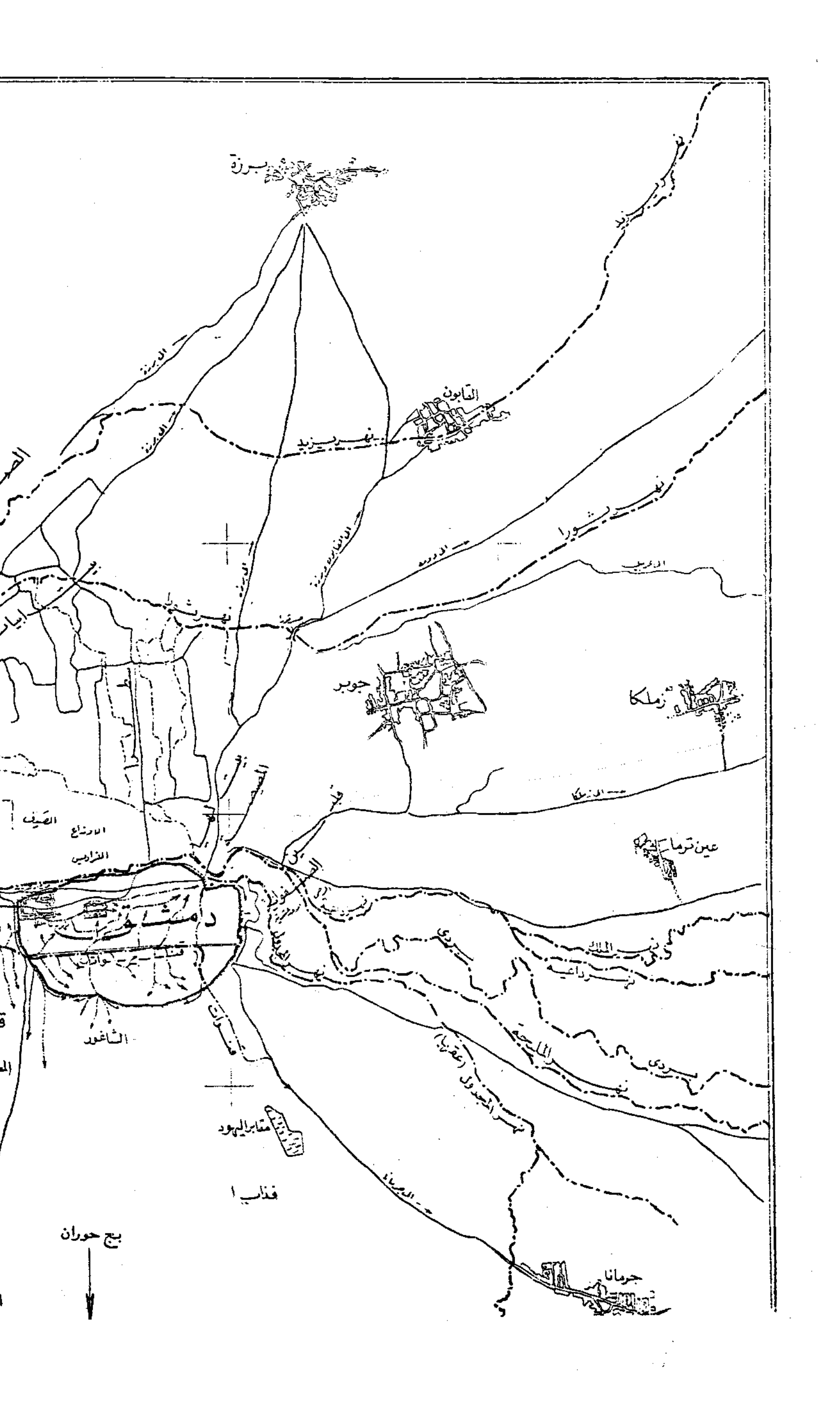
مسرح الحروب الصليبية

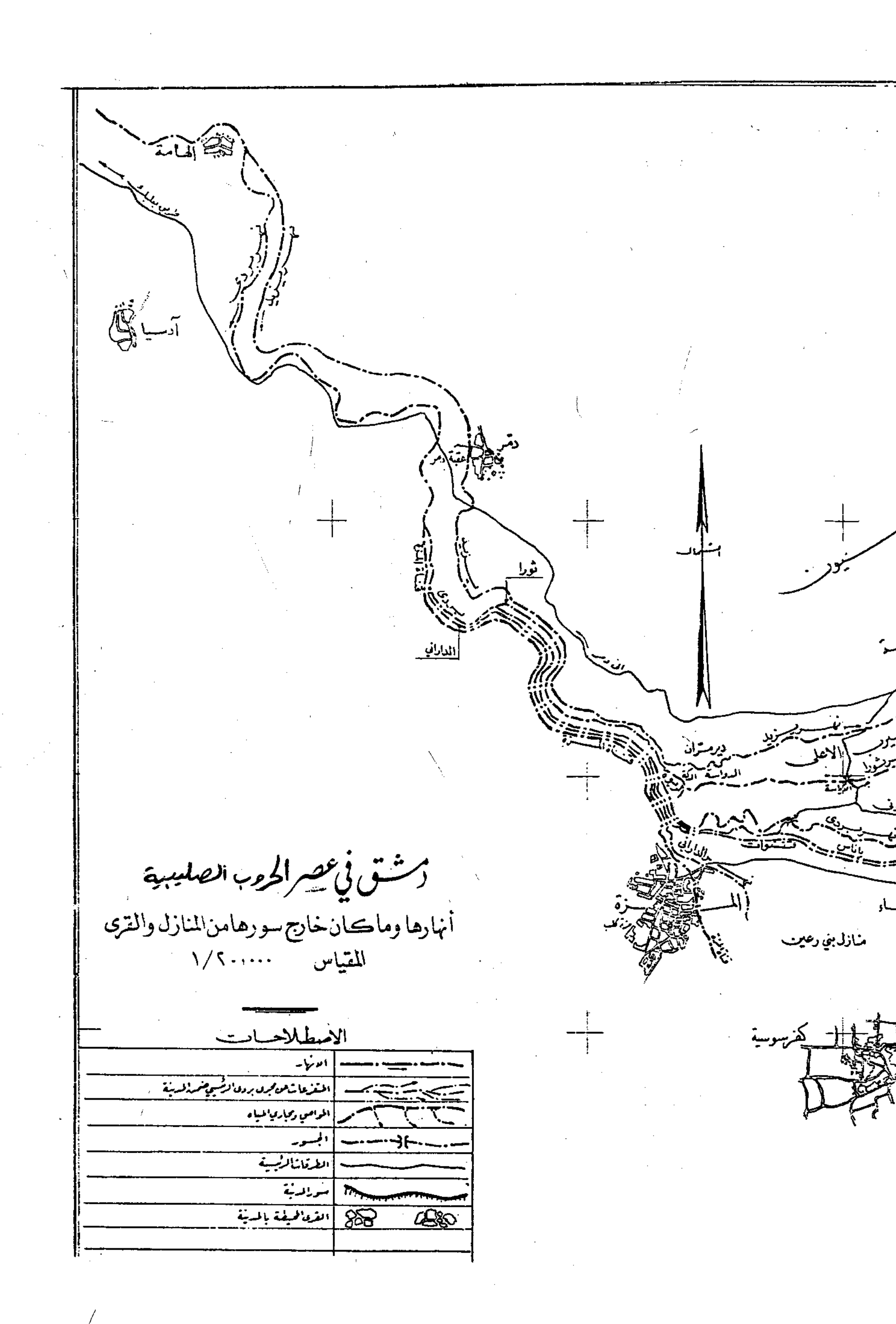
(أشير لمواضع القلاع بدوائر سوداء)



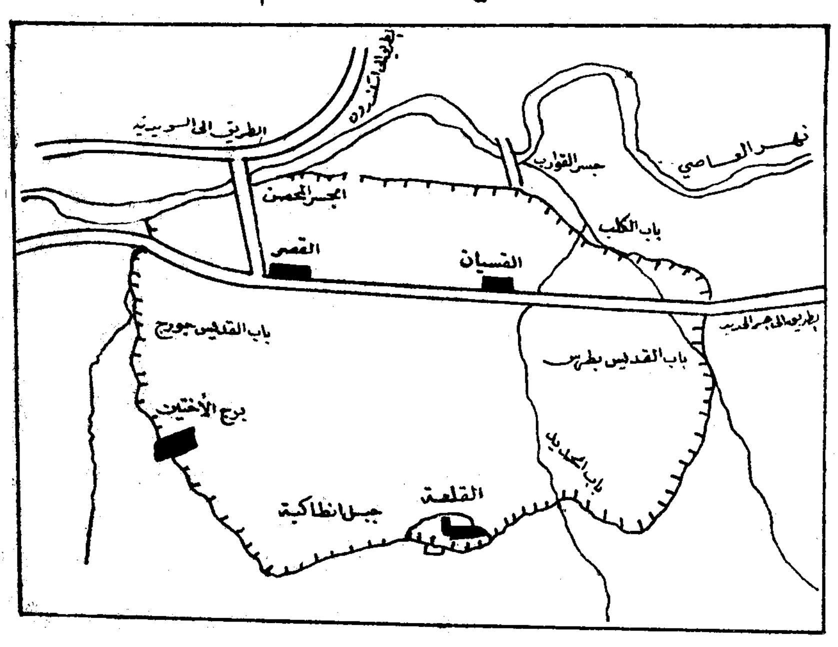
الحملة الصليبية الأولى
اسكي شهر
آسية الصغرى
سلاجقة الروم
آق شهر
أنقرة
قونية
جبال طوروس
هرقلية
أنطالية
رودس
قبرص
نيقوسيا
ليماسول
فماكوستا
طرسوس
أذنة
تل حمدون
قيسارية
دولة أرمينية
عين زربة
مرعش
جبال طوروس
اسكندرون
سلوقية
اللاذقية
صهيون
المرقب
طرطوس
طرابلس
صافيتا
قلعة الحصن
معرة النعمان
حلب
بيروت
صيدا
صور
عكا
يافا
غزة
حطين
دمشق
بحيرة طبرية
سورية
القدس
بيت لحم
الكرك
شبه جزيرة العرب
الرها (أورفا)

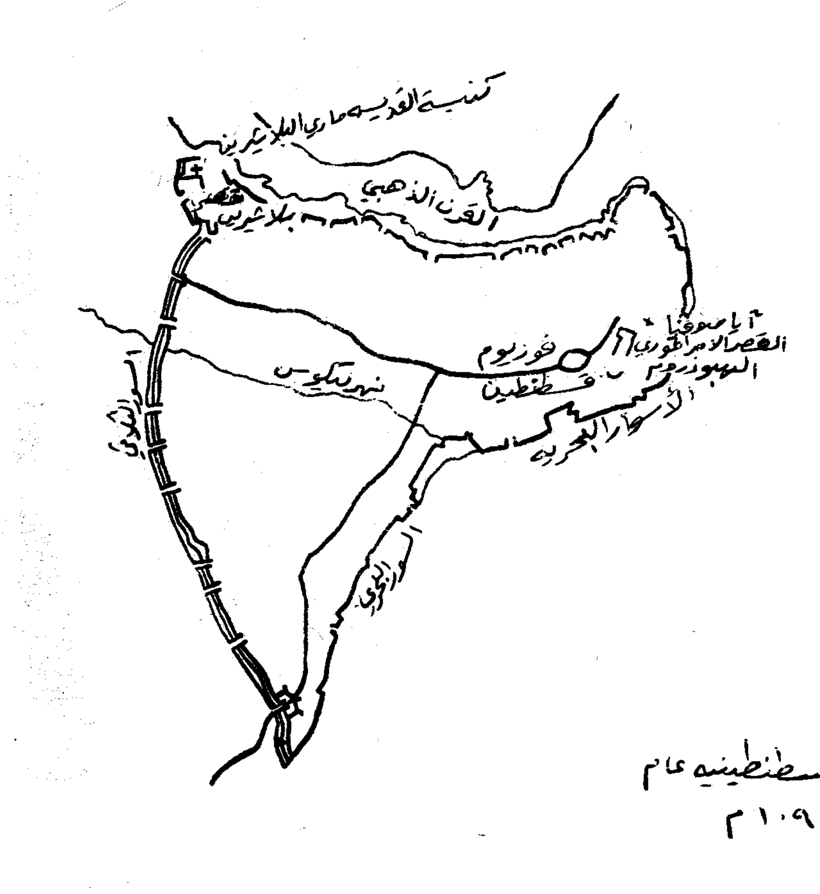

نورمنديا
نافارين
المرابطون
فرنسة
بليوس
شارتر
باريس
أراغون
تولوز
كليرمونت
قطالونيا
لي بوي
ليون
بوليون
كولون
أدهمرلي + ريموند
بوي التولوزي
الامبراطورية
الالمانية
الرومانية
مردينية
كورسيكا
جنوة
روبرت العلاندري
وهيوج
البندقية
ايطالية
كرواتيا
صقلية
الامارات النورماندية
البحر الادرياتيكي
الصرب
بطرس الناسك +
جورج البوليوني
هنغاريا
تورانتو
برنديزي
بوهموند + تانكرد
البحر المتوسط


برزة
القابون
نهر يزيد
نهر ثورا
جوبر
زملكا
عين ترما
دمشق
الشاغور
مقابر اليهود
جرمانا
بيج حوران
نهر بردى
نهر الملك
نهر داعية
نهر المليحة
نهر الجدول (عقربا)

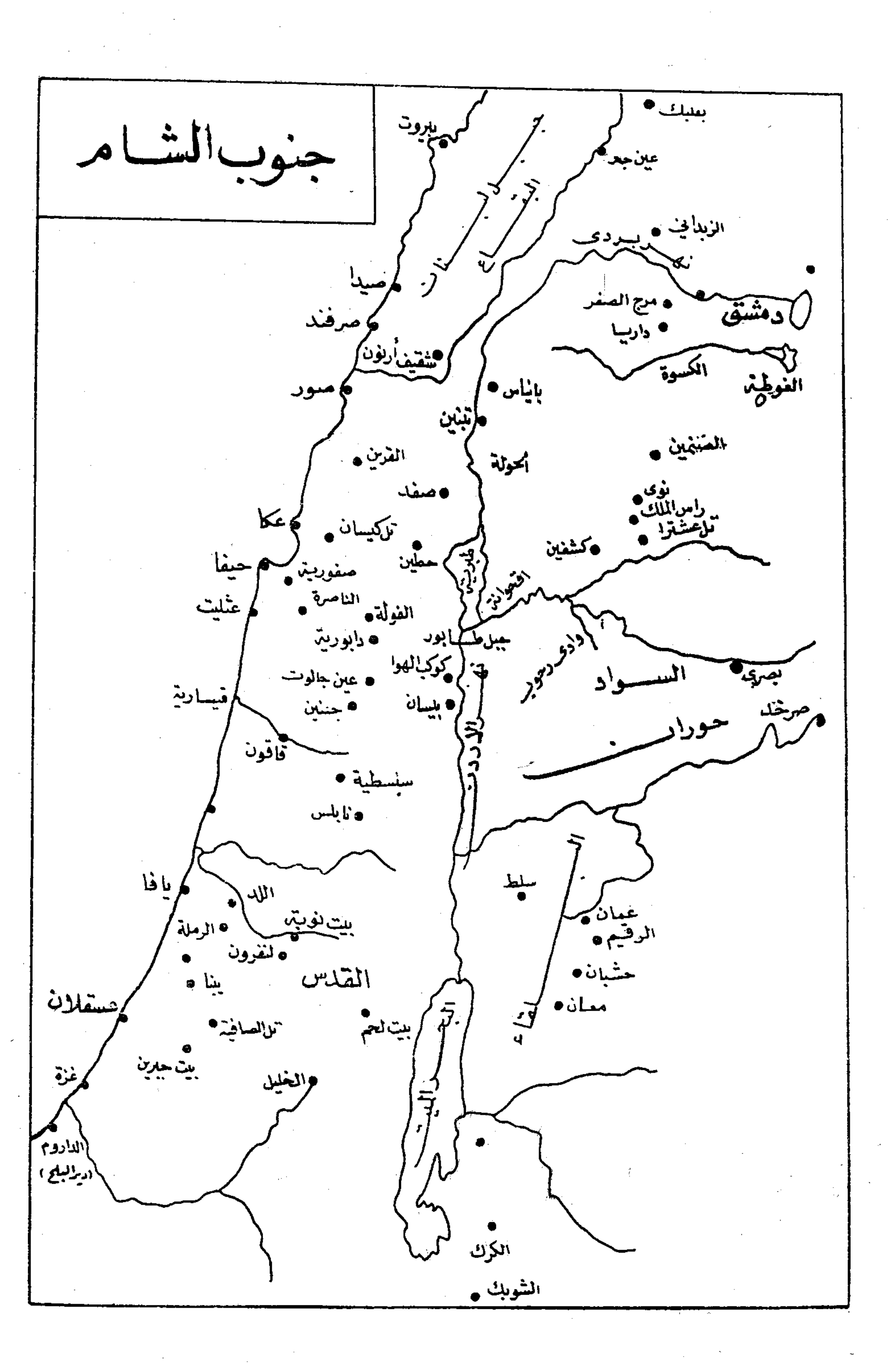

دمشق في عصر الحروب الصليبية
أنهارها وما كان خارج سورها من المنازل والقرى
المقياس ١/٢٠٠٠٠
الاصطلاحات
الهامة
آدسيا
ثورا
الداراني
دير مران
الأعلى
منازل بني رعين
كفرسوسة

انطاكية سنة ١٠٩٨م

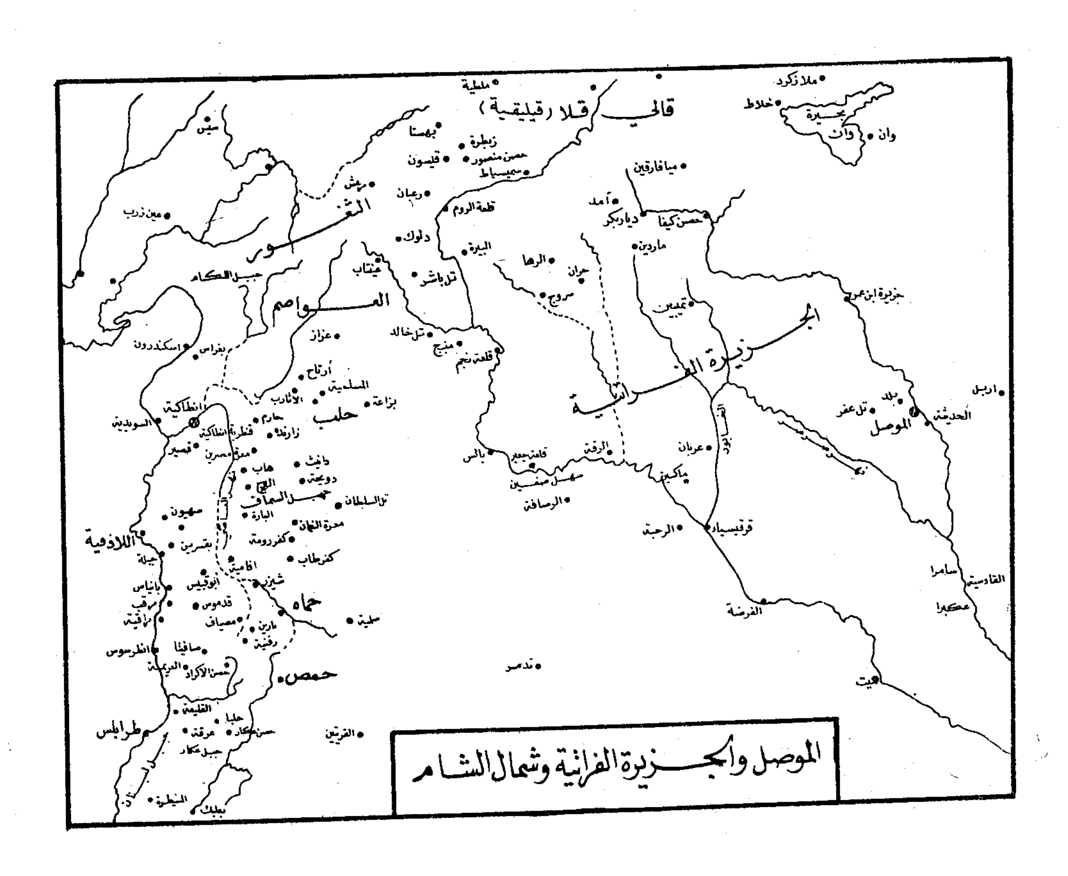




سطنطينيه عام
١٠٩م

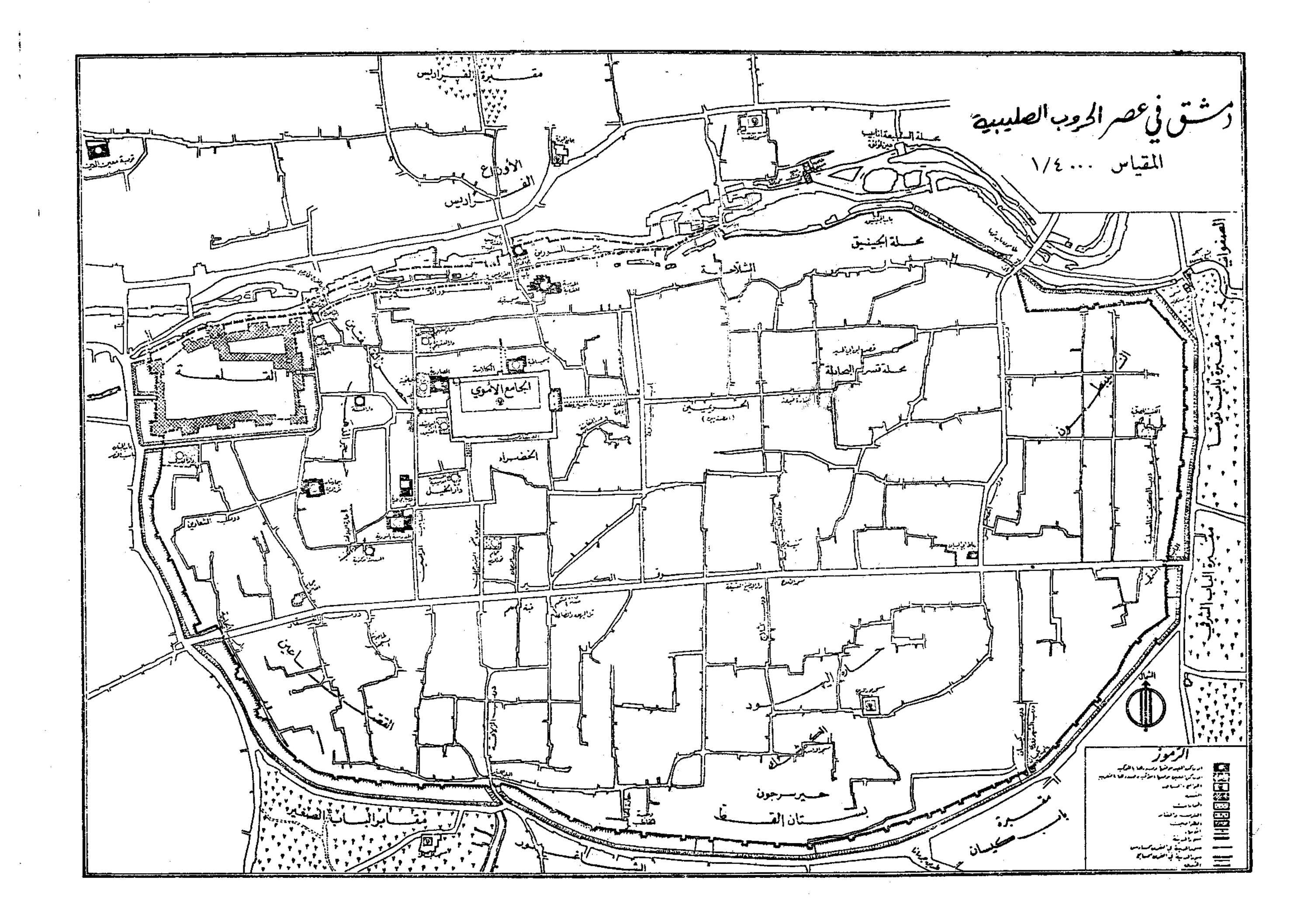


جنوب الشام
بعلبك
عين جر
بيروت
الزبداني
بردى
صيدا
صرفند
شقيف أرنون
مرج الصفر
دمشق
داريا
الكسوة
الغوطة
صور
بانياس
تبنين
الحولة
الصنمين
القرين
صفد
نوى
راس الملك
تل عشترا
عكا
تل كيسان
حطين
كشفين
حيفا
صفورية
الناصرة
الفولة
عثليت
دابورية
جبل طابور
كوكب الهوا
عين جالوت
بيسان
بصرى
السواد
قيسارية
جنين
حوران
صرخد
قاقون
سبسطية
نابلس
يافا
اللد
سلط
بيت نوبة
الرملة
عمان
الرقيم
لنفرون
القدس
حشبان
معان
عسقلان
تل الصافية
بيت لحم
بيت جبرين
غزة
الخليل
الداروم
(دير البلح)
الكرك
الشوبك

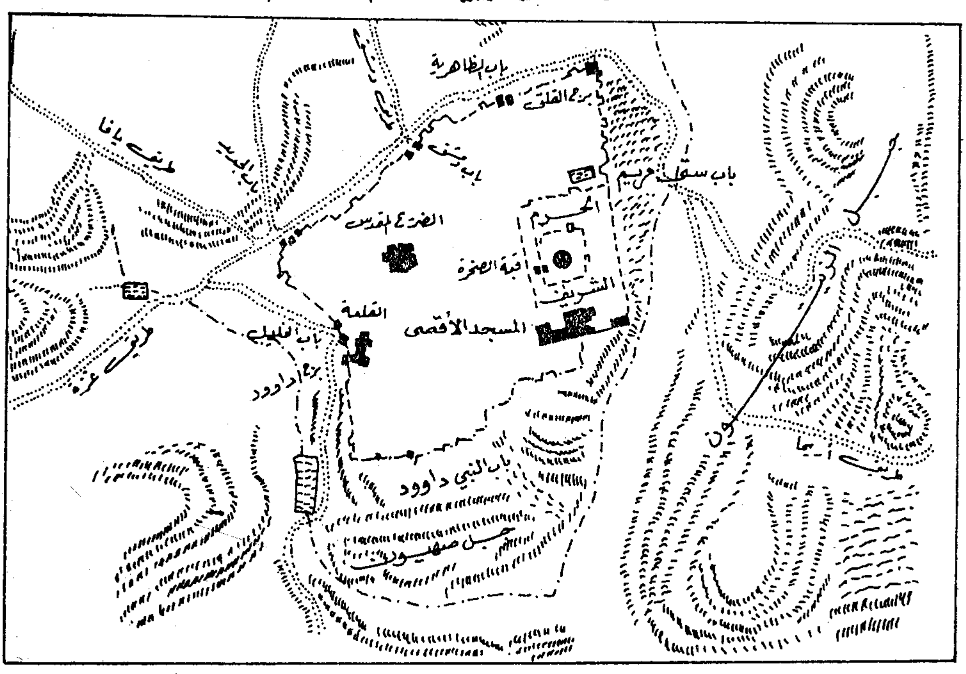

الموصل والجزيرة الفراتية وشمال الشام

منطقة الجزيرة




دمشق في عصر الحروب الصليبية
المقياس ١/٤٠٠٠
الجامع الأموي
القلعة
محلة الجنيق
الشاغور
الخضراء
مقبرة الفراديس
مقبرة باب الصغير
مقبرة باب توما
مقبرة الباب الشرقي
الرموز
الشمال

القدس زمن الصليبيين عام ١٠٩٩ م



تاريخ الحروب الصليبية

الأعمال المنجزة فيما وراء البحار

صنّفه باللاتينيّة

وليم

رئيس أساقفة صور

١١٣٠ - ١١٨٥م

نقله إلى العربية وقدم له

الدكتور سهيل زكار

القسم الأول



تمهيد :

من وليم المغبوط بنعمة الرب، العبد الفقير، راعي الكنيسة المقدسة في صور إلى أخوانه المجدين بالمسيح، لعلّ هذا العمل يأتي بالنسبة إليهم بمنزلة خلاص أبدي في الرب[1].

لا يمكن لرجل عاقل أن يشك في أن الكتابة عن مآثر الملوك وأعمالهم هي مهمة شاقة ومحفوفة بالمخاطر والمجازفات الكثيرة، هذا إذا لم نقل شيئاً عن العمل الشاق والإنكباب المتواصل، والحذر الدائم مما تتطلبه أعمال ذات طبيعة كهذه، ذلك أن هاوية سحيقة تنفغر بشكل محتوم أمام كاتب التاريخ. فهو لا يستطيع أن يتجنب هذه أو تلك إلاّ بصعوبة بالغة، فبينما يحاول النجاة من الأسى تراه يقع في براثن الكآبة المحاطة بكلابها، والتي تعرف بشكل جيد كيف توقع الكارثة. فالكاتب إما سيثير غضب العديد من ذوي الشأن ضده، وهو يسعى وراء معرفة الحقائق الفعلية للوقائع، وإما سيلتزم بالصمت إزاء مجرى الأحداث أملاً منه في اثارة أدنى السخط نحوه. وهو هنا لا شك سيكون مخطئاً بشكل واضح؛ لأن التغاضي عن ذكر الحقائق الفعلية للأحداث وإخفاء الحقائق عن عمد معروف تماماً على أنه مخالف لواجب المؤرخ. ولا شك أن إهمال المرء واجبه خطأ واضح لا سيما إذا أقررنا أن الواجب هو بالفعل وبشكل صحيح «السلوك الموائم لكل فرد من الأفراد بشكل يتماشى مع تقاليد بلده وعاداته» هذا من جانب، ومن جانب آخر: إن تقصي تسلسل الأحداث دون تغييرها أو الإنحراف بها عن جادة الحقيقة هو سلوك يثير الغضب دائماً، وكما يقول المثل القديم: «التغاضي يربح الأصدقاء، والحقيقة تربح الكراهية»[2]، وبالمحصله إما أن يقصر المؤرخون إزاء واجباتهم بإظهار لا مبالاة مفرطة، وإما يتحملون وهم يبحثون عن حقيقة الوقائع الكراهية، لأن الكراهية هي أم الحقيقة. وعلى العموم هذان مسلكان ميالان لمعارضة بعضهما بعضاً إلى درجة يصبحا فيها مزعجان بشكل متعادل بحكم المتطلبات الملحة التي يفرضانها.

وكما يقول شيشرون: «الحقيقة مزعجة؛ لأن الكراهية تنبع منها وهي سامّة للصداقة،

---

(١) يتوجه وليم في صيغة كتابه الأخيرة نحو قرائه، وكان بالأصل قد توجه بكتابه أولاً إلى الملك عموري وربما فيما بعد إلى الملك بلدوين الرابع وقد فضل أن يصغيا له أثناء قراءتها له.

(٢) Terence Andria, L.I.41 .

لكن التغاضي أكثر شؤماً، لأنك حين تتعامل برقة مع واحد من أصدقائك فإنك تسمح له أن ينزلق بشدة نحو الدمار »[1] »، إنها عاطفة يبدو أنها تنعكس على الإنسان الذي لا يلتزم بمقتضيات الواجب، فيكبت الحقائق الفعيلة فقط من أجل يكون لطيفاً.

وأما بالنسبة إلى أولئك الذين ينسجون الأكاذيب عمداً ـ رغبة في التملق ـ أثناء تدوينهم لأخبار التاريخ فإن سلوكهم يعدّ بغيضاً جداً. ومن المحتم عدم اعتبارهم منتمين إلى صنف المؤرخين؛ ذلك أنه إذا كان من الخطأ الإقدام على حجب أخبار الحقائق الفعلية للإنجازات، وأن مقترف هذا العمل يقصر كثيراً عن أداء واجبه ككاتب فسيعتبر بكل تأكيد مزج الأكاذيب بالحقائق إثماً أخطر بكثير، لأن ذلك ينقل إلى أجيال واثقة أخباراً كاذبة.

بالإضافة إلى هذه المخاطر يواجه كاتب التاريخ في العادة مصاعب مماثلة، بل أضخم حجماً، عليه أن يعمل على تجنبها بقدر ما هي وبقدر ما يملك من قوة. والمعني بهذا هو أن المنزلة العالية للأحداث التاريخية يمكن أن تجعلها تعاني من الضياع من خلال العرض الضعيف لها، ومن خلال ضعف البيان ونقص الفصاحة؛ ذلك أن اسلوب عرض المؤرخ يجب أن يكون المستوى الرفيع نفسه الذي عليه المآثر التي يروي أخبارها. ومن الواجب ألا تهبط لغة الكاتب ونفسيته دون مستوى فخامة موضوعة.

وعليه يُخشى كثيراً من أن تُفسد المعالجة الخاطئة عظمة الموضوع، فتجعل المآثر ذات الأهمية والقيمة الجوهرية في ذاتها تبدو وكأنها تافهة ومبتذلة، عن طريق الخطأ في السرد. وكما قال خطيبنا (شيشرون) الشهير في أول « محاججات توسكولان » Tusculan: « إن إقدام المرء على ترجمة أفكاره إلى واقع مكتوب دون أن يكون قادراً على بسطها بوضوح، ودون أن يتمكن من جذب القارىء بأي سحر من مفاتنها هو عمل رجل يسيء استخدام الآداب بشكل سخيف، كما يسيء استغلال أوقات فراغه »[2].

ويبدو أننا وقعنا أثناء القيام بعملنا الحالي في مخاطر ومآزق متنوعة، ذلك أن سلسلة الأحداث بدت وكأنها تستدعي هذا الأمر. فلقد ضمنا في هذه الدراسة المنشغلين الآن بها تفاصيل حقائق متنوعة حول سلوك وملامح الملوك الشخصية وسماتهم وسيرهم، وذلك بصرف النظر عما إذا كانت هذه الحقائق جديرة بالثناء، أو عرضة للإنتقاد. ومن المحتمل أن المنحدرين من هؤلاء الملوك قد يجدون لدى متابعتهم لهذا العمل أن مثل هذه المعالجة

---

(١) شيشرون Deamic XXIV, 89.

(٢) شيشرون، Tusc, disput. I.III, 6.

يصعب تحملها، فيغضبون على المؤرخ أكثر مما يستحقه بشكل عادل، وسيعتبرونه إما كاذباً أو حسوداً، ولعمر الله حاولنا تجنب هاتين التهمتين كما لو كنا نحاول تجنب الوباء.

أما بالنسبة للبقية فلا يمكن أن يكون هنالك أدنى شك في أننا اندفعنا بتهور نحو القيام بعمل هو فوق طاقاتنا، ذلك أن أسلوبنا ولغتنا لا تكفي لإتمامه نظراً لعظمة الموضوع وضخامته، ومع ذلك لقد حققنا إنجاز شيء ما. فنحن تماماً مثل أولئك الذين يعتبرون منعدمي الخبرة في الرسم، وغير مخول لهم الإطلاع على أسرار الفن، ولا يسمح لهم إلاّ بتقصّي آثار التصميم الأول لصورة ما، وأن يطبقوا الألوان التحضيرية فقط، لتقوم فيما بعد يد الفنان الأكثر خبرة في إضافة اللمسات التكميلية الأخيرة بألوان أكثر روعة وقدرة على إظهار الجمال، يكفينا أننا ملتزمون بالحقيقة دائماً وبإحكام شديد لم نحد عنها قط. وهكذا أرسينا - على حساب كثير من الجهد - الأسس التي يمكن للبناء الأكثر حكمة أن يشيد فوقها بمعالجته الرائعة بناءً أكمل وأروع[١].

ولربما كان من الأسلم لي كثيراً لو أنني بقيت ملتزماً بالصمت، نظراً للتعقيدات والمآزق الخطرة والعديدة الملازمة لهذه المهمة. لقد كان عليّ أن ألتزم بالسكون، وألاّ أدع قلمي يتحرك، لكن حبي الدائم لبلدي يدفعني ويحرضني. فمن أجل البلاد وفي سبيلها على الإنسان المخلص إذا قضت الحاجة واستدعى الوقت - أن يضحي بحياته. وأكرر القول إن بلادي تحثني وتأمرني بالحاح شديد وبكل ما تملكه من سلطان على العمل في سبيل حفظ أخبار الإنجازات التي تمت في غضون قرن من الزمن حتى لا تحتجب وراء جدران الصمت، ولا تترك لتقبع في بؤرة النسيان المجحف. إنها على العكس من ذلك تأمرني في أن أحتفظ بهذه الأخبار لصالح الأجيال المقبلة، وذلك عن طريق الكتابة المتواصلة والمثابرة[٢].

وبناء عليه لقد أطعنا أوامرها، وتحملنا بفخار أعباء مهمة لا نستطيع رفضها، وعليه نحن لا يهمنا كثيراً مدى ما سيكون انتقاد الأجيال المقبلة لنا، كما لن نهتم أيضاً للحكم الذي سيصدر على أسلوبنا الضعيف في الكتابة والتصدي لموضوع مهيب من هذا القبيل.

---

(١) يوحي هذا التشبيه إطلاع وليم على الرسم الواسع النطاق والذي قد يبدو غريباً للذين يربطون هذا الرسم مع فترة لاحقة فقط في التاريخ الأوروبي. ومع ذلك، فإن وليم يشير في مكان آخر إلى صور وبشكل ملحوظ في انطاكية والقسطنطينية، ويشير فازلييف إلى مثال لمثل هذه الصور التي رسمها الفنانون البيزنطيون في فلسطين خلال أيام وليم (أ. أ. فازلييف، تاريخ الامبراطورية البيزنطية: ٢/١٧٩).

(٢) مثل هذه العبارات حول التكريس لصالح «أمه» مثالية أمر غير اعتيادي في القرن الثاني عشر، حيث سيطر الولاء الاقطاعي في كل مكان، وقد كانت الكنيسة هي التي تبنت مثل هذه الأفكار، وبناء عليه إن هذه الفقرة تعد واحدة من أقدم وأوضح الشواهد حول المشاعر الوطنية.

لقد امتثلنا للأمر وأطعناه. لعلّ النتيجة تثبت أنها فعالة بقدر الحماس والغيرة التي أحاطت بتنفيذ العمل، ولعلها تستحق التقدير بالقدر نفسه الذي أوقفت عليه. لقد باشرنا هذه المهمة ونحن مفتونون بسحر جمال أرضنا، غير عابئين بطاقاتنا غير الكافية وبالجهد اللازم، وغير معتمدين على عون العبقرية، بل يحركنا حب مخلص وشعور أصيل.

ونضيف إلى هذه المحرضات أوامر الملك عموري، صاحب الذكر الرائع، والأثر المتميز في الرب [لتنعم روحه المقدسة بالراحة والسكون] لقد أقنعني هذا الأمر مع أسباب ملحة أخرى بالإقدام على تولي هذا العمل، وعلاوة على ذلك لقد كتبنا تاريخاً آخر أيضاً تنفيذا لأوامر الملك الذي زودنا بنفسه بالوثائق العربية اللازمة[1]، ولقد كان المصدر الرئيسي الذي اعتمدناه هو الأثر الأدبي الذي خلّفه بطريرك الإسكندرية المبجل المعروف باسم سعيد ابن البطريق[2]. ويبدأ هذا التاريخ من أيام النبي (المزيف)[3] محمد ﷺ، ويمتد عبر خمسمائة وسبعين عاماً[4]، أي حتى العام الحالي. وهو عام ١١٨٤ لتجسيد الرب[5].

وعلى كل حال، ليس لدينا ـ بالنسبة لعملنا الحالي ـ أي مصدر مكتوب بالعربية أو

---

(١) بالنسبة لمصير هذا الكتاب أنظر ما سبق قوله في المقدمة.

(٢) اسمه سعيد بن البطريرك في اللغة العربية، إلا أنه معروف بشكل أفضل للغرب وفق الصيغة المحولة إلى اللاتينية للترجمة الاغريقية لإسمه وهي ايتشوس بن البطريق، وقد ولد في مصر في عام ٨٧٩م وأصبح مشهوراً كطبيب، وكان لسنوات عديدة البطريرك الاغريقي للإسكندرية، ونشر تاريخه عن العرب، الذي امتد من أيام النبي محمد ﷺ وحتى عام ٩٣٧، مع ترجمة لاتينية من قبل ادوارد بوكوك:

Contextio gémmarcemsive Euty shii anna Les

(٣) حرفياً «المضلل».

(٤) هذا العدد مستمد من الحساب العربي للأعوام، والشيء الغريب هنا أن يستخدمه ولم وكأنه مساو للعام ١١٨٤ المسيحي. ولكان أفضل لو كان كعدد مئوي /٥٨٠/ لأن العام /٥٧٠/ بعد الهجرة امتد من ١ـ آب ١١٧٤ إلى ٢١ـ تموز ١١٧٥ بينما امتد عام /٥٨٠/ بعد الهجرة من ١٣ـ نيسان ١١٨٤ إلى ٣ـ نيسان ١١٨٥. وقد استخدم في مكان آخرـ ولمرات عديدة في الواقعـ العدد /٥٧٠/ كعدد مساوٍ لـ/١١٨٢/ على الرغم من أنه استخدم في مناسبة واحدة العدد المساو الدقيق /٥٧٧/ بعد الهجرة، ولذلك، فإن مثابرته على استخدام الرقم /٥٧٠/ في ذهنه يبدو على أنه يشير إلى وجود أهمية خاصة به، فقد كان العام /٥٧٠/ بعد الهجرة عام وفاة الملك عموري حيث كان قد ألف هذا الكتاب تلبية لإصراره، ومن المحتمل أنه كان في الأصل قد اختتم تاريخه حول «أمراء الشرق» في هذا التاريخ وفكر فيما بعد على أنه يغطي فترة زمنية قدرها خمسمائة وسبعين عاماً، وإذا كان قدعمل بسرعة كبيرةـ حيث هنالك جميع الأسباب لاعتقاد ذلكـ في نهاية العمل الحالي فربما قد تكرر هذا التفكير الإعتيادي لديه على الرغم من أنه كان قد زاد بالفعل في الكتاب الآخر.

(٥) هذا هو التاريخ الأخير الذي ورد ذكره في الكتاب، وجرى نقله ثانية مع نهاية التمهيد للفصل الثالث والعشرين مع عبارة «إذا كتب لنا البقاء أحياء» ولعل هاتين العبارتين كانتا آخر ما كتبه.

بالإغريقية نتخذه دليلاً لنا ولقد اعتمدنا على التراث المتناقل، ما عدا أخبار الوقائع القليلة التي شهدناها بأنفسنا [١]، ويبدأ كتابنا مع زحف الرجال الشجعان والقادة الأبطال المحبوبين من الرب، الذين خرجوا ـ تلبية لنداء الله ـ من ممالك الغرب، فاستولوا على أرض الميعاد، لا بل على جميع سورية بشكل عملي وبأيد قوية وشروعاً من هذا المنطلق واصلنا التأريخ بدقة متناهية لفترة أربع وثمانين سنة، أي إلى عهد الملك بلدوين الرابع الذي يحتل المرتبة السابعة في قائمة الملوك، وذلك إذا ما أدرجنا فيها اسم اللورد غودفري الذي حكم هناك بمثابة دوق [٢]. ولكي يطلع كل إنسان مهتم بالتعرف على البلدان الشرقية [٣] بشكل أكمل، دونا أولاً بإيجاز واختصار أخبار الفترة التي رزحت فيها تحت نير العبودية، ووصفنا كم كان العناء الذي تحملته شديداً. كما بيّنا أحوال المؤمنين الذين عاشوا بين الكفرة في هذه الأرض، وفي هذه الفترة المتداخلة. ومن ثم أوضحنا الأمر الذي أثار أمراء ممالك الغرب ـ بعد انقضاء فترة طويلة من العبودية ـ لتولي أعباء مسؤولية الزحف من أجل تحرير إخوانهم.

إذا ما أخذ القارىء بعين الإعتبار الأعباء الملقاة على عواتقنا، والهموم الملازمة لنا فسيلاحظ أننا مجهدون بشدة تنوع هذه المطالب. ففي البداية لدينا مسؤوليات كبرى تتعلق بأمور مطرانية مدينة صور الجليلة. القائمة تحت وقاية الرب وحمايته، والتي تم اختيارنا لرئاستها ليس بسبب أية مزية من مزايانا، بل بفضل الرب فقط. ويلي هذا أننا اضطلعنا بمسؤولية أعمال نؤديها إلى مولانا الملك، فنحن نشغل في قصره المقدس منصب الحاجب المستشار يضاف إلى هذا أن المسائل الملحة والمتنوعة التي تنشأ من وقت لآخر تتطلب رعايتنا

(١) هذه المقولة مضللة بعض الشيء، فقد كان في ذهن وليم ما كتبه منذ عام ١١٨٠، الذي تنطبق عليه هذه المقولة، فقد كتب الجزء الأبكر من الكتاب قبل عام ١١٧٤ بالاعتماد على مصادر سابقة غالباً ما أشار إليها.

(٢) إن ممارسة الحجابة في القدس، التي كان وليم ما يزال يترأسها، كانت تحسب حسب سنوات المملكة وعدد فترات الحكم من تتويج بلدوين الأول في عام ١١٠٠. وكان غودفري الحاكم الأول للقدس اللاتينية الذي حكم من شهر آب عام /١٠٩٩/ إلى شهر تموز /١١٠٠/، قد رفض لقب الملك مفضلاً لقب «المدافع عن القبر المقدس» الأكثر ورعاً، وهذا توضيح رائع لتأثير القرار المتأخر لوليم لتصحيح الخط من سمعة غودفري التي أدت إلى إزالته من قائمة الملوك، ذلك أن عادة الحساب حسب حياة الملوك قد تبرهن أنه يصعب التغلب عليها حتى هنا، وبعد تصحيح مكان بلدوين الرابع في قائمة الملوك ليصبح في الترتيب السابع، أخفق في ترتيب أعوام المملكة والتي لا بدّ أنها بلغت عندئذ خمسة وثمانين عاماً بدلاً من الأربعة والثمانين عاماً المألوفة انظر المدخل حول النقاش بشأن التأريخ لدى وليم.

(٣) لم تستطع الترجمة أداء ما أراده وليم بقوله «Praemissimus» التي توحي أن ادخاله هذه المواد الشرقية قد جاء بعد تفكير ولم يكن في أصل خطة العمل، ولهذا قدم لما كتبه مقدمة حول أمراء الشرق استخلصها من كتابه: «أعمال أمراء الشرق».

أيضاً (٢) وإذا ما أخذ القارىء هذه الحقائق بالحسبان سيكون عندها أكثر ميلاً ليمنحنا العفو إن وجد في العمل الحالي أي شيء يغضبه، لأن الإنسان عندما يكون منشغلاً بمسائل مختلفة واهتمامات متنوعة من المستحيل بالنسبة للذهن أن يستجيب بالنشاط نفسه، ويمنح انتباهاً دقيقاً لكل موضوع. ومن المحال بالنسبة لنا أن نوقف كثيراً من الجهد على كل مسألة هامة على حده عندما يكون الإهتمام موزعاً بهذه الطريقة، وعندما تكون الطاقة الذهنية منصرفة بكل ما فيها نحو شيء واحد ومما لا ريب فيه أن الإنسان في مثل الحال الذي وصفت يستحق العفو والصفح عنه بكل طيبة خاطر.

ولقد جرى تقسيم المصنف بأكمله إلى ثلاثة وعشرين كتاباً، وقسم كل كتاب إلى عدد محدد من الفصول حتى يمكن للقارىء أن يجد بسهولة أكبر أي شيء يبحث عنه في مسرد الحوادث المختلفة، كما أننا عاقدون العزم - إن بقينا على قيد الحياة - أن نضيف من وقت لآخر إلى ما جرى تدوينه مراجعة أخبار الحوادث التي وقعت في أيامنا، مع ما يمكن أن تأتي به تقلبات المستقبل، وأن نزيد عدد الكتب بقدر ما يسمح به حجم مادة الموضوع (٢).

ونحن مقتنعون - ولسنا مخطئين فيما نعتقده - بأن هذا المصنف يقدم برهاناً واضحاً على ما عانيناه. ففي إقدامنا على كتابة هذا المصنف بدافع رغبتنا في إطاعة أوامر الحب قمنا بكشف العيوب التي ربما كانت قد بقيت محجوبة لو بقينا صامتين، ومع ذلك إننا نفضل أن يعثر علينا ونحن مفتقرون إلى ما يسبب الخيلاء بدلاً من أن نكون مفتقرين إلى ما يهذب وينور، لأن الكثيرين من الذين قدموا إلى حفل للزواج وهم مفتقرون إلى ما يسبب الغرور قد اعتبروا جديرين بالجلوس إلى طاولة الملك، وأما أولئك الذين وجدوا بين المدعوين دون مؤهل التهذيب فهم يستحقون تمام الإستحقاق سماع العبارات التالية: «كيف دخلت إلى هنا وليس عليك ثياب العرس»(٣) جنبنا الله برحمته الوافرة أن ينزل بنا مثل هذا، لأنه وحده القادر على ذلك.

ونحن على كل حال نعرف تمام المعرفة أن «كثرة الكلام لا تخلو من معصية»(٤)

(١) بالنسبة لحياته وأعماله انظر المدخل ص: ٧١ -١١٣.

(٢) كتب هذا في عام ١١٨٤ ويظهر القسم الأول من مقدمة الكتاب ٢٣ مزاجاً ذهنياً مختلفاً وقراراً لإنهاء كتابته في عام ١١٨٢ - وليس واضحاً فيما إذا كان قد جرى التقسيم إلى كتب عندئذ أو في تاريخ لاحق. ومن المحتمل أن بعضاً من الكتاب الحادي والعشرين قد كتب بعد عام ١١٨٢، بينما كتبت البقية بعد هذا العام بالتأكيد.

(٣) متى: ١٢/٢٢.

(٤) الأمثال: ١٠/١٩.

وعلى هذا إننا ندعو بروح المودة الأخوية ونناشد قارئنا بالرب أنه إذا ما وجد نقطة جديرة بالنقد أن يتناولها بدون تردد، لكن بلطف حقيقي، وليعلم أنه بتصحيحه لما أخطأنا به ينال الجزاء الأوفى في الحياة السرمدية.

ولعله يتذكرنا في صلواته، فينال الإحسان من الرب لنا حتى لا يعزى إلينا الخطأ حيثما اقترفناه في ثنايا هذا المصنف إلى الموت، نرجو أن نحظى بالعفو الكريم لمخلص العالم بدافع من رحمته التي لا تنتهي؛ لأننا نحن البائسين وأحقر العباد في بيته متّهمون من قبل ضميرنا إلى أبعد الحدود، ونخشى حقيقة من حكمه [١].

انتهى التمهيد

(١) إن إدراك إمكانية وجود الخطأ في الكتاب - وليس التيقن - يمكن عزوه إلى سمات وليم العلمية مع رقي تفكيره، ونادراً ما فعل الكتاب في العصور الوسطى - مثل هذا، بل إنهم أنزلوا - كما فعل غريغوري أوف تور - اللعنات بأي واحد يقدم على تغيير حتى حرف واحد في كتاباتهم.



بداية

الكتاب الأول

المسيحية تثور لنجدة القدس. بطرس الناسك وبقية المجموعات يبدؤون الزحف

١ ـ رواية كيف أن عمر بن الخطاب، قائد العرب الثالث بعد محمد ﷺ استولى على جميع سورية أيام الأمبراطور هرقل.

تبعاً لما تناقلته التواريخ القديمة ولما جاء في المرويات الشرقية حققت معتقدات محمد ﷺ موطىء قدم راسخ لها في الشرق أيام الأمبراطور الروماني هرقل [١]، وأعلن محمد ﷺ ..... أنه كان نبياً أرسله الله، ..... استولى على الشرق وخاصة شبه جزيرة العرب. وانتشرت البذرة..... التي زرعها في الأقاليم التي استخدم فيها خلفاؤه السيف والعنف بدلاً من الوعظ والإرشاد لإكراه الناس على اعتناق معتقدات النبي ﷺ.....(*) على الرغم من أنهم كانوا كارهين لها.

وكان هرقل عندما عاد منتصراً من بلاد فارس قد أحضر صليب الصلبوت [٢]، ومكث فترة وجيزة في سورية. وقام أثناء مكوثه فيها بتعيين موديستوس Modestus المبجل أسقفاً

---

(١) الامبراطور هرقل /٦١٠ـ ٦٤٠/ وكان النبي محمد ﷺ /٥٧١ـ ٦٣٢/ قد أسس ديانته وضمن نجاحها عندما هاجر من مكة في /٦٢٢/ م. واختير هذا العام فيما بعد كبداية للتقويم الإسلامي وعرفت تلك السنة بسنة الهجرة، وكانت شبه جزيرة العرب قد دخلت بالإسلام قبل وفاة النبي محمد ﷺ، وباتت آنذاك إمكانية التوسع الإسلامي إلى ما وراء حدودها ـ قائمة.

(*) أقدمت على حذف عدد من عبارات الشتم بحق النبي ﷺ، التي تبرهن على تعصب ولم الشديد، ولا غرابة في ذلك نظراً لاختصاص ولم الأساسي ولاعتبارات عصره.

(٢) كانت الحرب بين الإمبراطورية البيزنطية وبلاد فارس مستمرة تقريباً. وحدث خمود في الحرب عندما تسلم كسرى الثاني (٥٩٠ ـ ٦٢٨) السلطة. وتصادق الامبراطور موريس مع الملك الشاب الذي كانت لديه صعوبة مع المطالبين بالسلطة المنافسين له، ووصف ولم لتجديد الحرب صحيح فعلياً، وقد كان كسرى الثاني منتصراً خلال الأعوام الأولى. واستولى على القدس في عام ٦١٤. وأعيدت بقية الصليب إلى هرقل بعد اغتيال كسرى وهزيمة الفرس في عام ٦٢٨.

للقدس. وكان كسرى ملك الفرس قد دمّر كنائس المدينة المقدسة، ففوض هرقل موديستوس بإعادة بنائها، وأمّن له بنفسه النفقات الضرورية.

وكان عمر بن الخطاب [1] الخليفة الثاني لمحمد ﷺ ووارثه في الملك والعقيدة..... قد استولى في هذا الوقت على مدينة غزة ـ وهي مدينة مشهورة في فلسطين ـ بقوة لا تحصى من العرب، ثم غزا أراضي دمشق بجيوشه مع حشد كبير كان قد قاده معه، واستولى على دمشق، وكان هرقل آنذاك في كليكية ينتظر ويراقب تقلب الأحداث.

وعندما علم الأمبراطور بأن العرب الممتلئين بالغرور والمتبجحين بأعدادهم الكبيرة يغزون الأراضي الرومانية ـ ولا يترددون في الإدعاء بأن المدن ملك لهم ـ أدرك أن قوته ليست كافية لمواجهة حشد كهذا الحشد، وأنها عاجزة عن خضد شوكته ففضّل الإنسحاب بسلام إلى بلاده بدلاً من أن يضع ثقته في حرب غير مضمونة وقوات غير متكافئة، بيد أن السكان المنكوبين كانوا قد وضعوا ثقتهم به واعتمدوا عليه في حمايتهم. وإثر رحيله ازداد عنف العرب إلى درجة أنهم استولوا على البلاد كلها من اللاذقية في سورية إلى مصر.

لقد أوضحنا في كتاب آخر [2] بحرص شديد: من كان محمد ﷺ؟ ومن أين نشأ؟ وما الظروف التي قادته إلى ادعاء ما ادعاه من أنه نبي أرسله الله؟ كما ذكرنا وصف طريقته في الحياة والحديث، مع ذكر البلاد التي حكمها وفترة حكمه لها، كما جرى وصف الذين خلفوه، وكيف تمكن هؤلاء الذين يسيرون خلفه على الطريق نفسه من نشر ما جاء به من عقائد..... بشكل عملي، وذلك في كل مكان من العالم أجمع، كما سيجري الحديث عن ذلك في الصفحات المقبلة.

٢ ـ حول الظروف التي مكنت عمر بن الخطاب من الإستيلاء على الشرق، بشكل غير متوقع تماماً، وكيف ومتى قدم إلى القدس وأمر بإعادة بناء كنيسة الرب؟

لقد سهلت ظروف معينة فتح الشرق، فقد كان كسرى المذكور آنفاً قد غزا سورية بقوة السلاح قبل بضعة أعوام من حدوث هذه الفتوح، ودمر المدن وأحرق الأماكن

---

(١) كان عمر بن الخطاب الخليفة الثاني لما يعرف باسم الخلفاء الراشدين الذين خلفوا النبي محمد ﷺ وكان هؤلاء الخلفاء: أبو بكر /٦٣٢ ـ ٦٣٤/ وعمر /٦٣٤ ـ ٦٤٤/ وعثمان /٦٤٤ ـ ٦٥٦/ وعلي /٦٥٦ ـ ٦٦١/ هذا ولا يقام أدنى وزن لحديث وليم عن الفتوحات العربية لأنه حديث حاقد بلا معطيات علمية صحيحة.

(٢) كتابه «أعمال أمراء الشرق» (أنظر المدخل ص ٨٤ ـ ٨٧) ويخمن بروتز أن هذا المقطع يشتمل على عناوين الفصول الأولى لذلك الكتاب، كما يشير وليم نفسه في التمهيد، فقد اقتبس من هذا عملاً آخر ليقدم للقراء مقدمة لعمله الحالي، ومن المحتمل أن الفصول السبعة الأولى من هذا الكتاب أخذت بشكل مختصر من الكتاب الآخر.

المجاورة لها، كما دمّر الكنائس وسجن الناس. ثم استولى على المدينة المقدسة، وقتل ستة وثلاثين ألفاً من سكانها، ونقل معه إلى بلاد فارس صليب الصلبوت، كما نقل معه على شكل أسرى زكريا [١] أسقف القدس، وسكان المدينة الذين ظلوا على قيد الحياة مع سكان الأرياف المحيطة بالمدينة.

وكان هذا الملك الفارسي القوي قد تزوج من ماري، وهي إحدى بنات الأمبراطور موريس، وكان هذا الامبراطور صديقاً حمياً للبابا المقدس غريغوري [٢]، وقد استقبل هذا البابا واحداً من أبناء الأمبراطور عند الينبوع المقدس، كما أن كسرى قبل التعميد إكراماً لزوجته، وحافظ على التحالف مع الروم ما دام الأمبراطور موريس على قيد الحياة.

وبعد أمد قتل القيصر فوقاس [٣] الامبراطور غدراً وحل محله في الحكم، وعندئذ غزا كسرى الامبراطورية بقوة مسلحة، ودمر الأراضي التابعة لها، لأنه مقت خيانة أولئك الذين قبلوا رجلاً شريراً أن يكون حاكماً لهم وهو ما يزال ملطخاً بدماء سيده لقد اعتبرهم مشاركين بتفاهم سري وشركاء في الذنب نفسه، يضاف إلى هذا أن زوجته قد حرضته على الإنتقام لأبيها. وبعدما استولى على مختلف البلدان التي كانت واقعة تحت السيادة الرومانية استولى على سورية كما جرى إيضاح ذلك، وقام بقتل الناس أو بأخذهم أسرى معه إلى بلاد فارس.

ولهذا السبب وجد العرب البلاد مهجورة عندما دخلوها، فانتهزوا الفرصة غير المتوقعة ليجعلوها خاضعة لسلطانهم، وجلبوا المصير ذاته إلى مدينة القدس [٤] حبيبة الله، غير أنهم أبقوا السكان القلائل الذين كانوا ما يزالون هنالك من أجل أن يخدموهم مقابل دفع جزية

---

(١) حل زكريا سلف موديستوس من قبل كسرى أسيراً في عام ٦١٤ م وقد احتجزه حتى عام ٦٢٨، وقد توفي في عام ٦١١، وليس أكيداً أن موديستوس، الذي عينه ليعتني بالقدس، قد حمل لقب بطريرك وقد خلفه صوفيروس في عام ٦٣٤:

Le Quiem oriens christianes, III, Cols. 249 - 64).

(٢) غريغوري الكبير، الذي كان بابا من ٥٩٠ إلى ٦٠٤. وكان البابا بيلاغيوس الثاني (٥٧٩ ـ ٥٩٠) قد أرسل غريغوري كأحد ممثليه إلى القصر الإمبراطوري في القسطنطينية. وكان موجوداً هناك عندما أصبح موريس امبراطوراً في عام /٥٨٢/ وسُرّ موريس، الذي حكم حتى ٦٠٢، كثيراً عندما اختير غريغوري بابا ورفض طلب غريغوري بعدم المصادقة على الاختيار.

(٣) الامبراطور فوقاس ٦٠٢ ـ ٦١٠.

(٤) فتح العرب القدس في وقت لاحق بعد معركة اليرموك التي جرت في عام ٦٣٦، وربما في عام ٦٣٧. هذا ولا بد من التنبيه إلى أن بلاد الشام لم تكن مهجورة لا بشرياً ولا عسكرياً عندما غزاها العرب الذين خاضوا في سبيل فتحها معارك قاسية ضد جيوش بيزنطة.

كبيرة لهم، وسمحوا للسكان المقهورين بإعادة بناء الكنائس المخربة، وتعيين أسقف لهم، وإتباع تعاليم دين المسيح دونما أدنى قيود.

وأجرى عمر خلال إقامته في القدس تحقيقات دقيقة حول أحوال المواطنين، وسأل قبل كل شيء عن أحوال الأسقف صوفرونيوس الذي خلف موديستوس الطيب الذكر، الذي كان حينئذ في عداد الأموات، كما أجرى تحقيقات حول موقع كنيسة الرب (القيامة) التي يقال بأن الأمبراطور الروماني تيتوس قد دمرها مع المدينة ذاتها. ولقد أرشدوه إلى المكان وأروه إياه، وأشاروا إلى الآثار القليلة المتبقية من البناء الشاهق القديم. وبناء على ذلك أمر عمر مباشرة بإعادة بنائها، وخصص مبلغاً كافياً من المال لتغطية التكاليف، واستدعى العمال والصناع وجمع مواد البناء من جميع أنواع الرخام والأخشاب بالشكل الذي أرضاه، وانتهت أعمال البناء بنجاح، وأنجز العمل خلال فترة قصيرة من الزمن، وذلك وفق الخطة التي كان يفكر بها تماماً، وحسبما يشاهد الإنسان هذا البناء حالياً في القدس.

ثم أنعم عليها بما لا يحصى من الممتلكات الثمينة، وكانت العائدات الناتجة عن هذا المصدر مخصصة لتأمين الوسائل اللازمة لإبقائها في حالة جيدة، وتجديد الأجزاء القديمة، وإبقاء المصابيح دائمة الإشتعال من خلال الرعاية المستمرة للذين خدموا في الكنيسة. وبما أن الجميع مطلعون تقريباً على شكل هذا الصرح وصنعته الرائعة. يبقى خارج اختصاص الكتاب الحالي التعرض لدراسته. وهنالك أوابد قديمة جداً داخل المبنى وخارجه عليها نقوش عربية وأعمال فسيفساء يعتقد أنها ترقى إلى هذه الفترة، حيث كتب عليها اسم الباني ونفقات البناء، وتواريخ الشروع بالعمل والإنتهاء منه [1].

٣ ـ حول مدى ما تحملته سورية تحت نير العبودية لأسياد مختلفين، وإلى أي مدى كانت الصداقة التي تمتع بها الأمبراطور شارلمان العظيم مع هارون الرشيد ملك الفرس مفيدة للمسيحيين الذين عاشوا تحت سيطرة غير المؤمنين [2].

وهكذا خضعت المدينة المقدسة ـ حبيبة الله ـ إلى سيطرة الأعداء غير المؤمنين بسبب

---

(١) إن قراءة هذا النقش، حسب فيليب حتي هي نفسها دليل على معرفة غريبة باللغة العربية، وهنالك مسوغ لشك وليم حول تاريخ النقش. فقد بنى المسجد ذاته /عبد الملك/ في عام ٦٩١ م، وأعاد الخليفة العباسي /المأمون/ (٨١٣ ـ ٨٣٣) كتابة النقش حيث بدل اسم الباني باسمه، والنقش القائل بأن قبة الصخرة هذه قد بناها عمر من الواضح أنه ذو أصل قديم.

(٢) تطورت العلاقات بين /شارلمان/ و/هارون الرشيد/ بسرعة إلى أسطورة حماية شارلمان للمسيحيين في الأرض المقدسة (أنظر إ. جورانسون «أسطورة الحماية المسيحية لفلسطين» دورية الدراسات التاريخية الأمريكية، ٣٢ [١٩٢٧] ٢٤١ ـ ٢٦١).

ذنوبنا، لقد تحملت خلال تسعين عاماً وأربعمائة عام[1] نير العبودية الظالمة والمشقة المستمرة مع العلم أن أحوال تلك العبودية قد تنوعت، فلقد تغير أسيادها مع استمرار تبدل الأحداث، وقاست في فترات مكفهرة ونعمت في فترات مشرقة. كل ذلك وفق شخصية كل أمير من أمرائها فكانت تتحسن أحوالها أو تسوء - كالرجل المريض - وفقاً لتقلبات الأيام. وفوق ذلك كان الشقاء التام بالنسبة لها مستحيلاً ما دامت تضطهدها القوة الإستبدادية للأمراء غير المؤمنين وللأمم التي بدون رب. ومع ذلك فقد منح الرب الأمن لشعبه أيام الملك الفذّ والفريد من نوعه والجدير بالثناء « هارون » الملقب بالرشيد، فقد حكم الشرق بأكمله، وما يزال تسامحه وأدبه النادران وشخصيته الرائعة حتى يومنا هذا - موضع الإعجاب العميق والإطراء غير المنقطع في الشرق.

وارتكزت المودة بين هارون والمسيحيين على معاهدة رائعة، كان الامبراطور شارلمان الورع وطيب الذكر الخالد قد توصل إليها من خلال عمل الرسل الذين ترددوا بينهما جيئة وذهاباً لعدة مرات. وكان الصنيع الودي لذلك الحاكم العظيم مصدراً لكثير من العزاء للمؤمنين، حيث بدوا وكأنهم يعيشون في ظل سيادة الامبراطور شارلمان أكثر من كونهم يعيشون تحت سلطان هارون. فنحن نقرأ في سيرة حياة ذلك الحاكم الشهير ما يلي: « وكانت علاقاته منسجمة جداً مع هارون ملك الفرس الذي حكم العالم بأسره تقريباً فيما عدا الهند، وقد فضل رضاه ووده على صداقة جميع ملوك الأرض وحكامها. وشعر أنه وحده يستحق الإحترام والتبجيل. وعندما قدم السفراء - الذين أرسلهم شارلمان لزيارة القبر المقدس ومكان قيامة مولانا ومخلصنا - إلى هارون قدّموا له الهدايا ونقلوا إليه رغبات سيّدهم لم يمنحهم هارون ما طلبوه منه فحسب، بل خولهم ملكية ذلك المكان المقدس والمبارك، إلى حد أنه بات يعتبر موضوعاً تحت سيادة الملك شارلمان وعندما عاد سفراء شارلمان أرسل هارون سفراءه معهم يحملون الهدايا الفخمة للملك، وقد اشتملت على أقمشة حريرية وتوابل ومنتجات قيمة أخرى من منتجات بلاد الشرق، وكان قد سبق لهارون أن أرسل قبل بضع سنوات انقضت فيلاً إلى شارلمان تلبية لطلبه، وكان ذلك الفيل هو الوحيد الذي يمتلكه هارون في ذلك الحين »[2].

---

(١) مثال آخر لاستخدام وليم للتقويم العربي. فالمجموع المعبر عنه بـ٤٩٠ بعد الهجرة مساو لسنة ١٠٩٦ م ولا يصف تماماً الفترة الفاصلة بين ٦٣٧ م و ١٠٩٩ م أو حتى بين ٦١٤ و ١٠٩٩.

(٢) اينهارد « حياة شارلمان » الفصل ١٦ في الكتابات التاريخية الألمانية: ٢/٤٥١، تحقيق هـ. برتز. انظر الترجمة من قبل س. إ. تيرنر أو أ. ج. غرانت. وقد وصف اينهارد هارون الرشيد باسم ملك الفرس وهذا خطأ شائع لديه ولدى غيره من الكتاب اللاتين ونلاحظه لدى وليم أيضاً.

ولقد أرسل شارلمان مساعدات كثيرة ومتكررة إلى المؤمنين الذين كانوا يعيشون في القدس تحت سلطان غير المؤمنين، ومد بطريقة مماثلة رقعة عمله النابع من التقوى ليشمل الذين سكنوا في مصر وأفريقيا تحت سيطرة السراسنة (العرب). أما فيما يتعلق بوصف حياته، فإننا نقرأ ما يلي: «بما أنه كان مخلصاً جداً، فقد اعتاد على ارسال المال بسخاء مطلق ليعيل به الفقراء، ولهذا يدعوه الإغريق باسم «المعين»، لأنه اضطلع ـ بسبب تعاطفه العميق ـ بمهمة تلبية مطالبهم. فهو لم يفعل هذا في مملكته فقط بل حيثما وجد الفقراء يعيشون في عوز، حتى عبر البحر في سورية ومصر وأفريقيا والقدس والإسكندرية وقرطاج، فالسبب الخاص الكامن وراء رغبته في مصادقة الملك هارون هو الرغبة في أن يتمكن عن طريق ذلك من تقديم العون والمساعدة للمسيحيين الرازحين تحت سلطته»[1].

وإذا ما رغب القارىء في معرفة كم عانت القدس ـ عابدة الرب ـ والريف المحيط بها، في ظل التغييرات المتكررة للأحوال وللأوضاع والحكام وما شهدته خلال فترة الإنتقال هذه فليقرأ كتاب «تاريخ أعمال أمراء الشرق» ذلك أنني صنفت في ذلك الكتاب بعد جهد كبير سجل تاريخ أحداث خمسمائة وسبعين سنة، منذ أيام الرسول.. محمد ﷺ وحتى الوقت الحالي الذي هو بالنسبة لنا عام ١١٨٢ لتجسيد الرب[2].

٤ ـ كيف انتقلت المدينة المقدسة إلى سلطان خليفة مصر، وكيف أصبح نير العبودية في ظل الحاكم الشرير أشد وطأة على المؤمنين، وما يتعلق أيضاً بتدمير الكنيسة في القدس؟

وقام في هذه الآونة صراع متواصل بين المصريين والفرس، أثاره التنافس المرير حول السلطة، وفي الحقيقة آمن هذان الشعبان بتعاليم مذهبين متضاربين تماماً، وقد أسهم هذا بشكل كبير في الشعور بالكراهية بينهما. ويعتبر هذا الخلاف في الآراء الدينية حتى الوقت الحالي موضوع جدل كبير بين الشعبين إلى حد أنهما لا يقيمان أية اتصالات بينهما؛ لأن كلاً منهما يعتبر الآخر خارجاً عن الدين. ولقد استحوذ عليهما هذا الشعور إلى درجة كبيرة حتى أن كلاً منهما يرغب أن يكون مختلفاً عن الآخر في التسمية؛ ولذلك يسمى الذين يتبعون معتقدات الشرق، بلغتهم الخاصة باسم «السنة» بينما يعرف الذين يفضلون تعاليم مصر. وهي تعاليم تميل

---

(١) المصدر نفسه الفصل ٢٧.

(٢) الرقم المقابل بالعربية هو أن ١١٨٢ م = ٥٧٧ هـ.

(٣) أنهى صلاح الدين حكم الدولة الفاطمية في عام ١١٧١. ويوحي استخدام هذا التعبير هنا أن وليم كان قد كتب هذا خلال فترة تأليفه الأولى قبل عام ١١٧٤، واقتبسه من عمله الآخر دون إجراء التصحيح اللازم. ويصف وليم الإطاحة بالخلافة الفاطمية في (الكتاب ٢٠ الفصل ١١).

بشكل واضح نحو عقيدتنا ـ باسم الشيعة ـ ولا يقع إختصاص كتابنا هذا في إطار شرح مسائل الخلاف بينهما[١].

ومع اضطراد نمو مملكة مصر وازدياد قوتها استولت على الأقاليم والبلدان الممتدة حتى أنطاكية، كما ووقعت المدينة المقدسة[٢] من بين مدن أخرى تحت سيطرتها، وأصبحت خاضعة إلى القوانين نفسها، ولقد خفت مصاعب المسيحيين قليلاً في ظل هذه السيداق، مثلما يسمح للسجناء أحياناً بالتمتع ببعض درجات الإستجمام، ومهما يكن الحال فقد أصبح الحاكم أخيراً خليفة لتلك المملكة، وذلك كعقاب عادل لشرور الناس. ولقد تجاوزت آثام هذا الحاكم آثام جميع من سبقه ولحقه من الحكام تجاوزاً كبيراً، حتى أن أسمه بات مضرب الأمثال للأجيال اللاحقة التي تقرأ عن جنونه. فلقد كان هذا الرجل رديء السمعة بكل شكل من أشكال العقوق والأذى، إلى درجة أن حياته البغيضة في نظر الله والإنسان تستحق بحثاً خاصاً[٣]، وكان من بين الأعمال الشريرة التي كان مسؤولاً عنها تدميره الكامل لكنيسة القيامة، وكانت هذه الكنيسة قد بنيت بالأصل من قبل مكسيموس الجليل أسقف القدس، وذلك تنفيذاً لأوامر الامبراطور قسطنطين، ثم جددها موديستوس المبجل ـ فيما بعد ـ أيام هرقل.

وتولى ياروق، والي الرملة وأحد ضباط الحاكم مهمة تنفيذ الأمر الملكي، ودمر على الفور المبني تدميراً كاملاً[٤]، وكان رئيس الكنيسة وراعيها في ذلك الوقت أورستوس Orestus المبجل، وهو خال ذلك الحاكم الشرير. وقد جاء في الروايات أن الخليفة أقدم على اتخاذ إجراء متطرف ليثبت لأهل دينه أنه مخلص لهم، وباعتبار أن والدته كانت مسيحية[٥] فقد استخدم هؤلاء اسماً مسيحياً نبذوه به ونادوه، ولكي يتخلص من تلك التهمة تجرأ على

---

(١) من أجل دراسة مختصرة حول هذه الفرق انظر حتي ـ تاريخ العرب: ٤٣٩ ـ ٤٤٩.

(٢) تأسست الدولة الفاطمية في [تونس ثم انتقلت إلى] القاهرة التي بُنيت لتكون عاصمة لها في عام ٩٧٣. وبدأ التوسع إلى سورية بعد فترة قصيرة من تأسيسها.

(٣) يجد المؤرخون المعاصرون بعض الطيب المخلوط مع كثير من الحقد في تاريخ هذا الإنسان الغريب الأطوار الذي كان خليفة من ٩٩٦ إلى ١٠٢١. (أنظر غاستون فييت «مصر منذ الفتح العربي وحتى الإستيلاء العثماني ٦٤٢ ـ ١٥١٧: ١٩٨/٤ ـ ٢١٤).

(٤) بدأ تدمير كنيسة القبر المقدس في ١٠٠٩ وجاء بمثابة شارة لتدمير كنائس المسيحيين وكنس اليهود في كل مكان من سورية.

(٥) إن مزاولة تعدد الزوجات التي أقرها الإسلام لم تقتصر على الإشتمال على الزوجات الشرعيات فقط، بل اشتملت على سرايا من منزلة الرقيق أيضاً، واعتبر الأطفال المولودون منهن أطفالاً شرعيين لأن النسب أعيد للأب بشكل نظامي، ولذلك، فغالباً ما بلغ أولاد من أمهات عبيد أو مسيحيات أو يهوديات أو ديانات أخرى مناصب عالية.

اقتراف تلك الجريمة. لقد خرّب مهد العقيدة الكاثوليكية، والينبوع الذي يتدفق منه الدين المسيحي إيماناً منه أنه لن تلحق به بعد ذلك أية توبيخات، ولن يتسنى لخصومة فرصة للإعتداءات الحقودة عليه.

٥ ـ ما يتعلق بالأحوال التي سادت في ذلك الوقت بين صفوف المؤمنين الحقيقيين القاطنين وسط الكفرة.

ساءت ـ منذ ذلك الحين ـ أحوال المسيحيين في القدس، وذلك ليس بسبب ما شعروا به محقين من حزن وأسى إزاء تدمير كنيسة القيامة المقدسة فقط، بل بسبب الأعباء المتزايدة الناشئة عن الخدمات المضاعفة. فقد طلب منهم أن يدفعوا الجزية والضرائب الثقيلة خلافاً للأعراف والإمتيازات التي منحها إياهم أسيادهم السابقون، يضاف إلى هذا أنهم منعوا من مراعاة طقوسهم الدينية التي كانوا يمارسونها بحرية سراً وعلانية في ظل أسيادهم المتنوعين وألزموا بالبقاء داخل بيوتهم بشكل أشد صرامة في الأيام الأكثر قدسية، ولم يتجرأوا على الظهور بين الناس. ثم ما لبث أن وضح أنه حتى المنزل لم يكن ملاذاً آمناً لهم إذ قذفهم العدو بالحجارة والقاذورات، وشن هجمات عنيفة عليهم. كما تمت مضايقتهم إلى أبعد الحدود وخاصة أيام أعيادهم المقدسة. لقد كانوا يُجرّون لأتفه الكلمات وأدنى الإتهامات، فينزل بهم العقاب والعذاب دونما دعوى قضائية متماشية مع الأعراف. لقد صودرت سلعهم، وسرقت ممتلكاتهم، وخطف أولادهم وبناتهم من البيوت، وأجبروا ـ إما بالجلد، أو بالكلام الرقيق والوعود المعسولة ـ على التخلي عن عقيدتهم والتنكر لها؛ لأنهم إذا لم يفعلوا ذلك تعرضوا للشنق.

وتحمل بطريركهم في البداية هذه الإهانات، ثم حض شعبه سراً وعلانية على الصبر وإظهار التحمل، ووعدهم أنهم سيحصلون على الجزاء الأوفى في الحياة الآخرة، وذلك مقابل المصائب التي كانوا يكابدونها. ولقد ألهمتهم أقواله وأنعشتهم أمثلته فأخذ يواسي بعضهم بعضاً بشعور متبادل، واحتقروا المصائب الزائلة إكراماً للرب.

ويتطلب الأمر وقتاً طويلاً جداً للحديث عن الحالات الفردية، وعن عمليات التعذيب الجسدية التي كابدها عباد الرب هؤلاء كي يكونوا ورثة بيت الرب والممتثلين لقوانين آبائهم. وسأضرب مثالاً واحداً يا صاحب الغبطة والجلالة [1] ـ من بين الأمثلة العديدة ـ كي تتمكن من فهم الأسباب التافهة التي دفعوا فيها إلى الموت.

---

(١) Vestra dikc tio «يا صاحب الغبطة» عبارة مخاطبة مباشرة تستخدم في الكلام أو الرسالة. وفُسّر استخدام هذا التعبير كإشارة مباشرة إلى الملك عموري ولذلك كتب قبل موته في ١١٧٤. وربما أخذ هنا من كتاب =

كان في المدينة رجل من غير المؤمنين شرير كثير المكائد، اضطهد شعبنا بكراهية لا ترتوي وكان مصمماً على إبداع خطة من الخطط تحقق له إبادة هذا الشعب وذلك أنه رمي خلسة في باحة المعبد المسجد الأقصى جثة كلب ميت، وكان هذا المكان موضع حرص المشرفين وسائر سكان المدينة، لإبقائه نظيفاً بشكل تام. وعندما قدم المصلون في صباح اليوم التالي إلى المعبد للصلاة وجدوا الجثة المتفسخة للحيوان القذر. فجن جنونهم وأثاروا بصراخهم المدينة بأسرها، وركض الناس مسرعين إلى الهيكل، واتفق الجميع على أن المسيحيين هم المسؤولون عن هذا العمل بدون نقاش، فهل هنالك حاجة لقول المزيد؟ وصدر حكم الموت على جميع المسيحيين؛ لأنه تقرر أنهم بالموت فقط يستطيعون التكفير عن عمل من هذا القبيل فيه تدنيس للمقدسات. واستعد المؤمنون - وهم موقنون تماماً من براءتهم - لتحمل الموت إكراماً للرب، وبينما كان المنفذون الحاملون لسيوفهم المجردة على وشك تنفيذ ما صدر إليهم من أوامر تقدم رجل شاب وعرض نفسه ليكون فداءً لإخوانه، وقال: «أيها الأخوة إنها لكارثة ما بعدها كارثة أن يموت المسيحيون هكذا، ومن الأفضل أن يضحي رجل واحد بحياته إنقاذاً للناس، حتى لا يهلك الشعب المسيحي كله، عاهدوني على أن تحتفلوا بذكراي كل عام بشكل مقدس، وأن يبقى الإحتوام الذي تستحقه أسرتي مع الإجلال محافظاً عليه أبد الدهر. وبناء على هذه الشروط وتنفيذاً لمشيئة الرب سأنقذكم من هذه المذبحة» وسمع المسيحيون أقواله بابتهاج عظيم، ومنحوه على الفور ما كان قد طلبه منهم ووعدوه أنه في يوم عيد النصر (يوم فروع النخيل) سيحمل الذين يمتون إليه بالقرابة الزيتون، ويسيرون إحياء لذكراه الخالدة في موكب جليل، لأن الزيتون يرمز إلى مولانا يسوع المسيح.

وسلم الرجل نفسه إلى زعماء القدس، وأعلن أنه هو الذي اقترف ذلك العمل، وحقق بهذه الوسيلة براءة المسيحيين الآخرين؛ لأن القضاة عندما سمعوا قصته صفحوا عن البقية وقتلوه. وهكذا ضحى بحياته إنقاذاً لإخوانه في الدين، وواجه الموت، ذلك النوم المقدس بقبول ورع واثقاً أنه نال القبول في نظر الرب.

٦ - كيف خلف الظاهر الرائع والده الشرير في حكم المملكة، وكيف تم إعادة بناء الكنيسة استجابة لتوسلات رومانوس امبراطور القسطنطينية، وذلك بفضل جهود جون كاريانس وقسطنطين مونوماخوس اللذان زوداها بالوسائل اللازمة.

= «أعمال أمراء الشرق»، وإذا كان كذلك، فهو يساعد على الإشارة إلى كم تقدم وليم في هذا العمل قبل وفاة عموري.

وأخيراً وصلت الرحمة والشفقة الربانية إلى الشعب المنكوب، وجلبتا معها مساعدة لم تكن بأي حال صغيرة مما فرج وضعه المأساوي. وقد توقف الإضطهاد عندما توفي ذلك الملك الشرير وخلفه ابنه الظاهر [١] في السلطة. فقد جدد الظاهر المعاهدة التي خرقها أبوه، ودخل في حلف صداقة مع رومانوس [٢] امبراطور القسطنطينية الملقب هيليوبوس، وبناء على طلب من رومانوس منح الظاهر المسيحيين امتياز إعادة بناء الكنيسة [٣]، لكن الذي حدث هو أن المؤمنين في القدس. على الرغم من حصولهم على هذا الترخيص ـ عرفوا تماماً أن وسائلهم لم تكن وحدها كافية لإعادة بناء صرح هام كهذا، ولذلك بعثوا وفداً يمثلهم إلى قسطنطين مونوماخوس [٤] خليفة رومانوس الذي كان هو الامبراطور في ذلك الوقت. وأوضح رجال الوفد له بمختلف وسائل الرجاء والتوسل والتواضع الألم والأسى العميقين اللذين عاش الشعب فيهما منذ تهديم كنيستهم، وتوسلوا إليه بطريقة رقيقة جداً ليمد لهم اليد السخية بالجود السامي من أجل إعادة بناء الكنيسة.

وكان واحداً منهم واسمه جون ولقبه كاريانس مسؤولاً عن رئاسة هؤلاء الرسل، وهو بالأصل من أهل القدس وسكانها كان فقيراً ولكنه نبيل في مظهره وأكثر نبلاً في شخصيته، لقد ترك مظاهر الحفاوة والتكريم في العالم لقد بعث به لتنفيذ هذه المهمة فقام بكل النشاط والمواظبة اللائقتين، فقدم المسألة وعرضها بإخلاص على الامبراطور المحبوب من الرب، ونجح في الحصول على وعد من قسطنطين لحمل ما يكفي من المال لإعادة البناء من خزينة الأمبراطور الخاصة. وإثر هذا عاد جون إلى القدس مبتهجاً؛ لأنه حصل على الوعد الذي تطلع المؤمنون إليه بتلهف كبير، وانتعشت أرواح الناس ورجال الدين عندما وصلتهم الأخبار أن سفارته كانت ناجحة، وأنه نال مطلبه. لقد كانوا مثل الذين يتخلصون من مرض خطير، وكان البطريرك نقفور [٥] يترأس الكنيسة في ذلك الوقت.

وبما أنهم نالوا الآن الترخيص وضمنوا النفقات من الخزينة الامبراطورية فقد بنوا كنيسة

---

(١) الخليفة الظاهر ١٠٢١ ـ ١٠٣٦.

(٢) الامبراطور رومانوس الثالث ١٠٢٨ ـ ١٠٣٤.

(٣) بسط وليم هذه الرواية إلى حد ما. وقد بدأت المفاوضات لإعادة بناء الكنيسة بالفعل تحت إشراف الظاهر لكن لم تنته حتى زمن خليفته في عام ١٠٣٨، وكان ذلك أحد الشروط في معاهدة عقدت بين القسطنطينية والقاهرة.

(٤) لم يكن الامبراطور قسطنطين التاسع /١٠٤٢ ـ ١٠٥٥/ الخليفة المباشر لرومانوس الثالث، وقد فرغ من إعادة بناء الكنيسة خلال فترة حكمه وبمساعدته في عام ١٤٠٨.

(٥) يفترض أن نقفور كان بطريرك في ١٠٤٨. وليس لدى لي ـ كوين (Oriens, Vol, III, Col. 496) المزيد من المعلومات.

القيامة المقدسة، وهي الكنيسة نفسها الموجودة بالقدس حالياً. ولقد تمّ هذا في العام ١٠٤٨ لتجسيد الرب، أي قبل إحدى وخمسين سنة من تحرير المدينة، وبعد العام السابع والثلاثين من تدمير الكنيسة [١]. وتخلص الناس بعد انتهاء البناء من الأخطار المهلكة العديدة، والرعب العظيم الذي تعرضوا له.

ومع ذلك فإن الإساءات والمحن المتوالية التي ظهرت بأشكال جديدة لم تتوقف عن إلحاق الحزن والبلاء بذلك الشعب المؤمن، فقد كان الآخرون يبصقون عليهم ويصفعونهم، وجرى تقييدهم بالسلاسل، وألقي بهم في السجون. وفي الحقيقة لقد عانوا باستمرار من كل أنواع العقوبات، ولم تتم ممارسة هذا الإضطهاد على المسيحيين الذين عاشوا في القدس فحسب بل على المؤمنين الصادقين الذين سكنوا في بيت لحم وتقوع Tekoah، فكلما كان يحضر حاكم جديد، أو كلما أرسل الخليفة ممثلاً له كانت تستنبط إساءات جسدية جديدة تنزل بأهل الرب، كما تم اختراع أساليب متنوعة للإبتزاز. وعند رغبة ظلاّمهم بانتزاع أي شيء بالقوة إما من البطريرك أو من الناس فإن أي تأخير في أداء الطاعة كان يتبعه بشكل مباشر تهديد بتهديم الكنيسة. ولقد كابدوا من هذه المعاملة دونما تغيير كل عام، وادعى الدعاة أن صاحب الجلالة الامبراطورية قد أصدر أوامر صارمة تقضي أنهم إذا ما تجرأوا على أي تأخير في دفع الجزية أو الضريبة يتم تهديم كنائسهم على الفور، ومع ذلك فقد تمتع المسيحيون بأحوال أفضل إلى حد ما بقدر ما استمر المصريون والفرس. لكن عندما حدث بالمقابل أن بدأت قوة الأتراك تزدهر، وامتدت سيطرتهم لتشمل بلاد المصريين والفرس ساءت الأحوال من جديد، حيث وقعت المدينة المقدسة تحت سيطرتهم [٢]، وعانى شعب الرب خلال الأعوام الثمانية والثلاثين للسيطرة التركية من مصاعب كبيرة جداً، إلى حد أنهم بدأوا يعتبرون الأعداء الذين قاسوا منهم تحت وطأة نير المصريين والفرس شيئاً لا يذكر [٣].

---

(١) من الواضح أن وليم اعتبر سنة ١٠١١ كتاريخ للتدمير عوضاً عن سنة ١٠٠٩ عندما تبعاً لفييت (مصر العربية: ٢١١/٤) صدر الأمر بذلك.

(٢) لا بد أن هذا زلة قلم عوضاً عن «ثمان وعشرين» لأن الأتراك قد امتلكوها في سنة ١٠٧١، وكان طول مدة حكمهم لها سبعاً وعشرين سنة لأن المصريين قد أعادوا الاستيلاء عليها في سنة ١٠٩٨ أثناء وجود الصليبيين في أنطاكية.

(٣) إن ربط المادة بالشرق التي قرر وليم أن يمهد بها لتاريخه عن المملكة بالإضافة إلى ذلك التاريخ الخاص قد تم في الفصول الأربعة اللاحقة، واستلزم هذا مراجعة للمادة المكتوبة من قبل، ومن الواضح أن وليم قرر في هذا التنقيح أن قراءه سيحتاجون لبعض الشروح عن أصل الأتراك وسيكون المكان الموائم لإدراج هذا الفصل بربطه بذكره لهم للمرة الأولى، في هذه المرحلة، ويتضح من السرعة التي كان يجري بها مراجعته الأخيرة أن المادة التي تتبعها في الأصل هنا أصبحت مبعثرة، كما أن الوصف المفصل لمعاناة المسيحيين تحت نير الأتراك =

٧ - ما يتعلق بأصل العرق التركي وسلالاته

سيتاح لنا دائماً قول الكثير عن الأتراك في هذا الكتاب، من سرد أخبار صمودهم في وجه شعبنا، ومن روايات أعمال الشجاعة التي قمنا بها بدورنا ضدهم. وبما أنهم يصرون حتى الوقت الحالي على مهاجمتنا بقسوة لا يبدو متعارضاً مع هـذا المصنـف أن نقحـم فيـه وصفـاً مـا لنشوء هذا العرق وتاريخه المبكر، وأن نتحدث عن تطوره نحو مرحلة التفوق التي حافظ عليها لسنوات عديدة كما تروي الأخبار ذلك.

أتى عرق الأتراك، أو التركمان [لأنهما من أصل واحد] أساساً من الشمال. وكانوا أناساً بسطاء جداً، ولم يكن لديهم مكان ثابت للسكنى، وكانوا يتجولون باستمرار هنا وهناك بحثاً عن الكـلأ لقطعانهم، ولم يكن لديهم مدن ولا قرى أو مكان إقامة دائم. وعندما كانوا يرغبون في تغيير مضربهم كان أبناء القبيلة نفسها يخرج بعضهم مع بعض ويترأسهم رجل مسن من رجال القبيلة يعمل بمثابة زعيم لها. كانت تحال إليه جميع القضايا التي تقع داخل القبيلة، وكانت الأطراف المتنازعة تطيع أوامره، ولا يسمح قط لأحد أن يهمل قراره أو يزدريه. وكانوا ينقلون معهم أثناء ترحالهم جميع ممتلكاتهم وما يحتاجون إليه من خيول وقطعان وأسراب وعبيد وإماء؛ لأن ثرواتهم تمركزت حول جميع هذه الأشياء.

= والذي يأتي منطقياً فيما بعد، سيوجد في الفقرة الرابعة للفصل العاشر، ومن الصعب التحديد فيما إذا تبع الفصل التاسع الحالي فوراً بعد الفصل السادس، وفيما إذا احتل الفصل الحالي مكاناً آخر وربما قبل الفصل الثالث عشر الحالي، ولا يصف العنوان الحالي للفصل العاشر محتوياته، ويمكن أن يناسب النصف الأخير من الفصل نهاية الفصل السادس الحالي تماماً. ونهاية الفصل التاسع الحالي تقريباً أيضاً ويخدم كانتقال إلى النصف الأول للفصل العاشر الذي يتبعه الفصل الحادي عشر بشكل طبيعي. وتشير الجملة الأخيرة من الفصل العاشر أنها خدمت فيما مضى كانتقال من مقدمته الأصلية أو تمهيده إلى الرواية المناسبة. ومن المحتمل أن تشويه هذه الفصول لا يعكس مراجعة واحدة بلا ثلاث تنقيحات أو أكثر قام المؤلف بها. كما أن الفصل الثامن الذي يعتبره هاغنمير كتوسيع لبعض التعابير في افتتاحية وصف فولتشر، يمكن أيضاً أنه كان المقدمة الأصلية «لأعمال ملوك القدس». وقد أكمل الفصل التاسع المقتبس من معرفته العامة عن الأمور الشرقية، النظرة التمهيدية العامة للمسائل في الشرق، ويتبع القسم الأخير من الفصل العاشر بشكل طبيعي، بينما ينتمي الجزء الأول من الفصل إلى تاريخ بطرس الناسك نوعاً ما في الفصلين الحادي عشر والثاني عشر واللذان بدأ بهما ألبرت أوف اكس روايته، كما أن المادة من فولتشر وألبرت ممزوجة في الفصل القادم وهو الفصل الثالث عشر، وهذه الفصول، باستثناء إعادة ترتيبهم وجلهم الواصلة من المحتمل أنهم كما كتبهم في حوالي ١١٧٠، وربما أجيزت الفصول الستة الأولى عندما استأنف الكتابة في نهاية عام ١١٨٠، أو حتى عندما قرر أن يختم كتابته في عام ١١٨٢، كما أن إدراج الفصل السابع، وهو مقالة مصقولة بشكل جيد عن أصل السلاجقة، كان بشكل واضح قرار لاحق، وربما جزء من كتابته الأخيرة في عام ١١٨٤. هذا وحالت التنقيحات السريعة دون قيام وئام فعال بين المواد.

ولم يهتم الأتراك بالزراعة قط، ولم يعرفوا التجارة، لأنهم كانوا يحصلون على كل ما كان ضرورياً لوجودهم بالمقايضة فقط. وعندما كان يجذبهم مكان مليء بالأعشاب، ويرغبون في البقاء فيه لفترة من الزمن دونما مصاعب كانوا يرسلون من رجالهم الأكثر فطنة لأخذ ترخيص من سيد البلد، ليضربوا خيامهم هناك، وذلك بعد الوصول إلى اتفاق سلمي ودفع مبلغ محدود من المال كأتاوة إلى الزعيم الذي يحكم البلد. وكانوا يقطنون في الغابات أو يعسكرون في المراعي تبعاً لشروط الإتفاق القائم.

وحدث أن انفصلت مجموعة كبيرة من هؤلاء الناس عن البقية، ودخلت بلاد فارس، حيث وجدت البلد مهيئاً بشكل خاص لتلبية متطلباتهم، ودفعوا الأتاوة هناك للحاكم وفق الشروط المتفق عليها بينهم في البداية، ومكثوا هنالك بضع سنين وهي فترة أطول من المعتاد بعض الشيء. وازدادت أعدادهم خلال هذه الفترة بشكل كبير، وبالفعل فقد بدا أنه لا يوجد حد لازديادهم. وبدأ ـ أخيراً ـ ملك بلاد فارس، وسكانها ينظرون إلى ازديادهم الكبير على أنه نذير شر حقيق. فتقرر بعد مداولة سريعة وبسيطة طرد هؤلاء الدخلاء بالقوة من أراضي المملكة. لكن ما لبث أن بدا لهم أنه من الحكمة تغيير هذه الخطة بخطة أكثر فائدة إذ فرضوا عليهم متطلبات جديدة وواجبات زادت المشقات الشديدة القائمة، وزادوا عليهم الضغط وأداموا التوتر. وكانوا يأملون من هذه المعاملة إنهاكهم إلى درجة يقررون فيها الرحيل من تلقاء أنفسهم، وبدون إكراه. ومع ذلك استمر الأتراك، يتحملون العبء الثقيل للمظالم والجزية الكبيرة. لسنوات عدة. وأخيراً قرروا ـ بعد ما تشاوروا فيما بينهم ـ أنه لم يعد بإمكانهم تحمل هذا الحال لمدة أطول.

وعندما علم الملك بهذا الأمر، أمر المنادي أن يعلن أن عليهم مغادرة أراضي المملكة بأكملها وفي خلال فترة محدودة. وهكذا عبروا نهر جيحون الذي يعتبر حداً للمملكة في ذلك الإتجاه، وانتهز الملك الفرصة ليحصي أعدادهم الكبيرة بكل دقة وحرية وبشكل أفضل من المعتاد وكان التركمان قد عاشوا حتى هذه الساعة منعزلين بعضهم عن بعض، بحيث لم يلاحظوا أعدادهم ولا قوتهم؛ ولذلك عندما نظروا إلى عددهم الكبير تعجبوا كيف أن حشداً مثل هذا لا يحصى قد تحمل غطرسة الملك، وكابد الخزي المرير في الخدمة والجزية. ومن الواضح أنهم كانوا مساوين في التعداد والقوة لتعداد الفرس وقوتهم، أو تعداد وقوة أي شعب آخر. ومن الجلي أن العائق الوحيد الذي منعهم من الإستيلاء على البلاد المجاورة بالقوة هو حقيقة أنهم لم يكن لهم ملك يقودهم مثل باقي الشعوب الأخرى.

ولهذا قرروا انتخاب ملك خاص بهم. وهكذا قسموا شعبهم بأسره إلى فئات،

واستخرجوا من بينه مائة أسرة متميزة عن باقي الأسر، وطلب إلى رجل واحد من كل أسرة أن يحضر سهماً حتى جمعت حزمة من مائة سهم بقدر عدد الأسر، ثم استدعوا غلاماً صغيراً بعد أن فكوا رباط الحزمة وغطوها بغطاء، فطلبوا منه أن يأخذ سهماً من تحت الغطاء، وقد كان الإتفاق بينهم أن يتم انتقاء الملك من الأسرة التي يشير السهم المسحوب في القرعة إليها، وصدف أن سحب الغلام سهم أسرة السلاجقة، فتقرر أن يتم اختيار الحاكم المنتظر من بين صفوفهم. وصدرت الأوامر إثر ذلك بأن يتم اختيار مائة شخص من السلاجقة، ممن قد تفوق على بقية أقربائه في السن والشخصية والشجاعة، وطلب من كل فرد منهم أن يقدم سهماً نُقش عليه اسمه، ثم جمعت حزمة السهام من جديد وغطيت بعناية، واستدعى الغلام نفسه أو غلام آخر بالبراءة نفسها، وطلب منه أن يأخذ سهماً بالطريقة نفسها، ونفذ الغلام ما طلب منه وأخذ سهماً كان يحمل اسم سلجوق.

وكان هذا الرجل صاحب مظهر بهي، ومن أسرة نبيلة، وله سمعة متميزة في قبيلته. وعلى الرغم من أنه كان متقدماً بعض الشيء في السن فقد كانت قوته الجسدية سليمة، وكانت لديه خبرة كبيرة في المسائل العسكرية، وكانت طلعته وشخصيته تدل على أنه ملك عظيم.

وعين الأتراك بموافقة شاملة هذا الرجل حاكماً لهم، وتسلم سلجوق مقاليد السلطة الملكية، وأظهروا له الإحترام الجدير بالملوك. وتعهدوا بأداء يمين الولاء والإخلاص في تنفيذ أوامره [1] كما أن هذا الملك استخدم على الفور السلطة التي منحت له لصالح المملكة، وأمر المنادي أن يعلن للناس المجتمعين أن عليهم عبور النهر من جديد، بجميع فيالقهم، وأن يستولوا بالقوة على بلاد فارس التي كانوا غادروها لتوهم. وعلاوة على ذلك أمرهم باحتلال المملكة المجاورة حتى لا يضطروا بعدئذ للتنقل والتطواف حول أراضي الآخرين فيجدوا أنفسهم عرضة لرعونة وظلم الشعوب الأخرى.

وفي غضون بضع سنوات احتل الترك بلاد فارس وجميع الممالك الشرقية، وأخضعوا قوى شبه جزيرة العرب والشعوب الأخرى التي كانت تتمتع بالسيادة. وهكذا بلغ هذا الشعب المدقع والوضيع فجأة مرتبة عالية بحيث ملك الشرق بأكمله، وكان هذا كله قد

---

(١) يصف وليم هنا الإجراءات القانونية المعتادة في المملكة الاقطاعية للقدس لكن يحتمل أنها لم تكن معروفة لدى السلاجقة. وفي الحقيقة إن معلومات وليم عن تاريخ السلاجقة غير موثقة. أنظر كتاب مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية: ٧ ـ ٦٥.

حدث قبل ثلاثين أو أربعين سنة تقريباً خلت قبل قيام أمرائنا الغربيين بأخذ طريق الرحلة، المسألة التي يعالجها هذا الكتاب[1].

ولكي نميز في التسمية ـ على الأقل ـ بين القبائل التي أوجدت ملكاً لها وأحرزت بذلك شهرة كبيرة، وبين القبائل التي احتفظت بنمط الحياة البدائية البسيطة، فإن القبائل الأولى تسمى بالأتراك، بينما تسمى القبائل الثانية باسم التركمان الذي هو اسمها الأساسي.

وبعدما استولى الأتراك على جميع ممالك الشرق رغبوا في غزو مملكة مصر القوية، ونزلوا إلى سورية واحتلوا القدس بالقوة، كما احتلوا مدناً أخرى عديدة مجاورة، فزادوا أعباء المؤمنين الذين كانوا يسكنون هنالك بشكل كبير، ودفعوا بهم إلى حافة الإنهاك، بكثرة الوظائف المضاعفة التي فرضوها عليهم، كما سردنا خبر ذلك من قبل.

٨ ـ وصف أشكال الشر العديدة التي خضع لها العالم في ذلك الحين

لم يكن في الشرق فقط أن تعرض المؤمنون إلى ظلم الأشرار هكذا[2]، فقد كان الإيمان قد انقرض في الغرب أيضاً، وفي جميع أنحاء محيط الأرض تقريباً، وخاصة من بين أولئك الذين كانوا يدعون أنفسهم باسم المؤمنين، فلقد اختفى الخوف من الرب من بين صفوفهم، واندثر العدل وزال من العالم. وحيث أن المساواة قد قهرت ساد العنف بين الشعوب، ورجحت كفة الخداع والخيانة والمغالطة على كل شيء، وغابت الفضيلة واندثرت لأنها باتت بدون فائدة، وساد الشر مكان الفضيلة. وبالفعل بدأ العالم ينحدر نحو الهاوية، وبدا القدوم الثاني لابن الإنسان وشيكاً، فقد ضعفت حرارة الإحسان لدى الكثيرين، واختفى الإيمان من على ظهر الأرض، وعمت الفوضى وسادت في كل مكان، وتم تجاهل الفوارق والمميزات الطبقية، وبدا العالم وكأنه يرغب بالعودة إلى وضعه البدائي الفوضوي. وتخلى الملوك العظام الذين كانوا ملزمين بتوجيه وقيادة رعاياهم نحو السلام ـ عن معاهداتهم

---

(١) ربما كانت هذه الأسطورة المدرجة عن أصل السلاجقة شائعة في زمن وليم بين الأتراك أنفسهم. ويقبل المؤرخون الحديثون أصل الإسم على أنه لزعيم قبلي من تركستان شهر في النصف الثاني من القرن العاشر، إلا أن توسيع سلطتهم أخذ وقتاً أطول. فقد كان أحد أحفاده هو الذي استولى على بغداد في عام ١٠٥٥ وحفيد حفيد آخر تولى بسط سيطرة الأسرة إلى أوسع حد لها، وللحصول على معلومات مختصرة عن السلاجقة انظر الفصل الذي كتبه هربرت. م.ج. لوي في تاريخ كمبردج للعصور الوسطى: ٤/٢٩٢ـ ٣١٧، ولمزيد من التفاصيل انظر كتاب مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية: ٧ ـ ٢٠٦.

(٢) من المحتمل أن هذا الفصل صياغة بلاغية لجمل عديدة جاءت في بداية تاريخ القدس الذي ألفه فولتشر أوف تشاترز وكتب في وقت مبكر من حياة وليم، ربما حوالي ١١٧٠. ويقدم مقارنة ممتعة مع أسلوب وليم الأنضج في الفصل السابق، الذي كتبه بالقرب من نهاية حياته.

التي عقدوها في سبيل السلام، وحارب بعضهم بعضاً لأتفه الأسباب. فقد حرقوا البلاد وسلبوها واستولوا على الغنائم في كل مكان، وعرّضوا ممتلكات الفقراء للنهب من قبل أتباعهم الأشرار، ولم تكن هناك ملكية آمنة وسط هذه الأخطار التي لا تحصى. فمجرد الشك بأن إنساناً ما قد امتلك شيئاً له قيمة كان يعتبر سبباً كافياً لشد وثاقه وجرّه إلى السجن حيث يدفع إلى مكابدة عذاب جسدي لا يمكن تحمله. ولم تنج ممتلكات الكنائس، ولم تجد نفعاً الإمتيازات التي منحها الملوك الأتقياء، والتي تعطي الحصانة لممتلكات الأماكن المقدسة. وفي الحقيقة حتى الإعفاءات التي نالوها رسمياً بحكم مراكزهم السامية، لم يطالب أحد بها، فقد اقتحمت الأماكن المقدسة بالقوة، ونقلت الأوعية المكرسة للخدمة الربانية بالقوة، ولم تفرق يد المدنس بين المقدس والمدنس. لم يكن هنالك أي تمييز، فقد اشتملت المنهوبات على ثياب المذبح وأغطيته والأثواب الكهنوتية والأواني المكرسة لخدمة الرب. وكان الناس الذين التجأوا إلى الأماكن المقدسة يسحبون من قلب المقر الرباني ذاته، ومن أعماق المعابد والمزارات ومن داخل الكاتدرائيات التي لجأوا إليها، لقد كانوا يجرون من هناك بعيداً إلى العذاب والموت. وهاجم قطاع الطرق المتمنطقين بالسيوف الطرق العامة من جميع الإتجاهات، ونصبوا الكمائن للمسافرين، حتى الحجاج والمتدينون لم ينجوا من ذلك.

كما أن المدن والبلدان لم تكن بمنآة أو متحررة من تلك المخاطر، حيث جعل المغتالون المترصدون جميع الشوارع والساحات أماكن ريبة دائمة بالنسبة للأبرياء، وكلما كان المرء أكثر سذاجة كان أكثر عرضة للوقوع في الأحابيل.

وتمت ممارسة كل أنواع الزنى علانية ودونما حياء، وكأنما هي أعمال شرعية، كما لم تسلم الروابط الزوجية بين الذين ارتبطوا بروابط القرابة أو الزواج. وأما كبح الأنفس عن الشهوة الجنسية ـ وهو أمر جليل لدى الملائكة والرب ـ فقد أمر بالإنصراف بعيداً وكأنه شيء لا قيمة له. وبما أن التبذير والسكر وألعاب الحظ طوال الليل قد استولت على المدخل وباقي الحجرات لم يبق هناك مكان للإقتصاد والإعتدال في الأمور. ولم يختلف رجال الدين عن العامة من الناس من حيث عيشهم ولم تكن حياتهم أكثر نبلاً، بل كما نقرأ في أقوال الرسل: «كما الشعب هكذا الكاهن»[1]؛ لأن الأساقفة أصبحوا مهملين لواجباتهم «كلهم كلاب بُكْم لا تقدر أن تنبح»[2]. لقد استقبلوا أياً كان ورؤوسهم ملساء بزيت المذنب[3]، فهم

(١) هوشع: ٤/٩.
(٢) أشعيا: ٥٦/١٠٠.
(٣) المزامير: ١٤١/٥.

مثل المرتزقة تركوا حظائر الغنم التي أنيط بهم رعايتها معرضة لاعتداءات الذئاب، وكانوا غافلين عن كلام الرب حيث يقول: « مجاناً أخذتم، مجاناً أعطوا »[1] فهم لم يتجنبوا إثم شراء المنصب الكهنوتي أو بيعه مع أنه ملطخ بالوصمة القذرة لجيحزي[27] [غلام اليشع].

هل هناك حاجة لقول المزيد ؟ خلاصته القول: وقفت الرذيلة بأكملها على أعلى القمم و« كل بشر قد أفسد طريقه »[3]، ولم تستطع تهديدات الرب التي تظهرها المعاني في السموات في الأعلى والإشارات في العالم الأسفل أن تردع الميالين إلى الطرق الشريرة. فقد انتشرت المجاعات والأوبئة والأهوال في السماء والزلازل العظيمة في مختلف الأماكن[4]، وظهرت دلائل أخرى مثل التي يعددها الرب بعناية في الإنجيل[5]. ومع ذلك استمروا مصرين على الأعمال المميتة مثل « خنزيرة مغتسلة إلى مراغة الحمأة »[6] والبهائم المتخبطة في قذاراتها، فقد أساءوا إلى لطف احتمال الرب مثل الذين عناهم الرب بقوله: « ضربتهم فلم يتوجعوا - داويتهم فلم يشفوا »[7].

٩ - كيف استولى الفرس بسبب آثام الإنسان على البلاد بأجمعها حتى البوسفور

بما أن الله قد غضب من هذه الأحوال، فقد عذب المؤمنين الصادقين في أرض الميعاد، وقدّر عليهم تحمل نير العبودية المشار إليه آنفاً، وليكابدوا من الحمل الذي لا يطاق للمصائب التي لا تعد ولا تحصى.

وعلاوة على ذلك، أثار الله الخصوم، وبلاء الناس، ومصائب الأرض كلها ضد الآخرين الذين بدوا حتى الآن أنهم بمنآة، وأنهم يتمتعون بالحرية واثقين أن كل شيء كان يزدهر حسب أمانيهم. فبينما كان الامبراطور رومانوس[8] الملقب بدايجينس يحكم الإغريق ويدير المملكة بنجاح في القسطنطينية ظهر من داخل بلاد الشرق حاكم قوي لبلاد فارس والعراق، كان اسمه بلفث Belfeth [ألب أرسلان][9] جرّ وراءه أعداداً لا تحصى من

(١) متى: ١٠/٨.
(٢) الملوك: ٥/٢٠ - ٢٧.
(٣) التكوين: ٦/١٢.
(٤) متى: ٢٤/٧.
(٥) لوقا: ٢١/١١.
(٦) بطرس: ٢/٢/٢٢.
(٧) أرميا: ٥/٣، ٥١/٩.
(٨) الامبراطور رومانس دايجنيس ١٠٦٧ - ١٠٧١ م.
(٩) لم يكن وليم متأكداً إلى حد ما حول سلاطين السلاجقة ونشاطاتهم في آسية الصغرى في نهاية القرن الحادي = ←

الشعوب غير المؤمنة. وحسبما ذكرته إحدى الروايات كانت أعدادهم كبيرة جداً غطت وجه كوكب الأرض كله، وتقدم ألب أرسلان برفقة العربات والفرسان، كما تبعته القطعان والأسراب ومعدات هائلة من جميع الأنواع، ودخل بلاد الامبراطورية وأخضعها لسلطانه بشكل تام. وذلك شروعاً من الحقول الواقعة خارج المدن ووصولاً إلى المدن المسوّرة والقلاع المحصنة تحصيناً قوياً، ولم يقاومه أحد، ولم يعترض سبيله أيّ كان دفاعاً عن سلامته وذاته، أو عن زوجه والأبناء، والحرية قبل كل شيء.

وتم إبلاغ الامبراطور في هذه الأثناء أن جيشاً معادياً قوياً كل القوة مثل السيف المسلط والمهدد بالضرب دائماً كان يحدث الدمار داخل الامبراطورية المسيحية. ولما كان الامبراطور مهتماً إهتماماً شديداً بالمملكة فقد حشد قواته من الفرسان ومن جميع تشكيلات الرجاله، وجمع كل ما أمكن للشعب بأجمعه إحضاره، ذلك أن الموقف بدا خطيراً جداً ويتطلب ذلك، فهل هنالك حاجة لقول المزيد؟ وتقدم الامبراطور نحو عدوه على رأس فيالقه المحشودة من الرجالة ترافقه قوة ضخمة من الفرسان وقابله بقوة قوية جداً، غير أن قوته كانت تفتقر إلى التأييد الرباني، وكان العدو آنذاك قد استولى على قلب الامبراطورية وما يزال يتابع تقدمه نحو الداخل.

واشتركت في المعركة الحامية التي وقعت قوات متساوية تقريباً من الطرفين، وأثار القتال في هذه المعركة كراهية عنيفة كان يلهبها الإيمان المتحمس والإستياء والغضب إزاء تدنيس المقدسات، فهل هناك حاجة لقول المزيد؟ وهلك الجيش المسيحي، وأفنيت صفوف المؤمنين وسفك الملحدون الدم الذي افتداه دم المسيح. والمصيبة الأعظم من كل هذا أنه تم أسر الامبراطور، وعاد الناجون الذين بقوا على قيد الحياة من بين جند الجيش الواحد تلو الآخر، ورووا أخبار الكارثة التي حلت بهم. واستمع الناس برعب شديد لهذا الخبر، وبما أنهم كانوا يائسين خائفين على أرواحهم وعلى سلامتهم فقد أطلقوا صيحات العويل المحزنة [1].

وفي هذه الأثناء أمر الخصم الشديد ـ الكافر المبتهج بنجاحه العظيم، والمتبجح بمفاخر انتصاره ـ بإحضار الامبراطور ومثوله أمامه. وبما أنه كان جالساً على عرشه الملكي فقد أمر

= عشر، ولا يستخدم أبداً إسم ألب أرسلان ١٠٦٣ ـ ١٠٧٢، أو اسم ابنه ملكشاه ١٠٧٢ ـ ١٠٩٢ الذي حقق فتح آسيا الصغرى. وهنالك سبب للإعتقاد أنه خلط بين الإثنين لأنه يستخدم لألب أرسلان إسم «بلفث» حيث يرسمه بطرق متعددة وهو كما يبدو تهجئة لفظية لأبي الفتح وهو لقب أطلق على ملكشاه (أنظر لين بول ـ الأسر الإسلامية: ١٥٣) هذا وجرى إثبات الصيغ الصحيحة للأسماء في الترجمة.

(١) معركة منازكرد سنة ١٠٧١ في أرمينية ـ انظر مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية: ١٤٥ ـ ١٥١.

بالقاء رومانوس تحت قدميه. واستخدم جسده كمسند لها يصعد فوقه وينزل عنه بغية إظهار احتقاره للعقيدة والإسم المسيحي، وذلك بحضور الأمراء الملازمين له. وبعد ما أشبع غرائزه بتوجيه هذه الإهانة الشديدة إليه أطلق أخيراً سراحه مع عدد من رجاله الرئيسين الذين كانوا قد أسروا معه، وسمح لهم جميعاً بالرحيل دون قيد أو شرط (١).

وعندما سمع أمراء المملكة بنبأ الإساءة هذه انتخبوا حاكماً جديداً لهم، لأنهم شعروا أن رومانوس الذي عاني إهانات جسدية كالذي عاناه لم يعد جديراً بتولي السلطة والتمتع بمقام أغسطس الرفيع. لذا فقد تم إخضاعه لأقسى درجات الخزي بأن حرم من بصره، وبعد صعوبات جمة سمح له بالعيش كمواطن منعزل (٢).

ثم تلاه سوليمانوس [ملك شاه] (٣) فتمكن من تنفيذ مراميه بنجاح ودونما عراقيل، فاستولى على البلاد بأكملها شروعاً من اللاذقية في سورية وحتى البوسفور الذي ينساب بمحاذاة القسطنطينية، وهي رحلة تستغرق ثلاثين يوماً بالطول وعشرة أو خمسة عشر يوماً بالعرض، واستولى على جميع الناس الذين كانوا هنالك، واحتل مدنهم وقراهم، وكما يقول الرب «أسلمهم ليد الأمم وتسلط عليهم مبغضوهم» (٤).

وتم في نهاية الأمر الإستيلاء على المدينة الرئيسة أنطاكية، التي كانت سيدة العديد من المناطق وذات إقليم رائع فخم، وهي «الكرسي» الأول لسيد الرسل. لقد أصبحت خاضعة للكفرة، وجرى إثر ذلك بفترة وجيزة نسبياً أن رزحت سورية الشمالية بما في ذلك كليكية وايزوريا وبامفليا وليقية دبسيديا، وليقونيا وكبدوكية وغلاطية تحت سلطان الملحدين، وذلك بالإضافة إلى إقليمي بنطس وبيثينيا مع قسم من آسية الصغرى (٥). وكانت هذه جميعاً أقاليم بارزة مشهورة بالخيرات والثروات من جميع الأنواع، ومملوءة بالناس المسيحيين، ولقد تم الإستيلاء على السكان وهدمت الكنائس، ولوحق الدين المسيحي بقسوة بقصد اجتثاثه ومن المؤكد أنه لو كان لدى ملك شاه قوة بحرية لاحتل الأراضي والمناطق حتى

---

(١) وخلافاً لهذا فقد استنتج فازلييف أن الب أرسلان عامل الإمبراطور المأسور باحترام (أ. أ. فازلييف. «تاريخ الامبراطورية البيزنطية: ٢/٢٤»)، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية: ١٤٥ - ١٥١.

(٢) كان الامبراطور ميخائيل الثامن [١٠٧١ - ١٠٧٨] قد اغتصب العرش قبل عودة رومانوس، وألقي القبض عليه وأساء معاملته كما يوحي وليم بذلك.

(٣) يستمر وليم في عرضه وكأن المنتصر في منازكرد هو أيضاً الفاتح لآسيا الصغرى. هذا ويلاحظ أن ألب أرسلان قد توفي في عام ١٠٧٢، تاركاً فتح آسيا الصغرى لابنه السلطان ملك شاه ١٠٧٢ - ١٠٩٢.

(٤) المزامير: ١٠٦/٤١.

(٥) ربما قصد من آسيا الصغرى، كما استخدمها هنا، اقليم ماسيا القديم، جنوب وغرب بيثينيا، ولا يستخدم وليم التعبير بالمعنى الحديث الذي سيتضمن عملياً جميع الأقاليم المدرجة هنا.

المدينة الامبراطورية، لأنه نشر بين الإغريق رعباً شديداً وعظيماً إلى درجة أنهم اعتقدوا أنهم لم يعودوا آمنين حتى داخل أسوار مدينة القسطنطينية ذاتها، واعتبروا أن حماية البحر المعترض لهم تعد كافية أو معيقة.

وجلبت هذه الأحداث بالإضافة إلى الوقائع الأخرى ذات الطبيعة المشابهة ركاماً متزايداً من التعاسة للمؤمنين الذين سكنوا في القدس والمناطق الواقعة هناك. وغاص الناس في هاوية اليأس؛ لأن القصر الامبراطوري الذي كان قد منحهم العزاء بشكل مستمر في الماضي، وأزال عنهم المصائب في الأيام المشرقة السابقة من تاريخ الامبراطورية - كما تم بيان ذلك - لم يعد قادراً على الإضطلاع بدوره الآن. ففي الماضي قدم الوضع الآمن والسليم للامبراطورية - بالإضافة إلى الوضع المزدهر للمدن المجاورة وفي مقدمتها أنطاكية - أملاً معقولاً بالحرية في وقت من الأوقات في المستقبل. لكن الآن ضاع الأمل، وأصبحوا قلقين على أنفسهم، وذلك بالإضافة إلى قلقهم على الآخرين، وهكذا أرهقتهم الإشاعات المشؤومة إلى أقصى الدرجات، فاشتاقوا للموت أكثر من اشتياقهم للحياة، وضعفت إرادتهم، واقتنعوا أنه قد حكم عليهم بالعبودية الدائمة.

١٠ - كيف ذهبت حشود من المؤمنين بعضها مع بعض إلى المدينة المقدسة، والمعاملة التي لاقتها داخل القدس وخارجها، وكيف انتقلت المدينة إلى سلطان الترك من جديد [(١)].

حدث في غمرة هذه الأخطار المتزايدة الأضرار لتلك الأيام أن وصلت مجموعة كبيرة من الإغريق واللاتين إلى المدينة المقدسة، وذلك بعد التعرض للموت بألف شكل ولون في البلدان المعادية. لقد قدموا بغرض العبادة في الأماكن المقدسة، غير أن حراس الأبواب رفضوا السماح لهم بالدخول حتى يدفع كل منهم قطعة ذهبية فرضت كجزية نقدية، وقد تمركزت الأزمة حول هؤلاء الذين كانوا قد فقدوا كل ما يملكون، ووصلوا سالمين جسدياً إلى غايتهم المنشودة بعد صعوبات فائقة، ولم يكن معهم أي شيء يدفعوه كجزية.

وهكذا فإن أكثر من ألف من الحجاج الذين كانوا قد تجمعوا أمام المدينة ينتظرون أن يؤذن لهم بالدخول ماتوا من الجوع والعري. فلقد كان هؤلاء الناس عبئاً لا يحتمل بالنسبة للسكان التعساء سواء أكانوا أحياءً أم أمواتاً. لقد حاولوا إبقاء الذين لم يموتوا بعد أحياء عن طريق تزويدهم بالطعام بقدر ما أمكنهم، كما بذلوا الجهد الممكن أيضاً لدفن الموتى. كل هذا على الرغم من أن مشاكلهم الخاصة كانت أكبر من طاقاتهم وليت الأمر وقف عند هذا

(١) انظر الحاشية (١) ص ١٩٦.

الحد بل إن الحجاج الذين دفعوا الجزية المفروضة وحصلوا على الإذن بدخول القدس جلبوا معهم مسؤولية أكبر وحملاً أثقل على السكان فقد كان هنالك خطر احتمال أن يبصق عليهم أو أن يتلقوا اللكمات على آذانهم، والأنكى من ذلك أن يتم خنقهم حتى الموت خلسة بينما كانوا يتجولون دون انتباه، أو وهم يندفعون بتشوق زائد لزيارة الأماكن المقدسة. ولهذا لحق السكان بحرص ومودة أخوية الحجاج الذين أسرعوا نحو الأماكن المقدسة، وبما أنهم كانوا قلقين على سلامتهم وحياتهم فقد أملوا بهذه الطريقة أن يحولوا دون وقوع مثل هذه الحوادث المؤسفة.

وكان في المدينة دير يخصّ أهالي أمالفي، وكان يدعي باسم دير القديسة ماري للاتين، وهو اسمه حتى اليوم، وكان بالقرب منه مشفى مع كنيسة متوسطة الحجم أسست إكراماً لذكرى جون ألمونير Gohn Almoner البطريك المبارك لمدينة الإسكندرية[1]. وكان هذا المشفى تحت رعاية راعي الدير السابق الذكر، وكانت المساعدات تعطى فيه في أي وقت من الأوقات إلى الحجاج البائسين الذين وصلوا في ظروف كهذه. وكانت النفقات يجري تأمينها إما من قبل الدير أو من الإعانات التي كان يقدمها المؤمنون. ونادراً ما وجد واحد بين كل ألف حاج من الذين قدموا كان قادراً على تجهيز نفسه، فقد أضاع العديد منهم نقود الرحلة، وأنهكتهم المصاعب المخيفة إلى درجة أنهم لم يكونوا قادرين على الوصول إلى هدفهم بسلامة إلاّ بشق الأنفس[2].

وهكذا لم يكن هنالك أية راحة بالنسبة للسكان في داخل البيت أو خارجه، فقد هددهم الموت يومياً، وهددهم ما كان أسوأ من الموت، وهو الخوف من العبودية الفظة التي لا تطاق والتي كانت مسدلة عليهم بشكل دائم وكان مما سبب لهم الكرب الشديد أنهم حتى أثناء الإحتفال بالطقوس المقدسة كان العدو يقتحم بعنف الكنائس التي أعيد بناؤها وتمت صيانتها بصعوبات لا تحصى. وكان الفرس يجلسون على المذابح في الكنائس دون توقير للأماكن المقدسة، وينشرون الرعب في قلوب المتعبدين بصيحاتهم وصفيرهم الجنوني. فلقد

---

(١) كان يوحنا المعطاء بطريركاً للإسكندرية ٦١٠ - ٦١٦، وكان مشهوراً بأعماله الخيرية الواسعة ومحبوباً بشكل خاص بسبب مساعدته للمسيحيين هناك بعد السلب الذي تعرضوا له على يدي كسرى الثاني في عام ٦١٤، وكان «القديس النصير» للاسبتاريه. ويعتقد أن رفاته موجود في كاتدرائية برسبيرغ Pressburg.

(٢) استمر الحجاج بالقدوم إلى القدس طوال قرون سيطرة المسلمين حيث بقي الكثير من رحلاتهم (انظر س.ر. بيزلي «فجر الجغرافية الحديثة: ١٢٥/١ - ١٧٥، ١١٢/٢ - ١٢٧). وأظهر جورانسن أن المعاملة القاسية للحجاج حدثت أيضاً قبل الاحتلال السلجوقي (أنظر إ.جورانس «الحج الألماني الكبير لعام ١٠٦٤ - ١٠٦٥» Munro - crusades, pp. 3 - 43).

قلبوا كؤوس القربان، وداسوا بأقدامهم على الأواني المكرسة للطقوس السماوية، وكسروا التماثيل الرخامية، وكالوا الضربات والإهانات لرجال الدين، حتى السيد البطريرك ـ آنذاك ـ قد تم سحبه من شعر رأسه ومن لحيته واقتلع من مقعده وهو يؤدي مراسم الطقس الديني، وطرح على الأرض كالإنسان الوضيع الحقير. وألقي القبض عليه مراراً وأودع السجن دونما سبب له وطبقت عليه معاملة لا تناسب الآن أحط العبيد منزلة لكي يتعذب أبناؤه في الدين، ذلك أنهم تألموا لألمه كما يتألم الأبناء مع والدهم.

وكما تمت الإشارة من قبل فقد تحمل شعب الله المخلص هذه المعاملة السيئة والعبودية القاسية بكل تقى وصبر طويل على الأذى، وذلك لمدة أربعمائة وتسعين سنة [1]. وبكى الناس وتضرعوا إلى الرب بتأوهات وتنهدات مملوءة بالدموع في صلاة مستمرة على الدوام ليصفح عنهم الآن، وقد تابوا وتخلصوا من آثامهم لعله يبعد عنهم برحمته الواسعة بلاء سخطه، حيث أنهم سقطوا في هاوية الشر وحيث «هاوية تنادي هاوية» [2] هاوية التعاسة نقلتهم إلى هاوية الندم. لقد استحقوا أن يستجيب الرب لهم، فهو رب المغفرة والسلوان. وأخيراً نظر الرب إليهم بنظرة العطف من فوق عرش مجده، وبما أنه رغب في إنهاء هذه البلوى وهذا الشقاء، قرر أن يريحهم بعنايته الأبوية مثلما رغبوا في ذلك؛ لقد عقدنا العزم على أن ندون في كتابنا الحالي ـ كذكرى دائمة للمؤمنين بالمسيح ـ طريقة وترتيب هذه الخطة الإلهية التي هدف الرب من ورائها تخفيف البلية الطويلة عن شعبه.

١١ ـ ما يتعلق بمجيء رجل الرب بطرس الناسك والتداول بينه وبين شمعون المبجل بطريرك القدس

في ذلك الوقت الذي كانت تلك المدينة ـ حبيبة الله ـ تعيش فيه في ظل المصاعب التي شرحناها كان كاهن من بين العديد من الكهنة الذين سافروا إلى الأماكن المقدسة من أجل العبادة والصلاة، يدعى بطرس، وكان من أتباع أسقيفة أمنس Amiens في مملكة الفرنجة [3]، وكان معروفاً عنه في الجوهر والمظهر أنه ناسك، وقد سار نحو القدس بهذا الحماس وبهذه

---

(١) أنظر الحاشية ١ ـ ص ١٥٦ مع التنبه إلى مسألة المذابح التي أوقعتها الفرنجة في صفوف الصليبيين في بلاد الشام.

(٢) المزامير ٤٢/٧. وفي الترجمة العربية «غمر يناادي غمراً».

(٣) كان بطرس الناسك واعظاً نموذجياً للحملات الصليبية في شمال فرنسا وأراضي الرين الألمانية، وقد نشأت الأسطورة التي تقول أنه بدأ الحملات الصليبية بشكل طبيعي في تلك المنطقة حيث كان أول من بشر بها. وقدم ألبرت أوف اكس، الذي عاش هنا، الأسطورة إلى الأدب، وقد قبلها ولم تماماً، وكانت قد لاقت استجابة كبيرة من قبل الخيال الشعبي منذ ذلك الوقت، هذا ويلاحظ أن الثقافة النقدية الحديثة قد فصلت الأسطورة عن حقائق سيرته (انظر هـ. هاغنمير «بطرس الناسك» المصدر نفسه).

الحيوية. أما فيما يتعلق بمظهره الخارجي فقد كان قوامه صغيراً ولا يثير الاهتمام، لكن «تحكمت بسالة كبيرة في ذلك الجسد الصغير»[1]. كان مزاجه مفعماً بالحيوية، وكانت له نظرة حادة وعيون لطيفة، ولم يكن مفتقراً إلى الفصاحة والتدفق بالكلام.

وبعدما دفع الجزية، التي كانت مفروضة - وفق عرف شائع - على جميع المسيحيين الذين رغبوا في دخول المدينة استقبله رجل من الذين كانوا في قرارة أنفسهم معترفين بالمسيح بصفة ضيف، وكان بطرس رجلاً فطناً شديد الانتباه، وقد سأل مضيفه أسئلة عدة بخصوص أحوال المسيحيين، وعلم منه تفاصيل كاملة حول مخاطر الظرف الحالي، وحول الاضطهادات التي كابدها أسلافه لسنوات عديدة مضت. وجميع المعلومات التي لم يتلقها عن طريق الفم حصل عليها فيما بعد بما شاهده بأم عينيه. فلدى تطوافه في الكنائس خلال إقامته في القدس أبدت له تحرياته الخاصة بكل جلاء صحة ذلك الشيء الذي كان قد سمعه من الآخرين. وعندما سمع بطرس أن بطريرك المدينة كان رجلاً ورعاً يخشى الرب رغب بالتداول والحديث معه حول الظروف القائمة في القدس آنذاك، وأمل أيضاً أن يحصل منه على معلومات أوفى حول مسائل أخرى محدودة. وهكذا ذهب إلى زيارة بطريرك المدينة، وبعدما سمح له بمقابلته استمتع الرجلان بمحادثة عذبة بفضل جهود أحد المترجمين المؤمنين. ولقد أدرك البطريرك شمعون من أقوال بطرس أنه كان رجلاً حكيماً وصاحب خبرة متنوعة في مسائل عديدة، وذا قدرة على الإقناع بالقول والفعل، وشرع يصف له كثرة الأعداء الذين كانوا يسببون الآلام لشعب الله الذي سكن في القدس. وتحركت عواطف بطرس الأخوية بشكل عميق جداً لدى سماعه هذا الوصف إلى درجة انه لم يستطع كبح دموعه، وبدأ يستوضح بجدية أكثر حول إمكانية إيجاد طريقةٍ ما للتخلص من المصاعب التي أحدقت بهم.

وأجاب الرجل الطيب قائلاً: «يا بطرس، إن الرب الرؤوف الرحيم يرفض أن يصغي إلى تأوهاتنا وحسراتنا بسبب الآثام التي تكبلنا، حيث أن خطايانا لم تمح بعد؛ ولذلك إن البلاء لن يتوقف في الوقت الحالي. غير أن قوة شعبك بفضل رحمة الرب الواسعة دائماً ما تزال سليمة، كما أن مملكتهم المروعة لأعدائنا تزدهر في كل مكان. فإذا تعاطفوا معنا بحب أخوي ونحن في وضعنا الحالي، وقدموا العلاج للمصائب التي تثقل كاهلنا أو التمسوا لنا - على الأقل - الرحمة من المسيح يمكننا أن نأمل بأن بليتنا ستنتهي فوراً. فليس لدينا أي أمل من الآن فصاعداً بتلقي أية معونة من امبراطورية الاغريق، فعلى الرغم من أنهم كانوا مرتبطين معنا عن قرب برابطة القرابة والجوار، وكانت لديهم ثروات ضخمة جداً فهم يكادون لا

---

(١) Statius, the b, I, 417.

يقدرون الآن على الدفاع عن أنفسهم، كما أن قواهم قد ضعفت ـ كما سمعت ـ بحيث فقدوا أكثر من نصف امبراطوريتهم خلال أعوام قليلة».

وأجاب بطرس قائلاً: «اعلم أيها الأب المقدس إنه لو كان لدى الكنيسة في روما، والملوك في الغرب أي مخبر حذر وموثوق يخبرهم بالمصائب التي تكابدونها لكانوا سيحاولون حتماً تقديم العلاج بالسرعة الممكنة وبالقول والفعل لمصاعبكم هذه. ولذلك اكتب أنت بكل اجتهاد إلى البابا العظيم وإلى الكنيسة في روما، واكتب أيضاً إلى ملوك وأمراء الغرب، وصادق على الرسالة بخاتم سلطانك الكهنوتي، وبالحقيقة ـ إنني لمداواة روحي ـ لن أتوانى عن الاضطلاع بهذه المهمة. وبثقتي بالرب واعتمادي المطلق عليه أنا على استعداد لزيارة الجميع والتوسل إليهم، وأن أدلي بشهادتي حول مصائبكم المفجعة بكل اجتهاد، ولسوف أدعو الجميع، دونما تأخير لتقديم العلاج.

وأدخلت هذه الأقوال السرور إلى نفس البطريرك، وبدت جيدة في نظره، كما بدت في نظر جميع المسيحيين الذين كانوا موجودين حول بطرس، وهكذا أعطوا الرجل ـ خادم الرب ـ الرسالة التي كان قد طلبها مع شكرهم له لتعاطفه معهم.

١٢ ـ الوحي الذي جاء إلى بطرس هذا في كنيسة القيامة المقدسة

إنك عظيم حقاً يا ربنا، ورحمتك بلا حدود، ويقينا يا يسوع الشفوق أن الذين يثقون بك لن يصيبهم الفزع أبداً، فمن أين أتى هذا اليقين إلى حاج مفلس بائس ومفتقر إلى جميع الصفات التي تحقق النفوذ والتأثير حيث كان بعيداً جداً عن موطنه؟ من أين أتاه حتى تجرأ على الاضطلاع بمهمة كانت فوق طاقته، وكان واثقاً أن رغبته ستتحقق بنجاح؟ إن التفسير الوحيد لهذا كله هو أنه قد وجه كل أفكاره إليك أيها الرب الحامي له، فقد كان متوقداً بالحب الشفوق ومتعاطفاً مع أخوانه، ويحب جاره كحبه لنفسه. وقد تصرف وفق هذا المنهاج ليحق الحق، ومع أن قوته لم تكن كافية فقد أقنعه الإحسان. وعلى الرغم من أن المهمة التي كان إخوانه قد فرضوها عليه قد بدت صعبة بل مستحيلة التنفيذ تقريباً فقد سهلها عليه حبه للرب وعواطفه نحو جيرانه؛ لأن الحب قوي كالموت»[1] إن «الإيمان العامل بالمحبة»[2] المتمكنه فيكم، والخدمات التي قدمتها لم تكن هباء منثوراً. إنك لم تسمح لعبدك بالتردد طويلاً، بل تجليت له بذاتك الجليلة، وشجعته برؤية من ذاتك حتى لا يتردد بل ينهض وهو قوي لا نجاز عمل المحبة.

---

(١) Ca. 8: 6.

(٢) غلاطيه: ٥/٦.

وحدث ذات يوم أن كان عبد الرب هذا الذي أتحدث عنه مضطرباً جداً إزاء فكرة العودة إلى موطنه، والاضطلاع بمسؤولية هذه المهمة، ولهذا دخل إلى كنيسة قيامة الرب، وانعطف بورع عميق نحو ينبوع الرحمة، وقضى الليل بالصلوات والعبادة، وغلبه الوجد وقهره الانفعال فسقط على الأرض وذهب في سبات عميق. وكما جرت العادة، تراءى له أنه رأى سيدنا يسوع المسيح واقفاً أمامه كما لو أنه في حال اليقظة يخاطبه بقوله: «انهض يا بطرس، وأسرع، ونفذ المهام التي أوكلت إليك دونما خشية؛ لأنني سأكون معك، فقد حان الوقت لتطهير الأماكن المقدسة ومساعدة عبيدي».

استيقظ بطرس واثقاً بالرب بوساطة الرؤية التي وقعت له حيث أصبح أكثر ميلاً للطاعة واستجابة للنصح السماوي. ولم يتأخر أو يتردد، بل استعد بكل نشاط للعودة على الفور، وبعد أن قدم الصلوات المعتادة استأذن البطريرك صاحب المقام الرفيع بالانصراف ليمنحه بركاته. ثم انطلق هابطاً نحو البحر، وهنالك وجد سفينة تجارية كانت على وشك الابحار نحو أبوليا Apulia، فصعد على ظهر السفينة، ووصل بعد رحلة ميمونة إلى باري Bari، وعندما كان على وشك الرحيل من هناك إلى روما علم أن البابا أوربان Urban كان في تلك الأحواز، وبناء عليه توجه نحوه وقدم له رسالة بطريرك القدس ومسيحييها، ووصف له معاناتهم والأشياء البغيضه التي اقترفها الناس المدنسون في الأماكن المقدسة، ونفذ باجتهاد وحكمة التفويض الذي أوكل إليه.

١٣ - حول النزاع بين الامبراطور هنري والبابا غريغوري السابع، وكيف استقبل أوربان الثاني - خليفة غريغوري - بلطف بطرس العائد من القدس

كان قد نشأ قبل عدة سنوات من هذا التاريخ نزاع خطير حول خاتم وصولجان الأساقفة المتوفين، وذلك بين هنري ملك الألمان وامبراطور الرومان [١] وبين غريغوري السابع البابا السابق للبابا أوربان [٢] الثاني، فقد تطور عرف - خاصة في الامبراطورية - بإرسال الخاتم والصولجان العائدين لأساقفة الكنيسة الموتى إلى الامبرطور، وكان الامبراطور

---

(١) كان هنري الرابع طفلاً عندما توفي والده في عام ١٠٥٦. وسيّرت أمور المملكة بإشراف وصاية والدته حتى عام ١٠٧٢. ولم يصبح امبراطوراً حتى عام ١٠٨٤، حيث توجه البابا المضاد كليمنت الثالث في ذلك الوقت.

(٢) كان غريغوري السابع بابا فيما بين ١٠٧٣ - ١٠٨٥، وأحدثت سياسته الإصلاحية النشطة ما يعرف باسم الصراع من أجل التقليد الذي يصفه وليم هنا، وكان هذا الصراع صراعاً مريراً، وقد مات غريغوري في المنفى في عام ١٠٨٥، وتوفي هنري الرابع محروماً كنسياً في عام ١١٠٦، هذا وواصل خلفاؤهما هذا الصراع حتى عام ١١٢٢ عندما تم التوصل إلى حل وسط في الوئام الصحيح.

يبادر شخصياً بإرسال ما يختاره من بطانته الخاصة أو من بين قسّيسيه، ليشغل المنصب الكنسي الشاغر دون انتظار الانتخاب الذي يقوم به رجال الدين، وكان يضفي عليه مهام الأسقف [البابا] في ذلك المقام وشعر البابا [غريغوري السابع] أن هذا فيه مخالفة صريحة للعدالة السماوية، ولا يجوز أن تداس هذه العدالة بالأقدام بطريقة كهذه، وحذر الامبراطور ثلاث مرات متتالية ليتوقف عن التصرف بمثل هذه الوقاحة الشنيعة، وعندما اكتشف أنه لم يستطع أن يؤثر عليه بالتحذيرات الشديدة والواضحة، قيده بقيود اللعنة والحرمان. وبناء عليه بدأ الامبراطور آنذاك باضطهاد الكنيسة في روما بعدما أثاره هذا التصرف، وقام بإثارة رئيس أساقفة رافينا الذي كان يدعى غيوبرت، وجعله بابا مضاداً. وكان غيوبرت رجلاً مثقفاً وصاحب ثروات ضخمة[1]، وقد دفعته ثرواته والدعم الامبراطوري إلى الإقدام على طرد غريغوري المبجل بالقوة، واستولى على مقر الأسقف البابوي، وبما أنه كان أحمق يفتقر إلى الصدق في تفكيره، فقد اعتقد بالفعل أنه البابا حقاً؛ لأنه كان يسمى بهذا الإسم بشكل مضلل.

وكما سبق وقلنا، كان العالم التعيس، والمنغمس في الشر يسلك منذ أمد ممرات خطيرة وعديمة الجدوى، وفوق ذلك غاص العالم إلى أعماق أكثر سحقاً عندما ظهر هذا الشقاق. لقد تخلى العالم عن كل التبجيل للرب والانسان على حد سواء، وسعى وراء الأشياء الآثمة،وترك تلك التي كانت مفيدة. فقد تم سجن الأساقفة إذ كان يلقى بكل واحد من أساقفة الكنيسة الذين تجرأوا على معارضة الامبراطور في هذا العناد الذي أبداه بالسجن ويصادر ممتلكاته وكأنه ممن اتهم بالقتل، ولم يعاني هؤلاء الأساقفة من المظالم بشكل مؤقت، بل جرت ازاحتهم إلى الأبد من مناصبهم الأسقفية، وتم تعيين بدائل لهم في أماكنهم.

وكان غريغوري قد هرب إلى أبوليا قبل سخط الامبراطور، واستقبله هنالك دوق أبوليا بصدر رحب، وكان هذا الدوق اسمه اللورد روبرت غويسكارد[2] Robert Guiscard، وعامله معاملة لائقة، وبذلك نجا غويغوري بمساعدته من قبضة

---

(١) اتخذ غيوبرت أو ويبرت لقب كليمنت الثالث واحتفظ بروما حتى طرده الصليبيون في ١٠٩٧، على الرغم من أن جنوده احتفظوا بقلعة سان - أنجلو حتى عام ١٠٩٨. واستمر بالمطالبة بالمنصب حتى وفاته في عام ١١٠٠.

(٢) كان روبرت غويسكارد واحداً من أصغر أبناء تانكرد أوف هوتفيل وأشهرهم ومن الذين قدموا من نورماندي ليستقروا في جنوب إيطاليا، وأصبح هنا دوقاً لأبوليا وحاول بسط سيطرته على شبه الجزيرة اليونانية أيضاً، وعاد من اليونان لينقذ البابا غريغوري من روما خلال حصار فرضه هنري الرابع حولها، وحدثت وفاته في ١٠٨٥ (انظر س. هـ. هاسكن «النورمان في التاريخ الأوروبي»: ٢٠٠ - ٢٠٦).

الامبراطور، وذهب غريغوري فيما بعد إلى سالرنو Salerno حيث أنهى حياته، ودفن هناك.

وخلفه في منصبه البابا فكتور الذي شغل الكرسي البابوي لمدة شهرين فقط [١]، ثم خلفه البابا أوربان الذي كنا قد ذكرناه من قبل، ولكي يتجنب هذا البابا غضب هنري خليفة هنري المذكور آنفاً - الذي ثابر بطريقة مماثلة وأصر مثله على اقتراف الفظاعات ذاتها - التجأ إلى قلاع نبلائه المخلصين، غير أنه لم يكن آمناً تماماً أبداً، وعلى الرغم من أنه كان في ضيق فقد استقبل بطرس بصدر رحب، وكان هذا الرجل المبجل قد عاد لتوه من القدس، وكان مشغولاً بالسعي في تنفيذ المهمة الموكولة إليه، ووعده أوربان مقسماً بالرب الذي هو عبد له بأن يؤازره في المهمة التي جاء من أجلها كلما سنحت له الفرصة.

وبما أن الحماسة السماوية قد ألهبت عواطف بطرس فقد جاب إيطاليا بأجمعها، وعبر جبال الألب، وزار جميع ملوك الغرب مؤكداً وموبخاً ومنتقداً، وقد أقنعتهم أقواله المحذرة والمؤيدة بالعناية الربانية بعدم التأجيل في الذهاب إلى نجدة إخوانهم الذين كانوا في تلك المحنة الشديدة، وبعدم ترك الأماكن المقدسة التي كان الرب قد تفضل بتمجيدها بحضوره إليها، كي لا تدنسها قذارة الكفرة بعد ذلك. ولم يكن بطرس قانعاً بنثر هذه البذرة بين الملوك فحسب، بل تلهف إلى إثارة العامة من الناس والأفراد من بين الطبقات الأدنى بنصائحه الورعة للقيام بالواجب ذاته. وقام أثناء تنقله ببطء عبر الممالك وبين الأمم بالوعظ بالرسالة ذاتها إلى أفقر المراتب وأدناها، وذلك بالحماس نفسه والغيرة المؤمنة اللتين كانتا له أثناء تنفيذ المهمة. ونظر الرب بعين الرضا إلى جهوده الصادقة، ومنحه تأييداً كبيراً، بحيث أنه نادراً ما دعا الناس إلى الاجتماع جميعاً. وجاءت دعوته بدون نتائج. يضاف إلى هذا أن عمله الوعظي بات مفيداً جداً للبابا حتى أنه قرر أن يلحق به إلى ما وراء الجبال دونما تأخير؛ لأنه بعمله التبشيري، هيأ قلوب مستمعيه للإصغاء له وإطاعته. وعلى هذا فإن البابا عندما رغب في إقناعهم في اتباع المنحى ذاته والقيام بالعمل المدعو له لم يتعرض في تحقيق هدفه إلا لصعوبات لا تذكر، وكان قادراً على التأثير عليهم بسهولة أكبر.

١٤ - قدوم البابا أوربان إلى المناطق الواقعة فيما وراء الجبال وما يتعلق بالمجمع الكنسي المعقود في كليرمونت

كان العام هو عام ١٠٩٥ لتجسيد الرب، في الخمس عشرية الرابعة من عمره، كان

---

(١) كان فكتور الثالث بابا فيما بين ١٠٨٦ و١٠٨٧، ولم يعتل أوربان العرش حتى سنة ١٠٨٨، أو بعد ثلاثة أعوام تقريباً من وفاة غريغوري السابع هذا وقد واصل الإثنان سياسة سلفهما العظيم وأمضيا معظم أوقاتهما في المنفى بعيداً عن روما.

هنري الرابع في السنة الثالثة والأربعين من حكمه ملكاً للألمان [١]، وفي السنة الثانية عشرة من حكمه امبراطوراً للرومان. وكان أيضاً فيليب الأول بـن هنري الأول، ملك الفرنجة يحكم فرنسا، وقد رأى البابا أوربان أن فظاعة الجنس البشري قد تجاوزت جميع الحدود في هذه المرحلة، وكأنّ كل شيء ميال للشر هو يتجه نحو الحضيض، فقام لذلك بعقد مجمع كنسي لجميع إيطاليا في بيسنزا Piacenza وهو إجراء كانت الحاجة إليه شديدة نظراً لإفراط [٢] الناس.

وبعد انقضاء هذا المجمع الكنسي غادر البابا إيطاليا تفادياً لحنق الامبراطور، وعبر جبال الألب ودخل إلى مملكة فرنسا، وهناك تلقى تأكيدات واضحة حول الروايات التي كان قد سمعها من قبل. فقد كان قد تمّ التخلي عن التحذيرات السماوية في كل مكان، كما احتقرت تعاليم الكتب المقدسة وضعف الإيمان، وكان الإحسان وجميع الفضائل في خطر، وفي المقابل كانت مملكة الخصم - إبليس - مشرعة الأبواب في كل مكان.

وبالنظر إلى منصب البابا أوربان ووضعه فإنه كان قلقاً جداً إزاء امكانية مقاومة الرذائل العديدة والشديدة البشاعة وكذلك الآثام التي كانت - للأسف - تتعاظم، وتحيط بالعالم بأسره. لهذا قرر عقد مؤتمر عام في فيزلي Vezelay أولاً ثم في بوي Puy. وأخيراً اجتمع في ظل الرعاية الربانية في تشرين الثاني، حشد من الأساقفة ورعاة الأديرة من جميع اجزاء المناطق الواقعة فيما وراء جبال الألب، وكان إجتماعهم باسم الرب في كليرمونت وهي مدينة واقعة في أوفرين، وكان بعض أمراء هذه الأقاليم بالذات من بين الحضور في المجمع، وتمت هناك بنصيحة من رجال الدين والذين يخشون الرب صياغة النظم التي يمكن أن تتجه نحو تخفيف الحالة غير المرضية للكنيسة. كما جرى أيضاً نشر القواعد التي أمل أنها ستساعد على رفع مستوى الأخلاق، وتقويم الأخطاء الفاحشة. واقترح بطرس الناسك الذي شعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه تجاه الرسالة الموكلة إليه أن بإمكان هذه الاجراءات أن تعيد

---

(١) يجب أن يكون في التاسعة والثلاثين كملك بسبب أن والده قد توفي في عام ١٠٥٦. وتشكل عدم صحة معلومات وليم عن الأحداث في ألمانيا أحد الإعتراضات الرئيسة للإدعاء القائل أن والديه انحدرا من تلك المنطقة.

(٢) يحدد هذا المجلس، الذي عقد في منطقة احتوت على الكثير من الموالين للإمبراطور، تقدماً واضحاً في ثروات البابوية. وقد حضره ممثلون عن الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنوس ومن المعتقد أنهم التمسوا مساعدة البابا (انظر د.س.مونرو، «هل طلب الإمبراطور ألكسيوس الأول المساعدة في المجلس الكنسي المنعقد في بيسينزا سنة ١٠٩٥؟» دورية التاريخ الأمريكي: ٢٧ (١٩٢١ - ١٩٢٢) ٥٧٠.

السلام الذي بدا أنه اختفى من العالم، وبعد طول انتظار حوّل أوربان انتباهه نحو القاء موعظته التي جاءت كالتالي: [١]

١٥ ـ موعظة البابا إلى الناس من أجل الحج إلى القدس

تعرفون أيها الأخوة الأعزاء، وحقيق بكم أن تعرفوا، كيف أن منقذ الجنس البشري قد ضحى بجسده لإنقاذنا جميعاً، وعاش كإنسان بين الناس، ومجدّ بوجوده أرض الميعاد فقط كما سبق للرب أن وعد الأسلاف، وجعلها مشهورة بأعمال الشريعة التي أكملها، وبالمعجزات المتكررة أيضاً، وهذا ما يوصى به العهدان القديم والجديد في كل مقطع تقريباً. ومن الواضح بالفعل أن الرب أحب تلك الأرض حباً خاصاً جداً، حيث تفضل باعتبار ذلك الجزء من الأرض ـ أو بالأحرى تلك البقعة الصغيرة ـ ميراثه، على الرغم من أن الأرض كانت بأكملها له [٢]، وبناء عليه نجده يقول على لسان اشعيا: «وميراثي إسرائيل» [٣] ويقول أيضاً: «إن كَرْمَ رب الجنود هو بيت اسرائيل» [٤] ومع أنه خص لذاته منذ البداية جميع الأرض فقد اتخذ المدينة المقدسة لتكون له بشكل خاص وفق شهادة الرسول الذي يقول: «الرب أحب أبواب صهيون أكثر من جميع مساكن يعقوب» [٥]. إنه قد قيل حول هذه المدينة أشياء رائعة؛ لأن منقذنا قد أوجد بالفعل من خلال تعاليمه ومعاناته وقيامه من جديد الانقاذ في وسط الأرض. ولهذا السبب جرى اختيارها منذ الأزل لتكون شاهدة على هذه الأشياء، ولتكون مقر العبادة الخاص بالأسرار الربانية. لقد تم اختيارها بشكل صحيح تماماً؛ لأن الرب الذي اختارها بذاته يشهد على ذلك حين يقول: «سيأتي مخلّصكم من القدس، المدينة التي اخترتها» [٦] غير أن الرب ـ بسبب آثام أهلها ـ

---

(١) يجب إعتبار هذه الترجمة لخطاب البابا أوربان على أنها إنشاء خيالي جديد قام وليم به، فهي ليست تماماً مثل أي من روايات الخطبة التي سجلها أشخاص حضروها على الرغم من أنها تتبع النقاط الرئيسية (د. س. مونرو: «خطاب أوربان الثاني في كلير مونت»، دورية التاريخ الأمريكي: ١١ (١٩٠٥ ـ ١٩٠٦) ٢٣١ ـ ٢٤٢) واستمد وليم كثيراً من لغة الخطاب من الكتاب المقدس، كما أن البراعة التي حاك فيها العبارات الخاصة بالكتاب المقدس دفعت الكاهن هاغنمير إلى وصفها ومديحها بأنها قطعة رائعة من الاقتباس التوراتي.

(٢) أنظر المزامير: ١/٢٤، ١٢/٤٩. كورنتوس الأولى: ٢٦/١٠.

(٣) اشعيا: ٢٥/١٩.

(٤) اشعيا: ٧/٥.

(٥) المزامير: ٢/٨٧.

(٦) انظر الملوك الأول: ٣٦/١١. زكر: ٩/٩. ويلاحظ هنا أن وليم غالباً ما مزج عدداً من الفقرات مع بعضها لتخدم غرضه.

قد سمح لها بحكمه القويم أن تنتقل مراراً وتكراراً إلى أيدي الأشرار، وتركها تكابد لبعض الوقت من النير القاسي للعبودية. ومع ذلك يجب عدم الاعتقاد أن الرب قد نبذها، وكأنه قد تخلى عنها حيث كتب «ويجلد الرب كل ابن يقبله»[1] لكنه يبعد سخطه عن الذي يخاطبه بقوله: «فتنصرف غيرتي عنك فأسكن ولا أغضب بعد»[2]. ولذلك يحب الرب القدس، ولم تفتر حماسة حبه حيث يقول: «وتكونين إكليل جمال بيد الرب، وتاجاً ملكياً بكف إلهك. لا يقال بعد ذلك مهجورة... بل تدعين ذوصبيبة.... لأن الرب يسرّ بك»[3].

إن مهد عقيدتنا وموطن ربنا وأم الخلاص يستولي عليها الآن بكل قوة شعب بدون رب، إنه ابن لجارية مصرية، وهو يفرض شروطاً مفرطة في شدتها على الأبناء الأسرى للمرأة الحرة. وذلك على الرغم من أنه هو المستحق لهذه الأحوال، حيث أن العلاقات قد انعكست، لكن ما الذي كتب؟ إن ما كتب هو: «اطرد هذه الجارية وابنها»[4]. لقد اضطهد عرق السراسنة الشرير التابع للمعتقدات الخرافية النجسة ـ لسنوات عديدة مضت وبكل عنف واستبداد ـ الأماكن المقدسة حيث ارتكزت أقدام ربنا، وأخضع المؤمنين لرغباته، وحكم بالعبودية عليهم ولقد دخلت الكلاب إلى الأماكن المقدسة، وجرى تدنيس المقدسات، وإذلال الناس عبدة الرب. فالعرق المختار يكابد الآن من محن لا يستحقها، وجماعات الكهنة الجليلة تكدح في الوحل والطين. والسراسنة قد جعلوا مدينة الله ـ سيدة جميع المناطق ـ تابعة لهم، فمن ذا الذي لا تضعف روحه ولا يذوب قلبه عندما تخطر هذه الإهانات على باله؟ من يستطيع يا أخوتي الأكارم، أن يستمع إلى هذا دون أن يبكي؟ إن معبد الرب الذي طرد منه ـ بغيرته ـ الذين باعوا واشتروا، حتى لا يصبح بيت أبيه مغارة للصوص[5]، قد جُعل بيتاً للشياطين. وكان هذا هو الذي أثار الحماسة الجديرة بالثناء لدى الكاهن متتيا، الجد الأعلى للمكابيين الأتقياء، فقد جاء في شهادته قوله: «وأرى المقدس في أيدي الأجانب، وهيكلها كرجل ذليل، وقد أخذت آنية مجدها في السبي»[6].

إن مدينة ملك الملوك التي نقلت إلى الآخرين مبادىء عقيدة عصماء، تُدفع على الرغم

---

(١) العبرانيون: ١٢/٢.
(٢) حزقيال: ١٦/٤٢.
(٣) اشعيا: ٦٢/٣ ـ ٤.
(٤) تكوين: ٢١/١٠.
(٥) انظر متى: ٢١/١٢ ـ ١٣.
(٦) المكابيون: ١/٢/٨ ـ ٩.

من إرادتها لتكون خاضعة لدعاوى الشعوب المنحطة. كما أن كنيسة القيامة المقدسة مكان الاستراحة الأخير للرب النائم تتحمل حكمهم، وقد دنستها قذارة الذين ليس لهم نصيب في القيامة، بل مقدر عليهم أن يحرقوا للأبد كالقش بألسنة النيران» السرمدية. إن الأماكن المقدسة المكرسة للأسرار الإلهية هي الأماكن التي استقبلت المسيح بجسده كضيف، وهي التي رأت علامات الرب وشعرت بمساعداته، وأظهرت بصدق كامل البراهين في ذاتها حول كل هذا. إن هذه الأماكن قد جعلت الآن حظائر للأغنام، واصطبلات للمواشي، وشعبها الجليل الذي باركه جميع المخلوقات يئن بصوت عال، وهو منهك بعبء الخدمات القسرية والمدفوعات الثقيلة. كما أن أبناءها العرابين الثمينة للكنيسة الأم يتم إلقاء القبض عليهم وينقلون بالقوة، ويفرض عليهم دناسة الشعوب المنحطة، وأن يتبرؤوا من اسم الله الحي، وأن يشتموا الرب بشفاه مدنسة، وهم يقتلون كبهائم الأضحية إن قصروا خوفاً من الأوامر غير التقية للكفرة، ويصبحون بذلك أصحاباً للشهداء المقدسين؛ ذلك أنه ليس هنالك تمييز ولا اعتبار للمكان ولا احترام للأشخاص في نظر مدنسي المقدسات، فالكهنة واللاويون يذبحون في الأماكن المقدسة، وتجبر العذارى من الفتيات على الاختيار بين البغاء أو الموت بالتعذيب، ولا تحصد السيدات المشرفات أي نفع من سنواتهن الأكثر نضجاً.

الويل لنا نحن الساقطون في تعاسات الزمن المحفوف بالمخاطر، والذي تنبأ به الأمير المؤمن داود صفي الله بشجاعة، ورثى له حيث قال: «اللهم إن الأمم قد دخلوا ميراثك بخسوا هيكل قدسك»[1] وحيث قال أيضاً: «يسحقون شعبك يا رب ويذلون ميراثك»[2] «إلى متى يا ربّ تغضب كل الغضب»[3] «حتى متى يتقد كالنار غضبك»[4] «أين مراحمك الأول»[5]؟ وهل ما قيل صحيحاً: «هل نسي الله رأفة أو قفص برجزه مراحمه»؟[6] «اذكر يا رب ماذا صار لنا، أشرف وانظر إلى عارنا»[7] «ويل لي، لم ولدت فأنظر إلى حطم شعبي وحطم المدينة المقدسة وأمكث ههنا أراها مسلمة إلى أيدي الأعداء»[8].

(١) المزامير: ١/٧٩.
(٢) المزامير: ٥/٩٤.
(٣) المزامير: ٥/٧٩.
(٤) المزامير: ٤٦/٨٩.
(٥) المزامير: ٤٩/٨٩.
(٦) المزامير: ٩/٧٧.
(٧) مراثي أرميا: ٨/٥.
(٨) المكابيون: ٧/٢/١.

لذلك سلحوا أيها الأحبة أنفسكم بغيرة الرب، وشدوا أحزمة سيوفكم على أوساطكم، أيها الجبارون[1]، ثبتوا أنفسكم وكونوا أبناء الله. فمن الأفضل أن نستشهد من أن نرى مصائب قومنا ومصائب أقداسنا[2]. إذا ما شعر أحدكم بالغيرة على شريعة الرب، فلينضم إلينا، ولنذهب إلى نجدة إخواننا «لنقطع قيودهم ولنطرح عنا ربطهم»[3]، اذهبوا وليكن الرب معكم، وجّهوا أسلحتكم التي لطختموها بشكل محرم في ذبح بعضكم بعضاً إلى أعداء العقيدة وأعداء اسم المسيح، وأقول للمتهمين بالسرقات وإحراق البيوت عمداً والسلب والنهب والقتل والجرائم الأخرى ذات الطبيعة المماثلة، والذين لن يحوزوا بسببها على مملكة الرب: قدموا هذه الطاعة المرضية للرب بحيث يمكن لأعمال التقوى هذه مع شفاعة القديسين أن يحصل لكم بكل سرعة العفو عن آثامكم، التي أثرتم بها سخط الرب.

ووفقاً لهذا، إننا ننصحكم، ونحذركم من ذات الرب، ونأمركم بإزالة آثامكم، في أن تتحملوا البلاء والمشقات مع إخواننا الذين يسكنون في القدس، وفي تلك الأحواز، وتكونوا بمثابة ورثة مشاركين لهم في المملكة السماوية «فإن كنا أولاداً، فإننا ورثة أيضاً ورثة الله ووارثون مع المسيح»[4] عليكم أن تكبحوا بكراهية قويمة غطرسة الكفرة الذين يحاولون استعباد الممالك والإمارات والقوى، وأن تهاجموا بكل قوتكم أولئك العاقدي العزم على تدمير الإسم المسيحي، وإلا فسيحدث أن كنيسة الرب التي تكابد الآن من نير العبودية المجحفة ستعاني خلال فترة قصيرة من خسارة للعقيدة وستنتصر خرافات الوثنيين. ولقد رأى بعضكم بأم عينيه هذه الأشياء التي نتحدث عنها الآن، ويعرف نوع المحنة التي يعيش إخواننا فيها، وإن كتابهم الذي أحضره باليد بطرس الرجل المبجل الموجود معنا هنا ينطق بمحتوى هذه الرسالة ذاتها[5].

وبناء عليه نقوم واثقين برحمة الرب، وبسلطان الرسل المباركين بطرس وبولص بمنح المسيحيين المؤمنين الذين يحملون السلاح ضد الملحدين ويتولون القيام بأعباء هذا الحج مغفرة للعقوبات المفروضة عليهم بسبب خطاياهم، وليثق الذين سيرحلون إلى هناك بتوبة صادقة أنهم سيلاقون التكفير عن آثامهم وسيجنون ثمار الجزاء السرمدي. ونضع في الوقت نفسه

---

(١) انظر المزامير: ٤/٤٤.

(٢) انظر المكابيون: ١/٣/٥٨ - ٥٩.

(٣) المزامير: ٣/٢.

(٤) روميه: ١٧/٨.

(٥) حضور بطرس في المؤتمر هو جزء من الأسطورة. انظر ما سبق حاشية ٣ صفحة ١٦٣.

تحت حماية الكنيسة وحماية بطرس وبولص المباركين جميع الذين سيباشرون هذه المهمة بحماسة الإيمان ويتولون قتال الملحدين، وسنعتبرهم بمثابة أبناء صادقين للطاعة، ونقرر أنه لن يتولاهم القلق بخصوص ممتلكاتهم وأهليهم. فإذا ما اجترأ أحد حين غيابهم، بتهور على التحرش بهم وضايقهم فليقم أسقف المنطقة بحرمانه كنسياً، وليراع الجميع تنفيذ العقوبة حتى تتم إعادة السلع المسروقة وتقديم تعويض مناسب عن الخسائر التي وقعت، وستتم معاقبة الأساقفة والكهنة الذين لا يتخذون موقفاً صارماً إزاء مثل هذه الأعمال، وستعلق عضويتهم ومناصبهم حتى يحصلوا على الرحمة من السدة البابوية.

وهكذا ختم موعظته، وأمر جميع رؤساء الكنائس الذين كانوا موجودين بالعودة إلى أبرشياتهم، ليكرسوا أنفسهم هنالك بكل المثابرة والنشاط لمهمة إقناع شعبهم للقيام بالحج وبهذه الرسالة توقف عن الكلام، وارفض المجمع الكنسي، وتبودلت أماني الوداع، وعاد الجميع إلى أماكنهم حيث عملوا قبل كل شيء وفق توجيهات المجمع الكنسي بصدق في سبيل إقناع الجميع بالتقيد بالسلام الصحيح (المسمى باسم «هدنة» بالإستخدامات الدارجة)[1] حتى لا يتم إعاقة الذين صمموا على الذهاب عندما كانوا يقومون بأداء التحضيرات الضرورية للرحلة.

١٦ ـ القادة الذين حضروا المجمع وعرضوا تطوعهم للقيام بالحج وشارة الصليب التي وضعها على أثوابهم الذين عزموا على الذهاب وذلك كتعبير عن إيمانهم وكرمز لحجهم المقبل

زيادة على ما سبق، أعطى الرب هذا العبد المخلص الواعظ بقوة جبارة وانفعال شامخ رائع ـ لقاء الخدمة العظيمة التي قدمها للعقيدة ـ فصاحة مؤثرة، ورسالة تستحق القبول في نظر الجميع، حتى بدت أقواله وكأنها تنبع من عند الله. ولقد تقبلها الصغار والكبار كأمر من السماء، مهما كانت المهمة تبدو شاقة وصعبة. كما أن هذا الحماس العاطفي لم يشجع أولئك الذين كانوا قد استمعوا إلى أقواله الفعلية فقط، بل إن موعظته التي انتشرت في كل مكان قد أثارت حتى أولئك الذين لم يكونوا حضوراً في المجمع الكنسي برغبة متلهفة للقيام برحلة الحج ذاتها. ولقد أظهر الأساقفة تعاوناً صادقاً كما أمروا بذلك، ودعوا أتباعهم للالتحاق بموكب الحج، وتجولوا باستمرار في أبرشياتهم ناثرين بذرة الحياة بين الناس، حيث أثمرت

---

(١) كان أحد القرارات المهمة لهذا المجلس الطلب بوجوب تأدية كل إنسان بلغ من العمر الثانية عشر أو أكثر اليمين كل ثلاثة أعوام بالتقيد بسلام وهدنة الرب (انظر ج.د.مانسي «وثائق المجامع المقدسة» ج٢٠ وثيقة ٩٢٣).

جميع جهودهم. ويمكن القول بالفعل أن قول الرب كان يتحقق حيث يقول: «ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً»[١]، حيث انفصل الأزواج عن زوجاتهم، والزوجات عن أزواجهن، والآباء عن أبنائهم، والأبناء عن آبائهم، فروابط الحب كلها لم تصمد أمام هذه الحماسة، وخرج العديد من الرهبان من أديرتهم، كما تركوا صوامعهم، حيث كانوا قد عزلوا أنفسهم طوعياً لحب الرب.

ومع ذلك لم يكن الرب مع الجميع في هذه القضية، ولم يكن التعقل ـ مصدر الفضائل ـ الباعث المحرك تماماً لهذه المواثيق فقد التحق بعضهم بالموكب لكي لا يتركوا أصدقاءهم، والتحق بعضهم الآخر حتى لا يعتبروا كفاراً، وانضم بعضهم لمجرد أسباب تافهة، أو ربما ليتخلصوا من دائنيهم (الذين كانوا مقيدين معهم بعبء كبير من الديون) وذلك بالرحيل بعيداً. وهكذا كان الجميع يتسارعون ـ لأسباب مختلفة ـ نحو الهدف نفسه، ولم يأبه أحد في بلاد الغرب بمسائل العمر أو الجنس أو المرتبة. ولم يكن من الممكن منع أي واحد منهم من القيام برحلة الحج الطويلة بأي كلام مقنع، بل ساهم الجميع دونما تمييز. وأقسم الجميع بالإجماع قلباً وروحاً، وبدا وكأنه الإنجاز الحرفي لما هو مكتوب في كتاب طوبيا «يا أورشليم مدينة الله... يزورك الأمم من الأقاصي بقرابينهم..... جميع شعوب الأرض لك يسجدون..... ويعتبرون أرضك أرضاً مقدسة؛ لأنهم فيك يدعون الإسم العظيم»[٢].

وتلقى العديد من الذين كانوا موجودين في المجمع الكنسي الأمر المفروض بابتهاج، وكان من بينهم في المقام الأول أدهمر أسقف بوي[٣]، ذلك الرجل صاحب السيرة المبجلة، والذكرى النفسية، وقد شغل أخيراً منصب الممثل البابوي، وقد أمر أهل الله بحكمة وإخلاص بالإنضمام إلى هذه الحملة. وكان من بين هذا الحشد وليم أسقف أورانج أيضاً، وكان رجلاً متديناً بشكل فعلي ويخشى الرب[٤]. كما وألهبت الحماسة ذاتها أمراء كلتا المملكتين الذين شهدوا المجمع، وشجع بعضهم بعضاً بأقوال متكررة فيها تحريض، وحددوا موعداً مقرراً للشروع بالرحيل، وذلك بعد ما تمت إجراءات التحضيرات اللازمة، وبعدما

---

(١) متى: ١٠/٣٤.

(٢) طوبيا: ١٣/١١ ـ ١٥.

(٣) سيأتي وصف دوره في الحملة الصليبية في الصفحات القادمة. ويعتقد أنه شارك في رحلة سابقة إلىٰ فلسطين في عام ١٠٨٦، وأنه كان فارساً نبيلاً قبل أن يصبح رجل دين. (أنظر س. كوهكر «أدهمر دي مونتيل» الموسوعة الكبرى: ١/٥٥٥).

(٤) سمع وليم، أسقف أورانج الذي برز إلىٰ حد ما في الحملات الصليبية، أوريان في كل من بيسينزا وكلير مونت كما شارك أيضاً في التبشير بالحملات الصليبية، وبشكل بارز في جنوى وانضم إلىٰ جيش ريموند أوف طولوز الصليبي.

تجمع الرفاق جميعاً للشروع بالحملة. ويقينا إن المشروع الذي نحن بصدد الحديث عنه يبدو وكأن العناية الإلهية قد أعدّته، وأن الرب قد أرسل تلك الأوامر. فحيثما أشيع أن أميراً ما قد تعهد بالقيام برحلة الحج هذه كان الناس يندفعون بمجموعات كبيرة إلى هناك ويلتمسون السماح لهم بالإنضمام إلى فرقته، وأعلنوا اسمه ونادوا به على أنه سيدهم خلال الرحلة بأكملها، ووعدوا بتقديم الطاعة والولاء له. وكما يقول المثل: «يُهلك الوباء الأكثر تردداً، فمن الخزي أن أتردد»[1]، وأسرعوا إلى تزويد أنفسهم بالمعدات اللازمة، وكل منهم راغب بالشروع قبل الآخر، وبالفعل كان هذا صادراً عن سلطة إلهية، لأن نار التطهير هذه كانت ضرورية لإزالة آثام الماضي - التي كانت للأسف كثيرة جداً - وكان هذا الإنهماك مفيداً في منع الآثام المقبلة، فقد اندثر من بين المخلوقات توقير الرب، وانعدم احترام الإنسان لأخيه الإنسان.

وجرى الإتفاق بالإجماع، وتأيد هذا بأمر صدر عن البابا. على جميع الذين تعهدوا بالقيام برحلة الحج أن يطبعوا على أثوابهم إشارة الخلاص للصليب الحي، فيحملون بذلك على أكتافهم ذكرى الرب الذي عقدوا العزم على زيارة موضع حبه. وقد عملوا هذا تقليداً للمسيح الذي أسرع إلى ها هنا لإنقاذنا؛ لأن «الرئاسة تكون على كتفه»[2]. ويبدو أن النص اللاحق في كتاب أشعيا يشير إلى هذه الحركة حيث جاء: «يرفع - الرب - راية للأمم، ويجمع منفيي إسرائيل»[3].

ووضح أيضاً أن أمر الرب الذي قال فيه: «إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني»[4] قد نفذ بحذافيره.

١٧ - أسماء الأمراء من مملكتي الفرنجة والتيتون الذين قاموا برحلة الحج

حصّن نبلاء المملكتين التالية أسماؤهم أنفسهم بشارة الصليب كدليل على تعهدهم القيام برحلة الحج المقبلة. وقد تقدمهم السادة البارزون: [5] هيوالكبير، أخو فيليب الأول ملك

(١) هوراس Arspoet 417.

(٢) اشعيا: ٦/٩.

(٣) اشعيا: ١١/١٢.

(٤) متى: ١٦/٢٤.

(٥) لم يستخدم المؤرخون المعاصرون للحملة الصليبية الأولى كلمة «مملكة» كما استخدمها وليم. وهذا يمكن أن يكون دليل على التغيير الكبير في الأساليب الاجتماعية والعادات التي حدثت خلال القرن الثاني عشر، فقد كلفت الشكليات للشهامة متغيبة تماماً تقريباً في بداية القرن الثاني عشر وهي التي لاقت احتراماً كبيراً في =

الفرنجة (فرنسا)، وروبرت كونت فلاندرز، وروبرت كونت نورماندي ابن وليم الأول ملك الإنكليز، وستيفن كونت أوف تشارترز وبلويز أبو الكونت ثيوبولد الأكبر، وأدهمر أسقف بوي، ووليم أسقف أورانج، وريموند كونت تولوز وسانت جايلز (صنجبيل) مع عدد آخر من الرجال البارزين المشهورين. والتحق بالحملة اللورد غودفري دوق اللورين المشهور والمحارب الشجاع، وذهب برفقته أخواه اللورد بلدوين واللورد يوستاس. وكان من بين المشاركين أيضاً بلدوين الملقب بدي بورغ، وهو قريب للأخوة الثلاثة وابن للورد هيو كونت ريثيل، وغارنيز دي غري، وبلدوين كونت هينولت، وايسوارد كونت دي، ورينبولد كونت أورانج، ووليم كونت فورز، وستيفن دي أومال، وروترو كونت بيرش والكونت هيو أوف سانت بول.

وكان من بين الشخصيات المميزة، على الرغم من أنهم لم يكونوا كونتات السادة التالية أسماؤهم - وهم من بين الذين عرضوا أنفسهم طوعاً لإطاعة تلك الرسالة - هنري دي إيستش، ورالف دي بيوغنسي، وافرارد دي بوزيت، وغاستون دي بيرن، ووليم أمانجو، وغاستون دي بيزرس، ووليم دي مونتبيلر، وجيرارد دي روسيللون، وجيرارد دي تشيرسي، وروجر دي بارنفيل، وغي أوف بوسسا وغي أوف غارلاند وكيل ملك فرنسا، وتوماس دي لي فيري، وغالن أوف كالفومونت، وبطرس الناسك يتبعه حشد هائل من الناس الذين كان قد جمعهم بعد جهد كبير من داخل الامبراطورية والمملكة.

وجاء من جهات الألب بوهيموند أمير تورانتو وابن روبرت غويسكارد ديوك أبوليا، وتانكرد ابن أخته، وآخرون كثير ممن لا نتذكر أسماءهم ولا أعدادهم. وكان هؤلاء جميعاً مع قوات ضخمة من الرجال العسكريين ينتظرون الوقت المناسب للإلتحاق بجند المسيحية. وكانوا مستعدين لتكريس أنفسهم لتحمل مصاعب حملة حج كبيرة كهذه من أجل المسيح.

وتبعاً لهذا انتظروا حتى انتهى فصل الشتاء وبدأت تظهر بوادر قدوم الربيع. فلما رحل البرد وعاد الطقس المعتدل إلى الأرض جهزوا خيولهم، وأعدوا أسلحتهم، وحزموا أمتعتهم. وقام الذين كانوا سيشرعون برحلتهم سوية فاتصل ببعضهم ببعض، وحددوا بعناية موعد الإنطلاق الموائم ومكان الإلتقاء، والطريق التي كان بإمكانهم أن يتقدموا بوساطتها بالسهولة الممكنة والسرعة القصوى. وحيث لم تكن أي من الأقاليم قادرة على تزويد مستلزمات الحياة لعدد كبير من آلاف الجند فقد تم الإعداد بدقة، واتفق جميع القادة الكبار

= القسم الأخير منه، وهذه القائمة للزعماء الصليبيين أكثر شمولاً من قوائم فولتشر أو ألبرت أوف اكس. ومن الواضح أن وليم اعتزم على تسجيل القادة الرئيسيين لسائر الحملة الصليبية في هذه المرحلة.

على أن يقودوا قواتهم كل على حده وبشكل منفصل، وعلى عدم السير على الطريق نفسه الذي تركبه الفيالق الأخرى، وكان على الجيوش كلها أن تلتقي في نيقية وقد سار الدوق في فيالقه - كما سيتم شرح ذلك في وقت لاحق - عبر طريق هنغاريا، وتقدم كونت تولوز مع أسقف بوي عبر دالماشيا، في حين تقدم القادة الآخرون عبر أبوليا. وهكذا وصلوا جميعهم في النهاية إلى مدينة القسطنطينية، ولكن في أوقات مختلفة [١].

وجهزوا في غضون ذلك المعدات التي أرتئي أنها كافية لرحلة طويلة جداً، وحاول كل منهم تقدير كمية النقود الضرورية للسفر تبعاً لطول الطريق غافلاً عن أن سبل الرب ليست في يد الإنسان، لأن الإنسان لا يعرف - لضعفه - ما سيجلبه له الغد.

ولم يكن في جميع أقاليم الغرب بيت واحد عاطل عن العمل، لأن كل إنسان كان مشغولاً وفق وضعه في ترتيب شؤونه الخاصة التي كان قلقاً عليها. وكان رب الأسرة هنا وهناك أبناؤه، وهنالك الأسرة بأكملها.

وجرى إرسال العديد من الرسائل شجع فيها أصحابها الذين كانوا سينطلقون معاً في وقت واحد - بعضهم بعضاً، وتمردوا على التأخير، وأشاروا بالرحيل المبكر. وعندما دعا الذين عرفوا باسم قادة مجموعاتهم المتنوعة ثم انتزع الباقون أنفسهم من معانقات أحبتهم بالآهات والتنهدات. ورحلوا بعدما تبادلوا تحيات الوداع والقبلات الأخيرة، ورافقت الأمهات الراحلين من الأبناء، والبنات الآباء، والأخوات الإخوة بينما لازمت الزوجات أزواجهن وهن يحملن الأطفال الرضع في أيديهن، وبعد تبادل كلمات الوداع الأخيرة اتبعوا بنظرة محدقة ثابتة الذين لم يستطيعوا أن يتبعوهم أبعد من ذلك في الواقع.

١٨ - وولتر المعدم، أول المغادرين، يصل القسطنطينية

كان وولتر المعدم أول من بدأ بالرحيل، وكان رجلاً من أصل نبيل، إضافة إلى أنه كان محارباً شجاعاً، وقد بدأ رحلته في الثامن من شهر آذار من العام ١٠٩٦ لتسجيد الرب، واصطحب معه مجموعة ضخمة من الجنود المشاة، وعدداً قليلاً جداً من الفرسان، وهبط إلى

---

(١) تؤكد دراسة حديثة المعنى المتضمن لعبارات وليم هذه أن الصليبيين كانوا يعملون تحت خطة مشتركة. (انظر ف. دنكالف «خطة البابا للحملة الصليبية الأولى») (Wemro - crusades. pp. 44 - 56).

(٢) تدعم بيانات كهذه الإنطباع أن هذه المجموعات الأولى من الصليبيين كانت مؤلفة بشكل رئيسي من الفلاحين ولإستخدام اسم «حملة الفلاحين الصليبية» لتغطيتهم جميعاً. وصحح دنكالف هذا الرأي. (أنظر دنكالف «صليبية الفلاحين» دورية التاريخ الأمريكي، ٢٦ [١٩٢٠ - ١٩٢١] ٤٤٠ - ٤٥٣).

هنغاريا بعد أن اجتاز مملكة التيوتون، وكانت مملكة هنغاريا صعبة المسالك لأن أراضيها كانت مملوءة بالمستنقعات في أماكن مختلفة، وتحيط الأنهار العظيمة بها، وهي لم تقدم للمسافرين مدخلا ولا مخرجاً من المملكة وإليها باستثناء أمكنة محددة، وهي أماكن شديدة الضيق.

كان يحكم هنغاريا في ذلك الوقت الملك المسيحي العظيم كولمان [1]، وعندما علم هذا الملك بمجيء وولتر منحه حق الدخول إلى المملكة، حيث كان عالماً بمشروعه، وكان قد وافق بالكامل على هدفه الورع، وسمح له بالمرور عبر هنغاريا مع حملته، كما منحه أيضاً امتياز سوق عامة. ومرّ وولتر عبر البلد بأمان، ووصل إلى نهر مـاروس[2] Maros بسلام، حيث يعتبر هذا النهر الحد المعترف به بين هنغاريا والشرق، وعبر هذا النهر، ووصل مع قواته إلى بلاد البلغار في مكان يسمى بلغراد.

ومع ذلك فإنه لم يكن مدركاً أن عدداً من أفراد جماعته كان قد تخلف عند الجانب الآخر من النهر في مكان يدعى ماليفيلا Malevilla سملين Semlin [3]. وذلك بغية شراء الطعام والحاجيات الأخرى اللازمة للرحلة. فألقى الهنغاريون القبض على هؤلاء الرجال وجلدوهم وضربوهم ثم أرسلوهم إلى أصدقائهم بعد ما سلبوا كل شيء منهم وشعر أفراد المجموعة بالشفقة العميقة تجاه أصدقائهم في هذه الكارثة المشؤومة ورثوا لحالهم. ومع ذلك أدركوا أنه سيكون من الصعب، لا بل من المستحيل فعلاً تأجيل الزحف المقترح، وعبور النهر من جديد من أجل الثأر لهم؛ ولذلك قرروا أنه من الأفضل في مثل هذه الظروف التغافل عن المظالم الحالية بدلاً من أن يندفعوا نحو تنفيذ شيء لا يستطيعون تنفيذه، وعلاوة على ذلك كان لديهم أمل عظيم في الرب الذي كانوا قد باشروا هذا الصراع في سبيله، واعتقدوا أن كل ضرر لحق بعبيد المسيح سيتلاشى بدون أن يتم الإنتقام له، وسيلقي العقاب

---

(١) كولمان ملك هنغاريا ١٠٩٥ - ١١١٦، وقد خلف لاديسلوس الأول أو القديس لاديسلوس الذي أعاد توطيد الديانة المسيحية بقوة في هنغاريا، وأصبحت هنغاريا بلداً مسيحياً في ظل ستيفن الأول أو القديس ستيفن ٩٩٧ - ١٠٣٨، وكانت الاضطرابات التي نتجت عن الغزاة الشرقيين قد زعزعت بعض ذلك العمل، إلا أن ملوك هنغاريا لا سيما لا ديسلوس استردوا الأرض المفقودة بمساعدة البابا غريغوري السابع الذي أصبح حاكماً مطلقاً لهنغاريا بالإسم فقط.

(٢) موراوا الحديثة على الرغم من أن الوصف العام يمكن أن ينطبق على نهر السيف الذي يفصل بلغراد عن سملين.

(٣) تم تحديد ماليفيلا على أنها سملين وهي تقع عبر نهر السيف قرب بلغراد.

العادل من قبل الرب الذي منح عباده وعداً قال فيه: «ولكن شعرة من رؤوسكم لا تهلك. بصبركم اقتنوا أنفسكم»[1].

وتبعاً لهذا تابعوا زحفهم، ووصلوا إلى بلغراد كما أشرنا من قبل، وطلب وولتر هنا من الدوق الحاكم للبلغاريين منحه امتياز التسوق، غير أن طلبه لم يستجب، ولذلك خيم أمام المدينة. وبما أنه لم يستطع ضبط جيشه الجائع، فقد فقد العديد من أفراده؛ لأن هذا الجيش حين لم يستطع الحصول على أي شيء من البلغار بأي ثمن، خرج للبحث عن الطعام بوسائل أخرى لتفادي الموت جوعاً. وحين وقف رجال هذا الجيش صدفة على قطعان ودواب ومواشي للبلغار أخذوا يسوقونها نحو معسكرهم بالقوة. وحالما علم البلغار بهذا الأمر أمسكوا أسلحتهم وهجموا على المعسكر بتصميم عدواني. وبما أنهم كانوا عاقدي العزم على استرداد الأشياء المسروقة منهم فقد هاجموا اللصوص الذين كانوا يسوقون قطعانهم، وألحقوا بهم هزيمة نكراء وعمدت في تلك الساعة مجموعة قوامها مائة وخمسون رجلاً من هذه الزمرة إلى الإنفصال بلا مبالاة عن الذين كانوا في المقدمة، والتجأوا إلى إحدى الكنائس الصغيرة، فأحرق العدو هذه الكنيسة، ومات المسيحيون الذين كانوا بداخلها حرقاً بالنار، واضطرت بقية المجموعة إلى الهرب.

وإدراكاً من وولتر بشكل تام أنه كان يقود حشداً عنيداً متهوراً فقد تخلى عن الذين ازداد تهورهم باتباعهم لنزواتهم، وعبر مع بقية جيشه غابات بلغاريا الواسعة بحذر واحتراس ووصل أخيراً إلى ستراليشيا[2] Stralicia ، وهي مدينة جميلة من مدن داشيا المتوسطية، وهنا اشتكى إلى حاكم المدينة بشأن الخسائر والأضرار التي ألحقها البلغار بعباد الرب فحصل على تعويض كامل لكل ما نزل به، وعامله الدوق الممتاز بكل لطف، ذلك أنه كان رجلاً يخاف الرب، ووافق على تزويده بسوق مناسب يستطيع الناس شراء السلع التي احتاجوا إليها منه بسعر معتدل وتعامل عادل، وعلاوة على ذلك زودهم ـ خشية أن يحتاجوا إلى أي مطلب بشري ـ بالمرشدين ليدلوهم على بقية الطريق. حتى إلى المدينة الامبراطورية.

وعندما وصل وولتر القسطنطينية مثل في حضرة الامبراطور، ونجح في الحصول من جلالته الامبراطورية على ترخيص بإقامة جيشه قرب المدينة مع امتياز السوق، وقد منحه الامبراطور هذا المطلب لفترة مؤقتة حتى يصل بطرس حيث كان وولتر قد باشر الحملة تنفيذاً لأوامره.

---

(١) لوقا: ٢١/١٨ ـ ١٩.

(٢) رُبما هي صوفيا الحديثة، والتي كانت تعرف باسم ترباد تيزا في ظل الحكم البيزنطي، وكانت الامبراطورية البيزنطية قد أخضعت البلغار لسيطرتها في وقت سابق من هذا القرن، وبقوا خاضعين لها حتى عام ١١٨٥.

١٩ ـ بطرس الناسك يسير في إثره ويعلم أثناء زحفه عبر هنغاريا بخيانة المنغاريين

تقدم بطرس بعد فترة قصيرة من الحوادث التي ذكرت عبر لوثارنغيا Lothringia وفرانكونيا Franconia وبافاريا، والإقليم المسمى النمسا، وأخذ معه حشداً ضخماً بلغ عدده حوالي الأربعين ألفاً، وكان قد جمعه من كل شعب وقبيلة وعرق وأمة. وعندما وصل إلى حدود هنغاريا أرسل رسالة إلى ملك ذلك البلد، وحصل منه دون صعوبة على ترخيص بالدخول بشرط أن يعبر المملكة دون إحداث الشغب أو النزاع، ووافق بطرس على الشرط، وانتهز فرصة الإذن فدخل المملكة بقواته، وقدم المواطنون له مقداراً وفيراً من الطعام وبسعر معتدل، وبشروط جيدة. وتقدم الحشد وصولاً حتى سملين المكان الآنف الذكر، وهنا علموا بالإعتداءات التي عانى منها رفاقهم الذين سبقوهم تحت قيادة وولتر من سكان هذا المكان، وبالمعاملة الشائنة التي لاقوها أيضاً، وعلاوة على ذلك ثار سخط الجند عندما شاهدوا الغنائم والأسلحة المسلوبة من رفاقهم معلقة على أسوار المدينة كشاهد مذكّر، ونادى بعضهم بعضاً بالأقوال المشجعة، وأمسكوا بأسلحتهم، واقتحموا المدينة بالقوة وقتلوا معظم سكان المدينة، وأغرقوا قسماً منهم في النهر المجاور، ويقال أنه قد هلك ما يقارب الأربعة آلاف من المنغار في شغب ذلك اليوم، حيث كان ذلك عقاباً عادلاً لهم. وتقول الرواية إن بطرس لم يفقد سوى مائة من رجاله، وبقي الحجاج في المدينة ـ بعد أن استولوا عليها بقوة السلاح ـ لمدة خمسة أيام متتالية، وذلك بسبب وفرة الطعام وكثرة ما وجدوه هناك.

وكان دوق البلغار المسمى نيقيطيا (نيكيتاس) [١] مسؤولاً عن منح سوق لوولتر وجيشه، وعندما علم بالإنتقام الذي أنزله بطرس بسكان سملين، بسبب المعاملة التي أبدوها تجاه وولتر وجيشه، خشي من أن يقدم هؤلاء القادمون الجدد من انزال العقاب ذاته به، لأنه لم يبرأ من الأثم في تلك القضية. وبما أنه لم يثق كثيراً بنجاعة حصون مدينة بلغراد التي كان حاكماً لها غادر المكان وأخلاه، وهجره معه السكان مع أسرهم، وانسحبوا جميعاً مع قطعانهم وحيواناتهم إلى مسافة بعيدة، إلى داخل الفجوات الكثيفة والسرية داخل الغابات.

وبينما كان بطرس ما يزال متعطلاً في المدينة المستولى عليها وصلته تقارير تفيد أن ملك هنغاريا الساخط بسبب المذبحة التي تعرض لها شعبة قد حشد القوات العسكرية من كل مكان من ذلك الإقليم، وكان يحضّر بنشاط ليثأر للقتلى. وبناء عليه حصل بطرس على جميع القوارب التي وجدت على ضفتي النهر، ونقل جيشه بالسرعة الممكنة عبر النهر، وأخذ جنده بصحبتهم القطعان والحيوانات وأثمن الغنائم من المدينة المخربة، وذلك بالإضافة إلى ما

---

(١) نيكيتاس ـ الحاكم البيزنطي للمنطقة.

أخذوه من مؤن وفيرة. وعندما انتقل الجميع إلى الضفة المقابلة خيموا أمام مدينة بلغراد التي وجدت مهجورة، ومن هناك قاد بطرس قواته في رحلة استغرقت ثمانية أيام عبر خلالها غابة واسعة وكثيفة حتى مدينة نيش، وتابع الحشد بأسره زحفه ومعه عربات النقل وعربات الركاب والقطعان من المواشي والحيوانات. وكانت المدينة محصنة تحصيناً قوياً، ولها سور وأبراج، وكانت محمية بقوة ضخمة من الرجال الشجعان. وعبر الجيش النهر المتدفق بمحاذاة المدينة بواسطة جسر حجري، وعسكر في تلك الأحواز، وكانت الإحتياجات للزحف آخذة بالنفاد الآن. وواجه الجيش نقصاً في الطعام؛ ولذلك تم إرسال رسالة إلى حاكم المدينة مع طلب مهذب، بتزويد سوق للحشد يعرض فيه بشكل خاص السلع الضرورية للحياة اليومية بشروط جيدة، وبسعر معتدل للشعب الحاج، الذي كان يطيع الأوامر الإلهية، وأجاب الحاكم بأنه لا يستطيع تلبية هذا الطلب ومنح السوق إلا إذا ضمن الجيش أولاً تقديم الرهائن، وألا يحدث أية أضرار، أو يلحق أذى شديداً بحق المواطنين الذين سيعملون في السوق، وقبل الطرفان هذا الشرط، وأعطيت الرهائن إلى الحاكم، وخرج السكان إثر ذلك من المدينة جالبين سلعهم معهم.

٢٠ ـ حدوث اضطراب خطير بين الحجاج والبلغار في مدينة نيش البلغارية

توفرت الآن كمية كبيرة من الأطعمة للقوات بأكملها، وتم تسيير صفقات البيع والشراء من قبل الطرفين بصبر متبادل، وانقضى الليل بهدوء تام مع تبادل للأحاديث الودية، وأعيدت الرهائن في الصباح المبكر، واستعد الجيش للزحف، وعندما كان الجيش على وشك الرحيل ـ لا بل كان القسم الأكبر منه أو بالحري الجيش كله قد تحرك ـ تذكر عندها عدد قليل من مثيري القلاقل. المستحقين للوم السماوي الشجار التافه الذي كان قد حدث في الليلة السالفة، بينما كانوا يتاجرون مع واحد من البلغار. ولذلك تراجعوا قليلاً من الخطوط التي كانوا قد تقدموا إليها، وأشعلوا النيران في سبع طواحين كانت تدور قرب الجسر فوق النهر المذكور آنفاً، وفي لحظات غدت هذه المطاحن رماداً.

وكان أبناء الشيطان هؤلاء الذين قارب عددهم المائة من ابناء شعب التيتون، وحتى هذا العمل الشرير لم يهدىء حنقهم الجنوني تماماً، ولذلك ألقوا النار في منازل بعض الناس، مما كان قائماً خارج الأسوار وأحرقوها بالدرجة نفسها من الحقد، ثم سارعوا للحاق بالحشد البريء بعدما ارتكبوا هذه الجريمة، وفعلوا ذلك وكأنهم غير مدركين أنهم قد اقترفوا أي إثم.

وأدرك حاكم المدينة الذي كان قد استقبلهم بلطف تام في الليلة الماضية أنهم لم يقابلوا

خدماته بشكل لائق فاضطر إلى انزال العقوبة بهم بدلاً من أن يقدم لهم مزيداً من المساعدات. واعتبر ـ باجحاف ـ أنهم جميعاً لصوص ومضرمي نيران، وصب بلاء آثام القلة على الجيش بأسره. وتقدم بنفسه على رأس جيش ضخم بعث فيه الحماسة بالقول والتحريض لمطاردة المسيحيين، وكأنه يقوم بالانتقام لتدنيس المقدسات. واندفع سكان المدينة، كأنهم رجل واحد، وهاجموا القوات الزاحفة، وانقضوا على المؤخرة بوحشية متناهية وبعنف سيوفهم. وعلى مسافة بعيدة من كثافة الحشد صادفوا الأشرار المجرمين الذين لم يكونوا قد انضموا بعد إلى الجيش الرئيسي، وأذاقوهم طعم الموت بسخط قويم، وأنزلوا العقوبة نفسها سواء بالصدفة أو عن عمد، بالعديد من الأشخاص الأبرياء. وبهذا شملوا بهذا العمل الأبرياء والمذنبين، واستولوا على عربات المسافرين والعربات التي حُملّت بالطعام وجميع المعدات، وقيدوا جميع المسنين والمرضى والنسوة والأطفال والفتيات ممن لم يستطع مجاراه سرعة تحرك البقية ونقلوهم معهم، وعادوا بعد هذه المذبحة المشبعة بدم القتلى إلى المدينة محملين بالغنائم.

٢١ ـ بطرس يستدعي جنده الهاربين ويحاول من جديد التوصل إلى تفاهم سلمي مع البلغار، لكن كارثة جديدة أسوأ من سابقتها تحل به وتشتت جموعه

كان بطرس قد تابع في غضون ذلك الوقت زحفة مع جميع الحراس المتقدمين والرجال الرئيسين للحملة، جاهلاً تمام الجهل خبر الكارثة التي كانت قد حلت برفاقه، وفجأة وصل رسول يعدو بسرعة جنونية ليبلغ بنبأ الكارثة، وروى بتفصيل قصة الأسر والمذبحة التي حلت برفاقه، وعندما سمع بطرس بهذا النبأ استدعى فيالقه. ونزولاً عند نصيحة الرجال المتمرسين رجعوا من حيث أتوا في الطريق التي كانوا قد تقدموا فيها طوال اليوم. وعندما حدقوا بجثث إخوانهم القتلى التي كانت براهين مرئية شاهدة على المذبحة أخذوا يبكون ويندبون، ووقفوا في النهاية أمام المدينة ثانية، وفي البقعة التي كانوا قد خيموا فيها في الليلة الماضية.

ولم يتوفر حينئذ لدى بطرس ورفاقه الذين كانوا يستطيعون السيطرة بشكل أفضل على مشاعرهم سوى رأي واحد وهدف محدد بخصوص هذه القضية، لقد عادوا ليكتشفوا سبب الكارثة، وليسعوا إلى إزالة بواعث الشجار. وأملوا بأنه عندما يكون السلام قد تمت إعادته بين الشعبين بشكل كامل، وتكون نفوس الجميع قد صفت لعلهم يستطيعون مواصلة رحلتهم بوضع أكثر سلامة، وتمشيا مع هذه الرغبة أرسلوا بعض الرجال الحكماء والمسؤولين

إلى حاكم المدينة وأعيانهم للتحري بحذر عن الظروف التي كانت قد أدت للشغب المفاجىء، وإلى سفك الكثير من الدم البريء.

وعندما عرف الرسل السبب أدركوا أن المواطنين لم يتلجئوا إلى استخدام السلاح إلاّ ولديهم سبب كاف تماماً للغضب. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى حاول الرسل ـ وقد وجدوا الظرف غير مناسب للمطالبة بالتعويض عن أضرارهم ـ بكل الوسائل التي كانت في متناول أيديهم تجديد السلام، كي يمكن استرداد رفاقهم مع الغنائم والأمتعة جميعها، وسائر ما كانوا قد فقدوه. وبينما كانوا يسعون إلى تحقيق هذا الهدف وكادوا أن يتوصلوا إلى اتفاق مرضي للطرفين نشب شغب جديد في المعسكر، ونجم هذا الأضطراب عن العواطف المتأججة، وصدر عن تهور ورعونة بعض العناصر الطائشة التي رغبت بالانتقام بشدة، للأضرار التي لحقت بها.

وأرسل بطرس بعض الرجال المسؤولين ذوي النفوذ الكبير، وذلك أملاً في تهدئة غضبهم، وإزالة الأسباب لوقوع مذبحة أخرى، وليحاولوا منع الرعاع من هياجهم الجنوني من مهاجمة سكان المدينة. ومع ذلك ثبت أن هذا الجهد لم يجد نفعاً، لأن المتمردين رفضوا الاصغاء إلى تحذيراته الإيجابية. وهنا أصدر بطرس أوامر صارمة إلى الجيش أعلنها المنادي قضت بوجوب امتناع الجميع ـ وفقاً لوعد الطاعة الذي منحوه إياه ـ عن مساعدة الذين تجرأوا بسلوكهم المتهور على الإقدام على إفساد السلام المتجدد الآن، وعن مدّ يد العون إليهم بأي حال من الأحوال.

وقبل الجيش هذا الأمر، وكأنه صادر عمن يملك حق الأمر، وبقي الجميع في هذه الأثناء ينتظرون بهدوء نهاية الشغب الأول، ونتيجة القضية كلها. ومهما يكن الحال رأى الرسل الذين بعث بهم إلى الحاكم لاعداد معاهدة أنه من الصعب تهدئة الخواطر وإطفاء الإنفعال بين الناس، فعلى العكس مما أملوه كان الغضب يشتد استعاراً بشكل تدريجي، وهنا أدركوا أن مهمتهم ليس أمامها أية فرصة للنجاح كما هو مفترض. فتخلوا عن محاولتهم، وعادوا إلى المعسكر لمساعدة بطرس ـ رجل الله ـ في قمع الشغب، لكن هذا كان مستحيلاً فقد كان قرابة الألف إنسان قد انخرطوا في هذه المحاولة الجنونية، وواجهوا عدداً مماثلاً لهم من المدنيين الذين انقضوا مهاجين من داخل المدينة ،وكانت النتيجة نشوب معركة حامية الوطيس جرت أمام المدينة.

وتوهم الناس من داخل المدينة أنه قد نشأ انقسام بين الموجودين خارج المدينة، وبما أن الشغب كان قد حصل خلافاً لرغبة بطرس وأمره الواضح فقد أملوا أن بقية الجيش لن

تقدم أية مساعدة للمشاغبين ففتحوا الأبواب، واندفعوا جميعاً من المدينة، فقتلوا قرابة خمسمائة رجل من رجالنا على الجسر، أما البقية فقد غرقوا بكاملهم تقريباً؛ لأنهم كانوا يجهلون مواضع المخاضات ولا يعرفون الموقع بشكل عام. وعندما رأى الجيش هذا المشهد استعد بأكمله للقتال؛ لأنه لم يكن قادراً على تحمل الأضرار التي أصيب رفاقه بها، والتقت القوى المتعادية وانخرطت في قتال شديد، وحدثت مجزرة مرعبة جداً، حتى أن هذه الكارثة الأخيرة كانت أسوأ من سابقتها بكثير، ولم يكن العامة من الناس والسوقة والرعاع الجامحون قادرين على مقاومة الضغط الذي مارسه البلغار فتراجعوا وهربوا، وتأثر الآخرون الذين كانوا يقاتلون بشجاعة بهذا الفرار الجنوني، فحذوا حذوهم وولوا الأدبار.

وهكذا هرب الجيش بأكمله، وتمزقت صفوفه، ولم يبق أحد ليقاوم، وفقد بطرس في هذه الفوضى كامل الثروة التي كان قد جمعها من هبات الملوك الورعين. وأضاع النقود التي كان قد عقد العزم على استخدامها في مدّ يد العون إلى الفقراء والمعوزين أثناء الطريق، حيث استولي على العربة التي كانت تحمل جميع مقتنياته، وبذلك فقد كل شيء. وواصل البلغار هجومهم بغضب مستعر وقتلوا قرابة عشرة آلاف مسيحي [1]، واستولوا على العربات، وعلى جميع الأمتعة، ونقلوا العديد من النساء والأطفال وأخذوهم أسرى لهم، أما الذين نجوا فقد بحثوا عن أماكن للاختباء بها في أعماق الغابات التي لا يمكن الوصول إليها، ولقد تم جمعهم بكل صعوبة في اليوم الثالث بوساطة التنبيه المذاع بالبوق والنفير، وعادوا إلى التجمع حول بطرس والآخرين الذين كانوا قد نجوا معه، وتراجعوا لاجئين إلى هضبة ترتفع قليلاً فوق السهل المحيط بها.

٢٢ - بطرس يلم شعث بقية جيشه المهزوم، ويتقدم نحو القسطنطينية، ثم يعبر البوسفور ويعسكر في بيثينيا

وأخيراً عندما تجمع شتات الجند في اليوم الرابع وبعدما ظهر الهاربون من الأماكن السرية التي كانوا مختبئين فيها لمدة ثلاثة أيام استعد الحشد المجموع الشمل ـ والذي بلغ تعداده حينئذ قرابة الثلاثين ألف رجل ـ لمواصلة الزحف من جديد، وعلى الرغم من أن تصرفهم المتهور قد سبب لهم خسارة تقارب الألفي عربة ركاب وعربة نقل فقد شعروا أنه من العار أن يتخلوا عن رحلة حجهم حتى وإن كانت واقعة تحت صعوبات كبيرة. وعندما

---

(١) لم يكن أي من مؤرخي الحملة الصليبية الأولى خبيراً في تقديره لأعداد الأشخاص، ويجب اعتبار بيانات أرقامهم على أنها بلاغيه، أي عدد كبير نسبياً كما في هذه الحالة، ربما يصل إلى بضع مئات على الأكثر، واعتمد وليم على المؤرخين، وفي هذه الحالة كان اعتماده على ألبرت أوف اكس للحصول على معلوماته.

كانوا على وشك الشروع برحلتهم ـ مع أنهم كانوا بحاجة ماسة للمؤن ـ وصل رسول من الامبراطور إلى المعسكر حاملاً أوامر امبراطورية إلى بطرس وقادة جيشه الآخرين خاطبهم فيها بشكل علني قائلاً: «أيها الرجال النبلاء والبارزون لقد نمى إلى مسامع الامبراطور اشاعة فيها اتهامات خطيرة ذات طبيعة كريهة ضدكم في أنكم أحدثتم عنفاً شديداً بحق سكان البلاد في امبراطوريته، وأنكم أثرتم النزاعات والاضطرابات. وبناء عليه، إذا كنتم ترجون نيل العطف في نظر جلالته الامبراطورية في أي وقت من الأوقات فإننا نأمركم باسم سلطته بعدم البقاء في أي من مدنه لمدة تزيد على الثلاثة أيام، وأن تسيروا بحملتكم إلى القسطنطينية بالسرعة الممكنة، وبتنظيم متناسق وثابت، وسنرشد الجيش ونقوده خلال الطريق، وسنزودكم بالطعام وبسعر عادل».

وأنعشت هذه الكلمات معنويات الناس الذين كانوا قد بدأوا يتلاشون بسبب قلة الطعام، ورفعهم كرم الامبراطور إلى وضع عقلاني أكثر رجاء، وشرحوا للرسول الامبراطوري بعض الظروف المتعلقة بالاضطراب الأخير، وأظهروا براءتهم، وتحدثوا عن الصبر الذي تحملوا بواسطته الأضرار التي ألحقها البلغار بهم بكل إجحاف. ثم تبعوا دليلهم محجمين عن كل التجاوزات، ووصلوا القسطنطينية بالمسيرات الإجبارية فوجدوا هنالك وولتر وجنده، وكانوا ينتظرون مقدمهم، وانضمت قوات الجيشين بعضها إلى بعض، وعسكرت في المكان المخصص لها.

ودخل بطرس المدينة استجابة لدعوة الامبراطور، ومثل في حضرته [١]، وعندما سئل عن نواياه الخاصة وعن الحافز لهذا المشروع الكبير ناقش المسألة بتفصيل تام مظهراً نفسه أنه رجل فصيح ومعنوياته عالية. وأوضح أن أمراء عظماء جداً من أهل الغرب سيتبعونه على الفور، وقد وصفهم على أنهم رجال لائقين في نظر الله، وأبدى ثباتاً في النفس وفصاحه في اللسان إلى درجة أبدى فيها الامبراطور اعجابه بحكمته وشجاعته. وكان الامبراطور متعاطفاً معه، وأعجب بمقاصده، وتلقى بطرس بعد هذا الاستقبال الودي هبات لا تعد ولا تحصى، ثم أمره الامبراطور بالعودة إلى جنده.

ومكث الجيش في هذا المكان عدة أيام أخرى ليفسح للناس فرصة النقاهة والتعافي والاستمتاع بالطعام والراحة، ثم عبر بسفن، زودت بأمر امبراطوري البوسفور إلى بيثينيا

---

(١) يعود تاريخ وصول بطرس إلى القسطنطينية إلى حوالي ١١ آب ١٠٩٦ أي أقل من أسبوعين من وصول وولتر المعدم (انظر هاغنمير ـ «التاريخ» رقما ٥٦، ٥٩).

وهو الاقليم الأول لأبرشية آسية المحاطة بذلك البحر نفسه، وتوقف في مكان قائم على ذلك البحر يدعى سيفيتوت Civitot ، وعسكر هناك.

٢٣ - قيام جيش بطرس أثناء غيابه بالاستيلاء على القطعان من الريف الواقع حول نيقية، والاستيلاء على حصن قرب المدينة

كان موقع معسكرهم على حدود البلد المعادي، واستقر الجيش هنالك لمدة شهرين تقريباً، مستمتعاً بالمؤن الوفيرة من جميع الأنواع، حيث تم خلال ذلك الوقت تقديم مخزون وفير من السلع للبيع في كل يوم تقريباً، وحصل العساكر على الفرصة الضرورية للتعافي والنقاهة، غير أن هذه الوفرة ذاتها من المؤن، والفراغ الجديد عليهم قد عملا على جعل هؤلاء الناس التعساء، والمتكبرين طائشين. كما أثارتهم رفاهيتهم ودفعتهم نحو الرعونة فبدأوا يشكلون جماعات منفصلة، وشرعوا في اجتياح الريف - خلافاً لإرادة أسيادهم - لمسافة عشرة أميال أو أكثر، وساقوا القطعان والحيوانات، ووصلت رسائل تحذيرية متوالية من الامبراطور أمرهم فيها بعدم المغامرة بعيداً خارج حدود معسكرهم، وبعدم إثارة العدو ضدهم، وأن يبقوا في المكان المخصص لهم، وأن يتصرفوا بحذر حتى وصول القادة الكبار الذين قيل إنهم قادمون في إثرهم.

وكان بطرس قد توجه إلى المدينة الامبراطورية بسبب قلقه على الذين أوكل إليه أمر رعايتهم آملاً - إذا أمكن - بالحصول على تخفيض في سعر السلع، وعلى شروط أفضل للبيع والشراء، وانتهز الحشد المنحرف والفظ فرصة غياب بطرس وتصرف بطريقة حمقاء أيضاً. فقد انفصلت مجموعة قوامها سبعة آلاف من الرجالة من أنصار هذا المسلك عن الجيش وانضم إليها ثلاثمائة فارس، وزحفوا جميعاً باتجاه نيقية غير آبهين باعتراضات الآخرين، زحفوا بصفوف مرتبة وتعبئة قتال كاملة، وساقوا من جوار المدينة أعداداً كبيرة من القطعان والحيوانات ثم عادوا إلى المعسكر سالمين.

وعندما لاحظ التيتون وعدد آخر ممن ينطق بلغتهم أن اللاتين لاقوا النجاح في عملهم الجريء الذي قاموا به، غاروا منهم واستولت عليهم رغبة السلب والنهب، فقرروا القيام بمحاولة مشابهة آملين بذلك تحقيق مكاسب خاصة بهم يحسنون بها أوضاعهم، وينالون عن طريقها الشهرة والمجد، وجمعوا قرابة ثلاثة آلاف من الرجالة ومئتيْ فارس من بين صفوف ذلك الشعب، وتقدموا بهذه القوة يريدون نيقية.

وكان في تلك المنطقة بالذات وعلى بعد حوالى أربعة أميال من نيقية بلدة محصنة قائمة على سفح احدى الهضاب فاقتربوا منها، وشنوا هجوماً عنيفاً عليها من جميع

الاتجاهات، وعلى الرغم من أن السكان أبدوا مقاومة عنيفة فإن التيتون احتلوا المدينة في هجوم عاصف وقتلوا الناس، واستولوا على كل شيء كان هناك، ثم حصنوا المكان بقوة بعدما سحرهم جماله وثروته، وقرروا البقاء فيه حتى وصول القادة.

٢٤ - الأمير التركي سليمان يسترد المكان المذكور أعلاه ويضع السيف في جميع من كان فيه

قبل وقوع هذا بزمن طويل كان سليمان [قلج أرسلان] [1] سيد وحاكم تلك الأراضي قد سمع أن القادة المسيحيين كانوا قادمين، وبناء على ذلك، جمع عن طريق طلب النجدات والمال وجميع الوسائل الممكن تصورها، عدداً كبيراً من الرجال الشجعان من جميع أجزاء الشرق، وعاد إلى هذه البقاع مع هذا الجيش لتقديم العون المطلوب لسكان المنطقة ضد هجمات العدو، وعندما علم أن زمرة التيتون المذكورة آنفاً قد استولت على واحد من معاقله زحف بسرعة إلى هناك، وحاصرهم حصاراً شديداً حتى تمكن من قتل جميع الذين وجدهم فيه.

ووصلت في غضون ذلك أنباء الكارثة إلى المعسكر، وأذيع على الجميع في الحال أن مجموعة التيتون التي كانت قد غادرتهم مؤخراً قد أبيدت عن بكرة أبيها على يد قلج أرسلان، فخيم الرعب على الناس عندما سمعوا بهذا الخبر. وبما أنهم لم يستطيعوا ضبط نفوسهم واخفاء مشاعر كربهم العميق فقد حفظوا حزنهم بالدموع والآهات. وعندما وضحت الحقيقة أمام الجميع اندلع اضطراب بين الناس في المعسكر، وطالبوا بكل عنف وبصيحات عالية بعدم تجاهل هذا الهجوم القاسي ضد إخوانهم، وتنادوا: «ليتسلح الفرسان والرجالة، وليتقدموا للانتقام لدم رفاقهم المقتولين. لكن رجال الجيش الأكثر بروزاً من الرجال ذوي الخبرة الأكبر في مثل هذه الأمور لم يوافقوهم، ورغبوا بالتمسك بأوامر الامبراطور. وعندما كانوا يسعون في سبيل تحقيق هذا الهدف، ويسعون إلى كبت الحماسة الطائشة لدى الجماهير الغاضبة ثار الشعب ضدهم، ووضع نفسه تحت رعاية رجل اسمه غودفري، ويعرف بلقب بورل

---

(١) كأن قلج أرسلان في الواقع سلطان سلاجقة الروم ١٠٩٢ - ١١٠٦، وكان ابناً لسليمان بن قتلمش ووجد المؤرخون اللاتينيون الذين سمعوا من غير ريب الاسم مع اسم الأب «ابن سليمان» وجدوا الإسم الأخير أسهل للكتابة واللفظ، ودعاه جيعهم تقريباً باسم «سليمان» ويحذو وليم حذوهم هذا ويلاحظ أن نائبه (ايلخان) هو الذي سيّر العمليات الحربية ضد جنود بطرس، ويعود تاريخ إبادة جيش بطرس إلى نهاية أيلول ١٠٩٦، أو تشرين الأول (انظر هاغنمير «التأريخ» أرقام: ٧٣ - ٨٩).

Burel ، وبعدما غدا زعيماً لتلك الطائفة بدأ في توجيه الاهانات إلى ذوي المراتب العالية، واتهمهم بالشعور بالجبن أكثر من الإحساس السليم؛ لأنهم لم يوافقوا على مطاردة الذين قتلوا إخوانهم بحد السيف.

٢٥ - إثارة الجيش بأكمله ضد قلج أرسلان بسبب المذبحة التي نزلت بإخوانهم وإبادة الحشد المسيحي في القتال معه

وسادت إرادة الشر في النهاية، وجرى التخلي عن النساء والأطفال والضعفاء والذين ليس لديهم أسلحة، بينما أمسكت البقية بأسلحتها واجتمعت حتى بلغ عددها عشرين ألفاً من الرجالة، وخمسمائة فارس مسلحين بشكل جيد ومدرعين. وتعبأت القوات في تشكيلات القتال، وسارت عبر الغابات المذكورة آنفاً نحو الريف الهضبي باتجاه نيقية. وما أن تقدمت ثلاثة أميال تقريباً حتى كان قلج أرسلان قد دخل الغابة نفسها أيضاً ومعه أعداد ضخمة من أتباعه، وكان يسرع باتجاه معسكرنا الذي كان مقاماً حسبما وصفنا من قبل؛ وذلك بقصد شن هجوم مباغت عليه. ولكن الصيحات والأصوات الغريبة الصادرة من قلب الغابة جعلته يدرك أن المسيحيين كانوا قد غادروا معسكرهم، وأنهم كانوا في طريقهم لمهاجمته. وقام في الحال بمغادرة الغابة والتلال، واندفع نحو السهول المفتوحة، وتقدم جيشنا إلى هنالك أيضاً، وهو غير عالم باقتراب العدو. وعندما اكتشف عسكرنا أن الكفار كانوا جد قريبين منهم هاجموا العدو بالهتافات يشجع بها بعضهم بعضاً وهم شاهرون سيوفهم، مطالبون بدم إخوانهم ليثأروا له بأيديهم. وفي الوقت الذي اندفع فيه رجالنا نحو الامام وهم ممتلئون بالحماسة المتوقدة واجهتهم سيوف العدو؛ لأن الأتراك كانوا على قناعة أن هذا الصراع كان صراعاً حتى الموت. لذلك قاوموا بضراوة يثيرهم في ذلك الحنق الشديد والإيمان بأعدادهم الكبيرة. وتحارب الجيشان بشجاعة وجرأة، وتغلبت في النهاية الفئة الكبيرة من العدو على المسيحيين، ونظراً لأن المسيحيين لم يعودوا قادرين على تحمل وطأة المعركة وقد تخلوا عن مواقعهم ولاذوا بالفرار، فهاجمهم الأتراك بسيوف مسلولة، وطاردوهم حتى المعسكر، وأوقعوا فيهم مذبحة كبيرة.

وقتل في هذه المعركة العديد من الرجالات ذوي المراتب العالية من أعيان معسكر بطرس، وكان من بينهم ولتر المعدم، ورينى دي بروس، وفلتشر أوف أورلين، وعدد كبير آخر، ولم يبق أحد تقريباً من الخمسة والعشرين ألفاً من الرجالة والخمسمائة فارس الذين كانوا قد خرجوا من المعسكر، حيث لاقى معظمهم الموت، وجرى أسر الباقين.

٢٦ ـ قلج أرسلان المنتصر على شعبنا يدمر المعسكر، ويقتل الباقين على قيد الحياة أو يأسرهم ويحاصر بلدة سيفيتوت، ثم ينسحب عندما يسمع برسالة من الامبراطور.

واهتز قلج أرسلان بانتصاره طرباً، فشن هجوماً عنيفاً على المعسكر، وحيث انعدمت المقاومة فيه فقد قتل جميع الباقين على قيد الحياة، ومات المرضى والمسنون رجالاً ونساءً على حد سواء، ومات معهم الرهبان وجميع رجال الدين، ولم يستثن من ذلك سوى الفتيات والصبية القُصّر ممن شفعت لهم أعمارهم ومظاهرهم، واستبقى قلج أرسلان هؤلاء لينقلهم إلى حالة العبودية.

وكانت تقوم على الشاطىء قرب المعسكر قلعة قديمة نصف مخربة، لم يكن لها أبواب ولا موانع، حيث لم يسكن فيها أحد فالتجأ إليها مجموعة قوامها قرابة الثلاثة آلاف حاج، وذلك بدافع الضرورة، معتقدين أنها ستكون مكاناً آمناً لهم، وحاولوا الدفاع عن أنفسهم في وضعهم الحرج، وذلك بأن وضعوا ترستهم على المداخل، ودحرجوا أحجاراً ضخمة لإعاقة التقدم إليها، وهاجمهم الأتراك بقسوة، وقاتل الْمُحاصَرون بشجاعة، وصدوا العدو بأملهم اليائس لإنقاذ الحياة والحرية. وتم في غضون ذلك إرسال رسول ليخبر بطرس أنه قد جرى ذبح شعبه، وأن العدد القليل الذي بقي على قيد الحياة كان محاصراً بشدة في قلعة نصف مخربة، حيث كان يعاني من قلة الطعام والسلاح، وذهب بطرس على الفور إلى الامبراطور وأقنعه بتوسلاته وتضرعه إليه ليرسل على الفور جنوداً إلى هناك مع أوامر تقضي باطلاق سراح الباقين على قيد الحياة، وتخليصهم من المخاطر التي كانت تحدق بهم، وتم تنفيذ هذا، لأن الأتراك تخلوا عن مهاجمة ذلك الموقع حالما سمعوا بأوامر الامبراطور، وعادوا إلى نيقية آخذين أسراهم معهم، وذلك بالإضافة إلى أثمن الغنائم والخيم والسرادقات والخيول والبغال وجميع أنواع المعدات التي استولوا عليها من المسيحيين.

وهكذا سحق هؤلاء الناس الجامحين والعنيدين، والرافضين الاصغاء إلى آراء الأعقل منهم، سحقوا عن بكرة أبيهم بسبب تهورهم وطيشهم، لأنهم لم يلتزموا بالنظام، ولم يتقيدوا بالأوامر المفيدة، فجنوا الحصاد الذي لا يساوي شيئاً بالنسبة لأساليبهم، وقدموا رقابهم طعمة لسيوف العدو.

٢٧ ـ وصول غوتز تشولك كاهن التيتون إلى هنغاريا على رأس جيش ثان، وعدم تردده في اقتراف أعمال مخزية لا تصلح للسرد ضد الهنغار

ولم يكن قد مضى طويل وقت على رحيل بطرس إلى بيثينيا عندما تبعه أحد الكهنة التيتون وكان اسمه غوتز تشولك حيث أثاره التشوق للقيام برحلة الحج، وكانت لديه موهبة

في الوعظ أقنع بها العديد من التيتون، ومن جميع أجزاء تلك المملكة للقيام بالمهمة نفسها، ودخل هنغاريا مع خمسة عشر ألف حاج كان قد جمعهم للزحف، ونال امتياز دخولهم دونما صعوبات تذكر، وقدم الهنغار ـ تنفيذاً لأوامر الملك ـ سلعاً لجيشه بأسعار معقولة. غير أن الجيش أساء استخدام وفرة الطعام، واستسلم للكسل وشرب الخمر، وأنزل العديد من المساوىء بالسكان، ذلك أنه سلب ونهب وسرق السلع المعروضة للبيع في الأسواق العامة، وقتل الناس، دونما ابداء أي اهتمام أو رعاية لقوانين الضيافة.

ولما سمع الملك بأخبار اعتداءاتهم وتجاوزاتهم ثار غضبه، وأمر باستدعاء كل من كان في المملكة، كما أمر الناس والعظماء من الرجال بأخذ السلاح، والانتقام للمظالم الكبيرة، فقد ارتكبت تجاوزات خطيرة في عدة أماكن كانت مخزية إلى أبعد الحدود، وغير صالحة للذكر. وكان مستحيلاً بالنسبة للملك أن يتغاضى عن مثل هذه الجرائم دون أن يجلب الشعور بالجبن على نفسه، والتعرض لكراهية الشعب، ولذلك جرى جمع كافة قوات المملكة وعساكرها، وهجم الجميع على المسيحيين بتناسق وقوة واحدة، وكأنهم أعداء يستحقون العقاب الشديد، وكانوا عاقدي العزم على قتلهم انتقاماً للجرائم التي اقترفوها.

وصادفت أخيراً قوات الملك حشداً متمرداً من هؤلاء الحمقى في مكان يسمى بلغراد [1]، كان يقع في وسط هذه المملكة، وكان هذا الحشد قد سمع بتقدم الملك من قبل، وكان مدركاً تمام الإدراك أن الملك سيكون غاضباً جداً، كما أن الحشد خشي من تأنيب الضمائر المذنبة، وفي النهاية أمسكوا أسلحتهم واستعدوا لمنازلة قوة بقوة لدفع المخاطر عن أنفسهم. وعندما رآهم الهنغار مندفعين للقتال ومصممين على المقاومة العنيفة فكروا أنه من المستحيل الاشتباك معهم دون وقوع خسائر كبيرة بين رجالهم؛ لأن المسيحيين كانوا بالفعل رجالاً شجعاناً ومتمرسين باستخدام السلاح. ولا يستسلمون للموت عبثاً ودون كفاح. وبناء عليه حاولوا التوصل وفق عادتهم بالاستراتيجية ـ إلى الشيء الذي لم يستطيعوا تنفيذه بالقوة، وأرسلوا وفداً إلى غوتزتشولك وقادة جيشه الذين خاطبوهم ببراعة بأقوال سلمية.

---

(١) يبدو هذا على أنه خطأ اقتبسه وليم من ألبرت أوف اكس (ألبرتوس ـ أكونسيس. ٤/٢٩٠) وكان دنكالف قد حدد موقع هذه الأحداث على أنه Martinsburg مارتينزبيرغ وبالطبع، فإن بلغراد موجودة في الصرب.

٢٨ ـ رسالة ملك هنغاريا إلى غوتز تشولك المذكور آنفاً، وإلى جيشه، والإبادة المؤسفة لذلك الحشد بالذات.

«لقد وصلت شكوى خطيرة عن جيشك إلى الملك، جاء فيها أنكم ألحقتم أضراراً جسيمة ومتعددة بالناس التابعين له، وأنزلتم بهم أضراراً لا تحصى ولا تعد، وأنكم بادلتم المعاملة اللطيفة بالإساءة، ومع ذلك، فإن الملك مقتنع في حكمته تماماً أن بعضكم بريء من هذه الجرائم، ويرى انـه مـن المؤكد أن بينكم رجال عاقلون يخافون الرب، تثير اساءات الآخرين استياءهم. فهذه الجرائم، التي أثارت الغضب الملكي بشكل مسوغ قد اقترفت خلافاً لرغبات وتحذيرات هؤلاء الرجال، وخشية من أن تلقى آثام الأفراد على عاتق الجميع، ويشرك الأبرياء مع المذنبين فقد قرر الملك كبح حدة غضبه وأن يصفح في الوقت الحالي عن إخوانه في العقيدة المسيحية. وبناء عليه وحتى يمكن إطفاء غضبه وارضائه بالكامل ننصحكم أن تسلموا أنفسكم، وكل الأمتعة التي بحوزتكم، بما في ذلك أسلحتكم بدون شرط، وتضعوها بين يدي الملك، وإلاّ فلن ينجو أحد منكم من الموت؛ لأنكم لا تجارونا بالقوة العسكرية وتقعون في وسط مملكته، وليس لديكم سبيل للفرار[1].

وكان غوتزتشولك وقادته العسكريون منذ البداية مستائين من المسلك الجنوني للناس العنيدين، وآمنوا الآن بلطافة الملك لبساطة أنفسهم، واجتذبوا الناس تقريباً بالقوة للموافقة على فكرة تسليم أنفسهم مع أسلحتهم وجميع ممتلكاتهم ووضعها في حوزة الملك، وبذلك يكفرون عن جميع الذنوب التي اعتدوا بها عليه، وعلى الرغم من أن جميع الناس قد احتجوا بشدة وكانوا متلهفين للقتال دفاعاً عن أنفسهم فقد وافقوا أخيراً. لكن بعد أن سلموا أسلحتهم وجميع ممتلكاتهم إلى قادة الملك ورسله واجهوا الموت في حين أنهم كانوا قد توقعوا أن يلاقوا العطف، لأن الهنغار هاجموا الأشخاص الذين لم يكونوا مستعدين بعدما اعتمدوا ـ وهم محقون ـ على رحمة الملك، خاصة بعدما جردوا من أسلحتهم، واقترف الهنغار مجزرة وحشية دون تمييز بين الجيد والسيء، وجرى ارتكاب هذه المجزرة بشكل كامل، وهكذا تلطخ الموضع كله بدم وجثث القتلى، ولم يبق أثر ـ تقريباً ـ من ذلك الحشد الكبير. ومع ذلك نجا بعضهم من الإبادة الشاملة برحمة الله، وتفادوا الموت من سيوف الهنغار، وعادوا إلى بلادهم، ولدى وصولهم سردوا قصة المجزرة، والقدر المشوؤم الذي حاق برفاقهم، وأخبروا الملتزمين بأيمانهم، وكانوا على وشك الشروع بالرحلة ذاتها بما قد حدث، ونصحوا هؤلاء

---

(١) قام وليم هنا بعدما اختصر الوصف الكامل لألبرت أوف اكس حول هذه الحملات الأولى بتفصيل رسالة الملك كولمان بأسلوب أكثر صقلاً.

الحجاج الجدد، أن عليهم أن يتقدموا بحكمة وحذر أكبر، وأن يتعلموا التصرف بوعي أكبر، بسبب خيانة ذلك الشعب الشرير الباقية إلى الأبد في الذاكرة.

٢٩ - كيف تبع حشد كبير من الناس المتعصبين الجماعات الأولى، وقتل اليهود وتقدم بشكل فوضوي

وفي خلال هذا الوقت بالذات وعلى الأصح في وقت متأخر قليلاً حدث أن تجمعت عصابات من الناس لا تعد ولا تحصى جاءت مشياً على الأقدام من بلاد الغرب، واندفعت كلها بالرغبة ذاتها، وتقدمت بشكل عشوائي دون أن يكون لها قائد أو مرشد، اندفعت بلا تبصر أو تعقل، وفي الحقيقة كان بين صفوف هذا الحشد رجال من أصل نبيل مثل: توماس دي لي فير، وكليربولد دي فندويل ووليم النجار، كونت هارمان (هارتمان)[1] وآخرون، ولكن الشعب الذي ضاق ذرعاً بضوابطهم، لم يعترف بتنظيمهم في أي حال من الأحوال. وانطلق هذا الحشد جيئة وذهابا، وبإهمال لأراء الآخرين الأكثر تعقلاً، والأكثر مودة، وبشكل فوضوي مرتكباً جميع أنواع الأعمال غير الشرعية، حسبما راق له، وهكذا حدث أنه عندما كان عليهم أن يتقدموا - بالخوف من الله - في الرحلة التي كانوا قد باشروها، وفي حين كان من الواجب عليهم التقدم - وهم يراعون الأوامر الإلهية - بتنظيم دقيق في رحلة الحج التي كانوا يقومون بها إكراماً للمسيح انحرفوا إلى الإنغماسات الجنونية، حيث ذبحوا بوحشية الشعب اليهودي في البلدان والقرى التي مروا بها؛ لأن الشعب اليهودي لم يتخذ الإحتياطات لمثل هذه الأعمال، حيث لم يكن لديه أي مسوغ ليخاف من أي شيء من هذا القبيل[2].

وحدثت هذه الإساءات بشكل خاص من مدن كولون ومينز حيث انضم الكونت إيميكو إليهم، وكان نبيلاً قوياً وبارزاً في تلك المنطقة، وقد انضم إيميكو إلى عصابات الحجاج مع مجموعة ضخمة من أتباعه، ولم يمكن لديه أية رقابة ذاتية على مسلكه كما افترض أن يكون بسبب منزلته السامية. ولذلك لم يستنكر التجاوزات، بل على العكس من ذلك شارك بنفسه في الأعمال الشريرة التي اقترفها أتباعه، وحثهم على ارتكاب الجرائم، وعبر هذا الحشد فرانكونيا وبافاريا، ووصل إلى مكان يدعى ميزبورغ (وايزنبورغ) يقع على الحدود الهنغارية، واعتقد أنه سينال حق الدخول بحرية ودونما صعوبة. وعندما وجد الطريق مغلقة

---

(١) تم تحديد قادة هذه المجموعة على أنهم أيمكو أوف ليننجن ووليم فيزكونت أوف ميلون الملقب بالنجار وتوماس دي لا فيري وكليربولد دي فندول كونت هارتمان (ليس هرمان) أوف ديكنجن وكيبورغ ودرو غودي نسله (انظر دنكالف «صليبية الفلاحين» دورية التاريخ الأمريكي ٢٦ [١٩٢٠ - ١٩٢١] ٤٤٠ - ٤٥٣).

(٢) لم تحدث أعمال التنكيل هذه في كولون ومينز فقط بل في سبيير وورمز وترير.

توقف على هذا الجانب من الجسر ؛ لأنه كان مكاناً حصيناً محمياً بالنهرين العظيمين : الدانوب والليثا ، وكان محاطاً بالمستنقعات العميقة ، وهكذا لم يكن من السهل حتى بالنسبة لقوة كبيرة أن تمارس العنف ضد إرادة الذين كانوا يحرسون الطريق ، ولقد ذكر أن عدد الجيش الزاحف كان يقارب المئتي ألف من الجنود الرجالة ، وقرابة الثلاثة آلاف فارس.

زد على هذا أن ملك هنغاريا أصدر أوامر قضت بعدم السماح للجيش الراغب بعبور بلاده بالدخول إليها ؛ لأنه تذكر الآثام التي اقترفت بحق قوات غوتز تشولك ، وخشي إذا هو سمح لهذا الحشد بالدخول أن يندفع إلى القتال من أجل الإنتقام ، حيث كانت أخبار المذبحة الدموية الأخيرة قد انتشرت في كل مكان ، وكانت شناعة العمل تدفع الملك إلى الخوف. ومع ذلك ، نجح الحجاج بالحصول على إذن من حرس المدينة ومن قادة الفيالق المدافعة عن ذلك الجزء من البلد ، لإرسال رسل يتوسلون إلى الملك في سبيل التوصل إلى هدنة لنيل ترخيص بعبور ذلك البلد. وخيم الجنود خلال الفترة الفاصلة على هذا الجانب من المستنقع معتمدين على النباتات بانتظار النتيجة التي سيعود بها رسلهم.

٣٠ ـ كيف حاصروا حصن وايزنبورغ وقتلوا سبعمائة من الهنغار ، وكيف هزموا أخيراً ـ بإرادة الرب ـ هزيمة نكراء من قبل العدو ، وقتلوا جميعهم تقريباً.

عاد الرسل بعد انقضاء بضعة أيام من إرسالهم إلى الملك ، وذكروا أن مهمتهم قد أخفقت ، وبناء على ذلك قرر قادة الجيش ـ بعد اقتناعهم أنهم لن يحصلوا على أية عون من الملك ـ أن يدمروا بلاده الواقعة على ذلك الجانب من النهر ، وأن يحرقوا الأرباض أيضاً ، متصرفين بهذا الشكل كأعداء للملك وممتلكاته. وحدث في أحد الأيام ـ بينما كانوا ينفذون بحماس هذا العمل ـ أن عبرت قوة مؤلفة من سبعمائة رجل من رجال الملك النهر لحماية المنطقة من التخريب العدواني ، وصادفت هذه القوة بشكل غير متوقع الحجاج ، ولم تستطع تجنبهم ، ومنعها النهر من العودة إلى موطنها ، فقتل الحجاج أفرادها جميعاً تقريباً. وتشاور الناجون ـ وهم قلة ـ بعد خسارتهم لخيولهم واتفقوا على الإختباء بين النباتات الطويلة في المستنقع من أجل سلامتهم ، وانقاذ حياتهم.

وتشجع الحجاج لهذا النجاح ، فصمموا على بناء الجسور ، ومهاجمة الحصن ، وأن يشقوا طريقهم بالقوة إلى المملكة. وتنفيذاً لهذه الخطة حشدوا الكتائب ، وعبروا الجسور التي كانوا قد أقاموها من قبل ، ووصلوا إلى التحصينات ، واستعدوا بشجاعة واندفاع ـ وتحت حماية دروعهم وترستهم ـ للغم الأسوار ، وشق طريقهم بالقوة من خلالها ، وخرقت الأسوار في عدة أماكن بجهود نشطة. وفي الساعة التي وصل العمل فيها إلى مرحلة كان سيتم عندها فتح

مدخل للحجاج بالحال، فقد الناس الموجودين داخل المدينة الأمل، لكنهم ما لبثوا أن استعادوا أملهم بالنجاة من الموت. فقد استولى فجأة ذعر مرسل من السماء على المسيحيين، فتخلوا عن الهجوم، وتركوا الجزء الأكبر من أمتعتهم على الرغم من أنهم كانوا منتصرين. ومع أنهم لم يعرفوا سبباً للهرب لاذوا بالفرار، ويقال أنه لم يوجد سبب حقيقي لهزيمتهم سوى أنهم أثاروا الرب ليغضب عليهم بسبب ذنوبهم الكثيرة، ذلك أنهم اتبعوا الطريق غير الرباني، وهو طريق يقود دائماً إلى إثارة الرعب في قلوب أتباعه حسبما قال الرجل الحكيم: «يهرب الشرير وليس من يطارده»[1].

وتغير الآن وضع الهنغار إلى الأفضل، وعندما لاحظوا أن القوات المسيحية كانت تهرب طاردوها كالمنتصرين، بعد أن كانت قد بعثت الرعب في قلوبهم، لقد طاردوا الآن العدو نفسه الذي لم يكونوا قادرين على مقاومته إلاّ بشق الأنفس، ومن داخل الأسوار المحمية بالمستنقعات، لقد طاردوه الآن تلقائياً، وسببوا له بدورهم الخوف والموت.

وكان من بين الفارين الكونت إيميكو، فقد هرب مع القسم الأكبر من جنده الممزق، وعاد إلى بلاده، أما النبلاء الآخرون الذين ذكرتهم من قبل فقد انعطفوا نحو كارنثيا، ووصلوا إلى إيطاليا، وعبروها إلى حدود أبوليا، ومن هناك ذهبوا إلى بلاد الإغريق في صحبة القادة الذين كانوا يقومون بالرحلة ذاتها، وكانوا قد اقترحوا أن يتم العبور بحراً إلى دورازو[2].

وهكذا أثارت هذه الحركة الغرب برمته بشكل فعلي، وذلك بالإضافة إلى الحركات الأخرى ذات الطبيعة ذاتها. وكانت كل أمة - تقريباً - ترسل جماعاتها على انفراد، وقد انطلق بعضهم في رحلة حجه تحت إمرة بعض القادة، وانطلق آخرون دون أن يكون لهم زعيم، ومن الواضح أن الطريق الأقصر مسافة كانت تلك التي وجدها أولئك الذين ذهبوا عبر هنغاريا، وكانت هذه الطريق موصدة بالكامل بسبب التجاوزات الشائنة والإهانات التي اقترفها الحجاج الذين ذهبوا في الطليعة، ضد سكان تلك البلاد، ولهذا السبب لاقى الذين تبعوهم مشكلة كبيرة في نيل عطف ملك هنغاريا.

انتهى هنا الكتاب الأول

(١) انظر اللاويون: ٢٦/١٧.

(٢) وليم دروغو وتوماس، وكلير بولد مع هيو الكبير وهارتمان مع غودفري (أنظر دنكالف «صليبية الفلاحين» دورية التاريخ الأمريكي ٢٦ [١٩٢٠ - ١٩٢١] ٤٤٠ - ٤٥٣).

الكتاب الثاني

جيوش الحملة الصليبية الأولى تزحف نحو القسطنطينية

١ ـ موعد رحيل غودفري والنبلاء الذين ذهبوا معه، وكيف تقدموا حتى هنغاريا.

جمع غودفري[١] دوق لوثرنيا البارز والشهير، رفاقه لرحلة الحج، ورتب أمتعته بشكل معتاد، وشرع بالزحف في اليوم الخامس عشر من شهر آب من عام ١٠٩٦ لتجسيد الرب، وبدأ هذا بعد رحيل بطرس الناسك والكارثة المريعة التي نزلت بجيشه والتي سلف ذكرها، وبعد المذبحة التي حلت بفيالق غوتزتشولك، التي ذكرت من قبل أيضاً، وبعد النكبة الأخيرة التي وقعت على حدود هنغاريا، التي وصفت من قبل أيضاً، والتي يقال أنها حلّت بالحشد الذي أتى بعده.

والتحق بمعسكر غودفري رجال من ذوي الشهرة والمراتب العالية يستحقون الذكر بشكل سرمدي، كان منهم: اللورد بلدوين، وهو أخوه، ولد من الأم نفسها، واللورد بلدوين أوف مونزMons كونت هينولت Hainault، واللورد هيوكونت القديس بطرس، وابنه انغوارند Enguerrnd وكان شاباً ذا طلعة بهية ومواهب طبيعية وقدرات، والكونت غارنر Garnier الملقب دي غري Grey واللورد رينارد Reinard كونت تول Toul، وأخوه بطرس، واللورد بلدوين دي بورغ Bourg أحد أقرباء الدوق [غود فري] واللورد هنري دي استش Esch وأخوه غودفري، ودودو دي كونتي Dodo De conti، مدير دي مونتغيو Motague، وآخرون كثر لا نتذكر اسماءهم[٢]. ولا أعدادهم. وتقدم جميع هؤلاء بسلام،

---

(١) وُلد غودفري أوف بولليون في حوالي /١٠٦٠/ وربما في بولون ـ سورمير. كان والده يوستاس الثاني كونت بولون، وكانت والدته اليز ابنة غودفري الملتحي دوق اللورين الأسفل. وكان أخوها غودفري الأحدب قد ورث الدوقية وحيث لم يكن عنده أي ولد، فقد عين ابن أخته خليفة له. هذا ورفض هنري الرابع تعيين غودفري حتى عام ١٠٨٩، وكان غودفري قد حارب في هذه الأثناء في خدمة هنري، وشارك إلى حد ما في حملته في إيطاليا ١٠٨١ ـ ١٠٨٤. وكانت شهرة غودفري، الذي عيّن الحاكم اللاتيني الأول للقدس، قد أصبحت في الوقت الذي كتب فيه وليم مغلفة بشكل كثيف بأسطورة تقول إن الشخصية التاريخية الحقيقية أصبحت غامضة. ولا توجد ترجمة ذاتية مرضية لغودفري في اللغة الإنكليزية.

(٢) جُنّدت قوات غودفري بشكل رئيسي من أقاليم بلجيكا الحديثة واللوكسمبورغ المتاخمة لشمالي فرنسا وبلاد =

وبجماعة متحدة واحدة، ووصلوا آمنين وسالمين في العشرين من شهر أيلول إلى مكان في بلاد النمسا يدعى تولنبورغ[1] Tollenburg، فهنا يشكل نهر ليثا Leitha الحد الفاصل بين أقاليم الامبراطوية، وأقاليم مملكة هنغاريا.

وعندما وصلوا إلى هذه البلدة حزنوا كثيراً حيث سمعوا بأخبار الكارثة، التي قيل أنها نزلت بغوتز تشولك وجيشه، وتداولوا فيما بينهم حول إمكانية التقدم بسلامة لتنفيذ العمل الذي كانوا قد باشروه، وقرروا بموافقة شاملة في النهاية إرسال وفد إلى ملك هنغاريا، للتأكد بشكل تام ومعرفة لماذا هلك جيش إخوانهم الذي كان قد سبقهم في هذا الطريق إلى هذه البلاد، زد على هذا كان على الرسل العمل على إيجاد فرصة للتفاوض مع الملك بخصوص السلام، والتغاضي عن اتهامات النزاعات السابقة، بغية إعداد الترتيبات للحصول على ممر حرّ عبر هنغاريا، ذلك أن الشروع في إيجاد طريق آخر كان سيسبب خسارة كبيرة لهم وإزعاجاً، لا سيما وأنهم كانوا قد باشروا الزحف الآن، وهكذا جرى إرسال النبيل غودفري دي استش أخو هنري، مع عدد آخر من الرجال البارزين ذوي المراتب العالية لتنفيذ هذه المهمة، لأنه كانت تربطه صداقة بالملك منذ عدة سنوات مضت، ودخل غودفري إلى حضره الملك، وحباه بالشكل اللائق، وبما أنه كان ينفذ بإخلاص الواجب الذي عهد به إليه. فقد شرع يخاطب الملك كما يلي:

٢ - رسالة الدوق [غودفري] إلى كولمان ملك هنغاريا على يد غودفري دي استش وجواب الملك للدوق.

«لقد بعثنا إليكم يا صاحب الجلالة، غودفري وهو نبيل بارز، ودوق لوثرينا، والقادة الآخرين عبدة الرب الذين يرافقونه بطاعة وإخلاص للإرادة السماوية، وهم يودون أن يعرفوا - بوساطتنا - لماذا لاقى الشعب المسيحي الذي رأينا بقاياه على طول الطريق، هذه المعاملة اللاإنسانية منكم لاسيما وأنكم تعتبرون شعباً من الشعوب المؤمنة؟ فلربما كان بإمكانهم أن يتحولوا إلى عبور بلد من بلاد الأعداء بسلامة أكبر، وإذا كانت إساءات هؤلاء الناس فظيعة إلى حد أنهم استحقوا ذلك العقاب الشديد فإن الذين أرسلوني مستعدون

= الراين الأسفل والتي كانت في ذلك الوقت ضمن دوقية اللورين الأسفل. وأضاف وليم كلاً من بلدوين دي مونز وهيو أوف سانت بول وانغيورراند وكونون إلى اللائحة التي قدمها ألبرت أوف اكس ولم يذكر يوستاس في هذه المرحلة، وهو أخ آخر لغودفري.

(١) لا يتبع وليم ألبرت في تسمية ليثا كحد لغاليا (فرنسا) بل يصححها على أنها حدود للإمبراطورية، هنالك شك حول موضع نقطة التوقف هذه. وبفضل هاغنمير تولينا (هاغنمير «التأريخ» رقم ٧٠).

لتحمل المصيبة بهم وتقبل خسارتهم، لأن العقاب إذا ما فرض لسبب عادل لا يثير إلاّ قليل الغضب، ويجب تحمله بصبر، وإذا كان الأمر خلافاً لذلك، وأنكم هاجمتم الأبرياء دونما سبب، وقتلتموهم دونما مسوغ فلن يستطيع زعماؤنا التغاضي عن المظالم التي لحقت بعبيد الله، وهم مستعدون للثأر لدم إخوانهم؛ ولذلك فهم ينتظرون منا سماع إجابتكم حول هذه الأمور، وسيتخذون قرارهم وفق فحوى هذه الإجابة». بهذه الكلمات أنهى استش خطبته.

وأجابه الملك المحاط بحاشيته بما يلي:

«يسرنا أيها الحبيب غودفري، يا من شملناه من قبل بكرمنا الذي يستحقه ويجدر به، أنك أتيت إلينا ليس فقط لأننا يمكن أن نجدد صداقتنا التي كانت قائمة فيما مضى من الزمن، بل لأننا نستطيع أيضاً أن نؤكد براءتنا أمام قاض عادل عاقل مثلكم، إننا كما تقول بالفعل من المؤمنين، ونأمل أن نتمكن بأعمالنا من البرهنة على طهارة ذلك الإيمان. لكن الذين كانوا قد سبقوكم، أي أتباع بطرس الناسك وأتباع غوتز تشولك بالإضافة إلى الذين حاولوا بواسطة الهجوم الإستيلاء على أحد حصوننا الواقع على حدود المملكة وأن يدخلوا مملكتنا بالقوة لم يكونوا أتباعاً للمسيح لا بالفعل ولا بالقول. فقد استقبلنا بطرس وجيشه في البداية بحسن الضيافة، وقدمنا لهم السلع التي كانت عندنا بسعر عادل، أو بلا ثمن، غير أنهم قابلوا مضيفيهم بالإساءة مثل الحية القابعة في الصدر، أو مثل الفأرة الموجودة في خزانة الملابس[1]، فحيث وجب عليهم تقديم الشكر على المساعدات التي أسبلت عليهم اقتحموا إحدى مدننا الواقعة على الحدود النائية للملكة، وأبادوا السكان عن بكرة أبيهم، ورحلوا بعنف اللصوص دافعين أمامهم القطعان والحيوانات التي أخذوها كغنائم من ذلك الموقع، ومرة ثانية تغاضينا عما حدث، ووافقنا على دخول غوتز تشولك إلى البلاد دون صعوبة ولا مشقة، ودون أن نقيم أي اعتبار لما حدث من اعتداءات، واعتبرنا كأننا لم نعان من إساءات الحملات السابقة، لكن بالمقابل إنهم لم يترددوا عن السلب والنهب وأعمال العنف والحرق وحتى القتل لأتفه الأسباب، وبناء عليه أثاروا غضب الرب بشناعة جرائمهم.

وحيث لم نعد قادرين على تحمل المظالم التي نزلت برعايانا فقد حولنا اهتمامنا لتقديم بعض العلاج لهذه الأحوال الخطيرة، واعتماداً على تجاربنا السابقة رأينا من الحكمة أن نمنع هذه المجموعات من الرجال أهل العقوق ممن يكره الرب من دخول أراضي مملكتنا خشية أن نعاني للمرة الثالثة من الخسائر على أيديهم، وقد كان من الأفضل كثيراً اعتماد هذا الإجراء بدلاً من أن نتحمل الإساءات والخسائر الضخمة التي ينزلونها بنا، أو من أن نحاربهم كأعداء

---

(١) مثل مفضل لدى وليم. ووسع وليم هنا من جديد وبلغة مصقولة التبادل الديبلوماسي الذي أورده البرت.

لنا. ولعله يكفي ما قدمناه من تفاصيل لكم كمسوغ لأنفسنا، مقبول من قبلكم أيها الرجل الحذر والحكيم، وبحق وجود الله وبقائه سردنا على مسامعكم الحقيقة كما هي تماماً».

بهذه الكلمات أنهى جوابه، ثم أمر أن يعامل الرسل بحسن الضيافة والإحترام الكبير، حتى يستطيع بعد التشاور مع شعبه إرسال رسل إلى الزعماء بإجابة موائمة. وأرسل في النهاية عدداً من أفراد أسرته مع المندوبين إلى الدوق غودفري وقاده جيوشه، وأرفقهم بهذه الرسالة:

«لقد سمعنا، وكنا بالفعل قد عرفنا الأخبار، أنكم تعتبرون أميراً عظيماً وبارزاً، فشعبك يقدرك تقديراً عالياً، والعاقلون من الرجال حتى النائين منهم معجبون بصدق عقيدتك، وإخلاص طبيعتك الجديرة بالثناء. ونحن أيضاً معجبون بسمعتكم الطيبة وبحماستكم لأعمالكم؛ ولهذا عقدنا العزم على تأييدكم، حتى في غيابكم، وأن نشرفكم بحباء عظيم. ونحن نعتقد أن الرجال النبلاء من بطانتكم والمتوقدين بحماسة العقيدة المسيحية قد نفذوا عملاً ورعاً، وبما أننا لا نرغب في تعطيل تلك المزايا التي يتم عادة كسب الأصدقاء بها فإننا مستعدون لتقديم الحب اللائق بالجميع، وأن نقف إلى جانبهم في أعمال المودة الأخوية.

وهكذا ـ ربما أن الفرصة جاءت على هذه الشاكلة ـ نرجو أن تحضروا إلى سيبرون Ciperon قلعتنا [1]، لنتمكن من عقد مؤتمر معكم مطلوب منذ زمن بعيد حتى نكون قادرين على تحقيق اتفاق ينسجم مع رغباتكم.

٣ ـ الملك يعقد مؤتمراً مع قادتنا، وتقديم بلدوين، أخو الدوق رهينة، ثم عودة بلدوين بعد عبور الجيش لهنغاريا، وإتحاف الملك بعدد من الهدايا.

استقبل الدوق [غودفري] ممثلي الملك واستمع إليهم، ثم تشاور مع أصدقائه، وإثـر هذا ذهب في اليوم المحدد إلى المكان المتفق عليه، وبرفقته ثلاثمائة فارس مختارين من جميع أتباعه، وبعد ما عبر الجسر وجد الملك بانتظاره حيث استقبله بكرم زائد، وحفاوة كبيرة. وظهرت المودة العظيمة بين الطرفين، وتم الإتفاق في النهاية على إعطاء رهائن مختارة من بين النبلاء، ووجوب التغاضي عن جميع الضغائن، وضرورة إعادة السلام بينهما، ومنح الملك الدوق تبعاً لهذه الشروط الإذن بدخول المملكة مع قواته.

وطالب الملك أن يأخذ بلدوين، أخو الدوق مع زوجته [2] وأسرته رهائن ليحصل

---

(١) جرى تحديدها على أنها أودنبيرغ (سوبرون) من قبل هـ. هفلي «ألبرت فون آخن ـ تاريخ الحروب الصليبية» هذا ولم تجر معركة منازكرد أيام السلطان ملكشاه بل أيام أبيه السلطان ألب أرسلان. انظر مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية: ١٣٨ ـ ١٥١.

(٢) كان بلدوين واحداً من رجالات الصليبيين الكبار وقد هجر الدراسات الكنسية من أجل التخصص بالعمل =

على ضمان أكثر توثيقاً ليسمح بعبور هذا الحشد الكبير الذي يمكن أن يتذرع بطريقة ما لتشويش نظام المملكة بالإعتماد على عدده وشجاعته، ووافق الدوق تلقائياً على هذا المطلب، وسلم أخاه رهينة على الشروط الموضوعة، وقاد جنوده عبر المملكة، وعندها أصدر الملك مرسوماً، منفذاً بذلك ما وعد به بكل صدق، فقد أمر أن يتم تزويد الجيش بالطعام الضروري في جميع أنحاء المملكة التي كان على وشك المرور بها، وأن يسهل ذلك إلى جميع الفيالق بأسعار عادلة ووزن صحيح، يضاف إلى ذلك أن ترافق الجيش سوق لبيع المواد.

وفي المقابل أمر الدوق من جانبه بإصدار أمر أعلنه بصوت المنادي في كل مكان من المعسكر منع الجميع بموجبه - تحت التهديد بعقوبة الموت، ومصادره جميع المقتنيات - من النهب أو استخدام القوة أو العنف ضد القادمين إلى الجيش، وأن يشترك الجميع في الصفقات التجارية حسب مواثيق السلام والمودة الأخوية.

وهكذا قيد الجيش بفضل الله ومنته، فعبر هنغاريا بأكملها دون ظهور إساءة من الطرفين ولو على سبيل أتفه المشادات الكلامية، وسير الملك الرهائن معه، مسايراً الجيش المتقدم على الجانب الأيسر من النهر، بقوة ضخمة من جنده، كانت جاهزة لقمع أي اضطراب يظهر أثناء وجود الملك نفسه.

وعندما وصلوا في النهاية إلى سملين، وهو مكان تكرر ذكره من قبل، توقفوا على ضفاف نهر سافي Save، حتى يمكن إعداد طريق للجند، ولما لم يوجد هنالك إلاّ عدد قليل من الزوارق لم تكن كافية لنقل الكثير من الناس بنيت عبارات صخرية لهذا الغرض، ووضع في البداية ألف فارس مسلحين تسليحاً كاملاً لحراسة الضفة الأخرى من خطر أي فرصة بوجود كمين ما من جانب العدو، وحتى يجد الجيش مكان استراحة هادىء عندما يكون قد اجتاز نهر سافي، وعبر الحجاج بتلهف إلى الناحية الأخرى.

وعندما كان جميع الناس تقريباً، وعدد من قادتهم قد عبروا النهر إلى الضفة الأخرى، تقدم الملك بسرعة، وبرفقته عدد كبير من حراسه، وسلم بلدوين وزوجته وجميع الرهائن الأخرى إلى الدوق، حسبما تم الإتفاق على ذلك منذ البداية، ثم أتحف الدوق والقادة الآخرين بهدايا ثمينة، وعاد إلى موطنه، وآنذاك لحق الدوق مع القادة الآخرين بقية الناس والفيالق التي كانت قد عبرت النهر إلى الضفة الأخرى، وعندما وصل الجيش إلى بلغراد إحدى مدن بلغاريا التي أشير إليها من قبل عسكر فيها، ثم رتب الناس أمتعتهم، ثم استعدت

= العسكري، وأصبحت زوجته، التي رافقته، إحدى شهيرات الحروب الصليبية. انظر الحاشية /٢/ في الكتاب الثالث ص ٢٥٣ ولا توجد دراسة كافية عن حياته في اللغة الإنكليزية.

الفيالق للزحف، فعبرت غابات وأحراج بلغاريا الواسعة، ووصلت في البداية إلى نيش ثم إلى ستراليشيا Stralicia .

٤ - فيالقنا تتقدم في أراضي الامبراطورية، وصف المدخل وأحوال الإغريق التعيسة

يمكن لنا بسهولة أن نتبين تعاسة الإغريق الشديدة، وضعف امبراطوريتهم من وضع هذه الأماكن وأحوالها، فقد كانت فيما مضى مناطق غنية، ومملوءة بجميع أنواع السلع المرغوبة، فعندما توقف حكم ملوك اللاتين للقسطنطينية، وقعت الامبراطورية بسبب آثامها تحت سيطرة الإغريق وتحت سيادة نقفور الأول[1]، واستفاد البرابرة في ذلك الموقع على الفور من ضعف تلك السلطة، حيث نزلوا إلى الأراضي التي كانت خاضعة لها، وبدؤوا يعاملون السكان كما شاءوا، وكان من هؤلاء الغزاة البرابرة، شعب البلغار غير المتحضر من الشمال، وقد استولى هذا الشعب على جميع البلدان شروعاً من نهر الدانوب وحتى المدينة الامبراطورية، ومن ذلك النهر أيضاً وصولاً إلى البحر الأدرياتيكي. ونتيجة لذلك اختلطت أسماء الأقاليم وحدودها كثيراً، إلى حد أن إقليماً بكامله يقال إنه يستغرق رحلة مدتها ثلاثون يوماً في الطول وعشرة أيام أو أكثر في العرض بات يدعى بلغاريا، ولم يدر الإغريق التعساء أن تجاهلهم لهذا الإسم يبرهن على خزيهم، وكان قد قام من قبل على امتداد البحر الأدرياتيكي إقليما إيبروس، وكانت مدينة دورازو عاصمة لأحدهما، وهي مدينة كانت فيما مضى عاصمة الملك بيرهوس Pyrrhus الذي كان ملكاً على ايبروتس Eperotes ، وكان رجلاً شجاعاً ومحط إعجاب، وكانت البلاد التي توجب على الدوق أن يعبرها بعد هذا، وهو على رأس جيوشه، هي: داشيا المزدوجة، أي داشيا الداخلية الواقعة على يسارهم عند عبورهم لنهر الدانوب، وداشيا المتوسطية، التي زحفوا عبرها ومروا أثناء ذلك بمدينتيها نيش، وستراليشيا Stralicia ، وكانتا فيما مضى من أروع المدن.

وكان هنالك أقاليم أخرى أيضاً في المنطقة نفسها، مثل أركاديا Arcadia ، وثيسالي Thessaly ، ومقدونية، وأقاليم تراقية الثلاثة، وهي المناطق التي اشتركت جميعاً في البلية ذاتها، ولم تكن هذه هي الممتلكات الوحيدة التي خسرها الإغريق بسبب ضعفهم، لأنه وحتى في

---

(١) الامبراطور نقفور ٨٠٢ - ٨١١. كان الانتقال من اللاتينية إلى الاغريقية في القسطنطينية قد حدث في وقت سابق. وحتى أسرة جستنيان في القرن السادس عشر لم تكن أبداً ذات أصل لاتيني، وأصبحت اللغة الاغريقية لغة البلاط بعد وقت قصير من وفاة جستنيان، وكان وليم قد أدخل هذه المناقشة إلى تاريخ البلقان من خلال دراسته المستقلة لتاريخ بيزنطة بما في ذلك تاريخها القديم، وكان وليم قد قام برحلة عبر جزء من البلقان في بعثته لعام ١١٦٨ .

وقت لاحق، بعد أن استولى الامبراطور الإغريقي باسيل على أراضي شعب البلغار وأخضعه لسلطانه لم يسمح لأحد بالإستيلاء على الأرض أو حراثتها، خاصة في الأقاليم النائية. وكانت هذه الحالة التي سادت في الأقاليم التي جاورت الممالك الأجنبية والتي يتم من خلالها الوصول إلى الأراضي التابعة لهم - وبالتحديد في داشيا المزدوجة - واضحة فيها اليوم. وبما أن المقاطعة مغطاة كلها بالأشجار المثمرة والغابات لا يمكن بالتالي لأحد أن يدخل إلى هناك، حتى وإن كان راغباً في ذلك؛ لأن الإغريق يضعون ثقة كبيرة جداً في العوائق التي تقدمها لهم الطرق الوعرة والتحصينات التي تمنحها أشجار العليق الشائكة، وذلك أكثر من اعتمادهم على قواتهم. وانطلاقاً من هذه السياسة تجدهم قد تركوا منطقة ايبروس Epirus الأولى برية خالية من السكان، وتركوا تلك الغابات المهجورة والبراري خالية تماماً من المؤن والطعام، فغدت لذلك يتعذر المرور بها، بدون دفاعات وحواجز، وجاءت بمثابة القائم بوظيفة العوائق للراغبين بدخولها، وتبدأ هذه المنطقة التي يتحتم على جميع القادة الآخرين اجتيازها عند مدينة دورازو، وتمتد مسافة أربعة أيام إلى الجبال المسماة بجبال البلقان.

وسار الدوق مع فيالقه عبر داشيا المتوسطية والمعروفة أيضاً باسم مواشيا Moesia، ثم هبط بعدما عبر الممرات الضيقة المعروفة باسم ممر القديس باسيل إلى منطقة أكثر استواء منحتهم كميات جيدة من الأطعمة والمؤن، ووصل إلى المدينة الامبراطورية فيلبوبولس، وهي مدينة مزدحمة بالسكان، ومن هناك علم أن الامبراطور سجن هيو الكبير [1] الذي كان أخاً لفيليب ملك الفرنجة مع عدد آخر من النبلاء فسارع إلى إرسال رسل إلى الامبراطور، ورجاه كتابة وشفوياً إطلاق سراح أولئك الرجال مذكراً إيّاه أنهم مكرسين لرحلة الحج، وأنه احتجزهم لديه كأسرى بدون سبب.

وكان هيو الشهير الأول من بين جميع القادة قد عبر جبال الألب إلى ايطاليا، وذهب من هنالك إلى أبوليا Apulia، وقد عبر البحر مع عدد قليل من مرافقيه، وتوقف عند دورازو منتظراً وصول الذين كانوا سيتبعونه، ولم يدر بخلده أن شيئاً مشؤوماً سينزل به وبأتباعه في مملكة الإغريق الذين اعتبروا ممن ينتمي إلى العقيدة المسيحية، غير أن حاكم تلك المنطقة ألقى القبض عليه، وألقاه في السجن حتى يتمكن من تسليمه إلى الامبراطور، وفق إرادة جلالته، وكان الامبراطور يحتجزه كأسير، وكأنه لص أو مجرم، وكان ينتظر وصول القادة الذين

---

(١) يبدو أن هيودي فيرماندويس، الأخ الأصغر للملك فيليب الأول، قد حصل على لقب «الكبير» بالخطأ. ذلك أن حجمه ولا أعماله، كما هو معروف حتى الآن لم تسوغ تسمية كهذه. وتقول آنا كومنينا إنه تصرف بطريقة متعجرفة (انظر أ.س. دويس الألكسياد تضيف آنا كومنينا ص٢٥٢ - ٢٥٣، ٢٦١). وما كتبته آنا كومنينا عن الحروب الصليبية ترجمته إلى العربية ونشرته في كتابي: «الحروب الصليبية».

قيل أنهم قادمون، كي يظهر - إذا نجحوا في الوصول إلى هناك - أنه أطلق سراحه كعربون محبة لهم، وعقد العزم - إذا لم يصلوا - على إبقائه أسيراً مدى الحياة.

٥ - الدوق يرسل مبعوثين عنه إلى الامبراطور ليطالبوه بإطلاق سراح هيو الكبير مع النبلاء الآخرين المحتجزين كأسرى، وتعرض المنطقة بأسرها للنهب والسلب، ووصول قواتنا أخيراً إلى القسطنطينية

كان في هذا الحين يحكم الامبراطورية رجل شرير وماكر اسمه ألكسيوس، كنيته كومينوس، وقد سبق له أن عاش في القصر الملكي حيث تمتع بالسمو، وتولى وظائف كبير الحجاب، العمل الذي ندعوه الحاجب الكبير، ولكونه الثاني في المرتبة بعد الامبراطور رعاه نقفور بونتونيث رعاية كبيرة ورفع من مكانته أيام حكمه، ومع ذلك ثار هذا الرجل غدراً ضد مولاه قبل خمسة أعوام أو ستة من تاريخ قدوم شعبنا، وطرد سيده، واستولى على الامبراطورية، وهو الآن يتمسك بها ويدير أمورها بكل قوة[1].

ووصل مندوبو الدوق إلى الامبراطور، وطالبوه بكل إلحاح - تنفيذاً للتعليمات الصادرة إليهم - بضرورة إطلاق سراح هيو ورفاقه، ورفض الامبراطور هذا المطلب، وأصر على رفضه، ولهذا عاد الرسل إلى الجيش وكان قد اجتاز أدرنة، ووصل إلى مكان استراحة في بعض الأراضي الرعوية، وعندما علم الدوق والقادة الآخرون من رسلهم أن الامبراطور لن يطلق سراح هؤلاء الرجال عرضوا المنطقة بأجمعها للنهب بواسطة فيالقهم وبموافقة عامة على ذلك، وبقوا حيث هم لمدة ثمانية أيام متوالية حتى أنهم دمروا المنطقة تدميراً كاملاً، وعندما سمع الامبراطور بخبر هذه الأعمال، أرسل رسلاً إلى الدوق، وتوسل إليه لوضع حد لأعمال التخريب التي تقوم فيالقه بها، وأعطى ضماناً أنه سيطلق سراح النبلاء كما طلب منه ذلك، وقبل الدوق هذا الإجراء بسرور، ومنع فيالقه من القيام بأعمال نهب إضافية، ثم تقدم على رأس قواته وبرفقتها، وذلك بنظام جيد، ونشر هنالك خيمه، وأقام مع عسكره القوي والكبير معسكره أمام المدينة.

---

(١) يجب أن يكون خمسة عشر عاماً أو ستة عشر عاماً. الامبراطور ألكسيوس الأول ١٠٨١ - ١١١٨، أطاح بنقفور الثالث بوتونيتس وخلفه، وأسس حكم أسرة كومنين وقد كتبت ابنته وصفاً مطولاً لفترة حكمه تحت عنوان: «الالكسياد» (انظر ترجمتها من قبل اليزابث ا.س.دويس «الألكسياد للأميرة آنا كومينا ص٢٥٣ - ٢٥٤) وتوصل خلاندون الذي بحث في التاريخين البيزنطي والنورماندي خلال هذه الفترة، إلى تخيل ألكسيوس بصورة أكثر إيجابية مما وصفه مؤرخو الحملة الصليبية الأولى (انظر ف. خلاندون «تاريخ الحملة الصليبية الأولى حتى اختيار غودفري دي بولليون ص١١٦. وانظر أيضاً ف. خلاندون «بحث حول حكم ألكسيوس الأول كومنين ١٠٨١ - ١١١٨ ص١٧٥ - ١٨٦).

وخرج النبلاء الذين أشير إليهم من قبل - وهم: هيو الكبير، ودروغو دي نسل Drogo de Nesle ووليم النجار، وكليربولد دي فندويـل Clarebold De Vendeuil ، مـن المدينـة لمقابلة الجيش، وذهبوا إلى المعسكر لرد الشكر على إطلاق سراحهم، واستقبلهم الدوق بمودة زائدة، وتبجيل لائق، وأبقاهم معه لفترة من الزمن مظهراً المودة والعطف لهم مثل أخ في المحنة التي تعرضوا لها، وعانوا منها باجحاف.

٦ - الامبراطور يدعو الدوق إلى زيارته؛ الدوق يرفض الدعوة ونشوء عداء خطير بينهما؛ الجيش ينقل بخداع من الامبراطور إلى مكان أكثر تقييداً.

وما كـاد يمضي زمن يسير على تعانقهم، وانعاش أنفسهم بالأحاديث الممتعة حتى وصل الرسل من لدن الامبراطور، وحمل هؤلاء الرسل أوامر تطلب من الدوق الإسراع إلى حضرة الامبراطور مع عدد قليل من مرافقيه، وتشاور الدوق مع أصدقائه وبناء على ذلك قرر تأجيل الذهاب، وأجج هذا غضب الامبراطور فرفض منح سوق للفيالق التي أتت مع الدوق، ونظراً للحاجة العامة، ولقلة المؤن اجتاح القادة الأحواز من جديد بموافقة عامة، وذلك بقوات كبيرة من الرجال المسلحين، ودفعوا أمامهم القطعان وجميع أنواع الحيوانات من كل مكان، وجلبوا معهم مؤناً ضخمة من كافة الأنواع إلى المعسكر، حتى توفرت كميات هـائلة من المواد لدى جميع العامة من الناس إلى حدّ التخمة. وعندما رأى الامبراطور أن المنطقة قد تعرضت بأسرها للحريق، والسلب والنهب، وحيث أنه خشي من نشوء كارثة أسوأ مما حدث، أمر بإعادة السوق، وبما أن يوم ميـلاد الرب المقدس قد حلّ أثناء ذلك، فقد أمر القادة، بدافع توقير الدين، بأن يمتنع الجند خلال تلك الأيام الأربعة عن جميع أعمال النهب وانتهاك حرمة أي شيء، ومرّ موسم العيد بهدوء وسلام تأمين، ووصل رسول من عند الامبراطور بعد انتهاء العيد، مطالباً بأقوال سليمة، وبنفاق خفي، بأن يقود القادة الجند عبر الجسر الواقع بعد القصر المسمى بلاشرين Blacherane ، وأن يسكنوا في القصور المتعددة القائمة على طول شواطىء البوسفور، وتم إقناعهم بسهولة لعمل ذلك، لأن اقتراب فصل الشتاء كان يضايقهم كثيراً، وكانت العواصف الممطرة التي لم يسبق لها مثيل عنيفة جداً، إلى درجة أن ماء المطر كان ينفذ من قماش الخيم، وكان هنالك خطر فساد الأطعمة والمعدات بتعرضها المستمر للرطوبة، ولم يكن باستطاعة الإنسان والحيوان أو أي كائن حي، أن يتحمل قوة البرد الخارقة والثلج المتوالي، لفترة طويلة، هذا إذا لم نقل شيئاً عن الرطوبة المستمرة والمشقات التي عذبتهم بشكل لا يحتمل.

وعلى الرغم من أن الامبراطور بدا متعاطفاً مع الحجاج بأقواله، فإن نيته الحقيقية

كانت مختلفة تماماً، فقد كان دافعه الحقيقي لهذا الإنتقال، هو أن حرية الفيالق ستتحدد عندما يتم تقييدها في مكان محصور يصبح تحركها فيه محدوداً، وستكون قوته أكثر فعاليه في قمع هذه الفيالق والتحكم بها، ولكي يتم فهم هذا كله بشكل أفضل، علينا أن نقدم في هذه المرحلة، بعض الحقائق حول المدينة المذكورة آنفاً.

٧ - وصف موقع القسطنطينية [١] الدوق يرسل مندوبين عنه إلى الامبراطور. جيشنا يعاني من كمائن فجائية نصبها الإغريق.

يقع البحر [الأسود] - الذي أخذ اسمه من المنطقة المتاخمة - إلى الشمال من القسطنطينية وعلى بعد ثلاثين ميلاً منها تقريباً، وينحدر من هذا البحر جزء محدد على شكل نهر، نحو الجنوب، عبر ممرات ضيقة، ويصب هذا الفرع بمنحى مستقيم، لمسافة مئتين وثلاثين ميلاً، ويمر بين سيستوس Sastos وأبيدوس Abydos وهما مدينتان قديمتان جداً، تقع إحداهما في أوروبا بينما تقع الأخرى في آسية، وهو يصب في النهاية في البحر المتوسط، وبما أنه ينبع من البحر الأسود، فإنه يجري لمسافة ثلاثين ميلاً، بتدفق مستمر من الممر الأول الذي دخله نحو القسم الغربي، مشكلاً خليجاً طوله خمسة أميال أو ستة تقريباً، وبعرض ميل واحد، ويسمى البحر الضيق هذا الذي يمتد لمسافة مئتين وثلاثين ميلاً من البحر الأسود إلى البحر المتوسط باسم البوسفور، أو بروبونتس Proponis أو هللسبونت Hellespont، ويقدم سولينوس Solinccs دليلاً على هذا في الفصل السابع عشر من كتاب «الذكريات» وقد كان شاهد عيان عليه، وهو كالتالي: «يبدأ الخليج الرابع لأوروبة عند هللسبونت، وينتهي عند مدخل بحيرة مايوتس Maeotis، وينحسر العرض الكامل لهذه الكتلة من الماء، التي تفصل أوروبة عن آسية، لتصبح مضيقاً عرضه سبعة «ستادي Stadü»، وهذا هو الهللسبونت الذي اجتازه اكسرسس (كسرى) بجسر أنشأه من الزوارق، ويجري النهر من هنا كقناة ضيقة إلى بريابوس Priapus، وهي مدينة آسيوية، كان الإسكندر المقدوني قد استولى عليها عندما مرّ بها، حيث كان متلهفاً لإحتلال العالم، ثم يتسع من جديد عند هذه المرحلة ليصبح امتداداً واسعاً جداً من المياه فيشكل البرونتس، ثم ما يلبث أن يضيق إلى عرض خمسمائة خطوة، فيصبح بوسفور تراقية، حيث نقل داريوس قواته عبره» [٢].

---

(١) يعيد وصف القسطنطينية إلى الذاكرة أوفيد وسولنوس وأورسيوس الذين ينقل وليم عنهم، عن أوفيد:

Tristia, Epistulate ex ponto and metamor phoses.

وكان وليم قد قام بزيارة إلى المدينة قبل أن يكتب هذا المقطع، وهي حقيقة يعكسها في إشارته إلى قلعة بوهيموند.

(٢) سولنوس XII Polyhistor

وتبدو هذه الأسماء جميعاً . وكأنها نشأت عن حكايات الشعراء القدامى ، فالبوسفور يسمى بهذا الأسم لأنه كما يقال ظهر جوبتير ـ كبير آلهة الرومان ـ بمظهر الثور ، ونقل عبر مياهه يوربا Eoropa ابنة أغينور Agenor ، أما اسم هللسبونت فاشتق من اسم هيلي Helle ، وهي أخت فرايكس Phryxis ، وقد عبرت ـ كما تحكي الأسطورة ـ ذلك البحر مع أخيها على ظهر كبش ، ويشكل هذا البحر الحدّ بين أوروبة وآسية ، ويسمى باللغة الدارجة باسم ذراع القديس جورج ، وأما بالنسبة إلى طوله فإنه كما ذكرناه من قبل ، لكنه يختلف بالعرض من مكان إلى آخر ، وينحسر الآن ، حسب موضع وتكوين الأراضي المتاخمة له ، إلى عرض ميل واحد ، ويمتد من جديد ثلاثين ميلاً أخرى أو أكثر ، ويشكل الخليج الذي يمتد إلى الغرب ، كما تم ذكر ذلك ، واحداً من أهم المرافىء في العالم ، وله طريق واسعة ، وتقع المدينة ، التي نحن بصدد الحديث عنها بين هذا الخليج وبين البوسفور ، في داخل زاوية كما كانت من قبل ، ولقد كانت تدعى في الماضي باسم بيزنطة ، وهي بقعة منعزلة ، وآخر مدينة في منطقة تراقية ، وحيث أنها أصبحت أكثر بروزاً وشهرة في ظل الإسم الأكثر حظوة للإمبراطور الذي وسعها ، فقد أصبحت عاصمة للأقاليم ، ومقراً للامبراطور ، تغار من اسم روما الأعلى مقاماً منها ، وذلك على الرغم من علو منزلتها وتفوقها ، وتبعاً للرواية الموجودة في الباب الثالث من كتاب بول أورسيوس Paul Orosius [1] ، أسس باسانيوس ملك اسبارطة هذه المدينة ، وهي مدينة على شكل مثلث له ثلاثة أضلاع غير منتظمة ، يمتد أولها من الزاوية الموجودة بين البحر والهللسبونت ، حيث تقع كنيسة القديس جورج المسماة باسم مانغانا Mangana ، ويمتد من هناك بشكل مستقيم على طول المرفأ حتى القصر الجديد المسمى بلاشرين ، ويمتد الضلع الثاني على طول الهللسبونت من دير القديس جورج نفسه وحتى البوابة الذهبية ، وينساب الضلع الثالث عبر منطقة مستوية من تلك البوابة بالذات وحتى موقع قصر بلاشرين ، المذكور تواً ، وهو ضلع محصن تحصيناً جيداً بالأسوار والأبراج ومختلف أنواع الدفاعات الخارجية ، ويصب في الميناء نهر ، هو نهر يكون صغيراً في الصيف ، في حين تزيده الأمطار في الشتاء إلى حد يصبح فيه الجسر عليه ضرورياً .

وبعدما عبر جيشنا هذا الجسر ، أخذ في إعداد الأماكن التي خصصت له في بعض الأبنية الكثيرة جداً ، والقائمة على امتداد حواف البوسفور بين مياهه ومياه البحر الأسود ، وبينما كان الدوق مقيماً هناك ينتظر وصول القادة الآخرين ، تلقى رسائل متوالية من الإمبراطور يطلب فيها حضوره إليه ، ومع ذلك كان غودفري يرتاب بصداقة الامبراطور

---

(١) أورسيوس : ١٣/١١١ .

ويخشى من التداول معه، مما جعله يكره الإستجابة للدعوة، هذا من ناحية، وشعر من ناحية أخرى أنه سيكون فظاً، ومخالفاً لقوانين اللياقة إن لم يرسل إليه - على الأقل - أشخاصاً مناسبين يمثلونه، ما دام هو لا يرغب بالذهاب شخصياً إليه، وبناء عليه أرسل النبيل مديرمونتغيو وبلدوين دي بورغ، وهنري دي استش، ليقدموا اعتذاراته إلى الامبراطور، وعندما أدرك ألكسيوس أن قرار الدوق ثابت، ولا يمكن اجباره بأية وسيلة على القدوم إلى حضرته منع السوق من جديد، ومع ذلك، حتى هذا الإجراء لم يكن ناجعاً في إلانة عزيمة الرجل المصمم، وبناء عليه اتخذ ألكسيوس إجراءات أقسى، وأرسل خلسة رماة السهام في زوارق عبر النهر إلى الموقع الذي كانت تعسكر فيه قوات الدوق، ومع بزوغ شمس اليوم الأول، أطلق رماة السهام سهامهم، وقتلوا عدداً كبيراً من رجالنا، ليس الذين كانوا قد نزلوا إلى الشاطى فحسب، بل الآخرين أيضاً، ممن كان يطلّ من النوافذ.

٨ - الجيش يعود إلى المدينة، وحدوث معركة كبيرة، وإلحاق مذبحة مروعة بالإغريق.

عندما ذكرت هذه الحادثة إلى الدوق، استدعى زعماء الناس على الفور، من أجل التداول، وبناء على رأي من الجميع أمر أخاه أن يأخذ كتيبة من الجند، وأن يستولي بسرعة على الجسر الذي سبق للجيش أن عبره، خشية أن يتم قطعه في تلك المناطق الضيقة، حتى لا يتكبد خسائر كبيرة في الأعداد، وأسرع بلدوين النشيط على رأس كتيبة قوامها خمسمائة من الفرسان نحو الجسر، واستولى عليه بالقوة، ذلك أنه لم يكن موقف الذين كانوا قد نزلوا من القوارب وحده هو الأكثر خطورة فحسب، بل إن المدنية بأسرها كانت تتسلح الآن بطريقة عداونية ضد شعبنا.

وأدرك المسيحيون أن خصومهم كانوا يعدون إعدادات جدية وحماسية ضدهم، وأن أهل المدينة كانوا يمسكون بالأسلحة كالجسد الواحد لإبادتهم، ولذلك أحرقوا جميع القصور التي يقيمون فيها، على امتداد سبعة أميال أو ستة، على طول البوسفور، أحرقوها جميعاً بدون استثناء سواء أكانت ملكيات خاصة أو ملكيات تابعة للامبراطور.

وما أن استدعت أصوات الأبواق الحادة وصرخات النفير الجند من أماكن وجودهم المختلفة، التي كانوا قد مضوا إليها لنيل قسط من الراحة، حتى أمسكوا أسلحتهم دونما تأخير، وتبعوا الدوق بدون تردد، فقد كان يسرع الخطا نحو الجسر بتعبئة المعركة، التي جرى تشكيلها من قبل، حيث لاحظ برعب الذين كانت لديهم خبرة عسكرية كبيرة أنه إذا استولى العدو على الجسر، فسيحصر الجيش في مكان ضيق، ويكون عرضة لخسائر كبيرة،

وهكذا ركزوا قوة الفرسان بأكملها عند تلك النقطة دون انتظار وصول فرق الرجالة، وكما أسلفنا كان بلدوين ـ أخو الدوق ـ قد أسرع إلى الأمام، واستولى على الجسر على الرغم من جهود العدو، وأجبره على الفرار، وبات الآن يسيطر على الضفة الثانية من النهر لمصلحة جيشنا:

وهكذا عبر الدوق والحشد بأكمله مع الأمتعة وجميع المعدات النهر بدون صعوبة، ومن جديد اتخذ موقعاً أمام المدينة في الريف الواسع، الذي امتد في جميع الإتجاهات بلا عائق، وعند المساء حصل اشتباك في المنطقة الواقعة بين كنيسة الشهيد المقدس كوسمو Cosmo ودامين Damien المسماة الآن باسم قلعة بوهيموند وقصر بلاشرين الجديد، الذي يقع في زاوية المدينة قرب الميناء، وقتل في هذا الإشتباك أعداد كبيرة من الناس، وعندما لم يعد الإغريق قادرين على تحمل وطأة المعركة، اضطروا إلى الإنسحاب إلى داخل المدينة.

وعندئذ عسكر جيشنا المنتصر في الجزء الأكثر مواءمة من الميدان الذي تم كسبه بشجاعة، ولو لم يكن هبوط الظلام السريع قد أنهى الصراع بين الجيشين، لكان ممكناً لسكان المدينة أن يندفعوا من جديد تحثهم على ذلك كراهتهم، وشعورهم بالغضب، ولربما تلت معركة ثانية أعنف من الأولى، فكانت الخسائر الناتجة بالأرواح أكبر بكثير.

لقد تم هنا لأول مرة اكتشاف النية الشنيعة للامبراطور بوضوح ودون إمكانية للشك، وذلك في إصداراه الأمر لنقل المعسكر، أي كان بإمكانه حصر الناس الذين كان يرتاب بهم داخل مجال ضيق، وكأنهم في داخل سجن.

٩ ـ الناس يهرعون إلى حمل السلاح، ويدمرون المقاطعة بأسرها. ينتج عن ذلك توفر كميات كبيرة من الأطعمة في المعسكر.

وما أن ظهر النهار حتى صدرت الأوامر، وأعلنت على الجميع، قاضية بأن يثوب الناس إلى أسلحتهم، وجرى إرسال عدد من الرجال، تحت لواء عدد من القادة الذين جرى تكليفهم خصيصاً، للقيام بالتطواف في الريف المحيط بالمدينة، وجلب المؤن التي كان الإمبراطور قد منع بيعها، وقضت الأوامر بالحصول عليها عن طريق الشراء أو بالقوة، وبعدم استثناء المواشي وجميع أنواع الحيوانات والمحاصيل، وكافة أنواع المؤن والحاجيات الأخرى، وتوجب في الوقت نفسه على بقية الجيش المكوث مع الدوق والقادة الآخرين لحراسة المعسكر، ذلك أنهم بعدما اكتشفوا خيانة الإمبراطور وشعبه لهم، كانوا يدافعون عن أنفسهم ضد مخاطر هذه القلة المخادعة، بكل الوسائل الممكنة.

وهكذا خرجت فرقة كبيرة مؤلفة من الفرسان والجنود الرجالة في حملة تطواف بحثاً

عن الطعام، فنهبت الحقول لمدة ستة أيام متوالية، داخل دائرة يبلغ قطرها ستين ميلاً، وجلبت في اليوم التاسع إلى المعسكر كميات هائلة من المؤن، وفي الحقيقة كانت المواشي وبقية أنواع الحيوانات وبهائم الحمولة كثيرة لا تحصى، هذا بصرف النظر عن العربات التي تكبدت مشقة كبيرة في جلبها إلى المعسكر.

١٠ - وصول رسول من بوهيموند ليتوسل إلى الدوق بعدم الذهاب إلى الإمبراطور وجواب الدوق لبوهيموند.

وبينما كانت هذه الوقائع تحدث في المعسكر، وصل إلى الدوق رسول من بوهيموند، حاملاً رسالة من ذلك الأمير جاء فيها ما يلي: «اعلم، يا خير الرجال، أن عليك أن تتعامل مع أسوأ أنواع البهائم، مع رجل شرير جداً، هدفه الخداع دوماً، وهمه أن يطارد - بكل وسيلة ممكنة - جميع الشعوب اللاتينية حتى الموت، وسيثبت حكمك صحة أحاسيسي هذه تجاهه، فلقد عرفت أن حقد وكراهية الإغريق أمران متأصلان للإسم اللاتيني، لذلك اترك المدينة [القسطنطينية] إذا كان ذلك يسرك، واذهب إلى المناطق المحيطة بأدرنة أو فيلبوبولس، ودع هناك الجند الذين عهد إليك الرب بقيادتهم، ليجددوا قواهم بالراحة والطعام في أراضٍ خصبة، وسأحضر حالاً مع بداية الربيع، بمشيئة الرب، لأقدم لك يا مولاي مساعدتي ومشورتي بحب أخوي، ضد ملك الإغريق الشرير».

وقرأ الدوق الرسالة، وبعد ما تمعن تماماً بما جاء فيها وتداول مع القادة، أجاب شفوياً وكتابياً بالرسالة المنطقية التالية[1]:

«أنني أعرف أيها الأخ الحبيب، كما جاء في الأخبار منذ زمن طويل، أن شعب الإغريق الماكر والمشبع بالكراهية لشعبنا، على استعداد دائم لإضطهاده، وإذا كنت قد افتقرت فيما مضى إلى أي جزء من تلك المعرفة، فقد اكتسبتها بالتجربة يوماً بعد يوم، وأنا لا أرتاب في أنك ثائر ضدهم بغيرة محقة، وأن أحاسيسك الغريزية حول مكرهم صحيحة، لكن بما أن أمامي الخوف من الرب، وهدف حلتي، فإنني أمتنع عن توجيه السلاح ضد شعب مسيحي، وهو سلاح موقف على مقارعة الكفرة، ومع ذلك، إن الجيش - حبيب الله - الذي معنا، ينتظر قدومك بتلهف زائد، كما أنه ينتظر قدوم الأمراء الآخرين، المكرسين للرب».

(١) يحكم وليم من جديد وصف ألبرت للتبادل الديبلوماسي. ويخرق صحيح وصف ألبرت لبوهيموند أنه كان أميراً ثرياً جداً (أنظر تاريخ ألبرت في مجموعة راشيل لتواريخ الحروب الصليبية - التواريخ الغربية: ٣٠٩/٤).

١١ ـ الامبراطور يرسل ابنه جون بروفيروجنتس [١] رهينة، ويدعو الدوق إلى القدوم إليه. ذهاب الدوق وتبنية من قبل الامبراطور، وإعادة السلام بينهما.

أصيب الإمبراطور وأسرته وبلاطه الآن بقلق شديد، ورأى أن البلد كان معرضاً بأسره للنهب، وأصبحت معاناة شعبه لا تحتمل، علاوة على ذلك عرف أن الرسل كانت قد أتت من بوهيموند، وأن هذا الأمير قادم على اثرهم دونما تأخير، وخشي من أنه إذا ما اجتمع الأمراء القادمون قبل أن يتمكن من النجاح في المصالحة مع الدوق، فلسوف يتحدون كرجل واحد لتدميره، ولذلك أرسل رسله للمرة الثانية إلى الدوق ليتوسلوا إليه كي يزوره وحثّه على الذهاب إلى القصر بدون تردذ، حالما يكون قد تسلم ولده جون بروفيروجنتس الذي بعث به رهينة.

وسرّ القادة لهذا الإتصال، وجرى إرسال مدير مونتغيو وبلدوين دي بورغ ـ وهما رجلان لهما مكانة سامية ـ لاستقبال ابن الامبراطور، وقد أوكلت الرعاية به آنذاك إلى بلدوين أخي الدوق، وما أن جرى تنفيذ هذا العمل، حتى ترك الدوق أخاه مسؤولاً عن الجيش، وتوجه نحو المدينة برفقة القادة الآخرين، وقدم نفسه إلى الامبراطور، الذي طالما رغب بحضوره منذ زمن بعيد، واستقبله الامبراطور بحفاوة كبيرة، وكان محاطاً برجال مشهورين، كلهم تواق إلى رؤية الرجل الذي كانوا قد سمعوا الكثير عنه، والذي كانوا قد تعرفوا عليه بشكل ما بعض المعرفة.

وجرى الإحتفاء بالنبلاء الملازمين للدوق، وحياهم الامبراطور أيضاً، وحسبما قضت مرتبة كل منهم، تلقوا قبلة المودة والسلام، وكان الإمبراطور يستفسر باهتمام عن صحة الجميع، داعياً كل منهم باسمه، وأظهر نفسه دمثاً ولطيفاً مع الجميع، حتى يتمكن من كسب مودتهم، ثم قال مخاطباً الدوق: «لقد سمعنا أيها الدوق الحبيب، أنك الأمير الأقوى من بين جميع أمرائك، ونحن لا نجهل المشروع الورع الذي تتعهد بتنفيذه بغيرة، وأنت متسلح بالحماسة الجديرة بالثناء الخالص، والأكثر من ذلك نشرت الأخبار المتواترة في كل مكان حقيقة كونك رجلاً له عزيمة راسخة وعقيدة صادقة، وهكذا، نلت ـ كما تستحق حياتك النبيلة ـ مودة الكثيرين، حتى أولئك الذين لم يشاهدوك.

ونرغب نحن أيضاً، أن نحيطك بكل روابط المودة والحب، وأن نظهر لك حباء خاصاً، ولذلك قررنا اليوم أن نتبناك، ونجعلك بمثابة ولد لنا، بحضور الرجال العظماء

---

(١) كان جون بورفيرو جنتس (أي المولود في الغرفة الأرجوانية) ولي عهد العرش الامبراطوري، وقد خلف أباه في ١١١٨.

لقصرنا المقدس، ونضع امبراطوريتنا تحت سلطانك، حتى تبقى سليمة من خلالك، على مرأى من هذا الحشد المجتمع هنا، وللأجيال القادمة».

بهذه الكلمات، وتمشياً مع مراسم البلاط التي تمّ التقيد بها دائماً في إجراءات التبني من هذا النوع، جعل الدوق يرتدي الأثواب الإمبراطورية، واتخذه بمثابة ابن له، حسبما كانت عادة الدولة، وهكذا عاد السلام والوداد بينهما بشكل كامل.

١٢ - الدوق يستأذن لبعض الوقت، ويرحل محملاً بالهدايا. تزويد الحجاج بسوق. عبور فيالق الدوق البوسفور، وعسكرتها في المنطقة القائمة حول خلقذون.

عندما انتهت هذه المراسم، فتح الامبراطور خزينته للدوق وأصحابه، ومنحهم هدايا رائعة، وكانت هذه الهدايا من الذهب والجواهر، والمنسوجات الحريرة والأباريق النفيسة، وقد فاقت بجمالها وأناقتها وصنعتها وقيمة مادتها كل ما تصوره الإنسان [١]، ذلك أن الامبراطور قد رغب في اثقال الدوق بالهدايا إلى الحد الأقصى مما سمح به كرمه الكبير، بغية نيله إعجابه بمبلغ كنوزه التي لا تضاهي، وسخاء جلالته الذي لا يوازي، ولم يتم إظهار هذا السخاء للدوق مرة واحدة فقط، بل أرسل له كل أسبوع من يوم عيد التجلي وحتى يوم صعود الرب كميات من النقود الذهبية من القصر الملكي، مما كان يتطلب أربعة رجال أقوياء لحملها على أكتافهم، إضافة إلى عشرة مكاييل من الفلوس النحاسية، هذا ولم يحتفظ الدوق بشيء لنفسه، بل منح النبلاء والعساكر كل شيء بسخاء كلٌّ حسبما تطلبت حاجته.

ثمّ استأذنوا الامبراطور بالإنصراف لبرهة قصيرة، وعادوا إلى المعسكر، وآنذاك تمت إعادة جون - ابن الامبراطور الذي احتفظ به في المعسكر كرهينة حتى عودة الدوق - إلى أبيه مصاحباً بحرس لائق ورعاية وتكريم.

وعندها أصدر الامبراطور مرسوماً عاما قضى بتزويد جيش الدوق بجميع مستلزماته بسعر عادل، ووزن صحيح، وأعلن أنه سينزل عقوبة الموت بكل من يخالف هذا الأمر الرسمي أو لا يلتزم ببنوده، وبالمقابل منع الدوق عن طريق صوت المنادي المخالفات وأمر بعدم ارتكاب أي عنف أو إساءة في معسكره تجاه رجال الامبراطور، وذلك تحت طائلة عقوبة الموت، وهكذا واصل الجميع البيع والشراء بتناسق تام. وبتعاون متبادل.

وعلم الدوق - في حوالي منتصف شهر آذار - بتتابع وصول القادة الآخرين، وأن

(١) يستبدل وليم هنا الأنسجة الحريرية والمزهريات النفيسة بالبغال والخيول التي أرخت خيال ألبرت كهدايا مناسبة من الامبراطور إلى القادة النبلاء وربما هذا انعكاس آخر للتغيير الإجتماعي الذي حدث في القرن الثاني عشر.

هؤلاء القادة كانوا يمركزون جيوشهم في تلك الأحواز، وبناء عليه، واستجابة منه لاقتراح الامبراطور، لكن بعد ما نال موافقة شيوخ شعبه، أمر بإعداد المراكب لعبور البوسفور، وإثر ذلك أقام معسكره في خلقذون في بيثينا التي كانت المقاطعة الآسيوية الأولى التي قدم إليها.

ففي مدينة خلقذون هذه في بيثينا عُقِد في أيام البابا ليو الأكبر والامبراطور مارتن المجمع المسكوني الرابع، الذي ضم ستمائة وستة وثلاثين راهباً، للتصدي للبدع التي جاء بها الراهب أوطيسوس Eutyches والراهب ديسقرس Dioscuras بطريرك الإسكندرية [١]، وهذا المكان قريب جداً من القسطنطينية، ولا يفصله عنها سوى البوسفور، وكان بإمكان كل إنسان رؤية المدينة الامبراطورية منه، لقرب المسافة بينهما، علاوة على ذلك لقد كان بإمكان الذين تطلبت أعمالهم الإنتقال إليها بشكل اضطراري، الذهاب إليها والعودة إلى المعسكر ثلاث مرات أو أربع في اليوم الواحد.

وفي الحقيقة حين أغوى الامبراطور الدوق بأقواله المقنعة ليقود جيشه عبر البحر بشكل أسرع مما كان قد نوى، لم تنبع رغبته عن إخلاص وعقيدة صافية، بل كان الأمر على العكس، فقد قهر الدوق بمراوغته المعتادة حتى لا تتحد قواته مع القوات الأخرى لدى وصولها، وأجبر الآخرين بالبراعة ذاتها حين وصلوا على الإنتقال الواحد تلو الآخر، وهكذا لم يجتمع جيشان مطلقاً أمام المدينة.

١٣ ـ بوهيموند يعجل قدومه. وصف النبلاء الذين كانوا في موكبه. الامبراطور يقدم خلسه على إعداد خطط للإيقاع به.

هكذا كان هو الحال آنذاك بين الامبراطور والدوق في القسطنطينية، وكان في غضون ذلك اللورد بوهيموند بن روبرت غويسكارد أميرتورانتو [٢] قد عبر البحر

---

(١) كان مجمع خلقذون رابع المجامع المسكونية وقد عقد في سنة ٤٥١ م.

(٢) كان بوهيموند، الشخصية الأكثر بروزاً ونشاطاً في الحملة الصليبية هو الابن الأكبر لروبرت غويسكارد من زوجة أولى هجرها من أجل سيغيلغليتا الكريمة المحتد، وقد انتقل الميراث لروجر بن سيغيلغيتا هذا وقد سبب بوهيموند، الذي يبدو أنه ورث جميع براعة والده، المتاعب لأخيه من أمه وانتزع منه بعض التنازلات عن الأراضي وكان لقب «أمير تورانتو» كما يبدو تلفيقاً لاحقاً، واحتفظ في هذا الوقت بباري فقط، وقدمت له الحملة الصليبية فرصاً أكبر، وكانت صفاته القيادية حازمة جداً بحيث تمكن من اغواء العديدين من جند أخيه ليتبعوه إلى الشرق، وربما كانت مجموعته المجموعة الأصغر بين الفرق الرئيسة للجيش الذي كون الحملة الصليبية الأولى، وتلومه آنا كومينا لفقره، إلا أن لومها عمل بحد ذاته ثناء على مقدرته (انظر الدراسة المختصرة ـ لكن الرائعة ـ التي قام بها ر.ب.يوديل بعنوان: «بوهيموند الأول ـ أمير أنطاكية».

الأدرياتيكي قبل حلول فصل الشتاء غير الموائم، وكان قد وصل إلى دورازو مع جميع قواته، وتقدم من هناك عبر براري بلغاريا مع الذين كانوا يتبعونه، وكان العديد من النبلاء الأقوياء من ايطاليا ومن البلدان الأخرى قد التحقوا بجيشه، ولقد احتفظنا بأسماء أعداد من هؤلاء حتى يتم ذكرهم إلى الأبد وهم: تانكرد بن وليم ماركيسوس، الأمير رتشارد بن وليم الذراع الفولاذي أخو روبـرت غـويسكـارد، وريـنـولـف أخـوه، وروبـرت أوف أنـزي، وهيرمان بن رالف، ورتشارد بن الكونت رينولف، وكونت روزينولو مع إخوانه، وبيولودي تشارترز، والبيرد دي كاغنانو، وهمفري أوف مونتسكاغليسو [١]، ولقد وصل هؤلاء جميعاً تحت رايه بوهميوند إلى مدينة كاستوريا Castoria حيث احتلفوا بعيد ميلاد الرب.

لم تقدم المدينة في هذا المكان الأسواق للناس الذين كانوا يمرون بها، ولذلك اضطروا للإستيلاء بالقوة على القطعان والحيوانات والأشياء الضرورية الأخرى للطعام، وسبب هذا خسارة كبيرة للسكان الذين ازدروهم وكأنهم من الأعداء، وبعدما استأنفوا زحفهم من هنا وصلوا إلى منطقة غنية جداً تُسمى بيلاغونيا Pelagonia حيث عسكروا هناك، وعلموا في ذلك المكان أنه كانت هنالك مدينة مجاورة محصنة يسكنها الهراطقة وحدهم [٢]، فزحفوا نحوها بكل سرعة ممكنة، واستولوا عليها بقوة السلاح، وأحرقوا الأبنية وقتلوا سكانها إما حرقاً بالنار أو قتلاً بالسيف ونقلوا معهم كميات هائلة من الغنائم والأسلاب النفيسة.

وعندما سمع الإمبراطور أن فيالق بوهيموند كانت تتقدم، أصدر أوامره سراً إلى قـادة جيـوشـه الذيـن كـان قـد بعـث بهم إلى المعسـكرات الشتـويـة في تلـك المنطقـة بالذات، بمسايرة القوات المسيحية باستمرار وجنباً إلى جنب حتى نهر فاردارVardar، وأن يكون برفقتهم جميع القوات المتوفرة في تلك المنطقة، وأمرهم أن يحاولوا شن الغارات المفاجئة المتوالية على الجيش المتقدم، كلما سنحت الفرص، سواء في الليل أو في النهار، لا فارق أكان

---

(١) يتبع وليم هنا المؤلف المجهول صاحب أعمال الفرنجة. ويمكن لتعريفه لوليم، أخو روبرت غويسكارد، على أنه «Ferrebrachia» أي: الذراع الحديدي، أن يتضمن على صلة أكثر وثوقاً مع المسائل الإيطالية الجنوبية أكثر مما تم افتراضه عادة، ولم يتم تحديد «روسينولو» بالتأكيد، كون أماكن عديدة في فرنسا وفي إيطاليا لها أسماء متشابهة، وقبل آخرون مطابقات يوديل (أنظر أيضاً بيترايس أ. ليز «تاريخ أعمال الفرنجة لمؤلف مجهول ص١٠٦ ـ ١٠٧).

(٢) لم يتم التحقق من كان هؤلاء الهراطقة بشكل يقيني، واعتقد خالادون أنهم كانوا البولسيون، وهي مجموعة مانوية. (الحملة الصليبية ص١٣٥) ومن ناحية ثانية، فإن هاغنمير ميال لقبول رواية بالدرك أنهم مثلوا عناصر عديدة بما في ذلك اليهود والمسلمين، الذين لم يرتبطوا بالمسيحية الأرثوذكسية الاغريقية أو اللاتينية (هـ. هاغنمير. محقق «تاريخ أعمال الفرنجة لمؤلف مجهول ص ١٦٠ الحاشيتان ٤٧ ـ ٤٨).

ذلك سراً أو علانية، فقد كانت لديه هواجس شديدة ومخاوف من قدوم بوهيموند، لأنه سبق له وعانى الكثير منه ومن والده في الفترات المنصرمة [1]، أضف إلى هذا لما كان الكسيوس رجلاً ماكراً ومخادعاً وحاذقاً تماماً، وقادراً على إخفاء مقاصده وحجب نواياه، فقد أرسل بعضاً من نبلاء أسرته ورجالاته للإجتماع بذلك الرجل الشهير، وأمرهم بمخاطبته بكلمات مهدئة مطمئنة، مخفين ببراعة المكر الحقيقي، وببذل كل جهد ممكن لخداعه، وكانت فحوى الرسالة المكتوبة التي بعثها إليه والرسالة الشفوية كما يلي:

١٤ ـ رسالة الامبراطور ألكسيوس إلى اللورد بوهيموند. جيش الامبراطور يشن هجوماً سرياً على معسكر بوهيموند. القاء القبض على أسير تولى كشف أسرار خطط الامبراطور الشريرة.

«إن جلالتنا التي يحميها الرب، قد علمت بدون أدنى شك، أنك أمير عظيم وقوي ولامع، وأنك أيضاً ابن أمير عظيم وقوي لا يعرف التعب، ولقد قدرناك حق قدرك بكل مودة ورضى وكما تستحق فضائلك، وذلك على الرغم من أننا لم نرك شخصياً حتى هذا اليوم [2]، ولقد علمنا أنك أوقفت نفسك، بكل طاعة وورع، على خدمة الرب، وأنك التحقت لهذا بالأمراء الآخرين المكرسين لخدمة الرب للقيام مثلهم برحلة الحج، وبناء عليه إن من مقاصدنا أن نزيدك حباً وإجلالاً عن ذي قبل، وأن نحوطك دائماً بعهدتنا ورعايتنا، ولذلك [إننا نتوسل إليك] أيها الصديق المحبوب أن توعز إلى الناس الذين يتبعونك، بتوقير رعيتنا، وبإيقاف أعمال العنف والنهب والحرق، وأن تقدم إلى حضرتنا بكل سرعة ممكنة حتى تحظى، وأنت متحرر من كل الهموم، بالجوائز والعطايا العديدة التي ننوي منحك إياها، ولقد أصدرت الأوامر إلى حاملي هذه الهدايا بالعمل على تأمين الأشياء الضرورية لجيشك بسعر عادل، وأن يستمر ذلك فلا تنقطع المؤن والسلع ولا تتوقف».

وعلى الرغم من أن أقوال الامبراطور قد بدت بالظاهر على أنها تشتمل على الكثير من

---

(١) كان لدى روبرت غويسكارد خطط متطورة بشأن شبه الجزيرة اليونانية قبل وقت طويل من زمن ألكسيوس، وظهر فيما مضى أنه يمكن ترتيب زواج بين ابنة غويسكارد وابن الامبراطور، إلا أن ثورات القصر في عام ١٠٧٨ و ١٠٨١ أنهت هذه الآمال وتلتها الحرب في ١٠٨٠ ـ ١٠٨٥. وترك بوهيموند مسؤولاً عن قوات والده عندما اندفع أبوه لمساعدة البابا غريغوري ضد هنري الرابع، هذا، ولم يكن قادراً على صد قوات ألكسيوس المتفوقة، وعلى الرغم من أنه كان هنالك أمل بالنجاح عندما عاد والده، فإن وفاة الأخير في عام ١٠٨٥ أنهت تلك المغامرة (انظر يوديل «بوهيموند الأول ص٢٣ ـ ٢٤»).

(٢) لقد تواجها أكثر من مرة في ميدان القتال ويتوسع وليم هنا كما فعل في أماكن أخرى بالحديث عن الاتصالات الدبلوماسية.

المودة، فقد كانت مشحونة بالسم، غير أن بوهيموند الذي كان رجلاً حكيماً وداهية، وكان مدركاً حق الإدراك حقد الامبراطور، أخفى أحاسيسه، وتصرف بالحذر اللائق، وكرر شكره على الكياسة واللطافة والكرم الذي أبداه الامبراطور، وعبر عن حسن نواياه.

وسافر بصحبة هؤلاء الرجال الذين عملوا كأدلاء له، وعندما وصل إلى نهر فاردار، وجد معهم هناك أن قسماً من عساكره قد عبر النهر ووقف على الضفة الأخرى منه، بينما كان القسم الآخر على نية العبور، وفي هذه الساعة أقدم كشافة جيش الامبراطور الذين كانوا يتبعون خطا عساكرنا بأعداد كبيرة، أقدموا، وقد ظنوا الفرصة سانحة، على مهاجمة الجماعات التي كانت على وشك العبور، بكل عنف وعدوانية؛ واكتشف تانكرد ما حدث، وكان مستعداً للطوارىء مستنفراً، فعبر النهر بكل سرعة، وعاد إلى الضفة الأولى ومعه حوالي الألف فارس، وعند وصوله وأتباعه إلى هناك انقض على العدو وانقضوا معه، فأعملوا سيوفهم به وشتتوا صفوفه، وأرغموه على الفرار، وطاردوا فلوله لفترة من الزمن فقتلوا عدداً كبيراً منه، وعادوا ببعض الأسرى فساقوهم إلى بوهيموند، فاستجوبهم، وكرر عليهم الأسئلة عن سبب مطاردتهم للجيش المسيحي، فأجابوه أنهم من رجال الامبراطور، وأنه توجب أن يقاتلوا حسبما يأمرهم لكسب أجورهم، ووضح أخيراً هنا بعد طول انتظار أن كل ما قاله الامبراطور لهم كان مجرد خداع وزيف، ومع ذلك فضل بوهيموند على الرغم من معارضة الباقين، إخفاء مشاعره، وألا يثير غضب الإمبراطور بدون جدوى، لأنه توجب عليه وعلى أتباعه العبور بوساطة وسائله ومعداته.

١٥ ـ الدوق يخرج لمقابلة بوهيموند ويتولى قيادة هذا الأمير على الرغم من إرادته إلى الامبراطور، الذي استقبله بجفاوة عظيمة. في الوقت نفسه يتولى تانكرد نقل فيالقه إلى بيثينيا حيث التحقت بجيش الدوق واتحدت معه.

بعد ما عبر الجيش مقدونيه وإليركوم Illyricum تقدم بخطا سريعة وبإرشاد كفء، وأخذ يقترب من المدينة [القسطنطينية] وتوقف في اليوم الخامس قبل عيد الفصح على مقربة منها، وتم هنا استقبال سفارة أخرى أرسلها الامبراطور، وقد ألحت على بوهيموند للعمل على ترك عساكره والحضور مع عدد قليل من مرافقيه لزيارة الإمبراطور، وتردد بوهيموند لفترة من الزمن، وأجل تنفيذ هذه المطالب، فقد ارتاب بنوايا الإمبراطور الشريرة، وبينما هو يناقش ما يتوجب عليه عمله وصل الدوق غودفري الواسع الشهرة، وصل شخصياً محاطاً بحاشية من كبار النبلاء، وقد جاء استجابه لتوسلات الامبراطور المخلصة الصادقة، وليعمل على إقناع بوهيموند ليستجيب لدعوة الامبراطور، ويمثل في حضرته السامية دون خوف أو

وجل؛ وتعانق الرجلان وتبادلا قبلة المحبة الصادقة، ثم تلا ذلك محادثات وديّة، حيث سأل كل منهما الآخر عن أحواله، وفي النهاية نصح غودفري بوهيموند بتنفيذ تعليمات الإمبراطور والعمل على زيارته والمثول في حضرته، وكان الأمير في البداية معارضاً أشد المعارضـة، ولـم يبال كثيراً بنصائح غودفري لأنه ارتاب بأقوال الامبراطور ولم يثق به كما قلنا من قبل، لكنه استسلم أخيراً واقتنع بما قاله غودفري، وذهب بصحبته إلى القصر بكل ثقة وطمأنينة.

واستقبله الامبراطور بقبلة السلام، وحباه الهدايا المتنوعة، وبعد محادثة ودية أصبح بوهيموند في الختام واحداً من رجال الامبراطور - كما يقال - وأعلن عن طاعته للامبراطور، وأدى له يمين الولاء حسب عرف التابعين المخلصين لأسيادهم [١].

وبعد هذا قدمت له الهدايا النفيسة من الخزينة الإمبراطورية مثل الذهب والأثواب والأواني والأحجار الكريمة، وهكذا أقيم السلام بينهما وتأسس.

وكان تانكرد [٢] ابن أخت بوهيموند رجلاً بارعاً من جميع النواحي، وقد تجنب بحذر المثول أمام الإمبراطور والحديث معه، وفي الوقت الذي كان بوهيموند لا يزال فيه في البلاط الإمبراطوري كان تانكرد قد نقل جيشه بأكمله إلى بيثينيا في منطقة خلقذون الواقعة على الطرف الآخر من البوسفور، ثم عسكر على مقربة من جيش الدوق الذي كان قد عبر منذ أمد قصير، وكان ينتظر وصول الجيوش الأخرى.

وعندما علم الإمبراطور أن تانكرد قد تجنب المثول بين يديه غضب غضباً شديداً، لكنه أخفى حنقه بحكمة، وأعاد إغداق الهدايا على الأمراء الذين كانوا قد زاروه، وصرفهم بكل حفاوة وأرسلهم إلى معسكراتهم الواقعة وراء البوسفور، وهناك اتحد الجيشان وأقاما بوئام وانسجام مع بعضهما على مرأى من القسطنطينية منتظرين وصول الجيوش الأخرى، ثم عقدا العزم على الزحف معاً كحشد واحد متحد، وعلى مواصلة رحلة الحج التي التزما بها.

---

(١) من الصعب أن ننقل في الترجمة الشكليات الكبيرة للرسميات الاقطاعية التي نشأت خلال القرن الثاني عشر. ذلك أن التغيير لم يكن تغييراً لغوياً فقط بل إن الاحتفال نفسه قد زيد إحكامه ليتضمن أداء يمين الولاء بيد موضوعة على بعض الآثار المقدسة، وأحياناً - كما هو الحال هنا - على عدة أشياء مقدسة، وبالطبع كانت هنالك شكليات أكبر في القسطنطينية أكثر مما هو موجود في الغرب في هذا الوقت، إلا أن الممارسة الغربية أصبحت أكثر تمسكاً بالشكليات في حوالي نهاية القرن أيضاً.

(٢) كان تانكرد ابن إمّا EMMA أخت بوهيموند من والدته. وكان والده حسب مؤلفنا [الكتاب الثاني - الفصل ١٣] اسمه وليم المركيز، إلا أن الآخرين يدعونه أودو، ومنحت الأسطورة اللاحقة تانكرد أباً شرقياً مسلماً. ويستنتج نكلسون، الذي أعاد النظر بالدليل المتعلق بنسب تانكرد، أن والده كان مسيحياً لاتينياً يسمى ماركسوس أو أودو الطيب (انظر ر.ل. نكلسون «تانكرد» ص٣ - ٩).

وزودت المدينة الامبراطورية والمنطقة المحيطة الناس المعسكرين هناك بكميات وافرة من الأطعمة، وبذلك تمكن الجميع من التمتع بالوفرة حسبما كانوا يرغبون.

١٦ ـ روبرت كونت فلاندرز يصل مع جيشه. توجهه مع مرافقيه للمثول في حضرة الامبراطور الذي كان قد استدعاه ثم حباه بالهدايا العديدة. عبوره البحر وانضمامه إلى القادة الآخرين.

وفي تلك الأثناء مع قدوم الشتاء كان روبرت كونت فلاندرز [١] قد أبحر من باري، وهي مدينة ساحلية في أبوليا، وقد نزل في دورازو بعد أن عبر البحر مع كامل جيشه، وقد نجا هنالك بين الغابات والمراعي من الشتاء القاسي، وذلك في بلد خصب مملوء بجميع أنواع المؤن، ثم واصل رحلته عندما اقترب فصل الربيع، وواصلها بنشاط كبير للإنضمام إلى القادة الآخرين الذين كانوا قد عبروا البحر، وقبل وصوله إلى القسطنطينية تلقى رسلاً من الإمبراطور، مثلما سبق وتلقى القادة الآخرون، وطلب الإمبراطور منه في رسائله ترك جنده والإسراع بالقدوم مع عدد قليل من أصحابه إلى حضرة الإمبراطور، وبما أنه كان مطلعاً بشكل جيد على الكيفية التي كان الذين سبقوه قد تصرفوا بها مع الإمبراطور، توجه نحو القسطنطينية، وعندما وصل إليها ذهب إلى القصر مع حاشية صغيرة، وهناك استقبله الإمبراطور بحفاوة كبيرة، وعامله بمودة زائدة، وحذا روبروت حذو القادة الآخرين فأدى يمين الولاء الذي طلبه الإمبراطور منه، وبناء على ذلك أغدق عليه هدايا وعطايا كثيرة، كما حبا أتباعه وأعطاهم بدرجة الكرم نفسها وذلك حسب ما اقتضته منزلة كل واحد منهم.

وفي الوقت الذي كان الكونت فيه يعقد مشاورات متوالية مع الامبراطور ويتباحث حول عدد من القضايا بدت هامه، سمح لجيشه بالإستمتاع بتناول الطعام والإستجمام قرب المدينة لعدة أيام، ثم أستأذن الكونت بالإنصراف، وأبحر مع كتائبه عبر البوسفور للإنضمام إلى رفاقه الحجاج، الذين استقبلوه بلطف ورحبوا به بمودة، ثم اتحد الجيشان بعد ذلك.

وأراح القادة أنفسهم واستجموا لبضعة أيام بتبادل الأحاديث بين بعضهم بعضاً والآراء عن مختلف الأحداث التي وقعت لكل منهم، وبعد مراجعة ـ بروح التذكر المسرة ـ

---

(١) خلف روبرت الثاني كونت فلا ندرز، والده روبرت الأول الفريزي في عام ١٠٩٣ وكان الأخير قد حجّ إلى القدس تكفيراً عن آثامه في وقت ما من العقد الذي انقضى قبل وفاته، وكان قد زار ألكسيوس في رحلة عودته ووعد بإرسال الجنود لمساعدة ألكسيوس ضد الأتراك، وهو وعد أنجز في عام ١٠٩٠/. وهكذا، فقد كان لروبرت الثاني، المشهور بورعه وشجاعته أيضاً، اهتام تقليدي في الصراع ضد الأتراك واسترداد الأرض المقدسة، وكان ابن عم روبرت أوف نورماندي (أنظر الدراسة الموجزة التي قام بها م.م. كنابن بعنوان: «روبرت الثاني أوف فلاندرز» في Mumra - crusades, pp. 79 - 100).

للمشقات التي عانوا منها، بدأوا في النهاية في مناقشة المسائل الأكثر إلحاحاً، فقد كان من الضروري اتخاذ قرار - بعد التداول الحذر مع بعضهم بعضاً - حول موعد وكيفية تنفيذ المشروع الذي كانوا قد باشروه، ولهذا كانوا منشغلي البال وقلقين بانفعال تجاه تأخر وصول الرفاق الذين كانوا يتبعونهم، وقد حملوهم مسؤولية التأخير وأن الوقت كان يمر بلا فائدة، وبينما هم كذلك وصل رسول من عند كونت تولوز [١] وأسقف بوي Puy وأعلن عن وصولها، وأنهما سيدخلان القسطنطينية في الحال.

١٧ - أسقف بوي وكونت تولوز يزحفان عبر دالماشيا برفقة جيشيهما، ويعانيان من كثير من المصاعب أثناء الزحف في تلك البلاد.

وكان هذان الرجلان العظيمان والمشهوران قد تماشيا مع بعضهما بعضاً بصحبة جيشيهما منذ ساعة الإنطلاق، وزحفا كرفيقين لا يفترقان، وكان بصحبتهما رجال مشهورون بنبل شخصياتهم وبمنازلهم الرفيعة أيضاً، كان من بينهم: وليم أسقف أورانج Orange، ورينبولد Rainbold كونت المدينة التي حملت اسمه، وغاستون دي بيزيرس Gaston De Beziers وجيرارد دي روسيللون Gerard De Roussillon، ووليم دي مونتبللر Montpellier ووليم كونت أوف فورز Forez وريموند بيليت Pilet، وغاستون دي بيرين Bearn ووليم أمانجيو Amanjeu وعدد كبير آخر كتبت أسماؤهم في كتاب الخلود على الرغم من أننا لا نحفظها، ذلك أنهم تقبلوا الفقر طواعية، وتركوا الوطن والأهل والأصدقاء وممتلكات موروثة واسعة، ليتبعوا المسيح.

ونزل جميع هؤلاء الرجال الذين كانوا يتبعون بتقى هذين الرجلين المبجلين المذكورين للتو إلى ايطاليا، وعبروا لمبارديا، وبعد أن اجتازوا المنطقة المسماه فوريوم جولي [٢]

---

(١) ريموند الرابع أوف سانجايل (صنجيل)، كونت طولوز وطرابلس أول قائد أخذ الصليب، وهو ابن أصغر لريموند الثالث كان قد احتفظ بممتلكات صغيرة نسبياً حيث أنه كان بالأصل كونت رورغو Rowergue ونيمز وناربون وقد ترك أخوه الأكبر، وليم الرابع، الذي كان قد توفي أبناؤه، اقليم طولوز إلى ريموند. واشتهرت الأسرة بالورع، ويعتقد أن الأخوين حاربا المسلمين في اسبانيا، ويعتقد أن وليم توفي أثناء قيامه برحلة إلى القدس في عام ١٠٩٣، وكان ريموند، الذي ولد في أغلب الظن في عام ١٠٤٣، أحد القادة الأكبر في الحملة الصليبية الأولى، وكان القائد الأكثر ثراء حسب جميع الروايات، ولا توجد سيرة ذاتية له كافية في اللغة الإنكليزية.

(٢) يتحول وليم هنا إلى رواية ريموند دي أغليرز للتوجيه، ويكملها من التقاليد ومن دراساته الجغرافية الخاصة، كما أن وصفه للإختلاف في الحديث بين الناس الموجودين على طول ساحل دالماشيا والناس الموجودون في الداخل هو شاهد آخر على المعرفة الوثيقة التي يمكن للإيطاليين أن يمتلكوها، وهو غير صادر عن رواية ريموند.

Foram Juli دخلوا إلى استريا Istria على مقربة من أقويليا Aquileia ، وأخيراً وصلوا إلى دالماشيا ، وتمتد أرض دالماشيا بالطول بين هنغاريا والبحر الأدرياتيكي ، وفيها أربع مدن كبيرة هي : زارا Zara وسالونا Salona المسماة أيضاً سبالاتو Spalato وأنتي فلري Antivari وراغوساRogusa ، ويقطن في هذه المدن شعب شديد القوة والبطش ، قد أوقف نفسه على أعمال السلب والنهب والقتل ، كما أن الأرض مملوءة تماماً بالجبال والغابات والأنهار الكبيرة والمراعي الواسعة والممتدة ، حتى أنه لم يكن هنالك سوى مساحات قليلة محروثة ، وعدد يسير من الحقول المنتشرة هنا وهناك ، ويعتمد السكان في كسب رزقهم بالكامل على قطعانهم ومواشيهم ، وذلك باستثناء ندرة منهم ممن كان يسكن على ساحل البحر ، وقد اختلف هؤلاء عن البقية في العادات واللغة ، حيث استخدموا اللغة اللاتينية ، في حين استخدم باقي السكان اللغة السلافية ، وكانت لهم عادات البرابرة .

وبدخولهم إلى هذه البلاد واجهوا العديد من المصاعب على طول الطريق . لاسيما بسبب وعورة المنطقة ، ولأن فصل الشتاء كان قريباً ، كما أنهم عانوا من مجاعة شديدة إلى حد ما ، إنما لعدة أيام ، وذلك بسبب انعدام المؤن والأطعمة ، ولإقدام السكان المحليين على هجر المدن واعتصامهم في المواقع الحصينة ، وكأنما كانوا يهربون من حيوانات مفترسة ، لقد تراجعوا إلى الهضاب وإلى داخل الغابات الكثيفة مع أزواجهم وأطفالهم وكل مقتنياتهم ، لأنهم خافوا من منظر شعبنا ، ومع ذلك لقد تتبعوا خلسة آثار جيشنا المتقدم وعن بعد ، وقتلوا الرجال المرضى والمسنين من الرجال والنساء الذين كانوا يسيرون خلف الجيش بخطا مثقلة ، كما قتلوا كل من وجدوه منعزلاً عن المجموع .

وبما أن الكونت كان مملوءاً بالشعور بواجب المسؤولية تجاه الحشد الضخم ، فقد أرسل عدداً من المقدمين إلى الأمام ليتولوا قيادة الحشود ، بينما وقف دائماً بنفسه مع قوة من الفرسان الرئيسة إلى جانب المؤخرة ، كما كان آخر من يأوي إلى مسكنه .

وكان الجو مملوءاً بالضباب ، وكانت الظلال المستمرة كثيفة ، وكانت الرؤية صعبة وكل شيء غير واضح إلا بصعوبة متناهية وبصعوبة شديدة كان الناس في المؤخرة باستطاعتهم التعرف على الذين كانوا أمامهم ، ولم يستطع الحراس رؤية الطريق وتمييزه لمسافة تزيد على مرمى حجر إلى الأمام ، وكما سبق وقلنا كانت المنطقة زاخرة بالأنهار والجداول ومغطاة كلها تقريباً بالمستنقعات وصدر عن هذا كله في كل يوم رطوبة كثيرة وغشاوة سميكة ، جعلت الجو خانقاً إلى أبعد الحدود ، زد على ذلك كله لقد تعقب شعب دالماشيا السلافي الجيش على الصخور الشديدة الإنحدار والغابات الكثيفة ، وبما أنه كانت لديه معرفة

جيدة بتلك البلاد ـ لأنها كانت موطنه الأصلي ـ فقد برز من الغابات مراراً ليهاجم الحجاج العزّل، وشن الكونت من جانبه مع القادة الآخرين هجمات مماثلة على خصمهم وقتلوا العديد منهم بالسيف والرمح، ولولا وجود الغابات القريبة جداً والتي هرب إليها الدالماشيون واتخذوها ملجأ لهم، لكان الدوق وقادته قد قتلوا عدداً كبيراً منهم، وحدث أن تم إلقاء القبض على عدد من هؤلاء المجرمين في أحد الأيام، فأمر الكونت أن تقطع أيديهم وأرجلهم آملاً أن يخيف هذا العقاب البقية ويمنعهم عن تعقب الجيش.

واجتاز الحجاج بمشقة شديدة هذا الجزء من البلاد، بعد سير استغرق ثلاثة أسابيع متواصلة، ووصلوا في خاتمة المطاف إلى موقع يسمى سكوتاري Scutari، فوجدوا ملك (الصقالبة) السلاف هناك، وعندها قدم الكونت ـ وهو الرجل الكريم والدمث والشفوق الهدايا بسخاء، آملاً بهذه الوسيلة أن يشكل روابط محبة وصداقة مع السكان المحليين ويكسب ودهم وحسن تصرفهم تجاه شعبه، بغية الحصول على الأقل على سوق مجهزة تجهيزاً جيداً بالسلع، لكنه لم يستطع تهدئة ضراوة ذلك الشعب بهذه الطريقة، وبالفعل وجده أكثر وحشية وهمجية من ذي قبل، وبناء عليه سار الجيش مثقل الخطا مدة أربعين يوماً عبر أراضي دالماشيا كلها، متحملاً المشقات الكبيرة حتى وصلوا أخيراً إلى دورازو.

١٨ ـ الكونت يلتقي بوفد امبراطوري في دورازو. البلغار يأسرون أسقف بوي. إطلاق سراحه على الفور بنعمة من الله. وصول رسول من الإمبراطور ومن قادتنا، ثانية إلى ريموند في رودوستو Rodosto.

ساور الإمبراطور قلق شديد بشأن قدوم الكونت، لأن هذا الأمير كان رجلاً حكيماً ورائعاً، وكان يقود قوة كبيرة جداً تسير معه، ولذلك بادر فأرسل قبل وقت طويل من وصول المسيحيين إلى هذا الموقع، سفارة من الرجال ذوي الشهرة لمقابلة الكونت في دورازو، وكان عليهم تقديم التحيات اللطيفة والدمثة بالنيابة عن الإمبراطور، وبالفعل قدم هؤلاء الرجال أنفسهم إلى الكونت، وذلك إمتثالاً لأمر مولاهم، وخاطبوه بكلمات جذابة، وسلموه رسالة الإمبراطور إليه، وقد جاء فيها ما يلي: «أيها الدوق الحبيب، لقد انتشرت حكايات وأخبار كثيرة عن حكمتك وعن سمعتك العطرة في كل مكان، ومنذ زمن طويل، مما لفت انتباه بلاطنا، ودفعنا لنحبك، وبسبب حبنا لك، ولأننا عقدنا العزم على إظهار مودتنا لك، فقد دعوناك، كما تستحق عن جدارة، لنتمكن من التعبير عن حبنا لك وإظهاره شخصياً، ولكي نكرمك أيضاً، ولذلك كله انتظرنا قدومك بتلهف شديد، لأننا نرغب في مناقشة مسائل عديدة مع عظمتكم جميعها يتعلق بالأمور العامة، لأنك رجل عزيز على امبراطوريتنا إننا نتضرع إليك بكل جد أن تجعل مرورك بأراضينا بدون إضطراب أو نزاع، وأن تسرع

بالقدوم إلينا معتمداً على كرمنا، وواثقاً بالجوائز العديدة التي نفكر في أن نغدقها عليك، ولقد أصدرنا الأوامر إلى حاملي هذه الهدايا بإعداد المؤن والسلع للبيع، وبتأمين تبادل مستمر للتجارة مع شعبكم بشروط مناسبة ومرضية.

وابتهج الكونت وجيشه وسروا سروراً عظيماً بهذه الرسالة، ثم واصلوا الزحف واجتازوا بمشقة شديدة وخلال عدة أيام، الغابات والجبال، وبعدما عبروا جميع أراضي إبيروس Epirus انحدروا أخيراً إلى المنطقة المسماة بيلاغونيا Pelagonia، وكانت زاخرة بجميع الأشياء الجيدة، وعسكروا هناك.

وكان أسقف بوي، ذلك الرجل صاحب الحياة المبجلة، قد نصب خيمته، لغرض الراحة، بشكل منعزل إلى حد ما عن بقية الخيم، وعلى بعد مسافة وجيزة من المعسكر، بيد أنه لم ينعم بالراحة، فقد هاجمه البلغار وأسروه، وبما أن شعب الله كان بحاجة ماسة إلى هذا الكاهن العظيم، فقد أنقذت حياته برحمة من الرب وبمحض الصدفة، لأن أحد اللصوص طلب الذهب الذي كان معه، وبذلك حماه من الآخرين، وهكذا نشب شجار بين اللصوص، أثارت ضجته انتباه الجيش بكامله، فهبّ متناولاً أسلحته، واندفع نحو الأشرار فأنقذ الأسقف المهيب، وبإنقاذه أنقذ شعبه.

ثم استأنفوا رحلتهم وعبروا سالونيك Thessalonica وجميع أراضي مقدونيا، وواصلوا زحفهم المجهد لعدة أيام حتى وصلوا إلى رودوستو Rodosto وهي مدينة بحرية تقع على الهللسبونت، على مسافة أربعة أيام من القسطنطينية وهنا التقى موفد آخر من الإمبراطور مع الكونت، وكان برفقته رسل من القادة الذين كانوا قد سبقوه، وقد نصحه الجميع وحثوه بإلحاح على أن يترك جيشه يتقدم بشكل أبطأ، بينما يحث هو الخطا وبصحبة عدد قليل من مرافقيه ليصل بسرعة إلى الإمبراطور، وعندها سيتواءم وصول جيشه مع الوقت الذي يكون عمله قد انتهى فيه مع الإمبراطور، وسيكون قادراً على اللحاق بالآخرين بسرعة أكبر، ودون إعاقة الحشد الذي كان تواقاً للإسراع، وكان الكونت قد أرسل رسلاً من قبله، وبمبادرة خاصة منه، ولدى عودتهم شجعه هؤلاء على اتخاذ الخطوة ذاتها.

١٩ ـ الكونت يترك الجيش ويزور الإمبراطور ولا يوافقه على آرائه. الإمبراطور يصدر الأوامر خلسة بمهاجمة جيش الكونت.

وتم أخيراً التغلب على تردد الكونت بالطلب الملح للموفدين الإمبراطوريين وبحثّ القادة الذين رجوه أيضاً ليسرع بالتوجه إلى القصر، وترك جيشه للحماية اليقظة للأساقفة والنبلاء الآخرين الذين كانوا في المعسكر، واستجابة لدعوات الإمبراطور المتكررة دخل

القسطنطينية بذاته، وكان بصحبته، عدد قليل من حاشيته، كما كان برفقته المندوبون الإمبراطوريون، وقدم نفسه إلى الإمبراطور، وتم استقباله وسط حفاوة كبيرة جداً من الإمبراطور والرجال البارزين الذين أحاطوا به، وتمت معاملته بأسمى آيات الإحترام، وعندما انصبوا عليه بكلمات التملق لإقناعه، وحثوه بشده على أداء يمين الولاء حسب الشكل الذي مارسه القادة الآخرون الذين سبقوه، رفض أداء ذلك اليمين بإصرار شديد[1].

وبينما كانت هذه الأحداث تجري في القسطنطينية، فإن الإمبراطور الذي كان ناقماً على الكونت الذي توجب عليه الإنصياع وتقديم يمين الولاء لجلالته كما فعل الآخرون، أمر هذا الإمبراطور خلسة قادة فيالقه التي كانت معسكرة في تلك المناطق، بشن هجوم مفاجيء على قوات الدوق، كما أمرهم ببذل كل جهد ممكن لإنهاكهم حتى ولو أدى ذلك إلى ارتكاب مجزرة ضدهم، وكان مما جرأ الإمبراطور على الأقدام على هذه المحاولة أن جميع القادة الآخرين كانوا قد التزموا بيمين الولاء له، وعلاوة على ذلك، كانت جميع جيوشهم قد عبرت الآن البحر، ولم يكن من السهل أبداً أن يعودوا من حيث ذهبوا، ذلك أن جميع المراكب التي كانت قد جمعت لغرض التجارة أو نقل الناس قد منعت كلها الآن مباشرة من مغادرة الشاطىء الآخر، بحيث يكون التفكير بالعودة عقيماً لافتقاره إلى وسائط النقل، وكانت هذه النية في نفس الإمبراطور عندما أغوى ـ كما سبق بنا القول ـ الجيوش بالتملق والإقناع والخداع لتعبر المضيق على انفراد حتى لا تجتمع الجيوش وتتحد في المدينة في وقت واحد، ولأنه نظر ـ كما بينا أيضاً من قبل ـ إلى مجيء جيوشنا بتوجس وخوف، واعتبر حشد قواتهم واجتماعهم خطراً أعظم، وعليه لم ينشأ كرمه وسخاؤه نحو القادة من سماحة نفسه ورضاها، بل كان سياسة ماكرة للخداع، ونتيجة خوف مفرط، ومع ذلك فقد تقدم قادتنا بإيمان وثقة وكقلب رجل واحد، وكان من الصعب جداً اقناعهم بمكر الإغريق، والخداع الشرير للإمبراطور، ومراوغاته الدائمة وخاصته منذ أن أظهر الكرم والمودة نحوهم.

٢٠ ـ الإغريق يهاجمون جيوش الكونت خلسة أثناء غيابه. الكونت يغضب كثيراً من الإمبراطور. الكسيوس يعوض عن فعلته، ويطالب ـ خشية على نفسه ـ بتدخل القادة، ويدعي براءته.

ونفذ الضباط أوامر الإمبراطور التي كانوا قد تلقوها مع حرسه الشخصي وأركانه

---

(١) يبدو غريباً أن وليم لا يقدم أي شرح للرفض. وحسب ريموند دي أغليرز الذي استخدم وليم روايته، فإن الكونت ريموند رفض أن يؤدي القسم لسبب ورعي وهو أنه كان في هذه الحملة تابعاً للرب فقط، غير أنه وافق أخيراً أن يكون تابعاً لألكسيوس إذا ما رافق الحملة كقائد لها. وكان تاريخ وصول ريموند إلى القسطنطينية في ٢١ نيسان (هاغنمير التأريخ رقم ١٣٩).

Quinquagenarii والذين كانوا مسؤولين عن القوات العسكرية، وكان مرؤوسوهم قد تلقوا الأوامر من قبل، وهاجموا خلسة جيش الكونت، بينما كان الظلام لا يزال مخيماً، وحيث أن هؤلاء لم يكونوا يخشون شيئاً من هذا القبيل، فقد أخذوا على حين غرة لأنهم كانوا بلا حراسة، وقتل العديد منهم. فقد وقعت معركة شائنة قبل أن يتمكنوا من النهوض والإمساك بأسلحتهم، وحصلت مذبحة رهيبة، ولكن ما أن استردوا وعيهم وشجاعتهم وقوتهم، وحثهم الرجال الأكثر شجاعة، حتى أوقعوا العديد من الخسائر بين صفوف العسكريين اللصوص الذين بعثهم الإمبراطور، وأبدى المسيحيون مقاومة باسلة إذا ما أخذنا الزمان والمكان بعين الإعتبار، غير أنهم، وبسبب صعوبة الطريق، بدأوا بالإنهيار، وندموا إلى حد ما لأنهم باشروا رحلة الحج هذه، وقل حماسهم بالتدريج لأن المشاق المقلقة قد أنهكتهم، ولم يقتصر الندم على هذا المشروع على العديد من الناس العاديين، بل تعداه إلى بعض الرجال البارزين، وبالفعل، فقد ارتابوا ازاء إمكانية إكمال المشروع، متناسين بذلك أيمانهم، لأنهم كانوا ميالين إلى العودة، ولو لم تقمعهم انذارات الأساقفة وتحذيرات رجال الدين الذين أثاروهم من جديد لينجزوا أيمانهم، لكانوا قد تخلوا عن الحشد ولحاولوا العودة إلى بلادهم مهما كانت المخاطر.

وعندما سمع الكونت بهذه الأخبار صعق بالصميم، وحزن حزناً شديداً، وصرح أنه قد خدع، وأرسل عدداً من نبلائه المخلصين إلى الإمبراطور واتهمه بالخيانة، فبينما كان مجتمعاً مع جلالته، استجابة للعديد من الرسائل والدعوات، كان الإمبراطور قد أمر، خلافاً لكل الأصول، رجاله بحمل السلاح ضد جيشه ـ جيش الكونت ريموند ـ وأطلع الكونت القادة أيضاً أنه كان ـ تمشياً مع توسلاتهم الملحة ـ قد ترك جيشه، وأسرع نحو القسطنطينية، كما أطلعهم على أخبار الكارثة المفجعة التي حلت بفيالقة، وخيانة الإمبراطور الواضحة، وطلب منهم، كما يطلب المرء من إخوته، الإنتقام لهذه الآثام.

لو كانت قوة الكونت ورغباته بالإنتقام مساوية لنواياه المخلصة لكان من المحال أن تزحزحه التهديدات والخوف وتدخل القادة الآخرين عما صمم عليه، حيث اشتهر أنه رجل شجاعته عظيمة، ولم ينس قط أية إساءة، وكان متشبثاً برأيه، وأدرك الإمبراطور الآن أنه أساء إساءة كبيرة، وندم على تصرفه، وهكذا استدعى القادة الآخرين الذين كانوا ما يزالون مع جيوشهم في الشواطىء الأخرى من البحر، استدعاهم إلى حضرته، وتمنى أن يستعيد رضا الكونت بوساطة تدخل هؤلاء السادة من أمثال الدوق بوهيموند المبجل، وكونت فلاندرز، وقد استجابوا لدعوته على الرغم من أنهم غضبوا كثيراً مما كان قد حدث، وشعروا أن

الزمان والمكان لم يكونا مناسبين للمطالبة بالثأر، وهكذا تداولوا سراً مع الكونت، ونجحوا في إقناعه بحجج منطقية لإخفاء المساوىء التي شعروا بها، فيما يتعلق بهم جميعاً، وخشية أن يفسد بالسعي للإنتقام عمل أيام عديدة، ويظهر نفسه على أنه عائق في وجه أولئك الذين رغبوا في متابعة الطريق، وتم أخيراً عن طريق التدخل الورع للسادة، تخلى الكونت عن مشاعر المرارة، ذلك أنه كان رجلاً عاقلاً في صميم ذاته، وهكذا أصغى إلى نصائح القادة، ووافق على ما قاموا بإعدادة، ثم ذهبوا إلى الإمبراطور بطريقة ودية، وعبروا له بإجماع عن السخط الذي شعروا به إزاء جميع ما كان قد حصل، وعندما رأى الإمبراطور استياءهم، والإجماع الثابت للشعور الذي وحدهم، تنازل للإعتذار بحضور الكونت والبلاط بأكمله، وجميع أفراد أسرته والأجانب، وأكد مقسماً أن الإعتداء المذكور قد حصل من دون معرفته وإطلاعه، ومع ذلك، فإنه قد قال: للبرهنة على براءته وفي سبيل ذلك إنه مستعد لإرضاء الكونت.

وهكذا ظهرت حيل الإغريق وخيانة امبراطورهم أكثر فأكثر ويوماً إثر يوم، واتضح لجميع الرؤساء الآن، مثل الشمس في وضح النهار، أن الإمبراطور ألكسيوس كان يطارد شعبنا بكراهية شديدة، وأنه كان يمقت العنصر اللاتيني بأكمله، ومع ذلك، وحيث أن هدف رحلتهم كان يدفعهم إلى الأهداف الأخرى، فقد تلهفوا إلى إكمال تلك المهمة المرضية للرب، ولذلك قرروا أنه من الأسلم لهم إخفاء مشاعرهم تجاه الإساءات التي كانوا قد تعرضوا لها، بدلاً من التخلي عن مشروع مثل مشروعهم هذا، أو إعاقة المهمة التي أخذوها على عاتقهم.

٢١ - الكونت يتصالح مع الإمبراطور بوساطة القادة، ويدعوه إلى مصاحبة القادة المسيحيين في رحلتهم. اسراع الجيوش التي كانت قد عبرت البحر في الزحف نحو نيقية ولحاق الكونت بهم على الفور.

استجابة لنصيحة القادة، تصالح الكونت مع الإمبراطور، وأدى يمين الولاء تمشياً مع فحوى القسم الذي سبق وأداه القادة الآخرون، وهكذا استرد الحظوه التامة، وتم تشريفه بالهدايا الرائعة التي كانت لا تقدر إن بعددها أو بقيمتها، وذلك كتذكار على كرم الإمبراطور وسخائه، كما تلقى القادة الآخرون هدايا إضافية أيضاً، ثم استأذنوا بالإنصراف وطلبوا من الكونت قبل كل شيء، أن لا يتأخر عن اللحاق بهم، وعبروا البوسفور ووحدوا صفوف فيالقهم في بيثينيا.

وكان جيش الكونت قد وصل في غضون ذلك إلى القسطنطينية أيضاً، وعبر البحر على الفور بأمر منه، وانضم إلى الحشود الأخرى التي كانت قد سبقته، أما بالنسبة للكونت

فقد بقي في المدينة لعدة أيام أخرى لينكب على دراسة مسائل خاصة به، ومع ذلك، فإنه بينما كان مهتماً بمسائله الخاصة، لم يتوقف ـ كرجل حكيم ـ عن العناية بالمصلحة العامة، فاستجابة لما طلبه منه الرؤساء الآخرون، حاول جدياً في مناسبات كثيرة، كما كان جميع القادة الآخرون قد حاولوا من قبل، حاول إقناع الإمبراطور في أن يرافقهم في الرحلة، وأن يكون قائداً وآمراً لجيش الرب، لكن على الرغم من ذلك، وبرغم أن جميع قادتنا، لا سيما كونت طولوز، قد توسلوا إليه مراراً وتكراراً، أن يتفضل فيكون رفيقهم بالسلاح، وأن يتولى، كقائد لجيش الرب، القيادة العليا للناس الذين سلموا أنفسهم ووضعوها تحت تصرف الطاعة الإلهية، فقد استمر بالإعتذار، وأكد أنه محاط بالأعداء القساة، حيث أن البلغار والكومان والبشناق[1] كانوا يحومون باستمرار حول حدود امبراطوريته ينتظرون بفارغ الصبر الفرصة السانحة للإغارة بشكل مفاجىء، وتبديد السلام، وبناء عليه، وعلى الرغم من أنه تمنى بتلهف زائد أن يشارك في الرحلة العظيمة، وأن ينال نصيبه من ثواب الآخرة، لم يستطع التخلي عن مسؤوليته تجاه مملكته، حتى لا يقدم الفرصة المناسبة للعدو المحيط بها؛ بيد أن كل ما قاله كان مليئاً بالكذب والخداع، فقد كان هذا خدمة لمصلحته الخاصة فقط، ذلك أنه بحث عن أية ذريعة يستطيع بها سحب مساعدته وحجبها عن شعبنا، فقد كان حريصاً على مغادرتنا، وعلى إعاقة نجاحاتنا بكل وسيلة ممكنة.

أما بالنسبة للقادة الذين كانوا قد عبروا البحر من قبل ـ أي: غود فري، وبوهيموند وروبرت كونت فلاندرز وأسقف بوي، فقد كانوا قد رتبوا أمتعتهم وباتوا جاهزين لاستئناف رحلة الحج من جديد، وقد عقدوا العزم على التقدم ببطء باتجاه نيقية، وأن ينتظروا أصحابهم الذين سيلحقون بهم هناك، وساروا طوال النهار نحو نيقوميدية التي تعتبر كبرى مدن مقاطعة بيثينيا، وعندها خرج الكاهن المبجل بطرس الناسك إلى مقابلة الفيالق المتقدمة، وليحيي القادة، وكان بطرس قد أمضى فصل الشتاء مع عدد قليل من الناس الذين لم يبق غيرهم من جيشه على قيد الحياة، في تلك المنطقة وما جاورها لتجنب المناخ القاسي، وقد انضم الآن إلى قوات الحجاج، ورحب به الجميع بلطف، وأجاب بسرد مفصل عن جميع ماسئل عنه، وذلك عندما سئل عن المحن التي نزلت بجيشه، ووصف الروح الفظة والمتمردة التي ميزت الناس العنيدين الذين كانوا قد تقدموا برفقته، وأوضح أن الكارثة التي كانت قد

---

(١) كان الكومان والبشناق حسب س. كادلك، قبيلتين مترابطتين بشكل حيم ومن أصل تركي، وهما تبرزان في تاريخ البلقان لقرون عديدة (س. كادلك «الامبراطورية وجيرانها الشماليين» تاريخ كمبردج للعصور الوسطى: ١٩٧/٤).

حلت بهم قد نشأت بسبب ما اقترفوه وبسبب سوء تصرفهم أكثر من كونها قد نشأت بسبب أعمال الآخرين.

وتعاطف القادة معه بشدة بسبب الكارثة التي كانت قد ألمت به وبجيشه، وأغدقوا الهدايا الكثيرة عليه وعلى أتباعه، ثم إن الجيش الذي ازدادت أعداده بنعمة من الله ـ حيث كانت الجماعات المختلفة قد اتحدت في كتلة واحدة ـ واصل زحفه بقيادة بارعة، ووصل إلى نيقية في الوقت المناسب، وتمت إقامة المعسكر على شكل دائرة حول المدينة، وجرى تحديد مواقع خاصة بالقادة القادمين فيما بعد، ثم أحكموا الحصار على المدينة في الخامس عشر من شهر أيار [١].

وعندما أنهى كونت طولوز أموره في القسطنطينية استأذن الإمبراطور الذي حباه بالهدايا والكرم الوفير من جديد، فسمح له بالإنصراف. وهكذا التحق مع أفراد جيشه الذين كانوا ملازمين له بالمعسكر بخطا سريعة، ووصل بالحال إلى نيقية.

٢٢ ـ وصول كل من روبرت كونت نورماندي ويوستاس أخو الدوق إلى مدينة القسطنطينية مع فيالقهما واستقبالهما من قبل الإمبرطور بحفاوة كبيرة وهدايا كثيرة، وعبورهما البوسفور وانضمامهما إلى المقدمين الآخرين.

وكان في هذه الأثناء قد بعث كل من اللورد روبرت [٢]، كونت نورماندي اللامع وعدد آخر من النبلاء البارزين الذين كانوا في المجموعة نفسها، أعني: اللورد ستيفن [٣]

---

(١) قبل يوم، وكان يوم الصعود هو يوم ١٤ ـ أيار ١٠٩٧ وذلك تبعاً لهاغنمير (هاغنمير «التأريخ» رقم ١٥٠).

(٢) ص ١٤٨ ـ كان روبرت دوق نورماندي، الابن الأكبر لوليم االفاتح، حيث استمد منه لقب «الحذاء القصير» قد ولد قبل فترة قصيرة من عام ١٠٥٤، وترعرع مع توقع أن يخلف والده. هذا ولم يكن وليم ميالاً للتخلي عن أية قوة حقيقية طالما ما يزال قادراً على استخدامها. وأصبح روبرت قليل الاحتمال، وانساق لنصيحة طائشة وطالب بحكم نورماندي. وأدى نشوب شجار عائلي إلى إعلان التمرد من جانب روبرت في عام ١٠٧٨ ـ ١٠٨٠، ولم يكن هذا الشجار إلا الأول من نوعه في سلسلة من الشجارات استمرت حتى وفاة وليم الفاتح، وكان روبرت هائماً في المنفى خلال كثير من هذا الوقت، وتوسط الأصدقاء مع والده المحتضر لإنهاء الخلاف، حيث كان ميالاً إلى حرمانه من الميراث تماماً، ومُنح روبرت، بفضل جهودهم، كلاً من نورماندي وميان بينما أصبح أخوه الأصغر، وليم روفوس، ملكاً لإنكلترا، هذا وقد استمرت الشجارات العائلية مع قدر متقلب حتى نهاية عام ١٠٩٥، عندما قدم خطاب أوربان في كليرمونت مخرجاً لروبرت من مصاعبه التي كانت قائمة، وجرى عرض تفاصيل حياة روبرت في الدراسة الشاملة لحياته التي قدمها س. و. ديفد بعنوان: «روبرت الحذاء القصير».

(٣) كان ستيفن الابن الأكبر لثيبولد الثالث كونت شامبين براي بليوس وتشارتزر وقد تزوج آدل ابنة وليم الفاتح في عام ١٠٨١. ويعتقد أنه تلقى ثقافة جيدة وأنه كتب الشعر أيضاً، كما أن الرسائل التي كتبها إلى زوجته =

كونت تشارترو وبلويس، ولورد يوستاس [1] أخو الدوق غودفري، قد بعثوا برسلهم إلى أوميل وألان فيرغانت Alan Fergant وكونون Conon وكلاهما رجلان عظيمان من بريتاني، بالإضافة إلى روترو Rotrou كونت بيرش perche، وروجر دي بارنفيل Boger De Barnevile؛ وكان جميع هؤلاء النبلاء، بما فيهم أعداد كثيرة أخرى من الرجال الشجعان والمتميزين مثل كونت فلاندرز ووهيو العظيم قد وصلوا إلى أبوليا في العام المنصرم، مع بداية حلول فصل الشتاء، وكان كل من كونت فلاندرز وهيو العظيم قد انتقلا إلى دورازو، لكن الآخرين كانوا قد أمضوا فصل الشتاء في أماكن مريحة في أبوليا وعلى حدود كالبريا Calabria، وذلك بسبب خوفهم من قسوة المناخ.

وحالما عاد فصل الربيع استدعوا رفاقهم الحجاج، ورتبوا أمتعتهم للزحف ونزلوا إلى الساحل، واتبعوا الطريق الذي سلكه الآخرون، وبدأوا رحلتهم نحو دورازو التي حلوا بها، ثم واصلوا السير من هنالك وتقدموا بكل اجتهاد على الطريق ليعوضوا الوقت الذي أمضوه في أبوليا، واجتازوا بمعونة الله المقاطعات المتوسطة أعني: إليركيوم Illyricum ومقدونيا وتراقيا الأولى والثانية، ووصلوا في النهاية إلى القسطنطينية [2] بعد رحلة آمنة، واستدعاهم الإمبراطور، حسبما كان قد استدعى القادة الآخرين، واستقبلهم لدى دخولهم إلى القصر بكل حفاوة وكان يحيط به الرجال البارزون في دولته.

وبعد أن عقد الإمبراطور مؤتمراً مع المقدمين الثلاثة، ومع كل واحد منهم على حدة، طلب منهم بكلمات مقنعة ورقيقة وبوعود كثيرة وبإلحاح، أن يؤدوا أيضاً يمين الولاء الذي كان قد حصل عليه من القادة الآخرين.

وكان القادة الآخرون قد زودوهم بما يلزم من معلومات وتعليمات قبل أن يذهبوا إلى

= خلال الحملة الصليبية، والتي حفظت رسالتان منها، هي من أروع الكتابات في تلك الفترة، وربما كان سحره في الأسلوب هو الذي جعله مفضلاً للامبراطور ألكسيوس، والقائد المختار للجيش الصليبي لفترة من الزمن، ولسوء الحظ، افتقر، كما سيسرد وليم، إلى بعض الصفات الهامة الأخرى. ورسائله مترجمة في كتاب الحملة الصليبية الأولى تأليف أ. س. كري.

(١) ص ١٤٨ ـ من المحتمل أن يوستاس الثالث، كونت بولون، كان الأخ الأكبر والأقل شهرة لأخوة ثلاثة شغلوا دوراً بارزاً في الحملة الصليبية وفي تأسيس الدول اللاتينية في الشرق، وورث لقب أبيه وأراضيه، وهنالك بعض الشك فيما إذا كان قد رافق إخوته في الرحلة عبر هنغاريا أو رافق روبرت أوف نورماندي عبر إيطاليا، حسبما يروي وليم. وينقل وليم، الذي يتبع فولتشر من أجل هذا الوصف للرحلة التي قام بها روبرت أوف نورماندي إلى القسطنطينية من رواية ألبرت حول وجود يوستاس، الذي لا يذكره فولتشر.

(٢) كان تاريخ الوصول هو ١٤ ـ أيار، فقد أمضوا أسبوعين في المنطقة المجاورة قبل أن ينطلقوا نحو نيقية التي وصلوها في ٣ ـ حزيران (هاغنمير «التأريخ» رقم ١٤٩، ١٥٥).

الإمبراطور، وتحدثوا إلى أنفسهم قائلين: « لسنا أعظم من أسلافنا » وهكذا تعهدوا بتقديم الولاء للإمبراطور أسوة بالذين كانوا في ذاكرتهم، وقدموا الولاء المطلوب منهم، وأدوا القسم بالعبارات التي استخدمها أولئك الذين كانوا قد سبقوهم، وبالمقابل تم استقبالهم بحفاوة كبيرة أيضاً، واعتبروا أنهم جديرون بهدايا كثيرة أخرى، وفتحت الخزينة وتم اعطاؤهم هدايا ذات قيمة رائعة إلى درجة أنهم لم يروا مثلها من قبل، فقد كانت هدايا من الذهب والثياب النفيسة والأباريق التي تستحق الإعجاب بمادتها وصنعتها، والأقمشة الحريرية، لقد بهر حقاً سخاء الإمبراطور حتى عقول المتسلمين، وبالفعل تجاوزت الهدايا أي شيء من هدايانا التي نلناها حتى الآن، سواء في المظهر أو في القيمة، ثم استأذنوا الإمبراطور بالإنصراف بعدما حُمّلوا بهذه الهدايا الرائعة، وعبروا البوسفور حتى لا يتأخروا عن اللحاق بزملائهم الحجاج، وأسرعوا مع فيالقهم نحو نيقية، حيث كان الجيش المسيحي ما يزال مرابطاً بأكمله هناك، ورحب بهم الأمراء الذين كانوا قد سبقوهم بالعناق الرقيق، وخيموا بموافقة عامة في المكان الذي كان قد حفظ لهم[1].

٢٣ ـ تاتيكسوس Taticius خادم الامبراطور الذي كان رجلاً ماكراً جداً واضح الخبث، يصبح متعايشاً مع قادتنا

كان أحد الاغريق ويدعى تاتيكسوس[2] وثيق الصلة بالامبراطور ومعتمداً عليه من قبله، وقد انضم هذا الرجل إلى معسكرنا، وكان رجلاً شريراً وغداراً، يدلك شكل أنفه اللوزي على طبعه الشرير، وكان قادتنا قد طلبوا دليلاً ليجعلوا رحلتهم أكثر سلامة، فتم تعيينه بأمر امبراطوري، ليكون رفيقنا ودليلنا المقبل، ولم يجر اختياره لأنه قيل عنه إن لديه معرفة شاملة بالمواقع فحسب بل لأن الامبراطور اعتمد كثيراً على مكره وعلى نفاقه المجرد من المبادىء الخلقية وكان قد انضم مع بعض قواته إلى قادتنا حتى يمكن أن يكون هنالك وزه تصرخ بصوت مرتفع بين الوزات، وأفعى شريرة بين أسماك « الحنكليس »، فقد نقل إلى الامبراطور كل شيء حدث في الحملة، وقدم إليه تفسيراً شريراً لكل سانحة أو ملاحظة

---

(١) كانوا آخر الوحدات الهامة التي وصلت إلىٰ نيقية وبوصولهم طوقت المدينة تماماً من جهة البر يوم ٣ حزيران (هاغنمير رقم ١٥٥).

(٢) كان تاتيكسوس من أصل إسلامي وعلى أغلب الظن من أصل تركي وذلك حسب ما روته آنا كومينا، التي ذكرت أن والده تم أسره في القتال، وعلى الرغم من أنه كان فرداً من البيت الإمبراطوري الحاكم فقد حقق شهرة بالشجاعة في القتال وغالباً ما عهد إليه بقيادة الجنود، وكان مطلعاً إطلاعاً كاملاً علىٰ المنطقة التي كان الصليبيون يعبرونها (اليزابث أ. س. دويس « الألكسياد للأميرة آنا كوميا ص ١٠٣).

أبداها واحد من الجيش، وبالمقابل تلقى من سيده الخطوط العامة التي تسير خططه الشائنة، وذلك بواسطة الرسل الكثيرين الذين تنقلوا بينهما جيئة وذهاباً.

وتمّ هنا، لأول مرة تشكيل جيش واحد موحد للرب الحي، وذلك من بين الفئات المتنوعة التي كانت قد تبعت القادة المستقلين، وخلال أماكن مختلفة وبقاع متعددة، وتمّ الآن تشكيل وحدة مستقلة من خلال دمج المجموعات العديدة التي كانت قد وصلت، ذلك أن قادة الجيوش ومقدميها ـ أحباء الله ـ لم يكونوا قد حصلوا، منذ أن غادروا منازلهم وباشروا رحلة الحج وحتى وصولهم إلى هذه المدينة وتخييمهم هناك، على امتياز رؤية بعضهم بعضاً، أو امتياز مناقشة المسائل التي تتعلق بالمصلحة العامة.

وعندما جرى احصاء تعداد الفيالق جميعاً تبين أنه كان هنالك ستمائة ألف من كلا الجنسين يسيرون على الأقدام، ومائة ألف فارس دارعين [1]، ولقد أوقف هذا الحشد الواقف أمام نيقية كل طاقاته وبكل طريقة ممكنة على مسألة اقتحام المدينة واحتلالها، مكرساً بذلك كل التكريس جميع الثمار الأولى لعمله للرب.

هنا انتهى الكتاب الثاني

(١) هذه الأرقام مأخوذة من وصف فولتشر، وعبر وليم فيما بعد عن الشك بخصوص دقة التقديرات الأولية لحجم الجيوش المسيحية وغير المسيحية أيضاً، ولا يمكن قبول هذه الأرقام حرفياً، إلا أنه لم تستنبط صيغة مرضية لتصحيحها حتى الآن. كما أن هاغنمير ميال، بعد مراجعة للتقديرات المعاصرة، لقبول تقدير كافارو القائل أن عدد الرجال المقاتلين كان /٦٠/ ألف، على أنه التقدير الأكثر دقة تقريباً (أنظر هـ. هاغنمير محقق «تاريخ الحملة الصليبية الأولى» لفولتشر ص١٨٣ ـ ١٨٤ ـ الحاشيتان ١١ ـ ١٢).

الكتاب الثالث

الاستيلاء على نيقية والزحف عبر آسية الصغرى

١ ـ وصف مدينة نيقية ومقومات شهرتها. كيف جمع قلج أرسلان، الذي كان يحكم هنالك، قوة ضخمة من الشرق بأكمله لمحاربتنا، وكيف تخفوا في كمين لمهاجمتنا.

تعد نيقية مدينة في منطقة بيثينيا التي كانت من قبل تابعة لنيقوميديا عاصمة تلك المنطقة، وقد حررها فيما بعد الامبراطور قسطنطين من تلك التبعية الادارية بدافع الاحترام للمجمع المسكوني الأول الذي عقد في تلك المدينة، فقد التأم فيها مجمع كنسي مقدس ضم ثلاثمائة وثمانية عشر كاهناً في أيام البابا سلفستر، وبطريرك القسطنطينية الاسكندر المبجل، والامبراطور قسطنطين الذي أشرنا إليه من قبل، وكانت الغاية من عقده اتخاذ إجراء ضد بدعة آريوس وأتباعه، وقد شجب هذا المجمع العقيدة الفاسدة والخبيثة لهؤلاء الرجال، وأرسى قواعد الحقيقة، بشهادة الكتب المقدسة، وهكذا تم اخراج شكل نقي لعقيدة كنيسة الرب بأكملها [١]، وفي هذه المدينة بالذات انعقد أيضاً المجمع المسكوني السابع، وذلك في أيام الامبراطور الورع قسطنطين بن ايريني، وذلك للاحتجاج على المتهجمين على عبادة الأيقونات، وكان أدريان هو البابا الروماني في تلك الأثناء، كما كان ثاراتيوس Tharatius المبجل هو بطريرك مدينة القسطنطينية، وتلقى هؤلاء الهراطقة الآنفي الذكر حكماً عادلاً قضى بإدانة كفرهم، وذلك من قبل الكنيسة الأرثوذكسية [٢].

وتتمتع نيقية بموقع مناسب جداً، فهي قائمة في السهل، كما أنها غير بعيدة عن الجبال حيث تحيط بها من جميع الجهات، وهي تمتاز بأن لديها أفضل الحقول، كما أن لديها تربة خصبة، وذلك بالإضافة إلى العديد من المزايا الأخرى التي منحتها إياها الغابات والأحراج، وتمتد إلى الغرب من المدينة وبالقرب منها بحيرة واسعة نوعاً ما وذات طول كبير، حيث تلامس مياهها الأسوار عندما تدفعها الأمواج، وتجلب السفن عبر هذه البحيرة المؤن من

---

(١) عقد هذا المجمع الكنسي المشهور في نيقيه، تحت رعاية قسطنطين الأول في سنة ٣٢٥ م. ويكمل وليم هنا، كما في أي مكان آخر، روايات المؤرخين من دراساته الخاصة بتاريخ الكنيسة.

(٢) وعقد المجمع الكنسي المسكوني في نيقية أيضاً في عام ٧٨٧ م وكان قسطنطين الرابع امبراطوراً في ذلك الوقت على الرغم من أن والدته كانت في أغلب الظن الحاكم الحقيقي، وكان أدريان الأول بابا في روما.

مختلف البقاع، وهذا الحال هو الدفاع الأفضل الذي كان باستطاعة المدينة أن تحصل عليه، ويحيط خندق بالأسوار من الجوانب الأخرى، ويمتلىء هذا الخندق حتى تطفو المياه من جنباته بفضل تدفق مياه الينابيع والجداول، وسيثبت هذا بحد ذاته على أنه عائق خطير لأي امرىء يتقدم من المدينة بنية عدوانيه، أضف إلى هذا لقد كان في نيقية سكان كثيرون، ذوو طاقات قتالية كبيرة مع حب للحرب، وتم الدفاع عن هذه المدينة بأسوار سميكة البنيان، وبأبراج شامخة، ذات بناء متين إلى درجة أن رجالنا استولت عليهم الدهشة لدى رؤيتهم كتل التحصينات العملاقة هذه[1].

وكان صاحب هذه المدينة، وفي الوقت نفسه سيد المنطقة بأكملها مع الأقاليم المجاورة حاكماً تركياً قوياً جداً يدعى قلج أرسلان، وكان يحمل لقب شاه[2] Sa، وهي كلمة معناها باللغة الفارسية «ملك»، وكان قلج أرسلان رجلاً شجاعاً وصاحب فطنة كبيرة، وقد استبد به القلق عندما سمع أن قواتنا كانت قادمة، وكان قد رحل إلى الشرق قبل وقت طويل سبق قدوم هذه القوات لالتماس العون من حكام تلك البلاد ضد حشود المسيحيين المتقدمة، وكان قد استدرج إلى جانبه عدداً كبيراً من الأتراك من بلاد فارس ومن الأراضي المتاخمة لها، وذلك بوساطة الأقوال المقنعة والتوسلات الملحة العديدة، وطبعاً ليس بدون التخلي عن المال أيضاً، وقد أمل بمساعدة من هؤلاء الناس في أن يكون قادراً على حماية نيقية والمنطقة بأسرها من الخطر الذي تهددها.

وكان ملك شاه عم قلج أرسلان[3] السلطان الأقوى لبلاد فارس، قد استولى بقوة السلاح على جميع الأقاليم شروعاً من البوسفور وحتى سورية، وهي بلاد يستغرق قطعها ثلاثين

---

(١) يعكس وليم هنا الرهبة الشاملة تقريباً التي حدق بها المؤرخون الأوائل نحو التحصينات الضخمة في الشرق، ومن هنا جاء الافتراض أن الغرب لم يمتلك حتى ذلك الحين تحصينات كهذه، وأن تلك التحصينات التي أقيمت هنالك خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر كانت مدينة بالكثير لخبرة الصليبيين، هذا وتحدى ت. إ. لورانس هذا الرأي مؤكداً أن التحصينات التي أقامها الصليبيون كانت على غرار النماذج الغربية وخاصة بعضها الموجود في نورماندي وما بني قبل الحملة الصليبية الأولى، وليست هذه الآراء آراءً متناقضة بالضرورة، لأن النورمانديين كانوا قد واجهوا قلاع اغريقية مشابهة في جنوب إيطاليا وصقلية خلال القرن الحادي عشر، وربما بدأوا البناء بشكل مشابه في نورماندي. ولذلك، يمكن لتأثير الخبرة الصليبية أن يكون بشكل رئيسي في إطلاع أوروبا الغربية على هذا النموذج من البناء (انظر ت. إ. لورانس «القلاع الصليبية»).

(٢) ما يزال مؤلفنا مضطرباً حول السلاجقة الأوائل، كما أن كلمة سا، أو شاه كانت ما تزال لقب حاكم بلاد فارس، إلا أنها كانت أيضاً جزءاً من اسم السلطان السلجوقي، ملكشاه، الذي أنجز الإستيلاء على آسيا الصغرى، ولم يطلق هذا الاسم أو اللقب على (سليمان) قلج أرسلان الذي يتحدث وليم عنه هنا.

(٣) انظر الكتاب الرابع ـ الفصلان: ٩ و ٢٤ والحواشي: ٤٤، ٤٨، ١١١، والقرابة إلى حد ما بعيده وكان والدا كل من ملكشاه وقلج أرسلان أبناء عم (انظر ب. ك. حتي «تاريخ العرب» ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦).

يوماً، واستولى من بحرنا المتوسط وحتى الشمال، وهي مسافة ذات الامتداد نفسه، وقد حدث هذا قبل بعض الوقت من وقوع أحداثنا هذه، حينما كان رومانوس دايجينس امبراطوراً للقسطنطينية، ورومانوس هو الامبراطور الثالث كان فيها قبل الكسيوس، امبراطورنا الحالي، وكان هذا السلطان هو الذي منح قلج أرسلان معظم هذه الأراضي، فاحتفظ بها حتى هذا الحين، وطالب بحق الملكية لجميع المنطقة الممتدة من طرسوس قليقية وحتى البوسفور، وهكذا كان وكلاؤه المعتمدون يتمركزون على مرأى من القسطنطينية نفسها حيث تولوا جباية الضرائب والرسوم من المارين، وجمعوا الأتاوات والضرائب من كامل الأرياف المحيطة بها وذلك لمصلحة سيدهم.

وكان هذا الحاكم قد وقف متريثاً في الجبال المجاورة التي لم تكن تبعد أكثر من عشرة أميال عن جيشنا، وقف ومعه الحشد الذي كان قد جمعه بكثير من الجهد، وكان ينتظر فرصة موائمة ليهاجم قواتنا دون لحاق خطر به، وأمل بهذه الوسيلة أن ينقذ المدينة من الخطر الناجم عن هذا المصدر.

٢ ـ قواتنا تهاجم المدينة بعنف، بيد أن سكانها وجدوا مخرجاً عبر البحيرة. قلج أرسلان يبعث برسالة تشجيع إليهم

ما أن وصلت قواتنا حتى شنت هجوماً عنيفاً على المدينة، وذلك على الرغم من أن صفوفها لم تكن مرتبة ترتيباً جيداً، حيث لم يكن قد تم بعد إقامة المعسكر بترتيب مناسب، ومع ذلك اختار الذين قد وصلوا مواقع محددة لأنفسهم، وعينوا أماكن مناسبة للذين كانوا سيلحقون بهم، وتم إيلاء عناية خاصة لمنع السكان من دخول المدينة أو مغادرتها، لكن البحيرة التي لاصقت أسوار المدينة، كما سبق القول، غدت عائقاً كبيراً لهذه المشاريع، حيث جرى نقل الذين رغبوا بالذهاب أو الإياب بأمان، بالسفن الجاهزة للإستعمال، عبر الأجزاء المختلفة، وكل حسب رغبته، وبما أنه لم يكن لدى جيشنا أية قوة بحرية، فإنه لم يستطع أن يكبح أبداً حرية هذه الحركة، ومع ذلك نجح بالفعل بوساطة حيل متنوعة ومتعددة في منع الوصول إلى المدينة براً، ذلك أنه حرس جميع الطرق والمنافذ بحذر شديد ويقظة تامة.

وقام قلج أرسلان، [1] الذي كان يعرف أن مدينته كانت تقاسي من محن الحصار، بارسال اثنين من أتباعه المقربين لمواساة سكان المدينة وتشجيعهم على مزيد من المقاومة، وكان

(١) من المفيد أن نلاحظ أن وليم لا يردد كلمات قلج أرسلان كما قالها تماماً، فلقد كانت عمليات نسبة خطب ورسائل إلى شخصيات بارزة عملاً منتشراً بين مؤرخي تلك الفترة، ويقوم مؤرخنا بتصنيع ما رواه ألبرت أوف اكس.

من المقدر وصول هذين الرجلين إلى المدينة على متن قارب عبر البحيرة، وقد أرسل معهما عبارات التشجيع التي كانت على الشكل التالي:

« يجب أن لا يسبب لكم قدوم هذا الشعب البربري الدنس الخوف الكبير، برغم أنه ملك الجرأة على وضع مدينتنا تحت الحصار، وذلك أنني مرابط مع قوة كبيرة من الرجال النبلاء والأقوياء في المنطقة المجاورة، وأنتظر أيضاً لحاق أعداد أكبر بي في وقت لاحق، وسنشن على الفور هجوماً مفاجئاً على معسكرهم عندما يكون جميع هؤلاء الجند قد اتحدوا في قوة واحدة، ولذلك استعدوا من جانبكم لمساعدتنا عندما نهاجم من الخارج، واستعدوا أيضاً لفتح الأبواب، وبما أنهم قادمون من أراضي الغرب البعيدة، فإنهم لن يستطيعوا أن يكونوا مساوين لقوة عساكرنا الجديدة التي قدمت لتوها، كما لا يمكنهم أن يكونوا مماثلين لها بالجهد والطاقة وذلك بسبب المسافات الطويلة التي قطعوها والمشقات التي تكبدوها، ودون أن يكون لديهم خيول لتحمل عبء المعركة، وتذكروا أيضاً كيف انتصرنا بسهولة على حشدهم القوي، وأرسلنا إلى الموت أكثر من خمسين ألفاً من جوعهم في يوم واحد، لذلك اطمئنوا ولا تخافوا حيث ستلقون مساعدة كبيرة في الغد، وقبل الساعة السابعة من النهار، وسيتم تحريركم من العدو ».

٣ ـ أسر حامل الرسالة. كشفه لجميع أسرار العدو للقادة. وصول كونت طولوز الذي كان غائباً وحده بسرعة عند استدعاء الرؤوساء الآخرين له.

أبحر الرسولان على طول الشاطىء باحثين عن المكان الأفضل للرسول، وبينما هما يبحثان عن مدخل أنسب هاجمهم شعبنا، وأسر واحداً منهما، وقتل الآخر بالسيف خلال الصراع، واقتيد الأسير سلمياً إلى القادة، حيث دفع على الاعتراف ـ بالوعد والوعيد ـ وأفصح عن كل شيء، مخبراً عمن أرسله ولماذا، واتضح من قصته أن قلج أرسلان كان قد بعث بالرجلين ليخبرا سكان المدينة أنه كان قادماً، وأنه كان قريباً مع القوات الكبيرة التي كان قد حشدها، وأنه عقد العزم على شن هجوم مفاجىء في اليوم التالي على معسكرنا.

وعندما علم قادة فيالقنا أن قلج أرسلان كان على وشك القدوم، أمروا أن يبقى الأسير تحت الحراسة، وأرسلوا على الفور الرسل إلى كونت طولوز وأسقف بوي اللذين لم يكونا قد التحقا بالبقية بعد، ليتوسلوا إليهما للقدوم بالسرعة الممكنة، وشعر هذان القائدان بقلق كبير عندما تلقيا الرسالة من اخوانهما، ولم يترددا أبداً، بل شرعا بالرحيل فوراً، وتقدما طوال الليل بأكمله، ووصلا إلى المعسكر في الصباح الباكر قبل شروق الشمس، وأطلقا الصيحات والصرخات العالية، وكانت أعلامهما تخفق عالية، ودروعهما تلمع، وما أن

أنزلا أحمالها حتى تحولا لاحتلال أماكنهما في المواقع المخصصة لهما مع البقية، وانحدر قلج أرسلان في حوالي الساعة الثالثة من الجبل، ودخل السهل في طريقه إلى المدينة، تماماً كما كان أسيرهم قد صرح من قبل، وكان مع قلج أرسلان مجموعة كبيرة من الفرسان قدر عددها بخمسين ألف رجل، وما أن رأى شعبنا العدو حتى امتشق أسلحته، وتم تنبيه كتائب الجند بالأبواق المدوية والنفر الرنانة، وهكذا عبأ صفوفه، وأخذ بترتيب المعركة، ولم يتم اغفال أي طارىء ممكن، واستعد لمواجهة العدو المقترب، مع مراعاة دقيقة لقواعد النظام العسكري، التي كان مدرباً عليها تدريباً كبيراً، وكانت له خبرة كبيرة فيها.

٤ ـ قلج أرسلان ينحدر من الهضاب ويشن هجوماً عنيفاً على معسكرنا. جيشه يهزم. ارسال بعض الغنائم إلى الامبراطور. الامبراطور يكافىء المقدمين

أرسل قلج أرسلان فوجاً مؤلفاً من عشرة آلاف أمامه كطليعة، وأسرع نحو الباب الجنوبي الذي كان تحت حراسة كونت طولوز، هذا ولم يكن قلج أرسلان يعرف خبر وصول ريموند، ولذلك كان يتوقع أن يجده غير محمي، كما كان قبل يومين مضيا، وقد تبددت آماله حيث وجد قوات متمركزة هناك أكثر من أية بقعة أخرى، وبما أنه لم يكن عالماً بهذه التغييرات، فقد زحف إلى هنالك بسرعة، وهجم بعنف على رجال الكونت، وعلى الرغم من أن هؤلاء الرجال كانوا قد فرغوا لتوّهم من انزال أحمالهم، فقد قاموا بالمتوجب عليهم خير قيام وبشكل رائع، وردوا الهجوم، وبددوا صف العدو الأول تماماً، وكان الصف الثاني قد استدار للهروب عندما جدد ظهور قلج أرسلان مع تعزيزات قوية، شجاعة الجند المضطربين، وأجبرهم على العودة إلى القتال.

ولاحظ في تلك الساعة كل من الدوق بوهيموند وكونت فلاندرز أن العدو قد التحقت به قوات كبيرة، وأنه قد زحف بصفوف أكثر تراصا، كما لاحظ أيضاً أن رجال الدوق قد أنهكوا ولم يعد بإمكانهم التحمل أكثر، وذلك من جراء الحشد الساحق صاحب الشجاعة العظيمة، فاندفعا بقوات مسلحة تسليحاً قوياً وبانسجام واحد لمؤازرة رفاقهما، وهاجما العدو، والتحما به بضراوة بالسيف والرمح في مواقع عديدة، وعلى الرغم من أن الكفرة بدوا لدى ظهورهم الأول على أنهم يتحلون بالشجاعة والقوة، فقد تبدلت الصورة، فاستداروا وهربوا بعد ساعة من المقاومة قتل فيها قرابة أربعة آلاف منهم، كما تمّ أسر عدد منهم.

وهكذا، أحرزت قواتنا ـ بمعونة الرب ـ هذا الانتصار الأول لها، وواصلت تنفيذ

الحصار بنشر معسكرها على شكل دائرة كاملة حول الأسوار، ولم يجرؤ منذ ذلك اليوم [1] وطيلة أيام الحصار لاقلج أرسلان ولا أي أمير آخر من أمراء الكفرة على القيام بهجوم مماثل.

وأبلى القادة الذين ورد ذكرهم أعلاه بلاء حسناً في هذه المعركة، وأحرز كل من تانكرد، وولتر أوف غارلاند Walter of Garland وقهرمان ملك الفرنجة، وغي أوف بوسسا Guy of Possessa، وروجردي بارنفيل Rogerde Barnevile أحرزوا شهرة عظيمة لشجاعتهم.

وصدرت الأوامر بقذف رؤوس الأتراك المقتولين بأعداد كبيرة إلى داخل المدينة، بوساطة آلات القذف، وذلك لإلقاء الرعب في قلوب العدو، وتمّ إرسال ألف من هذه الرؤوس مع عدد من الأسرى إلى الامبراطور، وكانت هدية أحرزت تأييده الودي، أضف إلى هذا ارسال الامبراطور ألكسيوس بسخاء الكثير من المال والمواد الحريرية من جميع الأصناف كمكافأة لمقدمي الجيوش، وأمر علاوة على ذلك أن يتم بكرم كبير تزويدهم بالمؤن الضرورية، وبسوق مجهزة بالسلع الكثيرة.

٥ ـ القادة يتمركزون في المواقع المخصصة لهم. الهجوم على المدينة المحاصرة من كل جانب. بعض النبلاء يموت بالمعركة

لقد عدّ قادتنا ـ كما سبق بنا القول ـ أنَّ من المناسب أن يحاصروا المدينة من جميع الجهات، وأن يتمركز القادة في سبيل ذلك في مواقع استراتيجية، بحيث يمكن بذلك دفع سكان المدينة بسهولة أكثر إلى الاستسلام، وذلك عندما تحيق بهم المخاطر من كل جانب، وقاموا حسب هذه الخطة التي وافق عليها الجميع، فقسموا محيط السور إلى أجزاء متساوية، وخصوا كل قطاع منها بمجموعة معينة من المقدمين.

فقد تم وضع الدوق مع أخويه وقواتهم في الناحية الشرقية، وتخصص بوهيموند مع تانكرد والقادة الآخرين الذين كانوا قد تبعوا بوهيموند، والذين أتينا على ذكر أسمائهم من قبل بالجانب الشمالي من المدينة مع جيشه، وأتى بعد هؤلاء بالترتيب: كونت فلاندرز، وأمير نورماندي مع فيالقهما، كما تم تخصيص القطاع الجنوبي لكل من ريموند كونت طولوز وأسقف بوي مع رفاقهما، وتمركز خلفهم ستيفن كونت تشارترز وبلويس مع هيو الكبير وعدد آخر من الرجال البارزين والنبلاء، وعندما تم تطويق المدينة بأكملها بهذا الشكل، قرر القادة صنع آلات الحرب اللازمة، وذلك بالسرعة الممكنة بغية نسف الأسوار، وهي آلات

---

(١) ١٦ ـ أيار ١٠٩٧ م.

تسمى الأبراج المتحركة، كما صدرت الأوامر أيضاً بإنشاء آلات القذف المعروفة بالمجانيق والعرادات بالسرعة[1] الكلية، ذلك أن الأخشاب المناسبة لهذه الآلات كانت متوفرة في الغابات المجاورة.

وتم استدعاء الحرفيين، واستمر العمل باجتهاد كبير، وتنافس الجميع بحماسة مع بعضهم بعضاً، تنافسوا بالعمل لكي يتمكنوا من مهاجمة المدينة حالما تنتهي هذه المهمة، وكانوا قد أوقفوا أنفسهم بمنتهى الجدية - على هذا العمل لمدة سبعة أسابيع، شنت قواتنا خلالها هجمات متكررة على المدينة حيث فقدت خلال القتال العادي وأثناء محنة رهيبة، اثنين من المحاربين الشجعان، كان كل منهما نبيلاً من مرتبة عالية، فلقد هلك كل من بلدوين الملقب بكالدرون Calderon وبلدوين أوف غنت Ghent, وذلك عندما كانا يحاربان بشجاعة أثناء الانقضاض على المدينة، فقد ضرب أحدهما بصخرة، في حين اخترق الثاني سهم أودى بحياته، وتم شن هجوم آخر فيما بعد تلبية لرأي القادة وقرارهم، فجرح كل من وليم كونت فورز Forez وغالودي ليلي Galo de lille بالنشاب عندما كانا يحاربان بتلهف في هذه المعركة، ولقيا حتفهما أيضاً.

واستولى أيضاً مرض شديد على غـي دي بوسسا، الذي كان نبيلاً من مملكة الفرنج، وأدى إلى وفاته، وبما أن شعب الرب قد صدم بالذعر لموت هؤلاء المحاربين الأشداء، فقد خصوا جثثهم بالمقامات الرفيعة في قبورهم، وأقاموا لهم بكل حب وورع المآتم المناسبة، التي تقام بالعادة للرجال ذوي المناصب الرفيعة.

٦ - أهل المدينة يدمرون آله كانت قد ألصقت بالأسوار. هلاك عدد كبير من المسيحيين تحتها. البحيرة تعيق نجاح جهودنا.

كان جميع القادة المشتركون في الحصار يناضلون في وقت آخر بشجاعة واستمرار، ودونما انقطاع لإيصال آلاتهم الحربية إلى السور، فقد رغبوا باضعافه بكل طريقة ممكنة ليتمكنوا من تأمين مدخل فيه، وكان كل من كونت هارتمان Hartman وهنري دي اش Esch، وكلاهما رجلان بارزان ونبيلان من مملكة التيوتون قد ساعدا بأمانة بوساطة أتباعها وخدمها، واشتركا في إلصاق آلة منشأة ببراعة بالتحصينات، وكـانت مصنوعة من عوارض

(١) من الواضح أن الـ Scrophae أو الـ Sows كانت ستائر متحركة لحماية عمليات الحفر وسميت بهذا الإسم بسبب مماثلتها إما لشكل أو لفعالية قلع السفينة البالي. كما أن التمييز بين المنجنيق والعرادة ليس واضحاً، حيث من الممكن استخدامها لقذف الصخور أو الحراب (أنظر تشارلز أومان - «تاريخ فن الحرب في العصور الوسطى»: ١/١٣١c.

من خشب الزان، ومضمومة مع بعضها بعضاً، ومطوقة بجدران متينة، وتم الإعتقاد أن العشرين فارساً شجاعاً الموضوعين داخلها لغرض لغم السور سيكونون بأمان حتى من أضخم الصخور المقذوفة من آلات الحرب، وكما سلفي بنا القول، تقدم سكان المدينة من الاعلى للدفاع عن الأسوار، وذلك عندما ألصقت آلة الحرب هذه بالأسوار الدفاعية، وكانت النتيجة تدمير هذا البرج المتحرك تدميراً تاماً بوساطة ضربات الحجارة الضخمة، فقد انهارت الوصلات، وهلك كل من كان بداخلها، وتحولت عواطف الشعب بأسره نحو هؤلاء النبلاء، لأن العمل الذي تمّ انجازه بعد عدة أيام، وبكلفة كبيرة قد تهدم تماماً، وأصبح بلا أدنى قيمة، كما حزنوا أيضاً لمصير أولئك الرجال الشجعان الذين هلكوا بشكل يرثى له، وواساهم الأمل بالإنتصار، ولا سيما بعدما أيقنوا أن الذين غامروا بحياتهم في عمل من هذا القبيل في سبيل المسيح، قد أحرزوا حياة أفضل، لأنهم شعروا بإنصاف أن الرجال الذين كانوا قد هلكوا في معركة من هذا النوع قد ماتوا شهداء، وبناء عليه، جعلهم هذا الأمل أكثر شجاعة، واحتقروا الموت أيضاً، وعدّوا الحياة الحالية حياة تافهة، واستمروا يعرضون أنفسهم بثقة تامة إلى جميع أنواع المخاطر.

وبناء عليه واصل القادة أعمال الإنقضاض على المدينة بإنسجام واحد، وعلى طول محيط الأسوار، وبقدر ما أظهر كل قائد نفسه متحمسة في إنهاك المحاصرين في القطاع المخصص له، بقدر ما زادت شهرته في أعين البقية، وتقدم العمل، مع أنه كان بكلفة عالية، كما أن المعارك المتواصلة، والحملات المستمرة لم تعط سكان المدينة أية فترة للإستراحة.

ومهما يكن من أمر فقد شكلت البحيرة المتاخمة للمدينة العائق الأكبر لأعمال المسيحيين، ومنعت جهودهم المتّقدة من تحقيق النتائج المرجوة، فقد قدمت المعونات من كل نوع إلى المحاصرين حيث جلبوا بحرية مؤن الطعام والاحتياطات بالإبحار عبر مياهها، كما جلبوا أحياناً أعداداً كبيرة من القطعان، وذلك أمام أعين قواتنا نفسها التي كانت عاجزة عن منعهم.

٧ ـ المسيحيون ينقلون القوارب على العربات من البحر ويسيطرون على البحيرة. سكان المدينة تستولي عليهم الدهشة ويصابون باليأس أمام قدرات شعبنا.

اجتمع القادة أحباء الله، لدراسة هذه المسألة الخاصة، ولتدبر الوسائل المثلى لمعالجتها، واتخذ في النهاية قرار بموافقة جميع القادة، قضى بإرسال حشد من الناس إلى البحر، برفقه عدد من سرايا الفرسان، حيث توجب عليهم جرّ القوارب على العربات، أو العجلات، أو بأية وسائل أخرى مهما كانت، جرها بطريق البر إلى البحيرة، وبشكل كلي أو جزئي، ولو لم

يكن قد تمّ الإصطلاع بهذا الإجراء، لكان من الواضح أن جميع جهود المسيحيين ستثبت أنها عقيمة، وأنه قد تمّ ضياع عملهم وأموالهم عبثاً، ويصبح كل شيء بلا قيمة.

وعندما وصل الموكل إليهم تنفيذ هذا المشروع إلى البحر ـ والرب يوجه برحمته طريقهم ومشروعهم ـ وجدوا هنالك سفناً ذات حجم متوسط، فحصلوا عليها بسهولة من الإمبراطور، وسحبوها من البحر إلى اليابسة، وجمعت ثلاث عربات أو أربع مع بعضها، أو بالحري حسب ما تطلبه طول القوارب ووضعت المراكب عليها، وسحب الناس هذه المراكب في غضون ليلة واحدة، بوساطه حبال موضوعة على أكتاف ورقاب الرجال والخيول، سحبوها براً حتى البحيرة، وهي مسافة تبلغ سبعة أميال أو أكثر، وكان من بين مجموع السفن سفناً ذات حجم كبير، قادرة على حمل خمسين مقاتل أو مائة، وابتهج الجيش المسيحي كثيراً عندما أنجز سحب هذا الاسطول براً، ووضع على سطح مياه البحيرة، وأسرع القادة إلى الشاطىء، وتمّ جلب المجذفين البارعين في توجيه السفن، كما تم جلب الرجال الأقوياء ذوي الشجاعة المعترف بها، وملأ الأمل الأكيد بأخذ المدينة قلوب الجميع حالاً.

ولاحظ سكان المدينة وجود عدد من القوارب أكثر من المعتاد على سطح البحيرة، فاحتاروا وكانوا غير متأكدين فيما إذا كانت هذه القوارب جزءاً من أسطولهم الذي كان قد أتى لمؤازرتهم، أو فيما إذا كانت هذه القوارب تخص العدو، ولم يطل الأمر بهم، فقد أصبحوا مقتنعين بعد وهلة قصيرة أن شعبنا قد جرّ هذه القوارب من البحر وسحبها براً وبجهود بطولية ووضعها على البحيرة، واستولت عليهم الدهشة إزاء قوة المسيحيين، وبراعة هؤلاء الذين نفذوا بنجاح مشروع مرعب كهذا هو أشبه بالمستيحلات[1].

٨ ـ الإنقضاض من جديد على نيقية من جميع الجهات. كونت طولوز يحاول إضعاف برج مقابل له، ويستخدم آلات الحرب وكل وسيلة أخرى ممكنة، لكن مقاومة سكان المدينة تجعل جهوده عقيمة.

وهكذا أغلق منفذ المدينة عن طريق البحيرة بإدخال الاسطول المسيحي، وتمّ آنذاك الإعلان بشكل عام بصوت المنادي: إن على كل فيلق حمل أسلحته وأخذ موقعه المخصص له تحت لواء قائده، فقد توجب بذل جهد استثنائي بالضغط بشدة على سكان المدينة بهجوم

(١) تبعاً لآنا كومنينا استنبط والدها الامبراطور الكسيوس هذه الخطة وخطا بذلك الخطوة الحاسمة نحو الإستيلاء على نيقية، فقد احتلت السفن البحيرة بحلول صباح الثامن عشر من شهر حزيران، وتبع ذلك استسلام المدينة في اليوم التالي، أي في التاسع عشر من شهر حزيران من عام ١٠٩٧ (هـ. هاغنمير «التأريخ» رقم ١٥٩ - ١٦٠) استخدمت هذه الوسيلة ثانية من قبل الصليبيين في محاولة خبيثة للاستيلاء على مكة (انظر غ. شلمبيرغ «رينو دي شاتليون» ص٢٥٧ - ٢٨٣).

عنيف آخر يشن عليها، وبالفعل دفع كل قائد رجاله وقادهم مسلحين تسليحاً كاملاً إلى المعركة، وتبع ذلك صدام عنيف لم يسبق له نظير، وتمّ الإستخدام الجريء والفعال لآلات الحرب، وبينما ركز بعض الجند اهتمامهم على تقويض الأسوار، قام آخرون بقذف الحجارة الضخمة لإضعاف التحصينات.

وكان هنالك برج أكثر بروزاً بارتفاعه وبنائه الضخم من بقية الأبراج في الجهة الجنوبية التي كانت مخصصة لكونت طولوز كهدف للهجوم، وأذيع أن مسكن زوجة قلج أرسلان كان على مقربة من هذا البرج، وكان الكونت قد أوقف كل جهوده، ولعدة أيام، على تدمير هذا البرج، لكن جهوده كانت بدون مردود، فعلى الرغم من قصفه باستمرار بالصخور المقذوفة من منجنيقين، فإن بناءه المتين جعل من المستحيل إزاحة حتى حجر واحد منه، ومهما يكن من أمر، فإنه بدلاً من أن يتخلى الكونت عن غايته، وكأنه قد احتله، ضاعف الضغط، وزاد عدد آلات القذف أيضاً، وبدأت الصدوع تظهر بالتدريج على البرج، وذلك بسبب ضربات الكتل الضخمة من الحجارة والصخور ذات الوزن الكبير، وفي النهاية بدأ ينهار، بعدما أضعفته الضربات المستمرة، وقفز الجيش إزاء هذا المنظر السار كتلة واحدة عبر الخندق المائي، واقترب من الأسوار، وحاول أفراده تدمير البرج بصيحات التشجيع بعضه لبعض، أو على الأقل احداث ثغرة فيه.

وفي المقابل يبدو أن سكان المدينة إدراكاً منهم لوجود خطر بانهيار برجهم ملأوا داخله بالحجارة والملاط، بحيث يحلّ البناء الجديد مكان القديم إذا ما تم نسف الأسوار أو إضعافها بآلات القذف حتى تنهار، ويقدم بذلك عائقاً في وجه الذين يحاولون احداث ثغرة فيه، وكان رجالنا يحاولون في هذه الأثناء تقويض التحصينات بعدما حموا أنفسهم ببرج متحرك متين كانوا قد ألصقوه بشدة إلى السور. ونجحوا بعد كثير من الكدح بأحداث ثغرة بوساطة أدواتهم الحديدية،وكانت هذه الثغرة كبيرة بشكل كاف يتسع لرجلين بسهولة، وفي هذه الأثناء أقام سكان المدينة الإستعدادات لمقاومة جهود عدوهم بكل قوة، فقد واجهوا الخدعة بالخدعة، والقوة بالقوة، وأظهروا شجاعة لم تكن أقل من شجاعة المسيحيين، وناضلوا كرجل واحد بالقسي وآلات المنجنيق وأدوات القذف الحربية، وكل سلاح يمكن تخيله، لصد العدو، واجتناب الخسائر الموجهة إليهم.

٩ ـ مأثرة الدوق غودفري البارزة. واحد من سكان المدينة يلقي النار والدهن على آلات الحرب. المصير المحزن لرجل لامع.

وكان من بين الذين كانوا يدافعون عن السور ضد القوى المهاجمة رجل واحد مشهور بحجمه الكبير وقوته العظيمة، وقد أظهر حقداً أكثر مما أظهره البقية، وسبّب قوسه الفتك

الكثير برجالنا، وبدأ في النهاية، بعد ما انتفخ. بالنجاح الذي كان قد تمتع به منذ مدة مديدة، بدأ بقذف السباب المهين وإنزال الشتائم بجنودنا، وقد وبخهم واصماً اياهم بالكسل والجبن، وكان يتجول بهذه الطريقة الوقحة على طول قسم السور الذي كان الدوق يهاجمه بصحبة كتائبه، ولم يستطع غودفري الواسع الشهرة، تحمل هذا السلوك الشائن، فتناول قوساً ضخماً، وبحث عن موضع مناسب، وفوّق قوسه وسدده نحو هدفه بدقة متناهية بحيث اخترق النصل قلب ذلك الوغد، وخرّ ميتاً على الأرض،وهكذا كفرّ بجزاء عادل عن الإساءات العديدة التي كان قد سببها للمسيحيين، وكان زملاء هذا الوغد في العمل يقومون بدفاع في منتهى الجسارة عن ذلك القسم، بدافع أمثولته، لكنهم لم يقذفوا بعد ذلك سوى عدد قليل من الرمايات والإهانات، بعد ما أرعبهم مصير زميلهم رعباً كبيراً، وكان الآخرون ـ من ناحية أخرى ـ لم يعرفوا خبر هذه الفاجعة، ولهذا استمروا في العمل بشجاعة في الدفاع عن المدينة في مواضع أخرى على طول السور، وحيث أنهم حموا أنفسهم، وأخذوا بجانب الحذر بقدرما هو متوجب وممكن، فإنهم لم يتوقفوا بكل قوتهم عن إلحاق الأذى والجروح والموت برجالنا من فوق الأسوار والأبراج، ذلك أنهم لم يكتفوا بإلقاء الزفت والزيت والشحم وأشياء أخرى تزيد من استعار ألسنة النيران، بل قذفوا أيضاً قذائف مشتعلة، استهدفت بشكل مباشر آلات حربنا، وهكذا تمّ تدمير الكثير من هذه الآلات باستثناء المواقع التي تمت مراقبتها بحذر.

كما أن الذين كانوا يعملون بمواظبة ودونما انقطاع في الناحية الجنوبية، في الهجوم على البرج، قد واصلوا جهودهم الحماسية لتحقيق ذلك الهدف، هذا وعندما رأوا أن أي جزء من السور المنسوف خلال النهار كانت تتم إعادة بنائه وترميمه أثناء الليل التالي، بدأوا بالتراخي بالحال في بذل جهودهم بعض الشيء، وبما أنهم لاحظوا أن عملهم لم يلاق أي نجاح، فقد كانوا على وشك التخلي عن غايتهم، وحدث هذا عندما حاول رجل شجاع من منزلة عالية، القيام بمأثرة رائعة، فقد كان فارساً من جيش كونت نورماندي، والذي عمله أنه اندفع نحو السور، وكله أمل أن الآخرين سيحذون حذوه، وهكذا ارتدى درعه ووضع خوذته وعبر الخندق بكل شجاعة وإقدام، وكان هدفه تدمير البناء الحجري الجديد الذي كان سكان المدينة قد شيدوه خلال تلك الليلة، وإعادة فتح الثغرة التي سبق احداثها في اليوم السابق، وفي مواجهة ذلك ضاعف سكان المدينة الهجوم من الأعلى وبقوة كبيرة، وهكذا كانت محاولته مخفقة حيث لم يجرؤ أي من المسيحيين الآخرين القدوم لنجدته، وقد واجه الموت الزؤام بالقذائف الحجرية الضخمة، فهلك إلى جانب السور، وعلى مرأى عام من رفاقه، حيث لم يستطيعوا مساعدته مع أنهم كانوا راغبين جداً بذلك، ورفع الكفرة جثته الهامدة بخطافات

حديدية، ورموها إلى داخل الأسوار حيث تمددت متعرضة لسخريتهم وشماتتهم المؤذية، وقذفت في النهاية إلى شعبنا في الخارج بعدما جردت من الدرع والخوذة، وبكى الناس هذا الرجل، ومجدوا شجاعته العظيمة، وأودعوا بقاياه القبر بطقوس للدفن لائقة، ولم يرتابوا أن موته كان ثميناً في نظر الرب، وأن روحه ستتحد مع أرواح النخبة بسبب هذه النهاية النبيلة، وكما سبق بنا القول، كان الجميع متفقين في الرأي على أن الذين سقطوا في المعركة بهذا الشكل استحقوا الحياة السرمدية، وسيحتلون في السعادة السرمدية الأماكن التي وعدوا بها بين القديسين.

١٠ - أحد الحترفيين يقدّم خدماته إلى المقدمين اليائسين، فينشىء آلة حرب، ويلغم السور الذي انهار مباشرة.

وفي هذه الأثناء اجتمع قادة فيالقنا الموقفين أنفسهم على خدمة الرب مع بعضهم للمداولة، كما كانت عادتهم المألوفة، واتضح لهم أنهم لم يكونوا يحققون أي تقدم في مشروعهم، بل على العكس كانوا يبددون الجهود والحماسة ولذلك تداولوا فيما بينهما حول ما يجب عمله في ظل الأحوال القائمة، وبينما هم يتدارسون المسألة بقلوب متلهفة، أتى أحد الرجال إلى القادة، وكان من شعب اللومبارد، وكان قد لاحظ أن جميع خطط آلات الحرب كانت عقيمة، وأن عملها كان بلا جدوى، وادعى أن لديه خبرة واسعة في تلك الحرفة بالذات، وأعلن أنه إذا ما تم تزويده بما يلزم من مواد، وبمبلغ كاف من المال من الصندوق يكفي لإكمال العمل، فإنه سيدمر ذلك البرج بمشيئة الرب خلال بضعة أيام، وسيحدث ثغرة واسعة بحيث يمكن أن يدخلها كل من رغب بذلك، وأكد أنه سيكمل هذا العمل وسينجزه دون فقدان رجل واحد، واستجيب له وجرى تزويده بمبلغ كاف من الأموال العامة لتغطية النفقات، وذلك بالإضافة إلى مبلغ مناسب خصص كتعويض له مقابل عمله، وتم تزويده بالمواد التي طلبها، وبناء عليه فقد شيّد آلة حرب بخبرة رائعة، صممت بشكل استطاع الذين كانوا بداخلها إلصاقها بالأسوار، على الرغم من جهود العدو المعطلة، ودون خطر على أنفسهم، وبما أنهم كانوا محجوبين في تلك الآلة، فقد تمكنوا من مواصلة عملهم في تقويض التحصينات دونما خوف، وتمّ هذا بالفعل، ذلك أنه بعدما نفّذ الحرفي عمله، وبعدما ركبت الآلة وجمعت أطرافها، وحصنت في كل جزء منها، دخل صاحبها إليها مع عدد من الرجال الشجعان، وارتدى الجميع الدروع، وكانوا مجهزين تجهيزاً جيداً بالسلاح، وذلك بالإضافة إلى الأدوات الحديدية المطلوبة للعمل، وجرى بعد ذلك تحريك الآلة مع العمال عبر الخندق، وتم إيصالها إلى الأسوار بكثير من الخبرة والبراعة، بيد أن سكان المدينة واصلوا بجرأتهم

المعهودة، قذف الصخور الكبيرة والمواد القابلة للإحتراق، وصبوها من الأعلى عليها، ولم تسبب جميع هذه القذائف أي ضرر، ذلك أن الميل الحاد للسقف، وجوانب الآلة وحوافها، منعتهم من الإسقاط عليها، وهكذا لم يصل أي ضرر إلى الرجال في الأسفل، وبدأ العدو يفقد بسرعة الثقة بوسائله التقليدية، وقد أعجب كثيراً ببراعة المخترع وقوة الآلة، حيث لم يبد أن أية وسيلة ستتغلب عليها.

أما بالنسبة لأولئك المختبئين داخل ذلك الملجأ، فقد كانوا محميين تماماً من شرور العدو، ولهذا واصلوا العمل بكل ما أوتوا من طاقة على هدم البرج وتصديع السور، وحالما تمّ تحطيم الأساس الحجري، تم تبديله بقطع من الأخشاب كبيرة وبدعائم خشبية، حيث توفرت امكانية انهيار الجزء العلوي من السور على الآلة وتحطيمها، ساعة إكمال تـدمير أساسات السور. فبالطبع لن تكون تلك الآلة قادرة على احتمال ثقل كتلة عملاقة تسقط عليها.

وأوقدت النيران بالدعائم الحاملة للسور المحكوم عليه بالإنهيار، وذلك بعدما وضح أنه تم تقويض ما يكفي من السور ليسبب انهياره، كما أضيفت مواداً مناسبة قابلة للإحتراق لتبقي النيران مشتعلة، وغادر العمال عندئذ الآلة، وأسرعوا بالعودة إلى رفاقهم، وسقط البرج محدثاً صوتاً كالزلزال، وكان ذلك في حوالي منتصف الليل، بعدما احترقت الدعائم الخشبية، وأتلفتها ألسنة اللهيب وحولتها إلى رماد، وقد صعق انهياره حتى أولئك الذين كانوا بعيدين عنه، وحمل الرعب والخوف إلى قلوبهم، كما وأيقظ صوت انهياره الفيالق فاندفعت نحو أسلحتها، وحملتها، وصممت على شق طريقها نحو داخل المدينة.

١١ - أسر زوجة قلج أرسلان مع ابنيها عندما كانت تحاول الهرب. سكان المدينة يصيبهم اليأس فيشرعون بالتفاوض مع تاتيكوس الإغريقي حول شروط الإستسلام المناسبة. القادة يرسلون الرسل إلى الإمبراطور بشأن هذه القضية.

كانت زوجة قلج أرسلان قد تحملت حتى هذا الحين مشقات الحصار، لكن بصعوبة كبيرة، أما الآن فقد أصابها ذعر شديد بسبب انهيار البرج، لهذا سارعت - حسبما هو معهود في طبائع النساء - فأمرت بإعداد السفن، وغادرت المدينة خلسه، تحيط بها جواريها وأسرتها، بقصد البحث عن مكان أكثر أمناً، بيد أن المسيحيين كانوا قد وضعوا الحراس على البحيرة داخل قوارب لمنع المحاصرين من الذهاب أو الإياب، وبما أنهم كانوا رجالاً عقلاء متيقظين دوما، فقد راقبوا كل حركة بمنتهى الدقة والحذر، وهكذا اكتشف هؤلاء الحراس أمر السيدة عندما كانت على وشك الفرار، وألقوا القبض عليها واقتادوها مع ابنيها إلى القادة الذين أمروا بإبقائها مع زملائها من الأسرى تحت حراسة شديدة.

وأصاب سكان المدينة حالة من الذعر بسبب الثغرة التي فتحها العدو ، ولأسر امرأة ذات أهمية بالغة ، وخامرتهم الشكوك حول مدى قوتهم ، ولذلك أرسلوا على الفور وفداً إلى الرؤساء ، مع رجاء منحهم هدنة بغرض الإعداد للإستسلام.

وكان تاتيكوس، ذلك الرجل العظيم الدهاء ، الذي سبق لي الحديث عنه ، قد توقع أن سكان المدينة سيرغبون بالتخلي عن دفاعاتهم ، ولذلك كان قد عقد من قبل إجتماعاً مع رجال المدينة وأعيانها ، ونصحهم أن يقوموا في حال الإستسلام بالتوجه نحو الإمبراطور وتشريفه بتسلم مدينتهم ، وأشار إلى أن جيش الحجاج المعسكر حالياً أمام المدينة سيتحول بسرعة نحو أهداف أخرى ، وأن انشغالهم بالحصار لم يكن سوى حدث طارىء ، حدث أثناء عبورهم ، فقد تحولوا مؤقتاً عن هدفهم الرئيسي ، ولن يلبث أن يبتعدوا ، في حين أن الإمبراطور سيكون على مقربة منهم دوماً ، ولذلك سيكون من الحكمة ، في حال الإستسلام منح الأفضلية إلى الإمبراطور بدلاً من إعطائها إلى شعب مجهول ذي أصول بربرية ، وبما أنه لم تكن هنالك مندوحة عن الإستسلام ، فالأحسن عقد اتفاقية التسليم معه ، فذلك سيمكن الإمبراطور ، من خلال مساعدتهم له ، من استرجاع المدينة التي حرم منها ظلماً وعدواناً منذ وقت قصير نتيجة لعنف الأتراك ، وبهذه الحجج وحجج أخرى لها نفس الأهمية تمّ إقناع سكان المدينة ، فاختاروا التخلي عن المدينة وتسليمها إلى الإمبراطور ، شريطة ضمان سلامة أنفسهم وأموالهم.

ولم يكن هذا الإقتراح مرفوضاً من قبل قادة المسيحيين أيضاً ، ذلك أن غايتهم الكلية كانت موجهة في الواقع نحو هدف مختلف تمام الإختلاف ، ثم إنه لم يكن في نيتهم التوقف فترة طويلة في نيقيا ، وكانوا يرجون أن تسلم غنائم المدينة إلى الجيش ، وذلك تمشياً مع شروط الإتفاق ، وكتعويض عن المشاق والخسائر التي كان قد تحملها ، ومهما يكن من أمر فقد تمّ استرجاع جميع الإخوة التابعين لجيش بطرس الناسك الذين أسرهم قلج أرسلان من قبل في قلعة سيفيتوت ، كما تمت استعادة الذين أسرهم سكان المدينة وإرجاعهم إلى الجيش ، كل ذلك قبل التفاوض بخصوص الإستسلام وقبل الموافقة على تلبية رغبات سكان المدينة في هذا الشأن.

وإثر هذا تم برضا من الرؤساء وبموافقة عامة الناس إرسال موفدين إلى الإمبراطور يحملون نص الرسالة التالية : لقد عمل الجيش المسيحي وقادته بإخلاص أثناء حصار نيقيا ، في سبيل اسم المسيح ومن أجله ، وأرغم تلك المدينة على الإستسلام بفضل جهوده المتواصلة والجدية ، وبمعونة من الرب ، لذلك نرجو جلالتكم بشكل جدي عدم التأخر في إرسال عدد

من الرجال الرئيسين إلى هذه البقاع، مع قوة كافية لضبط هذه المدينة، التي استسلمت لشرف اسمكم، كما يتوجب عليهم القيام بالإعدادات اللازمة لنقل عدد كبير من الأسرى، ذلك أننا نرغب حالما يتم تسليم المدينة إلى جلالتكم التقدم مباشرة في رحلة الحج التي باشرناها بتفويض من الرب.

١٢ ـ الإمبراطور يرسل مندوبين عنه لاستلام المدينة ويرسل أيضاً الهدايا والشكر إلى القادة. الناس يغضبون ويتذمرون من أنه تمّ خرق الإتفاق. الإمبراطور يأمر بوجوب تسيير الأسرى إلى القسطنطينية ويشرفهم بالهدايا، ويرسلهم من هناك إلى ديارهم.

ملأت هذه الرسالة فؤاد الإمبراطور بالسعادة والحبور، وأرسل على الفور عدداً من أفراد حاشيته الذين كان يعتمد على إخلاصهم واجتهادهم إلى نيقيا، ليتسلموا المدينة وليتولوا تحصينها، وأصدرت الأوامر إلى المندوبين ليستولوا على جميع ممتلكات الأسرى من الذهب والفضة والملابس من كل نوع، لتغدو من ممتلكات الإمبراطور، كما أرسل الإمبراطور كثيراً من الهدايا إلى القادة آملاً في أن يكسب مودتهم، وعلاوة على ذلك شكرهم بإخلاص وحرارة برسائل شفوية ورسمية على خدماتهم الجليلة، للتوسع الكبير الذي نالته الإمبراطورية بوساطة جهودهم.

بيد أن الناس والرجال من المرتبة الثانية كانوا قد اغتاظوا جداً، فقد كانوا قد عملوا بشجاعة أثناء حصار المدينة، وتوقعوا أن يتم تعويضهم عن خسارة مقتنياتهم بالغنائم المأخوذة من الأسرى، وبالمخزون الوفير من السلع الموجودة في المدينة نفسها، وأدركوا الآن أن أعمالهم لن تقابل بمكافأة سارة، فقد بات من الواضح أن الإمبراطور قد عقد العزم على تحويل الغنائم إلى خزينته الخاصة، وهي الغنائم نفسها التي كان من المتوجب أن تصبح ممتلكات عامة حسب الإتفاق، وهكذا فقد تحسروا على جهودهم، وبدا الآن أن المال الذي أنفق في سبيل المدينة قد ضاع تماماً، وأكد القادة بكل تصميم أن الإمبراطور قد تصرف بخيانة وغدر بخصوص شروط الإتفاق المعقود معه، فقد جاء في فقرات هذا الإتفاق: إنه «إذا ما اتفق واستولوا على أية مدينة أثناء كامل زحفهم نحو سوريا، بتوجيه من الرب، وكانت هذه المدينة تنتمي من قبل إلى امبراطوريته، فيجب إعادة تلك المدينة مع البلدان التابعة لها إلى الإمبراطور، لكن ينبغي تسليم الغنائم وهي سليمة إلى الجيوش من غير جدال، وذلك مكافأة على جهودهم وتعويضاً للنفقات [1].

---

(١) إعتمدت المطالبة الأخيرة لبوهيموند بانطاكية إلى حد ما على نظرية أن ألكسيوس خرق الإتفاق الذي كان قد عقده مع الصليبيين، ومن الواضح أن وليم مصمم على الإشارة إلى كل شاهد ممكن على خرق تلك =

وكان بإمكان المسيحيين أن يطردوا مبعوثي الإمبراطور من المدينة بكل يسر وسرعة، وأن يعيدوهم فارغي الوفاض إلى سيدهم، وكان من المسوغ لهم القيام بمثل هذا العمل، ذلك إنه لمن الخطأ الوفاء بالوعد والتمسك به مع امرىء يحاول التصرف بخلاف المعاهدة، ومع ذلك فقد وضعوا الخوف من الرب أمام أعينهم، زد على ذلك أنهم كانوا متلهفين إلى مسائل أكثر أهمية، ولهذا السبب، وحتى يتسنى لهم إنجاز هدف حجهم بسرعة أكبر، فقد أخفوا مشاعرهم الحقيقية من أجل المصلحة العامة، وحاولوا بأقوال مقنعة كبح جماح الناس الذين كانوا مغتاظين جداً من هذه المعاملة.

وأما الإغريق الذين كانوا قد أرسلوا لتولي سلطة المدينة، فقد دخلوها وتسلموا أسلحة سكانها، وأتموا عملية الإستسلام، ثم ذهبوا إلى المعسكر وظهروا أمام القادة كمتوسلين لحياة وسلامة سكان المدينة، حيث أعلنوا أن هؤلاء القوم قد أعادوا المدينة إلى الإمبراطور، ووضعوا رقابهم تحت نير سلطانه.

وبعدما تم استسلام المدينة على هذه الصورة، خصصت قوة كافية لحمايتها، وسيقت إثر ذلك زوجة قلج أرسلان مع ابنيها وعدد كبير من الأسرى الآخرين إلى القسطنطينية، وعاملهم الامبراطور برحمة وسخاء [١]، وأعيدوا خلال بضعة أيام إلى حالتهم السابقة من الحرية، وقيل إنه فعل هذا أملاً في كسب ودّ الأتراك، ليتمكن بهذه الأعمال الطيبة من إثارتهم بسهولة ضدنا، ووثق أن الناس لن يثنيهم الخوف من إجراء أستسلام مشابه، إذا صدف وحاصرت جيوشنا أية مدينة أخرى.

١٣ - الجيش يرفع الحصار ويستأنف زحفه. انفصال القادة عن بعضهم. قلج أرسلان يتصدى ثانية للمسيحيين ومعه حشد كبير

وحالما تمّ رفع الحصار أمر القادة بمواصلة الزحف، ورتبت الأمتعة، وبدأ الحجاج رحلتهم في التاسع والعشرين من شهر حزيران، وتقدمت الفيالق بكتلة واحدة متحدة لمدة

= المعاهدة من قبل ألكسيوس ويجب إعتبار موقفه موقفاً موالياً على الرغم من أنه ثابت في إدانته لخرق المعاهدات ولم يحافظ هنا على النص الكامل للمعاهدة التي يذكر أهم ما فيها هنا (انظر أ.س. كرى «قطعة مهملة من كتاب أعمال الفرنجة» Mumro-crusades pp. 57 - 78 بحث ر.ب. يوديل بعنوان بوهيموند الأول أمير أنطاكية ص١٢٥ - ١٢٩).

(١) وعد ألكسيوس زوجة قلج أرسلان بالحرية وبهدايا سخية أيضاً كإغراء للإستسلام وذلك حسب ما ذكرته آنا - التي تعترف صراحة بخيانة أبيها للصليبيين في نيقية (أنظر - اليزابث أ.س. دويس «الألكسياد» للأميرة آنا كومينا ص٢٧١ - ٢٧٥).

(٢) ١٩ حزيران وليس ٢٠.

الأبواق النفير على الفور، وأعلنت أن الكفرة كانوا يقتربون بخطاً سريعة، وحذر صوت الأبواق والمنادي الحشد بأكمله، فانطلق إلى السلاح، وأعدّ خيوله، واستعد للمعركة في أماكن قريبة، وكان ذلك في وقت مبكر من صباح اليوم الأول من شهر تموز، وتم ترتيب يومين، واتفق أن خيمت هذه الفيالق بجانب أحد الجسور في الليلة الثانية بسبب مواءمة المياه، ثم استعدت للسير من جديد، وعبرت الجسر في وقت مبكر في الفجر قبل الشروق، بينما كانت أشباح الليل ما تزال متدلية إلى الأرض، وانفصل القادة مع فيالقهم عن بعضهم بعضاً سواء بالصدفة أو عن قصد خلال هذه المرحلة، فانعطف كل من بوهيموند وكونت نورماندي وستيفن وكونت بلويس، وتانكرد، وهيو وكونت القديس بول، نحو الناحية اليسرى، وتقدموا في ذلك اليوم وحدهم، ووصلوا في النهاية إلى واد يدعى غورغون gorgon [1]، وعسكروا هنالك في حوالي الساعة التاسعة إلى جانب جدول مياهه جارية، حيث حصلوا على فضيلة المرعى والعشب، وأحاطوا المعسكر بالحراس، وأمضوا ليلة هادئة مع أنهم كانوا في نفوسهم قلقين.

وبقي القادة الآخرون في الناحية اليمنى، وضربوا معسكرهم بعد زحف ذلك اليوم على بعد أقل من ميلين من معسكر الآخرين حيث توفر هنا أيضاً المرعى الجيد وموارد المياه.

ولما كان قلج أرسلان يحمل في نفسه آلام الخسارة التي لحقت به، فقد أطال التفكير في هذه الأثناء حول ما حصل له فوجد أنه لم يفقد بسبب المسيحيين المدينة الرائعة فحسب، بل خسر زوجته وولديه أيضاً، ولهذا تاق بكل جوارحه إلى الانتقام، وصمم - إذا ما تمكن - على نصب كمين لعدوه، وهكذا جمع من جديد قوة كبيرة من الجنود، وتبع بسرعة زحف مساوية تقريباً لسرعة زحف الحشد الذي كان قد انعطف نحو اليسار، وزوده كشافوه باستمرار بمعلومات عن تحركات الحشد المتقدم، وانتظر بتهلف فرصة موائمة للهجوم عليه، وكان قد علم لتوه من خلال هؤلاء الكشافة أن الجيش كان قد انشطر، وأن الشطر، الذي من الواضح أنه أكثر ضعفاً، وأدنى قوة، وأقل عدداً كان بالقرب منه تماماً، فقرر على الفور أن الفرصة التي كان ينتظرها قد حانت، فانحدر من الجبل بحشده الذي كان لا يحصى.

ولم يكن قد مضى طويل وقت عندما أعلن الفجر عن قدوم اليوم التالي، وبدأ النور يبدد أشباح الظلام الكثيفة عندما لمح الخفراء العدو، حيث وضع الرجال لمراقبة خدع العدو عن بعد، إذا كان هنالك أي منها، ولمنح الجيش انذاراً عنها في الوقت المناسب، وصوتت

---

(١) لم يعين موقع معركة دورليوم بشكل يقيني على الرغم من أن موضعها العام واضح بشكل كاف، واسم المعركة مشتق من تعريف آنا للموقع مع آثار مدينة دورليوم القديمة، التي يتجادل علماء الآثار حولها (هاغنمير «التأريخ» رقم١٦٩).

الناس جميعاً بتشكيل المعركة، ووضع قادة المئات وقادة الخمسينات على الكتائب المستقلة، واحتل المقدمون مواقعهم على أجنحة قوات الرجّالة.

ووضع جميع المعاقين والشيوخ والعجائز، أو بالحري الحشد العاجز، وضعوا مع الأمتعة في أيكة القصب المجاورة، بحيث كان يمكن للجنود التقدم إلى المعركة دونما عائق، وتمت حماية هذا المكان حماية اضافية بالعربات والآليات، وبدا أنه يقدم ملاذاً آمناً، وأُرسل الرسل ليحملوا أخبار وضعهم الخطير إلى فرق الجيش الآخر، التي سبق وانفصلت بدون تروٍ، ليحثوها على القدوم بكل سرعة للإنقاذ.

وهكذا جرى ترتيب كل شيء في معسكر بوهيموند بشكل جيد، وحسب قواعد العلم العسكري، وفي حوالي الساعة الثانية من ذلك اليوم ظهر قلج أرسلان، ظهر وهو يقود عدداً لا يحصى من الأتراك، وتولت الدهشة جيشنا لأنه لم ير سوى الفرسان، في حشد قيل إنه تجاوز المئتي ألف مقاتل، هذا وكانت قواتنا بالمقابل [1] مؤلفة - كما سبق القول - من حشد مختلط من الفرسان والمشاة على حد سواء.

١٤ - نشوب المعركة. مقتل وليم أخو تانكرد. جيش بوهيموند يوضع بأكمله في خطر جسيم. تانكرد ينجو من الأسر بصعوبة

ازداد الصخب في المعسكر عندما اقترب جيش الأتراك بحيث لم يكن مستطاعاً تمييز أي كلمة فيه، فرنين السلاح، وصهيل الخيول، وأصوات الأبواق مع قرع الطبول المثير للرعب، وصرخات الجنود التواقة للحرب، التي بدت وكأنها تصعد إلى عنان السماء، روعت قلوب الفيالق، ذلك أنها لم تكن معتادة على مشهد من هذا القبيل.

وعندما اندفعت صفوف الأتراك باتجاه قواتنا أطلقت عليها وابلاً من السهام ملأ الفضاء مثل البرد، مما كان له وقع مؤثر، فنادراً ما نجا رجل من بين صفوف المسيحيين من دون أن يصاب بجراح، ولم يكد الوابل الأول ينقطع حتى تبعه وابل آخر من السهام كان مؤثراً إلى درجة أنه آذى كل من كان قد نجا بالصدفه من الهجوم الأول، ولم يكن رجالنا يألفون طريقة القتال هذه، وبدا من الصعب احتمالها لأنها كانت غريبة عنهم، فقد رأوا خيولهم تقتل أمام أعينهم، وهم عاجزون عن مساعدتها، لأنهم هم أنفسهم كادوا يهلكون نتيجة للضربات القادمة من مصدر فجائي لا مفر منه، ومع ذلك، واصلوا الهجوم بالسيف

---

(١) إن وصف وليم للمعركة مستمد على الأقل من ثلاثة من المؤرخين الأوائل وهم فولتشر أوف تشارترز وألبرت أوف أكس والمؤلف المجهول لأعمال الفرنجة الذي رفض أن يقبل الرقم الضخم لثلاثمائة وستين ألفاً الذي يعلنه فولتشر. على أنه عدد العدو، وبدا وحتى الرقم الأكثر اعتدالاً وهو مائتي ألف الذي استبدله وليم كبير جداً، ولذلك ينقله على أساس إشاعة.

والرمح على العدو وحاولوا صده، وعندما وجد الأتراك أنفسهم غير قادرين على تحمل قوة الهجوم وصده، فتحوا صفوفهم عمداً لتجنب الاصطدام وحيث لم يجد المسيحيون أحداً يقاومهم كان عليهم التراجع مخدوعين، وما أن عاد شعبنا مخفقاً إلى صفوفه، حتى ضم الأتراك صفوفهم من جديد، وأطلقوا أيضاً وابلاً من السهام كالمطر، قلما نجا أحد من المسيحيين دون أن يصاب بها بجروح خطيرة، وقاوم رجالنا بشكل جيد، وبقدر ما استطاعوا بعدما حموا أنفسهم بدروعهم وخوذهم وترستهم، لكن الخيول والرجال الذين لم يكن لديهم سابغات ودروع وواقيات قتلوا بدون تفريق..

وسقط قرابة الألفين من الرجال ذوي المكانة من كل الفرسان والرجالة على حد سواء، وكان من بين القتلى شاب اسمه وليم ملك احتمالات النجاح أكثر من المعتاد، وهو ابن المركيز الطيب الذكر وأخو تانكرد، فقد أصيب وهو يحارب على أرض المعركة بشجاعة في سبيل شعبه، أصيب بسهم أودى بحياته.

كما أن روبرت أوف باريس قد لاقى مصرعه بالطريقه نفسها، وهو رجل تمتع بشجاعة رائعة بالحرب، وحتى تانكرد نفسه لم ينج من الموت إلاّ بصعوبة بالغة، ذلك أنه كان رجلاً غير مبال بالحياة وبمنزلته السامية، وكان يشدد حملاته على العدو فاتكاً به، وقد غرق في حمأة الملحمة عندما تم انقاذه قسراً، على الرغم منه، بفضل جهود بوهيموند.

واستمرت صفوف الكفر بالازدياد قوة، بينما بدأت صفوف المسيحيين ينتابها الضعف، وهاجم الأتراك حينئذ بالسيوف من مواقع قريبة، وتخلوا في الوقت نفسه عن استخدام القوس، وتشتت صفوف قواتنا في النهاية ولاذت بالفرار، وتراجعت بالنهاية نحو أحمالها وأمتعتها، وتجمعت مع بعضها في أيكات القصب الكثيفة حول العربات والآليات أملاً في إيجاد بعض الحماية.

١٥ ـ وصول القادة الآخرين. لقد قدموا لنجدة اخوانهم الذين هدتهم الحرب. قلج أرسلان يرغم على الفرار وهلاك جيشه. المسيحيون يعودون بغنائم نفيسة جداً. الحشود تصبح ثانية مجموعاً متحداً واحداً.

في ظل هذه الظروف المأساوية كان جيش المؤمنين يكافح، وبدأت قوة بوهيموند تخور ثم تنهار، وكان الرجال العظماء من ذوي الشهرة مثل الدوق غودفري وكونت ريموند وهيو الكبير، وبلدوين ويوستاس أخوي الدوق، وبقية القادة الذين كرسوا أنفسهم للرب يتقدمون بسرعة في هذه الأثناء لمساعدة إخوانهم، وكانوا قد توجهوا لإنقاذ إخوانهم بقوة مؤلفة من أربعين ألفاً من الفرسان مسلحين تسليحاً ممتازاً، وذلك بعد أن تركوا الحشد

الأدنى قوة مع الأمتعة من كل نوع داخل المعسكر، وبعث قدومهم شجاعة جديدة بين صفوف قوات بوهيموند، بعدما كان على حافة الاستسلام، وعادوا من جديد إلى القتال بعزيمة متجددة، وبما أنهم كانوا تواقين للانتقام لما نزل بهم من مظالم، وللتعويض عن هزيمتهم الأولى، فقد انقضوا بعنف على العدو، واستخدموا سيوفهم بشجاعة وبسواعد يمنى قوية، وهزموا الكفرة في وقت قصير، ذلك أنهم كانوا قد أصبحوا عاجزين عن المقاومة، وكان هذا هو العدو نفسه الذي كانوا قد خافوا منه منذ عهد قريب بوصفه أقوى منهم.

كما حث أسقف بوي مع بعض زملائه من الاختصاص نفسه والعمل، الناس وشجعوا القادة على عدم التراخي في بذل جهودهم، وأمروهم أن ينتقموا لدم إخوانهم، وأكدوا لهم تماماً أنهم سينالون النصر من السماء، وحث رجال الرب الناس على القتال بالدعاء والابتهال وبالتفوه بكلمات تشجيع أخرى، وحسوهم بقولهم: لا تدعوا أعداء الإيمان واسم المسيح يتمتعون بذبح المؤمنين، وبذلوا في هذا السبيل كل ما أوتوه من قوة.

وبناء عليه شن المسيحيون بعزيمة لا تعرف الكلل هجوماً عنيفاً بالسيوف على العدو، وبددوا صفوف جند الكفرة ومزقوها، وأجبروهم على الفرار، بعدما أوقعوا فيهم مذبحة مخيفة، وطاردوا الهاربين بإصرار حتى مسافة ثلاثة أميال أو أربعة، أي إلى ما وراء معسكر العدو المقام في واد خصب جداً. لقد كانت المجزرة التي أحدثوها مرعبة جداً.

وهكذا تشتت الأتراك باضطراب كبير، وخسارة هائلة في الأرواح، ثم عاد المسيحيون إلى معسكر العدو، فجلبوا معهم عدداً من أبناء شعبهم الذين كان العدو قد أخذهم كأسرى، وتم العثور على كمية كبيرة من الذهب والفضة في المعسكر، وجرى الاستيلاء على العديد من الحمير ودواب النقل، وعدد كبير من الجمال، وهي حيوانات لم يكن شعبنا قد رآها من قبل، ووجدوا بعض الخيول والخيم والسرادقات ذات الألوان المتنوعة والأشكال الغريبة، وحمل المسيحيون هذه الكنوز جميعاً، وعاد المنتصرون بهذه الصورة إلى معسكرهم محملين بأنفس الغنائم، ودافعين أمامهم الحيوانات والأرقاء.

ويقال إن العدو فقد خلال ذلك اليوم قرابة ثلاثة آلاف رجل قوي وشهير من أعلى المراتب بين شعبه، كما قتل في تلك المعركة أربعة آلاف من عامة شعبنا [1] من ذوي المنزلة

---

(١) ليس أكيداً أن وليم يشير هنا إلى رواية شفوية، وكان بعض المؤرخين الحديثين، من بينهم بروتر، قد بحثوا في المعنى المتضمن لهذا البيان أن أياً من المشاركين كان ما يزال حياً في زمن وليم لينقل ذكرياته الشفوية إليه. هذا وقد امضى وليم طفولته في الأرض المقدسة خلال أقل من خمسين عاماً بعد هذه المعركة، وكان مشاركاً واحداً على الأقل في حوادث الأشهر القليلة القادمة ما يزال حياً في عام ١١٦٦، وكان يكتب في التاريخ بالفعل في أواخر عام ١١٦٤. وكان هذا كافار الفارس والتاجر والمؤرخ الجنوي.

الدنيا من الرجال والنساء على حد سواء، وحسبما يتذكّر الرجال المسنون لم يهلك سوى اثنين من أصحاب المنزلة السامية، وقد وقعت هذه المعركة في اليوم الأول من شهر تموز، وحوربت بقدَر متفاوت وبقوات لم تكن متكافئة تماماً في القدرة والعدد والطاقة، واستمر القتال من الساعة الثانية وحتى الساعة الثامنة من ذلك اليوم، وبما أنه لم يجر حساب سوى عدد الفرسان في جيش قلج أرسلان، فقد قيل إنه تجاوز المئة ألف وخمسين ألف فارس، وفي المقابل لم يتجاوز عدد فرسان المسيحيين الذين اشتركوا في تلك المعركة العظيمة الخمسين ألف فارس.

وبعد أن تمّ احراز هذا الانتصار العظيم بالتأييد السماوي، جمع الجيش ثانية، وأعطي استراحة قصيرة للاعتناء بالجرحى، واستراح الجند وأنعشوا أنفسهم، واعتنوا بخيولهم لمدة ثلاثة أيام متتالية وسط المراعي الخضراء، أضف إلى هذا إن وفرة المؤن وكثرتها، مع كميات الأطعمة التي كان العدو قد أرغم على التخلي عنها عندما هرب، قد أضافت الكثير لاستمتاع الجميع.

وصدر مرسوم من ذلك اليوم بناء على الاتفاق العام قضى بتوحد الجيوش وأن تسير من ذلك الحين فصاعداً مع بعضها كتلة واحدة متلازمة، وبذلك يمكنها المشاركة فيما قدّر لها من نجاح وإخفاق.

١٦ ـ الفيالق تدخل بيسيديا وتعاني هنا كثيراً من قلة الماء. حالة الجيش خطرة جداً وأوضاعه يرثى لها

مكثت الفيالق ـ كما سلف بنا القول ـ مدة ثلاثة أيام في ذلك الموضع، وهي فترة استراحة كانت بحاجة ماسة إليها، لأنفسها ولخيولها، ثم استعدت ثانية لمواصلة رحلة الحج التي كانت قد بدأتها، بعدما سمعت صوت النفير، وقادتهم طريقهم عبر كامل بلاد بيثينيا إلى بيسيديا، وأملاً منها في اختصار الطريق انحدرت صدفة نحو منطقة جافة كانت خالية من الماء تماماً، وهنا قهرت المحنة المزدوجة الناس، وكانت محنة العطش الذي لا يحتمل والحرارة الشديدة كما هو مألوف في شهر تموز الحار، وبدأت أعداد كبيره تنهار، وقد توفي آنذاك ـ حسب أحد التقارير ـ أكثر من خمسمائة فرد من كلا الجنسين بعدما خارت قواهم نتيجة معاناتهم من العطش والحرارة، وتضيف الحكاية قائلة إن النساء الحوامل قد وضعن أولادهن قبل الأوان نتيجة للعطش والحرارة المستعرة، وهي حقيقة لم يسجلها أي تاريخ آخر [١]، كما

(١) مستمد من ألبرت أوف اكس، وتظهر هذه الرواية وعي وليم في طريقة توصله إلى الحقائق.

أن الأمهات قذفن ـ وهن بالنزع الأخير ـ بأبنائهن داخل المعسكر حيث كان بعضهم أحياء وبعضهم أموات، وآخرون في حالة الموت، وأما بالنسبة لبقية النساء اللواتي حركتهن مشاعر انسانية أكثر عمقاً، فقد ضممن أطفالهن إلى صدورهن، وتدحرجن على طول الطريق، غير مباليات بجنسهن، لقد تدحرجن وهن نصف عاريات، يشغلهن خطر الموت الوشيك أكثر من المحافظة على الاحترام اللائق بأنوثتهن.

ووجد الرجال أن قواهم البدنية الأعلى لم تنفعهم إلاّ قليلاً، فقد ضعفوا تحت الحرارة، وأصابهم الاجهاد، وتلهفوا إلى الهواء بأفواه مفتوحة وأنوف منتفخة، والتمسوا نجدة الرطوبة كوسيلة للتخفيف عن العطش الذي لا يحتمل، لكن لم يجدوها، ولم تكن المخلوقات البشرية وحدها خاضعة لهذا الصنف من أعمال التعذيب، فالبهائم التى حملت الأمتعة، وجميع الحيوانات الأخرى ذات القلوب الظمأى قد تخلت عن طاعتها المألوفة، كما أن الطيور الرقيقه، والصقور والنسور المحلقة، التي اعتاد النبلاء على التمتع بها أثناء الصيد والقنص، قد لفظت أنفاسها في أيدي أصحابها على الرغم من الحرص الشديد عليها، ومثل ذلك حدث للكلاب القوية والمدربة على الصيد، والتي كانت الحيوانات المدللة على أسيادها، لقد تخلت عن أصحابها الذين كانت قد تبعتهم دوماً بإخلاص، وتهاوت من العطش وماتت على طول الطريق، والأشد خطراً من هذا كله هو أن الخيول المخلصة، التي كانت بمثابة الأصدقاء في المعركة، والتي اعتمد أصحابها عليها في سبيل سلامتهم، وكانوا من قبل في بلدهم يتفاخرون بها بحافر واثب وأسنان مشعة، هذه الخيول قد انهارت مثل بهائم التحميل العاديه، انهارت تحت عذاب الحرارة والعطش.

أخيراً أتى رب الشفقة كلها والمواساة، برحمته لإسعاف هؤلاء المتألمين من قلة الماء حيث عثر الجند على نهر طالما بحثوا عنه، وتلهفوا إليه منذ زمن طويل، وهرع الحجاج إلى مياهه بتشوق متقد، وتنافسوا فيما بينهم في سرعتهم للوصول إليه، وعندما تمّ العثور على هذا الماء المرغوب فيه كثيراً، وقعوا في خطر أشد أيضاً، لأنهم شربوا منه بدون ضابط، ولم يظهر الآن الكثيرون من الذين كانوا قد بقوا على قيد الحياة بعد خطر العطش سوى القليل من ضبط النفس، وهو خطأ في مثل هذه الأحوال، حيث واجهوا الموت الذي كانوا قد نجوا منه من قبل، بسبب وفرة الماء نفسه، ولم يقتصر هذا الأمر على الرجال فقط، بل هلك الكثير ـ بهذه الطريقة ـ من دواب التحميل.

وأخيراً تم إنقاذهم بمعونة الرب من هذه المخاطر، ووصلوا إلى أرض خصبة ووفيرة الخيرات جداً قرب أنطاكية الصغرى حاضرة بيسيديا المشهورة، وكانت هذه المنطقة هي من

أكثر المناطق إبهاجاً، ذلك أنها مليئة بالجداول والغابات والمراعي، فعسكروا هنالك وسط الحقول الخضراء.

١٧ - بعض القادة ينفصلون عن البقية وينهبون الريف المحيط. الدوق ينجو من الموت بصعوبة في صدام له مع أحد الدببة

انسحب بعض القادة لأول مرة في هذا الموقع، انسحبوا عمداً مع قواتهم، وكان بلدوين أخو الدوق أول من فعل هذا، وذهب معه بطرس كونت ستني Stenay وأخوه رينارد كونت تول Toul وبلدوين دي بورغ Bourg وغلبرت دي مونتكلير Gilbert de Montclair وأخذوا معهم سبعمائة فارس وعدة مجموعات من المشاة، وكان تانكرد الثاني في الرحيل، وقد صحبه رتشارد رجل الامارة، وروبرت أوف أنزي Anzi وعدد كبير آخر من النبلاء مع قوة قوامها خمسمائة فارس وعدد من الرجالة.

كان هدف جميع هؤلاء الفرسان واحداً ومتشابهاً، هو استطلاع الطريق واكتشاف الريف المحيط، وتجريب الحظ، وتوجب عليهم فوق ذلك أن ينقلوا إلى القادة الذين كانوا قد أرسلوهم، كل ما كان له علاقة بالزمان والمكان، بحيث يستطيع الجيش أن يتقدم بسلامة أكثر وبحذر أكبر، وقد لازموا في البداية الطريق السلطاني العام بعد مغادرة المعسكر، ومروا خلال المدن المجاورة[1] مثل قونية، وهرقلية، ثم بدأوا بالإسراع نحو الساحل بعدما انعطفوا نحو اليمين.

وفي هذه الأثناء دخل الدوق والقادة الآخرون، الذين كانوا قد بقوا في المعسكر، وجذبتهم البيئة المبهجة، ومنطقه الغابات المجاورة والقريبة، دخلوا إلى الغابة للصيد، لأنهم شعروا في غمرة أعمالهم الشاقة أنهم بحاجة إلى بعض الاستجمام، ورغبوا بالانسحاب، ولو لفترة قصيرة، من الهموم المضنية التي كانت تحيق بهم دوماً، وقادتهم الاهتمامات المتنوعة إلى طرق مختلفة عندما دخلوا الغابة، ولذا وقعت لهم مغامرات متنوعة.

وأما الدوق، الذي كان قد دخل إلى الغابة لأجل التمرين والاستجمام، فقد التقى بالصدفة بدب ضخم له مظهر مخيف، وكان يطارد بضراوة حاجاً مسكيناً كان محملاً بالحطب، وكان الحاج يحاول عبثاً إيجاد ملاذ له من مطارده، وكان يصرخ بصوت مرتفع ناشداً المساعدة لإنقاذه مما أحاق به من مخاطر وشيكة، عندما ظهر الدوق صدفة، ولما كان الدوق

(١) كانت هذه المدن بعيدة عن بعضها بعضاً مسافة كبيرة، ومن المحتمل أن وليم كان هنا ضحية لخطأ بالنسخ فالمؤرخ الذي اعتمده استخدم كلمة Finimine ليعني بها Philomelium فنسخها الناسخ Finitimas وهي الصيغة التي استخدمها وليم هنا وكانت Philomelium أول ثلاث مدن على خط الزحف، وسيشير إليها وليم فيما بعد.

ممتلئاً دوماً بالعطف على إخوانه، اندفع بسرعة لنجده هذا الشقي، وحالما لمح الدب الدوق الذي كان رافعاً سيفه ليضربه به تخلى على الفور عن ضحيته السابقة، وقذف بنفسه، مكشراً عن أنيابه، ومستلاً مخالبه، على العدو الأكثر شجاعة، وجرح فرس الدوق جراحات بليغة، فاضطر الدوق إلى الترجل، وعلى الرغم من ذلك هاجم الدب بسيفه، وواجهه الدب المزمجر برعب بفكين مفتوحين، ولم يأبه لاصرار الدوق واقدامه وسيفه بيده، واعتبر ذلك تافها، وحاول أن يتصارع معه، وعندما هجم الدب صده الدوق بسيفه، وحاول بكل ما أوتيه من قوة أن يسدد إليه طعنة مميتة، ولكن الدب تفادى ضربة السيف، وأمسك الدوق بذراعيه، وحاول أن يطرحه أرضاً حتى يستطيع بسهولة أكثر تمزيقه إلى أشلاء متناثرة بأسنانه ومخالبه عندما يتمدد عاجزاً تحته، بيد أن الجندي الشهير تمسك بسيفه، وحيث أنه كان صاحب قوة عظيمة، فقد أمسك بالوحش بيده اليسرى، وطعنه في خاصرته بسيفه بيده اليمنى، ودخل السيف حتى مقبضه مما أدى إلى موته، ومهما يكن من أمر لقد أحرز الدوق انتصاراً دموياً، ذلك أنه أصيب بجراح شديدة في ساقه، وتمدد على الأرض جريحاً، ووهنت قوته كثيراً بسبب فقدانه كمية من دمه، وحاول النهوض فلم يستطع، ونبهت أخيراً صيحات الرجل المسكين، الذي كان قد نجا من الموت بفضل مساعدة الدوق، الفيالق إلى ما حدث، وأسرع جميع الناس إلى الموقع الذي قيل إن البطل الشجاع والمدافع عن الجيوش كان يتمدد فيه جريحاً، ووضع على نقالة، وحمله القادة الآخرون إلى المعسكر وسط صراخ وعويل الجميع، واستدعي الأطباء الجراحون وكان الأمل كبيراً أنه ستتم إعادة العافية إليه من خلال جهودهم المتحمسه، وباستخدام وسائل العلاج المناسبة[1].

١٨ ـ كونت طولوز يقع مريضاً حتى الموت. الجيش يعبر ليكونيا ويصل إلى مرعش. وفاة زوجة بلدوين أخو الدوق

لقد استولى في هذا الوقت تماماً مرض خطير على ريموند كونت طولوز، الذي كان رجلاً بارزاً وصاحب شهرة عظيمة، فوضع على حمالة أيضاً، لقد كان مريضاً جداً إلى درجة أنه كان يتنفس بصعوبة عندما وضع على الأرض انتظاراً لموته، وعلى هذا الأساس أجرى وليم أسقف أورانج، الذي كان رجلاً صاحب حياة مبجلة، أجرى الطقوس اللائقة بأرواح المؤمنين، لرجل كان ميتاً في ذلك الحين[2].

---

(١) هذه الرواية مستقاة من ألبرت، وهي بالعادة مصنفة بين الحوادث الأسطورية في حياة غوردفري ولم يقبل وليم جميع أساطير ألبرت حول حياة غودفري على الرغم من أن هذه الواحدة بدت محتملة وصحيحة بالنسبة له.

(٢) هذه الرواية مستقاة من وليم دي أوغرليرز.

وحيث فقدت الفيالق مشورة رجلين عظيمين مثل هذين الرجلين، فقد يئست إلى حد كبير من مواصلة حجها تنفيذاً لنذرها، وقلقت جداً بالنظر لحالة قائديها، وتضرعت كلها بنفس واحدة مليئة بالأسى، إلى الرب لإعادة العافية إليهما، وقدم جميع الحجاج الصلوات لأجل رئيسيهما أثناء القداس الذي أقيم لأجلهما، واستجاب رب الرحمة كلها بسخاء لتوسلاتهم ونذرهم، وأعاد قائديهما إلى صحة جيدة، واستجاب بمنة سماوية لتوسلات شعبه المتعبد.

ودخلت الفيالق ليكونيا بعد أن عبرت بيسيديا، ووصلت إلى قونية حاضرة هذه المنطقه، وكانت هذه المنطقة قاحلة، وكابد الحجاج كثيراً من قلة الطعام، حيث تم تحذير الأتراك مسبقاً بقدومنا، ذلك أنه لم يكن لديهم أدنى ثقة أن باستطاعة أية مدينة من مدنهم أن تقاومنا، لقد جردوا المنطقة وخربوها بأسرها، ثم هربوا إلى الجبال المتعذر الوصول إليها، بعدما اصطحبوا أزواجهم وأولادهم والقطعان والمواشي وجميع بقايا مقتنياتهم، وتمحورت أمالهم على امكانية اسراع المسيحيين بعبور بلدهم بعدما تكون ندرة الأطعمة قد أنهكتهم، وتحقق أملهم هذا، فقد فرّ الحجاج من البلد القاحل الذي لم يقدم لهم أي نوع من أنواع الطعام، وزحفوا قدما إلى الأمام بكل سرعة ممكنة، وبعدما غادروا مدينة هرقلية وصلوا إلى مدينة مرعش، ونصبوا معسكرهم هنالك؛ ومكثوا لمدة ثلاثة أيام.

وفي مرعش ماتت زوجة بلدوين أخي غودفري، وكان زوجها قد عهد لدى مغادرته أمر رعايتها إلى إخوته، وقد أسلمت روحها إلى باريها بعد مرض مضن طويل، وكانت سيدة انكليزية من أصل نبيل تسمى غوتيرا Guterea وهي سيدة تستحق التمجيد السامي لحياتها وشخصيتها [1]، وتم دفنها في ذلك المكان بالذات، بطقوس فيها إجلال لائق.

١٩ ـ تانكرد ينحدر إلى كليكية ويحاصر طَرَسُوس. بلدوين أخو الدوق يزور الأماكن نفسها ويستقبل بالإحترام اللائق.

كان بلدوين، وهو رجل جدير بالثناء من جميع الجوانب، قد ضرب الحصار، مع من

---

(١) يلمح كل من ألبرت ووليم إلى زوجة بلدوين على أنها امرأة انكليزية نبيلة. وتبعاً لما ذكره ري كانت زوجة بلدوين الأولى، من أصل نورماندي وليس من أصل انكليزي، هذا ويعتقد و. موريس أن كل من وليم وألبرت محقان على أساس أن كل من والدها وزوجها الأول قد عاشا سنوات كثيرة في انكلترا، وأنها من المحتمل أن تكون قد أمضت معظم حياتها الأولى هناك (انظر و. موريس بريطانيا والأرض المقدسة... أطروحته غير منشورة، جامعة منيسوتا Minnesota ١٩٤٠) هذا ورسم المؤرخون اسمها بشكل مختلف، ويفضل المؤرخون المحدثون اسمي غيرترود وغينفير وقيل أيضاً أنها غودهايلد، ابنة رالف الثاني، سيد تيوني وكونشيز. وكانت قد انفصلت عن زوجها الأول روبرت دي بيوماونت كونت ميولانت. وكان زواجها الثاني من بلدوين (انظر. سيور تشالرز دي فرنز دو كانج «أسر ما وراء البحار» تحقيق إ.غ.ري).

سار في ركابه في هذه الأثناء على مدينة طرسوس، وهي المدينة الرئيسة في تلك المقاطعة، وكان قد استفاد من الطرق القصيرة، ولذلك كان أول من وصل إلى كليكية.

تعتبر كليكية إحدى مقاطعات الشرق، وحسبما جاء عند القدماء، كانت مقاطعة أنطاكية تدعى أبرشية الشرق، وتحدد كليكية من الشرق أعالي سورية، وتحدها ايزوريا من الغرب، وجبال طوروس من الشمال، وبحر إيجه - من الجنوب، وتحتوي داخل حدودها على مدينتين رئيستين هما: طرسوس، مكان ولادة وموطن معلم الأمم، وهي التي نحن الآن بصددها، ثم مدينة عين زربة، ولكل من هاتين المدينتين بلدانها المتعلقة بها، ولذلك يجري الحديث عن كليكيتين هما: كليكية الأولى وكليكية الثانية.

ومن المعتقد أن طرسوس قد أنشأها ترسيس الابن الثاني لجافام Japhan بن يافث، الذي كان حسب روايات الآثار، الابن الثالث لنوح، ويقدم برهان على صحة هذا كون المدينة تحمل إسم المؤسس، ومهما يكن من أمر، عند صولون رأي مختلف حول مؤسسها، فقد جاء في الفصل الثالث من كتابه «المذكرات» ما يلي: «تحتوي كليكية على طرسوس، وهي أم المدن التي أسسها بيروس Pereus الابن النبيل لدارا Darae، ويقسمها نهر سندوس Cyndus إلى قسمين، وتذكر بعض المصادر أن هذا النهر يتدفق بسيل منحدر من سلسلة جبال طوروس، بينما تدعي مصادر أخرى أن منبعه موجود في نهر هيداسبيس Hydaspes»، ومن الممكن أن يكون هنالك بعض الحقيقة في كلا الروايتين، في أن يكون ترسيس قد أسسها، وبيرسوس قد رمها فيما بعد ووسعها.

وواصل تانكرد الحصار لعدة أيام حتى رضخ السكان بالوعد والوعيد وأعلنوا عن قبولهم إجراء الترتيب التالي وهو: وجوب حمل رايته إلى داخل المدينة ووضعها على واحد من أعلى الأبراج، إشارة إلى أنهم عقدوا العزم على الإستسلام، واشترطوا عليه، من جهة أخرى، أن يحميهم حتى ساعة وصول بوهيموند مع الجيش الرئيسي، وألا يكرههم في غضون ذلك على الإنتقال من منازلهم رغماً عن إرادتهم، أو التخلي عن ممتلكاتهم، وتعهدوا وفقاً لهذه الشروط بتسليم المدينة بهدوء إلى بوهيموند عند وصوله، وبدت هذه الترتيبات جيدة لتانكرد فأعلن عن قبولها.

كان سكان هذه المنطقة مثلهم مثل سكان بقية المنطقة من المسيحيين، وقد تألفوا من

(١) رقم هذا المقطع هو ٣٨ في طبعة مومسن. ويبدو أن وليم حصل على ترجمة لكتاب سولنوس «pdyhis tor» مختلفة عن الترجمة التي نشرها مومسن (انظر. ث. مومسن «جولي سوليني مجموعة مذكرات نادرة»).

الأرمن والإغريق، باستثناء عدد قليل من الأتراك الذين كانوا متمرسين في الأسلحة، والذين احتفظوا بسلطة عسكرية، واضطلع هؤلاء بالعناية بالتحصينات وقهروا الناس بسيطرة قاسية، ولم يسمح للمؤمنين بحمل السلاح، بل صرفوا كل اهتماماتهم للتجارة والزراعة.

وكـان بلدوين، أخو الدوق، الذي ركب طريقاً نائية مع الذين كانوا بصحبته، قد عانى وعانوا كثيراً من قلة الطعام في هذه الأثناء، ووصل صدفة في النهاية إلى قمة أحد الجبال وذلك بعد تحولات كثيرة وغير مباشرة، واستطاع أن يحصل من هذه القمة على منظر كامل لكليكية حتى البحر، فقد انتشرت مدنها دونه وأمام ناظريه.

وعندما اكتشف وجود معسكر حول طرسوس، بدأت تنتابه الهواجس حول طريقة، وخيل إليه أن هذه كانت خيماً للعدو، ومع ذلك، فإنه لما كان تواقاً إلى معرفة المنطقة وصاحب المعسكر الذي كان قد رآه عن بعد، فقد قاد مجموعته منحدراً بها إلى السهل بشجاعته المألوفة، أضف إلى هذا أنّ الحراس الذين وضعهم تانكرد في نقاط مرتفعة، حيطة من خدع العدو، واحتمالات غدرة قد أعلموه بوجود هذه القوة حيث استدعى رفاقه على الفور، فتناولوا أسلحتهم حيث أعتقدوا أن هذه القوات كانت قوات معادية، قادمة إلى نجده المدينة، وصاح مشجعاً رجاله، وتقدم نحو الجند المتقدمين مـع الرايـات المرفـوعـة، فقـد كان ماضي العزيمة، لأنه آمن بالرب، وحينما اقترب الجيشان من بعضهما، وأصبحا على مسافة قريبة، ورأى أفرادهما بعضهم بعضاً، اكتشفا أن هذه لم تكن أسلحة أي جماعة من الأعداء، وعلى هذا اقتربت المجموعتان من بعضهما، وتبادل أفرادهما العناقات والتحيات، ثم جرى توحيد القوات بعد تبادل بعض الأحاديث العادية، وتقدم الجميع نحو المدينة لمواصلة الحصار، واستقبلهم تانكرد بحب وحسن ضيافة، وأقيمت وليمة فخمة في تلك الليلة تم تزويدها بالأطعمة من المواشي والقطعان التي كانت قد جلبت من الريف المجاور.

٢٠ ـ بلدوين يطالب بإنزال راية تانكرد من القلعة ويرفع رايته مكانها. تانكرد ينسحب مغضباً. غولف Guelf يستولي على أذنة.

لاحظ بلدوين ورفاقه في الصباح أن راية تانكرد قد رفعت على أعلى برج في المدينة، ودبت عقارب الغيرة في نفوسهم، ونسوا نذر الحب التي كانوا قد أدوها عندما كانوا يتقدمون مثل الإخوة الأشقاء، وهي نذر صمم الجميع أفراداً وجماعات على وجوب المحافظة عليها إلى الأبد، وغضبوا من أن تانكرد قد جرؤ على رفع رايته فوق المدينة، بينما كان القادة الآخرون الأقوى موجودين مع أعداد كبيرة جداً من الجند.

كان تانكرد متساهلاً جداً، وقد رغب في تهدئة غضبهم، وأنكر أن يكون رَفْع رايتهِ قد قُصد منه الإساءة لهم، وقال إنه توصل إلى هذا الإتفاق مع سكان المدينة بفضل شجاعته، وذلك قبل وصول بقية القادة، وقبل أن يكون هنالك أي أمل بوصولهم، ومع ذلك فإن بلدوين الذي حرضه أصحابه بكل ما أوتوه من قوة لم يعر أية اهتمام لهذا العرض، وعلى العكس نقلته أحاسيسه إلى ما وراء حدود التعقل، ولذلك أغضب تانكرد بكلماته الوقحة، كما أن غطرسته حولت القضية إلى مأزق خطير، إلى درجة أنهما كانا على وشك اشهار سيفهما في وجه بعضهما والتقاتل، وأخيراً استدعى بلدوين سكان المدينة للوقوف إلى جانبه، وهدد علنا أنه إذا لم تمزق راية تانكرد، وترفع رايته مكانها فلسوف يحيل المدينة وجميع الضواحي المتاخمة لها إلى خراب، كل ذلك على الرغم من حقيقة أن تانكرد كان قد وعدهم بالحماية.

ولاحظ سكان المدينة أن بلدوين كان يمتلك طاقات جبارة أعظم من قوى تانكرد، وكان لديه جند أكثر منه، ولذلك قاموا وفقاً لصيغة المعاهدة نفسها، والشروط ذاتها، التي كانوا قد عقدوها مع تانكرد من قبل، قاموا بتمزيق راية تانكرد ورفعوا راية بلدوين على القمة نفسها، وأربك عمل الجور هذا تانكرد، فاستشاط غيظاً، لكنه مع ذلك سيطر على مشاعره بالمشورة الحكيمة، وبالصبر والورع، ثم نزع معسكره خشية نشوب نزاع خطير بين قوات المؤمنين، وانسحب إلى مدينة مجاورة كانت تدعى أذنة، ومع ذلك لم يسمح له بدخولها عندما وصل إليها، لأن رجلاً عرف باسم غولف، من أهل بوغندنا كان قد استولى على تلك المدينة [1] فقد كان قد انفصل مع آخرين عن الجيش الرئيسي، وجرّ معه حشداً كبيراً من الناس للإنضواء تحت لوائه، وجلبه إلى أذنة، فطرد الأتراك منها وامتلكها بالقوة.

عندما عرف تانكرد أن هذه المدينة قد سقطت بإرادة من الرب، وغدت في سلطة شعبنا، أرسل الرسل إلى غولف ورجاه ألا يوصد الأبواب في وجهه ووجه شعبه، فقد رغب ورغبوا بالتوقف لشراء بعض مستلزمات الحياة، وسمح بالدخول لمبعوثيه، وتم توفير كل شيء ضروري لتانكرد وخيوله أيضاً، بكمية كبيرة، كان بعضها مجاناً، والبقية بسعر محدد

(١) يصرّح رالف أوف كين وهو، صديق حيم ومادح لتانكرد أن أحد الأرمن المسمىٰ أورسنيوس كان يملك أذنه. ويعتقد هاغنمير أن هذه الكلمة اللاتينية التي تعني «دب» ربما قادت الأحاديث الشفوية بسهولة لاستبدالها بكلمة «ذئب» ومن هنا بدأت القصة التي كتبها ألبرت ورددها وليم (هاغنمير محقق «تاريخ أعمال الفرنجة لمؤلف مجهول ص٢٩٣ الحاشية ٦٦). ومع ذلك، فإن نكلسون يفضل تعريف خالاندون لأورسنيوس على أنه أوشين Oshin، حاكم لامبرون Lampron (ر.ل. نكلسون ـ تانكرد ص٤٨ حاشية ٢).

لأن غولف كان قد وجد المكان مليئاً بالذهب والفضة والقطعان والمواشي والحبوب والخمر والزيت، لقد كان في الواقع يفيض بكل شيء جيد.

٢١ ـ تانكرد يستولي بالقوة على مدينة المصيصة، وهي مدينة في تلك المنطقة نفسها.

غادر تانكرد مع كامل مجموعته المدينة عند الفجر، وتقدم بخطى سريعة على طول الطريق السلطاني العام إلى المصيصة، التي كانت من أروع مدن المنطقة نفسها، مشهور بسورها وبأبراجها وبسكانها الكثر أيضاً، كما أن موقعها الممتع وحقولها الخصبة، وتربتها الغنية قد أعطتها مزايا أخرى أيضاً، ونصب تانكرد معسكره على مقربة من المصيصة، وهاجم الموقع على الفور، وواصل سلسلة من الهجمات وأعمال الانقضاض حتى استولى على المدينة بالقوة خلال بضعة أيام، بمعونة من الرب، وقتل الكفرة الذين كانوا يسكنون هناك، وتم العثور هنالك على كميات كبيرة من الكنوز، ومقادير هائلة من المؤن من كل نوع قام تانكرد بتقسيمها بكاملها بين أتباعه بمقادير حسب ما استحقت خدمات كل واحد منهم، وهكذا تمّ إغناء مجموعته بالكامل، وعوضت وفرة الطعام هنا وكثرته الحجاج بشكل جيد عن الفاقة التي تحملوها من قبل، وفي الوقت الذي كانوا يُشبعون به متطلباتهم الجسدية بالراحة والطعام، تركوا خيولهم وحيوانات الحمولة ترعى كما تشاء.

٢٢ ـ بلدوين يستولي على طرسوس. موت ثلاثمائة مسيحي أمام باب المدينة بحظ عاثر مشؤوم.

بعد رحيل تانكرد وجه بلدوين اللوم مراراً إلى أهالي طرسوس، ومزج تحذيراته بالتهديدات الجدية، وأمرهم بفتح الأبواب، ومنح قواته حق الدخول حيث بدا له أنّ من العار أن يهدر وقته ويضيعه على هذا النحو، ويجلس هنالك متسكعاً لا يؤدي أي عمل مفيد حتى وصول الجيش، وخشي سكان المدينة من أنهم إذا ما رفضوا الأذعان لمطلبه فلسوف يهاجم المدينة عن مدى قريب، حيث كانوا قد شاهدوا تانكرد قد عجز عن الصمود أمامه، ولم تكن لديهم سوى ثقة ضعيفة بقوتهم، لذلك وجدوا من الحكمة التي تمليها الضرورة فتح الأبواب، وإفساح المجال أمام بلدوين وكامل قواته، ووضعوا تحت تصرفه اثنين من الأبراج، حيث توجب عليه الإحتفاظ بها في الوقت الحالي، وتمّ في هذه الأثناء إيواء شعبه في منازل المؤمنين في كل مكان من المدينة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنّ الأتراك كانوا ما يزالون يحتفظون بالمدينة، كما احتفظوا بملكية الأبراج الأخرى أيضاً، فقد كانت أعدادهم كبيرة وكانوا ـ بلا شك ـ يحتفظون بالجزء الأكبر من تحصينات المدينة، ومع ذلك ارتابوا بجماعة المسيحيين الذين أفسحوا المجال لبلدوين وأتباعه، ومهما يكن من أمر، إنهم لم يتوفر

لديهم أدنى أمل بالحصول على المساندة ولهذا كانوا يبحثون عن فرصة مناسبة لمغادرة المدينة خلسة مع أزواجهم وأولادهم وجميع ما كانوا يمتلكون.

وحدث في تلك الليلة نفسها أن وصل إلى طرسوس، مجموعة قوامها ثلاثمائة رجل، كانوا ينتمون إلى جيش بوهيموند، وكانوا في طريقهم للحاق بتانكرد، ولم يسمح لهذه المجموعة بدخول المدينة، بناء على أوامر بلدوين، وكانت لا تمتلك شيئاً من المواد الضرورية والمؤن الأساسية، قد هدها السير الطويل، وقد توسلت بجد من أجل المأوى والسوق، وتعاطف الحجاج من ذوي المراتب الدنيا في داخل المدينة مع زملائهم الحجاج هؤلاء، وتوسلوا بجد حتى يسمح لهم بدخول المدينة، ومع ذلك لم يستجب للطلب، حيث قيل إنهم من أعضاء حمله بوهيموند التي كانت تحث الخطا لمساعدة تانكرد، وعلى الرغم من أن المسيحيين داخل المدينة لم يستطيعوا الخروج منها، لم تنقصهم المشاعر الأخوية، حيث أنزلوا لها سلالاً مملوءة بالخبز، والخمر داخل القرب، وذلك بوساطة حبال دلوها من السور، وهكذا جرى تزويد الموجودين في الخارج بطعام كاف ليمكنهم من قضاء الليلة، أضف إلى هذا أن هؤلاء الرجال أرغموا على البقاء خارج المدينة ولهذا فقد أقاموا أمام أبوابها، واستراحوا بقدر ما استطاعوا.

واستسلم المسيحيون داخل المدينة وخارجها للنوم في تلك الليلة ذاتها، وكانوا يستمتعون بنوم هنيء، آنذاك فتح الأتراك والسكان الكفرة الآخرون من أهل طرسوس، فتحوا الأبواب في سكون الليل العميق بدون صوت، ورحلوا خلسة، واصطحبوا معهم أزواجهم وأطفالهم وعبيدهم وإماءهم وجميع مقتنياتهم، لأنهم لم يستطيعوا أن يرتاحوا في وطنهم مع ضيوف أرغموا على استقبالهم، فخافوا من الإقامة معهم، وكانوا قادرين على مغادرة المدينة بكل حرية، حيث كانوا ما يزالون يسيطرون على باب أو بابين من أبوابها، لكنهم بغية ترك انتصار دموي خلفهم لأعدائهم، أرسلوا قدماً أثقالهم مع جميع الأمتعة الثقيلة، ومن ثم قتلوا ـ من غير استثناء تقريباً ـ الذين كانوا متمددين في نوم عميق خارج الأبواب.

٢٣ ـ الناس يشهرون السلاح ضد بلدوين، لكنهم يعودون إلى السكينة ثانية. وصول اسطول مع رجال على متنه من الغرب إلى طرسوس.

نهض المسيحيون الذين كانوا قد ناموا في داخل المدينة في صباح اليوم التالي عندما ملأ نور الشمس الكون، ووجدوا المدينة مهجورة، وحيث تولتهم الدهشة لفرار العدو خلسة، فتشوا الأسوار والمداخل ليعرفوا إن كان ممكناً من أين رحلوا، فاكتشفوا المذبحة وهم يتولون فحص كل ركن وزاوية، وهي المذبحة التي كان الأتراك الراحلون قد اقترفوها بحق

عباد المسيح، وحل حزن عميق، وأسى مستحق بين صفوفهم، وما لبثوا أن استسلموا للصراخ والعويل، ثم انشق الرجال من المرتبة الثانية عن البقية وشهروا السلاح ضد بلدوين والقادة الأكثر أهمية، لأنهم نسبوا إليهم موت الإخوة وهلاكهم، حيث رفضوا منح حق الضيافة لزملائهم الحجاج، وهو حق واجب شرعاً لجميع المعوزين، ولهذا السبب وحيث أثار الناس سبباً مشروعاً، فقد اندفعوا بنية عدوانية ضد مقدميهم، ولو لم يكن هؤلاء المقدمون قد انسحبوا إلى الأبراج الأكثر ارتفاعاً لكانت المذبحة التي تمت في الخارج قد انتقم لها بأعداد مساوية تقريباً من بين القادة، ولاحظ بلدوين في النهاية أن الإضطراب الذي تفجر بين الناس بسبب عادل كان يتزايد، ولذا بدأ يفكر بقلق كيف يسوغ عمله للناس حتى يمكن تهدئة الشغب، وحصل على فترة راحة بسيطة وطالب بالسكون، أما بالنسبة لحشد الناس من الرجالة الذين كانوا ما يزالون ممسكين بأسلحتهم، فقد هدأوا لفترة وجيزة، وبدأ بلدوين الآن يؤكد براءته، وأعلن مقسماً أن السبب الوحيد الذي دفعه لمنع الحجاج من دخول المدينة، هو أنه كان قد عاهد صادقاً ألا يسمح لأحد بدخولها حتى يكون الدوق قد وصل، وتمت بعد ذلك مباشرة تهدئة الناس إلى حد ما، بوساطة الأقوال المقنعة مع التملق الذي صدر عن بعض النبلاء، فقد كان ذلك ضرورياً في مثل هذا الوقت والمكان، وهكذا جرى الإصلاح.

وعلى هذه الصورة جرى إنهاء الشجار، وأقامت القوات هنالك بهدوء كامل لعدة أيام إلى أن ظهر أسطول على وجه البحر، على بعد ثلاثة أميال تقريباً من طرسوس، وعندما لمحه الفرسان والرجالة أسرعوا بتلهف نحو البحر، وتحادثوا من الشاطىء مع القادمين الجدد، وعلموا مما قالوه أنهم كانوا مسيحيين، وعندما سئلوا عن موطنهم أجابوا إنهم من فلاندرز وهولاندا وفريزيا، وأنهم كانوا في هذه المناطق يعملون بالقرصنة منذ ثمانية أعوام، وفي النهاية بعدما أنبتهم ضمائرهم، وتابوا من آثامهم، أبحروا إلى هذا البحر في طريقهم إلى القدس من أجل الصلاة، وعندما علم رجالنا أنهم كانوا من رجال العقيدة، فقد دعوهم إلى دخول الميناء، واشتبكت أيمانهم بالتحية، وتم تبادل قبل السلام، وبعد أن تم وضع الأسطول في مرفأ آمن، جرى تسيير الرجال أنفسهم إلى طرسوس.

وكان مقدمهم رجلاً يدعى غونمير Guinemer من مقاطعة بولونيا Boulogne في أراضي الكونت يوستاس والد اللورد غودفري [1]، وما أن أدرك غونمير أن بلدوين هو ابن

---

(١) نظر أيضاً إلى حدث غونمير هذا وقراصنته ببعض الشك. ومن الواضح أن بعض التفاصيل في القصة كما رواها ألبرت وتتبعها ولم هي تفاصيل خرافية، وواحد أو إثنان منها يتضارب مع الحقائق المتفق على =

سيده، ترك الاسطول، وأعدّ العدة لمصاحبته إلى القدس، وكان غوغمير غنياً جداً، وقد ازداد ثراء من تلك المهنة المرزولة التي كان قد زاولها لفترة طويلة جداً، وكان لديه أتباع كثرة تحت إمرته، وقد قرر معظمهم مصاحبته بعدما قرر اللحاق ببلدوين، وتركت كتيبة مؤلفة من خمسمائة رجل مختارين من أتباع القائدين، كشحنة كافية للمدينة، وأعد الباقون جميعاً العدة للشروع في اختبار حظهم.

٢٤ - بلدوين يزحف نحو المصيصة بعد استيلائه على طرسوس. وقوع صراع بين تانكرد وبلدوين. الإثنان يتصالحان في النهاية

لازم الجيش الطريق السلطاني بعد أن غادر طرسوس وحتى وصوله إلى المصيصته، وكنا ذكرنا من قبل أن تانكرد قد استولى على هذا المكان منذ فترة وجيزة فقط بقوة السلاح، وكان يحتفظ به بقبضة متينة، ونظراً لكون بلدوين كان يدرك تمام الإدراك أنه لن يستقبل مع قواته في المدينة، فقد أقامهم في الحقول المحيطة بها من الخارج.

وعندما سمع تانكرد أن بلدوين قد وصل، ونصب معسكره بالجوار غضب كثيراً، وعادت إلى مخيلته ذكرى المظالم التي كان قد تحملها بدون حق من ذلك الرجل، واستعرت روحه بالغضب في داخله، وقام وقد استبد به السخط الشديد، باستدعاء رجاله إلى حمل السلاح، مصمماً على رد المعاملة الشريرة التي كان قد تحملها بالطريقة نفسها، وجرى إرسال فرقة من حملة الأقواس لعقر الخيول التي كانت قد انتقلت إلى المراعي، أو لأسرها أو طردها، وهجم تانكرد نفسه مع خمسمائة فارس مدرع معسكر بلدوين، وفاجأ الرجال غير المستعدين، وأبادهم تقريباً قبل أن يستطيعوا الإمساك بأسلحتهم، ومع ذلك ما لبث بقية أفراد الجيش أن تمكنوا من أخذ أسلحتهم واستعدوا للمقاومة، ونشأ صراع عنيف، وحارب الطرفان بضراوة، وكأنهما كانا ألدّ الأعداء، وقتل الكثير، ووقع بعض الأسرى من كلا الجانبين، غير أن قوات تانكرد لم تكن مساوية لقوّات بلدوين في العدد والعدة، وحيث أنه لم يكن قادراً على تحمل وطأة المعركة أكثر من ذلك. اضطر في النهاية إلى التراجع، وانسحب إلى داخل المدينة.

وكان ينساب بين معسكر بلدوين والمدينة نهر أقيم عليه جسر ضيق، وشكل هذا الجسر عائقاً خطيراً أمام قوات تانكرد أثناء هروبها العاجل إلى المدينة، حيث قتل العديد من

= صحتها، هذا وتصادق، مصادر أخرى على صحة مشاركة الأساطيل من موانيء القناة، كما أن ألبرت مذنب بتزيين الحقائق الأصلية بتفاصيل خيالية لا يقبل ولم أياً منها (انظر س.و. ديفد «روبرت كورتوز ص٢٣٧ - ٢٣٨ وهـ. هاغنمير «حوادث وبيانات الحملة الصليبية الأولى» ص٣٥٩ الحاشية ٧).

الفرسان والرجاله أيضاً، ومع ذلك أفلح الآخرون في النجاة إلى المدينة، وكان من المحتمل وقوع خسائر أفدح، حيث كان الطرفان يستعران كراهية، لولا حلول الليل، وقد وضع ذلك حداً للقتال ونهاية له.

وكان بين أتباع تانكرد الذين جرى أسرهم رجال من ذوي الشهرة ونبلاء مثل: رتشارد رجل الإمارة، وأحد أقربائه، وروبرت أوف أنزي Anzi، وكان تانكرد قد لجأ إلى الإنتقام السالف الذكر بناء على نصيحة هؤلاء النبلاء وتحريضهم له بشكل رئيسي، كما تمّ أسر غلبرت أوف مونت كلير Gilbert Of Montclair، وهو رجل واسع الشهرة، وصاحب منزلة عالية بين أتباع بلدوين، وسبب غياب هؤلاء القادة الكثير من الإضطراب بين صفوف الطرفين، حيث ساد اعتقاد أنهم قد قتلوا في معركة اليوم.

وعندما أنبلج فجر اليوم التالي، بدأت مشاعر الكراهية تخمد، وانطفأت نيران الغضب إلى حد ما، ومن جديد تذكروا نذرهم بفضل من الرحمة السماوية، وعادوا إلى رشدهم القويم، وجرى تبادل الرسل في سبيل وضع شروط للسلام، وتمت إعادة الأسرى من كلا الطرفين، وتم تبادل قبلة السلام للرضى المتبادل لكلا الجيشين، وجرت إعادة الإنسجام التام.

٢٥ ـ بلدوين يعود إلى الجيش الرئيسي. تانكرد يغزو كليكية ويحتلها بأكملها. الحكام المجاورون يسرعون لكسب عطفه ويقدمون الهدايا له.

عاد بلدوين مع جميع قواته من المصيصة إلى الجيش الرئيسي، وذلك نزولاً عند طلب من رفاقه، وكان ـ كما ذكرنا من قبل ـ قد وصل الآن إلى مرعش، وهنا علم بأخبار الحادث الخطير الذي وقع للدوق أمام أنطاكية في بيسيديا، واستبد به القلق حول حالة غودفري، لذلك رغب في أن يتأكد بشكل أتم حول صحته وسلامته، وكان تانكرد في هذه الأثناء قد دعم قواته بأن ألحق بها الناس الذين كانوا قد قدموا مع الأسطول، وهكذا اجتاح كامل كليكية بهذا الجيش المتنامي باضطراد شديد، واستولى بهجوم عنيف على جميع معاقل العدو حيثما وجدها، وأحرقها عن بكرة أبيها، وقتل كل من كان فيها، وكان آخر موقع توجب عليه اقتحامه هو الإسكندرية الصغرى، وبالفعل استولى عليها أيضاً على الرغم من مقاومتها اليائسة، وبذلك أصبحت المنطقة بأسرها تحت سيطرته، لا سيما بعد الإنتصار الأخير.

وعلى الفور وصلت الأنباء إلى الحكام الأرمن والأتراك الذين كانوا يقيمون في الجبال ان تانكرد كان يخضع البلد بأكمله بقوة شديدة وكثيرة، وسيطر الرعب عليهم، خشية أن يصعد إليهم أيضاً، ويخضع مدنهم ويستعبد شعوبهم، فأسرعوا بتنافس وتلهف إلى إرسال الرسل إليه

حاملين الهدايا الضخمة من الذهب والفضة، والخيول والبغال، والأقمشة الحريرية، وأملوا بهذا السخاء أن يتفادوا سخط هذا المقدم العظيم، وأن يكسبوا تأييده، ويحصلوا على معاهدات للصداقة معه.

وهكذا كان تانكرد ناجحاً في كل ما قام به لأن الله كان معه، وقد وجه الرب جميع أعماله مثلما وجه أعمال العبد المؤمن [1].

هنا انتهى الكتاب الثالث

(١) أصبح تانكرد مثله مثل غودفري في الوقت الذي كتب فيه وليم أحد الأبطال الكبار للحملة الصليبية الأولى هذا ولم يصوره أحد من المؤرخين المعاصرين له على أنه خال تماماً من النقائص كما يبدو في هذا الكتاب، وليس حتى وصف رالف أوف كين والذي كان بالفعل وصفاً كله مدح لتانكرد ولسبب ما تتوقف قدرات وليم النقدية عن العمل عندما يكتب عن تانكرد. وعالج كل من ب.غندلر في كتابه «بلدوين صاحب الرها» ور.ل:نكلسون في كتابه: «تانكرد» قصة الخلاف بين تانكرد وبلدوين بالتفصيل أثناء نشاط مقدمة الجيوش الصليبية.

بداية الكتاب الرابع

الصليبيون يجتاحون سورية الشمالية ويشرعون بحصار أنطاكية

١ ـ بلدوين أخو الدوق يعود إلى الجيش الرئيسي ثم يباشر حملة جديدة بناء على قتراح باكراد Pakarad . يزحف إلى الشمال ويستولي على المنطقة بأسرها حتى الفرات .

بينما كان تانكرد يخضع بشجاعة كل شيء في كليكية، وصل الجيش الرئيسي إلى مرعش[١] ، وإلى هناك ذهب بلدوين ليزور أخاه، وعندما وجد غودفري متماثلاً للشفاء، بدأ يشعر ثانية بانفعالات الطموح، وأثاره الثناء العام على شجاعة تانكرد، الذي كان معلناً في كل مكان، ودفعه إلى المنافسة، فجمع رفاقه، وصمم على الشروع من جديد في البحث عن مغامرات جديدة، بيد أن الذين دعاهم إلى الالتحاق به لهذا الغرض، كانوا غير راغبين بمرافقته، ذلك أنهم سمعوا أخبار الوقاحة والغطرسة التي كان قد عامل بها تانكرد أمام أسوار طرسوس في كليكية، اعتماداً منه على كثرة أتباعه، واعتبر الجميع تقريباً أن سلوكه كان سلوكاً بغيضاً، وهذا حكم اقتضاه إثمه، ولولا أن الاحترام الذي حظي به الدوق قد منحه الحماية، لكانت تمت معاقبته من قبل بوهيموند وأتباعه على الضيم الذي لحق بتانكرد، وهكذا كان ما حدث هو أن بلدوين لم يجد سوى عدد قليل من الرفاق لمصاحبته في هذه الحملة، كما أن أخاه العبد المتواضع للرب قد أنبه بشدة على فعلته، وبما أنه كان نفسه مقراً بذنبه، فقد وعد بكل التواضع على أن يجري تعويضات مناسبة للنبيل تانكرد عن إساءته نحوه، وبما أن بلدوين قد اقترف ما اقترفه بدافع من اقتراحات الآخرين أكثر من دوافعه الشخصية، لأن مثل هذا السلوك كان غريباً عن شخصيته تماماً، لهذا لاقى الغفران، واسترد مودّة الجميع[٢] ، فهو كان جديراً بالثناء من جميع الجوانب الأخرى، ولم يحدث أن وجدت رواية ذات طبيعة مشابهة ضده.

وكان لديه صديق، نبيل أرمني اسمه بانكراتيوس Pancratius[٣] [باكراد] كان قد تعرف،

---

(١) ١٣ ـ تشرين أول ١٠٩٧ . حدثت وفاة زوجة بلدوين خلال أيام البقاء الثلاثة في هذا المكان. انظر الكتاب الثالث ص ٢٥٥ الحاشية ١ .

(٢) استند وليم في روايته عن المصالحة بين بلدوين وبقية القادة إما على روايات شفوية أو على محصلات شخصية.

(٣) ليس لدى الكتاب الأرمن الكثير ليقولوه عن هذا الشخص الذي يشغل حيزاً واسعاً في رواية كل من ألبرت =

عليه في نيقيا، وكان محارباً شجاعاً، غير أنه كان مخاتلاً للغاية، وله إخلاص مريب، وقد ألح على بلدوين باستمرار لكي يجمع جنداً، فينضم إليه في حملة إلى الريف المجاور، الذي قال إنه من الممكن الاستيلاء عليه بكل سهولة، بالاعتماد على قوة صغيرة، وأخيراً وافق بلدوين على هذا المطلب، وشرع بحملة وبرفقته مائتا فارس وعدد غير قليل من الرجّالة، وانطلق نحو الشمال يقوده باكراد ويوجهه، وما لبثوا أن وصلوا إلى ريف غني جداً، وكان معظم الناس القاطنين في هذه المنطقة يدينون بالعقيدة المسيحية، وكانوا من العباد الصادقين للرب، هذا وكان السكان الكفرة ما يزالون يستحوذون على الحصون، وذلك على الرغم من قلتهم، وكانوا يعاملون المؤمنين الصادقين حسبما شاءوا، وقد حرموهم من الأعمال العسكرية، والممارسات الحربية.

أضف إلى هذا أن فلاحي البلاد من المسيحيين قد مقتوا تسلط الكفرة، لذلك ما أن دخل بلدوين إلى المنطقة حتى بادروا إلى تسليمه الأماكن المحصنة، وهكذا استولى بلدوين على المنطقة بأسرها خلال بضعة أيام، وكان ما استولى عليه يمتد حتى نهر الفرات العظيم، وأصبح اسم بلدوين يبعث الرعب الشديد في الريف المحيط بتلك المنطقة إلى حد تخلى فيه العدو طواعيةً عن الحصون، دون أن يطارده أحد، ولاذ بالفرار، فقد بعث مجرد وجود بلدوين الشجاعة والثقة الصادرة عنها، وغرسها في قلوب المؤمنين الذين كانوا قد استقبلوه، وهكذا بات الحال كما جاء في كلمات الرسول: «باستطاعة فرد واحد أن يطارد ألف شخص وباستطاعة اثنين أن يجعلا ألفين يلوذان بالفرار»[1].

ولم يكن عامة الناس الذين تشبثوا بهذا وحدهم فقط، بل إن الأمراء من المسيحيين في تلك البقاع تحالفوا أيضاً وتعاونوا معه بإخلاص في سبيل مشروعه، وزودوه بالجند، وقدموا له الطاعة المخلصة.

٢ - شهرته تنتشر بالطول والعرض. سكان الرها يوجهون الدعوة إليه. يعبر نهر الفرات ويسرع إلى هناك ويقع بكمائن أثناء زحفه. شعب الرب يخرج إلى استقباله ويرافقه ببهجة عظيمة إلى داخل المدينة.

وانتشرت بعد مضي عدة أيام الأحاديث وذاعت حول اسم هذا الرجل العظيم

= ووليم. ويعتبره اسكندريان على أنه في أغلب الظن من الأرمن الذين أصبحوا ساخطين في خدمة الإغريق وربما قد سُجن (الحملة الصليبية وبيزنطة والأرمن وقيام دولة الرها ص. ٣٢). ويعتقد بيمونت أن رواية ألبرت ووليم حول باكراد صحيحة (انظر أ. أ. بيمونت. بحث «ألبرت أوف آخن وكونتية الرها» Mumro-crusades pp. 105).

(١) سفر الثنية: ٣٢/٣٠.

وأفعاله، وعمت كل مكان عبر البقاع المجاورة، وتم تمجيد بسالته واخلاصه وشجاعته واصراره على أن ذلك جدير بأسمى آيات الثناء، كما وصلت الأحاديث عن شهرته سكان الرها، وعلى الفور امتلأت المدينة بنبأ: إن قائداً قوياً قد أتى من الجيش المسيحي، وسيكون قادراً على تحريرهم بالكامل من نير العبودية، وأن يعود بهم إلى الحرية، وعندها أرسل المسؤولون عن المدينة بالإضافة إلى الشيوخ الذين عهد إليهم بالسلطة الكلية في الرها، أرسلوا سفارة إليه تدعوه بإخلاص عظيم شفوياً وكتابياً للقدوم إليهم.

والرها مدينة مشهورة في بلاد الجزيرة، وتعرف أيضاً باسم راغس Rages، وهذه هي المدينة التي كان الشيخ توبت Tobit قد أرسل إليها ابنه توبت الأصغر ليطلب من قريبة غابليوس Gabelus عشرة قناطير Talents من الفضة كان توبت قد أقرضه إياها عندما كان طفلاً، واستقبل سكان الرها عقيده بالمسيح على الفور بعد انقضاء آلام ربنا، وكان ذلك بوساطة الحواري ثاديوس Thaddeus الذي وجدهم جديرين بالاحترام من كافة الجوانب، تمشيا مع تبشير الحواري العظيم ورسالة مخلصنا إلى ملكهم أبجر، حسبما يمكن قراءة ذلك في الفصل الأول من كتاب تاريخ الكنيسة الذي صنفه يوسبيوس القيساري[١]، وقد التزموا بإيمان صادق بهذه التعاليم حسبما تلقوها زمن الحواريين تماما كما هي، وكانوا تحت نير الكفر إلى حد اضطروا فيه إلى دفع الجزية وضريبة أخرى سنوية، كما أرغموا على فداء كرومهم وحقولهم وأي نوع من الأراضي التي امتلكوها في الخارج بابتزازات متواصلة تقريباً، ومع ذلك لم يجرؤ أحد سوى المؤمنين على العيش داخل المدينة، حيث احتفظت الرها وحدها من بين جميع مدن تلك المنطقة بحريتها الأصلية، ولم يدنسها الوثنيون، وعلى الرغم من أن العدو كان قد سيطر على المنطقة بأسرها مع الجوار منذ زمن طويل فإنه لم يستطع اخضاع الرها، كما أنها لم تقع تحت سيطرة أي إنسان صاحب عقيدة غريبة ليقيم داخل حدودها، بيد أن سكان المدن والحصون المجاورة قد سببوا ضيقاً شديداً للناس فيها، لأنهم لم يسمحوا لسكان المدينة بمغادرتها أو العمل في إحدى الصناعات خارجها.

كان هنالك وال من الإغريق مسؤولاً عن المدينة، وكان قد بعث به والياً إليها في الوقت الذي كانت المقاطعة بأسرها قد أصبحت فيه خاضعة لسلطان القسطنطينية[٢]، وقد

---

(١) يوسبيوس ـ التاريخ: ١/١٤.

(٢) كان طوروس أرمنياً قد حكم الرها نيابة عن الاغريق، وعندما استولى الأتراك على المدينة قد سمحوا له أن يستمر حاكماً لها، وجرى طرد الحامية الصغيرة المكونة من الجنود الأتراك مع انتشار أنباء هزيمة قلج أرسلان واقتراب الصليبيين وحكم طوروس مستقلاً. ودفعه سنه وحقيقة أنه لم يكن رجلاً عسكرياً إلى استدعاء بلدوين.

أصبح الآن رجلاً مسناً وضعيفاً ودون أولاد من أي من الجنسين، وعندما وصل الأتراك قبل انتهاء فترة ولايته، أجبروه على البقاء في منصبه للضرورة، واستمر محتفظاً بالسلطة القضائية في المدينة، وبقي فيها إما لأنه لم يكن قادراً على العودة إلى بلده، أو لأن الناس لم يجبروه على التخلي عن الحكومة، ومع ذلك، كان حاكماً عديم الجدوى، غير قادر على حماية رعاياه من المظالم، أو التفريج عنهم في ضيقهم، ولذلك جرى بعث الرسل إلى بلدوين، وجاء ذلك بمثابة عمل جماعي أقدم عليه سكان المدينة، وتم بمعرفة الوالي ورضاه، وكانت مهمة الرسل - كما سلف القول - التوسل إلى بلدوين للحضور وتقديم علاج لمحنهم.

وقرر بلدوين، بعد الإصغاء إلى مطلب عامة الشعب والزعماء، وبعد التداول مع أصدقائه، قرر الموافقة، وأعدّ العدة للزحف، وعبر نهر الفرات بصحبة ثمانين فارساً فقط، بينما ترك بقية أتباعه لحراسة القلاع والمدن القائمة على جانب النهر، وهي ممتلكات كان الرب قد منحه إياها.

وكان الأتراك الذين يعيشون على طرف النهر الآخر، قد عرفوا في هذه الأثناء خبر قدومه، فنصبوا له الكمائن، وكانت هنالك بلدة محصنة على طريقه، يحكمها أحد الحكام الأرمن، إلى هذه المدينة انسحب بلدوين ليتجنب الكمائن المنصوبة له، واستقبله حاكم المدينة بصدر رحب، وبحسن ضيافة لائقة، واستراح بلدوين هنالك لمدة يومين غير مجترىء على مواصلة السفر، ثم إن الأتراك الذين كانوا يترصدونه في الكمين في تلك الأثناء، سئموا من طول الانتظار، فظهروا أمام المدينة فجأة، برايات منشورة، وقوة قادرة،وبدأوا يسوقون القطعان من المراعي المجاورة، وبما أن المسيحيين لم يكونوا يعدلون الأعداء بالقوة والعدة، لم يتجرأوا على الخروج ضدهم، ولبثوا داخل الحصن، وفي اليوم الثالث رحل الأتراك.

ثم واصل بلدوين رحلته المتقطعة إلى الرها، واستقبله حاكم المدينة لدى وصوله بكثير من الحفاوة، وبود من قبل الجميع، وخرج رجال الدين وجميع الناس لاستقباله منشدين المزامير والأناشيد الروحية بمرافقة الأبواق والطبول.

٣ - والي المدينة يصبح غيوراً من نجاح بلدوين. يندم على ما قام به ويرغب بإلغاء الاتفاق. الناس يهيمنون عليه ويسيطرون فيقدم بالنهاية على تبني بلدوين كابن له، لكن بنية غدر.

ما لبث الوالي الذي سبب استدعاء بلدوين أن بدأت عقارب الحسد تدب في صدره، وعندما تأمل بصمت في قرارة نفسه الاجلال والتأييد اللذين كان الشعب قد أظهرهما نحو ذلك القائد عند وصوله، تاقت نفسه إلى التملص من الاتفاقات التي كان قد أعدها معه، فقد

كان قد تقرر يوم تمّ إرسال الدعوة إلى بلدوين، أن يشارك هذا الأخير الوالي خلال حياته بشكل مساو في جميع المصالح والجزية والضرائب التي كانت المدينة تمتلكها، وكان بإمكان بلدوين تملك كل شيء فيما بعد بدون تحفظ، لكن الوالي رغب الآن بتقديم اقتراح مغاير، فيه: إن على بلدوين تقديم العون للمدينة وسكانها ضد اضطهاد الأتراك، وأن يدفع مظالمهم، وبالمقابل فإن الحاكم ذاته، كرجل مستقيم، سيحدد له تعويضاً سنوياً مشرفاً، ورفض بلدوين هذا الاقتراح بازدراء، فقد بـدا الأمر له أنه سيدفع له أجراً لقاء خدماته مثلما يدفع لأي جندي عادي، وبدأ لهذا يعدّ الترتيبات للعودة، وعندما علم سكان المدينة بهذا القرار أسرعوا إلى الحاكم، وأصروا عليه بإلحاح أن لا يسمح إطلاقاً برحيـل مقـدم عظيم جـداً مثلـه، فهو الرجل الضروري للغاية لحريتهم، وطالبوه أن يربط بلدوين به نفسه بشروط ميثاق حتى يتمكن هو والمدينة بأسرها من التمتع بعد ذلك بالسلام المنشود طويلاً.

وشعر الحاكم أنه من الخطر رفض هذا المطلب، وذلك بسبب المطالبة الإجماعية للناس والزعماء، وبسبب الحب المتقد الذي كان بلدوين قد أثاره فيهم، وهكذا وافق على مضض وعلى الرغم من هواجسه، علاوة على ذلك، وحتى يقدم تعويضاً كاملاً عما اقترفه بسلوكه السابق، أقدم على تبني بلدوين وأعلنه بمثابة ابن له[1]، على مشهد من سكان المدينة، وأعلن بإجلال لائق أنه شريك مساوٍ له في كل شيء، طالما بقي هو نفسه على قيد الحياة، وصرح أنه سيكون خليفته بعد مماته، وابتهج الناس لأنهم شعروا أن مجمل أملهم بالسلامة قد توضع في بلدوين، وبدأوا منذ ذلك الوقت تحت حماية قائدهم الجديد يزدادون شجاعة، وعندما تذكروا بحرية كبيرة المظالم التي كانوا قد عانوا منها من واليهم، خططوا للانتقام منه عندما يحين الزمان ويتوفر المكان الموائم، وهذا ما أظهره مجرى الأحداث اللاحق بوضوح تام.

٤ ـ بلدوين يحاصر مدينة سميساط بناء على طلب من شعب المدينة. سكان المدينة يتآمرون ضد سيدهم غير الكفء وذلك انتقاماً للمظالم الكبيرة التي كان قد أنزلها بهم.

قامت على مقربة من الرها مدينة سميساط القديمة جداً، والمشهورة بتحصيناتها القوية، وكان يحكمها أحد الكفرة من أصل تركي يسمى بلدوك Balduk، وهو محارب شجاع، غير أنه كان رجلاً شريراً ومخادعاً، فقد أنزل العديد من المحن بسكان الرها، وذلك

---

(١) لا تتفق جميع المصادر مع هذه الرواية. كما لم يذكر فولتشر ولا متى الرهاوي ـ اللذان عرفا الحقائق ـ هذا التبني. ويميل بيمونت، الذي اعتمد مؤخراً على رواية تاريخ سرياني معاصر للفترة اكتشف حديثاً، للشك في التبني (بيمونت في Mumro-crusades pp. 107-8).

بمضاعفة الجزية عليهم، والضرائب على حقولهم، وارهاقهم بالخدمات، وحتى يضمن انجاز هذه المهمات، اعتاد على احتجاز أبنائهم كرهائن، حينما أرغم أهل الرها، تحت ظروف وحشية متطرفة، على خدمته مثل العبيد بالآجر والصلصال، ولهذا جاء السكان بأسرهم، وركعوا عند قدمي بلدوين، وعيونهم تفيض بالدموع، وتوسلوا إليه أن يتفضل فيجميهم من استبداد هذا الرجل، ويعمل على استعادة أطفالهم الذين تمّ احتجازهم بالقوة، وأصغى بلدوين بلطف إلى هذا المطلب الأول من شعبه، حيث أمل أن يحرز بذلك احترامهم التام، فجمعهم جميعاً وزودهم بالأسلحة، وتحرك على رأس قوة كبيرة نحو سميساط.

ولعدة أيام واصل الهجوم على المدينة بدون انقطاع، ومع ذلك فإن الأتراك في الداخل، كانوا واثقين من تحصينات المدينة، وقد قاوموا بعنف، وأدرك بلدوين على الفور أنه لم يكن ينجز شيئاً، وبناء عليه عاد إلى الرها، لكن بعدما خلف وراءه جماعة كافية من الفرسان، تمركزوا في موقع مجاور، محصن تحصيناً كافياً، وأصدر الأوامر إليهم بمواصلة حرب مستمرة لا تفسح أية استراحة لأهل سميساط.

وما لبث سكان الرها أن اكتشفوا أن بلدوين كان رجلاً نشيطاً وناجحاً في كل ما قام به، ولاحظوا جور التسوية، التي كان بوساطتها ـ وهو محرر المدينة، ومؤسس السلام، ورجل يستحق أن يمتلك كل شيء، وأن ينظمه حسبما يشاء ـ مماثلاً لرجل لم يكن مفيداً للمدينة اطلاقاً، واستدعوا قسطنطين وكان نبيلاً قوياً، امتلك العديد من القلاع الجيدة التحصين، والواقعة على أحد الجبال المجاورة، واقترحوا بموافقة جميع الناس، قتل سيدهم، وتنصيب بلدوين حاكماً لهم، وسيداً وحيداً، فقد كرهوا واليهم، حسبما استحق ذلك تمام الاستحقاق، فقد قيل إنه اغتصب منهم الذهب والفضة، والكثير من الأشياء الثمينة، وقد أساء إليهم كثيراً وكان ـ إذا ما حاول أحدهم مقاومته ـ يحرض الأتراك ويثير كراهيتهم وعداوتهم ضده، وذلك بالرشوة، ولهذا لم يكن الشخص التعيس هو الذي يخشى من أن يتم قطع كرومه وبساتينه ومحاصيله النامية، والاستيلاء على قطعانه ومواشيه فحسب، بل من امكانية تعريض حياته للخطر.

٥ ـ أهالي الرها يقتلون واليهم السالف الذكر وينصبون بلدوين حاكماً عليهم. بلدوين يشتري سميساط بسعر مرتفع من حاكمها بلدوك.

أدرك أهالي الرها، الذين لم تغب عن ذاكرتهم أعمال واليهم الشريرة، أنه قد توفرت فرصة مواتيه للخلاص منه، من خلال وجود ضيفهم الذي كانوا قد استقبلوه للحصول على الحرية المرغوب بها منذ وقت طويل، ولذلك انطلقوا إلى أسلحتهم حسب خطط مرتبة من

قبل، وهاجموا بشجاعة البرج الذي كان مسكن حاكمهم فيه، وحاولوا تدميره بكل شجاعة وتصميم، ودفع غضب الشعب وسخطه العظيم المسوغ على الحاكم، دفع هذا الحاكم إلى الخوف على حياته، فاستدعى بلدوين وصب كنوزه أمامه، وتوسل إليه أن يتدخل لدى الناس لمصلحته، وعلى الرغم من أنّ بلدوين حاول تلقائياً، وبإيمان قويم [1] حماية الحاكم من الأذى على أيدي أهالي المدينة، وأن يحولهم عن هدفهم، فقد أدرك أن جهوده ستكون عقيمة، لأن غضب الناس كان يتزايد شيئاً فشيئاً، ولذلك عاد إلى الحاكم ونصحه بجد أن يتخذ أية إجراءات بإمكانه اتخاذها من أجل حياته وسلامته، وكان هذا الأخير يبحث عبثاً وفي يأس عن علاج لم يكن موجوداً، فأسدل حبلاً من إحدى النوافذ، وأسلم نفسه إليه، ومع ذلك هلك قبل أن يصل إلى الأرض حيث اخترقت جسده آلاف السهام، وجرّ الناس جثته الهامدة خلال المدينة، وقطعوا رأسه. ومع هذا يلاحظ أن جميع هذه الاجراءات لم تطفىء حقدهم تماماً، وفي اليوم التالي [2] نصبوا بلدوين حاكماً عليهم على الرغم من معارضته واحتجاجاته، وأدوا له يمين الولاء، ثم قادوه إلى داخل قلعة المدينة وسط كثير من الأبهة والإجلال، ومنحوه جميع الكنوز والثروات الضخمة التي كان حاكمهم السابق قد جمعها خلال عدة سنوات، وهكذا أمكن إعادة المدينة إلى حالة الهدوء.

أدرك بلدوك الآن ـ الذي كان كما قلنا حاكماً لسميساط ـ أن بلدوين كان ناجحاً باضطراد، وأنه كان في سبيله إلى اخضاع المنطقة بأسرها، ولذلك عرض مدينته للبيع بسعر مرتفع هو عشرة آلاف قطعة ذهبية، وأدرك بلدوين أنه لا يمكنه الاستيلاء على المدينة بالقوة والعنف بسبب تحصيناتها القوية، ولهذا دفع المبلغ الضخم المطلوب بعد كثير من التروي، وتسلم المدينة، كما تم أيضاً استعادة الرهائن الذين ينتمون للرها، وهذه حقيقة زادت كثيراً من رفعة مقامه.

لقد كسب بلدوين تأييداً عظيماً من أهالي الرها على إنجازه هذه المأثرة إلى حد أنهم لم يعتبروه منذ ذلك الحين فصاعداً سيدهم فحسب، بل اعتبروه والدهم أيضاً، وكانوا مستعدين لأن يقاتلوا حتى الموت في سبيل سعادته ومجده.

---

(١) تتفق جميع المصادر على أن الأرمن عزلوا طوروس وقتلوه غير أنها لا تتفق جميعها فيما إذا لم يكن بلدوين متهماً بالإطلاع على سر المؤامرة. (أنظر المناقشة التي قام بها. بيمونت في Munro-crusades pp. 109 - 12 والتي قام بها اسكندريان «الحروب الصليبية» ص٤٦ - ٤٨).

(٢) ربما في الثامن من آذار ١٠٩٨.

٦ - بلدوين يحاصر مدينة سروج ويستولي عليها بهجوم عنيف محققاً بذلك أعمالاً تستحق ما لا يحصى من الثناء من شعبه.

كان على مقربة من الرها في المنطقة نفسها مدينة تدعى سروج، وكانت مليئة بالكفرة أيضاً، وبشكل كبير جداً، وكان حاكم هذه المدينة تركيا يدعى بلس Balas، وكان يضايق مدينة الرها باستمرار، وينزل المظالم الموجعة بها، ولهذا السبب وافق بلدوين فوراً على توسلات أهل الرها التي طالبته بجمع جيش والتحرك نحوها، وزحف في اليوم المحدد إلى هناك، وضرب الحصار على المدينة حسب رغبة أهالي الرها، وأقام معسكره محيطاً بها، ووضع آلات حربه بالأماكن المناسبة ثم شرع بالهجوم بشكل جريء، وبما أن سكان سروج قد روعهم عزم هذا الرجل المصمم، فقد ارتابوا بقوتهم، فأرسلوا المندوبين ليتوسلوا إليه من أجل السلام، ووافقوا على تسليم المدينة إذا ما ضمن لهم أرواحهم وسلامتهم، وتم تسليم المدينة إليه وفقاً لهذه الشروط، وبعد هذا ترك فيها شحنة كافيه من رجاله لحمايتها، بقيادة أحد الرجال الذين سيروا المفاوضات ثم فرض جزية سنوية على أهاليها وعاد إلى الرها مجللاً بالمجد، ذلك أن احتلال المسيحيين لمدينة سروج قد منحهم ممراً حراً بين أنطاكية والرها، وقد شغل موقعها المتوسط على الطريق بين الرها ونهر الفرات - حتى يومنا هذا - عائقاً للذين رغبوا بالتنقل بينهما جيئة وذهاباً.

ودعونا نعود الآن، بعدما أوردنا هذه الشروح عن أمور بلدوين، نعود إلى أخبار الجيش الرئيسي.

٧ - بعض الرجال المرسلين من الجيش الرئيسي يستولون على مدينة أرتاح بالقوة. يثير هذا النبأ أهالي أنطاكية فيسرعون بقوة ضخمة إلى هناك وينصبون كميناً لشعبنا ويهاجمون المدينة. اخفاق جميع جهودهم لهذا عادوا إلى بلدهم بعد تحصين الجسر

بينما كان بلدوين منشغلاً بفعالية في الرها وراء نهر الفرات، كان الجيش الرئيسي، قد وصل - كما سلف الذكر - إلى مرعش، وذلك بعد الزحف فوق جبال شاهقة، وخلال أودية متشعبة، وكان سكان هذه المدينة من المسيحيين فيما عدا قلة منهم، ومع ذلك كان الكفرة يمتلكون القلعة، وقد عاملوا بقية السكان حسب أهوائهم ووفق ما ناسبهم، هذا وما أن علم الأتراك أن جيشنا كان يتقدم حتى هربوا خلسة وبرعب شديد، وهكذا ترك المؤمنون وهم يتملكون المدينة بشكل كامل.

وعندما وصل الجيش المكرس للرب إلى هذه المدينة خيم أمام أسوارها في المراعي الخضراء، وتم اصدار الأوامر بعدم ارتكاب أي عنف ضد أهالي المدينة، وهكذا تم توفير

سوق غنية في تلك المدينة بدون شغب، وأعلم الثقاة من السكان المحليين المسيحيين أن الأتراك قد احتفظوا بمدينة أخرى بالجوار تدعى أرتاح، وأن هذه المدينة تقع في ريف أكثر خصباً وهو زاخر بجميع الخيرات والأطايب.

وبناء على ذلك تقدم روبرت كونت فلاندرز بموافقة عامة، وبسرعة كبيرة نحوها، ومعه قوة قوامها ألف فارس من الفرسان المدرعين، ورافقه بعض النبلاء مثل روبرت دي روزيرس Rozieres وغوسلون Goscelon بن كونون Conon كونت مونتاغيو Montague وشرع روبرت بحصار المدينة حالما وصل إليها، وعندها تخلى الأتراك عن المدينة وتراجعوا إلى القلعة التي شعروا بالثقة بقوتها وحصانتها.

وعندما علم الأرمن مع المؤمنين الصادقين الآخرين القاطنين في أرتاسيوم Artasium [أرتاح] أن هؤلاء المحاربين الذين يرتدون الدروع اللامعة قد أتوا من الجيش المنتظر بتلهف منذ وقت طويل، استيقظ أمل الحرية في داخلهم، فأمسكوا بسيوفهم وقاوموا الأتراك الذين كانوا قد أبقوهم لفترة طويلة تحت حكم جائر وقاس، وقتلوا الجميع بدون تأخير، وقذفوا الرؤوس المقطوعة إلى خارج الأسوار، وفتحوا الأبواب على مصراعيها، ودعوا بحب واخلاص، المسيحيين الموجودين في الخارج للدخول إلى المدينة والإقامة فيها، وعلاوة على ذلك زودوا المقاتلين والخيول بكل ما كان ضرورياً لهم، وذلك بالتزام حقيقي بقوانين حسن الضيافة.

إن مدينة أرتاسيوم [أرتاح] المدعوة أيضاً باسم خالكس Chalcis هي مثل مدينة مرعش التي سبق ذكرها قبل قليل، وهي إحدى مدن الأسقفيات التابعة للكرسي البطركي في أنطاكية، وتبعد خمسة عشر ميلاً عنها.

انتشرت أخبار هذا الحادث في طول المنطقة وعرضها، وأثارت أهل أنطاكية، فتسحلوا بحماسة واستعدوا لتدمير الغزاة الذين جعلوا أنفسهم سادة على أرتاح، بقتل أهاليها، وبدأ الزحف متوجهاً إلى أرتاسيوم، وضم قرابة عشرة آلاف رجل من الحشد الذي اجتمع في أنطاكية للدفاع عنها، وعندما اقتربوا من أرتاح أرسلوا أمامهم كتيبة مؤلفة من ثلاثين فارساً مسلحين تسليحاً خفيفاً، وعلى صهوات خيول سريعة، ومكثت بقية القوة مختبئة في كمين في موقع منعزل، على أمل من أن المسيحيين سيغامرون بطيش فيقدموا على مهاجمة الطلائع التي شرعت بالمناوشه والركوب صعوداً ونزولاً أمام المدينة، وكأنها تقوم بسوق الغنائم أمامها، ولم يحتمل المؤمنون الموجودون خلف الأسوار وقاحة هؤلاء الرجال الذين ركبوا بحرية جيئة وذهاباً، وأسرعوا إلى أسلحتهم بتلهف، وحيث أنهم طاردوا العدو دون ابداء الحذر المتوجب،

فقد تبعوه إلى مسافة بعيدة جداً، فوقعوا بالحال بالكمائن المنصوبه بحذر بالغ، وبرز العدو على الفور من مخابئه، وبذل جهوداً يائسة لمنع المسيحيين من الإنسحاب، لأنهم إن نجحوا في الوصول إلى المدينة، فلسوف تقدم لهم ملاذاً آمناً من القوات الكبيرة التي كانت على وشك اللحاق بهم، ومع ذلك فإن شعبنا صدهم بشجاعة وبإرادة الرب، وعلى الرغم مما بذلوه من جهود، وانسحب بسلامة إلى داخل المدينة مع جميع أتباعه.

وأدرك العدو الآن أن امتلاك المدينة بسرعة كبيرة ليس مهمة سهلة، وبالنتيجة بدأ بإنشاء بعض الحواجز، ذلك أنه انقض على المدينة لمدة يوم كامل بدون نجاح، في حين بذل المسيحيون داخل الأسوار دفاعاً باسلاً، ومع ذلك عندما وصل خبر يفيد أن جيشنا الرئيسي كان يقترب، اعتقد العدو أن البقاء لفترة أطول ينطوي على خطورة، واستجاب للنصيحة الأكثر تعقلاً، وعاد إلى أنطاكية، بعدما خلف قطعة قوية من الجنود لحماية الجسر بين المدينتين، وهكذا حمى الكونت ورفاقه المدينة بحماسة أعطاهم الرب إياها، وذلك حتى وصول الجيش الرئيسي.

وكان قد سيطر خلال هذا الوقت مرض خطير على غوسلون Goselon، وهو شاب كان يبشر بنجاح مدهش، وابن كونون كونت مونتاغيو الذي تحدثت عنه من قبل، وقد أودى المرض بحياته، حيث تم دفنه في ذلك المكان بطقوس الإجلال المألوفة.

٨ ـ الجيش الرئيسي يصل إلى أرتاسيوم. إرساله الكشافة من هناك إلى الأمام لتفحص الطرق. اقترابهم من الجسر وعبورهم النهر على الرغم من جهود العدو.

لم يكن قد مضى وقت طويل على مغادرة الأتراك الذين قدموا من أنطاكية لأرتاسيوم [أرتاح] عندما أشيع عند الفجر أن الجيش المسيحي قد دخل ضواحي البلدة، وضرب معسكره على مسافة قريبة منها، وكان القادة قد أرسلوا، استجابة لنصيحة عامة وبدافع قلق طبيعي على إخوانهم، الذين أشيع أنهم يعانون من الحصار في أرتاسيوم، أرسلوا ألف وخمسمائة فارس مدرع لمساعدتهم، وقضت الأوامر أنه يتوجب على كونت فلاندرز والنبلاء الآخرين الذين كانوا معه، أن يتركوا شحنة كافية لحماية المدينة، والعودة إلى الجيش، وذلك إذا تم رفع الحصار عن المدينة، وتوفر مدخل حر إليها، وكانت أوامر مشابهة قد أرسلت إلى تانكرد، فعاد من كليكية بعدما بسط نفوذه على المنطقة بأكملها، كما كان قد عاد بقية القادة بالذين كانوا قد تفرقوا باتجاهات مختلفة، وحسبما أملت اهتماماتهم الخاصة، باستثناء بلدوين أخو الدوق، الذي كانت قوته تتزايد شيئاً شيئاً في المنطقة المجاورة للرها، وتعظم يوماً بعد يوم بإرادة الرب، ومهما يكن من أمر تمت إعادة جميع فرق الجيش المتنوعة،

وكانت قوة الحشد سليمة من جديد، وأذيع مرسوم عام أعلن على الجميع خطرّ على أي فرد التجرؤ بالإنفصال منذ الآن فصاعداً عن قوام الجيش ما لم يؤمر بذلك.

ثم قاموا إثرَ هذا بإزالة المعسكر، ووجهوا خط الزحف نحو أنطاكية، مستفيدين من الطريق الأقصر، وكان في منتصف الطريق نهر مقام عليه جسر، قيل إنه محصن تحصيناً قوياً جداً، وتم إرسال روبرت كونت نورماندي مع فرقته طليعة لاستكشاف الطريق، وللحيلولة دون إمكانية وجود أي عائق في هذه المرحلة، وكان عليه أن يعلم الفيالق المتقدمة على أثره باحتمالات قيام أي عائق، وأن يعطي الرؤساء معلومات محددة عن ذلك، وكان يترأس هذه الفرقة برايات منشورة وكرؤساء للكتائب كل من افرارد دي بوزيت Evrard Du Puiset وروجر دي بارنفيل Roger de Barneville، وكلاهما نبيلان لامعان متمرسان باستخدام السلاح.

وبناء عليه وصل الدوق وكتائبه بعد الإنفصال عن الجيش الرئيسي إلى الجسر المذكور آنفاً، وذلك قبل وصول الجيش الرئيسي، وكان هذا الجسر عبارة عن كتلة بناء حجري عملاق، قام لدى كل نهاية من نهايتيه برج جيد التحصين من طراز البناء ذاته، أي كالجسر نفسه، وتمركز في هذين البرجين مائة محارب شجاع وقوي، كلهم ماهر برمي النشاب وجميعهم ذوو خبرة ومدربون تدريباً جيداً على استخدام القسي، وكان واجبهم هو حراسة البرجين، ومنع أي امرىء من الإقتراب بوساطة مخاضات النهر، أضف إلى هذا أنه كان قد وصل إلى هنالك سبعمائة فارس من أنطاكية، وكان هؤلاء قد اتخذوا موقعاً لهم على الضفة الأخرى من النهر، وكانوا قد استولوا على المخاضات لمنع قواتنا من العبور.

يسمى النهر الذي يمتد الجسر فوقه باسم نهر العاصي، ويعرف بلغة الناس المتداولة باسم النهر البعيد، ويجري من هذا الجسر ماراً بأنطاكية، ثم ينحدر نحو البحر، ولذلك يتخيل بعض الناس أنه نهر فرفر الدمشقي، وتحققنا بشكل أكيد لا ريب فيه أن الذين يدلون بهذه الآراء هم مخطئون، ذلك أن منابع نهري فرفر والبانة في جبال لبنان، وبعد أن يجريا عبر الريف في جوار دمشق يمران بالمدينة نفسها ومنها يسرعان نحو الشرق، حيث من المعتقد أنهما يضيعان في رمال الصحراء، وعلى العكس من ذلك، إن منابع العاصي واقعة في أحواز هيليوبولس، والمسماة أيضاً باسم ملبك (بعلبك)، حيث يجري من هناك ماراً بشيزر فأنطاكية، ثم يصب في البحر المتوسط [1].

(١) عكست هنا وفي أماكن أخرى معرفة وليم الأشد وثوقاً وسعة حول جغرافية الأرض المقدسة، فهو لا يستخدم الصيغة القديمة بعلبك على الرغم من أنه يشير في وقت لاحق (الكتاب ٢١ ـ الفصل ٦) إلى بعلبث على أنه الإسم العربي للمدينة.

وعندما وصل كونت نورماندي إلى الجسر، حال حراس البرجين المتمركزون على الجسر مع المدافعين المتمركزين على الضفة المقابلة للنهر، حالوا بينه وبين عبور الجسر، وكانت النتيجة وقوع صدام حاد جداً، حيث كان شعبنا يحاول إيجاد ممر له، بينما كان العدو يفعل ما بوسعه، بإرسال وابل من النشاب، للحيلولة دون قيام هذا الممر، ولإبقاء شعبنا بعيداً عن المخاضات.

وكان الجيش الرئيسي يتقدم، بينما كان الطرفان يجهدان قواهما إلى أقصى الحدود، وحث أفراد الفيالق الخطا لتقديم العون لرفاقهم المناضلين، وذلك عندما غدا معروفاً أن الكونت والطلائع قد أعاقهم القتال عند الجسر، وقد أملوا في طرد العدو كي يفتحوا الطريق، حتى يتمكن الجيش من العبور بدون تأخير.

وحالما وصلت جميع الفيالق أعطى صوت النفير والمنادى الإشارة إيذاناً لأخذ السلاح، وزحف الجميع بكامل قوتهم، فسيطروا على الجسر بالقوة، وجعلوا العدو يلوذ بالفرار، وحدث أن الذين لم يتمكنوا من إيجاد مكان للقتال عند الجسر، وجدوا من المهانة الوقوف عاطلين كالمتفرجين، فاكتشفوا المخاضة، وهكذا عبروا إلى الناحية الثانية وطردوا العدو من هناك، واستولوا على الضفة الأخرى بدون مقاومة، وعندما أكمل سائر الجيش عبوره مع العربات والآليات ومختلف أنواع الأمتعة، خيم وسط مراع خضر مترامية الأطراف، وعلى بعد خمسة أميال أو ستة من المدينة تقريباً، وفي اليوم التالي استأنف الزحف على طول الطريق السلطاني العام بين الجبال والنهر، ثم خيم من جديد على بعد ميل واحد من أسوار المدينة، في هذه المرة.

٩ ـ وصف مدينة أنطاكية وبيان منزلتها.

مدينة انطاكية مدينة لامعة مجيدة، نُسب إليها مكان السمو الثالث، ولربما الثاني (حيث هنالك الكثير من الجدل حول هذه المسألة) بعد مدينة روما مباشرة، وهي تتصدر بلاد الشرق بأسرها، وتعتبر حاكمة لها، وكانت هذه المدينة تسمى ربلاتا Reblata، وذلك في الأزمان السحيقة، وإليها هنا أحضر صدقيا ملك يهوذا مع ابنيه للمثول أمام نبوخذ نصر ملك بابل، حيث تم قتل ابني صدقيا بأمر من نبوخذ نصر، أمام والدهما، ثم سمل صدقياً نفسه، وبعد وفاة الإسكندر المقدوني خلفه أنطوخيوس حاكماً لجزء من المنطقة، وقد أدار حول هذه المدينة سوراً عالياً جداً وأبراجاً، وأعاد المدينة إلى حالة أفضل، وأمر أن تدعى أنطاكية اشتقاقاً من اسمه نفسه، ثم جعلها عاصمة لمملكته، وخصها أن تكون المقر الملكي الدائم له ولأتباعه، وفي هذه المدينة أقام أمير الحواريين كرسيه المقدس، وكان أول من شغل

منصب الأسقف هناك، لأن ثيوفلوس المبجل، الذي كان مواطناً صاحب نفوذ كبير في أنطاكية قد كرس كنيسة في بيته الخاص، وكان لوقا وهو من أهل أنطاكية أيضاً، قد كتب من أجل ثيوفلوس هذا، كلاً من الإنجيل الذي كتبه وكتاب «أعمال الرسل»، وكان لوقا هو الذي خلف فيما بعد بطرس المبارك في تلك الكنيسة نفسها، بمثابة الأسقف السابع لها في قائمة الأساقفة.

في هذه المدينة عقد المجمع الأول للمؤمنين، وهنا اختير اسم المسيحيين لهم، حيث كان المؤمنون الذين تبعوا تعاليم المسيح يسمون نصارى، قبل ذلك الحين، وحمل جميع المؤمنين - بعد ذلك بقرار ذلك المجمع الكنسي - اسم المسيحيين اشتقاقاً من اسم المسيح، واستقبلت هذه المدينة تبشير الحواري طوعاً وبتلهف، وتحولت إلى العقيدة المسيحية كتلة واحدة، وكانت أول من اعتنق التبشير بالإسم الذي كالبلسم النفيس، ينشر أريجه في كل مكان، وهكذا خصص لها اسم جديد، وباتت تعرف باسم ثيوبولس، وبناء عليه، إن المدينة التي حملت من قبل اسم الرجل الشرير والعاق، قد تلقت مكافأة جديرة بها من الرب، وقد عرفت فيما بعد أنها بيت الرب ومدينته التي استدعاها للعقيدة، لأن هذه المدينة سيدة الآثام سابقاً، التي بسطت سيطرتها على مناطق كثيرة خضعت لها، قد احتفظت بسلطانها في وقت لاحق، عندما باتت تحيا حياة مستقيمة في طريق الرب، وذلك بوساطة رجال الكنيسة، حيث يقال إن بطريرك حبيبة الرب تحت سلطانه عشرون مقاطعة، أربع عشرة منها لها مطارنتها ورجال لاهوتها المختصين بها، أما الست الباقيات فهي تحت إشراف إثنين من كبار رجال الدين، يعرفان عادة باسم جاثليق، ويخص أحدهما آني Ani [عانه] بينما يخص الثاني هيرنوبولس Hirinopolis أو بغداد، ولكل واحد منها رجال لاهوت يساعدونه، وتدرج هذه المقاطعات جميعاً تحت اسم واحد هو الشرق، كما هو واضح من تقرير مجمع القسطنطينية الكنسي، فقد جاء فيه: «فليهتم أساقفة الشرق بالشرق فقط، ولتحتفظ كنيسة أنطاكية بشرف الأولوية، كما هو مدرج في قوانين مجمع نيقية الكنسي»[1].

١٠ - وصف للمنطقة التي تقوم فيها، ووصف لموقعها أيضاً.

تقع مدينة أنطاكية بشكل أكثر بهجة، وعلى نحو أكثر إفادة في سورية المجوفة التي هي جزء من سورية الكبرى، فهي تمتد على طول واد ذي جمال فريد، وتربة خصبة وحقول غنية تتم سقايتها جميعاً بشكل جيد، تقريباً بواسطة الروافد والجداول، ويقع هذا الوادي

(١) القانون رقم ٧ الصادر عن مجمع نيقيه والقانون رقم ٢ الصادر عن مجمع القسطنطينية (ج. د. مانس مجموعة بيانات المجامع المقدسة ج٢ كتلة ٦٧٢ وج٣ كتلة ٥٦٠).

وسط الجبال التي تنحدر نحو الغرب، ويبلغ طوله أربعين ميلاً تقريباً، بينما يتراوح عرضه بين أربعة أميال إلى ستة، متفاوتاً حسب الموقع، كما توجد بحيرة في الجزء العلوي تتشكل من تدفق الينابيع المتاخمة المتجمعة هنا مع بعضها، وهي تعج بالسمك، وهنالك نهر على بعد ميل واحد منها يجري خلال الوادي ماراً بالمدينة إلى البحر، كما ينبثق من البحيرة جدول صغير أيضاً، ويتصل حالياً مع هذا النهر نفسه في الجزء السفلي قرب المدينة.

هذا وتفيض الجبال التي تحيط بأنطاكية بالمياه الصافية والعذبة على الرغم من ارتفاعها الشاهق، كما أن سفوحها صعوداً حتى القمم معدة إعداداً جيداً بشكل خاص للزراعة، ويسمى الجبل الواقع إلى الجنوب باسم جبل الأرنط (العاصي) كما يسمى بهذا الإسم النهر الذي يجري ماراً بالمدينة أيضاً، وذلك حسبما يقول جيروم Jerome فقد ذكر أن مدينة أنطاكية تقع بين نهر الأرنط وبين الجبل الذي يحمل الاسم نفسه، ويساير جزء من هذا الجبل شاطىء البحر في حين ترتفع ذراه إلى علو كبير، وهو مميز بتسمية خاصة، حيث يعرف بشكل عام باسم جبل الأعمدة، وتعتقد بعض المصادر أن هذا هو جبل بارناسوس Parnassus المكرس لباخوس وأبولو، ويبدو أن هذا تدعمه حقيقة وجود ينبوع «دفني» بالقرب منه هنالك، حيث يعدّ بعضهم هذا الينبوع ينبوع كاستليون Castalion للأساطير القديمة، الذي كان مكرساً للموسيين Muses وبجّل من قبل مدارس الفلاسفة، وقد قيل إنه ينبع عندما يُسمّى «درج بوهيموند» بالقرب من المدينة، عند قاعدة جبل الأرنط، بيد أن هذه الفكرة فكرة خاطئة، حيث من المؤكد أن قمه بارناسوس تقع في بواتيا Boeotia التي هي جزء من ثيسالي Thessaly، وقد وصفها أوفيد Ovid كما يلي في الباب الأول من ديوانه ميتامورفوسيس Metamorphoses: «تفصل أراضي فوسس Phocis حقول بواتيا عن حقول أتيكا Attica، وقد كانت أرضاً خصبة عندما كانت جافة، غير أنه تدفق فجأة في ذلك الحين جزء من البحر وكميات هائلة من المياه نحو الأمام، وهنالك جبل شامخ يتسامى إلى السماء بذروته المزدوجة المسماه بارناسوس، حيث ترتفع قمتاها فوق الغيوم»[1].

هذا ويدعو سولينوس هذه القمة باسم قمة جبل كاسيوس Cassius وذلك في الفصل الواحد والأربعين من كتابه مختلف التواريخ Polyhistor [2]، وكان ما كتبه عنها كما يلي: «تقع قمة جبل كاسيوس بالقرب من أنطاكية ملاصقة لسلوقية، ويمكن رؤية قرص الشمس من أعلاها، وذلك مع الربع الرابع من الليل، ويمكن للمرء بالاستدارة قليلاً أن يرى الليل على هذا الجانب والنهار على ذلك الجانب، وذلك عندما يبدد النور الظلام».

---

(١) Ovid Meta, 1, 3/3 - 317.

(٢) Solinus polyhistor XXXVI (ed Mommsen).

وحتى لا تختلط الأمور على القارىء بوجود كلمة سلوقية الغامضة، ينبغي إعلامه أن هنالك مدينتين تحملان هذا الاسم، أولها هي عاصمة إيزوريا Isouria ، وهي تقع على مسافة أكثر من خمسة أيام من أنطاكية، وثانيها متاخمة لتلك المدينة، وعلى بعد عشرة أميال تقريباً منها، وتقع بالقرب من مصب نهر العاصي، وتسمى المدينة الثانية هذه الآن باسم ميناء القديس سمعان (السويدية)، ويقال إنه وجد فيما مضى حيث الينبوع المذكور آنفاً باسم نبع دفنى أو نبع كاستليان، وجد معبد كان مكرساً لأبولو حيث كانت الأمم ميالة في اعتقاداتها الخرافية إلى اللجوء إليه لاستشارة الهواتف في المسائل المحيرة، وكان يوليان المرتد قد مكث بالقرب من أنطاكية فترة من الزمن وذلك بعد أن انحرف بعيداً عن المسيح وعن تعاليم الدين الحق، وكان على وشك أن يشن الحرب ضد الفرس، كما أنه اعتاد مراراً على القدوم إلى هذا المعبد لاستشارة أبولو بخصوص وجهته، ويذكر ثيودورتوس Theodoritus هذه الحقيقة في الفصل الواحد والثلاثين من كتابه «تاريخ التثليث» بقوله: «عندما بحث يوليان عن إجابة من المعبد البيثياني في دفني بخصوص النجاح المحتمل لحربه مع الفرثيين، وبخه الكاهن لأن جثة الشهيد بيبيلاس Babylas كانت مدفونة بجواره، ولذلك أمر يوليان بإزالة القبر»[١].

وجرى أيضاً ذكر هذه الحادثة نفسها بتفصيل أكثر في الباب العاشر من كتاب تاريخ الكنيسة[٢]، حيث أعطى يوليان أيضاً دليلاً آخر على حماقته وطيشه وذلك عند استعطاف أبولو في غابة دفنى الواقعة على مقربة من نبع كاستليان في ضواحي أنطاكية، وعندما لم يستطع الحصول على إجابة عن سؤاله، استفسر عما عناه الصمت، فأجابه عندها الكهنة إن قبر الشهيد بيبيلاس كان قريباً، لذلك تعذر تقديم أية إجابة إليه».

وعلى الرغم من أن هذا النبع معروف باسم نبع كاستليان، يجب عدم مزجه مع نبع كاستليان آخر مسمى أيضاً باسم نبع بيغاسوس Pegasus أو نبع هبوكرين Hippocrene وأغانيبي Aganippe ، ويقع هذا الأخير في بواتيا، وذلك تبعاً لما ذكره سولنوس[٣] الذي كتب ما نصه: «يقع على مقربة من طيبه كل من قمة هيلكون Helicon وغابة سيثرون Cytheron ونهر اسمينوس Ismenus ، كما ويوجد هنا أيضاً ينبوعاً أريثوسا Arethusa وهبوديا

---

(١) Hist tripart. VI. 31.

(٢) روفنوس التاريخ: ٣٥/١ في نسخة ولم من التاريخ اللاهوتي جاء بعد الكتاب الأول من كتاب روفينوس تسع كتب كيوسيبيوس ولهذا يشير ولم إلى الكتاب العاشر.

(٣) Solinus Polyhistor VII (ed Mommisen)

Hypodea وينبوعاً سالماسي Salmace وديرسي Dirce ، لكن الأهم منها جميعاً نبعا أغانيبي وهبوكرين.

« وبما أن قدموس مخترع الحروف كان أول من وجد هذه الينابيع أثناء استكشافه للمنطقة بحثاً عن مكان يستقر به، فقد كانت مخيلة الشعراء المتوقدة منبعاً لأسطورتين هما: إن هذا النبع تفجر بفضل حافر الحصان المجنح، وبناء عليه إن الشرب منه كان ملهماً للآداب ».

وهنالك إلى الشمال من أنطاكية مرتفع يعرف عموماً باسم الجبل الأسود، ويزخر هذا الجبل بالينابيع، وتسقيه الروافد بشكل جيد، كما ويقدم العديد من الفوائد إلى سكان المنطقة، بفضل الغابات والمراعي الموجودة فيه، ويقال إنه قام العديد من الأديرة في هذه الأحواز في الأزمان الغابرة، وحتى الآن تقدّر عدة أماكن جليلة وتقدس ويعتني بها، لأنها مقر أولئك المكرسين لخدمة الرب.

ويجري النهر المذكور آنفاً عَبْرَ هـذا الـوادي في طريقه نحو البحر، كما أن المدينة مقامة على سفح الجبل الأقرب والأشد ميلاً نحو الجنوب بينه وبين النهر، ويبدأ السور من قمة المرتفع ويترامى على طول السفح إلى النهر، ويقع داخل محيطه منطقة واسعة جداً من السفح والسهل، حيث يمتد السهل من قاعدة الجبل إلى النهر، كما تقوم أيضاً ذروتان عاليتان جداً داخل السور، على القمة الأعلى بينهما قلعة أنطاكية، وهي مكان محصن تحصيناً قوياً، وتعتبر موقعاً منيعاً، ويفصل واد ضيق هاتين الهضبتين، يندفع خلاله سيل جبلي، وهذا السيل مصدر للعديد من الفوائد لأهالي المدينة في مروره خلال مركز المدينة، هذا وهنالك ينابيع أخرى عديدة في المدينة، أهمها النبع الشرقي أو نبع باب القديس بولس، كما تم جر مياه نبع دفني الذي يبعد ثلاثة أميال أو أربعة بشكل اصطناعي بوساطة قناة للماء، وتزود هذه القناة، في أوقات محددة، أماكن كثيرة ومختلفة وذلك بوساطة أداة بارعة.

وتحاط المدينة في المرتفعات والمنحدرات والسهل أيضاً بأسوار ذات بناء متين، وهي سميكة جداً وعالية بشكل متناسب، وترتفع فوق هذه الأسوار على مسافات منفصلة ومتساوية أبراج عديدة، مهيأة للدفاع بشكل جيد، ويجري النهر قريباً جداً من الأسوار والجبل بحيث أن الجسر الذي يجتازه يشكل استمراراً للسور وبابا للمدينة، وذلك في ناحية الغرب من الجزء السفلي، وحول القسم الأحدث من المدينة، وتذكر بعض المصادر أن امتداد المدينة يبلغ ميلين بالطول، وتقول مصادر أخرى ثلاثة أميال، وهي على بعد عشرة أميال أو إثني عشر ميلاً من البحر.

١١ - من الذي كان يحكم هذه المدينة، وكيف عندما سمع باقترابنا بادر أولاً إلى تحصين المدينة بقوة، ومن ثم حشد العساكر من البلدان المجاورة داخل أسوارها.

كان حاكم هذه المدينة رجلاً يعرف باسم أكسيانوس Acxianus [يغي - سيان] من الشعب التركي، وكان ينتسب إلى أسرة الحاكم القوي ملكشاه العظيم، سلطان فارس الذي كنا قد أشرنا إليه من قبل، وكان هذا السلطان قد سيطر بقوة السلاح على جميع هذه الأقاليم، وبعدما أخضع جميع الشعوب والقبائل رغب بالعودة إلى بلاده، وبناء عليه وزع أراضيه التي استولى عليها بين أبناء إخوته وأخواته وغلمانه اعتقاداً منه أن ذكرى محاسنه وفضائله العديدة ستجعلهم مخلصين له على الدوام، وتم في هذا التوزيع منح نيقية مع أقاليمها المجاورة لها إلى قلج أرسلان حسبما ذكرنا من قبل، كما منحت مدينة دمشق مع البلدان التابعة لها إلى ابن أخ له آخر اسمه دُقاق[١].

ومنح ملك - شاه هذين السيدين منصب السلطنة ولقب سلطان، فقد منحه قلج أرسلان لأنه كان في حرب مستمرة مع امبراطورية القسطنطينية، حيث قامت مملكته على حدود بلاد الإغريق، ومنحه دُقاقاً بسبب النزاع المستمر والصراع العنيد مع المصريين، حيث نظر ملك - شاه إلى قوتهم الهائلة وإلى ازديادها بارتياب كبير.

كما استلم مدينة حلب المشهورة[٢] جداً واحد من غلماء السلطان كان يدعى آق سنقر، وهو والد زنكي وجد نور الدين، ومنح ملكشاه بسخاء مماثل مدينة أنطاكية إلى يغي سيان هذا الذي نحن بصدده، ومنحه منطقة محدودة لأن خليفة مصر قد احتفظ بسائر المناطق وصولاً حتى اللاذقية السورية.

وعندما علم يغي سيان أن جيشاً ضخماً بإمرة قادة مسيحيين كان قادماً، بعث برسائل متوالية مكتوبة وشفوية إلى جميع أمراء الشرق إطلاقاً يلتمس العون والمساعدة، والتمس قبل كل شيء مساعدة خليفة بغداد، ومساعدة سلطان بلاد فارس المتألق، حيث كان أقوى من البقية، ولم يكن من الصعب على يغي سيان إقناعهم بخططه، بل كان ذلك مهمة سهلة

---

(١) يظهر ارتياب وليم عن السلاجقة الأوائل من جديد. وكان قلج أرسلان ابن عم ملكشاه وليس ابن أخيه، بينما كان دقاق ابن أخيه وحكم دمشق من ١٠٩٥ - ١١٠٤ هذا ولم يمنح ملكشاه دقاق بن تتش أو سواه حكم دمشق. انظر مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية: ٢٣٣.

(٢) حكم رضوان أخو دقاق حلب من ١٠٩٥ إلى ١١١٣ وكان آق سنقر قسيم الدولة أول ولاة السلاجقة على حلب وقد قتل من قبل تتش أثناء الصراع على السلطنة بعد وفاة ملكشاه. أما تاريخ الأسرة الأتابكية فقد ارتبط بعماد الدين زنكي الذي ولي الموصل ثم مدّ سلطانه إلى مدينة حلب ومن ثم سعى إلى الاستيلاء على بقية أجزاء بلاد الشام.

وسريعة، ذلك أن هؤلاء الحكام كانوا قد وصلتهم أخبار تتعلق بقدومنا منذ وقت طويل، وكان قلج أرسلان الذي عانى من المواجهة الحقيقية عرف كشاهد عيان كم كانت أعداد هذه الجيوش المسيحية ضخمة، وكم كانت بسالتهم لا تقهر، كان هو الذي أعطى ـ الحكام ـ وصفاً دقيقاً لهذه القوات.

وهكذا التمس هذان السلطانان المساعدة بتوسلات جدية، وبدموع غزيرة، حتي يمكن لأولها الإنتقام للمظالم التي نزلت به، ويمكن للثاني جعل بلده آمناً من غزوات المسيحيين، وحتى يدافع في الوقت نفسه عن ذاته ضد مخاطر عنفهم، ووعده الحكام بالقوات والمساعدة التي طلبها، ونفذوا وعدهم فيما بعد بإخلاص، كما أظهرت النتائج.

وقام في هذه الأثناء يغي سيان ـ الذي كان قلقاً للغاية إزاء قدوم المسيحيين ـ بتجنيد العساكر، وجمع الجند بجد واجتهاد من الأقاليم والمدن المجاورة، وجمع ـ بترقب يومي لحصار ما ـ مؤن الطعام والأسلحة، وشجع سكان المدينة بحماسة متقدة لجلب مواد تصنيع الآلات الحربية المتنوعة من حديد وفولاذ وجميع المواد الأخري المفيدة بالعادة في مثل هذه الأوقات، وبما أن الرغبة القوية من أجل سلامة المدينة والمصلحة العامة ألهبت أهالي المدينة، فقد كافحوا بجد واجتهاد حتى لا ينقصهم شيء يكون مفيداً لهم أثناء الحصار، وبناء عليه طافوا بالمنطقة المجاورة بأسرها، وسلبوا الريف المحيط، وعادوا منه ومعهم الحبوب والخمر والزيت وجميع مستلزمات الحياة الأخرى، وساقوا القطعان والمواشي، وأترعوا المدينة بكل سلعة ضرورية، وهكذا حصنوا موقعهم بحكمة عظيمة وبعمل كبير ضد مخاطر الجيش المتقدم.

وقدم إلى ها هنا العديد من الرجال الأقوياء والنبلاء فراراً أمام تقدم جندنا، وذلك من أنحاء المناطق التي مرّ الجيش المسيحي خلالها، وذهبوا إلى أنطاكية، وأملهم الوحيد تحقيق السلامة، وقد قدموا دون انتظار استدعاء من أحد، حيث بدا أن تحصيناتها وقوتها لا تقهر، وازداد تعداد سكان المدينة كثيراً بهؤلاء اللاجئين، فقد قيل إنه وجد فيها ستة آلاف ـ أو سبعةآلاف ـ من الفرسان، وأكثر من خمسة عشر ألفاً، أو عشرين ألفاً تقريباً من الرجّالة المسلحين للقتال، بما في ذلك كل من سكان المدينة والقوات الاحتياطية المجموعة.

١٢ ـ مداولات بين قادتنا وتقدم الجيش نحو المدينة.

عندما رأى شعبنا أنه كان يقترب من مدينة أنطاكية، اجتمع للتداول حول المهمة الموضوعة أمامه، وبما أن فصل الشتاء بات وشيكاً، فقدأشار بعض القادة بتأجيل الحصار حتى مطلع فصل الربيع، وعللوا ذلك بقولهم إنه سيكون من الصعب جمع الجيش ثانية قبل ذلك

الوقت، حيث سيكون موزعاً آنذاك في عدة مدن وحصون، زد على ذلك، قولهم إن امبراطور القسطنطينية قد عقد العزم على ارسال فرقة كبيرة من الجند لمساعدتهم، وكان هنالك جيش قادم من البلاد الواقعة فيما وراء جبال الألب، وقالوا إنه سيكون من المستحسن انتظار وصول كل من هذين الجيشين، ذلك أن الهدف المنشود سيتحقق بسهولة أكبر بوساطة الأعداد المتزايدة كثيراً، ومن الممكن تقسيم القوات خلال فترة السكون، وإرسالها على شكل كتائب منفصلة لقضاء فصل الشتاء في المناطق الأقل جفافاً، ثم يمكن جمع شمل الجيش عند عودة فصل الربيع، وذلك بعدما يكون قد تعافى وانتعش جسدياً من أجل العمل الماثل أمامه، كما ستتحسن أحوال الخيول باستراحة الشتاء والتغذية.

هذا، وشعر بالمقابل آخرون أنه من الأعقل محاصرة المدينة على الفور، بحركة مفاجئة، حيث أنه إذا توفرت فترة فاصلة وتأخير، فسيكون لدى سكان المدينة وقت اضافي لتقوية دفاعاتهم، وجمع القوات الكبيرة التي دعيت إلى مساعدتهم، وفاز في هذا المؤتمر الهام رأي الجانب الذي أكد أن الحصار ينبغي أن يباشر على الفور، وأن الإرجاء كان عملاً خطيراً، وعدم توزيع القوات الخاصة بالحملة وفصلها، وتقرر أخيراً بالإجماع الزحف على المدينة والشروع بعمليات الحصار فوراً.

وبناء عليه، هدموا معسكرهم في الثامن عشر من شهر تشرين أول، وزحفوا إلى أنطاكية، وأقاموا أمام المدينة، وكان من المستحيل بالنسبة للعساكر تطويق المدينة بأكملها، وذلك على الرغم من أن عدد القوات المسيحية التي كان بإمكانها استخدام السيف بلغ - كما قيل - ثلاثمائة ألف محارب إضافة إلى النسوة والأطفال، ومرد عدم القدرة على التطويق أنه بالإضافة إلى الهضاب الواقعة - كما سبق وذكرنا - داخل محيط الأسوار، والتي لم تقم أية محاولة لتطويقها، لم يكن من الممكن تطويق ذلك الجزء من المدينة الذي امتد من قاعدة الجبل إلى النهر على أرض أكثر استواء، بخط حصار كامل مستمر.

ورافق وصولَ الجيش المسيحي وأعمال إقامة المعسكر الكثيرُ من الضجة، فقد بدا وكأن دوي الأبواق، وصهيل الخيول، وارتطام الأسلحة المختلط مع صيحات الرجال، يرتفع إلى السماوات ذاتها، ومع ذلك ساد صمت تام داخل المدينة طوال ذلك اليوم، ثم لمدة عدة أيام تلت وصول جيشنا، ولم يسمع فيها صوت ولا ضجة من أي نوع، إلى حد أمكن الاعتقاد بشكل معقول أنها كانت فارغة من المدافعين عنها، على الرغم من أنها كانت محمية حماية جيدة بأعداد كبيرة من المدافعين، وكانت مزودة بالمؤن تزويداً وافراً.

١٣ ـ القادة يتمركزون في مواقع استراتيجية حول أنطاكية ومحاصرة المدينة. الرعب يستبد بسكان المدينة.

كان في القسم الواقع في السهل من مدينة أنطاكية، خمسة أبواب، وقد قام في القسم العلوي في الشرق، الباب الذي يسمى الآن باب القديس بولس، ومرد هذه التسمية إلى حقيقة وجود دير مبني على سفح الهضبة الموجود فوق الباب، وهذا الدير مكرس إلى الحواري الحامل لهذا الاسم، وقام الباب الثاني: أو الباب الشرقي مقابل هذا الباب مباشره ويفصله عنه طول المدينة بالكامل، ويحمل هذا الباب حالياً اسم باب القديس جورج، لأنه يقع بالقرب من كاتدرائية ذلك الشهيد، وتقع ثلاثة أبواب في الناحية الشمالية وجميعها مفتوحة نحو النهر، ويعرف الباب العلوي بينها باسم باب الكلب، ويقع أمام هذا الباب مباشرة جسر يمتد عبر المستنقع، وهو متصل مع السور، ويدعى الباب الثاني من هذه الأبواب باسم باب الدوق، ويبعد هذان البابان حوالي الميل عن النهر، أما الباب الثالث فهو باب الجسر، ويدعى بهذا الاسم لأن الجسر الذي يتم عبور النهر بوساطته يقع هنا، ذلك أنه بين باب الدوق المشار إليه آنفاً، والذي يقع في المنتصف، والباب الأخير الواقع على ذلك الجانب، تصل مياه النهر إلى الأسوار بشكل فعلي ولا تتراجع عن المدينة.

ولما كان من المحال بالنسبة للجيش الاقتراب من هذا الباب، أو باب القديس جورج دون عبور النهر، فقد تركا دون حصار، وتم تطويق الأبواب الثلاثة العليا، حيث حاصر بوهيموند الباب الأعلى ومعه الذين كانوا قد اتبعوه وكانوا ضمن معسكره منذ البداية، وقامت حوله في الجزء السفلي الأكثر انخفاضاً معسكرات كل من روبرت النورماندي، وروبرت كونت فلاندرز وستيفن كونت بليوس، وهيو الكبير، وواصل هؤلاء القادة الحصار مع جندهم النورمانديين والفرنج والبريتانيين، امتداداً من معسكر بوهيموند وحتى باب الكلب، وأقام حول هذا الباب كل من ريموند كونت طولوز وأسقف بوي، ونبلاء آخرون كانوا قد اتبعوا قيادتها بجيش ضخم من غاسكون Gascon، وبروفنسال وبرغنديا، وشغل هذا المعسكر المكان بأسره وصولاً حتى الباب التالي، وكان الدوق غودفري قد نصب معسكره عند الموقع الأخير هذا، وكان معه أخوه يوستاس، وبلدوين أوف هينولت Hainault، ورينارد أوف تول وكونون دي مونتاغيو، وكونتات ومحاربون ذوو شهرة كبيرة، وذلك بالإضافة إلى نبلاء آخرين كانوا قد التحقوا بمعسكره منذ البداية، حيث احتلوا مع جنودهم اللوثرنجيين Lotharingians والفريزيين Frisians والسوابيين Swabians والساكسون والفرنج والبافاريين احتلوا بقية الموقع بأكمله، وصولاً حتى باب الجسر، ووضعت هذه القوات في

موقع كان على شكل مثلث بين المدينة والنهر الذي وصلت مياهه إلى أسوارها مع معسكرات القادة الآخرين وقامت البساتين في هذه المنطقة المجاورة، وقد قطعها جيشنا عن بكرة أبيها، وصنع من المادة التي حصل عليها سواتر تحميهم مع خيولهم.

وراقب أهاليْ المدينة المعسكر من خلال الفتحات الموجودة في الأبراج والأسوار، واستولت عليهم الدهشة من لمعان الأسلحة وتعجبوا من الإجتهاد والمثابرة اللتين تمت مواصلة العمل بها، كما دهشوا لطريقة إيواء الناس وإقامة المعسكر، فقد ملأت أعداد وقوة الحشود الضخمة قلوبهم بالخشية، وامتلأت نفوسهم بالرعب خوفاً على أزواجهم وأطفالهم ومنازلهم الموروثة عن آبائهم، وخوفاً على الحرية نفسها التي تعتبر أثمن ممتلكات الجنس البشري، وحدث هذا عندما قارنوا الوقت الحالي بالزمن الماضي، ووضعهم الحالي الخطر مع وضعهم الهادىء سابقاً، ولقد اعتبروا الذين أخذهم الموت الصديق وانتزعهم من غمرة هذه المخاطر، اعتبروهم محظوظين بالفعل، حيث لم يعودوا معرضين للوقوع في مخاطر قاهرة مثل هذه الكوارث.

وهكذا انتظروا من يوم إلى آخر، في ترقب وقلق، الاستيلاء على مدينتهم، وإبادة شعبهم حيث اعتبروا يقيناً أن حصاراً بهذه الأهمية، متواصل بقوة متقدة كهذه، لن ينتهي دون أن يستدعي الأمر تدمير المدينة وفقدانها لحريتها.

١٤ ـ المسيحيون يبنون جسراً خشبياً فوق النهر بحيث يمكنهم الانطلاق بحرية أكبر في حملات النهب. سكان المدينة يشنون هجمات مفاجئة على معسكر كونت طولوز عبر الباب الأقرب.

اضطر الناس في المعسكر إلى القيام برحلات متكررة عبر النهر، وغالباً ما غامروا إلى مسافة بعيدة جداً، وذلك بغية تدبير العلف إلى خيولهم وذلك مع المؤن الضرورية لأنفسهم، وعادوا من هذه الحملات سالمين ومعافين المرة تلو الأخرى، لأن سكان المدينة كانوا ما يزالون داخل المدينة لم يملكوا بعد الجرأة على التجول خارجها، واعتاد الجند بالتدريج على عبور النهر عدة مرات في اليوم، على الرغم من أن هذا العمل لازمته مشقة كبيرة حيث لم يكن عبوره ممكناً إلاّ سباحة فقط، ولأن الخوض في الجدول كان متعذراً، وأصبح المحاصرون على الفور مدركين لهذه العادة، وبدأوا يعبرون الجسر بشكل علني أحياناً وخلسة في غالب الأحيان، وبالمحصلة، غالباً ما قتلوا أو جرحوا العديد من شعبنا، حيث اعتاد شعبنا هذا على التطواف بقلة حذر على شكل رمز متفرقه بحثاً عما أرادوه، وحقق العدو فائدة خاصة من

حقيقة أن عائق النهر جعل رحلة العودة صعبة جداً بالنسبة للمسيحيين، وجعل هذا السبب ذاته من الصعب على أولئك الموجودين في المعسكر أن يمدوا يدّ العون، عندما رأوا أصدقاءهم يعاملون بقسوة، وعلى مرأى منهم، ولتفادي هذه الحالة، فقد رأى القادة أنه من المستحسن إقامة جسر من أي مادة كانت متوفرة، حيث كان هذا سيساعدهم على التصدي لخدع العدو بسهولة أكثر، وسيمكن الجند من العودة إلى المعسكر بعناء أقل، وعلاوة على ذلك، فسيزود بطريق مناسب وآمن للمشاة عندما يتم استدعاؤها لمهات ضرورية، وخاصة إلى الساحل.

ووجد عدد من القوارب على النهر والبحيرة، فربطت بقوة ببعضها بعضاً، ووضعت فوقها ألواح الأخشاب والمواد الخشبية الأخرى المناسبة لهذا الغرض، وهكذا تم تأمين جسر متين كان كبيراً بشكل كاف لاستيعاب عدة أشخاص يعبرون جنباً إلى جنب في وقت واحد، وكان هذا البناء الخشبي ذا فائدة عظيمة لشعبنا، وأقيم بالقرب من معسكر الدوق، في مقابلة الباب الذي كان قد عين لحراسته، على بعد ميل واحد تقريباً من الجسر الحجري الذي كان متاخماً للمدينة، هذا وإن الباب الذي ذكرت منذ لحظات لا يزال يدعى باسم باب الدوق لعلاقته به، فقد شغل معسكره كامل المكان الواقع بين هذا الباب والجسر المقام لتوه وذلك بدون انقطاع.

ولم يهدد الخطر المسيحيين الموجودين عند هذا الجسر وقرب الباب المرتبط به فحسب، بل تعرض جندنا للعديد من الأخطار من الباب العلوي أيضاً، الذي كان الباب الثالث الواقع بعده، والمعروف اليوم باسم باب الكلب، وحسبما عرضنا ذلك من قبل، قام هنا جسر حجري امتد فوق مستنقع ينتشر من المدينة، وهو متشكل من الفيضان الدائم للنبع الموجود عند الباب الشرقي، أو باب القديس بولس، وذلك بالإضافة إلى التدفق المستمر لمياه الجداول، وقد شنت عبر هذا الجسر هجمات ليلية متكررة وانقضاضات نهارية مفاجئة على معسكر كونت طولوز، ذلك أنه كان قد عُين لحراسة ذلك الباب، وقد اعتاد العدو فتح الباب على مصراعيه، وقذف وابل مفاجىء من السهام مثل البرد على قواتنا، وكانت نتيجة هذه الأعمال مقتل العديد من رجال الكونت أو جرحهم وقد اعتمد العدو كثيراً على هذا النوع من الهجمات، حيث كان بإمكانه الفرار بأمان فوق الجسر إلى داخل المدينة بعد انجاز الهجوم واقتراف أعمال القتل، ولأن المسيحيين لم يكن باستطاعتهم مطاردتهم إلاّ بالطريق ذاته، ولهذا السبب خسر كونت طولوز وأسقف بوي والنبلاء الآخرين الذين وضعوا في المنطقة المجاورة الكثير من البغال والخيول أكثر مما خسرته فيالق القاده الآخرين.

١٥ ـ الكونت يحاول استخدام أساليب متنوعة ضدهم. أخيراً تم اغلاق الباب بتكديس كتل من الصخور في مواجهته.

لقد أحدثت الخسائر التي لحقت بصفوف المقاتلين التي سببها هذا الوضع الكثير من الكرب للكونت والأسقف المبجل، ولذلك جمعا شعبيهما، ووجها الأوامر إليه بالحصول على الأزاميل والأدوات الحديدية للقيام بجهد منظم لتدمير الجسر، واحتشد الفرسان المدرعون المحميون بالخوذ، والترسة، احتشدوا على الجسر في اليوم المحدد، وحاولوا تدميره بكل قواهم، غير أن البناء المتين والأقسى من أي نوع من أنواع الحديد قد أبدى مقاومة فعالة، وأعاق سكان المدينة محاولاتهم بقذفهم بالمقذوفات الحجرية وبوابل من النشاب، ولذلك تخلى المسيحيون عن المحاولة عندما لاحظوا أنهم كانوا يخفقون في إتمام المحاولة، وتبنوا خطة مختلفة، وقرروا أن ينشئوا آلة حرب مقابل الجسر، وأن يضعوا حراسة متواصلة في ذلك المكان من الرجال المسلحين الذين كان واجبهم صد الهجمات التي كان يشنها المُحاصرون، وهكذا جمعت المواد المناسبة ومن النوع المطلوب، واستدعي الحرفيون، وأنجز العمل بعناية وسرعة في جميع أجزائه، وخلال بضعة أيام، وسحبت آلة الحرب بكثير من الإجتهاد، بالإضافة إلى الخطر القائم على حياة العمال، المهم انها سحبت إلى موقعها، ونصبت كالبرج الشامخ أمام الجسر، ثم أوكل أمرها إلى رقابة الدوق اليقظة.

وعندما رأى سكان المدينة آلة الحرب هذه على مقربة من الأسوار، أسرعوا نحو مركز الخطر، وسددوا آلات حربهم القاذفة من جديد إليها، وحاولوا اضعافها بوابل مستمر من الحجارة الضخمة، وأطلق المتمركزوه على الأسوار النشاب أيضاً مع جميع أنواع الرمايات ضد الموجودين داخل آلة الحرب وحولها في محاولة جادة لإبعادهم عن الجسر.

وهكذا واصل المدافعون عن الأسوار الهجوم من كافة الجهات قاذفين وابلاً كثيفاً من السهام والصخور المرة تلو الأخرى أملاً في صد المسيحيين ولو لمسافة بسيطة، وفتح في غضون ذلك آخرون الباب على مصراعيه وانقضوا بهجوم عنيف، واستولوا على الجسر بالقوة، واندفعوا حاملين سيوفهم وشقوا طريقهم بقتال محكم إلى الآلة، فطردوا الذين كانوا قد عينوا لحمايتها، ثم أضرمت فيها النيران فتحولت بسرعة إلى رماد.

ولاحظ قادتنا الآن أنهم غير قادرين على احراز أي تقدم بهذا الاسلوب تجاه محنهم عند الجسر، ولذلك شيدوا في اليوم التالي ثلاث آلات حرب، وأملوا في أن ينجحوا باضعاف الأسوار والباب على الأقل، بقذف وابل مستمر من الرمايات من هذه الآلات، وليمنعوا سكان المدينة من الانقضاض بنية هجومية، وكانت النتيجة أنه لم يجرؤ أحد من

سكان المدينة على الظهور عبر الباب طالما استمرت الآلات بعملها القاذف، ومع ذلك فقد استأنف المحاصرون هجماتهم المألوفة عندما خفتت هذه الجهود، وسببوا الكثير من الاضطراب للموجودين في المعسكر الأقرب إليهم.

وعندما ثبت أن هذه الخطة كانت غير مجدية أيضاً، تبنى المسيحيون طريقة اقترحها أحد أفراد جماعتهم حيث دحرجت صخور وجذوع أشجار ضخمة، كانت ثقيلة جداً إلى درجة أنها تطلبت أكثر من مئة يد لتحريكها، ووضعت أمام الباب، وساعد ألف فارس مدرع بقوتهم في العمل، وتمت حماية الجيش بأسره، وجرى ترحيل المواد اللازمة إلى الجسر، وكُدّست ككتلة كبيرة أمام الباب، حيث أخفقت جميع محاولات سكان المدينة بإزالتها، وكبحت هذه الأساليب هجمات العدو عبر ذلك الباب، وتوقفت أعمال الانقضاض المباغتة.

١٦ ـ العدو يهاجم فرقاً كانت تطوف بحثاً عن الأعلاف. نشوب قتال عنيف. مقتل العديد من كلا الطرفين. موت بعضهم قتلاً بالسيف وغرق آخرين بالنهر.

حدث ذات يوم أن غادر فريق مؤلف من المشاة والفرسان من جيشنا بلغ تعداده حوالي الثلاثمائة شخص، غادر المعسكر إلى ما وراء الجسر للبحث عن العلف، وبدأ رجاله يتفرقون ـ حسب عادتهم ـ خلال الريف للبحث عن المؤن الضرورية، وكانت الحاجة الملحة للبحث عن المؤن قد دفعتهم لاتخاذ هذا العمل كممارسة مألوفة، وعادة متبعة، وكانوا قد عادوا حتى الآن سالمين من رحلاتهم المتكررة في البحث عن العلف، وحدث هذا حتى عندما كانوا محملين بوفرة بالمؤن الضرورية، وقد فقدوا نتيجة لهذا بالتدريج الحيطة والحذر المتوجب، حيث كان يتملكهم اعتقاد أنهم سيبقون محظوظين، وأنه لن يقع لهم أي حادث معاكس كما يحدث مراراً في المغازي الحربية.

ورأى أهل أنطاكية هذا الفريق من المدينة، فاندفعوا فجأة بأعداد كانت أكبر من مجموعه بكثير، فقد عبروا الجسر الحجري [١]، وركضوا بكل ما ملكوا من سرعة وانقضوا على المسيحيين الذين كانوا يتجولون دونما حذر متوجب، وهاجموهم على حين غرة، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وجعلوا الباقين يلوذون بالفرار.

هرب المسيحيون نحو جسر القوارب، بقصد بلوغ المعسكر، بيد أن الجسر كان مكتظاً في ذلك الحين بالذين كانوا قد وصلوا لتوّهم وهكذا حاول العديد منهم العبور عن

(١) يظهر أن هذا الفصل لم يوضع في موضعه الصحيح ـ وربما كان خطأ ارتكبه وليم نفسه في اختتامه السريع للعمل، وسيساعد على شرح عمل الصليبيين الموصوف في الفصل السابق، ويجب تغيير مواضع الفصلين ١٥ و١٦.

طريق المخاضة، لكنهم لاقوا الموت وسط الأمواج وحيث كانوا قد اعتقدوا أنهم سيجدون السلامة، كما أن الآخرين فإنهم على الرغم من الجهود التي بذلوها قد دفعتهم الحشود الكثيفة من على الجسر، فغاصوا في النهر مباشرة، وشلت قوة الأمواج حركة معظم هؤلاء التعساء، فانجرفوا مع بعضهم إلى قعر النهر، الذي ابتلعهم، ورفض أن يعيدهم ثانية.

وعندما وصلت أنباء هذه الكارثة إلى الجيش، اندفع الآلاف من الفرسان إلى السلاح، وما أن عبروا النهر حتى قابلوا العدو الذي كان عائداً من مذبحة المسيحيين مبتهجاً بالغنائم، وهاجمه رجالنا على الفور، وطاردوه بإصرار كبير إلى باب المدينة، وأنزلوا به الكثير من الأذى والخسائر.

وتحركت أفئدة سكان المدينة بالشفقة عندما رأوا زملاءهم من أهل المدينة في هذا الخطر الشديد، وهم جرحى يموتون، ففتحوا الباب، واندفعوا بأعداد كبيرة عبر الجسر الحجري، وبشجاعة مدهشة لمدّ يد العون لأصدقائهم، وهاجموا قواتنا ببسالة، وأظهرت هذه القوات في البداية مقاومة ثابتة، لكنها ما لبثت أن ولت ظهورها على الفور، وهرب أفرادها، بعدما قهرهم عنف الحشد، وطاردهم الكفرة حتى جسر القوارب، وسقط الكثير من جنودنا المشاة في هذا الاشتباك قتلاً بالسيف، وغرق عدد كبير آخر في النهر، وازدحم الفرسان أيضاً مع بعضهم فوق الجسر عندما كانوا يهربون من العدو المطارد لهم، إلى درجة أنهم سقطوا في النهر مباشرة، وابتلعتهم المياة مع خيولهم بسبب الترسة والدروع والخوذ التي أثقلتهم، ولم يظهروا بعد ذلك أبداً.

وعلى هذا لم تكن معاناة شعبنا من الحصار أقل من معاناة أولئك الموجودين داخل الأسوار، حيث لم يكونوا قادرين على إخفاء رحلاتهم القصيرة إلى الريف المجاور عن سكان المدينة، الذين استخدموا بدورهم جميع الجهود لمنعهم، وكانت ـ في الوقت نفسه ـ القوات المعادية الأخرى المختبئة في الغابات والحقول تنصب الكمائن للإيقاع بهم، وهي كمائن نجحت في معظم الأحيان، وبالنتيجة لم يتجرأ جنودنا على الخروج من معسكرهم، أو التجول إلى مسافة بعيدة بحثاً عن الطعام، أضف إلى هذا إن المعسكر نفسه لم يكن مكاناً آمناً، حيث استولى الذعر على الجميع واستبد بهم خشية أن تباغتهم القوة الجبارة التي قيل إن العدو كان يجندها في مواقع عديدة، ويمكن لرجل عاقل أن يطرح سؤالاً: أي الحالتين كانت أفضل من الثانية، وأي منها توجب أن يخاف منها أكثر من الثانية، أحالة الجيش المحاصر، أم حالة أولئك الذين اعتقدوا أنهم في حالة حصار؟

١٧ ـ نفاذ جميع المؤن وازدياد المجاعة سوءاً بعد سوء. الشعب يناضل ضد الجوع. الأمطار العنيفة تسبب اهتراء الخيم. الجيش يتهدده الهلاك.

أن تسرد بالتفصيل أخبار الكوارث التي حصلت يومياً وفي أماكن مختلفة خلال تقدم هذا الحصار العظيم المستمر سيكون غير موائم لدى عرض الخلاصة التاريخية التي أحاول إعطاءها بدقة متنـاهية[١]، وهكذا، فلنتتبع مجرى الأحداث العام بإهمال الحوادث الخاصة.

وحدث أن الطعام بدأ يقل في المعسكر، وكابد الجيش من قلة المؤن، وذلك عندما تمت مواصلة الحصار إلى الشهر الثالث، مع الأقدار المتنوعة والملازمة للحرب المستمرة، وكان في البداية قد توفر فيض غزير من جميع الأشياء الضرورية لاستخدام الإنسان، وذلك بالإضافة إلى وفرة العلف للخيول، وهكذا، وكعادة الرجال الطائشين، استنتج الناس أن حالة الرخاء الاقتصادي ذاتها ستستمر دون جهد من جانبهم، ولهذا أساءوا استخدام ما حُبوا به، وبددوا في وقت قصير الطعام الذي كان سيكفي لعدة أيام لو تم توزيعه باعتدال مناسب، ذلك أنه لم يكن هنالك حد مقيّد للتبذير في المعسكر، ولم يكن هنالك اقتصاد، وهو صديق الرجل العاقل، فقد وجد الترف والفيض في كل مكان، ولم يصدق هذا بخصوص الأشياء الضرورية لتغذية الإنسان، بـل صـدق أيضـاً بخصـوص علـف الخيـول، وحيوانات جر الأثقال، لقد افتقر الجيش لفكرة الاعتدال بشكل مطلق، وهكذا، حدث أن خضع لفاقة كبيرة، وعندها زادت وطأة المجاعة، إلى حد أن الجيش أصبح بأكمله في خطر الهلاك تقريباً، وطلب عندها عقد اجتماع عام للناس، وتقرر بعد أداء القسم، وجوب تقسيم جميع الغنائم التي تم الاستيلاء عليها إلى أقسام متساوية بصدق تام، وجرى تشكيل كتائب تألف كل منها من ثلاثمائة رجل أو أربعمائة، وخرجت هذه الكتائب مع بعضها، وطافت سائر المنطقة محاولة إيجاد الطعام بأية وسيلة ممكنة.

وقبل أن يأخذ سكان المدينة بعادة الانقضاض ومهاجمة هذه المجموعات، ونصب الكمائن لها، وبينما كان الريف المحيط ما يزال مملوءاً بالقطعان والمواشي والحبوب والخمر والمنتجات الأخرى، اعتاد هؤلاء المتجولون على العودة بغنائم وفيرة وكثيرة، وبكمية كبيرة من المؤن، فلقد كان هذا سبب الوفرة التي أتينا على ذكرها من قبل، عندما كانت موجودة في المعسكر، غير أن موارد الريف نضبت الآن، وعلاوة على ذلك، فإن الأتراك الذين كان

---

(١) نجح وليم بشكل رائع في جمع المادة من أربعة مؤرخين لاتينيين على الأقل، ومن بعض المصادر العربية والأحاديث الشفوية، كما أن ترتيب الأحداث الذي يدرجه، يتبع الترتيب التأريخي المقبول، وقد تولى حذف بعض التفاصيل وتوسع في تفاصيل أخرى، وهذا ما ستتم ملاحظته فيما بعد.

الرعب الكبير قد أوهنهم من قبل، كانوا الآن قد استردوا قوتهم وكسبوا الشجاعة للدفاع عن ممتلكاتهم، ولذلك عاد المتجولون فارغي الأيدي، أو قتلوا بلا استثناء، كما حدث في معظم الأحيان، بحيث لم يبق أي واحد منهم على قيد الحياة ليخبر المعسكر بمصيرهم.

واستمر نقص المؤن يوماً إثر يوم، وازدادت المجاعة، ولم يكن ممكناً إلا بصعوبة الحصول على الخبز الكافي لوجبة واحدة في اليوم لشخص واحد إلاّ بشلنين، كما أن البقرة أو العجل، الذي كان سعر بيعه القديم خمسة شلنات، أصبح يشترى بماركين، والحمل أو الجدي الذي كان من الممكن شراء أي منها فيما مضى بثلاثة بنسات أو أربعة، أصبحت قيمته تساوي خمسة شلنات أو ستة، لا بل نادراً ما أمكن إيجاد أي منها بهذا السعر، كما أن ثمانية شلنات لم تعد كافية لشراء العلف الضروري لحصان واحد لليلة واحدة، وكان الجيش قد جلب معه أكثر من سبعين ألف حصان، لم يبق منها الآن سوى ألفي حصان تقريباً داخل المعسكر، ذلك أن البقية هلكت من البرد والجوع، وفي الوقت نفسه كانت الخيول التي ما تزال على قيد الحياة تضعف بالتدريج، وتزداد هزالاً يومياً بسبب الجوع والبرد القارس.

أضف إلى ذلك، فإن السرادقات والخيم في المعسكر كانت قد اهترأت، وهكذا هلك كثير من الذين كان ما يزال لديهم الطعام لأنهم لم يستطيعوا تحمل البرد القاسي دون وقاية، وتدفقت فياضانات الماء بسيول بحيث فسدت الأطعمة واهترأت الملابس، ولم يكن هنالك مكان جاف يستطيع الحجاج وضع رؤوسهم فيه، أو خزن مقتنياتهم الضرورية داخله.

ونتيجة لهذه الأحوال وقع وباء بين الفيالق في المعسكر، وكان قاسياً مميتاً، إلى حد أنه نادراً ما أمكن العثور على مكان لدفن الموتى، كما لم يكن ممكناً أداء طقوس الدفن، وأما الذين كانوا ظاهريا بصحة قوية فقد هربوا خفية حتى لا يقعوا ضحايا للوباء المخيف ذاته، وقد هربوا إما إلى عند اللورد بلدوين في الرها أو إلى كليكية إلى عند الذين كانوا يحكمون المدن هناك، أو إلى أي مكان آخر كان قد وقع تحت سيطرة المسيحيين[1].

وبرحيل هؤلاء تضاءل الجيش إلى حجم صغير جداً، وذلك بالإضافة إلى فقدان الذين كانوا قد هلكوا بسبب الجوع والمرض مع آخرين كانوا قد هلكوا قتلاً بالسيف، حتى بدا الجيش وكأنه لم يبق منه إلاّ النصف تقريباً على قيد الحياة.

---

(١) لا يذكر وليم محاولة الهروب التي قام بها بطرس الناسك ووليم النجار، وهو الذي اعتبر مخزياً لكليهما ولا عن منعهما من قبل تانكرد، وذلك في هذه المرحلة ولا في مناسبات قادمة عندما يتحدث عن أعمال الفرار من الجيش في أنطاكية.

١٨ - بوهيموند وكونت فلاندرز يغادران في حملة تموين وذلك برفقة قوة كبيرة. سكان المدينة يشنون في تلك الأثناء هجوماً مفاجئاً على المعسكر مسببين خسارة وضرراً للمسيحيين.

عندما نظر القادة المكرسون للرب إلى بلوى الناس، وشاهدوا المحن التي كانت تكتنفهم باستمرار، ملئوا بالشفقة والأسى للجيش الهالك، وكما كانت عادتهم اجتمعوا مع بعضهم للتداول بخصوص العلاج لهذه النكبات المحبطة، وبعد أن قُدّمت اقتراحات عديدة، تقرر: إنه على عدد من المقدمين الأكثر أهمية أن يأخذوا دور الجند، ويتولوا القيام بحملة خلال ريف العدو لجلب القطعان والاستيلاء على الطعام الضروري، وتوجب على الآخرين، البقاء - أثناء غياب هؤلاء المقدمين - في المعسكر، وأن يكونوا يقظين ومتنبهين إلى أقصى الحدود لحماية الجيش، وحدث أن وقع واجب التطواف على بوهيموند وكونت فلا ندرز، بينما تُرك كونت طولوز وأسقف بوي لحراسة المعسكر، ذلك أن كونت نورماندي [1] كان غائباً، وكان غودفري دوق اللورين طريح الفراش بمرض خطير، وأخذ القائدان معهما قوة كافية من الفرسان والرجالة وذلك بقدر ما استطاع أن يزدوهما الجيش المنهك، وتقدما إلى داخل أرض العدو.

وحالما علم المحاصرون أن بوهيموند وكونت فلاندرز قد رحلا، وأن كونت نورماندي كان غائباً، وأن الدوق كان مريضاً انتهزوا بشجاعة فريدة الفرصة للهجوم على معسكرنا، حيث وافق الجميع على وجوب عدم تفويت الفرصة التي قدمها غياب هؤلاء القادة وحشدت قوة كبيرة من جميع فئات الناس من المدينة، اجتمعت عند باب الجسر، وكان المدخل مفتوحاً، واجتازوا النهر بتنافس فقد عبر بعضهم عن طريق الجسر، وعبر الآخرون عن طريق المخاضة السفلية، وحاولوا الهجوم على معسكرنا، لكن الكونت تصدى لهم مع فرقة من الفرسان، فأرغموا على الإنسحاب إلى داخل المدينة بعد أن فقدوا اثنين من رجالهم.

وحدث خلال هذه المناوشة أن بعضاً من فرساننا حاولوا الإمساك بحصان أعزل كان صاحبه قد قتل، ولدى رؤية الحشد الطائش التعيس لهذا المشهد اعتقدوا أن الفرسان كانوا

---

(١) كان روبرت أوف نورماندي في اللاذقية على الساحل، وكان قد ذهب إليها استجابة لمناشدة البحارة الإنكليز الذين كانوا بحاجة للحماية، وكان الأسطول الإنكليزي منشغلاً، منذ وصوله قبالة انطاكية، في جلب المؤن الضرورية من الجزر اليونانية ومن البر الرئيسي إلى الصليبيين، واحتاج بالفعل إلى مرافقة عسكرية عندما كان على البر، وعلى الرغم من الشكوك التي أثارها تأخر روبرت في الاستمتاع بالرخاء والرفاهية في اللاذقية فقد تمكن، خلافاً لستيفن أوف بليوس، من العودة إلى أنطاكية عندما كان القتال على أشده (أنظر س. و. ديفيد، روبرت كورتهوز ص١٠٥ - ١٠٨).

يهربون خوفاً، وبناء عليه استداروا هاربين وتجمعوا مذعورين واكتظوا في مكان واحد مما سبب هلاكهم.

وعلى الفور أدرك أهالي المدينة أن الحجاج كانوا يلوذون بالفرار، على الرغم من أنه لم يكن هنالك من يطاردهم، فاندفعوا ثانية فوق الجسر وهاجموا الهاربين بسيوفهم باشتباك مباشر وطاردوهم من الجسر الحجري وحتى جسر القوارب، وكان الفتك الذي ألحق بشعبنا كبيراً، حيث كان شعبنا قد احتشد وتكدس فوق بعضه، وسدّ بالتالي الطريق، حيث هلك خمسة عشر فارساً وعشرين جندياً من المشاة، إما قتلاً بالسيف أو غرقاً بالنهر، وانبهر العدو كثيراً لهذا الانتصار، وتراجع إلى المدينة مجللاً بالمجد.

١٩ ـ الفريق المتجول يكتشف العدو ويهزمه، ويعود بالغنائم والمنهوبات الكثيرة.

كان بوهيموند وكونت فلاندرز قد قادا خلال هذا الوقت، وبموافقة من الجميع مجموعة من الجند في حملة تموين، وأملا بجلب زاد كثير حتى يخففا المعاناة في المعسكر، كما أن نجاحهما الأكثر يمناً في أرض العدو قد حسن حظنا العاثر، حيث استوليا على قصر للعدو وجدوه مترعاً بكل أصناف الحاجيات الجيدة.

وكان بوهيموند قد أرسل الكشافة في اتجاهات مختلفة لجمع المعلومات عن حاله البلد ولجلب الغنائم الكثيرة ـ إن أمكن ذلك ـ ونقل بعض هؤلاء الرجال لدى عودتهم ما يفيد أن عدداً كبيراً من الأتراك قد تمركزوا في المنطقة المجاورة، فأرسل على الفور كونت فلاندرز نحوهم مع مرافقة قوية، ثم تبعه مع القوة الرئيسة لمساعدته إذا ما استدعى الحال ذلك، بيد أن الكونت الذي كان مقاتلاً شجاعاً ونبيلاً، هاجم العدو بشجاعة، ولم يعد إلى بوهيموند إلاّ بعدما كان قد قتل مائة كافر، وجعل البقية تلوذ بالفرار، وبينما كان عائداً منتصراً إلى القوة الأكبر، جلب الكشافة الآخرون نبأ يفيد أن قوة أخرى أقوى بكثير من قوة الأعداء السابقة كانت تتقدم من ناحية أخرى، فأرسل بوهيموند على الفور الكونت ضد هؤلاء الأعداء مع قوة أكبر ومرافقة اضافية، ثم تبعه مع بقية جنده، ذلك أنه كان مستعداً للذهاب لمساعدته إذا ما استدعى الأمر ذلك.

وبفضل رحمة الرب التي كانت تقود قواتنا حدث أن تم إيقاع العدو في بعض الممرات الضيقة، وبإدراك قوات العدو أنه لن يتسنى لهم القتال بالقسي والنشاب، بل بالسيوف في قتال قريب، وهو نوع من القتال لم يكونوا يألفونه، استداروا وهربوا، وتبعهم المسيحيون لمسافة ميلين تقريباً وقتلوا الكثيرين منهم، ثم عاد رجالنا سالمين آمنين إلى المعسكر، وجلبوا

معهم غنائم من الخيول والبغال ومنهوبات أخرى بوفرة وأعداد كبيرة، وبالاختصار، لقد كانت الغنائم من كل نوع، حيث تمّ الاستيلاء عليها من الريف المجاور بأسره.

وسر الحجاج كثيراً بنجاح إخوانهم، وزودهم ذلك بفترة استراحة بسيطة من مشاقهم، ومع ذلك، وعلى الرغم من كل شيء لم تكن الغنائم كبيرة جداً، ولم تكن كافية تماماً لتزود الحشد أكثر من بضعة أيام، وهكذا فإن شدائد الجيش لم تخفف كثيراً.

٢٠ ـ الأتراك يقتلون سفين Sevin الذي كان واحداً من أبناء ملك الدانمركيين، بينما كان يحث الخطا خلف الجيش مع جنده، وذلك بالقرب من مدينة فيلوميلون.

وصلت في حوالى هذا الوقت إشاعة محزنة صادرة من خارج بلاد الروم، وكانت مفعمة بالحزن والقلق، حيث روعت قلوب الجميع وأضافت لمسه الختام إلى حالتهم النفسية التعيسة.

كانت الإشاعة، التي ثبت أنها صحيحة فيما بعد، تحكي على النحو التالي:[١] كان أحد الرجال الأقوياء، من ذوي المنزلة العالية، واسمه سفين، ابن ملك الدانمركيين، وهو مشهور بنسبه وشخصيته وطلعته النبيلة، كان قد اتقد برغبة القيام برحلة الحج ذاتها، وكان يسرع في زحفه على رأس ألف وخمسمائة شاب مسلحين تسليحاً ممتازاً، كلهم من الشعب نفسه، وكان هدفه نجدتنا في حصار مدينة أنطاكية، وكان قد شرع في رحلته من مملكة والده في وقت لاحق لشروع الآخرين، ولذلك حث الخطا ليتمكن مع كامل أتباعه من الانضمام إلى الفيالق التي كانت قد سبقته، ومع ذلك، أعاقته أمور خاصة، ولم يستطع اللحاق بهم، كما كان قد تمنى.

وهكذا حدث أن سلك الطريق وحده، على رأس قواته، دون مرافقة أحد من القادة الآخرين، ووصل إلى القسطنطينية بسيره في أثر الآخرين، وهناك استقبله الامبراطور بكثير من الحفاوة، ووصل بسلام إلى نيقية، وانحدر من هناك إلى بلاد الروم مسرعاً باتجاه الجيش،

---

(١) كانت قصة سفين أو سفند واحدة من أكثر الأحداث المأساوية مما وقع للمسيحيين، وأشدها تأثيراً على الخيال الأدبي والفني للعصور اللاحقة، وفيها نجد الأمير الشاب وبرفقته زوجته اسمها فلورينا، وقد صورت وهي تحارب إلى جانبه إلى نهاية المأساة الكاملة، ورفض رينت هذه الرواية التي قدمها كل من ألبرت ووليم على أنها أسطورة صرفة، لأنه لم يتمكن من أن يجد أية مصادر اسكندنافية معاصرة تؤكدها (ب.رينت «القديسون السكندنافيون». هذا وقد وجد ج.س.هـ.ستينسترب ومعاونيه أن الأمير الشاب كان أحد الأبناء الكثيرين للملك الدانمركي سفند وقد قبلوا قصة حملته الصليبية. (انظر تاريخ ملوك الدانمارك: ١/ ٤٧٣، ٥٠٥ وانظر أيضاً ك.غجيرست «تاريخ الشعب النروجي: ١/ ٣١١).

ومعه كامل مجموعته، وفجأة هاجمته ليلاً قوة كبيرة من الأتراك، وقتلته في معسكره، وذلك عندما كان مخيماً بين مدينتي فيلوميلون وترما Terma، وكان كما هو متوقع غير متخذ الاحتياطات المناسبة، وكانت عساكره قد أسرعت نحو أسلحتها حيث أيقظتها جلبة أصوات العدو المتقدم، لكن يا للأسف كان قد فات الأوان، وانقض العدو عليهم فجأة، وقبل أن يكونوا مستعدين تماماً لملاقاته، ومع ذلك قاوموه مقاومة طويلة وشجاعة، وخلفوا وراءهم لعدوهم انتصاراً دموياً، بحيث بدا أن أرواحهم لم تذهب عبثاً، وكانت المحصلة إبادتهم جميعاً عن بكرة أبيهم تقريباً.

٢١ ـ تاتيكوس المخادع يترك الجيش دون نية بالعودة، وذلك بذريعة الترتيب لسوق والتوسل إلى الامبراطور للقدوم إلى نجدتهم.

كان الامبراطور قد عين تاتيكوس نائباً له ليقود الحجاج في طريقهم، كما تم سرد ذلك من قبل، وكان قد رافق الفيالق حتى هذا الوقت، ومع ذلك، فبرؤيته الآن المصاعب التي كانت تحيق بالقادة، بدأ يخاف، وخشي أنهم لن يصمدوا في رحلتهم، وأن سيوف العدو ستفتك بجميع أفراد الجيش في يوم ما، ولذلك حضر اجتماع القادة، وحاول اقناعهم بجدية متناهية بالتخلي عن الحصار، وأن ينقلوا كامل الجيش إلى المدن والحصون المجاورة، حيث سيجدون هنالك مستلزمات الحياة بوفرة عظيمة، ويستطيعون أن يتخذوا تلك الأماكن قواعد لهم، وأن يرهقوا شعب أنطاكية باستمرار، وأضاف إن الامبراطور كان قد جند جيشاً منتقى من شعوب مختلفة، حيث بلغت قوته ألوفاً لا تحصى، من أجل مساعدتهم، وأن هذا الجيش سيصل في حوالي بداية فصل الربيع، وأردف قائلاً: إنه حسبما كان قد صمم منذ البداية على المشاركة في مشقاتهم ورغب في المشاركة في سرائهم وضرائهم، فقد ودّ الآن أن يتولى القيام بمهمة عظيمة لصالح الخير والازدهار العام، وكان هدفه أن يذهب إلى الامبراطور فوراً ليعجل تحركات الجيش الامبراطوري، وليرتب لجلب مؤن الطعام الضرورية من الريف الواقع في هذه الناحية من المدينة، وعلى الرغم من أن قادتنا كانوا قد أدركوا منذ ساعة البداية كنه شخصية تاتيكوس الماكرة الغدارة، لم يعارض أيٌّ منهم أقواله، أو اعترض على اقتراحه، ولكي يخفي خيانته وإثمه تحت مظهر ما من الحقيقة، ترك خيمه والقسم الأكبر من أتباعه، وذلك إما لأنه لم يكن مهتماً بسعادتهم، أو لأنه كان قد لقنهم خلسه ليتبعوه إلى مكان لقاء ما، في يوم محدد.

وهكذا رحل وكأنه عاقد العزم على العودة في المستقبل القريب، لكنه لم يظهر بعد

(١) كانت فيليوميلون (آق شهر) أول بلدة لها مكانتها بعد نيقية على الطريق التي ركبه الصليبيون.

ذلك أبداً، إنه رجل شرير وملحد يستحق أن يحكم عليه بالموت السرمدي، حيث خلق رحيله سابقة مؤذية، لأن كل من استطاع أن يهرب من المعسكر خلسه فعل ذلك منذ ذلك اليوم، وذلك بصرف النظر عن أيمانهم ونذرهم التي أدوها في البداية بتعهدات حماسية [1].

كانت المجاعة في هذه الأثناء تتزايد، ولم يستطع القادة أن يجدوا وسيلة فعالة للتخفيف من حجم هذه الكارثة الكبيرة، وجرى مرة إثـر أخرى تبادل الأدوار بين القادة المختارين للذهاب اثنين فاثنين مع قوات كبيرة إلى ديار العدو، وغالباً ما عادوا إلى شعبهم وهم منتصرون، ومع ذلك، عادوا دون جلب الغنيمة أو الطعام الذي كان ضرورياً جداً، حيث كانت قد انتشرت إشاعة تقول: إن المسيحيين اعتادوا على القيام برحلات قصيرة، وإن العدو قد نقل قطعانه ومواشيه وجميع الحيوانات الأخرى التي كانت بحوزته إلى الجبال المتعذر بلوغها، ولم يستطع المسيحيون اختراق هذه الملاجىء النائية، وحتى إذا ما نجحوا في الوصول إليها، لم تكن مهمة جلب الغنائم مهمة سهلة.

٢٢ ـ المجاعة تزداد ويسيطر وباء مهلك على الناس. الأساقفة يأمرون بصوم لمدة ثلاثة أيام. الدوق غودفري يتعافى تماماً والجيش يرتاح كلياً بسبب شفائه.

كانت المجاعة خلال هذا الوقت تزداد سوءاً في أوساط الجيش وذلك من يوم إلى آخر، كما ازداد الوباء أيضاً مـع الأمراض الأخرى الناجمة عن المجاعة، وقد لاحظ الشيوخ مع آخرين ذوي خبرة واسعة أن هذه المصاعب قد نشأت من آثام الناس، وأن الرب الذي استشاط غضباً، كان يتفقد أبناءه المتغطرسين بهذا العقاب، ولذلك اجتمعوا للتشاور مع بعضهم بعضاً، وبدأوا والخوف من الرب ماثل أمام أعينهم، بالتشاور بقلق حول امكانية التكفير عن آثامهم بسرعة وبتوبة نصوحة، وأملوا أن يخففوا سخط الرب بإجراء التعويضات عن أخطائهم السابقة، وتجنب الأخطاء المشابهة في المستقبل.

وتمشياً مع الأمر الرسمي لأسقف بوي، الذي كان ممثلاً للكرسي البابوي المقدس، وإذعاناً لأوامر الأساقفة الآخرين، أحباء الله، وبالاتفاق الكامل، وبطلب من الأمراء العلمانيين وسائر الجيش، تقرر إجراء صيام لمدة ثلاثة أيام حيث يتمكنون بواسطته من

---

(١) إن هذا التفسير لرحيل تاتيكوس الذي حدث في حوالي بداية شهر شباط من عام ١٠٩٨. هو تفسير متحيز بالتأكيد على الرغم من أن معظم المؤرخين اللاتينيين يشاركون فيه، واعتقدت آنا أن بوهيموند، الذي كان لديه من قبل خطط حول أنطاكية على الرغم من الإتفاق مع ألكسيوس، قد أخفاها بشكل ماكر. وهناك خلافات شديدة بين الاختصاصيين حول هذه المسألة. وأفضل عرض لهذه الخلافات ما كتبه ر.ب.يوديل في كتاب بوهيموند الأول أمير أنطاكية ٥٨ ـ ٦٣.

تعذيب أجسادهم، وتقوية أرواحهم لصلاة أكثر فعالية، وبينما تم إجراء هذا بكامل من التكريس، قرروا بطريقه مماثلة نفي جميع النسوة الفاسقات وذوات السمعة السيئة من المعسكر، كما فرض الحظر على الزنا وجميع أنواع الفسوق تحت طائلة عقوبة الموت، وحرمت جميع أنواع العربدة وتناول المسكرات، واشتمل الحظر ألعاب الحظ الخطرة، والأيمان الطائشة والاحتيال في الأوزان والمكاييل، وجميع أنواع الخداع والسرقة والنهب.

وبعد إصدار هذه القوانين والمصادقة عليها بموافقة عامة، جرى تعيين القضاة الذين سيتولون مسؤولية مراقبة هذه الآثام، ومنحوا سلطة مطلقة في التحقيق والعقاب أيضاً، ومع ذلك، وجد فيما بعد عدد من منتهكي هذه القوانين، وأدان القضاة هؤلاء المذنبين برزانة، وحكموا عليهم بالعقاب بكل صرامة قانونية وحسب الجرائم المرتكبة، وبناء عليه فقد منع مصير هؤلاء، الآخرين من ارتكاب الآثام نفسها.

وهكذا عاد الناس، بفضل الله الواسع الرحمة، إلى ثمرة الحياة الأفضل، وخفّ غضب الرب المخيف إلى حد ما حيث بدأ الدوق غودفري، الذي كان الدعامة الوحيدة والمثلى للجيش بأسره، بدأ يتعافى فوراً وبالكامل من مرض خطير كان قد أقض مضجعه منذ وقت طويل، بسبب الجرح الذي عانى منه من أحد دببة المنطقه المجاورة لأنطاكية في بيسيديا [1]، وكان تماثله للشفاء مصدراً للعزاء الكبير للجيش بأسره، في محنته.

٢٣ ـ اللورد بوهيموند يبتكر خطة رائعة لإزالة الإزعاج الذي سببه الكشافة الذين أرسلهم العدو

كانت خلال هذا الوقت تنتشر الأقاويل والروايات المتواترة في كل مكان من سائر الشرق، إلى حد أنها استرعت انتباه ممالك الجنوب والشعوب الخارجية الأخرى، وأفادت جميعاً أن قواتاً كبيرة من المسيحيين قد وصلت إلى أمام مدينة أنطاكية، وهي تحاصرها بقبضة قوية، وهكذا أخذ جميع الملوك الذين كانوا قلقين بشأن بلادهم، يرسلون الجواسيس باستمرار للانتشار داخل صفوف جيشنا للحصول من خلالهم على تفاصيل دقيقة بخصوص عادات وشجاعة ونوايا هذا الجيش العملاق، ووجد العديد من هؤلاء القوم داخل معسكرنا، وكان يغادر عدد منهم كل يوم تقريباً لنقل صورة عن الأوضاع في الجيش المسيحي إلى الذين أرسلوهم، وكان آخرون يصلون للغرض نفسه، وكان سهلاً بالنسبة

---

(١) لا تتوافق الروايات المعاصرة بشكل صارم على منح غودفري الدور المطلق الأهمية الذي ينسبه وليم إليه هنا، ويعكس وليم في هذه المرحلة تأثير أسطورة اخترعت فيما بعد عن الرجل الذي أصبح الحاكم اللاتيني الأول للقدس.

لهؤلاء الرجال من هذا النوع أن يمروا غير معروفين وسط جندنا حيث حازوا على الكثير من البراعة في لغات متنوعة، فقد تظاهر بعضهم على أنهم إغريق وآخرون على أنهم سريان، وبعضهم الآخر على أنهم أرمن، وتمكن الجميع بسهولة من انتحال طباع هذه الشعوب في اللغات والعادات واللباس.

ولمعالجة هذا الوضع اجتمع القادة لمناقشة الاجراءات المتوجب اتخاذها من أجل السلامة العامة في هذه القضية، حيث لم يكن طرد هؤلاء الجواسيس من المعسكر مهمة سهلة، لأنهم لم يختلفوا كثيراً في اللغة والعادات والأساليب عن الشعوب الآنفة الذكر، ولذلك اعتقد القادة أنه من الأفضل أن يعهدوا بخططهم إلى عدد ضئيل من الأشخاص فقط، حتى يمكنهم تماماً تقرير الاجراءات المتوجب اتخاذها ضدهم، وكان هنالك مسوغ للخوف من أنه إذا عرف العديد من الناس هذه المعلومات فلربما سيقومون بنقلها إلى العدو من أجل إيذاء المسيحيين، وعندما بدا من المستحيل إيجاد أية طريقة لمنع هذه المكائد، يقال إن بوهيموند، الرجل المتوقد الذكاء، والفريد من نوعه، وصاحب العقل الحصيف، خاطب الرؤساء على النحو التالي: «يا سادتي وإخواني اتركوا لي كل المسؤولية في هذه المسألة، لأنني سأجد ـ بعون الرب ـ علاجاً مناسباً لهذا الداء»، ثم ارفض اجتماع القادة وعاد كل منهم إلى معسكره.

وعندما بدأت أشباح الظلام تهرول قادمة مسرعه، وكانت التحضيرات العادية للعشاء تسير قدماً في كل مكان من المعسكر، أمر بوهيموند، المتنبه لوعده، بإحضار بعض الأسرى الأتراك، وسلمهم إلى الجلاد وأمره أن يشنقهم، ثم أضرم ناراً ضخمة، كأنها معدة لتحضير العشاء، وأمر أن تشوى الجثث بعد إعدادها بكل عناية، وأصدر الأوامر إلى شعبة: إنه إذا نشأ أي استفسار عن معنى هذه الوجبة، عليهم أن يجيبوا إن جثث جميع الأعداء أو الجواسيس المقبوض عليهم ستقدم من الآن فصاعداً لحماً لموائد القادة والناس بهذه الطريقة، وذلك بناء على قرار من القادة.

وانتشر النبأ بين صفوف الجيش وعلموا أن هذه الاجراءات كانت تتخذ في معسكر بوهيموند، وهرع جميع عناصر الحملة إلى هنالك مندهشين لحداثة الفكرة، وذعر الجواسيس الذين كانوا في المعسكر في ذلك الوقت، واعتقدوا أن ما أشيع على أنه قد تقرر، كان في الواقع كذلك، وليس إشاعة أو زعماً، واستخلصوا استنتاجاتهم منه، ولخوفهم أن مصيراً مشابهاً يمكن أن يدركهم أيضاً، تركوا المعسكر فوراً وعادوا إلى موطنهم، ونقلوا إلى الرؤساء الذين كانوا قد أرسلوهم، أن هذا الشعب قد تجاوز جميع الشعوب الأخرى، وفاق حتى

الحيوانات، في القسوة، فهو لم يكتف بالاستيلاء على مدن عدوه وقلاعه مع جميع الممتلكات من مختلف الأنواع، ولا بالزج في السجون والتعذيب بوحشية بطريقة العدو، ولا حتى بالقتل.

كانت مثل هذه الشائعات التي انتشرت حتى الأجزاء النائية من الشرق، لم تكتف بترويع الشعوب المجاورة فحسب، بل تلك الشعوب التي كانت بعيدة جداً أيضاً، كما أصابت بالذعر مدينة أنطاكية بأسرها، فقد أرعبها حداثة ووحشية هذا الأجراء، وهكذا مكنت جهود بوهيموند الحماسية من إزالة هذا الوباء من الجواسيس، وخف إفشاء خططنا للعدو [1].

٢٤ - خليفة مصر يرسل سفراء إلى المقدمين. الخليفة يطلب عقد معاهدة معهم، ويسعى إلى كسب ودهم.

وعلاوة على ذلك أرسل خليفة مصر، وهو الحاكم الكافر الأقوى بين جميع الحكام الكفرة بسبب ثرواته وقواته العسكرية، أرسل سفراءه إلى قادتنا، وكان الداعي لهذه السفارة ما يلي: كانت قد قامت عداوة متأصلة لعدة سنوات بين الشرقيين والمصريين نجمت عن الاختلافات في معتقداتهم الدينية وعقائدهم المتعادية، وكانت هذه العداوة قد استمرت دون انقطاع حتى الوقت الحالي، وهكذا فإن هاتين المملكتين المتحاربتين دائماً مع بعضهما كانتا في صراع مستمر وتحاول كل منهما توسيع حدودها، وتضييق حدود المملكة الأخرى، حسبما تم شرح ذلك بدقة في الكتاب الأول من هذا التاريخ [2]، وحدث في مختلف الفترات أن نجحت واحدة من هاتين المملكتين في توسيع حدودها اعتماداً على القوة، وتعلق الأمر دائماً بالقوة، ففي البداية ملكت المملكة الأولى القوة، والآن ملكتها الثانية فتحكمت، وكانت النتيجة زيادة مساحة إحداهما على حساب الثانية التي نقصت أراضيها.

وكان صاحب مصر قد استولى في هذه الآونة على البلاد الممتدة من أرض مصر وحتى اللاذقية السورية، وهي مسافة تستغرق ثلاثين يوماً، وكما حكينا من قبل كان سلطان بلاد فارس قد استولى، قبل وقت قصير من وصول المسيحيين على أنطاكية التي تقع على

---

(١) اتخذت شهرة بوهيموند كمتقن للمكر والشجاعة شكلاً أسطورياً قبل إكمال الحملة الصليبية الأولى، فهو قد كان «الشيطان الماكر» لهذه المرحلة، وتظهر أساطير عديدة حول أعمال بوهيموند الماكرة والشجاعة لدى أوائل المؤرخين للحملة الصليبية مثل صاحب أعمال الفرنجة المجهول (ا. س. كري «الحملة الصليبية الأولى» ص١٦٦ - ١٦٧).

(٢) تشير هذه الإشارة الاعتراضية إلى إمكانية أن وليم قد كتب هذا الفصل عندما كان يجري تنقيحه الأخير لكتابه، وربما كان ذلك في عام ١١٨٢.

حدود المملكة المصرية، وكان قد احتل البلاد بأكملها حتى البوسفور، ونظر الحاكم بمصر بقلق وارتياب نحو كل توسع للفرس أو الأتراك، ولذلك سرّ كثيراً بنبأ أن قلج أرسلان كان قد فقد نيقية، حيث أشيع أن جيشه قد عومل بشكل سيء، وأن المسيحيين كانوا يحاصرون أنطاكية، ولقد رأى أن خسائر الأتراك مكسب له، وأن اضطراب أوضاعهم ومشاكلهم تقدم السلام والأمن له ولرعيته، ولذلك، وخشية من أن الحصار الطويل يمكن أن يسبب إخفاق شعبنا، أرسل المندوبين، وهم عناصر من أفراد أسرته، ليتقدموا بالرجاء إلى القادة لمواصلة الحصار، وكان المندوبون مفوضين في طمأنة المسيحيين أن السلطان سيساعدهم بالدعم العسكري والموارد، وأوصى هؤلاء المندوبين بالسعي لكسب مودة القادة وحبهم، وأن يعقدوا معاهدة للصداقة معهم [1].

وانطلق الرسل بطاعة مخلصة لأوامر سيدهم، ووصلوا إلى معسكر المسيحيين، وكانوا قلقين جداً على المهمة الموكولة إليهم، واستقبلهم قادة جيشنا بحسن ضيافة لائقة، وسمحوا لهم بحضور مداولات متكررة معهم ليحصلوا على فرصة لتسليم رسالتهم، ومع ذلك فإنهم في الوقت الذي أعجبوا فيه بتحمل شعبنا وأعداده وأسلحته وصبره تحت المشاق، امتلأت قلوبهم بالخوف أمام الحشد الضخم، حيث تكون لديهم إحساس داخلي بما سيحدث في المستقبل، لأن الذي كان سيدهم يحاول إحداثه الآن خلسه، عن طريق إحلال قوة محل أخرى، كان سيعاني منه فيما بعد في أوضاعه الخاصة.

وبكلمة موجزة إنه بعد أن تمت السيطرة على مدينة أنطاكية، واعيدت إلى الدين المسيحي وإلى حريتها الأصلية، انتزع المسيحيون، بدعم من الرب القدير وفضل منه، من سلطانه المستبد، بقوة السلاح، جميع البلاد الممتدة من تلك المدينة وحتى نهر مصر، الواقع بالقرب من غزة، وهي مسافة تستغرق خمسة عشر يوماً بالطول، وذلك حسبما يسيطر عليها شعبنا شعب الإيمان تماما عليها اليوم.

هنا انتهى الكتاب الرابع

(١) يعكس هذا الفصل معرفة وليم المتفوقة بالأمور الشرقية، لأنه لا يعطي أي من المؤرخين اللاتينيين المعاصرين وصفاً كاملاً عن سبب وجود هذه السفارة من مصر. هذا وقد أشار العديد من المؤرخين اللاتينيين إلى وجود المندوبين المصريين.

الكتاب الخامس

حصار أنطاكية والإستيلاء عليها

١ ـ أهالي أنطاكية يطلبون المساعدة من جيرانهم. استجابتهم للإستغاثة وعسكرتهم حول حارم.

وفي هذه الأثناء كان سكان أنطاكية وحاكمهم قد استولى عليهم الذعر بشدة، وكانوا يخشون على أوضاعهم، فقد أدهشهم تحمل الحجاج وثباتهم ودأبهم في المشقات، وفي الحقيقة لم يدفعهم الجوع والبرد القاسي إلى الإنحراف عن هدفهم، وعلى العكس واصل المسيحيون العمل بثبات نحو الهدف الموضوع أمامهم على الرغم من أن المصاعب الكثيرة جداً قد اكتنفتهم من كل صوب.

ونظراً لهذا الوضع أرسل أهالي أنطاكية إلى الأمراء المجاورين الرسائل والكتب مراراً وتكراراً يلتمسون المساعدة منهم، وقد حاولوا بتوسلات جدية إثارة عطفهم، وتوسلوا إلى هؤلاء الحكام للإسراع والقدوم بدون تأخير لنجدة إخوانهم، حتى أنهم اقترحوا أيضاً عليهم الطريقة المثلى لنقل تلك المساعدة أن يتركوا حلفاءهم يتوجهون نحو المدينة بأعداد ضخمة، ويختبئون في كمين، وقضت الخطة أن يشغل أهالي المدينة ـ حسبما جرت عادتهم ـ العدو الموجود عند الجسر، ويبقوه منشغلاً بالقتال في ذلك المكان، فعندها كان على الرجال الموجودين بالكمين الإنطلاق والهجوم على المسيحيين المتخلين عن الحراسة، وذلك عندما يكون الموجودون في داخل أنطاكية وخارجها منشغلين تماماً بتلك المناوشات، وكان الأمل في حال النجاح أنه لن يكون أي رجل من المسيحيين قادراً على النجاة من الموت، عندما تتم مهاجمتهم من المقدمة والمؤخرة في وقت واحد.

واستجابة لهذه الإستغاثة الجدية جمعت قوة ضخمة من الجند من حلب وشيزر وحماه وحمص ومنبج ومن مدن أخرى مجاورة [1]، واقتربت سراً وبصمت تام ـ كما قضت أوامرها ـ من

---

(١) كان رضوان صاحب حلب قائداً لهذه القوات، التي جُنّدت بشكل رئيسي من أقاليمه الخاصة وعلى الرغم من أن ولكن يرفض أن يقبل الرقم الكامل الذي استخدمه ألبرت، فإنه بيانه عن الأعداد في ذلك الجيش كبير جداً، وقدر Stephen ستيفن أوف بليوس، في رسالته لزوجته آدل في ذلك الوقت العـدد علـى أنه اثني عشر ألفاً، والذي يجب أن يعتبر بحد ذاته مبالغة كبيرة. (انظر هـ. هاغنمير «التأريخ» رقم ٢٣٣).

حارم على بعد أقل من أربعة عشر ميلاً تقريباً من انطاكية، ونصبت خيامها سراً حولها وفقاً لنصيحة سكان أنطاكية، وعقدوا العزم على الإنقضاض فجأة على المسيحيين بينما يكونون منشغلين بالهجوم على المدينة، غير أن المؤمنين الذين كانوا يسكنون في المنطقة المجاورة من الذين قدموا المساعدات الكبيرة إلى شعبنا في أحوال كثيرة أعلموا القادة بأمر اقتراب هؤلاء الجند ووضعهم، وبناء عليه اجتمع مقدمونا الذين وصلتهم التحذيرات للتداول حول الموقف، وتقرر في النهاية أن على جميع الفرسان في الجيش ممن كان لديهم خيول مناسبة للخدمة، أن يغادروا المخيم سراً، بصمت وبتشكيل المعركة خلف ألوية قادتهم كل على حده، وذلك عند الهزيع الأول من الليل، وفي غضون ذلك توجب على الرجالة البقاء في المعسكر لحمايته حتى عودة رفاقهم الأقوى منهم، الذين كانوا قد انطلقوا وفقاً لأوامر الرب.

٢ - قادتنا يعهدون بحماية المعسكر إلى الرجالة، ويزحفون مع الفرسان نحو العدو ويعودون منتصرين.

وبناء عليه غادر المقدمون المدينة في الهزيع الأول من الليل، حسبما كان قد تمَّ ترتيب ذلك من قبل، وخرجوا عن طريق جسر القوارب، وتقدمْوا على رأس أقل من حوالي سبعمائة فارس إلى مكان واقع بين البحيرة - المذكورة أنفاً في وصف المدينة - وبين نهر العاصي، وكانا في هذه المرحلة منفصلين عن بعضهما بمسافة ميل واحد، ورقد الجند في تلك الليلة هناك، وكان العدو - الجاهل تماماً بتقدمنا - قد عبر في أثناء ذلك النهر أيضاً، في الليلة ذاتها ماراً عن طريق الجسر العلوي.

وعندما انبلج فجر اليوم التالي أخذ المسيحيون أسلحتهم، ونظموا قواتهم في ست سرايا تحت إشراف قادة معينين خصيصاً من قبل، وفي المقابل كان الأتراك في ذلك الحين قد احتلوا موقعاً في المنطقة المجاورة، حيث كان كشافتهم قد أخبروهم بتقدم شعبنا تجاههم، فأرسلوا كتيبتين من الجند أمامهم بمثابة طليعة تبعتها قوة الجند الرئيسة.

وكما سبق وذكرنا، لم يكن لدى المسيحيين سوى سبعمائة رجل، ومع ذلك قضت الإرادة السماوية أن يبدو هؤلاء، بعد ترتيبهم في سرايا حسب قواعد العلم العسكري، وكأنهم آلاف لا تحصى، وكأنما منحتهم السماء قوات إضافية.

وبدأ الموجودون في صفوف العدو الرئيسة بشن هجوم عنيف على صفوفنا، وذلك أثناء تحرك فيالق العدو بالتدريج إلى الأمام، وقذفوا وابلاً من السهام ثم تراجعوا على الفور، ومع ذلك لم يبال رجالنا بانقضاضهم وتقدموا نحوهم متراصين، وهجموا على الكفرة ملوحين برماحهم بقوتهم المألوفة، ثم انقضوا عليهم بالسيوف، وأجبروهم على التجمع كتلة واحدة،

وهكذا جرى تطويقهم في مكان ضيق حيث أعاقتهم البحيرة التي كانت تقوم على أحد الجوانب وذلك مع النهر الواقع على الجانب الآخر، وحرم الأتراك من حرية الحركة إلى حد أنهم كانوا غير قادرين على استخدام اساليبهم المألوفة في إطلاق السهام ثم الإنسحاب بعد ذلك، ولم يستطيعوا تحمل الضغط الذي مارسه المسيحيون لأنهم كانوا مجتمعين مع بعضهم يكتنفهم الخوف من السيوف، فقرروا على الفور أن الفرار هو فرصتهم الوحيدة للسلامة، وبناء عليه ولوا ظهورهم لعدوهم ولاذوا بالفرار، ولاحقهم رجالنا بحماسة حتى مدينة حارم المذكورة من قبل، وعلى بعد عشرة أميال من ميدان المعركة حيث تعرضوا لقتل سريع عندما انسحبوا.

وعندما رأى سكان المدينة أن قواتهم قد هزمت هزيمة منكرة، وأن الجميع قد فتكت بهم سيوف المسيحيين المنتصرين، عندما رأوا ذلك خافوا من البقاء في القلعة بعد هذه الكارثة الكبيرة التي نزلت بأصدقائهم ولذلك أضرموا النار في المدينة وهربوا.

واستولى الأرمن الذين كانوا سكان تلك المنطقة مع المسيحيين الآخرين، حيث كان يسكن عدد كبير منهم في المنطقة المجاورة، استولوا على الموقع وسلموه على الفور إلى قادتنا قبل عودتهم إلى المعسكر.

وقُتل ما يقارب ألفي رجل من رجال العدو في ذلك اليوم، وابتهج المسيحيون وتشجعوا كثيراً بالإنتصار المزدوج الذي حققوه، وشكروا الرب وعادوا إلى المعسكر، ونقلوا معهم خمسمائة رأس من رؤوس رجال العدو المقتولين وكمية ضخمة من الغنائم بما في ذلك ألف حصان قوي كانت لها فائدة قصوى بالنسبة إليهم.

٣ ـ أهالي المدينة يصابون بهلع شديد بسبب نبأ الكارثة التي حلت بحلفائهم.

كان أهالي أنطاكية في هذه الأثناء ينتظرون طوال الليل العون الموعودين به، وقد تطلعوا بتلهف لقدوم الفجر حيث عقدوا العزم على الإنطلاق من المدينة وشن هجوم مفاجىء على المسيحيين يدعمهم في ذلك هجوم حلفائهم من الخارج، وأملوا أنه ستتم مباغتة المسيحيين غير المستعدين لأساليب كهذه، وأنهم سيهزموهم هزيمة منكرة.

وكان الوقت قد قارب الساعة الأخيرة من الليل، وبدأت السماء تزداد ضياء، ومع ذلك لم تظهر أية علامة على قدوم حلفائهم، هذا وكان بعض الكشافة قد نقلوا إليهم خبر أن بعض القادة المسيحيين قد خرجوا من معسكرهم كأنما يقصدون اعتراضهم، وبناء عليه جمع سكان المدينة قواتهم وانطلقوا بتلهف عبر الأبواب، واشتبكوا بحرب عنيفة مع المسيحيين استهلكت معظم ذلك النهار، وأخيراً أنذرهم الحرس المتمركزون في أماكن مرتفعة من

المدينة باقتراب جيشنا وعندها تراجعوا إلى داخل الأسوار، ووقفوا على الأبراج والشرفات والأماكن الأخرى المرتفعة في المدينة منتظرين قدوم الفيالق، ذلك أنهم كانوا لا يدرون تماماً فيما إذا كان الجيش المقترب هو جيش حلفائهم أم جيش عدوهم، بيد أن انتظارهم لم يطل، فعندما اقترب الجند ميز المُحاصَرون دروعهم، ورأوا أنهم كانوا محملين بالغنائم، وأدركوا وقد استولى عليهم الذعر أن هذه القوات كانت قواتاً مسيحية عائدة بمثابة قوات قاهرة بعد انتصارها على الحلفاء الذين كانوا أنفسهم ينتظرون وصولهم بفارغ الصبر، وعندها أطلقوا صيحات العويل بسبب تحطم آمالهم الكبيرة.

واقترب جندنا من المدينة، وتابعوا زحفهم نحو معسكرنا، ومن هنالك قذفوا بآلات القذف بمائتي رأس من رؤوس الأتراك الذين كانوا قد قتلوا، قذفوهم إشارة على انتصارهم ولزيادة كرب الكفرة، وتوجب وضع الرؤوس الباقية على رؤوس القصب ونصبها أمام المدينة، وكانوا يأملون أن هذه المناظر المرعبة ستفيد وستكون كالقذى بالعين، وستزيد من آلام المحاصرين الكثيرة المتنوعة، واستخلص من تقارير الأسرى بعد شيء من التمحيص أن عدد الحلفاء الذين كانوا قد قرروا القدوم إلى نجدة أنطاكية كان يقارب ثمانية وعشرين ألف مقاتل، وقد حدث هذا في العام ١٠٩٧ [١]. لتسجيد المسيح.

٤ - قادتنا يبنون حصنا. وصول سفن من جنوى إلى الميناء. الناس يسرعون نحو شاطىء البحر. بعضهم يقع في كمين ويهلك.

قرر قادتنا في هذا الوقت بناء حصن على إحدى الهضاب المشرفة على معسكر بوهيموند، وأمل أن الحصن الجديد سيكون بمثابة عائق للأتراك في أي وقت يحاولون فيه الهجوم على قواتنا، ويشكل في الوقت نفسه نوعاً من التحصينات الخارجية للمعسكر، وعندما تم إنجازه، عهد به إلى حامية يقظة، وهكذا بات موقع الجيش آمنــاً بـأسره، وكـأنما تمت حمايتـه بأسوار مدينة محصنة، حيث قامت إلى الشرق القلعة المبنية حديثاً، وإلى الجنوب سور المدينة والمستنقع المتاخم، بينما كان في الغرب والشمال النهر الذي انساب بشكل بيضاوي حول أنطاكية.

---

(١) أعلن التاريخ عادة على أنه كان اليوم الأول من الصوم الكبير والذي سيكون، حسب الجداول الزمنية، اليوم التاسع من شهر شباط، وتثير ترجمة وليم المتأنية للتاريخ، كما عرضه ألبرت ومؤرخين آخرين إلى الصيغة المعروضة هنا، أسئلة ممتعة كثيرة، فهل أعطت جداول عيد فصحه ٧ شباط على أنه اليوم الأول للصوم الكبير في ذلك العام؟ وهل عام ١٠٩٧ غلط من الناسخ، أم هل كان تقدير وليم الخامس والعشرين من شهر آذار على أنه البداية للعام وهي ممارسة طبقتها بعض المدن الايطالية وأماكن أخرى؟ لقد كان التاريخ الدقيق لهذه المعركة ٩ شباط ١٠٩٨.

كان قد انقضى على الحصار حتى الآن خمسة أشهر، وفي تلك الآونة أبحرت بعض السفن من جنوى[1] محملة بالحجاج والمؤن ودخلت من البحر إلى مصب النهر، وانتظرت هناك، بينما تم إرسال العديد من الرسل إلى المعسكر لطلب إرسال عدد من القادة لجلبهم بأمان إلى المعسكر، وبما أن العدو قد عرف أن عناصر من حملتنا كانوا معتادين على التجول بحرية حتى الشاطىء، وأن البحارة كانوا أيضاً متلهفين للذهاب إلى المعسكر. بما أنه عرف ذلك كله أقدم على سدّ جميع الطرق، ونصب الكمائن للمارة الغافلين وقد أدى ذلك إلى وقوع العديد من الوفيات، ولهذا لم يعد أحداً يجرؤ على الذهاب إلى المعسكر دون مرافقة قوية.

وفي هذا الوقت بالذات صمم القادة على إقامة حصن على رأس الجسر حيث قام مزار صغير موقوف على الإعتقاد الخرافي للكفرة[2]، وأمل من وراء ذلك أنه سيعيق إلى حد ما قوة العدو ويمنعها من أن تنطلق عبر هذا الجسر، وحدث أن أعداداً كبيرة من المسيحيين كانت قد نزلت إلى الشاطىء، عازمة على العودة بعد إنهاء أعمالها، وكان قد تم اختيار كل من بوهيموند وكونت طولوز مع اللورد افرارد دي بوزيت Evrard Du Puiset، وكونت غارنير دي غري Garnier De Grey لمرافقة المندوبين المصريين إلى الساحل، وكان عليهم أن يعملوا في رحلة العودة كحرس للحجاج الذين كانوا قد وصلوا مؤخراً إلى الميناء، وأيضاً لأولئك الحجاج من شعبنا الذين كانوا قد نزلوا من المعسكر إلى هناك، وعندما علم أهالي أنطاكية أن هؤلاء النبلاء قد غادروا المعسكر متوجهين إلى الشاطىء أرسلوا ضدهم أربعة آلاف جندي مسلحين تسليحاً خفيفاً مع أوامر بنصب الكمائن، وكان على الجنود هؤلاء مهاجمة المسيحيين ببسالة إن صدف وغامروا برحلة العودة دون اتخاذ تدابير وقائية مناسبة.

وهكذا، فبينما كانت المرافقة عائدة في اليوم الرابع برفقة عدد كبير من الناس العزل وقافلة من حيوانات الجر وهي محملة بالطعام وجميع أنواع المعدات، انقض العدو فجأة عليها في بعض الممرات الضيقة، وكان كونت طولوز يسير في المقدمة مع الطلائع، بينما كان الورد

---

(١) كان هذا الأسطول على الأرجح هو الأسطول الإنكليزي، الذي وصل عليه برونو من مدينة لوكا إلى أنطاكية، وذلك اعتماداً على تاريخ وصوله الذي ذكره؛ وكان أسطول من جنوى قد وصل قبل عدة شهور من ذلك، ومع ذلك، يجب اعتبار غلط كهذا على أنه يمكن الصفح عنه لأن الأساطيل كانت تصل من موانىء القناة ومن إيطاليا، وانشغلت كثير من السفن بعد الوصول في نقل المؤن من البلاد المسيحية المجاورة إلى الجيش الصليبي، بحيث كانت هنالك أعمال ذهاب وإياب مستمرة، ومن الثابت أيضاً أن كل أسطول ـ بصرف النظر عن أصله ـ قد صادف سفناً إضافية في الطريق. (انظر هاغنمير «التأريخ» رقم ٢٤٠. وس. و. ديفيد «روبرت كورتهوز»).

(٢) أطلق عليها اسم Machumeria أو Mahumaria وفي الفرنسية Mahomerie ومن المعتقد أن أصل الاسم «محمدية» وقد تبدلت هذه الصيغة فيما بعد أيضاً إلى القديسة ماري St. Mary.

بوهيموند يحمي المؤخرة، وعلى الرغم من أن هذين القائدين كانا رجلين شجاعين ويستحقان الثناء من جميع الجوانب، على الرغم من ذلك لم يستطيعا أن يسيطرا على الحشد الطائش كما رغبا، أو ان يقدما له السند أو السمات الخلقية الأخرى التي رفضت الطبيعة أن تمنحها، وقاوما لفترة طويلة من الزمن دفاعاً عن شرفهما ولحماية رفاقهما أيضاً، ومع ذلك أدركا في النهاية أن بذل المزيد من الجهود سيكون عديم الجدوى، وأن التأخير سيعرض فقط روحيهما لمزيد من الخطر، وهكذا، وفي سبيل اتخاذ إجراءات لتأمين سلامتهما الخاصة، تخليا عن المعركة التي لم تكن متكافئة، وذهبا إلى المعسكر مع أفراد المجموعة الذين كانوا قادرين على اللحاق بهما، وتخلى الناس على الفور عن أحمالهم وأمتعتهم وهربوا في اتجاهات مختلفة، فقد هرب بعضهم إلى الغابات، وهرب آخرون إلى الهضاب، أما الذين لم يستطيعوا الهروب فقد فتكت سيوف العدو بهم، وكانت الضربة المبيرة التي نزلت بشعبنا في ذلك المكان كبيرة، وجاءت تقارير متنوعة عن عدد الذين هلكوا هناك، بيد أن رأي الأغلبية هو إنه قد هلك في تلك المعركة ثلاثمائة شخص من كلا الجنسين ومن جميع الأعمار.

٥ ـ خطة الدوق الرائعة للثأر لهذه الكارثة المشؤومة.

وصلت في هذه الأثناء إلى المعسكر تقارير تفيد أن الناس الذين كانوا في طريقهم من شاطىء البحر قد وقعوا في كمين كان العدو نصبه، وأن الجميع قد هلكوا في هجوم مفاجىء تعرضوا له، ومع ذلك لم يستطع أحد أن يعطي أنباء محددة فيما إذا كان القادة أحياء أم أموات.

وكان الدوق غودفري رجلاً يتمتع بقوة عظيمة، متأهباً دوماً للجوء إلى السلاح، شديد القلق على شعب الرب، وكأنهم أبناؤه، وعندما وصلته الأخبار استدعى كافة المقدمين والفيالق وأمرها أن تحمل أسلحتها بالحال، وأرسل المنادى ليعلن وجوب وجود الجميع وحضورهم لمواجهة أزمة خطيرة كهذه، وذلك تحت طائلة عقوبة الموت لكل من يتغيب، وأمرهم جميعاً أن يهرعوا إلى حمل السلاح للثأر لدم إخوانهم، واجتمعت العساكر دون تأخير وكأنهم رجل واحد، وعبروا جسر القوارب كتلة واحدة، ثم عبأهم الدوق في جماعات، وعين عليهم كلاً من القادة التالية أسماؤهم: روبرت كونت نورماندي، ولوردفلاندرز، وهيو الكبير وأخوه يوستاس، وعين لكل مجموعة هدفها المناسب بقيادة قائدها الخاص بها، ثم شرح الدوق الموقف وبينه لهم كرجال مدركين، وأثار شجاعتهم بأقواله الملهمة التي كانت على النحو التالي: «إن كان صحيحاً، كما نقل إلينا، أن عدو اسم المسيحية وعقيدتها قد انتصر على نبلائنا وإخواننا ـ سامحاً الرب بذلك بسبب آثامنا ـ فإنني أرى أيها الرجال المشهورون أنه

ليس أمامنا سوى خيار الإنتقام للأذى الكبير الذي ألحق بمولانا يسوع المسيح أو نموت معهم، صدقوني إن الحياة والسلامة ليستا مفضلتين على الموت أو على أي نوع من المعاناة، إذا كان دم هؤلاء الشهداء قد هدر عبثاً، وإذا لم يتصد الإنتقام السريع للمذبحة المريعة كهذه التي لحقت بالشعب المكرس للرب، ويبدو لي أن الكفرة المبتهجين بنصرهم لن يأخذوا حذرهم المألوف، وبما أنهم واثقون من قوتهم، فلن يترددوا عن العبور خلال صفوفنا أثناء عودتهم إلى المدينة مع الغنائم والمنهوبات، ذلك أنه كما بسبب الوضع اليائس والتعيس يتخذ الحذر الكبير، فإن النجاح يجعل بالعادة الذين ابتسم إليهم الحظ مهملين إلى حد ما.

فإذا كان هذا ما ترونه أيضاً، فلنستعد هنا، وبما أن قضيتنا عادلة، فلنتعلق بأمل واثق بالنصر من خلال الرب الذي نؤمن به ونقاتل من أجله، فإذا ما حاول العدو العودة من خلال صفوفنا، دعونا نستقبله بحد السيف، ولنضاه بسالة أسلافنا بتذكرنا المظالم التي لحقت بنا»، واستحسن الجميع هذا الخطاب، وبدا وجيهاً في نظر الجميع، وبينما كانوا ما يزالون يتمعنون بأقواله عاد بوهيموند من الشاطىء من المعسكر، ولحق به الكونت بعد فترة وجيزة.

واستقبل الناس قائديها بدموع الحب العميق، ذلك أنهم أدركوا أنهم قد نجوا بصعوبة من فقدان حكمة هذين الأميرين العظيمين، ووافق الأميران على فكرة الدوق وخطته، وأعلنا عن وجوب تنفيذها.

كما وشعر يغي ـ سيان، الذي كان عارفاً في هذه الأثناء أن قواته فازت بالنصر، شعر بالقلق عليهم وعلى عودتهم آمنين، خاصة بعد ما عرف أن الفيالق كانت قد غادرت المعسكر بأعداد كبيرة أكثر من المعتاد، ولذلك أصدر أمراً عاماً قضى على جميع الموجودين في المدينة ممن لديه خبرة باستعمال الأسلحة أن يجتمعوا فوراً عند الباب بجانب الجسر، وأن يكونوا مستعدين إذا لزم الأمر لتقديم المساعدة في حينها لسكان المدينة العائدين.

وكان قادتنا قد أرسلوا من جانبهم الكشافة لإجراء دراسة دقيقة للطريق الذي كان من المحتمل أن يعود العدو من خلاله، لأنهم وثقوا أن الرب سيمنحهم النصر.

٦ ـ العدو يعود منتصراً لكنه يتعرض للفتك بسيوف المسيحيين عند باب المدينة. موت ألفين منه. الدوق يقطع أحد الفرسان الكفرة من منتصفه.

نظمت الصفوف دونما تأخير، ورفعت الرايات، وبينما كانت تنتظر ظهور الجيش التركي وصل الكشافة بسرعة بالغة يحملون نبأ أن العدو كان قد احتل موقعاً قريباً، وحثوا شعبنا بصيحات مسعورة على حمل السلاح، والزحف نحو العدو، وهكذا زحفت الفيالق قدماً نحو الأمام بقدر ما بدا لها ذلك موائماً، زحفت وهي تطلب العون من السماء، وتصرخ

بكلمات التشجيع لبعضها بعضاً، وقام المسيحيون الذين كانت سمعتهم بالشجاعة غير منسية، فصوبوا رماحهم وانقضوا على العدو بانسجام واحد، ثم شدوا حسب عاداتهم المألوفة بالسيف، بكل جرأة، على الكفار بقتال محكم، واندفعوا نحوهم متذكرين مظالمهم التي ألحقوها بهم، ولم يمنحوهم أية فترة استراحة حتى للتنفس، فأصاب الهلع العدو، وفقد شجاعته وخارت قواه، واستدار وهرب نحو الجسر الذي كان يؤدي إلى المدينة، يحاول كل رجل منه أن يسبق جاره.

هذا وكان دوق لورين قد خبر من قبل العديد من مثل هذه الأزمات، لهذا قام جنوده بالإستيلاء على موقع أمام الجسر حيث قامت رابية منخفضة، ولهذا السبب لحق القتل بالأتراك عندما هربوا أمام قادتنا المبجلين أثناء مطاردتهم إياهم حتى الجسر، أو أجبروا على العودة إلى موت محتم بالإنخراط بالعراك الذي كانوا قد هربوا منه منذ لحظات.

ونفذ كونت فلاندرز، وهو المحارب العنيف، والمدرب تدريباً جيداً على استخدام السلاح، نفذ مع جنده مطاردة عنيفة، وهزم ببسالة صفوف العدو، وألحق بها ـ على التوالي ـ الكوارث التي كانوا قد ألحقوها بقواتنا.

كما وحارب كونت نورماندي، المماثل لأجداده بالشجاعة، في هذه المعركة بشجاعة أيضاً، أضف إلى هذا أن كلاً من كونت طولوز المشتعل حماسه من أجل الرب، وهيو الكبير المراعي دوما لشأن سلالته الملكية، والمضاهي دوما بجلال محتده النبيل، وكونت يوستاس أخو الدوق، وبلدوين كونت هينوHainault ، وهيو أوف سانت بولص، هؤلاء جميعاً مع النبلاء الآخرين انقضوا على العدو بكل ضراوة، وأنجزوا الأعمال الشجاعة هذه، بحيث أنهكت قوة الكفرة، فقتلوا بشكل بائس كالأغنام.

وأمر يغي ـ سيان بإغلاق الأبواب خلف قواته بعد ما بعث إلى القتال، مزيلاً بذلك كل فرصة أمامها بالعودة، فقد أمل أن ذلك سيثيرها على القتال بشجاعة أكبر، وأن يحثها على القتال ببسالة أعظم، واعتقد أنه كان يتصرف على أحسن وجه باعتماده هذا المسلك، غير أنه على العكس من ذلك كان يسبب هلاكهم عن غير قصد منه، فقد كان الفرار وسيلة نجاتهم الوحيدة، عندما أصبحوا غير قادرين على تحمل هجوم رجالنا وضغطهم الشديد، وحدث عند ذلك أن الذين حرموا من هذا الأمل، ونجوا من الموت عن هذا الطريق، قتلوا بالسيف، وهلكوا بأعداد كبيرة.

لقد كان هنالك الكثير من قعقعة السلاح، وصليل السيوف المتلألئة وصهيل الخيول، ولغط الرجال وصريخهم في المعسكر، إلى حد أنه لو لم تكن أسلحة المتحاربين شديدة

الإختلاف والتباين في المظهر، لكان الخطأ المميت قد عرض الكثيرين لهلاك وشيك، أو حتى للموت.

كانت عقيلات أنطاكية قد تجمعن مع بناتهن والأطفال الصغار على الأسوار وفي الأبراج مع الرجال المسنين، وجميع السكان غير المحمين، وقد نظروا جميعاً من هنالك بالدموع والآهات إلى المجزرة، وحزنوا على قتل رفاقهم، وبكوا قائلين: «كانت الأيام التي انقضت سعيدة، وإن الذين منحهم الموت امتياز الرحيل قبل أن يروا مثل هذه الفواجع، هم محظوظون»، كما أن العديد من أمهات الأطفال اللواتي اعتبرن سعيدات من قبل نظر إليهن الآن على أنهن تعيسات جداً، وساد اعتقاد أن النسوة العاقرات كن أكثر حظاً وأعظم سعادة من الأمهات.

رأى يغي - سيان أن شعبه قد انهزم الآن تماماً، وأن البقية المعرضة للسيف لا بد وأنها ستقتل في المجزرة القائمة في الجوار، ولذلك أمر بفتح الأبواب بما أمكن من سرعة حتى يتمكن بقية الناس من تأمين سلامة أنفسها، وفتح المدخل، وتبع ذلك ازدحام ولغط مخيفان، حيث حاول الهاربون، الذين كان العدو يطاردهم، عبور الجسر، وازدحموا كثيراً مع بعضهم، ولهذا قُذفت إلى النهر أعداد كبيرة منهم استولى الرعب عليها.

كان دوق لورين قد قاتل بشجاعة عظيمة طوال الإشتباك كله، وأعطى برهاناً بارزاً على القوة التي اشتهر بها، ولا سيما في المساء في الصراع الذي كان يدور حول الجسر، فقد أنجز هنالك عملاً مشهوراً يستحق التذكر إلى الأبد، وعد ذلك مأثرة جعلته بارعاً في نظر الجيش بأسره، فبعدما جندل بقوته المألوفة العديد من الفرسان المدرعين بضربة واحدة من ضرباته، طارد في النهاية بشجاعة أحد الفرسان، وقده إلى نصفين، على الرغم من أنه كان محمياً بدرع صدري، لقد قطعه إلى نصفين، فسقط القسم العلوي من جسمه، والواقع فوق خصره، على الأرض، بينما نقل الجزء السفلي إلى داخل المدينة على ظهر حصانه الجاري، وروع هذا المنظر الغريب جميع من رآه، ولم يكن من الممكن أن تبقى هذه المأثرة مجهولة، حيث نشرت الحكايات القصة في كل مكان[1].

ويقال إن العدو فقد في ذلك اليوم قرابة ألفي رجل من رجاله، ولو لم يكن الليل الغيور مما نحرزه من مآثر ومن قوة انتصارنا، قد حل بسرعة لكان حصار أنطاكية قد انتهى

---

(١) قد تكون هذه الأسطورة لمأثرة غودفري العضلية قد بدأت في وصف المعركة من قبل ريموند دي أغوليرز الذي تحدث عن غودفري وهو يفرق الخصوم عندما اقتربوا من الجسر، ووسع ألبرت هذا الوصف، ويبدو أن وليم في هذه الحالة قد أوصل الوصف إلىٰ حده الأقصى.

حتماً في ذلك الوقت، ولقد كانت الدلائل على المجزرة المرتكبة ظاهرة تماماً حول الجسر والنهر إلى درجة تغير فيها لون الماء، وجرف إلى البحر سيلاً من الدم.

وقد قيل إنه قد قتل إثنا عشر حاكماً من الحكام الأتراك الرئيسين في هذا الإشتباك، وهذه خسارة للمدينة يتعذر تعويضها، وتبين أن هذا القول هو حقيقة أكدها فيما بعد بكاملها سكان المدينة النصارى الذين قدموا إلى معسكرنا من أنطاكية.

٧ ـ شعبنا يبني حصناً على رأس الجسر. إرساله دليلاً على الإنتصار إلى السفن.

عندما عاد النهار إلى الأرض بسيره العادي اجتمع القادة من جديد، لتقديم الشكر للرب القدير، على الإنتصار الممنوح إليهم، وأيضاً لإجراء مداولات حول المسائل الهامة، ووافق الجميع على وجوب تنفيذ مشروعهم الأصلي، بإنشاء حصن على رأس الجسر، حيث سيعيق هذا الحصن سكان المدينة ويمنعهم من مغادرة المدينة، ويمنح سهولة وسلامة أكبر لرجالنا عندما يرغبون بالتطواف في ناحية ما أو أخرى، وكان في ذلك المكان ـ وقد ذكرته من قبل ـ مزار موقوف على الشعائر الدينية للأتراك، وكانوا قد أقاموا إلى جانبه مكاناً لدفن موتاهم فيه، وكانوا قد قاموا خلال الليلة المنصرمة وفي جزء من اليوم اللاحق، بنقل جثث موتاهم إلى هناك ليدفنوها، واقتحم شعبنا المكان بالقوة، متصرفاً حسب معلومات موثوقة، وآملاً في إيجاد الغنائم التي دفنت مع الموتى، وفتحوا القبور، وانتشلوا الجثث ونقلوا معهم الذهب والفضة والأثواب النفيسة، والجثث نفسها أيضاً.

وتم الحصول على معرفة دقيقة بخصوص خسائر العدو، وذلك من خلال الكشف الذي جرى بهذه الطريقة، وهي مسألة كانت موضع شك حتى الآن، حيث كان القتال قد انتهى ليلاً، وزادت هذه المعرفة ابتهاج المسيحيين كثيراً، وطربوا لنجاح اليوم السابق، فقد وجدوا أنه بالإضافة إلى الذين أغرقوا في النهر خلال حوادث مؤسفة متنوعة، والذين دفنوا في المدينة، والذين جرحوا جروحاً خطيرة وكانوا على حافة الموت، وجدوا بالإضافة إلى هؤلاء جميعاً ألفاً وخمسمائة جثة في المقبرة، وقد جرى إرسال ما يقارب الثلاثمائة رأس من رؤوس القتلى إلى الميناء، حيث بعثت ابتهاجاً عظيماً في نفوس أبناء شعبنا الذين كانوا قد عادوا إلى هناك بعد قتال اليوم السابق، كما أفادت كإنذار ناجح للمندوبين المصريين الذين لم يكونوا قد غادروا الميناء بعد.

وكان العديد من المسيحيين الذي نجوا من مخاطر اليوم السابق يختبئون في كهوف الجبال وفي أدغال الغابات، وأسرع هؤلاء إلى المعسكر حالما سمعوا بنبأ انتصاراتنا، وهكذا

عادت أعداد كبيرة من الجنود من الذين كان من المعتقد أنهم قتلوا في المعركة، لقد عادوا سالمين وآمنين بإرادة الرب.

وجرى بناء حصن على رأس الجسر من الأحجار ذاتها التي سبق واقتلعت من القبور، وتمّ إنشاء هذا البناء عندما عاد الناس الذين كانوا قد التجأوا إلى أماكن مختلفة، وساهم الجميع بتعاون حماسي في.تشييد هذا الحصن الذي تمت تقويته بسور متين وخندق عميق.

ثم ناقش الرؤساء مسألة حماية هذا المكان، هذا ولم يكن أحد منهم راغباً بتولي مسؤولية شاقة مثل هذه المسؤولية، وتذرع الجميع بحجة أو أخرى وقدموها كعذر لهم، ثم تولى كونت طولوز حبيب الرب القيام بهذه المسؤولية طوعاً وفي سبيل المصلحة العامة، لقد تولى القيام بالعناية بالقلعة الجديدة، وكسب بهذا العمل ودّ الحملة بأسرها، الأمر الذي كان قد فقده خلال السنة، حيث كان قد رقد ضعيفاً وعاجزاً تقريباً عندما افترسه المرض طوال الصيف السابق والشتاء الذي تلاه، فبينما كان جميع القادة الآخرين يحملون مسؤولية الجيش بحماسة لا تعرف الكلل، كان هو الوحيد الذي بدا أنه غير مبال بها، فقد كان يفتقر تماماً إلى نعمة الأنس، ولم يظهر أي سخاء نحو الجميع، وكان هذا ملحوظاً بشكل أكبر، لكونه شهر بالثراء الكبير، أكثر من البقية، ولهذه السمة لربما كان بإمكانه أن يفعل الكثير، ولعله لهذا السبب تولى طوعاً القيام بأعباء هذه المهمة ليقدم تعويضاً عن كسله ومسلكه البخيل، ويقال أيضاً إنه منح أسقف بوي وبعض النبلاء الآخرين خمسمائة مارك فضي وزناً، وذلك من أجل استبدال الخيول التي فقدت في هذه المعركة.

وبالمحصلة أظهر أتباعه أنفسهم الذين كانوا واثقين من أنه سيعوضهم عن فقدان خيولهم، أظهروا شجاعة عظيمة وروح مبادرة فريدة أثناء قتال العدو، وهكذا تلطفت المشاعر تجاه الكونت النبيل، وسماه الجميع أبو الجيش وحاميه.

٨ ـ تطويق المدينة بأحكام أكبر بوساطة قلعة جديدة بنيت للتو مقابل الباب الغربي.

وهكذا أغلق باب الجسر بقلعة جديدة، حيث وضع الكونت خمسمائة رجل شجاع فيها، ولم يستطع سكان المدينة ـ من الآن فصاعداً ـ الخروج منها إلاّ بعد التعرض لخطر شديد، في حين تمكن شعبنا من التطواف بحرية أكبر في مهماته الضرورية، وفي الواقع لم يعد بإمكان العدو مغادرة انطاكية إلاّ عن طريق الباب الغربي الذي انتصب بين سفح الجبل والنهر.

وفي الواقع لم تعرض حرية الخروج هذه، خلال ذلك الباب جندنا للخطر الشديد، حيث كانت جميع معسكراتنا موضوعة على الناحية الأخرى من النهر، ومع ذلك كان هنالك

شعور أنه كان لدى المحاصرين الكثير من حرية التطواف، حيث كانت ما تزال المؤن الضرورية للمدينة تنقل إليها عبر تلك الطريق، واجتمع القادة الشجعان، ذوو الذكرى الخالدة لدراسة هذه المسألة، وللتداول من جديد، وتقرر أن يكون الحل للقضية في إنشاء بعض التحصينات على الناحية الأخرى من النهر في موقع موائم، ومن ثم مركزه أحد المقدمين هنالك ليعيق انتقال العدو جيئة وذهاباً، وفي الوقت الذي وافق الجميع على وجوب بناء الحصن، لم يتطوع أحد منهم لقبول القيام بمهمة حراسته، وترددوا إزاء هذه المعضلة، ولم يقرروا ما هو المنحى الواجب إتخاذه، وجرى بالأخير اختيار تانكرد الشهير للقيام بهذا العمل، وهو رجل صاحب فعالية كاملة، ولقد كان على وشك تقديم بعض المعاذير حول افتقاره للوسائل، عندما قدم له كونت طولوز مائة مارك فضي لأعمال البناء، وعلاوة على ذلك خصص له من الخزينة العامة مبلغ أربعين ماركاً في الشهر لتدفع إلى العاملين معه في هذا الميدان، وحتى يحصلوا على تعويض كاف.

ونتيجة لهذا بني حصن متاخم لذلك الباب على هضبة، حيث كان هنالك دير قد بني من قبل في ذلك المكان، وعُين الرجال العقلاء والأقوياء لحراسته، وتمت المحافظة عليه سالماً بفضل جهود تانكرد التي اتسمت بالشجاعة والنجاح، حتى نهاية الحصار.

كان هنالك مكان منعزل، له شكل بهيج، واقع بين الجبال والنهر، وذلك على بعد قرابة أميال أربعة أو ثلاثة دون أنطاكية، وعلى طول ضفاف نهر العاصي، فهنالك رعت قطعان الأغنام في مراع خضراء خصبة موجودة هناك، وكان العدو قد نقل معظم خيوله إلى هذا المكان بسبب قلة العلف بالمدينة، وعندما اكتشف المسيحيون هذه الحقيقة جمعوا بهدوء عدة سرايا من الخيالة انطلقت إلى ذلك المكان بعدما سلكت طرقاً فرعية حتى لا تعرف غايتها، وعندما وصلت إلى هناك قتلت عدداً من الفرسان كانوا يحرسون القطيع، واستولت على ألفي حصان رائع بالإضافة إلى عدد لا يحصى من البغال ـ ذكوراً وإناثاً ـ وساقتها جميعاً إلى المعسكر، وكانت هذه الغنيمة بالنسبة للمسيحيين أنفس من جميع الغنائم الأخرى في تلك الآونة، حيث كانت قد هلكت جميع خيولهم تقريباً في المعركة، أو كانت قد ماتت من الجوع والبرد والحوادث المؤسفة الأخرى.

٩ ـ عودة الجند الذين كانوا قد تفرقوا في كل مكان إلى الجيش. بلدوين يرسل من الرها الهدايا إلى كل واحد من المقدمين.

كانت المدينة مطوقة الآن من جميع الجهات، ولم يستطع السكان الجواز بسهولة إلى ما وراء الأسوار ليقوموا بأمورهم في الخارج، ولهذا السبب أحاقت بهم مصاعب عديدة، وبدأت

تهددهم مشاكل أخرى أيضاً، حيث أخذ الطعام بالنفاد، وحدقت الحاجة في وجوههم فجأة، وهو مشهد سبب الكثير من القلق لسكان المدينة، وتمكن شعبنا أن يسافر الآن إلى شاطىء البحر بحرية أكبر، أو حتى إلى أي مكان دعتهم الضرورة إليه، وهكذا فإن ندرة الطعام في المعسكر، التي كانت قد سببت الكثير من الكرب لسائر الجيش قد خفت كثيراً، حيث هدأ البحر عندما انتهت قسوة الشتاء، وعاد الربيع المبهج، وكان بإمكان الأسطول الموجود في الميناء أن يبحر دون مشقة منه وإليه، وأصبحت الطرق سالكة بفضل الدفء المتزايد، حيث تمكن الذين لديهم اهتمامات خاصة أن يخرجوا بصعوبة أقل للإهتمام بأمورهم، وعاد إلى الجيش المسيحيون الذين كانوا يمضون الوقت في القلاع والمدن المجاورة فراراً من مشقات حياة المعسكر، وذلك بعودة المناخ الأكثر اعتدالاً، وأصلحوا أسلحتهم واستعدوا للقتال من جديد وبقوة متجددة.

ووصلت في تلك الآونة أخبار إلى اللورد بلدوين-وهو أخو الدوق ـ تحدثت أن الجيش كان يناضل ضد العوز والحاجة الماسة بشكل عنيف جداً، وفاض قلبه بشفقة وورع، وقرر أن يخفف عنهم ويؤمن بعض مستلزماتهم من ثرواته الخاصة الوفيرة، وهي الثروات التي كان الرب قد منحه إياها بسخاء، وبالفعل خففت هداياه السخيــة من الذهب والفضة والأقمشة الحريرية والخيول المسومة ذات القيمة العالية، خففت إلى درجة كبيرة من سوء أحوال جميع المقدمين، كما أنه لم يكتف بإظهار سخائه العظيم للمقدمين فحسب، بل أبداه نحو العديد من الناس أيضاً، وهذا سلوك حقق له تأييداً شاملاً، ومحبة من الجميع.

وعلاوة على ذلك، وحتى لا ينتقص من مكانة سيدة وأخيه الأكبر سناً منه، وليقدم له ما يستحقه أمر أن يتسلم غودفري عائدات جميع الأراضي التي كان يملكها على جانب نهر الفرات حول تل باشر والريف المجاور، وقد تكونت هذه العائدات من القمح والشعير والزيت والخمر، وذلك بالإضافة إلى خمسين ألف قطعة ذهبية.

وكان هنالك واحد من الحكام الأرمن الأقوياء يدعى نيخوسوس [1] Nichosius قد ارتبط بصداقة حميمة مع بلدوين، وبدافع احترام من نيخوسوس لبلدوين أرسل عدداً من أتباعه يحملون هدية للدوق، وهي فسطاط كبير الحجم مصنوع بشكل رائع، بيد أن باكراد

(١) لا تؤيد المصادر الأرمنية هذه القصة. ويعتبرها اسكندريان علىٰ أنها رمز خيالي للمساعدة التي قدمها الأرمن بالفعل، بينما يميل بيمونت على الرغم من ريبته إلىٰ حد ما بالزخرفة الخاصة للحكاية إلىٰ متابعة كوغلر في قبولها. وورد ذكر نيخوسيوس أو نيخوسوس لدى المؤرخين الآخرين (انظر غالوست ت.اسكندريان «الحملة الصليبية الأولىٰ وبيزنطة والأرمن وقيام كونتية الرها ص٣٣ حاشية ١٠٠ وأ.أ.بيمونت «ألبرت أوف آخن وكونتية الرها» في Mumro-crusades ص١١٤ ـ ١١٥).

نصب كميناً للأتباع الذين عهد إليهم بحمل الهدية، واستولى على الفسطاط وحمله إلى بوهيموند كهدية منه، وعلم الدوق بنبأ هذا الإعتداء، وبجميع تفاصيل القضية كما رواها له أتباع نيخوسوس، وعندها اصطحب غودفري كونت فلاندرز معه، حيث كانت تربطه به علاقات صداقة حميمة خلال أيام الحملة بأسرها، وذهبا إلى بوهيموند، وطالب باسترداد الهدية التي سرقت بالقوة على الرغم من أنها كانت موجهة إليه، ومع ذلك ادعى بوهيموند أنها كانت هدية النبيل باكراد له، وادعى أنه كان محقاً في الإحتفاظ بما كان الدوق يطالب به، بيد أنه ما لبث أن انصاع بالنهاية إلى مطالب المقدمين الملحة، وأعاد الفسطاط الذي قدم إليه كهدية، خشية أن يثير فتنة بين الناس أو يسبب شجاراً بين القادة، وهكذا تمت إعادة الودّ تماماً من جديد بين المقدمين.

ويبدو لي الأمر غريب جداً بالنسبة للدوق، الرجل الذي شهر بالإعتدال وبجلال الشخصية، ومن الغرابة بمكان أنه أظهر مثل هذا الإصرار في المطالبة بشيء تافه جداً، ولا أستطيع أن أفسره إلاّ بالمثل القائل: «ما من إنسان كامل من جميع الجوانب»[1] وأيضاً بالمثل الذي يقول: «حتى هوميروس الفاضل يهم أحياناً»[2] وهنالك مثل آخر يقول: «يسن لك الإخلاد للنوم في المهمة الطويلة»[3]، ذلك أن قوانين الطبيعة الإنسانية تقتضي أننا نادراً ما نبصر في أنفسنا ارتداداً عن الصواب.

١٠ ـ الإشاعة في المعسكر عن اقتراب جيش العدو. ستيفن كونت بليوس يتوجه نحو الساحل بذريعة مرضه وهو عاقد العزم على ألا يعود.

وانتشرت في هذه الآونة إشاعة كبيرة أفادت أن واحداً من الملوك الفرس الأقوياء كان على نية إرسال حشد من الجند من جميع أنحاء مملكته لنجدة أنطاكية، وذلك استجابة للتوسلات الملحة لسكانها، وتنفيذاً لمطالب شعبه المستمرة أيضاً، وكان قد أصدر مرسوماً امبراطورياً قضى بإرسال جيش قوي من الأتراك إلى سورية، بقيادة أمراء معينين خصيصاً لذلك، ولم تدن هذه الإشاعة بمصدرها وانتشارها للعالم الخارجي فحسب بل كان اللاجئون الذين أتوا من المدينة إلى معسكرنا متفقين على تأكيد النبأ ذاته، وازدادت هذه الإشاعة من يوم إلى آخر، إلى حد القول أن جندها باتوا على الأبواب معهم تهديداتهم، واستولى الخوف على جيشنا بالحال.

---

(١) توحي مجموعة النقول من هوراس في هذه المرحلة أن وليم قد يكون أضاف هذا المقطع عندما عاين الكتاب لإجراء التنقيح الأخير، ذلك أن النقول الكلاسيكية أكثر شيوعاً في الجزء الأخير من كتابته.

(٢) هوراس Arspoet,359.

(٣) المصدر نفسه: ٣٦٠.

واستأذن خلال هذه الأزمة ستيفن كونت تشارترز رفاقه بالإنصراف، ونزل إلى الساحل متذرعاً بالمرض، وكان المقدمون قد جعلوه رئيساً لهم أثناء مداولاتهم، واعتبروه كالأب بسبب محاكمته العقلية المتميزة [١]، إضافة إلى أنه نبيلاً مشهوراً، وصاحب نفوذ كبير، وقد اصطحب معه عبيده وأتباعه، وجميع مقتنياته وكانت كبيرة جداً، وكان عذره أنه رغب بالإقامة في الإسكندرونة ـ حتى يتعافى تماماً ويسترد قوته بحيث يتمكن من العودة إليهم، والإسكندرونة مكان يقع على شاطىء البحر، وليس بعيداً جداً عن الميناء، ويشكل المدخل إلى كليكية.

ورافقه عند رحيله قرابة أربعة آلاف رجل كانوا قد انضموا إلى أتباعه، وتراجع منسحباً إلى الإسكندرونة لدى وصوله إلى الساحل، وأقام هناك يترقب نتيجة الحوادث، عاقداً العزم على العودة إلى الجيش، إذا ما حالف النجاح المأمول قواتنا في المعركة، يعود وكأنه قد شفي من مرضه، أما إذا ما كان المصير عكس ذلك، فقد قامت خطته على الرجوع إلى بلده في سفن كان قد وضعها في حالة استعداد، وهو سلوك ألحق به خزياً أبدياً وخسارة للتقدير والإجلال إلى الأبد.

وأصيب بالذعر القادة الذين تركهم بالمعسكر، لهذا العمل الشائن، والمفعم بالعار السرمدي، وشعروا في الوقت نفسه بالأسى لفقدان مثل هذا الشخص اللامع الذي لوث بهذا السلوك سمعة مجد أسرته، ولطخ سمعته ذاتها، وناقشوا بقلق السبل التي يمكن لهم بها مواجهة هذا الطارىء حيث كان هنالك خطر من أن الآخرين الذين كانوا ما يزالون معهم، من المتأثرين بهذا الخسيس سيغامرون بالأقدام على القيام بمحاولة مشابهة، وتقرر في النهاية، وبإتفاق شامل على أن يتم الإعلان بصوت المنادي أنه بات من المحظور على الجميع بدون استثناء مغادرة المدينة، وكل امرىء ـ بصرف النظر عن وضعه الرسمي أو خدماته المتميزة ـ يقدم على مغادرة المعسكر بدون إذن من المقدمين، لسوف يكون عرضة للإدانة بالحرمان والخزي الدائم، مثله في ذلك مثل مقترف القتل أو المتهم بتدنيس المقدسات، أضف إلى هذا، أنه سيرغم على تحمل أشد العقوبات وأكثرها صرامة، ونتيجة لهذا، فإن الخوف من العقاب، ولاعتبارات الشجاعة، منع كل إنسان من مغادرة المعسكر منذ ذلك الوقت، وذلك دون الحصول على إذن من القادة، حتى ولو كان ذلك لفترة قصيرة من الزمن، وأظهر الجميع

---

(١) من المحتمل أن السن والشخصية المنشغلة كانتا أكثر أهمية من حكمه، لأنه لا يوجد دليل أنه شغل دوراً حاسماً في تقرير السياسة. كما أن قساوة حكم وليم على سلوك ستيفن هي انعكاس دقيق للرأي المعاصر آنذاك، وقد طمس هذا العمل عودته إلى فرنسا، ولهذا سعى إلى التكفير بعد وقت قصير (انظر الكتاب العاشر الفصل ٢٠).

أنفسهم على أنهم مطيعون لقادتهم، مثل الرجال في الأديرة المنعزلين عن العالم، وفعلوا ذلك بدون إحداث مصاعب أو اضطراب.

١١ ـ وصف أوضاع أنطاكية ووصف الصداقة المتكونة بين بوهيموند وواحد من مسيحي المدينة.

تلقت مدينة أنطاكية حبيبة الله، تعاليم المسيح في أيام الحواريين، وذلك كما سبق بنا القول من خلال تبشير أمير الحواريين، وقد حملت بإيمان وتطوع ثقل مسؤوليته اللينة حتى أيامنا هذه، في حين ترنح الشرق بأكمله وتمكن خلفاء محمد من إخضاع مقاطعات الشرق بأسرها عن طريق القوة، وقد أخضعوها لديانتهم الفاسدة ومعتقداتهم الخرافية، ورفضت هذه المدينة بإزدراء الأنبياء وعقائدهم المسممة، وتمنعت بقدر الإمكان عن تحمل سيطرة أمة كافرة، فعلى الرغم من أن بدع هذا المضلل قد حققت سيطرة راسخة على جميع البلدان امتداداً من الخليج العربي وحتى البوسفور ومن الهند إلى الأندلس [١] فإن هذه المدينة الفريدة والفذة قد حافظت على الدين سلماً، وصمدت بصدق في وسط لجة الشعوب الضالة، وذلك في سبيل حريتها.

ولم يعد أخيراً سكان المدينة النبلاء قادرين على المقاومة، وذلك بعدما أضعفتهم أعمال الحصار الطويلة، وضايقتهم هجمات العدو، وقد اضطروا قبل قرابة أربع عشرة سنة من أيامنا هذه إلى تسليم أنطاكية إلى خصم اسم المسيحية ودينها، وهكذا كان جميع السكان تقريباً مؤمنين حقيقيين عندما وصل جيشنا أمام الأسوار، غير أنه لم تكن لديهم قوة في المدينة، وكانوا منشغلين كلياً بالتجارة وفي ممارسة المهارات اليدوية، ولم يسمح إلاّ للأتراك والكفرة دون سواهم بشن الحرب وشغل المناصب الأكثر أهمية في المدينة، كما لم يسمح للمسيحيين باقتناء الأسلحة أو حيازة أي شيء له علاقة بالأمور العسكرية، وغدا المؤمنون موضع ريبة أعظم عندما وصلت إلى رجال الزعامة والسلطة في مدينة أنطاكية تقارير تحدثت عن اقتراب الحجاج من الغرب، وازداد الأمر بعدما وقعت المدينة تحت الحصار إلى حد أنه لم يعد يسمح لهم بمغادرة منازلهم والذهاب علانية وبحرية حيث شاءوا، اللهم إلاّ في ساعات محددة وخاصته.

وكان هنالك بعض الأسر النبيلة جداً بين أهالي المدينة، وكانت وريثة للسمو القديم لأسر انحدرت من أسلاف مشهورين، وكان من بين هذه الأسر أسرة بارزة بنسبها الرفيع،

---

(١) ليس واضحاً فيما إذا كان وليم يفكر هنا بشبه الجزيرة الإسبانية فقط أو بأصبهان أيضاً وهي المنطقة الواقعة شمال شرق أرمينية والتي سماها مؤرخو ذلك الوقت باسم إسبانيا أيضاً.

وكان اسمها عائلة بني زرعة، وهي تسمية تعني باللاتينية «أبناء صناع الدروع»[1] وقد عرفوا بهذا الإسم إما لحقيقة أن جدهم الأول كان قد مارس هذه المهنة، أو لأنهم أنفسهم زاولوها، وهذا ما يبدو معقولاً، فبالفعل ما يزال بعض أفراد هذه الأسرة يمارس تلك المهنة، وهم يمارسونها بسبب انتقالها إليهم من خلال أجيال متعاقبة، ذلك أنهم كانوا مدنيين باسمهم الموروث لها، وكان قد خصص لهم برج كان يعرف عموماً باسم برج الأختين ويقع بالجزء الغربي من المدينة إلى جانب الباب المعروف حالياً باسم باب القديس جورج، وقد خصص لهم حتى يتمكنوا من مزاولة مهنتهم بهدوء، ذلك أن هذه المهنة كانت ذات أهمية بالغة للمدينة ولحاكمها.

وكان هنالك أخوان في تلك الأسرة يدعى أكبرهما فيروز، وكان زعيماً لعشيرته وأسرته وبذلك كان رجلاً صاحب نفوذ كبير، وكانت له علاقات صداقة حميمة مع حاكم أنطاكية الذي حباه بالعديد من درجات التشريف، وشغل منصب الأمين في القصر، وتصرف بالعديد من المناصب الرفيعة الأخرى، وكان رجلاً صاحب نشاط كبير، كما كان بارعاً جداً، وكان قد سمع أن بوهيموند كان أميراً بارعاً وله شهرة كبيرة ومكانة عالية جعلته يبرز في كل ما كان يحدث في الخارج، ولهذا نجح في كسب حظوة بوهيموند حالما بدأ الحصار، وتم ذلك من خلال خدمات المؤمنين من الوسطاء، وقد ظل مؤمناً موقفاً نفسه على تلك الصداقة خلال أعمال الحصار بالكامل، وقد أخبر بوهيموند كل يوم تقريباً بما كانت عليه أحوال المدينة وبخطط يغي ـ سيان بكل تفصيل، وبما أنه كان رجلاً عاقلاً وحذراً، فقد كان متيقظاً لإخفاء إتصالاته مع بوهيموند بكل ما أمكنه، ذلك أنه خشي أن يتعرض مع أسرته للخطر إن علم الآخرون بذلك، وكان بوهيموند من جانبه متحفظاً أيضاً بالنسبة لصداقته

---

(١) يبدو أن هذا الحديث لخيانة أنطاكية قد لاقى قبولاً شديداً لدى وليم وأثار خياله، فهو لم يعتمد فقط على جميع مصادره اللاتينية، بل على مصادر عربية أيضاً للحصول على المعلومات ثم سمح لخياله أن ينقل قلمه إلى ما وراءها. وبالفعل، فإن تيداو Tiedau سيضيف إضافات هامة في الأسطورة الشعرية التي استخدمها الكتاب المتتابعين Chanson d'Antioche W. tie dau, Ges chico hteder chanson d'antkoche) (des Ricard le pelenin und des Graindor de Doway).

هذا وإن وصفه لفيروز هو الوصف الأكثر كمالاً مما يمكن العثور عليه لدى مؤرخي تلك الفترة. كما أن الكتاب العرب، بما فيهم ابن القلانسي يؤيدون صلة فيروز بصنع الدروع. (انظر جب ترجمته لابن القلانسي بعنوان: «تاريخ دمشق» ص ٤٥). ويعتقد اسكندريان أن فيروز كان على علاقة وثيقة مع فيلارت Philaret الحاكم الأرمني لإنطاكية في ظل الحكم الاغريقي، والذي شهر أنه قبل الإسلام أملاً بالاحتفاظ بمنصبه عندما استولي الأتراك على المدينة وربما فعل فيروز الشيء نفسه أيضاً (نظر اسكندريان «الحروب الصليبية» ص ٣٤ ـ ٣٦ وهـ. هاغنمير «تاريخ أعمال الفرنجة لمؤرخ مجهول» ص ٢٩٣).

الحميمة مع هذا الرجل الطيب، وقد أبقاها سراً في نفسه، ونتيجة لهذا لم يثر أدنى إرتياب أو يفشي أية أخبار حول صداقتهما أو عن الرسل المتنقلين جيئة وذهاباً بينهما حتى إلى خدم أو أسرة أي منهما.

١٢ - المؤامرة المدبرة بوساطة الرسل بين بوهيموند وذلك الرجل المؤمن.

كان التفاهم السري بين هذين الرجلين - الأمر الذي ذكرناه منذ لحظات - قد استمر لمدة سبعة أشهر تقريباً، وكانت قد جرت خلال تلك الآونة مشاورات طويلة بينهما بخصوص الأسلوب الذي يمكن أن تعاد المدينة بوساطته إلى الحرية المسيحية، وقد ذكّر بوهيموند فيروز بهذه المسألة مراراً وتكراراً، ويقال إن فيروز أرسل في النهاية الإجابة التالية وذلك بوساطة ابنه الذي عمل حاملاً لهذه الرسائل الشخصية: «حسناً، هل تعرف يا أفضل الرجال، ويا من هو بالنسبة لي أغلى من الحياة نفسها، كم أحببتك بصدق من الوقت الذي دخلنا فيه في هذه الصداقة المشتركة بإرادة الرب، وعلاوة على ذلك فإني أتذكر أني وجدت دائماً في أقوالك الثبات الصحيح الجدير بالرجل الفاضل، ولذلك فقد دخلت إلى قلبي يوماً بعد يوم وبعمق متزايد، وازداد حبي لك، وتأملت ملياً في المسألة التي لفتت انتباهي إليها مراراً وتكراراً بحذر جدي، وتمعنت بها أكثر من مرة، وأخذت بعين الإعتبار والتقدير المناسب جميع جوانبها المتنوعة، وإنني لمقتنع من أنني إذا ما تمكنت من إعادة بلدي الأصلي إلى حالته السابقة من الحرية، وأن أطرد هؤلاء الكلاب القذرين الذين اضطهدونا بحكمهم، وأن أستبدلهم بشعب يعبد الرب فلسوف أفوز بالثواب الأبدي، وسيتاح لي أن أنعم برفقة القديسين المباركين إلى الأبد، هذا ولا بد من الأخذ بعين الإعتبار أنني إذا ما توليت القيام بهذه المهمة الصعبة والخطرة، ثم أخفقت في إنجازها بنجاح ما من أحد يرتاب في أن منزلي وشهرة أسرتي ومكانتها ستمحق حتماً بالكامل، إلى حد أنها لن تذكر بعد ذلك ولا حتى اسمها، ومع ذلك فإن الأمل بالثواب اعتاد دوماً على جذب أذهان الفانين نحو مثل هذه المجازفات، ولذلك إنه إذا ما قبل رفاقك أن تكون هذه المدينة لك دون سواك عندما يتم تسليمها لك بوساطة جهودي الحماسية، وبمساعدة الرب الذي ربط بيننا بروابط الصداقة الحميمة، فسأتولى القيام بتلك المهمة وإن كانت صعبة، وسأؤدي هذا بسبب حبي لك، حيث أتمنى الخير لك كما أتمناه لأبنائي، وسأسلمك بدون تأخير هذا البرج المحصن تحصيناً قوياً، والذي - كما ترى - أسيطر عليه سيطرة كاملة، بحيث تتمكن من خلاله أن تحصل مع سائر شعبك على مدخل سالك إلى المدينة، هذا ولا بد من القول: بما أنكم جميعاً متساوون، إنك إذا ما اقترحت أن تتشارك مع الآخرين بالتساوي في المدينة المأخوذة في مثل هذه

الأحوال، إنني لن أتورط في خطر كهذا من أجل الذين لا أهتم بهم، ولذلك، وفي سبيل مصلحة الجميع وسلامتهم ورخائهم، ابذل جميع الجهود للحصول على هذه الموافقة من القادة المرتبطين معك، والباقي مضمون، وهو أنني لن أتوانى عن فتح المدخل لك إلى داخل المدينة ـ وهو الهدف الذي تحاول أقناعي به ـ وذلك حالما أتلقى معلومات محددة تؤكد أنك قد ضمنت لنفسك ذلك الوعد.

زد على هذا، اعلم أنه إذا لم ينفذ هذا العمل على الفور، فمن الممكن أنه سيتأجل إلى الأبد، ذلك أن حاكم هذه المدينة ما يزال يتلقى الرسل والرسائل يومياً تقريباً، والجميع يشير إلى أن تعزيزات محشودة من الشرق بأسره في طريقها لتقديم المساعدة إليه، وهي قد خيمت حول نهر الفرات بقوة مؤلفة من مائتي ألف فارس، وإذا ما وجدتك هذه الجيوش ما تزال في الخارج، فلن تكون قادراً إلا بصعوبة بالغة على مقاومة القوات المتحدة لأهالي المدينة مع حشود حلفائهم الزاحفة.

١٣ ـ بوهيموند يبذل جهوداً جبارة حتى تمنح المدينة إليه عندما تستسلم. كونت طولوز يرفض وحده ذلك.

بدأ بوهيموند يختبر منذ تلك الآونة، بجدية كبيرة، عاطفة القادة المستقلين في محاولة منه لاكتشاف ما كان يفكر به الجميع، ولمعرفة ما هو الترتيب المحتمل وضعه للمدينة المحاصرة في حال الإستيلاء عليها، هذا وقد أخفى في الوقت نفسه خطته بحذر شديد، اللهم إلاّ عن الذين اعتقد أنهم سيوافقون على رغباته، وعندما وجد أنه لن يحقق سوى بعض النجاح مع بعض القادة، أجّل الموضوع إلى مرحلة أكثر مواءمة، ومع ذلك فقد وافق كل من الدوق غودفري وكونت نورماندي، بالإضافة إلى كونت فلاندرز وهيو الكبير على مطالبه، ومنحوه موافقة طوعية، واستحسنوا سرّ الرجل النبيل وأعجبوا بحكمته، وحافظوا على ما ابتغاه سراً دفيناً في قلوبهم، كأنه شيء يجب ألا يطلع أحد عليه، وكان كونت طولوز وحده على خلاف مع الآخرين حول هذه المسألة، ونتيجة لموقفه حدث تأجيل كاد أن يكون مأساوياً، لأن ذلك الصديق المعروف من قبل بوهيموند كان مكرهاً على أن يتولى القيام بمهمة تشتمل على الجسيم بالنسبة له، في سبيل الآخرين، كما أن بوهيموند لم يعمل بجدّية في سبيل المصلحة العامة بقدر ما عمل في سبيل منفعته الشخصية الخاصة، ومع ذلك فقد استمر بالمحافظة على صداقته مع فيروز عن طريق تبادل الهدايا والمجاملات، منفذاً بذلك واجبات الصداقة الحميمة، كما تم تبادل رسائل متكررة بينهما، ودعم الإثنان الصداقة التي نشأت بينهما من قبل ورعياها.

١٤ ـ القوى المتحالفة الزاحفة لنجدة أنطاكية تحاصر مدينة الرها. بلدوين يبدي مقاومة شديدة ويجد الحلفاء أنفسهم مجبرين على الإنسحاب عبر نهر الفرات دون تحقيق أي نجاح.

عادت الوفود التي كان قد أرسلها كل من يغي ـ سيان وسكان أنطاكية إلى بلاد فارس لالتماس المساعدة، عادت في هذه الآونة إلى ديارها بعد ما أتمت مهمتها بنجاح، وحصلت على المطالب التي قدمتها، وكان السلطان العظيم لبلاد فارس قد سمع بما كانت تعانية أنطاكية من مصاعب، فتحركت عاطفته نحوها، فقد كان من مصلحته كبح محاولات المسيحيين والقضاء على قوتهم بالحال خشية أن يطمحوا باستخدام أسلحتهم لانتزاع بعض الأجزاء من مملكته، وبناء عليه أرسل حشوداً لا تحصى من الفرس والأتراك والأكراد إلى سورية بقيادة واحد من أصدقائه المقربين، ممن كان باستطاعته أن يعتمد اعتماداً كلياً على شجاعته وإخلاصه واجتهاده[1]، وكان تحت لواء هذا الأمير قادة المئات والخمسينات وبعض القادة الأدنى مرتبة، حيث توجب عليهم أن يطيعوه جميعاً، وأن ينصاعوا لأوامره، وكان السلطان قد زود هذا الأمير برسائل لها قوة القانون، كانت موجهة إلى حكام جميع المناطق الخاضعة لسيطرته، وقد أمر السلطان بهذه الرسائل جميع الناس والشعوب والقبائل والأمم بإتباع ابنه المحبوب كربوغا دونما إظهار للمعاذير، ذلك أنه عينه قائداً لجيوشه بسبب خدماته، وتوجب على الجميع الخضوع لسلطة هذا الرجل وإطاعته في كل ما رغب بفرضه وحسبما أملته إرادته.

واضطلع كربوغا بمسؤولية قيادة الفيالق التي ذكرت قبل قليل، وذلك تحقيقاً لأمر هذا السلطان، وزاد من تعداد قواته بعساكر جنّدها أثناء زحفه خلال مختلف البلدان، ودخل إلى الجزيرة مع مائتي ألف رجل، وخيم في المنطقة المجاورة للرها، وهنالك علم من خلال مختلف التقارير أن واحداً من قادة الفرنجة، الذين كان يزحف ضدهم قد سيطر على هذه المدينة وعلى الريف المحيط بها، وبناء عليه قرر مهاجمة تلك المدينة والإستيلاء عليها بالقوة قبل أن يعبر نهر الفرات.

هذا وفي المقابل كان بلدوين قد تلقى من قبل معلومات عن تقدمه، فجمع الرجال الشجعان من هنا وهناك لمساعدته، وذلك بعدما كان قد زود مدينته بالطعام والأسلحة بكل عناية، ولذلك لم يأبه كثيراً بتهديدات كربوغا المخيفة، وأمر كربوغا مناديه أن يعلن أن

---

(١) جاءت هذه القوات بشكل رئيسي من الموصل بقيادة كربوقا وهو مغامر تركي تمكن من طرد حكام الجزيرة العرب وأحل نفسه محلهم مع الإعتراف بالتبعية للسلطنة السلجوقية.

الفيالق ستهاجم الرها، وستتولى حصارها بكل قواها، ومع ذلك أبدت المدينة مقاومة عنيدة، وما لبث أن اتضح أن كربوغا لم يستطع أن يحرز سوى تقدم بسيط في تلك المحاولة، وهنا ذهب الرجال ذوو الفطرة السليمة والتفكير العملي إلى قائدهم، وأقنعوه بعد كثير من الجدل بالتخلي عن هذه المهمة التي لم تكن أولاً وآخراً سوى محاولة عرضية، والتقدم نحو هدفه الرئيسي، أي نحو الفرات لعبوره ومن ثم الإسراع لنجدة أنطاكية، وهو ما أرسل من أجله، وذكّروه أنه عند عودته، بعد رفع الحصار عن أنطاكية، لن يحتاج الأمر إلى أكثر من يوم للإستيلاء على الرها ولأسر بلدوين.

وأمر كربوغا الفيالق بعبور النهر، إنما بعد فترة من الزمن ضاع الجهد فيها أمام الرها وتبدد لمدة ثلاث أسابيع متتالية [1]، ثم تبعها بنفسه، وبدأ يحث الخطا بكل نشاط نحو هدفه، ولقد كان توقف حشود الكفرة أمام الرها السبب الذي حال دون حضور بلدوين للمشاركة في حصار أنطاكية، وكان أيضاً السبب الذي قاد إلى انقاذ شعبنا، لأنه لو كان كربوغا قد زحف مباشرة إلى أنطاكية قبل أن يستولي المسيحيون عليها، لكان الحجاج في وضع خطير، حسبما كان صديق بوهيموند قد تنبأ، فقد تم بفضل الرب الإستيلاء على مدينة أنطاكية قبل وصول الكفرة، ويلاحظ أنه حتى مع استيلائهم عليها لم يكونوا قادرين إلاّ بصعوبة بالغة على الصمود أمام زحف كربوغا.

١٥ ـ المسيحيون يعانون كثيراً من القلق إزاء اقتراب العدو. ارسالهم الكشافة.

انتشرت في هذه الأثناء في كل مكان من المعسكر تقارير تحدثت عن تقدم جيوش كبيرة جداً، وبما أن العديد قد أكد صحة هذه التقارير، فقد بات من شبه المؤكد أن العدو موجود آنذاك في المنطقة المجاورة، وبالنظر لقلق القادة الشديد تجاه هذه المسألة، عمدوا إلى إرسال بعض الرجال ذوي الخبرة في اتجاهات مختلفة، وقد اعتمدوا اعتماداً كلياً على إخلاصهم واجتهادهم، وصدرت التعليمات إلى هؤلاء الرجال باستجواب من لا يشك بإخلاصه من الناس حتى يمكن الحكم على صحة التقارير حسبما كانت منتشرة بشكل عام، وقد جرى اختيار بعض المحاربين الشجعان من ذوي المنزلة العالية للقيام بأعباء هذه المهمة مثل دورغو دي نسلي Drogo De Nesle وكليربولد دي فندويل Clarebold De Vendeuil وجيرارد دي تشيرسي Gerard De Cherisi ورينالد كونت تول Renald Count of Toul، وآخرين لا نتذكر أسماءهم، وتفرق هؤلاء الرجال مع أتباعهم في اتجاهات مختلفة، وأجروا

(١) ٤ ـ ٢٥ ـ أيار.

تحقيقات دقيقة جداً، وأرسلوا بدورهم الكشافة إلى القطاعات الأكثر بعداً، وبهذه الطريقة جمعوا معلومات موثوق بها، وكان مفادها أن العساكر كانت تُجنّد من جميع الجهات، وأنها اجتمعت في جيش واحد كالأنهار المعتادة على التدفق إلى البحر، وعاد الكشافة أخيراً في الوقت المناسب، وأكدوا للقادة الذين كانوا قد أرسلوهم أنه لا يمكن الشك مطلقاً بصحة التقارير، ولا يجوز تجاهلها بعد الآن، وهكذا تلقى القادة الكبار للجيش المسيحي إنذاراً قبل سبعة أيام من وصول كربوغا مع قواته إلى قرب أنطاكية، واتفقوا جميعاً على إصدار أمر إلى الجواسيس بعدم ترك هذه المعلومات تتسرب إلى الناس، فقد كان هنالك خشية من أن حَشْدَ العامة من الناس، الذي أضناه الجوع وهدته المشاق الطويلة الأمد، يمكن أن يقهره الخوف فيخطط للهرب، كيف لا وهذا سلوك قد تبناه بالفعل بعض كبار الزعماء منذ أمد قصير انقضى.

١٦ ـ الرؤساء يجتمعون للتداول . بوهيموند يفشي السر الذي ائتمنه صديقه عليه .

وهكذا اجتمع الرؤساء للتداول حول موقف بدا أنه كان أزمة الحملة بأسرها، وبدأوا بروح التواضع، وبقلوب مسحوقة، بدراسة الإجراءات المتوجب اتخاذها حيال طارىء من هذا القبيل، وقد اقترح بعضهم أنه يجب على القوة المنشغلة بالحصار الزحف ضد الحشد إلى مسافة ميلين أو ثلاثة أميال من المدينة، وعليهم هنالك أن يجربوا حظهم بالحرب، بعد التوسل لعون السماء ضد القائد المتعجرف الذي استغل استغلالاً كبيراً قوة جيشه المتعدد الآلاف، واعتقد آخرون أنه سيكون من الأعقل ترك قسم من الجيش في المعسكر لمنع سكان المدينة من الخروج للإتحاد مع الحشد المقترب، وينبغي بعد ذلك على القسم الأقوى من الجيش المسيحي الزحف مع ذوي الخبرة الكبيرة في استخدام السلاح إلى مسافة ميلين نحو الكفرة حسب الإقتراح الأول، وأن يشتبكوا مع العدو إن بدا ذلك مناسباً للرب بعد نيل عون العلي القدير.

وبينما كانوا يناقشون هذه المسألة بعناية ويتبادلون الآراء حولها بكل حرية، انفرد بوهيموند بكل هدوء بالقادة الرئيسين واختلى بهم وناجاهم على انفراد وهم: الدوق غودفري، وروبرت كونت فلاندرز، وروبرت كونت نورماندي، وريموند كونت طولوز، وعندما كانوا في مكان منعزل وحدهم بعيداً عن البقية، خاطبهم بوهيموند بقوله على النحو التالي: «إنني أدرك أيها الإخوة الأحباء، وأيها الزملاء في خدمة الرب، أن القلق يعذبكم وذلك بسبب اقتراب هذا القائد الذي يقال إنه بات قريباً جداً، فلقد كان لكل واحد رأي مختلف خلال المداولة التي عقدت من قبل، وحسبما أملته عليه رغباته الخاصة، ومع ذلك لم يطرق أي من الإقتراحات صلب القضية، فسواء خرجنا جميعاً كما يرغب بعضكم أو بقي

جزء منافي المعسكر، من الواضح أن جهودنا الحماسية وانتظارنا الطويل ومتاعبنا ستكون قد هدرت، إننا إذا ما ذهبنا جميعاً سينتهي الحصار، وتحقق أهدافنا، وسيسترد سكان المدينة حريتهم، وسينضمون إلى العدو وبخروجهم الحرّ، أو سيستقدمون جند حلفائهم إلى داخل المدينة».

«هذا من ناحية، وإنني أرى من ناحية أخرى أن النتيجة ذاتها ستكون محتومة في حال بقاء جزء من الجند في المعسكر، ولا تستطيع القوة المتحدة والكاملة لسائر قواتنا أن تلج سكان المدينة إلاّ بشق النفس على الرغم من أنهم يعانون من محن تبعث على اليأس ودون أمل بالمساعدة على الإطلاق، فهل سيكون من الممكن لقسم فقط من جيشنا أن يستطيع إبقاءهم داخل الأسوار بعد أن وصل حلفاؤهم؟ ويتضح لي أن ما سيحدث سيكون واحداً من اثنين وذلك على الفور، فهم إما سينضمون إلى حلفائهم ويهاجموننا بقوات متحدة وبأعداد متفوقة، أو سيستقدمون جندا من حلفائهم ويدخلونهم إلى المدينة بطريقة ما، وسيحصنون أنطاكية ويشحنونها بالسلاح والمؤن والعتاد بكل عناية، وسنكون في تلك الحالة ما نزال لا نملك أي تأكيد بالإستيلاء على المدينة حتى وإن هزمنا عدونا خارجها بمعونة الرب، لذلك يبدو لي أيها الرجال البارزون المبجلون أن علينا أن نبذل قصارى جهدنا لنخضع مدينة أنطاكية لسلطتنا قبل وصول هذا القائد الكبير، هل تسألوني كيف يمكن تنفيذ هذا المشروع وبأية وسيلة؟ وحتى لا أبدو وكأنني أقترح إنجازاً مستحيلاً، فسأصرح أنني أستطيع أن أفتح طريقاً نستطيع بوساطته أن ننجز هدفنا المرغوب بسرعة وسهولة: لي صديق مخلص داخل أنطاكية، وهو رجل عاقل جداً بقدر ما تستطيع الأنظار البشرية تقرير ذلك، ولقد أعلنت إلى عدد منكم من قبل ـ كما أعتقد ـ أن هذا الرجل يسيطر على برج محصن تحصيناً قوياً، وقد وافق بإيمان جيد وبشروط محددة على تسليمه لي، وذلك عندما توسلت إليه ليفعل ذلك، ورداً على معروفه هذا أخذت على نفسي عهداً أن أعطيه مبلغاً كبيراً من المال، وأن أضمن إلى الأبد له ولورثته ممتلكات وامتيازات واسعة من جميع الأنواع، وذلك مقابل صنيعه إذا ما انتهى الأمر كما نرغب».

«إنني أيها السادة الأعزاء على استعداد لتنفيذ ترتيبي مع صديقي إذا ما بدا لكم مناسباً أن ينتقل الإشراف على المدينة وحكمها لي، بعد ما أكون قد استوليت عليها بجهودي الحماسية، وأن أملك حق توريثها إلى الأبد، وإذا كان الأمر لا يعجبكم فليحاول كل منكم أن يجد طريقة أفضل يخضع المدينة بوساطتها لسلطانه، وليملكها ذلك الشخص الذي سينجح بسلام وهدوء، فأنا متنازل عنها لمصلحته وإنني مستعد لأن أسلمه أية حصة أمتلكها في لأعمال الحالية».

١٧ ـ الرؤساء يتنازلون مسرورين عن المدينة لبوهيموند . بوهيموند يتفاوض سراً مع صديقه بخصوص التسليم .

أصغى الزعماء بابتهاج إلى هذه الأقوال، ومنحوا موافقة طوعية مستحبة لمطلب بوهيموند، باستثناء كونت طولوز الذي أعلن بشدة أنه لن يتنازل عن حقوقه لأحد [١]، ووعد الزعماء الآخرون بمنح بوهيموند المدينة مع المناطق التابعة لها بمثابة ملكية وراثية أبدية، وتعهد كل منهم مقسماً أنه لن يفشي السر إلى أحد، وفي الوقت نفسه حث الجميع الأمير بوهيموند على إنهاء المسألة باجتهاد خشية أن يحدث تأخير خطير.

ثم ارفضّ الإجتماع، ورغب بوهيموند بالتعجيل في إتمام مشروعه بحماسة زائدة ذلك أن شخصيته لم تحتمل أي تأخير، واتصل على الفور مع صديقه بوساطة المراسل المعتاد، وأعلمه أن الزعماء قد وافقوا على جميع ما كان قد طلبه منهم، وحض فيروز بإلحاح، وبالإيمان الفاضل القائم بينهما أن ينفذ الخطة في الليلة المقبلة بمعونة الرب، وأبهج هذا الخبر قلب فيروز المؤمن بلا حدود.

ويروى أنه وقع في تلك الآونة حادث أعطى فيروز باعثاً أقوى لإنجاز الخطة التي كان قد أعدها، فبينما كان منهمكاً بنشاط في الواجبات العديدة التي كان مسؤولاً عنها والتي تعلقت بالمنصب الذي شغله في دارسيده، لا بل في سائر أنحاء المدينة، يقال إنه أرسل ابنه الشاب إلى منزله لسبب ملح لا نعرفه.

وعندما وصل الشاب إلى المنزل، واجه مشهداً مخزياً، فقد وجد والدته في أحضان واحد من كبار الزعماء الأتراك، فأصاب الرعب والحزن الرجل الشاب، فعاد مسرعاً إلى والده وأخبره بالإهانة التي رآها، وقد أسخط ما حدث فيروز كثيراً، ويروى أنه قال بمرارة وغضب كزوج مجروح الكرامة: «ألم يكف الكلاب القذرين أنهم يسحقوننا تحت نير العبودية الغاشمة ويستنزفون وقفنا الكنسي بالإبتزاز اليومي، بل صار لهم حق انتهاك قوانين الزواج وأن يمزقوا روابطه، لئن كتبت لي الحياة، سأضع حداً لهذه الإهانة بمعونة الرب، وأجازيهم بما يستحقون».

لقد أخفى بهذه الكلمات شعوره بالأذى الذي لحق به، فأرسل ابنه، شريك سرّه،

---

(١) اعتبر يواديل معارضة ريموند هنا على أنها شاهد آخر على التنافس الأناني مع بوهيموند الذي كان قد بدأ قبل زمن طويل من هذا (ر.ب.يواديل، بوهيموند الأول أمير أنطاكية، ص٥٠). هذا ومن المدهش قبول ولیم لإسطورة اغتصاب زوجة فيروز تسويغاً لعمله الخياني، علماً بأن معظم المصادر العربية تجمع على القول إنه كان أرمنياً.

والذي كان مضطرباً مشغول الخاطر بسبب هذا الضيم الذي نزل بوالده، إلى بوهيموند بالطريق العادي، وأمره أن ينبه ذلك القائد لكي يحضر باهتمام تام كل ما هو ضروري للعمل ويجعله في متناول اليد، ذلك أنه لن يكون هنالك أدنى تأخير من جانبه، فهو سينفذ وعده في الليلة المقبلة، ولفت انتباهه إلى أنه من المتوجب على جميع القادة مغادرة المعسكر مع أتباعهم في حوالي الساعة التاسعة، وكأنهم قد عقدوا العزم على الزحف ضد العدو، وكان عليهم العودة سراً وبصمت تام في الهزيع الأول من الليل، وأن يستعدوا للعمل حسب توجيهاته في حوالي منتصف الليل، ووجه بوهيموند هذا الشاب سراً إلى القادة الذين كانوا مطلعين على الخطة، وشرح جميع تفاصيل الترتيب الذي كان قد أجراه، حسبما خطط لذلك مع فيروز بمساعدة ابنه، واستحسن الزعماء الخطة التي ملأتهم بالإعجاب بفيروز وبإخلاصه الصادق، ووافقوا على وجوب تنفيذها حسب الترتيبات الموضوعة.

١٨ ـ سكان المدينة يرتابون بفيروز. فيروز يعلن عن براءته أمام حاكم المدينة.

وكما يحدث مراراً أثناء الأعداد لبعض المشاريع البالغة الأهمية، وقع آنذاك حادث غير متوقع، حيث أخذ أهالي المدينة وبخاصة المسؤولون منهم عن مصالح المدينة، يتوجسون عن طريق الشك والحدس أكثر منه عن طريق البراهين القاطعة أنه كانت تجري مفاوضات سرية تتعلق بتسليم المدينة، وما لبث أن غدا هذا الموضوع العام للحديث على شفاه الجميع، وهكذا اجتمع أعيان المدينة، وذهبوا إلى الحاكم للتشاور معه بخصوص هذه الشائعة، وقد بدا الأمر محتمل الوقوع، لأن العديد من الدلائل قد أشارت إلى ذلك، وكما سبق بي القول وجد في انطاكية العديد من المسيحيين، وقد وضعوا جميعاً موضع الريبة، وذلك على الرغم من أنهم كانو بريئين تماماً من هذه المؤامرة، وكان من بينهم فيروز السيد النبيل الذي نحن بصدد الحديث عنه، فعلى الرغم من أن يغي سيان قد اعتمد كثيراً على ولائه الخالص فقد كان موضع ريبة من قبل أعيان المدينة الآخرين.

وذكر اسم فيروز بين أسماء المشتبه بهم، وذلك خلال مجرى المداولات التي جرت بشيء من القلق حول القضية وذلك بحضور يغي سيان، وبدا بالفعل موضعاً للشك به في هذه القضية، ذلك أنه كان صاحب نشاط كبير، وكان أكثر نفوذاً من بقية المسيحيين في المدينة، وقام الأمير، وقد انصاع لحجج مستشاريه، قام أخيراً باستدعاء فيروز، وجلب فيروز، وجرى بحضوره متابعة البحث في الأمر نفسه عن عمد، علهم يستطيعون سماع رأيه حول القضية، حتى يكون بإمكانهم التقرير اعتماداً على أقواله فيما إذا كان موضع شبهة عن حق أم لا.

يبد أن الذي حدث هو أن فيروز كان رجلاً فطنا وسريع البديهة، فقد اكتشف على الفور أن هذا المؤتمر كان منعقداً للبحث في شؤونه، وأنه كان موضع ريبة، وبناء عليه، وحتى يتمكن من إخفاء أهدافه، وليؤكد على براءته أمامهم يقال إنه أجاب الذين كانوا قد اجتمعوا لاختباره على النحو التالي: «إن قلقكم أيها الرجال المبجلون، ويا زعماء هذه المدينة العظماء، قلق جدير بالثناء الكبير، وهو أمر لا يتوفر إلاّ بين الرجال الحكماء فقط، لأنه من مهام الحكمة التنبؤ بما يمكن أن يحدث، ولا يضر أبداً الإفراط بالحذر بالمسائل الكبرى، ولذلك يبدو لي أنه قد أثاركم دافع هام، لا سيا وأنتم تبدون القلق على أرواحكم وحريتكم، وعلى زوجاتكم وأطفالكم، ومع ذلك، إذا تقبلتم نصيحتي، هنالك طريقة سريعة نوعاً ما، يمكن بوساطتها تقديم علاج مناسب، ودواء فعال لهذا الوباء الذي يهددكم: لا يمكن لهذه الخيانة البغيضة، التي تخافونها بحكمة كبيرة، أن تكون ناجحة إلاّ بوساطة المعينين لحراسة الأبواب، ولذلك إذا كنتم ترتابون بإخلاص هؤلاء الناس، بدّلوهم باستمرار حتى لا يبقوا في مكان واحد لفترة طويلة فيتمكنوا من إقامة صداقة مشؤومة مع العدو، فمكيدة من هذا القبيل لا يمكن إعدادها بسهولة، وهي بالحقيقة مسألة تحتاج بعض الوقت، كما أنه لا يمكن لشخص بمفرده أن يقوم بأعباء عمل من هذا القبيل وبهذه الدرجة من الأهمية، بل تقتضي بالضرورة توريط أناس في مناصب عالية، يمكن عدّهم شركاء مساوين بالجريمة، وذلك بعدما أفسدتهم الرشاوى، بيد أنكم ستزيلون بإجراء هذه التغييرات الفجائية وغير المتوقعة الفرصة بأكملها لقيام مفاوضات من هذا القبيل»[1].

وبهذه الكلمات توقف عن الحديث، وأرضت تعليقاته الجميع، وبدت جيدة في نظرهم فقد قدم برهاناً كافياً على براءته، وخفف إلى حد ما آثار الريبة التي كانت قد ثارت ضده، ولو لم تكن شمس ذلك اليوم تميل وقتها للغروب، وتبشر بالقدوم السريع لليل، لكان قد تمّ تنفيذ نصيحته على الفور، ولذلك لم يكن ممكناً إجراء تغيير جذري في حراسة المدينة في تلك الساعة، هذا وصدرت في الوقت نفسه الأوامر بتنفيذ الحراسة المشدّدة جداً واليقظة للمدينة، وذلك على الرغم من أن الجميع لم يكونوا يعرفون أمر الترتيبات السرية التي كان يخطط لها ذلك الرجل، ولما كان فيروز مدركاً أن الوضع سيتغير على الفور تغييراً كبيراً، أجهد نفسه وكدّها في سبيل إنجاز تنفيذ الخطة قبل أن يحدث شيء يمكن أن يعيق ذلك.

---

(١) ينبغي أن نعتبر هذا الكلام المعزو إلى فيروز مع بقية الرواية حوله من بنات خيال ولم.

١٩ ـ وصف كيف أثقل نصارى أنطاكية بالخدمات الكثيرة، وكيف أخفقت المذبحة التي أعدت لهم إخفاقاً تاماً.

لقد ارتاب أهالي المدينة بالإغريق والسريان والأرمن وبجميع السكان الآخرين الذين كانوا يعتنقون الدين المسيحي وذلك بصرف النظر عن العرق الذي كانوا ينتمون إليه، وحدث هذا منذ اليوم الذي وصل فيه جيشنا إلى أمام أسوار أنطاكية، ووضع المدينة تحت الحصار، وتبعاً لذلك طردوا من المدينة جميع الضعفاء مع الذين لم يكن لديهم ما يكفيهم من المؤن الضرورية لإعالة أنفسهم وأسرهم الصغيرة، خشية أن يصبحوا عبئاً على المدينة، ولم يُسمح بالبقاء في المدينة إلاّ للأغنياء الذين كانت لديهم وسائل وفيرة، ومؤن كافية مخزنه لهم ولأسرهم المباشرة، وحتى على هؤلاء فرضت خدمات كثيرة جداً، فبالإضافة إلى الخدمات المألوفة بات عليهم تحمل أعباء إضافية ثقيلة، إلى حد أن مصير المنفيين بدا أكثر سعادة من مصير الذين سمح لهم بالإحتفاظ بـاقامتهم هنالك في سبيل مصالح المدينة العليا، أضف إلى ذلك، إنه غالباً ما انتزعت الغرامات المالية منهم، إلى درجة أنه اغتصب منهم عن طريق العنف حتى الشيء القليل الذي بدا أنهم يملكونه، وكانوا يقسرون بالقوة، وعلى الرغم من جميع الإحتجاجات، على أداء أحقر جميع أنواع المهام التي تحتاجها المدينة وأشقها، وكان إذا ما توجب إنشاء بعض الآلات أو تحريك العوارض الخشبية الثقيلة جداً، كانوا يكلفون على الفور بالقيام بتلك الأعمال، وقد أجبر بعضهم على حمل الأحجار والملاط، وجميع المواد الصالحة لأغراض البناء، وكان على آخرين منهم تقديم الحجارة الضخمة التي كانت تقذف باستمرار بآلات القذف إلى ما وراء الأسوار، وكان عليهم أيضاً تأمين الحبال التي كانت هذه الآلات تُسيّر بوساطتها، وكانوا خاضعين خلال ذلك لإرادة مراقبين لم يمنحوهم أية فرصة للراحة أو الإستجمام، وتتوج هذا الشر البغيض ووصل الأوج عندما عقد ظلاّمهم مداولة سرية، قبل ثمانية أيام من الإجتماع الذي دعي المشتبه به فيروز إليه، وقرروا آنذاك أنه من المتوجب قتل جميع المسيحيين القاطنين في أنطاكية سراً أثناء الليل، هذا وكان في المدينة زعيم قوي وحكيم أظهر نفسه دوماً كصديق للمسيحيين، وقد تم إيقاف تنفيذ المذبحة لمدة ثمانية أيام بوساطة جهود هذا الرجل، وذلك على الرغم من معارضة الآخرين، ولولا هذا التأجيل لكان تم إرسال القتلة لتنفيذ خطتهم الشريرة بدون ريب، ولكانت قد هلكت سائر جماعة المسيحيين بالسيف في تلك الليلة بالذات، وجاء القبول بفكرة الإرجاء لثمانية أيام على أساس أخذ فرصة يمكن خـلالها من التأكد فيما إذا كانت هنالك إمكانية انتهاء الحصار، فإذا ما وُجد أن شعبنا قد عقد العزم على مواصلة الحصار فلسوف يتم تنفيذ المذبحة، أما إذا ما حدث العكس، فسيصفح عن الأهالي الذين حكم عليهم بالموت، وكانت المهملة المعطاة قد

انتهت الآن، وكانت تلك الليلة هي الليلة الأخيرة، وكان الأمر قد صدر سراً بوجوب تنفيذ الخطة التي تم إعدادها منذ زمن طويل بين بوهيموند وفيروز، وقد أنجزت بالفعل بمعونة الرب، ولهذا لم يشعر الرجال القياديون إلاّ بقلق بسيط نسبياً إزاء الشغب الذي نشأ عندما شرع الفرنجة المسيحيون يسيطرون على المدينة، فقد اعتقدوا أن الإضطراب في المدينة لم يعد أكثر من أن الأوامر كانت تنفذ ضد أبناء مدينتهم المسيحيين.

ولهذا اكتشف العديد من الكفرة في منازل المسيحيين، عندما تم الإستيلاء على المدينة بالقوة، لقد كانوا قد أتوا لذبح المؤمنين الأبرياء حسبما صدرت الأوامر إليهم.

٢٠ ـ الجيش يترك المعسكر بقصد العودة ليلاً وذلك تنفيذاً لخطة فيروز .

في حوالي الساعة التاسعة سمع صوت المنادي يعلن في كل مكان من أطراف المعسكر أن على جميع قوات الفرسان المسلحة تسليحاً تاماً أن تتبع قادتها بدون تأخير لتنفيذ الأوامر التي ستصدر إليها، ولم يكن الناس وحدهم غير عارفين بالخطة السرية، بل سواهم لأن سريتها لم تكشف في الواقع إلاّ إلى عدد ضئيل من الزعماء الرئيسين.

وغادرت بناء عليه كامل قوة الفرسان المعسكر تمشياً مع الترتيبات الحكيمة لفيروز، وقد سارت تابعة لألوية القادة وكأنها ذاهبة بعيداً، وكانت في الحقيقة تنتظر حلول الظلام لتعود من ثم تحت غطائه إلى المعسكر بصمت تام.

وكان لفيروز رجل الله هذا الذي قدم للمسيحيين معروفاً رائعاً للغاية أخ اختلف عنه تماماً بالمشاعر والمقاصد على حد سواء، ولم يكن فيروز الذي لم يثق كثيراً بإخلاص أخيه قد نقل السر إليه، بل على العكس ارتاب به، وكان قد أخفى خططه عنه بحذر بقدر الإمكان، وحدث في ذلك اليوم بالذات، في حوالي الساعة التاسعة، عندما كانت فيالقنا تنطلق من المعسكر، حدث أن كان الأخوان يقفان على شرفات السور، وكانا يراقبان المعسكر من خلال الفتحات، وشهدا رحيل الجند، وبما أن فيروز كان راغباً في معرفة موقف أخيه وميوله الفكرية، واختبار عواطفه، ومن هذا المنطلق بدأ يخاطبه على النحو التالي: «إني لأشفق على هؤلاء الناس يا أخي، والذين تعدّ لهم نهاية مفاجئة، لأنهم يعتنقون الدين نفسه الذي نعتنقه نحن، فهم يتجولون على ظهور خيولهم غير عارفين بما سيجلبه لهم الغد، ويبدو مظهرهم وكأنهم لا يخشون شيئاً، وكأن أحوالهم مأمونة لكنهم لو علموا بالدسائس التي تحاك ضدهم، والإبادة الشاملة المعدّة لهم، فلربما سيتخذون بعض الإجراءات الأخرى لتأمين سلامتهم» فأجابه أخوه قائلاً: «إنك تقلق نفسك بشكل سخيف، كما أن شفقتك ليست ضرورية، أتمنى لو يقتل جميع هؤلاء الناس بسيوف الأتراك، فقد ازدادت حالتنا سوءاً من

اليوم نفسه الذي دخلوا فيه هذا البلد، ومن الصعب جداً القول إن المنافع التي يمكن أن نكسبها من خلال جهودهم ستساوي المشقات التي كابدناها بسببهم».

وكان فيروز متردداً حتى الآن في الإفصاح لأخيه عما صمم عليه، ومع ذلك فقد اضطربت نفسه عندما سمع هذه الكلمات من أخيه وانزعجت كانزعاجها من وباء، فقد لعنه في قلبه، وشرع يدبر لموته خشية أن تعيق دناياه الإمتثال لإرادة المسيح، وبهذا قدم سلامة المسيحيين بشكل عام على حبه لأخيه.

٢١ ـ بوهيموند يتوسل إلى صديقه لإنجاز العمل. فيروز يقتل أخاه الذي يعارضه. إدخاله المسيحيين إلى المدينة بوساطة سلم مصنوع من الحبال.

كافح بوهيموند في هذه الأثناء بكل شجاعة لإنجاز مشروعه، وحتى لا يؤخر البلوغ إلى الهدف الذي طالما تلهف إليه كثيراً، بسبب فتور همته أو تقصيره، زار الزعماء واحداً تلو الآخر، وتوسل إليهم أن يكونوا مستعدين للعمل، وحمل بيده سلماً محاكاً ببراعة مثلى من الحبال المجدولة من خيوط القنب، وقد توجب تعليق هذا السلم وربطه بشرفات السور من الأعلى، وأن يثبت بكلاليب حديدية من الأسفل، لقد مضى الآن منتصف الليل، واستسلم جميع سكان المدينة للنوم، وأصبح نومهم أشد عمقاً نتيجة لحراستهم وعملهم المستمر، وبعث بوهيموند الآن بواحد من أعوانه المقربين إلى فيروز، وأمر هذا الرسول أن يتحقق بشكل محدد من فيروز فيما إذا كان قد حان الوقت لجماعة سيده كيما تزحف، وعندما وصل الرسول، وجد فيروز جالساً يراقب من إحدى فتحات السور الصغيرة، فسلمه رسالة سيده بنبرة منخفضة، وأجابه فيروز على النحو التالي. «اجلس بهدوء والزم الصمت حتى يجتاز رئيس الحرس القائم بجولته مع مرافقة كبيرة ومشاعل مضاءة هذا المكان»، فقد كان من عادة المدينة قيام أكبر الضباط بجولات على السور ثلاث مرات أو أربع في الليلة الواحدة مع مرافقة كبيرة تحمل المشاعل المضاءة، وذلك بالإضافة إلى الحرس المتمركز في كل برج من الأبراج، وكان على هذا المفتش تطبيق العقوبة المناسبة بحق كل واحد من الحرس يجده قد تغلب عليه النعاس، أو متهاوناً في القيام بالإحتراس المتوجب، وما لبث هذا الضابط المضطلع بهذه المسؤولية الكبيرة أن وصل، فوجد فيروزاً يقوم بالحراسة فأثنى عليه وعلى اجتهاده، ورحل وهو مطمئن.

ورأى فيروز أن الوقت الموائم للعمل قد حل، فقال للرسول الذي كان قد تنحى جانباً: «إذهب بسرعة، وأخبر سيدك، ليأتي بعجلة مع رجاله المختارين»، وعاد الرسول مهرولاً إلى سيده، فوجده مستعداً، فاستدعى القادة الآخرين سراً، واستجاب الجميع مع

مجموعاتهم الخاصة بلمح البصر، وحسبما كان الأمر مرتباً من قبل، وفي وقت قصير وقفوا كرجل واحد عند قدمي البرج المخصص منذ فترة طويلة، ولم يسمع لهم أدنى صوت أو ضجة عندما تقدموا.

وكان فيروز خلال تلك الفترة القصيرة، قد دخل إلى البرج، فوجد أخاه غارقاً في النوم، وبما أنه كان قد تأكد أن عواطف أخيه كانت ضد المشروع الذي كان مصمماً عليه، فقد خشي من أن تسبب دناياه عائقاً ما يعوق تنفيذه، وهو الآن على وشك الإنجاز، ولهذا أهوى عليه بسيفه بضربة مميتة أودت بحياته ـ لقد كان عملاً فظيعاً وورعاً في آن واحد.

ثم عاد إلى فتحات شرفات الأسوار فوجد حلفاءه قائمين في الأسفل، وتمّ تبادل التحيات مع عبارات الأمل بسلامتهم المشتركة، ثم أدلى حبلاً رفع بوساطة السلم من الأسفل.

وعندما رفع هذا السلم وربط بإحكام من الأعلى والأسفل، لم يجرؤ أحد على تسلقه، ولم يكن بينهم من هو على استعداد للمجازفة بحياته في مثل هذا الإمتحان العسير، حتى عندما أمر بذلك من قبل قائده الأعلى، لا بل حتى من قبل بوهيموند نفسه، وأدرك بوهيموند ذلك على الفور، فأخذ زمام المبادرة، وصعد السلم بجرأة [1]، وما أن وصل إلى السطح ولامست يده شرفة السور حتى أمسك فيروز بيده من الداخل، وعندما اكتشف فيروز أنها كانت يد بوهيموند يقال أنه صاح قائلاً: «لتعش هذه اليد طويلاً» وأدخل بوهيموند إلى داخل البرج، وأراه جثة أخيه الميت وقد غطاها الدم وذلك بغية نيل حظوة أكبر في نظره ونظر المقدمين المسيحيين الآخرين، وليريهم أنه قد قتل أخاه الذي رفض أن ينضم إليه في عمل مقدس للغاية، وعانق اللورد بوهيموند ذلك الرجل صاحب الإخلاص الثابت والحقيقي بعاطفة صادرة عن القلب، ثم عاد إلى شرفة السور، ومدّ رأسه قليلاً من خلال الفتحة، وطلب بصوت خافت من رجاله أن يصعدوا، ومع ذلك كانوا ما يزالون مترددين، ولم يجرؤ أحد منهم على إطاعته، لأنهم نظروا بعين الارتياب لكل ما قيل من على شرفة السور، وما أن لاحظ بوهيموند هذا حتى عاد إلى رفاقه بوساطة السلم، وأعطاهم بذلك برهاناً حقيقياً على سلامته، وهكذا شرعوا على الفور يتنافسون فيما بينهم في المحاولة لبلوغ الشرفات، وبتسلقهم للسور لم يكتفوا بالإستيلاء على ذلك البرج، بل استولوا على عدة أبراج

---

(١) سيبدو هذا على أنه تقدير أكبر لشجاعة بوهيموند أكثر من كونه ثناء على حصافته، ومخالفاً لذكائه العادي ولروايات شهود العيان (انظر ا.س. كرى «الحملة الصليبية الأولى» ص١٥١ ـ ١٥٥) هذا ويمكن أن نجد في تسويغ ولِمَ لقتل فيروز أخاه مؤشرات على أن تعصبه كان أقوى من عقله وعقيدته.

أخرى إلى جانبه، وسمعنا أنه كان من بين الذين صعدوا: كونت فلاندرز، واللورد تانكرد، الذي حذا البقية حذوه وتبعوه صعوداً.

٢٢ ـ الغزاة يؤمنون مدخلاً ويفتحون الأبواب. الجيش الذي أصبح الآن مشاركاً بالمؤامرة يندفع إلى داخل المدينة. الإستيلاء على أنطاكية باقتحامها.

عاد المقدمون الآخرون إلى المعسكر عندما رأوا الرجال الأكفاء قد وصلوا إلى شرفات الأسوار بأعداد كافية، حيث فتح الآن باب أو بابان، وأسرعوا بالعودة إلى المعسكر ليعدوا جندهم حتى لا يكون هنالك أي تأخير بدخول المدينة عندما يعطيهم رفاقهم الإشارة من داخل المدينة، وبدا أن السماء ألهبت بالشجاعة الرجال الذين كانوا قد تسلقوا الأسوار، وكانوا قد استولوا تحت قيادة فيروز ـ الذي أدخلهم إلى المدينة ـ على عشرة أبراج واحداً تـلو الآخر في المنطقة المجاورة، وذلك بعد ما قتلوا في البداية الحراس الموضوعين هناك، هذا وكانت المدينة طوال هذا الوقت راقدة يكتنفها صمت تام، ولم يسمع أي صوت منها.

وكان هنالك باب خلفي في قطاع السور الذي كان المسيحيون قد جعلوه مرتقى، ونزلوا إليه بعد كسر الرتاجات والمزالج الكابحة وفتحوه بالقوة، وأدخلوا الجند المنتظرين في الخارج مما أدى إلى زيادة عدد الغزاة داخل الأسوار، وأسرعوا مع بعضهم إلى الموقع المعروف باسم باب الجسر، وقتلوا جميع الحراس، وفتحوا ذلك المدخل بهجوم عنيف أيضاً.

وكان عدد من أتباع بوهيموند قد حملوا رايته في هذه الأثناء إلى هضبة تطل على المدينة، ونصبوها هناك في مكان بارز جداً، وعلى هضبة بالقرب من الحصن الأعلى.

وأعلنت الآن السماء المضيئة عن إشراق الشمس، وأعطت أصوات الأبواق والنفر الإشارة، وبدأ شعبنا بإحداث ضجة عظيمة عند مدخل المدينة لإثارة القوات التي كانت ما تزال داخل المعسكر، وبادر الرؤساء المتفهمون جيداً للإشارة المتفق عليها إلى حمل أسلحتهم، واندفعوا نحو المدينة يسوقون قواتهم معهم بسرعة، فاستولوا على المداخل والأبواب.

وفي هذه الأثناء استيقظ عامة الناس، حيث لم يكن هؤلاء قد اطلعوا بعد على الخطط السرية، وعندما وجدوا المعسكر مهجوراً تقريباً، تبعوا البقية أيضاً ودخلوا المدينة بتلهف، وأيقظت الجلبة الكبيرة سكان المدينة، وقد ارتابوا في البداية إزاء معنى الصرخات الغريبة، لكن ما لبثوا أن أدركوا الحقيقة على الفور إزاء المشهد الغريب للفرسان المدرعين المندفعين عبر المدينة، وإزاء الدمار والفوضى التي حدثت في كل مكان من شوارع المدينة وساحاتها،

فهجروا منازلهم، وحاولوا الفرار مع زوجاتهم وأطفالهم، واندفعوا بطيش في طريق المحاربين الآخرين، ذلك أنهم كانوا مرتبكين ومصابين بالدوار في محاولاتهم المسعورة للفرار من فئات الجند المسلحة ولا يجاد مكان آمن يلجأون إليه.

وأما المسيحيون من السريان والأرمن والمؤمنون الصادقون من الشعوب الأخرى التي سكنت المدينة فقد ابتهجوا كثيراً إزاء ما كان قد حدث، وبادروا إلى حمل أسلحتهم على الفور وانضموا إلى قوات الجيش، وكانوا قادرين على العمل كمرشدين للآخرين خلال طرق المدينة المعقدة، لأنهم كانوا مطلعين على جميع المواقع بشكل جيد، وكانوا عندما يجدون أحد الأبـواب ما يزال موصداً، يقتلون الحرس ويفتحون الطريق بكسر الأقفال، ثم يدخلون أصحابهم، وبدا لهم أن هذا التغيير الرائع قد جاء من عند الرب، فالذين كانوا يحملون نير العبودية الجائر لكلاب قذرين، وكانوا مضطهدين تحت عبء الخدمات العادية والخدمات الإضافية، وبأعمال التعذيب بلا شفقة، هؤلاء كانوا الآن قادرين على إنزال كوارث مشابهة بأعدائهم، وعلى تسبيب هلاكهم.

ومع هذا الوقت، افُسح المجال لجيشنا بأسره لدخول المدينة، فاستولى بسهولة على الأبواب والأبراج وشرفات الأسوار، ونشرت رايات المقدمين وشعاراتهم المعروفة من قبل الجميع فوق الأماكن المرتفعة كبرهان على الإنتصار، وتبعثرت الأشلاء في كل مكان، وانتشر الكرب وعويل النسوة، وفي كل مكان ذبح آباء الأسر مع جميع آلهم، ودمر المسيحيون محتويات المنازل وأدواتها أثناء اقتحامهم لها، وتخلى العدو عن جميع ممتلكاته وغدت نهباً لمن صادف ووصل إليها، وتجول المنتصرون حسبما أرادوا خلال الأماكن التي لم يكونوا قادرين على بلوغها من قبل، وكانت قد تملكتهم شهوة القتل الجنونية والجشع والنهب، لذلك لم يستثنوا من القتل لا الجنس ولا المنزلة الإجتماعية، ولم يقيموا للسن أدنى قيمة، ولقد استجوبوا كل من قابلوه في شوارع المدينة وساحاتها حيث انتصبت منازل السكان الأكثر أهمية، وحيث قطن أكثر الناس ثراء، ثم أسرعوا بعدما وحدوا قواتهم إلى هنالك فقتلوا العبيد واقتحموا دور السكن وتوغلوا إلى الأماكن الخاصة جداً، ووضعوا السيف في أمهات أسر النبلاء وابنائهم، ثم اقتسموا فيما بينهم بالتساوي أثـاث المنـازل والذهـب والفضـة والثيـاب النفيسة.

ويروى أنه قتل في ذلك اليوم أكثر من عشرة آلاف من أهل أنطاكية، وانتشرت جثث الموتى غير المدفونة على طول الطرقات، تماماً حسبما سقطت.

٢٣ ـ سكان المدينة ينسحبون إلى القلعة. وقتل يغي سيان خارج أسوار المدينة أثناء محاولته الفرار. الكثيرون يهلكون بالسقوط من الجبل.

عندما رأى يغي سيان أنه قد تم تسليم المدينة إلى العدو، وأن العدو قد استولى على جميع الأبراج والحصون، وعلاوة على ذلك أن جميع الذين نجوا من الموت قد انسحبوا بسرعة إلى القلعة. وقد بدأوا يخشون من أن يتبعهم المسيحيون إلى هنالك، ويحاصرون ذلك المكان أيضاً، اندفع بجنون من خلال أحد الأبواب الخلفية هارباً وحده، دون أن يكون معه رفيق واحد، ساعياً للحفاظ على حياته فقط، وحدث أن صادف العديد من الأرمن عندما كان يتجول قلقاً يائساً بدون هدف محدد، وعرفه الأرمن على الفور، واقتربوا منه وكأنهم يريدوه أن يظهروا له التبجيل المألوف، وسمح لهم بالإقتراب منه بعدما كان الفزع قد روعه، وادركوا على الفور حقيقة أنه كان قد فرّ وحده، وأنه قد تم الإستيلاء على المدينة، وهكذا طرحوه بعنف أرضاً، واستلوا سيفه، وقطعوا رأسه، وحملوه إلى المدينة، وقدموه إلى القادة بحضور جميع الناس.

وكان هنالك في مدينة أنطاكية أيضاً عدد من النبلاء كانوا قد قدموا من مناطق بعيدة لنجدتها كفرصة لممارسة قوتهم، وعندما أصبح معلوماً أن المدينة قد سقطت في قبضة المسيحيين، قرر هؤلاء الرجال الإنسحاب إلى القلعة العلوية وبما أنهم لم يكونوا يعرفون المكان معرفة جيدة، واحتاروا في قلقهم على أرواحهم ولم يعرفوا ما الذي يجب عمله، وبينما كانوا يشقون طريقهم إلى هنالك صدف وقابلوا بعضاً من المسيحيين المنحدرين من الجزء العلوي من المدينة، فتمت محاصرتهم في ممر ضيق بحيث لم يستطيعوا الصعود أو النزول بسبب الإنحدار الشديد للهضبة، وفي الوقت نفسه حشروا معاً من قبل رجالنا القادمين من الأعلى، وهكذا حدث أنه بينما كانوا يحاولون بشكل يائس إيجاد أية وسيلة ممكنة للنجاة سقط قرابة الثلاثمائة رجل منهم مع خيولهم وعليهم الشارات التي ميزتهم بعضهم عن بعض، سقطوا من الجبل، فدقت رقابهم، وتحطمت أوصالهم، ولم يبق أحد منهم تقريباً.

وكان الذين سكنوا في المدينة، أو في الأماكن المجاورة ـ وكانوا على معرفة بالموقع ـ كانوا أكثر نجاحاً، فما أن عرف هؤلاء القوم أنه قد تمّ الإستيلاء على المدينة حتى اتحدوا مع بعضهم، وخرجوا في الفجر الباكر من الأبواب التي شرع الآن في اغلاقها، وفروا إلى الجبال، وقد تمكنت قواتنا من إعادة عدد من هؤلاء القوم حيث طاردتهم على نطاق قريب، وأسرتهم، وألقتهم قسراً في السجون، ونجح آخرون بفضل خيولهم في بلوغ الهضاب حيث اتخذوا الإجراءات الضرورية لحماية أرواحهم وتأمين سلامتهم.

وفي حوالي الساعة الخامسة عادت قواتنا المطاردة، وعندما أعيد جمع كل من كان قد توزع في أرجاء المدينة أجري بحث دقيق، فاكتشفت الحقيقة، وهي إنه لم يكن هنالك مؤن في المدينة، ولم يكن هذا غريباً لأن الحصار كان قد استمر بدون انقطاع لمدة تسعة أشهر تقريباً.

هذا وعثر من ناحية أخرى على كميات كبيرة من الذهب والفضة والجواهر والأواني النفيسة والسجاد والمنسوجات الحريرية، فأثرى منها فجأة الذين كانوا حتى الآن متسولين جائعين وحصلوا على كميات وفيرة من كل صنف، ولم يوجد في المدينة سوى خمسمائة فرس تقريباً كانت موائمة للخدمة في الحرب، وكان هؤلاء في حالة هزال تكاد تموت من الجوع.

لقد تم الإستيلاء على مدينة أنطاكية في العام ١٠٩٨ لتجسيد الرب في شهر حزيران وفي اليوم الثالث منه.

هنا انتهى الكتاب الخامس

الكتاب السادس

الصليبيون محاصرون. انتصار خارق

١ ـ وصف للجبل الذي يشرف على المدينة. جزء منه ما يزال محتفظاً به من قبل العدو الذي وضع حرساً هناك. إرسال رسل إلى الساحل لاستدعاء الناس، وجلب المؤن إلى المدينة التي حصنت تحصيناً قوياً.

أخيراً هدأت الجلبة، واستعادت المدينة سكونها، فقد سكرت حتى سيوف المنتصرين من شرب الدماء، وغدت منهكة من القتل اللامتناهي، ثم اجتمع القادة للتداول لأنهم عرفوا تمام المعرفة أنه قد بقي أمامهم الكثير من العمل الواجب تنفيذه حتى يصبح الإحتلال كاملاً، وتبعاً لذلك وضعوا الخفراء على الأبواب والحرس على شرفات الأسوار، وقرروا الصعود إلى الجبل ومهاجمة القلعة، وأرسل المنادي ليعلن الأمر التالي: إن على جميع الكتائب أن تصعد نحو القلعة ـ المذكورة آنفاً ـ بيد أنه تبين عندما تم الوصول إلى التلال أن القلعة كانت منيعة بسبب تحصيناتها، وأن الإستيلاء عليها لم يكن ممكناً إلاّ عن طريق التجويع فقط، وبما أن هذه الطريقة كانت تتطلب أياماً كثيرة، أدرك المقدمون أن جهودهم الحماسية ستهدر عبثاً، ولذلك بات ضرورياً اللجوء إلى خطط أخرى.

ويتخلل الجبل الذي يشرف على المدينة واد عميق جداً له حافتان عميقتان وشديدتا الإنحدار، هذا والمنحدر الذي يقابل ناحية الشرق هو المنحدر الأكثر انخفاضاً بين المنحدرين، ويتسع في القمة فيشكل سهلاً فسيحاً معد اعداداً جيداً للكروم والزراعة، والمسافة كبيرة جداً عبر هذا الوادي السحيق إلى حد أنه يبدو أن هنالك جبلين منفصلين وليس جبلاً واحداً مقسوماً إلى جبلين، كما أن المنحدر الواقع في الغرب أكثر ارتفاعاً، ويشكل رأسه قمة، وارتفعت القلعة فوق القمة العالية للتل الأخير هذا، وهي محصنة بالأسوار المتينة، وفيها أبراج ضخمة أيضاً، ويرتفع في الشرق والشمال جرف ضخم كأنه ناشىء من هاوية شاسعة، ولذلك من المستحيل أن نتخيل كيف يمكن للضرر أن يأتي إلى القلعة من أي من تلك الحواف، وهنالك هضبة منخفضة نحو الغرب، ويقع واد متوسط الإمتداد بينها وبين القلعة، وهو ضيق نوعاً ما مع جوانب منحدرة انحداراً معتدلاً، ويتخلل

هذا الوادي الطريق الوحيد المؤدي من القلعة إلى داخل المدينة، ويقدم هذا بحد ذاته مخاطر معتبرة تماماً حتى عندما لا يكون هنالك من يهاجمها، ورأى قادتنا أنه من الحكمة الإستيلاء على هذه الهضبة حتى لا تزود العدو بممر إلى المدينة، وذلك عندما ينقض من باب القلعة بهدف مهاجمة جندنا، وبناء عليه تم وضع رجال شجعان وعقلاء في ذلك المكان، وتركت لهم هناك الأسلحة والأطعمة الضرورية، كما تم بناء سور مع حصون ذات بناء متين، ووضعت آلات الحرب فوق هذه الحصون في مواقع استراتيجية لصد العدو بوساطتها، ثم نزل الزعماء ثانية إلى المدينة للتداول حول المسائل الأكثر أهمية، وبقصد العودة عندما يكون العمل قد انتهى، لأنهم كانوا قد قرروا أن على الجميع، باستثناء الدوق، البقاء في ذلك المكان حتى يكون الإستيلاء على القلعة قد تم، وكان غودفري قد اضطلع بقرار مشترك من القادة، بمهمة رعاية كل من الباب الشرقي والحصن الواقع خارج المدينة، وهو الحصن الذي عهد به إلى بوهيموند في البداية عندما تم بناؤه.

وكانت قد وصلتهم أنباء تفيد أن كربوغا، القائد الكبير، الذي أتينا على ذكره من قبل، سيصل بالحال، لا بل إنه دخل بالفعل إلى أراضي أنطاكية، وأنه قد اندفع ومعه آلافه المؤلفة نحو المدينة، لذلك رؤي أنه من الأفضل إرسال واحد من زعمائنا إلى الساحل ليستدعي الأخوة الذين كانوا قد ذهبوا إلى هناك لجمع المؤن والأطعمة، كما توجب إحضار جميع المواد الإحتياطية الضرورية التي يمكن العثور عليها، ومن ثم إدخالها إلى المدينة بما أمكن من سرعة.

وكان المسيحيون قد تجولوا في الريف المحيط، باذلين كل جهد، وجلبوا جميع ما توفر من أنواع الأطعمة والأعلاف من أي مصدر وصلوا إليه، وبذلوا جهوداً جبارة لتزويد المدينة بالمؤن، وكان ذلك خلال اليومين اللذين أنقضيا قبل وصول جيش كربوغا الرئيسي، كما أن الناس القاطنين في الريف المجاور ومعهم المزارعون أيضاً جلبوا بكدٍّ كل ما استطاعوه بعدما عرفوا تمام المعرفة أنه تم تسليم مدينة أنطاكية للمسيحيين، ومع ذلك فإن كامل كميات ما جمع من كافة المصادر لم تكن سوى كميات قليلة، أو بالحري لم تكن شيئاً يستحق الذكر تقريباً، لأن الحصار الطويل، كان قد استنزف موارد المنطقة بأسرها خلال تسعة أشهر متتالية، ولم يترك شيئاً بالإمكان أن تكون له فائدة حقيقية لشعبنا حتى لأيام قليلة.

٢ ـ طليعة مؤلفة من ثلاثمائة من جيش كربوغا تكر وتفر أمام أنطاكية. روجر دي برنيفل Roger De Barneville يشتبك بإهمال معها ويلقى مصرعه.

كمن ثلاثمائة فارس من جيش كربوغا مدججين بالسلاح من رأسهم إلى أقدامهم

يمتطون صهوات خيول سريعة بالقرب من المدينة، وذلك في اليوم الثاني الذي تلا الإستيلاء على أنطاكية، وبينما كان المسيحيون منشغلين بقلق في حراسة المدينة وتموينها، وكان قد جرى إرسال هؤلاء سلفاً للإمساك على حين غره بأي فرد من شعبنا يمكن أن يوجد غافلاً عن الحراسة خارج الأسوار، وبدأ ثلاثون فارساً من هؤلاء الفرسان بالركوب كراً وفراً على صهوات خيول سريعة، أمام المدينة، وتظاهروا عمداً أنهم يجهلون وجود أي خطر، وتصرفوا بإهمال زائد، وعندما رآهم المسيحيون الموجودون داخل الأسوار يعدون بهذه الطريقة، لم يستطيعوا كبح غضبهم، فقد شعروا أن الأمر سيكون مخزياً جداً إذا هم لم يهجموا عليهم، وهكذا امتطى روجر دي برينفل وخرج من الباب بسرعة لمهاجمتهم وأخذ معه مجموعة مؤلفة من خمسة عشر واحداً من أتباعه، وكان روجر من أتباع روبرت كونت نورماندي، كما كان محارباً شجاعاً، أنجز العديد من المآثر المدهشة في هذه الحملة بالذات، لقد خرج، عاقداً العزم كالمعتاد، على إنجاز واحدة من مآثرة البطولية، وهاجم المناوشين بالسرعة القصوى وبكل شجاعة عندما تظاهروا فجأة أنهم قد أداروا ظهورهم للفرار، فقد استمروا بالإنسحاب حتى وصلوا إلى المكان الذي كمن فيه رفاقهم، حيث خرج الرجال المختبئون هنالك على الفور، وانضم الفرسان المنسحبون إليهم فزادوهم عدة وقوة، وشكلوا زمرة واحدة انقضت بدورها على الذين كانوا يطاردونهم من قبل، وأرغموهم على العودة فراراً إلى حيث أتوا، ولم يكن روجر ورجاله يعدلون العدو في القوة والعدد على الإطلاق، وحاولوا التراجع إلى المدينة، بيد أن سرعة خيول العدو منعتهم من ذلك، وسقط الفارس روجر صريعاً على الأرض من على صهوة فرسه، بعدما أصابه سهم قاتل اخترق قلبه وأودى بحياته، ولقد كان رجلاً تأسف عليه رفاقه إلى الأبد، لأنه نفذ بإخلاص أهداف حج المسيحيين طالما بقي حياً، ونجح رفاقه في بلوغ المدينة، وقطع العدو رأس ذلك الرجل الشهير، وانسحب سالماً على مرأى تام من الموجودين على الأسوار والأبراج، الذين كانوا للأسف عاجزين عن تقديم المساعدة.

وحالما رحل أولئك الفرسان، جلب المسيحيون، وسط الدموع، وصرخات العويل الشاملة، جثة روجر إلى داخل المدينة، ووفق مراسم لائقة، ثم جرت مراسم دفنه بحضور القادة والشعب بأكمله بشكل يليق بقائد كبير، وتمت عملية الدفن وسط أبهة عظيمة في كنيسة أمير الرسل[1].

---

(١) حظيت كنيسة القديس بطرس (القسيان) الموجودة في أنطاكية بإجلال كبير وخاص من قبل الصليبيين لأنهم اعتقدوا أن الكرسي الكنسي، الذي كان بطرس قد شغله، كان ما يزال محفوظاً فيها، وحث قادة الحملة =

٣ - الأمير الكبير يتقدم وينصب معسكره على المرتفعات فوق القلعة. هزيمة الدوق عند الباب الشرقي. هلاك مائتي فرد من شعبنا.

مع فجر اليوم الثالث لتحرير المدينة، والشمس تشرق، كان ذلك الأمير الجبار الذي تكرر ذكره قد احتل المنطقة بأسرها، وذلك بقدر مدى النظر من الجزء العلوي للمدينة، وكان قد عبر الجسر العلوي مع الحشود التي كانت معه، والتي كانت أكبر عدداً مما كانت الإشاعات قد أكدته، وصار الآن معسكراً بين البحيرة والنهر، حيث كانا يبعدان عن بعضهما في ذلك المكان مقدار ميل واحد، وكانت حملته على مستوى رفيع جداً، كما كانت قواته كبيرة جداً إلى درجة أن السهل الواسع الذي قامت فيه أنطاكية لم يكف تقريباً لاستيعات معسكره، ولذلك غطت خيمه أيضاً بعض التلال المجاورة.

هذا وقد قرر في اليوم الثالث، بعد أن عسكر أمام المدينة، أنه كان بعيداً جداً عنها، ولذلك تداول مع شعبه، ورغب أن يكون على مسافة أقرب من الذين كانوا يسيطرون على القلعة حتى يكون قادراً على مساعدتهم، كما رغب في إدخال قواته إلى قلب أنطاكية، من خلال الباب الواقع أسفل القلعة، وهكذا غير المعسكر وصعد إلى التلال وحاصر الجهة الجنوبية من المدينة امتداداً من الشرق إلى الباب الغربي بخط غير منقطع.

وكان هنالك بالقرب من الباب الشرقي حصن على هضبة مرتفعة ارتفاعاً قليلاً، وكان قد تم انشاؤه في البداية لحماية المعسكر، وعهد به آنذاك إلى بوهيموند ووضع تحت رعايته، بيد أنه وضع الآن مع الباب المجاور له تحت حماية الدوق بعدما آلت أنطاكية إلى ولاية بوهيموند، وشرع في إدارة أمورها العامة، وضرب العدو معسكره حول هذا الحصن، وشن منه هجمات متكررة وباستمرار على الرجال الموجودين في الداخل، وعلى الفور وجد الدوق أنه من المستحيل تحمل وقاحتهم، فهجم مع أتباعه لنجدة المدافعين عن الحصن الذين كانوا على حافة الإنهيار، وأمل أيضاً أن يتمكن من تمزيق المعسكر القائم أمام الباب لكنه ما أن انطلق إلى الأمام لنجدة رجاله حتى هاجمه حشد من الأتراك، وكان هؤلاء الأتراك أكثر منه قوة وعدداً، فرأى الدوق أنه لن يستطيع أن يصمد بقوته أمامهم، فاستدار ناجياً بصعوبة من سيوفهم، وأفلح في الإنسحاب إلى داخل المدينة حيث طارده الأتراك بنشاط كبير، واكتظ حشد الحجاج الفوضوي كثيراً مع بعضهم بعضاً أثناء فرارهم اليائس، بحيث سدوا المدخل، ومنعوا بعضهم من الدخول، وبالمحصلة سحق بعضهم بعضهم من جراء الإزدحام، وجرح

= الصليبية البابا أوربان أثناء نقلهم له نبأ الإستيلاء على أنطاكية، أن يقيم كرسيه هناك. (أنظر هـ. هاغنمير «تاريخ فولتشر» ص٢١٧ الحاشيتان ١٢ و١٣. أ. س. كري «الحملة الصليبية الأولى» ص١٩٤ - ١٩٥).

آخرون، ووقع بعضهم في الأسر أيضاً، وكان مجموع من هلك يقارب المائتي شخص هناك بشكل مثير للشفقة.

٤ ـ المسيحيون يقيمون خندقاً داخل المدينة على طول قاعدة الهضبة. نشوب معركة هناك هزم العدو فيها. قائدهم ينحدر من الجبل. كربوغا يحاصر القسم السفلي من المدينة.

عدّ الأتراك الدوق رأس مقدمي الجيش المسيحي، وأبهجتهم هزيمته كثيراً حتى أنهم تشجعوا للقيام بمآثر أكثر أهمية، وانحدروا نحو المدينة من خلال باب القلعة العلوية، وعلى طول الطرق الفرعية التي يعرفونها معرفة جيدة، وشنوا هجوماً مفاجئاً على شعبنا، وباغتوه وهو غافل عن الحراسة، وقتلوا الكثيرين منه بالسيوف والسهام، ومع ذلك انسحبوا بسرعة إلى المرتفعات عندما حاول المسيحيون مطاردتهم، وبلغوا القلعة الواقعة في الأعلى، فقد كانت لديهم طرق أخرى، أكثر من تلك الموجودة إلى جانب الهضبة، والتي كان شعبنا قد استولى عليها وحصنها بعناية مثلى.

وحدث مثل هذا مراراً وتكراراً، وهكذا هلك العديد من سكان المدينة في مثل هذه المناورات المربكة، مما دفع بالزعماء إلى الموافقة بالإجماع على وجوب إيجاد علاج ما لهذه الكارثة الكبيرة، ولذلك اندفع بوهيموند مع كونت طولوز ـ بموافقة عامة ـ إلى حفر خندق عميق له عرض كاف، بين الجزء الأسفل من المدينة وسفح الهضبة، وإنّ هذا الخندق سيعيق هجمات الأتراك الدائمة، عندما ينقضون من الأعلى، وسيسمح للناس أن يستريحوا في المدينة بأمان، وبني هنالك حصن لجعل هذا الخندق أكثر فعالية في حماية سكان المدينة أيضاً، وعمل فيه جميع الجند بإخلاص وتكريس وكأنما كان ذلك لسلامتهم الخاصة.

واستمر الأتراك الذين كانوا ما يزالون يسيطرون على القلعة من الأعلى، بالإضافة إلى الذين كانوا يحاصرون المدينة من الخارج بالهبوط عبر الباب العلوي بممرات سرية، وشنوا هجمات متكررة على هذه المنشأة الجديدة وحاولوا هدمها بكل وسيلة كانت في متناولهم، واندفعت مجموعة من الجند في أحد الأيام، وكانت أكثر تعداداً مما كان مألوفاً، اندفعت من المرتفعات من خلال ممراتهم المألوفة، واتجهت نحو هذا الحصن المقام حديثاً، وشرعوا في شن هجوم عنيف على الموجودين في داخله، ولو لم يسرع القادة المسؤولون عن الدفاع عن الأجزاء الأخرى من المدينة بالإضافة إلى جميع الناس المنتشرين في كل مكان من أنطاكية لمساعدة الرجال الشجعان من ذوي المراتب العالية الذين كانوا يدافعون عن الحصن في الداخل مثل بوهيموند وإيفرارد دي بوست، ورالف دي فونتاني وريبالد كريتون وبيير بن غيسلا وألبير

يكوس وإيفولكان قد تم أسرهم جميعاً، غير أن الدوق وكـونت فلاندرز وأمير نورماندي انطلقوا بعنف نحو الموقع، وأبطلوا محاولات العدو الوقحة، وقد قتل العديد من الأتراك، وأسر عدد آخر منهم، وأرغم الباقون على الفرار بقسوة، ليس من الحصن فقط، بل بالفعل من المدينة بأسرها، وعاد هؤلاء الهاربون إلى سيدهم ممتلئين بالثناء على قسوة المسيحيين وشجاعتهم الرائعة، ويبدو هكذا أن النبوءة قد تحققت فيهم، وهي التي تقول: «لكي تصبغ رجلك بدم أعدائك اغمس ألسنة كلابك أيضاً»[1] لأنه حتى الذين كانوا قد اضطهدوهم تغنوا بمديح ذلك الشعب المؤمن.

وكما قلنا مكث كربوغا في الجبال لمدة أربعة أيام، ثم غيّر المعسكر من جديد، وسار إلى السهل مع سائر جيشه حيث اقتنع أنه لم يحصل على أية فرصة بالنجاح، ولإدراكه أن علف خيوله بدأ يتناقص، ثم عبر النهر بوسـاطة مخاضة تقع على مسافة دون الجدول، ووضع قواته تحت إشراف قادتهم المحددين على شكل دائرة على بعد مسافات متساوية، وحاصر مدينة أنطاكية.

وانفصل بعض الأتراك في الصباح عن بقية الجيش، وتحدوا شعبنا واستدرجوه للقتال، وهاجوا بشجاعة المدافعين عن السور، وهو عمل أدى إلى فقدان عدد من أفراد مجموعتهم، لأن تانكرد شن هجوماً مفاجئاً عبر الباب الشرقي، عندما كانوا في هذا الوضع، وقبل أن يتمكنوا من امتطاء صهوات خيولهم، فقتل ستة منهم، وجعل البقية تلوذ بالفرار، وأمر بقطع رؤوس ضحاياه، وحملها إلى داخل المدينة لتعزية الناس، حيث كان الحزن المؤلم قد مزق قلوب المؤمنين لفقدانهم روجر دي برينفل الذي كان قد قتل هناك.

٥ ـ المسيحيـون يعـانـون الكثير مـن الجوع في أنطـاكيـة. بعـض النبلاء يتخلـون ويغادرون بغدر. تسليم بوهيموند القيادة العامة.

وفي الوقت نفسه بات الشعب المسيحي يتحمل الآن بدوره آلام الحصار، بعدما كان قد حاصر أنطاكية، واستولى عليها بقوة السلاح منذ فترة قصيرةٍ من الزمن، ومثل هذا التغيير في الأحوال غالباً ما يحدث في قضايا الجنس البشري، وعلاوة على ذلك، بات عليهم الآن، وقد أنهكتهم المشاق فوق طاقتهم بكثير، أن يتحملوا مجاعة خطيرة لا توصف، فقد قبع السيف لهم في خارج المدينة، وتربع الخوف أمامهم في داخلها، وليس من المستغرب أن تملأهم بالرعب تلك القوات التي لا تحصى وهي التي تحاصر المدينة الآن من الخارج، أضف إلى هذا أنّ الأتراك كانوا يشنون الهجمات باستمرار، كما سبق بنا القول من قبل، من القلعة

(١) المزامير: ٦٨/٢٣.

التي كانوا ما يزالون يسيطرون عليها، لذلك لم تكن هنالك أية إستراحة، ممكنة للمؤمنين، وكان العديد منهم قد غرق في حالة من اليأس كعقاب على آثامهم، وتخلى العديد منهم عن رفاقهم، ناسين نذرهم وأيمانهم التي كانوا قد قطعوها على أنفسهم، وهربوا إلى الساحل بعدما نزلوا خلسة من الأسوار بوساطة السلال أو الحبال، ووقع عدد من هؤلاء في قبضة العدو، وحكم عليهم بالعبودية الدائمة، بينما وصل عدد آخر منهم إلى البحر وأجبروا الذين كانوا آنذاك على ظهر إحدى السفن على قطع حبال المراسي والإبحار على الفور، وصرخوا باكين: «لقد استولى هذا الأمير الكبير الذي أتى مع حشوده التي لا تحصى، استولى بالقوة على المدينة التي كنا قد استولينا عليها للتو، وقد أبيد شعبنا عن بكرة أبيه، وقتل قادتنا، ونجينا بعون الله من بطشه، لذلك اقطعوا الحبال، وأسرعوا بهروبكم خشية أن يلحق بنا إلى الشاطىء وينزل بكم مصيراً مشابهاً».

وهكذا ركبوا السفينة وجلسوا على ظهرها مع الذين كانوا فيها من قبل وبدأوا فرارهم ولم يكن السوقة من العامة والناس الأدنى الأهمية هم وحدهم الذين هربوا بهذه الكيفية المخزية، بل كان من بين الهاربين رجال بارزون ذوو منزلة عالية، وخاصة وليم دي غراند ميل William De Grandnes Mil وهو رجل واسع الشهرة من أبوليا، كان أخوه ألبيركوس Albericus سيصبح زوجاً لأخت بوهيموند، ووليم النجار [1]، وغوي دي تروسل Gay De Troussel ولامبرت Lambert الفقير، وآخرون كثر لا نتذكر أسماءهم لأنهم يجب ألا يذكروا في هذا الأثر التاريخي، لأنهم قد مُحوا من سجل الخلود، أضف إلى هذا أنه التجأ إلى العدو عدد آخر منهم كانت قد روعتهم فكرة الأخطار الوشيكة، ولم يكونوا قادرين على تحمل الجوع ومختلف أنواع المشاق، وقد اقترفوا بهذا السلوك عملاً أشد مقتاً، وأنكروا بالتالي تعاليم المسيح وعقيدته بشكل فظيع، وأطلع هؤلاء المرتدون الأتراك على وضع الجيش، وكاد هذا أن يورط المسيحيين ويضعهم في خطر محيق، كما أن الذين بقوا بالمدينة تعلقوا بدورهم بآمال الهروب، غير أن أسقف بوي المبجل، وبوهيموند القائد اللامع أحبطا محاولاتهم، وعهدا إلى الرجال ذوي التعقل، والذين كان ممكناً الوثوق بخبرتهم وخدمتهم. بجميع الأبواب، وعهد بمسؤولية الأبراج أيضاً إلى زعماء خصوصيين، قاموا بحراسة لا تعرف الكلل في الليل والنهار، وهكذا لم يتمكن أحد من إيجاد وسيلة للفرار سواء كان مراوغاً أو

---

(١) أطلق المؤرخون الغربيون نعت «الأفاقين» على هؤلاء الهاربين من الجيش، وكان وليم النجار، فيزكونت ميلون، قد حاول الفرار في ذات مرة قبل تلك المناسبة، فقد أعاده آنذاك تانكرد مع بطرس الناسك الذي كان معه. وكان بوهيموند قد وبخه بشكل لاذع، لكن دون تأثير دائم (انظر هـ. هاغنمير «تاريخ أعمال الفرنجة» لمؤرخ مجهول ص٢٥٨ ـ ٢٦٠. الحاشية ١٧. الكتاب ٤ ـ الحاشية ٢).

نشيطاً، ولكي يتمكن أولئك الحرس من الحصول على سلطة أكمل في ممارسة السلطة التي كانت قد منحت لهم، فقد أقسم الجميع من أدناهم إلى أعلاهم على أنهم سيطيعون أوامر بوهيموند بإخلاص وصدق حتى انتهاء حصار أنطاكية، ووقوع المعركة التي كانوا ينتظرونها، كما أن بوهيموند نفسه مارس الرقابة الأكثر حذراً بصحبة أتباعه وأصدقائه، بالاضافة إلى الذين وثق فيهم ثقة مطلقة، حيث قام بدوريات في الشوارع والطرق والساحات والأبراج والأسوار الواقية ليلاً ونهاراً ودون استراحة، ليرى أن الجميع كانوا حذرين، وأن العدو لا يُعطى أية فرصة ليدخل إلى المدينة عن طريق الخيانة.

وكان هنالك أربعة حصون يجب أن تحرس بعناية خاصة، وهي: الحصن العلوي الذي كان قد بني مقابل القلعة العلوية مباشرة، وقام الحصن الثاني، الواقع داخل المدينة، وراء الخندق الذي كان قد حُفر بغرض الدفاع ضد الهجمات المتكررة من باب المعسكر العلوي، وقام الحصن الثالث خارج الباب الشرقي، حيث بني بغرض حماية المعسكر قبل احتلال المدينة، وانتصب الحصن الرابع على رأس الجسر الذي كان المسيحيون قد هاجموا بفضله باب الجسر مؤخراً، وكان كونت طولوز يتولى حماية البرج الأخير هذا، لكنه تخلى عن هذه المسؤولية عندما تم الإستيلاء على أنطاكية، ودخل إلى المدينة مع الآخرين.

وتولى كونت فلاندرز مع خمسمائة رجل شجاع ومقدام العناية بشؤون هذا الحصن بعد أن تم الإستيلاء على أنطاكية، وقد دعّم دفاعاته بشكل كبير، لأنه خشي من أن شعبنا سيُمنع من الخروج جيئة وذهاباً عن طريق الجسر إذا ما استولى العدو عليه، وهي حقيقة ستجعل وضعهم أسوأ من الناحية المادية.

٦ - كونت فلاندرز يقوم متطوعاً، وهو عاجز عن انقاذ الحصن الواقع أمام باب الجسر، على إحراقه، والتخلي عنه. القائد الأعلى لقوات العدو يرسل عدداً من الأسرى المسيحيين إلى بلاد فارس.

بدأ الآن كربوغا يلاحظ أن شعبنا كان يتمتع بحرية زائدة في الذهاب والإياب، وأدرك أيضاً أن الحصن القائم بجانب الجسر كان عائقاً كبيراً لخططه، وهكذا أمر في أحد الأيام قوة مؤلفة من ألفين من الفرسان المدرعين أن تتسلح وأن تشن هجوماً عنيفاً على الموقع، وتنفيذاً لأوامره وطاعة لها احتلوا على الفور مواقع استراتيجية حول سور الحصن المذكور قبل قليل، وقذفوا وابلاً من السهام في سلسلة من المناوشات من الساعة الأولى للنهار وحتى الساعة الحادية عشرة منه، وقاوم الكونت ورجاله ببسالة، وبذلوا جميع الجهود الممكنة للدفاع عن الموقع المعهود إليهم به، وعندما بدأت الشمس تميل نحو الغروب، وبدأت تباشير الظلام، أدرك المهاجمون

أنهم لم يكونوا يحققون سوى تقدم طفيف، وهكذا تخلوا عن الهجوم وعادوا إلى المعسكر، وخشي الكونت من أن يعودوا في اليوم التالي إلى الهجوم بقوات أكبر، وأدرك تمام الإدراك أنه على الأرجح لن يتمكن من حماية الحصن ضد هجوم قوة كبيرة جداً، وبناء عليه أشعل النيران في الموقع في سكون الليل، وتخلى عن كل شيء لألسنة اللهب، ثم تراجع إلى المدينة مع الذين رافقوه في تلك المهمة اليائسة.

وعندما جاء الصباح عاد الجنود الذين كانوا قد شكلوا الفريق في اليوم السابق لمعاودة الهجوم، يدعمهم في ذلك ألفا رجل، ولدى وصولهم وجدوا المكان مهجوراً وقد تهدم الجزء الأكبر منه لذلك اضطروا للعودة دون إنجاز مهمتهم.

وصدف في بحر تلك الأيام ذاتها أن قابل عدد من قوات العدو بعض المسيحيين، وكانوا أناساً فقراء معوزين، قد خرجوا دون أن يتقيدوا بالحذر المناسب، فألقوا القبض عليهم وقادوهم إلى أميرهم وقدموهم هدية له، وكغنائم أولى لنجاحهم، وأثارت أسلحة الأسرى التافهة وملابسهم ازدراء الحاكم حيث لم يكن لديهم سوى قسي خشبية، وسيوف تافهة مغطاة بالصدأ، وكانت ملابسهم ممزقة بسبب عملهم المتواصل والإستخدام المستمر لهم أظهر قدمهم بالكامل، لأنه لم يكن لدى جماعات الحجاج ملابس إضافية تسمح لهم بالتبديل، ويقال إن الأمير التركي عندما حدق بهم علّق قائلاً: «انظروا إلى شعب مهيأ تماماً لإثارة الخوف في الشعوب الأجنبية، شعب عليه أن يعتبر نفسه غنيا إن مُنح القوت في أية بقعة من بقاع الأرض، كما يمنح لأحط المرتزقة، وانظروا إلى الأسلحة التي سيُدنس شرف الشرق بها، لن تستطيع ضربة من أسلحة كهذه أن تسبب حتى سقوط عصفور إلى الأرض! أوثقوا هؤلاء الرجال وقيدوهم بالسلاسل، وسيروا بهم مع تلك الأسلحة وتلك الملابس إلى مولاي الذي بعث بي، ليتمكن من رؤية مظهر هؤلاء التعساء، كم سيكون الوقت قصيراً لتحقيق الإنتصار على رجال مثل هؤلاء وليتفكر ما يمكن أن تكون عليه سمعة هؤلاء الناس التعساء جداً حتى يتباهوا بأنهم من الفاتحين، ولينبذ جميع الهموم، وليلقي بالمسؤولية على عاتقي، حيث سيمحق هؤلاء الكلاب القذرون في وقت قصير، وسيبادون عن بكرة أبيهم، إلى حد أنهم لن يذكروا بين الشعوب بعد ذلك».

بهذه الكلمات أمر أن يتم تسليمهم إلى رجال معينين كُلفوا بواجب قيادتهم وهم مقيدون، نحو بلاد فارس إلى السلطان، وذلك مع التعليقات التي كان قد أدلى بها، فقد كان واثقاً أنه سيتغلب بسهولة على رجال لم يكن قد اختبر شجاعتهم بعد، غير أن الكلمات نفسها التي كان قد خيل إليه ستجلب المجد له، عندما استخف بأولئك القوم وبعثها إلى مولاه،

هي التي كانت سبب دماره فيما بعد، لأن الخزي الذي لحق به كان كبيراً جداً، لأن الناس الحقراء جداً ـ حسب تقديره الخاص ـ قد هزموه وأربكوه، ذلك أن المقهورين يجدون في العادة أن الهزيمة أخف وطأة عليهم إذا ما قيل إنهم سحقوا من قبل رجال شجعان وأشداء، وعلى العكس من هذا تماماً، إذا ما أحرز الحقراء والتافهون النصر فالخزي أكبر والعار مضاعف.

٧ ـ مع ازدياد المجاعة يضطر الناس بمضض زائد إلى أكل الأطعمة القذرة.

كانت المدينة الآن محاصرة من جميع الجهات، وازدادت حالة المسيحيين سوءاً حيث لم يعد بإمكانهم التنقل ذهاباً وإياباً لحضور الأمور العامة في الخارج، ونشأت مجاعة ذات قسوة فريدة من نوعها، حيث لم يعد ممكناً جلب الأطعمة إلى داخل المدينة، كما أن نقص المؤن والمتطلبات الضرورية ذات الطبيعة الملحة قد دفعت الناس الجائعين إلى وسائل مخزية، ولم يكن هنالك أي خيار في مسألة الطعام حتى بالنسبة إلى أولئك الشديدي الحساسية، كما لم يكن هنالك أي تمييز كيفي بين اللحم النظيف واللحم القذر، حيث استهلك على الفور كل ما قدمته الفرصة سواء أكان مجاناً أو بالشراء، لأن المعدة الجائعة طالبت بصوت عال بأي نوع من الغذاء يمكن أن يملأها إذا ما تيسر بالفعل شيء من هذا القبيل، ولم يشعر النبلاء بأي خزي، ولم يشعر الأحرار بأي تردد في تقديم أنفسهم كضيوف غير مدعوين على موائد الغرباء، فقد اعتمدوا بجشع على إحسان الآخرين كمتسولين مطالبين بإلحاح من أيدي الغرباء ما غالباً رفضوه، واندثرت الحشمة، التي كانت صديقاً مألوفاً فيما مضى، اندثرت من بين صفوف العقائل، وغاب الإحترام من بين العذارى، وبحثن عن الطعام في كل مكان، لا يثنيهنّ الخوف من الصد، متناسيات لحق مولدهن، بحثن بوجوه متعبة وأصوات كئيبة، تثير شفقة قلوب قُدّت من صخر.

وكان هنالك عدد آخر من الناس لم تتمكن المجاعة المريرة من دفعهم إلى التخلي عن الإحتشام والهبوط إلى التسول بصفاقة، حيث اختبأ أمثال هؤلاء الأشخاص بعيداً في أماكن سرية ليستريحوا وحدهم، لأنهم فضلوا الموت على أن يحاولوا علناً استجداء أي شيء لأنفسهم، وكان من المستطاع الآن رؤية رجال نصف أموات، بعدما كانوا فيما مضى رجالاً أقوياء، جعلتهم الشجاعة الفريدة، والمنزلة العالية رجالاً بارزين، ومعروفين معرفة جيدة من قبل الجميع، رؤيتهم الآن متكئين على عكاكيزهم بضعف، وذلك عندما جروا أنفسهم على طول الشوارع والساحات، وعلى الرغم من أنهم لم يتفوهوا بأية كلمة، فإن وجوههم المكتئبة قد التمست الصدقات من المارة، ومن الممكن أيضاً رؤية الأطفال المنتحبين، والرضع الذين

كانوا ما يزالون معتمدين على الحليب للتغدية، في كل مكان وهم معرضون للخطر، وعند تقاطع الطرق، بحثاً عن الطعام لأنفسهم، لأن الذين كانوا قد أنجبوهم قد حرموهم من عناية الأمومة، حيث كانت أمهاتهم غير قادرات على الحصول على طعام كاف حتى لأنفسهن.

وفي وسط حشد كبير كهذا نادراً ما وجد واحد كان لديه طعام كاف لنفسه وحدها، فقد نفدت موارد الجميع بالفعل، وكان الجميع قد بلغوا مرحلة التسول بشكل مماثل تقريباً، وإذا ما صدف ووجد شخص محظوظ جداً بأن لدية بقية باقية من ثروته الخاصة، فإنها لم تجده نفعاً، حيث لم تكن الأشياء الضرورية لمساندة الحياة متوفرة لتشرى، كما أن الذين عدّهم أصدقاؤهم من قبل على أنهم الأكثر كرماً وسخاء في حسن الضيافة، بحثوا الآن عن الأماكن الأكثر انعزالاً والمتعذر على الآخرين بلوغها لتناول وجبات الطعام، وانقضوا هنالك بجشع على الطعام ـ مهما كان ـ الذي كانوا قادرين على شرائه من مصادر متنوعة، ورفضوا المشاركة مع أي كان؛ هل هنالك حاجة لقول المزيد؟ لقد اعتبر لحم الجمال والحمير والخيول والبغال والحيوانات القذرة من كل نوع على أنها أكثر الأطعمة الشهية ندرة عندما أمكن الحصول عليها، والشيء المروع ذكره هو أن جثث البهائم التي كانت قد ماتت من الخنق أو المرض قد انتشلت وتم التهامها، فهذه كانت أنواع الأطعمة التي حاولوا بها أن يقمعوا الرغبات الملحة للجوع، وأن يمدوا أرواحهم التعيسة بأي وسيلة ممكنة من وسائل الحياة.

ولم تقتصر هذه الكارثة المفرطة ـ وأعني بها المجاعة ـ على مهاجمة العامة من الناس والرجال ذوي المراتب الدنيا فقط، بل ورطت في أهوالها حتى الزعماء الأكثر أهمية، فقد كانت بالنسبة إليهم لا تطاق بشكل أكثر حيث كانت لديهم حاجة أكثر من البقية، لأنه كان لديهم أناس كثيرون مكلفون بإعالتهم، ولم يستطيعوا أن يمنعوا سخاءهم عنهم.

وعلى الرغم من أن روايات أخبار هذه الأيام ما تزال موجودة بين الرجال المسنين، سيتطلب الأمر بحثاً خاصاً لسرد ما حدث لجميع الزعماء، ولقص أخبار الشدائد والمصاعب التي عمل هؤلاء القادة الأتقياء في ظلها في سبيل المسيح ولأجله، وهذا بطبيعة الحال بعيد عن نطاق تقديم خلاصة تاريخية مكثفة[1]، ومع ذلك يمكن القول إجمالاً: إنه لمن الصعب إيجاد مثل آخر في التاريخ في أي مكان يتحدث عن التعاسات التي تحمّلها قادة عظماء مثل هؤلاء، وجيش ضخم جداً كهذا تحملوها بصبر كبير وبدون تذمر.

---

(١) يشعر وليم بوضوح أن معالجته المجملة مسوغة اختصاره لأخبار المعاناة في المجاعة فقد استمرت هذه الآلام بدرجات متنوعة لفترة عدة أشهر إضافية.

٨ - العدو ينجح تقريباً في الإستيلاء على أحد الأبراج خلسة. هنري دي اتش يبدي مقاومة شجاعة، ويستولي على البرج بقوة السلاح بعد قتله عدداً من الأتراك.

كانت أنطاكية الآن مطوقة من جميع الجهات ويعود الفضل في ذلك إلى الحماسة الفعالة التي أبداها كربوغا مع شعبه، ولم يتمكن المسيحيون الذين حجزوا داخل الأسوار من الخروج، كما لم يستطع أي إنسان القدوم إليهم، وعلاوة على ذلك، لقد أنهكتهم الإشتباكات المستمرة تقريباً، أنهكتهم بشكل يفوق الإحتمال، وهي الإشتباكات التي حصلت داخل المدينة وخارجها، وبدأ الآن شعبنا يظهر عناية أقل، وحذراً أدنى في حراسة المدينة، حيث أنهكته المشاق المديدة، وهدته ضغوط المجاعة، وأما الذين كانوا منشغلين إلى أبعد الحدود في البحث عن الطعام لمجرد البقاء أحياء، فقد أصبحوا بشكل طبيعي مهملين إلى حد ما بالنسبة للمسائل الأخرى، وهكذا حدث أن نجح العدو تقريباً في دخول المدينة في أحد الأيام وذلك من خلال برج كانت حراسته مهملة، ويقع إلى جانب البرج الذي دخل المسيحيون منه إلى المدينة.

فقد وضع بعض الأتراك، الآملين بالإستيلاء على هذا البرج، السلالم على الأسوار في سكون الليل ومن ثم فكروا بالنزول إلى المدينة، كما كنا قد فعلنا من قبل، فقد صعدوا إلى الأسوار بهذه الوسيلة، عند المساء، بغرض الإستيلاء على البرج الذي لم يجدوا من يدافع عنه، هذا وبينما كان الأتراك منشغلين بنشاط في تنفيذ هذه المهمة حدث أن وصل رئيس الحرس الذي كان يقوم بجولات على السور، وصل إلى المكان حيث كان يعمل الأتراك، فاكتشف المكيدة، ونبه على الفور الجند الذين كانوا موجودين في الأبراج المجاورة، بصراخة بصوت مرتفع: إن العدو قد استولى على البرج غدراً، وأيقظت الجلبة الذين كانوا يحرسون ذلك الجزء من المدينة، وكان من بين الذين سمعوا الإنذار هنري دي اتش Henry D'esch وهو رجل نشيط بارز، فأسرع على الفور إلى الموقع مع فارسين آخرين هما: فرانكو وسغمار Siegmar وكانا من أبناء عمه من سكان مدينة تعرف باسم مخلن Mechlin[مالنيس Malines] واقعة على نهر الموز Meuse، وخشوا من أن يكون أحد ما قد استسلم بالصدفة لإغراء الرشوة، وخان المدينة غدراً، وهاجم ايتش العدو بكل عنف، بقوته المألوفة، وبمساعدة الذين اندفعوا من الأبراج المجاورة لمؤازرته، وأبدى المهاجون مقاومة عنيفة جداً، بيد أنه نجح في طردهم من البرج في وقت قصير، وكانت نتيجة هذا الإشتباك مقتل أربعة من الأتراك، وأما الستة والعشرون الباقون (لأن المهاجين الثلاثين كانوا قد صعدوا البرج وفي نيتهم إفساح المجال للآخرين فيما بعد) فقد ألقي بهم مباشرة من فوق الشرفات فتمزقت أوصالهم.

وعانى المقدم الشجاع من فقدانه أثناء القتال لرفيقه سغهار الذي قتل بالسيف كما أن فرانكو أصيب بجراح خطيرة، ونقل إلى البيت وهو فاقد للوعي تقريباً.

٩ ـ العدو يهبط إلى الساحل. إحراقه السفن وقتله العديد من شعبنا على طول الطريق.

استمر فقدان الطعام يوماً إثر آخر في مضايقة المحاصرين أكثر فأكثر، وأصبحت معاناة المحاصرين أكثر حدة عندما ازدادت المجاعة، وقد جعلت أنواع الفاقة المتعددة وعبء الأسى اليومي بعض المسيحيين يائسين، فنبذوا الإهتمام بحياتهم وسلامتهم، وغادروا المدينة سراً على الرغم من أن آلاف المخاطر كانت تكتنفهم، فقد مروا بين خطوط العدو ونجحوا في بلوغ البحر حيث كانت ما تزال هنالك بعض السفن الإغريقية واللاتينية، وكان هدفهم شراء الطعام ونقله إلى المدينة، ومع ذلك فقد رحل آخرون بأمل النجاة من المخاطر الكبيرة جداً، ولم تكن لديهم نية بالعودة أبداً، فقد تخلوا عن جميع التوقعات في أن وضع الذين كانوا قد تركوهم وراءهم يمكن أن يتغير للأفضل، أو أن بإمكانهم أن ينجوا بأية مصادفة من سيوف العدو.

وفي هذه الأثناء اكتشف الأتراك أن بعضاً من أفراد شعبنا كان يقوم برحلات سرية إلى البحر في الليل، وأنهم كانوا يتجولون جيئة وذهاباً بحثاً عن الطعام، فأرسلوا على الفور رجالاً مطلعين اطلاعاً جيداً على المواقع لنصب الكمائن لهؤلاء الناس، وبذلك ألحقوا بهم القتل المتكرر، وغالباً ما لازم النجاح هذه المحاولات إلى حد أنهم أرسلوا في النهاية ألفي فارس منتخبين، إلى البحر، مع أوامر بالقبض على البحارة والتجار وإحراق السفن، وأملوا أن هذا الإجراء سيجتث تماماً ذلك النوع من التجارة، بحيث سيجد المسيحيون أنفسهم من الآن فصاعداً منقطعين من جميع المؤن، حيث أزيلت تلك الطريقة للحصول على الطعام، وسيتخلون عن جميع الآمال بالسلامة، وذلك ما حدث بالفعل، ونفذ الفرسان أوامرهم بشكل حرفي، فأحرقوا عدداً من السفن، وقتلوا القسم الأكبر من الملاحين الذين باغتوهم وهم غافلون عن حراستهم، وجعلوا البقية تلوذ بالفرار، وانتشر نبأ هذه الكارثة في الخارج، وروع كثيراً التجار الذين كانوا يأتون إلى هناك في رحلات تجارية من قبرص ورودس وجزر أخرى ومن صقلية وايزوريا وبامفيلا أيضاً، ومن أقطار بحرية أخرى، وكانوا خائفين في ظل الظروف القائمة من العودة إلى هنالك حتى لنقل سلعهم، ولم يتجرأوا على الإقتراب، ونتيجة لذلك توقفت التجارة بالسلع توقفاً تاماً، وأصبح وضع المسيحيين الخطر كما كان من قبل، لا بل أسوأ من غير ريب، فعلى الرغم من أن كمية السلع القليلة التي جلبها التجار لم

تكن كافية على الإطلاق لتأمين احتياجات العديد من الناس، فإنه طالما كان الإتصال مفتوحاً عن طريق البحر، فإن بعض العون الخفيف قد يصل إلى المسيحيين بوساطة هذا الطريق.

وصادف العدو بعضاً من المؤمنين على الطريق لدى عودتهم من الشاطىء، فقتلهم جيعاً باستثناء عدد قليل منهم، وهم الذين تسللوا عبر الأدغال والأحراج ووجدوا مخابىء لأنفسهم في الكهوف، وسبب نبأ هذه الكارثة، نبأ السوء، حزناً شديداً للمسيحيين، أكثر مما سببته المجاعة القاسية، وغالباً ما تجدد كربهم عندما كانوا يسمعون قصة الكارثة التي حلت بأصدقائهم، وبعدما أنهكتهم محن عديدة، وفاقة لا حدود لها، وفقدان يومي للأصدقاء، ومحن مريرة، بدأوا الآن ييأسون حتى من الحياة نفسها، كما أصبحوا أيضاً أقل اهتماماً بحماية أنفسهم، وأقل قبولاً لطاعة رؤسائهم.

١٠ - ستيفن كونت تشارترز يزور امبراطور القسطنطينية.

وصل في هذه الآونة وليم دي غراند مسنيل والآخرون الذين كانوا قد هربوا معه، إلى الإسكندرونة، ووجدوا هناك ستيفن كونت تشارترز وبليوس، الذي كان ينتظره القادة، لا بل جميع الناس في الواقع، ينتظرونه بتلهف من يوم إلى آخر، وكان ستيفن ما يزال مقيماً في هذه المدينة بذريعة المرض، وأعلموه بكل ما كان قد حدث في أنطاكية، وبالغوا في وصف مدى المصاعب والبؤس هناك خشية من أن يظهروا كجبناء تخلوا عن رفاقهم لسبب تافه غير كاف، وكان الوضع مخيفاً بالفعل، وبشكل يفوق المقارنة، ومع ذلك، فقد جعلوه أيضاً أسوأ برواياتهم المصطنعة، وأبرزوا الأحوال التي كانت سيئة بشكل كاف بحد ذاتها، ولم يكن صعباً إقناع ستيفن بأي شيء نزع نحو تقوية جنبه، وكان لهذه الأسباب ذاتها قد تخلى عن أصحابه وهرب من بين صفوفهم بذريعة المرض، وعلى هذا أبحروا بعدما كانوا قد تبادلوا الرأي بين بعضهم، أبحروا في سفن كانت معدة لهم في الميناء، ووصلوا إلى إحدى مدن الساحل بعد رحلة استغرقت عدة أيام، وهنالك استفسروا بقلق عن مكان وجود الأمبراطور، فعلموا من خلال روايات متنوعة ومختلفة في الجوهر والصحة أنه كان قد انطلق يريد أنطاكية مع عدد كبير من الجند الإغريق واللاتين لنقل العون للمسيحيين حسبما ألزمه الإتفاق بذلك، وكان الآن معسكراً بالقرب من فيليو ميلون.

وكان قد انضم إليه هناك قرابة أربعين ألفاً من اللاتين بالإضافة إلى الجيوش التي كان قد جندها من جميع الشعوب، وكانت الفيالق التي تقدمت قد خلفت هؤلاء الجند في بلد الإمبراطور، وذلك إما لأنهم كانوا معدمين، أو لوجود مرض بينهم أو لسبب ملح

آخر، هذا وكانوا الآن قد استردوا قوتهم، وكانوا قد حصلوا على الثقة بالتقدم بعدما أثارهم وجود الإمبراطور مع جيشه الذي لا يحصى عدده، وكانوا الآن تواقين ومتفانين للالتحاق برفاقهم في رحلة الحج.

وعندما علم الكونت ستيفن أن الإمبراطور كان متوقفاً في ذلك المكان، منتظراً وصول تعزيزات كبيرة، ولإجراء استعدادات إضافية للزحف، أسرع بصحبة الموجودين في مجموعته إلى الجيش الإمبراطوري، سالكاً الطريق الأقصر، وقد استقبل لدى وصوله بحفاوة كبيرة وبدهشة أيضاً، لأن الإمبراطور كان قد تعرف عليه في بداية الحملة عندما كان ستيفن قد مرّ مع البقية، وكانت قد نمت علاقات ودية بينهما، ورداً على الإستفسارات التي أجراها الإمبراطور عن حياة الزعماء الآخرين وسلامتهم وأوضاعهم، ولما كان قد تركهم أجابه على النحو التالي:

١١ - خطاب ستيفن المضلل أمام الإمبراطور، وهو ما أدى إلى نتائج مشؤومة على المسيحيين.

« إن عبيدك الأوفياء، أيها الإمبراطور الذي لا يقهر، الذين سُمح لهم بالسير عبر امبراطوريتك منذ بعض الوقت، والذين أحيطوا بكرمك، قد استولوا على نيقية في البداية، ووصلوا إلى أنطاكية بعد زحف ناجح، وحاصروا تلك المدينة لمدة تسعة أشهر متتالية بدون توقف، ونجحوا في النهاية بفضل من الرب، في الإستيلاء عليها بالقوة، هذا وما تزال القلعة صامدة حيث تطل على المدينة بقيامها على جبل مرتفع، وهي منيعة بكل ما في الكلمة من معنى، واعتقد شعبنا أن الحصار قد انتهى وتخلص من جميع المخاطر، لأن المدينة كانت قد استسلمت، وبرز الآن خطر جديد، وكان أسوأ بكثير من الخطر السابق، لقد وقع شعبنا في خطر أكبر بكثير من الخطر الذي كان قد عانى منه من قبل.

لم يكن قد مضى من الزمن سوى ثلاثة أيام تقريباً على احتلال المدينة عندما أتى كربوغا، القائد الفارسي القوي، مع عدد لا يحصى من الجند، لقد جاءوا من الشرق بكثرة تفوق التقدير، وحاصروا المدينة من جميع الجهات وقطعوا مداخلها ومخارجها من كل صوب، وألحقوا العديد من المحن بالقادة والناس على حد سواء إلى درجة أنهم يئسوا حتى من حياتهم.

ولا يمكن للعقل أن يتخيل إلاّ بصعوبة الأعداد الكثيرة لذلك الجيش المحاصر، فقد غطت صفوفهم كامل الريف المحيط بأنطاكية كما يفعل الجراد، إلى حد أنه نادراً ما بدا أن هنالك مكان لخيمهم، هذا وفي المقابل أنهكت المجاعة والبرد والحر والموت والمجاز شعبنا،

إلى درجة أن سائر الحشد المجتمع الآن في أنطاكية يبدو ليس كافياً للدفاع عنها إلاّ بصعوبة كبيرة.

وعلاوة على ذلك قطعت كلياً ـ كما تعرفون ـ المساعدة التي تم جلبها حتى الوقت الحالي من إمبراطوريتكم ومن الجزر والمدن الواقعة على الساحل، حيث كان العدو قد أرسل جنوداً قاموا بالإستيلاء على سائر المنطقة الواقعة بين أنطاكية والبحر، ودمروا الأسطول كله تقريباً وقتلوا البحارة والتجار وحرموا بالتالي شعبنا حرماناً تاماً من جميع الأمال بالحصول على الطعام عن طريق التجارة.

ويقال إنه لا يوجد الآن في أنطاكية سوى طعام يكفي لتلبية متطلبات الناس لمدة يوم واحد فقط، وحتى يكتمل حجم محنتهم، ليس لديهم أي مكان آمن يمكنهم اللجوء إليه حتى في المدينة، حيث غالباً ما يتم إدخال الأتراك إلى قلب المدينة سراً من خلال الحصن الواقع فوقها، من حيث يشنون الهجمات إلى أعماق المدينة نفسها، ويهاجمون المسيحيين في الشوارع والساحات، وعلى هذا إن ما يعانيه شعبنا من أعمال الصراع هذه داخل الأسوار لا يقل عما يعانيه من الهجمات التي يشنها العدو من الخارج.

ولهذا السبب، إننا لاحظنا مع هؤلاء القادة والرجال ذوي المنزلة النبيلة، والموجودين معنا هنا، أن المشروع الذي كان إخواننا منشغلين به ليس بإمكانه النجاح، وغالباً ما تحدثنا معهم ونصحناهم بطريقة أخوية ليحتاطوا لسلامتهم، وبما أن الإرادة السماوية ليست معهم، فعليهم أن يقطعوا الأمل بصنع المستحيل، وعندما وجدنا أننا لن نتمكن من زحزحتهم عن غايتهم، اتخذنا وسائل تتكفل بأعباء سلامتنا وخشية من أن نتورط بطيش في الكوارث نفسها أيضاً.

وإذا ما بدا الحال الآن مناسباً لك وللنبلاء البارزين الذين يحيطون بك أقلع عن نية الزحف إلى أنطاكية، حتى لا تلحق المخاطر المشابهة بالجنود المحظوظين الذين تقودهم، ومن الأعقل والأفضل لك أن تتراجع وقواتك سليمة أمام الحشد العملاق الذي جهزه الشرق بأسره، فالإقلاع عن محاولة القيام بهذه الحملة أفضل من أن تحارب بتهور أعداداً هائلة من الجند الشجعان، عندما تكون النتيجة غير مضمونة.

إن هؤلاء الرجال البارزين الموجودين في حضرتك هنا قد شاركوا في المحن نفسها، وبإمكانهم أن يثبتوا أن أقوالنا صحيحة، ويعرف تاتيكوس هذا الأمر أيضاً، وهو الرجل الذكي الداهية، الذي كانت جلالتكم قد أرسلته معنا، حيث أدرك ضعف شعبنا، وانسحب بحكمة من الإرتباط معه حتى يتمكن من إعلام جلالتكم بالوضع».

وكان في جيش الامبراطور أخ لبوهيموند يدعى غيدو[1] Guido قد جن جنونه عندما أصغى إلى أقوال ستيفن، وندب بمرارة محن أخيه وأصدقائه، ورغب في البداية أن ينكر صحة قصة الكونت وأن ينعته بالجبن لأنه كان قد انسحب بتهور كبير من صحبة الزعماء الكبار، لكن وليم دي غراند مسنيل زوج أخت بوهيموند نجح في إسكاته، وكان وليم نفسه رجلاً نبيل المنبت وإن لم يكن في الأخلاق كذلك.

١٢ - الامبراطور يعود إلى بلاده. ثقته بأقوال الكونت تقوده إلى صرف قوة الحملة التي كان قد جمعها.

بعدما استمع الامبراطور إلى هذه الأقوال استدعى نبلاءه للتباحث فيما إذا كان يتوجب عليه أن يزحف إلى أنطاكية أم يعود ويقود جيشه إلى الوطن، وقد تقرر بالإجماع في النهاية، وبعد أن تمت دراسة جميع جوانب المسألة أنه سيكون من الأعقل إعادة الجيش بسلامة إلى الوطن، بدلاً من إثارة جميع ممالك الشرق والمجازفة بتقلبات الحرب.

وكان الإمبراطور قد عول كثيراً على أقوال ستيفن ووثق بها إلى حد أنه اعتقد أن كل شيء سيكون كما صرح به الكونت، إضافة إلى أنه خشي في أعماق قلبه من إمكانيه أن يقوم كربوغا، الذي قيل إنه قد أباد قواتنا، بغزو الإمبراطورية بالجيوش الضخمة التي أكدت الأخبار أنه كان يقودها، ويمكن بالتالي انتزاع نيقيه مع بيثينيا بأسرها من سلطة الإمبراطور ثانية، وهما اللتان تمّ كسبهما بالعمل الحماسي للقادة الصليبيين، ولكي يحتاط الإمبراطور ضد هذا الخطر، أمر بإحراق جميع الأقاليم الواقعة على طول خط تراجعه على اليمين واليسار على حد سواء، ونهبها وذلك امتداداً من قونية حتى نيقية، وقد أمل أن هذا الريف المخزب والمهجور والفارغ من مؤن الطعام تماماً سيكون على الأقل كعائق للعدو إن كان ميالاً بأي سبيل لتوجيه قوته ضد مملكته.

وهكذا فإن سلوك ستيفن قد حرم المسيحيين من المعونة التي احتاجوها بشكل ملح، وهي معونة كان يحضّرها الإمبراطور تنفيذاً للمعاهدة.

وعندما يتفحص المرء عمل الكونت بدقة في هذه المسألة، وباعتبار مناسب للحقائق الجوهرية يبدو له سلوكه سلوكاً غير مسوغ برمته، ويبدو وكأنه قد صدر عن غريزة شريرة بحد ذاتها وشائنة بالضرورة، ومع ذلك فإن النتيجة قد أضيفت من غير ريب إلى مجد شعب الرب ومجد قادتهم بوساطة عناية الرب الواقية، وهو الرب القوي والحكيم والقادر وحده على إعطاء

---

(١) اسمه ويدو لدى المؤلف المجهول صاحب كتاب: «أعمال الفرنجة»، وكان أخاً شاباً غير شقيق جاء محصلة لزواج روبرت غويسكارد من زوجته الثانية.

أحسن النتائج حتى للقضايا التي بدايتها شريرة، وكان من الطبيعي للذين احتملوا العبء وحرارة النهار، الذين كانوا قد تركوا زوجاتهم وأطفالهم ليحاربوا كحجاج للرب، أن ينعموا بالمجد الناشيء عن أعمالهم، هذا ولنلاحظ لو كان الإمبراطور موجوداً لكان ضن بهذا المجد على جميع الآخرين، ولو كان موجوداً مع فيالقه في الموقع لكان أنهى الحصار بلا ريب، وذلك بسبب سلطته المتفوقة، وقواته الأكثر تعداداً، ولكان إكليل الغار قد آل بالتالي بإنصاف إليه، لذلك على المرء أن يؤمن أن الرب نفسه هو الذي جعل الذين كدحوا بإخلاص وتكريس، وتحت مشاق لا تحصى، يجنون ثمرة عملهم، ويحرزون حق النصر.

١٣ ـ نبأ انسحاب الإمبراطور يلهب حماس العدو للضغط بقوة أكبر. المسيحيون يرفضون بيأس تأدية واجبهم. بوهيموند يحرق المدينة ليخرجهم من مخابئهم. الزعماء يفكرون بالفرار. الدوق يحبط خططهم.

نشرت ألسن كثيرة في هذه الأثناء في كل مكان من المدينة إشاعة أن الامبراطور كان قد عاد، وأضافت هذه الشائعة لمسة الأوج إلى المحن التي كان المسيحيون يعانون منها، واقتربت من دفع الجميع إلى أعماق اليأس مباشرة، ومقتوا مجرد ذكر الكونت ستيفن، وحكموا عليه بالخزي الأبدي، ولعنوا وليم دي غراند مسنيل وجميع المشاركين في تلك الخيانة العامة، وتوسلوا إلى السماء أن ينال هؤلاء الذين لم يكتفوا بالإنسحاب من مشاق الجميع العامة، بل حرموا أيضاً شعب الله من المساعدة الوفيرة التي بدا أن الرب قد أعدها لهم، أن ينالوا نصيبهم في النار السرمدية مع الخائن يهوذا.

وكان كربوغا وقادة جيشه الرئيسون قد علموا من خلال كشافتهم أن الإمبراطور كان يتقدم نحوهم، ومن الطبيعي أنهم باتوا في حالة قلق كبيرة، وخافوا بحق من قوته التي كانت مؤلفة من صفوة رجال امبراطوريته، وزادت غطرسة كربوغا ازدياداً كبيراً عندما علم أيضاً من خلال هؤلاء الكشافة أن الإغريق قد عادوا، وضغط على شعبنا بقساوة أكبر، وفوق ذلك طوقهم بإحكام أشد وكأنه قد كفل الإنتصار من قبل، وبالمحصلة غاص المؤمنون الموجودون داخل المدينة في تعاسات كبيرة وجديدة ولم يعد يبدو أن هنالك أدنى أمل بالإنقاذ أو المساعدة من أي مصدر من المصادر، فقد هاجم يأس مريع جميع المسيحيين، وازداد هذا الشعور قوة يوماً بعد يوم.

وكانت المسؤولية العامة عن سائر الجيش قد عهد بها إلى بوهيموند، وقد وجد بعدما طاف في المدينة أنّ من المستحيل أن يُخرج بالكلمات أو بالضربات ولو شخصاً واحداً من المنازل التي كان الناس يختبئون فيها، ولم يكن من الممكن إيجاد رجل واحد يتولى واجب

الحراسة، أو اشغال العدو ومحاربته في داخل المدينة أو خارجها، وذلك على الرغم من أن الجميع كانوا يعانون من المحن الكثيرة التي أنزلها الكفرة بهم.

وفي أحد الأيام، قرر بوهيموند، بعدما كان المنـادون والموظفون الحكوميون قد عادوا منهكين مما بذلوه من جهود عقيمة لجمع الناس، قرر أنه لمن العبث القيام بمحاولات إضافية لإخراج الناس من ملاجئهم، وبناء عليه أمر مساعدية بإحراق المدينة في أماكن كثيرة، وكان يأمل أن الخوف من النار سيرغم الذين أبتِ قلوبهم القاسية إطاعة الإرادة السماوية على الظهور علنا، وكانت هذه المناورة ناجحة فبعد أن كان بوهيموند غير قادر من قبل على الحصول على عدد كافٍ من الرجال للخدمة العامة، وجد الآن الجميع تواقين بحماسة لأداء هذه الواجبات.

ويروى أيضاً أن بعضاً من الزعماء عقدوا ـ في يأس من الحياة والسلامة ـ إجتماعاً خاصاً قرروا فيه التخلي عن الناس وسائر جيش الحجاج في تلك الليلة نفسها، ومحاولة الفرار في الليل إلى الساحل خلسة، ووصلت أنباء هذه الخطط إلى مسامع الدوق وأسقف بوي المبجل فاستدعيا الأشخاص المذنبين إلى حضرتيهما ووبخاهم بعنف وذكراهم أنهم سيوصمون مع ذريتهم بوصمة الخزي السرمدي إن انسحبوا من هذا الحشد الكبير للمؤمنين بالمسيح، متحدين بذلك متطلبات الشرف ونسبهم السامي.

وكان هنالك نقص كبير في الطعام بين صفوف شعب الله خلال هذه الأزمة، وشدائد مجاعة يائسة هائلة، وضغط كبير من جانب العدو في داخل الأسوار وخارجها على حد سواء حيث بدا أنه ليس هنالك أي علاج أو معونة في أي مكان، فقد تورط الكبير والصغير على قدم المساواة في الكارثة ذاتها، ولم يستطيعوا بالتالي تقديم أية مساعدة لبعضهم بعضاً، وعندما فكروا بالزوجات والأطفال الذين كانوا قد تركوهم في الوطن، وبممتلكات الأسلاف الواسعة التي كانوا قد هجروها من أجل حب المسيح استسلموا للشكوى من جحود الرب لأنه لم يأخذ أعمالهم وتكريسهم الصادق بعين الإعتبار، بل عاقبهم كأناس غرباء عنه، وذلك بأن تخلى عنهم ووضعهم بين يدي عدوهم.

١٤ ـ رؤيا شخص يدعى بطرس. اكتشاف حربة الرب. الناس يستردون حماسهم من جديد.

وبينما كان شعب الله يعاني من الأسى بهذه الطريقة، نظر الرب إليه وسمع تأوهاته، فأرسل السلوان من مقر جلالته إليه، ويروى أن واحداً من رجال الدين يدعى بطرس[1]،

(١) كان بطرس بارثلميو هذا، رجل دين غامض في الجيش البروفانسي. وأصبح ريموند دي أغوليرز وهو قسيس =

قيل إنه قدم من المنطقة المعروفة باسم بروفانس، قد جاء إلى أسقف بوي وكونت طولوز، وادعى أن الحواري أندرو عليه السلام قد ظهر له ثلاث مرات أو أربع في المنام، وأمره بإلحاح كثير أن يخبر القادة أن الحربة التي كانت قد اخترقت طرف ربنا يسوع المسيح مخبأة في كنيسة أمير الحواريين، وكان عليهم أن يبحثوا عنها هنالك بكل اجتهاد ممكن، وذلك في الموقع الذي كان الحواري قد أشار إليه بإشارات محددة.

وتبعاً لهذا ذهب بطرس إلى عبيد الرب أولئك، وأعلمهم بالتفصيل خبر الأمر الذي أقسم أنهُ قد أوكل إليه، وأعلن أن الحواري قد أجبره على أن ينجز هذه المهمة تحت تهديد أهوال كثيرة، وكان قد رفض الاضطلاع بالمهمة مراراً وتكراراً، لأنه كان رجلاً فقيراً وأمياً، ومع ذلك فإنه لم يعد أخيراً متمكناً من التهرب من الأمر الملح للحواري، حتى ولو كان ذلك بالمجازفة بحياته.

ونقلت المعلومات المبلغة بسرية تامة إلى بقية القادة، وأحضر بطرس إليهم ليتمكنوا من العلم منه صيغة الأمر وشكله بكل دقة، وبعدما استمعوا إلى أقواله صدقوا قصته، واجتمعوا في المكان الذي كان قد سماه لهم داخل إطار الكنيسة المذكورة آنفاً، وجرى الحفر في الأرض إلى عمق ما فوجدوا الحربة هناك كما كان بطرس قد قال تماماً[1].

وركض الناس مثل رجل واحد إلى الكنيسة عندما سمعوا الخبر، لأنهم شعروا أن السماء قد أرسلت العزاء إليهم، وتمّ إحضار الهبات والتقدمات تكرمة لاكتشاف ذلك الأثر الثمين، وبدأوا يستردون أنفاسهم من جديد بعدما تحرروا من قلقهم، وشعروا بقوة متجددة لتنفيذ الأوامر السماوية، وكان هنالك بعض الذين ادعوا أيضاً أنهم كانوا قد رأوا الملائكة والحواريين المقدسين في أحلامهم. وقد عدّت هذه الرؤى بدورها كدليل يؤكد صحة حلم بطرس وصدقه، وأشرقت أرواح الناس الكئيبة مجدداً بشكل رائع.

وتلبية لاقتراح رجال مبجلين يخافون الله، جدد جميع الزعماء أيمانهم، وأدوا قسم الإخلاص لبعضهم بعضاً، وتعاهدوا لئن أنقذهم الرب برحمته من وضعهم الحالي الخطير،

= ملحق بالكونت ريموند، نوعاً من العراف الحالم، وكرس جزءاً ضخماً من تاريخه لدحض الإتهامات ضد صحة الرمح. وكان هناك حسبما روى ريموند خمس رؤى بين الثلاثين من شهر كانون الأول من عام ١٠٩٧ واكتشاف الرمح (انظر هاغنمير «التأريخ» الأرقام: ٢٢١، ٢٣٦، ٢٥١، ٢٧٧ وجرت ترجمة رواية ريموند بالكامل من قبل كري في «الحملة الصليبية الأولى».

(١) ١٤ حزيران ١٠٩٨ استخدمت ظروف اكتشاف الرمح في اتهام بطرس بارثلميو. واختصر وليم القصة كثيراً (انظر بالنسبة لمختلف الآراء في تلك الفترة: كري ـ «الحملة الصليبية الأولى» ص ١٧٤ ـ ١٩٣، ٢٢٣ ـ ٢٤١).

ومنحهم الإنتصار المنتظر طويلاً على أعدائهم لن يتفرقوا حتى يكونوا قد أعادوا بعون الرب، المدينة المقدسة، وقبر المسيح المتألق، إلى العقيدة المسيحية وإلى حالتها السابقة من الحرية.

١٥ ـ ارسال بطرس الناسك رسولاً إلى العدو بناء على موافقة مشتركة من المقدمين. بطرس يتولى القيام بالمهمة بكل جرأة.

كان الناس قد كافحوا تحت وطأة هذه الأحوال التي لا تحتمل لمدة ستة وعشرين يوماً متوالية، وتشجعوا الآن من جديد، وشرعوا يشمرون عن سواعدهم بشجاعة جديدة، مواسين أنفسهم في طول معاناتهم بالأمل الذي أرسل من السماء إليهم، ووافق الجميع من أدناهم إلى أعلاهم على وجوب وضع حد لهذه الآلام، وعليهم أن يقاتلوا العدو على الفور، وأن يصدوا حالاً بمعونة القوة الإلهية الكفرة الذين استغلوا قوتهم الكبيرة استغلالاً واسعاً، وسيتم بالتالي تحرير المدينة التي منحها الرب لهم، فمن الأعقل كثيراً بالنسبة لهم أن يجربوا حظ الحرب مرة واحدة وإلى الأبد بدلاً من أن تهلكهم المجاعة المديدة ببطء، ومن أن يعذبهم عبء المحن غير المنقطع.

لقد كان هذا الرأي هو الرأي الذي ارتسم على شفاه الجميع، وكان أمراً ملحاً أن ينطلقوا من المدينة ويحسموا الأمر مع العدو بوساطة القتال، ولم يكن هذا الرأي رأي النبلاء فقط، بل أثارت الرغبة ذاتها العامة من الناس حتى أنهم اتهموا قادتهم بالكسل وانتقدوا كل تأجيل.

ولاحظ القادة أن الناس قد أثيرت حماستهم من السماء، فاجتمعوا للتداول وتقرر بموافقه عامة إرسال وفد إلى القائد العام لقوات العدو مقترحاً عليه الموافقة على تنفيذ أمر واحد من إثنين وهما: إما أن يلتزم بالرحيل ويترك المدينة للمسيحيين ملكاً بأيديهم إلى الأبد ـ المدينة التي كانت لهم أولاً وقد أعيدت إليهم الآن بإرادة الرب ـ أو ليستعد للمعركة ويستسلم إلى حكم السيف.

واختير لهذه المهمة بطرس الناسك، الرجل صاحب الحياة المبجلة، والذي قيل الكثير عنه في الصفحات السابقة، وأخذ معه هيرليون[1] Herluin العاقل الحكيم كمرافق وصاحب

(١) إن كلمتي فرس وفرثيين فيهما غموض إلى حد ما في استخدامها هنا ولا شك أن جيش كربوقا جاء من الموصل واشتمل بالفعل على فرس وعلى ترك أيضاً، ومع ذلك، لا بد وأن معظمهم كانوا يجيدون العربية، لغة الإسلام. ومن المعتقد أن هيرليون المترجم كان كاهناً مطلعاً على اللغة البروفانسية والعربية أيضاً واللاتينية، ويبدو أن الصليبيين تعرضوا لصعوبة بسيطة في الإتصال مع شعوب الشرق. وكان النورمانديون من جنوب إيطاليا وصقلية يتعاملون مع الاغريق والمسلمين الناطقين باللغة العربية لفترة جيل كامل، ويعتقد أن عدداً من قادتهم مثل تانكرد وريتشارد صاحب الامارة قد عرفا اللغة العربية. ومن غير شك أن الاغريق والأرمن قد عملوا كمترجين في مناسبات كثيرة، ويعرف شيء قليل نسبياً عن مدى المعرفة اللغوية في هذا الوقت (انظر =

له، وكان هيرليون رجلاً حاز على بعض المعرفة باللغة الفارسية، كما كان ماهراً بلغة الفرثيين أيضاً، وعهد إلى هذين الرجلين بتسليم الإقتراح المذكور أعلاه، هذا وأضيف شرط آخر، وهو: إنه إذا اختار الأمير المعركة، فإن القرار سيكون على مسؤوليته، وله أن يختار محاولة منازلته في قتال منفرد واحداً من الزعماء المسيحيين، أو أن يتحارب عددٌ محددٌ من رجاله مع العدد نفسه من رجالنا، أو أن يلتقي الحشد من كلا الطرفين في معركة عامة.

وتم الحصول على هدنة مؤقتة وسلام ممنوح لغرض إرسال الوفد، وبدأ الرجلان المذكوران آنفاً رحلتهما إلى معسكر الأمير مع المرافقة المخصصة لهما، ووجدا كربوغا محاطاً بكبار قادته وولاته، وكان بطرس الناسك رجلاً ذا حيوية كبيرة على الرغم من أنه كان صغيراً في قامته، وقد أبلى بلاء حسناً في مهمته وأداها بإخلاص وحماسة، وتقدم من الحاكم الفارسي بسلوك شجاع وموقف ثابت وبازدرائه لأية انحناءة احترام، وألقى الإنذار على النحو التالي: «لقد أرسلنا مجمع القادة المقدس، أحباء الرب الموجودون في أنطاكية، لنحذر سموكم للكف عن مضايقتهم، ولتوقفوا حصار المدينة التي كانت الرحمة السماوية قد أعادتها إلى سيطرتهم، فقد أنقذ أمير الحواريين بطرس، ذلك الناشر المخلص لعقيدتنا هذه المدينة من الوثنية، ففي قوة المعجزات، وبأقوال الوعظ الرؤوفة التي تفوّق بها تحولت أنطاكية إلى ديانة المسيح، ومنحت لنا حقاً خاصاً بنا، وإن الرب القوي القادر قد أعاد إلينا الآن هذه المدينة التي أخذتموها منا بالقوة، ولم تأخذوها بالحق.

وبناء عليه إن القادة المسيحيين، بشعور عميق بالمسؤولية اللائقة بميراث أسلافنا، وبالإرتباط الحميم بالمسيح وعقيدته، يقدمون لك الفرصة لاختيار اقتراح واحد من الإقتراحات العديدة التي نحن على وشك بسطها أمامك: إما أن تنسحب وتتخلى عن الحصار وتكف عن إزعاج المسيحيين، وإما أن تجرب محنة القتال معهم في اليوم الثالث منذ الآن، وعندها سيكون السيف هو الحكم، وعلاوة على ذلك، لعلك لسبب ما تريد تجنب الحرب عن طريق إيجاد عذر معقول، فإنهم يعطونك حرية اختيار اقتراح واحد من الإقتراحات التالية: يمكنك أن تنازل بنفسك واحداً من مقدمينا في مبارزة فردية، حيث ستحصل على كل ما تريده في حال انتصارك، لكن إذا ما هزمت ستتركنا بسلام، كما يمكن لعدد من فرسانك أن يتبارزوا مع العدد نفسه من فرسانا وتحت الشروط نفسها، أو، لنكرر ثانية: يمكن للحشد بأسره على كلا الجانبين أن يجربا الحصول على ما تقرره المعركة.

= ر.ب.يوديل «بوهيموند الأول أمير أنطاكية» ص٣٨ وس.هـ.هاسكن «نهضة القرن الثاني عشر في ثنايا الفصل التاسع).

(١) يوحنا: ١٣/٣٥.

بيد أن الأمير رفض تحديهم المعروض بإزدراء ويروى أنه قال: «لا يبدو لي يا بطرس أن القادة الذين أرسلوك إلى طرفنا هم في وضع يمكنهم من خلاله عرض الخيارات عليّ، أو إجباري على اختيار أمر ما حسب إرادتهم، فقد حولتهم شجاعتنا إلى وضع ليس لهم فيه أدنى حرية للإختيار، إن المتوجب عليهم هو تنفيذ ما أريده والتخلي عن آمالهم والعمل بما يتوافق مع رغباتي.

اذهبْ إذن إلى أولئك القادة الحمقى، والذين لا يدركون وضعهم حتى الآن، ولذلك أرسلوك إليّ، وقل لهم: إنني سأحتفظ بجميع الذين هم في ريعان الشباب من كلا الجنسين لخدمة مولاي، على أنني سأبيد جميع الباقين بحد السيف وأجتثهم كما تجتث الأشجار الميتة حتى لا يبقى لهم ذكر يذكر، ولو لم أكن قد فضلت تركهم يموتون من الجوع القاسي بدلاً من أن أبيدهم بالسيف، لكنت قد هدمت الأسوار منذ زمن بعيد، ولاستوليت على المدينة بهجوم عاصف، ولكانوا قد جنوا ثمرة مذاهبهم بضربات السيوف المنتقمة.

١٦ - بطرس يعود إلى المقدمين. تقديمه وصفاً كاملاً لموقف العدو المتغطرس. إعلان الحرب.

عندما علم بطرس بوجهة نظر الأمير الذي أرسل إليه، وتنبه لتصرفه المتعجرف الذي نشأ عن شعوره بامتلاك ثروات لا تضاهى، وللأعداد الضخمة من الجند معه، عندها استأذن كربوغا بالإنصراف وعاد إلى شعبة، ورغب، لدى وصوله إلى المدينة، أن ينقل الإجابة التي كلف بها، إلى القادة الذين كانوا قد بعثوا به، وكان الحشد بأكمله من كهنة وناس عاديين ينتظرون على حد سواء بتلهف سماع نوعية الإجابة ومعرفة نتيجة مهمته.

وكان بطرس قد عقد العزم على تقديم وصف مفصل لكل شيء كان قد حدث خلال مقابلته الرسمية مع كربوغا، وذلك بالإضافة إلى إيضاح موقف الأمير المتعجرف وتهديداته وغطرسته ورعونته، تقديم هذا كله في اجتماع عام لجميع الناس، غير أن غودفري الواسع الشهرة، خشي من التأثير على العامة إذا تم كشف جميع تفاصيل المهمة، حيث من الممكن ترويع عامة الناس كثيراً، وعندها سيقهرهم الخوف تماماً، لا سيما وأن المشاق المتواصلة قد أضنتهم، وكانوا مثقلين إلى حد كبير ينوءون تحت عبء محنهم، ولذلك أوقف بطرس وهو يواصل سرد قصته، أوقفه بتلهف وتنحى به وأخذه إلى مكان منعزل عن الحشد، واقترح عليه إزالة جميع التفاصيل وأن لا يعطي سوى خلاصة موجزة عن إجابة كربوغا، أي: إن العدو طالب بشن الحرب، وعلى المسيحيين أن يحولوا الآن كل اهتماماتهم للتحضيرات لذلك.

وهكذا لم يعلم الناس من وصف بطرس سوى أن العدو طالب بشن الحرب، وقد

أثارت هذه الرغبة ذاتها جميع الناس من أدناهم إلى أعلاهم على الفور، وطالبوا بالحرب بتلهف شديد، وقد استقبل هذا الوصف بفرح كبير إلى درجة بدا فيها أن الناس متأكدون مسبقاً من النصر، وقد نسوا تماماً جميع المشاق التي كانوا يكافحون في غمارها، وعبّر الجميع بالأقوال والمبادرات على أنهم كانوا جميعاً أشبه برجل واحد قلباً وفكراً، وهكذا أعلنت الحرب لليوم التالي.

ثم عاد جميع الناس كل منهم إلى موقعه مبتهجاً، وأمضوا ليلة بدون نوم بتوقع متلهف للمعركة، وجلبوا أسلحتهم، وجهزوا خيولهم، ونظفوا دروعهم وخوذهم، وأعدوا ترستهم، وشحذوا سيـوفهم، حيث لم يكن هنالك وقت للنوم أو الإنغماس في الراحة، وتمّ الإعلان العام بصوت المنادي: إن على كل رجل مسلح ومنظم للمعركة، أن ينضم إلى فيلقه، وأن يتبع لواء قلئده في الفجر المبكر وقبل شروق الشمس.

زد على هذا أن كهنـة الرب وقسيسوه أقاموا صلاة عامة في الكنائس، وقدموا القرابين للرب وذلك عند بزوغ الفجر في الصباح الباكر، ثم دعوا الناس بعد إجراء الإعتراف حسب العادة وبروح التواضع والندم، دعوهم إلى تحصين أنفسهم ضد مخاطر العالم بجسد المسيح ودمه، وهكذا بات عليهم الإنطلاق إلى المعركة بعدما تكون جميع الذنوب قد غفرت، ونحيت الكراهية إن وجدت، وتحولت القلوب بحب أكثر كمالاً، الإنطلاق كتلاميذ للمسيح وأعضاء من أتباعه، فهو الذي قال: «إذا ما أحب أحدكم الآخر سيعرف جميع الناس بذلك أنكم أتباعي».

بعد إقامة الصلاة العامة، وعندما امتلأت جميع الفيالق بالمنن الربانية، أغدقت السماء عليهم برحمة شاملة، فالذين كانوا حتى أمس وأول أمس كسالى وأخساء وضعفاء، وبلا إحساس، وكانـوا منهكـي القـوة لا يستطيعـون تحريـك عيـونهم أو رفـع رؤوسهـم، والذيـن أضعفهم الجوع وأضنتهم الفاقة، والذين كانوا يبحثون عن مخابيء لأنفسهم دون إعارة أدنى اهتمام لشهرتهم السابقة، هؤلاء جميعاً ظهروا الآن بشكل طوعي، وحملوا أسلحتهم بعزم وثبات، متخلين عن الخوف، وكأن قواهم قد تجددت، وناقشوا المسائل العسكرية أثناء عرضها بشجاعتهم السابقة والمألوفة، وتنبأوا بالنصر، ونادراً ما وجد شخص واحد بين صفوف ذلك الحشد الضخم لم يكن يخطط لأعمال جريئة، وذلك مهما كان عمره أو كانت حالته، كما لم يوجد أحد لم يهرع إلى حمل السلاح، واستبشر بالنجاح للمسيحيين.

وتجول الكهنة بين الصفوف، وحيثما تجمع الناس، وهم مرتدون ثيابهم الكهنوتية يحملون الصلب وتماثيل القديسين في أيديهم، ووعدوا الذين سيقاتلون في المعركة بشجاعة،

دفاعاً عن العقيدة المسيحية التي أورثهم آباءهم إياها، بخلاص من الإثم، وبمغفرة كاملة لجميع الذنوب، وشجع الأساقفة أيضاً أمراء الجيش وقادته على انفراد وبشكل علني، وحثوهم بكل أساليب الفصاحة التي منحتهم السماء إياها، وباركوا الناس أيضاً واستودعوهم الله، وكان أسقف بوي عبد المسيح، في المقام الأول بين هؤلاء الأساقفة، فقد كان يقدم نفسه دوماً كقربان للرب، لا سيما أنه المثابر دوما على الوعظ والصيام والصلاة، وذلك بالإضافة إلى أنه كان أسخى الأساقفة في منح الصدقات.

١٧ ـ المسيحيون يزحفون من أنطاكية بتعبئة كاملة للمعركة. إبقاء كونت طولوز لحراسة المدينة.

في فجر الثامن والعشرين من شهر حزيران احتشد الجميع كرجل واحد أمام باب الجسر، وذلك بعد التضرع وسؤال المساعدة من السماء، وعبأوا صفوفهم حسب تشكيلة القتال قبل الزحف من المدينة، وحددوا أوامر ومهام وطبيعة حركة الفيالق، وجرى تعيين هيو الكبير، وهو أخو ملك فرنسا. لقيادة الفيلق الأول وحمل لوائه، وكان برفقته أنسلم دي رايبمونت Anselm De Ribemomt وهو رجل يستحق الثناء من كل وجه، كما رافقه نبلاء آخرون لا نتذكر أسماءهم وأعدادهم، وعهد بالفيلق الثاني إلى روبرت ـ الملقب بالفريزي ـ كونت فلاندرز وقد سار معه وتبعه الذين كانوا في معسكره منذ البداية، وعين روبرت دوق نورماندي قائداً للفيلق الثالث وكان معه ابن أخيه ستيفن كونت أوميل Aumale ونبلاء آخرون قدموا معه في حاشيته، وقاد اللورد أدهمر أسقف بوي، صاحب الذكرى الغالية، الفيلق الرابع الذي تألف من أتباعه وأتباع كونت طولوز، وقد حمل أدهمر حربة المسيح، وصدرت الأوامر إلى رينارد Reinard كونت تول Toul بقيادة الفيلق الخامس، وكان معه كل من بطرس دي ستين Stenay وأخوه غارنير دي غري Garnier De Grey، وهنري دي اتش ورينهولد فون أمرزباخ Reinhold Von Amersbah وولتر دي دومدارد Walter De Dommedard، وعين لقيادة الفيلق السادس بأمر من القادة كل من رينبولد Raimbald كونت أورانج ولودوفيك دي مونكونز Ludovic De Moncons ولامبرت بن كونون دي مونتاغيو، وعين لقيادة الفيلق السابع غودفري دوق اللورين وهو النبيل اللامع الرائع، ومعه أخوه اللورد يوستاس، وقد عبأا فيلقهما حسب قواعد النظام العسكري.

وتولى تانكرد المشهور بالقدر نفسه بنبل الشخصية والقدرة على استخدام السلاح، تولى قيادة الفيلق الثامن، كما عين لقيادة الفيلق التاسع كل من الكونت هيو أوف سانت بول، وابنه انغوراند Emguerrand وتوماس دي لي فير Fere، وبلدوين دوبورغ وروبرت بن جيرارد

ورينو دي بوفيا Renaud De Beauvais وغالو دي تشاومونت Golo De Chaumont وعهد بقيادة الفيلق العاشر إلى كل من: روترو كونت بيرشي Perche وإيفرارد دي بوسي ودراغو دي مونسي وكونون روتو، وقاد الفيلق الحادي عشر كل من: ازورد Isoard كونت دي Die وريموند بيليت Pilet وغاستون دي بيزير Bezier وجيرارد دي روسليون Roussillon ووليم دي مونت بلر ووليم أنجوا، وشكل الفيلق الثاني عشر، الذي كان أكبر الفيالق في المؤخرة، وتطلع هذا الفيلق إلى بوهيموند ليتزعمه ويقوده، حتى يتمكن من تقديم المساعدة لعساكر الطليعة في اللحظات الحرجة، وكان عليه مراقبة الوضع وتقديم العون إلى الذين قد يتعرضون لضغط شديد غير اعتيادي من العدو [١].

وفي هذه الآونة كان كونت طولوز مريضاً بشكل خطير، ولذلك خلفه القادة وراءهم لحماية المدينة، لأن الأتراك كانوا ما يزالون يسيطرون على القلعة، وكان هنالك مخاطر من إمكانية الإنقضاض منها، والهجوم على الرجال والنساء المسنين والضعفاء وبقية العامة والعزل معتقدين أن المدينة ستكون بلا مدافعين لغياب الزعماء عنها.

وبنى المسيحيون على الهضبة المواجهة للقلعة سوراً متيناً من الملاط والحجر مع تحصينات خارجية وضعوا عليها عدة آلات قذف حربية، وتركوا قوة مؤلفة من مائتين من الرجال الشجعان مسلحين بشكل جيد للمدافعة عن المكان.

١٨ - كربوغا يستعد لمنع المسيحيين من الخروج من المدينة. شعبنا يشق طريقه بالقوة.

عندما كانت قواتنا قد تنظمت بهذه الطريقة وتعبأت وأخذت تشكيلة القتال، أمر القادة بموافقة مشتركة: إن على كل من هيو الكبير وكونت فلاندرز ودوق نورماندي، أن يتقدموا في مقدمة الجيش الرئيسي، وكان على الباقين التقيد بالترتيب التالي للزحف بحيث يتقدم المشاة أولاً ويتبعهم الفرسان على الفور كحرس لهم، كما صدر إعلان وتحذير عام: إنه لا يجوز لأحد أن يجرؤ بإلقاء نظرة إلى الغنائم، بل ينبغي توجيه اهتمام الجميع نحو إبادة العدو، ذلك أنه من الممكن العودة إلى جمع الغنائم بعد ما يكون النصر قد أحرز، ويكون العدو قد هزم، وتكون النفس قد ذهبت همومها.

وكان كربوغا قد توقع منذ البداية، لا سيما بعد زيارة بطرس، أن المسيحيين سيقومون بهجوم مفاجىء على معسكره، وهكذا رتب الأمر مع الأتراك الموجودين في

(١) تختلف روايات شهود العيان بشأن عدد صفوف المعركة فيما بين ستة إلى ثلاثة عشر صفاً، ويعتمد وليم هنا على ما رواه ألبرت أوف اكس إنما مع شيء من التصحيح.

القلعة، أنه إذا ما شوهد المسيحيون يستعدون لشن الغارة في أي وقت من الأوقات، عليهم اخبار معسكره على الفور بإشارة متفق عليها من قبل.

وفي حوالي الساعة الأولى من اليوم بدأ شعبنا يعبىء صفوفه، وقد لاحظ الأتراك الموجودون في القلعة الحركة فوراً، وأعطوا الإشارة لأعلام المعسكر، وأرسل كربوغا، المصمم على مواجهة ما أعددناه من عمل وعلى إحباطه، قرابة الألفين من الفرسان فوراً للإشتباك مع قواتنا عند الجسر ومنعها من مغادرة المدينة، وترجل هؤلاء الفرسان عن خيولهم حتى يهاجموا بعنف أكبر، ويكسبوا موقعاً لاستخدام القسي، وقد استولوا وهم يزحفون سيراً على الأقدام، على الجهة الأخرى من الجسر.

ورتب المسيحيون صفوفهم، ووزعوا رجالهم حسب قواعد العلم العسكري، ثم فتحوا الباب وتقدموا صفاً صفاً بحيث ظلت الفيالق محافظة على مواقعها والمسافات الفاصلة بينها.

وبينما كانت قوات العدو، التي أرسلت لمنع شعبنا من الهجوم تبذل قصارى جهودها في سبيل تحقيق أهدافها، أرسل هيو الكبير الذي كان ـ كما قلنا ـ يقود الفيلق الأول، قوة من المشاة وحملة القسي، إلى الأمام فشنت هجوماً عنيفاً على جنود العدو، وفي البداية حاول جنود العدو المقاومة، لكنهم ما لبثوا أن أرغموا على الفرار في فوضى شديدة، ذلك أنهم لم يتمكنوا من مهاجمة هجوم جنودنا، وطاردهم هيو الكبير بشدة حتى أنهم لم ينجحوا إلاّ بصعوبة بالغة في الوصول إلى خيولهم وامتطائها، وما أن شرعوا بالفرار حتى هاجمهم أنسلم دي رايبمونت بكل شجاعة، وأنسلم هو الرجل صاحب الشهرة العظيمة كان قد عُيّن في الخط الأول، وأعطى برهاناً على شجاعته لا ينسى أبداً، واندفع بجرأة بينهم، غير مبال بسلامة نفسه، وجندل عدداً منهم، وطعن عدداً آخر بسيفه، وأجهد نفسه بشجاعة بالغة في سبيل إلحاق القتل بهم، إلى درجة أنه لفت أنظار جميع الصفوف وكسب ودهم، ولدى رؤية هذا السلوك الجرىء هرع إلى مساعدته كل من هيو الكبير، وروبرت كونت فلاندرز وروبرت كونت نورماندي وكونت هينولتHainault ويوستاس أخو الدوق، هرعوا وهم معجبون جداً ببسالة أنسلم، وشنوا بعد أن وحدوا قواتهم، هجوماً، وهزموا ما تبقى للعدو من قوات وطاردوهم حتى معسكر العدو تقريباً، وألحقوا بالعدو خسائر لا تحصى.

١٩ ـ الندى يتساقط على المسيحيين وهم يتقدمون إلى الأمام، وكأنه نازل من عليين، حيث تلقى الجميع العزاء والسلوى به.

في الوقت الذي كانت قواتنا تغادر المدينة وقعت حادثة تستحق التسجيل، فبينما هم جاهزون للعمل، يقودون قواتهم من الباب، جرى قتل بعض جنود العدو الذين حاولوا

إغلاق مخرجهم، وأجبر من تبقى على الفرار، في تلك اللحظة بالذات سقط من السماء ندى ناعم على الجيش المسيحي، وكان ندى خفيفاً ومنعشاً جداً، ولقد تساقط على شعبنا بشكل لطيف ناعم حتى بدا الحال وكأن الرب نفسه ينزل بركته وعطفه عليهم، ولاقى كل من تعرض لتأثير ذلك الغيث المرسل من السماء فيضاً كاملاً من السرور والغبطة لروحه وجسده على حد سواء، وتجديداً كاملاً لقوته بحيث أصبحت وكأنه لم يكن قد تحمل أية مشقة أو صعوبة خلال الحج كله. ولم ينطبق هذا على الرجال فقط، بل على الخيول، فقد اعيدت إعادة كاملة إلى حماستها السابقة ونشاطها، بقوة الرب، فعلى الرغم من أن طعامها لم يتعد لمدة أيام خلت أوراق الأشجار ولحاءها، فإن سرعتها وتحملها طوال اليوم قد فاقا سرعة خيول العدو وقدرتها على التحمل، وهي الخيول التي كانت تطعم الشعير والتبن.

لقد كان الأمل بالنصر قوياً جداً، وبدت قوة التحمل التي ألهبتها بركة هذا الندى في جنودنا وكأنها تقول: «لقد أرسلت أيها الرب مطراً غزيراً، عززت به ميراثك عندما كان مرهقاً»[1]، ولم يرتابوا أبداً أنهم قد تلقوا رحمة روح القدس بشكل ملحوظ.

وبعدما كملت أعمال قيادة جميع الفيالق إلى خارج المدينة، قرر المقدمون مدّ الصفوف إلى الجبال التي تبعد ميلين عن أنطاكية، واحتلال السهل بأكمله، لأنه كان هنالك خطر من إمكانية تدخل العدو بأعداده الكبيرة بين جندنا والمدينة سراً أو بالقوة، ويمكنه من تطويق شعبنا من جميع الجهات ـ كما هي عادته في المعارك ـ قطع طريق التراجع على الملتجئين إلى المدينة، وكان المسيحيون يتقدمون بخطوات وئيدة حتى لا تختلط صفوفهم وتفقد نظامها وتقع في الفوضى، وحدث بفعل القدرة السماوية أن المسيحيين الذين بدوا وهم في داخل الأسوار على أنهم أقل عدداً وعدة من جنود العدو، أو أنهم لا شيء تقريباً بالمقارنة معهم، قد ظهروا الآن، وهم خارج الأسوار، أكثر من جند العدو، أو يساوونهم بالتأكيد، وهكذا قرر الرب نفسه الذي زاد ذات مرة بقايا خمسة أرغفة الخبز بعدما أطعم الحشد، قرر أن يزداد هؤلاء بمعجزة مماثلة أيضاً، فهم المكرسون لعمل صالح كثير القبول في نظره، لأنه يستهدف تحقيق مجد اسمه.

لقد كان الكهنة واللاويون المكرسون للرب مختلطين مع الذين انطلقوا لخوض غمار المعركة، وقد حملوا إشارة الصليب الرائعة في أيديهم وهم مرتدون الثياب البيض، هذا وبقي عدد من كهنة الرب في المدينة، وصعدوا الأسوار ووقفوا عليها وهم مرتدون ثيابهم الكهنوتية

---

(١) المزامير: ٦٨/٩.

أيضاً، وتضرعوا باستمرار إلى الرب بأيد ممدودة وبالصلوات لأجل شعبه المؤمن كي يصفح عنه، ولا يعطي تراثه ولا يتخلى عنه ليدنس من قبل الأمم.

٢٠ ـ كربوغا ينظم صفوفه بترتيب المعركة. يتبع ذلك قتال قريب في منطقة مغلقة. قلج أرسلان يهاجم المسيحيين في المؤخرة ويضغط بشدة على صفوف بوهيموند. القادة الآخرون يأتون لمساعدته. الأتراك الفارون يشعلون النيران لصنع ستارة من الدخان.

في هذه الأثناء كان كربوغا قد علم من الإشارة المعروضة على القلعة، ومن الهاربين الذين كانوا قد هزموا عندما زحفت قواتنا من أنطاكية، علم أن المسيحيين كانوا يتقدمون، فاستدعى على الفور كبار رجالاته وقادة القوات للتداول، لأن الوضع الذي كان قد سخر منه من قبل، بدأ يتخذ مظهراً جدياً، ولذلك نظم جنده وعبأ صفوفه للمعركة استجابة لنصيحة مجلسه، مع إعطاء اعتبار مناسب لتجربة الأنطاكيين، لقد رتب قواته ببراعة كبيرة وميز بشكل واضح بين الفرق التي كانت ستشكل المقدمة والفرق التالية لها، وكان من بين تحركاته التي تدل على دهائه الحركة التالية: كان قد أرسل فيلقاً مشهوراً بفعاليته وشجاعة عناصره إلى شاطىء البحر، وذلك قبل أن يتمكن المسيحيون من احتلال كامل السهل الواقع بين المدينة والجبال، ويروى أن هذا الفيلق كان تحت امرة قلج أرسلان، أمير نيقية الشهير، الذي ورد ذكره مراراً من قبل، وكانت غاية هذه المناورة أن يجد شعب الرب نفسه، إذا هزم واضطر للفرار، مواجهاً في المقدمة والمؤخرة على حد سواء، حتى إذا ما حاول الهروب نحو البحر أو نحو المدينة سيتم سحقه بعد أن يكون قد وقع بين القوات المطاردة وقوات الذين كانوا يبيدونه في الأمام، كمن هو بين حجري الرحى.

ووضع كربوغا بقية قواته على اليمين واليسار، كل قسم تحت إمرة قائد خاص، وأعطى تعليمات دقيقة أنهم إذا ما رغبوا بكسب عطفه، عليهم أن يتذكروا دوماً شهرتهم بالشجاعة، وأن يقاتلوا ببسالة وقوة، وليستخفوا بجميع الجهود التي يبذلها شعب غير محارب، شعب هو في الحقيقة قطيع من المخلوقات الجائعة، شعب فوضوي وغير مسلح.

وعندما كانت قواتنا قد احتلت السهل كله حسبما وصفنا، وبطريقة لم يبق معها أي خطر في أن يحاصروا، أعلنت الأبواق الإشارة، وتقدم الجند بالتدريج، أمامهم حملة الألوية، نحو صفوف الأعداء، وعندما أصبحت القوى قريبة جداً من بعضها إلى درجة تمكن فيها الكفرة من قذف سهامهم عليهم، اندفعت صفوفنا الثلاثة الأولى إلى الأمام،

وهاجمت العدو بالسيوف والرماح من نقاط قريبة، واندفع جنودنا المشاة بهجوم قوي إلى الأمام، وبمنافسه بين بعضهم بعضاً حيث كانوا يستخدمون القسي وآلات قذف الحجارة، وكان أمامهم بعض كتائب الفرسان، ثم تقدم الفرسان جميعاً على أثر المشاة مستخدمين جميع الجهود الممكنة لحماية مقدمة الجيش، وبينما كانت الصفوف الأولى تبذل قصارى جهودها إلى أقصى الحدود الممكنة في القتال، وصل الموجودون في الخلف لدعمهم بهجوم أشد من سابقه، ومشجعين بالوقت نفسه مقدمة الجيش للقيام بأعمال أكثر شجاعة وجرأة أيضاً، ووصلت الآن جميع قوات المسيحيين، باستثناء صفوف المؤخرة بقيادة بوهيموند، وصلت إلى العدو، وكانت تقاتل بشجاعة، وكان قد قتل الكثير من الأتراك، واضطربت صفوفهم اضطراباً كبيراً إلى درجة أنهم أخذوا يلوذون بالفرار، وكان الدوق في هذه الأثناء قد هزم مع وحدته فرقة العدو الأقوى والأضخم، وكان قلج أرسلان قد عاد في هذه اللحظة بالذات يقود هذه الفرقة، التي قلنا من قبل إنه قادها نحو الشاطىء، عاد وشن هجوماً عنيفاً على فيلق بوهيموند من المؤخرة، وأطلق وابلاً كثيفاً من السهام غطى الجماعة كلها كالبرد، ثم اندفعت قواته بالفؤوس والسيوف على قوات بوهيموند بعد ما تخلت عن أساليبها المألوفة، وألقت قسيها جانباً، وكان الهجوم عنيفاً جداً إلى حد أن قوات بوهيموند وصفوفه لم تتمكن من تحمل ضغطه الهائل إلاّ بشق الأنفس، واضطربت صفوف فيلقه مع أنه نفسه حارب بشجاعة مع عدد قليل من رجاله، ووقف وسط العدو يقـاتل كقائد شجاع وجسور، هذا وما لبث أن أسرع الدوق في اللحظة الحاسمة بعدما جرى استدعاؤه وجاء بكل سرعة لمساعدة بوهيموند، وقدم القائد الشجاع تانكرد أيضاً، وتوافق الوصول المناسب لهذين النبيلين مع تناقص قوة العدو، الذي تقلصت شجاعته عندما طارده المسيحيون بقوة ونشاط ملحقين بأفراده الجروح والموت، فالتجأ إلى أساليب أخرى، عندما وجد أن قوته لم تعد مكافئة لقوتنا، وبعدما أدرك أنه لم يعد بإمكانه مقاومة قوى عدوه، لقد أقدم حسب طرائقه المألوفة على إضرام النيران في حصيد الحقول، حيث كان هنالك الكثير من العشب اليابس والقش في أماكن كثيرة، واشتعلت النيران بسرعة، وتوفر الوقود الضروري للحريق، وعلى الرغم من أن اللهب كان بسيطاً، فإنه أنتج دخاناً كثيفاً ومؤذياً، واكتنفت سحابة الدخان الكثيفة قواتنا، ولذلك لم يعد بإمكانها مطاردة العدو بنشاط كبير، لأن الدخان، مع الغبار الذي أثارته أقدام الكثير من الرجال مع حوافر الخيول، قد أعمت رجالنا تقريباً، وهاجم العدو قـواتنا تحت غطاء هذا الدخان الذي أثير ببراعة، وقتل بعض جنود مشاتنا، لكن الفرسان نجحوا بفضل سرعة خيولهم في تفادي مخاطر ستارة الدخان، وعادوا إلى القتال، وواصلوه بدعم من قوة علوية، وفي النهاية جعلوا العدو يلوذ بالفرار أمام سيوفهم المنتقمة، وبقوة

جددتها مصادر ربانية، ولم يوقفوا المطاردة حتى كانوا قد أجبروا الكفرة المضطر بين اضطراباً عظيماً على الإنسحاب إلى خطوطهم.

٢١ ـ قائد قوات العدو يلوذ بالفرار. هلاك فيالقه. إكراه الذين نجوا على الفرار.

وكان بالقرب من مسرح المعركة واد صغير اعتاد سيل جبلي أن يجري خلاله عندما كان يندفع في فصل الشتاء من المرتفعات الواقعة في الأعلى، وكان المجرى شديد الإنحدار، وكانت قواتنا قد دفعت العدو إلى ما وراء هذا الجدول، وكان الكفرة يحاولون اتخاذ موقع لهم هنالك فوق هضبة أعلى قليلاً من السهل، ومن ثم استدعاء جندهم المشتتين بواسطة البوق وصوت الطبول، ومع ذلك طاردهم مقدمونا دون لحظة توقف، ووصلوا إليهم بسرعة، وكان كل من الدوق غودفري وبوهيموند وتانكرد وبعض النبلاء الآخرين قد اشتبكوا مع فرقة قلج أرسلان في المؤخرة حيث كان يدور القتال الرئيسي، وهزموها بمعونة الرب، وكانت طليعة الجيش المؤلفة من هيو الكبير وروبرت كونت فلاندرز وروبرت كونت نورماندي مع آخرين كثر، كل منهم جدير بالتذكر إلى الأبد، كانت قد أكرهت في هذه الأثناء الصفوف المقاومة لها على الفرار، وعبر هؤلاء المحاربون الوادي وتولوا طرد العدو من الهضبة بالقوة وأجبروه ثانية على الفرار باضطراب، ذلك أنه لم يتمكن من تحمل الضغط الذي مارسته القوات المسيحية.

وكان كربوغا قد تنحى جانباً عن الحشد منذ بداية المعركة، ووقف على إحدى الهضاب، وكان سيل من المراسلين يروح ويجيء إليه باستمرار، يحمل له التقارير بخصوص مجريات المعركة، وكان كربوغا ينتظر نتيجة هذا الصراع الهام بقلق زائد عندما لاحظ فجأة أن قواته كانت تهرب في جميع الإتجاهات، وهي مضطربة ومشتتة تماماً، ولقد روعته رؤية الكارثة، ونصحه أتباعه أن يتخذ الوسائل الكفيلة بتأمين سلامته الشخصية، وهكذا غادر المعسكر وهرب بسرعة كبيرة ودون أن ينتظر أحداً من الناس، ودون اهتمام بشعبه، ووصل إلى نهر الفرات بإبدال متوالٍ للخيول لتسهيل فراره، وعبر هذا النهر بحالة كبيرة من الرعب إلى درجة أنه لم يصدق إلاّ بصعوبة أنه سليم عندما وصل إلى الضفة الأخرى للنهر.

لقد فقدت قوات العدو كلاً من شجاعتها وقوتها بحرمانها مساعدة قائدها، فأمسك أفرادها بجميع الخيول المتوفرة، وحذوا حذو قائدهم بأن لجأوا إلى الفرار للنجاة من سيوف مطارديهم، ولم يغامر شعبنا بالإقدام على ملاحقتهم إلى مسافة بعيدة جداً خشية من أن تنهار خيوله، بيد أن تانكرد لاحقهم ومعه عدد قليل من الناس حتى مسافة ثلاثة أميال أو أربعة وذلك حتى وقت المغيب، وقد فتكوا فتكاً ذريعاً بهم.

لقد زرعت القدرة السماوية الخوف بشكل عميق في قلوب هؤلاء الهاربين إلى درجة أنهم لم يحاولوا الصمود أو صد هجمات مهاجميهم، حتى بدا لهم عشرة من جنود شعبنا وكأنهم عدة آلاف، كما لم يكن هنالك أي واحد يرعاهم أو يسدي النصح إليهم عندما هربوا أمامنا، وتثبت هذه الحقيقة بكل بساطة «أنه-لا توجد أية خطة ضد الرب»[١]، كما أن المثل القائل: «إن الله لم يتخل عنهم فذلك الأمل فيه»[٢] قد ظهرت معانيه أيضاً في المحنة ذاتها عندما تمكن شعب معوز، هالك من المجاعة إلى حد ما، تمكن بمعونة الرب فقط من أن يلحق الهزيمة بحشد ضخم من المحاربين الأقوياء، بشكل يفوق كثيراً أي أمل من آمالهم، وأن يحتوي قوة الشرق بأسرها ويدمرها في معركة واحدة، وهي القوة التي لا تعرف رباً لها.

٢٢ ـ شعبنا يعود من مذبحة العدو. يجلب معه كمية ضخمة من الغنائم إلى المعسكر.

عاد شعبنا إلى معسكر العدو، عندما انتهت الحرب، ومنحته السماء النصر، فوجد هنالك وفرة من جميع الأشياء الضرورية وذلك بالإضافة إلى مخزونات عظيمة من الكنوز الشرقية، وكانت هذه الكنوز كبيرة جداً إلى درجة أنه استحال إحصاء أو كيل الذهب والفضة والجواهر وأقمشة الحرير والثياب النفيسة، ناهيك عن الأواني الرائعة بصنعتها ومادتها كما كانت هنالك الخيول والقطعان والماشية وذلك بالإضافة إلى المواد الغذائية والحبوب التي وجدت بوفرة زائدة، إلى درجة أن الذين كانوا في إملاق شديد حتى الآن، لم يعرفوا ما يختارون منها إلاّ بصعوبة، كما أخذوا خيم وخواوين العدو، وهو ما كانوا بحاجة ماسة إليه، حيث كانت خيمهم قديمة، أصبحت رثة بسبب تعرضها للأمطار الغزيرة، إلى درجة أصبحت عديمة الفائدة تقريباً، وتم الإستيلاء على الكنوز الكثيرة، ونقلت جميعها إلى أنطاكية بما في ذلك الجواري والأطفال الذين خلفهم الأتراك عندما هربوا، ووجدوا بين مختلف الغنائم فسطاط قائد القوات التركية الكبير، وكان قطعة رائعة، منسوجة من أكثر أنواع الحرير نعومة، وذات ألوان كثيرة، وقد جاء شكل هذا الفسطاط على صورة مدينة لها ممرات وأسوار وشرفات، ويوجد في المركز القاعة الرئيسة، ومنها امتد وتفرع في اتجاهات كثيرة أجنحة السكن، وقد فصلها عن بعضها بعضاً شوارع وطرقات، ولقد قيل إن هذه الخيمة كان بإمكانها استيعاب ألفي رجل بشكل مريح.

ونقل المسيحيون، المحملون بالغنائم الكثيرة منهوباتهم إلى داخل المدينة، وتم الإحتفال

---

(١) الأمثال: ٢١/٣٠.

(٢) يهوديت: ١٣/١٧.

هنا بابتهاج وفرح بيوم انتصار مهيب، وقدموا الشكر للرب الذي منحهم النصر المنتظر طويلاً، بعد الكثير من الكوارث والمصاعب.

ولاحظ الأتراك الآن، الذين كانوا ما يزالون يسيطرون على القلعة أن حلفاءهم قد هزموا، وحيث لم يكن هنالك أي أمل آخر بالنجدة الحربية من أي مصدر آخر، سلموا الموقع إلى قادتنا، ووضعت راياتهم على الأبراج الأكثر ارتفاعاً، هذا واشترط الأتراك أن يسمح لهم بالرحيل وهم سالمون آمنون مع زوجاتهم وأطفالهم وكل ما كانوا يمتلكون.

وهكذا أحرز المسيحيون النصر بفضل الله العزيز القدير، واستولوا على القلعة، وكان حشد الأيام السابقة قد حصل الآن على جميع الأشياء التي تفيده بوفرة كبيرة جداً، فقد كانت الشدائد العملاقة قد أذلت حتى الذين كانوا بين أكثر الحجاج قوة، أعني أولئك الذين حملوا أسماء بارزة، أذلتهم إلى درجة دفعتهم فيها إلى التسول، ولندع الحديث عن عامة الناس ولنكتف بسرد أخبار حالة الكونت هارتمان Hartman وهو نبيل من المملكة الألمانية، فقد وجد هذا الرجل النبيل نفسه في فقر مدقع، حتى أنه خصص له حصة يومية على مائدة الدوق الخاصة، ولقد اعتبر هذا معروفاً عظيماً يسدى إليه، كذلك لو لم يكن الدوق قد استقبل هنري دي اتش، ذلك الرجل الواسع الشهرة بحياته المستقيمة، واعتبره ضيفه الخاص، لكان قد هلك من الجوع.

وكان الدوق نفسه قد واجه أثناء الحصار وقبل المعركة عقبة كأداء عانى منها كثيراً، حيث لم يكن لدية أي مطية من الخيول، وفي النهاية وبعد صعوبات جمة وتوسلات جمة حصل على حصان واحد من كونت طولوز، لينطلق على ظهره إلى المعركة، وكان غودفري وبقية المقدمين قد أنفقوا كل المال الذي جلبوه معهم في الصدقات السخية التي بذلوها، وفي أعمال التقوى، لا سيما تلك التي اهتمت بالمصلحة العامة.

ولهذا السبب توجه العديد من الفرسان النبلاء المشهورين بمولدهم السامي وبأعمالهم الحربية، توجهوا يوم المعركة إلى القتال إما سيراً على الأقدام، أو ركبوا الحمير وحيوانات النقل الأخرى، ذلك أنهم كانوا قد استنزفوا وسائلهم، وكانوا الآن معوزين وبلا خيول.

ونظر روح القدس بجوده إليهم قبل غروب الشمس، وأوقع الهزيمة بين صفوف العدو، ومنح شعبه المعدم ثروة تفوق الكثرة والوفرة، ولم يكن هذا سوى مجرد إعادة لقصة السامرة القديمة عندما بيع مكيال من طحين القمح والشعير بقطعة نقدية واحدة[1]، لأن الذي لم يكن لديه ما يكفي لإعالة ذاته، حصل مع حلول المساء على ما يكفي لأطعام الكثيرين.

---

(١) الملوك الثاني: ١/٧.

حدثت هذه المعركة في عام ١٠٩٨ لتجسيد المسيح، في شهر حزيران وفي اليوم الثامن والعشرين منه.

٢٣ ـ الأمن والنظام يتوطدان الآن في أنطاكية. الكنائس تطهر ويتم ترميمها ويعين رجال الدين لها.

بات اهتمام الجميع موجهاً إلى الكنائس بعدما عاد ألقادة من ميدان المعركة، وأعيدت مدينة أنطاكية إلى حالة من الأمن والنظام، وشعر أسقف بوي المبجل بشكل خاص، بحكم كونه المدافع عن الجُيش، شعر بمسؤولية خاصة للقيام بهذا العمل، وتعاون الكهنة الآخرون الموجودون في الجيش بإخلاص معه، كما ساهم الناس بالمساعدة بحماسة، وهكذا أمكن إعادة الكنيسة الرئيسة المكرسة لأمير الحواريين وجميع كنائس أنطاكية الأخرى إلى منزلتها الرفيعة الأصلية، كما عين في هذه الكنائس رجال الدين الذين كان عليهم تكريس أنفسهم باستمرار للصلوات السماوية.

كان الجنس التركي المدنس للمقدسات قد انتهك حرمة الأماكن المقدسة، وكان قد طرد كهنة العبادة السماوية، وسخر الكنائس لاستخدامات مدنسه، فقد استخدمت بعض هذه الصروح المقدسة كاصطبلات للخيول وحيوانات النقل الأخرى، وأديرت فيها أعمال مهن أخرى لا تليق بحرمتها، وكانت صور القديسين الموقرين قد أزيلت عن الجدران، وهذه الصور كناية عن رموز أعدت لتحل محل الكتب والقراءة لعبدة الرب المتواضعين، وقد أثارت الورع في عقول الناس البسطاء الجديرين جداً بالثناء على ورعهم المخلص، لقد وجه الأتراك غضبهم ضد هذه الصور، وكأنها أشخاص أحياء، فقلعوا العيون، وجدعوا الأنوف، ولطخوا الصور بالطين والقاذورات[1]، وهدموا المذابح، ودنسوا حرمه معابد الرب أعمالهم اللاورعة.

وعلى هذا تقرر بناء على رغبة الجميع إعادة رجال الدين إلى مناصبهم الرفيعة السابقة في الكنائس بدون تأخير، كما خصص المال اللازم لدعم الذين كانوا يحاربون من أجل الرب بتلك الطريقة، وتمّ جلب الذهب والفضة مما غنم من العدو لصنع الشمعدانات والصلبان وكؤوس القربان والنقوش المكتوبة من الكتاب المقدس وجميع الأشياء الضرورية الأخرى للصلوات والطقوس في الكنيسة، وقدمت الأقمشة الحريرية للأثواب الكهنوتية وكأغطية للمذابح.

---

(١) ظهر اهتمام وليم بالرسم في مناسبات عديدة، وقد شهدت المنطقة الواقعة حول أنطاكية بعثا لحركة الرسم قام به الأرمن بالإضافة إلى وجود اهتمام متواصل بأعمال الفسيفساء أبداه الاغريق (انظر التمهيد ـ الحاشية ٥).

وأعيد البطريرك يوحنا إلى كرسية البطركي الخاص، ذلك أنه كان مؤمناً صادقاً بالمسيح، تحمل شدائد لا تحصى من الكفار منذ يوم وصول المسيحيين، وجرى تعيين الأساقفة في المدن المجاورة التي حازت من قبل على مناصب سامية في الكنيسة الكاثوليكية، هذا وارتؤي أنه من غير الحكمة اختيار أو رسم بطريرك من عرقنا اللاتيني، ما دام الشاغل السابق لذلك المنصب ما يزال على قيد الحياة، خشية أن يشغل إثنان المنصب نفسه، وهي حالة من الواضح أنها تخالف القوانين الكنسية المقدسة مع تشريعات الأسلاف المقدسين، هذا ولم يمض أكثر من عامين حتى غادر يوحنا طوعاً مدركاً أنه لن يستطيع، كرجل اغريقي، حكم اللاتين بشكل فعال، وذهب إلى القسطنطينية، واجتمع رجال الدين وأهل المدينة بعد رحيله، واختاروا برنارد أسقف أرتاسيوم [أرتاح] ليكون بطريركاً عليهم، وهو من مواليد فالنس Valence، وكان قد لازم أسقف بوي بمثابة حاجب له خلال الحملة هذه [١] .

وتنازل الجميع عن السلطة والحكم في أنطاكية إلى بوهيموند حسب الوعود المعطاة في البداية وذلك باستثناء كونت طولوز حيث احتفظ بالباب الواقع إلى جانب الجسر مع أبراجه المتاخمة له ووضع حامية من رجاله هنالك لحمايتها .

وقام بوهيموند فيما بعد بطرد هؤلاء الجنود بعد أن غادر الكونت المدينة، واستولى على المكان كما سنتحدث فيما بعد، وكان رجال بوهيموند قد أطلقوا عليه لقب أمير، ولهذا السبب عرف صاحب أنطاكية منذ ذلك الحين فصاعداً كأمير [٢] .

هنا انتهى الكتاب السادس

(١) يتبنى المؤرخون الاغريق رأياً مختلفاً حول حيل البطريرك جون، معتقدين أن بوهيموند قد دفعه إلى ذلك، مثلما دفع تاتيكوس قبله ومن المهم الملاحظة أن الصليبيين اعتقدوا في الأصل أن هيئة لاهوتية واحدة فيها كل من رجال الدين اللاتين والاغريق يمكن أن تخدم، وتابع الاغريق في القسطنطينية عملية اختيار بطاركة أنطاكية، الذين حاول الأباطرة اللاحقون أن يعيدوهم إلى وضعهم السابق.

(٢) يبدو أن بوهيموند اتخذ لقب أمير انطاكية رسمياً لأن جنوده كانوا معتادين على مناداته بذلك بشكل غير رسمي، وجرى تفسير هذه الرواية بشكل خاطىء في أنه يدل على أن بوهيموند كان قد حمل لقب أمير أي أمير تارانتو ـ قبل الحملة الصليبية. وصحح هذا الغلط يوديل في كتابه: «بوهيموند الأول» ص ٢٩، ٨٥.

الكتاب السابع

نشوب نزاع بين الصليبيين وزحفهم إلى القدس

١ ـ ارسال كل من هيو الكبير وكونت هينولت كمندوبين إلى الإمبراطور. اختفاء كونت بلدوين على الطريق. اخفاق هيو في العودة. وموت أسقف بوي. وقوع وباء.

بعـد تسوية الأمور على هذه الشاكلة في أنطاكية، صمم القادة، بموافقة عامة، على إرسال مندوبين إلى الأمبراطور يتوسلون إليه ليحضر شخصياً لمساعدتهم على الفور، كما اشترط ذلك في الإتفاق الذي كان قد عقده معهم، وصدرت التعليمات إلى المندوبين ليعلموه أن المسيحيين كانوا على وشك الإنطلاق نحو القدس، وأن يتوسلوا إليه ليلحق بهم فوراً حسبما ألزمته المعاهدة بفعل ذلك، هذا وقد رغبوا في اعلامه أن يعدّهم غير مقيدين به إطلاقاً في حال تقصيره عن تنفيذ شروط الميثاق، وقد اختير رجلان نبيلان مشهوران لهذه المهمة وهما: هيو الكبير، أخو ملك فرنسا، وبلدوين كونت هينولت، وقد اختفى بلدوين خلال الرحلة بعد مناوشة مع العدو، ولم يعرف مصيره حتى اليوم [١]، ويقول بعضهم إنه لاقى مصرعه في القتال، بينما يؤكد آخرون أن العدو قد أسره ونقله مكبلاً بالأغلال إلى أجزاء بعيدة جداً من الشرق.

هذا وقد تفادى ـ من جهة أخرى ـ اللورد هيو بنجاح مكائد العدو، ووصل سالماً إلى الإمبراطور، لكن للأسف لطخ في هذا الوقت مجد مآثره الرائعة بغشاوة كثيفة، وقصر كثيراً عن تحقيق اللقب المشرق لسلالته، فقد كان قد أنجز الكثير من المآثر الشجاعة في الحملة، وأحرز بوساطتها شهرة خالدة لذاته، ومع ذلك فقد لطخ اسمه النظيف أثناء هذه المهمة، لأنه لم ينقل الرد إلى الذين كانوا قد أرسلوه، ولم يكلف نفسه العودة بعد إنهاء تلك المسألة، وكان إهماله في هذه المسألة أكثر وضوحاً بسبب منزلته السامية، وكما يقول جوفنال Juvenal «كل نقيصة في الأخلاق هي إثم أكثر وضوحاً في ذاتها بالإعتماد على أن الذي يأثم يعتبر أعلى مقاماً» [٢].

وحل بشعبنا وباء رهيب، لم تعرف أسبابه، فور إنهاء الحصار، بالإستيلاء المجيد على

(١) شاهد آخر على اعتماد الروايات الشفوية لهذه الفترة.

(٢) جوفينال: ٨/١٤٠ ـ ١٤٠.

أنطاكية، وبعدما عادت الأمور إلى حالة من الهدوء، وكان معدل الوفيات مخيفاً جداً، حيث نادراً ما مرّ يوم لم تحرق فيه ثلاثون أو أربعون جثة على الأقل ليتم دفنها، وفي الواقع، إن الأعداد القليلة التي نجت من الحصار تحولت إلى عدم تقريباً.

وقد هاجم هذا المرض المعدي جميع الطبقات في كل مكان ودونما تمييز، وكان من بين الذين لاقوا حتفهم في تلك الآونة، أدهمو أسقف بوي، وهو رجل له شخصية موقرة، وذكرى خالدة، وحزن جميع الناس عليه لأنه كان كاهنهم ومرشدهم الخاص، ودفن بإجلال سام في كنيسة بطرس المبارك، وفي المكان الذي قيل إنه عثر فيه على حربة المسيح [١]، دفن وسط بكاء ونحيب الجميع وتأوهاتهم القلبية.

وأصيب هنري دي اتش بهذا الوباء المؤلم، وهنري هو الرجل الذي لاقى تقديراً عالياً لنسبه وسلوكه الشجاع، حيث توفي ودفن في حصن تل باشر Turbessel، كما أدت الكارثة ذاتها إلى وفاة رينهولد فون أمرسباخ Reinhold Von Ammersbach وهو محارب مشهور أيضاً بنسبه وشجاعته على حد سواء، ودفن في بهو كاتدرائية أمير الحواريين، وكثرت في هذا الوباء الضحايا بين النساء بشكل خاص، حيث هلك منهن خمسون ألف امرأة خلال أيام قليلة.

وتوصل الذين دفعهم الفضول للبحث في هذا الموضوع بأمل التحقق من أسباب هذا الوباء المخيف، توصلوا إلى استنتاجات متنوعة، فقد قال بعضهم: إن هذا الوباء قد نشأ عن بذور المرض التي كانت كامنة في الهواء، في حين اعتقد عدد آخر منهم أن الناس الذين كانوا ضحايا الجوع لفترة طويلة من الزمن، وحصلوا أخيراً على وفرة من الطعام، كانوا تواقين جداً لتناول الطعام للتعويض عن عوزهم، وبناء عليه كان نهمهم المفرط سبب موتهم، ويورد أصحاب هذا الرأي برهاناً مقنعاً بالإشارة إلى حقيقة أن الذين اعتدلوا فتناولوا مقداراً قليلاً من الطعام كانت أحوالهم أفضل بكثير من الباقين، وعادوا بشكل أسرع إلى حالة الصحة العادية [٢].

٢ ـ الناس يطالبون بصخب باستئناف الرحلة إلى القدس. الرحيل يؤجل حتى الأول من شهر تشرين الأول. بوهيموند ينزل إلى كليكية ويستولى على المنطقة بأسرها.

وبدأت في الوقت نفسه العامة من الناس بإجراء مطالب صاخبة، ومدوية ليستعد القادة من جديد لمتابعة الزحف إلى القدس، وهو الهدف الذي كانوا قد جاؤوا من أجله،

---

(١) هناك الكنيسة نفسها مثل تلك وتدعى بازيليكا أمير الحواريين في أماكن أخرى.

(٢) لم يتم التحقق بشكل قاطع من طبيعة هذا الوباء، وكان الوباء الدبلي متكرر الحدوث في المناطق الشرقية للبحر المتوسط، كما أن تأكيد وليم على الإعتدال كوقاية هو صفة مميزة.

وجاء ذلك إما للنجاة من الوباء أو بقصد دفع مواصلة الرحلة بالقوة: فليقودوا جيش الرب، ولينجزوا الهدف الأساسي الذي كان قد دفع الجميع لترك بلادهم، وبناء عليه اجتمع القادة وتشاوروا بخصوص رغبة الناس هذه، ذلك أنها بدت جديرة بالفعل للإستماع الإيجابي إليها.

واختلف رد فعل القادة المستقلين تجاه هذا المطلب، حيث شعر بعضهم أن عليهم الشروع بالرحلة فوراً ودونما تأخير، وبالتالي اشباع رغبات الحشد، هذا في حين حاجّ آخرون أنه من الأعقل كثيراً تأجيل الزحف حتى بداية شهر تشرين الأول، حيث سيكون الطقس أكثر مؤاءمة، وأفضل من استئنافه الآن بالنظر لحرارة الصيف التي لا تحتمل ولندرة المياه، ولنقص الخيول، ولحالة الناس التي أضعفها التحمل الطويل للمجاعة[1]، وحتى يتمكنوا في هذه الأثناء من الحصول على خيول جديدة والنهوض بقوة متجددة، بعد أن يكونوا قد عادوا إلى حالتهم السابقة عن طريق الراحة وتناول الطعام، فيمكنهم عندها التعامل مع مشقات الزحف بشكل أفضل.

لاقت الآراء الأخيرة هذه موافقة الجميع، وتقرر بالإجماع إرجاء التنفيذ حتى الوقت المذكور، ثم تفرق القادة لفترة من الزمن بأمل تجنب الموت الذي كان يهددهم، وبدا محتملاً أيضاً أنهم سيتمكنون من إيجاد كمية أكبر من المؤن في مكان آخر، هذا وكان مقرراً بشكل واضح متفاهم عليه أن الجميع سيعودون في الوقت المحدد دونما تأخير.

وذهب بوهيموند إلى كليكية واستولى هناك على مدن طرسوس وأذنة والمصيصة وعين زربة، وعين حكاماً في تلك المدن، وجعل نفسه سيداً على سائر تلك المنطقة[2]، وتفرق الزعماء الآخرون خلال المدن المجاورة، حيث أوقفوا أنفسهم ـ بمعزل عن الحشد ـ على استرداد قواهم وقدرة خيولهم، وعبر كثير من النبلاء وعامة الناس نهر الفرات، وأسرعوا بتلهف إلى الرها، التي كان يحكمها بلدوين ـ أخو الدوق ـ وأملوا بالحصول على مساعداته ومنحه، واستقبلهم الكونت استقبالاً لطيفاً، وأظهر إجلالاً كبيراً لهم عندما كانوا معه، وأعادهم في النهاية بمعنويات جيدة وعطايا كثيرة إلى أصدقائهم.

---

(١) حدد هاغنمير التاريخ على أنه ١ تشرين الثاني ١٠٩٨، بدلاً من ١ تشرين الأول (انظر هاغنمير «التأريخ» رقم ٢٩٩).

(٢) من الواضح أن بوهيموند كان يحاول أن يدعم هذه المواقع التي كان تانكرد قد ضمها إلى إمارة ستكون أنطاكية متزعمة لها.

٣ - حاكم أعزاز يلتمس مساعدة الدوق ضد مولاه رضوان. الدوق يستدعي أخاه بلدوين ويخف إلى هناك.

حدث في تلك الآونة أن جلب رضوان - أمير حلب - على نفسه عداوة واحد من ولاته، الذي كان حاكماً لقلعة أعزاز[1]، وكانت العداوة قد تفاقمت بينهما إلى درجة أن الأمير رضوان حشد الجنود من جميع المناطق التي كانت خاضعة له، وحاصر تلك القلعة، ورأى حاكم القلعة أنه سيواجه مصاعب كبيرة في مقاومة غضب مولاه الحاقد القوي إن لم يتلق مساعدة من الفرنج، ولذلك أرسل واحداً من رعاياه وكان من المسيحيين المخلصين، ليطلب من الدوق إقامة حلف صداقة معه، وأرسل هدايا معه، على أمل أن يكسب التأييد بسرعة أكبر، ووعد أن يوقف نفسه روحاً وجسداً على خدمة غودفري، وعبر عن الرغبة في إلزام نفسه بروابط معاهدة لا يمكن الغاؤها، كما أبدى استعداده لإرسال ابنه ليكون رهينة لدى الدوق ليثق ثقة تامة بأقواله، وحتى لا يتردد إزاء أي جانب من هذا الوعد، وتوسل إلى غودفري بجد مفرط ليخلصه من الخطر الحالي، ووعده أنه سيتلقى تعويضاً لائقاً عن خدماته في الوقت المناسب.

ودخل غودفري الموقر في علاقات صداقة مع حاكم القلعة، وذلك بعدما أثارته هذه الأقوال وشمله برعايته، وأرسل على الفور رسلاً إلى أخيه كونت الرها طالباً منه القدوم مع قواته للمساعدة على رفع الحصار ولنجدة صديقه.

وكان رضوان قد أقام مع قواته في معسكر أمام قلعة أعزاز، وذلك قبل خمسة أيام تقريباً من انطلاق الدوق غودفري من أنطاكية، وكان برفقته عدد كبير من أتباعه المخلصين وأصدقاء كان قد دعاهم لمساعدته في مهمته، وشكلوا مجموعة قوية، وتقدموا بكل سرعة لنجدة أعزاز.

وشعر الرسل الذين بعثوا إلى الدوق، أنهم أنجزوا مهمتهم بنجاح وحسب رغباتهم، نظراً لأنهم ضمنوا تأييداً كاملاً لسيدهم في نظر الدوق، ومع ذلك فقد استحال عليهم اخبار سيدهم شخصياً بالنتيجة، لأن المعسكر المعادي كان قد طوق القلعة من جميع الجهات بحيث لم يستطع أحد أن يدخل القلعة أو يخرج منها، ولذلك أرسلوا زوجين من الحمام الزاجل، مدربه خصيصاً لهذه الغاية، لتنقل الرسالة إليه بعدما أثبت في ذيليها ملطفة تحتوي على تقرير كامل بنجاحهم، بحيث يتمكن مولاهم من الإطلاع بشكل كامل على كل ما كانوا قد

(١) كان الشقاق بين الأمراء الموضح هنا من العوامل الرئيسية في نجاح الصليبيين. كما أن إخفاق كربوغا بالتعاون مع رضوان والعكس بالعكس كان مثالاً آخر.

أنجزوه[1] وعاد الطائران، بعد إطلاقتهما، عادا بسرعة إلى القلعة، حيث أمسكهما الذين كانوا قد تولوا العناية بهما، وأخذوا الملطفات، وقدموها إلى الحاكم، وكان الرعب من الحشد المحاصر للقلعة قد أربكه جداً إلى درجة أنه يئس من إظهار أية مقاومة أخرى، وقد امتلأ بأمل منعش كبير بعدما قرأ الرسالة، إلى درجة أنه تجرأ على أخذ زمام المبادرة في الهجوم على عدوه.

٤ - بلدوين ينطلق على رأس قوة ضخمة لمقابلة أخيه. الزعماء الآخرون يقدمون المساعدة. فرار رضوان. هلاك عدد من أفراد شعبنا أثناء الزحف. مقتل قرابة عشرات الآلاف من العدو.

كان الدوق قد زحف مع مجموعته لمسيرة يوم عندما قابلهم بلدوين على رأس فرقة قوامها ثلاثة آلاف مقاتل شاكي السلاح ورحب غودفري بأخيه بعاطفة صادقة وحب عميق، وشرح له جميع تفاصيل الحملة مركزاً بشكل خاص على حلف الصداقة الذي كان قد أقامه مع حاكم أعزاز، ووافق بلدوين على كل شيء بيد أنه حذر غودفري من أن قواته لا تبدو كافية لرفع حصار كبير جداً من هذا القبيل، ونصحه أن يقوم قبل كل شيء أن يتابع زحفه، باستدعاء القادة الذين كانوا قد مكثوا في أنطاكية لمساعدته، حيث سيتمكن بدعمهم من التقدم بثقة أكبر نحو هدفه.

وأصغى الدوق طائعاً لنصيحة أخيه، وأرسل على الفور رسلاً إلى كل من بوهيموند وكونت طولوز، وتوسل إليهما بجدية مستحلفاً إياهما بالروابط الأخوية القائمة بينهم، أن يأتيا دونما تأخير فيساعداه في جهوده لمصلحة حليفه، وأكد لهما أنه سيرد جميلهما في الوقت المناسب، وكان في الواقع قد طلب مساعدتهما قبل أن يغادر المدينة، وكان قد دعاهما لينضما إليه بطريقة ودية، بيد أنهما تراخيا في اللحاق به غيرة من حقيقة أن حاكم أعزاز كان قد التجأ إلى غودفري في البداية، وقد أدركا في الدعوة الثانية أنهما لن يستطيعا أن يرفضا طلب الدوق بعد ذلك احتراماً لنفسيهما، وتبعاً لهذا استدعيا جنودهما، ولحقا بالدوق، وانضما إلى حملته، وكانت القوة الكلية للقوات المتحدة بمجموعها قرابة ثلاثين ألف مقاتل.

وقيل إنه كان لدى رضوان قوة مؤلفة من أربعين ألفاً من الأتراك، ومع ذلك لم يثق

---

(١) كان استخدام الحمام الزاجل كوسائل للإتصال عبر خط، كالعدو من الواضح جديداً لمعظم الغربيين وذلك حسب رأي الدكتور س.أ. وبستر من جامعة بيروت الأميركية، فقد كانت محط هوايته دراسة تاريخ الخدمة البريدية، ولقد كان استخدام حمام الزاجل قد تطور منذ زمن قديم بين العرب، هذا وقد بدت له طريقة ربط الرسالة إلى ذيل الطائر طريقة غريبة، لأن الطريقة النظامية كانت ربط الرسائل تحت الأجنحة لموازنة الثقل.

بقوته، لذلك سرح جيشه، وعاد إلى حلب بعدما أخافته فكرة اقترابنا التي أعلمه بها جواسسه، وأنها ستتبلور بالحال.

وكانت قوات غودفري، الجاهلة بفرار العدو، ما تزال تواصل، في هذه الأثناء، زحفها، وقد تبعها عن بعد كثير من الجنود المشاه والفرسان من أنطاكية، من الذين رغبوا بالإنضمام إلى الفيالق الزاحفة، بيد أنهم لما كانوا خلف الجيش بعيدين عنه إلى حد ما، تعرض الكثير منهم لمحنة الوقوع في كمائن كان العدو قد نصبها باحكام، وتغلب الأتراك بسهولة عليهم، حيث لم يكونوا مماثلين لهم في القوة والطاقة، وقتل العديد منهم وحمل آخرون كأسرى.

وتوقف الدوق والقادة الآخرون عن السير عندما علموا بهذا الأمر، وبدأوا بتصميم واحد بمطاردة أولئك المجرمين، وقابلوا الأتراك بحظ ميمون، قبل أن يتمكنوا من الإنسحاب إلى مكانهم والعودة إلى مخابئهم المألوفة، وهاجمهم المسيحيون بالسيوف بعنف وشتتوا شملهم في وقت قصير، وأنقذوا عدداً من شعبنا كانوا ينقلون كأسرى، وقتلوا العديد من الأتراك، واستولوا على عدد كبير من الأسرى، وهرب الباقون، ولم يبق أحد منهم تقريباً، وكانت هذه القوات مؤلفة من رجال أكفاء مختارين من حاشية رضوان وأتباعه، وغالباً ما كانوا معروفين على أنهم قواته الخاصة، وبلغ عددهم قرابة عشرة الآلاف مقاتل، واستأنف جيشنا الزحف ثانية بقوة واحدة متحدة بعد هذا الإنتصار، ووصل في النهاية إلى مقصده، وخرج حاكم القلعة مع ثلاثمائة فارس للترحيب بالقوات المسيحية، وركع على الأرض، على مرأى عام من القوات المجتمعة، وأعاد الشكر برأس منحنٍ للدوق أولاً، ثم إلى الزعماء الآخرين، وتعهد أمام جميع الناس أن يكون مخلصاً للزعماء المسيحيين، وأدى يمين الولاء معلناً أنه لن تثنيه أية ضرورة زمانية أو مكانية عن الإخلاص والطاعة لهم.

وهكذا قدم الدوق المعونة المطلوبة إلى حليفه، وانتهت القضية بنجاح، ثم عاد بلدوين أخو غودفري إلى الرها، وعاد الجيش إلى أنطاكية.

٥ ـ الدوق يتحول إلى بلد أخيه لتجنب خطر الطاعون. تدميره هنالك عدداً من القلاع تخص بعض الخونة. ذهاب عدد من الزعماء الآخرين إلى الرها أيضاً لنيل حظهم من سخاء بلدوين الرائع.

قرر الدوق قبول دعوة أخيه لزيارة منطقة الرها، عندما كان الوباء ما يزال على أشده في أنطاكية حيث كان معدل الوفيات يتزايد بين الناس، وكان بلدوين قد ألح بشدة على غودفري خلال حملتها الأخيرة للقيام بذلك حتى يتمكن من تجنب حرارة شهر آب، وينجو

من خطر العدوى الموجودة في الهواء، وتبعاً لذلك أخذ الدوق حاشيته الخاصة معه بالإضافة إلى حشد كبير من الناس المعوزين كانوا تواقين لتأمين حاجاتهم، ونزل إلى ديار أخيه، وأقام بجوار تل باشر وهاب وراوندان حيث استخدم سائر المنطقة كما شاء، وغالباً ما استمتع برفقة أخيه.

وحدث مراراً بينما كان الدوق مقيماً هنالك أن قدّم الناس القاطنون في الجوار، وخاصة المتدينون منهم والمقيمون في الأديرة العديدة المجاورة، قدموا في حضرته شكايات خطيرة ضد الأخوين باكراد Pakrad وقراسيلينز Carasilins [كوغ فاسل Kogh Vasil][1] وكان هذان الرجلان ينحدران من الشعب الأرمني، وكانا واسعي الشهرة، إلاّ أنهما كانا ماكرين بشكل يفوق الحدود، وكانا يمتلكان أماكن محصنة في تلك المنطقة، واعتماداً على قوة هذه الحصون أثقلا كاهل السكان وخاصة الأديرة بابتزازات هائلة وجائرة، ووصلت جرأة هذين الرجلين إلى حد كبير، لدرجة أنهما تجرءآ بالفعل على سرقة الرسل الذين وجدوا على الطريق العام، حيث كان كونت الرها قد أرسلهم بهدايا إلى أخيه الذي كان يواصل بشكل فعال حصار أنطاكية، وقام هذان الرجلان بإرسال هذه الهدايا المخصصة للدوق إلى اللورد بوهيموند ليتمكنا من كسب تأييده لهما ضد كونت الرها، وثار سخط الدوق عندما استمع إلى هذه التهم، وأرسل على الفور خمسين فارساً من فرسانه مع أفراد من أهل المنطقة إلى الناهبين، حيث اقتحموا معاقلهما بقوة السلاح، ودمروها تدميراً تاماً، حتى يمكن ـ إلى حد ما على الأقل ـ قمع وقاحة هذين الحاكمين التي لا تطاق.

واندفع جميع الأفراد الأكثر أهمية من جيشنا مع أعداد كبيرة من العامة أيضاً إلى الكونت بتنافس وشوق خلال إقامته في هذه المنطقة، وأملوا أن يحصلوا منه على بعض المساعدة ضد خطر الحاجة الدائمة، وإلحاح الفقر، وقد حدث هذا بشكل كبير، خاصة بعد أن أصبحت قلعة أعزاز، الواقعة في منتصف الطريق إلى الرها تحت حمايتنا، واستقبل بلدوين جميع هؤلاء الناس باحترام، ثم صرفهم أخيراً بكرم عظيم إلى درجة أنه أدهش حتى الذين كانوا قد قدموا إلى هناك للغاية ذاتها، أي لتلقي إعاناته.

---

(١) ألقي كوغ فاسيل، المعروف للتاريخ على أنه صديق للمسيحيين من الغرب، هنا في دور مريب. وينفي اسكندريان أن تكون التسمية كوغ، التي تعني اللص، لها أدنى انعكاس على شخصية فاسيل، ويعتقد أنها قصدت لتصف طريقة فاسيل الحربية في أسلوب مدحي. كما يشك في كل من العلاقة مع باكراد والمشاركة في هذه النشاطات البغيضة. (انظر غالوست ت. اسكندريان «الحملة الصليبية الأولى وبيزنطة والأرمن وكونتية الرها» ص ٦١ وأ. أ. بيمونت «ألبرت أوف آخن وكونتية الرها» Munro-crusades,p. 119).

٦ ـ سكان الرها يتآمرون ضد حاكمهم بسبب سخطهم عليه لاعتماده على اللاتين فقط. بلدوين يُحذر من المؤامرة. قتله للمتآمرين.

بدأ المسيحيون يندفعون الآن بأعداد كبيرة إلى الرها إلى درجة أن تزايد عدد اللاتين في تلك المدينة أصبح مصدر ازعاج لسكانها الأصليين، فعلى الرغم من أنه تمّ إظهار هذا السخاء لهؤلاء الضيوف، لم يكتفوا بذلك بل بدأوا على الفور يسببون المشاكل لمضيفهم بسبب ميولهم الإستبدادية، كما قل أيضاً اعتماد بلدوين بالتدريج على مشورة الرهاويين النبلاء ذلك أنه كان قد ظفر بتلك المدينة الكبيرة عن طريق تأييدهم له، وأثار هذا سخطاً شديداً ضده وضد شعبه، وتندمت رعاياه بمرارة لأنهم كانوا قد منحوه السيادة عليهم، وبما أنه لم يبد أن هناك أي شيء يشبع رغباته، فقد خافوا أن يسلبهم في النهاية كل ما كان بحوزتهم، وتبعاً لذلك تورطوا في مؤامرة مع بعض الأمراء الأتراك الموجودين في المنطقة المجاورة، وبدأوا يتآمرون حول كيفية قتل بلدوين على غفلة، وكأن الأمر كان حادثاً، أو طرده من المدينة على الأقل، وكانوا قد وضعوا لدى التحضير لهذه المحاولة، كنوزهم وجميع ممتلكاتهم مع أصدقاء لهم في القلاع والمدن المجاورة، بيد أنه حدث أن أخبر أحد الأصدقاء الأوفياء المخلصين لبلدوين، أخبره بنبأ المؤامرة، وذلك في الوقت الذي كانوا يرسمون فيه خططهم بعناية فائقة، ووجدت براهين أكيدة لدى التحقيق في المؤامرة، وبناء عليه أرسل الكونت قوة كبيرة من قومة للقبض على المتآمرين، فأمر أن يُربطوا ويعاملوا كالقتلة، وكشف اعترافهم عن المسألة برمتها، وأمر بلدوين على الفور بسمل عيني زعيم جماعة الفتنة، ونفي آخرون من المدينة بعدما ظهر أن إثمهم في المؤامرة ودورهم لم يكن كبيراً، وصودرت ممتلكاتهم، كما عوقب الآخرون الذين سُمح لهم برأفة بالبقاء في المدينة بعقاب مالي شديد، حيث صودرت ممتلكاتهم إلى خزينة الكونت، وحصل الكونت بهذه الوسيلة على كمية كبيرة من القطع الذهبية وصل عددها إلى عشرين ألف قطعة، وزعها بسخاء كبير على ضيوفه الذين كانت المدن والقلاع المجاورة قد خضعت بمساعدتهم لسيطرته، وهكذا نقل اسمه خوفاً شديداً إلى المدن المجاورة وإلى الناس الموجودين في المنطقة المجاورة إلى درجة أن الكثيرين منهم بات يخطط لقتله، حتى والد زوجة الكونت بلدوين نفسه كان خائفاً من المطالبة بشدة ببقية مهر ابنته الذي لم يدفعه له بعد، على الرغم من أنه وعد بذلك، وقد هرب إلى الجبال خفية حيث كان يمتلك معاقل خاصة به.

٧ - بالاس يتآمر ضد الكونت. الكونت يتخذ إجراءات وقائية لتأمين سلامته الذاتية. القاء القبض على عدد من حلفائه. فلبرت أوف تشارتر يخفف من آثار هذه الكارثة. مقتل الخائن بالدوك.

كان هنالك واحد من النبلاء الأتراك يدعى بالاسBalas ، وكان يقيم في ذلك الجزء من البلاد، فقد كان حاكماً لسروج من قبل، وكان قد تحالف في تلك الأثناء مع الكونت وأقام معه معاهدة، وكان الإثنان على علاقات ودية كبيرة قبل وصول اللاتين بأعداد ضخمة، ولاحظ هذا الرجل أن حب بلدوين له قد خفّ، فذهب إلى الكونت بدافع من شعوره بالإستياء، أو بمطلب من سكان الرها، وتوسل إليه أن يسدي إليه صنيعاً في أن يحضر شخصياً لتسلم إحدى القلاع التي كانت ما تزال بحوزته، وأعلن معروف بلدوين سيكون تعويضاً كافياً بالنسبة له، وسيعتبره بمثابة فخر أبدي له، وقال أيضاً إنه عقد العزم على إحضار زوجته وأطفاله وجميع ممتلكاته إلى الرها، وتظاهر أنه كان واقعاً في خوف شديد من أهل منطقته من الريفيين، لأنه بات محباً جداً للمسيحيين، وقنع الكونت بتحديد يوم لزيارة المكان لتنفيذ هذه الرغبة، وبدأ الكونت مع مائتي فارس رحلته في الوقت المحدد، وتقدم إلى القلعة التي كان بالاس قد سبقه إليها، وكان بالاس من ناحية أخرى قد قوّى سراً دفاعات القلعة وذلك بإدخال مائة فارس من الرجال الشجعان شاكي السلاح، وتمّ إخفاء هذه القوة في الداخل بطريقة لم يظهر فيها أي رجل منهم.

وعندما وصل بلدوين أمام القلعة رجاه بالاس أن لا يصطحب معه سوى عدد قليل من أركان حربه إلى داخل الحصن، وأعطى مسوغاً لهذا الطلب عدم تعريض ممتلكاته للخطر إن استقدمت القوة بأسرها، واستمالت أقواله الكونت إلى حد بعيد ليوافق على رغباته في جميع جوانبها، لكن لحسن حظ بلدوين تكوّن هاجس أكيد بالخيانة لدى بعض من النبلاء الحكماء الملازمين له، فاحتجزوا الكونت بالقوة تقريباً، على الرغم من إحتجاجه، وحالوا دون دخوله إلى الحصن، فقد ارتابوا بحق بخطط الوغد الشريرة، ورأوا أن الأمر سيكون أكثر سلامة إذا ما قام آخرون غيره بإجراء اختبار أولاً، وقبل الكونت بهذا الرأي الحكيم، وأمر إثني عشر رجلاً من أشجع رجاله مسلحين بشكل جيد أن يدخلوا الموقع، ومكث في هذه الأثناء خارج الحصن ليرى بأم عينيه نتيجة هذا الإختبار، ووقعت المجموعة الشجاعة ضحية للخيانة ولغدر بالاس الشرير حالما دخلت الموقع، حيث ظهر الأتراك المائة المذكورون آنفاً، ظهروا من مخابئهم على الفور، واعتقلوا الفرسان المغرر بهم، وزجوهم في السجون على الرغم من الجهود التي أظهروها في المقاومة، وسببت هذه المحصلة استياءاً كبيراً لكونت بلدوين

حيث قلق على مصير رجاله المخلصين الذين فقدهم نتيجة لحيلة خسيسة جداً، فاقترب من القلعة وطالب بالاس بجد أن يتذكر يمين الولاء الذي كان قد أداه له، وطالبه بقوة هذا الولاء أن يعيد الأسرى الذين اعتقلوا غدراً، وعرض عليه عوضاً عنهم مبلغاً كبيراً من المال فدية لهم، ومع ذلك رفض بالاس بشكل قاطع أن يأخذ هذا الإقتراح بعين الإعتبار ما لم تعد سروج إليه، وأدرك الكونت عدم استطاعته عمل أي شيء آخر حيث كانت القلعة قائمة على جرف شاهق، وكانت منيعة جداً بسبب قوتها وبراعة بنائها، وعاد إلى الرها، ساخطاً جداً بسبب اعتقال رجاله، وهو يفكر بجد بالخدعة التي طبقت عليه.

كان فولبرت أوف تشارترز [1] مسؤولاً عن مدينة سروج، وكان ذا خبرة كبيرة في علم الحرب، وكانت معه حامية مؤلفة من ثلاثمائة فارس، وكانت هذه الحامية مجهزة مستعدة للعمل بشكل جيد، وتألم قلبه شفقه على مولاه عندما سمع بالخدعة التي انطلت عليه، وبدأ يخطط بجد لطريقة الثأر للإهانة التي لحقت به، وتمشيا مع هذه الغاية، نصب كميناً في أحد الأيام أمام قلعة بالاس في موقع مناسب لخطته، ثم اقترب مع مرافقة قليلة من القلعة عمداً، وكأنه يريد الإستيلاء على القطيع ويدفعه أمامه، بيد أن هدفه الحقيقي كان إغراء العدو وجذبه لمطاردته، ولاحظت الحامية الموجودة في الداخل أنه كان يحاول سرقة القطيع من المراعي، فأمسك الجند بأسلحتهم، وبدأوا بمطاردته، وتظاهر فولبرت أنه كان يهرب منهم، فتبعه الكفرة بتلهف حتى تجاوز الكمين، حيث خرج رجاله من مكامنهم في تلك المرحلة، فانقض فولبرت على مطارديه، وهاجمهم بدعم من رجال الكمين فقتل بعضهم وأسر ستة منهم، ونجا الباقون بكل صعوبة.

وجرى بعد ذلك بوقت قصير ترتيب لتبادل الأسرى، وتسلم فولبرت لقاء هؤلاء الرجال الستة عدداً مماثلاً من المسيحيين، كما نجح أربعة آخرون من المجموعة ذاتها ـ المؤلفة من أثني عشر رجلاً ـ في التخلص من حراسهم، ونالوا حريتهم، أما الإثنان الباقيان فقد ضربت أعناقهما بأمر من ذلك الرجل الشرير العاق، ورفض بلدوين منذ ذلك اليوم فصاعداً إقامة أي حلف للصداقة مع الأتراك، وارتاب ريبة تامة بولائهم الحقيقي، وأعطى على الفور برهاناً مدهشاً على هذه الحقيقة.

وكان في المنطقة المجاورة ذاتها حاكم تركي يدعى بالدوكBalduk ، وكان هذا الرجل

---

(١) لم يعرف قسيس بلدوين فولبرت أو فولتشر أوف تشارترز الذي ذكره ألبرت و Chanson d'Antioche ، الذي له الإسم ذاته والذي قدم من المدينة نفسها، هنالك تشوش كبير بخصوصه في صفحات Albert (انظر ب. كوغلر «ألبرت فون أخن» ص ١٧٨ ـ ١٧٩).

قد باع إلى الكونت مدينة سميساط القديمة، المحصنة تحصيناً جيداً، لقاء مبلغ من المال، وكان بالدوك ملزماً بموجب شروط المعاهدة المعقودة بينهما أن يجلب زوجته وأطفاله وجميع أفراد أسرته، إلى الرها، ومع ذلك، استمر في تأجيل انجاز وعده بتقديم معاذير معقولة، منتظراً فرصة مناسبة ليسبب له ازعاجاً وضرراً، وأمر بلدوين بضرب عنق هذا الرجل عندما اقترب منه في أحد الأيام ليقدم كعادته عذراً تافهاً لتأخيره وحال بهذه الوسيلة الحاسمة دون إمكانية حدوث خيانة مماثلة في المستقبل.

٨ - كونت طولوز يستولي على البارة. بلدوين يعين أسقفاً في تلك المدينة. أسطول ألماني يبحر إلى داخل المرفأ. استمرار الخسائر بالموت دونما توقف.

وبينما كان غودفري ما يزال مقيماً في أحوازتل باشر، وكانت الحوادث المذكورة منذ لحظات تقع في المناطق القائمة حول الرها، انطلق كونت طولوز بصحبة أتباعه وعدد كبير من الناس الفقراء من أنطاكية، وكان قلقاً يخشى أن يبدد الركود طاقته في هذه الآونة، فضرب الحصار على البارة وهي مدينة محصنة بشكل جيد، وتقع في مقاطعة أفامية، تقع على بعد مسيرة يومين من أنطاكية، واضطر سكانها فوراً إلى تسليم مدينتهم بالقوة، وعين ريموند كونت طولوز أسقفاً لذلك المكان اسمه بطرس النربوني، وكان من أعوانه المقربين، ورجلاً متديناً جداً، وصاحب حياة مستقيمة، وشخصية شريفة، ومُنح الأسقف الجديد نصف المدينة، ونصف المنطقة بأسرها على الفور، وقدّم الشكر للرب على أنه أصبح للشرق أسقف لاتيني بواسطة عمله الحماسي [١].

ثم ذهب بطرس بتوجيه من الكونت إلى أنطاكية ليتسلم منحة الترسيم، حيث منح سلطة جبرية تامة هناك، ونقل بطرس فيما بعد ولاء مطرانيته للكنيسة في أنطاكية، عندما نظم برنارد البطريرك اللاتيني الأول لتلك المدينة، الكنيسة في أنطاكية، وأصبح بطرس رئيساً للأساقفة، وسلمه - برنارد - بيده شارة طيلسان رئيس الأساقفة.

وكان آنذاك في ركاب كونت طولوز نبيل اسمه وليم، وكان هذا الرجل قد أسر عند الإستيلاء على أنطاكية، بمصادفة ميمونة زوجة يغي سيان حاكم المدينة مع الابنين الصغيرين لابنها شمس الدولة أيضاً، وكانوا ما يزالون في رعايته عندما قدم شمس الدولة مبلغاً كبيراً من المال فدية لهم، وقد أطلق وليم سراحهم عندما استلمه، وفي تلك الآونة نزلت

(١) من الممتع ملاحظة الدور الهام الذي اتخذه القادة المدنيون في انتقاء المطارنة في الشرق، وكان النزاع حول تقليد المنصب ما يزال قائماً في الغرب في هذا الوقت، ويعكس تأثير ذلك الجدل في تأكيد وليم على السمات اللاهوتية للشخص المنتقى وعلى تقليده المنصب من قبل مسؤولي كنسية أعلى مقاماً في أنطاكية والبارة هي كفر البارة الحديثة.

أيضاً مجموعة كبيرة من الناس بلغ تعدادها قرابة ألف وخمسمائة شخص، نزلت في ميناء القديس سمعان (السويدية) بعد رحلة ميمونة، وكانوا من المنطقة المجاورة لراتسبون في مملكة الألمان[1] ، بيد أن جميع هؤلاء الناس ماتوا خلال فترة قصيرة من الزمن بسبب الوباء الذي كان متفشياً في ذلك الوقت هناك، حيث كان ذلك المرض المميت قد أهلك الناس لمدة ثلاثة أشهر متتالية، حتى بداية شهر كانون الثاني، إلى درجة أنه كان قد توفي أكثر من خمسمائة رجل من طبقة الفرسان، وكان عدد الضحايا بين صفوف الناس يفوق التقدير.

٩ ـ المسيحيون يحاصرون المعرة ويستولون عليها. وفاة وليم أسقف أورانج. جوفيير دي لاستور يصبح مشهوراً.

بحلول الأول من شهر تشرين الثاني عاد إلى المدينة جميع القادة الذين كانوا قد غادروها من قبل لتفادي الوباء، كما كانوا قد اتفقوا على ذلك، وكان قد تمّ الإستيلاء على بلدة البارة كما ذكرنا آنفاً واقترح الآن بموافقة عامة مهاجمة المعرة، وهي مدينة محصنة بشكل قوي، وتبعد ثمانية أميال عن البارة، وكان من الضروري مواصلة بعض النشاط خلال هذه الفترة الفاصلة حيث لم تكن مطالبة الناس الصاخبة المتواصلة بوجوب استئناف الزحف نحو القدس، محتملة لعنفها، وبناء عليه أجريت التحضيرات الضرورية، وبدأ كل من كونت طولوز وكونت فلاندرز، وكونت نورماندي، والدوق غودفري مع أخيه يوستاس وتانكرد زحفهم في اليوم المحدد، بنية محاصرة مدينة المعرة.

كان سكان هذه المدينة متعجرفين متكبرين جداً بسبب ثرواتهم الهائلة، علاوة على ذلك كانوا فخورين بشكل خاص من حقيقة أنهم كانوا قد قتلوا عدداً كبيراً من أفراد شعبنا في أحد الإشتباكات التي حدثت من قبل، وهو عمل بطولي كانوا ما يزالون يتباهون به، ولهذا السبب احتقروا الجيش المسيحي، وقذفوا قادته بالشتائم إلى درجة أنهم وضعوا الصلبان على شرفات أسوارهم وأبراجهم وصبوا جميع أنواع الإهانات على هذه الصلبان كإهانة لشعبنا، حتى أنهم بصقوا على هذه الرموز المقدسة.

وكما هو الحال دوما، عندما يكون تدنيس المقدسات معنياً، أثارت هذه الإهانات المسيحيين، وأشعلت غضبهم بشكل شديد جداً، فانقضوا على المدينة بسلسلة من الهجمات العنيفة جداً إلى درجة أنه لو كانت قد توفرت لديهم أعداد كافية في السلالم لتم الإستيلاء عليها بالقوة في اليوم الثاني لوصولهم.

---

(١) رواية هذا الحادث على عهدة ألبرت أوف اكس.

وفي اليوم الثالث انضم إليهم بوهيموند مع تعزيزات كبيرة، وواصل الحصار بتطويق ذلك القسم من المدينة الذي كان قد بقي مفتوحاً حتى الآن، وبعد وصوله بعدة أيام ثارت عزيمة الحجاج بعدما وجدوا أنفسهم قد حجزوا أمام المعرة مدة طويلة بهذا القدر، فأقدموا على بناء أبراج خشبية، ونسجوا حولها الجلود لحمايتها، كما نصبوا آلات القذف الحربية، وبما أنهمْ كانوا قليلي الإحتمال للتأخير أسرعوا في أعمال اقتحام المدينة بشجاعة كبيرة، وقاوم المدافعون الموجودون داخل الأسوار بكل قوتهم، وقذفوا جميع أنواع القذائف باستمرار على أعدائهم، واستخدموا الحجارة في جهودهم اليائسة لإبعاد العدو عن تحصيناتهم كما واستخدموا خلايا النحل المملوءة بالنحل، والنار، والكلس الحي، غير أنهم لم ينجحوا في إلحاق الأذى ـ بفضل رحمة الله القدير ـ إلاّ بعدد قليل من شعبنا، هذا إذا كان هنالك من تعرض فعلاً لأذاهم.

واتضح الآن بشكل متزايد أن جميع جهود المدافعين كانت جهوداً عقيمة، وأن قوتهم بدأت تضعف، وحفزت هذه الظاهرة المسيحيين، فواصلوا الحصار بشجاعة أكبر أيضاً، وانقضوا على المدينة من جميع الجهات، وكان الهجوم قد استمر بدون توقف منذ الفجر وحتى غروب الشمس، وكان المدافعون الذين أنهكتهم جهودهم المضنية، قد استولى عليهم الأعياء ولذلك أخذوا يبدون الآن حذراً أقل في مقاومتهم، وتبعاً لذلك ألصق المسيحيون السلالم إلى الأسوار، ونجحوا في تسلق الشرفات بالقوة، وكان غولفيروس Guelferus الملقب بالبرجي [جوفيير دي لاستور Joufier De Lastours] أول من تسلق هذه الشرفات، وهو نبيل من أسقفية ليموغس Limoges ثم تبعه عدد كبير آخر، وتم الإستيلاء على بعض الأبراج، إلاّ أنّ حلول الليل منعهم من مواصلة جهودهم والفوز بسائر المدينة، وهكذا تأجلت المسألة إلى اليوم التالي، وتقرر على كل حال تجديد الهجوم في الفجر، وحافظ الفرسان مع مجموعات عديدة من الرجال القياديين على الحراسة طوال الليل لمنع العدو من الرحيل.

ومهما يكن من أمر لقد دخل ـ في الوقت نفسه ـ الفوضويون وقد سئموا من طول فاقتهم ومن المجاعة المريرة والمديدة، دخلوا المدينة دون علم من الزعماء، حيث لم يظهر ولا فرد واحد من أفراد العدو على الأسوار، وبدت المدينة وكأن صمتاً تاماً يكتنفها، فوجدوها خالية من المدافعين عنها، فنقلوا جميع المغانم خفية وسراً، وكان سكان المدينة قد هربوا في هذه الأثناء إلى سراديب سرية تحت الأرض ليتمكنوا من ضمان سلامتهم بشكل مؤقت على الأقل.

وعدما جاء الصباح استيقظ القادة، واستولوا على المدينة بدون قتال، ولم يجدوا سوى

غنائم قليلة لينقلوها معهم، وما لبثوا أن اكتشفوا أن سكان المدينة كانوا مختبئين في ملاجيء سرية، فأوقدوا على الفور نيراناً أطلقت كتلاً ضخمة من الدخان الكثيف إلى درجة اضطر الهاربون فيها إلى الاستسلام، وقتل عدد من هؤلاء الناس الذين أخرجوا بالقوة من مخابئهم، وأخذ آخرون كأسرى.

وفي اثناء ذلك الحصار توفي وليم أسقف أورانج، وكان رجلاً صاحب ذكرى طيبة، كما كان ورعاً يخاف الرب[1].

وبقي الدوق وآخرون في المعرة لمدة خمسة عشر يوماً، ثم عاد إلى أنطاكية حيث استدعت شؤونه حضوره، وحين عاد كان بصحبته كونت فلاندرز.

١٠ ـ الدوق يعود إلى أخيه ويستأذنه بالانصراف. وقوعه في كمين أثناء رحلة العودة إلى الجيش، لكنه نجا سليماً.

أدرك في تلك الآونة غودفري دوق اللورين أن الناس كانوا يعدون العدة للرحيل، وكانوا يلحون باستمرار على القادة للزحف نحو القدس، بيد أنه عقد العزم على زيارة أخيه قبل مغادرته لتلك المنطقة، حتى يتمكن من الاستمتاع بمحادثة سارة معه، وبناء عليه بدأ رحلته مع مرافقه الخاص، ونزل إلى مملكة بلدوين، واستأذن أخاه بالانصراف بعدما تسامر معه، وأنهى العمل الذي قدم من أجله، وعاد إلى أنطاكية حيث كان القادة الآخرون ينتظرونه، ونزل عن حصانه لتناول الطعام على بعد قرابة خمسة ـ أو ستة ـ أميال من المدينة، حيث جذبه مكان معشوشب بهيج واقع إلى جانب ينبوع تدفق منه ماء عذب رائق، وبينما كان صحبه منشغلين باعداد الترتيبات التي يحتاجها مثل هذا المكان والزمان ظهرت فجأة سرية من فرسان العدو مدججة بالسلاح، من داخل مقصبة مستنقع مجاور، وهجموا عليهم وهم يأكلون، ومع ذلك أمسك الدوق ورفاقه بأسلحتهم قبل وصول الأتراك إليهم، وقفزوا على صهوات خيولهم، وتبع ذلك عراك خرج الدوق منه ـ بنعمة الرب ـ منتصراً، حيث قتل عدداً كبيراً منهم، وجعل البقية تلوذ بالفرار ثم استأنف سيره إلى المدينة مكللاً بالمجد.

(١) كان وليم أوف أورانج آخر رجال الدين الهامين بالفعل ممن باشر الحملة الصليبية، وكانت مشقات الحملة قد وقعت على الرجال الأكبر سناً بشكل خاص.

١١ ـ نشوب نزاع في المعرة بين كونت طولوز وبوهيموند. بوهيموند يستولي على ممتلكات الكونت في أنطاكية. اجتماع الزعماء في الروج إلاّ أنه لم يتقرر شيء له أهميته. الناس يكافحون ضد المجاعة.

نشب بعد الاستيلاء على المعرة جدال عنيف بين بوهيموند وكونت طولوز، وكان الأخير قد اقترح منح المدينة المستولى عليها إلى أسقف الباره، بيد أن بوهيموند لم يكن راغباً بالتخلي عن ذلك الجزء من المدينة الذي كان قد استولى بنفسه عليه للأسقف استجابة لمطلب ريموند ما لم يوافق الكونت في البداية على تسليمه الأبراج التي كانت ما تزال بحوزته في أنطاكية، وتخلى بوهيموند أخيراً بغضب عن النزاع في المعركة، وعاد إلى أنطاكية، واستولى هناك على الأبراج التي كان أتباع الكونت قد حصنوها، والتي كانوا ما يزالون يسيطرون عليها، وقام بطرد المدافعين عنها بقوة السلاح، واستولى بهذا العمل العجول على المدينة بأسرها، واحتفظ بها كمالك وحيد لها.

وعندما رأى الكونت أن منافسه قد انسحب، وأنه لذلك بات بمقدوره وحده التصرف بالمدينة كما يشاء، أعطاها إلى أسقف البارة، وفقاً لما كان قد عقد العزم عليه أصلاً، وتشاور مع الأسقف بخصوص حماية المدينة من العدو، وعين حرساً لها من الجنود المشاة والفرسان، إنما عندما اكتشف الناس خطته غضبوا غضباً شديداً، وبثوا شكواهم بين بعضهم بعضاً في أن القادة كانوا يحاولون دوماً استنباط المعاذير للتأخير، وأن الهدف الرئيسي للحج بدا منسياً تماماً، فكلما تم الأستيلاء على مدينة من المدن، شرع الزعماء على الفور بالتشاحن والنزاع حول مسألة ملكيتها، ولذلك عقدوا اجتماعاً خاصاً بهم، وقرروا تدمير المعرة حالما يبتعد الكونت عنها لأي سبب من الأسباب، بحيث لا يوجد بعد ذلك أي شيء يعيق انجاز نذرهم.

وحدث أنّ القادة كانوا مجتمعين في هذا الوقت بالذات في الروج، وهي بلدة تقع في منتصف المسافة بين أنطاكية والمعرة [١]، وكان هدف المؤتمر دراسة المتطلبات الصاخبة للناس في أن تستأنف رحلة الحج، وكان الكونت قد تلقى دعوة لحضور هذا المؤتمر، وذهب إليه، بيد أنه لم يتم التوصل إلى قرار منسجم أو مفيد بشأن المسألة المبحوثة، حيث أبدى جميع القادة آراء مختلفة حول الموضوع.

وانتهز الناس الذين مكثوا بالمعرة فرصة وجود الكونت في الروج لتنفيذ خططهم خلال غيابه، فقاموا، على الرغم من معارضة الأسقف الذي حظّر العملية حظراً تاماً، بتدمير

---

(١) ربما حوالي ٤ كانون الثاني ١٠٩٩.

الأسوار والأبراج تدميراً كاملاً، حتى لا يتمكن الكونت لدى عودته من إيجاد أي مسوغ لأي تأخير إضافي.

وحزن ريموند لدى عودته حزناً كبيراً إزاء هذه الكارثة، إلاّ أنه أخفى مشاعره بحكمة بتفهمه لرغبات الناس، وواصل الناس مطالبهم الملحة، وتوسلوا إليه وتضرعوا أن يتصرف كقائد أبناء الرب في تنفيذ رحلة الحج التي كانوا قد بدأوها، وهددوا أنه إذا ما رفض القيام بذلك فسيعينون أحد الجنود لقيادة الجيش وليتقدم على رأسهم على طريق الرب.

ولزيادة مشاكلهم، انتشرت في هذا الوقت مجاعة شديدة بين صفوف الجيش، وارتد كثيرون إلى همجية البهائم المتوحشة عندما قل الطعام، وبدأوا وهم يتحدون الأعراف يأكلون لحوم الحيوانات القذرة، ومن المؤكد أيضاً ـ وعلى الرغم من أن هذا غير معقول تماماً ـ أن الكثيرين قد هووا بسبب نقص الطعام المناسب، إلى مهاوٍ سحيقة إلى درجة أنهم أكلوا اللحم البشري.

وانتشر الوباء بين صفوف الحجاج أيضاً، ولم يكن وضع هؤلاء مختلفاً عن الآخرين، حيث كان الناس التعساء يعيشون على طعام ذميم وقذر ـ إذا كان بالفعل يمكن تسمية ذلك الطعام المخالف للطبيعة باسم طعام ـ كما لم تكن هذه المجاعة المخيفة التي حلت بالناس شيئاً مؤقتاً لو استمرت لوقت قصير فقط، حيث تعرض الناس لهذه الكارثة لمدة خمسة أسابيع وحتى إلى أكثر من ذلك، عندما كانوا محتجزين أمام المعرة بينما كانوا يحاولون الاستيلاء عليها.

وقد توفي عدد من الرجال المشهورين ومن مراتب عالية، أمام تلك المدينة، ليس بسبب تقلبات الحرب فحسب، بل بسبب أمراض متنوعة، وكان من بينهم انغوراند Enguerrand بن هيوكونت سانت بول، وكان شاباً صاحب شخصية واعدة بشكل فريد، فقد ألم به داء خطير أودى بحياته.

١٢ ـ الدوق يقوم بغارة نهب داخل ديار العدو ويسوق أمامه القطعان. شروعه بالزحف بعدما لم يعد متمكناً من تحمل المطالب المصاحبة للناس. انضمام كل من كونت نورماندي وتانكرد إليه.

وبينما كان كونت طولوز ـ ذلك الرجل الشهير والبارز ـ مضطرباً في عقله وقلبه إزاء هذه المسائل، وأرهقه الوضع الخطير، واتقد تلهف عميق في قلوب الجميع لمواصلة رحلة الحج لدى كل من العظماء والفقراء على حد سواء، كما لم تترك مطالبهم الملحة التي رافقتها

صيحات متواصلة وتوسلات جـديـة أي راحه له، ولذلك حدد اليوم الخامس عشر من الشهر ليكون موعداً للانطلاق على الطريق نحو القدس، على أمل أن يقدم هذا علاجاً مناسباً لجميع هذه المصاعب، وصنع هذا ليحقق مطالب الناس ومطالب ضميره بالذات، وذلك على الرغم من أنه عرف أن الزعماء الآخرين لن يكونوا راغبين باتباعه في ذلك المنحى.

وحتى لا يتعرض الناس لخطر المجاعة المتزايد، أخذ في تلك الأثناء مجموعة من الفرسان وبعض جنود المشاة الذين بدوا أكثر قوة من الباقين ونزلوا إلى منطقة العدو، وتركوا بقية الناس في المدينة، وكان ريموند يستهدف تأمين الأشياء التي كانت ضرورية لمؤازرة حياة الناس مهما كلف الأمر، ودخل مع مجموعة قوية جداً من أتباعه منطقة غنية جداً تخص العدو، وهاجم هنالك مدناً محصنة كثيرة، وأحرق عدداً من الضواحي، وعاد بالعديد من الحيوانات وقطعان المواشي من تلك الغارة، وجلب معه أيضاً العبيد والجواري، وكميات كبيرة من الأطعمة إلى درجة تمكن فيها الناس الجائعون والعطشى من تناول أطعمة وأشربة منعشة حتى التخمه، كما تمكن أيضاً من ارسال قسم كبيرمما جلبه إلى الذين كانوا قد مكثوا في المعرة لحراسة تلك المدينة.

وتردد الكونت كثيراً، لدى عودته من هذه الحملة، بخصوص تقدمه، لأن الناس طالبوا بصخب أن اليوم المحدد للرحيل قد اقترب، ورفضوا فكرة التأجيل بازدراء، وشعر الدوق أنه لم يعد بإمكانه مقاومة مطالبهم الملحة ملاحظاً أن قضية الشعب كانت قضية وجيهة بالفعل، وهكذا أحرق المدينة وحولها إلى رماد، وذلك على الرغم من أنه كان الوحيد صاحب الشأن في القضية، حيث لم يقرر أحد من الزعماء الآخرين اتباعه، ثم بدأ الزحف برفقة شعبه فقط.

هذا وطلب من أسقف البارة أن يقوم بالزحف معه، حيث لم يكن لديه سوى عدد قليل من الفرسان، فوافق الأسقف بصدر رحب على مطلب الكونت، وأوكل أموره الخاصة ووضعها تحت اشراف أحد النبلاء ويدعى وليم أوف كوملياكو Cumliaco، وقد ترك معه قوة مؤلفة من سبعة فرسان وثلاثين جندياً من المشاة، وانكب هذا الرجل على القيام بأعباء المهمة التي أوكلت إليه بإخلاص ومثابرة إلى درجة أن عدد الفرسان ازداد خلال بضعة أيام من سبعة فرسان إلى أربعين فارساً، كما ازداد عدد المشاة من ثلاثين جندياً إلى ثمانين أو أكثر، وهكذا ازدادت ملكية سيده ـ نتيجة لجهوده ـ ازدياداً كبيراً.

وبدأ الكونت الزحف في اليوم المحدد، دون أن ينتظر أحداً من الزعماء الآخرين، ووجد في فيلقه عشرة آلاف رجل تقريباً، لم يكن بينهم أكثر من ثلاثمائة وخمسين فارساً،

وانضم إليه كل من كونت نورماندي وتانكرد، ومع كل واحد منهما أربعين فارساً ومجموعة كبيرة من الرجالة، وأصبحا رفيقيه الملازمين له أثناء الزحف، ووجدوا بعد الشروع بالزحف وفرة زائدة بالأشياء الضرورية على طول الطريق إلى درجة أنه لم توجد أية حاجة أخرى لتزويد الناس بها.

ولدى مرور جيش الحجاج بمدن شيزر وحماه وحمص ـ التي تسمى باللغة الدارجة باسم كاميلا Camela ـ قدم حكام هذه المدن لهم المرافقين، وجهزوهم أيضاً بالأسواق تحت أفضل الشروط، أضف إلى هذا قدمت المدن المحصنة والبلدان التي تقدموا خلال أراضيها قدمت لهم الهدايا من الذهب والفضة مع الحيوانات وقطعان المواشي، كما قدمت جميع أنواع المؤن أيضاً حتى يمكن الابقاء على الريف والحفاظ عليه، وهكذا ازدادت قوة الجيش يوماً بعد آخر، وتحسنت حالته؛ فقد وجد وفرة كبيرة من كل ما هو ضروري، كما حصل المسيحيون بالتدريج أيضاً على عدد كبير من الخيول بالشراء وبشكل مجاني، وهي التي كان نقصها عائقاً كبيراً حتى الآن لهم، وهكذا تكوّن لديهم، قبل لقائهم للقادة الآخرين، ألف حصان أو أكثر، حصلوا عليها مؤخراً لخدمة الجيش، وذلك بالإضافة إلى الخيول التي كانوا يملكونها من قبل.

وبعدما زحفوا لعدة أيام على طول الطريق الداخلي، تقرر بالإجماع أن يعودوا إلى الطريق الساحلي، حيث سيمكنهم هذا الطريق بسهولة أكبر من التحقق من موقع الزعماء الآخرين الذين كانوا قد خلفوهم وراءهم في منطقة أنطاكية، أضف إلى ذلك أن ذلك سييسّر لهم أيضاً شراء المؤن التي احتاجوها من السفن القادمة من أنطاكية إلى اللاذقية.

١٣ ـ جيش الكونت يعاني أثناء زحفه من هجوم قام به قطاع الطرق. الكونت يشن هجوماً معاكساً بارعاً. الاستيلاء بالانقضاض على حصن حاول المقاومة. المعسكر يقام أمام عرقة. قدوم الرسل من المناطق المجاورة لمقابلة الزعماء.

وسار كل شيء بشكل موائم بالنسبة للمسيحيين منذ مغادرتهم المعرة، وخلال كامل الزحف، ولم يكن مصدر إزعاجهم الوحيد إلاّ قطاع الطرق الذين استمروا بالهجوم على مؤخرة الحملة، فقد شنوا خفية هجمات من وقت إلى آخر على المرضى والمسنين الذين لم يتمكنوا من مجاراة سرعة سير الجيش، وبالمحصلة قتل بعض هؤلاء الناس وأسر آخرون منهم، وقابل الكونت هذه الهجمات بعنف شديد، وأرسل تانكرد وروبرت دوق نورماندي وأسقف البارة للسير في مقدمة الصفوف، بينما بقي هو في كمين مع عدد من الرجال المشهورين بالشجاعة، وقد عقد العزم على أن يهاجم في اللحظة المناسبة الأوغاد والذين

يتبعون مؤخرة الجيش المتقدم للتربص بالتائهين الغافلين، وهكذا ظهر الكونت من مكمنة فجأة عندما هاجم الأوغاد الموكب حسب عادتهم المألوفة، وهجم عليهم وهزمهم هزيمة منكرة، ثم عاد بابتهاج إلى الحملة جالباً معه الخيول المستولى عليها والغنائم أيضاً، بالإضافة إلى عدد من الأسرى، وتقدم المسيحيون منذ ذلك الحين فصاعداً بأمان ودون مشقة مزودين تزويداً وافراً بجميع الأشياء الضرورية.

ولم تكن هنالك أية مدينة سواء على اليسار أو اليمين في سائر المنطقة التي مرّ المسيحيون بها لم ترسل الهدايا إلى الجيش وقادته مع مطالب لعقد معاهدات صداقة معهم، ولم توجد سوى مدينة واحدة لم تقدم سوقاً ولم تطلب عقد معاهدة، ولم ترسل هدايا إلى القادة، ذلك أن سكانها قد شعروا بثقة كبيرة بأعدادهم وبدفاعات المدينة القوية، ولم تكتف هذه المدينة بذلك بل على العكس وحد أهلها قواتهم وحاولوا إعاقة طريق الحملة، وامتلأ المسيحيون بالسخط عندما رأوا هذا، وهجموا على أعدائهم كرجل واحد، وبددوا شملهم في وقت قصير، وأخذوا عدداً من الأسرى، واستولوا على الموقع بالقوة، وسيقت القطعان والحيوانات بالإضافة إلى الخيول التي كانت ترعى في المراعي المجاورة، وتم الاستيلاء على جميع ممتلكات العدو.

ووُجد في تلك الآونة مع الجيش رسل كان الحكام المجاورون قد بعثوا بهم لطلب السلام حيث شاهد هؤلاء الرجال قوتنا وإقدامنا، ثم عادوا إلى ديارهم، فقد كانوا متلهفين للحصول على ضمان كامل لأسيادهم، وأبلغوا الذين كانوا قد أرسلوهم عن عادات المسيحيين وشجاعتهم، ثم عادوا فوراً بالهدايا من الخيول والسلع من جميع الأنوع إلى الحشد المسيحي.

ثم نزل الجيش بعد زحفه في هذه المنطقة المتوسطة لعدة أيام بأمن وسلام، نزل في سهل قريب من البحر، وكان هذا السهل محمياً بموقعه الطبيعي، فقد قامت فيه مدينة قديمة اسمها عرقة، وأقام المسيحيون معسكرهم بالقرب منها، بجوار أسوارها[1].

١٤ ـ وصف عرقة. استلام رسالة من بعض أفراد شعبنا المسجونين في طرابلس بوجوب محاصرة عرقة.

تقع مدينة عرقة في مقاطعة فينيقية، وتقوم على مرتفع واقع عند سفح قمة جبال لبنان، وعلى بعد أربعة ـ أو خمسة ـ أميال من البحر، وينعم السهل الفسيح الواقعة فيه بتربة غنية وخصبة وأراض رعوية جيدة، وذلك بالإضافة إلى جداول ذات مياه جارية، وتقول

(١) ربما في ١٤ شباط ١٠٩٩.

الروايات القديمة إن أرادوس، الابن السابع لكنعان قد أسس تلك المدينة، حيث استمدت اسمها منه، وقد صحف فيما بعد إلى أرخيس Archis.

نصب المسيحيون - كما قلنا من قبل - معسكرهم أمام هـذه المدينة، ولم يتم هذا الإجراء مصادفة، بل تمشياً مع نصيحة أرسلها عدد من أفراد شعبنا كانوا مقيدين بقيود العدو، حيث وجد عدد من المسيحيين في مدينة طرابلس البحرية، التي تبعد خمسة - أو ستة - أميال عن عرقة، وقد كانوا محتجزين بالقوة هنالك، فلقد كان نقص المؤن منذ بداية حصار أنطاكية، وحتى بعد الاستيلاء على تلك المدينة، قد دفع المسيحيين للتجول في الأرياف بحثاً عن الطعام، وبما أنهم لم يتقيدوا بالتدابير الوقائية المناسبة فقد تعرضوا بشكل طبيعي للأسر من قبل العدو، وبالمحصلة احتجزت جميع المدن والقلاع الواقعة في تلك المناطق المجاورة عدداً من أفراد شعبنا كأسرى.

وكان في مدينة طرابلس المذكورة آنفاً أكثر من مائتي مسيحي محتجز في ظل هذه الظروف، وعندما سمعوا باقتراب الجيش المسيحي أبلغوا القادة بوجوب عدم مرورهم بعرقة مرور الكرام، بل عليهم محاصرتها مهما كلف الأمر حيث من المحتمل الاستيلاء عليها في غضون أيام قليلة، وإذا لم يكن ذلك، فبإمكان القادة على الأقل ابتزاز مبلغ كبير من المال من حاكم طرابلس ثمناً للإبقاء على تلك المدينة، ثم يتمكنون أيضاً من الحصول بشروط موضوعة من إطلاق سراح إخوانهم المحتجزين هناك.

واتبع القادة هذه النصحية، وأسرع المسيحيون فوراً إلى عرقة، وعسكروا على شكل دائرة حول المدينة، وبدأوا حصارها، وكان هنالك هدفان بأذهانهم، أولها اختبار صحة المعلومات التي أعطيت إليهم، وثانيها لتمضية الوقت ذلك أنهم كانوا ينتظرون الزعماء الآخرين الذين كانوا سيتبعونهم على الفور.

١٥ - مجموعة من المسيحيين تغادر المعسكر وتستولي على مدينة أنطرطوس بالقوة. عودتها محملة بالغنائم النفيسة ومواصلة حصار عرقة بدون انقطاع.

غادرت المعسكر قوة مؤلفة من مائة فارس مع مجموعتين مؤلفتين من مائتي جندي من الرجالة تحت لواء ريموند بيليت Raymond Pilet وخرجت بحملة نهب بحثاً عن المؤن الضرورية جداً لحياتهم، وتقدم هؤلاء الجنود إلى مسافة بعيدة وصولاً إلى مدينة أنطرطوس المعروفة عموماً باسم طرطوس، والواقعة على بعد قرابة عشرين ميلاً من عرقة.

تقع مدينة أنطرطوس على الساحل، ويوجد على بعد ميلين منها جزيرة صغيرة فيها مدينة أرواد القديمة والمشهورة خلال عصور طويلة من الأزمان الغابرة، وقد ذكر الرسول

حزقيال[١] هذه المدينة عندما كتب إلى أمير صور قائلاً: «أهل صيدون وإرواد كانوا ملاحيك»[١] وقوله: «بنو إرواد مع جيشك على الأسوار من حولك»[٢]، وتستمد المدينة التي نحن بصدد الحديث عنها اسمها من المدينة السابقة هذه كونها مسماةً «أنتأرادوس Antarados»، لأنها واقعة قبالة المدينة الأخري ـ أعني أرواد ـ وتقع كل من هاتين المدينتين في مقاطعة فينيقية، وكان أراديوس الابن الأصغر لكنعان بن حام بن نوح مؤسس كل منهما.

تقدمت القوة المشكله من بين صفوف جيش الكونت، وهي القوة التي ذكرناها أعلاه، تقدمت إلى طرطوس وشنت هجوماً عنيفاً عليها، هذا وقد قاوم السكان بشجاعة كبيرة، ولم يفلح المسيحيون في انجاز الكثير، وبناء عليه قرروا تأجيل العمليات حتى الصباح حيث كان الليل يقترب، وأملوا أن يكونوا أكثر قوة للهجوم الثاني بدعم من رفاقهم الذين كانوا سيتبعونهم في اليوم الثاني، وبما أن السكان خافوا من وصول قوات إضافية خلال الليل يتعذر عليهم مقاومتها، غادروا في النهاية المدينة مع زوجاتهم وأطفالهم وجميع أسرهم وهربوا إلى الجبال طلباً للأمان.

وأخذ المسيحيون أسلحتهم في الفجر وهم يجهلون تماماً الأحداث التي وقعت في الليل، وتقدموا نحو المدينة بصيحات التشجيع لبعضهم بعضاً لمواصلة هجوم اليوم السابق، واتضح لهم عندما ازداد قربهم من المدينة أنها كانت خالية من السكان، ولذلك دخلوها بشجاعة ودون خوف، وكوفئوا بالعثور على كميات من المؤن ومغانم أخرى، وعادوا إلى المعسكر محملين بمغانم أثلجت صدورهم، وسردوا لرفاقهم كل ما كان قد حدث لهم عندما كانوا بعيدين عنهم، وقد جلب نجاح هذه الحملة سروراً كبيراً للجيش بأسره.

١٦ ـ غودفري يصل إلى اللاذقية برفقة كونت فلاندرز وبقية القوات. غودفري يتمكن من اطلاق سراح غونيمير Guinemer من السجن ويسترد اسطوله. بوهيموند يرافق القوات في رحيلها حتى اللاذقية.

مع بداية شهر آذار ومع اقتراب الموعد المحدد لاستئناف رحلة الحج بدأ المسيحيون الذين كانوا قد تخلفوا في أنطاكية يمارسون ضغطاً كبيراً لاقناع الزعماء بالانطلاق، وتوسلوا بالحاح إلى غودفري دوق اللورين وروبرت كونت فلاندرز والزعماء الآخرين للشروع في الزحف وقيادة الناس إلى الأمام، الناس الذين تاقوا بتلهف لإنجاز نذرهم، وأشادوا بإخلاص

(١) حزقيال: ٨/٢٧.

(٢) حزقيال: ١١/٢٧.

ووفاء كونت طولوز ودوق نورماندي وتانكرد، كما امتدحوا الموقف الجيد الذي أبداه القادة نحو شعب الرب بقيادتهم له بإخلاص لأيام كثيرة في طريق الرب وحفزت هذه الكلمات وأقوال أخرى القادة على العمل، فرتبت الأمتعة، وجهزت جميع الأشياء الضرورية للزحف، وقاد المقدمون كامل قوات الفرسان والجنود الرجالة معهم حيث امتلأ جميعهم برغبة حماسية للتقدم في الطريق إلى القدس، واجتمع خمسة وعشرون ألف رجل شجاع شاكي السلاح في الأول من شهر آذار في اللاذقية في سورية تحت ألوية القادة المذكورين آنفاً، ورافقهم بوهيموند وجيشه حتى مدينة اللاذقية ثم إنه لم يستطع ملازمتهم لمسافة أبعد من ذلك، كما لم يستطع البقاء لفترة أطول في ذلك المكان خشية أن يهمل مدينة أنطاكية المكتسبة مؤخراً دون سبب وجيه، فقد استحال ترك المدينة المقهورة والمحاطة بالأعداء ـ حيث كانت بلا حماية ـ ولو لفترة مؤقتة[1]، وبما أنه كان متمسكاً بالأحلاف التي أقامها مع الزعماء الآخرين، وبالصداقات التي كان قد شكلها عندما كان على طريق الرب، فقد رافقهم حتى اللاذقية، وأظهر لهم كل الكياسة واللطف الممكن بكثير من التفاني حتى يمكن لذكراه أن تلازمهم باستمرار بعد أن يكونوا قد انفصلوا عن بعضهم بعضاً، وافترق عن الحشد في اللاذقية، وودع الزعماء وسط الدموع والتنهدات والشعور بالأسى، واستأذن بالانصراف، وقفل راجعاً ليواصل العناية والاهتمام بالمدينة التي وضعت تحت رعايته.

وتقع مدينة اللاذقية الرائعة على الساحل، ويعود تاريخها إلى الأزمنة الغابرة، ويوجد فيها سكان مسيحيون، وكانت هي المدينة السورية الوحيدة الخاضعة لسلطان الامبراطور الإغريقي، وكان قد قدم إليها رجل يدعى غونيمير أوف بولون كان قد رسا، كما سبق الذكر، مع اسطوله في طرسوس كليكية عندما كان بلدوين أخو الدوق يقوم بالاستيلاء على تلك المدينة، وكان غونيمير قد قام بمحاولة مخفقة لاقتحام اللاذقية وبسط نفوذه عليها، بيد أن قواته لم تكن كافية، فأسره سكان المدينة وألقوه في السجن مع كامل جماعته تقريباً، وبما أن هذا الرجل كان قد قدم من بلد والد غودفري، علاوة عن أنه كان قد قدّم خدمة جليلة لأخيه بلدوين في طرسوس، فقد توسل الدوق إلى الحاكم ورجالات المدينة والزعماء فيها أن يطلقوا سراحه، ولم يجرؤ أهل اللاذقية على معارضة أمر الدوق بأي شيء، وأطلقوا سراح غونيمير مع جميع رفاقه، وسلموا الدوق الأسطول الذي كان هؤلاء الناس قد وصلوا فيه،

---

(١) تركز قلق بوهيموند الرئيسي بالفعل حول الإغريق، الذين واصلوا المطالبة بأنطاكية تحت شروط الإتفاق الذي أجري مع ألكسيوس. وجرت الإشارة إلى هذا في الرسالة التي كتبها إلى البابا أوربان الثاني مع أنها كانت باسم جميع القادة. (انظر هـ. هاغنمير «الوثائق الأساسية للحملة الصليبية الأولى» رقم ١٦ وقد ترجمها أ. س. كري في كتاب «الحملة الصليبية الأولى» ص ١٩٥).

وأعاد غودفري غونيمير على الفور إلى قيادة سفنه، وأوعز إليه أن يسايره في زحفه براً على خط بحري مقابل، وقد أطاع غونيمير هذه الأوامر [١].

١٧ - الدوق يحاصر مع جيشه جبلة. لكن مكائد كونت طولوز أجبرته على التخلي عن الحصار. الدوق يسرع إلى عرقة وينضم إلى القادة الآخرين. اخفاق حصار تلك المدينة.

ثم انطلق الجيش في رحلته من اللاذقية السورية. بدعم من المسيحيين الذين وجدوا في تلك المدينة، كما أتى مسيحيون آخرون من أنطاكية كليكية ومن المدن الواقعة في المنطقة المجاورة حيث لم يتمكنوا من مغادرتها من قبل بسبب أمور خاصة، وانضموا إلى الحشد أيضاً، وسلكوا الطريق الساحلي حتى مدينة جبلة التي تبعد اثني عشر ميلاً عن اللاذقية، ونصب المعسكر هناك لتطويق المدينة، واستمرت عمليات الحصار لفترة من الزمن، وأخيراً عرض الحاكم المسؤول، وهو نائب خليفة مصر (لأن هذه المدينة كانت المدينة الساحلية الأولى التي خضعت لسلطة المصريين) [٢] مبلغ ستة آلاف قطعة ذهبية على الدوق بالإضافة إلى هدايا كثيرة، إذا ما تخلى عن الحصار، وعندما وجد أن غودفري قد ازدرى هداياه القذرة، ومن المتعذر رشوته حوّل اهتماماته نحو خطط أخرى فأرسل رسلاً إلى كونت طولوز معتمداً على اهتماماته النابعة عن غيرته، وعرض عليه مبلغ المال نفسه إذا ما استطاع رفع الحصار عن المدينة وتخليصها من سيطرة الدوق، ويقال إن الكونت قبل الرشوة سراً، ثم تظاهر أن حشداً كبيراً من الأعداء كان على وشك النزول من بلاد فارس للانتقام للمظالم التي كان شعبهم قد تعرض لها في أنطاكية، وكان هذا الحشد تحت لواء كربوغا، وادعى أنهم كانوا يستعدون لتجديد الحرب بقوات أكبر بكثير من ذي قبل، وكان قد تلقى - حسب هذه القصة - معلومات موثوقة ومفصلة عن هذه الحقائق من رسل من المحال الشك في موثوقيتهم.

ثم أرسل وفداً برئاسة أسقف البارة المبجل إلى الدوق وكونت فلاندرز مع رسائل توسل فيها إليهما بجد في أن يتخليا عن حصار مدينة جبلة وأن يسرعا بعاطفة أخوية لتجنب الخطر المشترك، وحالما علم القادة أن إخوانهم كانوا - كما يبدو - مهددين بخطر كبير، رفعوا

---

(١) انظر الكتاب الثالث الحاشية ٢٣.

(٢) كان المصريون قد استردوا معظم المدن الساحلية من الأتراك في عام ١٠٨٩. ولم يتمكن الأتراك، الذين لم يكن عندهم أي أسطول، من الإستيلاء على جميع الموانىء على الرغم من أنهم استولوا على البر الرئيسي الواقع في ما وراء القدس (انظر ف. ك حتي «تاريخ العرب» ص ٦٣٤ - ٦٣٥).

الحصار على الفور، وبدأوا رحلتهم بسذاجة فطرت عليها قلوبهم، ومروا بخطا سريعة خلال بانياس، وهي مدينة بحرية تقع تحت قلعة المرقب، ثم عبروا مرقية التي تعتبر المدينة الفينيقية الأولى بالنسبة للقادم من الشمال، ثم وصلوا إلى أنطرطوس، والمسماة أيضاً باسم طرطوس التي تنتمي إلى المقاطعة المذكورة آنفاً، والواقعة على الشاطىء بشكل مماثل، ووجدوا هذه المدينة مهجورة تماماً، ونظروا بإعجاب إلى جزيرة مجاورة تقع مقابل المدينة إلى الغرب منها، حيث وجدوا عدداً من سفننا راسية في ميناء مناسب، ومن طرطوس استفاد المسيحيون من الطرق الأقصر، ووصلوا مع كامل الحشد إلى أمام أسوار عرقة، وذلك في غضون أيام قليلة، وخرج تانكرد لمقابلتهم وتزويدهم بالقصة الكاملة لخيانة الكونت [1] وأقام القادة معسكرهم، بعد استماعهم لهذه القصة، على بعد مسافة قصيرة من خيم القوات التي كانت قد سبقتهم.

وأدرك الكونت على الفور أن قلوب الزعماء الآخرين قد نفرت منه، وبناء عليه أرسل الهدايا لهم، وبذل جهداً كبيراً لاسترضائهم، وبالمحصلة تصالح جميع المقدمين معه بعد وقت قصير مضى، باستثناء تانكرد الذي استمر في توجيه إتهامات خطيرة ضده، واتحدت الآن جميع القوات وغدت قوة واحدة حول عرقة، وكان الكونت قد بذل كل ما أوتيه من قوة - بشكل غير مجد - أمام هذه المدينة، ولعدة أيام قبل وصول الدوق، هذا وقد أمل أن يتم الآن بقدوم القادة الآخرين، الإستيلاء على المدينة بسهولة، ووضع الحد المرغوب به للحصار المزعج، بيد أن النتيجة جاءت على عكس ما كان قد أمله، لأن تأييد الرب لم يكن مع المسيحيين في ذلك المشروع، قبل وصول الجنود أو بعد وصولهم، فقد هاجموا المدينة مراراً وتكراراً، وابتكروا وسائل جديدة لإلحاق الأذى بالمحاصرين وذلك بتصديع السور، أو بشن هجمات جديدة، إلاّ أنه غالباً ما تمت اعاقتهم بعوائق جديدة، وذهبت جميع جهودهم هباء منثوراً، وأحبط عملهم، وأصبح بلا جدوى، وحكم عليهم بجلاء أن يفهموا أن التأييد السماوي قد سحب منهم بخصوص حصار عرقة.

وواجه رجلان بارزان من منزلة عالية مصيراً واحداً أمام أسوار عرقة، وذلك بمصادفة مشؤومة وهما: أنسلم دي رايبمونت [2] Anselm de Ribemont، وهو رجل لا يعرف

(١) يوحي إدراج هذه الحقائق، المنتقصة من قدر كونت ريموند، أنها كتبت قبل عام ١١٧٤ وأنها أهملت في نسخ وليم المنقحة اللاحقة. وقساوة هذا الحكم ملطفة في إشارات لاحقة مكتوبة بعد عام ١١٧٥. وليس واضحاً فيما إذا قد دفع لتخفيف حكمه نتيجة لخبرة أكبر في أمور الدولة أو نتيجة لصداقته مع ريموند الثالث صاحب طرابلس.

(٢) كان أنسلم دي رايبمونت تابعاً لرئيس أساقفة الرايم وقائداً لقوة ضخمة في تلك المنطقة. وتم حفظ رسالتين من رسائله إلى رئيس أساقفة منسيس حول تقدم الحملة الصليبية (انظرها غنمير «الوثائق» ٨ و١٥ وترجمتها من قبل كري في «الحملة الصليبية الأولى»).

التعب في فن الحرب، وجدير بالتذكر إلى الأبد، وبونس دي بالازون[1] Pons de Balazune وهو نبيل من منزلة عالية، وصديق لكونت طولوز حيث هلك كلاهما نتيجة لضربة قذيفة حجرية.

وعلاوة على ذلك كان الناس محتجزين أمام عرقة على الرغم من إرادتهم، ذلك أن رغبتهم الوحيدة كانت إكمال رحلة الحج التي كانوا قد بدأوها، فلم يبالوا بالعمل أبداً، ولم يهتموا كثيراً بنتيجة الحصار وخاصة بعد وصول الدوق، حتى أن عبيد الكونت وأصدقاءه الحميمين الذين جاءوا في حاشيته، أبقوا هنالك على الرغم من إرادتهم، وضد إرادة الضمير وذلك بأمر من الدوق وتعنت، لكنهم انسحبوا في النهاية عمداً، على أمل أن يتولى الإنهاك وحده إقناع الكونت بإتباع القادة الآخرين على طريق الرب.

١٨ - إثارة موضوع حربة المسيح ثانية. بطرس مكتشف الحربة يجتاز ألسنة النيران الملتهبة لكنه يموت بعد أيام قليلة.

وأثيرت من جديد في هذه الآونة قضية الحربة التي وجدت في أنطاكية، وتم التساؤل: هل كانت بالفعل والواقع هي التي أسالت الدم والماء من جانب المسيح، أم كانت الحكاية بأكملها زيفاً واختراعاً؟ وكان لدى الناس شكوك خطيرة حول الموضوع، وكان القادة مرتبكين أيضاً بشكل كبير، وأعلن بعضهم أن هذه الحربة كانت السلاح الحقيقي الذي كان قد اخترق جانب المسيح، عندما كان معلقاً على الصليب، وأنه قد أُظهر بمقصد رباني لإثارة الناس، وقال آخرون: إنه لم يكن إلاّ برهاناً على مكر الكونت، وحيلة مخادعة مستنبطة لمصلحته الخاصة، وكان المحرض الرئيسي لهذا الجدل شخص يدعى أرنولف، وهو صديق كونت نورماندي وكاهنه، وكان متعلماً إلاّ أنه كان صاحب حياة خليعة، وكان مولعاً بإثارة النزاعات[2]، وسيتم ذكر الكثير عنه في الفصول اللاحقة.

وناقش الحجاج هذه القضية لوقت طويل، وتقلبوا بين آراء متباينة، وفي النهاية أمر بطرس، الذي ادعى أن الوحي قد أتاه، بإشعال نار كبيرة لإقناع الناس، وإزالة جميع

---

(١) كان بونز أوف لازون أو فالون تابعاً لأسقف فيفيرس Viviers وقد وافق على التعاون مع ريموند دي أغليرز على كتابة تاريخ عن الحملة الصليبية الأولى. ويظهر اسمه مع اسم ريموند في مقدمة كتاب ريموند. ولا يعرف مقدار الدور الذي قام به في الكتابة (انظر في ثنايا كتاب «ريموند فون أغليرز» تأليف س. كلين).

(٢) كان أرنولف دي شوقز أستاذاً للفنون العقلية في نورماندي، حيث كانت سيسيليا إحدى تلامذته وهي البنت الكبرى لوليم الفاتح وأخت روبرت أوف نورماندي. وكان الفارس رالف أوف كين تلميذاً آخر من تلامذته وهو الذي كتب مديح تانكرد (بالنسبة لسيرة حياته المبكرة انظر س. و. ديفد «روبرت كورتهوز» الملحق ج).

الشكوك، فهو سيتولى إقناع الحشد وإزاله شكوكه بمعونة الرب، من خلال محنة فعلية بالنار يبرهن من خلالها أنه لم يستخدم أية حيلة، أو يقترف أدنى خدعة في هذه المسألة، وعلى العكس إنه سيثبت أنه تمّ إكتشاف الأمر بوحي سماوي لمواساة الناس.

وهكذا أضرمت نار ضخمة، كانت الحرارة الناجة عنها كافية لترويع الواقفين حولها، واجتمع الناس جميعاً من أدناهم إلى أعلاهم، يوم الجمعة قبل فصح الرب المقدس، عندما ـ كما نقرأ ـ تألم منقذ العالم لتخليصنا في مثل ذلك اليوم، حتى يمكن إجراء اختبار تام لتلك المسألة الهامة، وكان الرجل الذي كان على وشك الخضوع طوعياً لمحنة خطيرة جداً يدعى بطرس بارثلميو، وقد كان رجلاً تقياً، صاحب ثقافة بسيطة، وكان مخلصاً وساذجاً بقدر ما تفيد الملاحظة الإنسانية، وخاطب بطرس هذا في البداية الفيالق المجتمعة حوله، ثم عبر النار حاملاً حربة المسيح بيده، ولم يصب بأي أذى على ما يبدو.

ومع ذلك، لم يخفف عمله هذا بإزالة الريبة من عقول العامة فحسب، بل أثار مسألة أكثر خطورة أيضاً، لأن بطرس توفي بعد بضعة أيام، وبما أنه كان معافى بشكل واضح قبل المحنة، فقد أعلن بعض الناس أن المحنة بالنار قد سببت موته المبكر، فهو قد سبب هلاك نفسه بمساهمته بالتزييف، وأكد آخرون أنه خرج سليماً ومعافى من النار، إلاّ أن الحشود إندفعت نحوه بحماسة شديدة، وبعنف كبير، وكأنهم مندفعون إلى سحقه، وأصابوه بضرر بليغ، وأعلنوا أن هذا كان السبب الحقيقي لموته.

وهكذا لم تسو المسألة التي أثير الجدل حولها، وعلى العكس، تركت وهي أكثر عرضة للشك [1].

١٩ ـ عودة المندوبين الذين كان قادتنا قد أرسلوهم إلى مصر.

وفي هذه الآونة، عاد مندوبونا الذين أرسلوا إلى مصر، عادوا إلى القادة، وكانوا قد ذهبوا إلى هناك تلبية لطلب المندوبين المصريين الرسميين الذين قدموا أثناء حصار أنطاكية بأوامر من الخليفة المصري، حسبما ذكرنا من قبل، وكان هؤلاء المندوبون قد احتجزوا هناك

(١) تشبت كونت ريموند بمعتقده في الرمح ونقل الأثر المقدس إلى القسطنطينية حيث أعطاه للإمبراطور ألكسيوس، وعرض هناك بين أكثر الآثار المقدسة تقديراً، وقدر للملك عموري أن يراه هنالك فيما بعد (انظر الكتاب ٢٥ الحاشية ٤١) ولم تصدر الكنيسة أي قرار رسمي بخصوصه. وكان ريموند دي أغليرز، قسيس الكونت، قد اهتم اهتماماً شخصياً عميقاً في بطرس بارثلميو وقد شاركه خيمته بعد اكتشاف الرمح في انطاكية. وكان التاريخ الذي كتبه عبارة عن مذكرة حول أصالة الرمح وموثوقيته وساعد على إبقاء المسألة سؤالاً مفتوحاً.

قسراً وبعنف لمدة عام في ذلك البلد، وذلك وفق خطة استراتيجية، وقدم معهم مندوبون من أمير المصريين يحملون رسائل فحواها مختلف اختلافاً كبيراً عن رسائل السفارة السابقة.

وكانوا قد حاولوا آنذاك بجد كبير نيل ودّ قادتنا ومساعدتهم ضد جبروت الأتراك والفرس المفرط، بيد أن موقفهم قد تغير الآن تغيراً كاملاً، وبدا وكأنهم يلمحون إلى أنهم كانوا يمنحون معروفاً كبيراً للمسيحيين بالسماح للحجاج العزل بالذهاب إلى القدس في جماعات مؤلفة كل منها ما بين مائتين إلى ثلاثمائة رجل، والعودة بسلام بعد إكمال صلواتهم.

واعتبر قادة القوات المسيحية هذه الرسالة إهانة لهم، وأجبروا المندوبين على العودة مع جواب أن الجيش لن يوافق على الذهاب إلى هنالك على شكل كتائب صغيرة حسب الشروط المقترحة بل على العكس، سيزحف نحو القدس كجيش واحد ومتحد، وسيهدد مملكة سيدهم.

ونشأ سبب تغيير الموقف هذا من جانب المصريين عن الأحوال التي تطورت بعد إنتصارنا في أنطاكية، فقد كانت أحوال الأتراك في حالة خطيرة عندئذ، حيث تمزقت قواهم العسكرية، وتبعثرت في سائر أنحاء الشرق، كما أن شهرتهم التي كانت قد بلغت عنان السماء قد انهارت انهياراً كاملاً، وكانوا يواجهون الهزيمة بشكل مضطرد كلما تواقعوا مع شعوب أخرى، ولم يحصدوا من جميع الإشتباكات التي قاموا بها سوى الأسى، وكانت قوة حاكم مصر تتزايد بالتدريج أكثر من قوة الأتراك بسبب هذا الوضع، زد على هذا أن الأتراك خسروا مدينة القدس التي كانوا قد انتزعوها من المصريين منذ ثلاثين عاماً مضت، وذلك بوساطة جهود الأفضل أمير الجيوش المصرية.

وأدرك المصريون أن جهود المسيحيين قد أضعفت قوة أعدائهم التي خافوها من قبل لأنها كانت متفوقة على قوتهم، وأنها أصبحت الآن قوة منهكة ومشتتة تماماً، ولهذا السبب ازدروا مساعدة شعبنا التي طلبوها بكل جد من قبل.

٢٠ ـ وصول مندوبين من عند الإمبراطور للشكوى ضد بوهيموند. إعلانهم عن اقتراب الإمبراطور. القادة لا يتوافقون. حدوث معركة مع أهالي طرابلس. هزيمة العدو. المسيحيون يعودون منتصرين إلى المعسكر.

وصل رسل امبراطور القسطنطينية أيضاً، وكانوا يحملون شكاوى خطيرة ضد سلوك بوهيموند فقد ادعوا أنه أقدم ـ خلافاً لشروط الإتفاق، وليمين الولاء الذي كان قد أداه ـ

---

(١) الأفضل وكان أبوه من أصل أرمني وأصبح وزيراً للخليفة سنة ١٠٩٥ وقد استرد القدس من الترك سنة ١٠٩٨ وذلك بعدما ظلت في أيديهم من ١٠٧١ حوالي الثلاثين سنة.

على الإحتفاظ بملكية أنطاكية، وزعموا، وهم ماثلون في حضرة الزعماء، أن جميع الذين كانوا قد عبروا القسطنطينية قد أدوا يمين الولاء لمولاهم، ووعدوا مقسمين بالكتاب المقدس أنهم لن يقدموا على الإحتفاظ بأي حصن أو مدينة كانت تخص الإمبراطورية من قبل، بما في ذلك القدس نفسها، بل على العكس سيسلمون جميع الأماكن التي يمكن أن يسيطروا عليها إلى الإمبراطور ويضعوها تحت سلطته على الفور، وأما شروط المعاهدة الأخرى، فإنهم لم يتذكروها أبداً.

من الواضح تماماً أنه جرى إتفاق من هذا القبيل بين الإمبراطور والقادة في القسطنطينية، بيد أنه كان قد أضيف شرط إلى نهاية المعاهدة وهو: إن ألكسيوس سيتبعهم دونما تأخير، وذلك مع كامل حاشيته، وقوة كبيرة من الجند، وكان عليه أن يقدم مساعدته لهم حسبما تتطلب احتياجاتهم، وتبعاً لهذا ردّ القادة بالإجماع على دعوى المندوبين: إن الإمبراطور كان أول من انتهك الشروط المتفق عليها، ولهذا السبب كان حقيقاً به وحده فقط تحمل خسارة كان ما يحق له بموجب شروط المعاهدة، لأنه ليس من العدل الإلتزام بالإخلاص مع شخص حاول العمل خلافاً للميثاق، وكان الإمبراطور ملزماً حسب الإتفاق أن يجمع جيوشه، ويتبع القادة فوراً، وتوجب عليه أن يرتب وجوب إعطاء فرصة مستمرة للحجاج للمتاجرة مع مراكب قادمة عن طريق البحر، وتأمين وفرة من السلع للبيع لهم على طول خط زحفهم، ولقد كان أهمل بمكر وخداع تنفيذ كلٍ من هذين الشرطين على الرغم من أنه كان بإمكانه أن يعمل كذلك بدون صعوبة، ولذلك رغبوا أن يعتبر العمل الذي كانوا قد قاموا به بخصوص أنطاكية عملاً له سمة الديمومة، لا خرق فيه للعهد، حيث من الواضح أنهم تصرفوا ضمن حدود حقوقهم، وعلاوة على ذلك، كانت رغبتهم أن يمتلكها بوهيموند وتوريثها له بصورة شرعية إلى الأبد، لأنها سلمت إليه طواعية وبسخاء من الجميع.

وبذل مندوبو الإمبراطور جهوداً مخلصة لإقناع الجيش بالإنتظار حتى وصول سيدهم، الذي أعلنوا أنه سيتم في حوالي الأول من شهر تموز، وأضافوا أنه سيمنح هدايا كثيرة إلى جميع المقدمين، وسيقدم أيضاً أجوراً سخية للناس ستمكنهم من إعالة أنفسهم بشرف، وعقد اجتماع للتداول حول هذه المسألة تباينت فيه آراء القادة تبايناً شديداً، فقد رأى كونت طولوز أن من مصلحتهم الإنتظار حتى مجيء هذا الملك العظيم، وقدم هذا الرأي إما لأن هذا كان اعتقاده الحقيقي، أو لأنه كان يحاول بتلك الذريعة تأخير القادة والناس حتى يكون قد استولى على المدينة التي كان يحاصرها آنذاك، ذلك أنه شعر أن الخزي والعار سيلحق به إذا ما أخفق في مشروعه وعجز عن الوصول إلى غايته.

وتمسك آخرون بمواقف مخالفة تماماً لهذه الآراء، وحاجوا أنه سيكون من الأعقل كثيراً استئناف رحلة الحج التي كانوا قد بدأوها دونما تأخير، وبذلك ينهون المشروع، الذي كانوا قد تحملوا من أجله مشاق كثيرة جداً، نهاية ناجحة، وكان من رأي هؤلاء أنه من الأفضل تجنب الخدع الماكرة، والأقوال المعسولة للإمبراطور، فهي التي عانوا منها مراراً، وتجنبها أفضل بكثير من أن يورطوا أنفسهم ثانية في متاهة مراوغاته المضللة، والتي يمكن أن يتعذر عليهم التخلص منها فيما بعد.

ونشأ خلاف بين القادة حول هذه المسألة، وكان من المستحيل تحقيق الإتفاق بينهم حيث كانت رغباتهم متباينة بشكل حاد تماماً.

وكان حاكم طرابلس قد عرض في السابق دفع مبلغ كبير من المال لإقناع المسيحيين برفع الحصار عن المنطقة وإزالة الجند منها، لكنه عندما علم الآن بخبر الإنشاق الذي تفجر بين قادة المسيحيين، رفض إعطاء المال الذي وعد المسيحيين به، واقترح ـ بمبادرته الشخصية ـ مقارعة المسيحيين، وتجريب حظه في الحرب معهم.

وكانت النتيجة أن قرر المسيحيون بموافقة شاملة إعلان الحرب عليه، وترك أسقف البارة مع عدد من كبار الزعماء المشهورين يتابعون أعمال الحصار ولحماية المعسكر في عرقة، ونظم الباقون صفوفهم حسب مقتضيات المعركة، وقادوا جنودهم نحو طرابلس.

ووجدوا الحاكم ينتظر قدومهم مع جميع سكان المدينة، وتعبأت قوات الفرسان والمشاة واصطفت بتشكيل المعركة بكل جرأة أمام المدينة، ومعروف أن كونت طولوز كان يحاول عبثاً منذ أكثر من شهرين متواليين الإستيلاء على عرقة، ولم ينجز شيئاً يستحق الذكر، ولهذا السبب بدأ أهالي طرابلس ينظرون بإزدراء إلى المسيحيين، وقل خوفهم منهم مع مرور الزمن، واعتقدوا أن الشجاعة الرفيعة التي اشتهر بها هؤلاء الناس قد اختفت، حيث كانت هنالك أدلة على ضعف العزيمة والتصميم والشجاعة التي اعتادوا على إظهارها.

وعندما وصل المسيحيون إلى طرابلس، ورأوا قوات العدو مصطفة ضدهم، شنوا هجوماً عنيفاً على الفور ضدهم، فألحقوا الإضطراب والفوضى بالقوات المعادية وأجبروها على الفرار، بعد الحملة الأولى التي حملوها، ودفع اصرارهم الجريء سكان طرابلس على الفرار طلباً للمأوى، إلى داخل المدينة، وطاردهم المسيحيون عن كثب إلى هناك، وكانت حصيلة هذه المعركة مقتل سبعمائة فرد من أفراد العدو، بينما لم تفقد قواتنا سوى ثلاثة أو أربعة رجال، واحتفل الجيش هنالك بعيد الفصح في العاشر من شهر نيسان [1].

---

(١) جعل هاغنمير تاريخ هذه المعركة متأخراً بعض الشيء وهو عنده ١٨ ـ نيسان ١٠٩٩، وجعل تاريخ وصول الرسل المصريين بعد هذه المعركة وليس قبلها (انظرها غنمير «التأريخ» رقماً ٣٦٦، ٣٧٠).

٢١ ـ حاكم طرابلس يحصل على معاهدة من المسيحيين مقابل كمية كبيرة من المال وهدايا كثيرة. القادة يختارون الطريق الساحلي وذلك إتباعاً لنصيحة المؤمنين الساكنين في تلك الأجزاء.

عاد المسيحيون إلى المعسكر ثانية بعد احراز هذا الإنتصار، وهنا طالب جميع العامة من الناس بصخب أن يتخلى القادة عن الحصار الهدام فوراً، وأن يبدأوا رحلتهم في الطريق إلى القدس، حيث رغب الجميع بتشوق الذهاب إلى هناك، وأخيراً حقق هذا الإصرار العنيد النتيجة المرجوة، وقرر الدوق، وكونت فلاندرز، وكونت نورماندي وتانكرد إحراق المعسكر والتخلي عن حصار عرقة لإرضاء الناس، وكان كونت طولوز كارهاً جداً التخلي عن غايته، وناضل ضد القرار بكل قواه، ومع ذلك توجه الزحف نحو طرابلس على الرغم من احتجاجاته، حتى يمكن استئناف رحلة الحج، وكان عدد من الذين وجدوا في معسكر ريموند منذ البداية من بين الأكثر نشاطاً في تحقيق هذا، ومع ذلك، فقد تركوه الآن، ولحقوا بالقادة المذكورين آنفاً بحماسة[١].

وعندما اكتشف الكونت هذا الأمر، وأدرك استحالة إعادتهم بالوعود أو التوسلات، جعل من الإضطرار وسيلة. ولحق بالآخرين على مضض كبير، ووصل المسيحيون إلى طرابلس بعد مسيرة خمسة أميال تقريباً، وأقاموا معسكرهم أمام تلك المدينة، وتخلى الآن حاكم المدينة ـ الذي اضطلع بأمور الخليفة في تلك المنطقة ـ عن الموقف المتعجرف الذي كان قد أبداه منذ وقت قصير، عندما حاول فيما مضى التعامل مع قادتنا بشروط متساوية، وأرسل وفداً لمباشرة مفاوضات السلام، وقدم خمسة عشر ألف قطعة ذهبية بالإضافة إلى هدايا من الخيول والبغال والأقمشة الحريرية والمزهريات الثمينة، ووعد أيضاً بإعادة جميع الأسرى المسيحيين الذين كان يحتجزهم، ووافق القادة على التخلي بهذه الشروط عن المنطقة التي كان مسؤولاً عنها، وعلاوة على ذلك وافقوا على عدم التعرض ـ أثناء الزحف ـ لثلاث مدن كان يحكمها وهي: عرقة، وطرابلس وبيبلوس (جبيل) مع المناطق التابعة لها، وأرسل الحاكم بالإضافة إلى الهدايا المذكورة من قبل قطعان المواشي والحيوانات وكميات كبيرة من المؤن، حتى لا يندفعوا إلى سلب الحقول النائية بسبب نقص الأطعمة، ويلحقوا الضرر بالمزارعين الذين كانوا يتعهدون التربة بالعناية.

---

(١) هذه المقولة مؤيدة تماماً من قبل ريموند دي أغليرز، وكان تاريخ الرحلة الأخيرة نحو القدس في ١٣ ـ أيار ١٠٩٩.

سكن عدد من المسيحيين السوريين [1] في مكان مرتفع من سلسلة جبال لبنان العالية، التي ترتفع قممها الشاهقة إلى مسافة بعيدة فوق المدن الواقعة في الشرق، وهي التي أتيت على ذكرها قبل قليل، ونزل هؤلاء ليرحبوا بالحجاج وليقدموا لهم تهانيهم، وليكيلوا لهم مديحهم وثناءهم بحب أخوي، واستدعى القادة هؤلاء الناس إليهم بسبب معرفتهم بسائر الأرياف المجاورة، وتشاوروا معهم كرجال متمرسين، حول الطريق الأسلم والأسهل إلى القدس، ودرس السوريون بدقة وإخلاص صادق ميزات وطول الطرق المتنوعة التي تؤدي إلى هناك، ونصحوهم في النهاية أن يسلكوا الطريق الساحلي، لأنه الطريق الأكثر إستقامة، حيث سيتمكن المسيحيون بسلوك هذا الطريق من الحصول أيضاً على المساعدة من سفنهم التي ستتبع الجيش أثناء تقدمه.

ولم يقتصر اسطول المسيحيين على سفن غونيمير ورفاقه التي كانت قد أتت من فلاندرز ونورماندي وانكلترا، بل أضيف إليها سفن قدمت من جنوا والبندقية وبلاد الإغريق، وغالباً ما جاءت هذه السفن من قبرص ورودس وجزر أخرى، جاءت في غالب الأحيان محملة بمواد تجارية كانت ذات فائدة كبيرة لفيالقنا.

وأخذ المسيحيون عدة أفراد من أسرة حاكم طرابلس كمرشدين لهم وذلك بالإضافة إلى المسيحيين السوريين المذكورين منذ لحظات، وتقدموا على طول الساحل إلى اليمين من سلسلة الجبال اللبنانية، وعبروا جبيل، ثم عسكروا على ضفة نهر يقع على مقربة من مكان يدعى عين ماحوز، واستراحوا هنالك لمدة يوم واحد بانتظار حشد المسافرين الضعفاء والذين لم يتمكنوا من مجاراة سرعة البقية.

٢٢ ـ المسيحيون يستأنفون زحفهم ثانية ويمرون من خلال المدن الواقعة على ساحل البحر. وصولهم إلى اللد والرملة.

خيم المسيحيون في اليوم الثالث أمام مدينة بيروت على ضفة نهر يجري بمحاذاتها، وعرض حاكم المدينة عليهم المال وكميات كبيرة من المؤن ليقنعهم بالإبقاء على المحاصيل والأشجار، واستراحوا هناك لمدة ليلة واحدة، ووصلوا في اليوم التالي إلى صيدا، ونشروا خيمهم على طول ضفة النهر للإستفادة من الماء، ولم يظهر حاكم هذه المدينة ـ لسبب لست أعرفه ـ أي لطف أو تأييد لقادتنا، ولم يكتف بذلك بل بدأ يزعج الجيش بغارات متوالية،

---

(١) كان هؤلاء الموارنة المسيحيون الذين تحدث وليم عن ارتباطهم فيما بعد بالكنيسة الرومانية (انظر الكتاب ٢٢ الفصل ٨).

(٢) الملوك الأول: ٩/١٧ ـ ١٠.

حيث كان مفرط الثقة في قوته الخاصة، ومعتمداً كل الإعتماد عليها، وعلى الرغم من أن المحاولة لم تكن ناجحة جداً، لم يتمكن أخيراً بعض أفراد من شعبنا الذين أثارتهم الهجمات التي حاول الصيداويون القيام بها، لم يتمكنوا من تحمل تلك الهجمات لفترة أطول من ذلك، فهجموا على العدو، وقتلوا عدداً من أفراده، وأجبروا الباقين على الإنسحاب إلى داخل المدينة، وكانت نتيجة هذا الهجوم انقضاء الليلة في المعسكر بأمان وبدون مضايقات أخرى من العدو، وعندما انبلج صباح اليوم التالي، تقرر البقاء هنالك لفترة قصيرة من الزمن حتى يتمكن الناس من الحصول على فرصة للإستجمام إلى حد ما، ولذلك جرى إرسال عدد من الجنود المسلحين تسليحاً خفيفاً لتأمين الطعام الضروري من الريف المجاور، وعاد الجميع بسلام باستثناء ولتر دي فيرا Walter De Verra وجلبوا معهم كميات كبيرة من المواد الغذائية بالإضافة إلى قطعان المواشي والحيوانات، بيد أن ولتر دي فيرا لم يعد مع الباقين، بل مضى إلى مسافة أبعد طلباً لمغانم أعظم، ولم يعرف المصير الذي آل إليه على الإطلاق، سوى أنه لم يظهر ثانية، وقد سبب الشك الذي أحاط بنهايته حزناً كبيراً لرفاقه.

وقع القسم الأول من طريق اليوم التالي خلال منطقة كثيرة التلال عموماً، ومع ذلك، وصل المسيحيون أخيراً إلى منطقة أكثر استواء، ومروا على يمينهم بمدينة صرفة الصيدونية القديمة وهي مدينة مربية رجل الله إيليا، ثم اجتازوا النهر المعترض ووصلوا إلى مدينة صور، الحاضرة المشهورة لتلك المنطقة، والموطن القديم لكل من أغنور وقدموس، وأقاموا معسكرهم في هذا الموقع بالقرب من ينبوع الحدائق المشهور، وهو ينبوع مياهه عذبة ويعتبر اعجوبة للعالم[1]، وأمضوا ليلتهم هنالك البساتين الواسعة المليئة بجميع أنواع وسائل الراحة السائغة.

وفي الصباح استعدوا ثانية للزحف، ثم نزلوا إلى داخل السهل الواقع بالقرب من مدينة عكا بعد أن تغلبوا على مصاعب الممر الضيق الواقع بين الجبال المتدلية والبحر، ونصبوا خيمهم على ضفاف نهر يجري بمحاذاة المدينة، وقدم حاكم عكا وسكانها الهدايا لهم، وزودوهم بسوق أيضاً حسب شروط جيدة، وأظهر الحاكم مودة كبيرة نحو القادة، ودخل في إتفاق معهم، ووعد أن يتنازل عن مدينة عكا لهم بدون صعوبة إذا ما نجحوا في الإستيلاء على القدس، وتمكنوا من إعالة أنفسهم لمدة عشرين يوماً في المملكة من ذلك الحين فصاعداً، أو إذا ما تمكنوا من إلحاق الهزيمة بالقوات المصرية. وتقدموا من عكا بين قمة جبل الكرمل والبحر والجليل على اليمين حتى وصلوا إلى قيسارية حاضرة فلسطين الثانية المعروفة قديماً باسم برج ستراتون Stratons، وخيموا هنا إلى جانب نهر كان ينبع من المستنقعات الواقعة قرب

---

(١) جاء وصف هذا النبع بشكل أوفى فيما بعد (انظر الكتاب ١٣ الفصل ٣).

المدينة، واحتفلوا هنالك، وعلى بعد أقل من ميلين من قيسارية بيوم الصعود المقدس في الثامن والعشرين من شهر أيار[1].

واستأنف الحجاج سيـرهم المضجر في اليوم الثالث من بعد ذلك، واجتازوا سهلاً فسيحاً بعد مغادرتهم لمدينتي أنتيباتريس [أرسوف] ويافا الساحليتين، ثم عبروا اليازور ووصلوا إلى اللد وهي أسقفية، ولا يزال القبر الرائع للشهيد جورج الرائع ظاهراً في اللد، حيث يعتقد أن بقاياه الفانية ترقد في ذلك المكان في سبيل الرب، وكان جوستنيان ملك الروم، الأرثوذكسي الورع، والذي لا ينسى اسمه إطلاقاً، قد أمر بكل تقوى ببناء كنيسة في هذا الموضع إجلالاً لذكرى هذا القديس[2]، بيـد أن العدو كان قد دمر هذه الكنيسة تدميراً كاملاً قبل وصول المسيحيين وخوفاً من قدومهم، لأنهم خشوا من أن الحجاج قد يحولون العوارض الخشبية المستخدمة في بنائها إلى آلات قذف حربية لاقتحام المدينة.

وعلم قادتنا أنه ليس بعيداً عن ها هنا توجد مدينة اسمها الرملة، وبناء عليه أرسل القادة كونت فلاندرز مع خمسمائة فارس ليتحقق من موقف سكان المدينة، وليتعرف إلى الإقتراحات التي عزموا على طرحها، واقتربت مفرزة الكشافة من المدينة ودخلوها من الأبواب المفتوحة على مصراعيها حيث لم يخرج أحد لمقابلتهم، واكتشفوا أنها كانت مهجورة تماماً، فقد كان نبأ اقتراب المسيحيين قد سبق إليهم، وكان السكان قد رحلوا مع زوجاتهم وأطفالهم وجميع أفراد أسرهم أثناء الليلة السابقة حتى باتت المدينة خالية، وأرسل الكونت رسولاً بهذا النبأ إلى الفيالق فوراً ونصحهم بالإسراع إلى المدينة بدون تأخير، وبناء عليه، فإنهم ما أن أدوا صلواتهم المألوفة حتى زحف المسيحيون نحو الرملة، حيث أقاموا ثلاثة أيام فيها مستمتعين استمتاعاً كاملاً بالحبوب والخمر والزيت.

وعينوا شخصاً يدعى روبرت أسقفاً على الكنيسة الموجودة في تلك المنطقة وكان من أصل نورماندي من أسقفية روان، وأعطوه مدينتي اللد والرملة مع البلدان النائية التابعة لها، ملكية دائمة له، مكرسين بالتالي الثمار الأولى لأعمالهم ـ بورع كامل ـ للشهيد[3].

---

(١) ٢٨ ـ ٢٩ مايس ١٠٩٩.

(٢) استشهد القديس جورج، الذي يعتبر من أهالي اللد، في نيقوميديا في الثالث والعشرين من نيسان عام ٣٠٣ وذلك حسب ما تقوله الأسطورة. وكان قديساً حامياً للمنطقة الواقعة حول القسطنطينية، حيث سُمي المضيق تشريفاً له باسم ذراع القديس جورج، كما أجله الصليبيون إجلالاً عالياً، ويقال أن روبرت أوف فلاندرز رفض قبول هدايا سخية من الإمبراطور لصالح آثار القديس جورج، التي نقلها في خيمته.

(٣) بنيت الكنيسة التذكارية للقديس جورج في حوالي منتصف المسافة بين المدن المتاخمة للرملة واللد، ولهذا السبب فإن أسقف هذه الأبرشية سمي بغير قيد باسم أسقف الرملة واللد، أو أسقف القديس جورج، وكان هذا الأسقف اللاتيني الأول لبطريركية القدس.

٢٣ ـ أهالي القدس يحصنون المدينة بعناية مثلى ضد المسيحيين الزاحفين. مركزة الرجال الشجعان والأسلحة والمؤن في تلك المدينة. طرد معظم السكان المسيحيين من المدينة.

حذرت تقارير واسعة الإنتشار في هذه الأثناء سكان القدس من قرب وصولنا، وعرف السكان تماماً، أنه لم يكن في مخيلة الحشد العظيم ـ الذي قيل إنه كان يقترب ـ سوى هدف واحد هو امتلاك القدس، وتبعاً لذلك انكبوا على تحصين المدينة بأقصى اجتهاد وحماسة، وتنافسوا بين بعضهم بعضاً في جمع الأطعمة الضرورية وجميع أنواع الأسلحة وجلبها إلى داخل المدينة، وذلك بالإضافة إلى الخشب والحديد والفولاذ، وبكلمة موجزة، أدخلوا كل شيء قد يكون مفيداً للواقعين تحت الحصار.

وكان أمير مصر قد نجح في غضون ذلك العام نفسه في انتزاع سيادة القدس من الأتراك واسترد المدينة منهم، وما أن علم أن جيشنا قد غادر أنطاكية حتى أمر على الفور بترميم أبراج المدينة المقدسة وأسوارها، وعلاوة على ذلك أمر بإعطاء السكان جوائز سخية من خزينته الخاصة، وإعفائهم بشكل دائم من الرسوم والضرائب، وذلك بغية كسب ودهم واخلاصهم، وبما أن الناس تاقوا للإستفادة من مثل هذه الإمتيازات، وكانوا متلهفين ـ في الوقت نفسه ـ للإحتياط لسلامتهم ورخائهم، أجهدوا أنفسهم في إطاعة الأوامر الملكية، واستدعوا سكان المدن المجاورة، ودعموا بعناية دفاعات المدينة بتعزيزات بعدد كبير من الرجال الشجعان المسلحين تسليحاً جيداً.

ثم اجتمع الجميع برأي واحد في حرم المسجد الواسع الفسيح للبحث في كيفية إحباط تقدمنا ومنعه إذا كان ذلك ممكناً، وقرروا ـ لهذه الغاية ـ قتل جميع السكان المسيحيين ثم تهديم كنيسة قيامة المسيح تهديماً كاملاً، وتخريب قبر المسيح الموجود هناك، وأملوا أن هذا الإجراء سيبعد في المستقبل حشد الحجاج الكبير الذي اندفع نحوهم لزيارة هذه الأماكن ولإقامة الصلاة فيها، بيد أنهم خشوا بعد تفكير أعمق ونظرة أبعد من أن سلوكاً مثل هذا السلوك سيزيد كراهية المسيحيين لهم، وربما سيدفعهم أيضاً إلى بذل جهود أقوى لإبادة أهالي القدس، ولذلك بدلوا هذه الخطط، وسلبوا جميع أموال وممتلكات السكان المسيحيين، وطلبوا منهم جزية بلغ مقدارها أربعة عشر ألف قطعة ذهبية، وتوجب على البطريرك الذي كان يترأس المدينة في تلك الآونة أن يدفع الجزية هذه وذلك بالإضافة والتعاون مع السكان المسيحيين الموجودين في القدس والأديرة القائمة في المنطقة المجاورة.

ولم تكن جميع ممتلكات المسيحيين القاطنين في القدس كافية لدفع هذا المبلغ، ولذلك

توجب على البطريرك المبجل القيام برحلة إلى قبرص ليحصل على الوسائل اللازمة لتلبية هذا المطلب الثقيل، كما أن البطريرك نفسه كان بحاجة إلى المال لسد متطلباته الخاصة وحاجات المؤمنين إلى بعض الحدود، وقد عقد العزم على استجداء الصدقات والهبات الدينية من المؤمنين الصادقين الموجودين في تلك الجزيرة حتى يمكن ارسالها إلى القدس، ليُبقي شعب الله الجائع والمنهك على قيد الحياة[1].

ومع ذلك لم تبد حتى هذه الإبتزازات أنها مرضية للكفرة، حيث انتزعوا من المؤمنين كل ما كان بحوزتهم بوساطة التحقيقات التعسفية والتعذيب، ثم طردوهم من المدينة باستثناء الرجال المسنين والمرضى والنساء والأطفال، وكان هؤلاء المنفيون حتى ساعة قدومنا يموتون جوعاً وهم يتسكعون في القرى الصغيرة الواقعة بالقرب من المدينة بانتظار مستمر للموت، ولم يتجرأوا على الدخول إلى القدس، ولم يكن هنالك مكان آمن أو ملاذ لهم حتى في خارجها، حيث أحاط مضطهدوهم بهم، ونظر سكان القرى بارتياب إلى تحركهم، وكلفوهم بأشد المهام مشقة وخزيا.

وكان يعيش في هذه الآونة في مدينة القدس - حبيبة الله - رجلٌ يدعى جيرالد، وكان صاحب حياة مكرسة للرب، واشتهر بتقواه، وكان مسؤولاً عن المشفى المذكور من قبل، حيث كان يؤوي الفقراء الذين أتوا إلى القدس لأداء الصلاة، وقد تلقوا فيه وجبات الطعام الموائمة لظروف ذلك الزمان والمكان[2].

واعتقد الكفرة أنه كان لدى هذا الرجل موارد مالية سرية موضوعة جانباً، وخافوا من أن يتمكن من إلحاق الأذى بهم عندما يصل جيشنا، ولذلك ضربوه، وألقوه في السجن، وخضع هنالك لتعذيب مخيف جداً، حيث خلعت مفاصل يديه وقدميه عن بعضها بعضاً، حتى غدت مفاصله بلا فائدة عملياً.

٢٤ - أهالي بيت لحم يرسلون المندوبين إلى القادة. إرسال تانكرد إلى المدينة. تانكرد يستولي على المدينة والكنيسة.

أمضى الجيش ثلاثة أيام في الرملة، وجرى تعيين الخفراء لحراسة القسم المحصن تحصيناً أفضل من باقي أجزاء المدينة ضد مكر العدو وخدعه، واستعد الجيش لاستئناف الزحف نحو غايته، ووصل في اليوم التالي إلى نيقوبولس وذلك بتوجيه من الرجال المتمرسين الذين كانوا يعرفون المنطقة معرفة جيدة.

---

(١) انظر الكتاب الأول - الفصل ١١.
(٢) انظر الكتاب الأول - الفصل ١٠.

ونيقوبولس مدينة من مدن فلسطين، مذكورة في كتب الإنجيل المقدس على أنها قرية عمواس ويقول لوقا ـ القديس الإنجيلي ـ إنها تبعد ستين غلوة عن القدس[1]، ويتحدث سوزومينوس Sozomenus في الكتاب السادس من مصنفه «تاريخ التثليث» عن هذه المدينة بقوله: «بعدما استولى الرومان على يهوذا، ودمروا القدس سميت عمواس باسم نيقوبولس تخليداً لذكرى ذلك الإنتصار، وكان هنالك نبع ماء مياهه صحية، قائم أمام المدينة عند تقاطع الطرق، حيث من المعروف أن المسيح قد مشى مع كليوباس بعد قيامته، وكأنه يسير على الطريق إلى قرية أخرى، وهنا في هذا الينبوع تزول أمراض الناس، كما تشفى فيه الحيوانات المصابة بمختلف الأمراض، وتقدم الروايات الموروثة تفسيراً لهذا الإعتقاد، أن المسيح قد ظهر لحواريه في هذه النزهة نفسها، عند ذلك النبع، وغسل أقدامهم في مياهه، ولهذا السبب أصبح ذلك النبع من ذلك الحين فصاعداً علاجاً لجميع الأمراض المزمنة»، وهذه هي الروايات التي قدمها هذا المؤرخ عن قرية عمواس.

وأمضى المسيحيون تلك الليلة بهدوء، بالتمتع بالماء الوفير، وبكميات كبيرة من الطعام الضروري، وفي حوالي منتصف الليل وصل مندوبون عن المؤمنين الذين كانوا يسكنون في بيت لحم، وكانوا قد أتوا للتوسل إلى دوق غودفري بكل جدكي يرسل قسماً من قواته إلى هناك، لأن العدو كان يتوجه بسرعة إلى القدس من جميع المدن وأرياف المناطق المجاورة، وذلك للمساعدة في الدفاع عن المدينة وليجدوا مكاناً آمناً لأنفسهم فيها، ولذلك استولى الرعب على المؤمنين الموجودين في بيت لحم من أن يغزو هؤلاء الكفار مدينتهم ويدمروا الكنيسة التي كان المسيحيون قد خلصوها مراراً من التدمير، على أيدي هؤلاء الأعداء أنفسهم، وذلك بدفع مبالغ ضخمة من المال.

واستمع القادة المسيحيون لمطالب هؤلاء الإخوان المؤمنين بتقوى وحب، وأمر الدوق مائة فارس مسلحين تسليحاً خفيفاً مختارين من بين أتباعه، أمرهم أن يسرعوا على الفور إلى بيت لحم لمساعدة المسيحيين هناك، وكان على تانكرد المشاركة في الحملة والعمل قائداً لها، ووصلت المجموعة، بتوجيه من المندوبين، إلى غايتها عند الفجر، واستقبلهم السكان هنالك بحماسة وحفاوة كبيرة، واصطحبهم العامة من الناس ورجال الدين وواكبوهم بالتراتيل والأناشيد الروحية، إلى الكنيسة، ونظروا بسرور كبير إلى مكان المولد المبارك؛ والمعلف الذي تمدد المنقذ فيه مرة، ثم رفع الناس راية تانكرد فوق الكنيسة إشارة للإنتصار، وذلك وسط الإبتهاج المفعم بالحماسة، وبمرافقة التراتيل والأناشيد النذرية.

---

(١) لوقا: ٢٤/١٣.

وتلهفت قلوب الذين تخلفوا للتقدم في الطريق، ومنعتهم معرفتهم في أنهم قريبون من الأماكن المقدسة، وحبهم وتبجيلهم لها، وهو ما مكنهم من تحمل العديد من الرزايا من فاقة ومخاطر لا حد لها حتى العام الثالث هذا، منعتهم من النوم، وتاقوا بتلهف إلى قدوم الفجر، ليتمكنوا من رؤية النهاية الناجحة لرحلاتهم، والخاتمة السعيدة لرحلة حجهم الطويلة، وبدت فترات الحراسة الليلية طويلة أكثر من المعتاد، وأن الغد ما يزال مفرطاً في البعد، وكان كل تأخير مخيفاً لا يحتمل بالنسبة لقلوبهم المشتاقة، وكما يقول المثل: « لا تبدو أية سرعة كافيـةً للفؤاد المشتاق » أو كما يقول مثل آخر: « تزداد الرغبة بالتأجيل ».

٢٥ - الجيش يستمر بالزحف ويصل إلى القدس. حدوث اشتباك في هذه الأثناء هلك فيه عدد من العدو.

ثار الناس في المعسكر عندما علموا أن الدوق كان قد استقبل من أهالي بيت لحم خلال الليل، وأرسل جنداً من الجيش لمساعدتهم، وحرضوا بعضهم بعضاً على الثورة، ولم ينتظروا أي إذن للرحيل، ولا أي وقت موائم كالذي يقدمه الفجر، بل انطلقوا في سكون الليل رافضين أي تأجيل، وغير مقيمين أدنى أهمية لمعارضة قادتهم.

ولم يكونوا قد قطعوا سوى مسافة قصيرة حتى بدأت السماء تنير، عندما ترك أحد النبلاء النشيطين ويدعى غاستون دي بيزيرس Beziers البقية، وأخذ معه مجموعة مؤلفة من ثلاثين فارساً مسلحين تسليحاً خفيفاً، وشرع يسرع الخطا إلى القدس، وأمل أن يجد قطعان المواشي والحيوانات خارج الأسوار حتى يتمكن من الإستيلاء عليها، فيرسلها إلى الجيش، وبالفعل وجد قرب المدينة، كما كان قد توقع قطيعاً كان بحراسة عدد من الرعيان الذين هربوا خائفين إلى المدينة حالما لمحوا رجالنا.

وبينما كان غاستون عائداً إلى الجيش دافعاً أمامه القطيع الذي تخلى عنه رعاته، أيقظت صيحات الرعاة سكان المدينة، فتناولوا على الفور أسلحتهم، وطاردوا غاستون بشدة حتى المعسكر على أمل استرجاع الغنيمة التي استولى بعنف عليها.

وتخلى الفارس الشهير فوراً عن مغانمه، وكان خائفاً من أعداد مطارديه، وهرب طلباً للسلامة، وبينما كان يحاول إتخـاذ موقف دفاعي مع أتباعه على ظهر إحدى الهضاب انتظاراً لنتيجة القضية، ظهر تانكرد فجأة مع فرسانه المائة من واد قريب، حيث كان في طريق عودته من بيت لحم إلى المعسكر، فأسرع غاستون إليه، وروى له أخبار الإنتكاسات التي حدثت له، وضم القائدان قواتهما، وعكسا اتجاه زحفهما لمطاردة العدو الذي كان يسترد قطيعة وهاجمه رجالنا فجأة، وقبل أن يتمكن من بلوغ المدينة، قتلوا عدداً كبيراً من أفراده،

وجعلوا الباقين يلوذون بالفرار، ثم عاد القادة المسيحيون بابتهاج إلى المعسكر ومعهم الغنيمة المستردة والمستولى عليها بالقوة للمرة الثانية.

وعندما سئلوا عن المكان الذي استولوا فيه على غنائمهم، أجابوا إنها كانت من الحقول الواقعة في المنطقة المجاورة للقدس، وغمر الحجاج هيام ووجد متقد عندما وقعت كلمة القدس على مسامعهم ـ القدس التي تحملوا مشاق عظيمة في سبيلها ـ إلى درجة أنهم لم يستطيعوا حبس دموعهم وتأوهاتهم، وخروا على الأرض، وتعبدوا وسبحوا مجد الرب الذي منح شعبه المؤمن امتياز خدمته بجدارة، الرب الذي تفضل برحمته لسماع صلوات شعبه، واعتبرها جديرة وتقبلها حسب أمانيهم، فمكنهم من بلوغ المدينة التي اشتاقوا إليها بلوعة وتلهف.

وعندما اقترب حشد الحجاج ـ الذين كان معظمهم يسير حافي القدمين ـ من المدينة المقدسة، واستطاعوا التحديق بها، عبروا عن ابتهاجهم الروحي بدموع وتنهدات مخلصة، وواصلوا تقدمهم بحماسة متزايدة مستمرة نحو هدفهم، فتمكنوا في وقت قصير من الوقوف أمام القدس، ونصبوا خيمهم هناك حول المدينة حسب الترتيب الذي عينه المقدمون منفصلين.

وهنا بدا أن نبوءة أشعيا تحققت بالفعل وغدت أقوال الرب حقيقة واقعية في قوله: «ارفع عينيك إلى القدس وشاهد قوة الرب، وانتبه أن مخلصك قادم ليحررك من قيودك»[1] وقوله أيضاً: «استيقظي استيقظي وقفي أيتها القدس، خلصي نفسك من قيود عنقك، يا ابنة صهيون الأسيرة»[2].

هنا انتهى الكتاب السابع

(١) اشعيا: ٥١/١٧.

(٢) هذا مستقى من أشعيا: ٥١/١٧ و٥٢/٢.

الكتاب الثامن

نهاية رحلة الحج: الإستيلاء على القدس

١ - وصف موقع المدينة المقدسة يذكر فيه أيضاً المناطق والأماكن الداخلة ضمن حدودها.

إنها لحقيقة معروفة أن القدس، المدينة المقدسة حبيبة الله، تقع على تلال شامخة، وتقول المصادر القديمة أنها أقيمت في موضع سبط بنيامين ويقع إلى الغرب منها كل من منطقة شمعون واقليم الفلسطينين وكذلك البحر المتوسط الذي يبعد عنها مسافة أربعة وعشرين ميلاً وذلك في النقطة الأقرب إليها والواقعة بالقرب من مدينة يافا القديمة، وتقع قرية عمواس بين القدس والبحر وهي التي سميت فيما بعد كما سبق بنا القول باسم نيقوبولس وهي المكان الذي ظهر فيه السيد المسيح لإثنين من حواريه بعد قيامته.

كما يقع هناك حصن مودين، الحصن البهيج للمكابيين الأتقياء، كما توجد قرية نوبي المقدسة حيث أكل داود وخدمه خبز الميثاق، عندما جاءوا، وبموافقة الكاهن أخيما [١]، كما تقع ديوسبولس هنالك أيضاً وهي اللد حيث أعاد بطرس المشلول إلى صحته بعدما كان قد رقد في سريره منذ أن كان في الثامنة من عمره [٢]، وهنالك يافا حيث أعاد بطرس نفسه الحياة إلى الحوارية طابيتا التي كانت مليئة بالأعمال الصالحة والصدقات، وقد أعادها حيّة إلى القديسيين والأرامل [٣]. وكان في يافا أيضاً أن استقبل بطرسُ عندما كان مقيماً في نزل سمعان الدباغ رسول كرنيليوس كما هو مدرج في أعمال الرسل [٤].

وفي الشرق مياه نهر الأردن والصحراء المتاخمة وعلى بعد قرابة أربعة عشر ميلاً والتي كانت معروفة لدى أبناء الرسل من قبل، وهنالك أيضاً الوادي المشجرّ حيث يقع الآن بحر

---

(١) صموئيل الأول: ٢١/ ١ - ٦.
(٢) أعمال الرسل: ٩/٣٢ - ٣٥.
(٣) أعمال الرسل: ٩/٣٦ - ٤٣.
(٤) أعمال الرسل: ١٠.

الملح والمدون أيضاً باسم بحيرة الأسفلت أو البحر الميت، وكانت سائر هذه المنطقة حسبما جاء في سفر التكوين تسقى مثل جنات الرب قبل أن يهدم الله سدوم[1].

وتقع مدينة أريحا على هذا الجانب من الأردن، وهي التي قهرها يوشع، خليفة موسى، بالتضرع أكثر منه الحرب، وحدث هنا أن المسيح أعاد البصر، لدى مروره فيها فيما بعد، إلى الرجل الأعمى[2] كما توجد جلجلة هنا، وهي البلدة التي انسحب إيليا إليها.

ويقع وراء الأردن كل من جلعاد، وبيسان، وعمون، وموآب التي آلت بالقرعة فيما بعد إلى الروابينيين والغاديين ولنصف سبط منشا[3]، وتعرف سائر هذه المنطقة اليوم باسم بلاد العرب.

وكان جنوب القدس من نصيب يهوذا حيث تقع بيت لحم، وهي مكان الإقامة المألوف للمخلص، والمكان البهيج لميلاد الرب ومهده، وتوجد هنا مدينة تقوع، وهي موطن الرسولين حبقوق وعاموس، كما توجد مدينة الخليل والمعروفة أيضاً باسم كاريا ثارب حيث توجد القبور المبجلة للآباء المقدسين.

وتقع مدينة جبعون إلى الشمال من القدس وهي المشهورة بانتصار يوشع بن نون ومسرح المعجزة عندما وقفت الشمس ثابتة[4]، وهذه منطقة سبط أفرايم والتي يوجد فيها كل من شلوه الذي كان حارس معبد الرب فيما سبق، وسيخار منطقة المرأة السامرية التي تكلمت مع الرب وبيثل عابد العجل الذهبي والشاهد على إثم يربعام.

كما توجد هنا سبسطيه أيضاً المدفون فيها كل من يوحنا المعمدان وإيليا وأبدياس، وقد عرف هذا المكان فيما بعد باسم السامرة، وهو مشتقٌ من هضبة شيمر المبنية عليه، حيث قامت عاصمة ملوك اسرائيل فيها من قبل، ولهذا السبب، فإن سائر المنطقة معروفة حتى اليوم باسم السامرة، وتقع نابلس إلى الشمال منها أيضاً، وهي التي كانت تدعى من قبل باسم شكيم وهو اسم مشتقاً من اسم مؤسسها، وحسب أقوال كتاب سفر التكوين[5]، فقد قتل هنا شمعون ولاوي ابنا يعقوب، كلاً من شكيم بن حمور مع ابنائه بالسيف وأحرقا المدينة عن بكرة أبيها، وذلك انتقاماً للعار الذي لحق بأختهما دينه بسبب مضاجعة شكيم الآثمة.

---

(١) التكوين: ١٠/١٣.

(٢) متى: ٢٩/٢٠.

(٣) يوشع: ٢٢.

(٤) يوشع: ١٠.

(٥) التكوين: ٢٥/٣٤.

٢ - عرض للأسماء الكثيرة التي سميت المدينة بها، ورواية كيف أن داود جعلها عاصمة مملكته. كيف نقلها الامبراطور هادريان من المنحدر إلى قمة الجبل. بعض التعليقات الأخرى حول موقعها.

تقع القدس، حاضرة منطقة يهوذا، في منطقة ليس فيها أنهار أو ينابيع أو غابات أو أراضي رعوية، وسميت هذه المدينة حسب تواريخ الأزمان القديمة وتقاليد الشعوب الشرقية، باسم سالم، وذلك في البداية، ثم باسم يبوس فيما بعد وبعدما مضى على حكم داود سبع سنين في الخليل، طرد السكان اليبوسيين من سالم ووسع المدينة وجعلها المقر لمملكته وسماها أورشليم (مدينة سالم). ويمكن للمرء أن يقرأ عن هذا الأمر في أخبار الأيام الأول [١] على النحو التالي: «وذهب داود وكل إسرائيل إلى أورشليم أي يبوس. وهناك اليبوسيون سكان الأرض. وقال سكان يبوس لداود لا تدخل إلى هنا. فأخذ داود حصن صهيون. هي مدينة داود. وقال داود إن الذي يضرب اليبوسيين أولاً يكون رأساً وقائداً، فصعد أولاً يوآب بن صروية فصار رأساً. وأقام داود في الحصن لذلك دعوه مدينة داود. وبنى المدينة حواليها في القلعة إلى ما حولها. ويوآب جدد سائر المدينة».

وسميت هذه المدينة أيضاً، عندما كان سليمان بن داود حاكماً، باسم هيروسليما أي أورشليم سليمان.

ويروي المؤرخان المشهوران واللامعان يوسيفوس وايغيسبوس أن تيتوس بن فسيباسيان الإمبراطور العظيم للروم حاصر القدس بسبب آثام أهالي يهوذا في العام الثاني والأربعين بعد آلام المسيح، واستولى عليها ودمرها عن بكرة أبيها، وهكذا تحقق قول الرب، ولم يبق فيها حجر على حجر [٢].

وجدد امبراطور الرومان اليوس هادريان، وهو الإمبراطور الرابع في الحكم بعد تيتوس، القدس ولذلك سميت باسم إيليا تشريفاً له، كما يمكن قراءة ذلك في بيانات المجمع المسكوني لنيقيه التي جاء فيها: «فليجلّ الجميع أساقفة إيليا» [٣].

كان الموقع الأصلي للمدينة على الإنحدار المائل للهضبة، وواجهت كلاً من الشرق والغرب، وشغلت منحدر قمة صهيون وقمة موريا ولا توجد على المرتفعات إلا الهيكل وقلعة أنطونيا.

---

(١) أخبار الأيام الأول: ١١/٤ - ٨.

(٢) متى: ٢٤/٢.

(٣) القانون: ٧ مجمع نيقية الأول.

ونقل هادريان المدينة بأسرها إلى قمة الجبل بحيث دخل موقع آلام المسيح وقيامته ضمن دائرة الموقع ذاته عندما أعيد بناء المدينة حيث كان يقع خارج المدينة من قبل.

تعتبر القدس مدينة أصغر من المدن الأضخم، ومع ذلك فهي أكبر من المدن العادية وذات شكل مستطيل رباعي أحد أضلاعه أطول من الأضلاع الأخرى وتحيط بها مسيلات عميقة من جهات ثلاث ويقع وادي يهوشافاط إلى الشرق منها حيث يذكره الرسول يوئيل على النحو التالي: «لأنه هوذا في تلك الأيام وفي ذلك الوقت عندما أرد سبي يهوذا وأورشليم. أجمع كل الأمم وأنزلهم إلى وادي يهوشافاط وأحاكمهم هناك على شعبي وميراثي إسرائيل الذين بددوهم بين الأمم وقسموا أرضي»[1].

كما بنيت كنيسة رائعة عند أسفل هذا الوادي تشريفاً لأم الرب التي يعتقد أنها مدفونة هناك وأن قبرها المجيد ما يزال ظاهراً للحشود التي تندفع إلى الموضع، ويجري جدول قدرون خلال هذا الوادي، الذي تزيده الأمطار الغزيرة في فصل الشتاء، وذكر القديس يوحنا الإنجيلي هذا بقوله: «قال يسوع هذا وخرج مع تلاميذه إلى عبر وادي قدرون حيث كان بستان دخله هو وتلاميذه»[2].

ويحاذي هذا الوادي مسيل آخر يسمى سيل هنوم ويقع إلى الجنوب منه، وكان هذا الوادي الحد للأقسام المخصصة لبن ويهوذا في توزيع المنطقة لأبناء إسرائيل كما هو مكتوب في يشوع: «وصعد التخم في وادي ابن هنوم إلى جانب اليبوسي من الجنوب هي أورشليم وصعد التخم إلى رأس الجبل الذي قبالة وادي هنوم الذي هو في طرف وادي الزمائيين شمالاً»[3]. وما يزال ظاهراً في هذا المكان الحقل الذي اشتراه أمكر التجار يهوذا بالمال الذي تلقاه كثمن لإعلامه اليهود عن مكان المخلص وكان هذا الحقل المعروف باسم الشلذمة قد أفرد ليكون مقبرة للحجاج.

ونقرأ المزيد عن هذا الوادي في التواريخ: بخصوص آحاز: «وهو أوقد في وادي ابن هنوم وأحرق بنيه بالنار حسب رجاسات الأمم الذين طردهم الرب من أمام بني إسرائيل»[4].

ويحد جزء من هذا الوادي نفسه القدس في الغرب، حيث كان فيه بركة قديمة

---

(١) يوئيل: ٣/١ - ٢.
(٢) يوحنا: ١٨/
(٣) يوشع: ١٥/٨.
(٤) أخبار الأيام الثاني: ٢٨/٣.

ومشهورة من أزمان ملوك يهوذا ويمتد الوادي في هذه النقطة إلى بحيرة علوية تسمى عموماً باسم بحيرة البطريرك وهي ملاصقة للمقبرة القديمة الواقعة في كهف الأسد.

ويصل إلى المدينة في الشمال طريق مستو، ولا يزال ظاهراً هنالك المكان الذي قذف فيه اليهود ستيفن بالحجارة، وهو الشهيد الأول ـ حيث ركع وتوسل لمعذبيه عندما كان يلفظ انفاسه في ذلك الموقع.

٣ ـ تبيان أي قسم من الهضبتين داخل ضمن محيط السور. كذلك وصف موقع كنيسة قيامة الرب وهيكل الرب على المرتفعات. وصف شكل الكنيستين.

تقع القدس على هضبتين حسب أقوال داود الذي قال: «أساسه في الجبال المقدسة»[١]، وتقع قمم هذه الهضاب بالكامل تقريباً داخل محيط الأسوار، ويفصلها واد صغير عن بعضها بعضاً حيث يقسم المدينة إلى قسمين، وتسمى الهضبة الواقعة إلى الغرب باسم هضبة صهيون، لذلك غالباً ما تسمى المدينة بهذا الاسم، لأن: «الرب أحب أبواب صهيون أكثر من جميع مساكن يعقوب»[٢].

وتسمى الهضبة الأخرى الواقعة إلى الشرق باسم قمة مريا ويرد ذكر هذه الهضبة في أخبار الأيام الثاني على النحو التالي: «وشرع سليمان في بناء بيت الرب في أورشليم في جبل المريا حيث تراءى لداود أبوه حيث هيأ داود مكاناً في بيدر أرنان اليبوس»[٣].

وتقع الكنيسة المسماة صهيون في الغرب على قمة الهضبة ذاتها تقريباً ويقع برج داود بالقرب منها، وهو بناء كبير جداً. يرتفع عالياً بأبراجه وأسواره وتحصيناته الخارجية المضافة إليه فوق المدينة الواقعة تحته ويشكل القلعة.

وتقع كنيسة القيامة المقدسة، ذات الشكل الدائري، على المرتفع ذاته، إلاّ إنها قائمة على المنحدر المواجه للشرق، وبما أن هذه الكنيسة واقعة على منحدر الهضبة الآنفة الذكر، وترتفع أبراجها بمحاذاتها، فإن داخلها مظلم جداً، ومن ناحية أخرى، فإن سقفها مقام من عوارض خشبية ترتفع عالياً، ويتداخل بعضها ببعض بصفة بارعة جداً، على شكل التاج، وهو منظم بهذا الشكل بحيث أنه مفتوح دائماً للسماء حتى يزود بالنور اللازم داخل الكنيسة ويقع قبر المخلص تحت هذه الفتحة الواسعة.

---

(١) المزامير: ١/٨٧.

(٢) المزامير: ٢/٨٧.

(٣) أخبار الأيام الثاني: ١/٣.

كان موقع آلام المسيح، المعروف باسم كالفري أو الجلجلة يقع خارج حدود الكنيسة قبل قدوم شعوبنا اللاتينية، وقد قيل إنه هنا اكتشف خشبة صليب الصلبوت. وأن جسد المخلص قد طلي هنا أيضاً ـ تبعاً للتقاليد ـ بالمرهم بعدما أنزل عن الصليب، وغُلّف بمواد طيبة وعطور ولف بقماش كتاني حسب عادات الدفن عند اليهود، ولم يوجد في ذلك الوقت سوى معبد صغير نوعاً ما هنا، إلا أن المسيحيين بعد أن استولوا؛ بمعونة الرحمة السماوية، على القدس بيد قوية، بدا هذا البناء لهم صغيراً جداً وبناء عليه وسعوا الكنيسة الأصلية، وأضافوا لها بناء جديداً ضخماً وعالياً أحاط بالكنيسة القديمة وحوى الأماكن المقدسة. المذكورة آنفاً، داخل منطقته بطريقة رائعة.

ويقع هيكل الرب على قمة مريا وإلى الشرق منها على المنحدر الجنوبي، وقد بني في هذا الموقع حيث اشترى الملك داود بيدر أرونه اليبوسي وذلك حسب رواية الكتاب الثاني لصموئيل [١] وأخبار الأيام الثاني [٢] وكان أن أمر هنالك ببناء مذبح للرب قدم فيه قرباناً محروقاً، وذبائح سلامة فيما بعد ودعا ربه هناك واستجاب له في النار من السماء على مذبح القربان المحروق، وبنى سليمان في ذلك المكان أيضاً، بعد وفاة والده، الهيكل تنفيذاً لأمر الرب.

ونعلم من التواريخ القديمة كيف كان شكل هذا الهيكل، وكيف وقع تحت سيطرة نبوخذ نصر ملك بابل وأعيد بناؤه في ظل قورش ملك بلاد فارس من قبل زربابل ويسوا الكاهن الأعلى وبشكل مماثل، هدّم تيتوس امبراطور الرومان، الهيكل ذاته وسائر المدينة فيما بعد.

ويكفي أن نأتي هنا على ذكر من صممّ هذا البناء، وأن نصف شكله، حيث كنا قد قلنا في الفصل الأول من هذا الكتاب أن عمر بن الخطاب، الثالث بعد محمد ووريث أعماله وسلطته كان قد بنى هذا الهيكل، وتؤكد النقوش القديمة الموجودة على جدران البناء في الداخل والخارج على حد سواء هذا وتقدم دليلاً لا يدحض على صحته [٣].

ووصف هذا الصرح هو كالتالي: هنالك شكل رباعي ذو جوانب متساوية البعد عن بعضها بعضاً يقع على نجد طويل وواسع بطول رمية سهم، وهو محاط بسور ذي ارتفاع

(١) صمويل ـ الثاني: ١٦/٢٤.

(٢) أخبار الأيام الثاني: ١/٣.

(٣) توحي هذه الشارة العرضية، التي يعلنها وليم بشكل دقيق، أنه أدرج هذه المادة ـ وربما الفصول الأربعة الأولى لهذا الكتاب ـ لصالح جمهوره القارىء بعد عام ١١٨٠. وربما لم يطلبها عموري، وهي تقاطع بالفعل سرد الأخبار.

متوسط، ويتم الدخول من الغرب إلى هذا الشكل الرباعي من خلال بابين إثنين يعرف أحدهما باسم الباب الجميل، وحسب الوصف الموجود في أعمال الرسل هنا أنهض بطرس «الرجل الأعرج من بطن أمه». والذي جلس هناك يستجدي الصدقات من المارة[1]، هذا ولا نتذكر الاسم الثاني للباب الآخر، وهناك باب واحد في الشمال وآخر في الجانب الشرقي يعرف باسم الباب الذهبي.

ويقع القصر الملكي إلى الجنوب، وهو معروف عموماً باسم هيكل سليمان [المسجد الأقصى] وترتفع أبراج عالية (مآذن) فوق كلا البابين المؤديين إلى المدينة، وعند كل ركن من أركان الشكل الرباعي المذكور آنفاً، حيث كان علماء المسلمين معتادين على صعودها لدعوة الناس إلى الصلاة في ساعات محددة. ولا يزال عدد من هذه الأبراج قائماً، إلا أن الأبراج الأخرى قد اختفت بسبب حوادث مؤسفة متنوعة، ولم يُسمح لأحد بالسكن داخل هذه المناطق، ولم يتمكن أحد في الواقع من دخولها إلا بأقدام عارية ومغسولة منذ زمن قريب، ووضع الحراسُ عند جميع الأبواب ليتأكدوا من الإطاعة التامة لهذا الأمر، وتوجد ساحة أخرى، وأكثر ارتفاعاً إلى حد ما في منتصف المنطقة التي يحيط هذا الشكل الرباعي بها، وهي ساحة كاملة حيث أن جوانبها متساوية البعد عن جميع النقاط، ويوجد سلمان في الغرب والجنوب يؤديان إلى هذه الساحة، غير أنه لا يوجد سوى ممر واحد في الشرق، وقامت معابد صغيرة عند كل ركن من أركان هذه الساحة حيث لا يزال عدد منها باقياً، إلا أن المعابد الأخرى قد دُمرّت لإيجاد مكان لأبنية أكثر حداثة.

ويرتفع الهيكل، على شكل مثمن ذي أضلاع متساوية، في منتصف هذه الساحة، كما أن الجدران مـزخرفه بألواح رخامية وأشكال فسيفائية في داخل الهيكل وخارجه، وسقفه على شكل قبة مغطاة بالرصاص ببراعة فائقة، كما أن الساحتين العلوية والسفلية بالإضافة إلى أروقتها المعمدة مرصوفة بالرخام الأبيض، وهكذا، فإن الماء المتساقط في الشتاء بوفرة كبيرة من الهيكل ذاته، بالإضافة إلى المطر القادم من أماكن أخرى ينزل صافياً ونظيفاً إلى الصهاريج الكثيرة التي تقع داخل السياج والموصوفة آنفاً.

توجد صخرة في منتصف الهيكل وداخل صف الأعمدة الداخلي، وهي ليست عالية جداً وتحتوي على كهف، وحسبما تقوله التقاليد جلس الملاك في هذا المكان عندما أهلك الناس بأمر الرب، وذلك عقاباً لجرأة داود في تعدادهم، ولم يغمد السيفُ حتى أمر الرب ثانية بأن يصفح عنهم. واشترى داود هذا البيدر فيما بعد بستمائة شاقل ذهبي ذات وزن كامل،

(١) أعمال الرسل: ٣/١ ـ ٨.

وشيد مذبحاً فيه كما كنا قد سردنا ذلك من قبل، وظل هذا المكان ظاهراً ومكشوفاً قبل أن يأتي اللاتين، وفي الواقع ظل لمدة خمسة عشر عاماً بعد قدومهم، وغلفه الذين امتلكوه بالرخام الأبيض فيما بعد، وبني فوقه مذبح وجزء مخصص للكهنة، فهناك يقيم كاهن الطقوس المقدسة.

٤ - رواية كيف أن مدينة القدس تقع في منطقة جافة بلا ماء. حول بركة سليمان أيضاً وكيف أن سكان المدينة ملأوا الينابيع والصهاريج عندما سمعوا بنبأ قدومنا.

تقع مدينة القدس، عابدة الله، في منطقة يهوذا، المعروفة أيضاً باسم فلسطين الأولى هذا ويعود تاريخ اسم يهوذا إلى الزمن الذي انفصلت فيه الأسباط العشرة عن ربعام بن سليمان لتتبع يربعام بن نباث وشايعت قبيلتـا بن ويهوذا وحدهما ربعام ولهذا السبب تسمى المنطقـة التي تخص هذين الشعبين منطقة يهوذا، وهو اسم مشتق من يهوذا. كما نقرأ في الأناجيل: « عادوا إلى أرض يهوذا ». ولهذا السبب، فقد عرف ربعام وخلفاؤه باسم ملوك يهوذا، بيد أن حكام الأسباط العشرة الأخرى كانوا يعرفون باسم ملوك إسرائيل أو السامرة.

وتعرف فلسطين أيضاً باسم فلسطيا، وهو مشتق من اسم الفلسطينيين، ويقال إن هناك ثلاثة فلاسطين: أولاها ربما المعروفة باسم يهوذا وعاصمتها مدينة القدس، وأما فلسطين الثانية، فمدينتها الرئيسـة هي قيسارية مارتيما. وتعتبر مدينة بيسان أو سيزيبولس، وهي التي تسيطر عليها حالياً كنيسة الناصرة، عاصمة فلسطين الثالثة، وبصرف النظر عن الإسم الذي يمكن أن تدعى به يهوذا، شكلت بالتأكيد جزءاً من أرض الميعاد وسورية كما برهنت على ذلك أقوال الرسالة التي يمكن للمرء أن يقرأ فيها ما يلي: « من المألوف أن يتم الإستخدام الحر للحكايات الرمزية في سورية، وخاصة في منطقة فلسطين التي هي جزء من سوريا، وهي المنطقة التي أعدت ليتجسد الرب بها بصورةٍ حيّة ».

وتقع المنطقة بشكل ملائم في منتصف أرض الميعاد حسب وصف الحدود المستخرج من ذلك المصدر، الذي جاء على النحو التالي: « من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات.... وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم »[١]

تقع المدينة في وسط جاف، وتفتقر إلى الماء تماماً، ويقتصر اعتماد الناس على مياه الأمطار بسبب عدم وجود أية جداول أو ينابيع أو أنهار، فقد جرت عاداتهم أن يجمعوا هذا الماء في فصل الشتاء في صهاريج عديدة موجودة في كل مكان من المدينة، ويحُفظ بالتالي

---

(١) يوشع: ١/٤.

ليستخدم خلال العام، ولذلك فإنني مندهش لما قاله سولينوس من أن يهوذا مشهورة بمياهها، ويقول في تاريخه: «تشتهر يهودا بمياهها، إلا أن طبيعة هذه المياه تختلف عن بعضها بعضاً»[١] لا أستطيع أن أفسرّ هذا التناقض إلاّ بقولي إنه لم يقل الحقيقة حول هذه القضية، أو أن سطح الأرض قد تغير فيما بعد، ومن المعروف تماماً بالفعل أن حزقياً، ملك يهوذا، وصديق الرب، قد توقف بجانب الينابيع الموجودة خارج المدينة عندما سمع أن جيش سنحاريب بن شلمنصر كان قريباً، ونقرأ في هذا الصدد ما يلي في أخبار الأيام الثاني: «ولما رأى حزقياً أن سنحاريب قد أتى ووجهه على محاربة أورشليم تشاور هو ورؤساؤه وجبابرته على طم مياه العيون التي هي خارج المدينة فساعدوه. فتجمع شعب كثير وطموا جميع الينابيع والنهر الجاري في وسط الأرض قائلين لماذا يأتي ملوك آشور ويجدون مياها غزيرة»[٢].

وأهم هذه الينابيع هو النبع المعروف باسم جيحون وهو مذكور في السفر نفسه على النحو التالي: «وحزقياً هذا سد مخرج مياه جيحون وأجراها تحت الأرض إلى الجهة الغربية من مدينة داود»[٣].

يقع جيحون إلى الجنوب في منتصف وادي هنوم في القدس حيث تقوم الآن الكنيسة المقامة تمجيداً للشهيد بروكوبيوس، ويقال إن سليمان مسح ملكاً هنا، حسب الرواية الموجودة في سفر الملوك الأول: «فقال الملك لهم خذوا معكم عبيد سيدكم واركبوا سليمان ابني على البغلة التي لي وانزلوا به إلى جيحون. وليمسحه هناك صادوق الكاهن وناثان النبي ملكاً على إسرائيل واضربوا بالبوق وقولوا ليحيي الملك سليمان»[٤].

هذا ومن الواضح أن هذه الأحداث قد وقعت قبل زمن سولنوس لأن البحث في تاريخه يظهر بوضوح أن هذا الكاتب عاش بعد حكم تيتوس، امبراطور الرومان الذي دمر القدس، وقبل الإمبراطور اليوس هادريان الذي رمّمها، ونقرأ في الفصل الأربعين من هذا الكتاب ما يلي: «كانت القدس عاصمة يهوذا، لكنها هُدّمت، ثم أصبحت مدينة أريحا

---

(١) سولنوس Polyhistor XXXV إن موقف وليم النقدي هنا نحو هذا الكاتب الذي جاء بعد العصر الكلاسيكي هو موقف عالم حديث، يختبر مصدره في هذا الفصل بالحقائق الجغرافية الملاحظة، وبمعرفته للتاريخ القديم، كما يعكس التناقض بين قبول وليم لمادة أسطورية كهذه في الباب السابق ـ والمكتوب على الأرجح في حوالي ١١٧١ ـ والموقف الأكثر نقدياً المبين في هذا الفصل ـ والمكتوب ربما في عام ١١٨٢ ـ تطوره كمؤرخ.

(٢) أخبار الأيام الثاني: ٣٢/٢ ـ ٥.

(٣) أخبار الأيام الثاني: ٣٢/٣٠.

(٤) الملوك الأول: ١/٣٣ ـ ٣٤.

العاصمة، إلا أنها توقفت أيضاً عن كونها المدينة الرئيسة بعد أن قهرت في الحرب مع أرترا اكسرسس »[١] .

توجد بعض الينابيع على بعد ميلين أو ثلاثة أميال وراء المدينة، إلا أن عددها قليل ولا تقدم سوى القليل من الماء، هذا وهنالك بركة سلوام [سلوان] الشهيرة الواقعة على قرابة ميل إلى الجنوب من القدس، حيث يلتقي الواديان المذكوران آنفاً فإليها « أرسل الرب الرجل الذي كان ضريراً منذ ولادته ليتمكن من الإغتسال فيها ويسترد بصره »[٢] وهذه بركة صغيرة تنبع في الجزء المنخفض من الوادي، وليست مياهها عذبة ولا دائمة، لأن التدفق منقطع، ويقال إنها تتدفق كل يومين فقط.

وطم سكان المدينة الينابيع والصهاريج الموجودة بالقرب من المدينة حتى الصوى الخامس أو السادس وذلك حالما علموا بتقدم الجيش المسيحي، على أمل أن العطش سيدفع المسيحيين إلى التخلي عن المدينة وقد سبب هذا العمل معاناة لا محدودة لجيشنا خلال الحصار الذي تلا، كما سيتم ذكره في الفصول اللاحقة.

هذا وقد توفرت كمية كبيرة من المياه للمعاصرين داخل المدينة، حيث جُلب الماء من الينابيع الموجودة في خارج المدينة بالإضافة إلى ماء المطر الذي تم تخزينه خلال فصل الشتاء في الصهاريج، ونقل هذا الماء بوساطة قنوات إلى بـركتين كبيرتين تقعان خارج ساحات الهيكل وداخل حدود المدينة، وما تزال إحدى هاتين البركتين تعرفا حتى الآن باسم بركة الضأن، لأنها كانت تستخدم لغسل الحيوانات المعدة للأضحية، ويذكر الرسول الإنجيلي يوحنا أنه كان لهذه البركة خمسة أروقة، ويقول: « إن ملاكاً كان ينزل إليها مـن وقـت لآخـر ويحرك مياهها فمن نزل أولاً بعد تحريك الماء كان يبرأ من أي مرض اعتراه وهنا شفى الرب المشلول من مرضه وأمره أن يقوم ويحمل سريره ويمشي »[٣] .

٥ ـ تحديد التاريخ الذي وصل فيه الجيش المسيحي أمام المدينة. إعطاء تعداد قواتنا وتعداد قوات الأعداء. تبيان النظام الذي نُظّم المعسكر حسبه.

خيمت فيالق الجيش المسيحي أمام مدينة القدس في السابع من حزيران من عام ١٠٩٩ لتجسيد الرب[٤] ، ويقال إن عدد الحجاج من كلا الجنسين ومن جميع الأعمار

---

(١) سولنوس Polyhistor XXXV .

(٢) يوحنا: ٩/٧.

(٣) يوحنا: ٥/٢ ـ ١٢.

(٤) إن هذا الوصف لحصار القدس والإستيلاء عليها مبني على أساس روايات المؤلف المجهول لأعمال الفرنجة =

والأحوال بلغ نحو أربعين ألف حاج، لم يكن بينهم إلاّ قرابة عشرين ألف من الرجالة ونحو ألف وخمسمائة من الفرسان. وكان قوام بقية الحشد جمهرة بائسة ومريضة وعاجزة.

وذكرت إحدى الروايات أنه كان في داخل مدينة القدس نحو أربعين ألف محارب شجاع مجهزين تجهيزاً رائعاً، حيث كانت أعداد كبيرة قد اندفعت إلى القدس من الحصون القائمة في المنطقة المجاورة ومن الريف المجاور لها أيضاً فراراً من وجه الجيش إلى هناك بحثاً عن السلامة لأنفسهم، وللمساعدة أيضاً في الدفاع عن المدينة الجليلة ضد الخطر الذي هددها، وقد أحضروا معهم تعزيزات من الرجال المسلمين ومؤناً من الأطعمة.

وعقد المسيحيون، عندما اقتربوا من المدينة، مداولات جدّية مع الناس ذوي الإطلاع الجيد على الموقع بخصوص الإتجاه الذي يمكن منه مهاجمة المدينة بالشكل الأكثر سهولة وملاءمة. ذلك أن الممرات العميقة والضيقة، المشار إليها آنفاً قد أعاقت الهجوم من الشرق أو الجنوب، وهنا قرر القادة مهاجمة المدينة من الشمال. وبناء على ذلك رتب المعسكر بشكل امتد فيه من الباب المعروف اليوم باسم باب القديس ستيفن المواجه للشمال، وحتى الباب الواقع تحت برج داود على الجانب الغربي من المدينة، والذي كالبرج ذاته حمل اسم الملك داود.

وانتشر المعسكر على الشكل التالي: أقيم معسكر غودفري دوق اللورين في الصف الأول، وتلاه معسكر روبرت: كونت فلاندرز، بينما شغل روبرت، كونت نورماندي، المكان الثالث، في حين تمركز في الصف الرابع جنود تانكرد وبعض النبلاء الآخرين حول البرج في الزاوية التي عرفت فيما بعد باسم برج تانكرد وواصل كونت طولوز والذين كانوا معه الحصار من هذا البرج إلى الباب الغربي، هذا وقد اكتشف ريموند فيما بعد أن موقعه لا يقدم له سوى إمكانية ضيقة في النجاح بمهاجمة المدينة من ذلك الجانب، فقد تحكم بمعسكره البرج الذي ارتفع فوقه، والذي منح حماية قوية للباب عند قاعدته، كما أعاق جهوده قرب الوادي الذي يقع بين معسكره والمدينة، ولهذا نقل جزءاً من معسكره إلى الهضبة المبنية عليها مدينة القدس وذلك تلبية لنصيحة بعض الرجال الدهاة المطلعين على المنطقة المجاورة بشكل جيد، وكان هذا الموضع بين المدينة وكنيسة صهيون التي تقع على مسافة رمية سهم إلى الشمال

= وريموند دي أغليرز وألبرت أوف اكس وفولتشر أوف تشارترز بالإضافة إلى أنه مقام على أساس معرفة وليم الخاصة بالمنطقة وكل التقاليد المحلية. ويمكن للقارىء أن يقارن وصفه مع الروايات الدقيقة المعاصرة التي ترجمها دنكالف (ف. دنكالف وأ. كري «مقارنة مشاكل تاريخ العصور الوسطى» المشكلة ٣).

(١) انظر الكتاب الثالث ـ الفصل ٥ مع الحاشية. تشارلز أومان «تاريخ فن الحرب في العصور الوسطى»، ١/١٣٥ ـ ١٣٧.

من القدس، وترك الكونت جزءاً من معسكره في موقعه الأصلي، ويقال إنه عمل هذا تنفيذاً لهدفين من مخيلته: فقد رغب أن يحصل رجاله على طريق أسهل إلى المدينة لغرض الهجوم، كما عقد العزم على حماية كنيسة صهيون والحيلولة دون تعرضها للأذى على أيدي العدو. وهذا هو الموقع الذي يعتقد أن المخلص قد تناول فيه طعام العشاء مع حواريه وغسل أقدامهم، ويقال إن روح القدس نزلت في هذا المكان على الحواريين بألسنة نيران يوم عيد التجلي المقدس والأكثر من ذلك، فإن التقاليد القديمة تقول إن هذا الموضع هو المكان الذي توفيت فيه مريم، أم الرب المقدسة. كما يظهر، في هذا الموقع أيضاً، قبر الشهيد الأول ستيفن.

٦ - مهاجمة المدينة في اليوم الثالث بعد إقامة خطوط الحصار. المسيحيون يدخلون بتوجيه أحد المؤمنين المسيحين، إلى الغابات فيقطعون الأشجار لبناء آلات الحرب منها.

على هذه الصورة كان ترتيب المعسكر، ويلاحظ أن نصف المدينة تقريباً كان مطوقاً بخطوط الحصار، وبقيت المدينة غير محاصرة من الباب الشمالي المعروف عموماً باسم باب القديس ستيفن، إلى البرج الواقع عند الزاوية، والذي يشرف على وادي يهوشافاط ومن ذلك البرج إلى الزاوية المقابلة للمدينة في الجنوب فوق منحدر الوادي نفسه، ومن هنالك إلى الباب الجنوبي المعروف حالياً باسم باب قمة صهيون.

وأذيع الإعلان العام بصوت المنادي في اليوم الخامس بعد أن أخذ جيشنا موقعه أمام الأسوار: إن على الجميع من أدناهم إلى أعلاهم أن يستعدوا لبدء الهجوم بالعتاد الكامل وبحماية دروعهم، وهذا ما حصل، حيث هاجم الجميع كرجل واحد المدينة بقوة في مختلف نقاط الحصار، واستمر الهجوم بشدة وشجاعة كانت كافية لتدمير التحصينات الخارجية حالاً، واجبار العدو على الإنسحاب بذعر طلباً لحماية الأسوار الداخلية، وفي الحقيقة بدأ سكان المدينة يشكوّن الآن في إمكانية متابعة المقاومة، ولو كان لدى المسيحيين سلالم للتسلق أو آلات يستولون بها على الشرفات لكانوا قد استولوا على المدينة حتماً في هذا اليوم عندما هاجموها بحماسة كبيرة، إلا أنهم أدركوا بعدما عملوا من الفجر الباكر وحتى حوالي الساعة السابعة من النهار بدون جدوى، أنه ليس بإمكانهم أن يأملوا بتحقيق الكثير دون آلات الحرب، وهكذا، أرجئت العمليات الأخرى حتى يتمكنوا من إنشاء آلات الحرب، وأملوا أن يجددوا الهجوم بهذه الآلات وبنجاح أكبر بمعونة الرب.

وحول الرؤساء انتباههم بحماسة الآن نحو مسألة الحصول على مادة مناسبة لإنشاء آلات الحصار، ولم يبد أن الريف المجاور قد حوى شيئاً من هذا القبيل، بيد أنه حدث لحسن الحظ

(١) وصل هذا الأسطول يوم ١٧ - حزيران ١٠٩٩ م.

أن كان في المعسكر رجل سوري مسيحي في هذا الوقت، وقاد هذا الرجل عدداً من القادة إلى واد منعزل يبعد عن المدينة ستة أو سبعة أميال حيث نمت الأشجار الطويلة فيه، ومع أن هذه الأشجار لم تكن ملائمة للغرض تماماً، فقد وجد عدد من الأشجار يمكن استخدامها في حالة الطوارىء. واستدعي العمال والنجارون بأعداد كافية. وقطعت الأشجار ونقلت بواسطة الجمال والعربات إلى المدينة، ثم استدعى القادة الحرفيين وآخرين كانوا ماهرين في ذلك النوع من العمل، وانكبوا جميعاً بنشاط لا يعرف الكلل وبأيديهم الفؤوس والأدوات الأخرى المستعملة في عمليات البناء، وهكذا، أنشأوا بحماسة واجتهاد كبيرين أبراجاً وآلات قذف حربية تدعى المنجنيق أو العرادة وكباش دك وأدوات أخرى بغرض تدمير الأسوار، وتلقى العمال الذين افتقروا إلى الوسائل والأدوات الكافية - ليجودوا بعملهم دون أجر - أجورهم من هبات قدمها الأتقياء من الناس، ولم يكن لدى أحد من الزعماء ،في الواقع مال كاف لدفع أجور البنائين، باستثناء كونت طولوز الذي كانت موارده دائماً أكبر من موارد الباقين فقد دفع الكونت الأجور اللازمة لعماله من ميزانيته الخاصة وبدون مساهمات من الناس وبالإضافة إلى ذلك زود بالمال كثيراً من النبلاء الذي نفدت مواردهم.

وبينما كان الزعماء الأعلى مقاماً منشغلين بهذه المسائل الهامة، قاد النبلاء الآخرون والرجال المشهورون الناس، برايات منشورة، إلى أماكن في الريف حوت أدغالاً واشجاراً طبيعية، وقطعت الأغصان الطرية والمرنة من هذه الأشجار ونقلت على ظهور الخيول والحمير وجميع انواع حيوانات الحمولة إلى المعسكر حيث صنعت منها سقوف مستوية في سبيل إكمال عمل البنائيين الأكثر أهمية، وكان هنالك نشاط كبير في كل مكان، وعمل الجميع بحماسة لا تعرف الكلل، ولم يكن هنالك رجل واحد عاطل عن العمل أو إنسان انغمس بالكسل في ذلك الحشد الكبير، بل عمل الجميع بدون تمييز، العمل المطلوب بالشكل الأمثل وبأجود الحالات، وقد اعتبر جديراً بالإحترام أن يعمل كل شيء قد يكون مفيداً، وقد انكب الأغنياء والفقراء على حد سواء مع بعضهم بعضاً على أداء المهمة، ولم يكن هنالك أي اختلاف بالمنزلة أو حتى التفكير فيها. حيث كان نشاط الجميع متساوياً وسادت حماسة مماثلة، فقد ظهر الرجل صاحب المنصب العالي بسبب مكانته أكثر تلهفاً للمساعدة في العمل، بينما أفسح المجال أيضاً، للرجل ذي المنزلة الأدنى، للمشاركة والإهتمام، وشعر الجميع أن كل ما كان قد أنجز في رحلة الحج سيكون عدماً ما لم يسمح لهم بالحصول على ثمرة أعمالهم، بدخول المدينة، وهي الغاية التي تحملوا الكثير من المحن في سبيلها، فهم لم يقيموا أهمية لأي مطلب طُلب منهم، إذا ما كان فيه إسهام في سبيل الوصول إلى الهدف المنشود، وهو أن يكونوا جديرين برؤية تحقيق نذرهم.

٧ ـ الناس يصابون بإغماء بسبب نقص الماء. والعدو يقتلهم مراراً وتكراراً أثناء بحثهم عنه وعن مستلزمات الحياة الأخرى في الأماكن البعيدة.

بدأ الآن الجيش يعاني بشدة من العطش، لأن القدس ـ كما ذكرنا من قبل ـ تقع في منطقة جافة ليس فيها ماء. ولا توجد أية جداول أو ينابيع أو حتى آبار ذات ماء عذب إلاّ على مسافة بعيدة منها، وعلاوة على ذلك أوقف الكفرة هذه المصادر المائية أيضاً حالما سمعوا أن المسيحيين كانوا قريبين، وألقوا فيها القاذورات وكل أنواع النفايات حتى يصبح المكان غير صالح لحصار طويل كما دمرت صهاريج وأحواض ماء المطر أيضاً حتى لا تحتفظ بالماء، أو أخفيت بمكر بشكل لا تزود فيه الشراب المنعش للحجاج العطاش أثناء حاجتهم الماسة، هذا وقد زار أهالي بيت لحم والمؤمنون الذين سكنوا في تقوع مدينة الرسل، الجيش مراراً، وخرج الحجاج بتوجيه هؤلاء الناس إلى ينابيع تبعد أربعة أو خمسة أميال عن موقع الحصار، وتصادموا هنالك وتدافعوا وحاولوا في ظل أوضاع صعبة منع بعضهم بعضاً من جر الماء، وبعد تأخير طويل نبع عن سلوكهم المشاكس ملأوا قربهم بالماء الموحل وعادوا به إلى المعسكر وباعوه بثمن مرتفع وبكميات صغيرة حيث لم تكن جرعة واحدة منه تقدم إلا إنعاشاً قليلاً لرجل ظمآن.

ولم يقدم نبع سلوام الواقع على مقربة من المدينة، والموصوف آنفاً، ما يكفي من الماء لتزويد الناس المتألمين لأن مياهه التي كانت شحيحة، لم تتدفق في فترات نظامية، وضاعف الطقس الثقيل الوطأة وحرارة شهر حزيران الشديدة كرب الحجاج بتوسيع متطلبات العطش الملحة، كما سببت طبيعة عملهم والغبار الذي أثاره عملهم جفافاً للفم والصدر، وهكذا اعتادوا على الخروج بجماعات متفرقة والتوزع في الأرض في بحث شاق عن الماء، وأحياناً عندما اعتقدت هذه الزمر الصغيرة أنها وجدت المياه المبحوث عنها منذ زمن طويل صادفت حشداً كبيراً ينشد الماء بالعزم ذاته، وهكذا غالباً ما نشبت الشجارات حتى عندما وجدت الينابيع، وغالباً ما كان يؤدي ذلك إلى نشوب قتال بين الأطراف التي حاول كل منها أن يعيق الطرف الآخر، وتمكن السائرون على أقدامهم من تخفيف معاناتهم إلى حد ما بإجراء استخدام مقتصد للماء عندما وجد، إلا أن الذين كان عندهم خيول كثيرة أحيطوا بمصاعب كبيرة لأنه توجب عليهم أن يقودوا الحيوانات الظمأى مسافة أربعة أو خمسة أميال إلى الماء.

وهامت الحيوانات المهملة، التي لم يتمكن أصحابها من تزويدها بمتطلبات العيش، خلال الحقول بمشية بطيئة وقوة ضعيفة، وضعفت الخيول والبغال والحمير والمواشي وبقية الحيوانات نتيجة للعطش الشديد وماتت بالتتابع، ونتيجة لهذا أفسدت النتانة الوبائية التي نشأت عن جثثها المتفسخة، الهواء في المعسكر.

وكان العطش القاسي قد أضنى الناس خلال هذا الحصار أكثر مما كان نقص الطعام قد أضناهم أمام أنطاكية، وانتشروا بطيش وبإهمال للحذر في بقاع الريف المجاور، وتجولوا بحثاً عن الطعام والعلف الضروري للخيول، وغالباً ما انطلق العدو خلسة من أقسام المدينة اللامحروسة وهاجم هذه الزمر، سيما وأنه كان مطلعاً إطلاعاً جيداً على عادة التطواف هذه، وهكذا، قتل الكثير من المسيحيين، واستولى على خيولهم بالقوة، وكان آخرون أكثر حظاً، ونجحوا بالنجاة بالفرار، لكن بعد أن أصيبوا بجراح.

وتناقصت صفوفنا كل يوم، وقل عددها عما كانت عليه من قبل، وغالباً ما هلك الكثير يومياً نتيجة الحوادث المتنوعة التي يتعرض الجنس البشري لها، كما لم تأت الإمدادات الجديدة من مكان آخر لتحل محل الذين كانوا قد ماتوا وتتولى القيام بواجباتهم.

هذا من جهة ومن جهة أخرى كانت قوات العدو تتزايد دوماً وأعدادهم تتضاعف، حيث ملك حلفاؤهم حرية الدخول إلى المدينة من خلال الأقسام التي لم تكن محاصرة، فأسرعوا إليها وانضموا إلى قوات سكان المدينة في سبيل إبادتنا.

٨ - سكان المدينة ينشئون آلات حربية ويستعدون للمقاومة. يفرضون خدمات إجبارية كثيرة على المؤمنين الذين سكنوا في المدينة معهم.

كانت قواتنا في هذه الأثناء تبذل غاية مجهوداتها، فقد أقامت آلات الحرب، وحاكت الستائر الواقية، وشدت السلالم بعناية فائقة إلى بعضها بعضاً، وكان المحاصرون أيضاً يقظين لمقابلة الخداع بالخداع واستفادوا بشكل جيد من جميع وسائل المقاومة، وكان في المدينة كميات كافية من العوارض الخشبية المقطوعة من أشجار طويلة جلبت إليها قبل أن يصل المسيحيون، بتدبر حكيم للدفاع عن القدس، وكردة فعل على عملنا أو محاكاة له، آنشأوا داخل الأسوار آلات حربية من هذه العوارض الخشبية معادلة في ارتفاعها لارتفاع آلاتنا، إلاّ أنها كانت مصنوعة من مواد أفضل من المواد التي صنعت آلاتنا منها، وقد قاموا بهذا بالحماسة المثلى، حتى لا تكون آلات حربهم أدنى من آلاتنا في الإنشاء أو في المادة، واحتفظ بالحرس باستمرار على الأسوار والأبراج، حيث راقبوا باهتمام كل ما أنجز في جيشنا، وبشكل خاص ما تعلق بالوسائل التي ارتبطت بآلات الحرب، حيث نقلوا على الفور جميع تفاصيل ما راقبوه إلى الرجال الرئيسين للقدس، الذين تنافسوا بمهارة وكافحوا في سبيل محاكاة أعمال المسيحيين، حتى يتمكنوا من إحباط جميع جهودنا ببراعة مماثلة، وكان هذا سهلاً إلى حد ما، لأنه كان تحت تصرف أهالي القدس الكثير من العمال المهرة وأدوات الإنشاء وذلك بالإضافة إلى كميات كبيرة من الحديد والنحاس والحبال وكل ما هو ضروري

أكثر مما كان لدى شعبنا ، وأجبر جميع سكان المدينة بموجب أمر عام على المساهمة في العمل ، إلا أنه فرضت واجبات ثقيلة إضافية على المؤمنين المسيحيين الذين سكنوا في المدينة وعاشوا تحت نير العبودية ،فقد أرغموا على تأدية جميع الأعمال الإستثنائية وأخـذت منهـم مبـالـغ كبيرة من المال بالعنف، وسحبوا مكبلين بالسلاسل إلى السجون، لأن الكفرة خافوا من أن عواطفهم نحو المسيحيين ونواياهم الطيبة نحوهم قد تدفعهم إلى إفشاء أسرار صورة الأوضاع في المدينة لهم، ولم يتجرأ أحد من المؤمنيين على صعود الأسوار أو الظهور علناً ما لم يكن محملاً بحمل ثقيل كان يجـره كحصان حمولة، وأجبروا على حمل الأحمال الثقيلة، كما أرغم الذين كانوا مهرة في أية مهنة على ممارستها ، وأنزلت بهم العقوبات لدى أي اتهام أو وشاية واش، وفرض عليهم استقبال اللاجئين من القلاع والقرى المجاورة الذين هربوا إلى القدس في بيوتهم وتزويدهم بمستلزمات الحياة ، ومع أن وسائلهم لم تكن كافية لتأمين حتى رزق تعيس وضعيف لأسرهم وعيالهم، فقد توجب عليهم أن يتقاسموا مقتنياتهم مع الغرباء ، وأن يكونوا أنفسهم أول من يعيش محروماً ، وكان إذا ما احتيج لأي شيء يتعلق بالمصلحة العامة ، كان العمل الأول للكفرة اقتحام منازل المؤمنين، حيث أخذوا منهم بالقوة كل ما احتاجوه، وكان المسيحيون عرضة للاستدعاء في أي مكان وأية ساعة من الليل أو النهار ، وإذا لم يستجيبوا للدعوة الأولى ودون لحظة تأخير لأي سبب كان ، كان الكفرة يمسكونهم من شعور رؤوسهم ولحاهم بشكل مذل، ويجـرونهم بوضع مؤلم إلى درجة أنه حتى العدو كان يمكن أن يبكي شفقة عليهم .

ولم يبد أن هنالك نهاية أو وضع حد للعبء الثقيل لمعاناتهم ومشتقاتهم ، وبما أنهم أرهقـوا بشكل يفوق الإحتمال ، فقد وصلوا إلى مرحلة اليأس المطلق حيث رغبوا في أن يموتوا في سبيل الرب بدلاً من أن يواصلوا حياتهم على الأرض، وفي الواقع، لم يتعد وجودهم التعيس كونهم أموات على شكل أحياء ، حيث أنهم لم يُمنحوا وقتاً ولا حتى مرة واحدة في اليوم لتناول الطعام والشراب أو استراحة قليلة للنوم الضروري .

لقد نسب أي حادث مشؤوم إليهم برمته، ولم يستطيعوا الدخول أو الخروج من منازلهم بحرية دون إثارة الريبة بهم، وكانوا عرضة للإهانات على يد أي إنسان، وهيأت جميع الفرص لتحريك إتهامات كاذبة ضدهم.

٩ ـ وصول اسطول من جنوى إلى يافا . إرسال مرشدين من الجيش لقيادة هؤلاء القوم إلى موقع الحصار ، وقوع المرافقة في كمين نصبه العدو في الطريق .

بينما كانت هذه الأشياء تحدث أمام القدس المحاصرة وصل رسول بنبأ يفيد أن سفناً

من جنوى قد وصلت إلى ميناء يافا، وطلب القادمون الجدد من القادة أن يرسلوا حامية من الجيش ليتمكنوا من التقدم بأمان إلى القدس تحت حمايتها وتوجيهها.

تقع مدينة يافا على ساحل البحر، وقد تحدث سولنوس عنها في الفصل التاسع والثلاثين في كتابه «مذكرات عصرنا» بقوله: «مدينة يافا هي أقدم مدينة في العالم بأسره، حيث أسست قبل الطوفان، ويستطيع المرء أن يرى فيها صخرة ما تزال تحمل آثاراً للسلاسل التي قيد بها أندروميدا، الذي عُرّض لوحش البحر المخيف في ذلك الموقع، حسبما جاء في رواية موثوقة، وكان ماركوس سكاروس قد عرض بالفعل في روما أثناء عمله كمشرف عليها عظام ذلك الحيوان مع أشياء رائعة أخرى. وقد جاء ذكر هذه الحقيقة في حوليات التاريخ، مع المقاسات الحقيقية للوحش، فقد كان طول أضلاعه أكثر من أربعين قدماً، وكان ارتفاعه أكبر من ارتفاع فيلة الهند، وكان عرض كل فقرة من فقراته أكثر من نصف قدم»[1].

كما أشار جيروم إلى الشيء ذاته في كلمته التي قالها إحياءً لذكرى القديسة باولا بهذه الكلمات: «لقد رأت يافا أيضاً، وهو الميناء الذي هرب يوناس إليه، وهي المدينة ذاتها ـ ولنستعرض حكايات الشعراء التي شهدت أندروا مربوطاً إلى الصخرة»[2].

واستجابة لهذا المطلب، أرسل كونت طولوز، الذي كان لديه موارد وفيرة أكثر من بقية القادة، واحداً من نبلاء حاشيته يدعى غلدمار Geldemar ويكنى بكاربنال Carpinal وبصحبته ثلاثون فارساً وخمسون جندياً من الرجالة أرسله إلى هناك بموافقة شاملة لجميع القادة. لكن بعدما تحركت هذه الجماعة لاحظ القادة أن هذه القوة لم تكن كافية لمهمة صعبة جداً كهذه ولذلك سألوا الكونت إرسال قوات إضافية، فوافق على مطلبهم وأرسل خمسين فارساً إضافياً لتعزيز قوة الجماعة الأولى تحت قيادة رجلين شهيرين وقويين هما ريموند بيليت ووليم دي سابران Sabran.

وانطلق غلدمار أمام جماعته وزحف نازلاً إلى السهل الواقع حول اللد والرملة، فواجه هنالك مجموعة من الأعداء مؤلفة من ستمائة مقاتل، فهاجمته على الفور وقتلت أربعة من فرسانه، وعدداً كبيراً آخر من الرجالة، وقاوم المسيحيون بقدر ما استطاعوا على الرغم من قلة عددهم، وكانوا يشجعون بعضهم بعضاً على القتال وذلك عندما وصل لحسن الحظ، القائدان اللذان كانا يسيران خلفه، وصلا قبل أن ينفض القتال، وقذفا نفسيهما إلى داخل

---

(١) سولنوس Polyhistor XXXIV .

(٢) جيروم Ep XXVII .

المعمعة، ثم هاجم الجميع العدو بقوات موحدة فقتلوا مائتين منه بمساعدة الرحمة السماوية وأرغموا الباقي على الفرار، هذا وفقد المسيحيون خلال هذه المناوشة نبيلين من نبلائهم هما غلبرت دي تريفس Gilbert De Treves وإيكارد دي مونت مارلي Aicard De Montmerle، وقد سبب نبأ مصرعهما الكثير من الحزن للجيش.

وبعد أن نزل هذا النصر من عليين تقدمت الجماعتان في طريقهما إلى يافا تنفيذاً لمهمتهما ووصلوا بسلام إلى هناك، وحيتهما البحارة بابتهاج وشارك الجميع في تناول الطعام والشراب المنعش الذي صدر عن حب متبادل وأحاديث ساره، ومكثوا في يافا لمدة قصيرة حتى يتمكن الذين كانوا قد أتوا بالسفينة من ترتيب أمتعتهم ويستعدوا للزحف، وفجأة ظهر الأسطول المصري في إحدى الليالي أمام المدينة، وكان راسياً بالقرب من عسقلان، ينتظر فرصة لإنزال الضرر بالمسيحيين، وأسرع الناس إلى الشاطىء عندما سمعوا بهذه الأنباء، وحاولوا في البداية أن يحموا السفن من خطط العدو، بيد أنهم ما لبثوا أن أدركوا بالحال أن قوتهم لم تكن كافية لمقاومة هذا الأسطول الكبير، لذلك جردوا المراكب من التجهيزات ونقلوا الأشرعة والحبال وكامل بقية التجهيزات، ثم انسحبوا إلى القلعة محملين بهذه الأشياء.

وحدث أن كانت إحدى السفن متغيبة في حملة قرصنة، وكان أسطول الأعداء مسيطراً على ميناء يافا عندما عادت هذه السفينة محملة بالمغانم، ولهذا واصلت سيرها بريح طيبة حتى وصلت بأمان إلى اللاذقية.

وكانت يافا في هذا الوقت فيافي كاملة بلا سكان، ولم يكن لدى السكان سوى ثقة قليلة بتحصينات المدينة، وكانوا قد هجروا المدينة قبل وقت قصير من وصول المسيحيين، واحتل جنودنا القلعة فقط، وعندما استعد الجميع للرحيل، بدأ القادمون الجدد زحفهم نحو القدس مع جمع مقتنياتهم وبإشراف الحامية العسكرية التي كانت قد أرسلت لقيادهم، واستقبلتهم الفيالق المخيمة أمام القدس بكثير من السعادة، حيث جلب حضورهم لهم وعداً بمساعدة كبيرة، لأنهم كانوا رجالاً متمرسين ومهرة في فن البناء، كما هي حال البحارة عادة، وكانوا خبراء بقطع الأشجار وتقويم وإعداد العوارض الخشبية، وإنشاء الآلات الحربية في أقل وقت ممكن، وعلاوة على ذلك، جلبوا معهم تشكيلة كبيرة من الأشياء التي برهنت أنها كانت ذات عون كبير للقوات المحلية، وأنجز الحجاج بمساعدة هؤلاء الناس بسهولة أعمالاً بدت قبل وصولهم صعبة لا بل مستحيلة إلى حد ما.

١٠ ـ تقدم الذين أتوا بحراً إلى الجيش. تقديمهم مساعدة مفيدة في إنشاء آلات الحرب. المصالحة بين كونت طولوز وكونت تانكرد.

استمر الذين كانوا قد تخلفوا في موقع الحصار بمواصلة أعمال إنشاء الآت الحرب

بإخلاص وكانوا قد أنهوا الجزء الأكبر من تلك المهمة تقريباً، وكان الدوق وكونت فلاندرز وكونت نورماندي قد عهدوا بالإشراف العام على العمل إلى غاستون دي برن وهو رجل قدير ورائع، وكانوا قد توسلوا إليه أن يمارس حراسة يقظة على العمال حتى لا يهملوا مهامهم، وغالباً ما قاد الزعماء أنفسهم الناس بمجموعات كثيرة لقطع الأشجار التي نقلت إثر ذلك إلى المعسكر لاستخدامها في أعمال البناء المتنوعة، وقطع بعضهم وكدّس الأشجار والأخشاب وأغصان الأشجار في سبيل استخدامها في صنع الستائر الواقية للأجزاء الخارجية لآلات الحرب، وقام آخرون بسلخ جلود الحيوانات النظيفة والقذرة على حد سواء والتي كانت قد ماتت نتيجة العطش أو التي كانت قد قُتلت، وكان سيتم تعليق هذه الجلود على آلات الحرب على شكل ستائر لحمايتها من الأذى إذا ما قذف العدو النار من الأعلى لتدميرها.

وقد أثار الإهتمام الحماسي للدوق والكونتين الآخرين المذكورين أعلاه نشاطاً كبيراً بين أوساط الجند على طول القطاع الواقع على الجهة الشمالية من السور، كما سادت الحماسة ذاتها على طول ذلك الجزء من التحصينات التي امتدت من البرج الواقع في الزاوية وحتى الباب الغربي الواقع تحت برج داود، كما واصلت قوات النبيل تانكرد والنبلاء الآخرين الذين كانت معسكراتهم في ذلك القطاع، العمل نفسه باجتهاد كبير.

وكان جيش كونت طولوز وجميع أتباعه يعملون في الجنوب بحماسة واجتهاد لا يعرفان الكلل، وقد سادت حماسة أكبر أيضاً في هذه المنطقة، حيث كان بحوزة ريموند وسائل أكثر وفرة مما كان لدى القادة الآخرين، وكان قد حصل مؤخراً على تعزيزات جديدة من الرجال والمؤن، حيث كان جميع من أتوا من السفن قد انضموا إلى معسكره، وكانوا قد جلبوا معهم مؤناً كثيرة وأدوات مثل الحبال والمطارق وآلات حديدية أخرى كانت ضرورية جداً لعمل إنشاء آلات الحرب، وكان من بين أعدادهم عمال ممتازون معتادون على البناء وإنشاء آلات الحرب كما قلنا، لقد كانوا رجالاً متمرسين قادرين على إبداع أدوات ووسائل كثيرة لجلب العمل إلى نتيجة عاجلة. كما أعطى النبيل ولِيم امبرياكوس Embriacus، الذي قاد الجنوبين، الكثير من وقته وجهده أيضاً لمهام إنشاء آلات الحرب.

كدح سائر الجيش بكل قوته لمدة أربعة أسابيع، وانتهت المهمة أخيراً بعد جهد كبير، ثم تشاور القادة مع بعضهم بعضاً وحددوا يوماً لشن الهجوم على المدينة.

هذا وكان قد نشأ في هذه الآونة خلاف خطير بين كونت طولوز والنبيل تانكرد، كما قام شقاق أيضاً بين عدد من النبلاء الآخرين لأسباب مختلفة، ولذلك، بدا بالفعل من

الضروري للزعماء بالإضافة إلى الأساقفة ورجال الدين وسائر العامة من الناس، وجوب إعادة الوئام والحب الكامل إلى صفوفهم قبل كل شيء، ومن ثم سيتمكنون من التماس المعونة السماوية بقلوب مخلصة.

١١ ـ إعلان صوم. صعود كامل جماعة الحجاج جبل الزيتون.

وبناء على ذلك أعلن صيام للناس بموجب قرار عام ليوم محدد، وقاد الأساقفة ورجال الدين، وهم مرتدون أثوابهم الكهنوتية وبأقدام عارية شعبهم بأقصى التوقير إلى جبل الزيتون، وحملوا بأيديهم الصلبان والآثار المقدسة للقديسين، ووعظ الناس هنالك بطرس الناسك وآرنولف المجلان وكان آرنولف رجلاً متعلماً وصديقاً لكونت نورماندي، وتوسلا إلى الجميع بكلمات فصيحة أن يظهروا روح الصبر تجاه بعضهم بعضاً.

ويقع جبل الزيتون على بعد مسافة ميل واحد تقريباً قبالة المدينة في الشرق، وراء وادي يهوشافاط ولهذا السبب فإن القديس لوقا قال إنه وقع «على سفر سبت من اورشليم»[1]. وحدث أن مخلصنا قد صعد إلى السماء بعد أربعين يوماً من قيامته من هذا الجبل أمام أعين حواريه واستقبلته سحابة على مدّ بصرهم.

والتمس المؤمنون، عندما وصلوا إلى هذا المكان، المساعدة من السماء بتواضع وندم عميقين ووسط التنهدات والتأوهات القلبية، كما تصالح القادة مع بعضهم بعضاً، ودخل جميع الناس ثانية إلى حالة من الحب المتبادل، ثم نزلوا من الجبل وصعدوا ثانية إلى كنيسة جبل صهيون والتي كانت قائمة، كما سبق ذكر ذلك، بالقرب من المدينة في الجنوب، على قمة الجبل.

وفي الوقت نفسه امتلأ سكان المدينة بالدهشة حول معنى هذا الموكب حول المدينة، واستمروا على قذف القذائف من الأسوار والأبراج بالأقواس وآلات المنجنيق على صفوف المسيحيين المكتظة، حيث أصيب عدد من شعبنا بجراح بسبب عدم اتخاذهم الحذر المناسب، وكانوا قد نصبوا الصلبان على الأسوار وصبوا عليها جميع أنواع الإهانات المخزية ليظهروا احتقارهم وازدراءهم للمسيحيين. أضف إلى هذا أنهم بصقوا على هذه الصلبان، وأطلقوا العنان لمشاعرهم بطرق شتى لإبداء الإهانات واستمروا بصفاقة بصب الأقوال التجديفية والشتائم على ربنا يسوع المسيح وعقيدته المنقذة. وعلى الرغم من أن المسيحيين امتلأوا بالحنق الشديد الذي سببه تدنيس المقدسات بهذه الصورة فإنهم استمروا في تنفيذ نذرهم بتكريس تام، وواصلوا مسيرتهم إلى الكنيسة حيث غايتهم.

---

(١) أعمال الرسل: ١/١٢.

وبعد أن أتم المسيحيون صلواتهم في الكنيسة حددوا مجدداً بالإجماع اليوم الذي كانوا سيبدأون الهجوم فيه على المدينة، ثم عاد الجيش إلى المعسكر بعد أن كان الموكب حول المدينة قد انتهى[1]. وصدرت الأوامر بوجوب الإستدراك الفوري لأي شيء ناقص لإكمال نجاح المهمة حتى لا يمكن أن يكون هنالك أي تأخير بسبب إنعدام الإنتباه للتفاصيل، عندما تكون لحظة الهجوم قد وافت.

١٢ - الكونت والدوقان اللامعان ينقلون معسكرهم خلال الليل. نصب آلات الحرب في مواقع حول المدينة.

اقترب اليوم المحدد لمهاجمة المدينة، ونقل الدوق والكونتان اللامعان معسكرهم في الليلة السابقة ليوم الهجوم، لأنهم لاحظوا أن قطاع السور الذي كانوا يحاصرونه كان محمياً بشكل خاص بآلات الحرب والأسلحة والمقاتلين الشجعان، وحيث كان الكفرة مدركين تماماً أن عليهم أن يحتاطوا من ذلك الجانب، فقد حصنوه بقوة كبيرة جداً، ورأى القادة أنه لا يمكن أن يأملوا بتحقيق الكثير في اليوم التالي بسبب هذه الدفاعات وبدا لهم - وكان ذلك صحيحاً - أن الجانب الآخر من القدس الذي لم تتم محاصرته كان يُحرس باهتمام أقل، وهكذا، نقلوا في تلك الليلة، ببصيرة رائعة ونشاط كبير، الآت حربهم وبرج الحصار، قطعة إثر قطعة، قبل أن تجمع القطع مع بعضها بعضاً، إلى ذلك الجزء من المدينة الذي يقع بين باب القديس ستيفن والبرج والواقع عند الزاوية في الشمال وهو الجزء المطل على وادي يهوشافاط، كما نقل المعسكر إلى هناك أيضاً، ومكنهم العمل المتحمس طوال الليل بأسره من نقل الآلات الحربية وجمعها ووضعها في مواقعها الملائمة قبل بزوع الشمس، ووضع البرج المتنقل أمام التحصينات في مكان حيث كان السور أكثر انخفاضاً إلى حد ما، والطريق أكثر استواء ومن الممكن الوصول إليه بسهولة، ونصب بهذا الشكل بحيث يمكن للمدافعين في أبراجهم والمقاتلين في آلات الحصار هذه أن يبدوا وكأنهم يتصارعون ويتقاتلون يداً بيد، ولم تكن المهمة المنجزة بهذا الشكل مهمة بسيطة، لأن آلات الحرب نقلت قبل شروق الشمس مسافة نصف ميل من الموقع السابق للمعسكر، وجمعت الأجزاء، ونصبت الآلات في مواقعها الجديدة.

وأسرع سكان المدينة عند الفجر إلى الأسوار ليروا ما كان المسيحيون يفعلون خارج الأسوار. وتملكتهم الدهشة عندما وجدوا أن جزءاً من المعسكر كان قائماً حتى اليومين الأخيرين قد اختفى مع كل تجهيزاته الحربية، وتفحصوا المنطقة المجاورة مع محيط السور

---

(١) وقعت هذه المسيرة يوم ٨ - تموز ١٠٩٩.

بدقة واكتشفوا أن معسكر الدوق قد انتقل وأن آلات الحرب منصوبة في الموقع الموصوف منذ لحظات.

وكان القادة الآخرون قد واصلوا عملهم طوال الليلة ذاتها، وفي أجزاء أخرى من المدينة، وبالطريقة ذاتها التي وضعوا معسكراتهم فيها في الترتيب المذكور، كما واصلوا حراسة يقظة ونصبوا آلات حربهم وكان كونت طولوز قد ألصق في الوقت نفسه فعلياً البرج الذي صنعه إلى شرفات السور الممتد بين كنيسة جبل صهيون والمدينة. كما نقل الزعماء الآخرون، الذين احتلوا ا الموقع القائم حول البرج الموجود في الزاوية والمعروف حالياً باسم برج تانكرد، برجاً خشبياً أيضاً إلى السور بجهد وعناية متماثلين، حيث جارى في ارتفاعه وبنائه المتين الأبراج الأخرى تقريباً.

كان مظهر آلات الحرب الثلاث وطريقة تصنيعها شديد التشابه، فقد كانت أبراجاً مربعة، حُميت جوانبها المقابلة للمدينة بستائر مزدوجة بحيث يمكن إسدال الغطاء الخارجي بطريقة بارعة يشكل فيها جسراً بين البرج والسور، وزود هذا الجنود بوسائل تمكنهم من بلوغ المدينة، ولم تترك هذه المناورة جانب الآلة الحربية مكشوفاً، لأنه عندما أسدل الغطاء الخارجي، قدّم الغطاء الموجود تحته حماية كافية كما قدمته أغطية الجوانب الأخرى.

١٣ ـ اقتحام المدينة ـ اشتداد القتال بضراوة شديدة على كلا الجانبين، لكن حلول الظلام وضع حداً للإلتحام.

وقف سائر الجيش المسيحي عند الفجر، أمام المدينة حسب الخطة الموضوعة مسلحاً تسليحاً كاملاً ومستعداً للهجوم، وقد ألهب هدف واحد قلوب الجميع، وهو إما استرجاع القدس للإستمتاع بالحرية المسيحية، أو التخلي عن أرواحهم في سبيل المسيح، ولم يوجد حتى شخص واحد في ذلك الحشد الضخم، سواء أكان مسناً أو مريضاً أو حتى صغيراً لم يتقد حماسة وانفعالاً للمعركة، واجترأت حتى النسوة بصرف النظر عن جنسهن أو وضعهن الطبيعي، على حمل السلاح وحاربن بشجاعة بشكل يفوق طاقاتهن وهكذا، تقدم المسيحيون بالإجماع إلى المعركة، وحاول الجميع دفع الآت الحرب الحديثة الإنشاء إلى مسافة أقرب من السور بحيث يتمكنون بسهولة أكثر من مهاجمة الذين كانوا يبدون مقاومة عنيفة على الشرفات والأبراج.

وأطلق سكان المدينة، المصممون من جانبهم على مقاومة أعدائهم إلى الحد الأقصى وابلاً من السهام والقذائف على المسيحيين، كما سقطت الحجارة المقذوفة بالأيدي والمنطلقة من آلات القذف الحربية بقوة مخيفة، لقد حاول الكفرة بكل وسيلة منع شعبنا من الإقتراب

من السور، غير أن المسيحيين، المحميين بالترسة والستائر الواقية التي رفعوها أمامهم، أظهروا بدورهم نشاطاً عالياً، حيث أمطروا عدوهم بوابل من النبال من قسيهم وآلاتهم الحربية القاذفة، ووابلاً من القذائف الحجرية خاصة عندما ناضل الحجاج الجسورون للاقتراب إلى مسافة أقرب من التحصينات، فقد كانوا يحاولون إضعاف شجاعة خصومهم وأن لا يعطوهم استراحة ولو دقيقة واحدة، وتابع آخرون، موضوعون داخل البرج المتنقل، دفعه بواسطة السواري، كما قذف آخرون موجودون عند آلات الحرب القاذفة صخوراً ضخمة تدك الأسوار، بأمل أن التصادم المستمر والضربات الدائمة يمكن أن تضعف الأسوار وتجعلها تنهار، كما قذف آخرون الحجارة الأصغر حجماً من آلات المنجنيق التي كانوا مسلحين بها، وناضلوا بحماسة لمنع المدافعين على الشرفات من إلحاق الأذى بمقاتلينا.

ومع ذلك لم يكن الذين كانوا يحاولون دفع الآلة الحربية إلى الأمام ناجحين بقدر ما رغبوا، حيث أعاق خندق عميق وعريض موجود أمام التحصينات تقدم الآلة الحربية كثيراً، كما لم يحقق الذين كانوا يحاولون إحداث ثغرة في الأسوار، نتائج مرضية، حيث كان سكان المدينة قد علقوا على الأسوار الخارجية أكياساً مليئة بالقش والتبن بالإضافة إلى الحبال والمنسوجات والعوارض الخشبية الضخمة والفرش المحشوة بالحرير، وقد جعلت هذه الأشياء الطرية ضربات القذائف عقيمة، وأحبطت جميع جهود المهاجمين، وعلاوة على ذلك، كان العدو قد نصب أيضاً آلات حربية داخل المدينة فاقت آلاتنا كثيراً في أعدادها، وجرى قذف السهام والحجارة باستمرار من هذه الآلات الحربية لإعاقة عمل المسيحيين، وهكذا، كان الطرفان يجهدان نفسيهما إلى الحد الأقصى ويحاربان بمرارة شديدة، وقد استعر القتال من الصباح حتى المساء، وكان قتالاً مستمراً ورهيباً بشكل يفوق التصديق، فقد سقطت الرماح والسهام كالبرد على كلا الجيشين، كما تصادمت القذائف الحجرية المقذوفة من الجيشين المتقابلين في الهواء نفسه وجلبت الموت للمقاتلين بشكل متنوع جداً.

وكان العمل المتساوي والخطر المتماثل من نصيب الجميع، سواء أكانوا يحاربون تحت لواء الدوق أو تحت ألوية كونت طولوز والقادة الآخرين، لأن الهجوم كان يشن كما سبق الذكر في ثلاثة أمكنة بوقت واحد، وبحماسة وتوقد متساويين، هذا وازداد عمل المسيحيين كثيراً عندما رأوا أن من الضروري طم الخندق بالقمامة والحجارة والتراب قبل فتح طريق تنقل عليها الآلات الحربية.

هذا وكانت مهمة المدافعين شاقة بالقدر نفسه وأكثر إرهاقاً لدى محاولتهم وقف القوات المحاصرة فقد استمروا في إبداء ضروب من المقاومة الشجاعة ضد الجهود العنيفة

والجبارة التي بذلها المهاجمون وبذل الكفار جهوداً يائسة لحرق آلات المسيحيين الحربية فقذفوها بالقذائف المشتعلة والنبال المحملة بالكبريت الملتهب والإسفلت والزيت، أو أي شيء آخر يزود ألسنة النيران بالوقود، وعلاوة على ذلك، كانت ضربات الآلات الحربية الضخمة، التي كانت قد أقيمت داخل المدينة والموجهة ضد آلات المسيحيين الحربية الواقعة خارج المدينة، ضربات رائعة لدرجة أن حوامل ودعامات آلات المسيحيين الحربية بدأت تضعف وأصبحت جوانبها مثقبة، وقد أصاب الهلع المقاتلين الذين قد صعدوا إلى الأدوار العلوية للبرج لمهاجمة المدينة ونجوا بصعوبة من القذف إلى الأرض، هذا وقد نجح المسيحيون أخيراً بإعاقة جهود قاذفي النار بصبهم كميات من الماء من أعلى، وسيطروا بذلك على ألسنة اللهب.

١٤ ـ المحاصرون والمدافعون يمضون الليلة بحالة من القلق الشديد.

أنهى اقتراب الليل هذا النزاع الذي أثير بشجاعة في غمرة الخطر الشديد، ومع ذلك، لم تكن النتيجة حاسمة حتى تلك الساعة، وحصل المقاتلون على مقدار من الراحة الجسدية خلال فترات الحراسة في الليل، ومع ذلك، فإن إضطراب الروح الدائم حال دون النوم ودفعهم إلى العمل بشكل أشد، وجاشت قلوبهم، التي أنهكتها الهموم الشديدة، داخل نفوسهم التي كانت مشغولة بتحقيق أهدافها، ولهذا انتظروا بلهفة حتى يتمكنوا من العودة إلى المعركة ثانية. وتاقوا بحماسة إلى أن يجرّبوا حظ المعركة مرة ثانية، حيث كان لديهم إيمان بالرب أنهم كانوا على وشك أن ينالوا حظاً أفضل، ويحرزوا مجد الإنتصار.

ومع ذلك، كان قلقهم كبيراً، خشية أن يحرق العدو، بوسيلة ما، الآلات الحربية خلسة. ولهذا السبب، حافظوا على حراسة مستمرة حول هذه الآلات وأمضوا ليلتهم بدون نوم.

كما عذب خوف شديد، ومعادل لخوف المحاصرين، أولئك المحتجزين في داخل المدينة، وكان خوفهم الخاص من أن ينتهز العدو الذي شهدوا هجومه الجسور في اليوم المنصرم، الفرصة التي قدمها ظلام الليل الدامس ليفوز بمدخل إلى المدينة، وذلك إما بإحداث ثغرة في السور أو بتسلق التحصينات، ولذلك، خفروا دائرة التحصينات باهتمام حماسي أيضاً طوال الليلة بلا توقف، وبكد وحذر ذلك أن المسألة كانت بالنسبة لهم مسألة حياة أو موت، وتمركز ضباط الحراسة الليلية في كل برج من أبراج السور. واستمر في هذه الأثناء الزعماء مع الذين أسندت إليهم المسؤولية الرئيسة عن المدينة بإقامة دوريات حراسة الشوارع، كما حضوا الآخرين على المحافظة على حراسة متقنة من أجل أزواجهم وأطفالهم

وممتلكاتهم وفي سبيل المصلحة العامة، وتفحصوا الأبواب والطرق بدقة حتى لا يمكن إعطاء أية فرصة للعدو وخدعه.

وهكذا ابتلي الجيشان باضطرابات مماثلة، كما لم تمنحهما عنايتهما المفرطتان أي وقت للنوم، وكان الإضطراب النفسي المستمر الذي أبقى عقولهم وقلوبهم في جيشان منهكاً جداً لكلا الطرفين أكثر من النزاع الحقيقي في ميدان المعركة الذي كابدوه في اليوم السابق.

١٥ - استئناف الصراع في اليوم التالي. المدينة تهاجم بضراوة أكثر من ذي قبل. هلاك الساحرتين اللتين أحضرتا لغرض سحر آلاتنا الحربية.

كان الليل يقترب من الإنتهاء، وبدأت أشعة النور الأولى تعلن اقتراب النهار المنتظر طويلاً، وجرى استدعاء الناس، الذين امتلأوا بالحماسة الأكثر شدة، إلى القتال ثانية، وعاد كل رجل على الفور إلى الموقع الذي كان قد خصص له في اليوم السابق، واستمر عدد من المقاتلين الموضوعين عند آلات القذف الحربية يقذفون حجارة ضخمة ذات وزن كبير على الأسوار، وبذل آخرون، من مواقع أدنى داخل آلة الحصار الحربية، كل مهارتهم وقوتهم في دفعها إلى الأمام، واستمر آخرون موضوعون في الدور العلوي لآلة الحرب ذاتها بإمطار العدو الموجود في الأبراج المقابلة بوابل من القذائف. من قسيهم وآلات المنجنيق التي كانت معهم، أو بأي سلاح آخر متوفر، لقد كان هذا القذف مستمراً وفعالاً لدرجة أن المدافعين لم يجرؤوا على رفع أيديهم، وأجبروا على البقاء وراء الشرفات، وعندما طم الخندق، وخرقت الأسوار الأمامية، عمل عدد من المهاجين بكل ما أوتوه من قوة لدفع البرج إلى مسافة أقرب، واستمرت في هذه الأثناء قوة أكبر بقذف وابل مستمر من الحجارة والسهام لطرد المدافعين من وراء الشرفات، حتى لا يتمكنوا من إعاقة الذين كانوا يدفعون البرج المتحرك إلى الأمام.

وعندما رأى سكان المدينة جهود المسيحيين في تزايد حاولوا بدورهم باجتهاد أكثر مواجهة كل خطه بخطة مماثلة، ومقاومة القوة بالقوة، واستمروا أيضاً بقذف النبال والقذائف الحجرية على المهاجين وعلى الذين كانوا يحاولون دفع البرج، انتقاماً منهم، وأظهروا نشاطاً رائعاً أعاق تقدم المسيحيين بشكل ناجح، وقذفوا النار على آلاتنا الحربية بجرار سهلة التكسير وبكل طريقة ممكنة على أمل وضع حد نهائي لجهودنا وبشكل حاسم، وألقوا الكبريت والزفت والدهن والشحم والشمع والخشب الجاف والنشارة - وأي شيء، في الواقع، كان يمكنه أن يساعد على تغذية ألسنة النيران ويقوم بمهمة الوقود. ونتيجة لذلك لحق الجيشين أضرار بالغة، وهلك الكثيرون من الفرسان والرجالة نتيجة حوادث مؤسفة متنوعة وضربات غير

متوقعة، وتحطمت أوصال بعضهم بفعل حجارة المنجنيقات والمقذوفات الأخرى، وسقط آخرون فجأة بعدما اخترق وابل من النشاب والرماح دروعهم وترستهم، ومات بعضهم فوراً بعدما أصيبوا بصخور حادة تم قذفها باليد أو من إحدى الآلات، وبقي آخرون على قيد الحياة بعدما حُطّمت أضلاعهم وأصيبوا بالعجز لأيام كثيرة أو ربما للأبد، وعلى الرغم من هذا كله لم تستطع هذه المخاطر الكثيرة أن تثني عزائم المتحاربين عن المضي في سبيلهم، أو أن تقلّل من تصميمهم المتقد للقتال، ولم يكن من السهل الحكم أي شعب ناضل بالحماس الأكبر.

هذا وليس من اللائق أن نسكت عن ذكر حدث بارز قيل إنه وقع في ذلك اليوم، فقد كان لدى المسيحيين بين مختلف آلاتهم الحربية الموضوعة خارج الأسوار آلة سببت قتلاً مريعاً بين المدافعين بفعل القوة الدافعة العنيفة التي قذفت بها صخوراً ذات وزن ضخم، وعندما أدرك الكفرة أنه لا تستطيع أية مهارة من مهاراتهم السيطرة على هذه الآلة، أحضروا ساحرتين لسحرها وتحويلها بتعويذاتها السحرية إلى آلة ضعيفة. وبينما كانت هاتان الساحرتان مشغولتين بطقوسهما السحرية وكهانتيهما على السور ضربتهما فجأة حجر رحى ضخمة مقذوفة من تلك الآلة ذاتها، فسحقتا مع ثلاث فتيات كن في خدمتهما، ورميت أجسادهن الميتة من السور بعنف، وهنا ارتفع تصفيق كبير بين صفوف جيش المسيحيين، وملأ الإبتهاج قلوب الجميع في معسكرنا، وبالمقابل أصيب أهالي القدس بحزن عميق بسبب تلك الكارثة.

١٦ - ظهور آية من السماء على جبل الزيتون. الذين انسحبوا منهكين منذ فترة وجيزة يعودون بتلهف إلى القتال.

على الرغم من أن النزاع كان قد استمر حتى الساعة السابعة من النهار فقد كانت النتيجة ما تزال مبهمة ودون انتصار محدد لأي من الجانبين، وبدأ الآن المسيحيون، الذين أرهقوا بشكل يفوق قوتهم، باليأس والتراخي بجهودهم المتقدة، وكان البرج قد تحطم بالكامل تقريباً نتيجة القصف المستمر الذي تعرض له، وكان الدخان ينبعث من بقية الآلات الحربية نتيجة ارتطامها بالمقذوفات المشتعلة التي صبت عليها، وبدا في ظل هذه الظروف أن من الأفضل سحبها قليلاً إلى الوراء.

وإرجاء مواصلة القتال حتى الغد، وبدأ الناس الآن يشكون بإمكانية النجاح في المعركة، وبدأت قوتهم تنهار وأخذت صفوفهم تتضاءل بالتدريج، وعكس هذا ضاعف العدو أذاه وأعلن التحدي للمعركة بشجاعة أكثر من المعتاد، وفي تلك الساعة الحرجة أتت المساعدة السماوية لإنقاذ المؤمنين فقد كانوا بحاجة ماسة إليها، وجلبت لهم العون حسب أمنيتهم، حيث ظهر مقاتل على جبل الزيتون لم ير بعد ذلك الحين، وأعطى الفيالق الإشارة للعودة وبتجديد المعركة ملوحاً لهم بترس وامض رائع.

وكان الدوق غودفري وأخوه يوستاس قد أقاما في الدور العلوي للبرج المتحرك، حتى يتمكنا في المشاركة من الهجوم وليتأكد أيضاً أن آلات الحصار الحربية كانت محمية بشكل ملائم، وعندما لمح الدوق هذه الرؤيا الرائعة ملىء بالإبتهاج، وبدأ على الفور يسترد الناس والقادة الأكثر أهمية بصرخات عالية، وهكذا عاد سائر الناس، بقيادة رحمة الله بروح قوية إلى المعركة، لقد كانوا متحمسين جداً إلى درجة أنهم بدوا وكأنهم يبدأون المعركة ثانية بقوة جديدة، كما عاد الآن وبشكل طوعي حتى الذين انسحبوا مؤخراً من المعركة وهم يتألمون من عبء الجروح أو يتهاوون من الإنهاك، وتقدموا إلى الهجوم بقوة مضاعفة وحماسة متزايدة، وبدأ القادة مع الرجال المشهورين، الذين شكلوا الدعم للجيش، الخطوة الأولى، وأثاروا الشجاعة عند الآخرين، كما قامت النسوة، حتى يتمكن من المشاركة في العمل بإثارة حماسة المقاتلين بأقوالهن ودفعوهم إلى تجديد شجاعتهم وجلبن الماء لهم بآنية صغيرة حتى لا يصابوا بالإغماء في ميدان المعركة.

وساد السرور في أرجاء المعسكر وكأنما بات النصر مضموناً، وتم طم الخندق خلال ساعة من الزمن، وهُدّم السور الخارجي ووضعت آلة الحصار على الأسوار بالقوة.

وكنت قد ذكرت من قبل أن سكان المدينة كانوا قد علقوا من الشرفات عوارض خشبية ثقيلة جداً ذات طول كبير لإماتة ضربات الآلات الحربية القاذفة. ونجح مقاتلونا الموجودون في برج الحصار في قطع الحبال التي حملت إثنين من هذه المصدات، حيث سقطا إلى الأرض فالتقطها رجال موجودون في الأسفل على الرغم من تعرضهم لخطر كبير، ونُقلا على الفور إلى داخل الآلة الحربية واستخدما لتعزيز الجسر الذي قُذف - كما سيتم شرح هذا في وقت لاحق - من البرج المتحرك إلى السور، ذلك أن العوارض الخشبية التي شكلت الجسر كانت ضعيفة، وما كان بإمكانها تحمل ثقل الناس الذين كانوا سيعبرون الجسر لو لم يتم دعمها بتلك العوارض المتينة التي وضعت تحتها.

١٧ - كونت طولوز وقواته يهاجمون المدينة بنشاط مماثل في الجنوب.

كان كونت طولوز والذين معه يهاجمون المدينة بحماسة مماثلة من الناحية الجنوبية بينما كان يشن الهجوم بقوة كبيرة من الناحية الشمالية، وقد عملوا لمدة ثلاثة أيام متتالية بدون راحة لطم الخندق، وعندما انتهوا من هذا العمل، ألصقوا آلة حصار حربية إلى السور بالقوة في موقع متاخم، لدرجة استطاع فيها المدافعون الموجودون في الأبراج والمسيحيون الموجودون في آلة الحصار من جرح بعضهم بعضاً. وكانت حماسة المقاتلين متكافئة في كل مكان، وكانت مثابرتهم متساوية أيضاً، وقد واصلوا العمل بنشاط أكثر من المعتاد حيث كان

واحد من عبيد المسيح، مقيماً على جبل الزيتون، قد وعدهم بثقة أنه سيتم الإستيلاء على القدس في هذا اليوم، كما كانت شارة الترس الملوّح التي كانوا قد رأوها من جبل الزيتون، قد أثارت حماستهم بشكل كبير أيضاً وجعلتهم أكثر وثوقاً من أن النصر سيكون حليفهم، ووضح أن عمل هذين الجيشين المسيحيين يتقدم بخطا متماثلة وبدا بالفعل وكأنه وُجّه بعناية متساوية من قبل «القائد العظيم ذاته، والذي كان قد صمم على جزاء ورع عبيده بأحسن الجزاء، فلقد حان بالفعل وقت جني ثمار هذه الجهود الجبارة والتعويض عن الخدمة العسكرية التي بذلت بإخلاص.

١٨ - الدوق ورفاقه ينزلون الجسر من البرج الخشبي إلى السور ويدخلون جنودهم. الإستيلاء على المدينة، فتح الباب ودخول جنودنا القدس.

كانت فيالق الدوق والكونتين، اللذين كانا يهاجمان المدينة، كما قلنا سابقاً، في الشمال، قد نجحت بمعونة الرب في تدمير التحصينات الخارجية وفي طم الخندق، ولم يعد باستطاعة العدو، الذي أنهك الآن تماماً متابعة المقاومة، وهكذا، تمكن الجنود المسيحيون من الإقتراب من السور دون خطر، لأنه لم يوجد سوى عدد قليل من الأعداء هنا وهناك فيهم بقية من شجاعة لمهاجمتهم من خلال فتحات الرمي الموجودة في الأسوار.

وكان المقاتلون الموجودون داخل آلات الحصار الحربية قد أضرموا النيران تلبية لأمر الدوق بأكياس القش والوسائد المحشوة بالقطن، وزادت الريح الشمالية لهيبها فصبت دخاناً كثيفاً جداً إلى داخل المدينة لدرجة أن الذين كانوا يحاولون الدفاع عن السور لم يستطيعوا فتح أفواههم أو أعينهم إلاّ بصعوبة، وحيث أربكتهم سحب الدخان الأسود وأصابتهم بالدوار، فقدر تركوا الدفاع عن الشرفات وحالما اتضح هذا الموقف، أمر الدوق برفع العوارض التي كانت قد انتزعت من العدو إلى الأعلى على الفور ووضعت بحيث استقرت إحدى نهايتها على الآلة الحربية، بينما استقرت النهاية الأخرى على السور؛ ثم انزل الجانب المتحرك من آلة برج الحصار، وشكل هذا جسراً ذا قوة كافية تدعمه العوارض الثقيلة التي كانت قد وضعت تحته، وهكذا فإن المادة التي كان العدو قد جلبها لفائدته الخاصة حُوّلت إلى ضرره.

وقام غودفري الدوق النبيل والشهير، برفقة أخيه يوستاس، بالخطوة الأولى إلى داخل المدينة وشجعا البقية ليتبعاهما[1] وذلك عندما تم تعديل الجسر بهذه الطريقة، وتبعهما على

---

(١) علق الكتاب اللاحقون في الغرب أهمية أكبر بكثير على الاختلاف لكونهم أول من دخل القدس أكثر مما فعل الذين كانوا حاضرين بالفعل، لقد احتشد الصليبيون بدون شك بسرعة كبيرة في داخل المدينة بحيث =

الفور الأخوان النبيلان لودولف Ludolf وغسلبرت Cisblent وهما من أهالي مدينة تورناي Tournai ، وممن يستحقا التذكر للأبد ، ثم لحقهما حشد من الفرسان والمشاة بعدد كبير جداً لدرجة أنه لم يعد بإمكان الآلة الحربية أو الجسر تحمل المزيد ، وعندما أدرك العدو أن المسيحيين قد استولوا على السور ، وأن الدوق كان قد رفع رايته عليه هجروا الشرفات والأبراج ولجأوا إلى الشوارع الضيقة.

وما أن أدرك شعبنا أن الدوق وعدد كبير من القادة كانوا قد استولوا على الأبراج حتى شرعوا بتسلق الآلة الحربية، بل تنافسوا مع بعضهم بعضاً في رفع سلالم التسلق إلى الأسوار التي كانوا مزودين بها بشكل جيد ، حيث كان كل زوج من الفرسان قد أعد تنفيذاً للأوامر العامة ، سلماً ليستخدم بشكل مشترك. وانضموا الآن إلى الفرسان الآخرين الموجودين على السور بواسطة هذه السلالم وذلك دون انتظار الأمر من الدوق.

وتبع الدوق غودفري على الفور كل من كونت فلاندرز ودوق نورماندي وتانكرد الشجاع الذي هو محارب جدير بالثناء من جميع الجوانب، كما صعد مع هؤلاء كل من هيو الكبير ، كونت القديس بول وبلدوين دي بورغ وغاستون دي بارن وغاستون دي بيزريس وجيراردي روزليون وتوماس دي لافير أسقف برتون وكونت رينبولد من مدينة أورانج ولودوفك مونكونز أسقف مونتاغيو وابنه لامبرت بالإضافة إلى آخرين كثر لا أتذكر أعدادهم ولا أسماءهم.

وحالما رأى الدوق أن جميع هؤلاء الفرسان قد دخلوا بسلام، أرسل قسماً منهم مع مرافقة مناسبة لفتح الباب الشمالي، المعروف حالياً باسم باب القديس ستيفن، حتى يتمكن الناس الذين كانوا ينتظرون في الخارج من الدخول إلى المدينة. وفتح هذا الباب بالحال، واندفع الجيش كله بصورة فوضوية ودون نظام أو ترتيب.

= أنه كان من الصعب جداً، إذا لم يكن من المستحيل، تحديد من كان أولهم. ويتفق المؤرخون الذين كانوا موجودين بالفعل أن جيش غودفري كان أول من فاز بالدخول إليها، بينما كان جيش ريموند آخر من دخلها ، ويذكر الكاتب المجهول لأعمال الفرنجة رجلاً اسمه ليثولدوس على أنه الأول في جيش غودفري، ولا شك أن هذا هو الشخص ذاته مثل ليثولف لدى ألبرت ولودولف لدى وليم وقد يكون ألبرت مصيباً في إعطاء تورناي على أنه مسقط رأسه، ويقول أن أخاً له يدعى انغلبرت، والذي يدعوه وليم غاسيلبرت كان يرافقه، وبحث الكتاب الغربيون فيما بعد بشكل طبيعي عن بطل اقليمي للمقام الرفيع وضمّوه عادة إلى ليثولد كمشارك في المقام الرفيع، وهكذا فإن رالف أوف كين، الذي ينقل عنه كل من آرشر وكنغزفورد قد جعل برنارد دي سانت فالي النورماندي يتصل مع ليثهولد. واستنتج هاغنمير، بعد دراسة الإدعاءات المتنوعة، أن الأساس المحتمل للانتقاء في معظم الحالات كان الحقيقة أنهم كانوا الأوائل من جيوشهم الخاصة ليدخلوا المدينة (انظر هـ. هاغنمير «تاريخ أعمال الفرنجة لمؤرخ مجهول» ص٤٦٦ الحاشية ١٨).

حدث ذلك من الساعة التاسعة من يوم الجمعة، وبدا بالفعل أنه قضي بأمر سماوي بأن المؤمنين الذين كانوا يقاتلون لمجد المخلص يجب أن يحصلوا على تحقيق رغباتهم في الساعة ذاتها، وفي اليوم نفسه الذي كان فيه المسيح قد تألم فيها في تلك المدينة لإنقاذ العالم، في ذلك اليوم، كما نقرأ خُلق الإنسان الأول، وسُلّم الثاني للموت في سبيل إنقاذ الأول، لذلك كان ملائماً في تلك الساعة ذاتها أن ينتصر على أعدائه أولئك الذين كانوا أجزاء من جسده ومقلدين له، باسمه.

١٩ ـ الدوق يتجول مع أتباعه هنا وهناك في أرجاء المدينة منزلاً بها خراباً يفوق الوصف. كونت طولوز يشق طريقه بالقوة إلى المدينة في الناحية الجنوبية ويقود رجاله إليها. التجاء بعض سكان المدينة إلى القلعة.

ضم الدوق آنذاك والذين كانوا معه صفوف قواتهم، واندفعوا هنا وهناك خلال شوارع وساحات المدينة مستلين سيوفهم وبحماية دروعهم وخوذهم، وقتلوا جميع من صادفوا من الأعداء بصرف النظر عن العمر أو الحالة ودونما تمييز، قد انتشرت المذابح المخيفة في كل مكان، وتكدست الرؤوس المقطوعة في كل ناحية بحيث تعذّر الإنتقال على الفور من مكان لآخر إلاّ على جثث المقتولين، وكان القادة قد شقوا في وقت سابق طريقاً لهم بواسطة مسالك متنوعة إلى مركز المدينة تقريباً، وأحدثوا عندما تقدموا قتلاً لا يوصف. وتبع موكبهم حشد من الناس متعطش لدماء الأعداء ومصمم تصمياً كاملاً على إبادتهم.

وفي هذه الأثناء كان كونت طولوز والقادة الذين كانوا يحاربون معه في المنطقة المجاورة لقمة جبل صهيون، جاهلين تماماً أنه تم الإستيلاء على المدينة وأن الإنتصار كان حليفنا، لكن صرخات المسيحيين العالية التي أصدروها عندما دخلوا القدس وصيحات الرعب التي ارتفعت عندما استمرت مذبحة الكفرة جلبت الذعر للمدافعين في ذلك القطاع من المدينة واضطربوا لدى تفسير الجلبة الغريبة والصخب المشؤوم، وما لبث أن اكتشف الجميع أنه تم اقتحام المدينة بالقوة وأن فيالق المسيحيين قد دخلت إليها، فهجروا الأبراج والتحصينات بدون تأخير وهربوا في اتجاهات مختلفة مصممين على النجاة فقط، ولجأت الأكثرية إلى القلعة لأنها كانت قريبة.

أنزل الجيش الجسر بدون مقاومة، ورفع سلالمه إلى الأسوار ودخل المدينة دون أدنى إعاقة من جانب العدو، وما أن أفسح المجال أمامه حتى تولى العساكر فتح الباب الجنوبي الذي كان الباب الأقرب إليهم وسمحوا لبقية الناس بالدخول، وكان أن دخل إلى هنا كونت طولوز الشهير والشجاع بصحبة إيسورد، كونت ديا وريموند بيلي، ووليم دي سابران

أسقف البارة وعدد كبير من النبلاء الآخرين لم يحفظ أي تاريخ أسماءهم وعددهم[1]، وطافت هذه القوات الموحدة والمدججة بالسلاح من رأسها إلى أخمص قدميها في كل مكان خلال وسط المدينة، وأحدثت دماراً مريعاً بتصميم مشترك وواجه الذين نجوا من أعمال التخريب التي قام بها الدوق ورجاله، وهربوا إلى الأجزاء الأخرى من المدينة واعتقدوا أنهم قد نجوا بطريقة ما من الموت، واجهوا هذه المجموعة من المحاربين المسيحيين، وهكذا كان مثلهم مثل المستغيث من الرمضاء بالنار، ولقد كانت المجزرة التي اقترفت في كل مكان من المدينة مخيفة جداً وكان سفك الدماء رهيباً جداً لدرجة عانى فيها حتى المنتصرون من أحاسيس الرعب والإشمئزاز.

٢٠ - لجوء سكان المدينة إلى ساحة الهيكل. تانكرد يلاحقهم إلى هناك. اقتراف مذبحة مرعبة، وسفك كميات كبيرة من الدم هناك.

كان القسم الأكبر من الناس قد التجأ إلى ساحة الهيكل لأنها واقعة في قسم منعزل من المدينة وكانت محمية حماية قوية بسور وأبراج وبوابات، إلا أن هروبهم إلى هناك لم ينقذهم، حيث تبعهم تانكرد على الفور بالجزء الأكبر من سائر الجيش، وشق طريقه إلى داخل الهيكل، ونقل معه حسب إحدى الروايات بعد مذبحة مخيفة كمية ضخمة من الذهب والفضة والمجوهرات، هذا ومن المعتقد أنه أعاد هذه الكنوز سالمة بعد أن كان الصخب قد هدأ.

وعلم القادة الآخرون، بعد أن كانوا قد قتلوا من واجهوه في الأجزاء المختلفة من المدينة، أن الكثيرين قد هربوا للإلتجاء إلى الأروقة المقدسة للهيكل، ولذلك اندفعوا بالإجماع إلى هناك، ودخلت مجموعة كبيرة من الفرسان والرجالة قتلت جميع الذين كانوا قد التجأوا إلى هناك، ولم تُظهر أية شفقة لأي واحد منهم، وغمر المكان كله بدم الضحايا.

لقد كان بالفعل حكم الله القويم الذي قضى على الذين دنّسوا حرم المسيح بطقوسهم الخرافية، وجعلوه مكاناً غريباً بالنسبة لأهله المؤمنين أن يكفروا عن خطاياهم بالموت وأن يطهروا الأروقة المقدسة بسفك دمائهم..

وبات من المحال النظر إلى الأعداد الكبيرة للمقتولين دون هلع، فقد انتشرت أشلاء

---

(١) أدرج وليم - الذي كان أكثر إدراكاً للمقام الرفيع مما كان المؤرخون المعاصرون - جميع من ذكر من قبل أي منهم على أنه كان بين أوائل من دخلوا المدينة، وأضاف عدداً من الآخرين، الذين كانوا بلا شك، أو ربما كانوا، في المجموعة، كما أن ذكره لغودفري ويوستاس على أنهما أول الأوائل يمكن الصفح عنه، حيث أن جميع الكتاب قد ذكروهم تقريباً، وقال ألبرت، الذي أجرى تلميحاً خاصاً للأخوين من تورناي، أن غودفري ويوستاس كانا في البرج ذاته.

الجثث البشرية في كل مكان، وكانت الأرض ذاتها مغطاة بدم القتلى، ولم يكن مشهد الجثث التي فصلت الرؤوس عنها والأضلاع المبتورة المتناثرة في جميع الإتجاهات هو وحده الذي أثار الرعب في كل من نظر إليها، فقد كان الأرهب من ذلك هو النظر إلى المنتصرين أنفسهم وهم ملطخون بالدم من رؤوسهم إلى أقدامهم. إنه منظر مشؤوم جلب الرعب لجميع من واجهوهم، ويروى أنه هلك داخل حرم الهيكل فقط قرابة عشرة آلاف من الكفرة، بالإضافة إلى القتلى المطروحين في كل مكان من المدينة في الشوارع والساحات حيث قُدّر عددهم أنه كان مساوياً لعدد القتلى داخل حرم الهيكل.

وطاف بقية الجنود خلال المدينة بحثاً عن التعساء الباقين على قيد الحياة، والذين يمكن أن يكونوا مختبئين في مداخل ضيقة وطرق فرعية للنجاة من الموت، وسُحب هؤلاء على مرأى الجميع وذبحوا كالأغنام، وتشكل البعض في زمر واقتحموا المنازل حيث قبضوا على أرباب الأسر وزوجاتهم وأطفالهم وجميع أسرهم، وقتلت هذه الضحايا أو قذفت من مكان مرتفع حيث هلكت بشكل مأساوي، وادعى كل واحد من المغيرين ملكية دائمة للمنزل الذي كان قد اقتحمه وذلك بالإضافة إلى تملك كل ما كان موجوداً فيه، لأن الحجاج كانوا قد اتفقوا قبل الإستيلاء على المدينة إن كل رجل يحصل على أي شيء بعد الإستيلاء على المدينة بالقوة يكون حقاً له وملكاً إلى الأبد بدون إزعاج، ونتيجة لهذا فتش الحجاج المدينة بدقة قصوى وقتلوا سكانها بجرأة، وتغلغلوا إلى أكثر الأماكن عزلة وبعداً، واقتحموا غرف الأعداء الخاصة جداً، وعلق كل منتصر درعه وأسلحته عند مدخل البيت الذي استولى عليه كإشارة لكل من يقترب منه حتى لا يتوقف عنده، بل ليتجاوز ذلك المكان لأنه أصبح ملكية لشخص آخر [1].

٢١ - المدينة تصبح هادئة، والصخب يخمد والأسلحة توضع جانباً من أجل الصلاة. المسيحيون يطوفون في القدس لزيارة الأماكن المقدسة. اليوم يمضي بطقوس مقدسة.

بعدما تم الإستيلاء الكامل على المدينة، وبعد أن قُتل الكفرة جميعاً وبعدما هدأ الإضطراب إلى حد ما اجتمع القادة للتشاور فيما بينهم بوجوب تعيين حراسٍ لكل برج من الأبراج، ووُضع رجال مسؤولون كبوابين عند كل باب من أبواب المدينة وذلك قبل إلقاء الأسلحة ومن أجل حماية أفضل، وتوجب، بالإتفاق المشترك والقرار العام للقادة، أن يحافظ

(١) هذا شاهد مبكر على استخدام الدروع كوسائل لتحديد الهوية وتأسيس الإدعاءات ويقيناً حملت الدروع علامات الملكية الفردية، والتي أحكمت فيما بعد لتأخذ شكل «الرنوك» الأمر الذي اهتم به علماء الأنساب اهتماماً كبيراً.

على هذه الحماية حتى يتم تنصيب شخص ما على القدس ليكون قادراً على تولي مسؤولية كاملة عنها وإدارة جميع الأمور حسب رغبته. فقد خافوا بحق من خداع العدو الذي أحاط بهم، وخافوا ببصيرة متعقلة من الهجمات المفاجئة.

وعندما أعيد النظام للمدينة أخيراً بهذه الطريقة ألقوا أسلحتهم جانباً ثم بدؤوا بإقامة الجولات على الأماكن المبجلة التي كان المنقذ قد تنازل ليقدّسها ويجعلها متألقة بحضوره الجسدي، وهم مرتدون أثواباً جديدة، وبأيد نظيفة وأقدام عارية وبتواضع وندم، وطبعوا القبلات بتنهدات باكية وشعور صادق على هذه الأماكن المبجلة، واقتربوا بوقار خاص من كنيسة آلام وقيامة المسيح، حيث قابل رجال الدين وأهالي القدس القادة المؤمنين وكان هؤلاء المسيحيون، الذين تحملوا نير العبودية الجائر والثقيل، تواقين لإظهار امتنانهم للمخلص على إعادتهم للحرية، وتقدم رجال الدين إلى الكنيسة وهم يحملون الصلبان وآثار القديسيين المقدسة في أيديهم برفقة المزامير والأناشيد المقدّسة.

لقد كان منظراً ساراً ومصدراً للإبتهاج الروحي مشاهدة التكريس الورع والحماس العميق الذي اقترب به الحجاج إلى الأماكن المقدسة، وابتهاج الفؤاد وسعادة الروح اللذين قبلاً بهما النصب التذكارية لمقام المسيح على الأرض، وكان الجميع يبكون ويتنهدون لا كما يدفع الألم والقلق إلى البكاء والتنهد؛ بل كما يدفع الورع المتقد ورضاء الإبتهاج الروحي كتقدمة إلى المسيح، وارتفعت أصوات الناس الشاكرة للرب في الكنيسة وفي كل مكان من القدس أيضاً حتى بدا وكأن الصوت قد رفع إلى قلب عليين، ولا شك أنه ينطبق في حقهم القول: «إن صوت السرور والخلاص تحت مظلة الأتقياء»[1].

واستمرت أعمال الرحمة، التي أوحت التقوى بها وصدرت عنها، قائمة في جميع أرجاء المدينة، واعترف العديدون والدموع تنهمر من أعينهم، اعترفوا أمام الرب بالجرائم التي اقترفوها، وربطوا أنفسهم بالأيمان والعهود في أن لا يقترفوا مثل هذه الذنوب ثانية، وصب آخرون بكرم صادر عن القلب جميع ما امتلكوه على المسنين والمرضى والمحتاجين، ولقد اعتبروا ذلك كله بمثابة عمل تقوي رفيع، وأن جميع ما تخلوا عنه من ثروات كان مقابل شهودهم لذلك اليوم، ومضى آخرون نحو الأماكن المقدسة وطافوا حولها حابين على ركبهم العارية بالآهات والعواطف الجياشة، وقدموا كل ما ملكوه مع دموعهم المنهمرة، ولسان حالهم يقول وهم يتوجهون بكلماتهم نحو الرب: «أنهار من الدموع جرت من عيني»[2].

---

(١) المزامير: ١١٧/١٥.

(٢) المزامير: ١١٨/١٣٦.

لم عليّ أن أقول المزيد ؟ من الصعب وصف التقوى والاندفاع الروحي الشديد لأولئك القوم المؤمنين بالكلمات، لقد كانوا ممتنين حقاً للمنح الربانية التي كانوا محرومين منها مقابل جهودهم الكبيرة، لقد تنافسوا كثيراً في سبيل أعمال الخير والمساعدة وكان ماثلاً أمام أعينهم، دوماً، وأمام أنفسهم الرحمة التي أنزلت عليهم من عليين، لأنه لم يوجد انسان مهما كان قلبه قاسياً وعواطفه متصلبة، لم يتمالك نفسه عن الانفعال عندما سمح له بجني الثمار الرائعة لذلك الحج العظيم، ويتسلم جائزته مقابل الحروب التي أثارها، وبدا الأمر بالنسبة لذوي الطبيعة الروحانية أن ما حظيوا به قد منحوه بمثابة عهد بنيل التعويض المستقبلي الذي وعد الرب بمنحه لقديسيه، وأنهم من خلال ما نالوه من منح في الحياة الحالية لربما سيكون تأكيداً للأمال بنيل جوائز أوفى في الحياة الأخرى، وأن الحج إلى القدس الذي قاموا به الآن على الأرض هو وعد وضمانة مؤكدة بأنهم سيشاركون أخيراً في الحج المستقبلي الذي سيتم في الحياة الأخرى (٣).

ثم احتفل الأساقفه والرهبان بالقداس في الكنائس، وأقاموا الصلوات للناس وقدموا الشكر للرب لرحمته التي أضفاها عليهم.

٢٢ ـ رؤية أسقف بوي وآخرين ممن ماتوا في سبيل الرب أثناء الحج، وظهورهم أمام العديد من الناس.

شوهد في ذلك اليوم بالذات أدهمر أسقف بوي، ذلك الرجل صاحب الأخلاق النبيلة، والذكرى الخالدة، والذي فارق هذه الحياة في أنطاكية، حسبما حكينا من قبل، لقد شوهد في المدينة المقدسة من قبل عدد كبير من الشهود، وفي الحقيقة إن عدد الرجال المحترمين الجديرين بالثقة الذين أكدوا باجماع أنهم رأوا بأم أعينهم يتسلق الأسوار كأول رجل ويشجع البقيه ليتبعوه، لم يكن قليلاً أبداً، وظهر خلال اليوم نفسه مرة تلو أخرى لأعداد كبيرة من الناس وهم متوجهون نحو الأماكن المقدسة، وتمت أيضاً رؤية أعداد أخرى كثيرة من الرجال الأتقياء الذين ماتوا في سبيل يسوع أثناء رحلة الحج تمت رؤيتهم من قبل عدد كبير من الشهود وهم يزورون الأماكن المقدسة مع الآخرين، وأصبح جليا من خلال هذي البراهين أن الذين أخذوا من هذه الحياة الآنية المؤقتة ليتمتعوا بالبركات السرمدية لم يحرموا من رغبات قلوبهم لا بل أنجزوا كاملاً كل ما نشدوه بتقوى جامحة، وهكذا تزودنا ببرهان لا يدحض حول القيامة والحياة الأخرى (٤).

---

(٣) المزامير: ١٢١/٣.

(٤) روى رؤيا أدهم هذه ريموند دي أغليرز كما أن استخدام وليم لها لإثبات خلودها، هو استخدام ممتع بسبب محادثته مع الملك عموري عن الموضوع (انظر الكتاب ١٩ الفصل ٣).

وكما قام عند قيامة المسيح عدد كبير من القديسين كانوا قد توفوا، وظهروا بأجسادهم للكثيرين في المدينة المقدسة، كان ملائماً أن يتم تجديد المعجزة السابقة لمصلحة المؤمنين عندما طهروا مكان القيامة المقدسة من خرافات الشعوب، وعلاوة على ذلك كان مستحسناً أن يصدق الذين كانوا قد سلموا أنفسهم بطاعة ورعة كبيرة إلى المسيح المرفوع أنهم قاموا بروحهم من جديد.

لقد أظهرت هذه الشارات وإشارات كثيرة أخرى بوفرة لشعب الله كمعجزات أكثر منها آيات وذلك بفضل النعمة الإلهية، ولهذا السبب، ساد فرح كبير للقلب والعقل وجذل روحي عظيم بين الناس إلى درجة أنهم نسوا المشاق التي لا تحصى التي كانوا قد تحملوها، واعتبروا أنفسهم مرضياً عنهم لأنه سمح لهم برؤية العناية الربانية.

وصعدت من المدينة المقدسة صرخة ذات ابتهاج روحي إلى الرب، فأقيمت الطقوس المقدسة مراراً وتكراراً وكأنها بأمر مباشر منه، إلى درجة أن كلمات الرسول التالية: «افرحوا مع اورشليم وابتهجوا معها يا جميع محبيها»[1] . بدت وكأنها نفذت حرفياً.

٢٣ - المؤمنون المقيمون في القدس يشكرون بطرس الناسك بعمق، لأنه الذي أودعوه رسالتهم، ويظهرون له تبجيلاً وتقديراً يستحقه.

كان هنالك مسيحيون يعيشون في القدس قد رأوا في تلك المدينة بطرس الناسك المبجل منذ أربع سنوات أو خمس مضت، وكان السيد البطريرك والرجال القياديين الآخرين من كل من رجال الدين والناس قد أعطوه في ذلك الوقت رسائل أملوا أنها ستثير ملوك ممالك الغرب لمصلحتهم، وعندما تعرف عليه هؤلاء الناس من جديد، أجلّوه كثيراً واحترموه، لأنهم تذكروا بامتنان قدومه الأول والصداقة التي رضي أن يكوّنها معهم، وشكروه بعمق على أنه أنجز المهمة، بإخلاص وبشكل لا يعرف التعب وبدافع من التقوى التي كانوا حملوه إياها، ومجدوا المسيح قبل كل شيء المجد بعبيده، بأن كان قد وجه سبل هذا الرجل بشكل يفوق كثيراً أماني الفانين. لأن الرب بالفعل كان قد جعل خطاب بطرس فعالاً جداً بحيث أقنع كلاً من الشعوب والممالك لتحمل مشقات جسام بدون تذمر من أجل اسم المسيح، وبدت أقوال هذا الرجل في الحقيقة الصرفة أنها نبعت من الرب الذي قال: «هكذا تكون كلمتي التي تخرج من فمي، لا ترجع إليّ فارغة بل تعمل ما سررت به وتنجح في ما أرسلتها له»[2] .

---

(١) اشعيا: ٦٦/١٠.

(٢) اشعيا: ٥٥/١١.

وهكذا، تنافس الناس، بشكل فردي وكامل، مع بعضهم بعضاً في ابداء مظاهر الحفاوة والتكريم من جميع الأنواع لبطرس الناسك. ونسبوا إليه فقط، بعد الرب، خلاصهم من العبودية القاسية التي كانوا قد تحملوها لسنوات طويلة، واسترجاع المدينة المقدسة إلى حالة حريتها الأصيلة.

وكما سبق القول كان البطريرك قد أبحر إلى قبرص للحصول على وسائل بكلفة كبيرة لنجدة المدينة ولرخاء سكانها، وكانت مهمته استجداء الصدقات من المؤمنين الموجودين في تلك المنطقة ليدفع بها الجزية والضرائب الإضافية التي كانت قد فرضت على سكان القدس من المسيحيين بشكل يفوق مقدرتهم على الدفع، وكان هنالك داع للخوف من أن المبتزين يمكن أن يهدموا الكنائس أو يقتلوا الناس كما كانوا قد فعلوا ذلك بشكل متكرر في الماضي، إن لم تلبّ هذه الغرامات، ولذلك كان الرجل المبجل جاهلاً تماماً بكل ما كان قد حصل في المدينة وكان خائفاً من العودة إلى الأوضاع الخطيرة ذاتها[1]، لكن الرب كان في الوقت نفسه قد أحضر حالة من الهدوء التام إلى ذلك الموقع، تفوق تماماً أي شيء كان من الممكن توقعه.

٢٤ ـ المدينة تنظف من جثث القتلى ـ استسلام الملتجئين إلى القلعة لكونت طولوز. اعتبار هذا اليوم خالداً إلى الأبد.

عندما كان الزعماء قد أتموا صلواتهم، وبعد أن زاروا الأماكن المبجلة بروح التكريس الصادق رأوا من الضروري وقبل كل شيء أن ينظفوا المدينة، وخاصة أقنية الهيكل خشية أن ينشأ وباء من الهواء المشبع بالنتانة من جثث القتلى، وفرضت هذه المهمة على المقادسة المأسورين الذين على الرغم من أنهم أودعوا السجون قد نجوا بالمصادفة من الموت، لكن بما أن عددهم لم يكن كافياً لإنجاز عمل كبير جداً من هذا القبيل بدون مساعدة لهم، فقد قُدّمت أجرة يومية للمقاتلين الفقراء من الجيش للمساعدة في تطهير المدينة دون تأخير.

وبعدما أولى القادة هذه المسألة عاد كل منهم إلى المنزل الذي اتخذه داراً له. وكان

(١) تقدم قصة الجزية هذه، التي دفعها مسيحيو القدس الشاكرين لبطرس الناسك، فخراً أكبر لإحساس وليم الأدبي، أكثر مما تقدمه لفظته التاريخية ولا تذكرها أي من الروايات المعاصرة أو الشاهدة، ولم يفكر حتى ألبرت أوف اكس، الذي كان أول من دعم أسطورة بطرس، في أن يدرجها. ومن هذا ولا شك أن شعور وليم الأدبي دفعه بشكل واضح ليكمل بهذه الخاتمة وصفه للحملة الصليبية الأولى، والتي كان قد بدأها في الأصل مع رؤيا بطرس في القدس، وتُهمل الشخصيات المسرحية الأصلية بذكر البطريرك سمعان، الذي برز أيضاً في ذلك المشهد المبكر، ويصل القسم الأول من التاريخ إلى نهاية أدبية مناسبة بوصف تطهير المدينة.

(٢) انظر الكتاب الأول الفصل ١٠ من الحواشي.

خدم الأسر قد جهزوا هذه المنازل لهم خلال الفترة الفاصلة. ووجدت المدينة تفيض بالسلع المتنوعة لدرجة حصل فيها الجميع من أدناهم إلى أعلاهم، على وفرة من كل شيء. واكتشفت كنوز ضخمة من الذهب والفضة إلى جانب المجوهرات والملابس النفيسة في المنازل التي تم الإستيلاء عليها. كما وجدت مخزونات من الحبوب والخمرة والزيت، بالإضافة إلى كميات وفيرة من الماء، حيث كان نقصه قد سبب معاناة كبيرة بين المسيحيين خلال الحصار. وهكذا، استطاع الذين استولوا على المساكن تزويد إخوانهم المعوزين بما يلزمهم، وعقدت سوق عامة لبيع السلع المستولي عليها بأفضل الشروط. في اليوم الثاني لاحتلال القدس وفي اليوم الثالث أيضاً، وقد اقتنى منها حتى العامة من الناس كل ما احتاجوه بوفرة. ومرت الأيام باحتفال بهيج، حيث أنعش الحجاج أنفسهم إلى حد ما بالراحة لأنهم كانوا بحاجة ماسة إلى ذلك، لقد كانت وفرة العطاءات السخية التي حبتهم بها السماء مصدر ذهول متواصل وعملت على أن تكون مذكراً دائماً بالخير الذي كان الرب قد صمم على تقديمه بسخاء لهم.

ولكي تبقى ذكرى هذا الحدث العظيم محفوظة بشكل أفضل، صدر قرار عام لاقى موافقة وإقراراً شاملين، قضى بأن يعتبر هذا اليوم يوماً مقدساً، وأن يفرد عن باقي الأيام، ليكون اليوم الذي يجب أن يروى فيه كل ما كان قد تنبأ به الرسل بخصوص هذا الحدث، وذلك في سبيل مجد وعظمة اسم المسيحية، ومن المتوجب أيضاً طلب الغفران دوماً في هذا اليوم من الرب لأرواح الذين تم إستعادة المدينة المقدسة، حبيبة الله، إلى الحرية الأصلية للعقيدة المسيحية بوساطة أعمالهم الناجحة والجديرة بالثناء.

وفي هذه الأثناء أدرك الكفرة الذين كانوا قد هربوا إلى قلعة داود للنجاة من انتقام السيف، أن المسيحيين حققوا الآن ملكية تامة للمدينة، وأدركوا أنه لم يعد بإمكانهم تحمل الحصار. ولهذا بحثوا عن كونت طولوز، الذي كان أقام في المنطقة المجاورة للبرج، وحصلوا على وعد منه بأن يحصلوا مع زوجاتهم وأبنائهم على خروج حرٍ من المدينة وطريق آمن إلى عسقلان، وعلاوة على ذلك سُمح لهم بأن يأخذوا معهم جميع السلع التي كانوا قد نقلوها إلى داخل البرج، ووفقا لهذه الشروط سلموا إلى الكونت.

وأظهر، الذين كانوا قد تولوا العناية بتطهير المدينة، اجتهاداً كبيراً وحماسة في العمل، وأحرقت بعض الجثث ودفن بعضها الآخر، وذلك حسب ما سمحت مقتضيات الزمن، وأنجز كل شيء بسرعة خلال بضعة أيام، وأعيدت المدينة إلى وضعها الأصلي من النظافة، ثم اندفع الناس بثقة أكبر إلى الأماكن المبجلة، واستطاعوا أن يجتمعوا بشكل أتم ويتمتعوا بالحديث السار مع بعضهم بعضاً في شوارع المدينة وساحاتها.

تم الاستيلاء على القدس في عام ١٠٩٩ لتجسيد الرب في يوم الجمعة الخامس عشر من شهر حزيران، في حوالي الساعة التاسعة من اليوم، وكان العام الثالث بعد العام الأول الذي كان الناس المؤمنون قد تولوا فيه القيام. بأعباء هذا الحج العظيم. وكان البابا أوربان الثاني يترأس الكنيسة الرومانية المقدسة، وكان الملك هنري الرابع يدير شؤون امبراطورية الرومان، وكان الملك فيليب يحكم في فـرنسـا، وكـان ألكسيـوس يحمـل صـولجان ملـك الإغريق. وكانت يد الرب الرحيمة ترشد الجميع وتوجههم. فليكن الإجلال والمجد له إلى الأبد.

نهاية الكتاب الثامن

الكتاب التاسع

غودفري حامي القبر المقدس: تدابير وقائية لحماية القدس وأنطاكية

١ ـ اجتماع القادة في اليوم الثامن بعد الإستيلاء على القدس من أجل انتخاب واحد منهم ليشرف على المدينة والمناطق المجاورة. ورجال الدين ككل يبذلون جهودهم لمنع هذا الإجراء.

وهكذا تم بفضل نعم الله الزائدة رد المدينة المقدسة إلى الشعب المسيحي، وأعيدت الأمور إلى نصابها بعض الشيء، وانقضت سبعة أيام بكثير من الإبتهاج طبعت بالفعل بالخوف من الرب وبالسعادة الروحية، واجتمع القادة للتداول في اليوم الثامن، وكانت غايتهم، بعد استجداء النعمة من الروح القدس اختيار واحد منهم ليحكم البلاد ويحمل المسؤولية الملكية تجاه ذلك الإقليم.

وبينما كانوا يتدارسون المسألة، اجتمع أيضاً عدد من رجال الدين، المختالين بروح التيه والمصممين على مصالحهم أكثر من تصميمهم على مصالح يسوع المسيح. وأرسلوا رسالة إلى الزعماء يقولون فيها إن لديهم أموراً شخصية محددة رغبوا في عرضها أمام الذين كانوا جالسين للتداول، وقالوا عندما سمح لهم بالحضور: «لقد نقل إلى رجال الدين أنكم اجتمعتم بهدف انتخاب واحد منكم ملكاً، ويبدو هدفكم هذا لنا هدفاً مقدساً وحكيماً وجديراً بالتنفيذ بكل اهتمام إذا ما تم التوصل إليه بالطريق القويم، لكن لا شك أن المسائل الروحية أعلى أهمية من المسائل المؤقتة، ويجب لذلك دراستها قبل كل شيء، ونحن نرى من المتوجب عكس الترتيب، وقبل أن يتم التفكير باختيار رجل لمنصب مدني ينبغي أن يتم اختيار شخص صاحب حياة دينية مرضية للرب، شرط أن يكون قادراً على ترأس كنيسة الرب في سبيل تقدمها ومنفعتها، إنه إذا كان يرضيكم السير حسب هذا المنهج، فسيكون الأمر مقبولاً جداً بالنسبة لنا، وسنكون معكم جسداً وروحاً، وإذا كان لا يرضيكم، سنعلن أن أي شيء تقضونه بدون موافقتنا باطل ولا قيمة له».

وعلى الرغم من أن اقتراح رجال الدين هذا بدا ظاهرياً على أنه معقول وجدير

بالإحترام، إلاّ أنه قام في الواقع تحته الكثير من الحقد كما ستظهر النتائج ذلك[1]، وكان الزعيم الرئيسي لهذه الزمرة أسقف من كالبيرا مارترانو Martrano [مطيرة][2] وهو صديق حميم لأرنولف والذي قيل عنه في الصفحات السابقة ما فيه الكفاية، وكان الأسقف يخطط لوضع أرنولف لا غيره في الكرسي البطريركي، وهو رجل كان سيء السمعة بسبب سلوكه الخليع، مع أنه كان في المراتب المقدسة، كما كان علاوة على ذلك ابناً لقسيس[3]. وكانت سمعته خلال الحملة كلها عرضة للكلام العام وسط الناس، وكان المنشدون الفاسقون لمجموعة المغنين قد جعلوه أضحوكة لاغانيهم الفاسقة، لقد كان الرجل الذي كان الأسقف يحاول خلافاً للقوانين المقدسة وعلى الرغم من إرادة الرجال المبجلين، أن يرقيه لمنصب البطريرك رجلاً من هذا القبيل، وكان الأسقف نفسه رجلاً ذا عقل فاسد، ولم يكن لديه أي قيمة للشرف، ولهذا السبب تمكن بسهولة من التوصل إلى اتفاق مع أرنولف، كما يقول المثل القديم: « حسبما تكون الطبيعة الحقيقية للإنسان نراه يبتهج بصحبة ذوي التفكير ذاته، فالطيور على أشكالها تقع ».

---

(١) جاء وصف ريموند دي أغليرز ـ الذي يستمد وليم هذا الوصف منه ـ مبهم إلى حد ما للزمر التي كانت قائمة بين رجال الدين. ويذكر أسقف البارة كرئيس لأولى الزمر، ويذكر أسقف المطيرة كرئيس للزمرة الأخرىٰ، لكنه لا يوضح أي من الزمرتين عارضت انتخاب حاكم مدني قبل اختيار رئيس ديني. ويعتبر هاغنمير رواية وليم تفسيراً دقيقاً لوصف ريموند (هـ. هاغنمير « تأريخ أعمال الفرنجة لمؤلف مجهول » ص٤٧٩ الحاشية١٢) ومن جهة ثانية، يذكر زيموند اسم أسقف البارة مباشرة بعد الاحتجاج، ويشير إليه أيضاً على أنه كان لايتصرف بتواضع في تلك الأثناء. وعلاوة على ذلك، فقد عكس الاحتجاج ميولاً استقلالية، حتى وإن كان موقفاً متشامخاً نحو السلطات المدنية متنافياً مع سلوك أرنولف قبل أو بعد الانتخاب، وربما دُفع وليم لتوجيه اللوم إلىٰ أرنولف لأن العمل ذاته لاقىٰ اللوم في ذلك الوقت. ويبدو من المحتمل أن كل من وليم وهاغنمير كانا مخطئين في تعريفهما.

(٢) إن وضع هذا الأسقف وهو أرنولف صاحب المطيرة غامض إلى حد ما. ويعتقد أنه كان قسيس تانكرد، وكان طبيعياً، بسبب الممارسة المستمرة للصليبيين حتى الآن، وضع شخص ما من الجيش، الذي استولىٰ علىٰ مدينة ما، ليتولىٰ العناية بالكنيسة هناك. ولم يكن هناك بالضرورة أي تواطؤ حيث كان تانكرد هو الذي استولىٰ علىٰ بيت لحم. والظاهرة الأكثر بروزاً لهذا الحدث هي أن الصليبيين اعتبروا بيت لحم موائمة لأن تكون أسقفية. وكانت من قبل أبرشية تابعة لأسقفية عسقلان، وهي حقيقة كانوا كما يبدو يجهلونها.

(٣) على الرغم من أن القانون الكنسي كان قد حرم زواج الكهنة منذ أيام غريغوري الكبير فقد عانىٰ ذلك القانون من الإهمال، كما عانت من ذلك قوانين كثيرة أخرىٰ، في القرون الخمسة المضطربة التي تبعت. وكانت هنالك مجتمعات كثيرة حتى نهاية القرن الحادي عشر وخاصة في غربي أوروبا وشماليها اعتبر زواج الكهنة فيها مناسباً. هذا وقد غيرت الحملة القوية التي قام غريغوري السابع والبابوات الذي خلفوه ضد هذه الممارسة الموقف العام لأوروبا إزاءها. ووقعت حياة أرنولف في فترة هذا التغيير، ولم تضع ملابسات مولده، أي عائق لحياته الأولىٰ، لكنها أثيرت ضده في أعوامه الأخيرة، وتوجب وضع هذا الاتهام والإتهامات المتعددة الأخرىٰ ضده أمام البابا لإصدار الحكم القضائي الأخير فيها (انظر الكتاب ١١ الفصل٢٦).

كان هذا الرجل بالذات قد استولى على الكنيسة في بيت لحم، وعقد صفقة مع أرنولف قضت بترقية آرنولف إلى منصب البطريركية من خلال جهود الأسقف، وتؤول إثر ذلك الكنيسة المذكورة بدون مناقشة أو صعوبة إلى الأسقف على الدوام، ومهما يكن من أمر، لقد أنهى الموت فوراً جميع هذه الخطط التي كان يفكر بها، كما سيتم ذكر ذلك في الصفحات القادمة.

كان الدين النقي والشعور بالشرف قد سقطا من منزلتهما السامية، فقد انتشر الفساد في كل مكان، وكان يتدفق بلا ضوابط خلال قنوات محرّمة وذلك منذ الوقت الذي كان فيه أدهمر أسقف بوي، ممثل المقر البابوي، ذو الذاكرة الورعة في المسيح، قد استسلم فيه للموت، وتولى بعده وليم أسقف أورانج، وهو رجل متدين ويخاف الله، القيام بمسؤولية ذلك الواجب بعد موت أسقف بوي المقدس، وأدارها بإخلاص طوال حياته، لكن لم يمض سوى وقت قصير حتى اختطفه الموت من الحياة في المعرة، وحصل بعد موت هذين الرجلين كما يقول الرسول: «كما الشعب هكذا الكاهن» (١) ولم يستمر في النهج الصارم إلاّ أسقف الباره وعدد قليل من الآخرين الذين وضعوا الخوف من الرب أمام أعينهم (٢).

٢ ـ القادة يهملون معارضة رجال الدين ويختارون السيد الدوق. مرافقته بعد انتخابه، إلى قبر المسيح وسط أصوات المزامير الشجية والأناشيد الروحية.

عدّ الأمراء اعتراضات رجال الدين المذكورة في الفصل السابق اعتراضات تافهة ومبتذلة، وعلى الرغم من أنهم كانوا مصممين على تنفيذ خطتهم، تدارسوا الإقتراح، وتقول بعض الروايات أنه أجريت مقابلات سرية مع أفراد من أسر الذين اقترحوا للمقام الرفيع لكي يمكن تسيير الإنتخاب تمشياً مع إرادة الله، وأن تنال ميزات المرشح دراسة مطابقة للعرف، وأجبر كل رجل على أداء قسم بأن يقول الصدق دون الإنحراف عن الحقائق عندما يُسأل عن حياة وشخصية سيده، وتم اتخاذ هذا المنحى حتى يتمكن المنتخبون من الحصول على

---

(١) هوشع: ٤/٩.

(٢) وقعت مصاعب الحملة الصليبية بشدة على رجال الدين المسنين، فقد كان قد توفي تقريباً جميع رجال الدين ذوي المنازل العالية والذين كانوا قد بدأوا الحملة في عام ١٠٩٦ وحتى أسقف البارة لم يكن إلا كاهناً عندما بدأ الحملة ورقّي بعد الإستيلاء على أنطاكية. وبالفعل، لا يمكن اعتبار أياً من رجال الدين الذين كانوا بارزين في هذه الأثناء أنه تعرف على خطط البابا أوربان بشكل مباشر أو حتى غير مباشر. ويقيناً، اعتبرت المجموعة الصغيرة لرجال الدين في زمرة ريموند التي كان الأسقف أدهمر التحق بها نفسها أقرب إلى حد ما إلى الآراء الرسمية للكنيسة، هذا وقد ضعف نفوذها بسبب عدم وجود شعبية للكونت ريموند، ووجب على الرجال الأصغر سناً تنفيذ المهمة الفورية في القيام بتنظيم الكنيسة اللاتينية، إلا أنهم كانوا على اطلاع قليل على خطط الكنيسة ككل وسياساتها.

معلومات كاملة ودقيقة بخصوص كفاءة المرشحين العديدين وعندما سئل هؤلاء الناس فيما بعد اسئلة دقيقة من قبل المنتخبين، ألزمهم اليمين التي كانوا قد أدوها على الإعتراف تحت ضمان السرية بأخطاء كثيرة بالإضافة إلى المزايا المتوقرة في أسيادهم، وكان الأمل معقوداً على أن يتم إلى التوصل إلى حكم عادل حول شخصية وسمات كل واحد. من المرشحين، وعندما تم استجواب أعضاء من حاشية غودفري أعلنوا أنه من بين جميع أعمال الدوق النبيل. بدا العمل التالي لهم العمل الأكثر أهمية: عندما دخل في إحدى المرات كنيسة تعذر إقناعه بمغادرتها حتى بعد انتهاء إقامة القداس الديني؛ وقد تابع يسأل الكهنة وآخرين مطلعين على مثل هذه المسائل حول معنى كل تمثال ورسم حتى ضجر رفاقه، الذين كانت اهتماماتهم مختلفة، إلى أبعد الحدود، وعلاوة على ذلك، أصبحت الأطعمة التي كانت قد أعدّت لساعة محددة موائمة، مطهوة كثيراً وبلا طعم عندما تم تناولها أخيراً وذلك بسبب عادته هذه، نتيجة للتأخير الطويل(١).

وهتف المنتخبون عند سماعهم لهذه الشكوى: «يالسعادة من يتحلى بهذه الصفات المنسوبة إليه على أنها نقيصة، في حين سيتباهى بها الآخرون على أنها فضيلة»! وبعد تقليب لجميع أوجه المسألة بدقة وافق المنتخبون بالإجماع على الدوق على أنه موضع اختيارهم بعد دراسة، وانتخب غودفري وتمت مرافقته بورع كبير إلى قبر المسيح بمصاحبة غناء الأناشيد والمزامير.

هذا ويروى أن غالبية المنتخبين قد وافقت على اختيار ريموند(٢) كونت طولوز، ذلك أنهم قد عرفوا أنه إذا لم يحصل على المملكة، عقد العزم على العودة إلى الوطن على الفور، ولهذا السبب، اخترعوا اسباباً كثيرة حتى ضد أوامر الضمير، حول سبب اعتبار الكونت غير

---

(١) كان غودفري قد أصبح مع أيام وليم معترفاً به ليس فقط كبطل قومي، بل أيضاً كبطل للعالم المسيحي اللاتيني وموضعاً طبيعياً للصفات الأسطورية، وكانت قصص فرسان الملك آرثر تتلقى شكلها النهائي عندما كان وليم يكتب، وكان الفرسان الذاهبين إلى القدس والفرسان الذاهبين إلى الكنائس المقدسة مختلطين بسهولة، ولا تؤيد التسجيلات التاريخية هذه الأسطورة الرائعة لتقوى غودفري على الرغم من وجود أمثلة متعددة لأعمال ورعه في أواخر حياته.

(٢) تعتمد هذه القصة على ذمة ريموند دي أغليرز، ولا شك أنه كان كل واحد من القادة هو الاختيار الأول لاتباعه الأكثر ورعاً لذلك المنصب السامي، وكان زملاؤه ميالين فيما بعد للإعتقاد أنه كان بإمكانه أن يحصل عليه، وقد ظهرت إلى الوجود أساطير مشابهة حول روبرت أوف نورماندي وروبرت أوف فلاندرز (انظر س.و. ديفيد روبرت كورتهوز ص١١٩ - ١٢١، ١٩٨ - ٢٠٠) هذا ولا تعطي التقسيمات السياسية التي تشكلت في الجيش أي أساس للافتراض أن الكونت ريموند قد تمكن من الحصول على أية أصوات خارج جيشه، وفي الواقع، يوضح قسيسه بشكل لا لبس فيه أن أتباعه هم الذين كانوا سيؤيدونه وليس جميعهم.

مناسب للمنصب وكان يجرهم في ذلك شوق شديد لتربة بلادهم الحبيبة، وعلى الرغم من هذا كله رفض ريموند بإذدراء دعوة وطنه، وتبع المسيح بتكريس ولم يعد إلى الوطن، وعلى العكس، واصل رحلة الحج التي كان قد بدأها من قبل وإلى الأبد، واتبع الفقر طوعاً حتى النهاية، لأنه عرف أن «الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يتخلص»[١] وعرف أيضاً: «ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الله»[٢].

٣ ـ الدوق يطالب بعد ارتقائه العرش كونت طولوز بتسليمه برج داود الذي كان ريموند قد انتزعه من العدو. نشوب خلاف بين القادة وتملك غودفري البرج في النهاية حسب طلبه.

عندما استلم السيد الدوق السلطة العليا للمملكة بموافقة جماعية، كان كونت صنجيل ما يزال يسيطر على قلعة المدينة، أي برج داود، وحسبما سلف بنا القول كان العدو قد سلمه هذا البرج في البداية، وكان الصرح مبنياً من أحجار منحوتة ضخمة، ومقاماً في الجزء الأعلى من المدينة، مواجهاً للغرب، يمكن من ارتفاعه الشاهق رؤية المدينة بأسرها.

وعندما وجد الدوق أن هذا المعقل الأخير للمدينة بأسرها كان ما يزال خارج نطاق سيطرته شعر أن سيادته الشاملة كانت ناقصة بدونه، ولذلك، فقد طالب في اجتماع القادة أن يسلمه الكونت له، لكن ريموند أجابه قائلاً بما أن العدو كان قد أعطاه له، فهو يرغب بالإحتفاظ به حتى حلول عيد الفصح، فهو قد عقد العزم على القيام برحلة بحرية في هذا التاريخ والعودة إلى الوطن، فامتلاك القلعة سيضفي على موقفه أهمية أكثر بينما هو منتظر في المملكة مع رجاله، وأجاب الدوق بأنه سيتخلى عن الحكم بالكامل ما لم يُسلّم البرج له، وأعلن أن الأمر سيكون مخزياً له بعدما جرى تعيينه حاكماً مطلقاً أن يبقى معقل المدينة تحت سلطة رجل آخر عليه أن يعتبره مساوياً له أو أسمى منه.

انحاز كل من كونت نورماندي وكونت فلاندرز إلى جانب الدوق، وحتى أصدقاء كونت صنجيل ساعدوا الزمرة المضادة له، لأنهم أملوا انهم سيتمكنون بهذه الطريقة على الأمل من تقديم مسوغ لسيدهم للمغادرة[٣]، وكانت النتيجة أن وضع البرج وبموافقة عامة

---

(١) متى: ١٣/٢٤.

(٢) لوقا: ٦٢/٩.

(٣) ربما كان هذا التقسيم الحزبي هو انعكاس للخطوط الثابتة للمشايعة التي كانت قد تشكلت: لم يتلقا ريموند الدعم الكامل من رجاله من ناحية أولى، ولا من غودفري وتانكرد وروبرت أوف فلاندرز وروبرت أوف نورماندي من ناحية ثانية. وربما كانت رغبة ريموند بالاحتفاظ ببرج داوود هو التفنيد الأوضح للإدعاء القائل إنه كان قد رفض اختياره كحاكم للقدس (انظر الحاشية ٧).

في رعاية أسقف الباره كوصي عليه، حتى يمكن اتخاذ قرار بحق الشخص المتوجب إعطاؤه البرج بشكل شرعي، هذا ويروى أن هذا الأسقف سلم البرج إلى الدوق قبل التوصل إلى حل للقضية، ودون انتظار القرار، وعندما وجه بعض الأفراد هذا الإتهام إليه فيما بعد، أكد علناً أنه كان قد أجبر على عمل ذلك بالقوة.

وكان الكونت مليئاً بالحنق وغضب كثيراً، لأنه شعر أنه قد جُرّد من البرج بطريقة شائنة جداً، وعلاوة على ذلك، بدا له أن موقف القادة الآخرين نحوه لم يكن ودياً أبداً، كما توجب أن يكون، وأنهم لم يكن لديهم سوى القليل من التذكر للخدمات الكثيرة التي كان قد منحهم إياها خلال رحلة الحج. ولهذا نزل إلى الأردن، وبعدما اغتسل بمياهه، استعد للعودة إلى وطنه ليشبع رغبات أصدقائه.

٤ - أسقف مطيرة Matera الماكر الخبيث يحاول ترقية أرنولف - وهو رجل من نوعيته - إلى منصب البطريركية، لكنه يخفق. اكتشاف صليب الصلبوت.

استمر أسقف مطيرة الخبيث المخادع طوال هذا الوقت على تحريض الناس الجهلة ضد الزعماء الورعين، ودسّ بتأثير الحسد، بأن القادة لم يرغبوا بتزويد الكنيسة براع لها، لأنه بإمكانهم السيطرة عليها بشكل أكمل وهي تفتقر إلى رئيس لها، واختار أرنولف، بدعم الموالين له من طينته نفسها، ووضعه من الكرسي البطريركي على الرغم من معارضة الباقين، وقد اعتمد في هذا الإجراء على مساعدة كونت نورماندي[١]، حيث كان أرنولف صديقه ورفيقه خلال الحملة بأكملها، كما اعتمد على أصوات الناس الحمقى التي أدلوا بها بإعداد قائم على الغش[٢]. لكن لم يتمتع أي من الإثنين بنتيجة هذه المكيدة طويلاً، فقد أجبر أرنولف بسرعة على التخلي عن المنصب الذي كان قد اغتصبه بطيش، كما أن النصير الوقح لسلوكه الشائن قد جنى أيضاً الثمرة المناسبة لأساليبه قبل مضي وقت طويل.

وصدف أن أكتشف في هذا لوقت بالذات جزء من صليب الصلبوت في زاوية منعزلة من كنيسة القيامة، وكان المؤمنون الذين أقاموا بخوف تحت نير الشعوب قد خبأوا هذا الجزء من الصليب منذ فترة طويلة من الزمن، ولم يطلعوا إلا عدداً قليلاً على السر، واكتشف

(١) من المحتمل تماماً أن روبرت أوف نورماندي دعم قسيسه للحصول على المنصب، ومن المعقول تماماً أنه ربما قد ألقى بصوته لصالح غودفري على أساس تفاهم أن أرنولف سينال الدعم للفوز بالبطريركية.

(٢) لا بد أن شعبية أرنولف قد قامت على أسس جوهرية، ويبدو من غير المحتمل أن تكون مجموعة من الرجال حركها الورع، كما كان حال الصليبيون في ذلك الوقت قد وافقت على انتخابه كبطريرك، لو لم تكن الحالة كذلك، ويظهره كل من ألبرت ورالف أوف كين كأنه بطل من الأبطال الحقيقيين للحملة.

الكنز الثمين مخفياً داخل صندوق ذهبي بواسطة الجهود الحماسية التي بذلها أحد المسيحيين السريـان الذي كان قد شهد تخبئته، ونقل أولاً بصحبة غناء المزامير والأناشيد الروحية إلى قبر المسيح؛ ثم إلى الهيكل، وتبعه رجال الدين والناس كتلة واحدة، وكان هنالك شعور مشترك بين المسيحيين وهو أن السماء قد أرسلت هذه الهبة كعزاء وجزاء مناسب لجميع مشقـاتهم ومعاناتهم[١].

٥ ـ من هو الدوق غودفري ـ من أين أتى ومن أي آباء انحدر ـ كل هذا مفصل فيما يلي.

منح الدوق غودفري، الذي ورد ذكر اسمه مراراً في هذا التاريخ، التثبيت، بنعمة الله، كسيد أعلى للمملكة وأنهيت جميع المشاحنات المعارضة، ثم بدأت المملكة تقوى، وأصبحت جيدة التأسيس خلال أيـام حكمـه، ومـع ذلـك، حكـم غـودفـري لمدة سنـة واحدة[٢]، لأن آثام الناس حظرت انتعاش الغرسة الطرية للسيادة المسيحية ومنعت تشجيعها لتقف في وجه المحن التي هددتها من خلال الخدمات الأطول عمراً لهذا الملك العظيم، لقد اختطف من بين الناس خشية أن يتغير قلبه بالشر كما هو مكتوب: «باد الصديق وليس أحد يضع ذلك في قلبه»[٣].

يعود أصل غودفري إلى مملكة الفرنجة، حيث ولد في مقاطعة الرايمز في مدينة بولون الواقعة على البحر الإنكليزي، وانحدر من سلسلة نسب ذات أجداد مشهورين يخافون الله، وكان والده، اللورد يوستاس الأكبر، كونتاً عظيماً ومشهوراً من تلك المنطقة ذاتها، وكانت المآثر التي قام بها كثيرة، ولا يزال الرجال العظماء من المناطق المجاورة يجلّون ذكراه كرجل متدين يخاف الله بالإضافة إلى ذكراه الورعة، وكانت والدته، إيدا Ida، ذات نسب رفيع ومتميزة بين عقيلات الغرب النبيلات بشخصيتها النبيلة ومنزلتها الممجدة، كانت أختاً

---

(١) حسب الروايات الأكثر معاصرة، كانت مبادرة أرنولف هي التي أدت إلى استعادة الأثر المقدس. هذا ولم يسمح حقد وليم له في أن يضم هذا الرمز الهام لإحسان الرب إلى اسم أرنولف.

(٢) كان لقب غودفري الحقيقي، الذي لم يذكره وليم هو: «المحامي عن القبر المقدس» وكان يشار إليه عادة باسم «الدوق» أو باسم «أمير» أحياناً، كما أن الورع الكبير الذي شعر به الصليبيون في توليهم العناية بالمدينة المقدسة أدى في ذلك الوقت إلى الاعتقاد أنه كان من الخطأ ارتداء التاج الملكي حيث كان المنقذ قد ارتدى تاج الشوك وكان الاعتقاد قد تغير كثيراً بحلول زمن وليم حيث شعر أنه مما يحط باسم غودفري عدم تسميته ملكاً (انظر التمهيد وكذلك ج.ل.لامونت «الملكية الاقطاعية في المملكة اللاتينية في القدس ـ ١١٠٠ ـ ١٢٩١ ص٤ وهاغنمير المؤرخ المجهول ص٤٧٨ ـ ٤٨٠).

(٣) اشعيا: ١/٥٧.

لغودفري الممتاز لصاحب المعالي غودفري دوق اللورين، المكنى ستروما، Strona وحيث لم يكن لدى الدوق أطفال، فقد تبني ابن اخته غودفري وجعله وريثاً لمكل ممتلكاته، وخلف غودفري خاله في الدوقية بعد وفاته [١].

وكان لغودفري الشاب ثلاثة إخوة كلهم جدير بمنزلته الشخصية والشجاعة البارزة ليكونوا إخوة لمثل هذا النبيل العظيم، وكان من بين هؤلاء بلدوين كونت الرها الذي أصبح بعد غودفري حاكماً على القدس، ويوستاس كونت بولون الذي حمل اسم أبيه، وورث ممتلكاته وحكم الكونتية بعد وفاته وتزوجت متيلداMatilda ابنة يوستاس هذا ستيفن ملك الإنكليز اللامع والرائع [٢].

وعندما توفي بلدوين دون أن يعقب اطفالاً استدعي أخوه يوستاس من قبل قادة الشرق ليرث المملكة، لكنه لم يكن راغباً بالذهاب لأنه خشي أن ارتقاءه للعرش لن يكون بدون نزاع [٣].

كان ولم الأخ الثالث لغودفري، رجلاً شهيراً لم يقصر عن إخوانه في السمو والنشاط والفعالية التي ميزت والده وإخوته، ولحق الأخوان المذكوران أولاً سيدهما وأخاهما في الحملة بينما، بقي الأخ الثالث، ولم في الوطن [٤].

تميز غودفري، الأخ الأكبر سناً، بنبل الشخصية أيضاً، بقدر ما تعلق الأمر بالصفات الداخلية للإنسان، وأسرعت الأسبقية إليه بشكل صحيح، كان رجلاً ذا شخصية دينية عميقة، وكان ورعاً ويخاف الله ورحيماً وعادلاً، وكان جاداً وثابتاً في القول، وقد تجنب جميع السبل الشريرة. واحتقر غرور العالم، وهي سمة كانت نادرة في زمنه، وخاصة لدى إنسان انتمى إلى المهنة العسكرية، وكان يثابر على الصلاة ويواظب على الأعمال

---

(١) انقضت ست سنوات تقريباً بعد وفاة غودفري الأحدب قبل أن يمنح هنري الرابع غودفري الدوقية. وكان غودفري قد حارب بإخلاص في خدمة هنري خلال ذلك الوقت، حتى أنه ساعد هنري في الحملة الايطالية ضد غريغوري السابع، وأصبح دوقاً للورين الأدنى في عام ١٠٨٢.

(٢) كان ستيفن، ملك انكلترا ١١٣٥ - ١١٥٤، الابن الثالث لستيفن هنري أوف بليوس وحفيداً لستيفن، الصليبي صاحب السجل الملطخ، وآدل، ابنة ولم الفاتح، كما أن الإجلال السامي الذي أضفاه ولم عليه يخالف مخالفة بارزة الرأي الوضيع الذي أظهرته العصور اللاحقة نحوه، وكان في الواقع رأياً وضيعاً جداً، لدرجة أن اسمه لم يظهر، مثل اسم جون، في قائمة الملوك الإنكليز منذ ذلك الوقت.

(٣) انظر الكتاب ١٢ الفصلان ١ و ٢.

(٤) لا يذكر كتاب آخرون هذا الأخ - ولم - كما أنه لا يظهر في جداول أنساب الأسرة. (انظر لامونت «الملكية الاقطاعية» الملحق) وقد افترض عموماً أن يوستاس كان الأكبر وبلدوين الأصغر لأخوة ثلاثة.

الصالحة، ومشهوراً بسخائه. وكان لطيفاً ودمثاً، وأنيساً وصبوراً، وأظهر نفسه جديراً بالثناء ومرضياً لله في جميع أساليبه.

كان طويل القامة، لكن ليس كثيراً، إلا أنه كان أطول من الرجل المتوسط القامة، وكان قوياً بشكل يفوق المقارنة، ذا أوصال متينة البنية وصدر قوي وكانت ملامحه سارة، وكانت لحيته وشعره متوسطي الشقرة، وبحكم الجميع لم يكن له ند، في استخدام السلاح وممارسة الأساليب العسكرية.

٦ ـ تنبؤ والدته حول الوضع المستقبلي لأبنائها.

كانت والدة هؤلاء الأمراء العظام امرأة ورعة، ومتدينة ومرضية لله امتلأت بروح القدس وقد تنبأت بأحداث مستقبلية وبالحالة التي قدرت لأبنائها عندما يكبرون، وذلك عندما كانوا ما يزالون صغار السن، وكأنما جاءها هاتف سماوي بذلك. وحدث في إحدى المناسبات عندما كان أطفالها يلعبون معاً حولها؛ كما هي عادة الأطفال، ويضربون بعضهم بعضاً، وغالباً ما يهرعون للجوء إلى حضن والدتهم، أن دخل والدهم الكونت يوستاس المبجل، وكان الأطفال، المختبئون تحت طيات عباءتها، يتحـدون بعضهم بعضاً بحركات نشيطة للأيدي والأقدام، ولاحظ الكونت الإضطراب تحت العباءة وسأل عن الذي كان يتحرك بسرعة زائدة هناك، ويقال إنها أجابته على النحو التالي: «إنهم ثلاثة أمراء عظام، سيكون أولهم دوقاً، والثاني ملكاً والثالث كونتاً»، وتحققت هذه النبوءة، بالتدبير اللطيف للرحمة السماوية، فيما بعد، وأثبتت الأحداث اللاحقة صحة تنبؤات الأم، لأن غودفري الابن الأول ورث ـ كما سبق بي القول ـ الدوقية إثر وفاة خاله، وأصبح في وقت لاحق ملكاً لمملكة القدس بناء على اختيار جماعي من قبل الزعماء، وخلفه بلدوين، الأخ الثاني الذي يليه في السن، على هذا العرش، بينما خلف الأخ الثالث يوستاس والده بعد وفاته كوريث وحيد لجميع ميراث الأجداد، وهذا كله سبق لي روايته.

وحذفت عن عمد قصة الوزة حيث تقول الأسطورة إن هؤلاء الإخوة انحدروا منها، لأنها تبدو قصة واهية وبلا أساس على الرغم من أن كتاباً كثيرين رووها على أنها صحيحة[1].

٧ ـ أخبار إنجاز لا ينسى حققه غودفري في اشتباك واحد.

تقف مأثـره بارزة لهذا الرجل الشهير تستحق السرد في هذا الكتاب، فقد أجبر ذات مرة على المشاركة في قتال فردي، على الرغم من إرادته، حيث لم يكن رفضه ممكناً، حسب

---

(١) روى ألبرت أسطورة الانحدار من الوزه، ولم يستطع وليم الذي اعتاد أن يصدق كل أسطورة حول غودفري، لم يستطع أن يمد رداء ثقته ليغطي هذه الأسطورة.

عادة البلاد، دون فقدان للشهرة، فقد كان قد عانى في بلاط الإمبراطور من ظلم أحد النبلاء الملحقين به، ويروى أنه كان واحداً من أقربائه، وتعلقت المسألة التي نحن بصددها ببعض الممتلكات الكبيرة وبميراث واسع المساحة، وحُدّد يومٌ للمحاكمة، وظهر كل من المدّعي والمدّعى عليه في بلاط الإمبراطور في الوقت المحدد، وعرضت المسألة المتنازع فيها وقدّم النبيل المذكور سابقاً، ادعاءه ودافع الدوق عن نفسه بقدر ما استطاع، وقضى بإجراء مبارزة فريدة بين المتقاضيين حسب قوانين البلاد، وحاول نبلاء الإمبراطورية العظماء عبثاً منع هذين الرجلين المشهورين من عرض مشهد لا يليق بهما أمام الناس، لأن شرف وسمعة هذا أو ذاك لا بد وأن تتعرض للأذى في مثل هذه المبارزة بدون مسوغ. ومع ذلك، جرى تنفيذ الحكم الإمبراطوري، وتبعاً للتقاليد تحلق النبلاء واحتلوا أماكنهم، واحتشد العامة من الناس لدى دخول المتبارزين إلى الساحة المعينة للمحاكمة لأختبار النتيجة المشكوك بها في محنة قائمة على مبارزة فردية.

وبينما كان هذان الرجلان المشهوران واللامعان يتحاربان بشجاعة بكل قـوتيهما، ارتطـم سيف الدوق بترس خصمه وانكسر، ولم يبق منه إلا قطعة لا يتجاوز طولها نصـف قدم بدءاً من المقبض الذي كان ما يزال يحمله في يده، وأعلن النبلاء الحاضرون عن هدنة لإدراكهم أن وضع الدوق قد أصبح خطيراً جداً، وذهبوا إلى الإمبراطور، وتوسلوا إليه بتذلل أن يُسمح لهم بالتوصل إلى حل وسط بين النبيلين العظيمين، وبينما كانوا يدرسون القضية باهتمام أعلن الدوق بشكل لا يقبل الجدل أنه يرفض الإستفادة من الجهود لصانعي السلام المنشود، وعاد بعناد مصمم إلى الميدان ليجدد القتال.

وكان سيف الخصم ما يزال سليماً، وبدا الآن على أنه فاز باليد العليا، وهاجم الدوق بعنف ورفض أن يمنحه أية استراحة، ومع ذلك، استرد غودفري أخيراً مهارته المألوفة التي اشتهر بسببها كثيراً، واندفع، يحثه الغضب، بقبضة سيفه المكسورة في يده ووجه ضربة قوية إلى خصمة على صدغه الأيسر سقط على إثرها نصف ميت إلى الأرض، وبدا بالفعل بكل مظهره الخارجي ميتاً تماماً.

رمى غودفري من يده الأجزاء المتبقية من سيفه، واستدعى حاملاً بيده سيف خصمه المتمدد، النبلاء الذين كانوا قبل فترة قصيرة قد تكلموا معه حول إيجاد تسوية. وتوسل إليهم أن يرتبوا شروط معاهدة الصلح، وأن ينقذوا الرجل المشهور ـ الذي كان قد هزم ـ من موت شائن كهذا.

ورتب النبلاء معاهدة صلح وهم مشدوهون بشجاعة الدوق الرائعة ورحمته التي لا

تضاهى. وهكذا، انتهى النزاع نهاية مشرّفة وبطريقة بقي الدوق فيها منتصراً واعتبر عموماً على أنه جدير بالمجد الخالد [1].

٨ - مأثرة غودفري نفسه التي لا مثيل لها في مسألة انتصار الإمبراطور هنري على رودلف ملك ساكسوني المزيف.

هنالك مسألة أخرى ليست أقل شهرة وستبقى خالدة إلى الأبد في ذاكرة الرجال نراها جديرة في أن تدرج في هذا الكتاب: كان الساكسون، وهم الشعب الأكثر ضراوة بين جميع الشعوب الجرمانية، قد رفضوا تحمل نير الإمبراطورية الرومانية، وكانوا راغبين بالتجول بحرية ودون قيد، ولذلك طرحوا جانباً جميع أسس الإنضباط التي قيدتهم وتمردوا على الإمبراطور هنري؛ واتسعت هذه الوقاحة المقررة إلى نطاق كبير لدرجة أنهم نصبوا عليهم ملكاً معارضاً للإمبراطور، واسم هذا الملك رودلف Rudalph وهو كونت من نبلاء شعبهم [2].

أثارت هذه الإساءة الإمبراطور، فاستدعى جميع أمراء امبراطوريته. ولدى اجتماعهم بحضرته، عرض عليهم الإساءات المقترفة بحقه والمعروفة بشكل جيد للجميع ودعاهم إلى الإنتقام، وحيث كان الجميع متحمسين لمجد الإمبراطورية وغاضبين من السلوك الشائن الذي ارتكبه الساكسون، قدّموا خدماتهم ووعدوا بالجنود، وأعلنوا أنه يجب عدم التغاضي عن إساءة كهذه ضد الإمبراطورية الرومانية، بل يجب أن يكفر الموت عنها ويجب على السيف المنتقم أن يمحق الجريمة المقترفة بحق صاحب الجلالة.

وبناء على ذلك اجتمع القادة تبعاً لأمر الإمبراطور في اليوم المحدد والمكان المعين، حسب الترتيب الموضوع، قائدين معهم آلافاً لا تحصى من الجند، وأتى الأمراء الكنسيون والمدنيون من جميع مناطق الإمبراطورية، وكانوا مصممين على غزو بلاد الساكسون بالقوة والإنتقام بجريمة رهيبة من هذا القبيل.

---

(١) لا يوجد في التاريخ الألماني قاعدة معروفة لهذه القصة.

(٢) كان رودلف دوق سوابيا قد انتخب ملكاً مضاداً في فورشهيم في عام ١٠٧٧، وكان هذا العمل حدثاً من أحداث النزاع من أجل تقليد المنصب بعد كفارة هنري الرابع في كانوسا، واستمر النبلاء الألمان الساخطون، والذين كانوا قد أملوا بتأييد بابوي، في العمل من أجل انتخاب ملك مضاد على الرغم من مصالحة هنري مع الكنيسة، ولذلك، فقد ضعف تأييد رودلف كثيراً، على الرغم من أن السكسون واصلوا القتال حتى بعد هزيمة رودلف ووفاته في عام ١٠٨٠.

اقترب اليوم المحدد للمعركة، وصفت فيالق كلا الجيشين استعداداً للمعركة، وكانت جاهزة للعمل، ثم استدعى الإمبراطور رجالة القياديين، واستفسر عمّن يمكن من مجموعهم أن يعهد إليه بأمان بالراية الإمبراطورية، ويجعله قائداً أعلى للجيش الضخم، وكانت الإجابة فورية وإجماعية وهي إن غودفري دوق اللورين، هو الرجل الأكثر مقدرة والأنسب لتلك المسؤولية، ولذلك، عهد الإمبراطور إليه بشعار النسر، لكونه الشخص الذي اختارته آلاف كثيرة من الناس، وكان، برأي الجميع، رجلاً صاحب تفوق فريد من نوعه، ومهما يكن من أمر قبل غودفري نفسه هذا المقام الرفيع على مضض وكراهية.

وحدث في ذلك اليوم بينما كان الجيشان في كلا الطرفين يتحاربان بشجاعة، ويهجمان بعنف على بعضهما بالسيوف، أن انتقل الدوق، الذي كان يقود قوات الإمبراطور مع شعار النسر، إلى الصفوف التي كان يقودها الملك المزيف رودلف، ووجّه بذلك القوات التي كانت تحت إشراف الإمبرطور إلى هناك، وتفرقت صفوف الملك باضطراب كامل عندما وصل غودفُري إليها، وأغمد الدوق، وأمام عيون الإمبراطور وعدد من نبلائه، الراية التي كان يحملها في قلب الملك، ثم قذف جثة الملك الميت على الأرض ورفع الراية الإمبراطورية عالياً وكانت ملطخة كلها بدم الملك.

وعندما رأى الساكسون ملكهم قد صَرِع، إنهاروا واستسلموا إلى الإمبراطور، وفُرضت التعويضات عليهم بما يعادل طبيعة إساءتهم، وأعيدوا إلى الرعاية الإمبراطورية بعدما أعطوا رهائنهم وأسلحتهم كضمان بأنهم لن يقوموا ثانية بمحاولة مشابهة.

لقد سجلنا هذه المآثر لكي يُعرف كم كان مقام هذا الرجل الشهير، الذي نتدارسه الآن، عظيماً بين أمراء العالم الأكثر قوة، لأنه لا يستطيع أحد أن يشك في أن ذلك الرجل الذي اختاره بالإجماع أمراء مشهورون لا مثيل لهم في العالم، كان بالفعل رجلاً عظيماً جداً، لا بل هو الأفضل، لا سيما وأنه نفسه قد أكد صواب هذه الحقيقة بمآثر بارزة كهذه وأظهر لهم ببرهان حقيقي أن تقديرهم له كان صحيحاً.

نفذ هذا الرجل المشهور مآثر كثيرة رائعة أخرى كلها جدير بالإعجاب وهي أعمال ما تزال تروى حتى اليوم بمثابة حكايات عادية، وكان من بين أعماله العمل التالي: عندما صمم غودفري على المضي في رحلة الحج، أعطى قلعة بولليون المعروفة بشكل جيد إلى كنيسة لييج بكل سخاء وورع، وهي القلعة التي كان قد أخذ اسمه منها، وقد اشتهرت بأراضيها

وبموقعها وبتحصيناتها وبجميع المزايا النابعة عن أراضي واسعة ممتدة عبر منطقة شاسعة[1].

ومنذ أن أخذنا على عاتقنا وصف المآثر التي قام بها بيننا فقط، فلنعد إلى سياق الخبر.

٩ ـ سخاء الدوق الورع نحو كنائس القدس. كيف أنه رفض بسبب تواضعه أن يكلل بالتاج الملكي.

كان غودفري رجلاً ورعاً، وكان قلبه مليئاً بالإهتمام الورع بجميع ما اتصل بإجلال بيت الرب، وقد بدأ يقدم للمسيح الثمار الأولى لمسؤوليته بعد أيام قليلة من انتخابه حاكماً للمملكة، وعين الكهنة في كنيسة القيامة وفي هيكل الرب، ومنحهم منافع وافرة معروفة باسم أوقاف الكنيسة وأعطاهم أيضاً في الوقت نفسه منازل فخمة تقع في المنطقة المجاورة لهاتين الكنيستين حبيبتي الرب، وحافظ على القاعدة والأنظمة التي تقيدت بهما الكنائس الثرية والعظيمة التي أسسها أمراء عظماء وراء الجبال، ولو لم يكن الموت قد اختطفه لكان قد أضفى هبات أكبر عليها.

وعندما كان هذا الرجل، حبيب الله، على وشك الشروع برحلة حجة، قاد معه في حاشيته رهباناً من أديرة جيدة التنظيم، ورجالاً متدينين مشهورين بسيرهم المقدسة، وأقام هؤلاء الرهبان الطقوس الدينية له حسب عادة الكنيسة خلال رحلة الحج بأسرها، في الأوقات النظامية في الليل والنهار، وبعد أن حصل على السلطة الملكية، عينهم استجابة لمطلبهم في وادي يهوشافاط ومنحهم هنالك مكافأة على خدماتهم أراضي ذات امتداد واسع[1].

سيتطلب الأمر وقتاً طويلاً لتعداد الهبات العظيمة التي منحها بسخاء ورع إلى كنائس الرب، إلاّ أنه يمكن أن نرى من محتويات الإمتيازات الممنوحة للكنائس كم كانت كثيرة وقيمة الهبات التي أعطاها هذا الرجل ـ المملوء بروح الله ـ للأماكن المبجلة في سبيل خلاص روحه، ومع ذلك رفض بعد ارتقائه العرش ـ بسبب تواضع روحه ـ أن يكلل بتاجٍ من

---

(١) وهب كل من غودفري وبلدوين الكثير من ممتلكاتها إلى أساقفة ورؤساء أديرة مجاورين لهم قبل أن يبدأ الحملة الصليبية، وكانت بعض التنازلات بلا شك قد وضعت على شكل رهينة للحصول على المال للرحلة، هذا وكان بعضها هدايا عكست الورع الحقيقي (انظر ر. روهرخت «تاريخ الحروب الصليبية» ص٦٠ ـ الحاشية ٤).

(٢) أصبح دير القديسة ماري هذا في وادي يهوشافاط على الفور واحداً من أكثر الأديرة شعبية وثراءً بين الأديرة اللاتينية في الأرض المقدسة. وعُين بلدوين راعي هذه المجموعة الأهلية من الرهبان كأول رئيس أساقفة لاتيني لقيسارية. وجرى منح هبات من الأراضي من أجزاء مختلفة في أوروبا لدعم هذا الدير. (س. كوهلر «لائحة دير نوتردام في وادي يهوشافاط في الأراضي المقدسة» ١١٠٨ ـ ١٢٩١) (دورية الشرق اللاتيني: ٧ [١٩٠٠] ١٠٨ ـ ٢٢٢).

الذهب في المدينة المقدسة، كما هي عادة الملوك، لأنه كان قانعاً بالتاج الشوكي، وأظهر تبجيلاً له، وهو التاج الذي كان منقذ الجنس البشري قد لبسه في تلك المدينة ذاتها، من أجل إنقاذنا حتى معاناته لآلام الصليب، ولهذا السبب، يتردد بعض الناس الذين لا يقدرون خدمات غودفري في وضع اسمه في قائمة الملوك، حيث يعتبر أولئك الأعمال الظاهرة المنفذة في الجسد على أنها ذات قيمة أكبر من أعمال روح مؤمنة مرضية للرب، وبالنسبة لنا لا يبدو ملكاً فقط بل أفضل الملوك، ومرآة ونوراً للآخرين، وحقاً ينبغي عدم الإعتقاد أن هذا الأمير المؤمن قد احتقر هبة التكريس والأسرار المقدسة للكنيسة، بل إنه احتقر إلى حدٍ ما خيلاء وغرور العالم الميال إليه كل مخلوق. ففي روح من التواضع رفض التاج الذي سيفنى، بأمل الحصول في الدار الآخرة على تاج لن يتلاشى أبداً »[١] .

١٠ ـ أمير مصر يحشد قواته المسلحة من كل صنف ويزحف إلى سورية ضد المسيحيين.

لم يكن قد مضى وقت طويل على الإستيلاء على المدينة، ولم يكن القادة الذين فازوا بالمدينة لخدمة الرب قد افترقوا بعد، عندما بدأت تنتشر شائعة ثبت فيما بعد أنها كانت صحيحة، فقد أشيع أن خليفة مصر، الحاكم الأقوى بين الشعوب الشرقية، كان قد استدعى القوات العسكرية من جميع المناطق الواقعة تحت سيطرته، وجمع جيشاً ضخماً، وقد غضب لأن شعباً همجياً من المناطق النائية للعالم قد غزا مملكته واستولى بالقوة على إقليم كان خاضعاً له، واستدعى الأفضل، القائد العام لجيوشه والمعروف أيضاً باسم أمير الجيوش وأمره أن يجمع جميع شباب مصر وكامل قوى الإمبراطورية أيضاً، وتوجب عليه أن يزحف بهذا الجيش إلى سورية ليزيل عن وجه الأرض ذلك الشعب المغتصب، حتى يزول اسمه من الوجود.

انحدر الأفضل من أصل أرمني، وكان والداه مسيحيين، إلا أنه تخلى عن خالقه بعدما ضللته الكنوز الضخمة، واستخف بالعقيدة التي يحيي الأتقياء بها فقط[٢] ، وكان هذا الرجل قد استرد القدس لسيده من سيطرة الأتراك، إلا أن المسيحيين حاصروا تلك المدينة في العام

---

(١) يعبر وليم هنا عن قناعاته الشخصية. وليس أكيداً فيما إذا كان هذين المقطعين الأخيرين جزءاً من كتابته الأولى، أو أضيفا خلال تنقيح لاحق، إلا أن الاقتناع إعتاد عليه خلال الأعوام، لأنه يؤكده بشكل أكثر إيجابية في النهاية ذاتها لكتابته (انظر التمهيد ص٥٧).

(٢) لعل وليم يمزج هنا بين الأب والابن فقد وُلد بدر الجمالي والد الأفضل من أبويين أرمنيين، وترعرع كعبد في دار الخلافة. وتوصل إلى السلطة بواسطة مقدرة صرفة وأصبح في النهاية حاكماً حقيقياً، كون الخليفة أصبح ألعوبة بين يديه، وبالطبع، فقد أصبح مسلماً ـ وترعرع ابنه على الايمان بالإسلام وأصبح، مثل أبيه، وزيراً للخليفة. وتمكن مثل أبيه أيضاً، من الحصول على الحكم الحقيقي. وهيمن حكمهما على مصر بشكل متميز.

نفسه وبإشراف القوة المحمية من قبل الرب وأعادوها للعقيدة المسيحية، ولم يكن قد مضى إلا أحد عشر شهراً على استحواذه السلمي لها عندما خلصها الجيش المسيحي، بنعمة الله، من رق الإستعباد الجائر، ولم يتمتع بثمار انتصاره إلاّ لفترة قصيرة من الزمن لدرجة أنها بـدت وكأنها لم تستمر إلاّ لحظة، وعلاوة على ذلك، فقد كان سيده قد استولى على المدينة بوساطة جهوده. وهكذا، شرع الأفضل بسرور في تنفيذ المهمة التي أوكلت إليه [1].

وآمل أن الأمر سيكون مسألة سهلة للإنتصار على الذين كانوا قد لطخوا مجد شجاعته، وهكذا، ذهب بروح التيه المتعجرف والرعونة، إلى سورية على رأس الجيش بأكمله وجميع القوات التي تمكنت بلاد مصر ـ وهي في أوجها عندئذ ـ من حشدها، وعقد العزم على إبادة المسيحيين بالكامل بحيث لا تبقى حتى ذكراهم، لكن الرب و« فعله المرهب نحو بني آدم ». قضى عكس ذلك.

وهكذا زحف الأفضل على رأس هذا الحشد القوي مع جيش رائع من الفرسان نحو سورية وخيم أمام مدينة عسقلان، كما انضمت قوات ضخمة أيضاً من جميع مناطق بلاد العرب ومنطقة دمشق إلى هذه الحملة، ولم يكن الأتراك والمصريون على علاقات طيبة حتى الآن، حيث كانت كل سلطة منهما ترتاب بالقوة العسكرية للسلطة الأخرى، وكافح كل منهما في سبيل مدّ رقعة مملكته على حساب الأخرى، هذا ويلاحظ، أن الخوف من المسيحيين، وليس احترام بعضهما بعضاً قارب بينهما، فوجدا قواتهما لتبني خطة فعالة لهزيمة المسيحيين، الذين قدموا منذ وقت قصير جداً، واعتقدوا أنه من الأفضل كثيراً لهما أن يتحملا غطرسة خصومتهما، حتى إلى حد العبودية، بدلاً من معاناة سيوف البرابرة القاسية والوحشية.

وهكذا اجتمعت قوات لا تحصى من المصريين والعرب والأتراك، وهم يضعون هذه الغاية نصب أعينهم، وخيمت آنذاك في السهول الواقعة أمام مدينة عسقلان، وكان عليها أن تزحف من هنالك إلى القدس، حيث بدا لها مستحيلاً أن يتجرأ جيشنا على المخاطرة بمواجهة جيشٍ ضخمٍ كهذا.

---

(١) كان الأفضل مسؤولاً عن السياسة المصرية في هذا الوقت. وكانت قواته قد استردت القدس من الأتراك بعد حصار دام أربعين يوماً من شهري تموز وآب في عام ١٠٩٨. وأخطأ تقدير قوة الصليبيين ووصل متأخراً جداً لينقذ القدس من أيديهم في عام ١٠٩٩ م.

(٢) المزامير: ٦٦/٥.

١١ - الدوق يحشد قواته في الرملة حيث كان القادة قد اجتمعوا وذلك بعد إكمال صلواته وعباداته في القدس.

لدى وصول هذه الأخبار اجتمعت سائر قوة المسيحيين المؤلفة من القادة والأساقفة ورجال الدين والعامة من الناس، وكانت مسلحة بالأسلحة الروحية، وسجدوا أمام قبر المسيح وصبوا توسلاتهم وسط التأوهات والدموع، وتوسلوا للرب بقلوب ضعيفة ومتواضعة أن يخلص شعبه برحمته من الخطر الوشيك. فهو الذي حفظه حتى اليوم الحالي منتصراً له بعدما قرر تطهير موقع حرماته لن يمتحنه ويعرضه للمخاطر اكراماً لمجده وحفاظاً عليه.

ثم أسرع الجميع بأقدام عارية إلى كنيسة المسيح بالحماسة ذاتها وبالورع المتوقد وبمصاحبة صوت التراتيل والأناشيد الروحية، وهنالك صبوا ماء أفئدتهم ثانية بالصلاة لله قائلين: «اشفق يا رب على شعبك ولا تسلم ميراثك للعار»[1].

ومنحهم الأسقف بركته بعدما أقيمت صلواتهم حسب العادة، ثم عين الدوق رجالاً متمرسين وحكماء لحراسة المدينة وحكمها، ونزل بصحبة كونت فلاندزر إلى سهول الرملة، وبقي الزعماء الآخرون في القدس.

كان كل من يوستاس اللامع، أخو الدوق تانكرد في نابلس، وكانا قد ذهبا إلى هناك تنفيذاً لأمر الدوق واستجابة لدعوة الأهالي الذين أرسلوا رسالة أعلنوا فيها أنهم سيسلمون المدينة دون إحداث أية اضطرابات، وكانا ما يزالان ماكثين هناك ليس بسبب ثروات المدينة الكبيرة، بل أيضاً لغاية تعيين حامية مناسبة لحمايتها، وكانا جاهلَيْن بما كان قد حدث في القدس، هذا وقد عادا على الفور تنفيذاً لدعوة الدوق والتحقا بالزعماء الآخرين.

وتلقى الدوق وكونت فلاندرز في الرملة معلومات إيجابية وموثوقة وهي أن الأفضل كان قد خيم مع قواته أمام مدينة عسقلان، ولذلك أرسل رسولاً بسرعة لاستدعاء القادة الآخرين الذين كانوا قد بقوا في القدس منتظرين تأكيد الشائعات.

١٢ - نشوب معركة. السماء تمنحنا انتصاراً مع ثروات لا تعد ولا تحصى.

جلبت رسالة الدوق معلومات تقول: إن العدو قد وصل بأعداد كبيرة كانت تعسكر في مكان قريب، وجمع كونت طولوز والزعماء الآخرون المكرسون لله، جميع القوات المتوفرة آنذاك هناك وساروا بدون تأخير وبعد التماس العون من السماء إلى أراضي الفلسطينيين، إلى الموقع المسمى حالياً باسم ابلين [يبنى]، حيث عرفوا أن الدوق موجود هنالك. وقادوا معهم

---

(١) يوئيل: ١٧/٢.

قوة مؤلفة من ألف ومائتين من الفرسان ونحو ستة آلاف من الرجالة، وكان جيشنا قد أقام لمدة يوم في إبلين، عندما ظهرت قوة كبيرة في السهل البعيد وذلك في حوالي الساعة الحادية عشرة، واعتقد المسيحيون أنها كانت قوة من جيش العدو، لذلك بعثوا إلى الأمام بمائتين من الفرسان مسلحين تسليحاً خفيفاً، ليتحققوا من عدد وحالة هؤلاء الجنود؛ بينما استعدوا هم في هذه الأثناء للمعركة.

هذا واكتشفت قوات الاستطلاع المسيحية لدى اقترابها أن الحشد تألف من أعداد كبيرة من المواشي والخيول والجمال، ووقف بعض الفرسان الخيالة لمراقبة الحيوانات وصاروا مسؤولين عنها كالرعيان؛ وذلك أن رعاة هذا القطيع والفرسان الحارسين له كانوا قد هربوا عندما اقتربت كتيبتنا. وهجروا قطعانهم ومواشيهم وتركوها دون حماية ولم يتوقفوا لمواجهة المسيحيين.

ومع ذلك، تم أخذ بعض الأسرىٰ وتم الحصول منهم علىٰ معلومات كاملة عن وضع العدو وخططه، وعلم أن الأمير الكافر كان قد نصب معسكره بالقرب منهم تماماً وعلى بعد سبعة أميال تقريباً، وقد عقد العزم على الزحف وسحق الجيش المسيحي بعد يومين.

ونظم القادة، الذين تأكدوا الآن أن المعركة لا بد منها، قواتهم في تسع فرق، وشكلت ثلاث فرق منها طليعة الجيش، بينما وقفت ثلاث أخرى في القلب، وأمرت الثلاث الباقية بالبقاء في المؤخرة. وهكذا كان العدو سيجد في أي نقطة قد يهاجم منها، تنظيماً ثلاثياً للجنود للتصدي له، وتعذر الحصول علىٰ معلومات محددة بخصوص أعداد العدو، حيث كانت حشوده تفوق الإحصاء، وكان يتلقىٰ نجدات إضافية في كل يوم.

كانت الغنيمة التي كان المسيحيون قد فازوا بها بدون مقاومة حسبما أوضحنا آنفاً لا يمكن تقدير قيمتها وقد قضوا الليل في ذلك الموقع بابتهاج كبير، وقد تصرفوا كالرجال العاقلين المتمرسين في الحرب، فوضعوا الحراس اللازمين حول المعسكر، وأبقوا حراسة يقظة.

ونادىٰ المنادي في اليوم التالي إلىٰ المعركة، وتقدم المسيحيون بصفوف مرتبة بتشكيل نظامي، وبقصد واحد نحو العدو، مودعين النتيجة بيد الله. حيث وضعوا في الله كل آمالهم بالانتصار فهو الذي يستطيع أن يهزم بسهولة عدداً كبيراً بعدد قليل.

وجعل موقف المسيحيين القوي والمصمم المصريين الذين كانوا قد انضموا إليهم من بلاد سورية يرتابون بقوتهم، وتناقصت ثقتهم الآن كثيراً عن ذي قبل بأعدادهم الضخمة، لأنهم اعتقدوا أن سائر الجيش المتقدم إليهم لم يتألف إلا من الجنود.

كانت أعدادنا في الواقع صغيرة، لكن حدث أن القطعان والمواشي، التي كان قد تم الاستيلاء عليها كغنيمة قد سارت طوعاً بمحاذاة جيشنا، وعندما توقف الجنود، توقفت الحيوانات أيضاً، وعندما تقدم الجيش ثانية، تبعته المواشي مباشرة، على الرغم من عدم وجود موجه لها، وهكذا، اقتنع العدو أن أعدادنا كانت غير محدودة وقوتنا لا تضاهى فهرب على الرغم من أنه لم يطارده أي مخلوق، ومع ذلك، لم يشعروا إلا بقليل من الأمل بالنجاة حتى في الهروب.

واختفى أسقف مطيره Matera، محرض النزاعات ومبتكر الفتنة، بسبب حادث مجهول في ذلك اليوم، ولم يعرف أحد مصيره، ومع ذلك، فقد أزيح من المسائل البشرية ولم يُر ثانية أبداً، وكان الدوق قد أرسله ليستدعي الزعماء الذين كانوا قد بقوا في القدس، ويقال إن العدو ألقى القبض عليه أثناء عودته وقد قتله أو حكم عليه بالسجن المؤبد.

ثم مضى الجيش، بعد أن منحته السماء النصر، إلى معسكر العدو، حيث وجد فيه كميات هائلة من السلع من جميع الأنواع بحيث أصبح الحجاج متخمين إلى حد الاشمئزاز وإلى درجة كرهوا فيها الكعك والعسل. وفي الحقيقة استطاع، الناس الأكثر وضاعة وتفاهة بينهم أن يقولوا: «لقد جعلتني الوفرة بائساً».

منح فرار العدو النصر للمسيحيين دون جهد من جانبهم، وعاد القادة والناس إلى القدس، بشكر قلبي لله، وهم محملون بالأسلاب وجالبين معهم غنائم ضخمة، لقد عادوا مبتهجين وجذلين كالمنتصرين الذين يقتسمون الكنوز التي استولوا عليها.

١٣ - القادة ينفصل بعضهم عن بعض. كونتا نورماندي وفلاندرز يعودان إلى بلادهما. كونت طولوز يعود إلى القسطنطينية. تانكرد يعطى ولاية طبرية.

عندما انتهت هذه الحملة قرر كل من كونت نورماندي وكونت فلاندرز، القائدان المحبوبان لله والمخلصان لخدمته، العودة إلى الوطن، ذلك أن رحلة الحج التي كانا قد بدآها، قد انتهت نهاية ناجحة، وهكذا، بدآ رحلة العودة، وذهبا بإحدى السفن إلى القسطنطينية حيث استقبلهما الإمبراطور بحفاوة ومنحهما جوائز سنية، ووصل أخيراً كل منهما سالماً وآمناً بمشيئة الله إلى بلده.

ووجد كونت نورماندي الأمور لدى عودته في وضع مختلف جداً عن الوضع الذي كان قد تركها عليه عندما بدأ في رحلة الحج، وكانت الحالة في الواقع مختلفة جداً عما يرضيه، حيث كان أخوه الأكبر وليم المكنى روفوس Rufus ملك الشعب الانكليزي قد توفي

دون أن يعقب وذلك عندما كان الكونت يقاتل في الحملة في سبيل الرب، وكانت وراثة المملكة تعود للكونت بحق البكورة؛ إلا أن أخاه الأصغر هنري كان قد أقنع أمراء المملكة أن أخاه روبرت قد نُصّب ملكاً على القدس وليس لديه نية بالعودة، وقد حصل بهذا الخداع على العرش [١].

وحالما عاد الكونت طالب على الفور بالمملكة على أنها تخصه بالحق وبما أن هنري رفض التخلي عنها بشكل قاطع، جمع الكونت الجنود وجهز أسطولاً وغزا انكلترا بقوة مسلحة، وتقدم أخوه إليه بالقوة الكاملة للمملكة، وكانا على وشك الاشتباك في معركة عندما تدخل الوسطاء وتوصلوا إلى تسوية بينهما قضت أن يدفع الملك سنوياً مبلغاً ثابتاً من المال لأخيه الأكبر تحت اسم ضرائب، وعاد الدوق إلى بلده بعدما هدأته هذه التسوية، ومع ذلك، فقد طلب من أخيه فيما بعد بعض القلاع الموجودة في نورماندي وكان هنري قد امتلكها قبل ارتقائه العرش، وعندما رفض الملك أن يتخلى عن هذه القلاع، قام روبرت بمحاصرتها واستولى عليها بالقوة.

وحالما سمع الملك بهذا أبحر مع قوات ضخمة إلى نورماندي، وتحارب مع أخيه وأسره وألقاه في السجن مدى الحياة، حيث توفي هنالك وورث أخوه الملك جميع ممتلكاته [٢].

عاد كونت صنجيل إلى اللاذقية في سورية، فهناك كان قد ترك زوجته، عاد عاقداً العزم على الالتحاق بها حالاً ومن ثم بدأ رحلته ثانية إلى القسطنطينية إلى الإمبراطور الملك مع حاشية فخمة، ورحب الإمبراطور به ترحيباً فخماً، وعامله بلطف زائد وأتحفه بالعديد من الهدايا الرائعة، وبعد هذا عاد سالماً بعد غياب عامين إلى زوجته وأسرته في سورية كما سيتم سرد ذلك فيما بعد [٣].

---

(١) يظهر وليم هنا أيضاً موقفاً لم يشاركه فيه التاريخ الإنكليزي اللاحق، كما أن تحيزه إلى روبرت كورتهوز وكراهيته لهنري الأول ممكن الصفح عنها في وطنه القدس اللاتينية، التي ساعد روبرت على تأسيسه وبالطبع، فإنه مخطىء في إشارته أن وليم روفوس كان الأخ الأكبر لأنه كان قد نُصب ملكاً. كان هنالك انكليز على استعداد لتأييد روبرت من أجل الحصول على التاج عندما قتل وليم روفوس في الغابة الجديدة في عام ١١٠٠، إلا أن روبرت كان متقاعساً في جنوب إيطاليا في طريقه إلى الوطن عائداً من القدس في ذلك الوقت، وكان هنري، أخوه الأصغر، الذي كان مقداماً بقدر ما كان روبرت رعديداً، قريباً وانتهز الفرصة لينصب نفسه ملكاً (ديفيد «روبرت كورتهوز» ص١١٩ ـ ١٢١، ١٩٨ ـ ٢٠٠).

(٢) توفي روبرت في عام ١١٣٤ وهو سجين في قلعة كاردف في ولز، وجاء عرض أخبار سيرته المتأخرة هنا مختصر جداً (ديفد «روبرت كورتهوز» ص١٢٠ ـ ١٨٩).

(٣) انظر الكتاب العاشر الفصل الثاني عشر.

استبقى الدوق معه تانكرد، وهو النبيل المشهور والمتميز، وذلك بالإضافة إلى كونت غار نيردي غري وبعض النبلاء الآخرين، واستمر في إدارة المملكة، التي أودعه الله إياها، بحكمة وقوة، ومنح بسخائه المألوف تانكرد مدينة طبرية، الواقعة على شاطىء بحيرة طبرية مع كامل إمارة الجليل كحق وراثي إلى الأبد، ومنحه، في الوقت نفسه، مدينة حيفا، والتي تسمى باسم بارفيريون، وهي مدينة ساحلية منحه إياها مع جميع توابعها [1].

وتصرف تانكرد بهدوء كبير مقبول إلى الرب في إدارة هذه الإمارة، لدرجة أن أهالي تلك المنطقة يباركون ذكراه حتى هذا اليوم [2]، كما أعطى اهتماماً كبيراً لإقامة الكنائس في تلك الأسقفية، أي، في الناصرة وطبرية وعلى جبل طابور. وخصص لهذه الكنائس وقفاً وافراً وأعطاها أثاثاً وزخارف كنسية. وللأسف فقد جزء كبير من هذه الهبات من الأماكن المقدسة فيما بعد نتيجة لحيل وأحابيل الأمراء الذين خلفوا تانكرد.

ومع ذلك لا تزال الكنائس قادرة على تزويد نفسها، بما ترك لها، بالشيء الضروري، ولا ينسى المصلون أبداً أن يقدموا صلوات لروح الذي أظهر سخاء وورعاً وحباً عميقاً تجاه كنائس الرب.

ولأن تانكرد كان مخلصاً في الأشياء الصغيرة، فقد خصص الله المزيد له، فابتهج بأنه أصبح أبا لأسره وتلقى مائة ضعف لكل ما كان قد أعطاه، حيث استدعي بعد عامين إلى إمارة أنطاكية كمكافأة على خدماته، وهنالك أيضاً اهتم بالكنائس التي اتسمت دوماً بمجد فائض وشهرة عظيمة منذ أيام الرسل وحباها بهبات سخية، زد على هذا، أنه وسع حدود الإمارة كثيراً بإخضاع المدن والإستيلاء على القلاع في كل مكان حسبما سنروي أخبار ذلك في الصفحات اللاحقة.

١٤ - بوهيموند أمير أنطاكية وبلدوين كونت الرها يذهبان إلى القدس للاحتفال هناك بميلاد الرب

وبينما الأمور تسير نحو الأحسن قرر كل من بوهيموند، أمير أنطاكية وبلدوين، أخو الدوق، وكونت الرها أن يذهبا إلى القدس، وكانا قد علما من تقارير كثيرة وصلتها، أن

---

(١) كانت طبرية أهم اقطاعات القدس وأولاها. كما أن هبة حيفا مشكوك فيها. وساعد تانكرد في الإستيلاء عليها بعد وفاة غودفري وهذا يمكن أن يكون الأساس لرواية وليم، إلا أن غلدما كاربنل طالب بها لأن غودفري كان قد وعده بها (انظر الكتاب العاشر الفصل ١٠).

(٢) لا شك أن وليم يتحدث هنا صدوراً عن معرفة شخصية، فقد كان قد زار هذه المنطقة مراراً، وشغل منصب رئيس شماسة الناصرة لبضعة أشهر (انظر. روهرخت «وثائق مملكة القدس» رقم٥١٨).

بقية إخوانهم ورفاقهم في الحج العظيم قد نجحوا، بفضل التأييد الرباني، في الاستيلاء على المدينة المقدسة، منجزين بذلك هدف رحلتهم بسعادة، وحيث أثارهما هذا الخبر، فقد حددا يوماً للانطلاق نحو المدينة المقدسة، بعدما تكون قد أجريت جميع الاستعدادات الضرورية، بهداية من الرب وارشاد، وكانت غايتهما إكمال هدف أعمالهما بتأدية نذرها إلى الرب، وعلاوة على ذلك، لتقديم الراحة بوجودهم الأخوي إلى الدوق وإلى تانكرد والزعماء الآخرين، فقد كان هذان النبيلان الشهيران قد تخلفا عن البقية، حيث بقي بوهيموند في أنطاكية ليعنى بالإمارة، بينما بقي بلدوين في الرها، ليحمي تلك البلاد من هجمات العدو.

وكان قد تقرّر منذ ساعة البداية، حالما تم الاستيلاء على أنطاكيه. أنه ينبغي على هذين القائدين، ألا يتخليا عن المدينتين، عابدتي الرب، اللتين كانت السموات قد عهدت بهما إليهما؛ بل عليهما في سبيل المصلحة العامة أن يبذلا اهتماماً دائماً للدفاع عنهما، لأن من الممكن أن يعود العدو بقوات جديدة للشروع بالحرب من جديد، وبذلك يكون جميع ما أنجزه المسيحيون بلا جدوى.

وعلى الرغم من أن كلا الحاكمين كان مشغولاً بأمور مملكته فإنهما كان مصممين على إنجاز الحج. وهكذا، بدآ الرحلة في اليوم المحدد.

أخذ بوهيموند معه قوة كبيرة من الرجالة والفرسان، كما كان برفقته كثير ممن تملكته رغبة شديدة لإنجاز الحج نفسه. ووصل إلى مدينة بانياس البحرية والتي تقع عند سفح قلعة المرقب حيث نصب معسكره على الرغم من معارضة الأهالي الشديدة. وانضم بلدوين إليه هناك، حيث كان يتبعه عن قرب، ووجد القائدان قواتهما وتقدما مع بعضهما في الرحلة التي كانا قد بدأها.

وكانت مجموعة من الحجاج الإيطاليين قد رست في تلك الآونة بالذات في اللاذقية السورية، وكان من بينهم ديمبرت Daimbert، رئيس أساقفة بيزا، وكان رجلاً حكيماً ومتعلماً وصاحب ورع كبير، وكان صديقاً لكل شيء نبيل [1]، كما كان أسقف أريانو في أبوليا [2]

---

(١) كان ديمبرت قد أصبح الرئيس الأول لأساقفة بيزا عندما رفعت هذه المدينة من أسقفية بإضافة كورسيكا إليها التي كان البيزيون انتزعوها من المسلمين. وكان مفيداً في بناء أسطول ليشارك في الحملة الصليبية وكان قائداً عملياً له. وربما عينه البابا أوربان كممثل بابوي ونائباً ليخلف أدهمر الذي توفي في الأول من شهر آب في أنطاكية عام ١٠٩٨.

(٢) من الواضح أن وليم اعتقد أن أسقف أريانو Ariano كان قد أتى مع الأسطول البيزي، إلا إن هنالك مسوغ للإعتقاد أنه كان مع بوهيموند منذ ١٠٩٦. (أنظر ر.ب.يوديل «بوهيموند الأول أمير أنطاكية» ص٣٨ وأيضاً هاغنمير «تاريخ فولتشر» ص٣٢٧ ـ الحاشية ٢٤).

في تلك المجموعة أيضاً، والتحق هؤلاء القوم بمعسكر القائدين المذكورين أعلاه، حيث ازدادت قواتهما كثيراً، ويقال أن حشد الرجال والنسوة الفرسان منهم والمشاة كان نحواً من خمسة وعشرين ألفاً.

وحاذى الحجاج عندما استأنفوا سيرهم الطريق الساحلي، إلا أنهم لم يجدوا إلا مدنا تخصّ العدو ولذلك لم ينجحوا أخيراً في بلوغ هدفهم إلاّ بصعوبة بالغة وعلى حساب المعاناة الكثيرة من نقص الطعام، حيث كانت المؤن التي حملوها في أثقالهم قد نفدت ولم يحصلوا على أية فرصة للمتاجرة، ولم يجدوا شيئاً يشترونه، علاوة على ذلك، كان البرد الشديد والمطر العنيف قد أخضعا الكثيرين لأشد درجات المعاناة وأقساها فقد كان الوقت شتاء في شهر كانون الأول، وكان أهالي طرابلس وقيسارية هم الوحيدون الذين قدموا خلال المسير الكامل لهذه الرحلة الطويلة الفرصة لعابري السبيل لشراء المؤن عندما عبروا أراضيهما، ومع ذلك، واصل الحجاج طريقهم على الرغم من ندرة الطعام وشدائد الجوع الناشئة عنه، وبصرف النظر عن حقيقة أنه لم يكن لديهم حتى حيوانات التحميل لنقل الأمتعة.

ومع ذلك، فقد وصلوا أخيراً برعاية الرحمة السماوية وحمايتها إلى القدس، حيث استقبلهم الدوق بحرارة زائدة وذلك بالإضافة إلى رجال الدين والناس، ثم زاروا الأماكن المقدسة بأفئدة متواضعة وبروح التذلل العميق وشهدوا بأم أعينهم، حقيقة تلك الأماكن المقدسة التي لم يعرفوها حتى الآن إلاّ بالقول والتعليم، واحتفلوا بعيد ميلاد المسيح في مدينة بيت لحم المقدسة، ونظروا هنالك إلى المعلف والكهف الرائع حيث كانت أم الرب الرقيقة، المدخل للإنقاذ، قد لفّت فيما مضى منقذ العالم بقماط بسيط وأسكتت بكاءه على صدرها.

١٥ ـ ديمبرت رئيس أساقفة كنيسة بيزا يصبح بطريركاً للقدس.

منذ حوالي خمسة أشهر سبقت كانت الكنيسة في القدس بلا رئيس لها، وكانت تفتقر إلى كاهنها الأكبر، وعلى ضوء هذا الوضع اجتمع الأمراء، الذين كانوا آنذاك في المدينة للنهوض بأعباء كنيسة الرب الموجوده في تلك المدينة، وجرى احلال ديمبرت المبجل، بعد دراسة متروية كثيرة وبموافقة شاملة، في المقر البطريركي، لأن الانتخاب السابق لأرنولف، الذي حكيناه كان قد تم بسرعة وجُعل باطلاً ولاغياً بسهولة مثلما تم بتهور واندفاع [١].

---

(١) دفع حقد وليم الشديد نحو آرنولف إلى اعطاء وصف مشوه جداً لهذا التغيير، والوصف المتضمن في الرسالة المزعومة عن ديمبرت إلى بوهيموند (الكتاب العاشر الفصل ٤) أقرب إلى الحقيقة بكثير. كانت سيطرة بوهيموند على أنطاكية متقلقلة، لأن الامبراطور طالب بها وفق الإتفاق الذي كان القادة الصليبيون قد عقدوه معه في القسطنطينية. وكان بحاجة ماسة لموافقة معنوية لسيطرته المستمرة عليها، وقدم له وصول =

وحالما جلس ديمبرت، رجل الله، على العرش البطريركي، تلقى منه كل من الدوق غودفري والأمير بوهيموند بتواضع منصب الملكية للأول والإمارة للثاني مظهرين بذلك التبجيل للرب حيث اعتقدا أن نائبه على الأرض هو البطريرك.

انتهت هذه المراسم، وخصصت العائدات للسيد البطريرك، بحيث يمكن دعم مؤسسته بشكل محترم، حسبما هو لائق بمنصبه، وتم تسليمه الممتلكات التي كانت تخصّ البطريرك الإغريقي منذ أيام الاغريق وفي أيام الشعوب، وذلك بالإضافة إلى ممتلكات أخرى.

بعدما أوليت هذه الأمور العناية اللائقة استأذن كل من بوهيموند والدوق بلدوين بالانصراف للعودة إلى بلديهما، ونزلا إلى نهر الأردن ثم عبرا إلى بيسان أثناء مسايرتهما لضفة ذلك النهر، خلال الوادي الشهير، ووصلا في النهاية إلى طبريه، حيث زودا أنفسهما بالطعام الضروري للرحلة واستأنفا طريقهما من جديد على طول شاطىء بحيرة طبرية إلى لبنان ثم عبرا

= ديمبرت كممثل بابوي الفرصة، ولم يضيّع أي وقت في رعاية صداقة الممثل وحثّه أيضاً على المشاركة بمساعدة الأسطول البيزي للإستيلاء على اللاذقية التي كان الاغريق ما يزالون يسيطرون عليها، وأعيق الاستيلاء عليها بوصول القادة الصليبيين الذين كانوا عائدين من القدس. وهدد روبرت أوف نورماندي وريموند أوف طولوز وعدد آخر بحمل السلاح ضد بوهيموند إن لم يرفع الحصار الذي كان يشكل انتهاكاً لإتفاقهم مع الاغريق، وتم التخلي عن الحصار، ومع ذلك، فقد استمرت الصداقة بين ديمبرت وبوهيموند. وكان بوهيموند في موقع قيادي عندما وصل إلى القدس، لأن حامية غودفري كانت صغيرة بشكل يُرثى له، وحتى بإضافة قوة بلدوين لها لم تكن مماثلة لقوة بوهيموند وتانكرد وديمبرت. وعلاوة على ذلك، كان غودفري بحاجة ماسة إلى أسطول للحصول على ميناء ساحلي، ولذلك فقد كان بوهيموند في موقع يعطيه امتياز إملاء رغباته، التي اشتملت على انتخاب ديمبرت بطريركاً وخضوع إماراتهم الخاصة إلى ديمبرت كنائب بابوي وبطريرك، ليتم استردادها منه كإقطاعيات. رتبت المسألة عن طريق التفاوض. ولم يكن آرنولف، الذي افتقر إلى القوة المستقلة والموافقة البابوية على منصبه، في موقع ليصرّ على حقوقه، ومنح المنصب الثاني في الكنيسة كرئيس شماسة القبر المقدس بالإضافة إلى تخصيص سخي من الدخل. ولو كانت الاتهامات التي وجهها أعداء آرنولف إليه قد أخذت بجدية، لكانت قد جردته من المنصبين. وكانت الخطوة التالية أن يسلم بوهيموند وغودفري إماراتيهما إلى البطريرك الجديد ليستردها منه كإقطاعات، ويمكن التساؤل إلى أي مدى كان غودفري راغباً في الخضوع لهذه الخطوة، لأنه كان عاجزاً بقدر ما كان آرنولف وكانت التسوية مؤكدة بأنها ستربكه في المستقبل، ولم يكن هنالك أي شك باستعداد بوهيموند وحتى بتلهفه لذلك، فقد كان لديه كل شيء ليحصل عليه، ولم يكن عنده أي شيء يفقده. وكان والده قد حصل على الموافقة لاستيلائه على منطقة في جنوب إيطاليا بإجراء ترتيب مشابه مع البابا ليو التاسع حيث أصبح تابعه الإسمي. ورغب بوهيموند أيضاً أن تسلم الكنيسة بسيطرته على أنطاكية بهذه الخطوة وكان على آرنولف وغودفري أن يدفعا ثمناً باهظاً لهذا التحسين في منزلة بوهيموند.

(١) يمكن لهذه المقولة أن تمثل تصور وليم للعلاقة المثالية بين البطريرك والملك والكنيسة والدولة في القدس، وهو تصور ليس مستخرجاً من عند أي من المؤرخين الأبكر.

بانياس، والتي هي قيسارية فيليب الواقعة على اليمين، ثم دخلا البقاع ووصلا إلى المدينة المسماة هليوبوليس والمعروفة أيضاً باسم بعلبك ومن هناك عادا ثانية إلى الساحل، ووصلا في النهاية سالمين وآمنين إلى انطاكية بعناية الرب ورحمته.

١٦ ـ نشوب نزاع خطير بين الدوق والبطريرك، حول ملكية برج داود وجزء رابع من المدينة. وصل إلى درجة الصراع بسبب مكائد الأشرار.

كان قد نشب في تلك الآونة خلاف في القدس بين البطريرك والدوق، وازداد الاضطراب بسبب التطفل الفضولي لبعض مثيري القلاقل ـ الذين يحسدون هـدوء الآخـريـن ـ والمستمتعين دائماً بزرع بذور الشقاق، وطالب البطريرك الدوق أن يعطيه مدينة الله المقدسة مع قلعتها ومدينة يافا أيضاً مع ملحقاتها، وعاشت المسألة في ظل نقاش قوي لفترة من الزمن، وتخلى الدوق في النهاية عن الجزء الرابع من مدينة يافا إلى كنيسة القيامة المقدسة [١] وذلك في يوم تطهير مريم المقدسة وبحضور رجال الدين وجميع الناس، حيث كان الدوق ذا طبيعة متواضعة ووديعة، وكان يخشى لوم الرب.

ثم سلم البطريرك مدينة القدس مع برج داود وكل ما كان قد اتصل به في اليوم المقدس لعيد الفصح اللاحق، وأيضاً بحضور رجال الدين وعامة الناس الذين كانوا قد اجتمعوا للاحتفال بالعيد الديني، هذا وقد أضيف الشرط التالي إلى الهبة وهو: إن الدوق سيتمتع بالمدينة المذكورة آنفاً، ويستخدمها مع أقاليمها حتى يسمح له المسيح أن يستولي على مدينة أو مدينتين أخريين، ويوسع المملكة. وإذا ما مات في تلك الأثناء بلا وريث شرعي، ينبغي أن تنتقل جميع الممتلكات السابقة الذكر بدون مشقة أو إنكار إلى سلطان السيد البطريرك [٢].

لقد أدرجنا جميع هذه التفاصيل في الرواية الحالية على الرغم من أنها معروفة بشكل جيد من روايات الكتاب الآخرين، وقد تناولتها جهود مختلف الأفراد بالكتابة [٣]، ومع

---

(١) ـ ٢ شباط ١١٠٠.

(٢) عيد الفصح، ١ ـ نيسان ١١٠٠، ويصعب الاعتقاد أن يقدم غودفري على الرغم من ورعه الحقيقي ـ على منح هذه الهبة في هذا الوقت إلا تحت الضغط، كحاجته للأسطول الذي سيطر ديمبرت عليه.

(٣) هذه إشارة واضحة إلى استخدام المصادر المكتوبة، خلافاً لما جاء في التمهيد. وعالج ألبرت أوف اكس هذه الأمور بشكل أكمل، وتشير روايات وليم هنا إلى مراجعة لاحقة، وقد قرر أن لا يغير ما كان قد كتبه، بل أن يضيف إليه الفصلين اللاحقين، وزاد اهتمامه في المسألة ربما عندما ازدادت إمكانية أن يصبح بطريركاً، وربما أجري التحقيق، الذي يشير إليه، خلال الفترة التي مرت بين ١١٧٥ ـ ١١٧٨ عندما كان في المحكمة باستمرار، وأدرج في أغلب الظن الفصلين القادمين خلال تلك الأعوام، لأن نظرته إلى البطريركية كانت مختلفة جداً بعد ١١٨٠.

ذلك، فإننا نتساءل عن المؤثرات التي دفعت البطريرك لإثارة هذه المسألة ضد الدوق، لأننا لم نقرأ في أي كتاب ولم نسمع حتى من أية مصادر موثوقة أن القادة المنتصرين قد سلموا المملكة إلى الدوق بمثل هذه الشروط في أن عليه الشعور أنه ملزم في إعطاء ضمانات سنوية أو دائمة لأي شخص كان.

كما لا ينبغي أن يعتقد أن هذه حماقة أو تجاهل قط من جانبنا، لأننا تقصينا باجتهاد حقيقة هذه الأمور، بشكل أكمل مما قام به أي إنسان آخر، من أجل الغاية الواضحة لتسجيل الحقائق في هذه الرواية وهو هدف كنا نفكر به منذ زمن طويل[1].

١٧ - إيضاح سبب وضع جزء من المدينة تحت سلطة السيد البطريرك وارادته.

إنها لحقيقة ان البطريرك قد احتفظ بـالجزء الرابـع من المدينة كملكية له منذ الوقت الذي دخل فيه اللاتينيون القدس، لا بل بالفعل، لعدة سنوات مضت قبل قدومهم، ويمكننا أن نبسط بإيجاز كيف حدث هذا، بالإضافة إلى أصل احتفاظه به وسببه. وقد توصلنا في النهاية، بعد التحقق بدقة من هذه المسألة، وبعد إجراء استفسارات متوالية بخصوصها، إلى الحقائق الراسية خلف هذه المسألة:

تقول التقاليد القديمة إن هذه المدينة لم تتمتع بسلام مستمر ولو لفترة قصيرة من الزمن، خلال الوقت الذي كان فيه الكفرة يستولون عليها، وعلى العكس، أنهكتها الحروب المتكررة وتحملت أعمال حصار كثيرة لأن الأمراء المجاورين رغبوا بالفوز بها لأنفسهم، ودمرت أسوارها وأبراجها، بسبب قدمها والخراب الذي أحدثه الحصار، ووقعت المدينة معرّضة لمكائد الأعداء من جميع الاتجاهات.

وكانت مملكة المصريين قد توفقت في هذه الفترة على جميع ممالك الشرق والجنوب ليس فقط في قوتها وثرواتها، بل أيضاً في الحكمة العامة، وبما أن خليفة مصر كان راغباً في توسيع حدود إمبراطوريته ومد رقعة سلطانه إلى كل مكان أرسل جيوشه واستولى بالقوة على كامل سورية حتى اللاذقية وهي مدينة تقع بالقرب من أنطاكية وهي حد سوريه المجوفة؛ وعين حكاماً على جميع المدن الساحلية والداخلية وفرض الضرائب وجعل المنطقة بأسرها خاضعة له، وعلاوة على ذلك، أمر كل مدينة أن تعيد بناء أسوارها وترفع أبراجاً قوية

---

(١) من المحتمل أن يكون هذا التعبير البذيء إلى حدٍ ما صحيحاً. وكان عليه أن يستقصي المصادر الاغريقية والعربية واللاتينية أيضاً ليتوصل إلى هذه الاستنتاجات وهو يعكس تدريبه في القانون واهتمامه المهني في هيئة كهنوت الكنيسة.

بالقرب منها، وتمشيا مع هذا المرسوم العام، أجبر الوالي المسؤول عن القدس، سكان تلك المدينة على إطاعة الأوامر العامة وإعادة بناء السور والأبراج كما كانت من قبل.

وحصل أثناء توزيع هذا العمل أن عهد بالحقد المدبّر، أكثر منه بالتوزيع العادل، بالجزء الرابع من عمل إعادة البناء هذا إلى المسيحيين التعساء الذين كانوا يسكنون في القدس، هذا وكانت ظهور هؤلاء المؤمنين قد قصمتها أعمال السخرة والسخرة الإضافية، والأتاوات والضرائب مع إخضاعهم للخدمات الشائنة المتنوعة لدرجة أن ثروة الطائفة بأكملها لم تكن كافية إلاّ بصعوبة من تمكينهم من إعادة بناء برج أو برجين، وبما أنهم أدركوا أن اعداءهم كانوا يبحثون عن سببٍ ضدهم، وأنهم لم يكن لديهم أي مفر، فقد ذهبوا إلى الحاكم. وتوسلوا إليه بذلٍ وهم يبكون أن يفرض عليهم مهمة تتناسب مع طاقتهم، حيث كانوا عاجزين تماماً عن إنجاز تلك المهمة التي عهد بها إليهم لكن الحاكم أمرهم بالانصراف من حضرته تحت تهديدات خطيرة قائلاً: «إن انتهاك أوامر أمير المؤمنين ذنب لا يغتفر. لذلك، عليكم إما إنجاز العمل المخصص إليكم أو الاستسلام للسيف المنتقم كمذنبين بالطعن في ذات صاحب الجلالة»[١].

ونجحوا أخيراً، عن طريق العديد من الوسطاء وبالاستخدام اللامحدود للهدايا، في الحصول على وقف للحكم من الحاكم إلى أن يتمكنوا من إرسال المندوبين إلى الامبراطور في القسطنطينية لاستجداء الصدقات منه لإنجاز مهمتهم.

١٨ ـ متابعة عرض الموضوع نفسه. تبيان الأماكن المقدسة الموجودة داخل هذا الجزء من المدينة المذكور مراراً.

أرسل الرسل على الفور إلى الامبراطور، وشرحوا له لدى وصولهم، وبالشكل الأمثل من مقدرتهم البيانية الحالة المروعة للمسيحيين، وتأوهاتهم ودموعهم، وأثار الخبر شفقة جميع الذين استمعوا له، ووصف المندوبون بالتفصيل معاناة المسيحيين، مع ما كانوا يتعرضون له من ضربات وبصق مهين وقيود وسجون من أجل اسم المسيح، ورووا كيف أن الناس التعساء عانوا باستمرار من فقدان ممتلكاتهم بالمصادرة ـ وبأساليب أخرى وكيف أنهم كانوا عرضة للصلب وكل أنواع التعذيب، ومضوا يوضحون شتى الذرائع التي كانت أعداؤهم يبحثون عنها لإبادة ذلك الشعب الجدير بالشفقة.

كان قسطنطين، المكنى مونوماخوس[٢] وهو رجل حكيم ورائع يسيطر على

(١) تعكس اللغة هنا معرفة بالقانون الروماني.

(٢) قسطنطين العاشر الذي حكم من ١٠٥٩ ـ ١٠٦٧.

امبراطورية القسطنطينيةويديرها في ذلك الوقت، وقد أعطى موافقة سريعة للالتماسات الجديرة بالشفقة للمؤمنين بالمسيح، ووعدهم بالمال لينجزوا به المهمة المفروضة عليهم، فقد تعاطف بحنان وشفقة مع مصاعبهم ومحنهم المستمرة، ووعد بتقديم المال إذا ما تمكنوا من الحصول على وعدٍ من حاكم البلاد أنه لن يُسمح إلا للمسيحيين بالإقامة داخل محيط السور الذي عقدوا العزم على إقامته بواسطة التبرع الإمبراطوري وكتب الإمبراطور على الفور إلى أهالي جزيرة قبرص آمراً إياهم بتزويد هؤلاء المندوبين ـ في حال حصولهم على الموافقة اللازمة في القدس ـ بمبلغ كاف، من الضرائب والمال العائد إلى الخزينة، ليدفعوه للعمل المذكور.

وعاد الرسل المسيحيون لدى تلقيهم لهذا الوعد إلى الوطن، وأخبروا السيد البطريرك وأهل الرب بتفاصيل كل ما كانوا قد فعلوه، وتم تبني الاقتراح بسرور، وبذلت جهود حماسية وصادقة لنيل الموافقة التي طلبها الإمبراطور، وأرسلت الرسل فوراً إلى خليفة مصر [١] حاكمهم الأعلى والأسمى، وصاحبت الرعاية السماوية هؤلاء الرسل لأنهم نجحوا في مهمتهم وحصلوا على وثيقة مؤكذة بتوقيع الخليفة وخاتمه.

وعاد المندوبون إلى الوطن بعد أن كانوا قد حققوا محصلة ناجحة للمسألة، وأكمل المسيحيون، بعون الله، جزء السور المخصص لهم، وحدث هذا في عام ١٠٦٣ لتجسيد الرب، في العام السادس والثلاثين قبل تحرير المدينة، تحت حكم الخليفة المصري المستنصر [١].

كان المسيحيون والمسلمون قد سكنوا مع بعضهم بدون تمييز حتى تلك الآونة وأجبر المسلمون منذ ذلك الحين فصاعداً، بأمر من الخليفة، على الانتقال إلى أجزاء أخرى من القدس، تاركين المكان المذكور للمؤمنين دون جدال، وتحسنت بهذا التغير حالة عبيد المسيح تحسناً مادياً، فقد كانت المشاجرات في الماضي غالباً ما تنشأ بسبب تعايشهم المفروض مع الوثنين الأمر الذي زاد من مشاكلهم كثيراً، وسارت حياتهم بشكل أكثر هدوءاً بعدما تمكنوا أخيراً من العيش وحدهم بدون إزعاج وعدم اتفاق، فقد أحيلت جميع النزاعات الناشئة إلى الكنيسة، وحسم الخصام بقرار البطريرك الحاكم عندئذٍ كوسيط منفرد.

ولم يكن لهذا الربع من المدينة أي قاض أو حاكم آخر غير البطريرك وذلك اعتباراً من ذلك اليوم وبمقتضى الطريقة المذكورة آنفاً، ولذلك ادعت الكنيسة أن ذلك القسم لها وليس لأحد سواها.

---

(١) الخليفة المستنصر ١٠٣٥ ـ ١٠٩٤.

ويمكن وصف هذا الربع على النحو التالي: «يشكل الحد الخارجي السور الذي يمتد من الباب الغربي، أو باب داود، ماراً بالبرج الواقع عند الزاوية والمعروف على أنه برج تانكرد وصولاً حتى الباب الشمالي المعروف باسم أول الشهداء ستيفن، بينما يشكل الحدّ الداخلي الطريق العام الذي يمتد من باب ستيفن إلى موائد الصرّافين، ويعود من هنالك ثانية إلى الباب الغربي، ويقع ضمن هذه الحدود الأماكن المقدسة لآلام المسيح وقيامته وبيت الاسبتارية وديران، أحدهما للرهبان والثاني للنساء التقيّات، ويعرف كل من هذين باسم ديري تللاتين، كما يقع داخل حدوده دار البطريرك ودير كهان القبر المقدس مع ملحقاته [1].

١٩ ـ أحوال المملكة في هذه الآونة. كيف حاصر الدوق أرسوف وهي مدينة تقع على الساحل، ولماذا رفع ذلك الحصار؟

وبحلول هذا الوقت كان غالبية الذين كانوا قد شاركوا في الحملة، قد عادوا إلى بلادهم، ولم يبق هنالك إلاّ الدوق الذي عهد إليه الاهتمام بالمدينة، وتانكرد الذي كان غودفري قد استبقاه معه كرجل حكيم ونشيط وناجح للمشاركة في المسؤولية، وكانت موارد المسيحيين وقوتهم العسكرية صغيرة جداً في تلك الآونة، وعندما كان قد تم استدعاء الجميع بدون استثناء لم يكن ممكناً إيجاد أكثر من ثلاثمائة من الفرسان وألفين من الجنود المشاة.

وكانت المدن التي أصبحت تحت سيطرتنا قليلة، وكانت تقع وسط العدو بحيث لم يستطع المسيحيون الانتقال من واحدة لأخرى ـ عندما تتطلب الضرورة ـ دون خطر كبير، وقطن المسلمون الكفرة، والذين كانوا من أقسى الأعداء لشعبنا، في سائر المناطق المحيطة بممتلكات المسيحيين. وكان هؤلاء المسلمون أكثر خطورة لأنهم كانوا قريبين جداً، ولأنه لا يمكن لوباء أن يضرّ الإنسان بشكل فعّال أكثر من العدو الجاثم على بابه، وكان أي واحد من المسيحيين يمشي على طول الطريق العام دون اتخاذ حذر مناسب حيث يكون عرضة لأن يقتله المسلمون أو يأسروه ويأخذوه كعبد لهم، وعلاوة على ذلك، رفضوا زراعة الحقول حتى يعاني شعبنا من الجوع، وحقاً لقد فضلوا أن يتحملوا أنفسهم المجاعة على أن يزودوا المسيحيين بأي شيء، ذلك لأنهم عدّوهم أعداء لهم.

---

(١) يمكن للمعرفة العميقة عن القدس أن تعكس تجواله في فترة الصباح عبر شوارعها، وكان مثل هذا السلطان القضائي الخارج عن نطاق التشريع الوطني معروفاً للمسلمين، الذين منحوا أحياء للتجار الأجانب، كما فعل الاغريق في القسطنطينية، وبشكل بارز في الإسكندرية، هذا وإن مسألة تحويل هبة كهذه، أجريت لحماية أقلية، إلى إدعاء لامتياز خاص عندما تصبح تلك الأقلية أغلبية هي مسألة أخرى. وأشار وليم في مكان آخر (الكتاب ١٨ ـ الفصل ٤) إلى أن هذه الهبة قد تمت أيضاً وفقاً لطلب التجار لصالح الحجاج القادمين من الغرب ولأجلهم أيضاً.

لم يكن الخوف من الخطر جاثماً على الطرق العامة فقط؛ فنادراً ما كان هنالك مكان يستطيع المرء أن يرتاح به بأمان حتى داخل أسوار المدينة، وفي المنازل ذاتها، حيث كان السكان قليلين ومبعثرين، كما أن حالة الأسوار المخربة تركت المدينة معرضة للعدو، وغالباً ما قام اللصوص بالغزوات ليلاً، فقد اقتحموا المدن المهجورة لأن سكانها القليلين كانوا مبعثرين وبعيدين عن بعضهم بعضاً، وقد بطشوا بالكثيرين في عقر منازلهم، وكانت النتيجة أن هجر بعضهم منازلهم خلسة وكثيرون علناً مع الممتلكات التي كانوا قد فازوا بها، وبدأوا بالعودة إلى بلادهم، لأنهم خشوا من أن يتمكن الأعداء يوماً ما من قهر الذين كانوا يبذلون جهوداً كبيرة لحماية بلدهم، ولن يكون هنالك من ينقذهم من المذبحة الوشيكة، وسبب هذا الحال صدور مرسوم عام قضى بعقد حساب سنوي يؤيد مصالح الذين صمدوا في غمرة المحنة واحتفظوا بإرادة أراضيهم بشكل سلمي ودون سؤال لمهلة سنة أو يوم، وصدر هذا القانون، كما كنا قد قلنا، بسبب الاستياء تجاه الذين كانوا قد تركوا ممتلكاتهم بسبب جبنهم، حتى لا يتمكنوا من العودة بعد انقضاء عام أو يجددوا مطالبهم [1].

وعلى الرغم من أن المملكة كانت تناضل بمثل هذا الفقر حاول غودفري، الخائف من الرب والمحبوب إليه، أن يوسع، بإشراف الهدي السماوي، ميادين المملكة، وجمع الاحتياط العسكري بالإضافة إلى أهالي المنطقة وحاصر مدينة بحرية تقع بالقرب من يافا، كانت تعرف من قبل باسم أنتيباتريس غير أنها معروفة اليوم عموماً باسم أرسوف، هذا وكانت المدينة جيدة الدفاع برجال شجعان وجسورين في استخدام السلاح، وكانت مجهزة بكميات زائدة بالطعام والأشياء الأخرى الضرورية لإعالتهم، وكان الدوق المتمركز في تلك الأثناء في خارجها يعاني من فاقة خطيرة، وخاصة أنه لم يكن لديه أية سفن يستطيع أن يمنع بها المحاصرين من الدخول والخروج، ولذلك أجبرته الضرورة، على رفع الحصار بأمل أن السماء ستقدم له في المستقبل فرصة أكثر مواءمة في إنجاز هدفه غير أن موته المبكر منعه من تنفيذ هذا الهدف، ولم تتحقق رغبته أبداً.

٢٠ ـ ظروف جديرة بالتذكر أحاقت بهذا الرجل الشهير خلال ذلك الحصار.

رأينا من المناسب أن ندرج في هذا الكتاب حادثة جديرة بالتذكر كانت قد وقعت خلال مجريات هذا الحصار بالذات فقد هبط زعماء ثانويون من الريف المجاور لمدينة نابلس الواقعة في جبال السامرة القريبة إلى الحصار جالبين معهم هدايا من الخبز والنبيذ والتين

---

(١) يتضمن هذا القانون وجود عدد من المحاسبين في القدس، ويوحي أن القدس ومدن لاتينية أخرى في الشرق قد سيرت منذ البداية على أساس نظامي أكثر مما كان جارياً في الإمارات الإقطاعية في الغرب.

والزبيب، وأعتقد أن هدف مجيئهم كان للتحقق من قوتنا وأعدادنا، وللحصول على معلومات أكثر دقة عن وضعنا أكثر من جلب الهدايا إلىٰ الدوق، وعندما وصل هؤلاء الرجال إلى معسكر المسيحيين، طالبوا علىٰ الفور أن يؤخذوا إلىٰ الدوق، وعندما مثلوا أمامه قدموا له الهدايا التي كانوا قد جلبوها معهم، وكان الدوق في هذه الأيام رجلاً متواضعاً رفض رفضاً تاماً أبهة هذا العالم، وكان يجلس علىٰ كيس مليء بالقش وضع على الأرض منتظراً عودة رجاله الذين كان قد أرسلهم في بحث عن المنهوبات، وصعق الزعماء لدىٰ رؤيتهم له جالساً بهذا الشكل، واستفسروا قائلين: «لماذا يجلس أمير عظيم ونبيل رائع جداً، زعزع بقدومه من الغرب الشرق بأسره، واستولىٰ علىٰ مملكة قوية بيد قوية لماذا يجلس بشكل متواضع هكذا؟ لماذا لم يكن محاطاً بالأقمشة المزخرفة والأنسجة الحريرية ومصاحباً بحشد من الأتباع المسلحين، لكي يقدم مظهراً مرعباً للذين يقتربون منه؟».

وعندما كانوا يتساءلون بهذا الشكل، سأل الدوق ماذا كانوا يقولون، وعندما جاء الجواب عن سؤاله، أجاب إن الأرض تكفي لمقعد مؤقت لرجل فان، حيث مقدر له أن تكون مقره إلىٰ الأبد بعد الموت، ونظراً لامتلاء هؤلاء الذين قدموا لاختباره، بالإعجاب بإجابة الرجل مع تقديرهم لتواضعه وحكمته، رحلوا قائلين: «حقاً هذا رجل ينبغي أن يستولي علىٰ جميع البلاد بهجوم عاصف، حيث قضي بعدل أن يحكم الناس والشعوب».

أعجب سكان المناطق المجاورة وروّعوا في الوقت نفسه بشجاعة الشعب الحاج ونجاحاته وازداد هذا الخوف والإعجاب كثيراً لأنهم علموا بهذه الحقائق من أفواه أصدقائهم الذين توجب عليهم بالضرورة وضع الثقة في قصتهم، وهكذا، انتشر هذا الخبر الرائع انتشاراً واسعاً حتى إلىٰ الأجزاء النائية من الشرق [١].

٢١ ـ أسر بوهيموند أمير أنطاكية في مدينة ملطية.

حدث أثناء مجريات هذه الأحداث في مملكة القدس أن كان أرمني اسمه جبرائيل يحكم مدينة ملطية الواقعة ببلاد الجزيرة وراء نهر الفرات، وقد أرسل هذا الرجل، الخائف من غزو الفرس [٢] الذين عرف أنه لن يتمكن من مقاومة عنفهم، رسلاً إلىٰ بوهيموند أمير

---

(١) كانت مثل هذه الأساطير عن غودفري وأبطال مسيحيين أوائل منتشرة بين المسلمين بحلول زمن وليم. وهذه الأسطورة شرقية بشكل متميز في نكهتها إلى درجة يحتمل أنها نشأت أصلاً بين العرب أيضاً، وسرد التاريخ الأول للحروب الصليبية أساطير متعددة عن بوهيموند وتانكرد يقال أنها نشأت في الشرق.

(٢) كان هؤلاء «الفرس» تحت حكم انوشتكين بن الدانشمند وهو من أصل تركي، حكم دولة شبه مستقلة من عاصمته سيواس. وبقيت أسرة الدانشمند الحاكمة هامة خلال معظم القرن الثاني عشر.

أنطاكية، يرجونه الحضور على الفور ليستولي فوراً على مدينة ملطية وفق شروط محددة. وأسرع بوهيموند الشجاع بالرد على الدعوة فور تلقيه الرسالة، وعبر نهر الفرات بمصاحبة حاشيته المألوفة ودخل بلاد الجزيرة، وقبيل وصوله إلى غايته هاجمه على حين غرة حاكم تركي قوي يُسمى الدانشموند، وكان هذا القائد قد تلقى معلومات مسبقة عن بوهيموند وصحبه، وباغتهم فجأة وانقضّ عليهم بهجوم صاعق، فقتل بعضهم وهرب الباقون الذين لم يتمكنوا من الصمود في وجه حشد كهذا، وأسر العدو النبيل بوهيموند، بسبب آثامه، وقيدوه بالسلاسل[1]، وحيث أبهج هذا النجاح الحاكم واستغلالاً منه للأعداد الضخمة من الجيش الذي كان يقوده، فقد ضرب الحصار على مدينة ملطية، وأمل أن يستولي فوراً عليها، إلا أن الهاربين، الذين كانوا قد نجوا، نجحوا في بلوغ الرها حيث قدموا للكونت وصفاً كاملاً للحظ العاثر الذي أحاق بالأمير وبهم.

عندما سمع الحاكم الشجاع قصتهم، تعاطف مع الأمير كما يتعاطف مع أخيه، وحركته الفاجعة الكبيرة المشحونة بالنتائج الحظرة، فاستدعى على الفور احتياطاته العسكرية، وأخذ المعدات اللازمة للزحف، وانطلق بكل سرعة.

يقال إن ملطية تبعد مسافة مسيرة ثلاثة أيام عن الرها وقد قطع الكونت هذه المسافة بسرعة كبيرة، وكان على مشارف المدينة عندما سمع الدانشموند باقترابه فرفع الحصار، وانسحب مع أسيره بوهيموند الذي كان مقيداً بالسلاسل إلى الجزء الأبعد من المملكة لتجنب المعركة.

ولدى معرفة الكونت أن الدانشموند كان قد تخلى عن الحصار حيث أرعبه قدومه طارده لمسافة ثلاثة أيام، غير أنه أدرك في النهاية أنه لا يمكن تحقيق أي شيء بهذه الطريقة فعاد إلى ملطية، حيث رحب به جبرائيل ترحيباً كبيراً وعامله بإجلال كبير، ثم سلم المدينة إليه وفق الشروط ذاتها التي كان قد عرضها على بوهيموند[1]، وعاد الكونت إلى بلاده بعدما تم إنجاز هذا كله.

٢٢ ـ عمل بطولي جدير بالتذكر صنعه الدوق في بلاد العرب.

كان الدوق اللامع في هذه الأثناء يعمل في ظل ظروف شديدة الضيق مع الذين كانوا قد بقوا معه في القدس لحماية المملكة إثر رحيل القادة الآخرين، وكان فقرهم رهيباً جداً يصعب التعبير عنه بكلمات.

---

(١) حدث هذا في حوالي ١٥ ـ آب ١١٠٠، وحمل بوهيموند إلى أقصرا التي هي قيسارية الجديدة عند الرومان.

(٢) تابع جبرائيل الحكم كتابع للرها.

وحدث في هذه الآونة أن جلب بعض الكشافة الجديرين بالثقة خبراً مفاده أنه كانت هنالك بعض القبائل العربية في أجزاء من بلاد العرب عبر الأردن في بلاد «العمونيين» تعيش بدون دفاعات كافية، وأنه إذا تم شن هجوم مفاجىء عليها، فمن المؤكد أنه سيتم الاستيلاء على مغانم كثيرة، واقتنع غودفري الشجاع بسهولة بمباشرة هذا المشروع، واستدعى بهدوء القوات التي أمكن للمملكة الفتية تقديمها، من الفرسان والرجالة وعبر بها الأردن ودخل أرض العدو.

وأنجزت الغارة بنجاح وكان غودفري عائداً بمغانم وفيرة من القطعان والمواشي مع أعداد كبيرة من الأسرى عندما قابله أحد النبلاء العرب، وكان أميراً شجاعاً ومشهوراً بين شعبه وعاشقاً متوقداً لفن الحرب، وكان قد حقق السلام بواسطة المراسلين، وقد أتى الآن، بصحبة حاشية محترمة من النبلاء العرب، لزيارة الدوق، وكانت قد وصلته أخبار كثيرة عن قوة وشهرة هذا الشعب من الغرب بعدما اجتاز مسافات شاسعة، والذي أخضع ـ بعدما تحمل مشاق كبيرة ـ الشرق بأسره، وكان قد سمع قبل كل شيء عن شجاعة الدوق الفريدة وقوته التي لا تعرف التعب، وتاق بكل فؤاده لرؤيته.

وعندما وقف في حضرة الدوق وحياه بالاحترام اللائق، توسل الزعيم العربي إلى الدوق أن يتفضل ليضرب بسيفه جملاً ضخماً كان قد جُلب لهذه الغاية، فقد رغب في أن يتمكن من أن يثبت للآخرين قوة الدوق كما رآها بأم عينيه، ووافق الدوق لأن الزعيم كان قد قدم من مسافة بعيدة، فاستل سيفه وضرب به رأس الجمل فقطعه بسهولة وكأنه لم يكن إلاّ شيئاً هشاً، ودهش العربي أمام هذا البرهان، من قوته الكبيرة، بيد أنه نسب في قلبه هذه المأثرة بشكل كبير إلى فعالية السيف، ولهذا سأل أن يسمح له الكلام بحرية وسأل غودفري فيما إذا كان يستطيع إنجاز مأثرة مماثلة بسيف رجل آخر، فابتسم الدوق قليلاً وطلب أن يحضر له سيف العربي، فتناوله وأمر بوضع جمل آخر من النوع نفسه أمامه، ورفع الدوق السيف وضرب به الجمل فقطع رأسه أيضاً بدون صعوبة بضربة واحدة.

بدأ الزعيم العربي يتعجب للمرة الأولى، واستولت عليه الدهشة، وأدرك أن قوة الضربة لم تنشأ عن فعالية السلاح، بل عن قوة الرجل نفسه، واقتنع أن القصص التي كان قد سمعها عن شجاعة غودفري كانت قصصاً حقيقية، وقدم على الفور هدايا من الذهب والفضة والخيول للدوق حظي بوساطتها برضاه، وعمل، لدى عودته إلى بلاده، كمذيع وصف لكل الذين قابلهم قوة الدوق التي كان بنفسه قد شهدها[1].

---

(١) أسطورة أخرى عن مضاء سيف غودفري وقوته، ولقد كان من الصعب على غودفري أن يجد الوقت في تلك السنة للقيام بمثل هذه الوقائع الموصوفة هنا.

وعاد الدوق نفسه إلى القدس مع أسراه ومغانمه.

٢٣ ـ وفاة الدوق ودفنه.

أصيب غودفري، الملك اللامع لمملكة القدس، بمرض عضال وعنيف في شهر تموز نفسه، وبدأ يضعف حتى الموت. واستمر هذا المرض الخبيث بالازدياد، وتعذر إيجاد أي علاج على الرغم من أنه تم البحث عنه في كل مكان، وتوفي هذا المؤمن المعترف بالمسيح، والتائب بشكل ورع بعد أن تلقى القربان المقدس ليلقى ثواباً مضاعفاً مائة مرة وليحظى بالحياة السرمدية مع أرواح القديسين، لقد توفي في الثامن عشر من شهر تموز في عام ١١٠٠ لتجسيد الرب، ودفن في كنيسة قبر المسيح في موقع الصلب حيث تألم الرب، فهناك أفرد جانباً مكان له ولخلفائه من بعده حتى هذا اليوم [١].

انتهى هنا الكتاب التاسع

---

(١) استخدم مكان الدفن بيعة الجلجلة في كنيسة القبر المقدس لدفن حكام القدس حتى استيلاء صلاح الدين عليها في عام ١١٨٧، ويبدو أنه احترمه مع خلفائه إلا أن المغول المتوحشون نهبوه في سنة ١٢٤٤.

الكتاب العاشر

الملك بلدوين الأول: توسيع المملكة

١ - بلدوين كونت الرها يخلف أخاه غودفري في الملك بعد وفاته.

كان غودفري اللامع صاحب الذكرىٰ الورعة في الرب، الحاكم اللاتيني الأول لمملكة القدس، وبعدما رحل من هذا العالم ليحقق حياة أفضل في الآخرة بقي العرش شاغراً لمدة ثلاثة أشهر، وجرى أخيراً استدعاء النبيل بلدوين كونت الرها وشقيق الدوق من والديه، ليخلف أخاه في الاعتناء بالمملكة التي استحقها بحق الوراثة، وكان ذلك إما بدافع الرفض لرغبات الدوق الأخيرة أو بالموافقة العامة للقادة، الذين قلت أعدادهم الآن كثيراً [١].

نال بلدوين في شبابه تربية جيدة في الدراسات العقلية، ويقال إنه أصبح رجل دين، وشغل، بسبب نسبه اللامع، وظائف كنسية مفيدة تعرف بشكل عام باسم الأوقاف الكنسية في كنائس الرايم وكامبيرا وليبيج، هذا وقد تخلىٰ فيما بعد، لأسباب نجهلها، عن المنصب الكنسي، وحمل الأسلحة الحربية، وأصبح جندياً وتزوج بمرور الزمن سيدة بارزة ذات منزلة عالية من انكلترا تدعى غودهيلد [٢] Godhilde وقد لحق بأخويه غودفري ويوستاس الرجلين ذوي الفضائل السامية، والذكرىٰ السرمدية ورافقهما وبصحبته زوجته في الحملة الأولى، التي كانت رحلة حج ناجحة وميمونة في جميع جوانبها [٣].

هذا وماتت غودهيلد، نتيجة لألم طويل، في مرعش ودفنت هنالك، قبل أن يصل جيش المؤمنين إلىٰ أنطاكية، كما كنا قد ذكرنا من قبل، ثم جرى استدعاء بلدوين من قبل دوق الرها الذي اتخذه كابن له، وبعد وفاة الدوق، ورث بلدوين تلك الكونيتة وكل ما تعلق بها حسبما جرى سرده من قبل بالتفصيل [٤] ثم أنه تزوج ابنة أمير أرمني مشهور ونبيل

---

(١) وردت حكاية الخلافة كما حدثت في وقتها في الفصل الثالث والفصول اللاحقة، ولعل هذان الفصلان قد أقتحما بالنص الأصلي عندما كان وليم يعيد النظر في عمله للمرة الأخيرة.

(٢) انظر الكتاب الثاني ـ الحاشية السادسة والكتاب الثالث الحاشية ٢٠.

(٣) نسي وليم ما قاله عن يوستاس كمرافق لروبرت أوف نورماندي (انظر الكتاب الثاني الحاشية ٣٠).

(٤) أنظر الكتاب الرابع الفصلان ٢ ـ ٣ مع الحواشي.

اسمه تفروك (طوروس)[1] كان يمتلك مع أخيه قسطنطين حصوناً منيعة في المنطقة المجاورة لجبال طوروس وقوات ضخمة من الرجال الشجعان، وقد عدّ هذان النبيلان كملكين لهذا الشعب بسبب ثرواتهما وقوتهما الضخمة.

ليس من الضروري أن نتحدث ثانية في هذا الوقت عن أصل بلدوين وأسرته، وسلسلة نسبه الرائعة ومكان مولده، لأننا كتبنا ما فيه الكفاية عن النسب المجيد لبلدوين وأخيه غودفري عندما كنا نؤرخ لأعمال السيد الدوق.

٢ ـ الصفات الجسدية والفضائل الأخلاقية للنبيل بلدوين.

يقال إن بلدوين كان طويلاً جداً، وأضخم بكثير من أخيه، كما كتب حول شاول: «فكان أطول من كل الشعب من كتفيه فما فوق[2]». وكانت بشرته بيضاء نوعاً ما وله شعر ولحية بلون كستنائي داكن، وكان أنفه معقوفاً، وشفته العليا بارزة إلى حد ما، وكان فكه السفلي مرتداً إلى الوراء قليلاً وليس كثيراً حتى يعد عيباً، وكان مبجلاً في سلوكه وجاداً في لباسه وخطابه، وارتدى دائماً عباءة متدلية من كتفيه، وظهر للذين لم يعرفوه أشبه بالأسقف أكثر منه شخصاً عادياً بسبب وقاره في الحديث والسلوك. ومع ذلك ليس هنالك من شك في أنه كان من أبناء آدم ووريثاً للعنة الأصلية، حيث يقال إنه ناضل عبثاً ضد الآثام الشهوانية للجسد، ومع ذلك، فقد تصرف بحذر في الانغماس في هذه الرذائل لكنه لم يتمنع عن أي منها، كما أنه لم يصب أحداً بالعنف أو الأذى الكبير، وبالفعل لم يكن سوى عدد قليل من ملازميه مدركين لعاداته المتحررة، وهو شيء نادر في مثل هذه الأحوال ومثله مثل جميع الآثمين عندما يحاول أنصاره إيجاد عذر له، يبدو أن بعضها مقبول، إذا لم يكن الحكم دقيقاً بين الرجال على الأقل، كما سيحكى في الصفحات التالية.

ولم يكن بلدوين رجلاً بديناً ولا نحيفاً بشكل مفرط، بل كان ذا بنية جسدية متوسطة إلى حد ما، وكان خبيراً في استخدام الأسلحة ورشيقاً في ركوب الخيل ولذلك كان متيقظاً ومجتهداً كلما دعته أمور المملكة.

ليس من الضروري الحديث بتعابير إطرائية عن شهامته وشجاعته وخبرته في فن

---

(١) كانت هذه أردا، ابنة طوروس الأول من السلالة الروبانية الأرمنية، التي تزوجها بلدوين في عام ١٠٩٨ على الأرجح وكان طوروس بن قسطنطين، الحاكم الأسبق لتلك الدولة الأرمنية. وكان له أخ يسمى ليو، حكم بعده من عام ١١٢٣ ـ ١١٣٥ (انظر غالوست ت.اسكندريان «الصليبيون والأرمن وبيزنطة وقيام دولة الرها» ص٥٩ رقم ٢١٥.

(٢) صموئيل الأول: ١٠/٢٣.

الحرب وعن جميع الصفات الممتازة الأخرى لعقل جيد التوازن، فقد كانت هذه السمات قد نقلت إليه ولإخوته كميراث دائم من أسلافهم.

ولقد قلد بلدوين أخاه الدوق بشكل صريح وحاكاه بحيث اعتبر أن انحرافه، في أقل التفاصيل، عن المثال الذي وضعه أخوه على أنه إثم في حد ذاته، هذا، وكان على علاقات حميمة جداً مع شخص اسمه أرنولف وهو رجل شرير وحقود، كان رئيساً للشماسة في القدس، فقد سيطرت نصيحة هذا الرجل عليه سيطرة كبيرة، ولهذا وُجِّه النقد إليه، وآرنولف هذا هو الذي كنت قد ذكرته من قبل على أنه اغتصب الكرسي البطريركي. وكانت سمعته سمعة رجل ميّال إلى الشر في تفكيره وعمله[1].

٣ ـ كونت غارنير يستولي على البرج إثر وفاة الدوق. إرساله الرسل بشكل سري لاستدعاء بلدوين.

بعد أن توفي الدوق وأودع القبر، كما كنا قد سردنا ذلك، تخلى الذين كان قد عهد إليهم بتنفيذ رغباته المبنية في وصية الأخيرة عنها، مفضلين رغباتهم على حكم سيدهم[2]، فلم يسلموا برج داود إلى البطريرك ديمبرت، كما لم يسلموا المدينة لسلطته، كما كان مدرجاً في شروط الوصية، حيث كان الدوق، ذو الذكرى الورعة في المسيح، قد دخل في اتفاق حولها، في اليوم المقدس لعيد الفصح الأسبق مع البطريرك في كنيسة قيامة المسيح بحضور رجال الدين وعامة الناس.

كان زعيم هذه الزمرة المثيرة للاضطراب كونت اسمه غارنير وكنيته دي غري، وكان محارباً شجاعاً وجسوراً ومن أقرباء الدوق والكونت، وحالما توفي الدوق، استولى الكونت على البرج وحصنه بقوة[3]، ثم أرسل خلسة، ودون علم الآخرين، رسلاً إلى الكونت

---

(١) لعل وليم ينشد هنا استثناء بلدوين بعزو نشاطاته في التعامل مع البطريركية إلى النفوذ المفرط لأرنولف، هذا ولا يقدم سجل بلدوين سوى أساس صغير للاتهام أنه كان تحت نفوذ أي رجل، ويقيناً، فإن هذه الأعمال التي بدت شريرة لوليم نشأت من الحقيقة أن بلدوين، مثله مثل أرنولف، اعتقد أنه يجب أن يحكم القدس بوضعها القائم، محارب بحيث يجب أن تكون جميع مواردها تحت سيطرته، وبالطبع، فقد كان هذا الرأي مخالفاً لذلك الذي حمله ديمبرت وشاركه وليم فيه. وبدا سلوك ديمبرت من وجهة نظر بلدوين وأرنولف سلوكاً شريراً كما بدا شريراً أيضاً بالنسبة لوليم. ويظهر ألبرت أوف اكس آراءهم بدقة أكثر (تاريخ القدس ـ مجموعة راشيل لتاريخ الحروب الصليبية ـ التواريخ الغربية ج ٤ في ثنايا الفصل ٧) وكذلك رالف أوف كين.

(٢) إذا كنا سنثق برواية ألبرت نجد أنهم كانوا يعملون بتوافق مع رأي غودفري أكثر مما لاحظه وليم.

(٣) كانت هذه التدابير الوقائية ضرورية بسبب موقف ديمبرت، وكان ديمبرت مع تانكرد في هذا الوقت في حصار حيفا، وحسب ألبرت، فقد ظهر كل من ديمبرت وتانكرد مع قواتهما وطالبا بالقدس (انظر ألبرتوس أكونيسس في مجموعة راشيل ـ التواريخ العربية ج ٤ فصل ٧ ص ٣٥).

بلدوين عازماً عليه القدوم بالسرعة الممكنة وبدون تقاعس، وطالبه البطريرك بشكل متكرر أن ينفذ الرغبات الأخيرة للدوق بإفساح المجال لحقوق الكنيسة، إلا أن غارنير استمر باستنباط المعاذير وإجراء التأخير بكل وسيلة سعىٰ فيها لكسب الوقت حتى يتمكن الكونت ـ الذي كان قد استدعاه ـ من أن يجد حقوقه ما تزال سليمة عندما يعود، وفعل هذا أملاً في كسب حظوة كبيرة لدى بلدوين للإخلاص الذي أظهره له بهذا الشكل، هذا وقد خاب أمل غارنير بشكل فاق كثيراً توقع الجميع، لأنه توفي خلال خمسة أيام، واعتبر الجميع موته معجزة، نسبت إلىٰ فضائل البطريرك حيث لاقى عدو الكنيسة ومضطهدها موتاً مفاجئاً كهذا.

بيد أن موت غارنير لم يحسن وضع الكنيسة، حيث لم يولِ الذين كانوا يملكون القلعة انتباهاً كبيراً إلىٰ ما حدث، واستمروا في البقاء هناك حتى وصل كونت الرها.

كان البطريرك عارفاً تماماً أنه تم استدعاء الكونت، وخاف من وصوله، وبما أنه كان راغباً في إعاقة تقدمه بكل طريقة ممكنة، فقد أرسل رسالة محتوية علىٰ تفاصيل كاملة عن المشكلة إلىٰ بوهيموند أمير أنطاكية، ولكي يكون هنالك دليل مقنع علىٰ هذه المسألة رأينا من الحكمة أن ندرج نسخة من تلك الوثيقة في التاريخ الحالي [1].

٤ ـ رسالة ديمبرت إلى أمير أنطاكية.

« ستعرف يا بني العزيز، أنك اخترتني ككاهن وبطريرك، وأنا كاره لذلك وجاهل به، غير أنني كنت مملوءاً بالطموحات المقدسة والخيّرة نحو الأم الوحيدة لجميع الكنائس وملكة الأمم؛ لقد توليت اختياري بموافقة رجال الدين والقادة والناس علىٰ حد سواء، ووضعتني، بتوجيه الله، في منصب السمو الأعلىٰ ولو أنني لا أستحقه، لقد أرهقتني آلاف المظالم في هذا المنصب الممجد، كما أن المشاق والاضطهادات الكثيرة والمخاطر العظيمة التي

(١) لا يعتبر الكثير من الدارسين هذه الوثيقة حقيقية، بما فيهم برونز، لأن اللغة هي لغة وليم بوضوح، هذا ويشعر هاغنمير على الرغم من هذا أن محتوياتها تناسب تماماً الحقائق، وتحتوي على الكثير مما يخالف روايات وليم السابقة لتوحي أنها تعتمد على أساس جوهري، وحسب ألبرت أوف اكس [مجموعة راشيل ـ الغربية ج٤ فصل٧ : ٢٧] وقع حامل هذه الرسالة، وهو سكريتر ديمبرت واسمه مورلوس في قبضة ريموند أوف طولوز (أو في قبضة رجاله) في اللاذقية ومنعوه من تسليم الرسالة، ومن المحتمل أن الرسالة أو حديث محتوياتها بقي في ملكية شعب ريموند، وإذا كان الأمر كذلك، يحتمل أن وليم سمع عنها من أتباع ريموند الثالث صاحب طرابلس الذي تعرف عليه خلال وصاية ريموند (١١٧٤ ـ ١١٧٦) هذا، وتوحي بعض التعابير في هذه الرسالة أنه لو كان هنالك أساس جوهري كهذا، لكان وليم تولى إحكامه بآرائه الخاصة (انظر هـ. هاغنمير « التأريخ » رقم٤٤٧).

عانيت منها لا تعرفها سوى روحي والمسيح، الذي يرى جميع الأشياء، حيث أن رغبات الدوق غودفري، عندما كان ما يزال حياً لم تضلله كثيراً بقدر ما ضللته آراء الرجال الأشرار، فقد أكره بصعوبة بالغة على التخلي لصالح الكنيسة عن الأشياء التي يجب أن تحتفظ بها، أي الممتلكات التي كان البطريرك قد احتفظ بها خلال زمن الأتراك، كما عانت الكنيسة في الوقت نفسه أيضاً من محنة وعار لا حدود لها وذلك في الوقت الذي توجب فيه إجلالها وتمجيدها كثيراً. وعاد الدوق بعد طول انتظار بفضل نعمة الله إلى رشده، وتخلى عن نواياه المدنسة تجاه المقدسات، وأعطى ربع مدينة يافا إلى كنيسة القبر المقدس في يوم تطهير مريم العذراء المقدسة، كما أنه احتقر بنبل أن يستمتع بعد ذلك بالأبهة الدنيوية أو أن يثق بها، وأعاد بسخاء كل شيء كان يخص الكنيسة بحق وذلك في يوم الاحتفال بعيد الفصح بعدما حركه الندم عن طريق أعمال الإرادة السماوية، وأصبح خادماً للقبر المقدس ولنا، ووعد من ذلك الحين فصاعداً أن يحارب بإخلاص في سبيل الرب ومن أجلنا وأعاد إلى سلطتنا برج داود مع كامل مدينة القدس وملحقاتها، بالإضافة إلى ممتلكاته في يافا، هذا وبما أن وسائله المؤقتة لم تكن كافية، فقد أدخل الشرط التالي بموافقتنا في أنه سيحتفظ بجميع هذه الممتلكات حتى يحين وقت يزيد الرب فيه من موارده بالسماح له بالاستيلاء على بابليون[1] ومدن أخرى، وإذا ما مات بدون وريث ذكر ينبغي إعادة جميع هذه الممتلكات إلى الكنيسة دون تردد، ومع أنه كان قد وعد بجميع هذه الأشياء أمام القبر الأكثر قدسية في يوم الفصح المقدس، وبحضور جميع رجال الدين وعامة الناس، عاد وأكد عليها عندما كان طريح فراش مرضه الأخير، وبحضور العديد من الشهود الموثوقين جداً.

«وبعد وفاة غودفري قام الكونت غارنير كعدو مناهض لكنيسة الرب وحصن برج داود معارضة لنا معتبراً الوعد الصادق والاتفاق القويم اللذين كانا قد أجريا مؤخراً وكأنهما لا شيء، وأرسل رسله لاستدعاء بلدوين مخبراً إياه أنه سيسلب كنيسة الرب بالإستيلاء على ممتلكاتها والاحتفاظ بها بالقوة حتى يصل الكونت نفسه، لكن قضاء الله باغت غارنير حيث توفي في اليوم الرابع بعد موت الدوق، ومع ذلك، وحتى بعد حدوث هذا، استولى بعض الرجال الأدنياء[2] من عامة الناس على البرج وسائر المدينة ولا يزالون يحتفظون بها منتظرين قدوم بلدوين في سبيل دمار الكنيسة وهلاك المسيحية ذاتها.

---

(١) يعني هنا القاهرة عاصمة مصر. والمسألة محط خلاف ذلك أنه إذا ما تم الاستيلاء المحتمل في هذا الوقت كانت هنالك أقاليم كثيرة أكثر قرباً ليتم الاستيلاء عليها، ولم يصبح ذلك الاستيلاء وشيكاً حقاً حتى زمن وليم، عندما كان عموري يسيّر حملاته في المنطقة وربما كان هذا الاقتراح هو توسع قام به وليم.

(٢) لم يكن هنالك مثل هذا التمييز الاجتماعي قائماً كقانون خلال فترة الحملة الصليبية الأولى. ولم يكن نسب بوهيموند سامياً في نفسه ومثل هذه الميول هي من سمات وليم.

« إلا أنني، يا بني العزيز، متروك تماماً لرحمة الله ولشفقتكم، وحيث تحيط بي محن كثيرة وافتراءات عديدة ناشئة من مكائد الأشرار، فإنني لا أثق إلا بك فقط بعد الرب، وأضع مرتكز أملي الوحيد في عواطفك الثابتة وحبك، ولا أفضي إلاّ إليك، وبكلمات دامعة وفؤاد كسير بأخبار التعاسات التي أكابدها ـ لا بل التعاسات التي تعاني الكنيسة منها.

« وعليه إذا كان لديك أية شفقة مخلصة نحوي، وإذا كنت تريد ألا تكون أدنى من أبيك بالسمعة الرائعة (أبوك الذي أنقذ البابا غريغوري من مدينة روما عندما سجن هذا الرجل المقدس بواسطة القوة الاستبدادية لرجال أشرار، وهو عمل يجب ألا ينسى من أجله أبداً)، ضع جانباً جميع المعاذير، وتعالَ إلي على الفور. واعهد بشؤون مملكتك وأراضيك بحكمة لعدد من محاربيك الثقاة، واقدم فوراً بشفقة منك لمساعدة الكنيسة المقدسة في صراعاتها المثيرة للشفقة، لأنك تعرف جيداً أنك وعدتني بمساعدتك ومشورتك، وتطوعت بجعل نفسك خاضعاً للكنيسة المقدسة ولي.

« لذلك أكتب رسالة إلىٰ بلدوين وامنعه من الوقوف ضد إرادتنا وعبر له عن المعارضة الصريحة لقدومه إلىٰ القدس لتجريد الكنيسة المقدسة والاستيلاء على ممتلكاتها بأي شكل من الأشكال. لأنه انضم إليك أيضاً في انتخابي بطريركاً وكاهناً للكنيسة في القدس، وبين له أنه سيكون مخالفاً للمنطق بعدما كان قد تحمل مشاق وأخطاراً كثيرة في سبيل تحرير الكنيسة، أن يتولى الآن إخضاع تلك الكنيسة نفسها، ووضعها في منزلة شائنة وحقيرة، وإرغامها على خدمة الذين يجب أن تسيطر عليهم وتحكمهم بحق الأمومة، لكنه إذا ما قاوم العدالة ورفض الانصياع للمنطق فإني آمرك بحق الطاعة التي تدين بها للقديس بطرس أن تعيق مقدم بلدوين بأية وسائل تستطيعها حتى بالعنف إذا لزم الأمر.

« أطلعني، يا بني العزيز، بوساطة هذا الرسول نفسه الذي أرسله إليك ماذا تنوي أن تفعل بخصوص هذه القضايا التي ألزمتك بها وأرسل المساعدة لي بالسرعة الكلية ».

٥ ـ بلدوين المسرع في طريقه إلىٰ القدس يجد أن العدو قد نصب له كميناً بالقرب من نهر الكلب.

نحن على ثقة أن هذه الرسالة لم تصل إلىٰ بوهيموند أبداً لأن الأعداء كانوا قد أسروا هذا الأمير، كما حكينا من قبل، في ذلك الشهر نفسه إما قبل فترة وجيزة، أو مباشرة بعدما تحرر الدوق ذي الذكرىٰ السعيدة من عبودية الجسد وانتقل إلىٰ الرب [1].

---

(١) انظر الكتاب ٩ ـ الفصل ٢١.

كان بلدوين كونت الرها يتمع في تلك الأثناء بالازدهار والحظ السعيد، فقد كانت ملطية الحاضرة الرائعة لبلاد الميدين[1] قد استسلمت إليه، وكان قد قهر الأعداء المحيطين به، وهكذا، نجح بنعمة الله بإحراز شيء من السلام لنفسه ولشعبه، ووصل فجأة وبسرعة بالغة رسول قادم من القدس أعلن أن الدوق النبيل كان قد مات، وأعلمه أيضاً أن الأصدقاء والموالين المخلصين لأخيه المتوفى يدعونه بإلحاح للقدوم بالسرعة الكلية ليرث العرش، وهكذا، جمع على الفور مرافقة قدرها مائتا فارس وثمانمائة من الرجالة وبدأ رحلته إلى القدس في الثاني من شهر تشرين الأول، وكانت مسألة مدهشة لكثيرين في أنه اقترح القيام برحلة طويلة جداً كهذه خلال بلد العدو برفقة مثل هذه المجموعة الصغيرة من الأتباع، وقد عهد بالعناية ببلاده لواحد من أقاربه واسمه بلدوين دي بورغ وكان رجلاً عاقلاً وممتازاً، وقد خلفه فيما بعد في الكونتية وفي المملكة أيضاً.

ولدى وصوله إلى أنطاكية، أرسل زوجته وجواريه وأهل بيته مع جميع الأثاث الثقيل والجزء الأكبر من الأمتعة إلى شاطىء البحر حيث كان قد أمر باعداد سفينة لتبحر زوجته عليها بوضع مناسب إلى يافا، وكانت يافا المدينة الساحلية الوحيدة التي استولينا عليها حتى الآن، حيث كانت جميع المدن الساحلية الأخرى ما تزال تحت سيطرة الكفرة، ويبدو أن دافعه نحو اتخاذ هذا الإجراء أنه سيكون أخف ظهراً، حيث كان على وشك عبور أرض العدو، ولذلك سيكون بشكل أفضل للتغلب على أية صعوبات أو هجمات مفاجئة قد يواجهها.

ونزل من أنطاكية إلى اللاذقية السورية، وتابع سيره من هنالك على طول الساحل خلال جبلة وبانياس والمرقب وطرطوس وعرقه إلى طرابلس، وحياه حاكم ذلك الموقع في معسكرة المضروب خارج المدينة، وأمطره بالهدايا والتشريفات. وتلقى من هذا الحاكم نفسه معلومات تفيد أن دقاق ـ ملك دمشق قد نصب له الكمائن بعيداً على طول خط زحفه[2].

واصل زحفه من طرابلس مروراً بجبيل ووصل إلى نهر الكلب. ويوجد هنا ممر خطر جداً بين بحر عاصف وجبال شاهقة تجعل الطريق بين الصخور الوعرة والمرتقى الشديد الانحدار غير سالكة تقريباً[3]، ولا يتجاوز طول الممر أربع مراحل، بينما يبلغ عرضه ذراعين

---

(١) لا بد من اعتبار هذا المصطلح القديم اختراعاً أدبياً، وكانت ملطية إحدى مدن أرمينية الرئيسة في تلك الآونة.

(٢) كان دقاق ابن أخي ملك شاه وقد حكم دمشق من ١٠٩٥ إلى ١١٠٤.

(٣) تمتع ممر نهر الكلب هذا بالشهرة خلال التاريخ ومرّ به كبار الفاتحين من الاسكندر إلى نابليون وتركوا جميعاً نقوشهم هناك.

كانت الطريق الخطرة خلال هذا الممر الضيق قد سدت لمنع عبورها، حيث كان سكان الموقع قد اجتمعوا عند ذلك المكان بمساعدة بعض الأتراك من أجزاء أكثر بعداً لإعاقة زحف الكونت بلدوين.

عندما وصل الكونت إلى هذا الموقع أرسل عدداً من رجاله أمامه للاستطلاع، ووجد هؤلاء الكشافة أن بعض المدافعين قد عبروا النهر ونزلوا إلىٰ السهل، ولدىٰ اكتشافهم هذا الوضع، بدأوا يخشون من أن العدو قد ترك أعداداً أكبر أيضاً في كمين وراءهم، لذلك أرسلوا واحداً منهم لإبلاغ الكونت بصورة الحال، ونظم بلدوين صفوفه فوراً بتشكيل المعركة وزحف نحو العدو حيث وجده مستعداً للقتال، فانقض عليهم بهجوم شجاع، وشتت صفوفهم في الهجوم الأول وقتل كثيراً منهم وجعل الباقين يلوذون بالفرار، ثم أمر قواته أن تضع أمتعتها جانباً وتضرب المعسكر في ذلك الموقع، حيث أمضوا ليلة انقضت تحت ظروف خطر كبير، لأنهم كانوا مخيمين في ممر ضيق وهم محتجزون بين الجبال والبحر، وأزعجهم العدو طوال الليل بغارات متكررة من الممر الجبلي بالإضافة إلىٰ الغارات التي شنها الذين كانوا قد أتوا بحراً من بيروت وجبيل، وواصل الكفرة في صب وابل مستمر من السهام أحدث فتكاً كبيراً بين المسيحيين الذين قام موقع معسكرهم على ضواحي المعسكر، ولزيادة كارثتهم الرهيبة، لم يتمكنوا من سقاية خيولهم في تلك الليلة على الرغم من أنهم كانوا قريبين من أحد الأنهار، وعانت الحيوانات المسكينة، المنهكة من السير الطويل، كثيراً من العطش الذي سببته الحرارة الشديدة.

٦ ـ هزيمة العدو . بلدوين يصل إلىٰ القدس بعد سير هادىء .

وعندما سطع نور اليوم التالي أمر الدوق ـ بعد التداول مع جماعته ـ بترتيب الأمتعة وأن يستعد الجميع للانسحاب. وأرسل جميع الحجاج الأضعف من غيرهم بالإضافة إلىٰ الحجاج العديمي الفائدة كمقاتلين إلىٰ الأمام. وتبعهم مع المحاربين الأكثر مقدرة لتحمل الثقل الأكبر لأي هجوم قد يُشنّ علىٰ المؤخرة أو أحد الجناحين، وكان قد استنبط هذه الخطة، ببصيرته الذكية المألوفة، وذلك في سبيل تضليل العدو، وليس لافتقاره إلىٰ الثقة بجماعته وليتمكن من إقناع العدو بمطاردته عندما ينسحب، فهذا سيمكنه من مقابلته في السهل، حيث يستطيع أن يشتبك معه بحرية أكبر لأنه خاف كثيراً من الممرات الضيقة والمحصورة.

وبينما كان جيشه يكافح بهذه الصورة أثناء الانسحاب، واصل العدو أعمال المطاردة بجرأة أكبر، ذلك أنه اعتقد ان الخوف كان سبب الانسحاب، واندفع الأعداء بتلهف من

الشعاب وبدأوا بملاحقة المسيحيين بقوة في الأرض المفتوحة، وقفز في الوقت نفسه الذين كانوا على ظهر السفن إلى الشاطىء بعدما شموا رائحة الغنيمة آملين الفوز بالنصر دون صعوبة، وكأنما العدو قد هزم تماماً.

عندما رأى الكونت الأعداء قد تخلوا عن المرتفعات وباتوا موجودين على السهل في مطاردة حامية، أمر قواته بالانعطاف نحوهم، ثم انقض، بأعلام منصوبة على الذين كانوا ما يزالون يطاردونه بضراوة، وحذت كتائبه، بهجوم جريء، حذو الأمثولة التي ضربها قائدهم، وهكذا، باغت المسيحيون بسيوفهم اللامعة العدو، قبل أن يتمكن من الانسحاب، كعادته، إلى الجبال ففتكوا به فتكاً ذريعاً، ولم يقم الكفرة بأية محاولة للدفاع عن أنفسهم حيث لم يتمكنوا من صدّ هذا الهجوم، وأذهلتهم قوة مطارديهم المسيحيين وجسارتهم، ذلك أنهم اقتنعوا بأن أملهم الوحيد بالنجاة قائم على الفرار، ولم يجرؤ الذين كانوا قد نزلوا من السفن على العودة إلى البحر، بينما واجه الذين هربوا إلى الجبال كوارث خطيرة في سرعتهم الطائشة ولاقوا موتاً مفاجئاً بأشكال متعددة.

عاد المسيحيون المنتصرون، بعد هزيمة العدو بهذه الطريقة، بمعنويات عالية إلى الموقع حيث كانوا قد تركوا أحمالهم وأمتعتهم ومؤنهم، واستراحوا الليلة هناك مباركين المسيح الذي يصرع القوي ويمجد المتواضع، ثم استأنفوا سيرهم في اليوم التالي إلى مكان يسمى جونيه وقسموا هناك حسب العرف العسكري، العبيد والغنائم التي استولوا عليها، وصرفوا جهودهم نحو الرعاية الضرورية بأنفسهم وخيولهم.

أخذ بلدوين، الراغب في حماية كتيبته في صباح اليوم التالي معه عدداً من الفرسان المسلحين تسليحاً خفيفاً، وتقدم بشجاعة إلى الموقع حيث كان قتال اليوم السابق قد حدث فيه، ورغب أن يقرر بالتحقيق الشخصي فيما إذا كان أعداؤه ما يزالون يسيطرون على الممرات الضيقة، أو فيما إذا كان الممر مفتوحاً دون نزاع لجميع الراغبين باجتيازه، وحيث وجد أن الطريق كان غير محمي وهو سالك بسهولة، استدعى أتباعه الذين جلبهم النبأ السار بسرعة إلى هناك، فعبروا بإشراف قيادة زعيمهم، الموقع الذي كان قد سبب لهم بحق الكثير من الخوف والفزع، ثم واصلوا السير إلى بيروت حيث خيموا أمام المدينة؛ واتبعوا الساحل من بيروت وعبروا صيدا وصور وعكا ووصلوا في النهاية إلى مدينة حيفا.

هذا وقد ارتاب الكونت تانكرد بسبب الضرر المجحف والكبير الذي كان قد سببه لذلك النبيل في طرسوس في كليكية، وهكذا، منع جميع رجاله من دخول المدينة، حيث خاف من أن يرغب تانكرد الشجاع أن يثأر للأذى، بتذكرة الضيم الذي كان قد عانى منه،

وكان تانكرد نفسه غائباً غير أن الأهالي خرجوا لاستقبال الكونت وحيوه بمودة زائدة وحب أخوي، وعرضوا عليه تزويده بسوق لبيع السلع، وخاصة الأطعمة والمؤن الضرورية وذلك وفق شروط مرضية، وزحف الجيش من حيفا إلىٰ قيساريه ثم إلى أرسوف، مختاراً الطريق الواقع على طول الشاطىء، ووصل إلى يافا، حيث استقبل جميع رجال الدين وعامة الناس بلدوين باحتفاء عظيم، ولإرضاء الجميع اعتبر نفسه هنا حاكماً وتصرف وفقاً لذلك، وبدأ الجيش رحلته من يافا إلى القدس، وخرج جميع رجال الدين والناس من المدينة لمقابلته بما في ذلك اللاتينيون والشعوب الأخرى وقد خرجوا بمرافقة التراتيل والأناشيد الروحية، وقادوا الكونت بابتهاج إلى داخل المدينة كملك لهم وحاكم.

٧ ـ البطريرك ديمبرت الخائف من وصول بلدوين، يغادر قصر البطريرك، وينسحب إلى كنيسة جبل صهيون.

أدرك في تلك الآونة أرنولف المذكور آنفاً، والمولود الأول للشيطان وسليل الهلاك، أنه كان قد سقط من فوق كرسي يعقوب، بسبب استحقاقه للعقوبة، ذلك أنه كان قد اغتصبه بوقاحة. ولذلك، بدأ بإحداث الاضطراب وتعكير أمن ديمبرت الذي كان قد اختير بموافقة الجميع لحكم تلك الكنيسة، وكان آرنولف قد وجه، بعد وفاة الدوق مباشرة، شكاوى كثيرة ضد السيد البطريرك إلى بلدوين، وقام أيضاً بإثارة عدد من رجال الدين ضد ديمبرت، لأنه كان مملوءاً بالحقد، وأحب أن يثير بذور الشقاق، ولقد كان البطريرك الأسبق غنياً جداً، وصاحب سلطة كبيرة، فقد كان رئيس شماسة القدس، وتلقىٰ أيضاً عائدات من هيكل الرب، ومكان الجلجلة، وبما أنه كان ثرياً وداهية فقد أحدث الكثير من الأذى بيـن رجال الدين وأعظم من ذلك بين صفوف المدنيين.

وكان السيد البطريرك مدركاً تماماً لحقد هذا الرجل أرنولف الذي كان بالنسبة إليه كالشوكة في جسده، كما كان عارفاً أيضاً بسذاجة الكونت، لذلك نظر بخوف إلى قدومه. فترك قصر البطريرك وانسحب إلى كنيسة جبل صهيون، وكرس نفسه في ذلك الملاذ البعيد عن جميع الخلافات كإنسان عادي للقراءة والصلاة. وهكذا، حدث أنه لم يكن موجوداً لدى استقبال السيد الكونت للمشاركة في أعمال الترحيب التي استقبل بها الأهالي بلدوين [١] .

---

(١) من المحتمل ان معارضة ديمبرت المعروفة لوراثة بلدوين كانت سبباً كافياً لتغيبه في هذا الوقت. هذا وقد قدمت المناسبة فرصة أخرىٰ لوليم لينال من أرنولف.

٨ ـ الكونت يقود حملة ضد مدينة عسقلان. عبوره نهر الأردن وغزوه أراضي العدو بالقوة. عودته أخيراً إلى القدس.

أمضى الكونت عدة أيام في القدس ليعطي نفسه وخيوله فرصة للراحة، وبما أنه كان إنساناً يحب العمل ويمقت الكسل، فقد قام حالما كانت أمور المملكة قد سويت بشكل مرضٍ للوقت الحالي، بجمع قوة حملة من الناس الذين كانوا قد تبعوه إلى هنا، ومن جنود وجدهم في المملكة، وظهر بهذه السرية فجأة أمام مدينة عسقلان، واكتشف انه لا يستطيع أن ينجز الكثير هناك حيث خاف السكان من الاندفاع ضده، ولذلك تقدم خلال المنطقة الواقعة ين الجبال والبحر، وصادف مواقع كثيرة كان سكانها قد تركوا منازلهم وهربوا إلى كهوف خفية مع زوجاتهم وأولادهم وقطعانهم ومواشيهم.

واكتظت هذه المنطقة باللصوص وقطّاع الطرق، وقد جعلت كوارث الطرق العامه الناجمة عن غارات متوالية الرحلة بين الرملة والقدس خطرة جداً لأن اللصوص غالباً ما انقضوا بسيفهم المعادي على المسافرين القليلي الحذر، وعندما سمع الكونت بهذا أمر بتعقبهم بكل شدة وأمر بجمع كل أنواع المواد القابلة للاحتراق أمام مداخل الكهوف وأطلق فيها النيران، وأمل بهذه الوسيلة أن يجبر الهاربين المختبئين داخل الكهوف على الاستسلام، وإلا فسيخنقهم الدخان الكثيف فوراً، وكانت هذه هي النتيجة، حيث أن المسجونين في داخل هذه الكهوف لم يستطيعوا تحمل حرارة النار واللهيب المتوهج والدخان الخانق فاستسلموا إلى الكونت فوراً وبدون قيد أو شرط[١]، وأمر الكونت على الفور، بضرب رؤوس مائة من مجموعهم بدون رحمة عقوبة عاجلة بدت جرائمهم أنها تستحقها، وأخذ من المخازن التي وجدها الطعام الضروري للرجال والأنعام في موكبه، ثم تابع سيره فصعد إلى المنطقة الهضبية العائدة لقبيلة سمعان. ودخل الخليل المعروفة أيضاً باسم كارياثربي المشهورة على أنها مكان دفن الأنبياء إبراهيم واسحاق ويعقوب، ثم نزل عبر كروم النجادي إلى الوادي المشهور حيث يقع البحر الملح[٢]، واجتازت السرية سيفور، الصغيرة بالفعل، والتي تمكنت من انقاذ لوط عندما كان هارباً من سدوم، ثم دخلت منطقة موآب واجتازت سائر وادي عربة وكان

(١) كانت هذه الصيغة البدائية للقتال بوساطة «الدخان» وسيلة معروفة في الحرب في الشرق، وشاع استعمالها في معارك الصيف، عندما أشعل العشب الجاف، مع وجود ريح مواتية، ليعمي العدو وليعيقه. واستخدمها صلاح الدين في معركة حطين المشهورة ضد الصليبيين في عام ١١٨٧.

(٢) تحقق فولتشر أوف تشاترز، الذي رافق بلدوين في رحلته، من وجود الملح بتذوقه له ونقل تجربته بفخر شخصي كبير (هـ. هاغنمير تاريخ فولتشر ص٣٧٧) وحذف ولِم ـ الذي افتقر إلى اهتمام فولتشر في الطبيعة ـ بالعادة مثل هذه المقاطع من روايته.

جنود بلدوين يرتقبون دائماً قيام فرصة يلحقون بها الأذى بالجيش التركي الخائن، ولتحسين حالتهم غير أنهم لم ينجزوا أي شيء خلال كامل الزحف باستثناء أنهم أمنوا ما يلزم لأنفسهم وخيولهم وحيوانات حمولتهم من سلع العدو، لأن سكان ذلك الجوار قد علموا مسبقاً بقدومهم فهربوا إلى معاقلهم المألوفة في أعالي الجبال التي يتعذّر الوصول إليها، وهكذا، وجد المسيحيون هذه المنطقة، عندما اجتازوها، مهجورة تماماً ودون رعاية.

وأخيراً أدرك الكونت أنه لن يتسطيع إنجاز أي شيء، وبما أن عيد ميلاد الرب بات وشيكاً عاد أدراجه على الطريق الذي كان قد قدم عليه، ودخل القدس من جديد في الواحد والعشرين منه شهر كانون الأول، يوم عيد الحواري القديس توماس.

٩ ـ قيام مصالحة بين البطريرك والكونت. الكونت يرث العرش

في سنة ١١٠١ لتجسيد الرب تصالح السيد البطريرك ديمبرت مع الكونت بلدوين بوساطة الجهود الجديرة بالثناء لبعض الوسطاء العقلاء وفي اليوم المقدس لميلاد الرب جرى تكريس بلدوين لخدمة الرب وعُيِّنَ ملكاً في الكنيسة في بيت لحم[١] بإشراف ديمبرت، البطريرك المذكور آنفاً، وتُوِّج بشكل جليل بالتاج الملكي وذلك بحضور رجال الدين والأهالي ورجالات الكنيسة وأمراء المملكة.

١٠ ـ أهالي انطاكية يستدعون تانكرد. تانكرد المتذكر دوماً الضيم القديم الذي لحقه، يرحل عن بلدوين.

وهكذا، ارتقى بلدوين العرش، كما تم ذكر ذلك، وأقام في المملكة، غير أن تانكرد، ذلك الرجل ذو الذكرى الرائعة والذكر الورع في المسيح، كان ما يزال يعيش ذكرى المظلمة المجحفة التي كان قد عانى منها على يد النبيل بلدوين هذا نفسه في طرسوس كليكية، وكان تانكرد رجلاً صاحب شخصية دينية عميقة مع مراعاة دقيقة لأوامر ضميره، وبما أنه لم يكن راغباً بالالتزام بيمين الولاء لحاكم لن يتسطيع أن يحبه حباً صادقاً، فقد تخلى لذلك عن مدينة طبرية لسلطة الملك، وتخلى في الوقت نفسه أيضاً عن مدينة حيفا، والتي كان الدوق النبيل غودفري ذو الذكرى الرائعة قد منحه إياها، بسخاء من قلبه، مقابل خدمات

(١) يجب اعتبار تتويج بلدوين في بيت لحم على أنه كان حلاً وسطاً للآراء المتضاربة، وكان لقبه بموافقة عامة: «ملك القدس» وليس واضحاً فيما إذا رجحت الآراء الورعة للقادة الصليبيين في انتخاب غودفري أو ادعاءات ديمبرت الواضحة بحقه في القدس، هذا وكان على بيت لحم أن تبقى عزيزة بشكل خاص لدى بلدوين إلى الأبد بعد هذا.

بارزة قام بهـا [1]، ثم استأذن بالانصراف وسط أسف شديد من قبل الجميع وعاد إلى منطقة أنطاكية، حيث كان قد استدعي مراراً وتكراراً من قبل أعيان المنطقة ليتولى مسؤولية الإمارة والاهتمام بها حتى عودة بوهيموند إذا ما كان الرب سيتنازل بالفعل لتحرير هذا الأمير من السجن، وإذا لم يُسمح لبوهيموند بالعودة، فستنقل الوراثة بكاملها إلى تانكرد بحق وراثي، ولدى وصوله إلى انطاكية سلمه الناس والزعماء إدارة المدينة بأكملها ومنحوه سلطة كاملة.

ومنح الملك مدينة طبرية، عندما أعيدت لسلطته لهيودي سينت أومر [دي فولكنبيرغ]،وهو رجل من منزلة عالية، وشجاع في القتال، منحه إياها ليحتفظ بها بحق وراثي [1]، وعاشت المملكة هادئة لمدة أربعة أشهر.

١١ ـ الملك يعبر نهر الأردن ويستولي على مغانم ضخمة من أراضي العدو. وصف مأثرة جديرة بالثناء قام الملك بها.

خلال تلك الأيام ذاتها، وبناء على اقتراح بعض الرجال الذين كانت مهمتهم استقصاء أحوال المناطق المجاورة واكتشاف نقاط الضعف لدى العدو جمع الملك خلسة مجموعة ضخمة من الجنود وعبر الأردن ودخل أرض العرب، وتغلغل إلى مسافة بعيدة داخل الصحراء حيث يعيش هؤلاء الناس عادة ووصل في النهاية إلى المكان الذي أشير إليه، فشن هنا هجوماً مفاجئاً في الليل، وباغت الكفرة الغافلين عن الحراسة في خيمهم. وأسر بعض الرجال وجميع النسوة والأطفال، واستولى على جميع ممتلكاتهم، ونقل معه كمية ضخمة من المغانم بما في ذلك عدداً كبيراً من الجمال والحمير، هذا وكان مقدمنا قد لوحظ عن بعد، وكان معظم الرجال قد امتطوا صهوات خيولهم وهربوا إلى أجزاء بعيدة من الصحراء طلباً للأمان، وتخلوا عن زوجاتهم وأطفالهم وخيمهم وجميع ممتلكاتهم لرحمة العدو.

بدأ المسيحيون الآن مسيرة العودة دافعين أمامهم القطعان والمواشي والعبيد المؤخوذين غنيمة، وحدث أن كان هنالك امرأة بين الأسرى ذات منزلة سامية، وهي زوجة زعيم قوي وعظيم قد فوجئت بالكارثة المشتركة فجاءها المخاض أثناء السير ووضعت حملها وسط الآلام المألوفة الملازمة للولادة.

---

(١) كان هنالك، حسب ألبرت نزاع مطول حول حيفا بين بلدوين وتانكرد لم تنه إلا توجيه الدعوات لتانكرد للذهاب إلى انطاكية. وطالب غلدما كاربنل بها مدعياً أن غودفري كان قد وعده بها. وأيد بلدوين هذا الإدعاء ومنحها له بالفعل، ولم يتلق هيودي فولكنبيرغ [سينت أومر] سوى طبرية الإقطاعية التي كان تانكرد قد احتفظ بها.

ونقل خبر هذا الحدث إلى الملك، فأمر بأن تنزل عن الجمل الذي كانت تركبه وأن يجهز من المغانم سرير للحدث الطارىء بسرعة على الأرض، وتم تزويدها بالطعام وبقربتين من الماء، كما زودت بخادمة وفقاً لطلبها، وخصص لها جملان تتغذى على حليبهما، ولفها بلدوين بالعباءة التي كان يرتديها وتركها واستأنف السير مع جيشه (١).

وظهر ذلك الزعيم العربي العظيم بصحبة مجموعة ضخمة من رجال قبيلته في ذلك اليوم نفسه، أو ربما في اليوم التالي وكان يتتبع آثار الجيش المسيحي عن كثب حسب عادة شعبه، وكان حزيناً جداً ومتألماً على فقدان زوجته لأنها كانت عقيلة نبيلة على وشك أن تضع حملها، حيث اعتبر أن جميع الأشياء الأخرى المفقودة لم تكن ذات قيمة بالمقارنة مع فقدانه لها، وصادفها فجأة مستلقية على الأرض، فدهش لدى رؤيته لها وللشفقة التي كان الملك قد أظهرها بوفرة زائدة نحوها وبدأ يمجد إلى السماوات اسم اللاتينين، وأثنى قبل كل شيء على شفقة الملك ورحمته، وأقسم أنه سيكون مخلصاً له دائماً بقدر ما يستطيع، وهو وعد نفذه فيما بعد بشكل جيد أثناء حدث محرج.

١٢ - أمراء الغرب يشرعون ثانية برحلة حج. يصلون إلى القسطنطينية مع قوات ضخمة.

في الوقت الذي كانت تقع فيه هذه الأحداث في الشرق، سمع أمراء الغرب بالأشياء الرائعة والعظيمة التي كان المسيح قد أحدثها من خلال عبيده الذين كانوا قد قاموا برحلة الحج: كيف أن المسيح كان قد قاد جيشه، خلال مساحات واسعة من البلدان، وخلال محن متعددة كثيرة، إلى أرض الميعاد، وكيف أخضع الشعوب وقهر الممالك أمام عيون هؤلاء الحجاج، وابتهج الذين كانوا قد بقوا في وطنهم بانتصارات إخوتهم، إلا أنهم تأثروا روحياً لأنهم لم يكونوا جديرين أيضاً بالمشاركة في المآثر البطولية التي أنجزت بشكل ناجح، وهكذا، اجتمعوا مع بعضهم بعضاً وارتأوا باتفاق متبادل فكرة الشروع بحملة جديده (٢).

كان الحجاج الأكثر أهمية بين هؤلاء الحجاج الكونت الرائع والمشهور وليم أوف

(١) يبدو هذا خرافياً، لأن خط رحلة بلدوين خلال هذه الأشهر قدم فرصة قليلة لحدوثها، وكانت أعمال اللياقة والاحترام لقادة العدو شائعة في زمن وليم وطبقها الجانبان، كما أن معاملة صلاح الدين للأسرى في حطين مثال مشهور.

(٢) تسمى هذه الحملة لعام ١١٠١ أحياناً باسم الحملة الصليبية الجبانة لأنها اشتملت على العديد من الذين كانوا قد شرعوا بالحملة الأولى ثم عادوا.

بواتو[1] دوق أكوتين، كما كان هنالك رجل مشهور آخر وهو هيو العظيم كونت فرماند دويس وهو أخو فيليب، ملك فرنسا، وكان هيو قد صاحب الحملة الأولى، إلا أنه اضطر، بعدما تم الاستيلاء على أنطاكية بالقوة، للعودة إلى وطنه بسبب نقص الوسائل لديه[2]، كما كان في هذا المجموع ستيفن كونت تشارترز وبليوس، وهو رجل حكيم وعاقل في الرأي، وكان ستيفن، لخزيه وعاره الدائمين، قد تخلى عن رفاقه عندما كان سقوط أنطاكية وشيكاً، بسبب رعبه من المعركة المقبلة، وجلب بهذا الشكل خزياً أبدياً على اسمه بهروب شائن، وحيث كان الآن تواقاً للتعويض عن غلطته السابقة ولإزالة ذكرى خزيه، فقد جمع حاشية محترمة واستعدّ للقيام بالرحلة[3]، لما استعد ستيفن أوف بيـرغاندي البارز وذو الأصل السامي والنبيل للشروع بالرحلة ذاتها[4]، كما أثارت الرغبة ذاتها نبلاء آخرين كثيرين ومشهورين أيضاً بسبب أراضيهم وحياتهم ونسبهم وبسالتهم في القتال، وأعدوا ترتيباتهم للرحيل[5]، وعندما بدأ القادة الأكثر أهمية رحلتهم في اليوم المحدد، تبعـوا خطوات الحملة الأولى، إلا أنهم لم يكونوا بروح الورع ذاتها، واستقبلهم الامبراطور ألكسيوس استقبالاً مقبولاً في القسطنطينية، ووجدوا كونت طولوز الذي برهن في الحملة الأولى على أنه قائد بارز وعظيم، في بلاد الامبراطور وكان الكونت كما كنا قد ذكرنا، قد ترك زوجته وغالبية أسرته في اللاذقية، بينما ذهب بنفسه لطلب المساعدة من الإمبراطور حتى يتمكن من

---

(١) لم يحمل وليم التاسع، دوق أكوتين ١٠٨٦ - ١١٢٧، القائد الفرنسي الأكثر بروزاً في الحملة، الصليب حتى المجمع الكنسي الذي عقد في بواتيه في شهر تشرين الثاني من عام ١١٠٠. وحقق وليم التاسع، الذي يسمى عادة باسم وليم أوف بواتو بعض الشهرة كشاعر.

(٢) يعد هذا التوضيح لاخفاق هيو في العودة إلى الجيش بعد بعثته إلى القسطنطينية تسـويغـاً (وإن لم يكـن مقنعـاً) وذلك أكثر من الرأي الذي رآه الصليبيون (انظر الكتاب ٧ الفصل ١).

(٣) يصف المؤرخ النورمـانـدي (ordericus vitalis : ١٠/١١٩). تـرجمة تـومـاس فـورستر في مكتبـة بـوهـن انتقواريان) بقوة التوجيه المعيق للضغط على ستيفن ليكفر عن سلوكه السابق، وبما أن ستيفن لاقى التوبيخ مراراً من مجموعة من الأشخاص على هذا السلوك، فقد دفعه الخوف والخزي ليباشر حملة صليبية جديدة. وكانت زوجته آدل من بين الذين حثوه مراراً على مباشرتها، مذكرة إياه بها حتى في وسط ساعات العشرة الزوجية. وقالت له: «من غير الممكن لي يا مولاي أن أتحمل بعد الآن الانتقادات التي تتعرض لها من جميع الأحياء. استجمع الشجاعة التي كنت مشهوراً بها في شبابك واحمل السلاح دفاعاً عن قضية نبيلة لإنقاذ الآلاف حتى يتمكن المسيحيون من الحصول على مسوغ جيد للابتهاج في جميع أنحاء العالم والحاق الرعب بالوثنيين والخزي العام بدينهم البغيض».

(٤) كان ستيفن أوف برغندي ابنا لرينو الأول كونت برغندي.

(٥) إن حذف أسماء القادة من ألمانيا وشمال إيطاليا الذين شغلوا دوراً بارزاً في هذه الحملة يدل على افتقار وليم للصلة مع تلـك المنـاطـق، وكتـب اكهـارد أوف أورا الذي رافـق الوحـدة الألمانيـة روايـة عـن الحملـه (هـ. هاغنمير «تاريخ اكهارد دي أوراجنسس).

العودة إلى سورية والاستيلاء على مدينة أو أكثر فيها [١]، وحيث كان قد باشر الرحلة مرة، فقد كان مصمماً على الاستمرار إلى النهاية وأن لا يعود أبداً إلى بلاده.

وهكذا، فقد استأذنوا الإمبراطور بالانصراف، وهم مليئون بالابتهاج لأنهم كانوا قد قابلوا رجلاً حكيماً جداً ونشيطاً، فأذن لهم الإمبراطور بذلك بعدما أغدق عليهم الهبات الثمينة بسخاء، ثم عبروا البوسفور مع الكونت كموجه له، ووصلوا مع فيالقهم إلى نيقية بثينيا، متبعين آثار الجيش الأول.

١٣ - الإمبراطور ألكسيوس يدفع الأتراك، كعادته، لنصب الكمائن لهم. هلاك الجزء الأكبر من الحجاج. الباقون يصلون على قيد الحياة إلى القدس في موكب كونت طولوز.

كان الإمبراطور، كما ذكرنا، قد عامل الحجاج بلطف كاف عندما كانوا معه، إلا أنه تبعاً لعادات الشعب الاغريقي القديمة، حسد نجاح المسيحيين وصمم على إيذائهم، وهكذا، استمر بإرسال المبعوثين إلى الأتراك متوسلاً إليهم لإبادة الحجاج، وأعلم الأتراك عن طريق هؤلاء الرسل برسائل متعددة وبأقوال شفوية عن اقتراب الحجاج، وحثهم مقدماً بأنه ينبغي عليهم من أجل حمايتهم الخاصة ألا يتركوا هذه المجموعة الضخمة تعبر بحرية، وهكذا، شغل دور العقرب التي لا تكون خطرة عندما تتم مواجهتها وجهاً لوجه، إلا أن ذيلها المسلح بلسعات سامة من الأفضل تجنبه، وأذيع نبأ وصول هذه الحملة بشكل جيد من خلال ألكسيوس ومبعوثيه وكان الكفرة قد جمعوا الجنود والأحلاف بالتوسلات والمال من سائر أنحاء الشرق لوقف الحجاج أثناء زحفهم المقرر عبر البلاد [٢].

لكن المسيحيين انفصلوا عن بعضهم بعضاً إما عمداً أو بالمصادفة، وتقدموا بطرق مختلفة، مثل الرمل بلا كلس، حيث لم تجمعهم أية رابطة حب مع بعضهم بعضاً، وعلاوة على ذلك، فقد احتقروا كلية النظام العسكري، الذي كان الجيش السابق قد حافظ عليه، وحيث كان هناك عدو قوي قد أثير ضدهم بقدر ما استحقوا فقد سقطوا طعمة للسيف أثناء زحفهم، وقتل منهم أكثر من خمسين ألفاً من كلا الجنسين.

وفقد الذين سمحت لهم العناية الإلهية بالنجاة من أرض العدو، أمتعتهم ومعداتهم من

---

(١) الكتاب الثاني الفصل ١٦ مع الحاشية الكتاب التاسع للفصل الثالث عشر.

(٢) ربما لم يطلب قلج أرسلان أي تحريض من ألكسيوس. هذا وإن احتمال وجود التواطؤ بينهما قد وجد بالفعل، لأن قلج أرسلان ساعد ألكسيوس في وقت لاحق ضد بوهيموند في اليونان (انظر الكتاب الحادي عشر الفصل ٦ مع الحواشي).

كل نوع، وبحثوا عن الأمان وهم عراة ومعوزون، بقدر ما استطاعوا، وحصل أن وصلوا أخيراً إلى كليكية بالصدفة أكثر منه نتيجة لجهودهم، وفقدوا هيو الكبير في طرسوس عاصمة ذلك الإقليم، حيث نزل به المصير المحتوم[1]. ودفن بمراسم كبيرة في كنيسة معلم الشعوب العظيم، الذي توفي في مدينته الأصلية، ثم استأنف الحجاج زحفهم بعد أن منحوا أنفسهم بضعة أيام للراحة والاستجمام، ووصلوا إلى انطاكية.

وكان تانكرد يدير هنا أمور الإمارة، واستقبلهم، كما كانت عادته، بكل لياقة ولطف، وأظهر رعاية خاصة لكونت بواتو لأنه كان ذا منزلة أعلى وأكثر مجداً من الباقين، وكان قد كابد المزيد في تلك الحملة المشؤومة في فقدان جميع ممتلكاته.

وحيث كانت مجموعة الحجاج تواقة لرؤية الأماكن المقدسة، فقد أسرعت زحفها نحو القدس، وذهب الذين لم يكن لديهم خيول، بالبحر والآخرون الذين كانوا ما يزالون يمتلكون الخيول، بالبر. والتقى الجميع أخيراً في مدينة أنطرطوس الساحلية، والمعروفة عموماً باسم طرطوس.

وهاجموا هذه المدينة وفقاً لنصيحة ريموند، كونت طولوز حيث بدا الفوز بها ممكناً، واستولوا عليها بالقوة خلال بضعة أيام بمعونة الرب، وكان مصير سكانها إما القتل أو العبودية الدائمة، ثم تخلوا عن المدينة إلى الكونت واقتسموا المغانم بين بعضهم حسب قانون الحرب، ثم تقدموا من جديد نحو هدفهم، وبقي الكونت لحماية المدينة، وتم ذلك على الرغم من إرادة البقية التي سعت لاقناعه بالبقاء معها[2].

١٤ ـ الملك يحاصر أرسوف ويستولي عليها بالقوة.

بينما كان جيش الحجاج المصاب بسوء الطالع يتقدم بصعوبة بالغة عبر أراضي الروم كما أوضحنا آنفاً، كان ملك القدس، الذي يمقت إضاعة وقته بالخمول، قد صرف كامل انتباهه نحو توسيع الحدود الضيقة للمملكة بكل وسيلة ممكنة.

ومع إطلالة الربيع وصل اسطول جنوى إلى ميناء يافا[3]، واستقبله الملك ورحب به مع أهالي يافا غاية الترحيب، وحيث كان عيد الفصح قريباً، فقد سحبوا سفنهم إلى اليابسة وذهبوا إلى القدس للاحتفال باليوم المجيد.

---

(١) يبدو أن هذه المقولة من قبل وليم بشأن دفن هيو في كنيسة القديس بولص في طرسوس جواب محدد لسؤال مع أن عدداً من الكتاب المتأخرين أكدوا أنه توفي في القسطنطينية بعد وصوله عام ١٠٩٨.

(٢) عمل من أعمال الكونت ريموند غير أنه مسوغ بما أنه كان في القدس هذا ولم يزد في شعبيته.

(٣) غادر هذا الأسطول جنوى يوم الأول من شهر آب لعام ١١٠٠، وأمضى الشتاء في اللاذقية ووصل إلى يافا في حوالي ١٦ نيسان عام ١١٠١.

وبعدما تم الاحتفال بعيد الفصح حسبما هو مألوف، أرسل الملك رجالاً حكماء يتمتعون بموهبة الإقناع للتداول مع قادة الأسطول ومقدمي العساكر وزعمائهم، ليتحققوا فيما إذا كانوا قد عزموا على العودة أو على استعداد لتكريس أنفسهم لفترة من الزمن للخدمة السماوية في سبيل توسيع حدود المملكة وذلك مقابل تلقيهم تعويضاً محترماً.

أجابوا، بعد تشاورهم مع بعضهم بعضا: إنه إذا كان بإمكانهم البقاء في المملكة تحت شروط محترمة، فتلك كانت نيتهم بالفعل منذ البداية فهم قد عزموا على تكريس أنفسهم بإخلاص لفترة قصيرة من الزمن، لخدمة الرب في سبيل توسيع رقعة المملكة، ولذلك أبرمت معاهدة مرضية للفريقين اكدها تبادل الأيمان، وجرى الاتفاق أنه بإمكانهم البقاء في المملكة مع أسطولهم بقدر ما يرغبون شريطة حصولهم من أية مدن أو قلاع محصنة تعود ملكيتها إلى العدو يمكن الاستيلاء عليها بمساعدتهم بدون نقاش على ثلث الرقيق والمال المنتزع من العدو بغية تقسيمه بين رفاقهم، في حين يحتفظ الملك بالثلثين الباقيين، زد على هذا إنه توجب أن تعود إلى الجنوبيين ملكية شارع واحد ـ تحدده معاهدة ـ من كل مدينة يمكن الفوز بها من الكفرة في ظل هذه الشروط، وقام الملك والأمل يحدوه بجني ثمار هذا الاتفاق واعتماداً على المعونة الربانية، بتجنيد قوات من الفرسان والرجالة من المدن التي كانت تقع تحت سلطانه، وضرب الحصار على مدينة أرسوف الساحلية من البر والبحر، وتعرف هذه المدينة أيضاً باسم أنتيباتريس وجاء اسمها هذا من أنتيباتير والد هيرود، وتقع في بيئة خصبة جداً، وتمتلك العديد من الميزات في مجال الغابات والأراضي الرعوية، وكان الدوق غودفري ذو الذكرى السعيدة، قد حاصر هذه المدينة في العام السابق. بيد أنه لم يستطع أن يحول دون الوصول إليها عن طريق البحر لأنه لم يكن بحوزته سوى عدد ضئيل من السفن، ولهذا عاد إلى بلاده دون أن يحقق هدفه، وذلك بعد أن أدرك استحالة نجاحه[1].

وضع بلدوين قواته حول المدينة على الفور بحيث شكلت طوقاً، وأمر بإنشاء برج متحرك من العوارض الخشبية الضخمة، وبعد أن تم إنشاؤه تمكن العمال بعناية ومثابرة من إلصاقه بالأسوار، غير أن قوته لم تكن كافية لتحمل ثقل العدد الضخم الذي صعد عليه؛ ولهذا انهار على الأرض وتحطم وقد جرح في هذا الحادث نحو مائة من رجالنا بشكل خطير.

كما ألقى العدو القبض على عدد من رجالنا وصلبهم أمام أعين أصدقائهم، فملأ سخط عنيف أفئدة المسيحيين لدى رؤيتهم هذا المشهد، فانقضوا على العدو بهجوم صاعق

(١) انظر الكتاب التاسع الفصل ١٩.

وأبقوه محتجزاً داخل المدينة، وروع الأعداء كثيراً إلى درجة أنهم بدوا وكأنما فقدوا كل قوتهم لاتخاذ الإجراءات اللازمة للدفاع عن أنفسهم.

كان المسيحيون قد وضعوا السلالم على الأسوار، وباتوا يمتلكون بصورة واضحة الأبراج والشرفات عندما أرسل سكان المدينة، اليائسون من الحياة، وسطاء حصلوا على تنازل من الملك. وجرى الاتفاق على أن بامكانهم الخروج من المدينة ـ بعد تسلمها ـ أحراراً آمنين مع زوجاتهم وأبنائهم، مقابل تركهم يحملون حاجياتهم القابلة للنقل؛ وأن يزودوا بطريق آمن إلى عسقلان، وهكذا، ترك الجيش حامية فيها لحماية المدينة بعدما تم الاستيلاء على القلعة، وتقدم بدون تأخير لمحاصرة قيسارية.

١٥ ـ الملك يحاصر أيضاً مدينة قيسارية الساحلية ويستولي عليها.

تقع قيسارية على الساحل، وكانت تعرف في الأزمان الغابرة باسم برج ستراتون، وحسبما ترويه التواريخ القديمة، وسعها هيرود الشيخ، وجملها بأبنية فخمة وسماها باسم قيسارية تشريفاً للإمبراطور أغسطس وجلعت بقرار من الإمبراطور الروماني عاصمة لفلسطين الثانية [١].

وتمتاز هذه المدينة بمزايا عديدة في مجال الجداول المتدفقة والبساتين المروية إلا أنه لا يوجد ميناء فيها، ونقرأ بالفعل أن هيرود هذا نفسه قد سعى بنفقة وجهد كبيرين، لكن بدون نجاح لبناء ميناء هنالك يمكن أن يقدم مرسى آمناً للسفن.

زحف الملك مع جيشه إلى هنالك، وتبعه الأسطول محافظاً على سرعة سير بحرية مساوية لسرعة الزاحفين على اليابسة، وحاصروا المدينة عند وصولهم إليها، وأقاموا آلات القذف الحربية في مواقع استراتيجية، وشنوا هجوماً عنيفاً على المدينة، وروّعت مناوشات متكررة جرت حول الأبواب سكان المدينة، كما أن الصخور الضخمة المقذومة بلا انقطاع من آلات القذف الحربية أضعفت الأسوار والأبراج وحطمت المنازل أيضاً، بحيث لم يتح للمحاصرين لحظة واحدة للراحة.

وكان قد جرى في هذه الأثناء إعداد آلة حربية ذات ارتفاع مذهل، بحيث كانت أعلى بكثير من الأبراج إلى درجة تمكن المسيحيون فيها من مهاجمة المدينة من على سطحها بحرية وسهولة، وبقي سكان المدينة وجيشنا في هذا الصراع نحو خمسة عشر يوماً تقريباً، فقد كان جيشنا يهاجم بكل قوته وكان سكان المدينة يقاومون بعنف مماثل؛ وكانت الاشتباكات

---

(١) كانت قيسارية أكثر أهمية مما هي عليه الآن أو مما ستكون عليه، وقد أعيدت إلى وضع مقر رئاسة أساقفة.

شديدة ومتواصلة. هذا وقد عرف المسيحيون أن سكان المدينة لم يكونوا أكفاء لأعمال قاسية كهذه، حيث أصبحوا ليني العريكة وضعفاء بسبب الفراغ والأمن المتواصلين، وكانوا يفتقرون إلى الخبرة في استعمال الأسلحة، وبات ملحوظاً من يوم لآخر أنهم كانوا يبدون مقاومة أقل قوة، بعدما أنهكتهم أعياء الحرب؛ وهكذا، فقد غضب رجالنا من أي تأخير آخر؛ ورفضوا، مشجعين بعضهم بعضاً الانتظار حتى تُنهى الآلة الحربية التي كانت قيد الإنشاء، وشنوا بالإجماع هجوماً مدبراً وبعنف فريد، وقوتل سكان المدينة داخل أسوارهم، ولم يحاولوا بعد ذلك، أن يحموا أسوارهم، أو الاهتمام بأية وسيلة للدفاع لأنهم أصبحوا يائسين من الحياة ووضع المسيحيون سلالمهم على الأسوار عندما لاحظوا حالة الأمور هذه، وصعدوا إلى الشرفات بتلهف، واستولوا بسرعة على الأبراج والقلاع. وفتحت الأبواب بالجهود الحماسية للآخرين، واقتحمت المدينة عنوة، ودخل الملك مع جنوده.

كان الجنود المسيحيون المسلحون يجوبون الآن بحرية في كل مكان من المدينة، واقتحموا المنازل حيث كان سكان المدينة قد اعتقدوا عبثاً أنهم سيجدون الحماية، وقتلوا أرباب الأسر واستولوا على الأواني من كل نوع واستولوا بالقوة على كل ما بدا مفيداً بالإضافة إلى المنازل نفسها، وقتلوا أفراد الأسر واستولوا على ممتلكات المباني الخاصة، وليس ضرورياً أن نتحدث عن مصير الذين حدث أن واجهوا قواتنا في شوارع المدينة وساحاتها، لأنه حتى الذين بحثوا بعناية عن مخابىء لهم في الطرق الفرعية لم يتمكنوا في اجتناب الموت.

وجلب كثيرون، كانوا قد نجوا بالصدفة، الموت على أنفسهم، حيث ابتلعوا قطعاً ذهبية وجواهر نفيسة الأمر الذي أثار جشع المسيحيين لدرجة كبيرة دفعتهم إلى بقر بطون ضحاياهم بحثاً عن الكنوز التي قد تكون مخبأة في أحشائهم.

١٦ ـ هلاك كثير من السكان في واحد من مساجد المدينة. تعيين رئيس أساقفة للمدينة المستولى عليها.

كان هنالك مسجد جامع مبني على مكان مرتفع في أحد أجزاء المدينة حيث كان يقوم هناك تبعاً للتقاليد معبد ذو صنعة رائعة بناه هيرود تشريفاً للإمبراطور أغسطس وكان جميع السكان تقريباً قد هربوا إلى هناك آملين ـ حيث كان مكاناً لإقامة الصلاة ـ بأنهم سيكونون آمنين داخل حدوده.

شق المسيحيون طريقهم إلى الموقع، وقامت هنالك مذبحة مريعة جداً للهاربين الموجودين داخل المسجد لدرجة أن أقدام المهاجمين تلطخت بدم القتلى، وأثار منظر الجثث التي لا تحصى والدماء الرعب الشديد.

ووجدت مزهرية، ذات لون أخضر لامع، على شكل الزبدية داخل هذا المسجد نفسه فأخذها الجنويون، معتقدين أنها كانت من الزمرد، وذلك بدلاً من مبلغ كبير من المال وحصلوا بالتالي على زينة رائعة لكنيستهم، ولا يزالون يظهرون هذه المزهرية كأعجوبة للأشخاص البارزين الذين يعبرون مدينتهم محاولين أقناعهم أنها بالفعل من الزمرد، كما يشير لونها [١].

وجرى قتل الغالبية العظمى من سكان المدينة البالغين هنا وهناك، وأبقي فقط على الأولاد والبنات الصغيرات، ومن الممكن أن نرى هنا وصفاً حرفياً لما جاء على لسان الرسل قولهم: «وسلم للسبي عزه وجلاله ليد العدو» [٢].

وبعدما توقفت أعمال القتل والتخريب وإبادة سكان المدينة جمعت المغانم من مختلف الأنواع في مكان واحد وتم عندها تخصيص ثلث للجنويين وذلك وفقاً لشروط الإتفاق وأعطي الثلثان الباقيان للملك ورجاله حصة لهم، وكان شعبنا فقيراً معدماً بعدما أن نفدت مواردهُ الضئيلة، وكان يعاني حتى ذلك اليوم من حالة العوز هذه، وبدا الآن للمرة الأولى أكثر رخاءً بعدما اغتنى بالمال وأثقل بالمغانم حيث خصصت له حصة جيدة من الأسلاب [٣].

وجلس الملك بعد هذا في دار القضاء وأحضر إليه كل من حاكم المدينة، الذي يسمى في لغتهم بأسم أمير، والقاضي، الذي كان مسؤولاً عن إدارة العدالة [٤] ومنحت الحياة لهذين الموظفين أملاً بالفوز بفدية كبيرة، لكنهما وضعا في السلاسل، وصدرت الأوامر بحراستهما حراسة مشددة.

وحيث كان الزمن يضغط على الملك، وهنالك مسائل أخرى تقتضي رحيله فقد وقع الإختيار على رجل اسمه بلدوين كان قد قدم في هذه الحملة مع الدوق غودفري، ليكون

---

(١) من الواضح أن وليم نزاع إلى الشك بنوعيتها على أنها من الزمر، وذكر الأستاذ إ. هـ. بريان المختص بتجارة جنوى في القرن الثاني عشر أن هذا الوعاء ما يزال يتمتع بمكانة عالية عند الجنويين على الرغم من أنه انكسر وعرف أنه مصنوع من الزجاج، فقد اعتبر وعاءً مقدساً.

(٢) المزامير: ٧٨/٦١ ويستخدم وليم هنا كلمة «أنبياء» بدون قيود.

(٣) ص ٤٣٨ - كان من بين المغانم الهامة التي استولى عليها في قيسارية كمية كبيرة من الفلفل وجدت هناك وكان حجمها كبيراً إلى حد أنه أعطي منها لكل جندي قرابة الكيلو غرام.

(٤) تبعاً لألبرت اشترى المسلمون من أهالي عكا حرية القاضي بألف قطعة ذهبية.

رئيساً لأساقفة المدينة[1]، وتُرك بعض الجنود لحراسة المدينة، وأسرع الملك مع الآخرين نحو الرملة.

١٧ - الملك يصل إلى الرملة وينتظر هناك وصول العدو الذي قيل إنه يقترب. اشتباكه مع العدو وانتصاره عليه.

تقع مدينة الرملة في سهل قريب من اللد التي هي دايوسبولس، هذا ولم اتمكن من اكتشاف الإسم القديم لهذه المدينة، والإعتقاد السائد أن المدينة لم تكن موجودة في الأزمان المبكرة، وتقول التواريخ القديمة: إن الأمراء العرب الذين خلفوا محمداً قد أقاموها، وكانت مدينة مزدحمة ومحاطة بسور مع أبراج عندما وصل الجيش المسيحي للمرة الأولى إلى أراضي سورية، واندفع الناس بأعداد كبيرة إليها، غير أنها كانت بلا دفاعات خارجية ولا خندق وعندما تدفقت حشود الصليبيين على تلك المناطق هجرها جميع سكانها وهربوا إلى مدينة عسقلان التي كان لها تحصينات أفضل بكثير.

وهكذا، فقد وجد المسيحيون المدينة مهجورة من قبل سكانها، كما قلنا، وكان من الصعب شغل سائر المدينة لأن عدد السكان كان قليلاً جداً، ولذلك لم يحصنوا إلا معقلاً واحداً بأسوار وخندق في جزء واحد منها.

وانتشرت إشاعة في هذه الأثناء ثبت أنها كانت قريبة من الصحة، كان مفادها أن خليفة مصر قد أرسل واحداً من قادة جيشه على رأس قوة كبيرة من الجنود إلى المنطقة المجاورة لمدينة عسقلان. وتمشياً مع عادته المألوفة أمر ذلك القائد بالزحف بدون تأخير ضد المتسولين والمعوزين الذين كانوا قد تجرأوا على دخول الأراضي الخاضعة لسيطرته وتعكير أمنه، وكان على هذا القائد إبادتهم إبادة تامة أو حملهم معه مقيدين بالسلاسل إلى مصر، وقيل إن القوات التي كانت برفقة ذلك القائد تألفت من إثني عشر ألف فارس وعشرين ألفاً من الرجالة[2].

وهذه الشائعة هي التي أجبرت الملك على مغادرة قيسارية بسرعة كبيرة، حيث خشي أن يحاول هذا الجيش، معتمداً على أعداده الكثيرة، غزو المملكة، وهو عمل سيكون مأساوياً جداً بالنسبة لمصالحها.

---

(١) يقول غيوبرت دي نوغنت أن بلدوين وضع على نفسه إشارة الصليب عندما بدأ الحملة الصليبية. وعين راعياً لمجموعة الرهبان الذين تمركزوا في دير القديسة ماري في وادي يهوشافاط وهو الدير الذي أسسه غودفري حسب رواية وليم (انظر «غيوبرت - أعمال الفرنجة» مجموعة راشيل الغربية ج٤ ص١٨٣، ٢٥١).

(٢) أعاد وليم النظر في توزيع فولتشر للفرسان والرجالة لكنه لم ينقص الرقم الاجمالي العام الذي بقي عالياً جداً.

انتظر بلدوين قرابة شهر من الزمن في الرملة، وحيث لم يظهر العدو عاد إلى يافا، ولم تعد القوات المصرية تجرؤ من الشهر الثالث على متابعة إهمال أمر حاكمها، وخافت بالفعل من أن يكون قد غضب لأنها كانت قد أجلت العمل لفترة طويلة جداً، واستجمع أفرادها بحكم الإضطرار، شجاعتهم، وجددوا قوتهم؛ وشنوّا بصفوف معبأة بترتيب المعركة، هجوماً سريعاً على أراضينا.

وعندما علم الملك بهذا أمر باستدعاء قواته، وكانت صغيرة لأن المجال المحدود لممتلكاته حال دون إمكانية وجود عدد كبير منها، ومع ذلك، فقد ركز قوة كبيرة بقدر الإمكان حول اللد والرملة، وكانت هذه القوة مؤلفة من مائتين وستين فارساً وتسعمائة من الرجالة.

وحالما اتضح أن العدو كان يقترب، أمر الملك قواته أن تنتظم في ست كتائب وزحف للتصدي للعدو، وتقدم على رأس الجنود أحد رعاة الأديرة الورعين، حاملاً بين يديه صليب الصلبوت بكل إجلال. وتفحص المسيحيون ـ المرتبون بهذا الشكل ـ صفوف الكفرة، ثم التمسوا، بعيون مرفوعة إلى السموات، العون من الرب واندفعوا بهجوم صاعق حيث لم تروعهم أعداد أعدائهم الكبيرة، وشدّدوا الخناق بسيوفهم عليها، مدركين أنهم كانوا يحاربون من أجل الحياة نفسها.

وقاوم المصريون أيضاً بكل ما ملكوه من قوة، وكافحوا وفقاً لطرائقهم لصدّ الهجوم، لأنهم عرفوا جيداً أنهم ما لم يعودوا منتصرين فسيكون لديهم سبب مسوغ للخوف على زوجاتهم وأبنائهم وممتلكاتهم والممتلكات التي كانوا قد تركوها في مصر.

وحدث أن كانت طليعة جيش العدو قد اشتبكت مع إحدى فرقنا، فأوقعتها، بأعدادها المتفوقة، في الإضطراب بسرعة، وجعلتها تلوذ بالفرار، وطارد الكفرة الهاربين مطاردة شديدة حتى تمكنوا من إبادتهم تقريباً، بيد أن فرقنا الأخرى قاتلت بنشاط أكبر، وأحدثت مجزرة لا يمكن وصفها، يدفعها إلى ذلك غضب شديد. وشجع الملك، بالقول وبالفعل حسبما يليق بملك عظيم جداً مثله، هؤلاء حيناً، وأولئك حيناً آخر، وزود الذين تعرضوا لضغط شديد بالقوات الضرورية وكانوا على حافة الإنهيار وبذلك أعاد شجاعتهم إليهم.

فظلت نتيجة المعركة مبهمة لفترة طويلة من الزمن، لكن السماء منحت المسيحيين النصر في النهاية وهزم العدو، الذي عانى من فقدان قائده الذي قتل وهو يحارب بشجاعة في ميدان المعركة.

إنهارت صفوف العدو، وهلكت بعض كتائبه، بينما هربت كتائب أخرى إلى مسافة أبعد من أن يتم إرجاعها منها، وعندما أدرك الملك هـذا أمـر أن لا يجرؤ أحـد، تحت عقـوبـة الموت، على التفكير بأخذ المغانم، بل على العكس. أمر بمطاردة العدو وقتل جميع أفراده بدون رحمة، وضرب بنفسه المثل، حيث واصل المطاردة إلى مدينة عسقلان قاطعاً مسافة تبلغ نحو ثمانية أميال تتبعه فرق عديدة من الفرسان والرجالة الرشيقين ووضع اقتراب الليل حداً للمذبحة المخيفة، ثم استدعي الملك قواته بصوت البوق وعاد إلى ميدان المعركة حيث قسم هنالك المغانم بين جنوده حسب قانون الحرب، ثم أمضى الليلة في الميدان كمنتصر.

ووفقاً لإحدى الروايات قتل نحو خمسة آلاف من جنود العدو في ذلك الموقع، وعندما أحصي جنودنا وجد أنه فُقد سبعون فارساً وعدد أكبر منهم بكثير من الرجالة، لكن الخسارة الحقيقية غير معروفة.

١٨ ـ الملك يعبر من هناك إلى يافا حيث تولى مواساة الأهلين، الذين أنهكهم الرعب.

كانت القوات المصرية التي هزمت المسيحيين في قتال اليوم السابق قد طاردت الهاربين حتى يافا، وأجروا وقفة جريئة أمام تلك المدينة، متقلدين أسلحة ودروع وترسة الأعداء المقتولين، وصاحوا بالسكان بأصوات مرتفعة إن الملك وسائر الجيش المسيحي قد سقط في المعركة، وقدموا برهاناً على دعواهم في أن تركوهم ينظرون إلى عبيد أصدقائهم وأسلحتهم المعروفة بشكل جيد، ولم يستطع السكان والملكة، التي كانت موجودة في المدينة أيضاً، أن يشكوا أنهم كانوا يقولون الحقيقة، واستسلموا لصيحات العويل، وبعد التشاور مع الزعماء وذوي التجربة الواسعة والتبصر، توصلوا إلى نتيجة مفادها أنه لم يبق أمامهم سوى شيء واحد يعملونه، وهو وجوب إرسال رسالة إلى تانكرد، أمير إنطاكية، يرجونه الإسراع إلى مساعدة المملكة الواقعة في الخطر والمحرومـة حالياً من قائدها، حيث تعلق عليه الأمل الكلي للناس المؤمنين بالإضافة إلى الرب.

في الوقت نفسه كان الملك قد أمضى الليلة في أرض المعركة، وقد أيقظ كتائبه المنتصرة حالما عاد النهار وانطلق إلى يافا، وحدث عندما كانوا يتقدمون أن قابلوا الكفرة الذين كانت قصتهم المشؤومة قد روّعت أهالي يافا في الليلة السابقة، وعندما لمح هؤلاء الجنود المسيحيين في البداية اعتقدوا أنهم رفاقهم، لأنهم اعتقدوا واثقين أن جيشنا قد أبيد تماماً في اليوم السابق، وهكذا، تقدموا بثقة وكادوا يلامسون صفوفنا، عندما أخذ الملك زمام المبادرة، بصيحات التشجيع لأتباعه، وهاجمهم، وتبعه عدد من فرسانه بسرعة قصوى، وانقض الجميع على الكفرة، حيث كانوا يحاربون بشجاعة من أجل الحياة، وتلا ذلك قتال

شديد بالسيوف من مواقع قريبة، وبوغت العدو المحتشد مع قواته بشكل لم يستطع فيه الهروب، وقتل الكثيرون، وأدار الباقون ظهورهم وهربوا بعدما روّعهم الخوف من الموت، وشكر المسيحيون الرب، ثم استأنفوا بابتهاج سيرهم، وهم محملون بالغنائم وبعدما أثروا بسـلع العدو، أسرعوا نحو يافا.

كانت أفئدة الناس في يافا مسحوقة تماماً في هذه الأثناء نتيجة لنبأ الكارثة، غير أنهم عندما لمحوا الجيش العائد، استيقظوا وكأنهم كانوا في سبات عميق، وفتحوا الأبواب، بدموع الفرح، وانطلقوا لمقابلتهم، وأخبروهم بالأنباء المشؤومة التي كانوا قد تلقوها وعن أعماق اليأس التي كانوا قد غطسوا فيها، ودخلوا المدينة معاً وأمضوا اليوم في احتفال بهيج عندما وصفوا لبعضهم بعضاً الرحمة الرائعة التي كان الرب قد أظهرها لهم.

وعندما علم الملك أن الملكة ومستشاريها، كانوا قد كتبوا إلى تانكرد بعدما قنطوا، أرسل على الفور رسولاً سريعاً إلى هناك مع رسائل تعلن أخبار نجاح الملك الرائع، وكان الأمير الجليل، الذي عاش في قلق شديد إزاء الكارثة التي أصابت المملكة، على وشك الإنطلاق وقد أبهج نبأ انتصار الملك فؤاده جداً فشكر الخالق كثيراً.

١٩ ـ القادمون الجدد يستولون على مدينة طرطوس ثم يتخلون عنها لكونت طولوز. استئنافهم الزحف نحو القدس. الملك يقابلهم في بيروت.

وصل في هذه الأثناء إلى انطاكية النبلاء الذين كانوا قد فقدوا جزءاً كبيراً من جيشهم في بلاد الروم نتيجة للكوارث المفجعة التي رويتها، وتقدموا من هناك وانتزعوا مدينة طرطوس من العدو، كما ذكرت مسبقاً، وسلّموها لكونت طولوز.

ثم أسرعوا نحو القدس، وخرج الملك مع قواته في هذه الأثناء لمقابلتهم، حيث كان خائفاً من أن يعاق زحفهم عند نهر الكلب، واستولى على الممر سلفاً، ولم تكن هذه المهمة التي قام بها لمصلحتهم مهمة سهلة، لأنه قامت هناك أربع مدن مزدحمة وضخمة وهي: عكا، وصور، وصيدا وبيروت، فقد كان يجب عبور هذه المدن قبل أن يتمكن من الوصول إلى غايته.

وعندما كان الملك قد تغلب مع مجموعته على مصاعب الممر، وجد هناك الرجال المشهورين والمذكورين آنفاً، وكانوا: وليم دوق بواتيو ودوق أكوتين وستيفن كونت بليوس وستيفن كونت بيرغندي وغودفري كونت فاندوم وهيو دي لوسنان وأخو ريموند كونت طولوز وعدد كبير آخر من النبلاء.

وكانوا مبتهجين وسعداء جداً، أولاً، لأنهم كانوا قد وجدوا الممر الخطر الذي خافوه طويلاً غير معيق، وثانياً، لأن الملك كان هنالك لمقابلتهم، واندفعوا بين أذرعة بعضهم بعضاً يتعانقون وتبادلوا التحيات اللطيفة مع قبلة السلام، وأنعشهم الحديث السار فيما بينهم لدرجة بدت فيها مشاقهم وخسائرهم وقد مسحت من عقولهم، وبدوا بالفعل وكأنهم لم يعانوا من أي سوء طالع على الطريق، وأظهر الملك لهم كل الكياسة التي أملتها قوانين الإنسانية والحب، ثم قادهم معه عائداً إلى القدس.

ونظراً لحلول عيد الفصح، فقد أمضوا يوم العيد في المدينة المقدسة ثم ذهبوا إلى يافا بنية العودة إلى بلادهم، وأخذ كونت بواتو، الذي أعاقه نقص الوسائل إعاقة كبيرة، سفينة ووصل بعد رحلة ميمونة إلى بلاده بسلام، كما أبحر الستيفنان من ذلك الميناء، إلاّ أن الرياح المعاكسة أجبرتها على العودة إلى يافا بعد معاناة كبيرة في البحر لبضعة أيام.

٢٠ ـ المصريون يغزون بلاد المسيحيين بقوات ضخمة. الملك يزحف ضدهم. يشتبك معهم في معركة دون حذر مناسب ويهزم.

كان جميع هؤلاء الحجاج الذين تحدثنا عنهم، ما يزالون في الشرق عندما وحد أهالي مدينة عسقلان قواتهم مع المصريين الذين نجوا من المعركة الموصوفة آنفاً، وغزوا الأراضي الخاضعة لسلطاننا في المنطقة المجاورة للد وسارونا والرملة، وقيل إن جيشهم كان مؤلفاً من نحو عشرين ألف رجل، وأهمل الملك إتخاذ احتياطاته عندما وصلته هذه الأخبار، ولم ينتظر حتى يجمع القوات من المدن المجاورة، أو ليستدعي النبلاء الذين كانوا معه في المدينة، بل انطلق بطيش على صهوة حصانه معتمداً على قوته فقط ـ لقد انطلق ـ بالحري ـ بسرعة متهورة برفقة مجموعة من الفرسان لا يتجاوز قوامها المائتين، هذا ولاحظ النبلاء الذين كانوا في المدينة أن الخزي سيلحق بهم إن جلسوا عاطلين في مثل هذا الطارىء الملح دون المشاركة في أعمال إخوانهم وهكذا حصلوا على خيول من أصدقائهم وأقاربهم ولحقوا بالسيد الملك.

وكان بلدوين قد انطلق مثل الباقين بسرعة متهـورة، غير أنه اندهش لكثرة فيالق العدو عندما تفحصها وبدأيتأسف لأنه كان متهوراً إلى هذا الحد، ولاحظ الآن أن الحديث القائل: «يصنع الطيش جميع الأشياء بشكل سيء». يمكن أن ينطبق عليه تماماً، وندم بشدة على عمله المتهوّر، لكنه كان الآن قريباً جداً من العدو إلى درجة أن الخوف من العار أو من خطر الموت لم يسمحا له بالتراجع.

ولاحظ رجال دهاة في صفوف العدو، كانوا قد حصلوا على الكثير مـن الخبرة في مهنـة القتال، أن القوات المسيحية كانت تتقدم، خلافاً لعادتها، بترتيب فوضوي ودون مراعاة

للقواعد العسكرية، كما كانت هذه القوات تفتقر إلى سرايا الخيالة العادية ومجموعات المرافقة من الرجالة وأثار المنظر أفئدتهم بأمل أكبر من النصر، وهكذا، عبأوا كتائبهم ونظموا صفوفهم وانقضوا بشكل صاعق على قوات الملك، وشُنّ هذا الهجوم بعنف أكثر من المعتاد لأنهم رأوا أن المسيحيين قد أهملوا من جانبهم النظام العسكري المألوف، ولم تستطع قواتنا تحمل وطأة المعركة وقهرتها أعداد العدو الكبيرة وهجومه الشديد فهربت بعجلة بعدما فقدت العديد من الرجال.

هذا وترك الذين سقطوا في هذا الإشتباك انتصاراً دموياً لعدوهم، لأنهم حاربوا بشجاعة حتى الموت وقتلوا العديد من رجاله في إلتحام مباشر، وكانوا بالفعل قد شتتوا صفوف العدو وكانوا على وشك إلحاق الهزيمة بالكفرة عندما استرد هؤلاء شجاعتهم المفقودة وجمعوا شملهم لاسيا بعدما رأوا أعدادنا الصغيرة، وجيشهم الضخم، وصاحوا مشجعين بعضهم بعضاً، ثم اندفعوا من جديد بهجوم عنيف جعل المسيحيين يلوذون بالفرار كما ذكرنا ذلك، وهرب شعبنا ونجح بالوصول إلى مدينة الرملة حيث أمل أن يكون آمناً.

سقط «الستيفنان» في ذلك الإشتباك مع نبلاء آخرين لا نتذكر أعدادهم وأسماءهم، ونشعر أن المصير الذي لاقاه الكونت ستيفن أوف تشارتر ـ وهو النبيل البارز بين شعبة بسبب نسبه المشهور ـ وبسبب أعماله المجيدة كان مصيراً جديراً بالتهنئة، فمن الواضح أن الرب عامله تبعاً لرحمته الواسعة، لأنه سمح له أن يمحو بموت رائع وصمة العار التي وصم اسمه بها بسلوكه عندما تخلى عن القوات أمام أنطاكية. وينبغي عدم إثارة إثمه السابق ضده لأنه أنقذ سمعته بمثل هذه النهاية الرائعة ونعتقد بالفعل أن الذين يسقطون في صفوف المؤمنين، ويقاتلون مع المحاربين من أجل الصليب ومن أجل اسم المسيح لا يستحقون أن يمحى الخزي من سجلاتهم فحسب بل جميع أعمال التقصير والآثام مهما كان نوعها.

٢١ ـ الملك يهرب من ميدان المعركة وينسحب إلى قلعة الرملة. إنقاذه بفضل كرم واحد من الزعماء العرب، لكن الآخرين قتلوا في ذلك الموقع.

عندما رأى الملك أن فيالق العدو قد طوقته تماماً، تراجع مع الآخرين إلى القلعة للنجاة من خطر الموت الوشيك، لأنه لم يكن هناك ملاذ آخر، لكنه لم يثق كثيراً بدفاعات الموقع وأرهقه القلق إزاء حياته وسلامته طوال الليل، غير أن الزعيم العربي، الذي كان الملك قد ساعد زوجته قبل فترة قصيرة من الزمن، كما ذكرنا ذلك من قبل، غادر جيش العدو خلسة

في صمت الليل وظهر وحيداً بمفرده أمام القلعة، وتقدم وهو مقرّ بالجميل تجاه اللطف الذي أظهره الملك لزوجته، وبالكراهية لإثم الجحود، تقدم من الحراس الواقفين على الأسوار وخاطبهم بصوت منخفض قائلاً لهم: «عندي رسالة لإعطائها للملك على انفراد تام، خذوني إلى حضرته فوراً، لأن المسألة ذات أهمية قصوى».

ونقلت الرسالة إلى الملك وأصغى إليها بإحضار الأمير إلى حضرته، وعرفه الأمير على نفسه عندما سمح له بمقابلته، وذكر الملك بالمعروف العظيم الذي قدمه لزوجته منذ عهد قريب، وصرح أنه كان ملزماً برد هذا المعروف بخدمة مشابهة إلى حد ما، وكشف عند ذلك عن خطط العدو وحذر الملك بأن عليه أن يغادر القلعة فوراً، لأن الكفرة على نية محاصرتها عند بزوغ الفجر، وسيحكم بالموت على جميع الأسرى الذين سيؤخذون منها، وألحّ على الملك أن يرحل معه فوراً، ووعده أن يرشده، بمعونة الرب، وبدون إعاقة إلى مكان آمن، حيث كان يعرف تلك المنطقة معرفة جيدة، ووافق بلدوين في النهاية على الهروب مع الزعيم العربي، وذهب بتوجيه هذا الزعيم إلى المنطقة الجبلية المجاورة، وأكد العربي للملك هنا أنه سيظهر له طاعة مخلصة وتفانياً جاهزاً، كلما سنحت الفرصة ثم تركه وعاد إلى جيش الأعداء.

وطوق الكفرة الآن القلعة تماماً، بعدما شجعهم الإنتصار الذي حققوه منذ وقت قصير، وشنوا هجوماً عنيفاً على اللاجئين الذين كانوا قد اعتصموا فيها واستولوا على الموقع بهجوم عنيف وعاملوا الأسرى حسبما طاب لهم، فقتلوا بعضهم، وحكموا على الباقين أن يقادوا بالسلاسل إلى عبودية أبدية، لقد كانت مذبحة مخيفة جداً للرجال الشجعان والنبلاء لا يوجد مثيل لها في مدونات حوليات المملكة حتى ذلك الوقت، وقد أوقعت المملكة في الفوضى وانهارت شجاعة الجميع، وانكسرت قلوب الرجال الأكثر تعقلاً وضعفت في داخلهم فقد سقطوا في أعماق اليأس الشديد إلى درجة أنه لو لم يدركهم الفجر ونسمات الرحمة من السماء لكانوا مستعدين لمغادرة المملكة.

كان شعبنا بالفعل قليلاً بأعداده، كما لم يتمكن الذين قدموا من بلاد واقعه في ما وراء البحار أن يصلوا بسلامة إلى الشرق، فقد حال الخوف من مدن العدو الساحلية الكثيرة القائمة على اليمين واليسار دون ذلك، ولم يكن المسيحيون مسيطرين - كما قلنا آنفاً - إلا على يافا وقيسارية المأخوذة مؤخراً وذلك من بين جميع المدن الواقعة على الساحل امتداداً من اللاذقية السورية وحتى حدود مصر نفسها، وهكذا، ونتيجة لذلك رأى الحجاج المواصلون حديثاً حالة الضعف لا بل وضع المملكة الميؤوس منه فعادوا إلى بلادهم حالما وفوا بنذرهم خشية التورط في الكوارث ذاتها.

٢٢ ـ الملك يهرب عبر طرق غير مطروقة ويصل أولاً إلى أرسوف ثم إلى يافا. جميع قوات المملكة تتدفق لمساعدته. نشوب معركة خرج المسيحيون فيها منتصرين.

هرب الملك، كما كنا قد سردنا من قبل، إلى الهضاب، بعدما كان قد فقد رفاقه، وقد نجا بمساعدة حصانه السريع وبتوجيه الزعيم العربي وبقي مختبئاً طوال الليل في أمكنة منعزلة في رعب شديد، وبدأ رحلته عندما أتى الصباح مع إثنين من رفاقه صدف أن قابلهما، ووصل في النهاية سالماً إلى أرسوف بعد أن سلك طرقاً فرعية وسط منطقة محاطة بالأعداء. ورحب به المؤمنون بابتهاج في المدينة التي كانوا يقيمون فيها، وانتعش الملك كثيراً بعد أن تناول الطعام، لأنه كان قد انهار تقريباً تحت وطأة الجوع والعطش قبل أن يصل إلى تلك المدينة، وبدا بالفعل وكأن السماء أمرت من عليين بالظروف المتميزة المحيطة بوصوله، حيث كان جزء كبير من قوات العدو قد انصرف قبل مضي أقل من ساعة على قدومه، وذلك بعد مواصلة هجومه بشكل مستمر أمام الباب خلال اليوم بأسره، ولـو كان الملك قد واجههم أثناء اقترابه مشتبكين بهذا الشكل لما كان قد نجا من بين أيديهم إلاّ بصعوبة.

كانت قد انتشرت في هذه الأثناء إشاعات مختلفة بخصوص مصير الملك، وذلك أن العدد القليل الذي نجا من المعركة كان قد هرب إلى القدس وأعلن أن الملك كان في عداد القتلى.

وكان أسقف اللد قد ترك الكنيسة وهرب إلى يافا عند سماعه بمذبحة المسيحيين الذين اعتقلوا في قلعة الرملة، واعترف، عندما سئل عن الملك، أنه لم يعرف عنه شيئاً، هذا وأصرّ على أن الهاربين من القلعة قد لاقوا نهاية يُرثى لها، وكانت المذبحة قد حصلت في الحقيقة أمام ناظريه تقريباً، ولم يتردد في الإعتراف أنه كان قد هرب خفية لإنقاذ حياته.

امتلأت جميع المنطقة التي انتشرت الشائعة فيها بالحزن والتأوهات والدموع، فقد يئس الجميع من حياتهم، وباتوا لا يرجون غير الموت السريع حتى لا يتمكنوا من مشاهدة مصائب بعضهم بعضاً ويشاهدوا خراب المملكة، وانطلق الملك في هذه الأزمة عندما كانت سائر المملكة مستسلمة للحزن والحداد وصيحات العويل، من أرسوف، مثل نجم الصباح الذي يتلألأ في وسط الظلام، وذهب بسفينة سريعة مبحرة إلى يافا واستقبل وصوله بفرح، وجعل ظهوره المفاجىء الأشباح تلوذ بالفرار وأعاد النهار المشرق، وبدت جميع الآفات، التي كانت قد أحاطت بطريق المسيحيين، مبددة، وانتشر الخبر المفرح بسرعة في كل مكان من المملكة،

---

(١) كانت نجاة بلدوين الخارقة حسبما يذكره بعض المؤرخين بسبب فرسه العربي «الغزالة» أكثر مما كانت بفضل الزعيم العربي. فالإنقاذ من قبل عربي في هذا الوقت أسطوري مثل قصة المجاملة المذكورة.

وأحيا هذا النبأ الثاني آمـال الذين كانت أرواحهم قد ألقيت في أعماق الأعماق بتأثير الإشاعة الكاذبة الأولى.

ووصل في الوقت نفسه هيو دي سانت أومر صاحب طبرية إلى أرسوف، جاء مسرعاً لنجدة الملك وتلبية لأمر شعبه، وحالما علم بلدوين بهذا، انطلق فوراً لمقابلته ومعه القوة التي أمكن جمعها من يافا، لأن العدو كان يجوب المنطقة بالطول وبالعرض بكل حرية فقد خشي من أن ينصب الكمائن لهيو وجماعته أو حتى من أن يجمع الجنود ويحاول إعاقة زحفهم، وتعانق القائدان عند لقائهما بابتهاج قلبي، ثم وحّدا قواتهما وعادا إلى يافا حيـث استقبلهما أهـالي المدينـة بمظاهر كبيرة للبهجة، وأرسلت الرسل على الفور لالتماس المساعدة من القاطنين في الهضاب؛ وجمعا القوات بسرعة ووصلا إلى أرسوف خلال بضعة أيام، وكانوا قد أجبروا على سلوك طريق غير مباشر حيث كان العدو يحوز حيازة تامة على المنطقة الواقعة بين الطريقين، وقد واجهوا المصاعب الأكبر عند أرسوف حتى أنهم خشوا على حياتهم، لأنهم قابلوا العدو على الطريق، ومع ذلك، وصلوا يافا في النهاية بمعونة الرب، وكان تعداد الذين وصلوا لتوّهم نحو تسعين فارساً وكان فيهم فرسان ذوو قيمة عظيمة.

أعطى وصول هذه الاحلاف الملك آمالاً جديدة، لأنه تاق للإنتقام من العدو، وأن يرد له المظالم التي نالها منه الصاع صاعين، وهكذا، عبأ سرايا خيالته وكتائب رجالته حسب قواعد الحرب، وانطلق نحو الأعداء ولم يكن مبالياً بأعدادهم الضخمة، لأن اعتماده كان على مساعدة الرب.

وكان العدو قريباً جداً، ولم يكن يبعد أكثر من ثلاثة أميال، وكانت عناصره منشغلة في صنع الستائر الواقية والسلالم وآلات الحرب المتنوعة من مواد مختارة، واقترحوا ـ وبدا لهم من السهل أن يقوموا ـ الإنقضاض على المدينة المعادية وأسر الملـك وجميـع الموجـوديـن داخـل المدينة وكأنهم كانوا أحطّ أنواع الرقيق، وليكن: فقد هاجمهم الملك وهم في غمرة نشاطاتهم المتنوعة، وأدرك الكفرة على الفور أن الأعداء الذين عدوهم مهزومين كانوا يأخذون الآن زمام المبادرة ويتحدونهم للقتال، فأخذوا أسلحتهم دون خوف تماماً من الذين عدوهم مهزومين واستعدوا للمواجهة، غير أن المسيحيين كانوا مصممين بقوة على أن يردوا المظالم التي كانوا قد عانوا منها مضاعفة إلى عدوهم، فانطلقوا بهجوم عنيف، كاللبوة التي أثار غضبها أسر أشبالها وانقضوا وهم ممتلئون بقوة من عليين، وبقيادة النعمة السماوية، وحاربوا بكل قوتهم من أجل زوجاتهم وأطفالهم، وفي سبيل أرض آبائهم ومن أجل الحرية، فشتتوا صفوف العدو بسيوفهم وقتلوا عدداً كبيراً منه، وأجبروا الباقين على الهروب بخزي، هذا وقد رأى

المسيحيون، بسبب أعدادهم الصغيرة، أنه من الطيش مواصلة المطاردة لفترة طويلة جداً من الزمن، وذهبوا، بدلاً عن ذلك، إلى معسكر العدو حيث جمعوا كمية ضخمة من المغانم والحمير والجمال والسرادقات والخيم، زد على هذا لقد نقلوا معهم جميع أنواع الأطعمة والمؤن، وهكذا عاد الملك إلى يافا منتصراً حيث حياه الناس هناك بتهاليل الإبتهاج، وعاشت المملكة في سلام لفترة تقارب سبعة أشهر.

٢٣ - تانكرد يضع في هذه الأثناء مدينتي أفاميا واللاذقية المهيبتين تحت سيطرته.

عندما كانت هذه النشاطات المتنوعة قائمة في كل مكان من المملكة، جمع تانكرد قوات من الفرسان والرجالة من بين صفوف شعبه وحاصر مدينة أفاميا الفخمة، عاصمة سورية المجوفة، وتابع الحصار لفترة من الزمن بكل ما أوتيه من قوة، كما هي عادة الشادة الجيدين، واستخدمت كل وسيلة معروفة في الإنقضاض على قلعة العدو، ولم تترك أية أداة يمكن أن تسبب خسارة كبيرة للمحاصرين إلا وجربت، واستولى في النهاية على المدينة بمعونة الرحمة السماوية المقرونة مع غيرته التي لا تعرف التعب وجهوده الشجاعة، وزاد هذا الإستيلاء حدود إمارته كثيراً، وتقدم، في اليوم نفسه - حسب إحدى الروايات - إلى اللاذقية التي كان الإغريق يسيطرون عليها، واستولى عليها ووضعها تحت سلطانه أيضاً، وتم هذا وفقاً للشروط الأساسية المتفق عليها بينه وبين أهالي اللاذقية: والقاضية أن تسلم مدينة اللاذقية إليه بدون نقاش عندما يتمكن من السيطرة على أفامية، ويروى أن أنطوخيوس بن سلوقس، قد أسس هاتين المدينتين المشهورتين وسماهما باسم ابنتيه أفاميا واللاذقية[1].

حديثنا الآن عن اللاذقية السورية، لأن هناك لاذقية أخرى تعدّ بين المدن السبع لآسية الصغرىٰ والمدينة الثانية التي يشير إليها القديس يوحنا في رؤياه على النحو التالي: «والذي تراه كتب في كتاب وأرسل إلى السبع الكنائس التي في آسية إلىٰ أفسس وإلى سميرنا وإلى برغامس وإلى ثياتيرا وإلى ساردس وإلى فيلادلفيا وإلى لادوكية[2].

وكان الإمبراطور سيفيروس قد جعل اللاذقية الأخرى مستعمرة وذلك حسبما جاء بتاريخ يولبين الذي يتحدث على النحو التالي عنها في كتابه المختصر في الفصل الذي عنوانه

---

(١) من المحتمل أن سلوقس وهو أحد قادة الاسكندر قد سمىٰ هذه المدن باسم اللاذقية اشتقاقاً من اسم والدته وباسم أفاميا صدوراً عن اسم زوجته الأميرة الفارسية، وأما بالنسبة لمدينة اللاذقية التي كان للصليبيين معها علاقات سارة وغير سارة في الوقت نفسه منذحام ١٠٩٧، لم يتم الإستيلاء عليها حتى ١١٠٣ بعد حصار دام عاماً ونصف العام، بينما لم يتم الإستيلاء على أفاميا حتى عام ١١٠٦.

(٢) رؤيا يوحنا: ١/١١.

الإحصاء: « هنالك أيضاً مستعمرة اللاذقية في سوريا التي منحها الإمبراطور سيفيروس حقوقاً إيطالية مكافأة لسكانها على خدماتهم في الحرب الأهلية »[1].

وهكذا أنجز تانكرد عمل أيام كثيرة في حملة واحدة، وأحرز مدينتين في وقت واحد، حيث كان لكل منهما أملاك واسعة، مع بلدان محصّنة كثيرة وحقول ممتدة، وكان تانكرد بالفعل رجلاً أحب الرب ومحبوباً من قبله، وبما أنه كان بارزاً بالنظر لعقيدته ومشهوراً بأعماله الشجاعة، فقد كان مقبولاً عند شعبه بسبب خدماته الكثيرة، لقد كان في الواقع ناجحاً في كل ما تولاه.

٢٤ ـ بلدوين دي بورغ كونت الرها يتزوج ابنة الدوق جبرائيل.

كان النبيل بلدوين، كونت الرها، رجلاً جديراً بالثناء من جميع جوانبه، وهو الذي خلف الملك في كونتية الرها، وأخذ يدير الأراضي الخاضعة له بقوة ونجاح عظيم، وبما أنه لم يكن متزوجاً وليس له أولاد، فقد تزوج مورفيا، ابنة جبرائيل صاحب ملطية، الذي أشرنا إليه من قبل، وتلقى معها كمهر مبلغاً كبيراً من المال كان بحاجة ماسة إليه، وكان جبرائيل أرمني المولد واللغة والطبع، غير أنه كان إغريقياً في المعتقد[2].

كانت ممتلكات بلدوين بحالة جيدة، وتتمتع بحالة أمن كامل عندما قدم لزيارته واحد من أقاربه، واسمه جوسلين دي كورتني[3]، وهو نبيل فرنسي من مقاطعة غاتيناس Gatinais، وبما أنه لم يكن لدى جوسلين أراضٍ أو ثروة فقد منحه بلدوين ممتلكات واسعة بحيث لا يضطر إلى الالتفات إلى غريب لكسب عيشه، واشتملت هذه الهبة على كامل ممتلكات بلدوين الواقعة بالقرب من نهر الفرات العظيم، وقد اشتملت على مدن قورس ودلوك وقلاع تل باشر وعين تاب والراوندان الجيدة التحصين، مع أماكن أخرى. واحتفظ الكونت لنفسه بالمنطقة الواقعة وراء نهر الفرات، لكونها أكثر قرباً لممتلكات العدو، واحتفظ بمدينة واحدة فقط في الداخل هي سميساط.

كان جوسلين رجلاً معروفاً بالحكمة والخبرة الواسعة، وحذراً في كل ما فعله. وقد أظهر حصافة كبيرة في العناية بأموره الخاصة وتنظيمها، وكان جيد التمويل وأفضل النبلاء لأفراد

---

(١) مجموعة القوانين المدنية ـ المختصر: ١/٦٥.

(٢) يعود تاريخ زواج بلدوين دي بورغ ومورفيا ابنة جبرائيل إلى وقت مضى قبل إطلاق سراح بوهيموند في عام ١١٠٣. ومن الواضح أن ثروة جبرائيل كانت كبيرة جداً لأنه أعطى ابنته مهراً قدره خمسون ألف قطعة ذهبية وساعد بلدوين في مناسبات لاحقة بمبالغ أكبر من ذلك.

(٣) كان جوسلين دي كورتني ابن عم بلدوين دي بورغ.

أسرته، وأظهر نوعاً من السخاء عندما تطلبت الظروف ذلك، غير أنه كان مقتصداً في أوقات أخرى، ومحافظاً حذراً على مصالحه الداخلية، وكان معتدلاً في تناول الطعام ولم يبال كثيراً بملابسه وزينة جسده، وحكم باهتمام جاد ذلك الجزء من البلاد الذي منحه إياه السيد الكونت بسخاء واستحوذ على كل ما هو جيد بكميات كبيرة.

٢٥ - إطلاق سراح بوهيموند من أسر الأعداء وعودته إلى انطاكية. لجوء البطريرك ديمبرت إليه واستقباله بلطف.

عاد في هذه الآونة إلى أنطاكية بوهيموند أميرها العظيم والجدير بالثناء من كل جانب. فقد نظرت النعمة الإلهية إليه بعد أن قضى أربعة أعوام في أغلال العدو، وحرر من قيوده بدفع فدية [١]، وانتظره استقبال مبهج من البطريرك ورجال الدين بالإضافة إلى سائر العامة من الناس، حيث كانت المقاطعة والمملكة قد اشتاقتا بجد منذ زمن طويل لعودته. وشكر بوهيموند قريبة تانكرد بإخلاص عندما علم بصورة الإخلاص والحكمة التي أدار بها الإمارة المعهودة لرعايته خلال غياب صاحبها، وكيف كان قد وسع ممتلكات أنطاكية بالاستيلاء على مدينتين رائعتين [٢]، وكبرهان على تقديره له وكمكافأة على خدماته منح تانكرد وورثته الجزء الأكبر من تلك المنطقة للاحتفاظ به بشكل دائم ثم ما لبث أن تخلى له عن الإمارة بأسرها، كما سيتم سرد ذلك في الصفحات المقبلة.

في هذه الأثناء تابع آرنولف، رئيس شماسة القدس، الذي كنا قد أشرنا إليه مراراً، نشر بذور الشقاق والكراهية، حسب عادته المألوفة، بين الملك والبطريرك ديمبرت آملاً بإثارة شجار بينهما، وكانت المحصلة أن نشطت عداوتهما السابقة بعدما بدا أنها قد خمدت [٣].

---

(١) من المحتمل أنه أطلق سراح بوهيموند في أيار من عام ١١٠٣، بعد أسر دام ثلاث سنوات، ودفع ثمن حريته كل من الأرمني كوغ فاسيل وبلدوين دي بورغ وبرنارد بطريرك أنطاكية. وتمنع وليم عن ذكر أن تانكرد لم يساهم بأي شيء في إطلاق سراح خاله (ر.ب. يوديل «بوهيموند الأول - أمير أنطاكية» ص٩٦).

(٢) من الواضح أن وليم كان مصمماً على المحافظة على سمعة تانكرد نظيفة، وحسب دليل معاصر كان بوهيموند حانقاً جداً على تانكرد لتقاعسه عن المساهمة في دفع فديته، ولهذا لم يحرمه من الإمارة فقط بل من المواقع التي كان قد استولى عليها أيضاً.

(٣) يقدم ألبرت وصفاً أكثر تفصيلاً لإستئناف هذا الشجار. ويهمل وليم في أن يأتي على ذكر أن تلك الاتهامات التي قدمت ضد ديمبرت الذي حاكمه المجمع الكنسي في القدس الذي ترأسه الممثل البابوي روبرت في ٢ تشرين الأول ١١٠٢. وأعلن عزل ديمبرت وغادر القدس في مجموعة تانكرد الذي كان قد شارك في الحملة الأخيرة ضد المصريين. وكان ديمبرت راضياً بالبقاء في أنطاكية لمدة عامين تقريباً قبل أن يقدم استئنافه للبابوية.

كما كان رجال الدين قد أثيروا ضد البطريرك بفضل الجهود المواظبة لذلك المضلل نفسه، وازدادت الإساءات الشريرة أخيراً ووصلت إلىٰ درجة لم يعد فيها رجل الله، ومحب السلام يستطيع تحمل مصادر الإهانة المستمرة التي كان خاضعاً لها، فترك كنيسته والمدينة في الوقت نفسه، وهرب إلىٰ بوهيموند فقيراً ومعوزاً ومحروماً تماماً من المشورة والمساعدة، واستقبله الأمير بإجلال كبير، حيث أثيرت عاطفته وشفقته بقدر ما شعر أنه كان مسؤولاً عن ترقية ديمبرت إلىٰ كرسي بطريركية القدس. وعين له بوهيموند بكرمه دخلاً مناسباً حتى لا يضطر رجل الله إلىٰ العيش معه في ظل ظروف لا تليق بشخص صاحب منزلة عالية مثله ومنحه بموافقة برنارد بطريرك انطاكية، كنيسة القديس جورج الواقعة تحت مدينة انطاكية بالإضافة إلىٰ ممتلكاتها الكبيرة وعائداتها الغنية، وأقام ديمبرت هناك بدون انقطاع حتى تاريخ ذهاب بوهيموند إلىٰ أبوليا كما سنحكي ذلك بعد قليل.

٢٦ ـ تعيين شخص بلا تقوىٰ اسمه ابرمار رئيساً لكنيسة القدس بعد طرد ديمبرت. الملك يحاصر عكا بدون نجاح. إصابته بجراح خطيرة أثناء عودته من هناك.

ابتعد الملك الآن عن خشية الرب بعدما ضلله آرنولف الشرير، وبات مذنباً بأعمال أكثر سوءاً بعد طرد ديمبرت، لأنه أقحم كاهناً ساذجاً صاحب تدين عميق يسمى ابرمار Ebremar إلىٰ الصرح البطريركي، وكان هذا الكاهن الساذج قد أتى مع الحملة الأولىٰ، وكان الجميع يحترمونه بسبب حياته القويمة، غير أنه أظهر نفسه خلال هذه الأزمة رجلاً أحمق وجاهلاً وبدون تفكير، لأنه اعتقد أنه سيسمح له في اغتصاب العرش البطريركي بينما كان صاحب المنصب الشرعي ما يزال حياً.

في هذا العام نفسه الذي كان العام ١١٠٣ لتجسيد الرب ومع قرب حلول فصل الربيع وبعد الاحتفال في القدس بعيد قيامة المسيح، استدعى الملك جميع قوات المملكة وألقى الحصار على مدينة عكا[١].

تقع مدينة عكا على الساحل في منطقة فينيقيا، وهي إحدى الأسقفيات التابعة لمطرانية صور، ويقدم ميناؤها المزدوج والواقع داخل الأسوار وخارجها مرسىٰ هادئاً وآمناً للسفن، وهي قائمة بشكل مناسب بين الجبال والبحر، وتمتلك أراضي واسعة ذات حقول خصبة وغنية. ويتدفق نهر عين البقر ماراً بالمدينة.

وتقول إحدىٰ الروايات الرائجة أن الأخوين عكو وبطلو مياس قد أسسا هذه

---

(١) وقع هذا الحصار غير الفعال في نيسان وأيار لسنة ١١٠٣.

المدينة، وحصناها بأسوار ذات بناء صلب، وقسماها إلىٰ قسمين سميا حسب اسميهما. ولهذا السبب فهي تعرف حتى اليوم باسم بطلومياس أو عكا كما هو الحال بالنسبة لمعظم المدن السورية، حيث لكل منها كقاعدة اسمان أو حتى ثلاثة أسماء.

وقدم الملك مع فيالقه إلىٰ هنا، غير أنه لم يستطع تطويقها وإرغامها على الاستسلام لافتقاره إلىٰ الأسطول، ومهما يكن من أمر فقد قام بقطع أشجار البساتين التي كانت تحيط بها، وقتل عدداً من أهالي المدينة، وساق أمامه كغنيمة القطعان والمواشي التي وجدها خارج المدينة، ثم رفع الحصار ورحل عائداً إلىٰ بلاده.

واعتزم على العودة عبر قيسارية، هذا وقد حدث أن قابل لصوصاً وقطاع طرق في مكان يدعىٰ بترا-آنسيا بالقرب من صور القديمة بين كفرنعوم والدورة المعروفة اليوم باسم المر، وكان هؤلاء اللصوص يختبئون في كمين، إلا أن الملك هجم عليهم بضراوة وقتل معظمهم وجعل البقية تلوذ بالفرار، وحدث أن قذف أحدهم وهو يهرب بحربة أصابت الملك بحظ عاثر، واخترقت ظهره والأضلاع الواقعة قرب قلبه، إلا أنها لم تسبب ضربة مميتة له. هذا وتمكنت عناية الأطباء بعد لأي ونتيجة لاستخدامهم الجراحة والكي، من إعادة بلدوين إلىٰ درجة ما من الصحة، غير أنه عانىٰ دوماً في بعض الأوقات من عودة الاضطراب من هذا الجرح [١].

٢٧ - كونت طولوز يبني قلعة أمام مدينة طرابلس ويسميها تلة الحجاج.

كان ريموند، كونت طولوز، ذو الذكرىٰ الطيبة، رجلاً رائعاً وممتازاً وعابداً مخلصاً للرب، قد استولىٰ في تلك الآونة على المدينة المعروفة باسم طرطوس، وكان يظهر نشاطاً كبيراً وقوة في عمله لتوسيع ممتلكاته على حساب ما حوله، وبما أنه كان متلهفاً للاستفادة من جميع الوسائل لطرد أعداء الاسم المسيحي من تلك الأراضي، فقد بنى قلعة على هضبة تواجه مدينة طرابلس وتبعد نحو ميلين عنها، وبما أن الحجاج كانوا قد أسسوا ذلك الموقع، فقد أعطاها اسماً يذكر بتلك الواقعة، حتى تعرف إلىٰ الأبد باسم تلة الحجاج، ولا يزال هذا الاسم قائماً حتى الوقت الحالي.

وتلة الحجاج محصنة بشكل جيد بموقعها الطبيعي ومهارة الذين شيدوها، واستخدمها ريموند قاعدة له لتخلق مشاكل يومية ومتاعب لسكان طرابلس، ونتيجة لهذا الإنهاك المستمر اضطر سكان المنطقة بأسرها وحتى الذين كانوا يقيمون في المدينة نفسها إلىٰ أن يدفعوا له جزية سنوية، وأطاعوه في جميع الأمور وكأنه كان يملك المدينة بلا منازع.

---

(١) أصاب هذا الحادث بلدوين قبل تموز ١١٠٣.

وولدت له زوجته المكرسة نفسها للرّب ابناً في ذلك المكان تلقىٰ اسم ألفونسو المستمد من الأسلاف، وهو الذي خلف والده فيما بعد ككونت لطولوز[1].

٢٨ ـ الملك يحاصر عكا ثانية، ويستولي عليها بالقوة بمساعدة الجنويين.

حشد بلدوين سائر قوة شعبه من أدناهم إلىٰ أعلاهم وأسرع إلىٰ عكا لمحاصرة تلك المدينة للمرة الثانية وذلك في شهر أيار من العام ١١٠٤ لتجسيد الرب وانتهز الفرصة المبشرة بالنجاح الأكيد حيث كان قد وصل في ذلك الوقت إلىٰ الأراضي السورية أسطول من جنوى مؤلف من سبعين سفينة منقارية الشكل تسمى شواني وعندما علم الملك بوصولها أرسل رسالة إلىٰ قادة الأسطول يدعوهم بطريقة ودّية ليحاربوا من أجل المسيح قبل أن يعودوا إلىٰ وطنهم، ولفت انتباههم إلىٰ المثال الطيب الذي ضربه أبناء بلدتهم الذين ساعد عملهم الحماسي علىٰ الفور بمدينة قيسارية لصالح المملكة، حيث نشأ عن ذلك مجد أبدي لأهالي جنوى، بالإضافة إلىٰ مكافأة دنيوية كبيرة.

وتم التوصل إلىٰ اتفاق مع هؤلاء القوم عن طريق العمل البارع لوسطاء دهاة وديبلوماسيين أجهدوا أنفسهم بنبل لانجاح المفاوضات، ووافق الجنويون على المساهمة بمساعدة مخلصة في الإستيلاء على المدينة الآنفة الذكر بشرط إعطائهم بشكل دائم ثلثاً واحداً من العائدات المجموعة في ميناء عكا ومن الواردات المنقولة بحراً، بالإضافة إلىٰ منحهم كنيسة في المدينة، وسلطاناً تاماً على واحد من شوارعها، وبرهنت هذه الشروط علىٰ أنها مقبولة للملك ورجالاته القياديين، وأبرم الاتفاق وأجيز بتبادل الأيمان، وعهد بكتابته ليحفظ إلىٰ الأبد في صيغة ميثاق معتمد[2].

وقام الجنويون في اليوم المحدد بإغلاق المداخل البحرية إلى عكا، وحاصرها الملك مع قواته من جهة البر، وأغلقت جميع منافذ الخروج والدخول تماماً بوساطة المعسكر المحيط بها، وكابد السكان من جميع المحن التي لا تحصى والتي تلازم أعمال الحصار دوماً، ووضعت الآلات الحربية، كما شيدت الأبراج أيضاً، حيث قذفت منها صخور ضخمة دمّر قصفها المستمر الشرفات وهدّم أبنية واقعة في داخل المدينة نفسها.

ووجد العدو من الصعب تحمل الضغط المستمر للمحاصرين بعدما أنهكته الإشتباكات

(١) سمي ألفونسو على اسم جدة لأمه ألفونسو ملك كاستيل الذي كانت ابنته ألفيرة الزوجة الثالثة للكونت ريموند، وقد تميز بكونه نبيلاً غربياً من نبلاء الاقطاع ولد في الأراضي المقدسة.

(٢) من المحتمل أن يكون وليم قد رأى هذه الوثيقة في الأرشيف، ويظهر ذكره لها اهتمامه غير العادي بالدبلوماسية والقانون والتجارة.

المتكررة مع الأسطول الذي حرس الشاطىء، ومع جيش الملك على البر، وبعدما استهدف أعداؤهم فقدان الكثير من المدافعين نتيجة مصادمات متنوعة، وبعد مضي عشرين يوماً بذل فيها المحاربون المسيحيون كل جهد ملكوه في الهجوم وبعدما قاومهم الكفرة بعنادٍ مماثل جرى أخيراً تسليم المدينة إلى الملك وقضت الشروط المفروضة أن يسمح للذين رغبوا بترك المدينة بالرحيل بحرية إلى حيث شاؤوا آخذين معهم زوجاتهم وأطفالهم وجميع مقتنياتهم المنقـولة، وكان بإمكان الذين اختاروا البقاء في بيوتهم وعدم التخلي عن أراضيهم أن يتمتعوا بشروط إيجابية، وذلك بدفع مبلغ سنوي ثابت إلى الملك.

وحالما تم الفوز بالمدينة، خصص الملك ممتلكات ومساكن للجنويين وفقاً للخدمات التي قدمها كل رجل منهم، وهكذا افتتح للمرة الأولى طريق موائم وآمن للقادمين بحراً، وتم الفوز بميناء أكثر اتساعاً، وتحرير الشاطىء إلى حد ما، من هجمات الأعداء.

٢٩ - تانكرد وبلدوين وآخرون يحاصرون حران الجزيرة. السكان يقررون بعدما عضهم الجوع، تسليم المدينة.

قام في هذه السنة نفسها بوهيموند وبصحبته جميع الرجال القياديين في إقليمه وتانكرد وبلدوين كونت الرها وجوسلين قريبه (بلدوين) بعبور نهر الفرات وإلقاء الحصار على مدينة حران الواقعة على مقربة من الرها والتي كان الكفرة يسيطرون عليها، وذلك وفق تفاهم متبادل، وقد جمع كل قائد منهم تمشياً مع هذا التفاهم بحماسة وغيرة، القوات العسكرية من بلده مع الحلفاء من الأماكن المجاورة وعبروا نهر الفرات في اليوم المحدد ووصلوا إلى الرها.

وشارك ثلاثة رجال مبجلين من أبرز الشخصيات اللامعة للكنيسة، في هذه الحملة المشؤومة وهم برنارد بطريرك أنطاكية، وديمبرت بطريرك القدس، المنفي الهائم اللاجىء الذي كان يعيش في ذلك الوقت في أنطاكية وبنديكيت، رئيس أساقفة الرها.

اجتمع جميع هؤلاء القادة المصممين على تنفيذ مشروعهم في المدينة الآنفة الذكر، ثم تقدموا على رؤوس فيالقهم نحو هدفهم المنشود.

ونعلم من تواريخ الأزمان الغابرة أن حران هي المدينة التي قاد تيراح ابنه ابراهيم إليها، ولوط بن حران ابن ابنه وذلك عندما تركوا أور الكلدانيين ومضوا إلى أرض كنعان ليعيشوا فيها حسب القصة المروية في سفر التكوين وتوفي تيراح هناك أيضاً، كما تلقى ابراهيم هناك أمر الرب ليترك بلده وعشيرته ويتبع وعود الله[١]. وهذا هو الموقع أيضاً الذي أجبر

---

(١) التكوين: ٢٠/٣١، ١٢/٣.

فيه الفريثون كراساس Crassas الطاغية الروماني على شرب الذهب الذي كان متلهفاً جداً إليه.

حاصر القادة مدينة حران بإحكام فور وصولهم إليها، فتلك كانت خطتهم منذ البداية، هذا وكانت هنالك حاجة بسيطة لمهاجمة المدينة، لأن المؤن كانت ضئيلة في داخل المدينة، لا بل كانت في الواقع معدومة، ولم يكن ضرورياً سوى استخدام بعض الوسائل لمنع المحاصرين من الخروج والدخول وكان سبب نقص الطعام هذا علىٰ النحو التالي: كان بلدوين قد انكب بجدية قبل وقت طويل مضى على البحث عن وسيلة يمكن بوساطتها دفع السكان نحو فاقة كبيرة، بحيث يجبرهم الجوع على تسليم المدينة له، وكان الأسلوب التالي هو الأسلوب الذي بدا له أكثر مواءمة لإنجاح نواياه.

كانت مدينتنا الرها وحرّان تبعدان عن بعضهما أربعة عشر ميلاً تقريباً، وجرى نهر بينهما جرت مياهه بقنوات واستفيد منها لسقاية السهل المجاور لهما مما جعله خصباً جداً بحيث أنتج محاصيل وفيرة، وكان قد تأسس تفاهم منذ الأزمان الغابرة أن كل ما نما علىٰ هذا الجانب من النهر يجب أن يعود لأهالي الرها دون نقاش، بينما تؤول ملكية المحاصيل المنتجة في الحقول الواقعة فيما وراء النهر لسكان حران.

عرف بلدوين أنه من غير الممكن وصول أية مؤن إلىٰ العدو من الخارج، بل عليهم جمع طعامهم من هذه الأرض المشتركة. ولذلك، فضل أن يعاني هو من الضعف على أن يترك العدو ـ الذي لم يكن ممكناً تزويده من مكان آخر ـ أن يتغذى من هذه الحقول المشتركة، وهكذا، منعهم منذ زمن طويل من مزاولة الزراعة هناك بشن هجمات متكررة عليهم، وأمل واعتقد أنه سيتمكن من تأمين مؤن وافرة لرعيته من المنطقة الواقعة وراء نهر الفرات بالإضافة إلىٰ المناطق الواقعة فيما بين الرها والنهر، وهكذا سيتحول سكان حران المحرومون من المؤن التي اعتادوا علىٰ الحصول عليها من هذه الأرض المشتركة، إلىٰ حالة من الفاقة المدقعة حسبما توقع، وبرهنت النتيجة أنه كان مصيباً في رأيه، فبعدما منعهم من زراعة هذه الحقول لعدة أعوام مضت، وجد المحاصرون المدينة في كرب عظيم، كما قلنا من قبل وذلك بسبب نقص الطعام، ومع ذلك، فقد كان السكان الذين كانوا مدركين منذ زمن طويل أن المسيحيين كانوا قادمين، وقد أرسلوا رسلاً إلىٰ ملوك الشرق ملتمسين المساعدة منهم ومعلنين أنهم سينهارون ما لم تصلهم المساعدة فوراً، وازدادت وطأة المجاعة في هذه الأثناء يومياً ورأوا أن أملهم بالإنقاذ من الأمراء الذين كانوا قد ناشدوهم كان أملاً عقيماً،

ولذلك قرروا بعد أن تداولوا مع بعضهم، أنه من الأفضل تسليم المدينة بدلاً من أن يهلكوا داخل أسوارها بسبب الجوع ويموتون بسبب نقص الطعام.

٣٠ ـ المسيحيون يخسرون المدينة وهم يتنازعون حول مسألة من سيحكمها. قدوم المساعدة إلىٰ المحاصرين. نشوب قتال هناك والتحام شديد. المسيحيون يهزمون تحت ظروف خطر شديد تعرضوا له.

خرج سكان المدينة عند اتخاذ هذا القرار واستسلموا بشكل غير مشروط للمحاصرين، غير أنه نشأ في هذه الفترة الفاصلة نزاع مشؤوم بسبب الغيرة بين القادة، فقد بدأ الأمير بوهيموند والكونت بلدوين بالنزاع حول مسألة من منهما سيتسلم المدينة، وأي لواء سيتقدم غيره من الألوية إلىٰ المدينة. ونتيجة لذلك تأجل الاستسلام الحقيقي حتى الغد حتى يكون هنالك وقت لإعطاء دراسة دقيقة لتلك المسألة التافهة، وهكذا، تعلموا بالواقع المرّصحّة القول: «يجرُّ التأجيل الخطر في موكبه». بالإضافة إلىٰ هذا المثل الثاني: «من الخطر التأجيل عندما يكون كل شيء جاهزاً». لأنه وصل قبل بزوغ فجر اليوم الثاني حشد ضخم من الأعداء لقد كان، جيشاً كبيراً من الأتراك وهائلاً إلىٰ درجة أن المسيحيين بدأوا يرتابون فيما إذا بات ممكناً بالنسبة لهم إنقاذ أرواحهم.

جلبت قوات النجدة كميات ضخمة من المؤن، وكانت قد اختارت ببصيرة ودهاء خطة حكيمة بتقسيم عساكرها إلىٰ فريقين. كان علىٰ إحداهما الاشتباك مع المسيحيين دون اهتمام بالنتيجة سواء أكانت ناجحة أم مشؤومة. وكان علىٰ الفرقة الثانية تزويد المدينة في غضون ذلك بالطعام، ونفّذت هذه الخطة، وعبأ القادة الكفرة قواتهم للمعركة بعد الفجر مباشرة، ورتبوا صفوفهم وكأنها مستعدة لخوض قتال فوري، بينما تمركز المسؤولون عن الأمتعة في مكان منعزل عن الباقين.

وعلى الرغم من أن الكفرة كانوا يستعدون للمعركة، فلم يكن لديهم سوىٰ أمل ضئيل بالنجاح أو حتى بالمحافظة على عرض للمقاومة لفترة طويلة من الزمن، لأن هدفهم الوحيد كان إشغال المسيحيين في معركة حتى يمكن نقل المؤن إلىٰ المدينة المحاصرة.

وعندما رأىٰ قادتنا العدو يجري هذه الاستعدادات، عبأوا بدورهم صفوفهم استعداداً للمعركة، وجال البطريرك كان بين الجنود وناضلا بكلمات الحث والتحذير ليتحلوا بالشجاعة، إلا أن تحذيراتهم كانت عقيمة حيث كان يفتقر إلىٰ تأييد الرب، وأصبح جند العدو سادة الميدان في المواجهة الأولىٰ، لأن المسيحيين أداروا ظهورهم للعدو وهربوا بشكل مخزٍ، وتخلوا عن معسكرهم، وكل ما كان فيه، ولم يفكروا إلا بطلب النجاة لأنفسهم التي لم

يجدوها للأسف أبداً، وألقىٰ الكفرة علىٰ الفور بقسيهم وأسلحتهم المألوفة، وحاربوا بسيوفهم في قتال متلاحم أبيد المسيحيون فيه تقريباً.

أخذ كونت الرها وقريبه جوسلين أسرى، ونقلا بالسلاسل إلىٰ جزء بعيد جداً من بلاد العدو. هذا وهرب كل من بوهيموند وتانكرد والبطريركين من المعمعة والمعركة ما تزال تستعر، ونجحوا في بلوغ الرها بأمان باختيارهم بعناية طرقاً فرعية منعزلة، وألقي القبض علىٰ رئيس أساقفة تلك المدينة، حيث لم يكن لديه خبرة في الحرب، وأخذ أسيراً مع غيره من العساكر، وهكذا، ازداد عدد الأسرىٰ، لكن حدث أن وقع رئيس الأساقفة في رعاية أحد المسيحيين، وتحرك هذا الرجل بعاطفة الشفقة نحوه، عندما اكتشف هويته، وتركه يهرب سليماً معافىٰ، مع أنه خاطر بحياته بهذا العمل، وعاد رئيس الأساقفة، تحت حماية الله، خلال أيام قليلة إلىٰ الرها حيث استقبل بالترحاب والابتهاج.

كان أمير أنطاكية ما يزال في الرها عندما وصل إليه نبأ أن الكونت قد أسره العدو عقاباً لآثامه. وكان رأيه، الذي وافق عليه سكان المدينة وضع الرها والمنطقة بأسرها تحت عناية تانكرد، مع الأخذ بعين الاعتبار إعادة الحكومة إلىٰ الكونت فور إطلاق سراحه وبدون نقاش، وتولىٰ بوهيموند العناية بأراضي جوسلين.

ولم نقرأ أبداً في أخبار حكم اللاتينيين في الشرق سواء قبل هذا الحدث أو بعده عن معركة مشؤومة جداً مثل هذه المعركة التي أدت إلىٰ مذبحة مريعة جداً لرجال شجعان، وعن فرار مخز جداً لأبناء شعبنا [1].

انتهى هنا الكتاب العاشر.

---

(١) وقعت هذه المعركة في ربيع ١١٠٤، ويعطيها ابن القلانسي تاريخ ٧ - أيار ١١٠٤ وعنده كان قائد المسلمين سكمان بن أرتق وجكرش صاحب الموصل (هـ.أ.ر.جب - ترجمة «تاريخ دمشق» ص ٦٠).

الكتاب الحادي عشر

نهاية حكم بلدوين الأول:
أعمال توسع إضافية لصالح القدس وأنطاكية

١ ـ بوهيموند أمير أنطاكية يعهد بالعناية بإمارته لتانكرد ويسرع عبر البحر إلىٰ فرنسا. زواجه من ابنة ملك فرنسا. ديمبرت بطريرك القدس يذهب إلىٰ روما. الملك يهجر زوجته الشرعية بدون إجراء قانوني.

بعد انقضاء الصيف أبحر بوهيموند بصحبة ديمبرت، بطريرك القدس، إلىٰ أبوليا، وكان مثقلاً بديون ثقيلة، وأمل في أن يحصل من الأراضي الواقعة عبر البحر على وسائل لدفع التزاماته وليجلب معه أيضاً تعزيزات من الفرسان، وعهد بالمسؤولية والإدارة العامة لإمارته لقريبه المحبوب تانكرد، مع سلطات كاملة[١].

وعندما وصل إلىٰ أبوليا أقام لفترة قصيرة من الزمن في بلاده[٢]، ثم عبر جبال الألب ووصل إلىٰ بلاط فيليب، ملك فرنسا الشهير، ووهبه هذا الملك هبات كثيرة من بينها اثنتان من بناته، واتخذ بوهيموند كونستانس الابنة الشرعية للملك زوجة له[٣]، وبعث بالفتاة الأخرى واسمها سيسيليا من أبوليا لتكون عروساً لابن أخته تانكرد في المستقبل[٤]، وكانت

---

(١) خريف ١١٠٤. تجنب الأسطول الذي أبحر عليه والذي كان مؤلفاً من ثلاث عشرة سفينة، الاغريق ووصل إلىٰ باري في كانون الثاني من عام ١١٠٥. ومن الواضح أنه كان لدىٰ الإمبراطور ألكسيوس شكوك عن خطط بوهيموند الأساسية (ر.ب.يوديل «بوهيموند الأول ـ أمير أنطاكية» ص١٠٢).

(٢) أمضى عاماً في إيطاليا، كان منه بعض الوقت فقط في باري وزار البابا باسكال الثاني عدة مرات، وكان تاريخ رحيله عبر جبال الألب في أوائل ١١٠٦ (يوديل «بوهيموند الأول» ص١٠٨).

(٣) كانت كونستانس ابنة فيليب الأول من زوجته الأولىٰ بيرثا الهولندية، وكانت قد تزوجت من هيو الأول، كونت شامبين، إلا أنها انفصلت عنه بسبب قرابتها منه في أوائل ١١٠٥.

(٤) كانت سيسيليا ابنة فيليب الأول من زوجته الثانية بيرترادا دي مونتفورت، ولم يتلق هذا الزواج موافقة الكنيسة، على الرغم من أنه تم بوساطة أسقف مؤهل، وكان أحد أسباب الحرمان الكنسي لفيليب. وكانت برترادا قد تزوجت من فولك الرابع صاحب أنجو ومنه انتزعها فيليب، وتخلىٰ عن زوجته الشرعية بيرثا، التي انضم أقاربها إلىٰ فولك في مناشدة البابا بالثأر له.

هذه الفتاة البكر ابنة كونتسه أنجو، التي كانت قد هجرت زوجها من أجل فيليب وولدت له هذه الطفلة بينما كانت زوجته ما تزال علىٰ قيد الحياة.

وبعدما أنجز بوهيموند مهامه في بلاط الملك وقضى ما كان يعنيه في بلاد أخرىٰ وراء الجبال، عاد إلىٰ أبوليا وقاد معه مجموعة ضخمة من الفرسان والرجالة رغبوا بالقيام بالحج عبر البحر.

هذا وتقدم ديمبرت إلىٰ الكنيسة في روما وكشف هناك عن الحجم الكامل للمظالم التي كان يعاني منها، ووصف في الوقت نفسه وبالتفصيل نجاح خيانة آرنولف والأهداف الشريرة للملك [١]، وأثارت قصة البطريرك تعاطف الجميع وحققت له تأييداً شاملاً، ولم يكتف الملك بالجرائم الرهيبة التي اقترفها ضد ديمبرت وهي الجرائم التي ذكرتها، لكنه أقدم خلافاً لقواعد الكنيسة على طلاق زوجته أيضاً وهي التي كان قد تزوجها في الرها عندما كان كونتاً في ذلك المكان [٢]، وأجبرها أن تصبح راهبة في دير القديسة حنه، والدة أم الرب [٣] مريم العذراء الطاهرة، وذلك بصرف النظر عن حقوق الزواج ودون إجراء قانوني على الرغم من أنها لم تقترف أية جريمة، ولم تعترف بأية واحدة.

يقع هذا الدير في الجزء الشرقي من القدس، بالقرب من الباب المسمى باب يهوشافاط، وبجانب البحيرة التي كانت معروفة في الأزمان المبكرة باسم بركة الشياه، ولا يزال هنالك غار ظاهر، سكن فيه ـ حسب التقاليد القديمة ـ حنة ويوشيم، وحيث يقال إن مريم العذراء ولدت فيه، وتبنت ثلاث نسوة أو أربع حياة الرهبنة فيه ووسع الملك ممتلكاتهن ووقفهن الكنسي في سبيل وضع زوجته معهن.

أعطيت أسباب كثيرة ومتنوعة لتعليل انفصال بلدوين عن زوجته، ويقول بعضهم إن الملك صرفها لكي يتزوج امرأة أكثر ثراء ومن منزلة أسمى [٤]. واستطاع بهذه الطريقة أن يحسن حالته ويتخلص من الفقر الذي أثقل كاهله، لأنه كان سيحصل على ثروة خارجية

---

(١) ربما خلع ديمبرت (الكتاب العاشر الفصلان ٢٥ ـ ٢٦). يثير تأجيل ديمبرت في استئناف القرار من المجلس الكنسي في القدس في تشرين الأول عام ١١٠٢، سؤالاً فيما إذا كان هذا الإستئناف لم يقترحه بوهيموند. ومن المؤكد أن بوهيموند أيد قضية ديمبرت بقوة خلال زياراته العديدة للبابا في عام ١١٠٥.

(٢) كانت هذه أردا، ابنة طوروس الأول، التي كان بلدوين قد تزوجها في الرها في عام ١٠٩٨.

(٣) أصبح هذا الدير المكرس للقديسة حنه من أكثر الأديرة شعبية وأثراها وقد أعاد اللاتينيون عمارته أو أقاموه.

(٤) يفضل بعض الكتاب الحديثون هذا التفسير، وهم يعتقدون أن علتها الرئيسة كانت إخفاق أبيها في إكمال دفع مهرها، وربما فسر هذا مع حقيقة أنها لم تنجب أطفالاً والحقيقة الأخرىٰ التي تظهر أن بلدوين كان بحاجة ماسة إلىٰ المال وإلىٰ مساعدة أخرىٰ وهذا كله يمكن أن يفسر طلاق بلدوين لها.

تحت اسم المهر، ويدّعي آخرون أن الملكه كانت مهملة وغير عابئة في الحفاظ على روابط الزواج وبذلك أثارت غضب زوجها.

وبدت في البداية أنها قانعة بالإعتياد على حياة الرهبنة، وعاشت حياة شريفة في كل مظاهرها في ذلك الدير وذلك في الفترة الأولى لترهبها، غير أنها انتهزت في النهاية فرصة مواتيه للإقتراب من الملك، وحصلت، بقصص كاذبة، على إذن لزيارة أسرتها في القسطنطينية وادعت إنها رغبت بالحصول على وسائل لتخفيف فقر جماعتها، وغادرت المملكة تحت هذه الذريعة، إلا أنها تخلت فوراً عن الرهبنة وبدأت تنغمس في حياة فاسقة وداعرة، ومارست البغاء مع جميع من أتاها دون احترام لسمعتها وللجلالة الملكية ولمنزلتها السابقة [1].

٢ ـ موت ريموند كونت طولوز. ابن أخيه وليم جوردان يخلفه. رضوان الزعيم التركي القوي يغزو أراضينا. تانكرد يهاجمه ويرغمه على الفرار في فوضى.

توفي ريموند، كونت طولوز، ذو الذكرى الطيبة، في القلعة التي كان قد بناها أمام طرابلس، والتي كان قد سماها تلة الحجاج وذلك في آخر يوم من شهر شباط في عام ١١٠٥ لتجسيد ربنا، لقد كان رجلاً متديناً ويخاف الرب، مؤمناً صادقاً بالمسيح، ويستحق المدح من جميع جوانبه، وتستحق أعماله البطولية وحياته ذات الميزات البارزة كتاباً خاصاً.

خلف ريموند ابن أخيه وليم جوردان وقد واصل هذا حصار مدينة طرابلس بالإهتمام الجاد نفسه، وأوقف نفسه بشجاعة واقدام على تلك المهمة حتى وصل كونت برترام، ثم نشأت خلافات بينهما حول القضية، فخفف وليم جهوده إلى حد ما حسبما سيتم رواية ذلك الآن.

نعتقد أن شجاعة ريموند ومثابرته المشهورة توجب على الجيل الحالي وعلى الأجيال القادمة، تمجيدها وتقديرها حق قدرها، لأنه ما أن باشر رحلة الحج من أجل المسيح، حتى استمر بتصميم وبصبر على السير في ذلك الطريق إلى نهاية حياته، وكان في أرضه وموطنه رجلاً بارزاً وذا قوة عظيمة وكان يمتلك ممتلكات موروثة واسعة، وكان يمكنه الحصول بوفرة على كل ما أراده غير أنه أختار أن يترك أرضه وعشيرته بتسليم وبتواضع للمسيح عوضاً عن أن يزدهر في مقامات الآثمين بين أهله، وكان القادة الآخرون قد شعروا بعدما تمت إعادة المدينة المقدسة إلى الحرية، أنهم حصلوا على ما أرادوه، ولبيت رغباتهم لذلك عادوا إلى

---

(١) يشك اسكندريان بصحة هذه القصة، التي يصعب إثباتها ويشعر أن القرار اللاحق الصادر لإعادتها إلى مكانها الشرعي [الفصل ٢٩] يدحض تماماً الإفتراء. (غالوست ت. اسكندريان «الصليبيون والبيزنطيون والأرمن» ص ٥٩ الحاشية ٢١٥).

بلادهم، إلا أنه خشي أن يترك الصليب بعدما كان قد ارتداه فيما مضى، وقد فضل أن يقدم نفسه كذبيحة محرقة إلى المسيح على أن يعود إلى مغريات العالم حتى عندما اقترح أصدقاؤه وأفراد أسرته بتلهف عليه أن يعود لاسيما بعدما تم إنجاز نذره، أن يعود إلى بلده الذي تلهف كثيراً لحضوره، واتبع في هذا أمثولة سيده المسيح الذي فضل أن ينزله الغرباء بعدما انتهت آلامه على أن يخفق في العمل الذي كان قد باشره لتحريرنا، وذلك عندما قالوا له: «انزل عن الصليب»[1].

وجمع رضوان، حاكم حلب القوى خلال العام نفسه أحلافه من المناطق المجاورة وذلك بالتوسل وبوعد دفع الأجور، ودخل منطقة أنطاكية بجيش ضخم، وسببت غزواته والحرائق المتكررة التي أحدثها الرعب بسائر المنطقة وحالما علم تانكرد بهذا الأمر، استدعى قواته من الفرسان والرجالة، وزحف إلى حيث كان جيش رضوان معسكراً حسبما جاءته التقارير، وانطلق من أنطاكية وقاد جيشه إلى أرتاح، ووجد هناك كما كان قد ذكر له، حشداً ضخماً مجتمعاً من العدو، وهاجم عدوه بقوة بعدما توسل إلى السماء لتمنحه العون، فلبّته لأنه كان جديراً بذلك، واضطربت صفوف العدو فوراً ولاذت بالفرار على الرغم من أنها أبدت شيئاً من المقاومة في البداية، وقتل الكثيرون منهم وتم أسر عدد كبير أيضاً، وعلاوة على ذلك، فقد استولى على رايات رضوان وتم احتجازها، وكان الأمير رضوان أول من بدأ الهروب لينقذ حياته[2].

وأراح هذا النصر شعبنا كثيراً وعوض عليه خسائره المتوالية في المعارك السابقة، فاستولى على كثير من أفضل خيول العدو بعدما تم طرح فرسانها أرضاً.

٣ ـ المصريون يغزون المملكة بجيش ضخم. الملك يشتبك معهم في معركة فيقتل العديد منهم ويأسر بعضهم ويجعل الباقين يلوذون بالفرار.

أتى عدد من أعيان مملكة مصر، في العام نفسه، إلى خليفة مصر وقالوا له: «لقد نجحت هذه القبيلة من الحجاج، الذين غزوا مملكتك مؤخراً بالقوة، في مقاومة قادتك الذين أرسلتهم إليهم نظراً لاستخفافهم بالحياة، وكانوا ناجحين في هذا المشروع الجريء لأنهم اعتمدوا على الأعداد الضخمة للجيوش الأولىٰ التي أتت إلى الشرق، لكن عاد الآن معظم هؤلاء الناس إلى بلادهم، وأما من بقي فمحروم من امدادات الحج الجديدة، وقد أنقصت

---

(١) يعكس وليم هنا ـ كما هو مرجح ـ تغير في الموقف تجاه ريموند الذي أغضبت قيادته للصليبيين أعداداً كبيراً من الأشخاص.

(٢) حصلت هزيمة رضوان هذه، التي ألحقها تانكرد به في ٢٠/١/ نيسان من عام ١١٠٥.

الحملات المتكررة أعدادهم كثيرة، حتى أن قوتهم باتت منهكة تماماً، لذلك يبدو لنا موائماً، إذا ما وافقت جلالتكم أن يجري إرسال قائد مختار من رجالك العظماء لتحرير الأرض التي يحتلها الآن هذا الشعب التعيس».

ولاقت هذه الكلمات القبول من الخليفة، وبدت معقولة في نظره، فأمر أن يحشد جيش قوي وإعداد أسطول ضخم، وعُين على كل جيش من الجيوش قائد خاص به وأرسلهم إلى سورية، وجلب وصولهم إلى عسقلان الذعر إلى المنطقة بأسرها.

وحالما وصلت أنباء هذا الغزو، الملك زحف بسرعة إلى يافا مع كامل قوات المملكة؛ وعلاوة على ذلك، أصدر مرسوماً قانونياً [1] أمر فيه جميع قوات جميع المدن بالإجتماع في يافا بدون تأخير، ووصل الذين تم استدعاؤهم بسرعة، وكان من بين القادمين ابرمار بطريرك القدس حاملاً معه صليب الصلبوت السرمدي الشافي.

أحصيت قواتنا بعد وصول هذه التعزيزات فوجد أنها مؤلفة من خمسائة فارس وألفين من الرجالة، ونقل أن قوة العدو كانت مؤلفة من نحو خمسة عشر ألف مقاتل بالإضافة إلى المقاتلين الموجودين في الأسطول [2].

وحالما زحف جيش بلاد الأعداء من عسقلان، أصدرت الأوامر للأسطول بالإبحار إلى يافا، وتقدم جيش العدو إلى أسدود [3] وانقسم هنالك إلى قسمين، كان على أحدهما التقدم إلى الرملة ومن ثم يتحدى الملك للقتال، بينما يتقدم الجيش الثاني إلى يافا، حيث كان عليه مهاجمة يافا بينما الملك مشتبكاً مع الجيش الأول إنما بعد استدعاء القوات التي قدمت بالبحر لتقديم المساعدة لها، وهكذا دخلت الفرقة الأولى ترافقها أصوات الأبواق وقرع الطبول، منطقة الرملة وهي معبأة للمعركة، وتم هذا التدبير وفق هدف محدد قصد منه استدراج الملك وقواته حتى يستطيع الجيش الأول الوصول بأمان إلى يافا عبر الطريق الساحلي، بيد أن هذه الخطط أخفقت لأنه عندما اقترب الملك على رأس قواته، ذابت قلوب الكفرة، واستسلموا للرعب، ودعوا الفرقة الأخرى لمساعدتهم، غير أنهم لم يشعروا أنهم أقوياء بما فيه الكفاية للنجاة من سطوة الملك حتى عندما تم تعزيزهم بهذا الشكل.

وانقض الملك ورجاله على الفيالق المتحدة ضدهم، وهاجموها بعنف بالطريقة الأكثر

---

(١) تحمل هذه الفقرة القانونية التي لم ترد عند فولتشر الذي استقى وليم معلوماته هنا منه، تصور وليم للسلطة الملكية.

(٢) وصفت هذه الجهود الإضافية التي قام بها الأفضل، والتي سببت ذعراً كبيراً وقدرت بأعداد أصغر من الحملات السابقة واعتمد وليم هنا الرقم الذي قدمه فولتشر.

(٣) أزوت أو أسدود وتبعد نحو عشرة أميال إلى الشمال من عسقلان.

شجاعة، وشجع بلدوين في الوقت نفسه، رجاله بالقول والعمل، فضاعف بذلك قوتهم، كما جال البطريرك بين الصفوف وصليب الصلبوت في يده، وشجع المقاتلين الذين كانوا على وشك الخوض في المعركة وحثهم أن يتذكروا المسيح الذي كان راغباً أن يموت على ذلك الصليب لإنقاذ الآثمين، وحضّهم أن يحاربوا بشجاعة ضد عدو اسم المسيح وعقيدته، فبذلك يمكنهم أن يأملوا بالحصول على الغفران لآثامهم ونيل الجزاء المضاعف مائة ضعف منحة دائمة من الرب لعبيدة، والتمس المسيحيون العون من السماء، بعدما شجعتهم وحركتهم هذه الكلمات، وألقوا أنفسهم بضراوة على العدو، ونجحوا في قتل عدد كبير منه وأجبروا الباقين على الفرار.

وسقط حاكم عسقلان في هذه المعركة، غير أن القائد العام للجيوش نجا بالفرار، ويقال إن أربعة الآف مقاتل من العدو قتلوا في ذلك اليوم، ولم يكتشف سوى ستين رجلاً من شعبنا بين الموتى.

وهكذا، استولت قواتنا، بنعمة من الله، على معسكر العدو حيث وجدوا أعداداً كبيرة من الجمال بالإضافة إلى الحمير والخيول؛ ولذلك عاد المسيحيون إلى يافا وهم ممتلئون بالفرح والإبتهاج ومحملون بأنفس المغانم، وجلبوا معهم العديد من الأسرى أيضاً، وأسر أحد النبلاء في ذلك اليوم وكان حاكماً لعكا فيما مضى، ويقال إن الملك تلقى فيما بعد فدية لهذا الأسير قدرها عشرون ألف قطعة ذهبية.

في هذه الأثناء كان أسطول العدو ما يزال راسياً في ميناء يافا، غير أنه حالما وصلته أنباء الكارثة التي لحقت بالقوات البرية، انتهز رجاله فرصة وجود نسمة جنوبية مواتية وانسحبوا إلى ميناء صور، ثم هبت فيما بعد عاصفة مفاجئة فوق البحر عندما كانوا على وشك الإبحار في هذا الميناء إلى مصر، فتبعثر الأسطول، وقذفت خمس وعشرون سفينة، لم تستطع تحمّل عنف الأمواج، إلى شاطئنا، وأسر جنودنا أكثر من ألفين من البحارة والمجدفين كما غرق العديد من جنود العدو [1].

---

(١) حصلت في ٢٧ آب من عام ١١٠٥ (انظر هاغنمير «تاريخ فولتشر» ص٥٠٣) وما رواية وليم ليس إلا ملخصاً لوصف فولتشر الواسع المتبجح.

٤ ـ البطريرك ديمبرت يموت في مسينا في صقلية أثناء رحلة عودته مشفوعاً برسالة بابوية. ابرمار الممثل اللاشرعي لمقره يسرع إلى روما. غبلين رئيس أساقفة آرلز يرسل إلى القدس ممثلاً للبابا وتعيينه بطريركاً فيما بعد.

في هذه الأثناء كان البابا باسكال والكنيسة الرومانية قد احتجزتا ديمبرت بطريرك القدس، لفترة طويلة حتى يمكن التقرير فيما إذا اعتزم ملك القدس والذين طردوا ديمبرت إقامة أية تهمة ضده، يمكن بموجبها إظهار أن لديهم مسوغ قانوني لأعمالهم، هذا وحين لم يثر أي إنسان أي اتهام ضده وبعدما تعذر إيجاد أي شيء يستحق الشجب في القضية باستثناء أن البطريرك قد طرد بعنف ملكي أعطي رسالة بابوية وأرسل إلى بلده بتأييد كامل، ليواصل شغل المقر الذي طرد منه ظلماً.

فذهب إلى صقلية وفي أثناء إقامته فيها بحكم الضرورة منتظراً عبورها، أصيب بمرض عضال أودى بحياته في السادس عشر من شهر حزيران، وكان قد شغل منصب البطريركية بسلام لمدة أربعة أعوام، ونفي لمدة ثلاثة أعوام.

وكان ابرمار، الشاغل اللاشرعي لهذا المنصب قد قرر السفر بحراً وزيارة الكنيسة في روما قبل وصول نبأ وفاة ديمبرت، وقد علم أن السيد ديمبرت كان عائداً بتأييد بابوي كامل لمواصلة شغل منصبه الشرعي، فرغب أن يؤكد براءته وأن يشرح أنه قد عُين في ذلك المنصب خلافاً لرغبته وبممانعة كبيرة من جانبه، ولدى وصوله إلى روما لم يلق هناك القبول لكنه أبلغ أن ممثلاً بابوياً سيعين في القدس وسيرسل معه لإجراء تحقيق كامل عن القضية، وعهد بهذه المهمة إلى غبلين، رئيس أساقفة آرلز، وكان رجلاً متقدماً في السن، وتوجب عليه بأوامر من البابا أن يواصل سفره إلى القدس، حيث عليه عقد مجمع لأساقفة المملكة وإجراء تحقيق كامل هناك حول جميع الحقائق المتعلقة بقضية إبرمار [٢].

---

(١) لم يستمر شغل ديمبرت للبطريركية أكثر من عامين كاملين تقريباً. وحسب وصف وليم، فحتى هذين العامين كانا بعيدين عن الهدوء، واشتمل منفاه على عامين في أنطاكية وفترة من الزمن في ايطالية، وهنالك بعض الجدل بخصوص تاريخ وفاة ديمبرت. ويبدو وصف وليم أنه يشير إلى عام ١١٠٧ على أنه عام وفاته، إلا أن هاغنمير مقتنع أن الخامس عشر من حزيران عام ١١٠٥، يجب أن يقبل على أنه التاريخ الصحيح (هـ. هاغنمير «التأريخ» رقم٧٤٧).

(٢) توحي رسالة البابا باسكال الثاني إلى الملك بلدوين المؤرخة في اللاتيران في ٤ كانون الأول ١١٠٧ بتفسير مختلف لرحلة ابرمار إلى روما. فقد غادر القدس بعد سماعه بنبأ وفاة ديمبرت وذهب إلى هنالك ليستلم الموافقة البابوية على تعيينه بطريرك، هذا وقد تبعه رئيس الشمامسة آرنولف مع رسائل تتهم ابرمار بعدم الكفاءة وبإهمال القرار الصادر عن المجمع الكنسي. وعهد البابا بالقضية إلى غبلين رئيس أساقفة آرلز الذي كان عليه أن يأخذ الشهادة في القدس ويقرر بموجبها (ر. روهرخت «وثائق مملكة القدس» رقم٤٩).

وثبت بشكل مقنع لممثل البابا عن طريق شهود أكفاء ومناسبين، تعذّر الإعتراض على شهادة أي منهم، وقد تم طرد ديمبرت دون سبب شرعي بواسطة مكائد آرنولف. وعنف الملك، وأن إبرمار قد استولى على منصب يعود لكاهن ما يزال على قيد الحياة وهو في وفاق مع الكنيسة الرومانية، وهكذا، عزل غبلين ـ استناداً إلى السلطة الممنوحة له ـ ابرمار من منصب البطريرك، على أنه منح المسؤولية عن كنيسة قيسارية [1]، التي كانت آنذاك شاغرة، وذلك بدافع الإحترام لورعه العميق وبساطة شخصيته غير الإعتيادية.

وحُدّد فيما بعد يوم خاص يتمكن فيه رجال الدين وعامة الناس من مناقشة مسألة انتقاء بطريرك للكنيسة في القدس، بحيث يمكن معالجة الموضوع بدراسة مناسبة حسب العادة، وبعد أن قدمت الآراء المتنوعة من هذا الجانب ومن ذاك للتداول، وقع الإنتقاء الإجماعي على غبلين ممثل المقر البابوي، وعين في المنصب الرسولي، وقد ادعي أن هذا الإختيار قد حدث أيضاً بالتآمر الحذق[2] لآرنولف الذي اعتقد أن غبلين، الذي كان مسناً وعاجزاً لن يعيش طويلاً في المنصب البطريركي.

وفي سنة ١١٠٧ لتجسيد ربنا [3] وضع أهالي مدينة عسقلان، بخبثهم المألوف، خمسمائة فارس وألف جندي في كمين في أماكن مناسبة على طول الطريق العام الذي يؤدي من القدس إلى البحر، وكانوا قد سمعوا أن مجموعة من شعبنا قد غادرت مدينا يافا في طريقها إلى القدس، وهكذا بينما كان الحجاج الجاهلون بكل هذه المكائد، يتقدمون في طريقهم، وقعوا في الشرك المنصوب لهم، وبينما كانوا مترددين بقلق عميق فيما إذا كان عليهم القتال أم التراجع، انقض العدو عليهم وأزال بذلك كل فرصة لتداول إضافي، وحيث أدرك رجالنا أن عليهم إما القتال بشجاعة أو الموت بخزي، فقد جعلوا من الإضطرار فضيلة، واندفعوا بشجاعة وبسالة متجددتين وبقلوب جسورة على الذين كانوا قد اعتبروهم حتى الآن مرعبين وبوغت الكفرة ولاذوا بالفرار حيث لم يتمكنوا من تحمل الهجوم، وطاردتهم قواتنا لفترة من الزمن، وقتلت عدداً كبيراً منهم، وأسرت عدداً آخر، وهكذا،

---

(١) لم يتم تحديد التاريخ الدقيق لوفاة رئيس الأساقفة بلدوين إلا أن ابرمار عين في منصبه في عام ١١٠٨، وشغل المنصب لسنوات كثيرة ومات في أواخر ١١٢٩ أو في أوائل العام اللاحق.

(٢) من المحتمل أن آرنولف كان قد أمل باسترداد المنصب بعد وفاة ديمبرت وكان قد أسرع لذلك السبب وراء ابرمار إلى روما احتجاجاً على دعواه، ويكتسب تخمين وليم عن دور آرنولف في انتخاب غبلين لوناً من التطورات اللاحقة.

(٣) هذا مضطرب بعض الشيء، لأن انتخاب غبلين حدث في عام ١١٠٨، ودفع ميل وليم لإنهاء حديثه عن الواقعة بعد شروعه به إلى تجاوز حقيقة أن عامي ١١٠٧ و١١٠٨ قد شغلا في أعمال الخلافة البطريركية.

حقق المسيحيون النصر، بمعوغة الرحمة السماوية ولم يفقدوا إلاّ ثلاثة رجال، واستأنفوا سيرهم إلى القدس[1].

٥ ـ النبيل هيو دي سانت أومر حاكم طبرية يبني قلعة في الجبال التي تطل على المدينة ويسميها تبنين. إصابته بعد فترة قصيرة من ذلك بجراح مميتة أثناء قتاله مع الدمشقين، وهلاكه على الرغم من أنه كان منتصراً. أهالي عسقلان يحاولون نصب كمين لشعبنا، إلا أنهم وقعوا في الشرك الذي نصبوه.

في هذه الأثناء كان الكفرة ما يزالون يحتفظون بمدينة صور حيث كانوا يحاولون إعاقة تقدم المسيحيين بكل رسيلة، وكان هيو دي سانت أومر، وهو رجل نبيل وقوي وصاحب ذكرى متميزة في المسيح، قد خلف تانكرد كحاكم لمدينة طبرية وكان يشن باستمرار هجمات مفاجئة على مدينة صور تضايقها بقدر ما سمحت المسافة القائمة بين المدينتين، وهي مسافة تبلغ ثلاثين ميلاً، وتعرض الجنود باستمرار للخطر أثناء ذهابهم وإيابهم بين المدينتين لأنه لم يكن هنالك أية قلعة أو موقع من أي نوع بين المدينتين يستطيعون اللجوء إليه عند مطاردة العدو لهم، وصمم الرجل المشهور أن يبني معقلاً على قمة الجبال المطلّة على مدينة صور، وعلى بعد نحو عشرة أميال من تلك المدينة وذلك لتخفيف هذه الصعوبة. كان الإسم الأصلي لهذا الموقع هو تبنين[2]، وحيث كانت القلعة قائمة على جبل شاهق ومنحدر جداً فقد أعطاها اسم « تيرون » ويقع هذا المكان، المشهور بهوائه الصحيّ ومناخه المبهج، في قبيلة « عشير » الواقعة بين البحر وجبال لبنان، وهو على بعد متساوٍ من مدينتي صور وبانياس وتربته تربة خصبة جداً، وموائمة بشكل رائع لزراعة الكروم والأشجار، كما ينتج محاصيل وفيرة تحت عناية الفلاح، وهكذا، لم يكتف هذا الموقع بأن قدم لمؤسسه ميزات مناسبة بشكل موافق لمتطلباته في ذلك الوقت، بل هو صاحب فائدة مثلى حتى الآن لمدينة صور وللمنطقة بأسرها وذلك بسبب تربته الغنية وروعة تحصيناته الشهيرة.

بعد فترة قصيرة من بناء هذه القلعة دخل النبيل « هيو » بلاد العدو ومعه سبعون فارساً، واشتبك في قتال مع أربعة آلاف من الدمشقين، وصدّه العدو مرتين بقوة في اليوم نفسه، وحاول مجدداً وتحت شروط أفضل في هذه المرة، لأنه كان قد تلقى قوات إضافية وألهبته السماء بالشجاعة، وجعل، العدو يلوذ بالفرار بإرادة الرب، إلا أنه أصيب بجراح مميتة إثر ضربة سهم أودت بحياته لقد كان رجلاً حكيماً وشجاعاً، وكان يستحق بسبب خدماته

---

(١) حدثت هذه المعركة في شهر تشرين الثاني من عام ١١٠٧.

(٢) ما تزال تسمى تبنين، ونسيت كلمة تيرون منذ زمن طويل، باستثناء كونها ذكرى للصليبيين.

كل المدح وكان مقبولاً لدى الملك والمملكة وفقد العدو مائتين من رجاله في تلك المعركة كما استولى رجالنا على عدد مماثل من الخيول.

وشوهدت علامات ومعجزات كثيرة في السماء الشرقية بعد هذه المعركة مباشرة، حيث ظهر نجم مذنّب متبوع بخط ناري بعد هبوط الليل لمدة أربعين يوماً وزيادة، وبدت الشمس في الصباح من لحظة شروقها وحتى الساعة الثالثة من النهار وكأن لها شمسين ملازمتين ومساويتين لحجمها وأقل لمعاناً منها، كما شوهد قوس قزح حول الشمس وألوانه محددة بشكل واضح، وبدت جميع هذه النذر وكأنها تدل بالفعل على تغيير في أمور الرجال [١].

٦ - بوهيموند يعود من فرنسا إلى أبوليا ومعه قوات ضخمة. دخوله بلاد الإغريق بقصد النهب. موته وهو على وشك العودة إلى سورية مخلفاً وراءه ابناً يدعى بوهيموند.

في تلك الأثناء كان ألكسيوس، امبراطور القسطنطينية الخائن والشرير يضع عقبات كثيرة في طريق الحجاج الذين رغبوا في عبور بلاده في طريقهم إلى القدس، وكان قد التمس المساعدة من قلج ارسلان الحاكم التركي القوي جداً ومن جميع شعوب الشرق الهمجية لصدّ الحملة الأولى والتي كانت مع ذلك وسيلة ربح كبير له. وقد أثار الشعوب والأمم الكافرة فسها بوساطة رسل كثيرين ضد الحملة الثانية التي كانت تحت قيادة كونت بواتو، ودمرت الحملة الثانية تقريباً نتيجة لخيانته، ولم يستخدم هذه اللعبة الشريرة ضد المسيحيين مرة أو مرتين فقط، فقد اعتبر تسبيب الخسارة والدمار لهم فرصة كسب لنفسه، ومع ذلك، فقد أعطاهم إجابات لطيفة وأغدق عليهم بسخاء الهبات عندما مثلوا أمامه ليتمكن من أن يخدعهم بسهولة أكثر، وهكذا، فقد دعم السمعة المشهورة لأمته التي قيل فيها: «إنني أخشى من الأغريق حتى عندما يحملون الهدايا» [٢]. لأنه نظر عموماً إلى تقدم اللاتينين بريب ولم يترك قوتهم تتزايد أو سلطتهم تنتشر عندما كان من الممكن منعها [٣].

---

(١) استدعيت مثل هذه الظاهرة بالعادة كعلامة بعد وقوع مأساة ما، وكان فولتشر الذي استقيت هذه الرواية منه حيادياً وطبيعياً وروى ما حدث دون أن يحاول التعرف إلى الإشارات.

(٢) فرجيل IALn. II. 49.

(٣) كانت سمعة ألكسيوس هذه قد أصبحت واسعة الإنتشار في ذلك الوقت. وربما عزها بوهيموند مع أصدقائه عن عمد (انظر أ.س. كري «نص مهمل من أعمال الفرنجة» Munro-Crusades ص٥٧ - ٧٨). كان يواديل مقتنعاً أن بوهيموند لم يجر أي دعوة لحملة صليبية لسوريا إلا أنه جند هذه الحملة حتماً وعلناً لشن هجوم على ألكسيوس.

كانت هذه الخطايا ما تزال ماثلة في ذاكرة بوهيموند عندما عاد من البلدان الواقعة وراء الجبال مع قوة قوامها خمسة آلاف فارس وأربعون ألف جندي من الرجالة، وصمم على عرض جميع مصالح اللاتين ومواقفهم، ووصل في التاسع من شهر تشرين الأول إلىٰ بلاد الإمبراطور [1] عن طريق البحر، ودمر كلاً من إبيروس الأولى والثانية، بعد مهاجمته لجميع المدن الواقعة على الساحل ونهبه لها، ثم حاصر دورازو حاضرة ابيروس الأولى، وأتلف جميع المنطقة المحيطة بالنار والخراب، وتعامل معها حسبما أملته رغبته، وكان يعد العدة لشق طريقه إلى أكثر الأجزاء بعداً من الإمبراطورية، وليزيل، بعون الله، جميع الأخطاء المقترفة بحق اللاتين.

عندما سمع الإمبراطور أن بوهيموند قد دخل أراضيه مع جيش كبير من اللاتينين جمع جنوده وتقدم لمقابلته [2]، وعسكر بقواته قرب قوات بوهيموند، هذا وأمكن أثناء هذه الأزمة عقد معاهدة بين الإثنين عن طريق تدخل الأصدقاء، وجرى تبادل أيمان الوفاء والصدق بينهما، ووافق الإمبراطور على تزويد النصيحة والمساعدة من الآن فصاعداً، بإيمان صادق، ودون خداع، للمؤمنين بالمسيح الذين رغبوا بالعبور إلىٰ الشرق، ولن يسمح بوضع أي عائق في طريقهم من قبل الواقعين تحت سيطرته، وعندما تم الإتفاق على هذه الشروط، وتأكدت بإعطاء الأيمان، وعد بوهيموند أيضاً وبقسم جليل أن يحافظ على الصداقة والولاء للإمبراطور إلى الأبد [3].

ثم بعث مجموعة الحجاج التي كان أفرادها ملزمين بأيمانهم أن ينجزوا رحلتهم إلى القدس، وعاد هو إلىٰ أبوليا حيث أخرته أمور خاصة لفترة أطول أيضاً، وبينما كانت الترتيبات الضرورية للرحلة قد أعدت بشكل جزئي في الصيف التالي، وجمعت السفن أصيب بداء خطير أودى بحياته وهو يحضر للعودة، وبعدما استدعىٰ القوات من المناطق

---

(١) يصف يواديل هذه الحملة بالتفصيل على أنها الحملة الصليبية لعام ١١٠٧ وعلىٰ أنها «المثال الأول لحملة صليبية من أجل غارات سياسية» ويضع التاسع من شهر تشرين الأول من عام ١١٠٧، على أنه تاريخ الرحيل من برنديزي حيث كان الوصول إلىٰ أفلونا قد حدث بعد مضي يوم واحد.

(٢) لم ينتظر ألكسيوس ـ الذي كان يحصل عادة على المعلومات من جيرانه ـ حتى وصول بوهيموند ليقوم بالإستعدادات الضرورية. وحسب ابن القلانسي (هـ.أ.ر.جب «تأريخ دمشق» ص٨٠). كان قلج أرسلان قد أرسل أحد قادته مع قوة كبيرة لمساعدة ألكسيوس ضد حملة بوهيموند.

(٣) تم أداء القسم على عدد من الآثار المقدسة التي وجدت في القسطنطينية. وتم التوقيع على المعاهدة في أيلول عام ١١٠٨. وتعطي آنا كومينا وصفاً مفصلاً للقسم والاحتفال (اليزابث ا.س. دويس «الألكسياد للأميرة آنا كومينا» ص٤٣٨ ـ ٤٥٩).

المجاورة[1] ، وقد خلف وراءه ابناً واحداً من السيدة كونستانس ابنة فيليب ملك فرنسا الشهير ، وذلك ليكون وريثاً لاسمه وإمارته[2].

هذا وتوفي في العام نفسه فيليب ، ملك فرنسا اللامع ووالد زوجة بوهيموند[3].

٧ ـ حشود ضخمة من الأتراك من بلاد الشرق تحاول الإستيلاء على كونتيّة الرها ، إلا أن تانكرد قاومهم بشجاعة وبمساعدة الملك .

في هذه الأثناء والعدو ما يزال محتجزاً النبيلين اللذين ذكرتهما سابقاً وأعني بذلك كونت بلدوين وقريبه جوسلين ، تجمع حشد هائل من الأتراك من بلاد الشرق بأعداد لا تحصى ونزل جند هذا الحشد إلى بلاد الجزيرة مغتنمين الفرصة التي قدمها غياب هذين الأميرين ، وبدأوا بيد قوية ينهبون المنطقة الواقعة حول الرها . واستولوا بهجوم عنيف على بعض القلاع ، وأحرقوا القرى وأسروا المزارعين وآخرين من العاملين بزراعة الحقول ، ولم يسلم من خطرهم أي مكان واقع خارج محيط المدن المسّورة ، وهكذا ، توقفت حراثة الحقول وبدأ الطعام يشح تماماً .

كان تانكرد الذي عهد إليه برعاية المنطقة ، محتجزاً في هذا الوقت في أراضي أنطاكية لأنه كان قد تسلم أيضاً المسؤولية عن تلك المنطقة لدى رحيل بوهيموند كما أسلفنا الذكر غير أنه عندما علم بما كان العدو يقوم به من سلب في المنطقة الواقعة حول الرها أرسل في طلب ملك القدس ، موضحاً السبب للإستدعاء ، كما جمع قوات كبيرة بقدر ما أمكنه من جميع المدن والقلاع ، وانضم الملك إليه مع قوة كبيرة خلال بضعة أيام حيث أسرع نحوه وهو في قلق كبير على بلاده ، واتحد الجيشان فوراً وعبرا نهر الفرات مع بعضهما ، وعندما وصلا إلى الرها وجدا الكفرة حسبما قلنا يطوفون هناك ، لا بل في كل مكان من المنطقة دون عائق ، غير أنهم عندما علموا بقدوم قواتنا جمعوا جندهم وانحصر نطاق تجوالهم ، وغالباً ما حاولوا اختبار قوة جنودنا وخافوا من القتال معهم ، ومع ذلك ، كانوا كارهين العودة إلى بلدهم لأنهم عرفوا أنه لم يكن هنالك فراغ لدى الملك وتانكرد للبقاء لفترة طويلة في تلك المنطقة ، ولذلك ، حاولوا تعويقهم هنالك ، آملين أن التأخير الطويل سيجبر القادة على الرحيل ، وعندها سيتمكنون من متابعة أعمال سلبهم المألوفة ، إلا أن زعماءنا ، المتفهمين جداً لمقاصدهم ، اختاروا حظة بدت موائمة جداً للموقف الخطير .

---

(١) حدث موته في أبوليا في ٧ ـ آذار من عام ١١١١ (يواديل « بوهيموند الأول » ص١٣٣).

(٢) ولد بوهيموند الثاني ، الذي كان الابن الثاني لهذا الزواج ، في عام ١١٠٩ .

(٣) حدثت وفاة فيليب الأول في عام ١١٠٨ ، الذي كان العام نفسه لهزيمة بوهيموند والمعاهدة لكن ليس وفاته .

تنتج البقعة الواقعة في المنطقة القريبة لنهر الفرات أكثر المحاصيل وفرة، واستغل القادة هذه الحقيقة وأمروا بجمع مؤن الطعام من كل نوع هنالك، ومن ثم نقلها بالخيول والجمال والحمير والبغال عبر النهر، وزودت المدن والقلاع بهذه الوسيلة بكميات ضخمة من الأطعمة تكفي لفترة طويلة من الزمن، وأعطي اهتمام خاص لتزويد مدينة الرها إلى حد الزيادة المفرطة، ثم عاد القادة إلى نهر الفرات حيث اقتضت مسائل ذات أهمية كبرى صرف اهتمامهم لها وذلك بعدما تخلصوا من القلق حول المدن والقلاع حيث تم تزويدها بالسلاح والرجال والطعام بشكل جيد، وبينما كان المسيحيون يعبرون النهر بقوارب قليلة وصغيرة وضعيفة هاجم العدو عدداً من الرجال ذوي الأهمية الأدنى كانوا ما يزالون على الضفة الأخرى ينتظرون دورهم لعبور النهر، وقتل عدد منهم وسحب الباقون كأسرى أمام عيون الملك وتانكرد، ولم يستطيعا إعطاء أية مساعدة لأن النهر، الذي تعذّر الخوض فيه، فصلهم عنهم، ولم يكن بالإمكان عبور قوة ضخمة للمرة الثانية بالقوارب القليلة المتوفرة، وهكذا اضطر جنودنا إلى العودة إلى بلادهم بأسى قلبي عميق إزاء مصير الناس المساكين الذين شهدوهم يقتلون أو يؤسرون[1] وصدرت الأوامر للزعماء المسؤولين عن المنطقة الواقعة على نهر الفرات ببذل أقصى الإهتمام في تحصين المنطقة، وأما الذين قتلوا أو أسروا على ضفاف نهر الفرات فقد كانوا من الأرمن المساكين الذين كانوا يفرون أمام الدمار الذي سببه الأتراك، أملاً بإيجاد ملاذ أمن لهم.

٨ ـ بلدوين كونت الرها وجوسلين يعودان من الأسر لدى العدو . ويثيران الحرب ضد تانكرد .

عاد بلدوين كونت الرها وقريبه جوسلين إلى بلديهما في العام ١١٠٩ لتجسيد ربنا، وكانا قد بقيا في الأسر لدى العدو مدة خمس سنوات متتالية، وقد استردا حريتهما بعد إعطاء الرهائن والموافقة على دفع مبلغ محدد من المال فدية لهما، لقد عاملهما الرب برحمة قصوى[2]، لأن رهائنهم قتلت بالمصادفة الحراس الذين كانوا مسؤولين عنهم في إحدى القلاع عندما كان الرجال يغطون في نوم عميق نتج عن الخمرة التي تناولوها، ثم وصلوا إلى بلادهم بالسفر خلسة في الليل عبر طرق فرعية ملتوية.

---

(١) يضع فولتشر هذه الحملة إلى داخل مناطق الرها في صيف عام /١١١٠/ بعد الإستيلاء على بيروت [هاغنمير « فولتشر » ص٥٣٧] وربما ضلل وليم إهمال فولتشر ذكر بلدوين دي بورغ أو جوسلين.

(٢) حدث إطلاق سراح بلدوين وجوسلين في صيف عام ١١٠٨ أو في وقت لاحق من ذلك العام، ولم يقدم تانكرد أي جهد في سبيل إطلاق سراحهما (انظر هاغنمير « فولتشر » ص٤٧٧ حاشية ٢).

ويروى أن تانكرد رفض في البداية السماح لبلدوين بدخول الرها، عندما وصل إليها، لكنه ما لبث أن غير رأيه أخيراً متذكراً القسم الذي كان قد أدّاه عندما وضعت المدينة تحت مسؤوليته يوم وقع الكونت بالأسر، وأمر ان تسلم المدينة والمنطقة بأسرها أيضاً إليه، وأعلن فيما بعد بلدوين وجوسلين الحرب على تانكرد بسبب استيائهما من هذه المعاملة، وكان جوسلين نشيطاً بشكل خاص ضد الأمير، لأن قلعته كانت تقع على هذا الجانب من نهر الفرات ولذلك كان على مسافة أقرب من أنطاكية، وفي أحد الأيام حاول أن يشنّ غارة على أراضي تانكرد مع مجموعة كبيرة من الأتراك استدعاهم لمساعدته، فتقدم تانكرد المدرك لنواياه نحوه ونشبت معركة بينهما، وسقط نحو خمسمائة رجل من الصفوف الأولى لجيش تانكرد، غير أن كتائبه استردت شجاعتها في النهاية وتجمعت فنجحت في الحاق الهزيمة بقوات جوسلين بعدما قتلت عدداً كبيراً من الأتراك.

وفي هذه المرحلة توسط نبلاء المنطقة البارزون مع ذوي الحس العملي السليم وأدركوا أن العداوة القائمة بين هذين الرجلين ذوي المنزلة العالية كانت خطيرة جداً، ويمكن أن تبرهن على أنها مصدر للضرر الحقيقي للشعب المسيحي، وهكذا، تولوا القيام بدور المصلحين ونجحوا في إحداث مصالحة بين الإثنين [1].

٩ - برترام بن كونت طولوز يقدم إلى سورية بصحبة اسطول الجنويين سعياً منه لخلافة أبيه. وليم جوردان يتصدى له. الإستيلاء على جبيل.

في هذه الآونة رسا برترام بن ريموند كونت طولوز ذو الذكرى الطيبة مع أسطول للجنويين [2] بالقرب من طرابلس. وكان قريبه وليم جوردان ما يزال يحاصر هذه المدينة، حيث كان يواصل الحصار دون توقف منذ الوقت الذي أبعد فيه الموت ريموند المبجل عن المهمة، هذا ونشأ نزاع على الفور بين الاثنين لأن برترام طالب بحق الإرث من والده، بينما تقدم وليم للمطالبة بحقوقه مقابل أعماله والنفقات التي دفعها خلال أربع سنوات من المسؤولية المستمرة، ورغب برترام أن يخلف والده كوريث شرعي لممتلكاته، بينما كان وليم يناضل ليفوز بالمدينة التي كان قد هاجمها بشكل لا يعرف التعب، واحتدم الجدل لفترة طويلة من

(١) كان تاريخ هذه المصالحة ١٨ نيسان من عام ١١٠٩ (انظر هاغنمير «فولتشر» ص٤٨٠ الحاشية ٩).

(٢) كان برترام بن ريموند من زواجه الأول، حيث سمي باسم جد والدته برترام الأول صاحب بروفانس. وكان قد سلك حياة عاصفة إلى حد ما في الغرب، واتسمت رحلته إلى سوريا بسلسلة من المغامرات استلزمت مواجهات مع الاغريق واللاتينيين والمسلمين. ويجب اعتبار رحلته إلى سوريا في هذا الوقت على أنها مغامرة شخصية أكثر من اعتبارها في سبيل إحراز الإرث، كما إن الاسطول الجنوي الذي أتى به أعطاه امتيازاً محدداً في دفع إدعاءاته إلى الأمام (انظر هاغنمير «فولتشر» ص٥٢٦ - ٥٢٧ الحاشية ٣).

الزمن وتدخل أصدقاء الطرفين وتوصلوا أخيراً إلىٰ تحقيق تسوية بينهما. وترتب من أجل السلام أن تمنح مدينتا عرقة وطرطوس مع ملحقاتهما إلىٰ وليم جوردان بينما يجب إعطاء طرابلس وجبيل وتلة الحجاج مع ملحقاتها أيضاً إلى برترام، ونفّذ هذا الحل وفقاً للتسوية، وتمّ التوصل إلى اتفاقٍ بين الإثنين بموافقة كل منهما.

ثم أصبح وليم، مقابل القسم المخصص له، تابعاً لأمير انطاكية وتعهد بالولاء له. وتلقى برترام تقليداً بحكم المناطق المخصصة له من ملك القدس، وأظهر نحوه الولاء الإقطاعي المألوف واشترط في الإتفاق أنه إذا توفي وليم أو برترام بدون وريث يرثه، فسيخلفه الآخر كحاكم لجميع الممتلكات [1].

وحدث بعدما سويت القضية على هذه الصورة أن نشأ شجار لسبب تافه فيما بين مرافقي الأسرتين، فامتطى وليم جوردان صهوة حصانه فوراً وجرى بسرعة إلى هناك أملاً بحل الشجار، إلا أنه أصيب بسهم طائش مات على إثره، ويدعي بعضهم أن الكونت وليم هلك نتيجة لمكائد برترام الماكرة، إلا أن المسبب الرئيسي للجرح المميت الذي أصيب به ليس معروفاً بشكل محدد حتى الوقت الحالي [2].

وبات برترام قائداً مقرراً للحملة بعدما أزيل منافسه ومزاحمه لملكية طرابلس بهذه الطريقة، وكان الأسطول الجنوي، الذي كان برترام قد أتى معه، يتألف من سبعين من الشواني وتحت قيادة نبيلين جنويين هما: أنسالدوس Ansaladus وهيو امبرياكوس Embriacus [3]، واتضح لهما على الفور أنهما كانا يبددان جهودهما في حصار طرابلس في ذلك الوقت، ولذلك، فقد اعتبر من المستحسن أن يحاولا في غضون ذلك عمل شيء ما جدير بالتذكر، فقد توسلا إلىٰ برترام بطريقة ودية ليرافقهما إلىٰ جبيل عن طريق البر، ووجها الأسطول إلى هناك.

تقع مدينة جبيل على ساحل فينيقيا، وهي إحدى المدن التي كانت تابعة لمطرانية صور مع حقوق المطرانية، ويذكرها الرسول حزقيال بقوله: «شيوخ جبيل وحكماؤها كانوا

---

(١) يتبع مؤلفنا هنا ألبرت أكثر من اتباعه فولتشر الذي يعلن أن الملك بلدوين كان قد بدأ لتوه بالعمل في سبيل اتفاق كهذا عندما وقع حادث قتل وليم أوف جوردان.

(٢) مثال عن ميول وليم القضائية قائم على المقارنة بين مختلف الروايات.

(٣) من المحتمل أن وليم تلقىٰ هذه القصة من أوغوامبرياكو الجدّ، وسيطرت هذه الأسرة الجنوية الشهيرة على معظم الامبراطورية الاستعمارية لتلك المدينة في سورية مع حلول أيام وليم، وكان غوغليلمو [هيو] امبرياكو ـ مؤسس الأسرة في الشرق ـ قائد هذه الحملة وقد ترك ابنه أوغو وأنسالد وكورسو لإدارة الممتلكات الجنوية (انظر إ. هـ. باير ن «المستعمرات الجنوية في سورة» Munro-Crusades pp. 146-54).

فيك قلافوك»[1] ومجدداً جاء في سفر الملوك الأول المقولة التالية بخصوص المدينة ذاتها: «وهيأ الجبليون الأخشاب والحجارة لبناء البيت»[2] وكان الاسم القديم لهذه المدينة هو ايف Eve حيث يعتقد أن ايفيوس، الابن التاسع لكنعان، كان مؤسس هذه المدينة.

حاصرت الجيوش، لدى وصولها إلى جبيل، المدينة براً وبحراً، واستولى الرعب على الأهلين حيث لم يكن لديهم أية ثقة بقوة دفاعاتهم، وبناء على ذلك أرسلوا وفداً إلى قائدي الأسطول أنسالدوس وهيو امبرياكوس ليعلن أن السكان كانوا على استعداد لفتح المداخل إلى المدينة واستقبالها كحاكمين لها تحت شروط محددة، واشترط أن تعطى فرصة للذين رغبوا بمغادرة المدينة ليتصرفوا كما رغبوا دون إعاقة، مع زوجاتهم وأبنائهم، وأن يسمح للذين لم يرغبوا بالتخلي عن منازلهم في المدينة، أن يقيموا في ظل شروط إيجابية، ومنح السكان الشروط التي طلبوها فسلموا المدينة مباشرة إلى القائدين وتسلم أحدهما وهو ـ هيو أمبرياكوس ـ المدينة لفترة محددة من الزمن مقابل دفع مبلغ سنوي محدد من المال لخزينة الجنويين، وكان هذا الرجل نفسه جدّ هيو الذي يحكم حالياً تلك المدينة ويحمل الاسم ذاته والكنية نفسها[3].

وبعدما تم الاستيلاء على المدينة بهذه الطريقة عاد الأسطول من جديد إلى طرابلس.

١٠ ـ الملك بلدوين يسرع إلى طرابلس. مواصلة الحصار بنشاط كبير والاستيلاء على المدينة.

عندما علم الملك أن أسطول الجنويين كان ما يزال متريثاً في المنطقة المجاورة لطرابلس بعد الاستيلاء على جبيل جاء مسرعاً إلى طرابلس فقد رغب في إدخال جنود الأسطول في خدمته وفق شروط معينة، حتى يتمكن بمساعدتهم من الاستيلاء على إحدى المدن الساحلية، لا سيما بيروت وصيدا وصور وعسقلان، وهو وضع أعاق خططنا كثيراً لتوسيع مملكتنا الفتية، وجلب حضور الملك ابتهاجاً كبيراً لجميع الذين شاركوا في الحصار في البر والبحر، وجعلهم أكثر حماسة حول العمل قيد الإعداد، وكان قدومه مصدر تشجيع كبير للذين كانوا يعملون في الحصار أمام المدينة، فقد ألهبوا بشجاعة كبيرة وشعروا بثقة أن قوتهم قد

---

(١) حزقيال: ٢٧/٩.

(٢) الملوك الأول: ٥/١٨.

(٣) لا يذكر فولتشر وألبرت حادثة الإستيلاء هذه على جبيل، إلا أن هنالك بعض الشكوك حول التاريخ سواء أكان خلال الإستيلاء على طرابلس أو بعده كما أن روهرخت مخطىء في الإعتقاد أن وليم خلط بين جبلة وجبيل (انظر بايرون ـ المصدر نفسه).

ازدادت، هذا وجلب وصوله ـ بالمقابل ـ إحباطاً مماثلاً للمحاصرين، وأزال بالكامل أملهم الضعيف بالمقاومة، وبدت قوتهم تتلاشى قياساً مع قوة المسيحيين التي ازدادت، وإن الذي زاد قوة أعدائهم جعل ضعفهم أكثر وضوحاً وفي ضوء هذا الحال جدد جنودنا الهجوم، بقوة الإمدادات الجديدة، وهاجموا العدو بعنف وبروح رائعة كلما سنحت الفرصة لهم بذلك، وحدث ذلك وكأنهم في البداية ذاتها للحصار، بينما كانوا في الواقع يواصلونه بجهد كبير لمدة سبع سنين متتالية.

رأى سكان المدينة أن قوة المسيحيين كانت تزداد يومياً علىٰ عكس قوتهم التي كانت تتضاءل، وأضجرهم الجهد المتواصل ولم يكن عندهم أي أمل بالمساعدة، وهكذا، تداولوا فيما بينهم بغية وضع نهاية لهذه المشاق الكبيرة، وأرسلت الرسل إلىٰ الملك والكونت باقتراحات الاستسلام تحت الشروط التالية: أن يُسمح للذين رغبوا بمغادرة المدينة بمغادرتها بحرية ودون إعاقة وأن ينقلوا أسرهم وممتلكاتهم إلىٰ حيثما أرادوا التوجه، وأن يُسمح للذين لم يرغبوا بمغادرتها بالبقاء في منازلهم بسلام وأمان وأن يحتفظوا بممتلكاتهم شريطة دفعهم مبلغاً سنوياً محدداً للكونت.

أصغىٰ الملك إلىٰ مطالب الطرابلسيين ووافق علىٰ مطالبهم بعد تشاوره مع الكونت والزعماء واستلم المدينة فوراً، وكان القرار مرضياً للجميع، وبناء عليه، فقد استدعي الطرابلسيون وأعطوا مطالبهم حسبما رغبوا تماماً، واتفق بأداء الأيمان أن تتم المحافظة علىٰ هذه الشروط بإخلاص صادق ودون خداع أو نية شريرة، ثم سُلّمت المدينة، وفتحت مداخلها لجميع الذين رغبوا بدخولها. لقد تم الاستيلاء علىٰ طرابلس في العاشر من شهر حزيران في العام /١١٠٩/ لتجسيد ربنا، وتعهد برترام في الوقت نفسه بالولاء للملك وأصبح الرجل التابع والمخلص له، ولهذا السبب، فإن خلفاءه ملزمون حتى الوقت الحالي بإظهار الولاء ذاته لملك القدس[١].

١١ ـ بلدوين كونت الرها يذهب إلىٰ ملطية ليزور ختنه جبرائيل، وصوله إلىٰ هناك بنجاح وفق خطة باهرة.

صمم بلدوين كونت الرها، بعدما استرد حريته، على الذهاب إلىٰ ملطية مع رفاقه في السلاح ليزور ختنه جبرائيل الذي كان رجلاً غنياً جداً، كان لدىٰ الكونت عدد كبير من الرجال في خدمته وقد افتقر إلىٰ المال اللازم لدفع رواتبهم لقاء الخدمة العسكرية والواجبات

(١) تاريخ الإستيلاء على طرابلس هو /٢٦/ حزيران عام ١١٠٩ حسب ما ذكره هاغنمير. الذي يعتبر التاريخ الذي أعطاه وليم خطأ في الترجمة لما ذكره فولتشر شعراً عن القضية.

التي كانوا قد نفذوها بإخلاص، وبناء عليه استنبط خطة ماكرة جداً، رسم كل جزء منها ببراعة استباقاً للزمن الذي يتوجب عليه الظهور فيه أمام ختنه.

وهكذا، توجه نحوه بعد إجراء جميع الترتيبات اللازمة للرحلة، ورحب به ختنه ترحيباً رقيقاً بشكل يفوق كثيراً متطلبات حسن الضيافة واستقبله كابن وفرد من أفراد الأسرة، وتم تبادل التحيات حسب العادة وأعطيت شارة السلام بالتعانق مراراً.

وبعدما مضى على إقامة الكونت فترة من الزمن حدث في أحد الأيام أن ظل يتحاور مع ختنه حول أمور ضرورية لفترة طويلة من الزمن وفي تلك الأثناء اقترب الفرسان منه، بموجب ترتيب مسبق بينهم، ثم خاطب أحدهم الكونت، وكأنه يتحدث باسم الباقين، على النحو التالي: «لا أحد يعرف أفضل مما تعرف أيها الكونت كم حاربت هذه العصبة بإخلاص وشجاعة ولفترة طويلة من الزمن من أجلك، بالاعتماد على وعدك الصادق، إنك تعرف جيداً كم تحمل رجالها من المشاق الكبيرة والمحن على شكل حراسات ليلية وجوع وعطش وبرد وحرارة شديدة لكي ينقذوك وينقذوا الأرض التي أوكلتها السماء لرعايتك من الأذى على يد العدو، وليصرفوا هجمات الكفرة عن السكان وبقية الناس الذين ما يزالون في منازلهم، وليحبطوا محاولات أعداء صليب المسيح، إن هذه العصبة تطالبك بالشهادة أنها كانت بخدمتك دائماً، وأنك تعرف أننا خدمناك لفترة طويلة دونما أجر، وطالبنا مراراً وبعد أن أجبرنا الفقر والعوز أن تتخلى عنا، ووافقنا مراراً على مطالبك بالتأجيل من يوم لآخر بسبب تعاطفنا معك وتحمّلنا برباطة جأش، إلا أن أمورنا بلغت الآن مرحلة خطيرة حيث لا نستطيع الانتظار أكثر من ذلك، فالفقر لا يُقهر، وهو ذلك الذي يأبى أن يمنحك تأجيلاً إضافياً أو إطالة إضافية للزمن. فاختر لنفسك إما أن تدفع مستحقاتنا وتخفف فاقاتنا، أو أن تحل التعهد الذي تلزم به نفسك حسب الإتفاق».

وادهش جبرائيل معنى ذلك الخطاب نوعية الرزانة التي دلت اللهجة عليها، وفهم أخيراً الموقف بمساعدة المترجين. ثم استفسر بشكل أكثر عما قد تكون طبيعة التعهد الذي كان الكونت قد ألزم نفسه به ليؤدي المدفوعات، ولم يدل بلدوين بأية إجابة متظاهراً أن الخزي قد منعه عن ذلك، إلا أن الفارس المتحدث أجاب أنه كان قد تعهد إذا لم يدفع لهم في اليوم المحدد الكمية المتفق عليها من المال، توجب عليه السماح بحلق لحيته بدون معارضة من جانبه [١].

---

(١) ربح الفرنجة الحليقون مع مرور الوقت بعض الأرمن فتخلوا عن لحاهم، وقد انتقد نرسيس أوف لامبرون ليون الثاني لتخليه عن صفات الرجولة (انظر القديس نرسيس دي لامبرون «رسائل موجهة إلى الملك ليون الثاني» مجموعة راشيل الوثائق الأرمنية ج ١ ص ٥٩٩ - ٦٠٠).

صعق جبرائيل لهذا الإتفاق الجديد، ودهش بشكل يفوق الوصف وضرب يديه ببعضهما وبدأ يستعر غضباً، لأن الشرقيين، سواء الاغريق منهم أو الجنسيات الأخرى يرعون اللحية باهتمام بالغ، وإذا حدث بالمصادفة ونُتفت شعرة واحدة منها، تعتبر هذه الإهانة على أنها أعظم الخزي والعار الأكبر، واستفسر جبرائيل من الكونت فيما إذا كانت الأحوال كما تم تبيانها، وأجابه الكونت بالتأكيد، واحتدم جبرائيل غيظاً مع دهشته، ثم سأل ثانية لماذا تعهد الكونت بشيء تتوجب المحافظة عليه بأقصى الاهتمام، لا سيما وأنه سمة الإنسان المميزة ومفخرة الوجه والوقار الرئيسي للمرء، لماذا فعل ذلك وكأنه شيء تافه يمكن فقدانه دون خزي وعار؟ وأجاب الكونت علىٰ هذا الاستفسار قائلاً: «لأنني لا أمتلك شيئاً ذا قيمة ألبي به مطالب جنودي الملحة. لكن لا عليك سيدي ووالدي يجب أن لا تقلق حول هذا الخصوص، لأنني آمل أن أحصل، برحمة الله، على فرصة تأجيل من الفرسان حتىٰ أعود إلىٰ الرها، عندها سأنجز التعهد المضمون بشرفي بغية تلبية مطالب جنودي».

لكن الفرسان أعلنوا بالإجماع، كما كانوا قد أمروا من قبل، أنهم سينفذون تهديداتهم ويتركونه فوراً ما لم يُدفع لهم قبل ذلك الوقت، وتردد جبرائيل الساذج، والجاهل باتفاقهم السري لفترة قصيرة من الزمن ثم ما لبث أن قرر أنه سيدفع إلىٰ الجنود المبلغ المطلوب من زوج ابنته ولن يسمح لشخص اعتبره بمنزلة ابن له أن يتحمل عاراً كهذا، وسأل عن مقدار الدين، وأعلم أنه كان ثلاثين ألف «ميخائيلية» وكانت «الميخائيلية» نوعاً من العملة الذهبية شاع استخدامها في التجارة والحياة العامة في ذلك الحين، واشتق اسمها من ميخائيل أحد أباطرة القسطنطينية، أمر بضرب صورته على العملة [١]. ووعد جبرائيل أن يدفع حالاً عن زوج ابنته المبلغ المشترط بشريطة أن يعد الكونت بدينه أنه لن يلزم نفسه ثانية لأي امرىء بتلك الطريقة في ظل أية ظروف، وبصرف النظر عما قد يكون ضغط الضرورة، وهكذا، دفع المال، ثم استأذن الكونت ختنه وعاد مع حاشيته إلىٰ بلده بعدما امتلأت محافظهم بالمال حتى التخمة وبعدما تخلصوا من الفاقة.

١٢ ـ ترقية الكنيسة في بيت لحم إلىٰ منزلة كاتدرائية وذلك بفضل الجهود الحماسية للملك.

كان الملك بلدوين تواقاً بحماسة لفرصة يشرّف بها المملكة التي عهد بها الرب إليه، ويقدم بذلك عملاً يستحق القبول من قبل الرب، حاميه، واقترح بحماسة وورع ترقية الكنيسة

---

(١) كان هذا قطعة نقدية ضربت في القسطنطينية وقد اعتمدت في الشرق وقد اعتاد البيزنطيون على الإشارة إلى كل قطعة حسب اسم الامبراطور التي ضربت في عصره.

في بيت لحم إلىٰ منزلة كاتدرائية وذلك في العام /١١١٠/ لتجسيد ربنا. ذلك أنها كانت حتى الآن مجرد كنيسةَ ديرٍ صغير للرهبان.

ستفهم طبيعة هذا العمل بوضوح أكثر من صيغة هذا المرسوم الذي سنّه هذا الملك الأكثر ورعاً، حيث جاء فيه: «لقد حرر شعب الفرنجة، الذي ألهبته النعمة السماوية وحرضته، مدينة القدس المقدسة حررها من دنس الكفرة، ومن اضطهاد الوثنيين ـ القدس حيث دمّر منقذنا بموته الموت الذي سيطر في البداية علىٰ الجنس البشري بسبب خطيئة أبوينا الأولين، وحاصر هذا الشعب هذه المدينة، عابدة الله الفاضلة، في اليوم السابع من شهر حزيران، وتم الاستيلاء عليها في الخامس عشر من شهر تموز لأن الله حارب من أجلها.

وفي سنة ١١٠٠ لتجسيد ربنا قرر رجال الدين وريموند صنجيل والكونتان: روبرت أوف نورماندي، وروبرت أوف فلاندرز، وتانكرد وبقية الأعيان مع كامل حشد الفرنجة قرروا بإشراف الإرادة السماوية وإلهامها، أن يترأس أخي الحبيب الدوق غودفري، الأكثر ورعاً ورحمة، على المدينة المفتوحة، إلا أن هذا الرجل الفاضل عند الله، حاكم المدينة قد توفي بإرادة الله في اليوم الثالث لانتهاء العام الأول لحكمه»[١].

إنني بلدوين، الذي انتخبه، بفضل الإرادة السماوية رجال الدين المبتهجون والأمراء وعامة الناس ليخلف غودفري كأول ملك للاتينيين، قد نظرت بعين مخلصة نحو فضيلة الكنيسة في بيت لحم، مسقط رأس ربنا يسوع المسيح، والمكان الذي ارتديت فيه التاج المتلألىء، وصممت أن أضفي عليها مرتبة أسقفية كاملة[٢].

لقد فكرت باستمرار بهذا المشروع العزيز ولفترة طويلة من الزمن، وأخيراً فاتحت بالموضوع آرنولف رئيس الشمامسة ومجموعة الكهنة في القدس ورجوتهم بجدية أن يتداولوا معي حول القضية، ووافقوا على مطلبي العادل وصمموا أن يذهبوا إلىٰ روما لمناقشة هذه المسألة بالإضافة إلىٰ مسألة عرش البطركية في القدس حيث كان شاغراً في ذلك الوقت، وهكذا، تولىٰ رئيس الشمامسة آرنولف وأرشارد ـ الذي كان شماساً في ذلك الوقت ـ القيام بهذه السفارة. وبدآ رحلتهما إلىٰ روما، وحصلا بمساعدة روح القدس علىٰ المساعدة بخصوص المسألتين من باسكال الثاني الحبر الأعظم للكنيسة المسكونية؛ ثم عادا إلىٰ القدس.

---

(١) توفي غودفري في ١٨ تموز ١١٠٠.

(٢) لم تكن بيت لحم أسقفية، بل أبرشية تابعه لأسقفية عسقلان، حيث كانت المدينة الأخيرة التي كانت ما تزال تحت سيطرة المسلمين، فقد بدا تعديل كهذا للتنظيم الكنسي السابق مسوغاً، وخاصة للأسباب الشخصية التي أضافها الملك، واشتمل المطلب، الذي منحه البابا باسكال الثاني، على سؤال سياسي بخصوص إعادة التنظيم الكاملة للكنيسة في سوريا من قبل اللاتينيين وأدىٰ إلىٰ نزاعات لا نهاية لها، كما يبدو ذلك في وقت لاحق.

أرسل البابا بابسكال، بعد رحيلها، غبلين رئيس أساقفة آرلز إلى القدس، وهو رجل صاحب ذكاء لامع وحياة فاضلة، وعهد بالمهمة إليه بحضور آرنولف وأرشارد [١].

واستقبلته مع رجال الدين وعامة الناس بابتهاج عظيم، واستناداً إلى الأوامر التي تلقاها من البابا باسكال وبرضى وبرغبة مني وبموافقة مجموعة الرهبان في القدس وبتأييد المجلس بأكمله تولى تسيير القضايا وفقاً لمشيئته وحكمه، وهكذا رسم أن يصبح آرشتنيوس الأسقف الأول لبيت لحم، لأنه كان رجلاً لامعاً يترأس تلك الكنيسة ذاتها، وكان أيضاً رئيساً لجوقة المرتلين هناك، وهو الذي كان مجلس الرهبان في القدس قد اختاره، وفقاً لرغبتي الواضحة ورغبة بقية الزعماء وعامة الناس، أسقفاً لمدينة عسقلان، وعلاوة على ذلك، جعل ـ وفقاً لرغبتي وأمري ـ الكنيسة في مدينة عسقلان خاضعة للمقر الأسقفي في بيت لحم مع حق أبرشي [٢].

وأخيراً، فإنني أنا بلدوين، بنعمة الرب الملك اللاتيني الأول للقدس، قد صادقت بابتهاج وبكل سلطاتي على جميع قراراته.

كما منحت بإرادة ورضى مني الأسقف وخلفاءه، حق التملك المطلق والتصرف، بمدينة بيت لحم التي كنت قد منحتها إلى الكنيسة لإنقاذ روحي وروح أخي الدوق غودفري وأرواح جميع أقاربي.

كما منحته قرية في منطقة عكا تدعى بيدر وتنازلت له عنها، ومنحته قرية أخرى في منطقة نابلس تدعى سيلون وأخرى بالقرب من بيت لحم تسمى بيت بيزان بالإضافة إلى قريتين في منطقة عسقلان وهما كيكفا وزيوفير مع المناطق التابعة لها.

وحررت الكنيسة الآنفة الذكر من الاتهامات التي كانت الكنيسة في القدس قد ضايقتها بها، حول موضوع الأراضي والكروم في ضواحي القدس التي تعدّ جزءاً من المنطقة الخاضعة لسلطاني.

وعلاوة على ذلك، فإنني آمر أنه إذا تجرأ أي رجل دين أو عادي بدافع الجشع الشرير على أن ينتهك بعد وفاتي ما صادق عليه باسكال البابا المبجل للكنيسة الرومانية، وفقاً لمطلبي وبمساعدة روح القدس (بخصوص كنيسة بيت لحم المشهورة بأنها مسقط رأس ربنا

---

(١) كان إرسال غبلين، كممثل بابوي إلى القدس، بشكل رئيسي لإنهاء مسألة الوراثة للبطريرك ديمبرت (انظر الحاشية ١٧).

(٢) لا توحي هذه الكلمات بميول خضوع من قبل بلدوين نحو البطريرك.

ومنقذنا) وذلك عن طريق ممثله غبلين رئيس أساقفة آرنر، فسيعدّ ذلك الرجل مجرماً بتهمة انتهاك حرمة المقدسات، وسوف يعامل معاملة قاسية ويطرد من مملكتنا حتماً إذا لم يتخل عن عزمه بعد إنذار قانوني.

وعلاوة على ذلك، إذا ما رغب واحد من نبلائي أو فرساني أو أتباعي ملهماً بروح الرب أن يعطي من ممتلكاته لهذه الكنيسة ذاتها لمصلحة روحه وأرواح أقاربه، فإنني أوافق أن يكون حراً في تنفيذ رغبته الورعة وأن يكون التبرع قانونياً وأن يكون ضريبة دائمة على ممتلكاته.

أبرم مرسوم التنازل هذا وبيان الأشياء المعمولة والمصادقة بتوقيعنا في العام (١١١١) لتجسيد ربنا في الخمس عشرية الثالثة؛ البابا باسكال الثاني كرأس الكنيسة الرومانية وغبلين، رئيس أساقفة آرلز، نائب الكرسي الرسولي، بطريركاً منتخباً للقدس [١].

شهود هذا المرسوم هم:

آرنولف ـ رئيس شماسة

آرشارد ـ شماس

يوستاس ـ غرنير

آنسلم شحنه برج داود

رالف أوف فورتانيتو ـ فيزكونت أوف بسللوس

سايمون ابن الدوق

أنفرد ـ رجل دين

جيرارد ـ الحاجب

وآخرون كثر».

١٣ ـ مدينة بيروت تحاصر براً وبحراً. والاستيلاء عليها في الشهر الثاني من الحصار.

كان الملك النبيل، ذلك الفاتح اللامع والعابد الحقيقي للرب، يسعى دوماً باهتمام لا يعرف الكلل في سبيل توسيع المملكة التي أوكلها الرب لرعايته، فقد جمع قوات كبيرة من جميع أنحاء مملكته بقدر ما سمحت به قوة المسيحيين، وحاصر بيروت في شهر شباط من هذا العام ذاته مستفيداً من حقيقة أن بعض السفن كانت قد أمضت فصل الشتاء في المملكة.

---

(١) لم يحدد تاريخ هذه الوثيقة بشكل أقرب لأكثر من الفترة الواقعة من أول أيلول ١١٠٩ إلى الرابع والعشرين من شهر آذار من عام ١١١٠.

تقع المدينة على ساحل فينيقيا بين جبيل وصيدا، وهي إحدى المدن المساعدة التابعة لمطرانية صور، وقد حظيت فيما مضى برعاية كبيرة من الرومان الذين عدّوها إحدى مستعمراتهم ومنحوها حق المواطنية. ويقول يولبيان وهو يكتب عن مقاطعة فينيقيا في كتابه المختار تحت عنوان: «الاحصاء»: «تميزت مستعمرة بيروت الواقعة في المنطقة ذاتها أيضاً، بحظوة كريمة من الامبراطور» ويتحدث هدريان المقدس في إحدى خطبه عنها بمثابة «مستعمرة للامبراطور كان لها حقوق ايطالية»[1]، ولم يكتف هذا الإمبراطور ذاته بإعطاء بيروت حقوق إيطالية، بل منحها أيضاً امتياز حصولها على مدارس رومانية لم تعط إلاّ لمدن قليلة فقط، ويمكن للمرء أن يقرأ ما يلي في الكتاب الأول للقوانين في ذلك الدستور الذي يبدأ على النحو التالي: «Cordihobis est»[2] «دوروثيوس أيضاً أستاذ القانون في بيروت»[3] ويعتقد أن الاسم الأول لهذه المدينة كان غرسي نسبة إلى مؤسسها غرسيوس المحترم، الابن الخامس لكنعان.

وعندما صار الملك أمام بيروت دعا برترام، كونت طرابلس، للانضمام إليه وبدأ على الفور بتطويق المدينة بقوة كبيرة؛ لكن سفناً قدمت من صور وصيدا على ظهرها محاربون أشداء مستعدون لمساعدة المدينة، ولو سُمح لهؤلاء القوم بالقدوم والذهاب بحرية، لكانت جميع الجهود التي بذلها المحاصرون عقيمة، غير أنه عندما وصل الأسطول المسيحي الذي كان الملك قد اعتمد على مؤازرته في قيامه بالحصار، خشيت هذه السفن من البقاء في البحر المكشوف وانسحبت إلى الميناء فوراً[4]، وبذلك مُنع الأهلون بشكل فعلي من الذهاب والإياب بحراً.

كان هنالك حرش صنوبر على مقربة من المدينة، تمكن الحشد المحاصر أن يحصل منه على خشب كثير وموائم لإقامة سلالم التسلق وجميع أنواع الآلات الحربية، وهكذا، بنى الجند من هذه المادة الأبراج الخشبية وأدوات القذف، وجميع أنواع الآلات الحربية التي قد تكون مفيدة في الحصار، وبقي الهجوم على المدينة متواصلاً بحيث لم يُمنح المدافعون فرصة للراحة حتى الساعة الواحدة في الليل أو النهار، وهكذا، فقد أنهك المسيحيون قوة أعدائهم بجهد لا يطاق وذلك بعملهم بالتناوب وبالتالي بعضهم إثر بعض على مراحل.

---

(١) مجموعة القوانين المدنية ـ المختصر: ١/١٥ ـ ١.

(٢) أصبحت مثل هذه الإشارة إلى البداية ـ أو المادة ـ طريقة معتمدة في النقل من القانون الروماني.

(٣) مجموعة القوانين المدنية ـ مجموعة Conct-Cordi ٢.

(٤) ربما حوى الأسطول المسيحي على سفن كانت تعود إلى المملكة أيضاً مع سفن الجنويين، وكان ميناء بيروت من أكثر الموانىء السورية مواءمة.

وكابد المسيحيون برجولة وعملوا في سبيل غايتهم لمدة شهرين كاملين، وحدث أخيراً في أحد الأيام عندما كانوا يشنون هجمات في أماكن متعددة في وقت واحد أن قفز عدد من الجنود بشجاعة أكثر مما هو مألوف، على السور من الأبراج الخشبية التي كانت قد ألصقت بقوة إلى الشرفات، وحذا آخرون حذوهم، وكان آخرون ما يزالون يتسلقون على السلالم، فنزلوا وشقوا بالقوة الطريق إلى داخل المدينة.

هرب السكان نحو الساحل، ودخل جيشنا المدينة دون نزاع واستولى على المدينة بأسرها، وعندما علم المسيحيون الموجودون على ظهر السفن نبأ اقتحام الملك وجنده المدينة، قفزوا من سفنهم واستولوا على الميناء، وطردوا بسيوفهم السكان الذين كانوا قد هربوا إلى هناك آملاً بإيجاد الأمان، وأجبروهم على العودة إلى وسط أعدائهم، وهكذا، وقع سكان المدينة التعساء بين قوتين معاديتين، وجاءهم الهجوم من هذا الجانب ومن ذاك فحصدهم السيف بين المجموعتين.

وروّع الملك أخيراً بمشهد المذبحة القاسية، فأمر المنادي ليعلن عن إنهاء المذبحة ومنح الحياة للباقين المهزومين الذين التمسوا رحمته.

تم الاستيلاء على المدينة في السابع والعشرين من شهر نيسان في العام /١١١١/ لتجسيد ربنا [١].

١٤ ـ وصول أسطول من الدانمركيين والنروجيين إلى سورية. الملك يحاصر بمساعدتهم صيدا ويستولي عليها. حكاية نجاة الملك المدهشة من الاغتيال.

انطلقت في ذلك العام ذاته مجموعة من الحجاج من جزر الغرب وخاصة من الأراضي المعروفة باسم النروج، فقد كانوا سمعوا أن المؤمنين بالمسيح كانوا قد استولوا على مدينة القدس المقدسة، فرغبوا بالذهاب إلى هناك من أجل العبادة، وهكذا، أعدوا أسطولاً موائماً وركبوا على متنه، وأبحروا به عبر القناة الإنكليزية بعدما دفعتهم ريح مواتية، ثم دخلوا بحرنا الداخلي بعبورهم المضائق الواقعة بين كالبي وجبل أطلس، وأبحروا على طوله إلى يافا، وكان القائد العام للأسطول رجلاً شاباً وطويلاً وصاحب مظهر وسيم، وأخاً لملك النروج، ورسا الأسطول في الميناء وهبط منه المسيحيون، وأخذوا على الفور طريقهم نحو القدس، هدف حجهم [٢].

---

(١) كان تاريخ الإستيلاء في الثالث عشر من شهر أيار من عام ١١١٠. وربما أخطأ وليم في حساب الصيغة الشعرية التي أعطى فولتشر التاريخ فيها.

(٢) هذه الحملة التي قام بها سيغورد الصليبي، ملك النورج /١١٠٣ ـ ١١٣٠/ وابن مغنوس الحافي، هي من

وما إن أبلغ الملك بوصولهم حتى انطلق مسرعاً نحوهم لمقابلتهم، وحيا الأمير بلطف وحاول أن يتأكد أثناء محادثته الودية معه فيما إذا اعتزمت الحملة البحرية على البقاء لفترة من الزمن في المملكة، وأراد أن يعرف ـ في حال الإيجاب ـ فيما إذا كان أفرادها مستعدين لتكريس خدماتهم للمسيح لفترة من الزمن بحيث يمكن توسيع ممتلكات المسيحيين عن طريق جهودهم الحماسية وذلك بالإستيلاء على إحدى مدن الكفرة.

وأجاب الإسكندنافيون، بعد أن تداولوا فيما بينهم، أنهم قد أتوا من أجل تكريس أنفسهم لخدمة المسيح، وأضافوا أنهم كانوا على استعداد للتقدم بحراً بالسرعة القصوى نحو أي من المدن الساحلية التي رغب الملك وجيشه بمحاصرتها، ولم يطلبوا شيئاً مقابل خدماتهم إلا الطعام الضروري.

وأصغى الملك إلى أقوالهم باهتمام وحماسة، وجمع على الفور كامل قوة المملكة وتقدم بقوة كبيرة بقدر الإمكان نحو صيدا، وأبحر الأسطول في الوقت نفسه من ميناء عكا وأسرع إلى صيدا بمنحى مباشر بحيث يتمكن الجيشان من الوصول إلى أمام المدينة في وقت واحد تقريباً.

تعتبر مدينة صيدا مدينة بحرية واقعة بشكل موات بين مدينة بيروت ومطرانية صور، وتشكل جزءاً كبيراً من فينيقيا وقد أشير إليها مراراً في كل من الكتابات القديمة والحديثة، وهكذا يقول سليمان في سفر الملوك الثاني [الأول] أثناء كتابته إلى حيرام ملك صور: «والآن فآمر أن تقطعوا لي أرزاً من لبنان ويكون عبيدي مع عبيدك وأجرة عبيدك أعطيك إياها حسب كل ما تقول لأنك تعلم أنه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب مثل الصيدونيين»[1].

ويذكر ربنا هذه المدينة في الأناجيل قائلاً: «لو صنعت في صور وصيدا القوات المصنوعة فيكما»[2]. الخ.

ونقرأ أن كنعان أسس هذه المدينة حيث تحتفظ منه باسم مؤسسها حتى الوقت الحالي وهي إحدى المدن المساعدة لمطرانية صور.

أكثر المساهمات الاسكندنافية شهرة في الحملات الصليبية، وقد وصفت بالتفصيل في أدب الملاحم ومن قبل معاصريها من لاتين واغريق وعرب (انظر ب.رينت «الأسكندنافيون والأرض المقدسة» ص١٧٤ - ٢٦٧. ك غيرست «تاريخ الشعب النروجي»: ١/٣١١ - ٣٣٦).

(١) الملوك الأول: ٥/٦.

(٢) متى: ١١/٢١.

وهكذا، فقد حاصرت قواتنا صيدا براً وبحراً، واستولى خوف كبير على السكان. لأنهم أدركوا أن المقاومة بالقوة ستكون عقيمة، وبناء عليه حاولوا أن يحدثوا بالإستراتيجية ما لم يستطيعوا إحداثه بالشجاعة وذلك لتفادي الخطر الوشيك.

كان في حاشية الملك شخص يدعى بلدوين [1]، وكان واحداً من أتباعه الثقاة، وكان حاجبه الخاص والقائم على خدمته بشكل عملي، وكان هذا الرجل وثنياً من قبل، وقد طلب أن يُعمّد، ولم يستقبله الملك بحماسه الورع في جرن المعمودية المقدس فحسب، بل أعطاه اسمه الخاص وجعله واحداً من خدمه.

وقرر أعيان صور تحرير أنفسهم بأية وسيلة، وأرسلوا الوسطاء سراً للتفاوض مع هذا الرجل، ووعدوه بمبلغ كبير من المال وممتلكات واسعة في المدينة إذا ما قتل الملك وخلصهم من الخطر الكبير، وكان بلدوين صديقاً حمياً للملك وكان عزيزاً لديه حيث غالباً ما لازم سيده بمفرده عندما خلا الأخير إلى نفسه ليتخلص من ضرورات الطبيعة، ومع ذلك، فقد فكر عن طواعية بالاقتراح المقدم ووعد أن ينفذه، واستسلم في الواقع إلى الجريمة حيث انتظر فقط وقتاً موائماً لتنفيذ العمل.

لكن بعض المسيحيين الموجودين في المدينة حصلوا على تلميح في هذه الأثناء عن المسألة، وبما أنهم خافوا من إمكانية تنفيذ هذا العمل بالفعل بسبب عدم اكتراث الملك، كتبوا رسالة مجهولة شارحين فيها الخطة بالتفصيل وأرسلوها بواسطة سهم قذفوه إلى داخل جيشنا، وصدف أن سقطت الرسالة بين يدي الملك، حيث تأثر جداً بعد قراءته لها، واستدعى على الفور نبلاءه الرئيسيين وتشاور معهم بخصوص المنحى الذي يتوجب اتخاذه، واستدعي الرجل المذنب أمامهم، واعترف بجريمته وحكم القضاة عليه بالشنق [2].

وعندما بات جلياً أن هذه المؤامرة كانت مخفقة جرب السكان طريقة أخرى لتحقيق غايتهم، وأرسلوا رسلاً توسلوا أن يسمح للأعيان بمغادرة صيدا، وأن يبقى عامة الناس كما كانوا من قبل تحت شروط مواتية يتمكنون بها من الاستمرار في زراعة الحقول، واستجيب لهذا المطلب، واستسلمت المدينة وسمح للأعيان أن يرحلوا بحرية إلى حيث رغبوا مع زوجاتهم وأبنائهم.

ومنح الملك على الفور المدينة بسخاء إلى أحد نبلائه، وهو يوستاس غرينر ليحتفظ بها

---

(١) لا تؤيد الروايات الأخرى رواية هذا الحادث.

(٢) هذه الإجراءات القانونية نابعة من إجراءات المحكمة الاقطاعية (انظر ج.ل. لامونت «الملكية الاقطاعية في المملكة اللاتينية في القدس ١١٠٠ - ١٢٩١ ص١٠٢).

بحق وراثي، ثم استأذن أصحاب الأسطول بالرحيل، وعادوا إلىٰ بلادهم محملين بالهدايا الثمينة، ومصحوبين بمباركات الجميع [١].

تم الاستيلاء علىٰ هذه المدينة في التاسع عشر من كانون الثاني من العام /١١١١/ لتجسيد ربنا.

١٥ ـ وفاة غبلين بطريرك القدس. خلافة آرنولف الشرير والفاسق له.

توفي في هذهٔ الآونه غبلين، بطريرك القدس ذو الذكرىٰ الطيبة، وعين في مكانه (بدون موافقة سماوية برأينا) آرنولف رئيس شمامسة القدس الذي كان يدعىٰ باللغة العاميه Mala Corona وهو الرجل الذي تكرر ذكره في الصفحات السابقة. لكنه: «الذي يجعل الإنسان منافقاً ليحكم من أجل آثام الناس» [٢].

واستمر آرنولف متبعاً هذا السلوك كما كان من قبل بالإضافة إلى أنه ارتكب آثاماً أسوأ منها، ومن أفعاله السيئة الأخرى أنه زوّج ابنة اخته إلى النبيل يوستاس غرينر الذي كان واحداً من أشهر نبلاء المملكة حيث كان حاكماً للمدينتين الجليلتين صيدا وقيسارية [٣]، ومنح يوستاس بالإضافة إليها، القسم الأفضل من الوقف الكنسي أي، مدينة أريحا مع جميع توابعها، بالإضافة إلى الدخل السنوي والذي يقال إنه يبلغ حالياً خمسة آلاف قطعة ذهبية. وحتى عندما كان آرنولف بطريركاً لم يسلك مسلك حياة طاهرة، وكان العار الذي لحق به معروفاً للجميع، وبغية إخفاء هذه الحقيقة، غير النظام الذي كان القادة الأوائل قد أوجدوه بعد دراسة دقيقة في الكنيسة في القدس واستبدله بتشريعات قانونية [٤]، كما أقنع الملك أيضاً

---

(١) كانت العودة إلىٰ النروج رحلة انتصار عبر القسطنطينية حيث عومل سيغورد بشكل جيد، وكانت سفنه مصدر إعجاب للاغريق الذين أعطاهم إياها أو باعها لهم، وبقي عدد من رجاله هنالك ليدخلوا في خدمة الإمبراطور، وعاد البقية معه عن طريق البر متتبعين موكب الصليبيين العائدين إلىٰ جنوبي ألمانيا، ومن هناك إلىٰ الدانمارك والنروج، وقد عاد في عام ١١١١ بعد غياب دام أربع سنوات تقريباً لأنه ترك النروج في عام ١١٠٧.

(٢) طور فولتشر الذي نما اهتمامه في الظواهر الطبيعية مع تقدم سنه، ممارسة لوصف التواريخ الهامة بتعابير فلكية وصيغة شعرية، وأربكت هذه الوسيلة الطلاب الجدد أكثر مما أربكت وليم الذي كان معتمداً في هذه المرحلة اعتماداً كبيراً علىٰ فولتشر وحسب هاغنمير فإن التاريخ المقصود كان /٥/ كانون أول عام ١١١٠ (هاغنمير «فولتشر» ص٥٤٩).

(٣) يعقوب: ٣٤/٣٠.

(٤) انفرد وليم بذكر هذه الحقيقة وقضية العلاقة بأرنولف التي هي مشكوك بها (انظر س.و.ديفد «روبرت كورتهوز» ـ الملحق ج).

(٥) كان هذا الإصلاح للقوانين الكنسية للقبر المقدس متمشياً مع حركة الإصلاح التي انتشرت آنذاك عبر =

بالزواج من امرأة أخرى بينما كانت زوجته ما تزال على قيد الحياة، كما سيتم سرد ذلك في وقت لاحق[1].

١٦ ـ حشد من أتراك الشرق يغزو منطقة انطاكية بجنود لا تحصى أعدادهم، لكن تانكرد يبدي مقاومة شجاعة بمساعدة برترام كونت طرابلس.

بعد فترة قصيرة من الاستيلاء على صيدا، جرى تجنيد مجموعة كبيرة من الفرسان في بلاد فارس وتقدموا إلى الأراضي السورية لاختبار قوتهم حتى يتمكنوا من التفاخر بها في المستقبل، ولم يتخلص المسيحيون أبداً من ذلك الوباء، وذلك منذ القدوم الأول للاتينيين وحتى العام الرابع عشر من انشاء المملكة، حيث كان بلاء أقسى من أي بلاء متعدد الجوانب لا يمكن التغلب عليه[2]، فقد كان يزداد نموه قوة كلما بترت جوانبه، واندفع حشد من هؤلاء الناس البغيضين كل عام تقريباً من قلب بلاد فارس بأعداد كبيرة غطوا بها وجه الأرض تقريباً، غير أن الرحمة السماوية رقت لمعاناتنا وشيدت مملكة منافسة وقفت في وجه الغطرسة المتعجرفة للفرس بشخصية الشعب الإيبيري[3]، وحقق هذا الشعب، بنعمة الله، توسعاً عظيماً وقوة كبيرة من خلال نجاحاته المستمرة لدرجة أنه سحق غطرسة الفرس، وكان الايبيريون قد خافوا الفرس وارتابوا بهم من قبل، إلا أنهم أصبحوا الآن متفوقين كثيراً على الفرس في القوات والحنكة وفي استخدام الأسلحة وفنون الحرب، وهكذا، فإن الفرس، الذين كانوا متعودين لفترة طويلة من الزمن على إثارة الرعب في الممالك البعيدة جداً، شعروا الآن أنه يكفيهم الحصول على السلام حتى ولو كان مؤقتاً داخل حدود أقاليمهم.

تتصل أراضي ايبيريه، والمعروفه أيضاً باسم أفسغويا ببلاد فارس في الشمال، ويتميز سكانها ـ بقاماتهم الطويلة، كما أنهم مشهورون بقوتهم وقسوتهم ونزعاتهم القتالية وولعهم بالحرب، وكانوا قد أنهكوا القوات الفارسية بحروب متكررة وهجمات مستمرة إلى حد لم

= الكنيسة. وكان عليهم أن يعيشوا تمشياً مع أحكام أغسطين وحتى الأعمال التقوية لآرنولف أخفقت في ربح رضى وليم.

(١) الكونتسة أوليد (انظر الفصلان: ٢١ و ٢٩).

(٢) هذه عبارة أدبية، فقد ظل الأناس المذكورين يسببون المشاكل لفترة أطول.

(٣) كانت ايبيريا وأبسغيا بنوداً أو تقسيمات إدارية للإمبراطورية البيزنطية قبل قدوم السلاجقة، وكانتا تقعان إلى جنوب القوقاز تماماً وكان يسكن فيهما الجوروجيين في ذلك الحين كما هو الأمر كذلك حالياً، وهم شعب متميز ببنيته البدنية وقد أخضعهم السلاجقة، وكان الصراع بين الايبيريين والفرس في ذلك الوقت مجرد حروباً أهلية بين المتنافسين من السلاجقة. وكان مودود صاحب الموصل يقود الحشود المضطربة في هذه المناسبة.

يعد الفرس يشعرون فيه أنهم أنفسهم مساوون لهم، ولهذا السبب، توقف الفرس عن غزو بلاد الآخرين حيث كانوا قلقين على وضعهم.

وكما قلت، انطلق الجيش الضخم المذكور آنفاً من أراضيه ومر خلال بلاد الجزيرة، وعبر نهر الفرات العظيم. ونهب البلاد الواقعة في أحواز النهر، وتصرف بها وفقاً لأهوائه، وحاصر تل باشر، المعقل الأكثر قوة في ذلك الموقع، وبذلك جند هذا الحشد جهوداً عقيمة وشاقة لمدة شهر كامل أمام ذلك الموقع، وقرروا في النهاية التخلي عن المحاولة بعدما رأوا أنه لا توجد أية إمكانية بالنجاح، وذهبوا إلى حلب [1]، وأملوا، باعتمادهم على أعدادهم الضخمة، باغراء تانكرد في أن ينطلق بدون حذر ويهاجمهم.

لكن تانكرد كان رجلاً حكيماً، وعاقلاً في كل ما فعله، فقد بعث برسله إلى الملك وحملهم الرسائل إليه متوسلاً له الحضور بسرعة لمساعدته، وجمع بلدوين قواته فوراً، واصطحب معه برترام كونت طرابلس مع جنوده إلى المنطقة المجاورة لأنطاكية، وعندما وصلا إلى منطقة الروج وجدا تانكرد مع جيشه هناك، ثم تقدموا بصفوف معبأة نحو العدو ووصلوا أخيراً إلى شيزر حيث كان العدو قد خيم حولها.

تفحص الجيشان بعضهما بعضاً لفترة من الزمن، وفي النهاية امتنع الأتراك عن دخول المعركة. وتركوا المنطقة، ثم استأذن المسيحيون واحدهم الآخر بالانصراف، وعادوا إلى أراضيهم.

١٧ - حصار مدينة صور. سكان المدينة يبدون مقاومة شديدة مما أحبط أهداف المحاصرين.

كانت مدينة صور في هذه الآونة ما تزال وحدها تحت نير الكفرة، من بين جميع المدن الساحلية، شروعاً من اللاذقية السورية وحتى مدينة عسقلان التي تعتبر آخر مدن المملكة، وكان الملك قد حرّر، بإرادة الله، بقية المدن من عبودية الكفرة، وقرر أن يوقف نفسه على تحرير تلك المدينة أيضاً، وجمع كل السفن التي وجدها على طول الساحل، وأعدّ اسطولاً منها وأمره بالتقدم إلى مدينة صور بالسرعة الكاملة، وقام شخصياً بجمع كل القوات البرية والناس من جميع أنحاء المملكة وزحف إلى هناك، ووضع جنوده في دائرة حول المدينة وحاصرها.

---

(١) حدثت هذه الحملة خلال شهري آب وأيلول من عام ١١١١. وعاد بلدوين في شهر تشرين الأول.

تقع مدينة صور في صدر البحر كجزيرة تكتنفها المياة من كل صوب، وهي عاصمة فينيقيا ومطرانيتها، والتي تمتد من نهر بانياس إلى بترا انسيا على حدود دورا، وتشتمل داخل محيطها على أربع عشرة مدينة مساعدة.

وسيتم وصف مزايا موقع هذه المدينة بشكل أكمل في وقت لاحق، عندما سنحكي قصة حصارها النهائي والاستيلاء عليها منحة من السماء وبإرادة الرب.

وهكذا، حوصرت مدينة صور، وبما أن بلدوين كان قلقاً جداً حول نجاح المشروع، فقد انكب قلباً وقالباً على مضايقة المدينة بكل وسيلة ممكنة، حتى يمكن اجبارها على الاستسلام، واستخدم جميع الطرق المستخدمة بشكل مألوف في محاصرة المدن، وأجهد نفسه إلى الحد الأقصى لاخضاعها لسلطانه، وأنهكت سلسلة من المناوشات والهجمات المتوالية قوة سكان المدينة، وتحطمت الأسوار والأبراج نتيجة الضربات العنيفة التي أصابتها من الآلات الحربية، وسقط وابل من الرماح والسهام على المدينة، وتتويجاً لهذه المحن أمر بلدوين ببناء برجين خشبيين كانا أطول بكثير من الأبراج الحجرية، وأمكن النظر إلى المدينة من قمة هذين البرجين، وقذف الخراب والدمار من موقع ممتاز بشكل تعذر اجتنابه.

هذا وأظهر الصوريون أنفسهم علىٰ أنهم رجال شجعان ودهاة ومهرة في جميع أنواع الأساليب، فقد قابلوا كل خطة بواحدة مشابهة لها، وكافحوا لصد الأضرار التي أصيبوا بها بأضرار مماثلة لها، وجلبوا معاً كميات ضخمة من الحجارة والملاط ونصبوا برجين كانا مقابلين تقريباً لآلاتنا الحربية، وبدأوا بتشيدهما إلىٰ مسافة أعلىٰ. فقد ارتفع هذا البرجان إلىٰ مسافة أعلىٰ بكثير فوق الآلات الحربية الخشبية المقابلة لهما خارج الأسوار وذلك خلال وقت قصير من الزمن، وقذف المدافعون النار من هذين البرجين على الآلات الحربية الواقعة دونهما وكانوا على استعداد لإحراق كل شيء دون أن يعارضهم أحد.

أدرك الملك الآن أن كل خطة كان يضعها عرضة للإحباط بخطة مشابهة فوراً، وعلاوة علىٰ ذلك، انهكته الأعمال المستمرة التي بدها أمام اسوار مدينة صور وبكلفة عالية لمدة أربعة أشهر، وهكذا تخلى عن المحاولة مهزوماً في هدفه؛ ورفع الحصار وعاد إلىٰ عكا ورحل الباقون بتلهف إلى أوطانهم [1].

---

(١) استمر هذا الحصار من ٢٨ تشرين الثاني ١١١١ إلىٰ نيسان ١١١٢.

١٨ - موت تانكرد مخلفا الإمارة لروجر بن رتشارد .

في هذه الآونة توفي تانكرد ذو الذكرى اللامعة والورعة في الرب، وستروي كنيسة القديسين بأكملها دوماً أخبار صدقاته وأعماله الورعة، وبينما كان متمدداً على فراش الموت كان بجانبه شاب قائم على خدمته يدعى بونز بن برترام كونت طرابلس، ويروى أن هذا الأمير، الذي كان عارفاً أن يوم وفاته بات وشيكاً، طلب مثول هذا الشاب مع زوجته سيسليا ابنة فيليب ملك فرنسا في حضرته، ويقال إنه نصح الاثنين أن يتزوجا بعد وفاته، وهذا ما حصل فبعد وفاته تزوج بونز أرملة تانكرد إنما بعد وفاة برترام كونت طرابلس ووالد هذا الشاب [١] .

وورث روجر بن رتشارد وهو واحد من أقرباء تانكرد الإمارة وفقاً لوصيته الأخيرة، شريطة قيامه بتسليم أنطاكية وما يتعلق بها إلى بوهيموند بن بوهيموند الأكبر عندما يحين الوقت ويطالب بها كإرث شرعي له وذلك دون بلبلة أو إنكار [٢] .

دفن تانكرد اللامع في الرواق المخصص في كنيسة الرسل في العام /١١١٢/ لتجسيد ربنا [٣] .

١٩ - مودود الأمير التركي القوي يغزو المملكة بقوات ضخمة. الملك يقابله في معركة ويهزم. المنطقة تتعرض جميعها للانهاك بشكل يفوق الاحتمال .

في الصيف التالي يعني في عام /١١١٣/ لتجسيد ربنا قذفت بلاد فارس ثانية حشودها التي لا تحصى، مثل الينبوع الملوث الذي يقذف المياه باستمرار بحيث تزيد من انتشار الوباء، وقاد هذه الحشود أمير قوي من أصل رفيع يدعى مودود، وزحف مودود وسار في ركابه قوات ضخمة جداً لا حدود لها [٤] ، واجتاز البلدان المتوسطة ووصل إلى نهر الفرات، وكان يجرب خطة جديدة، فقد اعتادت الجيوش السابقة لهذا الشعب نفسه أن تجرب قوتها على أرض انطاكية.

---

(١) حدث بالفعل زواج سيسيليا وبونز في آب من عام ١١١٥ ولا يذكر أحد سوى وليم مشهد سرير الموت هذا وأمنية تانكرد.

(٢) كان روجر بن ريتشارد صاحب الامارة وابن أخت تانكرد، ومن المحتمل أنه كان قد رافق والده في الحملة الصليبية، وكان حكمه لأنطاكية موضوع التاريخ الذي كتبه ولتر الحاجب.

(٣) يبدو أن وليم قد وجد ما قاله فولتشر صعباً جداً في تحديده لليوم.

(٤) جعل مودود من نفسه حاكماً للموصل واستمر في منصبه حتى سنة ١١١٣، واعتبر هاغنمير يوم وفاة تانكرد في ١٢ - كانون ثاني سنة ١١١٢ (هاغنمير «فولتشر» ص٥٦٢ الحاشية ٢).

أولاً، إلا أن هذه الخطة كما أظهرت النتيجة، كانت بعيدة عن تفكيره وكانت غاياته مختلفة تماماً، عبر مودود مناطق سورية المجوفة مخلفاً دمشق إلى اليسار، واجتاز طبرية الواقعة بين لبنان والساحل وخيم بالقرب من الجسر المقام على نهر الأردن.

عندما وصل هذا النبأ إلى الملك، استدعى لمساعدته روجر أمير انطاكية وكونت طرابلس، حيث كان عارفاً تماماً أن ثقة خصومه قامت في أعدادهم الضخمة، غير أنه رحل مع جنوده قبل وصول روجر والكونت وأقام معسكره في المنطقة القريبة للعدو، وحالما اكتشف الفرس هذا الأمر، أدركوا أنهم كانوا بحاجة للاستراتيجية أكثر من القوة في هذا الأمر، وهكذا أرسلوا ألفين من الفرسان وأمروا ألفاً وخمسمائة منهم أن ينصبوا كميناً، وكان على الخمسمائة الباقين أن تتابع سيرها مسافة أبعد وبطريقة غير مبالية بحيث يندفع الملك ورجاله لمطاردتهم، ووقع كل شيء تماماً حسب الترتيب، فقد لاحظ الملك الفرسان الخمسمائة الممتطين جيادهم يتقدمون بطريقة مهملة وغير آبهة وكأنهم متوجهون إلى مسافة أبعد، فاستدعى رجاله باندفاع وزحف نحوهم، وتظاهر الفرسان أنهم يلوذون بالفرار، وطاردهم الملك باندفاع وسقط في الكمين المنصوب له؛ وانطلق الكفرة من مخابئهم وأصبحوا قوة كبيرة. كما عاد الفرسان الخمسمائة أيضاً وانضموا إليهم، وانقضت القوات المتحدة بهجوم عنيف على المسيحيين. وحاول شعبنا المقاومة في البداية لصد الأعداء بالسيوف عندما انقضوا بضراوة عليهم، إلا أن أعداد الأعداء المتفوقة قهرتهم وأجبرتهم على الفرار، غير أنهم لم يجدوا السلامة في تلك الطريقة، حيث أنزلت بهم مذبحة مريعة أثناء هروبهم؛ وحتى الملك نفسه رمى الراية التي كان يحملها بيده ونجا بصعوبة من المذبحة، كما نجا معه البطريرك رنولف الذي كان معه بالإضافة إلى نبلاء آخرين من المملكة؛ وتخلى المسيحيون عن المعسكر وعن جميع أمتعتهم.

وهكذا، استولى العدو على معسكرنا ونشأ اضطراب كبير بين شعب الله عقاباً على آثامهم. ونسبت الكارثة بكليتها إلى الملك لأنه لم ينتظر المساعدة التي كان قد طلبها، بل اعتمد بإفراط على قوته وشجاعته، حيث كان روجر أمير أنطاكية وكونت طرابلس قريبين وعلى وشك الوصول من غير ريب[1] في غضون يوم أو يومين، وسقط ثلاثون فارساً مسيحياً في ذلك اليوم، وألف ومائتان من الرحالة.

ووصل بعد هذه المصيبة القائدان القويان والعظيمان المشار إليهما آنفاً، ولاما الملك على

(١) توصل هاغنمير إلى أن تاريخ هذه المعركة هو ٢٨ حزيران عام ١١١٣ ويتفق ابن القلانسي، الذي يعين ذلك اليوم بالضبط، مع وليم حول سبب هزيمة بلدوين.

عمله المتهور عندما علما بأخبار الكارثة التي وقعت، ثم اتحدت جميع القوات وخيمت كقوة واحدة في الجبال المجاورة حيث تمكنوا من مراقبة جيش العدو في الوادي الواقع في الأسفل منهم.

غير أن الكفرة، المدركين تماماً أن المملكة قد جُرّدت من المدافعين عنها، أرسلوا زمراً من الجنود في كل الاتجاهات عاثت في المنطقة بأسرها، وأحدثت مذابح مريعة في كل مكان علىٰ طول الطرق العامة، وأشعلت الحرائق ونهبت القرىٰ وقبضت علىٰ المزارعين وعاملت المنطقة بأسرها وكأنها قد أصبحت تحت سيطرتها تماماً.

تخلىٰ خدمنا عنا خلال هذه الأيام بالإضافة إلىٰ السكان العرب في قرانا التي تسمى كاسيليا [1] وانضم هؤلاء إلىٰ كتائب الأعداء وعلموها كيف تتولى إبادتنا، وتمكن الأعداء من صنع هذا بشكل جيد لأنه كانت لديهم معلومات كاملة عن موقفنا. «ذلك أنه ليس هناك وباء اشد هلاكاً وفعالية من عدو داخل منزل المرء».

وهكذا، فقد استمر العدو، بتوجيه من هؤلاء الناس بعدما جعلته مساعدتهم أكثر فعالية، بالتجول بين المدن والقلاع ناقلاً معه الغنائم والعبيد، وبالاختصار، فقد حولوا المملكة بأسرها إلىٰ حالة كبيرة من الرعب بحيث لم يجروء أحد على المغامرة بالخروج من داخل الحصون.

٢٠ ـ أهالي عسقلان يهاجمون القدس. تحطيم قواهم وعودتهم أخيراً إلىٰ بلادهم.

وضع أحد الأحداث اللمسة النهائية لمحن شعبنا ومصائبه. كان أهالي مدينة عسقلان علىٰ بينة من أن الملك كان ما يزال محتجزاً في منطقة طبرية مع جميع قوات المملكة المتوفرة وأن العدو كان مستولياً إلىٰ حد ما علىٰ المنطقة بأسرها، وهكذا، انطلقوا بجيش كبير، كالديدان الدائمة القضم، إلىٰ المنطقة الهضبية لمحاصرة القدس، التي كانت الآن بدون مدافعين عسكريين عنها بالكامل، فقتلوا أو أسروا كل من وجدوه خارج المدينة، كما أوكلوا أمر الحبوب التي كان المزارعون قد جمعوها علىٰ البيادر إلىٰ ألسنة النيران، وبقي الكفرة أمام القدس لعدة أيام إلا أن جميع الناس بقوا على حذر داخل الأسوار، ثم عاد الغزاة في النهاية إلىٰ بلادهم حيث خشوا من عودة الملك إلىٰ القدس.

---

(١) كان هؤلاء «الكسيليه» من بعض النواحي وحدات من التنظيم الزراعي والإقتصادي مثل الاقطاعات الغربية (انظر هلين غ. برستون «الأوضاع الريفية في مملكة القدس خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر» في ثنايا الكتاب).

كان الصيف يقترب الآن بسرعة من نهايته ليحل محله الخريف، الفصل الذي تصل فيه السفن التي اعتادت على جلب الحجاج، وعلم الذين قدموا بالصعوبات الكبيرة التي كان الملك وشعبه يكافحون في ظلها، وأسرع كل من الفرسان والجنود المشاة بالسرعة الكلية إلى الجيش، وهكذا، اتضح ازدياد كبير من يوم لآخر في أعداد قواتنا، ولاحظ قادة جيش الكفرة بسرعة هذا الأمر وأصبحوا قلقين خشية أن يكون المسيحيون يحضّرون بهذه التعزيزات الضخمة للانتقام للمظالم التي كانوا قد كابدوها؛ ولذلك، تراجعوا إلى أراضي دمشق، كما تفرقت القوات المسيحية أيضاً وعادت إلى وطنها.

قتل الحشيشية القائد العام للجيوش المعادية الذي كان قد ألحق بلاءً كبيراً بالمملكة، وذلك بعد وصوله إلى دمشق، ويقال إن هذا قد تم بمعرفة الملك طغتكين وموافقته، فقد انتشرت شائعة تقول إن الملك ارتاب بقوة ذلك القائد وخشي من أن ينتزع المملكة منه [1].

٢١ ـ كونتس صقلية ترسو في عكا لتصبح زوجة للملك.

بعدها تفرق الجيش المسيحي وعاد الجميع إلى وطنهم، وصل رسول أعلن إلى الملك أن كونتس صقلية قد وصلت إلى ميناء عكا وكانت هذه السيدة النبيلة أرملة روجر المكنى بورسا أخوروبرت غويسكارد [2]، وكانت امرأة ثرية وذات نفوذ كبير، وكان الملك قد أرسل في العام الفائت عدداً من نبلائه لدعوتها بكل إخلاص للزواج منه، وأوصلت هذه الرسالة إلى ابنها روجر الذي أصبح فيما بعد ملكاً على صقلية، وتداولت معه حول المسألة [3]، وبدا جيداً للاثنين الاستجابة لمطلب الملك، شريطة موافقته على بعض الشروط المحددة، وكانت الشروط على النحو التالي، إذا أنجب الملك من الكونتس فيجب أن تنتقل المملكة إلى ذلك الطفل عند موت الملك بدون إنكار أو حرج؛ وإذا مات دون أن يكون له وريث من ذلك الزواج، فينبغي أن يكون ابنها الكونت روجر وريثاً للمملكة، وأن يخلفه فيها كملك عليها ودون حرج أو إنكار، وكان الملك قد أوعز إلى مبعوثيه عند مغادرتهم بالموافقة على أية شروط وأن يسعوا بكل الوسائل الممكنة لجلب الكونتس معهم، لأنه كان قد سمع ـ وذلك كان صحيحاً أن الكونتس كانت غنية وامتلكت كل شيء بوفرة كبيرة، حيث

---

(١) وصف ابن القلانسي الدمشقي بالتفصيل، مقتل مودود الذي حدث في ٢ تشرين الأول من عام ١١١٣. وتخمين وليم بخصوص الباعث ربما يكون صحيحاً (انظر جب «تاريخ دمشق» ص١٣٩ ـ ١٤٢).

(٢) كانت أدليد، ابنت أخت بونفيس مركيز مونفرّات، وهي الزوجة الثانية لروجر صاحب صقلية وكانت قد تزوجته في عام ١٠٨٩. وعملت بعد موته وصية على ابنها روجر الثاني، الذي تسلم الحكم في عام /١١١٢/ عندما كان في السابعة عشر من عمره. وخفف وليم وصف ألبرت المبالغ به لوصولها إلى فلسطين.

(٣) أصبح روجر ملكاً على صقلية في سنة ١١٣٠.

كانت على علاقة طيبة مع ابنها، وخلافاً لذلك، كان بلدوين فقيراً ومعوزاً بحيث لم تسد وسائله إلا بصعوبة احتياجاته اليومية ودفع أجور فرسانه، ولهذا تاق إلىٰ رفد موارده الضئيلة من فائضها.

وافق المندوبون علىٰ الشروط المقدمة، وأدوا القسم، كما كان مطلوباً، بأن الملك سيقر الاتفاقات مع نبلائه الرئيسيين بإخلاص صادق ودون غش أو خداع، وهكذا، استعدت الكونتس للرحلة، وزودها ابنها بكل ما كان ضرورياً، وشحنت السفن بالحبوب والخمر والزيت واللحم المقدد وجهزت بالرجال المسلحين وبالفرسان المجهزين تجهيزاً رائعاً، وحملت الكونتس مبلغاً ضخماً من المال معها وجميع حاجياتها وتوابعها ووصلت إلىٰ بلادنا كما تم ذكر ذلك، وكانت هذه خطة استنبطها البطريرك آرنولف ببراعة، كما تم شرح ذلك آنفاً، لخداع هذه السيدة الشريفة والنبيلة، فمن المستحيل أن ننكر أنه قد غُرّر بها حيث اعتقدت، ببساطة شخصيتها، أن الملك كان في وضع يمكنه فيه من الزواج منها بشكل شرعي، غير أن هذا كان بعيداً جداً عن الواقع، لأن الزوجة التي كان قد تزوجها بشكل شرعي في الرها كانت ما تزال علىٰ قد الحياة. وجُدّدت الأيمان والأقسام بعد أن نزلت الكونتس، وبالطريقة ذاتها التي كانت قد استخدمت في صقلية من قبل، وبحضور الملك والبطريرك والرجال البارزين في المملكة، إلا أن الرب أخذ بعين الاعتبار هدف هذا الزواج، لأنه تم بنيّة شريرة وبرغبة سيئة، فلم يمنح الله هذه المرأة نعمة الإنجاب العادية في المملكة، على الرغم من أنها كانت بريئة، وحلّ الأسىٰ في النهاية محل الفرح كما سيتم سرد ذلك في الصفحات القادمة. «لأن الأمور التي تبدأ بداية سيئة نادراً ما تنتهي نهاية جيدة». ومع ذلك، فقد جلب وصولها العديد من الامتيازات إلىٰ المملكة بشكل مؤقت بحيث يمكن للرجل الأدنى مقاماً أن يقول: «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة [1]».

٢٢ ـ نشوء مجاعة مخيفة في بلاد الرها. الكونت بلدوين يلقي القبض علىٰ قريبه جوسلين ويجبره بالقوة علىٰ مغادرة المنطقة بأسرها.

حدث في هذه الأثناء أن نشأت مجاعة مخيفة في منطقة الرها وجاءت هذه المجاعة جزئياً بسبب الطقس القاسي الذي أثر علىٰ المحاصيل، ولأن البلاد وقعت وسط العدو وكانت محاطة بالأعداء من جميع الجهات، ونتيجة لذلك منع الخوف من الحروب السكان في المنطقة من صرف اهتمامهم بحرية للزراعة، وكانت المحصلة اضطرار الناس الموجودون في المدينة والمناطق المحيطة بها إلىٰ تناول الخبز المصنوع من الشعير وأحياناً المخلوط بالذرة.

(١) يوحنا: ١٦/١.

هذا وكانت أراضي اللورد جوسلين تقع في أمان علىٰ هذا الجانب من نهر الفرات، وكانت فيها محاصيل كبيرة وكميات وفيرة من المؤن، وعلى الرغم من أن أراضي جوسلين كانت مملوءة بجميع الأشياء الجيدة، فإنه لحماقته وعقوقه لم يقدم شيئاً على الإطلاق من غلاله ومحاصيله الفائضة إلىٰ سيده وقريبه حيث كان يدين له بكل ما كان يمتلكه، مع أنه عرف بشكل مؤكد أن الكونت وشعبه كانوا في أمس الحاجة إلىٰ محاصيله.

وحدث الآن أن سنحت الفرصة للكونت بلدوين لإرسال مندوبين في بعض الأعمال الخاصة إلىٰ روجر بن رتشارد، حاكم أنطاكية، الذي كان قد تزوج إحدى أخوات الكونت[1].

عبر المندوبون نهر الفرات ومروا خلال أراضي جوسلين أثناء ذهابهم وإيابهم حيث استقبلهم بلطف وحسن ضيافة.

وحدث أن شرع عدد من أتباع جوسلين بتوبيخ الرسل، كما يفعل الناس الحمقى دوماً، وعلقوا تعليقات سافرة على فقر بلدوين، وتباهوا في الوقت نفسه بثروة سيدهم الضخمة ووفرة الحبوب والخمر والزيت والمؤن والكتل الضخمة من الذهب والفضة والعديد من الفرسان والرجالة. وأضافوا أيضاً «كما هي عادة اللسان الطائش دوماً»، أن الكونت لم يكن كفوءاً ليحكم تلك المنطقة، وسيكون أكثر عقلاً لو باع كونتيته إلىٰ اللورد جوسلين لقاء مبلغ ضخم من المال، والعودة إلىٰ فرنسا.

أصابت هذه التعليقات الساخرة الرسل في الصميم مع أنهم بذلوا جهداً لإخفاء مشاعرهم ومع أن هذه العبارات صدرت عن أشخاص تافهين، فإنها عكست آراء الحاكم، واستأذن المندوبون بالانصراف وعادوا إلىٰ الكونت حيث أعطوه وصفاً كاملاً عند وصولهم عن كل ما كان قد حدث في الرحلة بما في ذلك التعليقات التي تمت في منزل اللورد جوسلين.

أثارت روايتهم الكونت إثارة عميقة، واقتنع، بعدما وزن ما كان قد سمعه، أن جميع هذه الآراء قد صدرت بالأصل عن جوسلين. وسخط من كون رجل كان قد منحه ثروة كبيرة كهذه وكان الواجب يلزمه أن يخفف أعباء المحسن إليه من ثروته الخاصة لا أن يُدلي بتعليقات ساخرة خلافاً للذوق السليم، عن الفقر وكأنه رذيلة، وفكر ملياً بحالته السيئة فهو لم يصب بهذه الشدائد نتيجة حماقة ارتكبها، بل كانت بسبب قضاء محتوم؛ وعلاوة على ذلك،

---

(١) لم يحفظ لنا اسمها ولا تاريخ زواجها، وحقيقة القرابة بين روجر وبلدوين مسألة مقررة.

فإن الثروة ذاتها التي يتباهىٰ بها الآن جوسلين كانت قد سحبت بسخاء من ممتلكاته الخاصة، فثار لذلك حنق عنيف داخل فؤاده.

وبناء عليه تظاهر بالمرض واستلقىٰ في فراشه وأمر باستدعاء قريبه جوسلين بدون تأخير، وأسرع جوسلين فوراً إليه حيث لم يخش شيئاً ولم يكن لديه أي شك بشر مرتبط مع رحلته، وعندما وصل إلىٰ الرها وجد الكونت في قلعة المدينة في الجزء المعروف باسم رنغولات حيث كان مستلقياً في غرفة داخلية، فدخل جوسلين عليه وبعدما أدى التحية المألوفة استفسر عن صحته فأجابه بلدوين: «لقد تحسنت كثيراً بفضل نعمة الله وأكثر مما تتمنى». ثم تابع يسأله: «هل تملك يا جوسلين أي شيء لم أعطك إياه؟» فأجاب جوسلين: «لا شيء يا مولاي»، ثم سأله الكونت: «لماذا إذاً أنت جاحد وغافل عما أحسنته إليك ومنحتك إياه، وأنت تنعم بالرخاء والازدهار اللذين تدين بهما إلي؟ لماذا لا تتعاطف معي، وأنا المحسن إليك، في ضيقي الذي لم يحدث بسبب حماقة ارتكبتها، بل نشأ عن أسباب لا يستطيع أحد أن يتجنبها سواء أكان حكيماً أو بارعاً (لأن هذا لم يحدث ضد إرادة الرب)؟ لماذا لا تعيد جزءاً من كل ما منحتك إياه؟ والأكثر من ذلك إنك توبخني وتعيرني بالفقر الذي أرسلته السماء إلي، وكأنما هو نقيصة أو جريمة، فهل أنا بائس جداً ليتوجب علي أن أبيعك ما منحني الرب إياه وأهرب كما تطلب؟ سلّم الممتلكات التي أعطيتك إياها وأعد كل شيء منحتك إياه لأنك تصرفت بدناءة».

وبهذه الكلمات أمر الكونت بإلقاء جوسلين في السجن، حيث خضع بصورة مؤلمة ومدهشة لجميع أنواع التحقيقات والتعذيب حتى يتخلىٰ عن المنطقة بأسرها ويتخلىٰ عن كل شيء كان قد تلقاه كهدية من الكونت، وبعد ما جرد من جميع أملاكه غادر أخيراً الرها، وذهب في البداية إلىٰ بلدوين ملك القدس فقدم له وصفاً كاملاً لما حدث وأعلن عن نيته بالعودة إلىٰ بلاده[1].

وبعدما استمع الملك لقصته، منحه مدينة طبرية مع أراضيها ليحتفظ بها بحق دائم، ذلك أنه لاحظ أن جوسلين سيكون صاحب نفع كبير للمملكة ورغب أن ينال الدعم بمساعدة رجل عظيم من هذا القبيل.

يقال إن جوسلين قد حكم هذه المدينة مع توابعها بفعالية وحكمة طوال بقائه هناك،

---

(١) وليم هو الوحيد الذي يقدم شرحاً كافياً للشجار بين بلدوين وجوسلين، ربما كانت هنالك أسباب أخرى وأيدت المصادر العربية خبر عزل جوسلين وكذلك فعل بعض المؤرخين اللاتين وحدث العزل في سنة ١١١٣ (انظر هاغنمير «أعمال الفرنجة» ص٤٧٧ ـ الحاشية ٦).

وقد وسع ممتلكاتها بطريقة رائعة، وكانت مدينة صور ما تزال خاضعة لسلطة الكفرة، ويروى أن جوسلين قد أنهك سكانها كثيراً باتباعه سنن أسلافه.

وعلى الرغم من أنه كان بعيداً عنهم بعض البعد، حيث قامت الجبال بينهما فإنه شن الغارات إلى داخل أراضيهم وأنزل بهم خسائر كبيرة.

٢٣ - زلزال ضخم يضرب منطقة أنطاكية. البرسقي الحاكم التركي القوي جداً ينهب تلك المنطقة.

ضرب زلزال كبير الأراضي السورية بأسرها ودمر مدناً وقلاعاً كثيرة تدميراً تاماً وذلك في العام ١١١٤ لتجسيد ربنا المسيح. وكان أكثر تهديماً في كليكية وأقليم أثور وسورية المجوفة [١]، فقد دمرّ المصيصة في كليكية مع أماكن كثيرة محصنةأخرى. كما دمر مدينة مرعش مع مناطقها الممتدة بحيث لم يبق سوى آثار من بعضها، ودمرت أبراج وحصون، وسبب انهيار الأبنية الضخمة الهلاك لعدد كبير من الناس، وأصبحت المدن الكبيرة مجرد أكوام من الحجارة وركاماً من المقابر للذين كانوا قد قتلوا وقبوراً للناس الذين دفنوا تحت الأنقاض، وهرب السكان بذعر من منازلهم في المدن خائفين من سقوط المنازل، وأملوا أن يجدو الطمأنينة تحت السماء المكشوفة، إلا أن الخوف مزق نومهم، لأنهم عاشوا في أحلامهم وسط القدر الذي كانوا قد خافوا منه في ساعات يقظتهم.

لم تقتصر هذه الكارثة الساحقة على مقاطعة واحدة بمفردها، فقد انتشرت في كل مكان وحتى إلى أكثر الأجزاء بعداً من الشرق.

في العام التالي جمع برسق [٢]، الحاكم التركي القوي، حشداً كبيراً من أهله، حسب عادته المألوفة ودخل منطقة أنطاكية بنية عدوانية، وخيم بين حلب ودمشق، بعد أن اجتاز تلك المقاطعة بأسرها، لينتظر فرصة لشن الغارات هنا وهناك على أراضينا، وقلق طغتكين [٣]، ملك دمشق، قلقاً شديداً إزاء هذه الحملة؛ وخشي كثيراً من أن تكون قد

---

(١) كانت الزلازل كثيرة الحدوث، وكانت قد حدثت هزات في فلسطين في العام الفائت، وكان لهذه الهزة الأكثر تدميراً آثاراً ونتائج في كل مكان من شمال سورية خلال الأسبوعين الأخيرين من شهر تشرين الثاني من عام ١١١٤.

(٢) كان برسق بن برسق الأول، الذي شارك في استيلاء السلاجقة على سورية. وكان نفسه محارباً مشهوراً على الرغم من أن والده ومعلوكه الذي تبنى اسمه قد أحجبا نوره.

(٣) كان طغتكين، الذي يدعوه وليم (ظهير الدين) قد عين أتابكاً لدقاق. وتزوج أم دقاق، وعندما توفي الأخير في عام ١١٠٤ أصبح الحاكم الحقيقي لدمشق على الرغم من أنه استمر بشكل اسمي أتابكاً لابن دقاق.

انطلقت لتثير المتاعب له ولمملكته أكثر من إثارتها ضد المسيحيين الذين كان الأتراك قد اختبروا قوتهم مراراً وتكرار. لأن موت النبيل مودود، الذي اغتيل في دمشق، ألصقت تهمته به، وبات من المعتقد أنه كان عارفاً تمام المعرفة بالأمر وأنه تم بالتدبير والاتفاق معه.

وهكذا، عندما علم طغتكين أن الأتراك كانوا قد وصلوا وكان مدركاً تماماً لأهدافهم فقد أرسل رسلاً بهدايا نفيسة إلىٰ الملك وإلىٰ أمير أنطاكية؛ وتوسل إليهما أن يمنحاه هدنة مؤقتة، وعرض تقديم الرهائن ووعد مقسماً أنه سيحافظ طوال زمن الهدنة على حلفه بإخلاص مع المسيحيين في كل من المملكة والإمارة.

وكان أمير أنطاكية قد ناشد الملك في هذه الأثناء من أجل المساعدة، لأنه عرف أن الأتراك كانوا قريبين جداً من أراضيه وقد تلقىٰ تقارير كبيرة تشير إلىٰ أنهم كانوا يحاولون غزو بلاده. كما دعا أيضاً طغتكين الذي كان مرتبطاً بالمعاهدة معه، للقدوم إليه مع قواته.

كان الملك قلقاً قلقاً كبيراً حول مصالح البلاد وازدهارها. فجمع قواته بدون إضاعة للوقت، وزحف إلىٰ هنالك بصحبة بونز كـونت طرابلس وبمرافقة مجموعة كبيرة من الفرسان، ووصلوا خلال أيام قليلة إلىٰ المكان المنشود، حيث كان الأمير قد حشد جنوده، وكان طغتكين قد وصل قبل الملك وجيشه، لأنه كان أقرب منه، وانضم إلىٰ معسكر المسيحيين كحليف لهم

ثم اتحدت الفرق المختلفة في قوة واحدة ووجه الزحف نحو مدينة شيزر حيث قيل إن الجيش المعادي كان معسكراً حولها، وعندما علم الأتراك بهذه الحركة أدركوا أنهم لن يتمكنوا من مقاومة قواتنا دون التعرض لخطر كبير، وهكذا، تظاهروا بالانسحاب وكأنهم ليس لديهم أية نيّة بالعودة، ونتيجة لذلك فرق المسيحيون قواتهم أيضاً وعادوا إلىٰ ديارهم[1].

٢٤ ـ أهالي عسقلان يحاصرون يافا. اقتراب الملك يروعهم فيعودون إلىٰ وطنهم دون أن يحققوا هدفهم.

بينما كان الملك منشغلاً على هذه الصورة في منطقة انطاكية، انتهز أهالي عسقلان الفرصة، التي قدمها غيابه مع معظم جنوده، ليحاصروا مدينة يافا، وكان قد وصل قبل وقت قصير أسطول مؤلف من سبعين سفينة لمساعدتهم من مصر، وأرسلت هذه السفن أمامهم لتستولي علىٰ الشاطىء الواقع بالقرب من يافا، وتبعه الجيش البري، البالغ تعداده عدة آلاف من الجند، برايات منشورة وظهر أمام المدينة فجأة.

---

(١) حدثت هذه الحملة في أواخر الربيع وصيف ١١١٥.

وحالما علم الناس الموجودن في الأسطول أن القوات البرية قد وصلت، قفزوا بتلهف من السفن وكانوا مستعدين للمهاجمة من مواقع قريبة. وطوقت المدينة من جميع الجهات، وشن الجند لدى تلقيهم الإشارة المتفق عليها، هجوماً ضارياً على جميع النقاط، لكن سكان يافا أبدوا مقاومة شديدة، وعلى الرغم من أنهم كانوا قلة، وغير مساوين لقوة أعدائهم، كانوا يحاربون من أجل زوجاتهم وأطفالهم وحريتهم وبلدهم، لا بل دفاعاً عن كل شيء جدير بأن يموت الإنسان في سبيله، فقد حصنوا الأبراج والأسوار بشكل قوي بقدر الإمكان، وردوا العدو إلى الوراء بقسيهم وبالمنجنيق وبالقذائف المرميـة من الآلات الأخرى، ولم يسمحوا له بالاقتراب من الأسوار، وأحبطت آمال أهالي عسقلان، فقد كانوا قد توقعوا أن يجدوا المدينة بلا مدافعين عنها، وكانوا قد صنعوا سلالم للتسلق، كافية في ارتفاعها وأعدادها للانقضاض، كما اعتمدوا بثقة، على الشرفات وبالوصول إليها حالاً وبدون اضطراب، إلا أن مقاومة المسيحيين كانت شجاعة جداً بحيث لم تتوفر أية فرصة لوضع هذه السلالم على الأسوار، وبالفعل، لم يسمح لهم إلا بصعوبة بقذف القذائف من أي نـوع على المدافعين الموجودين في الأبراج، لأن الرب كان قد نظر بعطف نحو الأهلين حيث لم يشعـروا بـأي خـوف مـن العـدو الذي طوقهم وكانوا واثقين بالمساعدة السماوية.

وكانت أبواب المدينة مصنوعة من الخشب وبدون غلاف من النحاس أو الحديد، وأحرقها المهاجمون جزئياً بقذف النار نحوها ببراعة، غير أن إحراقها لم يكن كافياً لإلحاق الأذى الكبير بسكان المدينة أو ليجعل موقفهم لا يمكن الدفاع عنه.

وأخيراً أدرك أهالي عسقلان بعد عدة أيام أن جهودهم لا تواجه النجاح، فرفعوا الحصار وعادوا إلى وطنهم خشية أن يأتي الناس الموجودون في المنطقة المجاورة لنجدة المدينة المحاصرة، واستفاد الأسطول من رياح مواتية وانسحب إلى ميناء صور.

وبعد عشرة أيام جمعوا حشداً ضخماً من شعبهم وغادروا عسقلان خلسة حيث كانوا راغبين أن يعرفوا فيما إذا بإمكانهم مباغتة أهالي يافا وهم غافلون عن الحراسة، غير أن أهالي يافا، المعتادين على مثل هذه الأساليب، كانوا متيقظين، وحافظوا على حراسة مستمرة في الليل في نوبات متتابعة بحيث لا يمكن رؤيتهم أبداً غير مستعدين وهكذا، عندما رأوا فيالق العدو قد عادت وهي مستعدة لتجـديـد الحرب، صعـدوا الأبـراج والشرفـات بشجـاعـة، وازدادت شجاعتهم كثيراً عندما لاحظوا أن قوة العدو أقل من سابق عهدها وأن أعداده قـد تضاءلت، لأن الأسطول الذي كان مصدر خطر كبير عليهم من قبل، قد أبحر الآن ولن يتمكن من العودة بسهولة، وازدادت ثقتهم قوة أيضاً بأنباء أفادت أن الملك سيصل حالاً

وحيث جعلهم هذا النبأ أكثر جرأة، فقد حاربوا بثقة أكبر، وقتلوا عدداً كبيراً من العدو بتقلبات للحظ متنوعة حافظوا خلالها على ثباتهم، واستمر الهجوم نحو سبع ساعات بدون توقف، ثم استدعى الكفرة رجالهم، بعدما لاحظوا أن جهودهم كانت عقيمة، وعادوا إلى عسقلان[1].

٢٥ - برسق يغير ثانية علىٰ أراضي أنطاكية. الأمير روجر يزحف ضده مع أحلافه فيمزق صفوفه ويجبره على الفرار.

كان هذا هو الوضع في المملكة آنذاك، وكان برسق قد تظاهر بالفرار من منطقة انطاكية عند اقتراب الملك والنبلاء الآخرين، لكن عندما ارفض جمع الملك وأمير أنطاكية وطغتكين أيضاً، وعاد كل منهم إلىٰ بلاده لينكب علىٰ تصريف أموره الخاصة، فقد أدرك أنه لن يكون من السهل بالنسبة لهم إعادة تجميع قواتهم ضده، وبناء عليه، عاد إلىٰ أنطاكية وبدأ يجتاح المنطقة بأسرها، فأحرق المزارع والأماكن النائية وسلم إلىٰ الجند كأسلاب وغنائم كل شيء وجده خارج الأماكن المحصنة، وقسم قواته إلىٰ زمر وأرسلها في اتجاهات متنوعة لتواصل أعمال القتل في كل مكان، وقتل وأسر أي شارد غافل التقىٰ به في الحقول أو علىٰ طول الطريق العامة، ولم تقتصر المعاناة علىٰ الأماكن التي لم تكن محصنة، فحتى المدن المحصنة استولىٰ عليها بالقوة، فقد جرى تدمير المعرة وكفرطاب تدميراً كاملاً، وقتل جميع سكانها أو أسروا، وبالاختصار، استولىٰ الكفرة علىٰ المنطقة بأسرها ونقلوا المغانم يومياً واتخذوا المسيحيين كأسرىٰ لهم.

عندما علم أمير انطاكية بهذه الأحوال استدعىٰ لمساعدته كونت الرها، وانطلق بنفسه من أنطاكية في الثاني عشر من شهر أيلول ووصل بدون إضاعة للوقت إلىٰ الروج مع قواته، وأرسل الكشافة على الفور ليتحققوا من حالة العدو وخططه وعبأ الأمير في هذه الأثناء صفوف قواته للمعركة ورتبها واستعد بشجاعة للصدام، وعندما كان منشغلاً بحماسة بهذا الشكل يساعده الكونت بإخلاص في ذلك، وصله رسول بسرعة كبيرة أعلن أن العدو قد أقام معسكراً في وادي سرمدا وابتهج الجيش بأسره لهذا النبأ وكأنه قد أحرز النصر.

وعندما أبلغ برسق باقترابنا أمر جنوده أيضاً بحمل أسلحتهم والاستعداد للمعركة، وحض أتباعه الجنود على التصرف بشجاعة، وكان قد استولىٰ مع أخيه وعدد من أصدقائه علىٰ جبل مجاور يسمىٰ جبل دانيث وذلك ليحتاط لسلامته قبل أن يتقدم المسيحيون، واستطاع

---

(١) حدث هذا الهجوم علىٰ يافا في ٢٢ آب عام ١١١٥.

الإشراف على رجاله من هذا الارتفاع عندما حاربوا واستطاع اعطاء التعليمات اللازمة لمواصلة المعركة، وبدأت كتائب المسيحيين تتقدم برايات مرفوعة بينما كان منشغلاً بهذا الشكل.

كان بلدوين، كونت الرها، موجوداً في المقدمة مع فرقته. واندفع عندما لمح الأعداء غير آبه بأعدادهم الضخمة بهجوم ضار هزّ الجيش بأسره، وقذفت الكتائب الأخرى بأنفسها حاذية حذوه بقوة مماثلة إلىٰ وسط قوات العدو، وقاتلوا بالسيوف في قتال متلاحم وهم مصممون علىٰ الانتقام من المظالم التي أنزلوها بطغيان كبير بالفلاحين والفقراء، وحاول الكفرة في البداية ـ حيث كان أملهم قوياً في المقاومة ـ أن يدفعوا المسيحيين بشجاعة مثلى، إلا أنهم استداروا في النهاية وهربوا باضطراب كامل إزاء قوة الخصم والهجوم والمثابرة الرائعة للمقاتلين.

شاهد برسق من قمة الجبل تضاؤل قدرات قواته والنجاح المتزايد للمسيحيين فتخلىٰ عن رايته ومعسكره مع جميع الأمتعة واتخذ ما لزم من إجراءات لانقاذ حياته بالفرار برفقة أخيه والأصدقاء الذين كان قد أخذهم معه إلىٰ الجبل.

طاردت قواتنا بنشاط الجند المضطربين مسافة ميلين تقريباً، وأنزلوا ضربات ماحقة بين الهاربين بسيوفهم وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وبقي الأمير في ميدان المعركة مع عدد من قواته لمدة يومين منتظراً عودة رجاله الذي كانوا قد لاحقوا الأعداء باتجاهات متنوعة، وعندما رجعوا أمر أن تجلب جميع المغانم إلىٰ عنده، وخصص حصصاً موائمة للذين كانوا قد شاركوا في الانتصار، لأن الكفرة كانوا قد تخلوا عن معسكرهم ولاذوا بالفرار مهملين تماماً كميات المؤن الهائلة والثروات الضخمة التي كان يحتويها، وهكذا، لم يقتصر المسيحيون علىٰ الفوز بالمغانم والأسلاب التي كانت قد نقلت من جميع المناطق، بل استردوا أهلهم الذي كانوا قد أسروا وألقوا في السلاسل والسجون. وأعيد هؤلاء إلىٰ منازلهم وهم مبتهجون بالإضافة إلىٰ زوجاتهم وأولادهم وحيواناتهم ويقال إن العدو قد فقد في هذه المعركة أكثر من ثلاثة الآف رجل.

وبعدما جرى تنفيذ جميع هذه الأشياء أرسل الأمير أمامه عدداً من الخيول والبغال والأسرى، بالإضافة إلى ثروات وفيرة من كل نوع، ثم دخل أنطاكية كمنتصر وسط التهاليل المفرحة للناس[1].

---

(١) حدث الانتصار الكبير لروجر صاحب أنطاكية علىٰ برسق في ١٤ أيلوب عام ١١١٥. ولاحظ فولتشر بقناعة وورع أن الحلف السابق مع دمشق ضد برسق لم ينجز شيئاً (هاغنمير، فولتشر، ص٥٨٨ ـ ٥٩٠).

٢٦ - اتهام البطريرك أرنولف بجرائم كثيرة. ذهابه إلى روما. الملك يبني قلعة في وادي عربة وراء نهر الأردن ويسميها مونتريال (الشوبك).

في هذه الآونة جرى إرسال أسقف أورانج الجليل، وهو رجل مقدر تقديراً عالياً بسبب حياته الدينية، إلى سوريا كممثل للبابا، ذلك أن البابا قد أبلغ بالسلوك الشائن للبطريرك ارنولف وبحقائق الحياة الفاسقة التي كان يحياها، وعندما وصل ممثل البابا إلى بلادنا أمر بعقد مجلس لجميع أساقفة المنطقة وأمر بمثول أرنولف أمامه، وأخيراً خلع آرنولف من المقر البطركي بموجب صلاحيات المقر البابوي ذلك أنه استحق ذلك كثيراً [١]، وحيث كان ما يزال يثق ثقة تامة بأساليبه الماكرة والتي كان قد أفسد بوساطتها عقول الجميع، فقد أجبر على عبور البحر والذهاب إلى الكنيسة في روما، وتغلب هنالك على شكوك البابا والكنيسة بأسرها بأقواله الرقيقة وباستخدام غير محدود للهدايا، وعاد إلى أراضية بتأييد عال من المقر البابوي، فسمح له أن يحتفظ بالكرسي البطركي في القدس حيث استأنف مهامه على الفور واستمر بالمحافظة على أسلوب الحياة الفاسق نفسه الذي كان قد سبّب عزله [٢].

لم يكن لدى المسيحيين في هذه الآونة أية قلعة وراء نهر الأردن، وبناء عليه، وبما أن الملك كان راغباً بتوسيع حدود المملكة في ذلك الموضع، فقد اقترح بمعونة الله أن يبني قلعة في الأراضي العربية التي تسمى أيضاً باسم وادي عربه، ويمكن للقلعة في هذا الموقع حماية الحقول الواقعة دونها وهي حقول كانت حراجية، كان على المملكة مهمة حمايتها جميعاً، من غارات العدو، وجند في سبيل تنفيذ مشروعه، قوات مملكته وقادها عبر البحر الميت، وعبر العربية الثانية والتي عاصمتها هي البتراء ووصل إلى الأراضي العربية، وبنى قلعة هنالك في موقع مرتفع مناسب تماماً لهدفه، وكانت محمية بشكل قوي بموقعها الطبيعي وبوسائل اصطناعية.

---

(١) ترأس برنغار، أسقف أورانج وممثل البابا باسكال الثاني المجمع الكنسي الذي خلع أرنولف، والشي المهم للتقسيم الحزبي المتأصل بين رجال الدين في فلسطين هو أن خصوم أرنولف كانوا قادرين على إقامة دعوى قوية جداً ضده على الرغم من تأييد الملك له، هذا وكانت المسألة مسألة أساسيّة وهي فيما إذا يجب على القدس أن تكون تحت سيطرة بطريركية أو ملكية، وكان أرنولف مناصراً قوياً للرأي في أن تكون تحت سيطرة ملكية وذلك على الرغم من أنه كان كاهناً، وخلق لهذا السبب العداوة السرمدية للكهنة المحليين الذين تمسكوا بالرأي المعاكس.

(٢) تحتوي رسالة باسكال الثاني، المكتوبة في ١٩ تموز من عام ١١١٦، مراجعة لسائر الدعوىٰ ضد أرنولف التي ظهرت في روما بصحبة عدد من رجال الدين القياديين لاستئناف قرار المجمع الكنسي المنعقد في القدس، وأعاد البابا أرنولف إلىٰ منصبه السابق، موافقاً على دحض الإتهامات بالسلوك الفاسق والنفوذ الملكي المفرط في انتخابه ومانحاً إياه بشهامة الإعفاء من تهمة الميلاد الكهنوتي (انظر إ. دي. روزير «المجمع الديني المقدس في القدس» ص ١١ - ١٣). وكانت كراهية وليم لأرنولف كبيرة جداً بالنسبة له وقد منعته من المشاركة في شهادة البابا. ولا يوجد هنالك أي دليل ليؤيد اتهاماته الأخرى.

وعندما انتهى من بنائها، وضع حامية من الفرسان والجنود المشاة هنالك وأعطاها ممتلكات واسعة، وتم تحصين الموقع بالأسوار والأبراج والأسوار الأمامية وبخندق، وجهزت تجهيزاً جيداً بالأسلحة والأطعمة والآلات الحربية، وحيث كان مؤسسها ملك، فقد منحها اسماً مشتقاً من منزلة ملكية وسماها مونتريال[1] [الشوبك]. وامتاز الموقع بتربة خصبة تنتج مؤناً وفيرة من الحبوب والخمرة والزيت، وعلاوة على ذلك، فهي مشهورة بشكل خاص بموقعها الصحي والبهيج، وسيطرت هذه القلعة على جميع المنطقة المجاورة لها.

٢٧ ـ ادراكاً منه لقلة السكان في المدينة المقدسة الملك يجلب المسيحيين من الأراضي العربية. ثم يعطيهم دوراً ويجعلهم سكاناً للمدينة.

في هذه الآونة لاحظ الملك بقلق كبير أن المدينة المقدسة، حبيبة الله، كانت خالية من السكان تقريباً، حيث لم يكن هنالك عدد كاف من الناس لمواصلة المشاريع اللازمة للمملكة، وبالفعل لم يكن هنالك عدد كاف لحماية المداخل إلى المدينة وللدفاع عن الأسوار والأبراج من خطر هجمات معادية مفاجئة، وهكذا، فكر كثيراً بالمسألة وقلب الأمر في ذهنه وتكلم مع آخرين بخصوص خطط لإعمارها بالناس المؤمنين، عباد الرب الحقيقي، وإن الناس الذين كانوا يسكنون في المدينة عندما تم الاستيلاء عليها بالقوة، قد قتلوا من غير استثناء إلى آخر رجل منهم، وإذا حدث ونجا واحد منهم لم يسمح له بالبقاء في المدينة، حيث أن السماح لأي امرىء لا ينتمي إلى العقيدة المسيحية بأن يعيش في مكان مقدس جداً بدا مثل تدنيس المقدسات بالنسبة للزعماء في عبادتهم للرب، وكان أهالي بلدنا قليلين جداً ومعوزين لدرجة أنهم لم يستطيعوا شغل شارع واحد إلاّ بصعوبة، بينما قللت المحن والمصائب الكثيرة تعداد المسيحيين السريان، الذين كانوا في الأصل سكان المدينة، وهي المحن التي كابدوها في زمن العدوان بحيث اضمحلت أعدادهم وباتت لا شيء تقريباً، ومنذ أيام قدوم اللاتينيين إلى سوريا وخاصة عندما بدأ الجيش بالزحف إلى القدس بعد الاستيلاء على أنطاكية بدأ الكفار من أبناء جلدتهم بالإساءة إليهم وتسبيب الأذى بشكل كبير إلى عبيد الرب هؤلاء حيث قتلوا الكثيرين منهم لأتفه الأسباب ولم يوفروا المسنين ولا العجزة، وارتاب المسلمون بهم كثيراً ولم يثقوا بهم ذلك لأنهم اعتقدوا أن هؤلاء الناس هم الذين استدعوا ملوك الغرب بوساطة رسلهم ورسائلهم، هؤلاء الملوك الذين قيل إنهم قدموا لإبادة الكفرة.

شعر الملك أن مسؤولية تخفيف عجز المدينة توقفت عليه، وبناءً عليه أجرى بحثاً دقيقاً

(١) بنيت قلعة الشوبك (مونتريال) في البداية كقلعة للصليبيين في خريف عام ١١١٥ وتم تحسينها كثيراً فيما بعد، حيث كان عليها أن تشغل دوراً كبيراً في العقود التالية.

بشأن تأمين مصدر يتمكن الحصول منه على السكان، وعلم في النهاية أن العديد من المسيحيين كانوا يعيشون في قرى واقعة فيما وراء الأردن في بلاد العرب تحت شروط قاسية من العبودية والجزية المفروضة، فأرسل الرسل إلى هؤلاء الناس ووعدهم بتحقيق شروط أفضل لهم، وحاز خلال فترة قصيرة من الزمن على الرضا بقدوم بعضهم مع زوجاتهم وأبنائهم وقطعانهم ومواشيهم وجميع مقتنياتهم، وجذبهم إلى هناك روعة المدينة وحبهم لشعبنا وللحرية، وألقى العديد منهم نير العبودية القاسي، وقدموا حتى بدون دعوة إلى حيث يتمكنون من الإقامة في المدينة الجديرة بالرب، ومنح الملك هؤلاء قطاعات المدينة التي بدت بحاجة ماسة لهذه المعونة، وامتلأت المنازل بهم[1].

٢٨ - بناء على اقتراحات رجال الدين، الملك يطلب من البابا إخضاع جميع المدن التي استولى عليها للكنيسة في القدس. تسلم عدة رسائل حولها.

في هذه الأثناء قرر الملك، (ربما بناء على اقتراح رجال الدين) إرسال مبعوثين إلى روما لعرض بعض المطالب على البابا، وكان المحتوى العام لهذه العروض كالتالي: «تصبح جميع المدن والأقاليم، التي قد يتمكن من الفوز بها بمشيئة الله بوساطة شجاعته كمحارب ومن خلال عنايته الملكية، وكل ما ينقذه بهذه الطريقة من سلطة العدو بقوة السلاح، تحت سلطة الكنيسة وحكمها في القدس، وقد حصل بخصوص هذه المسألة على أمر بابوي رسمي اعتبرنا محتوياته جديرة في أن تدرج في الرواية الحالية[2]: «التحيات والمباركات الرسولية من باسكال خادم عبيد الرب إلى صاحب الأمجاد بلدوين ملك القدس

لقد سببت الفترة الطويلة لملكية الكفرة ولحكمهم الإستبدادي اضطراباً بخصوص حدود ممتلكات الكنائس التي كانت وما تزال في مناطقك، وحيث أننا بعد دراسة حقة غير قادرين على تعيين حدود دقيقة لها، رأينا من الإنصاف أن نوافق على مطلبك، وبما أنك

---

(١) ظلت مشكلة تأمين ما يكفي من العمال لمدينة القدس مسألة متعبة للحكام طوال فترة السيطرة اللاتينية عليها.

(٢) إن ادراج هذه الوثائق المتعلقة بتنظيم الكنيسة في هذه المرحلة محيّر بعض الشيء، كما أن المشكلة التي يهتمون بها أثارت انتباه وليم بشكل طبيعي كرئيس أساقفة صور وكبطريرك محتمل، وكان قد تقصاها بشكل تام خلال الفترة الواقعة من عام ١١٧٥ وحتى ١١٧٨ إن لم يكن أبكر من ذلك. هذا ولم تبد مادة كهذه موائمة جداً لمؤرخ ملكي، كما يعترف هو بذلك، ولذلك فإن التعليل الأفضل والأكثر قبولاً لإدراجها هو أن وليم افتقر لمادة كافية لحكم فولك والأعوام الأخيرة لبلدوين الثاني. وكان بإمكانه أن يملأ ذلك الفراغ بإدراج مادة كهذه من السجلات، وبعد أن اتخذ القرار، أجبر أن يدرج هنا هذه الوثائق المتعلقة ببداية المشكلة، ويلقى هذا التعليل تأييداً أبعد من حقيقة أن هذه الوثائق أدرجت في هذه المرحلة أي بالقرب من نهاية فترة حكم بلدوين عوضاً عن مكانها المناسب وهو حوالي خمس أو ست سنوات سبقت.

عرضت نفسك عن إيمان لمخاطر شديدة في سبيل مجد الكنيسة في القدس فإنني أقرر أن تكون جميع مدن الكفرة التي استوليت عليها أو ستستولي عليها بعد ذلك تحت حكم الكنيسة وسلطتها، وعلاوة على ذلك، فإني آمر أن يكون أساقفة هذه المدن حذرين ليظهروا الطاعة للبطريرك كما يظهروها لمطرانهم، وبذلك يقوى بمساعدتهم له، وبالمقابل يمضون بسرعة نحو الوئام، مما يذكيهم ويمكنهم معا من إنجاز أشياء عظيمة لمجد الكنيسة في القدس وبهذا يـمجدّ الرب القدير بحملات [الصليبيين].

صدر في اللاتيران في اليوم الخامس قبل انقضاء الاسبوع الثاني من تموز [1] ».

ووفقاً لمطلب الملك بلدوين وضمن المعطيات نفسها منح البابا باسكال امتيازات للبطريرك غبلين ولخلفائه من بعده إلى الأبد، وقد أدرجنا نسخة من هذا الأمر في الرواية الحالية، ونصه كما يلي:

« من الأسقف باسكال خادم عبيد الرب، إلى أخيه المبجل غبلين بطريرك القدس، وإلى خلفائه التالين له حسب القانون الكنسي.

تتغير ممالك العالم تمشياً مع تغييرات الزمن، والأحوال؛ ولهذا السبب، يبدو من الحكمة أن تتغير حدود الأبرشيات الكنسية وتتحول في مناطق كثيرة، لقد حددت حدود الكنائس في آسيا في الأزمان الغابرة، إلا أن هذه التقسيمات اضطربت نتيجة تدفق مختلف الشعوب ذات العقائد المتباينة، غير أن مدينتي القدس وأنطاكية قد أعيدتا في زمننا بفضل الله مع ضواحيهما ومناطقهما المتاخمة إلى حكم الملوك المسيحيين ولذلك علينا أن نضع يدنا على التغيير والتحويل اللذين قضت السماء بهما تمشياً مع حركة الأزمان، وعلينا أن نعيد ترتيب ما يحتاج إلى إعادة ترتيب، وبناء عليه، إننا نمنح الكنيسة في القدس المدن والأقاليم التي تم الفوز بها بفضل نعمة الرب من خلال جهود الملك الماجد بلدوين والجيوش التابعة له.

ولهذا السبب إننا نمنح أيها الأخ الحبيب والأسقف الشريك غبلين لك ولخلفائك، ومن خلالك، إلى الكنيسة المقدسة في القدس بالحق البطركي والمطراني، وبكلمات هذا الأمر الحالي، نمنحك حكم وتصريف شؤون جميع المدن والأقاليم التي أعادتها النعمة السماوية إلى سيادة الملك المذكور، أو ستتلطف بإعادتها في المستقبل، لأنه من المناسب أن تحصل كنيسة الرب على التشريف الذي تستحقه حسب رغبات جنودها المخلصين ألا وهو أن تتحرّر من نير الأتراك والعرب، ويجب أن تُمجّد بوفرة أعظم في أيدي المسيحيين ».

---

(١) صحح روهرخت هذا التاريخ إلى ٨ حزيران ١١١١ (روهرخت « الوثائق » رقم ٦٠).

أصبح برنارد بطريرك انطاكية، ذو الحياة المبجلة، ساخطاً جداً إزاء هذا المرسوم، لأنه بدا يعزز الإساءة لكنيسته، فأرسل المندوبين فوراً إلى الكنيسة في روما لتقديم شكوى ضد هذا العمل وضد الإساءة الكبيرة التي اقترفت بحقه وحق كنيسته، كما أرسل رسائل اتهم فيها البابا والكنيسة بأسرها بالإثم بخصوص هذه المسألة، وكان البابا راغباً بتخفيف غضبه لهذا كتب برد جاء نصه على النحو التالي:

« من باسكال الأسقف وخادم عبيد الرب إلى أخيه المبجل برنارد بطريرك أنطاكية التحيات والتبريكات الرسولية؟

على الرغم من أن كرسي روما يبرز جلياً بين الكراسي الرسولية الأخرى حيث جعلته النعمة السماوية لامعاً بموت القديس بطرس فيه بجسده، قام حب قوي وتعاطف بين أساقفة روما وانطاكية بحيث لم يبد أن هنالك أي اختلاف بينهما، لأن بطرس نفسه جعلهما لامعين.

لقد تغيرت أشياء كثيرة خلال الفترة التي تدخلت فيها سيطرة الكفرة في هذه الوحدة القائمة بين هذين الرئسين المعتمدين للكنيسة، ونحمد الرب أنه أعاد في زمننا حكم المسيحيين إلى مدينة انطاكية.

ولذلك يجب يا أخي العزيز ان تستمر تلك الوحدة القوية ذاتها والحب بيننا، وعليك ألا تدع لأي إحساس، أننا نريد أن نذل كنيسة أنطاكية أو نهينها بالدخول إلى عقلك، وإن كنا قد كتبنا عن غير قصد إلى الكنيسة في أنطاكية أو إلى كنيسة القدس أي شيء بخصوص حدود الأبرشيات التي يمكن أن تستثنى، فلا ينبغي أن يُنسب إلى حقد أو طيش، كما ينبغي ألا يُثار النزاع بيننا لهذا السبب، لقد سبب لنا الموقع البعيد للأماكن والتغييرات التي حدثت في الأسماء القديمة للمدن والأقاليم شكاً وارتياباً كبيرين؛ وعلاوة على ذلك، لقد كانت رغبتنا العظمى دائماً وهي رغبة ما تزال قريبة من قلبنا، أن نشجع أحوال السلام بين الإخوان بدلاً من النزاع، وأن نحفظ لكل كنيسة حقوقها وشرفها.

أعطى في اللاتيران في اليوم السابع قبل انقضاء الاسبوع الثاني من شهر آب »[1].

وتعبيراً عن مشاعره حول هذه المسألة بالإضافة إلى هدفه في منحه لملك القدس والكنيسة فيها التنازل المتضمن من مراسيمه كتب البابا الرسالة التالية إلى البطريرك برنارد.

« من الأسقف باسكال خادم عبيد الرب إلى زميله بالأسقفية بطريرك أنطاكية، التحيات والتبريكات الرسولية.

(١) صحح روهرخت هذا التاريخ إلى ٨ آب ١١١٢ (روهرخت «الوثائق» رقم٦٦).

كما كنا قد كتبنا في رسالة أخرى إلى إخوتـكم، إننا نقدرك مع الكنيسة الموكلة لعنايتك تقديراً صادقاً، كما أننا لا نرغب في انقاص مكانتك وسمو منزلتك بأية وسيلة من الوسائل، ونرغب أن تتم المحافظة على رفعة مكانة بطركية أنطاكية، والتي تمت المحافظة عليها في الأزمان الماضية، بشكل سليم دائماً وحسب إرادة الرب، كما يجب ألا تعكر حبك أبداً الهبةُ، التي منحناها لابنتا بلدوين ملك القدس وفقاً لمطلب مندوبيه، وإذا تفحصت بعنايه المعنى الأعمق لرسالتي فستجد مصداق هذا، فهي مكتوبة على النحو التالي: «لقد سببت الفترة الزمنية الطويله لتملك الكفرة وحكمهم الاستبدادي اضطـرابـاً بخصـوص حـدود ممتلكـات الكنائس التي كانت وما تزال في مناطقك، وبناء عليه بما أننا لسنا قادرين بعد دراسة دقيقة أن نخصص حدوداً مبينة لها، رأينا من الإنصاف أن نوافق على مطلبك، وبما أنك عرضت حياتك بإخلاص لمخاطر شديدة من أجل تمجيد الكنيسة في القدس فإنني أوافق أن تكون جميع مدن الكفرة التي استوليت عليها أو ستستولي عليها بعد ذلك خاضعة لحكم تلك الكنيسة وسلطتها.

ينبغي عليك أن ترحب بروح الفهم ذاتها بالكلمات التي كتبناها إلى غبلين بطريرك القدس ذي الذكرى السعيدة، بخصوص المدن والأقاليم التـي تم الفوز بها، بفضل نعمة الرب، وبتبصر الملك بلدوين ودماء الجيوش التابعة له، وأما بالنسبة للكنائس التي ما يزال ممكناً أن يخصص لها مناطق محددة وتلك التي لم يفسد حدودها وممتلكاتها الاستيلاء الطويل للكفرة عليها واستبدادهم بها، ومدن هذه الكنائس ذاتها، فإننا نرغب أن نجعلها خاضعة لتلك الكنيسة التي تعرف أنها تخصها من الأزمان الأولى، لأننا لا نرغب أن نقلل من أهمية الكنائس حتى نزيد قوة الأمراء، ولا نعتزم أن نلحق الأذى بقوة الأمراء من أجل تمجيد السمو اللاهوتي».

أعطي في بينيفنتيوم Beneventum في اليوم الخامس عشر من شهر نيسان.

كما كتب أيضاً إلى الملك بلدوين بالأسلوب ذاته شارحاً هدفه في إعطاء الموافقة على تلك المطالب ذاتها ومشيراً إلى عدم وجوب إرهاق الكنيسة في أنطاكية:

«من الأسقف باسكال خادم عبيد الرب إلى بلدوين ملك القدس اللامع والمحبوب منه كثيراً. التحيات والتبريكات الرسولية.

إن الموافقة التي منحناها لمطلبك، المتضمنة أن جميع مدن الكفرة، التي استوليت عليها أو ستستولي عليها بعد ذلك، ستكون خاضعة لحكم الكنيسة في القدس وسموها، قد أزعجت بشكل كبير أخانا البطريرك برنارد وساء الكنيسة في أنطاكية، وبما أن منح تلك الموافقة كانت

(١) أشار روهرخت مجدداً هنا إلى أن التاريخ هو ١٨ ـ آذار ١١١٣ (روهرخت «الوثائق» رقم ٧٣).

بخصوص الكنائس التي اضطربت حدودها وممتلكاتها نتيجة للسيطرة الطويلة للكفرة، فقد تقدم بشكوى مفادها أن بطريرك القدس قد هاجم ـ برضى منك ـ حقوق الكنائس التى لا يوجد التباس بخصوصها، وهي كنائس حافظ عليها المقر البطركي في أنطاكية حتى في زمن الأتراك والعرب لأن أساقفة هذه الكنائس أظهروا الطاعة لبطريرك أنطاكية حتى عندما اضطهدهم حكم الكفرة الاستبدادي.

ولذلك أرسلنا رسائل إلى البطريرك المذكور، رسمنا فيها بالمحافظة على المنزلة السامية لبطريركية أنطاكية بشكل سليم في المستقبل حسبما حُدّد في الأزمان القديمة وتمت المحافظة عليه حتى الآن، وبناء عليه، إننا نحضّك بجدية، لا بل نأمرك أن لا تقترف هجمات من هذا النوع (حيث الحقيقة واضحة)، بل أن تتمتع جميع الكنائس باستخدام كامل للأراضي التي تخصها بشكل شرعي؛ لأننا لا نستطيع أن نخالف تشريعات آبائنا المقدسة بشكل واضح، كما لا نرغب أبداً أن نقلل من سمو الكنائس حتى نزيد من قوة الأمراء، أو نلحق الأذى بقوة الأمراء من أجل تمجيد المنزلة الكنسية، خشية أن يضطرب أمن الكنيسة في وسطك، الأمر الذي آمل أن يبعده الرب عنا.

كما نأمر أيضاً رجال الدين في القدس بوساطة هذه الوثيقة الحالية أن يقنعوا بحقوق الكنيسة في القدس وألا يحاولوا بظلم وجرأة اغتصاب الممتلكات المعروفة بشكل قاطع أنها تخص الكنيسة في أنطاكية، حيث أن هذه الممتلكات قد تركت كما يبدو، لممتلكات سلفية وكأراض محلية من أجل تمجيد الكنيسة وإقامة الطقوس الدينية. فليحمك الرب القدير في جميع الأشياء بيده اليمنى وليمنحك النصر على أعداء الكنيسة.

صدر في اللاتيران في اليوم الخامس عشر من شهر نيسان»[1].

٢٩ ـ الملك ينزل إلى البحر الأحمر لتفحص تلك المنطقة. الملك يعيد كونتس صقلية، التي كانت قد تزوجها، إلى بلادها بسبب المرض الذي أصيب به.

رغب الملك بلدوين بالحصول على معرفة أكثر تفصيلاً عن المناطق المجاورة وأن يبحث في وضع الأقاليم. وهكذا، عبر الأردن واجتاز وادي عربة في العام اللاحق[2] آخذاً معه مرشدين متمرسين وحاشية بدت له كافية من أجل هدفه، ثم عبر الصحراء الواسعة إلى البحر الأحمر ووصل إلى مدينة حليم القديمة، وهي مدينة كانت معروفة بشكل جيد لبني إسرائيل فيما

---

(١) أشار روهرخت إلى أن التاريخ هو ١٨ ـ آذار ١١١٣ (روهرخت «الوثائق» رقم ٧٣).

(٢) وقعت الحوادث التي تلت في سنة ١١١٦، وقد تعني إشارة وليم إلى «السنوات المقبلة» أن مواد السياق قد أقحمت في إحدى اللمسات الأخيرة للمخطوط.

مضى حيث كان فيها، كما نقرأ، اثنا عشر ينبوعاً وسبعون شجرة نخيل، وعندما وصل الملك إلى هذه المدينة، وجد أن سكانها قد هربوا، بعدما أنذروا في وقت سبق وصوله، إلى البحر المجاور وركبوا في زوارق صغيرة للنجاة من الموت، ثم عاد الملك، بعد استقصاء وملاحظة لهذه الأماكن، في الطريق الذي اجتازه مؤخراً إلى قلعة مونتريال التي كان قد بناها مؤخراً، وتقدم من هنالك إلى القدس حيث استبد به مرض مفاجىء وخطير أنهكه بشكل يفوق قوى الاحتمال، وأصابه وخز الضمير لأنه كان قد هجر زوجته الشرعية وتزوج امرأة أخرى وخاف من أنه كان على وشك الموت، وغمرته الندامة والتوبة وأفصح عن وساوسه لبعض الرجال المتدينين الذين يخافون الله، واعترف بإثمه ووعد أن يقدم تعويضاً عنه. ونصحه بعضهم أن يبعد الزوجة التي تزوجها مؤخراً وأن يسترد زوجته السابقة إلى المنزلة التي كان قد حرمها منها، ووافق على عمل هذا إذا بقي على قيد الحياة، وألزم نفسه بقسم لتحقيق ذلك [١].

ثم استدعى الملكة إليه وشرح المسألة بشكل كامل لها، وكانت قد تلقت تلميحات كثيرة عن غايته، حيث كان الكثيرون قد تكلموا عنها لها، واستاءت كثيراً بأن تم استدعاؤها من بلادها من أجل لا شيء بعد أن خدعها نبلاء المملكة الذين كانوا قد أرسلوا لاستدعائها واستعدت للعودة إلى بلادها في العام الثالث التالي لوصولها إلى سوريا والأسى والحزن يغمرانها بسبب الإساءة التي لحقت بها، بالإضافة الى خسارة ثروتها التي ذهبت هباءً منثوراً، وغضب ابنها غضباً شديداً بشكل يفوق التصور لأنها قد أعيدت، وحمل كراهية مميتة ضد المملكة وشعبها، هذا وعزز أمراء مسيحيون آخرون في أجزاء متنوعة من العالم قوة دولتنا وشدوا من أزرها إما بالقدوم شخصياً أو بإعطاء هبات سخية، إلاّ أنه وورثته لم يتصالحوا معنا حتى الوقت الحالي ولو لمدى كلمة وديه واحدة [٢]. فعلى الرغم من أنه كان بإمكانهم تخفيف فاقاتنا بالنـصيحة والمساعدة بسهولة أكثر من أي أمير آخر، إلاّ أنهم تذكروا دائماً مظالمهم وانتقموا بجور من الشعب بأسره بسبب خطيئة فرد واحد.

---

(١) لا يتوافق هذا بعض الشيء مع ما قاله وليم من قبل بشأن مصير أردا زوجته السابقة (انظر الكتاب ١١ الفصل ١).

(٢) ساهمت صقلية بحملة بحرية للمساعدة في الاستيلاء على مصر في عام ١١٧٤ وقد وصفها وليم بشيء من التفصيل [انظر الكتاب ٢١] واستنتج بروتز من تضارب هذه التعابير أن وليم كان قد كتب هذا الجزء من كتابه قبل عام ١١٧٤ (انظر هانز بروتز «دراسة لوليم الصوري»
Neves Archiv der Gesellschaft Furaltere deutsche Geschichts kun de pp 115 - 177).

٣٠ ـ بناء قلعة الاسكنـدريوم المعروفة باللغة الدارجة باسم سكاندليوم أمام مدينة صور.

كانت مدينة صور الآن المدينة الوحيدة الواقعة على الشاطىء ما تزال بحوزة العدو، وكان الملك تواقاً جداً لجعلها تحت سلطته، وهكذا، بنى قلعة بين عكا وصور في هذا العام نفسه بعدما كان قد شُفي من مرضه، واحتلت هذه القلعة الموقع ذاته الذي يقال إن الاسكندر المقدوني قد بنىٰ قلعة فيه، ليستولي على صور، وسماها الإسكندريـوم إشتقـاقـاً مـن اسمـه.

تقع الاسكنـدريـوم على الساحل وعلى بعد حوالي خمسة أميال من مدينة صور وتتم سقايتها بشكل جيد بالينابيع. وأعاد الملك بناءها على أساس اعتقاده أنها يمكن أن تكون بمثابة شوكة في جـنـب أهالي مدينة صور، ويمكن إلحاق الأذىٰ بهم منها، ويسمي الناس حالياً هذه القلعة، وبشكل خاطىء، باسم سكاندليوم. لأن «الاسكندر» يسمىٰ باسم «سكندر» في اللغة العربية، وكلمة الاسكندر يوم بـ سكاندريـوم وحيث أن حرف «الراء» يحول عادة إلى الحرف «اللام» فهي معروفة عموماً باسم سكـانـدليـوم[1].

٣١ ـ الملك يهبط إلى مصر. استيلاؤه على الفرما. استبدادمرض خطير به أثناء رحلته مات بسببه. دفنه في القدس إلى جانب أخيه.

نزل الملك في العام التالي إلى مصر مع قوة كبيرة لينقم من المصريين للأذى الذي ألحقوه به، واستولىٰ بهجوم ساحق على مدينة الفرما القديمة بالذات وتخلىٰ لرفاقه بالسلاح عن المؤن الموجودة فيها لينهبوها ويأخذوها غنيمة.

وكما كنا قد قلنا، الفرما مدينة قديمة تقع على الساحل، وهي قريبة من أحد مصبي النيل المسمى بمصب بحيرة المنزلة، كما تقع مدينة قديمة أخرى على هذا المصب وهي مدينة تنيس التي كانت شاهدة على المعجزات التي قام بها الرب أمام فرعون عن طريق عبده موسى، وخرج الملك بعد أن تم الاستيلاء على المدينة لزيارة مصب النيل هذا وأدهشته مياهه التي لم يكن قد رآها من قبل أبداً، وكان الأمر له أهمية خاصة بالنسبة له لأنه من المعتقد والرائج أن نهر النيل هوواحد من الأنهار الأربعة التي تنبع من الجنة، حيث ينقل ذلك اللسان جزءاً من مياهه إلى البحر، وأخذوا من هذا الخليج السمك المتوفر فيه بكثرة، ثم عادوا إلى المدينة المستولى عليها وتناولوا طعام الفطور المحضر من السمك الذي اصطاده، وبدأ الملك يعاني من ألم داخلي شديد عندما انتهى من تناول الطعام، واشتد الوجع في جرحه القديم أيضاً وسبب له آلاماً

---

(١) بنيت هذه القلعة في سنة ١١١٧.

شديدة لدرجة أنه يئس من الحياة من شدة خطورته، واعلن صوت المنادي على الفور أمر الرحيل، إلا أن مرض الملك ازداد، وأصبح الملك ضعيفاً جداً حتى أنه لم يتمكن من ركوب حصانه. ولذلك جلبت حمالة وضع عليها الملك وهو يتألم بشدة، وعبروا بهذه الطريقة وبدون توقف ذلك الجزء من الصحراء الممتد بين مصر وسورية ووصلوا إلى مدينة العريش، وهي مدينة ساحلية قديمة في تلك الصحراء، واستسلم الملك لمرضه هناك وأسلم روحه، وحملت الفيالق المتألمة، التي غمرها الحزن جثته من هناك إلى القدس، ونقل في يوم الأحد المسمى بيوم سعف النخيل إلى المدينة عبر وادي يهوشافاط، حيث كان الناس قد احتشدوا حسب العادة للاحتفال بيوم العيد. لقد توفي في العام ١١١٨ لتجسيد ربنا وهو العام الثامن عشر لحكمه، ودفن بأبهة ملكية إلى جانب أخيه في الموضع المسمى باسم الجلجلة في أسفل الكنيسة الموجودة هناك [١].

انتهى هنا الكتاب الحادي عشر

(١) يوم سعف النخيل هو ٧ - نيسان ١١١٨، والجلجلة كان اسم لبيعة في كنيسة القبر المقدس.

الكتاب الثاني عشر

بلدوين الثاني. اضطرابات في شمال بلاد الشام

١ ـ بلدوين، كونت الرها ينصب على العرش. الحديث عن شخصيته ونسبه.

كان الملك اللاتيني الثاني للقدس هو بلدوين دي بورغ المكنى أكيوليوس [١]، لقد كان رجلاً ورعاً يخاف الرب ومشهوراً بإخلاصه وبحنكته الكبيرة في الأمور العسكرية، وكان ينحدر من الشعب الإفرنجي من أسقفية الرايمز، وكان ابناً لهيو كونت رائل والكونتس النبيلة مليساند، ويقال إن هذه السيدة كانت واحدة من عدة أخوات ولدت العديد من الأبناء والبنات وأعداد الذين انحدروا منهن معروف لدى الذين يجرون دراسة دقيقة حول أنساب الأمراء [٢]، وكان بلدوين قد باشر رحلة الحج إلى القدس في موكب قريبه الدوق غودفري مع عدد آخر من النبلاء ألهبوا بروح العبادة ذاتها، وذلك عندما كان والده ما يزال حياً، وكان بلدوين أكبر أفراد الأسرة سناً، وكان، والده الآن متقدماً في السن، وخلّف وراءه أخوين وأختين في موطنه، حيث انتخب أحد أخويه، وهو غرفياس، فيما بعد أسقفاً على الكنيسة في الرايمز، وكان أخوه الثاني يدعى مانسيس، وأصبحت إحدى أخواته، وهي ماتيلدا، زوجة لصاحب قلعة فيتري، بينما تزوجت هودرينا وهي اخته الثانية نبيلاً قوياً وسامياً يدعى هربا أوف هرغسس وكان من ثمار هذا الزواج مانسيس أوف هرغس الذي أصبح فيما بعد كافل المملكة في أيام الملكة ميلساند [٣].

عندما توفي والد الملك بلدوين هذا، خلفه ابنه مانسيس، لأن بلدوين، الذي كان

---

(١) حرفياً حاد أو رفيع مدبب لعله شوكة.

(٢) يشير هذا التعبير إلى مهنة الإختصاصيين بعلم الأنساب التي لا بد وأنها نشأت منذ زمن الحملة الصليبية الأولى، وبالطبع، فقد كانت ـ هيرالدي ـ شعارات الأسر وشاراتها مشتركة في هذا، وكانت الشارات النسبية المعلنة كصور على دروع النبلاء قد أصبحت معقدة وهذا التطور دال على التغير الاجتماعي الكبير الذي كان قد حدث خلال هذا القرن. كما إن الإحلال الواسع للقوة محل القانون في الملكية ونقل الإقطاعات أعطى أهمية مضافة لمعارف الأنساب.

(٣) كانت الصلات العائلية لبلدوين دي بورغ معقدة جداً بسبب أعداد أقربائه المباشرين، وسعى وليم هنا لتقديم جزء فقط من هذه القرابات.

المولود الأول له، كان منشغلاً بالعناية بالمملكة الواقعة وراء البحار، وتوفي مانسيس دون أن يخلف أطفالاً، ثم تخلى أخوه غرفياس عن منصب رئيس أساقفة الرايمز، وتزوج خلافاً للقوانين الكنسية، واحتفظ بكونتية راثيل Rathel بحق وراثي [١]، ولم يخلّف إلاّ ابنة واحدة من هذا الزواج زوّجها لواحد من نبلاء نورماندي، وعندما توفي غرفياس خلفه هيوتيرس Huitiers بن ماتيلدا وهي الأخت التي تزوجت صاحب قلعة فيتري ولعل هذا القدر من المعلومات عن هذه الأمور كافياً بالنسبة للوقت الحالي.

٢ ـ سبب رحلة بلدوين إلى القدس حيث اختير ملكاً.

عند وفاة الدوق غودفري ذي الذكرى اللامعة والسعيدة، استدعي أخوه بلدوين الأول لاعتلاء عرش القدس، وتوج بمراسم لائقة مسؤولاً عن المملكة، وقد عين في ذلك الوقت قريبه بلدوين الذي نحن الآن بصدد الحديث عنه [٢] خليفته على كونتية الرها، حيث حكم الكونتية بقوة ونجاح لما يزيد على ثمانية عشر عاماً، وقد قرر أخيراً في العام الثامن عشر لحكمه زيارة سيده وقريبه ملك القدس، بعد أن أصبحت الأحوال في أراضيه في حالة من السلام تحسد عليها، ورغب في الوقت ذاته أن يزور الأماكن المقدسة من أجل الصلاة.

وهكذا، جرى إعداد الترتيبات الضرورية للرحلة، وعهد بأمور البلاد لواحد من خدمة المخلصين حيث كان يثق ثقة تامة في إخلاصه وحذره، ورتب الأمور من أجل سلامة المدن مثلما يفعل الرجل الحكيم والفطن، ثم بدأ الرحلة بصحبة موكب سام كما كان قد خطط من قبل.

لكن، عندما كان يواصل سفره التقى برسول نقل إليه خبراً، ثبت على أنه صحيح، أفاد أن الملك قد توفي في مصر، وقلق بلدوين إزاء نبأ وفاة سيده وقريبه قلقاً كبيراً، وليس ذلك بمستغرب منه، هذا ولم يتخل عن مواصلة الرحلة التي كان قد بدأها، بل حث السير نحو القدس، ووصل إلى هناك في اليوم الذي يسمى عيد سعف النخيل، وكان جميع الناس، حسب العادة، قد احتشدوا في وادي يهوشافاط للمشاركة بالطقوس الدينية الجليلة لليوم العظيم، وحدث بمصادفة عجيبة أنه عندما دخل الكونت ومرافقوه المدينة من أحد مداخلها،

---

(١) توضح أمثلة كهذه التسيب في الطريقة التي تم فيها التقيد بالقوانين الكنسية، وتطلب الأمر أعواماً من الجهد من الكنيسة خلال أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر لإيجاد تقييد متماسك تقريباً بقانون الكنيسة في وجه العادة المتأصلة.

(٢) انظر الكتاب العاشر الفصل الأول.

كان تابوت الملك يحمل في موكب جنائزي من الناحية المقابلة وهو متبوع، كما كان مألوفاً، بكامل قوة الجنود التي كانت قد نزلت معه إلى مصر[١].

٣ ـ وصف طريقة الإنتخاب. الحديث عن العمل البارز الذي أنجزه الكونت يوستاس أوف بولليون.

جُلبت جثة الملك إلى داخل المدينة المقدسة ودفن بإجلال إلىٰ جانب أخيه في كنيسة قيامة ربنا أمام المكان الذي يدعىٰ الجلجلة عند سفح الجبل، ثم اجتمع رجال المملكة العظماء، الذين كانوا موجودين لتعزية رؤساء الأساقفة والأساقفة ورجال الدين الآخرين التابعين للكنيسة، كما كان هناك البطريرك آرنولف وعدد آخر من الأمراء العلمانيين، وكان بينهم جوسلين، حاكم طبرية، الذي تكرر ذكره آنفاً، وكان رجلاً صاحب نشاط كبير، وكان قوياً بالقول والفعل.

وقدّمت آراء متنوعة حول المسألة التي عقد المؤتمر بخصوصها. واعتقد بعضهم أن عليهم الإنتظار حتى وصول الكونت يوستاس وألا يتدخلوا في حق الخلافة الوراثية القديم[٢]، وكان هذا الرأي قوياً بشكل خاص لأن إخوته ذوي الذكرىٰ الطيبة قد أداروا المملكة بنجاح بالغ، وكان حكمهم منسجماً ومرضياً للجميع، وقال آخرون: «إن أمور المملكة والضرورات الناشئة باستمرار لا تسمح بأعمال التأخير هذه، ولا تسمح لنا أن ننغمس في اتخاذ الإجراءات لمصلحة البلاد بسرعة، وإذا نشأ ظرف طارىء لن يكون هنالك أحد ليزحف بالجند أو ينسحب بهم أو ينكب على تصريف أمور المملكة، وهكذا إن إنعدام القائد يعرض رخاء المملكة للخطر[٣].

لقد ذكرت أن جوسلين كان رجلاً صاحب نفوذ كبير في المملكة، وكان قد عرف ما يدور بخلد البطريرك ووجده موائماً لآرائه الخاصة، ولذلك وضع حداً لاضطراب الزمر

---

(١) إشارة وليم إلىٰ عادات ممارسة تسبب بعض المصاعب، فهل يا ترى كان يفكر بالعادات التي كانت موجودة في أيامه، أو كان في ذهنه بعض السوابق التي مورست من قبل وأخذ بها الصليبيون؟ من الناحية العملية كان بلدوين أول ملك مع أنه كان ثاني حكام القدس اللاتين، ويبدو على هذا مبكر جداً للحديث عن «عادات» محلية تحكمت بإجراءات الدفن الملكية.

(٢) تثير الإشارة إلىٰ قانون «قديم» لمسألة الوراثة والخلافة أيضاً بعض المصاعب، ومما لا شك فيه كان هنالك ميل طبيعي لقبول فكرة الوراثة لكن الظروف تدخلت وستتدخل ثانية في مسألة القبول المين بمبادىء الوراثة (انظر ج.ل. لامونت «الملكية الاقطاعية في مملكة القدس اللاتينية ١١٠٠ ـ ١٢٩١» ص٨ ـ ٣٥).

(٣) لاحظ وليم هنا قوة الظروف الهائلة في تعديل الترتيبات القانونية أن ما كان يفضله هو ما يفضله المحامي بالنسبة للقانون.

والتردد حول الإقتراع، بالانحياز إلى الذين رغبوا بتعيين ملك على الفور، وقال: « إن كونت الرها موجود الآن، وهو رجل عادل ومبجل كثيراً، وهو قريب للملك، ونشيط وشجاع في الحرب وجدير بالإحترام من جميع النواحي، ولا تستطيع أية مقاطعة أو اقليم تقديم رجل أفضل منه، ومن الحكمة كثيراً اتخاذه ملكاً علينا وأن لا ننتظر أشياء مجهولة خطيرة ».

كان هنالك عدد كبير ممن اعتقد أن أقوال النبيل جوسلين قد صدرت عنه بإخلاص صادق لأنهم كانوا يعرفون تمام المعرفة المعاملة التي كان قد تحملها مؤخراً من الكونت، وهي مسألة تم وصفها من قبل، كما تردد في أذهانهم كلمات المثل القائل: « كل مديح صادر عن عدو وهو حق ». وبناء عليه، وثقوا باقواله ووافقوه عليها غير عارفين أن هدفه الحقيقي كان مختلفاً إختلافاً كلياً، لكن كما قيل، لقد قام بعمله لغايات مختلفة، فقد كان يحاول أن ينصب الكونت على العرش أملاً بأن يرث هو كونتية الرها في المستقبل [1].

وبما أن البطريرك آرنولف واللورد جوسلين قد تبنيا هذه الفكرة فقد جعل هذا الباقين يتخذون الرأي ذاته بسهولة، وهكذا، جرى انتخاب بلدوين ملكاً حسب رغبات الجميع وموافقتهم. ومُسح بالزيت ورسم ملكاً حسب العرف في يوم القيامة المقدسة الذي حل بالحال، ثم مُنح شارة التاج الملكية [2]. ومهما كان هدف البطريرك أو النبيل جوسلين حول هذه المسألة فقد حول الله برحمته النتيجة إلى نتيجة خيرّة، لأن بلدوين أظهر نفسه بتوجيه فضل الرب على أنه عادل وورع ويخاف الله؛ وكان ناجحاً في كل ما عمله.

ومع ذلك، فإن استقدامه لمنصب الملك يبدو على أنه كان شاذاً إلى حد ما، وفي الحقيقة أبعد الذين نصبوه بخداع الوريث الشرعي للمملكة من الوصول إلى حقه المشروع، حيث كان قد جرى إرسال كبار النبلاء إثر وفاة الملك لعرض العرش بإتفاق عام على يوستاس كونت بوللون وهو أخو الدوق اللامع غودفري وأخو الملك بلدوين، ولم نستطع أن نتحقق بشكل قاطع فيما إذا كان هذا قد تم تمشياً مع رغبة الملك الأخيرة أو بإجماع آراء أمراء المملكة، وزار المندوبون يوستاس وأقنعوه أن يذهب معهم حتى أبوليا بتقديم مسوغات شرعية أوضحت أن واجبه يقضي عليه بالموافقة، وفعل هذا بممانعة شديدة ومعارضة، وكان رجلاً ورعاً ويخاف الله، وكان الأخ الحقيقي والنظير المشابه لهذين الرجلين العظيمين وخليفتهما في الفضائل والمكانة الأخلاقية الرفيعة.

---

(١) لا شك أن هذه الدوافع قد استخرجت مما حصل، وهذا دليل مبكر على اهتمام وليم في التعرف إلى الدوافع لدى الرجال.

(٢) إن الانطباع بأن بلدوين قد توج في هذه المناسبة هو انطباع خاطىء. فقد احتفل بالتتويج في بيت لحم بعد أكثر من عام لحق (انظر الفصل ١٢).

وعلم هذا الرجل الجليل عند وصوله إلى أبوليا أن قريبه بلدوين كونت الرها قد جعل ملكاً للقدس خلال هذه الفترة وأصر المندوبون الذين كانوا قد أرسلوا لجلبه إلى المملكة، عليه أن يتابع سفره على الرغم من ذلك، وأعلنوا أن العمل الذي تم اتخاذه كان مخالفاً للقانون البشري والسماوي، وأنه كان مخالفاً لقانون الوراثة الشرعية الأكثر قدماً، ولا يمكن الأخذ به واستمراره[1]، ويقال إن الرجل الممتلىء بروح الرب قال مجيباً: «لست أنا الذي يدخل أي نزاع إلىٰ مملكـة الرب التي تلقت السلام عن طريق دم المسيح، تلك المملكة التي تخلى أخواي صاحبا الذكرى السرمدية عن أرواحهما الرائعة إلىٰ السماء في سبيل هدوئها واستقرارها».

وهكذا أعيد ترتيب الأمتعة واجتمع مرافقوه، ثم عاد إلىٰ بلاده على الرغم من كل الجهود التي بذلها المندوبون لإقناعه بالذهاب إلىٰ المملكة.

٤ ـ ما يتعلق بمظهر هذا الملك وعاداته وحديثه.

يروى أن الملك الجديد كان طويل القامة وذا مظهر أخاذ وملامح مقبولة[2]، وكان شعره الأشقر الرقيق مشوباً بالشيب، ووصل طول لحيته، مـع أنها كانت رفيعة، إلىٰ صدره، وكانت بشرته مشرقة ومتوردة بالنسبة لسنه، وكان متمرساً في استخدام السلاح، وبارعاً جداً في تدبير الخيل، وكان قد تمرس كثيراً في فن الحرب وكان حكيماً في حكم رجاله وناجحاً في حملاته، وكان لطيفاً ورحيماً وميالاً لأعمال الخير، وكان رجلاً متديناً ويخاف الرب، ومثابراً على الصلاة حتى أن يديه وركبتيه تصلبت من مداومة عباداته الدينية ومن الركوع المستمر، وعلى الرغم من أنه كان كهلاً، فإنه لم يعرف التعب عندما استدعته شؤون المملكة.

وبعدما وصل إلىٰ العرش بات شديد القلق حول كونتية الرها التي تركت دون حاكم، واستدعىٰ قريبه جوسلين، لأنه رغب طوعاً أن يعوض تعويضاً كاملاً عن الإساءة التي كان قد ألحقها به فيما مضىٰ، وعهد إليه بالمسؤولية الكاملة عن الكونتية بحكم كونه الرجل الوحيد

---

(١) لا يذكر فولتشر قصة السفارة إلىٰ يوستاس ورحلته إلىٰ أبوليا ولا بد لأي سفارة مثل هذه أن تكون قد عرفت قصة انتخاب بلدوين دي بورغ قبل مغادرتها القدس، هذا ويعتقد هاغنمير أن التتويج المؤجل لبلدوين الثاني يشير إلى أن ترتيب عام ١١١٨ اعتبر ترتيباً مؤقتاً وخاضعاً لقرار يوستاس، وستكون رحلة يوستاس إلىٰ أبوليا الاحتمال الوحيد غير المقبول في رواية وليم (انظر هـ.هاغنمير تاريخ «فولتشر» ص٦١٥ ـ الحاشية٨).

(٢) ص ٥٢١ ـ إن الإعتماد على الإشاعة لهذا الوصف لبلدوين الثاني هو موضوع هام في تأكيد تاريخ ميلاد وليم على أنه ليس قبل وفاة بلدوين بوقت طويل. قبل ذلك الوقت على الأقل ليكون قد سمح له بتكوين رأي شخصي عن هذا الملك.

الذي يعرف المنطقة معرفة جيدة. وحالما أدى جوسلين يمين الولاء أعطي الراية وسُلّم ملكية الرها [1].

ثم أرسل بلدوين في طلب زوجته وبناته وجميع أسرته في الرها وقد وصلوا إليه آمنين بسرعة عن طريق رعاية جوسلين واجتهاده، وكانت زوجته مورفيا ابنة أحد النبلاء الإغريق ويدعى جبرائيل وهو الذي تكلمنا عنه آنفاً [2]، وكان قد تزوجها عندما كان كونتاً وتلقى معها كمهر مبلغاً كبيراً من المال، وكانت قد ولدت له ثلاث بنات وهن: ميليساند وأليس وهودرينا، ثم ولدت له ابنة رابعة اسمها إيفيتا بعدما أصبح ملكاً.

رسم بلدوين ملكاً وتوج في العام ١١١٨ لتجسيد الرب في اليوم الثاني من شهر نيسان [3]، وكان البابا غالسيوس الثاني يترأس في ذلك الوقت الكنيسة الرومانية المقدسة، وكان برنارد البطريرك الأول للاتينيين في أنطاكية يحكم هناك، وكان آرنولف يترأس الكنيسة المقدسة في القدس، وهو البطريرك اللاتيني الرابع في تلك المدينة.

٥ ـ موت ألكسيوس امبراطور القسطنطينية. موت كل من البابا باسكال وكونتسة صقلية التي سبق أن كانت ملكة للقدس.

في هذه الآونة اختطف الموت ألكسيوس، امبراطور القسطنطينية، أسوأ مضطهد للاتين، وأزاله من وسط مشاكل هذا العالم، وخلفه ابنه جون، وكان هذا الإمبراطور إنسانياً أكثر بكثير مما كان والده ونظراً لفضائله الأخلاقية كان أكثر قبولاً لدى شعبنا بيد أن موقفه نحو اللاتينيين لم يكن موقفاً مخلصاً تماماً كما ستظهره الصفحات التالية [4].

كما توفي باسكال، البابا الروماني في العام السادس عشر من شغله لمنصبه البابوي، وخلفه غالسيوس، المعروف أيضاً باسم جون غاتنوس مستشار الكنيسة الرومانية المقدسة.

كما ماتت أيضاً الليدي أدليد، كونتسة صقلية التي كانت فيما مضى زوجة في الواقع وليس في الشرع للملك بلدوين المذكور آنفاً [5].

---

(١) على هذا إن اعتماد الرها الاقطاعي على القدس هو اعتماد شخصي أكثر من كونه اعتماداً أساسياً. وليس واضحاً فيما إذا حدث منح الرها لجوسلين في عام ١١١٨ أو ١١١٩.

(٢) انظر الكتاب العاشر فصل ٢٤، حيث وصف غبرييل بشكل صحيح بأنه كان أرمنياً عقيدته اغريقية.

(٣) هذا تاريخ اعتلاء بلدوين العرش لكن ليس تتويجه، وقد ذكره فولتشر أنه كان يوم عيد الفصح الذي كان في ١٤ نيسان ١١١٨ وليس ٢ ـ نيسان.

(٤) توفي ألكسيوس في ١٥ آب عام ١١١٨. وسيرد ذكر ابنه يوحنا بصورة مكررة فيما بين ١١١٨ ـ و١١٤٣ وخاصة في الكتابين الرابع عشر والخامس عشر.

(٥) انظر الكتاب ١١ الفصول: ١٥، ٢١، ٢٩.

٦ ـ الجيش المصري يدخل المملكة بقوات برية وبحرية. الملك يزحف للتصدي له ومعه جنده لكن لم يحصل قتال. موت آرنولف بطريرك القدس. اختيار غورموند ليحل محله.

في صيف السنة نفسها جمع أمير مصر والحاكم لها آنذاك [1] عدداً كبير من الجنود الفرسان والرجالة من جميع الأقاليم المصرية، واعتزم أن يدخل مملكتنا بالقوة بجيوش بحرية وبرية، ذلك أنه اعتقد أن الأمر سيكون سهلاً إما بإبادة شعب صغير كهذا قتلاً بالسيف، أو بإنزال الهزيمة بعناصره وسوقهم كمشردين من جميع الأراضي السورية؛ وهكذا، عبر الصحراء التي تقع بيننا وبين مصر بقوة كبيرة من الفرسان وحشداً لا يحصىٰ من الرجالة المدربين على رمي الحراب، وخيم أمام عسقلان.

وكان طغتكين، ملك دمشق، قد علم مسبقاً أن المصريين كانوا قادمين [2]، فجمع أيضاً جيشاً كبيراً إما بمبادرة خاصة منه، أو بناء على دعوة منهم، وركب طرقاً غير مطروقة حتى لا يواجه جيشنا، وعبر الأردن وانضم إلىٰ معسكر المصريين. وأمل أن يلحق الأذىٰ بنا بتعزيزه لقوة المصريين.

رست بعض السفن في عسقلان وذهبت سفن أخرىٰ إلىٰ صور لأنها كانت مدينة محصنة بقوة وذات ميناء موائم، وانتظرت هنالك الأوامر وفقاً لمشيئة السلطان وإرادة قائد الأسطول، هذا وكان ملك القدس قد توقع قدومهم منذ زمن طويل، وكان قد استدعىٰ في وقت سابق قوات مساعدة من أراضي أنطاكية وطرابلس، وركز قواته الخاصة في مكان في سهل فلسطين، وانطلق الآن لمقابلة العدو، واجتاز الموقع الذي كان يدعىٰ أسدود من قبل، حيث قامت فيه كما هو معروف إحدى مدن الفلسطينيين الخمس، وخيم بالقرب من المصريين. وكان الجيشان قريبين من بعضهما بعضاً إلى حد أنه استطاع كل منهما مراقبة معسكر عدوه من يوم لآخر.

وتلا ذلك انتظار بلغت مدته نحو ثلاثة أشهر تردد فيه الطرفان بالقتال، وخشي المسيحيون أن الأمر سيكون قاسياً بإثارة جيش ضخم مثل هذا ضدهم، وبالمقابل خاف العدو من قوة جنودنا وجرأتهم التي اشتهروا بها ومن براعتهم من القتال، وبعد طول انتظار قرر القائد المصري أن الأمر سيكون أكثر تعقلاً إذا قرر العودة إلىٰ الوطن بأمان بدلاً من أن يعرض نفسه ورجاله لحظوظ المعركة المبهمة، وهكذا، فقد عادت الحملة إلى مصر،

---

(١) كان الأفضل ما يزال مسيطراً على الامور في مصر.

(٢) انظر الكتاب ١١ ـ الحاشية ٣ ص ٥٥٥.

وحيث لم يكن هنالك أدنى ارتياب بوقوع العودة المفاجئة للعدو، فقد استأذن شعبنا الملك بالإنصراف وعادوا إلى أوطانهم بسرور.

وتوفي في هذه الآونة أرنولف بطريرك القدس، وكان إنساناً ذا مزاج أكثر اضطراباً، وكان غير آبه بالمسؤوليات المقدسة لمنصبه[1]، وعين في مكانه غورموند، وكان رجلاً مستقيماً ويخاف الله، وينتسب إلى الشعب الفرنجي وأتى من مدينة بقوغني Pecquigny الواقعة في أسقفية أفنز. وتلطف الرب لينجز أعمالاً كثيرة رائعة خلال أيام هذا الرجل لتعزيز المملكة وتقويتها وذلك بفضل حسناته، بالفعل كما اعتقد معظم الناس، وسيتم سرد أخبار هذه الأعمال في الفصول اللاحقة من الكتاب الحالي.

٧ ـ تأسيس منظمة الداوية العسكرية في القدس.

في هذه السنة نفسها أعلن عدد من النبلاء الورعين والخائفين من الله، ممن كانوا من مرتبة الفرسان ومكرسين للرب، عن رغبتهم للعيش باستمرار في فقر وبساطة وطاعة، ونذروا أنفسهم أن يكونوا بين يدي البطريرك لخدمة الرب كرهبان نظاميين، وكان من أبرزهم وأشهرهم هيودي بينز الجليل وغودفري دي سانت أومر، وحيث لم يكن لديهم كنيسة ولا مكان ثابت للسكن، فقد منحهم الملك مكان إقامة مؤقتة في قصره الخاص في الناحية الشمالية بجانب هيكل الرب، كما منحهم ساحة خصهم بها بالقرب من القصر ذاته حتى تتمكن المنظمة الجديدة من ممارسة واجبات دينها[2]، وذلك بموجب بعض الشروط المحددة التي هي قوانين هيكل الرب.

كما زودهم الملك ونبلاؤه وكذلك البطريرك وأصحاب الكنائس ببعض الإقطاعات من ممتلكاتهم الخاصة، التي كان دخلها سيزود هؤلاء الفرسان بالطعام والكساء، وكانت بعض هذه المنح لوقت محدد من الزمن وكان بعضها الآخر إلى االأبد، وكان الواجب الأساسي لهذه المجموعة ـ ذلك الذي فرضه عليهم البطريرك والأساقفة الآخرون لإزالة

---

(١) توفي أرنولف في ٢٨ نيسان ١١١٨ ـ وإدانة وليم له غير مقبولة.

(٢) إن هذه المقالة عن قيام الداوية من تأليف وليم وغير مستمدة من أي تاريخ سابق. وبما أن هذا التاريخ قد أظهر بشكل جلي أن الطرق من يافا إلى القدس وإلى المزارات الشهيرة الأخرى التي استخدمها الحجاج كانت منطوية بشكل غريب على المخاطر خلال أعوام غودفري وبلدوين اللذان لم يكن لديها قوات كافية لحماية المدن القليلة التي استولى اللاتينيون عليها، كما أن الهضاب القاحلة والصخور والكهوف والوديان قدمت ملاذاً مثالياً للعرب للانقضاض على فرق الحجاج الصغيرة، وكانت هذه الحالة هي التي سعت مجموعة الفرسان الصغيرة إلى تقويمها.

الآثام ـ إبقاء الطرق العامة آمنة من تهديد اللصوص وقطاع الطرق وإيلاء اهتمام خاص لحماية الحجاج بقدر ما تسمح لهم قوتهم بذلك.

وبقي هؤلاء الفرسان في الزي المدني تسع سنوات انقضت بعد تأسيس منظمتهم. فقد ارتدوا هذه النوعية من الثياب لأن الناس منحوهم إياها لإنقاذ أرواحهم، وعقد مجمع كنسي خلال العام التاسع هذا في ترويس Troyes في فرنسا حضره رؤساء أساقفة كل من الرايمز والسنز Sens مع أساقفتهم المساعدين وأسقف ألبانو وممثل البابا، ورعاة أديرة رهبان كل من ستا أوكس وكليرفوكس وبوتغني وآخرين كثر، وصيغ لهذه المنظمة قانون في هذا المجلس الكنسي بأمر من البابا هونوريوس وستيفن بطريرك القدس وخصص رداء أبيض لرهبانها[١].

وعلى الرغم من أن فرسان الداوية كان قد مضى على وجودهم تسع سنوات، لم يتجاوز عددهم تسعة الفرسان، هذا وبدأ عددهم يزداد بعد هذه الفترة وتضاعفت ممتلكاتهم. ويقال إنهم بدأوا يخيطون صلباناً من قماش أحمر على أرديتهم في زمن البابا يوجينوس حتى يمكن تمييزهم عن الآخرين، ولم يقتصر ارتداء هذه الشارة على الفرسان، بل شمل أيضاً الرهبان الأدنى مقاماً الذين يسمون سر جندية. ونجح فرسان الداوية نجاحاً كبيراً حيث يوجد اليوم في هذه المنظمة نحو ثلاثمائة فارس يرتدون الرداء الأبيض، ومعهم عدد لا يحصى تقريباً من الرهبان الأدنى مقاماً[٢].

---

(١) بدأت الأهمية الحقيقية للتنظيم عادية جداً ـ لذلك لم يلاحظها فولتشر الذي عاش في القدس وكتب قبل عام ١١٢٧ ـ مع مجمع ترويس الذي عقد في عام ١١٢٨، وأعطيت المجموعة الكهنوتية المجتمعة هنا قاعدة قانونية وموافقة عامة. وأصبح برنارد أوف كلير فوكس راعيها الخاص، وكان هذا الرجل هو الواعظ الأكثر فصاحة في تلك الأثناء، وكان بإمكان كل من هيو دي بونز وغودفري دي سانت أومر تجنيد الكثير من الفرسان في ذلك العام من أجل تلك الجماعة، حيث كان بعضهم بشكل مؤقت وكان الآخرون بشكل دائم.

(٢) تخذ الرداء الأبيض كزي نظامي لفرسان المعبد بعد زمن قصير من انعقاد مجمع ترويس، وربما حددته ملابس الرهبان السيسترشيان والذين كان قائدهم برنارد أوف كلير فوكس مهتماً اهتماماً كبيراً بهذه الرهينة. واتخذ فيما بعد الصليب الأحمر علامة مميزة، وطور التنظيم فوراً عدداً من درجات العضوية، وكان هنالك بالإضافة إلى الفرسان سرجندية خياله، وأعداد كبيرة من الرجالة، ونال التنظيم حق الحصول على القسيسين الملحقين به، واستلزم تكريس الممتلكات وجود مدراء أعمال بالإضافة إلى فلاحيهم ليستخدمونهم. وبحث العديد من النبلاء عن الجدارة بخدمتهم كفرسان للمعبد لوقت محدود من الزمن. بينما التمس آخرون الإنتساب إلى فرسان المعبد عندما كانوا على حافة الموت. ومنح الفرسان فقط امتياز إرتداء الرداء الأبيض والصليب الأحمر، هذا وارتدت طبقات عديدة من أعضائها الصليب.

ويقال إن لديهم ممتلكات واسعة في هذا الجانب من البحر وفيما وراءه، ولا توجد حالياً مقاطعة في العالم المسيحي لا تمنح هؤلاء الرهبان جزءاً من ممتلكاتها ويقال إن ممتلكاتهم مساوية لكنوز الملوك، ويعرفون بفرسان رهبان الهيكل لأن مقرهم كان - كما قلنا - في القصر الملكي على مقربة من هيكل الرب[1].

وحافظوا على هدفهم النبيل بشكل سليم لفترة طويلة من الزمن، ونفذوا مهنتهم بحكمة كافية بيد أنهم بدأوا أخيراً يهملون «التواضع - الحارس لجميع الفضائل - الذي بجلوسه الطوعي في المكان الأدنى لا يخاطر بأي انحراف عن سبيل الفضيلة». وابتعدوا عن بطريرك القدس الذي كانوا قد تلقوا منه تأسيس منظمتهم وامتيازاتهم الأولى، ورفضوا إظهار الطاعة له التي كان أسلافهم قد أظهروها، كما أصبحوا مزعجين جداً لكنائس الرب لأنهم انتزعوا منها عشورها وثمارها الأولى، وبعثروا ممتلكاتها بشكل غير عادل[2].

٨ - وفاة البابا غالسيوس كالكستوس يخلفه.

توفي في السنة التالية غالسيوس والمسمى أيضاً باسم جون غائتوس وكان رجلاً متعلماً وخليفة للبابا باسكال[3]، وكان غالسيوس في محاولة منه لتجنب العنف قد هرب من اضطهاد الإمبراطور هنري، ومن اضطهاد بيردنيوس البابا الزائف وانسحب إلى مملكة الفرنج، حيث أنهى بقية أيامه هناك ودفن في كلوني وخلفه غويدو رئيس أساقفة فيين وهو نبيل بنسبه، وبعد أن تولى غويدو منصب البابا بات يدعى كالكستوس، وكان قريباً للإمبراطور هنري وحظي بتأييد كبير منه؛ ثم انتقل فيما بعد، معتمداً على تأييد الامبراطور ومساعديه إلى إيطاليا مع الكرادلة وجميع حاشيته، وهاجم في سوتوريوم Sutrium الواقعة

---

(١) تقدم السجلات في انكلترا بعض الإنطباع عن الإنتشار السريع للتنظيم إلى انكلترا التي كانت منطقة بعيدة آنذاك (انظر خلال كتاب بيترايس.أ.ليس «سجلات الداوية في انكلترا في القرن الثاني عشر). وضاعت معظم سجلات فرسان الهيكل عندما ألغيت الجماعة في القرن الرابع عشر، ولا يوجد تاريخ عالمي شامل عن فرسان الهيكل في اللغة الإنكليزية، ويبقى الكتابان اللذان ألفهما بروتز من أكثر الكتب فائدة («تنظيمات الداوية» و«درجات ورتب الداوية العسكرية»).

(٢) ليس مؤكداً فيما إذا كان وليم قد أدرج هذا المقطع الأخير في مسودة كتابه الأصلية أو أنه أضافه في وقت لاحق، وبلغت مصاعبه مع فرسان الهيكل مرحلة الأوج في المجمع الكنسي الذي عقد في عام ١١٧٩، عندما قاد الهجوم على امتيازاتهم الخاصة فيما يتعلق بالتسلسل المدني. ويستنتج لندغرين الذي تفحص إشارات وليم إلى فرسان المعبد أن وليم كان بلا ريب متحاملاً عليهم بسبب استقلالهم المتطرف عن السلطة المحلية (انظر ف.لندغرين «وليم الصوري والداوية»).

(٣) كان يوحنا أوف غيتا - ربما عضواً من العائلة النبيلة الغليتاني - رئيساً للمحكمة البابوية، ومن الممتع أن نلاحظ أن وليم يمنحه مدحاً غير كاف لتعلمه، وهو إطراء استخدمه بشكل مقتصد جداً.

بالقرب من مدينة روما، خصمه المبتدع بيردينوس [١]، هجوماً عنيفاً وأمره أن يرتدي جلد دب ووضعه على جمل وسيره بشكل مخزٍ إلى دير في كاني بالقرب من سالرنو، وأجبر هنالك أن يعيش الحياة الرهبانية تمشياً مع قانون تلك المدينة حتى النهاية القصوى لعمره.

وانتهى على هذه الشاكلة الإنشقاق الذي أزعج الكنيسة لمدة ثلاثين عاماً، فقد استمر دون انقطاع من زمن غريغوري السابع وحتى نهاية فترات بابوية كل من أوربان وباسكال وغالسيوس أسلاف كالكستوس، وكان الإمبراطور هنري قد فصل لسنوات كثيرة من مجموعة المؤمنين بعقوبة الحرمان الكنسي، وأعيد الآن إلى حظيرة الكنيسة [٢].

٩ - غازي الحاكم التركي القوي يغزو أراضي أنطاكية برفقة حشد ضخم -يعيث فساداً بالمنطقة طولاً وعرضاً.

في ذلك العام نفسه اجتاح الأمير الكافر والقوي غازي [إيلغازي] [٣] سيد تلك السلالة التركمانية الخائنة والمدنسة، والحاكم الذي كان شعبه يخافه كثيراً، اجتاح الريف الواقع حول أنطاكية وخيم مع حشد ضخم من أتباعه بالقرب من مدينة حلب، وكان معه طغتكين ملك دمشق ودبيس وهو حاكم عربي قوي جداً كان قد انضم بجيشه إلى قواتهم الكثيرة.

وكان روجر، أمير أنطاكية، الذي كان قد تزوج اخت الملك، قد حُذّر من قبل بأنهم كانوا قادمين، وأرسل رسالة إعلام بالمخاطر التي هددته إلى الحكام المجاورين له مثل جوسلين كونت الرها وبونز كونت طرابلس، وحتى إلى الملك نفسه، وناشدهم بإلحاح بالغ أن لا يتأخروا في القدوم لمساعدته في هذا الطارىء الملح.

وحشد الملك مباشرة جميع الجنود الذين استطاع أن يستدعيهم من مملكته بدعوة

(١) كان كاليكستوس الثاني ١١١٩ - ١١٢٤ ابن وليم أوف برغندي ولذلك كان قريباً على نطاق واسع للأسر الحاكمة. وكان رئيس أساقفة فيين. وكان بوردينوس رئيس أساقفة براغا، قد استسلم لأهداف هنري الخامس، وقبل التعيين كبابا مضاد مع لقب غريغوري الثامن، وكان قد توج هنري الخامس كامبراطور.

(٢) أن معرفة وليم بالمسائل الألمانية غامضة نسبياً، ويخلط بشكل منتظم بين هنري الرابع وهنري الخامس كما حصل هنا، ويمكن القول أن النزاع من أجل تقليد المنصب قد بدأ في عام ١٠٧٥ واستمر حتى عام ١١٢٢. وخلف هنري الخامس والده في عام ١١٠٦، ولم يستمر حرمان الملوك الكنسي والمحافظة على البابوات المضادين طوال ذلك الوقت، هذا وإن أفضل رواية مختصرة موائمة عن الصراع هي رواية (إ.إ. مرثون في كتاب «أوروبا الوسيطة» ٨١٤ - ١٣٠٠ - الفصل الثامن وأنظر أيضاً: M. Manitius, Deutsche unter den Sachsischen und salischen kaisern 911 - 1125).

(٣) كان إيلغازي بن أرتق حاكماً مشاركاً في حكم القدس مع أخيه سكمان عندما استرد المصريون المدينة في سنة ١٠٩٨، ثم نقل نشاطاته بعد ذلك إلى شمال سورية وأصبح حاكماً لحلب في سنة ١١١٨.

مفاجئة وتقدم بالسير على تعبـئة إلى طرابلس، ووجد هنالك الكونت مستعداً بشكل مماثل للإنطلاق، فضما قواتهما وواصلا بقية الزحف معاً.

في هذه الأثناء استشاط الأمير غضباً بسبب التأخير كما يحدث لجميع المخلوقات البشرية، وكان قد غادر أنطاكية، جاهلاً تماماً بما يخفيه المستقبل، وخيم أمام قلعة أرتاح وكان هذا الموقع معداً بشكل موائم لدعم أي جيش حيث توفرت سبل سهلة ومفتوحة من البلاد إلى الجيش الذي عسكر هناك، وبما أنه وجدت في هذه الحملة وفرة كبيرة لجميع الحاجات الضرورية بالإضافة إلى الوسائل المرغوبة الكثيرة التي لا تتوفر إلا في المدن، بقي الأمير هنا لعدة أيام منتظراً وصول الملك والكونت، ثم أمر الجيش أن يتقدم على الرغم من ممانعة البطريرك الذي كان قد تبعه إلى هناك، ومعارضة بعض مقدميه أيضاً، وأعلن بعناد أنه لن ينتظر بعد ذلك. وحثه بعض نبلاء ذلك الإقليم على اتخاذ هذا المنحىٰ، ليس لأنهم رغبوا في أن يحسنوا وضع الجيش بل لأن وجوده قد يحمي أراضيهم التي وقعت بالقرب من مخيم العدو.

واتبع الأمير نصيحتهم، وترك الموقع الذي كان قد خيم فيه أولاً واندفع بنفسه وبجيشه إلىٰ الهلاك مباشرة، وأمر أن يقام المعسكر في موقع يدعىٰ حقل الدم، ولدىٰ إحصاء عدد أفراد الجيش هناك وجد أنه كان لديه سبعمائة فارس وثلاثة الآف من المشاة المدربين؛ بالإضافة إلى ذلك وجد تجاراً كانوا يتبعون الجيش للمتاجرة بسلعهم[1].

عندما لاحظ العدو أن الأمير كان قد أقام معسكره بالقرب منهم، أزالوا معسكرهم وتظاهروا أنهم يقودون قواتهم ضد قلعة الأثارب[2]، واعتقدوا أنه يمكن تحقيق خطتهم الحقيقية بسهولة أكثر بهذه المناورة، ووصلوا إلى غايتهم وخيموا بالقرب منها حيث كان قد فات الآوان لإنجاز أي شيء في تلك الليلة.

في الصباح أرسل الأمير الكشافة وأراد أن يعرف فيما إذا كان العدو قد اعتزم مهاجمة القلعة حالاً أو أنه سيسرع إلى المعسكر ليشتبك مع قواتنا، ونظم رجاله بترتيب المعركة توقعاً لوقوع معركة فورية، وكا منشغلاً بهذا الشكل عندما أوصل الكشافة نبأ أفاد أن العدو كان يقترب من جيشنا بزحف سريع في ثلاث فرق قوام كل منها عشرون ألف مقاتل[3]، ثم قام

---

(١) أكمل الروايات عن هذه الحملة كتبها وولتر حاجب انطاكية، ورواية وليم رواية مختصرة مأخوذة عنها بشكل رئيسي مع اعتماده على فولتشر أيضاً (انظر هاغنمير «وولتر حاجب إمارة أنطاكية» ص٤٧، ٧٨ - ١١٥).

(٢) سيريب، سير ببيوم هي الأثارب الحديثة.

(٣) أرقام العدو هذه مبالغ فيها، وأرقام الجيش الصليبي الذي كان كبيراً هي أرقام أكثر صحة.

الأمير بالجولات على صفوفه المنظمة من جديد وشجع رجاله عندما طاف برايات خفاقة إلى مسافة قريبة جداً من جنودنا، وبدأت المعركة حالاً وحارب الطرفان بشجاعة وخرج خصومنا منتصرين بسبب آثامنا.

وصدرت الأوامر إلى المجموعات التي كان يقودها القـائدان الشجاعان والنبيلان غودفري الراهب وغـي دي فيرمل [١] بالتقدم أولاً ضد العدو، وزحفت بتعبئة جيدة حسب النظام العسكري، ومزقت القسم الأكبر من قوات العدو وتشكيلاته الأكثر كثافة، وكادت تنجح في إجبارهم على الفرار. وقاد الفرقة الثانية روبرت أوف سانت لو [٢]، وكان يتوجب على هذه الفرقة، حسب المثال الذي ضربته الفرقة الأولى، أن تواصل الهجوم بقوة أكثر أيضاً. إلا أنها قصرّت عن ذلك بشكل مخزٍ جداً عندما استرد العدو قوته، ثم اخترقت بهروب مباشر مركز مجموعة الأمير والتي كانت على وشك أن تنقل المساعدة للفرقة الأخرى، وجرفت معها جزءاً من تلك القوة بطريقة غوغائية جعلت التراجع مستحيلاً.

ووقع حادث أثناء هذه المعركة يستحق الذكر، فقد هبت من الشمال زوبعة مخيفة في غمرة القتال عندما كان الطرفان يحاربان بضراوة، وتشبثت أمام عيون الجميع بالأرض في المركز ذاته لساحة القتال، وعندما التفّت جرفت معها سحباً من الغبـار أعمت أعين كلا الجيشين فلم يستطيعا أن يحاربا، ثم ارتفعت عالياً في دوائر حاملة معها صورة قريبة لجرة ضخمة مشتعلة بألسنة نيران جهنمية، وفـاز العدو بالنصر بسبب هذا الحادث المشؤوم، وهزم المسيحيون وقتل جميع جنودنا تقريباً بالسيف.

١٠ ـ الأمير روجر يسقط في المعركة. هزيمة جيشنا.

كان الأمير في هذه الأثناء يكافح عبثاً لاسترداد قواته، وكان نفسه يحارب بشجاعة وحوله عدد ضئيل من حاشيته يقاتل كمحارب شجاع في وسط العدو، وبينما كان منشغلاً في شن هجوم على القوات المتفوقة للعدو، تلقى طعنة سيف قتلته، وكان الباقون من شعبنا الذين كانوا قد تركوا مع الأمتعة والمؤن قد هربوا إلى هضبة مجاورة، ولمح الهاربون، الذين كانوا قد هربوا من أسلحة العدو وخلصوا أنفسهم من خضم المعركة، لمحوا رفاقهم مجتمعين مع بعضهم بعضاً على قمة تلك الهضبة وبذلوا جهوداً مسعورة للوصول إليهم، وأملوا أن

(١) قيل كان غـي ربما من لا فيرتي ـ فرزويل La Ferte - Fresuel في نورماندي، والمعلومات المعروفة هي قليلة حول هؤلاء القادة (انظر هاغنمير «وولتر» ص١٩٣ ـ ٢٣٣).

(٢) كان روبرت أوف سانت لو كبيراً بارز التأثير في أعمال أنطاكية لبعض السنين وتميز بكرمه نحو المؤسسات الدينية (انظر) خاغنمير «وولتر» ص ٢٣٤).

تكون هذه الزمرة قوية بشكل كاف لإبداء المقاومة ويمكن بصحبتهم تحقيق السلامة أيضاً، بيد أنهم ما أن وصلوا إلى ذلك الموقع حتى حول الكفرة انتباههم إلى هذه الجماعة بعد أن أتموا المجزرة في المخيم وأرسلوا كتائبهم إلى هناك وقتلوا الجميع خلال ساعة من الزمن.

وكان رينالد منصور [رينوماسيور] [١] أحد عظماء تلك المنطقة قد نشد الأمان مع نبلاء آخرين في برج يخصّ مدينة سرمدا المجاورة، وما أن علم إيلغازي بهذا الأمر حتى أسرع إلى هناك وأجبر النبلاء المجتمعين فيها على الإستسلام بقوة السلاح، وهكذا، لم ينج أحد تقريباً من الآلاف الكثيرة، التي كانت قد تبعت سيدها في ذلك اليوم، ليروي قصة المعركة، وبالمقابل لم يُقتل أحد من أفراد جيش العدو، أو ربما قتل عدد قليل منه.

وكان هذا الأمير روجر نفسه صاحب سمعة كريهة جداً، فقد أشيع أنه كان فاسقاً وضيعاً لم يحترم رابطة الزواج، وكان شديد البخل أيضاً، وكان طوال الوقت الذي استولى فيه على أنطاكية يستغل الميراث الأبوي لسيده بوهيموند الأصغر بن بوهيموند الأكبر الذي كان يعيش في تلك الأثناء مع والدته في أبوليا لأن تانكرد، ذا الذكرى الطيبة، كان قد عهد وهو على فراش الموت بالحكم إلى روجر على أساس أن يقوم روجر بالتخلي عن الحكم وفقاً لطلب بوهيموند أو ورثته دون إنكار. هذا ويروى أنه اعترف بذنوبه أمام الله بقلب متواضع وفؤاد نادم إلى بطرس المبجل رئيس أساقفة أفاميا الذي كان موجوداً في ذلك الوقت الحاسم، وذلك قبل وقوع المعركة التي توفي روجر فيها، وعلاوة على ذلك، وعد أن يحدث، بمعونة الله، عملاً جديراً بالتوبة، وهكذا دخل غمرات المعركة وهو تائب بصدق [٢]

١١ ـ الملك وكونت طرابلس يزحفان نحو انطاكية لمقاومة إيلغازي.

وفي الوقت نفسه وصل الملك وكونت طرابلس إلى الموقع المسمى جبل النقرة، وحالما علم ايلغازي بوصولها أرسل نحوهما عشرة آلاف فارس مختارين لإعاقة تقدمهما، وقسمت هذه الفرقة إلى ثلاث مجموعات، تقدمت الأولى منها نحو الساحل إلى ميناء السويدية، وزحفت المجموعتان الثانيتان ضد الملك بوساطة طرق مختلفة، وحدث أن صادف بلدوين إحدى هاتين المجموعتين، فهاجمها، تقوده في ذلك رحمة الرب، وقتل عدداً كبيراً من فرسانها وأسر

(١) كان رينو ماسيور ربما كافل إمارة أنطاكية في تلك الآونة.

(٢) تبعاً لهاغنمير، إن هذه الإتهامات ليست اتهامات مقنعة من أجل الهزيمة الكبيرة فحسب بل هي مستندة على قاعدة متينة، وقد ذكر وليم ما حذفه فولتشر من رواية حول أسف روجر (انظر هاغنمير «فولتشر» ص٦٢٣ حاشية ١٤) وكانت وفاة روجر في ٢٨ ـ حزيران ١١١٩.

بعضهم، وجعل الباقين يلوذون بالفرار، ثم تقدم عبر كسب والطرة[١] ووصل إلىٰ أنطاكية حيث استقبله البطريرك ورجال الدين وجميع عامة الناس بابتهاج كبير، وتشاور هنالك مع أتباعه والباقين على قيد الحياة من المعارك التي وصفت من قبل بخصوص الحل الأمثل الواجب اتخاذه في أزمة كبيرة كهذه.

وفي هذه الأثناء كان ايلغازي قد اجتاز من خلال بلدتي عم والأثارب وحاصر مدينة أرتاح[٢]، وشعر بثقة أكبر في تنفيذ هذا المشروع لأنه أشيع أن الملك قد استدعىٰ الحاكم آلان مع أتباعه الفرسان إلىٰ انطاكية[١]، وثبت أن هذا كان صحيحاً، واقترب ايلغازي من المدينة ووجدها غير مهيأة، وهكذا، جرى على الفور إرسال الخبراء بلغم الأسوار فوراً من اتجاهات مختلفة للغم الهضبة التي قامت القلعة عليها، فبعد اللغم كانت العوارض الخشبية الداعمة تحرق، وعندما تنهار الرابية التي تقوم عليها الأسوار والأبراج، فستنهار القلعة، وحيث أن حامية القلعة خشيت من انهيار القلعة بأكملها عندما تكون الهضبة قد تم نسفها، فقد استسلمت شريطة تأمين سلامة أفرادها مع أرواحهم، وأن يُسمح لهم بالعودة دون تأخير إلىٰ شعبهم.

ثم قاد ايلغازي جيشه إلىٰ قلعة زردنا وباشر عمليات الحصار هناك، وسلمها السكان خلال بضعة أيام بالشروط ذاتها، وهكذا، اقتنع الأمير أن لا أحد بإمكانه أن يقاومه، وبما أنه كان لا يطيق التأخير فقد عامل المنطقة بأسرها حسب مشيئته، وبذلك فقد أهالي المدن المجاورة كل أمل بالنجاة من نير حاكم قوي جداً.

١٢ ـ الملك والكونت يشتبكان في معركة مع ايلغازي. هزيمة جيش الكفرة وايقاع مذبحة كبيرة به. وضع الإمارة تحت عناية الملك.

انطلق الملك وكونت طرابلس من أنطاكية مع جميع القوات التي تمكنا من جمعها، ووجها زحفهما نحو الروج، حيث اعتقدا أنهما سيجدان العدو بالقرب من الأثارب وعبراها وخيما على هضبة تسمى دانيث[٤]، واستدعىٰ ايلغازي حالما أبلغ بهذا الأمر جميع مقدميه.

---

(١) لم يمكن تحديد هذه الأماكن بوضوح وقد ذكر الحاجب وولتر كسّام بيلا - Cassambella (هاغنمير «وولتر» ٣/٩) وقد اعتبر هاري هي كسب المعاصرة واعتبرت اللطّور أو لا طور اقطاعية قريبة منها (انظر إ ري «الإقطاعات الفرنجية في سورية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر» ص٣٤٣).

(٢) عم هو حصن مشهور على بعد ٤١ كم من بلدة أرتاح.

(٣) كان ألان حاكماً لقلعة الأثارب، ومن الواضح أن الملك تولىٰ قيادة القوات المتبقية في الإمارة واستدعىٰ معظمها للانضمام إليه.

(٤) هي تل دانيث، أرض المعركة المشهورة التي تبعت.

وأمرهم، بتهديد الموت، أن يمتنعوا عن النوم وأن يصرفوا الليل بأسره لتدبير الأسلحة والخيول، وكان عليهم، بعد اتخاذ أكثر التحضيرات حذراً، الهجوم على معسكر الملك عند الفجر وقبل بزوغ الشمس، ومباغتة رجاله عندما يكونون نائمين، ويجب قتل الجميع وأن لا يُسمح لرجل واحد بالنجاة من الموت.

غير أن الرحمة السماوية قضت عكس ذلك تماماً، فلم يخفف الملك ورجاله اجتهادهم أبداً وأمضوا ليلة أرقة وهم منشغلون بترتيب التفاصيل الضرورية للمعركة القادمة، وألقى ابرمار رئيس أساقفة قيسارية المبجل الذي كان قد لحق بالملك إلى تلك الأنحاء مع صليب الصلبوت، موعظة نصح وتشجيع للناس، وهكذا، كانوا ينتظرون هجوم العدو عند الفجر وهم مسلحون ومستعدون للإشتباك معه في المعركة بشجاعة جيدة.

يقال إنه كان لدى الملك في تلك المعركة سبعمائة فارس [1]، وقد تشكلوا، حسب أمره، في تسع كتائب وفقاً للقانون العسكري ووضعوا في أماكنهم المناسبة وانتظروا رحمة الرب، وأرسلت ثلاث كتائب إلى الأمام لتشكيل طليعة الجيش، ووضعت قوات المشاة في القلب، بينما احتل كونت طرابلس مع جنوده جناح اليمين، واحتل نبلاء أنطاكية جناح اليسار، وشكل الملك مع أربع كتائب ساقه الجيش، وكان على هذه الفرقة العمل كدعم للبقية.

وبينما هم واقفون على هذه الصورة في تشكيل المعركة منتظرين اقتراب العدو هجم هذا العدو عليهم، لقد انقض الكفرة على المسيحيين بصرخات عالية وبدوي الأبواق وقرع الطبول، وكان اعتمادهم الأبرز على أعدادهم التي لا تُحصى، وكانت قوتنا وثقتنا في وجود الصليب المنتصر دائماً وفي الإيمان بديانة صادقة وهو أمل أكثر ثقة ولا يخيب أبداً.

ثم تقابلت الصفوف المكتظة بإحكام في قتال مرير، وأعقب ذلك قتال قريب بالسيوف وتحارب الطرفان بإهمال وازدراء لقوانين الإنسانية، وبحماسة متقدة وبكراهية لا تعرف الحدود وكأن الطرفين يحاربان ضد وحوش برية [2].

وتصور الكفرة أن شجاعة وإقدام قوات رجالتنا شكلت خطراً كبيراً على قواتهم،

---

(١) هناك اجماع على تقدير تعداد الفرسان في الجيش الصليبي لكن وليم كما يبدو قد رفض قبول رقم عشرين ألفاً بالنسبة للمسلمين مع أنه قبل رقم أربعة آلاف على أنه عدد القتلى منهم.

(٢) كان ايلغازي متميزاً بقسوته لا سيما في معاملته لأسراه الذين غالباً ما استمتع بقتلهم أمامه عندما يكون مخموراً.

ولذلك بذلوا جهوداً بطولية لإبادتهم، وكانت النتيجة أن هلكت بإذن من الرب أعداد كبيرة من جنودنا بسيوف العدو في ذلك اليوم.

ولاحظ الملك علىٰ الفور أن قوات المشاة كانت تتعرض لمحنة تفوق قوتها، وأن طليعة الجيش احتاجت إلىٰ المساعدة أيضاً، فجرىٰ الملك علىٰ الفور مع مرافقة من حوله نحو قلب الحشد مباشرة، وضرب بسيفه بعنف فيما حوله وفرق صفوف العدو حيث كانوا محتشدين بإحكام مع بعضهم بعضاً، وتبعه رفاقه في الصفوف بإخلاص، حيث ألهبتهم أقواله وأفعاله قوة وشجاعة وانقض هؤلاء وآخرون، كانوا قد فقدوا الشجاعة سابقاً، علىٰ العدو بتصميم واحد، وتوسلوا إلىٰ السماء أن تمدهم بالمساعدة، ولازمتهم الرحمة السماوية، وكانت المذبحة التي لحقت بالعدو كبيرة جداً، بينما لاذ من بقي علىٰ قيد الحياة بالفرار، حيث لم يتمكنوا من المقاومة.

ويقال إن نحواً من سبعمائة من جنودنا المشاة ومائة من الفرسان قد سقطوا في تلك المعركة، وكانت خسائر العدو نحواً من أربعة آلاف قتيل، بالإضافة إلىٰ الأعداد التي أصيبت بجراح مميتة أو التي تم أسرها، وتخلىٰ ايلغازي عن جنوده وتركهم في براثن الموت ولاذ بالفرار مع ملك دمشق طغتكين ودبيس أمير العرب، وواصل المسيحيون المطاردة في اتجاهات مختلفة وبقي بلدوين مع عدد قليل من الفرسان في ساحة القتال خلال الهزيع الأول من الليل، لكن ضرورة تناول الطعام ونيل قسط من الراحة أرغمته أخيراً على الانسحاب إلىٰ قلعة هاب المجاورة. وأرسل، لدىٰ عودته في الصباح، رسلاً إلى أخته والبطريرك، وحمل الرسل خاتم الملك كعلامة أكيدة على النصر وأمروا أن يعلنوا أن السماء منحته بركة النجاح بالمساعدة العلوية[١]، ولم يغادر بلدوين ميدان المعركة في ذلك اليوم حتى منتصف الليل، عندما وصل إليه نبأ موثوق أفاد أن الكفرة قد فرقوا قواتهم ولن يعودوا، وجمع عندئذ جميع الجنود الممكن جمعهم في ذلك الوقت وزحف إلىٰ أنطاكية حاملاً أكاليل النصر، واستقبله هناك البطريرك وسائر رجال الدين وأهالي المدينة.

منح التأييد الرباني النصر للمسيحيين في العام ١١٢٠ لتجسيد الرب، وفي العام الثاني من حكم الملك بلدوين، وحدث ذلك في شهر آب عشية رفع مريم المقدسة، أم الرب إلى السماء[٢].

---

(١) استخدام الخاتم كوسيلة للتعريف قد ورد ذكره مراراً، ولم يأت وليم على ذكر نصف الخاتم الذي ورد كثيراً في الأدب الرومانسي. كانت أخته أرملة روجر والبطريرك المشار إليه هنا هوبرنارد صاحب أنطاكية.

(٢) كان تاريخ المعركة ١٤ ـ آب ١١١٩ وقد أخطأ وليم بالنسبة للسنة.

أعاد الملك الصليب المانح للحياة بإشراف رئيس أساقفة قيسارية ومع مرافقة مهيبة إلىٰ القدس حتى يتمكن رجال الدين وعامة الناس من الترحيب به في يوم تمجيده بمواكبة التراتيل والأناشيد الروحية [1] ، بينما اضطر هو إلىٰ البقاء في أنطاكية بسبب متطلبات البلد الملحة.

عهد البطريرك وجميع أعيان الناس مع رجال الدين وعامة الناس بالعناية بشؤون إمارة أنطاكية إلىٰ الملك مع سلطة غير محدودة، وذلك حسب الرغبة الصادقة والموافقة القلبية للجميع، وأعطي سلطة مطلقة كما هو الحال في المملكة لتدبير وإزالة أو معالجة كل شيء حسب إرادته وحده [2] ، وبناء على ذلك منح ممتلكات الذين سقطوا في المعركة إلىٰ أبنائهم أو أقاربهم حسبما تطلب الأمر والعقل أو كما قضت عادات المنطقة، وزود الأرامل بأزواج أكفاء وبمنازل اجتماعية مساوية لمنازلهم الاجتماعية [3] . وجهز القلاع بالرجال حيثما بدا ذلك ضرورياً كما زودها بالطعام والسلاح، ثم استأذنهم بالانصراف لفترة من الزمن، وعاد إلىٰ المملكة، وهناك تُوّج مع زوجته في الكنيسة في بيت لحم في يوم ميلاد الرب المجيد.

١٣ ـ عقد مجلس كنسي في نابلس في السامرة.

في تلك السنة نفسها وهي سنة ١١٢٠ لتجسيد الرب ابتليت مملكة القدس بمحن كثيرة وذلك بسبب آثامنا فبالإضافة إلىٰ الضرر الذي سببه العدو، انقضت أسراب من الجراد علىٰ المنطقة وكذلك كميات من الفئران الملتهمة وذلك لمدة سنوات أربع متتالية أهلكت فيها المحاصيل بالكامل حتى بدا وكأن العالم بأسره سيفتقر إلىٰ الخبز، ولهذا ذهب غورموند بطريرك القدس الورع والمتدين إلىٰ مدينة نابلس في السامرة حيث انضم إليه الملك بلدوين ورعاة الكنائس ونبلاء المملكة، وتمت الدعوة إلىٰ عقد لقاء عام واجتماع شامل ألقى غورموند فيه عظة تذكيرية على الناس [4] وبما أنه اتضح للجميع أن آثام الناس كانت قد أثارت حنق الرب فقد تقرر بموافقة عامة وجوب التوبة عن آثامهم وكبح تجاوزاتهم، وأملوا أن يصفح

---

(١) تذكر الاحتفالات بعودة الصليب بالاحتفالات بعودته من بلاد فارس في سنة ٦٢٩، وقد حدث هذا في ١٤ ـ أيلول.

(٢) يعكس الاصطلاح القانوني هنا ـ كما في قضايا أخرى ـ لغة القانون الروماني.

(٣) لا بد أنه كان من الصعب بعد حدوث معركتين قاسيتين في تلك السنة إيجاد صفوف كافية، ومن الواضح أن الاقطاعات انتقلت إلىٰ الزوجات لكن بدا أن وجود الأزواج المحاربين أمراً ضرورياً، ولا شك أنه جرى ترقية بعض الرجال من المراتب الأدنى عن طريق الزواج بمثل أصحاب المواريث هؤلاء.

(٤) يمد وليم هنا مصادره بمواد من الوثائق، وقد أتى فولتشر على ذكر طاعون الفئران في سنة ١١١٧، وكان قدوم الجراد أمراً عادياً في المنطقة وحتى وقت قريب.

الرب عنهم عندما يكونون قد عادوا إلىٰ طريق الحياة الأفضل، وإجراء الإصلاح المناسب لأعمالهم الشريرة لا سيما وأن الرب لا يرغب بموت الآثم بل أن يعود ثانية ويعيش [١].

وهكذا، فقد سعوا لنيل عفو الرب عنهم بأعمال التقوى بعدما روعتهم إشارات منذرة بالويل والثبور من السماء بالإضافة إلىٰ الزلازل والكوارث، وبعدما أنهكتهم في الوقت نفسه المجاعة والهجمات التي شنها العدو في كل يوم تقريباً، ولكي يرفعوا من مستوىٰ الأخلاق ويحافظوا علىٰ النظام، فقد وضعوا بموافقة عامة خمسة وعشرين عهداً لها قوة القانون، ويمكن لأي امرىء يرغب في قراءة هذه الوصايا أن يجدها بسهولة في سجلات كنائس كثيرة.

حضر هذا المجلس الكنسي: غورموند بطريرك القدس، وبلدوين الملك اللاتيني الثاني للقدس، وابرمار رئيس أساقفة قيسارية، وبرنارد أسقف الناصرة وأشتنوس أسقف بيت لحم، وروجر أسقف اللد، وغلدوين الراعي المنتخب لدير القديسة ماري في وادي يهوشافاط، وبطرس راعي جبل طابور، وأركارد رئيس الهيكل وأرنولد رئيس جبل صهيون، وغيرارد رئيس قيامة الرب، وبينز مستشار الملك، ويوستاس غرينر، ووليم دي بري، وبارسون شحنة يافا، وبلدوين صاحب الرملة وآخرون عددهم كبير من علمانيين ورجال دين لا نمتلك أسماءهم ولا أعدادهم.

١٤ - ايلغازي يقوم بحملة أخرى ويجتاح ثانية أراضي أنطاكية. الملك يزحف للتصدي له. ايلغازي يصاب بانفجار دماغي ويموت.

كان ايلغازي مضطهداً لا يعرف الكلل للعقيدة المسيحية واسمها، فقد كان كالدودة القاضمة يبحث دائماً عمن يمكن أن يؤذيه، وجمع قواته في العام اللاحق وانتهز غياب الملك ليحاصر عدداً من قلاعنا، وعندما بات هذا معلوماً أرسلت استغاثة فورية إلى الملك، وكان بلدوين مستعداً دوماً للاستجابة، لذلك أخذ صليب الصلبوت معه وأسرع إلىٰ هنالك مع حاشية مهيبة من الفرسان، واستدعىٰ جوسلين كونت الرها والحاكمين المرتبطين مع رجال أنطاكية البارزين وساروا إلىٰ القلعة المنيعة المذكورة آنفاً [٢]، وكانوا قد توقعوا أن يخوضوا المعركة فور وصولهم إلىٰ غايتهم، إلا أنه حدث أن الرب أصاب إيلغازي بانفجار دماغي، ورفض قادة جيشه خوض المعركة بقرار معقول بعدما حرموا من مساعدة زعيمهم، وأسرعوا

---

(١) عزرا: ٣٣/١١.

(٢) كانت القلعة هي قلعة زردنا، ومن الواضح أن وليم كان يعمل هنا بسرعة حيث حذف الكثير من رواية ولتر الحاجب. وكان تاريخ وفاة ايلغازي هو ٣ - تشرين ثاني ١١٢٢، والانطباع الذي أعطاه وليم أن الوفاة كانت في سنة ١١٢١ هو انطباع خاطىء.

إلى حلب حاملين على نقالة حاكمهم الميت تقريباً، ويقال إن إيلغازي المحكوم عليه بمكابدة نيران جهنم الأبدية، لفظ روحه التعيسة قبل أن يصلوا إلىٰ تلك المدينة.

بقي الملك لفترة من الزمن في أنطاكية للعناية بالمسائل الضرورية، ثم عاد سالماً بمشيئة الرب إلىٰ المملكة، ولقد كان ملكاً أحبه الجميع، وكان مقبولاً لكل من المملكة والإمارة، وأدار بإخلاص وورع أمور المملكة والإمارة على الرغم من أنهما كانتا بعيدتين عن بعضهما بعضاً، ولم يكن من السهل التمييز نحو أي في المنطقتين توجه بالعناية الكبرى، على الرغم من أن المملكة كانت ملكاً له كان بإمكانه توريثها شرعياً لخلفائه، وكانت الإمارة مجرد دولة وضعت تحت وصايته، وبدا بالفعل أنه يظهر عناية أكبر بأمور أنطاكية، واستمر بإخلاص بالعناية بهذا البلد حتى وصول بوهيموند الأصغر، كما سيتم رواية خبر ذلك في الصفحات اللاحقة [١].

١٥ ـ الملك يمنح حرية كاملة لسكان القدس ويعززها بإعلانه الخاص.

بينما كان الملك في القدس في هذه الآونة، منح امتيازاً قيماً لسكانها، فقد أمر بسخاء ملكي وورع بإعفائهم من الضرائب التي كانت تطلب من قبلُ من السكان الذين استوردوا أو صدروا السلع، وعزز المرسوم الذي أمر به بوثيقة ممهورة بالخاتم الملكي، بحيث يمكن أن يكون ساري المفعول إلىٰ الأبد، ولن يُجْبَرَ منذ ذلك الحين فصاعداً أي من اللاتينيين الذين يدخلون المدينة أو يغادرونها سواء جلبوا السلع إلىٰ داخلها أو نقلوها منها، بدفع أي شيء تحت أية ذريعة مهما كان نوعها، بل حق له الحصول علىٰ امتياز البيع والشراء بدون ضريبة، وعلاوة على ذلك، منح السريان والإغريق والأرمن وجميع الرجال من أي شعب كانوا وحتى لو كانوا عرباً امتياز حرية نقل القمح والشعير وأي نوع من الحبوب إلىٰ داخل المدينة المقدسة بدون ضريبة، كما ألغى أيضاً الضريبة المألوفة علىٰ الأوزان والمكاييل، وقد أرضى بهذا العمل الشعب وكسب ودّ السكان، حيث يبدو أنه قد نهض بأعباء الخير للسكان بطريقة ملكية لائقة وبشعور جدير بالثناء على صعيدين: أولها أنه جعل المدينة تزود بالمؤن بشكل أوفر بترتيب إمكانية جلبها من الخارج دون ضرائب؛ وثانيهما أنه بذل كل جهد ممكن ـ باقتدائه بسيرة أسلافه ـ لزيادة سكان المدينة حبيبة الرب [٢].

---

(١) انظر الكتاب الثالث عشر الفصل ٢١.

(٢) انظر الكتاب الحادي عشر الفصل ٢٧.

١٦ - طغتكين ملك دمشق يعيث فساداً في أراضي طبرية. الملك يزحف ضده ويدمر مدينة جرش.

في العام التالي تحالف طغتكين، ملك الدمشقيين الشرير والغادر، مع زعيم للعرب[١] وضم قواته إلىٰ قواته، كان طغتكين قد أدرك أن الملك كان يتحمل مسؤولية تفوق طاقته في العناية بالبلدين. وبناء عليه استفاد من انشغاله وأرسل جنوداً إلىٰ بلادنا في المنطقة المجاورة لطبرية، وبدأ يخرب هذه المناطق بطريقة عدائية.

وعندما سمع الملك بهذا الاعتداء جمع الجنود من جميع أنحاء مملكته وأسرع إلىٰ هناك بنشاطه المعتاد، وعلم طغتكين بدنو بلدوين فانسحب إلىٰ ناحية بعيدة من مملكته، لأنه أدرك أنه لن يتمكن من إنجاز شيء إذا كان الملك قريباً منه، كما اعتقد أنه من الخطر المغامرة بشن معركة معه.

وكان الملك في هذه الأثناء قد قاد قواته نحو الجنوب ووصل إلىٰ جرش وهي إحدى أضخم مدن مقاطعة ديكابولس وقد قامت في بلاد ماناسيس على مقربة من جبل جلعاد، على بعد بضعة أميال فقط من الأردن[٢]، وكانت هذه المدينة مهجورة منذ زمن طويل بسبب الخوف من الحرب، غير أن طغتكين كان قد أنشأ فيها في العام المنصرم بنفقة كبيرة قلعة بناها من حجارة منحوتة ضخمة في الجزء المحصن بشكل أفضل من هذه المدينة، وجهزها بالمؤن والأسلحة وعهد بأمورها لبعض رجالاته الموثوقين.

وهاجم الملك المدينة بعنف شديد فور وصوله إليها، وقد استسلمت له شريطة أن يسمح للجنود الأربعين الذين كانوا قد تركوا فيها لحراستها بالرحيل سالمين إلى أهليهم، ووافق بلدوين علىٰ هذا المطلب، ثم تشاور مع مستشاريه بخصوص وجوب تدمير القلعة عن بكرة أبيها أو الاحتفاظ بها لاستخدام المسيحيين، وكان الرأي إجماعياً وهو وجوب تدميرها تدميراً تاماً، حيث بدا من الصعب عملياً المحافظة عليها لنستخدمها دون نفقة كبيرة ومصاعب دائمة، وعلاوة علىٰ ذلك، ما من واحد يمكنه بلوغها دون التعرض لمخاطر شديدة.

---

(١) لم يمكن التعرف إلى هوية هذا الزعيم العربي.

(٢) غيراسا Gerasa هي جرش الحديثة التي كانت شهيرة في العصور القديمة وجاءت المعلومات الأثرية عن طريق فولتشر نقلاً عن onomasticom لجيروم، وقد رددها وليم (انظر هاغنمير «فولتشر» ص٦٤٤ - ٦٤٦) ووقعت هذه الحملة في تموز ١١٢١.

١٧ ـ الأمير التركي القوي بلك يغزو أراضي انطاكية. الكونت جوسلين يقع بالأسر. الملك يؤخذ أسيراً ويقع بين قبضتي بلك.

وهكذا كانت أمور المملكة بنعمة الرب تتقدم بطريقة مرضية، وكان في الوقت نفسه عدو السلام ومحب الاضطراب يحاول إثارة المشاكل في هذه الأثناء، فقد رفض بونز، الكونت الثاني لطرابلس، وفقاً لتحريض أحدهم تقديم الولاء لملك القدس، ورفض بوقاحة تقديم الخدمة التي ألزمه يمين الولاء الاقطاعي الذي كان قد أداه بتأديتها [١]، ووجد الملك من المستحيل تحمل إساءة كهذه، وبناء عليه جمع الفرسان والرجالة من سائر أنحاء المملكة وتقدم إلىٰ هناك للانتقام للأذى الذي لحق به، غير أن بعض الشرفاء تدخلوا بينهما قبل أن يكون أي من الطرفين قد تعرض للخسارة، وأقيم سلام موائم من جديد بين الاثنين.

ثم توجه الملك إلىٰ أنطاكية، حيث كان أهلها قد حاقت بهم المصاعب من جديد، وكانوا قد دعوه للمساعدة، كان الأمير التركي القوي والبارز بلك قد عرض المنطقة بأسرها للدمار بشن غارات متكررة إلىٰ داخل ذلك الإقليم، وفعل هذا بثقة تامة لأنه كان قبل فترة قصيرة من الزمن قد أسر جوسلين كونت الرها وقريبه غاليران وألقاهما في السجن [٢]، ثم إنه عندما علم أن الملك نفسه قد وصل بدأ يظهر نشاطاً أقل إلى حد ما في هجماته، لأنه لم يرغب بمواجهة مع بلدوين، فقد كان الملك قد اشتهر بأنه ناجح جداً في المعارك، وعرف بلك أنه سيكون من الصعب لأي امرىء إلحاق الهزيمة به، ومع ذلك، فقد تجول علىٰ مسافة قريبة مع فرسانه المسلحين تسليحاً خفيفاً بحيث يتمكن من تحقيق رغبته في إلحاق الأذىٰ بعساكرنا إذا سنحت فرصة له بذلك.

وهكذا، تقدم الملك مع القوة التي كان قد جلبها معه إلىٰ داخل أراضي كونت الرها وأمل أن يكون هذا مساعدة لهذا الشعب الذي حرم من القيادة، واستفسر عن الأحوال باهتمام كبير عندما تجول في البلد، وتفحص أحوال القلاع وسأل فيما إذا كانت محمية بشكل جيد وفيما إذا كانت هنالك قوة كافية من الفرسان والمشاة ومخزونات وفيرة من الأسلحة والمؤن ثم تولى حسبما ألزمه الواجب القيام باستدراك جميع النواقص.

---

(١) ربما مثلت هذه الحملة جهداً بذله بلدوين الثاني لبسط سلطانه علىٰ طرابلس ولجعل نفسه حاكماً حقيقياً لجميع المدن اللاتينية في سوريا، وكانت وصليته على أنطاكية مع اعتماد جوسلين صاحب الرها عليه شخصياً قد هيأت فرصة مناسبة لمثل هذا التحرك، وكانت أسس مطالبه من بونز تقديم الولاء الذي سبق وأظهره برترام نحو بلدوين الأول في عام ١١٠٩ (انظر لا مونت «الملكية الاقطاعية» ص١٨٧).

(٢) أسر جوسلين في ١٣ ـ أيلول عام ١١١٢، وكان بلك واحداً من الأسرة الأرتقية ابن عم لا يلغازي. (انظر الحاشية ٣ ص ٥٨٠).

وبعدما مرّ بقلعة تل باشر أسرع الملك في طريقه نحو الرها منشغلاً بجدية بالمهمة نفسها، حيث أراد أن يتحقق بعناية مماثلة من حالة المنطقة الواقعة فيما وراء نهر الفرات وليطورها من جميع جوانبها بقدر الإمكان، وقد انطلق مع حاشيته الخاصة في إحدى الليالي وكان النوم يثقل جفونهم كلهم تقريباً، وكانوا يتقدمون دون أي تفكير بالخوف ودون حذر بخطوط متفرقة عندما هاجمهم بلك فجأة، فقد كان قد تلقى إخبارية عن سيرهم فنصب كميناً لهم، وكان حرس الملك غير مستعدين وقد أثقلهم النوم ولذلك وقع بلدوين نفسه في قبضة بلك ونقل أسيراً، وفي الوقت نفسه لاذ حرسه في المقدمة والمؤخرة بالفرار في اتجاهات مختلفة وهم جاهلون بالكارثة التي حلت بسيدهم، وأوثق بلك السالف الذكر مراراً الملك المأسور وزجه في قلعة خرتبرت الواقعة فيما وراء نهر الفرات، ففي هذه القلعة كان كل من كونت جوسلين وغاليران مسجونين حسبما روينا خبر ذلك من قبل.

واستبد بقادتنا قلق كبير إزاء رخاء المملكة عندما بلغهم نبأ الكارثة المريعة التي حلت بالملك، واجتمعوا كرجل واحد في مدينة عكا للتداول مع البطريرك ومطارنة الكنيسة حيث جرى بموافقة شاملة تعيين يوستاس غرينر (١) حاكماً عليهم وكان رجلاً حكيماً وعاقلاً وصاحب خبرة كبيرة في المسائل العسكرية، واحتفظ هذا الرجل، بسبب كفاءته العالية بموجب الحق الوراثي بمدينتين في المملكة، وهما صيدا وقيسارية مع جميع ملحقاتها. وهكذا عهد لرعايته بمسؤولية المملكة وإدارتها العامة حتى يتمكن ضوء الصباح المقبل من السماء من زيارة الملك وإعادته للحرية، وعندما يحدث هذا، سيتمكن من الإشراف على أمور المملكة.

لكن دعونا الآن ننعطف لنستأنف الحديث عن حظ الملك العاثر.

١٨ - بعض الأرمن يعرضون أنفسهم لخطر كبير في محاولة منهم لمساعدة الملك. يستولون على القلعة التي احتجز الأسرى فيها. إطلاق سراح الكونت جوسلين.

بعد أن كبل الملك والكونت بالقيود وألقيا في القلعة المذكورة آنفاً، سمع بعض الأرمن أن هذين الزعيمين العظيمين للديانة المسيحية محتجزان في الأسر هناك (٢) وصمموا

---

(١) أسس بلدوين في ١٨ - أيلول عام ١١٢٣، وكانت مثل هذه الظروف هي التي أبقت نبلاء القدس متذكرين مسؤولياتهم وامتيازاتهم في تسيير الأمور ومنعت من تطوير كل من السلطة الكاملة من قبل الملك أو الورثة، وربما منعت حقيقة أن الملكة كانت أرمنية، النبلاء من استطلاع رغباتها حول القضية (انظر لامونت «الملكية الاقطاعية» ص٨ - ٩). وربما كان يوستاس غرينر، الذي ادعي أنه من أهالي ثيرونا في بلجيكا قد أتى مع جيش غودفري وذلك على الرغم من أنه لم يصبح بارزاً حتى عام ١١٠٢ حيث كان كافل المملكة في تلك الآونة (انظر هاغنمير «فولتشر» ص ٦٦٠ - الحاشية٧).

(٢) أيدت كل من المصادر العربية والأرمنية حكاية هذه الحادثة التي لها مظهر الأسطورة، والرقم عند متى =

على محاولة إنقاذها، غير آبهين بالخطر الذي سيتعرضون له، وإذا حدث وتبرهن أن خططهم غير ناجحة تبنوا خطة جديدة، هذا وتقول رواية أخرىٰ إنهم قدموا استجابة لدعوة الكونت جوسلين وقد أغراهم الأمل بمكافأة سخية جداً حتى عرضوا أنفسهم لمثل هذا الخطر.

أبرم هؤلاء الخمسون رجلاً، الأقوياء والشجعان ميثاقاً صادقاً فيما بينهم وألزموا أنفسهم بأداء القسم مع بعضهم بعضاً، وقضت خطتهم بالذهاب إلىٰ القلعة والسعي لإطلاق سراح هؤلاء الرجال البارزين مهما كانت المجازفة التي سيتعرضون لها، وتنكروا بزي الرهبان، وحملوا الخناجر تحت أثوابهم الفضفاضة وسافروا إلىٰ تلك القلعة وكأنهم ذاهبون لحضور بعض أمور الأديرة، وصاروا يتظاهرون بالكلمات والتنهدات والنظرات الحزينة أنهم كانوا قد كابدوا إساءة وعنفاً من قبل بعض الأشخاص، وأعلنوا والبكاء يكتنفهم أنهم رغبوا بالاحتجاج لحاكم المدينة عن المعاملة التي كانوا قد تلقوها، لأنه ارتكز عليه واجب الحفاظ على النظام الجيد بحيث لا يمكن أن يحدث أي اعتداء في تلك الأحواز، هذا وتقول رواية أخرى أنه سمح لهم بالدخول إلىٰ القلعة كتجار يبيعون السلع الرخيصة.

وعندما سمح لهم في النهاية بدخول القلعة، استلوا سيوفهم وقتلوا كل من قاومهم فهل هنالك حاجة لقول المزيد؟ وسيطروا علىٰ القلعة وأطلقوا سراح الملك والكونت وحصنوا الموقع بقدر ما استطاعوا، ثم قرر الملك أن يرسل كونت جوسلين ليجلب المساعدة بالسرعة الممكنة لإنقاذه وإنقاذ هؤلاء الأصحاب الذين حرروه بمساعدتهم.

وعندما اكتشف الأتراك، الذين كانوا يعيشون في المواقع المجاورة للقلعة، الحيلة التي سيطر فيها الملك ورفاقه علىٰ القلعة، أمسكوا بأسلحتهم وأسرعوا إلىٰ هناك، وكانوا مصممين علىٰ أن لا يدخل أحد القلعة أو يغادرها حتى وصول سيدهم بلك على الأقل. هذا وبدأ من جهة أخرى كونت جوسلين رحلته علىٰ الفور على الرغم من هذا كله وضمن احتمالات تعريض نفسه لكمائن العدو، وأخذ ثلاثة رفاق معه كان علىٰ اثنين منهم أن يرافقاه في الرحلة، وكان الثالث سيعاد إذا نجحت المحاولة، إلىٰ الملك لإبلاغه بالأمر، وهكذا، باشر رحلته مع رفيقيه تحميهم رحمة الرب، دون أن يعرفهم الذين كانوا يحاصرون القلعة، وذلك حسب الترتيب الموضوع من قبل، وأرسل الرجل الثالث إلىٰ القلعة، وحمل خاتم جوسلين كبرهان علىٰ أنه تم عبور خطوط العدو بنجاح، وانكب الملك أثناء غياب جوسلين مع الرجال

= الرهاوي وهو المؤرخ الأرمني لتلك الفترة هو /١٥/ بدلاً من /٥٠/ (انظر اسكندريان «الصليبيون» ص١٠٠).

الذين أطلق سراحه بمساعدتهم، علىٰ تقوية القلعة بكل وسيلة ممكنة حيث أملوا أن يتمكنوا من الصمود حتى وصول المساعدة، وأملوا أن لا تتأخر هذه المساعدة طويلاً.

١٩ ـ بلك يسترد القلعة ويقتل الأرمن.

رأى بلك حلماً مخيفاً في تلك الليلة بالذات أقض مضجعه، فقد رأى فيما يراه النائم الكونت جوسلين يعميه بيديه، فهب مذعوراً وأرسل الرسل عند الفجر إلىٰ القلعة لقطع رأس جوسلين دون تأخير[1]، هذا وعندما اقترب هؤلاء الرجال من القلعة لاحظوا أنها قد سقطت في قبضة العدو، ولذلك انقلبوا على أعقابهم بكل سرعة ممكنة وأبلغوا سيدهم بكل ما كان قد حدث هناك، واستدعىٰ الأمير الجنود فوراً من كل ناحية وأسرع إلى هناك دونما تأخير، ووضع قواته حول الموقع وحاصر الهاربين في المعقل، ثم اتصل مع الملك عن طريق الوسطاء ووعد بشكلٍ جلي أن يترك بلدوين يرحل مع جميع الذين كانوا معه دون إعاقة، وسيضمن لهم طريقاً آمناً إلىٰ الرها إذا أعيدت القلعة إليه بدون اضطراب.

بيد أن الملك وثق بقوة القلعة، وأمل أن يتمكن بمساعدة الذين كانوا قد انضموا إليه هناك من الاحتفاظ بالموقع بالقوة حتى وصول النجدة، ولذلك، رفض الشروط المقدمة واستمر بالدفاع عن القلعة بقوة، وأغضب رفضه بلك غضباً شديداً، واستدعىٰ الصناع على الفور وأمرهم بإعداد الآلات الحربية المتعددة الأنواع التي تستخدم عادة في مهاجمة قلعة العدو، وواصل العمل بنشاط عظيم واستخدم بنجاح كل خطة بارعة يمكن بواسطتها إلحاق الأذى بالمحاصرين.

كانت القلعة مبنية علىٰ هضبة، جعلتها طبيعتها الجصية قابلة للاحتراق بسهولة، وتصور بلك أنه سيكون من السهل تدمير القلعة بلغمها، وبناء عليه أمر اللغامين بالعمل، وحالما تم الإنتهاء من أعمال الحفر، ألقيت النار في وسط المادة المتفجرة التي كانت قد وضعت داخل الأنفاق، وعندما احترقت الدعامات الخشبية غارت الهضبة وانهار البرج الذي كان مقاماً عليها محدثاً دوياً كبيراً، واستسلم الملك عندئذ إلى بلك دون شروط حيث خشي من انهيار القلعة بأسرها بطريقة مشابهة، ورضي بلك بحصوله علىٰ القلعة وبات مسروراً ولذلك صفح عن الملك وابن أخته غاليران أيضاً، وأمر أن يوثقوا وينقلوا إلىٰ مدينة حران الواقعة قرب الرها ليحتجزوا هنالك تحت حراسة مشددة، وأما بالنسبة للأرمن الشجعان والمخلصين الذين كانوا قد عرضوا أنفسهم لأخطار كبيرة ليطلقوا سراح الملك وحاكمهم من الأسر فقد

---

(١) انتشرت حكاية رؤيا بلك قديماً جداً، لأن فولتشر الذي توقف عن الكتابة في ١١٢٨ قد ضمنها حديثه عن وفاة بلك (انظر هاغنمير «فولتشر» ص٧٢٧).

تعرضوا لشتى أنواع العذاب. فقد سلخ جلود بعضهم وهم علىٰ قيد الحياة، ونشر آخرون إرباً إرباً، ودفن آخرون وهم أحياء، وسلم بلك عدداً آخر منهم إلىٰ رجاله ليكونوا أهدافاً للتدريب على رماية النشاب، وعلىٰ الرغم من أن هؤلاء الرجال عانوا من التعذيب في هذا العالم، فقد كان عندهم أمل أكيد بالحياة السرمدية، ومع أنهم امتحنوا في عدة أشياء غير أن مكافأتهم كانت عظيمة من وجهة نظر أخرى [1].

٢٠ ـ كونت جوسلين يجمع قوة كبيرة لإطلاق سراح الملك. غير أنه فرق قواته وأعادها إلىٰ أراضيها بعدما روعته أخبار الكارثة المشؤومة التي نزلت ببلدوين.

تقدم كونت جوسلين مع أصحابه المسافرين في طريقهم بخوف دائم وبحذر شديد، ولم يكن لديهم سوىٰ القليل من الزاد والطعام وزقين من الخمر جلبوهما بالمصادفة معهم، ووصلوا أخيراً إلىٰ نهر الفرات العظيم حيث تشاور جوسلين مع رفاق المخاطرة حول كيفية عبور النهر بالسهولة الأكثر، وتقرر في النهاية وحوب ملء الزقين بالهواء وشدهما إلىٰ وسطه بالحبال [2]، ووصل إلىٰ الضفة الأخرى للنهر بإرادة الرب سالماً وآمناً بهذه الطريقة بتوجيه سباحين متمرسين وقف كل واحد منهما عند إحدى ضفتي النهر، ثم واصل رحلته من هنالك بخطر كبير وبأقدام عارية، وكان يعاني من أتعابه المألوفة، وأنهكه الجوع والعطش والتعب، ومع ذلك وصل في النهاية برحمة الله، إلىٰ قلعة تل باشر المشهورة؛ وحيث أثقل كاهله القلق إزاء المهمة المعهودة إليه، فقد تقدم من هناك إلىٰ أنطاكية بصحبة مرافقة مؤقتة كانت ضرورية له بسبب متطلبات الأوضاع الاستثنائية، ثم تقدم إلىٰ القدس تنفيذاً لنصيحة البطريرك برنارد حيث شرح هنالك لبطريرك وأمراء المملكة ظروف الكارثة التي كانت قد وقعت للملك، وسرد جميع تفاصيل المسألة، وتوسل إليهم أن يرسلوا النجدة الحربية فوراً حيث لم يسمح موقف الملك الخطر بأي تأخير، وحيث كانت هنالك حاجة لخطة سريعة ومساعدة فورية ودون تأخير [3].

ونتيجة لتوسلاته اجتمع أهالي المملكة كلهم كرجل واحد، وانطلقوا علىٰ الفور حاملين معهم صليب الصلبوت، وجمعوا تعزيزات من المدن التي عبروها لزيادة أعدادهم حتى وصلوا إلىٰ أنطاكية حيث انضم إليهم كهنة المدينة وأهلها وساروا كقوة واحدة تحت قيادة الكونت إلىٰ تل باشر وتلقوا في هذا الموقع معلومات دقيقة عن كل ما كان قد حدث للملك

---

(١) أكدت المصادر الأخرى مسألة معاملة بلك للأرمن بصورة قاسية.

(٢) كانت طريقة العوم بالاستعانة بجلد منفوخ وما زالت مستخدمة في عبور نهر الفرات في تلك المنطقة.

(٣) يمكن أن ننظر إلى معاملة جوسلين من منطلق أنه اعتبر حاكم تلك المنطقة.

خلال الفترة الفاصلة، ولما اتضح لهم أن التقدم لمسافة أبعد من ذلك سيكون بلا فائدة بالنسبة لهم، فقد تقرر بموافقة مشتركة أنه يجب على الجميع العودة إلى الوطن، وتقرر إلحاق بعض الأضرار بالعدو، إذا كان ذلك ممكناً، في مدينة حلب أثناء مرور الفرق المقاتلة لها حتى لا تبدو الحملة أنها كانت عقيمة تماماً، وحدث كل شيء حسب خطتهم، فعندما كانوا يمرون بمدينة حلب انطلق مواطنوها بنية القتال؛ إلاّ أن المسيحيين أجبروهم على التراجع بقوة السلاح إلى داخل المدينة، وبقيت قواتنا أمام المدينة لمدة أربعة أيام متوالية على الرغم من الجهود التي بذلها سكان المدينة لإبعادهم.

وانفصل أهالي المملكة عن الباقين في مسيرة العودة وتقدموا في طريقهم وحدهم، وشنوا غارة مفاجئة في داخل بلد العدو بالقرب من بيسان بعد أن عبروا الأردن، فقد انقض المسيحيون على الناس هناك فوراً لأنهم لم يكونوا مستعدين أبداً. وكانت المحصلة قتل العديد منهم، وأسر عدد كبير من النساء والرجال. ثم عاد المسيحيون محملين بكمية ضخمة من أنفس المغانم إلى بلادهم والفرح والابتهاج يغمرهم.

٢١ ـ المصريون يدخلون المملكة من جديد بقوات ضخمة. المسيحيون يتصدون لهم بجيش قوي ويهزمونهم بطريقة رائعة.

كان لدى أمير مصر سبب وجيه في أن لا يثق بمملكة القدس، وبدت الفرصة مواتية تقدم نفسها لغزو تلك المملكة في هذا الوقت بسبب أسر الملك [١]، وهكذا أمر باستدعاء الجنود الاحتياطيين من سائر أنحاء مصر، كما أمر ولاة المدن الساحلية بإعداد السفن والشواني، حيث كان هذا واجبهم الخاص، وأن يسلحوا الأسطول، كما توجب إعداد كل شيء آخر ضروري للحرب البحرية ودون تأخير.

وحالما كانت السبعون شينياً جاهزة عبر الأمير الصحراء بجيش برّي ضخم وخيم بالقرب من عسقلان، وبقي هنالك مع فيالقه بينما أبحر الأسطول إلى يافا ورسا أمام المدينة، وهبطت القوات البحرية بأعداد ضخمة أمام المدينة وبدأت تطوقها حالاً من جميع الجهات، وواصلت هذه القوات سلسلة مستمرة من المناوشات بطريقة عدائية من أجل إيذاء العدو، وحيث كان عدد المدافعين قليلاً، فقد تمكن المحاصرون من الاقتراب بأمان إلى مسافة قريبة وكافية لنسف السور وإضعافها في مواقع كثيرة، ولو أنهم تمكنوا من مواصلة الهجوم في اليوم

---

(١) لم يكن الأفضل مسؤولاً عن السياسة المصرية لأنه قتل في ١١ ـ كانون ثاني ١١٢١، وقد عزا ابن القلانسي مقتله إلى الخليفة الآمر (انظر جب «تاريخ دمشق» ص١٦٣ ـ ١٦٤).

اللاحق أيضاً لكانت الأسوار قد هدمت حتماً، ولكان قد تم الاستيلاء على المدينة بهجوم عنيف حيث لم يكن هنالك عدد كبير للدفاع عنها ومقاومة المعتدي.

وكان البطريرك ويوستاس غرينر وكافـل المملكة وكبار رجالات المملكة قد حشدوا في هذه الأثناء جميع الجنود المتوفرين في سهل قيسارية في مكان يسمى قاقون وصفت الفيالق هنا بترتيب المعركة وأرسلت إلى يافا، وعندما وصل نبأ تقدمهم إلى القوات التي كانت تتولى حصار المدينة، تراجع الرجال بسرعة إلى السفن لأنهم خافوا من قدوم جنودنا، وأمسكوا مجاذيفهم بأيديهم وباتوا مستعدين للإبحار وهم ينتظرون ليروا ما سيحدث لقواتهم البرية والتي عرفوا أنها كانت بالقرب من العدو، وتقدم المسيحيون في هذه الأثناء بقيادة صليب الصلبوت، وبما أنهم تسلحوا بالإيمان وأمدهم التأييد السماوي بالمساعدة، فقد كانوا أقوياء بالأمل وواثقين بالنصر، وواجهوا العدو، بصفوف مرتبة حسب النظام العسكري، بالقرب من موقع يدعى يبنى. وتقدم الكفرة بكتائب منظمة تنظيماً جيداً حسب عادتهم، وكأنهم قد عقدوا العزم على الاشتباك مع المسيحيين بدون تردد، غير أنهم صعقوا عندما رأوا تنظيمنا الرائع وتلمسوا الدليل الأكيد على شجاعتنا وعلى الرغم من أنهم تقدموا كالأسود، فقد أصبحوا الآن أكثر خوفاً من الأرانب ورغبوا في تجنب المعركة، أو بالأحرى أسفوا لأنهم باشروها بأية حال.

قيل إن قواتنا ككل بما فيها جميع أنواع العامة من الناس كان تعدادها نحو سبعة آلاف مقاتل، وروي أنه كان لدى العدو ستة عشر ألف جندي مجهزين للمعركة بالإضافة إلى الجنود الموجودين على متن السفن من العاملين في الأسطول [1]، ومع ذلك، فقد كان المسيحيون جريئين في شجاعتهم ونادمين بسبب آثامهم، وتضرعوا إلى السماء لتمدهم بالعون والخوف من الرب يغمر أفئدتهم وشنوا هجوماً عنيفاً على العدو بسيوفهم. ومع أنهم كانوا يواجهون خطر الموت لأن القتال كان في مواقع قريبة، فإنهم نادراً ما منحوا الكفرة فرصة للتنفس.

وأصاب الذهول المصريين تجاه قوة المسيحيين وجرأتهم. وشهدوا الآن بأم أعينهم وذاقوا بالضربات التي أمطرت عليهم صحة الروايات التي كانوا قد سمعوا بها، ومع ذلك فقد كانوا مستعدين، وبذلوا جهودهم للمقاومة ورد ضرباتنا بقوة مماثلة، بيد أنهم لم يكونوا مماثلين لنا في الشجاعة والقوة أبداً، وأخفقت محاولتهم وأجبروا على الفرار، وهجروا

(١) الرواية عن هذه المعركة مستقاة من فولتشر، التي قبلت الأعداد التي أعطاها مع أنها كبيرة جداً، وكان تاريخ المعركة هو ٢٩ ـ أيار ١١٢٣.

معسكرهم الذي كان مليئاً بجميع أنواع الثروات ووسائل الرفاهية، وكان اهتمامهم الوحيد إنقاذ أرواحهم بالهروب.

وطاردهم المسيحيون إلىٰ مسافة بعيدة بقدر ما استطاعوا وقتلوا الكثيرين منهم بحيث لم ينج من الموت أو الأسر إلاّ القليل من ذلك الحشد الكبير، حتى ليقال أنه هلك سبعة آلاف كافر في ذلك اليوم.

ثم عادت قواتنا منتصرة إلىٰ معسكر العدو، وقد وجدت هناك كنوز المصريين وكميات ضخمة من الذهب والفضة وأوان نفيسة من كل نوع وسرادقات وخيم وخيول ودروع وسيوف بوُفرة كبيرة، وقُسمت الغنائم حسب قوانين الحرب وعادت العساكر إلىٰ وطنها موسرة بشكل يفوق التصديق.

عندما وصل نبأ الكارثة التي حلت بالجيش البري إلىٰ الذين كانوا مع الأسطول، أبحروا إلىٰ مدية عسقلان وكانت هذه المدينة ما تزال تحت سيطرة المصريين، وتقدم ميناءً آمناً لهم، وهناك تلقوا فيها تفاصيل أكمل حول هزيمة الجيش.

في هذه الآونة توفي يوستاس غرينر وكان رجلاً عاقلاً وحكيماً عهد إليه بالمسؤولية عن المملكة خلال غياب الملك، واختير ليحل محله وليم دي بري حاكم طبرية الشهير، وكان رجلاً يستحق الثناء من جميع جوانبه [١].

٢٢ ـ دوج البندقية يبحر نحو سورية مع أسطول كبير.

كان دومنكوث ميشيلز [دومنغو ميشيل] [٢] دوج البندقية، قد علم بالشدائد التي كانت مملكة الشرق تتعرض لها، أمر بإعداد أسطول، وأبحر في هذا الوقت بالذات مع أربعين شينياً إلىٰ سوريا، كان منها ثمانية وعشرون شاتزاً Chatz وأربع سفن أكبر لحمل الأمتعة، ورافقه بعض كبار نبلاء مقاطعته. وعندما وصلوا إلىٰ جزيرة قبرص علموا أن

---

(١) توفي يوستاس غرينر في ١٥ ـ حزيران ١١٢٣، وأعطي وليم دي بري اقطاعية طبرية عندما انتقل جوسلين إلىٰ طبرية في ١١١٩، وقليلة هي المعلومات المعروفة عن حياته المبكرة (انظر هاغنمير «فولتشر» ص ٦٧٥ ـ الحاشية ٥).

(٢) كان هذا هو دومنغو بن ميشيلي الذي كان قائد أسطول البندقية لعام ١٠٩٩، وكان دوجاً للبندقية منذ ١١١٧ وحتى ١١٢٨ وكان البابا كالكستوس الثاني قد ناشد البنادقة في سنة ١١٢١ لتقويم المساعدة، ولعل مناشدة بلدوين الثاني قد جاءت متأخرة بعض الشيء، وبدأت الاستعدادات للحملة في سنة ١١٢١، وأبحرت هذه الحملة نحو كورفو في أواخر الخريف وأمضت الشتاء هناك، وتحركت نحو قبرص في مطلع ربيع ١١٢٣، وتكمن أهمية هذه الحملة بالنسبة للبندقية في حقيقة أن حاكمها مع العديد من شخصياتها قد ذهبوا مع الأسطول في حين تركت شؤون السلطة في البلاد إلىٰ رجال من مراتب أدنى.

الأسطول المصري أبحر بعدما علم بمقدمهم إلىٰ ساحل مدينة يافا في الأراضي السورية وأنه ما يزال هناك وقد نظرت إليه المدن الساحلية بكثير من الريبة والشك، ودفعت هذه المعلومات الدوج إلى الأمر بالرحيل الفوري، وأبحر مع أسطوله بتشكيل المعركة بسرعة إلىٰ الساحل القريب من يافا، هذا ووصل فيما بعد علىٰ الفور نبأ أفاد أن الأسطول المصري قد غادر يافا وانسحب إلى أحواز عسقلان، فقد دفعتهم التقارير المشؤومة بخصوص الكارثة التي وقعت لجيشهم البرّي في المعركة مع المسيحيين إلىٰ الانسحاب إلىٰ مدينة تقع تحت سيطرتهم، وعندما وصلت هذه المعلومات إلىٰ البنادقة عن طريق جواسيسهم، تحول اتجاه الأسطول علىٰ الفور نحو عسقلان، وقد أملوا في حال بقاء الأسطول المصري هناك بتلهف في خوض معركة معه، وبما أنهم كانوا رجالاً ذوي حنكة وتدريب كبيرين في مثل هذه الأمور، فقد وضعوا سفنهم بتشكيل المعركة حسب أفضل ترتيب ممكن.

وكان بين سفن هذا الأسطول بعض السفن المنقارية التي كانت أضخم من الشواني وكانت تسمىٰ شاتزاً وكانت كل سفينة منها مجهزة بمائة مجذاف، احتاج كل منها إلىٰ مجذفين أضف إلىٰ ذلك أنه كان هنالك ـ كما قلنا ـ أربع سفن أكبر لنقل المعدات والآلات والأسلحة والمؤن الضرورية، ووضعت هذه السفن مع الشاتز في المقدمة حتى إذا صادف ولمحها العدو عن بعد، يمكن أن يعتقد أنها سفن تجارية أكثر من كونها سفناً من أسطول العدو، وتبعتها الشواني. ثم تقدمت القوة البحرية بهذا التشكيل إلىٰ الشاطىء وكان البحر هادئاً جداً وكانت الريح مواتية، وكان أسطول العدو قريباً منهم، وعندما بدأ بعد لأي نور الصباح بالظهور وأعلن الفجر عن قدوم النهار لاحظ المصريون أن الأسطول المسيحي كان قادماً نحوهم، وعندما ازداد ضوء النهار أدركوا أن الأسطول كان قريباً جداً منهم، وأمسكوا بمجاذيفهم بعدما صعقهم الخوف والدهشة، وأيقنوا أن معركة كانت على وشك النشوب بين الأسطولين، وصاحوا بالبحارة مستخدمين الصرخات والإشارات ليقطعوا الحبال ويسحبوا المراسي ثم ليضعوا المجذفين في أماكنهم وليمسكوا بأسلحتهم.

٢٣ ـ الدوج يجد اسطول العدو بالقرب من يافا. يهاجمه بضراوة. إرغام العدو على التراجع. بقاء سفن كثيرة في أيدي المسيحيين.

وتمزقت صفوف العدو بالكامل في جلبة الفوضى والذعر، وأبحرت في هذه الآونة إحدىٰ سفن البنادقة تحمل الدوج أمام باقي السفن بسرعة، وارتطمت هذه السفينة مصادفة بالسفينة التي كانت تحمل قائد الأسطول المصري، وكانت الصدمة عنيفة جداً لدرجة أن سفينة العدو انغمرت بالكامل تقريباً بالأمواج، وتبعتها سفن البنادقة الأخرىٰ بسرعة مماثلة،

ونجحت كل سفينة تقريباً في قلب سفينة من سفن العدو، وتلت ذلك معركة شديدة حارب فيها الطرفان بضراوة ومرارة، كانت المذبحة مريعة. وعلى الرغم من أنه يصعب تصديق قول الذين شاركوا في هذا النزاع فإنهم يصرون بقوة على قولهم إن المنتصرين كانوا مغطين تماماً بدماء القتلى وقد أصبح البحر المجاور أحمر من لون الدم لدائرة محيطها ميلان من جراء الجثث الملقاة فيه ومن دم القتلى الذى جرى من السفن، وكانت الشواطىء مغطاة بكثافة بالجثث التي لفظها البحر بحيث فسد الهواء وأصيبت المنطقة المحيطة بوباء من جثث الموتى المتفسخة.

والتحم القتال في مواقع قريبة، حيث حارب الطرف الأول بحماسة ملتهبة وكافح الطرف الثاني بقوة مماثلة في مقاومته، وأخيراً انتصر البنادقة بإرادة الله واستدار العدو ولاذ بالفرار، وتم الاستيلاء على أربع شواني مع عدد كبير من الشاتز وسفينة ضخمة واحدة قتل قائدها. وهكذا، أحرز نصر بارز إلى الأبد[1].

وحالما منح التأييد الإلهي شعبنا هذا الانتصار، أعطى الدوج أوامره بالتقدم دون إضاعة للوقت باتجاه مصر، وأمل أن يحدث ويقابلوا بعض سفن العدو، وهكذا، أبحروا على طول الساحل وصولاً إلى العريش، وهي مدينة بحرية قديمة تقع على حافة الصحراء، وحدث كل شيء تماماً كما رغبوا به، وكأن رسولاً موثوقاً قد أخبرهم بما سيحدث. لأنهم عندما كانوا يكدحون مجذفين في ذلك البحر لمحوا عشر سفن من سفن العدو على مسافة قريبة منهم، ووجه سير السفن إلى هناك بالسرعة الممكنة وتم الاستيلاء على السفن بالقوة في المواجهة الأولى، وقتل قسم من الذين كانوا على متن هذه السفن وأسر الباقون، وكانت هذه السفن سفناً محملة بالسلع من الشرق أي بالتوابل والأنسجة الحريرية، وجعل تقسيم المغانم -حسب عادتهم- البنادقه أغنياء بالفعل، ثم وجهوا سيرهم إلى مدينة عكا التي نزلوا فيها بعدما جروا السفن المستولى عليها معهم[2].

(١) يعود الفضل في حصول وليم على هذه الأوصاف للأسطول والمعركة لليوم الأول من حزيران مع تفاصيل أخرى كثيرة تتعلق بالحملة إلى استخدام للمصادر الشفوية والوثائق. (من أجل وصف مفصل لبناء السفن وأنواعها في تلك الفترة أنظر رومولا ور. س أندرسون «سفن الملاحة» في ثنايا الفصل السادس).

(٢) لم يغب جانب الأعمال عن أنظار الأساطيل الايطالية، فما من حملة كانت أهدافها عسكرية محصنة، وواضح هنا تقدير وليم للتجارة.

٢٤ ـ الاتفاق المعقود بين دوج البنادقة وبارونات المملكة حول مسألة حصار مدينة صور.

وصل إلى القدس بسرعة نبأ رسو دوج البندقيه على شواطئنا مع قوة بحرية وأنه كان قد انتصر بشكل رائع على العدو، وبناء عليه فإنّ غورموند بطريرك القدس ووليم دي بري كافل المملكة وقائد قواتها وبنز مستشار الملك، بالإضافة إلى رؤساء الأساقفة والأساقفة وعدد آخر من رجالات المملكة، أرسلوا وفداً من الرجال المحترمين والحكماء إلى الدوج[1]، وحمل المندوبون تحيات البطريرك والنبلاء وعامة الناس الى الدوج والرجال القياديين البنادقة ولقادة الجيش أيضاً، وكان عليهم أن يعبروا عن السرور الذي تطلع به أهالي القدس إلى قدوم البنادقة وليدعوهم ليستخدموا كل ما يمكن للمملكة أن تقدمه لهم وكأنهم كانوا من سكان المدينة، فقد كان الجميع مستعدين وتواقين ليعاملوهم بكرم تام حسبما تطلب قوانين الإنسانية بشكل موائم، ورغب الدوج بزيارة الأماكن المقدسة، وهي أمنية قلبية فكرّ فيها منذ عدة سنوات مضت، كما تلهف للتحادث مع الأمراء الذين كانوا قد أرسلوا له دعوة ودية جداً، وهكذا، ترك رجالاً أكفاء وعقلاء للاهتمام بالأسطول وذهب إلى القدس بمرافقة نبلائه الرئيسين، حيث لاقى في تلك المدينة ترحيباً حاراً وعومل بأسمى آيات الاحترام والتشريف، واحتفل هناك بيوم ميلاد ربنا، وتوسل إليه الأمراء بجدية أن يكرس نفسه لفترة من الزمن لخدمة المسيح ولتقدم المملكة، وقال الدوج مجيباً إنه كان قد أتى وفي ذهنه ذلك الهدف بشكل خاص، واعتزم على أن يكرّس نفسه له بالكامل، ونظراً لحضور البطريرك وعدد آخر من النبلاء العظماء في المملكة، تقرر بموافقة شاملة مهاجمة إحدى المدن الساحلية وفقاً لاتفاق محدد، وعقدوا العزم على مهاجمة صور أو عسقلان، حيث كانت جميع المدن الأخرى بدءاً من نهر النيل وحتى مدينة أنطاكية قد أصبحت، بفضل نعمة الرب تحت سيطرتنا.

هذا، واختلفت رغباتنا حول هذه المنطقة، واقتربت المسألة من إثارة شجار خطير، وناضل المندوبون من القدس والرملة ويافا ونابلس والضواحي المحيطة بهذه المدن بكل قوتهم لتوجيه الحملة إلى عسقلان، فقد كانت المدينة الأقرب إليهم، وبدت أنها تتطلب إنفاقاً أقل من الجهد والمال، وعلى العكس، حث الناس من عكا والناصرة وصيدا وبيروت وطبرية وجبيل ومدن أخرى تقع على الساحل، أن يتم توجيه الحملة إلى مدينة صور، وقالوا بما أن هذه المدينة كانت مدينة مهيبة وجيدة التحصين، ينبغي بذل جميع الجهود الممكنة لبسط

---

(١) إن الاحتفال الموصوف هنا هو نوع من السرور الذي يتم إعلانه لدى وصول رأس الدولة.

سيطرتنا عليها، خشية أن يفوز العدو بطريق إلى بلادنا عبر أراضيها ويسترد بذلك المنطقة لا بل بالحقيقة سائر المنطقة.

وهكذا اقتربت المسألة بسبب خلاف الرأي هذا من أن تؤجل بشكل لا يقاوم؛ ومع ذلك، تقرر في النهاية، عن طريق جهود بعض الوسطاء، أنه من الموائم إنهاء هذا الجدل بالقرعة، وعلاوة على ذلك، كانت طريقة تحديد القرعة نزيهة تماماً، ووضعت قصاصتان من الرّق احتوت احداهما على اسم صور، واحتوت الثانية على اسم عسقلان، على المذبح، ثم قدّم غلام يتيم بريء وسمح له أن يختار إحدىٰ القصاصتين، حيث فهم أن الجيش سيتقدم دون نقاش إلى المدينة المدونة في القصاصة المسحوبة. ووقع الاختيار على مدينة صور، وجرى استقاء هذا التفاصيل من الرجال المسنين الذين أعلنوا بثبات أنهم حضروا جميع الحوادث الآنفة الذكر [١].

بعد اقرار هذه الخطة اجتمع السيد البطريرك والرجال القياديون لتلك المنطقة مع كامل الناس من مدينة عكا حيث كان اسطول البنادقة راسياً بأمان في الميناء، وجرى تبادل الأيمان المغلظة ووافق الطرفان بوساطتها على أن يحافظا بإخلاص على شروط الميثاق الذي كانا قد دخلا فيه، وأجريت جميع الاستعدادات الضرورية لحملة من هذا النوع، وحاصرت القوات في السادس عشر من شهر شباط مدينة صور من البر والبحر [٢].

٢٥ ـ نسخة عن المعاهدة تحتوي على الاتفاق المعقود بين البنادقة وأمراء مملكة القدس بشأن حصار مدينة صور.

بما أنه لا يمكن إهمال أية وثيقة لها صلة بحوادث جرت في الأزمان الغابرة، يجب أن ندرج هنا، كدليل هام عما تم إجراؤه، نسخة عن الامتيازات التي يحتويها صلب الاتفاق المعقود بين البنادقة وقادة مملكة القدس، وهي على النحو التالي:

«باسم الثالوث المقدس الذي لا يتجزأ، الآب والابن والروح القدس. عندما كان

---

(١) زادت رواية وليم غنى بشكل عظيم بمثل هذه الأبحاث، مع أن فولتشر كان قد أحكم رواية الحملة التي أدت إلىٰ الاستيلاء على صور، لكن روايته ليست كاملة مثل رواية وليم، وقد ذكر فقرة هامة فيما يتعلق باختيار المدينة التي كانت ستهاجم وهي عملية اختيار أودو أسقفاً لصور في سنة ١١٢٢ (هاغنمير «فولتشر» ص٦٤٧) وهو دليل على توقع الاستيلاء عليها ولا بد أن هذا قد تم بناء على تواتر أخبار مساعدة البنادقة، وهذا لا يحول دون اعتبار قصة الاختيار لأن البلدان الجنوبية مع الاقطاعيات كانت ما تزال تأمل في تحويل الحملة نحو عسقلان.

(٢) ١٦ ـ شباط ١١٢٤.

البابا كالكستوس الثاني وهنري الرابع[1]، الإمبراطور الجليل للرومان يحكمان الأول الكنيسة في روما والآخر الإمبراطورية تم التوصل بمشيئة الرب إلى سلام في مجلس عقد في العام نفسه في روما بين الكنيسة والدولة حول النزاع على الخاتم والصولجان، قدم دومنغوميشلي دوج البندقية ودالماشيا وكرواتيا، والأمير الامبراطوري، رفقة حشد كبير من الفرسان واسطول قوي من السفن قدم كمنتصر للدفاع الضروري عن المسيحيين، وكان قد قدم مباشرة بعد انتصاره على الأسطول الوثني لملك بابليون[2]، الذي قد أنزل به دماراً مريعاً عندما رسا أمام سواحل عسقلان التي بدون موانىء.

وكان بلدوين الملك الثاني للقدس، يقبع في هذه الآونة مع آخرين كثر بسبب آثامنا، في شراك الكفار، أسيراً لدى بلك أمير الفرثيين[3]. ولذلك، كوننا نحن غورموند، بنعمة الله بطريرك مدينة القدس المقدسة، مجتمعين في كنيسة الصليب المقدس في مدينة عكا مع الأخوة من الأساقفة المساعدين من كنيستنا ومع وليم دي بري شحنة القلعة ومع المستشار بنز وبالاشتراك مع القوات المتحالفة للمملكة بأسرها، أعلن تأكيد وعود الملك المذكور بلدوين وفقاً للاقتراحات المقدمة في رسائله وكتبه التي كان الملك نفسه قد أرسلها من قبل بوساطة رسله إلى البندقية إلى دوج البنادقة هذا نفسه[4]، ولقد أعطينا هذا بأيدينا وبأيدي الأساقفة والمستشار مع قبلة السلام أيضاً حسبما تطلبت منزلتنا، كما رضي جميع النبلاء، المدرجة اسماؤهم أدناه ووافقوا مقسمين على الكتب المقدسة للرسول مرقص عليه السلام وللدوج الآنف الذكر وخلفائه من بعده ولأهالي البندقية وعلى شروط المعاهدة كما هي مكتوبة أدناه بحيث ستبقى هذه الوعود، كما هي مكتوبة أدناه تماماً بدون تناقض، ثابتة وسليمة في المستقبل له ولشعبه إلى الأبد. آمين.

سيحصل البنادقة على كنيسة وشارع كامل لهم وساحة وحمام وفرن يحتفظون بها بحق وراثي إلى الأبد خالصين من الضرائب كما هي حال أملاك الملك الخاصة، وذلك في كل مدينة تابعة للملك المذكور آنفاً وتحت حكم خلفائه أيضاً، وفي مدن جميع باروناته.

---

(١) الكلمه التي استخدمها وليم هي قورتوس Quartus، - أي الرابع - لكن الحاكم كان هو هنري الخامس ١١٠٦ - ١١٢٥.

(٢) يعني مصر التي كان حاكمها في تلك الآونة الخليفة الآمر.

(٣) كان بلك في هذه الآونة حاكماً للمنطقة التي احتلها الأرمن سابقاً، وكان من أصل تركي هذا ولغة هذه الوثيقة محيرة بعض الشيء.

(٤) تصحح هذه الإشارة إلى قيام مفاوضات أولية الانطباع الذي أعطته أقوال وليم السابقة حول إقدام البنادقة على خوض مغامرة عادية، وتتواءم عملية مناشدة البابا كالكستوس الثاني في عام ١١٢١ وانتخاب أودو رئيساً لأساقفة صور في ١١٢٢ مع هذه الاتفاقات الأولية.

هذا وسيمتلكون في الساحة في القدس بقدر ما اعتاد الملك على امتلاكه، لكن إذا رغب البنادقة في أن يقيموا في حيّهم في عكا، فرناً وطاحوناً وحماماً وموازين ومكاييل وأواني لكيل الخمر والزيت والعسل فينبغي أن يُسمح بحرية ودون اعتراض. ولكل شخص مقيم هناك أن يطبخ ويطحن أو يستحم تماماً كما يُسمح بذلك بحرية في ممتلكات الملك، ويمكنهم أن يستخدموا المكاييل والموازين وأواني الكيل على النحو التالي: عندما يتاجر البنادقة مع بعضهم بعضاً، فعليهم أن يستخدموا مكاييلهم الخاصة، أي مكاييل البندقية وعندما يبيع البنادقة سلعهم إلى الشعوب الأخرى، عليهم أن يبيعوا بمكاييلهم الخاصة، أي، بمكاييل البندقيه، إلاّ أنه عندما يشتري البنادقة ويتلقون أي شيء بالمتاجرة من أي شعب أجنبي من غير البنادقة، فيسمح لهم أن يأخذوه بالمكيال الملكي وبسعر محدود، وبسبب هذه الامتيازات لا يحتاج البنادقة أن يدفعوا أية ضريبة مهما كان نوعها سواء أكان ذلك وفقاً للعرف أو لأي سبب مهما كان نوعه، سواء على الدخول أو البقاء أو الشراء أو البيع، وسواء أثناء بقائهم هناك أو عند رحيلهم، ولا يحتاجون لأي سبب مهما كان نوعه أن يدفعوا أية ضريبة فيما عدا عندما يذهبون ويجيئون وهم يحملون حجاجاً على مراكبهم، وفي هذه الحالة عليهم أن يدفعوا ـ وفقاً لأعراف الملك ـ الثلث للملك نفسه.

وبناء عليه، إن ملك القدس ونحن جميعاً نوافق نيابة عن الملك أن ندفع لدوج البندقية من عائدات مدينة صور في يوم عيد الرسولين بطرس وبولس ثلاثمائة قطعة ذهبية إسلامية في كل عام كما اتفق على ذلك.

وعلاوة على ذلك، فإننا نعدك، يادوج البندقية، مع شعبنا بأننا لن نأخذ شيئاً إضافياً من الشعوب التي تتاجر معك بشكل يتجاوز ما اعتادوا أن يعطوا وبقدر ما نتلقىٰ من الذين يتاجرون مع شعوب أخرىٰ.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن ذلك الجزء من الموقع ذاته وشارع عكا والذي يوجد في طرف منه منزل بطرس زنّي Zanni وفي الطرف الآخر دير القديس ديمتروس، وقسماً آخر أيضاً من الشارع ذاته الذي فيه منزل خشبي واحد ومنزلان مبنيان من الحجارة اللذان كانا من قبل كوخين مقامين من القصب، وهما الشيئان نفسهما اللذان منحهما ملك القدس بلدوين في الأصل إلى مرقص المبارك وإلىٰ الدوج أوردولافو وخلفائه بسبب الفوز بمدينة صيدا، فإني أقول إننا نمنح هذه الأماكن للقديس مرقص ولك يا دومنغو ميشلي دوج البندقية ولخلفائك بهذه الوثيقة ذاتها، ونمنحك السلطة الأبدية في امتلاكها والتصرف بها كما تشاء، ونمنحك السلطة ذاتها تماماً على القسم الآخر من الشارع ذاته والممتد بخط مستقيم من منزل

برنارد دي نيوفشاتل، الذي كان يخص من قبل جون جوليان، وحتى منزل غلبرت صاحب يافا من أسرة القديس لو ونمنحك السلطات نفسها التي يتمتع بها الملك، أضف إلى هذا أنه لا يحتاج أي واحد من البنادقة في سائر أنحاء مملكة الملك أو في ممالك باروناته أن يدفع أية ضريبة سواء في الدخول أو الإقامة هناك أو الخروج لأي ذريعة، بل يكون حراً كما في البندقية نفسها.

وإذا تعرض أحد البنادقة لدعوىٰ قضائية أو أي تشريع حول أي عمل ضد بندقي فيجب أن يتم الفصل في هذه الدعوىٰ في محكمة البنادقة، وأن يشعر أي امرىء أيضاً لديه نزاع أو دعوىٰ قضائية ضد أي واحد من البنادقة فيجب أن يتم الفصل في الدعوىٰ في المحكمة ذاتها للبنادقة لكن إذا ما تقدم بندقي بشكوىٰ ضد أي إنسان من غير البنادقة فيجب أن تُحسم الدعوىٰ في المحكمة الملكية، وعندما يموت بندقي سواء كان قد ترك وصية أو لم يترك [ما نسميه بدون لسان] تصبح ممتلكاته واقعة تحت إشراف البنادقة، وإذا ما غرق أي من البنادقة فلن يعاني من خسارة أي من ممتلكاته، وإذا مات في حطام السفينة، ترسل الممتلكات التي يخلفها لورثته أو لبنادقة آخرين، وعلاوة علىٰ ذلك، فسيحصل البنادقة على السلطات القضائية ذاتها وعلى الحقوق نفسها على منطقة أي سكان يعيشون في شارع ومنازل البنادقة مثلما للملك سلطات علىٰ شعبه.

وأخيراً، سيحصل البنادقة علىٰ ثلث كل من مدينتي صور وعسقلان مع توابعهما، وثلث من جميع الأراضي التابعة لهما بدءاً من عيد القديس بطرس، وينطبق هذا فقط على أراضي تخضع حالياً للمسلمين ولم تنتقل إلى سيطرة الفرنجة بعد، وسيحتفظ البنادقة بحق وراثي إلى الأبد وبحرية وبسلطات ملكية بثلث إحدىٰ هاتين المدينتين أو كليهما إذا منح الروح القدس بمشيئة الرب وبمساعدة البنادقة، أوبأية وسائل أخرىٰ، أيا من هاتين المدينتين أو كليهما لسيطرة المسيحيين وذلك دون عائق أو تأخير، تماماً كما يحتفظ الملك بالثلثين.

ولذلك، فإننا نحن غورموند بطريرك القدس سنعمل ما بوسعنا على إطلاق سراح الملك من الأسر بمعونة الرب ليصادق على الإتفاق المذكور أدناه، وإذا ما جرىٰ تعيين شخص آخر مكان الملك على مملكة القدس، فسنجعله يصادق علىٰ الوعود المبينة أعلاه، قبل استلامه العرش، كما قيل من قبل، وإلاّ فلن نوافق بأية حال علىٰ اعتلائه العرش [1]، كما سيصادق خلفاء البارونات أيضاً وأي بارونات جدد في المستقبل علىٰ الإتفاق ذاته وبالطريقة نفسها.

---

(١) تقدم هذه المقولة مسانده قوية لرفض فكرة أن الملك كان آنذاك وراثياً.

وأما بخصوص أنطاكية، فإننا نعرف تماماً أن الملك بلدوين الثاني وعد بأنه سيعطيكم أيها البنادقة في إمارة أنطاكية وفي ظل المعاهدة نفسها، أي: أنه سيكون هنالك في أنطاكية الإجراء نفسه كما في بقية المدن التي تخص الملك إذا كان أهالي أنطاكية راغبين بالفعل بالمصادقة على الإتفاق الملكي المعقود معكم [1]، وتمنحكم، نحن، غورموند، بطريرك القدس مع أساقفتنا ورجال الدين التابعين لنا والبارونات وأهالي القدس، نصيحتنا ومساعدتنا ووعدنا أن ننفذ بعقيدة مقدسة كل ما سيكتبه البابا لنا بخصوص هذا وأن نرعى جميع المسائل الآنفة لمصلحة البنادقة ومكانتهم [2].

أنا غورموند بنعمة الرب بطريرك القدس أؤكد بيدي هذه الأشياء المكتوبة أعلاه.
أنا برنارد أسقف الناصرة أؤكدها مثله.
أنا اشنتنوس أسقف بيت لحم أؤكدها مثله.
أنا روجر صاحب اللد، أسقف القديس جورج أؤكدها مثله.
أنا غلدوين راعي دير القديسة ماري في وادي يهوشافاط أؤكدها مثله.
أنا غيرارد المشرف القانوني على القبر المقدس أؤكدها مثله.
أنا أيكارد المشرف على هيكل الرب أؤكدها مثله.
أنا أرونلد المشرف على جبل صهيون أؤكدها مثله.
أنا وليم دي بري قائد القوات الملكية أؤكدها مثله [3].
صدر في عكا بيد بنز مستشار ملك القدس في سنة ١١٢٣ في الألف الثاني.

هنا انتهى الكتاب الثاني عشر

تم القسم الأول من الكتاب ويليه القسم الثاني
مبتدئاً بالكتاب الثالث عشر والاستيلاء على مدينة صور

---

(١) يسوغ وضع بلدوين الثاني في ١١٢١ كوصي على أنطاكية عرضه مثل هذه العروض ويسوغ أيضاً جهود البنادقة المحكمة الذين ربحوا بهذه الصورة كثيراً.

(٢) هذه الوثيقة بأكملها واحدة من أكثر الوثائق أهمية في التاريخ الاقتصادي لغربي أوروبا، وتعكس العناية القصوى التي ذكرت فيها جميع التفاصيل الدقيقة حول حقوق البنادقة وجود ميراث حافل بالتجارب والخبرات، فقد كانت الامبراطوريات التجارية الاستعمارية للمدن الإيطالية قد بدأت منذ حين، ومن المهم أيضاً أن نلاحظ أهمية مكانه البابا ككفيل للحقوق التجارية والسياسية.

(٣) إنه لمهم أن نلاحظ أن البنادقة كانوا كما يبدو راضين بتوقيع كافل المملكة وحاجبها عن السلطات المدنية في حين أنهم طلبوا توقيع كل رجل دين مهم من رجال الكنيسة، ومن الواضح أن البنادقة قد اعتبروا القدس كدولة تابعة للكنيسة ولا شك أنهم اعتمدوا على البابوية كضمانة نهائية.

تاريخ الحروب الصليبية

الأعمال المنجزة فيما وراء البحار

صنعه باللاتينية

وليم

رئيس أساقفة صور

١١٣٠ - ١١٨٥م

الجزء الثاني

نقله إلى العربية وقدم له

الدكتور سهيل زكار

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

Email: darelfkr@cyberia.net.lb
E-mail: darlfikr@cyberia.net.lb
Home Page: www.darelfikr.com.lb

دار الفكر

حارة حريك - شارع عبد النور - برقيًا: فكسي - ص.ب: ١١/٧٠٦١
تلفون: ٥٥٩٩٠٠ - ٥٥٩٩٠١ - ٥٥٩٩٠٢ - ٥٥٩٩٠٣
فاكس: ٠٠٩٦١١٥٥٩٩٠٤

بيروت لبنان

رقم الايداع الدولي (ISBN): 9953-35-042-6

بداية الكتاب الثالث عشر

الإستيلاء على مدينة صور . بسط النفوذ الملكي على دول لاتينية أخرى

١ ـ وصف قدم وشهرة صور .

يعود تاريخ مدينة صور إلى أزمان سحيقة جداً وذلك تبعاً لرواية يولبيان وهو رجل متضلع بالقانون ولد فيها، فقد كتب في المختصر تحت عنوان « الإحصاء » ما يلي: « من المعروف تماماً أن لبعض المستعمرات حقوقاً إيطالية مثل مستعمرة مدينة صور الرائعة الواقعة في سورية الفينيقية وهي مسقط رأسي، كما أن هذه المدينة بموقعها القيادي، وقدمها الكبير وبراعتها الفائقة في التسلح قد التزمت بشكل محكم بالمعاهدة التي كانت قد أبرمتها مع الرومان، كما منح امبراطورنا سيفيروس المبارك حقوقاً إيطالية لهذه المدينة مكافأة لها على إخلاصها البارز لجمهورية روما وامبراطوريتها »[١] .

وإذا رجعنا إلى القصص القديمة، فقد قطن في هذه المدينة الملك أغينور وأبناؤه أوروبا وقدموس وفونكس وكما يدعي الفينيقيون فإن سائر المنطقة قد استحدث اسمها من فونكس وأسس الابن الآخر قدموس مدينة طيبة وكان مخترع الأبجدية الإغريقية، وهكذا، فقد منح سلالته إسماً متميزاً كميراث لهم، كما قدمت الابنة الباقية أوروبا اسمها إلى القسم الثالث من الكرة الأرضية الذي يُسمى أوروبا[٢] .

اشتهر سكان مدينة صور بتوقد الذكاء وحيوية المزاج، وكانوا أول من حاول تسمية العناصر المنفصلة للكلام المنطوق بأحرف مناسبة، كما يدعون أيضاً التميز بكونهم أول بني البشر في تشييد خزائن الأموال للذكرى، وبإعطائهم الأجيال القادمة معرفة الكتابة والكلام عن طريق رموز مرئية للتفكير، وتظهر هذه الحقيقة في تواريخ الأزمان القديمة وقد ذكرها لـوكان المؤرخ البارز للحروب الأهلية على النحو التالي: « إذا صدقت الروايات كان الفينيقيون أول من غامر لتدوين طول اللهجات بإشارات بدائية »[٣] .

---

(١) Corpus Juris, Digest, L, XV, 1 .

(٢) في هذه المقولة أصداء لما جاء عند سولنوس في Polyhistor وأوفيد في Métamorphoses ، وكان وليم على معرفة جيدة بها.

(٣) لوكان .Pharsalia, III, 221

وكانت مدينة صور أول من أظهر اللون الأرجواني الرائع والمصنوع من المحار المسحوق والموريق النفيس، ويسمى هذا اللون المشهور هنالك حتى الوقت الحالي باسم « الصوري » وهو اسم مشتق من المدينة نفسها.

ويقال إن سيشاوس وزوجته اليسا ديدو انحدرا من هنالك أيضاً، حيث أسسا في أبرشية إفريقية مدينة قرطاج الرائعة المنافسة للإمبراطورية الرومانية، وأسموها باسم المملكة البونيقية، أي الفينيقية كما كانت، وذلك تذكراً للمنطقة التي كانوا قد قدموا منها، لأن القرطاجيين المدركين دائماً لأصلهم قد رغبوا على الدوام في أن يدعوا باسم الصوريين، وهكذا نقرأ في الكتاب الأول لمارو ما يلي: « كانت هنالك مدينة قديمة يقطنها المعمرون القادمون من مدينة صور »[١]، ونقرأ أيضاً: « سأعامل القرطاجيين والصوريين على حد سواء ودونما تمييز »[٢].

كان لمدينة صور في أول الأمر إسمان وهما « صور »[٣] باللغة العبرية « وتاير » وهو الإسم الشائع حالياً، ويبدو أن الإسم الآخر من أصل اغريقي (حيث فسر بمعنى ممر أو مضائق). ومن المؤكد أن اسمها مشتق من اسم المؤسس، حيث من الواضح تبعاً للتقاليد القديمة أن تيراس الابن السابع ليافث بن نوح قد أسس هذه المدينة ومنحها اسمه، ويمكن أن نعرف بسهولة كم كانت شهرة هذه المدينة عظيمة في الأزمان القديمة من أقوال حزقيال الذي قال له الرب: « وأنت يا ابن آدم فارفع مرثاة على صور، وقل لصور أيتها الساكنة عند مداخل البحر تاجرة الشعوب إلى جزائر كثيرة.... يا صور أنت قلت أنا كاملة الجمال. تخومك في قلب البحور. بناؤوك تمموا جمالك، عملوا كل ألواحك من سرو سنير. أخذوا أرزاً من لبنان ليصنعوه لك سواري. صنعوا من بلوط باشان مجاذيفك. صنعوا مقاعدك من عاج مطعم في البقس من جزائر كتيم. كتان مطرز من مصر هو شراعك ليكون لك راية. الاسمانجوني والأرجوان من جزائر أليشه كانا غطاءك »[٤].

وكتب أشعيا عن مدينة صور قوله: « اعبروا إلى ترشيش ولولوا يا سكان الساحل. أهذه لكم المفتخرة التي منذ الأيام القديمة قدمها تنقلها رجلاها بعيداً للتغرب. من قضى بهذا على صور المتوجة التي تجارها رؤساء، متسببوها موقرو الأرض »[٥].

---

(١) فرجيل Aemeid, I, 12.

(٢) فرجيل Aemeid, I, 574.

(٣) أو « صور » الاسم الذي استخدمه العرب في أيامنا، وكان قد تولى فولتشر جمع معظم المادة القديمة.

(٤) حزقيال: ٢/٢٧-٧.

(٥) اشعيا: ٦/٢٣ - ٨.

كان حيرام، الذي ساعد سليمان في بناء هيكل الرب، ملكاً لمدينة صور، كما كان أبولونيوس أيضاً وهو صاحب المآثر ذات الشهرة المنتشرة في كل مكان، حلّ ببراعة رائعة لغز الحكايات الرمزية ذات المغزى الأخلاقي والألغاز الكثيرة التي اعتاد سليمان على إرسالها إلى حيرام ملك مدينة صور، ويمكن للمرء أن يقرأ في الكتاب الثامن من تاريخ يوسفيوس القديم ما يلي: «وذكر مناندر الذي ترجم الآثار القديمة للصوريين من اللغة الفينيقية إلى اللغة الإغريقية أيضاً هذين الملكين على النحو التالي: «ارتقى حيرام العرش إثر وفاة والده أبيبالو وعاش ثلاثة وخمسين عاماً وحكم أربعة وثلاثين عاماً، وكان في تلك الآونة أبديموس بن أبديمون سجيناً، وهو الذي اعتاد على حل الألغاز التي أرسلها ملك القدس». ونقرأ ثانية مزيداً من ذلك على النحو التالي: «وعلاوة على ذلك، أرسل سليمان ملك القدس إلى حيرام - ملك مدينة صور، بعض الألغاز وتمنى عليه أن يقوم بحلها، على أساس أنه إذا لم يتمكن حيرام من حلها فلسوف يدفع مبلغاً محدداً من المال كغرامة، وعندما اعترف حيرام أنه لم يستطع حلها وكان على وشك تحمل خسارة مالية ضخمة، قام أحد الصوريين ويدعى أبديموس بحل الألغاز التي أرسلت إلى ملك صور، واقترح أبديموس بدوره ألغازاً أخرى لإرسالها إلى سليمان شريطة أن يدفع غرامة كبيرة إلى ملك مدينة صور إن لم يستطع حلها»[1]، ومن المحتمل أن هذا الرجل هو الشخصية المدعوة باسم ماركولفوس في الحكايات الخرافية والشعبية والذي يقال عنه إنه اعتاد على حل ألغاز سليمان، وأنه قدم في المقابل ألغازاً أخرى وذات صعوبة مماثلة ليحلها الملك.

لا تزال هذه المدينة نفسها تحمي جثة أورغين حيث يمكن إثبات ذلك بشهادة عيون المرء، وذكر جيروم الشيء نفسه فيما كتبه إلى باماخيوس وأوقيانوس في الرسالة التي تبدأ بقوله: «إن الجداول التي أرسلتها قد مضى عليها الآن نحو مائة وخمسون عاماً منذ وفاة أورغيني في مدينة صور»[2].

وبالإشارة إلى تاريخ إنجيلي أيضاً، تعتبر مدينة صور مدينة تلك المرأة الكنعانية الرائعة ذات العقيدة العظيمة والتي مدحها المنقذ عندما ناشدته من أجل ابنتها التي أقضت مضجعها روح شريرة وقال: «يا امرأة عظيم إيمانك»[3]، لقد تركت ذكرى إيمان رائع وصبر جدير بالثناء لبنات مدينتها، لأنها كانت أول من علمهن التضرع للمسيح المنقذ بهبات العقيدة

(١) يوسفيوس - التاريخ القديم: ٨/٥.
(٢) جيروم Ad pammachium et Oceanum.
(٣) متى: ١٥/٢٨.

والإحسان والأمل حسب أقوال الرسول الذي قال: «وبنت صور أغنى الشعوب تترضى وجهك بهدية»[1] .

تعتبر مدينة صور حاضرة جميع بلاد فينيقية، وقد احتفظت دائماً بالمكانة الأولى بين أقاليم سورية بسبب غناها بنعمة الرب بكل نوع وبسبب كثرة سكانها.

٢ ـ أراضي سورية وامتداداتها.

تجب الملاحظة أن اسم سورية يستخدم أحياناً بمعنى واسع عند تطبيقه على الإقليم بأسره، ويستخدم أيضاً بطريقة أكثر تحديداً ليشير فقط إلى جزء من البلاد نفسها، كما يشير أحياناً بمساعدة كلمة إضافية إلى إقليم خاص محدد، وبالتالي فإن سورية الكبرى تشتمل على أقاليم كثيرة ضمن حدودها، وهي تمتد شروعاً من نهر دجلة وحتى مصر ومن كليكية إلى البحر الأحمر، ويُسمى الإقليم الأول الواقع في الجزء الأسفل بين نهري دجلة والفرات باسم الجزيرة (بلاد الرافدين) ويسمى بهذا الإسم لأنه واقع بين النهرين، ويعرف النهر في اللغة الإغريقية باسم بوتاموس بينما يسمى باللغة اللاتينية باسم فلوفيوس، وبما أن هذا الإقليم هو جزء من سورية، فغالباً ما يسمى في الكتب المقدسة باسم الجزيرة السورية.

وتعتبر سورية المجوفة الإقليم الأكبر الثاني من سورية بعد الجزيرة الذي يضم مدينة أنطاكية المهيبة مع كافة المدن التابعة لها. وتقع الكليكيتان (الصغرى والكبرى) اللتان هما جزء من سورية، بعد هذا الإقليم وإلى الشمال منه، وتقع فينيقية إلى الجنوب منه وتحاذيه، وهي إقليم متميز ومشهور بين أقاليم سورية، وكانت هذه البلاد تشكل إقليماً واحداً لسنوات كثيرة، غير أنها مقسمة الآن إلى قسمين: القسم الأول منها هو فينيقية الساحلية، تمتد من نهر بانياس الذي يجري بمحاذاة قلعة المرقب إلى النتوء الجبلي المعروف حالياً باسم الصرفند والواقع بمحاذاة المدينة القديمة المسماة باسم صور القديمة. كما أن المدن الواقعة ضمن هذا الإقليم هي على النحو التالي: في الجنوب المدينة الأولى هي مدينة بورفيريوت والمعروفة أيضاً باسم حيفا والتي تدعى باللغة العامية باسم كيغاس. والمدينة الثانية هي مدينة بتولمياس والمعروفة أيضاً باسم عكا. وتقع المدينة الثالثة إلى الشرق وهي بانياس التي هي قيصرية فيليب، وتقع المدينة الرابعة إلى الشمال وهي مدينة الصرفند، ومدينة صيدا هي المدينة الخامسة وبيروت المدينة السادسة وجبيل المدينة السابعة، ومدينة البترون المدينة الثامنة، ومدينة طرابلس المدينة التاسعة والعريمة المدينة العاشرة وعرقة المدينة الحادية عشرة، وأرواد المدينة الثانية عشرة، وطرطوس المدينة الثالثة عشرة، والأخير هي مدينة مرقية.

---

(١) المزامير: ١٢/٤٥.

وتعرف فينيقية الثانية باسم فينيقية لبنان وعاصمتها دمشق، وتدعى أحياناً باسم سورية أيضاً مثالاً على ذلك «رأس سورية (آرام) دمشق»[1]، وقُسمت فينيقية هذه في وقت لاحق إلى قسمين: فينيقية دمشق، وفينيقية حمص.

كما أن العربيتين جزءان من سوريا وعاصمة الأولى هي بصري بينما عاصمة الثانية هي بترا الصحراء، كما تعتبر سورية صوبا - وادي عربة - وعاصمتها صوبا جزءاً من سورية الكبرى.

تشكل الفلسطينيات الثلاث جزءاً من سورية، وتدعى أولاها باسم يهوذا بالمعنى الضيق للكلمة وعاصمتها هي مدينة القدس، وعاصمة الثانية قيسارية البحرية والعاصمة الثالثة هي سيزيوبولس المعروفة أيضاً باسم بيسان، وتحتل الناصرة حالياً موقع هذه المدينة الأخيرة، كما أن الإقليم الأخير من سورية الكبرى والواقع باتجاه مصر هو إقليم آدوم.

٣ - وصف أحواز صور والمنافع التي تقدمها.

لم تكن مدينة صور محصنة تحصيناً ممتازاً فحسب - كما تم تبيان ذلك - بل كانت بالإضافة إلى ذلك مشهورة بجمالها وموقعها الفريد وخصوبة تربتها، فعلى الرغم من أنها تقع في البحر نفسه، وتحيط بها الأمواج بشكل تام وكأنها جزيرة من الجزر، فقد كان لها أمام أبوابها حقول واسعة مزروعة وممتازة من كل النواحي، بينما تمتد السهول المنبسطة ذات التربة الغنية والنتاج الخصب بدءاً من المدينة نفسها وإلى مسافات بعيدة حيث تزود أهالي صور بمؤن كثيرة.

وعلى الرغم من أن هذه المنطقة قد تبدو صغيرة بالمقارنة مع أراضي المناطق الأخرى، فإن إنتاجها الكبير يعوض عن مداها المحصور، كما تجعلها خصوبتها الفريدة مساوية لفدادين لا حد لها ولا اتساع، وفي الحقيقة هي ليست واقعة ضمن حدود ضيقة، فهي تمتد جنوباً نحو عكا إلى موقع يعرف حالياً باسم منطقة اسكندرون على بعد أربعة أو خمسة أميال من مدينة صور، بينما تمتد في اتجاه آخر نحو الصرفند وصيدا على قدر المسافة ذاتها تقريباً، ويبلغ عرضها نحو ميلين في مداها الأضيق، بينما يبلغ نحو ثلاثة أميال في مداها الأعرض، وهنالك ينابيع كثيرة في هذا السهل تسيل منها جداول ذات مياه صحية صافية، حيث تقدم مياهها الباردة إنعاشاً وسروراً في الطقس الحار.

ويعتقد أن أكثر هذه الينابيع شهرة الينبوع الذي يعرفه العالم بالشكل الأمثل وهو

---

(١) اشعيا: ٨/٧.

المعتقد أن سليمان قد تحدث عنه في أغنيته في نشيد الإنشاد «ينبوع جنات بئر مياه حيه وسيول من لبنان»[1] .

وأصل هذه الأنهار موجود في الجزء المنخفض من السهل، ولا ترتفع في الجبال كما هو حال العديد من الينابيع الأخرىٰ، وتبدو بالفعل علىٰ أنها تتدفق من أعماق الجحيم، ومع ذلك فإن براعة وعناية الإنسان قد رفعتها بشكل اصطناعي إلىٰ الجو الأعلىٰ بحيث تروي بغزارة المنطقة المحيطة بها كلها وتجعل بمجراها المعطاء السهل متيسراً لتحقيق غايات كثيرة، كما تم رفع الماء وتسييره إلىٰ الأعلىٰ وعلىٰ ارتفاع عشرة أقدام بواسطة بناء رائع من الحجر تساوي قوته قوة الحديد، وهكذا، فإن الينبوع الذي كان ذا نفع بسيط فقط في موقعه الطبيعي المنخفض قد أصبح مفيداً لجميع المنطقة المجاورة عندما تم رفعه بوسائل اصطناعية مخالفة للطبيعة، وأصبح يسكب مياهه بوفرة لإنتاج المحاصيل.

وعندما يقترب المرء ليتفحص هذا العمل الرائع يبدو له البرج[1] الخارجي مرتفعاً بشكل شاهق لكنه لا يرى الماء، بيد أنه عندما يصل إلىٰ القمة يشهد أن خزاناً ضخماً من الماء قد جمع هنا ويتم توزيعه من ثم إلىٰ الحقول المجاروة بواسطة قنوات ذات ارتفاع متماثل وبناء ضخم، كما تم تزويده بدرج مقام من الحجارة الصلبة لتأمين راحة الذين يرغبون بالصعود إلىٰ قمة البرج حيث أن درجة ميله مقامة بشكل تدريجي إلى حد يستطيع فيه حتى الممتطين لصهوات خيولهم أن يسيروا عليه إلىٰ السطح ودون صعوبة.

وتستمد جميع الأراضي حوله فوائد كثيرة من هذه المياه، حيث لا تقتصر هذه الينابيع علىٰ سقاية الحدائق والبساتين البهيجة والمزروعة بأشجار الفاكهة فحسب بل تروي حقول قصب السكر أيضاً التي تنتج مادة السكر منها، وهو الإنتاج الثمين والضروري جداً لفائدة الجنس البشري وصحته حيث يقوم التجار بنقله من هنا إلىٰ البلدان الأبعد من العالم.

كما يصنع نوع ممتاز جداً من الزجاج وبشكل رائع من الرمل المتوفر في هذا السهل ذاته، حيث يُنقل هذا الزجاج إلىٰ أماكن نائية، ويفوق بجودته جميع المنتجات من هذا النوع، كما يقدم مادة موائمة لصنع المزهريات الأكثر جمالاً والمشهورة بشفافيتها، ويتم بهذه الطريقة أيضاً نشر شهرة المدينة في الخارج بين الشعوب الأجنبية، ويتضاعف ربح التجار.

ولم تمتلك مدينة صور جميع هذه الموارد الغنية فحسب، بل امتازت بتحصيناتها الفريدة من نوعها والتي سنتكلم عنها في الصفحات القادمة، وكانت مدينة صور بالنسبة لأمير مصر هي المدينة الأنفس والأكثر انسجاماً بسبب ميزاتها الكثيرة ودفاعاتها القوية، لا سيما وأن

(١) نشيد الانشاد: ١٥/٤.

هذا الأمير كان هو الأمير الأقوىٰ بشكل عملي بين جميع ملوك الشرق، وكانت كامل المنطقة الممتدة من اللاذقية في سورية وحتى الصحراء الليبية تقع تحت سيطرته المطلقة؛ ومع هذا عدّ مدينة صور حصن مملكته وحاضرة امبراطوريته. ولهذا السبب زودها بعناية بالطعام والسلاح ووضع لها حامية من المحاربين الشجعان لأنه كان يعتقد أنه إذا تمكن من الحفاظ علىٰ سلامة الرأس، فإن جميع أجزاء الجسد الأخرىٰ ستبقى آمنة.

٤ ـ ذكر كيف تمت محاصرة المدينة مراراً.

وهكذا وكما ذكرت آنفاً في السادس عشر من شباط وصل جيشانا إلى تخوم مدينة صور وحاصراها بقدر ما استطاعا، إلا أن هذه المدينة كانت، حسب أقوال الرسول، تقع «عند مداخل البحر»[١]، وكانت محاطة بالماء من جميع الجهات باستثناء ممر طويل وضيق من الأرض مساوية للمسافة التي يستطيع سهم مقذوف بلوغها، ويقول الكتاب القدماء إنها كانت فيما مضىٰ جزيرة منفصلة تماماً في الواقع عن البر الرئيسي، ويعلنون أنه عندما كان الأمير الآشوري القوي نبوخذ نصر يحاصرها رغب بوصلها بالبر إلا أنه لم يكمل العمل، ويذكر الرسول حزقيال هذا الحصار على النحو التالي: «ها أنا أجلب على صور نبوخذ نصر ملك بابل من الشمال، ملك الملوك بخيل وبمركبات وبفرسان وجماعة وشعب كثير. فيقتل بناتك في الحقل بالسيف ويبني عليك معاقل ويبني عليك برجاً ويقيم عليك مترسة ويرفع عليك ترساً»[٢].

كما ذكر يوسفيوس هذا الحصار في الكتاب العاشر في تاريخه القديم علىٰ النحو التالي: «ذكر ديوكليس هذا الملك أيضاً في الكتاب الثاني من تاريخه عن «المستعمرات» وكان فيلوشريش قد ذكر في تواريخه عن الهند وفينيقيا أن هذا الملك حاصر مدينة صور لمدة ثلاثة أعوام وعشرة أشهر في الوقت الذي كان فيه جوثابل يحكم مدينة صور، وقام الإسكندر المقدوني بعد هذا الرجل بربط مدينة صور بالبر ثم استولىٰ بقوة السلاح على المدينة»[٣].

ويتحدث يوسفيوس عن هذا الحصار أيضاً في الكتاب الحادي عشر من تاريخه القديم قائلاً: «وهكذا، قدم الإسكندر إلىٰ سورية واستولىٰ علىٰ دمشق، ثم حاصر مدينة صور بعد أن فتح صيدا»[٤] ثم مضىٰ قائلاً: «ولأنه واظب على الحصار بقوة، استولىٰ علىٰ تلك

---

(١) حزقيال: ٢٧/٣.

(٢) حزقيال: ٢٦/٧-٨.

(٣) يوسفيوس ـ التاريخ القديم: ١٠/١١.

(٤) يوسفيوس ـ التاريخ القديم: ١١/٨.

المدينة، وبعدما استولى عليها مضى إلىٰ مدينة غزة» وأضاف قائلاً: «وبعدما حاصر صور لسبعة أشهر وغزة لمدة شهرين مات سنبالات».

وكان شلمنصر قد حاصرها قبل هذا الوقت أيضاً، وكان قد غزا فينيقية بأسرها، وقد تحدث عنه يوسفيوس في الكتاب التاسع من تاريخه القديم قائلاً: «لأنه قام بحملة إلىٰ صور في فترة حكم اليوليوس كما أن مناندر الذي كتب تاريخ الأزمان وترجم إلىٰ اللغة الإغريقية التواريخ القديمة لصور، قد تحدث عنها أيضاً علىٰ النحو التالي: «حكم اليوليوس ستة وثلاثين عاماً، وأبحر إلىٰ بلاد سبسطية عندما تمرد أهلها عليه، وأخضعهم، غير أن شلمنصر ملك الآشوريين نهض ضدهم للمرة الثانية وغزا جميع بلدان فينيقية، غير أنه بعدما سالمهم تراجع إلىٰ بلاده، ثم إن مدن صيدا وعرقة وصور القديمة ومدناً أخرىٰ تخلت عن مدينة صور وهجرتها واستسلمت لملك الآشوريين هذا نفسه، وبما أن مدينة صور لم تكن قد استسلمت، زحف الملك من جديد ضدها وزوده الفينيقيون بستين قارباً وثمانين من الشواني ذوات مجاذيف. وأبحر الصوريون إليهم بإثنتي عشرة سفينة وبعدما مزقوا أسطول العدو أخذوا خمسمائة أسير حيث ازدادت بذلك منزلة مدينة صور وسمعتها ازدياداً كبيراً، وقفل ملك آشور عائداً ووضع الحراس على النهر وقنوات المدينة ومنع الصوريين بالتالي من الحصول علىٰ الماء، واستمرت الأمور هذه على هذا الحال خمس سنوات اضطر الصوريون خلالها إلىٰ الشرب من الآبار التي حفروها، وقد دونت هذه الأشياء في وثائق صور وكلها بخصوص شلمنصر ملك آشور[1].

٥ ـ وصف المدينة وتبيان أحوال سكانها وأوضاعهم.

تشبه هذه المدينة ـ كما قلنا ـ جزيرة لأنها محاطة ببحر عاصف وخطير بسبب الصخور المحجوبة عن الرؤية ذات الإرتفاعات المختلفة، ولذلك فهو محفوف بالمخاطر بالنسبة للحجاج والناس الآخرين غير المعتادين علىٰ الموقع عند الإقتراب من مدينة صور بحراً، حيث لا يتمكنون من بلوغ المدينة دون تعرضهم لخطر الغرق وذلك إذا لم يكن لديهم مرشد مطلع علىٰ البحر المحيط بها.

---

(١) يوسفيوس ـ التاريخ القديم: ١٤/١١.

(٢) من الصعب ادراك الحقيقة بسبب وضعه العاطفي، ذلك أن وليم يتحدث هنا عن تجار مسلمين، ووصفه لمدينة صور وأحوازها هو وصف شاهد عيان، كما أن وصف الحصار مستمد إلى أبعد الحدود من روايات شهود العيان، ولا يعتبر أي من مصادر وليم المكتوبة كاملاً أو مليئاً بالحيوية، وكان تقسيم ملكيتها بين المصريين والدمشقيين ترتيب طارىء اتخذ لتأمين مساعدة الدمشقيين لها، وذلك حسب رواية ابن القلانسي، (جب ـ تاريخ دمشق: ١٧٠). وكان هذا قد تم قبل الحصار.

كانت مدينة صور محاطة عند الساحل بسور مزدوج وأبراج ذات ارتفاع كبير، منفصلة عن بعضها بعضاً بمسافات متساوية، وكان فيها من ناحية الشرق ـ حيث يقع الطريق البري المؤدي إليها ـ سور ثلاثي وبه أبراج ضخمة وعالية جداً وقريبة من بعضها بعضاً لدرجة أنها كانت تلامس بعضها تقريباً. وكان هنالك خندق واسع أيضاً كان السكان يستطيعون الخروج منه إلى البحر بسهولة من كلا الجانبين، وكان مدخلها في الشمال محروساً ببرجين، وهو الميناء الداخلي الواقع داخل أسوار المدينة كما كان الشاطىء الخارجي للجزيرة يصد الصدمة الأولى للأمواج، ويحطم قوة البحر الهائج، وهكذا، فقد شيد ميناء آمن بين الجزيرة والبر تمت حمايته بشكل تام من كافة الرياح باستثناء تلك القادمة من الشمال.

توجه الأسطول إلى داخل هذا الميناء ورسا في مكان محمي، وكان الجيش قد استولى من قبل على البساتين الواقعة بالقرب من المدينة وكان قد أقام المعسكر على شكل دائرة حول المدينة، وحال هذا الوضع دون خروج أو دخول السكان الموجودين في المدينة وأجبرهم على البقاء ضمن الأسوار.

كانت المدينة خاضعة لحاكمين، فقد احتفظ خليفة مصر لنفسه بقسمين منها كحاكم أعلى لها، ومنح الجزء الثالث إلى ملك دمشق لأنه كان قريباً منها، وكان يثق بأن ملك دمشق لن يضايق المدينة، لا بل على العكس، سيساعد سكانها في الأزمات الخطيرة.

كان في مدينة صور أعيان كثر من بين سكانها ذوو ثراء كبير، وكان هؤلاء كتجار قد حققوا من خلال رحلاتهم التجارية إلى معظم الأقاليم الواقعة على طول البحر المتوسط ثروات ضخمة وجلبوا كميات كبيرة من السلع الأجنبية لزيادة حجم موارد المدينة، زد على هذا: أن الأعيان الأغنياء والبارزين من قيسارية وعكا وصيدا وجبيل وطرابلس ومدن ساحلية أخرى، أصبحت الآن تحت سيطرتنا، قد هربوا إلى مدينة صور طلباً للحماية داخل تحصيناتها وكان هؤلاء الناس قد اشتروا منازل لهم وبسعر مرتفع في المدينة، حيث بدا لهم من غير المعقول أن تقع مدينة محصنة بشكل قوي في قبضة المسيحيين في أية حال من الأحوال، ولذلك كانت تعتبر، وكما هي الآن، بمثابة حصن فريد، وقلعة قوية لا تضاهى، ولا يوجد شبيه لها في المنطقة بأسرها.

٦ ـ إتمام الحصار وتخصيص القادة من مواقع محددة هناك. المدينة تحاصر بطريقة هجومية.

بعدما رتب المسيحيون أمتعتهم بنظام وأعدوا جميع الترتيبات الأخرى لتحقيق الفائدة الممكنة بشكل أمثل، سحبوا سفنهم إلى اليابسة بالقرب من الميناء باستثناء شيئين واحد أبقي

على أهبة الإستعداد تحسباً لوقوع أي طارىء، ثم حفروا خندقاً عميقاً من البحر في الخارج إلىٰ البحر في الداخل وبذلك طوقوا الجيش بأسره وأمنوا الحماية له، وجلبت موادّ مناسبة لإنشاء الآلات الحربية من المخزونات الضخمة التي كان البنادقة قد جلبوها معهم، كما استدعي الصناع لإنشاء الآلات المتعددة الأنواع.

وجمع البطريرك ونبلاء المملكة ـ العاملون في مكان الملك ـ النجارين والبنائين المهرة وقدموا المواد الضرورية وأمروهم بأن يشيدوا برجاً ذا ارتفاع كبير، وتمكن المقاتلون من الإشتباك من قمة هذا البرج في قتال متلاحم مع المدافعين الموجودين على شرفات الأسوار، وتمكنوا من رؤية المدينة بأسرها، وأمروا ببناء الآلات الحربية القادرة علىٰ قذف حجارة ضخمة تقوم بتحطيم الأسوار والأبراج، وتحمل الذعر إلىٰ قلوب الموجودين في داخل المدينة.

وبنى الدوج وسريته ـ في محاكاة منهم لعمل فريق الملك ـ آلات حربية مماثلة أيضاً، ووضعوها في مواقع استراتيجية وواصلوا العمل بالإجتهاد الأمثل وثابروا عليه بدون فتور، وأحاقت جهودهم الحماسية بالسكان وأنهكتهم أكثر فأكثر بينما لم تتوقف الآلات الحربية أبداً عن إلحاق الخراب بالمدينة، وهكذا، فإن الهجمات والمناوشات المستمرة لم تعط المدافعين أية فرصة للراحة، هذا وقد كافح المدافعون، المهتمون بالدفاع عن أنفسهم، لصد هجمات المسيحيين وليلحقوا بدورهم الأذىٰ والضرر بأعدائهم، وقد بنوا أيضاً الآلات الحربية داخل المدينة وقذفوا صخوراً ضخمة منها سقطت باستمرار على أبراجنا، كما أن الخوف الذي أثارته هذه الحجارة المتطايرة مكن العدو من أن يصبح سيداً لذلك القطاع الخاص لأنه لم يجرؤ أي من المسيحيين على البقاء في تلك المنطقة المجاورة، ولم يجرؤ حتى الذين كان نصيبهم القيام بحراسة الآلات الحربية على الإقتراب منها إلا بالسرعة القصوىٰ، كما لم يتمكنوا من البقاء في داخلها إلا بتعرضهم لخطر شديد، وصب جنود العدو وابلاً من الحراب والسهام من مواقعهم الموجودة في الأبراج العالية، حيث كانوا مسلحين بالقسي وآلات المنجنيق الحربية كما أن سيلاً من الصخور الضخمة المقذوفة من داخل المدينة ضايق المسيحيين بشدة في هذه الأثناء لدرجة أنهم نادراً ما تجرؤوا علىٰ مدّ أيديهم.

ومع ذلك فإن شعبنا الموجود في أبراج الحصار رد الضربة بالضربة بضراوة مماثلة وصدوا القوة بالقوة، وهكذا، فقد اضطر المدافعون المتمركزون على الأسوار وفي الأبراج إلىٰ بذل جهود مكثفة جداً لدرجة أنهم لم يتمكنوا من تحمل عبء القتال على الرغم أنه خفف عنهم وأريحوا خلال النهار، واستمر في هذه الأثناء الذين كانوا يشغلون الآلات الحربية وينقلون التعليمات من الخبراء في فن قذف القذائف، استمروا في قذف الحجارة الكبيرة

بفعالية كبيرة إلىٰ درجة أن الأبراج والأسوار قد تهدمت تقريباً نتيجة لقوة الضربات، وثار الغبار بغيوم من الحجارة المتحطمة والملاط المتفكك وشكل ستاراً بين المقاتلين حتى استحال بالنسبة للمدافعين الموجودين على الأسوار وفي الأبراج رؤية المسيحيين، كما ارتطمت جميع القذائف المتطايرة التي تجاوزت الأسوار الواقية والأبراج في داخل المدينة بقوة وحولت الأبنية الكبيرة وسكانها إلىٰ شظايا صغيرة جداً.

وحاربت قوات المشاة والفرسان في الريف الواقع خارج المدينة بشجاعة ورجولة في مناوشات يومية تقريباً ضد العدو الذي انقض من المدينة للإشتباك معهم، وغالباً ما حدث أن تحدى رجالنا الناس الذين كانوا داخل المدينة ودعوهم إلىٰ القتال، وثانية كان الأهلون هم الذين أخذوا زمام المبادرة في مهاجمة المحاصرين.

٧ ـ الدمشقيون الموجودون في المدينة يقاتلون بشجاعة متّقدة، غير أن السكان أنفسهم كانوا متراخين إلىٰ حد ما.

وهكذا، فقد استمر المسيحيون وسكان المدينة يوماً إثر يوم وبصراع غير معروف النتائج وفي اختبار حاسة بعضهم بعضاً تارة بشن الهجمات من الآلات الحربية وأحياناً بالقتال حول الأبواب حيث كان الجانبان يجهدان أنفسهما إلىٰ الحد الأقصى لإثارة بعضهما بعضاً، ووصل في هذه الفترة الفاصلة بونز كونت طرابلس، الذي كان أمراء المملكة قد استدعوه، ومعه حاشية مهيبة، وبدا قدومه بأنه يضاعف قوة المسيحيين ويجدد قوتهم، هذا وجلب من جهة أخرى قدومه الخوف للأعداء وإحساساً بعدم جدوى المقاومة.

كان في المدينة سبعمائة فارس دمشقي حيث ألهبت امثولتهم سكان المدينة بشجاعة للمقاومة لأن هؤلاء السكان وإن كانوا نبلاء فقد كانوا ضعافاً وذوي شخصيات مخنثة وغير معتادين أبداً علىٰ القتال. وحاول هؤلاء الدمشقيون بسيرتهم أن يشجعوا سكان المدينة على المقاومة، وأن يزودوهم بالمساعدة التي كانوا يحتاجونها بشدة؛ ومع ذلك، فقد فقدوا الاهتمام مؤخراً وتجنبوا بحكمة العبء الذي لم يستطيعوا تحمله وحدهم لأنهم رأوا أن قوتنا كانت تتزايد يوماً بعد يوم وتلاقي جهودنا النجاح، بينما كانت موارد المحاصرين تتناقص بالتدريج وكانت قواتهم تتعرض للخطر يومياً، وعلى الرغم من أنهم لم ينصحوا الأهلين بالاستسلام فإنهم لم يشجعوهم أيضاً بأن يعتمدوا اعتماداً كبيراً على قوتهم.

وعلاوة على ذلك، لم يكن هنالك سوى مدخل واحد وباب واحد إلى المدينة، وكما قلنا من قبل، كانت المدينة بأسرها جزيرة تقريباً، وكانت محاطة بالماء من جميع الجوانب باستثناء مكان ضيق محدد، قام خلاله الطريق إلىٰ الباب، وكانت تقع اشتباكات

متنوعة في هذا الموقع لكل من الفرسان والرجالة بشكل مستمر كما هو مألوف في مثل هذه الظروف.

٨ ـ أهالي مدينة عسقلان يزحفون نحو القدس لمهاجمة المدينة. لكنهم يلاقون معاملة قاسية من سكانها لدىٰ عودتهم.

كان هذا هو الوضع السائد آنذاك في مدينة صور، وتصور أهالي عسقلان في غضون ذلك أن المملكة كانت مجردة من جنودها وأن كافة قوة المنطقة كانت مشغولة تماماً في حصار مدينة صور، وبناء عليه، انتهزوا الفرصة على الفور وعبروا مع كافة قواتهم السهل القائم بينهم وأسرعوا إلىٰ الجبال التي بنيت القدس عليها. وتوقعوا أن يجدوا المدينة مهجورة تقريباً، كما كانوا يأملون أن يأسروا أي واحد من السكان قد يتجرأ على الظهور، وكان وصولهم فجائياً تماماً وقتلوا نحو ثمانية أشخاص من سكان المدينة حيث باغتوهم في حقولهم وكرومهم.

غير أن العقيدة كانت تلهب المسيحيين على الرغم من قلة عددهم، وكانوا متقدين بالحماسة القوية والغيرة على منطقتهم وزوجاتهم وأطفالهم، فأمسكوا بأسلحتهم وانطلقوا من المدينة واندفعوا بتصميم واحد نحو خصومهم، وتواجهت القوات المتعادية ببعضها بعضاً لمدة ثلاث ساعات، ولم يجرؤ المسيحيون علىٰ مهاجمة أعدائهم لأن قواتهم كانت تتألف من الرجالة فقط، بينما أدرك أهالي عسقلان من جانبهم أنه يستحيل البقاء لفترة طويلة في ذلك الموقع دون أن يتعرضوا لخطر كبير، كما لم يكن الأمر آمنا أن يشتبكوا بالقرب من المدينة مع أناس عنيدين وشجعان كانوا قد عقدوا العزم علىٰ المقاومة إلىٰ النهاية، وبناء عليه استعدوا للقيام بتقهقر سريع، فتبعهم المسيحيون بحذر إلىٰ مسافة قصيرة ونجحوا في قتل اثنين وأربعين رجلاً منهم بالإضافة إلىٰ أسر أربعة فرسان والاستيلاء علىٰ سبعة عشر حصاناً، ثم عادوا إلىٰ القدس بسلامة تامة بعدما أنجزوا هدفهم بنجاح[١].

٩ ـ طغتكين ملك الدمشقيين يصل لرفع الحصار. المسيحيون يزحفون ضده. تخليه عن هدفه برعب.

بدأ في هذه الأثناء يقل خروج الصوريين للقتال، كما قلّ نشاطهم في تنفيذ واجباتهم المخصصة بعدما أرهقتهم أعمال الحراسة المتكررة والمناوشات المستمرة والمشاق اللامنتهية، ودهشوا بشكل يفوق الحدود من أن مدينتهم اندفعت إليها حشود من الناس كل يوم تقريباً

(١) تحدث فولتشر عن هذه الجهود لإبعاد الجيش عن حصار صور بالهجوم على القدس، حيث كان هناك آنذاك، وعنه نقل وليم.

عن طريق البـر والبحر وهي مدينة امتلأت عادة حتى التخمة بجميع أنواع السلع التي تم جلبها إلىٰ هنا بواسطة هذين الطريقين، وكيف تحولت إلىٰ ضيق كهذا، إلىٰ حد أنه لم يتمكن فيه الأهلون أو الغرباء من دخولها أو مغادرتها، وعلاوة على ذلك، كانت موارد الأطعمة في تناقص مستمر وكانت المؤن قد نفدت الآن تقريباً. ولذلك، تداول الصوريون الأمر بينهم وكتبوا إلىٰ خليفة مصر وإلىٰ ملك دمشق أيضاً ليبلغوهما بالوضع اليائس الذي كان سائداً عندئذ، وناشدوا سيديهما أن يسرعا لمساعدتهم حيث كانت الأمور في هذه الأثناء في مدينة صور تبعث علىٰ القنوط كما بينوا مثابرة العدو الذي كانت قوته تزداد يوماً إثر آخر، ووصفوا ضعفهم ونقص مؤن الأطعمة لديهم وحالتهم التي لا تحتمل، وأثار هذا العمل شجاعتهم بعض الشيء وشجعوا بعضهم بعضاً بينما كانوا ينتظرون المساعدة المنشودة لمواصلة المقاومة العادية، كما أن الكثيرين منهم، وخاصة الذين أصيبوا بجراح خطيرة بحيث لم يتمكنوا من الاشتراك في القتال، بكل قوتهم حثوا الآخرين ليقوموا بمقاومة العدو.

ولم يلبث أن جاءهم خبر مفاده أن طغتكين ملك الدمشقيين قد غادر دمشق مع قوة لا تحصى من الأتراك وعدد كبير من الفرسان بعدما أثارته الرسائل التي بعثها المحاصرون، وأنه معسكر في هذه الأثناء في المنطقة المجاورة لمدينة صور علىٰ ضفاف نهر يقع علىٰ بعد أربعة أميال منها تقريباً. وعلاوة على ذلك، أشيع أن أسطولاً مصرياً أكبر بكثير مما هو معتاد ومجهز بعدد كبير من الجنود المسلحين سيصل في غضون ثلاثة أيام مع تعزيزات كبيرة من الرجال ومؤن الطعام الضرورية لسكان مدينة صور، وقيل إن ملك دمشق كان يترقب وصول عدد أكبر من الجنود الاحتياطيين أيضاً؛ وكان قد أرجأ بتعقل عبور النهر ومهاجمة المسيحيين لذلك السبب وحتى وصول الأسطول كي تتمكن القوة البحرية من الحصول علىٰ مدخل حر وطليق إلىٰ المدينة أثناء قتالها معنا [1].

وتشاور قادتنا مع بعضهم بعضاً عند وصول هذا النبأ إلىٰ معسكرنا وقرروا بعد تداول حذر أن يقسموا الجيش بأسره إلىٰ ثلاثة أقسام؛ وتوجب على قوات الفرسان بأكملها أن تنطلق مع المشاة المرتزقة من المعسكر تحت قيادة كونت طرابلس وليم دي بري كافل المملكة الذي عينه الملك، وتوجب علىٰ هذا القسم الاشتباك في حال الضرورة مع الجيش الدمشقي بمساعدة الرب، ويتوجب علىٰ دوج البندقية الإبحار مع قواته في الشواني وأن يجربوا حظ الحرب في حال مواجهتهم أسطول المصريين. وأن يحاربوا العدو بشجاعة، وكان القسم الثالث يتألف من أناس كانوا قد أتوا من جميع مدن المملكة والجزء الأكبر من البنادقة إلىٰ

(١) أكد ابن القلانسي (ص ١٧٠ - ١٧٢) مشاركة الدمشقيين في الجهود المبذولة لهزيمة المحاصرين.

هنالك ليشاركوا في عمليات الحصار، وخصص لهذه الفرقة مهمة حراسة الآلات الحربية والأبراج المتحركة، وكان عليهم التأكد من مثابرة جهود المقاتلين الموجودين في آلات الحصار، وأن تواصل آلات القذف هجماتها المألوفة وأن يستمر القتال أمام الباب.

بدت هذه الخطة جيدة بالنسبة للجميع، واعتبرت موائمة ليتم تنفيذها علىٰ الفور، وهكذا، انطلق من المعسكر كل من كونت طرابلس وكافل المملكة مع سرايا الفرسان كافة وتوجهوا إلىٰ العدو وتقدموا مسافة ميلين غير أن العدو لم يجرؤ علىٰ الظهور، ومع ذلك، فقد اتضح أن طغتكين كان قد أقام بالأصل معسكره بمحاذاة النهر وكان عاقداً العزم ومصمماً علىٰ عبوره، لكنه عندما علم من خلال التقارير أن جيشنا كان قد اتخذ خططاً حكيمة كهذه، قرر أنه سيكون من الخطر المغامرة بمواجهة مع رجال شجعان ومتبصرين إلىٰ هذه الدرجة، وبناء عليه أمر أن يعلن نافخ البوق باستدعاء رجاله وجمعهم وأصدر أمراً بالعودة إلىٰ الوطن.

رتب الدوج أسطوله بتشكيل المعركة، وأبحر إلىٰ اسكندروم التي تبعد نحو ستة أميال عن مدينة صور؛ وتعرف هذه المدينة حالياً باسم سكندلوم وقد عرف هناك أن ملك دمشق كان قد عاد إلىٰ وطنه، وحيث لم يكن هنالك أية إشارة عن الأسطول البحري الذي كان ينتظره، فقد سحب مجدداً شوانية الموجودة علىٰ الشاطيء وعاد الجميع إلىٰ المعسكر لمواصلة الحصار بنشاط أكبر من أي وقت مضىٰ.

١٠ ـ سكان المدينة يضرمون النار بآلاتنا الحربية. جنودنا يبدون مقاومة قوية. القادة يطلبون من أنطاكية إرسال رجل ماهر في فن قذف القذائف.

حدث ذات يوم أن تعاهد شبان مدينة صور وأقسموا الأيمان مع بعضهم بعضاً وصمموا علىٰ التسلل إلىٰ داخل معسكرنا من أجل إحراق آلاتنا الحربية وأبراجنا المتنقلة، وأملوا أن يحصلوا بهذه الطريقة علىٰ تقدير أبناء مدينتهم وأن يحققوا شهرة أبدية في عيون الأجيال القادمة، وتنفيذاً لهذه الخطة غادروا المدينة خلسة، وأفلحوا في إضرام النار في إحدىٰ الآلات الحربية وكانت ذات نفع كبير بالنسبة لنا، فشاهد المسيحيون فعلتهم وأسرعوا إلىٰ أسلحتهم علىٰ الفور وحاولوا إخماد ألسنة النيران بصب مقادير كبيرة من الماء عليها، وأنجزوا هنالك مأثرة رائعة تستحق التسجيل، فقد رأىٰ أحد الشبان وكان يتمتع بشخصية وشجاعة فريدتين أن الآلة الحربية كانت تشتعل فصعد إلىٰ سطحها واستمر بصب الماء بسرعة وبقدر ما جلبه الآخرون إليه، فرآه المدافعون المتمركزون في الأبراج ومعهم الأقواس وآلات المنجنيق فوجهوا جميع جهودهم على الفور إليه، إلا أن جهودهم كانت عقيمة علىٰ الرغم من أن الموقع الذي وجد فيه جعله هدفاً لسهامهم ولم يُصب بأي جراح

خلال اليوم بأسره، وأمسك جنودنا بالشبان الذين كانوا قد أشعلوا النيران وقتلوهم على مرأىٰ من أصدقائهم.

ولاحظ المسيحيون علىٰ الفور أن آلة حربية موضوعة داخل المدينة كانت تسدد حجارة ضخمة إلىٰ أبراج حصارنا وبدقة متناهية إلىٰ درجة أنها لُصابتها بأضرار بالغة، وحيث لم يكن هنالك أحد في المعسكر لديه المهارة والخبرة الضرورية لتسديد القذائف الضخمة وقذفها، أرسل المسيحيون في طلب أحد الرجال الأرمن ويسمىٰ هافدك من مدينة أنطاكية، الذي قيل إنه كان ماهراً جداً في تلك الطريقة، فأتى علىٰ الفور وأظهر مهارة بالغة في توجيه الآلات الحربية وقذف قذائف من الأحجار الضخمة لدرجة دمر فيها جميع الأهداف التي خُصصت له علىٰ الفور ودونما أية صعوبة، ومنح في حال وصوله إلىٰ الجيش راتباً محترماً من الخزينة العامة حتى يتمكن من إعالة نفسه بأبهته المألوفة، وانكب بجدية على العمل الذي استدعي من أجله وأظهر الكثير من البراعة لدرجة أن الحرب بدت وكأنها تتم بقوة متجددة، واتخذت من المواقع مظهر حرب جديدة في أعين الصوريين حيث زاد قدومه من كوارثهم زيادة كبيرة[1].

١١ ـ مقتل بلك في منبج. يسبب هذا النبأ ابتهاجاً عظيماً في أوساط الجيش المسيحي، ومواصلة حصار المدينة بقوة إضافية.

كان بلك الحاكم التركي القوي، الذي كان ما يزال يحتجز في سجنه الملك النبيل، يحاصر مدينة منبج في هذه الأثناء، وكان قد استدعىٰ إليه خلال عمليات الحصار حاكم المدينة بأقوال استرضائية وماكرة، وحيث كان الحاكم رجلاً ساذجاً وطيباً، فقد وثق بأقوال بلك وذهب إلىٰ حضرته علىٰ الفور، فأمر بلك بقطع رأسه حينما وقف أمامه.

وعندما علم جوسلين[2] الأكبر، كونت الرها أن بلك كان يحاصر الآن مدينة تقع في المنطقة المجاورة له، خشي من أنه إذا تم طرد الحاكم الحالي، فيمكن عندئذ وضع حاكم آخر هنالك أكثر خطراً عليه، وهكذا، جمع قوة كبيرة من منطقة أنطاكية ومن مقاطعاته الخاصة أيضاً وأسرع نحو جيش الحاكم بلك، ورتب، بعد تحديد موقع العدو، صفوفه بتشكيل المعركة وشن عليه هجوماً مفاجئاً وهزم العدو هزيمة نكراء، وأرغم علىٰ الفرار عندما حدث أن صادف جوسلين بلك ذاته فقتله بالسيف وطرحه أرضاً وقطع رأسه وهو غير عارف أبداً

(١) لم يذكر فولتشر هذا الخبر بأعمال القذف، لكن رواية وليم دقيقة جداً ولا يمكن رفضها.

(٢) لقد تنبه وليم إلى وجود كل من جوسلين الثاني وجوسلين الثالث قبل الإشارة إلى جوسلين الأول الأمر الذي لم يعرفه القارىء بعد.

أن هذا القتيل كان قائداً للجيش، وكان هذا بوضوح تحقيقاً لحلم بلك حيث أن الذي يقطع رأس إنسان ويضع نهاية لبصره وحياته يمكن القول عنه بصدق إنه انتزع عينيه [١].

كان جوسلين رجلاً متبصراً وواسع التجربة جداً، وقد أمر على الفور شاباً بنقل رأس الأمير إلىٰ الجيش حتى يتمكن من الابتهاج أيضاً بنبأ حسن الطالع هذا، وأمر الرسول أن يذهب عن طريق أنطاكية بحيث يمكن إبلاغ سكان المدينة والجنود بهذا النجاح العظيم أيضاً، وابتهجت قلوب الجميع بوصول الشاب وازدادت سعادة المسيحيين إلىٰ الحد الأقصىٰ.

وكان بونز ـ كونْت طرابلس ـ موجوداً مع أتباعه في المعسكر، وكان مطيعاً دائماً للبطريرك والقادة الآخرين مثل خادم من أدنىٰ الخدم، وأبدىٰ دائماً تحمسه وبتواضع للمصلحة العامة، وقد قام بترقية ذلك الشاب إلىٰ منزلة الفرسان ومنحه أسلحة [٢] تلك المنزلة ليتمكن من إظهار احترامه للكونت الذي كان قد أرسل الرسول، وبسبب أهمية لمهمة أيضاً.

وعندما سمع الذين كانوا معنا في الحملة، بنبأ هذا العمل، رفعوا أيديهم إلى السماء وبدأوا يمجدون ويباركون ويشكرون الله في «فعله المرهب نحو بني آدم» [٣].

ثم التهب جنودنا بالفعل بحماسة أكثر اتقاداً وواصلوا العمل الذي كانوا قد باشروه بشجاعة وقوة متجددتين وباندفاع وجدية أعظم أيضاً ورفضوا أن يتركوا أثناء مواصلة مناوشاتهم المستمرة أية فترة راحة للمدينة المحاصرة، وبالمقابل كان سكان المدينة يعانون بشكل يائس من المجاعة حيث كانت احتياطاتهم قد نفدت الآن تماماً، وبدأوا يتراخون في جهودهم إلىٰ حد ما حيث انعدم الأمل في مساعدة تأتيهم.

ووقع ذات يوم حدث جدير بالذكر، فقد غامر بعض شبان المدينة وكانوا سباحين مهرة بالخروج من الميناء الداخلي للمدينة إلى الميناء الموجود خارجها ونجحوا في بلوغ الشيني الذي كان، كما ذكرنا من قبل، راسياً في البحر خارج المدينة ومتأهباً لمواجهة أي حدث طارىء، وكانوا قد جلبوا معهم حبلاً ثبتوه بإحكام إلى السفينة، ثم قطعوا مراسيها وبدأوا بسحبها إلى المدينة وراءهم، ورأى الحراس الذي كانوا يحرسون الأبراج المحاولة وأعطوا الإنذار، فأسرع رجالنا، الذين أيقظتهم الدعوة إلى الساحل، إلاّ أن الشبان كانوا قد سحبوا السفينة إلىٰ داخل الميناء قبل أن يتمكن رجالنا من تقرير ما يجب عمله، وكان هناك خمسة

---

(١) انظر الكتاب ١٢ ـ الفصل ١٩.

(٢) هذا المثال مبكر حول تقديم الجوائز مقابل مثل هذه الخدمات.

(٣) المزامير: ٥/٦٦.

رجال يديرون هذه السفينة قد خصصوا لحراستها وقد قتل واحد منهم وقفز الباقون إلى البحر وسبحوا بأمان إلىٰ الشاطىء.

١٢ ـ أهالي عسقلان يغيرون من جديد علىٰ الريف الواقع حول القدس بينما كان الجيش المسيحي ما زال منشغلاً في الحصار.

كان أهالي مدينة عسقلان متيقظين دائماً لإلحاق الأذى بالمسيحيين مثلهم مثل البعوض الملحاح، وكانوا مدركين تماماً أن صفوة الجيش كانت ما تزال منشغلة في حصار مدينة صور، وأن المنطقة نتيجة لذلك كانت بلا مدافعين عنها ومعرضة لغزوات العدو، وهكذا، جمعوا قواتهم من جديد وزحفوا إلىٰ ريف يهوذا الهضبي، وشنوا هنالك هجوماً مفاجئاً علىٰ منطقة تسمى بيلين [1] تقع على بعد نحو خمسة أو ستة أميال إلىٰ الشمال من القدس، والمعروفة حالياً وبشكل أفضل بأنها مهوماريا واستولوا علىٰ البلدة بالقوة وقتلوا معظم سكانها، هذا وقد انسحب الرجال المسنون مع النسوة والأطفال إلى البرج ونجوا بذلك من الموت.

وانتشر أهالي عسقلان بحرية في سائر أنحاء الريف المجاور، وقتلوا أو أسروا كل من واجهوه لأنه لم يقاومهم أحد أثناء زحفهم الجنوني عندما عاثوا حسب مشيئتهم التامة ضد جميع الذين كانوا يسكنون في تلك الأحواز.

١٣ ـ الصوريون يكافحون ضد مجاعة خطيرة. تحضيرهم للاستسلام. طغتكين يسرع لمساعدتهم لكن بدون جدوىٰ. المدينة تستسلم للجيش المسيحي.

بدأ الصوريون في الوقت نفسه يدرسون خططاً أخرىٰ بعد أن نفد احتمالهم نتيجة الشدائد الرهيبة للمجاعة، واجتمعوا في مجموعات وبدأوا يناقشون كيفية إنهاء التعاسات التي كانوا يكابدونها، واعتقدوا أن تسليم المدينة إلىٰ العدو سيكون أفضل بكثير حيث سيتمكنون بذلك من التحرر والهرب إلى مدن أخرى في منطقتهم بدلاً من أن يموتوا من الجوع في مدينة صور، وأفضل بكثير من أن ينتظروا وصول المساعدة وهم يائسون بينما تهلك زوجاتهم وأبناؤهم من الجوع.

وبعد ما جرى درس الحالة على هذه الصورة من قبل عدة جماعات تم نقل المسألة أخيراً بموافقة إجماعية إلىٰ الزعماء وحكام المدينة وإلىٰ الناس بشكل عام، وعقد سكان المدينة اجتماعاً عاماً ونشرت الحقائق أمامهم ودرست بعناية، وكان الرأي واحداً وهو وجوب انهاء الأوضاع الرهيبة جداً وتحقيق السلام مهما كانت المجازفة أو مهما كانت الشروط.

---

(١) يدعو فولتشر ووثائق ذلك العصر هذا المكان باسم «بيروم» أو «البيرة» (انظر هاغنمير- تاريخ فولتشر ص ٧٣١ الحاشية ٤).

وفي هذه الأثناء علم ملك دمشق بالمحن التي كان يعاني الصوريون منها وتأثر لحالهم البائس، واستدعى حلفاءه من جميع الجهات ونزل باتجاه البحر إلى حيث كان من قبل، وخيم مجدداً بالقرب من النهر القريب من مدينة صور، وعندما سمع المسيحيون بهذا النبأ خافوا من الغاية التي قدم من أجلها ونظموا صفوفهم بتشكيل المعركة توقعاً لحدوث اشتباك أمام أبواب المدينة، ومع ذلك، فإنهم لم يحيدوا عن هدفهم وواصلوا الحصار بدون توقف.

وأرسل الآن ملك دمشق رجالاً حذرين وعقلاء كمبعوثين إلى قادة جيشنا، أي إلى البطريرك ودوج البندقية وكونت طرابلس ووليم دي بري ونبلاء المملكة الآخرين، وحملوا اقتراحاتهم للسلام مصاغة بلغة استرضائية، وبعد مناقشات مطولة وخلافات كبيرة تم التوصل إلى اتفاق بين الطرفين بوجوب تسليم المدينة إلى المسيحيين شرط أن يُسمح للسكان الذين كانوا يرغبون بمغادرة المدينة بالرحيل بحرية مع زوجاتهم وأبنائهم وجميع ممتلكاتهم، وأن يؤذن للذين كانوا يفضلون البقاء في مدينة صور بالبقاء وأن تضمن منازلهم وممتلكاتهم[1].

غضب عامة الناس من المسيحيين وأولئك الذين ينتمون إلى المرتبة الثانية عندما علموا بأسلوب المفاوضات الذي كان يدرسه النبلاء، وهو وجوب استسلام المدينة بشروط كهذه، لأنهم كانوا سيحرمون في تلك الحالة من السلب والمنهوبات التي ستكون من نصيبهم لو تم الاستيلاء على المدينة بالقوة، وهكذا صمموا بالإجماع على التشبث بنتائج أعمالهم تحت ضرورة الحرب وعارضوا رغبات أسيادهم معارضة تامة، إلا أن الإرادة الأعقل للرجال الأكثر بروزاً تغلبت في النهاية وتم الاستيلاء على المدينة، ومنح سكان المدينة فرصة للمغادرة دون عائق كما اشترط ذلك في الاتفاق.

ثم رفعت راية الملك على البرج الواقع فوق المدينة كإشارة للنصر، ووضع علم دوج البندقية بطريقة مماثلة فوق البرج المسمى باسم البرج الأخضر بينما ارتفعت رايات كونت طرابلس بتألق من برج تراناريا Tranaria.

وحدث أنه قبل الاستيلاء على المدينة أو حتى محاصرتها بوقت طويل أن انتقل الجزء الأكبر من الأبرشية الصورية إلى أيدي المسيحيين، فقد احتفظ نبيل قوي جداً عاش في الجبال بسائر الريف الهضبي الواقع بالقرب من المدينة والممتد تقريباً حتى لبنان مع القلاع

---

(١) يضفي ابن القلانسي سمعة حسنة على طغتكين للشروط الإيجابية جداً الممنوحة للسكان المسلمين في مدينة صور، ويصرح أيضاً أنه لم يبق في مدينة صور سوى الشيوخ أو الأغنياء، لكن هنالك سبب للاعتقاد أن عدداً كبيراً بقي في المدينة (تاريخ دمشق ص ١٧١ ـ ١٧٢).

والحقول وتمتع بملكية هادئة، فقد احتفظ همفري أوف تيرون والد همفري الأصغر [1]، الذي عين منذ ذلك الحين كافلاً للمملكة، بحق لا يقبل المناقشة بجميع المناطق الممتدة حتى الصوى الرابعة أو الخامسة من مدينة صور، وكان يمتلك في هذه الجبال نفسها قلعة محصّنة بقوة بموقعها وبوسائل اصطناعية أيضاً، وغالباً ما شن هجمات مفاجئة منها ضد سكان مدينة صور، وعلاوة علىٰ ذلك، فقد احتفظ كل من وليم دي بري كافل المملكة وجوسلين كونت الرها الذي كان صاحب طبرية قبله بممتلكات واسعة في هذه الجبال حيث غالباً ما نفذا منها خططاً خطيرة وغير متوقعة ضد مدينة صور، وكان الملك بلدوين صاحب الذكرىٰ العزيزة، وسلف بلدوين الثاني قد بنىٰ قلعة أسماها باسم سكاندليوم [2] وذلك إلىٰ الجنوب من المدينة أيضاً وعلىٰ الشاطىء علىٰ بعد ستة أو سبعة أميال منها وبالقرب من نبع صاف وجيل، وكانت مدينة صور قد عانت لفترة طويلة من الزمن من هجمات متكررة منطلقة من هذه المواقع، وهكذا كانت أقل قدرة على مقاومة إزعاج المسيحيين لها.

يقال إن أودو المبجل قد توفي في هذه الحملة، حيث كان قد رسم مطراناً لكنيسة مدينة صور والمدينة ماتزال تحت سيطرة العدو (يقال إن بطريرك القدس قد أكد هذا التعيين وأمضاه.

١٤ ـ الصوريون يخرجون لزيارة المعسكر بعد استسلام المدينة. المسيحيون يستولون علىٰ المدينة.

انطلق سكان المدينة الذين أرهقهم الحصار الطويل، من المدينة وأسرعوا إلىٰ معسكرنا، وكانوا تواقين لتخفيف إرهاقهم ولرؤية أي نوع من الرجال يمكن أن يكون هؤلاء المسيحيون، وكأنهم خلقوا من فولاذ، لأنهم كانوا صبورين جداً علىٰ المشقات ومدربين تدريباً جيداً علىٰ استخدام الأسلحة إلىٰ درجة أنهم أخضعوا مدينة صور في بضعة أشهر لما أنزلوه بها من الفقر المدقع وأرغموا تلك المدينة البارزة مع تحصيناتها الرائعة على الخضوع لأقسىٰ الشروط، وابتهج سكان المدينة لدى معاينتهم شكل الآلات الحربية وأطالوا التحديق في ارتفاع الأبراج المتحركة-والأسلحة المتنوعة، كما أعجبوا بموقع المعسكر ورغبوا بمعرفة أسماء القادة وتقصوا جميع التفاصيل باهتمام بالغ ليتمكنوا من جمع حكاية دقيقة وجديرة بالثقة لينقلوها إلىٰ الأجيال القادمة.

---

(١) كان همفري الأصغر صاحب تيرون كافلا لمملكة القدس في الفترة الممتدة من /١١٥٢/ وحتى /١١٧٩/. وتشير هذه الرواية بوضوح إلى أن وليم كتب هذا المقطع قبل عام /١١٧٨/، وربما قبل ١١٧٤، لأن همفري كان قد توفي عندما استأنف وليم الكتابة في نهاية عام /١١٨٠/.

(٢) انظر الكتاب الحادي عشر الفصل ٣٠.

كما استبدت الدهشة بالقوات المسيحية بدورها أيضاً عندما دخلت إلىٰ المدينة وأعجبت بتحصيناتها وبقوة الأبنية وبالأسوار الضخمة والأبراج البالية والميناء المهيب الصعب بلوغه، وأثنوا علىٰ مثابرة السكان وعنادهم حيث تمكنوا من رفض الاستسلام لفترة طويلة من الزمن علىٰ الرغم من ضغط المجاعة الرهيبة عليهم وندرة المؤن ولم تنطق أفواههم بكلمة استسلام لمدة طويلة جداً لأنه عندما استولت قواتنا على المدينة لم تجد فيها سوىٰ خمسة مكاييل من القمح، وعلى الرغم من أن عامة الناس أدركوا منذ البداية أنه يصعب تسليم المدينة وفق الشروط المذكورة آنفاً، فقد ابتهجوا فيما بعد حيث أن الجهود الكبيرة التي كانوا قد بذلوها قد لاقت الثناء، وأدركوا أنه تم بجهودهم وعلى حسابهم إنجاز يستحق الذكر إلىٰ الأبد.

قسمت المدينة الآن إلىٰ ثلاثة أقسام خصص قسمان للملك والثالث للبنادقة وذلك وفق الشروط المعقودة من قبل، ثم عاد الجميع بابتهاج وسرور إلىٰ مناطقهم الخاصة. لقد تم الاستيلاء علىٰ هذه المدينة وإعادتها إلىٰ الاسم المسيحي في /٢٩/ حزيران من العام /١١٢٤/ لتجسيد ربنا الذي كان العام السادس من فترة حكم بلدوين الملك الثاني للقدس[١] .

١٥ ـ اطلاق سراح الملك من الأسر. حصاره لمدينة حلب غير أنه بعد اشتباك مع العدو يرفع الحصار. عودته إلىٰ القدس. موت البابا كالتكستوس. اختيار هونوريوس بدلاً عنه.

احتجز العدو بلدوين ملك القدس أسيراً لديه لنحو ثمانية عشر شهراً أو لفترة أطول من ذلك بقليل، وأطلق سراحه وعاد، برعاية الرب، إلىٰ انطاكية في التاسع والعشرين من هذا العام نفسه، وذلك بعد أن تعهد بدفع مبلغ محدد من المال وإعطاء الرهائن، ويقال إن المبلغ المحدد من أجل فديته قد بلغ مائة ألف «ميخائيلي» وهي عملة استخدمت بشكل رئيسي في تلك البلدان في الصفقات التجارية والتعامل في الأسواق[٢] .

---

(١) يبدو غريباً أن وليم أخطأ في تاريخ الإستيلاء على مدينته التي كان رئيساً للأساقفة فيها. ويقدم البيان الفلكي لفولتشر /٧/ تموز عام /١١٢٤/ وهو يتفق مع معظم روايات المصادر العربية بما فيها رواية ابن القلانسي (ص ١٧٢).

(٢) إن تاريخ إطلاق سراح بلدوين منصوص عليه بشكل صحيح، غير أن فترة أسره كانت حوالي ستة عشر شهراً وليس ثمانية عشر شهراً. وتختلف روايات المؤرخين حول مبلغ الفدية بين واحد وآخر (هاغنمير ـ فولتشر ص ٧٥٠ وانظر أيضاً كتاب ١١/ الحاشية ٤٤).

عاد الملك إلى انطاكية وهو مرتبك جداً إزاء جمع المال للفدية التي كان قد وعد بدفعها ولافتداء رهائنه، وتشاور مع عدد من رجاله الحكماء حول الطريقة المثلى لاتباعها، وقد نصحوه أن يحاصر مدينة حلب، وكانت المدينة تعاني عندئذ من وطأة فقدان المؤن وكانت خالية من السكان تقريباً، وكانت الخطة التي وافق عليها الملك هي إمكانية دفع أهالي حلب، عندما يثقل الحصار كاهلهم، لاسترداد الرهائن بسهولة أو لدفع مبلغ مماثل لذلك المبلغ الذي كان قد وافق علىٰ تقديمه لفديته، فاستدعىٰ قواته من الفرسان من سائر أنحاء المملكة وألقىٰ الحصار على المدينة وطوقها كالمعتاد وبدأ عمليات الحصار بحيث تعذر علىٰ المواطنين الخروج أو الدخول من وإلىٰ المدينة وأجبروا علىٰ أن يعتمدوا علىٰ زادهم الضئيل من الطعام.

وهكذا، فقد أرسل أهالي حلب رسائل متكررة إلىٰ ملوك الشرق وفي المقام الأول إلىٰ الحكام الذين كانوا موجودين فيما وراء نهر الفرات لإبلاغهم بالوضع الخطير، وأعلنوا أن المدينة ستسقط فوراً ما لم تصل المساعدات وبما أن هؤلاء الملوك قد امتلأوا بالقلق علىٰ مدينة محالفة لهم، فقد جمعوا الجنود علىٰ الفور ووحدوا قواتهم لتقديم المساعدة، ثم عبروا نهر الفرات وتقدموا بالسرعة الكلية لتخليص المدينة من أخطار الحصار، وتكونت قوة النجدة من سبعة آلاف فارس بالإضافة إلىٰ الفرسان المسؤولين عن الأمتعة والمعدات والخدم الذين قدموا لأسيادهم المخلصين الطاعة التي كانوا يدينون بها لهم.

أدرك الملك والذين كانوا معه أن العدو بات على وشك الوصول بقوات كبيرة جداً، ورأوا أنَّ من الأعقل أن يتراجعوا ويضمنوا بالتالي سلامتهم وسلامة الجيش بدلاً من أن يجازفوا بشكل اعتباطي بخوض اشتباك مع القوات المتفوقة للأعداء، وهكذا، انسحب المسيحيون إلىٰ إحدىٰ قلاعهم المحصنة والتي تسمىٰ باسم قلعة الأثارب قبل وصول الجيش المعادي إلىٰ المدينة، ومن هنا تابعوا سيرهم جميعاً إلىٰ أنطاكية حيث تفرقوا فيها، وعاد الملك مع أتباعه إلىٰ القدس واستقبله رجال الدين جميعاً مع عامة الناس بإجلال، كما رحب به كهنة المدينة وسكانها، ذلك أن حضوره كان منتظراً منذ زمن طويل فقد تغيب لمدة عامين تقريباً [١].

وتوفي في ذلك العام نفسه كالتكستوس الثاني ذو الذكرىٰ العزيزة وخلفه لامبرت أسقف أوستيا Ostia وهو من أهالي بولونا وهو معروف باسم هونوريوس، وفاز لامبرت

(١) وصل بلدوين الثاني إلى القدس في ٣/ نيسان ١١٢٥، بعد غياب عن القدس لأكثر من ثلاثة أعوام تقريباً مع أن وليم وقع في هذه الغلطة نقلاً عن فولتشر (هاغنمير - فولتشر ص٧٥٧).

بالانتخاب ضد منافسه ثيوبولد وهو راهب كاردينال لقبه سانت أناستاسيا؛ هذا وبما أن الانتخابات لم تجر حسب النظام القانوني بشكل صارم، فقد استقال هونوريوس بعد اثني عشر يوماً وتخلى طوعياً وبحضور إخوانه الرهبان عن تاجه وردائه.

وأمام مظهر الإهانة هذا خشي الرهبان والأساقفة والكهنة والكرادلة والشمامسة من المستقبل ومن دخول بدعة جديدة إلى كنيسة روما، ولذلك عالجوا الأخطاء المرتكبة في الإنتخاب الأصلي، وانتخبوا هونوريوس بابا للمرة الثانية ثم خرّوا على قدميه وأظهروا له الطاعة المألوفة كراع وبابا للجميع [1] .

١٦ - الأمير التركي البرسقي يدمر منطقة أنطاكية. الملك يزحف ضده. نشوب القتال. هزيمة العدو.

علم الملك، عندما كان ما يزال في القدس، عن طريق رسل كثيرين أن البرسقي [2] وهو أحد حكام الشرق الأقوياء، كان قد عبر نهر الفرات مع جيش ضخم جمعه من مختلف بلدان الشرق، وأنه كان في هذه الأثناء موجوداً في منطقة أنطاكية، وبما أنه لم يكن هناك من يقاومه، فقد اجتاح المنطقة بأسرها وعاث فيها حسب مشيئته الخاصة، وأودع كل ما وجده خارج المدن والأماكن المحصّنة لألسنة النيران، وسمح لجنوده بأن يسلبوا المنطقة بأسرها، وكان زعماء منطقة أنطاكية قد حاولوا مقاومته إلا أنهم أدركوا بعد محاولات عديدة مخفقة أنهم لن يتمكنوا من عمل أي شيء، ولذلك أبلغوا الملك بالشدائد التي كانوا يعانون منها سيما وأنه كان مسؤولاً منذ زمن طويل عن الإهتمام بالإمارة، وناشدوه أن يحضر لمساعدتهم دون تأجيل، ومع أن الملك كان مثقلاً بالمسؤولية المزدوجة تجاه المملكة والإمارة، فإنه لم يشعر إلاّ بقلق بسيط إزاء المملكة وذلك على الرغم من أنه كان ملزماً بها بروابط وثيقة، وبما أنه طلب منه مراراً التصرف في غمرة الصعوبات التي كانت الإمارة تمر بها، فقد أوقف كافة جهوده ووسائله تقريباً على تحقيق الرفاهية لها خلال فترة من الزمن بلغت عشرة أعوام، وكان قد تعرض للأسر عندما كان منشغلاً بهذا الشكل، وكابد لمدة عامين تقريباً إهانة أغلال العدو وزنزاناته، وعلى العكس، لم يواجه أية مشكلة في المملكة حيث كانت تحميه اليد الإلهية لأن الله المعين لملوكه المختارين، قد أرشده في جميع الأشياء نحو الإزدهار والنجاح، وبما أنه كان تواقاً لتنفيذ وعوده، فقد جمع الجنود المتوفرين كافة وزحف إلى أنطاكية بسرعة.

---

(١) حدث انتخاب هونوريوس في غمرة تدخل سياسي محلي تأسف الجميع عليه. وصحح كما أشار وليم هنا.

(٢) لم يكن البرسقي قريباً لبرسق بل كان مملوكاً في خدمته. ولهذا بات معروفاً بذلك الإسم.

وكان البرسقي ـ وهو أمير قوي جداً وصاحب خبرة كبيرة في الحرب قد شكل في هذه الأثناء حلفاً مع طغتكين، ملك دمشق وكان الإثنان قد ضربا الحصار على قلعة تدعى قلعة كفرطاب قبل وصول الملك، وكانا يعلمان أن أهالي أنطاكية قد استدعوه، وقد أجبرا المحاصرين بهجمات كثيرة على الإستسلام شرط أن تتم المحافظة على حياتهم، ثم عبر البرسقي سوريا الصغرى بأمل تحقيق نجاحات أخرى مشابهة وحاصر قلعة زردنا وبذل جهوداً ضخمة ضد هذا الموقع لعدة أيام لكنه بعدما اقتنع أنه لا يستطيع الإستيلاء على القلعة حوّل اهتمامه إلى محاصرة مدينة أعزاز الشهيرة التي لم تكن محصنة تحصيناً قوياً.

وبينما كان منشغلاً في تشييد الآلات الحربية وإعداده عدة الحرب واختبار قوته لتدمير المحاصرين وصل الملك برفقة كونت طرابلس وكونت الرها، وكانوا قد أتوا مع قوات كبيرة تلبية لأوامر الله من أجل تقديم المساعدة الفورية إلى المحاصرين، وتشكل المسيحيون عندما اقتربوا من العدو في ثلاثة أقسام. وتألفت الفرقة الأولى، والموجودة في الجناح الأيمن، من زعماء أنطاكية، بينما وضعت الفرقة الثانية، التي شكلت الجناح الأيسر، تحت قيادة الكونتين مع جيشهما واحتفظ الملك بالمركز، وكانت قواتهم مؤلفة من إحدى عشرة مائة فارس وألفين من الرجالة.

وعندما ازداد اقتراب المسيحيين أدرك البرسقي أنهم استعدوا كرجال حكماء لخوض اشتباك فوري، وحيث لم يستطع لعزته وشرفه أن يرفض المعركة رتب قواته ـ التي قيل إنها بلغت خمسة عشر ألف فارس ـ في عشرين كتيبة. واندفع الجيشان، بعدما انتظما بتشكيل عسكري، ضد بعضهما وبعنف أكثر من المعتاد، واصطدم السيف بالسيف بحماس متماثل مسبباً مجزرة رهيبة وموتاً متعدد الأشكال. «لأن الإستيلاء الذي يثيره تدنيس المقدسات، في نزاعات من هذه النوعية، مع احتقار القوانين يعملان دائماً كمثير للكراهية المريرة والعداوة، بينما تُشن الحرب بشكل مختلف وبقوة أقل بين الرجال الذين يدينون بالقانون نفسه والعقيدة نفسها، فحتى في غياب أي سبب آخر للكراهية، فإن مجرد وجود مقاتلين لا يشتركون بمبادىء عقائديه واحدة يكون هذا وحده سبباً كافياً لانـدلاع شجار مستمرّ وعداوة دائمة بينهم.

وهكذا اشتبك الجيشان في قتال شديد مع بعضهما وتغلب جيشنا في النهاية لأن رب الرحمة الذي يستطيع أن يتغلب بسهولة على الكثرة بقلة من المحاربين كان يؤيدنا، فهو القائل بخصوص شعبه المختار: «كيف يطرد واحد ألفاً ويهزم إثنان أربعة لولا أن صخرهـم بـاعهـم

والرب سلمهم»[1]. وانهزم العدو وحقق المسيحيون انتصار رائعاً نزل عليهم من عليين، ويقال إن الكفار فقدوا ألفي رجل في تلك المعركة، بينما لم يفقد شعبنا سوى أربعة وعشرين رجلاً[2].

وعبر البرسقي الذي ملأه الإرتباك والخوف نهر الفرات الآن (لأن الحملة انتهت خلافاً لما قد توقع) وعاد إلى موطنه، هذا وقد تلاشت في انسحابه الثقة الممزوجة بالرعونة خلافاً لما كان يتميز به تقدمه.

دفع الملك الفدية التي كان قد وعد بها بمبلغ كبير من المال، جمع بعضه من المغانم التي أخذت من العدو وبعضه الآخر من المساهمة السخية التي جاد بها أصدقاؤه والموالون المخلصون له، وبالمقابل استرد ابنته البالغة من العمر خمس سنوات والتي كان قد أعطاها كرهينة، ثم استأذن أهالي أنطاكية بالرحيل لفترة مؤقتة وعاد منتصراً إلى القدس بسلامة، وشيد في ذلك العام نفسه قلعة في الجبال الواقعة فوق مدينة بيروت وأسماها قلعة جبل غلا فينوس.

١٧ ـ الملك يهزم أهالي عسقلان والمصريين الذين أتوا لمساعدتهم.

كانت فترة الهدنة والسلام المؤقت التي تم التوصل إليها بين الملك وطغتكين مقابل مبلغ من المال قد انتهت الآن، وبناء عليه جمع الملك فرسان المملكة كافة وغزا منطقة دمشق، واجتاح تلك المنطقة دون عائق ودمر بعض المواقع الموجودة في الحقول المحيطة بها وأخذ عدداً من الناس كأسرى ثم رجع سالماً ومعافى ومحملاً بكمية كبيرة من المنهوبات وأثمن مغانم العدو.

وما كادت تمر ثلاثة أيام، ولم تكن العساكر قد استراحت حتى وصلت أخبار تفيد بوصول جيش مصري رائع النظام وعسكرته أمام مدينة عسقلان، فقد اعتاد المصريون على إرسال أربع حملات جديدة كل سنة إلى تلك المدينة، وبذلك يمكن تجديد قوة العسقلانيين واستمرارها[3]، وبذلك كانوا قادرين على الإستمرار بصراع متواصل مع المسيحيين وتبع ذلك خسائر مستمرة، وملك القادمون الجدد رغبة شديدة في محاولة الإصطدام بقواتنا،

---

(١) سفر التثنية: ٣٢/٣٠.

(٢) نشبت هذه المعركة في /١١/ حزيران عام ١١٢٥. كما أن هذه الأرقام التي قدمها فولتشر [هـ.ف:٧٦٧] قد تشير إلى وقوع خسائر نسبية، لكن لا يمكن قبولها بأنها صحيحة حرفياً.

(٣) كان المصريون قد مارسوا هذه السياسة في تغيير الحامية في عسقلان لسنوات كثيرة. وحسب قول فييت، حدثت التغييرات مرتين كل عام لكن لم تشتمل على تغيير تام للحامية في كل مرة.

ذلك أنهم رغبوا في فحص قوانا وفي الوقت نفسه تقديم برهان نهائي على شجاعتهم، وغالباً ما حدث في هذه الإشتباكات أن وقع الكثيرون أسرى أو قتلى بحد السيف لأن المصريين كانوا على غير دراية بالأرض والمنطقة وليس لديهم خبرة كاملة في فن الحرب، وكان سكان عسقلان أكثر تعقلاً وتجربة وقد تجنبوا بتدبر حكيم عدم الإصطدام برجالنا مع أنهم طاردوهم أحياناً خاصة عندما كانت الهزيمة تنزل بالمسيحيين.

وعندما وصلت هذه الأخبار تابع الملك حملته ولم يجددها، وأسرع إلى هناك وحالما وصل اختار مكاناً موائماً لأغراضه، وكمن مع بعض أقوى أتباعه وأكثرهم شجاعة، وجرى إرسال بعض الفرسان ذوي التسليح الخفيف للتطواف في المنطقة وتدميرها في سبيل إنزال الأذى بأهالي عسقلان واستدراجهم لمطاردتهم.

وما أن رأى أهالي عسقلان القوات المسيحية تتجول بحرية حول أطراف مدينتهم حتى تملكهم الغضب ولم يستطيعوا ضبط أنفسهم تجاه هذه الوقاحة، فحملوا أسلحتهم بكل اندفاع ولم يحسبوا حساباً للعواقب، واندفعوا من مدينتهم على شكل زمر متفرقة، وقام رجالنا بالفرار عن طواعية، وطارد العسقلانيون الأعداء دونما أخذ للاحتياطات حتى وصلوا إلى المكان الذي كمن فيه الملك مع قواته المختارة، ولم يضيع الملك فرصته، واندفع بمساعدة رفاقه المخلصين ودعمهم له فأوقف الكفار ومزقهم وهم يحاولون التراجع إلى المدينة، وتلا ذلك قتال التحامي في رقعة ضيقة، وقاتل المسيحيون الكفار بسيوفهم بكل شجاعة، وقبل أن يستطيع هؤلاء الوصول بسلامة إلى مدينتهم كان أربعون منهم قد ذبحوا، ونجا الباقون إلى داخل المدينة لكنهم ما كادوا يصدقون أنهم نجوا حتى بعد ما صاروا خلف الأسوار، وبرهن العويل والبكاء الذي صعد من داخل المدينة بشكل لا سابق له على أن الذين قتلوا كانوا من بين أعلى الناس مكاناً وأكثرهم شجاعة بينهم.

وأمر الملك باستدعاء رجاله بصوت البوق وقرع الطبول وقام بقلب امتلأ بالغبطة بنصب معسكره قرب المدينة وكمنتصر أمضى ليلته كلها بسلام، ثم عاد سالماً معافى إلى القدس.

١٨ ـ الملك يغزو أراضي الدمشقيين. طغتيكن يزحف للتصدي له. نشوب معركة. جيشنا يعود منتصراً.

في شهر كانون الثاني من العام اللاحق أي في عام /١١٢٦/ لتجسيد ربنا والعام الثامن لفترة حكم الملك بلدوين نفسه أصدر الملك والنبلاء أوامر تقضي باجتماع الناس جميعاً من أعلاهم إلى أدناهم وأعلن صوت المنادي هذه الأوامر في سائر أنحاء مدن المملكة،

وهكذا تم تجنيد جميع قوات المملكة العسكرية خلال بضعة أيام، واجتمعت القوات بأسرها بالقرب من طبريا وهي على أهبة الإستعداد لغزو أراضي دمشق.

وحالما اجتمعت العساكر في الموقع المحدد، أعطيت الإشارات العسكرية، ورتبت الأمتعة وانتظمت الصفوف في ترتيب الزحف، ثم اجتازوا منطقة الصنبرة ودخلوا أراضي العدو، وعبروا من هناك وادياً عميقاً يدعى وادي الراحوب ووصلوا إلى سهل حوران وهو سهل واسع فسيح، ويجري خلاله نهر الدن بين طبريا وسيثيوبولس ويعتقد بعض الناس - ويؤيد الإسم ذاته نظرتهم - أن هذا النهر هو الذي يشكل المقطع الأخير لاسم الأردن لأن المياه التي تصب في بحيرة طبرية وتتدفق من هناك إلى نقطة التقاء هذا النهر نفسه تسمى باسم «أر». وعندما يتحد نهرا الأر والدن فإن النهر المتشكل منهما يعرف باسم الأردن هذا، ويقول من ناحية ثانية بيد Bede وعدد آخر من رجالنا المعتمدين والموثوقين أن أصل كلا النهرين واقع بالقرب من قيسارية فيليب (بانياس) الواقعة عند سفح جبل لبنان حيث يعرف أحدهما باسم[1] «أر» بينما يعرف النهر الآخر باسم «دن» ويتشكل من اتحاد النهرين فيض الأردن، الذي يصب عندئذ كنهر واحد في بحيرة غنسارت وهي بحيرة طبرية ويتدفق من هنالك مجدداً كنهر واحد، ويصب في بحيرة اسفلت المعروفة أيضاً باسم البحر الميت وذلك بعد أن يجري لمسافة مائة ميل تقريباً خلال الوادي الشهير.

عبر جيشنا هذا السهل ووصل إلى القرية التي تسمى باسم سالومي، وكان المسيحيون يشكلون في ذلك الوقت كما هو الحال في هذه الأيام جميع سكانها، ولذلك وفرها رجالنا ولم يهاجوها وعاملوا سكانها كإخوان لهم، وأسرعوا من هناك بكتائب مرتبة بشكل جيد - وجميع القوات مخصصة لأماكن مناسبة - إلى موقع يسمى مرج الصفر، وحسب ما تذكره القصة، حدث أن سمع هناك شاؤول، مضطهد كنيسة الله، ذلك الذئب المفترس، صوت امرىء يقول له: «شاؤول شاؤول لماذا تضطهدني»[2]؟ وهكذا دواليك، وبدا بالفعل أن السماء قضت أن يصل جيش المؤمنين إلى ذلك الموقع في ذكرى اليوم الذي يقال إن هذه الأشياء حدثت فيه، أي عندما تحول شاؤول من مضطهد للكنيسة إلى تابع مختار للرب.

---

(١) لم يدرج بيد Bede هذا الكتاب، Libellus de situ Hie rusalem sive de Locis samctis في قائمة أعماله، ربما لأنه شعرَ نفسه بأنه ليس سوىٰ ناسخاً، هذا وأصبحت نسخته مشهورة كدليل للحجاج، وكانت نسخة موجزة إلى حد ما لوصف الأرض المقدسة التي ألفها أدمان نقلاً شفوياً عن أركولف Arculf الأسقف الفرنجي الذي تحطمت سفينته على الساحل الغربي لبريطانيا لدىٰ عودته من الحج. وكانت نسخة بيد الرواية الأكثر رواجاً.

(٢) أعمال الرسل: ٩/٤.

بقي الجيش المحتشد لمدة يومين[1] في مرج الصفر، ورأى معسكر العدو قبالته وعلى مسافة قريبة منه، واشتبكت القوات في اليوم الثالث حيث كان الطرفان قد أعدا الترتيبات الحذرة للقتال، وانخرط الكفرة والمسيحيون الآن بقتال ضروس وبجنود مرتبة بترتيب المعركة، وكانت نتيجة المعركة مبهمة لفترة طويلة من الزمن حيث اندفع الجانبان إلى القتال بقوة مماثلة، وهاجم الملك العدو بقوة حسب عادته المألوفة، ودعا رجاله الشجعان إلى الهجوم وشجعهم بالقول والقدوة ووعدهم بالنصر المؤكد، وبالمقابل، ناضل رجاله بالشكل الأمثل والممكن مجاراةً لقائدهم، وهجموا على العدو، تغمرهم حماسة العقيدة، بسيوف مسلولة وحاولوا أن يثأروا في وقت واحد ليس لمظالمهم فقط بل أيضاً للمظالم المرتكبة ضد الرب.

ومن جانبه ألهب طغتكين رجاله بحماسة مماثلة وشجع روحهم القتالية بأقواله ووعوده، وذكرهم بأنهم يخوضون حرباً عادلة دفاعاً عن زوجاتهم وأبنائهم، كما أنهن يناضلون من أجل الحرية، وهي المهمة الأكثر نبلاً، وللدفاع عن أرض الأجداد ضد اللصوص، فشجعت هذه الأقوال جنوده وهجموا بقوة وشجاعة مماثلتين لقوتنا وشجاعتنا.

واتقد جنود المشاة بالمثل الذي ضربه الملك والفرسان وشنوا هجوماً عنيفاً على صفوف العدو وشددوا الخناق عليه، وأجهزوا بالسيوف فوراً على كل واحد من جرحى الكفرة أو الساقطين منهم الذين صدف وقابلوهم، وحالوا بالتالي دون نيلهم أي احتمال بالنجاة، وانتشلوا الذين كانوا قد طرحوا أرضاً وأعادوهم إلى القتال، وأرسلوا الجرحى إلى قطار الأمتعة ليلقوا العناية واستنبط آخرون خطة يعتقد أنها كانت الخطة الأكثر تدميراً في ذلك الوقت لجماعات العدو حيث حولوا اهتمامهم لجرح خيول خصومهم، وبالتالي جعلوا فرسانها ضحايا سهلة المنال بالنسبة للمسيحيين الذين كانوا يلاحقونهم.

اندفع الملك بمرافقة عدد من فرسانه الشجعان البارزين كالأسد على صفوف العدو المكتظة؛ ورافق نجاحه فتكاً في اليمين والشمال بحيث اقترفت مجزرة رهيبة حتى في نظر الفاتحين، كما لا تحتوي سجلاتنا التاريخية، حتى إلى الوقت الحالي، على وصف مفرط وغامض لمعركة كهذه، فعلى الرغم من أن القتال امتد من الساعة الثالثة إلى الساعة العاشرة من اليوم فقد كان من المستحيل حتى الساعة الحادية عشرة معرفة أي من الطرفين قد انتصر، واضطر الكفرة في النهاية للفرار بفضل النعمة السماوية وذلك عندما تدخل المعلم العظيم للشعوب، لقد كابدوا مجزرة ستبقى بارزة إلى الأبد حيث يقال إنه قتل أكثر من ألفين من مجموعهم في ذلك

---

(١) يذكر جيب أن اسم موقع هذه المعركة التي وقعت في الأسبوع الأخير من شهر كانون الثاني عام ١١٢٦ هو مرج الصفر. ويؤكد ابن القلانسي تقلبات القدر خلال المعركة (تاريخ دمشق: ١٧٥ - ١٧٧).

اليوم، ووجد، عندما آحصيت قوات المسيحيين من الفرسان والمشاة، أنها لم تفقد سوى أربعة وعشرين فارساً فقط وثمانين جندياً من الرجالة.

وهكذا، منحت السماء النصر للمسيحيين، واحتل الملك الميدان كفاتح، وقاد جيشه من هنالك بابتهاج وصلاة شكر وبدأ مسيرة العودة إلى وطنه، ووجد أثناء عودته حصناً كان قد تراجع إليه ستة وتسعون من الجنود الأتراك بأمل النجاة، فهاجم هذا الحصن بعنف وألقى القبض على الهاربين وقتلهم بالسيف كما استولى بهجوم على حصن آخر عثر عليه بعد مسيرة مسافة قليلة أخرى، لكنه استسلم دون صعوبة ولهذا فقد عفا عن الجنود الأتراك البالغ عددهم عشرين جندياً، مع الذين كانوا قد أرسلوا لحمايته، ونسف المسيحيون هذه القلعة ودمروها أرضاً حيث انهارت بارتطام عنيف.

ثم عاد الجنود إلى بلدهم بابتهاج بعد أن حققوا انتصارات عديدة تستحق التذكر إلى الأبد.

١٩ - كونت طرابلس يستولي على مدينة رفنية. موت هنري امبراطور الرومان. حلول لوثير حاكماً بدلاً عنه.

في هذه الآونة عقد بونز كونت طرابلس العزم على حصار رفنية وهي مدينة تقع على مقربة من ممتلكاته حيث تصور إمكانية إنجاز هذا العمل بسهولة، وفي سبيل إنجاز مشروعه بفعالية أكبر بعث برسائل عديدة إلى ملك القدس يناشده فيها الحضور لتقديم المساعدة له فما كان من الملك الذي كان لا يعرف التعب، والمستعد دائماً للمشاركة بإخلاص في أي مشروع يتعلق بالمصلحة المسيحية العامة إلاّ أن توجه إلى هنالك على الفور مع مرافقة مهيبة، ووجد لدى وصوله الكونت على أتم الإستعداد للحملة، فأخذا معهما من مدينة طرابلس الآلات الحربية وكل ما هو ضروري لمحاصرة المدينة بما في ذلك المؤن الكافية لعدة أيام، وأرسلت قوات المشاة في الأمام، ووجه القائدان جنودهما إلى أحواز المنطقة المقترحة مسرحاً لنشاطهما.

وفور وصولهم إلى المكان ضرب القائدان الحصار حول المدينة وكانت تلك حركة قد منعت الأهلين وبشكل فعال من الخروج أو الدخول إلى المدينة، وكانت مدينة رفنية محصنة تحصيناً ضعيفاً بسبب موقعها الطبيعي وقلة عدد سكانها، وعلاوة على ذلك، كانت منهكة جداً نتيجة الهجمات المتكررة التي لم تتمكن من تحملها لفترة طويلة من الزمن، حيث كان الكونت بونز قد شيد قلعة في الجبال الواقعة قرب الأراضي التابعة له، وكانت الهجمات المستمرة التي شنتها حامية هذه القلعة من ذلك الموقع قد عرضت المدينة لشدائد رهيبة، فقد أخضعتها في الواقع لأقصى درجات الشدة تقريباً، وهكذا، وبعد أن تمت مواصلة الحصار

بشدة لمدة ثمانية عشر يوماً اضطر الأهلون إلى الإستسلام، ومنحوا حق الرحيل بحرية مع زوجاتهم وأبنائهم ووعدوا بالأمان.

تعتبر رفنية إحدى المدن التابعة إلى إقليم أفامية والواقعة ضمنه، وقد تم الإستيلاء عليها في الحادي والثلاثين من شهر آذار، وعاد الملك إلى القدس بعد استسلامها واحتفل هنالك بعيد الفصح بورع شديد.

وتوفي في هذه الآونة هنري امبراطور الرومان[1]، وحل محله في السلطة لوثير دوق ساكسوني وهو رجل جدير بالثناء في كل جوانبه، ونزل لوثير فيما بعد إلى أبوليا مع جيش ضخم، واستولى بقوة على المنطقة بأسرها وصولاً إلى فاريوم وأجبر الكونت روجر، الذي كان قد استولى بالقوة على أبوليا على الهروب إلى صقلية ونصب رينود حاكماً لأبوليا وكان رجلاً حكيماً وعاقلاً بيد أن روجر عاد إلى أبوليا بعد رحيل الإمبراطور وتحارب مع رينود وقتله واسترد الدوقية. وأصبح في وقت لاحق ملكاً لصقلية وملكاً لأقليم أبوليا بأسره.

٢٠ ـ البرسقي يجتاح ثانية منطقة أنطاكية. طعنه أخيراً من قبل رجاله وموته. وصول الأسطول المصري إلى سورية. مكابدته الهزيمة هناك واضطراره للعودة دون إكمال الحملة.

وبينما كان الملك ما يزال يمضي الوقت في مدينة صور وصل رسول مسرع من أنطاكية وجلب أخباراً مكتوبة وشفوية أفادت أن البرسقي، ذلك المضطهد، السيء للغاية، لعقيدتنا، قد دخل إلى سورية المجوفة مع قوة ضخمة من الفرسان، وحيث لم يكن هنالك أحد للتصدي له فقد كان يحاصر المدن ويحرق كل مكان في المناطق المجاورة حسب مشيئته وهواه، وكان في الوقت نفسه ينقل الناس كأسرى لديه ويخضع النسوة والأطفال للعبودية.

ولم يأمن الملك جانب المصريين، وكان متأكداً أنهم سيصلون على الفور مع أسطول ضخم كانوا قد أعدوه، إلا أنه تخلى عن جميع اهتماماته الأخرى عندما علم بهذا الخبر «كالطبيب العاقل الذي يسرع إلى تطبيق علاجاته عندما يلاحظ أن المرض يتفاقم». وأسرع إلى هناك للتعامل مع الضرورة الملحة، غير أن البرسقي رفع الحصار الذي كان قد ضربه

---

(١) توفي هنري الخامس في ٢٣ أيار من عام ١١٢٥. وربما علم فولتشر، الذي كان يكتب في القدس، بهذا الأمر من الحجاج أثناء مهرجان عيد الفصح اللاحق وأدرجه في وصفه الذي يتبعه ولم وزاد ولم المعلومات الإضافية حول سياسة لوثير في جنوب إيطاليا، إلا أن المصدر مجهول.

بعناية حول قلعة الأثارب المهيبة، وانسحب إلى القسم النائي من بلاد العدو عندما علم بتحرك الملك هذا.

هذا وكان البرسقي قد استولى قبل وصول الملك بالقوة على بلدة لم تكن ذات شهرة كبيرة وأسر بعض النسوة مع أطفالهن، وكان رجال البلدة المحاصرة قد نجوا من بطش العدو بصعوبة كبيرة، وفضلوا البحث عن السلامة بمفردهم بدلاً من أن يقعوا في قيود الأسر الرهيبة مع زوجاتهم وأطفالهم، وبعد هذا بفترة من الزمن طعن البرسقي الشرير وابن جهنم، من قبل بعض غلمانه وعناصر أخرى من أسرته طعن حتى الموت[1]، وبذلك جلب لنفسه بأعماله النتائج الطبيعية لأذاه، وحصد ثمار عقوقه.

هذا هو الوضع الذي كان سائداً آنذاك في منطقة أنطاكية، وفي تلك الأثناء، وكان الأسطول المصري، المؤلف من أربع وعشرين سفينة وفقاً لما تردد في الإشاعات من قبل، على طول الشاطىء، يبحث عن فرصة لإلحاق الأذى بعدد من مدننا، وكان قد وصل إلى مدينة بيروت، وكان الجنود الموجودون على ظهر السفن مستنفرين دوماً، كما كانوا مستعدين دائماً، وكأنهم خارجون من كمين، لمفاجأة أي واحد من المسيحيين قد يكون ماراً دون حذر مناسب، أو يكون مقترباً من سوريا وإلقاء القبض عليه، إلا أن زادهم من الماء نفد واضطروا إلى النزول قرب أحد الأنهار بحثاً عن الماء لإرواء ظمئهم، وانطلق عندها سكان بيروت نحوهم وأبعدوهم بمساعدة السكان الآخرين من المدن المجاورة بعنف عن النهر، وحرم هذا العمل المصريين تماماً من فرصة استخدام الماء واستعمل سكان المدينة أسلحتهم بقوة وأجبروا جنود العدو على التقهقر إلى السفن حيث اضطروا إلى الإنسحاب بعد أن فقدوا مائة وثلاثين رجلاً سقطوا طعمة للسيف.

٢١ ـ بوهيموند الأصغر يصل إلى انطاكية. الملك يعيد إلى الأمير المناطق التي كانت تخصه بحق وراثي ويعطيه ابنته أليس زوجة له.

عقد[2] بوهيموند الأصغر أمير تورانتو وابن بوهيموند الأكبر تحالفاً مع عمه وليم (أخو والده) دوق أبوليا وأبرم معه في خريف العام اللاحق معاهدة بخصوص مستقبل

---

(١) قتل البرسقي في أواخر تشرين الثاني أو في مطلع كانون الأول من ١١٢٦ حسب رواية ابن القلانسي (ص ١٧٧).

(٢) وصل بوهيموند الثاني في شهر أيلول من عام ١١٢٦. وتوحي حقيقة زواج بوهيموند الثاني وأليس، ابنة بلدوين الثاني، قد تم بسرعة بالغة احتمال أن المفاوضات كانت مستمرة لفترة من الزمن، وأن الزواج كان شرطاً حقيقياً لتخلي بلدوين عن انطاكية.

الحكم، حيث اشترط من خلالها أنه في حال وفاة أحدهما فإن الآخر يخلفه في كل شيء، وأعد أسطول مؤلف من عشرة شواني ومن إثنتي عشرة سفينة أخرى لنقل الأمتعة والمعدات بالإضافة إلى الأسلحة والمؤن، وتوجه بوهيموند بهذا الأسطول إلى سورية حيث كان يثق بإخلاص الملك الذي كان قد وعد بأنه عندما يأتي ليطالب بالميراث الذي تركه له والده فإنه لن يرفض مطلبه.

وعندما علم الملك أن أسطول الأمير كان قد دخل مصب نهر العاصي بسلامة خرج لاستقباله وبصحبته كبار نبلاء البلاد، وما أن دخل بوهيموند أنطاكية، حتى أعاد إليه بلدوين بكل لطافة المدينة والمنطقة بأسرها التي كان قد تحمل عبء المسؤولية عنها بعناية دائمة وقلق مستمر لمدة ثمانية أعوام.

أدى جميع القياديون وزعماء المنطقة يمين الولاء لبوهيموند في قصره الخاص بحضور الملك وتنفيذاً لأمره، وذلك بعدما أعاد الإمارة إليه، ثم زوج الملك ابنته الثانية أليس إلى بوهيموند وذلك من خلال وساطة بعض الأصدقاء من كلا الجانبين، وأعد هذا التحالف وفق شروط وافق عليها الملك والأمير حتى تزداد علاقات المودة والإحترام بينهما.

كان بوهيموند في حوالي الثامنة عشرة من عمره، وكان أقرب إلى الطول وصاحب مظهر وسيم، وأظهرت ملامح الأمير جبلته ببساطة حتى للذين لم يكونوا يعرفونه، وكان حديثه عذباً وقد فاز بسهولة، بتأييد الذين كانوا يصغون إليه، وكان ذا طبيعة كريمة ومثل أبيه كان بالفعل رائعاً، ولم يكن يماثله أحد بخصوص النسب الكريم ومكانة أسرته، وكان والده المتألق بوهيموند الأكبر بن روبرت غويسكارد، رجلاً سيخلد اسمه إلى الأبد، وكانت والدته كونستانس ابنة فيليب الفاخر ملك فرنسا وهي امرأة متميزة بين النسوة اللامعات بشخصيتها النبيلة والرائعة[1].

تم الإحتفال بالزفاف حسب العادة وانضمت الأميرة إلى الأمير بروابط الزواج الشرعي حسب مراسم لائقة، ثم عاد الملك إلى القدس سالماً وآمناً بعد أن تخلص من الجزء الأكبر من عبئه.

في العام اللاحق حاصر بوهيموند قلعة كفرطاب التي كانت سلطة العدو القوية قد أخضعتها لها قبل عدة سنوات، واستدعيت القوات العسكرية من سائر أنحاء الإمارة، وصدرت الأوامر، إلى المهندسين ليقوموا بتشيد الآلات الحربية الضرورية لاقتحام القلعة، وسقطت القلعة بعد زمن قصير من بدء عمليات الحصار، وقتل بوهيموند جميع الذين

---

(١) كتاب ١١ الفصل ٦.

وجدهم بداخلها بصرف النظر عن الرشاوي التي عرضها، الذين حاولوا تقديمها لتأمين سلامتهم وحياتهم، وكان هذا النصر الثمار الأولى لشجاعته وفتوته التي قدمها هذا الأمير النبيل والبارز كبراهين على مقدرته الطبيعية.

٢٢ ـ نشوء عداوة خطيرة بين بوهيموند الثاني وبين جوسلين كونت الرها. الملك يسرع إلى هناك وينهي النزاع. الإفريقيون يشنون هجوماً عنيفاً على سيراكوزا وهي مدينة في صقلية.

ولم يمض وقت طويل حتى نشبت عداوة خطيرة بين هذا الأمير وجوسلين الأكبر كونت الرها، وأسباب هذه العداوة ليست معروفة، بالنسبة لنا على الأقل، إلا أنها كانت بالتأكيد أسباباً بغيضة في نظر الله، لأنه وخلافاً للقوانين والعرف الشريف السائد في أزماننا دعا جوسلين عصابات من الأتراك الكفرة لمساعدته، وهو عمل أقام سابقة شريرة لسلالته[١]، ودمر بمساعدتهم منطقة أنطاكية بالحرق والقتل وأجبر سكانها، العبيد المخلصين للمسيح، على الخضوع لنير العبودية الجائر، ويبدو هذا السلوك بأكمله سلوكاً غريباً يستحق اللوم السماوي، حيث يقال إنه تم بينما كان بوهيموند يقاتل في خدمة المسيح ضد أعداء الرب، وهو غير دار بما كان يجري، ولهذا السبب يستحق جوسلين، المذكور آنفاً اللعن المشحون بالكراهية والسخط من قبل جميع الذين ستصلهم هذه القصة.

وصلت أخبار عن هذه المشكلة إلى الملك وسببت له قلقاً كبيراً؛ فقد قلق في المقام الأول وخشي أن يقدم هذا النزاع فرصة مناسبة للعدو ليقوم بمضايقة المسيحيين لأنه حسب قول الرب: «كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب»[٢]، وقلق في المقام الثاني لأن كلا الطرفين كانا قريبين له برابطة النسب، لأن أحدهما كان ابن خالته بينما كان الآخر زوجاً لابنته، وبناء عليه انطلق بسرعة نحو أنطاكية ليحاول إحلال الصلح بينهما، ونجح بالتعاون المخلص والصادق لبرنارد، بطريرك أنطاكية، في إنشاء علاقات حميمة بين الأميرين. ومن حسن حظ الملك، كان الكونت في هذه الأثناء قد أصيب بمرض خطير، وندم على أفعاله الشريرة وهو يعاني من هذا المرض حيث كان عرضة للموت بشكل شديد، وأقسم أنه إذا منحه الرب الحياة والصحة فسيرضي الأمير ويصالحه ويؤدي الولاء القويم له، وهذا ما حدث،

---

(١) لم يكن اتحاد القادة المسيحيين مع الأتراك سياسة جديدة، لأن وليم كان قد سرد أمثلة سابقة، فإما أن يجدد هذا استئنافاً للكتابة بعد فترة توقف كبيرة نسي خلالها تلك الأمثلة السابقة أو كان يفكر بالنشاطات اللاحقة لجوسلين الثاني وجوسلين الثالث، وقد حدث هذا الشجار في صيف عام ١١٢٧.

(٢) لوقا: ١١/١٧.

حيث تصالح الأميران بحضور الملك والبطريرك وذلك بعدما استرد جوسلين عافيته بشكل تام، وقام الود التام بينهما، وأدى جوسلين يمين الولاء للأمير بوهيموند والتزم به من ذلك الحين فصاعداً وكأنه واجب محتوم، وعاد الملك بسعادة متناهية إلى القدس بعد إنهاء المشكلة على هذا الشكل.

ويروى أنه في هذه الآونة بالذات توجه الكونت روجر صاحب صقلية نحو إفريقية على رأس أسطول مؤلف من أربعين من الشواني كان قد عمل على إعدادها بعناية فائقة، وكان نبأ قدومه قد سبقه، كما كان أهالي تلك المنطقة، الذين أخطروا بقدومه، قد اتخذوا بحكمة التدابير الوقائية، حتى لا يتمكن من الحصول على أية فرصة لإلحاق الأذى بهم، لا بل أكثر من ذلك، فقد سلحوا سفنهم بحماسة مماثلة لحماسته وطاردوه بسرعة. واضطر المسيحيون للفرار دون أن يحققوا هدفهم حيث استمرت المطاردة إلى شواطىء صقلية نفسها، وعندما وصل العدو بثمانين من الشواني إلى هناك، شنوا هجوماً مفاجئاً على سيراكوزه وكانت هذه المدينة القديمة والنبيلة قد أصبحت ضعيفة نتيجة السلام المستمر، كما كانت بأمنها الموهوم دون خوف مطلق من خطر كهذا، واستسلمت على الفور. وذبح الإفريقيون عدداً كبيراً من السكان دون اعتبار للسن أو الجنس بينما توجب على العدد القليل، الذي صُفح عنه، أن يكابد عبودية أسوأ من أي شكل من أشكال الموت، ونجا أسقف المدينة مع عدد قليل من رجال الدين بصعوبة كبيرة وذلك بهروبهم إلى الريف الواقع خارج المدينة [1].

٢٣ ـ تعيين أول رئيس أساقفة من اللاتين في صور.

كان العام الرابع قد مضى على إعادة مدينة صور إلى العقيدة المسيحية، وفي ربيع العام اللاحق اجتمع فيها الملك والبطريرك مع زعماء المملكة لاختيار رئيس لأساقفة الكنيسة هناك، وأخيراً جرى تعيين وليم المبجل رئيس كنيسة قبر الرب، وكان رجلاً انكليزي المولد وصاحب حياة نموذجية وأخلاق رفيعة جداً.

إننا غير قادرين على منع ويلاتنا أبداً، وكما يقول المثل: « حيث يكون الحب يكون حسن التمييز، وحيث يكون الأسى تكون القسوة ». وترهقنا هذه القضية بشدة، كما أن الألم الذي تسببه لا يترك أية راحة لفؤادنا، فعلى الرغم من أننا نعجب من حكمة ذلك الزمن، إلا أننا مرتبكون ونعتبره متهوراً إلى حد ما، لأن الذين عينوا أسقفاً عليهم قبل عامين من إعادة هذه المدينة إلى الحرية المسيحية، أهملوا فيما بعد بحذر بطيء وشديد تأمين رئيس لتلك

(١) يعتبر هذا الحدث، الذي ليس له أية صلة مباشرة مع أمور مملكة القدس، شاهداً آخر على معرفة وليم بأمور جنوب إيطاليا.

الكنيسة ذاتها حتى بعد مضي أربع سنوات، وهكذا تفرقت الكنائس خلال ذلك الوقت، كما حُرمت الكنيسة الكاتدرائية من عناصرها على الرغم من أنه كان من المتوجب أن تلقى الاهتمام قبل جميع الكنائس لأنها كانت مسؤولة عن الحكم، ولذلك تلقت النصيب الأسوأ لأنه مكتوب: «ملعون كل انسان يتسبب في إفساد نصيبه».

ومع ذلك فقد نجا سلفنا وكافة الذين اتبعوه منا في تلك الكنيسة من تأثير تلك الفتنة[1]، لأننا لم نكن نحن الذين سببنا فساد نصيبنا، بل على العكس، دُفعنا للدخول في شروط كان الآخرون قد جعلوها سيئة فليغفر الرب للذين أساؤوا إدارة الكنيسة ولا يدخلهم في جهنم.

بعد أن تلقى سلفنا وليم، ذو الذكرى الطيبة منحة الترسيم من بطريرك القدس، بدأ رحلته متوجهاً إلى روما لاستلام طيلسان الأسقف، وفعل هذا بمعارضة مباشرة لرغبات الشخص الذي كان قد عينه وعلى الرغم من معارضة الآخرين، واستقبل البابا هونوريوس الثاني وليم بلطف في روما ومنحه مطلبه وأعاده إلى بلاده بكثير من الإجلال حاملاً رسالة رسولية. وكان فحوى هذه الرسالة على النحو التالي:

من هونوريـوس، الأسقف، خادم عبيد الرب إلى إخوانه معاوني الأساقفة المبجلين وإلى رجال الدين وإلى شعب صور. التحيات والتبريكات الرسولية.

«لقد تلقنيا بعطف لائق، بمناسبة قدومه إلينا، أسقفكم، أخانا العزيز جداً وليم، كما منحناه شرف طيلسان الأسقف، أي السلطات الأسقفية الكاملة، لاسيما وأنه اختير حسب الأسس الكنسية وتم تعيينه من قبل أخينا المبجل غورموند بطريرك القدس، ونعتقد أنه سيأتي من خلاله ـ بمساعدة الرحمة السماوية ـ ثمار وفيرة لكنيستكم الأم في مدينة صور، ولهذا السبب فاننا نرى أنه من المستحسن أن نعيده إليكم متمتعاً بالحظوة الرسولية كحامل لرسالتنا، ونأمركم جميعاً أن تستقبلوه بلطف وأن تقدموا له الخضوع والطاعة والتبجيل كمطرانكم الوحيد وكأسقف لأرواحكم...».

«من هونوريوس، أسقف خادم عبيد الرب إلى أخيه المبجل غورموند بطريرك القدس. التحيات والتبريكات الرسولية

بعدما تسلمنا رسالتكم ذات العاطفة الأخوية، رحبنا بلطف بأخينا وليم الذي عينتموه

---

(١) هذه هي الإشارة المحددة الأولى بأنه كان يكتب بعد شهر حزيران من عام ١١٧٥، عندما عين رئيساً للأساقفة. وليس واضحاً فيما إذا أدرجت هذه المادة بعد عام ١١٨٠ أو كتبت خلال الفترة الممتدة بين ١١٧٥ - ١١٧٨.

رئيساً للأساقفة في كنيسة صور، وقلدناه شرف طيلسان الأسقف، أي مع كامل صلاحيات المنصب الحبري، وعلاوة على ذلك، فقد أمرنا معاوني الأساقفة في كنيسته أن يقدموا له الخضوع والطاعة والتوقير كما يقدموه لمطرانهم.

صدر في منطقة باري - ٨ - تموز [١].

وأرسل البابا مع رئيس الأساقفة أيضاً جايلز أسقف توسكولوم كممثل للمقر البابوي، وكان رجلاً فصيحاً ومتعلماً جداً حيث ما تزال رسائله المشهورة إلى أهالي انطاكية قائمة، كما أرسل البابا مع جايلز رسالة إلى برنارد بطريرك انطاكية حضّه فيها أن يعيد إلى كنيسة صور معاوني الأساقفة الذين ينتمون إلى تلك الكنيسة، والذين كان برنارد يحتجزهم، ومن بين الأشياء الأخرىٰ التي قالها: « ولذلك، فإننا نأمرك بالرسالة الرسولية وبأخينا المبجل جايلز أسقف توسكولوم ممثل المقر البابوي أن تعيد إلى وليم معاوني الأساقفة العائدة لكنيسته في مدينة صور، بحيث إذا لم يظهروا الطاعة الموائمة له خلال أربعين يوماً من قراءة الرسالة التي أرسلناها لكم فإننا سنفصلهم من ذلك الوقت من المنصب الأسقفي ».

وسنذكر في مكان مناسب من الكتاب التالي كيف حدث أن أقدم بطريرك القدس على تعيين وليم، وكيف صار مديناً بالطاعة له على الرغم من أنه من المؤكد أن الكنيسة في صور كانت خاضعة للمقر البطركي في أنطاكية منذ زمن الرسل وحتى ذلك اليوم [٢].

٢٤ - وصول كونت آنجو تلبية لدعوة الملك. اعطائه ميليساند ابنة الملك الكبرى زوجة له.

نزل في العام التالي فولك، كونت آنجو العظيم والشهير في عكا وذلك في حوالي منتصف فصل الربيع، وكان الملك قد دعاه إلىٰ هناك، تلبية للنصيحة الإجماعية لكافة الأمراء الكنسيين والمدنيين، ليتزوج ابنته الكبرىٰ السيدة ميليساند، فأتىٰ محفوفاً بحاشية مهيبة، من النبلاء وبروعة وأبهة فاقتا روعة وأبهة الملك.

وأتىٰ مع فولك وليم دي بري كافل المملكة، الذي كان قد أرسل إثر إطلاق سراح الملك من الأسر مع عدد كبير من النبلاء لدعوة الكونت إلى هنا [٣] وأوعز إلىٰ وليم لدى

---

(١) ٨ - تموز ١١٢٨ - حسب رواية ر. روهرخت (سجلات حكام القدس رقم ١٢٣).

(٢) يوحي المعنى الموحى به من قبل وليم أنه كان من الخطأ جعل مقر رئاسة أسقفية مدينة صور خاضعاً للقدس وجهة نظر ربما طورها بقوة أكثر بعد عام ١١٨٠. وكان قد سرد الظروف التي أدت إلىٰ هذا الترتيب.

(٣) لا بد وأن هذه البعثة قد أرسلت في وقت لاحق ما، لأن وليم دي بري كان ما يزال في فلسطين عام ١١٢٦، وربما ليس حتى ١١٢٧. ونال الاقتراح موافقة البابا أونوريوس، حيث أن رسالته التي توصي بلدوين الثاني بفولك مؤرخة بتاريخ ٢٩ أيار ١١٢٨. (روهرخت- سجلات: ١١٥، ١٢٢).

نوجهه في هذه المهمة، أن يقسم قسماً جليلاً بروح الملك وأمراء المملكة أن الكونت المذكور سيعطي ابنة الملك الكبرى ليتزوجها خلال خمسين يوماً من وصوله بسلام إلى المملكة، مع توقع اعتلاء العرش عند وفاة بلدوين، ولذلك، زوجه الملك ابنته الكبرى فور نزوله، وحتى قبل الاحتفال بعيد الحصاد المقدس الذي كان قريباً، وذلك تماشياً مع شروط الاتفاق[1]، ومنح الزوجان في الوقت نفسه مدينتي صور وعكا ليحتفظا بهما خلال حياة الملك، واستمرت هاتان المدينتان في حوزتهما حتى وفاة الملك.

أظهر فولك نفسه أنه رجل حكيم وعاقل، حيث أنجز خلال حياة بلدوين جميع واجبات الابن المخلص، وكان صادقاً ونشيطاً في تصريف أمور المملكة، كما برهن في احترامه للسيد الملك أنه امتلك الصفات التي تربحه الأصدقاء عادة.

٢٥ - موت غورموند بطريرك القدس. تعيين ستيفن بدلاً عنه. قيام مشاكل صعبة بين الملك والبطريرك.

كان غورموند بطريرك القدس، ذو الذكرى الطيبة، يحاصر في ذلك العام نفسه قلعة تقع في منطقة صيدا تسمى قلعة بيت الأحزان كان اللصوص يحتلونها في ذلك الوقت، إلا أنه أصيب بمرض خطير هنا، ونقل إلى صيدا حيث توفي نتيجة تفاقم مرضه وذلك بعدما كان قد ترأس الكنيسة في القدس قرابة عشرة أعوام[2]، واختير مكانه رجل نبيل المتحد بالفعل، وأكثر نبلاً في السيرة والسمعة الحسنة وهو ستيفن راعي دير رهبان القديس يوحنا صاحب الوادي في مدينة تشارترز وكان من أهالي تشارترز وواحداً من أقارب الملك بلدوين، وكان من أصحاب مرتبة الفروسية، يمارس نمطها في الحياة، فقد كان قبل تحوله فيزكونت تلك المدينة، وقد اعتزل العالم فيما بعد وسلك سبيل الدين في الدير المذكور منذ لحظات، وعُين في النهاية رئيساً لتلك الكنيسة بسبب جدارته، وكان قد تعلم في شبابه علوم الفنون العقلية بشكل كامل.

كان الراعي الأب ستيفن قد أتى في رحلة حج إلى القدس من أجل الصلاة والعبادة، وكان منتظراً هناك ليقوم برحلة العودة، وحدث أن توافق هذا تماماً مع انشغال رجال الدين

---

(١) قبيل ٢ حزيران ١١٢٩.

(٢) إن الإشارة «للعام نفسه» مضللة. فقد كان غورموند قد أصبح بطريركاً في عام /١١١٨/، حيث انتهى حكمه، الذي استمر عشرة أعوام، في عام ١١٢٨. وينسجم هذا مع دليل آخر (انظر روهرخت- تاريخ ملوك القدس ١١٠٠ - ١٢٩١ ص١٨٤ الحاشية٨).

وعامة الناس باختيار راع جديد للكنيسة بعد جنازة البطريرك غورموند ، فوقع اختيارهم على سيتفن وتم انتخابه بموافقة عامة .

إلا أنه بدأ بعد ترسيمه يثير مشاكل مزعجة في معارضة للملك ، فقد زعم أن مدينة يافا كانت حقاً مشروعاً له ولكنيسة قيامة المسيح ، لا بل ادعى أيضاً أنه يجب أن تخضع مدينة عسقلان المقدسة بعد الاستيلاء عليها شرعاً إلى الكنيسة بالطريقة نفسها ، لقد كان رجلاً ذا روح شامخة وشخصية شريفة ، وكان مصمماً على كل شيء تولى أمره ، وكان ملحاً بحماسة على حقوقه الخاصة[1] .

ونتيجة لذلك قامت عداوة خطيرة بينه وبين الملك ، إلا أن موته المبكر ـ حسب الرواية ـ وضع نهاية لهذه العداوة حيث توفي قبل أن يمضي فترة عامين ، ويعتقد بعضهم أنه مات مسموماً ، إلا أنه لا توجد لدينا معلومات محددة بخصوص ذلك ، هذا ويقال إن الملك أتى لزيارته عندما كان طريح الفراش واستفسر عن حاله فأجابه قائلاً : « إنني الآن يا مولاي في الحالة التي تتمناها » .

٢٦ ـ الملك يجتاح منطقة دمشق وبرفقته أمير أنطاكية وكونت طرابلس وكونت الرها . ارغامه على التراجع باضطراب مع خسارة جزء من الجيش . موت البطريرك ستيفن . اختيار وليم بدلاً عنه .

عاد في العام التالي هيودي بينز المقدم الأول لفرسان المعبد مع عدد آخر من رجال الدين ، وكانوا قد أرسلوا من قبل الملك وأمراء المملكة إلى ملوك الغرب من أجل إثارة الناس هناك للقدوم إلى مساعدتنا[2] ، وتوجب عليهم في المقام الأول محاولة إقناع الرجال ذوي النفوذ للحضور لمساعدتنا في حصار دمشق ، ووصلت مجموعات كبيرة من النبلاء إلى المملكة بفضل أقوالهم المقنعة ، وبناء عليه اجتمع جميع الأمراء المسيحيين في الشرق معتمدين على المساعدة القوية لهؤلاء القادمين الجدد ، وكان ذلك قد تم بالاتفاق ، وحضر اللقاء كل من الملك بلدوين وفولك كونت آنجو وبونزكونت طرابلس وبوهيموند الأصغر أمير أنطاكية وجوسلين الأكبر كونت الرها ، وتشاور جميع هؤلاء القادة مع بعضهم بعضاً ثم جمعوا القوات

---

(١) لا شك أن تأكيد البطريرك لادعاءات كهذه ضد الملك تلقى بوضوح موافقة وليم . قارن ادعاءات ديمبرت وتسويغ وليم لها (كتاب ٩ الفصلان : ١٧ و ١٨) .

(٢) كان هيودي باينس ، الذي كان قد حضر مجمع ترويز في عام ١١٢٨ ، حيث تمت الموافقة فيه على نظام الداوية ، قد جند أتباعاً للنظام الكهني ولاحتياجات المملكة [انظر الكتاب ١٢ الفصل ٧] ولا بد أن العدد الكلي للفرسان والقوات الأخرى التي أتت من الغرب مع هيودي باينس ومع فولك أوف آلجو كان كبيراً جداً ليسمح بمشروع كبير من هذا القبيل هو حصار مدينة دمشق .

لعسكرية من جميع الجهات واستدعوا أحلافهم، ثم تقدموا بترتيب المعركة وبمنافسة حماسية لبعضهم بعضاً وذلك لمحاصرة مدينة دمشق المهيبة والمشهورة، وكان أملهم أن يتمكنوا من الاستيلاء على المدينة بخوض القتال من مواقع متلاحمة، أو بضرب الحصار عليها لإجبارها على الاستسلام؛ غير أن العناية السماوية حالت دون نجاح هذا المشروع العظيم بحكم عادل خفي، فقد كان الحظ الجيد قد رافقهم حتى ذخولهم إلى منطقة دمشق بقيادة الرب، لكن حدث أن عدداً من الرجال ذوي المراتب الأدنى من الناس انفصلوا عن الجيش الرئيسي في موقع يسمى مرح الصفر، كان الواجب المألوف لهؤلاء الرجال الانتشار في كل مكان عبر الحقول بحثاً عن المؤن والعلف الضروري لاستعمالات الرجال والبهائم، وكان وليم دي بري مسؤولاً مع ألف فارس عن هذا الفريق، وكما هو مألوف في مثل هذه الغزوات فقد انفصلت الفرقة العسكرية إلى مجموعات صغيرة بدأت تطوف بطيش خلال الريف، وبقوا عمداً منفصلين عن بعضهم بعضاً حتى تتمكن كل مجموعة من أن تطالب لنفسها بكل ما عثرت عليه، وأن لا تشارك بقية المجموعات، وحيث كانت هذه القوات مصممة على هذا العمل ومنشغلة في تخريب الحقول ونقل المغانم إلى مجموعاتها الخاصة، فقد بدأت تتصرف بطيش زائد وتجاوزت حدود النظام العسكري فوراً.

وعلم طغتكين أمير دمشق[1] على الفور بنبأ هذا السلوك الطائش، وبما أنه كان يعرف تماماً أن هؤلاء الجنود لم يكونوا عارفين بالموقع، فقد أمل أن يبيدهم بشن هجوم مفاجىء مع أفضل محاربيه وأكثرهم خبرة، وبالفعل تحققت آماله، فقد شن هجوماً مفاجئاً على الجنود بينما كانوا يطوفون بإهمال بحثاً عن الطعام، وجعلهم يلوذون بالفرار بسهولة لأنهم كانوا منكبين على أشياء أخرى، ولم يكونوا محتاطين أبداً لمواجهة الخطر، فقتل الكفرة الكثيرين منهم بعد أن تفرقوا في الحقول، وواصل الأمير المطاردة لدرجة أنه لم يكتف بأن جعل الجنود من جميع المراتب يلوذون بالفرار، بل نخبة الجيش أيضاً اختيرت لحراسة فريق النهب، وقد قتل أيضاً العديد من هؤلاء الجنود المنتخبين.

اضطربت قلوب جميع الجنود بالحنق عندما وصل نبأ هذه الكارثة إلى الجيش وكانوا تواقين لرفض مظلمة كهذه والسعي للانتقام من العدو، فاستلوا أسلحتهم واستعدوا بشجاعة متقدة ومصممة للتحرك نحو العدو، لكن لا يمكن لمقاصد المرء أن تحقق أي تقدم بالرغم من القوة الإلهية، فقد هبطت عليهم فجأة من عليين عاصفة ممطرة رافقها ضباب كثيف إلى درجة أن المطر الغزير المتساقط جعل الدروب غير سالكة، كما كانت العاصفة شديدة جداً

(١) كان طغتكين قد توفي في ١١ شباط من عام ١١٢٨، وكان ابنه تاج الملوك بوري مسؤولاً عن الأمور الآن.

إلى درجة تعذر فيها النجاة من الموت، وكانت الغيوم الكثيفة والضباب والرياح المندفعة من جميع الاتجاهات والبرق والرعد المستمران قد أعطيا انذاراً واضحاً بأن عاصفة ستحدث وذلك قبل زمن طويل من حصولها، إلا أن عقل الإنسان الجاهل بالمستقبل لم يبال بالرفق الإلهي الذي كان قد ذكرهم، وعلى العكس كافح الجند للتقدم ضد إرادة الرب وذلك شيء مستحيل، وأدركوا في النهاية أن السماء كانت قد أرسلت العاصفة عليهم بسبب آثامهم، واضطروا للتخلي على مضض عن غايتهم، وتغيرت الأحوال الآن تغيراً تاماً، فقد خاف العدو منهم عندما بدأوا الغزو خوفاً شديداً واعتبرهم خطراً رهيباً، بيد أن هؤلاء الرجال، أي المسيحيين أصبحوا الآن عبئاً على أنفسهم، وشعروا أن مجرد عودتهم إلى موطنهم بسلام سيكون انتصاراً كبيراً، وبالمقابل اطمأن العدوتماماً، وأصبح متفوقاً أيضاً.

حدثت هذه الكارثة قبل ثمانية أيام من نهاية الاسبوع الثاني لشهر كانون الأول، (اليوم السادس منه) من عام /١١٣٠/ لتجسيد ربنا وفي العام الثاني عشر من حكم الملك بلدوين وحدثت في الموقع ذاته تقريباً، حيث كان الملك قد حقق قبل أربعة أعوام انتصاراً بارزاً ومشهوداً إلى الأبد على العدو نفسه [١].

إنه لمن المدهش أيها المنقذ السرمدي مدهش حقاً، ويفوق تخيل الإنسان، كيف تخزي الذين يعتمدون على جدارتهم فقط، إنك تخترق قلوب الذين يضعون ثقتهم بالإنسان وبقوة جسدهم بقذف لعنتك عليهم حسبما يستحقون ذلك بالفعل. إنك لا تبحث عن مساعد أو شريك في مجدك لأنك قلت أيها الرب المبارك: «وكرامتي لا أعطيها لآخر» [٢] و«لي النقمة أنا أجازي» [٣] «أنا أميت وأحيي. سحقت وإني أشفي وليس من يدي مخلص» [٤]. حقاً كان ما قلته أيها الرب، لأنه لطالما سلم الملك بالكامل نفسه للنعمة الإلهية الغامرة ولم يستخدم سوى قوات مملكته، أعلن مراراً عن انتصارات لم يكن يؤمل بها، إلا أنه عندما بدأ يعتمد على الأعداد واستغل سلطته ليمجد نفسه بعمل الرجال، وعندما بدأ

---

(١) كان تاريخ هذه الهزيمة في أواخر عام ١١٢٩. ووضع ابن القلانسي، الذي كان ـ من المحتمل ـ في مدينة دمشق في ذلك الوقت وكتب وصفاً مطولاً عنها، وضع التاريخ في شهر تشرين الثاني من ذلك العام بدلاً من /٦/ كانون الأول كما وصفه وليم. وغريب أن وليم حذف الأحداث الممتعة للغاية التي سبقت الحملة، وكان الحشيشية قد كابدوا هزيمة شديدة على أيدي الدمشقيين وكانوا قد أعطوا بانياس إلى بلدوين كوسيلة لإنقاذها من دمشق، ويوضح هذا الحذف صعوبة وليم في مواصلة بحثه التاريخي دون أدلة مكتوبة وذلك وسط مشاغله العامة والوظيفية الكبيرة (انظر تاريخ دمشق، ص١٨٧ ـ ١٩٩).

(٢) اشعيا: ١١/٤٨.

(٣) رسالة إلى الرومانيين: ١٩/١٢.

(٤) التثنية: ٣٩/٣٢.

يضاعف أحلامه .ويثق بالشجاعة البشرية، سحبت تأييدك له وتخليت عنه وتركته لموارده الخاصة، لأنه عندما كان واثقاً بمساعدة الرب، كان متعوداً على الانتصار بسهولة على العدو حتى مع قوات صغيرة، إلا أنه اضطر الآن للتقهقر وهو مرتبك على الرغم من الكثرة التي ترافقه.

وهكذا، فإن السماء نفسها حاربت ضدهم في هذه المرة، وحيث طردتهم العاصفة التي أرسلتها السماء عليهم، فإنهم لم يتمكنوا من تحقيق هدفهم ولم يتمكنوا من الثأر لرفاقهم الذين كان العدو قد قتلهم.

تفرق قادتنا بعد هذه الأحداث التعيسة حيث اتضح أن العمل الذي كانوا قد باشروه لا يمكن إنجازه بشكل ناجح، وبالتالي عاد الجمع إلى الوطن.

في هذه الأثناء توفي ستيفن بطريرك القدس صاحب الذكرى النفيسة [١] فخلفه وليم رئيس كنيسة قبر الرب، وكان وليم رجلاً بسيطاً أنيق المظهر وجديراً بالثناء على شخصيته النبيلة على الرغم من أنه كان متمكناً تمكناً بسيطاً من الآداب. وكان فلمنكي المولد من أهالي مدينة مالينز وبرهن على أنه مقبول جداً لدى الملك وأمراء المملكة والناس عموماً.[٢]

٢٧ ـ مقتل بوهيموند أمير انطاكية في كليكية بالقرب من المصيصة. الملك يخف إلى انطاكية. أرملة بوهيموند تحاول منع والدها من دخول المدينة إلّا أنه بفضل جهود السكان يعهد إلى الملك بالدولة.

اجتاح أمير حلب «رضوان»، وهو حاكم تركي قوي جداً وأحد أبناء الشيطان، منطقة أنطاكية فور عودة بوهيموند أمير انطاكية وزوج ابنة الملك إلى مقاطعته قادماً من تلك الحملة، فأسرع بوهيموند إلى كليكية لمواجهته آملاً بذلك أن يبعده عن إقليمه، بالإضافة إلى أن أسباباً أخرى تتعلق بأمور محلية وخاصة دعت الأمير الشاب إلى الذهاب إلى هناك، وبينما كان مخيماً هناك في سهل فسيح يدعى مرج الديباج هاجمه فجأة عدد ضخم من جنود العدو فتخلى عنه وقتل جنود العدو بوهيموند [٣]، ولو لم يكن موته المبكر وقدره المشؤوم قد اختطفاه من الحياة لكان قد أصبح أميراً عظيماً وحبيباً لله، وأربكت هذه المحنة

---

(١) تأخر موته حتى سنة ١١٣٠ (انظر روهرخت ـ السجلات: رقم ١٣٣).

(٢) هذا خطأ وقد توفي رضوان صاحب حلب، الذي كان بارزاً خلال حصار انطاكية لعام ١٠٩٨، توفي في عام ١١١٤. وكان زنكي قد فاز بحلب، وكان يحكمها الآن بشكل مباشر بواسطة واحد من نوابه واسمه سوار.

(٣) حدثت وفاة بوهيموند الثاني في شهر شباط من عام ١١٣٠. ويقال أنه عثر على جثته بلا رأس ودفنت بشكل لائق في انطاكية.

أهالي أنطاكية إرباكاً تاماً، حيث كانوا قد شعروا أنهم سينعمون بالأمن لفترة طويلة من الزمن تحت حكمه، لاسيما وأنه كان شاباً، ولذلك أقدموا على تنفيذ أكثر مما كان مناسباً، ومجدداً جددوا صيحات عويلهم وشكوا أنهم معرضون لخطر الوقوع فريسة في أيدي العدو بدون مساعدة أمير لهم، فاستدعوا ملك القدس مجدداً بعدما عقدوا مجلساً للتشاور.

أصيب بلدوين بقلق شديد لدى سماعه بنبأ هذه الكارثة الجديدة حيث خشي من إمكانية وقوع محنة أسوأ للإمارة المحرومة من قائدها، وبما أنه أعتبر أن أي شيء يحدث للمسيحيين هو أمر يخصه، فقد تخلى على الفور عن اهتماماته الخاصة وبدأ يهتم بأعباء الآخرين، وبدت جميع الأشياء التي بإمكانه عملها لشعب مسيحي تستحق اهتمامه، وهكذا، تقدم إلى انطاكية بالسرعة الممكنة.

وحالما علمت ابنتة أليس بوفاة زوجها ـ وبما أنها كانت في الواقع مدركة من قبل لنية والدها بالقدوم إلى أنطاكية ـ دفعتها روح شريرة للتفكير بخطة آثمة، ولكي تجعل موقعها أكثر سلامة ولتنفذ خطتها، أرسلت الرسل إلى واحد من زعماء الأتراك الأقوياء يسمى زنكي[1] وأملت أن تحصل بمساعدته على انطاكية لتكون لها وحدها إلى الأبد وذلك على الرغم من معارضة رجالها الرئيسين وكافة الناس، حيث كان بوهيموند صاحب الذكرى البهيجة، قد خلف ابنة واحدة اتضح أنها لم تلق عطفاً كبيراً من والدتها، وصممت أليس ـ سواء بقيت أرملة أو تزوجت ـ على حرمان ابنتها من الميراث وخص نفسها بالإمارة إلى الأبد، وأرسلت إلى النبيل المذكور منذ لحظات هدية مع واحد من خدمها وكانت عبارة عن جواد أبيض كالثلج مزين بالفضة، وكان لجامه وزينته الأخرى مصنوعة من الفضة، وحتى السرج الحريري القماش كان لونه أبيض حيث ساد التناسق في كل مكان، وجرى اعتقال هذا الرسول صدفة وهو في طريقه، وعندما أُحضر أمام الملك اعترف بجميع تفاصيل المؤامرة وقد قتل بعد تعريضه لعذاب شديد وجاء ذلك نتيجة موائمة لأعماله الشريرة[2].

أسرع الملك إلى أنطاكية عندما علم بهذه الحوادث المؤسفة التي تم سردها، إلا أنه لم

---

(١) هذا هو زنكي، الذي كان والده حاكماً لحلب تحت امرة السلطان ملكشاه، وقد أرسل زنكي إلى الموصل، عندما كان في العاشرة من عمره، وذلك إثر مقتل والده في عام /١٠٩٤/ وبدأت حياته العسكرية في وقت مبكر تماماً وبحظ جيد، وأصبح حاكماً للموصل في الفترة الممتدة من ١١٢٦ ـ ١١٢٧، ومد سلطان إلى حلب في عام ١١٢٨.

(٢) تبدو بعض تفاصيل هذه القصة خرافية. كما أن الجهود التي بذلتها أليس لإقامة السلام مع زنكي حتى على حساب زواج ابنتها من أمير مسلم، شريطة أن تتمكن من الإستمرار في حكم انطاكية، لها ما يؤكدها في الروايات العربية.

يسمح له لدى وصوله إلى هناك بدخول المدينة تنفيذاً للأوامر التي أصدرتها ابنته، فقد كانت وخزات الضمير قد استولت عليها وخافت من قرار والدها، وهكذا أوكلت رعاية المدينة إلى شركائها وإلى الذين كانت أموالها قد أفسدتهم وبذلت جميع الجهود للمقاومة، حتى تتمكن من أن تصبح حرة لممارسة إرادتها الاستبدادية، لكن النتيجة جاءت معاكسة تماماً لما كانت قد خططته، لأنه وجد في تلك المدينة نفسها رجال يخافون الرب احتقروا الغطرسة الوقحة لامرأة سخيفة، وكان من بين هؤلاء الرجال بطرس لاتيناتور وهو راهب من دير القديس بولس ووليم أفيرسا، وأرسلوا بموافقة الآخرين بصورة سرية رسلاً لإستدعاء الملك، ووضعوا حسب خطة مسبقة الترتيب فولك كونت آنجو عند باب الدوق وكونت جوسلين عند باب القديس بولص. ثم فتحت الأبواب ودخل الملك إلى المدينة.

وعندما علمت الأميرة بهذا الأمر انسحبت على الفور إلى القلعة غير أنها مثلت فيما بعد أمام والدها تلبية لدعوة الرجال الأعقل من أنطاكية استجابة لنصيحة الذين كانت تثق بهم ثقة تامة، واستعدت لإطاعة إرادته وكان بلدوين ساخطاً جداً على سلوكها، إلا أنه لم يكن مجرداً من الأحاسيس الأبوية وتم إقناعه في آخر الأمر بالموافقة على التماس الذين تشفعوا لها، فسلمت أنطاكية له، وخشية أن تقوم ابنته بمحاولة مماثلة في وقت آخر، أقطعها مدينتي اللاذقية وجبلة الواقعتين على الساحل، حيث كان زوجها قد أوصى لها بهاتين المدينتين في وصيته الأخيرة فقد كانتا المهر الذي قدم لها وقت زواجها.

وعهد الملك برعاية إنطاكية، بعد أن رتب أمورها بهذا الشكل، إلى الرجال الرئيسيين وعاد إلى القدس حيث استدعته المسائل الخاصة. هذا وقد جعل الجميع بما فيهم العظماء والوضعاء يؤدون القسم الجليل قبل مغادرته وهو أنهم سيحافظون أثناء حياته وبعدها، على انطاكية وتوابعها بإخلاص لصالح كونستانس الابنة القاصر لبوهيموند الأصغر، لأنه خشي من مكر ابنته وشرورها في أن تقوم بمحاولة ثانية لتحرم ابنتها القاصر من الميراث.

٢٨ ـ الملك يعود إلى القدس. تعرضه لمرض خطير يموت بسببه. دفنه مع الملوك الآخرين في كنيسة قبر الرب.

هاجم مرض خطير الملك أثناء عودته إلى القدس فأدرك أن يوم وفاته بات قريباً، ولذلك تخلى عن منزلته الملكية وخرج من القصر كمتضرع متواضع في نظر الرب، وأمر بأن ينقل إلى قصر السيد البطريرك لأن ذلك القصر كان أكثر قرباً من موقع قيامة المسيح، حيث كان يأمل أن الذي كان قد تغلب على الموت في ذلك الموقع سيجعله شريكاً في قيامته،

ثم استدعى إليه ابنته وختنه، والفتى بلدوين الذي كان قد بلغ الآن العاشرة[1] من عمره، وأوكل إليهم العناية بالمملكة بسلطة تامة وذلك بحضور البطريرك ورؤوساء الكنيسة وبعض النبلاء الذين صدف أن كانوا هناك؛ ثم منحهم بركته الأبوية كملك ورع.

بعد هذا أسلم روحه إلى خالق الأرواح حيث كان قد ارتدى الرداء الديني كمؤمن صادق بالمسيح ومارس الحياة الدينية، إذا كتبت له الحياة، ورحل بإرادة الله من الدنيا ليلقى مكافأته مع الملوك الآخرين الذين كانوا قد توفوا من قبل، وقد توفي في الحادي والعشرين من شهر آب في العام /١١٣١/ لتجسيد ربنا وفي العام الثالث عشر من حكمه، ودفن مع أسلافه الملوك ذوي الذكرى الورعة، عند سفح قمة جبل الجلجلة أمام الموقع الذي يسمى الجلجلة واحتفل شعبة بجنازته بأبهة عظيمة وطقوس رائعة وبكل التبجيل اللائق بملك، ويوقر كل الناس ذكراه حتى الوقت الحالي بسبب إيمانه النموذجي ومآثره الرائعة.

انتهى هنا الكتاب الثالث عشر

(١) هذا هو بلدوين الثالث القادم. وتبدو عبارة وليم الغريبة «Jam bimulo» غامضة إلى حد ما، فلو لم يكن بلدوين قد ولد في عام ١١٢٩، لما كان عنده أكثر من عامين من العمر بحلول ٢١ شهر آب من عام ١١٣١.

بداية الكتاب الرابع

فولك أوف آنجو ملكاً على القدس: اضطرابات في شمال سورية

١ - نسب فولك الملك الثالث للقدس وسماته.

عندما توفي بلدوين دي بورغ الملك اللاتيني الثاني للقدس، خلفه زوج ابنته فولك كونت تورين وميان وآنجو الذي كان بلدوين قد زوجه ابنته الكبرى ميليساند كما ذكرنا ذلك آنفاً، وكان فولك هذا متورد اللون مثل داوُد الذي أوجده الرب بناء على رغبات قلبه، وكان رجلاً مؤمناً ودمثاً ورقيقاً ولطيفاً وشفوقاً، وهي مزايا نادرة الوجود في أشخاص من ذوي تلك الطبيعة، وكان سخياً في أعمال التقوى وتقديم الصدقات، وكان أميراً قوياً حسب نسبه وحتى قبل استدعائه لتسيير أمور المملكة، وكان ناجحاً جداً في حكم شعبه ومقاتلاً محنكاً مليئاً بالصبر والحكمة في القضايا العسكرية، وكان معتدل الطول ومتقدماً في السن، فقد كان قد تجاوز الستين من عمره[1].

ومن بين نقاط الضعف التي كان يعاني منها بسبب العجز البشري، هي أن ذاكرته كانت ضعيفة وسريعة الزوال لدرجة أنه نادراً ما كان يتذكر الوجوه أو الأسماء، حتى وجوه أو أسماء أفراد عائلته، وإن صدف وظهر أمامه فجأة شخص كان قد منحه مؤخراً الشرف السام لتأييده الودي، فقد كان يضطر للاستفسار عن هذا الشخص بدقة، وغالباً ما برهن هذا الأمر بأنه مربك للذين يستغلون معرفتهم له والذين أبدوا استعدادهم للعمل كوسطاء للآخرين حيث وجدوا أنهم أنفسهم كانوا يحتاجون إلى وجود نصير لهم معه.

كان والده الذي حمل مثله أيضاً اسم فولك مع لقب ريخن، كونتاً لتورين وآنجو، وكان قد تزوج من بيرتلا [بير ترادا] أخت أموري أوف مونتفرات، وكان لديهما ولدان هما فولك الذي نحن الآن بصدده وغودفري مارتل، كما كان لديهما ابنة هي هيرمنغري[2]،

---

(١) من الممكن لا بل حتى من المحتمل، أن وليم كان قد رأى فولك، وبالفعل لم يكن فولك قد بلغ الأربعين من عمره عندما أصبح ملكاً، وكان في الثالثة والخمسين من عمره عندما توفي، لكن لا بد وأنه بدا رجلاً مسناً جداً لغلام في العاشرة من عمره. وبقي هذا الانطباع مع وليم، الذي كان يفكر بفولك دائماً كرجل مسن.

(٢) كان لفولك الرابع، لي - ريخن، ثلاث زوجات. (أ. فيلخي: حكم فيليب الأول ملك فرنسا (١٠٦٠ - ١١٠٨ ص٢٣٣) أو أربع زوجات (ل. هالفن- كونت آلهو الحادي عشر ص١٦٩ - ١٧٠) قبل أن يتزوج =

وهي التي تزوجت من وليم كونت بواتو، حيث كان أول زوج لها، لكنه كرهها وهجرها، فهربت إلى كونت بريتاني الذي تعلقت به وأحبته حب الزوجة لزوجها وأنجبت منه كونان كونت بريتاني المعروف باسم السمين.

وكانت بيرترادا قد تخلت عن زوجها الشرعي فولك الأكبر بعدما أنجبت له هؤلاء الأولاد الثلاثة والتجأت إلى فيليب ملك فرنسا حيث تخلى عن زوجته الشرعية واتخذ بيرترادا شريكة لمضجعه ورفيقة شاطرته همومه، واستمر بالاحتفاظ بها خلافاً لقانون الكنيسة وعلى الرغم من جميع الجهود التي بذلها أساقفة المملكة ونبلاؤها ليدفعوه إلى التخلي عنها، وعاملها فيما بعد بحب الزوج[1] فأنجبت له ولدين هما فيليب وفلورس وابنة واحدة هي سيسيليا التي ورد ذكرها آنفاً، فقد تزوجت سيسيليا من تانكرد أمير أنطاكية فكان زوجها الأول، ثم تزوجت بعد وفاته من بونز كونت طرابلس.

تزوج الابن الأصغر لفولك والحامل للاسم نفسه، بعد وفاة والده من غيوبيرغ [ايرمبيرغ] وهي ابنة إليا [هيليا] كونت ميان[2] فأنجبت له ولدين وبنتين وكانت والدته وراء هذا الزواج، وكان فولك يخدم في شبابه كساق في بلاط سيده كونت بواتو عندما بلغه نبأ وفاة أخيه الأكبر[3]، فألقى الكونت القبض فوراً على الشاب وزجه في السجن، فقد كان

= بيرتراد، وكان قد طلق الأخيرتين وكانتا ما تزالان على قيد الحياة عندما تزوجها، وحدث هذا الزواج في عام /١٠٩٠/ على الأرجح، ولم يحدث بالتأكيد في وقت سابق لذلك التاريخ، أي /١٠٨٩/. ولذلك ليس من الممكن أن ابنها فولك ولد قبل عام ١٠٨٩ ولا بعد ١٠٩٢. وهربت إلى ـ أو ـ خطفها فيليب في أورلين في مساء /١٥/ أيار من عام /١٠٩٢/ (هالفن) الأمر الذي يمكن أن يشير إلى أن ابنها لم يولد بعد أكثر من عام ١٠٩١ ويفضل مللي تشارترو Millecharton، الذي جمع جميع المعلومات المتوفرة حول هذه المسألة (جوزيف تشارترو: آنجو ١١٠٩ - ١١٥١ ص٧٧). إما عام /١٠٩٠/ أو /١٠٩٢/ كتاريخ لمولده. ولذلك لم يكن عمر فولك أكثر من واحد وأربعين عاماً، وربما لم يكن يتجاوز سنه التاسعة والثلاثين عاماً عندما أصبح ملكاً للقدس، وكان الأطفال الآخرون الذين ذكرهم وليم حصيلة زواجات سابقة. ويوحي اسم الفتاة أنها كانت، مثل غودفري، ابنة للزوجة الثانية ارمنغريد دي بوربون.

(١) ظهرت قصص متنوعة لتوضح مسألة انفصال بيرترادا عن فولك الرابع. ويستنتج فيلخي بعدما تفحصها كلها أن سحرها الذي لا يقاوم هو الذي دفع فيليب ليخطفها ويطلق زوجته بيرثا، التي أصبحت ضعيفة وليتزوج من بيرترادا. وحدث الزواج بسرعة بعد الاختطاف في عام ١٠٩٢ وشكل انتهاكاً للسر المقدس للزواج فكان السبب الرئيسي لإعلان عقوبة الحرمان الكنسي ضد فيليب.

(٢) كان اسمها ارمبيرغ وليس غيوبري، وقد استلم فولك من خلالها ميراث هيلي دي لي فليخ كونت ميان (انظر: فليخ فيليب الأول ص ٢٣١).

(٣) طلب فولك الرابع أن يخلفه ابنه الآخر فولك الذي كان موجوداً عندئذ في البلاط في فرنسا مع والدته، وذلك عندما توفي ابنه الأكبر في عام ١١٠٦. وحدث أن وليم التاسع، دوق أكوتين، وقائد الحملة الصليبية لعام ١١٠١، كان موجوداً في البلاط في ذلك الزمن وعهد إليه بمهمة نقل فولك إلى والده، لكنه بدلاً عن ذلك، أبقى فولك لديه لمدة عام أو أكثر وذلك حتى وافق والده على التخلي عن منطقة متنازع عليها على الحدود.

هذفه أن ينتزع بالقوة من فولك بعض القلاع الواقعة في المقاطعة الخاضعة له والتي كان والد فولك وأخوه قد احتفظا بها بحق وراثي لفترة طويلة من الزمن على الرغم من أنها كانت له ككونت لبواتو.

وكانت والدته قد انفصلت قبل وقت طويل من هذا عن والده وفرّت إلى ملك فرنسا، فثارت مشاعر أمومتها عندما علمت بنبأ سجن ابنها، فذهبت إلى الملك وتوسلت إليه وتضرعت أن يأمر باطلاق سراح ولدها من السجن وأن يعيد إليه ميراثه الأبوي، وحصلت على مطلبها كما نجحت في إقناع الملك بأن يمنح فولك الابنة الوحيدة لكونت هيليا المذكور آنفاً لتكون زوجة له مع كامل ميراثها، وخلف الابن الأكبر غودفري والده كونتا وزوجه هنري الأكبر، الملك القوي، ابنته الوحيدة ماتيلدا أرملة هنري امبراطور الرومان[1].

أنجب غودفري ثلاثة أولاد من هذا الزواج وهم: هنري الذي يحكم الآن بقوة وبحكمة المملكة الإنكليزية وغودفري الملقب بـوليـم المعروف باسم السيف الطويل.

وحمل الابن الثاني لفولك اسم هيليا إكراماً لجده والد أمه، وقد زوجه روترو، كونت بيرشي ابنته الوحيدة، ووعد أنه لن يتزوج ثانية، وأنه سيحول عند وفاته وبأمانة تامة إلى هيليا جميع ميراثها، ومع ذلك، وبصرف النظر عن هذا الاتفاق وعن وعوده السخية، فقد تزوج أخت كونت باتريتيوس وهو نبيل انكليزي، وأنجب منها عدة أولاد، وهكذا، فقد هيليا ميراث زوجته خلافاً لتوقعاته.

تزوجت سبيليا، إحدى بنات فولك من ثيري النبيل المشهور كونت فلاندرز[2]، وأثمر هذا الزواج عن فيليب الذي يحتفظ حالياً بكونتية فلاندرز وكانت ماتيلدا الابنة الثانية قد

---

(١) كانت متيلدا ابنة هنري الأول ملك إنكلترا، الذي يدعوه وليم باسم «الأكبر» ليميزه عن حفيده هنري الثاني الذي حكم انكلترا في أيام وليم. وكانت قد أرسلت إلى ألمانيا قبل بلوغها سن العاشرة لتصبح زوجة هنري الخامس. وهناك صرف رفاقها الإنكليز، وربيت في آداب المعاشرة الصارمة للبلاط الامبراطوري. وحدث زواجها عندما كانت في الثانية عشر من عمرها، وأصبحت أرملة في الثالثة والعشرين وكانت محبوبة جداً في ألمانيا، وأراد والدها أن تصبح وريثة له في انكلترا. وكانت أساليبها غريبة بلا ريب هناك، وغالباً ما أشير إليها باسم الامبراطورة وحتى بعد زواجها من غودفري أوف آنجو الذي كان يصغرها بعشرة أعوام والذي لم يكن قد بلغ السابعة عشرة من عمره في زمن الزواج. وحتى ابنها هنري الثاني دعي باسم ابن الامبراطورة.

(٢) كانت سيبيليا قد تزوجت في الأصل من وليم كليتو الإبن الطبيعي لروبرت صاحب نورماندي، والأخ الأكبر لهنري الأول وقام الأخير بمبادرة إلغاء هذا الزواج على أساس القرابة، وغضب فولك جداً عندما وافق البابا على مطلب هنري، فأحرق المرسوم الباباوي، وتحدى البابا. إلا أن إعلان عقوبة الحرمان الكنسي عليه، وصدور تحريم ضد آنجو جعلاه يقبل الشروط في آخر الأمر في عام ١١٢٥. وقدر لسيبيليا أن تبرز في وسط قضايا الأرض المقدسة.

خطبت إلى هنري ابن ملك انكلترا . إلا أن سفينة خطيبها تحطمت قبل أن يتم زواجها وذلك أثناء إبحاره إلى انكلترا ومات غرقاً ، فكرست ماتيلدا حياتها لعزوبة دائمة وعاشت حياة مقدسة في دير فونتفرولت حتى وفاتها[1].

٢ ـ كيف زار فولك القدس حاجاً قبل أن يستدعيه الملك بلدوين وكيف اعتلى العرش .

ذهب فولك إلى القدس لإقامة الصلاة بعد وفاة زوجته وذلك قبل أن يستدعيه الملك ، وأوقف نفسه بنبل هناك على خدمة الرب ، وفاز بتأييد جميع الناس والملك أيضاً كما استحق ذلك تماماً ، وعاش على علاقات صداقة حميمة مع جميع النبلاء ، وأعال مائة فارس في المملكة[2] على نفقته الخاصة لمدة عام ، وعاد في النهاية بسلامة إلى بلاده حيث أهدّ زواج بنيه وبناته ورتب أمور منطقته في حالة رائعة ، وبعد بضع سنوات من عودته وبينما كان يدير أمور دولته بحكمة وفعالية وصلت إليه سفارة من عند ملك القدس.

كان بلدوين قلقاً في سبيل ترتيب زواج لابنته الكبرى بحيث يتمكن بذلك من تأمين مسألة خلافته من بعده، وبناء عليه، أرسل، بعد دراسة طويلة، وتلبية لنصيحة إجماعية للنبلاء ، وبموافقة عامة الناس أيضاً بعضاً من رجاله البارزين أي: وليم دي بري وغوي دي بريسبار ، ليوجها الدعوة إلى فلوك للزواج من ابنته وليصبح وريثاً للعرش.

وهكذا رتب الكونت أموره الخاصة ونظم شؤون الكونتية ، ثم بارك أبناءه وبدأ رحلته استجابة لدعوة الملك برفقة حاشية رائعة من نبلائه[3] ، وبعد بضعة أيام مضت على وصوله

---

(١) حمل ابن هنري الأول اسم وليم وقد غرق في المأساة الشهيرة للسفينة البيضاء في ٢٥ تشرين الثاني من عام ١١٢٠ ، وكان قد مات فيها عدد كبير من النبلاء الشبان، واعتقد بعضهم أن ماتيلدا ابنة فولك قد غرقت معه. وكان ديرفونتفرولت ملاذاً مشهوراً لكثير من النسوة النبيلات، ومن المعروف أن هنري الثاني تبرع بسخاء للمحافظة عليه.

(٢) تمت مباشرة هذه الرحلة الأولى حسب رواية التاريخ اللاهوتي لانكلترا ونورماندي بعد أن عقد فولك السلام مع هنري الأول ورتب زواج وليم وماتيلدا. ويعتقد بأنه غادر آنجو في ربيع عام ١١٢٠ وأنه عاد في خريف عام ١١٢١ ، وأثناء وجوده في الشرق انضم إلى الداوية، ورتب لدى عودته أن يعطيهم عائدات سنوية قدرها ثلاثون قطعة نقدية آنجوية (انظر Ordericus vitalis XII. 29) ويقول مللي تشارترو أنه غادر بعد فترة قصيرة /٢٥/ نيسان من عام ١١٢٠ ، وعاد قبل /٢٩/ كانون الثاني من عام ١١٢٢ . وأشار إلى تقديمه مبلغ الثلاثين قطعة إلى الداوية (تشارترو ـ آل آنجو: ١٤ ـ ١٥).

(٣) كان تاريخ الرحيل الأخير لفولك إلى الأرض المقدسة في حوالي تاريخ زواج ابنه غودفري من الامبراطورة ماتيلدا، وكان هذا الزواج ضرورياً بشكل متبادل للعلاقات السلمية لآنجو مع جارها المرعب هنري الأول ملك انكلترا ، وبقي فولك ليرى انعقاد ذلك الزواج، وغادر بعد فترة قصيرة من إجرائه، وكان مؤرخو أوروبا الغربية مثل ستوبس Stubbs ورامزي Ramsay وغ.ب.آدمز G.B.Adams وحتى لوخير Luchaire ميالين =

إلى المملكة زوجه الملك من ابنته الكبرى، وفقاً للاتفاقية المعدة، ومنحه مدينتي صور وعكا الساحلتين كمهر لها، واحتفظ فولك بهاتين المدينتين مدة ثلاثة أعوام تقريباً، وحافظ على لقبه ككونت كما كان من قبل، ثم توفي الملك في الحادي والعشرين من شهر آب من العام /١١٣١/ لتجسيد ربنا، وتم تتويج الكونت فولك وزوجته ميليساند بشكل مهيب في الرابع عشر من شهر ايلول وهو يوم تمجيد الصليب المقدس، وتم ترسيمهما حسب العرف في كنيسة قبر المسيح من قبل وليم بطريرك القدس صاحب الذكرى السعيدة.

٣ ـ جوسلين الأكبر، كونت الرها يواجه العدو ويجبره على الفرار على الرغم من أنه كان مريضاً ومستلقياً على حمالة. الحديث أيضاً عن ابن جوسلين.

في هذه الآونة كان جوسلين، كونت الرها، الذي أنهكه مرض مزمن مستلقياً على فراشه منتظراً يوم وفاته الذي بات وشيكاً، وكان قد انهار عليه برج مبني من الطوب المجفف وذلك في العام المنصرم عندما كان في المنطقة الواقعة بالقرب من مدينة حلب، حيث كان قد أمر بنسف هذا البرج لتسهيل الاستيلاء على الموقع مع من فيه من أفراد العدو الذين كانوا معتصمين في داخله، وبما أنه لم يظهر حذراً مناسباً، فقد تعرض لانهياره المفاجىء ودفن حياً تقريباً، فأنقذه شعبه بعد صعوبة كبيرة، وعثر عليه وهو يعاني من كسور متعددة، ومرض لفترة طويلة من الزمن نتيجة إصاباته؛ ومع ذلك، نجح في احتجاز روحه التي كانت تسعى للرحيل، وفي أحد الأيام وصل أحد الرسل بسرعة وأحضر معه نبأ كان مفاده أن سلطان قونيه[1] كان قد ضرب الحصار على كرزين وهي إحدى قلاع جوسلين، فعندما سمع الرجل المقدام ذو الجسد الضعيف والواهن والقلب القوي بهذا النبأ، أمر على الفور باستدعاء ولده وأمره أن يأخذ جميع القوات في البلاد وأن ينطلق ليواجه العدو بشجاعة بدلاً

= لتأريخ ذلك الزواج في عام ١١٢٩، بينما كان يفضل مؤرخو الحملات الصليبية بالإجمال عام ١١٢٨، وربما جاء هذا للسماح بزواج فولك من ميليساند في القدس في عام ١١٢٩. إلا أن الآنسة نورغيت توصلت إلى الاستنتاج أن زواج ماتيلدا وغودفري حدث في عام ١١٢٨ (كيت نورغيت ـ انكلترا في ظل الأنجويين ص٢٥٨). ويؤيد مللي تشارترو، المدقق للسجلات المحلية، الآنسة نورغيت تماماً، مؤرخاً خطوبة الاثنين في روفن في الثاني والعشرين من شهر أيار من عام ١١٢٧، وترقية هنري الأول لغودفري إلى مرتبة فارس في /١٠/ حزيران من عام ١١٢٨، وبقي في الغرب لبضعة أشهر بعد الزواج، وهو منشغل في تسوية أموره، وانطلق إلى الشرق بعد زيارة أخيرة قام بها إلى ابنته في فونتفرولت في بداية عام ١١٢٩. (تشارترو ـ آل آنجو ص٢٢٦ ـ ٢٢٧) وينسجم هذا مع وصف وليم ويحدد بشكل قاطع تاريخ زواج ميليساند وفولك بأنه تم في عام ١١٢٩.

(١) أجبر قلج أرسلان على البحث عن عاصمة أخرى بعدما استولى الصليبيون على نيقيا في عام ١٠٩٧. ووقع الاختيار أخيراً على قونيه، وأشير إلى خلفائه عادة باسم سلاطنة قونيه أو الروم.

عن أبيه العاجز، إلا أن الابن بدأ يقدم المعاذير، وألح معرضاً لوالده على أنه قد أشيع عن السلطان المذكور آنفاً أنه يتقدم على رأس جيش ضخم بالمقارنة مع جنوده القليلين، ورفض الوالد بمرارة جبن ابنه متفهماً تماماً من إجابته أي نمط من الرجال سيكون في المستقبل، ثم أمر باستدعاء الجيش وأهالي المدينة كافة وعندما تم تنفيذ هذا، أمر بتجهيز حمالة له، ووضع نفسه عليها بصرف النظر عن آلامه وضعفه وتقدم ضد العدو وبعدما رافق الجيش على هذه الشاكلة وقطع بعض الطريق قدم إليه أحد نبلاء المنطقة العظماء وهو غودفري الملقب بالراهب وجاءه بمعلومات تفيد أن السلطان كان قد تخلى عن حصار كرزين عندما سمع بتقدمه، وانسحب بسرعة.

عندما علم الكونت بهذا، أمر أن توضع الحمالة التي كان يُحمل عليها على الأرض ثم رفع يديه إلى السماء وشكر الرب بدموع وتأوهات لأن الرب، برحمته الشفوقة، قد تفقده في أيامه الأخيرة بمعروف كهذا، وأن الرب ما يزال مخيفاً لأعداء العقيدة المسيحية على الرغم من أن الكونت كان نصف ميت وعلى حافة القبر، وسلم نفسه الأخير إلى السماء بينما كان يقدم شكره للرب بهذه الطريقة، وترك ابنه، الذي كان يحمل اسمه والذي كان أدنى من منزلة والده في الشهرة، وريثاً وحيداً لجميع ممتلكاته.

كانت والدة جوسلين الأصغر أختاً لليو الأرمني الذي كان رجلاً صاحب نفوذ كبير بين شعبه[1] ومع أن جوسلين كان صغير القامة، فقد كان قوي البنية وعنيفاً جداً، وكان له شعر أسود على لون بشرته وكان وجهه عريضاً ومغطى بالندبات نتيجة إصابته بمرض الجدري، وكانت له عينان جاحظتان وأنف بارز، وعلى الرغم من أنه كان صاحب مزاج سخي ومتميزاً بالطاقات العسكرية، قد كان مبتلى بالعربدة والسكر، وكان موقفاً نفسه على الفسق وفحش الجسد إلى درجة رداءة السمعة وتلوثها، فقد تزوج من بيتراسي أرملة وليم دي سوان وهي امرأة من منزلة عالية وذات شخصية نبيلة أيضاً، وأنجب منها ولداً يدعى جوسلين الثالث وابنة تسمى أغنس وهي التي أصبحت زوجة لرينو صاحب مرعش في أول الأمر، ثم زوجة لأموري كونت يافا، الذي أصبح فيما بعد ملكاً للقدس. وأثمر هذا الزواج الأخير بلدوين الملك السادس للقدس وأخته سبيلا، إلا أن جوسلين[2] هذا فقد المنطقة بأسرها، التي كان والده قد حكمها بمهارة زائدة، وذلك بسبب افتقاره إلى الفعالية، وعقاباً على آثامه كما سيتم شرح ذلك في وقت لاحق.

---

(١) كان ليو هذا أخو قسطنطين، الذي تزوجت ابنته أردا من بلدوين. وخلف أخاه كحاكم للأرمن في عام ١١٢٣ وحكم حتى عام ١١٣٥.

(٢) جوسلين الثاني (انظر كتاب ١٦ فصل ٥ و١٦ وكتاب ١٧ فصل ١١).

٤ ـ أهالي أنطاكية يناشدون الملك ووضوح خبث الأميرة.

كانت مدينة أنطاكية ومنطقتها جميعاً محرومة من الإعالة الملكية خلال السنة الأولى من حكم فولك لأن بوهيموند الأصغر كان قد توفي قبل وفاة الملك بلدوين تاركاً ابنة وحيدة وريثة له، والتجأ أعيان المنطقة إلى الملك خشية أن يتعرض الإقليم لمكر العدو بسبب افتقاره إلى حام يحميه، وتوسلوا إليه أن يتولى القيام بالمسؤولية عن انطاكية وأن يهتم بكل شيء، وكانت أرملة الأمير الراحل، ابنة الملك بلدوين وأخت الملكة ميليساند، امرأة ماكرة وخبيثة جداً، وكانت تتآمر بمساعدة بعض الشركاء في مخططاتها للإساءة إلى الإمارة، وكانت خطتها أن تحرم الابنة التي كانت قد انجبتها من زوجها، من الميراث وتضمن بالتالي لنفسها المملكة بأسرها، وعقدت العزم على الزواج مجدداً وحسب مشيئتها الخاصة بعد الحصول على ملكيه الإمارة؛ غير أن الملك بلدوين الذي كان ما يزال حياً عندئذ، أحبط هذه الخطط بعد وفاة زوجها مباشرة، وأمر بطردها بقوة من انطاكية ونصحها أن تقنع بالجزء الذي كان زوجها قد منحها إياه كمهر لها أيام زواجها أي المدينتين الواقعتين على الساحل وهما اللاذقية وجبلة.

واعتقدت أليس بعد وفاة أبيها أن الوقت الموائم قد حان لتفيذ مشروعها الأصلي، وكانت قد ضمنت في تآمرها بعض النبلاء الأقوياء بهدايا ووعود سخية وهم: وليم دي سيمونا أخو غورنتون وبونز كونت طرابلس وجوسلين الأصفر كونت الرها [١]، وكان هذا هو الشيء ذاته الذي خشي منه نبلاء المنطقة، ولذلك كانوا يناضلون بكل قوتهم لمواجهة نواياها الشريرة. ولهذا السبب ناشدوا ـ كما ذكرنا آنفاً ـ الملك ليتمكنوا من الحصول على مساعدته وتوجيهه في هذه المسألة.

٥ ـ كونت طرابلس يحاول اعتراض الملك وهو يسرع الخطى إلى أنطاكية لكن بدون جدوى. أمور أنطاكية توضع بحالة جيدة.

استمع الملك بقلق كبير لرواية الوفد القادم من انطاكية بخصوص الاضطراب القائم هناك، وبدا الموقف خطيراً جداً بالنسبة له، وهكذا، استجاب على الفور للدعوة وتقدم في طريقه حتى مدينة بيروت، وعندما لم يسمح كونت طرابلس للملك بعبور منطقته أخذ الملك

---

(١) إن خدع ألس الحمقاء والمحبة للقوة غير كافية لتفسير تأييد بونز وجوسلين الثاني، وكان بلدوين الثاني كوصي على أنطاكية وسيداً شخصياً لجوسلين الأول قد أشار إلى إمكانية إقامة امبراطورية لاتينية تحت إشراف ملك القدس. وكان بونز قد قاوم ذلك، وقاوم الآن كل من بونز وجوسلين الثاني ذلك عندما قدمت الأحوال فرصة مشابهة لفولك.

معه أنسلم دي براي وكان واحداً من نبلائه المخلصين وذهب بحراً إلى ميناء القديس سمعان (السويدية) والتقى هناك بعدد من نبلاء انطاكية وببعض رجالها ذوي النفوذ الذين أدخلوه إلى المدينة ووضعوا المنطقة بأسرها تحت قيادته.

أسرع كونت طرابلس خلفه إلى انطاكية على أمل التمكن من معارضة كل ما فعله، فعلى الرغم من أن زوجته كانت أخت الملك كما ذكرت ذلك مراراً، فقد راجت أقاويل أفادت أن الأميرة رشت بونز لمساعدتها، وكان يمتلك في تلك المنطقة قلعتين هما الروج وأرمناز. واحتفظ بهاتين القلعتين بحق زوجته سيسيليا أرملة تانكرد ذي الذكرى الورعة، وكان قد أعطاها إياهما كمهر لها عندما كان على فراش موته، وكان بونز قد شحن الآن هاتين القلعتين بالأسلحة والجنود واستعملهما كقاعدتين ليضايق منهما الملك ورجاله، فأثار هذا سخطاً كبيراً بين أهالي انطاكية وحثوا الملك ليزحف ضد الكونت من أجل قمع عدوانه الوقح، ووافق الملك على مطلبهم حيث كان منتبهاً للإهانة التي سببها بونز له في رحلته عندما رفض السماح له بالمرور عبر منطقة طرابلس، وجمع الملك قوة كبيرة بقدر الإمكان، وتقدم نحو خصمه، والتقت القوات بالقرب من الروج وكان الجانبان معبأين بترتيب المعركة فنشبت معركة عنيفة [1] وظلت النتيجة مبهمة لفترة طويلة من الزمن، ومع ذلك، فاز الملك، وشرع الكونت ورجاله يلوذون بالفرار وأسر الكثير من جنود الكونت بعدما انهكهم القتال واقتيدوا بالسلاسل إلى انطاكية، إلا أن الملك والكونت تصالحا في آخر الأمر بواسطة الجهود الجادة التي بذلها المؤيدون المخلصون للسلام، وأعيد الفرسان المأسورون إلى الكونت، وبدت أمور منطقة انطاكية أنها صارت في حالة أفضل، ومع ذلك فقد خشي الرجال الأكثر تعقلاً في المنطقة من أن تهز فتنة داخلية البلاد بعد عودة الملك إلى بلاده حيث ستقدم للكفرة فرصة أفضل لمهاجمتها، ولذلك فقد توسلوا إليه بجدية أن يبقى بينهم لفترة أطول من الزمن، فوافق الملك بلطف على هذا المطلب لأنه شعر أن مملكته كانت تتمتع بحالة من الأمن الكامل بسبب رحمة الرب، بينما كانت انطاكية، التي يقيم فيها الآن، بحاجة ماسة إلى حام لها.

وهكذا، نظم بإرداته الحكيمة وبنصيحة أعيان النبلاء وموافقتهم أمور المدينة والمناطق المجاورة، ومنح هذه المهمة كثيراً من الإهتمام بقدر ما خصص من وقت لأموره الخاصة أو ربما أكثر، وذلك ليجعل كل شيء في أفضل حالة ممكنة، وحقق له منحى العمل هذا

---

(١) تجب إعادة تأريخ هذه الأحداث إلى صيف عام ١١٣٢، يقدم وليم تواريخ قليلة جداً لأحداث الكتابين القادمين، حيث لم يكن لديه أية أدلة مكتوبة معاصرة. ومنعته اضطراباته الذاتية تجاه الأمور الحالية من متابعة تحقيق نظامي، ولذلك كان معتمداً إلى حد بعيد على الروايات الشفوية بالنسبة للأحداث التي وقعت في فترة حكم فولك.

العرفان بالجميل المتزايد دائماً من قبل جميع الأهلين، ومن قبل الفريق المخلص من النبلاء أيضاً، وبقي في انطاكية بالقدر الذي بدا فيه الوضع يستدعي وجوده ثم عاد بعد أن وضع جميع أمور تلك المنطقة بحالة آمنة، ورتب كل شيء بترتيب جيد، عاد إلى المملكة حيث استدعته مسؤولياته الخاصة، وتركت الإمارة لمسؤولية رجل كفء ذي مولد نبيل وهو رينوماسيور [١].

٦ - أهالي أنطاكية يستدعون الملك مجدداً. زنكي يحاصر قلعة في منطقة طرابلس الملك يفرج عن الموقع تنفيذاً للمطلب الجاد من أخته.

مرت فترة كان الملك فولك منشغلاً فيها بفعالية في أمور المملكة التي عهد الرب بها إليه، وكان مثله مثل برتا منشغلاً باستمرار، في إدارتها وتأمين احتياجاتها بعناية، ثم أتى رسول من أنطاكية بنبأ مفاده أن حشداً كبيراً من الأتراك القادمين من الخليج العربي وسائر أنحاء الشرق قد عبر نهر الفرات العظيم واجتاح منطقة انطاكية بأعداد ضخمة، وأثار هذا النبأ خوفاً شديداً لدى الملك تجاه مصير الإمارة التي كانت موضوعة تحت رعايته، وكان قلقاً على سلامة القاطنين هناك ولاسيما أنهم وضعوا كل آمالهم به، وقلق أيضاً لأنه تذكر القول العام: «عندما يحترق منزل جارك تتعرض أملاكك للخطر أيضاً» [٢]. وعرف أن سقوط جيرانه سيكون مشحوناً بالخطر عليه أيضاً ومن واقع ادراكه أن مدّ يد العون إلى إخوانه المحتاجين هو عمل نبيل ولهذا استدعى قوات المشاة والفرسان من سائر أنحاء المملكة، واستعد للزحف بسرعة إلى هناك، وعندما وصل إلى مدينة صيدا مع جيشه قابل أخته الكونتس سيسيليا زوجة بونزكونت طرابلس وقد جلبت النبأ المشؤوم وهو أن زنكي، أمير حلب والحاكم التركي القوي، كان يحاصر زوجها بقوة في إحدى قلاعه المعروفة باسم قلعة بارين، وكما تفعل النسوة توسلت سيسيليا إلى الملك بإلحاح وإصرار وتضرعت إليه أن يترك كل شيء ليس ذا أهمية ملحة في الوقت الحالي، وأن يبادر على الفور للتفريج عن الموقف البائس لزوجها، وحيث أثار التماسها الملك، فقد أرجأ بشكل مؤقت المسألة التي كان قد بدأ رحلته من أجلها، ووجه سيره إلى القلعة وذهب معه عدد من الفرسان من الكونتية ولم يكونوا قد رافقوا الكونت في حملته، وعندما علم زنكي أن الملك كان في طريقة لنجدة بونز تداول مع شعبة وتخلى عن الحصار طوعياً، ثم عاد مع فيالقه إلى موطنه [٣].

---

(١) بما أنه كان الآن كافلاً لامارة انطاكية اعتبر شخصية هامة في حلة ١١١٩.

(٢) هوراس - الأمثال: ١٨/٨٤.

(٣) شن زنكي هجومه الأول على بارين في عام ١١٣٣. ولا يذكر وليم حتى الفصل السابع عشر استيلاء الدمشقيين على بانياس الذي حدث قبل هذا.

٧ ـ الملك يخف إلى أنطاكية. إنزاله الهزيمة بالكفرة الذين كانوا قد احتشدوا هنالك. السكان يصبحون أثرياء بفضل الأسلاب المستولى عليها من العدو.

وهكذا، جرى تحرير الكونت، وعاد الملك الآن إلى غايته الأصلية بعدما تخلص من ذلك القلق، وتقدم يطوي المراحل بقوة إلى أنطاكية حسبما كان قد عقد العزم في البداية، وسمع الناس أنه كان على الطريق فخرجوا لمقابلته ورحبوا بضيفهم الملكي بالحد الأقصى من الابتهاج لأنهم أملوا أنهم سيتمكنون بوساطة جهوده النشطة من مقاومة عنف الأعداء بكل أمان وهو العنف الذي قيل عنه الآن إنه كان قريباً جداً منهم، ذلك أن نفع الجماعات يكون بالعادة قليلاً إذا لم يكن لها قائد يتولى أمورها، كما أن الكتائب بلا قائد لها كالرمل بلا كلس يصعب أن تتماسك اجزاؤه.

وكانت قد سرت أقاويل وروايات كثيرة أشارت كلها في هذه الأثناء وبشكل محدد إلى حقيقة أن الكفرة كانوا قد عبروا نهر الفرات بجيش قوي وجيد التجهيز، وأنهم قد وحدوا قواتهم مع قوات أخرى التقوا بها على هذا الجانب من النهر، كان رجالها مطلعين على المنطقة ويعرفونها بشكل جيد، وكانت هذه القوات تخيم الآن بالقرب من مدينة حلب حيث كانت تشن غارات مفاجئة فتخرب جميع المنطقة؛ وعلاوة على ذلك تم حشد الجنود من المنطقة المجاورة بأسرها في موقع يسمى قنسرين[1]، وتمشياً مع نصيحة الذين كانوا يعرفون المنطقة، اقترحوا شن غارات مفاجئة من هناك على المنطقة بكافة حشودهم.

وهكذا جند الملك كافة قوة الإمارة وغادر انطاكية مع الفرسان الذين كانوا قد أتوا معه وخيم بالقرب من قلعة حارم، وانتظر هناك ـ كرجل متعقل ـ بضعة أيام (لأن التهور يخرب كل شيء) على أمل أن يتحدّاه الكفرة الذين قيل إن قواتهم كانت تفوق قواته عدداً فربما خطر على بالهم أن ينشبوا القتال معه، أو يفصحوا بطريقة ما عن خطة عملهم المبيتة، لكنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا القبيل، بل بقوا حذرين في معسكرهم وربما كانوا ينتظرون قدوم تعزيزات كبيرة، وشنّ فولك هجوماً مفاجئاً عليهم، وباغتهم وانقض عليهم قبل أن يتمكنوا من الإمساك بأسلحتهم وفتك بهم بالسيف والرمح؛ فنجح القليل منهم في النجاة بفضل خيولهم وقُتل الباقون، وهلك نحو ثلاثة الآف من العدو في تلك المعركة وتخلى أفراد العدو عن المعسكر المملوء بجميع أنواع السلع والتجهيزات.

---

(١) هذه هي قنسرين (خالكس القديمة) ويرجع ستيفنسون تاريخ المعركة إلى شهر كانون الثاني من عام ١١٣٣/ (الصليبيون في الشرق ص١٣٢) في حين أن ابن القلانسي يؤرخها في سنة تالية (انظر تاريخ دمشق ـ الترجمة الانكليزية، ص٢٢٠ ـ ٢٢٣).

وعادت قواتنا المنتصرة بابتهاج إلى انطاكية، وكانت محملة بمغانم رائعة حتى التخمة لدرجة أنها اكتفت بهذه المغانم ولم ترغب بالمزيد وجلبت معها مجموعة متنوعة من الأسلاب مثل العبيد والخيول والمواشي والحيوانات والخيم، لقد كانت هذه المغانم في الواقع كنوزاً من كافة الأنواع.

استمتع الملك بدءاً من هذا الوقت مع أهالي انطاكية برعاية كاملة من النبلاء وعامة الناس على حد سواء إلا أن الأميرة أبدت كراهيتها له واستاءت من وجوده في انطاكية، كما أن بعض النبلاء، الذين أيـدوا قضية الأميرة بسبب الهبات السخية التي وزعتها عليهم، عارضوا الملك حتى هذا الوقت، ومهما يكن من أمر فإنه فاز الآن بحب الجميع دون استثناء

٨ ـ بطريرك القدس ونبلاء المملكة يبنون قلعة كانوا بأمس الحاجة إليها ويسمونها قلعة آرنولد.

وهكذا، احتجز الملك في منطقة أنطاكية حيث كان قد تولى مجدداً إدارتها وكأنها منطقة تابعة له، وذلك حتى يتم اختيار أمير لها، بموافقة عامة واجتمع في هذه الأثناء المسيحيون الذين تركوا في المملكة، وهم البطريرك وسكان القدس، في مكان بالقرب من نوبه القديمة والتي تعرف الآن عادة باسم بيت نوبة [1]، وهم يثقون بالرب، وبنوا هنالك قلعة ذات بناء متين على منحدر الهضبة عند مدخل السهل، وعلى الطريق المؤدي إلى اللد وذلك لضمان سلامة الحجاج المارين على طول ذلك الطريق، لأن الحجاج كانوا يتعرضون لخطر كبير في الممر الجبلي الضيق الواقع بين الشعاب المتعذر اجتنابها، واعتاد أهالي عسقلان أن يهجموا عليهم من هنا فجأة، وأطلق على البناء، عندما انجز بنجاح، اسم قلعة آرنولد، وهكذا، أصبح الطريق بنعمة الله، وبسبب هذه القلعة أيضاً، أكثر أماناً وقل تعرض رحلة الحجاج من وإلى القدس للخطر.

٩ ـ استدعاء ريموند بن كونت بواتو للزواج من كونستانس ابنة بوهيموند وذلك تلبية لنصيحة الملك.

أكسبت حقيقة أن الملك كان قد حقق انتصاراً رائعاً كهذا، وأنه كان يدير أمور أنطاكية بنجاح حسب مشيئته وما يريده شهرة بارزة، وبدا واضحاً أن العناية الإلهية كانت قد عينته لإدارة حكومة المملكتين ولضمان السلام والأمن للناس.

وتبعاً لذلك أتى للتشاور معه، نبلاء أنطاكية وخاصة الذين رغبوا منهم بحماسة

---

(١) كانت قلعة أرنولد تقع على بُعد نحو خمسة أميال شمال وغرب بيت نوبه على الطريق إلى يافا.

بالإلتزام بالولاء للنبيل الراحل بوهيموند وإلى ابنته كونستانس، التي كانت ما تزال قاصرة، وحيث كان يعرف معرفة واسعة النبلاء الشبان المشهورين في المناطق الواقعة وراء الجبال، فقد رجوه في سياق الحديث الودي الذي دار بينهم أن يقترح اسم الشخص الذي يمكن أن يكون مناسباً بالشكل الأمثل من بين العديد من الأمراء للزواج من ابنة سيدهم، وريثة ممتلكات والدها. واستمع الملك بلطف لمطلبهم، وأثنى على عنايتهم المخلصة، وبدأ درس المسألة معهم، وتقرر في النهاية بعد أن تمت مناقشة أسماء كثيرة، بموافقة عامة استدعاء ريموند ابن الكونت وليم أوف بواتو لهذا الفرض، وهو شاب نبيل وصاحب قدرات متميزة[1] وقد قيل إنه كان موجوداً في بلاط هنري الأكبر ملك الإنكليز، الذي كان قد تلقى منه أسحلة الفروسية، وكان في الوقت نفسه أخوه الأكبر وليم يحكم أكوتين بموجب الحق الوراثي، وقرر النبلاء والملك بعد تقليب الرأي في جميع أوجه المسألة أن المنحى الأعقل سيكون بإرسال سفارة سرية، وهكذا أرسل جيرالد المكنى جيبيروس، وكان من فرسان الإسبتارية في هذه المهمة مع رسائل من البطريرك وجميع النبلاء[2].

وكان يخشى أنه إذا ما تم استدعاء ريموند بالمراسم بوساطة المبعوثين ذوي المنزلة السامية، أن تخلق الأميرة عقبات للحيلولة دون قدومه، لا سيما وأنها امرأة مليئة بالخدع والمكر، وسيكون من السهل منع أي إنسان من القدوم، ذلك أن روجر الذي كان آنذاك دوق أبوليا والذي أصبح بعد ملكاً، رغب في أن يخلف قريبه بوهيموند وكان يطالب بأنطاكية مع كافة ممتلكاتها على أساس أنها تعود إليه بموجب الحق الوراثي، وكان كل من روبرت غويسكارد والد بوهيموند الأكبر؛ وروجر كونت صقلية المكنى بورسا والد الملك روجر هذا، أخوين شقيقين لنفس الأب والأم. هذا وكان بوهيموند الأصغر بن بوهيموند الأكبر، والد الفتاة التي سيتم استدعاء ريموند الشاب للزواج منها[3]. ولذلك، لزم استخدام الحذر في تقديم الدعوة لأنه لو علم منافسوه بالأمر لجرى استخدام العنف أو المكيدة للحيلولة دون قدومه، وبعدما جرى ترتيب المسألة على هذا النحو عاد الملك إلى القدس مصحوباً بأماني الجميع الطيبة.

---

(١) كان ريموند بن وليم التاسع دوق أكوتين، هو الذي قاد حملة عام ١١٠١، وهو الذي احتفظ بفولك أسيراً في عام ١١٠٦. ومن الواضح أن الأسر لم يكن متعباً.

(٢) هذا مثال مبكر على استخدام عناصر من المنظمات العسكرية في بعثات دبلوماسية. الأمر الذي أصبح شائعاً تماماً ويمارس دوماً.

(٣) شعر نورمانديو صقلية بشكل طبيعي بحق مستمر بحكم إمارة انطاكية التي كان يحكمها بوهيموند، وعلى الرغم من جميع الاحتياطات، ليس هنالك سوى دليل بسيط حول وقوع أي تصادم حقيقي لدى ارتقاء ريموند أوف بواتو ربما بسبب حقيقة أن اللقب الذي نقل بوساطة ابنه بوهيموند الثاني كان فيه عزاء لنورماندي صقلية.

١٠ ـ موت برنارد بطريرك أنطاكية. رالف رئيس أساقفة المصيصة يتولى خلافته وسط اضطراب كبير.

توفي في هذه الآونة برنارد البطريرك اللاتيني الأول لأنطاكية وكان رجلاً مسناً وصاحب ذكرى نفيسة، وكان رجلاً مخلصاً يخاف الرب وكان هذا في العام السادس والثلاثين لحبريته[1]، واجتمع حسب العادة بعد وفاة جميع معاوني الأساقفة لتلك الأبرشية الكبيرة بالإضافة إلى الأساقفة ورؤساء الأساقفة أيضاً وذلك لتأمين من يقوم بأعباء الكنيسة بشكل موائم بعد افتقادها لراعيها، وبينما كانوا يدرسون هذه المسألة الهامة دراسة دقيقة ـ كما هو مألوف في حالات كهذه ـ اختير شخص يدعى «رالف» رئيس أساقفة المصيصة والذي جاء من قلعة دومفـرونت Domfront الواقعة على حدود أبرشيتي نورماندي وميان، وكان رجلاً عسكرياً وكريماً ورائعاً ومحبوباً جداً من قبل الناس ذوي مرتبة الفروسية، ويقال إنه اختير باقتراع الناس فقط دون معرفة إخوانه وزملائه الأساقفة، وتوّج في كاتدرائية أمير الحواريين.

عندما انتشر خبر هذا الأمر، تفرق على الفور بإرادة الرب الذين كانوا قد اجتمعوا من أجل تعيين بطريرك رئيساً عليهم، وكانوا يخافون من هجوم تقوم به الجماهير المستعـرة والهائجة، إلا أنهم رفضوا أن يظهروا الطاعة لشخص لم يكونوا قد اختاروه، واستحوذ رالف على الكنيسة والقصر على الرغم من سلوكهم هذا، وارتدى على الفور طيلسان الحبرية من مذبح القديس بطرس دون مبالاة بالكنيسة في روما، واستقدم بمرور الزمن إلى مشاركته عددٍ من معاوني الأساقفة في الكنيسة، وأخبرنا الكثيرون أنه لو بقي على علاقات طيبة مع كهنة الكنيسة، ولو لم يتجرأ بروح الكبر لإفساد ممتلكاتهم لكان قد أمضى حياته بسلام هناك، وكما يقول المثل بالفعل: «من الصعب على الأشياء التي بدأت بداية سيئة أن تبلغ نهاية جيدة». وأصبح رالف، كعقاب على آثامه، رجلاً متغطرساً جداً بسبب ثرواته إلى درجة اعتبر فيها نفسه أسمى من جميع الآخرين، لا بل اعتبر ذاته ملكاً لإنطاكية بدلاً من كونه خليفة لبطرس أو اغناتيوس، ولقد أبعد عدداً من زعماء الكنيسة وطردهم بالقوة وكبل آخرين منهم وزجهم في السجن وكأنهم مجرمون ارتكبوا جرائم تستحق عقوبة الإعدام، وكان بين ضحاياه شخص يدعى أرنولف، وكان رجلاً متعلماً وصاحب نسب كريم، وأصلاً من أهالي كالبيرا، ومثله كان لامبرت رئيس شمامسة تلك الكنيسة ذاتها، وكان رجلاً يعيش ببساطة رائعة ويمارس حيـاة نبيلـة، زد على هـذا أنـه كـان رجلاً متعلماً أيضـاً، فلقـد ألقـاهما

---

(١) وقع موت برنارد وانتخاب رالف في عام ١١٣٦.

كالسفاحين في زنزانة إحدى القلاع، وأودعها في غرفة مليئة بالكلس، وتم تعذيبها لعدة أيام هناك تحت ذريعة تآمرهما لقتل رالف، فجلب على نفسه كراهية شاملة بهذه الأعمال، وأعمال وحشية قاسية مشابهة ارتكبها ضد أتباعه، وبما أنه تعرض في النهاية لوخزات الضمير والشعور بالذنب بشكل مستمر، فإنه لم يشعر بالأمان في أي مكان ولا حتى بين أتباعه وخدمه.

سنكتفي بما سقناه حتى الآن عن هذا الموضوع وسنتكلم عن نهايته في الفصول القادمة وفي الوقت والزمان الموائم[1].

١١ ـ موت البابا هـونوريوس. اختيار انوسنت خلفاً له. نشوب انشقاق خطير. موت وليم رئيس أساقفة صور وتعيين فولتشر خلفاً له. ذهابه إلى روما ليطالب بطيلسان الحبرية وتسلمه له.

بينما كانت هذه الأحداث تأخذ مجراها في الشرق دفع هونوريوس الدين المقضي عليه ووصل إلى نهاية أيامه، وجرى عقد اجتماع لاختيار خلف له، لكن رغبات الكرادلة اختلفت اختلافاً واسعاً، وحيث أنهم لم يتمكنوا من الإتفاق، فقد اختير مرشحان لهذا المنصب وهما غريغوري كاردينال شماس لسانت أنغلو وهو الذي دعي بعد ترسيمه باسم انوسنت، والآخر هو بطرس المكنى بـليو وهو كاردينال كاهن لدير القديسة ماري الواقع وراء التيبر وهو الذي دعي باسم فندنزأوليوم، وبات بعد ترسيمه يحمل اسم آناكليتوس من قبل الذين اختاروه، ونشأ انشقاق خطير جداً من جراء هذا التقسيم هدد كنائس المدينة وسبب موت الناس[2] في حرب أهلية، وهز بالفعل العالم بأسره بشكل عملي، كما تنازعت الممالك مع بعضها بسبب الحماسة الشديدة التي أثاروها، وانتصر انوسنت في النهاية بعد مصاعب كبيرة ومخاطر عظيمة وجاء ذلك بسبب وفاة البابا المنافس بطرس أولاً[3].

---

(١) الكتاب ١٥ الفصلان: ١٦ و ١٧.

(٢) حدث هذا الانتخاب المزدوج لمنصب البابا في عام ١١٣٠. واختير انوسنت الثاني من قبل عدد صغير من الكرادلة، بينما اختارت الأغلبية آناكليتوس الثاني، وكان الأخير من أفراد أسرة بيرليوني [ذات الأصل اليهودي] والواسعة الثراء في روما وقد تدرب في كلوني. وأيد برنارد أوف كلير فوكس وزعيم الـ Cistercians قضية انوسنت الثاني. ودفع في النهاية كل من لوثر صاحب ألمانيا ولويس السادس ملك فرنسا، وهنري الأول ملك انكلترا لتأييد قضية انوسنت الثاني، غير أن أناكليتوس استمر بالمطالبة بالمنصب واحتفظ بروما لمعظم الوقت حتى وفاته في عام ١١٣٨. ويقدم غريغورفيوس وصفاً مطولاً لهذا الانتخاب (انظر ف. غريغور فيوس- تاريخ مدينة روما في العصور الوسطى ج٤ ـ قسم ٢ فصل ٣ في ثناياه. وانظر أيضاً مادة أنوسنت الثاني في الموسوعة الكاثوليكية).

(٣) توفي أناكليتوس الثاني في عام ١١٣٨، ومع أن كرادلته اختاروا خلفاً له، فقد أقنعوا بإنهاء الشقاق والإعتراف ـ

وفي حوالي هذا الوقت نفسه توفي سلفنا وليم وعادت روحه إلى بارئها[1]، وكان رئيس الأساقفة اللاتيني الأول لمدينة صور بعد تحريرها (لأن أود، الذي كان قد رسم ليرأس هذه الكنيسة عندما كان العدو ما يزال يحتفظ بمدينة صور، قد توفي قبل تحريرها، كما تم ذكر ذلك) وخلفه فولتشر ذو الذكرى الطيبة، وهو من أكوتانيا من كونتية أنغوليم، وكان فولتشر رجلاً متديناً ويخاف الرب، وكان قليل العلم لكنه كان مخلصاً ومحباً للنظام، وكان يعمل قبل ذلك راعياً لدير رهبان سيللز، ورئيساً لإخوانه الكهنة النظاميين، وكان جيرارد أسقف أنغوليم ممثل المقر البابوي أيام نشوب النزاع المذكور آنفاً الذي اندلع بين البابا انوسنت وبطرس بن بطرس ليو، وقد أيد بطرس وسبب بالتالي إزعاجات كثيرة لمؤيدي الطرف الآخر، ولم يستطع فولتشر صاحب الحياة المبجلة، تحمل هذه المعاملة، فاستأذن إخوانه الرهبان بالإنصراف وذهب إلى القدس لإقامة الصلاة، وزاول الحياة النظامية بحضور مستمر في دير كنيسة قبر الرب، وقد استدعي في النهاية إلى كنيسة مدينة صور.

وترأس فولتشر تلك الكنيسة وأدارها بقوة وبرباطة جأش مدة إثني عشر عاماً، وكان الشاغل الرابع لهذا المنصب قبلنا، أي قبل وليم الصوري، الذي يترأس حالياً تلك الكنيسة ذاتها، ليس لأنه يستحقها بجدارة، بل بسبب إرادة الرب وطول معاناته، ورغب فولتشر بعد ما تلقى شرف الترسيم من يد وليم بطريرك القدس، أن يزور الكنيسة في روما لاستلام طيلسان الحبرية وذلك سيراً على سنن سلفه، إلا أن البطريرك وشركاءه منعوه من ذلك بالتآمر وبالعنف ولهذا وجد صعوبة كبيرة في النجاة من أيديهم للذهاب إلى الكنيسة في روما من أجل الغاية المذكورة آنفاً، ويظهر هذا بوضوح في فحوى الرسالة التالية التي كتبها البابا انوسنت:

«من الأسقف انوسنت، خادم عبيد الرب، إلى أخيه الموقر وليم بطريرك القدس التحيات والتبريكات الحبرية. أعلنت السلطة الإنجيلية أن رئاسة الكنيسة بأسرها ورئاسة المؤسسة اللاهوتية قد مُنحت إلى بطرس المبارك، أمير الحواريين، بامتياز سماوي».

«إننا لمندهشون أنه بعدما كافحت الكنيسة في روما باجتهاد لتحرير الكنيسة الشرقية، وبعد أن ألهبت قلوب رجال الدين والناس العاديين لخدمتها، وبعد أن بذلت دم

= بأنوسنت الثاني. وكان برنارد أوف كليرفوكس مسؤولاً إلى حد كبير عن هذا القرار. وحكم انوسنت الثاني حتى عام ١١٤٣.

(١) يمكن إعادة تاريخ وفاة وليم الأول رئيس أساقفة مدينة صور إلى عام ١١٣٤ أو أوائل ١١٣٥ على الأقل، وذلك بطرح الأعوام الاثني عشر لولاية فولتشر بدئاً من ١١٤٦ أو كانون الثاني، ١١٤٧، عندما أصبح الأخير بطريركاً للقدس.

الكثير من الأبناء، فإنكم لم تهتموا على الإطلاق بإعطاء إجابة موائمة لتلك الكنيسة الأم. حيث لم تنتبهوا بما فيه الكفاية إلى أنكم قد تجرأتم على تعكير صفو أخينا المبجل فولتشر رئيس أساقفة مدينة صور، عندما قدم ليستلم الطيلسان من الكنيسة في روما حسب عادة أسلافه، بل أظهرتم ـ إضافة لذلك ـ أنفسكم بشكل فظ وعنيد وقاس جداً نحوه لدى عودته من عندنا، وواصلتم هذه المعاملة لفترة طويلة إلى درجة أنكم رفضتم أن تعيدوا إليه المنزلة القديمة للكنيسة في صور، وأن تنصفوه حسب أمرنا الرسمي خلال ثلاثة أشهر من استلام رسالتنا وذلك بخصوص الخسائر التي تعرض لها في حيفا أو برو فيريون (الجية) وعلى أية حال، ليس عدلاً أن تسلبوه أو يسلبه خلفاؤكم من الشرف الذي يجب أن تظهره له الكنيسة في أنطاكية إذا كان في طاعتها، وعلاوة على ذلك، يقال إنكم تتصرفون بشكل استبدادي نحو التابعين لتلك الكنيسة، ولذلك، فإننا نأمر بسلطتنا الرسولية أن تحبوا رئيس الأساقفة المذكور وتبجلوه، وأن لا تتجرأوا على تعكير صفوه بأية حال، حتى تنال الغاية الطاهرة والغيرة والسلوى من الكنيسة الأم نفسها، التي ترغبون أن تساعدكم رعايتها في حاجاتكم الضرورية، وفي المقابل، لا تؤخروا إظهار العدل الكامل له في جميع القضايا المتعلقة بالمسألة التي كان قد اشتكى منكم بشأنها، وأن تنفذوا ما تؤمرون به خلال أربعين يوماً من استلام هذه الرسالة الحالية، وعلاوة على ذلك، لا تتجرأوا على فعل أي شيء يخالف قوانين الكهنة ضد التابعين له؛ وإلاّ فسيكون لديهم سبب للخوف من أن نحرره مع معاونيه من الإلتزام بطاعتكم ونبقيهم في ظل رعايتنا.

صدر في اللاتيران ـ ١٧ كانون الأول[1].

١٢ ـ الكنيسة في روما تأمر فولتشر أن يكون مطيعاً لبطريرك القدس وأن يحتفظ بالمنزلة ذاتها في تلك الكنيسة التي كان يحتفظ بها من قبل على أهالي أنطاكية.

تلقى فولتشر لدى عودته من الكنيسة في روما أمراً يطلب منه في الوقت الذي تدرس فيه مسألة خضوعه لأحد البطريركيين إلى الأبد عليه أن يكون مطيعاً لبطريرك القدس حسب التوجيهات المعطاة لسلفه، وأمر بأن يشغل المنزلة نفسها في كنيسة القدس التي كان أسلافه قد شغلوها في كنيسة انطاكية ما داموا خاضعين لها.

من المؤكد أن رئيس أساقفة مدينة صور كان قد احتل المقام الأول بين رؤساء الأساقفة الثلاثة عشر الذين كانوا خاضعين للمقر الرسولي في أنطاكية منذ أيام الحواريين،

---

(١) نسبت هذه الرسالة، المؤرخة هنا بشهر كانون الأول، إلى ١٧ كانون الثاني من عام ١١٣٩ (انظر روهرخت ـ سجلات حكام القدس رقم ١٨٧).

ولهذا دعي باسم «العرش الأول» في الشرق: ويمكن للمرء أن يقرأ ما يلي في قائمة الأساقفة المساعدين الذين كانوا تابعين لسلطة الكنيسة في أنطاكية:

الكرسي الأول ـ صور	ويتبع لها	ثلاثة عشرة أسقفية
الكرسي الثاني ـ طرسوس	ويتبع لها	خمس أسقفيات
الكرسي الثالث ـ الرها	ويتبع لها	عشر أسقفيات
الكرسي الرابع ـ أفاميا	ويتبع لها	سبع أسقفيات
الكرسي الخامس ـ منبج	ويتبع لها	ثماني أسقفيات
الكرسي السادس ـ بصرى	ويتبع لها	تسع عشرة أسقفية
الكرسي السابع ـ عين زربه	ويتبع لها	تسع أسقفيات
الكرسي الثامن ـ سلوقية	ويتبع لها	أربع وعشرون أسقفية
الكرسي التاسع ـ دمشق	ويتبع لها	عشر أسقفيات
الكرسي العاشر ـ آمد	ويتبع لها	سبع أسقفيات
الكرسي الحادي عشر ـ سروج	ويتبع لها	أربع أسقفيات
الكرسي الثاني عشر ـ أرزن	ويتبع لها	سبع أسقفيات
الكرسي الثالث عشر ـ حمص	ويتبع لها	أربع أسقفيات

ثمان مطرانيات مستقلة

إثني عشر أسقفية.

يتضح من مضمون رسالة البابا انوسنت المرسلة إلى وليم نفسه بطريرك القدس أن الكنيسة في مدينة صور احتفظت بالمكان الأول بين الأساقفة المساعدين للكنيسة في القدس، وأنها كانت مطيعة لها فقط تنفيذاً للأمر الباباوي، ونصها على النحو التالي:

«من الأسقف انوسنت، خادم عبيد الرب، إلى وليم بطريرك القدس تحيات وتبريكات رسوليه».

«عليك أن تظهر الكثير من اللطف نحو إخوانك، بقدر ما مجد الكرم الرباني السخي الكنيسة في القدس في عهدك، وأن تبجل بحب متبادل الذين يقدمون الطاعة لك. ولذلك، فإننا نأمرك أيها الأخ العزيز أن تحب وتجلّ بلطف أخوي أخانا المبجل فولتشر رئيس أساقفة مدينة صور المطيع لك تنفيذاً للأمر الصادر عن كنيسة روما المقدسة، وانظر إليه بحرص كامل حتى لا تسبب له أي عناء، وأن لا تعاني الكنيسة المشهورة والجليلة في مدينة صور من

(١) أسس مجمع خلقذون في عام ٤٥١ هذه التنظيمات الموروثة للكنيسة المسيحية في الشرق.

أي ضرر فيما يتعلق بحقوقها وإجلالها بذريعة هذا الخضوع لك وللكنيسة في القدس، الذي فرض بالفعل عليه بتأييد من المقر الرسولي، وليس من اللائق أن تقوم أنت أو خلفاؤك بإزالة الإجلال الذي كانت الكنيسة في أنطاكية ستظهره لها لو كانت خاضعة لها ومطيعة.

صدر في ألبانو ـ ١٧ تموز [١].

١٣ ـ البابا يأمر الأساقفة المساعدين لفولتشر بإطاعته. ويرسل رسائل عديدة من أجل هذه الغاية.

استرد فولتشر لدى عودته من روما ـ إنما بشيء من الصعوبة ـ أسقفياته المساعدة والتي كانت حتى ذلك الوقت واقعة تحت سلطة بطريرك القدس وهي: عكا وصيدا وبيروت، وكان بطريرك انطاكية يحتفظ بالقوة بالأسقفيات المساعدة الأخرى وهي أسقفيات جبيل وطرابلس وطرطوس، وقد احتفظ بهذه الأسقفيات تحت سلطة تلك الكنيسة ذاتها وكأنها تنتمي إليها بحق التملك، وسوغ ذلك بأنه لم يكن خاضعاً لرئيس الأساقفة، على الرغم من أنه لم ينكر أن هذه الأسقفيات كانت تابعة لسلطة رئيس الأساقفة هذا ولحسم هذا الأمر، ولإعادة هذه الأسقفيات إلى كنيستها الأم في مدينة صور، كتب البابا انوسنت إلى أساقفة الكنائس المذكورة آنفاً وإلى بطريرك أنطاكية أيضاً على النحو التالي:

«من أنوسنت رئيس الأساقفة وخادم عبيد الرب، إلى إخوانه المبجلين جيرارد أسقف طرابلس. ور. أسقف طرطوس وهـ. أسيف جبيل تحيات وتبريكات رسولية. يجب أن تعرفوا أيها الأخوة الأعزاء أن منزلة الكنيسة تصبح أكثر شهرة عندما تُحفظ المراتب التي أسست فيها سليمة وعندما يظهر التبجيل المقرر لجميع الأساقفة دون نزاع أو تناقض، ومن الموائم بالنسبة لكل واحد أخضع ذاته للكنيسة أن يراعي التبجيل والإحترام المناسبين والواجب تقديمها لأصحاب المناصب الأعلى منه إذا وجد شيء من هذا القبيل، لأنـه إذا احتُبس هذا التوقير بطريقة غير شرعية وعادلة فسيتلاشى على الفور مبدأ الوحدة الذي أخضع له النظام اللاهوتي كل شيء وبأدق تنظيم جميع الأشياء الموجودة داخل الكنيسة من أجل تعزيز بقائه، ولذلك، وخشية أن يتهدد شرف كنائسكم وسموها أو يصبح عقيماً بسبب النزاع أو التمرد غير الضروري، فإننا نأمركم ونوجه إليكم بهذا الكتاب الرسولي أن تظهروا الطاعة التي تدينون بها لأخينا المبجل فولتشر رئيس أساقفة مدينة صور كما تظهرونها لمطرانكم لأننا، استناداً إلى سلطتنا الرسولية، نعيدكم مع كنائسكم إلى كنيسة صور التي تعتبر أسقفية لكم، وبشكل مماثل، فإننا نحلكم من قسم الولاء الذي ربطكم ببطريرك أنطاكية، وإذا أهملتم

(١) تاريخ ١٧ ـ تموز ١١٣٨ (انظر سجلات روهرخت رقم ١٧٦).

إطاعة أوامرنا ولم تعودوا إلى طاعة أخينا المذكور آنفاً خلال ثلاثة أشهر من بعد استلام هذه الرسالة، فلسوف نصادق بسلطة الرب، على العقوبة التي سيعلنها رئيس الأساقفة ضدكم حسب القوانين الكنسية.

صدر في اللاتيران - ١٧ - كانون الثاني[1].

ولكي لا يعيقهم بطريرك أنطاكية، الذي كان قد احتفظ بهذه الأسقفيات لفترة طويلة من الزمن حيث كان بطريركاً قوياً جداً، من تنفيذ أوامر البابا فقد كتب البابا هذه الكلمات إلى ذلك البطريرك.

« من الأسقف انوسنت، خادم عبيد الرب، إلى أخيه المبجل رالف بطريرك انطاكية، تحيات وتبريكات رسوليه ».

« مكتوب في تشريعات القوانين الكنسية المقدسة أنه ينبغي على كل إنسان أن يقنع بأراضيه الخاصة، وألا يسعى لاستغلال حقوق الآخرين، وتأمرنا الشرائع السماوية والإنسانية على حد سواء بأن لا نفعل لجارنا الشيء الذي لا نرغب بأن نعترض له، وبما أن الأمر على هذه الكيفية، فإننا نأمركم أيها الأخ العزيز أن لا تعيق الأساقفة المساعدين من كنيسة صور عن إظهار الطاعة والتوقير اللائقين لمطرانهم، أخينا المبجل فولتشر رئيس الأساقفة، وعلاوة على ذلك، إن سحب طاعة الأساقفة المساعدين من مطارنتهم أمر يخالف الأسس المتعلقة بالقوانين الكنسية، ولذلك إننا نرغب أن تتم المحافظة على الحقوق بين المطارنة ومرؤوسيهم وعلى النظام القائم بدون مخالفة أومعارضة.

صدر باللاتيران - ١٧ - كانون الثاني[2].

لم يكتف الحبر الأعظم بالكتابة هكذا إلى هؤلاء المطارنة، بل كتب أيضاً وبشكل مماثل إلى الأساقفة الذين كانوا محتجزين من قبل بطريرك القدس والذين رفضوا بسبب خوفهم منه إطاعة الأمر الباباوي، وأمرهم أن يتخلوا عن جميع المعاذير وأن يظهروا على الفور الطاعة لأسقف صور، وكانت نصوص هذه الرسائل على النحو التالي:

« من الأسقف انوسنت، خادم عبيد الرب، إلى إخوته المبجلين بلدوين أسقف بيروت وبرنارد أسقف صيدا، ويوحنا أسقف عكا. تحيات وتبريكات رسوليه.

«لقد رغب أباء الكنيسة المقدسون أن تشتمل الكنيسة على مراتب ودرجات مختلفة،

---

(١) تاريخ ١٧ - كانون ثاني ١١٣٩ (انظر سجلات روهرخت رقم ١٨٤).

(٢) تاريخ ١٧ - كانون ثاني ١١٣٩ (انظر سجلات روهرخت رقم ١٨٥).

وفي أن يظهر التابعون الخضوع والتوقير لرؤسائهم بحيث يمكن للوحدة أن تنشأ من هذا الإختلاف نفسه ومن أجل إمكانية مواصلة إدارة كل منصب من المناصب إلى الفائدة المثلى، إننا غاضبون ومندهشون جداً من علمنا أنكم على الرغم من أننا أمرناكم منذ زمن طويل برسائل رسولية أن تظهروا الطاعة والتوقير لأخينا المبجل فولتشر رئيس أساقفة مدينة صور ولكنكم قد تعاليتم عن تنفيذ هذا، وقدمتم معاذير وتفسيرات غير مرضية، ويقيناً «إن التمرد كخطية العرافة والعناد كالوثن»[1].

«ولذلك، إننا نأمركم ونوجهكم من جديد بمقتضى سلطتنا الرسولية أن تتخلوا من الآن فصاعداً عن جميع المعاذير وأن تطيعوا أخانا فولتشر في جميع النواحي، ونحظر عليكم أن تمتنعوا عن إظهار كل الخضوع والتوقير اللذين تدينان بهما إليه كمطران عليكم، وذلك بذريعة الطاعة التي تقدمونها إلى رئيس آخر للأساقفة، وعلاوة على ذلك، إذا بقيتم على عنادكم فلسوف نصادق بسلطة الربِ على العقوبة التي أعلنها رئيس الأساقفة هذا نفسه، أو التي سيعلنها ضدكم حسب القوانين الكنسية، وإذا ما أصدر أخونا ـ بطريرك القدس ـ أي حكم ضدكم لأنكم أطعتم هذا، فسنأمر بإلغاء تلك العقوبة ونعتبرها باطلة.

صدر باللاتيران ـ ١٧ ـ كانون الثاني[2].

١٤ ـ الظروف التي سببت قيام النزاع بين البطريركين ودفاع كل منهما.

إن حقيقة أن البابا لم يكتب إلاّ إلى ستة أساقفة مساعدين، بينما كان رئيس أساقفة صور يحتفظ بحق أربعة عشر أسقفاً مساعداً تحتاج لبعض التفسير: لم يكن في هذه الآونة هنالك أي أسقف في مدينة بانياس التي هي قيسارية فيليب، واحتفظت الكراسي الست التالية بالأسقفيات الأخرى التي كانت تابعة لسلطتها، فقد احتفظ كرسي صيدا بالصرفند كما يتحفظ بها حالياً، واحتفظت طرابلس بأسقفيات البترون وعرقه والعريمة واحتفظ كرسي مدينة أنطرطوس المعروفة أيضاً باسم طرطوس بأسقفتي أرواد ومرقية. واحتفظ بطريرك انطاكية تحت سلطته بثلاث أسقفيات من هذه الست وهي طرطوس وطرابلس وجبيل. عندما استولى المسيحيون على هذه المدن المذكورة منذ اللحظات التي عين البطريرك أساقفة فيها، وكان غرضه أنه عندما يجري تحرير مطرانية صور مع رئيس أساقفتها ويظهر له حسب الترتيب السابق، الطاعة المطلوبة كبطريرك، فلسوف يعيدهم بدون صعوبة إلى رئيس أساقفة صور، حسبما كان ملزماً بالفعل بعمل ذلك قانونياً إلا أن المدن المذكورة منذ لحظات كانت في

---

(١) صموئيل الأول: ١٥/٢٣.

(٢) تاريخ ١٧ كانون الثاني ١١٣٩ (انظر سجلات روهرخت رقم١٨٦).

كونتية طرابلس، وحيث لم يكن هنالك أي تدخل من قبل الملك كان بإمكان بطريرك أنطاكية أن يفعل هذا بحرية.

هذا ورسم بطريرك القدس أساقفة في الأسقفيات الثلاث الأخرى وهي: بيروت وصيدا وبطلمياس، التي هي عكا بهدف نقلهم هناك؛ لأنه افترض أنه يجب على رئاسة أساقفة صور، خلافاً للعرف السابق، أن تدين له بالولاء من ذلك الحين فصاعداً، واعتمد في هذه المسألة على رسالة البابا باسكال التي بدا فيها أنه فوّض إلى بلدوين، الملك الأول للقدس، وإلى غبلين البطريرك الثالث للقدس، إخضاع جميع أساقفة المدن التي كان السيد الملك وجيوشه قد اكتسبوها، أو التي قد يفوزون بها منذ ذلك الحين فصاعداً ووضعها تحت سيطرة بطريرك القدس، وقد سردنا هذا من قبل عندما كنا نعالج فترة حكم بلدوين الملك الأول للقدس[1].

وتبعاً لهذا، بما أن منطقة صور قد تحررت بأسرها قبل المطرانية نفسها، فقد قسّم البطريركان الأسقفية بينهما، فاحتفظت كنيسة أنطاكية، وما تزال تحتفظ بالجزء الذي كان يقع خارج مملكة القدس من الموقع المعروف باسم ممرّ الكفرة، بينما احتفظ بطريرك القدس بذلك الجزء الذي يقع على هذا الجانب وداخل حدود المملكة وتحررت في النهاية مطرانية صور بفضل نعمة الله؛ وكما قلنا، رسم بطريرك القدس في العام الرابع بعد تحريرها رئيساً للأساقفة هناك وأعاد إليه الأساقفة المساعدين الذين كان قد احتجزهم تحت سلطته.

أصبحت مدينة صور ضعيفة جداً خلال الفترة التي كان فيها بطريرك القدس مسؤولاً عنها وضعفت الكنائس الواقعة داخل محيط المدينة نفسها، ولم تحفظ إلا كنيسة واحدة لرئيس الأساقفة المقبل[2]، وأثبتت هذه النتيجة صحة المثل القائل: «بالنسبة للذين يطلبونها، حتى وإن كانوا لا يستحقونها، الكثير من أربطة الأحذية مصنوعة من جلود الآخرين» فإن السيدين المذكورين منذ لحظات، ما زالا يتنافسان حتى الوقت الحالي على مقوماتنا الأساسية نفسها، وهما قويان لإلحاق الأذى بنا، وقد حققا الثراء على حساب فقرنا. كما أن الكنيسة بأعضائها المشتتين وهي التي كانت بموافقة المجامع المسكونية السبعة المقدسة قد ازدهرت في كل مكان بفضل وحدتهم طولاً وعرضاً منذ أقدم العصور، حتى

---

(١) يمكن أن يلمح هذا الإسناد الترافقي لفترة حكم بلدوين الأول أن جميع مادة الأرشيف هذه المتعلقة بالمنظمة أدرجت في التاريخ في وقت واحد وربما في عام ١١٨٢.

(٢) كانت الكنائس في القسم المخصص للبنادقة خاضعة للبندقية ولذلك كانت معفية من سلطان رئيس أساقفة مدينة صور. ولا توجد أية إشارة واضحة كيف أصبحت الكنائس الباقية معفية.

امنذ أيام الرسل، تقع الآن مشوّهة ومحرومة من تلك العناصر الأقوى. وهي تنتظر المواساة ولا يوجد من يساعدها؛ وهي تمد يدها وليس هناك من يمد يد العون لها، لقد أصبحنا كأولئك الذين يقال عنهم: «مهما كانت الحماقة التي يرتكبها الملوك، فإن الأغريق يعانون»[١]. فهم متأصلون في أجسادنا، ويمكن أن تصل في بعض الأحيان إلى درجة الاشمئزاز الشديد.

ومع ذلك، فإننا نعزو بدون إنصاف سبب هذا الداء الكبير إلى كنيسة روما نفسها التي بينما تأمرنا أن نكون مطيعين لبطريرك القدس تعرضنا لأن نذل بدون حق من قبل بطريرك أنطاكية فلو أعيدت وحدتنا إلينا سنكون مستعدين بقلوب واعية للخضوع، كأبناء الطاعة، لأي من البطريركين دون مخالفة أو حرج.

ولا يعتبرَنَّ أحد أن الأمر غريب عن مهمتنا بأننا، نحن الذين باشرنا كتابة هذا الكتاب، قد أدخلنا هذه التفاصيل عن وضع كنيستنا، لأنه ليس من اللائق أن نتولى معالجة قضايا الآخرين ونهمل أمورنا، كما يقول المثل: «من ينكر ذاته لا يتكلم غير الهراء».

لكن دعونا الآن نعد إلى التاريخ[٢].

١٥ ـ توجيه التهمة إلى كونت يافا أمام الملك ونشوء اضطراب كبير في المملكة.

لدى عودة الملك من أنطاكية ـ كما ذكرنا من قبل ـ نشأ مجدداً اضطراب خطير جداً، حيث يقال إن عدداً من النبلاء الأعلى مقاماً في المملكة تآمروا ضد الملك لبعض الأسباب:وهم هيوكونت يافا، ورومين ذي بوي صاحب المنطقة فيما وراء الأردن. ومن الضروري أن نعود إلى الوراء قليلاً في القصة ليتم شرح هذا الأمر بشكل أوضح.

كان دي بوست من أبرشية أورلينز رجلاً يحتل منزلة رفيعة وصاحب نفوذ كبير بين شعبة قد قدم حاجاً إلى القدس في أيام بلدوين دي بورغ، الذي سبق الملك فولك في اعتلاء العرش، وبصحبته زوجته ماميليا ابنة هيوتشولت كونت روزي، وقد ولد لهما ولد أثناء رحلتهما في أبوليا، ذلك أن السيدة ماميليا كانت حاملاً عندما بدأت الرحلة، وبما أن الطفل كان رقيق الصحة، ولم يكن ممكناً أخذه مع والديه، فقد أرسله هيو إلى قريبه اللورد بوهيموند ثم عبر البحر وذهب إلى الملك بلدوين الذي كان أيضاً قريباً له حسب الجد[٣].

---

(١) هوراس ـ الأمثال: ١٤/٢/١.

(٢) ارتاب حتى وليم نفسه في المناسبة بإدراج هذه المادة في كتابه. ويبدو أنه يعتذر لإدراجها. وربما كان السبب الهام لإدراجها هو فقدان معلومات أخرى كافية حول فترة حكم فولك لملء البابين المخصصين لها.

(٣) يبدو وليم بأنه مخطىء في عزوه قدوم هيو الثاني والدهيو، إلى زمن بلدوين الثاني. وربما خلطه مع ابن عمه هيو =

ومنحه الملك فور وصوله إلى هناك مدينة يافا مع توابعها لتكون ملكاً له بحقوق وراثية له ولورثته، إلا أن النبيل هيو توفي بعد فترة قصيرة من وصوله.

وأعطى الملك عندئذ أرملة هيو والمدينة الآنفة الذكر إلى الكونت ألبرت وهو سيد نبيل من أسقفية لييج وهو أخو الكونت نمور وكان رجلاً صاحب نفوذ كبير في الإمبراطورية، هذا ولم يطل الوقت حتى توفي الكونت ألبرت وزوجته، وكان الطفل هيو ـ الذي كان قد ترك في أبوليا عندما كان رضيعاً ـ قد بلغ في هذه الأثناء سن الرجولة وسعى وحصل من الملك على ميراثه المستمد من أبويه والذي انتقل إليه بحق وراثي بعد وفاة أبويه. ثم تزوج من السيدة إيميلوتا ابنة أخ البطريرك أرنولف وأرملة النبيل الشهير يوستاس غرينر[١] وكان النبيل يوستاس قد أنجب منها غلامين توأمين وهما: يوستاس الأصغر صاحب مدينة صيدا وولتر الذي حكم قيسارية، ونشأت بعد وفاة الملك بلدوين وإرتقاء فولك إلى العرش عداوة خطيرة من أسباب مجهولة بين الملك والكونت هيو، وقد قال بعضهم إن الملك ارتاب ريبة عميقة بالكونت، الذي أشيع أنه كان على علاقات حميمة جداً مع الملكة، وبدا أنه كانت هنالك إثباتات كثيرة على هذا، ولهذا السبب، يقال إن الملك، الذي أثارته غيرة الزوج، قد حمل كراهية لا ترحم ضد الكونت هيو[٢].

كان الكونت هيو رجلاً شاباً طويل القامة وله ملامح أنيقة، واشتهر بشجاعته العسكرية وكان مرضياً في نظر الجميع. وبدا أن منح الطبيعة اجتمعت فيه بفيض ووفرة، ولم يكن له بدون شك نظير بخصوص الجمال الجسدي والنسب الكريم. والخبرة في فن الحرب في المملكة، فمن ناحية والده كانت قرابته حميمة بالملكة حيث كان والدا كل منهما ابن خالة الثاني، وأعلن بعض الذين رغبوا بالاستخفاف بشائعات كهذه، أن المصدر الوحيد لهذه

= الثالث، الذي أتى بالفعل إلى الأرض المقدسة في عام ١١٢٨. وأظهر لامونت أن هيو الثاني بدأ الحملة مع بوهيموند الأول في عام ١١٠٦، الأمر الذي يعتبر تفسيراً أكثر إقناعاً لبقاء زوجته في أبوليا ومولد هيو هناك في حوالي عام ١١٠٦ أو ١١٠٧ (لوردات لى يوزيت في الحروب الصليبية ـ سبكيلوم: ١٧ (١٩٤٢) ١٠٢ ـ ١٠٦).

(١) انظر كتاب ١١ حاشية ٦٣.

(٢) تمت مناقشة هذه الفترة بأكملها المتعلقة بهيو والممتعة جداً بسبب سرده التفصيلي لعملية القضاء الإقطاعي. (انظر روهرخت تاريخ ملوك القدس ١١٠٠ ـ ١٢٩١ ص ٢٠١ الحاشية ٢). ويشتمل بالفعل على إعادة سرد قيل وقال تافه في المحكمة نادراً ما يبالي ولم به. وربما شعر بأنه مضطر ليدرجه بسبب فقدان مادة أخرى عن حكم فولك. وأرخ روهرخت هذا الحدث بأنه وقع في عام ١١٣٢، غير أنه يجب أن يشار إلى تاريخ لاحق، لأن اسم هيو ظهر على هبة قدمتها ألس صاحبة انطاكية في أواخر عام ١١٣٤ (انظر ج.ل. لامونت الملكية الاقطاعية في المملكة اللاتينية في القدس ١١٠٠ ـ ١٢٩١. الحاشية ٣٦).

الكراهية كان التكبر المفرط لدى الكوئت وجرأته، حيث رفض أن يكون خاضعاً للملك مثل بقية نبلاء المملكة ورفض بعناد أن يطيع أوامره.

١٦ - ولتر صاحب قيسارية يتحدى الكونت هيو ويدعوه لمبارزة فردية. الكونت يلجأ إلى العدو. أتباعه يتخلون عنه.

نهض وولتر صاحب قيساريه ربيب هيو، وكان رجلاً في ريعان شبابه وصاحب مظهر وسيم واشتهر بقـوته، نهض في أحد الأيام في اجتماع للنبلاء عندما كان البلاط الملكي يعج بالناس، واتهم - يقال بتحريض من الملك نفسه - هيو علانية بالخيانة العظمى وذلـك في الحضرة الملكية، كما اتهمه أنه كان قد تآمر على بعض الشركاء من الزمرة نفسها على قتل الملك خلافاً للأخلاق الحميدة والقوانين السائدة في تلك الأزمان.

نفى الكونت الاتهام وأعلن أنه على الرغم من براءته على استعداد للخضوع لحكم المحكمة بخصوص الاتهامات. وتقرر بعد تبادل الكلمات هذه أن تقوم مبارزة فردية بينهما حسب عادة الفرنجة، وحُدد يوم مناسب للقتال[1]، ثم غادر الكونت البلاط وعاد إلى يافا إلا أنه لم يحضر في اليوم المحدد، ومن غير المؤكد ما إذا كان ضميره قد أنبه حيث كان شاعراً بإثمه، أو فيما إذا كان قد ارتاب بالمحكمة؛ إلا أنه جلب على نفسه بهذا العمل ريبة أكبر بخصوص الجريمة المعزوة إليه حتى بين مشايعيه، فأدانته المحكمة ومجلس النبلاء غيابياً وجرمته بالتهمة الموجهة إليه وذلك بسبب تمرده المتصلب ورفضه تلبية الدعوة.

عندما علم الكونت بهذه الإدانة، اتخذ مبادرة شاذة وسلك سلوكاً يستحق الكراهية والسخط التامين، فقد أبحر بسرعة إلى مدينة عسقلان، تلك المدينة المفعمة بالكراهية للإسم المسيحي والمحبة لأعدائنا، وطلب المساعدة من أهلها ضد الملك، ووافق سكان تلك المدينة على مطلبه بسرعة حيث أدركوا أن التمزقات الداخلية والنزاع الأهلي بين المسيحيين سيعزز مصلحتهم ويسبب خطراً كبيراً للمملكة، وتم التوصل بشأن هذا إلى معاهدة مرضية للطرفين، وبناء على ذلك أعطى هيو رهائن إلى أهالي المدينة وعاد إلى يافا.

ثم إن أهالي مدينة عسقلان الملهبين بكراهية متصلبة وحقودة ضدنا، والذين أصبحوا أكثر ثقة نتيجة المعاهدة التي عقدوها مع الكونت ونتيجة لتأييده لهم، اجتاحوا مناطقنا بشجاعة وجرأة نادرتين، فقد غزوا مناطقنا واجتاحوها دون مقاومة وصولاً إلى أرسوف المعروفة أيضاً باسم أنتباتر ونقلوا المغانم منها.

---

(١) هذه الإشارة إلى المحاكمة بالمبارزة «إحدى عادات الفرنج» «بدلاً من عادتنا» هي إشارة أخرى إلى أن نسب وليم قد لا يكون من أصل فرنسي.

وصل نبأ هذه الغزوات إلى الملك، فاستدعى على الفور قوات عسكرية من سائر أنحاء المملكة وحاصر مدينة يافا بحشد كبير من الناس، واتضح على الفور لأتباع الكونت المخلصين الذين كانوا معه في تلك المدينة نفسها وهم سينور وبالين ورجال آخرين يخافون الرب، أن هيو كان مصمماً على الاستمرار في الاندفاع نحو الخطر مباشرة وأنه يتعذر رده عن مشروعه المشؤوم بالتحذيرات المنطقية من قبل أصدقائه المخلصين، لا بل على العكس، كان مصمماً بعناد على مواصلة اتباع مسلك يؤدي إلى خطر أكبر، ولذلك تخلوا عن الإقطاعات التي كانوا قد حصلوا عليها منه وسلموا أنفسهم بحكمة إلى الملك.

١٧ ـ حصار مدينة يافا، وسعي نبلاء المملكة في سبيل السلام. العدو يستولي في هذه الأثناء على بانياس.

تولى في هذه الآونة البطريرك وليم الذي كان رجلاً لطيفاً جداً ومحباً للسلام، مهمة التوسط مع بعض أمراء المملكة، وحاول التوصل إلى تسوية بين الملك والكونت لتحقيق السلام، وبما أن هؤلاء الوسطاء كانوا مدركين لأقوال الإنجيل: «كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب، وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت»[1]. فقد رأوا أن هذه النزاعات الداخلية كانت تشكل خطراً جسيماً على المملكة وخافوا ـ وكان جديراً بهم أن يفعلوا ذلك ـ أن ينتهز أعداء العقيدة المسيحية هذه النزاعات كفرصة مناسبة لإلحاق الأذى بهم.

وبدا أخيراً أنه من الأفضل بالنسبة لمصلحي ذات البين، بعد نقاشات كثيرة كما هو مألوف في مسائل من هذا النوع، أن يتم نفي الكونت لمدة ثلاثة أعوام لتحقيق الانسجام ولمصلحة الشرف الكبير للملك، ويمكن أن يتسنى له وللذين كان قد قادهم معه، العودة إلى المملكة عند انقضاء تلك الفترة وبموافقة من الملك، وأن يتم هذا دون إلحاق التوبيخ به الذي سيلحقه بطريقة أخرى نتيجة لهذه الأعمال، وتوجب أن يتم في هذه الأثناء أداء جميع الديون والأموال التي كان قد استدانها من أي مكان من عائدات ممتلكاته.

وهكذا، كان الملك منشغلاً في هذا الوقت في المنطقة المجاورة ليافا، ووجد هناك أيضاً اللورد رينير المكنى بروس مع نبلاء آخرين من نبلاء المملكة. وكان ملك دمشق تاج الملوك بوري يحاصر هذه الآنثاء مدينة بانياس[2]، وكان الملك يحاول بكل طاقته أن يؤمن

---

(١) متى: ١٢/٢٥.

(٢) كان تاج الملوك قد توفي في السادس من شهر حزيران في عام ١١٣٣. وكان ابنه شمس الملوك حاكماً الآن. وتم الإستيلاء على بانياس بواسطة الدمشقيين في ١١ كانون الأول من عام ١١٣٢. (انظر تاريخ دمشق ص٢٠٨ ـ ٢١٨) وهذه الرواية خارج مكانها هنا (انظر الحاشية ٣ ص ٦٥٩).

المساعدة لنجدة هذا الموقع ، إلا أن العدو تمكن من الاستيلاء على المدينة بالقوة وسيطر عليها قبل أن ينجح الملك في تحقيق ذلك ، وتم أسر السكان وألقي القبض على جميع جنود المرتزقة من الفرسان والمشاة على حد سواء ؛ كما أسرت أيضاً زوجة النبيل الشجاع رينير ونقلت مع الأسرى الآخرين.

١٨ ـ اصابة كونت يافا بجراح خطيرة في القدس. تجدد الاضطرابات. عبوره البحر بعد شفائه حسب الاتفاق.

كان كونت يافا ينتظر المرور خلال هذا الوقت، وكان مقيماً ينتظر في القدس حسبما اعتاد على فعل ذلك، وحدث أنه كان يلعب النرد في أحد الأيام على طاولة أمام دكان تاجر اسمه ألفونسو في الشارع المسمى بشارع الغريرس، وكان الكونت منشغلاً باللعبة، ولم يفكر في الخطر أبداً، وفجأة استل أحد الفرسان من بريتاني سيفه بطريقة عدائية وطعن الكونت عدة طعنات، وذلك أمام جميع الواقفين هناك، واهتزت المدينة بأسرها لخبر الاعتداء هذا، واحتشد على الفور حشد كبير من الناس ونشأ تذمر مشؤوم، واعتقد الجميع أن هذه الجريمة حدثت بمعرفة الملك، وأن الوغد ما كان ليجرؤ على محاولة ارتكاب عمل كهذا لو لم يكن واثقاً من تأييد الملك، وسادت بين الحشد شائعة عامة هي أن الكونت كان يعاني بظلم من تهمة كان بريئاً منها، وأن الملك قدم برهاناً واضحاً على الكراهية غير المعقولة وبشكل يفوق وقائع القضية التي كان قد حملها ضده، وهكذا، حقق الكونت المزيد من التأييد والود الشاملين، وساد الشعور أن الاتهامات التي وجهت إليه، بصرف النظر عن طبيعتها، قد نشأت بأكملها من الحقد.

شعر الملك بضرورة تبرئة نفسه عندما علم بهذا الرأي، وأمر بمحاكمة المجرم ليقدم دليلاً ملموساً على براءته، ولم تكن هنالك حاجة لوجود متهم أو شاهد لإثبات الجريمة حيث كان الجميع يعرفونها بشكل جيد، وبما أنه لم تكن هنالك حاجة للإجراءات القضائية القانونية، أمر الملك بإعلان عقوبة ضد هذا المجرم تناسب الجريمة التي ارتكبها، وهكذا، اجتمعت المحكمة وحكمت بموافقة شاملة أن تُبتر أعضاء القاتل، ونقل الحكم إلى الملك، فأمر بتنفيذه على الفور، إلا أنه أمر بعدم قطع لسانه خشية أن يقال إنه تم قطع لسان المجرم عمداً بحيث يتعذر عليه الاعتراف بحقيقة المسألة، أي أن الملك كان قد أرسله ليطعن الكونت. وحافظ فولك بحكمة على سمعته. بهذا العمل، وتم تهدئة السخط الشديد الذي كان قد ثار ضده، واستحال استخلاص أي اعتراف من المجرم بصورة سرية أو علنية قبل أو بعد تنفيذ العقوبة بخصوص أنه قد نفذ هذا العمل الوحشي بأمر من الملك أو بمعرفته، وعلى العكس، أعلن المجرم أنه اجترأ على ارتكاب الجريمة بدافع من ذاته وأملاً بكسب ود الملك.

مكث الكونت لفترة من الزمن في المملكة لمعالجة جراحة واسترداد صحته، ثم غادر المملكة عندما تماثل للشفاء تماماً وذهب إلى أبوليا، وكان قلبه مليئاً بالحزن بسبب الأضرار التي لحقت به مؤخراً، وبسبب القرار الذي اتخذته المحكمة بنفيه والذي دفعه إلى التجول كالمتسول في أماكن غريبة، منفياً ومبعداً عن ميراثه من أسلافه.

واستقبله روجر، الذي كان قد سيطر الآن على سائر تلك المنطقة، وشعر أن هذا الرجل النبيل والشجاع قد طُرد من المملكة بسبب غيرة منافسيه. وهكذا، أشفق عليه وأعطاه كونتية غارغان، فلاقى الكونت موتاً مبكراً هناك ولم يعد إلى المملكة أبداً، وكان رجلاً يستحق أن تحزن عليه الأجيال القادمة.

وتعرض لغضب الملكة ميليساند منذ ذلك الحين جميع الذين كانوا قد قدموا معلومات ضد الكونت وأثاروا بذلك سخط الملك واضطروا إلى اتخاذ اجراءات يقظة في سبيل ضمان سلامتهم حيث كان الحزن العميق على الكونت المنفي قد عصر قلبها، كما كان الاتهام الشائن قد لطخ سمعتها إلى حد ما، واضطهدت في المقام الأول وبكل وسيلة ممكنة روهارد الأكبر، الذي سمي فيما بعد باسم روهارد صاحب نابلس، الذي نشط بشكل خاص في إثارة غيرة الملك، وكان من الخطر على هؤلاء المخبرين المثول في حضرتها، ورأوا في الواقع أنه من الحكمة أن يبتعدوا حتى عن الاجتماعات العامة، ولم يجد حتى الملك مكاناً آمناً بين أقارب الملكة ومؤيديها وتم تهدئة حنقها في نهاية الأمر عن طريق توسط بعض الاصدقاء الحميمين، ونجح الملك في النهاية وبعد جهود مستمرة في الحصول على عفوها عن الأهداف الأخرى لنقمتها بحيث يمكن على الأقل استقدامهم مع عدد آخر للمثول في حضرتها، وافتتن الملك بزوجته جداً منذ ذلك الحين فصاعداً، لدرجة أنه أخذ سخطها الذي أثاره من قبل، كما لم يتخذ بعد ذلك أية إجراءات في قضايا تافهة دون معرفتها ومساعدتها [٢].

١٩ ـ عقد معاهدة مع الدمشقيين. إعادة الأسرى الذين أخذوا في بانياس

منح الملك في هذه الآونة سلاماً مؤقتاً إلى الدمشقيين تلبية لمطلبهم، وكان من بين الأشياء التي قدمها الدمشقيون للحصول على هذه الهدنة، استرداد المسيحيين وفقاً للاتفاق، جميع الأسرى المأخوذين من مدينة بانياس، وكان من بينهم زوجة الشجاع رينير دي بروس صاحب تلك المدينة، فأعيدت لزوجها المشهور بعد غياب دام عامين وأعادها بلطف إلى

---

(١) تذكرنا عبارة التعاطف هذه بالنسبة لنفي هيو بنفي أوفيد الذي كان وليم عارفاً به.

(٢) هنالك أدلة كافية لتثبت أن ميليساند كانت امرأة قوية الإرادة دون انتظار مثل هذا الحدث للتعبير. كما أن تصور وليم لفولك ملون في كل مكان بانطباع طفولته عن الملك كرجل مسن جداً.

منزلتها كزوجة له، لكنه اكتشف فيما بعد أن سلوكها لم يكن محتشماً أبداً عندما كانت مع العدو، كما لم تحافظ بشكل مرضي على قدسية فراش الزوجية كما ينبغي على العقيلة النبيلة أن تفعل ذلك، وبناء على ذلك طردها، ولم تنكر بدورها ذنبها، ودخلت ديراً للنساء الطاهرات في القدس ونذرت نفسها للعفة الدائمة وأصبحت راهبة، وتزوج الرجل البارز بعد وفاتها من أغنيس ابنة أخت وليم دي بري وأصبحت أغنيس عند وفاة رينير زوجة جيرارد صاحب صيدا وأنجبت منه رينو الذي يحكم حالياً مدينة الصيداويين هذه ذاتها.

كان الحشيشية قد سيطروا لفترة طويلة من الزمن على مدينة بانياس، التي قلنا إنه تم الاستيلاء عليها أثناء غياب حاكمها، إلا أن أحد حكامهم، ويدعى الأمير علي، كان قد تخلى عنها للمسيحيين قبل برهة وجيزة من الزمن الذي نتكلم عنه، مقابل تعويض موائم اتفق عليه بمعاهدة بين الطرفين، وهكذا، منحها الملك على الفور إلى لورد رينير هذا نفسه وملكه اياها بحقوق وراثية.

وسنقدم في وقت ومكان قادمين وصفاً للحشيشية وشرحاً للتقاليد التافهة التي كانوا يتبعونها والتي يكرهها الرب، ولنكتف في هذه الأثناء أن نعلم عنهم أنهم أناس مريبون جداً ولا يمكن الركون إليهم، وقد خاف المسيحيون بحق منهم كما خافت منهم شعوب من ديانات أخرى، وخافهم في المقام الأول الأمراء [٢].

٢٠ ـ وصول ريموند كونت بواتو إلى انطاكية بصورة سرية. زواجه من كونستانس ابنة بوهيموند على الرغم من معارضة والدتها التي كانت تسعى للحيلولة دون اتمام هذا الزواج. حصوله هكذا على المملكة.

كان أهالي انطاكية قد أرسلوا في هذه الأثناء، كما ذكرنا من قبل، مبعوثين إلى ريموند بن كونت بواتو وأجروا ـ حسب التعليمات الصادرة إليهم ـ تحقيقات دقيقة بخصوص المكان الذي يمكن أن يوجد فيه بالشكل الأيسر، وعلموا من روايات موثوقة أنه كان موجوداً في بلاط هنري الأكبر ملك انكلترا، الذي تسلم منه أسلحة الفروسية، وهكذا تابعوا سيرهم إلى انكلترا مباشرة ووجدوا الرجل الشاب وشرحوا له بسرية تامة سبب قدومهم، وتقبل ريموند بامتنان الفرصة المعروضة عليه تمشياً مع نصيحة الملك المحسن إليه، ثم بدأ

---

(١) كان هذا قد حدث في عام ١١٢٨. ويدعو ابن القلانسي قائد الحشيشية، الذي أعطى بانياس إلى بلدوين الثاني، باسم «إسماعيل، الفارسي» أو «الداعي» (تاريخ دمشق: ١٩١ ـ ١٩٤).

(٢) تتفق الروايات العربية على أن المسلمين كانوا يخافون من الحشيشية بقدر ما كان يخشاهم المسيحيون (انظر حتي ـ تاريخ العرب ص٤٤٦ ـ ٤٤٨).

رحلته باسم مستعار بعد أن أجرى جميع الترتيبات اللازمة للرحلة. حيث كان روجر دوق أبوليا على علم مسبق بخطط أهالي أنطاكية بخصوص استدعائهم لريموند وكان بالنتيجة قد اتخذ الترتيبات في جميع مدن أبوليا الساحلية للإيقاع به، وأمل أن يتمكن، بتقديم الرشوة إلى زعماء تلك المنطقة، أن يفوز بسهولة بميزات الميراث الذي كان ريموند يسعى للحصول عليه، وذلك إذا ما تمكن من منعه من المرور.

هذا وأخفى ريموند الهدف الحقيقي لرحلته وتخلى عن التيه والفخر بأكمله وواصل رحلته بين الناس كمسافر من عامة الناس يمشي تارة ويركب تارة أخرى على دابة تحميل عادية، ولم يقدم أدنى دليل على المنزلة الرفيعة أو الثراء، كما تفرق الذين كانوا يرافقونه إلى فئات وفعل الشيء نفسه التابعون من أسرته، حيث تقدمه بعضهم مسافة سير ثلاثة أو أربعة أيام وتبعه آخرون وكأنهم ليس لهم أية علاقة به.

وهكذا، فقد خدع الجميع بملابس الحج المتواضعة التي كان يرتديها سيما وأنه أدى بنفسه مراراً الواجبات التي يزاولها الخدم، ونجا من الأحابيل التي نصبها له عدوه الداهية والقوي. وأدخل وصوله الى انطاكية البهجة إلى قلوب أصدقائه وسبب فزعاً كبيراً لأتباع الأميرة الذين كانوا يحاولون منع ارتقائه العرش.

كانت الأميرة أليس أرملة النبيل بوهيموند وأخت الملكة ميليساند قد أتت إلى انطاكية مجدداً قبل زمن قصير من هذا الوقت وبعد رحيل المبعوثين الذين ذهبوا لدعوة النبيل ريموند، وعلى الرغم من حقيقة أن والدها كان قد أكرهها على ترك المدينة وأمرها أن تقنع بجبلة واللاذقية فقد تولت القيام بدور الملكة وأخضعت كل شيء لسيطرتها مجدداً، وكانت أختها قد توسطت مع الملك حتى لا يتدخل بأعمالها وحصلت على تأييد بعض النبلاء.

وأقنعها في هذه الأثناء رالف، بطريرك انطاكية الماكر، الذي كان متمكناً من الخداع، لتصدق أن ريموند، الذي قيل عنه الآن إنه كان قريباً، كان قد أرسل في طلبه ليصبح زوجها المقبل، وأمل الأسقف أن يضمن بهذه الطريقة تأييدها ونفوذها ضد رجال الدين الذين كانوا يضطهدونه، وقبل تفكير أليس الساذج ذلك الأمل الزائف بسهولة.

واتضح على الفور أنه لن يستطيع أن يأمل بتحقيق هدفه المنشود دون ودّ البطريرك ونفوذه. وهكذا، طلب عن طريق مترجمين أصدقاء لرالف وله نفسه عقد مقابلة مع البطريرك لعله يتمكن من الفوز بتأييده ودعمه، وطلب من ريموند أن يظهر الولاء للبطريرك بأداء يمين مقدس واتفق بالمقابل أنه سيتزوج من كونستانس دون ممانعة ويتسلم الإمارة بسلام تام، وإضافة إلى ذلك، اشترط أنه في حال قدوم أخيه هنري إلى انطاكية فسيسعى البطريرك

بإخلاص أن يضمن له أليس ـ والدة الأميرة الشابة وأرملة بوهيموند ـ زوجة له وذلك إضافة إلى مدينتيها الساحليتين والمناطق الملحقة بها.

حالما تم عقد هذا الإتفاق وصودق عليه باليمين سمح لريموند بالدخول إلى المدينة، وبينما كانت أليس ما تزال معتقدة أن جميع الترتيبات تُعدّ لزواجها، أخذ ريموند إلى كاتدرائية أمير الحواريين وتزوج هناك من السّيدة كونستانس، ولم تكن الأميرة الصغيرة قد بلغت بعد سن الزواج، لكن جميع النبلاء طالبوا بإنجاز الزواج وقدم البطريرك بنفسه العروس إلى زوجها [١].

غادرت أليس انطاكية على الفور عندما علمت بالطريقة التي خدعت بها، وعادت إلى مقاطعتها، وطاردت الأمير بعد ذلك بكراهية شديدة مستمرة، واتخذ البطريرك من ذلك اليوم موقفاً أكثر غطرسة أيضاً، وحيث كان معتقداً بشكل راسخ أنه وطد نفسه بثقة مع الأمير، فقد أظهر عجرفة نادرة وأصبح وقحاً بشكل مفرط في مطالبه من الأمير [٢]، إلا أنه وجد نفسه مخدوعاً تماماً من هذه الناحية، لأن الأمير أحسّ أن يمين الولاء الذي كان البطريرك قد انتزعه منه قد عكس خزياً عليه نفسه، وهكذا بدأ يضطهد الأسقف بقسوة ناسياً الفوائد التي كان قد تلقاها منه، وانضم إلى خصوم الأسقف على الرغم من القسم الذي كان قد أداه.

٢١ ـ الحديث عن ريموند: أخلاقه ومظهره، حسبه ونسبه.

انحدر اللورد ريموند من سلالة نبيلة ومن نسب عريق، وكان طويلاً جداً وجميلاً في مظهره الجسدي، وكان شاباً وكانت وجنتاه ما تزالان مغطاتين بالإشراق المنحدر من الشباب، وكان أنيقاً بشكل يفوق جميع ملوك وأمراء العالم وكان دمثاً وعذب الحديث [٣]، وبالفعل، كانت مشيته بأسرها وبجميع الجوانب مشية أمير رائع وفاتن، وحيث كان متمرساً في المسائل العسكرية وخبيراً في استخدام السلاح فقد تغلب بسهولة على جميع أسلافه

(١) اعتبر روهرخت تاريخ هذا الزواج في ١١٣٦، على الرغم من أن هنالك سبب ما للاعتقاد أنه حدث في عام ١١٣٧. وكان قسطنطين في تلك الحالتين أدنى بعشر سنوات من سن الرجولة في ذلك الوقت.

(٢) كانت هذه هي المرة الأولىٰ التي يتلقىٰ فيها أحد أمراء انطاكية تقليده لمنصب ولايته من بطريرك انطاكية، وبما أن ريموند قد أصبح مطلعاً على التقاليد المحلية، لا بل أكثر على الخصوم الكنسيين للبطريرك، فلربما استاء من الترتيب دونما تحريض إضافي من رالف، وكان التقليد السابق لأمير انطاكية من قبل البطريرك هو تقليد بوهيموند الأول من قبل ديمبرت بطريرك القدس في عام ١١٠٠ (انظر الكتاب ٩ الفصل ١٥).

(٣) كان ريموند في العشرين من عمره على الأقل بحلول هذا الوقت، وربما كان أكبر من ذلك بعدة سنوات، هذا وإن رواية روهرخت بأنه ولد في عام ١٠٩٩، خطأ بسبب اختلاط ريموند مع أخيه الأكبر وليم الذي ولد في ذلك الوقت (انظر أوبير ـ تاريخ عام لبواتو: ٢١/٨، ١٠٥ ـ ١٠٧).

بالإضافة إلى الذين خلفوه، وعلى الرغم من أنه كان قليل التعلم[1] إلا أنه كان راعياً للأدباء، وكان موقفاً نفسه على المسائل الدينية، واستمع بانتباه للطقوس الدينية التي كانت تقيمها الكنيسة، وخاصة في أيام الأعياد الدينية، وكان شديد الحرص بعد زواجه على التقيد بالعلاقة الزوجية والحفاظ عليها والوفاء لها. وكان معتدلاً في تناول الطعام والشراب أيضاً، وكان سخياً وجواداً بشكل مفرط، ولم يكن بخيلاً وكان مغرماً بشكل مفرط بألعاب النرد الرديئة وألعاب الحظ، ومن بين النقائص الشخصية التي كانت تعيبه أنه كان صاحب مزاج متهور، أي كان من عادته التصرف وفقاً لدافع الطيش وغالباً ما استسلم للغضب دون تحفظ أو مسوغ، ونادراً ما كان محظوظاً، ولم يبال أبداً بقسم الولاء الذي كان قد أداه للبطريرك ولم ينجز الوعود التي كان قد قطعها له.

٢٢ ـ الملك يبني قلعة لوقف اعتداء أهالي عسقلان الوقحة. منحها اسم غبلين أو بير السبع.

ازدادت غطرسة أهالى مدينة عسقلان الآن وشجاعتهم بسبب نجاحهم المستمر، وكانوا يجتاحون المنطقة بأسرها دون ضابط، وكانت مدينة عسقلان ذاتها خاضعة لحاكم مصري قوي جداً، وتوقع الحاكم بذعر أن الجيش المسيحي قد يغزو مصر ويعكر الأحوال السلمية التي قامت هناك إذا ما تم الإستيلاء على هذه المدينة، وهكذا، حاول ببذل مبالغ كبيرة من المال مع الجهد ليجعل منطقة عسقلان حاجزاً ـ كما كانت ـ بين مصر وبلادنا. وحيث خشي من انهيار قوة أهلها تحت تأثير المشاق ومخاطر الحرب المستمرة، فقد اهتم اهتماماً كبيراً في أن يرسل مساعدة لهم كل ثلاثة أشهر أناساً جدداً وفيالق جديدة بالإضافة إلى المؤن والمعدات والأسلحة، ورغب القادمون الجدد بشكل طبيعي أن يجربوا قوتهم ويقدموا براهين على شجاعتهم، ولذلك، فغالباً ما شنوا هجمات وحملات تجريبية خلافاً لإرادة المحاربين المحنكين ورغباتهم.

لاحظ المسيحيون أن الغزوات الوقحة للعدو لم تبد أي علامة على التوقف، فقد كانت تتجدد قواتهم باستمرار، كالتنين ذي الرؤوس المتعددة، وقد حققوا قوة متزايدة بوفاة مواطنيهم.. ولهذا السبب، عقد شعبنا العزم بعد دراسة طويلة على تشييد قلاع حولهم، واستخدم هذه القلاع كدفاعات ضد هذا التنين الذي كان يتعاظم دوماً كلما فقد رأساً من

---

(١) إن هذا التلميح إلى رعاية ريموند للآداب أمر محير، لأنه لا بد وأن كان لدى ولیم أمثلة محددة في ذهنه، كما أن نوع النتاجات الأدبية سواء أكانت باللغة العامية أو اللاتينية، التي تدفقت عن هذه الرعاية، غير معروفة، ومع ذلك لا بد وأنه كانت هنالك كتابات كهذه كان وليم مطلعاً عليها.

رؤوسه، والذي كان يولد من جديد كلما تمت إبادته ليسبب خطراً كبيراً ومفرطاً، وكان بإمكان القوات أن تجتمع بسهولة داخل هذه الحصون وأن تقمع بسهولة أكثر من موقعها القريب غزوات العدو. واستخدم هذه القلاع أيضاً كقواعد يمكن أن تشن منها هجمات متكررة على المدينة نفسها.

وهكذا اختاروا مكاناً موائماً جداً في ذلك الجزء من يهوذا الذي أصبح في التوزيع الأصلي من نصيب سبط شمعون، واستعدوا هناك لإعادة تشييد مدينة مخربة قديمة تسمى مدينة بير السبع. وكان المكان المختار يقع عند سفح الجبال القائمة تماماً عند بداية السهل الذي يمتد دون انقطاع من تلك الجبال إلى المدينة المذكورة آنفاً، وجرى استدعاء جميع السكان الموجودين في تلك الأحواز، كما أتى البطريرك وليم والنبلاء أيضاً. وهكذا، وبمساعدة الله، أنجزت المهمة المخططة بشكل جيد والمبدوءة في ظل بشائر طيبة، وبنى المسيحيون على بعد إثني عشر ميلاً من مدينة عسقلان قلعة محاطة بسور منيع مع أبراج ومتاريس وخندق، وكان هذا الموقع يشكل في أيام بني إسرائيل الحد الجنوبي لأرض الميعاد، تماماً كما كانت دان والتي تسمى حالياً باسم بانياس أو قيسارية فيليب تشكل الحد الشمالي لأرض الميعاد. ويقرأ المرء مراراً في العهد القديم: «من دان إلى بئر سبع»[1]. ويقال إن إبراهيم أسس بئراً هنا، كما فعل ذلك في أماكن كثيرة، وسماه باسم «الفيض» بسبب الكمية الضخمة من الماء التي كان يقدمها.

وتحدث يوسفيوس عنه أيضاً في التاريخ القديم على النحو التالي: «أعطاه أبو ملخ أرضاً وقطعاناً واتفقا أنهما سيقيمان مع بعضهما بعضاً بسلام ودون خداع، وعقدا معاهدة عند أحد الآبار والمعروف باسم بير سبع وهي المعاهدة التي يمكن تسميتها «بمعاهدة البئر» وهي تسمى بالفعل بهذا الإسم حتى الوقت الحالي من قبل أهالي المنطقة المجاورة للبئر، كما يسمى هذا الموقع باسم البئر السابع ويعرف باللغة العربية باسم بيت جبرين أي بيت جبريل[2].

وعندما اكتملت القلعة في جميع جوانبها منحت وبموافقة عامة إلى رهبان مقر الاسبتارية الموجودة في القدس، فحافظوا على وديعتهم بكل الإجتهاد المناسب وحتى الوقت الحالي، وقلّ عنف هجمات العدو في ذلك الموقع بدءاً من ذلك الحين[3].

---

(١) يوئيل: ١/٢٠.

(٢) يوسفيوس ـ القدم: ١٢/١.

(٣) أرخ ستيفنسون بناء هذه القلعة بعام ١١٣٦ (انظر ستيفنسون ـ الصليبيون ص١٣٦).

٢٣ - مقتل كونت طرابلس عند تلة الحجاج من خلال خيانة بعض شعبه. ابنه ريموند يخلفه ويثأر لموت أبيه.

واجتاح بعد مضي فترة وجيزة «بزواج» قائد الجيش الدمشقي منطقة طرابلس بعد زمن قصير من هذا، وتقدم إليه الكونت بونز بشجاعة مع كافة قواته، والتقى الجيشان قرب القلعة التي تعرف باسم تلة الحجاج ونشبت معركة عنيفة، فتشتت صفوف الكونت وأرغمت على الفرار وأسر الكونت نفسه[1] ومن خلال خيانة السوريين الذين كانوا يسكنون في المرتفعات اللبنانية جرى خداعه وقتله، وترك ابناً يسمى ريموند كوريث له، وقد خلفه في العناية بالكونتية، وكان جيرالد أسقف طرابلس قد وقع في هذه الآونة بالأسر أيضاً، وبقي في الأسر فترة من الزمن دون أن يُعْرَف، وبودل في النهاية بأسير كان يحتجزه المسيحيون، وأعيد إلى حريته السابقة، وسقط في هذه المعركة، بعض النبلاء من طرابلس غير أن الغالبية العظمى من القتلى كانوا من الطبقة الوسطى.

جمع ريموند بعد وفاة والده المتبقي من الفرسان وأضاف إليهم مجموعة قوية من الرجالة، ثم صعد بشجاعة عظيمة إلى جبال لبنان واعتقل هنالك قدر ما استطاع من السفاحين مع زوجاتهم وأطفالهم ونقلهم مقيدين بالسلاسل إلى طرابلس لأنه اعتبرهم مجرمين قتلوا والده ومسؤولين عن المذبحة الشاملة التي حلت بالمسيحيين. وهكذا ولكي يثأر لدم الذين قتلوا في المعركة، فقد أنزل بهم مختلف أنواع التعذيب بحضور الناس وأذاقهم الموت بأقسى أشكاله وبنسبة تعادل شناعة الجريمة التي ارتكبوها.

كانت هذه الأعمال الإثباتات الأولى للشجاعة التي قدمها الكونت الشاب والتي كسب بوساطتها حب جميع شعبه مع الرضى العام.

٢٤ - يوحنا امبراطور القسطنطينية يزحف ضد أنطاكية ويستولي على كليكية بأسرها.

بدأت تنتشر في هذه الآونة أقاويل كثيرة في جميع أرجاء المنطقة، فقد أشيع أن يوحنا امبراطور القسطنطينية وابن ألكسيوس كان على وشك الهبوط بسرعة إلى سوريا، وكان قد استدعى الناس من جميع أجزاء امبراطوريته ومن بين جميع القبائل والشعوب، وكان يتقدم الآن بعدد لا يحصى من الفرسان ومجموعات كبيرة من المركبات والعربات الرباعية العجلات، وما لبث أن ثبت أن هذه لم تكن مجرد إشاعة فارغة، فقد صمم الإمبراطور يوحنا على

---

(١) تاريخ وفاة بونز عند ابن القلانسي هو ٢٥ آذار - ١١٣٧. وقد خلف ريموند أباه (تاريخ دمشق، ص ٢٤١).

الذهاب إلى انطاكية حالما علم من مصادر موثوقة أن أهالي انطاكية كانوا قد استدعوا ريموند إلى هناك وأعطوه المدينة ومنحوه ابنة النبيل بوهيموند لتكون زوجة له، فقد غضب جداً لأنهم تجرأوا على تزويج ابنة سيدهم دون معرفته أو أمر منه ولأنهم تجرأوا على تسليم المدينة الحكم حاكم آخر دون مشاورته [1] وطالب بأنطاكية مع كافة الأقاليم التابعة لها كملك له، ورغب بإعادتهم إلى طاعته وسلطانه، وأكد أن الأمراء العظام، الرجال الشجعان وذوي الذكرى السرمدية الذين قدموا بأمر من الرب، في الحملة الأولى (لا يسمح لنا الوقت بذكر أسمائهم واحداً تلو الآخر) قد دخلوا في إتفاق محدد مع ألكسيوس والده وسلفه في الإمبراطورية وسط تبادل الكثير من المجاملات والهدايا [2] وقضت الشروط أن يسلم المسيحيون إلى الإمبراطورية، بدون نقاش جميع المدن أو القلاع التي قد يستولون عليها بأية وسيلة في تلك الحملة بأسرها، وقد تولوا حماية هذه المدن بإخلاص عندما تم الإستيلاء عليها، وبقدر ما سمحت لهم قوتهم حتى قدوم الإمبراطور مع جيشه، وأكد الإمبراطور يوحنا أن هذه الشروط أدرجت في الإتفاقية، وأن الأمراء كانوا قد صادقوا بقسم مقدس عليها.

مما لا شك فيه أن هؤلاء الأمراء كانوا قد توصلوا إلى اتفاق مع الإمبراطور وأنه قدم لهم بدورة تعهدات محددة، كان هو أول من انتهكها، وبما أنه لم يلتزم بشروط الإتفاقية فقد أكد الأمراء الموقعون على المعاهدة بإصرار أنهم لم يعودوا مقيدين بها، واعتبروا بطريقة مماثلة أن الذين كانوا قد توفوا قد تحللوا من إتفاقاتهم، وذلك بسبب أن ألكسيوس قد عاملهم بخداع كرجل متذبذب ومتردد وأول من خرق تعهداته ولذلك ادعوا بحق، وحسب قانون المعاهدات أنهم قد تحللوا من الميثاق «لأنه من الخطأ أن تبقى وفياً مع الذي يحاول التصرف خلافاً لفحوى المعاهدة».

وهكذا، أرسل الإمبراطور ضباطاً إلى سائر أنحاء امبراطوريته ومضت سنة كاملة في إجراء التحضيرات اللازمة للقيام بحملة تليق بالسمو الإمبراطوري ثم أبحر - تتبعه العربات والخيول وجيش لا يحصى وبمرافقة ثروات لا تقدر بوزنها وعددها ومقياسها - عبر البوسفور الذي يسمى باللغة العامية باسم ذراع القديس جورج وسلك الطريق المؤدية إلى انطاكية،

---

(١) كانت أليس، حسب رواية تشالدون قد قدمت عروض حلف زواجي بين قسطنطين ومانويل ابن الامبراطور (ف. تشالدون- آل كومنين: ٢/١٢٢).

(٢) يشير وليم عادة إلى الاتفاقات السابقة التي عقدها القادة الصليبيون مع ألكسيوس في عام ١٠٩٧، وبدأت الادعاءات من بعض الجوانب من هناك، إلا أنه كان لدى يوحنا أساساً محدداً لادعاءاته في الاتفاق الذي عقده بوهيموند الأول في عام ١١٠٨ (انظر ف. تشالدون. آل كوفين: ٢/١٢٢ - ١٢٦).

وبعدما اجتاز الأقاليم الواقعة دونها وصل إلى كليكية وتوقف لحصار طرسوس، وهي مدينة مشهورة من مدن كليكية الأولى واستولى عليها بقوة السلاح وطرد الرعايا المخلصين لحاكم أنطاكية حيث كانت المدينة موضوعة في ظل رعايته وعنايته، ووضع نبلاءه فيها، وجعل نفسه بطريقة مماثلة ودون تأجيل حاكماً لأذنه والمصيصة وعين زربة، وهي المدينة الأكثر ازدحاماً بالسكان في كليكية الثانية، واستولى أيضاً على المدن الأخرى في ذلك الإقليم إضافة إلى جميع المدن والقلاع المحصنة. وهكذا استولى ـ خلافاً لكل العدالة والحق ـ على سائر أقليم كليكية كما استولى على جزء من مملكته الخاصة وهو الإقليم الذي كان أمير انطاكية قد احتفظ به بحق لا ينازع عليه مدة أربعين عاماً، لأن بلدوين أخا الدوق كان قد أعاد طرسوس إلى الحرية المسيحية حتى قبل وقوع انطاكية تحت سيطرتنا كما كان تانكرد الشهير قد حرر المصيصة مع باقي تلك المنطقة بأسرها.

وتابع الإمبراطور تقدمه من هنالك على رأس جيش ضخم، وضغط على انطاكية بجميع جيوشه، وبدأ فور وصوله إلى هناك عمليات الحصار ووضعت العربات والآلات الحربية في مواقع استراتيجية حول المدينة، وجرى بذل ضغط متزايد مستمر ضد الموقع.

٢٥ ـ زنكي يحاصر القلعة المسماة باسم بارين. الملك يحاول عبثاً رفع الحصار بمساعدة كونت طرابلس. المسيحيون يهزمون. وقوع الكونت بالأسر وانسحاب الملك إلى داخل القلعة.

هذا هو الوضع الذي كان سائداً آنذاك حوالي انطاكية، وكان زنكي الرجل الشرير جداً وأقسى مضطهدي المسيحيين، مدركاً تمام الإدراك في هذه الأثناء أن كونت طرابلس كان قد هلك مؤخراً مع حشد كبير، وأن المنطقة بأسرها كانت الآن خالية من القوات العسكرية، وبناء عليه ضرب حصاراً قوياً على بارين. وكانت هذه القلعة واقعة في منطقة طرابلس على المرتفعات القائمة فوق مدينة رفنية المذكورة منذ عهد قريب، وشدد الخناق على الموجودين داخل القلعة بهجمات عنيفة استمرت بمواظبة وبلا انقطاع.

نقل نبأ هذا الوضع إلى الكونت ريموند صاحب طرابلس ابن الكونت بونز الراحل وابن أخت الملك من ناحية والدته، فأرسل الكونت الشاب بالحال رسلاً سريعين إلى الملك، وناشد فولك بتوسلات جادة أن يحضر دون تأخير لمساعدتهم في الوضع البائس.

شعر الملك دائماً باهتمام أبوي إزاء جميع أمور المسيحيين، وجمع على الفور رجال المملكة الرئيسين وجند قوات من المشاة والفرسان على حد سواء وأجرى سوقاً حاداً بلا توقف فوصل بسرعة إلى أراضي طرابلس.

والتقى هناك برسل من أمير انطاكية حيث جلبوا إليه أنباء مشؤومة شفوية ومكتوبة كان مفادها أن الإمبراطور كان يحاصر أنطاكية[1]، وكانت للأسف أنباء صحيحة تماماً، وناشدوا الملك بإلحاح بالغ أن يحضر إلى هناك مع جميع قواته وبالسرعة الممكنة حتى يتمكن من مساعدة إخوانه في وضعهم الخطير.

عقد الملك، بسبب هذا الطارىء المزدوج، مجلساً لمناقشة السلوك الذي سيتم اختياره، وكان الرأي المشترك هو وجوب تقديم المساعدة في البداية إلى المسيحيين المحاصرين في القلعة المجاورة (مهمة بدت بأنها سهلة) ثم يتوجب على الجميع أن يزحفوا لنجدة أهالي انطاكية، وهكذا، وحد الملك والكونت قواتهما وحاولا الزحف ضد العدو، إلا أن التأييد الإلهي لم يلازمهما. فقد كان زنكي قد تلقى معلومات تفيد أنهما كانا يتقدمان فتخلى عن الحصار عندما اقتربا من هدفهما وقاد جنوده بتشكيل المعركة نحوهما.

تقدم المسيحيون تقدماً رشيقاً نحو المدينة وكانت قواتهم معبأة بترتيب القتال حسب أسس العلم العسكري، وكان هدفهم نقل المساعدة إلى المحاصرين وتزويد المدينة التي كانت الآن خالية من الطعام تماماً، بالمؤن الضرورية التي كانوا يحملونها معهم، إلا أن المرشدين الذين كانوا يقودون جيشنا، تركوا الطريق المستوي والأكثر سهولة الواقع على يسارهم، وسلكوا خطأً أو مكراً طريقاً جبلية صعبة. وقادوا المسيحيين خلال منطقة ضيقة ومهجورة لم يكن فيها أي مكان موائم للقتال وكانت المقاومة تتعذر هناك وانعدمت أيضاً الفرص المواتية للهجوم.

كان زنكي رجلاً بارعاً ومتمرساً في الحرب، وقد تفهم الموقف على الفور وأدرك أنه كان يحظى بالأفضلية، فاتقد حماسة واستدعى رجاله وتقدمهم ووقف في الصف الأول بين جيشه المؤلف من عدة الآف حيث ألهب شجاعتهم بأقواله وطالبهم بأن يحذوا حذوه، وانقض على قلب القوات المسيحية يحارب ببسالة وحث رجاله على إبادتنا، فتشتت صفوفنا الأولى واستدارت ولاذت بالفرار، ورأى قادة جيشنا أن الصفوف الأولى قد انهارت، وأدركوا أنه ليس هنالك أي أمل بالمقاومة وأنهم لن يتمكن أحد ـ لوجودهم في الشعاب الضيقة ـ من القدوم لمساعدتهم. ولذلك أشاروا على الملك أن يحتاط لسلامته بالإنسحاب إلى القلعة القريبة، وأدرك الملك فولك أن هذا السلوك هو الخطة المثلى بشكل مؤقت، لأن جميع المشاة كانوا قد قتلوا أو أسروا، وهكذا، انسحب مع عدد قليل من المرافقين إلى القلعة، ووقع كونت طرابلس في الأسر وكان رجلاً شاباً وصاحب مستقبل واعد يبشر بالنجاح المقبل، وأُسر معه بعض فرسانه.

---

(1) حوصرت أنطاكية من قبل يوحنا في ٢٩ ـ آب ١١٣٧.

دخلت المجموعة المشايعة للملك القلعة واحتاطت لسلامتها بقدر ما استطاعت، وفقدت جميع الأمتعة في ذلك اليوم وكانت كبيرة جداً اشتملت على الخيول وحيوانات النقل التي كانت تحمل المؤن المعدّة لتزويد القلعة مجدداً، ولم ينقل الهاربون أية مواد غذائية معهم إلى القلعة، فقد هربوا إليها فارغي الأيدي لا يحملون سوى الأسلحة التي كانوا مسلحين بها.

وكان غودفري شاربولو البارز أخو جوسلين الأكبر كونت الرها من بين الذين قتلوا في ذلك اليوم، وكان مشهوراً بمنزلته الرائعة وببراعته في الحرب، وأثار موته، كجندي شجاع، حزناً عميقاً، كما أن نهايته المحزنة أثرت على الجيش بأسره.

٢٦ - زنكي يحاصر القلعة مجدداً، ويطلب المحاصرون المساعدة من جيرانهم.

كان زنكي يعرف تمام المعرفة أن المسيحيين لم ينقلوا معهم أيةمواد غذائية إلى القلعة، فقد استحوذ على كل زادهم، وأدرك أيضاً أن جميع القوة العسكرية للمملكة كانت منهكة، وإضافة لذلك كان الكونت أسيراً لديه، وكان الملك محتجزاً مع أعظم نبلاء المملكة في قلعة نصف مخربة وخاوية من المؤن. ولذلك صمم على تجديد حصار بارين وأمل أنه سيتعذر الآن نقل أية مساعدة من أي مصدر إلى الحامية المحتجزة، وتيقّن أنه سيستولي على القلعة في غضون زمن قصير، وهكذا، استدعى جنده مجدداً فاستجابوا للدعوة وهم محملون بالمغانم المأخوذة من المسيحيين لدرجة أنهم احتقروا فيها الحصول على مزيد من المغانم بسبب المقدار الكبير الذي جمعوه منها، وهكذا، طوقت القوات مجدداً قلعة بارين واستمر الحصار بقوة ونشاط.

وكان من بين نبلاء المملكة الذين التجأوا مع الملك إلى القلعة كل من وليم دي باري كافل المملكة ورنير دي بروس وهو مقاتل متميز وغوي دي برايسبار وبلدوين صاحب الرملة وهمفري صاحب تيرون وكان رجلاً شاباً بدون خبرة في فنون القتال، وآخرون كثر، وتشاور الملك معهم بخصوص ما يتوجب عمله في مثل هذه الازمة الشديدة، فتقرر بالإجماع طلب المساعدة من أمير انطاكية ومن جوسلين الأصغر كونت الرها واستدعاء بطريرك القدس مع جميع سكان المملكة وانتظار وصول هذه النجدة في هذه الأثناء بالشكل الأمثل الذي يستطيعون فيه الإنتظار [1].

كان هذا هو الوضع الذي ساد في بارين. كما وقع في الأسر في هذه الآونة رينو

(١) يعود تاريخ استسلام بارين إلى الأسبوع الثالث من شهر آب، وقد وصل ريموند وجوسلين بعد مضي بضعة أيام.

الملقب بالأسقف، وكان جندياً شجاعاً ومشهوراً ببسالته العسكرية. وكان ابن أخ روجر أسقف اللد ورئيساً لرهبانية القديس جورج[1] وحدث أن سقط في أحد الكمائن ووقع فريسة للعدو عندما كان منشغلاً في مطاردة أهالي مدينة عسقلان بطريقته النشطة المألوفة التي كانت في غاية التهور في هذه المرة.

لم يتمهل الرسل في هذه الأثناء، بل انطلقوا في رحلتهم بالسرعة الكلية، وذهب أحدهم إلى انطاكية ووصف الشدائد الرهيبة التي يعيشها الملك ورفاقه وألح على الأمير أن يسرع لنجدتهم دون تأخير، وأثار آخر منهم كونت الرها بتوسلاته القوية ليتصرف إزاء هذه المشكلة، بينما أسرع رسول ثالث إلى القدس وحرض كافة الناس.

تردد أمير أنطاكية لفترة وجيزة وهو غير متأكد بخصوص ما سيفعله، فقد كان الإمبراطور متربصاً أمام أبواب مدينته، وكان يخشى على مصيرها إذا ما حاول أن يغادرها، هذا وبدا له من ناحية أخرى الأمر قاسياً ووحشياً إن لم يذهب لمساعدة الملك في موقف يائس كهذا، وانتصر في النهاية التعاطف مع محن واضطرابات الملك والشعب المسيحي. وأوكل رعاية مدينته إلى الرب وهو على ثقة تامة أنه من الأفضل أن يشارك إخوانه كافة المصائب بدلاً من أن يستمتع بنجاح وسلام كاملين وهم يتألمون بهذا الشكل، فاستدعى النبلاء والزعماء أمام عامة الناس، وشرح لهم آراءه ودعاهم للذهاب بأكملهم لمساعدة الملك، وتم إقناعهم بسهولة ووافقوا طوعاً على رغبته المرضية جداً للرب. وأعدت التحضيرات للرحيل بسرعة وغادروا المدينة التي كانت تحاصرها قوات الإمبراطور وانطلقوا بتصميم واحد لنجدة الملك.

كما استنفر كونت الرها الذي حركته عواطف متشابهة جميع قواته وزحف بسرعة مذهلة نحو الهدف ذاته، وجمع وليم بطريرك القدس كافة الجنود الباقين في المملكة وأسرع بتلهف إلى هناك حاملاً معه صليب الصلبوت المقدس وحاول جمع التعزيزات من كل مكان مرّ به في طريقه وناشد الناس أن يسرعوا لمساعدة الملك.

٢٧ - بزواج حاكم دمشق ينهب نابلس ويحرقها.

وبينما أمور الملك على هذه الشاكلة، وصلت أخبار هذا الوضع إلى بزواج حاكم دمشق ومقدم الجيش الذي ورد ذكره آنفاً، وعلم أنه تم تجريد المملكة من جيشها العادي وأن الملك

(١) لم يدم النظام الكهنوتي للقديس جورج إلا لفترة قصيرة من الزمن، ويعتقد أنه تأسس في الأصل من قبل فرسان وحجاج من انكلترا، وليس له علاقة، كما هو معروف حتى الآن، مع أية أنظمة كهنوتية أخرى للقديس جورج.

كان محاصراً في جزء بعيد من المملكة، وأن النبلاء وعامة الناس، القلقين على تحريره من الحصار، كانوا يندفعون أفواجاً إلى هناك بتصميم واحد، وكان مقتنعاً أن الفرصة المنشودة لإلحاق الأذى بالمسيحيين قد حلت الآن، ولذلك اجتاح المملكة بقوة ضخمة وهاجم فجأة مدينة نابلس غير المحصنة والتي لم يكن لها أسوار أو تحصينات خارجية ولا حتى خندق، وهكذا انقضى بدون إنذار بهجوم شرس على السكان الآمنين وكاللص في الظلام، ولم يستثن لا الجنس ولا السن، لكن ويا للأسف نجح الباقون على قيد الحياة والمدركون تماماً للخطر في بلوغ القلعة الواقعة في وسط المدينة مع زوجاتهم وأطفالهم في وقت متأخر جداً، وهكذا، نجوا بصعوبة كبيرة خلال غمرة الحريق والمذبحة. وتجوّل بزواج بحرية في كل مكان من المدينة وبدون قيود وأودع كل شيء لألسنة النيران، ثم رحل دون أن يتعرض لخسائر، ونقل معه الغنائم والعبيد وكل شيء ثمين في المدينة (١).

٢٨ - قوات النجدة تسرع لمساعدة الملك، إلا أن المحاصرين كانوا في هذه الأثناء يتعرضون لمزيد من المحن أشد وطأة مما سبق.

واصل زنكي في هذه الأثناء هجماته الفعالة على المحاصرين بحماسة متزايدة إلى درجة أن الأسوار نفسها تزعزعت تحت قوة الآلة الحربية الجبارة، وسقطت أحجار الطواحين والصخور الضخمة المقذوفة من الآلات الحربية في وسط القلعة، وحطمت المنازل الموجودة بداخلها وسببت خوفاً شديداً للاجئين الموجودين هناك، وجرى رميهم بقطع ضخمة من الصخور وبجميع أنواع المقذوفات بقوة كبيرة لدرجة أنه لم يبق أي مكان آمن داخل الأسوار يتمكن الضعفاء والجرحى من الإختباء فيه، لقد انتشر الخطر في كل مكان، وحام شبح الموت الرهيب أمام عيونهم في كل مكان، ولازمهم خوف الهلاك المفاجيء ونذير كارثة مشؤومة، وضاعف عدوهم المتوحش هجماته لتحقيق هذا الهدف بالذات، ورتب جنوده في فرق متتالية وجدد قواته باستخدام أبدال متعاقبة حيث جلب رجالاً مفعمين بالنشاط ليأخذوا مكان الكتيبة الأولى عندما يكون الجهد قد أنهكها ولذلك بدت المعركة مستمرة وغير متوقفة، وحالت أعداد جند المسيحيين القليلة دون الإستفادة من هذه التغييرات المجددة للقوى، غير أنهم تحملوا بجهد راسخ الهجمات الأولى والنهائية، لكن أصيب بعضهم بجراح خطيرة بينما استسلم آخرون لأمراض متعددة الأنواع، وهكذا تناقصت صفوفنا يوماً إثر يوم وكان العيب المشترك الذي اشترك به الجميع هو استحالة تحمل الإشتباكات

---

(١) تمت هذه الحملة في صيف عام ١١٣٧، بينما كان فولك منشغلاً ضد زنكي في بارين (انظر ستيفنسون- الصليبيون ص١٤٦ حاشية ٢).

المستمرة، وكانت لياليهم، التي أوقفوها على الحراسة ليال كلها أرق بينما زاد الصراع المستمر نهاراً من إنهاك قوتهم، ولم يمنحهم العدو أية استراحة ليعالجوا أجسادهم المرهقة.

وتتويجاً لهذه المحن جميعاً لم يكن اللاجئون قد جلبوا معهم أية مؤن، ولم يتبق أي طعام في القلعة من الحصار السابق، وكان العدو قد استولى على كل ما كانوا قد اعتزموا نقله إلى القلعة، ولذلك اضطر المسيحيون لاستخدام خيولهم للطعام بعد أن دخلوا القلعة فوراً حيث لم يكن هنالك أي شيء آخر، ولم يتبق أي نوع من الطعام بعد نفاد هذه الخيول، وهكذا خارت قوى الأقوياء بسبب الجوع كما أن الضعف الذي سببته المجاعة أتلف قوة الرجال الأكثر قوة وبددها.

وعلاوة على ذلك، كان عدد المحتجزين في القلعة كبيراً جداً لدرجة أن المؤن لم تكف لتزويد كل فرد حتى بالنذر اليسير، واكتظت أماكن النوم، كثيراً لدرجة أن أعداد كبيرة من الناس أقامت في الطرقات والساحات وبدت الأرض في الواقع وكأنها مغطاة بالناس، كما أن النبال التي أطلقها الرماة من قسيهم بشكل عشوائي غالباً ما سقطت بينهم وسببت لهم جروحاً مميتة، وقام رسل ثقاة بنقل معلومات كاملة حول جميع هذه التفاصيل إلى زنكي، وبما أنه بات واثقاً أن المسيحيين لن يتمكنوا طويلاً من تحمل شدائد من هذا القبيل، فقد حث رجاله على اتخاذ تدابير أقوى أيضاً، وحشد كتائبه بإحكام شديد حول القلعة، وقام بحراسة جميع المداخل بدقة تامة بحيث لا يتمكن أحد ولا حتى في أكثر المحاولات إقداماً من الوصول إلى شعبنا، ولا يتمكن شعبنا من الخروج.

ازداد الوضع سوءاً في المدينة المحاصرة من يوم لآخر، ونفد الطعام بالكامل وتلاشى الأمل تماماً، وتعلم المسيحيون في هذه المحنة وبتجربتهم الخاصة كم هو قاس حكم المجاعة وكم هو صحيح ذلك القول: «تتمكن المجاعة وحدها من تخليص المدن من سادتها»[1].

ومع ذلك، دعم أمل وصول العون من الأمير وكونت الرها والقدس إلى حد ما أناساً كانوا هالكين تقريباً، وبما أنه: «لا شيء كاف بالنسبة للروح المتلهفة» فقد ارتابوا بكل تأخير، وازداد تلهفهم بسبب المثبطات وبدت كل ساعة وكأنها سنة.

٢٩ - وصول النجدة. في الوقت نفسه تم اقناع الملك بالاستسلام. دخوله في اتفاقية مع العدو وعودته سالماً إلى بلاده.

وبينما كانت هذه الأحداث تتوالى في قلعة بارين المحاصرة كان الأمير ريموند يقترب ومعه فيالقه، وبات كونت الرها أيضاً على مقربة من القلعة مع قوة كبيرة، كما كان جيش

---

(١) لوكان Pharsalia, III, 56.

القدس يتقدم بسرعة إلى هناك أيضاً بقيادة صليب الصلبوت، ونقل رسل ثقاة نبأ اقترابهم إلى زنكي، فخاف من وصول هؤلاء القادة الكبار وخشي فوق هذا كله من أن يتعاطف الامبراطور المعسكر في انطاكية مع المسيحيين المحاصرين لدى علمه بالمشاكل المحيقة بهم، وأن يزحف بغضب ضده مع جيشه الذي لا يقهر، ولذلك أرسل مندوبين لتقديم اقتراحات للسلام قبل أن يتمكن نبأ النجدة المقتربة من الوصول إلى المحبوسين داخل القلعة، وصدرت الأوامر إلى المندوبين لابلاغ الملك أن القلعة، التي تهدم نصفها تماماً، لم يعد بإمكانها أن تقاوم لفترة أطول، وأن المسيحيين الذين أنهكهم الجوع فقدوا الشجاعة ولم يبق لديهم أية قوة للمقاومة، وعلى عكس ذلك، كان بحوزة جيشه جميع الأشياء الضرورية، ومع ذلك، وبدافع الاحترام للملك، حيث كان أميراً لامعاً وعظيماً بين المسيحيين، فقد كان مستعداً لإعادة جميع الأسرى الذين كان قد أسرهم مؤخراً بما فيهم الكونت وأن يسمح للملك وكافة مجموعته بمغادرة المكان بحرية وسلامة والعودة إلى بلادهم شرط استسلام القلعة.

لم يكن المسيحيون على علم بأن المساعدة كانت قريبة جداً، لقد كان الجوع والسهر والكرب الذهني إضافة إلى الجراح المميتة قد أنهكت قوتهم تماماً وحولتهم إلى حالة بعيدة عن الحالة الحربية، فاستقبلوا الشروط المعروضة بتلهف شديد، ودهشوا من أن إنسانية كهذه يمكن أن توجد في رجل متوحش جداً، وقبلوا الشروط المفروضة بامتنان ودون استفسار عن سبب ذلك، وحالما تحول التفاهم إلى اتفاق مرضٍ للطرفين، أطلق سراح كونت طرابلس مع عدد كبير من الأسرى، ثم خرج الملك ورجاله على الفور وهم يتلقون معاملة ودية من العدو وسلمت القلعة إلى الترك. ونزل الملك، المتأثر بالفعل والمسرور لتخلصه من موقف خطر للغاية ومربك بشكل كبير، من المرتفعات إلى الحقول الواقعة بالقرب من عرقة، وهناك علم أن الأمير والكونت كانا قريبين منه، وقابلهما بتأثر كبير وأثنى على حبهما وقلقهما الأخوي إلا أنه أسف لقدومهما بعد فوات الأوان، وشكرهما بامتنان لأنهما أظهرا اهتماماً كبيراً بأموره. وقدما المساعدة المرغوبة بقدر ما استطاعا، ثم رحلوا بعدما استمتعوا بمحادثة ودية مع بعضهم بعضاً وعادوا جميعهم إلى أوطانهم.

٣٠ ـ الأمير يجد لدى عودته مدينة أنطاكية محاصرة. ابداؤه مقاومة شديدة. مصالحته أخيراً مع الإمبراطور عن طريق وساطة بعض الاشخاص.

عاد أمير إنطاكية بالسرعة الكلية إلى موطنه لأن أموره كانت في وضع خطير جداً، وكان قد ترك الملك الأقوى في العالم أمام أبواب مدينته وهو مصمم على اتخاذ إجراءات

(١) أكد ابن القلانسي مسألة الوقت الضيق بين استسلام الملك ووصول قوات النجدة (تاريخ دمشق ص٢٤٢ـ ٢٤٣).

عدائية، ودخل ريموند من الباب الأعلى المجاور للقلعة ومعقل المدينة، ووجد الإمبراطور ما يزال مصمماً على تنفيذ مخططه الأصلي، ولذلك نشب صراع مستعر بين الجيشين لعدة أيام، وغالباً ما هاجم أهالي انطاكية جيش الإمبراطور بصورة سرية وبشكل أكثر علانية أيضاً وألحقوا به فتكاً ذريعاً، وتحارب الطرفان مع بعضهما وكأنهما أعداء دون اعتبار لحقيقة أن كليهما كانا يعتنقان الديانة نفسها.

وأمر الامبراطور من جانبه بقذف صخور ضخمة جداً من آلات القذف الحربية الضخمة، ولجأ إلى هذه الوسيلة لإضعاف دفاعات المدينة وتعطيلها ولتدمير الأسوار والأبراج الموجودة عند باب الجسر، وانتظمت الفيالق المسلحة بالنشاب، وجميع أنواع القذائف الحربية في دائرة حول المدينة، وحاولت هذه الفيالق بمساعدة مجموعة من الرماة منع سكان المدينة على نطاق طويل، من الدفاع عن الأسوار وكانت على أهبة الاستعداد دائماً للفوز بفرصة للاقتراب من التحصينات ونسفها.

وعندما تطور هذا الموقف الحرج، بدأ الرجال ذوو الإحساس السليم في كلا الجيشين يخافون من أنه إذا لم يسد التداول الأعقل بسرعة، فإن الأمور ستبلغ مرحلة يائسة بحيث يتعذر العثور على حل مناسب لأزمات خطيرة محتملة الوقوع، وأخيراً توسط بعض الأشخاص وتدخلوا كمحكمين بين الطرفين خوفاً من حدوث نتيجة كهذه، وذهبوا إلى معسكر الإمبراطور باقتراحات للسلام وبأقوال استرضائية وبابداء المزيد من التواضع والتذلل، وحاولوا تهدئة سخطه وتقربوا من الإمبراطور عندما لقوه بهذه الطريقة المتعقلة والحكيمة، وحاولوا تمهيد الطريق للوصول إلى السلام، وقام المحكمون أخيراً مع الذين كانوا مسؤولين عن إحداث السلام المنشود بتسوية الخلاف وقضوا بوجوب قدوم الأمير محاطاً بجميع نبلائه والمثول في حضرة جلالة الإمبراطور، وأن يؤدي له بحضور النبلاء البارزين والمشهورين يمين الولاء بكل الإجلال اللائق في القصر الإمبراطوري، وعلاوة على ذلك، عليه أن يؤدي يميناً مغلظاً أنه متى ما رغب الإمبراطور بدخول انطاكية أو قلعقتها سواء في الحرب أو السلم على الأمير أن لا يرفض منحه مدخلاً حراً إليهما بلا نقاش، وإذا توجب على الإمبراطور أن يعيد حلب وشيزر وحماه وحمص إلى الأمير، حسبما اشترط في المعاهدة، فينبغي على ريموند أن يقنع بهذه المدن وبمدن أخرى مجاورة وأن يعيد إلى الإمبراطور بدون جدال مدينة انطاكية ليحتفظ بها بحق الملكية.

كما ينبغي على الإمبراطور، مقابل الولاء المظهر له، أن يوافق في حال نجاحه بعون الرب في الاستيلاء على حلب وشيزر وسائر المنطقة المجاورة، بإعطاء جميع المناطق إلى الأمير

دون إثارة للمتاعب أو نقصان، وينبغي على الأمير وورثته أن يحتفظوا بها بشكل آمن وبحق دائم لكن استغلالاً وهو ما يدعى عادة باسم اقطاع.

وتمشياً مع هذا الاتفاق، فقد تقدم الأمير إلى المعسكر الإمبراطوري بمرافقة حاشيته النبيلة واستقبله الإمبراطور بإجلال لائق وقدم الأمير يمين الولاء للإمبراطور بعد أن تم تعديل الميثاق بشكل يرضي الطرفين.

وحالما عقدت الاتفاقية، وأعيد السلام بشكل تام، رفعت راية الإمبراطور فوق البرج الرئيسي للقلعة، ثم دخل الأمير مع حاشيته إلى انطاكية محملاً بهدايا كثيرة، وبما أن الشتاء القارس بات وشيكاً، فقد عاد الإمبراطور إلى كليكية مع سائر جيشه حتى يتمكن من قضاء فصل الشتاء في المنطقة الساحلية بالقرب من طرسوس.

بداية الكتاب الخامس عشر

الامبراطور يوحنا يسعى إلى بسط نفوذه على الدول اللاتينية.

١ ـ الإمبراطور يحاصر شيزر وبرفقته الأمير وكونت الرها عملاً بما ألزمهما به يمين الولاء له.

أمضى الإمبراطور أشهر فصل الشتاء في كليكية، وعند اقتراب فصل الربيع، الذي يعتبر الفصل الأكثر موائمة لأعمال القتال، أرسل الإمبراطور المنادين ليعلنوا مرسوماً إمبراطورياً أمر فيه قادة الجيش وقادة المئات والخمسينات القيام بإعداد قواتهم واصلاح الآلات الحربية وتسليح جميع الناس، وكان قد جرى إرسال مندوبين لدعوة الأمير وكونت الرها وبقية النبلاء الرئيسين في تلك المناطق ليزحفوا مع الإمبراطور إلى الحرب.

وتبعاً لذلك اجتمع الجنود من جميع الجهات، وأمر الإمبراطور كافة الجيش بوساطة الأبواق وبقرع الطبول بالتقدم في حوالي الأول من شهر نيسان إلى شيزر وذلك للاستفادة من الإتفاقية المعقودة بينه وبين الأمير، وبعد انقضاء بضعة أيام دخل بلاد العدو وخيم أمام المدينة.

وما أن علم الأمير والكونت بهذا الأمر حتى بادرا إلى جمع قواتهما من جميع أقاليمهما ولحقا الإمبراطور بالسرعة الممكنة ومن أجل الهدف ذاته. وما لبثا أن وصلا مع جيوشهما إلى أمام المدينة المذكورة أعلاه.

يشبه موقع شيزر موقع مدينة أنطاكية إلى حد كبير جداً، فهي واقعة بين الجبل والنهر الذي يتدفق مروراً بمدينة أنطاكية، ويقع الجزء الأكبر من المدينة في السهل الممتد إلى النهر، إلا أن هنالك جزءاً آخر بني على ظهر الجبل، وتقوم القلعة فوق الأبراج المرتفعة وهي قلعة يعتقد على العموم أنها لا ترام، وتنزل الأسوار من هذا المعقل على طرفي اليمين واليسار وتطوق المدينة مع الضواحي المجاورة لها.

عبر الإمبراطور النهر وطوق المدينة بجنوده وحاصرها في تلك الناحية التي بدا من الممكن مهاجمتها بسهولة بالغة بسبب الضواحي القائمة أمامها، وقذفت الآلات الحربية

المنصوبة في مواقع استراتيجية وابلاً متواصلاً من الحجارة الضخمة هزت الأبراج والأسوار وحتى منازل الناس الموجودة داخلها، ودمرت التحصينات تدميراً كاملاً بسبب الضربات المتكررة لهذه القذائف الهائلة، بعد أن كان الناس قد اعتمدوا عليها كأعظم دفاع لهم، وسبب انهيارها فتكاً مريعاً بين سكان المدينة.

شدد الإمبراطور، الرجل العظيم الشجاعة، الهجوم بحماسة متقدة ووعد بتقديم المكافآت مقابل الفوز بالنصر، وهكذا ألهب عاطفة الشباب المتلهفين دائماً لبلوغ المجد لخوض النزاع والصراع الحربي. وانخرط الإمبراطور بين الصفوف، يحميه درع يقي صدره وهو متقلد سيفه، ورأسه مغطى بخوذة ذهبية، وحس حيناً هؤلاء وتارة أولئك بأقوال التشجيع، وفوق ذلك أثار شجاعتهم بقدوته كرجل من الشعب، وحارب بإقدام حتى يتمكن من زيادة شجاعة الآخرين لخوض القتال، وهكذا، تحرك هذا الرجل ذو النشاط الشامخ بين الجنود دون توقف، وتحمل هول المعركة من الساعة الأولى في اليوم وحتى الساعة الأخيرة، ولم يسترح أبداً حتى لتناول الطعام، حيث كان يقوم إما بحض أولئك الذين كانوا يصونون الآلات الحربية لأخذ هدف أفضل وأكثر تكراراً أو كان يلهب شجاعة أولئك الذين كانوا منشغلين في أتون الحرب، وجدد قوة المحاربين بابدال متتالية من الرجال، واستبدل الجنود الذين أنهكت قواهم بجنود جدد.

وانساق الأمير والكونت. وكلاهما رجلان شابان وراء المطاردات الطائشة والشائعة بين رجال في مثل سنهما عادة؛ بينما كان الآخرون منشغلين في صراع شاق. وكانا يمارسان باستمرار ألعاب الصدفة بشكل يضر بمصالحهما الخاصة، وعلاوة على ذلك، وبفقدان هذا الاهتمام في المطاردات الحربية، أثر سلوكهما على الآخرين للمشاركة بدور أقل فعالية في الحصار.

ثار سخط الإمبراطور عندما انتبه إلى سلوكهما السيء وحاول أكثر من مرة أن يعيدهما إلى واجبهما بعتاب ودي أرسله بصورة سرية، ووضع أمامهما قدوته الخاصة وذكرهما بحقيقة أنه لم يجنب نفسه المتاعب البدنية والإرهاق الكبير على الرغم من أنه كان الملك الأقوى للمنطقة، واستمر الجيش بلا توقف في تنفيذ الاشتباكات والنزاعات من هذه النوعية لبضعة أيام، وأخيراً سئم الإمبراطور من التأخير بعد أن غضب من أن مدينة ضعيفة كهذه أمكنها أن تقاوم جيشه الذي لا يضاهي لفترة طويلة من الزمن، واتهم رجاله باللين وحثهم على بذل جهود أكثر شدة، وأمر بمضاعفة الهجمات وبتشديد الحصار بشجاعة أكبر.

وتم الاستيلاء خلال الحصار القوي والفعال للمدينة على الضاحية الواقعة في القسم

السفلي من المدينة، التي ذكرت أعلاه، وذلك في قتال متلاحم، ولم يلق السكان الذين عثر عليهم هناك أية رأفة باستثناء الذين أشاروا بالقول أو اللباس أو بإشارة أخرى بأنهم سيتبعون العقيدة المسيحية، حيث كانت شيزر تشتمل من البداية على العديد من الناس الذين كانوا ينتمون إلى المؤمنين حيث قام أسيادهم الكفرة باضطهادهم ووضعوهم ظلماً تحت نير العبودية الرهيبة [١].

٢ ـ الإمبراطور يرفع الحصار بغضب ويعود إلى أنطاكية دون انجاز هدفه.

ما أن تم الاستيلاء على الضاحية حتى التمس أهالي شيزر إقامة هدنة قصيرة لأنهم خشوا أن يقتحم العدو الجزء السفلي ويهاجم زوجاتهم وأطفالهم، فمنحوا هذا المطلب، وكان حاكم شيزر نبيل عربي يدعى [أبو العساكر سلطان] ابن منقذ [٢]. أرسل هذا الرجل رسلاً إلى الإمبراطور بصورة سرية وتوسل إليه بتضرعات كثيرة أن ينقذ المدينة ويحمي السكان ووعد أن يقدم مقابل ذلك مبلغاً كبيراً من المال، وكان السلوك الفاسق والكسول للأمير والكونت خلال الحملة قد أثار غضب الإمبراطور بشكل عميق وخاصة في ضوء حقيقة أنه تنفيذاً لوعده كان يعمل لمصلحتهما. واعتبر الوعود التي قدموها للولاء له، مخادعة وليست موثوقة، وأنها بالفعل ميتة بلافعالية. ولذلك مقتهما وقرر في ذهنه بعد مشاورة عدد قليل من مستشاريه المقربين أنه عقاباً لخيانتهما سيرفع الحصار ويعود لموطنه عند أول فرصة تحفظ ماء وجهه.

وبناء عليه ما أن تم دفع المال المتفق عليه لرفع الحصار، حتى أمر المنادين بإعلان السلام وأمرت الفيالق بالاستعداد للرحيل، وتم حل المعسكر على الفور، وصدرت الأوامر بتقدم الفيالق نحو أنطاكية وأن يسرع الجيش بأسره إلى هناك [٣].

ندم الكونت والأمير على سلوكهما عندما علما بعمل الإمبراطور، لكن بعد فوات الأوان للأسف. وحاولا تغيير عزمه، إلا أنه تعذر ثنيه عن القرار الذي كان قد اتخذه

---

(١) كانت شيزر مدينة أسامة وقد وصفها في سيرته لنفسه (انظر. فيليب حتي سيد عربي سوري ومحارب من عصر الحروب الصليبية ـ مذكرات أسامة بن منقذ ص٣ ـ ٥ وما تلاها).

(٢) من الصعب ادراك أن Macheddus هو الاسم الذي ذكره وليم وأراد به عم أسامة الذي كان يحكم المدينة في هذا الوقت، واسم هذا العم هو عز الدين أبو العساكر سلطان. توفي عام ١١٥٤ وخلفه أمير آخر اسمه تاج الدولة (انظر حتي ـ أسامة ـ المدخل ص٦).

(٣) إن السبب الحقيقي لرفع الحصار، حسبما جاء عند ابن القلانسي، الذي وصف الحملة التي قام بها الامبراطور في فصل الربيع هو نبأ أن زنكي كان يجمع جيشاً ضخماً ولسوف ينقض على المسيحيين فوراً (تاريخ دمشق ص٢٤٨ ـ ٢٥٢).

ورفض جميع الجهود التي بذلاها لإقناعه وأسرع رحيله. ويقال إن الكونت الذي كان أكثر حنكة ومكراً من الأمير، قد تصرف بحقد بالغ في هذه المسألة. وحيث تأثر بكراهية سرّية ضد سيده الأمير الشاب الطائش والتي اعترف بها علانية في وقت لاحق فقد ضلله بمكره الشديد بحث يتعذر ازدياد قوة الأمير. وحاول بكل وسيلة ممكنة أن يلحق به سخط الإمبراطور خشية أن تزداد أهمية الأمير الشاب عن طريق ذلك الملك.

٣ - الإمبراطور يطالب مجدداً بقلعة انطاكية من الأمير ويشير بذلك إلى نواياه بالقاء لبرهة من الزمن في تلك الأحواز.

وصل الإمبراطور مع أبنائه وحاشيته إلى أنطاكية ودخل المدينة بمرافقة عدد كبير من الجنود، واقتيد بمراسم رائعة إلى الكاتدرائة أولاً ثم إلى قصر الأمير الذي تولى مع الكونت منصب القيادة، وسار خلفه البطريرك مع رجال الدين والناس جميعهم في موكب حسب المعتاد، ورافقت أناشيد المديح وأصوات الآلات الموسيقية مسيرة الملك بالإضافة إلى أمواج من التصفيق السار من عامة الناس.

وانغمس الإمبراطور بحرية وكما شاء في متع الحمامات ووسائل الاستجمام الأخرى المتعلقة بالرفاهية الجسدية لعدة أيام وكأن القصر كان ملكاً له، وأظهر سخاءً عظيماً وقدم أعطيات كبيرة للأمير والكونت ولنبلائهما لا بل حتى لبعض السكان، وبعد مضي بعض الوقت أمر باستدعاء الحاكمين مع نبلاء المقاطعة كافة للمثول في حضرته. وعندما مثل الأمير والكونت أمامه خاطب الأمير على النحو التالي: «تعرف يا ابني العزيز ريموند أننا تريثنا في هذا الجوار لمدة طويلة من الزمن بدافع الحب لك حتى نتمكن من توسيع إمارتك وتزيد من ممتلكاتك ولإلحاق الأذى بأعداء عقيدتنا، وفعلنا هذا تمشياً مع الإتفاق الذي أمضيناه رسمياً بين امبراطوريتنا حبيبة الله وبينك يا تابعنا المخلص وذلك عن طريق توسط الرجال الحكماء، وحلّت الآن فرصة مناسبة وحان الوقت لإنجاز وعدنا ولنضع كافة المنطقة المجاورة تحت سلطتك كما تنص على ذلك شروط المعاهدة بشكل واضح، إلا أنك تعرف بشكل جيد كما يعرف هؤلاء النبلاء الذين يقفون معك في حضرتنا أن تنفيذ الواجبات التي نحن ملتزمون بها ليست مسألة وقت قصير، بل على العكس، من الواضح أن أمورك تتطلب إقامة أطول من ناحيتي أيضاً ونفقة أكبر، ولذلك، عليك أن تسلم لرعايتنا قلعة هذه المدينة حسب فحوى الإتفاق حتى نتمكن من وضع ثروتنا بأمان هناك، كما يجب أن تحصل قواتنا أيضاً على مدخل حر إلى المدينة بحيث نتمكن من الدخول أو الخروج دون إعاقة، ذلك أنه لا يمكن تدبير الآلات الحربية اللازمة لحصار حلب بسهولة من طرسوس أو عين زربة أو من المدن

الأخرى الواقعة في كليكية، ولهذه الأهداف، فإن هذه المدينة تقدم تسهيلات أفضل بكثير مما يقدمها أي مكان آخر، لذلك أنجز وعدك ونفذ واجبك مؤكداً بذلك الولاء الذي أظهرته، وستكون مهمة سمونا الإمبراطوي تنفيذ الإلتزامات المناطة بنا وأن ننجز هذه الالتزامات وباجراء سخي».

أصيب الأمير ونبلاؤه بالدهشة وروعوا إزاء قساوة هذه الكلمات، وتدارسوا المسألة بقلق لفترة طويلة من الزمن وهم غير متأكدين من الإجابة التي سيقدمونها، حيث بدت مسألة خطيرة وقاسية جداً أن تسقط هذه المدينة في قبضة الاغريق المخنثين بعد أن كان شعبنا قد نالها بتعرضه لخطر كبير، فهي قد أعيدت إلى العقيدة المسيحية على حساب الدم الثمين للأمراء السعداء، وكانت مدينة أنطاكية دائماً رئيسة وحاكمة لمقاطعات كبيرة وكثيرة، وبدا بالنسبة لنا أن المنطقة لن تتمكن من الصمود بدونها، هذا من جهة ومن جهة أخرى لا يمكن إنكار أنه تم إدراج هذه المدينة في الإتفاق الذي عقده الأمير، وعلاوة على ذلك، فقد كان الإمبراطور قد جلب معه العديد من أتباعه بحيث يصعب مقاومته إذا ما عزم على استخدام القوة، وكانت المسألة قد وصلت إلى هذه النقطة عندما تكلم كونت الرها باسم الجميع على النحو التالي: «مولاي، إن أقوال سموك الإمبراطوري مليئة بالفصاحة السماوية وتستحق كل القبول لأننا نرى أن الغاية منها مهتمة كلياً بزيادة قوتنا، لكن المسألة جديدة وتستدعي دراسة جديدة، كما أنه لا تقع في نطاق صلاحيات الأمير النبيل وحده الموافقة على هذا المطلب، بل يجب عليه أن يقلّب وجوه الأمر بعناية فائقة مع آراء نبلائه ورأيي في الواقع، ورأي بقية رعاياه المخلصين حول كيفية تنفيذ اقتراحك ومطلبك بالشكل الأمثل، لأنه إذا ما قام عامة الناس بثورة فسيعيق ذلك تنفيذ مطلبك.

واستجاب الإمبراطور لرد الكونت، ومنح عندها مهلة قصيرة حتى تجري الدراسة المقترحة، ثم ذهب الكونت إلى منزله وبقي الأمير في القصر حيث كان أسيراً بشكل عملي حسب ما ذكرته إحدى الروايات.

٤ ـ وقوع ثورة في أنطاكية، فيخاف الإمبراطور فيلغي مطلبه وبذلك ينهي الشجار ومن ثم يغادر المدينة.

ما إن وصل الكونت إلى منزله حتى أرسل رسلاً سريين لإبلاغ الناس بمطالب الإمبراطور وليحرضهم على حمل السلاح، ونشأ على الفور اضطراب رافقه صخب شديد في كل مكان من المدينة، واجتمعت الحشود من جميع الجهات وتحولت الجلبة إلى اضطراب قوي، وعندما سمع الكونت بالشغب، أخذ حصاناً وامتطاه بسرعة وتوجه إلى القصر وكأنه هارب من مطاردة الناس له، وألقى بنفسه منهكاً عند قدمي الإمبراطور. فاندهش

الإمبراطور من دخوله المفاجىء واستفسر بقلق عن سبب اندفاعه بشكل غير رسمي إلى حضرة سموه الإمبراطوري خلافاً لمراسم القصر المقدس وأنظمته فأجاب الكونت أن للضرورة أحكاماً، فقد دفعته مطاردة رعاع ثائرين إلى تجاوز القواعد المألوفة لتجنب خطر الموت، ورداً على استفسارات الإمبراطور المتكررة أجاب الكونت عن التفاصيل قائلاً: إنه كان قد دخل نزلاً ليستريح[1] وكان على وشك تناول بعض الطعام والشراب هناك عندما قام عامة الناس فجأة بمحاصرة باب النزل وهم مسلحون بالسيوف والأسلحة الأخرى كتلك التي يقتضيها العنف، وبدأوا كرجل واحد باتهامه أنه سفاح وخائن لبلاده وقاتل للناس، وأنه كان قد تلقى مالاً من الإمبراطور وكان على وشك أن يبيع المدينة له، وطالبوا بتسليمه لهم، وكانوا قد اقتحموا النزل بالفعل قبل أن يفلح في النجاة وسط الآلاف من الأخطار.

وكان الصخب القوي يُسمع في هذه الأثناء في جميع أنحاء المدينة حيث ساد فيها اضطراب تام، وانتشرت شائعات متوالية في كل مكان من المدينة كان مفادها أن مدينة انطاكية قد بيعت إلى الاغريق، وأن القلعة استسلمت لهم وأن السكان سيضطرون لمغادرة منازل أجدادهم وترك ممتلكاتهم الأزلية، وحيث أثارت هذه الشائعات سخط سكان المدينة فقد هاجموا أفراد أسرة الإمبراطور حيثما عثروا عليهم، وسحبوهم من على ظهور خيولهم وسلبوهم بعنف وضربوهم بالسياط وقتلوا كل من أبدى أقل مقاومة لهم، ولاحقوا الهاربين الذين كانوا يحاولون بيأس النجاة من الجروح والموت بسيوف مسلولة إلى داخل قصر الإمبراطور نفسه.

ودفع صخب السكان والصراخ الشديد الصادر عن أتباعه، الإمبراطور للتصرف، فأمر على الفور باستدعاء الأمير ونبلائه وكبح غضبه في الوقت الحالي حيث قلق من إمكانية تنظيم مظاهرة ضده، وقال في إشارة إلى الملاحظات التي كان قد قدمها في ذلك اليوم وبحضور الجميع: «أتذكر أنني ناقشت معكم اليوم مسألة ربما أثارت هذا بين الناس، وآمل أن يعرف جميع الناس وأسياد المدينة أيضاً في هذا الوقت أنني ألغي الحكم الذي أصدرته وأسحب ذلك الذي اقترحته لأن مطلبي يبدو مزعجاً وصعباً جداً بالنسبة لكم، احتفظوا بالقلعة والمدينة بأسرها لأنفسكم ويكفيني أن تستمر الحال التي سادت حتى هذا الوقت، أعرف يقيناً أنكم عبيدي المخلصون، وإني واثق أنكم لن تخونوا أبداً الولاء الذي وعدتم به وضمنتموه، لذلك اذهبوا وحاولوا تهدئة عامة الناس الثائرين، وإذا كانت إقامتي في انطاكية

---

(١) إن ذكر وجود حانة (نزلاً) كمكان مناسب لإقامة واحد من أمراء اللاتين يقود إلى افتراض وجود نظام متطور جداً للعناية بالمسافرين من بين كل من التجار والجند.

تسبب لهم أي درجة من الخوف أبلغوهم أن لا يزدادوا قلقاً ، في الغد بمشيئة الرب سأقوم بالرحيل .

أظهر جميع الحاضرين استحساناً لقرار الإمبراطور ، وأثنوا على تصوراته البعيدة المدى وعلى فطنته الحكيمة ، ثم خرج الأمير والكونت مع عدد من الرجال الأعيان وحاولوا تهدئة الصخب بالأقوال والإيماءات والإشارات ، وتحقق الهدوء بعد لأي وحولت الأقوال الودية الجماهير إلى بعض الهدوء . ثم توسل إليهم الوسطاء للعودة إلى منازلهم والتخلي عن أسحلتهم وأن يهدأوا ، وتحققت هذه النتيجة في آخر الأمر .

غادر الإمبراطور انطاكية في اليوم التالي بمرافقة أبنائه وأقاربه وأتباعه ، وأقيم المعسكر خارج الأسوار تنفيذاً للأوامر التي أصدرها [١] .

٥ ـ إرسال المبعوثين إلى الإمبراطور في محاولة لتهدئه غضبه، إخلاصهم في ذلك. عودة الإمبراطور إلى بلاده.

أدرك رجال حكماء في المدينة أن غضب الإمبراطور على الأمير وأعيان النبلاء لم ينته بعد ، فمع أنه كان قد أخفى بحكمة مشاعره الحقيقية إلا أنه اعتقد أنهم كانوا مسؤولين عن تحريض الفوران الشعبي وتشجيعه بصورة سرية ، ولذلك ، وأملاً بإعادة السلام ، جرى إرسال رجال محنكين وحكماء كمبعوثين إلى سيادته الإمبراطورية وتوجب عليهم تقديم الإعتذارات عن الأمير وعن أعيان البلاد وأن يعلنوا أنهم لم يكونوا مدانين بإثارة الفتنة بين الناس.

أدخل المندوبون إلى حضرة الإمبراطور ، وتصرفوا حسب مهمتهم وادعوا بشدة براءة الأمير وحاولوا إقناع الإمبراطور بالحقيقة بالأقوال التالية : « تعرف جلالتكم الإمبراطورية وسموكم الملكي أكثر مما نعرف أنه ليس لدى الجميع حكمة متساوية وليس لديهم تعقل متساو في جميع المجتمعات وحتى في المدن حيث يحتشد الرجال بأعداد كبيرة. فللناس عادات وأساليب متنوعة ويمارسون مهناً متنوعة كما تقتضي مصالحهم ، والأكثر صحة هو ذلك القول الحكيم : « يبدو ضيوفي الثلاثة على وشك الشجار » [٢] . وهذا أيضاً : « تتعدد الآراء

---

(١) يقبل تشالدون هذا الوصف لسبب رحيل يوحنا عن أنطاكية، وكانت هنالك أسباب أعمق من حيلة جوسلين هذه لاستياء الجماهير اللاتينية ضد الاغريق، فقد حملت السيادة المطلقة على انطاكية من قبل يوحنا إعادة تنصيب، علنية أو ضمنية، لبطريرك اغريقي، وأصدر أنوسنت الثاني، بعدما روعه سلوك يوحنا في كليكية مرسوماً بابوياً منع فيه المسيحيين اللاتينيين من الخدمة في جيش الاغريق (سجلات يافا رقم ٧٨٨٣) (تشالدون ـ آل كومنين: ٢/١٥٤ ـ ١٥٦ وانظر أيضاً الحاشية رقم ١٧ ـ التالية).

(٢) هوراس ـ الأمثال: ٢/٢/٦١ .

بتعدد الرجال »[١]، ومن واجب الرجل العاقل في غمرة هذا التنوع الكثير للأساليب والعادات أن يبغي الجديرين وأن يوزع المكافآت بنسبة الإستحقاق، وأخذاً بهذا المنطق، ألا تسبب الأعمال المخبولة التي قام بها رعاع غير مسؤولين في إلحاق الأذى بالعنصر الأفضل تنظيماً؟ فغالباً ما يحدث أن يثير رعاع متمردون لا يتقيدون بأي ضبط للنفس النزاعات والإضطرابات الطائشة، ومن المؤكد أيضاً - كما يظهر العرف القديم والمتفق عليه منذ زمن بعيد - أن الأشخاص ذوي المراتب العالية في جميع المدن ذات التنظيم الجيد يقومون بقمع الدوافع الطائشة لعامة الناس ويكبحون وقاحتهم الطليقة، وإذا كان الأمر غير ذلك، فسيكون وضع العامة من الناس أفضل بكثير من وضع النبلاء، وما لم يسمح للزعماء بتقويم أخطاء الطائشين من عامة الناس فإن فوضى الرعاع المشاغبين ستسود بدلاً من أن تسود خبرة الرجال الحكماء، فقد ارتكب هؤلاء الناس اللامسؤولين هذه الإساءة دون معرفة الأمير ومعرفة المسؤولين عن إدارة مسائل الدولة الأكثر أهمية. فليتحملوا العقوبة التي يستحقونها لكن دع الأمير والنبلاء وليعتبروا أبرياء. كما أن الأمير مستعد لإثبات براءته في أن يلتزم بشروط المعاهدة وأن يضع المدينة والقلعة تحت سلطة الإمبراطور إذا سمح له بذلك ».

اقتنع الإمبراطور بهذه الحجة وبحجج أخرى ذات معنى مشابه في أن يغيّر شعور السخط الشديد، الذي كان قد حصل بسبب الشك فقط، إلى شعور ذي طبيعة أكثر لطفاً، وأرسل في طلب الأمير والكونت والنبلاء وأمر بأن يمثلوا في حضرته بطريقة ودية. وهكذا، انقشعت غمامة الغضب التي كانت قد فرقتهم وتقبل الإمبراطور تحياتهم بلطف ورد بتحية ودية شملهم بها.

وبعد طول انتظار أبلغهم أن أسباباً ملحة تدفعه للعودة إلى موطنه ووعد بكل تأكيد لدى مغادرته أنه سيعود بعون الله مع قوات قوية وسينفذ الإتفاق الذي كان قد عقده، ثم قاد عناصر جيشه كافة إلى كليكية[٢] وعندما انتهت مشاغله في تلك المنطقة وفي سورية جهز قواته للزحف وعاد إلى موطنه.

٦ - ملك القدس يحاصر قلعة واقعة فيما وراء الأردن ويستولي عليها بالقوة. جيشنا يعاني من هزيمة شديدة في تقوع. مقتل يودس دي مونتفاكون في ذلك الموقع.

في الصيف التالي، بعد مضي وقت قصير على الأحداث التي وقعت في أنطاكية قدم

---

(١) Terencephor, II, IV, 14 .

(٢) كان الإستيلاء على كليكيه وأسرليو وقادة آخرين من الدولة الأرمنية أهم النتائج للحملة التي قام به يوحنا خلال هذين العامين.

تيري كونت فلاندرز وكان رجلاً مشهوراً وعظيماً بين أمراء الغرب، وختناً للسيد الملك، حاجاً إلى القدس مع حاشية مهيبة.

استقبله الملك والشعب ككل بأقصى آيات السرور، وتقرر بالإجماع بناء على نصيحة البطريرك وبقية أمراء المملكة محاصرة أحد المعاقل وكان واقعاً على الجانب الآخر من الأردن بالقرب من قمة جلعاد في منطقة العمونيين وذلك بمساعدة القوة المؤلفة من الفرسان الشجعان الذين كانوا يرافقونه، وكان هذا الحصن يشكل تهديداً كبيراً لبلادنا، وكان مؤلفاً من كهف على منحدر جبل شاهق تعذر الوصول إليه، وارتفع فوقه جرف ضخم امتد من قمة النتوء إلى أعماق الوادي المتاخم، وكان هناك طريق خطر وضيق في أحد الجوانب قائماً بين الجرف العالي البروز وبين الجرف الموصوف منذ لحظات وهو وحده يؤدي إلى هذا الكهف.

كانت عصابة من اللصوص الأشرار وقطاع الطرق من مناطق موآب وعمون وجلعاد قد أقامت في هذا الكهف واعتادت على شن غارات متكررة ومفاجئة من هذه القاعدة على مناطقنا كلما سنحت الفرصة لهم، وغالباً ما رافق هذه الغارات خطر عظيم بالنسبة لنا، وقام كشافة مطلعون بشكل جيد على المنطقة بتزويد قطاع الطرق بمعلومات تامة عن الأوضاع السائدة في بلاد المسيحيين، وذلك أنهم كانوا يرسلون قبل كل هجوم، وكان قادتنا يعتريهم قلق شديد للتخلص من هذه الكوارث، وبناء عليه اقترحوا ـ كما قلنا ـ محاصرة الكهف، واستدعوا جميع الناس من ذلك الجوار وعبروا الأردن بمرافقة قوات الجيش، واستولوا، لدى وصولهم إلى هدفهم، على الطريق بقدر ما سمحت لهم طبيعة المنطقة والشعاب الضيقة فيها ونصبوا معسكرهم هناك، ثم نشرت القوات في دائرة حول الموقع الذي تمت محاصرته. واستمروا تمشياً مع قواعد الحرب في إنهاك العدو بكل الوسائل، والتضييق عليه بالقدر الممكن لإجباره على الإستسلام، واستعد اللصوص من جانبهم للدفاع بيقظة عن أنفسهم بكل الدهاء الذي يرافق المحنة.

وهكذا، بدأ الجيش المسيحي بأكمله تقريباً هذا الحصار بتصميم واحد وبشجاعة، وكان بعض الأتراك قد علموا في هذه الأثناء أنه تم تجريد سائر المنطقة الواقعة عبر الأردن من الجنود، وبقيت بالتالي معرضة للهجمات المعادية، وهكذا، انتهزوا الفرصة القائمة في هذه المرة وعبروا الأردن وتركوا منطقة أريحا الواقعة على اليمين وتقدموا على طول جانب البحر

(١) استفاد تيري أوف ألساس من المحن التي ألمت بوليم كليتو ابن روبرت كورتهور، فقد حصل على فلاندرز وسيبيليا ابنة فولك، وكانا كلاهما سابقاً في ملكية كليتو. وكانت رحلته هذه هي الأولى إلى الأرض المقدسة وقد جرت في عام ١١٣٩.

الميت وزحفوا من هناك إلى المنطقة الجبلية وانقضوا على ذلك الجزء من الإقليم الذي كان يخص بالقرعة سبط يهوذا في الأزمان القديمة واستولوا بالقوة على تقوع، مدينة النبيين عاموس وحبقوق وقتلوا الناس القليلين الذين كانوا ما يزالون باقين هناك ووجدوها خاوية من السكان تقريباً، حيث كانوا جميعهم قد رحلوا مع زوجاتهم وأطفالهم وقطعانهم ومواشيهم ولاذوا بالفرار إلى كهف جلدك المجاور بعدما تم إنذارهم مبكراً باقتراب العدو، وهكذا، بما أن القرية كانت خاوية، فقد دخل الغزاة منازل الهاربين ونقلوا كل شيء كانوا قد تركوه.

حدث الآن أن أتى في هذه الآونة روبرت المكنى البير غندي، ذو الذكرى الورعة في الرب، من أنطاكية إلى القدس، وكان فارساً بارزاً ومشجاعاً في استخدام الأسلحة ونبيل المحتـد والجوهر، وكان من مواليد أكوتين، وتولى الآن مقدمية فرسان المعبد (الداوية) وتوجه على الفور بالسرعة الكلية إلى الموقع المذكور منذ لحظات بمرافقة بعض إخوانه، وعدد قليل من الفرسان ذوي المراتب المتنوعة ممن كان قد بقي في القدس، وسار في طليعتهم برنارد فاتشر. أحد أفراد أسرة الملك. وهو يحمل الراية الملكية وتبعه جميع الناس.

حالما علم الأتراك أن المسيحيين كانوا في الطريق إليهم غادروا حبيس (جلدك)، موطن النبي يوئيل، ولاذوا بالفرار إلى الخليل موقع دفن الآباء المقدسين، وعزموا على النزول من هناك إلى السهل ومتابعة السير إلى عسقلان، ولم يتول المسيحيون مطاردة العدو على الرغم من معرفتهم أنه كان بحالة تقهقر تام، وعلى العكس تفرقوا وكأنهم كانوا واثقين من النصر، بطيش في اتجاهات مختلفة، وهم أكثر تصميماً على السلب من إبادة العدو، وعلى الرغم من أن الأتراك كانوا يلوذون بالفرار فقد أدركوا هذا على الفور، فاجتمعوا من جديد وبشجاعة متجددة وبطريقتهم المألوفة وحاولوا بقدر إمكانهم جمع قواتهم المشتتة، وانقضوا فجأة، والثقة تملؤهم، على مجموعات المسيحيين الذين كانوا يتجولون هنا وهناك دونما تفكير بالخطر، وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً بسيوفهم، ومع ذلك، بذل عدد قليل من شعبنا جهداً للمقاومة، وتجمعوا مع بعضهم بعضاً وخاضوا المعركة.

ونقلت الأصوات العالية للأبواق والنفر وصهيل الخيول ولمعان الدروع المتألقة وأصوات القادة المشجعين لجنودهم ضافة إلى غيوم الغبار التي أثارتها حوافر الخيول في هذه الأثناء الإنذار إلى قوات المسيحيين المبعثرة، فأسرعوا إلى موقع المعركة إلا أن صفوفنا الأولى إنهارت ولاذت بالفرار قبل أن يتمكنوا من الإنضمام إلى رفاقهم الذين كانوا يحاولون بذل المقاومة، وأظهر العدو تفوقه وأصيب شعبنا بالهزيمة.

حاول المسيحيون الهرب بعدما طاردهم العدو عن قرب بالسهام والسيوف المسلولة، واستحالت النجاة تقريباً لأن الموقع كان وعراً ممتلئاً بالصخور وغير سالك تقريباً، فقتل بعضهم وقذف آخرون بعنف من الصخور الشاهقة، وطارد الأتراك المسيحيين، وأنزلوا بهم مذبحة مريعة بدءاً من الخليل التي هي قريات عربة وحتى حدود تقوع وسقط العديد من النبلاء والمشهورين في ذلك اليوم، وكان فارس الهيكل الشهيد يودس دي مونتفاكون بين الذين هلكوا وسببت مصرعه حزناً وأسى شاملين.

عاد العدو الظافر إلى عسقلان مبتهجاً بالنصر وفرحاً بإبادة المسيحيين وبالمغانم التي نقلها معه.

أما شعبنا، الذي كان منشغلاً في جبل جلعاد فقد امتلأ قلبه رعباً عندما علم بالكارثة التي كانت قد حلت بنا، إلا أن إدراكهم لحقيقة أن النصر يحالف ـ حسب قانون الحرب ـ هذا الجانب تارة وذلك الجانب تارة أخرى قد شجعهم. وواصلوا عملهم بقوة متجددة، واستولوا بعون الرب على ذلك المعقل خلال برهة وجيزة من الزمن وعادوا إلى موطنهم مكللين بالمجد.

٧ ـ زنكي يسبب الكثير من الإرباك لمملكة دمشق. الدمشقيون يطلبون المساعدة من المسيحيين. حصولهم عليها وفق شروط محددة. عودة زنكي إلى موطنه.

بينما كانت هذه الأحداث تأخذ مجراها في أراضي القدس اجترأ زنكي أن يطمع بالإستيلاء على مملكة دمشق، حيث ملأته النجاحات التي حققها بالتيه وغدا كالدودة التي لا تهدأ أبداً، فعلم أنر حاكم دمشق والذي كان قائداً للجيش أيضاً ووالد زوجة الملك بالأمر الذي كان مفاده أن زنكي كان قد دخل أراضيه بجيش معاد [1]، فأرسل على الفور رسلاً إلى ملك القدس وتوسل إليه بجدية بالغة وبكلمات استرضائية أن يقدم له هو والشعب المسيحي المساعدة والنصيحة ضد عدو متوحش وخطر بشكل متماثل على المملكتين معاً، وخشية أن يبدو وكأنه يلتمس بشكل وقح مساعدة مجانية من الملك ونبلائه مع أمل قليل بالمقابل، فقد وعد أن يدفع شهرياً عشرين ألف قطعة ذهبية للنفقات الضرورية للمشروع، واشتملت المعاهدة أيضاً بنداً ينص على أن يعيد إلينا مدينة بانياس، التي انتزعت منا منذ سنوات قليلة مضت، بدون نزاع حالما يكون العدو قد تم طرده من دمشق، وعلاوة على

(١) كان أنر أو معين الدين، الذي كان قد ميز نفسه بالاحتفاظ بمدينة حمص ضد زنكي في عام ١١٣٧، مملوكاً لطغتكين، وأصبح الحاكم الفعلي، إن لم نقل الإسمي، لدمشق في عام ١١٣٩.

ذلك، فقد وعد بإعطاء عدد متفق عليه من أبناء النبلاء كرهائن ليكونوا بمثابة ضمان على تنفيذ بنود المعاهدة.

استدعى الملك جميع نبلاء المملكة بعد الإستماع إلى هذه الإقتراحات، ووضع أمامهم بحذر جميع شروط وتفاصيل الإتفاقية التي عرضها المندوبون، وطلب أن يدلوا بآرائهم بخصوص الإجابة، فتدارسوا لفترة طويلة من الزمن، وتقرر أخيراً وبعد دراسة متروية وتبادل حذر للآراء حول جميع التفاصيل، أن تقدم المساعدة إلى أنر والدمشقيين ضد هذا العدو الأشد قساوة، والذي كان يشكل تهديداً لكلا المملكتين.

وارتؤي أنه من الأفضل تقديم هذه المساعدة مجاناً خشية أن يفوز العدو بتلك المملكة ويستخدم قوتها المتزايدة ضدنا بعدما تزداد قوته بسبب كسلنا، وجعلت أحوال أخرى المسألة أكثر شعبية، وكان السبب الأكثر فعالية والذي قدم تأييداً شاملاً للإقتراح، هو حقيقة إضافة عبارة عن مدينة بانياس في نهاية المعاهدة.

٨ ـ حصار مدينة بانياس بمساعدة الدمشقيين.

وهكذا، تمت الموافقة على الخطة العامة، وحالما تم استلام الرهائن المذكورين آنفاً ووضعوا تحت الحماية، صدرت الأوامر إلى قوات كبيرة من الفرسان والمشاة من سائر أنحاء المملكة بالتجمع على الفور في طبرية. وكان زنكي قد اجتاح في هذه الأثناء بشجاعته المفرطة منطقة دمشق بقوات ضخمة من الفرسان. وكان قد تقدم حتى موقع يدعى رأس الماء بعدما ترك المدينة وراءه، وأقام مع فيالقه هنالك لفترة مؤقتة، لأن تقدم المسيحيين سبب له بعض التردد، هذا وقد تيقن أنه بإمكانه التوصل إلى غاياته المنشودة ما لم تعق قواتنا خططه.

علم المسيحيون بنبأ توقف زنكي في المكان المذكور آنفاً، وبنبأ أن الدمشقيين كانوا قد انطلقوا من المدينة وكانوا ينتظرون وصول الملك وجنده في داريا ولذلك فقد حلوا المعسكر وأسرعوا برايات مرفوعة وبتصميم واحد إلى الموقع الآنف الذكر. وانسحب زنكي بسرعة حالما أبلغ بهذه الحركة، حيث كان يقظاً دائماً ولم يفكر أبداً بالإشتباك مع جيشين في وقت واحد على أرض معادية، ولذلك غادر موقعه وانسحب بسرعة قبل أن يتمكن المسيحيون من الإتحاد مع الدمشقيين، وتقدم مسرعاً الخطى إلى المنطقة المعروفة عموماً باسم وادي البقاع تاركاً قواتنا وقوات الدمشقيين على اليسار.

ومع ذلك، واصلت قواتنا سيرها إلى المكان المحدد حيث انضمت إلى الدمشقيين، وعلموا هنالك بشكل محدد أن زنكي كان قد رحل، وهكذا تغير اتجاه الجيش بأسره بموافقة إجماعية نحو بانياس حسبما تم الإتفاق على ذلك في المعاهدة، كما قد ذكرنا أن ملك دمشق

طغتكين كان قد أخذ هذه المدينة بقوة السلاح قبل بضعة أعوام[1]، غير أن الحاكم، الذي كان قد عهد بالمدينة إليه تخلى فيما بعد عن الدمشقيين ورحل إلى عدوهم زنكي. وكان هذا هو السبب لقيام حلفائنا ببذل جهود قوية لإعادتها إلى سيطرة ملك القدس، فقد فضلوا إعادتها إلى المسيحيين، الذين نعموا بتأييدهم، بدلاً من أن يروها تحت سيطرة عدو كانوا يخافونه كثيراً ولا يثقون به حيث كان بإمكانه أن يلحق بهم الكثير من الأذى منها، وأن يسبب لهم متاعب كبيرة أيضاً مثلما يستطيع فعل ذلك من موقع قريب موات.

٩ ـ قدوم أمير أنطاكية وكونت طرابلس للمساعدة في الحصار أيضاً. المدينة تحاصر بإحكام.

بانياس هي المدينة التي تعرف عموماً باسم بلنياس، وهي التي كانت تعرف باسم الشام قبل دخول بني إسرائيل إلى أرض الميعاد، ونال فيما بعد أبناء هذه المدينة كحصة لهم وسموها باسم دان الشام، وذلك حسبما نقرأ في يشوع حيث كتب «وصعد بنو دان وحاربوا الشام وأخذوها وضربوها بحد السيف وملكوها وسكنوها ودعوا الشام كاسم دان أبيهم»[2].

وسميت هذه المدينة في وقت لاحق باسم قيسارية فيليب لأن فيليب تتراخ بن هيراد الأكبر وسعها تشريفاً للقيصر تايبيروس وجعلها مشهورة بأبنية رائعة، وهكذا دانت بشطر من اسمها لقيصر وبالشطر الآخر لاسم الرجل الذي وسعها.

وجهت الجيوش المتحدة زحفها نحو هذه المدينة، ووصلت إلى هناك في الأول من شهر أيار وحاصرتها على الفور من جميع الجوانب، واحتل أنر مع قواته موقعاً في الشرق يقع بين المدينة والغابات في مكان يدعى كوهاغار، ونشرت قوات الملك في الغرب نحو الحقول المكشوفة. وهكذا حال موقع الجنود، المطوقين للمدينة، دون الإقتراب من المحتجزين في الداخل وأزال أية فرصة للدخول أو الخروج، وعلاوة على ذلك، ارتؤي أنه من الحكمة إرسال رسل إلى ريموند أمير إنطاكية وإلى كونت طرابلس لدعوتهما للمشاركة في الحصار الذي أبتدأت أعماله، وتم تنفيذ هذا على الفور بعدما أقرّ بموافقة عامة.

واصل المسيحيون في هذه الأثناء تشديد الحصار دون توقف بمساعدة حلفائهم الأتراك ذوي الحماسة المماثلة والذين كانوا جاهزين دائماً للمشاركة في القتال يومياً، وقذفوا من آلات القذف الحربية حجارة ضخمة ذات وزن كبير هزت الأسوار ودمرت المنازل الموجودة ضمن المدينة نفسها، وانهمر وابل الحراب والسهام كالبرد على سكان المدينة

---

(١) انظر الكتاب ١٤ ـ الفصلان: ١٧ و ١٩.

(٢) يوسفيوس: ٤٧/١٩.

المنهكين أيضاً بحيث استحال العثور على مكان آمن وراء الأسوار، ونادراً ما تجرأ المدافعون على النظر إلى المهاجمين حتى من وراء الأسوار الواقية والشرفات عندما قذفوا الحجارة أو قاموا بالرمي من قسيهم.

لقد شهد ذلك الموقف مشهداً غريباً جديداً: أناس معادون يشجعون عدواً لخوض أقسى الصراعات، وذلك كأحلاف في السلاح فعلياً لإبادة عدو مشترك، وتعذر معرفة أي من الجيشين المتحالفين قد حارب بشجاعة أكبر من الثاني ضد العدو المشترك أو حرّض على مواصلة الهجوم بشكل أكثر مرارة أو أي منها ظلّ لفترة أطول في أتون المعركة، لقد كان الدمشقيون والمسيحيون متساوين في الشجاعة ومتحدين بالهدف. على الرغم من أنهما كانا يختلفان في التدريب واستخدام الأسلحة، كانا معاً مصممين في رغبتها على إلحاق الأذى بالعدو [١].

واصل المحاصرون إظهار مقاومة على الرغم من إصابتهم بالإنهاك نتيجة تعرضهم للهجمات المستمرة ولتحملهم أعباء سهر الحراسة والجهد المفرط، وبذلوا كافة الجهود بقدر ما سمحت لهم قوتهم للدفاع عن زوجاتهم وأبنائهم وعن حريتهم في المقام الأول، وجعلهم ضغط المحنة أكثر إخلاصاً، وجربوا كافة أساليب المقاومة الممكنة. واستمر هذا لفترة من الزمن، واتضح للمسيحيين في آخر الأمر أنه لا يمكن الحصول على أية فائدة ما لم يتمكنوا من بناء برج خشبي ونقله إلى القرب من الأسوار ليشنوا الحرب على المحاصرين من فوقه، إلا أنه لم يتم العثور على أية مادة مناسبة لتحقيق هدف كهذا في سائر تلك المنطقة، ولذلك أرسل أنر رجالاً إلى دمشق لجلب عوارض خشبية طويلة ذات حجم ضخم كانت مدخرة منذ زمن طويل لغاية كهذه، وأمرهم باستخدام السرعة الكلية الممكنة لإنجاز مهمتهم والعودة.

١٠ - وصول الكونت والأمير. إنشاء آلة هجومية. السكان يدافعون عن أنفسهم بقوة أملاً بالمساعدة.

وصل في هذه الأثناء كل من أمير إنطاكية وكونت طرابلس اللذين كان مندوبونا قد استدعوهما، وجلبا معهما - كما كان مؤملاً - عدداً كبيراً من المقاتلين الأقوياء انضموا بهم إلى معسكرنا، فضاعف قدومهم محنة المحاصرين وبدا أنهم أخذوا يفقدون كل الأمل بالمقاومة، وكان القادمون الجدد متلهفين لاختبار قوتهم بمنافسة متحمسة بين بعضهم بعضاً،

---

(١) يبدو أن وليم لم يجد الأمر صعباً كثيراً للموافقة على حلف مع المسلمين ضد مسلمين آخرين.

وحيث كان الكونت والأمير يتوقان لكسب المديح والمجد فقد شكلا جنودهما في مجموعات منفصلة وهاجما المدينة بقوة، ونتيجة لهذا، ازداد ذعر المحاصرين وتناقصت ثقتهم بطاقاتهم، هذا من جانب ومن جانب آخر ازدادت ثقة القوات المتحالفة بالنصر، واذدادت شجاعتها وقلّ سأمها بعد أن ازدادت قوتها يوماً بعد يوم وشوقها لشن هجوم.

وبينما هذه الأحداث تأخذ مجراها أمام بانياس عاد الرسل الذين أرسلوا إلى دمشق ودون تأخير، وجلبوا معهم العوارض الضخمة ذات الحجم والقوة اللازمتين، وقام النجارون بتسوية هذه العوارض بسرعة وجمعوها بإحكام مع بعضها بمسامير حديدية، وارتفعت على الفور آلة حربية ذات ارتفاع كبير أمكن من قمتها رؤية المدينة بأسرها، وكان بالإمكان إرسال السهام والقذائف المتعددة الأنواع من هذا المركز المناسب، وذلك في حين ساعدت الأحجار التي تم قذفها بالأيدي بدورها على دفع المدافعين إلى الخلف، وما أن أصبحت هذه الآلة الحربية جاهزةً حتى سويت الأرض الموجودة بينها وبين الأسوار وهكذا تم ربطها بشرفات الأسوار، وبدت هناك عندما أطلت على المدينة بأسرها وكأن برجاً تمت إقامته بشكل مفاجىء في ذلك الموقع نفسه.

أصبح الوضع الآن لا يحتمل بالنسبة للمحاصرين لأول مرة، حيث واجهوا المحنة الأخيرة بعدما استحال إيجاد أي علاج لتساقط الصخور والقذائف التي رميت بدون توقف من البرج المتحرك، وعلاوة على ذلك، لم يعد هناك أي مكان آمن ضمن المدينة يلجأ إليه المرضى والجرحى، أو يتمكن من الإنسحاب إليه الذين كانوا ما يزالون أقوياء ونشيطين ويضحون بأنفسهم دفاعاً عن الآخرين وذلك بهدف الإستراحة بعد الأعمال التي كانوا يؤدونها.

وإضافة لذلك منعوا الآن من المرور جيئة وذهاباً حول الشرفات ولم يتمكنوا من نقل المساعدة إلى زملائهم الذين كانوا يسقطون دون تعرضهم لخطر الموت، حيث عدّت الأسلحة وأساليب الهجوم التي كان يستخدمها المقاتلون الموجودن في الأسفل بأنها شيء تافه أو لا شيء بالنسبة إلى المخاطر المتعددة التي تعرضوا لها من المقاتلين المتمركزين في البرج، وبدت الحرب كأنها حرب مع الآلهة أكثر من كونها حرباً مع بني البشر، وكان زنكي قد وعد بصدق أن يحضر لمساعدتهم، وهكذا عاشوا في البداية وحتى تلك اللحظة ذاتها على أمل الإعتقاد أنه سينفذ وعده، إلاّ أنه في وجه المخاطر العظيمة تبدد كل أمل بالنجدة، واختفت فرص الدفاع وضاعت.

١١ ـ وصول ممثل لكنيسة روما، ومتابعة سيره إلى موقع الحصار. الإستيلاء على المدينة ورسم أسقف عليها. عودة جميع الأمراء إلى القدس.

أثناء متابعة أعمال هذه الحملة وصل ممثل لكنيسة روما إلى صيدا وهو ألبير كوس أسقف أوستيا وكان فرنسي المولد من أسقفية بوفيس، وقد أرسل بمهمة خاصة للتحقيق في الإضطراب الذي كان قد نشأ في كنيسة أنطاكية بين السيد البطريرك وكهنته، وكان بطرس رئيس أساقفة ليون ـ وهو رجل ذو حياة مبجلة ـ قد أتى قبل وقت قصير من هذا إلى سورية بصفة مبعوث حول هذه المسألة ذاتها، إلا أنه توفي ولم ينجز المهمة الموكولة إليه، ولهذا السبب جرى تعيين ألبير كوس محل رئيس الأساقفة المبجل المذكور منذ لحظات، وذلك لحل الخلاف حلاً مناسباً كما سيتم سرد ذلك في وقت لاحق، وعندما علم الأسقف ألبير كوس أن الجيش المسيحي بأسره كان ما يزال منشغلاً في حصار بانياس، وأن وليم بطريرك القدس وفولتشر رئيس أساقفة صور وأمراء المملكة الآخرين كانوا هنالك، بادر مسرعاً إلى هناك بقدر ما أمكن، وعلى الرغم من أن المسيحيين لم يترددوا في مشروعهم بل كانوا خلافاً لذلك يواصلونه بحماسة، فقد أعطاهم تأييد هذا الرجل الحكيم وبركة السلطة الرسولية زخماً إضافياً، وقد منحتهم أقواله الناصحة حافزاً إضافياً، وألهبتهم رغبة بمهاجمة المدينة بقوة أكثر أيضاً.

استمر في هذه الأثناء الذين كانوا أسند إليهم العمل في الآلات الحربية، بالضغط بقوة عى المحاصرين بدون توقف حيث لم يتركوا لهم أية فرصة للراحة، فواجهوا ذعراً متزايداً وخوفاً من الخطر وذلك بالإضافة إلى وضع الإرهاق المزمن الذي كانوا مصابين به، وكان عددهم يتناقص باستمرار حيث كان بعضهم قد سقط طعمة للسيف وبعضهم الآخر يعاني من جراح مميتة، وانهار الآخرون بسبب الإنهاك التام حتى أنه لم يعد بإمكان المدافعين الإستمرار في صد الهجمات كما كانوا يفعلون ذلك من قبل.

وكان أنر حاكم دمشق والقائد العام للجيش، رجلاً حاد البصيرة، التزم بصدق بالشروط الصارمة للمعاهدة التي كان قد عقدها معنا، وقد أدرك المأزق الذي كان العدو يعيشه، وكان يعرف أيضاً: «أن المحنة تقنع المرء دائماً بالإصغاء وأن البؤس المتراكم ميال لدفع ضحاياه إلى قبول أقسى الشروط». وهكذا، وضع هذا القول حرفياً للإختبار، وأرسل بصورة سرية عدداً من أتباعه ليدعو الناس إلى الإستسلام حتى يتمكنوا من إنقاذ أرواحهم، وللوهلة الأولى رفض سكانُ المدينة المحاصرون الفكرة باشمئزاز وتظاهروا أنه يمكنهم الصمود لفترة أطول من الزمن، وكأنهم ما يزال عندهم أمل بمزيد من المقاومة ومع ذلك قبلوا في النهاية الشروط المفروضة وبجشع كبير إلاّ أن حاكمهم الذي كان نبيلاً قوياً، والذي

كانوا يدعونه باسم أمير أضاف شرطاً إلى الشروط المعروضة خشية وقوعه في الفاقة، وطلب لدى مداولته لأمر تسليم المدينة أن يُمنح تعويضاً ما يقدره له رجل عادل، حيث بدا مخزياً وشائناً أن يطرد سيد نبيل حاكم سابق لمدينة عظيمة من ممتلكاته الموروثة ويضطر إلى التسول، وبدا المطلب معقولاً وعادلاً تقريباً بالنسبة لأنر، ولذلك ضمن تلبية هذا الطلب، لأنه كان مصمماً تصميماً مطلقاً على نقل المدينة إلى سلطتنا بالسرعة الممكنة، وكان الشرط على النحو التالي: «وجوب تخصيص دخل سنوي للأمير يكون مقداره حسب ما هو متفق عليه بين الطرفين يُدفع من عائدات الحمامات والبساتين، وأن يتم أيضاً الحصول على ترخيص بحرية الرحيل بالنسبة للسكان الراغبين بذلك مع جميع أمتعتهم، ووعد بملكية آمنة وفقاً لشروط جيدة للذين كانوا يفضلون البقاء هناك أو في ممتلكاتهم سواء أكانت في المدينة أو في الريف بشكل مؤقت أو دائم بدلاً من الذهاب إلى مكان آخر وذلك عند تقديم عهد الولاء.

استقبل الملك وبقية المسيحيين هذه التسوية بالتأييد، واستعد جميع السكان لتسليم المدينة دون تأخير، ثم بسط أنر الحقائق بطريقة ودية أمام الملك والبطريرك والأمير والكونت وذلك بعدما أدرك أن المفاوضات وصلت إلى مرحلة الانسجام المنشودة، وأوضح أن المسألة قد سويت بكل تفاصيلها، وشرح بدقة كافة تفاصيل المفاوضات السرية التي كان قد أجراها وحثهم بكل الفصاحة التي كان يمتلكها على الموافقة على المعاهدة، فوافقوا على الشروط بدافع الاحترام للحكمة والولاء الصادق للرجل وقدموا موافقتهم على الاتفاقية ووعدوا بالعمل بكل الإخلاص وفي جميع النواحي حسب الترتيبات التي كان قد أعدها.

وهكذا سمع لدى استسلام المدينة لسكانها بمغادرتها مع زوجاتهم وأبنائهم وسائر ممتلكاتهم دون إعاقة، ورحلوا إلى الموقع الذي اختاروه[1].

وحالما انتقلت المدينة إلى سلطة المسيحيين اختاروا آدم رئيس شماسة عكا أسقفاً لها، وذلك وفقاً لاقتراح البطريرك وبموافقة ومصادقة فولتشر رئيس أساقفة مدينة صور، والذي كانت كنيسة بانياس تنتمي بالتأكيد إلى سلطانه وفق حقوقه، وأوكلت إلى آدم العناية الروحية بالمؤمنين الذين رغبوا بالبقاء هناك، هذا وأعيد السلطان القضائي المؤقت إلى رينير المكنى بروس الذي انتزع منه بالقوة قبل مضي بضعة أعوام.

ثم أسرع الملك برفقة أمير انطاكية والبطريرك والممثل البابوي إلى القدس لتقديم صلاة الشكر والأضحيات المهيبة للرب، وتريث الأمير بضعة أيام هناك لتأدية الصلوات

---

(١) استمر الحصار لمدة شهر تقريباً، وذلك بدءاً من /٢٠/ أيار وحتى إلى /١٢/ حزيران من عام ١١٤٠، وسلمت المدينة إلى أنر، الذي أعطاها بدوره إلى المسيحيين حسب الوعد (تاريخ دمشق: ٢٥٩ ـ ٢٦١).

المألوفة ثم عاد إلى أنطاكية، وحاول قبل رحيله التأكد من نوايا الممثل البابوي بخصوص بطريرك مدينته، وأكد له أن بإمكانه أن يثق تماماً بتأييده الخاص، وتوسل إليه أن يحضر إلى أنطاكية دونما تأخير، وكان الممثل البابوي قد أرسل، كما ذكرنا من قبل، للتحقيق في بعض التهم التي وجهت إلى البطريرك من قبل بعض الذين كانوا في كنيسته ولحل المسألة حلاً مناسباً.

حان الوقت الآن لشرح ما تم قوله حول هذا البطريرك، ولكي يتسنىٰ فهم هذا الأمر بسهولة أكثر، من الضروري أن نعود إلى مرحلة مبكرة تقريباً في القصة.

١٢ ـ أمير أنطاكية يتآمر مع خصوم بطريرك تلك المدينة. البطريرك يذهب إلىٰ روما. أسره من قبل روجر دوق أبوليا. إجراء مصالحة بينهما. البطريرك يصل إلى روما في آخر الأمر.

عندما أتى اللورد ريموند إلىٰ انطاكية للمرة الأولىٰ حتى قبل زواجه من عروسه المقررة له، أدىٰ يمين الولاء لرالف الذي كان آنذاك يترأس كنيسة انطاكية وذلك ليتمكن بسهولة أكثر من الفوز بهدفه المنشود، ووعد بشرفه ـ حسب صيغة إظهار الولاء ـ أنه لن يفعل من ذلك اليوم فصاعداً أي شيء ـ سواء أكان بالنية أو بالفعل ـ يمكن أن يفقد البطريرك احترامه أو حياته أو نفوذه، أو يحتجزه في أسرٍ مذل، إلا أنه لم يلتزم بهذا اليمين ولا حتى لفترة قصيرة من الزمن، بل علىٰ العكس، فما أن فاز بزوجته، وحصل علىٰ السيطرة علىٰ سائر البلاد من خلال الاهتمام والجهود التي بذلها البطريرك، حتى تحالف مع خصوم البطريرك وقدم لهم المساعدة والمشورة لإلحاق الأذىٰ بالبطريرك، خلافاً لقسم الولاء الذي كان قد قطعه على نفسه.

واصل أعداء البطريرك وقد حصلوا على هذه المساعدة والفرصة المواتية خططهم المعادية وبوقاحة أكثر وذهبوا إلىٰ روما. وتصدر خصومه كلّ من لامبرت رئيس شماسة تلك الكنيسة ذاتها، وكان رجلاً صاحب شخصية مبجلة وذا ثقافة جيدة، إلا أنه كان لا يمتلك أية خبرة في الأمور المدنية، أو لم يكن لديه سوى خبرة قليلة بها، وشخص آخر يدعىٰ آرنولف وكان رجلاً متعلماً ومن منزلة نبيلة وكان متمكناً بشكل جيد من القضايا الدنيوية، وكان من مواليد كالبيرا، وانطلق هذان الرجلان إلى روما بموافقة الأمير ومصادقته للشكوى إلى البابا، وأجبر الأمير البطريرك علىٰ الذهاب إلىٰ هناك أيضاً رغماً عن أنفه.

رتبت الأمور بهذا الشكل بحيث انطلق آرنولف وسلك طريقاً قصيرة إلى صقلية والتحق هناك بأقاربه ورفاقه لأنه كان من مواليد كالبيرا وأصبح فيما بعد أسقفاً لكوسنزا.

(لأنه كان، كما قلنا، رجلاً صاحب منزلة عالية جداً). وذهب إلىٰ روجر دوق أبوليا[1] الذي كان يعرفه بشكل جيد وقال له: «أيها الأمير اللامع، إن عدوك اللدود الذي حرمك وورثتك من أنطاكية إلىٰ الأبد وذلك دون مراعاة للقانون، وعين فيها رجلاً مجهولاً، قد وقع بين يديك كما كنت ترغب وذلك بدون ثمن، انتبه إن الرب قد سلمك بطريرك أنطاكية، وإن آثامه الكثيرة قد جلبته إلى هنا، لذلك انهض وفكر بالطريقة التي يمكنك فيها اعتقاله بالشكل الأمثل، وكنت متأكداً أن الطريق قد تنفتح ثانية بواسطته أمامك لترث ميراثك الشرعي والقانوني الذي حرمك منه هذا الرجل ظلماً.

وأثرت هذه الأقوال بالدوق، سيما وأنه كان داهية ورجلاً ماكراً، فأمر علىٰ الفور بنصب كمائن سرية وبشكل حذر في جميع المدن الساحلية بحيث يمكن إلقاء القبض علىٰ البطريرك لدىٰ وصوله، وتكبيله بالسلاسل وإرساله إلىٰ صقلية فوراً. وهكذا، عندما نزل رالف في برنديزي بعد رحلة ميمونة، وهو لا يخشىٰ شيئاً من هذا القبيل، نُفّذت أوامر الدوق، وتم الاستيلاء علىٰ جميع المقتنيات التي كان قد جلبها معه بصفته أميراً قوياً، وشتت حاشيته وتم تكبيله وسلم إلى آرنولف نفسه ليجري سحبه إلى صقلية ليتم من ثم نقله إلىٰ الدوق، وهكذا، أتيحت الفرصة لآرنولف للمرة الأولىٰ ليطلق العنان لحقده ضد رالف، مضطهده الشرعي ولينتقم منه انتقاماً مضاعفاً عن جميع الشرور التي كان قد عانى منها علىٰ يديه.

وأخيراً جلب البطريرك للمثول أمام الدوق، فجرى حوار ودي بين الاثنين، وكان رالف رجلاً حكيماً له مظهر وسيم وكان يتمتع بفصاحة في الحديث، واسترد أخيراً جميع ما كان قد فقده وذلك وفق شروط محددة؛ كما أعيدت حاشيته إليه أيضاً، ووعد من جانبه بأنه سيزور الدوق مجدداً لدىٰ عودته، ثم ودّع بكل الاحترام وواصل رحلته إلىٰ روما.

وتعرض عند وصوله إلىٰ هناك في أول الأمر إلى مصاعب في الحصول علىٰ مقابلة البابا؛ وكان يعتبر بمثابة مضطهد للكنيسة وأنه شخص كان يرغب بالتقليل من تفوق سمو المقر الرسولي وانتهاك حرمته بإقامة مقر منافس والإدعاء بأنه مساو للمقر الموجود في روما، ونتيجة لهذا وبما أنه كان متهماً بالطعن في الذات الحبرية، فقد منع من الدخول إلىٰ القصر المقدس ومقابلة البابا.

---

(١) كان البابا آنا كليتوس الثاني قد توج روجر الثاني ملكاً على صقلية في عام ١١٣٠، واعترف البابا انوسنت الثاني بلقبه في معاهدة ميغنانو في ٢٥ تموز عام ١١٣٩، وليست واضحة هنا الأسباب التي يفضل فيها ولم لقب دوق أبوليا.

١٣ - اتهامه من قبل أعدائه، غير أنه عاد في النهاية إلى أراضيه مع الحظوة التامة.

كان البابا والكنيسة بأسرها ميالين للاستفادة من أية فرصة موائمة لتعقيد الأمور بالنسبة للبطريرك، بينما أبديا التأييد التام لخصمه، لقد نظرا في الواقع بارتياب إليه لأنه كان رجلاً غنياً ومهيباً، رفض الاعتراف بأن كرسي انطاكية الذي كان يشغله، كان تابعاً للكنيسة في روما، لا بل على العكس، أكد أنه مماثل لكرسي روما في جميع المجالات، وقال في هذا الصدد أن كليهما كانا كنيسة بطرس، إلا أن كنيسة انطاكية تميزت بخصائص المولود الأول، وهكذا، حاولوا إثارة غضبه بمختلف الطرق[1].

وتوسط في النهاية بعض الوسطاء، المحبين للطرفين، لمصلحة البطريرك وفتحوا الطريق له؛ وسمح له، من خلال الأدوار اللطيفة التي شغلوها، بالمثول أمام حضرة البابا محاطاً بحاشيته في اجتماع مهيب، ورافق استقباله أبهة عظيمة، فانتهز خصماه الفرصة واتهموه علانية، وجاء ذلك بعد أن ظهر عدة مرات في المجلس الكنسي، وعرضت الاتهامات وأعدت الترتيبات بكل رزانة القانون للتوجه نحو المحاكمة.

وكانت المحكمة بأسرها تعرف تماماً أن المتهمين لم يكونا مستعدين بشكل كاف ليكونا قادرين بشكل تام على إقناع البابا ومساعديه بخصوص الاتهامات، ولذلك اقترح أن يرتاح الفريقان حتى يتمكن البابا من جانبه من إرسال شخص ما إلى انطاكية ليحصل هناك على شهود وإثباتات يمكن بوساطتها إثبات الحقائق الكاملة للقضية، وتخلى البطريرك في هذه الأثناء عن الطيلسان الذي كان قد ارتداه عند تفويضه من مذبح الكنيسة في انطاكية وذلك دون مراعاة لرضى المقر الرسولي كما جاء بالادعاء وأعطاه للكرادلة ثم ألبسه رئيس الشمامسة وبالطريقة المألوفة طيلساناً آخر أخذ من هيكل بطرس المبارك.

بقي البطريرك في روما لفترة من الزمن، بقدر ما بدت أموره تتطلب وجوده هناك، ثم استأذن بالانصراف وهو ينعم بالحظوة التامة والأمان بالنسبة لكل ما تعلق بالقضية وعاد إلى صقلية واستقبله الدوق روجر بإجلال، ودارت بينهما أحاديث مستمرة ومناقشات ودية حول مسائل ضرورية كثيرة، ثم زوده الدوق بعدد من الشواني كافية للرحلة وأبحر متوجهاً إلى سورية برفقة رياح مواتية، ونزل في المكان المعروف عموماً باسم ميناء القديس سمعان

---

(١) يجب اعتبار هذا الشك عن البلاط البابوي حول إذعان البطاركة اللاتينيين في الشرق بأنه عامل فعال في السياسة البابوية نحو الكنائس اللاتينية في سوريا، ويقيناً دفع الباباوات بسهولة أكثر إلى استثناء المنشآت الكنسية في الأرض المقدسة من السلطان البطريركي المحلي، أكثر مما كان يحتمل لآخرين أن يفعلوا.

(السويدية) الذي يبعد نحو عشرة أميال تقريباً عن أنطاكية عند منصب نهر العاصي الذي يجري بمحاذاة تلك المدينة.

١٤ - رجال الدين التابعون للبطريرك يرفضون استقباله لدى عودته بتحريض من الأمير. انسحابه إلى بلاد كونت الرها. مصالحته أخيراً مع الأمير وعودته إلى انطاكية.

كتب السيد البطريرك إلى كنيسته ساعة وصوله إلى سورية المجوفة - كما تم ذكر ذلك - مبدياً رغبته بوجوب قيام موكب مهيب بمقابلته في يوم محدد وفي مكان مخصص خارج المدينة، إلا أن شعبه كان مدركاً تماماً أن الأمير كان يطارده بكراهية متشددة وبتحدٍ لقسم الولاء الذي كان قد حلفه وبناء عليه وتماشياً مع رغبة الأمير رفضوا علناً طلبه أو إطاعته كبطريرك لهم، وحرموه في الواقع حتى من دخول المدينة بسبب عنف الأمير، وعندما لاحظ خبث رجال الدين التابعين له والكره الذي أظهره له الذين كان يستحق منهم معاملة مختلفة جداً، وحنق الأمير المتصلب أيضاً انسحب إلى المنطقة الهضبية الواقعة بالقرب من المدينة والمعروفة عموماً باسم الجبل الأسود. وبقي هناك لفترة من الزمن في الأديرة الكثيرة في ذلك الموقع، وكان يأمل بإمكانية استدعائه إلى المدينة عندما يكون قد خفّ حقد الأمير ورجال الدين، وعندما تكون قد سادت مشاعر أكثر إيجابية.

إلا أن الأمير استمر في إظهار عداوته بشكل أكثر علانية من قبل لأن آرنولف كان قد أرسل إليه أخباراً من صقلية عززت كراهيته وأعطتها زخماً إضافياً أيضاً، فقد كتب إليه أن البطريرك كان قد عقد حلفاً سرياً ضد الأمير مع خصمه الدوق روجر وإثباتاً لهذا، زعم أن الدوق كان قد حمّل البطريرك بالهدايا والخلع لدى عودته عبر صقلية، وزوده أيضاً بالشواني اللازمة للرحلة[1]. وساهمت جميع هذه الظروف بشكل طبيعي في إقناع الأمير أن هذه المعلومات كانت صحيحة.

وبينما كان البطريرك مقيماً في الأماكن المذكورة منذ لحظات، قدم إليه رسل خاصون من جوسلين الأصغر كونت الرها، وبما أن الأمير كان يشعر بالكراهية تجاه الأمير وبالود للبطريرك، أرسل دعوة عاجلة إلى البطريرك ليحضر مع جميع حاشيته من أجل زيارته، وأن

---

(١) لقد ازدادت هكذا متاعب رالف، التي ربما كانت ذات أهمية كنسية محلية صرفة - كثيراً لتدخل مسرح الخصومة السياسية بين صقلية والامبراطورية الاغريقية. ويشير ابن القلانسي إلى النزاع بين الأمير ريموند والبطريرك في عام ١١٣٨، ويفسره على أساس أن ريموند كان قد وافق على مطلب الامبراطور يوحنا لإعادة بطريرك اغريقي في انطاكية (تاريخ دمشق ص ٢٤٥ - ٢٤٦).

يشعر بثقة وأمان تامين في تنفيذ هذا لأن أساقفة تلك المنطقة أي رؤساء أساقفة الرها وقورس ومنبج كانوا يؤيدون قضية البطريرك ويبجلونه بورع كسيد وأب لهم، فأدخلت هذه الدعوة السرور إلى نفس البطريرك. وانطلق إلىٰ هناك حيث استقبله جميع رجال الدين في تلك المنطقة بإجلال رفيع، ونفذ الكونت وعده أيضاً، ورحب بمقدمه بسرور وبروح ورعة ولطيفة.

أعاد الأمير في آخر الأمر البطريرك إلىٰ رعايته عن طريق توسط أصدقاء مشتركين، غير أن صلح الأمير مع البطريرك كان صلحاً من الشفتين ولم يكن صلحاً صادراً عن القلب حيث يقال إنه اندفع لعمل ذلك لاعتبارات مالية. وأخفى الأمير الدوافع الخفية تحت كلمات استرضائية، وأرسل مع مندوبين دعوة ودية إلى البطريرك للعودة إلى المدينة واستئناف عمله.

استعد البطريرك للعودة حال استلامه هذه الرسالة، وأخذ معه أساقفة تلك المنطقة الذين كان قد اختبر إخلاصهم الضروري له في محنته ببراهين ثابتة، وعاد من ثم إلىٰ انطاكية، ولم يستقبله عند وصوله كافة رجال الدين والناس فقط، بل كان بينهم الأمير نفسه مع مجموعة كبيرة من الفرسان. ثم قيد وهو يرتدي أثوابه الأسقفية إلىٰ المدينة بمرافقة التراتيل والأناشيد الروحية، وانتقل بعدها إلىٰ الكنيسة الضخمة ومن ثم إلىٰ قصره.

١٥ ـ موت الممثل الباباوي، رئيس أساقفة ليون في عكا. ارسال ألبيركوس أسقف أوستيا إلى هنا. توجيه الدعوة لعقد مجمع كنسي في أنطاكية.

وصل في هذه الأثناء إلى سورية بطرس رئيس أساقفة ليون ونزل في عكا، كان البابا انوسنت قد أرسله كممثل لكنيسة روما ليحل قضية البطريرك حلاً مناسباً، وكان بيرغندي المولد، ورجلاً صاحب حياة ورعة كما كان بسيطاً يخاف الرب، إلا أنه كان متقدماً في السن وفي بداية سن الشيخوخة.

وتوجه بطرس إلى القدس لإقامة الصلاة فور وصوله إلى سورية، ثم غادر القدس استجابة لالتماس عاجل قدمه آرنولف ولامبرت لكي يسرع إلى انطاكية لوضع حد للقضية، فعاد سالكاً الطريق القصير إلى عكا، لكنه أصيب بمرض خطير قبل أن يتمكن من التقدم لمسافة أبعد من ذلك، وتدهورت صحته بسرعة ثم توفي، وأشيع أن وفاته كانت نتيجة سم دس في شراب قدم إليه[1]. وهكذا، وجد أعداء البطريرك، الذين كانوا قد أسرعوا إلىٰ

(١) كان هذا شرحاً إيجابياً لوفاة مسؤول هام في الخلافات، وخاصة في دول عالم البحر المتوسط. يمكن للطب الحديث أن يشخص وفيات كثيرة كهذه بأنها ناشئة عن مرض حمى التيفوئيد أو أمراض مَعوية أخرىٰ مع أعراض حادة، هذا ومن اليقين أنه كانت هنالك حالات كافية من التسمم الحقيقي لتضفي المعقولية على ـ

أنطاكية أنفسهم مصابين بخيبة أمل ومحرومين تماماً من المساعدة التي كانوا قد توقعوا الحصول عليها من قدوم الممثل البابوي، ونظراً لإنهاكهم من متاعب الرحلة التي قاموا بها والمشاق التي كانوا قد تحملوها لفترة طويلة من الزمن، فقد طلبوا السلام عن طريق وسطاء حكموا بأنهم موائمون تماماً لتلك المهمة، واعترفوا باستعدادهم لسحب اتهاماتهم وإظهار الولاء، وتوسلوا أن تعاد مراتبهم الكنسية إليهم، وأعيد إلىٰ لامبرت منصبه كرئيس للشماسة، إلا أن آرنولف لم يلاق أية رحمة؛ وهكذا، استعد لمباشرة مشاق الرحلة مجدداً معتمداً على مساعدة الأمير، وانطلق إلى روما وكرر اتهاماته في كل مناسبة وبلا مناسبة، وحصل في آخر الأمر وبواسطة مثابرته الشجاعة على امتياز وجوب إرسال الممثل البابوي، الذي نتكلم عنه، إلىٰ سورية؛ فوصل إلىٰ القدس، كما كنا قد ذكرنا، واستدعىٰ بعد أن أتم صلواته البطريرك وجميع أساقفة المنطقة إلىٰ مجمع كنسي يُعقد في انطاكية في الأول من شهر كانون الأول، وذهب بنفسه بالسرعة الكلية إلىٰ هناك[1].

١٦ - توجيه الاتهام للبطريرك في اجتماع الأساقفة. استدعاؤه لكنه تقاعس في القدوم. سيرلو رئيس أساقفة أفامية يأخذ دوره.

اجتمع في اليوم المحدد في أبرشية القدس كل من البطريرك وليم وغودنتيوس رئيس أساقفة قيسارية وأنسلم أسقف بيت لحم وفولتشر رئيس أساقفة مدينة صور المخلص بصدق لكنيسة روما، ووضع الممثل البابوي كل أمله في فولتشر لإنجاز مهمته بنجاح حيث كان رجلاً شهماً وحكيماً جداً، وجلب فولتشر معه اثنين من أساقفته المساعدين وهما برنارد أسقف صيدا وبلدوين أسقف بيروت، كما حضر جميع رجال الدين من منطقة انطاكية بسبب قربها إلا أن عواطفهم اختلفت ولم تكن متوافقة أبداً. وأيد ستيفن رئيس أساقفة طرسوس وجيرارد أسقف اللاذقية وهيو أسقف جبلة، قضية الشماسين ضد السيد البطريرك، إلا أن فرانكو أسقف بعلبك وجيرار أسقف قورس مع سيرلو أسقف أفامية وعرضوا علانية حمايتهم له كبطريرك، وكان سيرلو ضده في أول الأمر لكنه أيده فيما بعد، وكان آخرون يميلون إلىٰ الحياد ببساطة تامة.

= الشائعات الأكثر انتشاراً. ويعود تاريخ وفاته إلى ٢٨ أيار عام ١١٣٩ (انظر ر.روهرخت- تاريخ ملوك القدس ١١٠٠ - ١٢٩١ ص٢٢٣).

(١) جرى تدوين أعمال هذا المجمع التي تمت فيما بين ٢٩ - تشرين الثاني و٢ - كانون أول ١١٣٩، من قبل مانسي (انظر ج.د.مانسي سجلات المجامع المقدسة: ٢١/٥٠٣ - ٥٠٦، ٥٧٧ - ٥٨٠). ولا بد أن البابوية قد سارعت بالعمل لدى سماعها بوفاة بطرس رئيس أساقفة ليون.

في اليوم المحدد اجتمع رؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء أديرة الرهبان بصورة مهيبة تامة حسب ما جرت به العادة في كنيسة أمير الحواريين، وترأس مبعوث البابا الاجتماع كممثل للبابا، وقرأ الأمر البابوي علانية رئيس الشماسة وبعدما درست محتويات الأمر الباباوي بعناية وفهمت بشكل كامل تقدم المشتكيان آرنولف ولامبرت علانية، وانحنى لامبرت الآن كالقوس، وقدم نفسه للمرة الثانية كمشتك على الرغم من أنه كان قد تصالح بذكاء مع البطريرك من قبل واسترد بالتالي رتبته الكنسية، وانضم إليهما آخرون كثر وبهذا اتضح أن الظروف لم تكن مواتية للبطريرك، وظهرت هنا مصداقية القول المنسوب لأوفيد الذي أصبح الآن مثلاً:

ستحظى بأصدقاء كثر ما دمت ثرياً.
وستجد نفسك وحيداً إذا ما الدهر بك غدر [1].

ودخل المتهمون قاعة الاجتماع وأعلنوا بعد تقديم وثائق الاتهام، أنهم مستعدون لتقديم الاتهام حسب قواعد القانون، وأنهم مستعدون لتحمل العقوبة في حال إخفاقهم، وكانت الاتهامات، التي اعتزموا أن يوجهوها للبطريرك، مكتوبة على صفحات ورقية صغيرة، احتوت بعضها على إشارة إلى تعيينه الذي كان فوضوياً ومخالفاً للنظام وقواعد الآباء المقدسين، بينما تركزت الاتهامات الأخرى على آثامه الفاسقة وشراء المنصب الكهنوتي، وحيث أصر المهتمون على حضور البطريرك شخصياً، فقد جرى إرسال الرسل لاستدعائه بشكل رسمي لحضور المجمع الكنسي، وليحذروه بأن يحضر وهو مستعد للإجابة على الاتهامات المقدمة ضده. لكنه رفض القدوم بشكل قاطع.

وهكذا، لم ينجز في ذلك اليوم أي شيء باستثناء حصول حديث عام واستشارات متبادلة كما هو مألوف في اجتماعات كهذه، واجتمعوا في اليوم التالي مجدداً واحتلوا أماكنهم بترتيب واستدعي البطريرك من جديد بشكل رسمي بموجب مرسوم دعوة للمثول أمام القضاء؛ ورفض القدوم بشكل قاطع كما فعل في اليوم السابق.

كان سيرلو رئيس أساقفة أفاميا قد جلس خلال هذا الوقت في اجتماع الأساقفة دون رداء الارتباط بالكنيسة (لأنه لم يكن مرتدياً أثوابه الأسقفية كالأساقفة الآخرين). وعندما سأله الممثل الباباوي عن سبب مخالفته للإخوان الآخرين وعن سبب عدم مواصلته الاتهام كما كان قد فعل من قبل، أجاب قائلاً: «لقد صدر عملي السابق في لحظة حماسة طائشة استجابة لخسارة إنقاذ روحي وكنت بذم أبينا كحام الملعون الذي فضح خزي والده، إلا أنني أتبرأ

(١) أوفيد Tristia, I, VIII, 6.

الآن بمساعدة الرب من خطأ أساليبي، ولن أحاول اتهامه أو الانتقاص من مقامه. وعلى العكس، فإنني مستعد لأن أحارب من أجل سلامته وسعادته حتى الموت».

أمر عند ذلك بالرحيل فوراً، وصدرت بحقه عقوبة التجريد من منزلته الكنسية والحرمان الكنسي سواء أكان يستحق ذلك أم لا، وجرد من كامل المنصب الكهنوتي والأسقفي، وأصيب الجميع بخوف شديد من الأمير لدرجة تأثرت فيها حتى نزاهة الممثل البابوي، ولم تمنح الآن أية فرصة للتكلم بشكل معارض، وقام شحنة قلعة المدينة، الذي يدعىٰ بطرس الأرميون، بإثارة سخط الأمير الذي كان يفتقر إلىٰ الحكمة أو التعقل وتحريضه، وأملىٰ بطرس، الذي كان مكره يفوق الحدود، أنه يمكن إقناع الأمير بتعيين ابن أخته بطرس ايمري في ذلك المنصب إذا ما تم خلع البطريرك، وكان بطرس ايمري رجلاً عينه البطريرك ـ لهلاك نفسه ـ شماساً في تلك المدينة نفسها. وثبت أن النتيجة أصبحت حسب ما كان قد أمل بتحقيقه.

وسواء أكان خلع سيرلو حقيقياً أو حتى شرعياً أم لا، فقد غادر أنطاكية علىٰ الفور، وانطلق إلى ابرشيته، وأصيب بالمرض عند وصوله إلىٰ قلعة حارم بعدما أثقلت كاهله هموم كبيرة، ونقل إلىٰ فراشه فأشاح بوجهه إلىٰ الحائط وتوفي لأنه لم يتمكن من تحمل آثامه الكثيرة.

١٧ ـ خلع البطريرك أثناء غيابه لتمرده. زجه في السجن ومعاملته بصورة مخزية. عودته مجدداً إلى روما وحصوله على حظوة جزئية، موته مسموماً أثناء عودته إلى البلاد.

انعقد الاجتماع مجدداً في اليوم الثالث، وأرسلت الرسل، بعدما احتل المطارنة أماكنهم، للمرة الثالثة لاستدعاء البطريرك بأمر نهائي للقدوم والإجابة عن التهم الموجهة ضده، فجدد رفضه المطلق للاطاعة كما فعل من قبل ولم نتمكن أن نعرف بيقين فيما إذا كان وخز الضمير قد دفعه إلىٰ هذا السلوك، أو لأنه خشي من عنف الأمير حيث كان مدركاً تماماً أن المجمع الكنسي بأسره كان مُجمعاً على النيل منه، ومع ذلك، مكث مع أسرته في قصره الذي كان مكتظاً بحشد كبير من الفرسان وعامة الناس، فقد خرجت المدينة بأسرها لمساعدته ولو لم يكن الناس قد خافوا من بطش الأمير لأقدموا على طرد الممثل البابوي من المدينة بصورة مذلة مع جميع الذين كانوا قد وافقوا علىٰ خلع البطريرك.

أدرك الممثل البابوي أن البطريرك لن يحضر إليه، ولذلك ذهب بنفسه إلى القصر معتمداً علىٰ حماية الأمير القوية، وأعلن هناك عن عقوبة الخلع علىٰ البطريرك وأجبره بالقوة

على التخلي عن الخاتم والصولجان، ثم أمر بتسليمه إلى الأمير، وأرسل الأسقف، بعدما اقتيد بشكل مخزٍ وعومل بإذلال وكأنه مجرم، إلى سجن في دير القديس سمعان الواقع على جبلٍ عالٍ بالقرب من البحر.

وكان اللورد رالف هذا، الذي رأيته عندما كنت شاباً، رجلاً طويلاً وأنيقاً وأحول العينين بعض الشيء، لكن ليس إلى حد كبير يجعله قبيحاً[1]. وعلى الرغم من أن ثقافته كانت قليلة فقد كان خطيباً فصيحاً، وكان صاحب حديث لبق ومستساغ، وكانت طبيعته السمحة قد حققت له تأييداً كبيراً، لكنه كان رجلاً كثير النسيان لوعوده واتفاقاته وكان متقلباً ومتردداً في أقواله وكان حذقاً وماكراً في جميع أساليبه، ومع ذلك، فقد كان حكيماً ومتعقلاً، وأبدى افتقاراً للحكمة في ناحية واحدة فقط وهي أنه رفض استقبال خصوم - كان قد أثارهم بحق ضده - عندما أعربوا عن رغبتهم بالعودة لخدمته، وسمي متعجرفاً (وكان كذلك بالفعل) كما كان وقحاً بشكل يفوق الحدود، ولهذا السبب وقع في هذه المحنة التي كان بإمكانه أن يتجنبها بسهولة لو كان قد تصرف بتعقل أكثر إلى حد ما؛ فنقل إلى ذلك الدير واحتجز فيه سجيناً لفترة طويلة من الزمن؛ إلا أنه هرب في آخر الأمر وتوجه إلى روما حيث حصل على درجة محددة من الحظوة من البابا، لكنه توفي بشكل محزن عندما كان يستعد للعودة، وذلك عندما تناول شراباً مسموماً قدمه له مرتزق مجرم مجهول، لقد أصيب تماماً مثل ماريوس، في شخصه فكل ما يستطيع أن يفعله القدر يفعله سواء أكان جيداً أم سيئاً.

١٨ - عودة الممثل الباباوي إلى القدس، وعقده مجمعاً كنسياً وتكريسه هيكل الرب أيضاً

عاد المبعوث البابوي إلى القدس بعدما كان قد خلع البطريرك وأنهى المهمة التي كان قد قدم إلى انطاكية من أجلها، فبقي هناك حتى نهاية احتفالات عيد الفصح، ثم تداول مع أساقفة الكنائس وكرس بإجلال في اليوم الثالث بعد عيد الفصح المقدس هيكل الرب بمساعدة البطريرك وبعض الأساقفة.

وكان هنالك عدد كبير من الرجال والنبلاء والعظماء في يوم التكريس قدموا من المناطق الواقعة فيما وراء الجبال إضافة إلى القادمين من البلدان الواقعة على هذا الجانب من

---

(١) هذه الرواية ذات أهمية خاصة في المساعدة على حساب عمر وليم ومن الصعب تحديد الزمن والمكان الذي رآه فيها وليم. لأنه لا بد أن يكون قد تم ذلك في القدس قبل زمن سجنه، أي قبل عام ١١٤٠. ولا بد أن فترة سجنه كانت أقل من عام، لأنه ذكر أنه توفي في روما في عام ١١٤١.

البحر ؛ وكان بينهم جوسلين الأصغر كونت الرها الذي كان مقيماً في المدينة مع إبداء لمظاهر كبيرة من الأبهة خلال الأيام الجليلة لعيد الفصح المقدس.

جمع الممثل البابوي، بعد انتهاء الاحتفال، رؤساء الأساقفة والأساقفة وكهنة آخرين من الكنيسة وعقد مع البطريرك مجمعاً في كنيسة صهيون المقدسة، الأم الأولىٰ للكنائس، ورغب أن يتداول معهم حول مسائل بدت ذات صلة وثيقة بالموضوع في ذلك الوقت بشكل خاص، وحضر هذا المجمع الكنسي كل من مكسيموس أسقف أرمينية، أو بالأحرىٰ رئيس جميع أساقفة كبدوكية وميديا وفارس والأرمينيتين (الصغرى والكبرى) وكان بين الحضور في المجمع معلم مشهور يدعىٰ الجاثليق، ونوقشت معه بنود العقيدة التي بدا أن أتباعه يختلفون بها عنا في كثير من الجوانب[1]، ووعد بإجراء الإصلاح في نواح عديدة، وبعد انتهاء هذا الأمر حسب الشكل المألوف، عاد الممثل البابوي إلىٰ مدينة عكا، وأبحر من هناك متوجهاً إلىٰ روما.

انتخب رجال الدين في انطاكية ـ لاسيما الذين كانوا قد تآمروا على خلع اللورد رالف ـ شماساً من الكنيسة ذاتها يدعى ايمري بطريركاً مهماً، وفعلوا هذا وفقاً لتحريض الأمير واقتراحه حيث يقال إنه أثر عليهم بهبات سخية.

وكان ايمري رجلاً أمياً من إقليم ليموسين وكانت حياته بعيدة عن الاستقامة، وكان البطريرك رالف قد رقّاه إلى منصب شماس في كنيسته آملاً أن يضعه بهذه الطريقة تحت التزامات كبيرة، ويجعله بالتالي أكثر إخلاصاً لنفسه؛ غير أن هذا الأمل كان عقيماً حيث يقال إن ايمري تحالف منذ ذلك اليوم نفسه مع أعداء البطريرك، وأنه تآمر لخلع المحسن إليه وهو ناكر للإخلاص، وأما بخصوص مسألة ترقيته، فيقال إنها تمت بلجوء بطرس المكنى أرميون الذي كان شحنة للقلعة في المدينة ذاتها إلى الحيل والبذل السخي للهدايا لأنه وجه اهتمام الأمير ورجال الدين إلى ايمري الذي كان قريبه.

١٩ ـ الإمبراطور ينزل ثانية إلى سورية، استدعاء الأمير ومطالبته بتنفيذ الميثاق الجاري بينهما.

في هذه الآونة جنّد يوحنا، امبراطور القسطنطينية قواته مجدداً واستدعى فيالقه ووجه حملته وجيوشه مجدداً نحو سورية، وكانت قد انقضت أربعة أعوام تقريباً منذ أن غادر طرسوس في كليكية وسورية بأكملها، إلا أن رسائل ملحة ومتكررة وصلته من الأمير

(١) كان الأرمن، الذين كانوا عادة محبين للاتينيين على وشك عقد اتحاد ديني مع روما في عدد من المناسبات.

وسكان انطاكية حثته على الانطلاق، فشرع بالزحف نحو أراضي انطاكية برفقة قواته الجبارة مع الخيول والمركبات وثروات لا تحصى وقوات لا تعد.

أبحر الإمبراطور عبر البوسفور الذي يعدّ الحدّ المشهور بين أوربا وآسيا، ثم عبر الأقاليم الفاصلة الواصلة ووصل إلى أضاليا عاصمة بامفيليا وهي مدينة كبيرة تقع على الساحل، وبينما كان مقيماً في ذلك الموقع أصيب اثنان من أبنائه وهما ألكسيوس ابنه البكر واندونيكوس الابن الثاني له بمرض خطير أدّى إلى وفاتهما[1]؛ فاستدعى الإمبراطور فوراً اسحق ابنه الثالث وأعاده إلى القسطنطينية مع جثتي أخويه حتى يتمكن من إظهار التوقير الأخير للجثتين ويقوم بدفنهما حسبما يليق بالجلالة الإمبراطورية، وبعد انتهاء طقوس الدفن استمر اسحاق بناء على أوامر والده بالعيش في القسطنطينية وذلك حتى وفاة الإمبراطور.

ثم أخذ الامبراطور معه ابنه الأصغر مانويل وواصل رحلته عبر ايزوريا إلى كليكيه واجتاز هذه المنطقة بسرعة كبيرة، ولم يكن خبر تقدمه قد انتشر حتى كان قد زحف مع جميع جنوده إلى أراضي كونت الرها وعسكر بدون إنذار أمـام تل باشر، وتعدّ قلعة تل باشر هذه قلعة غنية جداً وتبعد نحو عشرين ميلاً عن نهر الفرات، أو ربما أبعد من ذلك قليلاً.

طالب الإمبراطور فور وصوله برهائن من كونت جوسلين الأصغر، فامتلأ الكونت بالدهشة والحيرة إزاء وصول الإمبراطور المفاجىء. واستجاب الأمير بحكم الاضطرار لدى رؤيته للجيش الجرار الذي بدا أنه ليس بإمكان أية مملكة في العالم مقاومته، وأيضاً بسبب حقيقة أنه لم يكن مستعداً مطلقاً للمقاومة وغير قادر على ذلك، وأرسل إحدى بناته وهي ايزابيلا رهينة للإمبراطور، وكان السبب الوحيد الذي دفع الإمبراطور لتقديم هذا المطلب هو تقييد الأمير بإحكام أكثر للوقوف بجانبه وجعله مخلصاً في تنفيذ أوامره، ثم قاد جيشه بأسره بسرعة إلى انطاكية وأقام معسكره في الخامس والعشرين من شهر ايلول بالقرب من بلدة تسمى قسطون[2].

أرسل الإمبراطور الرسل من هناك إلى الأمير. وطالب أن تسلم إليه المدينة مع القلعة وجميع تحصينات البلدة دون استثناء وذلك تمشياً مع شروط الاتفاقية التي تم التوصل إليها بينهما من قبل، ولكي يتمكن من شن الحرب على مدن العدو المجاورة من قاعدة مجاورة

---

(١) فقط الكسيوس لوحده قد توفي في أضاليا أما أندرونيكوس فقد توفي على طريق العودة إلى القسطنطينية أثناء مرافقة موكب الوفاة (انظر تشالدون ـ آل كومنين: ٢/١٨٣).

(٢) قسطون أو قسطين كان هو اسم القلعة التي احتفظ بها الداوية، وقد وصل يوحنا إلى هناك في ٢٥ أيلول من عام ١١٤٢.

موائمة، وأعلن أنه على استعداد بقدر ما يملك من قوة لتنفيذ الاتفاق المكتوب في ظل تفسير واسع لشروطه، زد على هذا، إضافة إجراءات جيدة وسخية وفقاً لطبيعة استحقاقات هذه الشروط.

٢٠ ـ السكان يرسلون مبعوثين إلى الإمبراطور يرفضون المعاهدة ولا يسمحون له بالدخول إلى المدينة.

كان ريموند أمير انطاكية قد أرسل من قبل عدة مرات رسلاً لدعوة الإمبراطور للقدوم إلى انطاكية[1]، لكنه وجد الآن نفسه في موقف حرج، وبما أنه عرف أنه كان ملتزماً بشروط الاتفاقية، فقد تردد بخصوص ما يتوجب عليه أن يفعله. ولذلك جمع الأعيان والقياديين في المدينة والمنطقة بأسرها وطلب نصيحتهم بخصوص المنحى المتوجب اتخاذه في أزمة خطيرة كهذه، فاتفقوا بالإجماع، بعد دراسة طويلة، أنه ليس من مصلحة المنطقة أبداً التخلي عن مدينة بمثل هذه الشهرة والقوة والتحصين ووضعها تحت هيمنة الإمبراطور وفقاً لأي اتفاق مهما كان نوعه، لأن نتيجة عمل كهذا، وقوع المدينة مع المنطقة بأسرها تحت سلطة العدو بسبب كسل الإغريق كما حدث أكثر من مرة من قبل.

ومع ذلك، وحتى لا يتهم الأمير بصورة ملحة بخرق العقيدة، فقد بحثوا عن ذريعة يتمكنون بها من تغطية هذا العمل كي لا يبدو عملاً غير جدير بالثناء، لأنه كان قد تم الاتفاق بينهما أثناء زيارة الإمبراطور السابقة ـ كما روينا ـ أنه ينبغي على الأمير تسليم المدينة إلى الملك دون اعتراض، زد على هذا، أن ريموند كان قد أرسل رسلاً بشكل متكرر يستعجل الإمبراطور للقدوم إلى سورية، وكان قد وعد أنه سيحافظ على ولائه بصورة جيدة نحوه، ولكي يسوغ أعيان المدينة موقف سيدهم في هذا العمل بعض التسويغ، صمموا على إرسال ممثلين إلى الإمبراطور وهم يتألفون من رجال مختارين من بين أعظم نبلاء المنطقة، توجب عليهم باسم بطرس المقدس والبطريرك وكافة السكان أن يمنعوا دخوله إلى المدينة، وأمروا بالقول أن الأعمال السابقة التي قام بها الأمير لا يمكن عدّها أعمالاً قانونية قائمة على الإطلاق، لأنه لم يكن متمتعاً بأية سلطة شرعية لعقد المواثيق بتلك الطريقة والتصرف في ميراث زوجته، وأنها هي أيضاً لم تكن مخوّلة أبداً لنقل الحكم إلى شخص آخر دون موافقة السكان والنبلاء، كما أن أياً من هذين الحاكمين ليس مخولاً بالتنازل عن أي قطعة من البلاد، وإذا أصر أحدهما أو كلاهما على هذه الخطة فسيؤدي ذلك بالتأكيد إلى طردهما من

---

(١) جرت مراسلات كثيرة بين أمير انطاكية والامبراطور، ودفع تقدم زنكي آنذاك ريموند ليدعو الامبراطور لا بل ليلح عليه بالقدوم. (انظر تشالدون ـ آل كومنين: ٢/١٨٦ ـ ١٨٧).

المدينة ومن سائر أنحاء مملكتهما، وسينفيان من الميراث الذي اقترحا بيعه بطريقة شرعية ووفقاً لخسارة كبيرة لرعاياهم[1].

أثارت هذه الكلمات غضب الإمبراطور، ومع ذلك أمر الجيش بالعودة إلى كليكية ذلك أنه كان يعرف معرفة جيدة شجاعة سكان مدينة أنطاكية وريفها بشكل عام، وليتمكن أيضاً من اجتناب شدة الشتاء المقترب ويستمتع بحرارة الساحل الأكثر أعتدالاً، حيث تكون قساوة فصل الشتاء أخف حدة على الساحل، وعلى هذا فإن هذه المنطقة أكثر مواءمة لعيش الفرق العسكرية وهي مرتاحة.

٢١ - الإمبراطور يرسل رسلاً إلى ملك القدس. إعلانه عن عزمه للقدوم إلى هناك تحت ذريعة زيارة الأماكن المقدسة. جواب الملك.

أدرك الإمبراطور أن تنفيذ أمله بدخول انطاكية مع فيالقه مستحيل تماماً في الوقت الحالي، إلا أنه كان يأمل أن يتمكن من أن يحقق جزءاً من آماله على الأقل بخصوص تلك المدينة وحتى برغم إرادة سكانها وذلك بعد انقضاء فصل الشتاء وعودة فصل الربيع بجوّه اللطيف، ولذلك أخفى نيته في أعماق قلبه ولكي يخفي هدفه الحقيقي بشكل أفضل أرسل سفارة سامية إلى فولك ملك القدس، وأعلن أنه يرغب بالقدوم إلى هناك لإقامة الصلاة والتعبد إذا كان ذلك مناسباً للمسيحيين، وأنه يحب بسرور أن يقدم المساعدة ضد العدو أيضاً في تلك الأجزاء. لكن الملك بعد تداوله مع مستشاريه أرسل إجابة إلى الإمبراطور مع مبعوثين خاصين هم أنسلم اسقف بيت لحم وجيوفري راعي هيكل الرب، وهو رجل خبير في اللغة الإغريقية، وروهارد شحنة قلعة القدس وأمروا بنقل الرسالة التالية إلى الإمبراطور: «إن المملكة محدودة المساحة كثيراً وليس بإمكانها تقديم ما يكفي من الأطعمة لجيش كبير جداً، ولن تتمكن من إعالة جيش كهذا دون أن تتعرض لخطر مجاعة تنجم عن ندرة ضروريات الحياة، ومع ذلك، فإن كان يرضي جلالته الإمبراطورية، حبيب الله، أن يحضر إلى المدينة المقدسة مع مجموعة مؤلفة من عشرة آلاف جندي لزيارة الأماكن المقدسة وإجراء الأمور كلها حسب رغباته الخاصة، فسيخرج الناس لمقابلته بأسمى آيات السرور وسيرحبون بفرح وابتهاج بمقدمه وسيطيعونه كسيد لهم وكأقوى حاكم في العالم»[2].

---

(١) توحي الإشارة إلى القديس بطرس وإلى البطريرك أن رجال الدين شغلوا دوراً بارزاً في مقاومة دخول يوحنا إلى انطاكية، وكان دافعهم في العمل كذلك هو معارضتهم لإعادة تأسيس هيئة الكهنوت الاغريقية في المدينة. ولربما كان ريموند يعالج قضايا الكنيسة بلا مبالاة ولهذا وافق على مطلب الامبراطور، إلا أنهم رفضوا ذلك، فاضطر ريموند لتغير موقفه نحو الامبراطور (انظر تشالدون- آل كومنين: ٢/١٨٨ - ١٩٠).

(٢) أشار هذا الرفض المهذب لأي زيارة سوى زيارة تقوية من قبل يوحنا إلى مقاومة القدس لخطط يوحنا =

ألغى الإمبراطور اقتراحه بعد أن استمع لهذه الرسالة، واعتبر أنه لا يليق بمجده الإمبراطوري أن يتقدم بمرافقة صغيرة كهذه سيما وأنه اعتاد دائماً على التحرك برفقة الآلاف المؤلفة من الناس، وهكذا، صرف المبعوثين ومعهم الكثير من الهدايا والخلع التي دللت على عطفه وسخائه، ثم ذهب إلى كليكية حيث أمضى فصل الشتاء بالقرب من طرسوس منتظراً قدوم فصل الربيع، وعقد النية في قرارة نفسه على أن ينجز في الصيف التالي من المآثر في سورية ما سيخلد ذكره إلى الأبد.

شيّد في هذه الآونة نبيل يدعى باغانوس[1] قلعة في منطقة العربية الثانية سماها الكرك، وكان باغانوس يعمل فيما مضى ساقياً عند الملك، وامتلك فيما بعد مناطق واقعة فيما وراء الأردن (بعد طرد رومين دي بوي وابنه رالف منها ونفيهما بسبب آثامهما)، وكان هذا الموقع حصيناً جداً بسبب موقعه الطبيعي وبالوسائل الاصطناعية أيضاً، وكانت تقع بالقرب من مدينة قديمة عرفت فيما مضى باسم ربة. وهي حاضرة العربية هذه نفسها، وكما نقرأ. «حدث أن قتل أوريا البريء أثناء حصار هذا الموقع على يدي يوآب تنفيذاً لأمر داود»، وسميت فيما بعد باسم بتراء الصحراء، وتعرف العربية الثانية حالياً باسم عربية البتراء[2].

٢٢ - إصابة الأمبراطور بجراح مميتة عندما كان يصطاد أثناء إقامته في كليكية.

كان إمبراطور القسطنطينية يحب الصيد كثيراً في الغابات والبراري، وذهب إلى الغابة وبصحبته مرافقته المألوفة والمخصصة لهذا الغرض، وذلك في أوائل فصل الربيع وقبل الفترة التي يقود الملوك فيها عادة جيوشهم للحرب، وكانت عادة متأصلة تفيد في قضاء الساعات المملة، وكان يطارد الحيوانات البرية وبيده القوس مع جعبة مليئة بالسهام كالمعتاد، واندفع فجأة خنزير بري مروراً بمكمن الإمبراطور بعدما أجفلته الكلاب واثارت غيظه بنباحها الحاد المتواصل، فأمسك الإمبراطور بأحد السهام بسرعة رائعة لكنه شد وتر القوس بإهمال إلى مسافة بعيدة جداً وجرح نفسه وهو ممسك بالقوس برأس السهم المسموم، وهكذا لبى نداء

= المستهدفة بسط سيادة مطلقة وعامة على سورية المسيحية وهي السياسة التي يعتقد تشالدون أنه كان يفكر بها في هذه الآونة (انظر تشالدون- آل كومنين: ٢/١٩٠ - ١٩١).

(١) تردد ذكر اسم باغانوس (باينس) مراراً خلال هذه الفترة ويمكن أن يشار إلى ثلاثة أفراد مختلفين، ويوضح لامونت أن أحدهم كان ساقي المملكة ١١٢٠- ١١٣٦ وإنسان آخر على أنه مستشار ١١١٥- ١١٢٨ (ج.ل. لامونت- الملكية الاقطاعية في المملكة اللاتينية في القدس ١١٠٠- ١٢٩١ ص٢٥٦- ٢٥٧). وهنالك أيضاً الداوي هيو دي باينس الذي كان بارزاً في الحملة الصليبية لعام ١١٢٨.

(٢) كانت هذه أشهر قلاع الصليبيين وقد أشرفت على الطريق الرئيسي للحج إلى مكة. جرى وصف الحادث في صموئيل الثاني: ٢/١٢/٢٦- ٣١.

الموت لسبب تافه جداً؛ حيث دفعه ألم الجرح مباشرة على مغادرة الغابات والعودة إلى المعسكر، فاستدعى الأطباء بأعداد كبيرة وشرح الإمبراطور الحادث لهم ولم يتردد في القول إنه سيكون سبب وفاته، فاستعمل الأطباء علاجاتهم وهم مليئون بالقلق على سلامة سيدهم. لكن السم المميت كان قد اخترق جسمه، ولم تجد الوسائل التي استخدمت واستمر السم يزحف إلى مسافة بعيدة من الأجزاء الداخلية لجسم الإمبراطور الأمر الذي أدى في النهاية إلى فقدان الأمل بشفائه، ونصح بأن هنالك طريقة واحدة فقط يمكن أن تنقذ حياته وهي إمكانية بتر اليد المصابة التي كان الداء الفعال ما يزال متركزاً فيها، قبل أن ينتقل السم إلى باقي أقسام الجسد، إلا أن الامبراطور، الذي كان رجلاً صاحب شجاعة شامخة كان ما يزال محافظاً بتصميم على جلالته الإمبراطورية فرفض النصيحة على الرغم من أنه كان يعاني من ألم شديد وصار مقتنعاً أن موته بات وشيكاً، ويقال إنه أجاب على النحو التالي: « سيبدو من غير اللائق أن تُحكم الإمبراطورية الرومانية بيد واحدة ». وصعق الجيش تماماً وارتبك إزاء هذا الحدث المشؤوم الذي كان مروعاً غاية الترويع حيث لم تكن هنالك أية إمكانية لمنع وقوعه، وسببت وفاة الإمبراطور العظيم حزناً عاماً بين الفيالق. وأغم الحزن والقلق المعسكر والقلوب بكرب لم يسبق له مثيل.

٢٣ ـ الإمبراطور يعين ابنه الأصغر إمبراطوراً ويتوفى. الجيش يعود إلى الوطن بقيادة الإمبراطور مانويل.

أدرك في هذه الأثناء الإمبراطور، الذي كان رجلاً ذكياً وثاقب البصر، أن يوم وفاته بات وشيكاً، ولذلك استدعى أقاربه وأنسباءه بالزواج حيث كان يرافقه الكثيرون منهم ـ رؤساء القصر المقدس وقادة الجيوش ـ وتشاور معهم حول مسألة تعيين خلف له، وكان واقعاً في حيرة شديدة بخصوص ما يتوجب عليه فعله ـ هل يسلم زمام الإمبراطورية إلى ابنه الأكبر إسحاق الذي كان قد أرسله من أضاليا كما ذكرنا إلى القسطنطينية مع جثتي أخويه والذي بدا أن العرش يؤول إليه حسب قانون السلف، أو ما إذا كان يتوجب عليه إعطاء الأفضلية لابنه الأصغر الذي كان موجوداً معه، وكان ابنه الأصغر رجلاً شاباً ويبشر بنجاح فريد، وكان مكتوباً له وبتقدير الجميع أن يصبح رجلاً عظيماً، وكان هنالك مسوغ آخر سبّب تردد الإمبراطور، لأنه، وكما أشار إلى ذلك قائلاً: « إذا منحنا صولجان الإمبراطورية لهذا الابن فسنبدو بأننا نتصرف خلافاً لقوانين البشر، التي تجعل بعدل الابن الأكبر أعلى مكانة، ومن جهة ثانية إذا عهدنا بحكم الإمبراطورية لإسحاق تمشياً مع الإجراء الشرعي، فلن يكون هنالك أحد ليعيد بسلامةِ هذه الجيوش إلى الوطن التي تشكل قوة

الإمبراطورية الرومانية ومجدها بالكامل »، واتضح بالفعل أن الجيوش لن تتمكن بدون قائد يقودها أن تجتاز بسلام المناطق التي تعترض سبيلها إلى القسطنطينية، حيث كانت مليئة بأعداء سيقومون بنصب الكمائن وجمع المعونات من جميع المناطق الواقعة حوله.

كان من بين كبار رجالات البلاط أمير مشهور يدعى يوحنا بروتوسيباستوس حاول بجدية مع عناصر حزبه أن يضمن الامبراطورية لإسحاق، وحاول طمأنة الإمبراطور مجدداً في قلقة حول العودة السالمة للجند، هذا ولاقى ابنه الأصغر مانويل، الذي كان موجوداً في الحملة مع والده، تأييداً وتقديراً كبيرين من سائر الجيش ومن قبل اللاتينيين بشكل خاص، كما وعمل بعض الأمراء باجتهاد وبكل وسيلة ممكنة من أجل مصلحته، وكان أبوه يحبه محبة زائدة أيضاً وكان ميالاً إليه ويفضله كثيراً لأنه بدا حكيماً وشجاعاً في استخدام الأسلحة ودمثاً بكل سبيل، وعلاوة على ذلك، أرهقته مسؤولية إعادة الجيش بسلام.

وبعد دراسة مطولة وقع الإختيار بإرادة الرب في النهاية على الابن الأصغر. وهكذا أبدي الاحترام الإمبراطوري نحو مانويل تنفيذاً لأمر الأمبراطور وبحضوره. ثم أُلبس الثوب الأرجواني، وفقاً لعادة تلك الإمبراطورية، ورحبت الفيالق به وهتفت له بحماسة على أنه امبراطورها.

بعدما تمت ترقية مانويل إلى الموقع الأسمى للسلطة توفي والده المشهور ذو الذكرى الرائعة، والذي كان جواداً وورعاً ولطيفاً ورحيماً، وكان الامبراطور يوحنا رجلاً معتدل الطول وله شعر أسود وبشرة داكنة اللون ولهذا السبب، فإنه لا يزال يسمى باسم المغربي، ومع أنه كان صغيراً في قامته، فقد اشتهر بشخصيته النبيلة كما اشتهر ببسالته في الحرب، وتوفي في موقع يسمى مرج الديباج بالقرب من عين زربة وهي مدينة قديمة جداً وحاضرة لكليكية الثانية، وحدثت وفاته في شهر نيسان من العام ١١٤٣ لتجسيد ربنا الذي كان العام السابع والعشرين من حكمه والعام.... من عمره[١].

بعدما سوى الامبراطور الجديد أموره في تلك المنطقة قاد جيوشه أخيراً عائداً بسلام إلى القسطنطينية، ووجد هناك أن أخاه قد استولى على القصر فور معرفته بنبأ وفاة والده،

---

(١) لم يكمل Vituevero أبداً، ولم يكن وليم لدى كتابته هذه الكلمات يعرف السن الحقيقي ليوحنا وقد تركه فارغاً عاقداً العزم على إملائه فيما بعد، وفي عجلة اختتام عمله لربما نسي هذا فارغاً، أو لم يكن قادراً على الحصول على المعلومات، وهو مخطىء بالطبع حول أعوام فترة حكم يوحنا، ١١١٨ - ١١٤٣، فهي ليست تماماً خمسة وعشرون بدلاً من سبعة وثلاثين عاماً، فقد ولد يوحنا في عام ١٠٨٨ ومات في السادسة والخمسين من عمره، وينسجم المؤرخون الاغريق تماماً مع وصف وليم لوفاة يوحنا وانتخاب مانويل كخلف له (انظر تشالندون- آل كومنين: ٢/١٩٢ - ١٩٣).

ولذلك أرسل مانويل رسالة خاصة إلى المسؤول عن القصر وجميع الثروات وأمره بالقبض على أخيه ـ الذي لم يكن يتوقع شيئاً من هذا القبيل ـ وأن يلقيه في السجن فوراً.

ومهما يكن من أمر لقد تصالح مع أخيه فيما بعد، بعدما كان قد دخل بطريقة مهيبة إلى المدينة، وذلك عن طريق الوساطة الودية لأقارب الأخويين وبعض نبلاء القصر المقدس، وهكذا، حصل مانويل على ملكية الإمبراطورية بطريقة سلمية وحسب الوصية الأخيرة لوالده، إلا أنه لم يتوقف أبداً طوال حياته عن إغداق درجات الشرف على أخيه حيث كان الأخ الأكبر له، ولم يتوقف عن إظهار الرعاية الوافرة له.

٢٤ ـ الملك ونبلاء المملكة يبنون قلعة يبنى أمام عسقلان.

شعر في هذه الآونه فولك ملك القدس وبقية أمراء المملكة مع السيد البطريرك وأساقفة الكنيسة بضرورة إيجاد علاج لأعمال التخريب الجريئة التي كان أهالي عسقلان يقترفونها، وبناء عليه تقرر بموافقة مشتركة تشييد قلعة في المنطقة الواقعة بالقرب من مدينة الرملة وعلى مسافة قريبة من اللد المعروفه باسم دايوس بولس وذلك بغية إعاقتهم بعض الشيء والحيلولة على الأقل بينهم وبين اجتياح المنطقة بحرية، وكانت في تلك المنطقة هضبة مرتفعة ارتفاعاً بسيطاً فوق السهل، وحسب ما ترويه التقاليد قامت هنا فيما مضى مدينة الفلسطينيين التي تسمى غاث، وكان على مقربة منها فيما مضى مدينة أخرى على بعد نحو عشرة أميال من عسقلان، وليس بعيداً من الساحل تدعى أسدود، وكانت هذه أيضاً تخص ذلك الشعب نفسه.

واستجاب المسيحيون بتصميم واحد للدعوة، وشيدوا على الهضبة المذكورة منذ لحظات قلعة ذات بناء قوي وأسس متينة مع أربعة أبراج، وتم الحصول على مقدار وافر من الحجارة وذلك من الأبنية القديمة التي ما زالت آثار كثيرة منها باقية حتى الوقت الحالي، كما قدمت الآبار، التي حفرت في الأزمان القديمة، والتي توفرت بأعداد كثيرة في المنطقة المجاورة للمدينة المدمّرة، كمية كبيرة من الماء أيضاً، ليست كافية فقط للاستخدام في عمليات البناء بل لاحتياجات الناس أيضاً.

بعد انتهاء القلعة واكتمالها تماماً سلمت بموافقة عامة إلى نبيل ذي حكمة عظيمة يدعى بالين الأكبر، وكان والداً لكل من هيو وبلدوين وبالين الأصغر، حيث أخذ جميعهم لقب يبنى من هذا الموقع الذي حمل هذا الاسم قبل بناء القلعة هناك، وأبدى بالين اجتهاداً كبيراً في رعاية قلعة يبنى وفي مطاردة العدو الذي بنيت هذه القلعه بسببه، وحافظ الأولاد بعد وفاة أبيهم على الرعاية واليقظة نفسها سيما وأنهم كانوا رجالاً نبلاء وشجعاناً في الحرب ويقظين من

جميع النواحي، وظلوا كذلك حتى استعيـدت مدينة عسقلان في آخر الأمر إلى العقيدة المسيحية.

٢٥ ـ تشييد قلعة أخرى أمام مدينة عسقلان وفقاً للرغبة المشتركة للنبلاء ومنحها اسم تل الصافية.

أقنعت هذه التجربة نبلاء المملكة ورأوا أنهم بتشييدهم لمعقلي بئر السبع ويبنى قد حققوا تقدماً واضحاً في قمع الغزوات الجريئة التي كان يقوم بها أهالي عسقلان، حيث قمعت غطرستهم إلى حد كبير بوساطة هذه الوسيلة كما خفّت هجماتهم وأحبطت مشاريعهم، ولذلك عقدوا العزم على بناء قلعة أخرى في الربيع التالي، وتمكنوا بزيادة عدد الأماكن المحصنة المجاورة من إنهاك أهالي عسقلان بشن هجمات أقوى، كما تمكنوا مراراً من أن يسببوا لهم الرعب المصحوب بخطر مفاجيء مثل خطر الحصار.

كان هناك موقع بدا بالمقارنة مع المنطقة الجبلية أنه مجرد هضبة، وقع على بعد ثمانية أميال من عسقلان في ذلك الجزء من يهودا الذي تنتهي فيه الجبال ويبدأ السهل المستوي، بالقرب من أراضي الفلسطينيين في بلاد سبط شمعون، هذا ويمكن عدّها جبلاً عالياً بالمقارنة مع الأرض الأكثر استواء، وكان هذا الموقع يسمى باللغة العربية باسم تل الصافية الذي نترجمه بمعنى التل أو الجبل الواضح، عقد الرجال الحكماء في المملكة العزم على تشييد قلعة هنا، لأن الموقع كان قريباً بشكل موائم من المعقلين الآخرين اللذين كانا قد بنيا لأغراض مماثلة، إضافة إلى قربه من المدينة أيضاً، زد على هذا أنه كان موقعاً جيد التحصين بالطبيعة.

وبناء عليه اجتمع الملك ونبلاؤه إضافة إلى البطريرك ورجال الكنيسة في ذلك الموقع تحدوهم رغبة واحدة وذلك بعد انقضاء فصل الشتاء واقتراب فصل الربيع، سيما وأنهم اقتنعوا بالفكرة تماماً، وجرى استدعاء الصنّاع وتزويد الناس بجميع المواد اللازمة وشيد حصن من الحجارة المنحوتة، على أسس صلبة، وزين بأربعة أبراج بارتفاع مناسب، وكان بالإمكان النظر بدون معوقات من على قمة هذه القلعة حتى مدينة العدو مباشرة، وبرهنت هذه القلعة على أنها عائق أكثر إزعاجاً، ومصدر خطر حقيقي لأهالي عسقلان عندما رغبوا بالزحف لنهب المنطقة، وقد عرفت باللغة الدارجة باسم بلانكغريد الذي يعني باللغة اللاتينية «برج المراقبة الأبيض».

وما أن فرغ العمل من هذه القلعة تماماً ومن جميع الجوانب حتى وضعها الملك تحت حمايته الخاصة وزودها بما يكفي من الأطعمة والأسلحة، وعهد بها إلى رجال حكماء كان لهم خبرة طويلة في الحرب، رجال اعترف بإخلاصهم وولائهم وجرت البرهنة على ذلك أيضاً فغالباً ما اعتاد هؤلاء الرجال وحدهم، أو غالباً بالإشتراك مع جنود مسلحين من القلاع

الأخرى المشيدة بهدف مماثل، على خوض غمار المعارك لمواجهة عناصر العدو وإلحاق الهزيمة بها عندما حاولت شن الغارات من المدينة، وهاجموا أحياناً وبمبادرتهم الخاصة جنود مدينة عسقلان وألحقوا بهم فتكاً ذريعاً وغالباً ما انتصروا عليهم.

كانت النتيجة أن بدأ الذين كانوا يقيمون في المنطقة المجاورة يضعون ثقة كبيرة في هذه القلعة إضافة إلى المعقلين الآخرين، كما وقامت حولها ضواح كبيرة وكثيرة، وسكنت أعداد كبيرة منَ الأسر هناك إضافة إلى مزارعي الحقول أيضاً، وأصبحت المنطقة بأسرها أكثر أمناً لأن الموقع كان مشغولاً وتوفرت به وافر المؤن لها وللمنطقة المحيطة بها.

بدأت تقل ثقة أهالي مدينة عسقلان أكثر من المعتاد في وضعهم عندما رأوا أن مدينتهم باتت مطوقة بحصون منيعة، ولذلك أرسلوا وبشكل متكرر الرسل إلى سيدهم، حاكم مصر القوي، محذرين إياه بإلحاح: أنه ينبغي عليه أن يتخذ إجراءات لحماية عسقلان التي كانت خط الدفاع الأساسي لدولته، سيما وأنه لم يبق له أية ممتلكات في تلك المنطقة.

٢٦ ـ الملكة تبني ديراً في بيت عنيا، وتمنحه ممتلكات نفيسة وتعين أختها راعية له.

كانت المملكة قد تحولت في هذه الآونة ـ بفضل رحمة الرب الوفيرة ـ إلى حالة هدوء مرضية إلى حد ما، وهكذا، فإن السيدة ميليساند، تلك الملكة ذات الذكرى الورعة، درست فكرة إنشاء دير للنسوة المتدينات إذا ما أمكن العثور على موقع موائم لأمانيها، ورغبت أن تقدم بهذه الطريقة مداواة لروحها ولأرواح والديها ولإنقاذ روح زوجها وأبنائها. وكانت أختها الصغرى آيفيتا قد مارست الحياة الدينية في دير القديسة حنه والدة أم ربنا المباركة، كان الاعتبار لهذه الأخت هو الذي دفع الملكة للإقدام على القيام بهذا المشروع، حيث شعرت أنه من غير الموائم أن تكون ابنة ملك خاضعة لشخص عادي ولسلطة أم متفوقة، وهكذا، درست بذهنها المنطقة بأسرها وأجرت تحقيقاً دقيقاً لإيجاد مكان مناسب تتمكن من إنشاء دير فيه. وبعد كثير من الدراسة وقع اختيارها على بيت عنيا، وهو بيت ماري ومرثا وأخيها ألعازر الذي أحبه يسوع، وبيت عنيا هو موضع الإقامة المألوف لربنا ومنقذنا، وتقع هذه القرية على بعد خمسة عشر فرسخاً عن القدس، وتقع حسب قول الإنجيل فيما وراء جبل الزيتون على السفح الشرقي لذلك الجبل، وكان الموقع يخص كنيسة قبر المسيح، إلا الملكة أعطت تقويم مدينة الرسل، إلى الشماسة واتخذت مقابلها قرية بيت عنيا قرية لها.

وبما أن المكان كان يقع على حافة الصحراء ويمكن بالتالي أن يتعرض لهجمات العدو، فقد أمرت المملكة وبنفقة كبيرة بناء بـرج محصن بقوة ومشيداً من الحجارة المنحوتة والمصقولة، وخصص هذا البرج لغرض الدفاع الضروري بحيث تتمكن العذارى المكرسات

للرب من الحصول على حصن منيع للحماية من هجمات العدو، وبعد انتهاء البرج وإعداد المكان عينت تبعاً للعادات السائدة لمواصلة الطقوس الدينية، راهبات ورعات هناك، وعينت لهن كأم روحية امرأة جليلة راشدة وذات خبرة دينية ناضجة، ووهبت للكنيسة ممتلكات نفيسة حتى لا تبدو أقل منزلة في الممتلكات المؤقتة في أي دير سواء أكان ديراً للرجال أو النساء؛ أو بالأحرى، بحيث يكون كما يقال، أكثر ثراء من أي كنيسة أخرى. وكان من بين الممتلكات التي وهبتها بسخاء لهذا المكان المبجل مدينة أريحا مع توابعها الواقعة في سهل الأردن، وهي غنية جداً بالموارد المتعددة الأنواع، كما قدمت إلى الدير عدداً كبيراً من الأواني المقدسة الذهبية والفضية والمرصعة بالجواهر، كما وهبته أنسجة حريرية لزخرفة بيت الرب، إضافة إلى أثواب كهنوتية وعادية من جميع الأنواع حسبما تطلبت القواعد الكنسية.

وعند وفاة المرأة المبجلة التي كانت قد أوكلت إليها مسؤولية هذا الدير نفذت الملكة هدفها الأصلي وعينت أختها رئيسة لراهبات الدير وذلك بإقرار البطريرك والموافقة الطوعية للراهبات المقدسات، وقدمت في تلك المناسبة هبات أخرىٰ كثيرة مثل كؤوس القربان والكتب وقطعاً مزخرفة أخرىٰ تتعلق بخدمة الكنيسة، واستمرت طوال حياتها في إغناء الدير بعطفها لصلاح روحها وروح أختها التي أحبتها بلطف كثير.

٢٧ ـ الملك يسقط من علىٰ ظهر حصانه أثناء مطاردته لأرنب وحشي في سهل عكا، ويموت ويدفن في القدس مع أسلافه.

حدث في تلك الأيام، بعد انتهاء فصل الخريف، أن كان الملك والملكة يقيمان في مدينة عكا لفترة من الزمن، وعبرت الملكة عن رغبتها بالخروج من المدينة إلىٰ مكان ما من الضواحي حيث كانت تكثر الينابيع من أجل تغيير الرتابة باستجمام سائغ، ورافقها الملك مع حاشيته المألوفة وذلك حتى لا تفقد متعة صحبته، وحدث أثناء السير أن أثار الخدم، الذين كانوا قد تقدموا الموكب، أرنباً وحشياً كان يرقد في أخدود، ففر هارباً تتبعه صيحات الجميع، ودفع قدر مشؤوم الملك علىٰ الإمساك برمحه والإنضمام إلىٰ المطاردة، وبدأ مطاردة قوية حاثاً حصانه علىٰ الانطلاق في ذلك الاتجاه، فتعثر جواده وسقط في النهاية بعد أن انطلق بسرعة طائشة، فطرح الملك أرضاً على رأسه، وتمدد هناك بعدما صعقه ألم السقوط، حيث ضرب السرج رأسه وتدفق دماغه من منخريه وأذنيه. فانطلقت عناصر مرافقته الموجودة في الأمام واللاحقين به لمساعدته عندما كان طريحاً على الأرض بعد أن أربكهم رعب الحادث المخيف، إلا أنهم وجدوه مغمى عليه وغير قادر علىٰ التكلم أو الاستيعاب.

طعنت الكارثة المشؤومة فؤاد الملكة عندما أُبلغت بالوفاة المفاجئة لزوجها، فمزقت

أثوابها وشدت شعرها وبرهنت بصراخها ونواحها العالي عن حزنها الشديد، وقذفت بنفسها إلى الأرض وعانقت جثة زوجها الهامدة، وخانتها الدموع بسبب بكائها المستمر وقاطعت التنهدات المتكررة صوتها عندما حاولت أن تعبر عن حزنها، ولم تتمكن من إظهار مداه الحقيقي على الرغم من أنها لم تهتم إلاّ بإرضاء كربها، كما أسدى أفراد الأسرة حزنهم بالدموع وبالأقوال وبالمظهر، وقدموا برهاناً واضحاً على حزن عظيم.

انتشر خبر الحادث المؤسف الذي أصاب الملك بسرعة، ونشرت الأقاويل النبأ بأجنحة سريعة في سائر أنحاء مدينة عكا فاندفعت الحشود إلى موقع الحادث وكلهم متلهفون لإقناع أنفسهم بتكذيب تلك الكارثة المشؤومة، فحملوه من هناك إلى المدينة وهم يبكون حيث بقي حتى اليوم الثالث مغمى عليه إلا أنه كان ما يزال يتنفس، وهكذا لفظ فولك أنفاسه الأخيرة في العاشر من شهر تشرين الثاني في العام ١١٤٢ لتجسيد ربنا وفي العام الحادي عشر من فترة حكمه[١].

ونقلت جثته إلى القدس بمراسم موائمة، وخرج رجال الدين والناس كافة لمقابلة موكب الجنازة، ودفن بمهابة ملكية بين أسلافه الملوك ذوي الذكرى المباركة في كنيسة قبر المسيح عند سفح جبل الجلجلة بجانب البوابة الواقعة إلى اليمين عند دخول المرء إلى الكنيسة، وترأس وليم، بطريرك القدس المبجل الجنازة الملكية.

خلف فولك طفلين لم يكونا قد بلغا سن الرجولة بعد، وهما بلدوين الأكبر، الذي كان في الثالثة عشرة من عمره عندئذ، وعموري الذي كان في السابعة من عمره، وانتقلت السلطة الملكية إلى السيدة ميليساند ملكة محبوبة من الرب آلت إليها السلطة بحق وراثي.

(١) العبارة اللاتينية هنا غامضة إلى حد ما ـ Novembris quarta de mundie, Ibibus videlicet ويمكن قراءتها بأنها تعني: «في اليوم الرابع من مرضه». أي في ١٣ تشرين الثاني أو في العاشر من شهر تشرين الثاني. ومن الواضح أن لها في هذا المثال المعنى الأول، إلا أن وليم نفسه يقرأها فيما بعد بالمعنى الثاني [الكتاب ١٦ الفصل ٣] ويحمل النص العام ١١٤٢، إلا أن الأدلة كلها تشير إلى عام ١١٤٣ على أنه عام وفاة فولك واختلط تاريخ وفاة فولك، الهام جداً في جدولة تاريخ المملكة اللاتينية، بتأريخ وليم. ويمكن أن يكون هذا مجرد خطأ بالكتابة أو خطأ أثناء النسخ، لأنه ليس متوائماً مع إشاراته الأخرى إلى الحادث. ويستنتج مللي تشارترو على أساس تسجيلات أنجفين المحلية بالإضافة إلى مراجعة جميع الشواهد المعروفة، أنه لا يمكن أن يكون قد حدث قبل أواخر عام ١١٤٣، مثبتاً التاريخ النهائي الآخر على أنه ٢٦ آذار من عام ١١٤٤، ويفضل عام ١١٤٤ على أساس سجلات غربية محلية (جوزيف تشارترو ـ الأنجويون (١١٠٩ و ١١٥١ ص٢٣٤ ـ ٢٣٦)). كما أن لي مونت الذي راجع المسألة مؤخراً، مقتنع أن دليله لا يمنع شهر تشرين الثاني عام ١١٤٣ (لي ـ مونت الملكية الاقطاعية ص١٤ ـ ١٥ ـ الحاشية ٣). وكان لا يوجد عادة أية سفينة مبحرة من فلسطين في أواخر شهر تشرين الثاني، ولم يكن الغرب قد علم بوفاته قبل عام ١١٤٤ حتى وإن تم إرسال رسول خاص على الفور ويفضل لي ـ مونت العاشر من شهر تشرين الثاني من عام ١١٤٣ على أنه تاريخ وفاة فولك.

بداية الكتاب السادس عشر

الحكم المشترك لبلدوين الثالث وأمه ميليساند .
الحملة الصليبية الثانية

١ ـ توطئة قصيرة . اعتلاء بلدوين الثالث العرش إثر وفاة والده الملك فولك . وصف المظهر الشخصي لبلدوين .

إن الأحداث التي دونت في الكتاب الحالي حتى هذه الساعة قد جمعت من روايات الآخرين الذين ما يزالون يحتفظون بمجموعة صادقة عن الفترات السابقة ، ولهذا حصلنا بمشقة كبيرة علىٰ مادة موثوقة وروايات دقيقة وتتابع للأحداث ، ومع ذلك ، فقد قدمنا ـ بالقدر الممكن ـ وصفاً صحيحاً لهذه الأحداث كما تم استلامها من الروايات نفسها ، إلا أن الأشياء الآتية حالياً كنا إما قد شاهدناها بأنفسنا وبأم أعيننا أو علمنا ببعضها من الروايات الموثوقة للذين كانوا موجودين عندما وقعت الأحداث ، ولذلك ، فإننا سندون بمشيئة الرب بقية هذا التاريخ بالاعتماد على هذين المصدرين من أجل منفعة الأجيال القادمة بدقة وسهولة أكثر ، حيث أن الذاكرة ميالة دوماً إلىٰ تذكر الحوادث الأخيرة بحيوية أكبر ، كما أن الشيء الذي تقدمه العين للعقل يُنسىٰ بسهولة أقل من الذي تنقله الأذن وحدها [١] ، وتعبر عن مشاعرنا الكلمات التالية التي قالها فالكوس : « تكون الأشياء التي تنقلها الأذن ذات تأثير أقل عمقاً علىٰ المشاعر من تلك الصادرة عن المراقبة الصادقة للعيون ، كونها أشياء نقلها المشاهد نفسه إلىٰ نفسه » [٢] .

جاء بعد فولك الملك اللاتيني الثالث للقدس ، ابنه بلدوين الثالث من الملكة

---

(١) لقد أسيء فهم ملاحظات وليم هذه . وربما كتبت بعد عام ١١٨٠ ، وتعتمد ، كما ظهر من قبل ، مصادر مكتوبة تعود إلى عام ١١٢٧ مع القليل من الروايات الشفوية ، وكان معتمداً من عام ١١٢٧ وحتى ١١٤٣ على روايات كهذه كما سمعها ، أو استطاع جمعها من السجلات ، ومن المحتمل أنه كان في الثالثة عشرة من عمره في عام ١١٤٣ ، وكان واعياً لانحراف الأمور . وبالطبع فقد استخلص شيئاً من التذكر الشخصي في الكتابين السابقين ، وشعر الآن بأمان أكثر لأنه كان لديه تذكر واع أكمل للأحداث ، وبالفعل فإن عمله هو مصدرنا الرئيسي تقريباً بالنسبة لتاريخ مملكة القدس من عام ١١٢٧ وحتى ١١٨٤ .

(٢) هوراس ـ الشعر : ١٨٠ ـ ١٨٢ .

ميليساند، وكما سبق بنا القول، كان لبلدوين أخ يدعى عموري وكان طفلاً صغيراً في السابعة من عمره، وعندما توفي بلدوين بعد ذلك دون أن يخلف أطفالاً، خلفه أخوه في المملكة كما سيتم سرد ذلك في الفصول اللاحقة، وكان بلدوين في الثالثة عشرة من عمره عندما اعتلى العرش وحكم لمدة عشرين عاماً [1]، وكان شاباً صاحب قدرات طبيعية رائعة، وحتى في تلك الآونة قدم دليلاً واضحاً عن تلك الشخصية التي بلغها بشكل كامل فيما بعد، وبرز بسهولة لدى بلوغه سن الرجولة بين الجميع بجمال الصورة والشكل إضافة إلى مظهره العام، وكان متفوقاً على جميع نبلاء المملكة في نشاط العقل وعبقرية الحديث، وكان أطول من الرجل العادي وكانت أوصاله متناسقة بشكل جيد مع طوله لدرجة لم تبد فيها أي ملامح من ملامحه متنافرة مع باقي الملامح، كانت ملامحه وسيمة ومصقولة وكانت بشرته متوردة وهذا برهان على القوة الفطرية، وكان يشبه والدته في هذه الناحية، ولم يكن أدنى منزلة من جده والد أمه. وكانت عيناه ذات حجم معتدل وهما بارزتان ومتلألئتان إلى حد ما، وكان له شعر سابل ضارب إلى الشقرة، وكانت وجنتاه وذقنه مغطاة بلحية كاملة، وكان صاحب بنية كاملة إلى أبعد الحدود، حيث لم يكن من الممكن تسميته «بدينا» كأخيه، أو «نحيلاً» كوالدته، وبالاختصار، يمكن القول إن سائر مظهره كان متفوقاً بسبب نبل ملحوظ شع منه لدرجة أنه حتى الغرباء لم يتوانوا عن إدراك جلالته الملكية الفطرية.

٢ ـ حياته وعاداته.

كان طبع بلدوين الذهني مركباً بشكل جيد ومتماثل وكان منسجماً تماماً مع جماله الجسدي الكبير، وكان يتمتع بذكاء حاد غريب وكانت الطبيعة قد منحته ميزة فصاحة الحديث النادرة، كما أنه لم يبد أقل منزلة من أي من الأمراء الآخرين في سلوكه المستساغ والمبجل، وكان دمثاً وطيب القلب للغاية، وعلى الرغم من أنه كان جواداً بالنسبة للجميع تقريباً وبشكل يفوق موارده المالية، لم يكن أبداً راغباً بمال الآخرين؛ ولم يسبب المتاعب لأوقاف الكنائس، ولم ينتظر ثروات رعاياه كالمبذر، وكانت فيه صفة واحدة نادرة جداً في الشباب وهي أنه كان يخاف الرب حتى في أيام حياته تلك، وشعر بتبجيل كبير للمؤسسات اللاهوتية ولرجالات الكنيسة، وكان موهوباً بطبيعة مرحة، وتمتع إضافة لذلك بميزة ذاكرة

(١) من الضروري تذكر حقيقة أن إطار وليم لسرد الأحداث المبني في عام ١١٨٢، قد أصبح حقيقة مبرمة في تحديد التواريخ، فروايته عن عمر بلدوين الثالث وعدد أعوام حكمه متناسقة في كل مكان، وعلى ذلك الأساس، ولد بلدوين في عام ١١٣٠ وبدأ فترة حكمه في عام ١١٤٣ وتوفي في عام ١١٦٣، ويتوافق هذا مع زواج والديه، الذي يمكن وفق ظروف طبيعية أن يجعل من شهر شباط عام ١١٣٠ وهو التاريخ الأبكر الممكن لمولده.

دقيقة، وكان متعلماً بشكل جيد تقريباً وأكثر بكثير مما كان عليه أخوه عموري الذي خلفه، وكان يسره أن يوقف أي فراغ، استطاع أن ينتزعه عن واجباته العامة، للدراسة، واستمتع بشكل خاص في الاستماع لقراءة التاريخ واستفسر باجتهاد كبير عن مآثر وعادات الملوك والأمراء الأكثر نبلاً في العصور السابقة، وفوق كل شيء، أحب التحدث مع الأدباء والحكماء العلمانيين، ودفعه أنسه ولباقته إلىٰ تحية حتى أدنى الناس منزلة بالإسم، الأمر الذي أثار الكثير من دهشتهم، وقدم طوعاً فرصة التحادث معه لأي شخص كان يرغب بذلك، أو لأي إنسان صادفه، وكان يلبي طلب إجراء مقابلة معه إذا ما طلب ذلك منه.

ونال بهذه الطريقة تأييد رجال الدين والناس حتى أنه كان أكثر شعبية مع رجال الطبقتين من أي واحد من سلفه، وتحمل المشقات بصبر وأظهر ـ على غرار سيرة أفضل الأمراء ـ حكمة وبصيرة عظيمتين في قضايا الحرب المريبة، وأبدىٰ ثباتاً ملكياً في غمرة المواقف الحرجة التي تحملها في سبيل توسيع المملكة، ولم يفقد أبداً سرعة البديهة اللائقة برجل شجاع، وكان مطلعاً بشكل جيد على القانون المألوف الذي حكمت به مملكة الشرق إلىٰ درجة أن النبلاء الأكبر سناً كانوا معتادين علىٰ التشاور معه في مسائل صعبة وإبداء إعجابهم بالمعرفة الواسعة لذهنه المدرب.

كان حديثه فكهاً وساراً؛ وبما أنه كان يتمتع ببراعة غريبة في التكيف مع الجميع بسهولة، فقد اختلط عن طيب خاطر مع جميع الأعمار والأحوال، وعلاوة على ذلك، كان رجلاً صاحب لباقة فريدة، وكانت هذه السمة هي الأكثر بروزاً لأنه سمح لنفسه بحرية كبيرة للحديث؛ وإذا حدث ولاحظ أية أخطاء لافتة للنظر أو مستحقة للشجب في أصدقائه، كان يقومها علانية بصرف النظر عما إذا كانت أقواله تغضب أو تسر، ومع ذلك، فإن هذه الانتقادات لم تقلل كثيراً من شعبيته مع ضحايا ملاحظاته الفظة، حيث كانت تجري بابتهاج صاخب في معظم الأحيان، أو برقة قلبية أحياناً أكثر مما كانت تتم بأية نية لإلحاق الأذىٰ، وكانت صرامته تلقى العفو مباشرة، لأنه كان يتحمل في الواقع وبرباطة جأش الكلمات الساخرة التي كانت توجه إليه للانتقام منه، لكنه انغمس في أعمال سيئة وفي ألعاب الحظ والنرد الخبيثة أكثر مما كان لائقاً بالجلالة الملكية، ويقال إنه لطخ روابط الآخرين الزوجية في سعيه وراء الرغبات الجسدية، غير أن هذا قد حدث أثناء فترة شبابه، لأنه تخلىٰ عن الأعمال الشيطانية كما فعل الرسول، «عندما صار رجلاً»[1]. وهكذا، كفر عن أخطاء الأعوام السابقة بممارسة الفضائل، ويروى أنه أوقف كل إخلاصه على زوجته بعد

(١) الرسالة الأولى إلى أهل كورنتوس: ١١/١٣.

زواجه منها، حيث تخلىٰ فيما بعد وبرأي حكيم عن الأخطاء الشنيعة التي تثير سخط الرب وهي الأخطاء التي كان قد اعتاد عليها في شبابه وكانت قد تمت تحت ضغوط تلك المرحلة الخطيرة ودوافعها، وتحول إلىٰ الأفضل.

كان معتدلاً للغاية في تناول المنعشات الجسدية، وكان معتدلاً في الواقع في طعامه وشرابه بشكل يفوق متطلبات ذلك العصر، وكان يمقت الإفراط سواء في تناول الطعام أو الشراب، واعتاد أن يقول عن أسوأ الجرائم: إنها لمسة عابرة[١].

٣ ـ اعتلاؤه العرش. ومقدار المدة التي حكمها تحت وصاية والدته.

توفي الملك فولك في اليوم العاشر من شهر تشرين الثاني[٢]، ومسح بلدوين بإجلال ورسم وتوج مع والدته في كنيسة قبر الرب في اليوم التالي ليوم ميلاد الرب من العام ١١٤٢ لتجسيد الرب، وقاد البطريرك وليم المراسم أمام الحشد المألوف من الأمراء وجميع أساقفة الكنيسة، وكان يوجينوس الثالث رئيساً لكنيسة الرومان المقدسة في ذلك الوقت، بينما كان ايمري بطريركاً لانطاكية، وكان وليم بطريركاً للقدس، وكان رئيس الأساقفة فولتشر يترأس الكنيسة في مدينة صور[٣].

كانت ميليساند والدة الملك امرأة عظيمة الحكمة، وذات خبرة كبيرة جداً في جميع أنواع الأمور المدنية، وكانت قد سمت كثيراً فوق المنزلة العادية للمرأة إلىٰ درجة أنها أقدمت علىٰ اتخاذ إجراءات هامة، وكانت تطمح لأن تنافس روعة أعظم الملوك وأنبلهم ولتظهر نفسها بكل وسيلة بأنها ليست أقل منزلة منهم، وحيث لم يكن ابنها قد بلغ سن الرشد بعد فقد حكمت المملكة وأدارت الحكومة بعناية بارعة بحيث يمكن القول إنها ضاهت بالفعل أسلافها في ذلك المجال، ونعم الناس بحالة هدوء مرغوبة جداً طالما كان ابنها مستعداً للانصياع لنصيحتها وتقدمت أمور المملكة نحو مزيد من الازدهار، إلا أن العناصر الأكثر طيشاً في المملكة اكتشفت بسرعة أن نفوذ الملكة الحكيم قد أحبط محاولاتهم لجر الملك إلىٰ غاياتهم، وهكذا، أقنعوا سيدهم الملكي الذي كان، كالآخرين ممن هم في عمره، مرنا

---

(١) لا شك أن وليم قد أحب بلدوين الثالث واتخذه مثالاً وبذلك أعطانا تصوره عن السمات المثلى للملك، ويعني هذا كله أنه حصل على معلوماته عن قرب وبصورة شخصية، ومن المحتمل أن وليم وبلدوين كانا من سن واحدة ورفيقين في المدرسة حيث أنهما أمضيا طفولتهما في القدس، ومهما يكن من أمر لم يقدم وليم إشارة واضحة تفيد في هذا الصدد.

(٢) انظر الكتاب ١٥.

(٣) أصبح يوجينيوس الثالث بابا في عام ١١٤٥ ويهمل وليم سلستاين الثاني ولوكيوس الثاني اللذان شغلت فترات حكمهما القصيرة جداً عامين فيما بين انوسنت الثاني ويوجينوس الثالث.

كالشمع في كونه ميالاً إلىٰ الرذيلة، غير أنه كان فظاً نحو الذين يوبخونه[1]، للانسحاب من رعاية والدته وليحكم بنفسه مملكة آبائه، وقالوا إنه من غير الموائم للملك ـ ينبغي له أن يحكم جميع الآخرين ـ أن يتقيد دائماً بخيوط مئزر والدته مثل ابن شخص خاص، ومع أن هذه المكيدة نبعت عن الطيش أو الحقد الأحمق لبعض الأفراد، فقد كادت أن تكون أداة تخريب للمملكة بأسرها كما سيتم شرح ذلك بتفصيل أكبر في وقت لاحق عندما تتم مناقشة هذا الموضوع بمزيد من التفصيل.

٤ ـ زنكي يحاصر الرها. وصف موقع هذه المدينة.

حاصر في تلك السنة نفسها زنكي اللعين مدينة الرها مع جيش قوي وذلك خلال الفترة الفاصلة بين وفاة الملك فولك واعتلاء الملك بلدوين للعرش، وكانت هذه المدينة المعروفة بشكل أكثر شيوعاً باسم الرها العاصمة المشهورة والعظيمة لبلاد الميديين (الجزيرة)، وكان زنكي تركياً قوياً، وسيداً وحاكماً للمدينة التي عرفت من قبل باسم نينوى لكنها معروفة حالياً باسم الموصل وهي عاصمة المنطقة التي كانت تعرف من قبل باسم بلاد آشور، ولم يتوقف اعتماده على أعداد شعبه وقوته فقط، بل أيضاً على حقيقة أن نزاعاً خطيراً كان قد نشب بين ريموند أمير انطاكية وجوسلين كونت الرها، وكانت مدينة الرها تقع علىٰ مسافة سير يوم واحد فيما وراء نهر الفرات، وكان سيدها وحاكمها، الكونت المذكور منذ لحظات، قد تخلىٰ عن منزله هناك خلافاً لعادة أسلافه، وأقام مسكنه الدائم بالقرب من نهر الفرات عند قلعة تسمىٰ باسم تل باشر، وكان خصب الريف الواقع في تلك المنطقة المجاورة والمتعة التي قدمها ذلك المكان قد دفعاه ليقوم بهذا التغيير، وابتعد كثيراً في تل باشر عن الإزعاج الذي كان يسببه أعداؤه، وحصل علىٰ الفراغ للاستمتاع بالمسرات والترف من كل نوع، ولم يشعر بأية مسؤولية نحو المدينة الجليلة كما كان يتوجب عليه ذلك.

كان سكان الرها من الكلدانيين والأرمن المسالمين. وكانوا يجهلون تماماً استخدام السلاح، ولم يكونوا مطلعين إلا علىٰ أعمال التجارة، وجاء اللاتينيون إلىٰ هنا أحياناً أيضاً، إلا أن السكان من ذلك الشعب شكلوا عدداً قليلاً، وكانت حماية المدينة كلياً بأيدي المرتزقة، ولم يتلق هؤلاء أجوراً حسب الزمن أو الخدمة المنجزة، بل غالباً ما توجب عليهم أن ينتظروا لمدة عام أو أكثر قبل أن يتمكنوا من جمع استحقاقاتهم[2].

---

(١) هوراس ـ الشعر: ١٦٣.

(٢) ربما كان استخدام القوات المأجورة، بما فيهم الفرسان، أكثر كلفة في الرها من أي مكان آخر، بسبب حقيقة أن العدد الضخم من السكان الأرمن والمسيحيين الأصليين الآخرين لم يكونوا قد جردوا من ممتلكاتهم بوساطة النبلاء الغربيين، ومن المؤكد أن المرتزقة في تلك الأوقات كانت تشتمل علىٰ المسلمين.

وكان كل من بلدوين وجوسلين الأكبر قد أقاما مسكنهما الدائم في الرها وذلك حالما امتلكا هذه الكونتية، ورأيا من أسباب العناية بها وجوب جلب موارد كافية من السلاح والطعام وكل ما هو ضروري لها لفترة من الزمن من الأماكن المجاورة، وتم الحصول بهذه الوسائل على أمن تام للرها وأصبحت مرعبة للمدن الأخرى الموجودة في ذلك الجوار، وكما قيل من قبل، كانت هنالك حالياً عداوة بين أمير انطاكية والكونت، ولم تعد هذه العداوة مخفية، بل كانت قد وصلت إلى مرحلة الكراهية العلنية[1]. وبالنتيجة، لم يشعر أي منهما بأي قلق إزاء الاضطرابات أو الكوارث المشؤومة التي كان الطرف الآخر يصاب بها، بل على العكس، ابتهج كل منهما بمصيبة الآخر وسر سروراً كبيراً لأخبار أية محنة مشؤومة وقعت للآخر.

وانتهز الأمير العظيم زنكي الفرصة التي قدمتها هذه الانشقاقات، وجمع عدداً لا يحصى من قوات الفرسان من سائر أنحاء الشرق، واستدعى أيضاً أهالي المدن المجاورة وحاصر الرها وسد بإحكام جميع المداخل إلى المدينة بحيث لم يتمكن المحاصرون من الخروج، كما لم يتمكن أي امرىء من الدخول من الخارج، وأصيب الناس المحتجزون داخل المدينة بالشدة بسبب نقص الطعام والمؤن من كل نوع، وكانت الرها محاطة بسور ضخم، ومحمية بأبراج شاهقة في الجزء العلوي، وكان هنالك حصن آخر في المنطقة السفلى تمكن السكان من الفرار إليه طلباً للملجأ في حال الاستيلاء على المدينة، وكان بإمكان جميع هذه الدفاعات أن تجدي ضد العدو إذا توفر فيها مقاتلون لديهم الرغبة في القتال بشجاعة من أجل الحرية، بيد أن هذه الدفاعات تكون عقيمة عندما لا يكون أحد بين المحاصرين راغباً في تولي القيام بدور الدفاع وعندها لا تجدي الأسوار والأبراج والشرفات شيئاً لأنه لا يوجد من يحميها.

ولهذا السبب ازداد أمل زنكي كثيراً بالاستيلاء على المدينة عندما وجدها بلا مدافعين عنها، ووضع جنوده في دائرة حول المدينة، ووضع رؤساء الفيالق في مواقع مفيدة وطوق المدينة، وسحقت الحجارة والقذائف المقذوفة من الآلات الحربية الأسوار باستمرار، ولم يسمح وابل النشاب بأية راحة للمواطنين.

وانتشرت في هذه الأثناء أقاويل سريعة وطارت بالنبأ إلى الخارج وأفادت أنّ الرها، أمة الرب المخلصة، كانت تعاني من أهوال الحصار على أيدي أعداء الدين والاسم المسيحي،

---

(١) ربما يتوضع أساس هذه المشكلة أولاً في حقيقة أن جوسلين كان تابعاً لأمير انطاكية في بعض من منطقته، وثانياً لأن ريموند كان إلى حد ما قادماً جديداً بينما كان جوسلين قد ولد في الشرق، وكان نصف أرمني في النسب وكانت المنافسة السياسية والتحامل شيئان جوهريان للخصومة بينهما.

وروعت قلوب جميع المؤمنين الصادقين في كل مكان وبدأ المتحمسون يسلحون أنفسهم للانتقام من العدو الشرير، ودفعت أنباء هذا الوضع الخطير الكونت للتصرف، وشرع يجمع قواته بكل اجتهاد. لقد بدأ الآن اهتمامه بالمدينة الجليلة بعدما فات الأوان، وكان مثله مثل الذي يقوم «بتحضير طقوس جنائزية للموتى الذين أهمل تقديم المساعدة إليهم عندما كانوا مرضى ومتضرعين»، وطاف بين المسيحيين والتمس المساعدة من أصدقائه، وأرسل رسلاً إلى اللورد أمير انطاكية وتوسل إليه بتضرعات جدية ومتواضعة أن يتعاطف معه في مشكلته وينقذ الرها من المصير الذي يهددها بالعبودية، ووصل نبأ الكارثة الرهيبة إلى ملك القدس أيضاً، وتأكدت أخبار حصار الرها والشدائد التي كان يتحملها سكانها، وأمرت الملكة التي كان تمسك بزمام الحكم، بعد أن تشاورت مع نبلائها لا سيما قريبها مناسيس وكافل المملكة فيليب صاحب نابلس والناندوس صاحب طبرية[1] بالزحف إلى هناك مع جيش قوي فوراً لمساعدة الكونت والسكان المنكوبين، هذا وقد ابتهج أمير انطاكية لأخبار المحنة التي أصابت الكونت، وقدم معاذيره لتأجيل تقديم المساعدة التي طلبت منه، وذلك دون أن يأخذ بعين الاعتبار مسؤوليته الخاصة تجاه الصالح العام مع حقيقة «وجوب عدم السماح للكراهية الشخصية أن تلحق الضرر بالمصلحة المشتركة».

٥ ـ الاستيلاء على الرها وقتل أهلها.

واصل زنكي مهاجمة المدينة في هذه الأثناء بدون انقطاع، وألحق بها جميع الأضرار، ولم يدع وسيلة من الوسائل يمكنها أن تخدم في زيادة محن السكان وتساعده في الاستيلاء على المدينة. وأرسل عمال الحفر خلال ممرات سرية فحفروا الأنفاق تحت السور، ودعمت هذه الأنفاق بعوارض حرقت بعد ذلك، وانهار جزء ضخم من السور بعد احتراق الأخشاب وترك ثغرة وفرت مدخلاً للعدو كان عرضه أكثر من مائة ذراع، وتم هكذا الحصول على الممر المنشود واندفعت الفيالق مع بعضها من جميع الاتجاهات ودخلت المدينة وقتلت كل من صادفته، ولم تستثن أحداً لسنه أو حاله أو جنسه. ويمكن أن ينطبق عليهم هذا القول: «يقتلون الأرملة والغريب ويميتون اليتيم»[2].

وهكذا تم الاستيلاء على المدينة وتركت طعمة لسيف العدو، وحالما حدث هذا، هرب الأشخاص الأكثر يقظة ونباهة بين السكان مع زوجاتهم وأبنائهم إلى القلعة التي كانت

---

(١) إن إلناندوس مذكور كأسقف لطبرية في هذا الوقت إلا أن وليم يشير في موقع آخر إلى أن هذا يعني شخصاً عادياً.

(٢) المزامير: ٦/٩٤.

- كما ذكرنا من قبل - ضمن المدينة. وأملوا أن حياتهم ستكون آمنة هنا على الأقل ولو لفترة قصيرة من الزمن فقط، إلا أن تدفق حشد كبير من الناس كهذا سبب هلعاً، وهلك العديد من الناس بشكل بائس في وسط الحشد المتدافع من الناس، وكان بين الذين ماتوا بهذه الطريقة هوغو رئيس أساقفة الرها المبجل جداً، وبعض رجال الدين التابعين له، وشعر الذين وجدوا في ذلك الوقت أن المطران كان مسؤولاً إلى حد ما عن هذه الكارثة فقد قيل إنه جمع ثروات كبيرة كان بإمكانه أن يستخدمها لدفع للجند ليقوموا بالدفاع عن المدينة، غير أنه فضل كرجل بخيل أن يخزن ثروته بدلاً من أن يفكر بشعبه الهالك، وجنى بالمحصلة ثمار جشعه وشارك عامة الناس في مصيرهم وسترافق ذكراه سمعة كريهة إلى الأبد ما لم يأتِ الرب برحمته لمساعدته. ذلك أنها فظيعة كلمات الإنجيل بخصوص رجال من هذا النوع والتي تقول: «لتكن فضتك معك للهلاك»[1].

وهكذا، حدث أنه في الوقت الذي أجل فيه أمير انطاكية تقديم المساعدة المستحقة لإخوانه لتأثره بكراهية حمقاء، وبينما ينتظر الكونت وصول المساعدة من الغرباء سقطت المدينة العتيقة[2]. وعانت الرها التي أوقفت نفسها على الاسم المسيحي منذ أيام الرسل، الرها المدينة التي أنقذت من طغيان الكفرة بكلمات ومواعظ الرسول ثاديوس، عانت الآن كثيراً من نير العبودية الجائر.

وتقول التقاليد إن الرسول توما المقدس قد دفن في هذه المدينة، كما دفن فيها أيضاً الرسول ثاديوس والملك أبجر المقدس، وأبجر هذا هو حاكم المدينة اللامع الذي ذكر يوسبيوس القيساري رسالته إلى الرب يسوع في كتابه الذي يسمى «التاريخ الكنسي» ويقول يوسيبيوس أيضاً إن أبجر عُدَّ جديراً باستلام رد من الرب، وقد أورد الرسالتين المتبادلتين بينهما وأضاف ما يلي: «لقد وجدنا في المحفوظات العامة لمدينة الرها التي كان يحكمها أبجر هذه الرسائل مكتوبة على هذا الشكل في الوثائق التي تضم سجلاً لأعمال الملك أبجر المحفوظة منذ أزمان قديمة»[3].

(١) أعمال الرسل: ٢٠/٨ هذا النقد لهوغو، رئيس أساقفة الرها، لرفضه استخدام ثروة الكنيسة لأغراض مدنية هو في مغايرة ملحوظة لموقف وليم نحو ديمبرت الذي كان قد اتهم بسياسة مماثلة (انظر الكتابين ٩ و ١٠).

(٢) أهمل وليم هنا حقيقة أن ريموند كان متورطاً بمشاكل مع الامبراطور الجديد مانويل، وسعى لتحرير نفسه من التبعية للاغريق عندما سمع بوفاة يوحنا، وجلبت الجهود التي بذلها لتوسيع حكمه في كليكيه عقوبة سريعة من مانويل، وكان هنالك صراع فعلي بين ريموند والاغريق (١١٤٣ - ١١٤٤) ولم يكن ريموند في وضع يمكنه من تقديم أية مساعدة حقيقية إلى جوسلين (انظر ف. تشالدون - آل كومنين: ٢/٢٤١ - ٢٤٣).

(٣) كان تاريخ استيلاء زنكي على الرها هو ٢٣ كانون الأول عام ١١٤٤، وتاريخ استيلائه على القلعة بعد يومين (ر. روهرخت - تاريخ ملوك القدس ١١٠٠ - ١٢٩١ ص ٢٣٤، الحاشية ٤).

(٤) انظر الكتاب ٤ الفصل ٢.

هناك الكثير حول هذه المسألة، ولنعد الآن لمواصله روايتنا.

٦ - الملك يستولي على حصن واقع فيما وراء نهر الأردن يدعى وادي موسى.

استولى الأتراك خلال العام الأول من حكم بلدوين هذا على واحد من حصوننا القوية الذي يعرف باسم «وادي موسى» الواقع في وادي عربة فيما وراء الأردن، وذلك برضى ودعوة بعض الناس القاطنين في ذلك الجوار، يقع هذا المكان بالقرب من مياه الخصام حيث كان موسى قد فجر الماء من الصخرة عندما كان بنو إسرائيل يتذمرون ويموتون من العطش، فشرب الناس جميعاً مع أنعامهم منه.

عندما انتشر خبر استيلاء العدو على هذه القلعة وقتله للمسيحيين القاطنين هناك، جند الملك قوات من سائر أنحاء المنطقة وانطلق إلى هناك بالرغم من أنه كان ما يزال صغيراً جداً، وعبر بجنوده الوادي المشهور الذي يشغله البحر الميت حالياً والمسمى أيضاً باسم بحيرة الإسفلت، وصعد إلى المنطقة الهضبية العائدة للعربية الثانية أو عربية البتراء في بلاد موآب واجتاز من هناك إلى وادي عربة الأراضي العربية، والمعروفة عموماً في الوقت الحالي باسم منطقة مونتريال [الشوبك] ووصل إلى غايته، وكان سكان المنطقة قد وصلتهم من قبل أنباء تقدمنا فهربوا مع زوجاتهم وأبنائهم إلى داخل القلعة التي بدا أن دفاعاتها ستجعلها منيعة، وأجهدت قواتنا أنفسها عبثاً ولعدة أيام أمام الموقع، وجربت وابل القذائف الحجرية والرشقات المتكررة من النشاب وأساليب الهجوم الأخرى بلا نتيجة، واقتنع المسيحيون في النهاية أنه يستحيل الاستيلاء على الموقع بسبب تحصيناته ولذلك تحولوا إلى خطط أخرى.

كانت المنطقة بأسرها مغطاة ببساتين الزيتون الخصبة حيث غطت المنطقة كغابة كثيفة، وكان سكان تلك المنطقة يستمدون معيشتهم من هذه الأشجار، كما كان آباؤهم قد فعلوا ذلك من قبلهم، ولذلك فهم سيحرمون من كل وسائل العيش إذا ما قطعت هذه البساتين، وهكذا، تقرر اقتلاع هذه الأشجار وإحراقها، وكان يعتقد أن السكان المروّعين الذين سيصبحون يائسين بتخريب بساتينهم من الزيتون سيستسلمون أو سيقومون بطرد الأتراك الذين كانوا قد التجأوا إلى القلعة ويسلمون القلعة إلينا، وكانت هذه الخطة ناجحة تماماً، حيث بدّل الناس أساليبهم وتبنوا أساليب أخرى عندما رأوا أشجارهم الحبيبة مقطوعة، وأعادوا الحصن إلى الملك شريطة أن يُسمح بالرحيل للأتراك الذين كانوا قد استدعوهم دون أن يصابوا بأذى، وأن لا يعاقبوا مع عائلاتهم بالموت على سلوكهم الشرير.

تم استلام القلعة حالاً، وعينت حامية لها وأدخل إليها ما تحتاجه من الطعام

والسلاح، وهكذا، أنجز الملك بنجاح الحملة الأولى التي قام بها بعد ارتقائه للعرش، وعاد منتصراً مع سائر جيشه وآمناً وسالماً إلى بلاده[1].

٧ - زنكي يقتل أثناء حصاره لقلعة جعبر. ابنه نور الدين يتولى الحكم بعده.

تملك زنكي الغرور والإعجاب بنفسه كثيراً نتيجة النجاحات الرائعة التي حققها في إخضاع مدينة الرها، وتولى على الفور محاصرة قلعة جعبر، وهي موقع محصن على نهر الفرات. غير أن حاكم البلدة دخل في مؤامرة مع بعض حجاب وخصيان بيت زنكي أثناء مواصلته حصار هذا الموقع، وقام بعض غلمان الأمير زنكي بقتله في إحدى الليالي عندما كان مستلقياً في خيمته متخماً بالخمرة التي كان قد تناولها بإفراط، ولدى وصول نبأ وفاته علّق واحد من شعبنا على عملية اغتياله قائلاً: «يا لها من مصادفة سارة! قاتل مجرم يحمل اسم «سفاح» أصبح مضرجاً بدمه»[2].

استقبل صاحب المدينة المحاصرة القتلة إلى داخل الأسوار حسب الإتفاق وهكذا نجوا من انتقام أقرباء زنكي المقتول، وفر جيش زنكي بأسره عندما حرم من تأييد سيده وحمايته فخلفه ولداه حيث قام أحدهما في الموصل في الشرق، وانتقل الآخر، وهو نور الدين، إلى حلب وكان رجلاً حكيماً وعاقلاً، كما كان تبعاً لما اعتقده شعبه فيه رجلاً يخاف الله، وكان محظوظاً أيضاً في أنه وسع كثيراً الميراث الذي خلفه والده له.

٨ - حاكم مدينة بصري الذي كان من نبلاء دمشق يدخل في تحالف مع الملك، إرسال جيش المملكة إلى تلك المدينة. أنر حاكم دمشق يسعى للحيلولة دون تنفيذ هذه الخطط.

أتى بعد وقت قصير من هذا حاكم تركي نبيل مع حاشية مهيبة إلى القدس وذلك في العام الثاني من حكم الملك بلدوين، وكان لسبب ما قد جلب على نفسه غضب مجير الدين ملك دمشق، وعلاوة على ذلك، كان قد تعرض لسخط الحاكم معين الدين أو أنر وهو رجل فاقت سلطته سلطة الملك في كل مكان من بلاد الدمشقيين، وأكد هذا القائد للملك ووالدته أنه في حال منحه تعويضاً معتبراً بمكانته فلسوف يسلمها مدينة [بوصتروم] بصرى التي كان

(١) لا بد أن هذه الحملة قد حدثت في ربيع أو صيف عام ١١٤٤ وقبل أن تصبح الأحداث في الشمال خطيرة.

(٢) حدثت محاصرة قلعة جعبر في منطقة الرها في شهر أيلول عام ١١٤٦. وحسب رواية ابن القلانسي كان القاتل تابعاً مقرباً من زنكي، وكان رجلاً من أصل فرنجي، كما واعترف بادمان زنكي على الخمرة. وكان تاريخ وفاته في ١٤ أيلول عام ١١٤٦، ومن الواضح أن وليم لم يتمكن من مقاومة الإغراء للإنغماس في التورية لدى وفاة زنكي (تاريخ دمشق ص ٢٧١).

يحكمها وحصن صلخد أيضاً، وبصرى هي حاضرة العربية الأولى وهي تعرف حالياً باللغة الدارجة باسم بصرى، وقيل إن هذا النبيل نفسه، الذي كان يدعى ألتونتاش، كان أرمني المولد، وكان طويل القامة وصاحب ملامح مقبولة وافرز قوامه ومظهره دليلاً على روح الرجولة[1] التي كان يتحلى بها وبناء عليه، فقد عقد مؤتمر عام للنبلاء، وشرحت أسباب زيارة هذا الرجل العظيم ودرست بعناية جميع أوجه اقتراحه، وتقرر في آخر الأمر وبالإجماع أن يمنح تعويضاً جديراً ومرضياً، وأن يجند جيش، وترسل حملة إلى بصرى، واتفق الجميع على أنه إذا أمكن بوساطة هذا الرجل نقل بصرى إلى سلطتنا وضمها إلى الاسم المسيحي بحق دائم، فإن توسيعاً كهذا للمملكة سيكون مقبولاً عند الرب، وهكذا، تم التوصل إلى اتفاق مرضٍ للطرفين، وصدرت الأوامر للنفارة باستدعاء جميع أهالي المملكة مباشرة، وبعد أن التمس الملك ونبلاؤه المساعدة من السماء أخذوا معهم صليب الصلبوت المانح للحياة، وتقدموا نحو طبرية، ونصب المعسكر بالقرب من الجسر حيث تنفصل مياه الأردن عن البحر.

كان هنالك تحالف وسلام مؤقت بين أنر والملك بلدوين وهو أمر كان موجوداً في أيام والد الملك أيضاً وبناء عليه اقتضى الحال إخطار الحاكم بشكل رسمي حتى يتمكن من الحصول على الوقت اللازم ـ جرياً على عادة البلد ـ ليجمع جيشاً ويعد التحضيرات للمقاومة، وإلا فسيبدو الملك بأنه دخل أراضيه فجأة دون إخطار رسمي، الأمر الذي يخالف قانون المعاهدات، وهكذا أرسلت الرسل إلى أنر إلا أنه أجل بحكمة إرسال الجواب سيما وأنه كان رجلاً بارعاً[2]، وانقضى شهر من الزمن كان قد انشغل فيه بنشاط بطلب المساعدة بالتوسلات والمال من جميع الزعماء المجاورين الذين كانوا من جنسه من قريب وبعيد، وبعدما جمعت أعداد كبيرة من الجند من سائر الأنحاء، أرسل أنر الرسالة التالية إلى الملك ونبلائه: «إنكم تستعدون ـ خلافاً لشروط المعاهدة التي دخلتم فيها ـ للزحف إلى بلاد مولاي وتحاولون أن تحموا برعاية جائرة عبده المتمرد الذي يتصرف ضد الولاء الذي كان قد أقسمه، ولذلك فإننا نتوسل بتواضع إلى الملك النبيل أن يكف عن هذه النية وأن يصون

---

(١) من الواضح أن هذا الحادث، الذي حدث في ربيع عام ١١٤٧، مستمد من مصادر عربية ولاتينية أيضاً. وليس من الصعب التعرف إلى مجير الدين ملك دمشق ولا إلى معين الدين أو أنر، اللذان حكماها بالفعل. وتنتيس هو ألتونتاش، وصلكس هو صرخد وبوصتروم هي بصرى العصور القديمة.

(٢) يظهر وليم هنا ثانية اهتمامه بالتبادل الدبلوماسي، لاحظ اقتناعه الواضح أنه يجب المحافظة على شروط المعاهدة مع المسلمين بدقة كما يتم ذلك مع المسيحيين.

جوهر الإتفاقات التي تم التوصل إليها من قبل بيننا، ونحن مستعدون بكل إخلاص أن نعوض للملك جميع النفقات التي صرفها في سبيل هذه الحملة».

أجاب الملك بناء على نصيحة الجميع على هذه الرسالة على النحو التالي: «إننا لا نعتزم بأية حال أن نخرق شروط المعاهدة التي عقدناها معكم، ولكن بما أن هذا الرجل النبيل قدم إلينا للبحث معنا في بعض المسائل بطريقة ودية، فإننا لا نستطيع بشرف أن نخذل رجلاً وضع كل أمله في مملكتنا، ومع ذلك، فسنكون راضيين إذا سمح لنا بإعادته بأمان إلى المدينة التي هجرها لمصلحتنا، وليتعامل سيده معه حسب قوانين المنطقة ويعوضه حسب استحقاقه بعد أن يكون قد انسحب إلى قلعته، وأما بالنسبة لنا، فإننا سنمتنع سواء في الذهاب أو القدوم عن إلحاق أي أذى بصديقنا ملك دمشق بإرادة الرب وحسب ما نحن ملزمون بعمله».

كان أنر هذا نفسه رجلاً حكيماً جداً وكان محباً لشعبنا، وكان له ثلاث بنات كان قد زوّج إحداهن إلى ملك الدمشقيين المذكور منذ لحظات وأخرى زوجها لنور الدين بن زنكي[1]، بينما زوج الثالثة لفارس مشهور يسمى Margar. وهكذا، حصل على ود المملكة بالفعل ليس فقط لأنه كان ختنا للملك، بل أيضاً بسبب تعقله الكبير، وكان الملك متراخياً بالطبيعة ومدمناً على تناول الخمور والعربدة. ولم يهتم بغير الإنغماس في الملذات واستسلم للممارسات الخليعة تماماً.

بذل أنر كما ذكرنا من قبل جهوداً جبارة للفوز بعطف المسيحيين بكل وسيلة ممكنة، واستخدم كلّ الأساليب التي يتم بوساطتها كسب الأصدقاء، وسواء صدر هذا من القلب ومن صدق الهدف، أو أن الضرورة أجبرته لاتخاذه خلافاً لرغباته الخاصة فإن ذلك يبقى سؤالاً يطرحه الإنسان العاقل، ولا شك أن الأمر كان على أحد الوجهين، فقد كان ينظر إلى نور الدين، زوج ابنته، بالريبة نفسها التي كان قد شعر بها من قبل نحو والده زنكي، وكان يخاف دائماً من أن يقوم نور الدين بطرد الملك من المملكة سيما وأن الملك كان أيضاً زوجاً لابنته، لكنه كان رجلاً جاهلاً وتافهاً لا قيمة له، فعندها سيفقد أنر نفسه زمام الحكم»[2].

كان هذا هو السبب الأساسي الذي دفعه إلى عدّ تأييدنا ضرورياً للغاية لمصالحه، وحاول أن يضمنه بكل طريقة ممكنة، ويبدو أنه كان لدى هذا الرجل الحكيم بصيرة وقدرة

---

(١) حدث زواج ابنة أنر من نور الدين في أوائل ربيع هذا العام (تاريخ دمشق ص٢٧٥ - ٢٧٦).

(٢) يؤيد ابن القلانسي هذا التحليل الدقيق لبواعث أنر في سياسة صداقته المتماسكة تقريباً مع القدس. وابن القلانسي هو مؤرخ دمشق الذي كان يقيم ويكتب هناك في هذا الوقت.

على التنبؤ، لأن الأمر الذي كان يخافه قد حدث، حيث قام نور الدين بعد وفاة أنر بطرد الملك الحاكم بالقوة واستولى على العرش بموافقة سكان دمشق.

وهكذا، ولهذا السبب أجهد نفسه بصدق ليعوض النفقات التي كان الملك قد صرفها على تجنيد الحملة ولإعادته إلى بلاده سلياً، ومن المؤكد أنه كان سيتخذ موقفاً أقل عداوة تجاه الملك وقواته في هذه المسألة، لو تمكن من كبح الأحلاف التي كان قد استدعاها من الخارج، فذلك ما كان يرغب به، ذلك أننا وجدنا براهين معتمدة تقدم شهادة واضحة على ولائه وإخلاصه وصموده في مسائل متنوعة.

٩ ـ الجيش يعاني أثناء زحفه من مخاطر لا تحصى.

كان من بين المندوبين الذين جلبوا هذا التقرير شخص يسمى برنارد فاتشر وكان على علاقة وثيقة بالملك، وبدأ الناس فور إذاعة هذه الحقائق يصرخون عالياً أن برنارد كان خائناً، وأن أي شخص يحاول نصحهم بالعدول عن هذا الأمـر ويضع عقبات في طريقهم ليس موالياً للمسيحيين، وبدأ الحشد اللامسؤول يطالب وبصيحات عالية استئناف السير وأن لا يتخلى بسهولة عن الجهد المبذول للإستيلاء على تلك المدينة المهيبة، وكان من المتوجب أداء الشكر إلى الرجل النبيل الذي كان قد قدم خدمة للمسيحية ستذكر في كل العصور، وينبغي تنفيذ اقتراحه بجميع تفاصيله بإخلاص وصدق، وكان عليهم أن يكافحوا حتى الموت من أجل هذا الهدف.

وسادت إرادة الحشد وسط الصخب العنيف، ورفضت نصيحة أصحاب العقول الأكثر سلامة، وهكذا، رتبت الأمتعة وانحل المعسكر، وجرى توجيه الزحف نحو المدينة، ودخل الجنود، بعد أن اجتازوا وادي الراحوب، السهل المعروف باسم الميدان حيث اعتاد العرب والمشارقة الآخرون على عقد أسواق سنوية فيه، وبدأ جيشنا يواجه العدو بأعداد ضخمة جداً في هذا الموقع لدرجة أنه حتى الذين كانوا الأكثر إصراراً من قبل على مواصلة الحملة، باتوا سعداء لو تمكنوا من عطف ظهورهم لو كانت عودتهم ممكنة، ومع ذلك استعد الجنود لخوض المعركة حالاً على الرغم من أنهم ذهلوا من كبر أعداد جنود العدو، لكن الملك أمر بإقامة المعسكر أولاً وفق نصيحة المتمرسين في فن الحرب، فنفذ هذا الأمر وحرص الجنود على إنعاش أجسامهم بالقدر الممكن في مثل ذلك الوضع الخطير. وانقضى الليل بحراسة وترقب دونما نوم، وأطبقت جيوش العدو، التي ازدادت أعدادها الآن كثيراً، على فيالقنا من كل الجهات حيث كانت واثقة من أنها ستقيد المسيحيين مثل أحط أنواع العبيد، وسيصبحون فريسة لهم في الغد، ومع ذلك، واصل شعبنا مراقبة مستمرة واعتنوا بواجباتهم

غاية الإعتناء وتصرفوا حسبما كان يتوجب على الرجال الشجعان، وعقد في الصباح مؤتمر وتقرر فيه التقدم لأن الإنسحاب لم يبد مخزياً فقط، بل بدا أنه مستحيل بشكل عملي. وبالفعل، كان العدو قد طوقهم الآن تماماً من جميع الجهات وأعاق إعاقة تامة اختيار أي من السبيلين.

ومع ذلك، انقض رجالنا بشجاعا، وأمكن أخيراً شق طريق بالسيف وسط العدو وتقدمت قواتنا بالإجماع نحو غايتها، غير أنها تحركت بسرعة بطيئة بعدما أرهقتها الدروع والخوذ والترسة، كما أعاقت تقدمهم أعداد الأعداء الكبيرة الموجودة حولهم، وكان بإمكان سرايا الفرسان أن تتقدم بسرعة أكثر حيث لم تكن معها أمتعة إلا أنه كان من الضروري أن تكيف تحركاتها مع سرعة مجموعات المشاة حتى لا تختل الصفوف وتقدم فرصة للعدو للإنقضاض على التشكيلات، وهكذا، صمدت الكتائب مع بعضها وكانت كافة مجموعات المسيحيين كأنها شخص واحد، وأبدى الفرسان اهتماماً كبيراً بالمشاة إلى درجة أنهم غالباً ما ترجلوا عن خيولهم وشاركوا في مشقات مماثلة، وعرضوا أيضاً حمل المرهقين حتى يمكن تخفيف مصاعب الزحف.

استمر العدو في هذه الأثناء بإرهاق الجيش بوابل مستمر من السهام، وكافح لخرق صفوفنا بزيادة الجهود التي كان يبذلها. غير أن المسيحيين كانوا كلما جمعوا أنفسهم وتكتلوا قاتلوا بإحكام أكثر. وواصلوا طريقهم بجرأة وحماسة.

بلغت إضطرابات المسيحيين الأوج عندما هاجمهم عطش رهيب زاد من حدته صعوبة الزحف وحرارة الصيف، وكان طريقهم عبر بلد قاحل وجاف حيث كانت تلك المنطقة بأكملها خالية من الينابيع، لأن سكانها يجمعون في فصل الشتاء ماء المطر في خزانات طبيعية واصطناعية، غير أن هذه الخزانات كانت قد أصبحت عديمة الجدوى في هذه المرة لأن المنطقة كانت قد عانت مؤخراً من هجوم الجراد بحجم غريب ففسدت جميع البرك من هذا النوع وفسد الماء نتيجة تفسخ الحشرات الميتة في تلك البرك.

وتدعى المنطقة التي قام طريقنا فيها باسم تراخونيتس، وقد ذكرها لوقا في انجيله على النحو التالي: «وفيلبس أخوه رئيس ربع على يطورية وكورة تراخونيتس»[1] يبدو هذا الاسم بالنسبة لنا مشتقاً من تراخون لأن الكهوف السرية المخبأة التي تكثر في تلك المنطقة تعرف باسم تراخون، ويعيش جميع سكان تلك المنطقة تقريباً في كهوف ومغائر ويقيمون منازلهم في التراخونات هذه.

---

(١) لوقا: ٣/١.

١٠ - المسيحيون يجدون لدى وصولهم إلى هدفهم العدو محتلاً للمدينة. وبناء عليه يعودون إلى بلادهم دون تحقيق هدفهم.

اجتاز المسيحيون جزءاً من تلك المنطقة في ظل ظروف خطرها شديد، ووصلوا في حوالي الساعة الأخيرة من اليوم إلى مكان يدعى في عهود سابقة باسم درعا والمعروف عموماً في الوقت الحالي بأنه مدينة برنارد دي استامبز وهي إحدى المدن التابعة لمطرانية بصرى، وكان سكان هذه المدينة قد انضموا إلى قوات العدو، ولذلك توجب على شعبنا أن يعاني حتى من مصاعب أسوأ من تلك التي واجهها من قبل، حيث فقد، عندما حاول الحصول على الماء من البرك المكشوفة، حتى الأوعية التي كان قد أدلى بها لأن عناصر العدو المختبئة في الكهوف السرية قطعت الحبال التي تم بواسطتها إنزال هذه الأوعية وتركوها متدلية، وزاد إحباط الأمل هذا، الذي كانوا قد منوا به من آلامهم لفترة طويلة من الزمن من شدة كرب عطشهم.

لم يذق شعبنا طعم الراحة لمدة أربعة أيام متتالية، وأنهك بالفعل إلى درجة أنه نادراً ما وجد وقتاً للراحة حتى أثناء الليل لتلبية احتياجاته الجسدية، وازدادت أعداد العدو يوماً بعد يوم، بينما تناقصت قواتنا باستمرار، حيث قتل بعضها وأصيب آخرون بجراح مميتة، كما أن الذعر استبد بعناصر أخرى حتى يئست من حياتها، فازداد حجم الحشد المتجمع حول الأمتعة، وتوارى الرجال بين حيوانات التحميل والخيول وتظاهروا بالضعف حتى لا يضطروا للخروج وتحمل وطأة هجمات العدو الشديد، وانهمر وابل كثير من النشاب وأنواع أخرى من المقذوفات كالمطر أو البرد على قواتنا بشكل مستمر إلى درجة بدا فيها حشد الرجال والبهائم مغطى بالأسلحة، وكان بإمكان المتفرج أن يبدي إعجابه بالمواظبة المستمرة للعدو في الهجوم والتحمل الذي لا يقهر للمسيحيين في المقاومة، ومع ذلك، فقد استمر شعبنا في إطلاق وابل من النشاب والحراب غير أن قذائفنا نادراً ما ألحقت الضرر بالعدو الذي تمكن من التنقل بحرية.

واصل المسيحيون زحفهم في ظل مخاطر كثيرة، واقتربوا في آخر الأمر من غايتهم في اليوم الرابع، وشاهدوا المدينة عن بعد وصدوا العدو بصعوبة كبيرة واستولوا بالقوة على المياه التي كانت تتدفق باعتدال من الصخور، ونصبوا المعسكر في منطقة مجاورة، وأوقفت القوات أنفسها لفترة قصيرة على الإنتعاش والإستجمام الجسدي، ونعم المسيحيون في تلك الليلة بشيء من الراحة وكانوا يتطلعون إلى الغد بتلهف، غير أن حامل أخبار مشؤومة غادر المدينة خلسة وجاء في منتصف الليل وتسلل عبر صفوف العدو إلى معسكرنا، وأعلن أن لديه رسائل

خاصة إلى الملك وتوسل أن ينقل إليه فوراً، فسمح له بمقابلته، واستدعى النبلاء والسيد النبيل أيضاً، الحاكم السابق للمدينة والذي كان قد قادنا إلى المأزق الحالي، ثم كشف الرسول عندئذ النقاب عن حقيقة أن زوجة هذا الحاكم نفسه قد خانت المدينة وسلمتها إلى الأتراك الذين جلبوا قواتهم واستولوا على جميع الحصون بما في ذلك القلعة نفسها وتم طرد الآخرين.

ارتبك شعبنا لنبأ هذه الكارثة، وعقد مؤتمراً وتقرر في النهاية أن الطريق الأفضل هو عودة المسيحيين بسرعة إلى بلدهم مهما كان الخطر، هذا وتشاور عدد من زعماء المملكة بصورة سرية مع الملك ونصحوه بامتطاء جواد جون غوماني الذي اشتهر بتفوقه على جميع الخيول الأخرى في السرعة والتحمل، وأن يعتني بسلامته فقط حاملاً بيده صليب الصلبوت، وقدمت هذه النصيحة بعدما يئسوا من إمكانية العودة مع توقع أن الجيش سيهلك بأسره بعد فترة قصيرة، غير أن الملك، مع أنه كان ما يزال صغيراً جداً، رفض هذه النصيحة بإباء ملكي وأظهر بوضوح عما ستكون شخصيته في أعوام قادمة، وأعلن أنه سيحتقر إنقاذ حياته الخاصة إذا توجب على شعب مكرس للرب أن يهلك بصورة بائسة.

رفض الملك الإهتمام بهذه التحذيرات على الرغم من أنها صدرت عن حب حقيقي، وتبنى خططاً أخرى وبما أن التقدم الإضافي بات يعني إبادة تامة، اتخذت إجراءات للإنسحاب وشعر المسيحيون الآن ولأول مرة بشدة موقفهم في حجم مزدوج حيث كان أملهم الكبير قد تلاشى الآن، وأدركوا أن جميع الجهود التي كانوا قد بذلوها كانت جهوداً عقيمة، وكانت مشاكلهم حتى هذا الوقت خطيرة بشكل كاف ـ لقد كانت في الواقع مشاكل لا تحتمل ـ فقد كانوا قد تحملوا آلاماً تعدل أي آلام يمكن أن يواجهوها فيما بعد. ومع ذلك، يلاحظ أنهم حين واصلوا نضالهم، كان يحدوهم وثوقهم بأمل الإستيلاء على المدينة، وقد مكنتهم هذه التوقعات السارة من متابعة الصمود، غير أن هذا الأمل كان قد تخلى عنهم الآن وأدركوا أن عليهم التخلي عن مشروعهم، وبناء عليه أعلن المنادي عن نبأ العودة واستعد الجميع للزحف عائدين إلى الوطن.

١١ ـ الجيش يواجه أخطاراً كثيرة في مسيرة العودة، الأتراك يصابون بالدهشة إزاء مثابرة جنودنا.

وصل نور الدين عند فجر اليوم التالي مع عدد كبير من الأتراك قادماً من المدينة المذكورة آنفاً وانضم إلى كتائب العدو، وكان والد زوجته قد التمس المساعدة منه، هذا وكان المسيحيون قد شرعوا في مسيرة العودة حسب الترتيب المتخذ، وحالما لاحظ الأتراك هذه الحركة سارعوا نحوهم وحاولوا منع الإنسحاب بجلبة كبيرة، إلا أن الصعوبات نفسها

التي طوقت شعبنا من كافة النواحي عززت شجاعتهم، واخترقوا بسيوفهم الصفوف المعارضة، وشقوا طريقهم خلالها على الرغم من تعرضهم لخطر شديد وعلى حساب الكثير من الضحايا.

صدرت أوامر عامة قضت بوضع جميع جثث الموتى في صفوف المسيحيين على الجمال وحيوانات التحميل الأخرى بحيث لا تقود معرفة المذبحة التي تعرضت لها قواتنا إلى تعزيز قوة العدو، كما توجب وضع الضعفاء والجرحى على حيوانات التحميل لإعطاء الإنطباع بأنه لم يقتل أو يجرح ولا حتى مسيحي واحد، وصدرت الأوامر إلى العاجزين أن يستلوا سيوفهم حتى يتمكنوا من تقديم المظهر الخادع للقوة على الأقل، ولذلك، كان مصدراً للدهشة للزعماء الأكثر حكمة بين العدو أن تعذر العثور حتى على مسيحي واحد ميت أو عاجز بعد الوابل الكبير من السهام والمنازلات المتكررة وعذاب العطش والغبار والحرارة التي لا تحتمل، فقد اعتقدوا أن هذا الشعب لا بد وأنه قدّ بالفعل من حديد وإلا لما تمكن من تحمل ضغط مستمر ومتواصل كهذا، ولذلك انتقل العدو إلى أساليب أخرى بعدما أخفقت الجهود التي بذلها، وكانت جميع المنطقة القريبة من ذلك الموقع مغطاة بكميات كثيفة من العليق والأشواك اليابسة والأعشاب الأخرى حيث كانت النباتات القديمة والمحاصيل ناضجة تماماً، فألقى جنود العدو فيها النار وهبت ريح قوية نقلت ألسنة النيران بشكل شديد نحونا حيث تضاعفت الآن المحن التي أصابتنا بسبب ألسنة النيران المتنقلة تدريجياً مع سحب الدخان الكثيفة التي رافقتها، والتفت الناس بصيحات الكرب كرجل واحد إلى روبرت المبجل رئيس أساقفة الناصرة وتوسلوا إليه بدموع قائلين: «صلّ من أجلنا أيها الأب وأنقذنا من هذه الكوارث بواسطة الصليب المانح للحياة الذي تحمله بيديك، الصليب الذي نؤمن بأن منقذنا علق عليه، لأننا لم نعد نستطيع تحمل هذه الكوارث، وكانت الريح قد نقلت الدخان نحوهم حتى غدت وجوه الناس ومظهرهم العام أسود كمظهر الحدادين أثناء عملهم عند الكير، وزادت الحرارة الصادرة من ألسنة النيران مضافة إلى حرارة فصل الصيف والعطش الشديد من معاناتهم إلى حد يفوق الإحتمال.

تأثر الرجل حبيب الله بصيحاتهم وتوسلاتهم بعمق. ورفع بتواضع الروح صليب الصلبوت نحو ألسنة النيران التي كانت تندفع نحوه بكل عنفها، والتمس المساعدة من السماء، فاستجاب التأييد السماوي على الفور، وتغير اتجاه الريح بأقل من دقيقة، وتحولت الكتلة المائجة من الدخان والنار باتجاه العدو، وهكذا، تحول الشر الذي كان الأتراك قد أعدوه من أجل هلاكنا إلى هلاكهم، ووقفوا مذهولين إزاء المعجزة المدهشة وأيقنوا أن عقيدة المسيحيين لا بد أنها فريدة وإلا لما تمكنت من تحقيق إجابة سريعة جداً من الرب بالصلاة، -

وحيث انهمك جنود العدو بالتفكير كلياً في الخطر المحيق بهم لفترة من الزمن فقد منحوا جنودنا بحكم الظروف بعض الأمن وسمحوا لهم باستراحة قصيرة.

١٢ ـ إرسال رسول إلى العدو من أجل السلام. مقتل فارس كبير بين صفوف العدو. تفرق الجيش التركي، ومتابعة قواتنا سيرها دون عائق.

وهكذا، عانى جيشنا من هذه الشرور التي لا تحتمل. وبدأ النبلاء العظماء والأشخاص ذوي الخبرة الواسعة يلاحظون في هذه الأثناء أن طاقة الإحتمال لدى جيشنا لن تستمر أطول من ذلك، ولذلك ذهبوا إلى الملك وأقنعوه أن يرسل مندوباً إلى أنر بشأن السلام، مع إعلان قبول أية شروط شريطة أن يسمح للجيش المسيحي بالعودة إلى الوطن، واختير لهذه المهمة رجل صاحب سمعة مشكوك بها إلى حد ما كان قد شارك في مهمة مماثلة من قبل وتصرف بغدر نحو شعب المسيح، ومع ذلك، عهد إليه بهذه المهمة أيضاً بسبب معرفته بلغة الأتراك، ويذكر أنه قال رداً على الأمر بوجوب تنفيذ المهمة المفروضة عليه بإخلاص: «إن الشكوك الموجهة ضدي شكوك جائرة وتفوق أي شيء أستحقه، ومع ذلك إنني سأذهب. وإذا كنت مذنباً بالتهم الموجهة ضدي فآمل أن لا يسمح لي بالعودة أو أن أقتل بسيف العدو».

كان الرجل التعيس قد تلفظ بعقوبته بالموت، ولاقى حكم الرب فوراً لأنه هلك على يد العدو قبل أن يصل إلى الأتراك وينجز مهمته.

شارك في هذه الحملة أربعة زعماء عرب مشهورون بمرافقة حشد من شعبهم، وكانوا إخوة وأبناء للحاكم العربي القوي والمشهور مرى، واستمرت هذه القوات بشن هجمات مستمرة وقوية جداً على أجنحة جيشنا، غير أن عساكرنا لم تجرؤ ـ تقيداً بالأوامر الصادرة لها ـ على الخروج من الصفوف إليهم، لأنهم لو مزقوا الصفوف، خلافاً للنظام الحربي، لتعرضوا لعقوبة قاسية كهاربين من مواقعهم، هذا وكان هنالك أحد الفرسان في حاشية ذلك التركي [ألتونتاش] لم يستطع أن يتحمل هذا الوضع فتلهف لإنقاذنا من الإنهاك، فاندفع بحصانة إلى الأمام بشجاعة كبيرة وبصرف النظر عن القواعد المفروضة ودون مبالاة لحياته، وقذف الرمح الذي كان يحمله على أحد الإخوة الأربعة ثم طعنه بسيفه وسط صفوفه وجرّ الجثة الهامدة إلى الأرض ثم عاد إلى صفوفنا دون أن يصاب بأذى.

واجتمع حشد ضخم من الناس فوراً حول جثة الزعيم المقتول، وارفض الحشد، بعدما اتضح أن الزعيم لفظ روحه المشؤومة، وهو يصيح صيحات عويل عالية وعبر بسيول من الدموع عن حزنه الشديد.

ابتهج شعبنا كثيراً، وطلب بتلهف معرفة اسم الرجل الذي عرّض نفسه للخطر وحقق بذلك مأثرة تستحق شهرة أبدية، وتبين له أن الفارس كان غريباً، يمكن الصفح عنه بسهولة لتجاوزه القواعد، خاصة وأنه لم يكن يعرف لغتنا ولم يفهم المرسوم العام، وهكذا، صُفح عنه لأنه لم يكن عارفاً بالأمر على الرغم من أنه كان قد تصرف بلا ريب خلافاً لقواعد النظام العسكري، واعتبرت مأثرته جديرة بالثناء بسبب النتيجة التي حققتها وليس لكونها صحيحة.

تمزق بذلك صف قتال العدو في تلك الناحية، وتمكن جيشنا من الإنتشار الآن؛ وبالتالي، ضمن على الفور تعويضاً في المنطقة الأكثر انفتاحاً بدلاً عن الشدائد التي كان قد عانى منها، ووصل جنودنا بعد مسيرة متواصلة استمرت بضعة أيام إلى وادي الراحوب وبما أن الممر كان ضيقاً جداً ويمكن أن يكون العبور خطراً هنا، أمر القادة بإلغائه عمداً، ولاحظ أنر كافل دمشق أن الملك كان يقود جيشه إلى الوادي المذكور منذ لحظات، ولذلك أرسل رسلاً لإبلاغه أنه سيحضرّ وليمة له وراء الوادي بكل الولاء الصادق إذا كان ذلك يدخل السرور إلى نفسه لأنه كان يعرف أن الجيش قد عانى منذ أيام وحتى الآن من فقدان المؤن، ولم نتمكن من التأكد فيما إذا كان هذا العرض صادقاً وصادراً عن النية الحسنة نحو المسيحيين، أو أنه كان مجرد خدعة لإجبار الجيش المسيحي على عبور الممرات الضيقة ذات الأودية الخطرة جداً، ومع ذلك، فإن الإعتقاد التقليدي كان يقتضي بعدم الثقة في الهبات التي يقدمها العدو، ولذلك تقرر بقرار جماعي التقدم عبر الطريق العلوي وكان طريقاً مستوياً وأقل خطراً.

لكن لم يكن هنالك من يرشدهم عبر المنطقة التي توجب عليهم أن يعبروها، وظهر هنالك فجأة أمام الصفوف فارس مجهول، كان ممتطياً جواداً أبيض اللون، وكان مرتدياً درعاً وقفازات قصيرة واصلة إلى مرفق يديه، وكان يحمل رأية حمراء، وقادهم، كملاك أرسله الرب، عبر الطريق الاقصر إلى مياه لم تكن معروفة حتى الآن، وأظهر لهم الأماكن الأكثر مواءمة والأفضل لإقامة المعسكر، واحتاجت الحملة عملياً خمسة أيام للوصول إلى الوادي ثم وصلت في ثلاثة أيام إلى جدر بتوجيه هذا القائد.

١٣ ـ وصول فيالقنا إلى جدر. وصف الموقع. عودة العساكر إلى الوطن.

تقع جدر في المنطقة المعروفة باسم بلاد المدن العشر، المكتوب عنها في إنجيل مرقس: «ثم خرج أيضاً حتى تخوم صرر وصيدا وجاء إلى بحر الجليل في وسط حدود المدن العشر»[1]

(١) مرقس: ٧/٣١.

وتشتمل هذه المنطقة، كما يشير اسمها على عشر مدن هي: هبوس [قلعة الحصن] وبلا [فحل] وجدر الموقع الذي أتينا الآن على ذكره وسبع مدن أخرى، وتقع مدينة جدر هذه على الحد الواقع بين بلاد العدو وبلادنا. وعندما وصلتها فيالقنا الأولى شرع الأتراك يضايقون صفوفنا الخلفية، وكأن روحهم الشريرة السابقة قد استولت عليهم من جديد، لكنهم ما لبثوا أن أدركوا أن جهودهم كانت عقيمة لأن المسيحيين كانوا قد دخلوا بلادهم، ولذلك فرقوا صفوفهم وبدأوا يعودون بأعداد كبيرة إلى بلادهم بعدما أنهكهم عبء الدخان والطقس الحار جداً والإجهاد، وانقضت تلك الليلة بهدوء غريب، واستمتع رجالنا بالراحة والإنعاش الضروريين لأجسادهم المرهقة، وتقدموا في اليوم اللاحق يؤمون طبرية

ويتفق جميع الذين ما يزالون يحتفظون بتذكر دقيق لهذا الحدث أن قائد هذا الزحف لم يكن معروفاً لأحد وكان يختفي على الفور كلما ضرب الجيش معسكره، ولم يُشاهد في أي مكان من المعسكر أبداً، وكان يذهب في طليعة الجند في الصباح، ولا يستطيع أحد موجود الآن على قيد الحياة أن يتذكر حملة خطيرة بشكل مماثل خلال زمن اللاتينيين في الشرق، لم تؤد إلى انتصار حاسم للعدو.

عندما عاد الملك إلى المملكة وأعيد صليب الصلبوت إلى القدس حدث ابتهاج كبير بين الناس الذين كانوا قد بقوا في الوطن بسبب عودة أصدقائهم الآن، وكان بإمكانهم أن يهتفوا: «لأن ابني هذا كان ميتاً فعاش وكان ضالاً فوجد، فابتدأوا يفرحون»[1].

بعد فترة وجيزة من هذا جرى استدعاء ذلك النبيل التركي نفسه من قبل أنر البارع نفسه بأقوال مسالمة وبذريعة المصالحة، لكنه واجه أشد أنواع المعاملة خزياً، حيث سملت عينا الرجل المسكين وأمضى بقية حياته في أقصى حدود الفقر والتعاسة[2].

١٤ - سكان الرها ينشدون عون الكونت. الكونت يسرع إلى هناك ويستلم المدينة دون معرفة العدو.

في الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الأحداث في أحوازنا، حدث حادث مؤسف

(١) لوقا: ١٥/٢٤.

(٢) يروي ابن القلانسي هذا الحدث ببعض التفصيل، وحسب ما ذكره، قدم التونتاش إلى دمشق واعتقل وحوكم وقضي عليه بالعمى لأنه كان قد أعمى واحداً من أخوته. وسمح له أن يكمل حياته في منزل في دمشق (تاريخ دمشق ص٢٧٦ - ٢٧٩).

في كونتية الرها ينبغي تدوينه، وحتى نفهم تفاصيل هذا الحدث بشكل تام من الضروري العودة إلى زمن سابق إلى حد ما في التاريخ.

تخلف نور الدين بعد وفاة والده زنكي، أكبر مضطهد للعقيدة المسيحية، لفترة من الزمن في الموصل بخصوص مسألة خلافته على إمارة والده، ولم يبق سوى عدد قليل من أتباعه لمواصلة الحراسة في الرها، وكان مجمل باقي السكان متمسكين بشدة بالديانة المسيحية، وعندما أدرك سكان الرها هذه الحقيقة، أرسلوا سراً رسلاً إلى الكونت جوسلين وأعلنوا أنه باستثناء عدد قليل من الأتراك ـ كانوا يقومون بحراسة القلعة ـ أن مدينتهم قد تم التخلي عنها إلى السكان بشكل عملي، وكان أهالي الرها في الوقت الحالي، كما كانوا منذ زمن الرسل، متأصلين وراسخين في الديانة المسيحية بحيث لم يبق بينهم سوى قلة قليلة من التابعين للأديان الأخرى كما ذكرنا ذلك في مكان سابق، وتوسلوا إلى الكونت بجدية أن يجمع قوات عسكرية ويسرع إلى المدينة التي سيسلمها السكان له حالاً دونما مخاطر أو عراقيل.

جمع جوسلين بسرعة جميع جنود تلك المنطقة من المشاة والفرسان على حد سواء؛ ثم عبر النهر بسرعة برفقة بلدوين صاحب مرعش، وكان رجلاً قوياً ونبيلاً، وظهر فجأة أمام الرها في الليل مع جميع أتباعه.

سيطر بهذه الوسيلة الكونت وجيشه من المسيحيين على المدينة لعدة أيام، لكنهم لم ينجحوا في الإستيلاء على القلعة التي كانت محصنة بعناية، ومزودة بالمؤن والأسلحة والجند بشكل جيد، وكان فقدان النجاح في هذه الناحية يعود بشكل كبير إلى حقيقة أن قوات الكونت لم تجلب معها الآلات الحربية، ولا أي شيء تقوم بوساطته ببناء هذه الآلات، كما تعذر العثور على أية مادة مناسبة لهذا الغرض.

١٥ ـ نور الدين يهاجم الرها. حصاره للمدينة. تسببه بمحن شديدة للمسيحيين.

أرسلت الرسل الآن لإبلاغ الشعب المسيحي في كل مكان بهذا النجاح، ولدعوة الموجودين في ذلك الجوار للإسراع إلى هناك للمساعدة في السيطرة على المدينة التي تم استلامها بفضل رحمة الرب وإبقائها للدين المسيحي إلى الأبد، فابتهج المسيحيون الموجودون في كل مكان لهذا النبأ، وتلقوا تعزية بمقدار مماثل لمقدار الحزن العميق الذي كانوا قد شعروا به إزاء الاستيلاء على الرها، غير أن الحداد حل على الفور محل الفرح وتحول نغم آلة القانون الموسيقية إلى زفرات أسى، فقد تجدد حزن أشد من ذي قبل، لأنه حالما علم نور الدين أن السكان قد سلموا الرها إلى الكونت، جند الجنود من سائر أنحاء الشرق وأمر صاحب النفير أن يطلب من سكان المدن المجاورة الاجتماع في مكان واحد. وظهر فجأة أمام الرها ونشر

فيالقه في دائرة حولها، وبدأ عمليات الحصار. وهكذا، أصبح الحال مع شعبنا كما هو مكتوب: «من خارج السيف يثكل ومن داخل»[1]. حيث كانت صفوف العدو المستعدة في خارج المدينة لشن المعركة قد منعت الخروج وهددت المسيحيين بالموت، بينما سبب الأتراك الموجودون داخل القلعة الخوف للمسيحيين وأرهقوهم بهجمات متكررة.

لم يعرف المسيحيون ما يتوجب عليهم عمله بعدما نزلت بهم مصاعب كثيرة جداً وتشاوروا باستمرار مع بعضهم، وبدلوا خططهم باستمرار، إلا أنهم لم يجدوا أي طريق يؤدي إلى السلامة في كل السبل التي تحولوا إليها، كما لم يعثروا على أية نجاة دون التعرض لخطر الموت، وأخيراً تقرر بالنظر إلى جميع مقتضيات المكان والزمان أنه ينبغي عليهم مغادرة المدينة حتى وإن تعرضوا لخطر الموت، وسيكون من الأفضل بلا ريب مواجهة العدو وشق الطريق بالسيف إلى السلامة بدلاً من تحمل الحصار، لأنه سيتم في الحالة الأخيرة إبادتهم جميعاً بالسيف وبدون تمييز، أو يستعبدهم الأتراك بسبب فقدان الطعام، فيضطرون لتحمل نير العبودية المرير، وهو مصير أسوأ من جميع أشكال الموت، ووافق الجميع على هذا القرار وكانت الخطة خطيرة جداً، غير أنها بدت بأنها السبيل الوحيد بالنظر إلى أقدار محتملة قد تنزل بهم.

سمع السكان الذين تم بجهودهم الحماسية إدخال الكونت وجنوده إلى المدينة بفزع أنه قد تلاشى كل الأمل بالمقاومة، وأن سبل السلامة كلها كانت موصدة، وأنهم سيعاقبون بأفظع أشكال الموت إذا ما توجب عليهم البقاء في الرها بعد رحيل الكونت، لاسيما أنهم كانوا هم صناع المحاولة، وهكذا، فضلوا الرحيل مع زوجاتهم وأبنائهم على المشاركة في المصير المجهول لإخوانهم في الجيش المسيحي، ورأوا أن رحيلهم مع زوجاتهم وأبنائهم أفضل من مواجهة الموت المحتم أو المعاناة من العبودية في ظل عدو كافر، وهو مصير أكثر إخافة أيضاً.

١٦ ـ الكونت يغادر المدينة مع جيشه ويحاول العودة إلى بلاده. مطاردته من قبل نور الدين. مقتل الجيش ونجاة الكونت بالفرار.

عندما فتحت الأبواب انطلق الجميع بتلهف وكأن الطريق الوحيد للسلامة قد قام في تلك الوسيلة، ومع أنهم كانوا يعرفون أنه يجب شق الطريق بالسيف وسط صفوف العدو، فقد بدا كل شيء قد يحدث بعد مغادرتهم للمدينة بسيط العواقب، وكان الأتراك الموجودون في القلعة قد فتحوا في هذه الأثناء المداخل وسمحوا بدخول عدد منهم إلى المدينة، فشدد هؤلاء الخناق على المسيحيين من الخلف وأجبروهم على الإسراع في رحيلهم،

---

(١) التثنية: ٣٢/٢٥.

وسمع في الوقت نفسه الأتراك الموجودون خارج الأبواب أن عدداً من شعبهم بات موجوداً في المدينة يحارب المسيحيين، وبما أنهم كانوا متلهفين للإنضمام إليهم فقد استولوا بقوة على الأبواب التي فتحت لتسمح بالرحيل لشعبنا، وهكذا قتل حشد كبير من جميع الصفوف والمراتب في ذلك الموقع وذلك عندما حاول طرف الخروج جهد الطرف الآخر في أن يشق طريقة إلى الداخل، ونشب في ذلك المكان الضيق صراع عنيف كان خطيراً في عواقبه على الجانبين، فقد حارب العدو الموجود في الخارج بضراوة لدفع المسيحيين، إلا أن قوة المسيحيين وتصميمهم انتصرا في النهاية على العدو، حيث تمكنوا من شق طريقهم بالسيف وعلى حساب أرواح كثيرة من كلا الجانبين، وانتشر شعبنا فوق السهل.

وربما شوهد هنالك منظر يرثى له، ومؤسف لا يمكن وصفه فقد تكدس في المدخل الضيق حشد بائس من السكان المسالمين بينهم الرجال المسنون والمرضى والسيدات والعذارى الضعيفات والنسوة المسنات والأولاد وحتى الرضع، حيث هلك بعضهم تحت حوافر الخيول، بينما خُنق آخرون حتى الموت بعد ما سحقهم الحشد المتدافع، وسقط آخرون بسيوف الأتراك العديمة الرحمة، وهلك في تلك الآونة القسم الأكبر من السكان الذين اختاروا اللحاق بالجيش الراحل رجالاً ونساء بشكل محزن، ونجا القليل منهم بسبب قوتهم ونشاطهم، أو بمساعدة الخيول وتمكنوا من مرافقة الجيش أثناء انسحابه.

بعدما لاحظ نور الدين أن المسيحيين كانوا يستعدون للعودة إلى الوطن، استدعى كتائبه من أجل المطاردة، ونظم جنوده لخوض المعركة وعبأ صفوفه تعبئة جيدة، ثم واصل جنوده شن سلسلة من الهجمات المتواصلة على المسيحيين وهم يشددون الخناق باحكام على مؤخرتهم، فوجه المسيحيون سيرهم نحو نهر الفرات الذي كان يقع على بعد نحو أربعة عشر ميلاً من الرها، وصاحب القتال المستمر والخطر الدائم الكونت وجيشه أثناء كامل الزحف إلى هناك، وحدثت في كل خطوة تقريباً اشتباكات اشتركت فيها أعداد كبيرة أحياناً، وشارك فيها أفراد حيناً آخر، وأدت إلى وقوع خسارة كبيرة في الجانبين، وتوفي هناك الرجل النبيل الذي ذكرناه من قبل وهو بلدوين صاحب مرعش، وهو محارب اشتهر بإنجازاته العسكرية، كما هلك العديد من الرجال البارزين في ذلك الوقت أيضاً، وهم جميعاً يستحقون التذكر تماماً فلتنعم أرواحهم براحة أبدية! لقد نسيت أسماءهم، لكنها مدونة في السماء بالتأكيد لأنهم ماتوا في سبيل غاية رائعة لقد ماتوا من أجل حرية شعب المسيح وعقيدته.

لم تكن قوة الكونت مماثلة لقوة العدو على الإطلاق، حيث كان قد فقد الجزء الأكبر من قواته ولم يعد بإمكانه أن يتحمل لفترة أطول من ذلك هجمات الأتراك المستمرة، ولذلك

عبر نهر الفرات لينقذ حياته وانسحب إلى سميساط وهرب الآخرون في اتجاهات مختلفة حيث بدا ذلك أنه الأفضل لكل منهم، وتخلى الجميع عن الأمتعة والتجهيزات ولم يفكروا إلا بالسلامة والحياة.

انتشر نبأ الكارثة في كل مكان عبر جميع المناطق المجاورة، كما أن الذين كانوا قد ابتهجوا بالاستيلاء على الرها ازدادت كآبتهم الآن بسبب فقدانهم المدينة للمرة الثانية، وبسبب المذبحة التي تعرض لها النبلاء، نتيجة هزيمة الشعب المسيحي [1].

١٧ - موت وليم بطريرك القدس. فولتشر رئيس أساقفة صور يخلفه في منصبه، وفرض رالف حاجب الملك على كنيسة صور بوساطة السلطة الملكية.

توفي في هذه الآونة وليم بطريرك القدس صاحب الذكرى النفيسة فقد كان رجلاً بسيطاً يخاف الله، فقد توفي في /٢٧/ ايلول في العام الخامس عشر من حكمه، واختير فولتشر رئيس أساقفة صور لهذا المنصب في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني في العام اللاحق، وكان السلف الثالث لنا [2].

أرسلت السماء في حوالي أيام عيد البشارة صاعقة ضربت كنيسة قبر المسيح الواقعة على جبل صهيون وعرضتها لخطر كبير، وروع النذير المدينة بأسرها وكان، كما نعتقد نذيراً بوقوع كارثة. وظهر نجم مذنب لعدة أيام كما ظهرت بعض العلامات الغريبة المنذرة بوقوع حوادث مستقبلية.

بما أن الكنيسة في صور كانت بلا رئيس لها، فقد اجتمع الملك ووالدته وهما اللذان وقعت عليهما مسؤولية المملكة والحكومة بأسرها، في صور مع السيد البطريرك الذي كان قد رأس تلك الكنيسة من قبل ومع الأساقفة المساعدين في تلك الكنيسة نفسها، وكان هدفهم تعيين شخص ما في رئاسة الأساقفة، وناقشوا مسألة اختيار أسقف على نحو واف إلا أن آراء المنتخبين كانت مختلفة كما هو مألوف في حالات كهذه، فقد طالب أحد الأطراف بتعيين رالف الحاجب الملكي، وكان بلا ريب رجلاً متعلماً لكنه كان منغمساً في الأمور الدنيوية، وكان انكليزي المولد ورجلاً أنيقاً جداً ومقبولاً للغاية بالنسبة للملك والملكة وسائر البلاط بالفعل، ووافق الملك ووالدته على اختياره وأيداه بقوة وكأنه اختيارهما.

---

(١) وقع استرداد الرها ثم فقدانها في أواخر عام ١١٤٦ (تشرين ثاني أو كانون أول).

(٢) توفي وليم، الذي أصبح بطريركاً في عام ١١٣٠، في /٢٧/ أيلول عام ١١٤٥. وأصبح فولتشر بطريركاً في ٢٥ كانون الثاني من عام ١١٤٦.

كان المؤيدون الرئيسون للطرف الآخر كل من يوحنا رئيس شماسة مدينة صور وكاردينال لاحق لكنيسة الرومان بلقب القديسين سلفسترومارتن، وبرنارد صاحب صيدا، ويوحنا أسقف بيروت، وقد عارض رجال الدين هؤلاء، التابعون للسيد البطريرك، اختيار رالف وقدموا احتجاجاً ضد الطرف الآخر الذي كان يعتمد على الضغط الذي مارسه الملك وبذلوا كل الجهود مع البطريرك كمؤيد لهم لاحباط الاختيار.

كانت النتيجة أن نجح الحاجب رالف بالقوة في اغتصاب الكنيسة وممتلكاتها وحافظ على منصبه لمدة عامين، واستؤنفت الدعوة أخيراً في روما وأصدر البابا يوجينوس بحضور جميع الأطراف قراراً باعتبار اختيار الحاجب اختياراً ملغى وباطلاً[١]، وحصل رالف هذا نفسه في وقت لاحق على الكنيسة في بيت لحم ورسم أسقفاً لتلك المدينة وذلك عن طريق تأييد البابا هادريان الرابع الذي كان زميلاً له[٢].

عيّن بطرس، راعي دير كنيسة القبر المقدس في كرسي صور بموافقة الجميع وكان أصله من برشلونة في أعالي اسبانية، وكان بطرس رجْلاً بسيطاً وصاحب رقة نادرة وكان يخاف الرب وابتعد عن الشر بأكمله، لقد كان رجلاً ذا ذكرى مباركة لدى الرب والإنسان، وكان نبيل النسب وأكثر نبلاً في روحه أيضاً، وتستحق حياته ومآثره دراسة أطول وأكثر دقة، لكن ينبغي على روايتنا أن تتجاوز التفاصيل الخاصة وتعود إلى مناقشة المواضيع العامة[٣].

---

(١) يقدم السرد المفصل لهذا الانتخاب رؤيا إلى داخل تنوع الاهتمامات المشتركة في انتخابات كنسيه هامة، كما أن زمن صدور هذا القرار ليس مؤكداً، وكان بطرس قد خلف رالف، ما يزال رئيساً لشماسة القبر المقدس في شهر أيار من عام ١١٤٨، وربما أشير إلى رالف بأنه المنتخب الصور في حوالي ١١٥١ (انظر- روهرخت- السجلات- رقما ٢٤٩، ٢٥٨).

(٢) أصبح هادريان الرابع، الرجل الانكليزي الوحيد الذي شغل المنصب الباباوي، بابا في شهر كانون الأول من عام ١١٥٤، وتبدو الإشارة الأولى لرالف، كأسقف لبيت لحم، في شهر حزيران من عام ١١٥٦. [انظر روهرخت- السجلات رقم ٣٢١] وأطلق على هادريان الرابع اسم نيكولاس بريكسبير، وهو معروف في التاريخ الانكليزي، لكن رالف أسقف بيت لحم لم يتعد كونه رجلاً انكليزياً عرف عن طريق وليم (أنظر بيترايس نيد شلاغ- المساهمة الانكليزية في الحروب الصليبية- ١١٥٠ - ١٢٢٠ ص ١١٠).

(٣) من الممتع التفكير بالعلاقة بين وليم وبطرس رئيس رهبان القبر المقدس الذي تلمح إليه هذه الإشارة الحماسية، وكان بطرس رئيساً للرهبان منذ عام ١١٣٠ ولذلك فقد كان موجوداً في القدس خلال جميع فترة شباب وليم وربما وجه وليم وكان مفيداً في بدء مهنته في الكنيسة.

١٨ - تحرك الناس في الغرب. كونراد امبراطور الرومان ولويس ملك فرنسا ينطلقان نحو الشرق ومعهما عدد كبير من الأمراء بغية مساعدة المسيحيين فيه.

عندما تم الاستيلاء على مدينة الرها، كما سبق لي ورويت أخبار تلك الحادثة المشؤومة، انتقل الخبر إلى الغرب، وعم انتشاره فيها، وسرت هنالك اشاعات فيها أن أبناء الضلال من التركمان لم يكتفوا بالاستيلاء على مدينة الرها، لكنهم شرعوا في تدمير بقية المدن والقصور والحصون العائدة إلى شعبنا، وهم يسيطرون الآن سيطرة كاملة على الشرق، وهكذا فإن رعايا المسيح يعانون الآن من محن شديدة بسبب الحروب المستمرة وأعمال الغارة المتكررة عليهم.

وانتشر الرسل في كل مكان يحملون هذه الأخبار إلى جميع الأمم والشعوب، وزار هؤلاء الرسل البلدان التي عمها التراخي واللامبالاة لفترات طويلة، ونشدوا مساعدتها، وحرضوها على الانتقام لهذه الجرائم الكبرى، وقد روي، بأن البابا يوجينوس الثالث، الذي كان رجلاً يخشى الرب، ويحمل - كأب - مشاعر صادقة تجاه أبنائه في الشرق، وكان يفيض بمشاعر الالتزام والتعاطف معهم، قد بعث بالعديد من رجال الدين للطواف على مناطق الغرب، وحيث أن هؤلاء كانوا من أصحاب البراعة، وذوي المقدرة، في القول والعمل، فقد طلب منهم: إخبار الأمراء والشعوب والقبائل والأمم في كل مكان، بأحوال إخوانهم في المشرق، وعن أوضاعهم التي لا تحتمل، بغية إثارتهم وندبهم للتطوع، حتى يتم الانتقام لهذه الجرائم، وكان بين هؤلاء المبعوثين برنارد راعي دير كليرفو، وكان برنارد هذا ممن استحق الخلود: لتقاه، ولحياته النبيلة، التي ضرب بها مثلاً رائعاً للجميع في جميع المجالات، ووقع الاختيار عليه ليترأس مهام هذه البعثة إرضاء للرب، وقام بتنفيذ المهام الملقاة على عاتقه بكل نشاط واصرار، مع أنه كان ضعيف الجسم، متقدماً بالسن، ويعيش في حالة صوم دائم ويقتات القليل القليل من الطعام.

وتنقل برنارد في الممالك والبلدان، باندفاع رباني، وبحماسة وغيرة، وبشر بمملكة الرب دون كلل أو ملل، وقد أولى عظيم العناية لشرح ما نزل من الكوارث بشعب المشرق، ولتبيان نوع العدو الذي يجهد في سبيل التحكم بهم والتنكيل، وأوضح كيف آل المآل بمدن كانت في السابق مواطن للإيمان، مكرسة للعقيدة المسيحية، فصارت الآن تعاني من آثام العبودية تحت سلطان الذين نكلوا باسم المسيح: ولقد شد إخواننا سكان هذه المدن بالأغلال والقيود، واستهلكهم الجوع، وعاشوا جميعاً في سجن رهيب، في حالة كلها قذارة ومرارة، فهؤلاء الذين أبدى المسيح استعداده للموت لانقاذهم، يعيشون الآن بين التسول والأغلال، وحتى

يتم تحرير هؤلاء الإخوان، دعا برنارد الناس وحرضهم، وحرك عواطفهم، وأثار شجونهم، وانتدبهم لمحو هذه الجرائم، وقد وعدهم بمعونة سرمدية، وبثواب رباني لجميع الذين سيتطوعون للقيام بهذا العمل المقدس.

ونشر برنارد هذه الرسالة بكل حماسة وتقوى بين الأمم والإمارات والممالك، فربح التأييد المباشر من قبل الكبير والصغير، وتجاوب الجميع مباشرةً مع دعوته، وأخذوا على أنفسهم العهد بالتوجه نحو القدس، وعلقوا على عواتقهم شارة الصليب، وأعدوا العدة للسفر، ولم يقتصر اقناعه وتأثيره على سواد العامة، بل شمل الكبار من الحكام مع عظماء رجالات الممالك، ولقد تبنى كلماته أعظم ملوك الأرض وأوسعهم شهرة، يتقدمهم كونراد امبراطور الرومان، ولويس ملك الفرنجة مع عدد كبير من أمراء الممالك، وذلك بكل حرارة واندفاع شديدين، ووضعوا على عواتقهم علامة الصليب، بكل تقوى وخشوع دلالة على أنهم سيقومون بواجب الحج[١].

١٩ ـ الامبراطور ينطلق أولا على رأس جيشه ويصل إلى القسطنطينية. سلطان قونيه ينصب له الكمائن.

قام الملكان باتخاذ جميع الترتيبات الضرورية من أجل ادارة مملكتيها أثناء غيابها، وضما إلى صفوفها جميع الذين أخذوا على أنفسهم ـ عن طواعية ـ عهد الإنقاذ، وعندما انتهت جميع الترتيبات الضرورية للزحف، بشكل يليق بالمكانة الملكية، انطلقوا بتيسير الرب لأداء حجهم في شهر أيار، انطلقوا ضمن بشائر غير سعيدة، ونذر شريرة، ذلك انهم شرعوا في الزحف، كما لو أنهم ضد ارادة الرب الغاضب عليهم، ولذنوب بني البشر لم ينجزوا في حجهم هذا كله ما يرضي الرب، وفوق ذلك حولوا أحوال الذين ذهبوا لإنقاذهم وقلبوها من سيء إلى أسوأ[٢].

وقرر القادة الزحف كل على انفراد، على أن يقود كل منهم جيشه في اتجاه يختاره، وبذلك كان يتم تجنب قيام الخلافات بين الناس، كما أنه بهذه الطريقة كان يمكن للفرق

---

(١) تدعى هذه الحملة عادة اسم الحملة الصليبية الثانية، وكان يوجينيوس الثالث مثله مثل برنارد راعي دير كليرفو داعياً لها بنفس المرتبة القيادية التي تمتع بها رؤساء دير كلوني بالنسبة للحملة الأولى، ويعزى للقديس برنارد الفضل في اقناع كل من كونراد ولويس السابع للتطوع في هذه الحملة، رغم نصائح وزرائها لهما بعدم التطوع، ولقد أطلق يوجينيوس الثالث دعوته الأولى لهذه الحملة في كانون الأول ١١٤٥ م، وكررهذه الدعوة في آذار ١١٤٦ م.

(٢) قام هذا الحكم على نتائج الحملة لا على أخطاء اقترفت أثناء الاعداد لها.

الصغيرة أن يؤمن كل منها لنفسه الطعام وبقية ضروريات الحياة، مع أعلاف الخيول والحيوانات بسهولة وبكميات كبيرة.

واجتازوا بافاريا، وعبروا نهر الدانوب العظيم عند راستبون، وانحدروا إلى أراضي النمسا، والنهر على يسارهم، ثم دخلوا أراضي هنغاريا، حيث عوملوا معاملة طيبة من قبل ملك تلك البلاد، وبعدما مروا مجتازين أراضي تلك المملكة، وسلسلتي بانونيا، مضوا من خلال مقاطعات بلغاريا وهي: موشيا وداشيا المتوسطية، مخلفين داشيا الثانية على اليسار، وقد وصلوا إلى ثراس [تراقية] بعدما مروا بكل من المدينتين الشهيرتين فيلبو بولس وأدريانوبل (أدرنه) ووصلوا أخيراً إلى العاصمة الملكية [١].

وقد استقبلوا استقبالاً لائقاً من مانويل امبراطور القسطنطينية، ونالوا قسطاً من الراحة لبضعة أيام، وحصلوا على جميع اللوازم والأشياء الضرورية لراحة الجيش ومتعته بعد رحلة كلها متاعب [٢]، ثم عبر الجميع مضيق البوسفور، الذي تمتد مياهه حتى القسطنطينية، وهو أيضاً يفصل ما بين كل من آسيا وأوروبا، ودخلوا إلى بيثينيا، وهي أول مناطق آسية التي يصلها الانسان، وعسكرت جميع الجيوش في قرية خلقذون حيث بدت المدينة التي كانوا قد غادروها لتوهم على مرأى منهم لقربها، وفي هذه المدينة القديمة سبق أن عقد المجمع المسكوني المقدس الرابع الذي شهده ستمائة وستة وثلاثون من آباء الكنيسة، وذلك في أيام الامبراطور مارتن والبابا ليو، وذلك بغية التصدي لهرطقة يوتيش الراهب الذي أعلن أنه ليس لمولانا المسيح إلا طبيعة واحدة [٣].

ولقد عرف سلطان قونية قبل مدة مديدة بأخبار زحف هؤلاء الأمراء الكبار، وأدرك مدى المخاطر القادمة نحوه، ولهذا طلب المساعدة من أقصى جوانب المشرق، ونظراً

---

(١) يقدم وليم هنا رواية مختصرة جداً لرحلة كونراد حتى القسطنطينية بالمقارنة مع الروايات الأخرى المبكرة حول هذه الحملة التي يبدو أنها أعدت إعداداً أفضل مـ ـ الحملة الأولى، وواجهت مشاكل أقل، وكان أوتو أسقف فريزنج قد رافق كونراد في رحلته، وكتب وصفاً للرحلة، الرواية التي يبدو أن وليم لم يطلع عليها.

(٢) لم تكن العلاقات بين مانويل وكل من كونراد ولويس السابع بنفس درجة البساطة والوفاق حسبما وصف وليم، وهذا واضح في رواية أودو، كما يروى أنه سبق لكل من الملك الفرنسي والامبراطور الألماني أن راسل مانويل وتبادل معه الوفود، ومنذ اتخاذ قرار القيام بحملة صليبية، وعندما أصبحا على مقربة من القسطنطينية كان لدى مانويل من القوات العسكرية أكثر مما كان لدى ألكسيوس كومينوس أيام الحملة الأولى، ذلك أن مانويل كان داخلاً في حرب ضد روجر صاحب صقلية، كما أنه كان لتوه قد تملك ميليشيا في آسية الصغرى، وكان مجرد وصولها إلى شرقي آسية الصغرى سيهدد ذلك.

(٣) في هذا المجمع خالفت اليعاقبة سائر النصارى. انظر كتاب التنبيه والاشراف للمسعودي ط. القاهرة ١٩٣٨ ص: ١٢٩ - ١٣٠.

لخشيته الشديدة اتخذ كافة الاحتياطات وتسلح ضد الخطر المشرف عليه، والنابع من وجود أعداء كثر حوله، وحصن مدنه ورمم قلاعه وشحنها واستعان بجميع جيرانه، وانتظر بتوجس ويقظة شديدة دنو العدو الذي وصل إلى مشارف دياره، والذي كان خطره يقترب يوماً تلو الآخر، حيث جاء يريد تدمير رعيته وبلاده، وسرت الاشاعات بوصول حشود لم ير مثيلها، لا في عددها ولا عُددها، حتى قيل بأن عدد الفرسان فقط غطى وجه الأرض إلى حد أن أكبر الأنهار لا يكاد تكفي مياهه لشرب هذه الحشود، وأن أعظم الأراضي خصباً لا تكفي لإمدادهم بالمؤنْ، وعلى الرغم مما حملته هذه الأقاويل من المبالغات، فإن حجم الحقيقة في حد ذاتها، يلقي الرعب في قلوب أعظم الزعماء والقادة ممن لم يكونوا يدينون بالنصرانية، ذلك أنه اعتماداً على الروايات الرسمية لعدد من الرجال الذين شاركوا في هذه الحملة، كان في جيش الامبراطورية وحده قرابة السبعين ألفاً من الفرسان الدارعين، كل ذلك إلى جانب الرجّالة والنساء والأطفال والخيالة الخفاف، وبالنسبة لجيش ملك فرنسا، فقد قدر وجود سبعين ألفاً من الدارعين الشجعان فيه أيضاً، وذلك بالإضافة إلى الرجّالة [1]، ولو أن الرب كان راضياً عنهم، فمنحهم رحمته ومساعدته، ولم يحرمهم من عونه، لا شك أنهم كانوا سيتمكنون ليس من إخضاع السلطان فحسب، بل إخضاع جميع بلدان المشرق، إلى سلطان النصرانية، لكن الرب بحكمته، ومكنون علمه وأحكامه، رفض خدماتهم ولم يعتبرها خدمات مقبولة، لربما لأنها قدمت بأيدٍ غير تقية.

٢٠ - بعد عبور البسفور قيد جيش الامبراطور كونراد إلى الضياع بخداع من الاغريق الذين استجروه إلى مواضع خطيرة جداً.

وما ان عبرت جميع الفرق البوسفور، حتى قام الامبراطور كونراد، ومعه كبار نبلائه حاشيته بتوديع الامبراطور مانويل، وعبروا البحر، وأمرت الفرق، وقد غدا كل منها تحت إمرة قائدها الخاص، بالزحف، فغادرت غالاشيا بافلوغوينا، ومقاطعتي بونتوس على اليسار وفريجيا وليديا وآسية الصغرى على اليمين، وسار كونراد مباشرة عبر قلب بيثينيا إلى نيقوميديا [إزميت] حاضرة تلك الديار، واجتاز مدينة نيقية، وهي المدينة التي عقد فيها أيام الامبراطور قسطنطين مجمع الثلاثمائة وثمانية عشر من آباء الكنيسة المقدسين للتصدي للعقيدة الشريرة التي بشر بها آريوس السيء الذكر [2]، ومن هنا اتبع الجيش وهو على تعبئة كاملة، أقصر الطرق إلى ليقانيا التي مركزها مدينة قونية.

---

(١) يشك بعض الأوروبيين بهذه الأرقام ويرونها عالية.
(٢) انظر التنبيه والاشراف: ١٢٢ - ١٢٣.

وحشد السلطان في هذا المكان عدداً كبيراً من الرجال وأعداد كبيرة من التركمان، من المناطق المجاورة، وكان ينتظر الوقت المناسب، والمكان الموائم ليهاجم النصارى وهم يحاولون المرور وبذلك يمنع تقدمهم، وكان قد تمكن عن طريق الرشوة والتحالف من إثارة جميع الملوك والقادة والمقدمين من مختلف المراتب، من أقاصي المشرق وأدانيه، ضد شعبنا، وقد بين لهم برسائله المتواصلة، أنه لو سمح لمثل هذا الحشد الهائل من الرجال المسلحين بالمرور خلال بلاده دونما اعتراض، فإنهم سيخضعون الشرق جميعه لحكمهم بقوة السلاح، واستجاب لندائه عدد كبير من الأمم بسرعة من: أرمينيا (العليا والدنيا) وكبادوقية، وزوريا، وميديا وبارثيا (أعالي الجزيرة) وهكذا تجمعت الحشود الكبيرة، وقد أمل السلطان بمساعدة هذه الأمم له أنه سيتمكن من المقاومة بقوات معادلة لتلك الحشود الجبارة، التي قيل إنها أشرفت على الدنو منه.

وكان كونراد قد طلب من الامبراطور مانويل قبل أن يغادر القسطنطينية تزويده ببعض الأدلاء الذين يعرفون المنطقة معرفة جيدة، والذين هم في الوقت نفسه خبراء بالمناطق المجاورة، ومهما يكن الحال فقد برهن هؤلاء أنهم ليسوا أهلاً للثقة، فلقد افترض أن يقوموا بقيادة الجيوش بكل أمانة وثقة حتى لا تتعرض العساكر المهتدية بهم للمخاطر والمصاعب أو قصور في الإمدادات وهم سائرون، لكن ما أن شرع هؤلاء الأدلاء في قيادة الجيش داخل أراضي الأعداء حتى أخبروا قادته بأن عليهم الاستفادة من الطريق القصير الذي يقودهم عبر بلاد غير محتلة من العدو، وعلى هذا عليهم حمل كميات من المؤن تكفي لعدة أيام فقط، ووعدوهم أنهم خلال أيام معدودة سيصلون إلى مدينة قونية الواسعة الشهرة، فهناك سيجدون أنفسهم وسط أخصب البلاد والمليئة بجميع أنواع الامدادات، وتبعاً لهذه التعليمات، وتنفيذاً لما قضت به، حمل النصارى المؤن على ظهور الحيوانات والعربات، وجميع وسائل النقل التي كانت بحوزتهم، ذلك أنهم وثقوا بأدلائهم، وتبعوهم بكل بساطة وثقة.

لكن الأدلاء، وقد جبلوا على طباع الخسة التي عرف بها العرق الاغريقي، مع كراهيتهم المعتادة للنصارى تصرفوا بخيانة، وذلك إما بناء على أوامر تلقوها مسبقاً من سيدهم، أو لأن التركمان رشوهم، وهكذا قادوا الفرق العسكرية عبر طرق غير مطروقة، واستدرجوها إلى أماكن وفرت للعدو فرصاً مناسبة لقتال وهزيمة هؤلاء الناس الذين غدوا بلا حول ولا طول[1].

---

(١) يرفض بعض المؤرخين هذه التهم بالخيانة، وأوضحوا بأن ما نزل بجيش كونراد كان نتيجة الضعف الذي لحق بهذا الجيش بسبب الجوع والعطش.

٢١ ـ الأدلاء الذين قدمهم الامبراطور الاغريقي لارشاد جيش كونراد الامبراطور الألماني يتخلون عنه بكل خبث، تاركين عساكره معرضين لمخاطر عظيمة.

عندما مرت الأيام المحددة، ولم تصل الحملة إلى هدفها الذي طال شوقها إليه، أمر الامبراطور بإحضار الأدلاء الاغريق أمامه، وشرع بالتحقيق معهم بحضور أعيان جيشه، فسألهم: لماذا سار الجيش وما زال مستمراً في المسير مدة أطول مما حدد له في البداية، ومع ذلك لم يصل إلى اهـدافه ـ وكما هي عادتهم ـ لجأ الأدلاء إلى الخداع وأكدوا له بشكل قاطع، أنه بمشيئة الرب ستكون جميع الفرق في قونية في مدة أيام ثلاثة، وكان الامبراطور رجلاً بسيطاً لا يعرف المكر، لذلك صدق بسرعة أقوالهم وأجابهم بأنه سيتحمل عناء الأيام الثلاثة المقبلة أيضاً، ذلك أنه وثق بصدق وعودهم، وعندما حل المساء أقيم المعسكر حسبما جرت العادة، لكن بينما كان الناس نياماً، بعد عناء يومهم، هرب الأدلاء الخونة في ظلام الليل، وتركوا الناس الذين وضعوا ثقتهم بهم، وآمنوا بعنايتهم بهم، تركوهم بلا أدلاء، وفي صباح اليوم التالي، حل وقت استئناف المسير، دون أن يمكن العثور على الأدلاء الذين كانوا في العادة يتقدمون الصفوف، وبعد لأي حُمل إلى الامبراطور خبر هؤلاء الخونة وفرارهم وعلم بهذا قادة الجيش، وطار خبر خيانتهم، وانتشر بين الجميع.

وزيادة على هذا، فإن هؤلاء الأبالسة، أسرعوا نحو جيش ملك فرنسا الذي كان بالجوار، وادعوا كذباً بأن الامبراطور، الذي كان قد سافر بقيادتهم من قبل قد نال نصراً مؤزراً على الأعداء، وأنه استولى على قونية بقوة السلاح، وأنه دمرها دماراً كاملاً، ولقد أضافوا بهذا الكذب إلى جرائمهم جرائم أعظم.

ومن الواضح أنهم أقدموا على هذا الادعاء: إما لإقناع الملك لاتباع الطريق نفسها حتى يواجه المخاطر نفسها، أو ربما لجعله يعتقد بأن كونراد قد حالفه النجاح الكامل، وبذلك يمتنع عن التفكير بالاسراع نحوه لتقديم العون لإخوانهم الذين تعرضوا للمخاطر، ولربما اخترعوا هذه الحكاية ليجنبوا أنفسهم نيل العقاب، لأنهم لو أخبروا أن الجيش قد هلك، فسيلقى القبض عليهم، ويعاملون بمثابة خونة، حيث أن الناس اندفعوا نحو حتفهم بسبب شرورهم، ومهما كانت حقيقة نواياهم، فإنه من المؤكد بأن خيانتهم أدت إلى التخلي عن الجيش ودفعه للوقوع في مخالب الموت.

وما إن أدرك الامبراطور بأن الجيش قد بات بلا أدلاء حتى دعا إلى اجتماع لجميع القادة لمناقشة القضية واتخاذ قرار حول السبل التي سيأخذون بها، وظهر على الفور إجماع على عدم الاتفاق والوفاق، فقد رأى بعضهم أنه ينبغي على الجميع العودة من حيث أتوا، بينما

رأى بعضهم الآخر أنه ينبغي عليهم متابعة الطريق، وينطبق عليهم في هذه الأزمة قوله: «يسكب هواناً على رؤساء ويضلهم في تيه بلا طريق»[١].

وبينما هم في حالة الشك هذه مضطربين بشأن المنطقة، قلقين حول انعدام المؤن (لأن أعلاف الخيول وحيوانات الظهر مع جميع أنواع المؤن والأطعمة للجيش كانت قد نفدت) سرت أقاويل بأن جيش العدو، الذي يحوي حشوداً كبيرة من التركمان، بات على مقربة منهم، ولم يلبث أن ظهرت حقيقة ذلك، وهكذا أصبح النصارى في أرض جرداء قاحلة، بعيدين عن الأراضي المزروعة، فلقد قيدوا عن عمد إلى هناك كما قلنا من قبل، وذلك من قبل أدلائهم الخونة، فلقد كان من المتوجب عليهم السفر عبر ليكانيا، التي ودعوها عن يمينهم، فلو ركبوا هذا الطريق، لمروا بأراضٍ مزروعة فيها جميع أنواع المؤن، ولكانوا وصلوا نحو أهدافهم بوقت أقل طولاً، وعوضاً عن ذلك قادهم الاغريق يساراً، وأجبروا الجيش كله على الانحراف نحو فيافي كبادوقيا بعيداً عن قونية.

وراجت أقاويل يبدو أنها كانت أقرب إلى الحقيقة منها إلى الخيال، منها أن عملية التيه الخيانية هذه قد أبدعت بمعرفة من الامبراطور الاغريقي، وبأمر منه، ذلك أنه حسد النصارى، وغار من نجاحاتهم، حيث أنه من المعروف أن الإغريق نظروا دائماً بريبة وتوجس [وما زالوا يفعلون] نحو ازدياد قوة أمم الغرب عامة، ونحو الأمة الألمانية خاصة، فقد اعتبروها أمة منافسة لإمبراطوريتهم، بسبب أن ملك الألمان دعا نفسه: إمبراطور الرومان، مما كان يعني انتقاماً كبيراً من سمعة إمبراطورهم، الذين هم أنفسهم يدعونه باسم ملك الملوك، أي الملك الوحيد الذي يعلو على الجميع ويحكمهم، وهو على هذا وحده إمبراطور، ولا يوجد إمبراطور غيره[٢].

٢٢ ـ التركمان ينقضون بهجوم صاعق على الحشود الألمانية. الفرق الألمانية يحل بها الدمار لكن الامبراطور ينجو.

في تلك الآونة كان جيش الامبراطور يعاني من: الجوع، ومن جهله بالمنطقة، ومن عزلته المزدادة، ومن مصاعب الطرق، ومن قلة الخيول، ومن حمل العتاد، وأثناء ذلك كان أمراء التركمان وقادتهم على مختلف مراتبهم يعون هذه الحالة تمام الوعي ويعرفونها بيقين، لهذا حشدوا جميع قواتهم، وانقضوا بها في هجوم مباغت على المعسكر المسيحي، وقد أوقع هذا

(١) الكتاب المقدس ـ المزامير: ١٠٧/٤٠.

(٢) يبدو أن هناك بعض الأسس لهذه النظرية حول التنافس والغيرة، فمن الملاحظ أن عدم اتفاق الامبراطورين حول من الذي ينبغي دعوته بهذا اللقب، يوم وصول كونراد إلى القسطنطينية قد خلق صعوبات جمّة وسبب مضايقات فعلية.

الهجوم غير المتوقع الفرق الألمانية في فوضى كاملة، ذلك أنه لم يسبق لهم أن رأوا أي شيء من هذا القبيل، فلقد كمنت قوة من الجند التركمان في خيولهم السريعة التي لم تكن تعاني من جوع أو عطش، وفي عتادهم الخفيف، المؤلف من قوس ونشاب، وأحاطوا بالمعسكر وأصواتهم تتعالى، وكما جرت عادتهم انقضوا بعنف على عساكرنا الذين أعاقتهم دروعهم الثقيلة، فلقد كان النصارى يتفوقون على العدو قوة ومهارة في القتال، إنما كانوا مثقلين بدروعهم وسوابغهم وترستهم، لهذا لم يستطيعوا منازلة التركمان، كما أنه لم يكن بمقدورهم مطاردتهم أبعد من حدود المعسكر، ذلك أن خيولهم كانت قد أنهكها الجوع، وهدها طول السفر، لذلك كانت عاجزة تماماً عن الركض كراً وفراً، وأما التركمان فقد كانوا على عكس ذلك، حملوا حملات جماعية، وأطلقوا نحوهم من مسافات مناسبة، وابلا من السهام، سقطت كالمطر المنهمر على الخيول والخيالة وسببت الموت والجراح بشكل شامل، وعندما حاول النصارى أحياناً مطاردتهم، استدار التركمان، وفروا على خيولهم السريعة، وبذلك نجوا من سيوف أعدائهم؛ وجرى تطويق جيشنا من جميع الجهات، وصار في خطر مميت بسبب وابل السهام والنبال، ولم تتوفر لديه الفرصة للانتقام أو الاشتباك بالعدو في قتال قريب، كما أنه لم يستطع إمساك العدو وحصره، فكلما حاول القيام بهجوم مضاد، تفرق التركمان وبددوا جهودهم، وركضوا في مختلف الاتجاهات، وعندما كان النصارى يعودون إلى مخيمهم، كان التركمان يعاودون رص صفوفهم، ويقومون ثانية بتطويق عساكرنا وقتالهم بضراوة أشد، وكأنما كانوا يحاصرون بلدة من البلدان.

وهكذا، وبإرادة الرب ومشيئته الخفية الحقة، نجد أن شجاعة هؤلاء الأمراء الكبار من النصارى، الذين بدت قوتهم وشجاعتهم وكأنها لا تقهر، وأعدادهم لا تضاهى، قد انهاروا جميعاً تحت ضربات لا يمكن وصفها بأنها كانت أكثر من لينة حربياً، ولم يبق مرئياً من شجاعتهم السابقة شيء وبقي من أعدادهم الكبيرة قوات يسيرة فقط، فمن بين السبعين ألفاً من الفرسان الدارعين ومما لا يحصى من الرجّالة الذين صحبوهم، نجا عشرهم أو أقل من ذلك، وذلك اعتماداً على روايات الذين كانوا ضمن الحملة ومن رجالها[1]: فلقد هلك بعضهم بفعل الجوع، وقطع آخرون بالسيوف، وسقط عدد كبير أسرى بيد العدو، وعلى كل حال نجا الامبراطور مع عدد من نبلائه، وتمكن بعد عدة أيام، ومصاعب جمة، من الوصول إلى أحواز مدينة نيقية مع الباقين من أتباعه.

---

(١) كان وليم آنذاك في الثامنة عشرة من عمره، ولعله تحدث مع بعض الذين نجوا ووصلوا إلى القدس حيث لقيهم فيما بعد، هذا وينبغي تصحيح تاريخ الحملة لديه إلى ٢٦ تشرين أول ١١٤٧، أما النسبة التي يقدرها حول عدد الموتى والأحياء فهي صحيحة إلى أبعد الحدود.

وتراجع التركمان إلى حصونهم بعد أن أثقلوا بغنائم لا تحصى وخيول وأسلحة لا يمكن حصرها وبما أنهم كانوا على معرفة تامة بالمنطقة، فإنهم انتظروا بلهفة وصول الملك الفرنسي، لأنه كما جاء في بعض الأقاويل كان موجوداً في أطراف تلك المنطقة، وبما أنهم دمروا قوات الامبراطور التي كانت أعظم من سواها، فقد أملوا بأنه سيكون من السهل عليهم ايقاع الهزيمة بجيش ملك فرنسا، وكان الذي حدث هو ما توقعوا حدوثه تماماً.

ولم يشارك سلطان قونية في هذه الأحداث العظمى، بل تمكن ـ بعون من الرب ـ واحد من أمرائه التركمان اسمه براموس (؟) وكان قائداً لقوات السلطان، تمكن من إنجاز هذا النصر الرائع، وقد وقعت هذه الواقعة في شهر تشرين الثاني لسنة ١١٤٦ لتجسيد الرب.

٢٣ ـ ملك فرنسا يعبر البوسفور، ويصل على رأس حشوده إلى نيقية في منطقة بيثينيا. الملكان يتباحثان مع بعضهما. عودة الامبراطور كونراد إلى القسطنطينية.

ووصل في الوقت نفسه ملك فرنسا مع جيشه إلى القسطنطينية بعد أن اتبع الطريق نفسها تقريباً، ومكث هناك لمدة وجيزة، وقد عقد عدة لقاءات خاصة مع الامبراطور، الذي أظهر نحوه تقديراً واحتراماً كبيراً، ولدى مغادرته أتحفه بعدد كبير من الهدايا، كما تمت معاملة أعيان حاشيته معاملة طيبة، وفي بقعة معينة، قائمة بين العاصمة الملكية والبحر الأسود (المسافة بينهما ثلاثون ميلاً) قام بعبور البوسفور، ففي تلك البقعة كان البوسفور في أضيق أماكنه، عرضه حوالي ميل واحد، ثم سار حول خليج نيقوميديا، الذي اكتسب اسمه لمجاورته لمدينة نيقوميديا حاضرة منطقة بيثينيا، ويعد هذا الخليج ـ في الحقيقة ـ جزءاً من البوسفور، وفي قرية نيقية، غير البعيدة عن المدينة نفسها اتخذ الملك الفرنسي معسكراً له ريثما يقرر الطريق الذي سيركبه، وقام باستقصاء دقيق حول امبراطور الألمان الذي سار أمامه، وقد علم هناك بأن جيش الامبراطور قد دمر، لكن الامبراطور نفسه نجا، وهو الآن شريد ضائع، نجا بروحه مع عدد قليل من نبلائه، وقد ظن الملك في البداية أن هذا الخبر مجرد إشاعة لا أساس لها من الصحة. إنما مع مرور الوقت توصل إلى الخبر اليقين، ذلك أن فريدريك دوق سوابيا [1] وصل إلى معسكر الامبراطور، حاملاً معه أوسع التفاصيل حول هذه الكارثة، التي كانت المعلومات حولها حتى هذه الساعة غير واضحة، وأشبه بالإشاعة التي لا يمكن الوثوق بها وكان هذا الدوق شاباً في مقتبل العمر، يتمتع بصفات حميدة، وهو الذي سيخلف في المستقبل عمه كوزاد، ويصبح حاكماً للامبراطورية الرومانية التي يحكمها الآن بكل نشاط ونجاح، وكان قد جاء لتوجيه الدعوة للملك ليجتمع بالامبراطور حتى يتباحثا

---

(١) سيكون هذا هو فريدريك بربروسا ملك ألمانيا وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ١١٥٢ ـ ١١٩٠ م.

معاً ـ وإن جاء ذلك متأخراً ـ حول الطريق التي ينبغي السير عليها ، ولدى سماع الجيش بخبر هذه المصيبة التي نزلت بالامبراطور ، وبالدمار والشرور التي لحقت بإخوانهم عمت صفوفه موجة من الغضب والأسى ، وتأثر الملك كثيراً بما رواه له الدوق ، وبعدما تشاور مع أصحابه ، قام بصحبة الدوق ، وبرفقة عدد من نبلائه بالتوجه نحو معسكر الامبراطور الذي لم يكن بعيداً ، بغية التشاور معه .

وبعدما تبادل الملكان التحيات المعتادة ، وتعانقا ، وقبلا بعضهما بعضاً ، اجتمعا بشكل ودي ، وتباحثا حتى اتفقا على الاستمرار في تنفيذ خططهما ، وعلى دمج قواتهما للزحف معاً ، وحدث أن كثيراً من رجال الطرفين ، خاصة من بين الألمان ، خرقوا مواثيقهم ، وتخلوا عن عهودهم ، وعادوا نحو القسطنطينية وذلك بعدما استنفذوا ما كان معهم من مال ، وبعدما واجهوا ما واجهوه من مصاعب جمة على الطريق ، مما بعث الهلع في قلوبهم .

وقرر الملكان بعدما استشارا قادة الجيشين ، التخلي عن الطريق الواقع على اليسار ، وهو الذي سبق للامبراطور أن ركبه ، ووجهوا صفوفهم باتجاه آسية الصغرى ، وكان الآن على يمينهم بلدتا فريجيا ، وخلفوا وراءهم بيثينيا ، وزحفوا الآن عبر الطريق الممتدة على طول الساحل تاركين فيلادلفيا على يسارهم ، ووصلوا أولاً إلى سميرنا [أزمير] ، ومن هناك تابعوا السير إلى افسوس ، عاصمة آسية الصغرى ، وشهرت هذه المدينة لكونها قد سبق أن عاش فيها الرسول يوحنا ، وفيها بشر ودفن ، وفي افسوس أمر الامبراطور فرقه المتبقية بالعودة براً ، بينما ركب هو البحر وعاد إلى القسطنطينية ، هذا وإن الأسباب لعمله هذا غير معروفة ، ولربما كان ذلك لحزنه وأسفه على الأعداد الكبيرة التي أضاعها ، أو لربما بسبب أنه لم يكن في مقدوره تحمل رعونة الفرنسيين[١] ، وقد استقبله الامبراطور استقبالاً أعظم من الاستقبال السابق ، ومكث في القسطنطينية مع نبلائه حتى مطلع الربيع التالي ، وكانت القرابة بين الملكين وثيقة ، ذلك أن زوجتيهما كانتا أختين ، فقد كانتا ابنتي بيرنجر الكبير كونت سولزباش الذي كان يعد واحداً من كبار الأمراء وأكثرهم قوة في المملكة الألمانية[٢] ، ولهذا أظهر الامبراطور نحوه رعاية كبيرة ، وبناء على رغبة من الامبراطورة أتحفه بعدد كبير من الهدايا ، وخص أشرافه بجزيل العطاء .

---

(١) لا شك أن اختلاف اللغة والطباع والعادات كان له آثاره على كونراد الذي شكا من المرض ، وحدث أن جاء مانويل تصحبه زوجته إلى أفسوس ، حيث كان كونراد فيها ، ووجها الدعوة إليه للعودة معهما إلى القسطنطينية حتث أشرف على الاعتناء به بنفسه .

(٢) خطبت بيرثا أميرة سولز باش الى مانويل سنة ١١٤٢ م قبل وفاة الامبراطور جون ، وقد غير اسمها إلى ايرين ، وتطبعت بالطباع الاغريقية ، وتدربت قبل زواجها سنة ١١٤٦ م .

٢٤ ـ ملك فرنسا يتابع مسيره نحو أفسوس بطريق مغايرة. هناك يتوفى غوي أمير بونثيو. على الرغم من جهود العدو تمكن الفرنجة من عبور نهر مياندر.

وانهمك في الوقت نفسه ملك الفرنجة مع نبلائه في الإعدادات لاستئناف الزحف، وحاول أثناء وجوده في افسوس اعطاء جيشه الفرصة لنيل قسط من الراحة واسترداد عافيته، وتوفي أثناء ذلك غوي كونت بونثيو، وكان متميزاً بين أقرانه من النبلاء لبراعته العسكرية ولقوته، وجاءت وفاته بعد مرض ألم به، وقد دفن في صحن كنيسة أفسوس ضمن احتفال لائق بمكانته، وانطلق الملك بعد ذلك من أفسوس، وسار وبرفقته جميع جيشه بكل ما أمكنه من سرعة متجهاً نحو الشرق، ووصل بعد مسيرة عدة أيام مخاضة نهر مياندر ـ المحبوب من البجع ـ وهذا النهر هو الذي كتب عنه صاحبنا ناسو في الهيرودس :

عندما يأتي داعي المنية استلق على العشب المبلل
فالبجع الأبيض يغني على مخاضات نهر ميانـدر

وأقام الملك معسكره على ضفتي النهر بين المروج الخضراء، وحدث هنا لأول مرة أن الفرنجة الذين اشتاقوا طويلاً لرؤية أعدائهم، قد استجيب لهم، فما أن حاول النصارى الوصول إلى النهر حتى ظهر أمامهم على الضفة المقابلة عدد كبير من التركمان ومنعوهم من استخدام الماء، وبعد لأي وجدوا المخاضة، فتمكنوا، برغم جميع جهود العدو، من شق طريقهم، وعبروا النهر، وانقضوا على التركمان، فقتلوا عدداً كبيراً منهم، وأسروا كمية كبيرة أيضاً، مما أجبر الباقين على الفرار، واستولى المنتصرون الفرنجة في الحال على معسكر التركمان، الذي كان ممتلئاً بجميع أنواع الغنائم الثمينة والمؤن من كل لون، واستطاعوا بفضل ما بذلوه من جهد أن يجعلوا أنفسهم سادة الضفة الثانية للنهر، ولقد امتلأ النصارى سروراً بنصرهم هذا، وبما كسبوه من غنائم، وأمضوا ليلة هادئة، وعند الفجر شرعوا في الاستعداد لاستئناف زحفهم.

ثم ساروا من هناك إلى لوديقيا، التي كانت مدينة قائمة في تلك المنطقة، ومن هناك زودوا أنفسهم بما يكفيهم من مؤن لعدة أيام كما جرت عادتهم، ثم استأنفوا زحفهم بنية واحدة.

٢٥ ـ الجيش الفرنسي يعاني من هزيمة ماحقة. الطلائع التي سارت أمام الجيش تنجو.

واعترض طريق الجيش الزاحف جبل صعب المرقى، كثير الشعاب، شديد الوعورة، وكانت خطة المسيرة قد قضت بأن يتم الوصول إلى القمة في ذلك اليوم، وجرت العادة

أثناء هذه الحملة أن يتم تعيين عدد من الرجال المعروفين، كل منهم في أحد الأيام للعمل بمثابة قادة، يتولى بعضهم قيادة الطلائع، ويتولى بعضهم الآخر حماية المؤخرة، ويصرف عنايته نحو جموع الناس من غير العسكريين، خاصة المشاة منهم، وكان على هؤلاء الرجال واجب مشاركة النبلاء في تحديد الطرق التي ستركب، ومقدار مرحلة الزحف، ومكان المخيم لليوم التالي، ووقع الاختيار، بحكم الدور، في ذلك اليوم الموعود على واحد من نبلاء أكوتين واسمه جيوفري رانكون، وتبعاً لذلك تقدم أمام الجيش، ومعه لواء الملك، وصعد الجبل ومعه الطلائع، وكانت الأوامر المعطاة إليه هي أن يقوم رجال الطلائع بنصب المخيم في الأعالي، ولدى وصوله إلى القمة، وكان الجزء الأكبر من النهار على حاله بعد، هنا قرر جيوفري الزحف قليلاً إلى الأمام متخلياً بذلك عن الأوامر، وذلك لشعوره بأن المسافة المقررة لذاك اليوم قصيرة جداً، وكان الأدلاء قد أكدوا له وجود بقعة أنسب لنصب المخيم، ولهذا ابتعد أكثر، وحدث في الوقت نفسه أن الناس الذي يتبعون خطى الطلائع، خيّل إليهم بأن المعسكر قد ضرب على قمة الجبل، ونظراً لاعتقادهم بأن مسيرة ذلك اليوم شارفت على الانتهاء بدأوا بالتاهل، وهكذا توزع الجيش، فبعض من أفراده اجتاز الشعاب، بينما كان البقية يتبخترون عليها، ولاحظ التركمان، الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر قيام فرصة للهجوم، لاحظوا الأحوال المستجدة، فهم في الحقيقة كانوا يماشون الجيش عن كثب غير مرئيين، ويراقبون تحركات النصارى تمام المراقبة، وكانت الطريق ضيقة والصفوف مبعثرة، يضاف إلى ذلك أن قسماً من خيرة القوات كان قد تقدم، وأدرك التركمان يقيناً بأن أحوال المؤخرة لم يتم التعرف على ما نزل بها بسهولة، كما لا يمكن إرسال المساعدات إليها نظراً لبعد الشقة، وهنا اغتنم هؤلاء التركمان فرصتهم الممتازة، واستولوا على قمة الجبل مما سبب مزيداً من الفوضى بين صفوف طلائعنا ومؤخرتنا، ثم انقضوا وهم في تعبئة كاملة على رجال قواتنا، وقبل أن يتمكن هؤلاء من تجريد سيوفهم، كان التركمان قد مزقوا صفوفهم، وتوقف القتال بالقوس والنشاب، والتحمت الحرب بالسيوف التي أنزلت الدمار والموت على النصارى، وقد جرت مطاردة كل من حاول الفرار بكل ضراوة، وأعاقت الممرات الضيقة والشعاب رجالنا، كما أن خيولهم كانت منهكة بسبب طول السفر، كما أربكتهم كميات العتاد والحاجيات، ومع هذا فإنهم قاوموا كل على حدة بكل شجاعة، وذلك دفاعاً عن حياتهم وحرياتهم وعن رفاق الطريق، وتابعوا القتال بالسيوف والرماح وكانوا يثيرون حماسة بعضهم بكلمات التشجيع وبالصرخات لمتابعة الكفاح والمثابرة.

وازدادت حماسة التركمان وأملهم بالنصر وسعوا إلى إثارة النخوة بين صفوفهم، وأعادوا إلى الذاكرة، ما حدث قبل بضعة أيام مضت، حين استطاعوا إيقاع الهزيمة بجيش

كان أكبر من هذا بكثير، وكيف أنه بجهد أقل ومخاطرة أدنى حققوا النصر على قوات كانت أكثر عدداً، وأعظم قوة.

واستمرت المعركة طويلاً، وحام الشك حول نتائجها، ومهما يكن الأمر فقد حلت النهاية ونزل بنا العقاب لما اقترفناه من ذنوب وآثام، فانتصر الكفار، وقتل عدد كبير من النصارى، ووقع عدد لا يحصى في الأسر، وأنزل تعداد جيشنا إلى حد أنه أصبح لا يتعدى مجرد قوة صغيرة، وهلك عدد كبير من الأعيان في ذلك اليوم، وكانوا رجالاً تميزوا بأعمالهم العسكرية، وطاب ذكرهم وحمد لتقاهم، وكان بين أعدادهم الكبيرة كونت فيرنس الذي كان رجلاً فاق أقرانه، وبزّ جميع النبلاء، وغوشيردي مونتجوي، وافرارد دي برتويل، واتيرس دي مينجانك، وآخرون كثر، نحن لا نتذكر أسماءهم، لكننا نؤمن أنها كتبت في عليين، وأن ذكراهم ستظل مثالاً يشار إليه دائماً[1].

وزالت في ذلك اليوم مفاخر الفرنجة، وتلطخت سمعتهم، لسوء الحظ، من خلال أعظم نازلة حلت بالنصارى، فشجاعتهم التي كانت حتى تلك الساعة تخيف الأمم، قد سحقت ومرغت بالرغام، وغدت منذ ذلك اليوم أضحوكة ووسيلة هزء في أعين الشعوب المدنسة، التي كانوا يبعثون الهلع في قلوبها من قبل.

لماذا هذا كله؟ تباركت يا مولاي يا يسوع، فهؤلاء الناس الذين وهبوا نفوسهم لك وأوقفوها عليك، والذين اشتاقوا طويلاً للسير على خطاك، ولتقبيل جميع الأماكن التي باركتها بحضورك الجسدي، لماذا حلت بهم الهزيمة القاسية على أيدي الذين يكرهونك؟ حقاً إن أحكامك لا يمكن سبر غورها، وليس هناك من هو قادر على فهمها، لأنك وحدك يا سيدي قادر على فعل كل شي، وما من أحد يستطيع أن يقاوم ارادتك.

٢٦ ـ الملك ينجو مصادقة ويلتحق بالطلائع. وصول بقية الجيش إلى أنطاكية وعبوره من هناك إلى سورية.

وحدث في ذلك الحين أن نجا الملك ـ إنما بفضل حظّه، وليس بسبب جهوده ـ نجا من وسط المخاطر والفوضى، ففي بهيم الليل تمكن من تسلق الشعاب الجبلية السابق ذكرها، دون دليل يرشده، وكان بمرافقته عدد صغير من حاشيته، وتمكن من الوصول إلى المعسكر الذي كان قد نصب بعيداً عن المكان الذي قرر له، وكما سلف التبيان فإن رجال الطلائع

---

(١) يلاحظ أن معلومات وليم حول الجيش الفرنسي أكمل وأصح منها حول الجيش الألماني، الذي كانت قطعة منه تحت قيادة أوتو أسقف فريزنغ قد تقدمت الجيش الفرنسي على هذا الطريق ولاقت مثله ضربة قاصمة.

زحفوا خلف الراية الملكية، واجتازوا الممرات الجبلية الضيقة دونما صعوبات تذكر، وأقاموا المعسكر دونما معارضة، وذلك في موقع مناسب، وكانوا يجهلون بشكل مطبق كل ما حدث للجيش في المؤخرة، ومع هذا فقد وجدوا أن وصول الجند قد أعاقه عائق ما، وأن التأخير الكبير لوصولهم ما هو إلا نذير شؤم يحمل خبر مصيبة ما، وتوجسوا جميعاً وقوع شر لا يمكنهم دفعه، لكن عندما وصل الذين نجوا بمرافقة الملك إلى المعسكر غدت أخبار الكارثة مؤكدة ومعروفة، وعندها أخذ الحزن مأخذه من الجيش، كما استحوذ الخوف والقلق على قلوب الجميع، وبأصوات مرتجفة ووسط الدموع والآهات فتش كل واحد عن هؤلاء الذين كانوا أعزاء عليه، وعندما عرفوا خبر فقدانهم تضاعف الحزن، وترددت أصوات البكاء والنحيب في جنبات المعسكر، ومزق الذعر قلوب العساكر، ولم يكن في المعسكر مكان لم يكن ممتلئاً ببكاء الأصحاب والأهل والرفاق، فواحد فتش عن والده وآخر عن سيده، وامرأة كانت تبحث في كل مكان عن ولدها، وأخرى عن زوجها، وأمضى هؤلاء الذين لم تثمر أعمال بحثهم عن شيء، أمضوا ليلتهم بلا نوم، وكانوا مثقلين بالخوف والقلق من شر ما وقع على المتغيبين، وحدث أثناء الليل أن وصلت جماعات من كل فئة، كلهم نجا بعامل الحظ لا بحسن التدبير، ذلك أنهم تخفوا بين الأحراج والصخور وفي داخل الحفر، وتستروا تحت جنح الظلام الذي حماهم، ورأف بهم، ووقعت هذه الكارثة في كانون الثاني من سنة ١١٤٦ لتجسيد الرب[١].

وبدأ المعسكر منذ ذلك الحين يشهد نقصاً في الخبز وبقية المؤن، زد على هذا أنه لم يكن هناك سوق وبيع وشراء من أي نوع، والأسوأ من هذا والأنكى أن أهل المعسكر لم يكن لديهم أدلاء يرشدونهم، وكانوا تائهين يزحفون هنا وهناك دون أن يعرفوا أين هم، وأخيراً دخلوا إلى بلدة بامفيلا، وبعد اجتيازهم لمنحدرات جبلية شديدة الوعورة، ولأودية عميقة، وبعدما واجهوا شديد العناء، إنما دون الصدام بالعدو نجحوا في الوصول إلى أنطالية التي كانت حاضرة منطقة حملت اسمها، وتقع أنطالية على شاطىء البحر، وهي تابعة لامبراطور القسطنطينية، وتحتوي على حقول غنية جداً، إنما كانت بلا منافع لأهل المدينة، لأنهم كانوا محاطين بالأعداء من كل جانب، مما أعاق زراعتها، ولهذا تركت الأراضي الجرداء بوراً، لأنه لم يكن هناك من يعمل بها، ومع ذلك فلقد كان لهذا المكان مزايا وفوائد أخرى كبيرة، منها: سهولة الوصول إليه من قبل الزوار، وبهاء الموقع وروعته وكثرة مياهه الصافية والصحية، ولأنه كان مزروعاً بأشجار الفواكه، كما كانت الحبوب تحمل إليه من وراء البحار بكميات وافرة، لذلك كان هذا الملجأ مملوءاً بجميع المؤن الضرورية للحياة.

---

(١) كذا بالأصل والصحيح ١١٤٨ م.

وكانت حدودها قريبة جداً من أراضي العدو، ونظراً لعدم استطاعتها مواجهة غاراته المتواصلة عليها، فإنها كانت تدفع الجزية له، وبسبب هذه الصلات، فقد احتفظت أنطالية بتجارة البضائع الأساسية مع العدو، وقد صحف عساكرنا اسم هذه المدينة، فلفظوها «ساضاليا» ذلك أنهم لم يكونوا معتادين على اللغة الاغريقية، ومن اسم أنطالية نجد أن المنطقة البحرية الممتدة من ليسيدونا إلى جزيرة قبرص قد دعيت باسم «بحر أنطالية»، وهو يعرف بشكل عام في استخداماتنا باسم «خليج ساضاليا».

وفي أنطالية عانى ملك الفرنجة وشعبه من نقص شديد بالأطعمة تسبب عن الزيادة العظيمة التي طرأت على عدد السكان هناك، وفي الحقيقة كان ما حدث أن الناجين من الجيش، وخاصة الفقراء منهم هلكوا جوعاً، وفي أنطالية ترك الملك شعبه ليتابع أفراده الزحف على أقدامهم، وركب هو مع نبلائه ظهر احدى السفن، وحين أبحر كانت كل من اسوريا وكليكية على يساره وجزيرة قبرص على اليمين، وكانت الرحلة قصيرة، وقد وافقته ريح طيبة، ولقد أبحروا إلى داخل فم (مصب) نهر العاصي الذي يمر بأنطاكية، وألقوا مراسيهم قرب مكان اسمه ميناء القديس سمعان (السويدية) على مقربة من مدينة سلوقية القديمة التي تقع على بعد عشرة أميال من أنطاكية[1].

٢٧ ـ ريموند أمير أنطاكية يستقبل ملك الفرنجة في ميناء القديس سمعان بكل حفاوة ويصحبه إلى أنطاكية. فيما بعد سيقع الخلاف بينهما ويفترقان.

انتظر ريموند أمير أنطاكية عدة أيام وصول ملك فرنسا بشوق كبير، ولدى سماعه بأن الملك نزل في مملكته، جمع جميع نبلائه وأعيان الناس، وذهب لاستقباله يرافقه وفد خاص، وقام بتلقيه أحسن لقاء، وحياه أطيب التحيات، ورافقه إلى أنطاكية وسط مظاهر من الأبهة والحفاوة الكبيرتين، وهناك في أنطاكية استقبل الملك من قبل الاكليروس والشعب، وكان ريموند قد تصور منذ زمن ـ في الحقيقة منذ أن سمع أن لويس قادم ـ أنه بمساعدة لويس سيتمكن من توسيع رقعة إمارة أنطاكية، ولما كانت هذه الفكرة في ذهنه نجده قد أرسل إلى الملك لويس ـ وهو ما زال في فرنسا ـ لم يبدأ بعد رحلته للحج ـ هدايا ثمينة، وتحف ذات أثمان مرتفعة، كل ذلك على أمل أن يكسب مودته، وقد علق كبير الآمال على الملكة التي جاءت برفقة الملك، وكانت رفيقته التي لم تفارقه على طريق حجه، ذلك أنها الابنة الكبرى لأخيه الكونت وليم صاحب بواتو[2].

---

(١) وصل يوم ١٩ آذار ١١٤٨ م.

(٢) هي اليانور أميرة أكوتين، صاحبة الشهرة الواسعة في تاريخ كل من فرنسا وانكلترا، وقد تمت خطبتها إلى =

وكما ذكرنا من قبل أظهر ريموند تجاه الملك كل رعاية وعناية، كما أبدى المشاعر نفسها تجاه نبلائه وأعيان حاشيته الملكية، وبرهن لهم مراراً عن مدى كرمه، وباختصار بذل كل ما أمكنه من تبجيل وإكرام لكل واحد من النبلاء كل حسب مرتبته، وتصرف بكل أبهة وأريحية، ذلك أنه كان كله أمل أنه بمساعدة الملك لويس وعساكره سيتمكن من الاستيلاء على المدن المجاورة لأنطاكية مثل: حلب وشيزر ومدن أخرى كثيرة، وحتى لا يتلاشى أمله سعى لاقناع الملك مع أعيان رجاله لتلبية رغباته وتقديم العون له، ذلك أن وصول الملك لويس سبب هلعاً شديداً بين صفوف أعدائنا، إلى درجة أنهم لم تضعف ثقتهم بقدراتهم فحسب، بل فقدوا الأمل بالحياة أيضاً.

وحاول ريموند، أكثر من مرة، أن يشرح للملك في جلسات خاصة خططه التي في ذهنه، وقام الآن بعرض أفكاره أمام أعضاء حاشية الملك والنبلاء بشكل رسمي، وأوضح لهم كيف أن مطلبه يمكن تحقيقه دونما مصاعب، وكم سيجلب لهم من منافع وشهرة، لكن الملك كان مصراً على تنفيذ رغبته في الذهاب إلى القدس للوفاء بنذره، ولم يتزحزح عن قراره هذا أبداً، وعندما وجد ريموند بأنه لن يستطيع اقناع الملك بالتحالف معه والموافقة على خططه غيَّر مواقفه منه، وبدل معاملته له، ذلك أنه شعر بأن مطامحه وأهدافه قد أحبطت، لذلك أبدى كراهته لتصرفات الملك، وقام بالتآمر ضده بشكل مكشوف، كما اعتمد جميع الوسائل لإيذائه، وقرر انتزاع زوجته منه بالقوة أو عن طريق التآمر، وأبدت الملكة على الفور موافقتها على ذلك لأنها كانت امرأة حمقاء [1]، وكانت جميع أعمالها وتصرفاتها من قبل ومن بعد تؤكد هذا، وتبرهن أنها كانت طائشة غير مبالية، مما يتنافى مع مكانتها الملكية، حتى أنها لم تقم أي اعتبار لميثاق الزواج، ولم تكن مخلصة لزوجها.

= لويس بفضل جهود سوكر رئيس أساقفة دير القديس دينس الذي كان من الناحية العملية أشبه برئيس وزراء مملكة فرنسا، ذلك أنه توقع وفاة وليم العاشر دوق أكوتين دون وريث ذكر، وأمل أنه من خلال هذا الزواج سيزيد من رقعة المملكة، وحدث أن توفي وليم العاشر أيام الزواج.

(١) ينبغي التنبه إلى أنه عندما كتب وليم هذا كله كانت اليانور قد انفصلت عن لويس السابع منذ زمن طويل، وأخذت منه ميراثها، وأعطته إلى هنري الثاني ملك انكلترا، وحدث التباعد بين اليانور ولويس عقب عودتها من الرحلة الصليبية، فلقد اختلفت طباعها تماماً، فهي كانت امرأة اجتماعية تحب البهجة، على عكس لويس الذي كان تقيا، يعيش حياة روحية صافية، ولقد تمتعت اليانور بالحياة الاجتماعية في الشرق وأعجبت بها، وخاصة في القسطنطينية وأنطاكية ولا ندري فيما إذا كانت علاقاتها الاجتماعية قد جرتها إلى جوانب أخرى، ذلك أن المصادر الفرنسية تنال منها واعتادت الحديث عن اقترافها العديد من الآثام، كما حاكت الأساطير حول مغامراتها العاطفية مع عدد من الشخصيات. إلى حدجعلت صلاح الدين واحداً منهم، علماً بأن صلاح الدين كان آنذاك ابن عشر سنوات، ولا شك أن مصادر وليم هنا حولها كلها فرنسية.

وما أن اكتشف الملك هذه المؤامرات حتى اتخذ جميع الاحتياطات لحماية حياته، وللتصدي لخطط الأمير، وقام بناء على نصيحة نبلائه بالإسراع بمغادرة أنطاكية سراً يرافقه أفراد شعبه، وعلى هذا فإن روعة مشاهدة هذه الحوادث قد تغيرت تماماً، حيث أن البداية اختلفت كلياً عن النهاية، فقد أحيط قدومه بالأبهة والاحتفاء، وانعكست الأمور الآن، فكانت مغادرته محاطة بالاهمال التام وعدم الاكتراث.

ويعزو بعض الناس هذا كله إلى سوء تصرف الملك ونكرانه للجميل، وأنه بذلك تلقى جزاءه العادل، حيث أنه لم يستجب لمطالب أمير عظيم، قدم له ولأتباعه رعاية وحسن معاملة، ولهذا الرأي مكانة خاصة، سيما وأن أصحابه يؤكدون أنه لو استجاب لمطلب الأمير، وأوقف نفسه على تنفيد مشروعه، لسقطت واحدة، أو أكثر، من المدن المذكورة آنفاً، وبكل سهولة.

٢٨ ـ انقضاء الشتاء ـ وصول الامبراطور كونراد إلى سورية بحراً ـ وصول الكونت الفونسو إلى مدينة عكا ووفاته في قيسارية.

أمضى الامبراطور كونراد الشتاء في العاصمة الملكية، وقد عومل هناك بكل احترام من قبل امبراطور القسطنطينية، ولقي منه من الإكرام ما يليق بمكانته كأمير عظيم، ولدى مغادرته للمدينة أتحفه بعدد كبير من الهدايا الفخمة، وأبحر كونراد محاطاً بحاشيته من النبلاء على متن اسطول أعد له خصيصاً من قبل صاحب الجلالة الامبراطورية، واتجه به هذا الاسطول نحو الشرق، وأرسى قلوعه في ميناء عكا، حيث توجه كونراد من هناك إلى القدس، وقام الملك بلدوين ـ ملك القدس ـ مع الطيب الذكر البطريرك فولتشر يصحبهما الاكليروس وجميع الشعب بتلقيه خارج المدينة، ومشوا في ركابه إلى داخلها وسط الأغاني والأناشيد [١].

وفي الوقت نفسه وصل إلى عكا رجل عظيم المكانة وواسع الشهرة هو ألفونسو كونت طولوز، وهو ابن الكونت ريموند الأكبر، ذلك القائد الكبير الذي قام بأعمال هامة في الحملة الأولى، وكان ألفونسو هذا رجلاً سامي المكانة، لما يتمتع به من صفات، وأكثر من هذا بسبب مكانة أبيه وذكراه الطيبة، وبينما كان في طريقه إلى القدس لتقديم فروض الشكر والامتنان لتوفيقه في انجاز مهمة حجّه، توقف عند ساحل مدينة قيسارية، وبعد وصوله إلى هناك بأيام وقع مريضاً ومات، ولقد أشيع بأن السم قد دس له، لكن مدبر ذلك لم يتم اكتشافه، وكان الناس جميعاً قد انتظروا وصول هذا الرجل الطيب الذكر بفارغ الصبر،

---

(١) وصل كونراد إلى القدس حوالي منتصف الاسبوع الثاني من نيسان ١١٤٨ م.

ذلك أنهم كانوا كلهم أمل ورجاء بأنه سيجلب معه السعادة والازدهار للمملكة، وذلك تيمناً بسيرة والده العظيم.

٢٩ ـ ملك فرنسا يغادر أنطاكية ويتابع سيره نحو القدس ـ ارسال بطريرك القدس لاستقباله.

ووصلت الأخبار في ذلك الحين إلى القدس، تفيد بأن ملك الفرنجة قد غادر أنطاكية، وهو الآن على مشارف أراضي طرابلس، وهنا قرر النبلاء في المملكة بالإجماع ارسال فولتشر بطريرك القدس ـ طابت ذكراه ـ ليقدم دعوة للملك تتناسب مع مقامه، وليعبر له عن تحيات الجميع، ودعوتهم له لزيارة المملكة، واتخذ هذا الاجراء خشية أن يتصالح مع أمير أنطاكية فيعود إليها، أو أن يحتفظ كونت طرابلس به بحكم قرابته منه، مما كان سيؤدي في كلتا الحالتين إلى إعاقة رغبات شعب المملكة.

وتوزعت ممتلكات اللاتين في المشرق بين أربع امارات: كانت أولاها واقعة إلى الجنوب من مملكة القدس، التي تبدأ بجدول ماء يجري بين جبيل وبيروت، وتضم المدن الساحلية لمنطقة فينيقية، وتنتهي بالصحراء الواقعة خلف الدارون، وتقوم الثانية في الشمال، وهي كونتيه طرابلس وتبدأ من الجدول الآنف الذكر وتمتد إلى جدول آخر قائم بين مرقية وبانياس، وتحتوي أيضاً على مدن ساحلية، وكانت امارة أنطاكية هي الامارةالثالثة، وتمتد من الجدول الآنف الذكر غرباً حتى طرسوس في كليكية، والرُّها هي القسم الرابع، وتبدأ من غابة تدعى مرّيم، وتمتد شرقاً إلى ما وراء نهر الفرات.

ومنذ البداية عاش جميع كبار أمراء هذه المناطق وأكثرهم قوة على رجاء وأمل أنه بالمساعدة الفعالة لهؤلاء الملوك القادمين سيكون بالامكان توسيع رقعة أراضيهم، ومدّ حدودهم بشكل كبير جداً، فلكل منهم توفر عدو قوي كانت مدنه البغيضة، قريبة جداً من أراضيهم إلى درجة أن كل واحد منهم رغب رغبة حقيقة جامحة في ضمها إلى ممتلكاته، وعلى هذا فالجميع كانوا في قلق واضطراب حول قضاياهم الخاصة، وكلهم راغب في توسيع أراضيه، ولهذا نوى كل منهم أن يسبق الآخر بارسال الرسل والهدايا والدعوات لكل من الملكين، ومع ذلك فقد بدا بين هؤلاء جميعاً أن آمال ملك القدس وأماني أهلها هي الأقرب إلى التحقيق من سواها، ذلك أن حب الأماكن المقدسة واجلالها، لا شك أنه يجذب الجميع إلى هناك، زد على هذا أن الامبراطور كان مع أهل القدس، لذلك كان هناك سبب بليغ للاعتقاد بأن ملك الفرنجة سيسرع الخطى نحو القدس، لينجز كلاهما حجه، وليؤدي صلواته، ثم لينخرط في عمل ما يكون مفيداً للنصرانية، كما كان قد تقرر في الاجتماع العام.

وخشي أعيان مملكة القدس أن يقدم أمير أنطاكية على منع الملك لويس من السفر ويبقيه في منطقة حلب لسبب روابط القرابة بينهما والصداقة، وكان هذا أمراً واضحاً ومعقولاً، كما أنهم خشوا من تدخل الملكة، لهذا سارعوا بإرسال البطريرك لمقابلته.

ولدى معرفتهم بأن الملك والأمير قد افترقا وهما أبعد الناس عن مشاعر الصداقة شعروا بمزيد من الأمل بأن الملك سيقدم إلى القدس دونما تأخير، ومع هذا، وخشية الحظ العاثر، وحتى يتم مسبقاً تدارك أي شيء يمكن حدوثه، أرسلوا البطريرك المبجل كيما يستخدم نفوذه على الملك، ولم يكن هذا الأمر المأمول عبثاً، فقد قنع الملك بكلمات فولتشر وتابع سيره نحو القدس[1]، وخرج جميع رجال الاكليروس وأهل المدينة لاستقباله لدى وصوله، وقد استقبل استقبالاً حافلاً يليق بمقامه، ودخل المدينة مرحباً به، ومضى وسط الأناشيد والهتافات يقوده النبلاء لزيارة الأماكن المقدسة.

ولدى إتمامه آخر صلواته تمّ الاعلان ـ تبعاً للتقاليد المرعية ـ عن عقد مجمع عام في مدينا عكا لاستعراض نتائج هذا الحج العظيم، وللعمل على إتمام هذا الجهد غير الاعتيادي، وللتباحث في مدّ رقعة المملكة، وفي التاريخ المحدد التقى الجميع في عكا وعقدوا مجمعهم كما كان مخططاً، ثم شرعوا مع نبلاء المملكة الذين يملكون معلومات دقيقة بالوقائع والأماكن، وانخرطوا جميعاً في مناقشة دقيقة حول اعتبار أي الخطط أكثر فائدة.

نهاية الكتاب السادس عشر

(١) يوحي هذا العرض التحليلي بمدى الضعف الذي ألم بالممالك اللاتينية بالشرق، ويلاحظ هنا أن وليم لا يدين ذلك، ما دامت المحصلات لصالح مملكة القدس.

بداية الكتاب السابع عشر

الاستيلاء على عسقلان محصلة ما باءت به الحملة الصليبية الثانية

١ ـ عقد اجتماع عام في مدينة عكا الساحلية ـ أسماء الحضور من الأمراء

إنه لأمر مفيد، ويتوافق مع روح هذا التاريخ أن نأتي على ذكر أسماء النبلاء الذين كانوا حاضرين في المؤتمر، لقد كانوا رجالاً جاؤوا من بلدان عالية المكانة، لذا ينبغي علينا أن نأتي على ذكرهم هنا لمنفعة الأجيال المقبلة: وتصدر كونراد ـ ملك الألمان وامبراطور الرومان ـ الجمع، وكان بصحبته من نبلاء الاكليروس في بلاطه: أوتو ـ أخوه ـ الذي كان اسقف فريزنغ، وكان رجل فكر وكتابة[1]، وستيفن أسقف متز، وهنري أسقف تول، وهو أخو ثيري كونت فلاندرز، وثيوتون أسقف بورتو، وممثل البابا، وكان أصله ألمانيا، وقد قام بمرافقة الركب الامبراطوري بناء على أمر من البابا يوجينوس.

وكان بين الأمراء العلمانيين الحاضرين: هنري دوق النمسا، وهو أخو الامبراطور، ودوق غيولف، الذي كان من أبرز النبلاء وأكثرهم قوة، وفريدريك، الواسع الشهرة، دوق سوابيا وفندلسيا [وربما بافاريا] وهو ابن أكبر إخوة الامبراطور، وكان هذا الأمير المذكور أخيراً شاباً متميز الصفات، وقد خلف عمه كونراد فيما بعد، وهو يقوم اليوم بحكم الامبراطورية الرومانية بكل نشاط وشجاعة، وكان بين الحاضرين أيضاً هرمان مركيز فيرونا، وبرثولد سيد أندش، ثم دوق بافاريا فيما بعد، ووليم الأكبر مركيز مونتفرات، عديل الامبراطور في الزواج، وغوي كونت بلاندراس، الذي كانت زوجته أخت المركيز السابق الذكر، وكان الأميران المذكوران أخيراً من أعظم الأمراء وأكثرهم شهرة، وقد جاءا جميعاً

---

(١) كان أوتو أسقف فريزنغ، أعظم المؤرخين الألمان في القرن الثاني عشر، أخاً لكونراد الثالث من أمه، ذلك أن أم كونراد تزوجت بعد وفاة أبيه من أمير النمسا، وكان أوتو أصغر أفراد أسرة كبيرة جداً، وقد وجه لدراسة اللاهوت، وأنهى دراسته في باريس ثم توجه نحو حياة الرهبنة والانعزال، وصار فيما بعد رئيساً لأحد الأديرة ثم انتخب أسقفاً، وقام بمرافقة كونراد في حملته الصليبية، وكان مسؤولاً عن احدى الفرق العسكرية أثناء عبور آسية الصغرى، ويتصدر كتاباته التاريخية كتابا: التاريخ، وأعمال فردريك الأول، وهما يحويان اشارات ضيئلة، إنما مفيدة لما جرى أثناء الحملة الثانية.

من لومباردي، كما كان هناك عدد آخر من الرجال ذوي المناصب العالية، لم أعد أذكر أسماءهم[1].

وكان لويس العظيم الذكر، وملك الفرنجة التقي، بين الحاضرين، وبصحبته غودفري أسقف لانجرز، وأرنولف أسقف ليز أوكس، وغي سيد فلورنسا، وكردينال كاهن لكنيسة روما واسمها كنيسة القديس كريسوغونوس، والقاصد الرسولي، وروبرت كونت برشي، وهو أخو الملك، وهنري كونت تروبس ابن الكونت ثيوبولد الأكبر، وفي الوقت نفسه ختن الملك، وكان شاباً له أخلاق ومزايا عالية، وكان مع الملك ثيري الكونت الكبير لبلاد فلاندرز، وكان عديلاً بالزواج لملك القدس، وايفس من سواسون الذي كان رجلاً عاقلاً ومخلصاً، كما كان هناك عدد آخر من النبلاء الكبار أصحاب المراتب العالية وهم جديرون جميعاً بالذكر، لكن بما أن ذلك سيشغل حيزاً كبيراً، تعمدت حذف أسمائهم[2].

وحصر من رجال بلادنا: بلدوين ملك القدس، وهو شاب يبشر بمستقبل عظيم، وحضرت معه والدته، التي كانت سيدة عاقلة فاقت مثيلاتها، قوية القلب، ولم تكن أقل حكمة وتدبيراً من أي من الأمراء الحضور، وكان بمرافقتها البطريرك فولتشر، وبلدوين أسقف قيسارية، وروبرت رئيس أساقفة الناصرة، وروجر أسقف عكا، وبرنارد أسقف صيدا، ووليم أسقف بيروت، وآدم أسقف بانياس [الداخل] وجيرالد أسقف بيت لحم، وروبرت مقدم فرسان المعبد [الداوية]، وريموند مقدم فرسان الإستبارية[3].

وكان بين أعيان النبلاء الحاضرين ماتسيس المراقب الملكي العام، وفيليب أمير نابلس، وإيلينا ندوس صاحب طبرية، وجيرارد صاحب صيدا، وولتر صاحب قيسارية، وبينز صاحب المناطق الواقعة فيما دون الأردن، وبالين الأكبر، وهمفري سيد تورون، وغي صاحب بيروت، وآخرون كثر، لو اكتفيت بتسجيل أسمائهم، لاحتاج ذلك مني حيزاً كبيراً، ولقد اجتمع جميع هؤلاء الرجال، كما أسلفنا الذكر في مدينة عكا بقصد التباحث

---

(١) كما اعترف وليم هنا فإن لائحة الأسماء الألمانية غير كاملة، لذلك حاول بعض الكتاب اكمالها.

(٢) إن شدة معرفة وليم بأخبار الفرنسيين يرجح أنه اطلع على بعض المواد والمصادر الفرنسية خاصة كتاب «أعمال لويس» هذا ويرى بعض المؤرخين العكس، وأن صاحب كتاب «أعمال لويس» استقى معلوماته من كتاب وليم الصوري.

(٣) لم يذكر وليم الصوري في هذه اللائحة شبه التامة التي تضمنت شخصيات مملكة القدس، رالف الحاجب الملكي الذي حاز على هذا المنصب دون موافقة رسمية من البابا، ويثير هذا الأمر سؤالاً هاماً وهو هل كان وليم - الذي كان تلميذ لاهوت آنذاك وفي الثامنة عشرة من عمره - بين الحضور شخصياً؟ إنه لمن المؤسف أنه لم يوافنا بالمزيد من التفاصيل حول المناقشات التي دارت في الإجتماع وذلك لعلاقة ذلك بالأحداث التي ستقع فيما بعد.

قبل كل شيء حول أحسن الأوقات والأماكن التي ينبغي بذل الجهد فيها، إن شاء الرب، لتوسيع رقعة المملكة، ولإضافة مفاخر جديدة إلى اسم المسيحية.

٢ ـ قرروا جميعاً إلقاء الحصار على مدينة دمشق، والزحف نحوها حسبما تم الإتفاق بينهم.

وتبعاً لهذا فإن القضية بحثت بحثاً دقيقاً، وعرضت الآراء المتباينة، وكان هناك أخذ ورد كما هي العادة أثناء بحث مثل هذه القضايا الهامة، وتم الإتفاق أخيراً، أنه في الظروف الحالية يبقى أفضل الأعمال هو الاقدام على حصار دمشق، ذلك أنها مدينة كانت تشكل خطراً كبيراً علينا، وعندما تم الوصول إلى هذا القرار، صدر الأمر إلى صاحب النفير، أن يعلن للملأ بأن عليهم جميعاً أن يكونوا في اليوم المحدد جاهزين بلا تلكؤ، لقيادة عساكرهم نحو تلك الأماكن، وبناء على هذا حشدت جميع الطاقات العسكرية للمملكة من فرسان ومشاة من كلا الجانبين: البلديين والحجاج، ووصل الملكان المحبوبان من الرب، وبرفقتهما قواتها أيضاً، وبعد هذا عندما حلّ اليوم الخامس والعشرون من شهر أيار لسنة ١١٤٧ لتجسيد ربنا، زحفت الجيوش المتحدة يقودها صليب الصلبوت كما كان مقرراً من قبل، وأخذت الطريق نحو طبرية[1]، ثم توجهت الحشود جميعها من هناك، فسايرت أقصر الطرق حول بحيرة طبرية حتى بانياس (التي كانت تعرف باسم قيسارية فيليب)، حيث تمّ التباحث مع عدد من الأشخاص الذين كانوا من ذوي المعرفة الكبيرة بالأحوال داخل دمشق والمناطق المجاورة لها، وبعد التداول بين القادة، قرروا أن خير وسيلة لمضايقة دمشق وحصارها، الإستيلاء أولاً على البساتين التي تحيط بالجزء الأكبر من المدينة، وتقدم لها حماية كبيرة، حيث أنه بعد الإستيلاء على هذه البساتين سيكون من السهل حتماً الإستيلاء على المدينة.

وبغية تنفيذ هذه الخطة، استأنفوا زحفهم، فاجتازوا جبل لبنان الشهير القائم بين بانياس ودمشق، ثم نزلوا قرية داريا التي تبعد عن المدينة مسافة أربعة أميال أو خمسة، وكان من السهل من هذا المكان رؤية مدينة دمشق والمنبسطات المحيطة بها.

٣ ـ وصف أوضاع مدينة دمشق.

مدينة دمشق هي أكبر مدن سورية الصغرى، التي تدعى أحياناً لبنان فينقية، وهي

---

(١) ينبغي جعل السنة ١١٤٨ م، فذلك هو الصواب، ولا ندري مرد هذا الوهم إلى الناسخ أم إلى المؤرخ وليم الصوري؟.

أيضاً مركز تلك المنطقة، ذلك أننا نقرأ: «رأس سورية دمشق»[1]، وقد اشتق اسم هذه المدينة من اسم مؤسسها وشهرته، وكان واحداً من خدم إبراهيم، ومعناه المدينة الدموية، أو المدينة المليئة بالدم[2]، وهي تقع وسط سهل جاف جدب، فيما عدا المسقي منها بواسطة أقنية، تجلب المياه من علو لمنفعتها، وينحدر من الشعاب الجبلية في الجزء الأكبر. من تلك المنطقة نهر تنقل مياهه في أقنية تساق بها المياه وسط السهل، لتوزع في مختلف المناطق المنخفضة جالبة الخصب للتربة الجافة، وحيث أن المياه كثيرة جداً، فإن النهر يسقي أيضاً البساتين الممتدة على جانبيه، والمزروعة بمختلف الأشجار المثمرة، ويتابع النهر سيره مخترقاً الجانب الشرقي من المدينة.

ونظراً لقرب المدينة من داريا، فقد قام الملوك هناك بتعبئة قواتهم وصفوها استعداداً للمعركة، وعينوا لكل فرقة مهامها وأهدافها، وذلك أنهم لو زحفوا بلا إعداد، لكان من الممكن قيام النزاعات بين بعضهم، مما كان يسبب إعاقة تنفيذ المهام الملقاة أمامهم.

وقد عهد بالإجماع من قبل جميع الأمراء إلى الفرقة التي كانت تحت قيادة ملك القدس بمهام التقدم أمام الجميع وشق الطريق لبقية الفرق خلفها، وذلك على أساس الإفتراض أنها كانت أكثر دراية بالمنطقة، وعهد إلى ملك الفرنجة وجيشه بالبقاء في قلب الجيش، أو الصف الثاني على أساس أنه إذا دعت الحاجة يمكنهم تقديم العون للصفوف الأمامية، وعهد في الوقت نفسه إلى الإمبراطور بالصف الثالث، أو المؤخرة ليكون جاهزاً لمقاومة العدو، فيما لو حدث وقام بهجوم من الخلف، وهكذا يمكنه حماية العساكر المتقدمة من خطر أية مفاجأة تأتي من الخلف، وعندما تمّ توزيع هذه الجيوش الثلاثة حسب النظام الإستراتيجي الموصوف، قدموا المعسكر إلى الأمام، وحاولوا قدر استطاعتهم الإقتراب من المدينة.

وتمتد البساتين باتجاه الغرب من حيث جاءت قواتنا، وباتجاه الشمال أيضاً مسافة خمسة أميال أو أكثر باتجاه لبنان، وقد أحاطت بالمدينة من جميع الجوانب بشكل واسع وعميق، وكانت أشبه بالغابات المظلمة لكثافة أشجارها وقام كل واحد من أصحاب هذه البساتين بإحاطة بستانه بجدار ترابي [دك] بغية منع اللصوص من دخولها ولحمايتها ولتحديد مساحتها وفصلها عمن سواها، واستخدمت الجدر الترابية لانعدام الأحجار في تلك المنطقة، وقد ترك الناس بين هذه البساتين طرقاً عامة يستخدمها الجميع، لكنها كانت ممرات ضيقة، إنما

---

(١) الكتاب المقدس ـ أشعيا: ٨/٧ وفيه: «لأن رأس آرام دمشق». وتمسكت بما جاء بالمتن.

(٢) كذا وهذا مجرد وهم من أوهام العهد القديم، وبالمناسبة لم يتفق العلماء حول أصل واشتقاق كلمة «دمشق».

كافية بالسماح لأصحاب البساتين والعاملين بها اجتيازها على ظهور الحيوانات التي كانت تحمل الفواكه إلى المدينة.

وشكلت هذه البساتين وسيلة وقاية كبيرة للمدينة، حيث أن الأشجار المزروعة إلى جانب بعضها والممرات الضيقة، كل ذلك جعل من الصعب - إن لم يكن من المستحيل - بالنسبة لأي إنسان الوصول إلى دمشق من ذلك الإتجاه، ومع هذا فقد قرر قادتنا - منذ البداية - أن يقودوا الجيش من البساتين، وبذلك يفتتحون ممرات توصلهم إلى المدينة، وكان مرد ذلك إلى سببين: أولهما أنه بعد الإستيلاء على هذه الأماكن الشديدة التحصين والتي وضع بها أهل دمشق عظيم ثقتهم، سيكون ما بقي أخف وأسهل تنفيذاً، وثانيهما أنهم [قادة الفرنجة] رغبوا في تمكين عساكرهم من استغلال الفواكه، والإستفادة من الماء.

وبناء على هذا كان ملك القدس أول من قاد رجاله بين ممرات البساتين الضيقة هذه، وتقدم الجيش بين مختلف العوائق والمصاعب، فقد أعيق تقدمه أحياناً بواسطة الممرات الضيقة، كما تعرض من جهة ثانية لمخاطر هجمات العدو الجريئة وكمائنه التي نصبها مموهة بين جذوع الأشجار، وقد اقتضى الحال أحياناً الدخول في معارك مكشوفة، ذلك أن العدو أغلق المنافذ، واستولى على منعرجات الممرات الضيقة، وزحف أهل دمشق جميعاً وجاؤوا إلى البساتين في نظام واحد وإرادة متفقة، في محاولة لإيقاف تقدم الجيش ومنعه من المرور، بكل من وسائل القتال المباشر والقتال من وراء المساتر.

يضاف إلى هذا كله أنه قام بين البساتين أبنية [قصور - أبراج] محصنة بشكل جيد، ومدافع عنها من أناس كانت ممتلكاتهم على مقربة منها، لهذا عقدوا العزم على الدفاع عنها، وقد قاموا من هذه الموانع والحواجز في صب سيل من النبال مع بقية أنواع المقذوفات وبهذا منعوا حدائقهم، وحالوا دون الوصول إليها، ثم إن الأسهم المرمية عن بعد جعلت الزحف الجماعي غير مأمون تماماً، ولم تأت هذه الإجراءات الرهيبة ضد قواتنا الزاحفة من جهة البساتين فقط، بل توفرت المخاطر من المعيار نفسه لكل من كان يحاول العبور من جميع الإتجاهات، فالرعب الذي كان يقود إلى الموت كان يصدر من كل مكان واتجاه، فعلى طول الجدران اختبأ من خلفها رجال لم يكن بالإمكان رؤيتهم، وكانوا مسلحين بالرماح، وكانوا بإمكانهم النظر والمراقبة من فتحات صغيرة أعدت بدقة خصيصاً في الجدران، ليطعن منها الذين كانوا يحاولون العبور في خواصرهم وأطرافهم، ولقد قيل إن عدداً كبيراً من رجالنا قد هلك بكل تعاسة، بواسطة هذه الطريقة، في ذلك اليوم، وخلاصة القول: إن المخاطر التي اعترضت سبيل أولئك الذين حاولوا عبور تلك الممرات الضيقة لا تعد ولا تحصى.

٤ ـ النصارى يشقون طريقهم بالقوة بين البساتين ويستولون بشدة على النهر برغم وجود الأعداء، وهو نجاح رائع للإمبراطور يثير الدهشة ويستحق الوصف.

وإدراكاً من المسيحيين إدراكاً كاملاً للوضع، زادوا من عنف ضغطهم، فهدموا المباني. وأزالوا الحواجز بكل مقدرة، واستولوا بحماسة على البساتين، ووضعوا كل من وجدوه داخل البيوت طعمة للسيف، أو أخذوه أسيراً، ولدى توافد أهالي البلد الذين خرجوا من المدينة للمساعدة على الدفاع عن البساتين ومعرفتهم بما حدث، تراجعوا خائفين خشية أن يتعرضوا للمخاطر نفسها ثم هربوا إلى داخل المدينة جماعات جماعات، وحدث الآن أنه بعدما قتل من قتل من العدو، وهرب الباقون، أن دخلت قواتنا إلى داخل البساتين دونما معارضة.

ولدى ملاحظة أهالي دمشق بأن النصارى سيتقدمون حالاً من البساتين إلى حصار المدينة تقدمت قوات الخيالة الموجودة لديهم مع قوات الحلفاء الذين هبوا لعونهم، وسارعوا جميعاً نحو النهر الذي يجري إلى داخل المدينة، وأملوا أنهم باستخدامهم للنبل والنشاب والحراب سيتمكنون من إبعاد عساكر العدو المنهكة عن النهر، ومنعها من إطفاء عطشها الشديد بالماء الذي طال شوقهم إليه، وحالما علم النصارى باقترابهم من النهر اندفعوا نحوه عاقدين العزم على إطفاء عطشهم الذي لا يرحم، والذي نجم عما بذلوه في ذلك اليوم من جهود مضنية، ونتيجة لسحب الغبار التي تشكلت بفعل حوافر الخيول وأقدام الرجالة، ولدى رؤيتهم لحشود القوات المتجمعة حول النهر، توقفوا قليلاً، وجمعوا شجاعتهم وأعادوا رص صفوفهم وتنظيمها بعدما منحتهم الحاجة مزيداً من الجرأة والإندفاع، وتقدموا يكافحون ثانية في سبيل الإستيلاء على النهر، لكن عبثاً فعلوا فقد نالوا المزيد من الإخفاق.

وبينما كان الملك وقواته عبثاً يحاولون الإستيلاء على النهر استفسر الإمبراطور كونراد، الذي كان يقود الصفوف الخلفية، حول سبب عدم تقدم الجيش، فأخبر بأن العدو متملك للنهر ولا يسمح لقواتنا بالمرور، فأغضبته هذه الأخبار، وقام بقيادة فرسانه، وأسرع الخطا نحو مكان المعركة مخترقاً صفوف قوات الملك التي كانت تحاول الإستيلاء على النهر، وهنا قفز الجميع من على ظهور خيولهم وترجلوا كما جرت عادة الألمان، فهم عندما كان يحزبهم أمر ويشتد بهم القتال يترجلون ويحملون ترستهم بأيديهم أمامهم ويشتبكون بقتال يد إلى يد بوساطة السيوف، وقاوم الدمشقيون في البداية بكل شجاعة لكنهم حالما شعروا أنه ما عاد بإمكانهم الصمود في وجه الهجوم العاتي، تخلوا عن النهر وهربوا نحو المدينة بكل سرعة ممكنة[1].

---

(١) كذا وهذا مجرد اختراع فابن القلانسي الذي كان موجوداً داخل المدينة وتحدث عن القتال حول النهر لم يذكر =

ولقد قيل بأن الإمبراطور قام أثناء القتال بإنجاز يستحق التنويه به، وبرهن على براعة جديرة بالذكر، ذلك أنه تمكن من قتل واحد من كبار فرسان التركمان، كان يبذل جهوداً مضنية ويظهر شجاعة نادرة في المقاومة، حيث نفحه الإمبراطور بضربة واحدة بالسيف، فأزال منه الرأس والرقبة والكتف الأيسر والذراع المعلق به، وقد بعث هذا العمل الملع ليس في قلوب الذين شهدوا هذه البراعة التي لا نظير لها، بل في قلوب الذين سمعوا بها، إلى حد أنهم فقدوا كل أمل بالمقاومة، وقنطوا من الحياة نفسها.

٥ ـ سكان دمشق شرعوا لقنوطهم بالتفكير بالفرار، تقديمهم الرشوة لبعض قادة النصارى، الذين قام الجيش بناء على تحريضاتهم بالتحول إلى الجهة المقابلة من المدينة.

أما والنهر قد تملكه النصارى وصاروا يصلون إلى ضفتيه بكل حرية فإنهم نصبوا الآن معسكرهم على امتداد ضفة النهر حول المدينة وتصرفوا بمياه النهر واستفادوا منها دونما معارضة، كما تمتعوا بحرية العمل داخل البساتين، واستولت الدهشة على أهل المدينة وبهتوا بسبب كثرة تعداد النصارى وشجاعتهم، وبدأ يساورهم الشك فيما :اذا كانت قواهم كافية للتصدي لهم، وخشية أن ينقض عليهم العدو بشكل مفاجىء، عقدوا الإجتماعات لبحث الأمور، وببراعة وحذاقة هؤلاء الذين يقعون في ظروف قاسية، فيقدمون على اتخاذ القرارات الصعبة، جاءوا بجذوع أشجار ضخمة وطويلة فسدوا بها جميع الطرقات على أطراف المدينة المقابلة لمعسكرنا، ذلك أن أملهم الوحيد كان الآن في أن يتمكنوا من الفرار من الإتجاه المعاكس صحبة نسائهم وأطفالهم، وذلك أثناء انشغال النصارى في إزالة هذه الحواجز وتحطيمها.

وبدا لجميع الحضور أنه بمشيئة القدرة الربانية سيتم الإستيلاء على المدينة من قبل النصارى، لكن الذي «فعله المرهب نحو بني آدم»[1] قضى أمراً آخر، فقد كانت المدينة بحالة

= شيئاً من هذا القبيل، في حين روى سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان، ١٩٨/٢ ـ ١٩٩ «وكان مع الفرنج قسيس كبير طويل اللحية يقتدون به، فأصبح في اليوم العاشر من نزولهم على دمشق فركب حماره وعلق في عنقه صليباً وجعل في يديه صليبين، وعلق في عنق حماره صليباً، وجمع بين يديه الأناجيل والصلبان والكتب والخيالة والرجالة، ولم يتخلف من الفرنجة أحد إلا من يحفظ الخيام، وقال لهم القسيس: قد وعدني المسيح أنني أفتح اليوم وفتح المسلمون الأبواب واستسلموا للموت، وغاروا للإسلام وحملوا حملة رجل واحد، وكان يوماً لم ير في الجاهلية والإسلام مثله، وقصد واحد من أحداث دمشق القسيس، وهو في أول اليوم فضربه فأبان رأسه وقتل حماره، وحمل الباقون، فانهزم الفرنج، وقتلوا منهم عشرة آلاف، وأحرقوا الصلبان والخيالة بالنفط، وتبعوهم إلى الخيام، وحال بينهم الليل، فأصبحوا قد رحلوا ولم يبق لهم أثر».

(١) الكتاب المقدس ـ المزامير: ٥/٦٦.

من الهلع حيث فقد أهلها كل أمل لهم بالمقاومة، وكانوا يعدون أنفسهم ليغادروها بكل سرعة، على أمل إنقاذ حياتهم، وفي تلك الساعة الحرجة، وجزاء لذنوبنا، بدأ الدمشقيون بالعمل على أساس معرفتهم بشره وشدة جشع بعض الناس، فحاولوا عن طريق الرشاوى تملك قلوب هؤلاء الذين لم يكن لديهم الأمل في قهر أبدانهم، وإثر هذا وبناء عليه قامت منافسات بارعة، قادها بعض النبلاء الذين مارسوا دور يهوذا الخياني وأقنعوهم عن طريق الوعود بتسلم مبالغ طائلة من المال تمّ جمعها، بالعمل على رفع الحصار، وقام هؤلاء الرجال، يقودهم الجشع ـ أصل الشرور جميعاً ـ بالسماح لأنفسهم بالفساد عن طريق تسلم الرشاوى والوعود، فغرقوا في مستنقع الجريمة، وهكذا أقنعت مقترحاتهم الخبيثة الملك وأمراء الحجاج، الذين وثقوا بهم تمام الثقة، وركنوا إلى إخلاصهم، أقنعوهم بترك البساتين، وتحويل الجيوش إلى الجهة المعاكسة من المدينة، وحتى يتمكنوا من تغطية جريمتهم احتجوا بقولهم بأن الجهة المعاكسة من المدينة، التي تواجه الجنوب والشرق، لا يوجد فيها بساتين حماية ولا نهر ولا خندق يعيق الوصول إلى دفاعات العدوّ كما أعلنوا أن السورَ المنخفض والمبني بطوب مجفف بالشمس، من المستحيل أن يصمد في وجه أول هجوم، وسيكون هناك حاجة قليلة لآلات الحصار، وللجهود الكبيرة المبذولة في تلك الجهة، فالسور سينهار مع أول ضربة، ولن يكون من الصعب شق طريقهم بالقوة إلى داخل المدينة، وكان هدفهم الوحيد من هذه الحجج العمل على تحويل الجيش من موقعه الحالي، ذلك أن المدينة هناك كانت قد تعرضت للضغط الشديد، وباتت منعدمة القدرة على الإستمرار في الصمود، ومع ذلك لم تسقط، بينما في الجهة الأخرى من المحتمل عدم القدرة على الإستمرار في مقاومة الحصار، وانطلت هذه الحيلة على الملوك وكبار قادة القوات المتحدة، وآمنوا بصحة الأقوال المخادعة، وهكذا تم التخلي عن الموقع الذي تمت حيازته بالجهد الكبير، وبفقدان الرجال، وتحولت جميع الفرق تحت قيادة الخونة عن مواقعها، وأقيم المخيم في الجهة المعاكسة من المدينة.

وفي الحال أدركوا أن هذا الموقع كان بعيداً عن الفواكه الكثيرة والماء المتيسر الوصول إليه، ولما بدأت الأطعمة في النقصان لاحظوا أن الخيانة قد عملت عملها، وعندها ـ إنما بعد فوات الأوان ـ أخذ الجميع يتمتمون بأنهم خدعوا في تحويلهم من ذلك الموقع الممتاز [1].

٦ ـ إنعدام الطعام في المعسكر ـ وضوح معالم الخيانة الخبيثة ـ رفع الحصار وعودة شعبنا إلى دياره.

وبدأ الطعام بالنقص في المعسكر، فقبل إقامة المعسكر، قيد النصارى إلى الإعتقاد

(١) انظر ما كتبه ابن القلانسي بين النصوص العربية لكتابي الحروب الصليبية.

بأن المدينة ستسقط دونما تأخير، ولهذا جلبوا معهم من المؤن ما يكفي لعدة أيام فقط، وكان هذا هو الحال بالنسبة للحجاج بشكل خاص، ولا يمكن توجيه اللوم إليهم لذلك، بسبب عدم معرفتهم بالبلاد، فلقد تم إقناعهم بأن دمشق ستسقط مع أول هجوم، وتم التأكيد لهم في الوقت نفسه أنه إذا انعدمت جميع المؤن، فإن جيشاً كبيراً مهما كان حجمه يمكنه أن يعتمد في غذائه على الفواكه التي سيحصل عليها بلا مقابل[1]، وعم الشك وسيطر التوجس على النصارى في هذه الطوارىء، وعقدت المشاورات الخاصة والعامة، وبدا واضحاً أن العودة إلى الموقع السابق صعبة لا بل مستحيلة، لأنه ما أن انسحب النصارى حتى تحققت غايات العدو، الذي سارع بالدخول إلى البساتين لإقامة دفاعات أقوى مما سبق، فالطريق التي سبق للنصارى أن دخلوا منها سدت الآن بجذوع أشجار ضخمة، وبكميات من الصخور، وتمركزت هناك وحدات كبيرة من النبالة حالت دون إمكانية الدخول من أي جانب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان القيام بالهجوم من الموقع الحالي للمعسكر يتطلب بعض الإنتظار، وهذه مسألة لم تسمح بها حالة نقص المؤن.

واجتمع أمراء الحج وتباحثوا بين بعضهم، ووضحت لهم جميعاً معالم خيانة هؤلاء الذين وثقوا بهم، واعتمدوا عليهم، فأودعوهم حياتهم ومصالحهم ومنافعهم، وآلمهم كثيراً أن يخدعوا بهذه الصورة، واقتنعوا بأن عملهم لاحظ له بالنجاح، لهذا قرروا التخلي عنه والعودة إلى الديار، وهكذا بسبب آثامنا إن الملوك والأمراء الذين تجمعوا في أعداد لا تحصى أجبروا على التراجع دون التمكن من تنفيذ مآربهم، عادوا وهم في لجة من الفوضى ومشاعر الخوف، وسلكوا في طريق عودتهم نفسها الطريق التي أتوا عليها، ونظروا منذ ذلك الحين - طيلة مدة بقائهم في المشرق - وحتى بعد ذلك - نظرة كلها ريبة إلى جميع أعمال قادتهم، ومالوا بحق إلى الإعتقاد بأن جميع خططهم خطط خيانية، وأظهروا لا مبالاة تجاه قضايا المملكة، وحتى بعدما أتيح لهم العودة إلى بلادهم فإن ذكرى الأخطاء التي عانوا منها ظلت مرافقة لهم، وقدروا بغضب واشمئزاز أعمال أولئك النبلاء، ولم يكن هذا حقيقة بالنسبة لهم فقط، وإنما امتد أثره إلى آخرين ممن لم يكن حاضراً هناك، فأدى إلى التراخي في حب المملكة ورعاية مصالحها، ونتيجة لكل ما سبق، فإن قلة من الناس هم الذين بقيت لديهم الحماسة للقيام بالحج، زد على ذلك، فإنه حتى في أيامنا هذه، إن هؤلاء الذين يقدمون، يخشون الوقوع في المحنة نفسها لذلك يجعلون إقامتهم قصيرة قدر الإمكان.

---

(١) جاء في مرآة الزمان ١٩٨/٢: «وكان زمان الفواكه، فنزل الفرنج الوادي، فأكلوا منها شيئاً كثيراً فأخلت أجوافهم، ومات منهم خلق كثير، ومرض الباقون».

٧ - طرحت مختلف الآراء حول مسؤولية هذه الخيانة الكبيرة - الإقتراح بالقاء الحصار على عسقلان للمرة الثانية، لكن المحاولة لم تنجح.

مازلت أذكر أنني غالباً ما تباحثت مع عدد من الرجال العقلاء، ممن لا تزال ذاكرتهم حول هذه الأيام واضحة، بغية استخدام المعلومات التي يمكن الحصول عليها في هذا التاريخ[١]، وقد جهدت في سبيل معرفة أسباب هذا الخطأ الجسيم، وكشف الذين خططوا لهذه الخيانة الكبيرة، وكيف أمكن تنفيذ جريمة من هذا النوع، ولقد وجدت الروايات مختلفة حول هذا الموضوع، وبعضهم يظن أن مرد ذلك إلى أعمال قام بها كونت فلاندرز، الذي شارك في هذه الحملة على رأس جيش خاص به[٢]، فبعدما وصلت فرقنا إلى دمشق، وتمكنت من الإستيلاء على البساتين والنهر، ووضعت المدينة تحت الحصار، قيل إنه اجتمع بالملكين كل على حدة، وواحد بعد الآخر، وطلب منهما بالحاح بأن تسلم المدينة بعد سقوطها إليه، ويروى بأنه حظي بالموافقة، ومع أن بعضاً من نبلاء مملكتنا قد أبدى موافقته، فإن الآخرين غضبوا لدى سماعهم بذلك غضباً شديداً ولم يقبلوا بحجة أن هذا الأمير الكبير كان عليه أن يكتفي بما يملكه، سيما وأنه كان يتظاهر بالقتال في سبيل أمجاد الرب، لا في سبيل نيل تعويضات أخرى، لذا بدا أمراً غريباً إصراره على إعطائه هذا الجزء الكبير من المملكة، فهم أنفسهم كانوا يأملون بأن الزيادات - مهما كان حجمها - التي ستحصل عليها المملكة عن طريق هؤلاء الأمراء الشجعان، وبفضل جهودهم، ينبغي استخدامها لتوسيع رقعة ممتلكاتهم، وقاموا تحت وطأة غضبهم ورفضهم بالسير في درب الخيانة، حيث أنهم فضلوا احتفاظ الدمشقيين بمدينتهم، من أن يروها تعطى إلى ذلك الكونت، ويبدو من غير العدل، أن يذهب هؤلاء الذين تحملوا ما لم يتحمله سواهم، وأمضوا حياتهم في القتال من أجل المملكة،

---

(١) يوضح هنا وليم إحدى طرائقه المفضلة في جمع المعلومات، ويلاحظ عدم استعداده لتقبل رواية واحدة حول الموضوع حتى في حال تبنيه موقف ما، وجاء إخفاق هذه الحملة بمثابة ضربة قاسية لجميع التوقعات التي عاشتها أوربا وأرادتها منها، ليس بسبب أنها قيدت من قبل إثنين كانا أعظم ملوك أوربا، وإنما لأن برنارد أسقف كليرفو كان الداعية لها والمبشر بنجاحها، وكان برنارد قد اعتبر قديساً، لذلك كان من غير الممكن عزو أسباب إخفاق هذه الحملة لغير عمل خياني، وهو شعور تبناه وليم وعبر عنه.

(٢) زار ثيودور أو ثيري كونت فلاندرز الأراضي المقدسة على الأقل ثلاث مرات [١١٣٧ و١١٤٨ و١١٥٧] ورافقه في كل مرة قوة معتبرة قامت ببعض الأعمال القتالية لصالح الدول اللاتينية، وربما قاد هذا إلى الإعتقاد بأنه طمح إلى امتلاك مناطق لنفسه، وعلينا هنا أن نأتي على ذكر زوجته سيبيلا ذلك أنها كانت ابنة الملك فولك وأختاً للملك الشاب بلدوين الثالث، وتبعاً لبعض المصادر فإنها دخلت أخيراً إلى الدير في الأراضي المقدسة، هذا ولا توجد أسس لهذه التهمة، وهي على كل حال تعكس مشاعر الشك التي حملها نبلاء المشرق تجاه نبلاء الغرب.

أن يذهبوا بدون أمل بالربح، بينما تعطى الثمار للذين جاءوا لتوهم، ثماراً هم جنوها بأنفسهم، بعد جهد طويل مستمر.

ويقول آخرون بأن أمير انطاكية استخدم نفوذه لجلب الإخفاق لمشروع الملك لويس. فقد كان شديد الغضب بسبب تخلي هذا الملك عنه، وتركه مغضباً، فهو رغم كل ما قدمه إليه من إحسان رفض تقديم المساعدة له بأي شكل من الأشكال، ولهذا مارس ضغطه على بعض نبلاء الجيش، وطلب منهم تدبير الأمور بشكل يجبر فيه الملك لويس على التخلي عن مشروعه، ويسبب عودته خالي الوفاض.

وتذهب بعض الروايات الأخرى إلى القول بأنه ما من شيء من هذا القبيل قد حدث، فيما عدا أن العدو قام برشوة بعض الأفراد بمبلغ كبير من المال، ليسببوا كارثة كبيرة من هذا القبيل، وتمضي هذه الحكايات إلى القول إنه لمن المدهش أن هذه الأموال التي حصلوا عليها بالأثم والخيانة وجدوها مزيفة، ولا تساوي شيئاً (١).

وهكذا تختلف الآراء حول تحديد المسؤولية في هذا العمل الممجوج، علماً بأنني لم أستطع الحصول على معلومات مؤكدة حول هذا الموضوع، وعلى كل حال، ومهما تكن أسماء المجرمين لا بد أنهم سينالون جزاءهم العادل الذي يستحقونه، ما لم يستغفروا الرب، ويستجب الرب لهم فيمنحهم الغفران (٢).

وهكذا حدث أن عاد شعبنا ـ كما حكينا ـ دونما فخار، وعم السرور بين صفوف

---

(١) يبدو أن هذه التهمة اسطورية مختلقة، وقد قام بعض الرواة بتسمية إيلي ناندوس أو هيلي ناندوس صاحب طبرية على أنه كان هو الشخص المتهم، وأنه تسلم مبلغ /٥٠/ ألف دينار ذهبي من أهل دمشق، ثم اكتشف بأنها مزيفة، ولا بد هنا من أن يسجل لوليم عدم اقدامه على ذكر المتهم، واكتفائه بعرض الرواية.

(٢) أخذ بعض الكتاب المتأخرين بتهمة الخيانة هذه وألصقوها بالإسبتارية والداوية وحتى بالملك بلدوين الثالث، وذلك بالإضافة إلى العناصر التي ذكرها وليم هنا، وقالوا بأن هؤلاء مجتمعين أو أفراداً حلوا مسؤولية إخفاق عملية حصار دمشق مع الحملة الصليبية الثانية، هذا وينبغي أن نلاحظ هنا بأن تعداد الجيش الصليبي لم يكن كبيراً جداً، ويبدو أو تعداد ذوي المراتب القيادية فيه فاق تعداد الأفراد، الذين فقد أكثرهم حياته على الطريق في آسية الصغرى أن تخلفوا في أنطاكية وسواها، يضاف إلى هذا كله ما ذكره ابن القلانسي من القدرات لأهل دمشق ومن توالي النجدات إليها من جميع المناطق من: الموصل وحلب وحوران وبعلبك، هذا ويمكن أن نضيف هنا أن من أسباب تحول المعسكر الصليبي من مكانه ـ إذا كان قد تحول ـ انتشار الأمراض بين صفوف أفراده مع عدم مناسبة البقعة لمناورات الفرسان الصليبيين، فهؤلاء كانوا يستطيعون القتال فقط في الأماكن المكشوفة، وليس بين الأشجار، وابن القلانسي يذكر محاولة الفرسان القيام بهجومهم المعتاد وعدم تمكنهم من ذلك.

الدمشقيين لمغادرة النصارى، لأن الخوف منهم كان حملاً ثقيلاً عليهم لكن بالنسبة لشعبنا كان الحال على العكس، كما قيل: «صار عودي للنوح ومزماري لصوت الباكين»[١].

وبعد العودة إلى المملكة دعا الملك [بلدوين] ثانية إلى اجتماع لجميع النبلاء، لكن عبثاً فعل حين حاول الإعداد لعمل جديد يجلب إليهم المنفعة والفخار في أعين الناس، ولقد اقترح بعضهم إلقاء الحصار على عسقلان التي كانت ما تزال في أيدي الكفار، حيث أن هذه المدينة واقعة على مقربة من قلب المملكة، وكان من الممكن نقل المعدات والأشياء الضرورية إلى هناك، وستكون مهمة سهلة التنفيذ لا تحتاج وقتاً طويلاً، وبها يمكن إعادة الثقة إلى نفوس المسيحيين، لكن هذا الإقتراح رفض، ورفضت معه اقتراحات أخرى بديلة، بمجرد عرضها ـ أي قبل تفهمها ـ ذلك أن الرب بغضبه، بدا وهو يحوّل كل مشاريعهم إلى إحباط.

٨ ـ الإمبراطور كونراد يعود إلى بلاده، لكن ملك الفرنجة تخلف في سورية.

اعتقد الإمبراطور كونراد بأن الرب حرمه من نعمته، وحظر عليه التخصص للقيام بأي دور آخر في قضايا المملكة، لذلك أمر بتجهيز سفنه، وقال وداعاً إلى مملكته، وبعد عدة سنوات من هذا الحادث توفي في بامبرغ، وهناك دفن في كنيستها الكبرى، وسط احتفال مهيب، وكان كونراد مهيب الطلعة تقياً وشفوقاً، يتميز بسمو روحه، وبطول خبرته في الأعمال العسكرية، وكانت حياته وصفاته مثلاً يحتذي به في كل مجال، وستظل ذكراه خالدة أبداً[٢].

وقد خلفه على العرش فردريك دوق سوابيا المشهور، الذي كان رفيق الإمبـراطور الدائم أثناء حملة الحج، وكان شاباً له صفات محمودة، وهو ابن الأخ الأكبر لكونراد، وهو الآن يقوم بحكم الإمبراطورية بكل نشاط ونجاح.

وأمضى ملك الفرنجة سنة بيتنا، ثم مع عبور الربيع، وبعدما أمضى عيد الفصح في القدس، عاد إلى بلاده ومعه زوجته ونبلاؤه وعقب عودته تذكر المساويء التي سببتها له زوجته أثناء الرحلة أو بالحري أثناء عملية الحج كلها، لهذا قرر إبعادها، ومنح الإذن بطلاقها بشكل رسمي أمام أسقف المملكة. بحجة وجود قرابة بينهما تحظر الزواج[٣]، وقامت

---

(١) الكتاب المقدس ـ أيوب: ٣٠ ـ ٣١.

(٢) توفي كونراد الثالث سنة ١١٥٢ م، وقد خلفه ـ كما أشار وليم وأشرنا من قبل ـ ابن أخيه فردريك بربروسا الأول الذي حكم حتى سنة ١١٩٠ م.

(٣) عاد لويس إلى فرنسا في صيف عام ١١٤٩، وهناك بذل سوكر راعي دير القديس دينس. الذي كان بالأصل ـ

مطلقته هذه على الفور، وقبل مضي أي وقت، وحتى قبل عودتها إلى أكوتين ـ ميراثها من أبويها ـ فتزوجت هنري، دوق نورماندي، وكونت أنجوا، وبعد الزواج بفترة وجيزة خلف هنري ستيفن في ملك انكلترا، ذلك أن ستيفن توفي دون أن يعقب ولداً ذكراً.

ووفق ملك فرنسا في زواجه الثاني، عندما اقترن بماريا ابنة امبراطور اسبانيا التي كانت فتاة مرضياً عنها من قبل الرب، وذات مكانة عالية لحياتها الطاهرة التي كانت أشبه بحياة القديسات[1].

٩ ـ نور الدين يجتاح منطقة انطاكية، ويهاجمه الأمير ريموند وتنشب معركة يقتل فيها.

أصبح وضع اللاتينيين منذ الآن فصاعداً في الشرق أكثر سوءاً بشكل واضح، ورأى أعداؤنا أن الأعمال التي نفذها قادتنا وملوكنا الأقوياء كانت أعمالاً عقيمة وأن جميع الجهود التي بذلوها كانت بلا جدوى، وسخروا من القوة المتحطمة والمجد المتصدع للذين كانوا يمثلون الأسس الجوهرية للمسيحيين، وكانوا قد احتقروا بكل وقاحة الوجود الحقيقي للذين كانت أسماؤهم ذاتها قد روعتهم من قبل، ولهذا السبب سمت جرأتهم وشجاعتهم إلى مستويات عالية حيث لم يعودوا يخافون من القوات المسيحية، ولم يترددوا عن مهاجمتهم بشجاعة منقطعة النظير، فقد قام نور الدين بن زنكي بعد رحيل الملكين مباشرة بجمع جيش ضخم من جميع أنحاء الشرق وبدأ يجتاح المنطقة الواقعة حول انطاكية بشجاعة فريدة، وبعدما أدرك أن بلاد أمراء اللاتينيين باتت خالية من المساعدة، قرر أن يحاصر القلعة المعروفة باسم انب[2]، ووصلت إلى ريموند أمير انطاكية أنباء موثوقة عن هذا التحرك، فاندفع بطيش مع

= صاحب مشروع الزواج، جهوده لمنع افتراق الزوجين المتباعدين، ونجح في مسعاه هذا حتى تاريخ وفاته سنة ١١٥١ م، ففي بداية ربيع عام ١١٥٢ م، حدث الطلاق بعدما أعلن لويس بأن الزواج باطل بسبب القرابة، وكانت اليانور مرغوبة من عدد كبير من الراغبين وذوي المطامح، وخشية اختطافها وحجزها فرت، وأقدمت على اختيار هنري كونت أنجوا زوجاً لها، وتزوجته بعد فراقها للويس بقرابة الشهر، وفي سنة ١١٥٤ م صار هنري ملكاً على انكلترا، وبتحكمه بميراث اليانور صار أيضاً ملكاً على حوالي نصف فرنسا.

(١) لم يكن اسمها ماريا بل كونستاس، وهي ابنة ألفونسو السابع الذي تميز بين ملوك ليون وكاستيل بلقب «الإمبراطور»، فقد توج امبراطوراً على اسبانيا عام ١١٣٥ م بحضور عدد كبير من الأمراء الأسبان من نصارى ومسلمين، هذا ويفيد أن نشير هنا إلى أن عدداً من الملوك الذين سبقوه ادعوا هذا اللقب، لكنه لم يعلق بواحد منهم، والفونسو السابع هو الوحيد الذي علق به هذا اللقب، واستمر معه.

(٢) أخفق وليم في ذكر الهجوم السابق على قلعة العريمة في طرابلس وحسب المؤرخين العرب، دعا ريمون الثاني صاحب طرابلس نور الدين وأنر اللذان كانت قواتها قد اتحدت عندما أتى الأول لنجدة دمشق، لمهاجمة هذه القلعة، التي كانت تحتفظ بها آنذاك أرملة ألفونسو صاحب طولوز وأحد أبنائه، وخاف ريموند من مطالباتهم =

بضعة رجال نحو هذا الموقع فوراً، دون أن ينتظر مرافقة فرسانه الذين كان قد استدعاهم، لأنه كان رجلاً صاحب شجاعة وإقدام لا يعرف الصبر، ولم يسمح لنفسه أن تحكمها نصيحة أي إنسان في قضايا من هذا النوع، وقد وجد نور الدين ما يزال مصمماً علىٰ محاصرة القلعة المذكورة آنفاً.

عندما سمع نور الدين بأن الأمير كان قادماً تردد في انتظاره والتصدي له، لأنه خشي أن يحضر ريموند قوات كبيرة معه، ولذلك تخلىٰ عن الحصار وانسحب إلىٰ مكان آمن، وبقي ها هنا حتى يتمكن من التحقق عن طريق تقارير متوالية عن نوع القوات التي كانت موجودة مع الأمير، وعما إذا كان من المتوقع وجود احتياطات أكبر.

وأصيب الأمير بالتيه بسبب نجاحه الأول فتجرأ أكثر مما ينبغي له، وبدأ يتصرف بطيش إلى حد ما[1]، فمع أنه كان يمتلك القلاع في المنطقة المجاورة كان بإمكانه أن يبقى فيها بأمان مع أتباعه ويعيدهم من هناك دون أن يتعرضوا للخطر، فضل أن يعتمد علىٰ السهل المكشوف، ورأى أنه من غير اللائق ظهوره وهو منسحب ـ ولو لفترة مؤقتة ـ لخوفه من نور الدين، وفضل أن يعرّض نفسه لخدع العدو، وعندما أدرك نور الدين أن الأمير لم يتلق أية مساعدة إضافية، اعتقد أنه بإمكانه قهر القوات التي جلبها ريموند معه بسهولة، ولهذا طوق جماعة الأمير في تلك الليلة، وانقضّ على المعسكر وكأنه كان يحاصر مدينة ما.

عندما أطل الفجر وبدأ الصباح رأى ريموند جيوش العدو تحيط به فبدأ يرتاب بقوته، لكن للأسف بعد فوات الأوان، ومع ذلك فقد عبأ صفوفه بترتيب المعركة ورتب فرسانه واستعد للقتال في مواقع متلاحمة، وبدأت الحرب بهذه الطريقة، وبما أن قوات ريموند كانت أدنى قوة، فإنها لم تتمكن من صد أعداد العدو الكبيرة، فولت أدبارها ولاذت بالفرار، وتُرِك الأمير وحوله عدد قليل من رجاله فقط، وقد قاتل بشجاعة كمحارب شجاع وعالي المعنويات، وبعدما أنهكه القتال وأُضنيت روحه في آخر الأمر قتل بضربة سيف وسط المذبحة التي كان قد اقترفها، وقطع الأتراك رأسه ويده اليمنىٰ وتركوا البقايا المشوّهة وسط جثث القتلىٰ المنثورة في ميدان المعركة.

وكان بين الذين سقطوا في تلك المعركة الفارس القوي والعظيم رينو صاحب مرعش

= بإمارته. واستولىٰ نور الدين وأنر على القلعة ونقلا معهما برترام ووالدته أسيرين، وحدث هذا بعد وقت قصير من التخلي عن حصار دمشق (ستيفنسون ـ الصليبيون في الشرق ص ١٦٤).

(١) كانت حملة نور الدين في منطقة انطاكية التي تمت في أواخر عام ١١٤٨ حملة غير ناجحة. وحقق ريموند صاحب أنطاكية بالفعل انتصاراً على جزء من جيش نور الدين.

الذي أسفت بلاده عليه إلىٰ الأبد، والذي كان كونت الرها قد زوجه ابنته، كما سقط نبلاء آخرون في الموقع نفسه لكن ضاعت أسماؤهم.

وكان ريموند رجلاً صاحب روح نبيلة، وكانت خبرته كبيرة وواسعة جداً في الحرب، فقد كان العدو يخشاه كثيراً، ومع ذلك، كان قليل الحظ، إن الأعمال الشجاعة الكثيرة والنبيلة التي نفذها في الإمارة جديرة باعتبار خاص، لكن ينبغي علينا أن نسرع في استئناف الحديث التاريخي العام ولا نستطيع التأجيل لتفاصيل من هذا النوع، أو أن نترك القلم يتباطأ حولها.

قتل ريموند في العام ١١٤٨ لتجسيد الرب وفي السابع والعشرين من حزيران وهو عيد الرسولين المقدسين بطرس وبولص، وكان في العام الثالث عشر لحكمه[1]، ويدعىٰ المكان الذي سقط فيه باسم العين المسورة، وهو واقع بين مدينة أفامية وقلعة الروج، وعثر على جثة الأمير بين القتلىٰ وتم التعرف عليها بشارات وندبات خاصة، فنقلت إلىٰ انطاكية ودخلت إليها بطقوس جليلة حيث دفن بين قبور أسلافه في ردهة كنيسة أمير الحواريين.

١٠ - نور الدين يعامل المنطقة بأسرها حسب هواه. الملك يسرع إلىٰ هناك لتقديم المساعدة. سلطان قونية يغزو بلاد كونت الرها.

أرسل نور الدين، للدلالة على انتصاره ولزيادة مقامه وسمعته، رأس ريموند وذراعه الأيمن (اللذين كان قد أمر بقطعهما لهذا الغرض) إلىٰ خليفة بغداد، أقوىٰ ملوك المسلمين وأمرائهم، وللبرهنة علىٰ أن المضطهد الأشد ارعاباً للأمم بات قتيلاً، ثم جرى ارساله بعد ذلك إلى بقية الحكام الأتراك جميعاً في كل مكان من الشرق.

استسلم أهالي انطاكية للحزن المطلق بعدما حرموا من تأييد قائدهم العظيم، وتذكروا بكلمات حزينة وبكاء وعويل وصراخ الإنجازات العظيمة لذلك الرجل الشجاع، ولم يقذف نبأ وفاته الكآبة والحزن في قلوب الموجودين في تلك الأحواز فحسب، بل حمل الويل لجميع الناس في كل مكان طولاً وعرضاً وملأ قلوب العظماء والوضعاء جميعاً بحزن كله مرارة.

كان نور الدين، كأبيه مضطهداً جباراً للعقيدة المسيحية وللاسم المسيحي، وقد رأى بعد مقتل أمير المنطقة مع الجزء الرئيسي من قواته في المعركة أن المنطقة بأسرها أصبحت تحت رحمته، وبناء عليه بعث بجنوده علىٰ الفور وبدأ باجتياح المنطقة بأسرها بطريقة عدوانية،

---

(١) حدثت هذه الكارثة في ٢٩ حزيران من عام ١١٤٩. وأتبع نور الدين الانتصار بحصار أفاميا التي استولىٰ عليها في /٢٦/ تموز.

ومرّ قريباً من انطاكية وحرق كل شيء موجود في جوارها وانتقل بعدها إلىٰ دير القديس سمعان الواقع في أعالي الجبال بين انطاكية والبحر، وتصرف هناك بحرية أيضاً وحسب هواه، وعامل الجميع كما يحلو له بدون قيد أو ضابط، ونزل من هنالك إلى البحر الذي رآه الآن لأول مرة واستحم هنالك بحضور جيشه إشارة إلىٰ أنه قدم كفاتح حتى إلىٰ البحر، واستولىٰ أثناء مروره في مسيرة العودة علىٰ قلعة حارم التي لا تبعد أكثر من عشرة أميال عن انطاكية، وعززها على الفور بالأطعمة والأسلحة والجنود بحيث تستطيع تحمل حصار يستمر لأيام عديدة.

استولىٰ الرعب الآن علىٰ جميع الناس، وأُذلت المنطقة أمامه لأن الرب أعطى طعمةً لسيفه نخبة الجيش وأمير المنطقة، ولم يكن هنالك أحد قادر على تقديم حماية ناجعة ضد المخاطر التي كانت تهددهم، وكانت كونستانس أرملة الأمير ريموند قد تركت مع ولدين وابنتين[1] مع مسؤولية جزئية عن رعاية الإمارة، غير أنه لم يكن هنالك أي قائد يمكنه أن يتولىٰ مهام الأمير وبعث الناس وإخراجهم من حالة الاكتئاب التي كانوا يقبعون بها، وتقدم في هذا الطارىء ايمري بطريرك أنطاكية، وكان رجلاً مقتدراً وصاحب ثروة كبيرة، وظهر ككافل للمنطقة المتضررة جداً وحام لها وقدّم، خلافاً لعاداته، المال بسخاء لاستئجار الجند، ووفر بذلك بعض المستلزمات الفورية للمنطقة لبعض الوقت[2].

أصابت أنباء مقتل ريموند والوضع اليائس في أنطاكية ملك القدس بالذعر، فجمع الجنود فوراً لنجدة إخوانه في المحنة وسارع بالتوجه نحو منطقة انطاكية، وشجع حضوره كثيراً السكان المثبطي الهمة والذين لم يشعروا بأية ثقة بأنفسهم، ووحد القوات التي قادها معه مع عساكر من سائر تلك المنطقة ودعا الناس للمقاومة، ولكي يساعدهم على استرداد شجاعتهم المألوفة، حاصر قلعة حارم، التي كان العدو قد استولىٰ عليها مؤخراً، وذلك حسبما ذكرت آنفاً، إلا أن الموقع كان محصناً بشكل جيد لذلك تخلىٰ عن المحاولة بعد أن قضىٰ عدة أيام هنالك دون نجاح وعاد إلىٰ انطاكية.

ونزل سلطان قونيه إلىٰ سورية أيضاً مع جيش ضخم[3]، وذلك لدىٰ سماعه بنبأ مقتل

---

(١) كانت كونستانس امرأة في ريعان الشباب في الثانية والعشرين من عمرها تقريباً عند وفاة زوجها (ستيفنسون- الصليبيونص ١٦٥).

(٢) كان ايمري، الذي لم يكن وليم قد وافق على انتخابه، متورطاً بمشاكل مع البابوية في هذا الوقت، ومع ذلك، فإن المساعدة التي قدمها في هذه الظروف كانت مساعدة مفيدة.

(٣) كان مسعود هذا هو ابن قلج أرسلان الذي حكم سلطنة سلاجقة الروم أو قونية من عام ١١١٦ وحتى عام ١١٥٦.

الأمير، واستولى على قلاع ومدن كثيرة في تلك المنطقة، وأخيراً حاصر تل باشر على الرغم من أن جوسلين وزوجته وأبناءه كانوا ضمنها وأرسل الملك خلال هذا الوقت كافل المملكة همفري مع ستين فارساً ليتولوا حماية قلعة أعزاز وللحيلولة دون قيام الأتراك بالاستيلاء عليها.

وأخيراً أطلق الكونت سراح جميع رعايا السلطان الذين كان يحتجزهم كأسرى، وأعطاه إضافة لذلك اثني عشر لباساً مدرعاً. وهكذا تم التوصل إلى السلام بينهما ورحل السلطان، وتقدم الكونت إلى اعزاز في اليوم نفسه بعد أن تحرر من الحصار حيث أسرع من أعزاز إلى انطاكية ليشكر الملك على اللطف الذي كان قد أظهره نحوه، ثم ودع الملك بعدما زاره وعاد إلى بلده بصحبة المرافقة المتواضعة التي كان قد جلبها معه[1].

أخذ الملك على عاتقه مسؤولية المنطقة المنكوبة وبقي في أنطاكية من أجل ذلك الغرض حتى عادت الأمور إلى مجاريها بقدر ما سمح الوقت والزمن، ثم عاد إلى بلاده بعدما تحقق بعض الهدوء وذلك ليولي أموره الخاصة عنايته.

١١ ـ العدو يأسر بعد رحيل الملك من أنطاكية كونت الرها وموته بشكل شائن.

كان جوسلين الأصغر كونت الرها أدنى كثيراً من أبيه في الصفات، وكان رجلاً كسولاً ومهملاً ومنغمساً في المسرات الخليعة والوضيعة، كان شخصاً رفض السبل الحميدة واتبع المهن الوضيعة، وكان قد طارد أمير انطاكية بكراهية شديدة واعتبر مقتله ابتسامة عظيمة من الحظ له. ولم يبال كثيراً بصحة القول: «عندما يحترق منزل جارك تصبح ممتلكاتك في خطر»[2]. ويقال إنه انطلق إلى انطاكية ليلاً تلبية لدعوة البطريرك، وكان برفقة غلام واحد كان يقود فرسه بعدما ترك حرسه وتنحى جانباً ليقضي حاجته الجسدية عندما هاجمه لصوص انطلقوا من كمين لم يدر بهم الذين تقدموه ولا الذين لحقوا به، فقبضوا عليه واقتادوه مكبلاً بالسلاسل إلى مدينة حلب، وسجن هناك حيث أنهكته أحوال السجن القذرة والسلاسل الحديدية الثقيلة وأضعفته الآلام الجسدية والعقلية نتيجة أساليبه الخليعة ووصل إلى نهاية رهيبة.

وبحثت عند الفجر عناصر الحراسة بقلق عن سيدها حيث كانت غير عارفة أبداً بما كان قد حدث، ولم تتمكن من العثور عليه. وعندما ثبت أن بحثها كان عقيماً، عادت ونقلت نبأ الكارثة التي كانت قد أصابتها، وأصيبت المنطقة بأسرها بالذعر من جديد، ولم يكن

(١) ينبغي تحديد تاريخ زيارة بلدوين الثالث وجوسلين بالجزء الأخير من عام ١١٤٩.

(٢) هوراس ـ الأمثال: ١/١٨/٨٤.

الناس قد شعروا حتى الآن بأية عاطفة مع محن جيرانهم، لكنهم عرفوا الآن بعدما سحقتهم الكارثة كيف يتعاطفون مع متاعب الآخرين بمحنة مشابهة، وعلم فيما بعد من مصادر موثوقة أن الكونت كان أسيراً في حلب[1].

وتركت زوجته، التي كانت امرأة محتشمة ورزينة تخشى الرب وتلقى التأييد منه، مع ابن قاصر وابنتين، وحاولت بمساعدة الرجال الرئيسيين الذين كانوا ما يزالون في المملكة، أن تحكم الناس بأفضل ما تستطيع، وشغلت نفسها وبشكل يفوق كثيراً قوة المرأة، في تعزيز القلاع في المنطقة وتزويدها بالسلاح والرجال والمواد الغذائية.

وهكذا، حرم هذان البلدان ـ عقاباً لآثامنا ـ من التوجيهات الحكيمة لأمرائهما، وباتا يحاولان الصمود بصعوبة في ظل حكم النسوة.

١٢ ـ الملك يعيد مع أعيان المملكة بناء غزة على مقربة من عسقلان.

بعد وقت قصير من وقوع هذه الأحداث في منطقة انطاكية زارت الرحمة السماوية المملكة، وتشجع الملك ونبلاؤه مجدداً بعدما خرجوا من أعماق الكآبة التي كانوا قد سقطوا فيها بسبب الكوارث المتكررة التي كانت قد أصابتهم وصمموا على إعادة بناء غزة، وأملوا بهذه الطريقة أن يضعوا حاجزاً أكثر فعالية ضد أعدائهم المروعين من أهالي عسقلان، ولمنعهم من القيام بغاراتهم المشؤومة.

كانت مدينة غزة القديمة جداً تقع على بعد عشرة أميال جنوب عسقلان، وكانت مخربة الآن ومهجورة تماماً، وصمموا على إعادة بناء هذه المدينة حتى يمكن تطويق عسقلان من ناحية الجنوب مثلما كانت مطوقة من الشمال والشرق بالقلاع التي كانوا قد بنوها هناك، ويمكن من هذا الاتجاه شن هجمات متوالية ضد المدينة ومواصلة حرب هجومية بلا انقطاع، وهكذا، اجتمع الناس جميعهم في اليوم المحدد كرجل واحد، وبدأوا العمل بجهود صلبة، وتنافس كل منهم مع جاره في المساعدة على إعادة إعمار المدينة.

كانت مدينة غزة هذه نفسها، المدينة القديمة جداً، إحدى مدن الفلسطينيين الخمس، وقد اشتهرت بأبنيتها وبكنائس أنيقة كثيرة وبمنازل فسيحة مصنوعة من الرخام وأحجار ضخمة فعلى الرغم من أنها مخربة الآن فإنها لا تزال تقدم دليلاً على مجدها القديم؛ كما لا

---

(١) كانت بعض قوات نور الدين قد أسرت جوسلين الثاني، وحسب الروايات العربية فقد بقي في السجن في حلب لمدة تسعة أعوام حتى زمن وفاته، وأجبر على تحمل أعمال التعذيب المتعددة الأنواع، ويرجع ابن القلانسي تاريخ أسره إلى ٥ أيار عام ١١٥٠ (تاريخ دمشق، ص ٣٠٠).

تزال هناك خزانات كثيرة وآبار فيها ماء مناسب للحياة. فقد بنيت على ربوة غير عالية وضمنت بين أسوارها منطقة واسعة جداً.

أدرك المسيحيون أنه لن يكون موائماً إعادة بناء المدينة بأسرها وأن قوتهم أيضاً قد لا تكون كافية لمهمة كهذه في ذلك الوقت ولذلك أخذوا جزءاً من الهضبة ووضعوا أساسات ذات عمق مناسب وشيدوا قلعة مشهورة لسورها ولأبراجها. وانتهى العمل بنجاح في غضون وقت قصير بمساعدة الرب، وعندما انتهت القلعة بكل أجزائها تماماً عهد بها بموافقة عامة لرعاية فرسان الهيكل ليحتفظوا بها إلى الأبد مع سائر المنطقة المتاخمة وصان الداوية الذين كانوا رجالاً شجعاناً ومحاربين أشداء، هذه الأمانة بإخلاص وحكمة حتى الوقت الحالي، فقد هاجموا مراراً وتكراراً مدينة عسقلان أحياناً بشكل علني وأحياناً أخرى بشن هجمات من الكمائن، وبالنتيجة فإن هؤلاء الأعداء الذين اجتاحوا المنطقة وخربوها بأسرها من قبل وجعلوا المسيحيين يخافونهم يعدون أنفسهم الآن محظوظين للغاية إذا ما تمكنوا بالتوسلات أو المال من الحصول على سلام مؤقت وإذن بالعيش بهدوء داخل أسوارهم.

برهنت غزة أنها ليست فقط مفيدة في قمع عسقلان - التي شيدت لإزعاجها - بل حتى بعد الاستيلاء على المدينة، فقد قامت أيضاً بدور الخط الدفاعي في الجنوب، وقدمت حماية كبيرة لتلك المنطقة ضد المصريين.

في مطلع الربيع عاد الملك والبطريرك إلى القدس وذلك عندما انتهى بناء داخل القلعة بشكل جزئي[1]، وتركوا في غزة فرسان المعبد الذين وضعت القلعة تحت مسؤوليتهم، وكان المصريون في هذه الأثناء معتادين على إرسال قوات إضافية ثلاث مرات أو أربع في العام لتعزيز قوة أهالي مدينة عسقلان[2]، وحدث بعد رحيل الملك أن ظهرت هذه القوات بأعداد ضخمة أمام حصن غزة وشنت هجوماً عنيفاً على المدينة حيث كان سكان المدينة قد هربوا إليها بسبب خوفهم من العدو، إلا أن القادة المسؤولين أدركوا بعد إضاعة عدة أيام في الحصار أن الجهود التي كانوا يبذلونها كانت جهوداً عقيمة فرحلوا إلى عسقلان،

---

(١) لا بد أن يكون تشييد هذه القلعة قد حدث في شتاء عامي ١١٤٩ - ١١٥٠. وحسب رواية ابن القلانسي كان الملك ما يزال منشغلاً في ذلك العمل عندما استدعته دمشق للمساعدة على صد هجوم نور الدين على تلك المدينة. وكان أنر قد توفي في ٢٨ آب من عام ١١٤٩، وكان هطول الأمطار الغزيرة بشكل غير اعتيادي في شهر نيسان وقدوم بلدوين الثالث قد ثبطا من شجاعة نور الدين في هذا الوقت إلى درجة أنه وقع معاهدة سلام مع دمشق في /١/ أيار من عام ١١٥٠.

(٢) يؤكد وليم في روايته أن الحامية تغيرت ثلاث أو أربع مرات في العام، مع أن السياسة الثابتة للمصريين كانت قائمة على تغييرها مرتين في العام، وحدث الاختبار الجدي الأول لهذه القلعة في عام ١١٥٢. وربما كان هذا في ذهن وليم آنذاك (جب. تاريخ دمشق ص٣١٢).

وضعفت قوة العدو بشكل واضح من ذلك اليوم وتناقصت قدرته على إيذائنا حتى توقف بالتدريج عن مضايقة المناطق الواقعة حوله.

بدأ الجيش المصري، الذي اعتاد كما ذكرنا من قبل على جلب المساعدة مراراً، بالقدوم عن طريق البحر فقط، لأنه خشي من الكمائن المنصوبة من قبل القلعة القائمة على الطريق وأصابه ذعر شديد من الفرسان.

١٣ ـ نشوب نزاع خطير بين الملك ووالدته وتتويجه بدون علمها.

في هذه الآونة كانت أمور المملكة في الشرق تتقدم بشكل سار وسادت حالة لا بأس بها من الهدوء، إلا أن هذه الحالة فسدت إلى حد ما بسبب انتقال منطقة الرها إلى سلطة أعدائنا، وبذلك خسرناها وبسبب أن منطقة انطاكية كانت خاضعة لهجمات معادية باستمرار، وبدأ الشيطان عدو الإنسان والمستعد لنثر بذور الخلاف، ينظر بحسد إلى ازدهارنا، وحاول تعطيل سلامنا بإثارة الخلافات المدنية، وكان أصل المشكلة وسببها كالتالي: كما ذكرت سابقاً، تركت الملكة ميليساند، ذات الذكرى الرائعة والورعة في الرب، عند وفاة زوجها ولها ولدان لم يبلغا سن الرشد، ونظراً لعملها كوصية شرعية لهما، فقد تولت بموجب حق الوراثة الاهتمام بالمملكة وإدارتها، وتمكنت بمساعدة نبلاء المملكة ومشورتهم من الحكم بقوة وإخلاص وبشكل يفوق قوة وشجاعة النسوة وظلت كذلك حتى ذلك الوقت، وعاش ابنها الأكبر بلدوين، الذي نكتب الآن عن أعماله، بانسجام تام معها وأطاع أوامرها بحكمة حتى بعد ارتقائه للعرش.

وكان من بين الذين اعتمدت الملكة على مساعدتهم ومشورتهم قريبها ماناسس، وكان رجلاً من منزلة عالية وصديقاً حمياً لها، وعينته حالما تولت الحكم حاكماً للقلعة وعينته في القيادة العليا للجيش، ويقال إنه انتهز عطف الملكة وتصرف بشكل متعجرف جداً، واتخذ موقف استعلاء وقح تجاه زعماء المملكة، ورفض أن يظهر لهم احتراماً مناسباً، وأثار سلوكه هذا كراهية شديدة ضده من جانب النبلاء، ولو لم تكن الملكة قد مارست سلطتها لكانوا قد حولوا حقدهم إلى فعل، وكان ماناسيس قد تزوج من أرملة بالين الأكبر، وهي عقيلة نبيلة ووالدة الاخوة الثلاثة هيو وبلدوين وبالين صاحب الرحلة، وكان قد كسب بهذا الزواج ثروة كبيرة ووسع ممتلكاته كثيراً، وكان الملك قبل الجميع على رأس الذين يكرهون ماناسيس بالمشاعر والأعمال، وادعى أن الرجل كان يصرف ود والدته عنه ويعارض سخاءها.

كان هنالك كثيرون يكرهون سلطة هذا الرجل وسيطرته الشيطانية، وأثاروا باستمرار كراهية الملك نحوه، وطالبوه باستمرار باقصاء والدته عن السيطرة على المملكة، وبما

أنه كان قد بلغ سن الرشد، فقد قالوا إنه ليس من اللائق أن تتحكم به إرادة امرأة، وينبغي عليه أن يتولى القيام بنفسه ببعض مسؤولية حكم المملكة[1].

وتأثر الملك بآراء هؤلاء المستشارين وبآراء آخرين مثلهم، وصمم على تتويج نفسه في القدس في عيد الفصح،وتوسل إليه البطريرك والرجال الحكماء الآخرون الذين رغبوا أن يحل السلام بالمملكة، بجدية أن يسمح لوالدته بالمشاركة في مجده، لكنه بدّل استجابة لنصيحة المستشارين المذكورين قبل لحظات، من الموعد الذي كان قد حدد للاحتفال حتى لا تتوج والدته معه، ثم ظهر فجأة في اليوم التالي وهو متوج بإكليل الغار دون أن يستدعي والدته.

١٤ - تقسيم المملكة بين الأم والابن. الملك يدخل القدس بالقوة. ارغام والدته على الاعتصام في برج داود. استعادة الهدوء والسلام أخيراً.

عقد الملك بعدما انتهى الاحتفال المهيب اجتماعاً لنبلائه حضره الكونت ايفز أوف سواسونز وولتر آمر قلعة القديس أومر، وذهب بلدوين إلى والدته وطالبها باقتسام المملكة معه، على الفور وأن تخصص له جزءاً من ميراث أسلافه، وبعد جدال طويل من كلا الجانبين قسم أخيراً الميراث ومنح الملك حق الاختيار فأخذ حصة له المدن البحرية الواقعة في منطقتي صور وعكا مع توابعهما، وتركت القدس ونابلس مع المدن التابعة لها للملكة، وهكذا انفصلا عن بعضهما وأمل الناس أن يستمر الاتفاق المتفق عليه من أجل السلام، وأن يرضى كل من الاثنين بالنصيب الذي آل إليه، وعين الملك في هذا الوقت كافلاً لمملكته وقائداً للجيش نبيلاً بارزاً اسمه همفري صاحب تيرون، الذي كان صاحب ممتلكات واسعة وكبيرة في فينيقية بين الجبال بالقرب من مدينة صور.

لكن الرغبة بمضايقة الملكة لم تهدأ حتى بهذه الطريقة، بل على العكس، فقد أثير ثانية الغضب الذي كان ما يزال مضطرماً بسبب ذرائع تافهة وتأجج متحولاً إلى حريق هائل أكثر خطراً من ذي قبل. فقد بدأ الملك يسبب المتاعب لوالدته بسبب تحريض النبلاء أنفسهم الذين استمع لآرائهم من قبل، وعزم على الاستيلاء على ذلك الجزء من المملكة الذي كانت تسلمته برضا الاثنين وأن يقصيها بعد ذلك تماماً، وعندما عرفت الملكة بخطته عهدت بالرعاية بنابلس إلى أحد نبلائها المخلصين وأسرعت إلى القدس.

---

(١) بلغ بلدوين الثالث سن الحادية والعشرين من عمره في عام ١١٥١، وكان سن الخامسة عشر هو السن القانوني الذي يستطيع عنده الملك أن يحكم في القدس، ولا بد أن بلدوين الثالث قد أصبح ضجراً جداً تحت حكم والدته وكافل المملكة المتمكن لكن اللاشعبي، ولربما بدا من المعقول توقع حدوث هذه المشكلة في عام ١١٥١ مع أن روشيت قد وضعها في العام اللاحق.

جمع الملك في غضون ذلك قوة كبيرة جداً بقدر ما أسعفه الحظ وحاصر ماناسيس في إحدىٰ قلاعه المسماة باسم مجدل يابا؛ فاضطر ماناسيس إلىٰ الاستسلام وأجبر علىٰ التخلي عن المملكة وسائر المنطقة الواقعة علىٰ هذا الجانب من بحر [فلسطين]، ثم استولىٰ الملك علىٰ نابلس وتقدم نحو القدس في مطاردة لوالدته.

وتنكر بعض النبلاء، الذين كانت ممتلكاتهم تقع ضمن أقاليم المملكة والذين كانوا ملحقين بها بولاء إسمي فقط، لأيمان الولاء التي كانوا قد أدوها وارتدوا عنها، وكان عدد الذين حافظوا على الوقوف إلىٰ جانبها والذين التزموا بقضيتها بإخلاص تام قليلاً، وكان بين هؤلاء كل من ابنها عموري كونت يافا وهو شاب صغير جداً، وفيليب صاحب نابلس وروهارد الأكبر مع عدد آخر قليل أسماؤهم غير معروفة.

عندما سمعت الملكة أن ابنها كان يزحف نحوها مع جيش، انسحبت إلىٰ القلعة مع أركان أسرتها وأتباعها المخلصين ووثقت بدفاعات القلعة، إلا أن البطريرك فولتشر ذا الذكرىٰ الطيبة، أدرك أن أوقات الخطر وأيام الفزع باتت تحمل نذير الخوف وبما أنه كان راغباً بالتدخل كمصلح لذات البين وكملتمس لتقديم اقتراحات سلمية فقد أخذ معه رجالاً متدينين يخافون الرب من بين رجال الدين، وخرج لاستقبال الملك، ونصحه بالعدول عن مشروعه الشرير، وأن يلتزم بشروط الاتفاق، وأن يترك والدته تستريح بسلام، بيد أن هذه التحذيرات كانت بلا محصلة فقد عاد إلىٰ المدينة بمقت تام لهدف الملك.

كان الملك مصمماً على الوصول إلىٰ غايته وضرب معسكره أمام المدينة، وأخيراً فتح له السكان الأبواب وأدخلوه مع جنده تجنباً لغضبه، فحاصر علىٰ الفور القلعة التي كانت والدته قد لجأت إليها ووضع آلاته الحربية في مواقع لشن الهجوم، وهاجم القلعة بطريقة عدائية مستخدماً آلات المنجنيق والأقواس وآلات القذف الحربية، وكانت الهجمات مستمرة بلا انقطاع بحيث لم يتيسر للمحاصرين أية فرصة للراحة؛ وقاوموا من جانبهم بكل قوتهم وصمموا علىٰ صد القوة بالقوة، ولم يترددوا باستخدام الأساليب ذاتها التي استخدمتها القوات المحاصرة المتمركزة خارج القلعة وعن إلحاق الأضرار بأعدائهم وإنزال تدمير مماثل بهم.

واستمر الصراع لعدة أيام وبخطر كبير لكلا الطرفين، لأن الملك كان ما يزال معارضاً للانسحاب على الرغم من أنه أحرز تقدماً بسيطاً في الاستيلاء علىٰ القلعة، وبعد لأي

تقدم في آخر الأمر بعض الأفراد كوسطاء من أجل السلام والتفاهم، وتم إقناع الملكة بالرضى بمدينة نابلس ومنطقتها، وأن تتخلىٰ عن القدس عاصمة المملكة إلى الملك، وقدم الملك من جانبه ضمانة وأدىٰ يميناً جليلاً بأنه لن يضايقها في امتلاكها لتلك المدينة بشكل دائم، وهكذا تصالحا مع بعضهما وعاد الهدوء من جديد إلىٰ المملكة والكنيسة كنجم الصباح الذي يشع وسط الظلام.

١٥ ـ سلطان قونية يجتاح مجدداً منطقة الرها، الملك يخف إلىٰ هناك بكل سرعة.

نقل إلىٰ ملك القدس نبأ الكارثة المحزنة التي كانت قد أدت إلىٰ أسر كونت الرها، كما علم من مصادر موثوقة أن الرها، التي تركت بلا مدافع عنها كانت معرضة لمكائد العدو، واستدعت سائر تلك المنطقة مع أراضي انطاكية التي كانت متروكة لحكم النساء اهتمام الملك واستجابة لهذا المطلب أخذ بلدوين معه همفري كافل المملكة وغي صاحب بيروت وذهب إلىٰ منطقة طرابلس ولم يتمكن من الحصول على أية استجابة من الأقاليم التابعة للملكة على الرغم من أنه استدعىٰ نبلاءها كل منهم باسمه، وانضم إليه في طرابلس كونت تلك المنطقة وفرسانه، وتقدمت القوات بالسرعة الممكنة إلىٰ انطاكية.

وأذيع في كل مكان، وقد تأكد ذلك بالفعل، أن أميراً تركياً قوياً هو سلطان قونية كان قد اجتاح بقوات ضخمة من الفرسان تلك البلاد واستولىٰ على معظم أجزاء المنطقة المتاخمة لإقليمه، وحيث لم يتمكن الأهلون من صد قوة جيشه ومقاومتها، فقد سلموه جميع مدنهم وقلاعهم شرط أن يضمن لهم رحيلاً آمناً وطليقاً مع زوجاتهم وأبنائهم وتأمين طريق آمن إلى تل باشر، وكان ذلك الموقع محصناً بشكل أفضل من باقي المواقع، وكان فيه عدد كبير من السكان، وكان للكونت مسكنه الدائم هناك؛ وبدا ـ حتى الآن ـ هادئاً، لكن عندما كان السلطان قد استولىٰ علىٰ المنطقة بأسرها باستثناء عدد قليل من القلاع اضطر إلىٰ العودة إلى بلاده للعناية بقضايا أكثر أهمية، ومع ذلك لم تتناقص مشاق أهل المنطقة ولم يهدأ قلقهم، لأن نور الدين المضطهد الأكثر إزعاجاً لشعبنا، والذي كان أميراً تركياً قوياً جداً، كان يغزو المنطقة بأسرها، وكانت هجماته مستمرة علىٰ الدوام بحيث لم يجرؤ أحد على الظهور خارج القلاع، وهكذا، سُحق ذلك الشعب البائس باستمرار، وبات كأنه واقع بين حجري رحىٰ، فقد لاقىٰ العذاب على أيدي أميرين عظيمين بشكل يفوق الاحتمال، وذلك على الرغم من أنه لم يكن قادراً علىٰ تحمل عنف واحد منهما.

١٦ - إمبراطور القسطنطينية يرسل جيشاً إلى أراضي أنطاكية. مطالبته بتسليم منطقة الرها إليه. حصوله على مطلبه. تسليم القلاع إلى الاغريق. الملك يزحف باللاتين إلى الأمام[1].

وعلم بالوقت نفسه امبراطور القسطنطينية بالوضع البائس في الرها فأرسل واحداً من نبلائه إلى هناك مع كميات كبيرة من المؤن وقوة عظيمة من فرسانه، وعرض منح الكونتس دخلاً سنوياً ثابتاً، وكافياً ليوفر لها ولأولادها أسباب عيش شريفة بشكل دائم، إذا ما تسلم مقابل ذلك القلعة التي كانت ما تزال تمتلكها، وكان واثقاً بسبب ثرواته الضخمة أنه إذا ما سلمت إليه فسيحافظ عليها سليمة من غزوات الأتراك، ويعيد إلى امبراطوريته بدون صعوبة الأجزاء التي كان قد فقدها.

وعندما وصل الملك إلى أنطاكية، وكشف النقاب عن سبب قدوم المبعوثين الامبراطوريين بتوليهم أنفسهم شرح المهمة المناطة بهم، نشب خلاف بين نبلائها، وقال بعضهم إن الأمور لم تصل بعد إلى درجة من الشدة تتطلب هذا التصرف؛ وخلافاً لذلك، أكد آخرون أنه يجب إتخاذ إجراء ناجع قبل وقوع المنطقة في قبضة العدو، ورأى الملك في غمرة هذه الشكوك أن المنطقة لن تتمكن من الاستمرار لفترة طويلة من الزمن في وضعها الحالي، وأن مسؤوليات مملكته لن تسمح به بالبقاء هناك لفترة طويلة جداً من الزمن، كما لم يكن معه قوات كافية لتمكنه بشكل موائم من حكم اقليمين يبعدان عن بعضهما مسيرة خمسة عشر يوماً، وتوصل - بعد أخذه بعين الاعتبار حقيقة أن أنطاكية الواقعة في منتصف المسافة بين الإقليمين وكانت لعدة سنوات بلا حماية أمير لها - إلى محصلة أنه من الأفضل التنازل للإغريق عن القلاع التي كانت ما تزال باقية وذلك وفقاً للشروط المقترحة، ولم يشعر إلا بثقة قليلة حول امكانية القوات الاغريقية بالمحافظة على الإقليم في وضع جيد، إلا أنه فضل أن تباغتها كارثة بينما هي تحت سلطتهم على أن يوضع عليه مسؤولية سقوط شعب أحواله خطرة وبلاده مدمرة مفزعة، وبناء عليه تمت التوصل - بموافقة من الكونتس ومن أبنائها - إلى معاهدة مرضية للطرفين ومبنية على الشروط المذكورة آنفاً، وحدد يوم أيضاً يتوجب فيه على الملك التزول إلى ذلك الإقليم مع جميع قواته ليسلم جميع القلاع ويمكن رجال الإمبراطور من تملكها جميعاً، وزحف الملك إلى بلاد كونت الرها أي تل باشر وذلك في الوقت المحدد

---

(١) أثارت أحداث عام ١١٤٩ انتباه الامبراطور مانويل. وبدا الموقف بأنه يقدم فرصة غير عادية لتحقيق المطالب السلفية للمنطقة. لذلك لم يكتف بتعزيز جيشه في الجوار، بل استعد أيضاً لتوسيع مصالحه في كل من الرها وانطاكية، ويجب إعادة تاريخ التحولات المدونة هنا إلى عام ١١٥٠ (انظر ف.شالدون- آل كومينين: ٢/٤٢٤ - ٤٢٥).

حسب الاتفاق، وكان بصحبته كونت طرابلس ونبلاء كل من المملكة وانطاكية ورافقه المندوبون الاغريق، ووضع هنالك تحت حمايته: الكونتس وأبناءها والآخرين جميعاً من كلا الجنسين سواء أكانوا لاتينيين أو أرمن، من الذين كانوا راغبين بالرحيل وبتسليم المنطقة إلى الاغريق. وكانت القلاع التي كانت ما تزال حتى هذا الوقت في حوزة المسيحيين هي تل باشر، وعين تاب والراوندان والبيـرة وسميساط وربما قلاع أخرى، فقد تم التخلي عن جميع هذه القلاع ووضعها تحت سلطة الاغريق.

ثم استعد الملك للزحف، وذهب معه جميع الناس الذين كانوا يرغبون بالرحيل مع حيوانات التحميل التي كانت عندهم وكمية كبيرة من الأمتعة، لأن كل رجل صمم على أن يأخذ معه أسرته وبطانته وجميع حاجياته المنزلية وكذلك جميع مفروشاته، وهكذا، أسرع الملك بالرحيل مع هذا الحشد الضخم من الناس غير المقاتلين وكميات الأمتعة الضخمة حتى يتمكن من نقلهم إلى مكان آمن.

١٧ - نور الدين يصطدم بالملك على الطريق وينجح في وقف الهجرة. الملك يعود إلى انطاكية مع شيء من الصعوبات. نور الدين يهاجم الاغريق ويستولي على كامل المنطقة.

علم نور الدين أن أهالي الرها أقدموا بعدما سيطر اليأس عليهم في قدرتهم على الاحتفاظ ببلادهم على التنازل عن قلاعهم إلى الاغريق المخنثين الضعفاء وأن الملك كان قد سار إلى هنالك ليتولى ترحيل الناس. وقد زاد من شجاعة نور الدين إدراكه للخوف الذي كان يشعر به المسيحيون، فجمع على الفور قوات مسلحة من سائر المناطق المتاخمة ونزل فجأة إلى تلك الأجزاء، حيث أمل أن يواجه الملك مع شعبه الذين كانوا قد ارتابوا كثيراً بقوتهم ولم يثقوا بها، وقدر أن الأمر سيكون لمصلحته كثيراً لو أنه تمكن من مقابلتهم في ظروف كهذه حيث يعيقهم مقدار هائل من الأمتعة، وبناء عليه لم يكد الملك يصل مدينة دلوك التي لا تبعد أكثر من خمسة أو ستة أميال عن تل باشر عندما انقضّ نور الدين بقواته على المنطقة بأسرها، هذا وكان هنالك قلعة قريبة تدعى قلعة عين تاب توجب على المسيحيين أن يواصلوا طريقهم إلى مسافة أبعد منها، وبإدراكهم للخطر المحيق بهم ورغبة منهم في الإسراع، عبأوا صفوفهم بتشكيل المعركة ونظموا قواتهم بترتيب جيد، توقعاً لصدام فوري، كما انتظرت عساكر العدو اقترابنا بتلهف وهي بتشكيل المعركة أيضاً وكأنها واثقة من النصر، لكن الأمور انتهت خلافاً لتوقعهم حيث وصل جيشنا بسلام إلى تلك القلعة

بقيادة رحمة الرب، وسمح هنالك للرجال المزهقين والبهائم بالاستراحة طوال تلك الليلة، واجتمع في هذه الأثناء القادة في مؤتمر تدارسوا فيه خطة الزحف لليوم التالي.

طالب بعض أعيان النبلاء بوضع القلعة تحت رعايتهم واعتقدوا أن قوتهم كانت كافية بعون الرب للاحتفاظ بالموقع ضد هجوم الأتراك، وكان من بين رجالات المملكة الذين أبدوا هذا الرأي همفري أوف تيرون كافل المملكة[1] وكان رجلاً صاحب شجاعة سامية ووافق على هذا الرأي أيضاً روبرت دي سورد فال وهو نبيل قوي من نبلاء إمارة أنطاكية، غير أن الملك كان مقتنعاً أنه لم يكن لدى أي من الاثنين قوة أو قدرة كافية للمهمة، ورفض بالتالي العرض الذي تقدما به وعدّه غير جدير بالدراسة، وأصر على المحافظة على المعاهدة، وسلم الموقع إلى الإغريق وأمر الناس بالاستعداد لمواصلة الزحف.

وكان بين ذلك الحشد رجال من ذوي أصل سام، وسيدات نبيلات مع عذارى كريمات المحتد وأطفال صغار، وكانوا يغادرون أرضهم الأصلية ومنازل أجدادهم وأرض آبائهم بالتنهدات والدموع ويتوجهون إلى أرض الغرباء بحزن عميق، ولا شك أن قلوب القساة كانت ستتأثر بتأوهات وصيحات وعويل هؤلاء الناس عندما خرجوا إلى المنفى.

وعندما عاد النهار ثانية رتبت الأمتعة واستؤنف المسير، وانتظم العدو في خط الزحف أيضاً وتقدم معهم على كلا الجانبين وكان مستعداً للانقضاض على الرتل من جميع الجهات، وعندما رأى المسيحيون ذلك العدد الكبير من الجند في صفوف الزحف، أعادوا ترتيب كتائبهم مع الفرسان الخمسمائة الذين كانوا معهم وعينوا أماكن نظامية للجميع وتوجب على الملك أن يسير في الأمام مع طليعة الجيش ويوجه تقدم حشود المشاة، وجرى تعيين كونت طرابلس وهمفري كافل المملكة لحماية الفرق الخلفية، وتوجب عليهما أن يصدا مع القوات الأخرى القوية والكبيرة هجمات العدو وأن يحموا الناس من أذاها، وتم وضع نبلاء أنطاكية على يمين ويسار الرتل، حتى تكون قوة قادرة من الرجال الشجعان والفرسان المسلحين مع الحشد الذي تم وضعه في المركز.

تقدم المسيحيون طوال ذلك اليوم بهذا الترتيب حتى الغروب. وأنهكتهم باستمرار كوارث لا تحتمل وهجمات متكررة واشتباكات من مواقع قريبة، وانهمر وابل من السهام

---

(١) هنالك تشوش زمني بسيط هنا. فقد جرى تعيين همفري صاحب تيرون كافلاً للمملكة من قبل بلدوين الثالث عندما انفرد بالحكم لوحده في عام ١١٥١ أو عام ١١٥٢، في حين أن تحويل حصون الرها إلى عهدة الاغريق قد حدث في عام ١١٥٠، ومن المؤكد أن همفري أوف تيرون كان مع بلدوين لكنه لم يكن قد أصبح بعد كافلاً للمملكة.

على الجنود المتقدمين حتى غطيت الأمتعة بالسهام وأصبحت كالقنفذ، كما أنهك الغبار والحرارة، اللتان تسودان في شهر آب، الناس بشكل يفوق الاحتمال، وهاجمهم، إضافة لذلك، عطش شديد، وأخيراً أعطى الأتراك عند غروب الشمس شارة الانسحاب حيث لم يكن لديهم أية مؤن غذائية إضافة لذلك كانوا قد فقدوا بعض نبلائهم وتوقفوا الآن عن تتبع جيشنا بعدما استولى عليهم العجب تجاه صمود المسيحيين ومثابرتهم.

كان همفري كافل المملكة يطارد الكفرة المتقهقرين وهو مسلح بقوسه على مسافة بعيدة بعض الشيء من الجيش عندما اقترب منه أحد الجنود من صفوف العدو وألقى أسلحته، ثم شبك يديه أولاً على أحد الجوانب ثم على الجانب الثاني إشارة للتوقير، كان تابعاً لنبيل تركي قوي جداً وكان موثوقاً من قبله، وكان هذا التركي مرتبطاً مع الكافل في اتحاد أخوي حميم جداً وكان هذا الرجل قد أرسله ليقدم التحية لهمفري وليخبره بالأوضاع الموجودة في الجيش المعادي، وذكر أن نور الدين كان يعتزم العودة مع جيشه إلى منطقته في تلك الليلة ذاتها حيث نفدت جميع المؤن في معسكره، ولم يعد بإمكانه مطاردة المسيحيين إلى مسافة أبعد من ذلك، ثم عاد الرسول إلى شعبه وعاد الحاكم إلى المعسكر، ونقل النبأ الذي كان قد تلقاه إلى الملك، وبما أن الليل كان قريباً فقد خيم الحشد بأسره في مكان يدعى جوها ولم يكن هنالك المزيد من المتاعب، ووجه الملك الناس خلال الأيام القادمة عبر غابة اسمها مرّيم إلى مناطق كانت واقعة تحت سلطة المسيحيين، ثم عاد إلى أنطاكية.

أدرك نور الدين الآن أن منطقة الكونت تُركت بدون مساعدة اللاتينيين، ولذلك بدأ يضايقها بعنف، مستفيداً من السمات اللاحربية للاغريق الذين وضعت المنطقة تحت رعايتهم، ووجد الإغريق أنفسهم غير قادرين على تحمل هجماته المتكررة، وأرسل أخيراً قوات ضخمة وحاصر الحصون، وطرد الإغريق بالقوة وهكذا استولى في غضون عام واحد على المنطقة بأسرها [1].

وهكذا، سقط بسبب آثامنا ذلك الإقليم الغني للغاية والمملوء بالجداول والغابات والمراعي. وذو التربة المعطاءة لجميع أنواع المنتجات، وكان مكاناً قادراً على تقديم دعم كاف لخمسمائة فارس، وانتقل إلى أيدي العدو وهو بعيد حتى الوقت الحالي عن سلطتنا.

وعانت كنيسة أنطاكية من خسارة ثلاث رئاسة أسقفيات في ذلك الإقليم، وهنّ الموجودات في الرها ومنبج والرصافة، وما تزال هذه الكنائس محتجزة على الرغم من إرادتها من قبل الكفرة وتعيش في ظل شؤم الأمم.

(١) صحيح أنه تمت خسارة الأقاليم على الفور، غير أن مسعود استولى على معظمها في الأعوام الثلاثة أو الأربعة اللاحقة. وحصل نور الدين على كثير منها بعد وفاة مسعود في عام ١١٥٥ أو ١١٥٦.

١٨ ـ الملك ينصح الأميرة بالزواج بواحد من الأمراء ليحكم مملكتها ، لكن نصيحته لم تلق الأذن الصاغية . الملك يمضي من هناك إلى طرابلس في طريقه إلى وطنه .

كان قلق بلدوين ملك القدس كبيراً في هذا الوقت حول إنطاكية والمناطق المتاخمة لها ، وكان يخشى أن تقع في يد العدو وتعاني من المصير المؤلم الذي عانت منه الرها كما ذكرنا ذلك آنفاً ، لا سيا وأنها كانت محرومة من حماية أميرها ، وكان هذا سيسبب المزيد من المتاعب ويحدث خسارة لا تحتمل للشعب المسيحي ، ولم يكن الملك نفسه حراً للبقاء لفترة طويلة في أنطاكية حيث تطلبت مسؤوليات مملكته بعودته إليها ، ولذلك نصح الأميرة بشكل متكرر لاختيار واحد من النبلاء كزوج لها فتتمكن بمشورته وجهوده من حكم الإمارة.

كان في المنطقة في ذلك الوقت عدد من الرجال النبلاء والمشهورين الملحقين بمعسكر الملك ، وكان بينهم ايفز دي نسل كونت سواسون ، وهو رجل لامع وحكيم وعاقل وصاحب نفوذ كبير في مملكة فرنسا ووولتر دي فولكنبيرغ[١] آمر قلعة القديس أومر ، الذي أصبح فيا بعد حاكماً لطبرية وكان رجلاً عاقلاً ولطيفاً وحكيماً في المشورة وشجاعاً في الحرب ، وأيضاً رالف دي ميرل وكان نبيلاً ينحدر من منزلة سامية متمرساً في استخدام الأسلحة ومشهوراً بحسه السليم ، وبدا كل واحد من هؤلاء قادراً حقاً على حماية المنطقة تماماً ، إلا أن الأميرة خافت من عبء الزواج وفضلت الحياة باستقلال وحرية ، ولم تبال كثيراً باحتياجات شعبها وانصب اهتمامها على الاستمتاع بملذات الحياة[٢] .

وكان الملك مدركاً تماماً لميولها لذلك عقد مؤتمراً عاماً في طرابلس تألف من نبلاء المملكة والإمارة. ودعا بطريرك أنطاكية وأساقفته المساعدين والأميرة مع نبلائها أيضاً لحضور هذا المجلس ، وحضرت والدته الملكة ميليساند أيضاً بمرافقة أمراء المملكة ، ولاقت مسألة زواج الأميرة الاهتمام بعد أن كانت مواضيع المصلحة العامة قد لاقت عناية شديدة. ولم يتمكن الملك أو الكونت ولا أقرباؤها ولا الملكة ولا كونت طرابلس ولا عمتاها من إقناعها بالتراجع والاحتياط بذلك لنفسها ولمنطقتها .

هذا وأشيع أنها موجهة بنصيحة البطريرك ، وبما أنه كان رجلاً ماكراً وداهية ، يقال

---

(١) كان وولتر دي فولكبيرغ أحد أفراد الأسرة المشهورة من حكام قلعة القديس أومر وكان هو واحداً منهم ، وقد كان صاحب طبرية الثاني (ر.غروسيه ـ تاريخ مملكة الفرنجة في القدس ج٢ ـ الملحق أو انظر أيضاً الحاشية ٤٠).

(٢) كان الامبراطور مانويل مهتماً تماماً في جعل كونستانس تقبل زوجاً مناسباً كما كان بلدوين الثالث. هذا ووقع اختياره على شخص اغريقي يدعى القيصر يوحنا ، وهو أخو زوجته (شالدون ـ آل كومينين: ٢/٤٢٦).

إنه أيدها في هذا الخطأ بغية التمكن من الحصول على سلطة أكبر وتصرف أعظم في حكم المنطقة، وهو شيء رغب به رغبة شديدة، وبما أنه تعذر إنجاز أي شيء بخصوص هذه المسألة، رفض الاجتماع وعاد الجميع إلى بلادهم[1].

١٩ ـ الملك يجتمع بوالدته في طرابلس في سبيل إيجاد وسيلة للمصالحة بين الكونت وزوجته لكن بدون جدوى. وقتل الكونت عند باب المدينة على أيدي الحشيشية.

نشبت في هذه الآونة عداوة نبعت من الغيرة بين كونت طرابلس وزوجته أخت الملكة ميليساند، وقد حضرت الملكة ميليساند إلى هناك على أمل إنهاء هذه الكراهية وفي الوقت نفسه لزيارة ابنة أختها أميرة أنطاكية، وبما أنها لم تلاق سوى نجاح ضئيل في حل هذه المسألة، فقد صممت على أن تعيد أختها معها، وغادرت الاثنتان مدينة طرابلس وهذا الهدف في مخيلتها، ورافق الكونت الأميرة في رحلتها لفترة من الزمن، ثم استأذنها بالانصراف بعد وقت قصير وقفل عائداً. وبينما كان يدخل باب المدينة ودون تفكير بالحوادث الشريرة طعنه الحشيشية بالسيف عند المدخل المؤدي إلى الباب الواقع بين الحصن الأمامي والسور وهلك بشكل محزن، وقُتل معه أيضاً رالف دي مارل ذلك النبيل المشهور والمذكور آنفاً وأحد فرسانه فقد صادف أن كانا مع الكونت في تلك الرحلة.

كان الملك خالياً من المشاغل، وكان يمتع نفسه خلال هذا الوقت بلعبة النرد في المدينة، ولم يكن عارفاً بالذي قد حدث، وثارت المدينة بأسرها إزاء نبأ مقتل الكونت، فأمسك الناس بأسلحتهم وقتلوا بدون تمييز جميع الذين وجدوا أنهم مختلفون سواء في اللغة أو اللباس عن اللاتينيين؛ وكان يؤمل بهذه الطريقة أن يتم العثور على مرتكبي العمل الشنيع.

وأثار الغليان المفاجىء انتباه الملك، وحين علم بنبأ مقتل الكونت، لم يتمكن من الإحجام عن البكاء والتنهدات بعدما أحزنه وآلمه النبأ جداً، وأمر باستدعاء والدته وخالته على الفور. ودفنت الجثة لدى عودتهم بإجلال لائق وسط صيحات عويل الجميع ودموعهم ووفقاً لأمر الملك أدى جميع نبلاء تلك الأجزاء، يمين الولاء للكونتس وأبنائها.

خلف الكونت ابناً يحمل اسمه أي ريموند، ولم يكن قد بلغ سن الثانية عشرة من عمره بعد، وابنة صغرى تدعى ميليساند، وعاد الملك، بعدما رتب الأمور بهذه الطريقة، إلى المملكة بصحبة والدته والنبلاء التابعين لبلاطه.

---

(١) ليس من الواضح زمن هذا الاجتماع في طرابلس، وربما حدث لدى عودة بلدوين من الشمال في أواخر عام ١١٥٠، إلا أن أحداث الفصل اللاحق متداخلة مع هذا وتشتمل على وفاة ريموند الثاني صاحب طرابلس والتي لا يمكن وضعها قبل عام ١١٥١.

٢٠ ـ جيش ضخم من الأتراك يزحف ضد القدس للاستيلاء عليها، لكن المسيحيين يزحفون نحوه ويهزمونه بشجاعة كبيرة.

لم يكن قد مضى بعد هذا وقت طويل عندما قام بعض الحكام الأتراك، المعروفين باسم الأراتقة، وهم رجال أشداء ذوو نسب متميز بين شعبهم، بجمع عدد كبير من الأتراك وعقدوا العزم على الذهاب إلى القدس للاستيلاء عليها على أساس أنها تخصهم بحق[1] وراثي، لأنه يقال كانت المدينة المقدسة تنتمي إليهم بحق وراثي قبل أن يحررها المسيحيون، وكانت والدتهم مؤيدة متحمسة لهذا السلوك وأنبت أبناءها لأنهم سمحوا لأنفسهم بالابتعاد لفترة طويلة جداً عن ممتلكاتهم الموروثة.

وبدأوا الزحف بعدما أثارتهم النصائح المستمرة لوالدتهم المسنة، على رأس عدد ضخم من الفرسان بهدف تحقيق غايتهم المنشودة إذا سمح الرب بذلك، وتريثوا لفترة من الزمن في دمشق لينعشوا جنودهم ويعززوا قوتهم، وحاول أهالي تلك المدينة عبثاً صرفهم عن مشروعهم السخيف إلا أنهم رفضوا الإصغاء؛ فاستكملوا مؤنهم وأعادوا ترتيب أمتعتهم واستأنفوا زحفهم نحو القدس وكأنهم لا يشكّون بالنصر، وعبروا بموكبهم الكبير الأردن وصعدوا المنطقة الجبلية حيث تقع المدينة المقدسة ووصلوا إلى جبل الزيتون الذي يطل على القدس والمتاخم لها. وكان بإمكانهم أن يروا بدون عوائق جميع الأماكن المقدسة وخاصة هيكل الرب، الذي كانوا يوقرونه بشكل خاص، واشتمل المنظر بالفعل على المدينة بأسرها.

وكانت معظم القوات المسلحة للمنطقة قد ذهبت إلى نابلس لأنها خشيت من احتشاد العدو هناك لأن المدينة نفسها كانت بلا تحصينات، وعندما رأى الناس، الذين تركوا في القدس، جيش الأتراك يتقدم خافوا من أن ينحط عليهم بالحال، فأمسكوا بأسلحتهم على الفور وتقدموا بحماسة نحو الأعداء ملتمسين المساعدة من السماء ومتلهفين للاشتباك معهم.

إن الطريق التي تنزل من القدس إلى أريحا ومن ثم إلى الأردن طريق وعرة جداً وخطيرة، حيث أن الأماكن الكثيرة المنحدرة والشاهقة تجعل كلاً من الصعود والنزول صعباً جداً بالنسبة للمسافرين حتى عندما يكون الطريق آمناً ولا يوجد أي سبب للخوف، وعندما دخل العدو هذا الطريق، انقض المسيحيون بعنف عليه وجعلوه يلوذ بالفرار بذعر، فقتل

---

(١) لا يذكر ابن القلانسي هذا المشروع الممتع من قبل أبناء الأسرة التركية التي كانت قد احتفظت بالقدس حتى عام ١٠٩٨، وتمت مطابقة هوية القائد الذي يدعوه وليم باسم Hiaroquim (ربما تصحيف ياروق) بأنه تمرتاش صاحب ماردين وهو من الأسرة الأرتقية، ويقبل هذه المطابقة كل من روشيت وستيفنسن وذلك على الرغم من رواية وليم من أن الحملة توقفت في دمشق في طريقها، ليست مذكورة في تاريخ دمشق. (ص ٢٧١).

الكثيرون مباشرة وهلكوا بدون مساعدة السيف حيث لم تقدم الجرف والشعاب الضيقة أي ممر سهل للهاربين، وحاول بعض الذين كانوا قد سلكوا الطرق الأكثر تمهيداً أن يواصلوا هروبهم لكنهم واجهوا هناك أيضاً سيوف المسيحيين وأصيبوا بجراح مميتة ولاقوا موتاً مفاجئاً، وبما أن مصاعب الزحف الطويل قد أنهكت خيولهم فإنها لم تتمكن من تحمل الطريق الوعرة وأصيبت بالإعياء التام، ورفضت الإذعان لممتطيها، واضطر الأتراك بالتالي أن يصبحوا جنوداً مشاة، وأثقلت أسلحتهم كاهلهم، ولم يكونوا معتادين على المشقات أبداً، فقتلوا كالغنم بسيوف مطارديهم، وكانت المذبحة التي تعرض لها الجند والخيول فظيعة جداً إلى درجة أعاقت تقدم المسيحيين، ومع ذلك، فقد حاولوا بتلهف زائد تحقيق المزيد من المنافع، ومروا بجانب المغانم محتقرين التفكير بأخذها وواصلوا المذبحة الرهيبة لأن الإغتسال بدم العدو كان يعتبر المكافأة الأسمى.

حالما علم الناس الذين كانوا قد اجتمعوا في نابلس، بزحف العدو لمهاجمة القدس غادروا بإرادة واحدة واندفعوا نحو مخاضات الأردن لمنع الأتراك من العبور، وهاجموا على ضفته الذين كانوا قد نجوا من مطارديهم وباغتوهم فجأة وقتلوهم. لقد كانت يد الرب ثقيلة على أعدائنا بالفعل في ذلك اليوم، لأنه كما هو مكتوب: «أكل الجراد ما تركته ديدان الأشجار المثمرة»[١]. فقد قتل الذين كانوا قد نجوا من مطارديهم بفضل سرعة خيولهم أو بطريقة أخرى، بسيوف المسيحيين الذين هاجموهم من اتجاه آخر. والتقت الأمواج الهائجة الآخرين الذين كانوا قد دخلوا الأردن قبل القوات الرئيسة وذلك بسبب جهلهم بالمخاضات وغرقوا في النهر، وهكذا عاد الجيش، الذي كان قد دخل بآلاف كثيرة، وهو قوي، متفاخراً بقدراته المعتمدة على قوة الفرسان عاد إلى بلاده بعدما تحول إلى جيش ضئيل اكتنفه الاضطراب والذعر، ويروى أن نحو خمسة الآف من العدو قتلوا في ذلك اليوم.

حدث هذا في اليوم التاسع قبل أول شهر كانون الأول أي في /٢٣/ تشرين الثاني من العام ١١٥٢ لتجسيد الرب وفي العام التاسع لحكم بلدوين الملك الرابع للقدس[٢].

عاد المسيحيون إلى القدس ليقدموا القربان المقدس لصلاة الشكر للرب وهم محملون بأسلاب العدو ويسوقون أمامهم الكثير من المغانم على شكل قطعان.

---

(١) يوئيل: ١/٤.

(٢) يعتبر هذا البيان للتاريخ بياناً رسمياً ويبدو بأنه صحيح، ولم يطبق وليم هذا التحديد على الكونت غودفري كملك أول، الأمر الذي قد جعل بلدوين الثالث الملك الخامس، ويأتي تقدير عام ١١٥٢ بأنه العام الملكي التاسع لبلدوين الثالث كنقطة مقارنة مع تواريخ رسمية أخرى استخدمها وليم.

٢١ - عودة الملك ونبلاء المملكة إلى عسقلان بهدف اجتياح البساتين التي تحيط بالمدينة. تطويرهم لخططهم الأصلية ومحاصرة المدينة.

أثار هذا الانتصار الذي منحه التأييد السماوي آمال المسيحيين كثيراً، ولذلك قرروا جميعاً، والرب يوجه أهدافهم، حسب رغبة الوضيع والعظيم محاولة الحاق الأذى بطريقة ما بأعدائهم الموجودين في تلك المنطقة المجاورة الذين كانوا قد سببوا لهم متاعب خطيرة في أحوال كثيرة، أي: أهالي مدينة عسقلان.

بدا أن الخطة الأكثر إرضاء للوقت الحالي هي محاولة تدمير البساتين الواقعة في المنطقة المجاورة لمدينة عسقلان بقوة قوية، وكانت هذه البساتين ذات أهمية كبيرة للسكان ويمكن بهذه الطريقة الحاق بعض الخسارة بالعدو المتغطرس. وجرى - وهذا الهدف بالمخيلة - حشد كافة قوة المملكة بأعداد ضخمة أمام المدينة المذكورة منذ لحظات. وشعروا أن هذه الخطة ستكفي إذا أمكن إنجازها بنجاح.

رافقت الرحمة السماوية بشكل مدهش المسيحيين المختشدين أمام تلك المدينة، وبدأت تدفعهم فجأة إلى أشياء أعظم ولم يكن قد مضى وقت طويل على اتخاذ قواتنا لموقعها أمام المدينة عندما استولى الذعر على سكانها وانسحبوا بسرعة كبيرة إلى داخل المدينة، ولم يجرؤ أي رجل على المغامرة بالظهور خارج الأسوار لمواجهة جنودنا، ولذلك قرر المسيحيون وقد استفادوا من حالة الذعر التي سيطرت على العدو أن يحاصروا المدينة توجههم الرحمة السماوية في ذلك وجرى على الفور إرسال الرسل إلى كل مكان في المملكة للإعلان عن الخطة التي ألهم الرب بوضعها ولاستدعاء الذين كانوا قد بقوا في منازلهم وأن لا يتأخر أحد عن الحضور في اليوم المحدد.

اجتمع الناس، الذين تم استدعاؤهم، بابتهاج ودون تأخير، وانضموا إلى رفاقهم الذين كانوا قد سبقوهم وخيموا مع الآخرين حول المدينة، وتعهدوا واحداً تلو الآخر بيمين مهيب أنهم لن يتخلوا عن الحصار حتى يتم الاستيلاء على المدينة، وحتى يبقى الجميع مخلصين في مشروعهم وبدون تفكير بالتردد، خيّم الملك والبطريرك مع بقية نبلاء المملكة العلمانيين والكنسيين على حد سواء، وبرفقة شارة صليب الصلبوت المقدس والمانح للحياة، أمام مدينة عسقلان في ظل بشائر ميمونة. وذلك في اليوم الثامن قبل بداية شهر شباط [١]، وكان ذلك بعدما جرى حشد قوة المملكة كافة، وبعد اجتماع الناس على هدف واحد.

---

(١) ٢٥ كانون ثاني ١١٥٣.

حضر هذا الحصار رجال الكنيسة التالية أسماؤهم: اللورد فولتشر بطريرك القدس؛ وبطرس رئيس أساقفة مدينة صور؛ وبلدوين رئيس أساقفة قيسارية؛ وروبرت رئيس أساقفة الناصرة وفريدريك أسقف عكا وجيرالد أسقف بيت لحم؛ وحضره بعض رعاة الأديرة أيضاً، كما حضره كل من برنارد دي تريملي مقدم فرسان الداوية وريموند مقدم فرسان الاستبارية.

وكان من بين الأمراء العلمانيين الحاضرين كل من هيودي ابلين وفيليب صاحب نابلس وهمفري صاحب تيرون، وسيمون صاحب طبرية وجيرارد صاحب صيدا وغي صاحب بيروت وموريس صاحب مونتريال [الشوبك] ورينو دي شاتليون (أرناط) وولتر أوف سانت أومر، وقد عمل الأخيران بالدفع لمصلحة الملك[1].

نصبت الخيام ورتبت على شكل دائرة، وخصصت مراكز محددة ومناسبة لكل شكل، ثم انكبوا باخلاص على العمل قيد الإعداد بازلين بحكمة وتعقل الجهود التي كانت تتطلبها مهمة خطيرة من هذا القبيل.

٢٢ - وصف موقع المدينة وتبيان مزاياها.

تعتبر عسقلان إحدى مدن الفلسطينيين الخمس، وهي واقعة على ساحل البحر على شكل نصف دائرة يمتد قطرها على طول الشاطىء بينما يقع قوسها على المنطقة المطلة نحو الشرق، وتستقر المدينة بأسرها في حوض يميل إلى البحر وتحيط به دفاعات اصطناعية من جميع الجهات ترتفع فوقها الأسوار مع أبراج على مسافات متوالية، وكلها مشيدة ببناء صلب وملصق مع بعضه بملاط أشد قساوة من الحجر، كما أن الأسوار واسعة وذات سماكة جيدة وارتفاع مناسب، وعلاوة على ذلك، فإن المدينة مطوقة بتحصينات خارجية مبنية بالمتانة ذاتها، ومحصنة بعناية بالغة، ولا توجد أية أنهار ضمن حدود الأسوار ولا توجد أية ينابيع مجاورة؛ إلا أن الآبار الموجودة خارج المدينة وداخلها تقدم زاداً وفيراً من الماء العذب المناسب للشرب، وكاحتياط إضافي أقام السكان صهاريج في داخل المدينة لتلقي مياه الأمطار.

---

(١) من الممتع أن نشير أن نبلاء ذوي أهمية، مثل وولتر حاكم قلعة القديس أومر، قد خدموا لقاء الأجر، وكان كل من هذين الرجلين مغامران نبيلان حقق كل منهما مكانه في سوريا اللاتينية عن طريق الزواج، هنالك مجموعة موجزة جداً من الإشارات إلى وولتر دي فولكبيرغ حاكم قلعة القديس أومر من قبل غيري (انظر غيري: حكام قلعة القديس أومر ١٠٤٢ - ١٣٨٦ - مكتبة مدرسة تشارتز: ٣٥ [١٨٧٤] ٣٤١ - ٣٤٣]. وكان أرناط موضوع دراسة لحياته مطولة. (انظر غ. شلمبيرغر - رينو دي شالتلون).

يوجد أربعة أبواب في محيط السور، محصنة بقوة بأبراج عالية وضخمة ويدعى الباب الأول من هذه الأبواب وهو المواجه للشرق باسم الباب الأكبر، ويسمى أحياناً باسم باب القدس لأنه موجه نحو المدينة المقدسة ويعلوه برجان عاليان جداً يقدمان حماية قوية للمدينة في الأسفل، ويوجد في خط الدفاع الأمامي الموجود أمام هذا الباب ثلاثة أو أربعة أبواب صغيرة ينتقل المرء خلالها إلى المدخل الرئيسي بواسطة طرق ملتوية مختلفة.

يواجه الباب الثاني جهة الغرب، ويعرف باسم باب البحر لأن الناس يحصلون من خلاله على مخرج إلى البحر، ويقع الباب الثالث إلى الجنوب ويطل على مدينة غزة التي تمت الإشارة إليها آنفاً ويشتق اسمه منها. ويسمى الباب الرابع المطل نحو الشمال بباب يافا اشتقاقاً من اسم المدينة المجاورة التي تقع على هذا الساحل نفسه.

هذا ويلاحظ أن عسقلان قائمة في مكان غير موائم وذلك انطلاقاً من حقيقة أن موقعها لا يوفر ميناء أو ملاذاً آمناً للسفن، والشاطىء رملي جداً والرياح العنيفة تجعل البحر المجاور عاصفاً إلى حد أن المبحرين إليها لا يقتربون منها إلا في جو هادىء جداً.

كما أن تربة الحقول المحيطة بالمدينة مغطاة بالرمل ولذلك فهي ليست موائمة للزراعة؛ ومع ذلك، فهي مهيأة بشكل جيد لزراعة الكروم والأشجار المثمرة؛ هذا وتوجد بضعة أودية في الشمال تزود سكان المدينة بكميات من الفواكه والخضار وذلك عندما يتم تسميدها بشكل جيد وإرواؤها بالماء من الآبار.

يوجد عدد كبير من السكان في تلك المدينة يتلقى الوضيع والرفيع منهم، وحتى الأطفال الرضع، رواتباً من بيت مال خليفة مصر وذلك حسبما ذكرته الروايات المتداولة، وشعر ذلك الملك وأمراؤه بقلق بالغ حول عسقلان لأنهم كانوا مدركين أنه إذا سقطت المدينة ووقعت في سلطة المسيحيين فلن يكون هنالك شيء يمنع قادتنا من غزو مصر دون عائق والاستيلاء على تلك المملكة بالقوة.

لذلك اتخذوا عسقلان بمثابة حصن وزودوها عن طريق البر والبحر بمساعدة سخية أربع مرات في العام[1] فقد كان بإمكان المصريين أنفسهم الاستمتاع بالسلام المنشود طالما صمدت عسقلان وبدد شعبنا جهودهم الحماسية عندها، ولذلك زودوا المدينة بنفقة كبيرة بكل ما هو ضروري وأرسلوا الأسلحة والمواد الغذائية والجنود الجدد على فترات انتظامية منفصلة وكان قلق المصريين إزاء قوتنا المروعة قد خف لبعض الوقت عندما كان المسيحيون منشغلين في عسقلان.

---

(١) انظر الكتاب ١٧ ـ، والكتاب ١٣ ـ.

٢٣ ـ بدء عمليات الحصار . وتعين قادة في إمرة الأسطول والجيش البري أيضاً .

قاومت عسقلان كل المحاولات التي بذلناها وأظهرت نفسها منافسة هائلة لنا لمدة خمسين عاماً ونيفاً. مضت بعدما كان الرب قد منح بقية أرض الميعاد إلىٰ أيدي الشعب المسيحي ، وأخيراً قرر المسيحيون تطويق المدينـة ، وكان هذا عملاً شاقاً وشبه مستحيل ، لأن عسقلان كانت محصنة بشكل جيد بالأسوار والحصون الأمامية والأبراج والسدود ومجهزة بكمية ضخمة من الأسلحة والمؤن ، أضف إلى هذا أنه كان فيها عدد كبير من السكان كانوا مدربين بشكل جيد ومتمكنين تماماً من استخدام الأسلحة ، وبالفعل فإن عدد المدافعين كان ضعف الجيش المحاصر منذ البداية ذاتها للحصار وحتى النهاية .

نصب الملك والبطريرك وبطرس سلفنا رئيس أساقفة صور ، مع رجال عظماء آخرين من المملكة والأمراء وأساقفة الكنيسة وسكان جميع المدن خيمهم عـلى حدة وحاصروا المدينة من ناحية البر ، ووضع الأسطول المؤلف من خمس عشرة سفينة والمجهز للإبحار بقيادة جيرارد صاحب صيدا وكان واحداً من نبلاء المملكة العظماء [١] ، وتوجب عليه أن يمنع أي تقدم من البحر وأن يحبط جميع المحاولات للخروج من المدينة أيضاً ، وشن شعبنا هجمات على المدينة قام بها الفرسان أحياناً والجنود المشاة أحياناً أخرىٰ بشكل عفوي تقريباً ؛ لكن سكان المدينة واجهوا هذه المحاولات بشجاعة وقاوموها بقوة ، حيث كانوا يقاتلون دفاعاً عن زوجاتهم وأبنائهم ، والأهم من ذلك ، عن حريتهم نفسها ، وكان النصر في هذه الاشتباكات تارة من نصيب السكان ومن نصيب المسيحيين تارة أخرىٰ كما يحدث عادة في ظروف كهذه ، لكن النصر غالباً ما كان من نصيب قواتنا بشكل عام .

وقيل إن أمناً كبيراً ساد في ذلك المعسكر ، كما توفرت فرص كبيرة لشراء جميع أنواع السلع حيث عاش الناس في خيمهم وسرادقاتهم كما كانوا معتادين علىٰ عمل ذلك في الوطن ، في مدنهم المسورة .

قام سكان المدينة بحراسة مدينتهم بعناية ، خاصة ليلاً ، واستخدمت أبدال الحراس ، وشارك حتى الرجال القادة في المدينة في حراسة الأسوار ، وأمضوا الجزء الأكبر من الليل بلا نوم ، ووضعت مصابيح زجاجية تعمل علىٰ الزيت وكانت مزودة بأغلفة شفافة لحماية لهبها علىٰ طول الاسوار وعلىٰ شرفات الأبراج ، وأضاءت هذه المصابيح المكان في الليل حتى بدا كالنهار وساعدت الحرس أثناء قيامهم بالجولات علىٰ الأسوار .

---

(١) تعتبر هذه من الإشارات الأوضح إلى وجود أسطول ملكي ، وليس منصوص فيما إذا كانت السفن قد بنيت أو اشتريت للمناسبة أو كانت جزءاً من قوة دائمة ، مع أن تعيين جيرارد صاحب صيدا قائداً يبدو بأنه مؤقت ولا لبس في ذلك .

واحتاط حرس مختلف فرق المعسكر المسيحي لحماية جنودنا أيضاً، ولم تتوقف الحراسة أبداً لأنه كان يخشى من أن السكان قد يهاجمون المعسكر تحت غطاء الظلام، وكان هنالك خطر من أن المصريين الذين كانوا يحثون الخطى لمساعدة عسقلان قد ينقضون فجأة وبشكل غير متوقع على الجيش وذلك على الرغم من أن عناصر الاستطلاع كانت قد وضعت في مواقع كثيرة حول غزة لتقدم الإنذار في الوقت المناسب من تقدم العدو.

٢٤ ـ عبور حجاج خلال شهر الحصار الثاني، كان هذا مفيداً جداً ومساعداً على استئناف الحصار.

استمر الحصار لمدة شهرين دون تغيير، وحدث العبور المألوف في حوالي عيد الفصح حيث جلب أعداداً كبيرة من الحجاج إلى هناك، وأرسل المسيحيون، بعد تداولهم مع بعضهم بعضاً، رسلاً من الجيش يحظرون بأمر من الملك على جميع البحارة والحجاج العودة إلى الوطن، ووجهت الدعوة للجميع ـ على أساس دفع الأجور ـ للمشاركة في الحصار، وهو عمل مقبول جداً من الرب[1]. وصدرت الأوامر إلى جميع السفن كبيرها وصغيرها بالإبحار إلى عسقلان. وهكذا وصلت جميع السفن، التي كانت قد قدمت في ذلك العبور، إلى أمام المدينة في غضون أيام قليلة جداً، بعدما زادت من سرعتها ريح مواتية، وانضمت إلى صفوفنا قوات كبيرة من الحجاج الفرسان والمشاة، وهكذا ازدادت قوة الجيش يوماً بعد يوم، وأصبح السرور في معسكرنا عظيماً والأمل بنيل النصر كان أملاً بلا حدود.

وعلى عكس ذلك انتشر القلق والأسى بشكل متزايد دوماً بين صفوف العدو، وبدأت تقل ثقة أفراده بقوتهم الخاصة وقلّ ظهورهم للقتال على الرغم من أنهم كانوا قد تحدونا ودعونا للقتال قبل ذلك مراراً. والتمسوا من الخليفة المصري مراراً وتكراراً إرسال المعونة لهم بالسرعة الممكنة، وإلا لا بد لهم من الاستسلام حالاً، وبناء عليه اتخذ الخليفة إجراءات فعالة لنجدتهم، وأمر الأعيان المسؤولين عن عمل كهذا بتجهيز أسطول وجمع الجيش، وحمّل السفن الطويلة بالأسلحة والمؤن والآلات الحربية، وعين القادة واحتاط للمستلزمات الضرورية وحث في تلك الأثناء على السرعة وأنّب على التأخير.

كان المسيحيون في هذه الأثناء قد اشتروا سفناً بمبالغ كبيرة وأزالوا سواريها، ثم جرى استدعاء الصناع وصدرت إليهم الأوامر ببناء برج عال جداً من الخشب، وتمت حماية هذا البرج بعناية من خطر الحريق وحوادث مشؤومة أخرى بواسطة الستائر المجدولة وجلود

(١) أصبح بحلول هذا التاريخ استخدام المال شائعاً بشكل متزايد في تسيير الحرب في الشرق، فقد كان بإمكانه شراء أنواع كثيرة من الخدمات تراوحت فيما بين العمل اليدوي وحتى المساعدة العسكرية الموثوقة بها.

الحيوانات المدبوغة من الداخل والخارج علىٰ حد سواء بحيث يكون المقاتلون الذين توجب عليهم مهاجمة المدينة سالمين تماماً، واستخدمت المواد الخشبية الزائدة عن السفن لإنشاء آلات القذف التي وضعت بعدئذ في مواضع استراتيجية لقصف الأسوار، كما صنعت أيضاً السقائف المغطاة من المادة نفسها بحيث يمكن، تحت حمايتها، الاقتراب من السدود وتدميرها بسلام، وجرى إعداد جميع هذه الاستعدادات بشكل موائم ثم حدد بعناية تعيين قطاع السور الذي يمكن أن تطبق عليه آلات القذف الحربية بسهولة أكبر، وبعدما تم تدمير الجزء الأكبر من السد كما ذكرت آنفاً نقل البرج مصحوباً بصيحات عالية، وألصق بالأسوار، وأمكن الحصول من قمة البرج علىٰ منظر للمدينة بأسرها، ونشب قتال متلاحم مع المدافعين الموجودين في الأبراج المجاورة، هذا، واستخدم سكان المدينة الآن قسيهم وسهامهم بشجاعة وإصرار من الأسوار تارة ومن المتاريس أحياناً لإنهاك المحجوبين في داخل الأبراج المتحركة، غير أن جميع جهودهم كانت عقيمة لأنهم لم يتمكنوا من إلحاق الأذى بالذين كانوا يدفعون الآلة الحربية إلىٰ الأمام، ثم احتشد عدد ضخم من المدافعين عند جزء السور المقابل للبرج، وصدرت الأوامر إلىٰ الأشخاص الأكثر شجاعة بينهم باختبار قوتهم هنالك في قتال مستمر إلى جانب المهاجمين الموجودين في البرج المتحرك.

وتواصل في الوقت نفسه القتال المستمر في مواقع مختلفة ومن مكان إلى آخر علىٰ طول الأسوار، ونادراً ما مرّ يوم دون أن تقع مجزرة، وذلك بصرف النظر عن عدد الجرحىٰ الكبير في الجانبين، ولقد سمعنا قصصاً عن أعمال بارزة قام بها بعض الأفراد في ذلك الحصار، وعن الشجاعة الملحوظة التي أظهرها العدو والمسيحيون، غير أنه لا يمكن إعطاء سوىٰ اهتمام بسيط لحوادث من هذا النوع لأننا ندون تاريخاً عاماً.

٢٥ ـ وصول الأسطول المصري إلىٰ عسقلان خلال الشهر الخامس من الحصار، وهو حدث قدم مواساة كبيرة للمحاصرين.

صمد قادتنا لمدة خمسة أشهر متتالية في الحصار، وكانت قوة العدو قد بدأت تضعف بعض الشيء بشكل واضح، وبدت إمكانية الاستيلاء علىٰ المدينة أكثر إشراقاً مما هو مألوف عندما ظهر الأسطول المصري فجأة أمام المدينة بعدما حملته ريح مواتية، ورفع أهالي عسقلان أيديهم إلىٰ السماء عندما رأوا الأسطول وصرخوا بصيحات عالية أن المسيحيين سيتراجعون الآن أو سيهلكون علىٰ الفور، وعندما لاحظ جيرارد صاحب صيدا قائد الأسطول المسيحي أن السفن تقترب من المدينة حاول إعاقة تقدمها بمهاجمتها بعدد صغير من الشواني التي كان

يقودها، إلا أنه انعطف في آخر الأمر راجعاً بعدما أرعبته أعداد العدو الكبيرة، ثم لاذ بالفرار حرصاً على حياته وسلامته.

أبحرت قوات العدو بشجاعة إلىٰ المدينة وهي تحمل المساعدة للمحاصرين التي تأجلت لفترة طويلة من الزمن، وكان الأسطول، حسب ما ذكرته إحدىٰ الروايات، مؤلفاً من سبعين شيني وبعض السفن الأخرىٰ المحملة إلىٰ الحد الأقصىٰ بالجند والأسلحة والمواد الغذائية، وكانت السفن ذات حجم ضخم أرسلها الخليفة المصري، المذكور آنفاً، لمساعدة المدينة، وبدأ العدو، الذي تعزز بهذا الشكل، يقوم بأعمال القتال مجدداً وتحدانا الآن بقوة متجددة وبشجاعة أكثر وبتكرار للقتال، وكان السكان أنفسهم الذين عرفوا تماماً شجاعة جنودنا حذرين إلى حد ما، غير أن العناصر الأكثر قسوة والقادمين الجدد كانوا متعطشين لتحقيق المجد وتلهفوا لإظهار قوتهم وشجاعتهم فاندفعوا إلىٰ القتال دون حذر فقتلوا بأعداد كبيرة حتى تعلموا تسديد هجماتهم بحذر أكثر وتحمل هجماتنا بهدوء أكبر بعدما امتحنوا الشجاعة الثابتة للمسيحيين.

٢٦ - زواج كونستانس أميرة انطاكية من رينودي شاتليون (أرناط). استيلاء نور الدين علىٰ مملكة دمشق بالقوة. تعيين أمالرك في كنيسة صيدا.

وبينما كانت هذه الأحداث تقع في المعسكر أمام عسقلان أقدمت السيدة كونستانس أرملة ريموند أمير انطاكية التي كانت على غرار عادة النسوة قد رفضت قبول العديد من النبلاء البارزين، أقدمت سراً على الزواج من أرناط، الذي كان فارساً مرتزقاً في خدمة الملك، هذا ويلاحظ أنها لم ترغب بإعلان هذا الزواج علىٰ الملأ حتى تكون قد ضمنت قرار الملك ابن خالتها وموافقته حيث كانت إمارتها تقع تحت حمايته، وبناء عليه أسرع أرناط إلى الجيش لينقل نيتها إلىٰ الملك، وعاد إلىٰ انطاكية بعد أن حصل علىٰ موافقته وتزوج الأميرة، ومع ذلك، فقد دهش كثيرون من رؤية امرأة بارزة جداً ومشهورة وقوية تتنازل بعدما كانت زوجة لرجل بارز جداً، فتتزوج من فارس عادي[1].

علم في هذه الآونة نور الدين، الرجل العاقل والنافذ البصيرة، بوفاة أنر والد زوجته[2]. وكان هذا الرجل البارز، الذي كان قائداً عاماً للجيش الدمشقي ومدبراً لأمور

---

(١) تعتبر هذه الرواية متضاربة إلى حد ما مع رواية وليم السابقة بخصوص وولتر أوف سينت أومر والقائمة التي قدمها عن القادة البارزين في عسقلان الذين أدرج بينهم أرناط وولتر حاكم قلعة القديس أومر.

(٢) كان أنر قد توفي في ٢٨ آب من عام ١١٤٩ حسبما ذكر ابن القلانسي، الذي يصف الحادث ببعض التفاصيل (تاريخ دمشق: ٢٩٤ - ٢٩٥) وقام نور الدين بمحاولات للفوز بدمشق بعد وفاة أنر وقبل وفاته أيضاً، ونجح =

الملك، قد قاوم بقوة جميع مشاريع زوج ابنته، وكان نور الدين عارفاً أن ملك القدس كان منشغلاً مع جميع فرسان المنطقة في محاصرة عسقلان لفترة من الزمن، وشعر بثقة أن بلدوين لن يتخلىٰ عن ذلك المشروع تلقائياً للاستجابة لمناشدات الدمشقيين لمساعدتهم ضده. وهكذا انتهز الفرصة وزحف إلىٰ دمشق بجيش كبير للاستيلاء علىٰ المملكة بقوة، هذا وقد استقبله الناس بتأييد واستسلموا له طوعاً لأنه أطاح بحاكمهم، حيث كان رجلاً فاسقاً وتافهاً، وأجبره علىٰ الفرار إلىٰ الشرق فأصبح لاجئاً ومنفياً على سطح الأرض، وكان هذا التغيير مشؤوماً بلا جدال بالنسبة لمصالح المملكة، فقد برز خصم مرعب بدلاً من رجل بلا سلطة جعله ضعفه غير مؤذ للمسيحيين وقد استمر يدفع إليهم جزية سنوية حتى هذا الوقت، لأنه كما قيل: «كل مملكة منقسمة علىٰ ذاتها تخرب»[1] وتبعاً لكلمات مخلصنا تميل ممالك كثيرة حين تتحد لكسب القوة من بعضها وتظهر بقوة أكبر ضد عدو مشترك.

ورغب نور الدين بعدما استولىٰ علىٰ دمشق وأخضع المنطقة المجاورة بأسرها أن يساعد عسقلان بالقدر الممكن له، من مسافة كهذه، فأقدم على حصار مدينة بانياس مستفيداً من انشغال المسيحيين، حيث كانت تقع هذه المدينة عند الحد الأقصىٰ للمملكة، وأمل أن شعبنا سيتخلىٰ عن حصاره لمدينة عسقلان عند استدعائه لنجدة مدينة بانياس المحاصرة، غير أن آماله العظيمة لم تتحقق برحمة الرب التي كانت توجهها، ولم تنجح أي من مشاريعه أيضاً لأنه أخفق في حصاره لمدينة بانياس، وأجبر المسيحيون مدينة عسقلان علىٰ الاستسلام بمعونة الرب[2].

توفي في هذه الآونة أيضاً برنارد أسقف صيدا ذو الذكرىٰ المباركة وعين أمالرك ذو الذكرىٰ الورعة في الرب عوضاً عنه، وكان أمالرك راعي الكهنة النظاميين لرهبنة بريمونستراتينياس في دير القديس حبقبوق أو القديس جوزيف أوف أريماثيا، وكان رجلاً مخلصاً يخاف الله وصاحب حياة ورعة، وحيث أنه لم يكن ليسمح لأي امرىء بالذهاب إلى مسافة بعيدة عن المدينة المحاصرة، فإنه تلقى كما يقال منحة الترسيم في الكنيسة في اللد علىٰ يدي بطرس رئيس أساقفة صور ذي الذكرىٰ الموقرة.

= في آخر الأمر في شهر نيسان من عام ١١٥٤ بعدما أعد السبل باستخدام نوع من أنواع حصار المواد الغذائية (تاريخ دمشق: ٣٢٠ - ٣٢١).

(١) متى: ١٢/٢٥.

(٢) كان نور الدين قد دعا أهالي دمشق لمساعدته في حصار بانياس وفق شروط المعاهدة الأخيرة التي كان قد عقدها معهم، ومع أنهم انضموا إليه، فقد كان ذلك مع مشاعر من الريبة أدى في آخر الأمر إلى نشوب شجارات بينهم وإلى التخلي عن الحصار في شهر حزيران من عام ١١٥٣.

٢٧ - المحاصرون يشنون هجوماً عنيفاً على المدينة. السكان يحاولون إحراق الآلة الحربية الموجودة خارج الأسوار. انهيار جزء من سور المدينة. مقتل بعض المسيحيين أثناء محاولتهم الاندفاع إلى المدينة. جيشنا يتخلى عن الأمل.

واخذ في هذه الأثناء الذين كانوا منشغلين في هذه الحملة مشروعهم بقوة كبيرة واستأنفوا شن هجمات شديدة على المدينة دون انقطاع، وكان هذا هو الوضع السائد بشكل خاص حول الباب الكبير، كما كان يسمى، حيث تجددت الهجمات مراراً وتكراراً مع نتائج ذات شؤم شديد على السكان، وهدد وابل الصخور الضخمة المقذوفة من آلات القذف الحربية بإضعاف الأسوار والأبراج وبنسف المنازل عن بكرة أبيها داخل المدينة، وكانت المذبحة الناجمة مذبحة كبيرة، كما أحدث الجنود الموجودون ضمن البرج المتحرك إبادة كبيرة بقسيهم وسهامهم ليس على المدافعين الذين كانوا يقاومونهم من قمة الأبراج والأسوار فقط، بل أيضاً على الذين اضطروا بحكم الضرورة للتحرك حول المدينة، وبدت المحن التي تحملها السكان في مواقع أخرى مهما كانت شاقة، محناً خفيفة بالمقارنة مع المصائب التي انصبت عليهم من هذا البرج.

ولهذا تداولوا فيما بينهم وصمموا على تدمير تلك الآلة الحربية مهما كان الخطر وكانت والمغامرة مستفيدين بذلك بشكل خاص من نصيحة الذين كانت لهم تجربة كبيرة في مسائل من هذا النوع، واستلزم الأمر إلقاء الأخشاب الجافة ومادة أخرى موائمة لإضرام النيران وتأجيج ألسنة اللهب بين السور والبرج، وتوجب إحراق هذه المواد خلسة فيحترق البرج، وكان قد بدا أنه لا يوجد أي أمل آخر، كما لم تبق لديهم الشجاعة للمقاومة لفترة أكثر من ذلك، حيث سقطوا الآن إلى هاوية اليأس.

استجاب بعض الرجال الشجعان المشهورين بقوتهم وإقدامهم رجالاً كانوا قد اعتبروا سلامة أبناء مدينتهم أهم من سلامتهم، للمناشدة على الفور وعرضوا أنفسهم للقيام بالمهمة الخطرة، ونقل الخشب إلى قسم السور الذي كان في الموقع الأكثر قرباً للبرج وألقي في الفراغ الموجود في الخارج بين السور والآلة الحربية، وبعدما كدسوا كومة كبيرة من الحطب كانت كافية بتقديرهم لإحراق البرج، صبوا القار عليها والزيت وسوائل أخرى تزيد الحريق وأي شيء سيزيد من عنف الحريق، وما أن أشعلوا النيران حتى تحولت الرحمة السماوية نحونا لأنه بالرغم من أن ألسنة النيران ازدادت بشكل عنيف فوراً، فقد هبت ريح قوية من الشرق حولت ضراوة ألسنة النيران كلها نحو الأسوار، ثم دفعت هذه الريح بضراوتها الخاصة النار إلى السور وتولت عاصفة متواصلة استمرت طوال الليل تحويل السور إلى رماد، وفي حوالي الفجر انهار جزء كامل من السور واقع بين البرجين وأحدث ضجة أيقظت الجيش بأسره.

واصطدمت الكتلة عندما سقطت بالبرج بقوة كبيرة لدرجة أن بعض الأجزاء الضرورية من الآلة الحربية، التي لم تتمكن النيران الحربية من إلحاق الأذى بها، قد تحطمت، وسقط الحرس، الذين كانوا يقومون بواجبهم على سطح البرج وفي المناطق البارزة منه، إلى الأرض تقريباً، فأمسك الجيش بأسره بأسلحته بعدما أيقظه صوت الانهيار، واندفع إلى الموقع وهو متلهف للدخول حالاً وكأنما السماء قد فتحت مدخلاً له. وكان برنارد دي ترميلي مقدم الداوية قد وصل مع إخوانه إلى هناك قبل البقية بوقت كبير واستولى على الفتحة ولم يسمح لأحد غير جنوده بدخولها، واتهم بأنه أقصى الباقين حتى يتمكن شعبه من الحصول على الجزء الأكبر والأثمن من الأسلاب والغنائم[1] كونه أول من دخل الفجوة، لأن العادة حولت الأمر قانوناً بين المسيحيين حتى يومنا هذا أنه عندما يتم الإستيلاء بهجوم على المدينة، فإن أي شيء يستولي المرء عليه لدى الدخول يستطيع أن يحتفظ به بحق دائم لنفسه وورثته، ولو كان الجميع قد دخلوا في فرصة واحدة، لأمكن الاستيلاء على المدينة ولكانت المغانم كافية للجميع، لكن «من النادر أن تكون هنالك نهاية حميدة لمشروع سيء في بدايته وفاسد في غايته». لأن «المكسب المحقق بطريقة غير شريفة لا ينتج نتائج جيدة»[2] لقد رفضوا بسبب الطمع أن يسمحوا لرفاقهم أن يشاركوهم في الغنيمة، ولذلك تحملوا بعدل خطر الموت وحدهم، حيث لم يدخل سوى حوالي الأربعين رجلاً ولم يتمكن الباقون من اللحاق بهم.

كان السكان حتى هذا الحين قد خافوا على أرواحهم بالذات وكانوا مستعدين لتحمل إجراءات شديدة بدون مقاومة، لكنهم انقضوا على هؤلاء الجنود الأربعين بعدما أدركوا أنهم انعزلوا عن رفاقهم وهاجموهم بقوة وشجاعة متجددتين وقتلوهم، ثم حشدوا قواتهم وأمسكوا بالأسلحة، وكأنما بعثت الشجاعة فيهم مجدداً بعدما كانوا قد تخلوا عنها وكأنهم قد هزموا، واندفعوا جميعهم إلى الموقع الذي كان السور قد انهار فيه وسدوا الثغرة هناك بربط عوارض عملاقة مع كتل خشبية ضخمة مما وفرت السفن مقداراً كبيراً منه، وجعلوا الموقع منيعاً بحماسة بالغة.

ثم استعدوا للمعركة وجددوا القتال بعد أن عززوا الأبراج الواقعة بجانب المنطقة المحروقة على الجانبين، والتي كانوا قد تخلوا عنها بسبب ألسنة النيران العنيفة، وتحدونا للقتال طوعاً منهم وكأنهم نسوا الهزائم السابقة التي ألحقت بهم، هذا ولما شعر المقاتلون الموجودون في

(١) يعتبر لندغرين تهمة الجشع ضد الداوية انعكاساً لتحامل ولبم ضد هذه المنظمة وهو غير مسوغ تجاه الحقائق التي يمكن شرحها بطرق أخرى.

(٢) أوفيد: AM.I.X.48.

البرج والعارفون أن أسسه قد ضعفت وأن الجزء السفلي من الإطار الصلب قد أصيب بأضرار بالغة فقدوا الثقة وحاربوا بالتالي بقوة قليلة.

ولكي يحطم الأعداء معنوياتنا علقوا جثث قتلانا بالحبال من شرفات السور وأظهروا الابتهاج الذي كانوا يشعرون به بإطلاق كلمات وإشارات السخرية، غير أن حزناً عميقاً حل بسرعة محل هذا الابتهاج، وأظهرت الحوادث التي تلت بوضوح كم هو صحيح القول القائل: «قبل الكسر الكبرياء وقبل السقوط تشامخ الروح»(١).

وعلى العكس، كان المسيحيون مقهورين عقلاً وقلباً، وتغلب الحزن عليهم، وضعفت إرادتهم بمرارة الروح، وفقدوا كل أمل بانتصار جوهري.

٢٨ ـ المسيحيون يطمئنون مجدداً. ويتشجعون لمواصلة الحصار ويثابرون بحماسة أكبر من قبل.

في هذه الأثناء جمع الملك الزعماء بعدما روعته الكارثة الفظيعة، وعندما اجتمعوا في خيمته (وكان من بينهم البطريرك ورئيس أساقفة صور ومطارنة الكنيسة الآخرون) وضع أمامهم صليب الصلبوت المانح للحياة واستفسر بقلق عما يجب عمله في مثل هذا التغير الكبير للحظ، وعندما كانوا يتداولون بقلق بالغ، وبخوف من الرب نشأ انقسام بالرأي شطر المؤتمر إلى فريقين حيث أكد بعض المشككين بقوتهم للفوز بالمدينة وبينوا أنهم كانوا قد ضيعوا جهودهم عبثاً لفترة طويلة من الزمن هناك، وكانت قواتهم قد قتلت بأعداد كبيرة وجرح القادة أو أسروا ونفدت حتى مواردهم، وأكدوا أن المدينة كانت منيعة وأنه كان لدى السكان وفرة من كل السلع، وأن قوتهم تتجدد باستمرار بينما كانت قوتنا تضعف، ونصحوا بالعودة.

وأثار آخرون، كانوا ذوي تفكير أرشد بالمثابرة آملين برحمة الرب الذي لم يكن راغباً بالتخلي عن الذين كانوا يثقون به بصبر ورع، وقالوا إنه ما من فائدة بالنسبة لأي مشروع له بداية جيدة ما لم يصل إلى نهاية مشابهة، فقد تم بالفعل استخدام وقت كبير ونفقة عالية، إلا أن ذلك كان مع الأمل بتحقيق جزاء أكثر وفرة لم يحرمهم الرب منه على الرغم من أنه بدا مؤجلاً، لقد انهزمت قواتهم بالفعل، ومع ذلك فقد بقي لديهم الأمل في أنهم سيجدون بعثاً متألقاً لأن الوعد للمؤمنين هو: «سيتحول حزنكم إلى فرح»(٢). و«اسألوا تعطوا»(٣). ونصحوا، وهم يفكرون بهذه الطريقة، بعدم العودة وناضلوا لإقناع المسيحيين بالمواظبة

---

(١) الأمثال: ١٦/١٨. (٢) يوحنا: ١٦/٢٠. (٣) متى: ٧/٧.

كجنود أقوياء في هذه المهمة، وأيد غالبية الأمراء المدنيين رأي الزمرة الأولى، وبدا الملك أنه ميال نحو ذلك الرأي أيضاً بعدما أرهقه القدر المعاكس.

واتفق مع الزمرة المعاكسة كل من البطريرك ورئيس أساقفة صور وجميع الكهنة وأيضاً ريموند مقدم الاسبتارية مع إخوانه.

وهكذا، انقسم الاجتماع وقدم الجميع حججاً متنوعة تؤيد الآراء المعاكسة، غير أن الرحمة السماوية الموجودة معهم دائماً، جعلت رأي البطريرك يفوز لأنه بدا له ميزة كبرى ووعد بتحقيق مجد أكبر[1]، ولذلك تقرر بالإجماع العودة إلى الرب والمثابرة على المهمة التي كانوا قد باشروها حتى يزورهم ضوء النهار وينظر بتأييد إلى أعمالهم بعد التماسهم المساعدة من السماء.

وبناء عليه، أمسك الجميع، وهم مجمعون على هدف واحد، بأسلحتهم، وأمروا الأبواق أن تعلن الإشارة وهم عائدون إلى المهمة قيد الإعداد، واستدعت دعوة البوق مع صوت المنادي فوراً جميع الناس إلى المعركة، وحيث كان الناس متلهفين للانتقام لمظالم إخوانهم القتلى، فقد اجتمعوا أمام المدينة باتقاد غريب وتحدوا العدو للمعركة بنهم، ولدى معاينة صفوفنا، بدت وكأنها لم تكابد أية خسارة، أو كانت قد تلقت تعزيزات جديدة على الأقل، فاستولى على المسيحيين غضب جنوني لإبادة العدو وانقضوا على أفراده وهاجموهم بعنف شديد لدرجة أن العدو أصيب بالدهشة وصعق إزاء الدليل على قوتنا التي لا تقهر ومواظبتنا التي لا تغلب، وكانت جميع الجهود التي بذلها العدو عقيمة على الرغم من أنه بذل جهوداً يائسة للثأر بطريقة مماثلة، لأنه لم يتمكن من الصمود أمام صدمة جنودنا ولا أن يتجنب سيوفهم، لقد نشبت معركة ذلك اليوم بين قوى غير متكافئة على الإطلاق، غير أن الفرسان والجنود المشاة فازوا بأكاليل غار النصر وانتصروا على العدو في جميع المواقع.

وهكذا، وقعت مجزرة كبيرة بين صفوف العدو، وجرى تعويض الخسارة، التي كابدها المسيحيون قبل ثلاثة أيام، بمقادير مضاعفة كثيراً، فنادراً ما كانت هنالك أية أسرة في المدينة لم يصب أفرادها بكرب عميق، وامتلأت المدينة بالفوضى، وبدت المحن التي تمت معاناتها من قبل محناً خفيفة بالمقارنة مع الخطر الحالي، ولم يكونوا قد أصيبوا بكوارث مماثلة في أي وقت منذ بداية الحصار وحتى ذلك اليوم، كما لم يكونوا قد تحملوا خسائر مماثلة

---

(١) من المهم أن نشير في هذه المرحلة ليس فقط إلى مثال آخر للموقف العدواني القوي للبطريرك فولتشر، بل إلى تعاون فولتشر مع الاسبتارية الذين كانوا بشكل واضح المجموعة العسكرية الوحيدة المؤيدة بقوة العمليات المستمرة.

أبداً، فقد أبيدت صفوة مملكتهم وقتل حكام المدينة وباتوا في عوز إلى الرأي، وتناقصت شجاعتهم وتلاشى كل الأمر بالمقاومة.

وهكذا، تم إرسال عدد من قادتهم الرئيسيين إلى الملك بموافقة عامة كسفراء. وتوجب عليهم أن يطلبوا التوصل إلى هدنة مؤقتة من أجل تبادل جثث القتلى وليتمكن الجانبان من الحصول على الفرصة وكل حسب عادته الخاصة ـ لإقامة المراسم النهائية لأعمال دفن موائمة.

وافق المسيحيون على الشروط المعروفة، وجرى تبادل جثث القتلى ودفنت باحتفالات مهيبة.

٢٩ ـ استسلام أهالي عسقلان لليأس، وتقريرهم بالإجماع الإستسلام.

عندما رأى أهالي عسقلان الدليل على المجزرة التي تعرض لها حشدهم وأدركوا وعرفوا مدى القوة التي أرسلها الرب ضدهم تجدد حزنهم وازداد ذعر قلوبهم وتلاشت شجاعتهم بمقدار حجم محنهم. وعلاوة على ذلك، ولكي تتوج المحن التي أصيبوا بها، نزلت بهم كارثة أخرى في ذلك اليوم، فقد حدث أن أربعين جندياً من جنودهم الشجعان كانوا يسحبون عارضة ضخمة إلى موقع كان بحاجة إليها عندما سقطت صخرة ضخمة كانت مقذوفة من آلة القذف الحربية، التي كانت عندنا، على العارضة وسحقتها تماماً مع الجنود الذين كانوا ينقلونها.

ثم جمع زعماء المدينة الباقون على قيد الحياة الناس مع بعضهم بعضاً وهم يشعرون بالمرارة في أفئدتهم ويناضلون تحت عبء المحن الثقيلة، فاجتمعوا وهم يبكون ويطلقون صيحات العويل، وكان بين الحشد نسوة ضممن أطفالهن إلى صدورهن، ورجال ضعفاء مسنون كادوا يلفظون أنفاسهم، ثم تحدث بناء على موافقة الجميع بعض الرجال الحكماء والأعيان إلى الناس المجتمعين على النحو التالي: «تعرفون يا أهالي عسقلان، أنتم الذين تقيمون وراء هذه الأبواب، وما من أحد يعرف أفضل منكم، كيف كنا قد خضنا كفاحاً خطيراً وصعباً لمدة خمسين عاماً ضد هؤلاء الناس المروعين والمصرّين على هدفهم، وتعرفون تماماً وبتجربة فعلية كم مرة أطاحوا بزعمائنا في المعركة، وكم مرة جدد أبناؤنا الكفاح لرد أذاهم بعدما أخذوا مواقع آبائهم، ودفعنا في ذلك دائماً الأمل بالمحافظة على هذا الموقع الذي ترعرنا فيه، وبالدفاع عن زوجاتنا وأبنائنا وعن الفضيلة الأعظم بكثير إلا وهي الحرية، لقد استمر هذا الكفاح لمدة أربع وأربعين سنة، منذ الوقت الذي باغتنا فيه ذلك الشعب المزعج جداً بالنسبة لنا، والذي قدم من أبعد مناطق الغرب واستولى بقبضة قوية وبعنف على المنطقة بأسرها شروعاً من طرسوس في كليكية وحتى مصر، وبقيت هذه المدينة وحدها وبسبب

الجهود الشجاعة التي بذلها أجدادنا سليمة في وسط أعداء أقوياء كهؤلاء حتى اليوم الحالي، إلا أنه يمكن اعتبار المخاطر التي كابدناها حتى الوقت الحالي مخاطر صغيرة أو لا شيء عند مقارنتها مع المخاطر التي تهددنا الآن، وجميعنا عاقدون العزم على المقاومة حتى الآن، إلا أن الجيش قد هلك ونفدت المؤن وعبء المشقات الثقيل لا يحتمل، كما أن حشود العدو القوي مستعدة دائماً ومواظبة للغاية، وقد أضعفت غاراتهم المستمرة قوتنا العقلية والجسدية على حد سواء، وحرمتنا من القوة لمواصلة النضال.

«وبناء عليه يبدو من الموائم لزعماء عسقلان، أن توافقوا أنتم أيضاً، في أن نحاول تخليص أنفسنا من معاناتنا الحالية في هذا الوقت، ولنرسل مبعوثين باسم جميع الناس إلى ذلك الملك القوي الذي يحاصرنا، ولنبذل الجهود في سبيل الحصول على شروط محددة بالاذن لنا بالرحيل بحرية مع زوجاتنا وأبنائنا وعبيدنا وامائنا وجميع ما نمتلك، وسنوافق من جانبنا بالمقابل على تسليم المدينة له ـ إننا نقول هذه الكلمات بحزن ـ لننهي هذه المحن الرهيبة[1].

٣٠ ـ إرسال مندوبين مختارين من الرجال القياديين إلى الملك. حصولهم منه على إذن بالرحيل بحرية مع زوجاتهم وأبنائهم وجميع ممتلكاتهم. تسليم المدينة.

بدا هذا الخطاب جيداً في نظر الجميع، وتمت الموافقة عليه بصيحات الموافقة العالية كما هو مألوف في ظروف كهذه، واختير رجال حكماء وعقلاء وذوو مظهر موقر ومبجل من الشعب لينقلوا إلى الملك ونبلائه الإقتراح الذي كانوا قد توصلوا إليه، وانطلق هؤلاء المندوبون من الباب عندما استلموا الاذن بالتقدم واقتربوا من حضرة الملك.

عندما اجتمع الأمراء جميعاً استجابة لطلب المبعوثين، وضع الإقتراح أمامهم وشرحت الشروط التي وضعت بالتفصيل، ثم طلب من المندوبين الإنسحاب لفترة من الزمن بينما يتشاور الملك مع مستشاريه القياديين، ويستمع إلى آرائهم حول عرضهم، وقد انفجروا بدموع الفرح وردوا بعيون وأيد مرفوعة عالياً إلى السماء الشكر العميق لخالقهم الذي تفضل بمنحهم معروفاً وافراً كهذا، مع أنهم كانوا لا يستحقون ذلك.

ثم جرى استدعاء الرسل، وقدمت لهم إجابة جماعية، في أنه ستقبل الشروط التي عرضت إذا ما قاموا بإخلاء المدينة بأسرها في غضون الأيام الثلاثة القادمة، ووافق المبعوثون على هذه الشروط، وطلبوا تأكيدها بأداء يمين لإعطاء القوة للإتفاقية، وهكذا أدي قسم بإجلال لائق، ووعد الملك وبعض خيرة نبلائه بأنهم سينفذون جميع شروط الإتفاق المذكور

---

(١) من البديهي اعتبار هذا الحدث من نسيج خيال وليم، وهو بذلك يقدم مثالاً ممتعاً لتقديره المتعاطف لمأزق العدو.

من قبل بإخلاص ودون نوايا شريرة، ثم سلموا الرهائن التي كان الملك قد طالب بها بالذات، وعادوا إلى ديارهم بابتهاج، ورافقهم عدد من الفرسان المسيحيين ليضعوا راية الملك فوق البرج العلوي في المدينة كعلامة على النصر.

عندما رأى جيشنا ـ الذي كان ينتظر بتوقع وتلهف ـ الرايات الملكية ترفرف من الأبراج العلوية انفجروا بصراخ صدر عن الجماعة المسرورة، وارتفعت صيحات الشكر إلى السماء ترافقها الدموع وكأنها صادرة عن صوت واحد يقول: «تبارك الرب الذي لم يتخل عن الذين وثقوا به، وتبارك اسم جلالته المقدسة لأننا شاهدنا أشياء رائعة اليوم».

وعلى الرغم من أن أهالي عسقلان حصلوا، حسب الإتفاقية، على هدنة لمدة ثلاثة أيام متتالية، إلا أنهم خافوا كثيراً من وجود المسيحيين لذلك أتموا جميع استعداداتهم في غضون يومين، ثم استعدوا للرحلة وانطلقوا مع زوجاتهم وأبنائهم وعبيدهم وجواريهم وكافة أنواع ممتلكاتهم، وزودهم الملك، حسب الإتفاق، بالمرشدين حتى مدينة العريش القديمة الواقعة في الصحراء وأرسلهم بأمان.

ثم إن الملك والبطريرك بمرافقة أمراء المملكة الآخرين ومطارنة الكنيسة مع جميع الكهنة وسائر الناس دخلوا المدينة بالتراتيل والأناشيد الروحية وبقيادة صليب الصلبوت، ونقل الصليب إلى المسجد الرئيسي للمسلمين وكان مبنى فائق الجمال تم تكريسه فيما بعد على اسم الرسول بولص تشريفاً لذكراه، وانسحب الجميع إلى الأحياء المخصصة لهم بعدما احتفلوا بالطقوس السماوية وقدموا صلوات الشكر هناك، وأمضوا يوماً بهيجاً وجديراً بأن يذكر إلى الأبد [١].

ونظم البطريرك في غضون أيام قليلة بعد ذلك الكنيسة في عسقلان، وعين هنالك عدداً محدداً من الكهنة وخصهم بدخل ثابت حمل اسم أوقاف كنيسة، كما عين أسقفاً لمدينة عسقلان شخصياً يدعى أبسالوم وكان كاهناً نظامياً في كنيسة قبر المسيح على الرغم من أن جيرالد أسقف بيت لحم احتج بقوة ضد هذا التعيين وحرّم تنفيذه، ثم احيلت القضية بدعوى استئناف إلى البابا في روما، فعزل البابا الأسقف الذي عينه البطريرك ومنح لأسقف بيت لحم

---

(١) كان وليم قد رأى هذه البيعة قبل كتابته لهذا الوصف، الذي يعتبر دليلاً آخر على اهتمامه الغريب بفن العمارة. وتوحي قوة وصفه للحصار أن وليم نفسه كان موجوداً خلال قسم منه مع أنه لا يشير إلى وجوده في أي مكان. وكان آنذاك في حوالي الثالثة والعشرين من عمره وكان لا يزال طالباً، وربما في القدس التي لم تكن بعيدة جداً.

الكنيسة الموجودة في عسقلان مع سائر ممتلكاتها ليحتفظ بها وبالكنيسة في بيت لحم بحق دائم[1].

وتلبية لنصيحة والدته، وزع الملك الممتلكات الواقعة داخل المدينة وخارجها مع المناطق التابعة لها مباشرة على أولئك الذين كانوا يستحقونها عن جدارة، وباع قسماً منها إلى بعضهم[2]. ووهب بسخاء مدينة عسقلان إلى أخيهعموري كونت يافا. لقد تم الإستيلاء على عسقلان في الثاني عشر من شهر آب في العام ١١٥٤ لتجسيد الرب وفي العام العاشر لحكم الملك بلدوين الثالث[3].

حلت كارثة محزنة بسكان مدينة عسقلان التعسة أثناء رحلتهم إلى مصر، فعندما رحل الجنود الذين كان الملك قد عينهم ليرشدوهم في طريقهم وليمنعوا من التحرش بهم من أي كان، فقد هاجم النازحين شخص يدعى «نوقونيوس» وهو تركي الأصل، وكان قوياً باستخدام السلاح إلاّ أنه كان صاحب حياة شريرة وغير مخلص على الإطلاق، وكان هذا الرجل قد شاركهم مشقاتهم، وكان قد حارب معهم لفترة طويلة من الزمن بشكل مأجور، وتظاهر بأنه رغب بمرافقتهم في الرحلة إلى مصر، إلا أنه عندما رأى أن المرشدين قد تركوهم، رمى بازدراء جانباً جميع النوايا الطيبة والصفات الإنسانية وهجم عليهم، ثم رحل بعد أن سلبهم جميع ممتلكاتهم وتركهم يجوبون في الصحراء[4].

انتهى هنا الكتاب السابع عشر

(١) انعكست العلاقة بين بيت لحم وعسقلان من تنظيمها التقليدي، هذا وقد ثارت هذه المشكلة خلال الحملة الصليبية الأولى، وتأسست السابقة عندئذ للعمل الباباوي [انظر الكتاب ٩ الفصل ١ الحاشية ٢ والكتاب ١١ الفصل ١٢] وربما أمكن المحافظة على عسقلان كأسقفية منفصلة إلا أن احتجاجات جيرالد ورالف الذي أصبح خلفاً له في الأسقفية في بيت لحم نجحت في جعلها خاضعة لذلك المقر. وحسم القضية وقررها البابا هادريان الرابع.

(٢) من المهم أن نلاحظ أن والدة الملك لم تكن قد فقدت اهتمامها بإدارة الأمور على الرغم من هزيمتها قبل عام أو عامين، ويعكس بيع الامتيازات، الذي أشار إليه وليم، أهمية العنصر التجاري في الدول اللاتينية.

(٣) يمكن للأخطاء في هذا التاريخ أن تكون بسبب الناسخين، ويجب أن يكون العام ١١٥٣ وربما يوم الشهر هو ٢٢ آب بدلاً من ١٢ (انظر ستيفنسون الصليبيون ص ١٧١ حاشية ٣).

(٤) لا تذكر أية روايات أخرى حادث Nocquinus هذا، إلا أن من المحتمل أن غزوات كهذه كانت شائعة للغاية لهذا لم تكن لتثير التعليق من قبل المؤرخين العرب مع أن هذه الغزوة قد أثارت بالفعل تعاطف وليم.

الكتاب الثامن عشر

القدس اللاتينية في أوجها في ظل بلدوين الثالث: الإنجذاب نحو مصر

١ - أرناط يسيء معاملة بطريرك إنطاكية بشكل معيب. التجاء البطريرك إلى المملكة. انتشار مجاعة خطيرة في المنطقة.

كان أرناط قد تزوج من أرملة ريموند أمير إنطاكية، كما ذكرت ذلك من قبل، وكان قد أدرك منذ البداية أن هذا الزواج لم يكن مرضياً للبطريرك، وبالنظر لاستمرار البطريرك بالإصرار على الموقف ذاته، فقد نظر أرناط بإرتياب إلى كل ما كان يفعله[١]، كما أن البطريرك، الذي كان رجلاً قوياً وثرياً جداً والذي كان يتمتع بسلطة متفوقة عبر بجرية مراراً عن آرائه علناً، وخاصة حول أرناط وأفعاله، وكما هو الحال كالمعتاد فقد قام أشخاص - سعوا لزيادة الكراهية بين الأمير والبطريرك - بنقل هذه التعليقات إلى الأمير، وهكذا استشاط أرناط غيظاً وغضب غضباً شديداً، وأمر باعتقال البطريرك، ونقله بشكل مهين إلى القلعة التي تطل على انطاكية، ثم ارتكب عملاً بغيضاً للغاية بأن أجبر البطريرك المسن، خليفة بطرس رئيس الرسل، وعلى الرغم من أنه كان مريضاً لدرجة أن الأمل في شفائه يكاد أن يكون معدوماً، أمره أن يجلس تحت الشمس الملتهبة طوال يوم من أيام الصيف ورأسه المكشوف مغطى بالعسل، ولم يقدم له أحد، من أجل التقوى، أية نجدة من أشعة الشمس القاسية أو حاول أن يبعد الذباب عنه.

عندما وصل نبأ هذه الإهانة إلى ملك القدس، تملكه الرعب والغضب إزاء التصرف الجنوني للأمير الأحمق، وبما أنه لم يتمالك نفسه من الغضب، فقد أرسل إلى أرناط اثنين من المبعوثين المبجلين هما: فريدريك أسقف عكا والمستشار رالف، وحملا له رسالة أنب فيها الملك - استناداً لسلطته الملكية - الأمير لعمله الشائن وحذره وطالبه بالعدول عن أساليبه الشريرة، وأطلق الأمير، بعد استماعه للرسولين وقراءة رسالة الملك، سراح البطريرك بعدما أمطره بوابل من الشتائم، وأعيدت أيضاً الممتلكات التي كانت قد أخذت من البطريرك وشعبه، هذا

---

(١) امتدت هذه المشاجرة بين أرناط والبطريرك ايمري لعدة سنوات، ومن المؤكد أن السبب الذي دفع وليم لوضعها هنا هي الحقيقة أن أرناط تزوج من كونستانس في عام ١١٥٣. هذا وأن الحوادث التي يسردها امتدت حتى عام ١١٦٠ إذا لم يكن إلى ما بعد ذلك.

وغادر في نهاية الأمر البطريرك منطقة إنطاكية،وذهب إلى مملكة القدس فاستقبله الملك وزوجته ووالدته بصدر رحب، واستقبله أيضاً البطريرك وجميع أساقفة المملكة وبقي هنالك لعدة سنوات.

انتشرت في العام اللاحق مجاعة خطيرة في سائر المنطقة[1]، فقد أزال الرب الممتلىء بالحقد نحونا دعامتنا الأساسية، أي الخبز، إلى درجة بيع فيها مكيال القمح بأربع قطع ذهبية، وفي الواقع، لو لم يكن قد تم العثور على كميات كبيرة من الحبوب في عسقلان عندما تم الإستيلاء عليها، لاجتاحت المجاعة المنطقة ولهلك جميع الناس تقريباً، لقد بقيت الحقول الواقعة حول عسقلان بدون زراعة لمدة خمسين عاماً بسبب الخوف من الحروب، إلا أن المنطقة أصبحت تحت رعاية المزارعين خلال الأعوام اللاحقة للإستيلاء عليها، وتمكن أهالي تلك المنطقة من زراعة الأرض بحرية بعدما تخلصوا من الخوف من العدو، وهكذا نعمت المملكة بأسرها بوفرة كبيرة إلى حد يمكن فيه تسمية جميع الأعوام السابقة مجدبة وعقيمة بالمقارنة مع الحاضر، ولقد احتفظت التربة بداخلها بكل طاقتها لأنها لم تزرع لفترة طويلة من الزمن وكانت محرومة من عناية الحراثة، واستجابت بالنتيجة لعناية المزارعين بفائدة مضاعفة وأنتجت محاصيل تضاعفت ستين مرة.

٢ ـ اختيار هادريان بابا إثر وفاة أناستاسيوس. تتويج الإمبراطور فريدريك في روما. نشوب عداوة خطيرة بين البابا ووليم ملك صقلية.

في الوقت الذي كانت هذه الحوادث تأخذ مجراها في الشرق توفي البابا أناستاسيوس الرابع في روما، وعين بدلاً عنه هادريان الثالث [هادريان الرابع][2] وكان هذا البابا انكليزي المولد من قلعة القديس ألبانز، وكان راعياً للكهنة النظاميين في كنيسة القديس روفوس الواقعة بالقرب من مدينة أفيغنانون في بروفانس في أبرشية الآرلز، وقد استدعي من هنالك إلى كنيسة روما من قبل البابا يوجينيوس صاحب الذكرى الورعة، ورسم أسقفاً لألبانز باسم نيقولاس، ثم أرسل أناستاسيوس خليفة البابا يوجينيوس كممثل باباوي إلى

(١) مجاعة عام ١١٥٤ هذه مذكورة أيضاً بأنها حدثت في دمشق في ذلك العام. إلا أن ابن القلانسي يعزوها آنذاك إلى حصار متعمد لدمشق من قبل نور الدين الذي منع التصدير العادي للحبوب من الشمال (تاريخ دمشق، ص٣١٧).

(٢) هادريان الرابع (وليس الثالث) انتخب نيقولا بريكسبير بابا في حوالي نهاية عام ١١٥٤، وكان البابا الوحيد حتى ذلك الحين من أصل انكليزي. كما أن الأحداث الرئيسة في حياته كما هي معطاة هنا صحيحة فعلياً مع أن مكان مولده يقدم عادة بأنه لانغلي بالقرب من سانت ألبانز (انظر معجم التراجم القومية والموسوعة الكاثوليكية).

النروج التي تعتبر من أبعد أقاليم الغرب، وكان لدى عودته بعد وفاة هذا البابا، موجوداً في الإنتخاب وقد اختير بالإجماع من قبل رجال الدين والناس كبابا ومنح اسم هادريان.

وحدث في هذا العام نفسه أن نزل فريدريك ملك التيوتون إلى إيطاليا بقوات ضخمة، على الرغم من أنه لم يكن قد أصبح إمبراطوراً بعد، وحاصر تورتونا وهي إحدى مدن لومبارديا، واستمر الحصار لفترة طويلة من الزمن، إلا أنه قرر الذهاب إلى روما وأن يتوج إمبراطوراً هناك بعدما تم الإستيلاء على المدينة في آخر الأمر [١].

ونشب خلال الوقت نفسه عداء خطير أيضاً بين البابا هادريان، الذي نحن بصدده الآن، وبين وليم ملك صقلية، ابن روجر ذي الذكرى الطيبة، وقد صدر هذا العداء عن أسباب مختلفة، وقد وصل الخلاف بين الرجلين إلى درجة العداء العلني إلى حد أن البابا أصدر عقوبة الحرمان الكنسي ضد الملك، وشن حرباً ضروساً ضده [٢].

ومهما يكن من أمر فإن فريدريك المصمم على بلوغ هدفه حث الخطى على طريقه وزحف في غضون أيام قليلة من لومبارديا إلى روما حيث أثار وصوله المفاجيء بعض الريبة في ذهن البابا والكنيسة الرومانية بأسرها، إلا أنه تم في آخر الأمر، وعن طريق بعض الوسطاء، ترتيب الشروط المعتادة، وتُوج فريدريك في السادس والعشرين من شهر حزيران وباحتفال مهيب في كنيسة بطرس وأعلن امبراطوراً [٣].

وبعد مضي ثلاثة أيام على يوم عيد الرسولين بطرس وبولص المتزين بالشارة الإمبراطورية؛ والبابا، المرتدي للطرز المميزة للمنصب البابوي الأسمى حشدا قواتهما في موقع يسمى «جسر لوكان» بالقرب من مدينة تيفولي، وتقدما في طريقهما مع بعضهما من هناك وسط الكهنة وعامة الناس المبتهجين والغار يتوجهما، وانفصلا عن بعضهما عند انتهاء العيد الديني وهما على وفاق طيب، وأسرع الإمبراطور إلى أنكونا حيث تطلبت حضوره شؤون

---

(١) تم الإستيلاء على تورتونا في ١٨ نيسان من عام ١١٥٥ بعد حصار دام تسعة أسابيع، وانتقل فريدريك، بعد استراحة قصيرة في جنوا، إلى روما وزار عدداً من المدن بما فيها بولونيا على الطريق (انظر: H.Simon Feld, Johrbucher des deutschen Reiches unter Friederich 1, I, 301 - 36).

(٢) كانت المشاكل بين وليم الأول صاحب صقلية والباباوية قد بدأت قبل انتخاب هادريان الرابع، ورفض هادريان الاعتراف بوليم كملك وواصل الصراع الذي أصبح الآن حرباً عليه (انظر ف.شالدون- الحكم النورماندي في صقلية وايطاليا: ٢/١٩٤ ....)

(٣) ترافق اجتماع هادريان وفريدريك مع سلسلة من سوء التفاهم. كما أن الحادث المشهور لرفض فريدريك الامساك بركاب البابا حدث في هذا الوقت. وحدث تتويج فريدريك كامبراطور قبل وقت قليل بعض الشيء من التاريخ الذي قدمه وليم أي ١٨ حزيران ١١٥٥ (انظر: Simonsfeld, Jahrbucher, 1, 335 - 336).

الإمبراطورية وتقدم البابا إلى المنطقة المجاورة لروما حيث أقام لبرهة من الزمن في مدن الهضبة.

كان ملك صقلية قد أمر نبلاءه في هذه الأثناء بحصار مدينة بينيفنتو التي كانت الملكية الخاصة للكنيسة الرومانية، وأن يطوقوا المدينة بإحكام بالقدر الممكن؛ فغضب البابا بشكل يفوق الحدود إزاء هذا العمل، وحاول تحريض نبلاء الملك ضده لأنه كان راغباً برد المعاملة السيئة بإجراء مماثل، ولم تخفق أمانيه في تلك الناحية فقد لاقت جهوده النجاح لأنه أقنع روبرت صاحب باسافيلا الذي كان الكونت الأقوى في صقلية ابن خالة الملك ونبلاء آخرين أيضاً ليثوروا ضد سيدهم بتعهده أنهم لن يفتقروا أبداً إلى مساعدة الكنيسة الرومانية ومشورتها [1]. وعلاوة على ذلك أقنعت نصائح البابا الكثير من النبلاء البارزين والمشهورين، الذين كان وليم ووالده قد حرموهم من ميراثهم وطردوهم ونفوهم من المملكة، بالعودة إلى المملكة واستئناف حيازة الممتلكات التي كانت تنتمي إليهم بحق وراثي، وكان بينهم روبرت أوف سورنتو وأمير كابوا، والكونت أندرياس أوف راباكاندنا وآخرون كثر. وقدم البابا تأكيده المهيب إلى جميع هؤلاء بأن كنيسة روما لن تخذلهم أبداً، ولم يكتف بهذه الوعود، بل زاد فحث كلا من امبراطور الرومان الذي كان ما يزال في إيطاليا علانية وبكلمات شفوية، وامبراطور القسطنطينية برسائل سرية أرسلها إليه للإستيلاء على مملكة صقلية [2].

٣ ـ نشوب خلاف بين البطريرك وإخوانية الإسبتارية حول مسألة العشور. وحول بعض الأضرار التي ألحقها ذلك التنظيم بالكنائس.

بينما كانت الكنائس في إيطاليا في هذه الحالة غير المستقرة وكذلك الأحوال في صقلية كانت مضطربة لم تكن منطقتنا في الشرق خالية بدورها من الإضطراب ففي الوقت الذي تم فيه بتأييد السماء استرجاع مدينة عسقلان إلى المسيحيين؛ وعندما كانت أمور المملكة تتقدم بشكل سار أيضاً حيث توفرت المحاصيل بدأ عدو الإنسان الحاسد للهدوء المكلف من الرب بإثارة الضغائن، فقد شرع ريموند مقدم بيت الإسبتارية، الذي كان ممتلئاً مع إخوانه بالحيوية نفسها أيضاً (على الرغم من أنه بدا في جوانب أخرى أنه كان رجلاً متديناً ويخاف

---

(١) خلقت ثورة ابن عم وليم روبرت أوف لوريتلو ونبلاء آخرون من جنوب إيطاليا وضعاً خطيراً كان بإمكان فريدريك بربروسا أو مانويل أن ينالا فيه نفوذاً حاسماً، وكان ممثلو مانويل سريعين بالاستفادة من الوضع، مع أن مانويل كان منشغلاً للغاية في مكان آخر حتى ليقوم بإرسال أي جيش له قدرته.

(٢) من غير المؤكد فيما إذا تفاوض هادريان مع الاثنين في الوقت نفسه أو مع مانويل بعدما كان فريدريك قد أشار إلى عجزه عن التدخل في ذلك الوقت، وهنالك سؤال عما إذا كان الأول أو الأخير قد أخذ المبادرة في العمل لإقامة العلاقات بين هادريان والاغريق (انظر شالدون ـ آل كومينيين: ٣٥٨/٢ ـ ٣٦٠).

الرب)، بدأ يسبب متاعب جمة للبطريرك ومطارنة الكنيسة الآخرين حول قضايا ذات طبيعة إدارية كنيسة، ومسائل تتعلق بالعشور،وكان الإسبتارية معتادين على أن يستقبلوا في الإحتفال بالقربان المقدس الناس بدون تمييز أو مناقشة واستقبلوا حتى الذين كان أساقفتهم قد فرضوا بحقهم عقوبة الحرمان الكنسي، أو حرموا بالاسم، والذين فصلوا عن الكنيسة عقاباً لآثامهم، ولم يرفضوا تقديم قربان الموت والمسح المتطرف بالزيت لهؤلاء الأشخاص أنفسهم عند مرضهم، ولم يحرموهم من الدفن، وعندما كان يفرض الصمت على جميع الكنائس أو على كنائس مدينة أو على قلعة ما بسبب جرائم ارتكبت، فقد كان الإسبتارية معتادين على قرع نواقيسهم والمناداة بشكل أعلى من المعتاد لاستدعاء المفروضة بحقهم عقوبة الحرمان الكنسي لحضور الطقس الديني، وكانوا يفعلون هذا حتى يتمكنوا هم أنفسهم من الإستمتاع بالقرابين وعائدات أخرى كانت تخص الكنائس الأم بعدل بحيث يتمكنون من السرور وحدهم عندما يكون الآخرون يتألمون[1] ونسوا أقوال الواعظ الشهير الذي قال: «فرحاً مع الفرحين وبكاء مع الباكين»[2].

وعلاوة على ذلك، فلم يقدموا كهنتهم إلى أسقف الموقع حسب الحكم القديم للقوانين الكنسية المقدسة ليتمكنوا من الحصول على موافقة أسيادهم لإقامة الشعائر المقدسة في أبرشياتهم، كما لم يخبروا أساقفتهم عندما لزم عزل أحد الكهنة من أبرشية ما سواء أكان ذلك بعدل أو بظلم ورفضوا بشكل قاطع تقديم العشور من إقطاعاتهم الخاصة ومن جميع العائدات المنقولة إليهم بأي حق كان، وكان لدى جميع الأساقفة هذه الشكوى ضدهم. كما كابدت جميع الكنائس الكاتدرائية الموجودة في كل مكان من هذه الخسارة نفسها، هذا وقد نفذوا الخطأ الأكثر إفراطاً من جميع الأخطاء ضد البطريرك والكنيسة المقدسة في القدس، وكان عملاً بغيضاً بالنسبة لجميع المسيحيين. فقد بدأوا يشيدون أمام الأبواب نفسها لكنيسة القيامة المقدسة صرحاً أعلى بكثير وأكثر كلفة من تلك الكنيسة التي كان الدم النفيس لمنقذنا المعلق على الصليب قد كرسها ـ وذلك ليظهروا احتقارهم الوقح للكنيسة التي قدمت للمنقذ قبراً مرضياً ضمن جدرانها بعدما كابد من ألم الصلب[3].

(١) كان ينشأ بالعادة خلاف كبير بين رجال الدين المدنيين والنظاميين بعد فترة قصيرة من تأسيس كل نظام كهنوتي جديد. وتفاقم هذا بالتحرك الأكبر للأنظمة الأخيرة. وعندما أعطيت الأنظمة العسكرية الحق في تعيين قساوستها وبإعفائها من طاعة المطارنة المحليين، فإن أمثلة تضارب السلطان القضائي كانت مؤكدة، ويسرد وليم هنا قائمة تامة تقريباً عن المظالم التي أثارها المطارنة المحليون ضد الأنظمة العسكرية.

(٢) الرومان: ١٢/ ١٥.

(٣) كان هذا البناء الرئيسي للاسبتارية في القدس، وربما في فلسطين بأسرها، وتوجب أن يكون كبيراً ليلبي =

وعلاوة على ذلك، فقد حاولوا إعاقة إقامة القداس المناط بالبطريرك كلما خرج للتحدث إلى الناس وحسب العادة، من الموقع الذي عُلق فيه منقذ الجنس البشري من أجل خلاصنا، وجلب بذلك فداءً تاماً للعالم بأسره، حيث كانوا يقرعون نواقيسهم الضخمة بمكر مقصود وبشكل عال جداً ومستمر بحيث تعذر على صوت البطريرك أن يرتفع على الضجة، كما لم يتمكن الناس من سماعه على الرغم من الجهود التي كان يبذلها البطريرك لإسماعهم، واشتكى البطريرك للسكان مراراً ضد السلوك المهين للإسبتارية الذي كان واضحاً تماماً، ومع ذلك، فقد ظلوا متشبثين بموقفهم على الرغم من أن الكثيرين رجوهم بالتوقف؛ وهددوا أيضاً بأنهم سيستخدمون في نهاية الأمر إجراءات أقوى أيضاً، ونفذوا هذا التهديد لأنهم واصلوا وقاحتهم إلى حدود كبيرة، إلى درجة أنهم تسلحوا بروح العنف الوقح واقتحموا الكنيسة حبيبة الله كما يقتحمون منزل شخص عادي، وأطلقوا وابلاً من السهام وكأنهم يطلقونه على وكر اللصوص، فجمعت هذه السهام فيما بعد بحزمة، ورأيناها بأنفسنا مع آخرين كثيرين وهي متدلية من حبل أمام موقع الجلجلة، وهو الموضع الذي صُلب فيه المسيح[1].

ويعتقد الذين أجروا دراسة دقيقة لهذا الموضوع أن الكنيسة الرومانية كانت مسؤولة بشكل رئيسي عن هذا الإثم الكبير، مع أن ذلك كان كما هو محتمل دون تعمد ودون إعطاء أي اهتمام إلى الامتياز الذي طولب به، لأن الكنيسة هي التي نقلت بجور بيت الاسبتارية من سلطة بطريرك القدس الذي كان خاضعاً له بعدل[2]، ولهذا السبب، ليس لدى الاسبتارية توقير للرب أو تقدير لأي إنسان باستثناء الذين يخافونهم، ومع ذلك، فإننا نتهمهم بأجمعهم ـ ودون تمييز ـ بالعجرفة، وهو إثم بغيض جداً بالنسبة للرب وأصل لجميع الرذائل، وبالفعل، إننا نعتقد أنه سيكون من المستحيل تقريباً في جماعة كبيرة كهذه أن يتمكن الجميع من سلوك السبيل ذاته دون انحراف في المسلك.

= حاجاتهم المتزايدة، ولإيواء فرسانهم والإعتناء بالمرض ومصالح أعمالهم، ووصفه الحاخام بنيامين الطليطلي، الذي زار القدس في حوالي عام ١١٦٣، بأنه كان يستوعب أربعمائة فارس بالإضافة إلى المرضى والحجاج الزائرين. وربما لم يكن بالنية أية إساءة بهذا التوسع في بنائهم، إلا أن المطارنة فسروه على هذا الشكل خلال الشجار.

(١) سيبدو اعتداء كهذا بأنه يمثل مرحلة متقدمة في الخلاف بين الاسبتارية والكنيسة العلمانية بالقرب من زمن مناشدة روما. ويشهد الحادث على وجود وليم في القدس في حوالي هذا الوقت.

(٢) الإشارة إلى الامتيازات البابوية المختلفة من أنوسنت الثاني ٢٩ آذار عام ١١٣٩ وإلى امتيازات أناستاسيوس الرابع في ١٧ شباط عام ١١٥٤ واشتملت كل واحدة من هذه الهبات على توسيع للإمتيازات، ومن المؤكد أن الامتياز الممنوح من أناستاسيوس الرابع هو الذي عجل الاضطراب في القدس (انظر ف.لندغريف: وليم الصوري والداوية ـ الملحق الأول: ١٨٣ ـ ١٨٥).

ولكي نشرح في هذا الكتاب كيف تطور هذا المقر من بداية بسيطة وأصبح قوياً جداً، وكيف تصرّف بجور ولا يزال مستمراً بالعمل ضد كنائس الرب، من الضروري أن نبدأ القصة من وقت سابق إلىٰ حد ما، لأننا سنحاول بعون الرب أن ننفذ هذا دون انحراف عن الحقيقة بتاتاً.

٤ ـ أصل بيت الاسبتارية وتطوره.

تبعاً لروايات المؤرخين القدامى أصبحت قوة أهالي الجزيرة العربية أيام هرقل امبراطور الروم كبيرة جداً ضده وبالمحصلة سقطت مملكة القدس مع سائر سورية ومصر والأقاليم المتاخمة في أيدي أعداء العقيدة والاسم المسيحي بسبب آثامنا، ومع ذلك وعلى الرغم من أن الأماكن المقدسة أصبحت بالتالي تحت سلطة العدو من وقت لآخر، فقد قام اناس كثيرون بزيارتها من الغرب من أجل العبادة أو العمل، وربما من أجل الاثنين، وكان بين الذين غامروا من الغرب في ذلك الوقت في الذهاب إلىٰ الأماكن المقدسة من أجل التجارة بعض الرجال الايطاليين، والذين كانوا يعرفون باسم الأمالفيين وهو اسم مستمد من اسم مدينتهم[١].

تقع مدينة أمالفي بين جبال شامخة وبين البحر، وتقع مدينة سالرنو النبيلة إلىٰ الشرق وعلىٰ بعد نحو سبعة أميال من البحر؛ وتقع إلىٰ الشرق كل من سورنتو ونابولي مدينة فرجيل؛ وإلىٰ الجنوب وعلىٰ بعد نحو مائتي ميل عَبْرَ بحر تيراهينيان تقع صقلية[٢]، وكما ذكرت من قبل، كان أهالى مدينة أمالفي أول من حاول نقل السلع الأجنبية إلىٰ الشرق. التي لم تكن معروفة بالنسبة له حتى الآن وذلك ليكسبوا المال، وحصلوا بسبب المواد الضرورية التي جلبوها إلىٰ هناك علىٰ شروط مواتية جداً من الرجال الرئيسيين في تلك المناطق، وسُمح لهم بالقدوم إلىٰ هناك بحرية؛ وكان الناس ميالين إليهم بشكل إيجابي[٣].

كان حاكم مصر يحتفظ في تلك الحقبة بسائر المنطقة الساحلية الممتدة من مدينة جبلة

---

(١) كانت أمالفي إحدى المدن الرئيسة من منطقة غرب المتوسط قبل الحملات الصليبية، وكانت تابعيتها للقسطنطينية، إلا أنها كانت مستقلة عملياً. (انظر فون هايد: تاريخ التجارة في الشرق خلال العصور الوسطى: ١/٩٨ ـ ١٠٨).

(٢) يبدي وليم هنا، كما يبدي في أماكن متعددة، اطلاعاً على جنوب إيطاليا يوحي بمعرفة شخصية، ومن غير الواضح سبب اعتباره نابولي بأنها مدينة فرجيل.

(٣) يظهر تعاطف وليم نحو التجارة هنا كما يظهر في أماكن أخرى، ومن غير المؤكد فيما إذا كان سكان أمالفي الشعب الأول أو الوحيد الذي تولى جلب منتجات الغرب إلى الشرق، إلا أن اتصالهم الأكيد بالقدس يتجاوز هذه الملاحظة الشاملة من قبل وليم (هايد: تاريخ التجارة).

الواقعة علىٰ الشاطىء بالقرب من اللاذقية في سوريا، وحتى مدينة الإسكندرية آخر المدن في مصر، وكان يترأس كل مدينة حاكم جعل قوة الأمير يحسب لها الحسبان في كل مكان، هذا وحظي الأمالفيون بالتأييد الكامل من الملك ونبلائه أيضاً، وتمكنوا من السفر بسلامة تامة في سائر أنحاء البلاد بمثابة تجار وباعة للمواد المفيدة التي كانوا ينقلونها، وحيث كان هؤلاء التجار أوفياء لتقاليد آبائهم وللعقيدة المسيحية، فقد اعتادوا علىٰ زيارة الأماكن المقدسة كلما سمحت لهم الفرصة بذلك. إلا أنهم لم يكونوا يملكون أي منزل في القدس حتى يتمكنوا من البقاء فيها لفترة من الزمن كما كان لهم في المدن الساحلية، وهكذا جمعوا حتى ينفذوا خطة منشودة منذ زمن طويل، عدداً كبيراً من سكان مدينتهم بالقدر الممكن وقاموا بزيارة الخليفة المصري وكسبوا ودّ أفراد عائلته، وقدموا مطلباً مكتوباً وتلقَوا إجابة سارة تتوافق مع رغباتهم.

٥ ـ كيف أمر الخليفة المصري تلبية لمطلب الأمالفيين بتخصيص موقع لهم حتى يتمكنوا من بناء كنيسة فيه.

وبناء عليه جرى إرسال أمر مكتوب إلىٰ حاكم القدس يقضي بتخصيص منطقة واسعة جداً في القدس في جزء المدينة الذي يشغله المسيحيون، لأهالي أمالفي والأصدقاء وحملة المواد المفيدة وذلك بناء على مطلبهم، وتوجب عليهم أن يشيدوا بناءً كبيراً هنالك حسبما كانوا يرغبون، وكانت المدينة مقسمة في ذلك الوقت، كما هي مقسمة اليوم، إلىٰ أربعة أقسام متساوية تقريباً، ومنح المؤمنون قسماً واحداً من هذه الأقسام وهو الحي الذي يحوي قبر الرب ليكون مقراً لإقامتهم، وشغل الكفرة باقي المدينة مع هيكل الرب.

وتلبية لأمر الخليفة المصري جرىٰ تخصيص مكان كبير يكفي لإشادة الأبنية اللازمة لأهالي مدينة أمالفي وجمعت الإعانات المالية من التجار وشيدوا ديراً على اسم أم الرب المجيدة والمقدسة مريم العذراء [1]، وذلك أمام باب كنيسة قيامة الرب وعلىٰ بعد مرمىٰ حجر منها تقريباً، وإضافة لهذا كانت هنالك مرافق مناسبة لاستخدام الرهبان ولاستضافة الضيوف القادمين من مدينتهم.

---

(١) من المحتمل أو من غير المحتمل أن يكون هذا الإجراء قد اتبع في ذلك الوقت، إلا أن الرواية توحي على الأرجح بنوع الإجراء في مسائل كهذه في زمن وليم. ويعتقد هايد أنه يجب تقديم معظم الفضل بقيام هذه المؤسسات في القدس إلى واحد من حكام أمالفي يدعى ماروس الذي توفي في عام ١٠٧١ (هايد: تاريخ التجارة: ١/١٠٤ ـ ١٠٦). وقد أرخ إعادة بناء هذه الأديرة بين عام ١٠٦٣ و١٠٧١ خلال فترة حكم الخليفة المستنصر.

وبعد إنجاز البناء جلبوا راعياً ورهباناً من مدينة أمالفي وأقاموا الدير تحت حكم نظامي كمركز للحياة المقدسة المقبولة للرب، وبما أن الذين كانوا قد أسسوا الموقع وحافظوا عليه دينياً كانوا رجالاً من العرق اللاتيني، فقد عرف باسم دير اللاتين منذ تلك الآونة وحتى الوقت الحالي.

وحدث مراراً أن قدم حتى في تلك الأيام الأرامل التقيات والمحتشمات إلى القدس ليقبلنّ الأماكن المقدسة، وكن قد واجهن ـ دون اعتبار للخوف الطبيعي، ودون خشية ـ مخاطر الطريق التي لا تحصى، وحيث لم يكن هنالك أي مكان في مداخل الدير يمكن فيه استقبال حاجّات كهؤلاء بطريقة مشرفة، فقد شيد الرجال الأتقياء أنفسهم، الذين كانوا قد بنوا الدير، مبنى احتياطياً موائماً لهؤلاء الناس أيضاً، بحيث عندما تأتي نسوة ورعات يجدن كنيسة صغيرة ونزلاً ومحال منفصلة لهن، وشُيد في آخر الأمر، وبفضل الرحمة السماوية، دير صغير هناك تشريفاً لتلك المدينة الورعة مريم المجدلية وجرى وضع عدة راهبات هناك ليخدمن النسوة الحاجّات.

واندفعت خلال هذه الأزمان الخطيرة نفسها أفواج من الناس من بلاد أخرى إلى هناك، من النبلاء والطبقة الوسطى على حد سواء [1]، وبما أنه لم يكن هنالك أي طريق إلى المدينة المقدسة إلا عن طريق المناطق المعادية، فقد كان الحجاج ينفقون بالعادة نقود سفرهم مع وقت وصولهم إلى القدس، وكان هؤلاء الحجاج يضطرون للانتظار أمام أبواب المدينة وهم بائسون وعاجزون، وفريسة لجميع مشقات الجوع والعطش والعري، ولم يكن يسمح لهم بدخول المدينة حتى يكونوا قد دفعوا قطعة ذهبية، وحتى بعد حصولهم في آخر الأمر على حق الدخول وزيارة الأماكن المقدسة واحداً تلو الآخر، لم يكن لديهم أية وسيلة للراحة وحتى ولو ليوم واحد باستثناء ما كان يقدم إليهم وبروح أخوية من قبل رهبان هذا الدير، وكان جميع القاطنين في القدس هم من المسلمين والكفرة باستثناء البطريرك ورجال الدين والسريان التعساء، وكانت أعمال الابتزاز اليومية والسخرة المتعددة الأشكال والخدمات الإضافية وتنفيذ الأشياء ذات الطبيعة الحقيرة للغاية تثقل كاهل السريان إلى درجة أنهم لم يستطيعوا أن يتنفسوا إلا بشق النفس، وعاشوا في فقر مدقع للغاية وفي خوف مستمر من الموت.

وبما أنه لم يكن هنالك أحد ليقدم المأوى إلى الحجاج البائسين الذين ينتمون إلى عقيدتنا، والذين كانوا مبتلين بهذا الشكل، ومعوزين إلى الحد الأقصى، فإن الرجال الأتقياء

---

(١) حرفياً الطبقة الثانية، وكانت الطبقات الاجتماعية أكثر وضوحاً أيام وليم مما كانت من قبل حتى سنة ١١٠٠.

الذين كانوا يقيمون في دير اللاتينيين أخذوا بشفقة شيئاً من وسائلهم الخاصة وشيدوا ضمن المجال المخصص لهم رباطاً لإعانة حجاج كهؤلاء، استقبلوا فيه هؤلاء الناس سواء أكانوا مرضىٰ أو معافين وذلك خشية من أن يتم العثور عليهم بعدما يكونوا قد خنقوا علىٰ الطرقات ليلاً، وإضافة لتقديم المأوىٰ في الرباط، فقد رتبوا وجوب توفير الأقسام الباقية من مؤن الطعام في الديرين، أي من دير الرهبان والراهبات، للإعالة اليومية لأناس كهؤلاء.

وشيدوا بالإضافة إلىٰ ذلك مذبحاً في ذلك الموقع تشريفاً للقديس يوحنا المعطاء، وكان يوحنا هذا من أهالي قبرص، وكان رجلاً تقياً وجديراً بالثناء من جميع الجوانب، وأصبح فيما بعد بطريركاً للإسكندرية بسبب مؤهلاته، واشتهر بأعماله الورعة بشكل خاص، كما أن جميع كنائس القديسين ستمجد حماسة هذا المخلص، وتقديمه السخي للصدقات، ولهذا السبب فقد سماه الآباء الأتقياء باسم المعطاء ويمكن ترجمته بالرحيم[1].

لم يكن لهذه المؤسسة المبجلة، التي مدت يد الإحسان بهذا الشكل لأعضائها الرجال، عائدات أو ممتلكات غير أن أبناء أمالفي الموجودين في بلدهم والذين اتخذوا عمل التجارة في الخارج، جمعوا المال من جماعتهم الخاصة كإعانة طوعية، وأرسلوا هذا المال إلىٰ راعي الرباط، أياً كان في وقته، مع المتوجهين إلىٰ القدس، وتم من هذا المال تأمين الطعام والمأوىٰ للرهبان والراهبات واستخدم الباقي منه لتقديم بعض المساعدة للحجاج المسيحيين الذين قدموا إلىٰ الرباط[2].

بقي هذا الموقع يعيش في ظل هذه الشروط لعدة سنوات حتى شاء الخالق العظيم للكون أن يطهر تلك المدينة من دنس الوثنيين، المدينة التي كان قد طهرها بدمه، وأتىٰ في آخر الأمر شعب مسيحي بقيادة زعماء تحميهم العناية الربانية، أمر المنقذ بتسليم المدينة إليهم، وعثر في ذلك الحين علىٰ امرأة ورعة ومخلصة للرب تدعىٰ أغنيس في دير النسوة تعمل كراعية له، واستمرت هذه المرأة النبيلة والرومانية المولد وذات النسب السامي بالعيش لبضع سنوات في القدس بعد إعادة المدينة إلىٰ العقيدة المسيحية[3].

---

(١) انظر الكتاب الأول ـ الحاشية ٥٢.

(٢) أفرط وليم في تبسيط دعم هذه الأديرة. وهنالك دليل على أن كميات من المال قد جمعت في جنوب فرنسا بالإضافة إلى مكان آخر أيضاً لدعم هذا العمل. (انظر هايد ـ تاريخ التجارة: ١٠٥/١).

(٣) أغنس وجيرالد شخصان شبه خرافيان وذاكرتها محفوظة في تاريخ الاسبتارية بسبب ذكرهما هنا، وكان وليم قد ذكر جيرالد في وقت سابق (الكتاب السابع، الفصل ٢٣، انظر ج. كنغ ـ فرسان الاسبتارية في الأراضي المقدسة ـ الفصل الثاني. وجعل فولتشر أوف تشارتر وفاة جيرالد سنة ١١٢٠ (هاغنمير تاريخ فولتشر: ٦٤١ ـ ٦٤٢ ـ الحاشية ٢٥).

وعثر في الرباط أيضاً علىٰ شخص يدعىٰ جيرالد، وكان رجلاً صاحب سيرة مستقيمة، قد قدم تنفيذاً لأوامر راعي الدير والرهبان، خدمة مخلصة إلىٰ الفقراء لفترة طويلة من الزمن، في ذلك الموقع خلال سيادة العدو، وخلف ريموند، الذي نحن الآن بصدد الحديث عنه جيرالد فيما بعد [١].

٦ - البطريرك يذهب مع معظم الأساقفة إلىٰ روما لزيارة البابا هادريان.

ازدادت أهمية رهبان هذا البيت ازدياداً كبيراً من هذه البداية المتواضعة إلىٰ درجة أنهم تملصوا أولاً من سلطة رئيس الدير، ثم قامت الكنيسة الرومانية بتخليصهم من سلطة البطريرك وسيطرته [٢] وذلك عندما تضاعفت ثروتهم كثيراً، ولم يظهروا بعد أن حققوا هذه الحرية الخطيرة أي توقير لرجالات الكنيسة ورفضوا رفضاً باتاً تقديم العشور عن أي من ممتلكاتهم بصرف النظر عن الظروف التي انتقلت فيها إلى ملكيتهم، وتأثرت بهذه الأمثولة السابقة المواقع التي تسمىٰ مواقع مبجلة سواء أكانت أديرة أو أربطة وتخلص أربابها أخيراً من ولائهم بسبب ثرواتهم [٣]، وكانت الكنيسة قد شيدت أصلاً الكثير من هذه الأديرة بدافع السخاء الخالص وبروحها الورعة المألوفة، وأوصلتها إلىٰ حالة ازدهار تحسد عليها، إلا أن أربابها تخلوا عن أمهم الورعة التي كانت قد ربتهم علىٰ لبنها في البداية كالأطفال، والتي زودتهم فيما بعد وبمرور الزمن بطعام أكثر صلابة بحيث يمكن للكنيسة أن تشتكي منهم بعدل وتقول: «ربيت بنين ونشأتهم. أما هم فعصوا علي» [٤]. فليعف الله عن أشخاص كهؤلاء،

---

(١) كان ريموند دي بوي المقدم الثاني للاسبتارية ١١٢٠ - ١١٦٠. وللحصول على وصف قصير لحياته وإدارة نظامه انظر كنغ - الاسبتارية فصل ٣ وفصل ٤.

(٢) انظر الحاشية في ص٨٢٨.

(٣) من المؤكد أن مؤسسات كهذه مثل أسقفية بيت لحم وأسقفية الناصرة وأديرة كثيرة مثل تلك التي كانت موجودة على جبل صهيون وجبل الطور وماري سيدة وادي يهوشافاط مدرجة تحت هذا الوصف، ولم يكن وليم ميالاً أبداً للاعتراف بالصعوبات التي سببتها هذه المؤسسات للكنيسة، وكان الحجاج الأتقياء من كافة أنحاء العالم المسيحي يصرّون على تقديم الإرث بوصية لهذه المؤسسات، وكانت هذه الهبات عادة على شكل دخل من ممتلكات موزعة بشكل متساوي، أو حتى قطع من الأراضي. ولم تكن هنالك أية وسيلة لضمان دوام هبات كهذه إلا عن طريق البابوية التي كان يعترف بسلطتها بشكل عام، ولم يكن بطريرك القدس في موقع ليضمن حماية كهذه، ولهذا السبب فقد بحثت المؤسسات العديدة عن الإمتيازات من البابوية، وكما أشير لعدة مرات من قبل فإن السلطة البابوية لم تكن متأكدة من طموحات الأباطرة سواء في القدس أو في انطاكية، ولهذا السبب فقد كانت مستعدة على الدوام لمنح امتيازات كهذه ومعها اعفاء من السلطان القضائي للبطريرك ومن الأسقف المحلي ورئيس الأساقفة. وكانت هذه الحقيقة الأخيرة التي استاء منها رئيس الأساقفة وليم بشكل خاص.

(٤) اشعيا: ١/٢.

وليسمح لهم بالعودة إلىٰ رشدهم بحيث يمكن أن يتعلموا وأن يخدموا بإجلال الأم التي هجروها، وقد يكون الأمر أكثر تسامحاً مما كان لذلك الشخص الذي طلب الْحَمَل الوحيد للرجل الفقير على الرغم من أنه كان يمتلك مائة شاة، حيث قال الرب لذلك الرجل: «هل قتلت وورثت أيضاً؟»[1] فالويل لذلك الرجل أيا كان! لأنه «رجل سفاح» حسب قول الرسول.

طالب البطريرك وبقية رجال الكنيسة بحقوقهم مراراً وتكراراً من هؤلاء الرهبان أنفسهم لكن دون جدوىٰ حتى التجأ الطرفان إلىٰ محكمة البابا في روما كما ذكرت ذلك من قبل، وانطلق البطريرك إلىٰ هناك على الرغم من أنه كان رجلاً مسناً للغاية حيث كان قد بلغ بالفعل المائة من عمره تقريباً، وأخذ معه بعض رجالات الكنيسة مثل: بطرس رئيس أساقفة صور مع الأساقفة المساعدين وهم فريدريك أسقف عكا وأمالرك أسقف صيدا، وبلدوين رئيس أساقفة قيسارية قسطنطين أسقف اللد ورينير أسقف سبسطية وهيربرت أسقف طبرية. وبدأوا رحلتهم حالما عاد فصل الربيع المبهج وبعد أن بدأت تخمد الأمواج الشتوية المضطربة بتأثير الريح الغربية، ووصلوا بعد رحلة ميمونة وبمشيئة الله إلىٰ مدينة أوترانتو بسلام، وهي مدينة ساحلية في أبوليا[2].

٧ ـ امبراطور القسطنطينية يغزو أبوليا بموافقة من البابا. البطريرك يصل إلىٰ البلاط مع مرافقيه.

في الوقت الذي كان فيه السيد البطريرك وأساقفة الشرق قد نزلوا في أبوليا كما ذكرت من قبل كان امبراطور القسطنطينية قد أرسل عدداً من نبلائه مع مبلغ كبير من المال لاجتياح هذه المنطقة بالقوة وذلك بناء على اقتراح من البابا وتم تنفيذ هذا بموافقة زعماء تلك المنطقة، وهكذا كان أتباع الامبراطور قد استولوا علىٰ تلك المدينة عندما وصل البطريرك وحاشيته إلىٰ برنديزي قادمين من أوترانتو فقد كان السكان قد سلموا الموقع بأسره باستثناء القلعة التي بقي فيها عدد من المخلصين المرتبطين بالملك، وعلاوة على ذلك، كان الكونت روبرت، المذكور آنفاً، قد استولىٰ بالقوة بوساطة الذين كانوا قد انضموا إليه بسبب كراهية الملك أكثر منه بسبب مودتهم له نفسه، علىٰ المدينتين الشهيرتين: تورانتو وباري مع سائر المنطقة الساحلية حتى حدود المملكة نفسها. وكان كل من روبرت أمير كابوا وكونت أندرياس، وهما رجلان مشهوران وعظيمان، قد استوليا على سائر منطقة كامبانيا التي تدعى

(١) الملوك الأول: ١٩/٢١.

(٢) لا بد وأن هذه الرحلة حدثت في ربيع عام ١١٥٥ لتوافق الأحداث في ايطاليا التي يشير إليها وليم.

عموماً باسم أرض العمل، وذلك حتى سالرنو ونابولي وسان جرمانو، لقد كانت المنطقة بأسرها بالفعل في حالة عدم استقرار من هذا القبيل إلى درجة أن الذين رغبوا بالعبور خلالها لم يجدوا الأمن أو السلامة في أي مكان[١]، كان فريدريك امبراطور الرومان ما يزال موجوداً في المنطقة المجاورة لأنكونا مع فيالقه، لكن القوات التي كان قد جلبها إلى ايطاليا كانت قد كابدت من خسائر ضخمة، فقد كان الكثير من الأمراء الأكثر نبلاً وعظمة في الامبراطورية قد هلكوا بحيث لم يبق سوى العشر من جيشه تقريباً[٢]، ورغب من بقي منهم على قيد الحياة بالعودة إلى بلادهم؛ وحيث لم يتمكن الامبراطور من السيطرة عليهم فقد كان يستعد أيضاً للعودة على مضض كبير حيث كانت أمور عديدة ما تزال تتطلب وجوده، وكان أهمها على الاطلاق الحملة ضد ملك صقلية.

وبناء عليه تدارس البطريرك وزملاؤه المسافرون بقلق مسألة الطريق الذي يمكنهم إجتيازه بأمان بالغ عبر منطقة مضطربة للغاية للوصول إلى البابا حيث بدت الحرب والفتنة في كل مكان يقطعان كل السبل إليه، وكان الطريق الأقصر هو عبر بنفنتو، غير أن تلك المدينة كانت واقعة تحت الحصار الذي ضربه ارسقينيوس مستشار ملك صقلية[٣]، وأرسل البطريرك رسلاً إلى هناك لطلب حامية له، إلا أن المستشار رفض بشكل قاطع أن يسمح للفريق بعبور تلك المنطقة، وأخيراً قرر البطريرك فولتشر بناء على نصيحة بعض الرجال الحكماء أن يسلك طريق الشاطىء، ووصل مع أفراد حاشيته إلى أنكونا، وأرسل من هناك بعض أساقفته لينقلوا تحياته إلى امبراطور الرومان (والذي كان الآن على وشك الرحيل إلى بلده، كما ذكرنا من قبل) ليحصل منه على رسائل امبراطورية إلى البابا بخصوص مهمته، ونجح المبعوثون في هذا المقصد على الرغم من أن الامبراطور، كان متلهفاً للعودة إلى البلاد، وكان قد تجاوز مدينتي سينيغاليا وبيسارو[٤].

ثم وجه البطريرك مع جميع حاشيته رحلته إلى روما في سعي حثيث وراء البابا الذي

---

(١) أولى شالدون وصف أحداث الحرب هذه في جنوب ايطاليا بشكل مطول (انظر ـ شالدون ـ النورمان: ج٢ الفصل ٧).

(٢) جرى الاتصال بفريدريك من قبل مبعوثي كل من البابا والامبراطور مانويل للتدخل في جنوبي ايطاليا، ولم يمكن اقناعه ورفض العروض بحكم الظروف (انظر: Simonsfeld, I, Johrbucher, I, 367).

(٣) كان هذا تبعاً لشالدون هو أسكلتين.

(٤) أدرك مبعوثو البطريرك فولتشر فريدريك، ربما في أوائل شهر آب من عام ١١٥٥. ويبدو وليم مطلعاً على هذا الطريق الروماني القديم والذي يعدد تسلسل مدنه بشكل صحيح .(Simonsfeld, Johrbucher, I, 371).

كان قد غادر مدينة نارني، وبقي الوفد لعدة أيام في روما، إلا أن البطريرك أسرع إلىٰ فيرينتينو على أمل إنجاز المسألة التي كانت قد جلبته إلىٰ ايطاليا، وذلك بعدما علم أن البابا كان قد توقف هناك[1]. ولقد ذكر بعضهم أن البابا تجنب البطريرك لكي يضجره ويزيد من عبء نفقاته، وأكدوا أن الاسبتارية كانوا قد زاروه منذ زمن طويل، ورشوه باستخدامهم السخي للهبات، ولذلك كان ميالاً إليهم بشكل ايجابي، وقال آخرون إن البابا كان قد أسرع رحلته في سبيل بنفنتو التي كانت واقعة تحت الحصار، لكن الحقيقة كانت واضحة فقد كان البابا وبلاطه بأسره قد استقبلوا الاسبتارية بمودة كبيرة؛ وعلىٰ العكس كان قد تولى طرد البطريرك وشعبه بحنق وازدراء وعاملهم كأبناء عاقين وغير شرعيين.

٨ ـ البابا هادريان يحث الخطا إلىٰ بنفنتو. البطريرك يسرع أيضاً إلىٰ هناك ويطرح القضية أمامه لكن المحكمة التي تمت رشوتها بهبات سخية تنكرت للعدالة. البطريرك يعود دون أن يحقق هدفه.

قدم البطريرك نفسه لدىٰ وصوله إلىٰ فيرينتينو إلىٰ الحبر الأعظم حالاً حسب العرف، إلا أنه لم يلاق استقبالاً ساراً، وكانت المعاملة التي تعرض لها معاملة سيئة أيضاً، فقد كان الكرادلة معارضين له في أغلب الأحوال، وهكذا توصل إلىٰ فهم واضح لموقف البابا تجاهه، ومع ذلك، بما أنه كان رجلاً يتمتع بشخصية ثابتة، فقد تصرف وفق نصيحة بعض مستشاريه الحكماء وأخفى مشاعره، ولازم البابا بدون انقطاع، وظهر باستمرار في المجالس الكنسية في أيام الأعياد وهو محاط بموكبه المؤلف من الأساقفة المبجلين، وكان يساعده دائماً حشد من المستشارين الجاهزين للقيام بمهامهم كلما تطلب الأمر ذلك[2].

وجرىٰ في آخر الأمر منح فرصة مقابلة لكلا الفريقين ودرست المسألة لعدة أيام دون نتيجة، وأدرك البطريرك في النهاية ـ وهذا ما أبلغه إياه بالفعل عدد من أصدقائه الحميمين ـ أنه ليست لديه أية فرصة للنجاح، ولذلك استأذن بالانصراف وبدأ رحلة عودته بارتباك وخوف فوضعه كان متضرراً أكثر من كونه متحسناً. وعثر من بين كامل حشد الكرادلة على

---

(١) لا بد أن هادريان قد وصل بينفنتو في حوالي الأول من شهر تشرين الأول من عام ١١٥٥ (شالدون ـ النورمان: ج ٢ / فصل ٧).

(٢) إن معاملة البطريرك فولتشر هي مثل المعاملة التي تلقاها البطاركة اللاتينيون الآخرون في البلاط الباباوي، ومن المؤكد أن الاسبتارية كانوا يلاقون تأييداً كبيراً هناك مثلهم مثل الداوية.

(٣) يعكس وجود المحامين في البلاط الباباوي لمساعدة المستأنفين من أجل الاهتمام الباباوي وتأييده، التوسع الضخم للأعمال التي كانت تتطلب اهتمام البابا، وتظاهر هؤلاء «المحامون» بأنهم يعرفون كيف يصلون إلى حضرة البابا فقد كانوا يقدمون خدماتهم لقاء أجر، الأمر الذي كان يؤدي بسرعة إلى اتهامات الفساد في المحكمة.

اثنين أو ثلاثة فقط يتبعون المسيح، فقد رغبوا بصدق أن يساعدوا عبده في تلك القضية، وكان هؤلاء كل من أوكتافيوس وجون أوف سان- مرتين وكان فيما مضى رئيساً لشماسة البطريرك عندما كان البطريرك رئيساً لأساقفة مدينة صور [١]، إلا أن جميع الآخرين الذين ضللتهم الهبات اتبعوا سبل بلعام بن بوسور. وقام البابا، الذي حثته المسؤوليات في البلاد، بعبور كامبانيا والذهاب إلىٰ بينيفنتو.

وكان في الوقت نفسه قد أبلغ العديد من الرسل وليم ملك صقلية بالاضطرابات التي كانت سائدة في إيطاليا، وقد علم أن الكونت روبرت أوف باسافيلا كان قد استولىٰ بمساعدة الاغريق علىٰ منطقة أبوليا بقوة السلاح؛ وأن أمير كابوا وكونت أندرياس كانا يوسعان حكمهما في كل مكان من كامبانيا، وأن البابا كان قد ذهب إلىٰ بينيفنتو حيث كان يزود جميع الحكام المذكورين منذ لحظات بالقوات والتشجيع ولذلك جمع وليم علىٰ الفور جنوداً من جميع أنحاء صقلية وكالبيرا وزحف إلىٰ أبوليا علىٰ رأس قوة ضخمة جداً، فهرب الكونت روبرت علىٰ الفور، وهزم وليم القوات الاغريقية في المعركة الأولىٰ التي جرت بالقرب من برنديزي، وأسر قادة ذلك الجيش بعد أن أباده عن بكرة أبيه وأوثقهم بالسلاسل، وهكذا رافقه حظ طيب وحاز بقوة السلاح على جميع الكنوز الطائلة التي كان الاغريق قد جلبوها معهم، ثم قام بعدما استرجع المنطقة بأسرها التي كانت قد تمردت عليه وأعاد الناس لتأييده بحصار بينيفنتو وسبب هناك متاعب جمّة للبابا وكرادلته وللمدينة نفسها أيضاً حيث بدأ يقل مخزون المواد الغذائية، وأصبح الجميع قلقين جداً حول سلامتهم، وتم التوصل في آخر الأمر إلىٰ اتفاقية سلام بين البابا والملك وكان ذلك بواسطة المندوبين العاملين كوسطاء، وحسب بعض الشروط السرية، وأقصت هذه الاتفاقية جميع الذين كانوا قد أصبحوا متورطين، تلبية لإغواء البابا، في هذه المشاق والمخاطر الجمة [٢]. وأدرك النبلاء أن الأمور انتهت خلافاً لتوقعاتهم وأن البابا كان قد عقد اتفاقية سلام لنفسه ولكنيسة روما دون تحقيق أي امتياز لهم من الملك، وشعروا أنهم كانوا في مأزق خطير، وحاولوا بقلق العثور علىٰ طريقة ما يتمكنون بواسطتها من الانسحاب من المملكة بسلام، وأسرع روبرت واندرياس مع بعض النبلاء الآخرين إلىٰ لومبارديا ومثلوا أمام الامبراطور، وحدث أن كان أمير كابوا

---

(١) يقدم هذا السرد لمحة أساسية للقوة العملية للسلطة البابوية، ومالت أوامر الكنيسة الواسعة الإنتشار في سياق الزمن إلى الاعتماد على بعض الكرادلة من أجل المساعدة، ولم يكن الأساقفة المدنيين الذين كانت أعمالهم مع الإدارة البابوية غير متواصلة عادة محظوظين جداً.

(٢) هنالك بعض الشك حول التواريخ المحددة لهذه الأحداث. فتاريخ هزيمة الاغريق في برنديزي هو نيسان من عام ١١٥٦ وتاريخ معاهدة هادريان مع وليم الأول هو ١٨ حزيران عام ١١٥٦.

أتعس حظاً من الآخرين فقد اعتقله خدمه بينما كان يستعد لعبور نهر غاريغلانو بوساطة أحد القوارب، فقد كان قد أرسل أصحابه أمامه وجلس ينتظر مع عدد قليل من المسافرين للعبور إلى الضفة المقابلة عندما تم اعتقاله، وتم تسليمه لرعايا مخلصين للملك، فنقل إلى صقلية حيث سمل هناك وألقي في أحد السجون حتى انتهت حياته التعيسة[1].

٩ ـ وقوع ثورة أهلية في مصر. فرار السلطان ومقتله من قبل المسيحيين، ابنه ناصر الدين يقع بالأسر.

كانت مملكة القدس تنعم في هذا الوقت، بفضل الله، بدرجة مقبولة من الازدهار، إلا أن البلاد المجاورة والواقعة على الجانبين كانت مضطربة اضطراباً عظيماً بسبب وقوع حدث مفاجيء، فقد قامت شخصية مصرية قوية، كانت تشغل منصب وزير وكانت مسؤولة عن الأمور الخاصة لمولاها[2]، بقتل الخليفة حاكم مصر الذي اعتاد المصريون على تبجيله وتوقيره كشخصية مقدسة جداً، فقد حدث أن أتى هذا الوزير في أحد الأيام وبطريقة غير رسمية إلى الخليفة في إحدى الغرف الأكثر انعزالاً في القصر وقتله بغدر، ويقال إنه ارتكب هذه الجريمة آملاً في ترقية ولده ناصر الدين إلى الخلافة، بحيث يتمكن نفسه في ظل حكم ابنه من الاستمرار في إدارة المملكة دون قلق أو متاعب، وكان واثقاً من أن العمل الذي ارتكبه لن يكتشف لعدة أيام، حتى يكون قد استولى على القصر الكبير، ويكون قد تمكن من حيازة الخزينة بأسرها، وتوقع بمساعدة عصبة من الأصدقاء والتابعين الذين كان قد جمعهم أن يكون قوياً بشكل كاف ليقاوم الذين سوف يحاولون قتله جزاءً على جريمة القتل التي ارتكبها، إلا أن المسألة انتهت بشكل مخالف تماماً، حيث اكتشفت الجريمة في غضون زمن قصير، واجتمع حشد من الناس العظماء والوضعاء كرجل واحد وطوقوا تطويقاً تاماً المنزل الذي كان قد هرب إليه بعد أن ارتكب الجريمة، وطالبوا بصوت واحد بتسليم السفاح الغادر الذي اغتال حاكم البلاد ليلقى عقابه، واستمرت هذه التهديدات بشكل ملح، حتى أنه رأى في آخر الأمر بأنه لا يوجد أي سبيل للنجاة، فأمر بإلقاء الذهب والجواهر وجميع الأشياء الثمينة التي كانت بحوزته من النافذة إلى الحشد الصاخب من الناس،

---

(١) من أجل المزيد من التفاصيل حول معاملة وليم للبلاد المفتوحة (انظر شالدون ـ النورمان: ٢/٢٣٢ ـ ٢٣٥).

(٢) كان عباس، وهو فرد من عائلة ذات شهرة واسعة من الشمال الافريقي، قد حقق مكانة في القاهرة كقائد عسكري. وكان قد أمر بتولي قيادة الحامية في عسقلان في عام ١١٥٣، إلا أنه رفض ذلك وقتل الوزير الذي كان صهراً له واستولى على منصبه، غير أن منصبه لم يكن آمناً، ولذلك فقد تآمر لقتل الخليفة الظافر. ولم يكن حتى قتل الظافر وإبداله بالفائز الشاب كافياً، ولذلك فقد توجب عليه الهروب لينقذ حياته كما هو مشار هنا.

وأمل أنه قد يجد طريقة ما للنجاة، بينما يكون الحشد منشغلاً بالتقاط المغانم، فهل هنالك حاجة لقول المزيد؟ ونجح بالنجاة من المدينة على الرغم من الحشد المحاصر من الناس، وسلك برفقة موكب مهيب، من الأبناء وأبناء الإخوة والأخوات الطريق المؤدي إلى الصحراء والمؤدي إلى دمشق، كما يقال، ولم يتباطأ المنتقمون في مطاردته وبذلوا محاولات قوية للحيلولة دون نجاحه، غير أن ابنه الأكبر وبعض أفراد حاشيته من الرجال الشجعان والحكماء أعاقوا الخصم وأبقوه بعيداً وتحملوا الهجمات بأنفسهم، ومنعوا المطاردين من الفوز بالهارب، وتركوا وراءهم وبشكل خادع من وقت لآخر جراراً ذهبية وفضية وأثواباً نفيسة وأنسجة حريرية ذات قيمة كبيرة لإغراء اللاحقين بهم ليتوقفوا ويجمعوا هذه الأشياء بحيث يمكن بوساطتها أن ينشب نزاع حول تقسيم الغنائم[1].

أدرك المصريون أخيراً أن مطاردتهم كانت عقيمة وعادوا مرتبكين إلى البلاد، ومضى الوزير قدماً إلى الأمام في طريقه معتقداً أنه بأمان، وواثقاً أنه لن يتعرض لمتاعب أخرى، إلا أنه وقع في المويلح أثناء هروبه من القاهرة لأن المسيحيين العالمين باقترابه كانوا قد نصبوا كميناً له، وهي وسيلة شائعة لإلحاق الأذى بالعدو، وكانوا يكمنون خلسة هناك. ووقع الوزير في الشرك وهو غير متوقع أبداً، وأصيب في المواجهة الأولى بجراح مميتة نتيجة تلقيه ضربة سيف وهلك بالحال، وكان هذا النبيل المصري يدعى عباس[2]، ووقع ابنه، ناصر الدين، مع سائر أفراد أسرته والكنوز الكبيرة التي كانوا قد نقلوها معهم من مصر بأيدي المسيحيين، فقسموا الغنيمة فيما بينهم حسب العرف. وبالمحصلة عاد شعبنا إلى البلاد محملاً بأثمن المغانم التي كانت بالفعل من أكبر الكنوز التي لم تعرفها بلادنا حتى الآن.

كان من بين الذين شاركوا في تلك المسألة العديد من فرسان الداوية وبفضل أعداد هؤلاء الفرسان، جرى نقل القسم الأكبر من المغانم بما في ذلك العبيد. وكان من بين ما حصلوا عليه وانتقل إليهم بالقرعة أثناء توزيع المغانم ناصر الدين بن عباس، وكان شجاعاً جداً وصاحب قدرات عسكرية غير عادية بين المصريين، فقد كان أهالي ذلك الإقليم يخافون من اسمه، وكانت ترتجف قلوبهم برعب لا يوصف لدى رؤيتهم له، وأبقى فرسان الداوية هذا الرجل أسيراً لديهم لفترة طويلة من الزمن، وعبر عن رغبة متوقدة لأن يؤمن بالمسيح،

---

(١) إن المصدر الأمثل للمعلومات حول هذه الأحداث هو ما رواه أسامة الذي كان في القاهرة في هذا الوقت والذي كان صديقاً حميماً لعباس. (انظر فيليب حتي - كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ: ٤٣-٥٥).

(٢) Habeis هو الاسم الذي أطلقه وليم على عباس و Nosceredinus عوضاً عن ناصر الدين أو نصر، وكان هذان والداً وابناً حسبما جاء عند وليم، كما أن تاريخ المعركة ووفاة عباس كانا بتاريخ ٧ حزيران عام ١١٥٤.

وكان قد تعلم اللغة اللاتينية ومبادىء العقيدة المسيحية عندما باعه الداوية إلى المصريين مقابل ستين ألف قطعة ذهبية، حيث طالب به المصريون ليلقى عقوبة الموت، فقيدت أيديه وأرجله بسلاسل ثقيلة ووضع في قفص حديدي على ظهر أحد الجمال ونقل إلى مصر حيث مزقه الناس إلى أشلاء بأسنانهم حتى يشبعوا عواطفهم المتوحشة[1].

١٠ ـ الأمير أرناط يستولي على جزيرة قبرص بقوة السلاح، ويسلب السكان.

اقترف أرناط أمير أنطاكية، عملاً مخزياً خلال العام اللاحق وذلك تنفيذاً لنصيحة رجال أشرار كانوا قد أثروا عليه كثيراً، وأرسل فيالقه كما يرسلها ضد الأعداء، واستولى بعنف على جزيرة قبرص المجاورة التي كانت مفيدة دائماً وصديقة لمملكتنا؛ والتي كان فيها عدد كبير من السكان المسيحيين، ويبدو أن الأسباب التي قادت إلى هذا الغزو الشائن كانت على النحو التالي: كان يعيش في منطقة كليكية على مقربة من طرسوس نبيل أرمني قوي يدعى طوروس، وكان هذا الرجل بنزواته قد تعرض مراراً لغضب الإمبراطور وجلب تقريعه على نفسه نتيجة نزواته وغدره، وبما أن مناطقه كانت بعيدة جداً عن الإمبراطورية وقد تعذر بلوغ مقره الموجود في الجبال الشاهقة، فقد نزل مراراً إلى سهل كليكية ونقل المغانم والأسلاب، ونهب بدون تردد بلاد مولاه بكل وسيلة وألحق مضاراً بالغة وباهظة بالمؤمنين من رعايا الامبراطورية بدون مراعاة للمنزلة أو الوضع، وعندما أبلغ الإمبراطور بهذه الحالة كتب إلى أرناط أن يبعث فرسانه ويبعد طوروس عن أراضي الامبراطورية حتى تأمن ممتلكات رعاياه من غزوات كهذه، وإذا كانت هنالك حاجة للمال لذلك الهدف، فلسوف يرسل إليه بنفسه بالوقت المناسب مبلغاً كافياً من خزائنه.

واستجابة منه للأمر الامبراطوري استدعى أرناط على الفور، قوة كبيرة من الفرسان وتقدم إلى كليكيه حيث طوروس وأباد جيشه إبادة تامة، وبدت المكافأة المشرفة، التي كان يأمل باستلامها على عمله الشجاع، بطيئة في الوصول، ولذلك اقترف الجريمة المشار إليها آنفاً بعدما نفد صبره من الانتظار[2].

كان بعض المؤمنين قد حذروا أهالي قبرص من الخطر، وكانت جميع قوات الجزيرة

---

(١) أنكر لندغرين (وليم الصوري وفرسان الداوية: ٩٣ ـ ٩٦) تفاصيل هذه الرواية لا سيما ما تعلق بموقف الداوية.

(٢) هنالك بعض الشك بخصوص تاريخ هذه الأحداث، ويضعها وليم في العام اللاحق لوفاة عباس، الذي كما هو مفترض عام ١١٥٥. ويبدو أن أرناط قد شكل، بعدما هزم طوروس واسترد عدة قلاع إلى الداوية، حلفاً مع الأرمن، وتعاون معهم في غزوة قبرص (انظر شالدون ـ آل كومينين: ٢/٤٣٦ ـ ٤٣٩).

قد اجتمعت إلا أن الأمير أرناط، الذي تولى الهجوم عليهم، هزم جيشهم على الفور وبدد قواتهم بأسرها بحيث لم يجرؤ بعد ذلك أحد على رفع يده ضده، ثم اجتاح الجزيرة بأسرها بدون أن يواجه أية مقاومة، ودمر المدن وضرب القلاع واقتحم أديرة الرهبان والراهبات على حد سواء، وأساء معاملة الراهبات والعذارى الضعيفات بشكل معيب وعلى الرغم من أن الأثواب الثمينة وكمية الذهب والفضة التي نقلها كانت كبيرة، يعدّ فقدان هذه الأشياء لا يساوي شيئاً بالنسبة إلى خرق الحرمات[1].

وتابعت قوات أرناط سلب المنطقة بأسرها لعدة أيام بدون توقف، وحيث لم يكن هنالك من يبدي مقاومة، فإنها لم تظهر أية رأفة نحو السن أو الجنس كما لم تفرق بين الأحوال، وعادت في النهاية إلى شاطىء البحر وهي محملة بمقدار كبير من الثروات والمغانم من كل نوع، وركبت متن السفن عندما كانت جاهزة وأبحرت إلى أنطاكية، وجرى هنالك خلال زمن قصير تبديد جميع الثروات التي تم الحصول عليها بطريقة شريرة، وكما يقول المثل: «لا تعطي المغانم المكتسبة بطريقة شريرة نتائج طيبة»[2].

١١ ـ الملك يأسر بعض الأتراك والعرب في غابة بانياس دون إقامة اعتبار للمعاهدة التي كان قد عقدها من قبل معهم.

في هذه الآونة كانت مجموعة ضخمة من العرب والتركمان قد اجتمعت في غابة قريبة من مدينة بانياس بأعداد كبيرة لم يسبق لها مثيل، ويعيش هؤلاء الناس عادة في خيام كالبداة ويعتمدون في غذائهم على اللبن[3]. وتعرف الغابة حالياً باسم غابة بانياس، وهو اسم المدينة الواقعة بالقرب منها، إلا أن المنطقة بأسرها، بما في ذلك تلك الأجزاء التي تمتد إلى الشمال والجنوب إضافة إلى ذلك الجزء الذي يغطي لبنان نفسه، كانت تسمى في الأزمان القديمة باسم غابة لبنان، وورد في الكتب المقدسة أن سليمان شيد في هذه الغابة قصراً جميلاً رائع البنيان وكان يسمى بيت الغابة اللبنانية[4]، بيد أن المنطقة بأسرها تحمل في هذه الأثناء كما

---

(١) يؤكد المؤرخون السوريون تهمة اقتراف الأعمال الوحشية هذه من قبل أرناط. ومن الصعب أن نحدد إلى أي مدى تأثرت فيه رواية وليم بحقيقة أن أرناط كان خصماً سياسياً لريموند صاحب طرابلس، لأن آخرين يشهدون على صحة معاملة أرناط القاسية للمعارضة، وحدثت هذه الحملة إما في أواخر عام ١١٥٥ أو أوائل عام ١١٥٦ (شالدون ـ آل كومينين: ٢/٣٨).

(٢) أوفيد: Amor, i, X, 48.

(٣) كان التركمان، وهم فرع من الأتراك الإيرانيين، أوقفوا حياتهم على تربية الخيول، وربما كان الحليب الذي أشير إليه حليب فرس أو لعله حليب جمل.

(٤) الملوك الأول: ١٠/١٧. أخبار الأيام الثاني: ٩/٢٠.

قلنا من قبل اسم المدينة المجاورة لها، وكان الناس المذكورون منذ لحظات قد دفعوا إلى داخل هذه الغابة عدداً كبيراً من الحيوانات، وبشكل رئيسي الخيول، بسبب المرعى الممتاز الذي كان موجوداً فيها.

إلا أن بعض الرجال الأشرار، ابناء الشيطان الذين لم ينصبوا أية خشية من الرب أمام أعينهم اقتربوا من الملك وأقنعوه بسهولة بالموافقة على خططهم الشريرة، وعلى الرغم من وعده المخلص والمعاهدة التي عقدها مع هؤلاء البدو، فقد اقترحوا عليه أن يشن هجوماً مفاجئاً عليهم بعد أن يكونوا قد أولجوا قطعانهم ودوابهم إلى الغابة لترعى، ويجعلهم هم وحيواناتهم فريسة لشعبه، ومال الملك بسرعة إلى هذه الخطة لأن الديون أرهقته وكبلته واجبات كثيرة لم تكن لديه أية وسيلة للإيفاء بمطالبها، اقتنع بها بسهولـة كاقتناعه بأية خطة يمكن بواسطتها تخفيف الضغط الذي يتعرض له، وأصغى باستعداد للناصحين الأشرار ووافق على اقتراحهم، واستدعى، بعدما ضللته نصيحة الرجال الأشرار، فرسانه وشن غارة مفاجئة على أولئك الناس، وهاجمهم كأعداء، بعدما وجدهم غير مستعدين وليس لديهم أدنى تفكير بأي هجوم، وسلمهم إلى قسوة أتباعه وعنفهم وتمكن بعضهم بفضل خيولهم السريعة أن ينقذوا أرواحهم بالهروب، ونجا آخرون، تدفعهم الضرورة في ذلك، بالاختباء في الغابات، لكن جميع الباقين قتلوا بالسيف أو اقتيدوا إلى عبودة وحشية.

ولقد قيل إن عدد الأسرى ومقدار المغانم التي تم الاستيلاء عليها في هذه الغارة لم يسبق له مثيل في بلادنا؛ فقد وزع عدد كبير من الخيول بالقرعة، ونال جميع الأفراد نصيباً من هذا التوزيع حتى الذين ينتمون منهم إلى الطبقة الأدنى مقاماً، ومع ذلك، فإن هذا العمل لم يجلب شهرة متألقة أو جديرة بالثناء لشعبنا لأنهم كانوا قد انتهكوا معاهدة سلام وأساؤوا بالفعل معاملة اناس غير مرتابين، أناس كانوا يثقون بحسن نية الملك ولم تكن لديهم ـ علاوة على ذلك ـ أية وسيلة للمقاومة.

إلا أن الله، رب الانتقام، الذي ينزل عقوبة عادلة على المذنبين، لم يتركنا نستمتع بمكافآت إثمنا لفترة طويلة من الزمن، وبالفعل؛ أوضح على الفور أنه ينبغي المحافظة على الوفاء بالعهد حتى مع الكفرة، وانتقم منا عقاباً على تلك الجريمة وسبب هلاكنا، وضاعف

---

(١) كان نور الدين، حسبما ذكره ابن القلانسي، قد عقد هدنة مع بلدوين الثالث لمدة عام بدءاً من شهر أيلول عام ١١٥٦، وحدثت هذه الغزوة، التي يصفها الكاتب نفسه، في شهر شباط من عام ١١٥٧. وفسر عمل بلدوين في أن وصول قوات جديدة من الغرب قد شجعه على عدم مراعاة الهدنة (جب ـ تاريخ دمشق: ٣٢٧ ـ ٣٢٨).

عقوبته لنا بسبب آثامنا الكثيرة وأحاقنا بالإرباك كما سيتم توضيح ذلك في الصفحات القادمة.

١٢ - همفري كافل المملكة يمنح نصف مدينة بانياس إلى الاسبتارية. نور الدين يستولي على المؤن المجلوبة إلى هناك، المدينة نفسها تتعرض للحصار.

ضاق في هذه الآونة همفري أوف تيرون، كافل المملكة من استمرار مسؤوليته عن مدينة بانياس وانفاقه عليها بعدما ورثها، ونظراً لعدم تمكنه من حكمها وحمايتها بشكل مناسب بدون مساعدة، قرر وبموافقة الملك أن يتقاسمها بشكل متساو مع فرسان الاسبتارية، وكانت الشروط المتفق عليها بموجب هذه التسوية على الشكل التالي: يتملك الاسبتارية نصف المدينة وجميع ممتلكاتها المحيطة بها، ويتوجب عليهم تحمل نصف النفقات لجميع الأشياء اللازمة والمفيدة، وتحمل المسؤولية القانونية تجاه نصف المدينة.

كانت بانياس تقع على حدود بلاد العدو، وكانت قريبة جداً منه بحيث لم يتمكن أحد من الإقتراب من المدينة أو مغادرتها دون التعرض للمخاطر إلا إذا كان ضمن جماعة قوية أو إذا سلك طرقاً سرية، وبعدما تولى الاسبتارية القيام بمسؤولية نصيبهم من المدينة، رغبوا بوضع الموقع في حالة دفاعية جيدة، وجمعوا لتحقيق ذلك الهدف كميات كبيرة من المؤن والأسلحة ومجموعة من الجنود أيضاً، وبينما كانوا يتقدمون في أحد الأيام ومعهم قطار كبير من الجمال وحيوانات النقل الأخرى المحملة بالمؤن تحت حراسة مجموعة من الفرسان، الذي توجب عليهم قيادة الحملة بأسرها إلى المدينة بالقوة إذا اقتضى الأمر ذلك، وبينما هم يسيرون نحو بانياس وبنيتهم تزويد المدينة بكل ما تحتاجه من مؤن وعتاد لفترة طويلة ومقبلة، ومع اقترابهم من المدينة مع قطارهم بمجمله انقض عليهم الكفرة الذين كانوا قد أخطروا باقترابهم واستخدم الأتراك سيوفهم بقوة ومزقوا خط السير المسيحي وقتلوا كثيراً من أفرادهم، ثم استولوا على الأمتعة، بينما هرب الباقون على قيد الحياة لينقذوا أرواحهم، وأما الذين منعهم الهجوم العنيف، الذي شنه العدو، من الهروب فقد قتلوا بالسيف أو أسروا، وهكذا سقطت في أيدي الكفرة جميع المؤن، التي كانت قد جمعت لتجهيز المدينة، ليتم استخدامها ضد المدينة، وانسحب الاسبتارية من الاتفاقية التي كانوا قد عقدوها، لأنهم خافوا من تعرضهم بعد هذه الكارثة لخسائر ومحن مشابهة، وأعادوا مدينة بانياس مع أعبائها وأجورها إلى كافل المملكة[1].

---

(١) إن تدمير هذه الزمرة من الداوية والاسبتارية كان سبباً لابتهاج كبير في دمشق، وقاد أخو نور الدين قوات المسلمين التي حققت النصر، كما طاف بالأسرى ورؤوس القتلى الأعداء في المدينة في موكب عظيم. وحدثت المعركة في ٢٦ نيسان من عام ١١٥٧ (جب- تاريخ دمشق: ٣٣٠- ٣٣٢).

قرر نور الدين على الفور، بعدما شجعه هذا النجاح، انتهاز الفرصة ليحاصر بانياس حيث كانت الكارثة قد أنهكتها، فاستدعى فرسانه ونقل آلاته الحربية إلى المدينة وظهر فجأة أمامها؛ فوضعت القوات في دائرة حولها، وبدأت عمليات الحصار؛ وكان هنالك قلعة في أحد أجزاء بانياس، وكانت مجهزة بشكل جيد بالأسلحة والرجال، وبكمية من المواد الغذائية تكفي لفترة قصيرة من الزمن، وكانت هذه ستؤمن ملاذاً للسكان حتى وإن تم الإستيلاء على المدينة، إلا أن الناس كانوا يثقون ثقة كبيرة في تحصينات مدينتهم لاسيما وأنهم كانوا قد تحملوا مراراً هجمات مشابهة، ولذلك قرروا بذل محاولة قوية للدفاع عنها، ولو لم يشعروا بثقة مفرطة في أنفسهم لكانوا قد نجحوا بالفعل كما كانوا يأملون، ولذلك فقد استمروا بالعمل دون حذر مناسب.

هاجم نور الدين بالآلات الحربية والقاذفة، وواصل في الوقت نفسه قذف وابل مستمر من السهام بحيث لم يترك للمحاصرين أية راحة، واضطروا إلى أن يقاتلوا ليل نهار وبدون انقطاع حتى انهكوا ووصلوا إلى درجة الإعياء لأن الكثيرين منهم قتلوا أو أصيبوا بجراح مميتة ولم تبق إلا قلة قليلة لتواصل الدفاع، ولو لم يكن كافل المملكة وابنه ـ الذي ضاهى بسالة والده ـ قد أظهرا استعدادهما للقتال بحماسة دفاعاً عن ممتلكاتهم الوراثية وشجعا الآخرين بالمثل الذي ضرباه في المقاومة، لكان السكان، الذين أنهكتهم الجهود البطولية التي بذلوها، قد استسلموا بلا ريب أمام القوة المتفوقة لأعدائهم، وكما قيل: إن وجود أسيادهم ثبتهم ونجحت الشجاعة المتوقدة لقادتهم والمشرفين عليهم في بعث الحماسة في أنفسهم، وجددت قوتهم المتناقصة وقدمت لهم شجاعة جديدة للمقاومة.

وفي أحد الأيام، بينما كان العدو يشدد الخناق عليهم بعنف أكثر من المعتاد فتح المحاصرون باب المدينة وقاموا بالانقضاض على العدو في الخارج، وبما أنهم أنشبوا القتال دون اتخاذ احتياط مناسب فقد أثاروا ضدهم حشداً كبيراً من الأعداء، واندفع الأتراك نحوهم، وحاول السكان الانسحاب إلى المدينة بعدما عجزوا عن المحافظة على موقعهم، وتعذر إغلاق الباب بسبب الضغط الكبير الذي بذله الحشد للدخول، وهكذا، اختلط العدو مع سكان المدينة ودخل المدينة بأعداد كبيرة بحيث تم الاستيلاء عليها بالقوة، وأرغم المسيحيون على الانسحاب إلى القلعة في ظل مخاطر شديدة ومع التعرض لخسائر بشرية كبيرة[1].

---

(١) تبعاً لما ذكره ابن القلانسي عرض همفري الإستسلام شريطة السماح له ولجنوده الموجودين في القلعة بالانسحاب بأمان، وهو عرض رفض نور الدين قبوله. كما أن وصول بلدوين المحكي في الفصل اللاحق، قد أنقذ همفري. وعاشت بانياس تحت الحصار قرابة شهر من أيار إلى حزيران ١١٥٧ (جب ـ تاريخ دمشق: ٣٣٣ ـ ٣٣٦).

وفي هذه الأثناء كان الملك قد علم أن بانياس كانت تكابد شدائد رهيبة على يدي نور الدين، وأنها كانت على وشك السقوط بالفعل، فجمع بالسرعة الممكنة جميع القوات المتوفرة في ذلك الوقت من الفرسان والرجالة على حد سواء، وزحف نحو بانياس بسرعة ومعه فيالقه، وكان مصمماً على رفع الحصار أو أن يجرب حظه ويغامر بالقتال مع نور الدين.

١٣ ـ الملك يسرع إلى بانياس ويرفع الحصار. جيشنا يسير في طريق العودة دون حذر مناسب ويقع في كمائن خطيرة.

ما أن سمع نور الدين خبر قدوم الملك لتحقيق هدف محدد حتى رفع الحصار، لأنه لم يكن راغباً بالاعتماد على فرص القتال غير المؤكدة العواقب، هذا وقام قبل رحيله بنسف واحراق المدينة التي كان قد استولى عليها بالقوة، ولم يأذن للقوات التي كان قد جمعها بالتفرق بل أبقاها معه ببصيرة وبعد نظر قوي، لا بل زاد ذلك بأن استدعى قوات كبيرة وكمن في الغابة المجاورة منتظراً نتيجة الأحداث.

جلب وصول الملك إلى بانياس المساعدة التي انتظرها المحاصرون بتلهف، ووعد بأنه سيبقى حتى يتم تشييد المواقع المتهدمة وترميم الصدوع والثغرات وتعاد المدينة بأسوارها المرممة إلى حالتها السابقة، واستدعى البنائين من المدن والمنطقة المجاورة بأسرها، كما استدعى جميع الذين كانت لديهم بعض الخبرة في فن البناء، ورممت الأسوار والأبراج بشكل كامل، وجددت الشرفات والمتاريس. وأعيد بناء منازل السكان الموجودة داخل محيط الأسوار، وأعيدت الأبنية العامة إلى وضعها الأصلي لأن نور الدين كان قد اهتم اهتماماً كبيراً خلال احتلاله للمدينة بتدمير هذه الأبنية تدميراً تاماً.

شعر الملك ونبلاؤه عندما انتهى كل شيء أنه لم يعد هنالك ضرورة لإقامتهم لفترة أطول هناك لمصلحة السكان، وكان كل شيء قد تجدد الآن تماماً، وجهزت القلعة بالأسلحة والمواد الغذائية والجنود بشكل يكفي للوقت الحالي، وبناء عليه صرف الملك قوات المشاة وصمم أن يعود إلى طبريه برفقة سرايا الفرسان فقط، وانطلق من بانياس ووجه سيره نحو الجنوب وخيم بالقرب من بحيرة الحولة، واستراح الجيش هنالك تلك الليلة دون أن يتخذ تدابير أمنية مناسبة، ودون التقيد بأنظمة المعسكرات وبشكل يخالف كثيراً في الواقع ما كانت تتطلبه مقتضيات النظام العسكري.

يحدث مراراً أن الناس يصبحون مهملين إلى حد ما عندما تسير الأمور بنجاح وسعادة، ويبدي الرجال عادة اهتماماً زائداً بأمورهم في المحن[1]، ويحتمل أن الفكرة ذاتها

---

(١) أوفيد: Met, VI, 576.

متضمنة في هذا القول المعروف بشكل جيد: «يسقط عن جانبك ألف». (وربما على اليسار)، «وعشرة الآف عن يمينك»[1]. لأن الغالبية تندفع عادة تحت شروط التقدم والازدهار إلى الهلاك مباشرة وهي مزهوة بالنجاح؛ وعلى العكس فإن الأخطار تعلم الذين أنهكتهم الخسائر والمحن أن يتصرفوا بتعقل في ظروف مستقبلية مبهمة وأن لا يثقوا بالحظ أبداً حيث يكون قاسياً كما تظهر تجربتهم.

وحيث كان الملك يفكر بحقيقة أنه كان قد أجبر هذا الأمير العظيم على الانسحاب من حصار بانياس، فقد كان يثق أن نور الدين قد ابتعد الآن كثيراً مع قواته ومن المحال أن يكون تمكن من جمع مثل هذه الأمم الكثيرة ضده وضد شعبه ولذلك بدأ يبدي حذراً قليلاً جداً، كما قلنا، وكان ميالاً لغض النظر بإفراط إزاء نزوات الأفراد، ووصل على الفور نبأ إلى العدو الذي كان مترصداً في كمين أنه تم صرف قوات الملك من المشاة وأن بقية الجيش كانت مخيمة بطريقة فوضوية وغير حذرة بالقرب من بحيرة الحولة، وذكر أيضاً أن بعض القادة كفيليب صاحب نابلس وآخرين كثر كانوا قد غادروا مع فرقهم. وهكذا، لاحظ الكفرة أن الأمور انتهت حسب رغباتهم ونقلوا معسكرهم بسرعة، وعجل قائدهم البارع الأمور لمعرفته بموائمتها وساق الجيش بزحف سريع في ذلك الاتجاه. ووصلت قواته على الفور إلى الأردن الواقع بين الجيشين وعبرت النهر وكمنت في موقع يدعى عموماً باسم مخاضة يعقوب الواقعة على هذا الجانب من النهر حيث سيعبرها جيش الملك في اليوم التالي.

استأنف الجيش المسيحي سيره عند الفجر وكل من فيه غير عالم بالكمين الذي نصب أثناء الليل، وجاهل أيضاً بخطط أعدائه، وتوجه إلى الموقع الذي كان الأتراك قد سيطروا عليه خلسة، وكانت عناصر الجيش المسيحي تتقدم بسلام وهمي غير خائفة من وقوع أي حادث مشؤوم عندما انطلق فجأة الذين كانوا قد كمنوا هنالك من أجل مباغتة المسيحيين الغافلين من مكامنهم، وواجه المسيحيون، عندما تقدموا وهم مبتهجون دون خوف من الخطر، سيوفاً مسلولة لعدو مصمم على قتلهم وإصابتهم بجراح، فثار غضب المسيحيين ولكن بعد فوات الأوان وأدركوا أن معركة خطيرة كانت على وشك الحدوث، فأوقفوا ثرثرتهم التافهة وهرعوا إلى خيولهم وأخذوا أسلحتهم، إلا أن صفوفهم أبيدت قبل أن يتمكنوا من وضع أنفسهم بتشكيل المعركة والاحتشاد للدفاع، حيث هاجمهم العدو بعنف ومن مواقع متلاحمة بالمبارزة وهكذا كان من المحال بالنسبة لجنودنا الصمود مع بعضهم في أي موقع ما خلا مجموعات صغيرة جداً.

---

(١) الأمثال: ٧/٩١.

١٤ - فرار الملك من ميدان المعركة وانسحابه إلى قلعة صفد. انهزام الجيش ووقوع معظم القادة في الأسر.

بقي الملك محاطاً بعدد قليل من الفرسان الذين بقوا مصممين على الوقوف إلى جانبه؛ لكنه أدرك أن الصفوف تمزقت وأن الجيش المضطرب كان معرضاً لحنق العدو في كل مكان، وعلاوة على ذلك، كانت قوة العدو تزداد من كل الجهات بينما كانت صفوفنا تنهار كما كانت الحالة في الواقع منذ البداية، ولذلك، تراجع الملك بحكمة إلى هضبة مجاورة ليحتاط لسلامته، ونجح من هنالك بصعوبة كبيرة في بلوغ قلعة صفد الواقعة على الجبل نفسه متجنباً العدو الرابض على يمينه أحياناً وعلى شماله أحياناً أخرى وبفضل الحصان الذي نقله، وقد أسر عدد كبير جداً من قادتنا في ذلك اليوم، ولم يقتل سوى عدد قليل جداً منهم، وبما أن جميعهم كانوا بدون تمييز محاربين مشهورين بالحكمة والخبرة في الحروب، ومحاربين متماثلين، فقد استسلموا دون مقاومة لينقذوا أرواحهم التعيسة كأحط أنواع العبيد وبصرف النظر تماماً عن نير العبودية وخزيه وعن وصمة العار التي ستلتصق بأسمائهم إلى الأبد.

وكان بين الأسرى النبيل اللامع هيودي ابلين ويودس دي سينت أماند، وكان قائداً للقوات الملكية وجون غوتمانوس وروهارد صاحب يافا وأخوه بالين وبرتراندي بلانكفورت، وهو مقدم فرسان الداوية وكان رجلاً متديناً ويخشى الرب، وآخرون كثر أسماؤهم غير معروفة من قبلنا.

لقد أعاد الرب إلينا ثمار أعمالنا الشريرة، تماماً حسبما تستحق أساليبنا وسلوكيتنا، ذلك أننا نحن الذين كنا في إزدراء للقوانين الإنسانية، قد ظلمنا الأبرياء بشكل جائر وعسفنا أيضاً أنفسنا بالذين اعتمدوا على اخلاصنا ورميناهم في فوضى من معيار واحد، ولذلك غدا ـ عقوبة لآثامنا ـ قادتنا اللامعون موضع لوم واحتقار الأمم الدنية وتعرضوا لسخرية العدو: «تجعلنا مثلاً بين الشعوب لانغاض الرأس بين الأمم»[1].

ومع ذلك، لم يعاملنا الرب، بشفقته الكبيرة، دون رحمة تماماً؛ كما لم يمنع رأفته على الرغم من غضبه علينا، لأنه أنقذ الملك، فلو كان ملكنا قد سقط في ذلك اليوم لكانت المملكة قد وقعت في خطر جسيم بلا ريب، أسأل الرب أن يمنع حدوثه، لأنه في حالة سقوط فارس واحد مهما كان عظيماً، تبقى المسألة متعلقة بمصير رجل واحد؛ لكن الخطر الذي يتعرض له الملك يشتمل على خطر للأمة بأسرها، وهكذا، فإن داود المخلص الذي كان مليئاً بالقلق حول ملكه توسل قائلاً: «يا رب احفظ الملك».

---

(١) الأمثال: ١٤/٤٤.

ونشأ قلق كبير في كل مكان من المملكة بسبب شائعات انتشرت في هذا الوقت تضاربت بمحتـواها بخصوص سلامة الملك، حيث قال بعض الناس إنه قتل بالسيف، وقال آخرون إنه أخذ أسيراً بين بقية الأسرى على الرغم من أن العدو لم يتعرف على هويته، وأشيع أيضاً أنه كان، بفضل الرحمة السماوية، قد نجا سليماً من وسط المعركة، وأحس جميع الناس بقلق عميق حول مصير ملكهم مثل قلق أم مخلصة حول مصير ابن وحيد لها، وبما أنهم كانوا جاهلين بمصيره فقد تخيلوا أن الشيء الأسوأ قد يحدث وخافوا بتعاطفهم الشفوق من أن يكون مصيره الموت.

ولكن الحقيقة أن الملك أسرع إلى عكا عندما وجد نفسه على مسافة مناسبة من العدو برفقة العدد القليل من الفرسان الذين كانوا قد تبعوه إلى صفد ومع بعض الآخرين الذين كانوا قد نجوا من أخطار اليوم السابق، فرحب به الناس بصيحات ابتهاج متحمسة وكأنه عائد من الموت.

حدث هذا من شهر حزيران في اليوم الثالث عشر قبل بداية شهر تموز في العام الربع عشر من حكم بلدوين [١].

١٥ ـ نور الدين يحاصر مدينة بانياس للمرة الثانية دون نجاح لزحف الملك نحوه.

اجتاح نور الدين المنطقة بأسرها وأغنى نفسه بالمغانم المأخوذة الآن من هذا المكان وفيما بعد من مكان آخر، سيما وانه كان محارباً لا يعرف التعب تواقاً لمواصلة تحقيق نجاحاته، فقد استدعى كتائبه مجدداً وأمر بجـمع قوات كبيرة أيضاً من دمشق ومن جميع المناطق الخاضعة لسيطرته، لأنه كان مصمماً على محاصرة بانياس للمرة الثانية، ولم يكن أي شيء أكثر بعداً عن تصوراته من أن يحضر من جديد الملك والنبلاء الذين كان قد أباد قواتهم تماماً، لإنقاذ الحاصرين، ولذلك قام تنفيذاً لخططه بضرب الحصار مجدداً حول مدينة بانياس ووضع آلاته الحربية العديدة في مواقع استراتيجية، فهزت الضربات القوية للقذائف الحجرية الأبراج وأضعف الأسوار، وتساقط في الوقت نفسه وابل من السهام والنشاب كالبرد ومنع المقاومة كلها من جانب الذين كانوا في الداخل، إلا أن أهالي بانياس، المتذكرين كم كانت

(١) يتفق تأريخ ولِم هنا تماماً مع تأريخ ابن القلانسي وهو ١٩ حزيران ١١٥٧، الذي كان العام الرابع عشر من فترة حكم بلدوين، إلا أن الأخير يقول إن بلدوين لم يجدد بناء أسوار بانياس، ويقول أيضاً إن المسلمين اعتقدوا أنهم كانوا قد قتلوا بلدوين غير أنهم لم يتمكنوا من العثور على جثته، وقد جرى عرض الأسرى والمغانم في دمشق بعد خمسة أيام من المعركة (انظر جب ـ تاريخ دمشق: ٣٣٦ ـ ٣٣٧).

عقيمة الجهود التي بذلوها لإنقاذ المدينة من الحصار الذي انقضى منذ لحظات، انسحبوا مع بعضهم طواعية إلى القلعة للحيلولة دون محنة مماثلة.

عندما غادر كافل المملكة المدينة ليتدبر بعض المسائل الأخرى، كان قد عين قريباً له في القيادة العليا يدعى غي دي سكاند ليوم، وكان رجلاً صاحب خبرة واسعة في الحرب، إلا أن ولاءه كان مريباً، وكان رجلاً لا يخشىٰ الرب وقد حاول هذا الرجل بالقول والقدوة أن يلهب حماسة الآخرين لبذل المقاومة من أجل الرجل الذي كان قد حمله المسؤولية وبسبب سمعته الشخصية أيضاً وخشية من أن تتناقص الشهرة التي كانت بسالته الحربية قد حققتها له، وأكد لهم أن النجدة ستصل فوراً، وأن شهرة رائعة وأبدية تنتظر الذين يستحقونها، ونتيجة لذلك، قاتل الجميع وكأنهم يحاربون لمصلحتهم الشخصية، وأثارت مقدرتهم في تحمل السهر الطويل والمشقات المستمرة دهشة العدو وإعجابه ومع ذلك، فقد أصر الأتراك، على القتال بكل قوتهم ضد عدو قوي مثلهم قاوم أيضاً إلى الحد الأقصى، وألحقوا كوارث بلا حدود بالمدافعين، وكانت أعدادهم كبيرة، وتمكنوا من نجدة بعضهم بعضاً بالتناوب، وعلى عكس ذلك لم يكن لدى المسيحيين أية احتياطيات ليعززوا بها قوتهم، وكان الضغط اليومي يدفعهم إلى حافة الاستسلام تقريباً.

علم الملك في هذه الأثناء أن مدينة بانياس كانت تعاني من شدائد رهيبة، كما لم تحتجب هذه الحقيقة عن أعين نبلاء المملكة الذين كانوا ما يزالون علىٰ قيد الحياة، فجرى إرسال الرسل علىٰ الفور إلىٰ أمير انطاكية وكونت طرابلس لحثهما على الإسراع لنجدة المدينة بدون تأخير، وأرسل الملك المنادين لاستدعاء القلة الباقية من الفرسان في المملكة، وهكذا حدث بفضل الرحمة السماوية أن وصل هذان الأميران الشهيران مع مواكبهما المهيبة إلىٰ المعسكر الملكي في غضون زمن قصير، وبشكل أسرع مما كان يتوقع بالفعل، وكان يمكن مشاهدة المدينة علىٰ مقربة من هذا الموقع الذي كان قريباً من حصن هونين في مكان يدعىٰ «النقطة السوداء»[1].

أبلغ نور الدين علىٰ الفور أن القائدين كانا قد انضما إلىٰ الملك، وكانوا جميعهم يستعدون للزحف إلىٰ مدينة بانياس، وكان هذا الأمير يتمتع بحكمة وبصيرة كبيرة في إدارة أموره، فاعتقد أنه من الحكمة تجنب تقلبات المعركة بمخاطرها وأحداثها المجهولة وذلك علىٰ الرغم من أنه كان قد نجح في تسبيب الكثير من الصدوع في الحصن، وكان المحاصرون قد فقدوا كل أمل بالمقاومة، ولهذا تخلىٰ عن الحصار وانسحب إلىٰ مكان بعيد في مملكته.

---

(١) لم يذكر ابن القلانسي هذا الهجوم الثاني على بانياس، وقد أشار بشكل غامض إلى جهود نور الدين في متابعة استغلال نصره على الملك.

١٦ ـ وصول ثيري كونت فلاندرز بحراً. إرسال الرسل إلىٰ القسطنطينية للبحث عن زوجة للملك.

وهكذا كانت أحداث كثيرة متباينة وواسعة الاختلاف تقع في المملكة، وكانت البلاد مهجورة لأن معظم قادتنا كانوا في الأمر، وصدف أن حدث في هذا الوقت بفضل الرحمة الربانية أن نزل ثيري كونت فلاندرز في ميناء بيروت مع زوجته سيبيلا وهي أخت الملك من أبيه، وكانت زيارات هذا الرجل البارز والمشهور التي حدثت أكثر من مرة ذات عون كبير وعزاء لنا.

ورحب به جميع الناس بابتهاج كبير، حيث بدا وصوله مع حاشيته يبشر أن محنة المملكة التي لا تحتمل ستخف الآن علىٰ نطاق واسع، واتقدت آمال الذين تلهفوا بإخلاص لإحلال السلام في المملكة لأنه تولىٰ فور وصوله وكأنه ملاك الرأي المصيب، توجيه أمورهم وقادهم قدماً إلىٰ الأمام من أجل مصلحة المملكة ومجد العقيدة المسيحية كما سيتم ذكر ذلك فيما بعد [١].

وفي هذه الآونة بدت مشكلة الملك الذي لم يكن قد تزوج حتى الآن على الرغم من بلوغه سن الرجولة، ستكون ذات اهتمام كبير للأمراء المدنيين والكنسيين في المملكة، وكان الشيء المهم للغاية أن يكون له أطفال حتى يخلفه ابن له ويكون بمثابة الوريث الشرعي للمملكة، وبناء عليه اجتمعوا للتداول حول ترتيب زواج مهيب لحاكمهم الذي لم يكن لديه أولاد حتى الآن، وبعد تقليب للأمر وتبادل معمق للأفكار تم التوفيق بين الآراء المختلفة، واتفق بالإجماع أن يتم التشاور مع امبراطور القسطنطينية حول هذه المسألة، وكان يوجد في قصره الكثير من العذارىٰ النبيلات اللواتي كن قريبات له بروابط الدم؛ زد على هذا أنه كان بإمكانه ـ لكونه الملك الأقوىٰ والأغنىٰ في العالم ـ أن يخفف من فيضه وغناه المحنة التي كانت مملكتنا تكابد من وطأتها، وأن يغير فقرنا إلىٰ غنى، ولذلك، جرىٰ إرسال المبعوثين بموافقة عامة لينفذوا هذه الخطة بعون الرب، واختير لهذه المهمة كل من أتارد رئيس أساقفة الناصرة وهمفري أوف تيرون كافل المملكة. وتقدما إلىٰ الساحل بعدما أعدا عدتها في تلك الأثناء وركبا متن إحدىٰ السفن هناك [٢].

---

(١) يجب تحديد تاريخ وصول ثيري مع حوالي نهاية صيف عام ١١٥٧، وسببت ظروف عديدة في نقل مسرح النشاطات إلى شمال سورية، حيث كان قلج أرسلان الثاني قد غزا منطقة أنطاكية، بينما وجد نور الدين، الذي كان قد ذهب لنجدة المدن المصابة بالزلزال على طول العاصي الأعلى، الظروف أكثر مواءمة لمهاجمة المنطقة نفسها من الجنوب.

(٢) لا بد وأن هذه السفارة حسب السياق ـ قد انطلقت إلى القسطنطينية بعد وقت قصير من وصول ثيري، وربما كان ذلك في شهر أيلول من عام ١١٥٧ مع أن ذلك يمكن أن يكون قد حدث فيما بعد.

١٧ ـ الملك يحث الخطا نحو أنطاكية وبمرافقة كونت فلاندرز وسائر قوات المملكة، نور الدين يصاب بمرض خطير.

كان الرأي المجمع عليه أن وصول أمير عظيم كهذا مع جنود شجعان ونبلاء كثيرين في موكبه يجب ألا يكون بلا ثمار وبدون نتيجة. ولذلك تقرر بموافقة جماعية وبوحي من الرحمة السماوية أن يتقدموا إلىٰ منطقة أنطاكية مع القوات المحاربة المتحدة، ونقل هذا العزم إلىٰ أمير تلك المنطقة، وإلىٰ كونت طرابلس، ودعي الإثنان بمودة ليجهزا قواتهما في يوم محدد لغزو منطقة العدو، وبناء عليه اجتمع بتأييد من السماء، جميع المسيحيين من المناطق المختلفة في مكان يعرف باسم بوقه في بلاد طرابلس، وزحفوا بتشكيل المعركة من هناك إلىٰ المنطقة المعادية، إلا أن النجاح لم يلازمهم في أول الأمر، فقد شُن هجوم ضروس على واحد من حصون العدو المعروفة باسم قلعة الروج إلا أنه لم يثمر شيئاً، «لكن الحظ الأفضل يأتي بعد البداية التعيسة»[١]. وهكذا، تقدم الأمراء المجتمعون، تلبية لاقتراح أرناط أمير انطاكية وتوسلاته نحو منطقة انطاكية في ظل بشائر خير أكثر إيجابية.

وبينما كان الملك والنبلاء متريثين هناك لرسم الخطة الأكثر إحكاماً في ظل تلك المعطيات، وصل رسول يحمل أكثر الأخبار استساغة، وأكثر صحة وهو أن نور الدين، أقوىٰ أعدائنا، الذي كان قد خيم مع جيش ضخم بالقرب من قلعة إنب، قد توفي أو كان متمدداً وهو مصاب بمرض عضال وبشكل ميؤوس منه، وكبرهان على صحة ما ذكره روى الرسول أنه كان قد شهد في اليوم السابق اضطراباً كبيراً في معسكر نور الدين، ويبدو أنه تم اهمال عبيده له وتخلى عنه أكثر العناصر ثقة في حاشيته، وأهملت جميع ممتلكاته الخاصة بدون تمييز، وباتت عرضة للنهب من قبل أي شخص شاء، وعلاوة على ذلك، ذكر أن الجنود الباكين والناجين بحزن عميق قد تفرقوا هنا وهناك باضطراب كبير وفوضىٰ شديدة[٢].

وتأكدت صحة الرواية التي نقلها الرسول، فقد كان نور الدين قد أصيب بداء خطير جداً، وأصبحت صفوفه غير منتظمة وكما هي العادة بينهم عندما يموت حاكمهم كان العنف اللامحدود وأعمال النهب منتشرة في جيشه وكان رجال نور الدين المخلصون قد نقلوه علىٰ حالة إلىٰ مدينة حلب بعدما أصبح عاجزاً عن التحرك جسدياً وضعيفاً تماماً.

أدرك المسيحيون لدىٰ تلقيهم هذه الأخبار عن أحوال العدو أن جميع الأشياء كانت

---

(١) أوفيد: Met, VII, 518.

(٢) باغت هذا المرض الشديد نور الدين في مطلع شهر تشرين الأول وأدى إلى حدوث الاضطراب الموصوف هنا (انظر جب ـ تاريخ دمشق: ٣٤١ ـ ٣٤٢).

تتفاعل مع بعضها بعضاً لتحقيق نجاح مشروعهم، ولذلك جرى إرسال الرسل بموافقة جماعية إلى طوروس، وهو أمير أرمني قوي جداً، وبعثوا إليه دعوة ودية للغاية في أن يتلطف بالانضمام إليهم في مشروع وعدوه أنه سيكون مثمراً جداً، وصدرت التعليمات إلى الرسل في أن يستخدموا كل وسيلة ممكنة لإقناعه في أن يتخلى عن جميع المعاذير وأن ينضم إلى القوات المتحالفة في انطاكية بنجدات قوية، وتلقى طوروس الرسالة بسرور؛ وبما أنه كان رجلاً صاحب شخصية نشطة متأهبة للعمل، فقد جمع على الفور جيشاً ضخماً، وزحف بسرعة قصوى نحو أنطاكية، ورحب به المسيحيون بابتهاج وقيدت القوات على الفور من المدينة وتوجه الزحف نحو شيزر.

١٨ - حصار شيزر والإستيلاء عليها بالقوة خلال وقت قصير.

تقع مدينة شيزر على نهر العاصي نفسه الذي يجري بمحاذاة انطاكية، ويدعوها بعضهم باسم قيسارية ويعتقد من خلالهم أنها حاضرة كيبادوكية المشهورة التي رأسها في إحدى المرات المعلم البارز القديس باسيل، إلا أن الذين يؤمنون بهذا الرأي يقترفون خطأ كبيراً، لأن قيسارية تلك تبعد مسافة مسيرة خمسة عشر يوماً أو أكثر عن انطاكية، وتقع هذه المدينة في سورية المجوفة وهو اقليم يقع بينه وبين كيبادوكية أقاليم كثيرة، كما أن الاسم ليس قيسارية؛ بل هو قيصرية وشيزر هي إحدى المدن الأسقفية التابعة لبطريركية أنطاكية، وهي واقعة بشكل موائم جداً، ويمتد الجزء السفلي منها على طول السهل، بينما تقع القلعة على الجزء العلوي، وهي قلعة طويلة بعض الشيء في امتدادها إلا أنها ضيقة نوعاً ما؛ وهي محصنة بشكل جيد، فبالإضافة إلى دفاعاتها الطبيعية، فإن النهر يحميها من جانب واحد وتحميها المدينة من جانب آخر بحيث يتعذر بلوغها على الإطلاق.

تقدم المسيحيون بصفوف منتظمة حسب قواعد النظام العسكري، وقام القادة فور وصولهم إلى المدينة بتوزيع جنودهم بالنظام الأمثل وحاصروا المدينة، ودفع الخوف من العدو سكان المدينة إلى التراجع إلى داخل الأسوار حالما بدأ الحصار، ونصب الملك والمخيمون في الخارج آلاتهم الحربية وآلات قذف القذائف على الفور، ولم يتراخوا في جهودهم ولو لدقيقة واحدة، بل حاولوا أن يلحقوا بعدوهم كل ضرر ممكن حتى يمكن إنهاك قوة المدافعين بشدة ومشقة متواصلة، وأجهد كل قائد نفسه بشجاعة في القطاع الخاص الذي كان قد عين فيه منذ البداية، ورفع معنويات جنوده بالأقوال التشجيعية والوعود بالمكافآت لبذل المزيد من الجهود القوية، ورغب كل واحد منهم أن يكون أول من يقتحم المدينة، وسعى ليحقق لنفسه الفخار بكونه أول من يدخل المدينة، وأحدثوا بها لهذا السبب دماراً ذريعاً إلى حد أن الموت بدا يهدد سكان المدينة من جميع الاتجاهات.

لم يكن لدى سكان شيزر سوى معرفة بسيطة باستخدام الأسلحة، وكان اهتمامهم موقفاً على التجارة إلى أبعد الحدود، وعلاوة على ذلك، وبما أنهم كانوا جاهلين تماماً بالمحنة التي كانت قد حدثت مؤخراً، فإنهم لم يخشوا أدنى خشية من الحصار، وكانوا يثقون بدفاعات مدينتهم وبقوة حاكمهم الذي كان بصحة جيدة حسبما كانوا يعتقدون، حيث أنهم لم يتمكنوا من تحمل أعباء من هذا النوع، ولم يستطيعوا مواصلة الصمود تحت وطأة الهجمات والمناوشات المتواصلة، فقد استسلموا بعد بضعة أيام تحت الضغط المستمر لمهاجميهم واقتحم المسيحيون التحصينات واندفعوا إلى وسط المدينة واستولوا عليها بالقوة، فتراجع الناس إلى القلعة وتخلوا عن كل ما كان قد بقي في المدينة السفلية، وجرى التخلي عن كل شيء بدون استثناء للعدو ليقوم بسلبه، وهكذا، استخدم المسيحيون حسب هواهم منازل الناس بكل ما كانت تشتمل عليه إنما لعدة أيام فقط.

وتفجر سبب تافه للخلاف بين قادتنا لكنه كان مزعجاً للغاية، وحدث هذا في الوقت الذي بدا فيه من المؤكد تماماً أنه يمكن الاستيلاء على القلعة بسهولة وذلك تحت الضغط المستمر وبالتالي إلقاء القبض على جميع الذين كانوا قد هربوا إلى هناك طلباً للملجأ، وكان الملك مهتماً بمستقبل تقدم البلاد، وبما أنه كان عارفاً أن كونت فلاندرز سيتمكن مع قوته الكبيرة من الفرسان والوسائل الكثيرة التي بحوزته من حماية المدينة تماماً ضد قوى الأتراك ومكائدهم فقد خصص شيزر له منذ البداية، وبما أنه كان يفكر بهذا الأمر، فقد شن هجوماً عنيفاً على القلعة حتى يتمكن من وضع المدينة والقلعة تحت حماية الكونت ويحتفظ بها كملكية وراثية إلى الأبد، وبدا هذا الترتيب لجميع القادة أنه ترتيب مناسب تماماً ووافقوا بالإجماع عليه.

بيد أن الأمير أرناط وحده اثار المصاعب، وأعلن أن شيزر كانت قد شكلت منذ البداية مع توابعها جزءاً من ميراث أمير انطاكية، ولهذا السبب على كل من يتملكها أن يقسم يمين الولاء له ويعتبره سيداً له، ومع أن الكونت ثيري كان على استعداد لتقديم الولاء للملك في سبيل تملك شيزر فقد رفض بشكل قاطع أن يؤدي يمين الولاء لأمير انطاكية سواء أكان أرناط، الذي كان يدير الإمارة حالياً، أو بوهيموند الشاب، الذي كان يؤمل أنه سيتسلم السلطة حالاً، وقال إنه لن يقدم الولاء إلا للملوك[1].

وهكذا، وعقاباً على ذنوبنا، نشب خلاف بين القادة حول هذه المسألة، وتم التخلي

---

(١) يعزو ابن القلانسي ثانية هذا الاخفاق الجديد للمسيحيين في الاستيلاء على شيزر إلى وصول تعزيزات من المسلمين (جب - تاريخ: ٣٤٢).

عن المشروع الذي كان هاماً جداً والذي كان في قبضتهم تقريباً، وعاد المسيحيون إلىٰ انطاكية مع فيالقهم وهم محملون بالمغانم والأسلاب إلىٰ درجة الإشباع التام.

١٩ ـ أخو نور الدين يتحرك ضدنا. موت فولتشر بطريرك القدس. عودة حصن كهف [وادي الراحوب] الواقع وراء الأردن إلينا. الملك يحاصر قلعة حارم الواقعة في منطقة انطاكية ويستولي عليها.

في هذه الآونة قدم ميرميران أخو نور الدين إلىٰ حلب، بعدما علم بالكارثة التي حلت بأخيه، واعتقد أنه كان قد توفي، وسلم له السكان المدينة علىٰ الفور بدون إثارة أية متاعب، وبينما كان يهاجم القلعة بقوة ليجبرها على الاستسلام أيضاً، سمع أن أخاه ما يزال علىٰ قيد الحياة، ولذلك فرق عساكره علىٰ الفور ورحل[١].

وتوفي في هذا الوقت نفسه أيضاً فولتشر البطريرك اللاتيني الثامن للقدس، وكان رجلاً متديناً ويخشىٰ الرب، وحدث هذا في العام الثاني عشر من توليه لمنصب بطريركيته، وفي اليوم الثاني عشر قبل بداية شهر كانون الأول[٢].

وفي هذه الآونة استرد المسيحيون أيضاً معقلاً واقعاً علىٰ الناحية الأخرىٰ من الأردن في منطقة جلعاد، وكان هذا الواقع، علىٰ شكل كهف، جيد التحصين، (قد تم الاستيلاء عليه خداعاً من قبل الأعداء قبل بضعة أعوام بسبب إهمال قواتنا، وكانت استعادته قد تمت وإلىٰ حد كبير بفضل الجهود الحماسية للملكة ميليساند وبمساعدة العمل الفعال للذين تركوا في المملكة ولا سيما رعاية بلدوين دي ليلي الذي كان الملك قد عهد إليه بالمسؤولية عن المملكة أثناء غيابه، وأرسلت أخبار هذا النجاح إلىٰ الملك فجلبت سروراً كبيراً للجيش بأكمله، وكانت مصدر سعادة كبيرة للجميع.

وفي تلك الأثناء كان القادة ما يزالون مقيمين في انطاكية وبما أنهم رفضوا الاستمرار في حالة الخلاف التي كانوا عليها أمام شيزر فقد توصلوا الآن بنعمة الرب إلىٰ وحدة في الروح والهدف، ولهذا صمموا بالروابط السلمية التي قامت بينهم أن يتولوا القيام من جديد بعمل بارز. يكون جديراً بالتذكر إلىٰ الأبد، وتقرر بموافقة الجميع ومساعدتهم ضرب الحصار على [حارم] وهي إحدى القلاع الواقعة على بُعد /١٢ ميلاً/ من أنطاكية، حيث

---

(١) كان مير ميران نصرة الدين أخو نور الدين، هو المنتصر على الاسبتارية في مطلع عام ١١٥٧. ويعتبر وصف وليم لاستيلائه على حلب وانسحابه الطوعي بمثابة موجز تقريبي لرواية ابن القلانسي (جب ـ تاريخ دمشق: ٣٤٢).

(٢) ٢٠ تشرين ثاني ١١٥٧ ـ انظر الفصل ٢٢.

باشر هذا الموقع نفوذاً كبيراً وسلطاناً علىٰ القرىٰ التي تدعىٰ قرى الجزر وكان مصدر إزعاج كبير للمدينة نفسها. وبناء عليه ذهب الجيش بأسره بتصميم واحد وخيم أمام المدينة وذلك في يوم ميلاد الرب.

وفي الوقت نفسه كان المرض، الذي هاجم نور الدين، ما يزال مسيطراً عليه. وكان قد تم استدعاء أمهر الأطباء من سائر أنحاء الشرق، إلا أن مرضه رفض الاستجابة إلىٰ العلاجات التي استخدموها وأصبحت حياته ميؤوساً منها الآن، وبدا هذا الأمر بالنسبة للمسيحيين بأنه مؤشر إيجابي على أن العناية السماوية تساعدهم في مشروعهم، فلو كان نور الدين مستمتعاً بصحته وقوته المألوفتين لصعب علىٰ جيشنا أن يتصرف بحرية زائدة في الأقاليم التي كانت خاضعة له.

وحوّل الملك وأولئك الذين رافقوه في هذه الحملة الفرصة لمصلحتهم، ودفعتهم المعرفة الأكيدة أن هذا المحارب العظيم لم يكن قادراً علىٰ المشاركة في أموره الخاصة، وهذا ما شجعهم للسعي وراء هدفهم بحماسة كبيرة، وإلىٰ تشديد الحصار باتقاد زائد، وهكذا، فقد حاصروا القلعة من جميع الجهات ونصبوا آلاتهم الحربية وأعدوا جميع الأدوات التي تستخدم عادة في حصار القلاع.

كانت القلعة، التي نحن بصددها، تقع على هضبة منخفضة مَثَّلَتْ مظهر متراس مبني هناك بشكل اصطناعي كأساس للبناء، ولهذا أوقف الرجال الأكثر دربة في الجيش أنفسهم على إنشاء ممرات سرية من مواد مناسبة بحيث يتمكن الجنود، الذين توجب عليهم أن ينسفوا السد، من الاختباء بشكل آمن. وبدا لهم ـ وكانوا مصيبين في ذلك ـ أنه إذا تم لغم القلعة بممرات سرية لا بد من أن ينهار جزء من الأبنية المقامة فوقها، فأعدت بسرعة ستائر الصفصاف المجدولة والسلالم ذات الطول المعتدل وجميع المعدات الأخرىٰ التي قد تكون ذات فائدة في عمل كهذا، وبعدما كان كل شيء قد جهز بالعناية المثلىٰ صدرت الأوامر بصوت المنادي إلىٰ زعماء كتائب المشاة والفرسان وبأوامر سرية لينكبوا علىٰ الفور وباجتهاد على عمل الهجوم، وخصص مكان محدد لكل زعيم وواصل العمل مع أصدقائه وأتباعه بضراوة وكأن نجاح المسألة بأسرها كان يعتمد عليه نفسه فقط، وكان كل قائد تواقاً ليثبت أن أتباعه كانوا الأفضل، وهكذا واصلوا بهجمات مستمرة وبمناوشات يومية العمل بإصرار بالغ بحيث أن المشروع، الذي كان يستغرق الشكل العادي أياماً كثيرة، أنجز في غضون شهرين بفضل الاهتمام واليقظة.

وحدث ذات يوم أن سقط حجر كبير مقذوف من إحدىٰ آلات القذف الحربية،

التي كانت تقصف القلعة ليل نهار، على القائد العام للقلعة الذي ارتكز عليه الدفاع بأكمله، فسحق على الفور وتحوّل إلى أشلاء وتفرق الناس عند موته كالغنم عندما يصرع الراعي، وكالومل بلا كلس فهو لا يستطيع أن يتماسك مع بعضه، وهكذا، توقفت المقاومة العنيدة التي كانوا قد أظهروها حتى الآن.

وحالما أدرك المسيحيون هذا ضاعفوا جهودهم وبالمقابل تناقصت مقاومة المحاصرين بالقدر نفسه، وأرسلوا في الحال - لا بل في الحقيقة بعد بضعة أيام - وفداً إلى الملك، وعرضوا عليه تسليم الموقع له شرط أن يسمح لهم بالذهاب إلى موطنهم بحرية وأمان مع جميع ممتلكاتهم، وطلبوا تزويدهم بالمرشدين ليحموهم من التعرض للهجوم وليقودوهم إلى هدفهم المنشود بأمان.

وهكذا تم الاستيلاء على القلعة، وسلمت إلى أمير انطاكية، حيث كانت تقع تحت سلطته من قبل، وعاد القادة إلى انطاكية بعدما أنجزوا حملة ناجحة، وهنالك فارقهم الملك بعدما تبودلت كلمات الوداع، وعاد إلى المملكة بمرافقة كونت فلاندرز الرائع؛ ورافقهم كونت طرابلس بلطف على الطريق حتى طرابلس[1].

٢٠ - اختيار أمالرك رئيس الشماسة السابق في كنيسة القبر المقدس في القدس، بطريركاً. انتخابه بسبب نشوب نزاع بين الأساقفة.

كانت كنيسة القدس في هذه الآونة بلا بطريرك بسبب وفاة فولتشر ذي الذكرى العزيزة، ولذلك اجتمع رجالات الكنيسة في المدينة المقدسة لمعالجة مسألة اختيار رجل لشغل هذا الكرسي الهام حسب القواعد الكنسية، وقد ادعي أن الاختيار أجري بشكل غير نظامي بسبب تدخل أخت للملكة ميليساند وسيبيليا كونتس فلاندرز أخت الملك، وانتخبت أمالرك مقدم رهبان كنيسة قبر المسيح[2].

كان أمالرك فرنجي المولد من مدينة نسله الواقعة في أسقفية نيون؛ وكان رجلاً عالي الثقافة لكنه كان ساذجاً للغاية وقليل الفائدة للكنيسة؛ وقد جرى اختياره لهذا المنصب

---

(١) ليس من المقرر بشكل واضح، أن هذه القلعة التي تم وصف حصارها والاستيلاء عليها بتفصيل تام، أنها قلعة حارم. (انظر ستيفنسون: الصليبيون في الشرق، ص١٧٩ حاشية ١). وإن كان الأمر كذلك، فلا بد وأنها فقدت مؤخراً وربما لقلج أرسلان في وقت سابق من العام.

(٢) من الغريب أن وليم لا يحدد أياً من أخوات الملكة هي المقصودة. وربما كانت ايفيتا، الأخت الصغرى، التي كانت الآن رئيسة لديرها وكانت سيبيليا أوف فلاندرز مكرسة بشكل خاص لهذه الأخت من زوجة أبيها ميليساند، ويقال إنها بقيت معها عندما عاد زوجها إلى فلاندرز (انظر ل.ديلسلي- محقق كتاب «تاريخ روبرت دي توريغني راعي دير جبل القديس ميخائيل: ١/٣٢٥).

خلافاً لرغبات هيرنسيوس رئيس أساقفة قيسارية ورغبات رالف أسقف بيت لحم الذي طالب بالعدول عن قرار تعيينه، وبعدما اعتلى أمالرك عرش البطريركية وضع المسألة في أيدي فريدريك أسقف عكا الذي ذهب إلىٰ الكنيسة الرومانية التي كان يحكمها آنذاك هادريان ويقال إن فريدريك ضمن لأمالرك باستخدامه السخي للهبات، وبغياب خصومه، تأييد بابا الرومان، وجلب معه طيلسان الحبرية مع اعتراف تام بدعوى أمالرك بمنصب البطريرك.

٢١ - نور الدين يحاصر كهفاً في منطقة السواد تعود ملكيته للمسيحيين. الملك يزحف ضده وينجح في رفع الحصار. نور الدين يتحارب مع المسيحيين ويصاب بالهزيمة.

كان في هذه الأثناء نور الدين قد شفي من المرض الذي أصابه وذلك بفضل المعالجة الدقيقة التي تلقاها من أطبائه، وكان الملك قد عاد الآن إلىٰ مملكته، وذهب الأمير التركي إلىٰ دمشق بنشاط صحي تام، ولكي لا يمضي الوقت بلا عمل وحتى لا يتهم بالتراخي في يقظته المألوفة، استدعىٰ جيشه خلال الصيف التالي، وجمع قوة ضخمة من الاحتياطيات وشن هجوماً مفاجئاً علىٰ إحدىٰ قلاعنا، وكانت هذه القلعة تتألف من كهف في المنطقة التي تدعىٰ السواد وهي واقعة علىٰ جانب هضبة مرتفعة ومنحدرة جداً، ولم يكن هنالك أي طريق لبلوغ هذه القلعة من الأعلىٰ أو من الأسفل إلاّ من الجانب بواسطة ممر ضيق وخطر علىٰ طول جرف، وكانت في داخله غرف ومعدات نوم قدمت التجهيزات اللازمة للقاطنين هناك، وكان هنالك أيضاً ينبوع مياهه موائمة للحياة لم تتلوث، وبقدر ما سمحت الرقعة المحدودة الضيقة للموقع فإنه كان مجهزاً بشكل جيد واعتبر مفيداً جداً للمنطقة.

وعلم الملك بنبأ هذا الحصار بوساطة رواية موثوقة، فجمع قوات المملكة علىٰ الفور، وأسرع إلىٰ هناك بمرافقة كونت فلاندرز، وكان الناس الموجودون في داخل الكهف غير القادرين علىٰ تحمل قساوة الصراع قد أعدوا شروطاً مؤقتة للاستسلام حسبما تفرض ذلك الضرورة عادة، أي أنهم سيسلمون التحصينات إذا لم تصلهم المساعدة خلال عشرة أيام، وعلم الملك بهذه الحقيقة أيضاً، ولذلك بذل أقصى ما يمكنه للإسراع لنجدتهم، وخيم مع جيشه بالقرب من طبرية بجانب الجسر حيث تنفصل أمواج نهر الأردنْ عن أمواج بحيرة طبرية.

لكن حالما علم نور الدين أن الملك كان قريباً تخلى عن الحصار وزحف مع جيشه إلىٰ الأمام نحو المسيحيين وذلك بناء علىٰ نصيحة شيركوه القائد العام لجيشه الذي كان رجلاً شجاعاً جداً وواثقاً تمام الثقة من نفسه.

وبعدما علم الملك أن نور الدين قد عقد العزم علىٰ مهاجمته استدعىٰ نبلاءه إلىٰ قصره

في وقت مبكر من الفجر وقدم في أول الأمر التوقير المتواضع لصليب الصلبوت المانح للحياة الذي كان يحمله سلفنا بطرس ذو الذكرىٰ العزيزة كرئيس لأساقفة مدينة صور، ثم أعلن عن خوض القتال بموافقة جماعية، وحُركت الصفوف وتقدمت بابتهاج روحي وكأنها متيقنة من النصر، وسارت إلىٰ الأمام إلىٰ الموقع الذي قيل إن جيوش نور الدين كانت موجودة فيه، وعندما اقتربت كتائب المسيحيين حسب أمنيتها من العدو، بترتيب المعركة وهي مدججة بالسلاح انقضت علىٰ الأتراك واستخدمت سيوفها استخداماً عنيفاً وكأنها مصممة أن تقاتل حتى الموت، إلا أن الأتراك الجسورين تحملوا الهجوم دون اضطراب، وشنوا هجوماً معاكساً بالسيوف، وحاولوا بمقاومة شجاعة أن يصدوا هجوم أعدائهم.

وفي النهاية منحت السماء النصر إلىٰ المسيحيين بعد تيارات متقلبة للقدر؛ فهزم العدو هزيمة ساحقة بعدما أصيب بخسائر جسيمة واحتل الملك مع جيشه الميدان كمنتصر، حدثت المعركة في فيق الأسبوع الثاني من شهر تموز من العام الخامس عشر لحكم الملك بلدوين[1].

ورأىٰ بلدوين من ثم أنه من الموائم أن يزحف بجيشه إلىٰ القلعة التي كانت واقعة تحت الحصار، وأصلح هناك الضرر الذي كان قد أصابها وزودها بعناية بالأسلحة والطعام والجنود الشجعان، ثم أذن لعناصر جيشه وصرفهم إلىٰ منازلهم وعاد إلىٰ المملكة بعد حملة ناجحة.

٢٢ ـ عودة الرسل الذين أرسلوا إلىٰ القسطنطينية بخصوص مسألة زواج الملك. جلبهم معهم ابنة الامبراطور كزوجة للملك.

كان كما ذكرنا من قبل مبعوثون قد ذهبوا إلىٰ القسطنطينية لترتيب زواج للملك، وقد مات هناك واحد منهم يدعىٰ أتارد وكان رئيساً لأساقفة الناصرة، وجلبت جثته إلىٰ الكنيسة التي كان يعمل بها بفضل عناية وغيرة رفاقه المخلصين، وقد خلفه ليتارد رئيس شمامسة الكنيسة ذاتها، وكان رجلاً لطيفاً جداً ودمثاً وأنيساً ولا يزال باقياً في المسؤولية ذاتها للعام الثالث والعشرين من منصبه[2]، وكان المبعوثون الباقون علىٰ قيد الحياة هم همفري كافل المملكة وجوسلين بيسللوس ووليم دي بّريس وكانوا رجالاً نبلاء وبارزين ومتمكنين تماماً من الأمور المدنية، وقد تابعوا باجتهاد موائم المهمة الموكولة إليهم في مقر الامبراطور، ونفذ مطلبهم بعد تسويفات لا تحصىٰ، وإجابات ملتبسة قدمت بإسهاب مربك وفق

---

(١) ١٥ تموز، ورواية ابن القلانسي عن هزيمة نور الدين مختصرة (جب ـ تاريخ دمشق: ٣٤٧).

(٢) تؤرخ هذه الإشارة إلى السنة الثالثة والعشرين من وجود ليتارد في عمله إلى أن وليم كان يكتب هذه الفقرة سنة ١١٨١.

الأسلوب الذي يتصف به الاغريق المكرة، ويستخدمونه بالعادة، وبعد أن أنهيت الترتيبات بخصوص المهر وهبة الزفاف جرى تعيين فتاة لامعة لتكون زوجة للملك، وكانت أميرة تربت في أكثر الأمكنة انعـزالاً في القصر الامبراطـوري، وكـانـت في الواقـع ابنـة أخـي الامبراطور ابنة أخيه الأكبر اسحاق، وكانت تدعى ثيودورا وكانت عذراء في الثالثة عشرة من عمرها ذات جمال فريد من نوعه بالشكل والملامح على حد سواء، كان مظهرها الكامل يؤثر على كل من رآها، وتكون مهرها من مائةألف قطعة نقدية ذات قيمة ثابتة وذلك بالإضافة إلى عشرة آلاف من العملة ذاتها التي قدمها الامبراطور بسخاء لنفقات الزفاف، ويمكن تقدير تكاليف جهاز الزفاف للفتاة المؤلف من الذهب والمجوهرات والأثواب واللآلىء والزرابي والبسط والأنسجة الحريرية وكذلك الأواني الثمينة، بما تعادل قيمته أربعة عشر ألف قطعة نقدية إضافية [1].

كان الملك قد أرسل ضمانة إلى الإمبراطور مكتوبة بخط يده وهي أنه سيصادق بنفسه على أي شيء يوافق عليه مبعوثوه بالنيابة عنه، ووعدوا بصدق أن الملكة ستحتفظ في حال وفاة الملك بمدينة عكا مع جميع توابعها بمثابة حصة زواج ملكية مدى الحياة بكل الهدوء وبدون نزاع، وهكذا سويت المسألة بحلول سارة لكلا الطرفين، وانتخب مرافقو العروس من أرفع نبلاء الإمبراطورية لمرافقة السيدة في رحلتها إلى الملك وانطلقت في رحلتها إلى سورية في ظل رعاية المبعوثين لتذهب إلى زوجها.

ونزلت خلال شهر ايلول التالي مع جميع حاشيتها بأمان في مدينة صور. ورسمت خلال بضعة أيام تلت ذلك في القدس حسبما اقتضت عادة المملكة، وتوجت بالتاج الملكي، ثم قدمت لزوجها بعد انتهاء الطقوس المهيبة للزواج، ولم يتلق بطريرك القدس المنتخب هبة التكريس في ذلك اليوم لأن المبعوثين، الذين أرسلوا إلى البابا من أجل قضيته، لم يكونوا قد عادوا الآن، ولذلك جرى استدعاء إيمري بطريرك أنطاكية بأمر ملكي ليمنح نعمة المسيح الملكية للملكة ولإقامة طقوس الزواج المألوفة [2]، وتخلى الملك منذ أن تزوج عن كل الطيش الذي كان ـ حسب الشائعة ـ قد أظهره بإفراط حتى الآن، ويمكن من ذلك الحين فصاعداً أن يردد مع الحواري: «لما كنت طفلاً كطفل كنت أتكلم وكطفل كنت أفطن وكطفل كنت

(١) من المحتمل أن السفارة إلى القسطنطينية مضت في أواخر عام ١١٥٧ وعادت مع الأميرة الاغريقية كعروس مستقبلية لبلدوين الثالث في شهر أيلول من عام ١١٥٨ (شالدون ـ آل كومينين: ٢/٤٣٩ ـ ٤٤٠) وكان السوليدوس في يوم من الأيام قطعة نقدية ذهبية تساوي دولارين، وقد أنقصت قيمتها من قبل الأسرة الكومينية وأصدروها أيضاً من الفضة (فازلييف ـ تاريخ الامبراطورية البيزنطية: ٢/١٤٩).

(٢) كان ايمري في القدس في أيلول ١١٥٨.

أفتكر لكن لما صرت رجلاً أبطلت ما للطفل »[1] . ويقال إنه تعلق دائماً بزوجته بحب جدير بالثناء، ويعتقد أنه كان مخلصاً حتى النهاية، وبدأ يتولى القيام بأعمال هامة ويشغل نفسه تماماً بأمور جادة بعدما تخلى عن السلوك الطائش وكأنه قد تبدل ولم يعد ذلك الرجل السابق[2] .

٢٣ ـ قدوم امبراطور القسطنطينية إلى أنطاكية ـ الأمير أرناط يعتذر عن الآثام التي اقترفها في قبرص فيحظى بالقبول .

في غضون ذلك العام نفسه عزم امبراطور القسطنطينية على النزول إلى سورية، وجند جنوداً من جميع أقاليم مملكته بشكل يتماشى مع عظمته الإمبراطورية، وعبر بجيشه الضخم، المجموع من جميع القبائل والشعوب والأمم، البوسفور ومرّ بسرعة خلال جميع المناطق الفاصلة وظهر في حوالي بداية شهر كانون الأول في كليكية على رأس جيوشه وبشكل مفاجىء للغاية لدرجة بدا فيها ان الأمر لم يكن معقولاً، وكان السبب المباشر لمسيرته المسرعة على النحو التالي: كان هنالك أمير أرمني قوي يدعى طوروس ـ كنا قد ذكرناه من قبل ـ قد استولى بالقوة على سائر منطقة كليكية المتاخمة للجبال التي كان يملك فيها عدة قلاع حصينة جداً، ولم تنج منه أية قلعة مسورة أو قرية بعيدة، وكانت كل من عين زربة وطرسوس عاصمتي كليكية الأولى والثانية قد وقعتا كل على حده تحت سلطته بالإضافة إلى مدن أخرى أيضاً بينها المصيصة وأذنه وسيس حيث كان قد طرد الولاة المعينين هناك لإدارة المصالح الامبراطورية، ولذلك، كان الإمبراطور قد أسرع في سيره وأخفى غايته لكي يباغت الأمير الأرمني.

وكان لرحلته هدف آخر أيضاً، فقد كانت عاطفته قد أثارتها القضية المحزنة للقبارصة الذي يستحقون تأييده تماماً والذين كانوا ـ كما ذكرنا من قبل ـ قد خضعوا للطغيان الوحشي لأمير إنطاكية الذي عاملهم وكأنهم أعداء للعقيدة وقتلة مجرمون.

لقد كان قدوم الجيوش الإمبراطورية مفاجئاً للغاية بحيث لم يتسنّ لطوروس، الذي كان مقيماً في طرسوس، الوقت الكافي للهروب إلى الجبال المجاورة أمام الفيالق وقادة الجيش الذين كانوا ينتشرون فوق السهل المكشوف.

عندما سمع أرناط أمير أنطاكية بهذه الأخبار أنبّه ضميرة تأنيباً عظيماً وندم على ما اقترفه من آثام. وكان قد قام قبل وصول الإمبراطور بصب جام غضبه على القبارصة الأبرياء وارتكب بحقهم وحق زوجاتهم وأطفالهم إساءات بغيضة بنظر الله والانسان، ولذلك

---

(١) كورنثوس الأولى: ١١/١٣ .

(٢) فرجيل: Aen, II, 274 .

فقد خاف من وصول الإمبراطور خشية من أن يتولى القيام بالثأر لمظالم شعب مهان بعدما حركته قضيتهم العادلة، وبدأ الأمير يفكر مباشرة تارة بعقله وتارة أخرى بالتداول مع أصدقاء حميمين استدعاهم بخصوص منحى العمل الذي يمكن أن يتخذه وكيف يمكنه التكفير عن ذنبه وإرضاء العظمة الإمبراطورية عن إساءة عميقة جداً كهذه، ويقال إن وصول الإمبراطور أرعبه غاية الرعب حتى أنه لم ينتظر وصول ملك القدس، الذي كان على وشك الوصول مع أنه كان يعرف أنه سيتمكن من خلال وساطة ملك القدس ونفوذه، الذي ازداد بالزواج الذي تم من ابنة أخي الإمبراطور مؤخراً أن يضمن علاقات لنفسه أفضل بكثير.

ولذلك قام بناء على نصيحة بعض أعوانه باختيار بعض النبلاء منهم لمرافقته، وتوجه إلى كليكية، حيث كان الإمبراطور موجوداً مع قواته في ذلك الوقت، ورافقه في هذه الرحلة أيضاً جيرارد، الأسقف المبجل للاذقية، وتقدم، بعدما حقق في أول الأمر تأييد بعض عناصر بلاط الإمبراطور للتوسط لالتماسه، إلى مدينة المصيصة حيث استرد رضا وحظوة صاحب الجلالة الإمبراطور بعدما قدم تعليلات محكمة كثيرة كانت مشحونة بالخري والعار للمسيحيين، ويروى أنه مثل على مشهد من جميع القوات المحتشدة أمام الإمبراطور وهو حافي القدمين يرتدي سترة قصيرة حتى المرفق مع حبل حول عنقه وبيده سيف مسلول أمسكه من رأسه وقدم قبضته إلى الإمبراطور، وبعدما سلم سيفه ألقى بنفسه على الأرض عند قدمي الإمبراطور حيث بقي ممدداً على الأرض حتى اشمأز الجميع، وتحول مجد اللاتينيين إلى خزي كان رجلاً مقداماً بشكل غير طبيعي على اقتراف الآثام والتوبة على حد سواء[1].

٢٤ ـ الملك يسرع إلى منطقة أنطاكية، ويستقبل من قبل الإمبراطور بالترحاب ويخلع عليه الخلع والعطايا.

عندما علم الملك بوصول الإمبراطور توجه نحو انطاكية بمرافقة أخيه وتحيط به حاشية

---

(١) وصل الامبراطور مانويل إلى كليكية في خريف عام ١١٥٨ وبقي في الجوار لأكثر من نصف عام (انظر شالدون ـ آل كومينين: ٤٤١/٢. جب ـ تاريخ: ٣٤٩).

(٢) تبعاً لما يذكره المؤرخون، كان البطريرك ايمري قد عرض تسليم أرناط إلى الامبراطور، وكان بلدوين الثالث شريكاً بالعرض، آملاً بذلك أن يحصل على إمارة أنطاكية، ورفض مانويل العرض مفضلاً أن تُحكم أنطاكية بشكل منفصل حتى من قبل أرناط (انظر آل كومينين: ٤٤٣/٢ ـ ٤٤٨). ويؤكد المؤرخون السريان والاغريق أن بلدوين سعى إلى تحسين الشروط المفروضة على أرناط والتي كانت تشتمل من بين ما اشتملت على إزالة البطريرك اللاتيني وإبداله ببطريرك اغريقي لانطاكية. إلا أن بلدوين لم يستطع أن يحقق شيئاً حول هذه المسألة، مع أن الوصول الحقيقي للبطريرك الاغريقي لم يحدث إلا بعد مضي بضع سنوات.

منتخبة من أعظم نبلاء المملكة، وكانت كونت فلاندرز قد صمم على العودة إلى الوطن بالرحلة البحرية القادمة ولذلك تخلف ولم يحضر معه.

أرسل الملك لدى وصوله سفارة إلى الإمبراطور كانت مؤلفة من غودفري مقدم الداوية، وكان رجلاً متمكناً تماماً من اللغة الإغريقية والنبيل جوسلين بزللوس. وتوجب عليهما أن ينقلا بطريقة لبقة التحيات اللائقة بجلالته الإمبراطورية، وأن يستفسرا عما إذا كان يسره أن يمثل الملك أمام حضرته، وصدرت الأوامر للرسل رداً على رسالتهم بدعوة الملك بإلحاح بالغ للقدوم على الفور، أضف إلى هذا أنه أرسل أن لا يؤجل القدوم إليه لأنه يعتبر ابن الإمبراطورية المحبوب.

وبناء عليه ذهب الملك إلى هناك في اليوم المحدد مع حاشية منتخبة من النبلاء البارزين جداً، واستقبل بطريقة مشرفة للغاية، وتنفيذاً لأمر الإمبراطور، استقبله نبيلان من المرتبة العليا بين الرجال البارزين في القصر المقدس وهما يوحنا المسؤول عن المراسم وألكسيوس الحاجب، وهما شقيقان لأم واحدة وابنا أخوة للإمبراطور نفسه، ورافقتهما حاشية رائعة من النبلاء، وتوجه الملك بقيادة هذه الحاشية إلى مدخل السرادق الذي كان يقيم فيه الإمبراطور مؤقتاً مع معظم نبلائه البارزين.

قدم الملك باحتفاء كبير، وحياه الإمبراطور بلطف وقبله قبلة السلام وأجلسه إلى جانبه على مقعد الشرف مع أنه كان في موقع أخفض من مقعده، ثم جرى الترحاب برفاق الملك بتحيات لائقة، ومنحهم قبلة السلام أيضاً، ثم استفسر باهتمام عن صحة الملك وعن صحة أعضاء أركان حاشيته، ودل التعبير المبهج لسيمائه وأقواله وموقفه العام أيضاً أنه كان مسروراً للغاية بقدومهم ومبتهج لحضور ملك لامع من هذا القبيل مع حاشيته. ولازم بلدوين الإمبراطور وبقي معه لمدة عشرة أيام بدون انقطاع، واستمتع منه بمحادثة سارة، وأجريا أحاديث متكررة كل على حدة وبحضور النبلاء أحياناً، كان الملك ودوداً ودمثاً جداً، وحقق أثناء إقامته حظوة كبيرة لدى الإمبراطور ولدى نبلائه الذين ارتبطت قلوبهم به بروابط الحب العميق، وتعلقوا به بالفعل بعد ذلك طالما بقي حياً معتبرين إياه ابنهم المفضل، ولم يتوقفوا حتى يومنا هذا ـ مع أنه متوفى ـ عن تذكره بشكل عزيز ورائع.

كان بلدوين رجلاً نشيطاً صاحب بصيرة ثاقبة بخصوص الأمور الدنيوية، فقد رغب في أن تثمر إقامته مع الإمبراطور فوائد جمة، وقد لاحظ أن الإمبراطور كان قد أمر بحشد القوات في معسكر خارج المدينة لإرسالها في حملة ضد طوروس الذي كان يطارده بكراهية شديدة، وبدأ بلدوين، بعد أن طلب الإذن، يحاول القيام بإحداث تفاهم طيب بين الإمبراطور وذلك

النبيل، واستدعى إليه طوروس ورتب اتفاقاً سلم بموجبه هذا الأمير القلعة التي كان الإمبراطور يطالب بها، وأعيد بعد ذلك إلى رعاية تامة، وهكذا، أدى طوروس يمين الولاء إلى الإمبراطور عن طريق وساطة الملك، ثم عاد إلى ممتلكاته [1].

وعلمنا من بعض الأشخاص الذين تعدّ شهادتهم موثوقة تماماً أنه بالإضافة إلى الهبات التي أغدقت على أتباع الملك بسخاء كبير ـ قيل إن هذه الهبات كانت لا تحصى ـ كانت الثروات التي منحت للملك وحده قد بلغت إثنين وعشرين ألف قطعة ذهبية وثلاثة الآف قطعة فضية ذات وزن قياسي، وشكلت الأثواب والأنسجة الحريرية والأباريق النفيسة جزءاً من الثروة الممنوحة أيضاً [2].

وجد الملك في أنطاكية أخاه عموري كونت يافا وعسقلان. وكان معه هيودي ابلين الذي كان قد تحرر من أسر العدو مؤخراً، وكان قد عاد ليعيد تنصيب نفسه في منصبه السابق، وبما أنهما رغبا بزيارة الإمبراطور، فقد انطلقا حالاً إلى هناك، واستقبلهما جلالته الإمبراطورية وأظهر لهما تشريفاً عظيماً حسب العرف الإمبراطوري، وقدم لهما هبات سخية في نهاية زيارتهما وأعادهما مسرورين إلى المملكة.

٢٥ ـ دخول الإمبراطور إلى انطاكية. إظهاره سخاءً كبيراً نحو السكان. عودته من هنالك على الفور إلى بلده.

احتفل الإمبرطور بعيد الفصح المقدس في كليكية وأمضى عدة أيام في تلك المنطقة، ثم قاد جيوشه إلى انطاكية ووقف امام أبواب المدينة بشكل مرعب بسبب عدد جنوده الكبير وخرج البطريرك حاملاً كتب الأناجيل ومعه رجال الدين وهم محاطون بكل الروعة الطقوسية للكنيسة لمقابلة الإمبراطور ومعه جميع الناس، وانطلق الملك أيضاً بكياسة كبيرة للترحيب به ومعه أمير انطاكية وكونت عسقلان وتبعه جميع زعماء المملكة وإمارة انطاكية، واقتيد الإمبراطور وسط أصوات الموسيقى العسكرية للأبواق والطبول، وبقدر يليق بجلالة المرتبة الإمبراطورية، وهو متوج بالتاج الإمبراطوري اقتيد إلى المدينة حيث ذهب في أول الأمر إلى الكاتدرائية أي كنيسة رئيس الحواريين ثم إلى القصر بصحبة المرافقة ذاتها من رهبان وأهالي المدينة [3].

---

(١) أديرت المفاوضات مع طوروس بشكل مشترك من قبل بلدوين الثالث والداوية (شالدون ـ آل كومينين: ٢/٤٤٨ ـ ٤٥٠).

(٢) ليس من المستبعد أن يكون وليم قد حصل على هذه المعلومات من عموري أخو بلدوين الثالث.

(٣) كان دخول مانويل إلى أنطاكية وإقامته هناك بروح النصر إلى بعض الحدود، الأمر الذي حاول أرناط أن يمنعه بدون جدوى، فقد احتاط مانويل بطلب الرهائن لإقامته هناك، وكان في هذه المناسبة أن عقد مانويل مبارزة بطريقة غريبة، وشارك بنفسه في الحدث (انظر شالدون ـ آل كومينين: ٢/٤٥٠ ـ ٤٥٢).

وبعد أن أمضى الإمبراطور عدة أيام بالإستمتاع بالحمامات والمسرات الأخرى أغدق خلالها الهبات على سكان المدينة بسخاء شديد حسب عادته المألوفة، عزم ـ الإمبراطور ـ على القيام برحلة صيد لتمضية الوقت، وهكذا، زار بمرافقة الملك مكاناً توفر فيه صيد جيد، فبينما كانا يطوفان خلال الغابة، كما يفعل الصيادون في متابعة تلك الرياضة، وقع لهما حادث في اليوم الجليل لصعود سيدنا المسيح إلى السماء، فقد كان الملك يتجول ممتطياً حصانه الرشيق على أرض وعرة مغطاة بشجيرات قصيرة وأشواك عندما طرح أرضاً من على حصانه فكسرت ذراعه.

عندما علم الإمبراطور خبر الحادث تولى بنفسه مهام الجراح بعطف شديد للغاية وركع إلى جانب الملك وأسعفه بلطف وكأنه نفسه كان مجرد شخص عادي، وأصيب بالوقت نفسه نبلاؤه وأقرباؤه بالدهشة والإنزعاج حيث بدا للجميع أنه من غير اللائق بالنسبة للإمبراطور أن يتخلى عن وقارة المهيب، وأن يصرف النظر عن عظمته الإمبراطورية فيظهر نفسه مخلصاً وودوداً للملك إلى هذا الحد وبعد عودتها بسبب هذا الحادث إلى أنطاكية كان الإمبراطور يقوم بزيارة يومية للملك، وجدد بنفسه الكمادات ومراهم المعالجة وغير الضمادات بكل عناية. ولم يكن بالفعل ليظهر عناية أكبر لو كان بلدوين ابنه حقاً [1].

عندما تماثل الملك للشفاء تماماً، أعلن الإمبراطور بصوت المنادي أنه ينبغي على قادة الفيالق إرسال الآلات الحربية إلى الأمام وأن يزحف الجيش في يوم محدد نحو مدينة حلب، وغادر أنطاكية على الفور بمرافقة الملك وحكام المملكتين ووسط أصوات الأبواق والطبول التي تدعو إلى الحرب، وتوقف الجيش بأسرة عند مخاضة البلانة وهذا هو اسمها الدارج على ألسنة الناس.

أرسل الإمبراطور رسلاً من ذلك الموقع إلى نور الدين، صادف وكان موجوداً في مدينة حلب في ذلك الوقت، ورتب عن طريق هؤلاء المندوبين وجوب إطلاق سراح شخص يدعى برترام، وهو ابن غير شرعي للكونت صنجيل مع بعض الأسرى الآخرين [2]، وعاد الإمبراطور إلى مملكته بعد وقت قصير من هذا حيث استدعته أموره الخاصة، وعاد الملك بعد رحيل الإمبراطور أيضاً إلى بلاده مع الذين كانوا قد رافقوه.

---

(١) يبدو أن مانويل تفاخر بمعلوماته الطبية وببراعة في معالجة الجروح (انظر أيضاً الكتاب ١٦).

(٢) كان نور الدين قد أسر برترام بن ألفونسو في عام ١١٤٩، وهي حقيقة أهمل وليم ذكرها في ذلك الوقت. كما أن نور الدين، الذي كان كارهاً للتخلي عن الأسرى، أطلق سراح عدوٍ منهم تنفيذاً لمطلب مانويل، وربما كان ذلك شرطاً لإحلال السلام بينهما.

٢٦ - نشوب شقاق خطير في كنيسة روما إثر وفاة البابا هادريان.

توفي في هذه الآونة هادريان نتيجة إصابته بالتهاب في اللوزتين في أناغني في كامبانيا فنقلت جثته إلى روما، ودفن هناك بإجلال كبير في كنيسة القديس بطرس رئيس الرسل. واجتمع الكرادلة بعد ذلك للبحث في مسألة إيجاد خلف له، وحدث أن اختلفت آراؤهم، كما يحدث مراراً في ظروف كهذه، فقد اختارت إحدى الزمر رونالد، الكاردينال الراهب لكنيسة القديس بطرس نفسها، والملقب بالقديس مارك، والذي كان مستشاراً للكرسي المقدس، فاختارته وعينته بابا باسم الكسندر، غير أن الفريق الثاني اختار أوكتافيوس وكان رجلاً نبيل النسب وكاردينالاً راهباً للكنيسة نفسها وبلقب القديس كليكية لما وراء التيبر، فرسّم بالطريقة ذاتها وعين بابا باسم فيكتور [١].

سبب الشقاق، الذي نشب بسبب آثامنا انقساماً بشكل عملي وانفصالاً يتعذر تغييره في الكنيسة اللاتينية بأسرها، حيث انتظم أعظم نبلاء المنطقة في زمر وتحالفوا مع هذا الفريق أو مع الآخر.

استمر هذا الوضع تسعة عشر عاماً تقريباً، وتمكن أخيراً فريدرك، امبراطور الرومان الذي كان يؤيد ويوجه فريق فيكتور، من إقامة وحدة في الكنيسة بعدما تصالح تماماً مع البابا الكسندر [٢]، أعيد الوئام إلى كنيسة الرب، وشع السلام بعد مازالت ظلال الإثم «كنجم الصباح في وسط الغيوم» [٣].

٢٧ - نور الدين يجتاح بلاد سلطان قونيه ويستولي على جزء منها بالقوة. الملك يعيث فساداً في بلاد دمشق.

ابتهج نور الدين في هذه الأثناء كثيراً بسبب رحيل الإمبراطور، فقد كان وصول ذلك الحاكم الجبار قد سبب له فزعاً كبيراً، وكانت إقامته في المنطقة قد أقلقته بشكل كبير أيضاً، وشعر الآن بأمان من القوة المرعبة للملك العظيم، واعتقد، بعدما عرف أن الملك كان قد عاد إلى بلاده، أن الفرصة التي كان قد تمناها لفترة طويلة من الزمن قد أتت، ولذلك،

---

(١) حدثت وفاة هادريان الرابع في عام ١١٥٩، وتبعه، كما يقول وليم، شقاق ساعد فريدريك بربروسا، لأسباب سياسية على إبقائه متقداً لسنوات كثيرة.

(٢) حدثت هذه المصالحة بعد مضي بعض الوقت على معركة لغنانو في عام ١١٧٦، وهي المعركة التي كابدت فيها قوات فريدريك هزيمة منكرة على أيدي المدن اللومباردية، وكان مجمع اللاتيران لعام ١١٧٩ - الذي حضرة وليم - من بعض الوجوه احتفالاً باستعادة وحدة الكنيسة.

(٣) Eeclus, 50: 6.

استدعى الجنود من جميع أقاليمه ووجه حملة إلى بلاد سلطان قونيه التي كانت تتاخم أراضيه، وسقطت في قبضته مدينة مرعش بالإضافة إلى حصني كيسوم وبهسنى لأن السلطان كان بعيداً جداً عن هذه المناطق، ولم يتمكن من تقديم المساعدة لها بسهولة، ولقد كان نور الدين عارفاً تماماً بهذا الوضع وإلاّ لما أقدم على مهاجمة سلطنة قونية وهي سلطنة أقوى منه نفسه.

نقل نبأ هذه الحملة إلى الملك، الذي كان ما يزال محتجزاً في تلك المناطق مع جميع قواته، وبما أنه كان عالماً تماماً أن منطقة دمشق، المجردة من قواتها العسكرية، ستكون مكشوفة ويمكن أن تقع فريسة سهلة المنال لمكائد أي عدو صمم على استثمار هذا الواقع لمصلحته الخاصة، فجمع جيشاً واجتاح أراضي دمشق حيث حرق ودمر كل شيء حسب هواه وبدون مقاومة، وكانت جميع الأراضي الممتدة حتى بصرى، تلك المدينة المشهورة في العربية لا بل حتى دمشق تحت تصرف الجنود لكي يحرقوها وينهبوها كما يشاؤون.

كان في دمشق رجل نبيل يدعى نجم الدين، وكان نور الدين قد عهد إليه بأمر الإهتمام بشؤونه الشخصية والمسؤولية عن المدينة مع توابعها ليحكمها حسب مشيئته الخاصة، وذلك بسبب شهرته وخبرته الواسعة في المسائل الدنيوية، وأدرك نجم الدين أن مولاه كان مشغولاً بأمور هامة على مسافة بعيدة عنه، في حين لم تكن لديه سوى قوة صغيرة ليقاوم الملك بها، ولذلك بحث بحكمة عن سبل أخرى ليتجنب المخاطر التي كانت تحدق به، فعرض على الملك دفع أربعة آلاف قطعة ذهبية وإطلاق سراح ستة فرسان من المرتبة العادية كانوا في أسره، وطالب مقابل ذلك بعقد هدنة لمدة ثلاثة أشهر، وكان بالإستخدام الحكيم للمال قد رشا العديد من الناس ليتوسطوا له، ولهذا تمت بالتالي الموافقة على طلبه، ونجح بهذه الإجراءات الحكيمة في إنقاذ المنطقة من جيش العدو [1].

وأصيبت في هذه الآونة ميليساند، التي كانت امرأة ذات حكمة وبصيرة نادرتين، بمرض عضال لم يكن له علاج سوى الموت، وقامت أختاها كونتس طرابلس وراعية راهبات دير القديس لازاروس أوف بيتاني بالإشراف عليها بعناية متواصلة، واستدعي أمهر الأطباء، واستعملت أفضل العلاجات [2]، وكانت ميليساند قد حكمت الممالك بقوة تفوق قوة معظم النساء وذلك لمدة ثلاثين عاماً ونيف خلال حياة زوجها وبعد وفاته أثناء فترة حكم ابنها، وكان حكمها حكيماً ومتعقلاً، وتمددت الآن على فراشها لفترة طويلة من الزمن وكأنها

---

(١) وقعت أحداث دمشق هذه بعد وفاة ابن القلانسي التي كانت في ١٨ - آذار ١١٦٠، وكان نور الدين قد عهد بدمشق إلى نجم الدين أيوب كما ذكر جب (انظر جب - تاريخ: ٣٥٧ - ٣٦٨).

(٢) الأختان كانتا هوديرنا وايفيتا، وتنطبق رواية وليم حول مدة حكمها على عام ١١٦١ وهو تاريخ مرضها.

ميتة بعدما أصبحت نحيلة الجسم وضعيفة الذاكرة إلى حد ما؛ ولم يُسمح إلا للقليلين بزيارتها.

وفي هذه الأثناء،كانت فترة الهدنة، التي تم الإتفاق عليها مع نجم الدين، حاكم دمشق، قد انتهت؛ وكان نور الدين، الذي لم يكن قد أنجز مشروعه حتى الآن، محتجزاً في المناطق المذكورة آنفاً، وهكذا، دخل الملك بلاد العدو بقوة السلاح وعاث فساداً بالمنطقة حسب هواه، ودفع القطعان والعبيد وأحرق ونهب دون عائق، وبعدما نهب المنطقة بأسرها ودمر الحقول المجاورة وأسر السكان عاد مجدداً إلى مملكته بسلام.

٢٨ - الأتراك يأسرون الأمير أرناط صاحب أنطاكية، ويلقونه في أحد السجون في حلب.

أبلغ بعد وقت قصير من هذا كشافة أرناط، أمير انطاكية، أنه كانت هنالك منطقة مليئة بالقطعان والمواشي في المنطقة التي كانت عائدة من قبل إلى كونت الرها فيما بين مرعش ودلوك، وبما أن هذه المنطقة كانت خالية من القوات العسكرية، ولم يكن سكانها معتادين على استخدام الأسلحة، فقد كانت عرضة للنهب بكل سهولة. وأصغى أرناط الساذج بكل انتباه إلى هذه الرواية، فجمع على الفور قوة ضخمة وانطلق في زحفه في ساعة شؤم. ووجد لدى وصوله إلى الموقع أن القصة كانت صحيحة، فقد كان هنالك بالفعل عدد ضخم من القطعان والحيوانات، إلا أن الناس الذين كانوا يملكون هذه القطعان والحيوانات كانوا من المسيحيين، لأنه لم يكن هنالك أي من الأتراك في سائر تلك المنطقة إلاّ في القلاع؛ وحتى هؤلاء كانوا أعداداً صغيرةً، وقد عينوا في تلك المواقع لحماية الحصون فقط وجمع الجزية من الناس، وحراستها عند دفعها إلى السادة الكبار الذين كانوا وكلاء عنهم. وكان المسيحيون الأرمن والسريان يشغلون الحقول المجاورة حيث كانوا يتولون حراثة الأرض والعمل بالزراعة التي أوقفوا أنفسهم عليها.

استولى أرناط وقواته على المغانم والأسلاب من جميع الجهات بدون أدنى مقاومة، وبينما هم عائدون بسلام وهدوء إلى ديارهم وهم محملون بالمغانم وبجميع أنواع السلع المسروقة قابلهم فجأة مجد الدين حاكم حلب، وهو صديق مخلص وحليف لنور الدين. وكان قد خف مع جميع فرسانه من تلك المنطقة المسلحين تسليحاً خفيفاً نحو أرناط بعدما علم أنه كان عائداً من حملة نهبه، وكان يهدف إلى مباغتة المسيحيين في بعض الشعاب الضيقة وإنزال هزيمة منكرة بهم وهم يحملون الأمتعة والمغانم التي كانت تثقل كاهلهم، أو أن يجبرهم بالقوة على التخلي عن الغنيمة على الأقل.

وتنفيذاً للخطة الذكية التي وضعها الحاكم وإتباعاً لها قام الأتراك بالزحف ضد أرناط بتوجيه من الكشافة الذين كانوا قد نقلوا الخبر، ووصلوا الآن إلى الموقع المذكور حيث كان الأمير مخيّماً بالقرب منه ومعه جميع المغانم.

عندما علم الأمير أن العدو بات قريباً منه تشاور مع قومه حول أفضل ما ينبغي عمله في هذه الظروف، وكانت الخطة المثلى أن يتم التخلي عن المغانم والإسراع إلى البلاد دون عائق، وكان هذا أمراً يمكن تنفيذه بسهولة، لكنهم فضلوا بدلاً عن ذلك الإحتفاظ بالغنيمة وخوض قتال عنيف إذا لزم الأمر، التقت القوات المتعادية في المعركة في الصباح اللاحق عندما كان النهار قد تقدم إلى حد ما. وهجم العدو بالقسي والسيوف وحارب بشكل جريء للغاية، وحاول المسيحيون بذل مقاومة عنيفة في البداية، إلا أنهم استسلموا للذعر في آخر الأمر وتخلوا عن الغنيمة ولاذوا بالفرار، وأرغم الأمير، عقاباً لآثامه، أن يكفر بنفسه عن جميع الجرائم التي كان قد اقترفها، حيث أسره العدو، وقيده بالسلاسل واقتاده إلى حلب بطريقة مخزية للغاية ليصبح هنالك مع زملائه الأسرى سخرية للكفرة.

حدثت هذه الكارثة في الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني في العام الثامن عشر من فترة حكم بلدوين وفي موقع يسمى الجومة [1] واقع بين كيسوم ومرعش.

٢٩ ـ قدوم رجل اسمه يوحنا إلى سورية ممثلاً للبابا حيث كان كاردينالاً راهباً في كنيسة روما ونشوب مشاحنة بين الأساقفة بخصوص استقباله. ولادة طفل اسمه بلدوين لعموري أخي الملك وكونت يافا.

نزل خلال هذه الفترة ذاتها شخص يدعى يوحنا، وكان رجلاً واسع الثقافة، وكاردينالاً راهباً في كنيسة روما بلقب القديسين يوحنا وبولص، نزل في جبيل مع بعض الجنوبيين. وكان البابا الكسندر قد أرسله إلى بلدان الشرق كممثل للبابا، ونظراً لرغبته بالحصول على إذن لدخول المنطقة كممثل للبابا، فقد جهد في سبيل تحقيق رضى الملك وأمراء المملكة المدنيين والدينيين بخصوص قدومه إليهم، فقد كان هناك ـ كما ذكرنا من قبل ـ شقاق شمل الناس بأسرهم فقد كان بعضهم يؤيد البابا الكسندر، وآخرون ضده ويشكلون الطرف الآخر، وبعدما درست المسألة دراسة مطولة صدرت الأوامر إلى الممثل الباباوي بالبقاء لبرهة من الزمن في جبيل، وكان عليه ألا يغامر بدخول المملكة حتى يكون

---

(١) إن العام غير أكيد إلى حد ما، لأن قائمة وليم العادية لأعوام فترة حكم بلدوين ستجعل هذا هو عام ١١٦١، الذي أعطاه أيضاً عدد من المؤرخين العرب، ويفضل كل من شالدون وستيفنسون عام ١١٦٠ على أنه العام الصحيح ويقبلان رواية وليم عن اليوم والشهر (شالدون ـ آل كومنين: ٢/٥٢٠) (الصليبيون ص١٨٣. الحاشية٢).

رجالات الكنيسة وأمراء المملكة قد درسوا المسألة بشكل أكثر عمقاً ومن ثم كان سيبلغ عما سيرضيهم حول هذه المسألة.

وبناء عليه جرى استدعاء البطريرك وجميع رجالات الكنيسة الآخرين في الكنيسة إلى الناصرة حيث بدأوا يتباحثون مع الملك وبعض النبلاء وأيضاً بدراسة المنحى الذي سيتبعونه في وضع صعب كهذا، لأنه بينما حافظ جميع مطارنة الشرق في البطريركيتين على الحياد علانية، كأفراد منعزلين، أيد بعضهم أحد الأطراف بصورة سرية، وأيد بعضهم الآخر الطرف الثاني.

وكما هو مألوف في ظروف كهذه لم يستطيعوا الاتفاق وسيطرت عليهم رغباتهم وقادتهم في اتجاهات عديدة فقد أعلن بعضهم أنه ينبغي الاعتراف بألكسندر واستقبال ممثله لكونه يمثل القضية الأفضل، وكان المؤيد الرئيسي لهذا الرأي بطرس، ذو الذكرى الطيبة في الرب، وكان من قبلنا رئيساً لأساقفة صور وعلى العكس فضل آخرون قضية فيكتور على أساس أنه كان على الدوام صديقاً للمملكة وحامياً لها، وأكد هذا الفريق الثاني أنه يجب عدم استقبال الممثل الباباوي مهما تكن الظروف.

وأشار الملك بتبني طريق وسط وعدم استقبال أي من الطرفين وقد أيده في ذلك بعض النبلاء وأصحاب المقامات الرفيعة في الكنيسة، فقد خشي من نشوب نزاع بين الأساقفة قد يسبب انقساماً في الكنيسة، وقرر الملك أنه يجب إعطاء الإذن للممثل الباباوي بالقدوم كحاج إلى الأماكن المقدسة لإقامة الصلاة، إذا ما رغب بذلك، وتخلى عن حقوقه الرسمية ومناصبه الرفيعة، ومنحه الحرية للإقامة في المملكة حتى موعد الرحلة البحرية الأولى، حيث يجب أن يعود إلى بلاده عند حلول موعد هذه الرحلة، وقدم الملك سبباً لقراره هذا على النحو التالي: «إن تاريخ الشقاق حديث، ولا يعرف الناس حتى الآن من من الطرفين عنده القضية الأقوى؛ ومن الخطر في مسألة مريبة كهذه تبني موقف مستقل والتجرؤ على الإعلان مقدماً عن قرار محدد، بينما ما تزال النتيجة مبهمة، وعلاوة على ذلك، لا توجد أية حاجة لممثل باباوي في المملكة لإرهاق الكنائس والأديرة بنفقات ولإضعافها بالابتزازات.

كان هذا هو رأي الملك، وبدا أنه معقول للغاية، ومع ذلك، فقد ساد رأي الطرف الذي أصرّ على أنه يجب استقبال الممثل الباباوي، وهكذا، وجهت له الدعوة إلى دخول المملكة، وثبت فيما بعد أنه عبء ثقيل بالنسبة للعديد من الذين كانوا قد وافقوا على استقباله (١).

---

(١) عقد هذا المجمع في عام ١١٦٠، وربما في أواخر العام (انظر ر. روهرخت سجلات ملوك القدس رقم ٣٥٧. وج. د. مانسي- المجامع المقدسة الجديدة ومجموعات وثائقها: ٢١ ملف ١١٤٥ - ١١٤٦).

في هذه الآونة رزق عموري كونت يافا وزوجته أغنيس ابنة كونت الرها بغلام. واستقبل الملك، تلبية لمطلب الأب، الطفل في جرن التعميد ومنحه اسمه، وعندما سئل بدعابة عن الشيء الذي سوف يمنحه لابن أخيه، الابن الذي استقبله في جرن التعميد المقدس، أجاب بلدوين بمرحه المألوف وبطريقته الدمثة: «سأمنحه مملكة القدس». فأثرت هذه الملاحظة تأثيراً عميقاً في قلوب الرجال الحكماء الذين سمعوها لأنها بدت لهم بأنها نبوءة مشؤومة وأن الملك سيموت دون أن ينجب أطفالاً على الرغم من شبابه وشباب زوجته، الأمر الذي ثبت بمرور الزمن أنه كان كذلك[1].

٣٠ - أهالي أنطاكية يستدعون الملك، فيسرع إلى هناك. وصول رسل امبراطوريين لطلب إحدى قريبات الملك كزوجة لحاكمهم.

حرم أسر الأمير أرناط اقليم انطاكية من تأييد القائد له، واستولى الخوف والقلق على أهالي تلك المنطقة من جديد، فقد انتظروا بترقب مضني من يوم لآخر خراب المنطقة ما لم يصبح الرب بالمصادفة مدافعاً عنهم، وصمموا في آخر الأمر أن يلجأوا إلى مصدرهم المألوف للمساعدة والتماس العون ضد الشرور التي كانت تهددهم وذلك بمناشدة الشخص الذي طالما توسلوا إليه وكان يلبي التماسهم على الدوام، وبناء عليه جرى إرسال وفد ليتوسل إلى ملك القدس بالدموع والدعوات ليقدم بدون تأخير لمساعدة شعب بائس، شعب كان على وشك الهلاك، حيث يمكنه بذلك أن يحقق لنفسه المجد والشهرة في نظر الجنود، ويفوز بثواب أبدي من الرب.

تحركت الشفقة العميقة لدي الملك إزاء المتاعب التي كان يعاني ذلك الشعب منها بعدما علم بالوضع اليائس في أنطاكية؛ وتولى - متبعاً قدوة أسلافه - القيام بإخلاص بالمهمة، وأسرع إلى انطاكية بصحبة مرافقة مهيبة من الفرسان، حيث استقبل ببهجة بالغة وسرور عظيم من قبل القادة والناس؛ وبقي في انطاكية بقدر ما تطلبت مقتضيات الزمان والمكان، وأبدى عناية مثلى بأمور الإمارة وكأنها أمور تتعلق به، ثم عهد بحكم المنطقة إلى البطريرك بشكل مؤقت حتى يتمكن بنفسه من العودة، وبعدما رتب الأمور لتأييد الأميرة كما كان يليق بمنزلتها، عاد إلى المملكة حيث تطلبت عدة أمور وجوده.

وبعد عودته وصل مبعوثون ونبلاء من منزلة عالية وشهرة كبيرة في القصر المقدس،

---

(١) أصبح بلدوين بن عموري، بلدوين الرابع، ملكاً للقدس في الفترة الممتدة من عام ١١٧٤ - ١١٨٥، واستنتاجاً من روايات وليم اللاحقة كان ذلك الشاب بلدوين في التاسعة من عمره في عام ١١٧٠، وفي الثالثة عشرة من عمره عند وفاة والده في عام ١١٧٤، وقد ولد في عام ١١٦١.

قادمين من عند امبراطور القسطنطينية، وكانوا حملة رسالة ذات ختم ذهبي ورسائل خاص للملك أيضاً، وكان قائد السفارة هوكونتو ستيفانوس اللامع، أحد أقرباء الإمبراطور، وكان الآخر هو المترجم الأول في القصر واسمه ثيوفلاكت[1] وكان رجلاً داهية ومتحمساً جداً لأجل المصالح الإمبراطورية. وكما قلنا كان هذان المبعوثان يحملان رسائل مقدسة فحواها بشكل أساسي على الشكل التالي: «تعرف يا أعز الأصدقاء، والحبيب العزيز لإمبراطوريتنا أن زوجتنا ايريني الشهيرة ذات الذكرى العزيزة في الرب قد توفيت وانتقلت روحها لتقيم مع أرواح النخبة من الناس؛ وخلفت لنا ابنة وحيدة كوريثة للإمبراطورية، وبما أننا لم ننجب أي مولود ذكر، فإننا ممتلئون بالقلق حول الخلافة، وعقدنا مراراً تداولاً جاداً مع أشهر نبلاء القصر بخصوص إجراء زواج ثانٍ، وتقرر في آخر الأمر، بموافقة جميع أمرائنا ومصادقتهم أنه يستحسن أن نأخذ زوجة امبراطورة لنا سيدة من نسبكم حيث نخصكم من بين جميع إمبراطوريتنا بأعمق الحب، كما أننا سنتقبل أياً من قريباتكم تختارونها لنا، سواء أكانت أختاً لكونت طرابلس اللامع، أو كانت الأخت الصغرى لأمير أنطاكية الرائع، وكلنا ثقة تامة بإخلاصكم واختياركم زوجة لنا ورفيقة امبراطورية بمشيئة الرب».

عندما أبلغ المبعوثان الملك بغرض الإمبراطور بوساطة الرسالة وشفوياً وعد بالمساعدة والطاعة وشكر بجدية بالغة جلالته الإمبراطورية: أولاً لأنه اقترح أن يتحالف معه في مركز رفيع كهذا بوساطة إحدى قريباته، وثانياً بسبب اعترافه باخلاص بلدوين حيث ترك له وحده مسألة اختيار العروس المستقبلية والزوجة الامبراطورية.

٣١ - الملك يختار الفتاة اللامعة ميليساند أخت كونت طرابلس لتكون عروساً للإمبراطور، لكن بعد عام من التأجيل تخلى الإمبراطور عما اختاره الملك. وتزوج ماريا ابنة الأمير ريموند.

وبعدما تداول الملك مع مستشاريه بخصوص التحالف الذي سيكون مرغوباً جداً بالنسبة لمصالحه الخاصة ولمصالح جلالة الإمبراطور استدعى رسل الإمبراطور ووجههم بأقوال مقنعة أن يأخذوا ميليساند أخت كونت طرابلس وكانت فتاة ذات أخلاق رفيعة ومقدرة كبيرة، كزوجة لحاكمهم الإمبراطور، فتقبل الرسل رسالة الملك بإجلال لائق وقدموا موافقتهم، بيد أنهم طلبوا ترك اعلان القرار للإمبراطور بوساطة الرسل والرسائل.

---

(١) كانت أسماء هذين السفيرين يوحنا كونتوستيفانوس وثيوفلاكت، وكان هذا الأخير ايطالياً وكتابة ولم للاسمين توحي أنه حصل على معلوماته بشكل شفوي، وكانت بيرثا أوف سوزلباخ أو ايرين حسبما أعيدت تسميتها، كانت زوجة مانويل الأولى وكانت قد توفيت.

وفي هذه الأثناء جهزت والدة الفتاة وخالها وأختها وعدد كبير من أصدقاء الفتاة التي اختيرت لهذا المنصب الممجد مجموعة ضخمة من الزينات تفوق زينة الأسرة الملكية نفسها، وبنفقة غير محدودة وقد اشتملت على أساور وأقراط وقلائد وتيجان من الذهب الخالص، وأعدت أوان فضية ذات وزن وحجم كبيرين لتستخدم في المطبخ، والمائدة والمرحاض، إضافة إلى اللجامات والأسرجة ـ وبالاختصار، فقد جهزت جميع أنواع الأثاث. وأعدت جميع هذه الأشياء بنفقة ضخمة وبحماسة كبيرة، وكانت الطريقة التي صنعت بها هذه الأشياء وحدها دليلاً على قيمتها الكبيرة جداً، وفاقت بسهولة بذخ الملك وتقصي الاغريق خلال هذا الوقت بدقة جميع تفاصيل حياة الفتاة، واستفسروا عن سلوكها وأحوالها حتى أنهم استوضحوا عن الصفات الجسدية السرية للغاية، وكانوا أثناء انتظار عودتهم على اتصال مستمر مع الإمبراطور، وهكذا انقضى عام كامل.

سخط الملك والبلاط مع بقية الأقارب والأصدقاء بشكل كثير إزاء هذا التأخير، واستدعوا الرسولين الامبراطوريين علناً وأعلنوا إنذاراً كان مفاده أنه يجب عليهم إما أن يرفضا الزواج الذي رتبت أموره منذ زمن طويل ويعوضا الأموال المنفقة، أو أن يتوقفا عن تلفيق أسباب تأخير يتعذر تفسيرها وإنهاء المسألة بإكمال الزواج حسب الشروط المتفق عليها أصلاً، فقد كان الكونت قد أنفق نفقات كبيرة، حيث كان قد أمر ببناء عشرة من الشواني وجهزها تجهيزاً تاماً، لأنه عقد العزم على مرافقة أخته إلى زوجها. وإضافة لذلك كان جميع النبلاء الأكثر أهمية في الإمارة قد أتوا إلى طرابلس بانتظار رحيل السيدة المقترب، وكان الكونت يتحمل بسبب هؤلاء الضيوف النفقات الضرورية بشكل تام أو جزئي.

هذا وقدم الاغريق كما هي العادة إجابات مراوغة، وحاولوا إطالة المسألة لفترة أطول أيضاً، ولكي يحبط الملك خططهم المراوغة، أرسل أوتو أوف ريسبيرغ كمبعوث خاص إلى القسطنطينية؛ وقد خوله في أن يقدم مطلباً لائقاً في أن يحصل لكونه مندوباً على معرفة كاملة بالنوايا الحقيقة للإمبراطرر بدون مواربة. وعاد المندوب بشكل أسرع مما كان يتوقع أن يصل فيه، وجلب كتاباً من الإمبراطور ورسائل أفادت أن كل ما كان قد تم تنفيذه بخصوص هذا الزواج لم يكن مرضياً لسموه الإمبراطوري على الإطلاق.

عندما تلقى الملك هذه الأنباء انسحب من المفاوضات، لأن زواجاً، كان قد رتب عن طريق وساطته، وأنجز بمشاركة كبيرة منه، ثم لم يحقق شيئاً، بدا بالنسبة له أمراً مهيناً للغاية، وسينعكس بدون ريب بشكل سلبي عليه نفسه.

رحل المندوبان الإمبراطوريان بقارب صغير صادف أن وجداه جاهزاً، وتوجها إلى قبرص لأنهما خافا من أن يصب كونت طرابلس جام غضبه عليهما.

ذهب الملك إلى أنطاكية فور رحيل مجموعة النبلاء المجتمعين في طرابلس، حيث كان قد أخذ على عاتقه القيام بمسؤولية الإمارة تلبية للتوسل الجاد لشعب تلك المدينة، كما ذكرنا سابقاً، ووجد لدى وصوله إلى هناك مندوبي الامبراطور نفسيهما اللذين كان يعتقد بأنهما غادرا طرابلس متوجهين إلى وطنهما [١]. وكانا يعقدان بشكل مداولات ودية مع الأميرة حول ابنتها الأخرى ماريا، وعلاوة على ذلك، كان بحوزتهما رسائل مختومة بالذهب بحضور الأمبراطور كان قد ضمن فيها المصادقة على أي اتفاق يتوصلان إليه مع الأميرة وأصدقائها حول موضوع هذا الزواج، وأبلغ الملك لدى وصوله على الفور بهذه المفاوضات. وكان قد أهين كثيراً بخصوص المسألة السابقة لدرجة كان من المسوغ له أن يرفض حشر نفسه بالتدخل لمصلحة الإمبراطور في المسألة الحالية، ومع ذلك وبدافع الاحترام لقريبته اليتيمة، التي كانت تفتقر إلى أب يحميها، فقد تولى القيام بذلك الدور ونجح في ترتيب الزواج بعد تأخيرات كثيرة [٢].

وجهزت الشواني بعد انتهاء المسألة، في موقع يسمى ميناء القديس سيمون [السويدية] الواقع عند مصب نهر العاصي؛ وسلمت الفتاة إلى المبعوثين، وبدأت رحلتها بمرافقة موكب مهيب من أعظم نبلاء المنطقة الذين توجب عليهم اصطحابها إلى زوجها.

٣٢ ـ الملك يعيد بناء حصن واقع على مقربة من أنطاكية يدعى جسر الحديد. موت والدته الملكة ميليساند.

بينما كان الملك مقيماً في انطاكية، ولكي يجعل وجوده هناك مفيداً للمنطقة، أعاد بناء قلعة كانت مشيدة فيما مضى عند أحد الجسور فوق نهر العاصي، وكانت تعرف عموماً باسم جسر الحديد، وكانت هذه القلعة الواقعة على بعد ستة أو سبعة أميال عن مدينة انطاكية

---

(١) إن هذه العلاقة التأريخية المتبادلة لهذه الأحداث ذات أهمية كبيرة، إلا أن وليم لا يقدم المعلومات الدقيقة المطلوبة لتوطيدها، وربما كان نفسه يدرس في مدارس الغرب خلال ١١٦١ ـ ١١٦٣، ولذلك كان خارجاً عن الاتصال بالقيل والقال المحلي في فلسطين، ومن الواضح أن مانويل كان قد أرسل سفارة إلى بلدوين قبل أن يعرف بأسر أرناط، وكانت المفاوضات لزواج ميليساند صاحبة طرابلس مستمرة عندما أرسلت كونستانس إلى مانويل مناشدة للحصول على المساعدة. وربما عرضت ابنتها ماريا للزواج في الوقت نفسه، وعلى أية حال فقد تعارضت المفاوضتان، وقدم التحالف مع انطاكية مغريات كبيرة إلى مانويل. ولا بد أن وليم مخطىء في إشارته بأن مانويل لم يبدأ المفاوضات مع بلدوين حتى بعد أسر أرناط. (انظر شالدون ـ آل كومينين: ٢/٥١٧ ـ ٥٢٥).

(٢) حدث زواج مانويل وماريا في القسطنطينية في ٢٥ كانون الأول من عام ١١٦١ (شالدون ـ آل كومينين: ٢/٥٢٣). ويفسر وليم هنا بعض التفاصيل المحيرة، ومن غير المؤكد فيما إذا طلب مانويل أو استخدم مساعدة بلدوين في هذه المفاوضات.

ذات نفع كبير لمنع وقوع الغارات المعادية، وخدمت أيضاً كعائق ضد المدخل السري لقطاع الطرق.

بينما كان الملك منشغلاً بهذا الشكل بأمور الإمارة، توفيت والدته الورعة بعدما أنهكتها المعاناة المستمرة من مرض مزمن، وحدثت وفاتها في الحادي عشر من شهر ايلول، واستسلم الملك للحزن عندما تلقى نبأ وفاة والدته، وأظهر عمقُ عاطفته وتأثره عليها بشكل واضح الدرجة التي كان يحبها فيها باخلاص، ولقد بقي في الواقع حزيناً بعد ذلك لأيام عديدة.

دفنت الملكة ميليساند، ذات الذكرى الرائعة، والتي ستقيم من الآن فصاعداً مع الحشد السماوي، في وادي يهو شفاط على يمين النازل إلى قبر مريم العذراء الطاهرة والمباركة والدة ربنا، وترقد جثتها في سرداب حجري له بوابات حديدية؛ ويقع بالقرب فيه أحد المذابح حيث يحتفل يومياً بالقداس لراحة روحها وأرواح جميع المسيحيين الذين ماتوا في الرب[1].

٣٣ - كونت طرابلس الساخط إزاء رفض شقيقته يسعى لإلحاق الأذى بالإمبراطور بكل وسيلة ممكنة.

امتلأ في هذه الأثناء قلب كونت طرابلس بحزن وغضب بسبب السخرية التي تعرض لها من الإمبراطور الذي رفض في النهاية قبول أخته دونما أي سبب؛ وكأنها ابنة شخص عادي، وبعد أن تحمل الكونت نفقة ضخمة جداً، وتنهد الكونت وتأوه بشكل عميق عندما فكر بقلق وعمق حول وسائل للانتقام من الإمبراطور بطريقة مشابهة ورد الصاع بالصاع، وعلى الرغم من أنه أدرك في غمرة تأملاته أن الإمبراطور كان أقوى ملك على الأرض، وأن قوته لم تكن كافية أبداً ليلحق به أي ضرر، فقد دفعه الاستياء إل اتخاذ عمل ما، وخشية أن يبدو غير مكترث أو متناس الإساءة التي لحقت به، أمر بتسليح الشواني التي كان قد أعدها لغرض آخر. ثم استدعى القراصنة والمجرمين المتهورين، والذين كانوا رجالاً ارتكبوا أكثر الجرائم بشاعة، وعهد إليهم بالمسؤولية عن السفن وأمرهم بتخريب مناطق الإمبراطور بدون رحمة. وأمرهم بأن لا يستثنوا العمر أو الجنس أو الوضع، وتوجب عليهم أن يحرقوا كل شيء دونما تمييز بما في ذلك الكنائس والأديرة وتنفيذ أعمال السلب والنهب في كل مكان، وليتذكروا دوماً أنهم كانوا يستخدمون السلاح والقوة في سبيل قضية عادلة.

وأبحر القراصنة والمجرمون على ظهر البحر إطاعة لأمره، وطافوا في ممالك الإمبراطور، ونفذوا أوامر الكونت بحذافيرها في الجزر وفي المناطق المجاورة الواقعة على

(١) أرخ روهرخت وفاتها في ١١ أيلول من عام ١١٦١ (انظر روهرخت تاريخ ملوك القدس: ١١٠٠ - ١١٢٩ ص٣٠٧). ولا بد أن بلدوين قد أمضى الشتاء في أنطاكية.

البحر، فقد نهبوا في جميع الجهات وأحرقوا وقتلوا، وانتهكوا حرمة الكنائس واقتحموا الأديرة دون احترام للأماكن المقدسة، وسلبوا أموال الحجاج المسافرين أثناء رحلاتهم من وإلى الأماكن المقدسة، ودفعوهم إلى الموت بهذا الشكل، أو جعلوهم يطلبون حياتهم وهم معوزون وعراة يعيشون على التسول، واستولوا على سلع التجار المسافرين الذين كانوا يكسبون أسباب الرزق لزوجاتهم وأطفالهم بتلك الطريقة وأجبروهم على العودة إلى وطنهم فارغي الوفاض بعدما فقدوا رأس المال والأرباح[1].

٣٤ ـ دس السم للملك في أنطاكية. وقوعه بسبب ذلك بمرضه الأخير وتوسله أن يُنقل إلى الوطن. تفاقم مرضه أثناء الرحلة وموته في بيروت.

في الوقت الذي كان فيه كونت طرابلس منشغلاً بهذا الشكل في رغبته بالانتقام كان الملك موجوداً في أنطاكية راغباً بالمعالجة والاستراحة قبل اقتراب فصل الشتاء، كما كان معتاداً على ذلك، وقد حصل على بعض الأقراص من برق، طبيب الكونت، وتوجب عليه أن يتناول قسماً منها على الفور، وتناول البقية بعد مضي فترة قصيرة. لأن أمراءنا الشرقيين كانوا يحتقرون، بسبب نفوذ نسائهم، أدوية ومعالجات أطبائنا اللاتينيين، ولا يصدقون سوى الأطباء اليهود والسامريين والسريان والمسلمين[2]، فلقد وضعوا أنفسهم بطريقة طائشة للغاية تحت عناية أطباء كهؤلاء، وعهدوا بأرواحهم لأناس جاهلين بعلم الطب، وأشيع أن هذه الأقراص كانت مسمومة، وربما كانت هذه هي الحقيقة، وعلى أية حال، عندما وضع باقي الدواء في خبز في طرابلس فيما بعد، وأعطي كتجربة إلى أحد الكلاب، توفي الكلب نتيجة ذلك في غضون أيام قليلة، ولقد أصيب الملك فور تناوله الأقراص بحمى واسهال تطوراً إلى مرض سل لم يتمكن أبداً من الحصول على النجدة أو المساعدة للشفاء منه، وبعدما أدرك الملك أن شدة معاناته من المرض كانت تزداد غادر انطاكية وذهب إلى طرابلس، وتمدد هنالك لبضعة شهور أملاً بالتحسن من يوم لآخر، وبعدما تيقن في آخر الأمر أن مرضه كان يتفاقم وأن الشفاء كان مستحيلاً، أمر بنقله إلى بيروت وأمر باستدعاء مطارنة الكنيسة ونبلاء المملكة بسرعة، واعترف أمامهم جميعاً بعقيدة تقوى وإخلاص، واعترف بروح متواضعة ونادمة بجميع ذنوبه إلى الكهنة، ثم فارقت روحه ورحلت إلى السماء لتستلم هناك بإرادة الرب التاج الذي لا يزول أبداً مع مجموعة النخبة من الناس.

---

(١) يشير الوصف المغري والعاطفي لوليم عن معاناة بيت طرابلس، بأنه تغاض إلى درجة ما عن الثأر المرعب الذي تطلبه ريموند الثالث. ويقال إن ميليساند قد دخلت ديراً بعد هذه المسألة المشؤومة.

(٢) ليس من الواضح فيما إذا كان مرد هذا التفضيل إلى حقيقة أن عدداً كبيراً من النسوة كن أنفسهن شرقيات أو لأنهن أدركن تفوق الشرقيين بالمعارف الطبية، ومهما يكن من أمر إن التفضيل بحد ذاته واضحاً.

توفي الملك بلدوين في العاشر من شهر شباط في العام ١١٦٢ من تجسيد ربنا، وفي العام العشرين من حكمه والثالث والثلاثين من عمره[١]، وكان أخوه وريثاً للعرش لأنه لم ينجب، ونقلت جثته وسط حداد شامل إلى القدس بالتبجيل وبمراسم ملكية، وقابل رجال الدين وجميع الناس الموكب الجنائزي الذي اقتيد إلى كنيسة قبر المسيح ودفن بمهابة هناك بين أسلافه أمام موقع الجلجلة حيث صلب الرب من أجل خلاصنا.

لا يوجد أي سجل في أي تاريخ، كما لا يتذكر أي رجل باق الآن على قيد الحياة، أن حزناً حاداً وعميقاً كهذا قد شعر به ابداً على وفاة أي ملك آخر من شعبنا أو من شعوب أخرى، فبالإضافة إلى مظاهر الحزن والحداد التي أظهرها سكان المدن التي مرّ موكب الجنازة الملكي خلالها، نزل حشد من الكفرة من الجبال وتبعوا موكب جنازة الملك بالعويل.

استمر النواح لمدة ثمانية أيام متتالية بينما انتقل الموكب الجنائزي من بيروت إلى القدس، وتجدد الحزن باستمرار تقريباً، ويقال إنه حزن لموته حتى أعداؤه، وعندما اقترح على نور الدين أن بإمكانه اجتياح منطقة أعدائه وتخريبها بينما نكون منشغلين بالطقوس الجنائزية، روي أنه أجاب قائلاً: «يجب علينا أن نتعاطف مع حزنهم وأن نظهر لهم شفقة لأنهم فقدوا أميراً لا يوجد مثله في باقي أنحاء العالم اليوم».

وحيث نأتي إلى ختام هذا الباب المدوّن لأعمال هذا الملك، فإننا نتوجه أيضاً بالدعاء أن تنعم روحه براحة مقدسة مع أرواح صفوة القديسين.

آمين

انتهى هنا الكتاب الثامن عشر

(١) إن التاريخ محدد هنا، إلا أنه متناقض في فقرة الافتتاح للكتاب التالي. كما أن الأحداث بعد عام ١١٦٠ مشوشة إلى حد ما، ويهمل وليم ذكر حملة قام بها بلدوين الثالث إلى مصر خلال هذا الوقت، وينقل الانطباع عن حملتين إلى انطاكية في عامين متتاليين، ومن المؤكد أن غياب وليم عن فلسطين خلال هذه الأعوام يفسر بعض هذا التشوش، وقبل كثير من المؤرخين تاريخ وفاة بلدوين، كما ينص عليه وليم هنا، وبين هؤلاء المؤرخين كل من روهرخت ولامونت، ويبدو من الضروري أن نعدد بعض هذه التناقضات، فلو لم يكن بلدوين قد ولد قبل شهر شباط من عام ١١٣٠ (انظر الكتاب ١٤ - الحاشية ١٠. الكتاب ١٦ - الحاشية ٣) لما كان قد تجاوز الثانية والثلاثين بحلول العاشر من شهر شباط من عام ١١٦٢، ولو أن فترة حكمه بدأت عندما توفي والده في العاشر من تشرين الثاني عام ١١٤٣، لما كان قد حكم سوى ثمانية عشر عاماً وثلاثة أشهر، وعلاوة على ذلك، لو كان أخوه في السابعة من عمره عندما بدأ بلدوين الحكم في عام ١١٤٣، لما كان قد تجاوز أكثر من السادسة والعشرين من عمره على الأكثر بحلول شهر شباط من عام ١١٦٢ بدلاً من السابعة والعشرين التي يحددها وليم له (الكتاب ١٩ - الفصل ١). في هذا الوقت، والطريقة الوحيدة التي يمكن بوساطتها إزالة هذه التناقضات الشديدة هي قبول عام ١١٦٣ بدلاً من عام ١١٦٢ لعام وفاة بلدوين.

الكتاب التاسع عشر

عموري الأول: الصراع على مصر. المرحلة الأولى

١ ـ عموري يخلف أخاه بلدوين على العرش.

توفي الملك بلدوين الثالث، الملك اللاتيني الرابع للقدس دون أن يخلف أطفالاً، كما ذكرنا ذلك من قبل فخلفه في المدينة المقدسة أخوه الوحيد عموري كونت يافا وعسقلان. وأصبح عموري الملك اللاتيني الخامس في العام ١١٦٣ لتجسيد ربنا وفي العام الثاني والستين من تحرير تلك المدينة ذاتها، حبيبة الرب[١]. وكان ألكسندر رئيساً للكنيسة الرومانية المقدسة في هذا الوقت، أي في العام الرابع لتوليه منصب الحبرية، وكان أمالرخ البطريرك التاسع للاتين يحكم كنيسة القيامة المقدسة في العام الرابع من توليه منصب البطريركية، وكان إيمري يرأس كنيسة أنطاكية والبطريرك الثالث للاتينيين في تلك المدينة ذاتها وفي العام العشرين من توليه لمنصبه، وكانت الكنيسة في مدينة صور خاضعة لبطرس رئيس الأساقفة الثالث للاتينيين بعد الاستيلاء على المدينة، وكان في العام الثالث عشر لتوليه منصبه.

وكانت عملية اعتلاء العرش بعد وفاة بلدوين متزامنة مع حدوث كثير من النزاعات بين نبلاء المملكة الذين كانوا يتأثرون بشكل متفاوت بتغيير الملوك، وبالفعل، فقد اقترب هذا النزاع من إحداث شجار خطير حمل في طياته خطر حدوث شقاق، ومن حسن الحظ، كانت معنا العناية السماوية التي تعرف كيف تطبق العلاجات المناسبة في أخطر الأزمات، فقد كان رجال الدين والناس وعدد قليل من رجال المملكة العظماء يؤيدون عموري بقوة، وهكذا أخفقت بسرعة الجهود التي بذلها النبلاء الساخطون؛ واعتلى عموري عرش المملكة الذي آل إليه بموجب الحق الوراثي وذلك في الثامن عشر من شهر شباط الذي كان اليوم

(١) من المحتمل أن هذه الفقرة جزء من اطار وليم المعدّ بسرعة في عام ١١٨٢. وربما أعد قراره لإدراج غودفري في قائمة الملوك فيما بعد، وربما كان قد فكر بهذا الأمر بشكل جزئي حيث كان يؤرخ هنا للاستيلاء على القدس عام ١٠٩٩، بدلاً من بداية المملكة عام ١١٠٠، واستلزم هذا اختلاف العام في التقويمين المعتمدين للتاريخ المسيحي، إلا أن وليم عكس الأرقام، ويجب أن تقرأ إما ١١٦٣ وأربعة وستين عاماً، أو ١١٦٢ وثلاثة وستين عاماً ومن الصعب التحقق من العام بالإشارة إلى المواضيع التاريخية لأن التعبير النعتي يسمح بفرق قدره عام واحد تقريباً في كل حالة.

الثامن بعد وفاة أخيه الملك بلدوين، وتلقى في كنيسة قبر الرب هبة المسح بالزيت الملكي على يد البطريرك بمساعدة رؤوساء الأساقفة والأساقفة وجميع رجالات الكنيسة المجتمعين، ومُنح شارة التاج، وكان قد عُين كونتاً ليافا عندما كان قد أصبح فارساً وحمل السلاح، ثم منحه فيما بعد أخوه بلدوين، ذو الذكري اللامعة، مدينة عسقلان بسخاء ملكي فقد كان قد تم الاستيلاء على حاضرة الفلسطينيين هذه في عهد بلدوين وهكذا أعيدت إلى العقيدة المسيحية بعد مضي فترة طويلة، حسبما تم تبيان ذلك بتفصيل كثير عندما أتينا على ذكر أحداث فترة حكم بلدوين، وكان عموري في السابعة والعشرين من عمره عندما ارتقى العرش، وقد حكم أحد عشر عاماً وخمسة أشهر[1].

٢ ـ سمات الملك عموري مع بعض الملاحظات حول حياته وعاداته

كان عموري رجلاً صاحب حكمة وتعقل؛ وكان متمكناً بشكل جيد من الأمور المدنية. وكان لديه عائق بسيط في حديثه إلا أنه لم يكن خطيراً جداً ليعدّ عيباً، لكنه كان كافياً ليجعله غير مؤهل للفصاحة السريعة. وكان في الرأي أفضل بكثير مما هو في الكلام الفصيح أو المزخرف، وكان بارعاً تماماً في القانون المألوف الذي كانت المملكة تحكم بواسطته وفي الحقيقة لم يكن هنالك مثيل له في هذا الصدد، فقد فاق جميع نبلاء المملكة في حدة الذكاء والفطنة المنطقية، وعالج بقوة وحكمة الأزمات المتكررة التي نشأت خلال أعماله النشيطة والمستمرة في سبيل توسيع رقعة المملكة. وحافظ باستمرار على موقف شجاع ممزوج بحزم ملكي، وكان متعلماً بشكل جيد بعض الشيء، إلاّ أنه كان أقل بكثير من أخيه، لكنه كان بفضل ذكائه الحاد وذاكرته القوية قادراً على استيعاب القضايا التي تكون عادة مهمة للملوك بشكل جيد وكاف، وساعدته في هذا المجال عادته في طرح الأسئلة بشكل مستمر، وبالقراءة كلما سمحت له أمور المملكة بالحصول على فراغ، وأبدى مهارة كبيرة في طرح أسئلة كان يجد المتعة في البحث عن حلول لها. واستمع إلى التاريخ بتلهف، وكان يفضله على جميع أنواع القراءة الأخرى[2]، ولم ينس أبداً ما كان قد سمعه، وكان يتذكره بعد ذلك بسهولة ودقة، واستحوذت المسائل العامة على انتباهه بالكامل، ولم يهتم أبداً بالممثلين أو ألعاب الحظ، وكان يستمتع كثيراً في مراقبة طيران الصقور وطيور مالك الحزين في مطاردتها للفرائس؛ وكان يتحمل المشقات بصبر، وكان يعاني من إزعاج قليل من الحرارة والبرد لأنه كان يميل إلى البدانة لا بل كان في الحقيقة بديناً جداً.

---

(١) تعتبر هاتين الروايتين للتاريخ محددتين ومتواءمتين وتشير كلاهما إلى أن عموري أصبح ملكاً في عام ١١٦٣.

(٢) غالباً ما جرى تجاوز المعاني المتضمنة لهذه الرواية، وهي الدليل الأوضح على أن وليم نفسه كان يقرأ التاريخ لعموري وأن وليم كتب في الأصل ليقرأ تاريخه له.

كان ورعاً بحيث أمر بإعطاء العشر بأكمله ودون نزاع إلى الكنيسة، وكان يستمع بورع إلى القداس كل يوم ما لم يمنعه عن ذلك المرض أو أي طارىء آخر، وتحمل برباطة جأش الشتائم والسباب التي قذف بها مراراً وبشكل علني وسري على حد سواء حتى من قبل الأشخاص الوضعاء والمحتقرين، وكان يخفي مشاعره تماماً بحيث كان يبدو وكأنه لم يسمع العبارات التي قيلت[1]، وكان معتدلاً في تناول الطعام والشراب على حد سواء لأنه كان يحتقر الإفراط في كلا الأمرين، ويقال إنه وضع ثقة كبيرة في وكلائه إلى درجة أنه لم يطلب منهم أي عرض أو تصفية حساب بعد ما عهد إليهم بالمسؤولية عن أموره، ورفض الإصغاء إلى الدس ضد إخلاصهم، وقد عدّ بعض الناس هذه الصفة نقيصة، بينما عدّها آخرون فضيلة وقالوا إنها كانت برهاناً على الثقة الأصيلة.

ونجمت عن هذه المواهب العقلية والشخصية البارزة بعض المصائب الواضحة فألقت بظلالها بعض الشيء على السمات الجيدة الموصوفة منذ لحظات، فقد كان يفتقر إلى مزاج أنيس، وكان صموتاً جداً، ولم تكن لديه تلك الدماثة واللباقة التي يحتاجها الأمراء أكثر من الأشخاص الآخرين لكسب عواطف رعاياهم، ونادراً ما كان يتكلم مع أحد، ما لم تجبره الظروف على ذلك، أو ما لم يجر ازعاجه بالمصادفة بتوجيه الكلام إليه أولاً، وكان هذا العيب أكثر لفتاً للإنتباه لأن أخاه بلدوين كان دوماً على استعداد للتفوه بأقوال سارة، وكان دمثاً للغاية بالنسبة للجميع[2].

ويقال إن عموري قد انغمس في اقتراف الفواحش الجسدية بدون تحفظ، وأنه أغوى النسوة المتزوجات، الأمر الذي نرجو أن يغفره له الرب برحمته! وعلاوة على ذلك، كان خصماً شديداً لحرية الكنائس، فقد حولها خلال فترة حكمه إلى مرحلة الإرباك وذلك بإثقال أوقافها بمطالب متكررة، وهكذا وضع على كاهل الأماكن المقدسة ديناً فاق بكثير نطاق عائداتها[3].

كان جشعه للمال أكثر مما كان لائقاً أو جديراً بملك، وكان يحصل عليه باستخدام

(١) يقدم هذا دليلاً ممتازاً لروح الحرية التي سادت في مملكة القدس الاقطاعية، مع أن بعض التحسينات الحياتية كانت قد أدخلت في الشرق، فإن الكبت الرسمي للحديث الحر الذي ساد في قصور الشرق لم يكن قد تبني بعد.

(٢) توحي هذه المقارنة المتكررة بين الأخوين أن وليم قد عرف بلدوين أيضاً، ولذلك فقد كان في البلاط حتى قبل أيام عموري والذي كان قد عرفه عن قرب وبشكل وثيق.

(٣) لا شك أن في هذا إشارات إلى فرض بعض الضرائب من أجل الحملات مع أن وليم كان لا يقر مثل هذه الممارسات إلاّ في الظروف الطارئة عندما تتعرض المملكة للمخاطر.

حر للهبات، واستبقاه مراراً لنفسه بشكل يخالف تماماً متطلبات العدالة الصارمة والحق. وحاول في حديثه العادي معي أن يسوغ سلوكه الجشع بتقديم الأسباب التالية: «ينبغي على كل أمير، وقبل كل شيء على كل ملك أن يدرك أنه لن يكون قط واقعاً في أزمة شديدة، وذلك لسببين: أولهما أن ثروة الرعايا تبقى دوماً سالمة عندما لا يكون الحاكم محتاجاً، وثانيهما أن تتوفر تحت تصرفه موارد كافية يتزود منها باحتياجات مملكته كلما برزت حاجة ملحة مفاجئة، ويجب على الملك الحكيم في حالة كهذه أن يكون سخياً جداً وأن لا يوفر أية نفقة، وبهذا يتضح أنه مهما كان عنده من أموال فهو لا يمتلكها لمنفعته، بل لمصلحة المملكة».

ولم يستطع حتى الذين كانوا يكرهون الملك، أن ينكروا أن هذه الأسباب تنطبق على حالته. لأنه لم يوفر أية نفقة عندما تعرضت المملكة لضائقات خطيرة، ولم يعقه الإجهاد الجسدي. غير أن ثروة رعاياه كانت بعيدة عن الصون، لأنه استفاد مراراً وتكراراً من أكثر الذرائع تفاهة للقيام بانتهاكات خطيرة على مواريثهم.

٣ ـ الحديث عن صفاته الجسدية وعن مسألة محددة عرضها على أحد أصدقائه ليحلها.

كان عموري طويلاً بشكل مناسب ووسيماً، فقد كان أطول من كثيرين مع أنه كان أقصر من ذوي القوام المشوق للغاية، كانت ملامحه وسيمة، وأظهرت مشيته ـ حتى إلى الغرباء ـ سمو الأمير الذي توجب توقيره وكانت عيناه متلألئتين وذات حجم متوسط، وكان أنفه معقوفاً بشكل غير مناسب كأنف أخيه، وكان شعره أشقر اللون، وكان نامياً ومتدلياً إلى الخلف بعض الشيء انطلاقاً من جبينه، وكانت تغطي وجنتيه وذقنه لحية كثيفة وجميلة، وكان يضحك بطريقة مفرطة حتى كان جسده يهتز بأسره عندما كان يضحك، وكان يحب التحادث مع رجال حكماء وعقلاء ومع الذين كانوا مطلعين على البلدان البعيدة والعادات الغريبة[1].

وأتذكر أنه استدعاني ذات مرة بطريقة ودية إلى قلعة صور بينما كان هناك يعاني من حمى خفيفة لم تكن مرفوقة بالخطر، وتحدثت معه بشكل حميم حول موضوعات كثيرة خلال ساعات الراحة وخلال النوبات التي تحدث في أمراض الحمى المتقطعة، وأجبت عن بعض أسئلته بقدر ما سمح الوقت بذلك، ولقد تحسن بفضل المحادثة التي أجراها معي.

كان من بين الأسئلة التي طرحها علي في ذلك الوقت سؤال أثارني غاية الإثارة لأن السؤال كان غريباً، وكان موضوعه لا يسمح بمناقشته إلا بصعوبة لأن عقيدتنا الشاملة كانت تلقنه، ونقلته كما يليق بالإعتقاد الصادق، وثانياً لأن فؤادي قد تأثر بعمق من أن ملكاً

(١) يفيد هذا بوجود اهتمامات ثقافية محددة في بلاط القدس.

أرثوذكسياً، سليل أسلاف أرثوذكس يمكن أن يضمر شكاً بخصوص عقيدة ثابتة وأن يستفسر عنها في أعماق فؤاده.

وبالاختصار، لقد سألني عما إذا كانت هنالك أية طريقة لإثبات وبدليل موثوق وجدير بالإعتماد عليه بأن هنالك قيامة مستقبلية خارج تعاليم المنقذ والرجال المقدسين الذين آمنوا بالمسيح، وهي عقائد لم يرتب بصحتها؟ وحيث أثارتني غرابة هذا السؤال فقد أجبتُ: إن تعاليم ربنا ومنقذنا كافية لأن يبشر بوضوح في مقاطع كثيرة من الإنجيل بالقيامة المستقبلية للجسد، ووعد أنه سيأتي كقاضٍ ليحكم الفناء والموت والعالم بالنار، وقد قال للنخبة إنه سيقدم لهم مملكة معدّة من أساس العالم، إلا أن الأشرار سيودعون النار الأبدية المعدّة للشيطان وجنوده ويكفي الإيمان بالحواريين المقدسين وبرسل العهد القديم.

أجاب على هذا قائلاً: «إنني أومن بكل هذا بيقين، لكنني أبحث عن سبب حيث يمكن إثبات هذا لأمرىء يرتاب بصحة هذه الأشياء، ولا يقبل عقيدة المسيح ويؤمن بقيامة مستقبلية وأن هنالك حياة أخرىٰ بعد هذه الوفاة». فأجبت قائلاً: إذاً ضع نفسك في موضع رجل متألم جداً ولنحاول أن نتحقق من شيء ما حول هذه المسألة: فقال لي: «حسناً» ثم سألته: «هل تعرف بأن الله عادل» وأجاب: «أعترف أنه لا يوجد شيء أصدق من هذا». فقلت له: «من العدل أيضاً أن يكافأ الطيب بالطيب. والشر بالشر؟» فأجاب «ذلك صحيح» فقلت: «إن ذلك لا يحدث كثيراً في هذه الحياة، حيث لا يعاني بعض الناس الطيبين إلا من المتاعب والحظ العاثر في هذه الحياة، بينما ينعم الكثير من الأشخاص الأشرار بسعادة متواصلة كما يعلمنا ذلك الدليل من الحياة اليومية» فأجاب من جديد: «إن الأمر كذلك» فأكملت حديثي قائلاً: «إذن فإن ذلك سيحدث في حياة أخرىٰ لأن من المستحيل أن لا يتصرف الله بعدل. فلذلك ستكون هنالك حياة أخرى وقيامة لهذا الجسد حيث يجب على جميع الذين كانوا يستحقون الخير أو الشر في هذه الحياة أن يلقوا جزاءهم». فأجاب على هذا قائلاً: «يبدو هذا جيداً بشكل يفوق الحدود بالنسبة لي، لقد أزلت كل الشك من فؤادي»[1]. فلقد انتعشت روحه كثيراً بهذه المحادثات وبأحاديث مشابهة لكن دعونا نعد إلى موضوعنا.

كان عموري بديناً بشكل مفرط وكان له ثديان كثديي المرأة حيث كانا متدليين على صدره. إلا أن الطبيعة كانت قد شكلت أعضاءه الأخرى بيدٍ أكثر لطفاً، حيث لم تظهر هذه وسامة عادية فقط، بل أظهرت جمالاً فريداً من نوعه بالفعل، ولم يتمكن حتى أعداؤه من أن ينكروا أنه كان معتدلاً في تغذيته الجسدية وكان معتدلاً في تناول الخمر جداً.

(١) بذكرنا هذا الحوار بين الملك ومؤرخه بالحوار بين شارلمان وألكيون مع أن موضوع الحوار يظهر وجود بعض الشك في الدوائر المدنية للقرن الثاني عشر.

٤ ـ رواية كيف أجبر عموري قبل تتويجه على طلاق زوجته التي كان قد اقترن بها خلافاً للقوانين المقدسة.

بينما كان بلدوين ما يزال منشغلاً بنشاط في القضايا البشرية ويحكم المملكة بنجاح، تزوج أخوه عموري من أغنس إبنة جوسلين الأصغر كونت الرها [١]، وكان قد أنجب خلال حياة أخيه طفلين منها هما صبي يدعىٰ بلدوين وهو الذي كان عمه قد استقبله في جرن التعميد المقدس، وابنة كبرىٰ تدعىٰ سبيليا سميت على اسم كونتس فلاندرز أخت بلدوين وعموري.

وأجبر عموري على طلاق زوجته بعد وفاة أخيه عندما طالب أن تؤول المملكة إليه بموجب الحق الوراثي، وكان هذا الزواج قد تم على الرغم من المعارضة الواضحة للبطريرك فولتشر، ذي الذكرى المبجلة، حيث ادعى أنهما كانا أقرباء من الدرجة الرابعة من حيث النسب، وهي حقيقة أعلن عن صحتها فيما بعد وبإجلال أمام الكنيسة أقارب مشتركون لكليهما [٢]. ولذلك فقد أعلن عن إلغاء الزواج بموجب ما قضت به القوانين اللاهوتية، وانفسخ الزواج بحضور البطريرك أمالرخ صاحب الذكرىٰ الطيبة ويوحنا الكاردنال ـ الراهب للقديسين يوحنا بولص والممثل البابوي. وشهد أقارب الطرفين على درجة القرابة بينهما بأداء أيمان جليلة، وأقسموا أن الحقائق كانت كما ذُكرت، هذا واتخذ شرط قضى باعتبار نسل الإثنين ذرية شرعية، وأن يكون لهما حق كامل في وراثة ميراث والدهما.

وبما أنني كنت قلقاً جداً حول مسائل كهذه، فقد أجريت فيما بعد تحقيقات دقيقة. بخصوص درجة القرابة بين الاثنين، لأنني لم أكن قد عدت من المدارس في الوقت الذي وقع فيه هذا الحادث في القدس، بل كنت ما أزال مقيماً فيما وراء البحار ومنشغلاً بدراسة العلوم العقلية، وعلمت بالحقائق في النهاية عن طريق السيدة ستيفنا راعية دير مريم الكبرى المقدسة (الذي كان يقع قبالة قبر الرب في القدس) وكانت هذه المرأة الورعة والنبيلة النسب وبسبب حياتها الورعة ابنة جوسلين الأكبر كونت الرها وأخت روجر أمير أنطاكية وابن ريتشارد [٣]، ومع أنها كانت قد طعنت في السن الآن، فقد تذكرت تفاصيل المسألة تماماً وقدمت سلسلة نسب الاثنين على النحو التالي:

---

(١) ذكر روبرت أوف تورغني أن هذا الزواج قد وقع سنة ١١٥٧.

(٢) لا بد أن أغنس قد تمتعت بجاذبية غير اعتيادية، فقد كانت قد خطبت إلى واحد من نبلاء المملكة عندما توجب على عموري الانفصال عنها.

(٣) كان جوسلين الأول قد تزوج من أخت روجر الذي تزوج بعد وفاتها من الأميرة الأرمنية.

كان بلدوين دي بورغ، الملك الثاني للقدس، رجلاً رائعاً في جميع الجوانب (والذي كتبنا مؤخراً عن حياته وعاداته وأعماله السيئة والجيدة على حد سواء عندما كنا نعالج فترة حكمه) وجوسلين الأكبر ابنين لأختين، وولدت الملكة ميليساند من بلدوين وولد من الملكة ميليساند الملكان بلدوين الثالث وعموري، كما ولد من جوسلين الأكبر جوسلين الأصغر والد الكونتس أغنس التي كانت بالفعل زوجة لعموري، إنما بصورة غير شرعية، وأخوها هو جوسلين الثالث الذي يعمل الآن قهرماناً للملك وخال للملك بلدوين الرابع الذي يحكم حالياً[1]، بقي عموري أعزب لفترة من الزمن، لكن أغنس تزوجت على الفور من الرجل اللامع والنبيل هيو أوف ابلين بن بالين الأكبر. وكان هيو أخاً لبلدوين صاحب الرملة، الذي يحكم الآن تلك المدينة، وقد توفي أخوه دون أن ينجب أطفالاً، وأخاً أيضاً لبالين الأصغر الذي تزوج من أرملة الملك عموري. وبعد وفاة هيو. وبينما كان عموري ما يزال على قيد الحياة ارتبطت أغنس بروابط الحب برينو صاحب صيدا ابن جيرارد، ويقال إن هذا الرباط لم يكن زواجاً شرعياً مثل زواجها من الملك عموري. لأن جيرارد، والد رينو كان قريب قرابة نسب للإثنين، وهذا أمر مؤكد برواية حلف على صحتها بالنسبة للإثنين، حسبما سمعها من أسلافه، وهكذا تلا هذا الزواج الغاء آخر بالطريقة التي وصفتها من قبل.

٥ ـ الملك يهبط نحو مصر. نشوب معركة بينه وبين السلطان درغام. شاور يستدعي شيركوه إلى مصر. درغام يرسل المبعوثين إلى الملك لطلب السلام.

بعد أن نصب الملك عموري على العرش، رفض المصريون خلال العام الأول من حكمه، أن يدفعوا الجزية السنوية حسب الإتفاق الذي كانوا قد عقدوه مع أخيه[2]، ولذلك جمع الملك قوة قوية من الفرسان وجيشاً ضخماً وهبط نحو مصر على رأس حشد ضخم في حوالي الأول من شهر ايلول فخرج إليه درغام، حاكم تلك المملكة والذي يدعى باسم سلطان بتلك اللغة، على رأس حشود لا تحصى، ولم يتردد بمواجهته في الصحراء على هذا الجانب من مصر، إلا أنه لم يستطع تحمل هجوم المسيحيين، وأجبر، بعد أن فقد الجزء الأكبر من

---

(١) عين جوسلين الثالث قهرماناً للمملكة بعد فترة قصيرة من إطلاق سراحه في عام ١١٧٦، وشغل هذا المنصب حتى عام ١١٩٠، ومن المؤكد أن أخته أغنس كانت مسؤولة عن بدايته الجديدة في الحياة (انظر ج.ل.لامونت «صعود وهبوط نبلاء الفرنجة في سورية في أيام الصليبيين» المجلة التاريخية لجنوب شرق أوروبا: ١٥ [١٩٣٨] ٣٠١-٣٢٠).

(٢) تبعاً لفييت، فإن هذا الوعد لدفع الجزية، كان نتيجة لحملة بلدوين إلى العريش في الجزء الأول من عام ١١٦١، وقد أهمل وليم ذكر هذه الحملة (انظر غاستون فييت «مصر من الفتح العربي وحتى الفتح العثماني ٦٤٢ - ١٥١٧ م ص ٢٩١).

جنوده بالأسر أو بالقتل، على التراجع إلى المدينة القريبة والتي تعرف باللغة المصرية باسم بلبيس، وخشي المصريون الآن من أن يقرر الملك ـ بعدما حقق هذه المأثرة ـ قيادة جيوشه إلى الأجزاء الأكثر بعداً من المملكة، ولذلك أقدموا بعد ما يئسوا من إيجاد أي علاج لغزواتنا، على تخريب السدود التي كانت تحتجز الفائض من نهر النيل حتى الفصل المناسب، وأطلقوا أيضاً مياه النهر الفائض آنذاك حسب زيادتها المألوفة، وأملوا في أن يمنعوا بهذه السدود على الأقل حصول تقدم إضافي لأعدائهم، وأن يضمنوا سلامتهم بمساعدة المياه المنتشرة في كل مكان.

وهكذا، عاد الملك منتصراً ومكللاً إلى مملكته، بعا ما كان قد انتصر على أعدائه، وأنجز حملة ناجحة[1].

وكان درغام ـ حاكم مصر وسلطانها بأكملها الآن ـ قد طرد قبل وقت قصير من هذا المنصب من قبل حاكم قوي آخر يدعى شاور[2] ونجح شاور بالنجاة وذهب مع أصدقائه وحاشيته وجميع الكنوز التي استطاع أن ينقلها إلى أبناء قبيلته العرب ليلتمس مساعدتهم، واختبأ هناك بين أهله، منتظراً كما قيل ما تنجم عنه القضية مع نتائج الحرب. وكان يرجو أن فرصة مناسبة ستقدم نفسها على الفور حيث سيتمكن من رد الضربة إلى خصمه، ووصلته معلومات حول عودة الملك إلى موطنه إضافة إلى أخبار أفادت أن خصمه ما زال قوياً ومتمكناً كحاكم، وكان درغام قد أصبح بالفعل أكثر غطرسة من ذي قبل، وتفاخر باختيال بحقيقة أنه قد هزم في الحرب زعيماً قوياً، وأجبره على الانسحاب دون أن يسبب أضراراً كبيرة لمنطقته، وبناء عليه بادر شاور بالذهاب إلى الأمير القوي نور الدين ملك دمشق والتمس مساعدته ورغب في أن يعود إلى مصر وأن يطرد خصمه درغام وأن يحصل من جديد على السيطرة على المملكة، ووافق نور الدين، فوراً على هذا الإقتراح بعدما أغراه بالهبات والوعود، لأنه كان يرجو أن يستولي على المملكة لنفسه ساعة دخول جيشه إلى مصر، وخصص لشاور قائد فرسانه شيركوه وكان محارباً متمكناً ونشيطاً ومتلهفاً لبلوغ المجد، وصاحب خبرة واسعة في الأمور العسكرية، وبما أن شيركوه كان سخياً بشكل يفوق

---

(١) هنالك بعض الجدل حول تاريخ هذه الحملة. يضعها كل من روهرخت وشلمبيزغر في خريف عام ١١٦٣. بينما يصر كل من فييت وديرنبيرغ على أن عام ١١٦٢ هو التاريخ. ويعتبر فييت المسألة بأنها محلولة بقصيدة تهنئة موجهة إلى رزيك الذي توقف عن شغل منصب وزير في ٢٨ أيلول عام ١١٦٢ (انظر فييت ـ مصر من الفتح العربي، ص ٢٩١).

(٢) خلف شاور رزيك بالوزارة وقد حصل على المنصب بالقوة في أوائل عام ١١٦٣. وقام درغام بطرده في شهرآب عام ١١٦٣ (انظر فييت ـ مصر من الفتح العربي، ص ٢٩٢).

موارد مواريثه، فقد أحبه أتباعه بسبب هذا السخاء، وكان شيركوه صغير القامة وبديناً لا بل سميناً جداً وطاعناً في السن. ومع أنه كان منحدراً من أصل وضيع، فقد أصبح ثرياً وارتقى بفضل جدارته من مرتبته المتواضعة إلى مرتبة أمير، وكان مصاباً بالعمى في إحدى عينيه ورجلاً شديد التحمل للمشقات، فقد كان يتحمل الجوع والعطش برباطة جأش غريب تماماً بالنسبة لتلك المرحلة من الحياة، لقد كان هذا هو الرجل الذي أرسله نور الدين إلى مصر مع جيش كبير [١].

كانت الرسل تروح وتجيء باستمرار، وعلم السلطان درغام منهم ومما انتشر من أخبار أن العدو، الذي كان قد طرده من قبل عائداً بمرافقة جيش تركي مؤلف من الآف كثيرة، وحيث لم يكن لدى السلطان ثقة كبيرة في قوته، فقد اضطر إلى طلب المساعدة، وأرسل رسله إلى الملك وحملهم رسائل سلمية والتمس بجدية مساعدته ضد العدو الذي كان الآن يتوعد بمهاجمته. ووعد في ان لا يدفع الجزية التي تم الاتفاق عليها أصلاً مع الملك بلدوين بل أن يضيف إليها مقداراً كبيراً من المال يحدد حسب قرار الملك، وأعلن أيضاً أنه على استعداد لتقديم الرهائن كبرهان على الخضوع الدائم والتحالف على طول الوقت.

٦ - موت بطرس رئيس أساقفة صور. خلافته من قبل فريدريك أسقف عكا.

في هذه الآونة توفي بطرس الرئيس المبجل لأساقفة مدينة صور ذو الذكرى الورعة في الرب [٢]. وذلك في الأول من شهر آذار في العام الثاني لحكم الملك عموري، وجرى خلال بضعة أيام وقبل انقضاء شهر آذار تعيين فريدريك أسقف عكا والأسقف المساعد التابع للكنيسة ذاتها بدلاً عنه وذلك تلبية لرغبة الملك المعلنة.

كان فريدريك اللوثريني المولد، رجلاً نبيل المحتد، وكان طويلاً جداً؛ ولم تكن لديه سوى ثقافة بسيطة، لكن كان منصرفاً بشكل جامح نحو فن الحرب.

٧ - مقتل درغام سلطان مصر بسبب دسائس رجاله. شاور يصبح سلطاناً. شاور يوجه الدعوة إلى الملك ليحضر لمساعدته. الملك يهبط نحو مصر ويطرد شيركوه.

كان المندوبون المصريون في تلك الأثناء يتفاوضون مع الملك، وقد توصلوا عملياً إلى اتفاق مرضٍ إلا أنهم قبل أن يتمكنوا من العودة إلى موطنهم، كان شاور وشيركوه المذكوران آنفاً قد دخلا مصر مع جميع قواتهما وكانا قد واجها السلطان درغام في المعركة، وقد

---

(١) كان شيركوه قد ظهر بشكل بارز في الإستيلاء على دمشق وعلى الرغم من إنجازاته الكبيرة كمحارب، فهو يتذكر بشكل رئيسي كعم لصلاح الدين، الذي تلقى تدريباته العسكرية على يديه.

(٢) هنالك بعض الشكوك حول هذا العام، ويشير دليل العقود إلى شهرآذار عام ١١٦٤، بأنه التاريخ المحتمل (انظر - ر. روهرخت - وثائق ملوك القدس - رقم ٣٨٥ و ٣٩٧).

هزما في الإشتباك الأول وعانيا من هزيمة منكرة، بيد أنه قبل أن يتمكنا من تجريب حظهما في معركة ثانية في ظل الشروط ذاتها، أصيب درغام بسهم أطلق من يد أحد جنوده أودى بحياته الأمر الذي أثار حزن أتباعه عليه[1]. وبسبب موته دخل شاور القاهرة كمنتصر كما كان قد رغب بذلك، وقتل جميع أقارب درغام وأصدقائه وأتباعه الذين عثر عليهم، واحتل منصبه الرسمي السابق من جديد، ولم يكن مهماً للحاكم الأعلى [الخليفة الفاطمي] فوز مطالب هذا المنافس الآخر طالما هنالك شخص سيوقف نفسه بعبودية على الإهتمام بالأمور الشخصية لمولده مع أمور سكان المملكة.

هاجم شيركوه على الفور مدينة بلبيس المجاورة وبدأ يدعي أن تلك المدينة ملكاً له، وأظهر بأعماله وربما بأقواله بأنه كان يعتزم، إذا أيده الحظ، أن يبسط سلطته على المناطق الأخرى من تلك المملكة بالرغم من السلطان والخليفة، وبدأ شاور على الفور يخشى من أنه قد أضر بمصالحه باستقدام ضيف كهذا وكذلك بمصالح مولاه، وأنه استقبل شخصاً سيكافىء مضيفيه بطريقة رديئة «كالفأر في خزانة الثياب والأفعى في الصدر». ولذلك، أرسل بالسرعة الممكنة رسله إلى الملك في سورية وحملهم رسائل سلمية، وفوضهم بأن ينفذوا على الفور بالقول والعمل شروط الإتفاق الذي تم التوصل إليه مؤخراً بين الملك وبين السلطان درغام وأن يقدموا إذا دعت الضرورة إغراءات كبيرة أيضاً.

انطلق الملك في العام الثاني من حكمه فور مصادقة الطرفين على الإتفاق، واندفع نحو مصر على رأس جميع جيشه للمرة الثانية[2]. فانضم إليه هناك شاور مع القوات المصرية وحاصرا مع بعضهما شيركوه في مدينة بلبيس التي كان قد انسحب إليها كما لو أنها كانت قلعته، وبعد حصار طويل ومتاعب جمة وفقدان للمؤن اضطر شيركوه أخيراً إلى تسليم القلعة وكانت الشروط التي طالب بها أن يسمح له بالرحيل إلى بلاده مع جميع قواته بحرية وبدون عائق، ومنح هذا المطلب على الفور، فتخلى عندها عن المدينة وعاد عن طريق الصحراء إلى دمشق.

٨ ـ هزيمة نور الدين في المنطقة الواقعة حول طرابلس، ونجاته بصعوبة من أيدي المسيحيين بالفرار.

كان نور الدين مقيماً في هذا الوقت في المناطق المحيطة بطرابلس في موقع يعرف

---

(١) حدثت وفاة درغام في معركة تحت أسوار القاهرة في شهر آب من عام ١١٦٤ (فييت ـ مصر من الفتح العربي: ٢٩٤).

(٢) نفذت حملة عموري هذه خلال خريف عام ١١٦٤ (فييت ـ مصر من الفتح العربي: ٢٩٤ ـ ٢٩٥).

عموماً باسم البقيعة، وكان التيه الكبير الذي شعر به إزاء انتصاراته قد حوله إلى انسان مهمل إلى حد ما، فعانى بالنتيجة من كارثة يصعب لا بل يتعذر رأبها، وفي هذا الوقت تماماً كان بعض النبلاء قد أتوا حاجّين من بلاد أكوتين في سبيل الصلاة وكان بينهم غودفري المكنى بالمطرقة وهو أخ لكونت أنغوليم وهيو دي لوزنان الأكبر المكنى «بالبني». وتقدم هؤلاء الحجاج نحو بلاد أنطاكية بعدما أتموا عباداتهم حسب العادة، وهنا علموا أن نور الدين كان ما يزال مع جيشه في المنطقة المجاورة لطرابلس في الموقع المذكور آنفاً، وكان ينعم بالراحة ويمضي فترة من الإستجمام وهو مطمئن غير مهتم بأمنه وسلامته مطلقاً، وبناء عليه جمع المسيحيون قواتهم وشنوا هجوماً مفاجئاً على جيشه، فبوغت نور الدين، وأسر العديد من جنده، وهلكت أعداد كبيرة منهم أيضاً. لقد أبيد جيشه بالفعل فهرب هذا الأمير وهو في غاية الارتباك ويائساً من الحياة نفسها، وتخلى عن جميع الأمتعة وحتى عن سيفه، ونجا بصعوبة من الوقوع بالأسر في يد قواتنا بعد أن امتطى أحد حيوانات التحميل، وهو عاري القدمين، وعاد المسيحيون منتصرين إلى موطنهم محملين بالغنائم والثروات التي لا تحصى.

قاد هذه الحملة غلبرت دي لاسي وهو نبيل من مرتبة عالية ومحارب متمرس وقائد لفرسان الداوية في تلك المناطق، وساعده الرجلان العظيمان المذكوران أعلاه مع روبرت مانسل الذي قاد الغالنسيين في تلك الحملة وبعض الفرسان الآخرين [1].

٩ - نور الدين يحاصر قلعة حارم في بلاد أنطاكية. وقوع كل من أمير أنطاكية وكونت طرابلس وكولمان حاكم كليكية في الأسر.

امتلأ نور الدين إزاء هذه الكارثة المشؤومة بالغضب الشديد وشعر بارتباك عظيم مع الإحباط والإشمئزاز، وبما أنه كان تواقاً لمحو العار والثأر لما نزل به وبشعبه من أضرار التمس المساعدة من الأصدقاء والأقارب. ولم يبق أمير في الشرق إلا وطلب منه المساعدة، وكان يلتمس المساعدات بالتوسلات أحياناً وبالوعود بالمكافآت أحياناً وجند في هذه الأثناء قواته الخاصة، وجمع تعزيزات عسكرية من سائر الأنحاء، وقام معه حشد ضخم وآلاف من الفرسان كان قد جمعهم بهذه الطريقة بإلقاء الحصار على قلعة حارم التي تعدّ إحدى قلاع المسيحيين في بلاد إنطاكية، ووضع آلاته الحربية حولها بالطريقة المألوفة، وبدأ بمهاجمة القلعة بضراوة لم تسمح للسكان بأية راحة.

وجرى إبلاغ قادة المسيحيين على الفور بهذه الأعمال، فبادرت نحو حارم بدون تأخير جميع القوات من المشاة والفرسان التي أمكن جمعها من كل مكان، واشتملت هذه القوات

(١) لا بد وأن هزيمة نور الدين قد حدثت في أواخر عام ١١٦٣ (انظر ف.لندغرين- وليم الصوري والداوية: ٩٩ - ١٠٠).

على بوهيموند الثالث أمير انطاكية ابن ريموند، وريموند الأصغر كونت طرابلس ابن الكونت ريموند وكولمان حاكم كليكية وهو من أقرباء الإمبراطور كان مسؤولاً عن الشؤون الإمبراطورية في ذلك الإقليم؛ وطوروس وهو أمير أرمني قوي جداً، وقد زحفوا على رأس قوات معبأة بتشكيل المعركة، وهم مصممون على رفع الحصار على الرغم من جهود نور الدين.

وقرر ذلك الأمير والقادة المشارقة [الفرثيين]، الذين انضموا إليه، بعد التشاور أنه سيكون من الأسلم رفع الحصار والرحيل طوعاً بدلاً من المجازفة في مواجهة العدو الذي بات وصوله إليهم وشيكاً، وهكذا، فقد رتبوا الأمتعة وحاولوا تنفيذ انسحابهم، غير أن المسيحيين، الذين شجعهم النجاح الذي كان قد رافق جهودهم، بدأوا المطاردة. ولم يستطيعوا أن يرتاحوا وهم قانعون بتخليص السكان من الحصار على أيدي هؤلاء الأمراء العظام. وهكذا قاموا وهم مهملون لقواعد النظام العسكرية، بالتفرق بطيش وتجولوا هنا وهناك في مطاردة العدو، وتجمع الأتراك فجأة واستردوا شجاعتهم وقوتهم وانقضوا عليهم، فتبددت صفوف المسيحيين في الهجوم الأول بعد أن حوصروا في مكان ضيق مليء بالمستنقعات، وأصبح الذين كانوا من قبل قد زرعوا الرعب الكبير قبل قليل في قلوب الأتراك، صيداً محتقراً من قبل ذلك العدو نفسه، ولقد قهرتهم سيوف العدو وبددت جموعهم فقتلوا بشكل مخزٍ مثل الأضاحي أمام المذبح، ولم يتذكر أحد منهم شجاعته السابقة، ولم يناضل واحد منهم ليتذكر منزلة آبائه أو ليتجنب الكارثة أو ليقاتل دفاعاً عن الحرية ومجد أسلافه، وألقى الجميع، وبإهمال للشرف، أسلحتهم بتهور، وتوسلوا بشكل مخزٍ حتى يمنحوا الحياة التي كان من الأفضل استهلاكها في القتال برجولة دفاعاً عن أرض الآباء وقدوة للأجيال المقبلة.

في تلك الساعة العصيبة أدرك طوروس الأرمني أن الأتراك باتوا متفوقين وأن المسيحيين على العكس من ذلك، قد استسلموا، ولذلك قرر إنقاذ نفسه بالهروب فانسحب من جحيم المعركة، وكان قد عارض في البداية مطاردة الأتراك، وبذل جهوده في سبيل إقناع المسيحيين بالعدول عن محاولة ذلك، إلا أن المشورة الحمقاء للآخرين هي التي سادت.

واستسلم إلى العدو كل من بوهيموند أمير انطاكية وريموند كونت طرابلس وذلك لينقذا روحيهما، حتى وان كلفهما ذلك الخزي والعار، وسلك المنحنى ذاته كل من كولمان حاكم كليكية وهيو لوزنان الذي ذكرته آنفاً، وجوسلين الثالث بن جوسلين الثاني كونت الرها وعدد كبير من بقية النبلاء، فأوثقوا بالسلاسل كأحط أنواع العبيد، واقتيدوا بشكل مخزٍ إلى مدينة حلب حيث القوا في السجون وأصبحوا محط سخرية الكفرة.

وتشجع نور الذين وأحلافه بهذا النجاح وهذا الحظ الكبير والجيد، وهاجوا بثقة أكبر في هذه المرة المعقل الذي كانوا يحاصرونه من ذي قبل، واستؤنفت عمليات الحصار من جديد وتم الاستيلاء على الحصن بالقوة في غضون بضعة أيام.

وقع هذا الحدث في اليوم الرابع قبل نهاية الأسبوع الثاني من شهر آب في العام ١١٦٥ لتجسيد الرب وفي العام الثاني من فترة حكم الملك عموري. وكان الملك نفسه ما يزال في هذا الوقت في مصر حيث احتجزته هناك شؤونه الخاصة [١].

١٠ - وصول الكونت ثيري أوف فلاندرز إلى سورية. نور الدين يحاصر بانياس ويستولي على المدينة.

أثرت هذه التغيرات الكبيرة والكوارث الرهيبة بشكل خطير جداً على وضع المسيحيين حتى أنهم وصلوا إلى حافة الهاوية، ولم يبق الآن أي شعاع من الأمل، وكان الجميع بقلوب يائسة يخافون يومياً من وقوع كوارث أسوأ، عندما وصل ثيري كونت فلاندرز وكان بمرافقة زوجته أخت الملك، وكانت امرأة متدينة وتخشى الرب، ويتبعه مجموعة ضخمة من الفرسان، [٢] ورحب الناس به بابتهاج لانه بدا بأنه مساعدة فورية جداً، مثل الانتقال إلى نسمة منعشة بعد حرارة الشمس الشديدة، ورجوا أن يتمكنوا بدعمه من الصمود حتى عودة الملك والجيش المسيحي، ولكن للأسف، ما لبثت حالة الصفاء هذه، التي كانت مشرقة، أن حجبتها على الفور غمامة كثيفة ظهرت فجأة وحولت كل شيء إلى ظلام [٣]، فقد كان نور الدين، الذي أصبح متعجرفاً للغاية بسبب نجاحه، قد قرر أن ينتهز الفرصة لمحاصرة مدينة بانياس، وكان يعرف تماماً أن المملكة كانت مجردة من مدافعيها المألوفين، لأن الملك كان متغيباً مع سائر القوة العسكرية للمملكة، وكان القادة الرئيسون أسرى لديه.

ومدينة بانياس هي مدينة قديمة جداً تقع عند قاعدة جبال لبنان المشهورة، وكانت تعرف باسم دان خلال العصور القديمة في أيام بني إسرائيل، وكان تشكل الحدود الشمالية للممتلكات الإسرائيلية مثلما كانت «بئر السبع» تشكل الحد الجنوبي، وبالتالي، فعندما

---

(١) من الواضح أن عام ١١٦٥ تاريخ غلط، وربما جاء نتيجة لعمل أحد النساخ، ومن الواضح أن وليم كان يعتزم ربط هذه الحوادث مع حملة عموري على مصر في عام ١١٦٤.

(٢) هذه الرحلة الرابعة لثيري أوف فلاندرز إلى الأراضي المقدسة، وكان قد عهد برعاية المنطقة لابنه فيليب، وتبعاً لروبرت أوف تورغني الذي أشار إلى رحيل ثيري في حوادث عام ١١٦٤، فإن سيبلا كانت قد بقيت في القدس مع ايفيتا راعية لراهبات دير القديس لازاروس في بيت حانه، عندما عاد ثيري إلى الوطن في عام ١١٥٨ (انظر ل. ديليسلي - تاريخ روبرت دي تورغني - راعي رهبان القديس ميخائيل: ٣٢٥/١ - ٣٤٨).

(٣) يوئيل: ٣١/٢. أعمال الرسل: ٢٠/٢.

يوصف طول أرض الميعاد، يقال عنها تمتد من «دان إلى بئر السبع» وحسبما جاء عند لوقا[1] فإن فيليب بن هيرود الأكبر حاكم ايطورية وكورة تراخونيتس، كان قد وسعها خلال عهده تشريفاً للقيصر تايبيروس وسماها باسم قيصرية فيليب حتى يحافظ على اسمه إلى الأبد. وهي معروفة أيضاً باسم بانياس، لكن شعوبنا اللاتينية حرفت الإسم ـ كما هي عادتهم مع الأسماء عادة ـ وسموها باسم بيليناس، وتمتد حدودها في الشرق حتى بلاد دمشق على مقربة من الموقع الذي يوجد فيه أصل النهرين اللذين يشكلان الأردن، وهذه هي المدينة المذكورة في الإنجيل حيث كتبُ «ولما جاء يسوع إلى نواحي قيصرية فيليب سأل تلاميذه»[2] إلى آخره. وحدث هنا أيضاً أن تسلم بطرس أمير الحواريين مفاتيح مملكة السموات من المسيح كمكافأة على إيمانه الرائع.

وحاصر نور الدين هذا الموقع لأنـه وجده بلا مدافعين، حيث كان همفري كافل المملكة والذي كانت المدينة تخصه بموجب الحق الوراثي، متغيباً مع الملك في مصر، وكان أسقف المدينة متغيباً، وتناقص عدد السكان إلى حد كبير جداً خلال المذبحة، ونصب نور الدين على الفور المجانيق والآلات الحربية في مواقع حول المدينة، وألغمت الأسوار وأضعفت الأبراج بسبب سقوط وابل مستمر من الحجارة، ولهذا تم الاستيلاء عليها خلال بضعة أيام، وأُجْبر الناس الموجودون بداخلها على الاستسلام بشرط أن يُسمح لهم بمغادرة المدينة دون مضايقة مع جميع ما كان بحوذتهم، وهكذا، استولى نور الدين على المدينة في العام ١١٦٧ لتجسيد ربنا. ووقع هذا الحدث في العام الثاني من فترة حكم عموري وفي اليوم الخامس عشر قبل انقضاء الاسبوع الثاني من شهر تشرين الثاني[3].

وكان كافل المملكة قد عهد بالمسؤولية عن بانياس عند رحيله إلى مصر إلى واحد من فرسانه المخلصين، وهو وولتردي فوسنوي، وقد أكد بعضهم أن هذا الرجل كان مهملاً في الدفاع عن المدينة، وعلاوة على ذلك فقد أشيع أنه قبل بالتواطؤ مع كاهن يدعى روجر، وهو شماس لتلك الكنيسة، رشوة بشكل غادر مقابل تنفيذ الاستسلام. ولذلك، خاف

(١) لوقا: ١/٣.

(٢) متى: ١٣/١٦ ـ ١٩.

(٣) أوحى وليم في مكان آخر بعام ١١٦٤ على أنه السنة الثانية لحكم عموري، وعلى هذا لا بد من اعتبار ١١٦٧ كخطأ صادر عن أحد النساخ، أو سقطة قلم من وليم بحكم السرعة، لأنه بلا شك يربط هذا بغياب عموري في مصر في عام ١١٦٤، ويؤرخ و.ب. ستيفنسون (الصليبيون في الشرق ص١٨٩) الاستيلاء على بانياس في ١٨ ـ تشرين أول ١١٦٤.

الخائنان خوفاً شديداً لدى عودة الملك من مصر خشية أن يقتلها، هذا ولا توجد لدينا معلومات وثيقة حول هذه النقاط باستثناء أن المدينة أسلمت إلى العدو.

١١ ـ ذهاب الملك إلى انطاكية إثر عودته من مصر. اطلاق سراح الأمير مقابل فدية من المال. استسلام الكهف في صيدا إلى الأتراك. الأتراك يستولون أيضاً على كهف آخر فيما وراء الأردن.

كان هذا هو الوضع الذي كان سائداً آنذاك في سورية، وكان الملك قد طرد في هذه الاثناء شيركوه من بلاد مصر وعين شاور في الحكم كسلطان، وعاد الآن إلى بلاده كفاتح رائع، وعلم هناك بالأحداث الكئيبة التي كانت قد حدثت في المملكة، وعلى الرغم من أنه كان قد أبلغ ببعض المعلومات عن كل هذا من قبل، فقد استمع الآن لتقرير مفصل عن الكوارث وسمع أن أهالي أنطاكية قد التمسوا المساعدة منه في حالة يائسة تقريباً[١]، ولذلك، أخذ معه كونت فلاندرز بشفقة وحنو أخويين وأسرع إلى أنطاكية يحث الخطا ليقدم المساعدة التي كانت المنطقة المتأثرة تحتاجها بشكل شديد، وتولى لدى وصوله مسؤولية القيام بأمور الأمير حيث أدارها بإخلاص وبشكل جيد وبعناية أكثر من تلك التي كان يقدمها عادة لاهتماماته الشخصية، وحكم النبلاء والناس على حد سواء بلطف بالغ وببصيرة حكيمة، وعين في كل مدينة رجلاً كفوءاً ليعني بإخلاص وإدراك بجميع القضايا المتعلقة بمقاطعة الأمير وعاد بعدها إلى مملكته، هذا وقد استمر يساعده الأتباع المخلصون للأمير والأصدقاء يشغل نفسه في مسألة إطلاق سراح الأمير، وأعيد الأمير نتيجة لجهوده النشيطة إلى حالته السابقة من الحرية والشرف في ذلك الصيف نفسه بدفع مبلغ كبير من المال، وكان أسره بين العدو قد استمر مدة عام تقريباً[٢]، ولم يرتح بوهيموند ولم يسترخ بعد عودته إلى انطاكية، بل أظهر نشاطاً كبيراً في جميع الفدية للرهائن تم دفعها، ليتمكن من تعجيل إعادتهم؛ وكان امبراطور القسطنطينية قد تزوج قبل وقت قصير من ماريا، الأخت الصغرى للأمير، فأسرع بوهيموند إلى هناك واستقبله الإمبراطور بترحاب وعامله معاملة لطيفة، وعاد بعد زيارة قصيرة إلى انطاكية محملاً بهبات سخية من جلالته الإمبراطورية.

يبدو غريباً اقدام نور الدين، الذي كان أميراً حكيماً ومتعقلاً، على الموافقة على إطلاق سراح أمير أنطاكية بسرعة كبيرة، فقد كان معارضاً دائماً لتحرير الأسرى

(١) ربما حالت أخبار نشاطات نور الدين في غيابه بين عموري وبين متابعة نجاحاته في التوغل في مصر.

(٢) أطلق سراح بوهيموند الثالث في صيف عام ١١٦٥ وذلك نتيجة للنجاح العسكري لطوروس الأرمني ولقدرة عموري على الإقناع.

المسيحيين، وكان يتفاخر في المقام الأول بحقيقة أنه كان يأسر الكثيرين من شعبنا، وخاصة ذوي المراتب السامية، ويخطر على ذهني جوابان ممكنان لهذه المسألة: أولهما أنه ربما خشي من إمكانية تدخل الإمبراطور وهو الحاكم القوي، الذي لن يجرؤ على رفض مطلبه، فقد يطالب بإعادة الأمير دون فدية، وربما أخذ أيضاً بعين الاعتبار احتمال أن يحتاط أهالي أنطاكية، دفاعاً عن مصالحهم باختيار حاكم أقوى بدلاً من بوهيموند في حال احتجاز أميرهم لفترة طويلة من الزمن، لأن الأمير كان شاباً ولم يقدم سوى دلائل بسيطة بمستقبل خير واعد، وهكذا قد ينبع ضده خصم أكثر رعباً، ولهذا السبب، رأى نور الدين، الذي كان داهية وحكيماً أنه من الأفضل بالنسبة لمصالحه الخاصة أن يستمر بوهيموند في حكم أنطاكية لأنه أيضاً لم ينتظرْ خيراً كثيراً منه أبداً، ومن المحتمل أن وضع أمير أعقل وأقوى في ذلك المنصب أن يكون أكثر صعوبة في التعامل معه، ومن وجهة نظري، إن هذه النظرية الأخيرة تفسر الدوافع الحقيقية التي سيطرت على هذا الأمير الأكثر ذكاء[1].

وفي هذه الآونة نفسها استولى شيركوه ـ الذي تكرر ذكره، والذي كان مصمماً على إبادة المسيحيين ـ فجأة ودون إنذار على قلعة تعود ملكيتها للمسيحيين وتقع بالقرب من صيدا، وكان الموقع يعرف باسم كهف صور وكان يعدّ موقعاً لا يرام، ويقال إن الاستيلاء على الموقع تم بدفع رشوة للحراس، وأن القلعة كانت قد سقطت في أيدي العدو بسبب التواطؤ مع حراسها كان واضحاً تماماً، حيث هرب فور تسليمها جميع الذين كانوا موجودين بداخلها إلى بلد العدو باستثناء قائدهم الذي قبض عليه لحسن الحظ وقد واجه نهاية تعيسة في صيدا حيث شنق فيها.

باغتت المنية خلال هذا العام نفسه وليم ملك صقلية ذي الذكرى الرائعة وابن الملك روجر[2]. وسلم رهبان فرسان الداوية إلى شيركوه في هذه الآونة نفسها تقريباً قلعة ذات طبيعة مشابهة، أي كهفاً لا يرام واقعاً فيما وراء الأردن على حدود العربية، بعدما كان قد

---

(١) كان نور الدين لا يزال محتجزاً عدداً من الأمراء اللاتينيين الهامين بينهم أرناط وريموند الثالث صاحب طرابلس، وكان قد احتجز جوسلين الثاني أسيراً لمدة تسعة أعوام، ولم يطلق سراح أسرى كهؤلاء إلا تحت الضغط، حيث أن تهديد غزو الامبراطور مانويل هو المثال اللافت للنظر. وكان هذا مثال آخر، ولم تغريا العروض المادية للفدية، وربما كان وليم محقاً في توقعه بخصوص سبب إطلاق نور الدين سراح بوهيموند. ويقترح روهرخت سبباً أكثر احتمالاً في وجود تهديد لهجوم آخر من قبل مانويل (روهرخت ـ تاريخ ملوك القدس: ١١٠٠ ـ ١٢٩١ ص٣١٩).

(٢) توفي وليم صاحب صقلية في ٧ أيار عام ١١٦٦ وخلفه ابنه وليم الثاني، الذي لم يكن إلا في الثالثة عشر من عمره (انظر. ف. شالدون ـ تاريخ الحكم النورماندي في ايطاليا وصقلية: ٢/٣٠٣-٣٠٥).

عهد بالعناية بها إلى الداوية، وهب الملك إلى نجدتها مع مجموعة كبيرة من الفرسان، لكن بلغه عندما كان مخيماً على ضفاف الأردن نبأ أفاد أن القلعة قد سقطت في أيدي العدو، فأمر الملك بعدما أربكه هذا النبأ وأغضبه بشنق نحو /١٢/ من الداوية المسؤولين عن تسليم الموقع [١].

وهكذا كابد المسيحيون خلال ذلك العام، الذي كان العام الثالث من فترة حكم الملك عموري، من نكسات كثيرة؛ وكانت المملكة بأسرها، وبسبب آثامنا، محفوفة جداً بالمخاطر.

١٢ ـ الحديث عن عودة كاتب هذا الكتاب إلى موطنه، ووصف بعض التقدم الذي أحرزه.

[لم يتم العثور على نص هذا الفصل في أي من المخطوطات المتبقية] [٢].

١٣ ـ انحدار شيركوه نحو مصر على رأس كتلة كبيرة من الجند.

كان هذا هو الوضع الذي ساد بين شعبنا في تلك الآونة، وتواترت الأخبار في هذه الأثناء بشكل واسع وتأكدت من مصادر مختلفه أن شيركوه كان يستعد للإنحدار نحو مصر من جديد في أبهة عسكرية وعلى رأس قوة ضخمة من الفرسان جمعت من مناطق الشرق والشمال، ولم تكن هذه الحكاية بدون أساس لأن شيركوه كان قد زار خليفة بغداد، ذلك الحاكم الأعظم الذي يفوق جميع حكام المسلمين، والذي يفوق جميع الحكام الآخرين، ويعترف بأنه الحاكم الأهم من جميع الحكام، وقدم شيركوه لدى وصوله إلى هناك التحية

---

(١) التاريخ الذي أعطاه وليم لهذه المأساة هو العام الثالث لحكم عموري أو في عام ١١٦٥، ولم يستطع لندغرين الذي وضعها في عام ١١٦٦ العثور على أي مستند آخر حول شنق الداوية وناقش رواية وليم دون أن يكون قادراً على رفضها (وليم الصوري والداوية، ص ١٠١).

(٢) لدى بروتز تخمينات متنوعة بخصوص هذه المادة المفقودة (هـ. بروتز ـ «دراسات حول وليم الصوري» الوثائق الحديثة: ٩٨ ـ ٩٩). وإذا كان الافتراض أن وليم لم يتمكن من إنهاء هذا العمل صحيحاً، وأن القسم الذي لم ينتهِ هو القسم المغطي للفترة الواقعة ين ١١٦٠ و١١٦٦، فإن التفسير الأكثر معقولية هو أن وليم لم يكتبه، فقد كان قد خطط الفصول للكتاب بأكمله بسرد للعناوين، إلا أنه لم يكن قادراً في عجلته على إكماله. كما أن الطبيعة التخطيطية ذاتها للفصول السابقة لهذه تقدم دعماً إضافياً للشرح. وربما يفسر تغيبه عن فلسطين خلال جزء من هذه الفترة، كما هو مشار أعلاه، غموض مادة الأعوام من ١١٦٠ وحتى ١١٦٣، بينما يشير الكمال والدقة النسبية للحوادث المسرودة في عام ١١٦٤ إلى أنه كان قد عاد إلى الأرض المقدسة آنذاك، وإذا كان الأمر كذلك، فإن سرعة اختتام عمله يمكن أن تفسر الأخبار القليلة عن عام ١١٦٥، ولا شيء تقريباً عن عام ١١٦٦. ويؤكد هذه الإمكانية الإتمام المغاير لأخبار العام القادم الذي ربما بدأ عمله به كمؤرخ.

المألوفة، ثم بدأ يصف وبتفاصيل كبيرة الثروة الضخمة الموجودة في مصر، وأبلغ عن الوفرة الرائعة لجميع الأشياء الجيدة هناك وعن كل سلعة منفردة، وعن الكنوز الثمينة التي تخص الأمير نفسه، وتحدث عن الضرائب والرسوم التي يمكن جمعها من المدن الواقعة على الساحل والأرض الداخلية البعيدة، والكمية الضخمة من العائدات السنوية. وأضاف أن السكان، الذين أوقفوا أنفسهم على حياة الرفاهية والجاهلين لعلوم الحرب قد أصبحوا ضعفاء بسبب فترة سلام استمرت لمدة طويلة من الزمن، وحاول مراراً وتكراراً أن يطبع في ذهن الخليفة حقيقة أن الأمير، الذي يحكم مصر الآن، قد نصب مع أسلافه خليفة منافساً له نفسه [خليفة بغداد] ولأسلافه واجترأوا على القول إن الخليفة لا مثيل له ولا يعادله في منزلته الفريدة أيضاً، وعلاوة على ذلك، فقد تولوا الأخذ بشريعة مخالفة وتبني عقيدة معارضة لعقيدة الخليفة بشكل مباشر، وأثر شيركوه بتكرير اقتراحات كهذه على ذهن الخليفة حتى أقنعه في تنفيذ وصية السلطان، وكتب إلى جميع الأمراء الذين كانوا يؤمنون بعقيدته المزيفة وأمرهم بشكل صارم أن يجندوا قواتهم ويتبعوا شيركوه لتقديم المساعدة له [١].

وعقد الملك عموري لدى سماعه بهذا النبأ اجتماعاً عاماً في نابلس لابداع وسائل لإحباط خطط الخليفة وتعطيلها، وتحدث هنالك عن الخطر الذي كان يهدد المملكة ووصفه بعناية كبيرة وذلك بحضور البطريرك ورؤساء الأساقفة والأساقفة وعدد آخر من أصحاب المقامات الرفيعة في الكنيسة إضافة إلى النبلاء والناس كافة والتمس مساعدتهم بشكل جاد، وبالنظر إلى الظروف، تقرر عند ذلك بالإجماع أنه ينبغي على كل فرد بدون استثناء تقديم العشر عن جميع ما يمتلكه من أشياء متنقلة من أجل نجدة المملكة، وقد تم تنفيذ القرار بحذافيره.

استمرت الأقاويل بالانتشار ومفادها أن شيركوه، المجهز بشكل جيد بالطعام الضروري لأيام كثيرة وبكميات وفيرة من الماء المنقول بالقرب، قد بدأ مسيرته عبر الصحراء على الطريق الذي كان بنو اسرائيل قد دخلوا منه إلى أرض الميعاد، ولذلك، جهز الملك جميع قواته المتوفرة من الفرسان وانطلق بسرعة لمقاتلة شيركوه وإعاقة تقدمه، وتقدم حتى قادس ـ برنيه ـ Kades - Barnea في الصحراء، إلا أنه عاد على الفور من حيث أتى لأنه لم يجد شيركوه.

(١) من الواضح تماماً أن هذا الوصف للوضع في مصر أعدّ دون اعتبار للفصول السابقة، وهذا سبب آخر للاستنتاج أن وليم بدأ تاريخه عن هذه المرحلة.

١٤ ـ الملك يلاحق شيركوه وينحدر مثله إلى مصر لمساعدة المصريين.

صدرت الأوامر آنذاك إلى المنادين لاستدعاء جميع القوات العسكرية من مدن المملكة كافة من المشاة والفرسان على حد سواء، وصدرت الأوامر إلى القوات بالتجمع في عسقلان[١]، في الثلاثين من شهر كانون الثاني انطلق الجيش يحمل معه المؤن الضرورية من الأطعمة للرحلة، وسار سيراً حثيثاً حتى عبر الصحراء الشاسعة الواقعة بين غزة آخر مدن مملكتنا، وبين أرض مصر وتم التوقف قليلاً في العريش القلعة القديمة في الصحراء لإجراء إحصاء للقوات، ولانتظار وصول بقية الجيش، وأخيراً وصل الجيش بأكمله إلى المدينة المعروفة حالياً باسم بلبيس مع أنها كانت تعرف في العصور القدية باسم بيليوسيوم فهكذا تكرر ذكرها في أعمال الرسل.

واستولى الذعر على السلطان شاور عندما علم بقدوم الملك، وارتاع بسبب الظهور المفاجىء للمسيحيين وارتاب بحسن نوايا الحشد المقترب، وخشي من إمكانية توجيه الجيش العسكري ضده، وعلى العموم كان شاور حاكماً عاقلاً وكفؤاً، واعتبر بعيد النظر بشكل خاص، إلا أنه أظهر في هذه المناسبة جبناً وجهلاً تاماً، فنادراً ما استطاع أن يصدق سبب قدومنا على الرغم من أنه أبلغ به. وأرسل أخيراً وعلى مضض وبعد فوات الآوان الكشافة إلى الصحراء لكي يحصلوا على معلومات محددة حول تحركات العدو، وذكر الرسل لدى عودتهم أن الجيش التركي كان قد بلغ أطفيح. فدهش عندها السلطان بالفعل إزاء الولاء المخلص للمسيحيين وأثنى عليهم كثيراً، ووضع تحت تصرف الملك جميع الكنوز التابعة للمملكة والخليفة على حد سواء وذلك امتناناً للعناية التي كان الجيش المسيحي قد أظهرها نحو حلفائه المصريين. وعلاوة على ذلك، أظهر بدئاً من ذلك اليوم حماسةً كبيرةً في تنفيذ جميع رغبات الملك، ولذلك، نهل الملك عموري بحرية من هذه المساعدة كلما كانت لديه حاجة لها.

١٥ ـ وصف القاهرة، مع بعض الإشارات إلى مؤسسها.

تقدم المسيحيون في طريقهم إلى ما وراء مدينتي بلبيس[٢] والقاهرة، وكانت الأخيرة المشهورة بمبانيها الضخمة مقراً للسلطة الملكية والمجد السامي لمصر. وأقام المسيحيون المعسكر على ضفة نهر النيل اليسرى في المدينة المهيبة والمشهورة التي تسمى عموماً باسم بابليون[٣] وهي

---

(١) لا بد أن التحضير لهذه الحملة، بما في ذلك مؤتمر نابلس قد انتهى في خريف ١١٦٦، وبدأ الزحف من عسقلان في ٣٠ كانون ثاني ١١٦٧.

(٢) عرف هذا المكان فيما بعد باسم الفرما.

(٣) كانت بابليون قلعة قوية زمن الفتوحات العربية. وكانت موقعاً لمعركة ضارية وحصار طويل، وتم الاستيلاء =

مشهورة باللسان العربي باسم مصر[1]، ولم نتمكن من العثور على الاسم القديم الذي كانت تحمله هذه المدينة في العصور القديمة وكانت بابليون مدينة قديمة جداً في الشرق، غير أن التواريخ المتعلقة بالأزمنة القديمة جداً لا تشير إلى أية مدينة بهذا الاسم على أنها وجدت على الإطلاق في مصر، ولذلك، من المحتمل أن هذه المدينة لم تكن قد تأسست أيام الفراعنة فقط، الذين كانوا أول من حكم مصر، ولا في أيام البطالمة الذين حكموها فيما بعد، بل حتى بعد زمن الرومان الذين حولوا مصر إلى اقليم، وأما بخصوص القاهرة، فمن المعروف أن هذه المدينة قد أسسها جوهر القائد العام لقوات المعز لدين الله، وكان هذا الحاكم يحكم في ذلك الوقت في إفريقية بعدما استولى جوهر له على مصر بالكامل، هذا وسنذكر في وقت لاحق كيف حدث هذا.

ومع ذلك، فإن بعض الكتاب يؤكدون بيقين أن بابليون هذه هي ممفيس القديمة تلك المدينة المهيبة والواسعة الشهرة التي تكرر ذكرها في التواريخ القديمة وفي أعمال الرسل، والتي يقال إنها كانت عاصمة وملكة تلك المملكة بأسرها وأقاليم مجاورة كثيرة، ولا تزال هناك مدينة مهيبة ذات نطاق واسع على بعد عشرة أميال فيما وراء النيل الذي يجري بمحاذاة مدينة بابليون هذه، التي نحن بصددها، حيث ما تزال هنالك أدلة ذات فخامة ماضية، ويؤكد بعض السكان في تلك الأجزاء بأن هذه هي ممفيس القديمة.

وهكذا، من المحتمل تماماً بأن أهالي ممفيس قد نقلوا منازلهم إلى الجانب الآخر من النهر في ذلك الوقت، أو ربما غيروا الأسم الأصلي في وقت لاحق إما بسبب الضرورة أو لأن هذا الموقع كان يقدم فوائد كبيرة.

ونعتبر أنه من الثابت بشكل محدد أيضاً أن جوهر الذي بنى القاهرة، وكما ذكرنا من قبل، كان قد جرى إرساله من إفريقية بصحبة جيوش الأمير العظيم المعز بغية فتح مصر،

= على القلعة في ٦ نيسان عام ٦٤١، وبنيت مدينة القاهرة فيما بعد إلى الشمال من بابليون، وربما استمد الغربيون من بابليون الاسم الذي أطلقوه على مصر التي يدعونها عموماً باسم بابليون، ووليم محق في رفضه تعريفها بأنها ممفيس القديمة، التي وضعها بدقة على مسافة نحو عشرة أميال فوق النيل.

(١) مصر هو الاسم الرسمي لهذه البلاد Egypt.

(٢) هذه إشارة واضحة إلى أن وليم قد استخدم أكثر من مصدر عربي لتاريخه عن مصر، كما أن استنتاجه بخصوص الفتح الفاطمي لمصر وتأسيس القاهرة منسجم مع أحسن الأبحاث الحديثة، وتغطي سنة /٣٥٨/ للهجرة الفترة الممتدة من ٢٤ تشرين الثاني ٩٦٨ إلى ١٣ تشرين الثاني من عام ٩٦٩ م. وقد أنجز بناء القاهرة في ٢٢ حزيران عام ٩٧٢، وتمركز الخليفة نفسه هناك في ١١ حزيران عام ٩٧٣. (انظر فييت ـ مصر من الفتح العربي: ١٧٩ ـ ١٨٨). ويعتبر هذا المقطع هو الوحيد الذي يورد وليم فيه بصورة دقيقة التاريخ الإسلامي، مع أنه استخدم الحساب مراراً.

وأسس جوهر هذه المدينة بالقرب من بابليون في عام ٣٥٨ من التاريخ الإسلامي وذلك بعدما كان قد فتح المنطقة بأسرها وجعل الناس خاضعين له، وأصبحت هذه المدينة المقر الرئيسي والمفضل لحاكمه، وغادر المعز بعد ثلاثة أعوام مدينة القيروان التي كانت مقراً لمملكته لسنوات عدة، وأصبحت هذه المدينة، حسب رغبات هذا الأمير مدينة رائعة وغدت عاصمة لمملكته ومقراً له[1]، وحدث هذا في سنة ٣٦١ حسب التاريخ الإسلامي؛ وفي العام العشرين من فترة حكم المعز كما تم سرد ذلك بشكل كامل في مكان آخر من كتابنا عن أمراء الشرق.

١٦ ـ الملك يزحف للقاء شيركوه وشيركوه يعبر النهر متوقعاً حدوث عمل من هذا القبيل.

بعدما أقام المسيحيون معسكرهم على ضفاف النهر على بعد أقل من مرحلتين من المدينة المذكورة منذ لحظات عقدوا اجتماعاً وارتأوا، بعد مشاورات طويلة ودراسة دقيقة للآراء المختلفة، أنه من الأفضل أن يخرجوا لمواجهة شيركوه وقواته قبل أن يعبروا النهر، لأن منعه من دخول المملكة سيكون أفضل بكثير من خوض معركة بعد أن تكون جيوشه قد مرت، حيث ستدفعهم صعوبة إعادة العبور إلى القتال بشكل أكثر إفراطاً.

وهكذا، حلوا المعسكر، وساروا بسرعة نحو الموقع الذي اعتقد أن العدو كان موجوداً فيه ولقد قيل إن هذا الموقع كان على بعد نحو عشرة أميال من المكان الذي كانت قواتنا قد خيمت فيه من قبل. إلا أنهم وجدوا، لدى وصولهم إلى الموقع، أن شيركوه، القائد الحكيم جداً، كان قد عبر النهر مع جميع جنوده تقريباً. ولم يبق سوى عدد قليل فقبض عليهم رجالنا على الفور وأوثقوهم، وقدموا للمسيحيين عند استجوابهم مقداراً كبيراً من المعلومات المفيدة وخاصة فيما يتعلق بعبور شيركوه للنهر وعدد جنوده.

وكشفت روايتهم النقاب عن قصة لم يكن شعبنا يعرفها، وهي أن زوبعة رهيبة انطلقت فجأة بعدما كانت قواتهم قد اجتازت وادي عربة في الصحراء، فقد ارتفعت حبيبات الرمل إلى الأعلى والتفت خلال الجو كغيوم وضباب كثيف، ولم يجرؤ الجنود على فتح أفواههم للتحدث مع بعضهم بعضاً، كما لم يستطيعوا إبقاء أعينهم مفتوحة، بل ترجلوا عن خيولهم وانبطحوا ملتصقين بالأرض وأدخلوا أيديهم في الرمل بقدر ما أمكنهم حتى لا تحملهم العاصفة الهوجاء إلى الأعلى ثم ترميهم إلى الأرض لأن أمواج الرمل في تلك الصحراء

---

(١) تقع القيروان، المتداخلة مع القاهرة هكذا بسهولة، على مسافة قصيرة جنوب شرق مدينة تونس، وكانت العاصمة السابقة لإفريقية قبل الفاطميين.

كأمواج البحر، معتادة على الإرتفاع والسقوط كما يحدث عادة أثناء العاصفة، وهي حقيقة تجعل عبور هذه المناطق خطر كالإبحار في البحر. وأخيراً عاد الجولطيفاً بعد انقضاء عدة أيام بالتجول التائه هنا وهناك، وهم غير متأكدين من الطريق وغير آملين إلا بالحياة فقط، ووصلوا مصر، كما تم سرد ذلك، وقد فقدوا جمالهم والقسم الأكبر من مؤنهم ومات الكثير من رجالهم وتفرق الكثيرون منهم أيضاً في الرقع الواسعة والمترامية الأطراف من الرمال.

عاد جيشنا من حيث أتى بعدما اتضح أن شيركوه وجيشه كانوا قد عبروا النهر، وخيم مجدداً على ضفة النهر بالقرب من المدينة التي كان قد تركها من قبل.

١٧ ـ السلطان شاور يجدد المعاهدة في سبيل إبقاء الملك معه.

أدرك شاور الآن أنه يستحيل بالنسبة له أن يقاوم الأعداء الذين كانوا قد توغلوا إلى قلب المملكة بالذات، أو أن يطردهم من المنطقة إلا بمساعدة الملك، ولذلك بحث بتلهف عن أكثر السبل فعالية مما يمكن بوساطته إبقاء الملك في مصر لأنه خشي من أن يعقد عموري ـ الذي أرهقته المشاق الجمة ـ العزم على العودة إلى بلاده، وبالفعل بدا أن الوسائل الوحيدة لإبقاء الملك في المنطقة تكمن في تقديم مقدار كبير من الجزية له، ووعده بمبلغ كاف لتلبية نفقاته ونفقات نبلائه.

وهكذا صمم شاور على تجديد الإتفاقات القديمة، وأن يعقد معاهدة سلام دائم بين الملك والخليفة على أساس صلب وثابت وهو اقتراح بدا جيداً بالنسبة للمسيحيين أيضاً فقد توجب زيادة الجزية السنوية، وضمان تأمين دفعة ثابتة للملك من بيت مال الخليفة، لأن المسألة كانت بوضوح مسألة لا يمكن إنجازها بسهولة دون إنفاق الكثير من العمل والوقت، وبعد دراسة مطالب ورغبات الفريقين، قرر المسؤولون عن إعداد المعاهدة والشروط المتعلقة بذلك، أنه يجب تخصيص مبلغ أربعمائة ألف قطعة ذهبية للملك. ووجب دفع مائتي ألف قطعة من هذا المبلغ على الفور، وإرسال المائتي ألف قطعة المتبقية في وقت محدد متفق عليه بدون إثارة أية متاعب، وكانت الشروط على النحو التالي: «أن يضمن الملك بسلطته وبنية حسنة ودون خداع أو نية شريرة أنه لن يرحل عن أرض مصر حتى تتم إبادة شيركوه وسائر جيشه عن بكرة أبيه، أو يطرد وأتباعه بالكامل من الأراضي التابعة لمصر». ولاقت هذه الشروط موافقة الطرفين، ومد الملك يده اليمنى إلى ممثلي الخليفة كبرهان على موافقته على المعاهدة، هذا وأرسل في الوقت ذاته هيو صاحب قيسارية ـ وكان شاباً يتمتع بحكمة رائعة وتعقل يفوقان عمره ـ مع آخرين كثر للحصول على مصادقة الخليفة على الميثاق إلى يد هيو حسب الشروط المتفق عليها، حيث بدت ضمانة السلطان وحدها غير كافية في هذه المسألة.

١٨ - إرسال الرسل للحصول علىٰ تجديد المعاهدة من الخليفة. وصف فخامة القصر الملكي.

بما أن قصر ذلك الملك [دار الخلافة] فريد من نوعه، ومبني حسب طراز غريب تماماً عن عالمنا، ارتأيت أنه من المستحسن أن أدون بالتفصيل ما علمته من الروايات الموثوقة للذين زاروا ذلك الأمير العظيم، وأن أصف حالته وجلالته وكنوزه الضخمة وأبهته الفائقة، لأن الحصول علىٰ تفهم دقيق لكل هذا لا شك سيكون له فائدة كبيرة بالنسبة لقرائي.

دخل هيو صاحب قيسارية القاهرة في ظل حماية السلطان ورفقته كرئيس للسفارة التي أرسلت إلىٰ هناك وكان برفقة غودفري فولتشر وهو من فرسان الداوية، واقتيدوا لدى وصولهم إلىٰ البلاط الذي يسمى باللغة المصرية باسم كسكره Cascare [١] وساروا خلال دهاليز ضيقة كانت بلا إنارة على الإطلاق، وسار أمامهم حشد ضخم وصاخب من المرافقين المسلحين بالسيوف، ووجدوا عند كل مدخل جماعة من الزنوج المسلحين الذين أظهروا تبجيلهم للسلطان بتحيات متكررة رددوها بحماسة.

وتوجهوا بعد تجاوزهم الحرس الأول والثاني إلىٰ باحة ضخمة وواسعة مفتوحة نحو السماء وبذلك سمحت بدخول أشعة الشمس بحرية، وكانت هنالك ردهات مدعومة بأعمدة رخامية مغطاة بتصاميم بارزة وذات سقوف مزخرفة ومطلية بالذهب، وأرضيات مرصوفة بأحجار ملونة متنوعة، وسادت الأبهة الملكية في كل بقعة من ذلك بأسره، وكانت المادة والصنعة أنيقتين إلىٰ درجة أن عيون جميع الذين رأوها فتنت بشكل لا إرادي بالجمال النادر، ولم تسأم من رؤيتها أبداً، وكان هنالك أحواض للسمك مبنية من الرخام ومملوءة بمياه صافية، كما كان هنالك طيور من أنواع كثيرة غير معروفة بالنسبة لمنطقتنا من العالم، وكانت هذه الطيور أكبر من الطيور التي نعرفها، فقد كانت أشكالها غريبة وألوانها فريدة وتغريدها مختلفاً، وكان يختلف طعام كل طير تبعاً لصنفه وكان موائماً لنوعه.

وقادهم مقدم الخصيان [الطواشي] من هذا الفناء إلىٰ موقع أبعد حيث رأوا أبنية فاقت في أناقتها تلك التي تمت مشاهدتها للتو، تماماً مثلما بدت الأبنية الأخيرة أكثر روعة من الأبنية المألوفة والعادية، ووجدت هنا كمية من الحيوانات بقدر ما تحب اليد اللعوب للرسام أو مخيلة الشاعر أن تصور، أو كما يرىٰ الذهن في أحلام الليل مخلوقات كهذه غالباً ما توجد في بلدان الشرق والجنوب، إلا أنها لم تشاهد في الغرب، ونادراً ما سمع عنها هناك، ويقيناً،

---

(١) هذا المصطلح كلمة عربية مستعارة من الإسم اللاتيني للحصن، Castrum، وقد كسبت منزلة جديدة في أن أصبحت متطابقة مع كلمة «قصر».

أستمد من هـذه الأمـاكـن صـاحبنـا سـولنـوس الوصـف في كتـابـه « البـولي هستـور » Poly histor [1].

١٩ ـ ابرام المعاهدة والتصديق عليها بإعطاء الخليفة يده اليمنى إلىٰ هيو صاحب قيسارية.

وبعد المرور خلال العديد من الدهاليز الملتوية والطرق المعوجة التي يمكن لعجائبها أن تؤخر حتى أكثر الرجال انشغالاً في تأملها وصلوا إلىٰ القصر نفسه ووجد هنا أيضاً مجموعات كبيرة من الجند المسلحين وحشود من التابعين والمرافقين أوحت أعدادها وأسهمت في التعبير عن العظمة الفريدة لسيدها، وقدم المظهر نفسه للموقع برهاناً قاطعاً على كثرة كنوز الملك وغناه المنقطع النظير.

ولدى الوصول أذن لهم بالدخول إلى القسم الداخلي من القصر، حيث أظهر السلطان التوقير العادي هنا لسيده حسب العادة، بالسجود له مرتين على الأرض، والوقوف بتواضع أمامه وأظهر نحوه تقديساً لائقاً بالإله ونوعاً من التوقير المذل، ثم انحنىٰ للمرة الثالثة نحو الأرض ووضع سيفه الذي كان يتدلى من رقبته، وسحبت بعد ذلك الستائر المطرزة باللآلىء والذهب بسرعة رائعة فقد كانت متدلية تخفي العرش، وبدا الخليفة بوجه مكشوف ـ وقدم مظهراً فخماً وهو جالس علىٰ عرش من الذهب ومحاط ببعض مستشاريه وخصيانه [٢].

تقدم السلطان منه بكل التوقير، وطبع بتواضع قبلة علىٰ قدم الملك الجالس، ثم قدم سبب زيارة المبعوث وشروط المعاهدة والحاجات الملحة للمملكة، وشرح أن قوة معادية ضخمة كانت تجثم في المركز نفسه للامبراطورية، وأوجز بكلمات قليلة ما طلبه باسم الخليفة، وما سيقدمه الملك بالمقابل، فأجاب الخليفة على هذا بسيماء طليقة وصافية وبدماثة بالغة بأنه مستعد لتنفيذ جميع شروط الاتفاقية التي أعدت والتي قبلها الطرفان، وأن ينفذها تنفيذاً سخياً للغاية بسبب احترامه الخاص للملك.

ثم طلب المسيحيون أن يؤكد هذا التصريح بيده كما كان الملك قد فعل ذلك، فصدم

---

(١) لا يقدم سولينوس وصفاً خاصاً لطيور كثيرة في بحثه عن مصرمع أنه أتى على ذكر الحيوانات، وتشير رواية وليم إلى اطلاع عام على الكتاب كله.

(٢) كان هذا هو الخليفة العاضد الذي حكم من عام ١١٦٠ إلى عام ١١٧١، وكان ابن عم ـ وليس ابناً ـ للخليفة السابق الفائز، وكان في حوالي السادسة عشر أو السابعة عشرة من عمره في هذا الوقت، واستمد وليم هذا الوصف للقصر واحتفالاته مباشرة من هيو صاحب قيسارية، ويوحي الاختلاف في العادات الموصوف في هذا الفصل أن اللاتينيين في الشرق لم يكونوا قد فقدوا حتى الآن جميع طرقهم الغربية.

أعضاء الحاشية الملكية الذين كانوا يحيطون بالخليفة إزاء الاقتراح في بادىء الأمر، كما صدم مستشاروه ونبلاء حجرة الاستقبال في القصر الذين ارتكزت عليهم مسؤولية الخطط الملكية، واعتبروا هذا الاقتراح لا يمكن تصوره وفهمه مطلقاً، ومهما يكن من أمر لقد مد يده في آخر الأمر علىٰ مضض وهي مغطاة وذلك بعد دراسة طويلة مدها تلبية لإلحاح السلطان المستمر. ومما أثار ذعر المصريين، وأدهشتهم رؤيتهم شخصاً يتكلم بحرية كبيرة مع حاكمهم المطلق، حيث خاطبه هيو صاحب قيسارية بقوله: «سيدي الصدق ليس لديه ما يخفيه، وعندما يقيد الأمرٓاء أنفسهم مع بعضهم بعضاً بإخلاص حقيقي يجب أن يكون كل شيء صريحاً، وكل شيء أدرج بنية حسنة في أي اتفاق ينبغي تأييده أو رفضه بإخلاص واضح، وبناء عليه إذا لم تمد يدك عارية، فسنضطر إلىٰ الاعتقاد بأن هنالك بعض التحفظ من جانبك أو بعض النقص في الإخلاص».

ووضع الخليفة يده العارية في آخر الأمر في يد هيو، لكن في ظل معارضة شديدة، وكأنما سلبت من جلالته، إلا أنها اتسمت بابتسامة بسيطة أحزنت المصريين كثيراً، وكرر ـ تقريباً ـ مقطعاً إثر مقطع، الكلمات التي قالها هيو عندما أملىٰ عليه صيغة المعاهدة، وأقسم أنه سيحافظ علىٰ الشروط من ذلك الحين فصاعداً بإخلاص ودون خداع أو نية شريرة». وكان الخليفة، كما ذكر لنا هيو، رجلاً شاباً ذا طبيعة سمحة للغاية، وكانت لحيته الأولىٰ قد بدأت بالظهور، وكان طويلاً ذا بشرة داكنة اللون، وله مزاج جيد، وكان لديه عدد كبير من الزوجات.

أرسل الخليفة بعد انصراف الرسل الهدايا إليهم، كبرهان على سخائه الملكي، وتركت هذه الهدايا بكمها ونوعها انطباعاً جيداً لدىٰ السفراء الذين غادروا الحضرة الملكية بسرور كبير، وعادوا إلىٰ منطقتهم بابتهاج.

٢٠ ـ تبيان الأسباب التي دفعت إلىٰ دعوة أمير مصر باسم مولانا.

بعد أن وصفنا عظمة الخليفة حسب روايات الذين شهدوها بأم أعينهم، سنتابع الآن الحديث حول لقب منزلته السامية وأصله وتقدمه بقدر ما هو معروف إلينا. وهذه المعلومات مستمدة من دراسة كتب الأزمان القديمة، ومن الروايات الموثوقة أيضاً لأشخاص كثيرين، لأنه يستحيل أن أبلغ القارىء بخصوص هذه التفاصيل دون مساعدة التاريخ.

يعرف أمير مصر بالنسبة لشعبه باسمين، فهو يسمىٰ باسم خليفة، الذي يُفسر بأنه الخليفة أو الوارث لأنه يشغل موقع نبيهم الأسمىٰ، ويحتفظ بالخلافة بحق وراثي، ويدعى أيضاً

باسم مولانا [1] ، أي « سيدنا » ويبدو أن أصل هذا الاسم الثاني يرجع بتاريخه إلى أيام الفراعنة عندما اشترى يوسف الشهير سائر بلاد مصر ، وتم إجبار الناس على بيع ممتلكاتهم بسبب مجاعة رهيبة . وجعل يوسف هذه المناطق وجميع سكانها رعايا لفرعون من الحد الأقصى لمصر وحتى حدها الأدنى ، وقال للذين كانوا يحرثون الحقول : « ستعطون خمساً للملك ، وأسمح لكم أن تحتفظوا بالأجزاء الأربعة الباقية للزراعة بحيث تؤمنون متطلبات أسركم ومنازلكم وأطفالكم » . واشترى ممتلكاتهم في أول الأمر ، ثم اشترى أفرادهم ولهذا السبب ، فإن المصريين ملزمون بسيدهم برابطة أكثر صرامة من التزام سكان المناطق الأخرى حيث اشتراهم مع ممتلكاتهم بثمن ، ويفسر هذا أيضاً سبب ارتباطهم به على شكل عبودية من أحط الأنواع وأكثرها ذلاً .

وهكذا ، أصبح المصريون أقناناً بسبب العناية الشديدة لأفضل الحكام هذا ، ودعوا أميرهم دائماً بعد ذلك بذلك الاسم المبجل « مولانا » ، ونشأت هذه الحالة في أيام الفراعنة ، وسادت خلال أيام البطالمة واستمرت حتى حكم الرومان ، الذين حولوا المنطقة ، كما كانت عادتهم في عمليات استيلاء أخرى ، إلى منزلة إقليم ، ولا يزال هنالك أثر لتلك المنزلة القديمة باق في حقيقة أن أمير مصر متحرر من المسؤولية تماماً ولا يعرف شيئاً عن أعمال الشغب والفتن ، فهو يوقف نفسه تماماً على التمتع بالراحة والرفاهية ؛ بينما يدير الحاكم ـ كيوسف القديم ـ كافة شؤون المملكة ، ويستخدم قوة السيف ، وينفذ العدالة بدلاً من سيده ، ويسمى هذا الحاكم باسم سلطان وكان هذا هو المنصب الذي شغله شاور الذي تحدثنا عنه مراراً .

٢١ ـ حكاية السبب في تسميته خليفة ، ولماذا هو خصم لخليفة بغداد .

إن سبب لقب خليفة هو على النحو التالي : كان محمد ، رسولهم أو بالحري مدمرهم الذي كان أول من جر شعوب الشرق إلى هذا النوع من الضلال ، قد عين أبا بكر ، أحد أتباعه ، كخليفة مباشر له . وخلف أبا بكر في المملكة عمر بن الخطاب الذي خلفه عثمان أيضاً والذي خلفه علي بن أبي طالب . وسمي جميع هؤلاء « الأنبياء » باسم خلفاء ، كما سمي جميع من تبعهم بهذا الاسم لأنهم خلفوا معلمهم المشهور ، وكانوا ورثة له . إلا أن الخليفة الرابع ، وهو علي كان أكثر ولعاً بالحرب من أسلافه ، وكانت لديه خبرة أكبر بكثير من

---

(١) جاء هذا اللقب على نقش اكتشف تحت غطاء من الجص في المسجد الأقصى في القدس ، وينطبق هناك على المستنصر الخليفة الذي حكم من عام ١٠٣٥ وحتى عام ١٠٩٤ . وربما قرأ وليم هذا النقش (انظر س.أ.س. حسيني « نقش الخليفة المستنصر بالله ٤٥٨ هـ [١٠٦٥ م] دورية دائرة آثار فلسطين : ٩ [١٩٤٢] ـ ٧٧ ـ ٨٠) .

معاصريه في الأمور العسكرية، وعلاوة على ذلك، فقد كان نفسه ابن عم محمد [1]. واعتبر من غير اللائق بأن يدعى باسم الخليفة لابن عمه، وأن لا يكون هو «نبياً» عظيماً، وأعظم كثيراً بالفعل من محمد، ولم تسره حقيقة أنه كان أعظم من محمد بتقديره الخاص وبتقدير آخرين كثر، بل رغب بأن يتم الاعتراف بهذه الحقيقة عموماً، وهكذا، فقد شتم محمداً ونشر بين الناس قصة كان مفادها أن الملاك جبريل، منزل الوحي، كان قد أرسل بالفعل إليه من السماء، إلا أنه أخطأ فأضفى الشرف العظيم على محمد. وقال إن الرب كان قد عاتب الملاك بشكل قاس بسبب هذا الخطأ، ومع أن هذه الإدعاءات بدت مزيفة بالنسبة لكثير من الناس الذين تختلف تقاليدهم كثيراً فقد صدقها آخرون، ونشأ بالتالي انقسام بين أولئك الناس استمر حتى الوقت الحالي، ويؤكد بعضهم أن محمداً هو الأعظم والأعظم بالفعل من جميع الأنبياء، ويسمى هؤلاء بلغتهم باسم «أهل السنة»، ويصرح آخرون أن علياً وحده هو «نبي» الله ويسمون باسم «الشيعة»(*).

هذا وقد قتل علي المذكور آنفاً، وفازت الفئة المنافسة بالسيادة. وعلى هذا خضعت مملكة الشرق لحكم خلفاء محمد، واحتفظوا بالسلطة وقمعوا كل من آمن بالرأي المخالف، وبرز في العام ٢٨٦ وبعد حكم المضلل الآنف الذكر[2]، رجل نبيل يدعى عبد الله بن محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي الأكبر الذي كنا نتحدث عنه، وقد خرج من مدينة السلمية في الشرق وانتقل إلى افريقيا، وبعد أن استولى على جميع أراضي تلك المنطقة، سمى نفسه باسم المهدي [3] الذي يعني «المسوي بين الناس» أي الإنسان الذي حوّل جميع الأشياء إلى سلام، ومهد الطريق وجعلها خالية من العوائق للناس. وبنى مدينة المهدية العظيمة حيث سميت بهذا الشكل اشتقاقاً من اسمه، وعقد العزم على أن تصبح هذه المدينة عاصمة للأقاليم الخاضعة له، عاصمة تفوق جميع المدن، وبنى أسطولاً واستولى على صقلية ودمر أجزاء من ايطاليا. وكان أول شخص من أسرته بعد سلفه علي يجتريء على تسمية نفسه باسم خليفة، ولم يعتبر نفسه خليفة لمحمد الذي كان يمقته، بل خليفة لعلي، ذلك «النبي»

---

(١) كان علي ابن عم النبي وزوج ابنته.

(*) القيمة الوحيدة لهذه المعلومات أنها ابنة عصرها تشير إلى عقلية وليم وإلى مستوى معارفه وأهل عصره بالإسلام.

(٢) تمتد سنة ٢٨٦ هـ. من ١٦ كانون ثاني ٨٩٩ إلى ٦ كانون ثاني ٩٠٠ م، وهناك خلافات شديدة بين الكتاب العرب حول صحة سلاسل نسب أبناء علي. (انظر فيليب حتي ـ تاريخ العرب ص٦١٨).

(٣) يعتقد حتي أن وليم قد أخطأ في فهم معنى كلمة «المهدي» حين قرأها «المهدي» اشتقاقاً من كلمة هدية التي عنت الجزية. وفي هذا دليل على معرفة وليم بالعربية.

الأكثر شهرة وعظمة، والذي كان ينحدر من سلالته كما قلنا ذلك. وبالفعل، فقد اجترأ على إيجاد مجموعة شعائر أخرى، وشكلاً آخر للصلاة.

وقام واحد من أحفاده يدعى أبو تميم ولقبه بالمعز، بالاستيلاء على مصر بوساطة جوهر القائد العام لجيشه حيث شيد الأخير القاهرة أيضاً، التي يعني اسمها «الظافرة»[1] لأنها بنيت لتكون مقراً لسيده العظيم والأسمى، قاهر كل شيء.

ترك هذا الخليفة القيروان الواقعة في بلاد إفريقية، حيث كان قد عاش أربعة من أسلافه وذهب إلى مصر، وجعل المدينة المذكورة منذ لحظات المقر لمملكته، ولم يتوقف منذ ذلك الحين وحتى الآن وجود منافس يحكم في مصر، لخليفة الشرق، الذي كان الخليفة الأسمى لسنوات كثيرة جداً، وهو منافس يكافح دائماً ليكون على قدم المساواة معه، ويدعي أنه أسمى منه[2].

إذا ما رغب المرء بمعرفة المزيد عن هذه المسائل، فيمكنه أن يقرأ الكتاب الذي كتبناه بعناية مثلى من المصادر العربية تلبية لمطلب الملك عموري وأمره، حيث يعالج تاريخ أمراء الشرق وأعمالهم من عهد المضلل محمد، أي أنه يغطي فترة خمسمائة وسبعة وسبعين عاماً حتى الوقت الحالي الذي هو عام ١١٨٢ لتجسيد ربنا[3].

٢٢ ـ الملك يبني جسراً فوق النيل. شيركوه ينزل على الجزيرة ويهاجمه الملك.

عندما تجددت المعاهدة وتحولت إلى شروط مرضية للطرفين، كما تم سرد ذلك، استعد الجميع وبالإجماع للعمل المخطط، واستعدوا لمهاجمة العدو ولطرده من سائر أنحاء المملكة، وقدم اقتراب الليل في هذه الأثناء مسوغاً للراحة. ووجدوا الوضع في الصباح متغيراً إلى حد ما، فقد كان شيركوه قد وصل أثناء الليل وخيم على الضفة الأخرى من النهر نفسه

---

(١) هناك خلاف حول ترجمة هذه الكلمة [انظر ـ حتي ـ تاريخ العرب ص٦١٩ حاشية ٢].

(٢) ألغى صلاح الدين الخلافة الفاطمية في عام ١١٧١ فهذا ما سيرويه وليم فيما بعد، غير أن رواية وليم وإصراره أنه كان ما يزال هنالك خليفة في القاهرة، عندما كان يكتب، تشير أن هذا المقطع تمت كتابته قبل أن يكون وليم قد علم بالتغيير وربما قبل عام ١١٧٥، وأنه نقل هنا من كتابه أعمال حكام الشرق.

(٣) يعتبر هذا البيان الزمني ذا أهمية استثنائية، ومن الواضح أن مادة الفصلين السابقين استمدت من كتابه: «تاريخ حكام الشرق» وليس واضحاً فيما إذا كان نقلها كما كان في الأصل قد كتبها أو أوجز قسماً منها، كما أن التعبير المشير للقارىء إلى ذلك العمل الآخر، هو إشارة أنه كان قد اقتبس المادة السابقة مباشرة. هذا وامتد عام ٥٧٧ هـ. من ١٦ أيار عام ١١٨١ إلى ٦ أيار عام ١١٨٢، ولذلك فإن تطابقه مع العام المسيحي ١١٨٢ مقتصر على الأشهر الأربعة الأولى من ذلك العام. وعلى هذا، كان منشغلاً في مراجعة هذا الكتاب خلال تلك الأشهر.

مقابل جيشنا، وعندها أمر الملك بإحضار الزوارق وجذوع أشجار النخيل الموجودة هناك وبنى جسراً، وربطت الزوارق إلى بعضها، اثنين فاثنين، وثبتت بالمراسي، وحصن الجسر في آخر الأمر بأبراج خشبية وجهز بالآلات الحربية. واستمر العمل به عدة أيام حتى تم التوصل إلى منتصف النهر عندما حال الخوف من العدو دون مدّ العمل إلى الضفة المقابلة، وعلقت هنا جميع المواجهات الحقيقية لمدة شهر أو أطول بعد ذلك، حيث لم يتمكن المسيحيون من عبور النهر، ولم يجرؤ العدو من جانبه على المغامرة لمسافة بعيدة خشية من أن نهجم على مؤخرته. هذا هو الوضع الذي كان سائداً في أحواز القاهرة، وكان شيركوه قد أرسل في هذه الفترة فريقاً من الرجال للاستيلاء، إذا أمكن، على جزيرة مجاورة كانت مليئة بكل أنواع المؤن، لأنه كان يرغب بمنع المسيحيين من أن يغزوها في المستقبل. وأنجز هذا المشروع بنجاح.

وحالما علم الملك أن العدو قد استولى على الجزيرة، أرسل إلى هناك ميلون دي بلانسي والكامل وهو واحد من أبناء السلطان مع قوة من الفرسان، فوجدوا الأتراك قد استولوا على الجزيرة، ويعاملون السكان بطريقة مخزية للغاية، فهاجموهم على الفور وتلا ذلك معركة اشتبك فيها الطرفان بشكل عنيف جداً، وأخيراً انتصر المسيحيون بعون الرب، ودفعوا العدو مباشرة إلى النهر المجاور، فغرق فيه الذين نجوا من القتل في الأمواج الثائرة، لقد هلك خمسمائة جندي من جنود العدو في ذلك اليوم من جراء تعرضهم لحوادث متنوعة. وأربك الرعب شيركوه عندما بلغته قصة هذه المعركة وبدأ يفكر بريبة خطيرة بشأن النجاح النهائي لمشروعه.

كانت هذه هي حال الأمور عندما وصل بعض القياديين في المملكة إلى المعسكر وهم همفري أوف تيرون كافل المملكة، وفيليب صاحب نابلس، فهما لم يكونا قد خرجا مع الملك، بل كانا قد تخلفا لأسباب خاصة، إلا أنهما تبعا الجيش بالسرعة الممكنة وانضما إلى معسكرنا، فحيتهما الكتائب بابتهاج كبير لأنهما كانا رجلين شجاعين وجبارين في استخدام الأسلحة، وكانا مدربين من حداثة سنهما على فن الحرب.

عقد اجتماع على الفور لتحديد خطة بشأن الإجراء المتوجب تبنيه وتقرر في النهاية وبموافقة إجماعية أنه يجب تسيير الأسطول بأكمله في صمت الليل ودون معرفة العدو إلى جزيرة تقع على بعد نحو ثمانية أميال دون المعسكر، وتوجب نقل الجيش بأكمله في حوالي الهزيع الأول من الليل عبر النهر، ومن ثم الانقضاض خلسة خلال الليل على العدو بينما يكون بعيداً عن الحراسة، وإلحاق كل الأضرار الممكنة به، وصدرت الأوامر لتنفيذ هذه الخطة،

فنزل الأسطول على الفور إلى الموقع المتفق عليه ودون أن يكتشفه العدو وتبعه الجيش بصمت تام، وعبر بسرعة واستولى على الجزيرة.

وبينما هم يحاولون عبور القناة البعيدة من النهر وبالطريقة نفسها حسب الأوامر الصادرة إليهم هبت فجأة زوبعة شديدة ومنعتهم من تحقيق هدفهم، وأجبروا على إقامة معسكرهم على جزء من الجزيرة كان يواجه الشاطىء الآخر، وخلفت جزءاً من القوة لتنهي بناء الجسر ولتحميه بعد إنجازه، وكان يقودها هيو دي ابلين وهو فارس قوي وشجاع، وكان قد تزوج من مطلقة الملك عموري كما ذكرت من قبل.

٢٣ ـ وصف الجزيرة وأسماء وأعداد المصبات التي يدخل بوساطتها النيل إلى البحر. المسيحيون يطردون العدو ويستولون على الجزيرة. شيركوه يهرب إلى الصحراء.

يطلق السكان على الجزيرة موضوع حديثنا الآن اسم المحلة، وهي تتمتع بتربة معطاءة جداً، وتعج بجميع الأشياء الجيدة، وتنفصل مياه النيل عند هذا الموقع، ولا تنضم الفروع التي تتفرع هنا إلى النهر الرئيسي ثانية حتى تصل إلى البحر، وحتى عندئذ، فإن الأنهار لا تتحد، بل تمتزج مع البحر عن طريق أربعة مصبات منفصلة. ويجري الفرع الأول الذي يواجه سورية التابعة لنا إلى البحر بين مدينتين بحريتين قديمتين جداً هما تنيس والفرما. ويجري في طريقه على مسافة قريبة جداً من إحدى هاتين المدينتين حتى أنه يغسل مبانيها، غير أنه يقع على بعد نحو ثلاثة أو أربعة أميال من المدينة الأخرى، وينضم الفرع الثاني إلى البحر عند مدينة دمياط، وهي مدينة مهيبة وقديمة، بينما يقع الفرع الثالث عند الدلتا، ويجري الفرع الرابع إلى البحر عند رشيد التي تقع على بعد أربعة أو خمسة أميال من الإسكندرية، ولم نكتشف أية مصبات أخرى لهذا النهر، وذلك على الرغم من إجراء بحث وتقصّ دقيقين، ونعتبر هذا غريباً لأن القدماء يسمون نهر النيل باسم النهر الجاري بسبعة، لأنه كان يدخل البحر بسبعة مصبات[1]، إن التفسير الوحيد الذي يخطر لنا هو أن سطح المنطقة قد تغير خلال عصور متتالية، وأن النهر قد غير مجراه كما حدث في حال أنهار أخرى كثيرة جداً، هذا ومن المحتمل أن الناس الذين عاشوا في تلك الفترة المبكرة لم يفهموا حقيقة المسألة، أو ربما ازداد النهر زيادة أكبر من المعتاد، ففاض وشكل في زمن فيضانه السنوي مجاري أخرى بالإضافة إلى هذه المجاري الأربعة التي تخلى عنها البحر عندما انخفض الماء من جديد ضمن قاعه، وإذا كانت ما تزال موجودة، فإننا لم نعدها كفروع لأنها غير مملوءة دائماً، بل هي كالسيول تمتلىء في فصول محددة فقط[2].

---

(١) أوفيد: Meta, I, 422.

(٢) رفض وليم هنا كما فعل مراراً قبول روايات الكتب مهما كانت قديمة إذا ما تعارضت مع الحقائق المشاهدة.

وعلى الرغم من أنه تم الاستيلاء علىٰ الجزيرة، فقد بقي المجرىٰ الأدنىٰ خارج حدود سيطرتنا، ونهض العدو من النوم عندما سطع نور النهار، ووجد أن العدو كان قد رحل وأن الأسطول قد رحل أيضاً، فأمسك جنود العدو بأسلحتهم تحسباً لتعرضهم لهجوم مفاجىء على أيدي المسيحيين؛ وعندما تقدموا بسرعة، ونشروا صفوفهم علىٰ طول النهر رأوا أن قواتنا كانت قد استولت على الجزيرة، وكانت تدافع عن حقها بإدخال الأسطول في المجرىٰ الذي يجب عبوره، وهكذا، ضربوا مخيمهم في الموقع المقابل، وعلى بعد من الشاطىء إلى حد ما على الرغم من أنهم لم يحصلوا في هذا الموقع علىٰ طريق حر إلىٰ النهر، بل أجبروا على الذهاب إلىٰ مسافة أبعد باتجاه مجرىٰ النهر حتى لسقاية خيولهم.

كان المسيحيون قد صمموا علىٰ تجريب قدرهم في اليوم التالي إلىٰ الحد الأقصى، وعلى شق طريقهم بالسيف إذا لزم الأمر، غير أن الكفرة رحلوا أثناء الليل ودون علمهم، وعبر جيشنا النهر بسرعة عندما انبلج الصبح ورأى أن العدو كان قد غادر، وأسرع بمطاردة العدو. وتخلفت قوات المشاة لتتمكن قوات الفرسان من التقدم بسرعة أكبر، وانطلق الملك برفقة عدد قليل من الفرسان فقط، وأرسل هيو دي ابلين وكامل، ابن السلطان، مع قوة كبيرة من الفرسان المسيحيين والمصريين ليقوموا بحماية القاهرة والجسر الذي كان الجنود قد شيدوه حتى لا يتعرض لهجوم معادٍ مفاجىء، وأوكلت مسؤولية العناية بالأبراج وجميع تحصينات تلك المدينة المهيبة إلىٰ شعبنا، وأصبح قصر الخليفة معروفاً بالنسبة للمسيحيين الذين لم يكونوا قد عرفوه حتى ذلك الحين، لأن الحاكم ذاته، وجميع أفراد أسرته اعتمدوا علىٰ قوات الملك من أجل سلامتهم. ثم كشف النقاب للمسيحيين عن أقدس المقدسات ذلك الذي كان محجوباً عن العالم، وعن الأماكن الأكثر عمقاً والتي لم يكشف النقاب عن عجائبها إلاّ لقلة قليلة فيما مضىٰ.

وأرسل الملك أيضاً جيرارد دي بوغي وابناً آخر للسلطان يدعىٰ طي إلىٰ الضفة الأخرىٰ من النهر مع قوة مؤلفة من الشعبين، وأمرا أن يقمعا العدو إذاصدف وحاول عبور النهر. ثم انطلق الملك تاركاً معظم العوائق، كما قلنا ـ مطارداً للعدو بعكس تيار النهر لأن بنية المنطقة كانت تُمكن تتبع آثار العدو ولحاقه على الطرق التي سلكها دون صعوبة.

٢٤ ـ مصر ومعالمها المميزة.

تقع بلاد مصر كلها بين صحراوين رمليتين قدر لهما أن تكونا قاحلتين إلىٰ الأبد، وذلك بدءاً من حدودها النائية التي قيل إنها تتصل بأطراف السودان ولا تعرف المنطقة نفسها المحاصيل المثمرة من أي نوع ولا تنتجها، إلا عندما تصبح خصبة في مواسم محددة

عندما يفيض النيل ويغمر الأراضي بمياهه، وذلك فقط عندما تسمح طبيعة المنطقة المتاخمة بأن يجعل النهر التربة موائمة لإنتاج المحاصيل. فالنهر ينتشر بحرية فوق منطقة واسعة حيثما يجد سطحاً مستوياً ويجعل التربة خصبة. وكلما ازداد توزيع المياه ازداد نطاق المنطقة التي تصبح بالتالي صالحة للزراعة.

وللأنهار نطاق واسع فيما وراء القاهرة نحو البحر حيث المنطقة مستوية جداً. ولهذا السبب فإن هذه المنطقة معطاءة للغاية في كل مكان في المجال الواسع الذي يسقيه النيل، وهكذا، فإن النهر يضمن إنتاج محاصيل وفيرة جداً ويوسع حدود المملكة أيضاً، لأن النيل ينقل نعم الخصب والحراثة لمسافة مئة ميل ونيّف من القلعة التي تدعى الفاقوس التي تواجه سورية وحتى الإسكندرية التي تجاور الصحراء الليبية، وهي آخر مدينة مصرية، هذا وإن المنطقة الواقعة وراء القاهرة وحتى قوص ـ وهي مدينة مصرية واقعة في أقصى الجنوب، موقع يقال إنه يتاخم مملكة الإثيوبيين ـ محصورة بهضاب رملية متوالية، وفقط هنا وهناك يمتد النهر إلى عمق سبعة أو ثمانية أميال، وعموماً إلى أربعة أو خمسة أميال أحياناً على كلا الجانبين، وأحياناً على جانب واحد فقط حسب مدى الفيضان، ويقلّص أو يزيد بهذه الطريقة المدى الجانبي للمملكة لأن المناطق التي يرويها النهر مقدر عليها كما قلنا عقم دائم بسبب الحرارة الشديدة لأشعة الشمس، واسم هذه المنطقة العليا الصعيد بلسان المصريين، ولم نتمكن حتى الآن من أن نعثر على أصل هذا الاسم، إلا أن الأسطورة تقول إنه كانت في الأزمان الأولى مدينة قديمة في هذا الجزء العلوي من مصر يدعى السويس ويذكر صاحبنا أفلاطون المدينة في كتابه Timaeus من خلال الحديث عن تلميذه كريتياس Critias الذي تحدث عن صولون وهو رجل كان صاحب نفوذ كبير، ويبدو من المستحسن، كدليل أفضل من هذا، أن نقدم أقواله ذاتها حتى لا نفتقر إلى أي توثيق. فهو يقول: «هناك جزء من مصر يدعى الدلتا تتفرع مياه النيل عند طرفه. وقامت فيما مضى مدينة عظيمة تسمى السويس بالقرب من هذا الموقع كانت تحكم حسب عادة قديمة تسمى قانون ساتيران Satyran [1]، وكان الامبراطور أماسيس Amasis من هذه المدينة بالأصل» إلخ...

لا يزال جزء آخر من هذه المنطقة ينتمي إلى مصر، فهو يقع على بعد مسافة مسيرة يوم واحد من القاهرة عبر منطقة غير مسكونة، وتتمتع هذه المنطقة بتربة خصبة بفضل الفوائد التي كانت تتلقاها من النهر بوساطة بعض فروعه، وتتمتع بحقول وكروم خصبة، ويدعو المصريون هذا الجزء من البلاد باسم الفيوم [الفيله].

---

(١) هذا النص مقتبس من الترجمة اللاتينية لكتاب Timaeus تأليف كالسيدوس وفيه أخطاء في ترجمة اسم القانون.

تقول روايات الأزمان الأولى إن هذه المنطقة كانت قاحلة من قبل، ولم تتم حراثتها من قبل أبداً بل تركت دون حراثة وعناية من بداية الحياة تماماً مثل الأجزاء الأخرى من هذه الصحراء نفسها، إلا أن يوسف، ذلك الحاكم العاقل لمصر، الذي كان على أهبة الإستعداد دائماً ليدرك أي شيء يمكن تحويله إلى فائدة، استقصى عن موقع المنطقة، ولاحظ أن هذه الأراضي كانت أكثر انخفاضاً من المنطقة المحيطة بها، وأدرك أنه لو أزيلت بعض الروابي المنخفضة التي كانت واقعة بين المنطقة المأهولة بالسكان وبين هذا الجزء من الصحراء فبإمكان هذا الموقع أن يتلقى فائدة المياه بسهولة، فبنى سدوداً، وسوى الأرض بينهما وأدخل فائض النيل، وسير الماء خلال قنوات كانت قد جهزت وأنتجت خصباً لم يكن معروفاً هناك حتى وقته.

ومع أننا لا نعرف الإسم القديم لهذه المنطقة، فإننا نعتقد أنها كانت تدعى باسم طيبة العصور الأولى، ويقال إنه نشأت من هنا أسطورة الطيبيين المقدسين، الذين توجوا بالإستشهاد في أغانوم في ظل حكم دقلشيان والامبراطور مكسيمنوس والذين نقرأ أن شهيدهم الأول كان مارتوس وهنالك برهان آخر أيضاً، فإن أفضل أنواع الأفيون ينمو هناك ويدعوه الأطباء باسم «الطيبي»[1].

والآن، إن بلاد غوشن Goshen التي يقال إن يوسف أعطاها لإخوته تقع في الجزء المصري الذي يواجه سورية حسب الوصف المقدم في سفر التكوين، وهذا ما يمكن للقارىء المجتهد أن يكتشف بسهولة لنفسه، وعلى العكس، إن هذه المنطقة التي تواجه ليبيا الدنيا، واقعة على الطرف الآخر من مصر وهي على الضفة الثانية من النهر، وتتمتع بمساحة كبيرة، ويقال إنها تضم بالفعل داخل حدودها ثلاثمائة وستة وستين مدينة وقرية.

وهكذا، كانت المملكة ضيقة جداً بسبب طبيعة المنطقة، كما قلنا، حيث كان يستحيل الإلتفات إلى اليمين أو اليسار، وجلب الكشافة إلى الملك والسلطان معلومات متواصلة عن تقدم العدو. واستمرت المطاردة لمدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع، الذي كان يوم السبت قبل يوم الرب عندما ينشد في الكنيسة أنشودة «ابتهجي يا قدس»[2]. وصلت الأخبار أن العدو كان في الجوار.

---

(١) استخدام الأفيون من قبل الأطباء في القرن الثاني عشر خبر هام للتاريخ الطبي.

(٢) أنشد هذا في الأحد الرابع للصوم منذ ١٨ آذار ١١٦٧.

٢٥ - نشوب معركة حملت مخاطر شديدة على الجانبين بين الملك وشيركوه في الصحراء.

عقد على الفور اجتماع قصير بالضرورة لأنه اتضح أنه كانت هنالك حاجة لرأي حكيم وروح شجاعة ولم يسمح الطارىء الملح. بالتأخر طويلاً. وتقرر بموافقة إجماعية خوض المعركة ولاقى قرار وجوب حل المسألة بالسيف ترحيباً بالتصفيق، إلا أن عدد المحاربين المدرعين في الجيشين لم يكن متكافئاً على الإطلاق، فقد كان مع شيركوه إثنا عشر ألف تركي، كان تسعة الآف منهم يرتدون الدروع والخوذ، ولم يستعمل ثلاثة الآلاف الآخرين سوى القسي والسهام، وكان معه إضافة إلى ذلك عشرة أو أحد عشر ألف عربي حاربوا بالرماح فقط حسب عادتهم، وبالمقابل لم يكن لدى المسيحيين سوى /٣٧٤/ فارساً تقريباً بالإضافة إلى المصريين المخنثين والعديمي الجدوى. والذين كانوا عائقاً وعبئاً أكثر من كونهم مصدر مساعدة لنا، وكان لديهم [الفرنجة] أيضاً بعض الفرسان المسلحين تسليحاً خفيفاً من الذين يدعون التوركبلي(★)، لكنني لا أعرف عددهم، إلا أن الكثيرين أبلغوني أن هذه القوات كانت عديمة الفائدة على الأغلب في الصراع الضخم الذي وقع في ذلك اليوم.

حالما علم الحشدان المتعاديان باقترابها من بعضهما بعضاً، نظما صفوفهما بتشكيل المعركة، حسبما تطلب الحال، ورتبوا كتائبهما، وعرضوا أسلحتهما، وخصّ المحاربون القدماء بحكمتهم التي حصلوا عليها من الخبرة في صراعات سابقة، الباقين وأرشدوا العساكر وأثاروا شجاعتهم بوعدهم بالنصر والمجد الأبدي الذي هو ثمرة النجاح.

كان الميدان الذين قدر أن تجري فيه المعركة على منطقة الحدود بين المنطقة الخصبة والصحراء. وكانت الأرض وعرة هنا تتخللها هضاب من الرمل ومنخفضات لذلك استحالت رؤية القادمين أو الذاهبين من مسافة بعيدة، كان الموقع يدعى البابين - يعني الأبواب-لأن الممر بين الهضاب على كلا الجانبين ضيق جداً في هذا الموقع، ويقع على عشرة أميال من المنية، ولهذا السبب، تعرف هذه المعركة أحياناً بأنها معركة المنية.

كان العدو قد استولى بحكمة فعالة على الهضاب الواقعة على اليمين واليسار، وكان قد شكل قواته بترتيب المعركة، كما أن الأرض الصاعدة، والطبيعة اللينة للرمل جعل من الصعب بالنسبة لرجالنا أن يقتربوا بالدفاع إلى هذا الموقع، وكانت الكتيبة التي يقودها شيركوه قد احتلت القلب، وانتظم الباقون على كلا الجانبين، ووصل الصراع بسرعة إلى

(★) رواية وليم حول الأعداد تعارضها المصادر العربية مع حقيقة انسحاب شيركوه أمام مطارديه، والتوركبلي كانوا خيالة مرتزقة يخدمون من قبل الصليبين من السكان المحلين وبعض الإغريق والأرمن وسواهم.

مرحلة أصبح القتال فيها ضرورياً من مواقع متلاحمة، وتقدمت فرقة الملك بشجاعة وبتصميم واحد، وأربكت كتائب شيركوه وشتتوها، فهرب شيركوه نفسه والعدو يلاحقه بمطاردة محكمة.

وهاجم هيو صاحب قيسارية الفرقة التي كان يقودها صلاح الدين ابن أخي شيركوه، إلا أن رجاله تخلوا عنه، ولذلك مني بالهزيمة وتم أسره مع عدد كبير من جنده، وجرى قتل أعداد أكبر أيضاً وقتل في هذه المعركة يوستاس وهو حاكم نبيل وشجاع من منطقة بونتيو.

اتحدت الفرق التركية الأخرى بعدما ابتهجت بهذا النجاح، وطوقت بالكامل القوات المسيحية التي كانت قد عينت لحماية الأمتعة والمعدات، فهزموها وشتتوا شملها على الفور بهجوم ضروس، ويقال إن هيو أوف كريونا سقط في هذه المعركة، وكان نبيلاً صقلي المولد، وكان رجلاً شاباً صاحب حياة مستقيمة وشريفة.

وتمزقت صفوف المسيحيين الآن، وقتل العديد من شعبنا، ولاذ بالفرار الذين كانوا قد نجوا من الموت، فاستولى العدو على الأمتعة والمعدات دون نزاع وقام بنقلها بعيداً.

وحاربت القوات المتفرقة هنا وهناك بين الأوديه الصغيرة بحظ متنوع، وكان المحاربون أنفسهم هم الشهود فقط، حيث لم يتمكن شخص آخر من مشاهدتها، ولم تكن المعركة حاسمة، فقد تغلب الأتراك أحياناً وتغلب المسيحيون على الأتراك تارة أخرى، وكلهم جاهلون على حد سواء بما كان يجري في الموقع الآخر، وأصيب أخونا المبجل رالف اسقف بيت لحم، الحاجب الملكي الذي خلفناه فيما بعد في ذلك المنصب، بجراح خطيرة في غمرة الفوضى وفقد جميع أمتعته[١]، ولم تحسم نتيجة المعركة لفترة طويلة من الزمن، كما أن القرار الحقيقي للنصر قد أرجىء حتى أنذر مغيب الشمس الجنود المتفرقين بالعودة إلى ألويتهم، ثم بدأ في آخر الأمر الذين كانوا ما يزالون طليقين بالإسراع بالعودة إلى صفوفهم بسبب الخوف من الليل القادم وهم يبحثون عن الملك بتلهف، واحتشدوا من جميع الجهات ووحدوا الصفوف من جديد.

كان الملك قد خرج منتصراً في الموقع الذي كان قد حارب فيه، وكان آخرون موجودين في هذا المكان أو الآخر قد جربوا حظ الحرب بنتائج مختلفة حيث كانوا ينعمون بالنجاح هنا، وبمصير معاكس هناك بحيث لم يتمكن أي من الطرفين الادعاء بانتظار حاسم، وانسحب الملك في النهاية مع عدد قليل من أتباعه إلى إحدى الهضاب المرتفعة بعض الشيء فوق السهل، وقرر التمركز هناك، وانتظر رفاقه رافعً لواءه لاستدعاء قواته المتفرقة ورأى

(١) لا بد أن هذا المقطع قد كتب بعد وفاة عموري وبعد زمن من تعيين وليم كمستشار، في أواخر عام ١١٧٤.

المسيحيون، عندما كانت هذه القوات قد احتشدت بشكل جزئي، أن الفرقة التركية التي كانت قد أبادت قطار أمتعتهم، بقتلها لبعضهم وأسرها لآخرين، كانت في حالة فوضى على الهضبتين المقابلتين لهم، ولم يكن هناك أي طريق ممكن لينسحب فيه جيشنا باستثناء ذلك الطريق الذي كان يمر بين الهضبتين اللتين كان العدو يحتلها، هذا وصمم المسيحيون على الإنسحاب فعبأوا صفوفهم بشكل متراص، وبدأوا يتقدمون ببطء بين العدو، الذي شاهدوه على اليمين والشمال، وتقدموا على هذه الصورة بثبات حيث لم يجرؤ الكفرة على محاولة القيام بأي عمل عدائي ضدهم، وشق رجالنا طريقهم متراصين إلى مكان محدد من النهر حيث عبروه بسلام بواسطة إحدى المخاضات بعدما وضعوا الرجال الأقوى والأفضل تسليحاً حول الصفوف، واستمروا بالتراجع بهذا الشكل نفسه طوال الليل بأسره وعلى طول الطريق ذاته الذي كانوا قد تقدموا عبره من قبل.

والتقى جيشنا في المنية مع جيرارد دي بوغي الذي كان يسيطر مع خمسين فارساً ومئة من التوركبلي وبمساعدة طي أحد أبناء السلطان على الضفة الأخرى من النهر لقمع العدو إذا ما حاول عبوره، وكان وصول جيرارد موائماً للغاية لأن الملك كان قلقاً جداً خشية أن يهاجمه العدو وحده على أحد جوانب النهر، هذا وكان ما يزال قلقاً حول كتائب المشاة التي كانت ستلحق به بقيادة فارس شجاع وحكيم يدعى جوسلين صاحب سميساط، وكان هنالك خطر كبير بالفعل من أنهم قد يصطدموا بالعدو فجأة وهم غافلون عن الحراسة.

انتظر الملك وصولهم مدة ثلاثة أيام في المنية، ومع اليوم الرابع أخذت قوات الرجالة بالتجمع بالتدريج وانضمت إلى قواته من جديد، وإثر هذا تابعت القوات زحفها دون توقف نحو القاهرة وعسكرت إلى جانب الجسر أمام بابليون، وأحصى الملك فرسانه هناك، ووجد أنه فقد مائة فارس، ويقال إن العدو فقد خمس عشرة مائة جندي في تلك المعركة.

٢٦ ـ شيركوه ينسحب إلى الإسكندرية؛ والملك يمضي مسرعاً إلى هناك ويحاصر المدينة.

جمع شيركوه الآن جميع قواته المتبقية وأعاد تنظيمها في قوة واحدة. ثم زحف خلسة ودون معرفة المسيحيين عبر الصحراء إلى الإسكندرية حيث سلم السكان المدينة إليه فوراً.

نقلت معلومات هذه الواقعة إلى الملك حالاً، فاستدعى على الفور مستشاريه الرئيسين بالإضافة إلى السلطان وأبنائه والنبلاء المصريين وتداول معهم بخصوص الإجراءات التي ينبغي اتخاذها، وتقرر بعد مناقشة طويلة ـ كما هي الحال في مسائل محط خلاف ـ وضع الأسطول في النهر كعائق لأنه لم يكن لدى الإسكندرية ضمن حدودها أية مصادر للحبوب أو المؤن

الغذائية الأخرى، وكانت تعتمد كلياً على ما تجلبه السفن من مصر العليا، وفي هذا الوضع كان الأسطول يستطيع أن يقطع جميع التجارات مع الناس في الخارج.

وبعد ما جرى تنفيذ هذا قاد الملك سائر جيشه إلى المنطقة المجاورة، وأقام معسكره بين تروجه ودمنهور في موقع يقع على بعد نحو ثمانية أميال من الإسكندرية، وأرسل الكشافة من هناك لزيارة جميع القرى الواقعة في المنطقة المجاورة وتدميرها حتى مع القرى البعيدة جداً في الصحراء، ورغب في أن يمنع وصول أية مساعدة مرسلة إلى المحاصرين، وأن يعترض أيضاً جميع المراسلين المغادرين المدينة لطلب المساعدة من الخارج، وكعائق إضافي، منع الأسطول كل مرور في النهر، ولم يسمح لأي واحد مهما كان معروفاً بالنزول دون الخضوع لاستجواب دقيق.

وانقضت فترة شهر واحد في ظل هذه الظروف، ولم تتلق المنطقة خلال ذلك الوقت أية مؤن من الخارج، وبدأ الناس يتذمرون لأن الخبز بدأ ينفد من خزائنهم، ولم تكن لديهم أية مواد غذائية، وعندما علم شيركوه بهذا الأمر بدا يخشى أن يدفع وجيشه لمكابدة المجاعة مع الباقين، وهكذا، ترك ابن أخيه صلاح الدين مع نحو ألف فارس مسؤولين عن المدينة، وانسحب هو ليلاً عبر الصحراء ومع أنه مرّ على مسافة قريبة جداً من قواتنا، فقد نجح في النجاة إلى القسم العلوي من مصر، إلى حيث كان قد أتى منذ زمن قصير.

بدأ الملك بالمطاردة حالما علم برحيل شيركوه وتقدم حتى بابليون، وكان جميع جيشه مستعداً للتقدم، وكان قد أمر بترتيب الأمتعة للقيام بمطاردة إضافية عندما اقترب منه فجأة ابن القرصللي، وهو نبيل مصري قوي، وأبلغه أن الإسكندرية كانت تعاني من مجاعة شديدة جداً، زد على هذا، لقد قال إنه له أقارب ذوي نفوذ كبير من المدينة نفسها لا بل وكانوا حكاماً للمدينة بالفعل، وأنّ بإمكانهم بكل سهولة توجيه الناس الذين يعيشون الآن تحت وطأة الجوع، إلى أي اتجاه يرغبون، وحتى إلى درجة تسليم المدينة ووضعها بين يدي الملك مع جميع الأتراك الذين تركوا هناك.

تأثر الملك بهذا النبأ، وسأل مستشاريه مباشرة عن السياسة التي يرونها هي الأمثل وأخيراً عادوا إلى الإسكندرية فتلك كانت رغبات الجميع وهذا ما وافق عليه السلطان نفسه، ووضعوا الجيشين حول المدينة كقوة محاصرة.

٢٧ ـ وصف موقع الإسكندرية.

تعتبر مدينة الإسكندرية إحدى المدن المصرية الواقعة في ذلك الجزء من البلاد الذي يمتد غرباً نحو ليبيا، فهي تقع على الحد الواقع بين الأرض المزروعة والصحراء القاحلة، وتقع

فيما وراء أسوار المدينة صحراء واسعة تتاخمها بإحكام من ناحية الغرب وهي لم تنعم أبداً ببركات الحراسة والعناية، وحسب التواريخ القديمة، أسس هذه المدينة الإسكندر المقدوني ابن فيليب حيث استمدت اسمها منه، ويصرح جوليوس سولنوس أنها بنيت في أيام الأولمبياد الثاني عشر بعد المائة في عهد القنصل لوكيوس بابيروس نجل فوريوس وفي عهد القنصل غايوس بيتليوس بن غايوس وخططها المهندس المعماري دينوكراتيس الذي يحتل المكان الثاني بعد مؤسسها في ذكريات الناس المقرة بالجميل[١].

تقع مدينة الإسكندرية بالقرب من مصب نهر النيل الذي يدعوه بعضهم باسم هيراكليوتيكـون ويسميه آخرون باسم مصب كانوبك. هذا وإن الموقع الذي يشتق منه اللسان البحري الأقرب لتلك المدينة اسمه قد فقد تسميته القديمة ويدعى الآن رشيد. وتقع المدينة على بعد خمسة أو ستة أميال من مجرى النهر، إلا أن بعض الماء ينقل إلى المدينة بواسطة قنوات عديدة خلال موسم الزيادة السنوية لماء النهر؛ ويُحفظ تدفق الماء هذا بعناية مثلى في أحواض ضخمة مصممة خصيصاً لهذا الغرض، من أجل استخدام الناس خلال العام بأكمله، ويحوّل مقدار من الماء بقدر ما هو ضروري خلال قنوات تحت الأرض من أجل سقاية البساتين الواقعة خارج المدينة.

تقع الإسكندرية في موقع موائم للغاية لمواصلة تجارة واسعة، وفيها مرسيان منفصلان عن بعضهما بمساحة ضيقة جداً من الأرض ويرتفع عند ذلك اللسان برج ذو ارتفاع رائع يسمى الفاروس. ويقال إن يوليوس قيصر قد بنى هذا من أجل الإستخدام والإفادة منه، وأنه كان قد قاد جماعة من المعمرين إلى هناك[٢].

تتلقى الإسكنـدريـة وفـرة مـن المؤن الغـذائيـة مـن كـل نـوع بـواسطـة نهر النيـل، وتتلقى بالفعل ثروة كبيرة من كـل نـوع تقـريبـاً، وإذا وجـد هنـالـك أي شيء تفتقـر إليـه المنطقة نفسها، فإنه يجلب بوساطة السفن من البلدان عبر البحر بوفرة وغزارة. ونتيجة لذلك تشتهر الإسكندرية بتلقي كميات كبيرة من السلع من كل نوع أكثر من أية مدينة بحرية أخرى. ومهما ينقص منطقتنا من العالم بخصوص التوابل واللآليء والكنوز الشرقية والسلع الأجنبية، فإنه يجلب إلى هنا من الهندين وسبأ وشبه جزيرة العرب والسودان والحبشة وكذلك من بلاد فارس ومن مناطق أخرى مجاورة، وتُنقل جميع هذه السلع إلى مصر العليا عن طريق البحر الأحمر الذي شكل الطريق من تلك الشعوب إلينا، ويتم تفريغها عند مدينة

---

(١) سولينوس Polyhistor : ٣٢/٤١.

(٢) سولينوس: ٣٢/٤٣.

عيذاب[1] الواقعة على شاطىء ذلك البحر نفسه، وتنقل عبر النيل من هناك إلى الإسكندرية. وهكذا، يندفع الناس من الشرق ومن الغرب إلى هناك بأعداد ضخمة، وهكذا تعتبر الإسكندرية سوقاً عامة لهذين العالمين، وهي مشهورة بألقابها القديمة والحديثة، إلا أنها تستمد منزلة خاصة بسبب وعظ وحديث القديس مرقص الابن الروحي لأمير الحواريين الذي أرسلته الإرادة السماوية إلى تلك الكنيسة، وعلاوة على ذلك، لقد باتت مشهورة أكثر بحقيقة أن الأبوين المقدسين سيرل وأثناسيوس اختاراها كمكان لسكناهما ودفنا فيها، وتحتل الإسكندرية المرتبة الثانية بين البطريركات الأربع وتتوجه إليها كمطرانية مصر وليبيا وبنتابولس وأقاليم أخرى كثيرة.

أرسل الأسطول بأكمله إلى هناك، وحوصرت جميع الأبواب وجميع وسائل الاقتراب، ولم يسمح لأحد بالدخول.

٢٨ ـ الملك يواصل الحصار، وينكل بالسكان بشكل مريع جداً.

وفي هذه الأثناء علم المسيحيون الذين كانوا قد بقوا في سورية أن الملك ألقى الحصار على مدينة الإسكندرية، وعرفوا أنه يمكنهم الوصول إلى تلك المدينة خلال بضعة أيام بالإبحار دون توقف، وهكذا، حملوا أسلحتهم وباشروا الرحلة بتلهف، وأبحروا بابتهاج وبمبادرتهم الخاصة بعدما حملوا السفن بجميع المؤن اللازمة، وذهب معهم فريدريك رئيس أساقفة صور وسلفنا الذي استلمنا المنصب من بعده، فقد نزل إلى مصر بسفينة ترافقه حاشية متميزة، ذلك أنه تأثر بحماسة الآخرين وبعاطفة جياشة نحو الملك أيضاً، إلا أنه بدأ يعاني على الفور من نوبة خطيرة من مرض الزحار نشأت بسبب شربه من ماء النيل، وازداد مرضه فاضطر للعودة إلى موطنه قبل أن تستسلم الإسكندرية للملك.

جمع الجيش المحاصر والمجتمع أمام المدينة الآن عدداً ضخماً من السواري، واستدعى الحرفيين والنجارين وأمرهم بتشييد برج شديد الإرتفاع يمكن من ضمنه معاينة المدينة بأسرها ووضعت أيضاً وفي أماكن استراتيجية حول الأسوار الآلات الحربية المسماة المجانيق التي تقذف حجارة ضخمة ذات وزن كبير، وقذفت من هذه الآلات وبشكل مستمر تقريباً حجارة ضخمة ذات وزن ضخم حيث حطمت الأسوار وروعت الناس بشكل يفوق الإحتمال إلى أبعد الحدود.

---

(١) بالقرب من موقع السويس الحديثة. فقد امتد طريق التجارة القديم إلى الغرب بشكل مباشر تقريباً لينفذ إلى النيل بالقرب من القاهرة، وكان هذا الطريق مهماً جداً إلى درجة أن قناة شقت في العصور القديمة ثم بإشراف المسلمين الأوائل من جديد من النيل إلى البحر الأحمر، وشقت قناة لماء عذب كهذه من القاهرة إلى السويس لآخر مرة في عام ١٨٦٩.

وكانت المدينة محاطة بحدائق مثمرة ذات مظهر بهيج للغاية، وكانت مليئة بأشجار الفاكهة والنباتات الطيبة كغابة مورقة، وكان منظر هذا المنجع الرائع يجذب المارين به إلى دخوله والإستراحة فيه، واجتاح جندنا هذه البساتين بأعداد ضخمة، وبقصد أساسي هو إيجاد مادة لبناء الآلات الحربية، لكن ما لبثوا أن تملكتهم رغبة وحيدة في إلحاق الأذى والتخريب فقطعوا الأشجار العطرية باذلين جهوداً تفوق بحماستها الجهود التي بذلت أثناء الزراعة أصلاً، وكانت هذه الأشجار مفيدة لأغراض كثيرة، كما لم يمض وقت طويل حتى أبيدت الحدائق عن بكرة أبيها ولم يبق أي أثر من الآثار على حالته السابقة، وكان هذا العمل العدواني قد دفع الناس إلى الشكوى بمرارة بالغة بعد[1] جرى إقرار معاهدة السلام، فقد شعروا أنهم تلقوا في هذا المجال أذى عظيماً وأضراراً بالغة.

واستمر جيشنا في تضييق الحصار، واستخدمت كل وسيلة لإلحاق الأذى، وكانت تستنبط باستمرار وسائل جديدة لإنهاك المحاصرين، ولم تسمح الهجمات المستمرة بأية استراحة للمدافعين المرهقين، كما أن السكان المعتادين على المتاجرة فقط، والذين لم يكونوا متدربين على فن القتال، ولم تكن لديهم خبرة في الصراع، وجدوا أنه من الصعب تحمل هذا النوع الغريب من العمل، وكان الأتراك الذين بقوا في المدينة قليلي العدد، وترددوا بالوثوق بالشجاعة المتقلبة وغير الموثوقة للسكان. ولهذا نادراً ما خرجوا إلى القتال ـ وإن خرجوا خرجوا على مضض ـ الموقف الذي لم يشجع الباقين كثيراً على خوض القتال، فهل هنالك سبب لقول المزيد؟ وأضني الناس بالقتال اليومي والقتل المستمر للأصدقاء وأعمال الحراسة المستمرة، والخوف من الليل، وفقدان الطعام في المقام الأول، الأمر الذي دفع الناس إلى اليأس. ولذلك، تملكهم الرعب حتى أنهم تخلوا الآن عن الرغبة الكلية بالحرية، وفضلوا أن يتخلوا عن المدينة وأن يستعبدهم أي فرد على أن يموتوا من جوع قاس في بيوتهم مع زوجاتهم وأطفالهم، وبدأت الشكوى تنتشر بين الناس، وقيل علانية وعلى الفور إن الغرباء المزعجين الذي كانوا قد جلبوا هذا الأسى عليهم يجب طردهم من المدينة، ونادوا بضرورة البحث عن إتفاق من نوع ما يمكن بوساطته تبديد هذه المحن غير المؤائمة، ورفع الحصار وإعادة المدينة إلى حالتها السابقة من السمو والحرية.

وأحس صلاح الدين بحالة الشعور العامة هذه، فأرسل رسلا سريعين بسرعة قصوى إلى عمه مع بيان عن الأحوال: الوضع البائس للمدينة، والفقدان التام للمؤن الغذائية، ورغبة الناس بالتخلي عنها، وتوسل إليه بجدية بالغة وبكل حجة ممكنة ليتدبر إرسال نجدة فورية لإسعاف الناس البائسين من الوقوع في خطر وشيك جداً.

وناشد في غضون ذلك أعيان المدينة والناس أنفسهم، وحذرهم من أنه ينبغي عليهم أن يقاتلوا حتى الموت دفاعاً عن زوجاتهم وأبنائهم، وحثهم على مجاراة عادات أسلافهم وتقاليدهم وأن المعونة أمام الأبواب، لا بل إن عمه شيركوه قادم عبر مصر ليطرد العدو وليحرر الإسكندرية، وسيصل بسرعة بالغة مع عدد كبير من الجنود.

وطالب الملك، المدرك تماماً للنزاع القائم بين السكان، بتشديد الحصار دون توقف، وكانت تزداد هجماته ضراوة كلما ازدادت معرفته بوضعهم البائس، وكان السلطان أيضاً على أهبة الإستعداد باستمرار، وكان نشيطاً وفعالاً ومجتهداً ومليئاً بالقلق، وقام بالتجول بين جميع القادة. ووزع المال بيد سخية لبناء الآلات الحربية، كما وزع مبالغ طائلة لجميع مستلزمات الحرب، ودفع أجوراً للعمال وقدم هدايا للفقراء والمعوزين، وإلى الجرحى في المقام الأول بغية حصولهم على عناية مناسبة، وكان سخياً بالنسبة للمقاتلين أيضاً وخاصة بالنسبة للذين كان يعرف أنهم كانوا شجعاناً في المعركة.

٢٩ ـ شيركوه يتباحث مع هيو صاحب قيسارية حول السلام بعد أطلاعه على التقرير المرسل إليه.

في الوقت الذي كانت تقع فيه هذه الأحداث أمام مدينة الإسكندرية. كان شيركوه يزحف في بلاد مصر العليا ولدى وصوله إلى قوص بذل محاولة للإستيلاء على المدينة بهجوم صاعق، لكنه سرعان ما اكتشف أن جهوده كانت عقيمة، وأن هناك حاجة لوقت طويل لمشروع كهذا، وأن الوضع المتقلقل لابن اخيه كان يتطلب منه أن يتولى عملاً آخر، وهكذا، قبل مبلغاً من المال من هذه المدن وأسرع مع قواته إلى مصر السفلى.

ولدى وصول شيركوه إلى بابليون وجد أن الملك قد أرسل هيودي ابلين لحراسة القاهرة، ولإقامة جسر هناك؛ وبالإختصار، كانت الظروف القائمة مختلفة تماماً عما كان قد افترضه، ولذلك، استدعى هيو صاحب قيساريه، الذي كان يحتجزه كأسير، إلى مؤتمر ودي، وحيث كان مستعداً للتكلم فقد بدأ يخاطبه بشكل لبق ولطيف وبكلمات جيدة الإختيار على النحو التالي: «أنت أمير عظيم وصاحب منزلة سامية ونفوذ كبير بين شعبك، ولا يوجد أي من نبلائك أفضل منك لأنقل إليه ـ لو صح لي الإختيار ـ هذا السر الخاص بي، وأجعله مؤتمناً على أسراري، لقد قدم القدر لنا عن طواعية ومنحتنا فرصة الحرب ميزة كان ينبغي البحث عنها بجهد كبير، وأعني بذلك حصولي على ميزة الإفادة من خبرتك لهذه الحاجة الحالية، وأعترف بصراحة أن ثروة هذه المملكة جذبتني كوني متهلفاً لبلوغ المجد

كجميع المخلوقات البشرية، وفكرت ذات مرة بالإعتماد على الشخصية الضعيفة للسكان الأصليين بأمل أن هذه المملكة قد تسقط في يدي يوماً ما.

وبناء عليه انحدرت نحو مصر عبر مخاطر كثيرة وعلى حساب نفقة كبيرة ومشاق لا تحصى أراها الآن عقيمة، وانحدرت معي مجموعة كبيرة من الفرسان جذبتهم كلهم إلى هنا الرغبة ذاتها، إلا أن رغباتي لم تتحقق لأن القدر، كما أرى الآن، كان معارضاً لدخولي إلى المنطقة، وآمل أن يُسمح لي بالعودة في ظل بشائر خير مواتية على الأقل، وكما قلت، إنك رجل من منزلة سامية، وأنت عزيز على الملك ومؤثر بالقول والفعل، فتوسط لإحلال السلام بيننا، فقد تنجح المسألة على يديك: أخبر الملك أننا نضيع وقتنا هنا، وأن الأيام تمضي دون نتيجة، وتنتظرنا واجبات كثيرة في الوطن، وعلاوة على ذلك، إن وجود الملك نفسه ضروري للغاية بالنسبة لمملكته، فهو ينفق جهوده الآن لمصلحة الآخرين لأنه عندما يتولى صدنا، فلسوف يتخلى عن ثروات هذا الإقليم للسكان التعساء الذين لا يستحقون حتى أن يعيشوا فليأخذ شعبه الذين هم أسرى عندي الآن، وليرفع الحصار، وليعد الأسرى الذين يحتجزهم مع الذين يحاصرهم في مدينة الإسكندرية، هذا وإنني مستعد من جانبي للمغادرة فور استلامي منه ضمانة بأننا لن نواجه أية متاعب من جنده على الطريق.

٣٠ ـ هيو يرتب شروط المعاهدة مع الملك والنبلاء.

فكر هيو بذهنه في هذا الإقتراح بعناية لفترة طويلة بعد ما استمع لهذا الحديث سيما وأنه كان رجلاً صاحب إدراك سليم وحكمة، ولم يشك أن بنود السلام وفق شروط المعاهدة ستكون مفيدة للمسيحيين، إلا أنه تردد في تولي القيام بهذه المهمة بنفسه، حتى لا يبدو أنه مهتم بالحصول على حريته أكثر من اهتمامه بالمصلحة العامة ولذلك شعر أن شخصاً آخر يمكنه أن يقوم بالخطوات الأولى بشكل أكثر احتراماً. وفسر لنا إحساسه حول المسألة بصورة سرية في وقت لاحق.

وهكذا، أرسل حاملاً للرسالة أسيراً آخر هو أرنولف صاحب تل باشر وهو صديق حميم للملك كان قد أسر في المعركة ذاتها مثل هيو موضوع حديثنا الآن، فأسرع إلى الملك بعدما كُلف بهذه المهمة وشرح له هدف قدومه بالتفصيل، فعقد الملك اجتماعاً على الفور، وكان بين الحضور في اجتماع النبلاء ذلك كل من السلطان وولداه أيضاً. وقدم أرنولف الإقتراح وشرح طبيعة المعاهدة، ولاقى اقتراح السلام موافقة الجميع، وبدت الشروط المقترحة أنها تكفي لتحقيق المجد ولإنجاز المعاهدة بنية حسنة، تلك المعاهدة التي تم التوصل إليها بين الملك والخليفة. فقد توجب أن تنقل المدينة بالإستسلام إلى سلطة الملك، وأن يجرى

تبادل لجميع الأسرى في كلا الجانبين، وأن يغادر جميع الأتراك الذين كانوا قد احتجزوا بسبب الحصار، بالإضافة إلى جنود شيركوه المتفرقين حالياً فوق أرض مصر حدودها بالكامل.

وافق السلطان شاور مع جميع قادة مصر على المعاهدة، وقبلوا شروطها طوعاً. وأعلن السلطان بنفسه أنه راض تماماً لأن المعاهدة أقصت عدوه الأكثر ترويعاً، وخصمه المنافس له من أجل التفوق في المملكة.

ثم قدم هيو نفسه، ووضع اللمسات الأخيرة للمعاهدة، وأوصل المسألة إلى خاتمة مرضية بعد أن قام الجانبان بدراسة وافية للمعاهدة في جميع جوانبها.

٣١ - المدينة تستسلم للملك، واعلان السلام لأهالي الإسكندرية.

ثم أعلن المنادي لكل فرقة وللناس عموماً بأن القتال قد انتهى، كما صدر أمر رسمي يحظر القيام بأي تحرشات أخرى بأهالي الإسكندرية، وحالما تم التوصل إلى السلام، انطلق الناس المرهقون بوطأة الحصار الطويل وهم مبتهجون. واستخفوا بالشدائد التي كانوا قد كابدوها، واستمتعوا بالتجول دون عائق للتخلص من إرهاقهم، وتوفرت الآن مواد غذائية كثيرة وسمح باستئناف التجارة. وهكذا، فقد أوقف الناس، الذين تخلصوا من مجاعة مزمنة، أنفسهم على استرداد صحتهم ونشاطهم، واستمتعوا الآن بمراقبة الجنود الودودين الذين كانوا ينظرون إليهم قبل وقت قصير فقط باشمئزاز وكراهية، لقد وقفوا للتحدث مع هؤلاء الجنود أنفسهم وهم الذين كانوا يخافونهم منذ عهد قريب كممثلين للخطر والموت.

وكان المسيحيون من جانبهم متلهفين بقدر مماثل لدخول المدينة التي كانت محط رغباتهم منذ زمن طويل، فتجولوا بحرية في الشوارع وحدقوا بالمراسي والشرفات وجمعوا بملاحظة مجتهدة مادة يتمكنون منها لدى عودتهم إلى بلادهم أن يؤلفوا في أحوال كثيرة قصصاً لأصدقائهم، وينعشوا عقول المستمعين إليهم بحديث مستساغ.

يعلو فوق هذه المدينة الرائعة برج له ارتفاع رائع يسمى الفاروس[1]، حيث توجه السفن مجراها ليلاً نحو هذا البرج وكأنما تتوجه نحو أحد النجوم، يرشدها في ذلك الضوء

---

(١) يوحي تكرار هذه العبارة حول الفاروس (انظر فصل٢٧) بهذه السرعة أنه تمت كتابة هذين الفصلين في أوقات مختلفة، وربما كان ورودها الأبكر قد كتب على أساس بحثه الأول في شؤون الحملة المصرية لعام ١١٦٧، كما أن ورودها السابق هو جزء من المعلومات الأثرية التي كان ولم قد أضافها لصالح جمهور القراء الأكثر بعداً الذي كان يخاطبهم بعد عام ١١٨٠.

اللامع لمشاعله المضيئة الكثيرة، لأن الطريق إلى الإسكندرية خطرة جداً، كما أن البحر المظلم مليء بالمخاطر الغادرة المحجوبة. إلا أن الناس الذين تحذرهم الأضواء التي تبقى متوهجة دائماً فوق البرج ينجون من مخاطر التهديد والتعرض للتحطم ويتقدمون بسلام في طريقهم.

نشرت راية الملك فوق هذا البرج دليلاً على النصر، وإزاء رؤية الراية، فإن حقيقة الإستسلام التي لم يكن قد عرفها حتى الآن إلا العدد القليل من الناس، أصبحت ظاهرة للجميع وفي آخر الأمر، فإن العديد من الناس، الذين كانوا قد تنحوا بحذر أثناء المحادثات الأولى للمعاهدة، وكانوا يخافون من الوثوق بالمسيحيين، لم يترددوا الآن من الإنضمام إلينا بعدما تحقق السلام، وأن يعتمدوا على إخلاص نيتنا الحسنة، وظهر شيء واحد مدهش بشكل يفوق جميع الأشياء الأخرى وهو أن جيشاً صغيراً جداً استطاع أن يحتجز داخل الإسكندرية حشداً كبيراً جداً من السكان بالإضافة إلى العديد من الأجانب الذين تعاونوا جيعهم بإخلاص من أجل الدفاع عن المدينة، وأجبرهم على استسلام شائن، حيث لم يكن لدى المسيحيين سوى خمسمائة فارس تقريباً وأربعة أو خمسة الآف من الجنود المشاة، بينما كان لدى المحاصرين أكثر من خمسين ألف جندي قادرين على حمل السلاح.

٣٢ ـ الملك يعود إلى أراضيه منتصراً ومعه جميع قواته.

خـرج صلاح الدين الآن من المدينة وذهب إلى الملك. وبقي هناك في المعسكر المسيحي حتى يستعد للإنطلاق في عودته، وعومل بكل الإحترام، وزود بحارس ليحميه من إساءات قد يقوم بها أشخاص وقحون. ودخل السلطان أبواب الإسكندرية مبتهجاً بالنصر على رأس جنده محاطاً بصفوف مكتظة، ولاقى ترحيباً بدوي الأبواق وبصوت الطبول وبكل أنواع الآلات الموسيقية الأخرى، وتقدم برفقه مجموعات من الرجال المنشدين، وتقدمه خدم كثيرون وحشود من الرجال الهاتفين وبأيديهم الأسلحة فارتجف السكان رعباً، وقد أدان بعضهم، وأطلق سراح آخرين، ووزع مكافآت على كل من كان يستحقها مع أنه عاقب المذنبين بقسوة وحزم.

حكم السلطان في آخر الأمر على سكان الإسكندرية أن يدفعوا مبلغاً كبيراً من المال غير ثابت بشكل محدد، وخصص مكلفين لجمع الفـديـة، وعين مـوظفين ليتـولـوا القيـام بسمؤولية جمع الضرائب والعائدات من المدينة، وبعد أن انتزع السلطان مبلغاً كبيراً من المال، عهد بشؤون المدينة إلى عبيد مخلصين من مواليه، وتراجع مليئاً بالمجد إلى معسكره.

كان الجيش المسيحي يتلهف الآن للعودة إلى الوطن، وهكذا، أعد الذين قدموا

بالبحر الإستعدادات الضرورية للرحلة، وركبـوا متن السفينـة، وسلمـوا أنفسهـم للنسمات وعادوا بابتهاج إلى موطنهم، وأمر الملك بإحراق الآلات الحربية وبإعداد الأمتعة، ثم سلك الطريق إلى بابليون فانضم إلى قواته من جديد الرجال الذين قد أرسلهم من قبل، وهكذا، دخل الملك عسقلان في اليوم الثاني عشر قبل نهاية الأسبوع الثاني من شهر أيلول [٢١ - آب] من العام الرابع من حكمه وسنة ١١٦٧ لتجسيد ربنا. وذلك بعد أن عزز السلطان في حكم المملكة وطرد العدو، واسترجع رجاله الذين كانوا قد وقعوا في الأسر [١].

انتهى هنا الكتاب التاسع عشر

---

(١) بدأت السنة الخامسة للملك عموري في شباط ١١٦٧ م.

الكتاب العشرون

الصراع على مصر . حلف مع الإمبراطور مانويل

١ ـ عودة كل من هيرنسيوس رئيس أساقفة قيسارية ويودس دي سانت أماند الساقي الملكي من القسطنطينية جالبين معهما الزوجة المقبلة للملك. تتويج عموري في كنيسة صور وزواجه.

عاد في هذه الأثناء كل من هيرنسيوس رئيس أساقفة قيسارية ذي الذكرى العزيزة ووديوس دي سانت أماند، الذي كان يعمل آنذاك ساقياً ملكياً، من القسطنطينية عن طريق البحر ونزلا في مدينة صور، وكانا قد نفذا بحكمة وإخلاص المهمة التي كانا قد أرسلا في سبيلها إلى الإمبراطور مانويل، وتمكنا بالحكمة والإخلاص مع نهاية عامين من تحقيق النجاح لمهمتها حيث جلبا ابنة يوحنا بروتو سيباستوس كزوجة مستقبلية للملك[1].

أسرع الملك إلى مدينة صور فور معرفته بمقدمها، وتزوج هناك، بعد استدعاء قادة الكنيسة ونبلاء المملكة، من الأميرة ماريا التي كانت قد تلقت من قبل هبة المسح بالزيت والترسيم الملكي، واحتفل بالزواج بأبهة وبمراسيم لائقة في التاسع والعشرين من شهر آب في كنيسة صور بواسطة البطريرك أمالـرخ صاحب الذكرى الطيبة، وكان الملك مرتدياً الثياب الملكية بشكل رائع، ووضع على رأسه تاج أسلافه.

كان يوحنا بروتو سيباستوس هذا، الذي ذكرت أن الملك تزوج من ابنته، ابن الأخ لأكبر للإمبراطور، وأرسل الإمبراطور كمرافقة لابنة أخيه عدداً من النبلاء اللامعين والبارزين المقربين إليه بشكل حيم كان بينهم اللورد باليولوغز ومانويل سيباتوس وهو واحد

---

(١) لا بد وأن هذه السفارة قد أرسلت إلى القسطنطينية في عام ١١٦٥، وخبرها من أحداث ذلك العام التي أهمل وليم ذكرها في وقتها، ومن المفترض أنها غادرت في خريف عام ١١٦٥، لأن هيرنسيوس كان ما يزال موجوداً في فلسطين فقد ورد ذكره في وثيقة تعود لأواخر الصيف أو مطلع خريف ذلك العام. وكان بروتوسيباستوس Protosebastos واحداً من ألقاب الشرق التي أبدعها آل كومينين، وأطلق بالعادة على أقرباء الامبراطور، ولم يكن هناك ما يعادله تماماً في الغرب.

من أقربائه، وآخرين كثر[١] فقد توجب عليهم واجب مرافقة الملكة المستقبلية بأبهة كبيرة إلى السيد الملك، والتأكد من أنه لم يحذف أياً من الإحتفالات المهيبة المفروضة.

كان رئيس كنيسة صور، التي أقيمت فيها هذه الإحتفالات آنذاك هو اللورد فريدريك، وكان قد نقل من كنيسة عكا. ومنحني فريدريك هذا بسخاء بعد ثلاثة أيام من الإحتفال بتتويج الملك وزواجه في تلك المدينة، منصب رئيس شماسة الكنيسة في مدينة صور وهو المنصب الذي تخلى عنه وليم عندما استدعي إلى الكنيسة في صور، وفعل هذا تلبية لطلب الملك وبحضوره مع عدد آخر كبير من الرجال المبجلين[٢].

٢ - أندرونيكوس أحد أقرباء الإمبراطور، ينقل أرملة الملك بلدوين إلى أرض العدو.

وصل في هذه الآونة بينما كان الملك ما يزال موجوداً في مصر شخص يدعى أندرونيكوس وهو نبيل إغريقي صاحب نفوذ كبير وأحد أقرباء إمبراطور القسطنطينية قادماً من كليكية بمرافقة موكب كبير من الفرسان[٣]، وبقي معنا حتى عودة الملك، وكان مصدر عون كبير بالنسبة لنا، لكنه كان مثل الأفعى في الصدر أو كالفأرة في خزانة الثياب، فقد كافأ مضيفية بشكل دنيء، وبرهن على صحة ذلك القول الذي قاله مارو: «إنني أخشى من الإغريق حتى عندما يحملون الهبات»[٤].

ومنحه الملك مدينة بيروت فور عودته، ثم دعا الإغريقي ثيودورا أرملة الملك بلدوين التي كانت ابنة أخيه أيضاً، لتذهب معه لزيارة بيروت، وكانت ثيودورا تمتلك مدينة عكا التي سبق أن قدّمت لها كمهر في زمن زواجها، وكانت قد استضافت أندرونيكوس لزمن طويل في منزلها. وذلك في الوقت الذي كان يتعاون فيه مع نور الدين أثناء هذه الرحلة

---

(١) كانت ماريا ابنة يوحنا كومينين وقد ترأس مرافقتها جورج باليولوغوس ومانويل كومينين وهما من أعضاء الأسرة الامبراطورية (انظر شالدون- آل كومينين: ٢/٥٣٦).

(٢) من المهم أن نلاحظ ذكر وليم لنفوذ الملك في ترقيته لمنصب رئيس شماسة من الأول من أيلول عام ١١٦٧. وربما جاءت بسبب موافقة وليم على كتابه تاريخ حول أعمال الملك عموري.

(٣) كان الامبراطور قد صرفه كحاكم لكليكية لأنه لم يكن كفوءاً ولأنه عنف وتواقح في غزله مع فيليبا أخت زوجة الامبراطور مانويل في انطاكية، وقد وصلت عملياً إلى حد الزواج إلا أن الامبراطور ألغاها، ولذلك فقد كان حراً للإنغماس في مغامرات إضافية في القدس. وتنتظر سيرته المحفوفة جداً بالمخاطر كاتب سيرة ليدونها، وينظر إلى مختصر أخباره بشكل غريب (انظر س.ديهل. شخصيات بيزنطية- السلسلة الثانية، ص٨٦ - ١٣٤).

(٤) فرجيل: Aen, II, 49.

ويتآمر فقد خطف الملكة واحتال عليها ونقلها إلى بلاد العدو أولاً إلى دمشق ثم إلى بلاد فارس[١].

٣ ـ بناء كنيستين في البتراء والخليل وتعيين أسقفين فيهما. قدوم ستيفن. مستشار ملك صقلية والأسقف المنتخب للكنيسة في بالرمو إلى سورية. موت الكونت وليم أوف نفرز أثناء وجوده معنا.

لم يحدث شيء يستحق الذكر في المملكة خلال هذا العام باستثناء تأسيس كنيستين في أيام عيد الفصح، وتعيين أسقفين فيهما. وقد أقيمت أولاهما في البتراء الواقعة فيما وراء الأردن في منطقة موآب وهي عاصمة العربية الثانية، ولم يكن لهذه الكنيسة أي أسقف لاتيني منذ دخول المسيحيين إلى أرض الميعاد. ويقال إن الكنيسة الثانية وأقصد بها كنيسة الخليل لم تتلق ذلك الشرف من قبل حيث كانت في أيام البيزنطيين مجرد أبرشية، وهذه كانت أيضاً مرتبة الكنيسة في بيت لحم كما هو معروف تماماً، إلا أن كنيسة بيت لحم رقيت باستحقاق إلى ذلك المقام الرفيع أولاً بسبب التوقير الذي احتفظت به كمسقط لرأس ربنا. كما منحت حقوق وامتيازات كاتدرائية في أيام حكم الملك بلدوين الأول مباشرة بعد استرداد المدينة المقدسة حبيبة الرب[٢].

واكتسبت الخليل أيضاً، لأول مرة في هذا العام الذي نحن بصدده، ذلك المقام الذي كان لائقاً بها بسبب صلتها بعبيد الله، ذوي الذكرى المباركة إلى الأبد، وهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب. واختير غوريكوس أسقفاً للكنيسة في البتراء، وهو شماس نظامي في هيكل الرب، وعين مطراناً للعربية أيضاً، بينما تلقت الخليل كرئيس لها، رينالد ابن أخي البطريرك فولتشر ذي الذكرى المبجلة.

وصل في الصيف اللاحق ستيفن، وهو نبيل من منزلة سامية، ومستشار لملك صقلية وأسقف منتخب للكنيسة في بالرمو، إلى المملكة بمرافقة حاشية صغيرة. كان ستيفن أخاً للكونت روترودي بيرشي وكان رجلاً شاباً له مظهر وسيم وصاحب مقدرة طبيعية ممتازة، وكان قد وقع ضحية لمؤامرة من جانب عصبة النبلاء في صقلية، نجحوا في مؤامرتهم بطرده من البلاد، وتم تنفيذ هذا خلافاً لرغبات الملك الشاب الذي كان قاصراً، وخلافاً لرغبات والدته، إلا أنهما كانا عاجزين عن الحيلولة دون حدوثه، ونجح ستيفن بصعوبة بالغة في

---

(١) يبدو أن حبه لثيودورا كان أصيلاً وسلم أندرونيكوس نفسه عندما أسرت ثيو دوراً مع ولديها، من قبل الامبراطور مانويل.

(٢) انظر الكتاب ١١ ـ الفصل ١٢.

تفادي مؤامرات النبلاء، وأتى إلينا بطريق البحر، لكنه أصيب بمرض خطير بعد زمن قصير من وصوله أدى إلى وفاته، فدفن في القدس بإجلال رائع في إحدى كنائس هيكل الرب[١].

وأتى إلى القدس في حوالي الوقت نفسه وليم كونت نفرز حيث كان سيداً قوياً من أسرة نبيلة تتمتع بنفوذ كبير، وقد قدم من مملكة فرنسا بمرافقة مجموعة مهيبة من الفرسان، وقد قدم على نية القتال في سبيل الديانة المسيحية، وعلى نفقته الخاصة، ضد أعداء عقيدتنا؛ إلا أن موتاً مبكراً وحقوداً على شجاعته الناجحة، قد حال بشكل مؤسف للغاية دون تنفيذ هذا الهدف النبيل والورع، فقد أصيب وليم بداء مزمن، وتوفي بعد معاناة طويلة وذلك في البداية نفسها لحياة كانت ذات مستقبل واعد جداً، وحزن الجميع على موته وتأسفوا عليه[٢].

٤ ـ وصول مبعوثين من عند الإمبراطور يطالبون ببعض الموافقات من الملك. إرسال رئيس شماسة صور كمبعوث إلى القسطنطينية. عقده الإتفاقية المقترحة مع الإمبراطور.

وصل في غضون ذلك الصيف نفسه الكونت الإسكندر أوف غرافينا ورجل اسمه ميخائيل هايدرونتنوس [أوف أوترانتو]، وكلاهما عضوان في بلاط امبراطور القسطنطينية، إلى صور في مهمة امبراطورية[٣]، ومنحا مقابلة خاصة كان الملك قد استدعى إليها الذين كان يرغب بوجودهم في المداولة، وشرح المبعوثان أسباب قدومهما وقدما إلى الملك رسالة من جلالته الإمبراطورية تعالج الموضوع ذاته.

---

(١) كان ستيفن دو بيرش مستشاراً لصقلية ورئيس أساقفة منتخب لبالرمو. ووصف ج. س. هلدت J. C. Hildt في كتابه (وزارة ستيفن أوف بيرش خلال طفولة وليم الثاني صاحب صقلية ـ دراسات كلية سمث: ٣ [١٩١٨] ١٣٩ ـ ١٨٦). السيرة المحزنة لهذا الشاب النورماندي النبيل الأصل والمشاعر وسط المآزق السياسية المعقدة للمسائل الصقلية، وحدثت ثورة القصر، التي يشير وليم إليها في عام ١١٦٨، لذلك يجب تأريخ وصول ستيفن إلى الأرض المقدسة في حوالي الجزء الأخير من الصيف (انظر ف. شالدون ـ تاريخ الحكم النورماندي لإيطاليا وصقلية: ٣٤٥/٢).

(٢) توفي وليم الرابع، كونت نافار في عكا في عام ١١٦٨. وجاء دخول روبرت أوف تورغني بشكل خاطىء في الحدث تحت عنوان عام ١١٧٠ (انظر ل. ديلسل ـ تاريخ روبرت تورغني راعي دير جبل القديس ميخائيل: ٢٠/٢).

(٣) من الممتع أن نلاحظ أن مبعوثي الامبراطور مانويل كانا من أصل ايطالي جنوبي، فلقد كان هنالك الكثير من الغربيين في بلاط القسطنطينية في هذا الوقت، ويبدو أن مانويل اعتمد عليهم في مسائل ذات أهمية كبيرة. ووهم شالدون في افتراضه أنهما طالبا بجزء من مملكة في القدس فقد استخدم وليم مصطلح «مملكة» مشيراً إلى مصر (انظر شالدون ـ آل كومنين: ٥٣٦/٢).

كان فحوى الرسالة على النحو التالي: «أدرك الإمبراطور أن المملكة المصرية، التي كانت حتى الوقت الحالي قوية وغنية بإفراط، قد سقطت في أيدي جنس مخنث وضعيف، كما أصبحت الشعوب المجاورة مدركة أيضاً لعجز وضعف الحاكم والأمراء، وحيث يبدو أنه من المستحيل أن تتمكن المملكة من الإستمرار لفترة طويلة من الزمن بحالتها الراهنة، وأنه يجب أن تنتقل حكومتها والسيطرة عليها بحكم الضرورة إلى شعوب أخرى: فإن الإمبراطور يعتقد أنه يستطيع بمساعدة الملك أن يخضعها لسلطاته بسهولة». ولقد كان بسبب هذه المسألة أرسل المبعوثين إلى الملك.

يقول بعض الناس - وبشكل معقول جداً - إن الملك هو أول من اقترح هذه المسألة على الإمبراطور بوساطة رسل ورسائل متكررة بحيث حث الأخير على مساعدته بالجنود وبأسطول وبالمال اللازم، وكان الإمبراطور سيتلقي مقابل ذلك حصة محددة من تلك المملكة ومن جميع المغانم التي يمكن الإستيلاء عليها.

إذاً هذه طبيعة العمل التي كان المبعوثان قد قدما إلى الملك بشأنها، ولقد انضممت إلى الوفد كواحد منه بأمر الملك وذلك عندما كان الطرفان قد وافقا في آخر الأمر على شروط الإتفاقية، وتوجب علي زيارة الإمبراطور كحامل للرسائل، وأن أنقل قرار الملك والمملكة بأسرها إليه، وعلاوة على ذلك، فقد خولت بالمصادقة على الإتفاق بينهما كما هو متوقع أن يطلب مني، لكن وفق الشكل المتفق عليه من قبل.

وهكذا، انضممت إلى المبعوثين الإمبراطوريين اللذين كانا ينتظران قدومي في طرابلس، وذلك حسبما وجهني الملك بالرسائل، وانطلقنا سوية إلى القسطنطينية، وكان الإمبراطور نفسه محتجزاً في تلك الآونة في الصرب حيث كان الناس قد تمردوا على سلطته.

والصرب هي بلاد جبلية واقعة بين دلماشيا وهنغاريا إيلليريا، وهي مكتظة بالغابات ويتعذر بلوغها. وكان الصربيون قد تمردوا معتمدين على تعذر الإجتياح الشامل لبلادهم وعلى الممرات الضيقة المؤدية إلى داخلها.

تقول التقاليد القديمة إن جميع الناس يستمدون أصلهم من المغتربين الذين نفوا إلى هذه البلاد والذين حُكم عليهم بالعمل في مقالع الرخام وفي المناجم، ويقال إنهم أخذوا اسمهم من حالة العبودية هذه. وكانوا شعباً فظاً وفوضوياً يعيش في الغابات والجبال، وليس لديه أية معرفة بالزراعة، لكنه يمتلك قطعانا وماشية كبيرة تزوده بكميات كبيرة من الحليب والجبن والزبدة واللحم، ولديه إضافة لذلك وفرة من العسل والشمع، وعندهم حكام يحملون اسم سوباني Suppani .

وكانوا يطيعون الإمبراطور أحياناً، وبما أنهم شعب مولع بالحرب وشجاع، فإنهم كانوا يهجمون من معاقلهم الجبلية ويخربون جميع المنطقة المجاورة، وكان الإمبراطور قد زحف بشجاعة إليهم على رأس جيش كبير بسبب اعتداءاتهم التي لا تحتمل ضد جيرانهم، ونجح أخيراً في قمعهم وأسر زعيمهم الأكبر، وحدث أن صادفنا الإمبراطور عائداً من هذه الحملة في مدينة بوتلا في إقليم بيلاغونيا، بعدما تغلّبنا على الكثير من مصاعب الطريق، وتقع مدينة بوتلا هذه بالقرب من المدينة القديمة والمعروفة سابقاً باسم جستنيا الرئيسة، التي كانت مسقط رأس الإمبراطور جوستنيان الذي كان لا يقهر وكان الأكثر حكمة وسعادة، وتدعى الآن عموماً باسم أكريدا أو [خريدا].

مُنحنا هنا استقبالاً مشرفاً من قبل الإمبراطور، الذي عاملنا بلطف امبراطوري، وأعلنا إليه دوافع رحلتنا وأسباب مهمتنا، وشرحنا فحوى المعاهدة بعناية مثلى. واستمع إلى القصة بأكملها بسرور كبير وقبلها بلطف، ووافق على كل ما كان قد اتفق عليه، وبعدما أدى الطرفان يميناً مقدساً، صادق الإمبراطور بسلطته على جميع التفاصيل التي أعدها المبعوثون من قبل، وأبرم المعاهدة.

وتلقينا رسائل امبراطوية تتضمن نص المعاهدة بأكملها، ثم أذن لنا بالمغادرة بعد أن حملنا أعطيات رائعة حسب العادة المألوفة، وأنجزت مهمتنا الآن بنجاح، وهكذا، بدأنا رحلة العودة في الأول من شهر تشرين الأول.

٥ ـ الملك يقود جيشاً إلى مصر ويشتبك بالقتال مع المصريين وذلك خلافاً لشروط المعاهدة التي كان قد عقدها معهم من قبل.

في هذه الأثناء بعد رحيلنا مباشرة، وقبل أن تتمكن سفارتنا من العودة لإبلاغ الملك عن المساعدة الموعودة للإمبراطور، بدأ يشاع في كل مكان من البلاد أن شاور سلطان مصر كان يرسل باستمرار رسلاً إلى نور الدين، ويلتمس مساعدته بشكل سري، وقد ادعى أنه كان معارضاً تماماً ولا يرغب بالإنضمام إلى أية معاهدة سلام مع العدو، وأنه راغب بالإنسحاب من الإتفاق الذي كان قد عقده مع الملك، وأنه سيلغي المعاهدة ويتخلى عن الملك تماماً إذا ما تأكد من مساعدة نور الدين له.

يقال إن الملك جمع قوات من المشاة والفرسان من جميع أنحاء المملكة، بعدما سخط ـ وهو محق ـ إزاء هذا النبأ ورحل بسرعة متوجهاً إلى مصر، هذا ويوجد من يدعي أن جميع هذه الإتهامات كانت كاذبة، وأن السلطان شاور كان بريئاً تماماً، وكان قد حافظ بنية طيبة على المعاهدة وعلى جميع شروطها دون أن يستحق هذه المعاملة، ويؤكدون أن الحرب التي

أثيرت ضده كانت حرباً جائرة ومخالفة للقانون السماوي، وأنها لم تكن سوى ذريعة مفتعلة للدفاع عن مشروع فظيع، ويؤكدون أنه لهذا السبب، سحب الرب، الذي يحكم بشكل دقيق وفقاً لإطلاعه على أسرار القلب والضمير، تأييده منا تماماً، ورفض أن يمنح النجاح لمشروعنا الغادر.

ويروى أن غيربـرت المكنى أساليت [غلبرت دي أسالي] مقدم بيت الإسبتارية في القدس، كان المحرض الرئيسي، إن لم يكن المبدع لهذه الحملة المشؤومة، فقد كان رجلاً عالي الروح، وسخياً جداً، غير أنه لم يكن مستقراً بل كان متقلب السلوك والسمات، فقد استلف مبلغاً كبيراً من المال بعد نفاد جميع ثروات الإسبتارية، وأنفقه بأكمله أيضاً على الفرسان الذين استدرجهم إليه من كل مصدر، وأثقل بهذه الطريقة منظمته بدين باهظ لم تكن هنالك أية إمكانية لدفعه، وقد تخلى أخيراً عن منصبه بعدما أصابه اليأس وتخلى عن مسؤوليات إدارة الإسبتارية وتركها مثقلة بديون تصل إلى مائة ألف قطعة ذهبية، ويقال إنه أنفق هذه المبالغ الضخمة على أساس إتفاق عقده مع الملك وعلى أنه إذا تم الإستيلاء على مصر وجرى إخضاعها، فإن بلبيس، التي كانت تعرف من قبل باسم بليوسيوم، ستصبح ملكاً لهذا البيت مع جميع أرضها إلى الأبد.

وخلافاً لهذا رفض فرسان الداوية المشاركة في هذه الحملة، إما لأنها بدت بالنسبة لهم مخالفة لأوامر الضمير، أو لأن مقدم بيت منافس لهم كان من الواضح مؤسساً للمشروع وزعيماً له، وقد رفضوا إتباع الملك أو تزويده بالجند، وبدا لهم أن إعلان الحرب ضد قوة صديقة كانت تعتمد على نيتنا الحسنة، كان خطأ ومخالفاً لفحوى المعاهدة، وتحدياً للحق والعدالة لأن مصر كانت قد حافظت على نية حسنة ولم تكن تستحق معاملة كهذه[1].

٦ ـ حصار مدينة بلبيس والإستيلاء عليها. السلطان يضلل الملك بوعده بمبلغ كبير من المال.

وهكذا، فقد اتخذ الملك جميع استعداداته، وجمع سائر المعدات الحربية، ثم استدعى في شهر تشرين الأول من العام الخامس لحكمه قوات المملكة، ونزل إلى مصر[2]، ووصل إلى

(١) يعتقد لندغرين اعتماداً على أبي شامة أن الداوية شاركوا بالفعل في آخر الأمر بعد إعلانهم عن معارضتهم للمغامرة، وكان الداوية قلقين بشكل خاص لأن مقدمهم الأكبر غودفري فولتشر كان قد عقد معاهدة مع الخليفة في القاهرة في عام ١١٦٧. هذا وأعطى وليم فضلاً رئيساً لهيو صاحب قيسارية (انظر لندغرين ـ وليم الصوري والداوية، ص١٠١ ـ ١٠٦).

(٢) غادر عموري وجيشه عسقلان في /٢٠/ تشرين الأول من عام ١١٦٨ (ر.روهرخت ـ سجلات حكام القدس: رقم٤٥٣). ولم يتمكن وليم، الذي غادر أوشريدا Ochrida في الأول من تشرين الأول، من الوصول إلى فلسطين قبل رحيل عموري.

بلبيس بعد مسيرة نحو عشرة أيام في الصحراء الفاصلة بين مصر وفلسطين، وبدأ على الفور عمليات الحصار، وتمكن خلال ثلاثة أيام من شق طريقه إلى داخلها بالقوة واستولى على المدينة بحد السيف، ودونما تأخير قام في الثالث من شهر تشرين الثاني بتمليك قواته جميع أرجاء المدينة.

وما أن جرى الإستيلاء على المدينة حتى جعل الغالبية العظمى من السكان طعمة للسيف دون مراعاة للعمر أو الجنس، وإذا صدف أن نجا بعضهم من الموت فقد كابدوا من فقدان الحرية، وسقطوا تحت نير العبودية التعيس وهو مصير بالنسبة للرجال الشرفاء أسوأ بكثير من أي شكل من أشكال الموت، وكان بين الأسرى ذوي المنزلة العالية الذين أسروا في بلبيس معزى ابن السلطان إضافة إلى واحد من أبناء إخوته [السلطان]، فقد كانا مسؤولين عن المدينة ويقودان العساكر المحشودة هناك.

اندفع الجند إلى داخل المدينة بفوضى وبدون ضوابط فور فتح أحد مداخلها، وتغلغلوا - دون مراعاة لأي تمييز من أي نوع - إلى أكثر الملاجيء انعزالاً، وفتحوا الدور الخاصة وجروا بالسلاسل إلى موت شائن كل من فكر بيأس بالنجاة بواسطة الإختباء، كما قتلوا على الفور جميع الرجال الذين كانوا في ريعان الشباب والذين كانوا قادرين على حمل السلاح، ونادراً ما جرى استثناء المسنين والأطفال، ولم يقم لعامة الناس أدنى اعتبار، وأصبح كل شيء له قيمة أو مرغوب به غنيمة للعدو، وقسمت السلع الأكثر قيمة بالقرعة كغنائم.

واستولى الرعب على شاور تماماً لدى سماعه نبأ هذه الإعتداءات وقد احتار حول المنحى المتوجب اتباعه، وبدأ يفكر بقدر ما سمحت له الظروف والوقت بمحاولة تخفيف سخط الملك بعرض المال عليه وبالتوسل إلى الزعماء المجاورين الذين كانوا ينتمون إلى عقيدته نفسها كي يساعدوه بشكل مجاني أو مأجور، وصمم في النهاية أن يستخدم كلتا الوسيلتين كتدبير وقائي وعاجل للمسألة وهكذا، فقد أرسل وفداً إلى نور الدين لطلب المساعدة، وجرى تلبية هذا المطلب بسرعة واستدعى نور الدين شيركوه، الذي ذكرناه من قبل، وعهد إليه بقيادة قسم من الجيش، وأعطاه عدداً كبيراً من نبلائه للمشاركة في المسؤولية، وأمر بتأمين المؤن الضرورية للزحف، وأمن عدداً مناسباً من الجمال لحمل الأمتعة وأرسل الحملة إلى مصر.

٧ - الملك يعسكر أمام القاهرة وهو ينتظر المال الذي وعد به السلطان.

بعد تدمير بلبيس زحف الملك نحو القاهرة مع جميع قواته وسار بشكل بطيء جداً لدرجة أنه نادراً ما تقدم مسافة مسيرة يوم واحد كل عشرة أيام، ووصل أخيراً إلى هدفه،

وأقام معسكره أمام المدينة، وجهز الآلات الحربية للعمل. وأقيمت السواتر الحاجزة، وأعد كل شيء آخر قد يكـون مفيداً في عمليات الحصار، وبدت هذه الإستعدادات خارج الأسوار بأنها تنبىء بوقوع هجوم خلال وقت قصير جداً، وامتلأت قلوب المحاصرين رعباً وارتجفت وشعروا أنفسهم أنهم معرضون تماماً للمخاطر وسيواجهون الموت[1].

وأعلن الذين يعرفون الأسباب السرية المؤكدة لأعمال الملك بأنه أجل شن الهجوم حتى يتمكن السلطان الخائف من الحصول على مزيد من الوقت للتفكير، وليدفع بالتالي لتقديم المال لشراء انسحاب الجنود، وكان الهدف الكلي للملك هو ابتزاز المال من السلطان[2]، وكان يفضل أن يأخذ رشوة كبيرة وينسحب على أن يعرض تلك المدن للسلب على أيدي شعبه، كما تم تنفيذ ذلك في بلبيس وسيتم شرح هذه الرواية بشكل أكمل في وقت لاحق.

جرب السلطان خلال هذه الفترة جميع وسائل التقرب إلى الملك عن طريق أفراد أسرته وعن طريق أفراد أسرة الملك، واستخدم كل وسيلة بارعة، وأخيراً أثرت عروضه على عقل الملك الجشع لأن المبلغ الذي وعده به كان كبيراً جداً إلى حد أن جميع موارد المملكة بدت عاجزة عن دفعه، حتى وإن جمع من جميع الجهات، ويقال إنه وعد بمليوني قطعة ذهبية مقابل إطلاق سراح ابنه وابن أخيه وانسحاب الجنود إلى موطنهم، وقدم هذا العرض - كما كشف النقاب عن ذلك فيما بعد - دون أن يتوقع القدرة مطلقاً على تنفيذ وعوده؛ بل ليمنع الملك من التقدم نحو القاهرة فجأة، حيث لم تكن المدينة مستعدة على الإطلاق، وكان يمكن الإستيلاء عليها بسهولة في هجوم مفاجىء بحالتها اللادفاعية، ويعتقد الذين كانوا موجودين في ذلك الوقت أن هذا كان سيحدث دون ريب لو تقدم جيشنا بسرعة ودون توقف نحو القاهرة مباشرة بعد الإستيلاء على بلبيس، لأن المصريين كانوا في ذلك الوقت ضعفاء جداً، ولقد صعقوا بالفعل بسبب المجزرة التي وقعت مؤخراً، والكارثة المفاجئة التي حلت بتلك المدينة العظيمة، ويبدو هذا محتملاً جداً بالفعل، لأن سكان القاهرة كانوا ضعفاء ومخنثين وبدون تدريب عسكري على الإطلاق، وكانوا قد أوقفوا أنفسهم على الملذات لفترة طويلة من الزمن. وكانت المدينة المجاورة ما تزال تحترق، وكانوا أنفسهم منهكين تماماً بسبب فقدان أصدقاء كثيرين، ولم تكن لديهم شجاعة ولا قوة للمقاومة في وقت كهذا بينما كانوا يخافون على أنفسهم من المصير الذي كان قد باغت الآخرين.

---

(١) فرجيل: Aen, I, 95.

(٢) يذكرنا اختيار وليم لكلماته هنا بـ Terence, phor mio IV وأفلاطون Bacch, V, I, 16.

٨ ـ أسطولنا يبحر في نهر النيل وينضم إلى القوات البرية. السلطان يتخلى عن اتفاقه. السلطان يحاول المقاومة ويلتمس المساعدة من الأتراك.

كان هذا هو الوضع الذي ساد آنذاك في المنطقة المجاورة للقاهرة، ووصل في هذه الأثناء الأسطول الذي كان الملك قد أمر ـ عند رحيله من المملكة ـ أن يبحر بالسرعة الكلية، ويقال إنه دخل نهر النيل، بعدما نقلته رياح مواتية، عن طريق ذلك الفرع المعروف عموماً باسم الدلتا واستولت القوات البحرية فوراً على مدينة تنيس، وهي مدينة قديمة جداً تقع على تلك الضفة من النهر، وسلمتها إلى الجند للسلب والنهب. ثم حاول الأسطول أن يبحر إلى الأمام لينضمّ إلى الملك، إلا أن المصريين سدوا نهر النيل بمراكبهم ومنعوا مروره. فأرسل الملك على الفور همفري أوف تورون، كافل المملكة مع مجموعة منتخبة من الفرسان للإستيلاء على الضفة المقابلة إذا أمكن ذلك، وأن يحتفظ بممر على ذلك الجانب على الأقل بدون إعاقة، وكان من الممكن تنفيذ هذا دون صعوبة لو لم تكن إشاعة قد ظهرت في تلك الأثناء أفادت أن شيركوه بات على مقربة من المنطقة؛ وفرض هذا تغييراً للخطط، وصدرت الأوامر إلى الأسطول بأن يبحر ليخرج من النيل إلى البحر على الفور وأن يعود إلى الوطن، وتم تنفيذ ذلك، هذا وفقدت إحدى الشواني بسبب قلة الحيطة الموائمة.

ولم يوقف السلطان وشعبه جهودهم في هذه الأثناء لطرد الملك من بلدهم، وحققوا ببراعة في التخطيط ما كانوا قد افتقروا إلى تحقيقه بالقوة، وعوضوا عن ضعف قواتهم باستخدام وسائل بارعة فقد طالبوا عندما وعدوا بتقديم المال، بمنحهم المزيد من الوقت والفرصة ليقوموا بدفع المال، وكان المسوغ الذي قدموه هو تعذر تأمين مبلغ ضخم من المال بهذا المقدار من مصدر واحد، لذلك يجب منح وقت إضافي قبل أن يمكن تنفيذ الإتفاق، إلا أنهم دفعوا مبلغاً قدره مائة ألف قطعة ذهبية على الفور، فأطلق المسيحيون مقابل ذلك سراح ابن السلطان وابن أخيه، وقدم السلطان اثنين من أبناء إخوته كرهائن لدفع المال المتبقي، وكانا غلامين صغيري السن.

وبناء عليه رفع الملك الحصار وانسحب مع قواته إلى موقع يقع على بعد نحو ميل، وأقام معسكره بالقرب من حدائق البلسم، ومكثت القوات هنا لمدة ثمانية أيام، وتلقى الملك خلال هذا الوقت رسائل كثيرة غير مرضية من السلطان، وأخيراً نقل المعسكر ثانية إلى موقع يسمى سرياقوس.

كان السلطان يرسل رسله في هذه الأثناء إلى كل مكان من المملكة لالتماس المساعدة، وجمع جميع الأسلحة المتوفرة، واستدعى المدد من الريف المجاور. وأمر بجلب المؤن الغذائية

إلى القاهرة، وقام بجولات في المدينة، وتأكد أنه تم دعم جميع الأماكن الضعيفة في المقاومة، ودرست جميع وسائل المقاومة، ودعا شعبه بأقوال مقنعة إلى خوض القتال دفاعاً عن أرواحهم وحريتهم وعن زوجاتهم وأبنائهم. ورسم أمام أعينهم صورة حية للكارثة الرهيبة التي كانت قد حلت بمدينة مجاورة، ووصف مرارة العبودية ونير المحتل الذي لا يمكن حمله، والقدر البائس للخاضعين للعبودية.

٩ ـ ميلون دي بلانسي يفسد عقل الملك برأي شرير. وصول شيركوه استجابة لدعوة المصريين. الملك يزحف في الصحراء لمواجهته، لكنه لا يجده. الملك يعود لهذا السبب إلى موطنه دون تحصيل نتيجة.

كان من جيش الملك رجل من أسرة نبيلة غير أنه منحط الأخلاق وكان رجلاً لا يخشى الرب ولا يحترم الإنسان، لقد كان ميلون دي بلانسي رجلاً بلا حياء، وكان مثيراً للشحناء وقادراً نشيطاً على إثارة المتاعب دوماً وبما أنه كان على بينة تامة بجشع الملك وبنهمه لتحقيق الثراء، فقد اختار أن يرعى هذه النزعات البشعة بدلاً من أن يقدم نصائح مفيدة، وكان قد نصح الملك بشكل مستمر منذ البدايـة في أن يوقف جهوده على هدف محدد وهو أن يبتز من المملكة المصرية المبلغ المذكور آنفاً ومن ثم التوصل إلى تسوية مع السلطان والخليفة عوضاً عن محاولة الإستيلاء على القاهرة وبابليون بالقوة، ويقال إنه فعل هذا لا لأنه كان يعتقد استحالة الإستيلاء على المدينة، بل ليتمكن من التفوق على الفرسان والآخرين الذين كانوا يتطلعون بتلهف إلى المغانم، ويحول بالتالي جميع مكافآت هذه الحملة العظيمة إلى الخزينة الملكية، لأن الجيش يحصد عادة الحصاد الأعظم من المغانم، عندما يتم الإستيلاء على مدينة ما بالقوة وبشكل أغنى بكثير مما هي الحال عندما يتم الإستسلام لملك أو لأمير بشكل مباشر ووفق شروط محددة لمعاهدة يستفيد الحاكم منها فقط.

يسمح حق الحرب لكل جندي في الحالة السابقة أن يستولي وسط جلبة النهب وفوضى السلب على كل شيء يلقيه الحظ في طريقه، وتزداد بالتالي الوسائل الخاصة للمنتصرين، هذا وإن الفائدة تكون كلها للملك في الإحتمال الثاني، ويصبح كل ما يكسبه بهذه الوسيلة حقاً لخزائنه، زد على هذا إنه وإن كان يبدو أن كل شيء يزيد من ثروة الملك وثروة الموجودين في الأماكن السامية، ينفع رعاياهم بشكل غير مباشر ويزيد ثروة الجميع، غير أن الفرد يسعى دوماً بتلهف للحصول على المكاسب التي تساعد على توسيع ممتلكاته الخاصة وتزيد ممتلكاته الذاتية أو المنزلية.

ولذلك، فإن اختلاف المشاعر أدى إلى حـدوث مشـادات خطيرة، فقـد طـالبـت

الأغلبية أن يترك القرار إلى السيف وأن يعهد بكل شيء للنهب، بينما طالب الملك وفريقه بعكس ذلك، وانتصرت رغبات الملك وفريقه في آخر الأمر ونفذت إرادتهم.

عندما كان الجيش مخيماً في القرية المذكورة منذ لحظات والتي تبعد خمسة أو ستة أميال عن القاهرة استمر تيار ثابت من الرسل بالذهاب والإياب بين الجانبين وكان السلطان يرسل وعوداً بشكل مستمر بأنه كان يبذل كل جهد لجمع المبلغ الموعود، وتوسل إلى الملك في هذه الأثناء بعدم التفكير في التأجيل بل الإنتظار بصبر، كما نصحه بعدم الإقتراب إلى مسافة قريبة من المدينة خشية من أن يُغضَب الخليفةَ والشعبَ اللذين كانا يعتمداذ بأمن تام على معاهدة السلام التي أعدت من قبل، وسيتم دفع المال بسرعة وسيتمكن الملك من العودة إلى موطنه في ظروف مواتية، واستغل السلطان شاور سذاجة المسيحيين بنجاح وعود كاذبة من هذا القبيل، وأبطل بذلك النصيحة الجيدة والتحذيرات الحكيمة التي صدرت عن أشخاص آخرين اقترحوا خططاً أكثر حكمة، ثم ظهرت فجأة شائعة أفادت أن النبأ صحيح وأمر بترتيب الأمتعة وعاد إلى بلبيس، وزود نفسه هناك بالمؤن اللازمة للزحف وترك قوة من المشاة والفرسان لحماية المدينة وخرج في الخامس والعشرين من شهر كانون الأول إلى الصحراء لمقابلة شيركوه، لكنه بعدما توغل في داخل الصحراء، ذكر له كشافة ثقاة، كانوا يعرفون المنطقة تماماً، أن شيركوه كان قد عبر نهر النيل بقواته، فدفع هذا النبأ إلى إجراء تغيير في الخطط، وبما أن قوة العدو ستتضاعف بهذه التعزيزات، فلن يأمن البقاء لفترة طويلة من الزمن، لأن التأجيل كان مشحوناً بخطر شديد، هذا وبدا أن المجازفة باشتباك مع شيركوه نطوي على مجازفة مماثلة، ولم يُظهر السلطان بعد ذلك أية نية للإلتزام بالمعاهدة، وكنا عاجزين عن إجباره لعمل ذلك، وكان قد مدد المسألة بسياسة تأجيل بارعة ومدروسة بحذر حتى أصبح الأتراك قريبين وتوجب علينا أن نرحل، وهكذا، عادت القوات إلى بلبيس حيث انضمت إليها الفرقة التي كانت قد خلفت هناك لحراسة المدينة، وعاد الجيش المسيحي وهو على تعبئة إلى سورية في الثاني من شهر كانون الثاني[1].

١٠ ـ استيلاء شيركوه على مصر. شيركوه يقتل السلطان، ثم يقتل هو نفسه بعد ذلك بوقت قصير.

شعر شيركوه الآن أن الوقت كان مواتياً لينجز هدفه، حيث لم يكن هنالك أي شيء

(١) لا يعكس السرد المفصل لأخبار هذه الحملة، مع التأكيد والإلحاح على الأعمال الشنيعة التي ارتكبها المسيحيون، والبواعث الدنيئة في مفاوضاتهم مع شاور والإعجاب التعاطفي لأساليب شاور، لا يعكس فقط اهتمام وليم النموذجي بحرمة المعاهدات، حتى عند عقدها مع الكفرة، بل قلقه حول الخرق الحقيقي، وإن يكن رسمياً، للمعاهدة التي كان قد وقعها بنفسه مع الاغريق.

يعيق رغباته. بعدما رحل الملك، ولذلك أمر بتنفيذ الخطة التي كان قد وضعها، وأقام معسكره أمام القاهرة وكأن قدومه كان بدون نية عدوانية، وانتظر بصبر هنالك كرجل واع لعدة أيام، ولم يبد أية دلالة على مشاعر معادية أو لخطة ماكرة، وأخفى بذكاء نيته الحقيقية وببراعة كان مشهوراً بها، وكان السلطان شاور يخرج كل يوم بمرافقة حاشية ضخمة لزيارته في معسكره، وكان يعود إلى المدينة بعد تقديمه التحية المخلصة المألوفة ومنح الأعطيات.

بدت الطمأنينة المرافقة لهذه الزيارات المتتالية واعدة بشكل جيد للمستقبل، وزاد من ثقة السلطان الإستقبال المبجل الذي أضفي عليه لعدة أيام، إلا أنه اعتمد للأسف ـ في هذه الطمأنينة الوهمية ـ اعتماداً مفرطاً على إخلاص الأتراك، ولذلك باغته على حين غرة شيركوه كمخطط للقتل، فقد كان قد أصدر أوامر سرية إلى أتباعه أنه يجب عليهم مهاجمة الحاكم المصري وقتله في فجر اليوم التالي عندما يخرج بنفسه وكأنه ذاهب إلى الشاطىء في الوقت الذي كان يقوم به السلطان بزيارته اليومية. وهكذا انقضت قوى الموت على شاور عندما ذهب إلى المعسكر في الموعد العادي ليقوم بزيارته المألوفة، وليقدم التحية اللائقة، ونفذت أوامرها [1] وألقته أرضاً وطعنته طعنات قاتلة ثم قطعت رأسه.

وشهد أبناؤه الجريمة، فامتطوا جيادهم على الفور، وجروا بسرعة عائدين إلى القاهرة حيث سجدوا أمام الخليفة وركعوا أمامه متوسلين إليه أن ينقذ حياتهم، ويقال إنه أجاب أنه بإمكانهم أن يأملوا بالنجاة شرط أن لا يقوموا بإجراء أي اتصال سري مع الأتراك، غير أنهم خالفوا هذه الشروط مباشرة وذلك بأن أرسلوا بصورة سرية رسلاً للتفاوض مع شيركوه حول السلام. فأمر الخليفة بقطع رؤوسهم عندما أبلغ بهذا.

كان الملك قد رحل الآن، وكان شاور قد أزيل من هذا العالم. فاستولى شيركوه على المملكة فوراً بعدما سر تماماً بتحقيق رغباته، وقام بزيارة للخليفة ليقدم له التبجيل اللائق، فاستقبل بإجلال كبير ومنح لقب سلطان. وهكذا أصبح شيركوه سيداً لمصر بأسرها لأنه كان مقتدراً يعتمد على قوة عسكرية كبيرة.

يا للطمع الأعمى لدى الرجال، الجريمة الأسوأ من جميع الجرائم، يا للجنون الشرير للقلب الجشع والنهم، فقد كانت رغبة مفرطة لحيازة الممتلكات قد دفعتنا من حالة سلمية آمنة إلى وضع قلق ومضطرب، لقد لبت جميع موارد مصر وثرواتها الضخمة حاجاتنا؛

---

(١) تبعاً لما ذكره بهاء الدين، كان صلاح الدين هو الذي نفذ هذه الأوامر باغتيال شاور، ويقال إن الخليفة طالب برأس شاور، وأرسل، لدى استلامه للرأس، خلع الوزارة إلى شيركوه، الذي قام بزيارته الرسمية للخليفة في اليوم التالي أي في ١٩ كانون الثاني من عام ١١٦٩ (انظر بهاء الدين ـ المحاسن اليوسفيه ص ٥٥).

وكانت حدود مملكتنا آمنة في ذلك الجانب ولم يكن هنالك أي عدو يخشى منه في ناحية الجنوب. وكان البحر يقدم ممراً آمناً وسلماً إلى الذين كانوا يرغبون بالقدوم إلينا، وكان بإمكان شعبنا دخول الأراضي المصرية دون خوف والقيام بأعمال الشراء والبيع وفق ظروف مواتية، وجلب المصريون من جانبهم ثروات أجنبية وسلعاً غريبة إلى المملكة لم تكن معروفة حتى الآن بالنسبة لنا، وكانوا يقدمون لنا منافع كبيرة وشرفاً كلما قاموا بزيارتنا، وعلاوة على ذلك، فإن المبالغ الطائلة التي أنفقوها كل عام بيننا قد أغنت الخزينة المالية وزادت الثروة الشخصية للأفراد. بيد أنه حدث العكس الآن وتغيرت جميع الأمور إلى الأسوأ. «كيف أكدر الذهب تغير الإبريز الجيد». و«صار عودي للنوح ومزماري لصوت الباكين»[1]. وحيثما التفت لا أجد سوى أسباب الخوف والقلق، فالبحر يرفض أن يقدم لنا طريقاً آمناً، والعدو يسيطر على جميع المناطق المجاورة، والممالك الأخرى تستعد لإبادتنا. إن جشع أحد الرجال قد جلب علينا جميع هذه الكوارث؛ كما أن فهمه ـ وهو أصل الشر ـ قد شوه الصفاء التي كانت السماء قد منحتنا إياه[2]. ولنكمل الآن قصتنا.

أمسك شيركوه، بعد المقتل الجائر للسلطان وأبنائه والذي كنا السبب الشرير له بسبب سلوكنا الآثم، بالسلطة الملكية والتحكم بمصر حسب رغبته، لكن لم يُسمح له بالتمتع لفترة طويلة من الزمن من سلطانه، لأنه انزاح من بين مشاكل هذا العالم قبل مضي عام واحد على تسلمه السلطة[3].

١١ ـ صلاح الدين ابن أخي شيركوه يخلفه وهو الذي يحكم مصر الآن.

خلف شيركوه في الحكم صلاح الدين ابن أخيه نجم الدين[4]، وكان الحاكم الجديد رجلاً حاد الذكاء نشيطاً وشجاعاً في الحرب وفي غاية الشهامة والكرم، ويروى أنه طرح مولاه أرضاً بهراوة كان يحملها بيده وقتله وذلك في بداية حكمه عندما زار الخليفة ليقدم له الولاء الذي كان مديناً له به، ثم قتل جميع أبناء الخليفة حتى لا يخضع لأية سلطة عليا، بل

---

(١) مراثي أرميا: ٤/١. أيوب: ٣٠/٣١.

(٢) إن هذا التقدير لأهمية التجارة كالتقدير السابق للسياسة تقدير حديث بشكل غريب وتم ذكره مراراً (انظر س. هاسكنز ـ نهضة القرن الثاني عشر، ص ٢٧٠). وربما أدخل وليم هذه الأفكار عندما كان ينقح كتابه في حوالي عام ١١٨٢، لأن الظروف الموصوفة لم تسد إلاّ فيما بعد.

(٣) حدثت وفاة شيركوه نتيجة لنهمه في ٢٣ آذار من عام ١١٦٩ وبعد أقل من شهرين من استلامه منصب وزير (بهاء الدين ـ المحاسن اليوسفيه، ص ٥٦).

(٤) كان نجم الدين أيوب وأسرته من أصل كردي، وليس من أصل تركي، ولهذا السبب كانت أقرب إلى الفرس، وكان صلاح الدين نفسه يسمى يوسف. ويشار إلى العائلة عموماً باسم الأسرة الأيوبية.

ليتمكن من الحكم كخليفة وسلطان على حد سواء، فقد كان المصريون ينظرون بكراهية إلى الأتراك، وخاف صلاح الدين من أن مولاه الخليفة قد يأمر بقتله في يوم ما عندما تسنح له الفرصة للمثول أمامه، وهكذا، اتخذ وسائل لإحباط أية نية كهذه، وألحق بالخليفة المطمئن المصير الذي، إن صحت الرواية، كان يحضره لينزله به كسلطان[1].

استولى صلاح الدين لدى مقتل الخليفة على ثروته وعلى جميع كنوزه الملكية وجازها لنفسه، وذلك بالإضافة إلى كل شيء له قيمته كان موجوداً في القصر، وتصرف بجميع الأشياء حسب هواه، وأغدق الأموال على جنوده خاصة بسخاء كبير لا بل بسرف لدرجة أن الخزائن فرغت في غضون بضعة أيام، واضطر لأن يستقرض المال من الآخرين، وهكذا، جلب على نفسه عبئاً كبيراً من الدين.

ويروى أن بعض الموالين للخليفة المقتول أنقذوا سراً بعض أبنائه بهدف أنه إذا ما استعاد المصريون في وقت قادم السيطرة على الحكومة، لن يعدموا وريثاً لاسمه ومنصبه وسلالته.

١٢ - تعين برنارد، راعي دير جبل الطور رئيساً لكنيسة اللد. رحيل فريدريك، رئيس أساقفة صور إلى الغرب، لطلب المساعدة من الأمراء هناك.

لم يحدث بعد عودة الملك إلى المملكة أي شيء جدير بالملاحظة خلال القسم الأول من ذلك العام، باستثناء وفاة رينوروس أسقف اللد، الطيب الذكرى، وتنصيب برنارد رئيس دير جبل الطور في مكانه.

بدأ الرجال الحكماء في المملكة يلاحظون في الربيع اللاحق، الذي كان بداية العام السادس لفترة حكم الملك عموري[2] أن إخضاع الأتراك لمصر شكل خطراً كبيراً وحمل أذى شديداً بالنسبة لنا، وأن وضعنا قد ازداد سوءاً من الناحية المادية. وكان بإمكان نور

---

(١) لا تؤكد مصادر أخرى هذا الوصف لوفاة الخليفة، ومن المحتمل أن وليم مزج دور صلاح الدين في إبادة شاور وأسرته مع وفاة الخليفة، ويبدو أن الخليفة العاضد قد توفي وفاة طبيعية في ١٣ أيلول عام ١١٧١. فقد كانت الخلافة العباسية قد أعلنت في مصر حتى قبل وفاته ودون أن تسبب أي اضطراب. (انظر فييت - مصر من الفتح العربي: ٣٠٢) وحدث التغيير بشكل هادىء جداً إلى درجة أن الأمر احتاج عدة سنوات حتى يسمع به وليم. لقد انتهت الخلافة الفاطمية مع الخليفة العاضد.

(٢) عاد الملك عموري في شهر كانون الثاني من عام ١١٦٩. وقد أكمل العام السادس من حكمه في شهر شباط اللاحق، ولذلك توافق فصل الربيع اللاحق مع بداية العام السابع من حكمه، ووصلت السفارة المشار إليها في هذا الفصل إلى روما في شهر تموز، ووصلت إلى باريس في شهر أيلول من عام ١١٦٩ (انظر ر. روهرخت - تاريخ ملوك القدس: ١١٠٠ - ١٢٩١، ص٣٤٤).

الدين، أكثر أعدائنا قوة، أن يحاصر المملكة بالأبحار خروجاً من مصر بأسطوله الضخم، وأن يحاصر جميع المدن الساحلية بجيشه براً وبحراً، وكان الشيء الذي يخشى منه أيضاً هو حقيقة أنه كان بإمكانه إعاقة طريق الحجاج القادمين إلينا، أو حتى أن يرفض السماح لهم بالمرور على الإطلاق، ولذلك ارتؤى أنّ من الملح إرسال سفارة مختارة من أصحاب المقامات السامية في الكنيسة إلى أمراء الغرب لتعرض بالعناية المثلى المحنة المفرطة التي كانت المملكة ترزح تحتها، مع مآسي الشعب المسيحي والكوارث الرهيبة التي كانت تهدد الرهبان، واختير لتولي القيام بهذه المهمة وبالإجماع كل من البطريرك وهيرونسيوس رئيس أساقفة قيسارية ووليم أسقف عكا وكانا رجالاً مبجلين وموهوبين بحكمة وفصاحة مقنعة، وهكذا أبحروا وحملوا معهم رسائل من الملك وجميع الأساقفة إلى فريدريك امبراطور الرومان، ولويس ملك الفرنجة، وهنري ملك الإنكليز ووليم ملك صقلية، وأيضاً إلى النبلاء المشهورين الكونتات: فيليب أوف فلاندرز وهنري أوف ترويز وثيوبولد الثاني أوف تشارترز، لا بل بالفعل إلى جميع النبلاء العظماء الآخرين في الغرب إلا أن عاصفة عنيفة هبت فجأة في الليل بعد رحيلهم فقذفت السفينة هنا وهناك وكسرت المجاذيف وحطمت السواري، وعاد المبعوثون بعد ثلاثة أيام مذعورين جداً، وكانوا قد نجوا بصعوبة من الغرق. ولذلك، اختير وفد آخر وأرسل بدلاً عن الوفد الأول، وكان يتألف من فريدريك رئيس أساقفة صور الذي تم إقناعه أخيراً بقبول المهمة بوساطة التوسلات الملحة للملك والنبلاء، ويوحنا أسقف بانياس، وهو أسقف مساعد لتلك الكنيسة ذاتها، وبدأ الإثنان رحلتهما في ظل بشائر أكثر يمناً، ووصلا إلى مقصدهما بعد رحلة ميمونة، بيد أنهما لم يحققا سوى القليل في المسألة التي أوكلت إليهما، فقد توفي الأسقف في باريس بعد وصوله إلى فرنسا مباشرة وعاد رئيس الأساقفة بعد إقامة مدة عامين في الخارج دون أن ينجح في مهمته.

١٣ ـ الإمبراطور المتلهف لتنفيذ المعاهدة يرسل أسطولاً إلى سورية بقيادة بعض نبلائه.

انقضى ذلك الصيف دون وقوع أي حدث يستحق التدوين، وفي بداية الخريف اللاحق أرسل الإمبراطور ـ المهتم كثيراً باتفاقيته ـ الأسطول الذي وعد به، وذلك تنفيذاً للمعاهدة التي كان قد عقدها مع الملك تنفيذاً لاقتراحنا ورغبتنا، ويجب الثناء كثيراً على الإمبراطور في هذه المسألة لأنه نفذ المعاهدة بجلالة إمبراطورية وبسخاء كبير أكبر مما حوته وعوده، وكان في هذه القوة البحرية مئة وخمسون سفينة حربية مجهزة بالمناقير وبصفوف مزدوجة من المجازيف. وتعرف هذه السفن باسم شواني، وكانت مصممة للاستخدام خصيصاً في الحرب،

وكان يوجد إضافة إلى ذلك ستون مركباً ضخماً جيدة التسليح كانت قد صنعت لنقل الخيول، وجهزت بفتحات كبيرة في مؤخراتها لتصبح أكثر مواءمة في تحميل الحيوانات وتفريغها، وكان فيها جسور يستطيع بوساطتها الرجال والخيول الصعود والنزول من السفينة بسهولة، وكان الأسطول يشتمل أيضاً على عشرة أو عشرين سفينة ذات حجم ضخم تسمى درومونس تم تحميلها حتى التخمة بمؤن المواد الغذائية من كل نوع، كما تم تحميلها أيضاً بالأسلحة من كل صنف بالإضافة الى آلات الحرب ومعداته.

وعين الإمبراطور واحداً من نبلائه وأقربائه يدعى ميغال دوكاس[1] قائداً للأسطول بأكمله وكان بمرافقته نبيل آخر يدعى موريس وكان يحتل مكاناً سامياً ومحط ثقة مولاه الإمبراطور، وكان الإمبراطور يعتمد كثيراً على خبرة هذا الرجل، ووضح هذا بشكل جلي عندما عين موريس مسؤولاً عن جميع شؤون الإمبراطورية، وانضم الكونت الكسندر أوف كونفير سانا إلى هاتين الشخصيتين في القيادة، وكان نبيلاً من أبوليا، وكان الإمبراطور يخصه بعاطفة صافية بسب الإخلاص العميق والصادق الذي أظهره الكونت نحوه.

سلمت قيادة الجيش الإمبراطوري إلى هؤلاء النبلاء الثلاثة عندما بعث الجيش إلى منطقتنا في الشرق، وفي حوالي نهاية شهر ايلول دخل الأسطول ميناء صور بعد رحلة ميمونة، وتقدم من هناك إلى عكا وألقى مراسيه في مكان هادىء واقع بين النهر والميناء.

١٤ ـ الملك يتوجه مع جيشه إلى مصر. الاغريق يرافقونه بقوات برية وبحرية.

أمر الملك الجيش بأكمله من اللاتينيين والاغريق بالتجمع في الخامس عشر من شهر تشرين الأول في مدينة عسقلان وذلك بعدما رتب أمور المملكة وترك قوة من الفرسان لحمايتها خلال غيابه من خطط نور الدين ومطامعه لأنه كان ما يزال يحوم في المنطقة المجاورة لدمشق، وذلك في العام ١١٦٩ لتجسيد الرب الذي كان العام الثامن والستين لتحرير المدينة والعام السادس من فترة حكم الملك عموري[2]، وكان الأسطول قد أبحر قبل عدة أيام من ميناء عكا متوجهاً يريد الأراضي المصرية.

---

(١) كان هذا هو ألكسيوس كونتوستيفانوس دوقاً كبيراً (غراندوق) وهو اللقب الذي استخدمه وليم. وكان القائدان الآخران هما الاسكندر أوف غرافينا أو كونفيرسانا وكان واحداً من أعضاء شفارة مانويل في عام ١١٦٨، وثيودور ماروزوس وقد دعاه وليم هنا باسم موريس، وقد غادر الأسطول بعد معاينة من قبل مانويل، المنطقة المجاورة للقسطنطينية بعد فترة قصيرة من العاشر من تموز من عام ١١٦٩ (انظر شالدون ـ آل كومينين: ٥٣٨/٢).

(٢) وليم مضطرب هنا ثانية في تطبيق صيغه لمعادلة التاريخ المسيحي مع تاريخ القدس اللاتينية وعبارة العام الملكي، ويجب أن يكون التاريخ عام ١١٦٩، وهو العام السبعون للاستيلاء على المدينة، والعام السابع من فترة حكم الملك عموري.

انطلق الجيش في السادس عشر من شهر آب[1]، وتقدمت القوات بزحف بطيء في سبيل عدم انهاك قواة المشاة أكثر من اللازم، واستخدمت أماكن كثيرة للتوقف حيث كان الماء متوفراً فيها، وفي اليوم التاسع وصلت القوات إلى مدينة الفرما القديمة وكانت ترغب بسلوك الطريق الساحلي، إلا أن حدثاً وقع مؤخراً جعل من الضروري اتباع الطريق الداخلي الأطول، لأن بعض السدود الواقعة بين السهل والبحر المجاور كانت قد تخربت بسبب ضرب الأمواج المستمرة وشقت المياه ممراً لها بالقوة عبر السدود المقابلة، وبما أن الماء قد تدفق الآن بحرية فقد غمر الطريق المؤدي إلى السهل الواقع وراءه، فشكلت المياه المتجمعة بركة ضيقة في أول الأمر ولكنها ما لبثت أن توسعت كثيراً فغمرت السهل بأكمله، وجلب تدفق البحر هذا معه كمية كبيرة من السمك، بحيث تم منذ ذلك الحين فصاعداً توفير زاد من ذلك النوع من الطعام بوفرة لم يكن يحلم بها من قبل ابداً، ليس فقط للمدن الواقعة في تلك المنطقة المجاورة، بل أيضاً للمدن الأكثر بعداً، وبما أن البحر غمر المنطقة الواقعة على طول الساحل، فإن المسافرين الذين عزموا على الذهاب إلى مصر بواسطة الطريق الساحلي أجبروا على السير عبر تحويله طولها عشرة أميال أو أكثر حول هذه البركة وذلك قبل أن يتمكنوا من العودة إلى الطريق.

لقد قدمت هذه التفاصيل بسبب جدة هذا الحدث المدهش، وأيضاً لأن هذه المنطقة الصحراوية التي كانت معرضة لحرارة الشمس الشديدة فيما مضى، قد غُمرت الآن بالماء نتيجة التدفق المستمر للبحر، وتردد الآن إليها اصحاب الزوارق، فامتلأت هذه المنطقة، التي أصبحت خصبة جداً بشباك صيادي الأسماك وأعطت غلالاً لم تكن معروفة حتى الآن.

إن مدينة الفرما، المشار إليها آنفاً، خالية من السكان الآن، لكنها كانت فيما مضى مقراً لعدد كبير من السكان، وتقع على الحد الصحراوي بالقرب من الدلتا وهي اللسان البحري الأول للنيل في موقع يصب فيه ذلك الفرع من النهر في البحر. ولذلك، فهي تقع بين النهر والبحر والصحراء. ومع ذلك، فهي تبعد ثلاثة أميال عن مصب النيل.

وجد جيشنا عندما وصل إلى الفرما أن الأسطول كان قد سبقه إليها، وتم على الفور تأمين المجذفين اللازمين، وهكذا جاز الجيش بأكمله إلى الضفة المقابلة، ثم تقدم الجيش بعد أن ترك تنيس على يساره ـ وهي التي كانت سابقاً مدينة مهيبة، وليست الآن سوى بلدة صغيرة ـ مسافة عشرين ميلاً تقريباً على طول طريق واقع بين أحد المستنقعات والشاطىء، وأخيراً وصل إلى دمياط بعد مسيرة يومين.

(١) من الواضح أن هذه سقطة قلم والمقصود هو ١٦ ـ تشرين أول.

١٥ ـ الملك يحاصر دمياط. جيشا اللاتينيين والاغريق يجهدان أنفسهما في حصار تلك المدينة دون نتيجة.

تعتبر دمياط من أقدم المدن المصرية وأشهرها، وتقع على ضفة النيل على مسافة قريبة منا، وفي الموقع الذي يندفع فيه النهر إلى البحر بواسطة مصبه الثاني، وهي واقعة على نحو موائم بين النهر والبحر الذي تبعد عنه نحو ميل واحد، ووصل جيشنا إلى دمياط في السابع والعشرين من شهر تشرين الأول، وعسكر بين المدينة والبحر منتظراً وصول الأسطول الذي عاقت تقدمه الأمواج العاتية والرياح المعاكسة، وهدأت الأمواج المضطربة بعد ثلاثة أيام، واستغل الأسطول رياحاً مواتية ودخل النهر وألقى مراسيه في ميناء هادىء على طول الساحل في منتصف المسافة بين المدينة والبحر.

ووقف برج مرتفع على الضفة المقابلة، وكان محمياً بشكل جيد بمجموعة من الرجال المسلحين الذين كان عددهم كافياً لتقديم الحماية التامة له، ومدت سلسلة حديدية من هذا البرج إلى المدينة منعت تماماً العبور إلى القسم العلوي من النهر، وبرهنت بأنها عائق كبير لقواتنا، إلا أنه كان بإمكان جميع السفن القادمة من الأعلى من القاهرة وبابليون العبور إليهم بحرية وبدون عائق.

انتقلت القوات، بعدما كان الأسطول قد وضع في موقع موائم، عبر البساتين التي انتشرت بين موقع مخيمها والمدينة نفسها، ونصبت خيمها بالقرب من دمياط تماماً. حيث كان الطريق إلى الأسوار طليقاً، لكنها أرجأت شن الهجوم حتى تكون قد انقضت ثلاثة أيام، ولهذا تعلمت بالتجربة صحة القول: «من الخطر التأجيل عندما يكون كل شيء جاهزاً». لأنه قدم من الأجزاء العليا لمصر حشد لا يحصى من الأتراك مع سفن محملة بجنود مسلحين، واضطر جيشنا أن يرقب ذلك باحباط ودون أن يستطيع فعل شيء، وذلك بينما امتلأت المدينة حتى التخمة بعدما كانت عملياً فارغة في وقت سابق، واتضح للمسيحيين على الفور أنهم لن يتمكنوا من الاستيلاء على دمياط دون مساعدة الآلات الحربية والمجانيق، مع أنها بدت لدى وصولهم إليها أنها لن تتمكن أبداً من الصمود أمام الهجوم الأول.

وبناء عليه جرى اختيار الحرفيين وتأمين المواد المناسبة، ثم شيد برج شامخ مؤلف من سبعة أدوار ـ على حساب الكثير من الإنفاق والعمل ـ يمكن من قمته مراقبة المدينة بأسرها، وشيدت الآت أخرى من مختلف الأنواع، وقد صمم بعضها لقذف الصخور الضخمة لتدمير الأسوار، وأخرى لحماية الملغمين الذين كان بإمكانهم الاقتراب من التحصينات بالجلوس بداخلها وكأنهم داخل كهوف مخيفة، ومن ثم حفر أنفاق سرية تحت الأسوار مما سبب انهيارها بعد حرمانها من أساسات الاستناد.

وكانت الطرق المؤدية إلى المدينة قد مُهدت في هذه الأثناء بطريقة جيدة، بحيث يمكن لصق الآلات الحربية، التي شيدت الآن بالأسوار، وواصل المقاتلون الموجودون في البرج المتحرك الضغط باستمرار على المحاصرين، وقذفوا بلا انقطاع وابلاً من السهام والقذائق الحجرية بالإضافة الى أسلحة أخرى بقدر ما سمحت لهم ضراوتهم والرقعة المحددة، وفي الوقت نفسه أطلق الرجال الموضوعون فيآلات القذف وابلاً من الصخور الضخمة، وبذلوا جهوداً حماسية لتدمير الأسوار والمنازل الملصقة بها.

وحاول سكان المدينة أن يواجهوا الخدعة بالخدعة لدى رؤيتهم لهذه المحاولات، ولكي يقاوموا جهودنا ببراعة مماثلة، شيدوا برجاً عالياً مقابل برجنا وزودوه بجنود مسلحين توجب عليهم أن يقاوموا جهودنا من داخل آلة حربية مشابهة، وأن يردوا على هجماتنا بهجمات أخرى ذات ضراوة مماثلة، وهكذا، وضعوا الآتهم الحربية مقابل آلاتنا وبذلوا جميع الجهود لتدميرها، كما أن الحاجة للدفاع عن أنفسهم طورت الخبرة لديهم، وأمدتهم الضرورة بالقوة، واخترع الذين كانوا قد شعروا حتى هذا الوقت بأنهم غير أكفاء للمقاومة، والذين حثتهم الحاجة، اخترعوا خططاً لم يفكر بها أحد حتى الآن، وأصبحت أذهان حتى الأشخاص الأكثر غباء نشيطة في استنباط وسائل لضمان سلامتهم، وتعلموا بتجربة أليمة صحة القول: «المحنة تطور الدهاء»[1].

وبدأ المسيحيون يظهرون علامات الجبن واللامبالاة في الوقت الذي كان يتوجب عليهم أن يشددوا الحصار بضراوة أكثر من ذي قبل، ونسب تغير المعنويات هذا إلى الخيانة، ونسبه آخرون إلى مجرد إهمال واستخفاف، واتضح على الفور أن جنودنا كانوا يبدون براعة وحصافة أقل من المعتاد، أو مهما يكن من أمر فقد كان الذين يستلمون زمام القيادة يتصرفون بنية خائنة فقد أمروا بإلصاق أحد الأبراج، التي شيدت مؤخراً، بالأسوار في موقع منحدر ولا يرام تقريباً، فقد كان هنالك في ذلك القسم نفسه من المدينة مواقع كثيرة كان السور فيها أكثر انخفاضاً وأقل قوة حيث كان من الأسهل كثيراً الاستيلاء عليه؛ ومع ذلك، وضع البرج المتحرك في الموقع الأقوى والأفضل تحصيناً في مكان لم يقدم سوى الكثير من الصعوبات أكثر مما قدمه أي موقع آخر لوضع الآلات الحربية فيه، وعلاوة على ذلك، كان الضرر من ذلك الموقع لن يوجه إلى سكان المدينة أو إلى مبانيهم، بل إلى كنيسة أم الرب المقدسة فقط، التي كانت تقع بالقرب من الأسوار.

---

(١) لوكان: Pharsal, I, 281 .

(٢) أوفيد: Met, VI, 575 .

لا يمكن أن يكون هنالك أي شك أن التأجيل في مهاجمة مدينة دمياط فور وصولنا قد نشأ عن نية شريرة، فقد كانت المدينة في ذلك الوقت مهجورة تقريباً، ولم يكن يشغلها سوى سكانها الذين كانوا أناساً ضعفاء ومسالمين وجاهلين تماماً بفن الحرب. ولو هاجم المسيحيون المدينة بشجاعة على الفور، كما كان ينبغي عليهم أن يفعلوا، لتم الاستيلاء عليها في الهجوم الأول، لكن المحاصرين منحوا فترة راحة، فازداد عددهم كثيراً خلال ذلك الوقت بتعزيزات من المقاتلين الشجعان والأشاوس. وكانت النتيجة أنهم استطاعوا أن يقاوموا هجماتنا ليس فقط ضمن المدينة نفسها، بل حتى في ميدان القتال خارجها.

١٦ ـ انتشار مجاعة في المعسكر. أسطولنا ينجو بصعوبة من الدمار بالنار. رفع الحصار بعد التأكد من أن جميع جهودنا كانت عقيمة.

في هذه المرحلة الحاسمة أضيفت محنة أخرى إلى متاعب المسيحيين، فقد بدأ الاغريق الآن، الذين كانوا قد أتوا بأعداد كبيرة في ذلك الأسطول، يعانون من نقص في المؤن؛ فقد كان زادهم من الخبز قد نفد تماماً ولم يبق لديهم بالفعل أي نوع من الطعام، وحدث أن أيكة من أشجار النخيل، كانت موجودة بالقرب من المعسكر، كانت قد قطعت لتستخدم في طرق مختلفة، وعندما سقطت الأشجار بحث الاغريق الجائعون عن لقمة طرية نامية في القمة حيث تنبع الأغصان فتزودهم بالنسغ، وبما أنها كانت مادة تؤكل، فقد زودتهم بنوع من الطعام خفف ـ وإن كان ضيئلاً بقيمته الغذائية ـ من لسعات الجوع؛ وجعلت حالة الجوع هذه هؤلاء الناس ماهرين في البحث عن الطعام، وطورت متطلبات المعدة الشديدة الجوع براعتهم لتزويدها باحتياجاتها؛ ولقد تدبروا أمورهم لبضعة أيام بائسة وعاشوا على هذا الطعام. وسد آخرون من بينهم وأشخاص لم يكونوا معوزين تماماً، متطلبات الجوع بالشوفان والزبيب والكستناء، كان لدى المسيحيين زاد كاف من الخبز والمؤن الأخرى المتعددة الأنواع، وكانوا يوفرون مخزونهم القليل لأنهم كانوا منتبهين للمستقبل، لأنهم لو كانوا مسرفين بما يكفي لمشاركة المؤن مع الذين لم يكن لديهم شيء منها، لكان هنالك خطر من أنهم أنفسهم قد يقعون في فاقة يوماً ما، وعلاوة على ذلك، فإنهم لم يكونوا واثقين من طول فترة الإقامة التي سوف يمضونها أمام دمياط، وتوقعوا أنها طويلة الأمد.

هطلت كمية كبيرة من الأمطار في هذا الوقت، وكانت الأعاصير عنيفة جداً لدرجة أن الناس الأكثر فقراً لم يتمكنوا من منع الماء من التساقط خلال خيامهم بأية وسيلة، ولم تكن حال الأغنياء أفضل من حال الفقراء، فقد تبللت سرادقهم بالمطر الغزير، أو بالحري الأمطار المنهمرة من السماء. ولم يتمكنوا من الحصول حتى على وقاء بسيط إلا بحفر خنادق حول الخيام لإبعاد فيضانات الماء.

حلت بهم الآن كارثة خطيرة أخرى، فقد كانت الشواني والسفن الأخرى التي تم جلبها من البحر إلى النهر، ووضعت بالقرب من المدينة في موقع كان آمناً تماماً بشكل واضح. بيد أن سكان المدينة، اندفعوا بعدما أدركوا أن الريح كانت تهب من الجنوب، وأن أمواج النيل تندفع بعنف كبير، فانتهزوا الفرصة لتنفيذ خطة كانوا قد فكروا بها من قبل، فقد أخذوا قارباً من الحجم العادي وملأوه حتى التخمة بخشب جاف وقطران وبجميع المواد القابلة للأشتعال والتي تؤجج النيران، وأشعلوا النار فيه؛ ثم قذفوه في النهر فتناقلته الأمواج بإرادتها نحو أسطولنا، وانتقل اللهب بسرعة إلى الوقود الذي كان محملاً في القارب بعدما دفعته ريح جنوبية، فأبحر المركب المحترق نحو الأسطول، وتوقف بين سفننا المجمعة بإحكام وبقي هنالك بشكل ثابت، فنقلت الحمولة الملتهبة بهذه الطريقة إلى سفننا واحترقت ست سفن متقاربة من نوع الشواني احتراقاً تاماً، ولم لم يكن الملك يقظاً لكان الأسطول بأكمله قد حوصر بلهب ألسنة النيران التي ازداد عنفها، فقد اكتشف الملك الحريق، فامتطى جواده بسرعة دون أن ينتظر حتى لانتعال حذائه، وأيقظ البحارة وطلب منهم بصيحات مذعورة وإشارات أن يخمدوا ألسنة النيران، فنجحوا في تنفيذ هذا بفصل السفن عن بعضها بعضاً، وهكذا، تمت السيطرة على ألسنة النيران المنتشرة في كل مكان، وأنقذت على الفور كل سفينة حدث أن اشتعلت فيها النيران بسبب الشرر المتطاير من المواد المشتعلة الأخرى التي نقلتها الرياح، وذلك باستخدام ماء النهر الذي كان لحسن الحظ قريباً جداً.

شنت الهجمات على المدينة على فترات لعدة أيام، وكان النصر تارة حليفاً للمسيحيين وتارة أخرى حليفاً للكفرة كما يحدث عادة عندما تكون نتيجة المعركة مبهمة، وعلى العموم كان المسيحيون هم الذين يتحدون أعداءهم للنزال ونادراً ما قاتل المسلمون ما لم يثاروا، هذا وحدث أن انطلق المحاصرون عندما كانوا يشعرون بالثقة أحياناً من باب خلفي مقابل معسكر الإغريق وشنوا هجمات مفاجئة على ذلك القسم من الجيش، ومن المحتمل أنهم سمعوا أن القوات الإغريقية كانت أقل قوة من قواتنا؛ أو ربما وصلتهم أنباء الشائعات التي تحدثت أنهم كانوا واقعين في محنة مريرة بسبب الجوع، ولذلك كانوا أقل قدرة على صد الهجوم، ومع ذلك حارب ميغال دوكاس وبقية الإغريق -على الرغم من هذا العائق- بشجاعة وبسالة وبنظام قتالي. كما أن ذوي المراتب الأدنى تشجعوا بالمثل الذي ضربه أسيادهم، فهاجموا الأعداء مراراً وتكراراً بقوة فريدة وصمدوا بجرأة.

هذا وازدادت قوة المحاصرين باستمرار بواسطة فرق كبيرة كانت تصل إليهم دائماً عن طريق البر والبحر. ونتيجة لهذا، أصبح سكان المدينة يشكلون مصدراً لذعر كبير

لأعدائهم أكثر مما كان المسيحيون بالنسبة لهم وذلك على الرغم من أنهم كانوا مقيدين ضمن مدينة كانت واقعة تحت الحصار.

بدأ التذمر ينتشر بين الناس الآن، وبات جميع الناس يشعرون أن جهودنا قد تبددت وصار الرأي العام مجمعاً على أن الحملة قد نفذت ضد إرادة الرب، ولذلك فقد تحول بوجهه عنا بغضب، وأنه من الأفضل بكثير أن نعود إلى الوطن بدلاً من أن نتعرض للإنهاك في مصر بسبب المجاعة، أو أن نهلك بسيوف الكفرة، وهكذا عقدت اتفاقية بشروط سرية بفضل الجهود المشتركة لبعض قادتنا وبعض الحكام الأتراك، وبشكل ملحوظ بفضل الدور الفعال لزعيم اسمه جيفيلينو. ووافق الاغريق على التسوية نفسها وأعلن السلام على الفور بصوت المنادي[1].

١٧ ـ إلغاء الحملة، وعودة الملك إلى أراضيه. دمار جميع الأسطول الاغريقي تقريباً في رحلة العودة إلى الوطن بسبب رياح معاكسة.

ثم خرج سكان المدينة وحلفاؤهم الذين قدموا لمساعدتهم لزيارة معسكرنا بحرية، كما سمح لعدد من جنودنا، كانوا يرغبون بشيء مشابه، بالمرور ذهاباً وإياباً بين المدينة والمعسكر دون عائق، واستطاع الطرفان في آخر الأمر أن يتاجرا بحرية مع بعضهم بعضاً، حيث سمح للجميع بالشراء والبيع والمقايضة كما يشاؤون، وهكذا، استخدم المسيحيون السوق بالاشتراك مع الكفرة لمدة ثلاثة أيام، وأعدوا جميع تحضيراتهم للزحف، ثم خربوا الآلات الحربية وأحرقوها، وقام الجيش البري بعد ذلك بالسير وراء الملك عائداً إلى سوريا، وقد ساروا مسرعين وبدون توقف على الطريق الذي كانوا قد أتوا منها ووصلوا في الحادي والعشرين من شهر كانون الأول إلى عسقلان، وخف الملك إلى عكا بسبب اقتراب يوم العيد ووصلها عشية يوم ميلاد الرب.

هذا وابحر الذين كانوا قد أتوا بالسفن وسط نذر مشؤومة وحظ تعيس، فما أن

---

(١) لدى المؤرخين الاغريق الكثير ليقولوه حول هذه الحملة، ومن غير الضروري أن نضيف، أنهم يضعون اللوم على اللاتينيين، وفي الواقع فإن وليم يعطي تأييداً كبيراً للمؤرخين اليونانيين على الرغم من الإتهامات التي يكيلها ضد الاغريق، ومن الواضح أن اللاتينيين كانوا منقسمين في الرأي، حيث كان الكثير غير قلقين أبداً حول اقتسام مصر مع الاغريق، ولا بد أن هذا كان القصد من السفارة بالبحث عن المساعدة في الغرب في عام ١١٦٩، مع أنهم كانوا قد عقدوا حلفاً لهذا الغرض مع مانويل، ولا بد أن هذا كان القصد من حملة عموري السريعة إلى مصر في عام ١١٦٨ مع أن مبعوثه كان عائداً في تلك اللحظة ذاتها من بلاط مانويل مع المعاهدة الموقعة، ويبدو أن هنالك الكثير لتأييد اعتراضات شالدون (شالدون ـ آل كومينين: ٥٤٦/٢). وذكر شالدون أن اسم الزعيم التركي الذي تفاوض لعقد المعاهدة كان جاولي.

شرعوا، بالرحلة حتى هبت فجأة عاصفة شديدة؛ وعانوا من مخاطر البحر التي لا يمكن تجنبها لأن الأمواج حطمت السفن وألقتها إلى الشاطىء، وغرق الجميع تقريباً، ولم يبق سليماً من الأسطول الضخم الذي كان قد أتى إلينا سوى بضع سفن كان بعضها كبير الحجم وبعضها الآخر كان صغيراً وتمكنت من العودة بدافع من قوتها.

ومع أن مبعوثي الإمبراطور كانوا قد أبدوا الاجتهاد الكلي الممكن في الجهود التي بذلوها لإنجاز المهمة الموكولة إليهم، فإنهم اضطروا للعودة مخفقين ويشعرون بالأسى في قلوبهم، بعدما روعتهم شدة القدر. لأنهم خافوا من أن يحملهم جلالته الإمبراطورية - بشكل يفوق استحقاقاتهم - مسؤولية النتيجة المشؤومة للحملة، فقد كان من المحتمل أن يعزو هذه النتيجة بشكل جائر إلى إهمالهم، أو سوء إدارتهم على الرغم من أن هذه النتيجة بأكملها كانت بسبب قدر محتوم.

أتذكر أنني أجريت بعد عودتي تحقيقاً دقيقاً وجاداً حول الملك وحول بعض الرجال المهمين في المملكة وعن سبب أن حملة ضخمة جداً كهذه كانت تحت قيادة أمراء بارزين للغاية، قد انتهت بشكل مشؤوم جداً، وكان اهتمامي في ذلك العام قد تركز حول أموري الخاصة، حيث كنت قد ذهبت إلى روما لأتجنب العداوة الجائرة لرئيس الأساقفة الذي كنت تابعاً له[1]. وحاولت لدى عودتي أن أبحث في الجوهر الحقيقي للقضية، وسعيت إلى كشف الحقيقة الفعلية بالاستماع إلى روايات شديدة الاختلاف، لأن نتائج الحملة كانت مختلفة تماماً عما كنا قد رجوناه، واستخدمت حذراً كبيراً في هذه المسألة لأنني كنت قد درست فكرة تدوين تاريخ لهذه الأحداث وقد وجدت أن الإغريق غير معفين من اللوم، فقد كان الإمبراطور قد وعد بإخلاص في أن يرسل مبلغاً كافياً من المال لدعم الجيش الضخم، إلا أن وعوده أثبتت أنها غير جديرة بالثقة في ذلك الخصوص، وقد بدأ قادته يعانون من وطأة الحاجة من اللحظة التي ذهبوا فيها إلى مصر، وفي الوقت الذي كان عليهم أن يكونوا قادرين على تأمين حاجات الآخرين من المخزون الإمبراطوري الكبير توجب عليهم أن يبحثوا عن المال لتوفير الطعام والمدفوعات أيضاً حتى لفيالقهم، ولم يعطهم ذلك أي إنسان.

---

(١) لا يقدم وليم أي تفسير إضافي لمصاعبه مع رئيس الأساقفة الذي كان تابعاً له، وسيكون من المعقول أن نخمن أن عموري كان قد أصرّ على تأمين دخل وافر لوليم كرئيس شماسة وكمؤرخ رسمي بشكل يفوق الدخل العادي للمنصب، وربما كانت هنالك أسباب أخرى أيضاً، وعلى أية حال، كان وليم متغيباً عن المملكة خلال معظم عام ١١٦٩ وتوجب عليه أن يحصل على معلوماته حول الحملة بعد عودته، وبعد عودة الجيش بعد بعض الوقت من عيد الميلاد لعام ١١٦٩، وتؤكد عبارته أنه كان قد فكر بفكرة كتابة تاريخ، المعنى المتضمن أنه توصل إلى هذا القرار في عام ١١٦٧، وأنه كان يجمع بعض المواد آنذاك.

١٨ ـ زلزال كبير يهز عملياً جميع بلاد الشرق. المدن القديمة يلحق بها الدمار.

ضرب زلزال مخيف وكبير الشرق، وكان أكثر عنفاً من أي زلزال آخر محفوظ ضمن ذاكرة الرجال الموجودين الآن على قيد الحياة وذلك في شهر حزيران [1] من الصيف التالي، أي في العام السابع من فترة حكم الملك عموري، وقد دمر هذا الزلزال مدناً محصّنة تحصيناً قوياً ومشيدة من أزمان قديمة جداً؛ وسحق السكان الذين احتجزوا داخل منازلهم المهدمة، ولم يبق على قيد الحياة سوى القلة القليلة من الناس، ولم تنج أي بقعة ضمن المنطقة بأسرها دون أن تصاب بخسارة في الممتلكات أو بكارثة عائلية، فقد امتلأ كل مكان بدلائل الحزن وبجنائز الموتى، كما دمرت المدن الكبرى في أقاليمنا وأقاليم سورية وفينيقية أيضاً كانت مدناً مشهورة طوال عصور بقدمها المهيب. فقد سُحقت في سورية المجوفة مدينة أنطاكية عن بكرة أبيها وهي التي كانت عاصمة لأقاليم عديدة والتي كانت فيما مضى رئيسة لممالك كثيرة، وأبيد سكانها عن بكرة أبيهم، ودمرت الأسوار الضخمة والأبراج العملاقة والشديدة القوة المبنية على طول محيطها، وهدمت كنائس ومبان من كل نوع بعنف كبير لدرجة أنها لم ترمم حتى الآن إلا بشكل جزئي على الرغم من إيقاف جهد كبير ونفقة واسعة لترميمها، وكان بين المدن الأخرى التي دمرت في ذلك الإقليم كل من جبلة واللاذقية وهما مدينتان مشهورتان واقعتان على الساحل، وكان من بين المدن الداخلية البعيدة التي تدمرت والتي كان العدو ما يزال محتفظاً بها كل من بيروا المعروفة أيضاً باسم حلب، وشيزر وحماه وحمص ومدن أخرى، كما أن عدد القلاع المدمرة كان يفوق الإحصاء.

أصيبت مدينة طرابلس العظيمة والمزدحمة بالسكان والواقعة في فينيقية فجأة في التاسع والعشرين من حزيران في حوالي الساعة الأولى من اليوم بهزة أرضية كانت عنيفة لدرجة أنه نادراً ما نجا منها إنسان ممن كان موجوداً ضمن أسوارها، وتحولت المدينة بأسرها إلى أكوام من الحجارة، وأصبحت مقبرة لا بل قبراً مشتركاً للسكان الذين هلكوا فيها، وكانت الهزة الأرضية عنيفة جداً في مدينة صور المدينة الأكثر شهرة في هذا الإقليم، حيث دمرت عدة أبراج ضخمة غير أنه لم تقع أية خسائر بشرية هنا، وعثر في مناطقنا ومناطق العدو على قلاع نصف مدمرة ومفتوحة على جميع الجهات وعرضه بكل حرية لعنف وخدع الخصم، ولم يجرؤ أحد على التحرش بزميله الإنسان لأن الجميع خافوا من أن ينزل بهم غضب الحاكم الجبار كل على حدة، ولانشغال كل واحد منهم بمشاكله الخاصة ولأنه كان مرهقاً بحمل أعباء أموره الخاصة، ولهذا السبب لم يفكر أحد في إيذاء جاره.

---

(١) حزيران ١١٧٠ ـ العام الثامن من حكم عموري.

وحل السلام، الذي أحدثته رغبة الجميع، وإن كان لفترة قصيرة من الزمن،وأعدت هدنة بسبب الخوف من الغضب الإلهي، وكف الجميع عن القيام بأعمال العدوان وقمعوا بواعثهم الشريرة، بينما كان كل منهم يتوقع كل لحظة إنصباب غضب عادل من السماء عقاباً على آثامهم.

لم يكن هذا الإظهار لسخط الله شيئاً سريع الإنقضاء كما كان يحدث دائماً، فقد ظل الناس يشعرون ليل نهار بذلك الزلزال المخيف لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر بالفعل لا بل حتى لفترة أطول من ذلك بثلاث مرات أو أربع أو أكثر، وكانت كل هزة مصدراً للرعب الآن، ولم يعثر على أي مكان آمن للراحة، وحتى أثناء النوم دفع الشعور الخفي المذعور بصورة ذلك الشيء الذي أخافه أثناء اليقظة إلى الوثوب قافزاً نحو الشعور الواقعي من جديد [1].

وتجنبت الأجزاء العليا من إقليمنا ـ أي من فلسطين ـ هذه الكوارث بفضل العناية الرحيمة لله الواقي.

١٩ ـ صلاح الدين يغزو أراضينا ويحاصر قلعة الداروم.

في شهر كانون الأول من هذا العام نفسه، أي العام السابع لفترة حكم عموري [2] انتشرت شائعة كبيرة بين الناس أفادت أن صلاح الدين كان على وشك القيام بغزو بلادنا، وذكر اعتماداً على مصادر كثيرة أنه كان قد حشد قوات من جميع أنحاء مصر ومن أراضي دمشق أيضاً، وأنه زاد أعداد أتباعه كثيراً بتجنيد جنود من «الطبقتين» الوسطى والدنيا، وأنه كان يخطط للزحف نحو فلسطين ليدمر المنطقة، فذهب الملك حالما بلغه هذا النبأ إلى منطقة عسقلان، وعلم هنالك بشكل قاطع من معلومات موثوقة تلقاها من شعبه أن هذا الأمير القوي والعظيم كان يحاصر قلعة الداروم منذ يومين مضيا بجيش ضخم أقوى من ذي قبل. وأنه لم يمنح في تلك الأثناء أية راحة للمحاصرين، وكان قد ألحق بهم أضراراً كبيرة، فقد كان جنده قد أمطروا وابلاً من السهام بشكل مستمر على الموجودين في داخل القلعة إلى درجة أصيب فيها الجميع بجراح، ولم يعد هنالك سوى عدد قليل قادر على حمل السلاح للدفاع عن القلعة، وكان السور قد تقوّض وفتح بالقوة، وبات صلاح الدين مستولياً على جزء من الموقع، وقد لجأ سكان المدينة بحكم الضرورة إلى القلعة التي بدت بأنها الجزء الأقوى تحصيناً، وكان العدو قد شق طريقه إلى القسم السفلي من أحد الأبراج وأحرق المدخل، غير

---

(١) تعكس حيوية هذا الوصف تجربة وليم الشخصية وتبين أنه كان في صور عندما وقعت الزلازل

(٢) كانون أول ١١٧٠ ـ العام الثامن من حكمه.

أن المحاصرين كانوا ما يزالون يدافعون عن الجزء العلوي. لقد كان هذا هو النبأ الذي حمل إلى الملك وثبت أنه كان صحيحاً.

وكان النبيل آنسلم دي باس قائد قلعة الداروم والمدافع عنها رجلاً ورعاً ويخاف الرب ومقاتلاً شجاعاً، ولو حدث وكان بعيداً في اليوم الذي وقع فيه الهجوم، لسقط بلا ريب في أيدي الأعداء.

ملأ نبأ هذا الوضع الخطير قلب الملك بالحزن والغضب، فجمع على الفور قوات المشاة والفرسان من سائر الأنحاء بقدر ما سمح المجال الزمني القصير وقرب العدو، وغادر عسقلان في اليوم الثامن عشر من هذا الشهر نفسه وأسرع نحو غزة، ورافقه السيد البطريرك الذي حمل صليب الصلبوت النفيس المانح للحياة، ورافقه أيضاً رجلان مبجلان هما رالف أسقف بيت لحم، المستشار الملكي، وبرنارد، أسقف اللد، كما صاحبه عدد آخر ضئيل من نبلاء المملكة، ولدى إحصاء القوات وجد أنها كانت تتألف من مئتين وخمسين فارساً ونحو ألف جندي من المشاة.

أمضت القوات ليلة أرقة في غزة، وهي تجر الساعات المملة منهكة بعبء القلق العميق، وانطلقت من غزة مع شروق الشمس في الصباح التالي، وانضم فرسان الداوية الذين كانوا قد أتوا إلى هنا لحماية الموقع، بقواتهم إليها، وتقدم الجميع معاً نحو قلعة الداروم.

أعتقد أن هذه القلعة كانت واقعة في أدوميا، أي أدوم، فيما وراء النهر المسمى باسم نهر مصر، الذي يرسم الحدود بين فلسطين والمنطقة المذكورة منذ لحظات، وكان الملك عموري قد شيد قبل بضع سنوات من هذه الآونة هذه القلعة على موقع مرتفع بعض الشيء فوق الخرائب القديمة، التي ما تزال بعض آثارها باقية، وتحكي التقاليد المنقولة عن السكان القدماء لهذه المناطق أنه كان هنالك دير للروم الاغريق في هذا الموقع في الأزمان القديمة كما أن اسم داروم الحالي للموقع، أي «دار الروم» يذكر بتلك الحقيقة ويشهد على صحتها.

كان الملك، كما ذكرنا من قبل، قد أمر ببناء قلعة ذات أبعاد معتدلة في هذا الموقع، لم تغط مسافة زادت على مرمى حجر من الأرض، وكانت مربعة الشكل، وكان يوجد برج في كل ركن من أركانها، وكان أحد هذه الأبراج أضخم من باقي الأبراج وأفضل تحصيناً ولم يكن هنالك خندق حول القلعة أو دفاعات أمامية لها.

وتقع الداروم على بعد نحو خمسة أميال من البحر وأربعة أميال من غزة، وتجمع هنا عدد قليل من مزارعي الحقول المجاورة مع بعض التجار وشكلوا مستعمرة صغيرة. وبنوا

قرية وكنيسة على مقربة من القلعة، واتخذوا مقر سكناهم هناك، ولقد كان موقعاً بهيجاً توفرت فيه شروط الحياة للناس ذوي المراتب الدنيا أفضل مما كان في المدن[1].

كان الملك قد بنى هذا الحصن لكي يوسع حدوده، وكان في ذهنه حقيقة أنه باستطاعته أن يجمع بكل سهولة من هذا الموقع العائدات الكاملة المفروضة سنوياً، من سكان القرى المحيطة الذين يدعوهم شعبنا باسم « كاسااليا » كما كان يمكن أيضاً فرض ضريبة ثابتة على المسافرين المارين على الطريق.

٢٠ ـ الملك ينطلق بسرعة إلى هناك ومعه مجموعة صغيرة من الفرسان. العدو يقتل عدداً كبيراً من شعبنا في كل من مدينة غزة وأثناء السير.

وهكذا انطلق جيشنا من غزة. وبينما كان متوقفاً على مرتفع صغير على طول خط السير لمح معسكر العدو، فأخافته أعداده الكبيرة فشرعت عناصره تحتشد مع بعضها وتتكتل أكثر من المعتاد وكانت محصلة هذا التكتل أن صفوفهم المضغوطة حالت إلى حد بعيد دون إحراز أي تقدم إضافي، فهجم الكفرة على الفور وحاولوا تفريقهم، لكن المسيحيين احتشدوا وتكاتفوا بفضل المساعدة الإلهية بإحكام أكثر وقاوموا هجوم العدو، ثم ساروا بخطوات سريعة قدماً نحو غايتهم حيث توقف الجيش بأسره ونصب خيامه، وذهب السيد البطريرك إلى القلعة، وخيم الباقون جميعاً في الخارج بالقرب من أطراف القرية، وكان الوقت عندئذ حوالي الساعة السادسة من اليوم، وحدثت معارك فردية كثيرة في غضون ذلك اليوم بالإضافة إلى بعض الإشتباكات التي شاركت فيها مجموعات كاملة، وأظهر جنودنا شجاعة كبيرة في الهجوم والمقاومة على حد سواء، ومع حلول الظلام نظم صلاح الدين صفوفه بتشكيل الزحف وقادها نحو غزة، واستراح في تلك الليلة بالقرب من النهر، وواصل زحفه في الصباح إلى غزة وتوقف أمام المدينة.

كانت مدينة غزة القديمة جداً عاصمة مشهورة فيما مضى للفلسطينيين وقد ورد ذكرها مراراً في التواريخ المدنية والكنسية، كما أن الأبنية الرائعة الكثيرة التي ما زالت باقية فيها تعطي دليلاً على روعتها القديمة. وكانت قد بقيت مهجورة لفترة طويلة من الزمن دون أن يقطنها أحد من السكان. حتى قام أخيراً بلدوين الثالث الملك الرابع للقدس صاحب الذكرى اللامعة، بجمع قوات المملكة ومواردها وبنى على أحد أجزاء الهضبة حصناً قوياً بشكل جيد إلى أبعد الحدود[2] وكان ذلك كله قبل أن يتم الإستيلاء على عسقلان. ولدى

---

(١) لم تكن مثل هذه العواطف والاهتمامات بالفلاحين وبقية الناس منتشرة في أدبيات البلاط للقرن الثاني عشر.

(٢) انظر الكتاب ١٧ ـ الفصل ١٢.

انتهاء هذا الحصن أعطاه لفرسان الداوية ليحتفظوا به بحق دائم. غير أن القلعة لم تشغل الهضبة بأسرها التي بنيت عليها المدينة كما تم ذكر ذلك، وحاول الناس، الذين أتوا إلى هناك للعيش، أن يحموا بقية القلعة بسور وبوابات ليحتاطوا لسلامتهم. إلا أن هذا السور كان منخفضاً بعض الشيء ولم يكن قوياً البتة.

عندما وصل نبأ اقتراب العدو إلى الناس الساكنين على الهضبة، قرروا اللجوء إلى القلعة مع زوجاتهم وأبنائهم وأن يتخلوا عن الجزء الباقي وغير المحمي من المدينة إلى العدو. لأنهم كانوا مزارعين ورجالاً مسلحين وغير معتادين أبداً على أشياء تتعلق بالحرب، إلا أن ميلون دي بلانسي الذي كان واحداً من النبلاء العظماء في المملكة ورجلاً شريراً، رغب في أن يشجعهم على المقاومة. ولذلك رفض السماح لهم بالدخول وأمرهم بالدفاع عن ذلك الجزء الأكثر ضعفاً من المدينة.

وحدث أن كان في غزة مجموعة مؤلفة من خمسة وستين شاباً من المقاتلين الشجعان مسلحين تسليحاً خفيفاً، وكانوا من أهالي بلدة تدعى (البيره)Mahumaria بالقرب من القدس[1]. وكانوا قد وصلوا في تلك الليلة ذاتها إلى غزة في طريقهم للإنضام إلى الجيش، وقد عينوا بأمر من ميلون لحماية باب المدينة الخارجي. وكانوا يقاتلون هنالك بشجاعة دفاعاً عن بلادهم وحريتهم، ويقاومون بشجاعة محاولات العدو لشق طريقهم بالسيف، واقتحم الكفرة الموقع فجأة من ناحية أخرى بين القلعة والباب المذكور سابقاً، وشنوا هجوماً مفاجئاً من المؤخرة على المجموعة الصغيرة، التي كانت ما تزال تدافع بقوة عن الباب وطوحوها بالكامل، ولم يتمكن الآخرون من المقاومة لفترة أطول من ذلك بعدما بوغتوا وهلكوا بالسيف، وعلى الرغم من مقتل عدد كبير من هؤلاء الشبان الشجعان وإصابة الكثير منهم بجراح فإن الأعداء لم يخرجوا من هذه المعركة سالمين، لأن انتصارهم كان انتصاراً دموياً.

قام سكان المدينة الآن بمحاولة أخرى لدخول القلعة، وعلى الرغم من أن الأتراك كانوا داخل الأسوار وكانوا يقومون بمذبحة لا تمييز فيها وفظيعة جداً في كل مكان، فإنه لم يسمح لهم بالدخول، ولم يحصلوا على أية وسيلة للنجاة، واندفع الأتراك على الفور واستولوا على المدينة، ولم تجر مراعاة لجنس أو لعمر، وقذف حتى الأطفال الرضع إلى الحجارة، ومع ذلك، فإن الغضب اللامحدود للغزاة بدا عاجزاً عن الإشباع، ولقد أبقاهم اللاجئون الموجودون في البرج بعيدين عنهم بقذفهم بالحجارة والأسلحة الأخرى بشكل مستمر، وهكذا، بقي الحصن سليماً بمساعدة الرب.

---

(١) يعتقد أنها البيرة الحديثة وهي على الطريق الرئيسي إلى الشمال من القدس وتدعى La Grande Mahomerie على خريطة الصليبيين لفلسطين.

عاد الأعداء إلى الداروم بعدما استولوا على المدينة وقتلوا السكان، عادوا وكأنهم يرفعون أكاليل النصر، وصادفوا نحو الخمسين من قوات رجالتنا كانوا يسيرون مسرعين نحو الجيش دون التقيد بالحذر المناسب، فقتلوا هؤلاء دون استثناء وذلك على الرغم من أن المسيحيين قاتلوا بكل شجاعة بسيوفهم في محاولة يائسة منهم لإنقاذ أرواحهم.

٢١ - صلاح الدين يعود إلى أراضيه. الملك يعود إلى عسقلان بعد زيارة الداروم المخربة حالياً جزئياً. مقتل توماس رئيس أساقفة كانتبري في كنيسته في العام نفسه، وهو شهيد رائع في المسيح.

عبأ الأتراك صفوفهم الآن ووضعوها بترتيب المعركة حسب القانون العسكري، وقسموا قواتهم إلى إثنتين وأربعين فرقة، وصدرت الأوامر إلى عشرين فرقة من هذه الفرق بالتقدم بالطريق الساحلي بين الداروم والبحر، وتوجب على الفرق الباقية أن تسلك الطريق البري حتى يتم اجتياز القلعة عندما تتحد القوات ثانية وتعود من جديد كتلة واحدة.

استعد المسيحيون لخوض المعركة أيضاً بعدما تصوروا أن العدو كان عائداً بترتيب المعركة، وصحيح أن أعدادهم كانت قليلة إلا أنهم وضعوا ثقتهم برحمة الرب، واستعدوا للمواجهة بعد أن التمسوا المساعدة من عليين، ومنحهم الرب قوة وشجاعة راسخة، وما من شيء بدا لهم أكثر تأييداً من أن الأتراك قد عادوا ليحاربوهم. إلا أن نية الأتراك كانت مختلفة كل الإختلاف، فهم لم ينعطفوا نحو اليمين أو اليسار بل عادوا بالسرعة الكلية إلى مصر.

جلب رسل ثقاة الآن نبأ أفاد أن العدو قد رحل دون نية بالعودة، وبناء عليه عاد الملك يوجهه الرب مع جيشه إلى عسقلان. وترك في الداروم قوة من الجند لتعيد بناء القلعة النصف مخربة والتي توجب تحصينها بعد إعادة بنائها بقوة أكثر وحراستها بعناية، وقال الذين شهدوا حملات كثيرة في المملكة لم يحتشد حسب معرفتهم قط جيشاً كبيراً من الأتراك مثل هذا، وقد كان عدد الفرسان وحدهم حسب إحدى الروايات نحو أربعين ألفاً[١].

احتفل في حوالي هذا الوقت نفسه، أي في التاسع والعشرين من شهر كانون الأول بذكرى وفاة الشهيد الرائع القديس توماس رئيس أساقفة مدينة كانتبري في انكلترا[٢]،

---

(١) يعني عدداً كبيراً جداً، ولا شك أن ذلك قد كان، لكن ينبغي ألا يحمل حرفياً.

(٢) قتل توماس بيكت رئيس أساقفة كانتربري في ٢٥ كانون الأول من عام ١١٧٠. وهذا الوصف الموجز لحياته ووفاته صحيح فعلياً، وأعلن البابا الكسندر الثالث قداسته في بداية الصوم الكبير لعام ١١٧٣ على الأرجح.

وكان من سكان لندن وكان قد أصبح في زمن ثيوبولد رئيس أساقفة كانتبري ذي الذكرى المباركة، رئيساً لشماسة تلك الكنيسة، ثم استدعاه فيما بعد هنري الثاني ملك انكلترا ليشارك في مسؤولية المملكة، وكان مخلصاً وحكيماً كمستشار، وكان مدبراً متمكناً للمملكة بأسرها، وبعد وفاة الأب المبارك ثيوبولد استدعي توماس بناء على أمر الملك ليصبح رئيساً لأساقفة كانتبري وذلك كمكافأة على خدماته، فكافح بقوة واقدام في سبيل حقوق الكنيسة ضد الإستبداد والشرور واضطر نتيجة لذلك إلى الهروب إلى فرنسا ليتجنب اضطهاد الملك هنري، وتحمل هنالك النفي لمدة سبع سنوات بصبر بارز جدير بالمدح السامي، ولدى عودته من هذا الغياب القسري، وبينما كان منتظراً الأمن الذي كان قد وعد به، ذبح بسيوف رجال أشرار في داخل الكنيسة ذاتها التي كان قد ترأسها بإرادة الرب، فقد قتل بشكل شائن عندما كان يصلي من أجل مضطهديه. وكلل بدمه ولاقى مصير الشهادة الرائع، وكان الرب قد تجلى من خلاله في تلك الكنيسة ذاتها وفي كل مكان من المنطقة بالفعل لينجز معجزات كثيرة جداً، وبشكل يومي تقريباً لدرجة أن أزمان الرسل بدت وكأنها قد عادت بالفعل.

٢٢ ـ الملك يزور القسطنطينية بمرافقة بعض نبلائه. الإمبراطور يغدق عليه أعطيات كثيرة.

استدعى الملك في العام اللاحق، الذي كان العام السابع [1] من حكم عموري، جميع نبلائه إليه ووضع أمامهم احتياجات المملكة، لأنه أدرك أن اضطرابات كثيرة كانت تثقل كاهل المملكة، وأن أعداء العقيدة المسيحية كانوا يتزايدون باستمرار ليس فقط في العدد والقوة بل في القوى والثروات أيضاً، هذا وكانت مملكتنا من جهة أخرى خالية تماماً من القادة الحكماء والعقلاء، حيث أن الجيل الشاب الذي كان يأخذ مواقع أسلافه كان ينمو في الشر، فقد كان يحتل دون غاية أو نتيجة مواقع رجال بارزين، وقد أخذ يبدد بطرق مخزية الميراث الذي تلقاه من آبائه، وكانت المحصلة تدهور المملكة كثيراً بحيث اتضح ضعفها حتى لأكثر الناس غباء، ولذلك فقد طلب الملك نصيحة نبلائه بخصوص طريقة معالجة هذه الحالات الشريرة وإنقاذ المملكة، فأجابوه بعدما تداولوا بين بعضهم، وبالإجماع تقريباً «إنه بسبب آثامنا هوت المملكة في حالة يائسة كهذه حيث لم تعد تستطيع مهاجمة أعدائها ولا صد هجماتهم». ونصحوا بوجوب التماس المساعدة من ملوك الغرب لمقارعة هذه المشاكل، ولم يكن لديهم أية خطة لمعالجة أخرى يقترحونها.

وهكذا تقرر وبناء على موافقة الجميع إرسال وفد مؤلف من رجال ذوي منزلة سامية

---

(١) ينبغي أن يكون عام ١١٧١ هو العام التاسع لحكمه وليس السابع.

إلى ملوك الغرب ليشرحوا معضلات المملكة ويبينوا مصاعبها ويطلبوا مساعدتهم، وصدرت الأوامر إلى المبعوثين بوجوب زيارة البابا وكبار النبلاء وامبراطور الرومان وملوك فرنسا وانكلترا وصقلية واسبانيا وجميع الأمراء والحكام الآخرين المشهورين والتماس مساعدتهم في مكافحة المخاطر الوشيكة التي تهدد المملكة الآن، وتقرر علاوة على ذلك إعلام إمبراطور القسطنطينية بالوضع المتقلقل في المملكة، لأنه لقربه منا ولغناه أكثر من غيره يستطيع بكل سهولة تقديم المساعدة المطلوبة. وتقرر بالتحديد أن يكون المبعوث المرسل إلى الإمبراطور شخصاً موهوباً جداً بالحكمة والفصاحة والقوة المقنعة حتى يتمكن بلباقته ومقدرته من استمالة ذهن ذلك الملك العظيم ليستجيب لرغباتنا.

وبينما كانوا يتداولون حول اختيار شخص مناسب يتولى القيام بهذه المهمة الهامة كان الملك يتباحث مع بعض مستشاريه المقربين، ثم وضع الملك أمام الحشد خطة كان قد تصورها من قبل، وهكذا أعلن أن مهمة ذات أهمية كهذه لا يمكن لأحد أن يتولى القيام بها غيره، وأضاف أنه كان مستعداً لتحمل جميع الأخطار والمشقات لتأمين النجدة الضرورية جداً للمملكة، وارتبك كبار النبلاء لدى سماعهم هذا الإقتراح وقد امتلأوا بالإعجاب ـ واحتجوا أن المهمة شاقة جداً، والأكثر من ذلك، أن المملكة ستكون بحالة مزرية بدون وجود الملك فيها ومع ذلك أجابهم عموري قائلاً: «فليحكم الرب، الذي أنا وكيله، المملكة وأما بالنسبة لي فإنني مصمم على الذهاب، ولا يستطيع أحد أن يقنعني بإلغاء ذلك القرار».

وبناء عليه انطلق برحلته في العاشر من شهر آذار وبصحبته موكب عظيم يليق بالجلالة الملكية مع مرافقة مؤلفة من عشر سفن، وكان في موكبه وليم أسقف عكا والنبلاء التالية أسماؤهم من المملكة: غورموند صاحب طبرية، وجون صاحب أرسوف، وجيرارد دي بوني قائد القوات الملكية، وروهارد حاكم القدس، ورينو دي نفنس، وجرى إرسال فيليب صاحب نابلس، الذي كان قد تخلى عن منصبه كمقدم لفرسان الداوية أمام الركب براً، وبما أن التأييد الرباني كان مع الملك فقد استمتع برحلة بحرية ميمونة ووصل بسلام إلى مضائق أبيدوس ومطلع البوسفور المعروف باللغة العامية باسم ذراع القديس جورج.

وعلم السيد الإمبراطور الذي كان ملكاً حكيماً وحصيفاً وصاحب مكانة سامية جداً، وجديراً بالمدح في كل النواحي، علم بدهشة أن ملكاً قوياً وحاكماً لمملكة مشهورة وعظيمة حبيبة الرب، كان خلافاً للعرف على وشك زيارة إمبراطوريته. وكان تفكيره الأول التساؤل حول الدافع لرحلة غريبة وصعبة جداً كهذه، ثم امتلأ بالحبور بعدما اتضح له أن نعمة فريدة لا مثيل لها قد أضفيت عليه بكل كرم من عليين وأنها ستزيد أمجاده وترفع مكانته، حيث لم

يسجل حدث غريب كهذا في أي مكان من حوليات تـاريخ امبراطوريته، ولم يحدث من قبل أبداً أن زار ملك من ملوك القدس ـ الذي يعتبر المدافع والمحامي عن الأماكن المقدسة لآلام المسيح وقيامته ـ أيا منَ أسلافه الأباطرة، فقرر الإمبراطور استباق وصول الملك في أن يظهر له تشريفاً كبيراً، ولهذا، استدعى عن ابـن أخيـه يوحـنا الـ Protose Bastos وكان أبرز نبلاء القصر المقدس وهو الذي تزوج الملك عموري من ابنته، فأرسله ليقابل الزائر الملكي. وأمره أن يتأكد شخصياً من وجوب إظهار إجلال كبير للملك في جميع المدن والأماكن التي يمر فيها موكبه وذلك تمشياً مع العرف الأزلي للإمبراطورية ومع العظمة الفريدة المتعلقة بها؛ وعلاوة على ذلك، وجب عليه أن ينصح الملك كابن له لينتظر قدوم الممثلين الإمبراطوريين الذين سيرافقونه إلى المدينة الملكية.

وتنفيذاً لأمر الإمبراطور استقبل هذا الأمير الرائع ومعه حاشية رفيعة المستوى، الملك في مدينة غاليبولس الواقعة على البوسفور، والتي تقع على مسافة قريبة من مضائق أبيدوس، وبما أن الريح لم تكن بالإتجاه الصحيح في ذلك الوقت لتدفع السفينة إلى المدينة الإمبراطورية نزل الملك هنا من الشيني وتقدم مع أفراد حاشيته الشخصية على صهوة الجواد إلى مدينة هرقلية الواقعة على الساحل نفسه، وقد وجد الأسطول هناك في الميناء، حيث كان قد استفاد من تغيير موات للريح ووصـل قبلـه، وهكـذا، ركـب ظهـر السفينـة مجدداً ووصـل إلى القسطنطينية بعد رحلة ميمونة.

٢٣ ـ الملك يدخل إلى الحضرة الإمبراطورية ويستقبله الإمبراطور بإجلال ملحوظ. إجراء محادثات متكررة بينهما حول مسائل بالغة الأهمية.

يقع في هذه المدينة المقر الإمبراطوري المعروف باسم قصر قسطنطين على شاطىء البحر المقابل للشرق. وللطريق المؤدي إليه من البحر رصيف رائع من رخام بديع وتنزل درجات السلم الرخامي إلى حافة الماء وتزينها تماثيل الأسود والأعمدة المصنوعة من الرخام وتضفي على الموقع روعة ملكية، ولقد احتفظ عادة بهذا المدخل لاستخدام الإمبراطور فقط عندما كان يرغب بصعود الجزء العلوي من القصر، ومنح الملك امتياز استخدامه خلافاً للعادة المألوفة وكإشارة على تشريف خاص، وانتظر قدومه هنا كبار النبلاء من القصر المقدس يحيط بهم حشد من عناصر الحاشية الملكية، وقد منح استقبالاً مهيباً للغاية، وتوجه من هنالك بصحبة حاشيته وملحقين كثر من البلاط وسار خلال أروقة مختلفة وغرف متعددة الأنواع إلى القسم العلوي من القصر حيث يقيم الإمبراطور مع نبلائه المشهورين، وتدلت أمام قاعةُ المقابلات ستائر مصنوعة من أنسجة ثمينة مزخرفة بالأعمال اليدوية مماثلة في قيمتها للمادة

نفسها، ويمكن أن ينطبق عليها بالفعل بشكل موائم أقوال ناسو: «فاقت الصنعة المادة كثيراً»[1].

استقبل نبلاء الإمبراطورية العظماء الملك خارج هذه القاعة تماماً حيث وجهوه إلى ما وراء الستائر المذكورة منذ لحظات، ويقال إنه تم عمل هذا حتى يمكن المحافظة على سمو العظمة الإمبراطورية وليكسب في الوقت نفسه ود الملك تجاه الإمبراطور. حيث يقال إن الإمبراطور، الذي لم يكن محاطاً إلا بأعظم نبلاء قصره، قد نهض بطريقة ودية ليحيي الملك، وهو عمل لو تم بحضور البلاط المحتشد، لبدا أنه يظهر تلطفاً كبيراً من جانب جلالته الإمبراطورية[2].

وحالما دخل الملك سحبت الستائر وأصبح الامبراطور مرئياً بالنسبة للموجودين في الخارج، وكان جالساً على عرش من الذهب ومرتدياً أثواباً إمبراطورية. وأجلس الملك إلى جانبه على عرش آخر كان رائعاً لكنه أخفض قليلاً عن عرش الإمبراطور ومنح الإمبراطور بسخاء زائد التحية المألوفة وقبلة السلام لنبلائنا أيضاً وأجرى استفسارات لطيفة حول سعادة الملك وأعضاء حاشيته، وأظهر بوضوح بأقواله وتعبيره أن قدومهم قد أعطاه سروراً كبيراً، وكان قد أمر الخدم وموظفي القصر المقدس بإعداد اجنحة خاصة ذات عظمة كبيرة داخل القصر نفسه للملك وحاشيته، وهيأت في المدينة مساكن منفصلة ذات مستوى رفيع مناسب وقعت على مقربة من مقر إقامة الملك لسكن النبلاء المرافقين، ثم انسحب الزوار من الحضرة الإمبراطورية وخلوا لأنفسهم لفترة من الزمن بمرافقة الملك، ثم صرفهم الملك أيضاً بعد أن حدد الساعة التي وجب عليهم العودة فيها، وأرسلهم إلى مساكنهم.

عقد المبعوثون يومياً مداولات جدّية في ساعات حددت خصيصاً لهذا الغرض وكانت تارة مع الإمبراطور وتارة فيما بينهم وتناولت المحادثات القضايا التي أتت بهم إلى هنا وخصصوا في المقام الأول دراسة حذرة للغاية للإجراءات التي يمكن بوساطتها إنجاز هدف رحلتهم الذي كانوا قد تحملوا في سبيل نجاحه مشقّات كثيرة جداً، حتى يتمكنوا من العودة إلى الوطن متوجين بالنجاح.

شرح الملك في أحاديث ودية كثيرة عقدها مع الإمبراطور على انفراد أحياناً وبحضور النبلاء البارزين من القصر مرات أخرى الأسباب التي أدت إلى زيارته، وأعلن في آخر الأمر

---

(١) أوفيد، Met, II, 6 ولربما تعكس هذه العبارة المفضلة لدى وليم اهتمامه بالصناعات الحرفية.

(٢) ينكر شالدون الذي تتبع رحلة عموري خطوة خطوة من السفينة إلى القصر العظمة التي ألصقها وليم بمراسم الاستقبال والستارة [شالدون ـ آل كومنين: ٢/٥٤٧ ـ ٥٤٩].

عن احتياجات مملكته، وأكد على الشهرة الأبدية التي يمكن للإمبراطور أن يحققها بتولي القيام بمشروع الاستيلاء على مصر وأظهر له ببراهين إيجابية كيف يمكن إنجاز المشروع بسهولة، وأصغى الإمبراطور بشكل إيجابي لاقتراح الملك بعدما أقنعته أقواله ووعد بتنفيذ رغباته بأكملها.

أغدق الإمبرطور في هذه الأثناء، حسبما يليق بعظمته الإمبراطورية، هبات عديدة على الملك وعلى النبلاء من حاشيته وأظهر عناية كبيرة خلال زيارات متكررة حول سعادتهم وصحتهم، وتنفيذاً لأوامره، فتحت لهم حتى الأجزاء الداخلية من القصر - أي الأجنحة الخاصة التي لا يطؤها عادة سوى المقربين من أبناء شعبه، والجناح الخاص المفرد لاستعماله - كما تفتح لأفراد أسرته، وامتدت هذه الامتيازات أيضاً إلى المباني المغلقة أمام العامة من الناس، وإلى جميع الكنوز الثمينة التي كان أسلافه الأباطرة قد جمعوها هناك، وبلغ الأمر إلى حد السماح لهم برؤية آثار القديسين وآثار مولانا يسوع المسيح الثمينة بما في ذلك الصليب والمسامير والحربة[1] والأسفنجة والقصبة والتاج الشوكي والرداء الكتاني والصنادل، ولم يبق هنالك أي شيء مقدس أو روحي حوفظ عليه بتوقير من أيام الأباطرة قسطنطين وثيوديوس وجستنيان إلا وشاهدوه في المستودعات الخاصة للغرف المقدسة بدون تحفظ.

ودعا الإمبراطور الملك وحاشيته من وقت لآخر في العطل وأوقات الفراغ ليستمتعوا بالاستجمام الذي قدمته تسليات جديدة ذات سمو ورفعة، حسبما يليق بالمرتبة الممجدة للملكين، وجلبت أحياناً أنواع مختلفة من الآلات الموسيقية حيث تصاعدت من أوتارها نغمات ذات عذوبة رائعة بمقياس متناغم من أجل ابتهاجهما. وفوق ذلك، فقد غنت جوقات من الفتيات وقدمت مسرحيات إيمائية ذات سمات عالية، ومع ذلك، فقد تم التقيد دائماً بالذوق والأخلاق الحميدة. وأمر الإمبراطور أيضاً أن تقدم - على شرف الملك - للناس القاطنين في المدينة ألعاب نفيسة ورائعة تشبه الألعاب التي ندعوها ألعاب مسرحية أو سيركات[2].

(١) ربما كانت هذه هي الحربة المقدسة التي كانت قد ظهرت أثناء هزيمة كربوقا في انطاكية عام ١٠٩٨ وكان ريموند صنجيل قد احتفظ بها وأعطاها إلى الامبراطور ألكسيوس عندما زار ريموند القسطنطينية من جديد في عام ١١٠٠.

(٢) كان فن التسلية والرعاية العامة قد تطور كثيراً في القسطنطينية آنذاك أكثر منه في أي مكان آخر في أوروبا، ولا بد أن نضيف إلى ذلك جاذبيتها بالنسبة للناس القادمين من الغرب.

٢٤ ـ عودة الملك مع نبلائه إلى بلادهم محملين بالهدايا وذلك بعدما تحقق الهدف من رحلتهم.

أقام الملك ونبلاؤه عدّة أيام في قصر قسطنطين، ثم نقل الإمبراطور إقامته إلى القصر الجديد المسمى بلا شيرين[1]. بمرافقة الملك لإجراء تغيير حيث اعتبر ذلك الوسيلة الأكثر فعالية للتخلص من الرتابة، وتقيد الإمبراطور هنالك أيضاً وبشكل كامل بقوانين الضيافة، فقد استضاف الملك بكرم في قصره لعدة أيام حيث خصصت أجنحة فخمة للملك عموري في أكثر المناطق خصوصية في المقر الإمبراطوري لأسلافه، وصدرت الأوامر في الوقت نفسه بتجهيز مساكن لحاشية الملك قريبة من هذا القصر، ولم يتوقف ضباط خزانة الملابس هنا كما لم يتوقفوا من قبل، مع عدد آخر من الضباط معينين خصيصاً لهذا الواجب عن تأمين كل النفقات بشكل فخم ومفرط ليس فقط للأشياء الضرورية بل حتى للكماليات الزائدة.

تمت مرافقة الملك إلى كل مكان من المدينة بكاملها داخل كل من الأسوار وخارجها وقام بزيارة الكنائس والأديرة التي توفر منها عدد غير محدود. ونظر إلى أقواس النصر والأعمدة المزخرفة بالأشياء التذكارية، وكان مرشدوه نبلاء كباراً يعرفون الأماكن بشكل جيد، ولدى استفساره عن طبيعة وهدف كل معروض، كان الرجال الأكبر سناً والمطلعون بشكل جيد يقدمون له المعلومات الكاملة.

وأبحر في هذا الوقت نفسه عبر البوسفور إلى مدخل البحر الأسود، حيث يبدأ البوسفور مجراه إلى البحر المتوسط، وهكذا، زار الملك الذي كان متفتح الذهن متلهفاً دوماً لمعرفة سبب الأشياء أماكن لم تكن معروفة له حتى الآن. وعاد في نهاية الأمر إلى المدينة وهو مسرور تماماً بما كان قد رآه وسمعه، وواصل المداولات الودية مع الإمبراطور حيث كانت رغبته الأكثر جدية أن يوصل مهمته إلى نهاية ناجحة.

وبعد مضي الوقت المناسب تم التوصل إلى إيجاد حلول سعيدة لجميع المسائل الهامة التي جرى بحثها بتلهف، وتمّ تحويل الإتفاق إلى معاهدة مرضية لكل من الإمبراطور والملك وتم تدوينها ثم ختمت بختمي الإمبراطور والملك، وبعدها استأذن الملك بالإنصراف وبدأ يعد التحضيرات للرحيل مصاحباً بود الجميع وأمانيهم الطيبة، ثم أظهر الإمبراطور نحو الملك الكرم والسخاء بشكل أكثر من ذي قبل، وبصورة لا يمكن للمديح تصويرها، فقد منح الامبراطور الملك مقادير كبيرة جداً من الذهب وكميات من الأنسجة الحريرية إضافة إلى

---

(١) كان هذا القصر في الجزء الشمالي الغربي من المدينة الذي كان الامبراطور يقيم عادة فيه.

هدايا رائعة غاية الروعة من السلع الأجنبية، بينما أمطر حاشيته، حتى الصغير منها، بهدايا لا حدود لها وأكثر من أن تحصى.

وأظهر بروتو سيباستوس اللامع سخاء كبيراً أيضاً نحو السفارة بأكملها. وألهبت الروح ذاتها الأمراء الآخرين أيضاً، فتنافسوا فيما بينهم في إهداء هبات سخية للملك، لم تفتقر إلى أناقة المادة وجمال الصنعة، وكلها عبرت عن حسن ودّهم، وعندما أصبح الأسطول جاهزاً أبحر الملك بعدما أنجزت مهمته بنجاح، من القسطنطينية مسافة مائتي ميل عبر البوسفور الذي يعتبر عادة الحد الفاصل بين أوروبا وآسيا، وبعدما مرّ بين مدينتي سيستوس Sestos وأبيدوس Abydos المشهورتين اللتين تعتبران موطني لندر Leander وهيرو Hero نقلته ريح مواتية إلى البحر المتوسط وأخيراً ألقى مراسيه في اليوم السابع عشر قبل بداية شهر تموز في مدينة صيدا [١].

٢٥ ـ الملك يحشد الجيش في الصفورية. عودة فريدريك رئيس أساقفة صور من بلاد ما وراء البحر. مقتل وليم أسقف عكا في رومانيا.

علم الملك لدى عودته إلى المملكة أن نور الدين كان ما يزال معسكراً ينتظر مع جيش ضخم في أحواز بانياس، فاستدعى إليه نبلاء المملكة، ذلك أنه خشي من أن يحاول نور الدين شن الغارات على بلادنا من هناك، وتقدم نحو طبرية ليحتاط بقدر الإمكان ضد طارىء كهذا، وخيم بالقرب من النبع المشهور الواقع بين الناصرة والصفورية، بالنظر لوقوع هذا النبع على مقربة من قلب المملكة فكان بامكانه التحرك بسهولة نحو أي جزء من البلاد يمكن أن تستدعي إليه الحاجة، ونظراً لمواءمة هذا الموقع اعتاد عموري وأسلافه من قبله على جمع جيوشهم في ذلك الموقع.

وحدث في حوالي الوقت ذاته أن عاد سلفنا فريدريك رئيس أساقفة صور، الذي كان قد أرسل باسم المملكة ليلتمس المساعدة والمشورة من ملوك الغرب، إلى البلاد مخفقاً بعد إقامة استغرقت عامين في البلاد الواقعة فيما وراء البحار. وكانت الجهود التي بذلها عقيمة تماماً، ولم يحصل على أي شيء كان قد طلبه باسمنا. هذا وكان قد أرسل قبله الكونت ستيفن، وكان رجلاً منحدراً من أسرة نبيلة غير أن حياته كانت بعيدة عن النبل، وكان ستيفن ابن ثيوبلد الثاني كونت بليوس وتشارترز وترويز، وقام الملك باستدعائه نتيجة

---

(١) ١٥ ـ حزيران ١١٧١. والعبارة مستعارة من كتابات أوفيد.

لوساطة رئيس الأساقفة ووعد أن يزوجه بابنته ولدى وصول الكونت إلى المملكة ذره الملك بلطف بالمسألة، إلا أن ستيفن رفض العرض، بعدما كان قد تم عرضه وقبوله، وبعدما عاش حياة فاسقة مخزية لعدة شهور في المملكة، وقرر العودة إلى موطنه عن طريق البر، وذهب تنفيذاً لهذا الهدف، إلى انطاكية في أول الأمر ومن هنالك إلى كليكيه، وعقد العـزم من ثم بعد حصوله على مرافقة من سلطان قونية على عبور تلك البلاد في طريقه الى القسطنطينية إلا أنه تعرض في كليكية بالقرب من مدينة المصيصة لبلية السقوط في كمين كان قد نصبه له [Malih]. مالح [ماليه] [١] وكان أميراً أرمنياً قوياً جداً وأخاً لطوروس، فقد انقض قطـاع الطرق عليه من مكمنهم وانتزعوا منه جميع الكنوز الثمينة التي كانت معه، وبعد الحاح وتوسلات عظيمة أقنعهم أخيراً وبصعوبة كبيرة في أن يتركوا فرساً هزيلاً لاستخدامه، ووصل في نهاية المطاف إلى القسطنطينية بهذا الشكل المخزي، إنما بعدما عانى من مشقات كبيرة وكان بصحبته عدد ضئيل من المرافقين، وصل وهو ملاحق بكراهية سكان الشرق أجمعين [٢].

وصل إلى المملكة في ذلك العام نفسه كوّنت آخر يدعى ستيفن وهو ابن الكونت وليم دي سوان Saone في رحلة حج لإقامة الصلاة والعبادة، غير أنه كان يختلف تماماً عن ستيفن الآخر فمع أنه كان يحمل الاسم نفسه، فقد كان رجلاً متواضعاً له حياة شريفة، وجدير بالاحترام الكبير التام، وكان بمرافقته هنري الأصغر دوق بيرغندي ابن إحدى أخوات ستيفن المذكور آنفاً، وقد عادا إلى موطنهما بعد إقامة قصيرة، لكنهما توقفا في الطريق إلى القسطنطينية حيث أبدى الإمبراطور نحوهما اهتماماً ملحوظاً، وودعهما محملين بهدايا كثيرة [٣].

وفي العام التالي الذي كان العام الثامن من حكم الملك عموري [٤]، واجه وليم أسقف عكا، صاحب الذكرى الطيبة مصيراً غريباً كان لا يستحقه، فقد كان الملك قد أرسله من القسطنطينية إلى ايطاليا، وقد طاف في تلك البلاد محاولاً بكل وسيلة ممكنة إنجاز المهمة

---

(١) كان Mleh أو Malih هذا أخاً لطوروس الثاني صاحب أرمينية (انظر الحاشية رقم ١ من العنوان رقم ٢٦). وربما كانت معاناة ستيفن أو آخرين كانوا محاصرين بشكل مماثل من قبل Mleh قد دفعه هنري الأسد لرفض عرض مرافقة عبر أراضيه (أبحاث وسيطة وتاريخية على شرف جيمس وستفول تومبسون ص ١٩٦).

(٢) هذا هو ستيفن أوف بلويس الثالث كما يستخلص من وصف وليم، وكان حفيداً للقائد في الحملة الصليبية الأولى وابن أخ للملك الإنكليزي الذي كان يحمل ذلك الاسم.

(٣) ستيفن أوف سوان وهنري أوف برغندي، ومن الغريب أن لا يذكر وليم زيارة هنري الأسد دوق ساكسوني، إلى القدس في عام ١١٧٢ ـ فقد توفي في مدينة صور كونراد أسقف لوبك وكان واحداً من حاشية هنري.

(٤) تعد سنة ١١٧٢ ـ السنة العاشرة من حكمه.

الموكولة إليه، وعندما كان في طريق العودة إلى الوطن وقد عقد العزم على زيارة الإمبراطور أثناء عودته ـ وذلك حسب ترتيب سابق ـ وبعدما وصل إلى أدرنة وهي مدينة مشهورة في تراقية الثانية. وكانت قد أتعبته رحلته الطويلة، تناول الأسقف الطعام عند الظهر ثم تمدد ليريح أوصاله المتعبة، وكان بين أتباعه شخص يدعى روبرت ـ كان قد رقاه هو نفسه إلى منصب الكاهن وجعله بين أفراد حاشيته الشخصية ـ كان مستلقياً في الغرفة نفسها التي كان سيستريح الأسقف فيها، وكان آنذاك يتماثل للشفاء من مرض طويل عانى خلاله الكثير، فاستبد به الجنون فجأة وأمسك بسيفه وطعن الأسقف النائم وأصابه بجراح مميتة، وسمع رجال الأسقف الموجودون في الخارج صرخاته وأدركوا من خلال تأوهاته وصيحاته العالية أن سيدهم كان في آلام الموت، وحاولوا الإندفاع لمساعدته إلا أن الباب كان مقفلاً بإحكام من الداخل حيث كان الدخول مستحيلاً، وعندما تم أخيراً فتح الباب بالقوة وجدوا سيدهم بدون حراك مع أن قلبه كان ما يزال يخفق بضعف، وكان هدفهم الأول الآن هو القبض على المجرم وتسليمه مكبلاً بالسلاسل إلى العقاب اللائق به حسب القوانين التي تحظر القتل، غير أن الأسقف منعهم من ذلك بالقول والإشارة وتوسل إليهم بجدية بالغة أن يُمنح القاتل غفراناً كاملاً لسعادة روحه، وعندما كان ما يزال يتوسل إليهم بعدم اتخاذ أي إجراء ضد الرجل الشاب لاماتته تخلى عن نفسه الأخير إلى الرب، وقد حدث هذا في التاسع والعشرين من شهر حزيران.

ولم نتمكن حتى الآن من تحديد سبب هذا العمل، وقد قال بعضهم إن روبرت، الذي اقترف هذا العمل الوحشي، كان يعاني من مرض طويل، وكان على الرغم من تماثله للشفاء قد انتابته نوبة عنيفة مفاجئة، ولذلك لم يكن مسؤولاً عن هذا العمل الشرير، وعلى العكس من ذلك، يؤكد آخرون أنه ارتكب الجريمة بسبب كراهيته لرجل كان يعمل حاجباً للأسقف، وكان يستغل حظوته لدى سيده إلى أبعد الحدود، فعامل روبرت والآخرين بشكل سيء [1].

وفي الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني من العام نفسه جرى تعيين جوزشيوس وهو كاهن وشماس في تلك الكنيسة ذاتها، أسقفاً لعكا وخليفة لوليم المتوفى.

---

(١) هذا مثال ممتاز ليس فقط عن موقف وليم القضائي بل أيضاً عن عدالة القرون الوسطى، التي اعترفت بوضوح بالجنون كحجة لمصلحة المدعىٰ عليه. ومن المؤكد أن وليم كان يعرف الأفراد المشتركين.

٢٦ ـ مالح [١] الأرمني، أخو طوروس يضم قواته إلى قوات نور الدين ويجتاح منطقة انطاكية. الملك يسرع بالتوجه إلى هناك ليقمع عمله الشرير.

حدثت في هذه الآونة وفاة طوروس الذي كان رجلاً عظيماً ونبيلاً كنت قد ذكرته مراراً كأمير قوي للأرمن. ورغب أخوه مالح، الذي كان رجلاً شريراً للغاية، أن يستولي على الميراث لنفسه، ولهذا القصد ذهب الى نور الدين وتوسل إليه بجدية أن يعطيه قوة من الفرسان ليستولي بها بقوة على ممتلكات أخيه، وكان النبلاء العظماء في تلك المنطقة قد أرسلوا الآن بعد وفاة طوروس في طلب توماس [٢]، وهو أحد أبناء أخت لهذين الحاكمين، وعينوه وملكوه بشكل آمن سائر إمارة خاله، وكان توماس لاتيني المولد، غير أنه افتقر تماماً إلى القوة والعقل ليوائم نفسه للتعايش والتعاون مع هؤلاء الذين قد استدعوه.

وتمكن مالح في ظل بعض الشروط المحددة تماماً المرضية لنور الدين من الحصول على قوة كبيرة من الفرسان، وبعمله هذا كان مالح أول بني جنسه إقداماً على انتهاك عادات أسلافه، بطلب مساعدة العدو وبادخال قوة مسلحة من الكفرة إلى ميراثه وأراضي آبائه، واجتاح ممتلكات أسلافه بالقوة، وطرد ابن أخيه، واستولى على المنطقة بأسرها، وكان أول أعمال حكمه، بعدما استولى على انسلطة، تجريد فرسان الداوية من جميع ممتلكاتهم في كليكية مع أنه كان ينتمي من قبل إلى منظّمتهم، ثم شكل حلفاً مع نور الدين والأتراك وفق معاهدة نادراً ما تعقد حتى بين الإخوة، وتخلى عن شريعة الرب بعدما أصبح كافراً ومن ثم ألحق بالمسيحيين جميع الأضرار التي استطاع الحاقها، وألقى في غياهب السجون جميع الذين حدث أن وقعوا في قبضته ونقلهم إلى بلد العدو ليباعوا كعبيد.

وأظهرت هذه الإساءات التي ارتكبها هذا الرجل الشرير ضد المسيحيين على الفور أنه من أسوأ أعدائهم، وهكذا، حمل أمير أنطاكية وعظماء تلك المنطقة السلاح ضده مع أنه بدا شاذاً وغريباً بالنسبة للمسيحيين أن يثوروا ضد امرىء كان يعتنق العقيدة نفسها، الأمر الذي كان مماثلاً في الواقع لحرب أهلية تقريباً، ودفعوا مالح ووصموه بأنه عدو المملكة.

---

(١) كان Mleh أو Malih متقلباً بطرق عديدة. فقد أصبح عضواً في الكنيسة الغربية ومن الداوية، ثم هرب فيما بعد إلى بلاط نور الدين وأصبح مخلصاً جداً له. واستولى بمساعدته على مملكة ابن أخيه وأساء معاملة الداوية، ثم قتله جنوده في آخر الأمر في عام ١١٧٥ (انظر فريدريك مكلر «أرمينيا» في تاريخ كمبردج للعصور الوسطى: ٤/١١٧٠ - ١١٧١).

(٢) لا يعرف سوى القليل عن توماس هذا زيادة على هذه العبارات التي أوردها وليم. كانت والدته أختاً لطوروس الثاني ومالح وكان والده نبيلاً لاتينياً، وقد استدعي ليعمل كوصي على روبان الثاني ابن طوروس الثاني وقد طرده مالح وخلع الوريث الحقيقي (انظر جورانسون «هنري الأسد» ـ المصدر نفسه ص١٩٦ ـ الحاشية ١٧٧).

وبادر الملك مع قواته إلى أنطاكية عندما علم بالمشكلة التي كانت قد ثارت في تلك البلاد لأنه رغب في أن يقوم بدوره في أي إجراء يخدم السلام، وأرسل من هناك رسله الشخصيين إلى مالح ذلك التعيس، الذي كان رجلاً منبوذاً تماماً ولا يحظى بتأييد الرب، وطالب بإلحاح في أن يوافق على عقد مداولة معه بنفسه في وقت ومكان موائمين، وتظاهر مالح بالسرور بهذه الرسالة غير أن عواطفه كانت مختلفة تماماً في الواقع، وأرسل الملك إليه في مرات عديدة المندوبين وحاول عقد هذا اللقاء، إلا أنه اكتشف في آخر الأمر أنه مخدوع بحيل هذا الرجل الشرير ومكرِه، وأنه لا يمكن بالتالي تحقيق أي شيء بهذه الطريقة، وبناء عليه جمع في خاتمة المطاف جميع قوات المسيحيين الموجودة في ذلك الموقع، وغزا أراضي عدوه بهذا الجيش، وحرق الجند المحاصيل أثناء سيرهم عبر سهل كليكية (لأن الزحف عبر الطريق الجبلي المنحدر كان أمراً في غاية الصعوبة) وحاول الجند الهجوم على القلاع الواقعة على طول خط سيرهم، لكن وصل فجأة رسول يحمل نبأ مشؤوماً أفاد أن نور الدين كان قد ألقى الحصار على البتراء عاصمة العربية الثانية، والمعروفة أيضاً باسم الكرَك، وهي شائعة ثبت أنها صحيحة.

أحدث هذا النبأ كرباً شديداً للملك، فاستأذن الأمير بالانصراف على الفور وانطلق بسرعة مع أتباعه الذاتيين، لكن كان نبلاء المملكة قد جمعوا قبل وصوله إلى بلاده بعمل فوري وحصيف سائر القوة العسكرية في المملكة، وكان همفري كافل المملكة قد تولى المسؤولية الكاملة عن الجيش، بينما عهد إلى رالف أسقف بيت لحم مهمة حمل صليب الصلبوت، وكان الجنود يتقاطرون بشجاعة ودونما تأخير إلى المكان المحدد عندما قابلهم رسول جلب الأخبار الهامة التي ثبت أنها صحيحة، وأفادت أن نور الدين كان قد تخلى عن الحصار دون أن يحدث أضراراً للموقع، وأنه عاد إلى موطنه، وحدث بالتالي أن وجد الملك لدى وصوله إلى المملكة ـ خلافاً لتوقعاته ـ أن كل شيء كان آمناً بقدر ما كان مرغوباً.

٢٧ ـ صلاح الدين يحاصر قلعة الكرك الواقعة فيما وراء الأردن. ادراكه أن جهوده عقيمة وعودته إلى بلاده.

استعد صلاح الدين في العام اللاحق مع بداية حلول فصل الخريف ليغزو منطقتنا بقوات ضخمة وعدد كبير من الفرسان، وعبر الصحراء على رأس حشود لا تحصى جمعها من سائر أنحاء بلاد مصر ووصل إلى الموقع المسمى باسم كنيس الترك.

وكان الملك قد استبق قدومه فحشد جيشه؛ ونصب معسكره، بمرافقة السيد البطريرك الذي كان يحمل صليب الصلبوت المسالخ للحياة، بالقرب من بئر السبع حيث يمكنه مقابلة العدو المتقدم بسهولة أكثر.

ولقد قيل إن قوات صلاح الدين كانت تتمركز على بعد ستة عشر ميلاً تقريباً من معسكر الملك، إلا أن الملك عموري لم يكن واثقاً حتى الآن أن الأتراك قد وصلوا بالفعل إلى ذلك الموقع، ومع ذلك، ثبتت صحة الرواية، وكان صلاح الدين قد أقام بالفعل معسكره هناك بسبب توفر الماء الموائم.

وقرر الملك بعد التداول مع نبلائه أن يغير طريقه ليتجنب المقابلة مع الأتراك، وهكذا، تقدمت القوات والناس جميعاً إلى عسقلان تحت ذريعة البحث عن العدو الذي كانوا قد تجنبوه بحذر وهو على مقربة منهم، وزحفوا من عسقلان إلى الداروم وعادوا من هنالك ثانية إلى نقطة انطلاقهم الأصلية بعد تبديد عقيم للجهد والنفقة.

تقدم صلاح الدين في هذه الأثناء عبر سهول أدوم وقاد كتائبه إلى وادي عربة، وحاصر هنالك قلعة تعتبر المعقل البارز والرئيسي لذلك الإقليم بأسره، وهاجم هذه القلعة بنشاط عنيف بقدر ما سمح الوضع، لأنها كانت تقع على هضبة مرتفعة وكانت محصنة بشكل رائع بالأسوار والأبراج والشرفات وكانت القرية الخارجية واقعة على منحدر الهضبة، في موقع منحدر جداً وعال بحيث لم يكن هنالك حاجة للخوف من الغزوات أو الهجمات بالآلات الحربية أو الأقواس، وكان السكان جميعهم من المسيحيين، ولذلك كان ممكناً الاعتماد عليهم، وعلاوة على ذلك، كانت القلعة مزودة بشكل جيد بالأسلحة والمؤن وكان فيها حامية كافية من الجنود للدفاع عنها.

وبدد الكفرة جهودهم لبضعة أيام في هذا الموقع دون نجاح، وأخيراً أصدر صلاح الدين أمر الرحيل بعدما اقتنع أن القلعة كانت منيعة، وعاد إلى مصر مع قواته عن طريق الصحراء.

٢٨ - صلاح الدين يدمر المنطقة الواقعة فيما وراء الأردن بالأكمل. الملك يحتفظ بجيشه في موقع يسمى الكرمل. ريموند صاحب طرابلس يعود من الأسر.

في العام اللاحق الذي كان العام العاشر من فترة حكم الملك عموري أجرى صلاح الدين استعداداته من جديد لغزو المملكة، وقد رغب بالتعويض عن إخفاقه بعدما أدرك أنه لم يكن قد أنجز سوى القليل ضد قواتنا في العام السابق، وهكذا جمع حشداً ضخماً من المحاربين من أنحاء مصر كلها ومن أماكن أخرى أيضاً وتقدم عبر طريق الصحراء حتى تبدو تحركاته أقل لفتاً للنظر، ويمكنه بالتالي إلحاق ضرر أكبر بالسكان[1]، ووصل في شهر تموز إلى الموقع ذاته الذي كان قد احتله بجيوشه في العام السابق.

---

(١) إن روايات وليم عن الحملات العديدة لصلاح الدين إلى جنوب فلسطين ومنطقة الكرك، متشابهة للغاية مما يثير

إلا أن الملك كان قد بلغته أخبار تقدمه. وهكذا ذهب إلى الصحراء مع نخبة القوات العسكرية في المملكة ليقابل الأمير الكافر، وأبلغ مجدداً أن صلاح الدين كان قد انتقل، كما فعل في العام السابق إلى وادي عربة، وذهب الملك إلى المنطقة الجبلية بعدما خاف من اللحاق به إلى هنالك، وخشية أن يقوم صلاح الدين لدى معرفته بأنه كان يطارده من الدخول من ناحية ثانية ويدّمر المملكة، واختار الملك موقعاً موائماً هناك وتراجع إلى الكرمل.

والكرمل هذه هي ليست جبل الكرمل المشهور الواقع على الساحل والذي كان فيما مضى دار إلياس، بل هي قرية قرأنا أن نابال الأحمق كان قد سكن فيها من قبل [1] واختار الملك هذا الموقع بحكمة بسبب توفر المياه، حيث كان هنالك بركة قديمة ذات امتداد كبير وكانت كافية لتزويد الجيش بأسره بالمياه الوفيرة، وعلاوة على ذلك، كانت الكرمل بالقرب من المنطقة الواقعة فيما وراء الأردن، ومفصولة عنها فقط بالوادي الشهير الذي يشكل الحدود بين المنطقتين والذي يقع البحر الميت فيه، ولهذا السبب، فقد كان بإمكان جيشنا الحصول على أخبار متواترة عن تحركات العدو والتأكد من وضع قوات صلاح الدين.

نهب صلاح الدين ـ في الوقت نفسه، وكما شاء ـ المنطقة بأسرها لأن الملك تردد في الاقتراب من تلك المنطقة للأسباب المذكورة منذ لحظات، وأمر صلاح الدين بإحراق كل ما عثر عليه خارج القلعة، وأمر بقطع الأحراش والكروم وأمر بتدمير القرى، وعاد أخيراً إلى مصر وذلك في حوالي نهاية شهر ايلول بعدما اجتاح المنطقة اجتياحاً تاماً وحسب هواه الاستبدادي.

عاد في هذه الآونة ريموند الأصغر كونت طرابلس إلى ممتلكاته الموروثة وكان قد أمضى ثماني سنوات كسجين في الفقر المدقع والسلاسل، وقد أطلق سراحه في النهاية بعد دفع فدية قدرها ثمانون ألف قطعة ذهبية، وأعيد إلى وضعه السابق من الحرية، فرحب الملك به لدى عودته بلطف بالغ، وأعاد إليه المنطقة التي كانت تحت رعايته خلال غيابه وذلك دون إثارة لأية متاعب، وقدم إليه علاوة على ذلك مقداراً كبيراً من الهبات بسخاء ملكي يساعد في دفع فديته، وأقنع نبلاءه ومطارنة الكنيسة أيضاً أن يحذوا حذوه.

٢٩ ـ الحديث عن فرقة الحشيشية. وعن السفارة التي أرسلوها إلى الملك أيضاً.

وقع بيننا في هذه الآونة بالذات أمور كانت مشحونة بنتائج رهيبة للمملكة

= شبهة وجود اضطراب لديه (انظر ستيفنسون ـ الصليبيون في الشرق ص٢٠١ ـ ٢٠٢. روهرخت ـ ملوك القدس ص٣٥٦ ـ ٣٥٧).

(١) صموئيل الأول: ٢/٢٥.

(٢) تم أسره في حارم في عام ١١٦٤. وستنتهي الثمانية أعوام من الأسر في /١٨/ تشرين الثاني عام ١١٧٢، مع أن السياق العام يبدو وكأنه يشير إلى صيف عام ١١٧٣ على أنه عام إطلاق سراحه.

والكنيسة، لقد وقعت كارثة يؤسف عليها حتى الوقت الحالي، وربما إلى الأبد، وحتى نحصل على فهم واضح للقضية فمن الضروري أن نأخذ في سرد الحكاية إنما بعد أن نعود إلى الخلف قليلاً.

تعيش قبيلة من الناس في منطقة صور في فنيقية وفي أبرشية طرطوس حيث تمتلك عشرة حصون مع القرى الملحقة بها، ويبلغ تعدادهم، كما سمعنا مراراً، نحو سبعين ألف نسمة، وربما يزيد على ذلك، ولقد اعتاد هؤلاء الناس على اختيار حاكمهم ليس بحق وراثي، بل بامتياز الجدارة، ويطلقون على زعيمهم عند اختياره اسم «الشيخ» مترفعين بذلك عن مناداته بلقب مبجل، وخضوعهم وطاعتهم له مطلقتان حيث لا يعتبرون أي شيء صعباً أو قاسياً جداً في سبيل ذلك، ويتولون القيام بتلهف بأكثر المهام خطورة تلبية لأمره[1] ومثالاً على ذلك، إذا ما حدث ووجد أمير جلب على نفسه كراهية هذا الشعب أو عدم الثقة به، فإن الزعيم يضع خنجراً في يد واحد أو عدد من أتباعه، فيعملون بحماسة طالما يستلزم ذلك حتى تأتي الفرصة المواتية في آخر الأمر بحيث يمكنهم تنفيذ أمر الزعيم[2]، ولا يعرف المسيحيون ولا المسلمون من أين اشتق اسم الحشيشية هذا[3]، حيث كان الحشيشة قد اتبعوا شريعة وتقاليد المسلمين منذ قرابة اربعمائة عام وبشكل تام لدرجة أن جميع الشعوب تبدو بالمقارنة معهم منحرفة وأنهم وحدهم المتقيدون الكاملون بالشريعة، لكن حدث خلال عهدنا أن اختاروا حاكماً لهم كان رجلاً فصيحاً جداً، وحاد الذكاء ولامعاً، وكان بحوزة هذا الرجل ـ خلافاً لعادات أسلافه ـ كتب الأناجيل والشريعة الرسولية، وقد انكب باستمرار

---

(١) قدم حتي وصفاً موجزاً لهذه الطائفة الإسلامية وأعاد أصلها إلى الخلافة الفاطمية. ويوحي تلميح وليم إلى الطاعة غير المحدودة لأتباع شيخ الجبل أنه كان مطلعاً على قصة مراسم الحشيش التي نقلها حتى عن وصف ماركوبولو، وربما رواها وليم في كتابه ـ أعمال حكام الشرق ـ لأن جاكو دي فيتري الذي استخدم كتاب وليم يروي هذه القصة (حتي ـ تاريخ العرب ص٤٤٦ ـ ٤٤٨). هذا ونشرت عدة أبحاث جديدة حول هذه الطائفة بعد حتي وتوصل الباحثون إلى أنها عرفت ببلاد الشام باسم الحشيشية لسبب غير معروف، إنما من المؤكد لا علاقة له بمادة الحشيش، هذا ولا يمكن الافتراض حول ما قاله وليم في كتابه الآخر ما دام لم يصلنا كما لا يصح تحميل روايته هذه أكثر مما تحتمل وتأويلها بعيداً عن الحقيقة.

(٢) قتل الحشيشية القادة من المسلمين والمسيحيين، وكان وليم قد أشار إلى ريموند الثاني صاحب طرابلس كأحد ضحاياهم، ويعزو ابن القلانسي إليهم عدة اغتيالات حدثت في دمشق، وقد قاموا بمحاولة لقتل صلاح الدين، إلا أن تهديده بإبادة الطائفة أنهت تلك المحاولات، لا سيما بعد توسط والي حماه (انظر حتي ـ تاريخ العرب ص٤٤٧).

(٣) كان الأمر مقبولاً عموماً أيام حتي في مطلع هذا القرن أن الاسم مشتق من «حشيش» ومعناه المتعاطون للحشيش وهو المادة المخدرة المستخرجة من القنب أو الماريجونا (حتي ـ تاريخ العرب ص٤٤٦). (ومن المفيد العودة إلى كتاب الحشيشية أو الدعوة الاسماعيلية الجديدة لبرنارد لويس. وقد ترجمته وطبع في بيروت ١٩٧٠).

على دراسة هذه الكتب وحاول لفترة من الزمن وبجهد كبير اتباع الوصايا الرائعة للمسيح والعقيدة الرسولية أيضاً.

ودفعته العقيدة الوديعة والمهيبة للمسيح وأتباعه، بعد مقارنتها مع عقيدة محمد التعيسة التي كان قد نقلها إلى أصحابه وأتباعه المخدوعين، إلى احتقار المعتقدات التي كان قد رضعها مع حليب أمه، وإلى مقت معتقدات الضلال القذرة، فكان أن أقدم بالطريقة نفسها على تعليم شعبه وجعلهم يتوقفون عن التقيد بخرافة الإسلام، فدمر المساجد التي اعتادوا على استخدامها، وأعفاهم من الصوم وسمح لهم بشرب الخمر وأكل لحم الخنزير، وأرسل في نهاية المطاف مندوباً إلى الملك حيث كان راغباً بالتقدم إلى فهم كامل لأسرار شريعة الرب، وكان هذا المندوب، الذي يدعى عبدالله، رجلاً حكيماً وفصيحاً وبارعاً في المشورة، ومتمكناً تماماً من فهم عقيدة سيده، وقد حمل اقتراحات سرية كانت الفكرة الرئيسة منها والفقرة الأكثر أهمية أن شعب الحشيشة سيقوم إذا ما تولى الداوية، الذين كانوا يحتفظون ببعض القلاع المجاورة لمناطقهم، بإلغاء جزية الألفي قطعة ذهبية التي كان شعبه يدفعها لهم سنوياً، وإذا ما تقيدوا من ذلك الحين فصاعداً بمعاملتهم بلطف أخوي، سيقوم باعتناق عقيدة المسيح وتلقي التعميد.

٣٠ ـ فرسان الداوية يقتلون رسول الحشيشية. نشوب اضطراب عنيف جداً في المملكة نتيجة لهذا. موت رالف أسقف بيت لحم.

استقبل الملك الرسول بسرور، وبما أنه كان رجلاً صاحب حسٍّ سليم، فقد وافق تماماً على المطالب المقدمة، ويقال إنه كان مستعداً لأن يعوض الداوية من خزينته الخاصة ويدفع لهم ألفي قطعة ذهبية، أي مقدار الجزية السنوية التي طلب الحشيشية إعفاءهم منها، واحتفظ بالرسول لديه فترة طويلة من الزمن ليكمل معه تفاصيل الاتفاق، ثم أعاده إلى سيده لإعداد الترتيبات الأخيرة، ومعه مرشد ليقوده ويحميه على الطريق، وكان عبدالله قد اجتاز طرابلس بمرافقة الدليل والرفيق الذي زوده الملك به وكان على وشك الدخول في بلاده عندما انقض بعض فرسان الداوية فجأة على فريقه بسيوف مسلولة وقتلوه. وكان هذا الرسول يواصل رحلته دون حذر، وبشكل بعيد عن توقع حدوث عمل كهذا، وباعتماد تام على أمان الملك وعلى الود المخلص لشعبنا، وجلب الفرسان على أنفسهم بهذه الجريمة تهمة الخيانة [1].

---

(١) يسخر لندغرين ـ غير القادر على ذكر أي مصدر مخالف ـ من هذه القصة كمثال آخر على تحامل وليم، ورغبته في اتهامهم بالجشع، ودليله الوحيد هو مسألة أن هنري دوق ساكسوني وبافاريا قد قدم هبة مالية سخية إلى الداوية في تلك الآونة (وليم الصوري والداوية، ص ١١١ ـ ١١٤).

أثار نبأ هذا العمل الوحشي غضب الملك، بشكل عنيف جداً، فاستدعى النبلاء، وهو مسعور تقريباً، وأعلن لهم أن الاعتداء وصل إلى حد الإساءة إليه شخصياً وطلب مشورتهم بخصوص العمل المتوجب اتخاذه، وكان النبلاء على رأي واحد وهو أنه لا ينبغي التغاضي عن عمل شرير كهذا، لأن السلطة الملكية بدت أنها ملغاة، وأنه قد جلب عاراً جائراً على ود وولاء العقيدة المسيحية، زد على هذا أن الكنيسة بدت في الشرق بهذا العمل معرضة لاحتمال فقدان التوسع السار جداً للرب الذي جرى إعداده لها من قبل.

ولـــذلـــك، تم بموافقـــة الجميـــع اختيـــار نبيلين هما: سيهير دي ميمـــدنـــك Seiher de Mamedunc وغودزكالوس (غودتشوكس) دي تور آوت كرسولين خاصين ليطلبا من يوذر دي سينت أماند مقدم الداوية تقديم تعويض إلى الملك والمملكة بأسرها عن هذا الاعتداء المدنس للمقدسات.

قيل إن واحداً من الداوية يدعى وولتر دي ميسيلو وكان رجلاً بعين واحدة وصاحب سمعة شريرة، ويفتقر إلى التعقل تماماً «حيث كانت روحه في منخريه»[1]، كان المدبر الحقيقي للجريمة، وأنها تمت بمعرفة الداوية جميعاً، ويقال إضافة لذلك إن المقدم أرسل ـ رغبة منه في استبقاء هذا الرجل بشكل يفوق استحقاقاته ـ رسالة إلى الملك مع رسول كان مفادها أنه كان قد فرض عقوبة على الفارس المذنب، على وشك إرساله إلى البابا، وقد حظر نيابة عن البابا على أي إنسان القبض على الفارس المذكور أو إلحاق الضرر به[2]، كما استدرك فأضاف عبارات أخرى أملتها روح التعجرف المفرطة والرعونة التي كانت تستبد به، وأنه لمن غير الضروري أن ندونها هنا.

ذهب الملك شخصياً إلى صيدا بخصوص هذه المسألة، ووجد المقدم مع عدد كبير من الفرسان بما فيهم المجرم نفسه، وأمر الملك بعد تداوله مع الذين كانوا قد رافقوه إلى هناك بجر الرجل المتهم بالخيانة بالقوة من داخل منزله وإرساله مكبلاً بالسلاسل إلى مدينة صور حيث ألقي في السجن، وكاد هذا الاعتداء على المبعوث أن يقحم المملكة بأسرها في دمار

---

(١) أشعيا: ٢/٢٢

(٢) كان الداوية قد أصبحوا، مثل الاسبتارية تحت الرعاية البابوية بوساطة سلسلة من المراسيم وبشكل خاص مرسوم عام ١١٥٤، وذلك كنظام ديني، وقد بات بإمكانهم بالطبع التماس الحصانة الإكليركية، كما حدث هنا، للحصول على الحصانة من القضاء المدني، وحقق هذا الالتماس، الذي تجاهلته السلطات الاقطاعية لفترة طويلة، نفوذاً كبيراً خلال القرن الثاني عشر. هذا ومن الممتع أن نشير إلى أن عموري لم يمنحه سوى احتراماً جزئياً حتى في الأرض المقدسة، وكانت معاملة رجال الدين المجرمين أحد المواضيع الرئيسة للشجار بين هنري الثاني وتوماس آبيكت في الفترة ذاتها تقريباً.

يتعذر إصلاحه، وتمكن الملك، بإعلان براءته إلى مقدم الحشيشية الذي كان رسوله قد هلك بطريقة مشؤومة جداً، واستطاع تنظيف شرفه، وبذل الملك في تعامله مع فرسان الداوية اعتدالاً كبيراً لدرجة أن المسألة بقيت معطلة حتى يوم وفاته. ومن ناحية ثانية، يقال إن الملك عموري كان قد عقد العزم على عرض المسألة على ملوك وأمراء الأرض عن طريق مبعوثين ذوي منزلة سامية، حيث كانت ستلاقي دراسة دقيقة للغاية، لو أنه شفي من المرض الأخير الذي ألم به[1].

في الربيع اللاحق حدثت وفاة مستشار المملكة، الراهب المبجل رالف اسقف بيت لحم ذي الذكرى السعيدة، وكان رجلاً له طبيعة سمحة ولطيفة، ودفن بمراسم سامية في بيعة الكنيسة، وعرضت بعد وفاته مسألة انتخاب خلف له، إلا أن صعوبات نشأت بسبب الآراء المتضاربة للمنتخبين أثناء مناقشة هذه المسألة، ولم يمكن إيجاد الحل حتى العام الثاني من حكم الملك بلدوين ابن الملك عموري وخليفته، وتحملت الكنيسة في بيت لحم دفع نفقات كبيرة بسبب هذا الخلاف.

٣١ - موت نور الدين. الملك يحاصر بانياس إلا أنه يعقد في آخر الأمر هدنة وينسحب. إصابته بالمرض وإسراعه بالعودة إلى القدس حيث مات في غضون بضعة أيام.

في شهر أيار بعد مضي أقل من شهر من هذا الوقت مات نور الدين المضطهد الجبار للاسم المسيحي، وكان ذلك في العام التاسع والعشرين من حكمه[2]، وقد كان أميراً عادلاً وشجاعاً وحكيماً، وكان بالنسبة لمواريثه وشعبه رجلاً متديناً.

وما أن علم الملك بوفاته حتى حشد قوة المملكة كافة على الفور، وألقى الحصار على مدينة بانياس، وهنا أرسلت أرملة نور الدين بشجاعة تفوق شجاعة معظم النسوة رسالة إلى الملك طالبته فيها بالتخلي عن الحصار ومنح السكان هدنة مؤقتة، ووعدت أن تدفع مبلغاً كبيراً من المال مقابل ذلك؛ وتظاهر الملك في بدء الأمر برفض التماسها وواصل الحصار على أمل ابتزاز رشوة كبيرة.

تابع الملك أعمال الحصار بقوة وحماسة لقرابة خمسة عشر يوماً وسبب متاعب كبيرة

---

(١) من المؤكد أن وليم حصل على هذا الوصف لنوايا عموري من الملك نفسه مباشرة، واستاء وليم، كونه رئيساً للأساقفة، من استقلال الداوية عن السيطرة الكنسية المحلية وربما قدم موافقته القلبية لمناشدة كهذه.

(٢) حدثت وفاة نور الدين في ١٥ أيار من عام ١١٧٤. وكان والده زنكي قد قتل في ١٤ أيلول من عام ١١٤٦ الأمر الذي يجعلنا نجد في تقدير وليم لطول حكمه زيادة ثلث عام.

للعدو بآلات حصاره، وبطرق أخرى متنوعة، إلا أنه أدرك في نهاية المطاف أن مقدرة الأتراك على المقاومة كانت تزداد بثبات، وبدأ يلاحظ أنه لم يكن لديه أية فرصة بالنجاح، واستمر في هذه الأثناء رسل السيدة النبيلة بالمطالبة المستمرة بالسلام. وأخيراً قرر الملك قبول المال المعروض إضافة إلى إطلاق سراح عشرين من الفرسان المسيحيين الأسرى، ورفع الحصار بنية القيام بمشاريع أكبر في وقت لاحق.

واشتكى في طريق عودته إلى الوطن إلى الموجودين من حوله بأنه يشعر بالمرض بعض الشيء، وأنه لم يكن في حالة جيدة، وصرف قواته وتابع السير مع حاشيته الشخصية إلى طبرية، حيث بدأ يعاني من نوبة إسهال سديد، وبما أنه كان يخشى من اقتراب المرض، فقد تابع السير على صهوة جواده من هناك (لأن قوته كانت ما تزال كافية لذلك الجهد) سالكاً طريق الناصرة ونابلس إلى القدس، وهناك استمر وضعه يزداد سوءاً وباغتته حمى شديدة على الرغم من أن مهارة الطبيب قد شفته من الإسهال، وبعدما عانى بشكل لا يحتمل من الحمى لعدة أيام، أمر باستدعاء الأطباء الإغريق والسريان وأطباء من شعوب أخرى اشتهروا بمهارتهم في المداواة، وأصر على أن يقدموا له علاجاً مطهراً، وبما أنهم لم يوافقوا على مطلبه هذا، فقد أمر باستدعاء أطباء لاتينيين وقدم إليهم المطلب ذاته مضيفاً أنه سيتحمل المسؤولية بنفسه مهما كانت النتيجة، فقدموا له أدوية أدت بسهولة إلى حدوث النتيجة المنشودة وبدت بأنها تقدم له بعض العون. إلا أن الحمى المألوفة عادت إليه قبل أن يتمكن من تناول الغذاء ليقوي جسده الذي كان الدواء العنيف قد أضعفه، واستسلم لمنيته وقد توفي في الحادي عشر من شهر تموز في العام ١١٧٣ لتجسيد ربنا، وفي العام الثاني عشر والشهر الخامس من حكمه وفي العام الثامن والثلاثين من عمره[١]. ودفن بجانب أخيه وبين أسلافه من النسب ذاته أمام موقع الجلجلة وكان رجلاً صاحب حكمة وفطنة، وكان مؤهلاً تماماً لتولي زمام الحكم في المملكة. وبسبب طلباته الملحة عقدنا العزم على كتابة هذا التاريخ بخصوص أعماله وأعمال أسلافه.

---

(١) يجب أن يكون ١١ تموز عام ١١٧٤، وهكذا فإن وليم واهم بشأن العام الأخير والعام الأول أيضاً بالنسبة لفترة حكم عموري، ومن المؤكد أن هذه النهاية هي جزء من الإطار الزمني الذي أقامه على الأرجح في عام ١١٨٢، ومن سخرية القدر أن يعرض وليم بيانات خاطئة حول فترة حكم عموري أكثر مما فعله بشأن فترة أي حاكم آخر، وبالطبع إن السبب الرئيسي لهذا الخطأ هو أنه كان قد أجل العمل حول السنوات السابقة لحكم عموري، أي قبل عام ١١٦٧، حتى كان قد أنجز التاريخ الملكي التمهيدي، ولم تكن المهمة الأخيرة قد أنجزت عندما توفي عموري، ومن المقرر أن عام ١١٧٤ هو التاريخ المعروف لوفاة نور الدين ووصف وليم لنشاطات عموري جاء نتيجة لذلك ونادراً ما يخطىء وليم في بياناته لتسلسل الأحداث المترابطة التالية (انظر ستيفنسون- الصليبيون، ص٢١٣).

الكتاب الحادي والعشرون

اجبار بلدوين الرابع المجذوم على تولي الحكم في القدس

١ ـ ما يتعلق ببداية فترة حكم بلدوين الرابع الملك السادس للقدس وما يتعلق أيضاً بأسلوب حياته وسنه ومظهره.

كان بلدوين الرابع[١] هو الملك اللاتيني السادس للقدس وكان ابناً لـ عموري ذلك الملك صاحب الذكرى اللامعة الذي كنا نكتب عنه منذ لحظات، وكانت والدته هي الكونتس أغنس ابنة جوسلين الأصغر كونت الرها الذي تكرر ذكره أيضاً في الصفحات السابقة، وكان كما ذكرت من قبل عندما دعي عموري لاستلام عرش أسلافه، بموجب حقوقه الوراثية، أقدم على تطليق أغنس، واقتيد لهذا العمل بسبب ضغط الكنيسة، حيث أجبره على تطليقها أمالرخ صاحب الذكرى الطيبة الذي كان بطريركاً للقدس في تلك الأثناء فقد سار على خطا سلفه فولتشر ولقد ادعى ـ وكان ذلك صحيحاً بالفعل ـ أن قرابة الدم بين عموري وأغنس كانت قريبة جداً، وكنت قد شرحت هذه الحقيقة بحذر عندما كنت أعالج بالتفصيل فترة حكم الملك عموري[٢].

وعندما كنت رئيساً لشماسة مدينة صور كان الملك عموري قلقاً بشأن تعليم ابنه، وقد استطاع إقناعي بتولي هذه المهمة وذلك بعد ممارسته ضغوطاً شديدة عليّ، وبضمان شخصي منه، بمنحي تأييده وحظوته[٣]، وهكذا عهد برعاية الطفل إليّ وكان آنذاك في

---

(١) من الواضح أن هذا قد كتب قبل التمهيد الذي وصل فيه وليم إلى قرار ادراج غودفري كملك وسمى بلدوين الرابع باسم الملك السابع.

(٢) الكتاب ١٩ ـ الفصل ٤.

(٣) لا يمكن أن يكون هذا المطلب قد تم قبل نهاية عام ١١٦٩، لأن وليم كان متغيباً في الغرب خلال معظم ذلك العام ولم يعد عموري من مصر حتى ٢٥ كانون الأول عام ١١٦٩ (انظر الكتاب ٢٠ الفصل ١٧) ولذلك باشر وليم تعليم بلدوين الصغير في عام ١١٧٠ عندما كان في التاسعة من عمره، وواصل واجباته حتى توج بلدوين ملكاً بعد مضي أربعة أعوام عندما كان في الثالثة عشر من عمره تقريباً، ويساعد هذا في تصحيح الوهم حول وفاة عموري في «١١٧٣».

حوالي التاسعة من عمره، وذلك لأعلمه وأثقفه في الدراسات العقلية، وبينما كان الطفل الملكي تحت رعايتي أوقفت نفسي على العناية به بيقظة واهتممت به اهتماماً يليق بمنزلته المجدة، وحاولت تدريبه على صياغة أشكال الحروف، وأن ألقنه أيضاً القراءة والكتابة، وحدث أنه كان يلعب في أحد الأيام مع رفاق له من منزلة نبيلة عندما بدأوا يقرصون أذرعتهم وأيديهم بأظافرهم كما يفعل الفتيان عادة، وقدم الفتية الآخرون دليلاً عن الألم بصرخاتهم إلا أن بلدوين تحمل الألم بصبر بالغ على الرغم من أن رفاقه لم يوفروه، وتصرف كأنه لم يشعر بشيء، ونقل هذا الأمر إلي بعدما حدث مرات عديدة، واعتقدت في بدء الأمر أن هذا صادر عن مقدرته على الاحتمال وليس من فقدان الحساسية، إلا أنني اكتشفت عندما ناديته وبدأت أستفسر ما الذي كان يعنيه ذلك، أن ذراعه ويده اليمنى كانتا فاقدتي الحس جزئياً لدرجة أنه لم يشعر بالقرص أو حتى بالعض على الإطلاق، وبدأت أرتبك متذكراً أقوال الرجل الحكيم: «من المؤكد أن العضو الذي بلا إحساس يقلل كثيراً من صحة الجسد، وأن الإنسان الذي لا يدرك أنه مريض هو في خطر»[1].

أبلغ والد الغلام بوضع ابنه، واستشير الأطباء، واستخدمت كمادات متكررة وتدليكات بالزيت وحتى علاجات سامة دون نتيجة كل ذلك كمحاولة لمساعدته، حيث لاحظنا بمرور الزمن وجود علامات على مرض خطير للغاية من المحال شفاؤه، وهذا ما اتضح فيما بعد تماماً.

من المستحيل الإحجام عن البكاء لدى الحديث عن هذه المحنة الكبيرة، لأنه اتضح، عندما بدأ يقترب من سن الرشد، أنه كان يعاني من مرض الجذام الخطير. وازدادت حالته سوءاً يوماً إثر يوم، فقد هاجم المرض الأطراف والوجه بشكل خاص بحيث تأثر خدمه المخلصون شفقة وأثيرت عواطفهم عندما نظروا إليه، ومع ذلك، فقد استمر يحقق التقدم في مواصلة الثقافة، وقدم بشائر واعدة دوماً على امتلاكه لطبيعة محببة. وكان جميل المظهر بالنسبة لسنّه، وفارساً ممتازاً بشكل يفوق كثيراً عادة أجداده، وكان على دراية بمعاملة الخيول، وكانت له ذاكرة قوية ويحب الحديث، وكان مقتصداً لكنه كان يتذكر دائماً الرعايات والإساءات، وشابه أباه في كثير من الملامح، ليس في الوجه فقط بل في سائر مظهره، حتى في مشيته ولهجة صوته أيضاً، وكان ذكاؤه حاداً، إلا أنه في كلامه كان متلعثماً بعض الشيء. واستمع كأبيه بتلهف إلى التاريخ، وكان ميالاً بشكل جيد لتتبع النصيحة الجيدة[2].

---

(١) تعكس هذه العبارة أثراً لأبقراط Aphorism, VI, 2.

(٢) يمكن لوليم الحديث حول هذه المسألة بكل ثقة لأنه نفسه كان أحد المستشارين.

٢ ـ ما يتعلق بتاريخ ترسيمه وتتويجه.

لم يتجاوز بلدوين الرابع الثالثة عشرة من عمره يوم وفاة والده، وكانت له أخت كبرىٰ تدعىٰ سيبيلا مولودة من الأم ذاتها قد نشأت في دير القديس لازاروس في بيسان وتربت على أيدي السيدة ايفيتا التي كانت عمة أبيها من ناحية الأم، والتي كانت راعية للدير.

وإثر وفاة الملك عموري اجتمع نبلاء المملكة الدينيون والعلمانيون علىٰ حد سواء في مجلس واحد ووجد أن رغبات الجميع كانت في انسجام تام، وهكذا، رُسّم بلدوين وتوج بإجلال وحسب الأعراف في كنيسة قبر الرب وذلك في الخامس عشر من شهر تموز وكان اليوم الرابع بعد وفاة والده، وترأس الطقوس بطريرك القدس أمالرخ ذو الذكرىٰ الطيبة بمساعدة رؤساء الأساقفة ومطارنة الكنيسة الآخرين.

وكان البابا ألكسندر الثالث رئيساً لكنيسة الروم في هذا الوقت، وكان إيمري بطريركاً للكنيسة المقدسة في أنطاكية أما أمالرخ فكان بطريركاً للقدس. وكان فريدريك رئيساً لأساقفة مدينة صور، والامبراطور مانويل صاحب الشهرة الكبيرة والذكرىٰ الورعة يحكم في القسطنطينية، وفريدريك امبراطوراً للروم بينما كان لويس ملكاً للفرنجة، وكان هنري بن غودفري، كونت آنجو يحكم في بريطانيا؛ في حين كان وليم الثاني بن وليم الأكبر يحكم في صقلية، وكان بوهيموند بن الأمير ريموند يحكم أنطاكية، وريموند الأصغر بن الكونت ريموند الأكبر يحكم طرابلس.

٣ ـ معاناة أسطول أرسله ملك صقلية من خسارة كبيرة جداً أمام الإسكندرية في العام الأول من فترة حكم بلدوين الرابع. كونت طرابلس، يطالب، بالوصاية على المملكة وبنيابة الملك بحكم قرابته منه.

وفي العام الأول من فترة حكم الملك بلدوين الرابع في حوالي بداية شهر آب[١] أرسل الملك وليم صاحب صقلية أسطولاً مؤلفاً من مائتي سفينة لمهاجمة الإسكندرية. وأبحر الأسطول إلىٰ مصر مع قوة رائعة من المشاة والفرسان. وقد تكبدت جميع قوات المشاة والفرسان خسائر كبيرة بالموت والأسر خلال الإقامة التي استغرقت خمسة أو ستة أيام أمام المدينة وذلك بسبب فقدان الحذر الذي أظهره الحكام والقادة، واضطرت في آخر الأمر للانسحاب باضطراب.

---

(١) حدد شالدون تاريخ هذا الهجوم على الاسكندرية في الفترة الممتدة ما بين ٢٨ تموز وحتى الأول من آب من عام ١١٧٤. كانت هذه الحملة قد نتجت عن دعوة عموري الغرب للمساعدة، وأخفقت في تلقي الدعم من البر بسبب وفاة عموري (انظر شالدون ـ تاريخ الحكم النورماندي في ايطاليا وصقلية: ٣٩٦/٢).

كانت شؤون مملكتنا قد عهد بالمسؤولية عنها إلى ميلون دي بلانسي، ونشا الآن نتيجة لذلك عداوة خطيرة بين هذا النبيل وبعض نبلاء المملكة؛ فقد كانوا يحسدونه على سلطته ولم يتمكنوا من تحمل حقيقة أنه تم تجاهلهم ولم يستدعوا أبداً، بينما انفرد وحده بجرأة مفرطة وبازدراء للآخرين دوماً إلى جانب الملك وكان مستعداً لمساعدته. وقد أبعد الآخرون في هذه الأثناء عن الاتصال الشخصي مع الملك، وسيّر ميلون أمور الدولة دون التشاور معهم.

وجاء في هذه الآونة كونت طرابلس إلى الملك وطالب بحضور النبلاء الذين حدث أن كانوا هنالك بالوصاية على المملكة. وأكد أنه بالفعل أقرب الأنسباء إليه والوصاية على الملك، الذي كان ما يزال قاصراً، حق شرعي له، وقال إن هذا المنصب كان يخصه لأكثر من سبب واحد: ليس فقط لأنه كان من أقرب أنسباء بلدوين، بل أيضاً لأنه كان أغنى الرعايا المخلصين للملك وأقواهم[1] وأضاف سبباً ثالثاً مقنعاً جداً وهو أنه عندما تم أسره كان قد أمر من السجن نفسه شعبه المخلص، بناء على تعهدهم له بالوفاء، أن يسلموا كافة أراضيه وحصونه وقلاعه إلى الملك عموري والد هذا الغلام وأن يضعوا كل شيء تحت أوامره ورعايته الملكية، وعلاوة على ذلك كان قد أضاف أمراً نهائياً وهو إذا كان مصيره كرجل سينهي حياته في السجن، فقد عين الملك المذكور آنفاً كوريثه الوحيد بحكم كونه أقرب أنسبائه إليه، وطالب تقديراً لجميع هذه الخدمات أن يأتي الوفاء إليه بسبب الشرف لا بسبب أي أمل في تحقيق امتياز مستقبلي، وتأجل الرد على مطالب الكونت هذه بسبب أن الملك لم يكن حوله في ذلك الوقت سوى عدد قليل من نبلاء المملكة الذين يمكن أن يستشيرهم، فسيتم استدعاؤهم ومشاورتهم في وقت موائم وبسرعة حسبما هو ممكن بشكل عام حيث ستقدم بمعونة الله إجابة مناسبة على جميع هذه المسائل، وعاد الكونت إلى بلاده بعد استلامه هذه الإجابة، وأيد الناس جميعاً تقريباً قضية الكونت، وكان من بين مؤيديه من النبلاء كل من همفري دي تيرون كافل المملكة وبلدوين صاحب الرملة وأخوه بالين، ورينو صاحب صيدا وجميع الأساقفة.

٤ ـ مقتل ميلون دي بلانسي في عكا. موت فريدريك رئيس أساقفة مدينة صور.

كان ميلون دي بلانس هذا الذي كنا نتحدث عنه، رجلاً نبيلاً من شامبين فيما وراء الجبال، من بلاد هنري كونت ترويز. وكان على علاقات حميمة جداً مع قريبه الملك عموري الذي جعله قهرماناً لمملكته. وعند وفاة همفري الأصغر ابن همفري أوف تيرون

(١) هذه الأقوال كـ. ة في الفصل الخامس، وهام هنا ما قاله وليم من أن طرابلس كانت دولة تابعة لملك القدس.

فقد قدّم الملك عموري ستيفني أرملة همفري المتوفى وابنة فيليب صاحب نابلس إلى ميلون كزوجة له. وكان ميلون بفضل زوجته سيداً علىٰ وادي عربة أي علىٰ المنطقة الواقعة فيما وراء الأردن التي تدعىٰ عموماً باسم الكرك، هذا وكانت ستيفني قد أنجبت طفلين من زوجها السابق وهما ابن وابنة.

كان ميلون، كما تم ذكر ذلك، قد استغل الصداقة الحميمة التي كان قد نعم بها مع والد الملك الحالي واحتقر نبلاء المملكة حتى الذين كانوا أعظم منه، ولم يكن حذراً في تصرفاته، وكان رجلاً متكبراً بل متعجرفاً ثملاً بالعبارات الطنانة مع نفسية وقحة بشكل مفرط، ولكي يقلل من حسد الآخرين بطريقة من الطرق استخدم ذريعة الحسد بشكل مفرط بالوضوح ومبالغ فيه. وحرض رجلاً يدعىٰ روهارد كان شحنه قلعة القدس، وكان رجلاً عادياً جداً وعاجزاً تماماً، وتظاهر ميلون أنه يطيع أوامر هذا الرجل وكأنه كان خاضعاً له، وكان الأمر في الواقع علىٰ العكس تماماً، فقد كان أحدهما يحمل لقباً رفيعاً فارغاً من الجوهر بينما قام الآخر تحت ذلك المظهر بإدارة أمور المملكة كما كان يحب تماماً، وعلى الرغم من أنه كان يتصرف بإهمال ويتحدث بطيش فقد جعل شؤون مسائل المملكة تسير وفق رغباته علىٰ الرغم من الآخرين. ورتب جميع القضايا ووزع جميع الإمتيازات حسبما أراد مثيراً بذلك كراهية شديدة ضده شخصياً، ووصلت الأمور في آخر الأمر إلىٰ مأزق كبير بحيث تم تحريض بعض الرجال بصورة سريّة للتآمر علىٰ حياته.

واستهان بهذا الأمر عندما نقل إليه واستمر يتصرف كالمعتاد دون أن يتخذ تدابير وقائية موائمة. وفي أحد الأيام طعن بينما كان مقيماً في مدينة عكا عند الغسق في الشارع العام وتوفي بعدما عانىٰ من معاملة شائنة ومخزية، واختلف الرأي بين الناس بخصوص مقتله حيث قال بعضهم إنه قتل بسبب الولاء المخلص الذي كان قد أظهره للملك؛ وخلافاً لذلك، فقد ادعىٰ آخرون أنه كان يتخذ بصورة سرية الخطوات للاستيلاء علىٰ السلطة الملكية، وقيل إنه كان قد أرسل رسلاً إلىٰ أصدقائه ومعارفه في فرنسا حاثاً إياهم للقدوم بكل سرعة إلى المملكة حتى يتمكن بمساعدتهم من الاستيلاء علىٰ المملكة، لكنني لم أتحقق بشكل قاطع فيما إذا كانت هذه الآراء صحيحة، هذا ومن المعروف تماماً أن بالين صاحب يافا أخو روهارد المذكور آنفاً كان قد أُرسل إلى المناطق الواقعة فيما وراء البحر مع رسائل وهدايا ملكية وأن عودته كانت تنتظر يومياً.

حدث في هذه الآونة لا بالفعل في الثلاثين من شهر تشرين الأول هذا نفسه أن توفي

سلفنا فريدريك[1] رئيس أساقفة صور، وكان رجلاً من مرتبة عالية جداً في نسبه، وكان ذلك في مدينة نابلس حيث كان قد احتجز فيها لفترة من الزمن بسبب مرض خطير، ونقلت جثته بجنازة وطقوس لائقة إلىٰ القدس ودفن في كنيسة هيكل الرب حيث كان شماساً نظامياً في كنيستها.

٥ - وصف كونت طرابلس. والأجداد الذين انحدر منهم وكيف تولىٰ نيابة الملك. تعيين مؤلف هذا التاريخ مستشاراً ملكياً.

عاد أيضاً في هذه الآونة كونت طرابلس ليتلقىٰ رداً على المطلب الذي كان قد قدّمه بخصوص النيابة، وذلك بعدما اجتمع نبلاء المملكة ورجالات الكنيسة بحضور الملك في القدس للتشاور، وكرر الكونت مطلبه ثانية وأكد علىٰ دعواه ذاتها. وبعد دراسة استمرت لمدة يومين متتاليين، وافق الملك أخيراً بناء على رضى من الجميع، وقلد الكونت وسط صيحات الابتهاج العالية للناس في كنيسة قبر المسيح جميع سلطات المملكة وحكمها وجعله في المرتبة الثانية للملك فقط، وبما أن اسم الكونت جلب إلىٰ الشهرة في محصلة الأحداث التي نحن بصددها، يبدو هذا وقتاً موائماً لنسجل من أجل فائدة الأجيال القادمة الحقائق التي كنا قد علمناها بتيقن حوله، وليس في نيتنا أن نكتب مديحاً، غير أننا سنعلن عما كان وعن نسبه بقدر ما يسمح السياق المحدد بالضرورة لتاريخ موجز.

يعود أصل الكونت ريموند، موضوع بحثنا، حسب النسب إلى ريموند الأكبر، ذلك الذي كان قائداً هاماً في جيش الرب الذي تمت بأعماله ومآثره الحماسية إعادة مملكة الشرق إلى خدمة المسيح، وسجلت هذه الحقائق بدقة عندما كنا نتعامل مع الزعماء الأوائل الذين قدموا في الحملة الأولى، وكان للكونت ريموند الأكبر، ذي الذكرى النفيسة، ولد يدعى برترام الذي أصبح كونتاً لطرابلس بعد وفاة أبيه واغتيال وليم جوردان وكان ابن أخت الأخير. وكان لبرترام ابن يدعى بونز نجح إثر وفاة والده بالوصول إلى الحكم بحق وراثي، وتزوج من سيسيليا أرملة تانكرد وابنة فيليب ملك فرنسا وقد أنجب منها غلاماً يدعى ريموند خلفه في حكم طرابلس وتزوج ريمـوند من هودرينا ابنة بلدوين الملك الثاني للقدس، وهي التي أصبحت أماً لريموند هذا الذي نتحدث عنه الآن. وخلف ريموند هذا أباه ككونت لطرابلس بعدما قتل ريموند الأكبر عند باب المدينة في طرابلس في هجوم مفاجىء شنته الحشيشية، ولذلك فقد كان هذا الكونت من جانب والدته ابن خال الملكين عموري وبلدوين لأنهمـا كانا ابنين لأختين، لكنه كان من منزلة أدنى من ناحية والده،

---

(١) ٣٠ تشرين أول ١١٧٤.

وكانت سيسيليا، المذكورة منذ لحظات، جدته من ناحية والده، وأختاً للملك فولك والد الملك بلدوين وعموري، أختاً له من أمه وليس من أبيه، لأن أمهما التي كانت أخت أموري مونتفرايت كانت زوجة لفولك الأكبر كونت أنجو وقد تركت زوجها بعد مولد فولك الأصغر وهربت إلى فيليب ملك فرنسا، الذي أنجبت منه سيسيليا هذه وأبناء آخرين كثيرين: وكان فيليب ـ مفتوناً بالكونتس برتراد ـ قد طرد، خلافاً لقانون الكنيسة الملكة زوجته الشرعية التي كان قد أنجب طفلين منها هما لويس وكونستانس، وهكذا، كان الكونت والملكين المذكورين مرتبطين بإحكام من كلا الجانبين.

كان الكونت رجلاً صاحب بنية نحيفة، وكان هزيلاً للغاية متوسط الطول، وله بشرة داكنة اللون، وكان شعره أسود مسبلاً إلى حد ما، وكانت له عينان ثاقبتان وكتفاه منتصبان جداً، وكان حازماً وقوياً في العمل ومعروفاً برباطة الجأش والحكمة، وكان معتدلاً في تناول كل من الطعام والشراب بشكل يفوق كثيراً الرجل العادي، وأبدى سخاء نحو الغرباء إلا أنه لم يكن سخياً جداً نحو شعبه، كان متعلماً بشكل جيد إلى حد ما وهو إنجاز كان قد حققه عندما كان أسيراً لدى العدو، إلا أن ذلك تم على حساب بذل جهد كبير وقد ساعده في ذلك حدة ذهنه الطبيعية[1]. وبحث بتلهف مثل الملك عموري عن المعرفة المتضمنة في الأعمال المكتوبة، وكان لا يعرف التعب في طرح الأسئلة إذا ما حدث ووجد شخص كان قادراً برأيه على الإجابة.

وتزوج في العام ذاته، الذي باشر فيه إدارة المملكة، من اشيفا وكانت امرأة ثرية جداً وأرملة لوولتر أمير طبرية الذي أنجبت منه أطفالاً كثراً. إلا أنها، ولسبب مجهول، لم تنجب أي طفل من الكونت بعد زواجها منه. ويقال إنه أحبها وأبناءها برقة وكأنها كانت قد ولدتهم جميعاً له.

ـ ولنعد الآن بعد هذا الإستطراد القصير إلى السياق الرئيسي.

ـ وكان رالف، ذو الذكرى النفيسة، أسقف بيت لحم ومستشار المملكة قد توفي خلال الصيف السابق[2]، ولكي يكون هنالك شخص مسؤول عن المراسلات الملكية فقد عينني الملك في ذلك المنصب بناء على نصيحة نبلائه، ومنحني مرتبة مستشار.

---

(١) يبدو هذا القول وكأنه يناقض القول السابق حول أسره، والذي مثل فيه مقيداً بالسلاسل ومضيقاً عليه، وكان مؤرخو الفترة من المسلمين يعتبرون ريموند عموماً رجلاً صاحب ذكاء حاد جداً، والقائد الأكثر كفاءة بين القادة المسيحيين في تلك الآونة.

(٢) آخر تواقيع رالف كمستشار ـ مما وصلنا ـ موجود في وثيقة تاريخها ١٨ نيسان، عام ١١٧٤ (ر. روهرخت ـ

٦ - استيلاء صلاح الدين على مدينة دمشق والأجزاء الأخرى من تلك المنطقة تلبية لأهالي دمشق. وكونت طرابلس يزحف ضده لمقاومة خططه.

وفي هذه السنة استدعى أعيان دمشق البارزين سراً صلاح الدين بن نجم الدين الذي خلف عمه شيركوه في مملكة مصر وكان الملك الصالح بن نور الدين حاكمهم الشرعي قد جعل مقره في مدينة حلب، وأوكل صلاح الدين شؤون مصر إلى واحد من إخوته واسمه سيف الدين، وأسرع عُبر الممرات الصحراوية لسورية ووصل إلى دمشق ليستولي على المملكة، وتقدم بعض مضي بضعة أيام، وبعد أن استلم المدينة من سكانها، ضمها إلى سورية المجوفة حيث أملٍ في وضع جميع مدن تلك المنطقة تحت حكمه دون حرب، وثبت أن هذا الأمل كان صحيحاً، حيث استسلم سكان تلك المدن خلال وقت قصير له طوعاً، وفتحوا أبواب مدنهم له، وهكذا، وخلافاً للولاء الذي كان مديناً به لسيده وحاكمه، استولى صلاح الدين على جميع مدن ذلك الإقليم أي: مدينة هيليوبولس المسماة بهذا الشكل باللغة الإغريقية والمعروفة حالياً باسم ملبك أو بعلبك باللغة العربية، ومدينة حمص المسماة عموماً باسم كاميلا وحماة وشيزر المسماة عادة باسم قيسارية الكبيرة، وكان كله أمل في أن تستسلم له حلب وتخضع له مع أميرها الشاب من خلال عمل بعض الخونة، إلا أن ذلك لم يحدث بالمصادفة.

هذا هو الوضع الذي كان سائداً آنذاك في ذلك الجزء من المنطقة، وكان الملك قد تلقى في هذه الأثناء نصيحة بخصوص العمل الضروري في أزمة مفاجئة من هذا القبيل، عندما توشك تغييرات هامة أخرى أن تحدث. وتقرر في آخر الأمر وبعد مداولة طويلة مع النبلاء، وبموافقة الجميع أنه ينبغي على الكونت أن يزحف بالسرعة الممكنة مع جيش مجموع من قوات المملكة وكونتية طرابلس نحو سورية المجوفة وأن يستخدم جميع الجهود لمقاومة تقدم صلاح الدين، وكان هذا إجراء حكيماً، لأن أية زيادة لقوة صلاح الدين كانت سبباً للريب في نظرنا، وبدا كل شيء زاد من سلطته بأنه مضر تماماً بمصلحة المملكة، لأنه كان رجلاً حكيماً في الرأي وشجاعاً في الحرب وسخياً بشكل يفوق الحدود، ولهذا السبب بالذات، ارتاب به نبلاؤنا الذين كان لديهم بصيرة أشد، فحتى في أيامنا لا توجد وسائل أفضل يستطيع الملوك بواسطتها أن يكسبوا قلوب رعاياهم، أو قلوب سواهم أكثر من إظهار الكرم والسخاء نحوهم، وما من شيء كالكرم يجذب بسهولة أكبر عقول الغرباء خاصة عندما يأتي

= سجلات حكام القدس - رقم٥١٤). وتوقيع وليم الأول موجود في وثيقة تاريخها ١٣ كانون الأول عام ١١٧٤ (المصدر نفسه - رقم٥١٨) وسبق لوليم أن ذكر (الكتاب ٢٠ - الفصلان: ٣٠ - ٣١). أن وفاة رالف كانت قد حدثت في شهر نيسان قبل حوالي الشهر من وفاة نور الدين.

من الأمراء، ولذلك كان لزعمائنا سبب كبير للخشية لأن صلاح الدين إذا زاد في حجم ممتلكاته، ووسع إمبراطوريته وضاعفها فسيثور بهذه القوة ضد المملكة، بقوات كبيرة، ويسبب لنا المضار بعنف أكثر من قبل، هذا وكانت جميع المحاولات للتصدي له عقيمة على الرغم من جميع الجهود التي بذلناها، ونرى اليوم [1] بعيون باكية أن مخاوفنا قد تحققت، لأنه قد نهض بقوة جبارة ضدنا براً وبحراً حيث ليس لدينا أي أمل بالمقاومة ما لم يشرق علينا الأمل والرحمة من عليين.

وبدا من الحكمة بمكان تقديم المساعدة للملك الفتى الذي لم يكن قد بلغ سن الرشد بعد، ليس بإبداء بعض اللطف نحوه إكراماً له، بل بتشجيعه كعدو واقف ضد عدونا المخيف صلاح الدين حتى يمكن إعاقة خطط صلاح الدين وتقليل فعالية هجماته على المملكة.

٧ ـ لماذا أصبح العدو أعظم قوة في مواجهة المسيحيين.

لا بد لي أن أستطرد في هذه المرحلة فأخرج عن مجرى روايتي بعض الشيء، ليس لأطوف بلا هدف، بل لأوضح شيئاً قيماً، فالسؤال المطروح دائماً، وبعدل تام هو لماذا قاوم آباؤنا على الرغم من أنهم كانوا أقل عدداً، قاوموا دائماً بشجاعة قوات العدو التي كانت أكبر بكثير، ولماذا كانت دوماً قوة صغيرة تبيد بواسطة الرحمة السماوية حشود العدو، مما جعل مجرد النطق باسم المسيحيين يثير الرعب لدى شعوب لا تعرف الرب، وهكذا تمجد الرب بأعمال آبائنا، ويقابل هذا أننا نجد رجالنا في أيامنا غالباً ما قهروا من قبل قوات أدنى منهم وأقل، وفي الواقع، كانت جهودهم عقيمة وغالباً اضطروا للإستسلام عندما حاولوا القيام ببعض المآثر ضد أعداء كانوا أدنى قوة منهم.

ونجد لدى دراستنا لهذا الوضع المعاصر بدقة وعمق ونحن متطلعون للعون من الرب، خالق كل شيء أن السبب الأول الذي يقدم نفسه هو أن أجدادنا كانوا رجالاً متدينين ويخافون الرب، قد قام مقامهم الآن جيل شرير وأبناء آثمون مزيفون للعقيدة المسيحية يتبعون سبل جميع الأشياء المحرمة دونما تمييز، وهم أشبه، أو حتى أسوأ من الذين قالوا لربهم: «أبعد عنا وبمعرفة طرقك لا نسر» [2]. ويسحب الرب بعدل تأييده من هؤلاء بسبب خطاياهم وكأنما أثير سخطه، هؤلاء هم رجال العصر الحالي، وخاصة القاطنون في الشرق، كما أن المرء الذي سيتولى بقلم حذر وصف أخلاقهم أو بالأحرى رذائلهم الوحشية المرعبة

---

(١) من المحتمل أن هذا لم يكتب قبل سنة ١١٨٢، الجزء المتأخر منها.

(٢) أيوب: ١٤/٢١.

سيقف عاجزاً أمام هول المادة وضخامتها وسيبدو بالإختصار بأنه يكتب مقطوعة هجائية أكثر من أنه يصنف تاريخاً[1].

ويبرز أمامنا بالمناسبة سبب آخر: لقد اعتاد الرجال المبجلون الأوائل الذين قدموا في الأزمان السابقة إلى بلدان الشرق تقودهم الحماسة السماوية والذين كانوا ملتهبين باندفاع روحي نحو العقيدة على النظام العسكري، وكانوا مدربين على خوض المعارك وكانوا معتادين على استخدام الأسلحة[2]، وعلى العكس، كان أهالي الشرق قد أصبحوا ضعفاء بسبب الهدوء الطويل، ولم يكونوا معتادين على فن الحرب وغير مطلعين على قواعد القتال، وكانوا مبتهجين في حالة كسلهم، ولذلك ليس غريباً أن رجالاً مقاتلين، وإن كانوا قلة في عددهم، قد تغلبوا حتى على أعداد كبيرة وكان بإمكانهم أن يتباهوا بتفوقهم بتحقيق شرف النصر، لأنه في أمور كهذه (كما يعرف أكثر مني الذين لديهم خبرة أكبر في الحرب) أن البراعة في الأسلحة العائدة إلى ممارسة مستمرة وطويلة تفوز عادة عندما تتصدى لقوة غير مدربة ولدى تصديها لانعدام الإصرار.

ويفرض سبب ثالث، مماثل في أهميته وفعاليته، نفسه على اهتمامي: لقد كان فيما مضى لكل مدينة حاكمها الخاص وإذا ما تكلمنا حسب أسلوب أرسطو لم تكن هذه المدن معتمدة على بعضها بعضاً، ونادراً ما تحركت بالبواعث نفسها، بل ثارت بالواقع ببواعث معاكسة تماماً في مرات كثيرة هذا وأن تقاتل في المعركة ضد أعداء لهم آراء مختلفة اختلافاً شاسعاً ومصالح متضاربة كثيراً، خصوم يرتابون ببعضهم بعضاً فيه مخاطر أقل، وهكذا لم يستطع الذين كانوا يخافون من حلفائهم أكثر من خوفهم من المسيحيين أن يتحدوا بسهولة للتصدي للخطر المشترك ولا أن يسلموا أنفسهم لإبادتنا. لكن الآن جلبت بإرادة من الله جميع الممالك المتاخمة لنا وصارت تحت سلطة رجل واحد وقد حدث مؤخراً أن تمكن زنكي، الوحش الذي كان يمقت الإسم المسيحي كما يمقت الوباء، والذي كان أباً لنور الدين هذا الذي توفي منذ زمن قريب، تمكن بالأمس القريب من الإستيلاء أولاً بالقوة على ممالك كثيرة ثم استولى بكل قوة على الرها المعروفة أيضاً باسم أديسا، التي كانت - حتى داخل ذاكرتنا - الحاضرة الرائعة والبارزة للميدين، لقد استولى على هذه المدينة مع جميع توابعها وقتل جميع المؤمنين المخلصين الذين عثر عليهم داخل حدودها.

---

(١) يعكس هذا معرفة ولع بالكتاب الكلاسيكيين مثل جوفنال وربما هجاؤون آخرون، كما أن الاتهام العام لأخلاق معاصريه قد يكون أكثر دقة وألا يعامل بإهمال آراء رجل دين.

(٢) كانت تدريباتهم على استخدام السلاح أوسع شهرة من انضباطهم حسب المنطق العسكري المعتمد.

ثم قام ولده نور الدين بطرد ملك دمشق من بلاده، وحصل هذا بواسطة خيانة رعايا الملك له لا عن بذله أية شجاعة حقيقية، لقد استولى على تلك المملكة لنفسه وأضافها إلى ميراثه الأبوي، ثم استولى نور الدين هذا نفسه مؤخراً على مملكة مصر الغنية والقديمة بالمساعدة المواظبة لشيركوه وخصصّ نفسه بها بالطريقة التي تم سردها بشكل تام عندما بحثنا في فترة حكم الملك عموري.

وهكذا أصبحت كما ذكرت من قبل جميع المالك الواقعة حولنا تدين بالطاعة لحاكم واحد، وتنفذ أمر رجل واحد وهي مستعدة لتلبية أوامره فقط، وأن تحمل السلاح حتى على مضض لإلحاق الضرر بنا، ولا يوجد أحد يجرؤ على الإنغماس في أية نزعة خاصة به أو أن يتجاهل ـ بغير إفلات من تعرضه للعقوبة ـ أوامر سيده الأعلى، فصلاح الدين هذا الذي حصلنا على فرصة لنذكره مراراً، والذي كان ينحدر من أسلاف متواضعين ومن مركز وضيع، يسيطر الآن على جميع هذه المالك، حيث كان القدر قد ابتسم له بلطف كثير، وهو يجمع من مصر ومن البلدان المتاخمة لها كميات هامة من أنقى الذهب ومن النوعية الممتازة المعروفة باسم الابريز Obryzum [1] وتزوده أقاليم أخرى بمجموعات لا تحصى من الفرسان والمقاتلين، رجال متعطشون للذهب، لأنها مسألة سهلة بالنسبة للذين يملكون كميات وفيرة من هذه السلعة أن يجتذبوا الجند إليهم ولنكمل الآن قصتنا [2].

لقد بدا مرغوباً في رأي جميع الحاضرين، كما ذكرنا، وجوب بذل كل جهد ممكن لمقاومة هذا الرجل الرائع في تقدمه السريع ـ من خلال انتصاراته المتتالية ـ نحو القمة العليا لطموحه، وكان الشعور العام أنه قد يبرهن وهو يزداد قوة أكثر فأكثر أنه العدو الأشد خطراً وإخافة بالنسبة لنا، وهكذا، جمع الكونت العساكر من جميع المناطق المجاورة وأسرع بالتوجه إلى منطقة طرابلس بمرافقة نبلاء المملكة، وتمركز في الإقليم المعروف باسم بلاد الخليفة وأقام معسكره بالقرب من مدينة عرقه.

٨ ـ حاكم الموصل يقدم بسرعة لمساعدة ابن أخيه. انتصار صلاح الدين عليه واستيلائه على المنطقة بأسرها. الكونت يعقد معاهدة معه. تسلمه للرهائن.

عندما كانت هذه الأشياء تقع في وسطنا، علم عم ابن نور الدين، الذي كان أميراً قوياً جداً يدعى [قطب الدين]، وواحداً من أقوى الأمراء بين الشرقيين المنحدرين من

---

(١) Obryzum واحداً من المصطلحات اللاتينية المتأخرة التي استخدمها وليم.

(٢) توضح أية عملية تحليل مقارن لأسباب التغيير في العلاقات بين الصليبيين وأعدائهم المسلمين فيما بين الحملة الصليبية الأولى والثالثة، يقوم مؤرخون معاصرون قدرة وليم غير الاعتيادية كمؤرخ.

الأصل الفرثي، بوفاة أخيه وبكل الظروف اللاحقة لها، وكان صلاح الدين قد تمرد الآن على سيده الشرعي بتحد واضح لقوانين الإنسانية، وبإهمال تام لمنزلته الوضيعة، وبإنكار للمساعدات التي كان قد أغدقها عليه والد ذلك الملك الفتى، وعبر قطب الدين نهر الفرات بعد ما جمع قوة كبيرة من الفرسان قيل أنها كانت قوية جداً، وزحف ضد الخونة ليحمل العون إلى ابن أخيه.

كان هذا الأمير العظيم حاكماً لمدينة نينوى تلك المدينة القديمة والمشهورة جداً، والتي يقال إنها تحولت منذ زمن طويل إلى خراب ورماد بسبب إنذار من النبي يوحنا، ونشأت مكانها مدينة جديدة تحت اسم معدل جديد هو الموصل وذلك على مقربة من تلك المدينة الأكثر قدماً، وقد بنيت من بقايا نينوى القديمة وهي تؤوي المنحدرين من المدينة السابقة وتحتفظ بالمنزلة المبجلة بكونها عاصمة إقليم أثور بأكمله، ونصب الأمير لدي وصوله معسكره في السهل الواقع حول مدينة حلب.

كان صلاح الدين خلال هذا الوقت بدون أعمال، وكان قد حاصر بصرى أهم مدن العربية الأولى وحاصر أيضاً مدينة هيليوبولس التي تدعى الآن عادة باسم بعلبك حيث استسلم له سكان كلتا المدينتين طوعاً ودون حرب. ثم حاصر مدينة حمص المعروفة أيضاً باسم كاميلا.

سلم السكان الجزء السفلي من هذه المدينة ودون أدنى تأجيل، حيث كان الذين بقوا مخلصين للملك الشاب قد انسحبوا إلى القلعة التي كانت واقعة على هضبة مرتفعة بعض الشيء وكانت قد حُصنت بقوة فيما مضى، وكانت مزودة بشكل جيد بالأسلحة والمؤن، وتلقى صلاح الدين استسلام بعض المدن الأخرى على أيدي سكانها مما كان واقعاً في المنطقة المجاورة لهذا الإقليم، وهي مدن حماه وشيزر وسائر المنطقة وصولاً إلى مدينة حلب نفسها.

وأرسل اللاجئون المقيمون في قلعة حمص في هذه الأثناء رسلاً إلى كونت طرابلس. وإلى قواتنا التي كانت قد خيمت في الموقع المذكور آنفاً وكانت تنتظر على أمل أنه بحدوث هذا الإضطراب الهائل لا بد أن هذا الطرف أو الآخر سيستدعيهم وفق الشروط المرغوبة، وصدرت الأوامر لهؤلاء المبعوثين أن يتوسلوا إليهم للقدوم دون تأجيل وأن يعدوهم أن أية مساعدة يمكن أن يقدموها ضد عدو مخيف كهذا ستلاقي مكافأة لائقة.

وعلاوة على ذلك، كان يوجد في هذه القلعة ذاتها الرهائن التي كان الكونت قد أعطاها لنور الدين، والد الملك الشاب، مقابل إطلاق سراحه من الأسر، وذلك كضمان لمبلغ تصل قيمته إلى ستين ألف قطعة ذهبية على الأقل، كما كان يُحتجز فيها أيضاً بعض الرهائن التي قدمها رينو صاحب صيدا لاسترداد أخيه يوستاس.

أسرع المسيحيون بالزحف نحو القلعة مع جميع قواتهم بكل سرعة ممكنة يحدوهم الأمل في إنجاز ترتيب ما يتمكنون بوساطته من الحصول بوعد بإطلاق سراح هؤلاء الأسرى من قائد القلعة التي كانوا محتجزين فيها، مقابل إمكانية تقديم المساعدة، غير أنهم اكتشفوا أنه لا يمكن الإعتماد أبداً على أقوال الكفرة، حيث كان لديهم بعض الأمل بإمكانية رفع الحصار بوساطة جهود الأمير المذكور آنفاً، ولهذا عاد المسيحيون أخيراً إلى المعسكر الذي كانوا قد غادروه قبل فترة قصيرة، وذلك بعد دراسة دقيقة للموقف ومن زوايا متنوعة.

وزادت حقيقة أن المسيحيين قد انسحبوا وكأنهم غاضبون من عجرفة صلاح الدين، وبدأ يقترب من مدينة حلب واضعاً أهمية كبيرة على انسحابهم، وضايق هنالك بسلسلة من الهجمات المتكررة قوات الزعماء وحاول إثارتهم للقتال، والتقت القوات في آخر الأمر بعد تحديات كثيرة من هذا القبيل في معركة في غاية العنف ثم خوضها من مواقع متلاحمة، وقد تغير فيها تيار المعركة في آخر الأمر لمصلحة صلاح الدين، واضطر الموصليون للاستسلام، ويقال إن بعض الناس من شعبهم قد خانوهم بعد ما أخذوا رشوات كبيرة من المال، وعاد الآن صلاح الدين إلى حمص واستولى على قلعتها مثلما كان قد استولى على المدينة من قبل.

وأرسل صلاح الدين من حمص رسالة إلى المسيحيين طلب فيها من الكونت ان لا يعترض تقدمه الظافر بل أن يسمح له في الصراع منفرداً مع ابن نور الدين والآخرين الذين كانوا قد أتوا لمساعدته، وخشية أن يرفض هذا الإقتراح بازدراء ودون تعويض لائق، فقد عرض أن يطلق سراح رهائن الكونت ورهائن رينو دون دفع للمال، فوافق الكونت على هذا الإقتراح وأعيدت الرهائن كما اتفق على ذلك في التسوية وصرف النبلاء الذين شاركوا في هذه الحملة بسخاء لائق، ثم جرى التخلي عن المعسكر وعاد الجميع إلى ديارهم.

يقال إن همفري أوف تيرون كافل المملكة، كان مرتبطاً بروابط الصداقة القوية مع صلاح الدين. وكان عمله ضاراً بلا ريب بمصالحنا، حيث نال هذا الأمير ودنا، في حين كان ينبغي مقاومته إلى الحد الأقصى خشية أن تزداد وقاحته ضدنا مع ازدياد قوته، ذلك أن قوته المتزايدة كانت تضر دوماً بالمسيحيين وتدفعه للتجرأ على الإستخفاف بنا.

وهكذا، فإن القوات التي كانت قد غادرت المملكة في حوالي الأول من شهر كانون الثاني عادت إلى الوطن ثانية في حوالي الأول من شهر أيار [1].

---

(١) من كانون ثاني إلى أيار ١١٧٥.

٩ - موت مينارد أسقف بيروت. ترقية مؤلف هذا التاريخ إلى مرتبة مطران لمدينة صور.

حدث في هذه الآونة، أي الخامس والعشرين من شهر نيسان، أن توفي مينارد أسقف بيروت صاحب الذكرى السعيدة وحدثت وفاته في مدينة صور بعد مرض مزمن استمر لفترة من الزمن، فلتنعم روحه بالسلام.

وكان الكنيسة في صور الآن بلا رئيس لها وذلك منذ سبعة أشهر متتالية، هذا وقد استدعيت في هذا الشهر ذاته[1] لرغبة جماعية من رجال الدين والناس وبتأكيد الملك أيضاً كما هو مألوف، ومن خلال معاناتي في ذات الرب، أكثر من أية ميزة من ميزاتي، دعيت لأتولى المسؤولية في تلك الكنيسة، وتلقيت بعد مضي عشرة أيام أي في الثامن من شهر حزيران وبمشيئة الرب هبة الترسيم على الرغم من أنني لا أستحقها بأكملها وكان ذلك في كنيسة المسيح على يدي أما لرخ بطريرك القدس.

١٠ - الملك يغزو أراضي الدمشقيين ويخرب المنطقة. موت هرنيسيوس رئيس أساقفة قيسارية.

وصلت في هذه الآونة بينما كان صلاح الدين منشغلاً بإنهاك في المنطقة المجاورة لمدينة حلب أخبار كان مفادها أن منطقة دمشق، التي كانت خالية من جيش يحميها وقائد يرعاها، معرضة للنهب وفريسة سهلة لأي أذى يمكن لأي عدو أن يلحقه بها بموجب حق الحرب، وجمع الملك بلدوين لدى تلقيه هذه المعلومات قوة من الفرسان وعبر الأردن، ومر خلال الغابة الواقعة بالقرب من مدينة بانياس والتي تشتق اسمها منها، ووصل إلى سهل دمشق بعدما ترك سلسلة جبال لبنان المشهورة على يساره، وكان ذلك في زمن الحصاد، وتفرقت قواتنا فوق السهول وتجولت بحرية في جميع الإتجاهات، وأودعت إلى ألسنة النيران المحاصيل النامية والبيادر المجمعة في الحقول وذلك بالإضافة إلى الغلال التي كانت مخزنة في مخازن الحبوب، هذا وكان المزارعون الذين أُخطروا بمقدمنا، قد انسحبوا مع زوجاتهم وأطفالهم إلى أمكنة محصنة بشكل أكثر قوة، وهكذا تقدمت قواتنا وصولاً حتى داريا بعدما جعلت المنطقة بأسرها تحت سيطرتها، وداريا هذه هي قرية في السهل الواقع في جوار دمشق وتقع على بعد نحو أربعة أميال من تلك المدينة، وتقدمت قواتنا من هناك إلى عين الجر التي

---

(١) من الصعب القول في «الشهر» نفسه، مع أن الأمر مسوغاً باللاتينية التي ترى النصف الأخير من الشهر من منطلق التقويم للشهر التالي، ولم يذكر تاريخ انتخابه- حوالي ٣٠ أيار - بالطريقة نفسها، ومهما يكن من أمر أصبح وليم رئيساً لأساقفة صور في ٨- حزيران ١١٧٥.

تقع عند سفح جبال لبنان، وقد أعطت المياه الصافية المتدفقة من تلك المرتفعات الموقع اسم منزل السرور، واستولت قواتنا على هذا الموقع بالقوة على الرغم من المقاومة الشجاعة لسكانه، ثم رحلت القوات ناقلة معها مغانم ثمينة أمام عيون الدمشقيين البائسين، ووصلت بعد عدة أيام إلى الوطن سالمة وآمنة.

وتوفي في هذه الآونة نفسها هرنيسيوس، رئيس أساقفة قيسارية صاحب الذكرى الطيبة، واختير هرقل، رئيس شمامسة القدس، خلفاً له ورُسّم بشكل لائق.

١١ ـ الملك يجتاح بلاد العدو من جديد ويخرب وادياً يدعى البقاع. تحرير كل من أرناط وجوسلين خال الملك من قيود العدو.

استدعى الملك بلدوين الرابع في العام الثاني من حكمه، وفي الأول من شهر آب[١] زعماء المملكة وذلك بينما كان صلاح الدين ما يزال منشغلاً أمام مدينة حلب، وجمع فرسانه وغزا بلاد العدو من جديد، فعبر صيدا ثم صعد الجبال التي تقع بين أراضينا وأراضي العدو ووصل إلى المصارة وهو موقع ينعم بتربة خصبة وترويه الأنهار بشكل جيد، وفي الواقع، هو مزود تقريباً فيما يبدو بكل ما هو موائم زمانياً، ونزل من هناك مجدداً إلى واد يدعى البقاع حيث عثر على البلاد الممتلئة بالحليب والعسل حسبما نقرأ في الكتب المقدسة، ويعتقد بعضهم أن هذه هي المنطقة التي كانت تسمى في العصور القديمة باسم ايطورية والتي أخبرنا عنها في إنجيل لوقا أن فيليب بن هيرارد الأكبر كان حاكماً لها، كما كان حاكماً أيضاً لبلاد تراخونيتس، وكانت منذ زمن قديم جداً ربما خلال أيام ملوك إسرائيل تسمى باسم غابة لبنان لأن الوادي امتد إلى سفح جبال لبنان. وهذه المنطقة جذابة كثيراً بسبب تربتها الخصبة ومياهها الصحية والسكان الكثر في دساكرها الكثيرة، ومناخها المستساغ، وتظهر في الجزء السفلي من هذا الوادي مدينة تحاط حتى اليوم بأسوار قوية حيث تعطي أبنيتها التي تعرف الآن باسم عين الجر دلائل كثيرة عن عظمتها في الأزمان الماضية.

يعتقد بعض طلاب تاريخ العصور القديمة بأن هذه هي تدمر، التي كانت فيما مضى مستعمرة فينيقية مهيبة والتي أورد يولبيان الصوري ذكرها في «المختصر» الجديد في فصل «الإحصاء»[٢].

---

(١) يعتبر هذا التاريخ من أكثر تواريخ وليم دقة ويشير إلى نيته العادية لبدء العام الملكي من يوم ارتقاء العرش، وكانت السنة الثانية لحكم بلدوين قد بدأت في هذا اليوم قبل أسبوعين، ومن الواضح أن الأحداث عائدة لعام ١١٧٥، وفيها مزيد من التصحيحات.

(٢) Corpus Juris Civilis, Digest, L, XV, I, 5.

بدأت قواتنا ساعة وصولها إلى هذا الموقع باجتياح المنطقة بأسرها دون عائق وأشعلت النار في كل شيء، ولم يمنعهم أحد لأن السكان كانوا قد هربوا إلى الجبال، حيث لم يكن هنالك أي طريق يستطيع الجنود عبوره ذلك أنهم كانوا قد أخطروا باقترابنا ولذلك دفعوا بالقسم الأكبر من قطعانهم وحيواناتهم إلى الغياض الواقعة في منتصف الوادي حيث كان المرعى خصباً جداً.

تقدم في هذه الأثناء كونت طرابلس فجأة مع جنوده، بعدما عبر سهل جبيل الواقع قرب القلعة المعروفة باسم المنيطرة حسب ترتيب مسبق، إلى المنطقة المجاورة لبعلبك الواقعة في الوادي نفسه حيث شرع في إحراق كل شيء، وأسرع شعبنا لدى سماعهم بهذا النبأ بتلهف في ذلك الإتجاه، وبما أن الكونت كان راغباً بشكل مماثل في مقابلتنا فقد وحد الجيشان قواتها في منتصف الوادي تقريباً.

كان شمس الدولة، أخو صلاح الدين، مقيماً في دمشق كحاكم لها، وجمع قواته حالما بلغه هذا النبأ وبذل بمساعدة سكان المدينة جهداً للمقاومة، ونظم صفوفه وعبأها بترتيب المعركة واستعد ليزحف نحونا، كما رتبت قواتنا كتائبها أيضاً بترتيب جيد وتقدمت بروح شجاعة نحو القتال، وحارب الجانبان بشجاعة، وقتل الكثيرون وجرح عدد أكبر ووقعت أعداد كبيرة في الأسر. إلا أنه تم في آخر الأمر إجبار العدو على الفرار، ونجا شمس الدولة مع قليل من أتباعه وهرب إلى المنطقة الهضبية المنحدرة. وعاد المسيحيون محملين بالمغانم من العدو مع قطعان المواشي ومقدار ضخم من المغانم، وعانى المنتصرون من خسارة عدد قليل من الجند الذين غامروا بطيش في التوغل في الغياض للنهب مع أنهم لم يكونوا مطلعين على الطرقات، ولم يعرفوا خبر الإنسحاب المفاجىء للقوات المسيحية.

وهكذا، عاد الملك وجنوده بإرادة الرب إلى مدينة صور بسلامة تامة. وجلبوا معهم مغانم ثمينة من كل نوع بما فيها قطعان الحيوانات وكميات كبيرة من الأغنام كبراهين بارزة على قوتهم الظافرة.

وقفل كونت طرابلس، المحمل أيضاً بغنيمة ثمينة ضخمة، مسروراً مع قواته وعاد إلى ممتلكاته سالكاً الطريق نفسه الذي كان قد قدم بواسطته.

وعاد خلال ذلك العام نفسه[1] أرناط والذي كان قد ورث بوساطة زواجه من كونستانس أرملة ريموند، أمير انطاكية، تلك الإمارة، وحصل على إطلاق سراحه عندما

---

(١) من المفترض أن العام الملكي كان يعني ١٥ تموز عام ١١٧٥ - ١٤ تموز عام ١١٧٦ وهكذا من المحتمل أن إطلاق السراح حدث في عام ١١٧٦ كما حدث ترسيم الأسقفين المذكورين إثر ذلك مباشرة.

دفع أصدقاؤه فدية كبيرة وذلك بعد عدة سنوات من الأسر الصعب في حلب، وكان معه جوسلين ابن جوسلين كونت الرها وخال الملك الذي أنقذ أيضاً من السجن وأعيد إلى الحرية بفضل الجهود المستمرة للكونتس أغنس زوجة رينو صاحب صيدا ووالدة الملك.

كما تلقى في ذلك العام نفسه وفي اليوم الثاني من شهر أيار كل من أودو الأسقف المنتخب لصيدا والذي كان شماسا للكنسية في صور، وريموند الأسقف المنتخب لبيروت، تلقيا هبة الترسيم في الكنيسة في صور من خلال إدارتنا لها.

١٢ - إمبراطور القسطنطينية يتعرض للهزيمة بشكل مخز في قونية.

واجه مانويل امبراطور القسطنطينية، صاحب الماضي الرائع والذكرى اللطيفة في المسيح، وهو الذي كان الجميع تقريباً قد استفادوا في خدماته ونالوا من كرمه وسخائه غير المحدود، واجه أيضاً في هذه الآونة نفسها كارثة خطيرة في قونية، فقد كان يحاول بورع جدير بالثناء أن ينشر الاسم المسيحي بمحاربة عرق الأتراك المرعب وزعيمهم الشرير سلطان قونية. غير أنه عانى هنالك وبسبب آثامنا من مذبحة كبيرة، ولم تشتمل هذه المجزرة على المجموعة الشخصية لأتباعه فقط، بل شملت أيضاً القوات الإمبراطورية التي كان يقودها معه بأعداد كبيرة جداً وبشكل يكاد يفوق التخيل البشري. وترافق الاشتباك بخسارة ضخمة في الجند كان بينهم بعض أقاربه البارزين الجديرين تماماً بذكر خاص، فقد كان بينهم ابن اخيه يوحنا البروتوسيباستوس وكان رجلاً سخياً مشهوراً وصاحب كرم ملحوظ وهو الذي كان الملك عموري قد تزوج من ابنته ماريا، فقد قتل عندما كان يبدي مقاومة شديدة أمام العدو وبعدما أصيب بجراحات كثيرة بالغة، ونجح الإمبراطور نفسه في جمع معظم جيشه ووصل إلى بلده سالماً جسدياً ومنهكاً ذهنياً إلى حد بعيد بسبب الكارثة المشؤومة ويقال إن هذه الكارثة نشأت إلى حد ما عن طيش الضباط الإمبراطوريين الذين كانوا مسؤولين عن الفرق العسكرية وليس بسبب قوة العدو، لأنهم حشروا أنفسهم باهمال وباندفاع في الأماكن الضيقة الخطيرة التي كان العدو قد استولى عليها مع أنه كانت هنالك طرق مفتوحة وواسعة ومهيأة بشكل جيد لمرور الجيش ولنقل كتلة الأمتعة، ومختلف المعدات التي قيل إنها كانت تفوق التقدير، وقد استحال في ظل ظروف من هذا القبيل إبداء المقاومة، ولم يكن هنالك أية فرصة لتغيير المعطيات تغييراً تاماً ضد العدو، ويقال إن الإمبراطور حمل منذ ذلك اليوم وبشكل مؤثر بعمق على فؤاده، ذكرى تلك الكارثة المميتة، ولم يظهر بعد ذلك أبداً ابتهاج الروح الذي كان صفة له، ولم يبد نفسه مبتهجاً أمام شعبه مهما توسلوا إليه، ولم ينعم قط طوال حياته، بالصحة الجيدة التي كان يمتلكها قبل تلك الكارثة بدرجة رائعة جداً،

وبالاختصار، لقد أنهكته دوماً ذكرى تلك الكارثة لأنها ظلت ماثلة أمامه إلى درجة أنه لم ينعم أبداً ثانية بهدوء الذهن أو براحة النفس المألوفة(١).

١٣ - وصول وليم الأصغر، مركيز مونتفرات إلى سورية وزواجه من أخت الملك.

في العام الثالث لحكم بلدوين الرابع وصل الماركيز وليم، الملقب بالسيف الطويل، ابن وليم الأكبر، ماركيز مونتفرات إلى ميناء صيدا مع بداية شهر تشرين الأول، وذلك بدعوة من الملك وجميع نبلاء المملكة المدنيين والدينيين، وتزوج من الأخت الكبرى للملك خلال أربعين يوماً من وصوله، وكان هذا الزواج قد تم ترتيبه في العام السابق في الوقت الذي دعي فيه وليم للقدوم لهذا الغرض، وقد تم تأكيد هذا بيمين أداه الملك وجميع النبلاء بشكل مؤكد ومهيب، وتلقى وليم مع زوجته مدينتي يافا وعسقلان البحريتين مع توابعها والمقاطعة بأسرها أيضاً بموجب الاتفاق المعقود حول ذلك في تلك الآونة غير أن بعضهم عارض هذا الإجراء ولم يترددوا في التعبير عن معارضتهم علانية، وكانوا بين الذين سبق أن وافقوا على الدعوة التي وجهت لوليم دون إعطاء المسألة الاهتمام الكافي، وقد غيروا آراءهم الآن كما هو مألوف بالنسبة للطبائع البشرية المتبدلة والمتقلبة.

كان الماركيز طويلاً بعض الشيء، وشاباً وسيماً شعره أشقر، وكان سريع الغضب بشكل مفرط غير أنه كان في غاية الكرم وله مزاج متحفظ وشجاعة ورجولة. ولم يخف أبداً أية غاية بل أبدى علانية تماماً ما كان يفكر به في ذهنه، كان مغرماً في تناول الطعام وموقفاً نفسه تماماً على الشرب، لكن ليس إلى درجة إلحاق الضرر بعقله. وكان قد تدرب على استخدام السلاح منذ حداثة سنه واشتهر بتمرسه في فن الحرب، وكانت منزلته الدنيوية ممجدة، ولم يتمكن في الواقع إلا قلة من محاكاته إن ادعينا أنّ له نظراء، وكان والده خال لويس ملك فرنسا؛ وكانت والدته أخت كونراد الإمبراطور الشهير للرومان، وعمة لفريدريك الذي يدير الامبراطورية الرومانية بقوة بعد وفاة عمه اللورد كونراد صاحب لذكرى المشهورة، وهكذا، كان الماركيز مرتبطاً بهذين الملكين البارزين بالدرجة نفسها من القرابة.

ولم يكن قد انقضى إلا ثلاثة أشهر تقريباً على زواجه عندما أصيب بمرض خطير، وقد كابد الآلام لقرابة شهرين بدون توقف وقد توفي في شهر حزيران التالي في الوقت الذي

---

(١) كانت هذه كارثة Myrokephalion المشهورة لعام ١١٧٦ (انظر ف. شالدون- آل كومينين: ٢/٥٠٧).

(٢) لم ينزل هذا اللقب بالفعل أبداً إلى وليم ذي السيف الطويل لأنه توفي قبل والده، إلا أن مؤرخنا يطبقه بلا شك كلقب مجاملة. ويؤرخ وصول وليم ذي السيف الطويل هنا بأنه تشرين الأول عام ١١٧٦.

كان الملك فيه مريضاً جداً في عسقلان وقد خلف زوجته حاملاً ونقلت جثته إلى القدس ودفن بأبهة عظيمة في ردهة كنيسة دار الداوية وإلى اليسار من المدخل، وقد ترأس القداس وليم الصوري مؤلف هذا الكتاب [١].

وتزوج في هذه الآونة همفري أوف تيرون كافل المملكة، من السيدة فيليبيا؛ وكانت ابنة ريموند أمير انطاكية وأخت بوهيموند الثالث الذي يحكم الآن هذه الإمارة، وأختاً لماريا امبراطورة القسطنطينية وكانت فيليبا قد تزوجت للمرة الأولى من أندرو نيكوس أحد أقرباء الإمبراطور، لكنه طلقها وتزوج سراً من ثيودورا أرملة الملك بلدوين وابنة أخيه، وهو عمل مخزٍ وفاحش على حد سواء. وما أن أخذ همفري هذا، الذي كنا نتحدث عنه منذ لحظات، فيليبيا إلى بلاده حتى أصيب بمرض شديد، كما أصيبت زوجته بداء خطير مات بسببه خلال بضعة أيام.

١٤ ـ وصول كونت فلاندرز إلى المملكة وذلك بعد طول انتظار.

في العام الرابع والشهر الثاني من حكم الملك بلدوين الرابع وصل في مطلع شهر آب إلى عكا [٢] فيليب كونت فلاندرز، الذي انتظر قدومه لفترة طويلة من الزمن، فأمر الملك بأن ينقل على حمالة من عسقلان إلى القدس وذلك على الرغم من أنه كان ما يزال مريضاً؛ وأرسل وهو في غاية البهجة عدداً من باروناته ونبلائه الدينيين ليرحبوا بفيليب بمراسم لائقة، ولدى وصول الكونت إلى القدس، حيث كان الملك ما يزال مريضاً بشكل خطير، جرى تفويضه بجميع السلطات مع إدارة المملكة بأكملها بدون قيود وجاء ذلك بناء على نصيحة جماعية للسيد البطريرك ورؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء أديرة الرهبان ومقدمي الداوية والاسبتارية وجميع أعيان الناس ورؤسائهم، وتوجب أن يحصل على سلطة تامة على الأعلى والأدنى منزلة في السلم والحرب وفي الداخل والخارج، وأن يمارس إرادته بحرية على الخزينة وعائدات المملكة [٣].

---

(١) يدفع تواضع الكاتب القارىء إلى عدم الاهتمام بالرواية. فقد كانت جنازة صهر الملك والخليفة المرتقب له حدثاً له أهمية كبيرة وقد ترأسه البطريرك بحكم كونه رئيساً للكنيسة وكان اختيار وليم للعمل بدلاً عنه، ربما لأنه كان مسناً ومريضاً في ذلك الوقت، وقد حمل ذلك بعض الاحتمال للخلافة في حال وفاة البطريرك.

(٢) انظر الكتاب ٢٠ ـ الحاشية ٤. ومثلت فيليبا إحدى المسائل العابرة والمبكرة من مشاكل أندرونيكوس.

(٣) ما يزال تأريخ وليم ثابتاً، وتقابل مقولته ٢ ـ آب ١١٧٧، مصححاً بذلك غلطة ١١٧٣ كسنة شهدت وفاة عموري واعتلاء بلدوين العرش.

(٤) قد يكون جديراً بالاهتمام ملاحظة أن المصطلحات المستخدمة هنا تذكرنا بالصيغ التي كان يستخدمها الأباطرة الرومان في إضفاء الصلاحيات على نوابهم وعمالهم، ويظهر مشرعو القرن الثاني عشر أنهم خلطوا صيغاً من

ورد الكونت بعد تداوله مع أتباعه انه لم يكن قد حضر بهدف استلام أية سلطة، بل لينذر نفسه للخدمة السماوية التي كانت الهدف لزيارته، ولم يكن قد خطط ليحمل نفسه أية مسؤولية، بل على العكس، كان يرغب في أن يكون حراً ليعود إلى موطنه عندما تستدعيه أموره الشخصية، وليعين الملك أي انسان يختاره كحاكم في مملكته، فهو نفسه سيطيع ذلك الإنسان لمصلحة المملكة، كما يطيع مولاه ملكِ فرنسا.

وبعدما أدرك الملك أن فيليب قد رفض تماماً المنصب الذي كنا قد عرضناه عليه، طالب عن طريق نبلائه أيضاً وبشكل جاد في أن يوافق ـ على الأقل ـ أن يتولى قيادة جميع القوات المسيحية في الحملة التي كانت على وشك الانطلاق، وكانت هذه الحملة قد تم ترتيبها منذ زمن طويل مع امبراطور القسطنطينية وتوسل الملك الآن إليه في أن يتولى العناية بمعارك الرب ضد المصريين، ورد الكونت على هذا المطلب بالإجابة ذاتها التي قدمها من قبل.

وهكذا، عين الملك أرناط، الذي كان فيما مضى أميراً لانطاكية، نائباً للمملكة وقائداً عاماً للجيش حسبما كان قد تم ترتيب ذلك قبل وصول الكونت، وكان أرناط رجلاً صاحب إخلاص واضح ووفاء ملحوظ. وتوجب أن يؤول إليه واجب توجيه أمور المملكة وحكم جميع الأشياء بمساعدة الكونت إن لم يتمكن الملك من المثول شخصياً.

عندما نقل هذا الأمر إلى الكونت أجاب إن وكيلاً كهذا لا يبدو ضرورياً بالنسبة له؛ وينبغي خلافاً لذلك تعيين شخص ما ليتلقى شخصياً مجد هذه الحرب، إن كان ذلك يرضي الرب، أو ليتلقى عار الهزيمة إذا قضى الرب ذلك، وينبغي إعطاء مملكة مصر إلى قائد كهذا، إذا وضع الرب تلك المملكة تحت سيطرتنا.

ـ وأجبنا على هذا ـ نحن الذين كان الملك قد أرسلنا: إن الملك لا يستطيع أن يعين مسؤولاً بسلطة كهذه دون ان يجعل الشخص ذاته ملكاً، حيث لم تكن تلك الفكرة فكرة الملك ولا فكرتنا. وحيث كان هذا هو الحال، فقد كشف الكونت في آخر الأمر النقاب عن التفكير السري لعقله، ولم يحاول إخفاء الهدف الذي كانت جميع خططه موجهة نحوه، وأشار إن الأمر كان غريباً لأنه لم يتطرق أحد معه للحديث في موضوع الزواج من قريبته سيبيلا.

ولدى سماعنا لهذه الأقوال، دهشنا بمكر الرجل ولخططه الشريرة. لأن الكونت، الذي كان الملك قد استقبله بلباقة بالغة؛ كان يحاول الآن بتحد لقوانين حسن الضيافة وروابط الأسرة أن يحل نفسه محله.

القانون والمختار منه. ومن الممكن أن وليم استمد منها (انظر مجموعة القانون المدني: ٢/١٢/١٠ـ المختار منه: ١/١٩/١/٣/٣، ١/٥٨/١٥/١/٧/١).

١٥ ـ أتباع الكونت يؤثرون عليه بشكل مضلل ويقنعونه بعدم قبول آراء نبلاء المملكة.

من الضروري أن نستطرد قليلاً في هذه المرحلة، حتى يتمكن قراؤنا من أن يفهموا بشكل تام الخطة الشريرة التي كان الكونت يحاول تنفيذها، وتم الحصول على معلوماتنا حول هذا الموضوع ليس فقط من روايات فردية كثيرة، بل من اعترافه أيضاً.

كان هنالك رجل صاحب نفوذ كبير، هو المحامي عن بيثيون قد رافق الكونت في رحلته، وكان قد جلب معه ابنيه اللذين كانا رجلين في مقتبل الشباب، ويقال إن المحامي قد شرع، بمساعدة الكونت وليم دي ماندفيل، الذي كان أيضاً موجوداً في هذه الرحلة نفسها، بالضغط على فيليب ليعتقد أن بإمكانه أن يبدل وضع المملكة كثيراً لمصلحته، وادعى أنه يمتلك ممتلكات وراثية واسعة في بلاد الكونت ووعد في أن يتخلى عنها جميعاً إلى الكونت ويملكه إياها بشكل دائم وبحقوق وراثية إذا ما تمكن فيليب من عقد الزواج بين ابنتي الملك عموري وبين ابني هذا المحامي، وكان الملك عموري قد ترك ابنتين كانت احداهما ارملة الماركيز، وكانت الأخرى، التي بلغت سن الزواج الآن، تعيش مع والدتها الملكة في نابلس، ووافق الكونت على هذا الاقتراح وبات يجهد في سبيل تدبير أمر هذا الزواج لكن دعونا نعود إلى سياق خبرنا.

كنا قد علمنا الآن الهدف الذي كانت مطامح الكونت موجهة نحوه، وهكذا أجبناه إنه ينبغي عرض المسألة أولاً على الملك، ثم سننقل في اليوم التالي الرد الذي سيراه الملك ـ بعد التشاور ـ لائقاً بالتقديم.

وبعد عقد اجتماع تداولنا فيه القضية عدنا في الصباح إلى الكونت، وقدمنا رداً جاء على النحو التالي: إنه من عادتنا، الموافق عليها بالاستخدام الطويل، أن لا ننظر في إعادة زواج أرملة، لا سيما من كانت حاملاً منهن، قبل مضي عام واحد على وفاة زوجها، لأن ذلك لن يكون حداداً شريفاً، ولذلك، ينبغي عليه في حالة هذه السيدة التي لم يكن قد مضى ثلاثة أشهر على وفاة زوجها الماركيز، ألا يسيء الفهم أنه ليس بإمكاننا معالجة إعادة زواجها، لأن ذلك سيكون خلافاً لعادات العصر ولبلادنا، ومع ذلك، إنه سيلاقي تأييدنا جميعاً وموافقتنا إذا أمكن تقديم الاقتراح المذكور آنفاً مشفوعاً بنصيحة الشخص الذي عرضه الآن، لأن الملك قد رغب بالتأكيد في أن يوجه بنصيحة الكونت ورغب في أن يتفق معه في الرأي طالما كان متوائماً مع شرفه الخاص، فليأخذ الكونت المبادرة وليحدد شخصاً مناسباً لذلك التحالف ونحن مستعدون في المسألة الحالية للعمل وفقاً للرغبة العامة.

وتضايق الكونت من هذا الرد وأجاب إنه لن يرضى أبداً وفي أية حال من الأحوال على القيام بهذا ما لم يقسم جميع النبلاء أولاً أنهم سيلتزمون باقتراحه دون نقاش، لأن أي نبيل سيعتبر نفسه مهاناً إذا ما تم رفضه بعدما تمت تسميته.

وأجبنا على هذا أنه سيشين شرف الملك وشرفنا أيضاً إذا أعطينا أخته لشخص لا نعرفه حتى بالاسم، وبما أن مشيئة الملك وجميع النبلاء كانت واضحة في آخر الأمر، فقد تخلى الكونت عن نواياه، لكن ليس بدون إظهار قسط وافر من السخط والرفض.

١٦ - وصول رسل من عند امبراطور القسطنطينية. المطالبة بتنفيذ المعاهدة التي كان الملك قد عقدها مع حاكمهم على الفور وتجهيز حملة ضد مصر.

وجد في القدس في هذه الآونة سفارة كانت مؤلفة من رجال بارزين ذوي منزلة عالية وهم: السيد أندرونيكوس المكنى أنغيلوس ابن أخت الإمبراطور وميغالتيراخ [أي] يوحنا وهو رجل عظيم جداً والكونت الكسندر أوف كونفير سانا في أبوليا وهو نبيل من منزلة سامية، وغيورغيوس أوف سيناي [جورج سيناتيز] أحد عناصر البلاط الإمبراطوري[1]. وقد أتوا إلى الملك بأمر من الإمبراطور الذي اعتبر الوقت موائماً الآن لتنفيذ المعاهدة التي كانت قد عقدت بينه وبين الملك عموري والتي تجددت فيما بعد وفق شروط مماثلة مع الملك الحالي بلدوين، وكان يأمل بالمزيد أيضاً، بمساعدة الرب، من قدوم كونت فلاندرز، وهكذا، عقد اجتماع عام في مدينة قدس الأقداس ذاتها لدراسة هذه المسألة، وذهب جميع نبلاء المملكة إلى هناك، وتعلق الجميع قاطبة بالأمل ذاته وهو أنه بمشورة الكونت ومساعدة حاشيته فإن المملكة، حبيبة الرب، يمكن أن تحظى بالتوسع المنشود وأنه يمكن اتخاذ اجراءات فعالة لإبادة أعداء المسيح، ثم رحل الكونت دون سابق انذار، كما كنا قد ذكرنا، وأوقف نفسه على مشاريع أخرى متخلياً عن وعوده، وهكذا دكت أسس أمالنا بالذات ونسفت.

---

(١) كانت هذه السفارة مؤلفة من أندرونيكوس أنغيلوس، ويوحنا دوكاس، ورئيس النبلاء، وجورج سينياتس والكونت الاسكندر دي غرافينا (انظر شالدون - آل كومينين: ٢/٥٥١) وكانت هذه هي البعثة الدبلوماسية الثالثة للكونت الاسكندر إلى القدس مما أتى على ذكره وليم. وكان لدى عدد قليل من شخصيات القرن الثاني عشر خبرة دبلوماسية أكثر. وهو نورماندي من جنوب ايطاليا، وكان قد جرد من أراضيه في ثورة للنبلاء ضد روجر الثاني، وقد سافر جيئة وذهاباً لبضعة سنوات بين بلاطي كونراد الثالث والقسطنطينية ساعياً لاسترداد أراضيه بمساعدة أي من الطرفين، واستخدمه القصران كمبعوث، واستقر في آخر الأمر في القسطنطينية حيث عهد إليه مانويل بقيادة القوات النورماندية، وأرسله في مهمة إلى ألمانيا وصقلية وإلى الأراضي المقدسة أيضاً، وقد ظهر اسمه وظل بارزاً بشكل غير اعتيادي لفترة طويلة من الزمن، أي من عام ١١٣٢ وحتى عام ١١٧٧ على الأقل (انظر شالدون - آل كومينين: ٢/٥٥١).

أصرّ المبعوثون الإمبراطوريون على الرغم من تخلي الكونت، على أنه يجب تنفيذ المعاهدة، وحاولوا أن يثبتوا أن التأجيل يحتمل أن يترافق بالخطر، وليس هنالك أي سبب من جانب الإغريق حول عدم مباشرة الحملة المقترحة، وكانوا مستعدين لإنجاز جميع شروط المعاهدة بإخلاص وبأداء تام.

وقررنا، بعد الاستماع لأقوال المبعوثين والتداول مع بعضنا بعضاً، أن نضع المسألة أمام الكونت بأتم التفاصيل. فاستدعي الكونت، وعندما وصل وضعت أمامه مادة الاتفاقية بين الإمبراطور وأنفسنا التي دونت بدقة وختمت بالخاتم الذهبي للإمبراطور.

وسئل عن رأيه بعدما درس الوثيقة بعناية وفهمها بشكل شامل. فأجاب بأنه غريب وغير مطلع على المنطقة المحلية وخاصة على بلاد مصر، التي قيل إنها كانت تقع على مسافة بعيدة جداً وأبعد من جميع البلدان الأخرى وأنها خاضعة لأحوال مختلفة كما تفيض الأنهار فيها في مواسم محددة من العام وتغمر الأرض بشكل كامل. وكنا بالطبع نعرف طبيعة البلاد بشكل أفضل وفرص الاقتراب منها، إلا أنه كان قد سمع من الذين غالباً ما زاروا مصر أن الموسم الحالي لم يكن موسماً مواتياً للغزو. وأضاف أن الشتاء بات على الأبواب وأن مصر مغطاة بفيضان النيل، وفوق ذلك كان قد سمع أن الأتراك كانوا قد اندفعوا إلى هنالك بأعداد ضخمة، وأخيراً فقد خشي، وهذا أهم شيء، بأنه سيكون هنالك ندرة في المؤن خلال الزحف وحتى بعد وصولهم لمصر، وأن الجيش سيعاني بالنتيجة من المجاعة.

أدركنا من هذه الاعتراضات أنه كان يسعى للعثور على مسوغ ذكي ليتجنب تولي القيام بالحملة، وللحيلولة دون هذا، فقد قدمنا له ستمائة جمل لنقل المواد الغذائية والأسلحة والأمتعة الأخرى براً، ووعدناه بتقديم العدد اللازم من السفن لنقل المؤن والآلات الحربية وجميع المعدات اللازمة للحرب بحراً، إلا أنه رفض هذه العروض بأكملها وأضاف بأنه لن يهبط إلى مصر معنا بأية شروط خشية أن يضطر وقواته بالمصادفة للمعاناة من المجاعة، وأضاف إنه كان قد اعتاد على أن يقود جيوشه عبر بلدان غنية، وأن جنوده لن يتمكنوا من تحمل مصاعب من هذا القبيل؛ وأنه ينبغي علينا أن نختار منطقة أخرى إلى حيث نستطيع تسيير الجيوش بسهولة أكثر، ولنكافح بشكل موائم لنشر الإسم المسيحي ولإبادة أعداء المسيح وعندها سيعد التحضيرات مع جنوده بسرور للإنطلاق.

١٧ ـ معارضة الكونت تعيق هذا المشروع المهيب وتحول دون تنفيذ المعاهدة.

ومهما يكن الحال إنه لم يكن آمناً ولا جديراً بالاحترام بالنسبة لنا بأن ننسحب من

المعاهدة[1]، كما أن الرسل الإمبراطوريين، الذين كانوا رجالاً مشهورين في المنزلة، كانوا الآن في القدس مع موارد مالية ضخمة، وأعلنوا انهم مستعدون لتنفيذ المواثيق، التي أبرمت بين الإمبراطور وبيننا، بإخلاص كما كنا قد ذكرنا، وكانت لديهم سبعون شيني راسية في ميناء عكا إضافة إلى سفن أخرى كافية للرحلة والحملة حسب الاتفاق المعقود، وبدا أن رفض الالتزام بالإتفاق الذي كنا قد تعهدنا به أنه أمر مخزٍ للغاية وخطير بالفعل، وشعرنا أنه سيكون من الطيش أن نخسر مساعدة الإمبراطور المعدة لنا الآن حتى وإن وافق الرسل الإمبراطوريون على تأجيل الحملة إلى موعد آخر؛ وعلاوة على ذلك، فقد خشينا من استيائه الأمر الذي يمكن أن تكون له نتائج خطيرة بالنسبة للمملكة؛ وهكذا صممنا بموافقة الطرفين، على مباشرة الحملة تمشياً مع المعاهدة والترتيبات المعدة، وأن نستمر بالتحضيرات للحملة التي تم الاتفاق عليها مع الإمبراطور منذ زمن طويل.

وغضب كونت فلاندرز غضباً شديداً عندما علم بقرارنا، وأعلن أن المسألة بأسرها قد صيغت كإهانة له، وتأجلت الحملة أخيراً بعد مناقشات كثيرة، حتى نتمكن من الإستجابة بعض الشيء لرغباته تأجلت ثانية إلى ما بعد نهاية شهر نيسان وكان ذلك بموافقة الإغريق مع شعبنا.

وهكذا أمكن حل المسائل بهذه الطريقة، وكان الكونت الآن موجوداً في القدس منذ خمسة عشر يوماً تقريباً، وكان قد أنجز عباداته، وهكذا حمل سعف النخيل الذي هو بالنسبة لنا أشارة على حج كامل ورحل إلى نابلس وكأنه قد عزم على الانسحاب تماماً. وأرسل من هنالك بعد بضعة أيام المحامي عن بيثيون مع آخرين من جماعته إلينا في القدس، وكانوا مفوضين لأن يعلنوا، باسم الكونت، أنه كان مستعداً ـ وكان هذا هو جوهر مداولاته ـ ليلحق بنا حيثما نشاء سواء أكان ذلك إلى مصر أو إلى مناطق أخرى، وبدا لنا تبدل الرأي المتكرر هذا أنه سخيف وشعرنا أنه يمكن بعدل اتهام الكونت أنه صاحب شخصية متقلبة، حيث لم يلتزم بأي مشروع محدد، ومع ذلك، قمنا لدى استلام هذه الرسالة المتضمنة نبأ قراره، بالتداول على مضض مع الاغريق؛ غير أنه ثبت أنه لم تكن لديه أية نية في تحويل أقواله إلى أفعال، بل على العكس، كان يحاول بكل قوته أن يضعنا في موقع الزلل، حتى يتمكن من الكتابة إلى الأمراء الموجودين فيما وراء الجبال بأننا نتحمل مسؤولية تأجيل

---

(١) من المحتمل أن المعاهدة التي يشير وليم إليها هي تلك التي عقدها عموري أثناء زيارته لمانويل في عام ١١٧١. وكانت أحداث متنوعة قد تدخلت لتأجيل تنفيذ المعاهدة (انظر كتاب ٢٠ فصلا ٢٢ و ٢٣).

الحملة[1]. وكان قد أرسل المذكورين أعلاه آملاً في أن الاغريق لن يوافقوا البتة على مطلبنا، وأن خطأه سيرتد بالتالي علينا.

١٨ ـ عودة رسل الإمبراطور إلى بلادهم. الكونت يتابع السير إلى بلاد إنطاكية. زواج بالين من أرملة الملك عموري.

طلبنا عند ذلك من الاغريق أن يتأكدوا فيما إذا كانوا ما يزالون راغبين بتنفيذ اتفاقهم الأصلي والنزول إلى مصر، شريطة حضور الكونت معنا. فأجابوا انه على الرغم من أن الوقت قصير جداً لإعداد التحضيرات اللازمة لجيوشهم، إنه إذا ما أدى الكونت اليمين بيده في أنه سيذهب معنا وأنه في حال مرضه هنا أو أثناء الزحف سيرسل قواته معنا وإذا ما وعد بالكفاح لتوسيع الديانة المسيحية في الحملة بأسرها بإخلاص ودون احتيال أو نية شريرة، وإذا ما ضمن علاوة على ذلك أن الاتفاقية، التي قد رتبت ودوّنت، لن تخرق في أي بند من بنودها سواء أكان ذلك بالنصيحة أو المساعدة؛ وإذا ما دفع شعبه ليقسم متعهداً بتنفيذ الشيء نفسه، عندئذ سيذهبون معنا مع أن تغييرات مشاعره الكثيرة بدت غريبة وتتناقض بالنسبة لهم مع سمات الرجولة والثبات، وما هدفهم سوى توسيع مجد المملكة حبيبة الرب وجلب الفخار للامبراطور وزيادته.

ثم عرض المحامي والذين أرسلوا معه أداء القسم على الشروط كما هي مقدمة أعلاه، بيد أنهم لم يكونوا راغبين في إدراج جميع الشروط فيه ولا أن يعدوا أن الكونت سيؤدي القسم أيضاً، وعندها ارفض المؤتمر، لأننا لم نعد مهتمين في مواصلة النقاش دون الوصول إلى هدف، كما أن المسألة التي تعرضت للمفاوضة مراراً تـأجلت إلى موسم أكثر مواءمة، ثم استأذن الرسل الإمبراطوريون بالرحيل وعادوا إلى موطنهم.

بدأ ممثلو الكونت يتساءلون بعد رحيل رسل الإمبراطور عن سبب تأجيل الحملة المقترحة وعدم تنفيذها حالاً وقالوا: «ما هو المشروع الذي بإمكان الكونت القيام به بمساعدة المملكة حتى لا يبدو كسولاً وعاطلاً عن العمل؟» وأخيراً قرر الذين توقف عليهم

(١) لقد وصفت هذه المفاوضات بشكل مطول بعض الشيء، ولا شك أن ذلك كان بحكم عمل وليم آنذاك كمستشار رئيسي للملك، وكان مسؤولاً مباشرة عن المفاوضات مع فيليب، وبما أن وليم كان خائفاً من نوايا فيليب في تكذيب البلاط اللاتيني في نظر الحكام الغربيين، فهو لا يسرد فقط أخبار المفاوضات بالتفصيل هنا، بل يبدو أيضاً بأنه بعث برسائل حول الموضوع نفسه. وهكذا، فإن كلاً من روبرت أوف تورغيني، ووليم أوف نيوبيرغ ـ اللذين لم يعش أي منهما فترة كافية ليتمكن من قراءة كتاب وليم ـ قدم وصفاً موجزاً إلى حد ما لهذه الأحداث كما رواها وليم.

اتخاذ القرار النهائي، التحرك نحو أراضي طرابلس أو انطاكية حيث بدا ممكناً إنجاز شيء ما لمصلحة أمجادهم الخاصة ولتقدم المسيحية.

كان هنالك بعض من ألقى مسؤولية ما حدث على عاتق أمير انطاكية، الذي كان موجوداً في ذلك الوقت، وعلى عاتق كونت طرابلس أيضاً وهو الكونت الذي كان كارهاً جداً للحملة إلى مصر [1]. ولقد كانا يحاولان جره إلى مناطقهما حتى يمكن بمساعدته القيام بمشروع ما يؤدي إلى توسيع ممتلكاتهما. إلا أن هذه الآمال تبددت لأن السماء لم تسمح للكونت بعمل أي شيء جدير بالواقع بالتسجيل بيننا أو بينهم. وكان بالفعل حقيقاً كهذا الذي كان الرب قد سحب تأييده منه، ألاّ ينجح في أي شيء «لأن الله يقاوم المستكبرين وأما المتواضعون فيعطيهم نعمة» [2].

هذا وقد وعد الملك في أن يقدم لفيليب تعاونه ومساعدته، وقد منحه عند رحيله مئة من فرسانه وقوة مؤلفة من ألفين من الجنود المشاة.

لقد كانت هذه حالتنا وأوضاعنا في حوالي الأول من شهر تشرين الأول [3]. وغادر الكونت مع قواته في ذلك الوقت، مصحوباً بكونت طرابلس ومقدم الاسبتارية وعدد كبير من فرسان الداوية وتوجه إلى بلاد طرابلس.

وفي حوالى الوقت ذاته، تزوج ـ بناء على موافقة من الملك ـ بالين دي ابلن أخو بلدوين صاحب الرحلة من الملكة ماريا أرملة الملك عموري وابنة يوحنا البروتوسيباستوس الذي تكررت الإشارة إليه آنفاً، وتسلم بالين مع ماريا مدينة نابلس التي سبق أن أعطيت لها أيام زواجها كمهر عقاري مسمى، وكان عليه الاحتفاظ بها خلال حياة زوجته.

١٩ ـ كونت فلاندرز يحاصر قلعة حارم بمساعدة أمير إنطاكية وكونت طرابلس، إلا أن الجهود التي بذلوها لم توصل إلى محصلة.

بعد الوصول إلى طرابلس قاد الكونت قواته بصحبة كونت طرابلس إلى بلاد العدو وبعد اعداد جميع الترتيبات الضرورية للزحف وتعبئة الجنود بشكل جيد، بقيا لفترة من الزمن بالقرب من مدينتي حمص وحماه، وهي خطوة أدت إلى إلحاق بعض الخسارة في

---

(١) لم يوفر وليم هنا صديقه ريموند صاحب طرابلس من حمل حصته من اللوم على اخفاق المفاوضات.

(٢) بطرس الأول: ٥/٥.

(٣) ١ ـ تشرين أول ١١٧٧.

صفوف العدو. لأن صلاح الدين كان بعد تحقيق هدفه في تلك المنطقة المجاورة وإحلال السلام مع ابن نور الدين حسب شروطه الخاصة قد رحل إلى مصر فقد بدت له التحضيرات، التي أشيرت إليها أعلاه، بأنها تشير إلى أن الحملة، التي كانت تهدد مصر منذ زمن طويل، والتي أعدت لها الترتيبات قبل وقت طويل، كانت على وشك الحدوث، وهكذا، قاد معه جميع القوات التي حصّل عليها من أي مصدر وحشد قواته الضخمة من الفرسان في المواقع الإستراتيجية حيث بدا ممكناً ان تشهد وقوع أكثر الأحداث أهمية فيها، ونتيجة لهذا وجد الكونت وقواته أن البلاد خالية من المدافعين وأنه من الممكن اجتياح المنطقة بدون مقاومة، بيد أن المدن المحصّنة وقلاع المدن كانت مزودة بشكل جيد بالمؤن، وكان فيها عدد كاف من الحراس والأسلحة من أجل الدفاع عنها.

وعندما عرف أمير أنطاكية أن الكونتين قد دخلا إلى بلاد العدو بادر بالانضمام إليهما عبر طريق آخر وذلك حسب الاتفاق المعقود بينهم من قبل، وهكذا فإن القوات المتحدة في قوة واحدة باتت ذات تصميم واحد أيضاً؛ وبناء عليه تقرر محاصرة قلعة حارم وكانت هذه أفضل خطة في تلك الظروف، وتقع هذه القلعة في منطقة خالكس التي تعرف الآن باسم حصن صغير جداً، وتقع كل من المدينة والحصن على بعد نحو اثني عشر ميلاً عن انطاكية.

ولدى وصول القوات أمام حارم، نصب المعسكر على شكل دائرة حول الموقع حيث تم تطويق المحاصرين من جميع الجهات، ولهذا فقد منعوا بالكامل من الظهور، ولم يتمكن أي إنسان من الإقتراب، وإن كان راغباً في ذلك، لتقديم المساعدة إليهم. وشيدت على الفور الآلات الحربية وجميع المعدات الضرورية لمواصلة الحصار. وبنى المسيحيون أيضاً أكواخاً من الأغصان حيث كان الشتاء يقترب وأيضاً كإشارة إلى أن العمليات الحربية ستستمر إلى النهاية، وحصنوا المعسكر بالأسيجة للحيلولة دون قيام الأمطار الغزيرة بجرف مقتنياتهم وعمل سكان المنطقة المجاورة والناس المسيحيون في هذه الأثناء بحماسة لجلب المؤن الضرورية من انطاكية والأماكن القائمة في المنطقة المجاورة.

كانت قلعة حارم تخص ابن نور الدين، وكانت القلعة الوحيدة في ذلك الجزء من المنطقة التي سمح له صلاح الدين بأن يحتفظ بها، وبعدما أحكم الحصار حولها من جميع الجهات شرع المسيحيون بالهجوم عليها على نوبات متوالية حسبما جرت عادتهم، وقصفوا الأسوار بآلاتهم الحربية بشكل دائم حتى أن المحاصرين لم يتمكنوا من الحصول على راحة من أي نوع.

٢٠ - وصول صلاح الدين مع قوات ضخمة من مصر وغزوه المملكة. احتلاله موقعاً أمام عسقلان. خروج الملك لمقابلته مع جميع قوات المملكة. نشوب معركة هامة أمام المدينة.

كانت هذه هي أوضاع الأمور في انطاكية آنذاك، وكان صلاح الدين قد علم في غضون ذلك أن الكونت والجيش المسيحي بأكمله كانوا قد تقدموا إلى منطقة أنطاكية، عرف ذلك بينما كان ينتظرهم بخوف شديد في بلاد مصر، وبدا له بشكل مقنع بأنه يستطيع بأمان أن يغزو بلاداً مجردة من جنودها، حيث يمكن تأمين واحد من شيئين بسهولة، فإما أن الغزو سيجبر العدو على التخلي عن حصار حارم، أو سيتمكن من تحقيق نصر على المتروكين في المملكة إذا اصعروا على مواصلة ذلك.

وهكذا، جمع العساكر بأعداد كبيرة من جميع المصادر وأمر بتجهيزهم بشكل حتى أفضل من المعتاد بالأسلحة وبجميع الأشياء المستخدمة عموماً في الحرب، ثم خرج من مصر مع هذا الجيش. وبعد سيره بدون توقف واجتيازه للبراري الشاسعة الفاصلة بين مصر وفلسطين وصل إلى مدينة العريش القديمة المهجورة حالياً، وترك هناك جزءاً من الأمتعة الثقيلة وأثقال الجنود، ثم أخذ معه الجنود المسلحين تسليحاً خفيفاً وأكثر المحاربين ممارسة ومر بقلعتا الداروم وغزة وتعد مدينة غزة مدينة مشهورة جداً وبعدما بعث بالكشافة أمامه ظهر فجأة أمام عسقلان.

هذا وكان الملك قد تلقى تحذيراً عن تقدمه قبل بضعة أيام، فبادر إلى جمع القوات التي كانت ما تزال باقية في المملكة، وقام مع جنوده بالعسكرة بالمدينة قبل وصول صلاح الدين إليها.

وكان كونت طرابلس قد مضى، كما ذكرنا من قبل، آخذاً معه مئة من فرساننا وكانوا رجالاً منتقين اختيروا من بين عدد كبير، وكان مقدم الاسبتارية قد مضى أيضاً ومعه إخوانه وعدد كبير من فرسان الداوية، وكان بقية الداوية قد انسحبوا إلى غزة توقعاً منهم أن صلاح الدين سيحاصر ذلك الموقع، حيث كانت تلك المدينة الأولى من مدننا التي سيصلها، وكان همفري كافل المملكة يعاني آنذاك - كما أشرنا من قبل - من مرض خطير. ولذلك لم يكن مع الملك سوى قلة من الجند. وعندما علم أن العدو كان يتجول بكل حرية وبطريقة عدوانية وأنه كان قد تفرق عبر السهول المتاخمة لأراضينا، ترك عدداً قليلاً من الجنود لحراسة المدينة وخرج مع قواته المستعدة للقتال طالبين المساعدة من علبين.

كان صلاح الدين قد حشد عساكره ككتلة واحدة بالقرب من المدينة وعندما تقدم

الجيش المسيحي ورأى أفراده الأعداد الضخمة لأعدائهم، نصح الذين كانوا أصحاب خبرة أكبر في الحرب أن تبقىٰ القوات في موقعها الحالي بدلاً من أن تجازف بقدرها المجهول في المعركة. وهكذا فقد صدّ المسيحيون هجمات الأعداء حتى المساء، ذلك أن القتال لم يتعد في ذلك اليوم المبارزات الفردية في فترات منفصلة، لأن الجيشين لم يكونا بعيدين عن بعضهما ومع اقتراب المساء تراجع المسيحيون بحكمة إلىٰ المدينة مجدداً حيث بدا من المخاطرة أن يودعوا قواتهم البسيطة في معسكر لقضاء الليل بسبب أعداد العدو المتفوقة، وأثار هذا العمل صلاح الدين وجنده إلى درجة من التعجرف حيث لم يبقوا بعد ذلك في ترتيب متراص، بل تمزقوا وأخذوا في استعراض قواهم والتبجح بها، وبدأ صلاح الدين يوزع أجزاء محددة من ممتلكاته المكتسبة على أتباعه الجنود وكأنه قد ظفر بالنصر، وبدأت قواته تتصرف بإهمال تام للحذر، وكأنها كانت قد ضمنت كل ما كانت ترغب به، وتجولت بحرية في زمر مبعثرة وطافت في المنطقة في جميع الجهات.

٢١ ـ الأتراك يجتاحون المنطقة بالطول والعرض ويحرقون المدن والمناطق النائية.

افترضنا أثناء الليل أن العدو كان منشغلاً في إقامة معسكره أمام المدينة، حيث المكان الذي كان عنده في اليوم السابق، أو كان قد اقترب إلى مسافة أقرب من المدينة وبات يحاصرها تماماً، لكن الذي حدث هو العكس. فقد انتشرت قواه على شكل زمر فوق المنطقة بأسرها، هنا وهناك كما استحوذ الباعث علىٰ بعضهم البعض ودون أن يتركوا لأنفسهم أو لخيولهم أية استراحة. وكان بين قادتهم شخص يدعىٰ جاولي [1]، كان محارباً شجاعاً ومستعداً دائماً لتنفيذ أية مأثرة جريئة، وكان أرمني المولد، ومرتداً، كان قد تحول إلىٰ الأمم بعدما تخلىٰ عن عقيدة الوسيط بين الرب والإنسان، وكان يتبع سبلاً ملتوية، وتقدم هذا الرجل مع الجند الذين كان يقودهم إلىٰ الرملة وهي مدينة واقعة في السهل، وأحرقها بعدما وجدها مهجورة، وكان السكان قد هجروا المدينة بيأس لأنها لم تكن محصنة بشكل جيد، وكان بعضهم قد ذهب مع حملة بلدوين إلى عسقلان، وكان آخرون قد ذهبوا إلى حيفا مع الضعفاء والنسوة والأطفال، وكان بعضهم أيضاً قد ذهبوا إلىٰ حصن محصن بشكل جيد في الجبال التي تدعى مجدل يابا. وتقدم جاولي مع جميع قواته، بعد أن أحرق الرملة، إلى مدينة اللد المجاورة، وقسم جنوده هنا وطوق المدينة بسرعة، ثم هاجم السكان بوابل من السهام والأسلحة من كل نوع وأنهكهم دون توقف، وهرب جميع السكان إلى كنيسة الشهيد المبارك القديس جورج.

---

(١) جاولي (انظر الكتاب ٢٠ ـ الحاشية ٢٨) ويدعوه بهاء الدين (المحاسن اليوسفية ص٨٩) المملوك.

استحوذ في هذه المرحلة الخوف واليأس على المسيحيين حيث بدا أن أملهم الوحيد يتوضع في الفرار، فقد حل الرعب الكبير ليس بين الناس الموجودين في السهول حيث كان العدو يطوف بحرية ودون مقاومة، بل حتى بين الذين يعيشون في الجبال، وكان سكان القدس نفسها مستعدين إلى حد ما للتخلي عن المدينة المقدسة، وحيث لم تكن لديهم أية ثقة في تحصيناتها، فقد أسرعوا بالتلهف الكلي إلى برج داوود، كما يعرف بهذا الاسم عموماً، وتخلوا عن باقي المدينة. وكان بعض المغيرين قد تقدموا وصولاً إلى الموقع المسمى باسم قاليقليا وكانوا قد انتشروا فوق سطح ذلك السهل بأكمله تقريباً، وكانوا الآن على وشك مغادرة المنطقة المستوية والصعود إلى الهضاب.

وكان مظهر هذه المنطقة الآن بائساً ومنهكاً بالمرارة، كما كان في اليوم الذي اشتط فيه سخط الرب عندما «غطى السيد بغضبه ابنة صهيون بالظلام»[1]. ومع ذلك «فإنه لم يكبح رحمته حتى في غضبه، ولم ينسَ الرحمة أيضاً»[2]؛ ﷺإلا أنه مال إلينا وواسانا[3] وساعدنا وكان ما يزال مؤيداً لنا»[4] و«وفقاً لحشد الأحزان في قلوبنا أبهجت مساعداته أرواحنا»[5].

٢٢ ـ الملك ينطلق من عسقلان ويقابل العدو. الطرفان يعبئان صفوفهما للقتال ويستعدان للمواجهة.

بينما كانت هذه الأحداث تأخذ مجراها في ذلك الجزء من البلاد، وصل نبأ إلى الملك مفاده أن حشداً من العدو، قد انتشر فوق أراضيه بالطول والعرض، واستولى على ممتلكاته، ولذلك غادر عسقلان على الفور مع جنوده واستعد للزحف ضد العدو، لأنه شعر أنه من الأكثر حكمة تجريب الأقدار المريبة للحرب مع العدو بدلاً من أن يكره شعبه على التعرض للسلب والحرائق والمذابح، وهكذا زحف بمحاذاة الساحل وتقدم على طول شاطىء البحر عله يتمكن من مباغتة العدو خلسة وفجأة، وعندما وصل إلى الموقع الذي كان صلاح الدين مخيماً في سهله، وجه على الفور جميع قواته من الفرسان والمشاة بترتيبهم العسكري نحوه وانضم إليه

(١) مراثي: ١/٢: وتصرف وليم وفي أماكن أخرى بالنصوص حتى توائم مقاصده.
(٢) المزامير: ١٠/٧٦.
(٣) المزامير: ٢/٧٠.
(٤) المزامير: ٨/٧٦.
(٥) المزامير: ١٩/٩٣.

فرسان الداوية الذين كانوا قد بقوا في غزة واستعدوا مع بعضهم بعضاً بصفوف منتظمة بترتيب المعركة لمواجهة العدو، وأثناء زحفهم، وهم مصممون على الهدف الواحد للانتقام لمظالمهم، فإن منظر الحرائق في كل الجهات وروايات المذبحة التي حلت بشعبهم قد ألهبتهم بشجاعة ربانية وأسرعوا إلى الأمام كرجل واحد، ورأوا صفوف العدو فجأة أمامهم وعلى مسافة قريبة. وكان ذلك في حوالي الساعة الثامنة من النهار.

وكان صلاح الدين قد علم خلال ذلك أن المسيحيين كانوا يتقدمون على أمل القتال. ونظراً لأنه كان يخاف من الاشتباك الذي كان قد تلهف إليه بوضوح حتى الآن، فقد أرسل رسلاً لاستدعاء جنوده، الذين كانوا قد تفرقوا في اتجاهات مختلفة، وحاول أن يشجع رجاله لخوض القتال بصوت الأبواق وقرع الطبول وبالنصائح أيضاً، كما هو مألوف في أوقات كهذه، وأن يثيرهم بأقواله[١].

وكان مع الملك أودو دي سانت أماند مقدم فرسان الداوية وثمانون من إخوانه، والأمير رينو وبلدوين صاحب الرملة، وأخوه بالين، ورينو صاحب صيدا، والكونت جوسلين عم الملك وقهرمانه، ولم تتجاوز أعدادهم على ـ قرابة ـ ثلاثمائة وخمسة وسبعين فرداً بما في ذلك جميع المراتب والحالات، وتقدموا جميعاً بعدما التمسوا المساعدة من السماء بتشكيل المعركة وهم متلهفون للمواجهة يقودهم صليب الصلبوت الرائع المانح للحياة وكان يحمله البرت أسقف بيت لحم.

بدأت في الوقت نفسه قوات العدو، التي كانت قد غامرت بالتوغل إلى مسافة بعيدة بعض الشيء للبحث عن الغنيمة ونشرت الحرائق، بالوصول من اتجاهات مختلفة، الحال الذي زاد كثيراً من قوة صلاح الدين، وفي الواقع، لو لم يكن الرب، الذي لا يخذل أبداً الذين يضعون ثقتهم فيه[٢]، قد ألهب جنودنا بشكل شقوق بشجاعة داخلية، لكان المسيحيون قد دفعوا إلى اليأس ليس من النصر فقط، بل من الحرية والسلامة أيضاً، ومع ذلك، فقد نظموا قواتهم وعبأوها بترتيب المعركة ونظموا صفوفهم حسب الأسس العسكرية، وأعدوا بترتيب موائم الذين توجب عليهم شن الهجوم الأول مع الاحتياطيات التي توجب عليها الحضور لمساعدتهم.

---

(١) ربما نقلاً عن فرجيل .Aen, IX, 717

(٢) المزامير: ٢٣/٣٣.

٢٣ ـ وقوع معركة. هزيمة صلاح الدين وإجباره على الفرار وسط مخاطر واسعة وخزي كبير.

اقتربت الآن صفوف المحاربين في كلا الجانبين بالتدريج من بعضها بعضاً وأعقب ذلك معركة لم تكن حاسمة في أول الأمر، وكانت القوات غير متكافئة أبداً. إلا أن المسيحيين الذين عززتهم الرحمة التي أغدقتها السماء عليهم، بدأوا على الفور يشددون الخناق على عدوهم بشجاعة متزايدة دوماً، فتبددت صفوف صلاح الدين واضطر إلى الفرار بعد مذبحة رهيبة.

وحيث كنت راغباً بالتيقن من الحقائق الواقعية، فقد أجريت تحقيقاً دقيقاً حول أعداد العدو، واكتشفت من روايات العديد من الناس الثقاة أن ستة وعشرين ألف فارس مسلحين تسليحاً خفيفاً بالإضافة إلى آخرين ممتطين صهوات الجمال وحيوانات التحميل كانوا قد دخلوا منطقتنا[١]. وكان من بين هذه القوات ثمانية آلاف ينتمون إلى الجنود الرائعين الذين يحملون بلغتهم الخاصة باسم طواسين وكان الثمانية عشر ألف الآخرون هم الفرسان العاديون المعروفون باسم قراغلام[٢]. وعمل ألف من أشجع الفرسان كحرس لصلاح الدين، وكان جميع هؤلاء يرتدون حريراً أصفر فوق دروعهم وهو اللون الذي كان صلاح الدين نفسه يرتديه. ومن عادة الحكام الأتراك والزعماء العظماء، والذين يسمون باللغة العربية باسم أمراء، أن يربوا بعناية كبيرة بعض الرجال الشبان، بعضهم عبيد أسروا في الحرب، وآخرون تم شراؤهم أو ربما ولدوا من أمهات جوار ويدرب هؤلاء الشبان على العلوم العسكرية، وعندما يبلغون سن الرجولة فإنهم يعطون أجوراً أو حتى ممتلكات كبيرة حسب جدارة كل منهم، ويعرف هؤلاء الرجال بلغتهم الخاصة باسم مماليك، ويعهد إليهم بواجب حماية ذات مولاهم أثناء تقلبات المعركة، ويعتمد عليهم بدرجة مماثلة من الأهمية الأمل في تحقيق النصر. ويحاولون دوماً بالإجماع وهم يحيطون بسيدهم حمايته من الأذى ويتشبثون به حتى الموت، ويواصلون القتال كرجل واحد حتى يلوذ بالفرار وينجو وهكذا، يحدث مراراً أنه في الوقت الذي يفلح فيه الباقون بالفرار، يقتل جميع المماليك تقريباً[٣].

طارد المسيحيون العدو المنهزم من المكان المعروف باسم تل الصافية إلى ما بعد

---

(١) من المحتمل أن يكون وليم قد رافق الملك في هذه الحملة، لأن استخدام لغة الشخص الأول هنا ودقة التفاصيل، وكمال وصفه يشير إلى هذه الحقيقة.

(٢) ينقل روهرخت عن نولدكه تعريف الطواسين بأنها اسم أطلق على قوات كان لها أهمية دينية، وقرا ـ غلام بأنها تعني حرفياً «عبيد سود» أو مماليك (انظر ر. روهرخت تاريخ مملكة القدس ١١٠٠ ـ ١٢٩١ ص٣٧٧ ـ الحاشية ١).

(٣) هذا هو الوصف المعتاد للمماليك.

المخاضات الموجودة وراء نهر هذا التل حتى غياب الشمس وهبوط الليل عليهم، وظل العدو يُقتل بلا رحمة أثناء ذلك الفرار لمسافة اثني عشر ميلاً ونيف. ولولا حلول الظلام الذي جاء سريعاً فأنقذهم من مطارديهم لما بقي أحد من صفوفهم على قيد الحياة، وقام الجنود الأكثر قوة والذين كانت معهم خيول سريعة بإلقاء أسلحتهم وأعتدتهم وتخلوا عن أحمالهم حتى يسهل عليهم الفرار وهربوا بكل قوتهم تاركين الناس الضعفاء وراءهم، ونجا هؤلاء من الموت بفضل حلول الظلام. وواجه المتخلفون مصيراً أسوأ حيث أسروا جميعاً أو كانوا طعمة للسيف.

وفقدنا في بداية القتال أربعة أو خمسة من الفرسان وبعض الرجالة إلا أن العدد الدقيق لهؤلاء ليس معروفاً.

عندما وصل الذين كانوا قد نجوا بالفرار إلى مستنقع المخاضات المذكورة منذ لحظات فقد ألقوا بين القصب وفي الماء نفسه كل ما كانوا لا يزالون يحملونه أي دروعهم وواقيات أقدامهم المصنعة من الفولاذ حتى يمكنهم أن يتقدموا بأنفسهم غير معاقين، وحتى الأسلحة قذفت في الماء حتى لا يتمكن المسيحيون من استخدامها حتى كعلامة للنصر.

إلا أن شعبنا استرد جميع هذه الأشياء بسرعة، لأنه بتتبعه الدقيق لخطوات العدو الهارب، فتش في تلك الليلة وفي اليوم التالي وبشكل دقيق المستنقع المملوء بالقصب المذكور منذ لحظات، وبتمشيطهم للمستنقع نفسه بالقوائم والكلاليب، فقد وجدوا بسرعة كل شيء كان العدو قد خبأه هناك.

لقد سمعنا من أشخاص جديرين بالتصديق أنهم رأوا في أحد الأيام مئة درع استردت من ذلك الموقع بالإضافة إلى الخوذ وواقيات السوق الحديدية وأشياء أخرى ذات قيمة أدنى إنما كانت ما تزال ثمينة ومفيدة.

أضفت الرحمة السماوية علينا هذه النعمة الظاهرة، الجديرة بالتذكر إلى الأبد، في العام الثالث من حكم الملك بلدوين الرابع وفي الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني، عيد الشهيدين بطرس الإسكندراني والعذراء كاترين [1].

عاد الملك إلى عسقلان حيث انتظر عودة قواته التي كانت قد طاردت الهاربين بطرق مختلفة، ووصل الجميع خلال أربعة أيام وهم محملون بالمغانم، وجاؤوا يحملون الخيم ويسوقون أمامهم العبيد وأعداداً كبيرة من الجمال والخيول حسب أقوال الرسول: «كالذين يبتهجون عندما يقتسمون غنيمة» [2].

---

(١) ينبغي القول «السنة الرابعة» ومرد هذا إما أن وليم استخدم هنا السنة التقويمية، أو سقطة قلم، وهذا هو المرجح، والتاريخ هو ٢٥ ـ تشرين ثاني ١١٧٧.

(٢) اشعيا: ٩/٣.

٢٤ ـ جو عاصف وبرد غريب ينهك قوى الهاربين الذين كانوا قد نجوا من المعركة. موت أعداد كبيرة منهم وأسر آخرين كثر. الملك يعود إلى القدس ظافراً.

أظهر ظرف آخر بوضوح أيضاً أن الرحمة السماوية كانت معنا، فقد هطلت أمطار عنيفة مصحوبة ببرد غريب في اليوم التالي ولمدة عشرة أيام متتالية بعد ذلك، لدرجة بدت تقريباً بأن العوامل الجوية نفسها قد تآمرت ضد الأعداء؛ وكانوا قد فقدوا جميع خيولهم والتي لم تكن قد تلقت أي طعام أو شراب أو حتى استراحة خلال احتلال أراضينا الذي دام ثلاثة أيام، وكانوا قد ألقوا وبشكل طوعي أيضاً أمتعتهم وجميع أنواع الملابس، كما ذكرنا ذلك. ولزيادة مجموع تعاساتهم كانوا بلا طعام تماماً وكانوا يهلكون من البرد والجوع وتعب المسير وعبء مشقات غير مألوفة، فقد كان يعثر في كل مكان على عدد قليل من هؤلاء الهاربين تارة وعلى أعداد كبيرة تارة أخرى حيث تمكن حتى الضعفاء والعاجزون من صب جام غضبهم عليهم كما يحلو لهم، كما أن الكثيرين بجهلهم بالمناطق وباعتقادهم أنهم كانوا في الطريق إلى الوطن، قدموا أنفسهم في قرانا إما للمسافرين أو للذين كانوا يتصيدونهم.

وفي هذه الأثناء، بادر البداة العرب، ذلك العرق من الكفار، بعدما تصوروا الكارثة التي كانت قد حلت بالأتراك، نحو الذين كانوا قد تركوا لحراسة الأمتعة في مدينة العريش كما كنا قد ذكرنا ذلك، وسببوا لهم ذعراً كبيراً عندما نقلوا إليهم أخبار الكارثة التي كانت قد حلت بشعبهم لدرجة أنهم هربوا بفزع، وطارد هؤلاء البداة بمواظبة أي واحد نجح بالمصادفة بالتملص من قبضتنا، وهكذا، فإن الذين اعتقدوا أنهم كانوا قد نجوا منا سقطوا في أيديهم كفريسة، بحيث بدت النبوءة القائلة: «فضلة القمص أكلها الزحاف وفضلة الزحاف أكلها الغوغاء» [١]. قد تحققت، ويقال إن الشيء التالي هو عادة ذلك العرق الشرير، فهم يتجنبون دائماً مخاطر القتال مهما كان القائد الذي يتقدمون تحت قيادته إلى المعركة، ولا يشتبكون طالما نتيجة المعركة ما زالت مجهولة، ويقفون ينتظرون عن بعد، وعندما يتقرر مصير المعركة يلحقون أنفسهم بالمنتصر، ويطاردون الأعداء المهزومين ويغنون أنفسهم بالمغانم.

جلب الأسرى لعدة أيام من الغابات والجبال وحتى من الصحراء. وقدموا أحياناً إلينا طوعاً مفضلين على أن يحتجزوا بالسلاسل والسجون على أن يهلكوا تحت عذاب البرد والجوع.

أسرع الملك في هذه الأثناء إلى القدس، بعد أن وزع المغانم والثروات حسب قواعد

---

(١) يوئيل: ١/٤.

الحرب، ليقدم صلوات الشكر والقرابين للنعم التي أغدقها الرب عليه، وعاد صلاح الدين، الذي كان قد مضى نحونا بنفس شديدة الرعونة ومع صفوة لا تحصى من الفرسان مصفوعاً باليد الربانية وليس معه إلا مئة من أتباعه تقريباً. ويقال إنه نفسه كان راكباً على جمل.

فلندرس بمزيد من الإحكام والدقة سخاء هذه الهبة الإلهية ولنعتبر كيف أن العون الرباني رغب في أن يكون المجد كله له في السخاء المظهر نحونا، فلو كان كونت فلاندرز، وأمير انطاكية، وكونت طرابلس- والمجموعة الضخمة من الفرسان الذين لم يكونوا حضوراً، قد شاركوا في هذا النصر الذي أحدثته الرحمة السماوية، ما كانوا ليترددوا في الاعتقاد، مع أنهم لم يقولوا: «يدنا ارتفعت وليس الرب فعل كل هذه»[1]. لأن الطائشين والغافلين ميالون للتسلسل بهذا الشكل عندما يكون كل شيء مواتياً.

والآن، حسب قوله كما هو مكتوب: «ومجدي لا أعطيه لآخر»[2]. فقد احتفظ بكل المجد والسلطة لنفسه بينما لم يستخدم مساعدة الكثيرين؛ بل مساعدة القلة. وجدد بلطفه الشفوق معجزة جدعون، فبدد حشداً ضخماً وأوضح بالتالي كيف يمكن للمرء بمساعدته فقط وليس بمساعدة كائن آخر «أن يطرد واحد ألفاً ويهزم اثنان ربوه»[3].

ولذلك فلنعزز النصر له فهو الذي يأتي منه كل خير وهبة تامة[4]، لأنه لا يوجد في هذا المثال الحالي أي شيء يستطيع المرء أن يعزوه لأعماله، إنها هبة الرحمة السماوية وقد أظهرت للذين لا يستحقونها. «تمد يمينك فتبتلعهم الأرض»[5]. «وبكثرة عظمتك تهدم مقاوميك»[6].

٢٥ - القوات المحاصرة لقلعة حارم في منطقة انطاكية تتخلى عن المهمة وتعود إلى أراضيها.

بينما كانت هذه الأحداث تقع بيننا، واصل الكونت والموجودون معه حصار القلعة المشار إليها آنفاً دون جدوى، لأنهم كانوا منكبين على الطيش واهتموا كثيراً بألعاب الحظ

---

(١) التثنية: ٢٧/٣٢.
(٢) اشعيا: ٨/٤٢.
(٣) التثنية: ٣٠/٣٢.
(٤) جيمس: ١٧/١.
(٥) الخروج: ١٢/١٥.
(٦) الخروج: ٧/١٥.

والمسرات الشريرة الأخرىٰ أكثر مما سمح به النظام العسكري أو قواعد عمليات الحصار، وكانوا يجيئون ويذهبون باستمرار إلى انطاكية حيث أمضوا وقتهم في الحمامات والولائم وانغمسوا في فنون السكر ومسرات جسدية أخرىٰ متخلين بالتالي عن عمل الحصار لأجل مباهج الكسل.

وحتى الذين بدوا أنهم مواظبون على الحضور هناك أصبحوا كسالى ومهملين ولم ينجزوا شيئاً له أهميته. وأمضوا وقتهم في الكسل وعاشوا حياة فاسدة[1]. وصرح الكونت نفسه يومياً أنه ينبغي عليه العودة إلىٰ الوطن ولمحْ بأنه كان محتجزاً في حارم على الرغم من إرادته. ولم يعق هذا الموقف الذين كانوا يحاولون بشرف مواصلة الحصار في الخارج فقط، بل زود بحافز لبذل مقاومة أكثر شجاعة من جانب سكان البلدة، وكـان الأمل في أنه سيتم رفع الحصار حالاً صعباً، لكن حتى ذلك كان أفضل من تسليم الحصن الذي عهد به إليهم إلى الجنس المقيت، والتعرض بالتالي لخزي الخونة إلى الأبد.

تحتل قلعة حارم موقعاً مرتفعاً على هضبة يبدو أن معظمها كان اصطناعياً وهي سهلة المنال للمهاجين من جانب واحد فقط، وأما بالنسبة للجهات الأخرىٰ فلا يمكن أن يبلغها أحد يرغب بشن هجوم عليها، إلا أنه من الممكن بالنسبة لآلات القذف الحربية أن تقصفها من جميع الجهات دون عائق.

وكانت قد شنت عليها هجمات متوالية مع نتائج متنوعة، وبرهنت هذه الهجمات وأشارت إلىٰ أنه إذا تم شن هجوم قوي عليها فمن الممكن الاستيلاء على القلعة بمساعدة عليين، إلا أن المسألة انتقلت كما قلنا إلى حالة من اللامبالاة، وكانت الشجاعة بأسرها قد رحلت عنا كما كان التعقل بأكمله قد تلاشى بسبب آثامنا، وبدأ المسيحيون يتدارسون مسألة العودة إلىٰ الوطن، على الرغم من أن المحتجزين داخل أسوارها كانوا قد وصلوا الآن إلىٰ الدرجة الأخيرة من اليأس- ولا يمكننا أن ندهش بشكل كاف أمام حقيقة أن الرب أسدل ظلاماً كبيراً علىٰ عقول هؤلاء الأمراء العظماء، وأعماهم بغضبه (وهذا فوق التصور البشري) فعلى الرغم من أنه لم يكرههم أحد، وكانت القلعة الآن تحت سلطانهم تقريباً، تخلوا عنها للعدو بدافع الغيرة وبرغبتهم الخاصة في الكسل، وعندما أدرك الأمير أن كونت فلاندرز قد صمم على سلوكه وكان مصمماً على هذا القرار بشكل نهائي، قبل من المحاصرين مبلغاً من المال، لا نعرف مقداره، ورفع الحصار.

ثم عاد كونت فلاندرز إلىٰ القدس حيث احتفل بأعياد الفصح المقدسة، ثم أجرىٰ

---

(١) Persius sat, V. 60.

استعداده للعودة. وحالما جهزت الشواني وسفن النقل اللازمة أبحر من اللاذقية في سورية بنية العودة إلى موطنه بعد زيارة لامبراطور القسطنطينية، لكنه خلف وراءه ذكرى لم تكن مباركة على الإطلاق [١].

وتصالح في هذه الآونة نفسها فريدريك امبراطور الرومان مع البابا ألكسندر في مدينة البندقية بعد عشرين عاماً من الشقاق.

وانهارت أسوار مدينة القدس المقدسة جزئياً بسبب عمرها الكبير، وهكذا، انضم الامراء الدينيون والعلمانيون مع بعضهم بعضاً في هذه الآونة وقرروا أنه ينبغي دفع مبلغ ثابت من المال سنوياً حتى ينتهي عمل ترميم الأسوار بمساعدة الرب، ويكون بالتالي قد أنجز القول: «أحسن برضاك إلى صهيون. ابنِ أسوار أورشليم» [٢].

٢٦ ـ الاعلان عن عقد مجمع كنسي عام في روما. الملك يبني قلعة فيما وراء نهر الأردن في ظل شارات معاكسة ويعهد بها عند انتهائها إلى الداوية.

غادر شرقنا في شهر تشرين الأول [٣] من العام الخامس لفترة حكم الملك بلدوين الرابع الذي كان العام ١١٧٨ لتجسيد ربنا، بعض الرجال، الذين كانوا قد استدعوا لحضور مجمع كنسي عام في روما جرى الإعلان عنه في العام السابق في كل مكان من العالم اللاتيني بأسره. وكان الممثلون المدعوون [٤]: أنا وليم رئيس أساقفة مدينة صور وهرقل رئيس أساقفة قيساريه والبرت أسقف بيت لحم ورالف أسقف سبسطيه؛ وجوشيوس أسقف عكا وروما نوس أسقف طرابلس، وبطرس رئيس شماسة القبر المقدس وريتالد رئيس جبل صهيون، ولم يحضر جوشيوس ـ فقط ـ المجمع الكنسي معنا، بل ذهب أيضاً كمبعوث إلى هنري دوق بيرغندي وهو مكلف بمهمة دعوته للقدوم إلى المملكة، لأننا كنا قد وافقنا بالإجماع على وجوب زواجه من أخت الملك وفق الشروط نفسها التي كانت قد أجريت في زمن الزواج السابق للماركيز، وتلقى الدوق هذا العرض على يدي الأسقف جوشيوس بلطف ويقال إنه أقسم

---

(١) وصل إلى بلاده في خريف ١١٧٨.

(٢) المزامير: ١٨/٥١.

(٣) هذه العبارة مرة ثانية هي مصطلح يعني سنة ملكية بدأت من يوم اعتلاء العرش.

(٤) تعتبر هذه القائمة ذات أهمية ليس فقط في أنها تضع وليم على رأس الوفد، بل أيضاً بسبب حذف أسماء العديد من رجال الدين وبشكل ملحوظ اسم البطريرك أمالرخ ورئيس أساقفة الناصرة حيث كانا مسنين تقدما في العمر وضعيفين يصعب عليهما القيام بالرحلة، وقد ذهب بطرس، رئيس شماسة القبر المقدس، كممثل شخصي للبطريرك، مع أن وليم لا يذكر هذه الحقيقة (انظر ج.د.مانسي مجموعة وثائق المجامع المقدسة الجديدة ج:٢٢).

بيده أنه سيأتي، غير أن الدوق أهمل قسمه لأسباب لا تزال مجهولة بالنسبة لنا، ورفض الوفاء بالوعد الجليل الذي كان قد ألزم نفسه به.

وبدأ الملك، خلال الشهر نفسه الذي بدأنا فيه رحلتنا لحضور المجمع الكنسي، مع سائر قوة المملكة ببناء قلعة فيما وراء نهر الأردن في الموقع المعروف عموماً باسم مخاضة يعقوب[1].

تقول الروايات القديمة إن هذا هو المكان الذي قسم فيه يعقوب، لدى عودته من بلاد الرافدين، شعبه إلى زمرتين وأرسل رسلاً إلى أخيه قائلاً: «فإني بعصاي عبرت هذا الأردن والآن قد صرت جيشين»[2]. وتقع هذه المخاضة في منطقة قادس النبطية، الواقعة بين النبطية ودان، وتعرف الأخيرة منها باسمي بانياس وقيسارية فيليبس. وتشكل هاتان جزءاً من فينيقية، وهما مدينتان تابعتان لمدينة صور، وتقع المخاضة على بعد عشرة أميال من بانياس، فوضعوا هنالك، على هضبة ذات ارتفاع معتدل، أسساً ذات عمق مناسب، وشيدوا خلال ستة أشهر قلعة ذات بناء صلب على شكل مربع وذات سماكة رائعة وارتفاع كاف.

وبينما كانوا منشغلين في عمليات البناء هناك، حدث أن ظهر قطاع الطرق من منطقة دمشق وحاصروا بالتالي الطرق العامة بحيث لم يتمكن أحد من الخروج جيئة وذهاباً من الجيش دون التعرض للخطر، كما لم يتمكن المسافرون من السير على أي من الطرق، وقدم هؤلاء اللصوص من موقع في الجبال الواقعة بالقرب من عكا يدعى بكدس Bacades أو بكال Bucael باللغة العامية. ويقع هذا الموقع بشكل سار للغاية في منطقة زوبلون وعلى الرغم من أنه واقع على قمة أحد الجبال، فهو يروى بشكل جيد ومزروع ببساتين كثيفة من الأشجار المثمرة، وسكانها رجال متغطرسون ومقاتلون أشداء ورجال فخورون كثيراً بأعدادهم الضخمة جداً حيث جعلوا بوساطتها جميع الحقول والقرى المحيطة بهم تابعة إليهم. وهم يقدمون ملاذاً آمناً بينهم للأشرار الآبقين من عقاب مناسب ولقطاع الطرق واللصوص، وبالنظر إلى أنهم يتلقون حصة من الغنيمة والمغانم المستولى عليها بالعنف. وكان هؤلاء الناس قد أصبحوا بسبب تعجرفهم الذي لا يحتمل مكروهين من قبل جميع الموجودين حولهم من المسيحيين والمسلمين على حد سواء، وبذلت محاولات متكررة لإبادتهم تماماً لكن دون نجاح، وبالنتيجة، أصبحوا أكثر شجاعة بشكل يومي. ووجد الملك نفسه في آخر الأمر أنه لم يعد بإمكانه تحمل رعونتهم التي لا تحتمل والسرقات والجرائم التي ارتكبوها بعد اليوم فاستولى على

---

(١) تشرين أول ١١٧٨.

(٢) التكوين: ٣٢/١٠.

الموقع فجأة وبقوة السلاح وقتل جميع من استطاع أن يقبض عليهم، إلا أن غالبيتهم نجت، لأنهم كانوا قد هربوا مع زوجاتهم وصغارهم إلى منطقة دمشق بعدما علموا بنية الملك وواصلوا من دمشق عاداتهم القديمة وشنوا هجمات كثيرة على منطقتنا وبشكل سري.

وكانوا قد اجتاحوا أراضينا في هذه الآونة مع أصحاب لهم من الصنف ذاته كما تم ذكـر ذلك، وأثارت هذه الأعمال المسيحيين، وأغضبهم كثيراً معرفة أن رجالاً من هذا الصنف كانوا يجعلون الطرق العامة خطرة جداً، وهكذا، نصبوا كمائن في مواقع استراتيجية ووجهوا جميع أنشطتهم لخداع الأوغاد، وحدث ذات ليلة أن كان هؤلاء اللصوص ينزلون من جبال زوبلون بعد قيامهم بإحدى الغارات وهم عازمون على العودة إلى الموقع الذي كانوا قد انطلقوا منه، غير أنهم جنوا ثمرة أساليبهم بوقوعهم في كمائن نصبها المسيحيون حيث أسر تسعة منهم وقتل أكثر من سبعين آخرين، وحدث هذا في الحادي والعشرين من شهر آذار [١].

وعقد في هذه الآونة نفسها، في الخامس من شهر آذار، مجمع كنسي مؤلف من ثلاثمائة أسقف في روما في كاتدرائية قسطنطين المسماة اللاتيران. كان هذا في العام العشرين من حبرية البابا الكسندر [٢] وفي الثاني عشر من الأسبوع الثاني.

إذا ما رغب أحد بمعرفة القرارات المتخذة وأسماء الأساقفة وعددهم وألقابهم فيمكنه أن يقرأ الكتاب الذي ألفناه بدقة تلبية للمطلب الجاد للرهبان المقدسين الذين شاركوا في هذا المجمع الكنسي، وقد أمرنا في أن يوضع هذا في سجلات الكنيسة المقدسة في صور بين الكتب الأخرى التي جمعناها لتلك الكنيسة نفسها التي نرأسها منذ ستة أعوام [٣].

٢٧ ـ الملك يغزو منطقة معادية ويتكبد خسارة هائلة. همفري كافل المملكة يلاقي الموت هناك.

عندما كانت القلعة قد شيدت وانتهت من جميع الجوانب، بلغت الملك أنباء كان مفادها أن العدو قد قاد قطعانه ومواشيه إلى الغابة الواقعة بالقرب من بانياس بحثاً عن

---

(١) ٢١ ـ آذار ١١٧٩.

(٢) كان الاسكندر الثالث قد انتخب بابا في أواخر عام ١١٥٩. وانعقد مجمع اللاتيران الثالث، الذي دعا إلى عقده، بشكل رسمي في ٥ آذار عام ١١٧٩ مع أن رجال الدين كانوا ـ مثل وفد القدس ـ متجمعين في روما منذ فترة من الزمن في حين وصل عدد قليل بعدما انعقد المجلس، وكان أكبر وأهم اجتماع للكنيسة عقد في الغرب لعدة قرون.

(٣) كان تاريخ كتابة هذا بعد ٨ حزيران ١١٨١، وكانت مكتبته موضع تفاخر، ولم يصلنا فهرس بمحتواها، لكن من المنطقي الافتراض أنها حوت جميع الكتب التي أشار إليها مراراً.

الكلأ، وكانت بدون مقاتلين يمكن الاعتماد عليهم لصد أي هجوم نقوم به، وهكذا تقدم شعبنا إلى هنالك خلسة ظاناً أنه سيتمكن من الفوز عليهم بسهولة إذا كانوا بلا دفاع ولا حماية عسكرية كما تم نقل ذلك، وأجرى المسيحيون الزحف بأسره ليلاً للانقضاض على الأتراك فجأة، ودون تحذير قبل أن يكونوا عالمين بالمنطقة المجاورة للعدو، وبلغوا مقصدهم في الصباح، وبينما كان بعض الجنود يسرعون في هذا الاتجاه وذاك باحثين عن الغنيمة، كان آخرون يتبعونهم ببطء بعض الشيء وعلى مسافة في الخلف، وقعت المجموعة التي كان الملك راكباً معها وتسير بإهمال كثير، في شرك في مكان ضيق ما بين الصخور، حيث كان يكمن فيه بعض أفراد العدو، لأنهم بعدما علموا بأننا قادمون قرروا ان يختبئوا آملين بهذه الطريقة أن يتفادوا هجومنا ويحتاطوا لسلامتهم الخاصة. لكنهم عندما رأوا المسيحيين ينقضون عليهم دون حذر مناسب، دفعتهم الضرورة مرغمين ليصبحوا شجعاناً مع أنهم كانوا كارهين لذلك ولا يزالون يائسين حتى من أرواحهم. فانطلقوا من مكمنهم فجأة وهاجموا جنودنا بشجاعة وذلك بعدما أدركوا أن جنودنا كانوا في موقع صعب، وكانت رغبتهم الوحيدة حتى هذا الوقت تجنب العدو بالاختباء، إلا أنهم قتلوا الآن خيولنا بعدما أطلقوا وابلاً من السهام من بعد وشددوا الخناق على قواتنا.

وما أن أدرك كافل المملكة أن العدو قد ظهر هكذا بشكل غير متوقع ومفاجىء حتى انقض عليه بكل غضب وكالعادة حارب بقوة وإخلاص بكل قوته لحماية الملك في هذه الأزمة الخطيرة، حتى لا ينقض العدو عليه ليهلكه، وبينما كان منشغلاً بهذا الشكل، أمطره العدو مراراً وتكراراً بضربات عنيفة أحدثت به جراحاً مميتة، وقد أنقذه جنوده بصعوبة من هذا الوضع الخطير، ونقلوه على صهوة الجواد.

قتل في تلك المعركة جنود مشهورون كثيرون جديرون بالتذكر الورع. وكان بين هذه المجموعة كل من أبرهام صاحب الناصرة، وهو شاب له مظهر وسيم، قدمت شخصيته النبيلة ومولده السامي وثروته الكبيرة وعداً طيباً للمستقبل، وغودشوكس دي تورت الذي خلف أيضاً وراءه سمعة حسنة، كما قتل آخرون عديدون من منزلة أدنى في ذلك الموقع.

كانت هذه هي حالة الأمور عندما أنقذ الملك بهذا الشكل من خطر كبير جداً بوساطة الجهود التي بذلها أتباعه، وعاد إلى المعسكر الذي كان قد انطلق منه في وقت سابق واستدعى الجنود المضطربين الذين كانوا قد تفرقوا هنا وهناك.

أصبحت حالة كافل المملكة همفري أكثر خطراً، وهكذا نقل في الحادي عشر من شهر نيسان إلى القلعة الجديدة التي كانت ما تزال قيد الإنشاء، وبقي على قيد الحياة هنالك

مدة عشرة أيام تقريباً، مطيلاً حياته تحت وطأة ألم شديد، ونطق بعبارته الأخيرة بحكمة وتدبر، وانتهت في الثاني والعشرين من شهر نيسان الحياة المثالية لهذا الرجل والذي ستحزن بلاده عليه إلى الأبد. ودفن بمراسم لائقة في قلعته الشهيرة والنبيلة تيرون في كنيسة أم الرب المباركة العذراء الطاهرة.

بدأ صلاح الدين يحاصر القلعة التي بنيت مؤخراً بعد وفاة همفري مباشرة وفي السابع والعشرين من شهر ايار نفسه[1]، وأطلق دون انقطاع وابلاً كثيفاً من السهام وانتهك المحاصرين الموجودين داخل أسوار القلعة بهجمات متكررة. وحدث فجأة أن سهماً أطلقه أحد المحاصرين يقال إن اسمه كان رينيروس أوف ماروم Rainerius of Marum [رينه دي مارون أو مارويل] أصاب بجرح مميت واحداً من أغنى أمراء صلاح الدين، وأثار مقتل هذا النبيل اضطراباً كبيراً بين الكفرة إلى درجة أنهم تخلوا عن مشروعهم ورفعوا الحصار ورحلوا.

٢٨ - صلاح الدين يغزو أراضي صيدا. الملك يجمع قوات المملكة العسكرية ويخرج للتصدي له.

كان صلاح الدين قد غزا من قبل صيدا بقوّة السلاح مرتين أو أكثر دون أن يلقى أية مقاومة كما وكان قد نهبها بحرية وأحرقها وقتل سكانها. وقرر في الشهر التالي أن يشن غزوة أخرى وهكذا، نصب معسكره بين مدينة بانياس ونهر دان وأرسل مناوشين بأعداد ضخمة للحصول على الغنائم واشعال الحرائق. وبقي هو في المعسكر مستعداً للمساعدة في حالة الطوارىء وانتظر هنالك عودتهم ونتيجة هجماتهم، وبلغ الملك في هذه الأثناء النبأ بأن صلاح الدين هو الذي كان يدمر أراضينا بهذا الشكل، فأسرع إلى مدينة طبريا مع جميع القوات التي استطاع أن يجمعها من جميع المصادر آخذاً معه صليب الصلبوت. وتقدم من هناك خلال مدينة صفد ومدينة ناسون Nasson القديمة ووصل مع قواته إلى تيرون.

واستلم هناك معلومات دقيقة من الرسل، الذين كانوا يذهبون ويجيئون باستمرار، أفادت أن صلاح الدين وجيشه كانوا ما يزالون في الموقع ذاته، وأنه قد أرسل فرسانه المسلحين بشكل خفيف إلى الأمام ليخربوا حقول صيدا، وكانوا هناك يقتلون ويحرقون وينهبون بأسلوب عدواني، ولذلك، تقرر بالإجماع بعد التداول، التقدم نحو العدو، ووجه

---

(١) إن قوله هنا وهو مخطىء: الشهر «نفسه» أكثر تسويغاً، حيث أرخ الحدث السابق بمصطلحات الأول من شهر أيار. وكان همفري أوف تيرون الذي كان بلدوين الثالث قد عينه كافلاً للمملكة، في عام ١١٥١، كان مصدراً للقوة لثلاثة ملوك متتابعين. لم يكن مقاتلاً شجاعاً فحسب، بل كان قائداً عسكرياً حكيماً أيضاً وحدثت وفاته في ٢٧ أيار عام ١١٧٩.

المسيحيون الجيش، تمشياً مع هذه الخطة، من تيرون إلى بانياس ووصلوا إلى قرية تدعى مسفر Mesaphar وكانت هذه القرية واقعة على قمة جبل، وأمكن منها رؤية المنطقة بأسرها في الأسفل وصولاً إلى قاعدة سلسلة جبال لبنان، وكان معسكر العدو مرئياً أيضاً على بعد، ورأى الجميع الحرائق وأعمال التخريب التي ارتكبها العدو عندما تجول جنده بالمنطقة هنا وهناك.

ولم يستطع جند المشاة، الذين أضناهم المسير الطويل حتى الإنهاك، مجاراة حركة الفرسان عندما ساقوا بسرعة أثناء نزولهم من الجبال، وهكذا نزلت قوات الفرسان بصحبة عدد قليل فقط من الجنود المشاة الأكثر نشاطاً إلى مكان يعرف عموماً باسم مرجعيون واقع في السهل الواقع مباشرة تحت الجبل، وتوقفوا هنالك لعدة ساعات للتداول حول برنامجهم الإضافي.

أصبح صلاح الدين في تلك الساعة خائفاً بعض الشيء، إزاء خبر الوصول المفاجىء للملك، وكان قلقاً حول طلائعه التي بدت وكأنها معزولة عنه وعن الجيش، وخشي أيضاً من احتمال مهاجمة معسكره، ولذلك أمر بوضع الأمتعة والمعوقات وجميع المعدات بين السور والفصيل في المدينة المجاورة حيث يمكن العثور عليها بسهولة مهما تكن نتيجة المعركة، وانتظر نتيجة الأحداث وهو مستعد بهذا الشكل ومتوجس كثيراً حول النتيجة.

وفي هذه الأثناء، علم المناوشون، الذين كانوا قد خرجوا في حملة نهب، بذعر كبير باقترابنا، فعقدوا العزم على الالتحاق بقطعانهم إذا كان ذلك ممكناً متخلين عن جميع الاعتبارات الأخرى، إلا أنهم واجهوا قواتنا بعد عبورهم للنهر الواقع بين منطقة صيدا والسهل الذي كان جيشنا مقيماً فيه كما ذكرت من قبل، وتلا ذلك على الفور مناوشة من مواقع متلاحمة انتصر فيها المسيحيون بعون الرب، فاستدار العدو هارباً وحاول بلوغ معسكر صلاح الدين انما بعد مقتل العديد منهم وإلقاء عدد أكبر أرضاً.

٢٩ ـ نشوب القتال. المسيحيون ينهزمون ويؤسر العديد منهم.

بينما كانت الأمور على هذه الصورة، صعد أودو، مقدم فرسان الداوية بصحبة كونت طرابلس وآخرون ممن كان يتبعهم هضبة واقعة في الجهة المقابلة، وكان النهر إلى يسارهم وكان السهل الكبير ومعسكر العدو إلى يمينهم.

وعندما علم صلاح الدين بالمحنة الشديدة التي نزلت بجنوده، حيث كانوا معرضين للخطر بل للموت، استعد للذهاب إلى مساعدتهم، وقد اتخذ قراره هذا عندما لمح عدداً من جنوده المنهزمين بشكل تام. فانطلق لمقابلتهم، وشجعهم، لدى معرفته بالوضع، بأقوال

مشجعة وأعادهم إلى الصفوف. ثم انقض فجأة على المسيحيين الذين كانوا يطاردون الهاربين بشكل طائش.

وفي هذه الأثناء، كانت قواتنا من المشاة، التي اغتنت بالمغانم من القتلى قد خيمت على طول ضفة النهر، وكانت ترتاح بهدوء اعتقاداً منها أنه تم احراز نصر تام على العدو، إلا أن قوات الفرسان لاحظت أن العدو الذي اعتقدوا أنهم كانوا قد قهروه كان يندفع إليهم بقوة مجددة، فحاربوا بشجاعة وبصفوف مضطربة ودون وقت أو فرصة لإعادة ترتيب صفوفهم أو تنظيم قواتهم بترتيب المعركة حسب الأسس العسكرية، وقاوموا لبرهة من الزمن، وصدوا بقـوة هجمات العدو، وأخيراً استداروا وهربوا على أقبح صورة، وكان بإمكانهم أن يتجنبوا بسهولة العدو المطارد وإنقاذ أنفسهم بالتحول إلى اتجاه آخر، إلا أنهم اتبعوا بسبب آثامنا خطة هزيلة واندفعوا إلى ممر ضيق محاط بجروف شاهقة، واستحال هنا التقدم أو الانسحاب عبر صفوف العدو إلا بالتعرض لخطر الموت، وعبر بعضهم النهر، وانسحب معظم هؤلاء، بأمل إنقاذ أرواحهم، إلى أقرب حصن كان يدعى شقيف أرنون، بينما سار آخرون بعد العبور على طول الضفة الأخرى إلى صيدا، وتجنبوا بالتالي التيار العنيف للمعركة، وصادفوا في الطريق رينو صاحب صيدا وجنوده، الذين كانوا يسرعون السير نحو الجيش، إلا أن رينو انصاع لتحذيرهم لدى علمه بهذه الكارثة وعاد إلى صيدا، ويعتقد أن هذا العمل كان مسؤولاً عن كوارث متعددة في ذلك اليوم، فلو أنه واصل سيره إلى القلعة فلربما تمكن من إنقاذ العديد من رجالنا من براثن العدو بمساعدة سكان المدينة والمنطقة الذين كانوا يعرفون المكان، فقد حدث، أن اختبأ الهاربون تلك الليلة في كهوف بين الصخور. فاكتشفهم العدو في صباح اليوم التالي، بعدما فتش كل زاوية وركن، فأسرهم وألقاهم في السجن، إلا أن الملك نجا سليماً بمساعدة جنوده الملكيين. كما وصل كونت طرابلس إلى مدينة صور أيضاً مع عدد قليل من الرفاق[1].

كان من بين المسيحيين الذين أسروا في ذلك الوقت أودو دي سينت ـ أماند مقدم فرسان الداوية. وهو رجل شرير، متكبر ومتعجرف سكنت في منخريه روح الحقد[2]، وكان انساناً لم يخش الـرب ولم يحترم الإنسان، وقد حمله أشخاص عديدون مسؤولية الخسارة، وخزيا دائماً لا يموت بسبب الكارثة، ويقال إنه توفي خلال ذلك العام أسيراً في سجن قذر فلم يحزن عليه أحد.

---

(١) تاريخ هذه المعركة هو ١٠ حزيران عام ١١٧٩ (انظر ستيفنسون ص ٢٢١).

(٢) أيوب: ٣/٢٧.

وكان بلدوين صاحب الرملة، وهو رجل نبيل وقوي، قد أسر هنالك أيضاً، كما كان هيو صاحب طبرية قد وقع بالأسر أيضاً وهو ربيب كونت طرابلس، وكان رجلاً في بداية شبابه يبشر بمستقبل رائع، وقد أحبه الجميع كثيراً، ووقع بالأسر هنالك أيضاً آخرون كثر لا أعرف أسماءهم.

٣٠ - صلاح الدين يحاصر القلعة التي بنيت مؤخراً. يستولي عليها بهجوم عاصف ويدمرها. هنري كونت ترويز وبطرس أخو لويس ملك فرنسا يصلان إلى سورية.

كانت هذه هي حالة الأمور في المملكة في هذا الوقت، وكانت حظوظنا في الدرك الأسفل عندما نزل في مدينة عكا هنري الكونت الرائع لترويز وابن الكونت ثيوبولد الأكبر، والذي كنا قد افترقنا عنه في مدينة برنديزي في أبوليا عندما كنا عائدين من المجمع الكنسي. وكما تم ذكر ذلك، وكان معه مجموعة كبيرة من النبلاء كما قدم في العبور نفسه نبلاء آخرون كان من بينهم بطرس دي كورثني أخو لويس ملك فرنسا، وفيليب، الأسقف المنتخب دبيوفيس Beauvais ابن الكونت روبرت وأخو الملك لويس، فأنعش قدومهم قلوب شعبنا التي أضعفتها الكوارث الأخير، وبعث فيهم الأمل بأنهم قد يتمكنون بحماية نبلاء عظماء كثيرين من تفادي المحن في المستقبل وربما الثأر لمحن الماضي، إلا أن هذا الأمل كان عقيماً لأن الرب لم يكن معهم، فلم يتمكنوا من التغلب على نتائج الكوارث الماضية، ووقعوا حتى في مشاكل أكثر سـوءاً. لأن صلاح الدين، عدونا الأكثر ترويعاً، كان قد ارتقى إلى درجة من التكبر بسبب نجاحاته الكثيرة وحظه الجيد إلى درجة أنه ضرب الحصار فجأة، وقبل أن نحصل على فرصة لاسترداد أنفسنا على حصننا الذي كان قد أنجز في شهر نيسان الماضي.

وضعت هذه القلعة، التي تكرر ذكرها، عند إنجازها تحت رعاية رهبان فرسان الداوية الذين ادعوا ملكيتهم لسائر تلك المنطقة بموجب تنازل من الملوك لهم.

استدعى الملك كامل قوات المملكة وجميع القـوات العسكرية الأخرى وذلك عندما عرف أن صلاح الدين كان قد حاصر القلعة، كما استدعى أيضاً الكونت هنري والنبلاء الآخرين الذين كانوا قد وصلوا مؤخراً وأسرع إلى طبريا، ودعا إلى الاجتماع به هنالك جميع زعماء المملكة بقصد الذهاب لمساعدة المحاصرين وإجبار العدو على رفع الحصار.

وبينما كان ينتظر هنالك، بعد أن أجل التحضيرات لمدة يوم واحد، وصلت أقاويل ثبت أنها صحيحة كان مفادها أن العدو قد استولى على الموقع ودمره عن بكرة أبيه، وأن جميع جنود الحامية التي كانت قد تركت هناك لحراسة القلعة غدت بين قتيل وأسير[1].

---

(١) تم الإستيلاء على القلعة بهجوم عاصف في الثلاثين من آب عام ١١٧٩.

وهكذا، أضيفت كارثة أكبر إلى محنهم السابقة، بحيث يمكن القول عنهم بصدق: « لقد تخلى الرب إلهم عنهم». حقاً إن « أحكامك لجة عظيمة ». و« ما أهيب أعمالك »[١].

إنه الله الذي كان قد أضفى خلال العام المنصرم هبات كثيرة على أبنائه المؤمنين عرضهم لمحنة ارتداء الخوف العظيم والاضطراب الشديد، من ذا الذي يعرف نية الرب؟ ومن ذا الذي يشاركه بآرائه؟ لماذا إذاً أيها الرب؟ هل سحبت تأييدك بسبب وجود الحشد الضخم العدد والكبير من النبلاء خشية أن يعزو لأنفسهم ذلك الذي لم يعط بسبب الجدارة بل بالرحمة؟ أو ربما لأنهم لم يردوا رداً مناسباً على ما منحتهم إياه برحمتك من عطايا أيها المحسن إليهم، أو « لأن الذي يحبه الرب يؤدبه ويجلد كل ابن يقبله »[٢].

لقد كسوت وجوهنا بالخزي حتى نلتمس اسمك المقدس المبارك إلى الأبد، إننا نعرف ونعترف أيها الرب بأنك لا تتغير. لأنك قلت: « لأني أنا الرب لا أتغير »[٣]. ومع ذلك، ومهما كان السبب، إننا نعرف أنك عادل أيها الرب، وأن أحكامك قويمة.

وتجددت في هذه الآونة المفاوضات التي كانت قد أجريت في العام السابق بخصوص دوق بيرغندي وذلك بوساطة عمه الكونت هنري. وكان من المؤمل وصوله في العبور الثاني، إلا أنه رفض القدوم لأسباب مجهولة كما اتضح تماماً فيما بعد.

هنا انتهى الكتاب الحادي والعشرون

---

(١) المزامير: ٣٦/٦، ٦٦/٣.

(٢) حبقوق: ١٢/٦.

(٣) ملاخي: ٣/٦.

الكتاب الثاني والعشرون
تضارب المصالح

١ ـ الملك يزوج أخته أرملة الماركيز إلى رجل شاب يدعى غي دي لـوزنغنان. الملك يعقد هدنة مع صلاح الدين بشروط متساوية وهو عمل لم يسبق له مثيل.

وصل في هذا الوقت أيضاً بوهيموند أمير انطاكية وريموند كونت طرابلس إلى المملكة مع مرافقة من الفرسان، وسبب هذا ذعراً كبيراً للملك، لأنه خشي من أنهما قد يحاولان إحداث ثورة، بحيث قد يحاولان في هذه الحاله الاستيلاء على المملكة لمصلحتهما بعد خلعه من العرش، وكان مرض الملك يقلقـه الآن أكثر من ذي قبل، وأصبحت دلائل الجذام أكثر وضوحاً من يوم لآخر.

وكانت أخته التي كانت زوجة لماركيز مونتفرات، ما تزال أرملة، وكانت تنتظر قدوم الدوق، كما تم شرح ذلك، مع أن الملك كان يعرف هذين النبيلين تمامـاً وعلى الرغـم مـن أنهما كانا قريبين له فقد ارتاب بدوافعهما في القدوم، وعندما سمع بأنهما كانا قد وصلا، عجل بزواج اخته، ولربما كان بالإمكان عثوره في المملكة على نبلاء ذوي أهمية وحكمة وحتى ثروة أكبر بكثير من بين الأجانب والسكان على حد سواء، حيث كان الزواج من أي منهم له منافع أكبر بكثير بالنسبة للمملكة، إلا أن الملك ولأسباب خاصة به، ودون الانتظار للتمعن في «أن السرعة الكثيرة جداً تفسد كل شيء»[1]، زوج أخته فجأة من رجل شاب من منزلة لا بأس بها وهو غي دي لوزنغنان ابن هيو البني من أبرشية بواتيه. واحتفل بالزواج خلال اسبوع عيد الفصح خلافاً للعرف المألوف.

أدرك النبيلان المذكوران منذ لحظات أن الملك ونبلاءه كانوا قد نظروا بارتياب إلى قدومهما، وبناء عليه عادا إلى بلادهما حالما أتما الصلوات المألوفة، وبقيا لبضعة أيام في طبرية، وبينما كان هنالك، شن صلاح الدين، غير العارف بوجودهما، هجوماً على المدينة، إلا أنه لم يلحق أي ضرر بالسكان، وانسحب مجدداً إلى المنطقة الواقعة حول بانياس، وبقي مع جيوشه هناك منتظراً ـ كما عرف فيما بعد ـ وصول أسطول مؤلف من خمسين من الشواني كان قد

---

(١) Statius, Theb, X, 704.

أمر بإعدادها في غضون فصل الشتاء المنصرم، وسبب انتظارها هناك بعض الارتباك للملك، ولذلك أرسل رسلاً إلى صلاح الدين للبحث في عقد هدنة.

رحب صلاح الدين بالاقتراح ـ مع أنه ادعى غير ذلك ـ لأنه ارتاب بقوته أو ربما كان لديه سبب ما للخوف من قواتنا التي كان قد هزمها في أحوال كثيرة خلال العام الماضي، ذلك أن جفافاً شديداً وندرة في الأمطار في المنطقة الواقعة حول دمشق كانا قد سببا ندرة في الطعام من كل نوع للناس والبهائم لمدة خمسة أعوام متتالية.

وهكذا، فقد رتبت هدنة في البر والبحر على حد سواء وللأجانب والمواطنين على حد سواء وتمت المصادقة عليها بتبادل الأقسام بين الطرفين. وكانت الشروط مذلة لنا إلى حد ما، حيث عقدت الهدنة بشروط متساوية ودون أية تحفظات هامة من جانبنا، شيء يقال إنه لم يحدث أبداً من قبل.

٢ ـ صلاح الدين يغزو بلاد طرابلس ويدمر المحاصيل والممتلكات المسيحية الأخرى في تلك البقاع.

قاد صلاح الدين جميع قواته من الفرسان نحو بلاد طرابلس خلال الصيف التالي مباشرة من العام نفسه وذلك بعدما اتخذ الترتيبات الأمنية لإقليمي دمشق وبصرى، وأقام معسكره قرب طرابلس وأرسل سرايا خيالته إلى الريف المجاور، كان الكونت قد انسحب مع قواته إلى مدينة عرقة وكان ينتظر هناك فرصة للإشتباك مع العدو دون خسارة كبيرة، كما بقي فرسان الداوية، الذين كانوا يعيشون في المنطقة المجاورة نفسها، محتجزين في حصونهم؛ وكانوا يتوقعون كل ساعة تقريباً أن تتم محاصرتهم ولم يرغبوا بالمجازفة في مواجهة مع الأتراك، وكان فرسان الإسبتارية قد انسحبوا أيضاً بذعر إلى قلعتهم المحصنة في الكرك. وشعروا أنه إذا كان بإمكانهم الدفاع في وسط اضطراب كهذا عن القلعة المذكورة قبل قليل وحمايتها من أذى العدو، فإن واجبهم يكون قد نفذ، واحتل الجيش التركي موقعاً واقعاً بين هؤلاء الفرسان وبين قوات الكونت، وهكذا، لم يتمكن المسيحيون من مساعدة بعضهم بعضاً، كما لم يتمكنوا من إرسال الرسل من جيش لآخر للتأكد من أحوال كل منهما.

وتجول صلاح الدين خلال هذا الوقت هنا وهناك فوق السهل، وخاصة فوق الحقول المزروعة، وعاث بالموقع بأسره دون مقاومة. وأحرق جميع المحاصيل مما كان قد تم جمعه في المخازن، وكل ما كان مكوماً في الحقول وحتى المحاصيل النامية أيضاً؛ وساق أمامه قطعان الماشية غنيمة وضرب الريف بأسره في جميع الإتجاهات.

٣ ـ وصول أسطول مصري إلى جزيرة أرواد . كونت طرابلس يعقد هدنة مع صلاح الدين .

كان هذا الوضع سائداً في طرابلس عندما ظهرت قوات صلاح الدين البحرية فجأة في حوالي بداية شهر حزيران في المنطقة المجاورة لبيروت ، وعندما علم قادة تلك القوة بحقيقة أن صلاح الدين قد عقد معاهدة مع الملك ، احترموا شروط السلام التي كان قد أعلنها وخافوا من انتهاك أية شروط من تلك المعاهدة في أراضي بيروت أو بالفعل ضمن حدود المملكة بأسرها [1] . ولدى معرفتهم بأن سيدهم كان مع جيشه في منطقة طرابلس فقد ذهبوا إلى هناك واستولوا على جزيرة أرواد الواقعة قبالة مدينة طرطوس ، وعلى بعد نحو ثلاثة أميال منها . ووجدوا في الميناء هناك مرفأ موائماً لشوانيهم .

يقال أن Aradius أراديوس بن كنعان حفيد [كذا] نوح هو الشخص الأول الذي سكن في هذه الجزيرة ، وأقام عليها مدينة محصنة حيث اشتق منه اسم أرواد ، وكان يقع في مكان مجاور منها إلى الشرق مدينة اتسمت بالروعة فيما مضى تدعى أنطرطوس وحملت هذا الإسم لأنها وقعت كما قلنا قبالة أرواد ، وقد تحرف هذا الإسم حالياً إلى طرطوس ، ويقال إن الرسول بطرس قد أسس هنا ـ عندما كان مسافراً عبر فينيقية ـ كنيسة صغيرة تشريفاً لأم الله ، ولا يزال هذا الصرح يزار من قبل عدد كبير من الناس ، ويروى أن السماء منحت هنا الكثير من الإعانات استجابة لوساطة العذراء الطاهرة وذلك بناء على صلوات المؤمنين في زمن الحاجة ، وتعتبر هاتان المدينتان تابعتين لمطرانية صور ، إضافة إلى موضع آخر مجاور يعرف باسم مرقيه يعتبر من بلاد فينيقية .

أرسل نزول هذه القوات في جزيرة أرواد رعشة رعب في المنطقة بأسرها ، وبينما كان الجند ينتظرون أوامر سيدهم ، أشعلوا النار بمنزل واقع فوق ميناء طرطوس ، وحاولوا إلحاق الضرر بالسكان بقدر الإمكان ، غير أن جهودهم ثبت بأنها عقيمة ، وكان صلاح الدين في الوقت نفسه قد دمر المنطقة بشكل يرضيه وأمر الأسطول الآن بالعودة ، ثم جمع جنوده وعاد إلى موطنه أيضاً ، وعقد بعد بضعة أيام معاهدة سلام مع الكونت وانسحب إلى مكان بعيد من بلاد دمشق .

---

(١) يجب أن نلاحظ هنا أن وليم لا يعبر عن أية دهشة إزاء حقيقة أن الهدنة التي عقدها الملك لا تنطبق على طرابلس مع أن ريموند صاحب طرابلس كان قد أكد مطالبه بالوصاية بحكم كونه التابع الأكثر أهمية للمملكة (انظر الكتاب ٢١ ـ الفصل ٣).

٤ ـ عودة رئيس أساقفة صور من القسطنطينية . موت لويس ملك فرنسا .

كنا خلال هذا الوقت ولمدة سبعة أشهر متوالية نقيم مع مانويل، الإمبراطور العظيم للقسطنطينية ذي الذكرى الرائعة، إقامة كانت قد أثمرت فوائد عظيمة لأنفسنا وللكنيسة، وحصلنا في اليوم الرابع بعد عيد الفصح وبعد توسلات جدّية كثيرة على إذن للعودة إلى موطننا [١] .

أمر الإمبراطور عندما رحلنا مبعوثيه برعايتنا، وهم رجال عظماء ونبلاء، ثم أبحرنا في أربع شوان تم تجهيزها بسخاء بالغ بكرمه الإمبراطوري المألوف، وكان خط سيرنا مروراً بجزر تندوس Tenedos وميتيلين Mitylene وكيوس Chios وساموس ودلوس Delos وكلاروس Claros ورودس وقبرس مع أقاليم فريجيا وآسيا الصغرى وليقية وليكانيا وبامفيليا وايزوريا وكليكية على يسارنا، ووصلنا في آخر الأمر في الثاني عشر من شهر أيار سالمين وفي صحة وتوفيق إلى مصب نهر العاصي وميناء القديس سمعان (السويدية).

نعتقد أنه ينبغي عدم التغاضي هنا عن مسألة ليست ذات قيمة صغيرة بالنسبة للكتاب الحالي، فبينما كنا نقيم في المدينة الإمبراطورية، كما تم ذكر ذلك من قبل، بسبب أن فصل الشتاء لم يكن مواتياً للإبحار إلى حد ما، وأيضاً تلبية للأمر الخاص للإمبراطور الأكثر سعادة فقد احتفل ذلك الملك بزواج ابن وابنة وقد فعل ذلك ببصيرة أبوية وربما بنذير لرحيله المبكر من هذا العالم، فقد منح لابنه ألكسيوس، الذي يحمل اسم جده لأبيه [٢]، بشكل مهيب أغنس ابنة لويس ملك فرنسا الرائع، ولم يكن ألكسيوس قد بلغ سن الرجولة بعد، ولم يكن في الواقع قد تجاوز الثالثة عشرة من عمرة، بينما كانت أغنس قد بلغت الثامنة من عمرها تقريباً، ومنحت الشارة الإمبراطورية إلى الاثنين في جزء من قصر قسطنطين القديم ذاك الذي يحمل اسم تريللوس Trullus . ويقال إن المجمع المسكوني المقدس السادس قد عقد هنا في أيام قسطنطين بن قسطنطين بن هرقل.

وأعطيت ابنة الإمبراطور زوجة إلى شاب يدعى رينير بن وليم الأكبر، ماركيز مونتفرات وأخو وليم الذي كنا قد أعطيناه أخت ملكنا، وأمر الإمبراطور رسلاً إمبراطوريين باستدعاء هذا الشاب الذي كان عندئذ في حوالي السابعة عشرة من عمره، وكان قد وصل

---

(١) على هذا حصل وليم على الاذن بالمغادرة في ٢٣ نيسان ١١٨٠، وبذلك يمكن التخمين أنه وصل إلى القسطنطينية في أواخر أيلول أو أوائل تشرين أول ١١٧٩ .

(٢) أطلق اسم ألكسيوس عليه تيمناً باسم امبراطور فترة الحملة الصليبية الأولى، وقد كان ابناً لماريا الأنطاكية، الزوجة الثانية لمانويل.

إلى المدينة الإمبراطورية قبل حوالي خمسة عشر يوماً من وصولنا إلى هناك، وبقي لبرهة من الزمن في المدينة وزار الجيش أيضاً بصحبة جلالة الإمبراطور. وجمع الإمبراطور بلاطه بعظمة إمبراطورية في القصر الجديد المسمى بـلاشيرين وذلك لدى عودتها من هناك مع حلول عيد التجلي في شهر شباط. واحتفل هناك بإشراف سيودوسيوس بطريرك القسطنطينية بزواج ابنته ماريا ورينير الذي منحه اسم جون وهو اسم والده مع لقب قيصر، وكانت ماريا ابنة الإمبراطور من زوجته الأولى الإمبراطورة إيرين ذات الذكرى الورعة، والتي كانت قد أتت لتصبح زوجة له من مملكة التيوتون[1]، ولم ينجب من زواجه الثاني من ماريا سوى ألكسيوس الإمبراطور الحالي للقسطنطينية.

سيكون من العبث تماماً القيام بأية محاولة لوصف جميع عجائب تلك الأيام بـالتفصيل بسبب الكمية الهائلة من المادة، حتى وإن أفردلها بحث خاص، يمكننا أن نذكر ألعاب السيرك التي يدعوها سكان القسطنطينية باسم ميادين الهبودروم، والمشاهد الرائعة ذات الـطبيعة المتنـوعة المعروضة للناس بأبهة عظيمة خلال أيام الإحتفال، والأبهة الإمبراطورية للملابس والثياب الملكية المزركشة بكميات كبيرة من الأحجار الكريمة واللآلىء ذات الوزن الكبير والمقدار الكبير من الذهب الثقيل والأثاث الفضي في القصر الذي لا يمكن تقدير قيمته، وسنقصر الأقوال عن التحدث بعبارات مناسبة ووافية عن ستائر الدمستق الرائعة والمزخرفة في المقر الإمبراطوري، ومن غير الممكن الحديث بالتفصيل عن العبيد الذين لا يمكن إحصاءهم مع أعضاء البلاط، ولا عن عظمة الزفاف وأبهته والهبات السخية التي أغدقها الإمبراطور على شعبه والغرباء على حد سواء. ولنعد الآن إلى القصة.

نفذنا أوامر جلالته الإمبراطورية في انطاكيـة مـع الأمير والمولى البطـريـرك لتلـك المنطقة، ووجدنا في بيروت الملك الذي كان في طريقه إلى مدينة صور براً. وواصلنا رحلتنا البحرية وعدنا بفضل الرب إلى الكنيسة في صور في السادس من شهر حزيران، بعد عام وتسعة أشهر من رحيلنا إلى المجمع الكنسي.

توفي لويس ملك فرنسا الأكثر تقوى، في الثامن عشر من شهر أيلول في العام السابع من فترة حكم الملك بلدوين الرابع، وانتقلت روحه إلى السموات لتلقى مكافأتها الأبدية مع صفوة الملوك، لقد كان ملكاً صاحب مناقب كثيرة وذكرى سرمدية، ولم يخلف سوى ابن

---

(١) كانت هذه بيرثا أوف سولزباخ، وقد غير اسمها إلى ايرين، ولم تلد أي ولد، الأمر الذي أدى إلى بعض النفور من جانب مانويل الذي كان يخشى من أن الزواج كان واقعاً تحت لعنة، وقد أوقفت معظم وقتها خلال أعوامها الأخيرة على الأعمال الورعة (انظر س. ديهل ـ شخصيات بيزنطية ـ السلطة الثانية، ص ١٧٠ ـ ١٩١).

وريث واحد هو فيليب، وكان قد أنجبه من زوجته الملكة ألكس ابنة ثيوبولد الأكبر وأخت: الكونت هنري أوف ترويز، وثيوبولد كونت تشارترز، وستيفن كونت سانسري Sancerre وولم رئيس أساقفة الرايمز وقد توفي في العام الخمسين من فترة حكمه وفي العام الستين من عمره [1].

توفي في السادس من شهر تشرين الأول اللاحق أمالرخ ذي الذكرى النفيسة، حيث كان رجلاً بسيطاً للغاية وبدون أهمية تقريباً وذلك بعدما شغل منصب بطريرك للقدس لمدة عشرين عاماً تقريباً، واختير خلال عشرة أيام بعد ذلك هرقل رئيس أساقفة قيسارية ليشغل منصب أمالرخ [2].

٥ ـ الملك يزوج أخته الصغرى من همفري الثالث. موت إمبراطور القسطنطينية.

زوج الملك في ذلك الشهر نفسه أخته، التي لم تكن آنذاك تجاوزت سن الثامنة من عمرها من شاب اسمه همفري [3]. وكان همفري الثالث هذا ابناً لهمفري الثاني وستيفيني ابنة فيليب صاحب نابلس. وكان والد همفري الثاني هو همفري الأكبر كافل المملكة الذي أشير إليه مراراً من قبل، وكان فيليب صاحب نابلس جد همفري الثاني حاكماً للعربية الثانية التي هي البتراء والتي تدعى عموماً في الوقت الحالي باسم الكرك وأيضاً باسم وادي عربة والمعروفة حالياً باسم مونتريال، حيث تقعان كلاهما فيما وراء الأردن، وتبنى فيما بعد الحياة الدينية وأصبح مقدماً لفرسان الداوية [4].

تولى القيام بالمفاوضات بخصوص هذا الزواج بحماسة كبيرة الأمير رينو الزوج الثالث

---

(١) كان لويس السابع قد أصبح ملكاً إثر وفاة والده في عام ١١٣٧ ولذلك فقد حكم أكثر من أربعين عاماً وليس أكثر من «خسين» عاماً عندما توفي في عام ١١٨٠.

(٢) هذا سرد هادىء بشكل استثنائي وربما مرده للحقيقة التي شكلت خيبة الأمل الكبرى في حياة ولم. إن الدليل الوحيد للشعور هو الدليل السلبي الذي يخفق في وصف خصمه الناجح في أية طريقة، ويصف ارنول هذا الانتخاب وصفاً طويلاً، وتبعاً لارنول كان ولم موضع اختيار رجال الدين، إلا أنه كان من المعتاد بالنسبة لرجال الدين أن يقدموا اسمين إلى الملك لاختياره النهائي، وبذلت أغنس كل نفوذها القوي لمصلحة هرقل المرشح الآخر المعين، وفعلت ما أرادته (انظر ل.دي ماس لاتري ـ تاريخ أرنول وبرنارد الخازن، ص٨٢ ـ ٨٦).

(٣) كانت ايزابيل ابنة عموري من زواجه الثاني من الأميرة الاغريقية ماريا، ولذلك فقد كانت أختاً غير شقيقة لبلدوين الرابع. وشكلت زواجاتها المتكررة جوهر السياسة لمملكة القدس الأخيرة (انظر ج.ل. لامونت الملكية الاقطاعية في المملكة اللاتينية في القدس ١١٠٠ ـ ١٢٩١ ص٤٧).

(٤) كان فيليب صاحب نابلس، سيد الداوية قد ورد ذكره مراراً في هذه الصفحات. وبالنسبة لنسب همفري أوف تيرون ـ انظر لامونت ـ الملكية الاقطاعية ص٣٥.

لوالدة همفري الشاب، الذي كان الآن قد بلغ منزلة الرجولة. ولدى إتمامها جرى الإحتفال بخطبة همفري وأخت الملك في القدس.

وكان همفري قد استلم عند وفاة جده لأبيه بحق وراثي بعض الممتكات في إقليم صوز وهي: تيرون وقلعة أنفة ومدينة بانياس مع ملحقاتها، ثم أجرى تبادلاً لهذا الميراث مع الملك وفق شروط محددة حيث أودع نصها، الذي أمليناه كما هو متعلق بواجبنا الرسمي، في السجلات الملكية [١].

وتوفي في اليوم الثالث من الشهر نفسه مانويل الإمبراطور اللامع للقسطنطينية ذي الذكرى الأبدية والذي فاق سخاؤه سخاء جميع ملوك المنطقة، وسلم روحه لعليين، وسيحتفظ بذكراه في مجمع القديسيين ببركة بسبب صدقاته وتبرعاته السخية، ويقال إنه توفي في العام الأربعين من حكمه، وفي العام الواحد والستين من عمره وذلك بشكل تقريبي حسبما استطعنا التحقق من ذلك [٢].

وتخلى في هذه الآونة أيضاً بوهميوند أمير انطاكية عن زوجته الشرعية ثيودورا ابنة إحدى أخوات الإمبراطور، واجترأ بتحدي قوانين الكنيسة على الزواج من امرأة تدعى سيبيل اشتهرت بممارسة الفنون الشيطانية [٣].

كان جوسلين عم الملك وقهرمانه أيضاً موجوداً آنذاك في القسطنطينية حيث كان بلدوين قد أرسله إلى هناك بخصوص بعض أمور المملكة، وكان بلدوين صاحب الرملة مقيماً هنالك أيضاً بغية التماس مساعدة الإمبراطور في مسألة دفع فديته، وجرى خلال إقامتها في المدينة الإمبراطورية - حيث كان الإمبراطور مانويل ذو الذكرى النفيسة متوفى الآن، أن اكتشف في الأول من شهر آذار أن نبلاء بارزين كانوا قد تآمروا لإحداث تمرد ضد الإمبراطور الكسيوس نجل مانويل الذي كان حسب وصية والده ما يزال تحت وصاية والدته، فجرى اعتقال هؤلاء بتهمة الخيانة وقيدوا حسب أوامر الإمبراطور وألقى بهم في السجن، على الرغم من أن بعض المجرمين كانوا من أقربائه.

---

(١) لم تحفظ هذه الوثيقة. ومن المفترض أنها أعدت في شهر أيلول من عام ١١٨٠ وتقدم دليلاً واضحاً على أن وليم كان ما يزال ينفذ الواجبات الرسمية للمستشار مع أن مجموعة معادية له كانت تسيطر على البلاط.

(٢) حدثت وفاة مانويل في ٢٤ أيلول عام ١١٨٠. ودفع ولع وليم بالأرقام الكاملة إلى تخصيص ثلاث سنوات إضافية لفترة حكم مانويل، وربما نتجت هذه الخطيئة عن اخفاقه في إثبات عام وفاة يوحنا التي كانت قد حدثت في عام ١١٤٣. (انظر ف. شالدون- آل كومينين: ٢/٦٠٦).

(٣) كان الاعتقاد بالسحر والشعوذة والكهانة واسع الانتشار في الشرق والغرب أيضاً. وطلب من الامبراطور مانويل وهو على فراش موته أن يوقع وثيقة رسمية لطرد منجميه ولتحريم التنجيم على أنه مخالف لتعاليم الكنيسة.

وكان من بين زعماء هذه المؤامرة مانويل بن أندرونيكوس الأكبر، الذي ذكر آنفاً، وألكسيوس البروتوسيباستوس وثيودور كلوزينا ابنة أخي الإمبراطور، وأخو لوغوثيت الذي كان يشغل منصب الحاجب، ونحو إثني عشر رجلاً آخرين من مرتبة عالية، وكانت السيدة ماريا، أخت الإمبراطور، ممن حرض على المؤامرة أيضاً، وقد هربت خلال الليل مع زوجها، ابن الماركيز المذكور آنفاً[1]، إلى كنيسة القديسة صوفيا حيث وضعت نفسها تحت حماية الكنيسة بترقب قلق لمصيرها، وحاولت أن تتخذ إجراءات ضد أخيها الإمبراطور من ذلك الملاذ الذي جمعت فيه الأسلحة والرجال المسلحين، يساعدها في ذلك زوجها ومناصروها وعدد من المتورطين في المؤامرة نفسها؛ وأيدها في ذلك حتى بطريرك المدينة نفسه، هذا واستمر فريق الإمبراطور، الذي كان يعتمد بشكل خاص على مساعدة اللاتينيين بالزيادة في القوة، فقامت في آخر الأمر بالتماس الرحمة عن طريق الوسطاء وذلك بعدما تبددت قواتها ويئست من الحياة نفسها، ووافق الإمبراطور على مطلبها وأعادها إلى حظيرة رضاه[2].

٦ - إعلان عقوبة الحرمان الكنسي ضد أمير انطاكية بسبب الخليلة التي كان قد اتخذها لنفسه مع أن زوجته كانت ما تزال على قيد الحياة.

في هذه الآونة كانت حالة الشعب اللاتيني في الشرق، وخاصته في إمارة انطاكية، مضطربة كثيراً لأن بوهيموند أمير إنطاكية كان قد تخلى عن زوجته الشرعية واتخذ من خليلته زوجة ثانية، وكان قد جرى تحذيره أكثر من مرة حتى يتخلى عن حالة الزنا الشريرة التي كان يعيشها بشكل علني مكشوف وأن يستعيد زوجته الشرعية، لكن «إذا جاء الشرير جاء الإحتقار أيضاً ومع الهوان عار»[3]. وهكذا رفض الأمير الإصغاء وأصم أذنيه ولم «يستمع إلى صوت الحواة الراقين رقي حكيم»[4]. ونتيجة لذلك وبما أنه أصر بعناد على البقاء آثماً، فقد جلب على نفسه عقوبة الحرمان العادلة والطرد من الكنيسة، لكنه لم يعبأ بهذا كثيراً، بل على العكس، استمر بسلوكه الشرير وبنشاط مضاعف، وعامل البطريرك والأساقفة ورجال الدين الآخرين في الكنيسة في تلك المنطقة كأعداء وضايقهم بعنف،

---

(١) الفصل الرابع - وكان Logothete و Canaclinus من الموظفين الأدنى مكانة في الإدارة الامبراطورية، وكانت أعمالها مرتبطة بالإدارة مع شيء من الاهتمام بالانفاق الامبراطوري.

(٢) لم تكن هذه الثورة المخفقة سوى مؤشراً على الاضطرابات الأكثر خطراً التي ستظهر على الفور، (انظر الفصول: ١٠-١٣).

(٣) الأمثال: ٣/١٨.

(٤) المزامير: ٥/٥٨.

وانتهك حرمات الأماكن المقدسة في كل من الكنائس والأديرة، واستولى على ذخائرها المقدسة ووزع ممتلكاتها بروح الوقاحة الشريرة، يقال إنه حاصر بالفعل البطريرك مع الكهنة الذين كانوا قد هربوا إليه طلباً للملاذ، وذلك في قلعة تخص الكنيسة، وكانت هذه القلعة مجهزة بشكل جيد بالأسلحة والجنود ومزودة بالمواد الغذائية، ويروى أنه شن هجمات كثيرة عليها وكأنها كانت من ممتلكات العدو.

وهنا وجد بعض الرجال العظماء من هذه المنطقة أنفسهم غير قادرين على تحمل سلوكه الجنوني لفترة أطول من ذلك، فتخلوا عنه بالجسد والروح وبمقت تام لأعماله الشريرة، مدركين أن واجبهم كان نحو الرب وليس نحو الإنسان، وكان بين هؤلاء رجل نبيل قوي يدعى رينوماسيور، وانسحب إلى إحدى قلاعه، التي كانت قلعة منيعة لا ترام، ودعا الذين كان في قلوبهم الإخلاص والإستقامة وأمام أعينهم الخوف من الرب، لينضموا إليه هناك، وقدم ملاذاً آمناً هناك للنبلاء الذين كانوا قد طردوا من ممتلكاتهم، ولآخرين من أي وضع اجتماعي ممن كان قد هرب لذلك السبب نفسه.

ونتيجة لسلوك بوهميوند واجهت المنطقة بأسرها حالة صعبة للغاية. ورأى رجال حكماء ذوو خبرة طويلة أنه إذا لم تأت الرحمة الربانية بسرعة لمساعدتنا فستفتح من غير ريب سبل يتمكن العدو بها من تدميرنا وستصاب مصالح المسيحية إصابة أبدية. ولسوف تسقط المنطقة بأسرها من جديد في أيدي السلطات التركية، بعدما أنقذت بمعونة الرب منهم، من خلال عمل القادة المخلصين، وعلى حساب مشقات لا تحصى تحملها شعب المسيح، لأن القول الحق لا يتغير وجدير بكل القبول حيث أن «كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب، وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت»[1].

واجتمع ملك القدس والسيد البطريرك يدفعهما إحساسهما المألوف بالمسؤولية مع رجال الكنيسة الآخرين والأمراء العلمانيين للتداول بجدية بخصوص السبيل الموجب إتباعه في مواجهة طارىء خطير كهذا، ومع أن السلوك الشائن للأمير الفاسق والطائش بدا بحد ذاته يطالب باتخاذ إجراءات قاسية، إلا أنهم ترددوا باستخدام القوة خشية من أن يستدعي قوات العدو لمساعدته في جهوده للمقاومة. وسيفتح عمل كهذا المنطقة للأتراك بحيث لن تجدي بعد ذلك أكثر الجهود جدّية لطردهم، وكان واضحاً أيضاً أن الوقت الحالي لم يكن مناسباً للتوسلات والنصح المفيد، ولهذا السبب لم يتجرؤوا على إرسال رجال حكماء موهوبين في فن الإقناع لشخص كان مندفعاً بشكل جنوني على مدى طرق الشر، ومنهمكاً تماماً في اقتراف

---

(١) متى: ٢٥/١٢.

الذنوب حيث سيكون ذلك مثل «سرد حكاية لجحش أطرش»[1] و«إلقاء الكلمات إلى الريح»[2].

ولذلك، قرروا تحمل هذه الكارثة خشية من أن يقعوا في أشياء أكثر سوءاً، واستمروا في هذه الأثناء بالبحث عن المساعدة من الرب الذي اعتاد إنقاذ حتى المرميين في أعماق البحر، إنه الرب الذي «يعطي الثلج كالصوف ويذري والصقيع كالرماد»[3]. وكان أملهم أن يثوب الأمير إلى رشده، بعد ما يحذره عقاب إلهي، فيرتدي من علين بجميع الفضائل التي يتحلى بها أكثر القادة عظمة، ويندفع ليكافح للحصول على ثمرة حياة أفضل.

٧ - إرسال بطريرك القدس إلى انطاكية في محاولة لإيجاد علاج لهذه الأحوال الخطيرة. موت البابا ألكسندر.

ما لبث أن أصبح واضحاً للجميع أن الكارثة كانت آخذة في الإزدياد، وأنه لم يكن هناك أي أمل بالحصول على أي علاج فوري، ولم يكن الأمير وحده محتجزاً في قيود الحرمان الكنسي، بل شمل الحرمان المنطقة بأسرها نتيجة لسلب وإحراق ممتلكات الأماكن المقدسة، ولم تقدم أي من الأسرار المقدسة للكنيسة إلى الناس الآن باستثناء تعميد الأطفال، وأدرك المسيحيون بذعر أنه ليس بإمكان الأوضاع الحالية الإستمرار لفترة طويلة من الزمن بدون تعرض الجميع للمخاطر.

ولذلك تقرر بموافقة عامة أنه ينبغي على السيد البطريرك الذهاب إلى انطاكية، ويحاول إذا أمكن، بنعمة من الرب، أن يجد علاجاً ما مؤقتاً أو دائماً يمكن أن يخفف من وطأة هذه الكوارث، ورافق البطريرك في مهمته أرناط الذي كان أميراً لانطاكية فيما مضى، وزوجاً لوالدة بوهيموند الأصغر، والراهب أرنولد أوف توروغ Toroge مقدم فرسان الداوية والراهب روجر دي مولينز مقدم فرسان الإسبتارية، واتخذت هذه الخطوة لأنه كان يخشى أنه إذا لم نعط أية إشارة تعاطف تجاه المصيبة البائسة لجيراننا، ولم نحاول معالجة الوضع، فقد يتهمنا البابا والأمراء عبر البحار بالإهمال أو حتى بالنية الشريرة.

ورافق البطريرك أيضاً عدد من رجالات الكنيسة وكانوا رجالاً حكماء وعاقلين كان من بينهم موناخوس رئيس الأساقفة المنتخب لقيسارية والبرت أسقف بيت لحم وريناالد راعي دير جبل صهيون وبطرس رئيس رهبان كنيسة القبر المقدس، وانطلق البطريرك إلى انطاكية

---

(١) هوراس: Ep : ٢/١/١٩٩.

(٢) أوفيد: Am, 1, VI, 42, and Her, II, 25.

(٣) المزامير: ١٤٧/١٦.

مع بقية الأصحاب آخذاً معه أيضاً كونت طرابلس، وهو صديق حميم ومحبوب من قبل الأمير وهو الذي كان يؤمل أن أقواله عندما تضاف إلى أقوالنا قد تحقق النجاح والوصول إلى غايتهم.

تشاور المبعوثون لدى وصولهم إلى اللاذقية مع السيد البطريرك والأمير كل على حدة، وحددوا يوماً توجب فيه عليهما أن يكونا بأنطاكية. وبعدما نوقشت المسألة بشكل شامل من جميع وجهات النظر، عقدت هنا هدنة مؤقتة وفق الشروط التالية: لقد تم الإتفاق على وجوب إيقاف الحرمان، وإعادة امتياز أسرار الكنيسة المقدسة إلى الناس بعدما تتم إعادة جميع المقتنيات المفقودة إلى البطريرك والأساقفة والأماكن المقدسة، وأما بخصوص الأمير نفسه، فيجب أن يتحمل بشخصه وبصبر العقوبة التي فرضها بحقه الأساقفة، أو أن يتولى صرف خليلته ويعيد زوجته الشرعية إذا طلب غفراناً تاماً.

عاد المندوبون إلى موطنهم بعد أن تم هذا الترتيب، معتقدين أنهم كانوا قد خففوا إلى حد ما على الأقل لهيب النيران اللاشرعية التي كانت متأججة في إمارة انطاكية.

هذا وواظب الأمير وأصر على سلوكه المخزي، أضف إلى هذا فقد تورط بسياسة رافقتها مخاطر كبيرة نحو المملكة، فقد طرد من المدينة ـ ومن سائر ممتلكاته بالفعل ـ أفضل نبلائه المخلصين، حيث كانوا رجالاً ذوي سمو عظيم، ومن الواضح أنه طردهم للسبب الوحيد وهو أنه قيل أنهم شجبوا سلوكه. وكان بين الذين نفاهم كافل إمارته وحاجبه غيسكارد دي ليلي [غويشارد دي ليسلي] وبرتراند بن غسلبرت [1] وغارينوس غينارت وبما أن هؤلاء النبلاء قد أرغموا على مغادرة انطاكية، فقد ذهبوا إلى روبينوس [روبن] وهو زعيم نبيل من الأرمن [2]، واستقبلهم جميعاً بإجلال بالغ وأعطاهم هبات رائعة خص بها كل واحد منهم وأعد لهم مؤناً وفيرة لإعالتهم.

توفي البابا الكسندر الثالث في السابع والعشرين من شهر آب من العام نفسه وفي العام الثالث والعشرين من شغله لمنصب البابا ودفن في كنيسة اللاتيران؛ فخلفه لوكيوس الثالث، الذي كان اسمه من قبل هيوبولد أسقف أوستيا، وكان البابا الجديد بالأصل من توسكانيا من المنطقة المجاورة للوكا، وكان رجلاً مسناً قليل التعليم.

وحدث أيضاً في هذه الآونة نفسها في الثالث عشر من أيلول أن رحل أخونا المبجل

---

(١) يقدم طردهم امتحاناً هاماً حول القوة الاقطاعية.

(٢) روبن الثالث ١١٧٥ ـ ١١٨٥.

(٣) توفي الاسكندر الثاني في ٣٠ ـ آب ١١٨١.

في المسيح، ريموند، أسقف الكنيسة في بيروت ذو الذكرى المباركة في الرب من هذه الحياة لينعم بنعم الرب بمكافأة الحياة السرمدية، وعين في منصبه فيما بعد رجل مبجل له ثقافة جيدة هو ماستر أودو رئيس شماسة كنيستنا، وأضفينا عليه خلال أيام العيد في كانون الأول بمشيئة من الرب رتبة منصب الكاهن والمنصب الأسقفي.

٨ ـ موت ابن نور الدين. تركه ميراثه لابن عمه مسعود.

حصلت في هذه الآونة وفاة الملك الصالح ابن نور الدين، وهو شاب كان ما يزال في أوائل سن الرجولة، لم يبق له من جميع الميراث الذي تلقاه من والده سوى مدينة حلب وعدد قليل من الحصون، ويقال إنه أورث في وصيته الأخيرة، التي أعدها أثناء وفاته، مدينة حلب وجميع ميراثه إلى مسعود، حاكم الموصل، والذي كان ابناً لعز الدين [اقرأ: قطب الدين] أخي والده. وأرسل رجالات الملك الصالح بعد وفاته رسلاً إلى مسعود، الذي كان حاكماً تركياً شهيراً وعظيماً، وحثوه على المبادرة بالقدوم إليهم بالسرعة الممكنة[١].

وبادر مسعود بالقدوم إلى هنالك فور استلامه الرسالة، واستولى على أملاك أسلافه وكل ما كان يخصه بحق وراثي، لأنه خاف من أن يقوم صلاح الدين، الذي كان قد سلب ابن عمه معظم ممتلكاته، بالقدوم ثانية من مصر والإستيلاء على المدينة بالقوة على الرغم من إرادة سكانها لا سيما وأن بعض النبلاء الأكثر أهمية كانوا يؤيدونه بصورة سرية.

هذا وكان صلاح الدين قد عاد إلى مصر بعدما أبرم معنا صلحاً مؤقتاً لمدة عامين لينكب على أموره في تلك المملكة. وكان قد سمع بارتباك كبير أن أسطول ملك صقلية كان قد نزل إلى البحر بمعدات جبارة وقوات لا تحصى بهدف الزحف ضد مصر، بيد أن خوفه لم يكن ضرورياً في هذا الصدد حيث جرى توجيه مسار الأسطول غرباً نحو جزر البليار، وتقع هذه الجزر على مقربة من سواحل اسبانيا وتعرف إحداهن عموماً باسم ميورقه، بينما تسمى الأخرى باسم منورقه، وتبرهن أن الرحلة إلى هناك كانت خطيرة، حيث دفعت رياح معاكسة الأسطول، فتحطم بأسره تقريباً في المنطقة الواقعة قرب سواحل مدن سافونا والبنجه وفنتمقلا حيث دفعت الأمواج العنيفة السفن إلى الشاطىء.

---

(١) هنالك بعض التشوش في عبارة العلاقات هذه. فمن المحتمل أن هز الدين يمثل عز الدين الذي كان ابناً لقطب الدين أخو نور الدين وربما قصد من theheth قطب الدين، مما يعني أن وليم عكس العلاقة للأب والابن، وكان عز الدين هو الذي استولى بالفعل على حلب كميراث له في تلك الآونة وتبادلها بعد فترة قصيرة مع أخيه عماد الدين (انظر بهاء الدين، المحاسن اليوسفيه ص٨٠ ـ ٨١). ومن المؤكد أن وليم تلقى معلومات من رواية شفوية.

بينما كانت المملكة تنعم في هذه الآونة بالسلام المؤقت حسبما حكينا من قبل، ألم تغيير جذري رائع بطائفة من السريان تقطن منطقة فينيقية، قرب سلسلة جبل لبنان، حيث شغلوا أراضي بالقرب من مدينة جبيل، فقد كان هؤلاء الناس قد اتبعوا منذ خمسين عاماً تقريباً العقائد الهرطقية لشخص يدعى مارون، منه استمدوا اسم الموارنة، وكانوا قد انفصلوا عن كنيسة المؤمنين، واختاروا طقوساً دينية خاصة بهم، غير أنهم عادوا الآن بفضل الهداية الربانية إلى رشدهم وتخلوا عن هرطقتهم، وذهبوا إلى إيمري بطريرك انطاكية وهو البطريرك اللاتيني الثالث الذي يرأس تلك الكنيسة، وأعلنوا عودتهم عن الخطأ الذي كان قد استعبدهم لفترة طويلة من الزمن، وعادوا إلى وحدة الكنيسة الكاثوليكية، وتبنوا العقيدة الأرثوذكسية واستعدوا لإعتناق تعاليم الكنيسة الرومانية والتقيد بها بكل التقوى.

ولم يكن هؤلاء الناس في أي حال من الأحوال قليلي العدد، وفي الواقع، قدروا عموماً بأنهم أكثر من أربعين ألفاً، وكما ذكرت آنفاً، فقد سكنوا في أسقفيات جبيل والبترون وطرابلس، على منحدرات الجبال اللبنانية، وكانوا شعباً قوي البنية ومقاتلين شجعاناً، قدموا فوائد عظيمة للمسيحيين في المعارك الصعبة التي كانوا قد خاضوها مراراً مع العدو، ولذلك كان تحولهم للعقيدة الصحيحة مصدر ابتهاج كبير بالنسبة لنا.

وقوام بدعة مارون وأتباعه قائمة على قوله يوجد ووجد في ربنا يسوع المسيح، من البداية بالفعل، إرادة واحدة، وقوة واحدة فقط، وهذا ما يمكن استخلاصه مما صدر عن المجمع المسكوني السادس، الذي من المعروف تماماً أنه عقد ضدهم، والذي تحملوا فيه عقوبة اللعن، وقد أضافوا إلى هذه الفقرة، التي أدانتها الكنيسة الأرثوذكسية، تعاليم خبيثة أخرى كثيرة، بعدما انفصلوا عن مجموعة المؤمنين، غير أنهم تابوا الآن وتخلوا عن جميع هذه البدع، كما تم سرد ذلك، وعادوا إلى الكنيسة الكاثوليكية تحت قيادة بطريركهم والعديد من أساقفتهم، وأظهر هؤلاء القادة ـ الذين كانوا حتى الآن قد قادوا شعبهم في السبل الشريرة ـ الآن حماسة مماثلة في توجيههم بورع عندما عادوا إلى الحقيقة [1].

٩ ـ نشوب خلاف بين كونت طرابلس والملك ما لبث أن تطور إلى عداوة خطيرة معلنة.

كانت المملكة تنعم في هذه الأيام بدرجة محدودة من الهدوء بفضل المعاهدة المؤقتة التي عقدت بين الملك وصلاح الدين حسبما حكينا ذلك من قبل، ومع ذلك، كانت هنالك

(١) استمر اتحاد الموارنة مع اللاتينيين حتى اليوم الحالي. انظر مقالة كتبها م.سبينكا «أثر الحملات الصليبية على المسيحية الشرقية». حقائق في أطر التاريخ المسيحي.

أرواح متململة لا تعرف الاستقرار هي نفوس أبناء ابليس وأبناء الذين فطروا على الخصام، الذين كانوا على أهبة الاستعداد دائماً لخلق الشقاق في المملكة ولإحداث اضطرابات مدنية.

كان عدد لا يحصى من القضايا قد احتجز الكونت لمدة عامين متتاليين في إمارة طرابلس، ومنعه ذلك السبب من زيارة المملكة[1]. غير أن المسؤولية التي شعر بها الآن نحو مدينة طبريا، ميراث زوجته، دفعه إلى الذهاب إلى هناك، فاتخذ جميع استعداداته للرحلة، وكان قد سار وصولاً إلى جبيل عندما أقنع الرجالُ الأشرار المذكورون آنفاً الملك الساذج جداً بتملقاتهم الماكرة ليعتقد أن الكونت كان قادماً إلى المملكة بالنوايا الشريرة للعمل سراً ليحل محله، وقد أصغى بسهولة إلى أقوالهم المغررة وأرسل على الفور رسالة نهائية ترفض منح الكونت الإذن لدخول المملكة.

امتنع الكونت، المضطرب والساخط بعدل، إزاء هذه الإهانة التي لم يستحقها تماماً، امتنع وهو مكره جداً من التقدم إلى أبعد من ذلك، وعاد إلى طرابلس بعد تبديد عقيم للجهد والمال.

وكانت مقاصد مثيري القلاقل هؤلاء، عدم الارتباك بوجود الكونت الذي كان رجلاً مستقيماً تماماً ولا يعرف التعب، وأن يقوموا أنفسهم بمعالجة أمور المملكة تماماً كما كانوا يرغبون، وأن يحولوا ضعف الملك لمصلحتهم الخاصة، وكان من بين الذين أثروا على الملك بشكل مخز ليتخذ هذا الاجراء والدته، حيث كانت امرأة جشعة بلا حدود، وهاجرة للرب تمام الهجران، ومعها أخوها قهرمان الملك وعدد قليل من الرجال الأشرار كانوا موالين لهم[2].

عندما علم النبلاء الرئيسون بهذا العمل، تولاهم الرعب الكبير، لا سيما وأنهم كانوا رجالاً ذوي خبرة وحكمة كبيرتين، لأنهم خافوا من أن المملكة سوف تسقط بسرعة من منزلتها السامية في حال حرمانها من حماية الكونت الرائع، وحسب قول الرب «كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب»[3]. كانت هذه هي الحال على نحو أكثر خصوصية لأن الملك،

---

(١) كانت زيارته الأخيرة أيام فصح ١١٨٠ (انظر الفصل الأول).

(٢) هذا هو انفجار وليم الأول المباشر ضد هذا الزوج، اللذان كانا على الأرجح مسؤولين عن فقدانه للبطريركية، إن تعبيراً كهذا بعاطفة طليقة غريب لدى مؤرخنا ويدل على أنه كتبه إما في عام ١١٨٤ بعد وفاة أغنس، التي يؤرخها لامونت في أواخر عام ١١٨٣ أو مطلع عام ١١٨٤ (انظر J.L. La Monte، «قيام وانحطاط النبلاء الفرنجة في سورية في أيام الحروب الصليبية» دورية تاريخ جنوب شرقي أوروبا: ١٥ [١٩٣٨] ٣١٣).

(٣) متى: ١٢/٢٥.

الذي كان يزداد مرضه يومياً، كان ضعفه يزداد ويقل استعداده للانكباب على أمور المملكة؛ وفي الواقع، نادراً ما تمكن من دعم نفسه وكان مشلولاً بشكل تام تقريباً.

وركز النبلاء الأكثر أهمية ـ لدى رؤيتهم الخطر الذي سيحدث بالتأكيد للمملكة نتيجة للعمل السابق ـ جميع جهودهم ووجهوها نحو إعادة استدعاء الكونت وتخفيف غضبه، وأجبروا أخيراً الملك بعد مناقشات مطولة واقتراحات متنوعة وعلى الرغم من معارضته أن يسمح لهم باسترجاع الكونت إلى المملكة، كما تغاضى الكونت الرائع عن الإساءات التي كانت قد ألحقت به، وأعيد توطيد السلام تماماً بين الملك وبينه [1].

١٠ ـ حدوث ثورة في القسطنطينية انتصر فيها أندرونيكوس الشرير. نتيجة لذلك الشعب اللاتيني يضطرب اضطراباً شديداً.

في الوقت الذي كانت فيه بلادنا في الشرق تشهد هذه الوقائع، حدث تغيير هام في امبراطورية القسطنطينية. فأثر هذا بشكل مشؤوم جداً على الشعب اللاتيني بأسره، وألحق بهم إهانات غير مسموعة وخسائر ضخمة لأن الشرور التي خطط لها الإغريق الغدارون والخونة منذ زمن طويل أثمرت «وولدت كذباً» [2] وبهتاناً، ذلك أن ألكسيوس نجل الامبراطور مانويل ذي الذكرى اللامعة للغاية، ارتقى العرش إثر وفاة والده ولم يكن قد بلغ الثالثة عشرة من عمره، وذلك حسب وصية والده بحق وراثي. ولقد كان تحت وصاية والدته، غير أن شؤون الامبراطورية وإدارتها كانت في يد ألكسيوس الحاجب ابن الأخ الأكبر للامبراطور المتوفى، وهكذا، شعر النبلاء الرئيسون وسكان تلك المدينة أن الفرصة قد جاءت لتنفيذ الخطط الشريرة التي كانوا قد حاكوها ضد شعبنا.

كان اللاتين قد لاقوا تأييداً كبيراً من مانويل، حبيب الله، خلال فترة حكمه ـ وكان ذلك مكافأة مستحقة تماماً بسبب إخلاصهم وشجاعتهم، كما أن الامبراطور، الذي كان صاحب نفس عظيمة ونشاط فريد، قد اعتمد بشكل مطلق على إخلاصهم ومقدرتهم إلى درجة أنه أهمل الإغريق وعدّهم أناساً مخنثين وفيهم فسولة، وعهد بالمسائل الهامة

---

(١) ربما تمت المصالحة في وقت مبكر قد يكون ٢٧ نيسان عام ١١٨٢. وما يزال باقياً في القدس وثيقة هامة جداً من ذلك التاريخ قدم فيها بلدوين الرابع هبة لبعض العشور في تيرون إلى وليم رئيس أساقفة مدينة صور. وشهد على الوثيقة ريموند صاحب طرابلس بالإضافة إلى نبلاء عظماء آخرين، وختمها وليم بنفسه كمستشار. وتتضمن هذه الصفة، التي تعد بمثابة امتياز سخي لوليم، قد ـ ما يعني ـ ليس فقط أن المودة قد أعيد تأسيسها بين ريموند والملك، بل أيضاً أن وليم كان عاملاً هاماً في ذلك الحل البهيج. (روهرخت ـ سجلات رقم ٦١٥).

(٢) المزامير: ١٤/٧.

للاتينيين فقط، ونظراً لوضعهم في تقدير عال كهذا وإظهاره نحوهم كرماً سخياً كهذا، فقد عدّه رجال العرق اللاتيني القادمين من سائر أنحاء العالم بالإضافة إلى النبلاء ورجال ذوي منزلة أدنى بأنه المحسن العظيم لهم واندفعوا بتلهف إلىٰ قصره، ونتيجة لهذا الاحترام المتحمس، ازداد ميله نحو اللاتينيين أكثر فأكثر وكان يرفع من منازلهم باستمرار.

حمل النبلاء الإغريق، وخاصة الأقرباء المقربون من الامبراطور وبقية الناس أيضاً- بشكل طبيعي مشاعر الكراهية الشديدة ضدنا، وازدادت هذه الكراهية بسبب الاختلاف بين أسرارنا المقدسة وأسرار كنيستهم، الأمر الذي زودهم بدافع إضافي لغيرتهم، فبعدما انفصلوا بوقاحة عن كنيسة روما، اعتبروا بغطرسة غير محدودة أن كل واحد لم يتبع معتقداتهم السخيفة هرطقياً، وعلى العكس، لقد كانوا هم أنفسهم الذين استحقوا أن يسموا بالهراطقة، لأنهم كانوا قد أنشأوا أو اتبعوا معتقدات خبيثة وجديدة مخالفة لكنيسة الرومان وعقيدة الرسولين بطرس وبولص التي «لن تقوى أبواب الجحيم عليها»[1].

لهذه الأسباب وأسباب أخرى كانوا قد أبقوا هذه الكراهية في قلوبهم لفترة طويلة من الزمن، وكانوا يبحثون دائماً عن فرصة، بعد موت الامبراطور على الأقل، لإبادة تامة لشعب اللاتين المكروه في المدينة وفي كل مكان من الامبراطورية بأسرها بحيث يتمكنون بهذه الطريقة من إشباع حقدهم المتصلب[2].

١١ ـ عرض لأسباب الثورة والشقاق.

بدا أنه لا توجد أية فرصة مواتية لتنفيذ هذه الخطط الشريرة. بعدما توفي الامبراطور مانويل وكان ألكسيوس الحاجب يتولى تسيير أمور المملكة، فقد حذا ألكسيوس نفسه حذو الامبراطور واستفاد من نصيحة اللاتينيين ومساعدتهم وجعلهم أصدقاء له بالقدر الممكن، غير أن اللاتين والإغريق على حد سواء كرهوه من جانب واحد. فمع أنه كان مخنثاً للغاية ومستسلماً تماماً لآثام الجسد الشهوانية مثل جميع الإغريق كان جشعاً أيضاً وبخيلاً لا يرى الإنفاق من الخزينة الامبراطورية وكأنه كان قد جمعها بنفسه وبعرق جبينه، وأشيع أيضاً أنه أقام علاقة إجرامية مع الامبراطورة مع أنها كانت قد اعتنقت الحياة الدينية عندما كان زوجها متمدداً على فراش موته[3].

---

(١) متى: ١٦/١٨.

(٢) جاء هذا التحليل لمشاعر الاغريق نتيجة لمعرفة وليم وخبرته بالأحوال كما أن ادراكه لأهمية الاختلافات الدينية كعامل في الثورة له أهمية خاصة. وهذا مؤكد من المصادر الاغريقية (انظر أ. فازلييف- تاريخ الامبراطورية البيزنطية: ٢/٧٧).

(٣) قبل المؤرخون الاغريق عموماً هذا الاتهام بوجود علاقات محرمة مع الامبراطورة، التي كانت الآن الوصية المسماة (انظر ديهل- شخصيات بيزنطية السلسلة الثانية ص ١٩٥).

وعلاوة على ذلك، كان رجلاً متعجرفاً وفي غاية التكبر، وعدّ نفسه متفوقاً على الجميع، واستخدم كل شيء حسب رغباته الخاصة ودون مشاورة السادة الآخرين، وبدا بأنه لا يهتم بشيء بالنسبة للباقين، مع أنهم كانوا رجالاً عظماء من منزلة مساوية تماماً لمنزلته. وهكذا، اتخذ أمراء القصر إجراءً فعالاً ضد ألكسيوس بعدما أثارتهم نحوه كراهية شديدة للأسباب المذكورة منذ لحظات، فاستدعوا أندوونيكوس الأكبر وهو أحد أبناء عم الامبراطور المتوفى، استدعوه من بنتوس التي كان يحكمها حتى يساعدهم في خطتهم الشريرة لطرد ألكسيوس الحاجب وكف يده عن التحكم بشؤون المملكة.

وكان أندرونيكوس هذا ابن عم الامبراطور المتوفىٰ ـ رجلاً شريراً وغادراً، وغير مخلص للامبراطورية أبداً ونشيطاً دائماً في بذر بذور المؤامرات، وكان في زمن الامبراطور قد كابد من القيود والسجن بسبب جرائمه الكثيرة. ونظراً لعظمة ما اتسم به لاقىٰ معاملة شائنة فأصبح منفياً وهارباً، طاف في سائر أنحاء الشرق. وارتكب حتى في منفاه أعمالاً مخزية كثيرة تستحق الإدانة الشاملة، إلا أن الامبراطور مانويل كان قد أعاده إلى حظوته من جديد منذ زمن قصير، قبل حوالي الثلاثة أشهر من وفاته. وجرى إرساله إلى بنتوس بذريعة تعيينه في منصب الحاكم، وذلك لمنعه من إثارة المتاعب في المدينة حسب عادته، وإثارة الثورات بأمل الفوز بالمملكة[1].

إذا كان هذا هو الرجل الذي جرى استدعاؤه سراً من قبل الأقرباء المقربين من الامبراطور والحاجب أيضاً، ووضعوا فيه ثقة خاصة، لقد دعوه بوساطة رسلهم ليتسلح ضد الرجل الذي كان قد كبل أبناءه ورجالاً لامعين آخرين بالسلاسل بشكل مخز لأن الحاجب كان قد سجن بعض الرجال المشهورين الذين قبض عليهم في المؤامرة فأثار بذلك عداوة أكثر ضد نفسه كما تم ذكر ذلك.

وهكذا، قدم أندرونيكوس إلى المدينة بعدما استدعي جالباً معه قوات ضخمة من الجنود البرابرة. وخيم علىٰ طول البوسفور، وعلى مشهد تام للمدينة، واستولىٰ على بيثينيا بأكملها، وفر بعض النبلاء الأقوياء الذين أرسلوا ضده لمقاومة محاولاته، والتحقوا به ووقفوا إلى جانبه بشكل خائن. وكان الشخص الأول والأكثر أهمية بين هؤلاء هو أندرونيكوس أنفلوس قائد الجنود الذين أرسلوا ضده وألكسيوس ميغالدوكاس القائد العام للأسطول، وكلاهما من أقرباء الامبراطور، وأضعف فرار هؤلاء الذين خرجوا لحرب أندرونيكوس بهذا الشكل كثيراً قضية شعبنا، كما أضعفتها حقيقة أن نبلاء آخرين كثيرين وأعداد كبيرة

(١) انظر الكتاب ٢٠ ـ الحاشية ٤.

جداً أظهروا ولاءهم أيضاً لأندرونيكوس بشكل علني. وتلهفوا لرؤيته يدخل المدينة وبذلوا كل مساعدة ممكنة لإسراع موعد عبوره.

١٢ ـ أندرونيكوس يقتل النبلاء ويستولي على القصر والمدينة. ويقمع الناس بالعنف الصادر عن حكمه.

استمرت المؤامرة في حيازة القوة، وألقي القبض على الحاجب وسملت عيناه وشوه بشكل مروع؛ ونشر تحول الأمور هذا رعباً بين اللاتينيين، لأنهم خافوا من أن يشن المواطنون هجوماً مفاجئاً عليهم، وكانوا بالفعل قد تلقوا تحذيراً بوجود نوايا من هذا القبيل وذلك من بعض الناس الذين كان عندهم معرفة خاصة بالمؤامرة، ولذلك هرب الذين أمكنهم النجاة من خدع الإغريق والموت الذي كان يهددهم، وركب بعضهم متن أربع وأربعين من الشواني صادف أن كانت راسية في الميناء، ووضع آخرون جميع مقتنياتهم على متن بعض السفن الأخرى الكثيرة التي كانت موجودة هناك.

هذا وترك المسنون والعجزة والذين لم يتمكنوا من الهروب، من بيوتهم فانصب عليهم الغضب المدمر الذي كان الآخرون قد نجوا منه، وأما بالنسبة لأندرونيكوس، الذي أمر بصورة سرية بتجهيز سفنه، فقد قاد قواته بأكملها إلى داخل المدينة، وحالما دخل هؤلاء الجنود الأبواب بمساعدة السكان، اندفعوا نحو ذلك الحي من المدينة الذي كان يشغله اللاتين وقتلوا البقية القليلة الذين كرهوا الفرار من الآخرين أو لم يتمكنوا منه. ومع أن عدداً قليلاً من هؤلاء كان قادراً على القتال، إلا أنهم قاوموا لفترة طويلة من الزمن وجعلوا انتصار العدو انتصاراً دموياً.

ألقى الإغريق القبض على جميع الذين بدا أنهم قادرون على المقاومة، وأشعلوا النار بمنازلهم وحولوا بسرعة الحي بأسره إلى رماد بصرف النظر عن المعاهدات والخدمات الكثيرة التي كان شعبنا قد قدمها للامبراطورية، فهلكت النسوة والأطفال والمسنون والمرضى على حد سواء في ألسنة النيران، ولم يكتفوا بهذا كله لإشباع كراهيتهم الآثمة ليصبوا جام غضبهم على مباني المدينة فقط، بل أشعلوا النار أيضاً بالكنائس والأماكن المقدسة من كل نوع، وأحرقوا مع الصروح المقدسة الذين كانوا قد هربوا إلى هنالك طلباً للملجأ. ولم يميزوا أبداً بين الرجال المدنيين والدينيين سوى أنهم أبدوا عنفاً شديداً تجاه الذين كانوا يرتدون الأثواب الدينية الجليلة أو التي تدل على شغل صاحبها لمنصب رفيع. وكان الرهبان والكهنة الضحايا الخاصة لجنونهم، وقتلوا تحت تعذيب شديد.

وكان بين هؤلاء الرهبان والكهنة رجل مبجل اسمه يوحنا وهو شماس مساعد من

الكنيسة الرومانية المقدسة كان البابا قد أرسله إلى القسطنطينية بأمر يتعلق بالكنيسة، فقبضوا عليه وقطعوا رأسه وشدوه إلى ذنب كلب قذر كإهانة للكنيسة؛ ولم ينج في غمرة تدنيس المقدسات هذه، التي كانت أسوأ من الكفر نفسه، حتى الموتى، الذين حتى الكفر نفسه يوفرهم ويستثنيهم عانوا وأزعجوا وسبب لهم الاضطراب. فقد انتشلت الجثث من القبور وسحبت عبر الشوارع والساحات وكأنما كانت الجثث الهامدة قادرة على الشعور بالإهانات المتعرضة إليها [1].

ثم مضى الغزاة نحو المشفى الذي عرف باسم مشفى القديس يوحنا، وقتلوا هنا جميع المرضى الذين عثروا عليهم، وقام الرهبان والكهنة، الذين يفترض أن يكون واجبهم الورع لنجدة المظلومين، قاموا باستدعاء قطاع الطرق واللصوص لمواصلة المذبحة، مع وعود بالمكافأة، وفتشوا بصحبة هؤلاء الكفرة عن الملاجىء الأكثر انعزالاً وعن الأجنحة الأكثر تغلغلاً في البيوت حتى لا يمكن لأحد مختبىء هناك أن ينجو من الموت، وعندما عثروا على أشخاص كهؤلاء، جروهم بعنف وسلموهم إلى الجلادين الذين حصلوا على الثمن الدموي لقتل هذه الضحايا البائسة حيث كانوا لا يعملون دون أجر.

وتولى، الذين ظهروا بأنهم يبدون مراعاة أكثر نحو شعور الآخرين بيع الهاربين الذين كانوا قد لجأوا إليهم، والذين كانوا قد أعطوهم أملاً بالسلامة، باعوهم إلى عبودية سرمدية بين الأتراك والكفرة الآخرين، ويقال إن أكثر من أربعة آلاف لاتيني من أعمار وأجناس وأوضاع مختلفة سلموا بهذا الشكل لشعوب بربرية مقابل مبلغ من المال.

جازى الشعب الإغريقي الخؤون، سلالة الأفاعي، كالحية في الصدر أو كالفأرة في خزانة الملابس، ضيوفه بشكل شرير وبطريقة كهذه ـ ضيوفهم الذين لم يستحقوا معاملة كهذه، وكانوا لا يتوقعون أبداً شيئاً من هذا القبيل، أولئك الذين كانوا قد زوجوهم من بناتهم وقريباتهم وأخواتهم، والذين كانوا بالعيش الطويل مع بعضهم بعضاً قد أصبحوا أصدقاءهم.

---

(١) يؤكد هذا التشويه للكاردينال الروماني أهمية العنصر الديني في كراهية الاغريق للاتينيين، ولم تكن الأهمية السياسية أو الاقتصادية للاتينيين بل بالأحرى نجاح اللاتينيين في كسب موافقة مانويل على اتحاد ممكن للكنيستين اللاتينية والاغريقية تحت رئاسة رومانية هي التي أعطت الثورة هذه الحدة والتعصب، وجمعت أجزاء جثة الكاردينال فيما بعد ومنحت دفناً لائقاً (انظر إ.جبون «انحدار وسقوط الامبراطورية الرومانية ـ ط.ج.ب.بري: ٣٧٣/٦).

١٣ ـ اللاتين، الذين كانوا قد نجوا في السفن يتولون بطريقة عدوانية تدمير الجزر وأماكن أخرىٰ علىٰ طول الشاطىء.

يقال إن هذا الإعتداء الرهيب الذي لم يسبق له مثيل في كل العصور لم يمض بدون عقاب تماماً، فقد تجمع اللاتين الذين كانوا هربوا في الشواني، كما تم ذكر ذلك، والأعداد الضخمة التي لحقت بهم بعد برهة وجيزة من الزمن في أسطول ذي حجم جيد واحتشدوا في المنطقة المجاورة للقسطنطينية بانتظار نتيجة الأحداث. واستلموا هنا معلومات محددة أفادت أن الذين كانوا قد أثاروا الفتنة الأولىٰ في المدينة قد أحرقوا الحي اللاتيني بأسره، وأن زوجاتهم وأطفالهم وجميع أفراد أسرهم كانوا قد هلكوا إما بالحرائق أو بالسيف، وأثار هذا النبأ سخطاً عارماً واستياءً في قلوب الجميع، وألهبهم برغبة متقدة للثأر لدم أصدقائهم، وهكذا، أبحروا على طول شواطىء البوسفور من مصب البحر الأسود، الذي يقع علىٰ بعد ثلاثين ميلاً عن القسطنطينية وإلى مدخل البحر المتوسط، وهي مسافة يبلغ طولها مائتي ميل، واستولوا بالقوة على جميع المدن والقلاع الواقعة على طول الشاطئين، وقتلوا جميع السكان، وشقوا طريقهم أيضاً إلى داخل جميع الأديرة الواقعة على الشاطئين معاً وعلى الجزر الصغيرة المبعثرة في كل مكان من ذلك البحر، وقتلوا هنا انتقاماً لدم إخوانهم جميع الرهبان المزيفين والكهنة المدنسين وأحرقوا الأديرة مع اللاجئين الذين كانوا قد هربوا إلى هناك، ويقال إنهم قد نقلوا من هذه الأماكن مقداراً ضخماً من الذهب والفضة مع الجواهر والأنسجة الحريرية بمقادير كبيرة، وعوضوا بتلك الأشياء، عن خسارة ممتلكاتهم وعن تخريب سلعهم أضعافاً مضاعفة، فبالإضافة إلى الثروة الضخمة للأديرة والكنوز التي لا تحصىٰ التي كانت قد جمعت هناك لفترة طويلة من الزمن، كان سكان القسطنطينية قد أودعوا في هذه الأماكن المقدسة، من أجل الحماية، مقادير ضخمة من الذهب والكنوز الأخرىٰ.

ثم غادر اللاتين مضائق ذلك البحر، وهم محملون بهذه المغانم، وأبحروا إلىٰ البحر المتوسط بين المدينتين المحصنتين الساحليتين القديمتين. سستوس وأبيدوس.

وقاموا لدى إبحارهم على طول شواطىء تساليا بالبحث بدقة فائقة في جميع المدن والبلدان في المناطق القريبة من البحر، ووضعوا كل شيء للنهب والحرق. وقتلوا أعداداً لا تحصى من الناس، ويقال إنهم عثروا علىٰ عشرة شواني بالقرب من غريسو بولس Chryso polis وهي مدينة في مقدونية، وعلى أعداد كبرى أخرى في أماكن مختلفة، وشكلوا بهذه السفن أسطولاً ضخماً للغاية ثبت بأنه آلة دمار للاغريق كانت مرعبة جداً.

هذا وامتنع بعض اللاتين عن متابعة أعمال القتل والسلب هذه[1]، وركبت هذه المجموعة متن بعض السفن الكثيرة الراسية في الميناء، وتركوا الجيش ومعهم زوجاتهم وأطفالهم وكل ما بقي من ممتلكاتهم، وأتوا إلينا في سورية.

استولى اندرونيكوس في هذه الأثناء على المدينة، حسب رغباته، وحيث لم يكن هنالك أحد ليعارض، فقد توج الامبراطور بشكل مهيب في اليوم المقدس لعيد الخمسين مع زوجته المقدرة له، ابنة ملك فرنسا وأظهر له كل التبجيل، وعامل بلطف أيضاً والدة الامبراطور مع أخته وزوجها اللذين كانا ما يزالان داخل فناء القصر. ووجه أندرونيكوس شخصياً جميع أمور الامبراطورية، في المدينة وفي الخارج على حد سواء ورتب كل شيء حسب مشيئته الخاصة.

ولكن يخشى من أنه قام بإبداء مظهر الاحترام هذا نحو هؤلاء الأشخاص ليخفي هدفه الغدار حتى يتمكن من احتلال العرش لفترة من الزمن، ويكون قد أخضع بالتدريج كل شيء لسلطته الخاصة، حيث يستطيع عندها أن يظهر علانية مقاصده الحقيقية نحوهم[2].

حدث هذا في شهر نيسان في عام ١١٨٢ لتجسيد ربنا.

١٤ ـ صلاح الدين يلغي المعاهدة التي كان قد عقدها مع الملك. الملك يخرج إلى ما وراء الأردن للتصدي له. الأتراك يهاجمون قرية دبورية. وينقلون الناس معهم إلى الأسر.

وفي الوقت الذي كانت بلاد الاغريق تشهد فيه هذه التحولات، تحطمت سفينة كان على متنها ألف وخمسمائة حاج، في دمياط في المملكة المصرية بعدما دفعتها رياح معاكسة إلى الشاطىء. بيد أن هؤلاء الحجاج شعروا بثقة في أنه سيتم إنقاذهم، حيث كان معروفاً أن صلاح الدين كان قد عقد هدنة وسلاماً مؤقتاً مع المسيحيين في البر والبحر.

إلا أن المصير الذي آلوا إليه كان مختلفاً تماماً عما أوجبه قانون المعاهدات، لأن

---

(١) لقد أهمل أثر هذه المجازر على دول المدن التجارية الإيطالية وخاصة على البندقية، التي كابدت الأسوأ، وكانت الحملة الرابعة قد مثلت مراراً بأنه مشروع أعمال صرف لسكان البندقية، ولم يوافق على هذا الرأي الأبناء والبنات والأقارب البعيدون لسكان البندقية الذين فقدوا أرواحهم في مجزرة عام ١١٨٢ هذه. ومن المفيد أن نعرف أن بعض اللاتين لم يوافقوا على قساوة الانتقام حتى وإن كان للأخذ بالثأر. هذا ومن المؤكد أن وليم قد حصل على معلوماته من هؤلاء اللاجئين.

(٢) تخلص منهم قبل نهاية عام ١١٨٢، بعدما خنق في بادىء الأمر ماريا الأنطاكية وبعدما خنق ابنها ألكسيوس بشكل مشابه في العام نفسه، وتزوج في هذا الوقت أيضاً وبشكل رسمي من الامبراطورة الفرنسية الشابة أغنس التي كانت آنذاك في حوالي الثانية عشر من عمرها (فازلييف ـ تاريخ الامبراطورية البيزنطية: ٧٦/٢).

صلاح الدين، الذي كانت رغبته في الفوز بالمغانم قد سيطرت عليه، كان معارضاً في السماح لعدد كبير جداً من المسيحيين مثل هذا بالرحيل بحرية من بلاده حسبما كانت شروط الإتفاقية تلزمه، وهكذا ألقى بهم جميعاً في السجن وأمر بمصادرة ممتلكاتهم لاستخدامه الخاص، ثم أرسل رسولاً إلى الملك، وقدم إليه بتحد مباشر لشروط المعاهدة مطالب استحالت عملياً تلبيتها. وأضاف كإنذار بأنه إذا لم يستجب لهذه المطالب تمشياً مع رغباته، فلسوف يحتفظ بالسفينة المذكورة آنفاً كتعويض لنفسه، وعلاوة على ذلك، سيلغي الاتفاقية التي كانت قد عقدت بينهما[1].

لم يتمكن الرسول من الحصول علىٰ الاستجابة لمطالب صلاح الدين، لأنه حاول أن يخترع مسوغات سافرة يمكن بذريعتها الاحتفاظ بالسفينة بدلاً من تقديم أسباب شكاية عادلة، ولذلك ألغى صلاح الدين المعاهدة علىٰ الفور، وبدأ يخطط للطريقة التي يمكنه أن ينهك بها المملكة بطريقته المألوفة، فاسحاً المجال لعدائه الذي أبقاه في ذهنه منذ زمن طويل، فجمع قوات تألفت من كل من الفرسان والمشاة، وزاد من حجم جيشه بأعداد كبيرة من الرجال كانوا في سنوات سابقة قد غادروا دمشق والمناطق المجاورة وكانوا قد ذهبوا إلى مصر لتجنب وطأة المجاعة، وصمم أن يعود بهذه القوات إلى دمشق حيث بإمكانه أن يسبب متاعب كثيرة لأن ذلك يتم من قاعدة قريبة.

وعقد العزم أيضاً وهو زاحف إلى دمشق أن يلحق الأذى بالقدر الممكن بمواقع ممتلكاتنا الواقعة فيما وراء الأردن، وكانت المحاصيل هنا جاهزة للحصاد، وبإمكانه أن يلحق الكثير من الضرر بالمسيحيين بإحراق هذه المحاصيل أو بالاستيلاء على قلعة أو أكثر من قلاعنا في ذلك الموقع.

ويقال إن الهدف الخاص في التصرف علىٰ هذا النحو كانت الرغبة بالانتقام من الأمير أرناط حاكم تلك المنطقة، لأن هذا الأمير كان كما روي قد اعتقل بعض العرب خلال فترة الهدنة خلافاً للاتفاقية، ورفض إطلاق سراحهم عندما طلب منه.

علم الملك عن طريق كشافته بتقدم صلاح الدين وبخططه أيضاً، فعقد على الفور مجلساً عاماً في القدس، حيث درست شروط الأمير التركي(*). بدقة، ثم، وتنفيذاً لنصيحة بعض

---

(١) تقاعس وليم في ذكر الاتهام الذي قدمه الكتاب المسلمون ضد أرناط على أنه أول من خرق المدنة، وقد ذكر هذا فيما بعد في آخر هذا الفصل، وقد اتهم كل فريق بخرق الهدنة (انظر ستيفنسون: ٢٢٤ - ٢٢٥).

(*) كان صلاح الدين كردي الأصل.

مستشاريه، قاد جميع قواته عبر وادي موسى حيث يوجد البحر الميت، ووصل إلى الموضع الذي اقترح أن يقابل فيه صلاح الدين في زحفه ومنعه من تخريب تلك المنطقة.

كان زحف صلاح الدين عبر الصحراء قد تم في ظل صعوبات كثيرة واستغرق حوالي العشرين يوماً، وكان مقيماً الآن مع قواته في منطقة مأهولة بالسكان من أراضينا وعلى بعد مسافة قدرها عشرة أميال تقريباً من معقل الكرك المسيحي. وكان ينتظر هنا بغية تسلم معلومات محددة حول وضع الموقع وحول أماكن وجود الملك وجيشه.

كان بلدوين قد وضع معسكره بالقرب من مدينة قديمة تدعى بتراء الصحراء في العربية الثانية، على بعد نحو ستة وثلاثين ميلاً من معسكر صلاح الدين، وكان معه قوة الجيش بأسرها. وبقي كونت طرابلس مع القوات أيضاً، مع أن ذلك كان متعارضاً بشدة مع إرادته، لأن الملك كان قد زحف إلى هناك خلافاً لما أشار به وترك بالتالي الأجزاء الأخرى من مملكته بدون حماية ومجردة تماماً من الجنود. وكان بعض النبلاء قد أثروا على الملك ليتبع هذا المنحى، بدافع رعاية الأمير أرناط والدفاع عن مصالحه وليس في سبيل المصلحة العامة، وبدون إعطاء اهتمام مناسب لما يمكن حدوثه في المملكة المتروكة بدون مدافعين.

وأظهرت الأحداث اللاحقة على الفور كم كان هذا العمل بعيداً عن الحكمة، لأن الحكام في المنطقة المجاورة لدمشق وبصرى وبعلبك وحمص جمعوا قواتهم بصمت وسرية بعدما أدركوا أن نخبة المملكة كانت متغيبة وأن المنطقة بأسرها كانت خالية من الجنود. وعبروا الأردن بالقرب من بحيرة طبرية أي بالقرب من مدينة طبرية، ودخلوا منطقتنا خلسة، وبعدما اجتاحوا جزءاً من الجليل، وصلوا إلى موقع عند سفح جبل الطور يدعى دبورية بالقرب من مدينة نين Nain القديمة، ولم يكن سكان تلك المناطق عارفين حتى الآن أنه تم إلغاء المعاهدة، ولهذا لم يتخذوا إجراءات لحماية أنفسهم اعتماداً منهم بشكل تام على المعاهدة، ونتيجة لذلك انقض العدو عليهم خلسة في الليل وطوق الموقع تماماً بحيث لا يمكن للمحاصرين النجاة إلى الجبال التي ارتفعت فوقهم.

رأى السكان عندما بزغ ضوء النهار أنهم كانوا مطوقين من جميع الجهات من قبل العدو، فانسحبوا بسرعة إلى برج فوق القرية، فطوق الأتراك على الفور هذا البرج وبذلوا جهوداً جبارة لتدميره، فنجحوا في غضون أربع ساعات وأنهار البرج إلى الأرض، غير أن اللاجئين الذين كانوا قد هربوا إليه طلباً للحماية استسلموا قبل النكبة الأخيرة، عندما بدأت الصدوع بالظهور، وبات انهياره وشيكاً.

جمع الكفرة عند ذلك جميع المغانم من دبورية وأماكن أخرى مجاورة، وأخذوا معهم،

بدون مقاومة، نحو خمسمائة نفس كأسرى، وتركوا في الميدان العديد من القتلى الذين كانوا قد سقطوا أثناء القتال، وبما أن الموقع كان خصباً جداً وكان موعد الحصاد وشيكاً، فقد كانت أعداد كبيرة من الناس قد قدمت إلى هناك من أماكن مجاورة للمساعدة في جني المحصول، وقام العدو بنقل جميع هؤلاء، كما قلنا، بدون مقاومة، ثم عبر الأتراك الأردن من جديد وعادوا إلى موطنهم سالمين معافين.

١٥ ـ صلاح الدين يستولي بالقوة أيضاً على واحد من معاقلنا وهو كهف محصن بشكل جيد في أراضي السواد.

حدثت في هذا الوقت والملك والجيش المسيحي ما يزالان منشغلين في وادي عربة كارثة شديدة جداً عرضتنا لمخاطر جديدة سوف يأسف عليها شعبنا دائماً، كان المسيحيون يمتلكون موقعاً محصناً بشكل قوي جداً في منطقة السواد فيما وراء الأردن وعلى بعد ستة عشر ميلاً من طبرية، وكان يعتقد بأنه لا يرام، وكان له نفع كبير لشعبنا، وكانت هذه المنطقة تقع على مسافة أقرب إلى ممتلكات العدو أكثر من قربها لمملكتنا، وبإمكانهم بالنتيجة أن يفرضوا إراداتهم عليها والهيمنة على السكان كما يشاؤون، ومع ذلك، وبسبب الحماية التي قدمتها هذه القلعة، فإن عادة اقتسام السلطة بشكل متماثل بين المسيحيين والكفرة قد سادت لسنوات كثيرة، وكانت ما تزال تطبق في هذا الوقت، كما قسمت الضرائب والجزية بشكل متماثل بينهما أيضاً [١].

كانت القلعة التي أشير إليها منذ لحظات تقع في كهف على منحدر أحد الجبال وتحت جرف معلق ضخم، ولم يكن هناك أي طريق من أي نوع على الجانب العلوي، بينما لم يكن على الجانب الآخر سوى ممر ضيق للمشاة يتمكن بوساطته المرء أن يجد طريقه بصعوبة إذا كان خالياً من كل المعيقات، وكانت العناية بهذا الموقع قد أوكلت إلى فولك صاحب طبرية، وكان نبيلاً متيقظاً ومخلصاً ويمتلك ثروات كبيرة.

كان قادة القوات التركية قد استولوا على دبورية وجعلوا شعبنا أسرى هناك، كما تم ذكر ذلك آنفاً وظهروا الآن فجأة أمام هذا الموقع، وكانوا قد استولوا عليه بهجوم عاصف خلال بضعة أيام.

هنالك اختلاف بالرأي حول الإستيلاء على هذه القلعة، ويقول بعضهم إن الحامية التي كانت في القلعة قد سلمتها لقاء مبلغ من المال، ويؤكد آخرون أن جنود العدو كانوا قد

---

(١) طمست مقدرة الصليبيين اللاتينيين وجيرانهم العرب على العيش بأمان مع بعضهم بعضاً في ثنايا روايات أخبار الحرب. ومع ذلك، فهنا مثال واضح لتعاون كهذا الذي كان مستمراً منذ سنوات.

شقوا طريقهم إلى داخل الكهف من طرفه بنسفه، وهو عمل أمكن إنجازه بسهولة حيث كانت الصخرة ذات طبيعة حصينة، وتسللوا إلى الطابق الأول واستولوا عليه ثم أجبروا بعد هذا الإستيلاء على استسلام الموجودين في الطوابق الوسطى والعلوية (لأن المكان كان يتألف - كما قيل - من ثلاثة طوابق).

هذا وتم التأكد في وقت لاحق أن العدو امتلك الكهف بوساطة خيانة الضباط المسؤولين، فعلى الرغم من أن البقية رغبت في متابعة المقاومة، غير أن أولئك المسؤولين حظروا إجراء أي دفاع، وتخلوا أنفسهم عن القلعة بعد الإستسلام والإلتحاق بالعدو.

ويقال إن القادة المسؤولين كانوا من السريان، وهو شعب نعتبره ضعيفاً ومخنثاً[١]. ولذلك وجه اللوم الأكبر إلى فولك صاحب طبرية الذي كان مسؤولاً عن تعيين رجال من هذه المنزلة مسؤولين عن موقع هام جداً كهذا، كانت هذه من الأقاويل التي انتشرت في كل مكان عبر المملكة حتى وصلت في آخر الأمر إلى مسامع المسيحيين الموجودين وراء الأردن والذين كانوا يحاولون منع صلاح الدين من العبور إلى سورية في طريقه من مصر إلى دمشق.

غمر هذا النبأ قلوب الجميع بالرعب. وكان هذا صحيحاً بشكل خاص بالنسبة لكونت طرابلس، الذي اعتمدت عليه مسؤولية هذه القلعة ورعايتها.

وهكذا حدث أن الذين كانوا قد غادروا المملكة بإهمال وكانوا يتصرفون بطيش أيضاً في هذا الموقع، لم يتمكنوا من إنجاز أي شيء مقبول للرب أو مفيد للمملكة، وكان ينبغي عليهم أن يقابلوا صلاح الدين عند حدود مملكتنا ويحولوا دون دخوله إلى المنطقة، إلا أنهم سمحوا له بطيش كاف بأن يتقدم وصولاً إلى الموقع المسمى القريتين حيث وجد وفرة كبيرة من الماء الذي طلبه جيشه الظامىء بشكل شديد للغاية، وأرسل من القريتين قسماً من قواته إلى المنطقة المجاورة لقلعتنا المعروفة باسم الكرك حيث قطعوا الكروم وألحقوا خسائر أخرى بالناس القاطنين هناك، ولو كان المسيحيون قد أسرعوا إلى ذلك الموقع لأجبر العدو حتماً على التقهقر إلى مصر، لأنه كان يقود حشداً ضخماً من الناس غير المقاتلين، والذين كانوا قد اكتشفوا أن الماء في قربهم والخبز الموجود في صناديقهم آخذ بالنفاد وكان ينبغي أن يهلك جميع هذا الحشد من المجاعة في الصحراء، حيث كان التقدم مستحيلاً، والإشتباك مع قواتنا سيرافقه خطر عظيم[٢].

---

(١) القصد من هذا النص اثبات أن وليم لم يكن سورياً مع أنه ولد في فلسطين.

(٢) لم يشعر وليم أنه يملك ما يكفي من المعلومات أو الاهتمامات بالأمور العسكرية حتى يتولى نقد الاستراتيجيات والتطبيقات.

عندما علم المسيحيون أن السلطان كان قد وصل إلى الموقع المذكور منذ لحظات قرروا ثانية أن يهاجموه في هذه المرة عند الماء المعروف باسم راس الرشيدRasel - Rassit [عقبة شتار؟] ولو تم تنفيذ هذه الخطة لأجبر صلاح الدين على محاولة الزحف خلال الصحراء البعيدة، وهو عمل كان يتعذر إنجازه دون حدوث خسارة ضخمة من الرجال وحيوانات التحميل.

إلا أنه وصل إلى المياه دون صعوبة لأنهم أهملوا تنفيذ هذا، ثم دخل بلاده دون معارضة ووصل بسلامة تامة إلى دمشق.

عاد المسيحيون أيضاً لدى معرفتهم بمغادرته، إلى بلادهم وعلى الطريق ذاته الذي كانوا قد أتوا عبره. وكان يتوجب اتخاذ الحيطة خشية أن يستنبط صلاح الدين من دمشق، إلى حيث كان قد رحل مع جميع أتباعه، بعض الدواهي التي يمكن أن تلحق المخاطر بالمملكة، ولهذا صدر الأمر إلى جميع سكان المنطقة بالإجتماع عند نبع الصفورية الواقع بين الصفورية والناصرة، وحضر معهم الملك والبطريرك وجميع الأمراء المدنيين والكنسيين مع صليب الصلبوت وانتظروا من يوم لآخر اقتراب العدو.

١٦ ـ صلاح الدين يغزو أراضينا بقوة مسلحة. نشوب معركة قرب قلعة كفربلا بدون نتيجة حاسمة.

كان صلاح الدين قد جمع خلال هذا الوقت قوات من سائر أنحاء ممتلكاته ليعزز الجيش الذي كان قد جلبه معه من مصر، وتقدم الآن، وهو مصمم على غزو بلادنا، إلى الموقع الذي يدعى بلغتهم باسم رأس الماء. ويقال إنه يقع على مسافة قصيرة فقط من ديارنا وعلى مسافة قريبة من مدينة طبرية، ودخل صلاح الدين منطقتنا فجأة بعد بقاء لبضعة أيام في رأس الماء، وعسكر بين نهرين في موقف يعرف باسم الفوار وهو يقع على بعد نحو أربعة أميال عن طبرية.

ونقل الكشافة على الفور هذه الحقيقة إلى قادتنا، فتقرر شن هجوم فوري، وأرسلت القوات بسرعة إلى طبرية لتتحد مع الفرقة التي كانت قد أرسلت إلى هناك لتقوم بحماية المدينة والأماكن المحصنة في المنطقة المجاورة، أي: صفد وكوكب.

حدث أن كان كونت طرابلس ـ وهو رجل متمكن وشجاع وله خبرة واسعة في الحرب ـ في هذا الوقت مستلقياً وهو مريض بشكل خطير لتعرضه لنوبة حمى إقليمية مضاعفة [كذا] وقد أضاف هذا الكثير لمتاعب المسيحيين، لأنه حرمهم في وقت خطير من مساعدة هذا الحاكم العظيم الذي اعتمدوا اعتماداً كبيراً على مشورته وحكمته.

ومع ذلك، فقد استدعوا قوات إضافية من المواقع المجاورة وانطلقوا نحو العدو برايات مرفوعة. لكن ما أن علم صلاح الدين بأنهم كانوا يتقدمون، حتى عبر الأردن بجيوشه وانسحب إلى الأماكن المحيطة بسقيثوبولس.

تقع سقيثوبولس التي كانت فيما مضى حاضرة فلسطين الثالثة والمعروفة أيضاً باسم بيسان، في سهل وسط حقوله مروية بشكل جيد بين جبال الجلعاد ونهر الأردن. إلا أن الإمتيازات التي نعمت بها من قبل قد تم نقلها الآن إلى الكنيسة في الناصرة في الأبرشية ذاتها، لأنه لا يوجد سوى عدد قليل جداً من السكان في بيسان وأصبحت مجرد بلدة صغيرة.

زحفت كتائب العدو إلى هناك، وشنت على الفور هجوماً عنيفاً على حصن صغير واقع في منطقة مستنقعية، إلا أن سكان المدينة أبدوا مقاومة عنيفة واكتشف الأتراك أنه لم تكن لديهم أية إمكانية للنجاح، ولذلك، وحتى يزحفوا ضد المسيحيين، وجهوا صفوفهم نحو قلعة جديدة، تسمى الآن باسم كوكب وهي واقعة في الهضاب الواقعة بين. بيسان وطبرية.

سلك المسيحيون طريق الأردن حتى وصلوا إلى الموقع المذكور منذ لحظات عندما تركوا الوادي وصعدوا إلى الجبال، فأنهكوا كثيراً بسبب الحرارة الشديدة التي أصبحت لا تحتمل تقريباً أثناء تقدمهم. وأمضوا الليل بحالة يقظة مستمرة، لأنهم توجسوا أن يكون العدو في المنطقة المجاورة، وعندما أتى الصباح عادوا إلى السهل الذي يقع بين القلعة المذكورة منذ لحظات وقرية تدعى كفربلا وهنا شاهدوا قوات صلاح الدين منتشرة في كل الأماكن المجاورة بأعداد تفوق كثيراً ما كانوا قد جربوه من قبل، وبالفعل، فقد أعلن الأمراء الأكبر سناً في المملكة بأنهم لم يشاهدوا في أية مرة منذ أن دخل اللاتين سورية لأول مرة عدداً ضخماً من الأعداء كهذا، لقد كان عدد الفرسان المجهزين للحرب نحو عشرين ألف فارس، بينما قدر عدد فرساننا بنحو سبعمائة فارس ليس أكثر، وكان لدى صلاح الدين ونبلائه تصميم وهدف مشترك واحد، وهو تطويق جيشنا بالكامل حتى لا يتمكن أحد من النجاة، لأنهم احتقروا قوتنا الصغيرة، معتمدين على أعدادهم الضخمة، التي ذكرتها للتو وكانوا واثقين أن المسيحيين لن يتمكنوا من مقاومتهم.

إلا أن الأمر بدا للرب مختلفاً جداً، لأنه هو الذي يقهر بسهولة حشداً ضخماً بعدد قليل من الناس فمع أن أعدادنا بدت بأنها لا شيء بالمقارنة مع جيش العدو، إلا أن المسيحيين نظموا صفوفهم حسب أسس العلم العسكري، تؤيدهم في ذلك رحمة الرب،

وتقدموا نحو العدو بشجاعتهم المألوفة، وقاوموا بثبات الهجمات الموجهة ضدهم وعلى الرغم من أن العديد من المسيحيين ـ الذين نمتنع عن ذكر أسمائهم ـ هربوا بشكل مخز من وطيس المعركة جالبين على أنفسهم خزياً سرمدياً، فقد أثبتنا تفوقنا في تلك المعركة على أعدائنا، وأبدى كل من بلدوين صاحب الرملة وأخوه بالين شجاعة عظيمة في ذلك اليوم، وحاربا بقوة وإقدام، كما أن هيو الأصغر، ربيب كونت طرابلس، الذي كان مع الفرقة القادمة من طرابلس، يستحق أن تحفظ ذكراه في البركة، فمع أنه كان أصغر من الآخرين فإنه ناضل ببسالة تفوق سنه كثيراً، وهزم مع الجند الذين كانوا تحت قيادته ثلاث مجموعات من الأتراك وجعلها تلوذ بالفرار، ثم عاد بفضل الرب سلياً إلى أصدقائه.

لم يقتل في تلك المعركة سوى عدد قليل من فرساننا، وهم على وشك الدخول في جماعة القديسيين في عليين، لكن هلكت أعداد كبيرة من الناس، وكانت خسائر العدو تفوق خسائرنا كثيراً، وسقط بعض قادتهم الرئيسين، وهي مصيبة دفعت الكفرة إلى الفرار من ميدان المعركة مذعورين.

ويجب عدم التغاضي والسكوت عن ذكر حقيقة أن الحرارة خلال تلك الأيام كانت أعلى بكثير من المعتاد إلى درجة أن العديد من الجيشين هلكوا نتيجة إصابتهم بضربة شمس وكانوا بقدر من هلك قتلاً بالسيوف.

لم نستطع أن نعلم أي شيء ثابت بخصوص عدد القتلى في صفوف العدو، لأنهم نقلوا جثث الذين كانوا قد قتلوا في المعركة ليخفوا خسائرهم عنا، ودفنوهم خلسة في الليلة القادمة في معسكرهم، خشية أن يقوم الدليل على مقتلهم بالهاب شعبنا بشجاعة إضافية، إلا أننا تأكدنا أنه نتيجة للسببين المذكورين أعلاه هلك حوالي ألف منهم.

انسحب صلاح الدين وهو محبط لأن الأمور لم تسر حسبما كان يرجو، ولأن المسيحيين كانوا قد أثبتوا بأنهم أقوى مما توقع، وعبر الأردن من جديد وعاد إلى موطنه مخيماً لمرة ثانية في الموقع الذي كان قد انطلق منه.

واستدعى المسيحيون قواتهم أيضاً وعادوا إلى نبع الصفورية الذي كان نقطة البدء لهم، وأنهكت الحرارة الشديدة في هذا الزحف بلدوين، وهو أحد شماسة قبر المسيح وخازن لتلك الكنيسة حيث كان يحمل صليب الصلبوت فوضع في محفة ونقل إلى سفح جبل الطور إلى مقربة من وادي كوسين حيث لفظ أنفاسه الأخيرة.

وهلك أيضاً راهب آخر هو غودفري أوف فلنيوف وهو شماس من الكنيسة ذاتها كان قد أرسل في تلك الحملة كمساعد لبلدوين هذا، وبما أن اهتماماته الدنيوية حملته بعيداً

فقد أصيب بسهم أدى إلى هلاكه، ومن العدل بالفعل حسب قول الرب أن « كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون »[1].

١٧ ـ صلاح الدين يستدعي أسطولاً من مصر ويحاصر مدينة بيروت.

عاد الملك الآن مع قواته إلى الموقع المذكور آنفاً، وجمع صلاح الدين الآن قواته للمرة الثانية، وهو غاضب غاية الغضب من أن حملته أثبتت بأنها عقيمة جداً، وراجع في ذهنه من جديد أساليبه وخططه كافة، وتداول بقلق من مستشاريه حول أفضل الطرق لتجديد الإجراءات العدوانية ضد المسيحيين، ووصل إلى محصلة خلاصتها: إن أكثر السبل نجاعة في إلحاق الضرر بنا هي مهاجمة شعبنا في عدة مواقع مختلفة في وقت واحد معاً، وبناء عليه أرسل تعليمات دقيقة إلى أخيه، الذي كان قد تركه مسؤولاً عن أموره في مصر، بجمع أسطول من الإسكندرية ومن مصر وإرساله إلى سورية بالسرعة الممكنة، وأوضح أنه عقد العزم، فور وصول هذا الاسطول على محاصرة بيروت براً وبحراً، ولكي يمنع الملك وشعبه من الإسراع لنجدتها فقد أمر أخاه أن يجمع قوات الفرسان التي كانت قد تركت في مصر. وتوجب عليه أن يدخل مع هؤلاء الجنود بلادنا من الجنوب فيدمر سائر المنطقة الواقعة حول غزة وعسقلان والداروم، التي تعتبر المدن الأخيرة التي تخص المملكة على هذا الجانب المحاذي لأرض مصر.

وكانت غاية صلاح الدين من إعطاء هذه الأوامر، هو أنه عندما يكون قسم واحد من القوات المسيحية منشغلاً في مقاومة الغزاة من مصر يكون قد تم بوساطته تقليص قوة الجيش وأعداده، وبذلك يتمكن هو نفسه من أن يكون حـراً في مهاجمة المدينة المحاصرة بضراوة أكبر.

ونفذت خططه حسب الأوامر التي كان قد أعطاها، ووصل في غضون بضعة أيام أسطول مؤلف من ثلاثين سفينة منقارية الشكل حسبما كان قد أمر وقاد أخوه إلى المنطقة المجاورة للداروم القوات التي كان قد جمعها من سائر أنحاء مصر. وحتى يكون كل شيء جاهزاً عندما يصل الأسطول، قاد صلاح الدين بنفسه قوة إلى الموقع المعروف عموماً باسم وادي البقاع. ووضع الكشافة على الهضاب التي تشرف على البحر بين المنطقة المذكورة منذ لحظات وسهل بيروت ليخطروه عند رؤيتهم للأسطول، وجمع خلال هذه الفترة قوات

---

(١) متى: ٥٢/٢٦ ويعكس هذا المقطع آراء وليم الخاصة حول العلاقة الصحيحة بين رجال الكنيسة والمحاربين. وحدثت هذه الأحداث في شهر تموز من عام ١١٨٢. (ستيفنسون: ٢٢٨ ـ ٢٢).

إضافية من المشاة من المنطقة المجاورة ولم تحظ بعناية كبيرة جميع الإستعدادات التي أعتقد بأنها ستكون ضرورية لعملية الحصار الناجحة.

ووصل الأسطول في الأول من شهر آب بالضبط وكان قبالة الساحل بالقرب من بيروت، وقدم الكشافة المعدّون خصيصاً لهذا الغرض، إشعاراً فورياً بهذا الوصول، وعبر صلاح الدين على الفور الجبال الفاصلة بين موقعه وبيروت وقاد قواته ونزل إلى السهل، وحاصر هنا مدينة بيروت بشكل تام حسب الخطة التي رتبها قبل زمن طويل.

بدأت الآن شائعات متضاربة بخصوص نوايا صلاح الدين تصل إلى قواتنا التي كانت معسكرة في الصفورية، فقد قال بعضها إنه اعتزم أن يحاصر مدينة بيروت والأمر ثبت في النهاية أنه كان صحيحاً، واعتقد آخرون أن فكرته الكلية كانت الفوز بحلب، بينما أكدت فئة ثالثة أيضاً أن غرضه هو الإشتباك مع حاكم الموصل، الذي كان حاكماً تركياً قوياً وعظيماً، والذي أشيع أنه كان يحاصر بعض مدن صلاح الدين في أحواز الفرات.

وبينما كانت جميع هذه الشائعات المتقطعة تنتشر في المعسكر، انتهت الشكوك بأسرها بوصول رسول أعلن أن مدينة بيروت كانت بالتأكيد القاطع في حالة حصار، وقدم في الوقت نفسه رسول آخر من الجنوب بمعلومات وثيقة كان مفادها أن أخا صلاح الدين قد اجتاح بقوة ضخمة منطقتنا في المنطقة المجاورة للداروم، وأن ستة وثلاثين من الفرسان المسلحين تسليحاً خفيفاً ممن يسمون باسم التوركبلي قد قتلوا، وأحرقت بعض القرى النائية.

قرر الملك بعد تلقي هذا النبأ وبعد التداول مع نبلائه أن يهاجم الموقع الأشد خطراً في أول الأمر، بتحرير المدينة المحاصرة في الخطر الذي واجهته، لأنه لم ير قواته بأنها قوية بما فيه الكفاية لطرد العدوين من أرضه في الوقت نفسه.

١٨ ـ الملك يصل إلى صور في طريقه لنجدة بيروت. صلاح الدين يرفع الحصار.

وبناء عليه استدعى الملك قواته، وتقدم على رأس الجيش بأكمله نحو مدينة صور حيث أمر بتجهيز الأسطول الذي كان راسياً في موانىء عكا وصور. وتشكل في غضون سبعة أيام، بشكل أسرع مما هو متوقع، أسطول مؤلف من ثلاث وثلاثين سفينة، مسلحة بشكل جيد ومزودة برجال شجعان، وكان متأهباً للعمل.

بينما كان المسيحيون يجرون هذه الإستعدادات بعناية وحماسة، كما تم سرد ذلك، كان صلاح الدين يحاصر مدينة بيروت وكان جيشاه يجهدان أنفسهما إلى الحد الأقصى ليلحقا بالسكان جميع المتاعب الممكنة، واستخدمت الفيالق المنتشرة حول المدينة، بنوب متتابعة

وواصلت لمدة ثلاثة أيام ضغطاً مستمراً بحيث لم تعط أية فترة راحة للمحاصرين من أجل النوم أو تناول الغذاء الضروري.

لم يكن صلاح الدين قد جلب معه آلات القذف الحربية ولا أي نوع آخر من الآلات الحربية المستخدمة عادة في محاصرة القلاع، ولربما اعتقد أنه سيتمكن من الإستيلاء على المدينة بهجوم مفاجيء بدون مساعدة أدوات كهذه، أو ربما انتقص من قيمة إضاعة جهد كهذا دون توقع لأية نتائج مجدية لأنه كان يتوقع وصول الجيش المسيحي من لحظة لأخرى، إلا أنه أنجز بجهوده الحماسية والحذرة كل ما كان ممكناً دون مساعدة الآلات الحربية، لأنه كان قد وضع جيشه الضخم في صفوف متتالية حول المدينة، كما كان تم شرح ذلك، وأنجدت هذه الفرق بعضها بعضاً بالتناوب وأطلقت وابلاً غزيراً من السهام على المدافعين الذين كانوا يقاتلون على الأسوار وفي الأبراج لدرجة أن المدينة والتحصينات تغطت بالسهام مثلما يغطّيها البرد.

لكن لم تكن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي حاولت بها قوات صلاح الدين منع السكان من الدفاع عن المدينة، فقد استقدمت بالقوة أيضاً لغامين جلبوا للغرض الخاص لنسف السور، وكان يؤمل بهذه الوسيلة فتح ثغرات بتدمير الحواجز الأمامية والأسوار بحيث يمكن إدخال مجموعات من الجنود المسلحين فيها على الرغم من جهود المحاصرين، واستمر باقي الجند بصب وابل من القذائف بشكل غير منقطع من أقواسهم والعرادات التي كانت معهم حتى يتمكن اللغامون من الإنكباب على عملهم بدون عائق، ونفذ هذا بمواظبة بالغة إلى درجة أن السكان الموجودين داخل الأسوار كانوا في خطر موت وشيك ونادراً ما تجرأوا على رفع إصبع من أصابعهم.

استجاب المدافعون بنبل لأوامر الحاكم وتحريضاته مع أنهم كانوا قليلين جداً في عددهم، واستجابوا للأسقف بشكل خاص، وكانت البسالة والثبات العظيمان اللذان أظهرهما الأسقف في هذا الظرف الطارىء جديرين بالثناء الرفيع، وقابل المسيحيون جميع أساليب العدو بإجراءات مضادة وجربوا جميع سبل المقاومة الممكنة، وقذفت الرماح والسهام على رماة السهام المتمركزين خارج الأسوار بخبرة وحماسة مماثلتين لخبرة وحماسة المهاجمين، مما أدى إلى إلحاق خسائر كبيرة بالأتراك وقتل مرة تلو الأخرى الذين كانوا الأكثر شجاعة في التقدم إلى الهجوم.

وقوبل اللغامون، الذين كانوا يناضلون لنسف الأسوار، بمهارة مماثلة لمهارتهم لدرجة أن الكثير من الذين كانوا منشغلين بحماسة في ذلك العمل قتلوا أو فقدوا آلات حفرهم.

لم تكن القوات التي كانت قد وصلت براً هي وحدها التي أحدثت دماراً كبيراً بين المحاصرين بل أظهر الذين كانوا قد أتوا بالبحر ضراوة مماثلة أيضاً وشجاعة في الهجوم، وكان صلاح الدين نفسه قد احتل موقعاً على هضبة قريبة ولم يتوقف بحضوره وأقواله المشجعة عن بث الحماسة في جنوده لخوض القتال، وكان في هذا ناجحاً للغاية حتى أن واحداً من كبار قادته ويدعى عز الدين [فرخشاه] اقترح إسناد السلالم إلى الأسوار وشق الطريق بالقوة، لأنه شعر أنه من المخزي أن يكون لدى قوة صغيرة كهذه الشجاعة أو القوة لتقاوم جيشاً كهذا. وكان يصرّ بإلحاح على هذه الخطة وكان يطالب الباقين بالقول والأمثولة أن يوافقوا عليها، عندما أصيب بسهم فجأة بالقرب من عينه، فأجبره هذا الحادث، كما أجبر الآخرين على التخلي عن المشروع.

وحوصرت المدينة لمدة ثلاثة أيام متتالية بالطريقة التي ذكرت منذ لحظات. إلا أن القوات البحرية انسحبت بأمر صلاح الدين إلى الشواني حيث اتضح في آخر الأمر أنه لا توجد أية فرصة للنجاح، وغادرت عند حلول الظلام في اليوم الثالث بصمت وبدون سابق إنذار.

واستدعى صلاح الدين قواته البرية أيضاً وانسحب إلى مسافة قصيرة عن المدينة، ثم قسم الفرسان إلى مجموعات وأمرهم أن يطهروا السهول الواقعة حول المدينة وأن يدمروا تدميراً تاماً جميع الأبرجة الواقعة في المناطق النائية، ودمرت بأوامره أيضاً جميع البساتين والكروم الكثيرة الواقعة في المنطقة المجاورة للمدينة بالفؤوس والبلطات.

وأمر صلاح الدين بعض الرجالة باحتلال بعض الطرق الصعبة والضيقة الواقعة بين بيروت وصيدا، والتي لا بد أن يجتازها جيشنا في طريقه لنجدة المدينة، حتى يمكن لعمل الحصار أن يستمر بحرية وضمان زائدين، كما شيد ستائر دفاعية من الحجارة بدون ملاط بحذاء شاطىء البحر. ورجا بمساعدة هاتين الوسيلتين أن يعيق فيالقنا من التقدم. وأن يتمكن في هذه الأثناء من مواصلة الهجوم على بيروت بدون إعاقة.

ولقد ذكر أنه كان مصمماً بعزم على ألا يتخلى عن الحصار حتى يتمكن من الإستيلاء على المدينة بالقوة، غير أنه غير رأيه الآن واستعد للعودة إلى الوطن. وذكر أن سبب تغيير الرأي هذا كان على النحو التالي: حدث أن أوقف الذين كانوا يحرسون الممر رسولاً كان حاملاً رسائل تشجيع مبعوثة من بعض المؤمنين إلى سكان بيروت، وأحضر هذا الرسول إلى عند صلاح الدين وأخضع لتحقيق شديد للغاية، وعلم صلاح الدين من الإعتراف الذي انتزع من الرسول بالقوة ومن محتويات الرسالة أيضاً أن جيشينا كانا مستعدين تماماً

وسيصلان بكل تأكيد في غضون ثلاثة أيام، ولذلك غير خططه ورفع الحصار كما حكينا ذلك.

وصل أسطولنا بسلام إلى غايته، غير أنه عاد دون إضاعة كبيرة للوقت إلى الموانيء التي كان قد أبحر منها بعدما وجد المدينة متحررة، وبقي الملك ـ لدى معرفته بأن العدو قد تخلى عن الحصار ورحل ـ لبضعة أيام إلى مدينة صور مع جيشه بأسره، ثم جمع قواته من جديد وعاد إلى الصفورية.

١٩ ـ صلاح الدين يعبر الفرات ويدخل بلاد الجزيرة.

رغب صلاح الدين ـ الذي كان نشيطاً وحذراً دائماً ـ بكل فؤاده أن يزيد مجد اسمه ويوسع حدود مملكته، وصمم أن يتقدم إلى الشرق حيث كان تواقاً لتحقيق انتصارات أكبر أيضاً، وقد تقدم وهو محتقر لقوة المسيحيين وكأنها لا شيء. وليس واضحاً بشكل تام حتى الآن فيما إذا كان قد تقدم إلى هناك بمبادرته الخاصة، وذلك بوحي من عظمة نفسه الأمر الذي اتسمت طبيعته به، ومن المحتمل أن هذه المهمة الصعبة التي بدت أنها تفوق قوته، قد نفذت تلبية لمطلب أمراء تلك المنطقة، ومهما يكن من أمر، لقد جمع من جديد قوة كبيرة من الفرسان، وأمر ـ بقدر ما سمح له الزمان والمكان ـ بتجهيز جميع المعدات والأمتعة اللازمة للقيام بزحف طويل جداً، وقاد قواته نحو الفرات.

وكان الرأي السائد بين المسيحيين أنه سيزحف نحو مدينة حلب في محاولة للإستيلاء عليها، لأن مدينة حلب وحدها من سائر ميراث نور الدين مع بعض المعاقل المتاخمة لها لم تكن قد وقعت حتى الآن تحت سيطرته. فقد احتفظ بها، بعد وفاة ابن نور الدين، أخي قطب الدين، حاكم الموصل، بتأييد من قطب الدين والذي كانت قد آلت إليه بحق وراثي عند وفاة الشاب المذكور آنفاً[1] لقد كان هذا المعتقد عموماً وقد بدا هذا محتملاً في أن صلاح الدين كان يزحف إلى هناك بقية الإستيلاء على المدينة، لكنه كان قد فكر بأفكار أرفع بكثير، كما أثبتت النتيجة ذلك. وقد عبر الفرات مخلفاً مدينة حلب وراءه، واستولى في غضون أيام قليلة وبهجوم عاصف على حران والرها، هاتان المدينتان الرائعتان في بلاد الجزيرة، وذلك مع عدد كبير من المدن الأخرى ومع قراها التابعة لها، واستولى في الواقع بالقوة المسلحة أو بالرشوة، تقريباً على كامل المنطقة التي كانت من قبل تحت سلطة أمير الموصل المذكور منذ لحظات، وأغوى بسخائه الوافر أعيان المنطقة الذين كانوا يدينون بالولاء

---

(١) انظر ص ١٠٢٤ الحاشية.

والإخلاص لحاكمهم، وبعدما استلم قلاعهم نجح أيضاً في كسب ولائهم لنفسه؛ ولقد قيل إن أمير الموصل الرجل العظيم، وجد نفسه وقد حرم تماماً من دعم نبلائه غير قادر على مقابلة صلاح الدين أو مقاومته ولقد راج بين الناس أقاويل أشاعت أن صلاح الدين قد أفسد عبيد وأصدقاء هذا الأمير، وكان قد أمر بإعطائه جرعة من السم كادت أن تقتله، ولهذا السبب كان يعتقد من هذه الروايات أن صلاح الدين كان قد وصل إلى الموصل مع قواته بدون أن يعيقه شيء، وانتشرت بيننا قصص ذات مغزى متفاوت بخصوص هذا؛ حيث كان مفاد بعضها أن زحفه كان ناجحاً وأن كل شيء كان يتغير حسب رغباته، بينما أشارت قصص أخرى إلى ما يخالف هذا وحكت أن كبار رجالات تلك المنطقة قد توحدوا معاً للتصدي لمحاولاته الوقحة، وأن جيشه على هذا قد واجه معاملة قاسية[1].

٢٠ ـ الملك يعيث فساداً في أراضي الدمشقيين بطريقة عدوانية.

على هذا بدت بلاد العدو بأنها مجردة من المدافعين عنها، ولذلك اعتقد الملك ونبلاء المملكة، بدون سبب واضح، أن الفرصة المرغوبة منذ زمن طويل لإلحاق الضرر بالعدو قد حلت، وازداد غضبهم ضد صلاح الدين كثيراً بحكم حقيقة أنه كان بعجرفته وتعاليه قد احتقر القوة العسكرية للمملكة، ورحل ليفوز بممالك أجنبية دون الدخول في هدنة أو معاهدة مع الملك، ولذلك جمعوا بعد التداول فيما بينهم، قواتهم ودخلوا، بصحبة البطريرك وصليب الصلبوت المانح للحياة، بلاد الكفرة ليعيثوا فساداً في المنطقة بقدر ما سمحت لهم قوتهم.

ومروا خلال بـلاد حوران التي تشكل جزءاً كبيراً من أراضي بصرى ودخلوا سورية الصغرى التي عاصمتها دمشق، ثم وجهوا سيرهم نحو الجزء الشرقي في هذه المنطقة وشقوا طريقهم إلى مدينة درعا المشهورة والآهلة بالسكان، والقريبة من دمشق. واجتاحوا المنطقة من هناك ودمروا جزءاً كبيراً من المواقع النائية والمعروفة عموماً باسم القصور حيث حرقوا هذه المواقع أو خربوها بكل وسيلة ممكنة، وكان سكان هذا الإقليم قد علموا باكراً باقترابنا فهربوا مع زوجاتهم وأبنائهم وقطعانهم وجشارهم إلى مواقع كانت فيها تحصينات أفضل. وهكذا، لم يجلب المسيحيون معهم سوى القليل أو لا شيء من المغانم أو الثروات، هذا وقد حرقوا أو دمروا بطريقة أو بأخرى المحاصيل ومستلزمات الحياة الأخرى التي لم يتمكن العدو من أخذها معه أثناء هروبه.

---

(١) امتدت هذه الحملة إلى شمال شرق سورية من شهر أيلول من عام ١١٨٢ حتى شهر آب من عام ١١٨٣. ويتذكر وليم هنا موقف اللاتين في عام ١١٨٢ قبل أن تصبح نتيجة الحملة معروفة (انظر ستيفنسون: ٢٢٩ ـ ٢٣٠).

وتوجب عليهم، بعدما أتلفوا كل ما رأوه، أن يمروا لدى عودتهم بالقرب من مدينة مهيبة في تلك المناطق تدعى بصرى، وتداول شعبنا هنا حول إمكانية الإستيلاء على أحوازها بيد أنه تبين لهم أن هذا لا يمكن إنجازه بسرعة بل سيتطلب إقامة أطول مما سمحت به ندرة الماء لذلك قرروا العودة خشية أن يكابدوا مع مواشيهم من العطش، وهذه المنطقة قاحلة وجافة بشكل عام، وخالية تماماً من الينابيع والجداول والأنهار، واعتاد الناس خلال أشهر الشتاء على تجميع ماء المطر في خزانات، ويحافظون عليه بعناية لاستخدامات ضرورية خلال العام بأسره، مع أنه يصبح آسناً بسبب حرارة الشمس والقذارة التي تتجمع على سطحه، وكان الناس قد حطموا هذه الصهاريج بحيث تسرب الماء منها، أو أفسدوها بإلقاء القاذورات فيها ليمنعوا الجيش من البقاء هناك عندما مر لا سيما أنهم كانوا قد أخطروا بمقدمنا، ولم يسمح ذلك الوقت من السنة للمسيحيين بإحداث ضرر كثير حسبما كانوا يرغبون، فقد كانت الحبوب والمحاصيل الأخرى، التي كانوا بالعادة يرغبون بإحراقها قد جمعت في مخازن الحبوب، التي كانت حسب عادات تلك المنطقة تتألف من مغائر مبنية تحت الأرض، ولقد كان من الصعب العثور على هذه المغائر حيث كانت مغطاة بالتراب ومخبأة بشكل بارع، وكل ما كان باقياً من الحبوب في البيادر، كان قد جرد من قشوره. ولذلك لم يحترق بسهولة، لأن الحب لا يشتعل وحده، وتعذر إلى حد كبير إلحاق أي ضرر بالبيادر باستثناء بعثرة الحبوب ونقل بعضها معهم كعلف لخيولهم، هذا وأقبل العديد من الجنود الباحثين عن سبل لإلحاق الضرر بمزج التبن والقش الموجود هنا وهناك مع الحبوب المنظفة من قبل حتى يمكن إحراقها بسهولة.

ولم تكن قوة الجند الصغيرة، التي كانت قد تركت في ذلك الإقليم لدى مغادرة صلاح الدين، قادرة بما فيه الكفاية للمجازفة بالصدام مع المسيحيين، أو التصدي لهم بالإشتباك في قتال قريب معهم إلا أنهم تعقبوا عن بعد على شكل زمر مؤخرة العدو الراحل وحاولوا إلحاق بعض الضرر به، لكنهم لم يتمكنوا حتى بهذه الطريقة من تقديم أي عائق للمسيحيين أو إلحاق الأذى بالجيش جلة وتفصيلاً.

٢١ ـ المسيحيون يحاصرون القلعة التي استولى عليها صلاح الدين مؤخراً. فيستولون عليها بالحصار ويعيدونها إلى العقيدة المسيحية.

توقف شعبنا لدى عودته في الإقليم نفسه الذي يدعى السواد بعد اجتيازهم للمنطقة بأسرها وإلحاق الضرر بها ما وسعهم ذلك، والسواد هذا هو الإقليم التي تقع فيها تلك القلعة التي كان العدو قد أخذها من المسيحيين بالحيلة قبل وقت قصير من هذا الوقت، عندما كان جيشنا في وادي عربة كما تم ذكر ذلك من قبل.

ويشتهر السواد بمنتجاته من الخمر والحبوب والزيتون، كما يشتهر أيضاً بمناخه الصحي وبموقعه البهيج عموماً، ويقال أن بلدادBildad صديق ايوب Job، الذي أخذ كنية سوادي Shuhite كان من هذه البلاد، وكان ينتمي إلى هاهنا.

أرتأى المسيحيون لدى وصولهم إلى هنا أنه سيكون مرغوباً به محاصرة الحصن، ولذلك قرروا الإستيلاء عليه، حتى ترتد الشرور، التي كان الكفرة قد ألحقوها بهم في الإستيلاء على الموقع أو الإحتفاظ به بشكل غادر، ترتد إليهم إذا سمحت السماء بذلك.

ولهذا الغرض أقيم معسكر أمام القلعة المذكورة منذ لحظات، وبذلت جهود فعالة لإجبار الموجودين داخلها على الإستسلام، كانت القلعة محصنة بشكل جيد للغاية، وكان موقعها رائعاً حيث لم تكن مهاجمتها ممكنة إلا من الجزء العلوي، ولم يكن ممكناً مهاجمتها حتى من هنالك إذا لم تقطع الصخور حتى موقع القلعة نفسها، ولذلك، تقرر وضع الحجارين للعمل في الجزء العلوي، وتوجب تزويد جميع المساعدين والحراس المطلوبين بحيث يتمكنون من العمل بسلامة وبدون التعرض لمخاطر القتال.

كان الكهف واقعاً على جانب جبل عال جداً، وكان الطريق إليه مصحوباً بأعظم المصاعب وأشدها عبر طريق شاق حتى بالنسبة لجندي مشاة واحد إذا كان خالياً من جميع المعيقات، ولم يتجاوز عرض الممر الآخذ من الجانب أكثر من قدم واحد، وانفغر في الأسفل جرف عميق ومروّع امتد إلى أسفل الوادي.

وكان لهذا الكهف ثلاثة طوابق، واحد فوق الآخر. وكان هنالك سلم خشبي بفتحات ضيقة يؤدي من طابق إلى آخر.

وبما أن هذه كانت الوسيلة الوحيدة التي كان يمكن مهاجمته بوساطتها، فقد حاول المسيحيون اختراق الكهف من الأعلى، كما كنا قد ذكرنا على أمل أنهم سيتمكنون من التغلغل بهذه الطريقة إلى المستوى الأول والعلوي من القلعة، وكان هذا كل هدفهم وغايتهم، وبذلت جميع الجهود لتحقيق ذلك الهدف، وتمركز جميع العمال المطلوبين في مواقعهم، وتولى المساعدون الذين تم تأمينهم رمي قطع الصخور والأحجار والنفايات غير اللازمة إلى أسفل الوادي الموجود تحتهم وذلك بالسرعة نفسها التي تم فيها نزع الصخور والحجارة، ولكي يستمر العمل بدون انقطاع، رتبت المناوبات خلال الليل والنهار وعلى هذا عندما كان يتعب الموجودون في الطاقم الأول، كان يأخذ أماكنهم عمال مفعمون بالنشاط ولديهم المهارة والمقدرة اللازمة لمواصلة العمل، وتقدم العمل بسرعة بسبب عدد العمال وحماستهم وأيضاً بسبب أن الصخرة نفسها قطعت بسهولة، لأنها كانت ذات طبيعة جصية وتم اختراقها

بسهولة إلا حيث برزت عروق من الصوان القاسي جداً، والتي غالباً ما أفسدت الأدوات الحديدية وقدمت عائقاً للعمال المتلهفين، ودحرجت الشظايا نحو الوادي في الأسفل لتنظيف الموقع، كما تم شرح ذلك، وحصلت جميع هذه الأمور على مرأى تام ومشهد من المحتجزين ضمن الكهف فزادت من خوفهم كثيراً، لأنهم انتظروا باستمرار الوقت الذي سينتهي فيه العمل ويشق به طريق بالقوة.

قسم جيشنا إلى مجموعتين: أقام أحد الأقسام كما قلنا معسكره على قمة الهضبة التي كان يشغلها الكهف، حيث كان بإمكان عناصره أن يتولوا هذا الموقع بكل سهولة حماية المنشغلين في العمل من كيد العدو وشروره. وبقي القسم الآخر في السهل الواقع في الأسفل، حيث وضع هنالك للقيام بمهمة خاصة هي منع أي خروج أو دخول من جانب المحاصرين، واقترب عدد من القوة الأخيرة أحياناً من الجزء السفلي للكهف على طول الطريق الضيق الموصوف أعلاه وحاولوا مهاجمة الموجودين في الداخل، لكن هذه الجهود كانت عقيمة، لأنه كان في داخل الكهف، المزود بالمواد الغذائية والأسلحة بشكل جيد، قوة مؤلفة من نحو سبعين جندياً شجاعاً وقوياً، وكان صلاح الدين قد اختار هؤلاء الجنود المتمرسين عندما كان على وشك الرحيل، وكان قد أوكل الحصن إلى رعايتهم ويقظتهم وكانت لديه أسبابه المسوغة للإعتماد على إخلاصهم ووفائهم.

كان العمل قد وصل الآن إلى مرحلة لم تعد الضربات المتواصلة للمطرقة تسمح بأية استراحة للحامية الموجودة في الكهف، وبدت الكتلة بأكملها بأنها تهتز وترتعش عندما تضاعفت الضربات إلى درجة أن الخوف من إمكانية إحداث مدخل إجباري فسح المجال للخوف من أن الكهف قد ينهار فجأة ويسحق جميع الموجودين بداخله بعدما حطمته الضربات المتكررة، وكان من العبث الأمل بوصول أية مساعدة لأن صلاح الدين، كما كانوا يعرفون، كان قد رحل مع جميع جنده إلى مناطق نائية جداً، حيث لا يستطيع أن يعود بسهولة، وأرسلوا في آخر الأمر سفارة إلى الملك بعدما كان الحصار قد استمر لمدة ثلاثة أسابيع أو أكثر من ذلك بقليل، وحصلوا من خلال وساطة كونت طرابلس على إذن بالرحيل بحرية إلى بصرى؛ واشترط عليهم تسليم القلعة والتخلي عن الأسلحة التي كانوا قد نقلوها وعن جميع معداتهم، وبناء عليه تخلوا بالحال عن الموقع ورحلوا، وهكذا تخلصنا بنعم الرب الوافرة من الوضع الخطير الذي بدا حتى الآن بأنه يعرضنا للخطر.

وبعد ما تمت عملية الإستسلام أرتأى الملك وبقية النبلاء بحكمة وتدبر تزويد القلعة بالأسلحة والمؤن. ثم عهد بعد ذلك بالمسؤولية عنها إلى رجال مخلصين لم يكن هنالك شك في ولائهم ومقدرتهم، وعادت القوات إلى موطنها بعد ما تمت العناية بكل شيء بدقة متناهية.

حدث هذا في اليوم .... من شهر تشرين الأول من العام ١١٨٢ لتجسيد الرب[١].

٢٢ ـ الملك يغزو من جديد أراضي الدمشقيين ومعه قواته.

ما لبث قادتنا أن أدركوا بعد زمن قصير في شهر كانون الأول التالي، أن صلاح الدين، الذي كان مشغولاً بأمور أكثر أهمية في البلاد القريبة من الموصل، لم يعد حتى الآن، فاجتمعوا من جديد وهم كارهون لفقدان الفرصة التي قدمها غيابه، وقرروا بالإجماع، بعد التشاور فيما بينهم حول ما يفيد المملكة، أن يلتقوا في قيسارية على الساحل، وتقرر بالإجماع جمع قوات المملكة وتزويدها بكل ما هو ضروري لاستخدام الجنود والحيوانات خلال حملة أخرى تستغرق خمسة عشر يوماً في بلاد العدو، حتى لا تضيع الفرصة القائمة وتهمل، وشنت في البداية غارة سرية، لم يشارك فيها سوى الفرسان، على منطقة معادية بالقرب من بصرى، تمشياً مع ترتيب مسبق. وعاد الفرسان من هذه القارة سالمين وجلبوا معهم الكثير من المغانم على شكل قطعان وجشار وعدد كبير من العبيد أيضاً، وبما أن هذه الغارة قد انطلقت من أراضي طبرية وعادت إلى الموقع نفسه، فقد كانت تحت قيادة كونت طرابلس.

وأخيراً، اجتمع الملك ونبلاء المملكة مع قوة من المشاة والفرسان بقدر ما استطاعت المملكة أن تقدمه في ذلك الوقت، وبصحبة صليب الصلبوت وتجمهروا بالقرب من طبرية في اليوم الخامس عشر في موقع قائم على شاطىء بحيرة طبرية يدعى الحسينية وعبروا النهر من هناك عند مخاضة يعقوب ودخلوا بلاد العدو. وتقدم الجيش، إلى اليمين من لبنان، خلال السهل وصولاً إلى موقع يدعى بيت جن، فدمروا هذا الموقع تدميراً تاماً مع جميع الدساكر المتاخمة له وخربوا تماماً كل شيء عثر عليه هناك. بحرق بعضه وتدمير المتبقي، ثم وصلوا بعد مسافة إلى داريا، وهو موقع يقع على بعد أربعة أو خمسة أميال من دمشق، فخربوا هذه أيضاً بالطريقة ذاتها مع القرى المجاورة لها.

كان الناس في هذه الأحواز قد هربوا، بعضهم إلى الجبال اللبنانية وبعضهم الآخر إلى دمشق، ونتيجة لذلك نادراً ما أخذوا أسيراً من سائر تلك المنطقة، هذا وقد فقدنا بعض جنودنا بسبب سلوكهم الطائش أثناء الغزو، وكان بعض الفرسان الأتراك، الواثقين بسرعة خيولهم، قد انطلقوا من دمشق وكانوا يحومون حول صفوفنا، يسيرون حيناً إلى الأمام إلى مسافة قريبة من صفوفنا، ثم يعودون ليتعقبونا من جديد، وبما أنهم كانوا يترصدون بشكل دائم فرصة لإلحاق الأذى بنا، فقد انقضوا فجأة على الغزاة المهملين المذكورين منذ لحظات وقتلوهم في هجوم ضار من غير استثناء، كما انطلق الدمشقيون من مدينتهم أيضاً وحشدوا

---

(١) سقط ذكر اليوم والشهر من النص.

أنفسهم حول البساتين التي تحيط بالمنطقة بأعداد ضخمة، وواصلوا من هذه المسافة مراقبة جندنا مراقبة دقيقة إلا أنهم لم يجرأوا على الزحف إلى مسافة أقرب، ولم يجرؤ المسيحيون على مهاجمتهم ولم يحاولوا هم القيام بأي شيء ضدنا، وعندما رحل شعبنا انسحبوا بدورهم إلى داخل المدينة.

عاد الجيش المسيحي إلى الوطن دون مواجهة صعوبة أو عائق بعدما غزا ذلك الجزء من المنطقة، وسبب له أضراراً بالغة حسبما وصفنا ذلك، وبادر الملك نفسه بالتوجه إلى مدينة صور وهناك احتفل معنا بعيد ميلاد الرب[1].

٢٣ - القيام بإحصاء للمملكة كإجراء وقائي ضد نوازل مستقبلية.

كان هناك في هذه الآونة شائعات غير محدودة قد انتشرت بشأن نشاطات صلاح الدين فقد أشارت بعض الروايات إلى أنه كان يواجه نجاحات كبيرة في الجزيرة في أحواز الموصل حيث أخضع المنطقة بأسرها ووضعها تحت سيطرته، وخلافاً لذلك، أفادت روايات أخرى أن جميع أمراء الشرق قد اتحدوا ضده في محاولة منهم لطرده من المنطقة بقوة السلاح، وبذلك تمّ استرداد المنطقة التي كان قد كسبها منهم بالخداع والرشوات، وسبب تقدمه ونجاحاته الكثير من الإرتباك للمسيحيين، ونظروا بذعر كبير إلى الازدياد في سلطانه، خشية أن يعود إليهم بتعزيزات ضخمة.

وبناء عليه عقد في القدس في شهر شباط[2] اللاحق اجتماع عام لجميع نبلاء المملكة للتداول حول الوضع، وكان هنالك خوف كبير من عودته، كما تم ذكر ذلك، وتقرر لذلك السبب استخدام كل وسيلة ممكنة لمقاومته.

تقرر بالإجماع وبعد مداولات مطولة وتعبير عن آراء مختلفة أن يجري إحصاء لجميع مناطق المملكة فإذا توفر بيان كهذا، فسيكون ممكناً في ظرف طارىء الحصول على قوات من المشاة والفرسان حيث يجدنا العدو، في حال عودته، مستعدين للمقاومة، وكان الملك والنبلاء قد صاروا إلى حالة بائسة من العوز لدرجة أن العائدات لم تكن كافية أبداً للنهوض بأعباء الإنفاق الضروري، ولذلك توجب جمع المال من الناس جميعاً ويمكن لدراسة هذا القرار الذي أتخذ حول هذه المسألة أن يقدم فهماً دقيقاً للأسلوب الذي تم فيه فرض الضرائب، فهو قد كان على النحو التالي: «هذه هي طريقة جمع الضرائب التي يجب فرضها للمصلحة العامة

---

(١) استمرت صداقة بلدوين الرابع مع وليم على الرغم من العداء الذي كان يكنه له فريق البلاط. ولا بد أن قرار وليم بوقف الكتابة قد تم قبل هذا، في ٢٥ كانون الأول عام ١١٨٢.

(٢) شباط ١١٨٣.

لهذه المملكة، بموافقة وإجماع عام من قبل جميع النبلاء المدنيين والكنسيين، وبموافقة سكان مملكة القدس لمواجهة الضرورات الحالية الملحة».

لقد تقرر لمصلحة الدولة أن يختار من كل مدينة من هذه المملكة أربعة رجال عقلاء جديرين بالثقة حيث يقومون بعدما يؤدون قسماً مهيباً بأنهم سوف يعملون بإخلاص وصدق في هذه القضية القائمة ببذل دينار واحد عن كل مئة دينار يملكونها أو بدفع ما يعادلها من الأشياء التي بحوزتهم أو عن الديون المستحقة الدفع لهم، ثم يجبرون الآخرين بعمل الشيء نفسه، ولسوف يقدمون أيضاً دينارين عن كل مائة دينار من العائدات التي يحصلون عليها، ويجب عليهم أن يعملوا كذلك على إجبار الآخرين، بحيث يقوم كل مواطن، سواء أكان من المدينة أو من مواقع أخرى يحكمها، بالدفع في سبيل جمع هذا المال حسبما سوف يحكمون بإخلاص أن ممتلكاته تستحق، ولسوف يقدرون هذا بشكل منفصل على كل واحد حسب مقدرته على الدفع.

هذا ويمكن لأي إنسان، لدى إبلاغه بالقدر الذي يتوجب عليه دفعه أن يعلن أنه حمل أكثر من طاقته وفرضت عليه ضرائب بشكل يفوق موارده المالية، وذلك حسب ضميره وأن يبين قيمة أثاثه كما يبدو عادلاً بالنسبة له، وسوف يمضي آمناً حسب الشروط المذكورة بعدما يكون قد أعلن مقسماً أنه لا يستطيع أن يعطي المزيد.

وسوف يلتزم الرجال الأربعة بقسمهم بالحفاظ على سرية ما قدمه لهم كل مواطن سواء أكان ذلك قليلاً أم كثيراً، وسوف يقيدون بألا يكشفوا النقاب عن ثراء أو فقر أي إنسان، ويجب عليهم أن يتقيدوا بهذه القوانين بخصوص الذين يبلغ دخلهم مائة دينار مهما كانت اللغة أو الشعب أو العقيدة التي ينتمي إليها أولئك الناس وبدون نظر للجنس سواء أكان ذكراً أو أنثى، لأن الجميع سوف يخضعون لهذا الحكم بدون تمييز.

وإذا ما عرف الرجال الأربعة، المنتخبون لهذه المهمة والمعنيون بهذا الواجب، بشكل مؤكد أن ملكية إنسان ما لا تساوي مائة دينار عليهم أن يأخذوا منه «مال الموقد»؛ أي دينار واحد عن كل موقد نار وإذا لم يستطيعوا الحصول على دينار كامل سوف يأخذون نصف دينار وإذا لم يستطيعوا الحصول على النصف سوف يأخذون نسبة حسبما سيبدو ذلك - بإخلاص - عدلاً بالنسبة إليهم، ولسوف يخضع جميع الذين لا تساوي ممتلكاتهم مائة دينار، مهما كانت لغتهم وشعبهم وعقيدتهم أو جنسهم لهذا الشرط.

وتقرر أيضاً أن على كل كنيسة ودير وعلى جميع النبلاء بقدر ما يتوفر وجوده منهم هناك بالإضافة إلى التابعين وجميع الآخرين في المملكة أيضاً الذين لهم عائدات، إعطاء

دينارين عن كل مائة دينار سيحصلون عليها من الإيجارات ولسوف يبذل أصحاب الأجور والرواتب ديناراً واحداً عن كل مائة.

إن جميع الذين يملكون القصور ملزمين بموجب قسم يحلفونه في أن يدفعوا بإخلاص عن كل «موقد نار» يملكونه في القرى أو القصور ديناراً واحداً بالإضافة إلى ما هو مفروض أعلاه، بحيث إذا كان في القصر مائة موقد ينبغي إجبار القرويين على دفع مائة دينار، وسيكون بعدئذ من واجب سيد القصر توزيع عدد الدنانير المذكورة أعلاه بين قرويي ذلك الموقع بأجزاء متساوية وبذلك يمكن لكل منهم دفع الضريبة الآنفة الذكر، بنسبة تتواءم وموارده. وهكذا، لن يتمكن الغني من الإفلات بلا مبالاة ولن يتحمل الفقير فوق طاقته، وستكون النسبة ذاتها سواء أكان في القصر مواقد كثيرة أو قليلة.

إن المال المجموع بهذا الشكل من كل مدينة شروعاً من حيفا وحتى القدس سيتولى نقله إلى القدس المعينون على كل مدينة وقلعة، كما قلنا من قبل، وسيدفعونه بعدد محدد ووزن ثابت إلى المسؤولين عن هذا العمل في القدس، ولسوف يقوم هؤلاء المسؤولون، بحضور البطريرك أو نائبه مع رئيس شماسة دير رهبان قبر الرب المقدس وشحنة قلعة القدس، بوضع هذا المال مختوماً ومنفصلاً تماماً كما تسلموه من كل مدينة أو مكان آخر، في أكياس مختومة منفصلة، ثم وضعه في صندوق في خزينة الصليب المقدس، وسيكون لهذا الصندوق ثلاثة أقفال وثلاثة مفاتيح حيث يحتفظ البطريرك بالمفتاح الأول، بينما يحتفظ رئيس شماسة قبر المسيح بالمفتاح الثاني بينما سيحتفظ آمر المدينة والمواطنون الأربعة المذكورون آنفاً بالمفتاح الثالث.

ولسوف ينقل المسؤولون عن المدن الممتدة من حيفا وحتى بيروت المال المجموع بطريقة مماثلة إلى مدينة عكا، ومن ثم يسلمونه هناك وفق عدد محدد ووزن ثابت، تماماً كما جلب من كل مدينة وقلعة، إلى الرجال الأربعة الذين وجد نظراؤهم في كل مدينة مسؤولين عن جمع المال، وسيتم وضعه في أكياس منفصلة مغلقة ومختومة. ومن ثم توضع هذه الأكياس في صندوق سيكون له ثلاثة أقفال وثلاثة مفاتيح حيث سيحصل رئيس أساقفة صور على المفتاح الأول ويحتفظ جوسلين قهرمان الملك بالمفتاح الثاني وسيحتفظ المواطنون المذكورون آنفاً والمسؤولون عن المسألة بالمفتاح الثالث، وسيستلم الذين لديهم المفاتيح، المال المذكور آنفاً بحضور السادة المذكورين أعلاه.

«ينبغي ألا ينفق المال المجموع بهذا الشكل على الأمور العادية للمملكة، بل فقط على الدفاع عن المنطقة، وبقدر ما يدوم هذا المال، فإن الضريبة المعروفة عموماً باسم ضريبة الأراضي سيوقف أخذها من الكنائس والمواطنين.

سوف تفرض هذه الضريبة مرة واحدة فقط، ولن تعتبر سابقة يؤخذ بها في المستقبل »[1].

٢٤ ـ صلاح الدين يحاصر مدينة حلب ويفوز بها وفق اتفاق محدد. وأمير انطاكية يرتب مبادلة طرسوس مع روبين دوق أرمينية.

كان صلاح الدين، صاحب النشاط الذي لا يعرف الكلل، والذي قام دائماً بدور قائد قوي في كل شيء، قد استولى على أراضي سورية في الجزيرة، واستولى بالقوة على مدن ذات شهرة عظيمة. وكان بين ما قام به هو أنه حاصر واستولى على مدينة آمد الحاضرة المشهورة التي بدت عملياً لا ترام بسبب عدد سكانها الكبير والأسوار الضخمة التي كانت تحيط بها وطبيعة موقعها. وأعطاها بعد ما تم الإستيلاء عليها، وحسب الإتفاق، إلى نبيل تركي يدعى نور الدين، وهو ابن قرا أرسلان، الذي كانت مساعدته المخلصة قد مكنته من تمديد إقامته في تلك الأجزاء ومن إكمال إخضاع تلك المنطقة.

استدعى صلاح الدين قواته ثانية في الربيع اللاحق، ووضع المنطقة بأسرها تحت حماية بعض أتباعه المخلصين، وعاد إلى سورية المجوفة عابراً نهر الفرات، ووضع جيشه هنا حول مدينة حلب واستخدم كل وسيلة ممكنة لإنهاك المدينة.

كان حاكم حلب مدركاً تماماً أن أخاه، حاكم الموصل، الذي كان حاكماً أقوى منه بكثير، لم يتمكن من إبعاد صلاح الدين هذا نفسه عن ممتلكاته، على الرغم من جميع الجهود التي بذلها والتي انعكست ضده، وهكذا تمكن هذا السلطان العظيم من إخضاع جميع الأقاليم الواقعة فيما وراء نهر الفرات، وخشية منه في أن يواجه مصيراً مماثلاً قد يقضي عليه، أرسل خلسة مبعوثين إلى السلطان بدون معرفة سكان مدينة حلب، للبحث في شروط السلام. فإذا ما أعاد صلاح الدين إليه سنجار وبعض القلاع الأخرى التي لا أتذكر أسماءها، فإنه سيسلمه مدينة حلب مقابل ذلك.

تلقى صلاح الدين السفارة بفرح كبير، وكانت رغبته الأكثر جدية من لحظة بداية

---

(١) أصبحت هذه الضريبة، التي فرضت لتلبية مساعدات طارئة كبيرة، نموذجاً لفرض الضرائب في الغرب، ومن المهم أن نلاحظ أن موافقة الناس والنبلاء المدنيين والكنسيين، مفصلة في افتتاح الوثيقة. ومن الأكثر إمتاعاً أن نعرف كيف تم التعبير عن موافقة الناس، وتمثل الوثيقة الخطة الأكثر نظاماً وشمولية لفرض الضرائب التي استنبطت حتى الآن بوساطة السلطات الاقطاعية، وقد أثرت على كل من هنري الثاني وفيليب الثاني كنموذج للعشر الذي كان يجمعه صلاح الدين وضريبة أخرى ومن المحتمل جداً أن وليم نفسه أعد مسودة هذه الوثيقة.

حكمه هي الحصول على مدينة حلب بوسيلة من الوسائل، حيث كان يعتبرها بمثابة حصن المملكة بأسرها وعمادها، ولذلك وافق بكرم على قبول الشروط، وسلمه المدينة الآنفة الذكر مع قلاعها المجاورة، واستلم مدينة حلب في اليوم السابع من شهر حزيران [1].

استولى رعب مضاعف على شعبنا لدى سماعه لهذا النبأ، لأن النتيجة التي كانوا يخافونها خوفاً شديداً قد حدثت، فلقد كان واضحاً للمسحيين منذ البداية أنه إذا نجح صلاح الدين في إضافة مدينة حلب إلى إمارته، فلسوف تكون أراضينا محاطة بسلطته وقوته وستغدو كأنها في حالة حصار، ولذلك حاولوا تعزيز تحصينات مدنهم وبلدانهم بكل وسيلة ممكنة، وخاصة تلك المدن التي كانت تقع بالقرب من حدود العدو، ووسعوا في المقام الأول دفاعات مدينة بيروت التي بدت ضعيفة بشكل خاص.

كان أمير انطاكية مذعوراً بلا حدود إزاء مجاورة عدو قوي جداً، وبعدما أدرك أن عدواً مروعاً للغاية كان مقابلاً له الآن توجه نحو الملك الذي كان آنذاك مقيماً في مدينة عكا، ولم يأخذ معه سوى مرافقة صغيرة حتى لا يترك المنطقة مجردة من المدافعين عنها، وأخذ معه كونت طرابلس كرفيق له، وطلب هناك، بحضور أمراء المملكة، المساعدة ضد صلاح الدين، وتقرر الإصغاء لشكواه وتلبية مطلبه، وتم منحه نحو ثلاثمائة فارس من فرسان المملكة من مختلف المراتب وذلك استجابة لما طلبه، فتبعوه إلى انطاكية وهم جاهزون لخوض القتال بقيادته، غير أنهم عادوا بعد زمن قصير بعدما استأذنوا الأمير بالرحيل، فقد كان عقد هدنة مؤقتة مع صلاح الدين وبدأ يشعر بعض الشيء بالثقة والهدوء، وكان قد تنازل عن مدينة طرسوس، عاصمة كليكية، التي كان قد تسلمها في الإغريق إلى روبين، وهو حاكم أرمني قوي كان يملك المدن الأخرى في تلك المنطقة، وكان ذلك لقاء مبلغ ضخم من المال وأقدم عليه ليقلل من قلقه وليتمكن من الإشراف بحذر أكثر على منطقة أنطاكية، وقد أظهر حكمة كبيرة في عمله هذا حيث كانت طرسوس بعيدة جداً عن انطاكية وتفصلها عنها أراضي روبين، ولذلك كان من الصعب عليه الإشراف عليها والإعتناء بها وهي مسألة كانت سهلة تماماً بالنسبة لروبين.

وبعد ما رتب صلاح الدين جميع الأمور في ذلك الموقع بشكل يرضيه غادره مع فيالقه متوجهاً إلـى دمشق فسببت هذه الحركة خوفاً كبيراً بالنسبة لشعبنا، وخاصة لأنه كان من المستحيل الحصول على معلومات محددة عن طريق الكشافة بخصوص هدفه الحقيقي، فقد

---

(١) ذكر بهاء الدين أن حصار صلاح الدين لمدينة حلب قد تم في الفترة الممتدة من ٢١ أيار وحتى ١١ حزيران من عام ١١٨٣، وأن الاستسلام جرى في اليوم الأخير هذا [المحاسن اليوسفية: ٨٩].

اعتقد بعضهم أنه سيحاول محاصرة - بعد استدعائه للقوات البحرية - مدينة بيروت كما كان قد فعل ذلك في العام السابق، واعتقد بعضهم أنه عزم على مهاجمة تيرون وهونين وهما حصنان واقعان في الجبال المطلة على مدينة صور، واعتقد آخرون أيضاً أنه كان ينوي اجتياح المناطق الواقعة فيما وراء الأردن أي وادي عربة وتدمير المواقع المحصنة الواقعة في تلك الأحواز، وكان هنالك أيضاً بعض من حاول أن يؤكد أن صلاح الدين أراد اغتنام فرصة وجود الهدنة، فخطط للنزول إلى مصر لإعادة تأهيل جيشه الضعيف ولجمع الأموال اللازمة للحملات المستقبلية وذلك بعدما أرهقته الحملات الطويلة الأمد في مناطق بعيدة جداً.

أبقت هذه التخمينات المتنوعة، والتي كانت جميعها غامضة، الملك والنبلاء في حالة قلق وترقب دائمين، وأخيراً حشدت جميع القوات المتوفرة في المملكة عند نبع الصفورية، حيث اعتادت الجيوش من الأزمان الأولى على التجمع فيه، وانتظرت هناك نتيجة الأحداث، وجرى إرسال الرسائل إلى أمير انطاكية وإلى كونت طرابلس اللذين ضما قوتها ومشورتها إلى الباقين إنما بعد توسل وإلحاح، وانتظروا بهذه الطريقة متوقعين من يوم لآخر أن صلاح الدين سوف يغزو فجأة منطقة من مناطق المملكة بقوات قوية فوق العادة.

٢٥ - الملك يصاب بمرض خطير في الناصرة. وتعين غي دي لوزنغنان، كونت يافا، وصياً على المملكة.

بينما كان الجيش منتظراً بحالة الترقب هذه عند نبع الصفورية كان الملك يعاني من هجمة حمى حادة في الناصرة، أضف إلى هذا أن مرض الجذام الذي بدأ بإزعاجه في بداية فترة حكمه - لا بل في الحقيقة في اوائل شبابه - تفاقم فضعف بصره وشلت أطرافه تماماً إلى درجة امتنعت يداه وقدماه عن أداء واجبهما، ومع ذلك، فقد رفض حتى هذا الوقت الإصغاء إلى الإقتراح الذي قدمه بعضهم في أن يتنازل عن منصبه الملكي ويتخلى عن إدارة المملكة بحيث يتمكن من العيش حياة هادئة في التقاعد مع مورد مناسب لاحتياجاته من العائدات الملكية.

وكان الملك قوياً في الناحية العقلية مع أنه كان ضعيفاً وعاجزاً من الناحية الجسدية، وكافح بشكل يفوق قوته لإخفاء مرضه ولإعالة هموم المملكة؛ إلا أنه فقد الأمل بالحياة عندما هاجمته الحمى، فاستدعى نبلاءه إليه وعين، بحضور والدته والبطريرك، غي دي لوزنغنان كونت يافا وعسقلان وزوج أخته، الذي تكرر ذكره في الصفحات السابقة، وصياً على المملكة. إلا أنه احتفظ بالمنصب الملكي وأبقى لاستخدامه الخاص مدينة القدس، مع عائدات سنوية كانت قيمتها عشرة آلاف قطعة ذهبية.

وتخلى الملك عن إدارة بقية أجزاء المملكة جميعاً وعهد بها إلى غي بدون قيود وأمر رعاياه المخلصين وجميع النبلاء عامة أن يعدوا أنفسهم تابعين لغي وأن يؤدوا يمين الولاء له، وتم تنفيذ هذا، هذا ويروى أن غي أقسم، بناء على أمر بلدوين أنه لن يطمح باعتلاء العرش طالما الملك مازال على قيد الحياة، وأنه لن يتنازل للآخرين أو ينقل من الخزينة أياً من المدن والقلاع التي كانت بحوزة الملك في ذلك الوقت، ومن المعتقد أن هذا فرض على غي صدوراً عن حذر وبصيرة في غاية الدقة وأنه اضطر لإلزام نفسه بقسم بحضور جميع النبلاء حتى يتقيد بإخلاص بذلك الشرط، لأنه كان قد وعد تقريباً جميع الحكام الأكثر أهمية في المملكة بتقديم أجزاء كبيرة من المملكة لكل منهم ليضمن أصواتهم ونفوذهم في الحصول على هدفه، وأشيع أيضاً أنه كان قد أدى قسماً مشابهاً لهؤلاء الحكام بأنه سوف ينفذ وعوده، ولا يمكن الإعلان بتأكيد هذا، لأنه ليس لدينا معلومات قاطعة حول القضية، لكن شائعات متوالية بهذا المعنى كانت منتشرة بين الناس.

وكان هنالك استياء إزاء هذا التغيير، وكان بعضهم ميالاً لمعارضته بسبب مصالحه الشخصية ولأسباب خاصة، فقد صرحوا علانية أن الكونت لم يكن كفؤاً لتحمل مسؤوليات المملكة الجسام وغير قادر على إدارة أمور المملكة، هذا، وأكد آخرون ـ كانوا يرجون أن ترقية غي قد تحسن أوضاعهم ـ وأن تعيينه كان عملاً قد أنجز ببراعة، وانتشر بين الناس تذمر كبير واختلاف في الرأي؛ لأنه، كما يقول المثل «كلما ازداد الناس ازدادت الآراء»[1].

هذا ولم يتمتع الكونت طويلاً بهذا المنصب الذي تطلع إليه بتلهف، والذي أسند إليه الآن بناء على رغباته، والذي تمجد به في البداية مع أنه لا يستحق ذلك.

لقد قلنا إنه تولى هذه المسؤولية ووضعها على كاهله بحماقة لهذا السبب: لم يدرس قوته بشكل كاف بخصوص المهمة الموكولة إليه، فقد تولى القيام بعبء ثقيل جداً، وهو غير كفء لحمله في القوة أو الحكمة، ولم يكن قد تعلم حقيقة المثل الذي قاله المبشر الإنجيلي الذي ينصح «من منكم يريد أن يبني برجاً عليه أن يجلس أولاً ويحسب النفقة هل عنده ما يلزم لكماله» لئلا يبتدىء ولا يستطيع إكماله لئلا يقال: «هذا الإنسان ابتدأ يبني ولم يقدر أن يكمل»[2].

---

(١) وصف وليم هنا طرائق سياسة الحزب في المملكة في ذلك الحين. وجرى تحديد أن اغنس دي كورتني، والدة الملك، والبطريرك كانا زعيمين للحزب. ولم يكن حزب وليم هو المشار إليه باعتماده على شائعة أو رواية.

(٢) هذا من النقول المفضلة لدى وليم وكذلك الحال لدى مدارس القانون في الغرب، ويعود صداها إلى تيرنس، لكنها لم تستخدم كثيراً وقليل من الأفراد من عرف أصلها.

(٣) مقتبس من لوقا: ١٤/٢٨ ـ ٣٠.

٢٦ - صلاح الدين يغزو أراضينا بقوات ضخمة ويخيم في جوار بيسان. المسيحيون يزحفون ضده.

كانت هذه هي حالة الأمور السائدة آنذاك في المملكة، وكان الجزء الأكبر من الجيش مخيماً في هذه الأثناء في الصفورية، وكان صلاح الدين في هذه الأثناء قد استدعى بعد دراسته متمعنة، قواته من المناطق الواقعة فيما وراء الفرات، واجتاز حدود المملكة مع جميع قوات الفرسان التي استطاع أن يجمعها من كل مصدر، يتبعه جيشه الضخم المدجج بالسلاح، وظهر فجأة، بعد اجتيازه منطقة حوران الواقعة على طول بحيرة طبرية، مع فيالقه في فرق عديدة في موقع يدعى الأقحوانة في سهل الأردن وتقدم من هنالك تابعاً مجرى النهر إلى سقيثو بولس، وكما ذكر مراراً من قبل أن هذا الموقع، المعروف حالياً باسم بيسان، كان فيما مضى عاصمة لجميع بلاد الجليل، ولا تزال تشاهد دلائل كثيرة على عظمتها السابقة في آثار الأبنية القديمة وفي كمية الرخام الموجودة بينها، وقد تحولت الآن إلى خراب تقريباً، ولا يوجد فيها سوى عدد ضئيل فقط من السكان المتفرقين، وليس هناك سوى قرية صغيرة واقعة في مكان مستنقعي.

ومع أن الناس القاطنين هناك كانوا مجهزين بشكل جيد بالأسلحة والطعام بالنسبة لأعدادهم وحجم الموقع، إلا أنهم لم يشعروا بأية ثقة في دفاعات قلعتهم، ولذلك تخلوا عن القلعة قبل وصول الجيس المعادي وذهبوا إلى طبرية تاركين جميع ممتلكاتهم خلفهم، وهكذا عندما وصل العدو إلى بيسان وجدها فارغة، فتمكن من بسط سيطرته عليها، وبناء عليه نقل أفراد العدو معهم جميع الأسلحة والمواد الغذائية وكل ما كان مفيداً في الموقع، وانطلقوا بكتائب منفصلة في بيسان وخيمت احدى هذه الكتائب بجانب نبع يدعى عين جالوت ينبع عند سفح جبل جلبوع، في المنطقة المجاورة لمدينة كانت مشهورة فيما مضى وكانت معروفة سابقاً باسم يزرائيل Jezrael لكنها تعرف الآن عموماً باسم جيرين الصغرى، وذلك لتحصل الكتيبة على زاد الماء المناسب.

كان المسيحيون ما يزالون مخيمين بالقرب من نبع صفورية، الذي تكرر ذكره في هذا الكتاب، وكانوا منتظرين بقلق ليعرفوا الجهة التي سوف تغزو منها القوات المعادية منطقتنا، وأمسكوا بالأسلحة بالإجماع عندما وجدوا أن الأتراك كانوا قد استولوا على سهول بيسان وأن فيالقهم كانت قد اجتاحت الآن تلك المنطقة بفرق كثيرة، وعبر المسيحيون الجبال التي تقع فيها الناصرة، مدينة ربنا، ونزلوا، تابعين صليب الصلبوت المانح للحياة والألوية الملكية، إلى السهل الكبير، والذي كان اسمه القديم مرج ابن عامر، ووجهوا سيرهم من

هناك، بقوات بتشكيل المعركة، ومرتبة بشكل يتناسب وقواعد العلم العسكري، نحو ينابيع عين جالوت حيث كان صلاح الدين قد أقام بالقرب من الينابيع مع فرقة قوية مختارة من الفرسان المشهورين ببسالتهم.

كانت مقاصد المسيحيين طرد العدو والحصول على منافع الماء لاستخدامهم الخاص. إلا أنهم شعروا، لدى وصولهم إلى هناك، أنه سوف يكون من المستحيل الإستيلاء على الموقع بدون تجشم مصاعب جمة وخوض معارك خطيرة مع العدو، وصل صلاح الدين إلى المعسكر فجأة وتخلى عن الينابيع بشكل مفاجىء للغاية، ثم خيم من جديد في منطقة سفلى قبالة بيسان وعلى بعد نحو ميل واحد عنا وذلك بعدما اتبع مجرى النهر، وقبل أن يتمكن المسيحيون من الوصول إلى الموقع توزع الكفرة إلى زمر صغيرة خرجت من الجيش الرئيسي، وبدأت باجتياح ونهب تلك الأحواز بطريقة عدوانية وكانت إحدى هذه الزمر قد هاجمت جيرين الصغرى، القرية المذكورة آنفاً، وأتلفوا تماماً كل ما كان فيها. هذا وعثروا على عدد قليل - أو لا شيء - من السكان لأنهم، كانوا قد هربوا إلى مواقع محصنة بشكل أقوى بعدما أخطروا بقدوم العدو.

وصلت زمر أخرى إلى موقع يعرف عموماً بأنه عقربلا، فاستولوا على هذا الموقع بالقوة وعاثوا به وضربوه بطريقة عدوانية وفعلوا الشيء نفسه في كل ما رأوه، وسلك آخرون الطرق العامة، وترافق وجودهم بمخاطر كبيرة على الفرسان والجنود المشاة، لدرجة أن الذين كانوا يسرعون من نواح مختلفة للإنضمام إلى جيشنا وصلوا إلى هنالك بتعريض حياتهم للخطر، وصعد بعض هؤلاء الأعداء أنفسهم جبل الطور، وهو عمل بطولي لم يكن معروفاً حتى الآن، وعاملوا هناك الدير الإغريقي المكرس للقديس إلياس حسب هواهم، حتى أنهم حاولوا أن يشقوا طريقهم بالقوة إلى داخل الرواق الكبير بالذات وانسحب الرهبان مع سائر أسرهم والناس من القرى المجاورة إلى داخل الدير الذي كان محمياً بسور وأبراج، وأبدوا هنا دفاعاً شجاعاً وهزموا من جميع أجزاء الشرفات المحيطة عناصر العدو التي تسلقت الجبل.

وحيث لم يروع شيء هذه الزمر، فإن بعضها تسلقت المرتفع الذي تقع الناصرة وراءه، حيث كان بإمكانهم أن يشاهدوا المدينة بأسرها من الهضاب المطلة في الأعلى، وسبب ظهورهم رعباً شديداً للنسوة والأطفال الذين ذهبوا إلى هناك مع الرجال المسنين والمرضى، ويقال إن الكثيرين خنقوا في الإزدحام وهم يكافحون للهرب طلباً للملاذ في الكنيسة الكبيرة، كما أن أغلبية السكان القادرين على حمل السلاح كانت إما تتبع العساكر مع الحملة العامة أو رحلت مع أسرها إلى المدن الواقعة على الساحل، وخاصة إلى عكا.

٢٧ ـ انتشار مجاعة رهيبة في الجيش. المسيحيون والأتراك يرحلون أخيراً دون أن يشتبكا في المعركة.

سببت هذه الزمر المنفصلة عن جيش صلاح الدين، التي كانت منتشرة في كل مكان فوق المنطقة بأسرها، خطراً شديداً بالنسبة للذين كانوا يرغبون بالوصول إلى جيشنا. ولم يجرؤ أحد بسبب الخوف منهم على الإقتراب من المعسكر المسيحي للمتاجرة أو لجلب المساعدة، ونتيجة لذلك انتشرت مجاعة على الفور بين صفوف العساكر، فقد كانوا قد تقدموا إلى هناك دون أمتعة أو مؤن، لكي يزحفوا ضد العدو بدون عائق، آملين أن المسألة سوف تحل خلال يومين أو ثلاثة على الأكثر، وكابد الرجالة من الخطر الأكبر وخاصة الذين قدموا من الساحل حيث تم استدعاؤهم دون سابق انذار وأعني بهم البيازنه والجنويين والبنادقة واللومبارديين. وكان هؤلاء قد تركوا سفنهم، واتخذوا استعداداتهم للإبحار (كان ذلك في حوالي منتصف شهر تشرين الأول حيث بات موعد الجواز وشيكاً) وانضموا إلى قواتنا مع الحجاج الذين كانوا قد التقطوهم ليعيدوهم، ولم يكونوا قد جلبوا معهم أية كمية من المواد الغذائية، وكانوا لا يقدرون على حمل أسلحتهم إلا بصعوبة لأن المعسكر كان يقع على بعد عشرين ميلاً من البحر، ولذلك أرسل الرسل إلى المدن المجاورة ليطلبوا من المسؤولين إرسال المؤن بسرعة، وأطيعت الأوامر الملكية على الفور بحماسة وعناية، وأرسل إلى المعسكر جميع الطعام الذي أمكن جمعه بدون تأخير، ووصل القسم الأكبر من هذه المخزونات إلى أهدافه بأمان، وقدمت مؤونة كافية للطارىء الموقت، إلا أن فريقاً كان يحمل كمية ضخمة من المؤن وقع في أيدي العدو بسبب انعدام الحذر المناسب، ولأن الأتراك كانوا أيضاً في حاجة شديدة، وكان بعض فرساننا قد أرسلوا ليعملوا كمرافقة لحماية الفرق التي كانت تجلب الإمدادات وقد قادوا الذين قابلوهم بأمان إلى المعسكر، لكن الذي لم تكن لديهم مساعدة كهذه، ووقعوا بين خطوط العدو، إما قتلوا بالسيف، أو أجبروا على أن يخدموا العدو إلى الأبد.

لو أن آثامنا في تلك الآونة قد حرضت الرب ليكون مساعداً لنا لأمكن، تحويل قوة الأتراك بسهولة لإبادتهم، ولجُعلت غطرستهم التي لا تحتمل سخرية، حيث لم يرد في أي مصدر مدون أن قوات ضخمة جداً كهذه من الفرسان والمشاة على حد سواء قد اجتمعت من قبل من سائر مناطق الشرق، كما لا يتذكر المسنون أن قوات مجهزة بشكل جيد كهذه قد اتحدت أبداً من قبل في مجموعة واحدة من مملكة واحدة، فقد كان لدى المسيحيين قوات من الفرسان بلغ تعدادها ألف وثلاثماية فارس، وقيل إن عدد الجنود المشاة المجهزين تجهيزاً جيداً قد تجاوز خمسة عشر ألف جندي، علاوة على ذلك، كان الجيش تحت امرة قادة عظماء ومشهورين، رجال كانوا من سلالة لامعة اشتهروا بالقوة في المعركة وهم: ريموند كونت

طرابلس، وهنري دوق لـوفان Louvain وهو قائد من منزلة سامية من مملكة التيتون ورالف دي ميلوان وهو محارب صاحب شهرة كبيرة من أكوتانيا أضف إلى ذلك أنه كان هنالك النبلاء التالية أسماؤهم من المملكة وهم غي كونت يافا، وأرناط سيد مقاطعة واقعة فيما وراء الأردن، وهو الذي كان سابقاً أميراً لأنطاكية، وبلدوين صاحب الرملة وأخوه بالين صاحب نابلس، ورينو صاحب صيدا، وولتر صاحب قيسارية، وجوسلين قهرمان الملك. أمام هذه الحقائق كان من المحتمل كثيراً أن أعداءنا كانوا طائشين جداً في عبور الأردن واحتلال مناطقنا، إلا أن خلافاً نشأ بين النبلاء عقاباً على آثامنا يقال إنه نتيجة لمعاملة قضايا الدولة بإهمال، وبشكل شرير وهي قضايا كانت تتطلب العناية المثلى، ويقال إن الذين كان بإمكانهم معالجة الوضع بالشكل الأمثل رفضوا [العمل][1] بسبب كراهيتهم كونت يافا، الذي كان الملك قد عهد إليه قبل يومين بمسؤولية ضمان مصالح المملكة، لأنهم استاؤوا من أن مسائل ذات أهمية قصوى قد وضعت في وقت خطير وعصيب جداً بين يدي رجل غامض وعاجز وأحمق تماماً، وبالمحصلة سمحوا للعدو؛ بصبر أو بالأحرى بخزي في أن يبقى لمدة ثمانية أيام متوالية مخيماً في المنطقة المجاورة لجيشنا، وعلى بعد أقل من ميل ـ وهو أمر يقال إنه لم يحدث في المملكة من قبل، وقد اجتاح الأتراك خلال هذا الوقت المنطقة بأسرها وعاثوا فيها كما أرادوا.

وتساءل الناس البسطاء، الذين كانوا مع الجيش والذين لم يشاركوا في مكر القادة المسيحيين، عن سبب عدم نشوب أية معركة مع العدو عندما تهيأت فرصة كهذه، ولماذا لم يتخذ أي إجراء بشأن المعركة. وعندما نوقشت المسألة علانية كان المسوغ الذي قدم عن سبب التأجيل هو أن صلاح الدين، قائد قوات الكفرة، كان متمركزاً في موقع دفاعي قوي في مكان محاط بالصخور، وأنه كان يستحيل بالنسبة لقواتنا أن تقترب منه دون تعرضها لخطر كبير، وعلاوة على ذلك، لقد قيل إنه وضع مجموعات قوية من القوات على دائرة مجاورة كانت لديها أوامر بالإنقضاض على قواتنا من جميع الجهات فيما إذا حاولنا أن نشتبك مع جيشه.

لقد قال بعضهم إن هذه كانت الحقيقة بالفعل، وأكدوا أن القادة معذرون في الموقف الذي اتخذوه، وخلافاً لذلك، فقد أكد آخرون أن ذلك لم يكن سوى ذريعة، ومجرد

---

(١) هنالك حذف في النص عند هذه النقطة، وجرى اقتراح المعنى المحتمل داخل حاصرتين، ولا بد من الإشارة إلى أن ولیم ينتقد هنا أصدقاءه. ومن الواضح أنه يعتبر احتياجات الدولة بأنها تفوق مصالح الحزب حتى وإن كان حزبه.

حيلة استنبطت عمداً لتجنب المعركة، خشية من أن ينسب النجاح إلى الكونت إذا ما حالف قواتنا، التي كان بإمكانها في ظل قيادته أن تحارب لتحقيق نتيجة ناجحة.

لقد أوردنا هذه الأسباب كآراء متنوعة لأناس كثيرين، إلا أننا نؤكد أن لا شيء منها كان واقعياً، لأننا لم نتأكد تماماً من حقيقة المسألة، والذي هو حقيقي هو أن العدو بقي لمدة سبعة أو ثمانية أيام متتالية دون مقاومة في أراضينا القائمة في أحواز الأردن، وألحق يومياً الكثير من الأضرار بجيشنا دونما عقاب.

وبعد طول انتظار استدعى صلاح الدين قواته في اليوم الثاني أو بالحري التاسع، وانسحب سلماً إلى منطقته، وعاد المسيحيون إلى نبع الصفورية وهم ليسوا مقتنعين حتى الآن تماماً بأنه لن يعود.

جرى خلال الوقت الذي كان فيه جيشنا ينتظر عند نبع عين جالوت حدث جدير بالتسجيل، فقد كان يعتقد حتى ذلك الوقت أن النبع والجداول المتدفقة منه لم يكن فيها سوى عدد قليل من السمك أو لم يكن فيها شيء منه على الإطلاق، لكن يقال إنه قدم خلال إقامة المسيحيين هناك زاداً كافياً من السمك للجيش بأسره.

٢٨ ـ صلاح الدين يحاصر مدينة البتراء فيما وراء الأردن ويستولي عليها بالقوة.

انتهت الأمور تماماً كما كان المسيحيون قد توقعوا، حيث كان قد مضى شهر تقريباً، عندما استعد صلاح الدين للحرب من جديد بعدما جند قواته، فقد استدعى كتائبه من جديد وجند فيالقه ونقل آلاته الحربية، وجهز بعناية مثلى جميع الأدوات العادية المستخدمة في عمليات الحصار. وبعدما اتخذت جميع هذه الإستعدادات على نحو واف زحف عبر باشن Basan وجلعاد واجتاز بلاد عمان ومآب الواقعة فيما وراء الأردن، واستعد لمحاصرة المدينة المسماة سابقاً باسم بتراء الصحراء، والمعروفة حالياً باسم الكرك.

وما أن علم أرناط عن طريق كشافته بنية صلاح الدين محاصرة الكرك حتى خف إلى هناك مع قوة من الفرسان بدت كبيرة بما فيه الكفاية لحماية الموقع ذلك أنه كان مسؤولاً عن هذه المناطق لأنها تخص ميراث زوجته.

وكانت له أيضاً اهتمامات أخرى بالكرك. فقد كان همفري بن همفري الثاني، حفيده عن طريق والده همفري الأكبر صاحب تيرون وكافل المملكة، على وشك الزواج في هذه الوقت من الأخت الصغرى للملك، التي كان قد خطبها منذ أربعة أعوام من قبل.

يقال إن صلاح الدين ظهر أمام الموقع إثر وصول أرناط إلى الكرك وبعد فترة قصيرة جداً من انتهاء احتفال الزواج، لا بل في ذلك اليوم نفسه بالفعل، وكان مع صلاح الدين جيش ضخم وجميع المعدات والآلات الحربية والمجانيق والعرادات المستخدمة عموماً في إنهاك مدينة واقعة تحت الحصار، ونصب على الفور معسكره على شكل دائرة حول القلعة وبدأ الحصار.

كانت مدينة البتراء قائمة هنا فيما مضى على جبل عال جداً محاط بأودية عميقة، إلا أنها بقيت مخربة لفترة طويلة من الزمن وكانت مهجورة تماماً، حتى قام في آخر الأمر شخص يدعى باغانوس الملقب بالساقي، وكان سيداً لمقاطعة واقعة فيما وراء الأردن، ببناء قلعة في هذا الموقع خلال فترة حكم فولك الملك الثالث للاتيين في الشرق، وشيدت القلعة فوق الجبل نفسه التي كانت المدينة مقامـة عليه من قبل، لكن على جرف أقل انحداراً نحو السهل في الأسفل، وكان خلفاء باغانوس لا سيما ابن أخيه موريس وفيليب صاحب نابلس قد أضافا خندقاً وأبراجاً ليجعلا القلعة أكثر منعة، والتصق بالقلعة وتجمع حولها الآن قرية قامت في موقع المدينة السابقة، وكان سكانها قد أقاموا منازلهم هناك كمركز آمن نسبياً، وكان الحصن يقع إلى الشرق منهم حيث كان يقدم الشكل الأمثل للحماية، بينما ارتفع الجبل في الجهات الأخرى وهو مطوق بأودية سحيقة كما تم سرد ذلك، وهكذا لم تكن هنالك حاجة لخشية السكان من أي هجوم معاد، حتى وإن كان سور القرية منخفضاً بعض الشيء. ولم يكن هنالك إمكانية لبلوغ قمة الجبل إلا من بقعتين فقط، وكان من الممكن الدفاع عن هاتين البقعتين بسهولة بعدد قليل من الرجال يمكنهم أن يصدوا عدداً كبيراً من القوات المعادية، وكان من المفترض أن الجوانب الأخرى كانت لا ترام.

عندما لاحظ الأمير أرناط أن العدو كان قد وصل، اقترح بشكل طائش تماماً ـ كما بدا الأمر للخبراء في مسائل من هذا النوع ـ محاولة الدفاع عن الموقع الخارجي والقرية المتاخمة للقلعة[1]، ولذلك منع الناس، الذين شرعوا بنقل حاجياتهم إلى داخل القلعة والعمل على تأمين سلامتهم هناك، منعهم من هجر منازلهم أو التجرؤ على نقل أي شيء من ممتلكاتهم مهما كان صغيراً.

---

(١) ينتقد وليم هنا استراتيجية الجيش، وينتقد في هذه المرة استراتيجية أرناط الذي كان القائد الحقيقي في انتصار بلدوين الرابع على صلاح الدين في عام ١١٧٧، وربما عكس هذا رأياً، لأنه من المؤكد أن معلومات وليم أتت من نبلاء كانوا معارضين لأرناط بقدر ما كانوا معادين لكي Guy.

وفي هذه الأثناء كانت كتائب الفرسان والمشاة منشغلة بنشاط وفعالية في محاولة لإغلاق طريق العدو إلى أعلى الجبل، إلا أن حشد العدو أثبت أنه كان أقوى منهم، فأجبرهم على الفرار ومنع الذين كانوا يعملون في وضع المعيقات على الطريق وهزمهم، واستولت قوات صلاح الدين على الجبل وشقت لأنفسها طريقاً بالسيف وهكذا نجح العدو إلى حد كبير في شق طريقه إلى القلعة وذلك في الوقت الذي كان المسيحيون يحاولون فيه الإنسحاب إليها، ولو لم يكن الفارس المسمى إيفين قد أبدى ثباتاً رائعاً لأمكن للأتراك، الذين كانوا بالقرب من الحصن، شق طريق حر بدون صعوبة لرفاقهم فوق الجسر وعبر البوابة المجاورة له.

وهكذا، كابد السكان التعساء خسارة مقتنياتهم بسبب التدابير الطائشة لحاكمهم، فقد استولى العدو على جميع ممتلكات أسرهم وجميع أثاثهم وجميع أدواتهم من كل نوع، وزيادة في محنتهم قام الذين هربوا إلى القلعة خوفاً من بطش وتهور صلاح الدين، بإنزال الجسر وكسره، وبما أن هذا الجسر كان يقدم المعبر الوحيد عبر الخندق، وكان أيضاً هو الطريق الوحيد الذي بإمكان الموجودين في داخل القلعة الذهاب والإياب عبره، فقد بات الآن مدمراً ومغلقاً.

امتلأت القلعة من داخلها بأعداد كبيرة من الناس البائسين من كل نوع ومن كلا الجنسين، وكان ذلك عبئاً أكثر من كونه معونة للمحاصرين، وكان هنالك عدد كبير من الممثلين والبهلوانيين والموسيقيين وأناس آخرون ممن اندفع إلى هناك من سائر أنحاء المنطقة لحضور المهرجانات المرافقة للزفاف، وأحبطت توقعات هؤلاء جميعاً بشكل محزن لأنهم واجهوا معارك عسكرية وأعمالاً حربية في الموقع الذي كانوا قد توقعوا أن يجدوا فيه مكاسب، ويحتفلوا فيه بالزواج بابتهاج، وكانت هذه المعارك مختلفة كل الإختلاف عن الممارسات التي كانوا معتادين عليها.

وعلاوة على ذلك، كان العديد من السريان قد أتوا مع زوجاتهم وأبنائهم من الريف المجاور، وامتلأت القلعة بهم إلى درجة أن الذين كانوا يرغبون بالمرور جيئة وذهاباً لم يتمكنوا من فعل ذلك بحرية بسبب ازدحام الحشود واكتظاظها، وهكذا أصبح هؤلاء أيضاً عائقاً ومانعاً للرجال الأكثر نشاطاً وللذين كانوا يحاولون الدفاع عن الموقع، هذا وكانت القلعة مجهزة تماماً بالمؤن مع أن إمدادات الأسلحة لم تكن ضخمة كما بدا ضرورياً للدفاع عن الموقع.

٢٩ ـ الملك بلدوين يعزل كونت يافا عن الإدارة العامة للمملكة. الملك يتوّج ابن أخيه بالتاج الملكي.

أدرك الملك في هذه الأثناء أن كونت يافا، الذي كان قد سلمه حكم المملكة كما حكينا من قبل، قد أظهر نفسه بعيداً عن الحكمة وليس شجاعاً على الإطلاق في إدارة الأمور عند ينابيع عين جالوت حسبما وصفنا ذلك آنفاً، فقد كانت حالة المملكة قد وصلت إلى صورة من التردي سيئة جداً بسبب طيشه وعجزه العام، ولذلك استرد الملك بلدوين ـ بناء على نصيحة المستشارين الأكثر تعقلاً ـ إلى يديه مسؤولية العناية بالأمور التي كان قد عهد بها إلى كونت يافا، ويقال إن أسباباً أخرى كانت مسؤولة عن هذا العمل، وكانت الحقيقة قد ذكرت من قبل وهي أن الملك عندما منح مسؤولية المملكة إلى غي، كان قد احتفظ بمدينة القدس لنفقاته الخاصة مع ريع قدره عشرة آلاف قطعة ذهبية تدفع سنوياً، وندم فيما بعد على هذا العمل ورغب في أن يبادل مدينة صور بمدينة القدس حسب الشروط ذاتها، لأن مدينة صور كانت المدينة المحصنة بالشكل الأمثل في المملكة بأسرها، وبدت بأنها مجهزة بشكل أفضل لمتطلباته. وبما أن الكونت بدا أنه غير راغب في تنفيذ هذا المطلب، يقال إن الملك قد شهد تغييراً تاماً بالرأي والميول.

وكان بالفعل خليقاً بالإنسان الذي رفض أن يظهر نفسه سخياً في مسألة صغيرة نحو الرجل الذي منحه كل شيء أن يحرم من السيطرة العليا والإشراف على الأمور، ولم يؤخذ منه مسؤولية المملكة وشرف إدارتها فقط، بل حرم تماماً من جميع آمال وراثة العرش، ووفقاً للنصيحة الجماعية للنبلاء وخاصة نصائح بوهيموند أمير انطاكية وريموند كونت طرابلس ورينو صاحب صيدا وبلدوين صاحب الرملة وأخوه بالين وبناء على اقتراح ونصيحة ملحة صدرت عن والدة الملك، تلقى بلدوين، الذي كان طفلاً صغيراً لم يكن قد تجاوز الخامسة من عمره، المسح بالزيت الملكي وتوج بشكل مهيب في كنيسة قيامة المسيح، وصادق جميع الناس على هذا العمل ووافق عليه الحضور من رجال الدين. وكان كونت يافا حاضراً أيضاً إلا أنه لم يجرؤ على التكلم ضده.

أدى جميع النبلاء على الفور وبدون تأجيل يمين الولاء إلى الفتى وفق الصيغة المألوفة، وقدموا له حسب المعيار الأكمل الإحترام والإجلال اللائقين بالجلالة الملكية. ولم يطلب من كونت يافا فقط أن يؤدي له الولاء. وبدت هذه الحقيقة لذوي الخبرة الطويلة ـ وهذا ماكانته بشكل أكيد ـ أنها برهان مقنع على عداوة عميقة الجذور أو بالأحرى، كراهية واضحة، وسيتم إظهار هذا بشكل أوضح في وقت لاحق.

كانت آراء الرجال الحكماء حول هذا التغيير الهام كثيرة ومتنوعة، فقد قال بعضهم إن ترقية هذا الفتى لا يمكن أن تكون له أية فائدة للمملكة أو أية منفعة للأمور العامة، لأن ترقيته كانت عديمة الجدوى تماماً حيث كان الملكان معاً معاقين أحدهما بالمرض والآخر بصغر السن، وكان أفضل بكثير لو عهد برعاية الأمور الملكية وبمسؤولية شؤون الدولة لشخص ما قوي في الحرب وحكيم في الرأي، فهذا كان الرأي العام للرجال الأكثر أهمية في المملكة، وشعر آخرون أنه حتى لو اعتبر العمل المتخذ بخصوص الفتى له فائدة بسيطة، بيد أنه قد يثبت أنه مفيد للدولة من ناحية واحدة فقط في إزالة الأمل الكلي لوراثة العرش من قبل الكونت، وبما أنه كان عاجزاً تماماً، حسب التقرير بأكمله، وممتلئاً بتلهف قوي للحكم، فإنه قد يصبح مصدراً للنزاعات في المستقبل، ومثيراً لاندلاع فتنة خطيرة ينبغي الحسبان لها بعد وفاة الملك، وكان من المؤمل زوال هذا الآن تماماً.

ومع ذلك، لم يكن في قلوب الجميع سوى فكرة واحدة ورغبة واحدة، وكانت هي إمكانية تعيين وصي ليدير شؤون المملكة، وخاصة ليقود الجيوش ضد العدو الذي كان يهددنا الآن بشكل أعنف من ذي قبل بكثير، وكان الرأي مجمعاً إلى أبعد الحدود على أن كونت طرابلس وحده سوف يكون قادراً على القيام بهذا الواجب بنجاح. لقد حدث هذا كله في العشرين من شهر تشرين الثاني في الخمس عشرية الأولى في العام ١١٨٣ لتجسيد ربنا [١].

٣٠ ـ الملك يحشد قواته ويسرع عبر الأردن لمساعدة المحاصرين. صلاح الدين يرفع الحصار.

كان صلاح الدين أثناء وقوع هذه الأحداث في القدس يعمل على إنهاك المدينة المحاصرة باجتهاد وعنف متواصلين، فقد حالت مواظبته الملحة دون قيام أية فرصة للراحة للذين كانوا محتجزين داخل القلعة، وكان قد أمر ببناء ثماني آلات حربية ست منها في الداخل، حيث قامت المدينة القديمة، وإثنتان في الخارج، في ذلك الموقع المعروف عموماً باسم الربض، واستمر الهجوم بشكل لا يعرف التعب ليلاً ونهاراً، وقذفت أحجار ذات حجم كبير جداً، بحيث لم يجرؤ أحد من الموجودين ضمن الأسوار على رفع يد أو على النظر من الفتحات أو تجريب أية وسيلة للمقاومة، واستحوذ الرعب واليأس على السكان البائسين إلى درجة أنهم لم يجرؤوا على إظهار أنفسهم حتى عندما تدلى أفراد العدو بوساطة الحبال وقتلوا

---

(١) لا بد أن آمال وليم ورغباته قد جعلته يرى اختيار ريموند صاحب طرابلس بالإجماع فعلياً، ولعل خصوم ريموند الرئيسين لم يكونوا في الاجتماع.

بكل وقاحة الحيوانات التي كان اللاجئون قد جلبوها إلى داخل الخندق حول القلعة، وقطع الأتراك الذبائح إلى قطع لحم كبيرة، دون مواجهة أدنى مقاومة، ودون أن يتعرضوا لأي خطر، وذلك ليستخدموها كطعام لهم.

كما أن الذين عملوا كطباخين وخبازين في جيش العدو، والذين كانوا يزودون السوق بجميع أنواع السلع وضعوا ورشات عملهم في بيوت السكان وواصلوا أعمالهم بكل حرية هناك وسط وسائل راحة من جميع الأنواع، وكانت هذه البيوت مجهزة بشكل جيد بالحبوب والشعير والخمر والزيت حيث استولى العدو على جميع هذه الأشياء بالقوة على الرغم من المالكين، واستخدموها كما شاؤوا.

حاول المحاصرون في القلعة مرة أن يشيدوا آلة حربية خاصة بهم، إلا أن أفراد العدو المسؤولين عن آلات القذف الحربية الموجودة في الخارج سددوا قذائف الصخور بخبرة متناهية إلى درجة أن المسيحيين تخلوا عن المحاولة بعدما روعتهم الضربات المستمرة مع الخوف من الموت الذي بدا أن كل حجر كان يهدد به، وارتأوا أنه من الأعقل أن يتحملوا بصبر أي قدر سيحل بهم بدلاً من أن يعرضوا أنفسهم للموت بمحاولة القيام بأي نوع من أنواع الدفاع.

ولم تقتصر هذه المخاطر، التي سببت ارتجاف الجنود برعب، على مهاجمة الذين تسللوا من مخابئهم لقذف الأسلحة أو القذائف الصخرية من الشرفات، أو للتحديق بالقوات المحاصرة، فقد ارتجف برعب أمام ضربات وزئير القذائف المقتربة، وبدا القصف كالرعد حتى للذين هربوا إلى الغرف والحجر الأكثر عمقاً، والتي كانت تعد أكثر الأماكن انعزالاً وكانوا في ترقب دائم خشية أن يتهدم البناء وينهار عليهم، وانتظروا من لحظة إلى أخرى الضربة الصاعقة.

كان الملك يحاول بجدية خلال هذا الوقت أن يدبر المساعدة للمحاصرين بكل طريقة استطاعها، وأن يرسل النجدة المرغوبة بالسرعة الممكنة، وأخذ صليب الصلبوت المانح للحياة وذلك بعد ما جمع قوة المملكة من كل مصدر، وزحف إلى هناك بنفسه، ولدى وصوله إلى البحر الميت، الذي يُدعى الآن باسم بحيرة الزفت، جعل بعد دراسة متروية من كونت طرابلس قائداً للجيش وآمراً للقوات بأسرها.

وتخلى صلاح الدين عن آلاته الحربية لدى معرفته عن طريق كشافته أن الجيش المسيحي كان قريباً، وأن كونت طرابلس كان يقود الفيالق، وأمر جنوده بالإنسحاب،

وهكذا رفع الحصار وعاد إلى منطقته بعد تهديده للمدينة بهذه الطريقة وازعاجه لها مدة شهر كامل [1].

ومع ذلك، فقد واصل الملك زحفه إلى الكرك حيث جلب وصوله إلى أهالي تلك البقعة النجدة المطلوبة منذ زمن طويل، ثم أعلن النداء بالرحيل، وأعاد جمع قواته من جديد، ومن ثم عاد بسلام إلى القدس.

هنا انتهى الكتاب الثاني والعشرون

(١) تاريخ مغادرته هو ١٢ ـ أيلول ١١٨٣ (انظر روهرخت ـ تاريخ ملوك القدس: ٤٠٩).

الكتاب الثالث والعشرون

هل يمكن انقاذ القدس بوساطة ريموند كونت طرابلس

توطئة

لقد صممنا على التخلي عن الكتابة وأن نودع إلى صمت القبر تاريخ الحوادث التي كنا قد باشرنا كتابتها للأجيال القادمة وذلك بعدما أرهقتنا الكوارث المحزنة التي تقع كثيراً في المملكة ـ بالفعل بشكل مستمر تقريباً ـ حيث لا يوجد أحد يرغب في سرد عيوب بلاده، وأن يظهر للنور أخطاء شعبه، فقد أصبح أمراً مقرراً بين الناس جميعاً، ويعتبر بالفعل طبيعياً وجوب كفاح كل انسان بكل ما أوتيه من قوة في سبيل تمجيد بلاده وأن لا يحط من السمعة الحسنة لأبناء بلده.

لكننا الآن فقدنا جميع مصادر السمعة المتألقة، كما أن الموضوعات الوحيدة التي تقدم نفسها هي كوارث بلد متألم، ومحنه المضاعفة وهي موضوعات لا تُقدم إلا لاستدراج صيحات العويل والدموع.

كنا قد وصفنا حتى الوقت الحالي في الكتب السابقة، بالشكل الأمثل لمقدرتنا المآثر البارزة للرجال الشجعان الذين احتفظوا بالسلطة الحاكمة لمدة ثمانين عاماً ونيف في منطقتنا من الشرق، وبشكل خاص في القدس[1]. إلا أننا الآن نفتقر إلى الشجاعة لكي نستمر ونحن في مقت تام للوقت الحالي، ومندهشون إزاء المادة المقدمة أمام عيوننا ومسامعنا، وهي أشياء غير صالحة لتسرد حتى في أغاني مهرج[2] أو في حكايات قصاص[3]، مهما كان نوعها، إننا

---

(١) من المحتمل أن الحالة الذهنية التي كشفتها هذه الملاحظات الافتتاحية كانت مستحوذة عليه في عام ١١٨٢، عندما كانت النجاحات المتكررة لصلاح الدين والتي تتوجت بالصفعة الموجهة للفرنجة برحيله إلى الشمال دون أن يأبه بعقد هدنة، ولا بد أنها كانت مثبطة للغاية، وكان فريق البلاط المعادي ما يزال مسيطراً ومن المؤكد أن وليم لام عجزه وعدم كفاءته وحمله مسؤولية نجاحات صلاح الدين، ومن المحتمل أن حقيقة أنه كان يدون بداية سلسلة الأخطاء الفادحة هذه ـ أي زواج سيبيلا وغي ـ قد أبرزت مشاعره في هذه الآونة. (أواخر عام ١١٨٢).

(٢) إشارة إلى فرجيل Ecl : ٢٢/٧.

(٣) أيضاً إشارة إلى فرجيل: Ecl : ٩٠/٣.

لا نملك الشجاعة للمتابعة، ولا يوجد أي شيء في أعمال أمرائنا يبدو لرجل حكيم أنه جدير ليتم تسليمه لخزانة الذاكرة، لا شيء يمكنه أن يساهم في إنعاش القارىء أو يضفي الإحترام على الكاتب، حقاً، إننا نستطيع أن نندب مع الرسول أنه هلك من وسطنا «الشريعة عن الكاهن والمشورة عن الحكيم والكلمة عن النبي»[1]. وحدث بيننا أنه «كما الشعب هكذا الكاهن»[2]. ويمكن أن يطبق علينا أيضاً بصدق تلك النبوءة التي تقول: «كل الرأس مريض وكل القلب سقيم. من أسفل القدم إلى الرأس ليس فيه صحة»[3]. لأننا وصلنا الآن إلى مرحلة حيث «لا يمكننا أن نتحمل آثامنا ولا علاجها»[4]. ولذلك أصبح العدو ـ عقاباً لنا على آثامنا ـ أقوى من أنفسنا، كما أننا نحن، الذين اعتدنا على الإنتصار على أعدائنا والذين حملنا معنا أكاليل الغار الرائعة الدالة على النصر، ننسحب من الميدان بهزيمة شائنة بعد كل صراع، ونحن محرومون من التأييد السماوي.

ولذلك، حان الوقت لنلزم الصمت، لأنه يبدو من الموائم أكثر أن نسدل ستائر الليل فوق إخفاقاتنا بدلاً من أن نسلط ضوء الشمس على خزينا، بيد أن هناك بعض من يرغب منا أن نستمر في المهمة التي باشرناها فيما مضى، إنهم الذين يرغبون إلينا بجدية أن نسجل في هذا الكتاب للأجيال القادمة جميع أطوار مملكة القدس المعاكس منها والمزدهر أيضاً، وهم يستشهدون، من أجل تشجيعنا، بمثال أبرز المؤرخين وأعني تيتوس ليفي الذي لم يقتصر في كتابه على تسجيل نجاحات الرومان فقط، بل هزائمهم أيضاً، ويوسفيوس الذي لم يقتصر في أعماله الشاملة على إظهار أعمال اليهود البارزة، بل أيضاً الأمور المخزية التي ألحقت بهم[5].

كما يقدمون أمثلة كثيرة أخرى في الجهود التي يبذلونها لإقناعنا بمواصلة هذا العمل، وقد تأثرنا وبتنا على استعداد للإذعان لهذا المطلب، حيث أنه من الواضح بالفعل أن مؤرخي الحوادث السابقة قد سجلوا دون تميز حوادث معاكسة وحوادث ميمونة أيضاً، لأنهم يأملون برواياتهم لأخبار المنجزات الناجحة إلهاب الأجيال القادمة بالشجاعة، في حين أنهم قد يقومون بتوعية الأجيال اللاحقة فيجعلونها أكثر حذراً في ظروف مشابهة، وذلك بتزويدهم بأمثلة عن محن تم تحملها بصبر.

ينبغي على كاتب الحوليات، استناداً لمنصبه، ألا يودع الحروف أحداثاً يرغب هو

---

(١) أرميا: ١٨/١٨.

(٢) هوشع: ٩/٤ وهذا من النقول المحببة إليه.

(٣) أشعيا: ١/٥ ـ ٦.

(٤) اللاويين ـ التوطئة.

(٥) قد يفيد هذا معرفته بكتاب آخر ليوسفيوس وذلك بالإضافة للتاريخ القديم الذي غالباً ما نقل عنه.

بها، بل الأحداث التي تعرضها الأيام، إن محصلات الحوادث الدنيوية، وخاصة حوادث الحرب، متقلبة دائماً وليست مؤكدة، والإزدهار ليس مستمراً أبداً، كما أن المحنة ليست على الإطلاق بدون فترات فاصلة براقة.

وبناء عليه، لقد وافقنا على متابعة الأحداث بعد ما تخلينا عن عزمنا السابق ولسوف نستمر بمساعدة الرب ما دمنا على قيد الحياة[1]، في أن نسجل بالعناية المثلى، كما فعلنا في السابق، أية حوادث يقدمها المستقبل. وليجعلها الرب أحداثاً سعيدة ومزدهرة[2].

١ - اندلاع العداوة القائمة منذ زمن طويل بين الملك وكونت يافا وتحولها إلى صراع عنيف. استبعاد أي أمل للمصالحة. كونت طرابلس يصبح نائباً للمملكة ووصياً على الملك.

استمرت في الوقت نفسه العداوة بين الملك وكونت يافا بالإزدياد قوة يوماً بعد يوم بعدما غذتها أسباب سرية، وكانت الضغينة، المكبوحة حتى هذا الوقت، قد انفجرت الآن بعنف زائد لدرجة بدا فيها الملك يبحث علناً عن أسباب لفصل أخته عن زوجها ولإلغاء الزواج، ولهذا الغرض ذهب بلدوين بشكل مكشوف إلى البطريرك، وفي نيته تقديم شكوى ضد الزواج، وطالب بتحديد يوم يمكن أن يعلن فيه إلغاء الزواج بشكل مهيب وبحضور البطريرك.

وجرى إبلاغ الكونت لدى عودته من الحملة بتفاصيل الإجراءات بأسرها، فترك الجيش على الفور وانطلق إلى عسقلان عبر الطريق الأقصر ليحذر زوجته، التي كانت موجودة في القدس في ذلك الوقت، لتغادر تلك المدينة وتتوجه إلى عسقلان قبل وصول الملك، لأنه خشي أنه إذا أبقاها بلدوين في حوزته لن يسمح لها بالعودة إلى زوجها.

ثم أرسل الملك رسولاً ليستدعي الكونت للمثول أثناء البت في الدعوى وليبلغه بأسبابها. إلا أن غي قاوم وسوغ عدم مثوله بادعاء المرض، وبعدما وجهت إليه عدة مرات، وثابر غي على الرفض وعدم الإستجابة، صمم الملك أن يذهب إليه شخصياً وأن يسلمه شفوياً وبشكل مهيب الدعوى للمثول أمام العدالة، إلاّ أن بلدوين وجد عندما وصل إلى مدينة عسقلان الأبواب موصدة، وكان بمرافقته بعض نبلاء قصره، فطرق بيده على الأبواب، وطالب ثلاث مرات بأن تفتح له. وحيث لم يبد أحد الرغبة في إطاعة أمره،

---

(١) Vita Comite وردت هذه العبارة هنا وفي التمهيد، وتوحي أنهما كتبا ربما في الوقت ذاته.

(٢) من المؤكد أن شعاع الأمل بالمستقبل هو نتيجة نقل الوصاية من كي لوسغنون إلى ريموند صاحب طرابلس.

انسحب ساخطاً بشكل محق، وقد حدث هذا على مرأى تام من جميع سكان المدينة الذين كانوا قد تمركزوا في الأبراج وعلى الأسوار، لدى معرفتهم بوصول الملك، منتظرين نتيجة القضية.

وتقدم من عسقلان إلى يافا مباشرة. والتقى على الطريق بعدد كبير من سكان تلك المدينة، من الرجال الأكثر أهمية من كلا الطبقتين، وفتحت أبواب المدينة له، ودخل بدون صعوبة، ثم وضع حاكماً هنالك ليتولى مهام الأمور ومن ثم تقدم إلى عكا حيث أعلن عن عقد مجلس عام في تلك المدينة نفسها، وعندما اجتمع جميع نبلاء المملكة في اليوم المحدد، قام البطريرك، بمساعدة وتعاون المقدمين أي مقدم الداوية ومقدم الإسبتارية بمخاطبة السيد الملك، وجثا على ركبته وشرع يتوسط للكونت، وقدم التماساً جديداً كان مفاده أنه ينبغي على بلدوين أن يتخلى عن استيائه ويعيد كي الى الرضى، وعندما لم يتم الإصغاء إلى المطلب على الفور، انسحب البطريرك ومؤيدوه وهم يشعرون بسخط شديد، وغادروا البلاط والمدينة أيضاً.

وقدم اقتراح للنبلاء المحتشدين بإرسال مبعوثيين إلى الملوك وبقية النبلاء في بلدان ماوراء الجبال لدعوتهم للقدوم لمدّ يدّ المساعدة للمملكة والديانة المسيحية نفسها، وكان ينبغي استعراض هذه المسألة في البداية، إلا أن البطريرك قاطع العمل، كما تم ذكر ذلك، وباشر الحديث المذكور أعلاه وبعدما أحبط الموضوع الرئيسي، غادر عكا وقد جرفته العاطفة، كما تم وصف ذلك[1].

عندما علم كونت يافا أن الملك لن يتراجع لإحلال السلام معه، زاد من سوء سلوكه الشرير السابق بأعمال أكثر عنفاً، فقد أخذ طريقه مع القوات التي كانت تحت تصرفه نحو القلعة التي تدعى الداروم وانقض فجأة على مخيم بعض البداة العرب الذين كانوا قد ضربوا خيامهم في تلك المناطق بسبب مواءمة المرعى، وكان الملك قد وعدهم بالحماية وكانوا يعتمدون على هذا تماماً، وبما أنه وجدهم غير مستعدين للمقاومة، فقد ساق قطعانهم

(١) لا بد أن هذه الأحداث قد جرت في مطلع عام ١١٨٤. وكان دليل سخط الملك واضحاً بشكل كاف في اجتماع ٢٥ تشرين الثاني عام ١١٨٣. ومن المحتمل أن الحملة لنجدة الكرك قد صرفت اهتمام الملك لمدة شهر تقريباً. ولم يكن بإمكانه أن يستأنف عداءه نحو غي قبل نهاية شهر كانون الأول. واستمرت بعد ذلك سلسلة الأحداث المسرودة هنا بالتعاقب في تواتر مستمر حتى اجتماع عكا.

(٢) من الواضح أن وليم متعاطف مع مسلك هرقل هذا وهذا أحد الأمثلة القليلة الذي يشير فيه بوضوح إلى موقفه نحو منافسه الناجح بالفوز بالبطريركية.

وعبيدهم وعاد بهذه الغنيمة إلى عسقلان. وعندما بلغ نبأ هذه الغزوة إلى الملك استدعى من جديد نبلاءه وجمعهم، وعهد برعاية المملكة وإدارتها العامة إلى كونت طرابلس الذي كان لديه سبب ليثق بحكمته وشهامته، وبدا هذا العمل مرضياً لرغبات جميع الناس، ولأغلبية النبلاء، لأنه كان واضحاً بالنسبة للجميع أن طريق السلامة الوحيد قائم في وضع أمور المملكة في يدي كونت طرابلس[1].

هنا توقف الكتاب

(١) أخبر ابن جبير عندما زار عكا في أيلول ١١٨٤ بأن الملك ـ ودعاه ملك عكا ـ محجوب عن النظر، لأنه مصاب بالجذام، وأضاف أن صاحب طرابلس وطبرية كان أبرز شخصيات الفرنجة وأقواهم وأوضح أنه جدير بالعرش لأنه كان حاد الذكاء والبراعة (روهرخت ـ الوثائق: ٣/٤٥١ ـ ٤٥٥).

المصادر

Anderson, Romola, and R.C. Anderson. The Sailing Ship. London, 1926.

Archer, T.A. «On the Accession Dates of the Early Kings of Jerusalem», *English Historical Review*, IV (1889), 89 - 105.

Auber, C.A., Abbé. Histoire générale civile, religieuse, et littéraire du Poitou. 9 vols. Fontenay-le-Comte, 1885 - 1893.

Baldwin, M.W. Raymond III of Tripolis and the Fall of Jerusalem (1140 - 1187). Princeton, 1936.

Beaumont, A.A., Jr. «Albert of Aachen and the County of Edessa», The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C.Munro, pp. 101 - 38. New York, 1928.

Beazley, C.R. The Dawn of Modern Geography. 3 vols. London, 1897 - 1906.

Beha ed-Din. The Life of Saladin (1137 - 1193 A.D.). Trans. by C.W. Wilson; rev. by C.R. Conder. London, 1897. Palestine Exploration Fund, Publications.

Bongars, J., ed. Gesta Dei per Francos. 2 vols. in one. Hanover, 1611.

Bréhier, L. L'Eglise et l'Orient au moyen âge. 5 th ed. Paris, 1928.

Byrne, E. H. «The Genoese Colonies in Syria», The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C. Munro, pp. 139 - 82. New York, 1928.

Genoese Shipping in the Twelfth and Thirteenth Centuries.

Cambridge, 1930. Mediaeval Academy of America, Monograph I.

«Genoese Trade with Syria in the Twelfth Century», *American Historical Review*, XXV (1919 - 20), 191 - 219.

Cambridge Medieval History, The. 8 vols. London and New York, 1911 - 1936.

Chalandon, F. Les Comnène; études sur l'empire byzantin au XIe et XIIe siècles.

Vol. I: Essai sur le règne d'Alexis Ier Comnène (1081 - 1118). Paris, 1900. Société de l'École des chartes, Mémoires et documents, Vol. IV.

Vol. II: Jean II Comnène (1118 - 1143) et Manuel I Comnène (1143 - 1180). Paris, 1912.

Histoire de la domination normande en Italie et en Sicile. 2 vols. Paris, 1907.

Chalandon, F. (*Continued*) Histoire de la première croisade jusqu'à l'élection de Godefroi de Bouillon. Paris, 1925.

Chartrou, Josèphe. L'Anjou de 1109 à 1511. Paris, 1928.

Chevalier, U. Répertoire des sources historiques du moyen âge: Bio-bibliographie, New ed. 2 vols. Paris, 1905 - 1907.

Colvin, Mary Noyes, ed. Godeffroy of Boloyne; or, The Siege and Conqueste of Jerusalem, by William, Archbishop of Tyre. Translated from the French by William Caxton and Printed by Him in 1481. London, 1893. Early English Text Society, Extra Series, Vol. LXIV.

Corpus Juris Civilis, ed. by P. Kreuger and T. Mommsen, Vol. I. Berlin, 1882.

(1101 - 1118)», *Revue de l'Orient latin,* IX (1902), 384 - 465; X (1903 - 4), 372 - 405; XI (1905 - 8), 145 - 80, 453 - 85; XII (1909 - 11), 68 - 103, 283 - 326. Incomplete.

Peter der Eremite. Leipzig, 1879.

Hagenmeyer, H., ed. Anonymi gesta Francorum et aliorum Hierosoly-mitanorum. Heidelberg, 1890.

Ekkehardi Uraugiensis abbatis Hierosolymita. Tübingen, 1877.

Epistulae et chartae ad historiam primi belli sacri spectantes quae supersunt aevo aequalis ac genuinae. Innsbruck, 1901.

Fulcheri Carnotensis historia Hierosolymitana (1095 - 1127). Heidelberg, 1913.

Galterii Cancellarii bella Antiochena. Innsbruck, 1896.

Halphen, L. Le Comté d'Anjou au XIe siècle. Paris, 1906.

Haskins, C.H. The Normans in European History. Boston and New York, 1915.

The Renaissance of the Twelfth Century. Cambridge, 1927.

Hefele, H., trans. Albert von Aachen, Geschichte des ersten Kreuzzugs. 2 vols. Jena, 1923.

Heyd, W. von. Histoire du commerce du Levant au moyen-âge. Ed. and trans. by Furcy Raynaud. 2 vols. Leipzig, 1885 - 1886.

Hildt, J.C. «The Ministry of Stephen of Perche during the Minority of William II of Sicily», *Smith College Studies in History,* III (1918), 139 - 86.

Hitti, P.K. History of the Arabs. 2d ed. London, 1940.

Hitti, P.K., trans. An Arab-Syrian Gentleman and Warrior in the Period of the Crusades; Memoirs of Usamah ibn-Munqidh. New York, 1929. Records of Civilization, Sources and Studies.

Husseini, S.A.S. «Inscription of the Khalif El-Mustansir Billāh 458 A.H. (= A.D. 1065)», Palestine, Department of Antiquities *Quarterly,* IX (1942), 77 - 80.

Iskenderian, Galust Ter-Grigorian. Die Kreuzfahrer und ihre Beziehungen zu den armenischen Nachbarfürsten bis zum Untergange der Grafschaft Edessa. Weida. i. Th., 1915.

Joranson, E. «The Alleged Frankish Protectorate in Palestine», *American Historical Review,* XXXII (1926 - 27), 241 - 61.

«The Great German Pilgrimage of 1064 - 1065», The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C. Munro, pp. 3 - 43. New York, 1928.

«The Palestine Pilgrimage of Henry the Lion», Medieval and Historiographical Essays in Honor of James Westfall Thompson, pp. 146 - 225. Chicago, 1938.

King, E.J. The Knights Hospitallers in the Holy Land. London, 1931.

Klein, C. Raimund von Aguilers. Berlin, 1892.

Knappen, M.M. «Robert II of Flanders in the First Crusade», The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C. Munro, pp. 79 - 100. New York, 1928.

Kohler, C. «Chartes de l'Abbaye de Notre-Dame de la Vallée de Josaphat en Terre-Sainte (1108 - 1291)», *Revue de l'Orient latin,* VII (1899), 108 - 222.

Kretschmayr, H. Geschichte von Venedig. 3 vols. Gotha, 1905 - 1934.

Krey, A.C. «A Neglected Passage in the Gesta», The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C. Munro, pp. 57 - 78. New York, 1928.

«William of Tyre: The Making of a Medieval Historian», *Speculum,* XVI (1941), 149 - 66.

Krey, A.C., trans. The First Crusade. Princeton, 1921.

David, C.W. Robert Curthose, Duke of Normandy. Cambridge, 1920. Harvard Historical Studies, Vol. XXV.
Dawes, Elizabeth A.S., trans. The Alexiad of the Princes Anna Comnena. London, 1928.
Delisle, L., ed. Chronique de Robert de Torigni, abbé du Mont-Saint-Michel. 2 vols. Rouen, 1872 - 1873.
Diehl, C. Figures byzantines, 2d Series: Byzance et l'Occident à l'époque des croisades. 3 d ed. Paris, 1909.
DuCange, Charles du Fresne, Sieur. Les Familles d'outre-mer. Paris, 1869. Collection de documents inédits sur l'histoire de France.
Duncalf, F. «The Peasant' Crusade», *American Historical Review,* XXVI (1920 - 21), 440 - 53.
«The Pope's Plan for the First Crusade», The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C. Munro, pp. 44 - 56. New York, 1928.
Duncalf, F., and A. C. Krey. Parallel Source Problems in Medieval History. New York and London, 1912.
Dussaud, R. Topographie historique de la Syrie antique et médiévale. Paris, 1927. Haut-commissariat de la République Française en Syrie et au Liban. Service des antiquités et des beaux-arts. Bibliothèque archéologique et historique, Vol. IV.
Eginhard. «Annales Laurissenses et Einhardi», Monumenta Germaniae historica, Scriptores, I, 124 - 218. Hanover, 1836.
«Vita Karoli Imperatoris», Monumenta Germaniae historica, Scriptores, II, 426 - 63. Hanover, 1829.
Emerton, E. Mediaeval Europe (814 - 1300). Boston, 1894.
Fliche, A. Le Règne de Philippe Ier, roi de France, 1060 - 1108. Paris, 1912.
Funk, P. Jakob von Vitry, Leben und Werke. Leipzig and Berlin, 1909. Beiträge zur Kulturgeschichte des Mittelalters und der Renaissance, H. 3.
Gibb, H.A.R., trans. The Damascus Chronicle of the Crusades; Extracted and Translated from the Chronicle of ibn al-Qalanisi. London, 1932. University of London Historical Series, Vol. V.
Gibbon, E. The History of the Decline and Fall of the Roman Empire. Ed. by J.B. bury. 7 vols. London, 1896 - 1900.
Gindler, P. Graf Balduin I von Edessa. Halle, 1901.
Giry, A. «Les Châtelains de Saint-Omer (1042 - 1386)», Bibliothèque de l'Ecole des chartes, XXXV (1874), 325 - 55.
Gjerset, K. History of the Norwegian People, Vol. I. New York, 1915.
Gregorovius, F.A. History of the City of Rome in the Middle Ages. Trans. by Lady Hamilton. 8 vols. in 13. London, 1894 - 1902.
Gröber, G. Grundriss der romanischen Philologie. 2d ed. 2 vols. Strassburg, 1904 - 1914.
Grousset, R. Histoire des croisades et du royaume franc de Jérusalem. 3 vols. Paris, 1934 - 1936.
Hagenmeyer, H. «Chronologie de la première croisade (1094 - 1100)», *Revue de l'Orient latin,* VI (1898), 214 - 93, 490 - 549; VII (1899), 275 - 339, 430 - 503; VIII (1900 - 1901), 318 - 82.
«Chronologie de l'histoire du royaume de Jérusalem, règne de Baudouin I

Mommsen, T., ed. C. Julii Solini collectanea rerum memorabilium. Berlin, 1864.
Morris, W. Britain and the Holy Land Prior to the Third Crusade. Unpublished Ph.D. thesis, University of Minnesota, 1940.
Munro, Dana C. «Did the Emperor Alexius I Ask for Aid at the Council of Piacenza, 1095?» *American Historical Review,* XXVII (1921 - 22), 731 - 33.
The Kingdom of the Crusaders. Student's ed. New York, 1935.
«The Speech of Pope Urban II. at Clermont, 1095», *American Historical Review,* XI (1905 - 6), 231 - 42.
Munro, Dana C., and others. Essays on the Crusades Burlington, Vt., 1903.
Muratori, L.A., ed. Rerum Italicarum scriptores ab anno aerae Christianae 500 ad 1500. 25 vols. in 28. Milan, 1723 - 1751; new ed. 1900 . References are to the original edition.
Nicholson, R.L. Tancred. Chicago, 1940.
Norgate, Kate. England under the Angevin Kings. 2 vols. London and New York, 1887.
Oman, Charles. A History of the Art of War in the Middle Ages. 2d ed. 2 vols. London, 1924.
Ordericus Vitalis. The Ecclesiastical History of England and Normandy. Trans. by Thomas Forester. 4 vols. London, 1853 - 1856.
Pantaleon H., ed. Historia belli sacri verissima... authore olim
Willelmo Tyrio... una cum continuatione... Cum praefatione
Henrici Pantaleonis atque ipsius authoris vita. Basel, 1564.
Paris, P. Guillaume de Tyre et ses continuateurs. 2 vols. Paris, 1879.
Pastoret, Claude. «Guillaume de Tyr», Histoire littéraire de la France, XIV (1817), 587 - 96.
Pocock, Edward, ed. Contextio gemmarum, sive Eutychii... annales... interprete Edwardo Pocockio. Arab. & Lat. Oxford, 1650.
Potthast, A. Bibliotheca historica medii aevi. 2d ed. 2 vols. Berlin, 1896.
Preston, Helen G. Rural Conditions in the Kingdom of Jerusalem during the Twelfth and Thirteenth Centuries. Philadelphia, 1903.
Prutz, Hans. Entwicklung und Untergang des Tempelherrenordens. Berlin, 1888.
Die geistlichen Ritterorden; ihre Stellung zur kirchlichen, politischen, gesellschaftlichen, und wirtschaftlichen Entwicklung des Mittelalters. Berlin, 1908.
Kulturgeschichte der Kreuzzüge. Berlin, 1883.
«Studien über Wilhelm von Tyrus», Gesellschaft für altere deutsche Geschichtskunde, *Neues Archiv,* VIII (1882), 93 - 132.
Rashdall, H. The Universities of Europe in the Middle Ages. 2 vols. in 3. Oxford 1805.
Recueil des historiens des croisades. 16 vols. Paris, 1841 - 1906.
Documents arméniens, 2 vols.
Historiens grecs, 2 vols.
Historiens occidentaux, 5 vols.
Historiens orientaux, 5 vols.
Lois, assises de Jérusalem, 2 vols.
Rey, E.G. Les Colonies franques de Syrie aux XIIme et XIIIme siècle. Paris, 1883.
Riant, Paul, Comte. Expéditions et pèlerinages des Scandinaves en Terre Sainte au temps

Kugler, B. Albert von Aachen. Stuttgart, 1885.
Analecten zur Geschichte des zweiten Kreuzzugs. Tübingen, 1878.
Analekten zur Kritik Albert's v. Aachen. Tübingen, 1888.
Geschichte der Kreuzzüge. Berlin, 1880.
Neue Analecten zur Geschichte des zweiten Kreuzzugs. Tübingen, 1883.
Studien zur Geschichte des zweiten Kreuzzugs. Stuttgart, 1866. La Monte, J.L. Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem, 1100 to 1291. Cambridge, 1932. Mediaeval Academy of America, Monography IV.
«Rise and Decline of a Frankish Seigneury in Syria in the Time of the Crusades», *Revue historique du Sud-Est Européen,* Annèe XV (1938), pp. 301 - 20.
«Some Problems in Crusading Historiography», *Speculum,* XV (1940), 57 - 75.
«The Viscounts of Naplouse in the Twelfth Century», *Syria,* XIX (1938), 272 - 78.
«The Lords of Le Puiset on the Crusades». *Speculum,* XVII (1942), 100 - 18.
Lane-Poole, S. The Mohammedan Dynasties. Westminster, 1894.
Lawrence, T.E. Crusader Castles. 2 vols. London, 1936.
Revolt in the Desert. New York, 1927.
Lees, Beatrice A., ed. Anonymi gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum. Oxford, 1924.
Records of the Templars in England in the Twelfth Century. London, 1935. British Acadamy, Records of the Social and Economic History of England and Wales, Vol. IX.
Le Quien, M. Oriens Christianus. 3 vols. Paris, 1740.
Luard, H.R., ed. Matthaei Parisiensis, monachi Sancti Albani, chronica majora. 7 vols. 1872 - 1883.
Luchaire, A., ed. Louis VI le Gros: annales de sa vie et de son règne, 1081 - 1137. Paris, 1890.
Lundgreen, F. Wilhelm von Tyrus und der Templerorden. Berlin, 1911. Historische Studien, H. XCVII.
«Das Jerusalem des Wilhelm von Tyrus und die Gegenwart», *Neue kirchliche Zeitschrift,* XX (1909), 973 - 92.
Madden, F., ed. Matthaei Parisiensis, monachi Sancti Albani, historia Anglorum, sive, ut vulgo dicitur, historia minor. 3 vols. London, 1866 - 1869.
Manitius, M. Deutsche Geschichte unter den sächsischen und salischen Kaisern, 911 - 1125. Stuttgart, 1889.
Geschichte der lateinischen Literatur des Mittelalters. 3 vols. Munich, 1911 - 1938.
Mansi, J.D., and others, eds. Sacrorum conciliorum nova et amplissima collectio. 53 vols. Paris, etc., 1759 - 1927.
Mas Latrie, L. de. «Essai de classification des continuateurs de l'histoire des croisades de Guillaume de Tyr», Bibliothèque de l'École des chartes, XXI (5 th ser., Vol. I; 1860), 38 - 72, 140 - 78.
Mas Latrie, L. de., ed. Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier. Paris, 1871.
Merriman, R.B. The Rise of the Spanish Empire in the Old World and the New. 4 vols. New York, 1918 - 1934.
Michaud, J.F., ed. Bibliothèque des croisades. 2d ed. 4 vols. Paris, 1829 - 1830.
Molinier, A. Les Sources de l'histoire de France des origines aux guerres d'Italie. 6 vols.

des croisades. Paris, 1865.

«Inventaire sommaire des manuscrits de l'Éracles», *Archives de l'Orient latin*,I (1881), 247-56.

Röhricht, R. Die Deutschen im Heiligen Lande. Innsbruck, 1894.

Geschichte des ersten Kreuzzuges. Innsbruck, 1901.

Geschichte des Königreichs Jerusalem, 1100-1291. Innsbruck, 1898.

Röhricht, R. ed. Regesta regni Hierosolymitani, 1097-1291. Innsbruck, 1893.

Regesta regni Hierosolymitani, 1097-1291. Additamentum. Innsbruck, 1904.

Rozière, E. de, ed. Cartulaire de l'église du Saint Sépulchre de Jérusalem. Paris, 1840.

Salloch, Marianne. Die lateinische Fortsetzung Wilhelms von Tyrus. Greifswald, 1934.

Salmon, F.J., comp. Palestine of the Crusades; a Map of the Country. Pub. by Palestine Exploration Fund. Jaffa, 1937.

Schlumberger, G.L. Renaud de Châtillon. Paris, 1898.

Siedschlag, Beatrice N. English Participation in the Crusades, 1150-1220. Menasha, Wis., 1939.

Simonsfeld, H. Jahrbücher des deutschen Reiches unter Friederich I, Vol. I: 1152-1158. Leipzig, 1908.

Spinka, M. «The Effect of the Crusades upon Eastern Christianity», Environmental Factors in Christian History, ed. by J.T.McNeill and others, pp. 252-85. Chicago, 1939.

Steenstrup, J.C.H., and others. Danmarks Riges Historie, Vols. I-VI. Copenhagen, 1896-1907.

Stevenson, W.B. The Crusaders in the East. Cambridge, 1907.

Sybel, H. von. Geschichte des ersten Kreuzzugs. Düsseldorf, 1841; 2d ed., Leipzig, 1881.

Thorndike, L. A History of Magic and Experimental Science in the Middle Ages, Vols. I-II. New York, 1923.

Tiedau, W. Geschichte der Chanson d'Antioche des Richard le Pèlerin und des Graindor de Douay. Göttingen, 1912.

Vacandard, E. Vie de Saint Bernard, abbé de Clairvaux. 3 d ed. 2 vols. Paris, 1902.

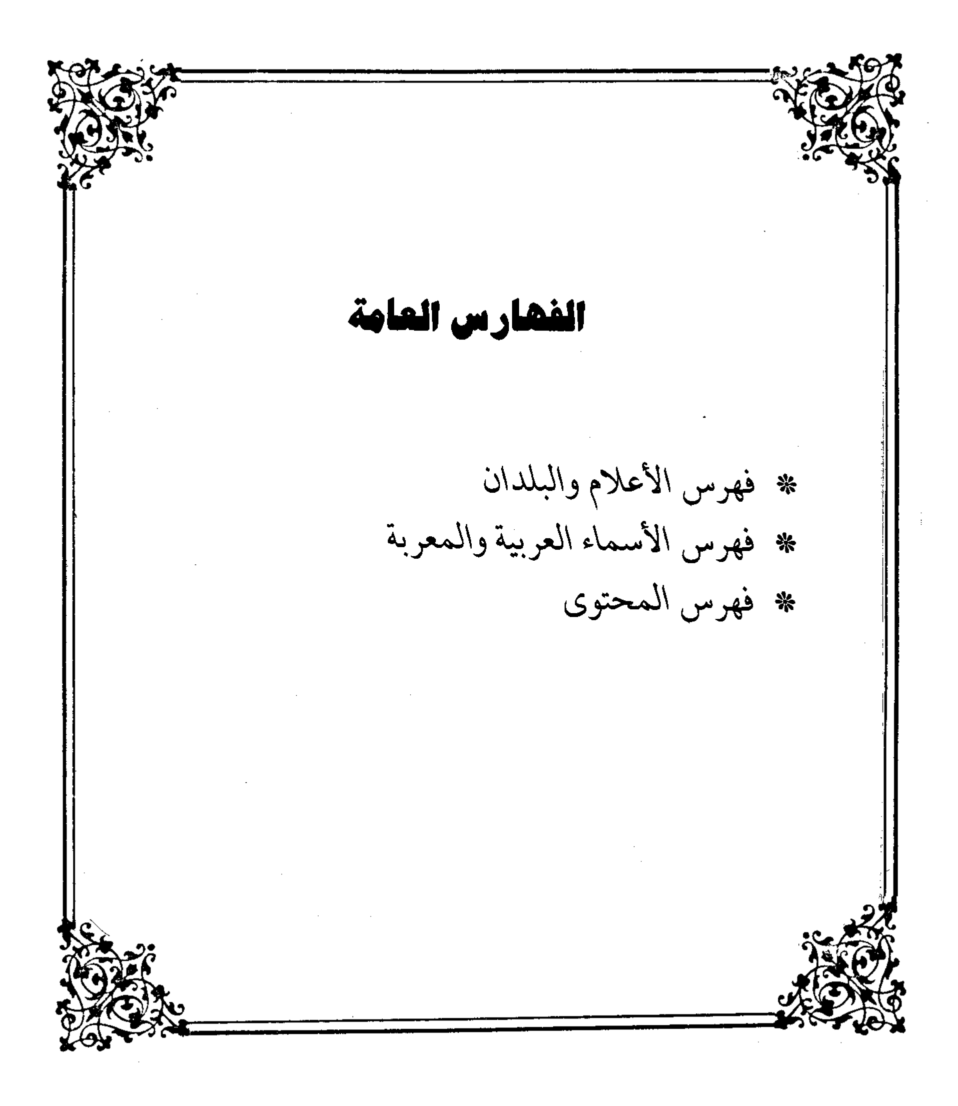
Vasiliev, A.A. History of the Byzantine Empire. Trans. by Mrs. S. Raggin. 2 vols. Madison, Wis., 1928-1929. Wisconsin Studies in the Social Sciences and History, nos. 13-14.

Wiet, G. L'Égypte arabe de la conquête arabe à la conquête ottomane, 642-1517 de l'ère chrétienne. Paris, 1937. Vol. IV of Gabriel Hanotaux, ed., Histoire de la nation égyptienne.

Wilken, F. Geschichte der Kreuzzüge nach morgenländischen und abendländischen Berichten. 7 vols. Leipzig, 1807-1832.

Yewdale, R.B. Bohemond I, Prince of Antioch. Princeton, 1924.

Zacher, Gustav, ed. Die Historia orientalis des Jacob von Vitry. Königsberg, 1885.



الفهارس العامة



فهرس الأعلام

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

الأسماء العربية والمعربة

Balak ..... بلك

Balas ..... بالاس

Balbis ..... بلبيس

Baldwin II (Baldwin du Bourg) .....

..... بلدوين دي بورغ

Baldwin count of Hainault .....

..... بلدوين كونت هينولت

Banyas ..... بانياس

Bari ..... باري

Baswaj ..... بزواج

Bernard ..... برنارد

Berthold ..... بيرثولد

Bertram ..... برترام

Bithynia ..... بيثينيا

Blachernae palace ..... قصر بلاشرين

Blanchegrade ..... تل الصافية

Bohemond ..... بوهيموند

Bursuq ..... برسق

Bursuqi ..... برسقي

Caesarea ..... قيسارية

Cairo ..... القاهرة

Calogenbar ..... قلعة جعبر

Chalcedon ..... خلقذون

Charlemagne ..... شارلمان

Chastel Rouge ..... قلعة الروج

Cilicia ..... كليكيا

Civitot ..... سيفيتوت

Clarebold de Vendeuil .....

..... كلير بولد دي فندويل

Clement ..... كليمنت

Clermont ..... كليرمونت

Coelesyria ..... سورية المجوفة

Coloman ..... كولمان

Coritium ..... قورس

Daimbert ..... ديمبرت

Dalmatia ..... دالماتيا

Damietta ..... دمياط

Dan ..... دان

Danishmand ..... دانيشمند

Daria ..... داريا

Darom ..... داروم

David Tower ..... برج داود

Dirgham ..... درغام

Djawali ..... جاولي

Dodo de conti ..... دودو دي كونتي

Dog river ..... نهر الكلب

Domenigo Michieli [Dominicus Michaelis]

..... دومنغو ميشيلي

Dorylaeum ..... دور اليوم

..... دروغو دي نسل

Drogo de Nesle .....

Dubais [Dabais] ..... دبيس

Duqaq ..... دقاق

Edessa ..... الرها

Eleanor ..... اليانور

Emicho ..... ايميكو

Enguerrand ..... انغوارند

Ephesus ..... افسوس

Ernoul ..... ايرنول

Eudes ..... يودس

Eugenius ..... يوجينوس

Euphrates ..... الفراش

Eustace ..... يوستاس

Evrard su Puiset ..... إفرارد دي بوزيت

Ezaa ..... عزاز

Farama ..... الفرما

Firuz ..... فيروز

..... فردريك بربروسا

Frederick Barbarossa .....

Fulcher ..... فولتشر

English	العربية
Fulcher of Orléans	أورلين فلتشر أوف
Fulk	فولك
Gabriel	غابرييل
Gadara	جدر
Galen of Calvo Monte	غالن أوف كالفومونت
Garnier de Grey	غارنردي غري
Gaston	غاستون
Gerald	جيرالد
Gerard	جيرارد
Gibelin	غبلين
Gilbert	غلبرت
Gilbert de Montclair	غلبرت دي مونت كلير
Godfrey	غودفري
Gottschalk	غوتز تشولك
Gregory	غريغوري
Gregory	غريغوري
Guibert	غيوبرت
Guy de lusignan	غي لوسغنان
Guy of Garland	غي أوف غارلاند
Guy of possessa	غي دي بوسسا
Hadrian	هادريان
Haifa	حيفا
Hama	حماه
Hantab	عين تاب
Haran	حران
Harim	حارم
Hartman [Hermann]	هارتمان (هارمان)
Hebron	الخليل
Hélie	ايليه
Heliopolis	بعلبك
Henry	هنري
Henry d'Esch	هنري دي اتش
Heraclius	هرقل
Herbert	هربرت
Hierapolis	منبج
Hims	حمص
Holy Lance	الحربة المقدسة
Hospitallers	الاسبتارية
Hugh	هيو
Humphrey	همفري
Hungary	هنغاريا
Ibelin	يبني
Iconium	قونيه
Il-Ghazi	ايلغازي
Innocent	انوسنت
Irene	ايريني
Iron bridge	جسر الحديد
Isaac	اسحق
Isabella	ايزابلا
Jabala	جبلة
Jacob's ford	مخاضة يعقوب
Jaffa	يافا
Jawhar	جوهر
Jericho	أريحا
Jerusalem	القدس
Jikirmish Lord of Mosul	جكرمش
John st. the Almoner	جون ألمونير
Joscelin	جوسلين
Jubail	جبيل
Kafartab	كفرطاب
Kamil [Chemel]	الكامل
Karbuqa	كربوغا
Kerak	الكيرك
Kharpart	خرتبرت
Laodicea	اللاذقية
Lateran	اللاتيران

Lawrence ... لورانس
Leo the Armenian ... ليو الأرمني
Lotharingians ... لوثارنغيا
Lycaonia ... ليكونيا
Maara ... المعرة
Malatia ... ملطية
Malih ... مالح
Malik Salah [Melechsalah] ... الملك الصالح
Malik Shah [Solimannus] ... ملكشاه
Mamistra ... المصيصة
Manuel ... مانويل
Manzikart ... منازكرد
Marash ... الناصرة
Mary Magdalene ... مريم المجدلية
Matilda ... ماتيلدا
Maus ... عين ماجوز
Melisend ... مليساند
Memphis ... ممفيس
Mirabel ... مجدل يابا
Montferrand ... رفنية
Montreal ... الشوبك
Mosul ... الموصل
Mount Galaad ... جبل جلعاد
Mount Lebanon ... جبل لبنان
Mount of olives ... جبل الزيتون
Mount of the Pilgrims ... تلة الحجاج
Mount Orontes ... جبل العاصي
Mount Tabor ... جبل طابور
Mu'in al-Din [Mehen-Eddin] ... معين الدين
Muizz [Mehezedin-alla] ... المعز لدين الله
Mujir al-Din [Mejeredin] ... مجير الدين
Musrat al-Din [Mirmiran] ... نصرة الدين
Mustansir (Bomensor Elmostensab) ... المستنصر

Nablus ... نابلس
Nazareth ... الناصرة
Negem -ed-Din ... نجم الدين
Neva ... نوي
Nicaea ... نيقية
Nicephorus ... نقفور
Nicopolis [Emmaus] ... نيقوبولس (عمواس)
Niketas [Nichita] ... نيقيطيا (نيكيتاس)
Nile ... النيل
Nineveh ... نينوى
Nish ... نيش
Nureddin ... نور الدين
Octavianus ... أوكتافيانوس
Octavius ... أوكتافيوس
Odo ... أودو
Old Man Chief ... شيخ الجبل
Orontes ... نهر الأرنط (العاصي)
Otto ... أوتو
Pakrad ... باكراد
Pelagonia ... بيلاغونيا
Peter ... بطرس
Peter Bartholomew ... بطرس بارشلميو
Peter the Hermit ... بطرس الناسك
Philip ... فيليب
Philippa ... فيليبا
Phocas ... فوكاس
Phoenicia ... فينيقيا
Piacenza ... بيسنزا
Pierre ... بيير
Pigeons ... الحمام الذاجل
Pisidia ... بيسيديا
Pons ... بونز
Qilij Arslan [Soliman] ... قلج ارسلان
Rainbald, count of Orange ... رينبولد كونت أورانج

Rainulf .... رينولف
Ralph .... رالف
Ralph .... رالف
Ramlah .... رمله
Raphania .... رافينا
Rasaline .... رأس العين
Ravendal .... راوندان
Raymond .... ريموند
Raynald .... رينالد
Renaud .... رينو
Renier de Brus .... ريني دي بروس
Robert .... روبرت
Roger .... روجر
Rohard .... روهارد
Roland .... رولاند
Romania .... رومانيا
Romanus .... رومانوس
Romanus IV Diogenes .. رومانوس داجينس
Rome .... روما
Rosinolo .... روزينولو
Rotrou, count of Perche . روترو كونت بيرش
Saladin .... صلاح الدين
Samosata .... سمسناط
Saphet .... صفد
Sawad .... سواد
Scythopolis .... بيسان
Sephorie .... صفورية
Seruj .... سروج
Shams al-Dula [Semsedolus] شمس الدولة
Shawar .... شاور
Shayzar .... شيزر
Shirkuh [Siraconus] .... شيركوه

Sicily .... صقلية
Sidon .... صيدا
Siloam .... سلوان
Simeon .... شمعون
Smyrma .... أزمير
Stephen count of Blois . ستيفن كونت بلويز
Stephen count of Burgundy .... ستيفن كونت برغندي
Stephen,count of Chartres .... ستيفن كونت تشارترز
Stephen d'Aumale ..... ستيفن دي أومال
Stephen of Saône....... ستيفن أوف سوان
Stralicia .... ستراليشيا
Sukman Ibn Ortuq .... سكمان بن أرتق
Syria Sobal .... وادي عربه
Taj-al-Muluk Buri [Tegelmeluch] .... تاج الملوك بوري
Tancred .... تانكرد
Tanis .... تنيس
Tantais .... ألتونتاش
Tarsus .... طرسوس
Taticius .... تاتيكوس
Tekoah .... تقوع
Templars .... الداوية
Theobald .... ثيوبولد
Theodora .... تيودورا
Theodosius .... ثيودوسيوس
Theopolis .... ثيوبولس (أنطاكية)
Thoros .... طوروس
Tibenin .... تبنين
Tiberias .... طبرية
Tortosa .... أنطرطوس
Toulouse .... طولوز
Tripoli .... طرابلس
Tubania .... تبنين

Tughtigin .... طغتكين

Tuluqa .... دلوك

Turbenel .... تل باشر

Turcopoles .... توركلبي

Tyre .... صور

Urban .... أوربا

Usamah ibn–Munqidh ..... أسامة بن منقذ

Valley of Moses .... وادي موسى

Victor .... فكتور

Walter de Dommedard .... وولتر

Walter the Penniless .... وولتر المعدم

William .... وليم

Yaghi Siyan .... يغي سيان

Yaruk .... ياروق

Zahir [Daher] .... الظاهر

Zangi [Sanguis] .... زنكي

المحتوي

محتوى تاريخ وليم الصوري . الجزءان ١ ـ ٢

الجزء الثاني